

تاريخ المغرب الكبير

الجزء الأول

تأليف: محمد علي دبوز

أستاذ الأدب والتاريخ في معهد الحياة بالجزائر

تاريخ المغرب الكبير

الجزء الأول

تأليف : محمد علي دبوز
أستاذ الأدب والتاريخ في معهد الحياة بالجزائر



إهداء إلى كل أبناء ليبيا الحبيبة

مع كامل محبتي وتقديري

سعيد خليفة الختالي

طبع هذا الكتاب سنة 1964 ولم يصدر منه أي طبعة أخرى
حتى قامت مؤسسة تاوالت الثقافية بإعادة طباعته وتصفيفه
على نفقة سعيد خليفة الختالي

مؤسسة تاوالت الثقافية 2010
http://www.tawalt.com/

كلمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وآله أجمعين

عزيزي القارئ إن المقدمة التي يجب على كل مؤلف أن يبين فيها للقراء موضوع كتابه، والدواعي لتأليفه، وطريقته فيه، هو ما قدم إليك في الجزء الثاني، والجزء الثالث.

الآن في هذه الكلمة الموجزة أريد أن أهيب بعلماء المغرب وأدبائه وحكوماته أن يهبوا لكتابة تاريخهم القديم والحديث. فقد حارب الاستعمار تاريخنا، وعقل أقلام علمائنا عن كتابته كما يجب، وحرم المغرب من معرفة تاريخه المجيد، وحرم الأمة العربية والإسلامية والعالم المثقف كله من معرفة حقيقة المغرب كلها في قديمه وحديثه؛ فها هو الاستعمار قد زال والحمد لله، فيجب أن نهب لواجبنا في هذا الباب. إن من ثمار الاستقلال الكبرى التي يجب أن يجنيها المغرب من الاستقلال، وإلا لا يكون للاستقلال ثماره اللازمة، انطلاق أقلام علمائه وأدبائه، سيما في باب التاريخ القديم لنطهره من أكاذيب السياسة القديمة والاستعمار الحديث، تلك الأكاذيب التي شوهت صفحات المغرب الغراء وتلك السموم الاستعمارية التي تفرقه، وتشقق عصاه.

ها هو المغرب كله -والحمد لله- يحظى باستقلاله، فيمر على استقلال الجزائر سنتان، ويمر على الاستقلال جهاته الثلاث الأخرى سنة كثيرة، ولا نرى في المكتبة العربية من نتاجها العلمي والأدبي الصحيح إلا كتبا قليلة لا تتجاوز العشرين. ولا نرى في تاريخ المغرب القيد والحديث إلا كتبا لا تكاد تتجاوز أصابع اليد. إن هذا تقصير كبير من علمائنا وأدبائنا سيحاسبهم الله عليه، ويحاسبهم المغرب الكبير، وامتنا الإسلامية كلها.

إنه ليس ثمرة الاستقلال أن نختال في البدل الزاهية، وننعم بالعيش الرافه، ولكن ثمرته هو العمل، مواهبنا التي عقلها الاستعمار يجب أن تنطلق، وتثمر ثمارها الطيبة الناضجة في كل الميادين، وان نكد في إخلاص وإتقان وطموح لبناء مغربنا، وامتنا العربية والإسلامية كلها، سيما في باب التأليف.

إن الكتاب المغربي هو أعظم سفير للمغرب في أنحاء العالم، وهو التاج الذي يزينه، والكنز النفيس الغالي الذي يورثه الثقل في ميزان الشرف، والمجد، والنضوج فترجح كفته. إن محاسن المغرب كلها تبقى في المغرب، ولكن كتاب المغرب هو الذي يرى العالم فيه حقيقته. وهو قبل هذا الغذاء الصحيح اللازم لناشئتنا وامتنا، والوسيلة لتربية المجتمع، وتوجيهه إلى المثل العليا التي كابدنا طويلا، وجاهدنا الاستعمار من اجلها.

يجب على حكومات المغرب أن تقوم الدولة في كل عام تقويما دقيقا في باب التأليف، فترى ماذا أنتج أبناؤها من النتاج العلمي والأدبي والفني الرفيع الذي ينفعها في الداخل والخارج؛ ويجب على كل غيور في المغرب أن يفعل ذلك، وإذا لم يفعل نكون مقصرين كل التقصير نحو أنفسنا، ونبقى دائما في مؤخرة الشعوب العاملة المنتجة !

يجب على كل رئيس حكومة في المغرب أن يجعل حلية مكتبه أمامه، وما يقدمه لضيوفه، ويعتز به، ويقومه ويغار عليه، هو كتب أبنائه وعلماء دولته، فإنها على حسبها في الكثرة والجودة يكون عزه وقيمة دولتنا في العالم !

ويجب على حكوماتنا أن تعتني بالتأليف، وتهتم بالمؤلفين، فتوليهم التقدير اللازم، وتسهل لهم السفر، وتعينهم، وتمدهم بالمال اللازم ليتزودوا من مكاتب العالم الإسلامي وأوروبا، ويطبعوا كتبهم؛ وترعاهم كل الرعاية ليقوموا بواجبهم كاملا، وعلى أحسن وجه يستطيعونه. وإذا لم تفعل ذلك، فسيبقى المغرب في غذائه العقلي الضروري عالة على غيره، وكلا ثقيلا على سواه، لا يقوم بواجبه، ولا ينهض بعبئه في قافلة الأمم الناهضة.

إن الاستعمار قد عقل أقلام علماء المغرب وأدبائه طويلا فعلمهم السكوت، فسكتوا حتى في عهد الاستقلال، فلم يرفعوا أقلامهم ليكتبوا لمدارسهم، وجامعاتهم، ويقدموا إلى العالم المراجع الصحيحة في تاريخهم القديم والحديث !!

انه لا يستطيع كتابة تاريخ المغرب القديم والحديث على أحسن وجه إلا المغاربة. فهم اعرف ببلادهم، وطبيعة قومهم، وأعمق فهما لتاريخ أجدادهم. فإذا تدرعوا بالاقتدار العلمي، وبالجد والكد في البحث والتحليل، وبالنزاهة والبحث المنطقي؛ فإنهم يستطيعون في تاريخ المغرب بالخصوص ما لا يستطيع غيرهم.

لقد ضاعت صفحات غراء من تاريخ المغرب الحديث بسكوت علماء المغرب ومثقفيه، وإهمالهم! لقد ضاعت ثورة الأمير البطل عبد الكريم الخطابي بوفاته ووفاة اغلب المجاهدين الذين حفظوا أخبارها، وأضحت ناشئتنا والكثير من كبارنا لا يعرف عنها شيئا.

وهي أعظم فصل من تاريخ المغرب الحديث ننتفع به في تربية النشء والمجتمع، وتركة نفيسة للمغرب كان يجب أن نحافظ عليها بكتابة عدة كتب في ثورة الأمير وثورات المغرب الوطنية الأخرى تتناولها من كل جهاتها، وتخلد أبطالها بدراسة شخصياتهم؟، وإقامتها مثلا عليا في الغيرة، والإخلاص، والتضحية، والشجاعة، والعمل لله!

وضاعت ثورة طرابلس الغرب الباسلة بذلك السكوت والإهمال منا. إن تلك الثورة وذلك الجهاد لصد الغزو الايطالي لازال لم يكتب على النحو الذي يجب أن يكتب به، وبأسلوب يليق بهذا العصر!

وستضيع ثورة تونس، وثورة الجزائر إذا لم نسارع لتسجيل أخبارها، والكتابة عنها ما دام القائمون بها على قيد الحياة، فإنهم المراجع الصحيحة لها لا ما يوجد في الصحف من نتف لا تغني الباحث، وهي مع ذلك قد لا تكون صحيحة.

أيها المغاربة، يا علماءها وأدباءها! إن أعلام الحرية والاستقلال قد رفرفت على بلادنا - والحمد الله - فارفعوا رءوسكم وانظروها، وانبذوا الجمة الاستعمار التي علقت أقلامكم وعلمتكم السكوت، واكتبوا عن بلادكم واكتبوا، وسجلوا نهضة المغرب الحديثة، وثوراته المباركة، وخلدوا زعماءها وقوادها قبل أن تضيع!

إنني اشكر الشكر البالغ إخواننا العلماء والأدباء في الشرق العربي، واحمد لهم اعتناءهم بتاريخ المغرب الكبير، سيما تاريخ الجزائر منه. لقد ظهرت فيه كتب قيمة، وإن كثيرين منهم قد جعلوا المغرب وتاريخه موضوع رسالاتهم للشهادات العليا. وتراهم يبحثون وينقبون في كد واهتمام عن كل كتاب مغربي حديث ليجعلوه موردهم، ولكنهم لا يجدون ما يريدون، لان الكتاب المغربي الحديث كان يختم عليه الاستعمار في أكمامه فلم يبرز. فلما جاء الاستقلال منعه عن البروز عادة السكوت والإعراض عن التأليف التي غرسها فينا الاستعمار!

إن إخواننا الأشقاء أهل المشرق العربي، وكل كاتب في تاريخ المغرب، لا يجد من الكتب المهمة في تاريخنا القديم والحديث إلا كتبا قليلة حديثة كتب مشايخنا وأساتذتنا العاملون اغلبها في عهد الاستعمار. كانت أقلامهم ملجمة فلم يستطيعوا أن يكتبوا كل ما يعرفون، ويأتوا فيها بكل ما يستطيعون؛ وإلا الكتب القديمة التي ملأتها السياسة المغرضة بالأكاذيب فشوهت صفحة المغرب الناصعة، وشققت عصاه أو كتب الأوربيين التي كتب اغلبها بروح استعمارية فشوهت تاريخ المغرب القديم والحديث.

إن بعض إخواننا المؤلفين المشارقة الذين كتبوا عن المغرب في قديمه أو حديثه قد

وقعوا في أغلاط كبرى في كتبهم - وهم على نية حسنة - وأوردوا فيها ما يضر ويوغر صدر المغرب، لاعتمادهم في معرفة المغرب على الكتب العربية القديمة، أو على الكتب الأوربية، وأكثر اللوم على هذه الأغلاط ينصب علينا نحن معشر الكتاب المغاربة لأننا لم نقدم إليهم المراجع الصحيحة سيما في تاريخنا الحديث، ومجتمعاتنا وأحوالها.

إنني اشكر إخواننا وأصدقاءنا المؤلفين في المشرق العربي - ونحن دار واحدة، وأسرة واحدة والحمد لله - على اعتنائهم بتاريخ المغرب في القديم والحديث- وهو تاريخهم - وأرجو منهم أن ينتبهوا كل الانتباه في الكتب القديمة للتاريخ، وفي الكتب الأوربية فان اغلبها مملوء بالأكاذيب على المغرب، وأرجوا منهم أن يلتزموا الطرق الحديثة في ابحث، وإلا يتعجلوا الحكم قبل الاستقراء، وقبل المشاهدة إذا كتبوا حاضر المغرب! !

يجب إلا يكتب إخواننا عن ناحية في المغرب الحاضر، وعن قوم قبل أن يسافروا إليهم، ويختاطوا بهم، ويدرسوهم دراسة دقيقة بالمعاشرة والمشاهدة. لقد وقع بعض إخواننا الأعزاء من أهل المشرق الذين كتبوا عن بعض نواحي (المغرب المعاصر) فوقعوا في أغلاط كبرى، وأساءوا إلى إخوانهم، لاعتمادهم غفي البحث على الكتب الاستعمارية المغرضة، لا علة المشاهدة أو لاقتصارهم في المشاهدة والبحث على زيارة عواصم المغرب وحدها، واستقاء المعلومات عن جهات المغرب وبيئاته من أناس قد يكون علمهم قليلا، وقد لا تتوفر فيهم شروط الشهادة والرواية، فينقلون معلومات خاطئة تشين كتبهم، وتوغر صدور إخوانهم في المغرب عليهم! ! يجب أن نعتمد في التاريخ الحديث، وما نكتبه عن قطر معاصر على المشاهدة، لتصح معلوماتنا، ونأتي بالنافع المجدي الذي يترك أحسن الآثار في النفوس.

إن العالم سيما العربي والإسلامي الشقيق لينتظر من المغرب الشيء الكثير في باب العلم والعمل فيجب أن نحقق ظنه.

وفي الختام اشكر الجمهورية العربية المتحدة، والقاهرة الحبيبة على ما جدته من كل من عرفت من خاصتها وعامتها من تقدير واحترام لشخصي الضعيف لعملي. وعما وجدته في مكاتبها العامة من خدمة وتبجيل، وفي جوها من هدوء فكري، ونشاط عقلي فاستطعت تأليف وإبراز هذا الكتاب على أحسن وجه أستطيعه. واكرر الشكر لدار إحياء الكتب العربية للحلبي على ما وجدت فيها من نظام، وإتقان للعمل، وأمانة، ووفاء بالمواعيد، وحسن في المعاملة.

واشكر المجلات والصحف، والإذاعات العربية التي أحسنت استقبال هذا الكتاب، وقرظته وعرفت به.

لقد كتبت عنه مجلة الأزهر في القاهرة مرتين، وجريدة الأهرام الكبرى مرتين وتحدثت عنه الإذاعة المصرية في البرنامج الثاني.

وكتبت عنه في لبنان الشقيق مجلة الآداب مرتين، ومجلة الأديب، ومجلة العلوم.

وفي الكويت عرفت به منوهة مجلة العربي .

وكتبت عنه مجلة الفهرست العراقية.

وتحدثت عنه إذاعة الجزائر ثلاث مرات. فإلى هذه المجلات، والصحف،، والإذاعات، والكتاب، والمتكلمين فيها بالغ شكري على تقديرهم وترحيبهم. وانه لتقدير وترحيب للمغرب والجزائر.

واشكر المكاتب العربية التي رحبت به وأحلته في الصدر بمعارضتها، وعرفت به حرفاءها فوقع الإقبال الكبير عليها.

كما اشكر أصدقائي الذين شدوا أزري وأيدوني في البدء في هذه الموسوعة. سيما أصدقائي المخلصين السادة: الأستاذ حمودة ابن قايد، وأخاه الأستاذ سعيد، وابن عبد الله حمو بن داود، والحاج عيسى بن داود، وعمر بن بكير وجهلان وشركائهما. والله أسأله الجزاء الأوفى لنا جميعا على هذا العمل الذي لا يقصد به إلا وجهه الكريم وان يوالي تأييده وعونه لنا في خدمة امتنا الإسلامية كلها، وبناء المغرب العزيز.

القاهرة - التوفيقية

10 رجب الخير 1384

14 نفامبر 1964

المغرب الكبير

حدوده، وأقسامه، وطبيعته.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

المغرب الكبير

حدوده، وأقسامه، وطبيعته.

المغرب الكبير! هذا الوطن العظيم المفدى، تلك الرحاب الجميلة الغالية، وهذا القطر الذي خلقه الله في صدر الدنيا ليكون قريبا من المشرق والمغرب، ومن الشمال والجنوب، فيكتسب حسناتها كلها، ويشرق فيها بأنواره جميعها. هذا المغرب الكبير إذا بحثنا عن حدوده في هذا العصر الحديث وجناها من جهة الشرق قرية السلوم في غرب الإسكندرية، والمحيط الأطلسي من جهة الغرب، ويحده شمالا العرب، ومن جنوبه السودان: السنغال من جنوبه الغربي، ومالي والنيجر من وسطه، واتشاد وغرب السودان من جنوبه الشرقي.

هذه هي الحدود السياسية للمغرب الكبير الآن، وتلاك هي حدوده في قديم الزمان، إلا ان من جهة الشرق فان حده يمتد إلى غرب الإسكندرية. فتجد فيما بين الإسكندرية والسلوم إلى الآن العادات المغربية، والدم المغربي، واللباس المغربي،وسحنة المغاربة، وبنيانهم المتين. انه ليس حد طبيعي بفصل المغرب عن مصر كالبحر الذي فصله عن أوربا، والصحراء الكبرى التي فصلته عن السودان. إنهما طبيعة واحدة، وارض متشابهة، لذلك تمتد ذراع المغرب اليمنى في ود وحنان، فتطوق غرب مصر إلى الإسكندرية، فيضم تلك البقاع إلى أحصانه، ويراها جزءا أثيرا منه.

ان المصريين القدماء أبناء عمومة البربر، فهم جميعا من بني حام.فبين القطرين المغرب ومصر قبل الإسلام صلات الرحم القوية، ووشائج الجوار القريب. فجاء الإسلام فتكونت بين القطرية المسلمين منه أسباب للمودة والاتحاد أقوى من الرحم الماسة،

ومن الجوار القريب. فلا غرابة إذا رأينا ذلك الامتزاج بين جناح المغرب الشرقي، وجناح مصر الغربي، وعلاقات المودة والإخاء الإسلامي المكين بين القطرين المغرب ومصر في كل العهود !

أقسام المغرب في القرون الإسلامية الاولى

والمغرب اسم أطلقه الفاتحون المسلمون على مغربنا الكبير في القرن الأول الهجري. وكان قبل ذلك يسمى باسم آخر. وقد قسم المسلمون في مصر والشام مغربنا الكبير حسب قربه وبعده عنهم في مصر والشام إلى ثلاثة أقسام: المغرب الأدنى، والمغرب الأوسط، والمغرب الأقصى. فالمغرب الأدنى يبتدئ من غرب الإسكندرية شرقا إلى مدينة (بجاية) غربا، والمغرب الأوسط من مدينة بجاية شرقا إلى وادي ملوية غربا، والمغرب الأقصى من وادي ملوية شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا.

وكان المغرب الأدنى يشتمل على الأقاليم الأربعة التالية: برقة، وطرابلس، وتونس، وشرق الجزائر؛ والمغرب الأوسط يشتمل على وسط الجزائر وغربه، وعلى جزء من شرق القطر المغربي الحبيب؛ والمغرب الأقصى يشتمل على بقية المغرب من وادي ملوية إلى المحيط الأطلسي.

وارى ان هذا التقسيم للمغرب قد وقع في عهد الملك الأموي عبد الملك بن مروان في آخر القرن الأول الهجري، فهو الذي تم فتح المغرب في عهده، فصار المسلمون يجربون أقطاره، ويسوسون نواحيه، فاحتاجوا إلى هذا التقسيم وهذه التسمية ليبينوا جهاته.

وكان الاسم الغالب على المغرب في جزيرة العرب أيام الخلفاء الراشدون هو افريقية، وتراهم يقصون بها تارة تونس وطرابلس، وتارة تونس وحدها، وتارة المغرب كله.هذا ما نجده في كثير من الكتب القديمة التي الفت بالمشرق حتى بع هذا التقسيم الإسلامي، والأسماء العربية التي أطلقها الفاتحون المسلمون على أنحاء مغربنا الكبير.

وقد دامت هذه الأسماء العربية على أقسام المغرب الثلاثة الأدنى، والأوسط، والأقصى إلى القرن العاشر الهجري لما استولى الأتراك على المغرب الأدنى والأوسط فقسموهما تقسيما جديدا حسب الدول التي انشأوها فيهما. فانقسما إلى ليبيا، وتونس، والجزائر كما هما إلى الآن. انه ليس هناك حدود ولا شبه حدود طبيعية بين هذه الأجزاء من مغربنا الكبير، بل هي وطن واحد، وأمة واحدة، وجنس واحد، وين واحد. قد خلق الله فيها كل أسباب الاتحاد والامتزاج والتحابب. إنهما الأطماع السياسية التركية قسمته ذلك التقسيم، وحدت بين أجزائه تلك الحدود. فجاء الاستعمار اللاتيني الفرنسي، والايطالي،

فأيد ذلك التقسيم، وركز تلك الحدود ليمزق مغربنا الكبير، ويفرق الأمة المغربية الواحدة فيسهل عليه استعمارها كما يريد. وقد للمغرب الأقصى اسمه العربي إلى اليوم لأنه نجا من استعمار التركي وتسلطهم عليه.

تقسيم الجغرافيين البونقيين والإغريق والرومانيين للمغرب

هذا هو اسم مغربنا بعد الفتح الإسلامي، وذلك هو تقسيم الفاتحين له. فكيف كان يسمى قبل الإسلام في عهوده القديمة قبل البونيقيين وأيام استقرارهم في المغرب؟ ما أقسامه في عهدهم، وفي عهود الدول البربرية القديمة التي عاصرتهم، وفي عهد الرومان الذين جاءوا بعدهم؟

كان المغرب يسمى في القيم قبل القرن التاسع قبل ميلاد المسيح عليه السلام (ليبيا) كان يسمى كله من أدناه إلى أقصاه بهذا الاسم (ليبيا) وكان معروفا عند الأمم القديمة بهذا الاسم، يطلقونه على كل أجزائه، ويسمون به كل نواحيه. وفي عهد البونقيين الذين انشأوا دولتهم في قرطاجنة في شمال في القرن التاسع قبل الميلاد أطلقوا هم والجاليات الإغريقية واللاتينية التي كانت تغشى أنحاء المغرب للتجارة، وتنتقل في أنحائه سيما في الشمال للمقايضة. أطلق هؤلاء أسماء جديدة على جل أنحاء المغرب، فلم تعد تسمى ليبيا. وبقي هذا الاسم يطلق على الجزء الشرق من المغرب الكبير طرابلس وبرقة. وقد يلحق كثير من المؤرخين طرابلس، من خليج سرت الأكبر، بتونس، ويطلقون عليهما جميعا افريقية.

لقد قسم هؤلاء البونيقيون والإغريق واللاتين شمال المغرب الكبير إلى ليبيا، وافريقية، ونوميديا، وموريطانية الشرقية وموريطانيا الغربية.

أما ليبيا فهي إقليم برقة وطرابلس وحدهما من غرب الإسكندرية إلى شرق مدينة قابس في خليج (سرت) الأصغر.

أما افريقية فمن شرق مدينة قابس جنوبا وساحل تونس الشرقي إلى الشرق مدينة طبرقة غربا، وهي القطر التونسي اليوم تقريبا ما عدا صحراء تونس التي كان يطلق عليها اسم آخر غير افريقية، وجزء قليل من غربها فان مدينة طبرقة كانت في القديم تابعة لنوميديا في شرق الجزائر.

أما نوميديا فتبتدئ من شرق مدينة طبرقة وتنتهي غربا في بجاية. وبجاية داخلية في نوميديا فهي جزء من أجزائها وليست خارجة عنها. وتشتمل نوميديا على عمالة

قسنطينة اليوم وعلى جزء قليل من غرب تونس.

أما موريطانيا الشرقية فحدها الشرق غرب مدينة بجاية وتنتهي في وادي ملوية فهو حدها الغربي. وهي تشتمل من أقسام القطر الجزائري الحالي على عمالة الجزائر، وعمالة وهران، وعلى جزء من القطر المغربي الحبيب.

وموريطانيا الغربية هي القطر المغربي اليوم إلا جزءا صغيرا من شرقه. وحدها الشرقي هو وادي ملوية، وتنتهي غربا في المحيط الأطلسي.

هذا هو تقسيم الجغرافيين القدماء البونيقيين والإغريق واللاتينيين لمغربنا الكبير. وقد أيد هذا التقسيم ما قام في بعض أجزائه من دول بربرية كبرى. ان افريقية كانت فيها دولة البونيقيين ثم الرومان بعهم، ونوميديا قد أنشأت فيها دولة البطل الكبير الملك البربري غولة بن نارفاس، وموريطانيا الشرقية كانت لصيفاقس البربري نشأت فيها دولته البربرية الكبرى التي ساسها بعبقريته، وأعلى صروحها بحزمه وحسن درايته، كما كانت موريطانيا الغربية تحت أمرائها، وملوكها البربر الذين استقلوا فيها.

وكان الجغرافيون القدماء أيضا قبل الإسلام يسمون نوميديا مصليا، ويسمون موريطانيا الشرقية مصيصيليا. وإنك واجد في الكتب الأوروبية التي كتبت في تاريخ المغرب قبل الإسلام كلا الاسمين يطلقان على شرق وغرب القطر الجزائري الحبيب.

هذا هو تقسيم الجغرافيين القدماء قبل الإسلام لمغربنا الكبير، وتلك هي الأسماء التي أطلقوها على قسم. فهل قد قسموا المغرب كله شماله وجنوبه، تلاله وصحراءه. إن ما عرفه البونيقيون والإغريق والرومان، وتجولوا في أنحائه، واستقروا فيه للتجارة أو الملك، ورغبوا في المقام فيه، إنما هو شمال المغرب، والساحل الجميل. دلك الشمال الخصب الجميل الذي فتهم بخيرات، وبالحضارة البونيقية التي اخذ بها أجدادنا الأمازيغ فأشرق بها مغربنا الكبير، فقصده الناس للاستقرار والاتجار. أما الصحراء، صحراء المغرب الكبير، فإنهم لم يقسموها كالشمال لعم استقرارهم فيها، ولكن أطلقوا عليها اسما جديدا هو (جيتوليا) وكان سكا صحرائنا المغربية، أجدادنا البربر، يسمونهم (الجيتوليين) وكانت صحراء تونس، وصحراء الجزائر، وصحراء المغرب الأقصى تسمى جيتوليا.

ان المغرب كله من أدناه إلى أقصاه، ومن شماله في بحر العرب إلى جنوبه في حدود السودان وطن واحد، ذو طبيعة واحدة، ومزاج واحد، تسكنه امة واحدة تدين بدين واحد، لا فرق بين أقطاره، ولا اختلاف بين أجزائه، فصحراؤه ذات طبيعة واحدة، وشماله كذلك لا فرق بين أنحائه في الطبيعة. فإذا وجدت بعض الفرق فكالذي يوجد في أعضاء الجسم

ألواح لتقوم كل ناحية بوظيفتها لخير المغرب كله وليؤدي المغرب واجبه في كل الميادين، ويكفي نفس في كل أنحائه بكفاءاته المختلفة وميزاته التي أودعها الله في أنحائه. أما الاختلاف في العرق الذي يمزق الأمم، والاختلاف في الذين الذي يفرق الشعوب، والتباين في الأمزجة للتباين الكبير في المناخ هذه العلل التي تباعد بين الجماعات، فما وقى الله مغربنا الكبير منه. انه وطن واحد يا صديق، فأينما حللت من أجزائه فأنت في وطنك، وبين اهلك، لا تشعر بالغربة،ولا تحس بالوحشة التي تكون لك باختلاف النفوس.

تلك هي الأسماء التي كانت تطلق على أجزاء من مغربنا الكبير، وذلك هو التقسيم الذي كان عليه قبل الإسلام. فكيف طبيعة هذه البلاد التي سخرت العالم منذ الأزمنة القديمة، وكيف كان المغرب الكبير في مناخه وتربته، وفيما أودع الله فيه من كنوز ومزايا؟ انه في صدر الدنيا، وهل ينبت الله في صدرها إلا ما يزينها، ويخلق لها الغرام في القلوب، والمحبة في الأفئدة؟

مناخ المغرب الجميل
وخصائصه العظيمة، ومزاياه الكبرى

لقد خلق الله المغرب الكبير في موقع ممتاز لا نجده لغيره من الأقطار. لقد توج به افريقية[1] الجميلة وانتبه في صدر الدنيا حيث يناط الوسام الكريم، وتعلق الجواهر النفسية. لقد توسط الدنيا فاخذ من خصائص الشمال في أوروبا، ومن خصائص افريقية في جنوبه. كما استطاع ان يصل إلى حضارة المشرق ودينه لقويم، فهو قريب من القارات المتحضرة. يصله المحيط الأطلسي الذي يكتنفه من غربه بأمريكا فيتصل بها في سهولة إذا شاء ويصله بحر العرب الذي يطوقه بذراعه من شماله وشرقه بأوروبا إذا شاء، وبآسيا إذا أراد، فيصل كلا القارتين في سهولة ووقت قصير.

إن مغربنا ق خلقه الله في مكان وسط بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب، لهذا كان على الاعتدال في أشيائه، وعلى الجمال في ألوانه، لا يفرط في أشياء كما يفرط الشمال، ولا يتجاوز الحدود في بعض أموره كما يتجاوز الجنوب، فهو كالربيع المعتدل بين الفصلين إذا أرت القوة والجمال لا تجهما إلا فيه !

إن المغرب جنة الله في الأرض وسليل الفردوس في الثرى، لزكاء تربته، وخصب أرضه، وكثرة خيراته. ويليق كلك المزروعات، ويؤتى كل الثمرات، ويحتوي على كل المعادن. فهو نعمة الله الكبرى علينا، وأعظم الآلاء التي خصنا بها ! جوه معتدل ينعش الأجسام ويضمن الصحة، ويؤجج النشاط. وهو بين البحر والصحراء، وسماؤه سليلة اليم والبيداء، فتارة ترعد فيها السحب وتبرق، وآونة تسطع فيها الشمس وتشرق. وهو خال من المستنقعات الوبيلة التي تسمم الجو، ونكون في جلده كالجروح تزف إليه الوبال، وتسلخه من الجمال؛ وخال من المجاعات التي تصيب البلاد المجدبة، والأقطار التي تسوء تربتها، وتعقم أرضها.

1 - المراد بافريقية هنا القارة كلها.

والمغرب مشتمل على السهول والجبال. فساحله الطويل بسيط من الأرض دائم الخصب والخيرات، تراه على صدره زاخرا بالنفائس والبهاء، كأنه وشاح على صدر الحسناء. أما جباله فهي جبال الأطلس الشماء. وهي سلستان تبتدئان من المغرب الأقصى وتنهيان في تونس الخضراء. وتسمى السلسة الشمالية منها الأطلس الشمالي، والسلسلة الجنوبية الأطلسية الصحراوي.

سلسلتان من الجبال الشماء هي معقل الأسود من أبناء المغرب الأحرار. قد ركبهما الله في قطرنا الباسل كالفكين في الأسد الهصور، فطحن بهما أعداء المغرب في كل الأزمان، وكانا مبعث فخره وفخر الإسلام والمسلمين في كل العود!.

هذه الجبال التي دجج الله بها شمال مغربنا، وزين بها أنحاءه، ليست صخرية قفراء، فاغلبها في شمال المغرب غابات لفاء، يسكن الليل في بعضها إذا اشتد قيظ النهار، لعظمة أشجارها، وتشابك دوحها؛ وهي أيضا حدائق تزهر فيها الأشجار المثمرة، ومزارع تماوج فيها أنواع المزروعات التي تملأ الجيوب، وتسعد القلوب ! وجبالنا الخضراء الجميلة رياض غناء، تتفتح فيها الزهور، وبعرض فيها الربيع جماله، ويبدي فيها كل فصل حسنه وروعته. ما أحلى بياض الثلوج الذي يكللها في الشتاء، ونسيم الصيف الذي يتلاعب في جنباتها ! وما أحلى العيون الخرارة في أرجائها، النازلة من قممها في بياض رائع جميل كبياض العمائم في رؤوس العلماء. انه منظر رائع فتان يملؤك بالنشوة والطرب، فتراك وان كنت حزينا تتسلى، فتغني مع الجداول البيضاء المتسابقة من قمم الجبال، وترقص طربا مع إحراج التلال التي ترقص وتتعانق لشدة فرحها بنعم الله عليها في جبال المغرب الجميلة!.

وترى جبال المغرب في شماله لكثرة خصبها، ووفرة عيونها، وحسن جوها، ومنعتها، وجمالها، منبتا لآلاف القرى ترصع أنحاءها. وسكان تلك القرى أبناء المغرب الأوفياء فهم اسود الشرى، لا تزال مخالبهم فيكل عصور الاستعمار قانية بدماء المستعمرين، ولا تزال جنوب أولئك الغاشمين المستعمرين بضربات أبناء الجبال الصناديد ملتهبة تشتعل فيها النيران!

وبين السلسلتين من جبال الأطلس نجود، تراها بين ذراعي بلادنا الحبيبة فتانة كالنهود! قد كستها سماؤها المدرارة، وأراضها الطيبة بكل ما شئت م نبات وأشجار، ومن زهور اريجة وثمار!

صحراء المغرب وكنوزها ودينها

أما صحراء المغرب فهي موطن الجمال والفتنة، ومعدن الكنوز والنعمة، تراها صحراء زاخرة بغابات النخل الممتاز بتمرجيد بالغ الحلاوة، طيب النكهة، لا يوجد إلا في بلاد المغرب ! وفي صحرائنا الغنية الممتازة أكثر من مائة نوع من التمر، واغلب من نوع الجيد، وفي أصناف ممتازة لا تجدها إلا في المغرب، لا تستطيع ان تنتجا بلاد المشرق، وتجدها في المغرب!

وترى في أرجاء الصحراء المدن العامرة المتحضرة التي تجد فيا كل ما شئت من رجولة ودين، ومن حزم وقوة، ومن نبوغ وذكاء، قد نبتت في أنحاء الصحراء مع جنات النخيل الفتانة، إلا ان هذه أبهى وأكرم لأنها تمتلئ بنور الذين، وتشيع فيها فصاحة القرآن، وتختال في الحضارة الإسلامية الزاهية، ويضيف إليها أبناؤها الناشطون المثقفون كل حسن من الحارة الحديثة، ومدينة العصر الراقية، ومن تلك المدن الزاهرة الراقية الآن بلاد ميزاب، ولاغواط، ومتليلي، والامنيعة، وورجلان في جنوب الجزائر، وتافيلالت (سجلماسة) في جنوب المغرب الأقصى، وتوزر ونقطة، وقابس وقفصة، في لقطر التونسي لحبيب، وغامس وفزان، في جنوب ليبيا، وغيرها كثير في صحراء المغرب الكبير الواسعة.

وق اكتشف النفط الغزير في صحراء المغرب الكبير، والمعادن الكثيرة النفيسة، فازدادت قيمة، واتجهت إليها الأنظار من كل أنحاء العالم، وصررت للمغرب هي الثدي الذي يرويه، والمورد الغزير الذي يغنيه!

وفي أنحاء مغربنا الكبير مع جماله الطبيعي البارع، ومناخه الصحي الممتاز، الحمامات المعدنية الطبيعية، تجدها في اغلب نواحيه، وترى الأوروبيين يقصدونها من أقصى أوروبا للاستشفاء من أمراضهم لمزمنة، وترى حماماتنا تستطيع القضاء على الأمراض الكبرى التي تعجز امهر الأطباء في أوروبا، وتعقبهم فيهما احدث الأدوية، وأدق الأجهزة الطبية في العصر الحديث، ومن تلك الحمامات المعدنية حمام الصالحين وحمام بو حنيفية، وحمام ألوان في الجزائر، وحمام قبرص وحمام الأنف في تونس الخضراء، وغيرها كثير في أنحاء المغرب الكبير.

ان حماماتنا المعدنية في المغرب الكبير من اكبر نعم الله علينا، ومن أسباب الصحة والقوة التي حبا الله بها مغربا كاملة!

لقد أسبغ الله على المغرب الكبير من أسباب الغنى والقوة والجمال كل ما يسعد

أبناءه، ويحملهم على القوة والهناء، وعلى المتعة والسعادة، وعلى التقدم والرقي. فلا غرو والجمال طابع مغربنا،والخيرات سمته، والبركات ما اشتر به بين الشعوب، ان كان محل أطماع المستعمرين في كل العهود، وهدف الشعوب الجائعة في كل الأزمان. والرائحة الذكية تجذب الذباب إلى الزهور، وقتار القدر الطيبة يغرى به الكلاب فتستأسد، ويدعو إليها الحشرات والأفاعي فتحاول ان تجعلها مستعمرة وان كانت تحتها النيران،وكانت هي على الغليان. فعلى أبناء المغرب الكبير ان يتحدوا ويتيقظوا، ويستعدوا لحماية مغربهم من لمستعمرين الذين يتحينون الفرص للرجوع إليه. فانه جنة عن اخرجوا منه، واللقمة البالغة الحلاوة والجدوى نزعت من أشداقهم المسعورة.

اثر البيئة الطبيعية في سكان المغرب الكبير

وكان سكان المغرب لهذه الخصائص الجميلة في بلادنا، على الاعتدال في الأمزجة والمتانة في التركيب، والجمال في القوام، والصحية في الأجسام، لوفرة لغذاء، وجودة الهواء، ولاعتدال الإقليم، وجمال الله في المغرب!

وكان أجدادنا أبناء المغرب الكبير على الاعتداد بالنفس إلى حدود الكبرياء، وعلى الأنفة والإباء، وعلى التمسك كل التمسك بشخصيتهم لا يذوبون، وعلى الاعتداد والاعتزاز بدينهم وقوميتهم لا يبتلعهم المستعمرون وإن أطالوا المقام عليهم، وجردوا كل أسلحتهم لإذابتهم ومحق شخصيتهم.

وكان أبناء المغرب الذين ربتهم جبالهم الشماء وإحراجهم، وطبعتهم، وطبعتهم بطباعها، يحبون لحرية إلى درجة لعبادة، ويعشقون الموت في سبيلها، لا يرضون بالظلم والاستعباد، ولا يخضعون للجبروت والاستبداد؛ فان سكنوا للظالم حينا فكما يسكن الأسد في نوبة الحمى، ليس ذلك من طبعه، ولا من جبلته، فإذا صحا فويل للظالمين! انه يترك الساحة بنجيعهم معصفرة، ويغدو وصبوحه دماء الأعداء وخوضه في أشلائهم المبعثرة.

وكان أبناء المغرب الخصائص بيئتهم الطبيعية وآثارها العظيمة فيهم على الحزم والنشاط، يحبون العمل، ويكرهون الكسل، ويعشقون لطموح، ويمقتون الخمول، لهم إرادة حديدية، وذوق جميل، ويد صناع، يتقنون أعمالهم ويحبونها، لا يكسلون ولا يغشون، ولا يذهبون إلى العمل وهم يتثاءبون، بل يهرعون. وتلك من نعم الله علينا باعتدال جو إقليمنا، فلو كان بالغ الحرارة لأورثنا الكسل وطبعنا بالفتور.

وكان أهل المغرب لآثار المغرب الجميل القوي فيهم - على الذكاء في العقل، والقوة في التفكير، والحب للعلم، يقدسونه وأهله، ويرونه رأس الفضائل، واكبر النعم.

وكان أبناء المغرب لاعتدال جوهم على الاعتدال في الوجدان، لا يفرطون في أفراحهم وأحزانهم، وفي حبهم وبغضهم، ولا يتسمون بالنزق والطيش لوجدانهم الذي يتملكهم كما تجد تهل البلاد المفرطة في الحرارة، ولا يجدون كاهل البلاد المفرطة في البرودة، بل هم على الاعتدال في الوجدان، وعلى الخفة في الأرواح، وعلى المرح في النفوس، على نحو وبمقدار تستسيغه العقول الحصيفة، والخلق الكريم.

هذه بعض مزايا لمغرب الجميلة، وأثاره الحسنة في أبنائه، وقد وجزنها لكي لا يخرج هذا الباب من إطار التاريخ إلى تفاصيل الجغرافية.

حسبنا منها هذا الموجز الذي هو تمهيد ضروري، ساس لما يستقبلنا من عهود المغرب الزاهرة، ودوله الراقية، وثوراته لعارمة على المستعمرين، ان الناس بناء أرضهم فمنها يرثون وعلى حسبها يكونون.

لقد خلق لله المغرب على الحسن الفاتن، وميزه بخصائص قلما اجتمعت في قطر من الأقطار، فقصده أهل المشرق منذ العصر الحجري الأول فسكنوه. فمن الذي سكن بقاعنا الحبيبة، ومغربنا الجميل في العصر الحجري الأول قبل ان يغشاه الأمازيغ فيكون لهم، ويكونوا له، ويعمروا كل أنحائه، وينهضوا بالمغرب الكبير نهضته الكبرى؟

السكان الأولون للمغرب الكبير

السكان الأولون للمغرب

أول من سكن مغربنا جماعات من أبناء يافث انتقلوا إلي من المشرق، ومنه انتقلوا إلى جنوب أوروبا كما تل على ذلك الآثار والنصوص الصحيحة.

أصول البشر

ويافث هو احد الأصول الثلاثة للبشر، وهم أبناء نوح عليه السلام. فهم الذين أصول البشر عمروا الأرض بعد ان اغرق الله فيها بدعوة نوح لما كفر به أهل عصره. وقد نجت في سفينته زمره من المؤمنين به، ولكنهم لم ينسلوا أو هلكت ذريتهم، فبقي نسل أبناء نوح الثلاثة. فكان نوح عليه السلام آدم الثاني، واصلا من أصول البشر، ومبدءا للخليفة. وقد ذكر ابن خلدون الأمم التي تفرعت من أبناء نوح الثلاثة وهم: سام، وحام، ويافث. فذكر ن ليافث سبعة بناء منهم (قطربال) ثم لنا الأمم التي تفرعت عنه فقال: «وأما (أبناء قطربال) فهم الصين من المشرق، واللمان من المغرب. ويقال إن أهل افريقية قبل البربر منهم، وان الإفرنج أيضا منهم، ويقال ان أهل الأندلس قديما منهم»[2] ان قول ابن خلون الرجل العالم بالتاريخ، سيما تاريخ المغرب أكبر دليل على ما قلناه من ان جماعات من أبناء يافث هم أول من سكن المغرب. وقد انتقل هؤلاء إلى جنوب أوربا، فاستوطنوا الأندلس وغيرها. فكان وطننا (المغرب الكبير) هو الأصل في عمارة جنوب أوروبا، لا ما ادعى كثير من الأوروبيين الذين يتعصبون لأنفسهم، ويحصرون كل الفضل في جنسهم. لقد قالوا ان هؤلاء السكان الأولين للمغرب جاءوه من أوروبا ! وقد نقل هذه الدعوى بعض المؤرخين المغاربة. ان الآثار التي دلت على وجود هؤلاء السكان تتصل من المشرق إلى المغرب، وبعض عباداتهم وطقوس دينهم شبيه بما هو في المشرق، سيما في مصر التي كانت طريقتهم إلى المغرب. والمغرب فيما قبل التاريخ هو الناحية التي تصلح لحياة بني الإنسان لا جنوب أوروبا البارد الذي تكسوه الثلوج، ويعمر الجليد تلب نواحيه. ان سبب

2 - كتاب العبر لابن خلدون ج 2 ص 10 ط. بولاق في القاهرة 1284هـ (2--1 المغرب)

عمارة جنوب أوروبا هو المغرب، لا عكس، كما يدعى بعض المؤرخين الأوربيين المتعصبين. لقد اغتر أولئك المؤرخون الأوربيون بتقديم أوروبا في هذا العصر، وتختلف المشرق، فنسبوا كل الفضل إلى أوروبا، قالوا: أنهم لأصل في عمارة المغرب، وادعوا ادعاء الثمرة انها الأصل للشجرة - وهي منها - أما رأت أغصانها حطبا وجردها الشتاء من حياتا!

وكان نزول هذه الجماعات من أبناء يافث في شمال المغرب واستقرارهم به قبل التاريخ، وهي العصور التي كان الإنسان فيها لا يعرف الكتابة ليسطر تاريخه، وفي العصر الحجري قبل ان يكشف الإنسان النحاس والحديد فيقيم عليهما حياته. وقد دلنا على وجود هذا الجنس من أبناء يافث آثارهم الموجودة في أنحاء المغرب، والآثار اصدق شاهد من الكتابة، واصح دليل من الرواية. وقد وجدت بعض مصنوعاتهم الحجرية، وآثار لمنازلهم. ومن أثار المنازل ما وجد في ناحية معسكر، وفي نواحي وهران وسعيدة، والجزائر، في غرب القطر الجزائري ووسطه. ووجدت في عين البيضة، وتبسة وعين مليلة، وسطيف في شرق الجزائر. وقد وجدت قبورهم أيضا ويسميها البربر قبور الجهلاء.

عيشة السكان الأولين للمغرب وحياتهم البدائية

وكان أولئك السكان الأولون للمغرب على بساطة أهل العصر الحجري في العيشة والحياة. فكانوا يلبسون جلود الحيوانات، ويقتاتون بالثمار البرية، وبالأعشاب، وبما يصطادونه من الحيوانات. وكانوا يسكنون المغاور والكهوف المنيعة القريبة من المياه؛ ويتخذون من الحجر آلاتهم في القتال، وفي الصيد، وفي مختلف الضرورات.

دينهم الوثني

وكان لهؤلاء السكان الأولين دين بسيط على حسبهم، لان الإنسان لا بد له من دين ولا يمكن ان يخلو منه، لان الدين في الإنسان تبعثه عليه غرائزه. فغريزة الاطلاع والخضوع القويتان في الإنسان تبعثانه على الخضوع والعبادة، وعلى ان يتخذ له إلها يعبده. فكما انه لا يمكن ان يبقى بدون الأكل الذي تبعثه عليه الغريزة، كذلك لا يمكن ا يبقى بدون دين الغريزة هي التي تبعث عليه! وإذا كان التقليد وهو من الغرائز أيضا يبعث الإنسان على اقتباس نوع الدين من البيئة الاجتماعية فيكون عليه. فأصول الذين في النفس البشرية هي ما ذكرنا.

كان لهؤلاء السكان دين يعقتدونه، والهة يعبدونها. فكانوا يعبدون الشمس والقمر وبعض الحيوانات، ومنها الثور والكبش والقرد. وكذلك العقل في طفولته يخلع التقديس

على كل ما يروعه ويراه مصدرا للقوة، ومحلا للغرابة. وإذا كان هؤلاء السكان قد هاجروا إلى المغرب من المشرق فلا بد له ان يكونوا قد أتوا بشيء من هذا الدين من المشرق. ان عبادة الشمس التي كانت في أمم من أهل المشرق كالمصريين وأهل اليمن تجعلنا نتيقن ان هذا الدين ليس من اختراعهم في كل طقوسه.

وكان أولئك السكان الأولون يعتقدون البعث والنشور، وان الإنسان في بطن الأرض ما هو إلا جنين سيولد فيحيا حياة ثانية، لذلك كلن من أنواع دفنهم ان يدفنوا الميت وهو جالس القرفصاء، ولحياه إلى ركبتيه، وتلك هي هيأة الجنين في البطن.وكانوا يفون مع الميت أدوات طعامه وشرابه، وبعض أشياء الزينة ليجدها حين نشوره، وفي حياته الثانية.

ان عقيدة البعث مما تبقى لهذا الجنس من الدين السماوي الذي جاء به الأنبياء الأولون. وإلا فان عقولهم القاصرة لا تستطيع إدراك لبعث بالتفكير في حياة الإنسان وفي حقيقته. ونجد عقيدة البعث منتشرة في المشرق فكانت سببا لبناء الفراعنة للأهرام.

وقد بقي هؤلاء الشرقيون من أبناء قطوبال بن يافث في لمغرب إلى ان فاض عليهم في لعصر لحجري جنس كثر منهم عددا، وأقوى شخصية فغمروهم فأذابوهم فيهم فأمسى أولئك السكن الأولون كالنهر الصغير إذ إلتقمه البحر وأطبق عليه فكساه بلونه، وابتلعه فصار جزءا منه. وكذلك الفئة الصغيرة تذوب دائما في الجماعة الكبيرة إذا كانت قوى منها شخصية. ان هذا الجنس العتيد لغزير الذي فاض على السكان الأولين فصيرهم قطرة في بحره هو جنس البربر العتيد ! تلك الأمة القوية العظمى التي استوطنت المغرب الكبير من دناه إلى أقصاه منذ العصر الحجري، فعرف المغرب بها وعرفت به، فصار لها كالمحجر للمقلة الصحيحة لا يفارقها ولا تفارقه!

فمن هم البربر؟ ما أصلهم، وما حقيقتهم، ومن أين جاءوا إلى المغرب؟

البربر
أصلهم و شخصيتهم

البربر

البربر هم الجنس العتيد الذي فاض على الفئة القليلة من السكان الأولين للمغرب فنسخهم كما ينسخ النهار الواسع المستفيض رقعة القمر في الجو!

والبربر جنس كثير العد، قوي الشخصية، لا تحصى شعوبه، ولا تعد مزاياه فهم من الأجناس الحرة الكريمة التي خلقها الله بيضاء لتكون شامة في وجه الإنسانية، وجعل المغرب صدر الدنيا وطن البربر ليأخذوا من حسنات الطرفين شماله وجنوبه، فيحتلوا الصدارة في المكارم، كما احتلوا الصدارة في المواطن!

موطن البربر الأول وسبب انتقالهم إلى المغرب

وكان البربر في أول أمرهم في الشام مع أبناء عمهم فلسطين. فوقعت بين الطرفين موطن البربر حروب وحدثت بينهم فتن، فهاجر البربر من لشام فساروا إلى الغرب فاستوطنوه، فغمروه بشعوبهم، وعمروه بقبائلهم من غرب الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي، ومن بحر العرب إلى حدود السودان. وكانت تلك الهجرة في العصر الحجري، وقبل ميلاد المسيح عليه السلام بمدة لا تقل عن ثلاثين قرنا كما قال الأستاذ الكعاك.[3] وكانت اغلب بقاع المغرب حينئذ بكرا لم تطأها أقدام، وجل مواطنه خلاء لم يتعرف ليها إنسان، فوهب الله لها هذا الجنس الكريم حل فيها حلول البذرة الطيبة في التربة الخصبة، فازدهرت، فصارت من مقاصد الشعوب التي تعشق لحارة والقوة والجمال.

أصل البربر

ان البربر أبناء مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام. فهم من بناء حام لا من أبناء يافث كما يدعي المستعمرون، ولا من أبناء سام كما ادعى كثير من البربر ومن العرب الذين يتعصبون لجنس على جنس، وتبعثهم مذاهبهم السياسية، وحبهم للملك على اختلاق والتزوير.

وقد ذكر ابن خلدون: م أبناء حام كنعان جد البربر، ومصرايم جد القدماء المصريين،

---

3 - كتاب البربر تأليف الأستاذ عثمان الكعاك ص 7 ط. الترقي بتونس 1956.

وفلسطين جد الفلسطينيين القدماء. واثبت ابن خلدون مؤكد ان البربر أبناء حام بشهادة الموطن الذي كان مجاورا للمصريين من الغرب وللسودانيين من الشمال وهم أبناء حام لا أبناء سام، وبشهادة اللغة البربرية التي تشبه لغة المصريين القدماء، ولغة أهل السودان، وتبع في لهجتها وكلماتها وتركيبها عن اللغة العربية.

قال ابن خلدون: «والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأن البربر أنهم من لد كنعان بن حام بن نوح عليه السلام، وان اسم أبيهم مازيغ، وإخوتهم اكركيش، وفلسطين وإخوانهم بنو كسلوحيم بن مصرايم بن حام. وملكهم جالوت سمة معروفة له. وكانت بين فلسطين هؤلاء وبين بني إسرائيل بالشام حروب مذكورة. وكان بنو كنعان واكركيش شيعا لفلسطين. فلا يقعن في وهمك غير هذا فهو الصحيح لذي لا يعدل عنه»[4] ثم ذكر ابن خلدون ادعاء بعض نسابة البربر ان بع شعوبهم من العرب كصنهاجة التي تولت الملك في الإسلام فادعت انها عربية، ومن قريش أيضا ليصبح ان تتولى الملك لان الملك ورئاسة الدولة عند العظاميين المتعصبين للعرق لا تصح إلا لعربي، وهي محصورة في قريش، وفي العرب دون غيرهم من المسلمين !! هذا هو الذي جعل بعض القبائل البربرية ككتامة وصنهاجة تختلق انسابا لها مزورة تجعلها من العرب ومن قريش، وإلا فان البربر معتدون بنفسهم وبجنسيتهم، ولا يلصقون أنفسهم بغيرهم. سما في الإسلام الذي جعل المسلمين امة واحدة، وسوى بينهم، وقرر هذه القاعدة الثابتة وهي«ان لا فرق لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» ان صنهاجة منة البربر، وكتامة كذلك،ولكن العبيديين الذين اصطنعوهم أرادوا ان يوثقوا صلنهم بهم، فادعوا أنهم من العرب مثلهم، وأشاعوا هذه الخرافة في المغرب وقد استغل هذه الدعوى الصنهاجيون الذين ملكوا المغرب في القرن الخامس والسادس الهجري فادعوا أنهم عرب، كما ادعى ذلك عبد لمؤمن بن على ملك الموحدين فادعى انه من قريش، وهو من كومية القبيلة البربرية لمعروفة في ناحية تلمسان.

ما ثقل على النفس وما اشق على القلم الآن، وما أخبث ان نخوض في هذا الموضوع الذي يجعلن نحكم بان هذا عرب وهذا غير عرب، والله قد جعلهم امة واحدة بالإسلام وإخوة ممتزجين بدينه الحنيف. فقال «إنما المؤمنون إخوة» وقال « وان هذه أمتكم امة واحدة وأنا ربكم فاعبدون» ان أعداء الإسلام الذين يكيدون للدين الحنيف، وهم أبناء المسلمين، ويركبهم رؤساؤهم الصليبيون المتعصبون حمرا رخيصة إلى أغراضهم، وهي: القضاء على الذين الإسلامي العظيم الذي هو امتن رابطة، وأوسع قومية، وإحياء القوميات

4 - كتاب العبر لابن خلدون ج 6 ص 97 ط. بولاق في القاهرة.

الجاهلية الضيقة الهزيلة. ان أولئك البلداء الجهلة لا يلذهم ولا يرضيهم ان يسمعوا هذه الجملة العظيمة: (الأمة الإسلامية) وتراهم يفزعون بها ويرتاعون لها ارتياع العصافير إذا سمعت دوى المدفع ثقيل يدك أهدافه !

ان كتامة وصنهاجة من البربر، وجدهم هو مازيغ بن كنعان بن حام كبقية القبائل البربرية الكبرى. وليس أصل البربر هو يافث ولا سام، ولكنه حام بن نوح، ويشهد على ذلك الموطن واللغة. قال ابن خلدون:«وما نسابة البربر فيزعمون في بعض شعوبهم أنهم من العرب مثل لواتة، وهوارة، وزناتة، وهذه كلها مزاعم. والحق الذي شهدت به المواطن والعجمة أنهم بمعزل عن العرب»[5]

سبب تسمية الأمازيغ بربرا

ان جد البربر هو مازيغ بن كنعان بن حام. والبربر يسمون أنفسهم (الأمازيغ) ويعتدون بهذا الاسم. وهم لا يطلقونه إلا على الاقحاح الصرحاء فيهم، أما النزلاء الدخلاء الذين يتبربرون كعبيدهم ومواليهم فلا يسمونهم أمازيغ، لأنهم ليسوا من سلالة مازيغ. ومعنى الأمازيغ عندهم هو الأشراف. يعني الصرحاء أبناء مازيغ الذين يحملون شخصية البربر العظيمة، ويتصفون بأخلاقهم التي تطبعهم بها الوراثة المازيغية الزكية. ويسمى البربر لغتهم البربرية (تمازغت) نسبة إلى الأمازيغ. وقد أرسل عمرو بن العاص لما كان واليا على مصر بعض رؤساء البربر إلى سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فسألهم عن نسبهم فقالوا «نحن أبناء مازيغ»[6].

وقد سمى العرب الأمازيغ بربري. أما للغتهم التي لا يفهمونها. وكان العرب يسمون كل أصوات لا يفهمونها بربرة. يقولون: بربر الأسد إذا زمجر بأصواته، وأما ان يكونوا قد نسبوهم إلى جهم السادس[7] وهو بربر بن تملا بن مازيغ بن كنعان بن حام ابن نوح عليه السلام. وارى ان نسبة البربر إلى جهم السادس هو سبب تسميتهم بهذا الاسم لا لغتهم التي لا يفهمها العرب. ولو كانت اللغة ي السبب لسموا كل جنس لا يفهمون لغته بربرا كأقباط مصر ولغتهم حامية كلغة البربر، والسودانيين.

ان البربر الذين سموا أنفسهم أمازيغ نسبة إلى جهم مازيغ. ق سموا أيضا أنفسهم بربرا نسبة إلى جدهم بربر بن تملا بن مازيغ. فهم الذين تسموا بهذا الاسم اعتدادا

5 - كتاب العبر لابن خلدون ج 6 ص 97 ط. بولاق بالقاهرة.

6 - نظر قصة الوفد في الجزء الثاني من هذا الكتاب ص 7 ط . الحلبي بالقاهرة 1963.

7 - يكون سادسا إذا ابتدأنا العد من نوح وهو ما يمكن في هذا المقام ولا يمكن غيره.

بجدهم، وفخرا بهذا الأصل الشريف من أصولهم. ومما يؤيد هذا أننا وجن هذا الاسم يطلق عليهم فقبل الفتح الإسلامي. وقبل ان يعرفهم العرب في عهد الرسول وخلفائه الراشدين. لقد كانوا يتسمون بهذا الاسم قبل الميلاد في عهد القرطاجيين. وقد سميت دولة قرطاجنة (الدولة البونقية) وهو تركيب مزجي من البربر والفينقيين.[8] فإذا كانت هذه لتسمية قيمة فهي من الشواهد على ان اسم البربر قديم، أطلقه البربر على أنفسهم، ليس العرب ولا الرومان.

غفلة المؤرخين وتقليدهم

ان بعض الغافلين من المؤرخين المغاربة الذين لا يتورعون من سب أجدادهم، وصفع وجوههم، وفقإ عيونهم بأصابعهم قد ظنوا ان سبب تسمية أجدادنا بربرا كسبب تسمية الرومان لمتوحشين الأوروبيين الذين يغزونهم بربرا، وإذا أطلق الرومان هذا الاسم على الغزاة الشجعان تشبيها لهم بالبربر، فلفتكهم بهم كالبربر الذين يثورون على الرومان الذين استعمروا بلاهم فيفتكون بهم، لان البربر متوحشون كأولئك الأوروبيين الغزاة.

ان البربر قد سبقوا الرومان إلى الحضارة، فمغربهم الذي بنوه، وزخرفوه، وعمروه بضارة قرطاجنة التي اخذوا بها وورثوها، فصار جنة عدن بالجمال، والمدينة والغنى وكثرة الخيرات، هو لفت أنظار الرومان إليهم فغزوهم، فاحتلوا بلادهم لينعموا بخيراتها وحضارتها.

لم يكن البربر في العهود التي عرفهم فيها الرومان متوحشين، غزاة قراصنة، يحاربون لبطونهم كما فعي الغزاة الأوروبيون الذي هاجموا رومة حتى يقال: ان الرومان سموهم بربرا لشبههم بالبربر في هذه الصفات،بل لعمرك أشبهما الأمازيغ في الفروسية، والشجاعة والجرأة، وركوب ظهور الرومان في الحروب، فسموهم بربرا لذاك! وقد قلد بعض المؤرخين المشارقة الأوروبيين المتعصبين الذين يعللون تسمية أجدادنا بربرا بذلك التعليل الروماني السقيم، فوقعوا في خطأ كبير كما وقع المغاربة، وحققوا غرض المستعمرين الرومان القدماء وأحفادهم في هذا العصر، وكلهم لتلهب جنوبهم بضربات لبربر، ويرون لبربر في جبالهم هم السيل القوي الذي سيجرفهم إلى البحر، ويطهر المغرب منهم فعملوا كل جهدهم والحط من شأنهم! لقد قلد بعض الشرقيين وبعض المغاربة أولئك المستعمرين في تعليل تسمية أجدادنا بالبربر، فوقعوا في خطأ كبير، وعقوا أجدادهم وأعمامهم، وأوغروا صدور إخوانهم في المغرب الكبير.

8 - قيل انه تركيب من الليبيين والفينقيين.

ذلك هو أصل البربر وسبب تسميتهم بربرا فما أقسامهم؟.

أقسام البربر

ان البربر ينقسمون إلى فرعين عظيمين: البرانس والبتر، والبرانس هم أبناء برنس، والبتر هم أبناء مادغيس ويلقب بالأبتر، وهما أخوان ومن نسل مازيغ بن كنعان ابن حام بن نوح.

أقسام البرانس

قال ابن خلدون: «وأما شعوب البرنس فعند لنسابين أنهم يجمعهم سبعة جذم وهي : ازادجة ومصمودة، وأوربة، و عجيسة، وكتامة، وصنهاجة واوريغة، وزاد سابق بن سليم المطماطي (النسابة البربري) لمطة، وهسكورة،وكزولة»[9] هذه هي أصول البرانس وهي عشرة أصول.وكل أصل ينقسم إلى قبائل كثيرة.

أصول البتر

قال ابن خلون: «وأما شعوب البتر فيجمعهم أربعة أجذام: اداسة، ونفوسة،وبنولوا الأكبر وهم: لواتة، ونفزاوة» هذه هي لأصول الكبرى لشعوب البتر، ويفرع كل أصل إلى قبائل كثيرة لا تحصى. عمرت المغرب من أدناه إلى أقصاه، وانتشرت في كل رحابه، ولم يكونوا بالأمة القليلة كما يتوهم الغافلون، ولا بالشعب الهزيل الضاوى لقلة أفراده كما يعتق بعض المؤرخين المحدثين، فحكموا أحكاما خاطئة على الدماء لبربرية والأصل البربري، بل هم كما قال ابن خلدون:»هؤلاء البربر، جيل وشعوب، وقبائل أكثر من ان تحصى[10] وهم سكان المغرب القيم ملئوا البسائط والجبال من تلوله، وأريافه، وضواحيه وأمصاره»[11] ! هؤلاء هم البربر امة واحدة، ذات أصل واحد، امتن لله عليها بالإسلام فكانت جزءا من الأمة الإسلامية، وامتزجت بالمسلمين وبالفاتحين وبمن انتقل إليها من القبائل العربية، فصار مغربنا بمنة الإسلام الذي آخى بين الشعوب مزيجا من الدماء البربرية والعربية، نشعر بالكل أجدادنا، ونحس بعروقنا في بني سام وفي بني حام، نعتد بمفاخرهم جميعا، وبوارثة الفريقين معا.

ان الشعب الوحيد الذي رحب به البربر، وفتحوا له صدورهم، وجاءهم جماعات كبيرة

9 - كتاب العبر ج ص 89 ط نوق بالقاهرة.

10 - كتاب العبر لابن خلدون ج 6 ص 103 ط. بولاق بمصر.

11 - نفس الصفحة.

فامتزج بهم، واثر في دمائهم، إنما هم الشعب العربي المسلم. أم الشعوب الأخرى التي غشيت المغرب قبل الإسلام لاستعماره، فان البربر كانوا بمعزل عنهم، لم يمتزجوا بهم، ولم يتأثروا بدمائهم. وكذلك الجماعات التي هاجرت إلى المغرب لائذة بالبربر فآووها، وفسحوا لها في ديارهم، وفي أسرتهم، فذابت في البربر لم تؤثر في دمائهم. وقد ادعى بعض المؤرخين المسلمين لأغراض سياسية ان كتامة، وصنهاجة، وهوارة ليست من أصل بربري، وادعى بعض المستعمرين ان الدماء لبربرية مزيج من لماء الآرية وغيرها من دماء الجماعات المستضعفة التي ذابت فيهم. يريدون بذلك تنقيص البربر، وإيهامهم بان المغرب تربطه بأوروبا رحم قديمة ليوجهوه إلى لشمال، والله قد جعله بالإسلام وقرابة الدماء يتجه إلى وطن الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين. فهل صحيح ما ادعاه المستعمرون، وقلدهم في دعواهم الباطلة بعض المؤرخين المغاربة: ان ماء أجدادنا الأمازيغ قبل الإسلام كانت مزيج من أمم شتى ومنها الدماء الآرية !؟ هذا ما ترى بطلانه في الفصل التالي ان شاء الله.

دعاوى لمؤرخين الباطلة، وترهات المستعمرين

في أصل البربر والدم البربري فبل الإسلام

ان البربر امة صريحة النسب، واحدة الأب. تنبع جميع قبائلها من أصل واحد و مازيغ بن كنعان، وليسوا خليطا من شعوب شتى كما يعي المغرضون من المؤلفين الذين تسيرهم الأهواء السياسية، والأغراض الاستعمارية، لا الأمانة وحب الحق. وبعض هؤلاء المدعين يريدون الحط من مقام البربر بهذا الزعم.

لقد رأوا جماعة من الفرس، وجماعة من اليهود، وجماعة من الزنوج تهاجر إلى المغرب قبل الإسلام فتستقر فيه، وتختلط بالبربر وتفنى فيهم، فقالوا: ان البربر مزيج من الدماء وأخلاط من الشعوب، لامتزاج تلك الجماعات الصغيرة في الشعب البربري العظيم، كان السحائب إذا أمطرت على البحر المحيط وامتزجت به تصيره نهرا!

ان البربر شعب كبير غزير العدد، وأمة وفيرة واسعة الأطراف، لا تحصى أعدادها، ق هاجرت إليهم طوائف من اليهود السامين،والفرس الآرين، وغيرهم قبل الإسلام فذابوا فيهم، وتبربروا في كل شيء، فلم يبقوا على صبغتهم الأولى حتى يؤثروا ببيئتهم الاجتماعية الجديدة في البربر، ولا كانوا من الكثرة بحيث تتغلب ماؤهم على ماء البربر أو تعادلها، فيجعلون البربر مزيجا من ماء شتى. ثم ان البربر فيهم، فأعانتهم على هضمهم؛ كانوا أقوياء الشخصية، معتدين بأنفسهم اعتدادا يوحى بتقليدهم إلى كل الغرباء، سيما إذ كانوا جماعة صغيرة مستضعفة آوت إليهم لتستظل بجناحهم. فتراهم بهذه القوة في الشخصية يصبغون غيرهم بصبغتهم فيصبح بربريا، ويصهرونه في بوثقتهم فيكون جزءا منهم.

ان الجماعات الغربية التي انتقلت في فترات متباعدة إلى المغرب فاستقرت فيه، إنما هي جماعة من الفرس، وجماعة من الإسرائيليين من الشام، فاختلطوا بالبربر فذابوا فيهم. وقد انتقلت إليهم جماعة من الفلسطينيين، وجماعة من المصريين، وجماعة من السودان فذابوا فيهم، وامتزجوا بهم كما تمتزج الساقية بالنهر، ويختلط المعدن بجنسه لأنهم من أصل واحد.

ان هؤلاء وان فرضنا بقاءهم على شخصيتهم لم يذبوا فكانوا أصولا لفروع من البربر، لا نستطيع الادعاء ان البربر مزيج من شعوب شتى لان هؤلاء أصلهم هو أصل البربر. فكل الفلسطينيين والمصريين، والسودانيين أبناء حام بن نوح عليه السلام.

ن هؤلاء الذين هاجروا إلى المغرب فاستقروا فيه ليسوا جماعات مغيرة جاءت للاستعمار ولتسلط فنقول أنهم بقوا شعبا مستقلا متماسكا، توحده عصبية، فلم يذب في البربر، ولم تتغلب علي ماؤهم، بل هم جماعات مستجيرة جاءت للاستقرار في المغرب، والاختلاط بالبربر، فلولا موافقتها لهم في المزاج، وإعجابه بالبربر ما هاجرت إليهم.

ان الاسرائليين الذين اجروا إلى البربر كانوا من بيئة لشام التي صبغت البربر قبل انتقالهم إلى المغرب، وهي أيضا اقرب إلى بيئة المغرب الطبيعية، فكلا الموطنين على الاعتدال في الجو، والخصب في التربة، والجودة في المناخ، وهذا يجعل مزاج أهل الشام شبيها بمزاج أهل المغرب، وتقارب الأمزجة، ونية الاستقرار والإقامة، والاختلاط، يجعل الجماعة الصغيرة تذوب في الكبيرة.

الأسباب لنفسية لذوبان لجماعة الغريبة في الشعب القوى

ان الفئة القليلة إذا اختلطت بشعب كبير قوى الشخصية كالبربر لابد ان نذوب فيه، ونكون جزءا منه، هذا هو طبع البشر، وجبلة الإنسان لثابتة، لان الله سبحانه قد خلق في الإنسان مجموعة من الغرائز، والميول الفطرية تجعله يمتزج بالجماعة التي يختارها، ويذوب في القوم الذين يعجب بهم. لقد خلق فيه الغريزة الاجتماعية، وغريزة حب الظهور، والميل إلى التقليد، والتأثير بالإيحاء والمشاركة الوجدانية، وهذا كلها تصبغه بصيغة البيئة الاجتماعية التي اختارها وتجعله جزءا من الجماعة التي يعاشرها؛ تدفعه كل هذه القوى فيه، وتدفع غريزة الاجتماع للتطبع بطباع الجماعة ليمتزج بها فيأنس بها، ويحترم فيها؛ وفي الأنس غذاء ضروري لغريزة الاجتماع التي تصرفنا في أعمالنا واتجاهنا أكثر من غريزة البحث عن الطعام؛ وفي الاحترام غذاء لازم لغريزة حب الظهور والاحترام التي تسيطر علين، وتوجهنا في كل أعمالنا لنشبعها أكثر من الغرائز الأخرى.

كان البربر معتدين بأنفسهم، فخورين بشخصيتهم، فلا غروا إذا أوحوا بحب تقاليدهم، ولغتهم إلى هذه الجماعات التي هاجرت إليهم، فتبربرت في لغتها وتقاليدها، كم تبربرت بعد ذلك في مائها لما اختلطت بها دماء البربر فأذابتا فيها، فأمسوا بربرا في كل شيء.

ان ذوبان هذه الجماعات الصغيرة في شعب لبربر العظيم شيء ضروري قد وضع لكل الشعوب العظيمة التي تسكن أوطانا ممتازة كوطن البربر، وتسربل بحضارة راقية كالحضارة التي أنشأها البربر في بلادهم. والشعوب التي يمكن ان تعي ان دماءها لم تنسكب فيها قطرة من شعوب أخرى عي البدائية المتوحشة التي لم يعرفها العالم ولم تعرفه، أما لبربر فجنس عتيد متحضر ق رغبت في معاشرته كل الأجناس، وبلادهم جنة عدن بالطبيعة والحضارة فقصدتها كل الشعوب. أننا لا نجد شعبا واحدا راقيا لم تهاجر إليه جماعات فتفنى فيه.

ان العرب في القرون الهجرية الأولى قد امتزج بهم من الفرس والروم والبربر والمصريين والزنوج وغيرهم أضعاف ما امتزج من الشعوب القليلة المذكورة بالبربر. ومع هذا الاختلاط الذي اثر في مزاج العرب وشخصيتهم، وارانا منهم في القرن الثاني والثالث الهجري أجيالا بعيدة كل البعد عن أهل الجزيرة المسلمين في مزاجها وشخصيتها واتجاهها -مع هذا- يقرر بعض المؤرخين بان العرب في تلك القرون جنس صريح. أما البربر في أول عهدهم فخلط من شعوب شتى! .

لقد ادعى المغرضون من الأوروبيين أيضا هذا الدعوى، وأكدوا ان البربر خليط من أجناس كثيرة، وليسوا جنسا واحدا، ليفرقوا جماعتهم، بإيهامهم أنهم من أصول عديدة، ومن شعوب مختلفة. ويبالغ هؤلاء المغرضون الأوروبيون خاصة في تأكيدهم ان البربر مزيج من دماء حام والدماء الآرية، وان الإغريق والرومان قد اختلطوا بهم واثروا في دمائهم. فهل صحيح هذا الادعاء الذي يستميلون به المغرب الذي يريدون قطعه عن أصوله، وابتلاعه ليكون قطعة منهم،وجزءا من بلادهم، يتممون بخيراته مواردها. أما أهله فان يذوبوا فيهم فكالرقعة الرخيصة في الحذاء، تلصق بها لسد الخروق. وهي وان تشبثوا بها قذى في عيونهم لا يروق، لأنها من لون آخر أبي أو اسمر والنعال حمراء !

ان يقين هؤلاء الأوربيين الذي لا شك معه، أنهم من م و البربر من صنف آخر من الدماء، بعيد كل البعد عنهم. لقد عاشر البربر من الأمم الأوروبية الإغريق والرومان والوندال. أما الإغريق فكانوا في المغرب أقلية قليلة، ومع هذا فإنهم لم يمتزجوا بالبربر امتزاجا يؤثر في الدماء. لقد انتقلوا إلى المغرب للتجارة والصناعة، فبقوا فيه أجانب إلى ان رحلوا إلى بلاهم، أو قضت ثورات البربر عليهم. أما الرومان والوندال الذين غزوا البربر واستعمروهم فقد كان البربر يرونهم أعداء الداء، فنفروا منهم كما ينفر المرء من شر الأمراض وأخبث الأوبئة، وابتعدوا عنهم في كل شيء، فلم يستطع الرومان بعد قرون عديدة قضوها في المغرب ان يؤثروا في أمزجتهم بمداخلة مائهم للبربر.

ان البربر شعب قوى كريم يعت بنفسه وبجنسه كل الاعتداد. لا يرون جنسا أكرم من جنسهم فيطعمونه بدمائه، ويزكون عرقهم بعرقه. انه هناك شعب يمقته البربر كل المقت، وهو بعيد عنهم في المزاج كالرومان. فكيف يمكن الادعاء بأنهم اثروا في دماء البربر فصار البربر بهم وبغيرهم من المستعمرين الذين غزوهم وتسلطوا عليهم من دماء شتى، وأجناس مختلفة؟ !

أسباب دعوى المؤرخين ان البربر من بني سام وادعاء بعض البربر أنهم ليسوا من حام

وقد ادعى بعض المؤرخين المشارقة، وقلدهم بعض المؤرخين المغاربة، ان كتامة وصنهاجة، وهوارة من أصل يمني، وأنهم من أبناء سام لا من أبناء حام؛ كما ادعى بعضهم ان البربر كلهم من اليمن. ان هذا زعم لا تؤيده الأدلة القوية. فكتامة، وصنهاجة، وهوارة من جملة شعوب البربر، وأصلهم كلهم حام بن نوح. والذي دعا المؤرخين المشارقة إلى هذا الزعم هو إعجابهم بالبربر وبطولتهم فألحقوهم بهم ان كتامة هي التي نصرت الدولة العبيدية أيام نشأتها فلا يبعد ان يكون مؤسسها أبو عبيد الله الشيعي ومن سبقه من دعاة الشيعة قد ادعوا ان كتامة من العرب ليستميلوها إليهم.

وكانت الخرافة والبدعة الممقوتة التي وضعها بنو أمية وبنو العباس في الدين لتعصبهم لأنفسهم، وهي وجوب إسناد رئاسة الدولة الإسلامية إلى قريش والى العرب وحدهم، لا يجوز ان يتولاها سواهم كالبربر والفرس. كانت هذه الخرافة التي نشرها بنو أمية وبنو العباس وصنائعهم في براعة فاعتقدتها الدهماء،مما حدا بكثير من ملوك البربر وأمرائهم كمحمد بن تومرت ويوسف بن تاشفين إلى الادعاء بأنهم من سلالة العرب، ثم يصلون نسبهم بقريش، ثم يخلقون لهم أجدادا في بني هاشم، لتدين لهم النواحي التي نشر فيها الأمويون والعباسيون تلك الخرافة التي يناوئها الإسلام، ويأباها الذين الإسلامي العظيم الذي جاء لمحو الأنانية والعصبية من الدنيا.

ان البربر أخوان العرب بالدين الواحد الذي توالى قرونا، وببيئة الشام التي جاور فيها البربر بني كنعان من العرب قديما، وبيئة المغرب التي تجاوروا فيها قرونا متصلة. والدين الواحد، والبيئة الواحدة إذ استمرا طويلا هما اللذان يخلقان الشخصيات المتماثلة أكثر من الوراثة إذا اختلفت بيئتها. بل ان الصفات الموروثة التي يتميز بها الشعب، وتكون شخصيته ما هي إلا ولية البيئة الاجتماعية التي يخلقها الدين. ووليدة البيئة الطبيعية. فكيف مع هذه القواعد النفسية التي لا تحض يدعي احد بعد قرون عاشها

في المغرب انه عربي وسواه بربري. وان هناك فرقا بين أبناء المغرب المتجانسين بالدين الواحد، وباختلاط الدماء، وفعل البيئة الواحدة !

ان العربي الذي جاور البربري في المغرب أو في الأندلس يماثل البربري في كل شيء أكثر مما يشابه العربي الذي بقي في جزيرة العرب أو سكن في الشام أو في العراق، لان البيئة الاجتماعية والطبيعية الواحدة إذا استمرت تصبغ ساكنيها بلون واحد، فيصبحون بعد جيل أو جيلين شعبا واحدا لا فرق بينهم. هذا ولو لم تقع المصاهرة التي تنتقل بها الوارثة، ويكون بها امتزاج الشعوب. فكيف وقد تزوج العرب من البربر، واثروا الجمال البربري، وخصائص البربرية الجميلة في شخصيتها. ان جمهور العرب الذين هاجروا إلى المغرب فاستقروا فيه قد نزحوا النساء البربريات، لما تمتاز به البربرية من قوة في الشخصية وجمال في الشخص، فاختلطت ماء الجنسين، فصرنا نحن أبناءهم جميعا، وصار المغرب اليوم مزيجا من الدماء البربرية والعربية، قد امتزجت واتحدت فكونت هذا الشعب المغربي الذي يصول بخصائص العرب والبربر جميعا.

لو ان العرب الذين هاجروا إلى المغرب فاستقروا فيه كانوا أكثر عددا من البربر ما أمكن ان نقول أنهم بعد قرون بقوا جنسا مستقلا عن البربر في المغرب للأسباب التي تؤثر في الإنسان وهي الدين، والبيئة الاجتماعية والطبيعية وكانت واحدة. فكيف والبربر أضعاف العرب في العدد فهل يمكن بعد هذا ان نقول ونعتقد اعتقادا راسخا ان أهل المغرب اليوم شعب واحد هو مزيج من الدماء العربية والبربرية، وشخصية واحدة هي وليدة المغرب الجميلة.وان شعبنا للدين الإسلامي العظيم الذي عم كل أنحاء المغرب، وآمن به أهل المغرب، ق خلق فيه من أسباب الامتزاج والاتحاد مالا تجده في قطر آخر من الأقطار التي تجاوره وتعاصره الآن.

أننا لا نرى أي فرق في الشخصية في عهود الإسلام بين العربي ولبربري حتى نعذر من يلحق قوما بقوم زاعما انه يرفعهم بهذا الإلحاق، والأسباب التي تخلق الشخصية فيهما واحدة، وهما معا من المعادن الكريمة بهذه الأسباب.

ان العرب من الأجناس الكريمة، والبربر مثلهم جنس كريم لا يقل عن العرب في فضيلة من الفضائل التي يكون بها التقدم والظهور. ان كرم الجنس البربري هو الذي حقق امتزاج العرب بالبربر لما فتح المسلمون المغرب. وكان امتزاجا سريعا كما يمتزج الماء بالماء، ويختلط الذهب بالذهب فيصير سبيكة واحدة لا فرق بين أجزائها في التلألؤ والصفاء!

ان أبناء المغرب اليوم مزيج من هذين الجنسين الكريمين، ليس فيهم بربري خالص، ولا

عربي قح. أنهم أبناء البربر والعرب جميعا. ولا يدعى خلاف هذا إلا بدوي يسكن في أعماق الصحراء منذ هاجر أجداده إلى المغرب من صعيد مصر،لم يعرف المدن ولم تعرفه. أو رجل لا يزال قابعا منذ مصينيسا ويوغرطة في قنن الجبال لم تعرفه الحضارة ولم يعرفها. أما أبناء المدن والقرى -وجل المغرب منهم-فأجدادهم هم العرب والبربر جميع. أنا لتشعر بالغيرة والحب والاعتزاز بكليهما لأنهما معا في دمائنا.

تأثر المؤرخين بالدعاية الاستعمارية المغرضة ضد المغرب والبربر

لقد تأثر كثير من مثقفينا الذين ألفوا في هذا العصر في تاريخ المغرب بالدعاية المغرضة التي شنتها السياسة المغرضة قديما وحديثا على البربر والمغرب. فتراهم إذا كتبوا عن البربر ينظرون إليهم نظرة شزراء، ويتحدثون عنهم حديث الأجنبي الشامخ الحرد عن الأجنبي، زاعمين أنهم عرب وأولئك بربر، لا صلة بينهم، وهم أجدادهم الأكرمون، وآباؤهم العظماء المحبون. أي عقوق اكبر من هذا العقوق البغيض، وأي وكفر للجميل اشد من هذا الفعل الشنيع! ! ان رأس الجهل والحماقة ان لا يعرف المرء شمس الضحى فيصفها بالظلام، فيزور عنها، وينظر شزروا إليها؛ وان لا يعرف نسبه فيطأ بالأرجل الوحلة هاما كريمة هي رؤوس أجداده، ويكشر في وجود جميلة جليلة كريمة وفية هي التي كانت تناغيه وتبسم في المهود! !

لقد استغل الاستعمار اللاتيني خرافة انقسام المغرب إلى عرب وبربر فاحيا في الصدور الخالية من الاسم تلك الشنشنة الجاهلية، وعاضد أولئك الكتاب المغرضين الذين يوهمون أهل المغرب أنهم منقسمون إلى عرب وبربر، وأنهم جنسان متباعدان، ومن معدنين مختلفين، ليقطع الجسد الواحد إلى أوصال، فلا تكون فيه حياة تبرز براثينه، وتشحذ أنيابه، فيأكله كما يشاء، ويجعله مرتعه إلى الأبد. ليت شعري ه يصحوا هؤلاء الكتاب المقلون من سكرتهم،ويشقون من جهلهم فيفتحون عيونهم فيديرونها في أنحاء الغرب، ليعلموا ان المغرب كله من أدناه إلى أقصاه لا يضم إلا شعبا واحدا قد ميزه الله في قديمه وحديثه بكل أسباب الاتحاد، يس في تاريخه سبب واحد يوجب الفرقة من اختلاف في دين، أو اختلاف في المصلحة.

فاتل الله الاستعمار فقد مكن للعقيدة المفرقة لتسود، واستغل جهل المغرب بتاريخه فأوهمهم أنهم منقسمون إلى عرب وبربر. وما هم إلا مزيج واحد من كليهما فالعرب أجدادنا والبربر أجدادنا.

لقد عرفنا أصل البربر فما مواطن شعوبهم الكبرى في القدم بالمغرب. هيا بنا نعود إلى التاريخ لقديم نستقرئ فصوله، بعد ان غسلت صدرك من أوهام المستعمرين، واستطردت بك إلى مكائدهم فأطلعتك عليها. وعقدت لذلك ذا الفصل الذي لا يعد خارجا عن موضوعنا. انه زبدة الأبواب الماضية، وفصل يوجبه التاريخ الذي نقصد به تربية المجتمع وتهذيبه، وتصفية التاريخ القديم من أو شابه، وتقديم التاريخ إليك في عمق الفلسفة وجمال الأب. هيا نتسرح في أنحاء المغرب الكبير لنرى مواطن أجدادنا فيه. انه شيء لابد من معرفته، والاطلاع عليه.

مواطن الشعوب البربرية في المغرب الكبير

ان تعيين أماكن الشعوب البربرية في المغرب يصعب سيما بع لفتح الإسلامي،لان هذه الشعوب كانت امة واحدة. وقد تحضرت في تلقم فاختلطت في المدن والقرى فلم تعد هناك بقعة يختص بها شعب وحد. غير ان هذه الشعوب لما كانت في بدايتها كانت لها أمكنة معروفة. وقد زال هذا في اغلب بقاع المغرب في العهد الإسلامي وهو الذي بقيت لنا مصادره. فصرن نرى الشعب الواحد كزناتة، أو هوارة، أو صنهاجة، أو لواتة، أو نفوسة وغيرها؛ نراها في المغرب الأدنى في طرابلس، ثم نراها في المغرب الأوسط، أو في المغرب الأقصى، أو فيهما معا. كلواتة، وصنهاجة، وزناتة فإنها في المغربين الأوسط والأقصى، ونجد لواتة غي المغرب الأدنى أيضا. كما نجد هذه لقبائل الكبرى في الساحل، ونجدها في وسط المغرب، ونجده في جنوبه بالصحراء. وقد عين ابن خلدون وغيره من المؤرخين الذين اعتنوا بتاريخ البربر أماكن لبعض شعوب البربر. ونحن نقتصر من هذه الأماكن على ما نسب إلى الشعوب البربرية الكبرى. ومن أراد معرفة قبائل البربر وأفخاذهم وأماكنهم فعليه بالجزء السادس والجزء السابع من تاريخ ابن خلدون[12] فانه يجد فيه كثيرا مم يريد.

أماكن الشعوب البربرية الكبرى

كان المغرب الأدنى تسكنه خمسة شعوب من أقسام البربر الكبرى. فلواتة كانت في برقة إلى خليج سرتن الأكبر، ومن خليج سرت في طرابلس إلى مدينة طرابلس كان لهوارة. ونفوسة كانت في غرب مدينة طرابلس وجنوبها. وكانت زناتة في جنوب طرابلس تجاور نفوسة، ولو كانت وزناتة ومعظم زناتة في المغرب الأوسط.

12 - الطبعة الأولى في بولاق بالقاهرة.

أما في افريقية وهي القطر التونسي اليوم فنجد نفزاوة في وسطه لغربي وجنوبه، فمن جنوب مدينة الكاف إلى جنوب قسطيلية مواطن لنفزاوة. ومن نفزاوة قبيلة ورفجومة التي تسكن في غرب مدينة قابس وتجاور جبال آوراس.

أما في القطر الجزائري، فمن مدينة سكيكدة شرقا إلى مدينة بجاية غرب إلى شمال آوراس جنوبا، وهي نوميديا الوسطى والغربية، فلكتامة. ومن غرب بجاية إلى شرق مدينة لجزائر على طول الساحل فلزواوة، ما جبال آوراس معدن البطولة والباس ففيها مجراوة من زناتة، ولواتة، وهوارة. ومن لواتة القبيلة البربرية الكبرى في جبال آوراس بنو باديس، وكنت لهم اليد العليا قديما في جبال آوراس.[13]

أما في وسط الجزائر وغربه فمن شرق مدينة الجزائر إلى غرب مدينة مليانة غربا إلى مكان المسيلة جنوبا فلصنهاجة. ومن مليانة شرقا إلى وادي ملوية غربا كان لزناتة. وتجد في هذه البقاع أيضا مطماطة في جبال الونشريس، ولماية في جنوب تيهرت ومها هوارة ولواتة في نواحي تيهرت أيضا.

أما المغرب الأقصى فكان شماله لغمارة من البرانس ومعها مضغرة قبيلة من بني فاتن احد أقسام البتر الكبرى. وتجد في شمال المغرب مكان فاس أوربة من البرانس أيضا. أما وسط المغرب وجنوبه بجبال درن فالمصامدة. ومن المصامدة برغواطة التي استقلت في القرن الثاني الهجري إلى القرن الخامس في ساحل المحيط الأطلسي من مكان مدينة لرباط إلى أسفي.

أما صحراء الغرب لأقصى والأوسط فنجد في صحراء المغرب الأقصى قبائل صنهاجة. وكذلك في غرب الصحراء للمغرب الأوسط. وفي صحراء المغرب الأوسط تجد هوارة. ومن مدنها (هقار) وارى ان تسميتها الأولى (هوارة) باسم ج هوارة هوار بن اوريغ. والبربر معتقدون بأصولهم، أوفياء لأجدادهم. وليس تسمية المن بأسماء من يراد الإشادة بهم، والاعتراف بجميلهم بالشيء الحديث. أرى ان تسميتها الأولى هوار، ثم وقع التحريف في الواو فقلبن (قافا) ويقع هذا القلب كثير في اللغة العامية. ووقوع الأخطاء ثم تشيع مما نعهده في اللغة الدارجة. ومع هوارة في الصحراء زناتة. ومن زناتة ورجلة، ومن منها ورجلان، وهي عاصمة الصحراء في الشرق الأوسط قبل الإسلام وبعده إلى القرن العاشر الهجري. وكانت أماكن وادي ميزاب مواطنا لزناتة. وكذلك مدينة الاغواط فإنها للقبيلة البربرية الاغواط من زناتة. وعلى العموم فإننا تجد في الأغلب البرانس في البرانس في السواحل والبتر في الوسط المغرب الكبير وجنوبه.

13 - انظر أخبار بني باديس في جبال آوراس في تاريخ ابن خلدون ج 6 ص 117 ط بولاق بالقاهرة.

هذه هي مواطن الشعوب البربرية الكبرى في المغرب الكبير. ومع كل شعب من هذه الشعوب الكبرى،في منازله ودياره قبائل بربرية أخرى تعيش معه عيش الغزال مع الاروى في الروض الواحد. فجميعهم أبناء مازيغ. والمغرب الكبير من أدناه إلى أقصاه كل وطنهم، فأينما تجد القبيلة هناءها وساعدتها فهو وطنها، تحط فيه الرحال، وتبني الديار، وتمتزج بسكانه الأمازيغ، وتصاهرهم، وتتعانق قلوبهم بالوداد والمحبة، ويعيشون أسرة واحدة لا فق بينهم في شيء.

هذه مواطن الشعوب لبربرية الكبرى في المغرب. وق علمنا ان أصل أجدادنا البربر هو حام بن نوح عليه السلام، وأنهم انتقلوا إلى المغرب من الشام فكيف كانت معيشتهم في عهود البداوة قبل ان يتمدنوا، وكيف كان لباسهم، ومامسا كنهم، وما هي تفاصيل أحوالهم الأخرى في العصر الحجري وفي عهود بداوتهم قبل ان يتحضروا.

الحياة البربرية

لقد دخل البربر إلى المغرب قبل التاريخ.وكانت حياتهم على حسب تلك العهود الحجرية بسيطة في كل شيء، ثم تطورت وترقت بمرور الأزمان، واختلاطهم بالأمم المتحضرة سيما الفينيقيين. وقد جاءوا إلى المغرب بكثير مما أخذوه من الشام بمجاورتهم لإخوانهم بني فلسطين بن حام، وبني عمومتهم بني إسرائيل والعرب من بني كنعان. كم تأثروا بكثير مما ورد عليهم من مصر من أساليب العيش وطقوس الذين. ف عجب إذ رأينا البربر في عهودهم الأولى يشبهون أهل الشام في أشياء.ويحاكون المصريين في أمور، مع امتيازهم بأشياء هي ولية مزاجهم وبيئتهم الجديدة.

مساكن البربر

كان البربر في القديم منهم المدنيون الذين يسكنون القرى، ومنهم الرحل الذين يسكنون الخيام. وكانت ديارهم في قراهم بسيطة. وكانوا يبنونها على حساب طبيعة المكان. فأهل الجبال حيث تتراكم الثلوج وتكثر الأمطار كانوا يبنون بيوتهم بالحجارة ويسقفونها بالطين في شكل بيضي يمنع تراكم الثلوج، وتجمع الأمطار، ثم اهتدوا بعد ذلك إلى القرميد فسقفوا به بيوتهم. وأما هل الجنوب حيث الجفاف في الجو، والقلة في المطر فيبنونها بالطوب، ويسقفونها بخشب الأشجار وغيرها من ضروب النباتات. ومنهم من يتخذ لسكناه خصا من فروع الأشجار، أو من القصب وغيره مما يصلح لاتخاذ الخص المتين.

وكان للبربر في البناء طريقة عجيبة تقاوم الحر والبرد، وتجعل الدار على الاعتدال في الجو، وفيها الاقتصاد كذلك في تكاليف البناء. وذلك أنهم يبنون جدراين متوازيين فيملؤون ما بينهما بالحصى فيصير جارا واحدا مرصوصا. كان هذا لما ترقت حياتهم فصاروا يبنون الديار العالية، ويؤثرون الجدران العريضة للبيوت.

ومن البربر من ينقرون ديارهم في الجبال الصلدة، ويحفرون فيها أمتارا تكون دارا بسقفها العالي وبكل مرافقها ونوافذها التي تجدد الهواء، وترسل الأضواء. ان هذه الديار الجبلية في أعماق الصخور الصلدة اصح للأجسام لبعدها عن الانداء، وأسلمها عند الغارة، لأنها لا تهم ولا تخرب، وهي دافئة في الشتاء باردة في الصيف لا يرهق ساكنيها حر ولا قر. انها دليل على قوة البربر وعزائمهم الجبارة.فنقر دار في الجبل الصلد يشتمل على كل المرافق لا يستطيعه إلا الجبابرة في الأجسام، وفي جبل نفوسة إلى هذا العهد ديار من هذا النوع، وفي جنوب تونس،وفي جبال آوراس، وجبال القبائل بيوت من هذا النوع البربري، وكذلك في كثير من الجبال في نواحي المغرب الأخرى.وهي من الآثار التي يجب المحافظة عليها، ووقايتها من الانطماس.

أما الرحل من لبربر فكانت لهم خيام من الشعر والوبر. وكانوا ينتجعون بمواشيهم مواقع الكلأ، وكانوا يصطافون في الأماكن الباردة في الشمال، ويقضون الشتاء في الأماكن المعتدلة في الجنوب.

لباس البربر

وكان البربر يلبسون القشابة المعروفة عندنا في المغرب إلى هذا العهد. وهي أحسن لباس في الشتاء يقي من الزمهرير إذا تكالب، ومن المطر إذا اشتد. وهي جميلة المنظر ى نعوق الحركة، ولا تمنع من النشاط، وتستر الجسم كله حتى الرأس. انها لباس من الصوف سابغ، مقفل من أمام، وبه كمان، ولباس للرأس موصول به من خلف.

وكانت القشابة لمزاياها الكثيرة هي لباس المجاهدين بالجبال في حروب التحرير الجزائرية. انها أجدى في المطر، وفي الوقاية من القر والحر من السترة العسكرية الأوربية، وهي أعون على النشاط، واستر لصاحبها من العدو، وهي فراش صاحبها في النوم وغطاؤه. انها من لباسنا المغربي الذي تجب المحافظة عليه، والاعتداد به، وإيثاره على السترة الأوربية الناقصة.

ويلبس البربر البرنس أيضا وهو ثوب من الصوف يلبس فوق الثياب، ينسج قطعة واحدة،ويترك مفتوحا من أمام، لا يخاط منه إلا ما يقابل الصدر ليشه إلى الجسم. ولبربر

يسلكونه في أعناقهم فيشتملون به. وللبرنس غطاء للرأس موصول به من خلف يقي الرأس من البرد والأمطار والعواصف.

لا يزال البرنس في المغرب. ان لباس جميل جليل، يكسب صاحبه مهابة، وهو لباس الرؤساء المعتدين بشخصيتهم لمغربية، يزدانون به في المحافل، ويؤثرونه في الأعياد والمواسم. انه جميل المنظر، جل الفوائد، ولكن القشابة أحسن منه للنشاط والعمل.

ان أهل الجبال يميلون إلى القشابة أكثر لأنها أدفأ وأكثر وقاية من الأمطار والثلوج. أما أهل الصحاري حيث الاعتدال في الجو فيميلون إلى البرنس. والألوان الأثيرة عندهم في البرنس هو اللون الأسود والبني.

ويلبس البربر (الحائك) وهو رداء من الصوف يشتملون به. ولا يزال هذا اللباس البربري إلى الآن في ليبيا، وفي جنوب تونس. انه لباسهم الأثير في كل الفصول وقد انقطع هذا اللباس من الجزائر والمغرب الأقصى فلم يعد لباسا شعبيا كما هو في ليبيا. لا يزال (الحائك) موجودا في وادي ميزاب بجنوب الجزائر، ولكنه من النسج الرقيق، ويلبسه أعضاء المجلس الديني فحسب كشعار لا كدثار.

ويلبس البربر تحت القشابة القميص أو القميص والجبة، وتحت الرداء كذلك، ومع البرنس القميص والجبة، لا يكتفون باللباس الصوفي الظاهري وحده.

ويلبس البربر السراويل القصيرة التي تنتهي أسفل الركبة، والطويلة التي تصل إلى الكعبين. والنوع الأول لا زال موجودا في تونس، والنوع لثاني لا يزال إلى اليوم في طرابلس، ويلبسونه بالتكة، وهي خيط يدخل في حواشيه من أعلاه فيشد به إلى الخطر.

ويلبس البربر على رؤسهم (الفنور) وهو قلنسوة من الصوف عالية ملبدة مدورة، توع على رأس ويلبس فوقها لحاف صغير من الصوف رهيف ينسج خصوصا للرأس، أو يلبس فوقها حائك رقيق، ويشد من فوق بعمامة سوداء تتخذ من خيوط الوبر. والقنور إذا لبس في نظام ورشاقة له جمال ومهابة،وليس كما قال بعض الكتاب انه سمج ثقيل.

ان تنكر بعض الناس لشخصيتهم لمغربية، سيما الإسلامية يجعلهم يرون العادات المغربية الراقية سمجة ثقيلة لأنهم لا يرونها في أوروبا فلولا ان ضوء الشمس قد رأوه في أوروبا وسمعوا ثناء الأوروبيين عنه لهجوه في المغرب، وأنكروه، وآثروا الظلام عليه ! ذلك الفراش الغر الجاهل المتفرغ الذي يعبد القشور، ويغرم بالبريق، ويتهافت على كل شيء لماع ولو كان النار التي تذريه رمادا!

تلك العرائس التي تسمت بأسماء الرجال، ولم يخلق الله فيها أخلاقهم واقتدارهم، وعلمهم، وسدهم للثغور الكبرى في الدولة!

كان أجدادنا البربر يلبسون القنور على رؤوسهم وهو لباسهم في المحافل، وفي الأعياد، وفي أيام الزينة، وهو لباسهم إذا ركبوا الخيل للسباق، واحتفلوا بالعاب الخيل في الأعراس. أما في وقت العمل فيخلعونه.

انه لباس السراة منهم والفرسان، أما لباس الفقراء منهم للرأس، ولباس الخاصة أيضا في وقت العمل فقلنسوة خفيفة غير ملبدة تلبس وحدها في الصيف، وفي الشتاء يلبسون فوقها لحافا صغيرا خفيفا من الصوف يريه اللابس على رأسه. ويمره من تحت حنكه ليقي عنقه من البرد. ويشد اللحاف على الرأس بخيط واحد أو خيطين من الوبر.

لا يزال القنور إلى اليوم في الجزائر. وارى ان قنور ليوم قد تطور فلم يبق على حاله البسيطة القديمة.

ان عدم وجو القنور في غير المغرب، وتمسك البربر بعاداتهم، يجعلنا نعتقد ان أصله بربري. من يري لعل العربية ق اقتبسها البربر من العرب بعد الفتح الإسلامي فتطورت، فصارت (قنورا) على الهيأة التي وصفنا.

ويلبس البربر الأحذية يتخذونها من الجلود، وأحذيتهم منها المدورة التي تستر القدم وحدها كالحذاء (البابوج) الموجود إلى اليوم في بع أنحاء المغرب إلا انه ابسط، ومنه الحذاء لموصول بما يستر الساق إلى الركبة. ويلبسون الجوارب يتخذونها من لجلود والصوف سيما أيام تحضرهم.

ان المؤرخين الذين ذكروا لباس البربر في القديم سيما في العصر الحجري إنما اعتمدوا على الاستنباط من العادات البربرية الموجودة في اللباس سيما في رؤوس الجبال حيث الاختلاط. ويتمسك الناس بالقديم، واستلوا أيضا على وجود ذلك النوع في القديم بتمسك البربر بعاداتهم،واعتدادهم. سيما في اللباس الذي يوحي به الجو الطبيعي الذي يكتنفهم،وهو ما لا يتغير كثيرا بتقديم الزمان. وقد ذكرنا ما أوردوه مستلين بما نراه شائعا في المناطق التي لا زالت تتكلم البربرية في المغرب -وان خالط اغلبها الدماء العربية- وتتمسك أيضا مع اللغة البربرية بكثير من تقاليد أجدادنا البربر القدماء.

قد يكون الرداء الذي نجده إلى اليوم على حاله القديمة في الهيأة واللباس لأنه بسيط

لا يحاط، أما الألبسة الأخرى فقد تطورت وتغيرت كثيرا عن حالها الأولى أيام بداوة البربر قبل البونيقيين وبعدهم.

طعام البربر

وكان البربر قد نقلوا معهم من الشام ما انتشر فيه من المزروعات. وكانوا يغرسون من الأشجار الزيتون ويستخرجون زيته لطعامهم. وقد وجدوا الزيتون البري الذي نبت وحده في سفوح الجبال فاستصلحوه. أما الحبوب فكانوا يزرعون منها الشعير، ومنه أكثر غذائهم، يؤثرونه على القمح الوفير لديهم لان الشعير اصح للأجسام، وأسرع هما، وأسهل في الزراعة، وأحسن للادخار، لا يداخله السوس بسرعة، ولا يفسد بطول الزمان.

والبربر يزرعون القمح والفول، والمعول في غذائهم على الشعير وزيت الزيتون. ومن دقيق الشعير يطبخون لحساء ويتخذون الكسكس والخبز ويفتلون منه طعاما كالكسكس إلا انه أغلظ، فبعد ان ينضجوه بالبخار يلقونه في القدر فينج مع المرق وهو صنف لذيذ لا زال موجودا في أنحاء من المغرب سيما في وادي ميزاب بجنوب الجزائر.

وكان البربر يصنعون الكسكس أيا من لقمح يجعلون مرقه الحليب والسمن وربما كان مرقه من اللحم وبعض البقول التي يزرعونها.

وكان البربر قد جاءوا من لشام بمواشيهم وهي الإبل والبقر ولغنم والخيل. وكانوا يشربون لبن البقر والغنم والإبل، ويقتاتون بلحومها، يشوونها ويطبخونها وكانوا يصطادون ضروبا من الحيوانات التي كانت تعج بها غابات المغرب وأنحاؤه لخصبة الجميلة. وكان الزيت، واللحم، والشعير، والقمح، ولبقول تمتلئ بها ي كل أسرة ويحصل عليها بأهون سعي كل نسن من البربر لأنها من نتاج أرضهم الخصبة الغنية، فلذلك كانوا مثالا في كمال الجسم، ومتانة التركيب، وتمام الصحة واعتدال الأمزجة،ووفرة النشاط.

ويصنع البربر من دقيق الشعير والقمح السويق. يقلون الشعير أو القمح فيخلطون بدقيقه الزيت أو السمن فيكلونه.وهو زادهم في الأسفار، ومقدمة قرهم للضيوف. ان غذاء صحي مؤونة فيه. لا يفسد بطول الزمان، وهو لائق لكل الفصول. وقد تطور هذا السويق في المغرب فصار يحلى بالسكر أو بالتمر، ويخلط به دقيق ألاقط أحيانا، ويصنع منه نوع من الكعك اللذيذ في الأعياد. ولا يزال السويق المحلى موجوا في أنحاء من المغرب سيما في وادي ميزاب. انه من أطعمة أجدادنا البربر. وهو موجود عند لعرب أيضا.

ومن طعام البربر وأكلهم الدائم (العصيدة) وهي دقيق يصب في الماء إذا على فيحرك كونه حتى ينضج، ثم يصبون عليه مرق الزيت واللحم والبقول فيأكلونه.

ان العصيدة طعام لذيذ إذا أتقن صنعه، صحي، يليق لذوي الأعمال المرهقة، والبنيان المتين،سهل الهضم، قوي الغذاء. انه لمتانه بنيان البربر وعظمة أجسامهم، ونفسهم لعملية، وكثرة نشاطهم كانت أنواع غذائهم الرئيسي الدائم قوية دسمه، كثيرة النشا والدهن. انه غذاء قوي لا يستمر عليه إلا ذوو المعدة القوية ويسميها البربر ارواي.

لا تزال (العصيدة) سائدة في أنحاء من جنوب تونس، وفي طرابلس سيما في جبل نفوسة، انها من أطعمتهم الرئيسية. وأحسن العصيدة عند البربر ما اتخذ من دقيق الشعير لأنه اخف وأسهل هضما.[14] وقد تطور طعام البربر لما تحضروا، وتنوع، وكثرت ألوانه فصارت لا تحصى. وصار المغرب امهر في الطبخ، وأكثر أنواعا، وألذ طعاما من كل البلاد العربية. وان المرأة المغربية التي لا زالت متمسكة بتقاليدها الوطنية، وتقوم بواجباتها في البيت، لا تدانيها المرأة الشرقية في المهارة في الطبخ؛ والإتقان لأنواعه، ومعرفتها بفنونه التي لا تحصى.

ان كثيرا من أطعمتنا التي نظنها أندلسية ليست أصولها إلا من البربر، نشأت في أيام بساطتهم فتطورت معهم، ونقلوها إلى الأندلس فكملت فيها.

ممتلكات البربر ومصنوعاتهم

والبربر في العصر الحجري كانوا يملكون الحيوانات الإنسية التي ذكرنا، والمنازل والخيام التي يسكنونها، والأراضي التي يزرعونها، والأشجار التي يجنون ثماره، كالزيتون الذي يتغذون بزيته.والتين الذي يدخرونه. أما مصنوعاتهم في العصر الحجري فهي كل ما يحتاجون إليه من آلة وأداة. وقد اشتغلوا بصناعة الحجر فبلغوا فيها الذروة. وكانوا يصنعون منها فؤوسهم، ومناقرهم، وأدواتهم في الصيد والقتال، ويصنعون منها معاصرة الزيتون، والهاون، والمطارق وغيرها. ولما اكتشف النحاس والحديد بلغوا في صناعتهما الشأو لرفيع. وكانوا في العصر النحاسي والحديدي كما كانوا في العصر الحجري على البراعة في صنع كل ما يحتاجون إليه ويتاجرون فيه.

ان البربر ذوو نفوس عملية ممتازة، وذوق رفيع، لا يعرفون الكسل وعدم الإتقان. فكما كانت ذروة الجبال مقصدهم في السكن، فالذروة والتمام في كل شيء ي مقصدهم !

14 - وقد يتخذونها من الباب البر ويخلصونها بالعسل. وهي اخف من النوع الأول الدسم ان هذا النوع لا زال موجودا في جبل نفوسة بطرابلس

وكان البربر ينسجون الصوف فبرعوا فيه كل البراعة. يتخذون منه الثياب الضرورية كالبرانس والقشابيات، والجبب، والدثر، وفرشهم التي ينامون فيها والأغطية والستائر، وغيرها. ولا زالت المرأة المغربية العاملة النشيطة التي وقاها الله من داء التفرنج والتنكر لقوميتها الإسلامية المقدسة، وحفظها من بطالة المدنية الجوفاء وخمولها؛ لا زالت تلك المرأة المغربية الغالية سيما في الجبال والجنوب مثالا في البراعة في صنع الصوف، لا تدانيها في هذه الصناعة المرأة في البلاد العربية الآن. !

وكان البداة من البربر ينسجون مع ثيابهم لصوفية خيامهم من الشعر والوبر و الصوف، وكذلك مخاليهم،وجوالقهم وغير ذلك.

مزروعاتهم

أما مزروعاتهم أيام بداوتهم قبل ان يتحضروا فهي ما ذكرنا. الشعير، والقمح، والسلت والفول. ان السلت قيم في المغرب، وان الطوارق الملثمين في الصحراء الكبرى ـ وهم من البربرـ ليؤثرون الآن في أكلهم السلت على القمح لإلفهم له منذ الزمن القيم.

تلك جوانب من حياة البربر المادية، فما حياتهم المعنوية؟ كيف كانت لغتهم، وكتابتهم،ودينهم، ونظامهم الاجتماعي، وأشياؤهم المعنوية الأخرى؟.

لغة البربر وكتابتهم

ان للبربر لغة خاصة بهم، ممتازة كل الامتياز عن اللغات الشرقية غير الحامية بخصائصها وأساليبها. أنا اللغة البربرية التي لا زال يتكلم بها الثلث من سكان المغرب الكبير لا اليوم. وهي لغة حامية قريبة كل القرب من لغة قدماء المصريين التي لا نزال في بلاد النوبة، وفي بعض الكنائس القبطية في مصر.

واللغة البربرية سلسة مرنة، تقبل كل الألفاظ الدخيلة فتبربرها فتصبح جزءا منها. ومن خصائصها التي لا تجدها في العربية الابتداء بالساكن كقولهم (تزاليت) للصلاة (تمارت) للحية، (تفويت) للشمس، (تفاوت) للنار. ومن خصائصها اجتماع ساكنين وأكثر وقد ينقلب فيها الفعل اسما والاسم فعلا.[15]

وتمتاز البربرية عن العربية بان تاء التأنيث فيها تكون في أول الاسم لا في آخره كقولهم: (تيزيوين، تيوحديين) الفتيات الحسان. ان هذه جملة ترى فيها الوصف مطابقا للموصوف في التذكير والتأنيث. وقد يكون المؤنث في اللغة البربرية مختوما بتاء، ولكن لا بد من تاء في أوله لأنها علامة التأنيث عندهم كقولهم (تامطوت) المرأة (تامروت) للبندقية (توارت) للبؤة أنثى الأسد.

خصائص اللغة البربرية

واللغة البربرية فيها كل العناصر التي تتركب منها العربية. ففيها الاسم، والفعل، والحرف. وفيها أساليب العربية من نظم، ونثر، ومن حقيقة ومجاز. وتمتاز عن العربية بان كثيرا من أسمائها مبدوء بالهمزة كقولهم (أجنا) للسماء، وجمعة إيجنوان و(إتري) للنجم وتثنيته سن إيتران ومعناه اثنان من النجوم: وعلامة التثنية في البربرية كلمة وليست حرفا كما هي في العربية وسن معناه اثنان، (شارد) بتفخيم الراء معناه ثلاثة. وهكذا تجد أسماء العدد في البربرية كما هي في العربية.

والفعل الماضي في البربرية يبتدئ بالياء أما المضارع فبالهمزة. والأمر يبتدئ بالهمزة وقد يكون بدون همزة كما يقع في العربية كقولهم (سو) اشرب، والماضي (يسوو) والمضارع (أديسو) والمصدر (آسوا) والأمر المبدوء بالهمزة كقولهم: (أش) يعني كل، والمصدر منه (إيشا) وكقولهم (إيجور) امش، والمصدر (تلجوريت).

ان الكلمات البربرية التي أوردناها من اللهجة الميزانية،وهي بربرية محفوظة في

15 - مثال اجتماع ساكنين كقولهم تفويت تفاوت تمارت كما ترى في السطر الذي قبل هذا.

الصحراء بجنوب الجزائر. انها لهجة زناتة متأثرة بلهجة لواتة، وهوارة، التي انتقلت من جبال آوراس، فحلت في وادي ميزاب، واستقرت فيه وامتزجت بأهله، وبلهجة لماية التي انتقلت طوائف منها من جربة إلى وادي ميزاب فاستوطنته وذابت في أهله. وبلهجة نفوسة إلي جاءت منها زرافات إلى ميزاب فاستقرت فيه. وقد أثرت هذه الجماعات كلها في البربرية الميزانية، وأخذت الزناتية التي هي الأصل أحسن ما في كل لهجة من تلك اللهجات، لذلك تجدها لغة مصقولة، واسعة، جميلة الجرس، عذبة النطق، ولهجتها رصينة، ينطق بها كما ينطق بالعربية في فصحة ووضوح، يأخذ كل حرف فيها قسطه من الأداء.

ان البربرية الميزابية هي اللغة القريبة من اللهجات البربرية في المغرب الأوسط والأدنى للاختلاط الذي ذكرنا، والاقتباس الذي أسلفنا. ان الشاوية في آوراس، والقبائل في جبال جرجرة، وأهل جربة في جزيرتهم، وأهل نفوسة في طرابلس، وسكان الريف في المغرب الأقصى يفهمون كلهم الميزابية، ويفهم عنهم الميزابيون لقرب اللهجة الميزابية من تلك اللهجات كلها. ان اللهجة البربرية في الريف بشمال المغرب الأقصى قريبة من الميزابية. وقد زرت الأمير عب لكريم الخطابي رحمه الله أيام نزوله بالقاهرة لاجئ في سنة 1947 ميلادية، وصار يتكلم مع أخيه محمد بلغتهم البربرية. فكنت افهم كل ما يقولان. سارعت فأخبرت الأمير بان لهجتهم كاللهجة الميزابية التي أتقنها، خوفا من ان يتباحثا في سر من أسرارهم الخاصة.

ان الامازيغية كالامازيغ أصلها واحد، والاختلاف فيها غالبا يكون في اللهجة لا في نوع الكلمات.

وقد آثرنا في التمثيل ان نورد الكلمات التي تدل على الأشياء الضرورية كالأكل، والشرب، والمشي، لتيقننا انها من وضع الأولين، لا من الكلمات المقتبسة الحديثة.

والترادف قليلة في اللغة البربرية بالنسبة للعربية، وكذلك المشترك، وذلك لشدة الاتصال بين القبائل وامتزاجها وتقارب لهجاتها، فقل المشترك والترادف فيها ولم يكثر كالعربية. ومن أسباب كثرة الترادف في العربية اعتناء العرب بلغتهم، ومباهاتهم بالفصاحة أكثر من البربر. ومع قلة الترادف في اللهجة البربرية الواحدة فان البربرية لغة واسعة يستطيع الخطيب المصقع ان يعتمد عليها فتمده بأدق الألفاظ وأوفاها لكل المعاني التي تجيش في صدره، لا يصاب فيها بالعي، ولا تنحبس المعاني في نفسه.

وقد وع البربر لكل شيء مما وقع عليه نظرهم اسما فقالوا: (وار) للأسد، (موش)

بتشديد الشين للقط، (إيبس) للفرس، (أتغالت) لأنثى الفرس، (تاحجامت) للحمامة، (نيازيت) للدجاجة، (يازيض) للديك. وقالوا: (آرجاز) للرجل، (تامطوت) للمرأة. وقالوا في الوصف: (ازعلوك) للكبير وكذلك (آمقران) للكبير أيضا، (أمزان) للصغير، (تاسلت) للعروس الأنثى، (آسلي) للعروس الرجل، (أزفاغ) للأحمر، (أوراغ) للأصفر. (أجليد) للملك

وفي البربرية أسماء جموع كقولهم: (تيسدنان) للنساء، وهذا اللفظ لا مفرد له من لفظه ومفرده (تامطوت).

أما النباتات فمن الأسماء فيها (إمندي) للقمح والشعير، وهو اسم جنس. أما النوع فيسمون القمح (إيردن) والشعير (تيمزين).

الأمثلة في اللغة البربرية

وفي اللغة البربرية أمثلة حكيمة بها في المقامات، وهي كقواعد في الأخلاق، ومواعظ للناس، يغني المثل الواحد عن الكلام الطويل. ان البربر دهاة حكماء. الوقار عليهم اغلب. انك لا تجدهم يميلون إلى الثرثرة، ويملؤون الساحة بالعجيج. إذا تكلم احدهم في المجلس يتكلم في وقار وعمق، وفي إيجاز بليغ، لذلك كثرت الأمثلة في لغتهم. وانك لا تجد موضوعا من مواضيع الكلام ليس فيه أمثلة عديدة بالبربرية، وكذلك الكنايات.

ومن الأمثلة في اللغة البربرية وفيه جناس أيضا: (ويوفين ولطيف، أديكلب وليتيف) من وجد فلم يقبض يبحث فلا يجد. يضرب مثلا لمن يضيع الفرصة. ومنها: (تالويت سوزاف إلا بلا سيقنطارن) معناه: ان الشفاء يأتي بالشعرة، أما المرض فيأتي بالقناطير. يضرب مثلا في النجاح والخير، ويأتي قليلا حين يكتمل، أما العاهات فتنزل مرة واحدة. ومنها : (الضل ولا ضالى) ومعناه: ان يغشى الظل دارك لجدرانك الطويلة خيرة من ان يطلع عليك الجيران. يضرب مثلا للسترة. والبربر أكثر الأمم كتمانا لأسرارهم، وغيرة على حرماتهم، سيما في وادي ميزاب حيث يشيع هذا المثل الحكيم.ومن الأمثلة قولهم: (أغرم وليتوابني ديواس) يعني ان المدينة لم تبن في يوم. يضرب مثلا لمن بمن يتعجل النتيجة في الأمور. ومنها قولهم: (ويدهكلن يطاود) من يتأن يصل. يضرب مثلا للمتعجل النزف في الأمور. ومن الأمثلة قولهم: (ادسدنت غفش تلوليوين نصيف) هذا كالمثال العربي: الصيف ضيعت اللبن. يقال لمن يفلت الفرصة ثم يقع في حاجة، سيما فرصة العمل والجد في إبانه. واصل هذا : ان النملة وهي دافئة شبعة في كنها في الشتاء، رأت صرصورا يرتعد من البرد، ويتداعى من الجوع، فقالت له: تنفعك اليوم زغاريدك في الصيف. ومن الأمثلة قولهم: (ويخسن سوف اسيخدم الفايلت تما) يضرب مثلا لمن يضيع الفرصة ووقت

الاستعداد. ومعناه: من أراد ماء السيل لبستانه فيعمل له بنزع الأترية من سواقيه، والشمس ضاحية، قبل ورود السيل الذي لا يبقى طويلا.

وفي البربرية كنايات كثيرة رائعة في كل موضوع. ومنها ما هو كناية عن صفة، وما هو كناية عن موصوف، وما هو كناية عن نسبة كما هي في العربية.

ومن كنايات البربرية قولهم: (اشر ومس دازيوار) غليظ الرقبة، كناية عن التجبر. (تيغمستس اتازعلوكت) معناها: ضرسه كبيرة، كناية عن الرغبة والنهم. (طيطس اتاوساعت) أي عينه واسعة، كناية عن الطموح وعدم الرضى بالقليل.

ومن الكنايات البربرية قولهم: (اولسملا تيغماس) أي لا تضحك لهم فيجترئوا عليك. (إربي أمان إيوغي) يخلط اللبن بالماء، كناية عن المبالغة والكذب في الكلام. (تقن سوولمان) كناية عن عدم أحكام الأمور. ومعنى الجملة: مربوط بالطعمة، وهو خيط واحد.

ومن الكنايات قولهم: (اضغاغ تاوارت) معناه في الشكوة حجر، كناية عن وجود غريب في الجماعة. (ايغس تشورداست) كناية عن المكدر في الأمر الحسن. والمعنى العظم في (المحشي) واتشورداست من ألد اللحم وأطيبه عند البربر. وهو نوع من (المحشي) باللحم. ولا أراه يوجد في غير المغرب.

الشعر في اللغة البربرية

وفي البربرية شعر رائع في كل المواضيع، سيما في الحماسة، والغزل،والتاريخ، والفخر. وفي جبال القبائل بالجزائر إلى يومنا هذا ما يملأ دواوين كبير من الشعر الرائع بالبربرية القبائلية في كل المواضيع. ولهم أناشيد غنائية لا زالت إذاعة الجزائر وإذاعة باريس تخصص لها اكبر جانب من الركن الفني. وترى كل من يفهم البربرية سيما اللهجة القبائلية تهزه تلك الأغاني. لحسن معانيها، وعمق وجانها، وجمال ألحانها. وفي كل أنحاء المغرب التي تتكلم لبربرية قصائد من الشعر البربري، يتغنون بها في لمناسبات، سيما المناسبات لعملية كوقت الحصاد للفلاحين، وأوقات النسيج للنسوة؛ وفي أيام لعرس للفتيات والصبايا، وفي الأعياد الدينية، سيما عيد المولد النبوي الشريف. وترى ميزاب وأنحاء المغرب تحتفل به احتفالا رائعا يدوم شهرا كاملا في بعض لنواحي. وترى الفتيات في ميزاب سيما في القرارة من أول ربيع الأول ينشدن نشيد المولد البربرية، في أصوات رخيمة ترقص حتى لجماعات، وكن يدرن في شوارع المدينة التي يسيطر عليها وقار الدين وطهره في أول الليل بين العشاءين إذا خف لزحام في الطرق، فيملأن المدينة بأفراح لمولد وأغاريده. وتراني أوقف عملي إذا مر السرب الهازج من شارعنا أو من الشوارع

المجاورة، فأتنصت لنشيد المولد في أصوات رخيمة، وتصفيق بيع. ثم أقضى وقتا طويلا وأنا منتش بنشيد المولد لجميل ! يا تلك عودى! انها أغاريد تنبع من القلوب المؤمنة قبل الحناجر. لذلك كان لها ذلك التأثير البليغ!

ومن الشعر البربري لموجود إلى اليوم ما هو قديم، وما هو حديث. والمحفوظ عندنا في المغرب من القيم، سيما في المدن، جله شعر إسلامي. ولا أرى ان هناك شعرا في الألسن ما قيل قبل الإسلام أو في صدره.

لا زال الثلث أو أكثر من أهل المغرب يتكلمون البربرية. وترى اللغة البربرية تتسع لدروسهم الدينية، والاجتماعية، والعلمية، ولا تضيق عنها. وترى أسمارهم بها، وأقاصيصهم للكبار والصغار بالبربرية. وترى شعرهم ينشئونه في المناسبات أيضا. وأنا أورد ثلاثة أبيات من قصيدة غزلية قديمة أنشأتها امرأة في زوجها تعاتبه وتشكو عذبها بحبه. واختم لفصل بنشيد المولد بالبربرية الميزابية، وهو من الأناشيد التي تهزج به المدن الميزابية في عيد المولد. وقد انشأ هذا النشيد الأستاذ الأديب صالح باجو. انه حديث وليس قديما. وترى فيه القافية، والتشبيه، وكل ما يزخر به الشعر العربي من فنون لجمال، وقد ترجمته بالعربية ترجمة بسيطة مراعيا إبراز المعنى أكثر من التهاويل الشعرية في الأصل.

قالت امرأة بربرية تعاتب زوجها على الهجر وتصف نار حبها:

أغا أيا ارناو *** اتخاج عاش دا النيتيك!

أولا اشسودسغ *** جاج نوحولي انوول!

أتمسي تاحلالت *** إيمان نوضيل!

المعنى:

أيها الحبيب الذي هجرني *** سينتقم لله منك لوفائي وحبي!

كأنني لم أسكنك في أعماق فؤادي *** ولم اخلص لك الواد والمحبة!

يا حبيبي الذي يكويني بنار الحب المقدسة!

أيها الحبيب الذي رآه صهباء روحي!

نشيد مولد المصطفى عليه لسلام

أنشأه بالبربرية الميزابية الشاعر الأستاذ باجو صالح

الأصل والترجمة

يلولد سيدنا محمد *** تضوا لدونيت اس الأنوار

ولد سيدنا محمد *** واشرقت الدنيا بالانوار

آراني زال اتسلمد *** فواسي سجدنتاس الأشجار

اللهم صل وسلم *** على من سجدت له الأشجار

توليد تزيري نرسول *** تشعشع آماس نيجنوان

طلع بدر الرسول[16] *** واشرق في كبد السماء

تفكر نغ آس إيديلول *** يا الله آناوي إيزلوان

فذكرنا بيوم ميلاده *** هيا ننشد أناشيد الأفراح

***

سعدك ماماس يا مينة *** اتني اتصوددن حليمة

ماسعدك يا آمنة أم الرسول *** وما أسعدك يا حليمة مرضعه

دلعيالس اترواس اديسيس *** سيتز علوكت آلفاطمة

وما اسعد زوجاته وبناته *** من كبراهن إلى فاطمة

يموت باباس يجدتيد *** أنت انصز ايارن

لقد توفي أبوه وتركه *** وهو ابن ستة شهور

تلحق ماماس يقيمد *** ادليتيم انصز ييلان

ولحقت أمه بربها وبقي *** وهو ابن ست سنين

***

باتا يمرفد تلقيس *** أس مكة اسوفغنت إيمشركن

---

16 - يريد بدر شهر ربيع الأول ولد فيه المصطفى عليه السلام

ما اشد الصعوبات التي لقيها المسكين! *** من مكة وطنه أخرجه المشركون!

عنجال الذين انربيس *** يبوض آلدياغ سيضغاغن

من اجل دين ربه *** ضرب وادمي بالأحجار

غارن سنسن نير *** نتبينغ سيماوننسن

سعى المشركون ان يطفئوا *** نور نبينا بأفواههم

أوين استسمين انلجير *** يرين ربي فوافرنسن

نجوا بالحسد كالجير *** فكادوه فكبهم الله على مناخرهم

***

يوساسند سالمعجزات *** انان ووني ا سحار

قد جاءهم بالمعجزات *** فقالوا هذا ساحر كذاب

لكن سصبر دالتبات *** ادليقين يرنا الكفار

لكن بالصبر والثبات *** وباليقين هزم الكفار

سلمعجزاتس أمان *** زرفند اسجار ايضوضان

من معجزاته عليه السلام *** تفجر الماء من بين أصابعه

تازيري تشق ايجدنان *** اتوزون افسن ايورين

ومن معجزاته انشقاق القمر *** فرأوه نصفين على كل من الجبلين شق منه

يوزناجد غرنغ أجليد *** أمقران نيجلدان

لقد أرسلك إلينا إلهنا *** ملك الملوك الأكبر

توسيدانغد ستوحيد *** تيويدانغد القرآن

جئت لنا بالتوحيد *** واتيت لنا بالقرآن

يوسد سدين ان الإسلام *** انتجنويت ايجدلاون

جاءنا بالدين الإسلامي *** كالمطر لاحوا النخل العطشي

شق أوليك تاتفد ما دام *** شتشي تناست اوولاون

افتح قلبي واستقر فيه يا رسول الله *** فأنت مفتاح القلوب المؤمنة

***

اميدن باتا دامو *** نلا نجمض افوبريد

اميدن باتا الهمو *** تيشليو ولتصيويد

أيها الناس ما هذه السيرة السيئة *** لقد ضللنا أيها الناس عن الطريق

أيها الناس ما هذه الأعمال التي تملأ القلب هما! *** ان سيرتنا لا تحمد عقبها!

غفلت بسى فدونيت *** تبدلم ايفت النيت

باتا تخسم الجنت *** إبجورتاس امع اتنيت

ازهدوا قليلا في الدنيا *** وخذوا في الطريق المستقيم

إذا أردتم الجنة *** فابتغوها من سبلها المعروفة

***

الحج يتواتا الفرس *** اتزاليت غيني انسيباس

أزومي اتواشاس الجدس *** نلحفاس ما ماس اباباس

الحج قد نسي فرضه *** والصلاة كدنا نتركها

ورمان قد أكلناه *** وتعدين على حرماته!

نقرب انعاد انويازيض *** اعوعش بلا تزاليت

لفايد انتزدايت أوتشيض *** أدو ينيو أولوجي نيزيت

كدنا نكون كالديك *** يصيح في أوقات الصلاة ولا يصلي

ان حقيقة الدين هو العمل به *** كما ان فائدة النخلة في تمره لا في سعفها[17]

***

أرسول أنربي اقل *** تفورجد غلحالتنغ

17 - يريد ن لدين قول وعمل، وأما القول وحده فلا يجدى.

الوقت بعداش أيبدل *** سينسيب يديننغ

يا رسول الله التفت *** وانظر إلى حالتنا السيئة

الزمان قد تبدل بعدك وشقينا *** وصرنا في التعاسة لأننا لم نتمسك بديننا

أرسول أنربي اولنغ *** فدينتش يلا يدبر

داوا اتشفعد دجنغ *** آس غاشمنلاقا المحشر

يا رسول الله ان قلوبنا *** ق مرضت وأدبرت عن دينك

داو قلوبنا وأملأها بنورك *** واشفع فينا يوم نلقاك في المحشر يا رسول الله

ان اللغة البربرية لغة واسعة خصبة، يوج فيها كل ما في العربية من أساليب التعبير كالتشبيه،والاستعارة: الكناية، والمجاز المرسل، وغيرها؛ وهي لغة سلسة جميلة تتسع للخطابة والوعظ والإرشاد، ولكنها لا تتسع للتأليف كالعربية، ولا تارع العربية في غزارة المادة، وفي البلاغة ورونق التعبير. أننا إذا بينا خصائص اللغة البربرية فلا يجوز ان يفهم القارئ أننا ندعوا إلى الكتابة به كما دعى الشعوبيون الذين يريدون القضاء على الإسلام بإلقاء على اللغة العربية المقدسة. انها لعمرك أساس ديننا، وتاجنا الذي نباهى به، وسيفنا البتار الذي سنبعج به كل القلوب التي تكيد للدين والعربية في بلادنا، وتعو إلى القوميات الضيقة الهزيلة، وتناوئ الجامعة الإسلامية وتعمل للقضاء عليها.

ا العربية هي لغة العلم والأدب والخطابة، وهي لغتنا الشريفة التي يجب ان ننشرها بكل الوسائل ونبثها في أنحاء مغربنا كله بكل الأسباب، ليتكلم بها ويكتب بها في طلاقة كل فر في المغرب. ومع هذا لا يجوز القضاء علىا اللغة البربرية فإنها لا تزاحم العربية ولا تناوئها. انها لغة أجدادنا، ومن آثار أبائنا التي يجب المحافظة عليها. يجب دراستها في كتب التاريخ، وبيان خصائصها. فان لغة الأمة هي مظهرها الصدق، وعنوانها الذي ينبئك بحقيقتها. فإذا أدرت ان تعرف شخصية امة فانظر إلى لغتها، فعلى حسبها في الرقي يكون رقي الأمة. لهذا وقفنا في اللغة البربرية وقفة لأنها مظهر لشخصية أجدادنا الأمازيغ، وعنوان ينئ بعظمتهم، وبالذرا المنيعة التي احتلوها في مختلف العصور.

وفي اللغة البربرية ما في العربية من اشتقاق ومجاز، وغيرها من المزايا التي تتسم بها اللغة وتغزر مادتها. وإذا كان ما يوجد في لعربية اليوم من لأساليب الكثيرة الرائعة،

وفنون الجمال، نجد صولها كلها في لغة العرب الأولين قبل ان يتحضروا، كذلك اللغة البربرية، فما وصلت إليه من الازدهار والرقي في أحسن عهودها في الدولة الرستمية، وفي الدولة الصنهاجية، والدولة الحمادية، وفي دولة المرابطين، ودولة الموحدين، ودولة الحفصيين، ودولة بني مرين، ودولة بني زيان؛ ما وصلت إليه اللغة البربرية في عهود هذه الدول المغربية من رقى وازدهار وأساليب راقية، فأصول ذلك الازدهار وتلك الأساليب مدجودة في لغة البربر الأولين. واللغة كالإنسان، وكالنبتة، وكل شيء ناشئ، لا يبلغ الكمال إلا إذا كان في أوله على القوة.

لقد اتسعت اللغة البربرية لما خرج البربر من حياتهم البسيطة، وتحضروا أيام الدولة البونيقية، وفي عهود دولهم الزاهرة في القرون الثلاثة قبل ميلاد المسيح عليه السلام. لقد اتسعت بالوضع والاقتباس من الأمم التي عاشرتهم كالفينيقيين، والإغريق، والرومان، والوندال، واقتبسوا ألفاظا من الجماعات الفارسية التي اندمجت فيهم، ومن المصريين الذين جاءوا إليهم، ومن الاسرائليين، وغيرهم. ولكن هذه الألفاظ المقتبسة لم تبق على هيأتها الأولى، بل صاغه البربر على قواعد لغتهم وهضموا، وركبوها تركيبا جيدا ينسجم بلغتهم فتبربرت فصارت جزءا من البربرية لا ينتبه إليها إلا من عرف الأصل، ولاحظ ملاحظة دقيقة الكلمة التي وقعت بربرتها.

ان عملية بربرة الكلمات عند البربر سهلة، أنهم إذا أرادوا ان يبربروا كلمة مقتبسة زادوا لها تاء مفتوحة في أولها وتاء ساكنة في آخرها. إذا بربروا الدر قالوا (تدارت) والحانوت (تحنوت) وقد يكتفون بزيادة التاء في آخر الكلمة الغابة فانا في البربرية (الغابت) والجنة (الجنت)، وقد يكتفون بزيادة أل في أول الكلمة.

وفي بربرة الكلمات قد يقلبون المؤنث مذكرا والمذكر مؤنثا، والأول كالحنة في العربية فإنها في البربرية مذكر يقولون (الحنى) وكالدار فانه مذكر في العربية مؤنث في البربرية : والبربر لهم مقاييس دقيقة في لغتهم، لذلك تجهم يوقعون هذا القلب في المذكر غير الحقيقي،وفي المؤنث الحقيقي، وقد يبقى اللفظ الدخيل في البربرية على صيغته فيكتفون في بربرته باللهجة البربرية التي يصبغونه بها عن النطق، فيقولون (توموبيل) للسيارة (البابور) للباخرة.

تعدد اللهجات البربرية

وقد وقع في اللغة البربرية ما وقع في لعربية من كثرة اللهجات، فلكل شعب من شعوب البربر لهجة، فلصنهاجة لهجة، ولزناتة لهجة، ولكتامة لهجة، ولنفوسة

لهجة. وكذلك بقية الشعوب الأخرى. وتجد التقارب بين لهجاتهم على حسب قرب المنازل وكثرة الاختلاط. والفرق بين اللهجات البربرية كان اقل من الفرق بين لهجة قحطان ولهجة عدنان في الجزيرة العربية لان تاريخ البربر واحد. والعوامل التي تؤثر في اللغة كانت واحدة عند البربر.

وكان اغلب الاختلاف بين البربر في اللغة يقع في النطق وفي زيادة بع الحروف أم أصل الكلمات ففي الأغلب فواحدة. وكان البربر يفهم بعضهم بعضا وان التزم كل منهم لهجته كما نرى اليوم في الجزائر. الميزابي يفهم القبائلى والشاوى. وكذلك القبائلي والشاوى يفهم كل منهما لهجة الآخر ويفهمان الميزابي .

تلك هي لغة البربر وهي أساس شخصيتهم الأكبر. وقد أحبوها. واعتدوا بها. وتمسكوا بها تمسكهم بدينهم. وبكل ما هو مقدس لديهم. فترقت وصارت مثلهم على الرقى تتبوأ الذري في عهود دولهم العظيمة قبل الإسلام. وفي دولهم الإسلامية التي توالت واستمرت قرونا عديدة متوالية. وقد آثرنا ان نتحدث عن البربرية في مختلف العصور ولم نقتصر على حالها أيام بداوة البربر كما فعلنا في الأمور الأخرى التي تبين شخصية البربر وحقيقتهم.

وكان للبربر خط خاص بهم. يكتبون به لغتهم. فكيف هو؟ وما أصله؟ وكم عدد حروفه؟ وما درجته في الاتساع والرقى. وفي الحسن والجمال؟

الحروف البربرية ونطقها بالعربية

لقد استغنينا بالنطق عن رسم الحرف العربي أمام كل حرف بربري. فيب كما يبنطق به البربر اليوم هو حرف الباء ... الخ.

خـط البربر

كان للبربر خط خاص بهم يكتبون به لغتهم وأرى انه من وضعهم. ويمكن ان يكونوا قد اقتبسوا بعض حروفه من المصريين الذين كانوا يختلطون بهم، ويحلون في بلاهم المصرية للتجارة أو للاحتلال. فكلا الأمتين المصريين القدماء والبربر من أصل واحد. فبينهما علاقة القرابة بالدماء، وبين لغتيهما تشابه. فكلاهم لغة حامية. فلا عجب إذا حكمن بان البربر قد اقتبسوا بعض الحروف من المصريين. ان مجاورة مصر للمغرب تسوغ لنا هذا الحكم، وعلاقة الأمتين الوثيقة المستمرة لتوحى به إلينا.

وكانت الحروف البربرية في أول الأمر أيام بداوتهم وبساطتهم قبل ان يتحضروا قليلة لا تتجاوز عشرة حروف، ثم زادوا فيها. فوضعوا لكل حرف مما ينطلقون به، ويستعملونه في الكلام علامة تدل عليه، فبلغ عد حروفهم ثلاثة وعشرين حرفا. ولكل حرف من الحروف العربية حرف يماثله من حروف البربر، ما عدا العين والحروف المعجمة: الثاء، والذال، والظاد. ان البربر لا يعجمون حروفهم في النطق كالعرب. أما العين فإنها تكتب غنيا في البربرية. ان الغين حرف مشترك، فتارة يريدون به حقيقته، وتارة يريدون به العين، والمقام هو الذي يدل على المراد. أنهم يكتبون عين عائشة غينا ويقرؤونه عينا. ولقلة ورود العين في الكلمات البربرية لم يضعوا له حرفا. ولما جاوروا الفينيقيين والعرب، وبربروا كثيرا من الكلمات الفينيقية والعربية التي فيها عين، فكثر العين في لغتهم فاحتاجوا إلى كتابته، كتبوه غينا.

ان استعمال البربر في دولهم القديمة قبل الميلاد للغة البونيقية والخط البونيقي في دواوينهم، وهي لغة مزيج من اللغة البربرية والفينيقية، تشتمل على خصائصهما جميعا، واستعمالهم في دولهم الإسلامية للغة العربية العربي في الدواوين وفي التأليف والمراسلة، جعلهم يزهدون في وضع علامة للعين التي كثرت في كلامهم. من يري لعلهم قد اقتبسوا من الفينيقيين حرف العين فزادوه في كتابتهم. ان كتابة الطوارق الآن في الصحراء الكبرى وهم حفظوا لنا الخط البربري باستعمالهم له إلى الآن لا نجد فيها حرف العين. فلو اقتبس البربر القدماء حرف العين من الفينيقية لوجدناه في كتابتهم، سيما وقد اختلط هؤلاء الطوارق بالعرب منذ الفتح الإسلامي، وانتشرت في لغتهم الكلمات العربية والأسماء العربية التي فيها عين. انه لا يمكن ان يهملوا حرفه وهو موجود في نطقهم وفي لغتهم التي يكتبون بها رسائلهم وعقودهم.

ان الحروف البربرية تنقص عن الحروف العربية بأربعة حروف فقط، ثلاثة منها حروف

ا			
ب			
ج			
د			
هـ			
و			
ز			
ح			
ط			
ى			
ك			
ل			
م			
ن			
س			
ع			
ف			
ص			
ق			
ر			
ش			
ت			
ف			

الحروف الفينيقية ومثلها بالعربية

معجمة وهي حروف فرعية وليست أصلية. وهذا دليل على انها لغة غنية واسعة، على ان البربر قد تحضروا فاعتنوا بلغتهم وبخطها فاتسعت وترقت فصارت تكفي مجتمعاتهم الراقية في التعبير والإفصاح، واتسعت لمعانيهم التي تمور بها عقولهم الراقية المثقفة بالمدينة البونيقية والعلوم البونيقية التي ورثوها، وبعلوم الإغريق الذين جاوروا البربر قرونا كثيرة في المغرب. وقد اعتنى الملك مصينيسا بالخط البربري في القرن الثاني ق.م. فرقاه وزاد في حروفه فصار على النحو الذي نجده اليوم.

اعتداد البربر بحروفهم وتقديسهم لها

وكان البربر معتدين بخطهم كل الاعتداد. وكانوا في أول أمرهم، وأيام بساطتهم قبل ان يتحضروا وتشبع الثقافة فيهم يعتقدون ان هذه الحروف التي يكتبون بها منزلة من عند الله، زانها من خلق الله لا من وضع البشر. وكانوا يسمون حروفهم (تيفيناغ) ومعناه الحروف المنزلة من عند الله، وذلك لتقديسهم لها واعتدادهم بها. وكان من يحسن الكتابة فيهم يجلونه ويحترمونه ويعجبون به. وكانوا في تلك العهود البسيطة لا يحسن الكتابة فيهم إلا صفوة الخاصة، ثم شاعت الثقافة فيهم، وكثر عدد من يكتب خطهم ويقرؤه في طبقاتهم.

تأثير الخطين البربري والفينيقي بعضهما ببعض

وكان تأثير البربر بالفينيقيين الذين حلوا في قرطاجنة وأنشأوا فيها دولتهم العظمى كبيرا، وقد اقتبسوا منهم كثيرا من العادات، وتأثروا بهم في كل نواحيهم، كما تأثر الفينيقيون بالبربر. وإذا كان اعتداد البربر بخطهم كما ذكرنا فلا بد ان يرقوه ويتمموه ويحسنوا حروفه، ويزيدوا في عددها باقتباس بعض الحروف لفينيقية ان لم يكن لمدلوله في لفينيقية كحرف التاء في الفينيقية إذا جعل رسما للتاء في البربرية، فلغيره من الحروف الأخرى. ان تأثر الخطين البربري بالفينيقي والعكس، مما نشاهده في تشابه بعض الحروف في الخطين،وان اختلف مدلولها. وقد لا يكون لبعض حروف البربر رسم يدل عليها، أولها رسم مشترك بينها وبين غيرها فيقبسون من الحروف لفينيقية حرفا يكون رسما له،ويصبح بالاصطلاح دالا على ذلك الحرف عندهم، ينطقونه كلما رسم في الكتابة. ويمكن ان يكون الفينيقيون قد اخذوا بعض حروف البربر لكتابتهم. ان التشابه والتماثل أحيانا بين بعض الحروف البربرية، والحروف الفينيقية لا يمكن ان يكون بالمصادفة بل بتأثر كل منهما بالأخر.

أننا إذا لاحظنا الخطين وجدنا حرف التاء في لخطين البربري والفينيقي واحدا. وباء

البربرية هي الحاء الفينيقية، ووجدنا الدال في الخطين متشابهين، ووجدنا حرف لزاي في خط البربر هي حرف الواو في الخط الفينيقي، بينهما شبه كبير، وحرف الجيم البربري هو حرف الزاي الفينيقي. والباء في البربرية هي حرف الحاء في الفينيقية. كما نجد الياء البربرية تشبه الياء الفينيقية. ان هذا كان لتأثر كل من الخطين بالأخر. وفي حروف المسند القديمة لأهل شمال الجزيرة العربية في فلسطين والشام والعراق ما يشبه حروف البربر. فالزاي البربرية هي الزاي في المسند، وكذلك الباء،والتاء[18] وارى ان البربر اخذوا هذه الحروف من وطنهم الأول فلسطين.

وقد اقتبس الرومان من البربر حرف الباء في الرومانية كما هي في الكتابة البربرية. ان فضل البونيقيين والبربر، وهما اللذان ورث الرومان حضارتهم وثقافتهم في المغرب، ان فضلها على الرومان لا يحصى.

وللكتابة البربرية أيام طفولتها لما كانت عشر حروف خمسة أشكال، وهي عبارة عن نقط ترسم مع بعض الحروف لتأكيدها أو شكلها. وق زالت هذه الأشكال الخمسة لما اتسع الخط وكثرت حروفه. من يري لعل بعض النقط التي هي رسم لبعض حروف البربر هي عض تلك الأشكال صيرت حروفا. أننا لا نجد في خط الطوارق الذي لا يزال تلك الأشكال التي ذكرها الشيخ مبارك الميلي في تاريخه ورسمه.[19]

الحروف البربرية المركبة

وللبربر حروف مركبة هي عبارة عن حرفين متداخلين، فينطق الحرف المركب حرفين، والحرف الأصلي الذي يقحم فيه الثاني، ويبدأ بنطقه أولا إنما هو الذي يرسم في وسطه، والحرف المرسوم في الوسط ينطق بعد الأول، تراهم يرسمون حرف الباء فيرسمون تاء في وسطه فيكون حرفا مركبا. وهذا الرسم يقرأ بت. والحرف المرسوم غالبا في الوسط هو التاء لكثرة ورودها في البربرية فهي أكثر الحروف استعمالا في لبربرية، فرسموها في وسط الحرف الذي تليه اختصارا للكتابة. وارى ان هذا التركيب في الحروف مما اختص به البربر، وكانوا أول من اهتدى إليه. ولعلها من إصلاحات مصينيسا الملك البربري العظيم التي ادخلها على الخط البربري في لقرن الثاني قبل الميلاد.

والبربر في القديم لا يلتزمون اتجاها واحدا في كتابتهم كما تلتزم العربية من اليمين إلى اليسار، بل تراهم يكتبون من اليمين حتى إذا انتهى السطر كتبوا تحته سطرا آخر

18 - انظر حروف المسند في كتاب الوسيط في الأدب العربي لأحمد الاسكندري ص 28 ط أولى بالقاهرة 1919.

19 - انظر تلك الأشكال في ج 1 ص 86 ط ثانية بيروت

مبتدئا من اليسار فيختم في اليمين، فيبدأون السطر الثالث من اليمين إلى ان تتم الكتابة. وترك في قراءتها كمن ينزل من سلم من دار عالية متصل يدور بك في طبقات الدار. وقد تأثر البربر بالعرب وبالكتابة العربية التي تعلموها، فصاروا يلتزمون اتجاه واحدا في الكتابة هو الاتجاه العربي من اليمين إلى اليسار.

وقد أعجب البربر بالخط العربي فأخذوا به لغتهم فصار هو خطهم، فتكمش الخط البربري فلم يبق إلا في بعض زوايا المغرب، ومنها الصحراء الكبرى التي لا زال محفوظا فيها عند الطوارق الملثمين. يكتبون به رسائلهم، ويستعملونه فيما بينهم، ويكتب به رؤساؤهم وأمراؤهم. وقد احتفظ الملثمون بخطهم في أعماق الصحراء للسرية التي يحرصون عليها في كل أمورهم. انه خط غريب لا يعرفه سواهم فآثروه لكي لا يعرف أسرارهم غيرهم. هذا إلى تمسك البربر بشخصيتهم، والخط كاللغة من الأشياء الأثيرة في شخصية الأمة وتقاليدها.

وترى في صحراء الطوارق اليوم اللغات الثلاثة البربرية والعربية والفرنسية يحسنها المثقفون منهم ويكتمون خطوطها كلها. وقد أرسل إلي صديق في بلاد الطوارق وهو الكاتب الخاص والمترجم من الفرنسية إلى البربرية لأحد ملوكهم الكبار: أرسل إلي الخط البربري المستعمل لى اليوم عندهم. وفيه الحروف المفردة والمركبة كما هي في المراجع الفرنسية والعربية التي نقلنا منها حروف البربر.

كان البربر امة عظيمة وشعبا راقيا، لهم لغتهم الخاصة وكتابتهم الخاصة. فكيف كان دينهم في عهود البداوة قبل ان يتحضروا، وكيف كان بعد تحضرهم أيام البونيقيين. ان الدين اكبر أساس للشخصية ! والبربر من اشد لأمم تمسكا بالدين وغيرة عليه ! وقد افلحوا بهذا وسادوا لما صار الإسلام دينهم فتمسكوا به، وفدوه بالنفيس الغالي، وبالأرواح والدماء! !

دين البربر

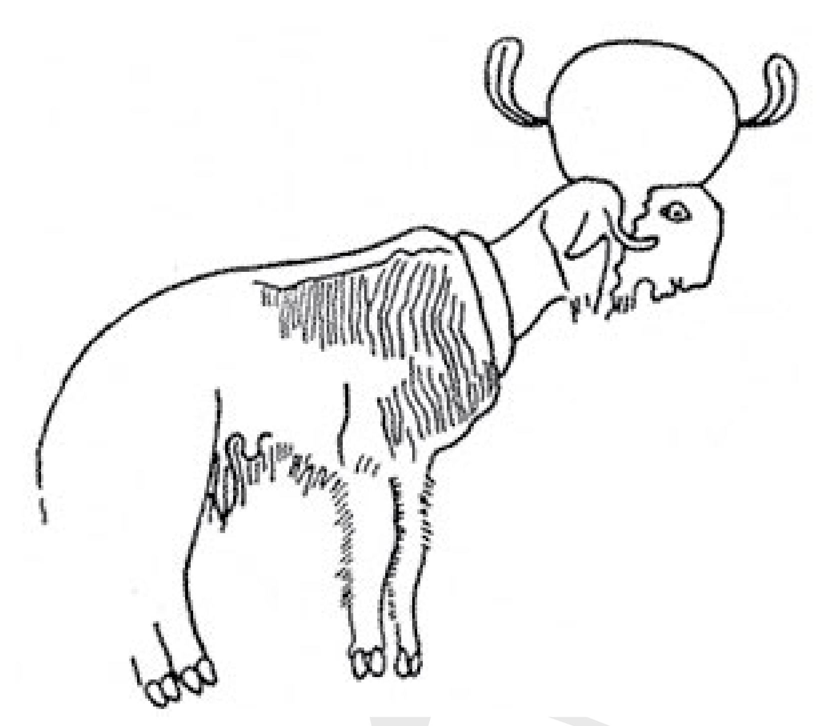
كان للبربر دين وثني جاءوا به من الشرق. كانوا يعتقدون وجود اله يدبر هذا الكون، ولكن لا ذات له ترى، وإنما يتجلى لهم في المظاهر التي تروعهم بقوتها، أو بجمالها، لو بغرابته، فلذلك يعبدون تلك الظاهرة. وهذا الإله الذي يعتقدون انه مصدر حياة الكون اسمه (أمون) ومظاهره هي الكبش الاقرن القوي، وبعض الحيوانات الأخرى، وبعض الكواكب. فمن الكواكب، التي راعتهم بقوتها وجمالها ورأوا انها مصدر الحياة لهم الشمس والقمر. وكانوا يقدسونهم، ويتخذون لهما التماثيل في هيا كلهم، ويرمزون لهما بصور في املكن عبدتهم. وكانوا يرمزون للشمس بدائرة وفد يجعلونها بين قرني الكبش (آمون) الذي يقيمون له التماثيل كأكبر مظهر لإلههم آمون.

وكانوا يعبدون من الحيوانات الثور والكبش والتيس يقدسونه ويقيمون لها التماثيل التي يخشعون أمامها، ويقربون القرابين لها فلربما جمعوا في تمثال واحد بين شيئين من معوداتهم التي يقدسونها. وق عثر في الجنوب الغربي للجزائريين فقيق وبني ونيف على تمثال لكبش اقرن بين قرنيه دائرة تمثل الشمس. والكبش والشمس كلاهما من معبودات البربر التي يرونها مظهرا للإله الأعظم الذي يصرف هذا الكون.

وكان المصريون القدماء يعبدون الإله آمون ويرمزون له بكبش اقرن. وارى ان لمصريين قد قلدوا في هذه العبادة بني عمومتهم لبربر، ويمكن ان يكون البربر هم الذين أخذوها من المصريين.

وكان البربر يرون مظهرا للإله كل الحيوانات التي تروعهم بجمالها أو بغرابتها. فمن لحيوانات الجميلة التي قدسوها الطاووس، والحمامة، والهر للطفه وظرافته. ومن الحيوانات التي قدسوها لغرابتها السلحفاة والضفدع. وكان تقديسهم لها يتجلى في عدم إيذائها كما يؤذون الحيوانات الأخرى بالقتل أو بالذبح، أو بالإقصاء العنيف عن الساحة بالضرب والإيذاء. وكانوا يعتقون ان قتلها أو ضربها يلحق بهم أضرار كثيرة وعاهات كبرى كالجنون، والشلل، والصرع وغيرها.

لا تزال عقيدة تحريم صيد الحمام باقية في أنحاء كثيرة من المغرب، وكذلك كره ضرب القط. انم يعتقون ان من ضرب القط سيما في الليل يصاب بالجنون. وكذلك الضفدع لا تزال أنحاء م المغرب تعتقد ان قتله مضر وان افسد الساحة وعكر المياه. ان هذه كلها من بقايا العقائد البربرية القيمة قد تزيى بعضها بزي الإسلام



تمثال للكبش المقدس أمون

ان الرفق بالحيوان وعدم إيذائه والإحسان إليه واجب في الإسلام، ولكن اعتقاد النفع والضر في احدها لقداسته مما لا يجوز في الدين . ومما هو من بقايا الجاهلية البربرية التي نتحدث عنها.

وكان البربر يعتقدون وجود الجن، ويرونها أرواحا تسكن المغاور وبعض الأشجار وفي بعض المنابع المعدنية. وكانوا يرون المياه المعنية الحارة التي تتدفق من بعض الجبال، فلا يدركون بعقولهم سبب حرارتها، فيعللون ذلك بوجود الجن في اخل الجبل، فهم الذين يوقون النار على الماء فيتفجر حارا تلك الحرارة. وتراهم يقدسون تلك الأماكن التي يرونها مسكنا للجن ويقربون إليها القرابين.

وق بقي البربر على هذه الوثنية التي جاءوا بأكثرها من المشرق حتى ترقوا وتمدنوا وتثقفت عقولهم في عهد البونيقيين فنبذوا كثيرا من خرافاتهم. وقد انتشرت المسيحية في البربر لما دخلت المغرب، واركوا بعقولهم المثقفة انها الدين السماوي الذي يصلح بهم، فاعتنقته طوائف كبيرة منهم، وكذلك اليهودية فإنها انتشرت في بع

نواحيهم كجبال آوراس. ولما جاء الإسلام أدركوا بعقولهم انه خير الأديان هو لا غيره سبب الحياة السعيدة الراقية، وعامل الفوز في الدارين، فآمنوا به وعضوا عليه بالنواجذ، وكانوا كثير المسلمين تمسكا به قولا وعملا، وأشدهم عليه. وكان هو الدين الذي عم البربر كلهم فطهرهم من ارجاس الوثنية ومن ظلمات الجاهلية، وأسبغ عليهم الطهر والسمو والنور، وأورثهم الكرامة والعزة، والسعادة والتقدم في كل نواحي الحياة. فما أعظم نعمتك يا رب بالإسلام على أجدادنا الأمازيغ وعلى مغربنا الكبير.

ذلك هو دين البربر في جاهليتهم، وأيام بداوتهم قبل ان يتحضروا فما هو نظامهم الاجتماعي في تلك العهود؟

النظام الاجتماعي للبربر

لم يكن للبربر قديما قبل ان يتحضروا ملوك ولا أمراء عظماء تخض لهم الجهات الواسعة ويسوس كل منهم القوم الكثيرين. وإنما كانت كل قرية تحكم نفسه. وكل قبيلة تبر شؤونها. لا ترضى ان يتخل في أمورها غيرها.

وكان لكل قرية مجلس تنتخبه القرية انتحابا حرا. وتقدم إليه كل من قدمته كفايته وبدا صلاحه. ورجاحة عقله وإخلاصه للقرية.

وإذا كانت القرية تشتمل على قبائل كثيرة قمت كل قبيلة من يمثله في المجلس. ويرأس المجلس رئيس ينتخبه المجلس انتخابا حرا من أعضائه. ويشترطون فيه الكفاءة العقلية والخلقية والغيرة على القرية. والإخلاص لأهلها وعدم الأنانية والمحاباة.

ان هذا المجلس هو الذي يدير أمور القرية. ويسن القوانين لها. ويفض خصوماتها. ويعلن الحرب. ويعقد المعاهدات. انه هو المجلس التشريعي والقضائي. وهو الحكومة المدبرة لشؤون القرية. ورئيس المجلس هو القوة التنفيذية التي تنفذ ما يسنه المجلس من قوانين. ويحكم به في الخصومات. أما القوة التي يتأيد بها رئيس المجلس في تطبيق القوانين. وتنفيذ قرارات مجلس القرية فهي القرية كلها. ا المجلس مجلسهم. انتخبوا في حرية تامة. ورئيسه رئيسهم فكلهم يجله ويحترمه. ويؤيده. ويغار عليه. فإذا احتاج إلى قوة رادعة فشباب القرية كلهم يلبسون السلاح. فيصيرون جنه المطاع.والقرية كلها برجالها ونسائها تغضب لغضبه. فتقف في صفه. وتكون حربا على من تمرد عليه. أو اعتدى على مقامه. وأبى ان يخضع اعرف القرية وقوانينها.

ان هذا النظام لاجتماعي يدل على ديمقراطية البربر وعلى حبهم للحرية. وعلى اعتمادهم على النفس؛ ويدل أيضا على أمنهم في قراهم. وعلى بساطة الحياة التي كانوا عليها في عهودهم القيمة قبل البونيقيين.

وكان لكل قبيلة في كل قرية رئيس يعتني بها. ويحل مشاكلها. يعضده في ذلك خاصة قبيلة وأولوا الرأي والتدبير فيها. وذلك لاعتماد البربر على أنفسهم. وحبهم للامركزية حتى في نظام القرية الذي وصفنا. وهو ديمقراطي لا جبروت ولا استبداد فيه.

لقد بقي البربر على هذا النظام الاجتماعي قرونا. وكان هو النظام الذي آثروه. وامتزج حبه بدمائهم. ولكنهم لما تحضروا كثرت مشاكلهم الاجتماعية. وصار المغرب بما كونوه فيه وكونه فيه البونيقيون من حضارة راقية. جنة تفتن القلوب وتخلب النفوس. وتتحلب

عليها أشداق الرومان الجشعة؛ وراو روما القوية تتخذهم مرمى سهامها. وتتمنى ان يكون المغرب طعمتها؛ اتحدوا ومدت كل قرية إلى أختها يدها. والتأمت الجماعات. فكونوا حكومة واحدة تسوسهم. وتدبر شؤونهم ورضوا بنشأة الملوك فيهم. والممالك الواسعة التي يهيمن عليها رئيس واحد.

لقد يد النظام اللامركزية في البربر ما جبلوا عليه من حب الاستقلال. وعشق الحرية. ومن الاعتداد بالنفس. والاعتماد عليها. فكرهوا ان يسوسهم أمير واحد قد يجور عليهم فيعاملهم بما لا يوافق مزاجهم. ويأخذ بأعنتهم إلى نواح ليس فيها صلاحهم.

لقد كان هذا النظام للامركزية سببا لازدهار القرى البربرية. ا كل قرية تعتمد على نفسه في كل شؤونها. وتنافس القرى الأخرى فتنتعش وتزدهر. وكان سيبا الخلق لتضحية والروح الاجتماعية في البربر. ان كل فرد منهم ليفكر في قريته. ويعمل لتقيمها. ويقوم بواجبه في خدمتها العامة. وينفق من ماله الخاص. ويضحي بكل عزيز في سبيل إسعاد القرية وهنائها. ولا يتكل في تدبير أموره. والقيام بشؤونها وخدمتها على الحكومة فيكون أنانيا بخيلا لا يشغل باله إلا شئونه الخاصة. ولا يهمه إلا أمر نفسه.كما نرى في العواصم الكبرى التي تقوم بها الحكومة. فان الأنانية وحب النفس. وعم المبالاة بالشئون العامة. كإصلاح الطريق أمام دار احدهم إذا خرب. وإصلاح مجرى الشارع إذا انسد. وغير ذلك مما يعود بالنفع عليه هو. ولكن لا يبدو لساكن العاصمة ان يتطوع بجزء من وقته. وبقليل من عمله فيزيل الأذى من الطريق. وينفع عباد الله بما يؤخره عليه الله.

ان نظام اللامركزية وان كان يضعف الدولة في بعض النواحي. فانه يخلق فيها أخلاقا اجتماعية عظمى. ويجعل كل فرد فيها يقوم بواجبه الاجتماعي. وكل جماعة تؤدي ما عليها لصالح الأمة كلها.

ان ما حمل البربر على نظام القرية أيضا هو أمنهم في وطنهم. لقد كانوا في أول أمرهم في وطن لا يجاوره أعداء يفكرون في اغتصابه. والسيطرة عليه. فيتكتلون ويتحدون ليدافعوا عدوهم. وكانوا على البساطة في كل شيء حتى في مثلهم الأعلى. فلم يكن من همهم ان ينشئوا دولة تنافس دولة الفراعنة وغيرها من الممالك القيمة. ولا كانت حياتهم معقدة بالتحضر والتمدن فنحتاج إلى جهاز إداري واسع لا يتأتى إلا في الدولة الكبرى. بل كان همهم في الضرورات البسيطة التي يكفي لبلوغها هذا النظام الاجتماعي البسيط.

قد تجد الأمة تتكتل في بداوتها وتتحد لان أوطانها فقراء لا تكفيها في عيشها، فهي ترنوا إلى الأوطان الأخرى تتحلب أشداقها عليها، فتتحد لتقوى على التغلب عليها، أما البربر فكانوا في وطن خصب جميل فيه كل ما تستلزمه الحياة الهنيئة، يبلغه البربري بأهون سعي، فلذلك تجد الروح الاستقلالية قوية ثابتة في البربر، لان العوامل التي تدعو الإنسان إلى الرضوخ للرؤساء، والتجرد من كثير من حريته في سبيل الجماعة الكبيرة لم تكن موجودة في وطن البربر. أنهم في قديمهم لم يرهبوا ولم يرغبوا فيجهزون الجيوش وينشئون رئاسة عليا للوطن كله تقوده في دفاعه أو هجومه.

لقد دام البربر على نظام القرية حتى تحضروا فاستلزمت حياتهم المعقدة جهازا إداريا واسعا، فتكونت لهم ممالك، وكان لهم ملوك. وكان القرطاجنيون الذين اخرجوا البربر من البداوة إلى الحضارة هم الذين اخذوا بأيديهم فنهضوا، واثروا فيهم فترقوا، وكانوا لهم قدوة حسنة فسلكوا طريقهم في إنشاء الدول الكبرى.

ان كل قرية تتكون من عدة اسر. فكيف كانت الأسرة في المجتمع البربري؟

الأسرة في المجتمع البربري

لقد كانت الأسرة في المجتمع البربري على أتمها في التماسك والاتحاد، وفي الهناء والسعادة. وكان للأب السلطة العليا في الخارج، وللام السلطة التامة في داخل البيت. وكان الأب محترما تجله الأسرة كلها، ويجله أبناؤه لا يتمردون عليه، ولا يشقون عصا الطاعة له، بل يمتثلون أمره، ويسعون في رضاه، ويسبغون عليه برهم وإحسانهم.

احترام البربر للمرأة وتمتعها بكل حقوقها في مجتمعهم

وكانت المرأة محترمة مبجلة، تتمتع بكل حقوقها في المجتمع البربري. وكان الرجل يراها ساعده الأيمن، وقوته الكبرى، وقبله الذي يصنع حياته كلها فيثق بها، ويجعل أعنة أمور البيت في يدها. وكانت هي معتدة بنفسها، لقوة شخصية البربر، تتمتع بحياة استقلالية في بيتها، ترى نفسها هي المسؤولة عنه فتقوم بواجبها في إدارة البيت وخدمته، وفي تربية الأبناء، وفي إشاعة المحبة والوئام في الأسرة، فتكون كلها قلبا واحدا يضمن لها ولزوجها السعادة والهناء.

وقد بلغ من احترام البربر للمرأة ان كانت بعض القبائل تمج المرأة كل التمجيد، فجعلتها هي الأصل في الأسرة، ورجحت كفتها على الرجل، فصار الولد ينسب إلى أمه، ويتوارث مع أخواله لا مع أعمامه. وقد أم احترام المرأة حتى جاء الإسلام فأيد هذه

الطبعة في نفوسهم، فعاشت المرأة المغربية مبجلة محترمة مصونة في كل عهودها. وان ما نرى اليوم من تمتع المرأة بكل حقوقها في وادي ميزاب بجنوب الجزائر، وفي غيره من النواحي التي لا زالت تتمسك بشخصيتها الإسلامية المغربية من آثار الذين الحنيف الذي اوجب للمرأة حقوقها، ومن آثار هذه الطبيعة الحسنة التي كان يمتاز بها أجدادنا في المغرب.

ان قوة شخصية المرأة البربرية وتمتعها بحقوقها في المجتمع البربري القديم هو الذي جعلها قاعدة قوية للأسرة، فتماسكت، وتجابت، وتعاونت، فتمتعت بالحياة، وتمتع الرجل البربري بحياة بيتية هنيئة حببت إليه الوطن، وزينت في عينه الحياة، وجعلته دائما على التفاؤل والابتسام.

تلك هي حال المجتمع البربري الصغير وهو الأسرة. فكيف كان البربر في الشخص وفي الشخصية؟

شخصية البربر

خلقة البربر

ان البربري قوي البنية، معتل المزاج، متين التركيب، قد نشأ في بيئة الشام الجميلة، فأورثته من جمالها في جسمه، ومن اعتدالها في مزاجه، ثم انتقل إلى بيئة المغرب المشابهة لبيئة الشام الطبيعية، فأيدت فيه تلك الخلال، وثبتت في شخصية ذلك الجمال، فصار البربر مثالا في متانة البنيان؟، وفي جمال الخلقة.

والبربري على العموم ذو وجه معتدل، وعينين غير ناتئتين، وانف غير مفرطح ولا مستطيل، ولكنه رشيق جميل، وجبينه وضاح، وما بين عينيه خط مستو، لا زاوية منفرجة، وأعضاؤه متناسبة، وهو قوي البنية، يتحمل الجهد الشديد، ويطول شوطه في الأعمال المرهقة، قوي الحصانة من الأمراض، لقوة جسمه، ومتانة تركيبه.

أما لون البشرة في البربر فنجد في شمال المغرب على الساحل البياض المشوب بحمرة، أما في رؤوس الجبال الباردة فالحمرة المعتدلة هبي الشائعة فيها، وفي جنوب الغرب سمرة معتدلة مع الأعضاء الرشيقة، وهناك بعض المناطق في الجنوب ولكنها قليلة قد اختلط بسكانها الزنوج فأورثوها من ألوانها ومن أعضائهم، فمالت سمرتهم إلى السواد، وأنوفهم إلى التفرطح، ففارقوا الجمال البربري الممتاز، وهناك أيضا القبائل البدوية المقيمة في الصحراء الكبرى، قد سفعتهم الشمس فأورثتهم السمرة الشديدة، ولكنهم مع ذلك على الرشاقة والجمال، لم تغير من أجسامهم الأعراق الدخيلة، فإذا انتقلوا إلى الشمال فسرعان ما يورثهم ألوانه فيمسون كاهله.

هذه هي أوصاف البربر الجسمية على العموم، ق تحرت إليهم بالوراثة، واكتسبوها من البيئة، وهناك جهات في المغرب نجد ناسها يختصون ببعض أشياء ويخالفون في بعض الأمور كلون الشعر وشكل الجمجمة، وقد ذكر الأستاذ الجليل الشيخ مبارك ألميلي بعض تلك الأوصاف الموجودة في بعض مواطن المغرب فقال: «ومن الأوصاف ما يختص ببعض لفرق، ففرقة منهم طوال القامة، مستطيلوا الرؤوس والوجوه،وحواجبهم ناتئة، وأنوفهم طوال رقاق، وشعر اللحية منهم حفيف، وأكتافهم عريضة، وخصورهم ضيقة، وهم عاف لبنية، وهذه الفرقة موجودة بكثرة.

ومنهم صنف قصير القامة، طوال الرأس، وبه عظام ناتئة عريض الوجه، ناتئ الوجنتين، عريض الأنف، واسع الفم غليظ الشفتين، ناتئ لقن، كثير شعر اللحية، عريض الصدر والرفغ».

ان هذا الصنف هو الذي يمكن ان يكون العرق الزنجي قد اثر فيه، فأورثه فرطحة في الأنوف، وغلظة في الشفاه، وطولا في الجمجمة ولم يذكر الأستاذ ألميلي في أي جهات المغرب يكون، وارى انه في الجنوب الشرقي والغربي للمغرب: تلك النواحي القريبة من السودان فاخل بعضها العرق الزنجي فاثر فيها، على ان هذا الاختلاط ليس قيما فانه من أثار اتصال الدول الإسلامية المغربية بالسودان في القرون الإسلامية الأولى، ثم قال الأستاذ ألميلي:

«ومنهم صنف ربعة إلى القصر، مستدير الرأس، عريض الوجه، مستدير الجهة، غليظ الحاجبين، قصير الأنف، واسع الفم، مستدير الذقن، عريض الصدر.

والصنفان الأولان معروفان بالمغري من قديم الأزمنة، وثلاثتها توجد بالجزائر وتونس،والثالث منها مشهور جربة وميزاب». [20]

هذه هي بعض الأوصاف التي تمتاز بها فئات من البربر في بعض الجهات، وارى ان هذا الامتياز في تلك الأوصاف حديث غير قديم، فميزاب قد داخلته الدماء العربية، ووادي اريغ وغيره من أنحاء الجنوب الآخرة قد داخلته الدماء الزنجية،وهذا كله في القرون الإسلامية لا فبلها، انه يبعد ان يكون اختلاف الفئات لبربرية في بع الأوصاف من تلك الدماء التي داخلتها بعد الفتح الإسلامي فورثوا بع خصائص تلك الدماء، أما لون البشرة والشعر والعيون وبعض الأوصاف الأخرى التي ترجع إلى اختلاف الجو في القطر الواحد، فان جو الساحل غير جو الصحراء ، وجو الجبال المنيعة غير جو السهول المنخفضة، وكذلك لمن فنها خلاف القرى؛ أما الاختلاف الذي نراه في المغرب من هذا النوع فهو شيء طبيعي سببه إقليمي لا عرقي.

وكان البربر يلتحون ويرون ذلك زينة لرجل، وعلامة القوة، ودليل الوقار، ورمز الرجولة الكاملة، وآية على الشرف وكرم الأصل !

كان البربر على لعموم على الجمال في الأجسام، والمتانة في البنيان، أورثهم ذلك عرقهم الزكي، وبيئتهم الطبيعية الجميلة، فكيف كانوا في الأخلاق والطباع الراسخة؟

أخلاق البربر وطباعهم

ان البربر امة قوية الشخصية،معتدة بنفسها كل الاعتداد، واثقة بنفسها كل الوثوق، طموح قد بلغ بها طموحه الذري العالية في المكارم، والقمم الشماء في المفاخر.

20 - تاريخ الجزائر ألميلي ج 1 ص 65 ط لبنان 1382هـ 1663م.

انها من الشعوب الكريمة التي تقس المعاني، وتغرم بالمجد، وترى الشرف هو كل شيء في الحياة ! لقد اتصف البربر بكل الأخلاق لكريمة التي اتصف بها العرب، واربوا على كثير من الأمم الشرقية في أشياء وهي النفسية العلمية، فإنها في البربر أقوى، لبيئتهم الطبيعية المعتدلة التي تنعشها، وللحياة الاستقلالية التي كانوا عليها، ففرضت عل كل واحد ان يعتمد على نفسه، ويكد في سبيل عيشه؛ واربوا عليها في التمسك بالشخصية، فان البربر لا يذوبون في غيرهم، ولا يتجردون من شخصيتهم، وان عاشروا بيئة غير بيئتهم عهودا طويلة، وأزمنة مديدة، وتسلط عليهم قرونا من يعمل لإذابتهم فيه، وتجريدهم من شخصيتهم التي يمتازون بها.

كان البربر كالعرب على الآباء والشجاعة، وعلى الكرم والنجدة، وعلى الوفاء بالعهود، والحفظ للجوار، والإكرام للنزيل.

وكانوا على الذكاء في العقل، وعلى السعة في الخيال،وعلى الهيام بالمعرفة، يقسون العلم وأهله، ويغرمون بالعرفان، ويرونه اكبر سبب للتقدم، وأقوى عامل للشرف،ومضى سلاح في القضاء على الأعداء.

وكان البربر ذوي أذواق راقية رهيفة، يحبون الجمال، ويغرمون بالحسن، وقد يكون ذلك فيهم بيئة المغرب الجميلة، وطبيعة لساحرة، فلذلك مالوا إلى الحضارة الفينيقية وغيرها من حضارات الأمم التي أحبوها، فاخذوا بها، وزادوا فيها، وبلغت الكمال على أيديهم.

والبربر ذوو نفوس عملية ممتازة، فهم أهل الجد والنشاط، يكرهون الكسل والتواني، ويمقتون لخمول والركود، فهمهم دائما في لعمل المتواصل، ولذتهم في التعب وتسلق لعقبت، وقطع الأشواط لشقة في سبيل غاياتهم لكبرى، وقد كان اعتدال إقليمهم من أسباب النشاط الذي جبلوا عليه، والنفسية العملية التي كانوا عليها.

حب البربر للنظم وكرههم للفوضى

والبربر لنفوسهم العملية ذوو نظام وترتيب للأمور، ويكرهون الخلل والفوضى، ويقدسون النظام ويؤثرونه في كل الأشياء.

والبربر ذوو طموح وغرام بالمجد، ينزعون إلى الكمال، ويغامرون في سبيله، ويفارقون من اجله الأوطان، ويخوضون للوصول إليه لجج لحروب المستعمرة، ويتصدون للمهلك والأهوال، ان حب العمل والنشاط والمغامرة في سبيل المج من طباعهم الراسخة،ن وخلالهم الثابتة، تشهد بذلك جميع ادوار تاريخهم الإسلامية وغيرها.

تمسك البربر بشخصيتهم وتقاليدهم الحسنة

والبربر ذوو شخصية ايجابية، يفرضون احترامهم على غيرهم، وتقاليدهم على من سواهم، فيقلدهم ولا يقلدون، ويذوب فيهم ولا يذوبون، ومع ذلك فهم مرنون يتطورون؛ يأخذون من كل بيئة أحسن ما فيها، لا تغرهم المظاهر فتخدعهم عن اللباب، ولا تفتنهم الزخارف فينصرفون عن الجوهر، بل لهم من نفسهم العملية أحسن هاد، وأدق ميزان، أنهم لا يأخذون إلا أسباب القوة والنجاح من غيرهم ولا يقتسمون إلا عوامل الرقي من سواهم، لقد تسلط عليهم الرومان وغيرهم دهورا طويلة فلم يذبوا فيهم كما تمنوا، لق أخ البربر منهم أساليب العمل، وفنون القتال وطرق السياسة، ولكنهم لم يتبذلوا تبذلهم بالحضارة المفرطة، ولم ينغمسوا في الشهوات والملذات فتنحل أخلاقهم مثلهم، أنهم تمسكوا بأخلاق الرجولة، وبالنفس العملية، وأبوا ان يتصفوا بضعف الحضارة وأمراضها.

ان تمسك المغرب بشخصيته الإسلامية، وإباءه ان يتجرد منها رغم الاستعمار الفرنسي الذي جرنا قرنا واثنين وثلاثين سنة بسلاسله، لنفارق شخصيتنا إلى شخصيته، ورجولتنا وطابعنا الجدي آلة ميوعته؛ ان ذلك التمسك بالشخصية من ميراث أجدادنا البربر ومن الطبائع الشريفة التي تحدت إلينا من أولئك الأجداد الشرفاء.

لطف البربر وحبهم للنكتة الظريفة والمرح اللائق

والبربر ذوو نفوس مرحة، يميلون إلى اللهو في أوقاته، ويؤثرون المزاح في أباه لا يستبد بهم الطرب فيطيشون كالزنوج وذوي المناطق الحارة، ولا يجمدون كاهل البلاد لباردة، بل هم كإقليمهم على الاعتدال في الأشياء، فهم على الاعتدال في السرور والطرب والميل إلى المزاح، وعلى الاعتدال في ميلهم إلى الجد، ان نزوع البربر -لنفسهم العملية- إلى الوقار أكثر ،ومع ذلك فمجالسهم في أوقات الأنس تشيع فيها العابة البارعة- والمزاح لظريف، لا يضحكون إلا بما يستلزم الضحك، فالوقار يمسكهم عن الإسراع إلى الضحك كما يفعل بعض الأقوام من ذوي المنطق الحارة، يضحكون لأقل شيء، ويصلون النهاية في القهقهة لنكتة ضعيفة لا يزيد البربري بها على الابتسام ! وذلك لان الجنب العملي في البربر على قدر الوجدان فيهم، لا يصغي وجدانهم فيتسلط عليهم، بل هم يضبطون نفوسهم فيكونون في كل موطن كم يوجب المقام.

انه لفضيلة قوة الجانب العملي في نفوس البربر وهو (النزوع) كما يسميه علماء النفس، انه لتلك الفضيلة التي أورثت للبربر مزية ضبط النفس، كانوا على التمسك

بشخصيتهم وتقاليدهم الحسنة. لا يستبد بهم لوجدان كالأطفال والنساء والأمم الضعيفة فيجرون وراء البريق. بريق الجمرة ليقبضوا عليه. ويطلقون الجوهرة. وتستميلهم برقشة الأفعى فيجرون وراءه. زاهدين في أطواقهم الذهبية. وحللهم المزركشة.

شجاعة البربر وفروسيتهم

والبربر ذوو شجاعة خارقة. وبطولة نادرة. فهم أهل الثبات في الحروب. والأقدام في المعارك الهوجاء. يطربهم صليل السيوف في الجماجم. وحمحمة الخيول في الجلاد. لا يهابون العدو. ولا يخافون الحروب. ولهم اعتناء بأعمال الفروسية. وفنون الحرب. وطرف الجلاد. يعلمونها لشبابهم. ويغذونه في نفوسهم بمختلف الألعاب. كإجراء الخيل. والجري. والوثب. وغير ذلك مما يقوي لنفس. ويحفظ عليها الأخلاق الحربية. وعادات الفروسية.

والبربر فرسان مغاوير. لهم غرام واعتناء بركوب الخيل. ولهم خيل يربونها تربية خاصة. ويدربونها . وكانوا يركبونها خاسرة بدون سرج ولا لجام. وكانوا يصرفونها ويوجهونها بقضيب بمسكه الفارس بيده فيلامس بيده الفرس فتتجه إلى لناحية التي يريد.[21] انها خيل وصفها البكري وبعض المؤرخين فقالوا: انها قصيرة ولكنها سباقة في الجري. خفيفة. صلبة. تقوم بفارسها في الحروب.

وكان أهل نوميديا مشهورين بالفروسية. وكان فرسان البونيقيين في حروبهم من نوميديا. وكان فرسان حنبعل في حروبه بايطاليا من البربر والنوميديين. كما كان فرسان سبيون الإفريقي الذين انتصر بهم على حنبعل من نوميديا. ولما جاء الإسلام وجد المسلمون في البربر الفرسان الأبطال. والجند لشجعان ففتحوا بهم الأندلس. وجلبوا منهم مئات من الشباب إلى المشرق فسدوا بهم الثغور المهمة سيما ما يستلزم الجلد والقوة والثبات.

21 - انظر نقود الملك صيناقس في بابه ترى رسم فارس في فرس عارية.



تصور فني لفرسان الملك النوميدي يوغرطا وهو يجتاح إسبانيا

حب البربر للحرية والعدل وثورتهم على العبودية والطغيان

والبربر امة مجبولة على حب الحرية، وشعب عجنت طينته بحب الاستقلال. لا يطيقون الاستبداد والاستعباد، ولا يخضعون للجبروت والطغيان، ولا يحنون الهام إلا لمن يمتلك قلوبهم بحسن معاملته واحترامه، فان خاشنهم وأراد ان يخضعهم بالقوة ثاروا عليه وكانت خشونة السيوف هي ما يلمسه منهم، والحروب الهوجاء هي الصفحة التي تواجهه منهم. وقد ثاروا في قديمهم على كل الدول التي أرادت ان تخضعهم بالسيف. ثاروا على البونيقيين، وعلى الرومان، والروم والوندال، وعلى الأمويين والعباسيين وعلى الأغالبة والعبيديين، وعلى كل الدول التي لم تعدل فيهم، ولم تنظر إليهم في احترام وإخوة.

انه حب لبربر للحرية والحياة الاستقلالية يهوون اللامركزية في الحكم، لتتمتع كل ناحية باستقلالها، وتعتمد على نفسها في شؤونها، تصرفها على حسب مزاجها، فتزهر كل النواحي بتضافر الجهود، وتتقدم كل أنحاء الدولة باعتماد كل جزء على نفسه، ليس للدولة عليه إلا التوجيه الحكيم، وإلا القيادة اللطيفة، لا قهر ولا إرغام، وإنما تأمر كل قبيلة بما يوافق مزاجه، وتوجه كل قوم إلى الناحية التي استعدوا لها. وقد عرفت الدول البربرية العادلة كالدولة الرستمية والدولة الإدريسية هذا الطبع في الأمة البربرية، فكانت تتمتع فيها كل الجهات بكثير من الاستقلال، وتوكل إليها كثيرا من الأمور، كاختيار ولاتها، وقضاتها، وكثير من الأمور العامة التي تقبض عليها الدول المستبدة بقبضة من حديد.

ان هذا الطبع (حب الحرية والاستقلال) جميل في البربر. انه دليل على قوة شخصيتهم، واعتدادهم بالنفس، وثقتهم بها. ان كل الدول التي عاملت البربر على حسب مزاجهم واستغلت هذا الطبع الكريم فيهم قد وجدت البربر الشعب الطائع السلس العنان، والأمة الحية التي تعين الحكومة وتظاهرها في البناء والتشييد، فتسرع الدولة بنشاط البربر واعتمادهم على أنفسهم في طريق العظمة والأزهار، وتحقيق كل المثل العليا التي تعو إليها همتها العالية.

ان البربر إذا ثاروا على الدولة وتمردوا، كما ثاروا على الأمويين والعباسيين والعبيدين في القرون الإسلامية الأولى الأربعة، فلجبروت تلك الدول الظالمة، وازورارها عن الدين الحنيف في سياسة المغرب، ولاحتقارهم للبربر وعدم مساواتهم، ولأنانيتهم وتعصبهم لنفسهم ولجنسهم، ولعدم عدلهم، وتمردهم على الين الذي يتمسك به البربر ويغارون

عليه ويثورون للدفاع عنه. وليست ثوراتهم على تلك الدول وغيرها لحب الفوضى، وعدم لرضوخ للنظام كما يدعي الأوروبيون المغرضون.

لقد ردد هذه الدعوى الباطلة بعض لمؤرخين المغاربة فوقعوا في غلط كبير، وعقوا أجدادهم، وظلموا أنفسهم،وكانوا على سفاهة من يلطم وجهه بما يدميه، ويخز عينه يفقؤها. أنهم لو اعملوا عقولهم في تاريخ البربر، وحقيقة البربر لعملوا ان ثوراتهم قبل الإسلام ثورات وطنية رشيدة، وثوراتهم في عهود الإسلام إنما كانت على الظلم والجبروت وعلى التمرد على لدين الحنيف في سياسة الشعوب، وإنما ثورات إسلامية قد وقفوا فيه،ودعاهم إليها الدين الحنيف الذي يتمسكون به ويغارون عليه.

لقد ثار البربر على الدول لباغية لمتغطرسة الجاهلة بالسياسة، تلك الدول التي لا تعاملهم على حسب مزاجهم، ولا تحترمهم، والتي تجهل أو تتجاهل طبعهم،وتجبرهم على ان يعيشوا كالحوت في الماء، وهم صقور السماء، وتتجبر عليهم وتحتقرهم، وتمرغهم في الغبراء وهم نجوم الخضراء.[22]

ان ثورات المغرب على الاستعمار اللاتيني لحديث، ولروح الثورية الموجودة فيه، والشجاعة الممتازة التي يتصف بها، من وراثة أجدادنا الأمازيغ في دماء أهل المغرب وقد ضاعفت تلك الوراثة الزكية وأيدتها في عروق لمغرب الماء العربية التي أورثتنا شجاعة العرب أيضا وإباءهم، وأججتها قوة الإسلام الذي يورث لأبنائه العزة والأنفة والإباء !

ثبات البربر على الصداقة ووفائهم البالغ للأصدقاء

ولبربر ذوو نقوس اجتماعية، يهوون الاختلاط بالأمم، ويصادقون غيرهم، ولكن في تحفظ وأناة. أنهم لا يسارعون إليك فيصادقونك في ساعة، ويمتزجون بك في يوم، ويثقون بك ويطلعونك على أسرارهم في لحظة، كما تفعل الشعوب الضعيفة، بل هم لا يصادقون غيرهم إلا بعد الاختيار ولامتحان، وإلا بعد ومن طويل يعجمون فيه عوده، ويدرسون فيه أحواله، وإذا ارتضوا أحدا وأحبوه، اخلصوا له، وأزلوا الكلفة معه، وامتزجوا به كل الامتزاج، وفدوه بالنفس والنفيس، وثبتوا على حبه، ووفوا له كل الوفاء، وكانوا له على ما توجبه الصداقة المتينة والحب المكين. لا يعبسون له إذا كشرت له الأيام؛ ولا يتغيرون إذا نغير له الدهر أنهم ذوو وفاء للأصدقاء، يشهد بذلك تاريخهم، وما نجد إلى الآن من حلة الوفاء والثبات على الحب في أحفادهم. وهل المغرب إلا صورة لأولئك الأجداد، وهل دماؤه إلا ماؤهم، وهل خلاله إلا وراثتهم سقلها الدين الحنيف، وأيدتها الدماء العربية التي امتزجت بدمائهم في عروقنا؟ !

22 - الخضراء السماء كما هو مشهور في العربية، وكما ورد في القاموس.

لقد شهد ابن خلدون بالوفاء للبربر، وجعله من خلالهم الأصيلة. وهو اعرف بهم لقد عاشر دولهم في المغرب، وحفظ من أخبارهم، وعرف من شخصيتهم ما لم يعرفه غيره من المؤرخين الذين بقيت لنا آثارهم.[23]

وقد الصق الشيخ عبد الرحمن الجيلالي بهذا الجنس الكريم تهمة هم ابعد الناس عنها. لقد صف البربر بعدم الوفاء وأكد هذا الوصف بالدعوى الباطلة، فخالف التاريخ الصحيح فيما روى، وخالف الحضر الذي نرى فيه خلال أجدادنا الأمازيغ فيما اثبت، وعق أجداده، ولم يكن على البر ولا على الإنصاف، وارتجل حكما خاطئا دل على بساطته في التفكير، وعلى ضعفه في الدراسة، سيما دراسة الأمم وتحليل لنفوس، وهو ما يجب على المؤرخ ان يحسنه، لتصبح أحكامه، ويتحفنا بالجيد في التاريخ، ويأتي بما يليق بالعصر، وينفع المجتمع، ويزيده صفاء وإخوة، وتحابيا، فيكون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا. قال الشيخ عب الرحمن الجيلالي في أثناء حديثه عن البربر في كتابه (:تاريخ الجزائر العام) : «سال سليمان بن عبد الملك موسى بن نصير عن البربر فقال: يا أمير المؤمنين هم أشبه الناس بالعرب لقاء، ونجدة، وفروسية وسماحة، وبادية، غير أنهم اغدر الناس لا وفاء لهم !» هذا كلام موسى بن نصير فقال بعه الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي يؤكد هذه التهمة،ويصادق على هذه الدعوى، ويشمل الحاضر بما وصف به موسى بن نصير ماضي أجدادنا العتيد، فكان أكثر حقدا من موسى، وأوقع في الخطأ منه، وأحق باللوم والتعنيف، لان موسى حقد على البربر الذين يراهم جنسا بعيدا عنه لثوراتهم عليه لظلمه، وازوراره عن طريق الدين، أم عبد الرحمن الجيلالي فيسيئ إلى أجداده، ويصف حاضر المغرب الذي و جزء منه، والذي لم ير من إلا الرعاية الحسنة، وإلا الحضانة الكريمة حتى صار من المثقفين، واستطاع ان يسمك القلم فيكتب. قال الشيخ عبد الرحمن الجيلالي مؤكدا وصف موسى بن نصير لأجداده البربر بعدم لوفاء: «ويشهد الله ان موسى لصادق فيما قال. وما كان تصديقي إياه إلا عن تجربة واختبار طويل، ودراسة عميقة لنفسه هذا الشعب في جميع مواقفه قديما وحديثا !!».[24]

لقد استعمل الأستاذ عب الرحمن الجيلالي عقله مرة واحدة في كتابه فجاءنا بهذه الفلسفة البديعة، وأتحفنا بهذا الاختراع العظيم. هلا التزم عادة النقل التي واظب عليها في كتابه، وسكت عن هذا الاستنتاج لذي يدل على ضعف في التفكير، وجهل بالتاريخ. ان موسى بن نصير قصد بما وصف به لبربر ثوراتهم عليه وعلى الدولة الأموية التي شرحنا ظلمها للبربر، وسياستها الخاطئة للمغرب، ومخلفة بعض عمالها وملوكها

23 - انظر شهادة ابن خلدون بالبربر للوفاء وبقية الأخلاق الكريمة في ج 6 ص 104 سطر 11 ط بولاق بمصر.

24 - تاريخ الجزائر العام ج 1 ص 50 ط المطبعة العربية بالجزائرية 1372هـ 1953م.

لدين الله، ولما توجيه الحنكة السياسة في معاملة البربر وسياستهم.[25]

لقد كان موسى بن نصير بعفته وحبه للمادة، واحتقاره للبربر أول عامل أموي خلق العداوة القائمة في قلوب أهل المغرب للأمويين. وما ثورات المغرب العارمة على الأمويين في عهد هشام بن عبد الملك بعد موسى بن نصير، وثورته العارمة على العباسيين بعد نشأة دولتهم إلا من عداوة البربر وحقدهم على الأمويين والعباسيين لظلمهم، وتجبرهم، ومخالفتهم للدين في سياستهم. وكان أول من وضع أساس هذه العداوة بظلمة وتجبره، ومخالفته للدين من عمال الأمويين هو موسى بن نصير !

لقد كان البربر يكرهون موسى بن نصير، وكانوا يتحينون الفرص، ويرقبون غرته للوثوب عليه، وتطهير المغرب من الظلم والتعصب والتكالب على المال. وكان هو على حذر منهم لما يعرف من عداوتهم، وكان على أهبة الحرب دائما. فلهذا وصفهم بعدم الوفاء، ومأثوراتهم على الأمويين، وما ينوون من الثورة عليه من عدم الوفاء ولكن ما يدعوهم إليه آباؤهم وطبعهم الكريم، وما يندبهم ليه الين الحنيف الذي يأمر بإزالة الظلم وقمع الظالمين.

لقد وصف الرومان والروم البربر بحب لفوضى وعدم الرضوخ، لما رأوا تمردهم على استعمارهم وثوراتهم الوطنية الموفقة عليهم، وجاء موسى بن نصير فوصفهم بعد الوفاء لما رأى استعدادهم للثورة عليه.

لقد ثار البربر بعد موسى على الأمويين مرارا فهل كانت ثوراتهم لعدم الوفاء، وهل حروبهم لهم قد نشأت عن غدر وعدوان؟

كان لبربر في الدولة الأموية يثورون بعد الهدوء، ويضطرمون على الدولة نارا بعد السكون، ويعلمون للخروج من الظلم وسحق الجبروت كلما وجدوا لذلك سبيلا، وليس ذلك غدرا وعدم وفاء بالعهود التي يعطونه للوالي على السكون والطاعة وعدم الثورة، ولكنه حكمة المستعبد الذي يخضع أمام المستعبد المستبد، ويداريه بالطلاوة، ويريه جانب الحلاوة، ريثما يستعد لقطع أغلال الاستعباد ويجد فرصة للثورة على الظلم والجبروت، وإذا وجد فرصة للثورة لم يفلتها، فيزيح عنه الظلم والاستبداد والاستغلال ويبوء بحياة الكرامة والعزة. هذا ما فعله البربر لينعموا بالعدل الإسلامي الذي يرفرف عليهم، ويعيشوا أحرارا تحت علم الدولة الإسلامية المغربية التي تقوم على الإمامة الإسلامية، وتجدد للبربر المتمسكين بالدين كل التمسك عهد الخلفاء الراشدين !

25 - انظر ثورات البربر على الأمويين وأسبابها في الجزء الثاني ص 232 من كتابنا هذا الطبعة الأولى 1382هـ.

هذا هو ماضي البربر الذي شاهده الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي فلم يفهم مغزاه، ولم يعرف أسراره، فوصف البربر ظلما بعدم لوفاء ! أما الحاضر فلعل الأستاذ قد شاهد بعض الأفراد الذين نشأوا في العاصمة في عهد الاستعمار، فتلطخوا برذائله، وجردهم من دينهم، وأرسل فيهم سمومه، وصبهم في قالبه، وأثرت فيهم العاصمة ببيئتها، فابتعدوا في طباعهم عن أخلاق أبائهم واجدهم الإسلامية، فبقوا مسلمين بربري في أسمائهم وحدها؛ فرأى الأستاذ سلوكهم وتجردهم من الدين، فلم يرتض سيرتهم، ولعلهم قد واعدوه فاخلفوا، ولعله قد ائتمنهم فخانوا، فاغتاظ غيظا كبيرا، فحكم على جنسهم كله بنا رأيت !

إذا كان هذا هو الذي أثار ثائرة الأستاذ فلطخ بنعاله هاما كريمة، ورفس برجليه وجرها وقورة محبة، هي وجوه أجداده الذين تنكر لهم، فما أبعده عن الصحة في الأحكام، وما اضعف تفكيره ! لقد ذهب إلى مسارح الخيل الكريمة، فشاهد أبعارها فظنها أفراسا تصهل وترعى، فقال كل الخيل من جنس ما أرى !

انه ليس في عموم المغرب بربريا خالصا أو عربيا خالصا سيما سكان المدن والقرى القريبة من لمدن، أنهم جميعا أبناء لبربر والعرب، لقد امتزج الجنسان واختلطت دماؤهما في عروقنا، وان من يعد نفسه من آل المغرب كالأستاذ عبد الرحمن الجيلالي عربيا وغيره بربريا ليخطئ الخطأ الكبير، لعل الأستاذ قد عد بربرا خلصا من يتكلم البربرية من أهل الجزائر والمغرب، حتى هؤلاء جمهورهم يحملون الماء العربية في عروقهم، فأين البربر الذين عاشرهم أخونا عبد الرحمن فحكم عليهم ذلك الحكم الظالم !؟ لو زار الأستاذ المناطق التي تتكلم البربرية كوادي ميزاب في جنوب الجزائر، وجبال آوراس، وجبال القبائل،وجبال نفوسة، وجربة، والريف في المغرب الأقصى، وغيرها من المناطق الكثيرة التي تتكلم البربرية، وشاه تمسكها بالدين، وغيرتها عليه، وتمسكها بالأخلاق الإسلامية، سيما الوفاء بالعهود، والإخلاص في المحبة، وغيرها من الأخلاق الإسلامية العظيمة؛ أو زار تلك المناطق التي دافعت الاستعمار عن نفوسها فلم تتلطخ بقاعها بمفاسده كالعواصم، لعدل عن رأيه في البربر، والحكم بأنهم سادة الأوفياء، وأنهم العنصر المبارك القوي الذي كان أوتاد الدين والعربية في لمغرب فلم يستطع الاستعمار اقتلاعهما، وأنهم في بقية ميادين النضال الوطني كذلك، وفي ميادين البناء والتشييد كلها، هذا ما يدركه ويحكم به كل عالم بتاريخ المغرب، وهذا ما يحكم به كل عالم بحاضره، وكل من يعمل عقله لا أوهامه وعقائده التي ورثها من الكتب المغرضة، والمصادر المتعصبة التي شوهت تاريخ المغرب وأفسدته.

لقد وقع الأستاذ عب الرحمن الجيلالي في كتابه (تاريخ الجزائر العام) في أغلاط كثيرة من هذا لنوع، ونحن إذا تجاوزنا عما نقله من كتب لتاريخ المغرضة وقلدها فيه من ادعاءات باطلة تحط من شأن أجداده البربر، ولم تتعرض لها لأنها كثيرة تستلزم صفحات كثيرة، فإننا نحاسبه الحساب العسير على كل شيء يدعيه هو ليحط به من شأن هذا الجنس الكريم الذي يجب عل كل مغربي ان يصونه صيانة الأبناء البررة للآباء، ويحفظه حفظ المحاجر للمقل !

ثناء ابن خلدون على البربر

لقد كتب عن البربر مؤلفون كثيرون من عرب وإغريق ورومان، وكلهم أثنى على البربر وأعجب بهم، ومن عاشرهم، وسبر أغوارهم، وعرف كل المعرفة تاريخهم، وعاش في دولهم، وشاهد أمجادهم العلامة ابن خلدون، فإليك جزءا صغيرا من شهادته لهم، وثنائه عليهم، ليكون نصوصا وحجة لما وصفت به البربر في هذا الباب.

فال العلامة ابن خلدون: «وأما تخلق لبربر بالفضائل الإنسانية، وتنافسهم في الخلايا الحمية، وما جبلوا عليه من الخلق الكريم، مرقاة الشرق والرفعة بين الأمم،وسبب المح والثناء من لخلق، من عز الجوار، وحماية النزيل، ورعي الذمم، والوفاء بالقول والعهد ! والصبر على المكارم، والثبات في لشدائد، وحسن الملكة، والأعضاء عن العيوب، والتحافي عن الانتقام، ورحمة المسكين، وبر لكبير، وتوقير أهل العلم، وحمل الكل، وكسب المعدوم، وقرى الضيف، والإعانة على النوائب، وعلو الهمة، وابابة الضيم،ومشاقة الدول، ومقرعة الخطوب، وغلاب الملوك، وبيع النفوس لله في نصر دينه، فلهم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف، لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعيه من الأمم، وحسبك ما اكتسبوه من حميدها، واتصفوا به من شريفها، ان قادتهم إلى مراقي العز، وأوفت بهم على ثنايا الملك، حتى علت على الأيدي أيديهم، ومضت في الخلق بالقبض والبسط أحكامهم الخ...»[26].

ولعل القارئ يقول: ان الأمام ابن خلون يريد البربر في عهد الإسلام لما ورد من وصفه لهم ببيع لنفوس لله في نصرة دين، ولكنه من يقرأ الباب كله يعلم ان يريد البربر في كل عهودهم قبل الإسلام وبعده، ان وان أمكن ان يعني ابن خلدون لبربر في العهد الإسلامي فحسب، فان الفروع دليل على الأصول، والأحفاد مظهر للأجداد، والشخصية العظيمة، ولعبقريات الكبرى تورث ولا تكتسب، انها لا تظهر فجأة، ولا تولد كاملة،وإنما تنمو في الآباء، وتكمل في الأبناء، وإذا رأيت جيلا كريما فاعلم انه من الأصول لكريمة،

26 - كتاب العبر لابن خلدون ج 6 ص 104 ط بولاق بمصر.

لا يمكن ان يكون من الأرذال. ثم قال ابن خلدون يصف البربر في العصور الإسلامية: «وأما إقامتهم لمراسم الشريعة، وأخذهم بأحكام الملة، ونصرهم لدين الله، فقد نقل عنهم من اتخاذ المعلمين كتاب الله لصيانتهم، والاستفتاء في فروض أعيانهم، واقتفاء الأئمة في الصلوات ببواديهم، وتدارس القرآن بين إحيائهم، وتحكيم حملة الفقه في نوازلهم وقضاياهم، وإصغائهم لأهل الخير والدين من أهل مصرهم للبركة في آثارهم، وغشائهم البحر أفضل المرابطة والجهاد، وبيعهم النفوس الله في سبيله، وجاد عدوه، ما يدل على رسوخ إيمانهم، وصحة معتقداتهم، ومتين ديانتهم التي كنت ملاكا أعزهم، ومقادا إلى سلطانهم وملكهم». ثم قال ابن خلدون: «وأما وقوع الخوارق فيهم، وظهور الكاملين في النوع الإنساني من أشخاصهم، فقد كان فيهم من الأولياء المحدثين، أهل النفوس القدسية، والعلوم الموهوبة، ومن حملة العلم عن التابعين ومن بعدهم من الأئمة والكهان المفطورين على الاطلاع على الأسرار الغيبية، ومن الغرائب التي خرقت لعادة، وأوضحت أدلة القدرة، ما يدل على عظيم عناية الله بذلك الجيل، وكرامته لهم، بما آتاهم من جماع الخير، وآثرهم به من مذاهب الكمال، وجمع لهم من متفرق خواص الإنسان الخ...».[27]

تلك هي بعض أوصاف البربر الخلقية والعقلية ق جلوناها، وجلاها ابن خلدون في هذا الباب. وهي تصور شخصيتهم العظيمة،وأصلهم الكريم. فما هي الشخصيات التي نبعت منهم قبل الإسلام في مختلف الميادين، فكانت مظهرا لشخصيتهم، ومن الأدلة الكبرى على عظمة هذا الجنس، واقتعاده الذري في المكارم قبل الإسلام بقرون كثيرة؟

عباقرة البربر وأعلامهم قبل الإسلام

ان البربر من الأمم التي سبقت إلى الحضارة، وتثقفت وتعلمت. وقد انشأ البربر قبل الميلاد دولا كبيرة، ونبغ منهم رجال في مختلف الميادين. ونحن لا تستطيع ان ذكر كل من ورد ذكره في كتب التاريخ من ملوكهم وعلمائهم، ورؤسائهم، ولكن نقتصر على طائفة منهم. لتعلم صدق ما قلناه وقاله ابن خلون من عظمة الأمة البربرية وسبقها إلى الحضارة والعلم، واتصافه بكل الخلال الحميدة، لما كانت اغلب الأمم قبل الميلاد على سذاجة البداوة وعلى الجهل والفوضى.

كان البربر عباقرة في كل فن، في السياسة وفي الحروب، وفي مختلف العوم. فمن شخصياتهم العبقرية في السياسة الملك غولة، وصيقاقس، ومصينيسا، ومصيبسا،

27 - العبر لابن خلدون ج 6 ص 104، 105 ط بولاق بمصر.

ومن أبطالهم في الحروب وفي الدهاء يوغورطة، ويوبا الأول، وتقفاريناص، وفرموس، وجلدون. هؤلاء الصناديد الذين قارعوا امة الرومان، وركبوها بالهزائم في كل أنحاء المغرب. ولولا تحاسد البربر وتنافسهم لكانت أمام قواتهم كجدار الطين في وجه البحر الهائج، ولولا تفرقهم وعم اتحادهم ما استطاع الرومان ان يحتلوا المغرب ويستعمروه.

ومن عباقرة البربر في العلوم يوبا الثاني. لقد كان من العلماء الكبار في عصره وكن لرومان والإغريق يجلونه ويفتخرون بنبوغه، وقد أقاموا له التماثيل في الميادين الكبرى تخليدا له، واعترافا بجميله. وقد ألف يوبا الثاني باللاتينية كتبا في التاريخ وفي الطبيعة وفي النحو والموسيقى كانت من المراجع لكبرى عند الإغريق والرومان. «ومن رجال العلم أيضا فرنطونس. كان أستاذ الإمبراطور مرقس اوراليوس (الروماني) وله سمة بين جميع الطبقات في الفن الهندسي. وهو مولود بقرطة».[28]

ومنهم ابوليوس كان مخترعا كبيرا قال بيروني: «هو من أكمل الرجال وأعظمهم فائدة في عصره، وأحسن وصف له وأصدقه ان تقول: هو رجل مخترع مؤسس لمبان كثيرة» واصل ابوليوس من «مداوروش» في شرق الجزائر.

ومن رجال العلم والدين الذين نبغوا بعد الميلاد وبلغوا الذري الرفيعة في العلم،وفي الفصاحة والبلاغة، وفي التضلع في اللغة اللاتينية، القديس اغسطين. ولد بتغاست (سوق هرس) في شرق الجزائر، في القرن الرابع المسيحي وتعلم بمدوروش، وفي قرطاجنة، وعين قسابهبون (عنابة) في شرق الجزائر: قال بيروني :»ان اغسطين اخطب خطيب لطيني، واكبر مفكري كل زمان».

ومن علماء البربر وأعلامهم في الدين دونتوس مؤسس المذهب المسيحي الذي زاحم مذهب الارثوذوكس في المغرب، وانتشر انتشارا كبيرا في البربر.

وق بلغ البربر بطموحهم وعلمهم ودهائهم ونضوجهم في السياسة ان كان منهم أباطرة جلسوا على عرش روما، وهي لدولة المتعصبة لجنسها، الشامخة على غيرها، سيما الأمم التي تستعمرها مثل البربر. لقد كان (سبتمس سورس) البربري إمبراطورا لرومة في سنة 193 ميلادية، وقد خلفه على العرش روما ابنه (ثرقلا) وقد اعتنى هذان الإمبراطوران بالمغرب كل لاعتناء، وأنصفا البربر وساووهم بالرومان، فازدهر المغرب في عهدهما، وأقبلت عليه الأيام البيضاء. هذه هي بعض الشخصيات البربرية قبل الإسلام. أم في العصور الإسلامية فان علماءهم، وشعرائهم، وساستهم،وملوكهم، وزهادهم،

28- تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 225 ط بيروت 1963.

ونبغائهم في كل فن لا يحصون. ان كتب الطبقات والتاريخ ملأى بهم. سيما السير للشماخي، والطبقات للدرجيني، وسير الأئمة لأبي زكرياء، ومعالم الإيمان للدباغ، ورياض النفوس للمالكي وغيرها كثير.

ظلم المؤرخين القدماء للبربر

تلك هي شخصية البربر وبعض أعلامهم الذين يمثلون تلك الشخصية. وقد وقفنا في هذا الباب الذي يصور حقيقة لبربر وقفة. لان البربر امة مظلومة في التاريخ. ان ثوراتهم لتحريرية على الدول التي استعمرتهم، الرومان والوندال، والروم. وقد أطلقت السنة هؤلاء المستعمرين في البربر فوصفوهم بما ليس فيهم من العيوب. وقال فيهم مؤرخوهم قول المحنق المغتاظ والعدو الكاشح، وملأوا كتبهم بالأكاذيب على البربر فجاء أحفاد الرومان، هؤلاء المستعمرين اللاتينيون الذين تسلطوا على المغرب في القرن التاسع عشر، وفي القرن العشرين الميلاديين فرددوا تلك الأكاذيب، وتلك الدعاوي على البربر، وزادوا فيها، وصوروا ثوراتهم التحريرية الشريفة على غير حقيقتها وعللوها بغير سبابها، وقالوا أنهم ثاروا حبا للفوضى،وميلا إلى التخريب، ورغبة في السلب والنهب، وصوروهم كما يسول لهم حقهم الموروث، وغيظهم على هذه لجبال المغربية التي يرون حتوفهم وزوالهم عن المغرب كامنا فيها.

وثار البربر على الأمويين والعباسيين في المغرب، لما ظلموهم وتجبروا عليهم وحادوا عن دين الله في سياسة المغرب، ثار عليهم البربر ثوراتهم العارمة، وضربوهم الضربات القاصمة، وتحرروا منهم، واستقلوا، وأنشأوا دولهم الإسلامية العادلة التي تتمسك كل التمسك في السياسة بالدين، وتعمل لإسعاد لمغرب وازدهاره[29] فحقد هؤلاء العباسيون والأمويون وغيرهم على البربر، وبسطوا فيهم السنة السوء،وصورهم على غير حقيقتهم، وملأوا كتب التاريخ بالأكاذيب على البربر والدول البربرية العادلة. وجاء من بعهم فاغتر بما ورد في كتب التاريخ القديمة المسمومة، فقلد أولئك المؤرخين المغرضين في دعاويهم الباطلة على البربر، فصار البربر هم الأمة الكريمة الصالحة المظلومة في كتب التاريخ الإسلامية القديمة، وفي الكتب الحديثة المقلدة أيضا.

وما جعل الدعاية السياسة المغرضة تؤثر في البربر قضاء الدول المستبدة على تراث الدول البربرية الإسلامية الأدبي والتاريخي بالخصوص، فانعدم جل المصادر التاريخية

29 - انظر ثورات لمغرب على الأمويين في الجزء الثاني من هذا الكتاب من صفحة 319 إلى 232 وثوراته أيضا على العباسيين في الجزء الثالث من هذا الكتاب من صفحة 42 إلى 82 الطبعة الأولى 1382هـ.

النزيهة التي تصور حقيقة البربر وتخلد أمجادهم ومآثرهم التي جعلهم من أكرم الأمم التي يفتخر بها العالم الإسلامي.

عيوب البربر وأمراضهم النفسية

تلك هي بعض مآثر البربر، وصفاتهم الحسنة قد ذكرنها في هذا الباب. فما هي صفاتهم السيئة، والداء الذي قتلهم، وهدم دولهم قبل الإسلام، وكان أيضا سببا لتداعي كثير من ولهم الإسلامية؟ انه داء البشر جميعا، والطبع القتال الذي هدم لدول كلها. انه الحسد والحقد. هذا الحسد وهذا الحقد اللذان استطاع الرومان بهما ان يفرقوا جماعتهم، فضعفوا، فتغلبوا عليهم فاستعمروا بلادهم، وأججوا عليهم نيرانهم وويلاتهم، وصبوا عليهم كل بلاء. فلو خلت صدور ملوكهم من الحسد لاتحدوا، وتغلبوا على الرومان وكانوا هم الأمة التي تصرع روما التي التهمت جيرانها كلهم. فان البربر كنوا في الشجاعة، والفروسية، والاستماتة في الحروب أكثر من الرومان، ولكن الحسد فرق صفوفهم، وأبطل خصائصهم العظيمة، وجعل شجاعتهم وقوتهم عليهم بلاء. فان الأخ أصبح يغمد سيفه في أخيه لا في عدو الوطن، ويفكر في القضاء على أخيه ليخلو له الجو، ويستأثر بالملك. قد أعماه حب الرئاسة عن أخطار المستعمرين التي تحدق به، لا يكتسب ود أخيه بالصفاء والإيثار، فيستعين به على عدو المغرب الذي يتربص بهم الدوائر، ويستعد للانقضاض عليهم، ليجعلهم تحت قدميه.

ان لبربر كنوا امة متحاسدة لأنهم شعب قوي الشخصية، معتدون بأنفسهم كل الاعتداد،كل منهم يرى نفسه أولى بالتقدم والرفعة، وبالزعامة، والرئاسة، فكان الحسد فيهم أكثر.

ومن عيوب البربر وآفاتهم الكبرى الحقد. فإنهم لا ينسون الإساءة بسرعة، بل يحقدون، فيفرق الحقد جماعتهم، وينغص حياتهم، ويحرمهم من نعمة الهناء والطمأنينة التي حفهم الله بأسبابها في المغرب الجميل.

ان الحقد توأم الحسد ينبعان من أصل واحد، وتخلقهما في النفس غريزة واحدة هي غريزة السيطرة وحب الظهور القوية في البربر لقوة شخصيتهم. أنهم يعتدون بأنفسهم كل الاعتداد، وترى البربري يرى نفسه أقوى من ان يظلم أو يهان، واعز من ان يهم له حق، أو تناله إساءة احد. وإذا أذنب إليه خوه اغتاظ واحتدم فينتقم أو يضمر الانتقام.

ان البربر وان كنوا يحقدون إذا غضبوا فإنهم لا يغضبون بسرعة. أنهم يضبطون أنفسهم، فغضبهم بطئ لا يشتعلون بسرعة، وإذا اشتعلوا فإنهم لا ينطفئون بسرعة. أنهم كالفحم الحجري بطئ الاشتعال بطئ الانطفاء إذا تأجج نارا !

ومما أروثه الاعتداد بالنفس، لقوة الشخصية للبر التمسك بالرأي إلى درجة العناد. أنهم يناضلون عن آرائهم في قوة وثبات بالحجة والبرهان، كما يناضلون عن أوطانهم بالسيف والسنان. فهم في ميدان المناظرة على الثبات والقوة وشدة الشكيمة التي يتصفون بها في ميادين الحرب والقتال.

وقد غير الإسلام من نفوس البربر، وكسر من حدة الحسد والحقد في نفوسهم، واشربوا نور الله فغسلهم من هذا الوضر، وأزال السبب الذي كان يمنعهم من الاتحاد، ويعوق المغرب الكبير من التآزر، فأصبحوا بنعمة الإسلام إخوانا، وصاروا بفضله بنيانا مرصوصا بشد بعضه بعضا. فكونوا دولهم الإسلامية العظيمة الني رفعت راية الدين والعدل الإسلامي وأصبحت غرة وضاحة في جبين الأمة الإسلامية.

تلك هي شخصية البربر كما يمثلها تاريخهم في مختلف ادوراهم. قد آثارنا ان نبسط الكلام فيها في هذا الباب فلا تقتصر على حالهم في العصر الحجري وفي أيام طفولتهم لكي لا عود إليها في الأبواب التالية. فان العودة تتداخل بها الأبواب. ويتوزع بها الكلام في الموضوع الواحد في فصول شتى فيسرع إليه النسيان. هذه الشخصية العظيمة التي ستراها في الأبواب المقبلة جلية في أعمال البربر في البناء والتشييد. وفي النضال والجهاد الوطني، وفي كل الأعمال التي أخرجت البربر من البداوة إلى الحضارة. ومن الجهل إلى المعرفة.

لقد كان أجدادنا الأمازيغ في ظلمات الجهل وعلى بساطة العهود الحجرية. فمن الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور، وكان الأستاذ المخلص البارع الذي ثقفهم واخذ بأيديهم إلى القمم الرفيعة؟ من هذا الجنس الكريم الذي اختلط بالبربر اختلاط ماء المزن بالتربة الكريمة فأخصبت، وطلع عليهم طلوع الصباح الوضاح فمسح عيونهم بمناديل النور فتفتحت للحياة؟ أنهم الفينيقيون الكرام. فما أصلهم وأين موطنهم، ومتى جاءوا إلى المغرب فأسسوا دولتهم البونيقية التي كانت للمغرب جهاز الطائرة العتيدة. ركبه الله فيه، فهدر كالرعد، وكان له دوي في العالم أناله الشهرة الواسعة وانطلق كالعاصفة فوصل الغابات الكبرى وتبوأ القمم الشماء !

الدولة البونيقية

814-146 ق.م

الفينيقيون

هم فخر البشرية وتاجها، وحاملو نبراس الحضارة إلى الأمم الأوروبية، ومنفذو أوروبا من ظلمات لهمجية،وهم فاتحو البحار بالأساطيل لتجارية، ومكتشفو كثير من البقاع المجهولة بمغامراتهم في لبحار والبراري.

وكن الفينيقيون لدول امة مسحت عن لبربر بداوة العصر الحجري، وأثرت فيهم بحضارتها، فانتقلوا من دور البساطة في الحياة إلى ادوار راقية أسسوا فيها ممالك، وبنوا حضارة، وزاحموا جيرانهم في المدينة في المدينة الراقية.

وطنهم

وسمي الفينيقيون فينيقيين نسبة إلى وطنهم (فينيقيا) وهي قطعة من الشام مستطيلة على سيف البحر الأبيض المتوسط، يفصلها عن بقية الشام جبل لبان: وفينيقيا هي بلاد لبنان اليوم.

وقد نزل الفينيقيون في ذلك المكان فاستوطنوه منذ ثلاثة آلاف عام قبل ميلاد لمسيح عليه السلام، وهم امة قليلة العدد، ولكنها عملت في التاريخ القديم أعمالا جليلة لا تحصى.

أصلهم

الفينيقيون امة سامية من ولد كنعان بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام، فهم إخوة العرب، وفرع منهم، وبطن من أرومة كنعان العتيدة، لا يميزهم عن عرب الجزيرة إلا سيما البيئة الجديدة، وما أورثته لهم مغامراتهم وأسفارهم من ثقافات وحارات.

وكان الفينيقيون كبقية إخوتهم في جزيرة العرب، فانتقلوا إلى الشام مع بني كنعان لما هاجروا ليه، فاتخذوه وطنا فعمروه فصار منسوبا إليهم، وقد اختص الفينيقيون بذلك الشريط الذي يفصله عن بقية الشام جبل لبنان.

شخصية الفينيقيين

وكانت بيئة الفينيقيين الطبيعية سبب عظمتهم، وعامل تفوقهم، وخروجهم من

الفقر إلى الغنى، ومن الجهل إلى نور العلم والحضارة. فان لبنان كان جبالا قفراء ضيقة، لا يكفي أهله، فألجأهم إلى الأسفار والمغامرات في سبيل التجارة قديما كما يلجئهم في العصر الحاضر. فهاجروا إلى أطراف الدنيا. فتجدهم في أمريكا، وتراهم في أوروبا، وتجدهم في أنحاء افريقية، يتاجرون، ويزاحمون كل الأجناس في الميادين العلمية الشريفة.

وقد هاجر الفينيقيون كأحفادهم ليوم،وسافروا وغامروا في سبيل التجارة، فأفادتهم هجرتهم وأسفارهم البعيدة، فاتصلوا بالأمم الراقية في ذلك العصر كالمصريين، والهنود، والصينيين فتأثروا بحضارتهم، ونقلوها إلى بلادهم فصارت فينيقيا في العالم القديم أغنى البلاد، وأسعدها، وأكثرها علما وحضارة وتقدما.

فضل الفينيقيين على الإغريق وعلى جنوب أوروبا

وكان الفينيقيون ينقلون حضارة الشرق القيمة إلى كل بلد قصدوه للتجارة، فكانوا أساتذة الإغريق، وحملي نور لعلم والمدينة إلى جنوب أوروبا، فاطلعوا على مدينة الشرق التي كانت أول مدينة في العالم فاخذوا بها، فتفتحت عيونهم، وذاقوا نعيم المدينة وحلاوة الحضارة، فانسلخوا - سيما الإغريق- من جهالتهم التي كانوا عليها،ومن الشقاء والهمجية التي كانوا يرسفون في أغلالها.

وكان الفينيقيون متخصصين للتجارة، فبرعوا فيها كل البراعة، وحذقوها كل الحذق، ونجحوا فيها كل النجاح، لا تصافهم بكل الصفات التي تستلزمها التجارة الناجحة، من علم، ودماثة في الخلق، ومسالمة في الطبع،وحسن في المعاملة، وحرص على اكتساب قلوب الناس، ونيل الشهرة والسمعة الحسنة في الأقطار.

وكان المثل الأعلى الذي يستولي على قلوب الفينيقيين، ويكون شخصيتهم، ويوجههم في سلوكهم ماديا، وهو الغنى الوافر، والثروة الواسعة بواسطة التجارة والصناعة. فلذلك برعوا في كل العلوم التي تستلزمها التجارة والصناعة، من حساب وجغرافية، وعلم بالمعادن والكيمياء، ومعرفة أذواق الأمم، وطباعهم وغير ذلك من الفنون التي تستلزمها التجارية الواسعة، والصناعة الراقية.

ان الفينيقيين في الأخلاق كانوا على القوة في الصفات التي ذكرنا، ولكنهم ضعفاء في خلق عظيم، وفي ناحية مهمة في الحياة نجد التاجر في كل العصور ضعيفا فيها، وهي الشجاعة الحربية التي تستلزم الهجوم والصدام، والعنف والشدة، وهو ما يتنافى مع مصلحة التاجر حيانا، ويغاير طبعه المسالم، وما يحرص عليه من نيل رضى كل لناس، وحب الطوائف والأجناس.

وقد أورث للفينيقيين حبهم للمادة وتمجيدهم لها ما يتصف به الأغنياء في أوطانهم من كبر وشموخ، واحتقار للغرباء، وعد مبالاة بالضعفاء. هذه الصفات التي ستلازم أحفادهم البونيقيين فتكون سبب نفور البربر عنهم، وثورتهم عليهم.

لغتهم

وللفينيقيين لغة سامية هي أخت العربية والعبرية. لذلك كانت لفاضها بينهما للأصل الواحد، ولاختلاط الكنعانيين بالعبرانيين في الشام، فتأثرت عربيتهم بالعبرانية.

دينهم

وكان لفينيقيون كالبربر يعبدون أشياء كثيرة،ومنها الشمس، يسمونها بعل وهو اكبر ألهتهم، وله تمثال كبير من نحاس ذراعيه فإذا أرادوا استرضاءه والتقرب إليه أوقدوا فيه نارا حتى تحمر يداه الحديديتان، ثم يعون أطفالهم عليهما فتنخفض الذراعان، فيتدحرج الطفل في حفرة النار، فيحترق بين يدي الإله الذي يرجون رضاءه بذلك. ان التضحية بالأولاد عادة في الفينيقيين. وكانوا إذا بنوا دارا قربوا لإلههم (بعل) قربانا وهو صبي صغير يضعونه في حفرة الأساس، ثم يقيمون بناءهم على تلك الضحية التي يسترضون بها الرب ليبارك في البناء، ويتطول بالزيادة والنماء. وإذا داهمهم خطر سارعوا إلى استرضاء (بعل) بتقديم القرابين من أبنائهم الأعزاء.

مآثر الفينيقيين

والفينيقيون هم أول من بنى الأساطيل التجارية، وغامر في البحار إلى الأقطار النائية. وقد سلكوا في اليم طرقا لم يسلكها قبلهم إنسان، وتعرفت إليهم الأمواج فالفتهم وألفوها، فصاروا أبناء البحر لا يجدون الأنس إلا في زئير أمواجه، اصطخاب مياهه. وق توغلوا في البحر وابعدوا في الرحلة حتى بلغوا الهند والصين في الناحية الشرقية، والجزر الانكليزية في جهة الشمال.

وهم أول من اخترع الحروف الهجائية بع ان كانت الكتابة تصويرية قاصرة، ففتحوا للعقل الإنساني مجالا ضمن له الرقي والخلود، وقدموا للبشرية اختراعا ضمن لهم التواصل وان كانوا بعداء، والتخاطب والتفاهم وان فصلت ينهم أقطار الدنيا. ولولا الكتابة لكانت الدنيا على قصور الأبكم الذي لا يعرف غيره معانيه. فهي اختراع عظيم

دونه القنبلة الهيدروجينية والصواريخ، وكل الاختراعات البديعة التي يفتخر بها الغرب على الشرق. وقد اخذ الأوروبيون حروفهم من الفينيقيين وقلدوهم فهم الذين قدموا إليهم هذا الاختراع.

وقد استفاد الفينيقيون من الاتصال بالأمم الراقية فاقتبسوا منهم أساليبهم في التجارة ومهارتهم في الصناعة، فازدهرت الصناعات في مدنهم، وبلغوا فيها أعلى الرجات. وكانت مصنوعاتهم غاية في الدقة والإتقان. وقد برعوا في الحياكة، وفي الصياغة، وفي صنع الزجاج المزخرف، والأسلحة، وغير ذلك من المصنوعات التي تروج في مختلف الأقطار.

حكومتهم

وكانت حكومة الفينيقيين اتحادية، لكل مدينة من مدنهم الكبرى ملك يحكمها، وللجميع مجلس عمومي واحد يجتمع في العاصمة (صور) وهم يخضعون له وينفذون قرارته.

تلك هي شخصية الفينيقيين وبعض خصائصهم، ومآثرهم، فكيف تعرفوا إلى المغرب، وقويت علاقاتهم به حتى انتقلوا إليه؟

انتقال الفينيقيين إلى الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط

كان الفينيقيون في أول أمرهم متجهين في تجارتهم في البحر الأبيض المتوسط إلى حوضه الشرقي. فأسسوا مراكز في جزيرة قبرص، وعلى ضفاف البحر الأسود، وفي القفقاس. ولما نهض الإغريق نهضتهم الكبرى، وصحوا من جهالتهم بفضل الفينيقيين الذين اتصلوا بهم ففتحوا عيونهم، نازل هؤلاء الإغريقيون أساتذتهم الفينيقيين في ميدان التجارة والحضارة والعلوم، فاستولوا على الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، فاحتلوا أسواقه، واحتكروا التجارية فيه، وكثروا للفينيقيين وكان الفينيقيون مسالمين فتركوا للإغريق الناحية الشرقية من البحر الأبيض المتوسط فاتجهوا إلى الحوض الغربي منه. فاتصلوا (بليبيا)[30] وبشواطئ المغرب كلها، فأسسوا فيها مراكز للتجارة

30 - المراد بليبيا هو ما يطلق عليه هذا الاسم الآن وهو طرابلس وبرقة

ومرافئ للسفن. ثم احتلوا جزر تلك الناحية فاتخذوها قواعدهم فأنشأوا مراكز لهم في صقلية، وسردانيا، ومالطة، وفي الجزائر الشرقية في الأندلس وقد بلغوا الأندلس وأنشأوا فيها مراكز تجارية، وبنوا فيها مدينة (قادس) لق تعرفوا إلى الحوض الغربي كله شماله وجنوبه، واتصلوا بأهله،واستولوا على أسواقهم ببراعتهم في التجارة، ومعاملتهم الحسنة،ونواياهم الطيبة نحو الشعوب.

مرافئ الفينيقيين ومراكزهم التجارية في المغرب

وق أسس الفينيقيون لسفنهم وتجارتهم من البربر مرافئ ومراكز تجارية على شاطئ المغرب من برقة إلى المغرب الأقصى، قيل انها بلغت ثلاثمائة مركز. واهم المراسي البحرية اليوم في المغرب الكبير من إنشاء الفينيقيين، ودلك لعلمهم بساحل المغرب، وخبرتهم بالملاحة، ودرايتهم بالمرافئ الآمنة التي تصلح للأسطول الكبير.

ومن مرافئ الفينيقيين في المغرب، ومراسيهم الكبرى: لبدة في شرق طرابلس وطرابلس، وصبرة وقابس، وحضرموت (سوسة) وعوتيقة، وبنزرت، وطبرقة وهذه الخمسة الأخيرة في تونس.

أما الجزائر ففيها من مراسيهم الكبرى (هبون) وجيجل، وصلداى، (بجاية) واقسيوم، (الجزائر) وشرشال، ووهران.

أما في المغرب الأقصى فطنجة، وسلا، والدار البيضاء، وغيرها.

وكان الفينيقيون ينشئون قرب هذه الموانئ أسواقا للتجارة، يعرضون فيها بضائعهم على البربر، ومخازن للبضاعة، وبيوتا يسكنونها أيام قامتهم في تلك الناحية للتجارة، أو للاستراحة، فنشأت بهذا على الشاطئ المغربي والأندلسي قرى عديدة ازدهر بعضها حتى صارت مدنا كبرى كعوتيقة في غرب قرطاجنة على الساحل فإنها كنت عاصمة شمال افريقية، وعروس تلك النواحي حتى تأسست قرطاجنة فاخملتها، وكقادس في الأندلس.

علاقة البربر الحسنة بالفينيقيين

وقد رحب البربر بالفينيقيين لما رأوا من حسن معاملتهم وطيب نواياهم،ولما يستفيدون منهم من أساليب الحضارة، وألوان المدينة. كما أحسن الفينيقيون إلى البربر لمعاملتهم الجميلة، وباصطناع رؤسائهم بالهدايا والاحترام، وبالتبجيل والإعزاز، فتوثقت

الصداقة بين الجنسين. فوج الفينيقيون في المغرب أحسن الأسواق،وكان البربر أحسن الزبناء، وأكرم المعاشرين؛ فانتعشت تجارة الفينيقيين وازدهرت وأصبح المغرب وجهتهم في التجارة، ومعدنهم لغنى في المواد الخام التي يحتاجونها في الصناعة. وأصبحت الأساطيل الفينيقية التي تغدو وتروح مثقلة بالصادرات والوردات هي السحائب الروية التي يرقب البربر في المغرب طلوعها،وترقب فينيقيا إقبالها غير أنهم يرقبون طلوعها في زرقة البحر متهادية، لا في زرقة السماء مرعدة.

وكانت التجارة بين البربر ولفينيقيين مقايضة. يأخذ الفينيقيون من البربر الأنعام والصوف، والجلود، وريش النعام، والعاج، والصمغ، والزيت، والحبوب التي يتزودون بها، وغير ذلك من سلع المغرب في ذلك الزمان، ويدفعون إليهم من مصنوعاتهم، وما يجلبونه من المشرق، كالثياب المصبوغة، وأواني الزجاج والفخار، والأسلحة، والخمور، وغير ذلك من السلع التي يقتنيها البربر للضرورة أو للزينة.

ان البربر امة ذكية طموح نحت لحضارة، وتغرم بالجمال ولهم ذوق كونته فيهم بيئتهم الطبيعية الجميلة. لذلك رحبوا بالفينيقيين الذين حملوا إليهم الحضارة، ورأوا فيهم جمال المدينة.

وكان الفينيقيون يختلطون بالبربر اختلاطا كبيرا. وكانوا يغشون قراهم، ويمتزجون بهم في الأسواق. وكانوا يستعملون جماعات كبيرة من البربر في شحن السفن وإفراغها، وفي الحراسة، وفي كثير من الأعمال التجارية الأخرى. وقد كان هذا من أسباب امتزاج البربر بالفينيقيين وتدربهم على كثير من الأعمال الفينيقية وصناعاتها.

وقد ظل الفينيقيون جماعات تجارية منبثة في ساحل المغرب الطويل من غرب الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي، ليس لهم من المنشآت إلا مراكزهم التجارية التي شاركهم البربر في بعضها فصارت مدنا آهلة، كمدينة (عوتيقة) في غرب قرطاجنة، وليس لهم رابطة في المغرب كرابطة الدولة تجعلهم في مكان واحد متحدين، حتى نشأت الدولة البونيقية فجمعت شتاتهم، واستظلوا جميعا بظلها، وتفتحت وأشرقت في المغرب بالعلم والمدينة الراقية. فنفخت في البربر روح الحياة، فهبوا إليها مستبشرين كما يهب البازى لنور الصباح. فاقتبسوا من علمها وحضارتها، فدخلوا في ربيعهم، وأمسوا كالبونيقيين في العلم والحارة والرقي. فكيف نبتت هذه الدولة البونيقية المباركة التي بذر بذورها في المغرب هذه الجماعات الأولى من التجار الفينيقيين؟

نشأة الدولة البونيقية

كان الفينيقيون في القرن التاسع قبل الميلاد قد بلغوا في الحضارة ولغنى الذري الرفيعة، فانغمسوا كل الانغماس في النعيم، وأطلقوا العنان لشهواتهم، فأصابتهم أمراض الحضارة والانغماس في الملذات، فانحلت أخلاقهم، وسلطت عليهم الأنانية والحسد، واستولى عليهم حب المادة فصار كل امرئ في الدولة -سيما الطبقات الارستقراطية- يعمل لنفسه لا يبالي بالمصلحة العامة، وبسلامة الدولة، فكثرت الفتن الداخلية في فينيقيا، وتناحر الناس وتقاتلوا على الرئاسة والأموال. فانعم الصفاء، وشاع الظلم والعدوان وسادت سياسة الغاب فيها، فصار القوي يأكل الضعيف والمحروم يحسد المحظوظ، والمرؤوس يعمل للثورة على الرئيس.

وكانت فينيقيا إلى هذه الفتن الداخلية آلت تنهكها، وتصنع لا زوالها، قد أصيبت بأعداء أقوياء من الخارج يهاجمونها، ويقضون مضجعها بعدوانهم وحروبهم العارمة التي لا تخبو. وكان من أولئك الأعداء الذين يقلقون راحة فينيقيا في هذه العهود الآشوريون في العراق.

وكانت طبقة الشباب المثقف في فينيقيا سيما في العاصمة (صور) تحب الهدوء والاستقرار، ان عملهم هو التجارة والصناعة وإنماء الأموال، فرغبتهم الشديدة، وأملهم الكبير ان يعم السلام ربوعهم، وتهدأ الأيام؛ ولكن فينيقيا مريضة بفساد النفوس. انها قد دخلت في هرمها فلا يمكن شفاؤها من الهرم . لابد من مكان آخر بعيد عن فينيقيا يجدون فيه الهدوء، ويليق لبناء الدولة التي يريدون. أنهم يعرفون المغرب وجماله، سيما افريقية وخصبها وبهاءها، ويعرفون البربر وكرم نفوسهم، وحسن عشرتهم، وترحيبهم بالفينيقيين، فصار المغرب متجه أنظارهم. بودهم لو انتقلوا إليه جماعات كبرى فاستقروا فيه، وأنشأوا فيه الدولة الفينيقية التي تسعدهم وتتسع لطموحهم. وظل هذا الأمل يراود كثيرا من شباب فينيقيا الطموح، ويجيش في صدور كثير من خاصتها وذوي الرأي والتدبير فيها. حتى انتقلت عليسة ديدون إلى المغرب فانتقل ذلك الشباب الصالح الطموح معها، وتلاحق بها كثير من خاصة فينيقيا وذوي المواهب ولكفاءة والثروة فيها فاستوطنوا المغرب، فنشأت فيه دولتهم. فما هي الأسباب التي جعلت عليسة ديدون تفر إلى المغرب وتستقر فيه؟ ان السبب الأول والأصيل هو القلاقل في فينيقيا، وهرم فينيقيا، ومرضها بأمراض الحضارة والانغماس في الملاذ. فرات عليسة

بثاقب نظرها ان المغرب أحسن لها. ومجاورة البربر الذين لا زالوا على الفطرة اسعد لها من مجاورة هؤلاء الماديين المتحاسدين من قومها. ذا هو السبب الأصيل في انتقالها إلى المغرب. ومع هذا السبب الأصيل سبب آخر مباشر جعلها تحزم الحقائب، وتمتطي غوارب الأمواج، وتسرع إلى المغرب الهادئ الجميل. فما هو السبب المباشر لنفور الغزالة من كناسها، وإيثارها المغرب وطنا لها، والأمازيغ أهلا لها، وجيرانا يسعدونها؟



فرار عليسة ديدون إلى المغرب وبناء مدينة قرطاجنة

شخصية عليسة

كانت عليسة امرأة شابة فينيقية الأصل يجري في عروقها دماء الملوك. وكان أبوها (مطو) ملك صور عاصمة فينيقيا. وكان داهية قوي الشخصية فورثت عليسة منه دهائه وقوة شخصيته.

وكانت عليسة إلى ذكائها وقوة شخصيتها جميلة بارعة الجمال. فرغب فيها عمها الكاهن، وكان أعظم شخصية في الدولة بعد الملك، فتزوجها. وكان هذا لكاهن غنيا كثير الأموال والكنوز. وكان وجيها يحبه الناس ويجلونه لماله ولوظيفته الدينية. قال الدكتور توفيق الطويل: «فمات (مطو) ملك صور فعين ابنه بيغماليون خلفا له في الملك. وكان فتى يافعا. وكانت لبنته غاية في الحسن والجمال، فبني بها خالها (وقيل عمها) عاشرباص وهو كاهن (هيرقليس). وكان مهيب الجانب، موفور الحظ، لا يعلوه بين الشعب إلا الملك وحده. وكان إلى هذا ثريا عري الثراء. وقد خاف على أمواله الطائلة من غائلة الملك وحشمه، ومن الحاسدين له، فخبأها في الأرض بعيدا عن مسكنه».[31]

وكان بيغماليون يعرف كنوز عمه (عاشرباص) فبلغ خبر دفنها في الأرض، فعزم على الحصول عليها، فاستشاط غضبا على عمه عاشرباص ورآه عقبة في سبيل هذه لكنوز، كما حسده لما يتمتع به في الشعب من حب واحترام. من يدري لعل الشعب يسأمه لسوء سياسته فيتجه إلى عمه فيتوجه بدلا منه، فيصبح هو الملك على صور. لابد من إزالة هذا الرجل الذي يمنعه من الوصول إلى كنوزه المخبأة، ويشاركه في حب الشعب وتقديره. فاخترط بيغماليون المالك لطاغية سيفه فقتل عمه عاشرباص !!

وكانت عليسة ذكية حازمة. وكان لها أعوان وحاشية من الشباب المثقف الشجاع في صور، وكان معها أيضا كثير من خاصة صور وذوي الغيرة والذكاء والشجاعة فيه. فأعانوها وشدوا أزرها، فحملت كنوز زوجها المخبأة فهربت هي وحاشيتها من الشباب

31 - قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة ص ١٧ ط الثالثة بالقاهرة وقد تصرفنا في عبارة النص لينسجم بأسلوب هذا الكتاب الأدبي.

والخاصة إلى المغرب. وكان طريقها على البحر. فأقلعت سفنها في جنح الظلام متجهة إلى قبرص لتحتمي بها ريثما ينقطع الطلب. ثم سارت إلى المغرب الأمين فحلت فيه، وجعلته وطنها الدائم.

قال الأستاذ احمد صفر:»فرست عليسة هي ومن معها بجزيرة قبرص، فتلقاهم كاهن تلك الجزيرة بكل حفاوة وأهدت إليه عليسة من أموالها.

وكانت العادة بقبرص ان يرسوا بناتهم في أوقات معينة إلى الشاطئ ليضحين ببتولتهن للإلهة فانوس، ويقوم ذلك عندهن مقام المهر. وهذه العادة تسمى بالبغاء المقدس. فاختارت عليسة من أولئك الفتيات الخارجات إلى الشاطئ ثمانين فتاة لا زلن عذارى طاهرات، وأخذتهم معها إلى المغرب ليكن زوجات للشبان الكثيرين الذين انتقلوا معها إلى المغرب».[32]

ووصلت عليسة إلى المغرب فقصدت افريقية وكانت قد سمعت بجمالها وحسن موقعها. وكان الملاحون والخاصة الذين معها يهدونها إلى أحسن موقع يعصمها ويليق بها في المغرب. فنزلت في شمال افريقية[33] فأسرع إليها فرحبوا بها وبمن معها، وسمع بها ملك البربر يوباس في شمال افريقية قرطاجنة ونواحيها، ففرح بمقدم عليسة ففسح لهم في بلاده. فجالت عليسة هي وخاصتها في شمال افريقية يرتادون مكانا يبتون فيه المدينة التي يكون عاصمتهم وقاعدة دولتهم، فرأوا مكان قرطاجنة (في الشمال الشرقي لمدينة تونس اليوم) فأعجبوا به لخصائصه الكثيرة الحسنة فاختاروه لبناء المدينة.

خصائص موقع قرطاجنة ومزاياه الكثيرة

قال الأستاذ احمد صفر:»اختارت عليسة لبناء قرطاج شبه جزيرة خارجة في البحر لها شبه كبير بالموقع الجغرافي الذي تأسست فيه مدينة صور، خصوصا إذا اعتبرنا ان سبخة أريانة كانت متقدمة داخلة في البر أكثر مما نشاهد اليوم. وكانت عبارة عن خليج كبير يسمى (خليج عوتيقة) وكان مصب وادي مجردة لا يبعد عن مدينة قرطاجنة أكثر من خمسة أميال. وكان الردم الذي أحدثه وادي مجردة بنقل التراب والغرين عظيما جدا. ونشأ عن رواسب وادي مجردة سهل السكرة الذي زاد في عرض البرزخ أو العنق الفاصل بين خليج عوتيقة من جهة والبحرين من جهة أخرى. وزاد كذلك ابتعاد مصب مجردة

32 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 87 ط أولى بتونس.

33 - نريد بإفريقيا معناها القديم وهو القطر لتونسي اليوم:

عن مدينة قرطاجنة نحو غار الملح حتى ان (عوتيقة) التي كانت في ذلك العهد مرسى على شاطئ البحر أصبحت الآن تبعد عنه بخمسة أميال».[34]

فرح الملك يوناس والبربر ببناء قرطاجنة ونشأة الدولة البونيقية

وعزمت عليسة ومن معها من حاشيتها على بناء مدينتهم، عاصمة دولتهم في هذا المكان الأمين الحصين الجميل. ففاوضت ملك البربر في تلك الناحية يوناس) وطلبت إليه ان يبعها المكان الذي تأسست فيه المدينة. فعلم ملك البربر ما يكون لبلاده من خير، وما يكون فيها من التقدم والازدهار إذا نشأت فيها قرطاجنة فصارت منارا للعلم،ومنبعا للحضارة ينهل منه قومه، ومثلا أعلى ينسج لبربر على منواله. ورأى ما يكون للمغرب كله من حياة وتقدم وازدهار إذا استقرت فيه عليسة ومن معها من ذوي العلم والمهارة والإخلاص والنية الحسنة. ان المغرب لا زال على البداوة، وان قومه البربر ى زالوا على الجهالة.لا يعرفون من الحضارة إلا قليلا. ان فيهم استعدادا كاملا للتقدم والرقي، واقتعاد أعلى الذرى في العلم والحضارة. لابد من نشوء دولة راقية بين ظهرانهم، تنفخ فيهم الحياة، وتأخذ بأيديهم للنهوض. ان البربر امة ذكية طموح. ستتفتح عيونهم إذا أشرق لهم نور العلم والمدينة، فيسرعون ليه إسراع النحل إلى الزهور. ان نشأة قرطاجنة وإنشاء الفينيقيين لدولتهم في شمال افريقية شيء ضروري لنهضة المغرب كله، وازدهار افريقية، ويقظة البربر وتقدمهم !

هذا ما رآه الملك البربري (يوناس) وهذا ما رآه مجلس شوراه من رؤساء القبائل، وهذا ما أدركته الخاصة في كل قبيلة بربرية في تلك الناحية، فرحبوا بطلب عليسة، وباعوها المكان الذي طلبت، وهو بقعة من الأرض تسع المدينة الناشئة قبل ان تتسع وتستفيض. فدفعت لهم ثمنها فقبلوه، على انه رمز لاعتراف عليسة بملكهم للمكان. أما الثمن الحقيقي لذي ينتظرونه من عليسة وقومها فهو العلم والحارة،والتقدم، والنهوض للمغرب كله.

أكاذيب المؤرخين المستعمرين على البربر

ان المؤرخين الأوروبيين المستعمرين، وحداهم في ذلك بعض المؤرخين المحدثين المغاربة قد رووا: ان ثمن الأرض التي اشترتها عليسة كان ملأ جلد ثور من الذهب، وان مساحة الأرض كان ما يحيط به الجلد إذا اقطع سيورا دقيقة. وبعضهم يصف البربر بالغفلة وعليسة بالغش والخداع فيقول: انها فاوضت الملك البربر (يوباس) على ان يكون لها من الأرض

34 - مدينة لمغرب العربي ج 1 ص 91 ط مطبعة العمل بتونس 1959م.

مقدار ثور، فعمدت إلى قطعه سيورا، فأخذت أكثر مما توهمه الملك البربري، واستطاعت بدهائها ان تدفع الثمن القيل وتأخذ الأرض الواسعة !! ان هذا هراء، وأسطورة باطلة. فما كانت عليسة لتخدع ملك البربر وقومه بهذه الحيلة، وهي تطلب وهم، وتعمل لرضاهم،وتحرص على خلق الطمأنينة والثقة بها في قلوب البربر. وما كان ليوناس القوي بنفسه وبقومه الشجعان الصناديد، ان يسكنوا لعليسة، ويتركوها تستقر هي وقومها في المغرب، وهي تخدعهم، وتهينهم بهذه الحيلة. لو فعلت عليسة ذلك لثارت عليها ثائرة البربر، ولفعلوا بها فعل البزاة الهائجة بالحمامة الضعيفة إذا أرادت ان تحتل وكر البزاة !

ان عليسة كانت ضعيفة في المغرب، لم تكن لها قوة حربية، ولا جيش كبير يرهب البربر فتستطيع الجرأة على (يوباس) وختله، وخداعه بهذه الحيلة المكشوفة. ألا ترى كيف عمدت إلى الانتحار لما طلب الملك يوباس ان يتزوج منها.[35] انها لم تستطع ن تمنع نفسها منه بعد ان تأسست قرطاجنة ورسخت عروقها في المغرب، وتلاحقت بها أفواج غزيرة من فينيقيا، وانضم إليها قومها المنبثون في مراسيهم ومدنهم بساحل المغرب الطويل فغزر جمعها، وتأيدت بهم في افريقية، فكيف تستطيع خداع يوباس، وهي ضيف في المكان،وقومها وأنصارها جماعة يسرة وتلك الناحية.

ان الأوروبيين المولعين باحتقار البربر قد أرادوا بهذه القصة ان يوحوا إلينا ان أجدادنا كانوا جهلا أغبياء متوحشين فاستطاعت امرأة ان تضحك على ذقونهم، وتخلبهم بقليل من الذهب للماع فيزهدوا في أرضهم وفي وطنهم الجميل !! وما علموا ان التاريخ ق شهد للبربر بالذكاء والدهاء، وبالفطنة والإباء في كل أدوارهم حتى في عهود بداوتهم قبل ان يتحضروا.

لقد حب يوباس بعليسة وصحبها، ورحب بهم البربر لمعرفتهم بالفينيقيين قبلها بعهود طويلة. هؤلاء الفينيقيون الذين أحبوهم، واستفادوا منهم علما وحضارة وغنى، أنهم ظرفاء ! قد أورثهم البحر من مياهه سلاسة في الطبع،وهم يتصاعدون إليهم من اليم كما تتصاعد السحاب كلاهما خير للمغرب وسبب ازدهار وعمران ! ان أشرعة سفنهم إذا لاحت لهم في اليم وهم مقبلون إليهم من فينيقيا ليرونها أجنحة قي سيرها الله للمغرب لتطير به. وان الأمواج البيضاء التي تقدم سفنهم هي العنوان الجميل لهم،وهي علامة على نيتهم البيضاء وقلوبهم البيضاء للمغرب. أنهم يحبونهم، وان الفينيقيين بحسن نيتهم، وإعجابهم بالبربر، واحترامهم وحبهم لهم،

35 - انظر هذه القصة في صفحة   من هذا الجزء.

وحسن معاملتهم قد جعلوا البربر يحبونهم. ان هذا الحب وهذه الثقة، وذلك الإعجاب بالفينيقيين هو الذي جعل الملك يوباس يرحب بعليسة وقومها، ويفسح لهم في بلاده، ويرضى بإنشاء دولة لهم في أرضه، لا الذهب، ولا حيلة عليسة وهاؤها. وإذا كانت عليسة قد قطعت جلد الثور سيورا أحاطتها بالمكان فما أحاطت به كان لها. إذا كان هذا هو الوقع كما ذكر المؤرخون فان ذلك باتفاق مع البربر علموه وارتضوه.

ان ملأ جلد ثور من لذهب هو الثمن لمعقول يحيط به إذا قطع سيورا. سيما في مكان خال من لعمران كمكان قرطاجنة، وفي ربوة على خليج قد يزهد البربر في سكناها والانتفاع بها. أنهم يهبون لسكنهم الجبال المنيفة، أما الربي المنخفضة فقلما يسكنونها.

ان البربر جنس كريم ذكي، قد أتاحه الله للمغرب فعمره وحماه من الأعداء في كل العهود. ان المغرب وطنهم الأثير وهم أبناؤه الأوفياء. فما كانوا ليبيعوا جزءا منه بالمال حبا للمال وحده. وما كان لأجنبي ان يخدعهم ويحتل أرضهم بالحيلة، سيما عليسة وقومها. ان يوباس أكثر منهم عددا، وأقوى شوكة. يستطيع ان يبطش بهم ويبتلعهم لو أحس منهم شرا.

نشأة قرطاجنة

وكان تأسيس قرطاجنة في آخر القرن لتاسع قبل الميلاد. انه في سنة 814 قبل الميلاد مسيح عليه السلام. فجدت عليسة وجد أصحابها في بناء مدينتهم. وسموها (قرب حدشت) ومعناها القرية الحديثة ثم تطور هذا الاسم فصار بع ذلك قرطاجنة. وقد وجدت عليسة وقومها من البربر كل مساعدة في بناء المدينة. أنهم يقومون لهم بقطع الأخشاب من الغابات، ويمدهم بمواد البناء وبالعمل كإجراء ناشطين مخلصين في بناء المدينة وتعميرها. وقد استطاعت عليسة وقومها بنشاطهم وبراعتهم، وبمساعدة البربر ان ينشئوا مدينتهم في سرعة وإتقان، واستطاعوا ان يعمروها، فاشتهر أمرها، فانتقل الفينيقيون المستقرون في مراكزهم بساحل المغرب الطويل إليها. فصارت هي عاصمتهم، وهي سوقهم الأكبر، ومرفؤهم الأثير.

وكانت عاصمة الفينيقيين قبل قرطاجنة، واكبر مدينة لهم في المغرب هي عوتيقة. وكانت في غرب قرطاجنة. وكانت في تلك العهود مرفئا كبيرا في البحر. وكان البحر متصلا بها قبل ان يردم، ثم تقلص لبحر عنها بما تراكم فيه من الردم بالأودية لتي تنصب فيه سيما وادي مجردة، ولما نشأت قرطاجنة رحلت طوائف كبيرة من الملاحين والتجار

وذوي المواهب واليسار من عوتيقة إلى قرطاجنة فاستوطنوها، كما انتقل إليها جماعات كبيرة من الفينيقيين من قراهم المنبثة في الساحل فاستقروا بها، فاتسع بهم نطاقها، وغزر جمعه،وكانوا من الأسباب في عمرانها السريع، وتقدمها ورقيها.

وكانت قرطاجنة في القرن الأول والثاني من عمرها وفي لنصف الأول من القرن الثالث في طفولتها،وعلى البساطة في الحياة، وفي درجة متوسطة في الحضارة، إلى ان نكبت صور عاصمة الفينيقيين في المشرق بالبابليين الذين سيطروا عليها في النصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد، وبالفرس الذين جعلوها تحت نفوذهم، وعقلوها عن الحركة والنشاط، وقيدوه بقيود العبودية. وكان ذلك في النصف الأخير من القرن السادس قبل الميلاد، ثم تسلط عليها اسكندر لأكبر في لقرن لرابع قبل الميلاد فهدمها. ان هذه المحن التي توالت على (صور) في المشرق كانت سبب تقدم لقرطاجنة في المغرب. لقد نتقل أهل صور، سيما الأغنياء والعلماء وكبار التجار والصناع والفلاحين، وذوو المواهب ولاقتدار إلى قرطاجنة فسكنوها، وجعلوه وطنهم الدائم، وواصلوا نشاطهم فيها، فانتفعت قرطاجنة كل الانتفاع بهم، فتغير حالها في القرن السادس قبل الميلاد ولبست شبابها، وبلغت أقصى ما وصلت إليه في لحضارة والعمران، وفي الغنى والقوة.

وكان القرن السادس بعد نشأة قرطاجنة بقرنين ونصف -كان ذلك القرن هو لعصر الذهبي لقرطاجنة وهو أيام شبابها وعزها واستقرارها ، وخلوها من المنافسين والأعداء الأقوياء الذين يزاحمونها، ويعكرون صفوها بالحروب ولازمات.

وقد نتقل إلى قرطاجنة والى أطراف الدولة البونيقية كثير من سراة البربر ورؤسائهم الذين يؤثرون الحضارة والنعم، ويختارون لسكنهم العواصم المتحضرة، والنواحي المتمدنة الجميلة، فشاركوا في حضارة قرطاجنة، وحضارة الدولة البونيقية كلها، وكنوا من أسباب عمرانها وتقمها وازدهارها؛ كما انتقل إلى قرطاجنة والى الدولة البونيقية جماعات من اليونانيين،ومن الرومان، ومن الإسبان، ومن سكان مختلف الجزر والشواطئ في البحر الأبيض المتوسط فاستقروا بها، فانتفعت قرطاجنة والدولة البونيقية بهذه الأجناس كلها، واستخدمتهم في مختلف أعمالها، وأكسبتهم من ثقافتها، فكانوا عمالا، وصناعا بارعين فيها.

وكانت نشأة قرطاجنة في آخر القرن التاسع قبل الميلاد هي بداية نشأة الدولة البونيقية في افريقية. ان الفينيقيين لم يقتصروا على قرطاجنة وحدها بل فاضوا على شمال افريقية وانبثوا في وسطها فامتزجوا بالبربر كل الامتزاج. واتسعت حدود دولة

قرطاجنة فوصلت في المغرب إلى طبرقة، وفي الشرق سرت الأكبر، وفي الجنوب إلى قابس. فأصبح شمال القطر التونسي اليوم، ووسطه وجنوبه،وساحل طرابلس إلى سرت الأكبر تابعا لقرطاجنة، هي عاصمته، والرأس الذي يدبر أموره، ويسوسه في مختلف نواحيه.

وكما تأثير البربر بالفينيقيين واخذوا علمهم وحارتهم، تأثر الفينيقيون المستقرون في قرطاجنة وافريقية بالبر، وأثرت ليبيا[36] في مزاج الفينيقيين، واخذوا كثيرا من العادات البربرية، وسرت في لغتهم كثير من الكلمات البربرية، واقتبسوا في كتابتهم بعض حروف البربر ، كما اخذوا بع طقوس ينهم. هذا إلى تزوج الفينيقيين بالبربريات، فتكون في افريقية جنس عليه طابع ليبيا، فيه من فينيقيا خصائصها، ومن المغرب ميزاته. فسمى لذا أولئك الفينيقيون المستقرون في قرطاجنة،والذين استوطنوا افريقية والمغرب بونيقيين، وسميت دولتهم التي نشأت بنشأة قرطاجنة بالدولة البونيقية. وهذا الاسم مقتبس من ليبيا وفينيقيا. وكانت افريقية تسمى قبل هذا الاسم المزجي (بليبيا فينيقيا).

انه لم يعد اغلب سكان العاصمة والمدن في دولة قرطاجنة بربرا خاصا، ولا فينيقيين صرحاء، بل هم من الدماء الفينيقية والدماء البربرية التي امتزجت، وهم أبناء فينيقيا والمغرب يحملون طابعها الذي امتزج بطابع المغرب فصار شيئا فريدا، وصبغة ممتازة تبعد بعض الابتعاد عن صبغة فينيقيا الأصلية وطابعها.

تجديد شباب الفينيقيين في المغرب بالماء البربرية الزكية

ان امتزاج الماء البربرية بالدماء الفينيقية في عروق أبناء قرطاجنة البونيقية هو سبب عظمتهم وخلوهم من الهرم والضعف الذي أصيبت به فينيقيا أيام عظمة قرطاجنة وشبابها. فلولا الجنس لبربري العتيد الذي طعم الدماء الفينيقية، ولولا اختلاط لفينيقيين بالبربر وتأثيرهم بهم، لظلوا على الهرم الذي أصاب آباءهم في فينيقيا، ولاستمروا على الضعف الذي أصاب دولتهم في لمشرق فلا تقوم لهم قائمة في المغرب، ولا يكونون على القوة والشباب وطول العمر الذي حظيت به دولتهم.

علاقة قرطاجنة بفينيقيا وبصور ووفاؤها لهما

وكانت قرطاجنة والدولة البونيقية كلها في أول أمرها وأيام نشأتها مرتبطة ارتباطا كبيرا بالعاصمة لفينيقية (صور) وكانت تدفع إليها الإتاوات في كل عام،وتقدم إليها

36 - نقصد بليبيا هنا مناها الواسع الأول وهو المغرب كله.

الهدايا في كل مناسبة، وترسل القرابين إلى آلهة صور، وترى صور وفينيقيا هي أما، والجذع الذي تفرعت عنه.

إعجاب الفينيقيين بالمغرب وتحقيق مثلهم الأعلى فيه

وكانت صور،وفينيقيا كلها ترى قرطاجنة جزءا منها. انها من إنشاء الفينيقيين، ومن عملها هي، وأنها الأمنية التي طالما ترددت في نفوس أولى الرأي فيها ق تحققت وبرزت إلى الوجود، أنهم قد رأوا هرم دولتهم في المشرق، وتهديد الأعداء لها. ان فينقيا يجاورها الأشوريون، والبابليون، والفلسطينيون،والفرس، والمصريون وكلهم أعداء لها بالمنافسة، والرغبة في الاستيلاء عليها وعلى خيراتها. انها في خوف دائم من هجوم هؤلاء عليها، وأنها في حروب متصلة مع هؤلاء الجيران، وأنها لعديمة الاستقرار، وهو ما تنشده امة تجارية مسالمة غنية مترفة كالفينيقيين. ففكروا في إنشاء دولة لهم في مكان آمن غنى، وبين قوم كرماء النفوس أقوياء فضلاء يختلطون بهم فيكسبون من شبابهم للدماء الفينيقية فتتقوى، ويورثون من قوة نفوسهم ومتانة أخلاقهم للفينيقيين فيتجدد شبابهم، ويشفون من الهرم الذي أصابهم بطول البناء، والانغماس في الترف والملذات، بطول العمر الذي عاشته دولتهم في مكان واحد. انها شجرة عفت تربتها فتضاءلت. فلا بد من تربة جديدة تنقل إليها، وبفروع شابة تطعم بها، وبجو قوي يجدد فيها الشباب. وكانوا يعرفون المغرب وغناه وجماله وموقعه الممتاز. انه بعيد عن أعدائهم الشرقيين، ولا تجاورهم فيه دولة تنافسهم وتكيد لهم، وتعكر صفوهم بالحروب. وان في المغرب الأمازيغ ! تلك الأمة الكريمة الباسلة القوية. انها لا زالت على الفطرة وعلى شباب النفوس، لم تفسدهم الحضارة، ولن تهن قواهم بطول البناء والانغماس في الشهوات. لقد جربوهم طويلا بمعاشرتهم في مراكزهم التجارية، وفي مدنهم التي أنشئوها في المغرب كعوتيقة، فوجوا منهم حسن الجوار، والمساعدة في العمل. لقد استطاعوا ان يعملوا وينجحوا في تجارتهم وفي كل أعمالهم بالمغرب بفضل مساعدة البربر لهم، وبفضل الحب وحسن العشرة التي حظوا بها من كل طبقات البربر. ان البربر هم الأمة الكريمة التي ترحب بهم، وتؤازرهم، وان دماءها الكريمة القوية هي الدماء التيس يرون ان تمتزج بدمائهم، وان شخصية البربر الممتازة القوية هي التي تجد نفوسهم، وتورثهم القوة والمتانة في الخلق فتتجدد دولتهم، ويكون لهم مستقبل مشرق في الحياة. ان عادة النقلة والارتحال ثابتة فيهم: لا يصعب عليهم ان يتركوا وطنهم الأول إلى مكان بعيد إذا كان ذلك الوطن موبوءا، وكان سبب ضعف لهم وزوال. إلى المغرب الجميل الغنى الأمين أيها الرفاق. ان تربته الخصبة الكريمة، لتشبه تربة فينيقيا بل هي أخصب منها،

وهو أوسع وأرحب آفاقا. وان جوه الصحي الجميل لشبيه بجو فينيقيا الجميل. وان في المغرب مئات من لفينيقيين منبثين في ساحله الطويل من غرب الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي. ان فيه أهلهم وإخوانهم،وهو وطنهم، ستتجدد فيه دولتهم. فلا بد من لارتحال إليه، وبناء عاصمة فيه تكون نواة الدولة الزاهرة ومنبعها ! هذا م كان يجيش في قلوب سراة فينيقيا وذوي الرأي فيها. لهذا فرت عليسة إلى المغرب وفرت معها جماعة كبيرة من لشباب المثقفين الذين يرون الدولة الجديدة لأنفسهم ولقومهم الذين سيلحقون بهم. فآوت هي ومن معها إلى المغرب، فبادرت إلى إنشاء قرطاجنة وشمر من معها في التخطيط والبناء. ولم يكن فرارها إلى المغرب مرتجلا، ولا انتقالها إلى وطن الأمازيغ مصادفة، بل هو عزيمة وأمل كان يجيش في نفوس الخاصة في فينيقيا منذ أمد طويل، فنفدته هي ومن معها، فنشت قرطاجنة فرآنها الفينيقيون كلهم عاصمتهم الجديدة فانتقلوا إليها نكبت صور، وارتحلوا إليها زارفات ليعمروها ويجددوا دولتهم في رحابها حتى قبل نكبة صور، وأحست قرطاجنة انها بنت صور، وامتداد لها، وفرع منها فخضعت لها خضوع البر والمحبة، وعطفت عليها عطف الوفاء والولاء، فكانت في أول عمرها في القرنين الأول والثاني،وفي النصف الأول من الثالث، قبل خراب صور، مرتبطة بها، تدفع ليها من خزينتها إتاوة في كل عام لتتقوى به . وكانت تستورد بضائعها وتصدر إليها من مواد المغرب ما ينعش صناعتها، كم كانت تنجدها في الحروب، وتشد أزرها في كمل الأزمات، وتقف بجانبها في الصراع الذي يشب مع أعدائها. ان قرطاجنة هي مصدر البر والإحسان لذي زان أيام صور وفينيقيا في آخر عمرها واكتسب به خفة وحلاوة. لقد لفظت أنفاسها وهي تشعر بكثير من الراحة والرضى لأنها تحس بقرطاجنة الحنون، وهي تلفظ أنفاسها، تمسح براحتها الشفوق على جبينها، وتكسب الماء البارد في فمها، فتخفف عنها حرقة الموت، وتغمرها بدموعها أيضا فتشعر بأنها ليست وحيدة في العالم، ويرأف الموت بها فيستل روحها في رفق لان الدموع المدرارة حول سريرها قد أكسبت من رقتها للموت فرأف به !

تلك هي نظرة صور وفينيقيا إلى قرطاجنة والى الدولة البونيقية. وذلك هي علاقة هذه الدولة بفينيقيا. ان عليسة إذا اضطغنت على أخيها وفرت منه فإنها لم تضطغن على فينيقيا، بل ظلت وفية لها، وظل كل البونقيين على ذلك الوفاء وعلى تلك الصلة إلى ان لفظت صور أنفسها وخربها الإسكندر، فضعفت بعد ذلك العلاقات لاستيلاء الأعداء عليها، ولانتقال أكثر أهلها إلى قرطاجنة.

امتزاج الماء العربية بالدماء البربرية بقرطاجنة وصلة المغرب بالمشرق

وكانت قرطاجنة هي الحلقة الذهبية، والصلة الحريرية التي ربطت المغرب بالمشرق، وجددت ما أبلت الأيام من صلة المغرب بالمشرق. وكانت دماء الفينيقيين هي الدماء العربية الأولى التي انسكبت في عروق المغرب، فأكسبت للمغرب وراثة عربية زكية في دمه ولسانه مهدت للعرب الفاتحين، وللغة القرآن فوقع ذلك الامتزاج السريع أيام الفتح الإسلامي بين العرب والبربر، وسرت العربية الفصحى في لسنة البربر فنطقوها في سهولة وفصاحة، وتعلموها في سرعة ويسر، فلم تقف العجمة وقصور الألسنة في طريق انتشارها في كل أنحاء لمغرب في زمن قصير.

طموح لملك يوباس ومحسنة عليسة

وأنشأت قرطاجنة عاصمة البونيقيين وتأسست بذلك الدولة البونيقية. وكان السبب المباشر لذلك هو فرار عليسة ديدون وحلولها في المغرب. لقد رحب بها وبقومها ملك البربر في شمال افريقية يوباس، ثم أحبها وفتن بجماله فطلب يدها للزواج، وأحب ان تكون ملكة قرطاجنة زوجته لينضم ملكها إلى ملكه، ويتم الامتزاج بهذا الزواج بين قومه والفينيقيين. هل رحبت عليسة بالملك البربري يوباس. ل كان فلبها خال من حب قديم راسخ الأصول فتستطيع الميل إلى يوباس. وهل هي امرأة عادية تتملكها غرائزها وحظوظها الخاصة فتعطي بيدها لزوج يسودها؟ انها ملكة، وان قلبها مشغول بالحب القديم الراسخ لزوجها الفقيد، وأنها لوفية له كل الوفاء: فماذا سيكون أمرها؟ هل ستبقى لنا عليسة الشابة الجميلة الذكية المخلصة أمدا طويلا فنأنس بوجودها، ونرى قرطاجنة تكتسي من طلعتها بنور الضحى ومن جمال شخصيتها وشخصها بسحر الربيع؟

طموح الملك يوباس ونهاية عليسة ديدون

شخصية عليسة وشخصها الفتان

وكانت عليسة ديدون امرأة شابة، ذكية، مثقفة، حازمة، مخلصة لقومها، غيورة عليهم تتفانى في خدمتهم، وتقضي كل أوقاتها فيما يعود بالنفع لهم وفيما يعجل بعمارة قرطاجنة وازدهارها، ويعجل بنشأة الدولة الكبرى التي تحقق مثلها العليا

لقومها. وكان جبينها الصلت الوضاح لا يكسوه ظل ناصيتها الجميلة وحده، ولكنه يكسوه معه تقطيب خفيف، وسهوم رقيق من إدامة الفكر في مشاكل قرطاجنة والحيرة على آمالها الكبرى في الدولة وخوفها ان لا تتحقق.

وكان قومها كلهم يحبونها لقوة شخصيتها، وذكائها وثقافتها، وحسن تدبيرها، وإخلاصها لهم. وكانوا يرونها ملكتهم فيطيعونها وينفذون أوامرها.

وكنت عليسة إلى قوة شخصيتها وثقافتها البالغة، ومكانتها السامية في قومها جميلة بارعة الجمال. قد أتاها الله القوام الرشيق والوجه المشرق، والعينين اللتين تتحلى فيهما قوة الشخصية وسحر الأنوثة الكامل.

وكان جو شمل افريقية قد زاد لجمالها الفينيقي شبوبا، وكساها بالسحر الساحر الذي لا زلنا نراه في صبايا تونس الخضراء اللائي يمتزج نور الصباح بحمرة لورد في وجوههن الفتانة، ويصقلهن الجو الجميل بحسنه البالغ، فترى فيهن نصاعة مشرقة، وصفاء مترقرقا في اللون، واهابا بالغ الطراوة والحسن كأنه ورق الورد النضير.

وكان البونيقيون يعجبون بجمال عليسة، ورآها البربر فأعجبوا بثقافتها وجمال شخصيتها وحسنها الفتان، وتحدثوا عنه في مجالسهم. فسمع الملك يوباس بثقافة عليسة وبجمال شخصيتها، وحسنها البارع، ورأى طاعة قومها لها، ومنزلتها السامية في قرطاجنة، فعلم انه إذا تزوجها فسيحظى من ثقافتها وجمال شخصيتها بالجو المشرق الأنيس الذي يزيل من حوله خشونة البداوة، وأنها ستكون المفتاح الذي يفتح به كل قلوب الفينيقيين في المغرب فيمتلكها كما يريد.

ان جمال شخصيتها لا يزيد على جمال البربريات البارع. ان فيهن من تفوقها في جمال الجسم،ولكن ثقافة عليسة بنشأتها في بيئة الملك والحضارة، وقوة الشخصية التي زادتها المحن التي تعرضت لها،وما تحمل من أعباء إنشاء الدولة مع قومها،وما تشعر به من عزة الملك وقوة الرئاسة، وهو الذي يميزها ويجعلها امرأة فريدة، بالغة الحسن، لا يجد مثلها في نسائه الجميلات !

وكان الملك يوباس معتدا بنفسه، وبمنزلته السامية في شعبه. وكان يعلم ان عليسة وقومها عليهم له حق صاحب الدار البار الكريم على ضيفه الذي غمره بكرمه وبره. فمنى نفسه بالحصول عليها، انه كفء لها، انها ملكة قومها وهو ملك شعبه. فلئن ثقفتها المدرسة فعرفت كثيرا مما لا يعرف من الفنون، فقد ثقفته الحياة والتجربة فعلم من شئون البربر وأمور المغرب ما لا تعرف، وانه إلى ذلك اعز منها عشيرة، وأكثر جندا،

وأشجع جيشا. أنهما كفئان. ان زواجه منها سيزيد للبربر امتزاجا بقومها وإخوة لهم ومودة راسخة فيزداد تأثرهم بحضارة الفينيقيين. ثم انها عازبة. فهل يليق الشباب وهذا الحسن في عليسة ان يبقى بدون زوج محب يرعاه فلا يتصوح؟ ! لابد ان يتزوجها. ولابد ان تقبله. فعصف به الحب الشديد. والاعتداد البالغ بالنفس. وإصرار البربر وقوة إرادتهم. فعزم على إرغامها على الزواج إذا رفضت فاستل براثينه كالأسد إذا تأهب للحصول على شيء باقتداره.

قال لدكتور توفيق:»فأرسل يوباس في طلب الذين يتزعمون (قرطاجنة) المدينة الجديدة. وأشعرهم بأنه يريد الزواج بملكتهم. وان رفضها ينجر عنه حرب ضروس تنتهي بمدينتها الناشئة إلى الخراب العاجل والفناء المحقق»[37] فعلم أولئك الزعماء ما يستهدفون له من عداوة يوباس إذا رفضوا هذا الزواج أو رفضته عليسة. ورأوا آثاره الجميلة في البربر وفي الملك يوباس. وفي توثيق الصداقة بينهم وبين البربر فروا به. فما زالوا بعليسة يحاجونها حتى سدوا وجوهها كل مهرب. وأشعروها بوجوب القبول لفائدة قومها. فلم تحر جوابا. فسألتهم ان يمهلوها ثلاثا فلا يعجلوا بالزواج.

وكانت عليسة مشغولة القلب بمثلها الأعلى الذي تشرع في تحقيقه. وهو إنشاء دولة في افريقية ترث فينيقيا. وتجد شباب قومها. ان تفكيرها وأوقاتها كلها منصرفة إلى هذا. ان تحقيق هذا المثل الأعلى هو الذي يجعل لحياتها قيمتها. وان الأمل في تحقيق الدولة الجديدة هو الذي يملأ الفراغ الكبير الذي تركه موت زوجها الحبيب في قلبها. لولاه ما استطاعت البقاء بعده.

وكانت عليسة إلى هذا تحب زوجها كل الحب. وكان كل شيء لها في الحياة. فلما مات تلك الميتة الفجائية الأليمة بقيت متعلقة به. لقد ذهب من لوجود. ولكن بقى خالدا في قلبها. وكانت تحس بروحه ترفرف عليها في كل لحظة. انه معها لم يفارقها. أنا ليست عازبة. انها لزوجها. انه معها يراها؛ فكيف تتزوج إنسانا غيره وهو يراها ! لا يمكن هذا أبدا! فأصرت ان لا تتزوج. ولكن يوباس سيفتك بقومها ويقضي على ولتهم لناشئة إذا رفضت ان تتزوجه. سينقض عليها فيأخذها امة ذليلة. فعزمت على أمر فيه خلاصها وخلاص قومها من غضبة يوباس.

انتحار عليسة

قال:»فمرت عليسة بإقامة كومة (كبيرة) من الحطب بطرف المدينة. وأشعلت النار

37 - قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة لتوفيق الطويل منقول بالمعنى ص 20 ط ثالثة في القاهرة.

فيها. وتقدمت لها القرابين من شياه وثيران. ثم ارتقت بنفسها تلكم الكومة (المتأججة نارا) والسيف بيدها. والتفتت إلى شعبها قائلة: إنكم تريدون من ان ذهب إلى زوجي... ها أنا ذاهبة! ثم استلت سيفها من غمه وغيبته فيصدرها. وألقت بنفسها في النيران! ! وهكذا انتهت عليسة. فصارت تقدس بقرطاج مثلما تقس الآلهة»[38] وطوت عليسة صفحة حياتها. ولكن قرطاجنة الناشئة والدولة البونيقية استمرت في صعودها ونشأتها إلى ان تمت. وكانت كما تمنت عليسة وتمنى قومها. فكيف صرت قرطاجنة بع عليسة؟ وكيف كانت الدولة البونيقية؟ ما حددوها وما درجتها في الرقى والعمران؟

عظمة الدولة البونيقية وعاصمتها قرطاجنة

كان البونيقيون الذين هاجروا مع عليسة إلى المغرب. والذين يلتحقون بهم من فينيقيا في كل يوم. أهل جد ونشاط. وذوي علم وتدبير. وأصحاب طموح وغرام بالمعاني. لهم نفوس عملية نفوس عملية تجعلهم لا يجدون الراحة والمتعة إلا في العمل. ولا يظفرون بالنشوة إلا في الكد واللغوب. ومع نفوسهم العلمية الطماحة. عقول مستنيرة بالعلم الصحيح. تغرب طرق النجاح. والأساليب الصحيحة في العمل. والوجهة الحسنة التي تبلغهم المراد. وكان إلى هذين السببين للنجاح أتصفهم بالنية الحسنة. أنهم لا يبغون لأحد شرا. ولا يستعدون للأضرار بأحد. أنهم يريدون عمار افريقية لأنفسهم. وللبربر. ولكل من يقصدهم بنية حسنة. وإنعاش المغرب ولأخذ بيده لينهض نهضته الكبرى. ان من طباعهم الراسخة التي ورثوها من أجدادهم. بث العلم في الأوطان الجاهلة. وتعليم الحارة للأمم البدوية. والأخذ بيد كل من يتصلون به من الشعوب إلى طريق العز والغنى والسعادة. لذلك أنجحهم الله. وبارك لهم وأيدهم. فبلغوا كل ما أرادوا في الحياة.

وكانت عزيمة هؤلاء البونيقيين الكرام ان ينشئوا قرطاجنة ويجعلوها اكبر عاصمة في الدنيا. واسعد مدينة في العالم؛ وينشئوا الدولة البونيقية ويجعلوها أحسن خليفة لفينيقيا تواصل مساعيها في بناء الحضارة الإنسانية. وتخلفها في إسعاد البشرية بما تقم إليهم من علمها وحضارتها. وتكون أقوى وأحسن ارث لها يخلفها في ميدان التجارة. وفي كل الميادين الاقتصادية والعلمية التي تفوقت فيها على الأمم. وصارت فيها المثل الأعلى للإغريق ولكل الشعوب الناهضة. فأخذت حذوها ونسجه على منواله.

38 - الضمير في قل يرجع إلى توفيق الطويل والنص في ص 22 نفس المصدر المذكور قبل.

عظمة قرطاجنة

وكان للبونيقيين العاملين العلماء المخلصين ما أرادوا. وما كاد القرن السادس قبل الميلاد ينتصف حتى تبوأت قرطاجنة الذروة، فصارت أعظم مدينة في المشرق، واكبر عاصمة في الدنيا، بسعة أرجائها، وكثرة عمارتها، وشيوع العلم والعمل فيها، وبقصورها الشاهقة، وبساتينها الغناء، وحماماتها البديعة، ومعابدها الضخمة، وملاعبها الواسعة الجميلة، وساحات اجتماعاتها العامة التي تتوسط الأسواق وتكون في وسط المدينة، ومدارسها الكثيرة للصغار المبتدئين وللكبار الجامعيين، ومصانعها الكبيرة المختلفة، وأسواقها البيعة المنظمة ان لكل صناعة سوقها. فهناك سوق الأقمشة، وسوق الأسلحة، وسوق العطور. وكل ما نرى عليه دولة الرومان والإغريق، وتنطلق به آثارهم من نظام في المدن، فان قدوتهم التي حاكوها،والأمة التي تتلمذوا لها فاخذوا عنها الحضارة والنظام وتنسيق المن وتجميلها، إنما هي قرطاجنة والبونيقيون في المغرب!

وكان الأغنياء في قرطاجنة كثيرين. وكانوا يتنافسون في بناء القصور البديعة، ويتسابقون في فنون الترف والمتعة، ويتبارون في كل ما نريد في أبهة قرطاجنة وجمالها وبذخها، فأصبحت مضرب الأمثال في الغنى والحضارة والجمال، فقصدها السياح من كل أطراف العالم، وتهافت عليها ذوو الثراء الذين ينشدون المتعة والأبهة والجمال من كل أنحاء الدنيا.

وكنت لأسواقها العامرة، ولبراعتها في التجارة، ولتفوقها في كل فنون الاقتصاد رخيصة الأسعار، يستطيع كل فقير فيها ان يجد عملا، ويعيش عيشة راضية هنيئة، انهال مدينة العلم والعمل، والنظام والجمال.

وقد اتسعت أرجاء العاصمة قرطاجنة حتى صار طول سورها في آخر عمرها كما ذكر (بولبيس) الذي شاهد قرطاجنة في الحرب البونيقية الثالثة سبع عشرة ميلاد.[39] وكان ارتفاع ذلك السور ثلاثة عشر مترا. وكانت أسوارها بالغة العرض لا يستطيع الأعداء نقبها بسهولة.

وكانت قرطاجنة لعظمتها كثيرة السكان. لقد قصدها الناس من كل أنحاء العالم الشرقي والغربي فسكنوها، فحلوا فيها للتجارة والعمل، أو للمتعة والراحة والتنعم بخيراتها وجمالها. وقد بلغ عدد سكانها سبعمائة ألف نسمة، وقيل أكثر من ذلك. وهذا عدد لم تبلغه مدينة في ذلك الزمان إلا كانت مدينة عظيمة لا مثيل لها في اتساع الأرجاء وفي الخيرات والرخاء.

39 - مدينة المغرب العربي ص 100 ط مطبعة العمل بتونس في سنة 1959م

حدود الدولة البونيقية

وكان غرض البونيقيين من النشاء قرطاجنة ان تكون عاصمة لدولتهم في المغرب، لذلك يم يقتصروا عليها، ففاضوا على افريقية فملكوها كلها، فصارت كلها وطنهم، فانشأوا في كل أنحائها المدن الزاهرة،ومئات من القرى ف المناطق الزراعية، وترقت افريقية بهم وازدهرت وصارت أحسن جهة في المغرب، فاتجهت إليها أنظار الأمم والشعوب من كل أنحاء الدنيا، لغناها وحضارتها، وأسواقها التجارية الكبرى، وصناعتها وكل ما تستلزمه الدولة الراقية والشعب الذي يتسم ذرى العلم والحضارة والتقدم.

أما حدود الدولة البونيقية في أيام شبابها وعظمتها فكانت كمن الشرق خليج سرت الأكبر وكان ساحل طرابلس كله لها، وافريقية كلها شمالها وجنوبها لها، وساحل نوميديا وموريطانيا الشرقية والغربية إلى طنجة، كان ساحل المغرب في قبضتها أما دواخل البلاد فكانت مستقلة، ولما انزوت وتكمشت في آخر عمرها صارت حدوها من الشمال البحر الأبيض المتوسط، ومن الجنوب قسطيلية وهي بلاد الجريد، ومن الغرب شرق في طبرقة، ومن الساحل قابس وبقية الساحل إلى طرابلس، ثم أزادت تكمشا بهجوم مصينيسا عليها.[40]

وكانت قسيطيلة جزءا أصيلا في الدولة البونيقية إلى القرن الثاني قبل الميلاد، ثم استولى عليها مصينيسا فصارت تابعة لدولته، وقد اعتنى البونيقية بقسطيلية فازدهرت فيها الفلاحية، والتجارة، وانتشرت فيها الثقافية، فصارت أغنى الأمكنة وأسعدها في جنوب لمغرب كله.

هذه هي حدود الدولة البونيقية، ما آثارها ومجالها الاقتصادي وعمرانها، فانه لم يقتصر على ترابها، بل تجاوزه إلى كل أنحاء المغرب، سيما نوميديا الشرقية التي كانت تحت حمايتها.

حماية البونيقيين لنوميديا الشرقية

وكان البونيقيين قد اتسعوا في تجارتهم وشئون حضارتهم كلها إلى نوميديا الشرقية، وهي جزء من شرق الجزائر اليوم يبتدئ من شرف طبرقة، وينتهي في غرب هبون (عنابة) وفي الجنوب إلى تبسة. وكان البونقيون قد غمروا هذه النواحي بزرافات كبيرة من الصناع الماهرين، والتجار لكبار، والفلاحين البارعين ومن العلماء فعمروها، واخذوا بأيدي البربر فيها، وقد رحب بهم البربر لما رأوا من حسن نيتهم في وطنهم، ومن جميل

40 - انظر حدود الدولة البونيقية في لقرن الثاني ق.م في الخريطة.

آثارهم فيهم. ودخلت نوميديا الشرقية تحت حماية قرطاجنة، فبسطت عليها جناحها الحنون، ووقتها من القلاقل والاضطرابات الذي يتعطل بعه العمران. وقد عاشرت البربر فيها أحسن عشرة، فاحترمتهم، وقامت أعمال كبرى من اجلهم. فكانوا لها أصدقاء، يتجندون في صفوفه إذا اشتبكت بالأعداء، وينطوون على أعمق الود والاحترام لها.

ازدهار نوميديا بفضل البونيقيين

ان البونيقيين لنفوسهم التجارية المسالة، ولإباء النوميديين وشجاعتهم، وكثرة عددهم، ولا يستطيعون مخاشنة البربر في نوميديا، وإلا استحال عليهم المقام فيها، وهي ضرورية لهم كمتسع حيوي لهم.

وكان البربر أذكياء طامحين فاستفادوا من البونيقيين الذين اختلطوا بهم في نوميديا، فاخذوا علومهم وصنائعهم، وكل فنون حضارتهم فأمست نوميديا كلها سيما الجزء الشرقي منها كافريقية في العلم والحضارة والغنى، وأصبح البربر فيها يبارون البونيقيين في كل الميادين، وينافسونهم في الملك والسلطان.

ان نهضة نوميديا وامتيازها بالثقافة والاستعداد للتقدم إلى اليوم، يرجع سببه إلى زمن بعيد. وهو الزمن الذي حظيت فيه بعناية البونيقيين فاخذوا بأيديها أكثر من كل أنحاء المغرب الأخرى، فنهضت واختلطوا بها أكثر فكانت آثارهم الحسنة فيها أعمق، ثم توالت عليها أسباب أخرى للتقدم والرقي من افريقية كان حظها منها أكثر من حظ بقية أنحاء المغرب الأخرى.

المستعمرات البونيقية

وكانت الدولة البونيقية قد ورثت فينيقيا في السيادة في البحر الأبيض المتوسط، سيما في الحوض الغربي منه. فكانت أهم الجزر في البحر الأبيض المتوسط من مستعمراتها. وكانت صقلية، وسردينيا، وكورسيكا من مستعمراتها. كما احتلت الأندلس فكان في قبضتها، فأنشأت فيها مدنا مهمة، ومرافئ كبرى منها قرطاجنة في الساحل الشرقي الجنوبي، وقادس في الساحل الغربي. وقد انتفعت في تجارتها وصناعتها وفي حمايتها لساحل المغرب الأوسط والأقصى ومراكزها التجارية فيه باحتلال الأندلس وسيطرتها عليه.

وكان المغرب كله في مختلف أجزائه مجالا للبونيقيين،وقد فتحوا فيه أسواقهم، وأنشأوا مراكزهم التجارية واختلطوا بالبربر، فاخذ البربر عنهم عاداتهم الراقية،

وعملهم، ولغتهم، ولم يكن مجالهم في العمل هو افريقية فقط وإنما افريقية هي منبعهم ومقرهم الدائم.

وكانت قوافل البونيقيين التجارية تخترق جيتوليا، صحراء المغرب،ومن ناحية فزان وغامس، وورجلان وغيرها ذاهبة ائبة إلى بلاد السودان. وكانت تتصل بالبربر الجيتوليين في طريقها فتتاجر معهم وتستأجرهم لدلالتها على الطريق، وخفارتها في السبل المخيفة. وتأثرت جيتوليا في المغرب أيضا بهذه الدولة المباركة التي كانت كالنهر الزاخر يروى كل نواحيه، وتسري انداؤه بعيدا عنه فتخلق الخصب والحياة.

تلك هي حدود الدولة البونيقية ومستعمراتها، ومحمياتها، ومجالها في العمل بالمغرب. فما نظامها السياسي؟ ان النظام السياسي لكل دولة هو عنوانها، وهو سبب وقيها أو انحطاطها ! لقد ترقت دولتنا البونيقية، ودخل بها مغربنا الكبير في عهوده الزاهرة. فما هو النظام السياسي الذي كانت عليه هذه الدولة الماجدة فأسعدها؟.

النظام السياسي للدولة البونيقية

كانت الدولة البونيقية دولة عتيدة وأمة راقية، وقد جابت الأقطار، واختلطت بالدول الراقية، وبالأمم المتمدنة، فشاهدت مختلف النظم السياسية فيها فتكونت لها خبرة تامة في مجال السياسة، ودراية كاملة بأنواع الحكم التي تصلح بها الدولة، فعرفوا كيف بضعون دستورا يليق بمزاجهم، ويتفق مع شخصيتهم العلمية وطموحهم، ويليق بمواقع دولتهم في المغرب. هذه الدولة التي منيت بالمنافسين الأقوياء من الإغريق والرومان، وحلت فيها أجناس كثيرة ليست كلها صديقا يعمل لخير الدولة وصلاحها، فسعدت الدولة البونيقية بدستورها الحكيم الذي لم تقلد فيه أحدا، وإنما وضعيته على حسب مثلها العليا، وحلاجاتها ونبع منها فكان أحسن ما يليق بها. وق أعجب أرسطو شيخ الفلاسفة الذين عاش في القرن الرابع قبل الميلاد وعاصر الدولة البونيقية إبان ازدهارها وعرف أخبارها؛ أعجب هذا الفيلسوف بدستور البونيقيين وأثنى عليه. ورآه أحسن دستور يليق بهم، على ما فيه من عيوب انتقدها الفيلسوف الحكيم وعابها عليهم.

وكان نوع الحكم الذي اخذ به البونقيون على حسبهم في الرقي والنضوج. فكنوا في أول أمرهم على النظام الملكي الذي ألفوه في فينيقيا، وكانت عليه الدول الكبرى في تلك العهود. وكان من ملوكهم المشهورين عملقار الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد. وفي القرن السادس قبل الميلاد اختار البونيقيون النظام الجمهوري فاخذوا به، وظلت عليه الدولة إلى ان لفظت أنفاسها في القرن الثاني قبل ميلاد المسيح عليه السلام.

تمجيد البونيقيين للمال وأصحاب الثراء

وكانت الدولة البونيقية امة تجارية تحب المال وتمجده، لذلك ساد فيها الأغنياء، وكان سبب التقدم فيها هو المال. فعلى حسب غنى المرء تكون منزلته في المجتمع. وكانت الوظائف العليا في الدولة لا يتولاها إلا الأغنياء. وكان مجلس الشيوخ الذي هو مصدر التشريع، والهيئة الحاكمة في الدولة لا ينتخب له إلا الأغنياء. وكانوا يشترطون على المرشحين لمجلس الشيوخ ان يدفعوا للدولة مبلغ كبيرا من المال، وهو ما لا يستطيعه إلا

الأغنياء. لهذا كان الحكم في يد الطبقة الاروستقراطية. وقد ظل في أيديهم إلى القرن الثالث ق.م. فاستولى على الحكم في الدولة آل برقة الذين رأس منهم الدولة عملقار وحنبل وصدر بعل. فاضعفوا نفوذ مجلس الشيوخ الذي يتكون من الأغنياء، واعتمدوا على الشعب فصاروا يرجعون إليه في المهمات، ويستعينون به في رجحان كفتهم على خصومهم الاروستقراطيين.

ان تقديم قرطاجنة للأغنياء إلى الحكم واعتمادها عليهم في تسيير أمور الدولة، هو سبب نكبتها، وتفوق الرومان عليها حتى دحروها وأزالوها من الوجود.

ان الكفاءة العقلية والخلقية والإخلاص والتحية، ونكران الذات هو ما يجب ان يتوفر في الهيأة الحاكمة، ويراعي في انتخاب الحكام.وهذه الشروط لا تتوفر كلها في الأغنياء، سيما الإخلاص للدولة،ولتضحية بالمصالح الخاصة للمنفعة العامة، والجرأة والأقدام والشجاعة. ان اغلب الأغنياء أذلاء أنانيون، يميلون إلى الراحة، ويؤثرون ان يخفضوا رؤوسهم على لدعة على ان يرفعوها إذا كان في ذلك مشقة أو تضحية. وهم قوم باردون لا يشتعلون إذا وجب الاشتعال. أنهم ماء بارد لا تشتغل فيه النيران. لا يورث للأمة إلا صدأها إذا اقتصرت عليه. أما ذوو النفوس المشتعلة لشجاعتها وغيرتها، فهم الذين تتقدم بهم الأمة، ويحفظون الدولة ويورثون لأقوامهم ما يورثه النفط للدبابة العتيدة من قوة فتنفع في الطرق الموحلة، وتخترق الخنادق، وتصعد الجبال !

كانت الدولة البونيقية في اغلب عهودها على النظام الجمهوري. وفي أيام الجمهورية ازدهرت الدولة، وانطلقت كل كفا آتها للعمل، وانتفعت بنبوغ أبنائها، فترقت وحققت آمالها في كل الميادين، وكانت أغنى وأرقى دولة في العالم.

وكانت الهيآت الحاكمة في الدولة البونيقية تتقسم إلى أربعة أقسام. السلطة التنفيذية، والسلطة التشريعية، وهيئة المراقبة والتفتيش، والهيئة الاستشارية أو المحكمة.

السبطان

أما السلطة التنفيذية فيتولاها رئيسان ينتخبهما مجلس الشيوخ من عائلتين مختلفتين. ومدة رئاستهما سنة، ثم ينتخب غيرهما بعد عام أو يعيد انتخابهما إذا بدا صلاحهما وامن زيغهما واستبدادهما. وسبب تقصير مدة الرئاسة لهذين الرئيسين هو خوف الدولة من استبداد الرؤساء، وانحرافهما عن طريق الحكم الجمهوري، إلى استئثار الملوك الرأي، واستبدادهم في الأمور.

ووظيفة هذين الرئيسين هو تنفيذ ما تقرره السلطة التشريعية وهي مجلس الشيوخ. واستدعاء مجلس الشيوخ للانعقاد، ورئاسته،وإدارة جلساته، وتعيين المسائل التي يبحثها، وقيادة جيوش البر والبحر وغير ذلك. وكان البونيقيون يسمون هذين الرئيسين بالسبطين. وكل منهما سبط.

مجلس الشيوخ

أما السلطة التشريعية فيتولاها مجلس الشيوخ. ويتركب من ثلاثمائة عضو، عضوية كل واحد منهم مدى الحياة. وينتخب أعضاؤه من كبار التجار والصناع والفلاحين، وهم أرباب الثراء الواسع. وكذلك كبار قواد الحرب.

ويشترط في العضو المنتخب لهذا المجلس ان يكون من عيان الأمة، ومن سراتها، وهم الأغنياء في هذه الدولة التي تمجد المال، وتجعله سببا للتقدم. كما يشترط فيه ان يكون من الكهول الذين حنكتهم التجارب وتكونت لهم منزلة في الأمة. وان يكون بونيقيا أصيلا، لا دخيلا من الجنسيات الأخرى.

أما وظيفة هذا المجلس فهو الإدارة العليا لجميع شئون الدولة. فهو الذي يشهر الحرب، ويقرر السلم،وهو الذي يولي قوا الجيش ويعزلهم،وهو الذي يسن القوانين الجديدة، أو يعل القديمة وغير ذلك من مهمات الدولة.

ان مجلس الشيوخ هو رأس الدولة المفكرة، وسلطتها التشريعية، في قبضته كل الأزمنة، وهو المهيمن على كل الأمور، ليس لمجلس الشعب معه أي سيطرة،وأي نفوذ في الدولة.

محكمة المائة

ومن أجهزة لحكم في الدولة البونيقية محكمة المائة وأعضاؤها في الحقيقة مئة وأربعة. تنتخبهم الهيآت الخماسية التي تتركب من ابرز أعضاء مجلس الشيوخ، وأكثرهم كفاءة، وأحسنهم ماضيا في المجلس. وهذه الهيآت الخماسية لا ينتخبها لمجلس ولكن ترشحها الطبيعة. فهم زبدة المجلس وخياره، يتطوعون بأنفسهم لعضوية هذه الهيآت، ويقومون بعملهم بدون اجر، وهم إلى هذا يستمرون أعضاء في مجلس الشيوخ. «ويمكن اعتبار هذه الهيآت الخماسية التي حدثنا عنها (ارسطاطليس) كلجان تتكون في مجلس الشيوخ، وتتفرع عنه للاختصاص ببعض الأصناف من المسائل كالأمور الخارجية، والجيش، والبحرية، والمالية، والأمور لدينية، وغير ذلك. وهي التي تنتخب أعضاء مجلس المائة».[41]

41 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 108 الطبعة الأولى بتونس.

وعمل محكمة المائة هو مراقبة السبطين،وهما رئيسا الدولة، وقواد الجيوش، وجميع الحكام والموظفين الكبار في الدولة، ومحاكمتهم عند الاقتضاء، ومحاسبتهم على كل تقصير يكون منهم في شئون الدولة.

وكان إنشاء هذا الجهاز الحكيم في الدولة، في منتصف القرن الخامس ق.م.وكانت ثورة داخلية قد نشيت في قرطاجنة، انتهت بسقوط آل ماقون (الذين كانوا يتولون الحكم) وبإنشاء مجلس يتركب من مائة حاكم أو قاض يقع اختيارهم من بين الشيوخ. وتسمى هذه المحكمة العليا ديوان المائة. وبعد إنهاء كل حرب كان يقف لقواد أم هذه المحكمة لتناقشهم، في أعمالهم، وتحاسبهم على تصرفاتهم، وتطالبهم بعرض جميع التفاصيل المتعلقة بنشاطهم. كل ذلك لحمل هؤلاء القواد على الانقياد والخضوع، ولحماية لجمهورية من (استبدادهم) ومحاولتهم قلب نظام الحكم، أو الاعتداء على سلطة الدولة»[42] هذه هي الهيآت الحاكمة التي تباشر مهام الدولة، وبيدها الحل ولعقد. وهي التي أدارت الأمور في أول الأمر في حزم ودهاء وإخلاص، فازدهرت الدولة، وصارت أحسن دولة في العالم.

مجلس الشعب

ومع هذه الهيآت الحاكمة هيئة استشارية أو للتحكم هي مجلس الشعب يلتجئ إليها مجلس الشيوخ أحيانا ليحكمها في المسائل التي يقع فيها خلاف بينه وبين السبطين،ولكن قلما يقع هذا، لان السبطين كانا يتحاشيان معارضة مجلس الشيوخ وإثارته فقلت المسائل التي اعر على المجلس.

وهذا المجلس ينتخب أعضاؤه من صغار التجار، والصناع، والفلاحين، ومن العمال،ويسمى مجلس السوقة. وقد سلب مجلس الشيوخ في أول الأمر حقوقه، فصار أداة لا عمل لها تركت لإيهام العامة أنهم يشاركون في الحكم،وان الدولة ديمقراطية تشارك في حكمه كل لطبقات. وقد بقى هذا المجلس معطلا إلى ان توالى الحكم آل برقة وهم من طبقة الشعب في لقرن الثالث والثاني ق.م. وكان آل برقة ضد العائلتين الاروستقراطيتين اللتين تولتا الحكم قبلهم وهم الماغونيون، والحنونيون فاستعانت بالشعب عليهما وعلى مجلس الشيوخ الذي كان اوروستقراطيا بعارض البرقاويين الشعبيين. فرجع لمجلس الشعب اعتباره، وأصبح له في سياسة الحكومة كلمة، وفي الميدان السياسي اعتبار.

هذا هو لنظام السياسي للدولة البونيقية في عهود أزهارها وعظمتها. وهو أحسن

42 - مدينة المغرب لعربي ج 1 ص 105 ط أولى.

نظام يوجد في ذلك الزمان، ويهتدي إليه عقل الإنسان في تلك العهود.

ان اختلاط الفينيقيين بالبربر وامتزاج لم البربري بالدم الفينيقي قد اكسب للفنيقيين خصائص البربر وهي الميل إلى حكم الشورى، وكره الاستبداد والمركزية الطاغية في الحكم، فآثروا النظام الجمهوري العادل، فكانوا من اسبق الناس إلى حكم الشورى، والى هذا الأسلوب الجمهوري الذي قلدهم فيه الرومان فسعدوا.

ان المغرب من أول الأقطار التي اهتدت إلى النظام لجمهوري الحقيقي فشرعته للناس، وان فضله على الإنسانية بهذا لعظيم، وان ما بلغه في قيمه في ظل دولته البونيقية العظمى من وقي وسعادة ومجد لمكافأة له على طبعه السليم الذي هداه إلى هذا النظام،وعلى نضوجه الذي جعله يأبى حكم الفرد المستبد، ويؤثر حكم الجماعة العادل.

لقد كان مجلس الشيوخ في قرطاجنة يتصف بكثير من الحيف. وكان يتعصب للطبقة الغنية ومن لها مصالحها، ولكنه كان ارأف بالأمة، وأحسن سياسة، وأهدى سبيلا من حكم الفرد الذي يعتمد على الحديد في إخضاع الشعب، ويتصرف في الأمة تصرف المالك في قطعان الغنم التي أعدها للمجزرة !

هذا هو نظام الدولة البونيقية السياسي، فكيف كان جيشها وقواتها العسكرية الأخرى؟

الجيش والأسطول

ضعف الشخصية الحربية في البونيقيين

كان البونيقيون امة تجارية مسالمة، تؤثر الهدوء والسكون، وتبتعد عن الخصام والصدام، فبودهم ان تكون الأيام نسيما رخاء يضاعف نعيمهم وترفهم الذي ينغمسون فيه، ويوافق نفوسهم التجارية التي تحرص إلى امتلاك لناس والأوطان بالود والإحسان، ولا بالسيف والسنان. لهذا كانوا اضعف من جيرانهم البربر والرومان في الشجاعة، وكانت الشخصية الحربية فيهم ضعيفة، ولم يكونوا ذوي اعتناء بتقوية أجسامهم، وإنماء الشخصية الحربية فيهم، والتدرب على فنون القتال، والحرص على التفوق في لفنون العسكرية كما كان الرومان. وكما كان جيرانهم البربر في نوميديا وفي أنحاء المغرب الأخرى.

كان البونيقيون لا يلبسون السلاح إلا للدفاع. وتراهم يستثقلون الحرب، وتهرب منها نفوسهم، فبودهم ان لا يقاتلوا. لهذا تغلب عليهم الرومان وأزلوهم من الوجود.

وكان للبونيقيين جيش دائم لا يتجاوز عدده خمسين ألفا. وكان يرابط في الثغور، ويقيم في المدن الكبرى، لحفظ الأمن في الدولة وحراسة الأمة من الأعداء. وكان جيشا مسلما اتخذ للدفاع لا للهجوم، لذلك أم تحتفل به الدولة فتنمى عدده، ليكون اكبر قوة عسكرية في البحر الأبيض المتوسط تحتفظ مصالحها التي يهدها منافسوها الأقوياء.

وكان الجيش الذي ذكرنا هو جندها الدائم المرابط في الثغور، وكان قليل العدد. هذا في وقت السلم، أما إذا عبست الأيام، وتحرك الأعداء، ودعت الظروف ان تكشر من أنيابها فان جيشها من أبنائها المجندين يبلغ عشرات الآلاف، ولكن جلهم متحضر ذو نفس مسالمة لا يغني غناء كبيرا في الحروب.

اعتماد البونيقيين على البربر في حروبهم الكبرى

وكن البونيقيون في ذلك الجيش الدائم قليلين. وجل هذا الجيش من البربر الليبيين أهل افريقية. وكانت قرطاجنة تعدهم من رعاياها،وكانت في آخر أمرها لما فسدت

أخلاقها بالحضارة تضطهدهم وتحتقرهم،وتظلمهم في أموالهم وأنفسهم، فحقوا عليها،وضعف الإخلاص والحماس لها في قلوبهم. وكانت قرطاجنة ق فرضت على هؤلاء البربر التجنيد الإجباري، فالفت منهم اكبر قسم من جيشها، وكان جلهم من المشاة. أما الفرسان المغاوير، وأهل الكر والصدام، فكانوا من نوميديا، يتطوعون في الجيش البونيقي، أو تستأجرهم الحكومة البونيقية. وهذان القسمان من البربر هما اللذان تتألف منهما القوة الحربية الباسلة في الدولة، وهما المخلب القوي الذي سطت به قرطاجنة على الأعداء، فلولاهما لكانت اضعف في ميدان الحروب، وما استطاعت ان تخوض المعارك الطاحنة مع اليونان والرومان في حروب صقلية وفي الحروب البونيقية، فتنتصر في كثير من المعارك، وترد الأعداء الذين يحاولون القضاء عليها.

كانت قرطاجنة تعتمد في حروبها على لبربر سيما النوميديين، وتراهم أهم قسم في جيشها. وكانت تستأجر فئات من المحاربين الأوروبيين والإفريقيين[43] السود، ولكنهم أقلية في جيشها بالنسبة إلى البربر. وكان هؤلاء الأوروبيون والإفريقيون يقومون بأعمال خاصة في الحرب. فكان الإفريقيون السود يحملون الرماح، والغاليون سكن فرنسا القدماء يحملون السيوف العريضة، والإسبان يجعلون السيوف الرقيقة، وأهل جزر (الباليار) يرمون بآلاتهم الحجارة الصغيرة أو كرات الرصاص. وكان لكل طائفة من هؤلاء براعة خاصة في القتال، فانتفع بهم البونيقيون جميعا في حروبهم. ولكن هؤلاء وان كانوا بارعين في القتال فهم أبناء بطونهم، يدفعهم الأجر الذي يأخذونه، والسلب الذي يظفرون به الحروب، لا إخلاصهم للدولة، وغيرتهم عليها. أما البربر وهم الفرسان النوميديون، والمشاة الإفريقيون، فكانوا أكثر إخلاصا وحبا للدولة، يقاتلون في صفوفها بغيرة وحمية. وهم الذين كانوا الجمهور في جيش حنبعل القرطاجي الذي قهر به الرومان، وحاصر به روما واخذ بتلابيبها. ولو أحسنت قرطاجنة إلى البربر في آخر عمرها سيما إلى الإفريقيين في ترابها، والذين كانوا جيرانها في ليبيا ونوميديا وموريطانيا، وامتلكت قلوبهم بالإحسان، لانتفعت بشجاعتهم كل الانتفاع،وما استطاع الرومان ان يتغلبوا عليها.

وكانت قيادة لجيوش في الدولة للأسرة البرقاوية. وقد نبع منها عدة قواد كانوا من أفذاذ العالم في الشجاعة وقيادة الجيوش. منهم حنبعل، وعملقرط، وصدربعل

43 - نريد بالإفريقيين الزنوج من أبناء جنوب افريقية بالمعنى العصري لافريقية. أما في بقية الأمكنة في هذا الكتاب فإذا ورد اسم افريقية فالمراد به القطر التونسي اليوم.

الأسطول التجاري والحربي

وكان للدولة البونيقية أسطول ضخم يمخر العباب إلى الأقطار النائية، ويشق البحار إلى الغايات البعيدة التي لم يصلها غيرهم من الأمم. ان البونيقيين أبناء اليم. نبتوا في أكنافه، فأمواجه لا تفتأ من مناغاتهم، وهم لا يفارقون البحر كأن بينه وبينهم رحما ماسة، قد ذللوا غواربه، برعوا كل البراعة في الملاحة، فكانوا في الزمن لقديم كالانجليزية والأمريكان في هذا العصر في كثرة الأساطيل، وفي التمكن من أعنة البحر، يركبونه إلى أي ناحية شاءوا. وكان أسطولهم قد بلغ خمسمائة سفينة، وملاحهم عشرات الآلاف. وقد استولوا على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط كله. فوضعوا أيديهم على شواطئ ليبيا وعلى صقلية، وسردينيا، وكورسيكا، وعلى جزر الباليار، وعلى الأندلس، وعلى الشواطئ في جنوب فرنسا.

وكان أسطول البونيقيين ينقسم إلى قسمين، أسطول تجاري، وأسطول حربي.ولكل منهما نظامه ورجاله وشكل سفنه. وسفنهم هي فلك ضخم فيه صفوف كثيرة على جانبيه من المقاذيف، وعليها شراع يبسطونه إذا هبت الريح فتزجيهم إلى المقصود.

وكانت السفن التجارية ذات حيزوم مستدير، وشكلها غير بالغ الضخامة. أما السفن الحربية فضخمة الشكل، معقربة الصدر، لها صفوف كثيرة من المقاذيف قد تصل التسعة.

وكان للدولة في قرطاجنة اكبر مرسى للسفن يوجد في ذلك الزمان. وكان ينقسم إلى قسمين: إلى مرسى تجاري، ومرسى حربي، ومكانه في شمال جون لكرم، بين صالمبوودرمش. والمرسى التجاري مستطيل الشكل طوله 456م وعرضه 325م أما المرسى الحربي فاكبر من التجاري، وهو مستدير، في وسطه جزيرة القيادة البحرية.

وكان للدولة مصانع كثيرة ضخمة لصنع السفن وإصلاحها. وكانت سفنها لا تضاهي في الضخامة، والمتانة والجمال. وكان البحر يهدهدها في حجره، فتتهادى منتشية بلمساته للطيفة، وأنغامه لعذبة وكانت أشرعته تخترق الأجواء في البحار النائية فترفع اسم الدولة في كل مكان.

تلك هي القوة الحربية للدولة البونيقية، فكيف كانوا في التين. ان الدين هو قوة الأمة وسبب تقدمها، فما تجردت منه لا تجردت من كل قواها ومن رشادها، فصارت حيوانات ضارية يأكل بعضها بعضا، فيقعون جميعا في الهاوية. بقد كانت الدولة البونيقية عظيمة، فما هو دينها، وما تمسكها به، وما أثره فيها؟

قوة تدين البونيقيين، وآلهتهم التي يعبدونها

كان البونيقيون متمسكين بدينهم كل التمسك. وكان دينهم خرافيا، ولكنهم كانوا يؤمنون به إيمانا عميقا ورثوه من أجدادهم، وركزه في نفوسهم مغامراتهم في البحار، وما كانوا يحيطون به أنفسهم في كل مكان من أجواء دينية، ومن تماثيل تذكرهم بدينهم في كل مكان.

وكان البونيقيون يؤمنون بوجود اله هو خالق هذا الكون ومدبره. وكانوا يرمزون إليه بتماثيل يقدسونها ويقربون إليها مختلف القرابين.

كان البونيقيون ينشئون أبناءهم على الدين، ويبثونه في مجتمعهم بكل الوسائل وفي كل المناسبات. ومن شدة تمسكهم بالين أنهم سموا أولادهم بأسماء تل على عبوديتهم وخضوعهم لآلهتهم. ومن الأسماء الشائعة فيهم للذكور (معطبعل) أي عطية بعل. (عبد اشمون) واشمون من ألهتهم،(عملقرط) أي عبد ملقرط، وملقرط من ألهتهم الكبرى في افريقية وفي فينقيا و(حنبعل) أي حن عليه بعل،وبعل من ألهتهم الكبيرة، وبار كبعل يعني باركه بعل.

أما الإناث فيسمونهن (بنتبعل) و(عريسة بعل) يعني خطيبة بعل وأمة بعل).

وكان أمراء الدولة وقوادها يقدمون القرابين للآلهة، ويقيمون لذلك احتفالات كبرى، يسرع إليها الشعب المتين، ورءوسهم منكسة للآلهة، وقلوبهم تفيض بالتقديس والخشوع لها !

وكانت الخاصة والعمة كلها تسرع إلى المعابد إذا أهم الدولة مكروه، أو حاق بهم سوء، كجب أو وباء، فيقربون القرابين الغالية إلى ألهتهم، ليرتفع عنهم ما يخشونه. «وق قدم القرطاجيون للنار حين حاصر عاصمتهم قائد الإغريق (اغلاتوكلاس) مائتي طفل من أنبل الأسر. وخف ثلاثمائة رجل إلى التطوع يومئذ فرحين (فالقوا بأنفسهم في النار فاحترقوا) ليرضى الله عن أمتهم فينقذها مما هي فيه من ضيف وشدة».[44]

وكانت عادة الحرق، حرق الأبناء،وحرق لنفس، من العادات الدينية الراسخة في نفوس البونيقيين. وما حرق عليسة ديدون لنفسا، وحرق زوجة صدربعل لطفلها ولنفسها،وحرق

44 - مدينة الغرب العربي ج 1 ص 120 لق تصرفنا في عبارة لنص لنزيده وضوحا.

الجماهير التي معها، ويبلغ عددهم خمسة آلاف نسمة، لأنفسهم لما احتل الرومان قرطاجنة وأحاطوا بالمكان الذي اعتصموا به، إلا مظهرا لهذه العقيدة الدينية الراسخة في قلوب البونيقيين.

وكان دين البونيقيين وألهتهم هي إلهة الفينيقيين ودينهم. وقد زالوا له ما أعجبهم من دين البربر، كما عبدوا اله البربر (عمون) وكان من أربابهم الكبرى.

وكان القرطاجنيون قد اقتبسوا من كل امة اتصلوا بها ما أعجبهم من دينهم وأوثانهم، فكان ينهم وأوثانهم مزيجا من أديان وأوثان الأمم التي عاشروها سيما البر والمصريين.

وكان من إلهة البونيقيين التي يعبدونها بعل حمون، وتأنيت بينيبعل، وملقرط، واشمون.

احترام البونيقيين لرؤساء الدين وإجلالهم

وكان للبونيقيين كهنة ورؤساء للدين يقومون بالمعابد، ويقيمون لهم الطقوس الدينية، ويقومون بوعظ الناس في المدن والقرى، وترسيخ الين في نفوسهم.وكان البونيقيون يحترمون هؤلاء الرؤساء الدينيين، ويجلونهم، كما كان الحكام والقادة وكل الطبقات الرفيعة تجلهم، لأنهم عنوان الدين الذي يقسون، ومظهر الصلاح والخشوع وكل الأخلاق التي يحبونها ويجلونها.

«وكان لكهنة ينتمون في الغالب إلى أعلى الطبقات الارستقراطية. وكانت القسيسية وراثية على الأقل بالنسبة للحبر الأعظم. ولم يفرض التبتل على النساء الكاهنات مثلما كان ذلك مفروضا على الفستاليات برومة، وكذلك لم تفرض العزوبة على الكهنة من الرجال.

وبمناسبة إقامة الحفلات والطقوس الدينية كان الكهنة يلبسون زيا خاصا وصفه لن المؤرخون اللاتينيون كما يأتي: ثياب أرجوانية، قلانس وجباب من كتان، أردية طويلة الذيل، تزينها في الوسط شقة أرجوانية وعصبيات. وان لباس لكاهنة القرطاجنية عريسة بعل المنقوشة على غطاء الناووس الموجود بمتحف قرطاج كان بدون شك لباس كاهنة عظيمة الشأن، وهو يشبه لباس الكاهنة المصرية، ويعبر أحسن تعبير عن الأناقة اليونانية».[45]

45 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 621 الطبعة الأولى بتونس 1959م

الآثار الحسنة للتدين في نفوس البونيقيين

كان الذي تدين به الدولة البونيقية وثنيا باطلا،ولكنه أجدى البونيقيين كثيرا، وكان من أسباب عظمتهم، واستقروا دولتهم، وشيوع كثير من الأخلاق الحسنة في مجتمعهم، فسعدوا بها، وأورثتهم الهناء والأزهار. لقد كان البونيقيون يؤمنون إيمانا عميقا بأنه مما يرضى الرب ويجلب لهم كل خير، ويحفظهم من كل ضير، لاستقامة في السلوك، وترك الظلم والعدوان، والإحسان إلى الناس، وكف الأذى عنهم، وطاعة أولى الأمر، وإتقان العمل والإخلاص فيه، وغير ذلك من الأخلاق الحسنة التي يهدي إليها العقل الصحيح والفطرة السليمة، ويؤمنون بان ما يسخط الرب ويسلط عليهم كل البلايا، وهو الاتصاف بعكس الخلايا المذكورة، فيأتون الحسن بدافع من الخشية القوية فيصير بالتكرار عادة في نفوسهم يأتونه بدافع العادة والدين، ويتركون الصالحات بدافع من الخوف الشديد فيكون الترك عادة في النفوس، وترتبط الأعمال السيئة التي تكون شهوات تشره إليها النفوس بعواقبها الوخيمة وهي سخط الرب وعقابه العاجل فلا تبدو لهم في ألوان منكرة تنفر عنها النفوس، فيتصفون بإتيان الخلايا الحميدة، ويترك الأفعال السيئة، ويكون ذلك خلقا فيهم يشيعه أولو الأمر في المجتمع بقوانين الدولة، وقوة الحكومة، ويغرسه الآباء والمعلمون في نفوس الناشئة بالتربية الصحيحة، والتعليم الرشيد.

أسباب الدين في نفوس البونيقيين

هذا هو الأثر الحسن للدين في نفوس البونيقيين، لقد كانوا من اشد الأمم تمسكا بالدين، والتجاء إلى ألهتهم، وكان من اسبب قوة الدين فيهم ركوبهم البحار وإبعادهم في الرحلة، ما منهم إلا وقد عصف به البحر مرارا فرأى الموت الأزرق يفغر عليه، فلا يكون له التجاء إلا إلى قوة الله الذي يؤمن ب. والبلاء الهاجم الذي يزيد على قوة الإنسان مما يوقظ الدين في النفوس، وهذا ما يبتلى به البونيقيون في البحر من ثوراته، وهجمات الأعداء عليه، وفي البر من غارة المنافسين لهم الإغريق والرومان.

الدين هو سبب عظمة كل فرد وكل دولة في الوجود

ان الدين هو الذي يلجم النفوس فتقف في حدودها، ويضبط الغرائز فلا يندفع صاحبها إلى الموبقات، ويحمل صاحبه بدافع الخوف الشديد فيتسم بالصلاح،ويأتي الأعمال الحسنة الكريمة التي تسعده وتسعد المجتمع معه، وما خلا مجتمع من لدين إلا سادت فيه الرذيلة، وامتنع فيه الاستقرار والهناء، وما تجردت دولة من الدين إلا كان تجردا

لها من الروح الذي تحيا به، فتكون في الحياة جيفة نتنة خبيثة لا تمور إلا بالديدان والنتن من موبقاتها، ويسلط الله عليها كل الحشرات من أعدائها فترتع فيها كما تريد.

ان الين هو سبب الإخلاص والعدل والرحمة، وكل حسن من الأخلاق، فهو، لا العلم ولا العقل، ولا القانون ولا أي قوة في الوجود تكف النفوس وتلجم الشهوات، وتوقف المرء في حدوده لا يتعداها، وإذا خلا المرء من الدين كان وحشا ضاريا لا تصرفه إلا غرائزه، ولا يرسم له طريقه إلا أنانيته التي يكون بها لقومه بلاء وجحيما..

كانت الدولة البونيقية متدينة، فسدت واستقلت لها الحياة وظفرت بالأيام الضاحكة، فازدهرت، وحققت مثلها العليا في كل النواحي، سيما في الميادين المادية التي يجاهدون فيها، فما هي حضارة هذه الدولة السعيدة، وما درجتها في التقدم والعمران؟

حضارة الدولة البونيقية وعظمتها

كانت الدولة البونيقية قد ورثت الحضارة الفينيقية وزادت عليها، فازدهرت كل الازدهار في كل النواحي، وكانت على الرقي والجمال في كل الأركان. وكانت افريقية في عهدهم مثال الحضارة والجمال والرخاء. وكان يحج إليها عشاق الحضارة والجمال، والمترفون الذين يرغبون في الرفاهية والنعيم والبهاء، فيجدون فيها ما لا يجدون في غيرها من الأمم التي سبقتها إلى الحضرة، وتنسيهم افريقية أوطانهم بحسنا وحضارتها فيتخذونها مقرا دائما.

وكانت الدولة البونيقية دولة العمل والنشاط والرحلة والاقتباس من غيرها. لا تجمد على المألوف، ولا تركد في رقعتها فيكون لها نوع واحد من لحضارة، بل تضرب في بلاد الله الواسعة فتختلط بالأمم المتمدنة كالمصريين، والأشوريين، والإغريق، والهنود والصينيين، وغيرهم، فتقتبس من حضارتهم وأساليبهم في العمل أحسن ما عندهم، فتضيفه إلى ما عندها، لذلك أسرعت في طريق الحضارة، ووصلت فيها القمة في أمد قصير.

وكانت حارة الدولة البونيقية ولية حضارات الأمم التي اختلطت بها، ولكنها تحمل طابعها، لق هضمت تلك الحارات وصاغتها صياغة جديدة على حسب مزاجها، وتقاليدها، وحاجاتها، لذلك نسبت الحضارة إليها، لأنها أثرت فيها، ورتقت بها، وأصبحت شيئا ممتازا يحمل طابعها، ويل عليها.

التجارة

كانت الدولة البونيقية دولة تجارية ممتازة، فأثرت بالتجارة الثراء الواسع، وكانت أسواقها البونيقية الرابحة سبب الغنى العريض، والرخاء البالغ الذي كانت عليه.

وكان البونيقيون ابرع الأمم في التجارة. وكانت شخصية تجارية ممتازة حببتهم الأمم، وفتحت الأسواق العالمية الرابحة لهم. وكان يرحب بهم للتجارة حتى منافسوهم الإغريق والرومان، ويعجبون بهم، ويتتلمذون لهم في أساليب التجارة الرابحة وطريق امتلاك قلوب الأمم فتفتحت لهم أسواقها.

وكان البونيقيون قد احتكروا تجارة الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط في القرن

الخامس والرابع والنصف الأول من القرن الثالث ق.م . وكانت دولتهم قد حجرت على الإغريق والرومان في المعاهدات التي عقدتها مهما ان ينزلوا بسردينيا، أو شواطئ ليبيا وافريقية للتجارة، فاحتكرت التجارة في هذه البقاع لنفسها،وأصبحت أسواقها الرائجة لا يزحمها فيها احد.

وكانت قرطاجنة اكبر سوق في العالم. وكانت أنواع البضائع من مختلف أنحاء الدنيا مكدسة فيها. وكان التجار من مختلف أقطار العالم يقصدونها للتجارة ويقيمون فيها.

السكة البونيقية

وكانت تجارة البونيقيين إلى القرن الخامس بالمقايضة، يأخذون بضاعة ببضاعة. ثم ضربوا سكة لهم في القرن الخامس في صقلية وفي القرن الرابع[46] ضربوا سكتهم في قرطاجنة فصاروا يتعاملون بها أيضا في الأسواق.

وكانت البضائع البونيقية من مصانعها الكبيرة، وصناعتها الزاهرة، وثمار أرضها الخصبة مما عمرت به أسواقها، وأشاع الغنى والرخاء فيها.

وكانت الطبقات المثقفة في المدن البونيقية، وسراتها، وأغنياؤها يشتغل معظمهم بالتجارة، لذلك ترقت التجارة فيها، وحازت دولتهم قصب لسبق في مضمارها. هذا إلى أسطولهم التجاري الكبير، وبراعتهم في الملاحة، وغرامهم بالمغامرات البحرية، والأسفار إلى البلدان النائية، وموقع افريقية الممتاز، انها وسط بين الشرق والغرب، تستطيع ان تمد أيديها إلى كليهما.

الفلاحة

وكانت ارض المغرب فلاحية. فيها كل أسباب الخصب والنماء، سيما شمال افريقية حيث نشأت قرطاجنة، ان وادي مجردة الكبير يتفق فيها. فاستغل البونيقيون مياهه في الفلاحة، سهولة الخصبة للزراعة، كما امتلكوا اغلب أراضي افريقية، انتزعوها من البربر بوسائل مختلفة، فازدهرت الفلاحة فيها كل الأزهار. وكانوا يتقلون من مختلف جهات العالم كل ما يليق بجو المغرب من الأشجار المثمرة، والمزروعات الجيدة، ومن الرياحين وأشجار الزينة. كما اعتنوا بما وجدوه من مزروعات البربر: الشعير والقمح، وأشجارهم: التين والزيتون فأكثروا منها، ونشروها في كل أنحاء افريقية. فصارت افريقية بنشاطهم

46 - العد قبل الميلاد يكون بالتنفس لا بالزيادة فالقرن الخامس قبل الرابع والثالث قبل الثاني.

وعملهم، وبراعتهم في الفلاحة مثلا أعلى في الخصب وأزهار الفلاحة للبربر، فحذوا حذو البونيقين في أساليب الفلاحة فاعتنى البربر وعمرت أراضيهم، وعم الجمال كل أنحاء المغرب، بالمزارع الواسعة، والحدائق الغناء التي صارت ترصع أنحاءه بفضل البونيقيين الذين اخذوا بأيدي البربر فنهضوا نهضتهم الكبرى.

ومن الأشجار التي نقلها البونيقيون إلى المغرب فانتشرت في جنوبه كل الانتشار النخل ! فإنهم حملوا إلى جنوب افريقية أنواعه الممتازة فانتشرت منه إلى كل أنحاء الجنوب في المغرب، وأدرك البربر بذكائهم مزايا النخلة وبركاتها عليهم فاعتنوا بها، ونشروها في الجنوب، فصار المغرب من معان التمر الجيد الممتاز الذي لا يوجد في أنحاء العالم الأخرى. ونقل البونيقيون إلى المغرب أشجار الجوز واللوز والرمان وغيرها.فانتشر فيه انتشارا كبيرا، وكانوا ينقلون ثماره إلى الأمم المجاورة.مع زيت الزيتون، والتمر، والتين المجفف، وغيرها من غلل المغرب الممتازة، فيكون إقبالا كبيرا في الأسواق عليها لما تمتاز به ثمر المغرب من حلاوة ونكهة، وطول بقاء.

ان الفضل في أزهار الفلاحة في المغرب للبونيقيين، وان انتشار غرس الزيتون وأحسن الطرق لاستخراج الزيت منه يرجع إلى البونيقيين لا إلى الرومان كما يدعى المستعمرون المتعصبون ! ا الرومان لم يرغبوا في المغرب فيحتلوه إلا لخصبه وكثرة خيراته وغناه الواسع، وحضارته الراقية بفضل الدولة البونيقية، والدول البربرية التي عاصرتها في آخر عمرها وورثت حضارتها، وواصلت عمالها بعها في كل الميادين ! ان الرومان تدفعهم بطونهم لامتلاك الأوطان، فلو كان المغرب بلادا فقيرة حالية ما حثتهم نفوسهم بالاستيلاء عليه، بل كانوا يهربون منه ولو ترامى عليهم.

لق برع البونيقيون كل البراعة في الفلاحة وكانوا أساتذة العالم فيها، وقد وضعوا فيها التليف القيمة: منها كتاب (ماقون) الذي ألفه في الفلاحة في آخر القرن السادس ق.م. وقد أعجب به الرومان فأمرت حكومتهم بترجمته إلى اللغة اللاتينية، كما انتفع به البربر، وكان مما ورثوه من علوم البونيقيين.

الصناعة

وقد اعتنى البونيقيون بالتعدين، وبرعوا فيه كل البراعة فاستخرجوا من مناجم المغرب الغنية الحديد والنحاس والرصاص وغيرها، فصنعوا منها أنواع الأواني والآلات والأسلحة.وأنواع الحلي من أقراط وأساور، وخواتم، وغير ذلك.

كان البونيقين قد أفادت أسفارهم صناعتهم فتعرفوا إلى معادن المواد الخام الجيدة

الرخيصة في مواطنها، فحملوها إلى افريقية، فصنعوا منها كل ما تستلزمه حضارتهم الراقية، وما تحتاجه الشعوب التي يتاجرون معها؛ كما استوردوا العبيد فاستعملوهم في الصناعة فظفروا بالأيدي العاملة الرخيصة، فحصلوا على الربح الكثير بتكاليف قليلة، فائروا بالصناعة أيضا، فكانت من أسباب غناهم البالغ. وقد استطاع البونيقيون بأسفارهم إلى أوروبا واسيا،وافريقية «ان يستوردوا العاج والجلود من ليبيا، والعبيد من السودان، خشب الأرز من صور، والبخور واللبان من بلاد العرب، والنحاس من قبرص، والحدي من ألبا والصفيح من (كورنوول) بانجلترا، والنبيذ من بلاد الإغريق، والفضة من اسبانيا، والذهب والأحجار الكريمة من جزائر ملابار، والشمع والعسل من كورسيكة، والراتيج من شمال ايطاليا، والكهرمان من البلطيق، والكبريت من صقلية» [47] هذا غير ما يستخرجونه من مناجم المغرب الغنية من مختلف المعادن النفيسة وما ينتجه لهم المغرب من مواد الخام التي لا تحصى.

الحياكة والصباغة

وقد اعتنى البونيقيون بالحياكة فبرعوا فيها كل البراعة، لق زرعوا الكتان والقطن في المغرب، وربوا فيه دود القز، فاستخرجوا منه الحرير، كما انتفعوا بصوف المغرب الجيد، فصنعوا ثياب الحرير، والصوف، والقطن، والكتان، كما صنعوا الزرابي المزركشة الجميلة، والوسائد المطرزة البديعة: وقد نوه الشاعر اللاتيني (حرميت) من شعراء القرن الخامس ق.م. بزرابي قرطاجنة الجميلة ووسائدها المطرزة الرائعة كما أعجب الأمم بسائر منسوجاتها فانتشرت في الأسواق، كما برعوا في الصباغة، وصنعوا الثياب الأرجوانية الفاخرة التي لا يلبسها إلا الملوك والأمراء.

الدباغة

واعتنى البونيقيون بالدباغة، فصنعوا الأحذية الجميلة،والسروج المذهبة، واغمده السيوف المزركشة، وأنواعا أخرى من المرافق وضروب الزينة.

الصياغة

وبرع البونيقيون في الصياغة، فصنعوا من الذهب والفضة أنواعا من الحلي الجميلة المرصعة بالجواهر الكريمة، وكانت النساء في افريقية وفي المغرب يتزين بأنواع الحلي، فوجدن في حلي قرطاجنة، ما يضاعف جمالهن الفتان، وحسنهن البارع.

47 - قصة الكفاح بين رومة وقرطاجنة لتوفيق الطويل ص 43 ط. الثالثة في القاهرة 1375هـ 1955م.

صناعة الزجاج

وأتقن البونيقيون صناعة الزجاج، وأخذوها عن المصريين فزادوا فيها، فترقت على أيديهم. وكانوا يصنعوا من الزجاج الأواني المزخرفة وغيرا، والنوافذ الملونة، وضروب الزينة للأبنية والإنسان.

الفنون الجميلة

وكان للبونيقيين غرام بالفنون الجميلة. فبرعوا في النقش على الصخور، والخشب، والنحاس، وفي صنع الدمى الجميلة من العاج والعظام، وفي صنع التماثيل، وفي التصوير،كما برعوا أيضا في شؤون الزينة. فقطروا العطور الأريجة، وكانت عطور المغرب ممتازة لذكاء رائحتها، وتعدد أنواعها. وأنها إلى الآن أحسن ما يقتنى المرء من العطر الفواح المنعش.

الفن المعماري

وقد برع البونيقيون في البناء والتخطيط، فانشأوا القصور البديعة، وحفوها بالحدائق الغناء المرصعة بأنواع الأشجار، والزهور والريحان. كما انشأوا الديار العالية ذات ست طبقات. وكانت ديارهم بالسطوح كما نرى الديار العربية اليوم بالمغرب. وانشأوا المدن العامرة لتي كنت مثالا في النظافة والنظام والجمال، والأمن. فيها الميادين الواسعة، للاجتماعات الشعبية، والحمامات الساخنة الواسعة الفخمة تراها عامة في أنحاء المدن للشعب، وخاصة في قصور الأغنياء المترفين. ان المغرب سيما افريقية. لازال إلى اليوم أكثر بلاد الإسلام اعتناء بالنظافة، وغشيان الحمامات الساخنة الفخمة الساترة الأمينة الموجودة في كل أنحاء البلاد.

ان البونيقيين امة النشاط والعمل والأسفار. من كان حب العمل، والطموح، ومخالطة المم المتمدنة طبيعته، يبلغ أعلى الرجات في العلم، والمدنية، والرقي. ويقتبس حسنات الأمم ويسعد بها !

اللغة البونيقية وأدبها

وكانت اللغة البونيقية هي الفينيقية قد داخلتها كثير م الكلمات البربرية ولهجاتها، فصارت تسمى البونيقية لأنها مزيج من اللغتين. كم تأثر الخط البونيقي بالخط البربري فاقتبس بعض حروفه. والبربر شعب قوي الشخصية لا تتصل بهم امة إلا ويؤثرون فيها، ولو كانت أكثر منهم حضارة، وأرقى في المعرفة ! كما ان البونيقيين شعب مغرم بالكمال، يأخذونه من كل جنس، ويلتقطونه من كل مكان. وقد اعتنى البونيقيون بلغتهم فترقت وغزرت مادتها، وصقلتها أذواقهم، فصارت منسجمة ببيئتهم المترف، ومجتمعهم المتحضر. وكانت لغتهم هي العربية محرفة في لهجته وفي كثير من جمله بما داخلها من البربري والمصري القديمة، والإغريقية، والأمم التي اختلط بها البونيقيون واختلطت بهم.وكان البونيقيون يضيفون إلى لغتهم كل ما راقهم من الألفاظ، وبعد ان يعربوه، ويخضعوه لقواعد لغتهم ولهجتها. وقد رتقت لغتهم فاتسعت لحضارتهم الراقية، ومصالح دولتهم الكبرى.فكانت هي اللغة الرسمية للدولة، يكتبون بها في الدواوين، ويحطبون بها في الأماكن العام، ويؤلفون بها الكتب لعلمي. وهي لغة الأب، والأغاني، وبها يقع التخاطب في الأسواق، والسمر في المجامع ويلي البونيقية في الأهمية وكثرة الاستعمال اللغة البربرية، فإنها لغة السواد الأعظم من أهل لمغرب.

إقبال البربر على اللغة البونيقية ومحافظتهم عليها

وكانت اللغة البونيقية لما داخلها من البربرية ولهجة البربر، ولعذوبتها ورشاقتها، وخفتها على اللسان، قد راقت البربر وأعجبوا بها؛ ورأوها مفتاح العلم المتعطشين إليه، وسبب الاتصال بالبونقيين الذين يعجبون بحضارتهم، فاقبلوا عليها، فتعلموها، فانتشرت انتشارا واسعا في كل أنحاء المغرب، وأتقنها الرجال والنساء من البربر، ونشأت ناشئتهم وهي تتكلم لغتين وتحسنها،البربرية والبونيقية. وقد ظلت اللغة البونيقية منتشرة في البربر يتكلمون ويكتبون بها إلى ان جاءت العربية فحلت محلها، وذلك في لقرن السابع المسيحي بعد ثمانية قرون ونصف م انقراض الدولة البونيقية وزوالها من الوجود.

وقد برع البونيقيون في كل العلوم التي تستلزمها التجارة والصناعة، والملاحة،

فوضعوا فيها التالف القيمة بلغتهم. وقد ضاع أكثرها في حريق قرطاجنة.ولو بقيت لظفرت الإنسانية بكنوز نفيسة، وثروة علمية تزيدها أشواطا إلى الأمام. أما الأب فأرى انه كان ضعيف في اللغة البونيقية لان هذه الأم كان غرامها بالتجارة والصناعة. ومثلها الأعلى الذي يوجهها ويكيف أمورها ماي. وهو جمع أكثر ما يمكن من المال. فاعتنوا أكثر بكل ما يحقق مثلهم الأعلى في المال. والعلوم. سيما التجارة. والملاحة. والصناعة هي لوسيلة الكبرى لتحقيق أموالهم الكبرى في ميدان المال والاقتصاد. أنهم أم يتغلب فيها الإدراك على الوجدان. لهذا أرى ان الأب كان ضعيفا عندهم. وعنايتهم بالعلم كانت أكثر. وكعبهم في مجاله كان أعلى. وعلى انه لابد ان يكون لهم أب جميل للدعاية السياسية. والتجاري. وللاغاني الشعبي. ولتحلية الأسمار العذبة في قصورهم البديعة. والتربي والتهذيب. ولا يمكن لأمة ان تبلغ الذروة في الماديات مهما كان ضعف وجدانها. ولا يكون لها أب يعبر عن ذلك الوجدان.

لقد ورث الرومان علم البونيقيين. وترجموا كتاب (ماقون) في الفلاحة. لان العلم بضاعة عالمية لكل الأمم. واعرضوا عن الأدب البونيقي. وقتلوه بكل وسيلة في المغرب لأنه لعظمة هذه الأمة التي أزالوها من الوجود. وفي العهد الروماني بالمغرب دخل البربر في عهود الجهل والظلمات. فضاع منهم كثير من تراث البونيقيين.ومنه ما حفظوه من أدبهم. ولما جاءت العربية وحلت محل البونيقيين في المغرب اندرست البقايا القليلة من أب البونيقيين كالأمثلة السائرة. والكنايات. والحكم. وزالت بزوال اللغة البونيقية وانقراضها. واقبل البربر على العربية فأتقنوها. وقدسوها. وصاروا هم حماتها وأسوارها الحصينة في المغرب الكبير !!

هذه جملة قصيرة في حضارة هذه الدولة العظمى تصور لك شخصيتها. أثارها العظيمة في المغرب. ولو أطلقنا العنان للقلم فحللنا عناصر شخصية هذه الأمة العظمى. وتتبعنا أدوارها كلها لملأت هذا المجلد واربت عليه.

هذه هي الدولة البونيقي ! كانت عظيمة. قوية بمالها. علمها. وكثرة مستعمراتها ! فلماذا استطاع الرومان ان يقضوا عليها ؟! كان ذلك لأمراضها النفسية. وللهرم الذي تمكن فيها. ولاستيفائها لحياتها. ولفتوة الرومان وقوتهم. ولمناطحة الإغريق لها وهي في الكهولة فعجلوا بشيخوختها.

ما هي الأمراض النفسية التي قيدت الدولة البونيقي للرومان فأجهزوا عليها. وفي أي حروب حرقوا قرطاجنة ودمروها. ورفعوا الصخرة الكبير وكروا بها رأس دولتنا فزالت

من الوجود؟! أين البربر الأوفياء. أين الأمازيغ الأبطال!؟ لم يحفظوا دولتهم من الذئاب العاتية! لقد أضاعتهم قرطاجنة. وخسرت ودهم. وجعلتهم أعداءها! وذلك لسوء حظها ! ! بماذا خسرت ودهم ومتى؟



هرم الدول البونيقية وأسبابه

كان الفينيقيون الذين انشأوا قرطاجنة والدولة البونيقية قد حملوا في نفوسهم أسباب الهرم والضعف الذي أودى بدولتهم في فينيقيا، وجعل الأعداء يتغلبون عليها ويوارونها التراب. وكانت دمائهم قد ضعفت بالعمر الطويل، وبطول الكد والبناء والعمل المتواصل الذي قامت به فينيقيا قرونا كثيرة، ولكن اختلاط هؤلاء الفينيقيين الذين انتقلوا إلى المغرب بالبربر، وسريان الدماء البربرية القوية في عروقهم، ومفارقتهم لنعيم الحضارة الذي كان ينهك نفوسهم في صور، واتصافهم بخشونة البداوة، وكدهم وجهدهم في بناء عاصمتهم وإنشاء دولتهم في افريقية؛ ان ذلك كله سيما امتزاجهم بالبربر ق جدد شبابهم، وأورثهم قوة في الخلق استطاعوا بها ان يستأنفوا عمرهم الطويل في المغرب. ولكن هؤلاء البونيقيين لم يستطع اختلاطهم بالبربر ان يشفيهم من علة ما أصيبت بها امة إلا عجلت بهرمها وضعفها، وقيدتها عن القراع والجهاد،وجعلتها أكلة للأعداء الأقوياء. ان هذه العلة الموروثة في البونيقيين هي حب المال وعبادة المادة.

ضعف أخلاق البونيقيين بالانغماس في ملاذ الحضارة وإفراطهم في النعيم

وكان حب البونقيين للمال، وعكوفهم على جمعه قد جعلهم يثرون الثراء البالغ، فانغمسوا في البذخ وفي الملاذ ونعيم الحضارة، فوهنت نفوسهم، وضعفت أخلاقهم، فصاروا لا يطيقون الحرب، وأهوال الجهاد فاستسلموا للرومان الأقوياء، واستطاعت روما الفقيرة المتينة الأخلاق، ان تركب ظهر قرطاجنة الغنية السمينة،وان تنشب مخالبها وأنيابها فيها وتمزقها إربا وتبتلعها!

وكان خلق المسالمة الذي أورثته للبونيقيين نفسيتهم التجارية قد زاد في آخر عمرهم بالبذخ وهرم الدولة، فصاروا لا يطيقون سماع صليل السيوف، وعافت نفوسهم دوي المعارك لذي يراه الرومان لقوة نفوسهم ألذ من ذوي الرعود المبشرة بالغيث في سماء الجدب العطشان!

ظلم البونيقيين للبربر وغطرستهم وجبروتهم

وكان حب المال، والإثراء البالغ منه، والانغماس في الحضارة والنعيم الذي اضعف نفوسه البونيقيين فصاروا للرومان نعاجا يثقلها سمنها عن النطاح، ق أورثهم ضروا وغطرسة وجبروتا على البربر في افريقية، وتنكرا وسوء عشرة لجيرانهم البربر في نوميديا، وصاروا مستعمرين همم امتصاص أموال البربر، واستعمارهم، وركوبهم مطايا رخيصة إلى أغراضهم.

«وكانت معاملة المستعمرين البونيقيين لرعياهم الليبيين أبناء البلاد، وحتى النوميديين المعتبرين تحت حمايتهم، كانت على غاية من الغلظة والقساوة. أنهم كانوا لا يحتلون بلدا إلا وفرضوا على أهله الذل والهوان، ووضعوا أيديهم على كافة ما تنتجه أراضيهم، واخذوا يمتصون أموالهم التي حصلوا عليها بعرق جبينهم حتى يصبهم الفقر، ويدركهم البؤس والجوع والضنى.وقد درت هذه الطريقة على القرطاجنيين الذهب الكثير والمال الطائل، ولو أنهم كانوا ينفقون الكثير منه في الحروب مع أعدائهم، خصوصا في الحرب البونيقية الأولى مع الرومان: تلك الحرب التي ضعضعت أحوالهم، وأفرغت خزائنهم فاضطروا إلى زيادة تشديد الوطأة على أبناء البلاد المساكين الذين أصبحوا مسخرين في أيديهم كالأنعام، يعتصرونهم كما يشاءون، ويمتصون دماءهم، ويثقلون كواهلهم بالضرائب المجحفة، ويجبرونهم على دفع جباية العشر، وكانت ترتفع في أوقات الحرب إلى ربع أو إلى نصف ما تنتجه فلاحتهم. وكذلك العبيد (من البربر الذين استعبدوهم) أولئك الذين يقومون بأعمال مرهقة فوق أراضي الطبقة الارستقراطية البونيقية، وقد كانت من قبل أراضهم فافتكوها منهم. هؤلاء كلهم كانوا ساخطين ناقمين يترقبون الفرص للتحرر والانتقام».[48]

وكان البونيقيون في أول أمرهم يحتلون ساحل افريقية الذي لم يكن فيه من لبربر إلا الشيء القليل، وينشئون فيه مدنهم، وكانوا يعتمون في الإثراء على التجارة في الخرج، فجاوروا لبربر في افريقية وفي نوميديا أحسن مجاورة، وأحسنوا إليهم، واستخدموهم في مختلف أعمالهم، فتفتح لهم باب واسع للرزق والثراء، واخذوا بأيديهم لينهضوا، واعتنوا بتعليمهم وتثقيفهم، فأحبهم البربر، وشعروا منهم بحنان الأم الرءوم، ورأوا منهم رعاية الأب الحجب ولكنهم في آخر القرن الخامس قبل الميلاد أصيبوا بمنافسة الإغريق لهم في التجارة وفي التوسع في صقلية فرأوا ان الأرض هي منبع الثروة المأمون، فلا ب لهم من الفلاحة مع التجارة، فاحتالوا على أراضي البربر في وسط افريقية

48 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 202 ط أولى تونس.

وجنوبها فأخذوها وفرقوها على أثريائهم، واستخدموا البربر الذين جردوهم من أراضيهم وأفقروهم عبيدا مسخرين بالحاجة وبالقهر في فلاحة تلك الأراضي! وأصبح البربر عندهم مزاحمين في افريقية التي أرادوا ان تكون لهم كلها، وأصبحوا في نظر البربر مستعمرين غاشمين يعملون للقضاء عليهم! فتكونت عداوة قائمة بين البونيقيين والبربر الإفريقيين. وصار البربر في افريقية وفي نوميديا يتمنون زوال هذه الدول الهرمة التي صارت كلا عليهم، وصاروا يرقبون الفرصة للثورة والانتقام، وللقضاء على هذه الدولة التي صارت لهم زوجة الأب الشرسة المشاكسة، لا تنطوي لهم إلا على الكره، ولا تعمل إلا للإضرار بهم، فيتحررون، وينشئون دولتهم، التي ترعاهم وتعمل لصالحهم.

وكانت افريقية ونوميديا في أول النصف الثاني من القرن الثالث ق.م. نارا من الحقد والبغض للبونيقيين، فوجدوا فرصتهم فانفجروا، وكانوا من أسباب ضعف الدولة، فاستغرقت في هرمها، وازدادت وهنا بالعدو الداخلي، وخسرت مخالبها وأنيابها وقوتها التي تصول بها من البربر الصناديد، فاستطاع العدو الخارجي ان يتغلب عيها.

قاتل الله حب المال الذي يورث الأنانية واظم والجبروت فيخسر صاحبه كل شيء في الحياة! لقد خسر البونيقيون أصدقاءهم البربر، وجعلوهم بالجبروت وسوء العشرة أعداء الداء، متى ثار البربر على قرطاجنة، وصفعوها صفعات أليمة أورثها الدوار الذي ترنحت به فاستعدت للسقوط؟

ثور البربر على البونيقيين

كان ذلك في آخر سن 241 ق.م. وكانت قرطاجنة قد أصيبت بالحروب البونيقية مع الرومان، وكانت الحرب البونيقية الأولى ق أنهكت البونيقيين وأفرغت خزائنهم،وانتهت في سنة 241 ق.م. بهزيمتهم وخروجهم من صقلية خاسئين. فرأى البربر الإفريقيون عدوتهم قرطاجنة تسقط من شد الإعياء، ويدركها الوهن بفراغ خزائنها. انها لا تستطيع ن تدفع أجور جيشها الذي تستخدمه دهم فسخط عليها. انها لا تجد الجيش الذي تضربهم به إذا ثاروا عليها، ان هذا الجيش نفسه سينضم إليهم إذا بذروا له بذور الذهب، وأطمعوه في المال. ان الوقت مناسب لانتقام، والتحرر من البونيقيين المستعمرين. فشمر (ماطوس) زعيم البربر في افريقية فأشعل قومه فثاروا، وثارت معه الفرق الأجنبية في الجيش البونيقي مطالبة بأجورها،فقادها ماطوس في ثورتها، وضمها إلى قومه الثائرين، فأمسى الكل جيشا جرارا يزحف به ماطوس على قرطاجنة ليخنقها فتلفظ أنفاسها، ورأت قرطاجنة أسوأ أيامها.وشاهدت الموت الأحمر يتفجر ها من عيون الأمازيغ!

وكان (ماطوس) من ضباط الجيش البونيقي كما أرى، وكان من البربر الإفريقيين الذين تسخرهم قرطاجنة في حروبها، فبرع في فنون الحرب، واطلع على أسرار الدولة فرأى ضعفها المالي والعسكري بعد حروب صقلية التي أنهكتها، وبعد هذه الحروب البونيقية الأولى التي طرحها فيها الرومان أرضا فصارت تتخبط في هزيمتها وشيخوختها.

وكان ماطوس غيورا على قومه البربر مخلصا لهم،وكان مثلهم يغلي حنقا على الدولة البونيقية التي تحتقر قومه، وتضطهدهم، وتتجبر عليهم، وتظلمهم في أنفسهم وأموالهم، وتريد ان يكونوا دائما أرضها الذلول، تطؤها بالنعال، وتشقها بالمحاريث، فعزم على الثورة، وتحرير قومه من عنت هذه الدولة وظلمها، فوجد فرصته. هاهو جند الدولة المأجور، وهو جيشها الدائم الذي تكبح به الثورات الداخلية، يثور عليها لعجزها عن دفع أجورهم. ان عددهم عشرون ألفا، وأكثرهم من البربر الإفريقيين، والنوميديين. انه زعيمهم، وهم ملتفون حوله ليقودهم في ثورتهم. ان ثورتهم ليست لعجز قرطاجنة عن دفع أجورهم، ولكن فجرها فيهم بغضبهم لها، وحنقهم عليها.

لو أحسنت إليهم لراشوها في الأزمات، ولأخذوا بأيديها إذا سقطت. بل انها لو أحسنت إليهم لحاربوا لها الرومان في صقلية بإخلاص وحماس فتنتصر عليهم. ان البربر امة وفية، وهي في الشجاعة والفروسية، والصبر على مكاره الحروب أكثر من الرومان!

ان ثورة البربر عليها وطنية، وان غرض ماطوس ان يحرر قومه من الظلم، وينتقم من عدوتهم المتغطرسة. «فراح يعقد الاجتماعات، ويخطب في جماهير البربر مشجعا ومحمسا، وحاثا على المقاومة في ثبات وعزيمة، وأوفد رسلا إلى المدن والقرى الإفريقية، والقبائل النوميدية، يدعوهم إلى الكفاح، والمشاركة في المقاومة، فلبوا نداءه، وانضووا تحت لوائه، وانضم إليه سبعون ألفا من المقاومين».[49]

شجاعة المرأة البربرية ووطنيتها الصادقة

وهبت النساء البربريات في افريقية وقمن بواجبهن في الثورات الوطنية. ان الثورة في حاجة إلى المال، وان ماطوس زعيمهن في حاجة إلى الأموال ليدفع منها أجور الغالبين والجنود المرتزقة غير البربر ليبقوا في جانبه. فمدت كل منهن بيدها إلى نحرها وأطرافها فانتزعت حليها الذهبية والفضية فتبرعت بها لصندوق الثورة! ان حمرة العزة، وإشراق الكرامة آلت ستزين وجوههن أحسن زينة لهن من هذه الحلي. وتبرع النساء الأخريات بما استطعن من مال، وتبرع رجال البربر للثورة! بأموالهم «فتجمعت عند ماطوس أموال كثيرة لدفع ما كان يطلبه الجنود من أجورهم، والمجابهة المصاريف اللازمة للمقاومة والكفاح»[50] وكانت النساء البربريات لباسلات يحمسن أبناءهم وأزواجهن، ويزدن لنار الثورة إذكاء في القلوب. وكانت زغاريدهن إذا ساروا إلى الحروب، وإذا اشتبكوا بالقرطاجنيين في المعمعة، هي لوقود لقوى الذي يؤجج حماستهم، ويذكي نار قلوبهم أكثر من خطب القادة، وحث لرؤساء! وشاركت لمرا لبربرية في هذه الثور، بمداوات الجرحى، وخدمة الجند، والتجسس على العدو. أنهن نار على البونيقيين الذين لم يرين منهم غير الظلم والاحتقار! ان البربر يغفرون كل الذنوب إلا ذنب الاحتقار والاستبداد! أنهم أباة أعزاء، أنهم شعلة الجريدة المتأججة لا يورثها التنكيس إلا إشعالا وقوة، فتحرق اليد التي تنكسها. وهي لمن يرفعها نور ينير له المفاوز ويبلغ به الغايات![51]

وقسم ماطوس جيشه لمحاصرة لمدن الكبرى واحتلالها فأرسل جيشا إلى عوتيقة فحاصرها وشدد عليها الخناق، وأرسل جيشا آخر فحاصر بنزرت،وسار هو بجيش كبير

49 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 203_ 204 ط أولى بتونس الخضراء.

50 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 205 ط أولى بتونس..

51 - جريد النخل وكل هش من الوقود إذا نكس ازداد اشتعالا.

فحاصر لعاصمة قرطاجنة وضيق عليها ليستنزلها لحربه و تعطي بيدها فيحتلها. وكان الثوار يعيثون فسد في أموال البونيقيين. هذه الأموال التي تعز عليهم أكثر من كل شيء. ان لفتك بها يشق قلوبهم. وكانوا يقطعون الأشجار، ويتلفون أموال البونيقيين. تلك هي حرب الضعيف مع القوي، وأسلوب الوطنيين مع المستعمرين الطغاة. فوقع البونيقيون في شر عظيم.وكانت كبرياؤهم تزيدهم هما، وتضاعف عليهم البلاء. هؤلاء البربر الذين يرونهم خدما وعبيدا، يمرغون سادتهم في التراب. فيعفرون وجوههم في الحلل المذهبة، والتيجان لمشرقة! انه لبلاء كبير! واشتد الحصار على البونيقيين.

فزع البونيقيين لأكبر قوادهم عملقرط ليخمد الثورة العارمة

كان البونيقيون يظنون هذه الثور زوبعة تخمد سريعا. فها هي عشرات الشهور ومئات الأيام تمر وهي لا تزدد إلا تأججا عرامة. ان عدوهم الأمازيغ الأقوياء انه لا يتغلب عليهم إلا اكبر قادتهم.وكبر قوة يستطيعون جمعها. ففزعوا إلى اكبر قادتهم (عملقراط برقة) وسألوه ان ينقدهم من هذا البلاء. فشمر عملقراط في بطولته وهائه فألف جيشا مدربا مخلصا للوطن بلغ عدده عشرة آلاف جندي، واخذ معه سبعين فيلا يقومون في الهجوم مقام الدبابات الثقيلة اليوم. وكان عملقرط لذكائه يعلم ن البربر الشجعان لا يستطيع التغلب عليهم إلا بجيش قوي من البربر. ان البربر في الفروسية وفي حرب العصابات أقوى، وشجع وامهر من البونيقيين. ان جنه مشاة يغنون بحسن قيادته وبالفيلة التي تمهد لهم الطريق إذا كانوا مع المشاة البربر، ولكن لا طاقة لهم بالفرسان النوميديين الذين يصول بهم ماطوس. فاستطاع عملقرط ان يستميل إليه الملك (نارفاس) ملك نوميديا فانضم إليه في عشرين ألفا من الفرسان النوميديين الأقوياء الشجعان، فتقوى بهم عملقرط، فنازل ماطوس، وقواده في عدة معارك،فوقعت بين الفريقين معارك أغرقت افريقية في الدماء. وكان البونيقيون يبغضون البربر بغض المستعمرين للوطنيين الذين لا يعطون بأيديهم وأرجلهم للقيود. وكان لبربر في بغض البونيقيين، كما وصفنا، وكان كلاهما قويا، فدامت المعارك الطاحنة مدة طويلة. وكان تهمها وأكبرها معركة الجسر التي وقعت قرب قرطاجنة،والمعركة التي وقعت بنفريس (خنقة الحجاج) في جنوب قرطاجنة،ومعركة لمطة في جنوب حضرموت (سوسة) وهي التي اسر فيها ماطوس.

وكان اغلب الثائرين مع ماطوس من لجماهير الساخطة. ان لهم شجاعة، ولكن ليس لهم دربة تجعلهم ينتصرون على الجيش المدرب، وعلى قائد عبقري محنك (كعملقرط)

فاستطاعت قرطاجنة ان تتغلب على ماطوس وتقضي على ثورته. فقتل ماطوس[52] وكثير من جنده فسكن البربر ولكن إلى حين.

وكن اشتغال هذه الثورة في آخر سنة 241. ونهايتها في أول سنة 237 ق.م. ومدتها ثلاث سنوات وأربعة أشهر.

وكانت هذه الحرب لما وقع فيها من الفظائع من الجانبين، ولما كان فيها من القساوة والأهوال تسمى في التاريخ (بالحروب التي لا تغتفر) !

واستطاعت قرطاجنة ان تخمد هذه الثور التي قام بها الجماهير، كما قضت على ثوراتهم التحريري التي سبقت هذه في سنة 396 ق.موفي سن 378 ق.م. وفي مناسبات أخرى كثيرة؛ فهل استطاعت ان تكسب ود لبربر بالحسنى، وتملك قلوبهم بحسن السياسة؟ فيسندوها في شيخوختها، ويقارعوا لها لرومان الذين يفغرون لابتلاعه؟ انها لم تفعل شيئا من ذاك. لقد استمرت على طبعها القديم في معاملة البربر فازدادوا حنقا عليها، ورأوها عقبة في سبيل حريتهم، وبناء المغرب الكبير الذي يتمنون. فشمروا لإزالتها.وكانوا عون الرومان في القضاء عليها.

أخطاء البونيقيين مع الملك مصينيسا وعداوته لهم

ومن أخطاء البونيقيين قلبهم ظهر المجن لملك نوميديا (مصينيسا) وتحريش منافسه (صيفاقس) عليه، فخلقوا من مصينيسا الملك القوي، والصديق المخلص عدوهم اللدود، كما ملأوا قلوب النوميديين بهذا الصنيع عداوة وبغضا لهم. فوقف مصينيسا في صف الرومان، وكان اكبر قوة لسبيون في معركة جامة التي قضى فيها لرومان على الدولة البونيقية، ثم أجهزوا عليها بعد ذلك. فلو كان مصينيسا لها في المعركة، أو لازم الحياد، لامكن ان ينتصر البونيقيون على الرومان بفضل مساعدة صيفاقس الملك البربري وجيشه القوي الباسل.

ثورة مصينيسا على الدولة البونيقية وسعيه للقضاء عليها

وكان مصنيسا قد رأى فظائع البونيقيين في البربر، سيما في ثورة ماطوس، وعلم تاريخها المنكر في بناء قومه في افريقية، ورأى معاملتها المنكرة له، فعلم انها لا تريد خيرا للأمازيغ أبناء المغرب وأصحابه الحقيقيين، وأنها سبب تأخر المغرب وانقسامه. ورأى

52 - لما اسر عملقرط ماطوس أرسله إلى قرطاجنة فعذبوه في وحشية وفظاعة، ومثلوا به تمثيلا فظيعا، ثم أعدموه في ساحة عامة وسط أفراح القرطاجنيين ونشوتهم بهذا المنظر الأليم.

أيضا ضعفه وهرمها وطمع الرومان فيها، فأيقن مصينيسا انه إذا لم يهم هذه الدولة العجوز ويمتلك افريقية، ويقف سدا حديديا في وجه الرومان لا يستطعون اختراقه، فان الرومان سيقضون عليها فيحلون محلها في افريقية، فيقع المغرب في شر كبير، ويصبح بين ساعدي الأسد الروماني يخنقه، ويمزقه، ويبتلعه كما يشاء. ويلك أيتها العجوز السمينة المتهالكة ! لقد أطمعت الذئاب والنسور لا فحومت علينا. إنما أنت طعام موبوء، ولحم نتن يملأ الساحة بالذباب! لابد من إزالة الدولة البونيقية! ليتوحد المغرب، وننجوا من مكائدها ومن غزو الرومان. هذا ما عزم عليه مصينيسا ملك نوميديا وموريطانيا الشرقية المخلص القوى، واعلم شخصية في المغرب، فصار يغير على أطرافها ويقتطعها جزءا ويكيل لها الضربات القاصمة. وعزم على احتلال العاصمة والقضاء عليها.

وكان مصينيسا بجيوشه في نوميديا وموريطانيا الشرقية وحزبه القوى في قرطاجنة من أسباب ضعف الدولة البونيقية فأجهز عليها الرومان. فلو أنصفت البربر وامتلكت ودهم بالحسنى، وصادقت ملوكهم ودولهم الناشئة لكانت عزيزة مكرمة، تعيش أكثر مما عاشت وإذا ماتت فموتة الأم المبجلة المحبوبة تلفظ أنفاسها في حشايا الحرير بين عطف أبنائها البربرة الذين يحفظون بمواساتهم وقع الموت عليها. ولكنها خسرت ود البربر، وصيرتهم لها أعداء، ففقدت اعضادها وجندها القوى المخلص فاستطاع سبيون قائد الرومان ان يفتك بها كما يريد، ويطأها برجله فيخنقها، فتلفظ أنفاسها، ويحرقها بالنيران! ! فما هي الحروب التي خاضتها الدولة البونيقية في صقلية مع أعدائها فأنهكتها، وكيف قضى عليها الرومان في المغرب فزالت من الوجود؟

حروب صقلية 580 إلى 264 ق.م

كان الفينيقيون من قديم الزمان يعرفون أهمية جزيرة صقلية التجارية، وموقعها الممتاز في غرب البحر الأبيض المتوسط فانشئوا في النصف الثاني في القرن التاسع ق.م. في شمالها الغربي وفي غربها مراكز تجاري، وقواعد بحرية مهمة منها: (بالرم) و(سلديس) في شمال الجزيرة، و(معطية) في غربها. ولما نشأت قرطاجنة ورثت هذه القواعد في صقلية وزادت قواعد أخرى في شمال صقلية وغربها وهي الناحية القريبة إلى قرطاجنة في افريقية. وأصبحت السيطرة والنفوذ في غرب صقلية للبونيقيين.

وكان الإغريق ينافسون الفينيقيين والبونيقيين في كل الميادين. فأنشئوا في نصف القرن الثامن ق.م . في صقلية على الساحل الشرقي مراكز وقواعد بحرية منها نكسوس، وسرسقوسة، ومسينة، وقطانية. وأسسوا على الساحل الشمالي هيمار، وفي الساحل الجنوبي غيلية، وسلنطة، وقمرين، وجرجنتي.

وكانت المنافس على أشدها بين الدولتين الكبيرتين البونيقية والإغريقية سيما في صقلية. وفي سنة 580 اعتدى الإغريق على البونيقيين فأرادوا ان ينشئوا مدينة في غرب صقلية في منطقة نفوذ البونيقيين، فثار البونيقيون واشتبكوا بالإغريق في معركة حامية فهزموهم ومنعوهم من إنشاء مدينتهم. واستمرت الحرب بين هاتين الدولتين وكانت سجالا بينهما. فأنهكهما كليهما. وكان الباعث لهما على هذه الحرب هي المنافسة القديمة بين الفينيقيين والإغريق،والمنافس على صقلية.وق دامت هذه الحرب وهي نخبو وتشتعل، وتهدأ سنين ثم تور، ودامت لا قرون وستة عشر عاما. ابتدأت في سنة 580 وانتهت في سنة 264 ق.م.

وكانت الدولة البونيقية في ريعان شبابها،وكان الإغريق كفئا لها لا يتفوقون عليها في الشجاعة وفي متانة الأخلاق،وقوة الشباب. فاستطاع البونيقيون في آخر الأمر ان يتغلبوا على الإغريق ويسيطروا على جزيرة صقلية حتى الجناح الشرقي منها.

وكان الرومان ق نهضوا نهضتهم الكبرى، ونشأت ولتهم العارمة. وخلت في شبابها فارات ان تتمطى وتمتد إلى صقلية فاصطدمت رجلاها القويتان بالدولة البونيقية. ان صقلية جزء من ايطاليا متصلة بها وقريبة منها. انها لا تبعد عنها إلا بميلين. بينما تبعد

قرطاجنة بخمسين ميلا. ان البونيقيين دخلاء مستعمرون لابد من إزالتهم من صقلية. ورأى الرومان البونيقيين في صقلية وفي البحر الأبيض المتوسط كله النواة القاسية في التمرة الشهية التي يلو كونها، تصدم أضراسهم، وتمنع من ابتلاعها! فشمروا لإزالة البونيقيين من صقلية، ومحوهم من البحر الأبيض المتوسط كله. ومن المغرب ليكون ذلك كله لروما. انها خلقت للسيادة والسلطان. فوقعت الحروب البونيقية بين الأمتين البونيقية والرومان. وكانت حروبا مهولة طويلة. فلمن تكون العاقبة؟ انها لاقاهما خلقا لان الله كتب بالغلبة في هذا الوجود لذوي الأخلاق القوية وحدهم وقرر انه لا تكون القوة، والنصر، والظفر بالمنى إلا لذوي النفوس الصالحة والأخلاق المتينة!

الحروب البونيقية 264-146 ق.م

كان الرومان في القرن الثالث قبل الميلاد قد شبوا عن الطوق، وخرجوا من دور الطفولة، وبلغوا قمة الشباب، فأصبحوا دولة فتية تتأجج بالنشاط، وتتقد بالقوة، وتزخر بالآمال، وتتحلب أشداقها على الأوطان الغنية؛ فرامت ن تمت وتتسع، فوجدت الدولة البونيقية قد سبقها إلى الميادين التجارية، والى المراكز الحربية، والى الجزر المهمة المحيطة بها في البحر الأبيض المتوسط فاحتلتها، واحتكرتها لنفسها؛ فآل الرومان ان يزيلوا عن طريقهم هذه العقبة، ويكسروا هذه الدولة،ويحلوا محلها في كل المواطن والبقاع.

أسباب عظمة الرومان وغلبتهم للبونيقيين

وكانت الأمة الرومانية متقشفة في عيشتها، فأرهفت حياة التقشف شجاعتهم، وقوة الإخلاص للدولة في نفوسهم، وأشعرت كل فرد بحاجته إلى أخيه، فأزاد انضماما إليه، واتحادا معه، وجعلتهم حياة التقشف هذه، والتربية الحسنة التي يربي بها الرومان أبناءهم، وتربى بها الدولة شبابها وشعبها، وجعلتهم على أخلاق عظيمة، ومكنت فيهم الصفات لحسنة التي تسود صاحبها، وتورثه لتقدم والغلبة والسيادة. من هذه الأخلاق العظيمة التي اتصف بها الرومان حب الموت في سبيل الدولة، والتضحية بالمصالح الخاصة للمصلحة العامة، والاتحاد، والتضامن، الانقياد للرؤساء،وحسن الاختيار للزعماء،وعدم التنافس والشحناء، والابتعاد عن حياة الرفاهية والكسل التي توهن النفوس وتضعف الأجساد، والاعتناء بالتدريب العسكرية وأنواع الرياضة البدنية التي تكسبهم قوة في الأبدان، ومتانة في الأخلاق!

كان الرومان أذكياء طموحين، عزموا على امتلاك لدنيا، والسيادة على العالم، فعلموا ان ذلك لا يكون إلا بالأخلاق العظمة، والأجساد الصحيحة، والمهارة في الحرب، فجدوا كل الجد في الحصول على هذه لقوى لثلاثة فأدركوها، فحققوا كل آمالهم في الحياة، ونازلوا الدولة البونيقية فصرعوها، ثم أجهزوا عليها.

أسباب ضعف البونيقيين وزوال دولتهم

وأما البونيقيون فكانت المدنية المفرطة، وحياة الرفاهية، والانغماس في الملاذ

والشهوات قد أودى بأخلاقهم.فاتصفوا بالأنانية وحب الذات، وبالتكالب على الشهوات، وبعبادة المال لا المجد، وبالتمسك كل التمسك بالحياة، فأورثهم هذا جبنا جعلهم يفرون من الحرب المقدسة في الدفاع عن الأوطان، والمحافظة على الدولة، ويؤثرون الخضوع للأعداء، والحياة الذليلة والعار على الموتة الشريفة في مواطن العزة والكرامة والإباء.

وكان البونيقيون لاستيلاء الأنانية وحب المال على نفوسهم متنافسين، يتناطحون على الرئاسة، ويتناحرون منت اجل الزعامة، فأضعفهم الشقق، ووهنت ولتهم بعدم الاتحاد، فتصدعت جدرانها، ووهنت أصولها، وعشش فيها الخراب.

وكانوا إلى هذه الأمراض التي تقيدهم للأعداء وتطمح فيهم الطامعين، مسالمين، قد أورثهم انصرافهم إلى التجارة، ضعفا في الشخصية الحربية، فنشأوا وهم لنفوسهم المسالمة يهربون من العنف، ويكرهون الصدام، ويجفلون من الحرب، ويعافون منظر لماء. وكانوا في أول أمرهم،وعند نشأة دولتهم، يحاربون بعض الحرب إذا أرغمتهم الظروف، ولكنهم في آخر أمرهم أهملوا التدريب العسكري، وعولوا على جيشهم المأجور الذي لا يستميت في الدفاع، ولا يبذل كل الجهد في الحروب !

وكانوا إلى هذا كله امة هرمة، قد اوهن قواها طول البناء، واستنفد طاقتها الحيوية العمل المتواصل الجبار الذي استمر خمسة قرون ونصف قرن، وأدركها عجز الشيخوخة، وإصابتها أمراض الهرم كلها، واستوفت حياتها كاملة، وكتب الله ان تزول، فسلط الله عليها لرومان في الحروب البونيقية.

ويلك أيتها البقرة السمينة التي يتعالى خوارها في عرين الأسد الهصور، ويمتد منخرها إلى حماه المصون لبالغه الجرأة والنهم! ! هذا ما قاله الرومان الأقوياء في نفوسهم للدولة البونيقية لما تغلبت على الإغريق فاحتلت صقلية وأصبحت كلها في قبضتها وتحت نفوذها، ووعت يدها على الجزء لشرقي فجاورت الرومان، ان صقلية ملاصقة لايطالية، انها وطنهم، وزهي بابهم الواسع إلى البحر الأبيض المتوسط الذي عزموا على امتلاكه، وهي اقرب إلى المغرب الذي صمموا على احتلاله واستعماره، فشمر الرومان لطرد البونيقيين من صقلية وتجريدها من كل مستعمراتها، والقضاء عليها بعد ذلك في عقر دارها، هذه خطتهم،وهذا ما عزموا عليه.

الحرب البونيقية الأولى 264-241 ق.م.

ونشبت الحرب البونيقية الأولى في سنة 264 ق.م، ودامت إلى 241 ق.م واستمرت ثلاثا وعشرين سنة كانت الحرب فيها سجالا في أول الأمر بين البونيقيين والرومان، ثم

تفوق الرومان على البونيقيين فدحروهم في المعارك، وكسروا أسطولهم في الصدام، وأرغموهم على الانسحاب من صقلية كلها، وألزموهم بدفع غرامة حربية قدرها بعض المؤرخين بعشرين مليونا من الفرنكات الفرنسية الثقيلة الغالي. فملك الرومان صقلية كلها، ثم عدوا على لمستعمرات البونيقية في البحر فملكوها أيضا. فملكوا في سنة 237 ق.م. كورسيكة وسردينية ملكوها بون حرب. وكان البونيقيون حينئذ مشغولين بثورة البربر عليهم، فاغتنم الرومان الفرصة فجردوها من تلك المستعمرات.

الحرب البونيقية الثانية 218-201 ق.م

وكان الرومان يرقبون الفرصة لمنازلة البونيقيين ثانية وإجلائهم من الأندلس، والقضاء عليهم في المغرب، فحركهم لذلك حنبعل لهجومه على ايطاليا، ومحاولته تفكيك وحدتها، واحتلال رومة، والقضاء على الدولة الروماني. ان الرومان هم عدو الدولة البونيقية، إنهم عازمون على إبادتها، فلماذا لا تعاجلهم وتجعلهم أكلتها! فصمم حنبعل القرطاجني، طل المغرب الكبير على إزالة لدولة الرومانية، فجهز جيشا كبيرا اغلبه من البربر الصناديد، استطاع حنبعل بإحسانه وحسن نيته ان يجعلهم أصدقاء للدولة البونيقية فحاربوا معه في إخلاص. فاخترق بهم جبال البيرنية في شمال الأندلس، وجبال الألب، فغزوا الرومان في عقر دارهم، واخذ بخانقهم، وحاصر رومة، ولكن الدولة البونيقية الهرمة فتت في ساعد حنبعل العظيم وأبت ان تمده بالمدد اللازم لينتصر على الرومان. فافلت الرومان من قبضته، واستولوا على الأندلس في سنة 207 ق.م. فاخرجوا منها البونيقيين.

تولية سبيون حاكما عاما على ايطاليا وإعطاؤه الحكم المطلق

وكان الرومان يحسنون اختيار رؤسائهم وقادتهم، لا يتقيدون في ذلك بعرق ولا مال، بل يراعون الكفاءة وحدها. فرأوا براعة سبيون الإفريقي في قيادة الحرب في الأندلس، وإخلاصه وكفاءته، فولوه رآسة الدولة في رومة وجعلوا في يده كل الأزمة

، وتحت تصرفه كل القوات، وسمعوا له وأطاعوا، ووقف مجلس لشيوخ في رومة،وكل الهيئات والطبقات وراء سبيون العبقري تؤيده وتشد أزره، وتمده بكل ما يريد من جند وسلاح، ومن رأي ومشورة. فصر سبيون البطل في ثورة الشباب وتصميم الصناديد، وحنق الأباة بأسنانه، وعزم على سحق الدولة البونيقية، وإرغام حنبعل على الانسحاب من ايطاليا، والتخلي من خطته، وإشغاله بمشاكل ولته التي سيجعلها تعاني سكرات الموت.

نقل سبيون الحرب إلى افريقية

وكان الرومان أباة أقوياء، فخرج كبراءهم غزوا حنبعل لهم في عقر دارهم، وطمعه فيهم، وعزمه على إبادتهم وإزالة دولتهم في الوجود.فازدادوا حنقا على الدولة البونيقية، وعملوا إنهم إذا تركوهم في الوجود فإنها لا تعدم من أبنائها قائدا عبقريا شديد العداوة لروما كحنبعل لعظيم، فيجدد الكرة عليها، ويقف سدا في طريقها، ويحول بينها وبين امتلاك لمغرب لواسع الغني الجميل المتحضر!

ويلك أيتها البقرة السمينة المستأسدة! جاء آكلك. لن نتركك بالقرون النطاحة بعد اليوم، ولا بد بعد تقييدك من الإجهاز عليك! هذا ما قاله سبيون الإفريقي في نفسه لما نزل في عوتيقة بجيوشه في أكتوبر سنة 204 ق.م. وكان في عشرين ألفا من جنده المدرب، أبناء روما المخلصين. فوجد مصينيسا ملك نوميديا ثائرا على البونيقيين، فجره إليه. ورأى مصينيسا بدهائه فرصته في غزوة سبيون فاغتنمها، فأسرع إليه ليستعين به في دك هذه الدولة العجوز التي جردته من ملكه، وأساءت إلى البربر، ووطأتهم برجلها ! فتقوى سبيون بانضمام مصينيسا الملك الشاب البطل، والقائد العبقري إليه، وبانضمام جيش كبير من فرسان نوميديا كانوا جند مصينيسا وحزبه! فأيقن بالانتصار على البونيقيين، وعلى حليفهم صيفاقس الملك البربري القوي. ان سبيون يحسب ألف حساب لصيفاقس وجيشه الباسل الذي يسند البونيقيين ويحارب معهم! فها هو مصينيسا بجيشه البربري القوي معه. سيفل الحديد بالحديد، ويكل صيفاقس إلى مصينيسا، ويشتغل هو بصدربعل قائد البونيقيين الذي خرج إليه. فوقعت معركة كبيرة بين مصينيسا وصيفاقس كان النصر فيها لمصينيسا، فاسر صيفاقس ومزق جيوشه، وقضى على قوته.

استغاثة قرطاجنة بجنبعل وإسراعه من ايطاليا وتوليته على الدولة

كما حرق سبيون معسكر البونيقيين، وهجم عليهم فقتل مقتلة كبرى، ثم كر عليهم في معركة ثانية فهزمهم شر هزيمة. فاستغاثت قرطاجنة بجنبعل فأسرع إليها من ايطاليا. فولته حاكما عاما على الدول، ووضعت في يده كل المقاليد، وأعطته حق التصرف في كل الأمور. ان حنبعل بطل صنديد يفوق سبيون في الدهاء والشجاعة والإخلاص، ولكن سبيون يصول بأمة فتية تستقبل الحياة، وبجند من أبناء روما المخلصين قد أذكاهم النصر، وضاعف قواهم الظفر. ومعه مصينيسا الملك العبقري، والقائد العظيم، بجيشه القوي من الفرسان الأبطال. أما هو فيصول بأمة عجوز، وبجيش اغلبه

مأجور، قد قتلته الهزيمة، واخمد قواه الإنكسار. لو كان البربر أصدقاء لدولته لسقى بهم سبيون وجنده الموت الزؤام، وعفرهم بالهزيمة! لو كان مصينيسا حليفا له لاستطاع ان يكيل لسبيون على الصاع صاعين،ويريه فتكة الأسود الضارية بالنمور! ولكن دولته بحمق الهرم، وغطرسة الغنى، وظلم الأنانية جعلت البربر أعداءها، وصيرت مصينيسا عدوها اللدود، لا يتمنى إلا زوالها! ويل البونيقيين! وويل قرطاجنة! انها تريده ن ينازل سبيون المدجج بسيوف الهند الفتاكة، بالعصي الرخوة الواهنة، وناطح جبل الصوان في جيش البربر والرومان، بقوارير قرطاجنة التي أوهنتها الحارة! ولكن لا بد من الأقدام. ان الرومان في عقر داره. إذا لم يسر إليهم ساورا إليه. ان حنبعل العظيم لا يقاتل من وراء أسوار قرطاجنة كما يفعل الجبناء، بل يبرز إلى عدوه فيقاتله في العراء.

معركة جامة الفاصلة 202 ق.م.

وفي سنة 202 ق.م . في شهر أكتوبر التقى الجيشان جيش حنبعل، وجيش سبيون ومعه الملك مصينيسا بجيشه لقوي الباسل. فوقعت بين حنبعل وعدويه سبيون ومصينيسا المعركة الفاصل في (جامة) في الجنوب الشرقي لمدين (الكاف). وكانت معركة رهيبة، أبدى فيها حنبعل شجاع خارقة، وثباتا منقطع النظير. ولكن من يحارب بالعصي ى يتغلب على خصمه الشجاع الذي يهجم عليه بالسيوف. لا بد ان يغلب! فولى جيش حنبعل الأدبار، فانتصر عليه مصينيسا وسبيون كل الانتصار، فلم يسع البونيقيين إلا الخضوع. فأرسلوا إلى سبيون يطلبون الصلح. فاشترط عليهم شروطا ثقيلة تجرد البونيقيين من قواتهم العسكرية، وتجعلهم في المستقبل لحما على وضم تتناوله روما في أي وقت تشاء. فقبل البونيقيون لهرمهم وجنبهم تلك الشروط.[53] فوقع الصلح فكان قاصم الظهر الأولى للبونيقيين، والقيد الذي أوثقت به روما قرطاجنة ريثما تشحذ السكين فتغمده في أوداجها. فرجع سبيون إلى روما ظافرا، وهو يتلفت وراءه، فيرى الدولة البونيقية موثقة في القيود، شاخصة لبصر تنتظر نهايتها.

ويلك أيتها البقر السمينة لقد حطمت قرونك ووضعت الجامعة في عنقك فلا بد من جزرك لتهنأ روما، وتتقلب في المغرب كما تشاء ! وفرحت روما بانتصارها، ورأته مقدمة للاستيلاء على افريقية، ولقضاء على الدولة العجوز التي تشاكسهم، وتطمع لإزالتهم من الوجود!

53 - من شروط الصلح المشؤوم: ان تسلم قرطاجنة للرومان ما تملكه من سفن حربية ما خلا عشر سفن ثلاثية متوسطة تستبقيها لحراسة سواحلها. وان تسلم كل أفيالها، وان لا تروض أفيالا بعد اليوم للحرب، وان لا تقوم بحرب ولو كانت دفاعية خارج افريقية أو داخلها إلا بإذن من رومة، وان تدفع غرامة حربية قدرها ابن خلدون بثلاثة آلاف قنطار من الفضة.



بطل المغرب الكبير حنبعل بن عملقرط

إغارة مصينيسا على الدولة البونيقية والاستيلاء على أطرافها

وكان مصينيسا بعد هذه المعاهدة من سنة 201 إلى سنة 149 ق.م. قد اغتنم الفرصة في الدولة البونيقية فصار يغير على أطرافها. فاقتطع منها أجزاء واسعة من غربها وجنوبها فضمنها إلى مملكته. فبقيت الدول محصورة في جزء من ترابها الواسع الذي كان لها.[54] وكان مصينيسا قد عزم على احتلال افريقية كلها قبل ان يسبقه الرومان إليها، ثم يقلب لهم ظهر المجن، ويمنعهم من غزو المغرب. وكان حزب مصينيسا في قرطاجنة يود ان يستولي هو على افريقية ليحفظها من الرومان المناكيد. فشعر الرومان بقصد مصينيسا فسارعوا لاحتلال افريقية.

الحرب البونيقية الثالثة والقضاء على الدولة البونيقية 149-146 ق.م

وكان عداء الرومان لقرطاجنة رأس الدولة البونيقية يزداد تأججا على الأيام. وكان (كاطون) احد كبار مجلس الشيوخ الروماني، ومن خطباء روما الفصحاء ينادي بتهديم قرطاجنة، ويؤجج العداوة لها في القلوب. وقد زار افريقية في آخر أيام قرطاجنة فأعجب بحضارتها وكثر خيراتها، وعلم ان قومه إنما يغزون الأمم طمعا في خيراتها. فأراد ان يؤجج الرغبة في قلوب الرومانيين، فاخذ تينات معه من تين قرطاجنة. وفي أثناء خطابه في مجلس الشيوخ يحرص على قرطاجنة نثر تلك التينات الكبيرة من كمه أمام المجلس، وقال لهم:»انه ليس بينكم وبين الأرض الإفريقية التي تنتج هذا التين إلا مسير ثلاثة أيام.». فتكونت الرغبة في قلوب الرومانيين في احتلال افريقية، والقضاء على الدولة البونيقية وتهديم قرطاجنة وإزالتها من الوجود. وأصبح (تهديم قرطاج) شعارا يهتف به خاصتهم وعاصمتهم يطالبون به مجلس الشيوخ:

وقررت روما احتلال افريقية والإجهاز على فريستها البونيقية. فصارت تبحث لها عن ذنوب الحمل مع الذئب، فوجدت عذرا واهيا فتسببت به، (فجهزت جيشا كبيرا يشتمل على ثمانين ألفا المشاة، وأربعة آلاف من الفرسان، و150 سفينة حربية، منها 50 سفينة خماسي، ما عدا المراكب التي كانت مشحون بالعدد والأثقال: فسيرت ذلك إلى عوتيقة في ربيع سنة 149 ق.م.

وكان هذا الجيش العرمرم تحت قيادة سبيون الأصغر الإميلي، وهو سبيون آخر غير سبيون الأكبر الإفريقي الذي نقل الحرب إلى افريقية. وما كادت قرطاجنة تسمع بزحف

54 - انظر حدود الدولة البونيقية في آخر حياتها في الخريطة في آخر هذا الكتاب.

هذا الجيش إليها حتى انتقض مجلس الشيوخ البونيقي رعبا وهلعا وأعطى بيده إلى روما. فجردها سبيون الإميلي مما تبقى لها من قوة حربية، ثم أمر القرطاجنيين بالخروج من عاصمتهم ليهدمها! ومن الذي يعطي برأسه مختار للفؤوس لتهشمه! فثارت غزيرة المحافظة على في نفوس الدهماء في قرطاجنة، فاستعدوا لمدافعة الرومان. فغلقوا أبوابهم وشرعوا في بناء السفن الحربي من أبوابهم التي خلعوها، وفي صنع السلاح، وتبرعت نساء قرطاجنة للوطن بشعورهن الجميلة التي كن يعتنين بها كل الاعتناء، ويرينها أحسن جمالهن فحلقنها لتصنع منها للسفن، والأوتار للقسي! وضحى كل فرد في قرطاجنة بكل عزيز، واستعد للموت فداء للوطن. فحاصر الرومانيون قرطاجنة حصارا شديدا دام ثلاث سنين. فأجهدهم الحصار، وأودى بهم الجوع والمرض! وكان في هذه الأثناء قد وقعت معارك طاحنة بين الرومان والبونيقيين في عدة أنحاء من افريقية. ودعا اللؤم والجبن وضعف الشيخوخة كثيرا من المدن البونيقي الكبرى فانضمت إلى الرومان. ومن تلك المدن عوتيقة، وسوسة، ولمطة وقلم سبيون أظفار افريقية كلها.ووعها تحت قدمه. وبقيت العاصمة فصمم على فضها.

وفي ابريل من سنة 14 ق.م. تسورها من ضاحية (مجاور) وهي حي الأغنياء في شمال المدينة. ولعل ذلك قد وقع الأنفاق معهم: فاحتله! فثارت الجماهير في قرطاجنة، ووقعت في العاصمة المناضلة معارك طاحنة بين سبيون وأهل المدينة في الشوارع والسطوح والبيوت وفي كل مكان. فامتلأت شوارع قرطاجنة ودورها بجثث القتلى، وغرقت في الدماء الغزير التي تسيل في أزقتها وفي كل أنحائها. فاعتصم الجماهير في قلعة بربوة (بيرصة) وهي أكثر ألامكن حصانة في المدينة، فزحف إليهم سبيون فحاصرهم هم فقاتلوه قتالا مريرا،ثم تغلب عليهم فاحتل القلعة فأشعلها نارا، كما اشغل النار في كل أنحاء المدينة، بعد ان أباحها لجنده فنهبوها أياما، فاستولوا على كل نفيس فيها. ووصل سبيون إلى مكاتب قرطاجنة الكبرى فاخذ ما فيها من كتب علمية وأعطاها لأبناء مصينيسا الذين خلفوا أباهم في الملك، وحرق ما عداها. فبقيت قرطاجنة عشرة أيام وهي تحترق، فاتت النيران عليها، ثم أمر سبيون جنده فاعملوا فيها المعاول فهموها، وأزالوها من الوجود، وصارت قرطاجنة العتيدة أرضا خالية سواء فحرثها الرومان.

وقد دامت معركة قرطاجنة سبعة أيام بلياليها والقتال المرير يجري في أنحائها. وكانت زوجة صدر بعل قائد قرطاجنة في هذه الحرب قد اعتصمت هي وطفلاها في المعبد، فسلم زوجها نفسه للرومان ذليلا مهانا. أما هي فكانت شجاعة أبية! فأوقدت نارا عظيم في المعبد، فأغمدت المدية في قلب طفليها فالقتهما في النار، ثم غيبت مديتها

في صرها، وألقت نفسها في النار وهي تقول:»النار ولا العار!» وفعل ألف قرطاجني مثل فعلها. فالقوا بأنفسهم في النار فاخترقوا!

وبلغ الرومان مرامهم في الدولة البونيقية فأزالوها من الوجود.وفي قرطاجنة

فحرقوها وهدموها، ثم عموا إلى المدن التي حاربتهم: بنزرت، وقليبية ونابل فهدموها. فزالت الدولة البونيقية من الوجود، وذاب من بقي من البونيقيين في لجنس البربري لعتيد. واحتل الرومان افريقية وجعلوا عاصمتهم عوتيقة، ثم أرسلوا نظرهم في المغرب في شراهة بالغة وفي عداوة أيضا، فرأوا جماله وغناه، فعزموا على امتلاكه. ولكن فيه الأمازيغ الأبطال ! ان دولهم العظيمة قد تكونت وهم يكرهون الرومان ويتقدون عداوة ومقتالهم. ان مستقبل الرومان في المغرب دهور قراع مرير، وحروب هوجاء! فبقي الرومان في افريقية على استعداد دائم للطوارئ، وأيديهم إلى سيوفهم يشون عليها.

أما البربر فقد ورثوا حضارة البونيقيين، وعلمهم، ولغتهم، وتمسكوا بها، وازدادوا فيها، ولم يستطع الرومان ان يقضوا على الحضارة البونيقية التي استمرت في المغرب ثماني قرون ونصف، إلى تمام الفتح الإسلامية، ثم حلت الحضارة الإسلامية محلها.



عملة البطل العظيم الملك مصينيسا

وكانت مدة الدولة البونيقية في المغرب ست قرون وثمان وستين سنة.(668) نشأت في سنة 814ق.م. وانقرضت في سنة 146ق.م. وهي التي أيقظت البربر، وحضرتهم،

ومدنت المغرب فصار جنة فتانة فطمع فيه الجراد الروماني!ان فضلها على المغرب الكبير. وان منها على أجدادنا لعظمة.

موقف مصينيسا الحكيم في الحرب البونيقية الثالثة

لقد هاجم الرومان افريقية للقضاء على الدولة البونيقية. فما عمل مصينيسا في هذه الغزوة؟ لق لازم الحياد. انه لا يريد ان يعين الرومان لأنه يكرههم. وبوده ان يفشلوا في عزوتهم لافريقية ليحتله هو فينجوا المغرب من ويلات لرومان. إنهم شر يهدد المغرب وبلاء يريد ان ينشب مخلبه في الأمازيغ! وقد توفي مصينيسا في سنة 148 ق.م. قبل احتلال قرطاجنة بحوالي عامين. وفي نفسه ان لا ينجح سبيون في القضاء على الدولة البونيقية ويرجع خاسئا إلى بلاده. ولكن لله كتب على المغرب ان ينتصر الرومان.

ووقعت افريقية في يد الرومان. أما باقي أنحاء المغرب فكانت تنعم بالهناء والحرية ولسعادة في ظل الدول لبربرية الكبرى، وفي رعاية ملوكها المخلصين. فكيف نشأت هذه الدول البربرية الكبرى، فأسعدت المغرب، وتركت لنا صفحات مشرقة من البطولة والمجد، وجعلت المغرب يرفع لواء الحضارة والعلم عاليا لما كانت اغلب الأمم والجهالة؟!

متى نشأت هذه الدول وأين مواطنها،وما أحوالها؟.

الدول البربرية الكبرى

240 ق.م - 40 م

تمسك البربر في عهودهم الأولى بنظام اللامركزية

كان لبربر في وطنهم الخصب الجميل المغرب الكبير على نظام القرية والقبيلة في نظامهم الاجتماعي. فكل قري تحكم نفسها لا تريد ان تتدخل غيرها في شؤونها. وكل قبيلة يسوسها زعمها[55] الذي تختاره وتقدمه.وتجعله رئيسها. لا ترضى ان تسيطر قبيلة أخرى عليها.ولا ان يتخل رئيس آخر في شئونها. وذلك لان البربر مفطورون على حب الحياة الاستقلالية. مجبولون على الغرام بالحرية. يهوون اللامركزية في احكم. وتراهم يعتمون في شئونهم على أنفسهم. لا يتكلون على حكومة ولا على قبيلة. وإذا اتجه احدهم إلى قبيلته فعلى انه عمادها وعضدها الذي يقويها وينعشها. وقد ثبت الاستقرار والسلام. والطمأنينة التي دام عليها البربر قرونا في العهد الحجري. هذا الطبع في نفوسهم انه لم تكن هناك في ذلك العصر دولة قوية تهدهم بالاحتلال.ولا عدو جبار يخافون سطوته. فيرغمهم ذلك على الاجتماع والتكتل. والانضمام كلهم تحت رئاسة ملك واحد. ليدفعوا الأعداء. ويحفظوا وطنهم من المغيرين.

وكانت الحياة البسيطة التي يحياها البربر في عهودهم الأولى تستلزم ذلك. فحاجاتهم قليلة ومآربهم معدودة.ومثلهم العليا فردية. ويستطيع كل فرد ان ينال حاجاته. وكل قبيلة وجماعة صغيرة ان تحقق كل أغراضها. أما المدينة. وحياة الحضارة المعقدة. والمثل العليا الجماعية التي تستلزم أنظمة كثيرة.وأمة متكتلة تخضع لحكومة واحدة فذلك ما لم يكن عليه البربر في عهودهم الأولى قبل البونيقيين.

ومن أسباب تمسك البربر بنظم لقري خصب وطنهم وغناؤه وجماله وسعته. وقناعتهم به. فلم يشرهوا إلى أوطان أخرى يتوسعون فيها. ويكملون بخيراتها موارد وطنهم. فيدعوهم ذلك إلى التكتل والخضوع لرئيس واحد يقودهم في تحقيق المثل الأعلى الجماعي الذي يملأ قلوبهم.

---

55 - من أولئك الزعماء الملك يوباس الذي اشترت منها عليسة مكان قرطاجنة فهو زعيم ورئيس للقبيلة الحالة في المكان لا ملكا على افريقية كلها.

نشأة الممالك البربرية

وقد دام البربر قرونا على نظام القرية والقبيل، ولا يعصف بهم خوف فيتكتلون، فان كان فهو خوف القبائل بعضها من بعض، وهو ما وحد كل قبيلة ورص صفوفه لتضمن لغالبة والقوة وعيشة الاستقلال؛ حتى اتصلوا بالبونيقيين فتعلم البربر منهم لمدني الرقية، واقتبسوا منهم العلوم والفنون، فتكون لهم مثل أعلى جماعي في الملك والسلطان، فتغيرت حيتهم فصرت تستدعي أنظمة وقوانين جيدة كالتي كان عليها البونيقيون، فصارت القبائل البربرية ينضم بعضها إلى بعض، وينتخب الجميع رئيسا واحدا يسوسهم، فتكونت الإمارات البربرية في النواحي، ثم ازداد البربر في الرقي والحضارة، وصار لهم مثل أعلى جماعي يسيطر عليهم وهو ان يصبحوا دولة عظمى كالدولة البونيقية، فدعا ذلك الإمارات إلى الامتزاج والتكتل، وصار أعلى الأمراء شأنا، وأكثرهم كفاءة وقوية، وأغزرهم عددا هو لملك المطاع، وأصبح الكل رعيته، يقوهم في طريق الحضارة، وينافس بجهودهم وعملهم الدائب في البناء والتشييد الدول البونيقية التي كان البربر اكبر من نافسها في آخر أيامها.

وكانت نوميديا سيما القسم الشرقي منها اسبق إلى الرقي، وأسرع في التقدم من بقية أنحاء المغرب الأخرى. وذلك لمحاورتها للبونيقيين، ولكثرة امتزاجها بهم في السلم والحرب، في المدن والأسواق، وفي الحروب التي كانت نوميديا اكبر عون للبونيقيين.

وكانت نوميديا أكثر رقيا من موريطانيا الشرقية، وموريطانيا الغربية، وجيتولية، وارسخ قدما في الملك والسلطان، وأكثر دفاعا عن المغرب، ومحافظة على استقلاله وحريته.

ان أكثر الملوك الكبار الذين نهضوا بالمغربي، عملوا لتوحيده، وشرفوه بعبقريتهم وإخلاصهم وشجاعتهم كانوا من نوميديا، ولا نجد في الموريطانيتين الشرقية ولغربية إلا ملكا واحدا كان عظيما، وشارك في نهضة المغرب واستقلاله هو صيفاقس ملك موريطانيا الشرقية. وسنعرض في الفصول المقبل لكل من عرفنا من ملوك البربر الكبار والدول البربرية العظمى، وتقف فيها وقفة شافية، ثم نلم بالممالك الصغرى استيفاء للحلقات ووصلا لأحداث التاريخ بعضها ببعض.

من هؤلاء الملوك الأبطال والزعماء المخلصون العباقرة الذين انشأوا للمغرب الكبير دوله العظمى، فعاش مدللا رافها تقلب في حجرها في الدمقس والعطور، ويحتال في الحضارة والغنى والعلم والسعادة؟ ! من هؤلاء المحسنون الذين خرجوا بالمغرب من البداوة

والتفكك والجهالة، فوحوا أجزاءه في كل الجهات، وأنشأوا لنا ممالك عظيمة أورثت للمغرب الكبير حضرة وعلما، وتركت فيه وراثة زكية هي التي أنعشها الإسلام وضاعفها، فقام المغرب لتأسيس دوله الإسلامية العظيمة، للاستقلال عن الأمويين والعباسيين قبل اغلب النواحي في العالم الإسلامي.

ان أول هؤلاء الملوك العظماء والزعماء المخلصين هو صيفاقس. فمن هو؟ وما شخصيته، وما حدود مملكته،وما آثاره في قومه، وما بقية أخباره؟

مملكة صيفاقس الكبرى 230-202 ق.م

حدود مملكة صيفاقس

كنت مملك صيفاقس في أول لأمر هي موريطانيا الشرقية. وحدها من الشرق غرب مدينة بجاية، ومن الغرب وأي ملوية، ومن الجنوبي حد جيتولية الشمالي. ثم اتسعت مملكته في سن 205 ق.م. فاستولى على نوميديا كلها فصار حد مملكته يبتدئ شرقا من طبرق، وينتهي غربا في وادي ملوية. غير ان ملك صيفاقس لنوميديا لم يدم إلا سنتين ثم قتل فانفصلت نوميديا عن موريطانيا الشرقي، فصارت مملكته مستقلة تحت ملكها مصينيسا

وكانت عاصمة دولته (صيغة) وهي مدينة كبيرة غرب نهر (تافنة) في موطن خصب ومكن منيع.وهي في شرق وأي ملوي قريبة من الشاطئ، وتبعد عن شرق وأي ملوية بخمسة وأربعين ميلا.

نسب صيفاقس وشخصيته العظيمة

أما نسب صيفاقس فان بأيدينا من التاريخ لقيم ومن أثار صيفاقس لم يتعرض له ولم يخبرنا بقبيلته. وإذا استعنا بما نعرف من طبع البربر في عهود بداوتهم، وأيام نشأة ممالكهم الكبرى، وبمن كان يحل في المكان الذي كانت فيه عاصم صيفاقس استطعنا ان نعرف قبيلته.

ان لبربر أيام نشأة ممالكهم لا تين القبيلة منهم لغير زعيمها لذي تختاره منها والجهة لغير أمير من الأمراء الذين ينتخبون من قبائلها. ولا يمكن ان يكون صيفاقس من قبيلة أخرى في المغرب الأدنى جاء بجيوشه وقواه فاخضع المغرب الأوسط وساد فيه. لو وقع ذلك لحدثنا التاريخ بحروب صيفاقس لإخضاع موريطانيا الشرقية. ولا يمكن ان تخضع له بدون حروب طويلة الأمد، عنيفة هوجاء تحفظ أخبارها وتصل لينا. ا صيفاقس من المغرب الأوسط، ومن موريطانيا الشرقية التي ساد بها، ومن أقوى قبيل فيها.

وكان الملك في تلك العهود يقوم على العصبية. فاكبر الملوك قبيلة هو الذي يملك

ناحية، ويستتبع بقية القبائل المحيطة بها فتنقاد له. ولم يستطع صيفاقس ان يسود على أمراء النواحي في موريطانيا الشرقية ويستتبع، ويوجد موريطانيا الشرقية ويجعلها مملكة واحدة إلا لقوة قبيلته، ومجدها، وكثرة عددها. وكانت اكبر القبائل في موريطانيا الشرقية سيما في وسطها وغربها. وهي الأمكنة التي نشأت فيها مملكة صيفاقس. كانت اكبر القبائل في تلك النواحي هي زناتة.



عملة الملك صيفاقس

وكانت عاصمة صيفاقس هي مدينة صيغة في شمال تلمسان. والعاصمة لا تكون إلا في بلاد القبيلة التي يقوم عليها الملك ويستند إليها الملك سيما في مدافعة الأعداء. وكانت تلك المناطق من غرب مدينة (مليانة) إلى غرب مدينة صيغة لزناتة. وكانت الرئاسة فيها قبل الإسلام لزناتة. وكان من ملوكهم (وصلات بن وزمار) الذي أدرك أول الفتح الإسلامي. ثم استمرت رئاستهم لتلك الناحية إلى ان نشأت الدولة الرستمية في منتصف القرن الثاني الهجري بالمغرب الأوسط فدخلوا فيها، وبايعوا أئمتها. ثم خضعت تلمسان وغربها للدولة الإدريسية. ان زناتة هي القبيلة الكبرى في موريطانيا الشرقية و لا يمكن ان يكون الملك من غيرها. ان شدة شوكة صيفاقس، وطول مدته في الملك جليل على انه ستند إلى أقوى قبيلة، وليست في موريطانيا الشرقية سيما في الوسط والغرب منها إلا زناتة أرى ان صيفاقس من زناتة. واختياره مدينة صيغة عاصمة له في وسط بلاد زناتة من الأدلة على انه منهم، ومن ذؤابتهم، وفروعهم الكبرى.

أما والد صيفاقس وأسرته فان المؤرخين لم يذكروا لنا شيئا عنها. ان والد صيفاقس لو كان ملكا لذكره المؤرخون. وارى انه من سراة زناتة وأفذاذها. ان الابن مظهر لوالد وأجلى

مرآة لهما. فما كان في صيفاقس من بطولة وذكاء، ومن همة وعزيمة، وغيرها من صفات الرجولة التي جعلت البربر يقدمونه إلى الرئاسة، ويرتضونه للزعامة ويقبلونه ملكا لدولتهم الناشئة؛ ان هذه الصفات قد ورثها من أبويه، فهما مصدرها لهذا نحكم بأنه ابن عائلة ماجدة، ومن أبوين كريمين، وان أباه وأجداده كانوا من سادات زناتة، ومن رؤسائها الكبار.

ان البربر لا يمجدون المرء لعظاميته، ولكن لحقيقته، لأخلاقه العظيمة، ومواهبه العقلية الناضجة، هذه الصفات التي تورث و لا تكتسب، انها تنمو في الآباء، وتكمل في الأبناء، وإذا مجدوا إنسانا لأصله الشريف، ولإبائه العظماء فلأنه مظهر لذلك الشرف، وأسباب تلك العظيمة، قد ورثها ونمت نموها الكبير فيه.

كان صيفاقس من والدين كريمين، فأورثاه كل مواهبه الأخلاقية والعقلية، وربياه أحسن تربية، وعلماه وهذباه، فنشأ رجلا مثقف العقل، متين الخلق، عالي الهمة، وكان من الملوك العصاميين الذين يرقبون العروش بأنفسهم ى بسواعدهم الآباء وتملق الحاشية، ورشوة القادة والجيش.

وكان صيفاقس جميل الخلقة، بهي الطلعة، وكان يلتحي فتزيد اللحية غي مهابته وجلاله وحسن منظره، وكان متين الأسر، صحيح الجسم، قد أتاه الله قوة في الشخص والشخصية معا.

وكان صيفاقس قد نشأ والجولة البونيقية قد أسبغت على المغرب حضارتها، وبثت غي أرجائه علومها وفنونها، فتأثر بالحضارة البونيقية، واخذ حظه من علومها فكان مثقف العقل، تبدو ثقافته في سياسته الحكيمة للدولة، تلك السياسة التي أورثته إعجاب البربر الأعزاء الطموحين، فبقي ملكا على الدولة أكثر من سبعة وعشرين عاما، وتبدو في دهائه الذي استطاع به ان يجعل البونيقيين أعداءه الذين جردوه من دولته، أصدقاءه الذين يعينونه على استرجاع الدولة، واسترداد العرش. من يدري؟ لعل أباه قد أرسله أيام شبابه وإبان تكونه إلى قرطاجنة، فتقلب في معاهدها العلمية، وتعلم منهم السياسة، وانغمس في المدينة البونيقية في اكبر معادنها فاخذ منها أحسن ما تحتاجه الدولة القوية، والأمة الناهضة. ان زعماء البربر وملوكه كانوا يبعثون بأبنائهم ليتعلموا في قرطاجنة ويتكونوا في معاهدها وبيئتها الراقية.

وكان أبواه قد اختارا له اسما يدل على آمالهما الكبرى فيه. لقد سمياه صيفاقس وصيفاقس اسم بربري «معناه المحروس، والمحمي، والمدجج بالسلاح»[56] ان آمال أبويه فيه ان يكون من الأبطال الأقوياء الذين يخوضون المكاره، وميادين الموت الزؤام في سبيل المثل العليا، فسمياه صيفاقس، المحفوظ المحمي الذي يحفظه الله، وتحفظه شجاعته وقوته، لا يستطيع أعداؤه التغلب عليه، ولا يدرون ليقظته من أين يأتونه.[57] وقد يكون صيفاقس هو الذي اختار هذا الاسم لنفسه فاشتهر به، وقد يكون قومه هم الذين أطلقوه عليه. وسواء كان أبوه، أو هو، أو قومه، فان الاسم يدل على البطولة والهمة، والآمال الكبرى المعقود في هذا الرجل العظيم.

وكان صيفاقس طموحا كل الطموح، فأورثه طموحه البالغ منافسة جيرانه ملوك نوميديا، والعدوان على مصينيسا، فأودى به عدوانه، وسلط الله عليه الرومان الذين استعان بهم في التوسع فافترسوه، وذلك هو جزاء الله العادل لكل باغ على أخيه، ولكل من يعين الظالمين ويستعين بهم في بلوغ مآربه.

كان صيفاقس في سنة 230 ق.م. ملكا على موريطانيا الشرقية، وقد يكون اعتلى العرش قبل ذلك بسنين، وقد تكون ولايته في هذا العالم، وقد يكون هو الذي انشأ دولته، وقد يكون غيره فتمت على يده، ان المؤرخين لم يذكروا لنا شيئا عن نشأة هذه الدولة، وعن الزمن الذي نشأت فيه، إذا كان صيفاقس قد استطاع في سنة 230 ان يكون ملكا على موريطانيا الشرقية الموحدة، فان توحيد إماراتها، ومزجها في دولة واحدة يقتضي زمنا طويلا لا يقل عن عشر سنين.

كان صيفاقس ملكا على موريطانيا الشرقية، وفي موريطانيا الشرقية جبال القبائل، وجبال صنهاجة، وأهلها قوم ذوو منعة وعزة وقوة لا يخضعون لغيرهم، إنهم لم يخضعوا للرومان على قوتهم، ولم يخضعوا للدول المغربية الإسلامية التي نشأت في القرن الثاني الهجري، وأثرت زواوة الباسلة، وصنهاجة القوية الاستقلال في مواطنها الحصينة، تحت رئاسة أمرائهما الذين تنتخبهم كل منهما لرئاستها، وارى ان صيفاقس كانت له السيطرة على السهول، وعلى القبائل الصغيرة في الجبال، فاكتفى من زواوة وصنهاجة بمهادنته، وعدم التعرض لدولته.

56 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 176.

57 - والعرب يسمون البطل الشجاع البهمة بضم الباء وسكون الهاء وهو الشجاع الذي لا يهتدي من أين يؤتى.

نهوض صيفاقس بدولته ورقيها وسعادتها وقوتها بفضل مساعيه

وكان صيفاقس ملكا طموحا مخلصا لدولته فبناها في كل النواحي، فنشر العلم في رعيته، ورقي الفلاحة والتجارة، والصناعة، وكل أسباب الغنى والقوة التي تجعل الدولة تقف على قدمها، وترفع رأسها، وتحظى بالاستقلال الكامل الذي يحرص عليه البربر، ويرونه اعز شيء في الحياة. ودون الدواوين، واخذ بنظم البونيقيين في الإدارة.

وقد ضرب صيفاقس النقود باسمه، وبني هو ورعته القصور العالية، والميادين الواسعة الجميلة في المدن، والحمامات الفخمة، وكل ما تمتاز به قرطاجنة من فنون الحضارة والنعيم. وقد ازدهرت موريطانيا الشرقية بفضل دولة صيفاقس وشاع فيها الغنى، والرخاء والسعادة، وانتشرت فيها الحضارة البونيقية التي اخذ بها صيفاقس وأهل دولته، فهضموها واثروا فيها، وجعلوا عليها طابعهم، وكيفوها على نحو يليق بمزاجهم.

عناية صيفاقس بجيشه وبالقوة الحربية في دولته

وكان صيفاقس بعيد الهمة، نافذ البصيرة، غيورا على دولته، فرأى طموح ملوك نوميديا، ورأى طماع الرومان في المغرب، وان هو نفسه مغرما بالتوسع، ليصبح ملك لمغرب كله، ويرث الدولة البونيقية، ويجعلها أكلته قلب ان يفترسها الرومان، ويحلوا في المغرب، فيكونوا شرا ووبالا على أهله جميعا، فاعتنى بجيشه فقواه ودربه، فصار قوة يستطيع ان يدافع ويهام بها من يريد. وقد كان عدد جيشه في معركة جامة التي أعان فيها البونيقيين على الرومان ستين ألف جندي، وانه ليستطيع ان يجند من البربر الذين دربهم واعدهم للحروب أكثر من هذا في الحروب التي يعتمد فيها على نفسه.

وكانت دولة صيفاقس هادئة، مطمئنو، سعيدة به، معجبة بإخلاصه وكفاءته، فلذلك طالت مدته في الملك، ولم يذكر لنا التاريخ قيام ثورات داخلية عليه.

علاقة صيفاقس بالدولة البونيقية

وكان صيفاقس مهادنا للبونيقيين في افريقية، وقد لازم الحياد في الحروب التي تخوضها الدولة البونيقية مع الرومان في اسبانيا وايطاليا في الحروب البونيقية الثانية، ثم ساءت علاقته بالبونيقيين في افريقية، فتنمر لهم وكشر عن أنيابه، لم يذكر المؤرخين

سبب العداوة التي نشأت بين صيفاقس والبونيقيين.من يدري؟ لعل ميل البونيقيين إلى غولة ملك نوميديا، ومنافس صيفاقس الكبير في المغرب،والصداقة القوية التي تربط بين البونيقيين والنوميديين، حتى أعان الملك نافارس والد غولة البونيقيين في محنتهم بثورة ماطوس، بعشرين ألف فارس، وجند حنبعل آلافا من الفرسان النوميديين كانوا أعضاده ومخالبه وأنيابه، في حروبه مع الرومان،ونالت نوميديا وملكها غولة الحظوة البالغة عند البونيقيين، وخطب صدر بعل اكبر قواد الدولة ابنته صفونيسب، غادة قرطاجنة إلى مصينيسا ابن غولة ليوثق علاقة الدولتين، ويؤكد الصداقة بين النوميديين والبونيقيين، فيكونوا يدا واحدة، فخاف صيفاقس ان يأتي يوم يعين فيه البونيقيون الملك غولة على التوسع، والقضاء على دولته، فأوغروا صدره بإيثار منافسه، وأثاروا مخاوفه بما ظنه من تحريضهم وأعانتهم عليه، فصار مستعدا للانفجار عليهم، فنفجر بهذه العوامل النفيسة، أو بعامل آخر مباشر من الحوادث التي لا تشغل النار بدون هذه العوامل النفسية.

محالفة الرومان لصيفاقس وإثارته على غولة والبونيقيين

وكان الرومان في حروب ضروس مع البونيقيين في الأندلس وفي ايطاليا، ان فرسان حنبعل الذين يحاصر بهم روما، وينازل بهم الرومانيين من النوميديين، وفرسان صدر بعل القائد القرطاجني الذي يحاربهم في الأندلس من النوميديين، ان البربر هم قوة قرطاجنة ومخالبها وأنيابها، فلا بد لهم من حلفاء من البربر، ان لم يصولوا بشجاعتهم في حروبهم، فإنهم يشغلون غولة بن نارفاس ملك نوميديا بحرب داخلية تصرفه عن إعانة البونيقيين، وتأييدهم، ان غولة هو حليف قرطاجنة المخلص، واكبر قوة تمسكها في الحروب، وتورثها الجرأة والثبات في المعارك، والأقدام على محاربتهم، ان غولة عدو الرومان، لابد من محاربته، ولكنهم لا يستطيعون ذلك، إنهم في شغل بحروبهم في أوروبا مع البونيقيين، ان حنبعل يأخذ بتلابيبهم، لابد لهم من حليف من البربر يضربون به غولة، ويشغلون به قرطاجنة بحرب يثيرونها عليها في المغرب، هذا ما رآه القائد الروماني في الأندلس بوبليوس سبيون،[58] وأخوه اقناووس بدهائهما، فاتجهت أنظارهما إلى صيفاقس، انه قريب من

58 - هو والد سبيون الإفريقي بطل جامة والثاني عمه، وكانا قائدين لروما في الأندلس، وهما اللذان أحرزا الانتصارات على البونيقيين وأخذا منهم الأندلس، ثم جاء سبيون الإفريقي فأجهز على البونيقيين في الأندلس.

الأندلس، ويسهل الاتصال به. وإذا احتاجوا إلى إعانته فانه يستطيع إمدادهم، وإذا احتاج هو إليهم فإنهم يستطيعون الوصول إليه في وقت قصير. انه جارهم وقريب منهم. ثم هو بعد ذلك ملك قوي، وبطل صنديد. يضاهي غولة في عظمة الملك، وفي كثرة الجند. وهو منافس لغولة، بوده ان يزيله من نوميديا فيضمها إليه، ليتفتح طريقه إلى قرطاجنة فيبتلعها. انه رجل طموح يحب التوسع والاستيلاء. فما أسهل استمالته إذا منوه بتحقيق هذه الآمال، ان يقضي على غولة، ويستولي هو على افريقية. ان صدره يغلي منافسة لغولة انه يراه قذى في عينه، وأشواكا تؤلمه في نعله. ان صيفاقس هو الذي يمكنهما استمالته والاستعانة به على أضعاف البونيقيين. فصار يرقبان فرصتهما لاستمالته حتى ساءت للاعقته بالبونيقيين، ورأوه يكشر لهم ويثور عليهم، فأرسلوا إليه ثلاثة من قوادهم الدهاة الذين يحسنون استمالة القلوب. فما زالوا بصيفاقس يشعلون نيرانه على غولة، ويخوفانه من هجومه عليه في يوم من الأيام بتحريض البونيقيين، ويحرضانه على الدولة البونيقية العجوز، ويطمعانه في الاستيلاء على افريقية. انه إذا لم يفعل فان النوميديين هم الذين يرثونها.

وكان صيفاقس مستعدا من قبل لمحاربة غولة، ومحاربة البونيقيين. فأصغى إلى الرومان، ورضي بان يكون حليفهم فيحارب غولة ما دام البونيقيون في شغل بحروبهم مع الرومان، ومادام اكبر قسم من جيش غولة خارج المغرب يحارب مع البونيقيين. ان الفرصة مواتية. فشرع يستعد للحرب.

استعانة صيفاقس بالرومان في تدريب جيشه على حرب المشاة

وكان البربر بارعين في حروب الفرسان. انه لا يشق لهم غبار في الحرب وهم على الخيل، وفي حرب العصابات. أما حرب المشاة فإنها جديدة عليهم لا يعرفونها. والرومان فيها ابرع، وهم يتقنون أساليبها ويعرفون مكائدها أكثر من البربر. فلابد من براعة على حرب المشاة ليستطيعوا محاربة غولة والبونيقيين الذين تمرنت جيوشهم على حرب المشاة بمحاربة الرومان. فاستبقى صيفاقس احد القواد الرومان الثلاثة وهو (اسطاطوريوس) ليدرب جيشه على حرب المشاة. ونشط صيفاقس في الاستعداد للحرب الضروس. ثم هاجم بعض المراكز الحربية البونيقية في الساحل فهزم جنودها، وعاث فيها. ان المؤرخين قد ذكروا انه هو البادئ بالحرب، ولم يذكروا لنا مكان هذه الحرب. ولا يمكن ان تكون في

التراب البونيقي في افريقية لان غولة يقف في طريقه. وارى انها على بعض المراكز البونيقية في شاطئ موريطانيا الشرقية. ان هذه المراكز البونيقية قديمة في المغرب، وهي ضرورية لهم في حروبهم باسبانيا ولا أرى إنهم زهدوا فيها فاحتلها صيفاقس منذ زمن بعيد، فضمها إلى دولته

هجوم الملك غولة وحلفائه البونيقيين على صيفاقس والقضاء على دولته 213 ق.م

وكان غولة ملكا داهية. وكان يعرف ما يضمر له صيفاقس، وما ينطوي عليه من كره لحلفائه البونيقيين. فاخذ حذره منه، وصار يرقبه. وكان صدر بعل قائد البونيقيين في الأندلس كذلك،[59] وكانت قرطاجنة ترقب صيفاقس، وتتوجس منه شرا. فعملت بمخالفته لروما، وباستعداده لحربها. ورأت عدوانها على مراكزها، ورأى غولة تهيأ صيفاقس للعدوان عليه، وساءه ان يفتح الباب للرومان المستعمرين أعداء المغرب الذين يمنون أنفسهم باستعماره، ويستقدمهم إلى المغرب. ويمكن الأفعى من اتخاذ أول حجر لها في المغرب. انها خيانة وطنية كبرى ! وانه لعدوان كبير عليه وعلى حليفته! وها هو يبدؤهم بالعدوان فيشن الحرب على مراكز حليفته ! فعزمت قرطاجنة وعزم غولة على مهاجمة صيفاقس والقضاء عليه. فجهزت قرطاجنة، وجهز غولة جيشا كبيرا كان أكثر جنده من جيش غولة، فسار تحت قيادة مصينيسا بن غولة. وكان مصينيسا في عنفوان الشباب وعمره خمسة وعشرين سنة، وأسرع صدر بعل القائد البونيقي بجيش من الأندلس فانضم إلى مصينيسا، وسار تحت لوائه. فأحس صيفاقس بزلزلة الأرض تحت سنابك الجيش الزاحف نحوه. ورأى الأفق الشرقي يكسوه القتام بالكتائب المتقاطرة من قرطة عاصمة غولة. فعلم انها الحرب الضروس التي كان يتمنى ان يكون هو البادئ لها والأقوى فيها. فاستعد للصدام، واخذ الأهبة للمعركة الفاصلة.

وكان ذلك في سنة 213 ق.م. فوقعت المعركة الرهيبة في موريطانيا الشرقية بين غولة وحلفائه البونيقيين، وبين عدوهما صيفاقس. وكان صيفاقس بطلا صنديدا، وكان جيشه قويا. فوقعت المعركة الفاصلة بينه وبين مصينيسا قائد جيش غولة والبونيقيين. وكانت معركة مهولة صبر فيها الفريقان، وصمم كل منهما على محق الآخر! فسالت الساحة بالدماء، وتكدست الجثث في الميدان، وبلغت المعركة نهايتها في الهول والشدة! وقتل في المعركة ثلاثون ألفا من جند صيفاقس، ومن جيش غولة والبونيقيين العدد

59 - صدر بعل هذا هو ابن عملقرط برقة اخو حنبعل وليس صدر بعل والد صفونيسب الذي سيأتي خبره.

الوفير. وكان جيش غولة أكثر تدريبا، وكان البونيقيين يظاهرونه. وكان مصينيسا قائده بارعا في القيادة، وكان يتقيد حماسا وكرها للرومان ولصيفاقس الذي يعرف نواياه في دولة أبيه. فأشعل جيشه حماسة، وضاعف قواه. فكر على صيفاقس فهزمه فولى الأدبار، فاحتل مصينيسا (صيغة) عاصمة صيفاقس، واستولى على دولته فضمنها غولة إليه.

انهزام صيفاقس إلى موريطانيا الغربية وتجديده الكرة

وكان صيفاقس بطلا صنديدا- لا يعطي بيده، ولا ييأس. فانهزم إلى موريطانيا الغربية، والتجأ إليها، فأعاد تنظيم جيشه، واستمال بعض الموريطانيين الغربيين فكون منهم جيشا وقادة بنفسه، فسار إلى مصينيسا وكان ذلك في سنة 212 ق.م بعد شهور من المعركة الفاصلة الأولى. فوجد مصينيسا مستعدا له فوقعت بينهما معركة فاصلة أخرى كان النصر فيها لجيش غولة. فانهزم صيفاقس مرة ثانية إلى موريطانيا الغربية والتجأ إليها، ولابد ان يكون قد اعتصم ببعض جبالها المنيعة. فعول على حرب العصابات. وكان يعرف ان حروب الرومان قد هاضت جناح البونيقيين، واستحوذت على مواردهم وقواهم العسكرية، وان غولة قد أرسل جيشه ومعظم قواته الحربية إلى الأندلس لتشد أزر البونيقيين الذين يشدد الرومان عليهم الخناق، وأنهما لا يستطيعان ملاحقته ومحاصرته في جباله ومواصلة الحرب ضده مدة طويلة. ثم ان الرومان حلفاءه في تقدم في الأندلس، سيقصمون ظهر البونيقيين بضرباتهم، ثم يسرعون لنجدته وإرجاعه إلى مملكته، ثم ان شعبه يحبه، وأنصاره هم الجمهور في دولته. سيثورون إذا وجدوا فرصتهم. فأرسل إلى شعبه يقوي عزيمته، ويحيي الآمال والحماس في صدره، ويعلمه بعزمه على مواصلة الكفاح. ان الثبات والكفاح العنيد المخلص هو سبب النجاح. فنظم صيفاقس فلول جيشه، فعول على حرب العصابات التي يتقنها البربر كل الإتقان. فماذا وقع بعد ذلك، هل رجع صيفاقس إلى عرشه، واسترجع دولته، أم بقي شريدا في الجبال؟

رجوع صيفاقس إلى ملكه، وتجديده لدولته 212 ق.م

كان صيفاقس بطلا صنديدا، ورجلا داهية، وقائدا محنكا، لا تؤثر فيه السقطة.انه يتشبث بالأرض فيتناهض، ويقف على قدميه، وهو أكثر رسوخا غي موقفه، لا يتزلزل ولا يسقط!

وكان يشن على غولة والبونيقيين حرب العصابات ويغير عليهم من مكمنه، فيقلق راحتهم، ويقتل من جنودهم. لقد صمم على استرجاع مملكته والعودة إلى عرشه. انه

لا يخمد و لا يستسلم. ان البربر لا يطفئون سريعا، ولا يستسلمون للأمر الواقع إذا كان يمس شرفهم، وبغض من قدرهم.

وكان الملك غولة حليف البونيقيين بعد انتصاره على صيغ=فاقس قد أرسل جيشه إلى تحت قيادة ابنه مصينيسا إلى الأندلس لنجدة البونيقيين الذين يشدد الرومان عليهم الخناق. وكان البونيقيون في حروب عنيفة مع الرومان في ايطاليا وفي الأندلس. لا ستطيعون ان يقوموا بحرب طويلة الأجل مع صيفاقس في المغرب. ان هذا فوق طاقتهم، ومما يضعفهم في حروبهم مع الرومان. فرأوا مهادنة صيفاقس وامتلاك وده. ولكن صيفاقس قد اظهر الاستعداد لمصالحتهم، والإعراض عن الرومان ونبذ الحلف الذي عقده معهم.

وكان إلى هذه الأسباب التي تمنع الملك غولة والبونيقيين من مواصلة الحرب ضد صيفاقس حب الموريطانيين الشرقيين لملكهم صيفاقس. إنهم يؤثرونه، وله أنصار وشيعة كبرى في كل مدينة. إنهم يتحينون الفرصة للثورة ليسترجعوا دولتهم وملكهم. ان زناتة القوية الباسلة وهي البتر، لا ترضى ان يتسلط عليها غولة وقومه وهم من كتامة، ومن البرانس. ان جبينها الذي ألف التاج لا يمكن ان يستقر غي الرغام طويلا. لابد ان يثور وتطرح أعداءها أرضا، وتسترجع عزها وملكها الشريد في الجبال. ان غولة لا يستطيع المحافظة على موريطانيا الشرقية، وجيشه بعيد عنه في الأندلس. ان اقل ثورة داخلية في موريطانيا سيذكيها صيفاقس، ويؤيدها الرومان. فتصير حربا تزلزل أركان ملكه. من يدري؟ لعل الثوار ينتصرون عليه فيقع م لا تحمد عقباه. ان صيفاقس لن يستسلم، ولن ييأس. وقد ينجده الرومان بجيش قوي فيزحف على المغرب كله فيملكه. يجب استرضاؤه وتهدئته. ان هذا لا يمكن إلا بإرجاع مملكته إليه؛ ويجب إرضاء الموريطانيين الشرقيين الساخطين وامتلاك ودهم. وهذا لا يكون إلا بإرجاع دولتهم، وعودة ملكهم إلى عرشه. لقد نبذ صيفاقس حلف الرومان، وأجدى فيه الدرس القاسي الذي القوه عليه. ان رماحهم قد طعنت حلف الرومان فقتلته. سيلازم صيفاقس الحياد ويصادق قرطاجنة فيكونون يدا واحدة على الرومان. هذا ما رآه الملك غولة بدهائه. وهذا ما رأته قرطاجنة، ففتحوا لصيفاقس باب الصلح الذي يقرعه، ومجال الإخاء الذي يعالج أقفاله.

وكان الملك غولة عظيما وكريم النفس مع صيفاقس. انه لم يستسلم للعاطفة في هذا الأمر. ان صيفاقس عدوه ومنافسه الأكبر، وقد سعى لمحقه، ولكن الرومان أكثر عداوة واشد خطرا، فيجب التفرغ لحربهم وسد أبواب المغرب في وجوههم. ان صيفاقس أخوه، وهو من سراة البربر، يعمل لإحياء المغرب وازدهاره، لا لاستعباده وقتله كما سيفعل

الرومان لو تسلطوا عليه. ان شعبه يحبه لآثاره الحسنة فيه. ولما رأوا من الخير، والعز، والحياة الكريمة على يده. ان صيفاقس أخوه. فليرجع إلى ملكه والى شعبه، والى مواصلة جهاده، وأعماله الكبرى في إنعاش موريطانيا وإسعادها، فرفع غولة والبونيقيين أيديهم عن موريطانيا الشرقية، فرجع صيفاقس بعد شهور من اندحاره والتجائه إلى موريطانيا الغربية إلى عرشه، فسر به شعبه، وفقت البلاد لأوبته، وسكنت زناتة وأخواتها غي موريطانيا سكون الرضى لا سكون التحفز كما كانت من قبل. ورجع التاج إلى جبين صيفاقس،واسترجع ملكه بفضل ثباته، ونضاله، وإخلاصه لشعبه، وحب شعبه له. فواصل أعماله في البناء، وجهوده غي إسعاد موريطانيا الشرقية وترقيتها في كل النواحي. وقد لازم الحياد في الصراع الذي يجري بين البونيقيين والرومان، إلى ان توفي غولة بن نارفاس ملك نوميديا في سنة 206 فتغيرت الأحوال في نوميديا، وأصبح صيفاقس أقوى ملك في المغرب، وأعظم قوة حربية تستطيع إنجاد قرطاجنة في محنتها بالرومان. فماذا وقع فصار صيفاقس هو صديق قرطاجنة وحليفها الكبير في المغرب بعد ان حاربها وسعى في هلاكها؟ ولماذا اتجهت قرطاجنة إلى صيفاقس وهو عدو النوميديين الذين نصروها، وثبتوا معها في حروبها مع الرومان؟

محالفة صيفاقس للبونيقيين وأسبابها 206 ق.م

كان غولة بن نارفاس ملك نوميديا ملكها قويا، وبطلا عظيما، ورجلا بالغ الدهاء، وقوي الشخصية، محبوبا لدى رعيته؛ فاتجهت إليه قرطاجنة في الحروب البونيقية فجعلته حليفها، وعرف هو أيضا خطر الرومان على المغرب فسارع إلى نجدة البونيقيين فوقف في صفهم، وقارع معهم الرومان الذين يسعون للقضاء على الدولة البونيقية لتتفتح لهم الأبواب، وتتمهد لهم السبل لامتلاك المغرب واستعباده، والقضاء على دولته الناشئة. وظل غولة اكبر حليف للبونيقيين، ودام البونيقيون وهم يتوددون إلى النوميديين والى الملك غولة، ويوثقون الصلة بهم بكل الوسائل. فخطب صدر بعل قائد قرطاجنة الكبير ابنته صفونيسب لمصينسا ابن غولة ليؤكد الصداقة بين الدولتين بالمصاهرة. ولكن لما توفي غولة في سنة 206 ق.م. تغيرت نظرة البونيقيين إلى الدولة النوميدية، وفترت علاقاتهم به. وذلك لضعف الملك الذي خلف غولة. انه أخوه (دلقاص) وهو شيخ هم، ضعيف الشخصية، لا يتصف ببطولة أخيه ودهائه. انه لا يستطيع ان يغني غناءه في نصرة البونيقيين. إنهم في عنفوان الحرب البونيقية الثانية. لقد انتصر عليهم الرومان في معارك أوروبا، فهزموهم في الأندلس، وطردوهم من اغلب بقاعها،

وامتلكوا جزرهم في البحر الأبيض المتوسط، وأنهم يطمحون بأنظارهم المسعورة إلى افريقية يريدون امتلاكها. ان البونيقيين في خطر داهم، وظرف عصيب ! ان الأسد الروماني الهائج يفغر عليهم ليبتلعهم، ويجعلهم فرثا في أحشائه! فلابد لهم من حليف قوي يستعينون به في مدافعة العدو القوي، وصديق بطل كغولة يقف بجانبهم غفي المحنة، ويجلو ببطولته عنهم الكرب. فنظروا فوجودا ان صيفاقس هو أقوى ملك في المغرب، وانه أحسن لهم من (دلقاص) ببطولته ودهائه، ورسوخ قدمه في الملك، وبجيشه القوي الباسل الذي أعده للمكاره. فرغبوا في صداقته، وعزموا على محالفته. ولكنه مجروح الفؤاد. مزور عنهم لإيثارهم لغولة والنوميديين.وهم منافسوه وأعداؤه. إنهم لا يستطعون امتلاك وده مع اتصال صداقتهم لأسرة غولة والنوميديين. ان الجمع بين صداقة دلقاص خليفة غولة وبين صداقة صيفاقس صعب أو مستحيل. لابد من اختيار احدهما. هل يغني عنهم دلقاص الهرم شيئا. ان النوميديين أبطال صناديد، وان مصينيسا بن غولة فارس مغوار، وقائد عظيم. انه مع جيشه يبلي البلاء الحسن في جانبهم بالأندلس. لولاه ولولا جيشه القوي الباسل لكان الرومان قد أجهزوا عليهم في الأندلس منذ زمن بعيد. ولكن الدولة برأسها، وملك الدولة هو الرأس والعمود الفقري الذي تقوم عليه. ان دلقاص ملك النوميديين ضعيف، وهو شيخ متهالك في آخر عمره. وابنه قابوصة الذي سيخلفه في الملك اضعف منه. ان القانون في وراثة الملك بنوميديا ان يخلف الملك الذاهب أسن رجب في أسرته. وليس مصينيسا البطل القوي المخلص هو الاسن في الأسرة. فيتولى الملك بعد عمه دلقاص. انه في الدرجة الثالثة. فابن عمه قابوصة أسن منه، فهو الذي سيخلف أباه دلقاص. ان الخطر محدق، والأيام عابسة! ومستقبل الدولة النوميدية بملوكها الضعفاء إلى صيفاقس من فتل له في الذروة والغارب. وأزال سخائم صدره، ودعاه إلى محالفتهم. وليمتلكوا وده وثيقة اظهروا الزهد في الملك دلقاص، وعدم الاكتراث بدولته، وقطعوا علاقاتهم به، وأبطلوا علاقة المصاهرة التي كانت ستربطهم بالدولة النوميدية فحولوها إلى صيفاقس ودولته. صفونيسب! غادة قرطاجنة! وغزالة المغرب! ومنية الفرسان المثقفين، والأمراء الكبار! وابنه صدر بعل قائد قرطاجنة الكبير! وكانت لمصينيسا فجعلوها لصيفاقس، وخطبها له صدر بعل مبالغة في استرضائه، واجتذابه، وبعث الطمأنينة في قلبه، ودليلا على قطع كل علاقاتهم بالنوميدين وبعائلة غولة.

وكان صيفاقس يدرك خطر الرومان على المغرب. وكان موقنا بان دلقاص الضعيف لا يستطيع مؤازرة الدولة البونيقية فتقوى على مدافعة الرومان عن المغرب. ان الرومان

عدوه وعدو المغرب جميعا. لقد اطرحهم واعرض عنهم، ونبذ حلفهم، ووطأه بنعاله. ان صدورهم تغلي حنقا عليه. ثم ان الدول البربرية هي الغرض الذي سيستهدفه الرومان بعد قضائهم على الدولة البونيقية لكي يزيلوها فيتأتى لهم امتلاك المغرب. ان الخطر يداهم المغرب، ويداهم دولته. لابد من محالفة البونيقيين ومناصرتهم. ان أيديهم تمتد إليه. ان الدولة البونيقية في هرمها، قد تنجح بمؤازرته في دحر الرومان، وقطع أطماعهم عن المغرب. فيكون هو الوارث لها. فيوحد المغرب كله في دولة واحدة. وصفونيسب! انها القمر الذي سيتألق في سماء كهولته فيجدد شبابه، ويضاعف قواه، ويكسو بنوره وسحره أيامه. فتقبل عليه باسمة جميلة كصفونيسب، نضيرة فتانة كمحياها الفاتن، وروحها الساحرة! لا بد من مصافحة اليد التي تمتد إليه من الدولة البونيقية. لئن لم يتحد معها فان طوفان الرومان سيغرقهم جميعا. فأسفر وجه صيفاقس للبونيقيين، وتعانقا، وأصبح حليفهم، فشمر عن ساعديه لمناصرتهم، والهجوم على كل من يناوئهم، ورحب بخطبه صفونيسب، وأرجأ الزفاف إلى اليوم السعيد الذي لا يراه بعيدا.

غضب مصينيسا لتنكر البونيقيين لدولته وأسرته

وكان مصينيسا مشتبكا بالرومان في الأندلس ينصر البونيقيين، ويخوض لجج الحروب الهوجاء من اجلهم، وعيناه إلى المغرب يرقب ما يجري في دولته وفي دولة منافسهم صيفاقس. فرأى جنوح البونيقيين إلى صيفاقس واطرحاهم لدولته، وعدم الاكتراث بشئونها. وهاهم يزهدون فيه هو أيضا فيبطلون خطبته لصفونيسب. هذه الحبيبة التي ملكها قلبه، وأضحت أمنيته الحلوة، ومصدر انسه وسعادته في أهوال الحروب. فثارت ثائرته، وأحس بالقرطاجنيين يحثون التراب على رأسه، ويهينونه ويهينون دولته. ثم ثارت العاصفة في دولته، وقتل الثوار ابن عمه قابوصة، واستولى على العرش وهو وارثه الشرعي، والبونيقيون يصفقون للثوار، ويؤيدون صيفاقس في الكيد له. ان صيفاقس حريص على إزاحته عن الملك حسدا له، وحقدا عليه. انه يريد ان تكون نوميديا ضعيفة بملوكها الضعفاء ليبتلعها متى أراد. ان البونيقيين يزينون له ذلك ويؤيدونه. لقد قلبوا له ظهر المجن! لم الاستبسال في مدافعة خطر الرومان خارج المغرب، والشر والخطر في دولته؟! فأسرع إلى نوميديا فاسترجع عرشه من أيدي الثوار فلربع عليه، وامسك بكل الأزمة في الدولة، ورمي قرطاجنة بعيون تتقد بالمقت، وتتأجج بالعداوة. لابد من تأديبك أيتها العجوز الرعناء. وأرسل يده إلى قائم السيف يقلقله ليثار لشرفه، ويؤدب الذين غدروا به، واستخفوا به وبقومه.

اجتذاب الرومان لمصينيسا وإرغام البونيقيين له على محالفتهم

وكان الرومان يرقبون الأمور في المغرب. فعرفوا محالفة البونيقيين لصيفاقس واطرحاهم لمصينيسا، وثورة مصينيسا عليهم،فأرسلوا إليه يعرضون عليه ان يكف عن حربهم. انه هو ساعد البونيقيين القوى، ومخلبهم الجبار الذي يبطشون به في الأندلس. وهو الذي يمسكهم في المعركة، لولاه لانهدموا وملكوا الأندلس جميعا. وجنبعل الذي يطرق بقنواته أبواب روما! أليس فرسانه وأقوى جنده من النوميديين. ان كف مصينيسا عن حربهم سيف في عضد حنبعل أيضا، وهو نصر لهم في كبل الميادين. ان مصينيسا رجل ذكي يعرف خطرهم، وهو أكثر كرها لهم من صيفاقس. إنهم لا يطمعون في ان يتحول بجيشه في الأندلس، فيحارب معهم البونيقيين. حسبهم ان يرحل إلى نوميديا ويشعلها حربا عوانا على قرطاجنة، ويجعل صيفاقس يستبقي قواته في المغرب ليحارب بها مصينيسا ويدافعه بها عن دولته ودولة حلفائه. فأرسلوا إلى مصينيسا ففتلوا له في الذروة والغارب، وأشعروه باستعدادهم لإعانته إذا أراد.

أسباب محالفة مصينيسا للرومان

وطلبوا محالفته. فحالفهم مرغما ليستعين بهم في المحافظة على ملكه إذا تألب عليه صيفاقس والبونيقيون، وطغت عليه أمواجهم، وأرغموه على التمسك بالأفعى لينجو من الغرق! ان نية صيفاقس فيه وفي دولته العدو الحقود الذي لا يرضى ببقائه في الوجود. ان جيوشه قد أضناها الجهاد في اسبانيا، وان أموره في نوميديا مختلفة بثورة الثوار. أما صيفاقس فجيشه مستريح، وأموره منتظمة، ودولته مستقرة. لا بد له من حليف قوي يسنده إذا عصف به صيفاقس. فلم يجد إلا الرومان فرضي بهم حليفا.

كان ذلك في سنة 206 ق.م. فانتصب مصينيسا على عرشه، فجرد عبقرية ليرم دولته، ويندفع بها في طريق العظمة، وتكون أقوى دولة، وأغنى امة في المغرب. فتحرك الحسد والحقد والطمع في صيفاقس، وتحرك الخوف وافن الرأي في قلوب القرطاجنيين، فهاجموا مصينيسا للقضاء على دولته. فكيف وقع ذلك، وما أسبابه؟ ولمن تكون الدائرة في هذه الحروب التي أطربت الرومان لأنها مزقت المغرب، ووسعت الهوة بين البونيقيين وصيفاقس وبين مصينيسا؟ ان المغاربة لن يتحدوا بعد اليوم ضدها؟.

هجوم صيفاقس على مصينيسا
واستيلاؤه على نوميديا 205 ق.م

كان ذلك في سنة 205 ق.م. وكان مصينيسا قد استرجع منذ شهور مملكته من أيدي الثوار، وانتصب ملكا على نوميديا. فشرع ينظم جيشه، ويصلح ما أحدثته الفتنة نت التصدع في دولته،[60] ويقوي نفسه ليرفع رأسه على منافسيه وأعدائه في المغرب.

وكان صيفاقس رجلا طموحا. وكان شديد الحقد على مصينيسا والنوميديين. أليس مصينيسا هو الذي هزمه غي الحروب الواقعة بينه وبين أبيه. انه هو الذي جرده من ملكه، وسلبه عرشه، وجرعه الغصص، وسحبه في التراب! ها هو ينتصب ملكا على نوميديا. انه بطل صنديد. ورجل داهية، وسياسي حنك، وعبقري سيجعل دولته بالغنى والحضارة تكسف دولته. سيكون أقوى منه ملكا واعز جانبا. ان شعبه يحبه، سيلتف كله حوله. وهو شاب أقوى منه، وأكثر حماسا، واقدر على مواصلة العمل في السياسة، وقيادة الحروب، ومنازلة الأقران في الجلاد. قد يتحرك عداؤه القديم لدولته، فيهجم عليه فيصرعه، فيستولي على مملكته. انه يغلي حنقا على حلفائه البونيقيين وعليه . لا بد نت التخلص منه والانتقام من دولته. لابد من الاستيلاء على نوميديا الغنية الجميلة ، فيتم ملكه، ويكون جارا لحلفائه البونيقيين. يستطيع إنجادهم إذا هوجموا. والاتصال بهم. أما الآن فان مملكة نوميديا تفصل بينهما، ولا يصل بينهما إلا جيتوليا.[61] وفيها القبائل البربرية القوية التي تكره البونيقيين لاستعبادهم للبربر في افريقية. ان طريقه عليها لا يكون أمنا. وهناك البحر وهو في قبضته الرومان. ان أساطيلهم تجوب أنحاءه. وسيعتني مصينيسا بأسطوله فيكون بحر نوميديا الذي يصله بافريقية في قبضته. ان انتصاب مصينيسا ملكا في نوميديا تهديم للحلف الذي يربطه بالبونيقيين، وخطر يهدد ملكه. انه عدو له لابد من الانتقام منه. يجب ان يعالجه ما دامت أموره مضطربة، ودولته مصدعة بالفتنة التي قلقلت أركانها. وما دام جيشه لم يستجم من أتعاب الجهاد العنيف، والحروب المريرة الطويلة التي خاضها ضد الرومان في الأندلس. انه إذا استجم وانتظمت أموره، لم يستطعه. ان الفرصة مواتية للانتقام من عدوه، وتحقيق

60 - هي فتنة الانقلاب الذي قام به الثائر مزوطيل على ابن عمه الملك قابوصة.

61 - جيتوليا هي الصحراء انظر أقسام المغرب في الباب الأول من هذا الجزء.

أمله في الاستيلاء على نوميديا. فصر بأسنانه، وحقده القديم على النوميديين، وحسده لمصينيسا، وخوفه منه ينص به فؤاده. ففاوض حلفاءه القرطاجنيين فيما يرى، فوجدهم على رأيه. يجب القضاء على مصينيسا ! ان العجوز الحمقاء لم تعمل للصلح بين الملكين البربريين، وامتلاك ودهما معا ليقفوا جميعا سدا من حديد في وجه الرومان. بل أغرت صيفاقس بمصينيسا، واذكت عداوته، ووافقته على هواه، وانساقت مع أطماعه. واراها الغرور انها تستطيع بصيفاقس وحده ان ترد جيوش روما الكاسرة التي تتأهب للانقضاض عليها! فجهز صيفاقس جيوشه، وكتب كتائبه، وباغت مصينيسا بهجوم عنيف!.

كان ذلك في سنة 205 ق.م فلم يشعر مصينيسا إلا وصيفاقس يغشى مملكة بجيوشه الجرارة. فثار للدفاع، وأسرع إليه قومه من أنحاء نوميديا، فوقعت معارك طاحنة في نوميديا بين الملكين. وكان كلاهما يقود جيشه ويباشر القتال في المعركة. فثبت مصينيسا ثبات الأبطال، ودافعه النوميديون عن دولتهم دفاع الأسود، ولكن صيفاقس كان أقوى وأكثر استعداد للحرب ذ، فكر على مصينيسا فهزمه، فاستولى على مملكته، ودخل قرطة عاصمة نوميديا فاحتلها. فتحقق أمله، ووقع ما كان يرجوه. لقد انتقم من أعدائه القدماء، واستولى على نوميديا فاتسعت مملكته. وان تحقق أمله الآخر لقريب. انه أمل بالغ الجمال والحلاوة يملؤه بالسعادة والبهجة! صفونيسب! خطيبته الحسناء، ستزف إليه في قرطة فتتم أفراحه، وتكمل سعادته.

ما هذه الزغاريد المتعالية في قرطة عاصمة صيفاقس الجديدة؟ انها زغاريد العرس الكبير. فزفت صفونيسب إلى صيفاقس في حفلات كبيرة حضر فيها أمراء قرطاجنة وسراتها.[62] ولكن صيفاقس ما كاد يتطعم شهر العسل. وما كادت نشوته بانتصاره وزفافه تتم حتى دعى إلى حرب جديدة. انه مصينيسا الملك البطل! لا يستسلم ولا ييأس.

إغارة مصينيسا على البونيقيين واستنجادهم بصيفاقس

وكان مصينيسا لما انهزم قد التجأ إلى جبال طبرقة المنيعة. فعزم على حرب العصابات. ويلك أيتها العجوز الرعناء! لابد من تهديمك! ان الدولة البونيقية هي عدوه الأكبر في المغرب. انها هي التي أغرت به صيفاقس. انها منبع الشر وسبب الفرقة! فكتب كتائبه فصار يغير على المدن الغربية البونيقية وينزل عليها ضرباته. فارتاعت

62 - أرى ان زفاف صيفاقس بصفونيسب كان في قرطة بعد ان جاور البونيقيين لا قبله.

قرطاجنة بهجومات مصينيسا. انه بطل صنديد لا تطيق الاشتباك به وجيشه بالغ الجرأة ويحاربهم بأسلوب العصابات الذي لا يتقنه البربر. فاستغاث البونيقيون بصيفاقس. فجهز جيوشه الجرارة، وأرسلها تحت قيادة اكبر ضباطه (بوكار) في سنة 204 ق.م. فاشتبك بمصينيسا في معارك حامية، ثم حاصره بكثرة جيوشه، وفل كتائبه، فدافع مصينيسا دفاع الأبطال، وثبت في المعركة ثباتا منقطع النظير. فانهزم جنده «فلم يبق إلا هو مضرجا بدمائه (مثخنا بالجراح) وحوله أربعة من رفاقه، تطارده فرقة من جنود بوكار، فرمى بنفسه في نهر ونجا إلى الضفة الأخرى. وكان ذلك حول مدينة (قليبيا)».[63]

استعداد مصينيسا للإغارة على عدوه وهجوم صيفاقس عليه

وكان مصينيسا بطلا عظيما لا يستسلم ولا يهين. فآوى إلى مغارة في جبل منيع فأشاع انه مات لينقطع عنه الطلب. فآسى جراحه حتى برئت، وجمع فلول جيشه، وأرسل إلى شعبه في نوميديا يبشره بأنه حي، ويؤذنه بالجهاد، ويدعوه إلى النضال، فأسرعوا إليه، وأسرع إليه البربر من افريقية فاستطاع ان يجند جيشا كبيرا فيه ستة آلاف من المشاة، وأربعة آلاف من الفرسان. فعزم هذه المرة ان يجعل صيفاقس هدفه. هذه الذي ما فتئت قرطاجنة تتخذه مخالبها فتدميه بها. يجب تقليم أظفارها العجوز الرعناء بالقضاء على صيفاقس. انه يختال في قرطة، ويتقلب في الحرير مع صفونيسب، ويظن ان النوميديين قد خضعوا بأيديهم، وان مصينيسا قد أصابه الوهن وأدركه اليأس! فعسكر مصينيسا في الجبال المنيعة بين هبون (عنابة) وقرطة (قسنطينة) فعزم على حرب العصابات ضد صيفاقس.

كان ذلك في سنة 204 ق.م وكان صيفاقس على حذر من عدوه. فعلم بقوة مصينيسا وتجدد جيشه، وان مصينيسا لا زال قوة يمكن ان تودي بدولته وتهدم ما بناه. فشمر عن ساعده، فجهز جيوشه، وقسمها قسمين، قاد هو قسما، وقاد لبنه فرمينة قسما آخر. فزحفوا نحو مصينيسا، وأحاطوا بالجبال التي اعتصم بها. فوقعت معارك عنيفة بين الملكين دامت مدة كبيرة وكان صيفاقس هو الأقوى، فكر بجيوشه على جيش مصينيسا فهزمه، فشتت شمله فعلم مصينيسا انه لا يستطيع التغلب على صيفاقس إلا بحليف قوي، وفي ظروف أخرى غير هذه ان فرصته آتية لا ريب فيها فآوى إلى جبال نفوسة في جنوب سرت الأصغر (قابس) وجنوب طرابلس، فاعتصم بها، وآوته نفوسة وعصمته من أعدائه فلم يقع عليه الطلب فبقي هناك يرقب فرصت.

---

63 - موجز تاريخ الجزائر العام للأستاذ عثمان الكعاك ص 56 ط بتونس 1344هـ.

اتخاذ صيفاقس قرطة عاصمة ملكه

وكان صيفاقس قد فرح بتوسع مملكته، فجعل قرطبة عاصمته، فانتقل إليها ليراقب عدوه عن كثب. وكان سعيدا بصفونيسب التي وجد فيها ما ينشد في المرأة من أنوثة وثقافة، ومن جمال وذكاء، فبوده لو استمرت الأيام الهادئة، ليتفرغ لمباهج ملكه، ويستمتع طويلا بملكه العريض، وزوجته الحسناء؛ ولكن قلبه يحدثه بان أيام الهناء قليلة، وان الزمان العابس القمطرير هو ما يستقبله. ان الرومان يستعدون للانقضاض عليه وعلى حليفته قرطاجنة،[64] وان مصينيسا يرابط في جبال نفوسة يبري براثينه، ويجدد أنيابه، ويستعد للهجوم الكبير. ثم جاءه النذير بان ما يخشاه قد وقع. ان الرومان قد نزلوا في افريقية في جيوش جرارة فانضم إليهم مصينيسا فذي عصابته. وان جيش مصينيسا يغزر جمعه ويتضاعف عدده بمن ينضم إليه من النوميديين والبربر الإفريقيين. ثم جاءه الصريح من قرطاجنة، يستنجد به. فعلم ان أيام الدعة والهناء قد ولت. فودع زوجته وعاصمته قرطة، فسار في ستين ألفا من جنوده لنجدة البونيقيين، وملاقاة سبيون الإفريقي ومصينيسا.

كان ذلك في سنة 203 ق.م. وكان قائد البونيقيين هو صدر بعل والد صفونيسب. وكان قد خرج في جيش كبير فوصل صيفاقس فاجتمعا على العدو. وكان مصينيسا في جيشه وفرسانه الأقوياء مع سبيون. فنشبت حروب عنيفة بين الطرفين. فرأى سبيون قوة صيفاقس وشدة شوكته فأراد ان يفرق بينه وبين البونيقيين، ويمنع اتصالهما.

مكيدة سبيون لصفاقيس والبونيقيين وانتصاره عليهما

وكان صيفاقس قد نزل في مركز خاص ولم يختلط بصدر بعل قائد البونيقيين. فنشبت الحرب بين القرطاجنيين والرومان، فاظهر سبيون الانهزام مكيدة، وخاطب محاربيه في الصلح. وبينما هم يتفاوضون إذا بسبيون دخل بين الجيشين المتحالفين، وحال دون اتصالهما، ومن الليل هجم هو على صدر بعل، ومصينيسا في رهطه على صيفاقس، واحرقا معسكريهما»[65] وانهالا عدوهما بالسيوف. ومات بالحريق وبالسيف من جيش صيفاقس والبونيقيين أربعون ألفا، واسر خمسة آلاف. وكانت ضربة قاضية على صدر بعل وصيفاقس. وكان ذلك في ربيع سنة 203 ق.م.

«وفي شهر يونيه من سنة 203 ق.م. اخذ صيفاقس وصدر بعل يعدان العدة للهجوم

64 - نريد بقرطاجنة الدولة البونيقية كلها من باب ذكر الجزء وإرادة الكل في المجاز المرسل.
65 - تاريخ الجزائر العام ج 1 ص 129 ط بيروت 1963.

على عدوهما، ولكن خاب مسعاهما. وانتصر (مصينيسا) وسبيون عليهما بجهة جندوبة في سهول (سوق الأربعاء) ثم عسكر سبيون (في مكان تونس) واخذ يهدد مدينة قرطاجنة».[66]

انتصار مصينيسا على صيفاقس وأسره 202 ق.م.

وكان مصينيسا قد كثر جمعه، وأسرع إليه قومه من أنحاء نوميديا، فعزم على القضاء على صيفاقس واسترجاع ملكه. فكر عليه في سنة 202 ق.م. فوقعت بين الجيشين ملحمة كبرى. وكان صيفاقس يباشر القتال بنفسه، فكبا به جواده فاخذ أسيرا. وسار به مصينيسا وهو أسير فدخل عاصمته قرطة، وقضى على أحلام عدوه، فاسترجع مملكته، وانفصلت نوميديا عن موريطانيا الشرقية.

اعتقال صيفاقس ووفاته

وأرسل سبيون الإفريقي الملك صيفاقس إلى رومة فطافوا به في الشوارع، ثم القوا به في السجن. فوجد صيفاقس نفسه بعد العرش الرفيع، والتاج الذهبي، وبعد قصور قرطة، وصيغة، وبعد التقلب في الحرير وبين أحضانه صفونيسب؛ بعد هذا العز البالغ، والترف الكامل، يجد نفسه في ظلام السجن، ترهقه القيود الثقيلة، وتقتله اهانة الرومان وإذلالهم ! وكان وهو في سجنه يتخيل الدخول به في روما مكبلا، وفرسان روما يحيطون به، والتجول به في الشوارع، وجماهير رومة تشمت به، وتصيح في وجهه، وتسمعه العجائز والصبيان والرعاع ما يسول الحقد والطيش لهم من منكر القول وبذئ الكلام. فيحس بالذلة تقتله، وبهذه المناظر تصميه. فلم تطل مدته غي السجن فمات غما وحسرة في سنة 201 ق.م.

أسباب انهزام صيفاقس

وكان صيفاقس هو أول من استعان بالرومان وحالفهم، وفتح لهم باب المغرب. فابتلاه الله بالأفعى التي ادخلها إلى وطنه، فكان مغرز أنيابها المسمومة.. وهكذا يبتلى الله بالمستعمرين كل من أعانهم في احتلال وطنه، والعدوان على أبناء جلدته.

وكان صيفاقس طموحا فاعتدى على أخيه مصينيسا فجرده من ملكه، واستولى على مملكته، وظلم ظلما كبيرا بهذا العدوان. فنصر الله مصينيسا عليه، وكبه في

66 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 229 تونس 1959.

المعركة لما كبابه جواده، فاقتنصه أعداؤه. وتلك عاقة الظلم، ومآل الظالمين!

وكان سبب انهزام صيفاقس أيضا هو هرم حليفته وضعفها واغتراره بكثرة جيشه. وبانتصاراته الماضية على مصينيسا. انه لم ينضم إلى صدر بعل ليكونوا جبهة واحدة، بل نزل في معسكر وحده. والسبب أيضا هو قوة مصينيسا ومضاؤه وحسن قيادته، ومناصرة النوميديين له فغزر جمعه.

مدة صيفاقس في الملك وأثره في دولته وفي المغرب

وكانت مدة صيفاقس في الملك حوالي ثلاثين سنة، من حوالي 230 إلى سنة 202 ق.م. وكان ملكا عظيما، ورجلا من رجالات المغرب الممتازين. نهض بموريطانيا الشرقية وترك في المغرب أحسن الآثار. وكان شعبه يحبه، وقبيلته زناتة تتمسك بملكه. وكان قد اعد ابنه فرمينة للملك بعده. فالتقت موريطانيا الشرقية حول فرمينة، واختارته ملكا يحفظ دولتهم، ويقوم برئاستهم وقيادتهم مقام أبيه. فكيف كان فرمينة في الملك؟ وكيف كانت موريطانيا الشرقية؟

دولة فرمينة بن صيفاقس 202-158 ق.م

شخصية فرمينة القوية

كان فرمينة ابن صيفاقس. وكان صيفاقس قد اعتنى بتربيته، فغرس فيه خصاله الحميدة، وأنشأه على الجلد والرجولة، وعلمه الفروسية، ودربه على قيادة الجيوش، وعلمه وثقفه، فكان من سراه عصره، ومن الشباب اللامع في عهد أبيه. وكان أبوه يمرنه على شئون السياسة، ويعده ليكون خليفته في الملك. وكان يستكفي به في المهمات، ويسد ثغور الدولة الخطيرة، ويراه ساعده وسنده إذا حزب الأمر، واكفهرت الأيام. لما تهيأ مصينيسا في سنة 204 لحربه، واعتصم بالجبال الوعرة، وعزم صيفاقس على ان يخوض معه الحروب الطاحنة، ولم يجد إلا ابنه فرمينة فاسند إليه قيادة قسم من جيشه، فأغنى فرمينة غناء كبيرا، وكان كما يريد أبوه ودولته فغي الشجاعة والثبات، وفي الجلد والدهاء وبراعة القيادة. فنال صيفاقس بفضل مؤازرة فرمينة مناه، فانتصر على عدوه.

إعجاب البربر بفرمينة وإيثارهم له خليفة لأبيه

وكان فرمينة قوي الشخصية كأبيه، وقد ورث خصائصه التي نال بها التقدم والرفعة في قومه، فرضية البربر رئيسا، وقدموه عليهم ملكا. وقد ظهرت كفاءته غي عهد أبيه فالتفتت أنظار موريطانيا الشرقية إليه، فأحبه البربر واجلوه، وأعجبوا بإخلاصه وكفاءته، وتمنوا ان يكون رئيسهم وملك دولتهم بعد أبيه.

وكان فرمينة لما اعتقل أبوه رجلا ناضجا، قد حنكته التجارب، ودربته الأحداث، وأحكمه تقدم السن. ولما اعتقل والده، سارع إليه قومه في موريطانيا الشرقية، وسارع إليه شعبه فيها، فرفعوه إلى عرش الملك، فخلف أباه في رئاسة الدولة، فالتف شعبه حوله، فلم يستطع احد ان يزعزعه، وآزره قومه الأقوياء فلم يستطع منافس ان يثور عليه.

وكان فرمينة كفئا للملك، فأدار دولته أحسن إدارة، وساسها أجمل سياسة، واعتنى بنشر التعليم، وبالزراعة، والصناعة، وكل أسباب الرخاء، وضرب النقود باسمه وواصل أعمال أبيه في بناء الدولة في كل الميادين. وكان شعبه راضيا عنه، معجبا به. لم يحدثنا التاريخ بقلاقل وقعت في عهده رغم طول عهده في الملك. وقد واصلت

موريطانيا الشرقية لما ولى الملك في سنة 202 ق.م. أشواطها في طريق التقدم والازدهار، وفي الغنى والحضارة. ان البربر قد نهضوا نهضتهم الكبرى بفضل تأثرهم بالبونيقيين، فصمموا على ان يحيوا حياة كريمة، ويبلغوا بمغربهم الذروة الرفيعة في العز والغنى والحضارة. فانشأوا دولهم.وما صيفاقس ومصينيسا في ثقافتها وعبقريتهما إلا ثمرة من ثمار نهضة البربر العامة. وما دولهم إلا ثمرة لتلك النهضة القوية، وانبثقت منهم، وقامت على أكتافهم، فهم روحها وسندها، وهي لهم، تعمل لخيرهم، وملوكها سادة مخلصون، يرتفعون إلى عروشهم بأكفهم، وهم من اختيارهم. لا يرضخون للقوة، ولا يستطيع احد ان يملكهم بالعصا، وبذلهم بالجبروت. هذه هي الأمة البربرية الناهضة القوية العظمى في هذه العهود، تندفع إلى الأمام بوعيها ونضوجها، وهي كالشجرة في ربيعها تواصل نموها وثمارها وان جذ فرع منها. ليست محمولة على أكتاف ملكها، وتقف إذا مات، وتجمد إذا ذهب. انها امة تسيرها وارادتها، قد انتشرت فيها الثقافة، فاذكت وورثتها القوية، فامتلأت بالعزة والثقة بالنفس، وأججت فيها دولها اعتدادها بنفسها، فارتفعت رءوس البربر شامخة، لا يسودهم إلا من أرادوا، ولا يرتقي عروش دولهم إلا من ارتضوا، ولا يثبت على كراسي ملكهم إلا الأقوياء المخلصون. أما الضعفاء فتنفيهم عنها، كما تسقط الفروع الحية الحشف البالي، والأوراق اليابسة. لقد ذكرنا هذه الحقيقة لتعلم بطلان ما قاله المؤرخون الأوروبيون من ان الرومان كانوا عند اعتقال صيفاقس كل شيء في المغرب، فهم الذين ولوه على عرش أبيه، وبفضلهم بقيت دولة صيفاقس في موريطانيا الشرقية!

وفاء فرمينة للبونيقيين ومؤزرته لحنبعل

وكان الملك فرمينة وفيا للبونيقيين، ومتمسكا بحلفهم، يؤازرهم في الضراء، ويقف إلى جانبهم في حروبهم مع الرومان. وكان من أنصار حنبعل لما كان يستعد لمعركة جامة «وواعده ان يمده بالرجال والمؤونة».[67]

67 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 230 ط تونس 1959م

دعاوي المؤرخين الأوربيين الباطلة واحتقارهم للدول البربرية القوية

وكانت موريطانيا الشرقية، وزناتة قوم صيفاقس، هي التي تمسكت بفرمينة، ورضيته ملكا عليه. لقد اعتقل صيفاقس، وخسرت دولته معركة حربية، ولكن الدولة في شبابها، وعنفوانها لم تنكسر، ولم تهن. ان صيفاقس ابنها، هي التي أنجبته. انه من ثمارها، وليست هي من ثماره. ان فيها من يخلفه. لقد هزم الرومان بالحيلة لا بالقوة، وبفضل النوميديين ومصينيسا، جيشا من جيوشهم، ولم يحتلوا موريطانيا فيقضوا على دولتهم، ويأخذوا بناصيتهم، ويولوا عليهم من أرادوا، ويصبحوا لهم مستعمرة يقدمون إلى رئاستها وملكها من يشاءون.

ان بعض المؤرخين المحدثين الذين يقلدون الأوربيين في دعائهم الباطلة، ولا يعلمون عقولهم في تاريخهم ليستنبطوا منه الأحكام الصحيحة، قد رددوا دعوى المؤرخين الأوربيين الذين يوهمون الناس ان الرومان قد قبضوا على ناصية المغرب في الحروب البونيقية الثانية،وأنهم أهل الحل والعقد فيه بعد اسر صيفاقس. يتصرفون في أموره، ويقسمونه على من يريدون، ويولون على عروشه من يشاءون. وقد تجاهل هؤلاء المؤرخون الدول البربرية الفتية القوية التي وقفت في وجه الرومان، تحفظ المغرب من تسلطهم قرنا ونصفا، رغم استيلائهم على افريقية، واحتلالهم لجزء من المغرب، وحرصهم وتكالبهم على امتلاكه كله.

قال هؤلاء:»فرمينة، قسمت رومة مملكة والده بينه وبين مصينيسا، وأعطته هو مصيصيليا، مملكة والده الأصلية». [68]

ان هذه الدعوى توهم ان المغرب قد استسلم للرومان، فصار في قبضتهم، فولوا فرمينة على عرش أبيه، وأعطوا مصينيسا مملكة نوميديا. ونحن نشكر الرومان الأسخياء على هذه الهبة، ونثني على صدقهم السخية، ونرثي لإخواننا المؤرخين الذين يثقون بكل ما يقول الأوروبيون في تاريخ أجدادهم، واغلبه يريدون به ان يحولوا إلينا بالضعف،

68 - تاريخ الجزائر العام ج 1 ص 130 بيروت 1963.

ويقروا في عقولنا ان أجدادنا كانوا ضعفاء، وان القوة والعظمة إنما هي للرومان، وان البربر امة ضعيفة لا شأن لها. قد ركعت تحت أقدامهم، واستسلمت لهم لما اخذ ملكهم أسيرا!!

ان الرومان في الحرب البونيقية الثانية في افريقية لم يكونوا هم الأقوياء، ولم يكن لهم تسلط على أي جزء من المغرب لقد جاء سبيون الإفريقي إلى المغرب، نزل في افريقية، وهو يحك جنبيه ألما من ضربات حنبعل الذي يحاصر رومة ليحتلها، وما نزوله في افريقية ، ونقل ميدان الحرب إليها إلا ليفك الحصار عن عاصمته، وجبر حنبعل على الخروج من بلاده. وقد عجزوا ان يخرجوه عنها بالقوة، فأخرجوه بهذه الحيلة. لم يكن سبيون اكبر قوة حربية في المغرب. انه لولا إعانة مصينيسا له بجيشه القوي من النوميديين الأبطال، وتصديه لصيفاقس، وصرفه عن سبيون وجيشه، لرينا صيفاقس يركب سبيون الإفريقي ويمرغه في التراب. ان البونيقيين والبربر جيش صيفاقس لم ينتصر عليهم الرومان إلا بالبربر. لقد عمد سبيون إلى المكيدة[69] ليفرق بين جيش صيفاقس وجيش البونيقيين، وهاجمهما، وهما آمنان وعلى غير استعداد. لأنه رأى سطوة الجيشين في القتال، وليقن انه إذا استمرت المعركة طويلا فان جيشه الروماني سيوطأ كالهشيم تحت سنابك جيش صيفاقس والجيش البونيقي.

وكان مصينيسا يبغض الرومان ويمقتهم، ويراهم عدو وطنه الأكبر. ولكن الحاجة تدعوا إلى أكل الميتة العفنة، والغريق يتمسك بالأفعى المسمومة. وقد استعان بهم في محاربة عدوه صيفاقس والبونيقيين. كانا يجتمعان عليه فلا يطيقهما. فرأى ان الرومان سيشغلون البونيقيين، فيبقى صيفاقس وحده فيهاجمه بأنصاره الذين يتواردون عليه من نوميديا وافريقية. فحارب مع الرومان، فاسترجع مملكته بحد سيفه وبدماء شهدائه. وكان له الفضل في الهزيمة التي حاقت بالبونيقيين، فاستدعوا حنبعل من ايطاليا، وفكوا حصارهم عن روما. لولاه لهزم سبيون، فيشد ذلك من أزر حنبعل في ايطاليا. من يدري؟ القرطاجنيين يبعثون إليه نجدة قوية من جند صيفاقس فيركب بها ظهور الرومان، ويفتح بها أبواب روما كما فتحها جنسريق ملك الوندال في المغرب لما تدرع بالجند البربري ففتح بها روما العجوز. انها الآن فتية، ولكن حنبعل أقوى وأعظم من جنسريق.

لقد رجع مصينيسا إلى دولته، واسترد عرشه بسيوفه، وفرح به النوميديون وآزروه ونصروه، ولو ذهب إليهم باسم الرومان لثاروا في وجهه، وأعانوا صيفاقس عليه.

69 - انظر مكيدة سبيون في صفحة 205 من هذا الجزء.

لقد كان مصينيسا عازما على محاربة الرومان بعد ان يتخلص من البونيقيين. وكان النوميديون واغلب البربر في المغرب على عزيمته. فلم يكن الرومان بالأصدقاء حتى يخضع لهم البربر، فيتساهلوا معهم تساهل الكريم، فيتكون لهم نفوذ في المغرب من أول حاول لهم فيه في الحرب البونيقية الثانية.

ان سبيون ما كان ليستطيع ان يمنع فرمينة من عرش أبيه، وخلافته لوالده، وما كان ليقدر على منع مصينيسا من العودة إلى عرشه، لان أمور المغرب كلها في يد أبناء البربرة الأقوياء. وعودة مصينيسا إلى عرشه، وولاية فرمينة الملك في قبضة الدولتين البربريتين القويتين نوميديا، وموريطانيا الشرقية لا للرومان!

لو كان الرومان هم الذين أحسنوا إلى فرمينة فولوا الملك على دولة أبيه، ما وقف في صف حنبعل عدو الرومان، وما مده بالميرة والرجال، وكان يلازم الحياد أو يعين الرومان، سيما والرومان الجائعون كانوا فغي اشد الحاجة إلى حبوب المغرب، والى الميرة في الحروب الطويلة التي يخوضونها، وبعد حصار حنبعل لروما وتخريبه لمزارعها فأقفرت ايطاليا من الأقوات.

لقد كان عدو سبيون هو حنبعل والدولة البونيقية، ولا زالا كابوسا يجثم على صدره، فهو يريد القضاء عليهما، ولم يكن بالقوى الذي تخلص من كل أعدائه، وانتصر الانتصار النهائي على الدولة البونيقية، وحل محلها في المغرب، حتى يدعي إنسان ان الرومان أصبحت لها كلمة غي شئون المغرب. لقد كانوا يومئذ ضعفاء. فلولا خرق البونيقيين الذين خسروا ود البربر، وعادوا مصينيسا وأثاروه عليهم، فوقف هؤلاء في صف الرومان، وناصر مصينيسا سبيون ما استطاعوا ان يهزموا حنبعل في واقعة جامة.

لقد كانت الدول البربرية قوية في ذلك القرن. وكانت في ريعان شبابها وقوتها، وكان الرومان يخطبون ودها، ويتزلفون إلى ملوكها، ويطلبون منهم الميرة، والفيلة، والعدد الحربية. ولما قضوا على الدولة البونيقية وحلوا محلها في افريقية، في سنة 146 ق.م. لم يستطيعوا ان يتقدموا شبرا واحدا في نطاق الدول البربرية وترابها لقوتها وخوفهم من فتكها. فظلوا قرنا كاملا من الزمان وهم يعملون لإضعاف نوميديا بالمكيدة والدس، وبكل ما أوتوا من عبقرية وبراعة في توهين الأمم بشق صفوفها، وإذكاء الفتنة بين أبنائها؛ ثم لم يستولوا على نوميديا إلا بعد حروب يوبا الأول التي انتصروا فيها بخيانة بعض ملوك البربر. وظلوا قرنا ونصفا وهم يكيدون لموريطانيا الشرقية، ولم يستطيعوا الاستيلاء عليها إلا بيوبا الثاني وابنه بطليموس وهما من البربر.

كانت الدول البربرية قوية في آخر القرن الثالث قبل الميلاد وفي القرن الثاني. وكان الرومان وهم يريدون السيطرة على المغرب في حيرة وخوف اللصوص الذين يطمحون إلى سلب القافلة الدارعة بالحرس الشجعان الذين يفتكون بكل اللصوص! ولولا تفرق البربر وتحاسدهم ما استطاع الرومان احتلال المغرب والسيطرة عليه بعد هذا الأمد بقرنين ونصف من الزمان. قاتل الله الحسد! فهو الداء العياء، الذي جعل البربر وهم اسود أقوياء، تصرعهم الذئاب الرومانية، وترتع في أحشائهم ! !

اتحاد موريطانيا الشرقية بنوميديا وأسبابه

كان فرمينة ملكا مخلصا، ورجلا ذكيا. وكان يكره الرومان، ويراهم عدوه الأكبر، وسم المغرب الزعاف. وكان يعلم انه بودهم ان يظل عدوا لمصينيسا، وان يتحاربا، وان تظل موريطانيا الشرقية دولته على شقاق وأحقاد مع نوميديا دولة مصينيسا. فغير نظرته إلى مصينيسا فلم يعد يراه عدوا كما كان يفعل أبوه، وتناسى أحقاده القديمة عليه. فعاش مسالما مؤاخيا لمصينيسا، لم يحدثنا التاريخ بحرب وقعت بينهما، رغم طول عهدهما في الملك.

وكان مصينيسا رجلا عظيما مخلصا للمغرب، فعلم ان اتحاد المغرب وتآزره هو السبب الوحيد للخلاص من السرطان الروماني الذي يتهدده، ومن سباع البحر التي تحد أنيابها وتتحفز للوثرب عليه. فجهد لامتلاك ود فرمينة وود أهل دولته، وجعل نصب عينيه توحيد الدولتين نوميديا وموريطانيا الشرقية في دولة واحدة لتقوى على صد الرومان، وتسد في وجوه المستعمرين الأبواب التي سيزرعون بها الفتنة، ويضربون ملوك المغرب بعضهم ببعض. وقد استطاع مصينيسا بدهائه وحسن نيته، وبعبقريته في الإجارة والسياسة ان يمتلك ود فرمينة وأهل دولته، وإعجابهم واحترامهم، وان يزيدهم شعورا وإدراكا لخطر الرومان. فأيقنت موريطانيا الشرقية ان انفصالهما عن نوميديا هو ما يرده الرومان ليسهل عليهم ابتلاع المغرب، وان المستقبل دهور قراع ونضال مرير مع الرومان، فلا بد من الاستعداد له، وان أول الاستعداد هو الاتحاد مع نوميديا. أنهما وطن واحد، وأمة واحدة، فحرام ان ينقسما إلى دولتين. ونظرت موريطانيا الشرقية فرات إخلاص مصينيسا، وذكاءه وتفانيه في بناء المغرب، وازدهار نوميديا وسعادتها وقوتها به؛ ورأت بطولته ودهاءه، وبراعته في مداورة الرومان ومراوغتهم، فرغبت فيه، وأيقنت انه لا يستطيع ان يقود المغرب غي هذه الدهور المشحونة بالعواصف والزلازل غيره. وكان مصينيسا يجتذبهم إليه، ويحبب إليهم الوحدة. فتوفي فرمينة في حوالي 158 ق.م. فزالت كل الأسباب المانعة من الاتحاد، فاتجه الموريطانيون إلى مصينيسا فرأى أيديهم

تنبسط له، ووجوههم تنش في وجه. فبسط ذراعية لموريطانيا الشرقية وبسطت له ذراعيها، فتعانقت نوميديا وموريطانيا فصارتا دولة واحدة. وكان ذلك بعد وفاة فرمينة. ان التاريخ لم يحدثنا بهجوم مصينيسا على موريطانيا وضمها إليه بالقوة. لو استعمل القوة لقابله الموريطانيون بالعنف فتقع بينهما حروب كبرى لا يسكت عنها التاريخ، ولا يقعد الرومان عن لاستغلالها. ولكنني أرى ان العدو الواحد الذي أدرك الموريطانيون خطره، وإعجابهم بعبقرية مصينيسا وإخلاصه للمغرب كله، ودهاء مصينيسا وبراعته في امتلاك القلوب. لقد استطاع ببراعته ان يجعل الرومان المستعمرين يحبونه، وهم الذين يكرهون كل رجل قوي في المغرب الذي يمنون أنفسهم بازدراده؛ ان هذه الأسباب هي التي جعلت مصينيسا ملكا على موريطانيا لا القوة التي اعتمد عليها في ضمنها إليه.

وكانت مسالمة فرمينة لأخيه مصينيسا، والاحترام المتبادل بينهما، هو أصل المودة التي تكونت بين الدولتين فاتحدتا.

وفاة فرمينة ومدته في الملك

وكانت وفاة فرمينة حوالي سنة 158 ق.م وارى انه توفي في شيخوخته، انه في سن مصينيسا لا اقل منه. ومدته في الملك حوالي ست وخمسين سنة. من سنة -202 إلى حوالي 158 ق.م. ثم اندرجت موريطانيا الشرقية تحت جناح مصينيسا الملك البطل العظيم. فازدادت الأيام ابتساما للمغرب، وأصبحت قرطة هي عاصمة اغلب أجزاء المغرب، وانحصر الملك في هذه النواحي الشاسعة من المغرب في كتامة قوم مصينيسا. فمن هم الملوك العظماء الذين انشأوا مملكة نوميديا ومهدوا لمصينيسا العظيم. وكيف كانت شخصية مصينيسا، وما أعماله في المغرب، وما هي آثاره الكبرى فيه؟

نشأة الممالك النوميدية

نهضة نوميديا وأسبابها

كانت نوميديا مجاورة لافريقية حيث نشأت دولة البونيقيين، وانتشرت حضارتهم، وازدهرت مدينتهم. وكان البونيقيون قد توسعوا في نوميديا الشرقية إلى عنابة. فبسطوا حمايتهم عليها، ورأوها جزءا من وطنهم، فهاجرت طوائف كثيرة منهم فاستقروا فيها للفلاحة، والتجارة،والصناعة، والتعليم، والإدارة. فكثر اختلاط البونيقيين بالبربر فتأثر بهم البربر كل التأثر. ولم يمض زمن بعيد حتى كان البربر في نوميديا الشرقية يبارزن البونيقيين فيكل الميادين. وسرت هذه النهضة من نوميديا الشرقية فعمت كل أنحاء نوميديا. وتسربت إلى أجزاء المغرب الأخرى في الموريطانيتين الشرقية والغربية.

وكان البربر والنوميديون من كل أنحاء نوميديا يسافرون إلى قرطاجنة، والى المدن البونيقية الكبرى فيقيمون فيها مدة طويلة للتعليم في مدارسها ومعاهد العلم فيها،أو التجارة، أو للعمل في مصانعها ومزارعها وأسطولها، أو للجندية. ثم يرجعون إلى أوطانهم في نوميديا وهم يحملون حضارة قرطاجنة ولغتها وعلومها، وأساليبها الراقية في العمل فينشرونها في بلادهم، ويبثونها في أنحاء نوميديا. فترقت نوميديا وتثقفت، ونهضت نهضتها الكبرى في أوائل القرن الثالث فبل الميلاد. وكانت اسبق إلى النهضة من كل أنحاء المغرب الأخرى. وما كاد القرن الثالث ينتصف حتى كانت نوميديا قد نشأت وترعرعت فيها مملكة نوميدية كبرى تضم وسط نوميديا وغربها، ثم استولت على شرقها بعد ذلك. وهذه المملكة هي التي نشأت في نوميديا الوسطى في مدينة قرطة، ثم بسطت جناحيها شرقا وغربا، فضمت نوميديا كلها إليها.

عاصمة نوميديا الكبرى

وكانت عاصمة الدولة النوميدية في أيام عزها وعظمتها وقوتها منذ زمن الملك نارفاس إلى عهد (يوغورطة) هي مدينة قرطة (قسنطينة) وتسمى أيضا سيرنا. وأنا اختار قرطة لأنه أشبه بلهجة البربر. وقرطة اسم معناه المدينة. والظاهر ان المدينة قد

نشأت مع الممالك البربرية في القرن الثالث قبل الميلاد.

وكانت قرطة تتوسط نوميديا شرقها وغربها، شمالها وجنوبها، وهي إلى الشمال أدنى، والى الساحل الخصب الجميل اقرب. وكانت في رأس جبل منيف صخري منيع هو ما يؤثر البربر لمدنهم وقراهم، يحيد بها من جهاتها الثلاث الشرقية والغربية والشمالية خندق صخري شديد العمق هو مجرى وادي مساغا. وكان الخندق عميقا يبلغ أكثر من مائة وهو الحصن الطبيعي لها، لا يمكن اختراقه، واقتحام قرطة من جهته. ومن اجله اختار البربر هذا المكان موقعا لعاصمتهم، واختاروا قرطة قصبة لملكهم. وكانت تحيط بقرطة الجبال الكاسية بالغابات، والسهول الصالحة للزراعة، وهي كثيرة الأمطار، وفيرة الخيرات، جيدة الهواء، أنيسة بهيجة، يشعر داخلها بأريحية تداخله، وبأنس كبير يعمر صدره، وبنشاط بالغ يحبب إليه العمل والكد. وقد أثرها البربر عاصمة لدولتهم لتلك المزايا الكثيرة، ولجودة هوائها وجمالها البالغ، انها تليق للحضارة، وتساعد على التمدن والرقي. ولا تزال قرطة (قسنطينة) هي عاصمة نواحيها، والمدينة البارزة الأثيرة في الجزائر.

تلك هي عاصمة نوميديا في أيام عزها فما هي الممالك التي نشأت فيها؟

مملكة نارفاس الكتامي

كان أول ملك عرفناه في نوميديا هو نارفاس الكتامي. وكان بطلا كبيرا، وملكا قويا، له النفوذ الواسع في نوميديا، والكلمة المسموعة عند البربر. وقد استنجد به قائد قرطاجنة الكبير عملقرط في سنة 240 ق.م لإخماد ثورة الزعيم الوطني البربري ماطوس وقومه البربر الإفريقيين على الدولة البونيقية. فسار إليه في عشرين ألفا من فرسانه، فكان قوة كبرى لعملقرط، بفضلها استطاع ان يقضي على ثورة ماطوس وجنده الشجعان المخلصين.

وكان نارفاس مخلصا لدولته. كان من زعماء النهضة في نوميديا، ومن الملوك المصلحين الذين نفخوا في البربر روح العزة، وغرسوا فيهم المثل العليا فنهضوا لتحقيقها. ولا ندري متى توفي نارفاس، كما نجهل التفاصيل عن دولته في كل جوانبها. فكل ما تدل عليه أخباره القليلة الواردة في التاريخ القديم هو انه ملك قوي، ومن لمخلصين لدولته، ومن حلفاء الدولة البونيقية الأوفياء. ولما توفي خلفه في الملك ابنه غولة.

وكان غولة كوالده نارفاس، مخلصا لقومه، محبا لرعيته، حريصا على نهضة البربر وتقدمهم. وقد آتت نهضة والده ومساعيه في الدولة ثمارها في عهده. فكانت دولته أكثر ازدهارا، وكان هو أكثر قوة، وابرز شخصية في المغرب الكبير.

مملكة غولة ابن نارفاس

وكان غولة بن نارفاس ملكا عظيما، مخلصا لقومه، غيورا على رعيته، يحب لها التقدم والرفعة والغنا والازدهار؛ فعمل لنشر العلم في مملكته، وبث الحضارة البونيقية فيها، وسعى لتوحيد نوميديا، فتوحدت على يده فكانت مملكة تشتمل على نوميديا كلها من طبرقة إلى غرب بجاية، ومن البحر إلى جبال آوراس.

إعجاب غولة بالحضارة البونيقية وصداقته المتينة للدولة البونيقية

وكان غولة معجبا بالحضارة البونيقية، وكان يرسل أبناءه إلى قرطاجنة ليتعلموا فيها، ويطلعوا على الحضارة البونيقية في اكبر معادنها، ليعودوا بالصالح النافع منها إلى وطنهم. وكانت علاقته بالدولة البونيقية علاقة صداقة، وكان بينهما حلف ومودة.

وكان البونيقيون معجبين الملك غولة، وبإخلاصه لشعبه.وغيرته على المغرب الكبير كله، وقد اتخذوا كل الأسباب لتوثيق علاقتهم به. فخطب صدر بعل اكبر قواد قرطاجنة ابنته صفونيسب لمصينيسا بن غولة، تقوية للعلاقة بغولة وأهل مملكته. وكانوا يستنجدون به في حروبهم مع الرومان فينجدهم بجيشه، وبالفيلة المدربة التي في الحروب غناء الدبابة الثقيلة اليوم كما كان يمدهم بالميرة، والعدد الحربية، وبالنصيحة والمشورة، وقد حارب مع قرطاجنة[70] الملك صيفاقس الذي تنمر للبونيقيين، وحالف الرومان أعداءهم، عزم ان يضرب قرطاجنة من خلف، فانتصر عليه غولة، واستطاع ان يهزم جيوشه القوية التي دربها أحسن تدريب، واعدها ليفتح بها افريقية، ولولا غولة وقوة جيشه؟، ومضاء قائد ابنه مصينيسا ما استطاع البونيقيون التغلب على صيفاقس، وكان يفترسهم، ويعجل بانقراض دولتهم.

استيلاء الملك غولة على موريطانيا الشرقية

ولما هزم الملك غولة صيفاقس في سنة 213 ق.م استولى على مملكته، فضمها إليه، فصار ملكا على نوميديا وموريطانيا الشرقية، وقد دام ملكا على الناحيتين حوالي سنة، ثم رأى انه من الحكمة، ومن الخير لموريطانيا والمغرب، ان يرجع صيفاقس إلى مملكته، فرده

70 - إذا قلنا قرطاجنة فإننا نريد الدولة كلها، وإذا قصدنا العاصمة فقط فإننا نذكر المدينة.

إليها. لم تثنه الأحقاد. ولا الأنانية. وإنما كان في قبضة عقله الرشيد. وغيرته القوية. وكرم نفسه الذي يزين له الإحسان إلى جاره وأخيه صيفاقس.

كان غولة هو حليف البونيقيين المخلص في المغرب. فأرسل جيشه في سنة 213 ق.م إلى الأندلس. فانجد البونيقيين الذين يشدد الرومان عليهم الخناق. وكان ابنه مصينيسا هو قائد الجيش. فقارع الرومان ودافعهم. ومنعهم من الاستيلاء على جنوب الأندلس. وما استطاع الرومان ان يطردوا البونيقيين من الأندلس ويستولوا عليه إلا لما فارقهم مصينيسا وجيشه النوميدي القوي الباسل.

إذا كان نارفاس هو منشئ الدولة النوميدية. فان غولة هو الذي أرسى أسنها ورسخ عروقها. ووجهها التوجيه الحكيم. وغرس فيها المثل العليا. وهي الحياة الحرة الكريمة في عز وهناء. وفي علم وقوة وغناء. والمحافظة على الاستقلال المغرب. وحرية البربر وعزتهم من الرومان الجشعين الذين يفغرون على المغرب ليفترسوه.

وكان غولة معجبا بابنه مصينيسا. فاعتنى بتربيته. وتمنى تحقيق هو مثله العليا في المغرب. فيوحده. ويكون أجنحة لدولته. وروحا للمغرب. وعزا وقوة للبربر. فكان ما أراد.

وكانت وفاة غولة في حوالي سنة 208 ق.م. فلم يرث ابنه مصينيسا ملكه. بل سبقه إلى العرش اثنان من أسرته. لماذا سبقاه؟ ألكفاءتهما ولياقتهما للملك أكثر من مصينيسا ما هو السبب؟ وماذا وقع للملكين اللذين سبقاه؟.

سبب عدم خلافة مصينيسا لأبيه في الملك وأحوال نوميديا بعد وفاة غولة

كان الملك وراثيا في نوميديا. وكان القانون السائد في وراثة العرش ان يتولى الملك أسن رجل في الأسرة المالكة. ولم يكن مصينيسا بعد وفاة والده هو الآسن. بل كان عنه دلقاص بن نارفاس اخو غولة هو الآسن. وابن عمه قابوصة. ثن يكون هو في الدرجة الثالثة من حيث السن.

ثورة مزوطيل في استيلاؤه على الملك في نوميديا

ولما توفي غولة خلفه أخوه دلقاص في الملك. وكان دلقاص شيخا كبير السن واهن القوى. لم يلبث ان توفي بعد قليل من وفاة أخيه. فتولى الملك بعده ابنه قابوصة.

وكان مصينيسا في هذه المدة التي توفي فيها أبوه. وتولى عمه. وابن عمه الملك. في

الأندلس يحارب الرومان. وكان اغلب جيش نوميديا النظامي معه بعيدا عن المملكة. فوجد المنافسون فرصتهم للتمرد والاستيلاء على الملك في نوميديا. ولو كان مصينيسا مع ابن عمه قابوصة ما استطاع منافس ان يثور عليه. كان يشد أزره. ويقمع الثائرين.

وكان مزوطيل من أسرة غولة المالكة. وكان طموحا يحب الملك والرئاسة. وكان جريئا مقداما. وكان له حزب يناصره في نوميديا. وبطانة قوية تؤيده. ومن وراء صيفاقس الذي يحقد على مصينيسا. ويسعى ان لا يتولى الملك. فصار يكيد له . ويؤيد منافسيه عليه.

فثار مزوطيل على الملك قابوصة فقتله. وأقام أخا الملك المقتول (لاقوماز) على العرش. وكان اقل سنا من مصينيسا. وكان ضعيفا قاصرا. فأقام مزوطيل نفسه وصيا عليه. فصار هو الملك المتصرف. وفي نفسه ان يزيح لاقوماز عن العرش إذا تمكن من الأمور. وانتصر على معارضيه. سيما على مصينيسا.

عدوان مزوطيل على مصينيسا وكيد صيفاقس

وكانت ثورة مزوطيل عدوانا على مصينيسا. ان عرش نوميديا له بعد ابن عمه قابوصة. ها هو مزوطيل يولى لاقاموز الملك وهو اصغر منه سنا ويستبد عليه بأمور المملكة.

وكان صيفاقس يؤيد هذه الثورة. ويعمل جاهدا لإقصاء مصينيسا الرجل القوي العبقري عن عرش نوميديا. انه يريد ان يتولى الملك فيها أناس ضعفاء ليفترسها إذا أراد. لقد عزم على الاستيلاء عليها ومجاورة حلفائه البونيقيين. وكان البونيقيون يؤيدون هذه الثورة. وغرضهم هو غرض صيفاقس. وضمائرهم لمصينيسا هي ضمائره. فاظهروا رضاهم وتأييدهم لمزوطيل فأسرع مزوطيل بعد ثورته إلى صيفاقس ليستعين به في الإبقاء على ملكه. ومحاربة مصينيسا معه إذا ثار عليه.

قضاء مصينيسا على ثورة مزوطيل

وكان مزوطيل يسير في موريطانيا الشرقية منتشيا بلذة الملك. وبقرب لقائه بصيفاقس فيكونان يدا واحدة على مصينيسا. ان مصينيسا في الأندلس غريق في الحروب مع الرومان. انه إذا لم يقتله الرومان فان سيوفه وسيوف صيفاقس هي التي ستقتله. فيصفوا له الجو. فيكون هو الملك في المستقبل. وكانت المزارع الجميلة التي تحف طريقه. والجبال الكاسية بالغابات تضاعف نشوته بالنصر الذي حازه في نوميديا على قابوصة. وما تورثه أحلام المستقبل من بهجة ومسرات. وكان يمني نفسه بلقاء صيفاقس.

يخرج إليه في موكبه الجليل فيستقبله ويرحب به، أو يبعث إليه وفدا من سراة الدولة يستقبلونه، ويدخلون به العاصمة (صيغة) في أبهة وجلال. وكان مع مزوطيل كوكبة من الجند تحفظه في طريقه. فرأى غبارا فظنه وفد الاستقبال. فنظر فوجد مصينيسا في كوكبة من الجند ينقض عليه. فاعمل مصينيسا سيوفه في رقاب جند الثائر الباغي فجندوا أكثرهم ، فرأى مزوطيل الموت الأحمر يحيق به، والفناء يسرع إليه، فطار بفرسه وفر هاربا إلى صيفاقس، وانهزام بقية جنده وولوا الأدبار. فأسرع مصينيسا السير فدخل نوميديا، فأسرع إليه أنصاره، انضم إليه الجمهور من أهل دولته فبايعوه بالملك. فاحتل قصر الإمارة في قرطة فهرب الملك لاقوماز وبطانته إلى صيفاقس. وكان مزوطيل قد سبقهم إليه. فمدهم صيفاقس بجند وحثهم على محاربة مصينيسا، وأجج عداوتهم له. فهجموا به على نوميديا رجاء ان يثور أنصارهم في الداخل فيستطيع التغلب بالجيش الموريطاني على مصينيسا، ولكن جمهور النوميديين كان مع مصينيسا. وكان هو لحزمه قد اعد جيشه لمثل هذا الهجوم فكسر جيش لاقوماز، وأرسل إلى لاقوماز من استصلحه، وأرجعه إليه، فأضفى عليه من الألقاب ما يرضى غروره، وكلفه من أعباء الملك بما يستطيع، فسد الباب على صيفاقس الذي عزم ان يثير الفتنة عليه بهذا الملك الضعيف. وأصبح مصينيسا هو ملك نوميديا، فتفتحت أبواب الخير بملكه للمغرب، وأقبلت العهود السعيدة على البربر لما اخذ بأزمة أمورهم هذا الملك المخلص العبقري. فما قبيلة هذا الملك العظيم؟ وما وراثته ونشأته؟ وكيف كانت شخصيته؟ وما أخباره وأعماله العظيمة التي بنى بها دولته، وأحسن بها كل الإحسان إلى المغرب الكبير؟

دولة مصينيسا بن غولة بن نارفاس 202-148 ق.م

قبيلة مصينيسا

كانت قبيلة مصينيسا هي كتامة، القبيلة البرنسية العتيدة المشهورة في التاريخ الإسلامي بإنشاء الدولة العبيدية، وبإعانة المعز لدين الله في فتح مصر وإنشاء مدينة القاهرة. وكانت مواطن كتامة في صدر نوميديا، وفي أحسن الأماكن بها. كان من مدينة بجاية غربا آلة مدينة سكيكدة شرقا كله موطن لهذه القبيلة الكبرى البربرية. ان نشأة الدولة النوميدية في مدينة قرطة وحواليها الدليل على ان هذه القبيلة هي التي أنشأتها، وان الملوك المنشئين لها نارفاس وغولة منها. ان الملك في القديم يكون بالعصبية. فأقوى القبائل في الناحية هي التي يكون الملك فيها. وليس في نوميديا

أقوى من كتامة، ولا أحسن موطنا وامنع بقاعا منها. ان قرطة مدينة كتامة هي التي ولد فيها ملكهم وهي أحسن مدينة في المغرب، لذلك جعلوها عاصمة ملكهم، وظلت هي العاصمة إلى ان استولى الرومان على نوميديا.

ميلاده ووراثته ونشأته

ولد مصينيسا في سنة 238 ق.م في عهد جده الملك نارفاس، من والدين كريمين هما غولة ، وأمه المازيغية الفاضلة، أننا لا نعرفها، ولكن مصينيسا يدل عليها. فالولد بضعة من أبويه، وعنوان لهما كليهما، سيما الأم. ان غولة ابن الملك نارفاس، والرجل الحصيف العالي الهمة، لا يختار زوجته إلا من البيوتات الكريمة، و لا يرضى قرينه حياة إلا امرأة تماثله في الشخصية؛ وتنسجم به لشدة الشبه، وتقارب المزاج.

وقد ورث مصينيسا كل صفات والده غولة وجده نارفاس وزاد أبواه فنميا وراثته الزكية بحسن التربية، وبالتعليم، وكل وسائل الثقافة. وكانت دولة نارفاس أيام نشأة مصينيسا في زمان ترعرعها. وكان الملكان البربريان يعلمان ان قوة الخلق، وشرف الطباع هما قوة الدولة، وسبب تقدمها، فغرسا في أبنائهما وأحفادهما. وفي الرعية هذه القوة ليكون أولئك الأبناء أجنحة الدولة تطير بها إلى النجوم. وكان الزمان في نوميديا أيام نشأة مصينيسا أيام بناء وتكوين للدولة وعمل عاصف، وجهود متصلة؟، ومقارعة للأعداء، وليست أيام استقرار، ودعه، وترف، وتوحي بالفتور، وتجعل أبناءها على ضعف القوارير التي يعاقرونها، ووهن الحرير الذي يغرقون فيه ! فنشأ مصينيسا بوارثته وبيئته العلمية، صلب القناة، نشيطا، مجدا، يحب العمل، ويغرم بالنصب والمغامرة في سبيل المعالي. وقد أورثه أبوه وجده مثلهما الأعلى، وهو نهضة المغرب وقوته بالعلم، والغنى، والخلق الكريم؛ وتوحيده، وحفظه من المستعمرين الذين يطمعون في الاستيلاء عليه. فنشأ وهذا المثل الأعلى يستولي على قلبه ويمتزج بدمائه، ويوجهه في أعماله، ويؤثر التأثير البالغ في تكوين شخصيته.

شخصيته العظيمة

وكان مصينيسا قد ورث من أبويه صحة الجسم، ومتانة البنيان: فكان على التمام في خلقته، وعلى القوة في جسمه. كان طويل القامة، عريض المنكبين، واسع الصدر، غليظ الرقبة، مفتول العضلات. قد أتاه الله قوة تامة، في الجسم، غالبت ضعف الشيخوخة، فستطاع ان يقود جيشه بنفسه، ويخوض اكبر معركة مع أعدائه البونيقيين، وينتصر

عليهم الانتصار الباهر وعمره ثمان وثمانون سنة. وولد له وهو ابن ست وثمانين عاما.0 وكان له من صلبه أربعة وأربعون ولدا. وذلك لما يمتاز به من قوة في الجسم. ومتانة في البنيان.

وكان ما خاضه من الحروب منذ نعومة أظافره. وإنشاء أبويه له نشأة رياضية. وتقشفه في عيشه. من أسباب ما يمتاز به من قوة البنيان.

قوة جسمه وجمال خلقته

وكان مصينيسا إلى قوة جسمه. جميل التركيب. قد أتاه الله طلعة بهيجة. وقسمات رائعة ، مع جلال وقوة. فكان جماله الخلقي من عناصر الشخصية القوية المحبوبة التي يتمتع بها. وأنت إذا نظرت إلى رسمه لا تمال نفسك من الإعجاب بما وهب الله لهذا الرجل من جمال في القسمات. وبهاء في الطلعة. مع قوة وجلال ومهابة ترغمك على احترامه وإجلاله !

وكان مصينيسا يلتحي. وكانت لحيته مستديرة[71] فزادته مهابة وجمالا وجلالا في النفوس !

ذكاؤه وسعة علمه

وكان مصينيسا ذكي الفؤاد. راجح العقل. نير البصيرة. بالغ الدهاء. له نظر بعيد يستكشف العواقب. وإدراك عميق يعرف به الأسرار الدقيقة. وكان ثقافة عالية بالمدرسة. والتجربة. والمحن الكثيرة التي تسلطت عليه. وكان أبوه بعد ان أتم تربيته وتعليمه الابتدائي في قرطة قد أرسله وهو شاب إلى قرطاجنة. فأقام فيها مدة طويلة ينهل من معاهدها العلمية. ويطلع على حضارتها وسياستها ونظمها. وأساليبها الراقية في التجارة والصناعة والفلاحة. وفي كل الشئون. فعلم كل ذلك. وجهد في نشر أحسنها في دولته.

وكان مصينيسا محبا كل الحب للعلم ! فأورث حبه لأبنائه ورعيته. فلما فتح الرومان قرطاجنة. وكان معهم غولوسة بن مصينيسا بجيش كبير من نوميديا. فتكالب الرومان على جواهر قرطاجنة. وطرفها. وكنوزها. ونهبوا الغنائم الكثيرة اختار غولوسة ومن معه من البربر من الغنائم مكاتب قرطاجنة فأعطيت لهم ، فحملوها إلى نوميديا فانتفع بها المغرب كل الانتفاع.

---

71 - انظر رسمه في صفحة 170 من هذا الجزء.

وكان مصينيسا يتقن اللغة البونيقية ويحبها كحبه للغته البربرية. وقد جعلها مع اللغة البربرية لسان الحكومة في دولته. ولغة الدواوين. وكان ينشرها في رعيته. لأنها لغة العلم ومفتاح المعرفة في ذلك الزمان.

وكان معجبا كل الإعجاب بالحضارة البونيقية والإغريقية. فوجه أبناءه وقومه إليهما ليأخذوا منهما أحسن شيء يليق بالدولة القوية التي يبنيها.

عظمة خلقه وكرم سجاياه

وكان مصينيسا إلى ذكائه الوقاد. ورجاحة عقله. ودهائه. وعلمه الواسع. عظيم الخلق. وكريم السجايا. شريف النفس شرفا حببه إلى كل إنسان حتى أعدائه. وأورثه الإعجاب والاحترام حتى من ألد خصومه. وقد أعجب به الرومان واجلوه وهو يحاربهم مع البونيقيين في الأندلس. ويكيل لهم الضربات. ويؤذي بجيوشهم. فجعلوا نصب أعينهم مصادقته وامتلاك وده. ليكون حليفهم. وكان شعبه يحبه كل الحب ويحس منه بأشبال الوالد الرحيم على أبنائه. لم يكن متجبرا كالملوك. ولا قاسيا كالأمراء الشامخين ولكنه كان زعيم رعيته. يراهم منه؟. ويرونه منهم. يمتزج بهم. ويمتزجون به. كان رحيما بشعبه. شفوقا على الضعفاء. ذا حنان ورقة للأطفال. يفاكه أصدقاءه. ويداعبهم. ويحسون به ماء سلسا للطفه. وتواضعه. ودماثة خلقه. وإذا جد الجد وكان من أعدائه الألداء. فانه مر العداوة. شديد الصولة. قوي الفتكة. يحرق بالشرر المتطاير من عينه. ويرهب حتى الأسود بطليعة المتجهمة العكرة اعتكار السماء بالسحاب الأسود إذا استعدت لرمي صواعقها !

كان مصينيسا شجاعا. جرئ القلب. قوي الإرادة. ثابت الجنان. لا يرهبه الأعداء مهما تكاثروا. ولا تؤثر في عزيمته الهزائم مهما توالت. ولا يضعف من طموحه النكد وأدبار الأيام. وقلة الوسائل. ان المحن. والنكبات والأرزاء. وشدة العقبات لا تزيده إلا تصميما. وإصرارا ومضاء. وثباتا في سبيل غايته. إقداما نحو هدفه إلى ان يبلغه.

وقد بدت شجاعته وجرأته ودهاؤه منذ نعومة أظفاره. فاختاره والد غولة قائدا لجيشه وعمره خمس وعشرون سنة. فهجم على صيفاقس الملك القوي فانتصر عليه انتصارا باهرا. وجرده من مملكته. وضمنها إلى دولة أبيه. وقد أعجب به البونيقيون فاصطحبوه معهم إلى الأندلس. فكان اكبر قوة دافعوا بها الرومان وثبتوا بها في جنوب الأندلس فلم ينهزموا.

كان مصينيسا مثالا في الجرأة والثبات وقوة القلب. ان الأهوال التي تطفئ غيره لا

تزيده إلا تضرما وقوة وتصميما. لقد والى عليه صيفاقس والبونيقيون الحروب المريرة، والهزائم المتتابعة وجردوه من مملكته، فبقي وحيدا في الجبال، ليس معه إلا عصابة قليلة من فلول جيشه، فلم ييأس، ولم يخمد، فأشعلها نارا على أعدائه، فنغص عيشهم بهجماته وفتكه، فأرسل إليه صيفاقس اكبر قواده بوملكار في جيش كبير، فناهضه بوملكار وطارده، وهو في عصابة قليلة، فأحيط به، وهزم بوملكار عصابته، وقتل أكثر جنده، ولم يبق إلا في أربعة من رفاقه، وهو يقاتل ويجالد، وجروحه تثخنه، ودماؤه تتفجر من أنحاء جسمه الذي مزقته سيوف الأعداء ورماحهم. فطوقه بوملكار من ثلاث جهات، وفي الجهة الرابعة أمامه نهر عميق يصطخب، فأيقن بوملكار ان مصينيسا واقع في قبضته، أو يهلك في النهر. ولكن النجم لا تطفئه السحب، ولا يذيبه الغمام. فمرق مصينيسا في النهر العميق الواسع سباحة، وسهام الأعداء تنصب عليه من كل جانب وتقع عليه، وهو لا يهن و لا يضعف، فنجى إلى الضفة الأخرى، واختفى عدوا عن عين الأعداء. فآوى إلى مغارة في جبل منيع فآسى جراحه فاندملت. فجدد الكرة على أعدائه البونيقيين وعلى صيفاقس في حرب اشد، وجيش أقوى، فهزمه صيفاقس للمرة الثالثة، وشتت جموعه، فبقي في حفنة قليلة من فلول جيشه، فلم يهن، ولم يستسلم، ولم ييأس. لقد رأى بذكائه المستقبل فعلم انه له، وأبت عليه إرادته القوية، وشجاعته النادرة، ومضاؤه، وجلده، وثبات ان يستسلم لأعدائه، وييأس من استرداد ملكه، والانتقام من أعدائه. فآوى إلى جبال نفوسة فاعتصم بها حتى واتته الفرصة، فكر على أعدائه فهزمهم شر هزيمة، فاسترجع مملكته، وعاد إلى شعبه.

إخلاصه وتضحيته

وكان مصينيسا مخلصا لقومه، غيورا على المغرب كله، ليس أنانيا ولا بخيلا، و لا من الطبقة الارستقراطية الشحيحة التي لا تعمل إلا لنفسها، ولا تفكر إلا في مصالحها، بل هو للدولة كلها، وللمغرب جميعه. حارب مع البونيقيين الرومان سنين في الأندلس لأنهم خطر على المغرب كله، ولما تولى الملك شمر للاطلاع، فبث الحضارة والعلم في البربر، وقضى في الجهاد الإصلاحي عمره، لم تلهه مباهج الملك، ولم تصرفه عن واجبه نحو قومه قصوره، وزينة الحياة التي أقبلت عليه.

دهاؤه وحسن سياسته

وكان مصينيسا بارعا في السياسة، داهية كل الدهاء في تصريف الأمور. استطاع بحسن سياسته ودهائه ان يوحد جل المغرب ويجعله دولة واحدة، رغم ما رسخ في

القبائل البربرية وفي أنحاء المغرب من حب الاستقلال، والهرب من الرضوخ للدولة الواحدة. ونال بحسن سياسته احترام البربر جميعا، ورضاهم كلهم، ولم يثر عليه ثائر من رعيته، ولا زاحمه على الملك منافس من قومه.[72] وقد نجح بالدهاء وحسن السياسة، وحكمته في الإصلاح في تغيير كثير من طباع البربر التي تضرهم، وتمنع قيام الدولة الكبيرة فيهم. فانشأ بالإصلاح والتعليم وحسن السياسة جيلا مثقفا من البربر حقق آماله وآمال المغرب، ووجه البربر إلى الوجهة الحسنة التي تسعدهم.

وكان الرومان يتضورون جوعا إلى مغرب، فبودهم ان يبتلعوه، ولكن مصينيسا بذكائه وحصافته، وبحسن سياسته ودهائه، دافع خطر الرومان عن دولته، حتى رسخت أصولها، واشتدت أركانها، فأصبحت سدا في وجه الرومان يخشون الاقتراب منه. لقد روض التنين الروماني الهائج فجعله طوق الحرير، واكتسب احترام الرومان وصداقتهم، فكفوا عن دولته فحظي بالاستقرار والهناء دهورا طويلة، وحظيت الدولة من بعده، فبني ما بنى، وقام في الدولة بما قام به من إصلاح كبير.

صفاء طريته وحسن نيته

وكان مصينيسا ابيض القلب، حسن النية، لا يحسد ولا يحقد، صافي الطوية، فابيضت له الأيام، ورآه البربر نور الصباح فاتجهت إليه الأنظار التي تفيض بالمحبة والإكبار من كل أنحاء المغرب،وبارك الله له، فحقق آماله في الحياة

كرمه وسخاؤه

وكان مصينيسا مجبولا على الكرم والتضحية، فمع تضحيته بحياته وأوقاته لصالح الدولة وفائدة الشعب كان يتكرم بماله، ويقيم الولائم الفاخرة في قصوره لمختلف طبقات الأمة، فيجتمع بهم، ويتحدث إليهم، ويسمع منهم ، ويوجههم التوجيه الحكيم، ويلابسهم ملابسة الأب الرحيم لأولاده، ويمتزج بهم امتزاج الصديق المحب بأصدقائه، ولا يتكبر، ولا يعتزل الشعب كالملوك المتجبرين.

زهده في المادة وتقشفه في العيش

وكان مصينيسا إلى نشره للحضارة في دولته، وإعجابه بالمدينة البونيقية والإغريقية وسعيه لبثهما في المغرب؛ كان إلى ذلك زاهدا في المادة، ومتقشفا في عيشه، ينزه نفسه عن الاسترسال مع الهوى، والانغماس في الترف والملذات، لأنه يقتل المواهب،

72 - نريد بعد الاستقرار وتخلصه من صيفاقس في صدر أيامه في الملك.

ويفسد الأخلاق، ويعجل بهرم الدولة وزوالها. فكان مثالا لأبنائه ودولته في الزهد في المادة، والتقشف في العيش. لقد انتصر على البونيقيين في سنة 150 ق.م. في حرب كبيرة، فاستولى على معسكرهم، وكان حافلا بالازواد الدسمة، وكان هو أزهى أيامه في الملك، وعلى رأس دولة تضم جل المغرب المتحضر، وفي غنى واسع، وثراء عريض، وبعد النصر الباهر الذي يستغرق فيه أنداده في الملذات، ويشبعون الشهوات، زاره سبيون الاميلي قائد الرومان في خيمته، فوجده «واقفا أمامها يأكل خبزا يابسا».[73]

تلك هي شخصية مصينيسا المصلح الكبير، والزعيم المخلص والملك الفذ الذي نهض بالمغرب، وجعل منه دولة كبرى وقفت قرنا كاملا سدا منيعا في وجه الرومان، تحفظ المغرب الحر، وتحمي البربر من استعمارهم الجهنمي. ان أعماله الكبرى في المغرب، وجهاده ونضاله لدليل عل تلك الأوصاف التي ذكرنا، وعلى هذه الشخصية التي يجب على المغرب ان يذكرها دائما بالإكبار والاحترام.

لقد صفقت نوميديا بارتقاء مصينيسا إلى عرش ملكها، فماذا وقع لهذا الملك العظيم، وما هي أعماله الكبرى بعد ان استقر وهدأت له الأيام؟

حروب مصينيسا ومساعيه الكبرى لتوحيد المغرب

كانت ولاية مصينيسا للملك في سنة 206 ق.م بعد ان قضى على ثورة مزوطيل. فما كاد يستقر في عرشه، ويعتن بدولته، ويبدأ إصلاحه حتى هاجمه صيفاقس والدولة البونيقية فقضوا على دولته، واحتل صيفاقس مملكته.

وكان البونيقيون بعد وفاة الملك غولة قد استخفوا بخلفائه في الملك، فحولوا حلفهم إلى صيفاقس، وقطعوا علاقتهم بنوميديا، وأبطلوا خطبة صفونيسب لمصينيسا، وزوجوها لصيفاقس، قلبوا ظهر المجن لمصينيسا واضمروا الشر له ولدولته. فساء ذلك مصينيسا، وعلم إنهم يتآمرون عليه، فبعد هذه القطيعة لا بد ان يهجموا على نوميديا ويستولوا عليها. ولما أيد البونيقيون ثورة مزوطيل وعدوانه عليه، أيقن مصينيسا بضمائر البونيقيين السيئة نحوه ونحو دولته، فأرغموه على محالفة الرومان ليتقوى بهم على أعدائه، رغم مقته للرومان، ومحاربته لهم سنين طويلة، لأنه يراهم شرا للمغرب، وبلاء عليه.

73 مدينة المغرب العربي ج 1 ص 179 ط. أولى بتونس.

محالفة الرومان لمصينيسا

وكان الرومان في الأندلس هم الذين سعوا بكل جهد لاجتذاب مصينيسا إليهم لما وقعت القطيعة بينه وبين البونيقيين، وذلك لإعجابهم ببطولته، وعبقريته، وإخلاصه لحلفائه، فعرضوا عليه حلفهم فقبله مكرها. وكان ذلك ففي سنة 206 ق.م.

كيد صيفاقس وعدوانه عليه وتجريده من مملكته

وكان صيفاقس والبونيقيون قد عزموا على فتح نوميديا. فما كاد مصينيسا يتولى الملك حتى أشفقوا على أملهم ان ينهار، وأيقنوا إنهم إذا تركوا مصينيسا طويلا في الملك فإنهم لا يستطيعون التغلب عليه، فعاجلوه قبل ان ترسخ أقدامه، ويصلح الأمور في جدولته، ويرأب الصدوع التي حدثت فيها بفتنة مزوطيل. فهاجمه صيفاقس والبونيقيون في خريف سنة 206 ق.م فدارت بينهم حروب طاحنة. وكان مصينيسا غير مستعد لها، فتغلبوا عليه، فاحتلوا نوميديا فضمها صيفاقس إلى دولته، ولكن مصينيسا بطل شديد المراس لا يستسلم و لا ييأس، فاعتصم بالجبال فصار يشن على البونيقيين وعلى صيفاقس حرب العصابات. فأرسل إليه صيفاقس جيوشه القوية فدارت بينهم معارك طاحنة في سنة 205 انهزم فيها مصينيسا، وخرج منها مثخنا بالجراح. ثم جدد الكرة في سنة 204 ق.م. على صيفاقس في جيش كبير جمعه في شرق نوميديا، فسار إليه صيفاقس بنفسه ومعه ابنه فرمينة فهزموه في حروب طاحنة وقعت بينهما، وطاردوه في الجبال حتى أخرجوه من نوميديا وافريقية، فآوى إلى جبال نفوسة، فآواه أهلها؛ وأكرموه، وعصموه من أعدائه. فبقي هناك يستعد ويرقب الفرصة للهجوم على أعدائه، واسترجاع مملكته. وكان معه في جبال نفوسة ما افلت معه من جيشه، ومن تلاحق به من أنصاره من نوميديا. فوضع مصينيسا يده قائم السيف، واعد جيشه للنضال، وعيناه إلى افريقية ونوميديا يرقب الفرصة للهجوم. فحانت له الفرصة الكبرى في سنة 203 ق.م فاغتنمها. لقد نزل جيش الرومان في افريقية تحت قيادة اكبر قوادهم سبيون الإفريقي لمحاربة البونيقيين وحليفهم صيفاقس. فأسرع مصينيسا إلى حلفائه الرومان ليستعين بهم على استرجاع مملكته.

هجوم مصينيسا على صيفاقس واسترجاع مملكته 203 ق.م

وكان سبيون الإفريقي يخاف فتكة صيفاقس وفرسانه النوميديين. انه كفء للبونيقيين الذين أضعفهم هرم الدولة، وأعيتهم الحروب الطويلة. ولكن صيفاقس، ودولته الفتية، وجيشه القوي الباسل إذا ناصروا قرطاجنة فان كفتها تكون هي

الرابحة في المعركة ! لابد من مناصرة مصينيسا له. انه حليفهم فتنفس الصعداء لما رأى مصينيسا ينضم إليه. ورأى النوميديين والبربر الإفريقيين يسارعون إلى ملكهم وقائدهم المحبوب مصينيسا فيغزر بهم جيشه. فوقعت الحروب! فشغل سبيون البونيقيين. فهجم مصينيسا على صيفاقس. لابد من سحقك أيها الحسود الظالم! فانتطح الجبلان ووقعت الحروب المهولة. وكان الله مع المظلوم. مع مصينيسا لحسن نيته. فهزم عدوه صيفاقس وأسره. فأسرع إلى قرطة فدخلها. فتربع على عرشه القديم. فسرت نوميديا بعودته إلى الملك. وأقيمت الأفراح والزينات في قرطة. وفي مدن نوميديا وارتفعت الزغاريد. احتفالا بإحياء دولتهم وعودة ملكهم وزفافه. لقد تحققت له أمنياته. استرجاع مملكته وخطيبته.

زواج مصينيسا بخطيبته صفونيسب

وكان مصينيسا يحب خطيبته صفونيسب كل الحب. وكان يحارب الرومان في الأندلس. فتتوالى عليه مكاره الحروب الطاحنة وتتهاطل عليه السهام والضربات فتثخنه. وتشتد عليهم الأيام[74] بتقوى الرومان عليهم. وهو لا يحس البلاء ولا يكترث بالأهوال. لأنه يعيش في آماله الباسمة: يوم يحتفل فيه هو وقومه بدحر الرومان في الأندلس. وبزفاف صفونيسب إليه ! ان أخبار بطولته. ومعاركه مع الرومان تبلغها فتنتشي بها فتزيده التزاما إلى صدرها! ان قبلاتها المعطرة بأنفاسها ليشعر بها نتثال على محياه كلما هب النسيم الجنوبي من المغرب! انها حبيبته. والرباط المتين الذي يوثق الحب بين البونيقيين والنوميديين. وكان مصينيسا وفيا فدام على حبه لصفونيسب. ولم تستطع القطيعة التي وقعت بينه وبين صدر بعل والد صفونيسب والبونيقيين. تنكر البونيقيين وإبطال خطبته وزواج صيفاقس عدوه من صفونيسب لم يستطع كل دلك ان يزيده إلا تعلقا بهذه الغزالة التي أعطاها قلبه !

وكانت صفونيسب تحب مصينيسا. وتعجب ببطولته. وشخصيته القوية. بشبابه وجماله. وبما ترى من المستقبل الزاهر له. فلما أرغمتها السياسة وأبوها على تزوج صيفاقس الكهل. شعرت بامتعاض بالغ. وبقي لاسم مصينيسا رنين موسيقي عذب في أدنها. وذكرى جميلة في أعماقها.

وكان صيفاقس قد اتخذ قرطة عاصمته ومقره فنقل إليها صفونيسب. ولما احتل

74 - الضمير في عليهم يرجع إلى مصينيسا وحلفائه البونيقيين الذين كان يحارب معهم في الأندلس.

مصينيسا قرطة واسر صيفاقس. فانتهت أيامه في المغرب. كانت صفونيسب في قصر الإمارة في قرطة.

صفونيسب حبيبة العمر وخطيبة الشباب! ! فعزم مصينيسا على الزواج منها. وأرسل إليها فرحبت. ان الحب القديم لا زال حيا في أعماقها. وان دولتها في خطر ومصينيسا هو منقذها إذا استطاعت ان تجعله حليفها. ستفعل. ان زواجها منه واجب وطني أيضا. فارتفعت الزغاريد في قصر الإمارة وسطعت البخور. ووضع مصينيسا عنه لأمة الحرب ولبس حلة العروس. وتم اللقاء بين الزوجين الحبيبين! وأمضى مصينيسا ليلة العمر الفريدة مع حبيبته. فغسلت صدره. وجلت قواه من سواد السنين السود التي مرت عليه وكانت ليلة واحدة! وفي الصباح جاءه سبيون فظنه مصينيسا مهنئا بالفتح وبالزفاف. فخلا به. فسأله في رفق ولكن في عمق ان يتخلى عن صفونيسب. ويدفعها إليه لي؟أخذها أسيرة مع صيفاقس إلى رومة. انها ملكة يشرف رومة أسرها!

مخاوف الرومان وانتحار صفونيسب

وكان سبيون يعلم ان مصينيسا مستعد لبغض الرومان. انه يمقتهم في داخل نفسه فخاف ان تؤجج صفونيسب هذا المقت فيصير عداوة. وتزين له محالفه قومها. ويومئذ يتعذر عليه الانتصار على حنبعل والبونيقيين إذا تخلى عنه مصينيسا وحالف أعداءه. ان هذا الزواج خطر على روما.

وكان مصينيسا أبيا فأبى ان يتخلى عن صفونيسب. فوقع خصام شديد بين سبيون ومصينيسا. يستحيل ان يدفع إليه مصينيسا زوجته ولو أدى الأمر إلى القتال ان مصينيسا أبي وفي. سيموت دون من يحب! وسمعت صفونيسب بإلحاح الرومان في أخذها ليدخلوا بها أسيرة ذليلة روما. ثم يقتلها الرومان. أو يعدونها امة حقيرة فجسم لها خيالها المشبوب وضعف الأنثى هذا المصير. وتذكرت ما حل بابيها صدر بعل قائد قرطاجنة الكبير. وما حل بقومها البونيقيين من هزيمة. وما ينتظر دولتها على يد الرومان من عواقب سيئة. ان أيام العز والهناء قد ولت. وفقدت الحياة لذتها. الموت ولا العار! ان سبيون عازم على أخذها ذليلة إلى رومة! لن يكون ذلك. ان خلاصها بيدها!

وكان مصينيسا يشتد مع سبيون ويأبى عليه اسر صفونيسب. وعزم على مخاشنته ورده خاسئا إذا تجاوز حدوده! فدخل عليه من اخبره ان صفونيسب قد ماتت! لقد تجرعت السم فقتلت نفسها!

قال الأستاذ احمد صفر:»وتزوج مصينيسا بالأميرة صفونيسب امرأة صيفاقس

وكانت خطيبته. وكان يهواها؛ ولكن هذا الزواج لم يدم أكثر من ليلة واحدة. لان سبيون كان يخشى تأثير هذه الأميرة البونيقية على بعلها الجديد. فأمر مصينيسا ان يسلمه إياها كبقية الأسرى؛ ولكن الأميرة اختارت الانتحار على الذل والعار».[75]

ابتداء مصينيسا أعماله الإصلاحية وتوحيد المغرب

كان مصينيسا في السابع والثلاثين من عمره لما رجع إلى ملكه. وكان في عنفوان الشباب، وفي مرحلة النضوج. فشمر لبناء المغرب، وللنهوض بالبربر ليحتلوا الذرى التي تليق بشرف عرقهم، وبما وهبهم الله من الاستعداد للكمال! وكان صيفاقس هو العدو القوي المشاكس الذي كان يمنع مصينيسا من الاستقرار والهدوء الذي ينشده لبناء دولته، والبدء في إصلاحه، والعمل لتوحيد المغرب ليقف صفا واحدا في وجه الرومان ، فتخلص منه. وكان ابنه فرمينة وخليفة صيفاقس في الملك قد اتعظ بما وقع لأبيه، وأدرك خطر الرومان؟. فأحسن مجاورة مصينيسا. وقد استطاع مصينيسا بدهائه وإخلاصه وإعجاب البربر به ان يجعل أهل موريطانيا الشرقية أصدقاءه، فرضوا به ملكا فانظموا إلى دولته. فاتسع مجال العمل لمصينيسا وتحققت الخطوة الأولى في توحيد المغرب الذي يتمناه مصينيسا، ويعمل جاهدا له.

وكانت الدولة البونيقية عدوه، ولكنها لا تستطيع محاربته. ان الهرم، والإعياء من الحروب، ونفسها المسالمة تغلها عن حربه. ثم ان الرومان قد قيدوها له. لقد اشترطوا عليها غي معاهدة الصلح تن لا تحارب أحدا إلا بإذنهم. ومصينيسا حليفهم، فبودهم ان ينقض عليها فيضعفها فيسهل عليهم القضاء عليها والحلول محلها في افريقية. فما كانوا ليأذنوا لها في حربه.

مهاجمة مصينيسا للدولة البونيقية واقتطاع جهاتها في المغرب والجنوب

وكان مصينيسا غيورا على المغرب. وكان يعرف أطماع الرومان ونواياهم السيئة للمغرب. وكانت الدولة البونيقية قد أودى بها الهرم، وكانت تتداعى للسقوط. فحرص مصينيسا على ان يحتلها هو ويمتلك افريقية قبل ان سبقه الرومان. ان غرضه من

75 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 229 ط أولى بتونس
لم يكن ما قلناه في زواج مصينيسا خيالا، بل هو ما توحي به نصوص التاريخ. وما يستنبطه المؤرخ إذا حلل النصوص واعمل النظر فيها. ان ذلك الزواج لم يقع إلا في الجو والأحوال الوجدانية التي ذكرنا.

مهاجمتها هو هذا. وليس ما ظنه بعض المؤرخين من ان الرومان هم الذين يغرونه لإضعافها لهم. ان مصينيسا يمقت الرومان ويراهم بلاء على المغرب، وعدوه اللدود الذي لا يرجو له خيرا.

ويلك أيتها العجوز التي أساءت إلى البربر، وبثت الفتنة بينهم ! أيتها الثمر الحلوة التي تجذب الذباب إلى المغرب ! لابد من إزالتك ليتوحد المغرب وينجو من خطر الرومان ! فشمر مصينيسا لالتهام أفريقية قطعا وضمها إلى دولته والقضاء على الدولة البونيقية بالتدريج.

إعجاب البربر الإفريقيين والبونيقيين الأحرار بمصينيسا ومطالبتهم بانضمام افريقية إلى نوميديا

« ان افريقية للإفريقيين، ولا ينبغي ان يكون إلا للإفريقيين»[76] هذا هو شعار مصينيسا الذي ينادي به في المغرب، ويبثه في افريقية ليهب البربر ليحرروا واطانهم من المستعمرين البونيقيين، ويسبقوا الرومان قبل ان يتسلطوا عليهم فيقعوا فيما أدهى. وهب البربر الإفريقيون وكثير من البونيقيين المخلصين ينادون بانضمام افريقية إلى نوميديا لتنجو من الاحتلال الروماني، ويجدد مصينيسا شبابها. ان البونيقيين لا يستطيعون الدفاع. فمصينيسا وحده هو الذي يستطيع ان يقف في وجه الرومان. وكان هذا الحزب الكبير الذي تكون في قرطاجنة وفي أنحاء افريقية قد زاد لمصينيسا حرصا على احتلالها. فما كاد يستقر في ملكه، ويشعب صدوع دولته، ويهيئ جيشه وأسطوله، ويجعل دولته بإصلاحه تقف على قدميها، وترفع رأسها، وتفتح ذراعيها لضم المغرب كله، حتى ابتدأ في التهام افريقية، فهاجم النواحي الغنية العامرة التي تجاور نوميديا من ترابها فاستولى عليها. «فاستحوذ على ساحل سرت الصغير بخليج قابس، وهو الجهة التي كانت تعرف بجهة الأسواق التجارية، وكانت مشهورة بمداخليها وغناها. وكان ذلك في سنة 162 ق.م»[77] فصار جنوب افريقية كله من مدينة صيفاقس تابعا لنوميديا دولة مصينيسا، وكذلك ساحل طرابلس الخصب الغني بأسواقه التجارية الكبرى إلى خليج سرت الكبير.

وفي سنة 154 ق.م استولى على الجهات الفلاحية الخصبة (في الشمال الغربي والوسط الغربي لافريقية) كجهة دقة، وجهة السهول الكبرى، وهي سوق الأربعاء وسوق

76 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 182 ط أولى بتونس.
77 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 178.

الخميس (جندوبة) حيث يمر وادي مجرذة»[78] فامتدت حدود دولة مصينيسا الشرقية، وتوغلت في شمال افريقية ووسطها. فكان الحد الشرقي للدولة النوميدية شرق مدينة باجة؛ وشرق تبرسق، ومدينة دقة إلى جبال أولاد عون. فيضم إلى دولة مصينيسا هذه السهول الخصبة التي يفيض عليها وادي مجرة الكبير، والتي اعتنى بها البونيقيون كل الاعتناء، فكانت بساتين غناء، ومزارع منظمة راقية تتخللها سواق للري، وكل ما تحتاجه الفلاحة المنظمة الراقية.

وكان مصينيسا عازما على احتلال افريقية كلها، فأشفق الرومان من اتساع دولته وخافوا ان يستولوا على افريقية كلها سورا حديديا في وجوههم، فلا يستطيعون احتلال المغرب كما يريدون. فسارعوا لاحتلال افريقية في سنة 146 ق.م وحالوا دون توحيد مصينيسا للمغرب، وابتدأوا في الكيد لهذه الدولة البربرية الكبرى التي أرغبت الرومان وغلت أيديهم عن احتلال المغرب كله قرنا كاملا من الزمان، ووقفت في وجوههم سورا حديديا يحفظ المغرب، لا يستطيع الرومان الأقوياء الجشعون اختراقه ! .

وفي سنة 158 ق.م استطاع مصينيسا بدهائه ان يضم موريطانيا الشرقية إلى نوميديا فاتسع حد دولته غربا فكان وادي ملوية.

حدود دولة نوميديا

وكانت حدود دولة مصينيسا في النصف الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد تبتدئ شرقا من شرق باجة ودقة فتضم كل سهولها إلى نوميديا، ثم تنحدر جنوبا فتضم جنوب افريقية كله من جنوب مدينة صيفاقس، وساحل طرابلس إلى خليج سرت الأكبر. فالحد الأقصى الشرقي لدولة مصينيسا هو خليج سرت الأكبر، وحدها الغربي هو وادي ملوية.

هذه هي دولة مصينيسا ، وقد تحقق مثير من أمله في توحيد المغرب، فلو طال عمره وأبقت الأيام شبابه، لحارب الرومان قي افريقية وقذفهم في البحر، فيضم افريقية إليه، ثم موريطانيا الغربي ببالغ دهائه، فيصبح المغرب الكبير كله دولة واحدة. فيتحقق في التاريخ القديم ما لم يستطع تحققه في تاريخ المغرب كله إلا الدولة الأموية العتيدة في فترة قصيرة من الزمان، ودولة الموحدين الكبرى التي وحدجت المغرب الكبير وحققت أملا من آماله الغالية الكبرى.

وكان مصينيسا حازما كل الحزم، يباشر أمور الدولة بنفسه. وكان يقصد أنحاء دولته

78 - نفس المصدر ص 178 ط أولى بتونس.

فيتفقد أمورها، ويطلع على سير الأمور فيها بنفسه. وكانت له مراكز إدارية كبرى في المدن الكبرى في كل ناحية من نواحي الدولة، فيقصد تلك المراكز فيتصل برعيته، ويجتمع برؤساء القبائل فيتفاوض معهم في مشاكلهم، ويوجههم في أمورهم أحسن توجيه، ويؤكد بينهم الإخاء والمودة.

المراكز الإدارية الكبرى في دولة مصينيسا

وكانت له ثلاث عواصم يتنقل بينها، ويقيم في كل واحدة منها ردحا من الزمان على حسب مشاكلها. فعاصمته الكبرى في وسط الدولة هي قرطة، وهي العاصمة العامة ومقر الحكومة؛ وعاصمة الجناح الشرقي في دولته، وهو غلاب افريقية وجنوبها الذب احتله، هي سيكا (مدينة الكاف) وكانت سيكا مدينة جميلة متحضرة. وكان لمصينيسا فيها قصر فخم وحدائق غناء. وكان يقيم في سيكا ويتفق أمور تلك النواحي بنفسه، ويحل مشاكلها بدرايته وحنكته. وكان يولم لرؤساء القبائل البربرية في تلك النواحي الولائم الفاخرة، فتنصب الموائد، وتوضع فوقها ألوان الأطعمة في أوان من فضة وسلال من ذهب، وتقع أثناء تلك المئادب حفلات موسيقية رائعة»[79]

ويفعل مثل هذا في قرطة وصيغة عاصمة الجناح الغربي لدولته.

لقد كان مصينيسا متقشفا في عيشه، ولكن دولته كانت متحضرة، وهو كان يريد ان يرى الجمال في كل أنحاء مملكته؛ ونور الثقافة والتمدن وجمال الأخلاق في وجود كل رعيته.

تلك هي حروب مصينيسا مع أعدائه، ومساعيه الكبرى لتوحيد المغرب، وعواصمه في جهات الدولة، فما هو إصلاحه فيها، وأعماله العظيمة لنهضة المغرب وازدهاره؟

إصلاح مصينيسا ونهضته الكبرى بالدولة

كان مصينيسا مخلصا لدولته، وغيورا على قومه، ومحبا للمغرب كله0. قد عزم ان ينهض بدولته وبالبربر كلهم النهضة الكبرى التي تجعلهم امة قوية سعيدة، وتقف في وجه الرومان، وتزاحمهم، وتنتصر عليهم في البحر الأبيض المتوسط. فابتدأ العمل، وقدم للنهضة أسبابها القوية، ومقدماتها الصحيحة، وهي التربية الحسنة، والتعليم الرشيد.

79 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 179 ط أولى بتونس.

اعتناؤه بالتربية والتعليم في الدولة

كان مصينيسا يؤمن ان قوة الأمم وسبب سعادتها ومجدها إنما هي الأخلاق الحسنة، وصفاء النفوس، وثقافة العقول، وان الرومان إنما سادوا الأمم العالمة المتحضرة بمتانة الأخلاق، وتمجيد القوة ! فعليه ان يبث هذين السببين في أمته. انها أكرم عرقا من الرومان، وأكثر استعداد للمجد منهم فإذا كانت مثلهم في هاتين الخلتين انتصر عليهم، واقفل أبواب المغرب في وجوههم.

ان التربية والتعليم هما الحياة السعيدة ! هما الغنى والقوة ! هما سبب الرفعة والمجد ! هذا ما نقشه مصينيسا بدعايته، ودعاية أنصاره من الشباب المثقف المصلح في قلوب أهل دولته. وهذا ما نقشه في صدورهم بخطبه، فغرس فيهم حب العلم، والاعتناء بالتربية، وتمجيد الأخلاق الحسنة، والسلوك القويم، وفتح لهم المدارس للتعليم في المدن والقرى، وتسارع الأغنياء والمثقفون إلى إعانة الحكومة في فتح المدارس، وبث الدعاية للتربية والتعليم، وكانت طبقة كبيرة من البربر سيما في قرطة وشرق نوميديا قد تثقفت وأخذت حظها من العلم في المدارس البونيقية في افريقية أو في نوميديا الشرقية التي جعلوها تحت حمايتهم، أو في قرطة التي كانت فيها مدارس كثيرة، فعينها مصينيسا للتعليم في دولته، ثم استقدم المعلمين المخلصين من البلاد البونيقية، وأرسل البعثات العلمية الكبيرة إلى قرطاجنة، فنضجت فيها في مختلف العلوم، فانبثت في أنحاء مملكته، تنشر الثقافة، وتمحوا الأمية، وتبث روحا جديدة في البربر: تعلم صغارهم في المدارس، وكبارهم في الجامع، والحمامات [80] والنوادي. فأحب الناس العلم فتنافسوا في تعليم صغارهم. وصار العلم والخلق الحسن هو سبب الاحترام والرفعة في المجتمع، وهو أساس التقدم والسلطان في الدولة، فتزاحم الناس على موارده، وتأججت في نفوسهم الرغبة فيه.

وكانت اللغة البونيقية قد انتشرت في البربر سيما في نوميديا قبل مصينيسا فزادها مصينيسا انتشار في البوادي والقرى لأنها لغة العلم والحضارة الراقية، فسهل على مصينيسا تثقيف البربر لانتشار اللغة البونيقية فيهم. فانشأ في زمن قصير جيلا من المثقفين كون منهم الجهاز الصالح المخلص القوي لدولته.

إصلاح مصينيسا لدين البربر الوثني

80 - كانت الحمامات أمكنة للاجتماع في ذلك الزمان سيما عند البونيقيين والرومان وإذا كان البربر قد ورثوا الحضارة البونيقية فلابد ان تكون فيهم هذه العادة

وكان البربر امة متدينة، تتمسك بدينها وتقدسه. فتناول مصينيسا بإصلاحه دين البربر أيضا. لقد كان دينهم بسيطا ساذجا، لا يترك الآثار الحسنة في نفوسهم، ولا يعودهم تمجيد الأشياء العظيمة، كالقوة، والجمال، والزراعة، وغيرها من الأشياء التي يجب ان تعتني بها الدولة المتحضرة وتقبل عليها. فدعا مصينيسا البربر إلى عبادة كثير من أوثان الإغريق، والبونيقيين، والرومان كافروديت إلهة الجمال، والأوثان الأخرى التي ترمز إلى القوة، والى الخير، أو إلى الزراعة، وغيرها من المعاني التي كان يقدسها الإغريق والبونيقيون المتحضرون، والرومان الأقوياء.

وكان مصينيسا يقصد بهذا ان ينشئ قومه على تمجيد المعاني التي ترمز إليها تلك الأوثان مصينيسا ان ينتفع بالدين الوثني الخرافي الباطل في تربية البربر، وتوجيههم إلى الوجهة الحسنة التي يريد. ولو أدرك مصينيسا الدين الإسلامي العظيم لكان اكبر من يتحمس له، ويدعو قومه إليه، لأنه يعلم بذكائه انه دين القوة والجمال والخير وكل معنى حسن في الوجود !

اختيار مصينيسا لجهاز الدولة

وكان مصينيسا مخلصا للدولة، يعمل لصالح الأمة لا لنفسه. وكان يؤمن بان وظائف الدولة واجبات ثقيلة لا حظوظا وجوائز يتحف بها الأصدقاء، ويتملق بها أناس، ويستكثر بها الأتباع والمؤيدين الذين يسندون بظهورهم الراكعة عرشه المتداعي، ويحدثون بأيديهم المصفقة دويا لشخصية الهزيلة يلفت الأنظار، ويرضي غرور نفسه. فاختار موظفي الدولة من الرجال الصالحين المخلصين العاملين الذين لهم دراية بالعمل، وكفاءة للوظيفة. واعرض عن الذباب المتهافت على المناصب، وعن الضعفاء الذين يريدون ان يكونوا عالة على الدولة، يرتعون في خيراتها ويمتصون دماءهم وهم رافهون لاهون. فازدهرت دولته بهذا الجهاز القوي المخلص، ووجد مصينيسا من أعضائه هؤلاء القوة التي أسرعت بالدولة في كل نواحي العمران، والغنى، والقوة، والتقدم.

اعتناؤه بالجنس والتربية العسكرية في الدولة

وكان مصينيسا عازما على الاستيلاء على افريقية، وعلى مقارعة الرومان وحفظ المغرب من احتلالهم، فاستعد كل الاستعداد بإنشاء جيش قوى وأسطول كبير. وقد بث التربي العسكرية في دولته. وكان البربر يمجدون الفروسية والبطولة، والبراعة في فنون القتال، فاذكى مصينيسا هذا الطبع فيهم، وانشأ شباب دولته عسكرية. كل منهم يحسن ركوب الخيل، واستعمال السلاح. واختار من هذا الشباب جيشا دربه أحسن

تدريب. وكان فيهم الفرسان والمشاة. وقد أقام لهم من البربر الذين حاربوا الرومان مع البونيقيين من يعلم حرب المشاة التي يتقنها الرومان أكثر من غيرهم؛ وأقام المصانع الكثيرة لصنع الأسلحة، واستكثر من الخيل النوميدية المشهورة في ميادين القتال. وحث شعبه، وفرض على جيشه تعلم السباحة، والبراعة في المصارعة، وألزمهم بكل ما يقوي البنية، ويذكي الشجاعة، ويجعل صاحبه أسدا يفترس أعداءه.

تمجيد مصينيسا وأهل دولته للقوة والفروسية

وكان مصينيسا يمجد الفروسية والقوة، ويغرس في شعبه تمجيدهما. وقد رسم في نقوده مع صورته رسم الفرس منطلقا أو مستعدا، علامة على تمجيد الفروسية؛ ورسم مع الفرس سهما أو قناة مركوزة علامة على تمجيد القوة. وكانت هذه النقود تغرس في الناس الاعتناء بالقوة الحربية، والاستعداد العسكري. وتعلمهم وتجعلهم يؤمنون بان غنى المال في عصرهم الذي تسلط فيه الرومان، وعز الدولة لا يكونان إلا بالفروسية والقوة التي يدحرون بها الرومان المستعمرين !

وكان شعار مصينيسا الذي يزدان به في صور نقوده ليس التاج الذهبي، ولا ريش النعام، ولا أنواع الزينة كما يفعل الملوك الضعفاء، بل شعاره الذي يعتز به هو السهم الذي يدل على القوة! يرسمه في صورته ويركزه في اظهر مكان في الصورة. كانت الدولة المغربية الكبرى التي أنشأها مصينيسا تمج القوة، فجدت في أسبابها، فصارت أقوى دولة في المجال العسكري بالبحر الأبيض المتوسط. وقد صارعها الرومان طويلا فصرعتهم. ولولا تحاسد البربر، واستعانة الرومان بهم على القضاء على هذه الدولة لأطعمتهم بطون الحيتان، ولدست أنوفهم في الرغام، وطبطبت في ظهورهم بالقنا وهي تكنسهم إلى البحر، وتغلق المغرب في وجوههم إلى الأبد! كانت تحقق ما أراده حنبعل فخذلته أمته الضعيفة، فتحتل روما، فتقضي على شر الاستعمار في منبعه. ان البربر هم الذين صرعوا الدولة المغربية الكبرى التي أنشأها مصينيسا، في عهد يوغورطة ويوبا الأول فجثا عليها الرومان فأزهقوا روحها، وليس أبناء روما بتفوقهم على الجيش المغربي الباسل في الشجاعة والفروسية والمهارة في القتال!

إنشاء مصينيسا أسطول دولته الكبير الحربي والتجاري

واعتنى مصينيسا بالأسطول. ان العدو سيأتيهم من جهة البحر، فلابد من حفظ الشواطئ، ولا بد من الأسطول الذي يصلهم بالعالم في المجال التجاري. فانشأ أسطولا حربيا قويا رابط في الثغور البحرية، وأسطولا تجاريا كبيرا. وكان البربر قد برعوا في

الملاحة، وفي الحروب البحرية لطول ما أعانوا واستأجرتهم قرطاجنة في حروبها مع الإغريق والرومان في البحر، ولكثرة استعانة القرطاجنيين بهم في أسفارهم البحرية الطويلة، وفي القيام بأساطيلهم الكثيرة. فوجد مصينيسا شباب دولته الملاحين الكثيرين الماهرين، ومن يحسن حروب البحر، فانشأ بهم أسطولا حربيا وتجاريا كبيرا، وجيشا بحريا كانت ترتعد به فرائس الأعداء.

اعتناء مصينيسا بالفلاحة وتمدين البربر الرحل

وكان مصينيسا يوقن بان الغناء هو سبب القوة، ومال الدولة هو الأجنحة وهو السلاح؛ وهو الوسيلة الكبرى لتحقيق كل الآمال، وبلوغ كل الغايات، وان سبيل الغنى هو العمل والنشاط، سيما في الحقول. ان ارض المغرب الخصبة الواسعة تنطوي على الذهب وعلى الكنوز، لابد من استخراجها. ان الفأس، والمحراث والدلو للسقي هي اكبر أسباب المال الوفير، والغنى الواسع في ارض المغرب الكريمة ولكن الفلاحة الناجحة توجب على الفلاح ان يقيم في أرضه، ويعطيها نفسه ويقصر عليها كل جهوده. واغلب البربر في مملكة مصينيسا لا يستقرون في مكان واحد. وقد سماهم الإغريق والبونيقيين نوميديين لكثرة ارتحالهم، ومعنى نوميدي هو الرحالة البدوي الذي لا يستوطن مكانا واحدا. ان اغلبهم يعتني بتربية المواشي، ينتقل بها في المراعي الخصبة، ويسافر بها إلى المواطن المعشبة، ولا يستقر في مكان واحد.لا بد من تمدين هؤلاء البداة الرحل. انه ليس هناك شيء يمدنهم كالفلاحة التي تلزمهم على المقام في مكان واحد، وعلى بناء المدن والقرى. فبث مصينيسا دعاية طويلة عريضة حارة سخر لها كل المثقفين. فلفت البربر إلى غنى الفلاحة وعزها، وهنائها، والى آثارها العظيمة في الأخلاق والأجسام. ان الرومان يرون الفلاحة صناعة الأشراف، وما عداها عمل العبيد! ان الوطني الحق هو الذي يملك ارض وطنه ويستخرج كنوزها ان ارض المغرب هي الذهب وهي الغنى، وهي عز الدولة وقوتها. فاشعر مصينيسا قومه بجدوى الفلاحة، فاقبلوا عليها. فقسم على القبائل والأفراد الأراضي الصالحة، ودعاهم إلى إصلاح الأراضي البور وامتلاكها. فمن أصلح أرضا كانت له. وكان له عشرات من الأبناء، وكانت أسرته كبيرة فدعاهم كلهم إلى العمل في الحقول وإصلاح الأراضي. فأصلح مصينيسا بجهوده الخاصة وبجهود أبنائه أراضي واسعة أصبحت ملكا له. وكان من كبار الملاك للأراضي في دولته. « ولما مات ترك لكل واحد من أبنائه أرضا تبلغ مساحتها ألف (هكتار) تقريبا. وكان عدد أولاده أربعة وأربعين ولدا.[81]

81 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 181 أولى بتونس.

وكان مصينيسا بارعا في الفلاحة، يتقن أساليبها، فزرع أراضيه. وكان مثالا لشعبه في الاعتناء بالفلاحة، فاقتدوا به، واستقروا في قراهم الكثيرة التي انشأوا في كل أنحاء نوميديا، وفي موريطانيا الشرقية أيضا. وما ان انتصف القرن الثاني قبل المسيح، بعد مكوث مصينيسا خمسين سنة في الملك حتى كانت نوميدية وموريطانيا الشرقية كافريقية في الفلاحة، وفي وفرة المزارع والبساتين، وفي اكتظاظ الأسواق والمخازن بالثمار والحبوب ومختلف الغلال. وذاق البربر عز الفلاحة وغناها. فكانت خدمة الأرض اكبر باب للرزق يطرقونه. وأورثتهم الفلاحة الاستقرار فتحضروا. فاستطاع مصينيسا ان ينشئ لهم معاهدة التعليم، ويربيهم بقوانين الحكومة، ويجبيهم لخزانة الدولة. كما استطاع ان يغرس فيهم الاتحاد والإخوة، والتعاون. فكانوا امة متساندة مترابطة فشق على الرومان التغلب عليه.

قال بوليبس المؤرخ الروماني الذي شاهد دولة مصينيسا. «كانت نوميديا قبل مصينيسا لا تجدي نفعا، ولا تأتي بفائدة، وكانت تعتبر غير قادرة بطبيعتها على إعطاء شيء من المنتجات الفلاحية. فكان مصينيسا أول واحد، بل كان الرجل الوحيد الذي اظهر ان نوميدية قادرة على إعطاء جميع تلك المنتجات مثلما تعطيه أية جهة أخرى، لأنه أحيا مسافات شاسعة، وتعهدها بالحرث والزراعة».[82]

وقال استرابن:» ان مصينيسا مدن النوميديين وحبب إليهم خدمة الأرض والفلاحة.».[83]

ان ما تمتاز به نوميديا اليوم من الأراضي الشاسعة الصالحة للزراعة يرجع الفضل الأول إلى هذا الملك العظيم المخلص أي حبب إلى أبناء الوطن ان تنخفض رؤوسهم في زراعة الأرض وحرثها لترفع بالعز والغنى والسعادة، وجعل نوميديا بساتين ومزارع خضراء، فأحضرت له ولدولته الأيام، وانفتح أغزر مورد للمال طفحت به خزائنها.

اعتناء مصينيسا بالصناعة

واعتنى مصينيسا بالصناعات، وبالتعدين، وبكل ما تستلزمه الدولة المتمدنة التي خلفت قرطاجنة في حضارتها العظيمة، وورثت علم البونيقيين وصناعاتهم، ومنيتهم، فطبعتها بطابعها، وزادتها رقيا وجمالا واتقانا.

---

82 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 180 ط أولى بتونس .

83 - نفس المصدر ص 179

اعتناؤه بالخط البربري وتوسيعه وتجميل حروفه

وكان مصينيسا يستعمل في دواوينه مع اللغة البونيقية. فوجد ان الخط البربري لا يزال على قصور البداوة، ضيقا لا يشتمل على كل الحروف المستعملة في اللغة البربرية، فاعتنى به، فوسعه، وزاد فيه حروفا كثيرة، وزين حروفه وجملها، فصار خطا يفي بحاجة المرء في التعبير، ويجد فيه الكاتب كل الحروف التي تتركب منا الكلمات البربرية.

ان اعتناء مصينيسا بالخط البربري دليل على انه مستعمل في الدواوين. فلو كان مهملا لا تستعمله الحكومة والشعب ما اعتنى به. وارى ان مصينيسا هو الذي وسع الخط البربري ووضع أكثر حروفه حتى وصلت ثلاثة وعشرين حرفا بعد ان كان محصورا في عشرة أحرف.

كان مصينيسا هو زعيم الأمازيغ الأكبر ! نهض بهم النهضة الكبرى في كل النواحي، وأقام الدولة البربرية الكبرى التي وحدت اغلب المغرب الكبير، فاستطاع ان يقف في وجه الرومان، وقد ألقت دولته القوية الرعب في قلوب الرومان فتكمشوا في افريقية قرنا كاملا من الزمان كلما هموا ان يمدوا يد اللص الماهر والخاتل البارع إلى الدولة البربرية الكبرى حملقت فيهم بعيون الأسود، فتنقبض أيديهم. ومما يدلك على قوة الدولة البربرية ان الرومان لم يستطيعوا استرداد ما اقتطعه مصينيسا من افريقية، وكان جزءا من الدولة البونيقية، فضل في قبضة الدولة البربرية إلى ان استولى الرومان على نوميديا بعد قرن كامل من احتلالهم لشمال افريقية ووسطها.

تعصب المؤرخين الأوروبيين للرومان واحتقارهم للبربر الأقوياء

ان المؤرخين الأوروبيين إذا كتبوا عن الحقبة من تاريخ المغرب ليحتقرون البربر، والدول البربرية، فيجعلون الرومان في افريقية هم كل شيء، وبقية المغرب تابعا لهم، يمتثل أوامرهم، وإرادتهم. ان الرومان لو كان لهم ذلك السلطان على المغرب لاستولوا عليه كله. إنهم يرون الدولة البربرية قذى في عيونهم، إنهم يريدون ان يرتعوا في كل أنحاء المغرب، ويزدردوا خيراته، ويملئوا خزائنهم بموارده الغزيرة فيجدوا دولتهم القوية تحرسه من اللصوص، وتمنع عنه الذئاب، وتذود عن ساحة الأفاعي والعقارب. إنهم غيظ قاتل عليها. ولو كان لهم السلطان عليها، وكانت هي ضعيفة تخضع لهم لأزالوها من الوجود !

كانت دولة مصينيسا في عهده وفي عهد أبنائه من بعده إلى يوبا الأول مستقلة كل الاستقلال لا سلطان للرومان عليها. وكان الرومان يخطبون ودها. ويقدمون الهدايا

الذهبية التنفسية إلى ملوكها يطلبون صداقتهم ويستخدمون كل دهائهم لتبقى ساكنة لا تهاجمهم.

ملازمة مصينيسا للحياد في الحرب البونيقية الثالثة لكرهه للرومان

وكانت الدولة البربرية الكبرى في حاجة إلى الاستقرار والهدوء لتعلي صرحها، وتبني نفسها كما تريد، فأبت ان تهاجم الرومان أو تعين البونيقيين عليهم، وحرصت على سكونهم، وكانت تبتسم لهم على عداوة قائمة في أعماقها لهم، وتبيع لهم القمح والحبوب وما يطلبون شراءه من سلع الدولة البربرية الكبرى ، وأشياء المغرب الجميل. كانت الصلة بين الدولتين مادية. وكان الرومان اكبر زبون للمغرب متحضر الغني الذي يبحث عن الحرفاء ليبيع لهم ثماره وسلعه. وكانت صلة المغرب دولة مصينيسا بالرومان صلة بزبون، وصلة الجار القوي يجاوره ذو نية سيئة فحرص ان يبقيه على السكون لكي لا يثير الغبار في وجوه الصافي، ولا يخلق الكدر في أيامه الهادئة.

وكان مصينيسا قد أعان الرومان في الحرب البونيقية الثانية ليسترجع مملكته، ويقضي على أعدائه، ويستعين بهم في أضعاف الدولة البونيقية التي عزم على القضاء عليها، وضم افريقية إلى دولته، ليتوحد المغرب. لما هاجم الرومان قرطاجنة ليقضوا على البونيقيين لازم الحياد، ولم يمد إلى الرومان يد المساعدة، رغم شدة حاجتهم إلى مساعدته. لقد تنمرت عليهم قرطاجنة، واستغلقت في وجوههم وضعفوا عن فضها بالقوة، وظلوا عاما كاملا وهم يصارعونها وهي واقفة في وجوههم تكيل لهم الضربات، وتبعث في قلوبهم الرعب الشديد !

ان مصينيسا يبغض الرومان. فهم أعداء المغرب الألداء، وهم البلاء الذي يخافه على قومه، فبوده ان ينهزموا في حروبهم مع قرطاجنة فيرتدوا خاسئين، ليتولى هو فتح قرطاجنة وضمها إلى دولته. ان حزبه قوي فيها، وسيجد كثيرا من الشعب يرحبون به، ويعينونه من الداخل على فتحا، وضم افريقية إلى دولته. لقد بقي مصينيسا على الحياد في تلك الحروب التي انتهت بتخريب قرطاجنة، لا يعين الرومان بشيء، ولا يتمنى لهم الهزائم والانكسار !

إعداد مصينيسا لأبنائه ليكونوا اعضاده في املك وخلفاءه في الدولة

وكان لمصينيسا أبناء كثيرون، وكان يسد بهم الدولة، ويستخدمهم في القيام بمزارعه الواسعة، وشئونه الأخرى. قد اعتنى كل الاعتناء بتربيتهم وغرس فيهم أخلاق

الرجولة، وعلمهم وبهم وهيأهم ليكونوا قوة للدولة واسوة حسنة للبربر.

وكانت وراثة الملك لأكبر رجل في أسرة مصينيسا. وكان مصيبسا بن مصينيسا هو الأكبر. فكان مصينيسا يدربه على شئون الملك، ويعلمه السياسة ويوقفه على نوايا الرومان السيئة للمغرب. لما شخ مصينيسا كان ابنه مصيبسا هو عماده في إدارة المملكة، وسنده الأكبر في سياسة الدولة. وكان مصينيسا في آخر عمره هانئا مطمئنا، لا يخاف على دولته من الضعف بعده لكفاءة أبنائه، وتآزرهم سيما ابنه مصيبسا الذي تدرب على السياسة وصار يستطيع السير بالدولة في الطريق التي دفعها فيه مصينيسا لا تتعثر خطواتها، ولا يبطؤ سيرها.

وكان من أولاد مصينيسا مع مصيبسا ابنان آخران قد ورثا شخصية أبيهم وكثيرا من خصائصه هما منستابعل وغولوسة. وكان منستابعل ذا شخصية علمية اجتماعية، فاسند إليه شئون القضاء في الدولة. أما غولوسة فكانت شخصيته حربية فجعله قائد جيوشه، فاسند إليه الأمور العسكرية في دولته وقضى مصينيسا الأيام الأخيرة من حياته وهو مستريح خيف الكاهل لان أبناءه يقومون بتدبير الدولة، وهو يوجههم ويرشدهم، ويلاحظ سلوكهم وتدبيرهم. فماذا وقع له بعد عمره الطويل المستنير !

وفاة مصينيسا وحياطته للدولة

كان مصينيسا قد بلغ التسعين من عمره وابتدأت الشيخوخة الطويلة تثقل عليه، والجهد الكبير الذي بذله في عمره الطويل يصيبه بصفرة الخريف، وبنهاية المصباح الذي أنفد نفسه في الإنارة ! وفي أول شتاء سنة 148 ق.م. مرض ثم وافاه اجله، فارتاعت الدولة لموته، وجزع المغرب الكبير كله بوفاة هذا المصلح الكبير، والملك القوي المخلص. ولبس البربر في كل مكان ثوب الحداد لموته.

أكاذيب المؤرخين الأوروبيين واحتقارهم للبربر

وكانت دولة مصينيسا قد استمرت بعد وفاته في استقرارها وهدوئها، لان مصينيسا بجهوده وإخلاصه وتدبيره الحكيم كان قد رسخ أقدامها في طريق لا يمكن ان تخرج منه، وسد ثغورها بالكفاءات المخلصة فلا يمكن ان تقع فيها بلبلة أو تصدع، وأقام ابنه الأكبر مصيبسا على رأس الدولة وهو حي وأعطاه ختمه، وسلمه مقاليد الملك وأزمة التدبير، وأسنده بأخويه، فاحدهما للقضاء يضمن العدل الذي تصلح به الدولة وتسكن، والثاني للحرب التي تمنع الفساد وترهب المتربصين بالدولة، وتقمعهم عن الضلال والفتنة.

كان هذا التقسيم للوظائف الكبرى من عمل مصينيسا وهو حي. لم يمت إلا ومصيبسا قد تولى كل أمور الملك، وأخواه قد أحسن كل منهما القيام بما اسند إليه. فتوفي مصينيسا وهو آمن مطمئن على دولته. انه لم يمت فجأة في معركة فيقال انه لم يسد ثغوره بمن يخلفه، ولا مات وهو شاب فنقول انه لم يشعر بالموت فيعين خلفاءه من بعده. لقد مات وهو في التسعين من عمره، في شيخوخته الطويلة، واستعد للموت بترتيب أمور الدولة، وتنظيم كل شئونها، وإقامة الخليفة الذي يقودها من بعده. فما كان مصينيسا يترك أمور الدولة من غير تنظيم، وثغورها الكبيرة من غيرها سداد، والشيخوخة الثقيلة تنذره بالوفاة، وسنه التي أشرفت على المائة تربه أبواب الآخرة تتفتح له، وهو الحازم المخلص الغيور على دولته، العالم بنوايا الرومان وكيدهم، وعدائهم، وعدائهم للدولة. انه ما جد بناء دولته إلا لتقف في وجه الرومان. فها هم ينزلون في افريقية، ويقع ما يخشاه مصينيسا، فهل يمكن ان يغفل عن دولته فلا ينظم كل أمورها قبل وفاته، ولا يولي حليفته الصالح الكفء على العرش قبل مماته؟ ان اقل اختلال يقع بوفاته في دولته واقبل اضطراب، سيستغله الرومان وينفخون في جمره ليضعفوا الدولة البربرية الكبرى التي تقف سورا حديديا في وجههم.

وبعد، فان ولاية مصيبسا للملك، وأخيه منستابعل لشئون القضاء، وغولوسة لشئون الحربية، كان من تدبير مصينيسا وعمله نفذه وهو حي. وقد أوصى بنيه بالاتحاد، وحذرهم من الرومان، وأوقفهم على عداوتهم القائمة لهم، وأطماعهم الكبيرة في المغرب، وحثهم على ان يكونوا دائما على حذر منهم، وعلى الاستعداد بالاتحاد والقوة الحربية لقمعهم ، وعلى يقظة من يساكنه اللص الخاتل في داره، وعلى انتباه من تعشش الأفعى المساورة في بيته.

كان مصينيسا يرى الرومان أعداءه. فما كان ليحسن الظن بهم فيوصيهم خيرا بدولته، ويرجو منهم النصح لأبنائه، ويفتح لهم الباب للتدخل في شئون مملكته. وقد أساء المؤرخون المغاربة كل الإساءة إلى أجدادهم والى تاريخهم بتقليد الأوروبيين الذين جعلوا بدعاويهم الكاذبة الرومان هم أصحاب الملك والسلطان في المغرب، ومصينيسا وبنوه خاضعون لهم، والبربر مستخذون قد أعطوا بأيديهم لأعدائهم الرومان من غير قتال ولا حروب.

كانت دولة مصينيسا قوية مستقلة كل الاستقلال، ليس للرومان عليها أي سلطان. لقد كان الرومان لما توفي مصينيسا في أيام عصيبة. كانوا يصارعون قرطاجنة منذ عام كامل ليقضوا عليها، وقد ثارت ثورتها الباسلة في وجوههم، ونفرت من النطع،

وقاتلتهم مقاتلة المستميت الذي يأبى الذل والهوان. إنهم في حروب طاحنة معها، وأنهم لغرباء دخلاء في افريقية، يخافون ثورة البربر عليهم، واستغلال قرطاجنة في وجوههم، لم يتخلق لهم في ارض افريقية عرق، ولم يتكون لهم في المغرب أي نفوذ، ولم يستقروا استقرار الإقامة والاحتلال في أي ثغر من ثغوره. إنهم أجانب فيه، يشعرون بالغربة، وتفيض نفوسهم بالقلق على مصيرهم في المغرب، ويخشون انضمام الدولة البربرية الكبرى إلى قرطاجنة، فتستطيع الوطء على أعناقهم، وتعفيرهم في التراب ! تلك هي الدولة البربرية الكبرى دولة مصينيسا لما توفي، وتلك هي حال الرومان في افريقية. ولكن المؤرخين الأوربيين الذين كتبوا عن هذه الفترة من تاريخ المغرب قد جعلوا الرومان هم سادة المغرب، وان أموره كلها بأيديهم، وان البربر قد خضعوا لهم فأمسوا يتدخلون في شئونهم، وان دولة مصينيسا قد عنت رقابها لهم، ومصينيسا قد طأطأ لهم، ورآهم السادة الذين يخضع لهم، والقوة التي يخشاها، فيتذلل لها، ويخشع أمامها ! هذه هي الصورة التي رسمها المؤرخون الغربيون للبربر وللرومان، وهي بعيدة عن الصواب، وما قالوه هو خلاف الواقع. لو كان للرومان ذلك السلطان الذي ادعوه في المغرب لما توفي مصينيسا ما مكثوا قرنا كاملا من الزمان منجحرين في افريقية يحكون الدسائس لإضعاف الدول البربرية ليستطيعوا القضاء عليها. وقد قلد اغلب المؤرخين المحدثين المغاربة الأوربيين في دعاويهم الباطلة، وأوردوها في كتبهم، فجاءوا بخلاف الحقيقة، وحققوا غرض المستعمرين الذين يريدون ان يوحوا إلينا بضعف أجدادنا وقوة الرومان، ويجعلوا أجدادنا في نظرنا، وهم اسود ذلك الزمان، شياها تثغو في قيودها في عرين الأسد الروماني، والعكس هو الواقع كما بينا ! إليك ما قاله الأوروبيون وقله مؤرخونا المحدثون بعد ان أريتك بطلانه، وأوقفتك على ضعفه، ورايتك حال الدولة البربرية الكبرى القوية المستقلة كل الاستقلال، وحال الرومان الخائفين القلقين على مصيرهم في افريقية.

قال : الأستاذ عثمان الكعاك وقد انخدع بدعاوى الأوربيين وكيدهم، فصور مصينيسا على غير حقيقته في صفحة 72 من كتابه (الموجز) ووصف الرومان بالسلطان الذي لم يكن أهم على المغرب، قال: «ثم لما قربت وفاة مصينيسا استقدم إليه الاميلي (قائد الرومان الذي ينازل قرطاجنة) وأوصاه بنائه خيرا، وعهد إليه ان يقسم بينهم الملك بعد وفاته !!»

وقال الأستاذ أميلي وقد ردد قول الأستاذ الكعاك: ولما وصل سبيون إلى قرطة، ووجد مصينيسا قد توفي انتخب ثلاثة من أبنائه، فاجلس على كرسي المملكة مصيبسا،

وعين غولوسة قائدا عاما للجيش، وعين منستابعل وزيرا للقضاء» !![84]

وقال الأستاذ احمد صفر في كتابه:»مرض مصينيسا مرضا عضالا، وأحس بدنو اجله، فاستقدم صديقه سبيون إلى عاصمة مملكته قرطة كي يوصيه بأبنائه خيرا، فأسرع سبيون إليه، ولكنه وصل بعد موته بيومين، فقسم السلطة على أبنائه الثلاثة».[85]

تزلف الرومان إلى الدولة البربرية الكبرى وطلبهم ودها وحلفها

كان الرومان يخطبون ود الدولة البربرية الكبرى، دولة مصينيسا، ويحرصون كل الحرص على بقاء الحلف القديم الذي عقدوه مع مصينيسا، وعلى إبعادها عن الدولة البونيقية. فلما توفي مصينيسا، وأسرعت الوفود إلى قرطة للتعزية، وكان سبيون الاميلي قائد الرومان في افريقية، ذهب إلى التعزية في وفد من خاصته، فوصل بعد أسابيع من وفاة مصينيسا إلى قرطة، فعزى الملك مصيبسا في أبيه، واستماله إليه، وسأله إعانة حربية كبرى يتقوى بها على قرطاجنة. انه قد ذهب معزيا ومستغيثا بمصيبسا، ومؤكدا للحلف القديم بين الدولتين. ولكن المؤرخين الأوربيين سيما اللاتينيون منهم قد رأوا ذهاب سبيون إلى قرطة فقالوا انه قد ذهب ليقسم ملك مصينيسا على أبنائه ! وادعوا ذلك الادعاء الباطل الذي يصور أجدادهم الرومان سادة المغرب قبل ان يحتلوه، ويصور البربر الأقوياء الأباة امة ضعيفة خاضعة قد استسلمت للرومان قبل ان يغزوا أرضها، ويحاولوا التسلط عليها ! ! وإذا كان سبيون قد وصل حقيقة إلى قرطة بعد وفاة مصينيسا بيومين، فانه قد ذهب إليه مستنجدا مستغيثا، فمات قبل وصوله إليه، لأننا نرى الملك مصيبسا يبعث مع سبيون الاميلي هذا قائد جيشه غولوسة في جيش كبير أيد الرومان وقواهم على فتح قرطاجنة. قال الأستاذ احمد صفر «وعاد سبيون من قرطة إلى افريقية، مصحوبا بالقائد غولوسة، وعدد عظيم من القوات النوميدية».[86]

ان من يصف مصينيسا ببغض الرومان، وبقوة الدولة، ثم يقول انه أوصى سبيون بأبنائه خيرا، وجعل لهم أمر تقسيم الوظائف بين أبنائه، يناقص نفسه، ويصف

84 - تاريخ الجزائر ج 1 ص 136 ط بيروت 1963م.

85 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 248 ط تونس 1959.

لقد ردد الأستاذ احمد صقر هذه الدعاوى الأوروبية التي توحي بتعظيم الرومان واحتقار البربر في أكثر من صفحة في كتابه ، منها ما ورد في صفحة 274 فلو اعمل العقل المنطقي في هذه الدعاوي التي أكدها لفندها وبين بطلانها، ولكن عيب كثير من مؤرخينا أنهم لا يعتقدون في حماس ان تاريخ المغرب هو تاريخهم فيجب ان يدرسوه في عمق ويهضموه مل الهضم، ويكتبوه من جديد، لا ان يرددوا دعاوي الأوروبيين، ويحشروا ترهاتهم فيشينوا كتبهم النفيسة، ويعقوا أجدادهم وتاريخهم !

86 -مدينة المغرب العربي ج 1 ص 182 ط أولى بتونس.

الشيء بالبياض والسواد في وقت واحد، ويقول ما لا تصدقه العقول العالمة وذوو الذكاء والاستنباط.

إعجاب المؤرخين بمصينيسا وثناؤهم عليه

وقد نوه كل المؤرخين القدماء والمعاصرين بمصينيسا، واثنوا عليه، وأعجبوا بشخصيته العظيمة، وأعماله الكبرى.

قال استيفان قسال:»ان مصينيسا اكبر ملك بين الملوك في المغرب، كيوسف ابن تاشفين ألمرابطي، وعبد المؤمن ألموحدي، والشريف المغربي مولاي إسماعيل هؤلاء الملوك العظماء الذين يشبهونه في وجوه عديدة».[87]

وقال بواسيار:» كان مصينيسا هو المؤسس الفعلي لمملكة نوميديا، وكان رجلا عظيما».[88]

وفاء البربر لمصينيسا بعد وفاته

لقد توفي مصينيسا ففقد المغرب الكبير شخصية، ولكن قلوب البربر كلها ظلت قرونا وهي عامرة بذكره والإعجاب به والاعتزاز بدولته العظمى، وشخصيته النادرة وظل مصينيسا في قلوب البربر يشغل فيها الثورة على الرومان، وعلى كل أعداء المغرب الذين استعمروه وأرادوا به شرا.

وكان البربر الإفريقيون يحبون مصينيسا ويعجبون به، ويعترفون بجملة. لقد حررهم من عبودية البونيقيين، وضمنهم إلى دولته البربرية الرءوم. ولما توفي ظلوا يذكرونه وقد أقاموا له معبدا بمدينة دقة في غرب افريقية أحياء لذكراه بمناسبة مرور عشر سنين على وفاته. ان مصينيسا هو زعيم البربر وأبوهم، فلزام على المغرب ان يمجده في كل أنحائه !

عمر مصينيسا ومدته في الملك

كان عمر مصينيسا لما توفي تسعين سنة. لقد ولد في سنة 238، وتوفي في عام 148 ق.م ودفن في قرطة أو قريبا منها. قال الشيخ مبارك ألميلي «وبالحروب جنوب قرطة قبر احد ملوك نوميديا، ويظنه مؤرخو الإفرنج لهذا العهد انه قبر مصينيسا».[89]

87 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 182 ط أولى بتونس.

88 - كتاب قرطاجنة في أربعة عصور ص طبع حسين الجزيري بتونس.

89 - تاريخ الجزائر الميلي ج 1 ص 135 ط بيروت 1963.

وكانت مدته في الملك نصف قرن وأربعة أعوام. وكانت كلها عملا مستمرا للنهوض بالمغرب، وبناء دولته القوية التي تحفظه من الأعداء، وثورته السعادة والهناء. انه من زعماء المغرب الممتازين خدموه في إخلاص، ووهبوا له حياتهم، وشرفوه في العالم؛ فلزام على المغرب ان يفي له، ويكتب تاريخه، ويعتني به كل الاعتناء في التاريخ القديم.

وكانت عاصمة مصينيسا هي قرطة (قسنطينة) فهو اكبر من بناها وشرفها وجعل العيون تتجه إليها من أنحاء العالم. ليت شعري هل تفي له، فتسمى شارعا من شوارعها الكبرى باسمه تخليدا له، ولفتا للأجيال إليه، ليقرأوا تاريخه، فيتعلموا منه الإخلاص والتضحية والأقدام، ويعلموا ان ووطنهم (المغرب الكبير) كان يرفع راية الحضارة الراقية، ويبني الدول العظمى لما كانت اغلب بقاع الدنيا تغط في نومها، وتحيا في الجهالة والظلمات!؟

لقد وفت مدينة قسنطينة ليوغورطة فسمت مدرسة كبيرة من مدارسها باسمه فهل تفي لمصينيسا فتسمى باسمه مدرسة من مارسها، وشارعا كبيرا من شوارعها؟ ان هذا ما ستفعله مدينة قسنطينة العتيدة، وهذا ما تفعله (بلديتها) إذا كانت تعرف تاريخها وتعتز به.

وبعد مصينيسا جاء ابنه مصيبسا . وكان أبوه قد مهد له كل شيء ولصلح له كل الأمور، وأزال من طريق الدولة كل العقبات، ودفع بالبربر الناهضين في قوة وبراعة في طريق لا يمكن خروجهم منه، وهو طريق العمل والنشاط والاستعداد للتنين الروماني الذي يتهيأ للالتفاف على المغرب، فأنساهم العمل والاستعداد كل الحزازات، والمنافسات، فاتحدوا وهدأت الدولة، وظلت على استقرارها أيام مصينيسا وهنائها، فاستراح مصيبسا. فكيف كانت أيام هذا الملك الجديد؟ وكيف كانت شخصية خليفة فقيدنا مصينيسا زعيم المغرب العظيم؟.

مصيبسا بن مصينيسا 148-119 ق.م

شخصية مصيبسا وعهده

كان مصيبسا قد ورث خصائص أبيه الخلقية والعقلية، فكان حازما، مخلصا غيورا على الدولة مثله، كما كان حصيف العقل، حسن التدبير، موفقا في سياسته للدولة فهدأت له الأيام، وأعجبت به رعيته، واتصل في عهده الاستقرار الذي أورثه مصينيسا لدولته، فلم يثر عليه ثائر في الداخل ولا في الخارج، فواصلت الدولة سيرها في طريق البناء والتشييد التي دفعها فيها مصينيسا، فازدهرت في كل نواحيها وأعلت صروحها في كل جهاتها، فانتشر العلم في الرعية، والغنى في جماهير الدولة، وحب الحضارة في طبقات الشعب، فازداد إقبالهم عليها، فكانت الدولة البربرية هي التي تحمل راية الحضارة بعد البونيقيين، وهي التي ورثت مدينة قرطاجنة وزادت فيها، وطبعتها بطابعها.

وكان عهد مصيبسا هو الزمن الذي ظهرت فيه نتائج جهود مصينيسا كاملة. لقد تثقف البربر كما أراد، واقبلوا على الزراعة، والصناعة، واستعدوا لعدوهم بالتربية العسكرية، واقبلوا على العمل المستمر والجد الدائب في كل الميادين، واتحدوا وتآزروا فلم تنفصل ناحية عن الدولة، وأدركوا كلهم خطر الرومان فاستعدوا لهم بالاتحاد. فقطف مصيبسا ثمار جهاد أبيه، فعاش قرير العين بحسن الاتجاه الذي كانت عليه دولته بفضل والده، وبالاستقرار والهناء التي ترك مصينيسا أسبابها كاملة في الدولة.

غرام مصيبسا بالعلم والفلسفة وعكوفه عليهما

وكان مصيبسا لما ولي الملك في كهولته، انه في التاسعة والخمسين من عمره، وكان عاقلا حكيما وذكيا عالما، وقد أيد فيه الاستقرار الذي كانت عليه الدولة رزانته ووقاره، وحبه للعلم، وغرامه بالدراسة، كما كان جهاز الدولة الذي أحسن اختياره له فضل كبير في ذلك، وكان أخواه غولوسة ومنستابعل قد قام مل منهما بما عهد إليه أحسن قيام فكان منستابعل وزير القضاء، وغولوسة وزير الحرب، فخف كاهله، ووجد الوقت الفسيح للاستغراق فيما يحب ويهوى، وهو العلم الذي غرس حبه مصينيسا في أبنائه وفي دولته، فاقبل على خزائن أبيه من الكتب، وعلى خزائنه، وعلى خزائن الدولة التي

غنمتها من قرطاجنة. فوجد فيها ضالته من العلم والفلسفة. فكان يقضي أوقات فراغه في الكتب أو في مذكرات العلماء والفلاسفة، أو في إفادة حاشيته من واسع علمه، وغزير معرفته.

وكان مصيبسا يحسن ثلاث لغات: البونيقية، والإغريقية، والرومانية، أفادته اللغتان البونيقية والإغريقية في الدراسة والاستزادة من العلم. وكان يميل إلى الفلسفة الإغريقية، ويعتني بدراسة كتبها، ومناظرة الفلاسفة اليونان الذين يزورونه في عاصمته ويرغبون في التحدث معه لسعة علمه، وغزارة معرفته، وعمق إدراكه لإسرار الفلسفة ودقائقها.

وكان مصيبسا يدفع بشعبه في طريق العلم والمعرفة، وينفخ حبه للعلم في رعيته، فتأثر به البربر واقتدوا به، فازدادوا نشاطا في التعليم، ومنافسة في معرفة ما تركت لهم الدولة البونيقية من مختلف العلوم.

قوة البربر واختيارهم من غنائم قرطاجنة لمكاتبها الحافلة

ان غرام مصيبسا -وهو رأس الدولة وعنوانها- بالعلم، واختيار غولوسة وجيشه الذي فتح قرطاجنة مع الرومان من غنائم قرطاجنة الكبرى لخزائن الكتب التي كانت تشتمل عليها مكتبة الدولة، دليل على نضوج البربر وحبهم للعلم والمعرفة

وكان فرح مصيبسا بتلك الخزائن التي نقلت إلى نوميديا، وفرح شعبه كبيرا لحصولهم عليها، ونجاتها من الحرق والتدمير الذي عفي على قرطاجنة، وأزالها من الوجود . إنهم قد غنموا من قرطاجنة لما غنموا كتبها أنفس كنوزها، أثمن أعلاقها، وفازوا من الغنائم بأحسن مما أخذه الرومان. لقد كان البربر أكثر نضوجا من الرومان، واعلم منهم لاختيارهم للكتب من الغنائم، ولإثارهم للعلم الباقي، والمعرفة التي هي أنفس شيء في الوجود!

قد يكون الرومان قد رغبوا في خزائن قرطاجنة من الكتب فاستأثر بها غولوسة قائد جيش مصيبسا. وهذا دليل على مكانة البربر وقوتهم وأثرهم الأكبر في فتح قرطاجنة، فكان لهم نصيب الأسد من الغنائم، وانتقاء القوي المنتصر من الأسلاب وهو دليل أيضا على تقرب الرومان إليهم، وحرصهم على استرضائهم، لأنهم دولة قوية يحتاجون إلى عونها ومؤازرتها في كل الميادين، فأثروهم بأنفس شيء في الغنيمة ورضوا بان تنتقل كل الكتب إلى الدولة البربرية حتى التي تمثل شخصية البونيقيين العظيمة، وهم حريصون على إزالة تلك الشخصية ومحوها من الوجود.

وقد نظر الأستاذ احمد صفر إلى الغنائم والأسلاب في قرطاجنة نظرة الطفل الذي يفتتن بالمادة ويستبيه البريق، ويحتقر المعاني ويعرض عنها، فحكم بان البربر لم يأخذوا من الغنائم إلا الفتات، وان الرومان قد بخسوهم حقهم، واحتقروهم؛ وجعل الرومان في معركة قرطاجنة هم كل شيء، يأخذون ما يريدون، والبربر معهم كالخدم مع السادة يأخذون فضلاتهم، وما يزهدون فيه! ان هذا غلط كبير. لقد كان غولوسة وجيشه البربري هم القوة الفعالة التي عجلت بفتح قرطاجنة. وكانوا يمثلون دولتهم المستقلة القوية الرافعة الرأس. وما كان للبربر ان يخشعوا للرومان، وهم يستعدون مل الاستعداد لحفظ المغرب منهم. ان الحازم الكيس كغولوسة وجيشه، لا يخنع للعدو فيطمع فيه، بل يريه جانب القوة، ويقف إمامه رافع الرأس، ويعامله معاملة الند لنده لا يرضى ان يحتقره أو يبخسه حقه ة سيما في مجال الحرب الذي تقسم فيه الغنائم على حسب الغناء في المعركة، والدرجة في البطولة والأقدام.

قال الأستاذ صفر:» وتخلفت رومة لأبناء مصينيسا عن بعض فضلات الغنيمة لا تسمن ولا تغني من جوع، فتركت لهم مكتبة قرطاج، وتنازلت لهم عن بعض الأراضي!».

ان هذا الكلام لا يليق في أسلوبه ومعانيه. انه ينطوي على احتقار العلم، والاستخفاف بالبربر، وعدم المبالاة بالتراث العلمي العظيم الذي تركته قرطاجنة. انه ليس فتاتا تلك الخزائن الغاصة بالكتب البونيقية النفيسة، بل هي لباب الغنائم وخيرات السلب، وأحسن ما تختاره الأمة الناضجة الواعي. لقد أبيحت قرطاجنة للجند الفاتح أياما، فاخذ البربر من نفائسها المادية ما يشاءون، واخذ مصينيسا قبل ذلك من أراضيها أخصبها وأغناها، ولم يترك من افريقية للرومان إلا نحو الثلث. وهاهم يستأثرون بكنوزها الأدبية، فهل بقي لهم من شيء نفيس لم يأخذوه؟!

ان عيب المؤلفين المحدثين في تاريخ المغرب هو إيمانهم بالمراجع الأجنبية وتقليدها حتى في احتقار مغربهم، والإزراء بأجدادهم، والغض من مقام البربر الرفيع، وتمجيد كل ما هو روماني، وجعله شيئا رفيعا نافعا كالسحاب ولو كان غبار المراغة! !

كان مصيبسا عالما جليلا، وفيلسوفا حكيما، يحب القراءة ويشغف بالعلم، وكانت دولته مثله في الغرام بالعلم والهيام بالمعرفة.

غرام مصيبسا بالجمال والحضارة وتزيينه لعاصمته

وكان متحضرا قد أعجب بالحضارة البونيقية والإغريقية فاقتبس منهما الصالح

الذي يليق بدولته، وأشاعه في رعيته. وكان يحب الجمال. يريد ان يراه في كل شيء في دولته، في سيرة رعيته، وفي عقول أمته، وفي المدن والقرى، وفي القصور والجدران فاعتنى بعاصمته قرطة كل الاعتناء، فلم يكتف بجهود البربر المثقفين في تجميلهما وتحصينها بل جلب إليها طائفة من اليونان، فأعانوا البربر في البناء والزركشة وعلموهم ما لم يعلموا من الفن المعماري الإغريقي، فصارت قرطة في الجمال والروعة والزخرف والنظام عروس المغرب، وأمست للدولة البربرية الكبرى هي المحيا الفاتن في الجسم القوي وصارت للمدن في الدولة قدوة في الزخرف والنظافة، والنظام والجمال، فاقتدت بها

وكان الغنى الذي كانت عليه الدولة البربرية، والثقافية المنتشرة في طبقاتها، والاستقرار والهناء الذي تنعم به، مما جعلها تغرم بالجمال وتقبل على الزخارف والنقوش وتحرص على الحسن تريد ان يكون في كل أشيائها.

وكانت قرطة إلى جمالها وزخرفها، حصينة عالية الأسوار والأبراج. وكانت كثيرة العمارة غزيرة السكان تستطيع ان تجند من سكانها عشرة آلاف رجل، وعشرين ألف فارس. وهذا دليل على الرخاء والهناء، وسعة الأرجاء في قرطة، فاقبل عليها الناس من كل أنحاء المغرب.

وكان مصيبسا يحافظ على القوة العسكرية التي تركها مصينيسا في الدولة. انه يعرف ضمائر الرومان للمغرب. إنهم لص يساكنه في داره فيمناه لا تفارق مقبض سيفه، وهو لا يغفل عن جيشه وأسطوله وتقويتهما والمحافظة عليهما.

سياسة مصيبسا الحكيمة مع الرومان

وكان مصيبسا يكره الرومان كوالد. وكان حريصا على الاستقرار في الدولة لينجز البربر كل مشاريعهم، وتبني الدولة نفسها في كل النواحي، فتستطيع مصارعة الرومان ومكافحتهم، لذلك كان يهادن الرومان ويداريهم، ويسلك معهم مسلكا حكيما لا يثيرهم عليه، ولا يجعل لهم سلطانا على دولته.

وكان الرومان يحتقرون مصيبسا ويخشون جانبه، وكانوا يتخذون كل وسيلة لاستبقائه على الحلف القديم الذي ابرموه مع أبيه. وكانوا يستنجدون به في حروبهم الكبيرة فينجدهم. وكان اكبر أغراضه في إعانتهم ان يزداد الجيش البربري قوة وتمرنا على الأساليب الرومانية في الحروب، وان تذكو صفاته الحربية فلا يضعفها السلم الدائم، فان الاستقرار الذي كانت عليه دولته، وخلوها من الأعداء والحروب، مما يوهن الشخصية الحربي في جيشه. كان غرض مصيبسا من إرسال جيوشه ليحاربوا مع الرومان، لا تملق

الرومان والخضوع لهم كما يقول المقلدون، بل إرهاف شجاعتهم والزيادة في دربتهم، ومنعهم من نسيان فنون الحرب التي يتقنونها، واكتساب الأساليب الحربية الجديدة من الرومان والأمم الأوروبية والشرقية التي يشاركون في محاربتها.

وكان الرومان قد استنجدوا بمصيبسا في سنة 148 لما استعصت عليهم قرطاجنة فذهب إليه سبيون الاميلي قائد الرومان مستغيثا، فانجده بجيش قوي أرسله مع قائد جيوشه أخيه غولوسة. كما استنجدوا به في حروبهم مع جمهورية نومنسة في الأندلس في سنة 134 ق.م فانجدهم بجيش كبير فيه اثنا عشر فيلا، وجماعة كبيرة من الفرسان وحاملي القسي وحاملي المقاليع، وأرسله تحت قيادة ابن أخيه البطل القوي يوغورطة فاستطاع يوغورطة بكفاءته الحربية وجرأته، وبشجاعة جيشه البري ومضائه، ان يفض قلعة نومنسة ويفتحها للرومان.

قال الأستاذ صفر:»وبعد سقوط نومنسة في صائفة سنة 133 شكر سبيون قائد الرومان يوغورطة وأكرمه أمام الجيش؛ وصرفه مبجلا معظما بعد ما سلمه رسالة خاصة إلى مصيبسا يمجد فيها أعماله !».[90]

وكان الرومان قد استنجوا في حروب كثيرة بمصيبسا فانجدهم، كما كانوا يشترون من الدولة البربرية الغنية الحبوب، والزيت، والعدد الحربية، والفيلة المدربة، وغير ذلك من غلال المغرب المخصب الغني، وسلعه الجيدة.

وكان الرومان اكبر زبون للدولة البربرية، تبعهم ما يحتاجون إليه بثمنه، وكانت علاقاتها بهم علاقة التاجر العزيز الأبي الغني بزبونه. ولم تكن الدولة البربرية تخضع للرومان، وتتمرغ تحت أقدامهم، ويرونها مزرعتهم يأخذون منها ما يشاءون، كما يقول الضعفاء المقلدون الذين يرددون دعاوي الأوروبيين التي تزري بأجدادهم، وتحتقر جنسهم الكريم الأبي.

قال الأستاذ صفر:»وبعد انتصار الرومان على قرطاجنة وتهديمها اكتفت رومة مبدئيا بالاستيلاء على ارض حكومة قرطاج افريقية) لان أبناء مصينيسا كانوا كلهم طوع أمرها، ورهن إشارتها ! وكانت تعتبرهم تحت ظلها وحمايتها، فلم تر فائدة في زيادة الاستيلاء على مملكتهم التي كانت تستغلها بدون عناء ولا كلفة ولا نفقات! وكانت تعتبرها تحت تصرفها مثلما كانت تصرفت في الملك غولوسة وفي قواته العسكرية فربحت بهم الحرب ضد القرطاجيين!».

.مدينة المغرب العربي ج 1 ص 276 أولى بتونس - 90

ان هذه دعاوي أوروبية باطلة قد رددها الأستاذ صفر في أكثر من صفحة في كتابه وقد بينا خطأها في باب مضى[91] انه كلام لا يقوله إنسان يعرف كل أبواب التاريخ القديم للمغرب. ولا يصح ان يصدر من الأخ صفر الذي شرع بعد هذه الدعوى بصفحتين يشرح مصارعة الرومان العنيفة الطويلة المهولة للدولة البربرية ليصرعوها كي يستولوا عليها وعلى المغرب كله. ان الأستاذ قد ناقض نفسه بعد صفحتين، وأبطل ما دعاه من «ان الرومان لا يرون فائدة في زيادة الاستيلاء على المملكة البربرية لأنها تحت تصرفهم الخ»

لو ان الأستاذ رأى تاريخ المغرب الكبير كله تاريخه، ونواحي مغربنا كلها وطنه لاعتنى بأبواب تاريخ المغرب كلها عناية واحدة، وترك الأقلية الضيقة التي تجعله يوجز في الدول النوميدية والموريطانية ويشير إليهما، لا يدرس في عناية أخبارها ليدرك الصحيح الذي ينقله، والزائف الذي يطرحه ويرد عليه، ولا يراها دول أجداده فيسهب فيها كما فعل في الدول التي نشأت في افريقية. لقد عكف على الدولة البونيقية التي ثار عليها أجداده، وعلى الدولة الرومانية التي استعمرت وطنه وقتلته، فأسهب فيهما، لان الدولة البونيقية كانت في افريقية، والدولة الرومانية قد علمته مراجعة الفرنسية وأساتذته الأوروبيون ان يمجدها، ويعتني بها أكثر من عنايته بدول أجداده في المغرب الكبير !!

أننا نعجب بكتاب (مدينة المغرب العربي) ونراه اكبر يد يقدمها الأستاذ صفر إلى الأمة المغربي، والى المكتبة العربية، ولكنه قد جاء فيه بهنات ان اغتفرت لمؤرخينا في عهد الاستعمار الغاشم، فلا تغتفر لهم، ولا تجوز منهم في عهد الاستقلال الذي يوجب علينا أنصاف امتنا المظلومة، وتاريخنا المغبون.

وفاة منستابعل وغولوسة

وكان منستابعل وغولوسة أخوا مصيبسا يحملان معه أعباء الدولة، فتوفيا في سنة 145 ق.م بعد أربع سنين من ولايته الملك، فاستعاض عنهما بابنيه همصال، وآذربعل وابن أخيه يوغورطة. لقد كان يوغورطة شجاعا، داهية، كعمه غولوسة، فجعله قائد الجيش، واستعان بابنيه لا سيما هيمصال في الشئون السياسية، وكان يدربهما ليكونا خليفته في الملك، ولا يتغلب عليهما ابن عمهما يوغورطة فيستولي على المملكة كلها.

وقد ظلت الدولة البربرية الكبرى هادئة مطمئنة لم تقع بلبلة طول عهد مصيبسا

91 - انظر ذلك في صفحة 253 من هذا الجزء.

في الملك، وذلك لرضى البربر عنه، وإقبالهم على العمل، واشتغالهم بحظوظهم في الغنى والعلم والحضارة، وكل النعم التي أسبغتها عليهم دولتهم الكبرى.

وفاة مصيبسا ومدته في الملك

وفي سنة 119 ق.م أدركت مصيبسا الوفاة، فحزنت عليه الدولة، وأشفق شعبه من فقده، ورأى في الأفق غيوما تطلع على المغرب بعد مصيبسا فتعكر أيامه، انه سواد الرومان الذين لا يبغون للمغرب إلا سرا، فوضعوا أيديهم على قوائم السيوف وتمنوا ان يكون ملكهم بطلا جسورا كمصينيسا، فنظروا في العائلة المالكة فوجدوا يوغورطة فتنفسوا الصعداء.

وكان عهد مصيبسا في الملك تسعا وعشرين سنة، من سنة 148 إلى سنة 119 ق.م وعمره ثمانية وثمانين عاما، فمن الذي جاء بعده من الملوك الكبار الذين رفعوا رأس المغرب؟ انه يوغورطة! هذا البطل الذي سنوفيه حقه بعد ان نلم بابني مصيبسا اللذين فتحا باب المغرب للرومان، كيف وقع هذا ومتى؟

يوغورطة بن منستابعل 119-104 ق.م

نسبه الكريم ونشأته الحسنة

هو يوغورطة بن منستابعل بن مصينيسا. المؤرخين يسميه يوغرطة. وأنا اختار يوغورطة لأنه أفخم وأليق بشخصيته القوية.

وكان والد يوغورطة هو منستابعل. وقد عينه والده مصينيسا وزير للعدل في دولة مصيبسا. فتوفي في سنة 145 ق.م فترك ابنه يوغورطة في عنفوان الرجولة وفورة الشباب. وكان سن يوغورطة لما توفي والده حوالي سبع وعشرين سنة كما يدل رسمه الذي وضع أيام ملكه. ان رسمه أيام ملكه ينبئ بأنه في العقد الخامس أو أكثر. وفي آخر أيام الشباب، وعلى أبواب الكهولة.

وكان يوغورطة قد اعتنى والده بتربيته وتثقيفه، وعلمه الفروسية، وفنون الحرب، واعتنى به في كل نواحيه، ورباه تربية الحكيم الذي يعرف كل مواهب ابنه نواحيه، ورباه تربية الحكيم الذي يعرف كل مواهب ابنه فيستخرجها كلها بالأسلوب الحكيم في التربية، وينميها فيه كلها بالتدريب والتعليم.

وكان منستابعل معجبا بذكاء يوغورطة وبشجاعته وإقدامه، وطموحه، وبغيرته على قومه، وبالشخصية الحربية الاجتماعية القوية فيه. فأيقن انه هو الذي يخلف جده مصينيسا في صفاته، ويقوم بعمل كبير في المغرب، فغرس فيه أحسن المثل العليا، وأنشأه على الإخلاص لامته، وعلى الغيرة على دولته، وعلى الاعتداد بجنسه وعلى العناية بشئون المغرب كلها، وارضعه وهو طفل كره الرومان، ونقش في قلبه العداوة لهم، واراه نواياهم السيئة للمغرب، وأطماعهم فيه. فنشأ يوغورطة وهو مستعد ليكون كاهل أمته يحمل أثقالها، وعميدا للدولة ينوء بأحمالها، وسيف المغرب البتار يجالد أعداءه، ويمزق في التراب كل مستعمر يريد استعباد أمته، وإذلال الأمازيغ الأحرار.

شخصيته العظيمة

وكان يوغورطة شجاعا، جريئا، قوي الجسم، خفيف الحركة، فاغرم بفنون الحرب والفروسية فبرع فيه. فكان فارسا مغوارا لا يشق له غبار في الفروسية، مقاتلا ماهرا

لا يقف إمامه قرن في المعركة. فنضجت شخصيته الحربية القوية، وبدت فروسيته فأعجب به البربر والتفتت إليه الأنظار من كل أنحاء الدولة وعلقوا فيه آمالا كبيرة.

وكان يوغورطة إلى شجاعته وفروسيته، وقوة بنيانه، جميل الجسم، بهي القسمات، رائع الطلعة، مع قوة تنبئ ببطولته، فزاد جمال خلقته في جمال شخصيته وقوتها، فتفتحت له القلوب، وأقبلت عليه نفوس قومه.

وكان ذكيا بالغ الدهاء، واسع الحيلة، عليما بالوسائل التي تحقق له أغراضه وتحبط كيد الأعداء والمنافسين له، ويقضي بها على مناوئيه بدون معركة، ويصل بها أهدافه البعيدة بأهون سعي.

حرص يوغورطة على توحيد المغرب الكبير ومقته للرومان

وكان يوغورطة غيورا على البربر كلهم، يحب الخير لهم جميعا، ويعمل جاهدا ليكون المغرب كله قويا، سعيدا، متصفا بكل ما يورثه الصدارة بين الشعوب، ويبوئه المكانة العليا التي تليق بعرقه ازكي ، واستعداده الكبير.

وكان مخلصا لدولته كلها وللمغرب كله فأعطاهما حياته، وقصر عليهم جهوده، فأحبه البربر وأعطوه قلوبهم، ودانوا بزعامته ورئاسته.

وكان قوي الإرادة لا ترده العقبات، ولا تضعف تصميمه وإصراره المحن والصعوبات. يزيده الفشل قوة فيكر على مراده، والخيبة وإصرارا فيهجم على غايته، وإذا انسدت أبواب للنجاح في وجهه طرق أبوابا أخرى. لا ييأس ولا يفشل. ان الانهزام هو الموت عنده، فتراه يفر منه ويتنزه عنه !

وكان يوغورطة يكره الرومان ويمقتهم. لقد عاشرهم واختلط بهم، ودرس نفوسهم، فعرف طموحهم لامتلاك المغرب، وعلم إنهم كالوحوش الضارية، لا يتسلطون على امة إلا مزقوا أوصالها، وقتلوها، وصيروها فرثا في أحشائهم، وعظاما بالية تحت أقدامهم! وكان يعلم ان الرومان يتمنون ان يمزق المغرب إلى ممالك عديدة ليغزوا بينها العداوة والبغضاء، فتتقاتل، فيضعف بعضها بعضا للرومان، فيكروا عليها جميعا، فيفترسوها. وأيقن ان قوة المغرب في اتحاده، وجعله دولة واحدة متماسكة الأطراف.

ان الاتحاد هو القوة. فالرومان لم يكتسبوا قوتهم فيكونوا دولة كبرى إلا لما وحدوا ايطاليا وجعلوا ممالكها العديدة دولة واحدة.

ان المغرب كله وطن واحد، وجنس واحد، لا اختلاف بين أجزائه وسكانه. ان الاتحاد بين

المغاربة أسهل. وهو اوجب. فما لم يتحدوا لا يستطيعون الوقوف في وجه الرومان. ان الرومان الذين احتلوا افريقية هم الحية القتالة التي تساكن أهل المغرب في دارهم. لابد من القضاء عليها. لابد من تهشيم رأسها وقذفها في اليم! ان توحيد المغرب في دولة واحدة هو وسيلته الكبرى لبلوغ هذا الغرض لينجو من الاستعمار الروماني الأثيم. ان توحيد المغرب واجب عليه. لابد ان يحققه. ان أمته مقبلة على خطر عظيم يكمن لها في الولاية الرومانية. يجب ان يكون ملك دولته قويا شجاعا بالغ الدهاء. انه ليس في عائلة مصينيسا من تجمع فيه هذه الأوصاف كلها غيره. ان قيادة دولته ورئاستها واجب عليه. ان تبوأ عرش الملك بعد عمه هو الذي يفتح له المجال لخدمة المغرب وتوحيده، وحفظه من الرومان. كان هذا الشعور يملأ قلب يوغورطة وكان هذا الرأي عقيدة راسخة فيه، تؤثر في شخصيته، وتوجهه في سلوكه؛ كان توحيد المغرب وتنظيفه من الرومان هو المثل الأعلى الذي يستولي على نفسه، ويدفعه في أعماله.

إعجاب الملك مصيبسا بيوغورطة وتبنيه

وكان الملك مصيبسا معجبا بيوغورطة، فضمه إليه، ثم تبناه في سنة 120 وصار كأحد أبنائه من صلبه. وكان يستكفي به في مهمات الدولة، ويعتمد عليه في الشئون الكبرى، ويستشيره في المشاكل، فيقوم بكل هذه المهمات كما يريد مصيبسا. فرشحه للملك من بعده، ولكن لا بد من إشراك واديه هيمصال وآدربعل معه في الملك. أنهما ابناه لا يمكن حرمانهما منه.

إشراك مصيبسا لابنيه مع يوغورطة في الملك

وطغت غريزة الوالدية على مصيبسا، ورانت على عقله وحكمته، فلم يحسن الاختيار للدولة، ولم يتقيد بالقانون المعهود عند آل نارفاس في وراثة الملك. ان العادة ان يتولى الملك أسن رجل في العائلة. قد يكون الآسن الصالح للملك هو يوغورطة. كان يجب ان يترك له الملك، ولكن مصيبسا جعل الملك إرثا لعقبه، فأوصى به لابنيه، وضم إليهما يوغورطة. فصارا ابناه هما الأصل في وراثة الملك ويوغورطة فرع لهما.

وكان هيمصال وآدربعل ضعيفين لا يستطيعان مصارعة الرومان، والقضاء على دسائسهم في المغرب. سيكونان سببا لتقسيم الدولة إلى دولتين أو ثلاث دول. ان هذا ما يعمل له الرومان سيحققه هيمصال وآدربعل. ان الدولة لفي خطر. لابد من إنقاذها، ولا يكون ذلك إلا بمنع تقسيمها، وتوحيد الرئاسة فيها. فجد يوغورطة لتحقيق هذا الغرض.

تقسيم الدولة البربرية الكبرى

وكانت وفاة مصيبسا في سنة 118 فاجتمع ابناه ومعهما يوغورطة في مدينة دقة في الجناح الشرقي لدولتهم. فلم يتفق الثلاثة. ان الابنين يردان ان تكون الرئاسة لهما ويوغورطة تابع لهما، ويوغورطة يراهما ضعيف لا يستطيعان القيام بما يستطيع هو ان يقوم به. ان الرئاسة العليا يجب ان تكون له هو. فاختلفوا. ثم اتفقوا على تقسيم الأموال والدولة. فاخذ هيمصال وآدربعل نوميديا وتركا موريطانيا الشرقية ليوغورطة. فابتهج الرومان بهذا الصنيع، ولكن يوغورطة ساءه ورآه هلاكا للدولة، فعزم على التخلص من ابني عمه الضعيفين وتوحيد الدولة.

اغتيال هيمصال والهجوم على آدربعل

وكان هيمصال بعد ان قسم المملكة ذلك التقسيم قد آوى إلى مدينة (اثمدة) بجوار (دقة) فأقام فيها للاستجمام. فدس إليه يوغورطة من قتله، فاستراحت منه الدولة. فبقي آدربعل. وكان اضعف من هيمصال. وكانت قرطة هي عاصمة آدربعل فأسرع إليها ليتحصن فيها. لقد كان مصرع أخيه نذيرا بما سيقع له. لابد من سحقك أيها الضعيف الجبان لتستريح الدولة من شر التقسيم! فجهز يوغورطة في سنة 114 ق.م جيوشه في موريطانيا الشرقية فداهم آدربعل في عاصمته. وكان آدربعل جبانا. ففر إلى رومة يستغيث بها، ويسألها ان تعينه على حفظ مملكته، وترسل معه جيشا يحارب له يوغورطة! !

دهاء يوغورطة وإحباط كيد الأعداء

وكان يوغورطة قد أرسل وفدا منه إلى رومة. فاستمالوا بالهدايا جماعة من كبار مجلس الشيوخ الروماني. فلما وصل آدربعل إلى روما، فذرف الدموع في مجلس الشيوخ واستعداه على يوغورطة، كان يوغورطة قد افرغ مجلس الشيوخ من باروده بعد مستعدا للانفجار.

وكان الرومان بودهم ان يتدخلوا في شئون الدولة البربرية، ويهجموا على يوغورطة، ولكنهم يعلمون قوة الدولة البربرية، وكره البربر لهم. سينضمون كلهم إلى يوغورطة ليحاربوهم فيكون ذلك ليوغورطة. ان هجومهم على الدولة البربرية لا تحمد عقباه. انها لا زالت في شبابها وقوتها، لا يمكن التغلب عليها! فآثر مجلس الشيوخ الوسائل الهادئة للإبقاء على دولة آدربعل. ان انقسام المغرب وتشققه هو الذي سيخلق فيه الديدان

فيسقط! لابد من بقاء دولة آدربعل. فأرسل الرومان إلى نوميديا وفدا للصلح.

حكمة يوغورطة ودهاؤه

كان ذلك في سنة 114. فجمع الوفد بين يوغورطة وآدربعل . فرأى يوغورطة من الحكمة ان يرد إلى آدربعل مملكته نوميديا ليرجع إلى قرطة، فيبتعد عن الرومان الذين يمكن ان ينجدوه، فيقع في حرب لم يستعد لها. ان محاربته آدربعل تجر له حروب الرومان، فلابد من الاستعداد الكبير ليستطيع الوقوف في وجه الرومان أيضا. فرضي يوغورطة برجوع آدربعل إلى مملكته فرجع إليها إلى حين.

هجوم يوغورطة على آدربعل وقتله جزاء خيانته وإضراره بالدولة

لابد من سحقك أيها الخائن الجبان الذي يستنجد بأعداء دولته، ويفتح الأبواب الواسعة لدخول الذئاب العاتية إلى وطنه! ولابد من توحيد الدولة فإنها على خطر بالتقسيم! فعكف يوغورطة يستعد لحرب آدربعل ولحرب الرومان الذين قد ينجدونه. فنظم شئون مملكته، وعقد الصلات الحسنة مع جيرانه بوكوس أجليد[92] ملك موريطانيا الغربية، ثم أكد صداقته له بالمصاهرة، فتزوج ابنته، ليأمن ظهره ا حارب الرومان. ولما أتم يوغورطة استعداده، كشر لآدربعل وعزم على سحقه. لن تفلت مني هاربا إلى رومة أيها النعجة السمينة. لابد من سحقك في قرطة! فسار يوغورطة في جيوشه إلى نوميديا ليحتلها.

كان ذلك في سنة 112 ق.م بعد ثماني سنين من ولاية يوغورطة للملك. فهجم على نوميديا فاحتل غربها كله فقرب من قرطة، فخرج إليه آدربعل فوقعت بينهما معركة انهزم فيها آدربعل ففر هاربا إلى عاصمته قرطة فاعتصم بها.

وكانت مدينة قرطة شديدة الحصانة بأسوارها العالية، وحصونها الطبيعية فعصمت آدربعل. فحاصره يوغورطة حصارا شديدا، وصمم على استنزاله، وشدد الرقابة عليه لكي لا يفر إلى الولاية الرومانية في افريقية أو إلى الرومان. ودام حصار يوغورطة لآدربعل في قرطة عامين.

وكان في قرطة جماعة كبيرة من الرومان يحترفون فيها الصناعة والتجارة والفلاحة.

---

92 - أجليد كلمة بربرية معناها الملك. أجليد بالجيم وليس الاقليد كما ذكر الأستاذ صفر الذي نقل هذه الكلمة من الكتب الإفرنجية التي حرفتها.

وكانوا طابورا خامسا لدولتهم.[93] وكانوا يكرهون يوغورطة لقوته، ويؤثرون آدربعل لضعفه. إنهم الانداء التي يرسلها الرومان على جدران الدولة لتوهنها ثم يفيضون عليها، وهم مقدمة الغزو التي يخلق بها الرومان جيشا سريا في داخل الدولة ليسهل عليهم فتحها من الخارج. فتعصب هؤلاء العمال الرومانيون لآدربعل فلبسوا السلاح فوقفوا معه وراء أسوار قرطة يدافعون يوغورطة. وكانوا يذكون الحماس في آدربعل ويحثونه على الدفاع، ويمنونه بمسير جيش من روما فيفك عنه الحصار. فتصلب آدربعل في الدفاع، وطال صبره على الحصار.

وكان الرومان يقنون بان يوغورطة سيقضي على آدربعل فيوحد الدولة فيقع ما يخشونه. «فأرسلوا إليه في رفع الحصار والكف عن آدربعل مع ثلاث من النواب (وأبى ان يخاشنهم لكي لا يستفز روما للدخول في الحرب ضده) فاظهر لهم احترامه لروما، ولكنه لم يمتثل أمرها، فاستمر محاصرا لقرطة. فأرسلت إليه روما رسلا آخرين، وتعين الاجتماع بعوتيقة (عاصمة الولاية الرومانية بافريقية) فذهب إليها، وأوعز إلى جنوده بتشديد الحصار، ولما اجتمع برسل رومة اكتفى بإظهار احترامها أيضا».[94]

سبب تدخل الرومان في شئون الدولة البربرية

انه ليس للرومان أي سلطان على الدولة البربرية فلم تدخلهم في شئونها؟ ان آدربعل هو السبب. لقد ذهب إلى رومة فطلب حمايتهم فواعدوه. ان بقاءه في الملك وهو ضعيف سبب لإضعاف الدولة البربرية التي يرجون افتراسها. أما يوغورطة فهو شباب دولته وأجنحتها التي تطير بها فتنقض عليهم في افريقية، وتفتك بهم فتك البزاة بالحمام! يجب ان يفك الحصار عن قرطة ويبقى آدربعل في الملك. فأرسلوا وفدهم إلى يوغورطة وهم يرجون ان يتجهم له ويخاشنه، فيجعلوا ذلك سببا لحربه، ولكن يوغورطة بدهائه وحكمته لم يخاشن الوفد، ولم يجعل للرومان سبيلا عليه، فأحبط كيدهم له.

ان الموقف البارد الهادئ الذي وقفه يوغورطة مع الوفد الروماني، وتظاهره بالود والاحترام لروما، ليوحي إليها ويشعرها بان يوغورطة لا يراها جانبا في الخصام، ولا يرى لها أي حق في نوميديا، وأي سلطان على مملكة آدربعل حتى تحامى عنها وتأمره بالكف

---

93 - الطابور الخامس هو الجيش السري الذي يبثه العدو في الدولة التي يريد حربها للتجسس عليها، وتحطيم معنوياتها، وتخريب أجهزتها، وضربها من الخلف إذا اشتبك بها في الحرب.

94 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 139 ط بيروت.

عن محاصرة ملكها. أنا أجنبية. ليس لها حق في التدخل في شئون البربر. فرجع الوفد الروماني خائبا إلى رومة. ورجع يوغورطة إلى محاصرة آدربعل. وكان قد شدد عليه الحصار، فمنع عن قرطة الأقوات وكل المواد. فأودى بأهل المدينة الجوع. وكان كثير منهم شيعة ليوغورطة فسئموا من الحرب، وضاقوا ذرعا بالحصار، والجأوا آدربعل لمفاوضة يوغورطة، والعدول عن عناده. وأيس آدربعل من تدخل الرومان لنقاده، فاستسلم إلى يوغورطة. ودخل يوغورطة قرطة فملكها، فتتبع الرومانيين الذين كنوا في قرطة طابورا خامسا لدولتهم فقتلهم. ان مستقبله دهور قراع مع الرومان. فليبدأ بالعدو الداخلي ليأمن ظهره إذا صارعهم. إنهم قد رفعوا السلاح ضده، وحرضوا عليه. لو اقتصروا على الكيد لنفاهم. ولكن وجدهم في السلاح يحاربونه مع آدربعل.

وكان يوغورطة يوقن بان آدربعل مريض القلب لا يمكن ان يصفو له. سيثور عليه إذا وجد الفرصة. سيثيره الرومان إذا حاربهم فيضر به من خلفه. انه عدو للدولة وخطر عليها. ثم انه قد ذهب إلى روما، واستنجد بالرومان. وهم أعداء المغرب. ففتح الأبواب للتدخل في شئونه، وفرض سلطانهم عليه ! ! ان هذه خيانة كبرى للدولة وللمغرب كله تستوجب العقاب، وليس عقابها إلا الإعدام.

وكان البربر على حنق وغيظ على آدربعل. إنهم يتمنون ان يلاقي جزاء خيانته ويلك أيها الحمل الذي يستغيث بالذئاب، ويدعو الصلال إلى وطنه! ان جزاءك شيء براق مهول في يد الجلاد إذا هوى به عل الأعناق. فأمر يوغورطة جلاده فأهوى بسيفه على عنق آدربعل، فاستراحت الدولة، واطمأن يوغورطة.

توحيد يوغورطة للدولة واعتناؤه بالقوة العسكرية

كان ذلك سنة 112 ق.م. وقضى يوغورطة ست سنين وهو يجاهد بتوحيد الدولة، فتم له ما أراد وأراده كل البربر المخلصين. فضم يوغورطة نوميديا وتوابعها من افريقية وطرابلس إلى موريطانيا الشرقية فصارت كلها دولة واحدة كعهدها أيام جده مصينيسا وعمه مصيبسا. وكان حد الدولة من الشرق خليج سرت الأكبر، ومن الغرب وادي ملوية، ولا يخرج عن دولته يوغورطة من افريقية إلا الولاية الرومانية.[95] وعادت للدولة البربرية الكبرى قوتها لما اتحدت، وراجعها شبابها لما تولى يوغورطة رئاستها، ورأى الرومان في عينيها بريق الاعتزاز والاعتداد الذي يفيض من عيون الأسود الواثقة بنفسها. فخرجت قرطة وفرحت نوميديا كلها بانضمامها إلى دولة يوغورطة. وانتقل يوغورطة إلى

95 - انظر حدود الدولة البربرية الكبرى في الخريطة في آخر هذا الكتاب

قرطة فجعلها عاصمة ملكه. فاخذ بأزمة الدولة في عبقرية وإخلاص ليندفع بها في طريق القوة والعظمة والرخاء التي تركها مصينيسا، ويحقق أمل مصينيسا، فيضم موريطانيا الغربية إليه، ويحتل الولاية الرومانية ويقذف بالرومان في البحر ويصبح المغرب كله دولة واحدة تقف سورا حديديا في وجه الرومان لا يستطيعون اختراقه، وتصير هي المنافس الأكبر القوي للرومان في البحر الأبيض المتوسط لا يستطيعون التغلب عليه بالقوة. فاعتنى بالجيش والأسطول، وأكد في نفوس البربر ما كان قد غرسه فيها جده مصينيسا من تمجيد القوة، والتجرع بها في الأخلاق، وفي الجيش والأسطول، وفي كل نواحي الدولة. وكان يوقن بان مستقبل البربر دهور نضال وحروب مريرة مع الرومان الجشعين المعتدين الأقوياء. فلفت أنظار شعبه إلى الناحية العسكرية، ومجد البطولة والفروسية وجعلها سببا للتقدم في الدولة والنباهة في المجتمع. ورسم على احد الوجهين في نقوده صورة لبطل بربري قوي ومعه جعبة سهامه، وكنانة ذخيرته الحربية، كما رسم في نقوده الفيل وهو اكبر عدة للحروب في ذلك الزمان. انه كالدبابة الثقيلة يغني غناءها في الهجوم والدفاع. ورسم في نقوده الفرس تمجيدا للفروسية، وتحبيبا لها إلى البربر.

كانت القوة هي شعار دولة يوغورطة. انه نزاع إلى الاعتناء بدولته في كل النواحي، ولكنه رأى بنظره البعيد شر الرومان والغزو الروماني يحيق بدولته فاعتنى بالقوة أكثر ومجدها، وعلم البربر حب القوة وتعظيمها والحرص عليها في كل نواحيهم في أخلاقهم، وأجسامهم، وفي كل نواحي حياتهم. واراهم بما رسم في نقوده من شعارات القوة مع رسمه ان الملك إذا كان هو الرأس الذي تحيا به الدولة فالجيش وأبطالها وقوتها العسكرية هي الجهاز العظمي الذي لا تحيا بدون سلامته وقوته.

وكان يوغورطة كما اعتنى بالناحية العسكرية في دولته قد اعتنى كثيرا من الاعتناء بنواحيها الأخرى. سيما الفلاحة. فقد اعتنى بها كل الاعتناء ورسم النخلة في نقوده تمجيدا للفلاحة وإشعارا للبربر بأنها سبب الغنى، وهي الأم الولود للنقود الكثيرة، سيما النخلة التي عرف البربر فضلها فاستكثروا منها في المغرب. وكانوا أكثر الأمم اعتناء بها. وقد ضرب الملك يوغورطة النقود باسمه، واعتنى بكل ما يسعد الدولة ويقويها. وكان ملكا عظيما، ومن الأفذاذ الذين أورثوا المغرب عزته فرفع رأسه.

كان أمل يوغورطة امن يوحد المغرب كله في دولة واحدة متحضرة، غنية قوية متحابة متحدة كل الاتحاد ان المغرب وطن واحد، وأمة واحدة، ودين واحد. فلم انقسامه إلى دول

تتناطح، وجهات تتنابذ، وتجزئته إلى أجزاء صغيرة يسهل على الأعداء ابتلاعها ! لابد من توحيد المغرب لينجو من خطر الرومان، ويسعد ويهنأ ويسود.

هذا هو أمل يوغورطة، وهو أمل مصينيسا من قبله. فابتدأ يستعد ويتأهب، ولكن الرومان كانوا بالمرصاد، فعاجلوه قبل ان يستعد. فجهزوا جيوشهم الجرارة فأرسلوا عليه، فوقعت في المغرب الزلازل الكبرى، فلمن تكون الدائرة يا ترى؟



حروب يوغورطة مع الرومان 111-105 ق.م

كان الرومان في النصف الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد قد عزموا على القضاء على الدولة البربرية الكبرى التي تجاورهم، وتقف في وجوههم ليتأتى لهم غزو المغرب وامتلاكه. ولكن القضاء عليها بالسيف لا يمكن لأنها دولة قوية، شجاعة، واسعة الأرجاء، كثيرة الجند، والبربر كلهم سيهبون لقتالهم، وهم في الشجاعة، والثبات في درجة كبيرة لا يمكن معها إخضاعهم بالقوة. فعولوا علي الكيد لهذه الدولة ليضعفوا فيسهل القضاء عليها. ولما قسم أبناء مصيبسا تلك الدولة وتولى الملك في القسم الذي يجاورهم آدربعل الضعيف ابتهجوا وسروا. فرأوا في ذلك التقسيم ضعفا للدولة وفي ولاية آدربعل سببا كبيرا للهرم الذي سيسرع إليها، فيستطيعون التحكيم فيها، والقضاء عليها. وهب يوغورطة فوحد الدولة، وأعادها إلى حالها في عهد مصينيسا، وشمر لتوحيد المغرب كله ليكون دولة واحده فيغزو بها الولاية الرومانية في افريقية فيظهرها من الرومان، ويغلق المغرب في وجوههم إلى الأبد. فارتاع الرومان باتحاد الدولة، وتولي يوغورطة الملك فيها، وكانوا يعرفوا كفاءته وعبقريته، وما سيورثه للدولة وللمغرب كله من قوة وشباب فيتعذر التغلب عليه؛ ويعرفون عداوته لهم، وعزيمته فيهم. لقد قتل الرومانيين الذين وجدهم في قرطة، ولم يبال بطلب روما التي تضرعت إليه ان يكف عن مقاتلة آدربعل الذي طلب حمايتها فواعدته بها. ان يوغورطة عدو اللدود يجب القضاء عليه، وهو شباب الدولة وقوتها، فلا بد من القضاء عليه ليتأتي لهم أضعاف الدولة البربرية والقضاء عليها ! يجب ان يعاجلوه بالحرب قبل ان يستعد لحربهم. لا تزال جروح دولته بحروبه مع آدربعل دامية لم تندمل، ولا يزال الإعياء الذي أصابها في تلك المعارك يوهن قوتها، ولا يزال التصدع الذي أحدثته في دولته مصيبة التقسيم، وبلاء الفتن لم يرأب. إنهم إذا أمهلوا يوغورطة سنين أخرى، وأصلح شئون دولته ووحد المغرب كله تحت رايته لم يستطيعوه. فاتفق مجلس الشيوخ الروماني على محاربة يوغورطة وإزالته من الملك.

وكان النظام الجمهوري الذي تقوم عليه الدولة الرومانية يقضي بان تختار الدولة كل عام رجلين يقومان بالسلطة التنفيذية فيها، ومن وظيفتهما رئاسة مجلس الشيوخ، وقيادة الجيش، ويسمون الرجلين بالقنصلين.

وكان الرومان اكبر دولة في ذلك الزمان. وكانت دولتهم قوية شجاعة، كثيرة الجند، قد استعدت منذ زمن طويل لامتلاك دول البحر الأبيض المتوسط كله. وكانت قد استجمت من حروبها الكبيرة، واستطاعت ان تؤلف اكبر جيش من خيرة أبنائها المدربين الأقوياء، فأرسلته مع القنصل بستيا ليحارب يوغورطة.

كان ذلك في سنة 111 ق.م. فلم بشعر يوغورطة إلا والجيش الروماني يزحف من الولاية الرومانية إلى حدود دولته الشرقية، فأسرع إليه ليصده عن دولته، فوقع اللقاء حول مدينة باجة في الشمال الشرقي للدولة البربرية. فوقعت حرب كبيرة بين يوغورطة والرومان. انتهت بفوز الرومان وتغلبهم لأنهم كانوا أكثر استعداد لهذه الحرب من يوغورطة.

وكانت روما تريد من قائدها القنصل بستيا ان يضرب يوغورطة في المعركة الحربية ضربة كبرى ثم يقيده بشروط ثقيلة، وغرامات حربية باهضة توهنه، وتقيده ليقضوا عليه متى شاءوا. ولكن يوغورطة كان داهية. فما ان رأى كفة الرومان ترجح في المعركة وأيقن ان الغلبة لهم حتى سعى لإيقاف الحرب ليستعد الاستعداد اللازم لمواجهة الرومان في معركة أخرى، ويحفظ دولته من توغل الرومان فيها. فطلب الصلح من بستيا فأجابه إليه، لأنه يوقن انه يمكن التغلب على يوغورطة في جولة واحدة، وخاف ان ترجح كفة يوغورطة في الحرب إذا استمرت لما يعرف من شجاعة البربر واستماتتهم في الحروب.

وكان يوغورطة داهية قد عاشر الرومان وعرف نفوسهم، وعلم حبهم للمال وعبادتهم له، ودرس نفس بستيا قائد الرومان فعلم انه يستطيع رشوته بالمال. فيخفف شروط الصلح. فدس إليه البدر الثقيلة، والهدايا النفيسة، فأجابه لما أراد. فانسحب من تراب الدولة البربرية الذي احتله. وتساهل معه في شروط الصلح فكانت شيئا خفيفا لا يهبط يوغورطة ولا يضعفه. لقد اشترط عليه ان يدفع إليه أفيالا، وخيلا، وأنعاما وأموالا. فخرج يوغورطة من الحرب التي لم يستعد لها. وكان ينكسر فيه انكسارا كبيرا. ونجا بدهائه وحسن تصرفه، فعكف على جيشه يقويه، وعلى دولته يعدها للقراع الطويل.

وسمع مجلس الشيوخ الروماني بنجاة يوغورطة من قبضتهم، وانتصاره بدهائه. عليهم، فعزموا على امتحانه وإدانته، لينقضوا الصلح الذي ابرمه معه بستيا، فيجددوا الكرة عليه. فنهض يوغورطة فخاض معركة ديبلوماسية كبيرة مع الرومان فانتصر عليهم انتصارا كبيرا. ما هي هذه المعركة وأين وقعت؟

انتصار يوغورطة على الرومان
في المعركة الديبلوماسية الكبرى

كان مجلس الشيوخ الروماني يتتبع أنباء جيوشه التي أرسلها لمحاربة يوغورطة بكل اهتمام. وكان يعلق فيها آمالا كبرى. ولما بلغه نبأ انتصار بستيا على يوغورطة، امتلأ سرورا، ورقص للبشرى. ولكنه لما عرف ان بستيا قد أوقف الحرب قبل ان يحتل باجة، وهي العاصمة في الناحية التي وقعت فيها المعركة، ويتوغل في الدولة البربرية حتى يطأ ارض نوميديا، وعرف شروط الصلح الخفيفة التي وضعها بستيا على يوغورطة، خابت آماله في بستيا في الجيش، فاستشاط غضبا، وشعر بالرشوة التي استمال بها يوغورطة قائدهم وقناصلهم بستيا. فقامت قيامة أعضاء مجلس الشيوخ، وعزموا على محاكمة بستيا، وعلى نقض الصلح، وتجديد الكرة على يوغورطة. فأرسلوا إلى يوغورطة يستدعونه إلى رومة ليناقشوه في الصلح. وكانوا يعتقدون انه سيمتنع عن القدوم فيجعلون ذلك سببا لإبطال الصلح، وشن الحرب عليه.

وكان يوغورطة لدهائه يتظاهر بالصداقة لروما، ويخفي عداوته الشديدة لها. وأشاع ان بستيا لم يوقف الحرب، ولم يخفف شروط الصلح إلا لعلمه بنواياه الحسنة للرومان، وصداقته القوية لروما. ولما استدعوه إلى روما عزم على الذهاب رغم ما في وقوعه في أيدي مجلس الشيوخ الروماني من خطر القبض عليه، وخطر اغتيال أعدائه الكثيرين له في روما. لقد رأى بذكائه ان امتناعه عن الذهاب إثبات للتهمة التي يحرص مجلس الشيوخ على إثباتها في بستيا الذي أحسن إليه، وخفف شروط الصلح عليه، ونقض لما يتظاهر به من صداقة للرومان وحسن نيته لهم. ان أعدائه من شيعته آدربعل ومن الرومان في روما كثيرون. سيجدون في امتناعه عن الذهاب الحجة لما يؤكدونه من عداوة يوغورطة للرومان، ويجد فيه مجلس الشيوخ سببا لإثارة حرب كبيرة عليه وهو لم يستعد لها بعد. وكان الرومان يرونه الخطر الكبير الذي يهددهم من المغرب. ان الذهاب إلى رومة هو ما تدعو إليه الحصافة والدهاء فركب يوغورطة في حاشيته فاقلع إلى روما.

وكانت أيدي يوغورطة التي سيصافح بها مجلس الشيوخ الروماني ما زالت تقطر بدماء أبنائهم الذين قتلهم في قرطة، وفي الحرب التي خاضها معهم في افريقية، ولكنه مع ذلك ذهب إلى عاصمتهم اعزل لا جيش معه، وهو واثق بأنه سينتصر بدهائه

على مجلس الشيوخ الروماني، ويحبط كيد كل أعدائه، وينال كل أغراضه في روما، ويرجع إلى عاصمته قرطة مكللا بالفوز الباهر.

ووصل يوغورطة إلى روما فوجد مجلس الشيوخ متأهبا لإدانته والقبض عليه، وإدانة بستيا والحكم عليه بالإعدام. ولكن يوغورطة كان قد عاشر الرومان فعرف نفوسهم. إنهم يعبدون المال، ويقدسون بريق الذهب ! ان بدر الدنانير البربرية الوهاجة هي الدلاء التي ستطفئ النار المتأججة عليه. فاتصل بنائب من نواب الشعب في مجلس الشيوخ اسمه بابيوس، وكان كثير الأتباع في المجلس، ذا لسن ونفوذ، فرشاه بمال كثير، وبهدايا نفيسة من طرف المغرب، فواعده بالدفاع عنه في مجلس الشيوخ، وسد كل الأبواب التي سيحرجه بها أعضاؤه، والوقوف بجانبه في كل الأزمات التي تعترضه في روما.

وانعقد مجلس الشيوخ، فدخل يوغورطة في لباسه الملوكي، وفي هيئته المهنية، وهو رافع الرأس، مشرق الطلعة، لا يهاب احد ولا يخاف شيء. فابتدأ الأعضاء المتصلبون المتضرمون الكلام ليقدوا عليه صدور المجلس، ويثبتوا فيه عداوة روما، ورشوة لبستيا، فيقيض الرومان عليه، فانبرى لهم بابيوس، فدافع عن يوغورطة، وقال انه صديق روما. لقد حارب بجانبها في اسبانيا، وهو الذي فتح للرومان مدينة نومنسة.[96] لولاه ما فتحوها، وما انتصروا ذلك الانتصار الكبير ! ان بستيا قد أحسن صنعا بمجاملة هذا الصديق ! ان محاربة الملك يوغورطة غلط من روما قد أدركه بستيا لما وصل المغرب فأوقف الحرب، وان ما عرفه من حسن نوايا الملك يوغورطة للرومان هو الذي جعله يخفف شروط الصلح عليه. ان بستيا قد أحسن صنعا بذلك ولم يفعل إلا ما توجبه مصلحة الدولة العليا. ان الإخلاص والنصح لروما هو الذي دفعه لإتيان ما أتى ! ان يوغورطة صديق الرومان. لولا صداقته وحسن نيته ما حضر إلى عاصمتنا. ثم وجه الكلام إلى يوغورطة قائلا: لا تجب عن الأسئلة التي وجهها إليك المجلس. إنما يستجوب المتهم، ويناقش المذنب. أما أنت فبرئ وعار على روما ان تعامل ضيفها الكبير معاملة المجرمين ![97] فاستطاع بابيوس بدفاعه وكثرة أتباعه في المجلس ان يشل مجلس الشيوخ فلم يدن يوغورطة بشيء. فخرج منه يوغورطة كما دخل شامخ الرأس، مشرف الوجه بالانتصار الذي حازه على شيوخ روما، وصفوتها المختارة. وأحس شيوخ روما بيوغورطة يمرغهم في التراب، ويمشي بنعليه على رؤوسهم ! فخرجوا من مكان الاجتماع منكسين كاسفين.

96 - انظر قصة هذا الفتح في ص 264 من هذا الجزء

97 - قال المؤرخون/ ان بابيوس دافع عن يوغورطة ولم يبينوا دفاعه. ولا نرى الدفاع يخرج عن هذه المعاني وهذه الحجج لذلاك اجزنا إجراءها على لسان بابيوس.

قضاء يوغورطة على مصيفا الذي يخون دولته

وكان في روما مصيفا بن غلوسة. وهو من شيعة آدربعل. وكان يثير الرومان على يوغورطة، ويسألهم ان يبعثوا جيوشا للقضاء عليه، ليتولى هو الملك فيكون لهم كما يريدون في المغرب. وكان الرومان يدخرونه لوقت الحاجة. فدس إليه يوغورطة من قتله في قلب روما. فازداد حنق الرومان على يوغورطة. ان يقينهم ان يوغورطة هو الذي قتله، ولكنهم لا يجدون دليلا يثبت جريمته. من يدري. لعل يوغورطة قد احتج وثار واتهم الرومان بقتل ابن عمه. فخاف الرومان من بقاء هذا الداهية الجرئ في روما. فد يكيد لهم كيدا يعرض دولتهم للخطر، فأمروه بالخروج من روما. فخرج يوغورطة من روما. وقبل ان يغادرها نظر إليها وعلامات الاحتقار والازدراء تفيض من وجهه فقال قولته المشهورة:»روما ! مدينة مباعة لمن يريد شراءها !» فركب سفنه ورجع إلى المغرب فعكف على جيشه يعد للملاحم الكبرى، وعلى شعبه يهيئه للصراع الطويل. ان الرومان لا يمهلونه طويلا. ثم وقعت الحروب الهوجاء مع الرومان فانتصر عليهم يوغورطة انتصارا رائعا ومرغهم في التراب؟ ومتى وقع ذلك، وفي أي مكان؟

تجديد الحرب بين يوغورطة والرومان وانتصار يوغورطة عليهم

كان مجلس الشيوخ الروماني شديد الحنق على يوغورطة، سيما بعد ما ارتكب فيهم في روما. لقد افلت من قبضتهم بدهائه، وقتل صنيعتهم مصيفا وهو في حجرهم وفي عاصمتهم. انها جرأة كبيرة لا تحتملها الكبرياء الرومانية. وهاهو يعود إلى دولته ليستعد لحربهم، ويهيئ المغرب للانقضاض عليهم، لابد من معاجلته قبل ان يستعد. ان إمهاله سنين يجعله راسخ العروق لا يستطيعون اقتلاعه. فأمروا جيشهم الكبير المرابط في الولاية الرومانية بافريقية بالهجوم على يوغورطة، وعينوا لقيادته القنصل البينوس. وهو قائد كبير من قوادهم يثقون بنزاهته وإخلاصه لروما. لا يستطيع يوغورطة ان يشتريه بالمال.

كان ذلك في سنة 110 ق.م. بعد قليل من وصول يوغورطة من رومة، فزحف البينوس بجيشه الكبير على نوميديا فوجد يوغورطة في انتظاره. فوقعت حرب عنيفة بين الطرفين ابدي فيها الجيش الروماني شجاعة ومهارة في القتال. وكان البينوس ماهرا في قيادته وفي خططه، ولكن البربر كانوا أشجع. وكانوا يحامون عن دولتهم ويوغورطة

كان امهر في القيادة، وأقوى في الهجوم. فمال على الجيش الروماني فهزمه شر هزيمة، وشتت شمله، فولى الأدبار إلى معاقله في الولاية الرومانية.

وكان مجلس الشيوخ والرومان كلهم يرقبون سير المعركة. فعلموا بهزيمة جيشهم فازداد احتدامهم على يوغورطة. فعينوا قائدا ثانيا لحربه كان أقوى وأكثر كفاءة من البينوس هو أخوه الوس.

وكان ذلكم في سنة 110 أيضا. فنظم الوس جيشه ونفخ فيه روحه، وأذكى فيه الشجاعة الرومانية الممتازة. وصمم ان يثار لأخيه الذي عفره يوغورطة بالهزيمة. وسار نحو نوميديا وهو مصمم ان يهزم يوغورطة، ويحتل مدينة (ستول) التي اتخذها مركزه، وهي قرب مدينة فالمة. فوجد يوغورطة في انتظاره. فدارت بينهما قرب (ستول) معركة فظيعة ابدي فيها الجيش الروماني كل شجاعته ومهارته، واظهر فيها الوس عبقريته في القيادة، وجهاءه وشجاعته الكبرى. فكر عليه يوغورطة في جيشه البربري الباسل فهزمه شر هزيمة، وقتل من جنوده مقتله كبرى، ومزق جيشه شر تمزيق، وأحاط به جند يوغورطة فرأى الوس الموت الأحمر يهجم عليه من كل جانب. فطلب إيقاف الحرب، واستسلم هو وجنده إلى يوغورطة.

عزة الرومان وشموخهم وإذلال يوغورطة لهم

وكان الجيش الروماني لشجاعته، ومهارته في الحرب، وإخلاص رجاله مظفرا في حروبه التي خاضها مع دول البحر الأبيض المتوسط، وفي وسط أوروبا وآسيا لم يعرف الانهزام والاستسلام ! وكانت تربيته الرومانية القوية، وعزته القومية، وتعوده الانتصار على الأمم في حروبه قد أورثته شموخا، وعلمته ان يكون دائما رافع الرأس لا يطأطئ لأحد.

وكان يوغورطة يعرف فيهم وفي دولتهم ذلك الشموخ ! وكان يعلم ان ارتفاع الرومان في حبل المشنقة أسهل عليه، من الركوع أمام عدوه! فأراد ان يظهر لهم عزة الأمة البربرية، ويؤد بهم على شموخهم وكبريائهم على الناس! فنصب حبلا طويلا على العرض، وقربه من الأرض فوقف هو وجيشه بجانبه في مكان عال فأمر الوس وجنده ان يمروا من تحت الحبل. فكانوا يمرون إمامه عزلا من السلاح، والذلة تعلوهم. فإذا وصلوا إلى الحبل طأطأوا ليمروا من تحته، فتكاد جباههم تمسح الأرض من شدة الانحناء! وكان هذا الركوع وذلك الاستعراض اشد عليهم من الذبح بالشفرة الكليلة، والحرق بالنار الضعيفة! وبعد ان أدب يوغورطة الوس والجيش الروماني، وأمره ان يغادر دولته سريعا إلى الولاية الرومانية، واجله عشرة أيام. وأبقى جيشه مجردا من السلاح. مهانا تعلوه

الذلة والصغار!وكان مجلس الشيوخ الروماني كلهم يرقبون سير الحرب مع يوغورطة. فبلغتهم أنباء هزيمتهم الشنعاء، ورأوا قائدهم الكبير وجيشهم ينكسون رؤوسهم ليوغورطة، ويرتكب فيهم يوغورطة ما لم يعهدوا مثله في كل حروبهم فثارت ثائرة الرومان الأقوياء، واقسموا ان ينتقموا من يوغورطة، ومن البربر، وان يرسلوا عليه من جيوشهم الجرارة ما يضمن لهم الفوز عليه!

وكان الرومان امة حربية، وأقوى دولة في ذلك الزمان. فتفرغت لحرب يوغورطة، وأرسلت عليه جيوشها الجرارة. فماذا وقع ليوغورطة بطل المغرب مع الرومان؟

الهجوم الروماني الكبير على يوغورطة

حروب ميتلوس مع يوغورطة

كان الرومان يتضرمون غيظا، ويتقدون حنقا على يوغورطة. ان رؤوسهم لا تعرف الإنحاء، ونفوسهم لا تطيق الخضوع، سيما في ميدان القتال الذي يفتخرون بالتفوق فيه. إنهم أقوى امة حربية في ذلك الزمان! لقد حاربوا أمما أكثر عددا من البربر ، وملوكا أوسع دولا من يوغورطة، فهزموا تلك الأمم، واخضعوا أولئك الملوك. فها هو يوغورطة يهزمهم، ويسومهم الركوع والإنحاء تحت حبل المذلة، وها هي الأمة البربرية الباسلة تمرغهم في التراب. ان كل رئيس من رؤساء الرومان، وكل حر أبي من امة الرومان الأبية، ليحس بذلك التراب الذي مرغ فيه يوغورطة جنودهم تغص به عيناه فتفيض عبراته من شدة التأثر والإباء! لابد ان يسترد الرومان هيبتهم في الدنيا! ان الأمم التي تخضع لهم سترفع رءوسها وتثور عليهم إذا دامت رءوسهم معفرة، ويوغورطة يركبهم بالهزائم في المغرب. إنهم إذا لم يعالجوه بحرب واسعة عاصفة فانه سيزحف على ولاية الرومانية ويقذفهم في البحر، ويطردهم من افريقية. فيومئذ تتجرأ كل مستعمراتهم فتثور عليهم، ويومئذ يفقدون في العالم تلك الهيبة التي يخضعون بها الشعوب. لابد من التغلب على يوغورطة والقضاء عليه! انه بطل صنديد، وداهية عبقري، والبربر امة شجاعة باسلة. فلا بد من التفرغ لحربها، وإرسال جيوش قوية تكون أضعاف جيش يوغورطة، تحيط به، وتتكاثر عليه. ولابد من إرسال قائد بل قواد دهاة يصولون على يوغورطة بدهاء كدهائه، ويشهرون عليه سلاح الكيد البارع، ويحسنون منازلته في الحروب النفسية.

اختيار القنصل ميتلوس لمحاربة يوغورطة

وجهز مجلس الشيوخ جيوشه الجرارة، وأرسلها تحت قيادة ابرع قواده وهو القنصل ميتلوس. وأرسل معه القائد الكبير ماريوس. فسار ميتلوس حتى نزل في عوتيقة

عاصمة الولاية الرومانية في افريقية. فوجد فيها الجيش الروماني قد قتلته الهزائم، وخنق الشجاعة والثقة بالنفس في صدورهم ذلك الجبل الذي نصبه يوغورطة فركعوا على أقدامه تحته. وصاروا بعد ان مرغهم في التراب كالشعلة التي تدسها في التراب فتنطفئ! وكان يوغورطة غولا يرهبهم شبحه ويرعبهم في اليقظة والمنام. فتمردوا قوادهم، وصاروا يهربون من الجيش خوفا يكلفوا بمحاربة يوغورطة. فعمد ميتلوس إلى هذا الجيش الميت فأحياه، ونفخ فيه الثقة بالنفس، وأورثه الأمل في النصر بما جاء به من الجيوش القوية من روما، فاختلطت بالجيش المنكسر فأفاضت عليه من قوة نفوسها. ونظم ميتلوس جيوشه أحسن تنظيم، وقسمها قسمين، قسم يقوده هو وقسم يقوده ماريوس. فسار إلى محاربة يوغورطة.

وكان ميتلوس من أسرة ماجدة، وتولى منها قبله ستة قنصل رأسوا الدولة الرومانية. وها هو يقع اختيار دولته عليه قنصلا يرأسها ويقود جيوشها. وكان قائدا داهية، مخلصا لدولته، قد صمم على استرجاع هيبتها والانتصار على يوغورطة.

وكان يوغورطة يعرف ميتلوس فاستعد لحربه. ان الجيوش الرومانية أضعاف جيشه، ولكنه مع ذلك صمم على القتال. فأسرع من نوميديا، فوقع اللقاء بينه وبين الرومانيين في جنوب مدينة (باجة) قرب وادي تاسة.

وكان ذلك في شهر أغسطس من سنة 109 ق.م. وكان ميتلوس قد اخترق الحدود الشرقية الشمالية للدولة البربرية فاحتل باجة وعاث فيها فسادا. فوقع اللقاء بينه وبين يوغورطة في جنوب باجة فوقعت معركة رهيبة بين البربر والرومان. فقتل يوغورطة من جيش ميتلوس عددا كبيرا. وكان جيش ميتلوس أكثر عددا وكان قويا باسلا، فاستطاع ان يحوز النصر. وكانت الغلبة له في هذه المعركة. فتقهقر يوغورطة في نظام نحو الجنوب الغربي فعسكر في شمال تبسة فاستعد هناك لمحاربة الرومان. وكان قد قسم جيشه قسمين تحت قيادته هو وقسم تحت قيادة قائده بوملكار.

إيثار يوغورطة لحرب العصابات في مقاتلة الرومان

فزحف ميتلوس في جيوشه الجرارة فاحتل مدينة سيكا «الكاف» وغيرها من المدن في طريقه إلى يوغورطة، فوقع اللقاء في شمال تبسة، فاشتعلت معركة رهيبة بين يوغورطة وميتلوس. فرأى يوغورطة ان جيش الرومان أضعاف جيشه في العدد. وانه لا يستطيع مصافته، وخوض المعركة الفاصلة معه. فعزم على حرب العصابات، وأسلوب الكر والفر الذي يتقنه البربر، ويليق بالجيش إذا داهمته جيوش أقوى منه. فتقهقر إلى

جنوب تبسة، ليجتذب جيش ميتلوس إلى الصحراء التي لا يطيق الرومان حرها ولا يعرفون مسالكها. ان هذه الحروب العنيفة لتقع في آخر الصيف وفي أول الخريف، في شهور لا يطيق فيها الرومان حر الصحراء. وفي الصحراء الجيتوليون الأشداء الذي يعينون يوغورطة على الرومان. فيكر عليهم بعد ان يكون الحر قد أرهقتهم فيهزمهم ويقصم ظهورهم بضرباته. فتنبه ميتلوس إلى كيد يوغورطة فلم يتبعه. وعكف على شمال تبسة بفتح مدنها، وينكل بالبربر فيها، ويفسد مزارعهم، ويتلف أموالهم، ويهتك حرماتهم، ويأتي كل ما يسوله الحقد والضغينة والغطرسة له، ليشفي غليله من البربر، ويستفز يوغورطة فيخوض معه المعركة الفاصلة في المكان الذي يختاره هو.

وكان يوغورطة يشن حرب العصابات على ميتلوس، فيكر على جيشه فيفتك به، حتى إذا استعد له وجد يوغورطة قد اختفى. فكان يوغورطة يصيب من الرومان ولا يصيبون منه.

واستكلب الشتاء، وكثرت الأمطار، وأحس ميتلوس بالإعياء، وعلم ان يوغورطة لا ينازله في معركة فاصلة، وانه سيواصل عليه حرب العصابات، ويضعف حماس جيشه بضرباته الخاطفة، وبطول الزمان الذي يقضيه في مكانه ثم لا يفوز بنصر عليه، وكان يوغورطة يغتنم فيه الفرصة كلما وجدها، فيهجم عليه هجوما سريعا فيصيب منه ثم يختفي. فأيقن ميتلوس ان الانتصار على يوغورطة وهو يشن عليه حرب العصابات، ويعتصم بالجبال الوعرة التي لا يستطيع اقتحامها، والصحاري المجهولة التي لا يقدر جيشه على الحرب فيها، والعيش في رمالها وشعابها؛ ان انتصاره عليه وهو يحاربه بأسلوب العصابات لا يمكن. فعزم على الكيد له. فرجع إلى الولاية الرومانية. وأرسل إلى بوملكار قائد يوغورطة من سوس له بمن أراد.

كان ذلك في سنة 108 ق.م. وكان بوملكار قائدا بربريا من أركان يوغورطة في حربه، ومن مستشاريه، يثق به، ويسكن إليه، ويعتقد فيه الصفاء والإخلاص، والغيرة على الوطن. وكان بوملكار طموحا يحب الرئاسة والتقدم. فأرسل إليه ميتلوس يعده بالملك وبدولة يوغورطة ان أعانهم على اغتيال يوغورطة أو القبض عليه. فمال بوملكار إلى متيلوس، وخان ملكه، وتنكر لدولته، فشرع في الكيد ليوغورطة في الخفاء ليوقعه في قبضة الرومان. فشعر به يوغورطة فقتله، وخلص الدولة من شروره.

فظائع الرومان في المدن البربرية وفي المدنيين العزل

وكان الرومان قد فتحوا مدنا كثيرة في الجناح الشرقي للدولة البربرية، في افريقية

وفي نوميديا الشرقية. وكانوا يقتلون الأبرياء، ويهتكون الحرمات، ويأخذون الأموال، ويفسدون المزروعات، ويطلقون أيدي العيث والتخريب في أموال البربر، ليرهبوا البربر، ويخضعوهم. ولكن البربر لا يخضعون. لا يكاد جيشهم يفارق المدينة المغزوة حتى تثور المدينة، وتنكل بمن بقي فيها من الرومان، وتظهر ولاءها ليوغورطة، والاستعداد للنضال معه، ومدافعة الرومان المعتدين على الوطن.

وكانت مدينة باجة هي عاصمة نواحها في الشمال الغربي لافريقية. وكانت من المدن الأولى التي احتلها الرومان من الدولة البربرية، وعاثوا فيها فسادا. فصارت ترقب الفرصة للثورة والانتقام. «وفي شتاء 108 اغتنم أهلها فرصة الاحتفال بعيد الآلهة سيريس وهو عيد الزراعة، ففتكوا بجميع الرومانيين وأهلكوهم عن أخرهم. ولما بلغ ذلك متيلوس أسرع إلى تلك المدينة بنهبها»[98] ونكل بأهلها وأغرقها في الدماء. وهزم على تتبع يوغورطة لعله يلتجئ إلى حصن فيحاصره فيه،ولعله ينازله في معركة فينتصر عليه. وكان يوغورطة متحصنا في جنوب افريقية. يغير من هناك على الرومان فينهال عليهم بضرباته. وبعد ان فعل ميتلوس بباجة ما فعل، زحف بجيوشه على جنوب افريقية، إلى ان أدرك يوغورطة في مدينة (تالة) وكان قد اتخذها معسكره. وكانت مدينة كبيرة حصينة، وهي غير تالة المعروفة اليوم في جنوب تونس ولكنها في نواحها، فحاصر ميتلوس تالة، وأحاط بها بجيوشه، وشدد الرقابة عليها لكي لا يفلت منها يوغورطة، ودام حصاره أربعين يوما، ثم استطاع ان يفتح المدينة، ولكنه لم يجد فيها يوغورطة ولا أمواله ولا أولاده. لقد خرج، بدهائه من المدينة في كل أثقاله ولم يشعر به الرومان. فهب ميتلوس المدينة، وأغرقها في الدماء، ثم هدمها وأزالها من الوجود لكي لا يتحصن فيها يوغورطة. ثم نظر يبحث عن يوغورطة فوجده في الصحراء يتمنى ان يتبعه إليها، ولكن ميتلوس خاف من تتبع يوغورطة آثر ان يحاربه في الشمال. فزحف في سنة 108 ق.م. على نوميديا الشرقية والوسطى حتى وصل إلى قرطة فاحتلها واتخذها مقرا له ولجيشه.

وكان يريد ان يستفز يوغورطة ليخرجه من الصحراء، ولكن يوغورطة كان داهية، فلم يخرج من الصحراء، فبقي فيها يعد العدة ليكر على الرومان.

استنجاد يوغورطة بالجيتوليين وبصهره بوكوس وزحفه على الرومان

وكان يوغورطة يعلم ان شمال المغرب لا يعصمه من الرومان. إنهم بجيوشهم الجرارة

98 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 280 ط أولى بتونس.

الباسلة هم الأقوى ولكن الصحراء تعصمه. فبوده لو اجتذب الرومان إليها ليكر عليهم بإعانة الجيتوليين الشجعان فيقضي عليهم. فالتجأ إلى الصحراء بجنوب افريقية فاعتصم بها. فاتصل برؤساء القبائل البربرية في جيتوليا فدعاهم إلى محاربة العدو فأسرعوا إليه برجالهم الأبطال. ثم إلى صهره بوكوس الأول ملك موريطانيا الغربية، فخوفه من شرور الرومان على المغرب، وأوقفه على نواياهم السيئة لدولته، وآثار فيه وفي أهل دولته الحماس والغيرة، فهبوا لمدافعة العدو ومجالدته، وإعانة يوغورطة في القضاء عليه.. فسار جيش بوكوس فانضم إلى يوغورطة. فكثر جنده، ووجد القوة العسكرية التي يستطيع بها مقابلة الرومان.

وكان يوغورطة قد اتخذ في سنة 108 مدينة قفصة معسكره بعد ان هدم ميتلوس مدينة تالة التي كان متحصنا بها. فجهز جيشه فسار من مدينة قفصة في جنوب افريقية الغربي ليهاجم الرومان في نوميديا. فسمع ميتلوس بمسيره فخرج من قرطة فنزل مكانا يستطيع فيه الدفاع.

عزل ميتلوس وولاية ماريوس قيادة الجيش الروماني بالغرب

ودخلت سنة 107 وكان ميتلوس يتهيأ لخوض المعارك الطاحنة مع يوغورطة في نوميديا. وكان قد أمضى حوالي سنتين وهو يحاول التغلب على يوغورطة والانتصار عليه في معركة حاسمة فلم يستطع. فاستعصم الرومان قائدهم وقنصلهم ميتلوس، فانتخبوا في سنة 107 زميله جايوس ماريوس قنصلا وقائدا لجيشهم في المغرب. فسمع ميتلوس فرجع مغضبا إلى رومة قبل ان يصل يوغورطة إليه.

وكان ماريوس اقل ذكاء من متيلوس، ولكنه أكثر جرأة وإقداما، وخبرة بالحروب. فاختاره الرومان لمقارعة يوغورطة، فأرسلوا جيشا كبيرا. فوصل نوميديا فتسلم أزمة القيادة، واستعد لملاقاة يوغورطة.

حروب ماريوس مع يوغورطة

إفساد ميتلوس لقلب بوكوس على يوغورطة

كان بوكوس بعد ان استجاب لمحاربة الرومان، وأرسل جيشه إلى يوغورطة قد داخله ميتلوس فواعده وأوعده، وأفسد قلبه على يوغورطة ! فشعر يوغورطة بذلك ففت في عضده. فخاف ان يشتبك بماريوس في معركة كبرى فيضربه بوكوس من خلفه، ويوعز

إلى قواد جيشه فينهزموا عنه في إبان المعركة فينتصر عليه الرومان.فلم يثق بقوة بوكوس العسكرية، فرجع إلى حرب العصابات في مقارعة ماريوس .

ونزل ماريوس في عوتيقة بما معه من الجيش في سنة 107 فانضم إليه الجيش الروماني الكبير في افريقية فبلغ جيشه ألف جندي من خيرة الجيش الروماني المدرب. فزحف بهم نحو نوميديا، ولكن لم يكد يصل حدود نوميديا الشرقية حتى مال نحو الجنوب الغربي لافريقية، فداهم (قفصة) التي جعلها يوغورطة معسكره، وكان يوغورطة غائبا عنها في نوميديا فاحتلها، وتكل بأهلها، واخذ ما فيها من أموال يوغورطة وذخائره، ونهب ما فيها من أموال البربر، احرقها فأكلتها النيران، فصارت لا تعصم من يأوي إليها. فانتقل يوغورطة إلى موريطانيا الشرقية وجعل معسكره محل أثقاله في حصن تاوريرت[99] وهو حصن في هضبة عالية في غرب موريطانيا الشرقية.

وزحف ماريوس في جيشه الجرار حتى وصل نوميديا الوسطى فوجد يوغورطة في انتظاره، فلم يشتبك به يوغورطة في معركة كبرى بلا آثر ان يتبعه ويرهق جيوشه بحرب العصابات في الجبال والأودية الوعرة، وان يجتره إلى الناحية الغربية ليثير بوكوس للحرب معه في صدق وإخلاص إذا رأى الرومان يقربون من دولته. فكان ليوغورطة ما أراد. فكان يهجم على الرومان كلما وجد الفرصة فيقتل منهم، وينكل بهم، ثم يلوذ بالجبال الوعرة. وحارب الرومان الذين يتتبعونه في الزاب، وجبال الحضنة، وفي أمكنة كثيرة من موريطانيا الشرقية. ان الرومان أقوى منه وأكثر جندا، ولكنه لا يستسلم ولا يهن ! ان الصحراء هي ملجؤه الحصن سيعتصم بها، ويوالي منها ضرباته للرومان. يجب ان يقاتل الأعداء في كل ناحية من نواحي المغرب ان الاستسلام جريمة ! لابد من دحرهم وتطهير المغرب منهم. ان البربر معه. سيهبون كلهم لنصرته إذا وصل وقت الهجوم على الرومان.

ان الرومان أجانب في المغرب، وهم يحاربون في وطن لا يعرفون دروبه ومسالكه الجبلية. سيجد فيهم فرصته فيضربهم الضربة القاصمة. ثم ان الرومان يضعفهم ويوهن قواهم. سيكر عليهم فيهزمهم شر هزيمة. هذا ما عزم عليه يوغورطة فثبت في الميدان فلم ينهزم.

استنجاد يوغورطة ثانية ببوكوس

99 - آورير بسكون الواو في البربرية للجبل وهو مذكر. وتاوريرت للجبل الصغير أو الهضبة العالية وهو مؤنث.

وقرب ماريوس من وادي ملوية، وهاجم حصن تاوريرت فاحتله، واخذ ما فيه من أموال يوغورطة وذخائره الحربية، وأمسى على حدود موريطانيا الغربية دولة بوكوس. فأعاد يوغورطة دعوته إلى محاربة الرومان وواعده على النصرة بثلث نوميديا. ان بوكوس تحركه أطماعه لا غيرته وشجاعته. فما زال به حتى أعداه بشجاعته، وكساه بوجدانه، فاستجاب له، وغلت مراجله، فجهر جيشه وأرسله إلى يوغورطة فكثر به جند يوغورطة، فهجم على الرومان.

كان هذا الهجوم في سنة 106 بعد مرور نحو عام من قيادة ماريوس للرومان في المغرب، فوقعت بين الجيشين معارك طاحنة، وقتل البربر من الرومان مقتلة كبرى، ونثروا أشلاءهم في ميادين الحرب، وجللوا الساحة بجثث قتلاهم، وقتل الرومان من البربر كثيرا، ودامت المعركة يوما كاملا، وأحاط البربر بالرومان فكادوا ان يهزموهم. ولما وصل الليل أوقفوا الحرب، فنظم الرومان صفوفهم، ولم يكد يشرق الصباح حتى كان الرومان هم الذين يهجمون على البربر الذين وثقوا بالنصر وانهزام الرومان فغفلوا عن عدوهم، ولم يبقوا على أهبتهم الأولى لمحاربته، فوجد الرومان البربر عللا غير تعبئة فاخترقوا جموعهم، وهجموا على معسكرهم، فاعملوا فيهم السيوف، فقتلوا منهم عددا كبيرا. فانهزم البربر وانتصر الرومان.

أرى ان هذه المعركة لم يتولى قيادتها يوغورطة، بل احد قواده أو قواد بوكوس. ان يوغورطة حازم عبقري في الحرب، ما كان ليغفل هذه الغفلة، فيضيع النصر الذي حاز، ويتركه لعدوه. لقد رأيناه يهجم في الليل على آدربعل في سنة 112 فيهزمه. فما كان ليرجئ الإجهاز على الرومان إلى الصباح لو كان هو الذي يدير المعركة.

وذهب ماريوس إلى قرطة بعد هذه المعركة الكبرى، وقد يكون ذهابه إلى قرطة ليتحصن بها إذا رجحت كفة يوغورطة في الحروب المقبلة، فأرسل يوغورطة وراءه كتائب من جيشه و جيش بوكوس فأدركته في الطريق، فدارت حروب عنيفة بين الجيشين، جيش يوغورطة، وجيش ماريوس، فحمى في غرب (سطيف) الوطيس واشتد القتال، ورأى ماريوس الموت الأحمر يحدق به، وكادت كفة جيش يوغورطة تكون هي الراجحة. فجاء القائد الروماني صيلة بجيش الجد به ماريوس، فرجحت كفته في الحرب فكان النصر له. ورجع إلى قرطة واستقر فيها، والإعياء يهده، والاياس من القضاء على يوغورطة بالحرب يملأ نفسه.

وكان مجلس الشيوخ الروماني يتتبع سير الحروب في المغرب باهتمام. فرأى ثبات

يوغورطة، وثبات البربر، وحرب العصابات التي يتبعها، وهي حرب لا تهزم، فأيقن كماريوس بان الجهود العسكرية لا تجدي، وان مستقبل المعركة إذا استمرت ليوغورطة، فيمرغهم في التراب ويسحقهم بأقدامه. ان الزمان طويل الذي يمر وهم معه فلم يستطيعوا كسره والقبض عليه، أو قتله. وها هو بوكوس ملك موريطانيا الغربية ينضم إليه فيبدأ حربهم بقوات جديدة. انه إذا لم يستطع مواصلة المعارك الكبرى معهم لتفوقهم عليه في الجند، فسيواصل حرب العصابات عليهم من جيتوليا فيرهقهم ويعييهم، ثم يكر عليهم فيكسرهم في معركة كبيرة. ان يوغورطة لا يستطيعونه ولا يبلغون مرامهم فيه بالقوة بل بالمكيدة. ولكن ماريوس ضعيف الذكاء في باب الختل والكيد. ان سيفه أطول من عقله. فلابد من رجل داهية يحسن الفخاخ الخفية، والكيد البارع، يكون معه ليتولى الدس والختل فاختاروا لوكيوس كولانيليوس صيلة. وهو قائد روماني لا شجاعة له، ولكنه ماهر في الدس والكيد، والإيقاع بعدوه في أفخاخه. فأرسلوه إلى ماريوس. فخلا به ماريوس بعد معركة سطيف يعملان الفكر في مكيدة تضعف يوغورطة وتوقعه في قبضتهم. فخلق لهم بوكوس صهر يوغورطة الفرصة لذلك، فهب صيلة لاستغلالها.

وكان بوكوس ملك موريطانيا الغربية ضعيفا جبانا. وكانت تتسلط عليه شهواته وجبنه وحسده ليوغورطة لا إدارة البربر وشجاعتهم، وكرههم للرومان. وكان يوغورطة قد واعده على النصرة بثلث نوميديا، فحركه بالطمع فوقف بجانبه، ولكن يوغورطة لم ينصر، ورأى قوة الرومان، فخاف ان يغضب عليه الرومان فيزحفوا على دولته فأرسل إلى ماريوس في طلب الصلح، وأبدى استعداده لخدمة الرومان وخذلان يوغورطة. فأرسل ماريوس رسل بوكوس إلى رومة ليرى مجلس الشيوخ رأيه في طلب ملكهم. وأرسل صيلة إلى بوكوس لينصب فخاخه ليوغورطة.

غدر بوكوس بيوغورطة

دهاء صيلة وجبن بوكوس

واجتمع صيلة الداهية ببوكوس الضعيف. وكان ذلك في سنة 105 ق.م وكان صيلة يعرف ان بوكوس عبد أطماعه وجبنه. فواعده بموريطانيا الشرقية كلها ان هو أعانهم في القبض على يوغورطة، واو عده باحتلال دولته، والقضاء على ملكه ان أبي واستمر في تأييد يوغورطة. فكان بوكوس كما يريد صيلة، فشمر للكيد ليوغورطة، واتفق مع صيلة على خطته.

وكان يوغورطة يكره الصلح مع الرومان. وكان يعرف الإعياء الذي أصابهم، وعرف إنهم لا يستطيعون ملاحقته إلى جيتوليا، وسيظل يشن عليهم حرب العصابات إلى ان يوهنهم، ثم يكر عليهم فيطرحهم أرضا، ويلقي بهم في اليم.

كان يوغورطة ثابتا في الحرب، قد عزم على مواصلة القتال. فأرسل إليه بوكوس يعلمه بطلب الصلح، ويرجوه ان يوافق عاليه. فجعله أمام الأمر الواقع. هل يرفض الصلح فيختلف بوكوس فيصبح عدوه يحاربه مع الرومان؟ ان الرومان سيستغلون هذا الخلاف. ووالى بوكوس رسله إلى يوغورطة يعلمه بان شروط الصلح ستكون مقبولة، وان الرومان سينسحبون إلى الولاية الرومانية، فيخرجون من دولته بدون قتال. فما زال به حتى ألزمه بقبول الصلح. فاستقدمه إلى مقره لمقابلة الوفد الروماني ليتفاوضا معه في شروط الصالح، وانسحاب الرومان من دولته.

كيد بوكوس وصيلة ليوغورطة

وكان يوغورطة ذكيا، وكان يعرف ضعف بوكوس ودهاء صيلة فاحتاط لنفسه فطلب ان يرسل إليه صيلة ليكون رهينة عنده ثم يقدم لمفاوضة الوفد. فأبى عليه بوكوس ما طلب، واعلمه بان صيلة هو رئيس الوفد، وانه لا يصيبه أي ضير إذا اجتمع بوفد الرومان، وان الاجتماع يكون عنده في مكان امن لا سلطان ولا قوة للرومان فيه.

وكان يوغورطة حسن النية، وكان بوكوس صهره، وجاره وابن جنسه. وكان قد حارب الرومان معه فلم يخطر بباله انه يختله. فرضي بالاجتماع بصيلة. فاشترط ان يكون الاجتماع في مكان يكونان فيه خاليين من السلاح. فرضي صيلة بالشرط، وأكد له بوكوس قبول الشرط، وان صيلة سيكون خاليا من السلاح ومن كل قوة حربية. فجاء يوغورطة وهو يعتقد انه ذهب إلى دار صهره وجاره وابن عمه الأمن، ولكنه ذهب إلى دار عدوه حيث نصب له الفخ.

وكان يوغورطة يعتقد ان الرومان شرفاء مثله، يوفون بالوعد، ويتنزهون عن الغدر، فوثق بوعد صيلة الذي لابد ان يكون قد بعث به إليه مكتوبا مختوما بختم الدولة، أو يكون شافه به رسل يوغورطة. ولم يدر في خلده ان الرومان يغدرون بعد إيمانهم ووعودهم واتفاقهم على التجرد من السلاح.

وكان يوغورطة شريفا شجاعا ! فوصل مكان الاجتماع وهو خال من كل جند يحرسه، ومن كل سلاح. وما كاد يستقر به المقام في مكان الاجتماع حتى أحاط به جند بوكوس الذي كان صيلة قد أخفاه في مكان قريب من موطن الاجتماع. فأسروه

فسار به صيلة في جيش كبير قد يكون جيش بوكوس فسلموه إلى ماريوس في قرطة ! فسر ماريوس وتنفس الصعداء، وفرح فرحته الكبرى، وطير الخبر إلى روما فسر مجلس الشيوخ الروماني بالقبض على يوغورطة، ورقصت روما طربا لهذا الحادث الكبير.

وكان كل العقلاء في العالم يرون الرومان وهم يحتفلون بأسر يوغورطة والغدر به كالغربان الخسيسة التي تستلذ التهام الجيفة، وتحتفل بإقحام مناخرها في ديدانها، وفي أقذار المزبلة !

ماذا سيفعل الرومان الغادرون بيوغورطة بطل المغرب الكبير.

نهاية يوغورطة ولؤم الرومان

وفي ديسمبر من سنة 105 ق.م ذهب ماريوس إلى رومة ومعه يوغورطة أسيرا في أغلاله. وأعاد مجلس الشيوخ الروماني انتخاب ماريوس قنصلا جزاء له على غره بيوغورطة، وقبض بوكوس عليه. وفي اليوم الأول من يناير سنة 104 ق.م.احتفل الرومان بانتصارهم على يوغورطة، وبماريوس الذي أورثهم ذلك النصر، وكان قنصلا للدولة. فأسرعت المدن الرومانية إلى روما فغصت شوارعها وميدانها العام الفسيح بمختلف الطبقات. وكلهم يتلهف وبشخص ببصره ليرى ماريوس فيحييه، ويشاهد يوغورطة أسيرا في أغلاله ليشمت به. فخرج ماريوس في أول يناير في شموخ المنتصر، وأبهة الغالب. فركب عربته الفخمة، وجعل يوغورطة أمام عربته مع الخيل، وهو في تاجه الملوكي وحلته الأرجوانية الملوكية، ويداه في القيد الحديدي ! فمشى به في شوارع روما، ووقف به في ميدانها العام، فشمت العجائز والصبيان والسفهاء بيوغورطة، واسمعوه قارس الكلام. ثم زج به مجلس الشيوخ في أقسى السجون، ومنعوا عنه الطعام والشراب. ومشى الحراس القساة بيوغورطة ودفعوا به في قيوده في سجن (التوليانوم) تحت قصر (الكابتول). هو سجن مظلم بارد كثير الانداء لا يحكم به إلا على كبار المجرمين، ومنعوا عنه الطعام والشراب أيام كاملة وفي اليوم السابع من يناير سنة 104 ق.م. شنقوه، ففاضت روحه ! فتنفس الرومان الصعداء وظنوا إنهم قد قضوا على يوغورطة، واخمدوا البربر، ولكن بغدرهم به، ولؤمهم معه زادوا العداوة البربر لهم اشتعالا، وغرسوا يوغورطة في أعماق قلوب المغرب، فظل يهيب به لمحاربة الرومان وعدم الخضوع للمستعمرين، فتثور براكينه عليهم.

تعظيم الرومان لماريوس لقضائه على يوغورطة

وكان الرومان يعظون ماريوس لأنه قضى على اكبر عدو لهم جرعهم مرارة الهزيمة، وطعم الذل، وشغلهم بالحروب سبع سنين، ثم امتنع عنهم فلم يستطيعوا التغلب عليه بالقوة، وجازوه على ذلك بان أعادوا انتخابه للقنصلية ست مرات.وكان ماريوس يفخر بالقضاء على يوغورطة، وكان صيلة يقول للرومان بأنه هو الذي قضى عليه. فكان هذا من أسباب العداوة التي شبت بعد ذلك بين صيلة وماريوس فأغرقت روما في الدماء.

يوغورطة ! بطل المغرب العبقري المخلص! حارب الرومان سبع سنين، وركبهم بالهزائم، وعجزوا عن إخماده وإخماد البربر بالقوة، وهم اكبر دولة في ذلك الزمان، وأقوى امة في ذلك العصر، قد خضعت لسلطانها كل الدول الكبرى، وطأطأت لسطوتها كل الشعوب القوية. لقد أحنى الرومان بقوتهم رءوس الملوك الأقوياء، ورءوس الأمم القوية، ولكن البربر لم يخضعوا لهم، ويوغورطة لم تنحن رأسه لهم، فظل يقاتلهم سبع سنين، ولولا غدر بوكوس لبلغ مرامه فيهم، فيكنسهم إلى البحر!

لقد قاتل يوغورطة دفاعا عن وطنه في كل أنحاء دولته، قاتل في افريقية، وفي نوميديا، وفي موريطانيا الشرقية، وفي الشمال، وفي الصحراء، وفي السهول، وفي الجبال، وظل سبع سنين في لأمة الحرب مع الرومان لا يسكن ولا يستريح، وقضى أيامه في الملك وهو يجاهد لتنظيف الدولة وتوحيدها، وفي مجالدة المستعمرين ودفاعهم. ولو امتد اجله لبلغ كل آماله، فيقضي على الرومان في المغرب، ويوحد وطن الأمازيغ فيكون دولة واحدة، ويجعل المغرب أكبر دولة بعبقريته السياسية والإدارية، وبإخلاصه!

لقد كتب كثير من المؤرخين عن يوغورطة فمجدوه، وأرغمهم على الاعتراف ببطولته وبطولة البربر النادرة، فبعضهم كان سهما فانتصر على القول الصواب، وبعضهم كان سيفها فقال في يوغورطة ما يقوله السفهاء الذين لا شرف ولا عقول لهم فيمن يكرهون.

سفاهة بعض المؤرخين الأوربيين وأكاذيبهم على يوغورطة

ان بعض السفهاء من المؤرخين الأوربيين قد رأى يوغورطة يركب ظهور الرومان بالهزائم المتوالية في ميادين الحروب، ويمرغ قوادهم الكبار في التراب، ويرغم الجيش الروماني على الركوع والانحناء تحت أقدامه، فأفزعهم هذا المنظر، فاغتاظوا، فبسطوا السنة السب السفيه في يوغورطة، وأرادوا ان يغضوا من مقامه بالكذب والوقاحة، فقالوا :»انه ابن

حرام! !» وان أمه امة تسراها أبوه. قد يكون أم يوغورطة من سبايا جده غولة في حروبه مع صيفاقس. ولكن منستابعل أمير وابن ملك منتصر، وهو رجل حصيف رزين لا يتسرى من السبايا إلا بنات الملوك والأمراء، ولا يبني بهن إلا على النحو الشريف الذي يليق بشرفه الملوكي.

انه لا بغض من مقام يوغورطة إذا كانت امة سرية. فكثير من عظماء العالم، وعباقرة الأمم، وكبار الملوك أمهاتهم من ذلك النوع. فلم بغض ذلك من مقامهم، بل كان ذلك من أسباب قوتهم باختلاط الدماء القوية المختلفة فيهم.

ان شخصية المرء وأعماله دليل أصله. وأعمال يوغورطة كلها وجهاده لتدل على شرفه نسبه في جهتيه، وعلى كرم أعرافه كلها.

لو كان في نسب يوغورطة مغمز ما كان على ذلك الشموخ، وما مجده البربر كل التمجيد، وترتضوا ملكا، ونصروه على ابني عمه.

ايت أولئك المؤرخين الأوروبيين الذين كذبوا على يوغورطة والصقوا به ما ليس فيه، ممن يتمسك أقوامهم بالعفاف ويغارون على النسب، ولكنهم أبناء حضارة تجيز ان يتصل احدهم بإحداهن فيولدها مثنى وثلاث ورباع، ثم يعقد عليها للزواج، ويعد الناس أولئك أبناءه !

وقد ردد بعض المؤرخين المغاربة هذه الشتيمة الأوروبية، وهذا الكذب في يوغورطة ولم يفندوه. كأنهم من أولئك الأعداء الذين يسوؤهم ان يكون للمغرب بطل كيوغورطة، وان يكون البربر معدن البطولة والعبقرية فأجبوا أمثاله ! من أولئك المؤرخين المغاربة احمد صفر. ليته نزه كتابه القيم عن ترديد الشتائم الأوروبية في أجداده، وقلد الأوروبيين في تمجيد أبطالهم والذود عنهم. نرجو ان يتنبه ويتحرى فيما يقلد فيه، وان لا يشين الطبعة الثانية من كتابه بهذه الفرية الأوروبية على بطلنا العظيم.[100]

مدة يوغورطة في الملك وآثاره الراسخة في دولته.

وكانت مدة يوغورطة في الملك أربع عشرة سنة. من سنة 118 إلى سنة 104 ق.م

100 - قال احمد صفر في كتابه مدينة المغرب العربي ج 1 ص 276 فأغلظ هيمصال القول ابن عمه يوغورطة لأنه نغل. وقال في التعليق: النغل ابن الحرام. لو اعمل احمد صفر عقله في التاريخ وكان غيورا على أبطاله لعلم ان الملك مصيبسا العاقل الشريف لا يتبني ولا يوصي بالملك لرجل مغموز في نسبه، وان هيمصال إذا صح انه تجهم يوغورطة فلطيش الأمراء وغطرسة المدللين في هيمصال لا لضعة في يوغورطة.

وقد أمضى معظمها في الحروب لتوحيد المغرب، وفي مدافعه الرومان عن دولته. ولم يحظ بعهود الاستقرار الطويلة التي كانت لجده مصينيسا، وعمه مصيبسا. فلو ظفر بالاستقرار والهناء، وطالت مدته في الملك، لرأي المغرب منه خيرا كثيرا، ولجعل الأمازيغ كلهم دولة واحدة تشمخ على الرومان. ولكن شاء الله ان يبتليه بالرومان، فشغلوه عن الإصلاح والعمران.

وقد أورث يوغورطة بجهاده ونضاله شبابا جديدا لدولته، فامتد عمرها في الحياة فلو اتصل الهدوء والاستقرار الذي كانت عليه في عهد مصينيسا وعهد مصيبسا لأسرع إليها الهرم، وأودت بها الراحة وحياة النعيم.

وأورث يوغورطة لدولته عزة فرفعت رأسها. فلم يستطيع الرومان القضاء عليها إلا بعد محاولات طويلة استغرقت نصف قرن من الزمان.

وكان عمر يوغورطة لما اسر حوالي ثمان وستين سنة. وكانت قوة بنيانه، والحياة العسكرية التي أحياها، وعدم إخلاده إلى الراحة والنعيم، قد حفظت شبابه وقوته الجسيمة، فلم يصبه الضعف والتهدم الذي يصيب من كانوا في مثل عمره.

لقد استطاع الرومان ان يقضوا على يوغورطة بالخديعة، ولكنهم لم يستطيعوا القضاء على الدولة البربرية الكبرى. انها ما زالت شامخة، متينة البنيان، واسعة الأرجاء لا يستطيعون اقتطاعها أو تهديمها. فكل ما استطاعوا عمله هو إزالة يوغورطة الذي وحدها، فيها الشباب، فانقسمت بعده إلى دويلات، فأصابها عامل الضعف إلي يتمناه لها الرومان. وستظل تزأر زئيرها على الرومان، وتكشر عن أنيابها لهم، وتمرغ جيوشهم في الرغام! فمن خلف يوغورطة في بطولته وإخلاصه، وغيرته على المغرب من ملوك البربر؟ انه يوبا الأول! متى كان، وفي أي ناحية، وما شخصيته وأعماله؟ ومن الذي قدم له فكان أحسن نتائجه، وأزكى ثماره؟

هل كان ذلك الأسد البربري تستطيعه هذه الذئاب الرومانية لولا خيانة بوكوس؟ ادرس الشخصيات في رسومها، وقارن بينها، فان الله خلق وجه الإنسان مظهر شخصيته، وعنوان حقيقته.

انقسام الدولة البربرية وتمزقها

كان الرومان يعتقدون ان السبب الذي يضعف الدولة البربرية لنما هو انقسامها وتمزيقها إلى دويلات، ليتناطح ملوكها ويستنجدون بها كما استنجد بهم آدربعل فيهجمون على الأقوى بالأضعف فيزيلونه، فلا يبقى على عرش الدولة إلا الملوك الضعفاء الذين يخضعون لهم، ويورثون الهرم والضعف لأجزاء الدولة فيلتهمونها قطعة قطعة، ويستولون على المغرب كله. ولما قضت روما على يوغورطة بالغدر والمكيدة تحقق للرومان ما أملوه، فانقسمت الدولة البربرية وتمزقت.

اقتطاع بوكوس الأول لموريطانيا الشرقية

وكان الرومان قد واعدوا بوكوس الأول بإعانته على الاستيلاء على موريطانيا الشرقية جزاء له على إعانته لهم في القبض على يوغورطة. فلما اسر يوغورطة، زحف بوكوس الأول بإعانة الرومان على موريطانيا الشرقية فملكها وسموها نوميديا الغربي، فامتدت الحدود الشرقية لدولته إلى غرب بجاية.

ولاية الملك على نوميديا وغرب افريقية

أما نوميديا وغرب افريقية التابع لنوميديا فان البربر فيهما قد أقاموا بعد يوغورطة أخاه غودا ملكا عليهم، وكان هذا بسعي الرومان، وحثهم البربر عليه. فانقسمت الدولة البربرية إلى دولتين، آلة موريطانيا قد اقتطعها بوكوس وأضافها إلى دولته. والى نوميديا التي صار غودا عليها ملكا.

وكان غودا هو أسن رجل في أسرة مصينيسا. وكان الملك له كما يقضي قانون وراثة الملك القديم في هذه الأسرة.

وكانت ولاية غودا للملك في سنة 104 ق.م وكان شيخا مسنا، واهن القوى، ضعيف الشخصية، لا يشبه أخاه يوغورطة في بطولته ومواهبه. وكان عهده في الملك ساكنا، لم يحدثنا التاريخ بثورات داخلية وقعت له، وبحروب خارجية خاضتها دولته مع جيرانها. لقد كانت الدولة البربرية مثخنة بالجراح بحروب يوغورطة التي دامت سبع سنين، فآثرت السكون والهدوء لتنسجم وتتجدد. وكانت بعد ذهاب يوغورطة قد خلت من القائد القوي الذي يثور بها على أعدائها. ان الدولة في الم وغيظ شديد لتقسيمها واقتطاع

موريطانيا الشرقية منها وإعطائها إلى بوكوس الذي تمقته وتراه سبب نكبتها. فبودها ان تثور عليه، ولكن خلوها من القائد القوي، وتعبها من الحروب الطويلة جعلها تؤثر الهدوء، وتخلد إلى السكون، على نار للحق والعداوة القائمة للرومان وذنبهم بوكوس تتأجج في أعماقها.

ولاية هيمصال الثاني ويرباص ومصينيسا الثاني للملك

ودام غودا ملكا على نوميديا وغرب افريقية إلى ان توفي في سنة 88 ق.م وكانت مدته في الملك ست عشرة سنة. ولما توفي اقتسم أبناؤه الثلاثة مملكته نوميديا وغرب افريقية. فاخذ هيمصال الثاني غرب افريقية ونوميديا الشرقية وهي من طبرقة إلى شرق روسكاد (مدينة سكيكدة). واخذ يرباص نوميديا الوسطى وهي من روسكاد إلى شرق مدينة جيجل وغرب ميلة. واخذ مصينيسا الثاني نوميديا اسطيفية وهي الغربية. وحدها من شرق جيجل إلى غرب صلداي (بجاية).

وكان الرومان يعجبهم هذا التقسيم الذي يضعف الدولة البربرية. كما كان يتفق مع طبع البربر القديم الذي حاول مصينيسا الأول ويوغورطة القضاء عليه. وهو إيثار الاستقلال الجهوي، واللامركزية في الحكم. وكانت حدود هذه الممالك في نوميديا تنتهي في حدود الصحراء الشمالية وفي شمال جبال آوراس. وكان آوراس مستقلا تحت أمرائه، وكذلك جبال القبائل، كما كانت جيتوليا وهي الصحراء مستقلة تحت أمرائها.

وكان مصينيسا الثاني غيورا على الدولة. وقد ساءه ان يستولي عدوهم بوكوس على الجزء الغربي منها، وهو موريطانيا الشرقية، فعزم على استردادها. فصار يرقب الفرصة إلى ان اشتغل الرومان بالحروب الداخلية التي شبت بين مايوس وصيلة في سنة 88 ق.م فوجد فرصته. فاستولى على موريطانيا الشرقية فضمها إلى مملكته، وأخرجها من قبضة بوكوس اللئيم.

قال الأستاذ احمد صفر:»وبعد موت غودة سنة 88 ق.م تولى الملك أبناءه (هيمصال) و(مصينيسا). فتمكن هذا الأخير من استرجاع مملكة أجداده من الملك بوكوس الخائن.»[101]

ان كل ما ذكره المؤرخون هو ان مصينيسا الثاني استطاع ان يسترجع موريطانيا الشرقية ويأخذها من بوكوس الأول ولم يذكروا متى وقع ذلك. وإذا كان الرومان هم القوة التي تتدخل إذا هوجم بوكوس فتعينه على منع إخراج موريطانيا الشرقية من يده. فأرى ان انشغال الرومان بحربهم الداخلية هو الفرصة التي اغتنمها مصينيسا

101 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 213 ط أولى بتونس.

فهجم على بوكوس فاخذ منه موريطانيا الشرقية. وذلك أما في سنة شبوب الحرب الداخلية الرومانية وهي سنة 88 ق.م أو بعدها بقليل. ان البربر في موريطانيا الشرقية كانوا يغلون حقدا على بوكوس لقضائه على زعيمهم يوغورطة. ونوميديا كانت تتوق لاسترجاع موريطانيا الشرقية. ولا أراها تؤخر اغتنام فرصة الحرب الأهلية أول ما حانت في سنة 88 ق.م.

طموح يرباص وهيمصال وتنازعهما

وكان يرباص وهيمصال الثاني ملكين طموحين. وكان كل منهما يريد ان يستولي على ما بيد الآخر ليوحد نوميديا، ثم الدولة كلها بعد ذلك. فحانت الفرصة ليرباص فاغتنمها فاستولى على نوميديا كلها وعلى موريطانيا الشرقية فأقصى هيمصال الثاني ومصينيسا الثاني من مملكتهما فتوحدت الدولة على يد يرباص، وبلغ ما أراد. فمتى وقع ذلك وما هي فرصته؟

هجوم يرباص على أخويه وتجريدهما من الملك

كان ذلك في سنة 88 ق.م وكان الصراع على أشده في روما بين القائدين الكبيرين ماريوس وصيلة. وكان ماريوس شعبيا يريد تجديد نظام الحكم في الدولة وإضعاف نفوذ مجلس الشيوخ الذي كان جله من الطبقة الاوروستقراطية الأنانية الضعيفة، وإقامة النظام الإمبراطوري الذي يصلح بالدولة ويجدد شبابها. أما صيلة فكان اورويستقراطيا يتحمس للجمهورية، ويتعصب لمجلس الشيوخ، ويريد ان يرجع له نفوذه أيام شباب الجمهورية وقوتها. وكان إلى اختلاف الطبقة بينهما، واختلاف المذهب يحبان الرئاسة. وكان لكل منهما حزب قوي في روما فتصارعا. وكان صيلة أكثر دهاء من ماريوس، وحزبه كان أكثر نظاما. وكان من حزبه القائد الكبير بامبايوس الذي كان بطلا في الحروب كماريوس فاستطاع صيلة ببطولة رجاله، سيما قائده بامبايوس، ودهائه الكبير ان يهزم ماريوس في روما وفي ايطاليا. ففر ماريوس إلى المغرب ليستعين بدوله على التغلب على خصمه. فنزل عوتيقة فأبى الوالي الروماني ان يعينه. ان صيلة أقوى منه. سيلاحقه فينتصر عليه بكثرة جيوشه فتقع الضربات على من يأويه. فأرسل إلى هيمصال الثاني يسأله ان يأويه وينصره، فأبى لما رآه الوالي الروماني. فطرق ماريوس أبواب يرباص، وواعده بإعانة حزبه له ومن معه من الجيش على الاستيلاء علة نوميديا وكل نواحي الدولة

البربرية الكبرى.[102] فسر يرباص بهذه الفرصة فآوى ماريوس في سنة 88 ق.م ثم أعانه ماريوس بجيشه، وأنصاره في افريقية، وزين له الاستيلاء على الدولة البربرية كلها ليكون قويا فيصول به صيلة. فهجم في سنة 81 على مملكة هيمصال الثاني نوميديا الشرقية، وعلى مملكة مصينيسا الثاني نوميديا الغربية وموريطانيا الشرقية، فاستولى عليهما فتوحدت الدولة على يده.

وكان يرباص قوي الشخصية. وكان يحب الحضارة وينشرها في دولته، وقد اعتنى بالفلاحة، وضرب السكة باسمه. وكان غيورا على الدولة البربرية، كما كان يكره الرومان ويمقتهم.

هجوم صيلة على ماريوس ويرباص وهزمهما

وفي سنة 80 ق.م عزم صيلة على القضاء على عدوه ماريوس في المغرب أيضا. فأرسل جيشا قويا تحت قيادة بومبايوس فاشتبك بماريوس وحليفه يرباص في حروب عنيفة. وأرسل صيلة إلى صديقه القديم بوكوس الأول ملك موريطانيا الغربي مستنجدا به. فأعانه بجيش كبير من فرسان موريطانيا تحت قيادة حفيده غودا. فهجم بهم من خلف على يرباص فاستطاع بومبايوس الانتصار عليه وعلة ماريوس. فتقهقر يرباص إلى عاصمته ليعتصم بها، فاعترضه غودا في جيشه فقبض عليه فقتله. وكان بوكوس وأبناؤه هم حبل الجزرة النتن الذي يقيد به الرومان أبطال المغرب فيفتك بهم. وهم الحبل الخبيث الذي يعترض طريق الدولة البربرية في حروبها مع الرومان فتقسط فيتغلبون عليها. لولاهم لكانت الدولة البربرية هي المنتصرة على ماريوس في عهد يوغورطة، وعلى بومبايوس في عهد يرباص.

وكان هيمصال الثاني وأخوه مصينيسا الثاني قد أدركا بنظرهما البعيد ان الغلبة لصيلة فرفضا تأييد ماريوس واظهرا ميلهما إلى صيلة. ولما غزا بامبيوس نوميديا أعاناه فاستطاع ان ينتصر على يرباص. فاسترجعا مملكتهما، فرجع كل منهما إلى مملكته. وزحف هيمصال الثاني على نوميديا الوسطى مملكو يرباص فضمها إليه. فصارت دولته تشتمل على غرب افريقية، ونوميديا الشرقية والوسطى وينتهي حد دولته في شرق جيجل وغرب (ميلة).

وكان هيمصال الثاني قوي الشخصية، عالي الهمة، غيورا على المغرب. بوده لو وحده

102 - إذا قلنا الدولة البربرية أو الدولة البربرية الكبرى فالمراد بها دولة مصينيسا الأول الواسعة التي كانت تشتمل على جل المغرب. انظر حدودها في باب دولة مصينيسا.

في دولة واحدة ليصول به على الرومان. وكان يحب الحضارة. وقد نشرها في مملكته، وواصل أعمال أجداده في هذا الميدان. كما ضرب النقود باسمه. وكان يكره الرومان ويمقتهم. وكان يجهد لتجديد شباب نوميديا ليصول بها على الرومان. وقد أورث كل مثله العليا إلى ابنه يوبا الأول الذي هب بعد وفاته لتحقيقها . ودام هيمصال الثاني ملكا إلى سنة 50 ق.ك فأدركته الوفاة. وكانت مدته في الملك نحو 36 سنة ولولا تمزق الدولة، اشتغال ملوكها بالكيد لبعضهم، لاستطاع هيمصال ان يجددها، فيعيد بها الكرة على الرومان.

أما مصينيسا الثاني فعاش بعد أخيه، وأعان يوبا الأول في حروبه مع الرومان. ومات أو قتل في سنة 46 ق.م واستولى بوكوس الثاني على مملكته.

مات هيمصال الثاني ولكنه ترك لنا يوبا الأول الذي ورث ملكه، وكان من الملوك الأبطال، ومن مفاخر المغرب العظام. ما هي شخصية يوبا العظيمة. وما هي أعماله وجهاده في سبيل الدولة، وفي سبيل المغرب الكبير؟

يوبا الأول 50-46 ق.م

نسبه ونشأته وشخصيته العظيمة

يوبا الأول ابن هيمصال الثاني. مصينيسا الأول جده الثالث، ويوغورطة عمه. قد اكتنفته البطولة من كل نواحيه، وحفه المجد من كل أطرافه. وكان والده هيمصال قوي الشخصية، فأورثه قوة شخصيته، وإباءه، وطموحه، وغيرته على المغرب، ومثله العليا، سيما توحيد المغرب وتطهيره من الرومان !

وكان هيمصال قد رأى في يوبا نبوغا وشجاعة وقوة شخصية. فرجا ان يكون من عظماء الدولة، ومن قوادها المخلصين الذين يطهرونها من الرومان. فاعتنى بتربية كمل الاعتناء، فأرهف شجاعته ومضاءه، وغرس فيه الإخلاص والوفاء، وملأه بالغيرة على دولته، والاعتداد بجنسه، وعوده اللطف والحدب على بني قومه، والكره والعداوة للروما الذين مزقوا دولته ليبتلعوها؛ كما أنشأه على الفروسية، ودربه على فنون القتال فبرع فيها. فكان من فرسان عصره، ومن الماهرين في القتال في زمانه. اعتنى هيمصال بتربيته العقلية فعلمه وثقفه، فحذق اللغة الرومانية، وأتقن ما يجب من العلم والمعرفة. ثم أرسله إلى روما حيث أتم تعليمه، واطلع على الحضارة الرومانية، ودرس نفوس الرومان فعلم أسباب عظمتهم، واطلع على نواياهم السيئة للمغرب، وعلى رغيتهم في امتلاكه والسيطرة عليه. فرجع إلى وطنه وقد تمت ثقافته، ونضجت مواهبه، واستعد للقيام بالأعمال الكبرى ولما تولى أبوه الملك صار من أعوانه في مهمات الدولة، ومن اعضاده الذين يسد بهم الثغور الغربية، فاستنجد مصينيسا بالرومان، فأرسل هيمصال ابنه يوبا إلى روما فحامى عن أبيه في مجلس الشيوخ وقام بالدفاع عنه أحسن قيام حتى اغضب قيصر الذي كان يميل إلى مصينيسا فقام يناقشه محتدا، فتصدى له يوبا فجادله، وضايقه بقوة حجمه وبشجاعته في الدفاع. فقام إليه قيصر في حماسة الغضب فامسك بلحيته، ولابد ان يكون يوبا قد دفعه عنه بقوة بنيانه فيقعى في مجلسه.

كان يوبا بطلا شجاعا، وفارسا مغوارا، وكان يتقيد غيرة على المغرب. وكان مثله الأعلى ان يوحده كله في دولة واحدة، ويقذف بالرومان في البحر.

وكان أبيا كل الآباء معتدا بنفسه. وكان واسع الغنى، كبير الثروة فزاد غناه في عزه نفسه، وفي آبائه واعتداده وطموحه.

وكان قوي الجسم، متين البنيان، مهيب الطلعة. وكان يرسل لحيته، فتزيد اللحية في مهابته، ويطيل شعر رأسه، وإذا نظرت إلى صورته رأيت أسدا هصورا في شخص إنسان، وشاهدت رجلا قويا يحترمه ويجله ويهابه كل من يراه.

وكان يوبا متدينا. وقد رسم في نقوده صورة معبد. وذلك لتقديسه للدين، وللمزاج الديني القوي فيه، وفي أهل دولته.

وكان ذكيا بالغ الذكاء، داهية يعرف كيف يوقع بأعدائه. وقد أغرى سبيون القائد الروماني بما نفر البربر عنه، وشحن صدورهم بالعداوة له، وذلك لدهائه، ومقته للرومان.

وكان يوبا الأول أشبه الناس بيوغورطة في شخصيته. انه ضريعه في الشجاعة، والأقدام، والإخلاص للمغرب، والعداوة للرومان المستعمرين.

وكان يوبا محبا للحضارة، حريصا على العمران، فلو طالت أيامه في الملك لرأى الغرب منه الشيء الكثير في هذا الباب.

وكان يوبا إلى غناه وحبه للحضارة متقشفا، يؤثر حياة الجد، لا ينغمس في الملذات التي تضعف أخلاقه، ولا يركن إلى الخمول الذي يدخل الوهن على نفسه.

حدود دولته وعاصمته

وكان هيمصال قد أوصى بالملك إلى يوبا، ولما توفي في سنة 50 ق.م اقتعد عرش الدولة. وكانت دولته تشتمل على غرب افريقية، وجنوبها إلى مدينة طرابلس، وعلى نوميديا الشرقية، وعلى نوميديا الغربية. وتنتهي دولته غربا في شرق جيجل، وفي غرب ميلة.

وكان يجاوره في نوميديا من الغرب مملكة عمه مصينيسا. ان نوميديا الغربي له. وكان يوبا أحسن جواره، وامتلك وده، فوقف بجانبه في حروبه مع الرومان.

ان المؤرخين لم ذكروا عاصمة يوبا. قد تكون هبون، وقد تكون قرطة. ان قصر أيامه في السلم جعل عاصمته السياسة، ومقره غير معروف. أما مركزه الحربي وعاصمته أيام حروبه فهي (جامة ريجيا) في شمال مدينة (مكثر) في الوسط الغربي لافريقية، وفي الجنوب الشرقي لمدينة الكاف. وقد آثر جامة معسكرا له، وعاصمة أيام حربه، لان

حروبه مع الزمان في الولاية الرومانية. فهو يريد ان يكون قريبا من ميدان عمله وفي مكان يستطع ان يراقب منه الرومان. ولا أرى انها كانت عاصمة لأبيه قبله. فهبون هي العاصمة كما قال بعض المؤرخين، أو قرطة. وقد استولى عليها هيمصال فصارت من دولته.

اعتناء يوبا بجيشه واستعداده لمحاربة الرومان

وكان يوبا يوقن بأنه مقبل على حروب طاحنة مع الرومان. فما كاد يتولى الملك حتى اعتنى بجيشه كل الاعتناء، فدربه وعلمه احدث الأساليب في القتال، وسلحه أحسن تسليح. وربي شعبه تربية عسكرية، وألقى في روعهم مقبلون على حروب وطنية مهولة، ومنازلة أعداء أقوياءهم الرومان. فاعد دولته للحرب، وصار كل فرد فيها مرهف المخالب والأنياب مستعدا للانفجار.

وكان يوبا عليما بأحوال الرومان، وبما يجري في بلادهم، فرأى تصارعهم على الرئاسة فعلم ان هذا الصراع سينتقل إلى الولاية الرومانية فتحين له الفرصة للقضاء على الرومان، وتطهير المغرب منهم. فحانت تلك الفرصة، فاغتنمها يوبا. فدخل في حروب عنيفة كان غرضه منها وطنيا نبيلا. فلولا الحساد وسواد النفوس لنال غرضه وظهر المغرب من عدوه اللدود. ما هي أسباب تلك الحروب التي انتقلت من روما إلى المغرب وما مواقف يوبا البطولية فيها؟ ومتى وقعت؟ ولمن كان النصر والغلبة فيه؟

حروب يوبا الأول مع قيصر

الصراع بين الجمهورية والإمبراطورية في ايطاليا

كان الرومان في القرن الأخير قبل الميلاد يتصارعون الرئاسة، ويتنافسون على الزعامة. وكانت الجمهورية قد شاخت في روما، وصارت أنظار المجددين الأحرار من الرومانيين تتطلع إلى مستبد عادل حكيم ينقذ الإمبراطورية من الانتثار، ويطب لروما التي فتكت بها أمراض المدينة وعلل الحضارة فصارت تسعل وتئن. وكان سعالها هو صليل السيوف التي يشرعها المتنافسون على الرئاسة في شوارعها بعضهم على بعض، وأنينها هو أنين الجرحى والمجندين الذين تغص بهم الميادين والشوارع في رومة التي تعصف بها المنافسة فجن جنونها.

وكان يقود هذا الصراع، وتلك الحروب الأهلية الهوجاء في آخر النصف الأول من القرن

الأخير قبل الميلاد رجلان يتناطحان على الرئاسة. كلاهما قائد حربي كبير قد كلل أمته بالنصر في عدة حروب، وأورثها الغلبة والظفر على عدة أمم حاولت ان تتحدى رومة وتتمرد عليها. وهذان القائدان الكبيران هما بامبايوس ويوليوس قيصر.

نصرة يوبا للجمهوريين وأسباب ذلك

وكان بامبايوس يناصر الجمهورية الهرمة فإقامته حكومة روما الجمهورية قائدا لجندها المأجور المهلهل، ورئيسا يدافع عنها. أما قيصر فاعتمد على أنصاره المتحمسين، وشبان حزبه المخلصين. فوقعت حروب أهلية بينهما في سنة 49 ق.م. كان النصر فيها لقيصر. فملك روما، ودحر بامبايوس في ايطاليا كلها. ففر بامبايوس إلى مصر، وهرب كثير من أتباعه إلى افريقية ليسترجعوا هناك قواهم فيكروا على قيصر.

وكان ممن هرب إلى افريقية من أتباع بامبايوس (فاروس) كبير ضباطه، واحد زعماء حزبه. وما كاد فاروس يصل إلى الولاية الرومانية حتى راعته شخصية يوبا وبطولته، وشجاعة رجاله، ونظلم جيشه، وكثرة جنوده. فصار يتملقه ويستميله إليه لينصره على قيصر. ولكن يوبا ما كان لينصر روما على آخر بدون قائد كبرى يجلبها لقومه، وبدون أغراض سامية يحققها لدولته. ان له مثلا أعلى يملك فؤاده فما من عمل مهم يقوم به إلا وهو مقدمة لتحقيقه، ووسيلة لبلوغه. ان مثله الأعلى، وأمله الكبير ان يطهر المغرب من الرومان، ويوحد الدولة البربرية الكبرى، ثم يوحد المغرب بها، ليكون كله دولة واحدة قوية سعيدة فها هي الفرصة تحين له. ها هم الرومان يتقاتلون ويتخاصمون، وها هو حزب الجمهورية يستغيث به انه الحزب الضعيف في روما، ولكنه القوي في الولاية الرومانية بافريقية. في يده كل الشئون، وهو المستبد بالأمور، فأعانته ونصرته ذات جدوى سياسية كبرى لدولته وللمغرب، ثم ان بمبايوس صديق والده، قد أعانه على استرجاع مملكته. لقد نصرهم في وقت الشدة، وكان لهم في أيام عصيبة قد أنزلوا فيها من عرش الملك، وأمسوا كما صار هو مجردا من الدولة، يحتمي بالناس. ان مروءته، وكرم نفسه ووفاءه لتدعوه إلى نصرته، والانتقام من قيصر الجبار الذي سول له طغيانه ان يقبض في مجلس الشيوخ على لحيته، ويهينه بهذا التحدي الذي يدل على عدم المبالاة به وبدولته.[103]

ومال يوبا إلى الحزب الجمهوري، وواعد فاروس بالنصرة عل ان يتخلى الرومان عن المغرب، ويرحلوا إلى بلادهم، ويتركوا وطن الأمازيغ للأمازيغ. فواعده فاروس وحزبه بذلك. فاستعد

103 - انظر هذه القصة في صفحة 315 من هذا الجزء.

خريطة الممالك البربرية في المغرب في القرنين الخامس والسادس المسيحي

١ مملكة: هوارة ولوته (ملكها قابايوت)
٢ مملكة: قفصة
٣ مملكة: الفراشيش بالظهرية (ملكها اطلاس)
٤ مملكة: النمامشة
٥ مملكة: أوراس (ملكها يوضاس)
٦ مملكة: الحضنة (ملكها ارتياس)
٧ مملكة: الجدار (ملكها ماستيناس)
٨ مملكة: الطاوة وصافار (ملكها مازونه)

نقلت الخريطة من كتاب مدنية المغرب العربي للأستاذ أحمد صفر، مع زيادات واصلاحات منى، وقد نقلها الأستاذ أحمد صفر من كتاب (الوندال وافريقية) لكريستيان كورتوا

ملاحظة: موريطانية وجيتولية، وسبراطة وقفصة وقرطاجنة، وسوسة، وعنابة، والطاوة وتالة بالتاء لا بالهاء

اسم الملكين: ٤ مملكة النمامشة يسمى ملكها (قطزيناس)
٥ يوضاس، ملك آوراس، يسمى أيضا (بيداس)

يوبا لخوض المعركة ضد قيصر.

وكان قيصر حازما صارما. فما كاد يهزم الحزب الجمهوري في ايطاليا، حتى شمر للقضاء على أنصار هذا الحزب في إفريقيا. ولما سمع انضمام يوبا إلى الجمهوريين حسب لذلك ألف حساب، وخاف ان يتقوى به الحزب الجمهوري فيغزوه في ايطاليا. فجد في محاربة يوبا وفاروس. فأرسل في سنة 49 ق.م. جيشا كبيرا تحت قيادة احد ضباطه الكبار (كريون) وكان كريون عدوا شخصيا ليوبا فاختاره قيصر لهذا السبب أيضا. فنزل كريون في الولاية الرومانية، ودخل في حرب طاحنة مع فاروس.

دهاء يوبا مع الجمهوريين

وكان يوبا داهية، فترك فاروس في أولى الحرب وحده مع الرومان يقاتلون كريون، ليظهر ضعفهم، ويروا تفوق كريون عليهم، ويوقنوا بغلبته لهم إذا لم يعنهم يوبا. انه لو أعانهم من أول الحرب فانتصروا لنسبوا النصر إلى قوتهم فلا تظهر منة يوبا عليهم. لقد تركهم يقعون في المحنة، ويبتلون بالهزيمة، ويظهر ضعفهم وقصورهم أمام كريون القوي وجيشه المخلص الباسل.

واشتبك كريون بفاروس في معركة حامية، فضربه كريون ضربات قاصمة، وهزمه في المعركة. ففر فاروس وبقية جيشه إلى العاصمة الحصينة (عوتيقة) فتحصن بها، فحاصره كريون وشد عليه الحصار، وكاد يخلها عنوة عليه. ولما رأى يوبا ان فاروس قد أيقن بضعفه،وقوة عدوه، ورأى الموت الأحمر يحدق به، ويكاد ان يقضي عليه، أسرع إليه بجيشه، فصدم القوى بفرسان نوميديا وبجيشه المنظم الباسل فهزمه، ومرغه في التراب. ففر كريون إلى قلعة حصينة في الولاية الرومانية فتحصن فيها. فأراد يوبا ان يخرجه من قلعته، فرجع بأكثر جيوشه، فأشاع ان ثورة داخلية قد نشبت عليه في نوميديا فأرغم على الذهاب إليها ليخمدها، وان الذين يحاصرون قلعته ليسوا إلا حفنة من جيشه. فصدق كريون الإشاعة، فخرج من القلعة ليهزم المحاصرين، فيسير إلى يوبا فيضربه من خلفه وهو مشتغل بأعدائه في الداخل فينتصر عليه. ولم يكد يناوش المحاصرين له حتى تقهقروا إمامه، فظن التقهقر هزيمة فاتبعهم. وكان يوبا قد كمن بجيشه الكبير وأفياله الكثيرة في شعاب بعيدة عن قلعة كريون. فلما وصل كريون إلى مكمنه خرج عليه يوبا فأحاط به، وهو في تعب بقطع المسافات في الطريق الوعرة. فما أسرع ما أتى الحسام على جيش كريون فأباده يوبا، فسقط كريون قتيلا في المعركة. فحملت رأسه إلى يوبا. وكان ذلك كله في سنة 49 ق.م.

كان ذلك نصرا كبيرا ليوبا، فقد ظهرت قوته لفاروس، وبدا تفوقه للرومان في الولاية الرومانية، فصاروا يعتقدون -ورؤوسهم حانية له- انه منقذهم من الهلاك. لولاه لقضى عليهم كريون.

استعلاء يوبا على الرومان وإخضاعهم لسلطانه

كان يوبا جريئا داهية، فاستغل انتصاره على كريون فابتدأ في تحقيق أمله وما واعده به فاروس، وهو الاستيلاء على الولاية الرومانية. فرجع إلى عوتيقه عاصمة الولاية إلى عاصمته (جامة ريجيا) فاظهر سلطانه على الرومان، فصار هو الأمر الناهي، والرومان رعية له خاضعون لسلطانه، يأبى ان يمتازوا على البربر بشيء، أو يظهروا في مظهر السلطان والقوة، أو يبدو رؤساؤهم في زي يشعر بالرئاسة والتقدم. ان الرئاسة بالقوة وهو أقوى منهم، وبالعزة، والبربر اعز منهم وأقوى، إنهم لا يهربون أمام الأعداء، ويختبئون في قلاعهم كالنساء، ولكن يهجمون على العدو وان كان جرارا، فيرى منهم طلعة الأسود، فيقرونه بالحتوف، ويتركونه مطعما للنمل والحشرات !

وكان فاروس وحزبه الجمهوري يخضعون ليوبا ويمتثلون أوامره. وكان هو يعلو عليهم ويريهم إنهم رعية خاضعة. وقد جاءه مرة سبيون رئيس البمبايوسيين لابسا حلة حمراء مطرزة بالذهب، وهي شعار الملوك عندهم، فأمره يوبا بخلعها ولبس البياض، فامتثل سبيون، فخلع ثوب الملك ولبس ثياب السوقة !

وكانت نصرة يوبا لحزب بمبايوس أنعشت هذا الحزب فجددت أمله في التغلب على قيصر، وانتزاع الرئاسة منه. فأسرع عظماء هذا الحزب إلى افريقية ليجددوا الكرة على قيصر. وكان من الوافدين سبيون، وهو غير سبيون الإفريقي بطل جامة وغير سبيون الاميلي الذي هدم قرطاجنة وحرقها. ولكنه قائد آخر من أركان حرب بمبايوس. وكان قدومه إلى افريقية في سنة 48 ق.م.

وكان سبيون يعتد بنفسه لأنه صهر بمبايوس ويرى انه أولى بالرئاسة في افريقية، ولكن فاروس أبى ان يتنازل له، فوقعت المنافسة بين الرجلين، وحثت بلبلة في صفوف الرومان بهذا. وكان يوبا يغرى كلا من الرجلين بالأخر ويفرق كلمتهم، ليتنازعوا فيفشلوا فيستعلي عليهم. إنهم أعداء أمته. إنهم الحية الرعناء المسمومة في عقر داره. إنهم المرض القتال في جسم المغرب العزيز، فهل يعمل يوبا الغيور المخلص إلا لخرابهم وهل يساعد إلا على ضعفهم واضمحلالهم؟

وقد ظل هذا النزاع بين سبيون وفاروس مدة. وكان لا يزداد إلا اشتعالا. ان كلا منهما

قائد حربي مستبد. وكانا يمثلان الجمهورية الهرمة التي استولت على أنصارها الأنانية وحب الذات. فأمسى القائدان -قيصر يستعد للهجوم عليهما في روما- كالثيران التي تتناطح في المجزرة. وكان مغتبطا بتناطحهما. وفي سنة 47 ق.م. وفد على افريقية كاطون وهو غير كاطون الذي نادى بتهديم قرطاجنة.

وكان كاطون الثاني يشبه كاطون الأول في الغيرة، والذكاء، والعلم، وقوة الخطابية. فأصلح بين فاروس وسبيون، وجمع كلمة الرومان، ونظم صفوفهم. فتفاوضوا فيمن يرأس الحزب بعد بمبايوس، فقدموا سبيون. فشمر سبيون عن ساعده فأعاد تنظيم الجيش، وشرع في الاستعداد لحرب قيصر.

وكان سكان الولاية الرومانية من الرومان اغلبهم من شيعة قيصر. وكانت الحضارة أيضا قد قتلتهم، والغرق في الملذات قد اوهن نفوسهم وقتل شجاعتهم، فلم يعتمد عليهم سبيون. فجمع طوائف كبيرة من الموالي والعبيد المستأجرين فكون منهم جيشا كبيرا بلغ عدده أربعين ألفا. فاركبهم الخيل وأمدهم بالسلاح. ولكن من أين له ان يخلق في نفوسهم ما تتأجج به قلوب جيش قيصر من الحب له، والإخلاص لمبادئه.

وكان سبيون يعلم ان عماده في قراعه، وقته في هجومه ودفاعه هو يوبا. أما جيشه المستأجر وان كان كثيفا فهو سور من الرمل، لا يثبت أمام العاصفة، ولا يقف في وجه السيول. لهذا شرع يفتل ليوبا في الذروة والغارب، ويؤكد ما واعده به فاروس. فأعانه يوبا بأربع فرق من جيشه المدرب القوي، فيها اثنا عشر ألف مقاتل، ومائة وعشرين فيلا، وبجمهور كبير من المتطوعين البدو الشجعان. فتنفس سبيون الصعداء ففرح بهذه القوة. وكان هو الذي يقوم بنفقاتها، ويدفع لها أجورها الكبيرة.

دهاء يوبا مع سبيون

وكان سبيون يتملق يوبا ويخضع له، ويمتثل أوامره، ويعمل بما يشير به عليه. فوجد يوبا فرصته للكيد لسبيون. انه يريد ان يفسد القلوب عليه في افريقية، ويضعفه ليكون دائما في حاجة إليه، وتحت سيطرته. وكان سبيون في حاجة إلى الميرة والى المال لنفقات جيشه وجيش يوبا فأشار عليه بمطالبة الفلاحين من البربر في الولاية الرومانية بتقديم ما يحصدون ليستولى عليه بدون ثمن أو أببخس الأثمان وبمطالبة التجار بالأموال الكثيرة. أشار عليه بتجنيد البربر في الولاية الرومانية وهم كارهون. كل ذلك ليفسد عليه قلوب البربر، ويهيئ البربر للثورة عليه إذا وصل وقت الانقضاض عليه ليظهر افريقية من الرومان. وقد فعل سبيون ما أشار به يوبا. فكان يطالب البربر بأموالهم

وزروعهم. ومن أبى أرسل عليه جنده فهدم داره واتلف أمواله. فهدم لذلك قرى كثيرة، وقتل من البربر ما لا يحصى ! ! فازداد البربر عداوة للرومان، واتجهت قلوبهم إلى يوبا، ورجوا ان يكون خلاصهم من المستعمرين الجشعين.

وأشار يوبا على سبيون، ليفسد قلوب الرومانيين عليه أيضا فلا يجد نصيرا إذا هم بقذفه في البحر؛ أشار عليه بقتل شيعة قيصر من الرومان في الولاية الرومانية، انه ليس من الحنكة والحزم الإبقاء عليهم وهو يستعد لمحاربة قيصر. إنهم جواسيس للأعداء. سيضربونه من الخلف إذا اشتبك بقيصر في معركة حامية. لابد من القضاء عليهم جميعا صغارهم وكبارهم، رجالهم ونسائهم! فأبى سبيون ان يمتثل لان العملية الجراحية ستجرى في لحم روماني. وهو لحم كريم عنده. ليس كلحوم البربر الذين يحتقرهم ويضطهدهم، ويراهم حشيشا يابسا في طريقه، يطؤه بأقدامه، ويشعل فيه النيران!

وكان قيصر يتتبع حركات سبيون وحزبه. فلما علم بإمداد يوبا له، وانحيازه إليه، وعرف قوته واستعداده، اغتم لذلك واهتم به كل الاهتمام. فعزم ان يعاجل سبيون فيقضي عليه في افريقية قبل ان يسير هو إليه بفرسان نوميديا. وبقوة يوبا فيحاربه في روما، فيسترجع النفوذ الذي خسره حزبه بالهزيمة التي حلت به.

استمالة قيصر لبوغيد الأول

وكان قيصر يعلم قوة يوبا، وشجاعة جنده، ونظامه العسكري البارع. ويعلم دهاء يوبا وكيده لعدوه، وعبقريته في قيادة الحروب، وإدارة المعارك فأيقن انه لا يستطيعه وحده. فلابد من نصير من البربر يعينه فيضرب يوبا من خلفه، ويطعنه من ظهره إذا اشتبك به. وكان يعرف بوغيد الأول ملك موريطانيا الغربية، وأخاه بوكوس الثاني ويعرف أطماعهما، وحسدهما ليوبا الأول. فأرسل إليهما يستميلهما، ويعدهما على النصرة بموريطانيا الشرقية وجزء من نوميديا. فمالا إليه، وأصبحا من حزبه، وواعداه بالزحف على دولة يوبا وضربه من خلفه. فسر قيصر بهذا وأطمأن بعد خوفه فصر بأسنانه، فأذن في أنصاره وجنوده بالاستعداد للحرب. فحمسهم وأشعل نيرانهم فاقلع بهم لحرب يوبا وسبيون.

وكان قيصر مهما بهذه الحرب كل الاهتمام. وكان يعرف قوة يوبا وشجاعة البربر فسار إلى الحرب بنفسه، وتولى هو قيادة جيوشه، ولم يكتف بأحد قواده

نزول قيصر في افريقية وحروبه فيها

وفي أكتوبر من سنة 47 ق.م نزل قيصر في نواحي اقليبية في الشمال الشرقي لافريقية. وعندما نزل من السفينة عثرت رجله فسقط على الأرض. فأنشب يديه في الأرض فتناهض وهو يصيح :»افريقية قد قبضتك» وإنما فعل ذلك حتى لا يتطير جيشه. وهذا يدل في قيصر على الذكاء وسرعة البديهة.

وكان سبيون يترقب مسيرة قيصر إليه. فعلم بنزوله في افريقية في جيش كبير، واستعداده للزحف عليه. فشرع في الاستعداد والاستكثار من الجيش. ولكن بمن يستعد، وعلى من يعتمد؟ ان بربر الولاية الرومانية قد تغيرت قلوبهم عليه لفظائعه في أموالهم، وظلمه لهم، وتهديمه لقراهم. فهم أعداؤه الألداء. يعملون لموته لا لحياته ويصنعون له هزائمه لا نصره. والرومان في الولاية الرومانية شيعة لقيصر. فاتجه سبيون إلى يوبا وسأله ان يدخل معه في الحرب بكل جيشه وقواه، وعلى ان يجلو مع الرومان كلهم من الولاية الرومانية فيتركها له. يبلغ ما يريد. فعلم يوبا ان فرصته لتحقيق أمله الكبير قد حانت، وان سبيون قد تجرد من قوته بفساد القلوب عليه في الولاية الرومانية وصار كما يتمنى ضعيفا يحنى الهام له، ويخضع لشروطه. فشمر يوبا لنصرته، ودخل معه الحرب بقوة كبيرة من جيشه، وبعدد كثير من جيشه، وبعدد كثير منة أفياله.فتنفس سبيون الصعداء، وأحس بالقوة والمنعة، فصر بأسنانه، ونظر بعين النمر إلى قيصر.

وفي نوفمبر سنة 47 ق.م هجم ضباط يوبا وسبيون على قيصر، فوقعت بينهما أول معركة. فأحاط الجيش البربري القوي، وجنود سبيون بقيصر وكادوا يهزمونه، فرأى الموت الأحمر في أحداق البربر وسيوفهم يحدق به، فلم ينج من المعركة إلا بدهاء كبير وحظ سعيد. فتقهقر إلى معسكره الحصين فاعتصم به.

مكيدة قيصر ليوبا

وكانت هذه المعركة صغيرة لم يحضرها يوبا ولا سبيون. فرأى فيها قيصر من الهول ما رأى. فأيقن قيصر بالهزيمة في المعركة الفاصلة التي تستقبله. تلك المعركة التي يقودها يوبا ويشارك فيها سبيون. ان المحق هو ما يهدده إذا بقي وحيدا في هذه الحرب. فأرسل إلى بوغيد وأخيه بوكوس الثاني يسألهما الوفاء بالوعد، وهو الهجوم على مملكة يوبا وضربه من خلفه إذا اشتبك به في الحرب المقبلة.

وكان سيتيوس جنديا في الجيش الروماني، وكان باسلا. فترقى إلى ان صار واليا، ثم

عزل. فساءه العزل فجمع جيشا من اللصوص والمتشردين فصار يؤجره لمن يستنصر به من الملوك المتنافسين في أوروبا. وكان منصور الراية. وكانت له سفن يحارب بها في البحر أيضا. فاستماله قيصر ورغبه في نهب نوميديا وفي الولاية على جزء منها فأرسله إلى بوغيد وبوكوس ليكون معهما إذا هجما على يوبا من خلفه. فوصل سيتيوس موريطانيا الغربية بعصابته المسعورة، فوضع الخطة مع بوغيد وبوكوس للهجوم على مملكة يوبا والعيث فيها ليرغما يوبا على الرجوع لحماية مملكته. فيقسمان الجيش الذي يحاصر قيصر، فيضعف سبيون بتخلي يوبا عنه، فيكر عليه قيصر فيهزمه. هذه هي الخطة التي وضعها قيصر، هذا كيده ليوبا، فعزم بوغيد وصاحباه على تنفيذها.

استعداد يوبا للمعركة الفاصلة

وكان يوبا وقعت المعركة الأولى مع قيصر يتأهب لسير إلى ساحة الوغى ليصدم قيصر بجيشه القوي فيقضي عليه، ويرغم سبيون على الوفاء بوعده والجلاء بقومه من افريقية. فأعلن التعبئة العامة في دولته، وإذن في المدن والبوادي: ان قد دقت ساعة الجهاد الأكبر لسحق العدو المغير، وتحقيق حلم البربر الكبير،وهو جلاء الرومان من افريقية، وتظهر المغرب من عدوه. فنثال عليه المتطوعين من ناحية، من الجبال والسهول، ومن المدن والقرى. فسار في جيشه المنظم، وفي سيول من المتطوعين كانوا ينضمون إليه في طريقه. فقصد الولاية الرومانية ليدحر قيصر. فنزل وراء جيش سبيون. فشرعوا يستعدون للمعركة الفاصلة.

هجوم صنائع قيصر على يوبا من خلفه

وكان يوبا يجهل ما دبر له قيصر في الخفاء. وما كاد يتأهب للهجوم على عدوه حتى هجم الأوغاد الثلاثة سيتيوس وبوغيدة الأول وبوكوس الثاني في جيوشهم الكبيرة على موريطانيا الشرقية فوصلوا إلى نوميديا الوسطى والشرقية مملكة يوبا فاعملوا فيه الحسام ونهبوها،وارتكبوا فيها كل ما تسول لهم نفوسهم الدنيئة من الفظائع. وقصدوا مدينة كان يوبا قد اتخذها مستودعا لسلاحه وذخائره فاستولى على تلك الذخائر والسلاح، ونهبوا ما فيها. ثم قصدوا أهم المدن في نوميديا الشرقية فنهبوا، وخربوا، وأشعلوا النيران. فأمست مملكة يوبا في مخالب هذه الوحوش الكاسرة، مثخنة بالجراح، غريقة في الدماء والدموع، قد تسلطت عليها أفدح النكبات!

وطارت الأنباء الأليمة إلى يوبا، فعلم بما حل في مملكته، فلم يسعه إلا الرجوع

لإنقاذها. فرجع بأهم قواه، وبخيرة جنده. فلم يترك مع سبيون إلا عددا قليلا من فيلة غير مدربة، وطائفة يسيرة من جيشه. فضعف سبيون بهذا فلم يستطع مجابهو قيصر. فاستغاث بيوبا، وألح عليه في الرجوع، وذكره بوعده له بالجلاء، واراه خطر انتصار قيصر عليه وعلى المغرب. فما زال بيوبا يستعمل كل وسيلة للتأثير عليه حتى سمع له يوبا. وعلم ان انهزام سبيون سيجعله بين نارين، بوغيد الأول وصاحبيه في داخل مملكته، وقيصر الهاجم عليه. فترك قائده صبورة مع قسم من الجيش يكافح الأوغاد الثلاثة، ورجع هو بجزء من جيشه ليشد أزر سبيون.

«عاد يوبا إلى سبيون بألف من المشاة، وثمانمائة فارس، وثلاثين فيلا. ونزل في العشرين من ديسمبر بجيشه خلف جيش سبيون. وفي التاسع والعشرين منه وقعت معركة شديدة بين المتحاربين».[104]

وكان قيصر هو القوى في هذه المعركة الناشبة. وذلك لاختلال نظام يوبا بما داهمة من خلفه، وتفرق قواه، وحيرته لما يقع في مملكة. لم يكن بكله في معركة كان يجب ان يحصر فيها كل قواه وكل فكره.

وكان قيصر داهية فبالغ في الكيد ليوبا. فدس في جيشه من استمال قسما كبيرا من الجيتوليين الذين يصول بهم يوبا. فمازال بهم بغريهم ويمنهم، ويثير أحنهم القديمة حتى بلغ فيهم مراده «ففر في يناير (46) إلى قيصر كثير من جنود يوبا الجيتوليين بلغ عددهم ألفا. وسبب ميلهم إلى قيصر ان ضباط هذه الفرقة كانت لآبائهم أراض انتزعها منهم والد يوبا هيمصال. وأعادها عليهم ماريوس بعل عمة قيصر»[105] ففت هذا الحادث في ساعد يوبا، وتضعضع جيشه بهذا الارتداد، فانحطت معنوياته. فصار يحارب ليؤخر الهزيمة لا ليكتسب النصر. فوالى قيصر عليهم الهجوم، ووقعت بينهم حروب مهولة كان آخرها معركة طبسوس الفاصلة في رأس الديماس في شرق افريقية في جنوب مدينة المنستير في سنة 46 ق.م. فاضمحل جيش سبيون وانهزام شر هزيمة، وفر جنوده. وركب زعماء حزب بمبايوس سفنهم وفروا إلى الأندلس، ومنهم من انتحر كما فعل كاطون.

انتحار يوبا ونهاية الدولة البربرية الكبرى

وبقي يوبا وحده في الميدان، وأيس من التغلب على قيصر فأبى ان يقع في قبضته أسيرا

104 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 157 ط بيروت.

105 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 158 ط بيروت 1963م.

فيذهب به إلى روما كما فعل ماريوس بيوغورطة! فذهب إلى عاصمته (جامة ريجيا) فأولم وليمة كبيرة أكثر فيها من الطعام والشراب. فجرد سيفه فتحامل عليه لينتحر فغلبه السكر فلم يستطع الانتحار! فأمر احد عبيده بقتله. فنهال العبد بالسيف على يوبا وعلى أمل المغرب في النجاة من الاستعمار الروماني فقتلا معا. فجثم الرومان الجشعون على المغرب يلتهمونه كما أرادوا. ان روحه هي يوبا ودولته القوية وقد زالا!

وكان يوبا هو آخر ملك بربري قوي وعهده هو آخر عمر الدولة البربرية الكبرى. ثم وضع الرومان أيديهم على المغرب فقسموا الدولة البربرية[106] وقطعوا أوصالها ثم ازدردوها قطعة قطعة فزالت من الوجود.

كان يوبا الأول ملكا علا غرب افريقية وعلى نوميديا الشرقية والوسطى. وتشتمل دولته على غرب افريقية وجنوبها، وعلى الساحل إلى مدينة طرابلس، كما تشتمل على نوميديا على نوميديا الشرقية والوسطى إلى شرق جيجل وغرب مدينة ميلة.

أما الملك مصينيسا الثاني فكان ملكا على نوميديا اسطيفية وعلى موريطانيا الشرقية. وحد نوميديا اسطيفية من شرق جيجل وغرب مدينه ميلة إلى غرب مدينة صلداى (بجاية).

إخلاص مصينيسا الثاني ليوبا وإعانته في الحرب ونهايته

وكان مصينيسا الثاني وطنيا مخلصا. فوقف بجانب يوبا في حروبه مع قيصر. وأرسل جيشه لمحاربة قيصر. ولما زحف بوبكوس الثاني وسيتيوس استولوا على مملكته موريطانيا الشرقية ونوميديا اسطيفية وعاثوا فيها فسادا. قد يكون مصينيسا قتل وهو يدافع هؤلاء الوحوش الضارية في سنة 47 ق.م ان التاريخ لم يحدثنا من زمن وفاته. انه لو عاش بعد يوبا الأول لأسره الرومان، أو يقوم بأعمال ضدهم فيرد ذكره في التاريخ. ان جهاد يوبا وشخصية يوبا، ومملكة يوبا الواسعة قد غطت على أحداثه، واندرج تاريخه في هذه الفترة في تاريخ يوبا.

وكان عهد يوبا في الملك عهد سكون وهناء في الداخل. لم يثر عليه ثائر، ولا نافسه منافس من رعيته. لقد كان شعبه راضيا عن سياسته وسيرته، معجبا بشخصيته وإخلاصه فسكن سكون الرضا والمحبة. وكان عهده مملوءا بالجد والنشاط في كل الميادين. فلم تتسع أيام الدولة للمنازعات التي تقع فيها الدول الكسولة التي لا تعرف إلا

106 - المراد بالدولة البربرية الكبرى هي دولة مصينيسا الأول. انظر حدودها في الخريطة في آخر هذا الجزء.

إشباع شهواتها، أتباع أهوائها. وكان العدو الخارجي الذي يهدد الدولة من أسباب اتحادها وسكونها والتفافها حول ملكها القوي المخلص.

وكان من أسباب سكون الدولة ما كانت فيه من نعيم ورخاء ورفاهية. لقد أتت جهود كل الملوك الذين تقدموا يوبا أكلها في ميدان الحضارة. فأمست الدولة البربرية الكبرى مفعمة بخيرات الله التي أفاضها عليها. وكانت الثقافة الشائعة في طبقات الدولة مما أشاع الإخاء والسلام في هذه الدولة المتحدة المتآزرة.

وكان عمر يوبا لما توفي في الخمسين أو أكثر. ان صورتاه المنقوشة في نقوده تمثله في الخمسين أو أكثر.

وكان عهده في الملك نحو خمس سنين. من سنة 50 إلى أول سنة 46 ق.م. وقد ذكر بعض المؤرخين ان ولايته الملك كانت في سنة 67 ق.م ولا أرى ان هذه الرواية صحيحة لان يوبا لو ولي في تلك السنة لكان له في تلك الحقبة الطويلة أعمال جليلة لا يسكت عنها التاريخ. ان ولايته كانت في سنة 50 ق.م. ان عهده كان قصيرا في الملك، ولكن أعماله كانت كمثيرة عظيمة! فلو لم تثر زعازع الرومان في عهده فشغلته الحروب، وقصر عهده في الملك، لرأى منه المغرب ما جنى من مصينيسا الأول من أعمال كبرى، ونتائج لا تحصى في ميدان البناء والتعمير.

كان يوبا الأول عظيما من عظماء البربر، وبطلا من أبطال المغرب، وابنا بارا لامته فيجب على المغرب ان يعتني بتاريخه، ويحي ذكراه!

كانت وفاة يوبا في شهر يناير 46 ق.م فبكته السماء بأمطارها، وشاهدت الدنيا جبال الأطلس الشماء وهي تبكي في مأتمه، والدموع تشق خدودها، وتجرى انهارا في الثرى!

لقد فجع البربر بوفاة يوبا، وتفطرت قلوب المغرب بفقده، فشقوا أعلام الحروب لا ثيابهم. لان البربر ما عرفوا في عهده -لما نفخ فيهم من بطولة وباس- ثيابا إلا أعلام الحروب!

أيتها السيوف الخادرة في الأغماد، قد خدرتها الأحزان، وعقلتها الأشجان. لا يطل بقاؤك ساكنة. ان يوبا قد ذهب، ولكن المغرب الذي أنجبه باق لا يذهب!

انه ولود منجب. سترين يا سيوف الهند من أبنائه في كل زمان من يرضيك، ويسطر بك في جبين كل الدهور: ان البطولة والعظمة للمغرب الكبير!

ماذا وقع للدولة البربرية الكبرى بعد يوبا؟ لقد وقعت فريسة هامدة، وجثم عليها

الرومان فمزقوها إربا، ودخلت في أيام النزع والاحتضار! كيف قطعت هذه الدولة، وكيف ماتت، وفي عهد مَنْ مِنْ ملوكها الضعاف؟

تقسيم الدولة البربرية واحتضارها 46 ق.م.

كان الرومان قد عزموا على امتلاك المغرب والقضاء على دوله، ولكنهم يخافون ثورات البربر وعدم خضوعهم للعدو المغير. فآثروا سياسة المراحل، وهي الاستيلاء عليه جزءا جزءا، وإضعافه بالتقسيم، وتولية صنائعهم على أقسامه ليمهدوا لهم بإخضاع البربر وإخماد الحماسة الوطنية فيهم، وتعويدهم مد الأيدي والأرجل للقيود.

وكان عهد يوبا الأول هو آخر عهود الدولة البربرية في الاستقلال، ثم جثم عليها الرومان فقطعوا أوصالها وقسموها إلى ثلاثة أقسام.

غرب افريقية، وجنوبه، والساحل إلى طرابلس، ونوميديا الشرقية، وحدها من شرق طبرقة إلى شرق مدينة روسكاد (سكيكدة) هذه استولى عليها قيصر وجعلها ولاية رومانية ثانية. وسماها الرومان (إفريقيا نوفا) أي ولاية افريقية الجديدة.

ومن شرق مدينة روسكاد إلى غربي مدينة ميلة وشرق مدينة جيجل وهي نوميديا الوسطى استولى عليها ستيوس بإعانة الرومان ورغبتهم.

ومن شرق مدينة جيجل وغرب مدينة ميلة إلى غرب مدينة صلدى (بجاية) وهي نوميديا اسطيفية استولى عليها بوكوس الثاني وكذلك موريطانيا الشرقية.

كان هذا التقسيم بأمر من الرومان فوافق هوى الذئاب الثلاثة. فتمزقت الدولة البربرية فصارت تعاني سكرات الموت. وقد سكن البربر وخضعوا في أول الأمر. فاستطاعوا ان يخمدوا هذه الثورة. فمن هو هذا البطل الذي جدد للبربر حماسهم، فنهضوا ينفضون ظهورهم القمل الخبيث الذي يرتع فيها. ومتى ثار؟ وما نهايته؟.

ثورة عرابيون بن مصينيسا الثاني

لما انهزم المبابوسيون في افريقية سنة 46 ق.م. وتغلب عليهم قيصر، فر سبيون وكبار حربه إلى الأندلس. وكانت لهم فيها شيعة قوية، فرجوا ان يكون لهم هناك من الفوز والنصر علىا قيصر ما لم يكن لهم في افريقية وايطاليا. فشرعوا في الاستعداد. فزحف إليهم قيصر بجيوشه، فحاربهم في الأندلس، فوقعت بينهم معارك

عنيفة. وكان نجم المبابوسيين قد أفل، وأدواء الشيخوخة التي فتكت بالجمهورية كانت تضعفهم، فانتصر عليهم قيصر فقضى عليهم.

وكان من اللاجئين إلى الأندلس بعد انهزام يوبا الأول ومصينيسا الثاني، واستيلاء الأعداء على مملكتيهما عرابيون بن مصينيسا الثاني.

وكان عرابيون شيخا مقداما، غيورا على أمته، أبيا، يأبى ان ينام ووطنه يرسف في أغلال الذل والعبودية، ويخلد إلى الراحة، وثأر أبيه وابن عمه وزعيمه يوبا دين في عنقه. لابد من سحقك أيتها الذئاب التي تمرح وتعوي في نعقل الأسود ! فما ان بلغ عرابيون الأندلس حتى شرع في الاستعداد. فجمع جيشا من الرومان ومن الأوروبيين الثائرين على دولهم، ومن المقاتلين الذين يحاربون للغنيمة. فنظمهم ونفخ فيهم روحه، وقادهم قيادة حسنة جعلت منهم أحسن فرقة في جيش سبيون. فخاض عرابيون المعارك ضد قيصر حتى رأى نجم المبابوسيين يميل إلى الأفول، وعلم ان عاقبتهم هنا كعاقبتهم في افريقية. فكف عن القتال، واختبأ في الأندلس هو وجيشه. فشرع يرقب الفرصة لاسترجاع ملك أبيه حتى واتته بعد وفاة قيصر فهب لاغتنامها.

كان ذلك في سنة 44 ق.م. وكان قيصر قد قتل في هذه السنة فوقع نزاع دموي كبير بين الجمهوريين والقيصريين، واحتدمت معارك طاحنة بينهم في روما شغلهم عن الاعتناء بالمغرب. ومات بوغيد الأول ملك موريطانيا الغربية في هذا العام أيضا فخلفه ابنه بوكوس الثالث في الملك. فعلم عرابيون ان الرومان لا ينجدون بوكوس الثالث إذا هجم عليه لاشتغالهم بالحروب الداخلية؛ وان بوكوس الثالث وبوكوس الثاني بدون الجيوش الرومانية قوة يستطيع التغلب عليها. فرجع عرابيون في سنة 44 ق.م. إلى نوميديا اسطيفية بجنوده. فلا بد ان يكون قد اعتصم ببعض الجبال المنيعة. فما ان رآه البربر حتى ابتهجوا به، ورأوا العز والحرية في طلعته، وشاموا اليمن والسعادة فيه. وكانوا يتلهفون إلى من يقودهم في الثورة على الأعداء الذين قضوا على دولتهم، ومرغوهم في الذلة والصغار. فالتفوا حوله، ونصروه وأيدوه. فشرع عرابيون يستعد للثورة. فكون من البربر جيشا فصار يدربه على احدث الأساليب في القتال. فلما تم استعداده هجم على بوكوس الثاني وبوكوس الثالث فوقعت له معهما حروب طاحنة. فهزمهما إلى موريطانيا الشرقية فاستولى على مملكة أبيه نوميديا اسطيفة.

اغتيال عرابيون لسيتيوس وانضمام نوميديا الوسطى إليه

وكان سيتيوس قد لازم الحياد في هذه الحرب لخوفه من ثورة البربر عليه في نوميديا

الوسطى فيقع بين نارين. ورأى قوة عرابيون فأراد ان يتزلف إليه بحياده ليكف عنه. ولكن هل يكف عنه عرابيون. انه ركام السماد والسموم حول مورده هل يبقي عليه؟ لابد من سحقك أيتها الأفعى القتالة ! فصار عرابيون يشعر بسيتوس مسامير في مضجعه، وحماة في شرابه. وكان البربر في نوميديا الوسطى كلهم يتمنون ان يخلصهم منه. فدس إليه من اغتاله. فضم نوميديا الوسطى آلة مملكته. وبقيت نوميديا الشرقية. فصار يستعد ويرقب الفرصة للهجوم عليها وافتكاكها من الرومان، ثم الهجوم على افريقية، وتطهير المغرب من الرومان. فيحقق أمل مصينيسا الأول ويوغورطة، ويوبا الأول.

وكان عرابيون يتمنى ان تطول الحرب الأهلية في ايطاليا فتضعف الرومان فيستطيع الهجوم عليهم في نوميديا الحديثة وافريقية، ولكن القيصريين والجمهوريين اصطلحوا فاعتنوا بافريقية ونوميديا الحديثة. وكانوا يرون عرابيون شرا يهددهم. وكانوا يعرفون ان الهجوم عليه يثير المغرب عليهم فيخضون حروبا طاحنة لا يدرون عاقبتها.

فجعلوا نصب أعينهم اغتيال عرابيون. فاغتاله والي افريقية سكسيوس في سنة 42 ق.م فكان عهده في الملك نحو سنتين. فاستولى الرومان على نوميديا الوسطى فصارت تحت نفوذهم، وهجم بوكوس الثالث وعمه بوكوس الثاني على نوميديا الغربية فملكاها. ثم وسعا حدودهما شرقا حتى بلغت وادي مساغة في غرب قرطة. فصارت مملكة بوكوس الثالث وبوكوس الثاني تبتدئ من المحيط الأطلسي وتنتهي في غرب قرطة. وكانت الصحراء (جيتوليا) وجبال آوراس، وجبال القبائل غير خاضعة لهما. ودامت هذه البقاع الشاسعة تحت الملكين الموريطانيين إلى ان انقرضت الدولة الموريطانية الغربية في سنة 33 ق.م فأقام اوكتافيوس على تلك البقاع: نوميديا الغربية والموريطانيتين واليين رومانيين. وفي سنة 25 ق.م ولى الملك يوبا الثاني على نوميديا، ثم ولى في سنة 17 ق.م على الموريطانيتين. فمن هو هذا الملك؟ ما شخصيته؟ وما غرض الرومان من توليته؟

ولاية يوبا الثاني في المغرب 25 ق.م . 23 م

نشأة يوبا الثاني وشخصيته

يوبا الثاني ابن يوبا الأول. ولد في سنة 50 ق.م في أول عهد أبيه في الملك. ولما توفي والده في سنة 46 ق.م كان عمره أربع سنين.

فأخذه يوليوس قيصر فعرضه في موكب النصر بروما. وكان يوليوس قيصر قد رأى

في يوبا علامات النبوغ وقوة الشخصية، فأعجب به فتبناه، فسماه يوبا أحياء لاسم أبيه البطل وذكراه. واعتنى بتربيته، فأنشأه نشأة رومانية، وحرص كل الحرص على ان يصبغه بصبغة الرومان ليكون في المستقبل صديقهم لا عدوهم. ولما توفي يوليوس قيصر في سنة 44 ق.م كفله الإمبراطور قيصر أغسطس، خليفته في الرئاسة. وأعطاه لأخته (أوقطافيا) زوجة انطونيوس فاعتنت به كل الاعتناء، وملأته بحب الرومان وتمجيدهم. فنشأ رومانيا في عواطفه وعاداته واتجاهه.

وكان يوبا الثاني يحمل وراثة أبيه. وكان طموحا جريئا ذكيا كل الذكاء مثله فصرف أغسطس هذا الطموح إلى طريق العلم. وأبى ان يترك شخصية يوبا الحربية تظهر. فان الشخصية الحربية تورث لصاحبها الحماس والغيرة القومية وتبعث صاحبها على الثورة. فادخل يوبا في مدارس روما فتلقى العلوم والفنون فيها من أساتذتها الرومانيين والإغريقيين. فبرع في اللغتين الإغريقية والرومانية.

نبوغ يوبا في العلم والأدب وإعجاب أهل عصره بعبقريته وتآليفه

وكان الرومان مفتونين بحضارة الإغريق وبفلسفتهم. وكانوا يستقدمون علماء أثينا وينتفعون بهم في مدارسهم. فروث يوبا الثاني من كافليه حب الحضارة الإغريقية ففتن بأدبهم، وفلسفتهم، وفنونهم. فاقبل عليها في جد وحماس، كما اقبل على العلوم السائدة في عصره فنبغ فيها، وسطع نجمه في سماء العلم والأدب. فأصبح في روما من كبار العلماء والأدباء، وممن يشار إليهم بالبنان في العلوم والأدب.

وكانت شخصية يوبا علمية أدبية. لقد اتصف بكل ما يستلزمه الأدب والعلم من صفات راقية في عقل المرء وخلقه. وكلن ذكاؤه العلمي ومعرفته للنفس الإنسانية قد أجدى عليه في ولايته على الأقطار. فعرف كيف يخدرها، ويورثها السكون للرومان، فتمكنوا من ناصيتها، وأخضعوها لسلطانهم.

كان يوبا الثاني من نبغاء عصره في الأدب والتاريخ، والجغرافية، وفي اللغة الإغريقية والنحو، وفي الطبيعة والكيمياء. فوضع في هذه الفنون تأليف نفيسة باللغة الإغريقية. ومن تآليفه: تاريخ روما منذ نشأتها إلى عهد كافله قيصر أغسطس، وكتاب في جزيرة العرب وجغرافيتها، وكتب عن الآشوريين، وعن المغرب، وألف في التصوير، والتمثيل، والطب. وألف رسالة في أسباب فساد اللغة الإغريقية. كما كتب عن الإغريق كثيرا. وقد بالغ في تمجيدهم وذكر عظمتهم، وذلك لافتتانه بهم وبمدنيتهم.

وكان يوبا الثاني مغرما بالبحث والاطلاع. فأرسل بعثات علمية للبحث عن منابع النيل. وعن أصل الجزائر الخالدات (الكناري).

وكان الإغريق معجبين بعبقرية يوبا الثاني وتآليفه. فأقاموا له هيكلا في أثينا اعترافا بفضله ونبوغه !

حب قيصر ليوبا وتزويجه من كيلوباترة سيلينة

وكانت اوقطافيا أخت قيصر أغسطس. وقيصر يحبان يوبا الثاني ويعجبان به. فزوجاه من كيلوباترة سيلينة التي كفلها أغسطس ونشأت مع يوبا في حجر اوقطافيا.

وكان اوكتافيوس (وهو قيصر أغسطس) قد غزا مصر فانتصر عليها وعلى الملكة كيلوباترة. فاخذ ابنتها التي تبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة فسماها كيلوباترة. ولقبها الرومان سيلينة (القمر) إعجابا بجمالها الفتان. وقد تبناها أغسطس ونشأت مع يوبا في حجر اوقطافيا أخت أغسطس. ولما كبرت كيلوباترة وصارت في العشرين من عمرها. وكبر يوبا الثاني وصار في الثلاثين. رغبت اوقطافيا في ان يتزوج يوبا كليوباترة. وكان يوبا يحبها. فنفذ أغسطس رغبتها فآثر يوبا بالأميرة الجميلة التي أعجب بها الرومان فلقبوا بالقمر (سيلينة) فبني بها يوبا الثاني في سنة 20 ق.م.

وكانت سيلينة بنت كيلوباترة ملكة مصر. وأبوها انطونيوس من زعماء الجمهوريين في روما فهي رومانية بالأب والنشأة. وكانت من أسباب جنوح يوبا الثاني إلى الرومان وإخلاصه لهم.

ولاية أغسطس ليوبا الثاني على مصر

وكان أغسطس معجبا بالإخلاص يوبا الثاني لروما. فأراد ان ينتفع به في ميدان السياسة. فولاه على مصر في سنة 30 ق.م. فأبدى كفاءة في الإدارة والسياسة ودام في ولايته خمس سنين. إلى سنة 25 ق.م.

ولاية يوبا على نوميديا

وكان قيصر يحس بالمغرب كله ينتقص ويرقب الفرصة للثورة عليهم. سيما نوميديا. فإنهم وطئوها برجلهم ليزهقوا روحها. ولكنها تتخبط وتأبى ان تهمد. وتتحفز للوقوف على قدميها فتصارعهم. فرأوا ان يولوا عليها يوبا. فان البربر يسكنون له. وهو سيخدمهم. ويمكن الرومان من نواصيهم. ويذلل لهم نوميديا فيتخذونها مستعمرة. ويجعلونها من أملاكهم في المغرب.

وفي سنة 25 ق.م. ولى الإمبراطور أغسطس يوبا الثاني على نوميديا الشرقية والوسطى فدام واليا عليهما إلى سنة 17 ق.م. وقد جعل عنانهما يسلس للرومان. والبربر فيهما يألفون القيود الرومانية. وذلك لإخلاصه للرومان. ولذكائه وحنكته السياسية. ثم نقلوه إلى الولاية على نوميديا الغربية والموريطانيتين. والحقوا نوميديا الشرقية والوسطى بالولاية الرومانية في افريقية. والتهموا هذه القطعة الأثيرة من المغرب. فصارت في أحشائهم.

وكانت ولاية يوبا على نوميديا نحو تسع سنين. وكان روماني العواطف والاتجاه. ولكن البربر سكنوا له وآثروه على الرومان. لأنه بربري الدم. ولأنه يتصف بلطف العلماء. ومرونة الساسة. ولم يكن على جفاء وغطرسة الرومان العسكريين.

وكانت الدماء البربرية تجعل يوبا يعطف كثيرا من العطف على البربر. ويسحن إليهم وان كان ذلك الإحسان لا يتجاوز بث الحضارة الإغريقية فيهم. ومباهجتها. ونعيمها ولذاتها. وهو شيء يرضي الرومان كل الرضى لأنه الشخصية الحربية في البربر. ويخمد الروح الثورية فيهم. ويهيئهم للقيود والعبودية.

ولاية يوبا الثاني على نوميديا الغربية والموريطانيين

وكانت ولاية يوبا الثاني على نوميديا الغربية والموريطانيتين الشرقية والغربية في سنة 17 ق.م. فأصبحت البقاع التي يدبرها واسعة الأرجاء. تمتد من المحيط الأطلسي غربا إلى شرق جيجل. وكانت جيتوليا مستقلة عنه لا يخضع له إلا بعض أجزائها الصغيرة في الشمال. وكذلك آوراس. وجبال القبائل.

وكان يوبا الثاني في ولايته الثانية في المغرب كما كان في الأولى رومانيا في أهدافه وعواطفه. ليس همه إلا إخضاع البربر. وتعليمهم مد الأرجل والأيدي للقيود. وقد استطاع بدهائه ان يجعل البربر يسكنون في أول الأمر. ولكنهم لما عرفوا انه روماني في نفسه استعماري في أهدافه ثاروا عليه.

تعلق يوبا الثاني بالقيصر أغسطس وتمجيده له

وكانت عاصمة يوبا الثاني في ولايته الثانية هي مدينة يول (شرشال) على الشاطئ في غرب مدينة الجزائر. وقد سماها قيصرية تمجيدا للقيصر أغسطس واعترافا بجميله. كما بنى معبدا في (يول) وأطلق عليه اسمه. واعتنى فيه بالعبادة والدين. وامتثالا لأوامر أغسطس الذي دعا دولته إلى الاعتناء بالدين. وإرضاء له. وأقام لأغسطس عدة تماثيل له

في عاصمته. ورسم صورته وصورة زوجته وواليه وأناطها بجدران أهم قصوره. لقد امتلك قيصر قلب يوبا الثاني، وامتلك الرومان كل حبه. فهو بربري بالاسم والدماء وحدها.

إعجاب يوبا الثاني بالحضارة الإغريقية وبثها في عاصمته

وكان يوبا الثاني مفتونا بالحضارة الإغريقية. فنشرها في عاصمته يول واتخذ كل وسيلة لاستمالة البربر إليها وبثها فيهم. وقد استقدم جماعة كبيرة من العلماء والفنانين والمصورين، والممثلين، والمزخرفين من أثينا لبث اللغة الإغريقية في المغرب، ولتجميل عاصمته. فأقاموا التماثيل في أنحاء العاصمة، وزينوها وزخرفوها، ومثلوا الروايات في المسارح، وجعلوا العاصمة (يول) كأثينا في الحسن والفن.

ثورة البربر على يوبا الثاني

وكان البربر ساكنين له في أول الأمر. وكان هو يصطنع رؤساءهم، ويتظاهر لهم بالغيرة والمحبة. فلما عملوا انه القيد الحريري الذي يريد ان يقيدهم للرومان، والشبكة اللطيفة التي ألقاها الرومان على المغرب لاقتناصه وذبحه، ثاروا عليه ثورات عارمة. وكان من ثار عليه الجيتوليون.

وكان الجيتوليون مستقلين تحت أمرائهم لا يخضعون ليوبا ولا للرومان. فرأوا يوبا تمتد يده إلى هامهم ليحنيها، ويحاول ان يمد نفوذه إلى جيتوليا ليخضعها أيضا لروما. فثاروا عليه في سنة 6 م. ثورة عارمة، فاشتبكوا به في معارك طاحنة، فهزموا جيشه، ومرغوه في التراب. فاستغاث بالرومان. فأسرعوا إليه بجيوشهم فاستعان بها في التغلب على الجيتوليين ودفاعهم عنه. ولولا الرومان لقضوا عليه.

وثار عليه في آخر أيامه تيقفاريناص واتسعت ثورته، وقضى الأعوام الأخيرة من عمره وهو يجهد لإخماد هذه الثورة فمات قبل ان تخمد.

لم يكن يوبا الثاني ملكا بربريا وان سماه الرومان ملكا ليخدعوا بذلك البربر، ويفتحوا قلوبهم له. لقد كان واليا رومانيا ولاه الرومان. وكانت حرابهم وجيوشهم هي التي تحنى له الهام في المغرب فلم يثر عليه.

لقد خدم يوبا الثاني الرومان، ولم يترك في المغرب من الآثار الحسنة إلا ما جمل به عاصمته يول. انها آثار رخيصة زائلة. كآثار الميت يتركها في المكان بالعطر الذي تضمخ به أكفانه !

وكانت كيلوباترة زوجة يوبا الثاني قد خلع الرومان عليها لقب ملكة. وكانت تشاركه في مظاهر الملك. فرسمت صورتها مع صورته في نقوده.

وكان من أسباب رسم صورتها في نقوده افتتانه بها وتمجيده للجمال. وتراها في نقوده متوجة برأس الفيل، وخرطومه فوق جبينها كالقرن الذي لا يصلح لزوجها شعارا غيره... !!

وفي سنة 6 م. ماتت زوجة يوبا (سيلينة) فحزن عليها حزنا شديدا، ودفنها في شرق عاصمته يول وبني على قبرها هيكلا ضخما.

وفاة يوبا وعمره ومدة ولايته

وفي سنة 23 م. مات يوبا الثاني فدفن مع زوجته في الهيكل الكبير. ولا يزال هذا الهيكل موجودا إلى اليوم. وقد تركه الروم فلم يقضوا عليه كما قضوا على هيكل مصينيسا الأول في (دقة)، وعلى قبور ملوك البربر العظماء وآثار أبطالهم المخلصين.

وكان عمر سلينة لما توفيت 46 سنة، وعمر يوبا الثاني لما مات ثلاثا وسبعين سنة ومدته في الولاية بالمغرب ثمان وأربعون سنة.

وكان يوبا الثاني قد ولد له من كيلوباترة ابن سماه بطليموس. فورث لقب الملك من أبيه، وأقامه الرومان على عرش الولاية ليواصل عمل أبيه في الضغط على هام المغرب لتنحني لهم. كيف كانت نشأة هذا (البطليموس) وشخصيته، ويف كانت سيرته وآثاره في المغرب؟

ولاية بطليموس في المغرب 23-40م

كان بطليموس قد نشأ في حجر أبيه الغني المتحضر، وأمه الغانية المترفة، فأفسده الترف والتدليل. فكان خاملا ضعيفا، بليد العقل، تتملكه شهواته ولذاته، فينصرف إليها، ويقضي جل أوقاته فيها.

وكان أبوه لحبه للحضارة الإغريقية قد اختار اسما يونانيا فسماه بطليموس. وقد اختار الرومان هذا الولد الضعيف فولوه خليفة لأبيه لأنه آخر وال بربري يولونه على ما تبقى من الدول البربرية، ثم يزدردون هذا الباقي. لذلك آثروا ان يكون الوالي ضعيفا تسهل إزاحته أو القضاء عليه إذا حان الوقت لابتلاع ما في يده.

وكان الرومان يظنون ان يوبا الثاني هو آخر من يولون في المغرب، ثم يجعلون الموريطانيتين ونوميديا الغربية ولايات رومانية يحكمونها بأنفسهم. ولكن يوبا الثاني مات والمغرب الأوسط والأقصى يغلي بالثورة العارمة فلم يستطع الرومان ازدرادهما. لابد من زمن آخر، ووال آخر من البربر يختفون وراءه حتى تبرد اللقمة فيبتلعوها. فاضطروا إلى توليه بطليموس.

وكان بطليموس لما ولى في الثامنة والعشرين من عمره. وكانت ولايته في سنة 23 م. فما كاد يستولى على عرش الولاية حتى استمر في طريق الشهوات الذي ألفه، وعكف على لذاته في قصوره، وترك أمور الولاية لحاشيته تتولاها.

وكانت ثورة تقفاريناص لما مات يوبا الثاني قد فترت بعض الفتور، ريثما يستجم ويستعد استعدادا آخر، وتحين الفرصة فيعيد الكرة على الرومان. ولما مات يوبا الثاني الذي كان فيه كثير من الحزم قاوم به الثورة، وتولى بطليموس الضعيف، وجد تقفاريناص فرصته فأعاد الكرة على الرومان. فمن هو هذا الثائر البربري البطل، ومتى ثار، وما ادوار ثورته التي صفق لها المغرب وأيدها؟

ثورة البطل المخلص تقفاريناص

كان تقفاريناص من البربر. وكان غيورا على قومه، مخلصا لامته. وكان شجاعا صنديدا، ذا شخصيته حربية ممتازة.

وكان تقفاريناص ضابطا في الجيش الروماني فأتقن أساليب الحرب الرومانية، وبرع في قيادة الجيوش، فأبى ان يترك مواهبه للرومان. فوهب نفسه للمغرب فقاده في ثورته.

وكان المغرب يغلي حقدا على الرومان، سيما جبال آوراس، وجبال القبائل، وتلال المغرب التي يحل فيها الأبطال من أبنائه. بودهم لو نزلوا من جبالهم كتائب ليسحقوا الرومان. ولكن يعوزهم القائد المحنك الذي يدربهم تدريبا عصريا، ويقودهم في الحروب. فعرف تقفاريناص هذا الاستعداد في البربر، فذهب إلى جبال آوراس المنيعة الواسعة فشرع هناك يستعد للثورة، ويدرب أبناء آوراس ومن أسرع إليه من البربر على احدث الأساليب في الحرب. ثم أعلن الثورة على الرومان.

كان ذلك في سنة 17 م. في عهد يوبا الثاني. فنزل تقفاريناص البطل في جنوده من جبال آوراس فهجم على بعض المراكز الحربية الرومانية في نوميديا فقتل جنودها واخذ أسلحتها. فرأى البربر ثورة تقفاريناص فهللوا لها. فانتشرت الثورة في المغرب من خليج

سرت في طرابلس إلى المغرب الأقصى. فأرسل البربر في تلك البقاع إلى تقفاريناص يبايعونه على الثورة، ويؤيدونه في نضاله.

وكان كاملوس والى الرومان في الولاية الرومانية في افريقية وادعا في قصره. فبلغته أنباء الثورة فارتاع لها الارتياع. فجهز جيوشه فسار ليخمدها قبل ان تتقوى وتنتشر نيرانها. فرأى تقفاريناص جيوش الرومان وقوة كاملوس فأبى ان يخوض معهم معركة كبرى. فعزم على حرب العصابات، والاستعانة بالجيتوليين الأقوياء، فتقهقر إلى جيتوليا فتحصن فيها.

عداوة جيتولية للرومان وتأييدها لتقفاريناص

وكان الجتيوليون يكرهون الرومان. فبودهم لو هجموا عليهم وطهروا المغرب منهم. فلما ثار تقفاريناص فرحوا فرحا كبيرا. فلما ذهب إليهم آزروه وأيدوه. فألف منهم جيشا دربه أحسن تدريب، وعلمه الأساليب الرومانية في القتال وقضى في الصحراء وهو يستعد نحو عام. وفي سنة 20م. هجم تقفاريناص بجنده من جيتولية على الرومان في وادي باجيدة في ناحية لمبس بشمال آوراس. وكان الرومان معسكرين بقوة كبيرة هناك. ففاجأهم تقفاريناص بكتائبه الباسلة التي أحاطت بهم فهزمهم شر هزيمة، فاحتل مراكزهم فغنم منها غنائم كثيرة. ثم أسرع إلى مدينة تالة في غرب افريقية فحاصرها ليحتلها. فأرسل الرومان عليه جيوشا جرارة علم انه لا قبل له بها فرجع إلى حرب العصابات. فاعتصم بالصحراء. وصار يغير على المراكز الرومانية كلما وجد فرصة فيضربهم الضربات القاصمة.

وكان البربر في أنحاء المغرب يؤيدون تقفاريناص. وكان الرومان مرتاعين بهذه الثورة يحسبون لها ألف حساب. وكان تقفاريناص يشعر بالقوة ويعتد بكثرة أنصاره في المغرب. فأرسل إلى إمبراطور الرومان (تيباريوس كلوديوس) يعرض عليه الصلح على ان يرجع الرومان إلى الولاية الرومانية ويكتفوا بها، ويجلوا عن بقية افريقية ونوميديا ليرجع إليها ملك أجداده. فرفض الإمبراطور طلبه. فأرسل إلى الجيتوليين فواعدهم بالعفو ان هم تخلوا عن تقفاريناص فوضعوا السلاح. وجعل جائزة كبيرة لمن يغتال تقفاريناص، ولكن الجتيوليين كانوا مخلصين للوطن ولزعيمهم وقائدهم تقفاريناص. فازدادوا حماسة للثورة، وحبا لقائدها.

وفي سنة 21 عين الإمبراطور تيباريوس لحرب تقفاريناص قائدا آخر أكثر كفاءة من

كاملوس هو ابليسوس وأرسل معه جيشا كبيرا. فأمضى ابليسوس عاما كاملا وهو يطارد تقفاريناص ليقضي عليه فلم يستطع. وكان ابليسوس لخوفه من تقفاريناص لا ينزل بجيشه إلا في الأماكن الحصينة خوفا من هجمات تقفاريناص المفاجئة عليه. ودام تقفاريناص عاما وهو ينازل بعصاباته ابليسوس حتى تكاثر عليه الرومان. فالتجأ إلى الصحراء ليستعد وتستجم قواه. ويظفر بفرصته ليجدد كرته على الرومان.

مؤازرة يوبا الثاني للرومان في محاربة البطل تقفاريناص

وكان يوبا الثاني في أثناء هذه الحروب هو الوالي على غرب نوميديا وعلى الموريطانيتين. وكان يساعد الرومان في محاربة الثورة، ويؤيدهم بكل ما يستطيع ليقضوا عليه. فمات يوبا الثاني في سنة 23 ق.م. وتقفاريناص مرابط في الصحراء يرقب الفرصة. ولما مات يوبا وولي مكانه ابنه بطليموس الضعيف، وجد تقفاريناص الفرصة، فكر على بعض المراكز الرومانية في الشمال فحاصرها وشدد عليه الخناق.

وكان الرومان مهتمين كل الاهتمام بهذه الثورة التي تزعزع بنيانهم في المغرب لتهدمه. فعينوا لمحاربة تقفاريناص قائدا ثالثا من اكبر قوادهم هو (دولا بيلا) فأقام (دولا بيلا) مراكز عسكرية كثيرة في حدود الصحراء لتمنع تقفاريناص من الالتجاء إليها. وقتل جماعة كبيرة من رؤساء الصحراء الذين يؤيدون تقفاريناص وينصرونه. ليرهب الجيتوليين فيكفوا عن مساعدة الثورة. ولكن الثورة لم تزدد إلا تأججا. فعلم دولا بيلا انه لا يستطيع التغلب على تقفاريناص بالهجوم السافر وهو في عصاباته الباسلة. فلابد من الهجوم المفاجئ عليه وهو آمن وفي قلة من الجند. فصار يرصده. فالتجأ تقفاريناص وهو في طريقه إلى موريطانيا حيث ينوي ان يحارب الرومان - التجأ إلى قصر خرب في وسط غابة كثيفة ليستريح فهجم عليه دولا بيلا غي جيشه الكثيف فطوق المكان الذي التجأ إليه، وعزله عن أنصاره. فعلم تقفاريناص انه مقتول أو مأسور، فاختار الموتة الكريمة. فخرج من ملجئه فكر على الرومان هو وصحبه فقتل منهم جماعة كبيرة فقاتل حتى قتل.

كانت هذه المعركة التي قتل فيها البطل المخلص تقفاريناص في سنة 24 م. ومات تقفاريناص وخمدت ثورته، بعد ما حارب الرومان الأقوياء ثماني سنين، وكبدهم الخسائر الفادحة، واقض مضاجعهم أعواما كثيرة.

ان بعض المؤرخين قالوا ان تقفاريناص إنما سار إلى موريطانيا ليجعلها ميدان حربه

لان حاشية بطليموس قد طلبت منه ذلك وواعدته بالعون والتأييد. ولا أرى ان تكون حاشية هذا الضعيف الذي يعبد الرومان ويطأ على رقاب بني جنسه صافية تتسم بالوطنية فتتحمس للثورة. وإذا صح ان الحاشية دعته فان ذلك مكيدة لإخراجه من الصحراء ليحاصره الرومان في الشمال، ويجدوا فيه فرصتهم.

وكان بطليموس يعين الرومان في حروبهم لقمع الثورة بكل ما يستطيع. لقد أعانهم بجنوده، وبكل ما استطاعه من قوة. وارى ان جنوده وعيونه هي التي مكنت دولا بيلا من الظفر بتقفاريناص. لولاهم لاستعصى عليه.

وأرسل مجلس الشيوخ الروماني هدية سنية إلى بطليموس وشكروه شكرا بالغا على إعانتهم حتى استطاعوا التغلب على الثورة. وحمل احد الشيوخ الهدية ورسالة الشكر. وكانت الهدية هي كرسي من العاج، والصولجان، وإكليل من الذهب، والحلة المطرزة. وهي مظاهر الملك لأباطرتهم، أتحفوه بها ليزداد ركوعا لهم وتنكرا للمغرب. ولكن هل سيظل الرومان يتملقون بطليموس ويتمسكون به، إنهم لما قضوا حاجتهم به، وجثموا على المغرب وتمكنوا منه، ثقل عليهم، فتخلصوا منه كما يتخلص المرء من الجورب النتن المبتل إذا تجاز المكان المقرور ودخل في المناطق الساخنة ! لقد قتلوه. وتلك عاقبة من يخون وطنه، ويمشي في ركاب المستعمرين.

متى قتل هذا الرجل ولماذا؟

نهاية بطليموس 40م

كان القيصر كايوس جيرمانيكوس الملقب بقاليقولا هو إمبراطور الرومان. وكان من ذرية انطونيوس جد بطليموس من أمه. فهو ابن خال بطليموس. وعزم الرومان ان يستريحوا من بطليموس وحاشيته التي يحكمون بواسطتها في المغرب ليحكموا حكما مباشرا ما تبقى منه في يد بطليموس. وكانوا يخافون ان يثير عليهم البربر ويستغل كره البربر لهم ذا عزلوه أو القوا عليه القبض في المغرب. فاستدعاه الإمبراطور ابن خاله إلى رما ليحضر حفلة كبيرة يقيمها الرومان في عيد من أعيادهم. فذهب بطليموس في حاشيته وبهته. وفي أثناء الحفلة وهو آمن، وفي مكان سرور، أمر الإمبراطور قاليقولا بالقبض عليه. وقالوا ان السبب هو غيرته من حلة بطليموس الأرجوانية، وأبهته التي لفتت إليه الأنظار في الحفلة. إذا صح هذا فانه على الذئب مع الحمل لما هم بافتراسه. ان السبب هو إنهم قد عزموا على التخلص منه ليستولوا على ولايته، فاغتنموا فرصة أمنه في الحفلة فقبضوا عليه. قد تكون أبهته وكبرياؤه وانتفاشه انتفاش الملوك وهو

ضعيف حقير عندهم مما أثار سخط الإمبراطور عليه، فأراد ان يطهر مكان الاحتفال من منظره الذي يؤذيه فقبض عليه في ذلك المكان. إذا كان مظهره هو السبب سخط الإمبراطور فانه سبب بسيط، والسبب الأكبر هو ما قلنا.

وسجن قاليقولا بطليموس في سجن مظلم بارد، وقطع عنه الطعام والشراب، ولم يترك له ماء غير مياه الميازيب العكرة التي تنهال من سطح السجن وتتجمع في سرداب بمحبسه. وبقي بطليموس ابن الحرير الناعم أياما في ذلك السجن، والجوع والبرد والظلام تعذبه. ثم أرسل إليه ابن خاله الإمبراطور من قتله.

كان مقتل بطليموس في سنة 40 م. وكانت سنه لما قتل خمسا وأربعين سنة، ومدة ولايته سبع عشرة سنة. فستولى الرومان على الموريطانيتين وجعلوهما ولايتين رومانيتين. ولاية موريطانيا القيصرية، وهي الشرقية، وولاية موريطانيا الطنجية وهي الغربية.

وكان ادمون من موالي بطليموس، وهو من البربر. فرفع لواء الثورة في المغرب على الرومان بعد مقتل صاحبه، فأيده الجيتوليون وبقيت ثورته إلى سنة 42 فقضى عليها الرومان.

وكان بطليموس هو آخر بربري يحكم في المغرب. ثم تسلط الرومان وقضوا على ظل السيادة والملك التي بقيت للبربر في عهد بطليموس. ذلك الملك الشامخ الذي ابتدأ في عهد نارفارس وزال بموت يوبا الأول وعرابيون. ثم بقيت بقية ضئيلة منه وظلال خفيفة في الاستقلال الداخلي الذي كان ليوبا الثاني وبطليموس.

هذه أنباء الدولة البربرية الكبرى التي أنشأها نارفارس في نوميدية قد أثرنا ان تتسلسل حلقاتها إلى ان تنتهي. فما هي أنباء المغرب الأقصى وممالكه؟

الممالك البربرية في موريطانيا الغربية

125 ق.م . 23م.

كان الله قد ادخر المغرب الأقصى للإسلام لينشئ لنا الدول الإسلامية البربرية الكبرى: الدولة الإدريسية، ودولة المرابطين؟، ودولة الموحدين؟، ودولة بني مرين، ودولة الحفصيين أيضا فإنها فرع من الموحدين. فلو أجهد نفسه قبل الإسلام لاستنفد طلقته فيدركه الإعياء والهرم فينام كما نامت كتامة في القرون الإسلامية الثلاثة الأولى لما كان المغرب الأقصى والأوسط يصارع الأمويين والعباسيين ليزيحهم عنه فينشئ دوله الإسلامية العادلة الزاهرة. لقد كان الزاب (نوميديا) حينئذ يغط في نومه. وكان العباسيون والاغالبة يجثمون عليه، ولم ينحرك إلا في القرن الثالث لما أفرط الأغالبة في الإساءة إليه.

ان موريطانيا الغربية إذا كانت نهضتها قبل الإسلام متأخرة عن نهضة افريقية، ونوميديا وموريطانيا الشرقية؛ ودولها كانت اقل شأنا، واضعف حضارة، واقل جدوى للمغرب الكبير. فان دولها الإسلامية سيما دولة الموحدين كانت أعظم، وأوسع رقعة، وأعظم جدوى للمغرب الكبير، من كثير من الدول التي نشأت في افريقية ونوميديا في العهود الإسلامية.

ان عدم ثورة الدولة البربرية في موريطانيا الغربية على الرومان، وعدم خوضها للحروب الطاحنة معهم -وهو ما كان المؤرخون القدماء يعنون بتسجيله- وبعدها عن قرطاجنة، وموقفها موقف البرودة في الحرب البونيقية، جعل البونيقيين والرومان لا يعتنون بتاريخها، ولا يسجلون أخبارها لتصل إلينا.

وكانت علاقة الملوك في موريطانيا الغربية بنوميديا وملوكها سيئة في اغلب العهود. لذلك يعتن علماء البربر في الدولة النوميدية بأخبار جارتهم موريطانيا الغربية فيسجلوها، فينقلها عنهم الرومان والإغريق الذين دونوا أكثر ما وصلنا من تاريخ المغرب قبل الإسلام؛ لهذا كانت المادة في تاريخ موريطانيا الغربية قبل الإسلام قليلة.

ان الذي لا شك فيه هو ان موريطانيا[107] الغربية قد أخذت بالحضارة البونيقية فنهضت

107 - موريطانيا وموريطانيا تكتب بالتاء وعدمها. وكذلك نوميدية وجيتولية.

وانتشر فيها العمران، وسرت الثقافة في مدنها، وازدهرت فيها الفلاحة، وخرج البربر فيها من بداوتهم.

لقد كان المغرب الكبير وطنا واحدا للبربر. وكان الاختلاط على أتمه بينهم. فلا بد ان تتأثر موريطانيا الغربية بموريطانيا الشرقية، ونوميديا، وافريقية. ثم ان البونيقيين الذين كانوا اكبر عامل لنهضة المغرب، وكانوا يجوبون بقوافلهم التجارية أنحاء موريطانيا الغربية حتى الصحراء منها، ويؤسسون المراكز التجارية في كل أنحائها، سيما في الساحل للإقامة الدائمة. وكان ساحل موريطانيا الغربية هو طريق البونيقيين إلى الأندلس، وكان تابعا لقرطاجنة في أيام عظمتها وعزها في القرن الخامس والرابع واغلب القرن الثالث قبل الميلاد.

لقد كانت في موريطانيا الغربية حضارة راقية. وان الممالك الواسعة التي نشأت فيها لدليل على التحضر والرقي.

كانت الممالك البربرية في موريطانيا الغربية قد نشأت في شمال المغرب. وكانت عاصمتها هي طنجة كما أرى أو وليلي. وكانت وليلي هي عاصمة يوبا الثاني وابنه بطليموس في موريطانيا الغربية. كما كانت مقرا للرومان بعدهما. وتسمى أيضا قصر فرعون.[108] وكانت تلك الممالك البربرية تشتمل على موريطانيا ووسطها. أما جبال المصامدة، والصحراء فلا أرى انها قد خضعت لها. لقد آثرت الاستقلال تحت أمرائها وزعمائها كما رأينا في جبال آوراس وةجبال القبائل وجبال نفوسة، وفي جيتوليا في نوميديا وموريطانيا الشرقية.

الملك بوكار

ان هذه الدولة التي نشأت في هذه البقاع أول من عرفنا من ملوكها هو بوكار الذي مد مصينيسا بجند في سنة 206 ق.م . لما رجع من الأندلس الإخماد ثورة مزوطيل في مملكته. ولا ندري هل بوكار هو أصل عائلة بوكوس الأول الذي تعاقب أبناؤه على الملك أم هو من قبيلة أخرى.

بوكوس الأول

وتولى الملك بوكوس الأول. وقد اصهر إليه في حوالي سنة 114 ق.م. الملك يوغورطة.

108 - قد تكون سبب هذه التسمية ان يوبا الثاني انشأ فيها قصرا له ولزوجته المصرية الأم والنشأة (كيلوباترة) على النحو الفرعوني فسميت بهذا الاسم.

ثم استعان به في حروبه مع الرومان في سنة 107 ق.م. ثم تسلط عليه الرومان فجنح إليهم فأعلنهم في القبض على يوغورطة في سنة 107 ق.م. فجازوه بان أعانوه على الاستيلاء على موريطانيا الشرقية. فامتدت دولته فصارت من طنجة إلى غرب صلداى (بجاية) وقد مات بوكوس الأول في سنة 80 ق.م. وكانت مدته في الملك نحو أربعين سنة.

بوغيد الأول وبوكوس الثاني

واقتسم ابنا بوكوس الأول مملكته لما مات في سنة 80 ق.م وهما بوغيدة الأول الذي اخذ موريطانيا الغربية، وبوكوس الثاني الذي اخذ موريطانيا الشرقية. ثم نشبت الحرب بين ماريوس وصيلا فاشتغل الرومان بعضهم ببعض فصاروا لا يستطيعون أنجاد صديقهم بوكوس الثاني وأخيه. فهجم مصينيسا الثاني على موريطانيا الشرقية فاستردها من بوكوس الثاني. ثم ردها إليه الرومان جزاء إعانته لهم على يوبا الأول في سنة 46 ق.م. وأضافوا إليه نوميديا اسطيفية فصارت دولته تمتد من وادي ملوية إلى غرب ميلة وشرق جيجل. وكان الإخوان بوكوس الثاني وبوغيد الأول متحدين. حتى ان موريطانيا الشرقية التي سماها الرومان بعد يوغورطة نوميديا الغربية قد قال بعض المؤرخين انها أعطيت لبوغيد والحق انها أرجعت لبوكوس الثاني، ولكنها لاتحادهما صارا كدولة واحدة. ودام بوغيدة الأول ملكا على موريطانيا الغربية إلى ان توفي في سنة 44 ق.م. وكانت مدته في الملك أربعا وأربعين سنة.

بوكوس الثالث

وبعد بوغيد الأول تولى الملك على موريطانيا الغربية ابنه بوكوس الثالث في سنة 44 ق.م. زحف على موريطانيا الشرقية ونوميديا اسطيفية فملكهما من ابن عمه بوغيد الثاني. فاتسعت مملكته فصارت من طنجة إلى وادي مساغة في غرب قرطة. فدام ملكا على هذه البقاع آلة ان مات في سنة 33 ق.م فاستولى الرومان على مملكته. ثم جعلوا عليها في سنة 17 ق.م. يوبا الثاني ثم ابنه بطليموس فتوليا عليها للرومان إلى ان قتل بطليموس في سنة 40 م. فحكم الرومان حكما مباشرا تلك البقاع وقسمت إلى ولايتين رومانيتين موريطانيا القيصرية، نسبة إلى القيصرية عاصمتها وهي شرشال، وهي موريطانيا الشرقية، وموريطانيا الطنجية. وكانت مدة هذه الدولة نحو قرن ونصف. وأول ملوكها كما أرى هو بوكار وآخرهم بوكوس الثالث.

أما بوكوس الثاني فانه توفي في سنة 40 ق.م. وكان قد حضر حروب الرومان مع عرابيون

الذي اخذ منه نوميديا الغربية. وبعد اغتيال الرومان لعرابيون استرد نوميديا الغربية، واقتطع جزءا من غرب نوميديا الوسطى فصارت حدوده تنتهي في وادي مساغة.

بوغيدة الثاني

ولما مات بوكوس الثاني ابنه بوغيد الثاني مملكته وفي سنة 38 ق.م ذهب إلى الأندلس بجيوشه لنصرة انطونيوس الذي كامن في حرب مع اوكتافيوس فأغرى هذا الأخير بوكوس الثالث بالهجوم على مملكة بوغيد ففعل. فاستولى عليها، ولم يستطع بوغيد استردادها فذهب إلى مصر فمات فيها.

ان استقرار دول هؤلاء الملوك وطول أمد اغلبهم في الملك يدل على رضى الرعية عن سيرتهم فيها. أما سيرتهم مع جيرانهم فقد كانت خبيثة. إنهم سبب زوال الدولة البربرية الكبرى، وتمكن الرومان من ناصية المغرب. لولاهم ما استطاع الرومان ان يتسلطوا على المغرب !

وكان هؤلاء الملوك ما عدا بوكار جبناء ذوي أطماع وحسد لجيرانهم. ولم تكن صفحتهم نقية في المغرب.

ثم جثم الرومان على المغرب الكبير بعد ان صرعه، فأورثه سكرته الثقيلة، فرتع فيه قرونا عديدة. فما هو سبب سقوط الدولة البربرية الكبرى التي كانت تدافع الرومان وتحفظ المغرب الكبير؟

أسباب انقراض الدولة البربرية الكبرى

أننا إذا نظرنا إلى عمر الدولة البربرية الكبرى التي أنشأها نارفاس وكانت عاصمتها قرطة لا تعجب لموتها. فهي قد استوفت عمرها، وعاشت ما يعيش أمثالها من الزمن لقد عاشت نحو ثلاثة قرون. ولكننا إذا نظرنا إلى شبابها وقوتها أيام زوالها، نعجب لذلك ونحكم بموتها سريعا. ان فيها من الطاقة والشباب ما يمسكها في الحياة قرونا أخرى من الزمان. ان الهدوء والهناء الطويل، والانغماس في الملاذ والشهوات، والركون إلى الراحة والكسل، هذه العلل الفتاكة التي تورث الهرم للأمم، وتصيبها بكل الأمراض فتلقى حتفها؛ ان هذه العلل لم تصب بها الدولة البربرية. ان كل ما ظفرت به من الهدوء والهناء إنما هو في أول عهد مصينيسا ووسطه. وكان مملوءا بأعمال الإنشاء والتعمير، فلم تركن الدولة إلى الراحة، ولم تنغمس في الملاذ والشهوات. فدامت في شبابها، بل ازدادت شبابا وقوة بما أسبغ عليها مصينيسا من علم وإصلاح. وفي آخر عهد مصينيسا دخلت في حروب طاحنة مع البونيقيين وهذه الحروب أرهفت قواها واذكت شبابها، ومنعتها من الضعف الذي يصيب الأمم الهانئة الهناء الدائم. ثم دخلت الدولة في عهد الهناء والهدوء في عهد مصيبسا. وكان خيال العدو الجديد وهو الرومان المستقرون في افريقية يرهف قواهم،[109] ويمنعهم من الغفلة والنوم والإخلاد إلى الراحة. فشمروا عن سادهم فازدادوا قوة، واستعدوا للعدو الجديد.

وجاء عهد يوغورطة. فكان كله عهد نضال وحروب. وهو ما حفظ شباب الدولة، وزادها قوة وحيوية. ثم اتصلت حروب الدولة مع الرومان إلى وفاة يوبا الأول. ان هذه الحروب التي خاضتها الأمة، والعدو القوي الذي يجاورها جعلها تتمسك بأسباب القوة والشباب فلم تهرم، ولم تتصدع تصدع البنيان الذي يتداعى للسقوط. فلو تركت هذه الدولة لعاشت مدة طويلة من الزمان حتى تستوفي كهولتها وشيخوختها، ولكنها احتضرت، وقصفت، وفروعها ممتلئة بالزهور، ريانة يغص جذعها وغصونها بالحيوية والطاقة الكبيرة. ولكن ما هي الأسباب التي جعلت هذه الدولة تلقى حتفها في قوتها وشبابها؟

109 - ضمير الجماعة هنا يرجع إلى البربر الذين يكونون الدولة.

ان سبب انقراض هذه الدولة ليس هو ضعفها وتفوق الرومان عليها في الشجاعة والقوة الحربية. لقد كانت أشجع من الرومان، كثيرة العَدد والعُدد. وقد صارعها الرومان طويلا فلم يصرعوها. ان في شجاعة أبنائها، وثباتهم، وفي مناعة جبالها وصحرائها التي يستطيعون بها حرب العصابات، ما يجعلها تتغلب على الرومان وتدحرهم، وتطهر المغرب منهم لو اتصلت تلك الحروب. ولكن الدولة البربرية الباسلة لا تشتبك في حرب عنيفة مع الرومان إلا ويضربها جيرانها من خلفها، ويقيدونها للرومان فيتغلبون عليها. فهذا يوغورطة يؤسره للرومان بوكوس الأول،وكذلك يرباص قتله جيشه. ويوبا الأول ضربه أبناؤه من خلفه فقصموا ظهره. وقد كاد يهزم بوليوس قيرص، ويملك افريقية، ويظهرها من الرومان، ويسد باب المغرب في وجوههم. فلو ترك يوبا لقضى على الرومان. وكذلك يوغورطة لو بقي فواصل حرب العصابات على الرومان لهزمهم. ولكن حسد الجيران وجبنهم وأطماعهم جعلهم يطعنون الدولة البربرية من خلفها ويصرعونها للرومان.

ان الذين طرحوا الدولة البربرية أرضا بغدرهم، ثم جثم عليها الرومان فأزهقوا روحها إنما هم البربر: بوكوس الأول وأبناؤه. فلو اتحدوا معها وحفظوا ظهرها لانتصرت على الرومان. فينجوا المغرب من سباع البحر وجراد روما الذي امتص حياته وجرده من نضارته؛ وتعيش الدولة البربرية الكبرى، وتعيش معها دولة بوكوس الأول وأبنائه، أو تتحد مع جارتها فتصير دولة واحدة من غرب الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي، كما تمنى مصينيسا وكل الأحرار المخلصين في المغرب.

لو اتحد المغرب في الزمن القديم فكان دولة واحدة ما استطاع الرومان التغلب عليه. ولو كان متحدا في القرن الثالث عشر الهجري ما استطاع أحفاد الرومان اللاتينيون استعماره والتغلب عليه. وهكذا لا يزال المغرب ضعيفا يتعرض لتسلط الأعداء ما لم يكن دولة واحدة متماسكة على النظام الفدرالي الذي يصلح به. إذا تحقق هذا للمغرب، فانه يرفع رأسه، يكون قوة كبرى يلوذ بها الإسلام والمسلمون، ويجدي الأمة الإسلامية اكبر الجدوى.

وكانت نشأة الدولة البربرية في سنة 240 ق.م. أو قبل ذلك، وزوالها وحكم الرومان للمغرب كله حكما مباشرا في سنة 40م. فعمرها قرنان وثمانون سنة أو أكثر.

لقد استطاع الرومان ان يمسكوا بخناق الدولة ويزهقوا روحها، ويقطعوا أوصالها في سنة 46 ق.م. لما هزموا يوبا الأول بالخديعة والدس، وتسلطوا على بعض أجزائها

فحكموها حكما مباشرا. وبقيت الأجزاء الأخرى فظلت على الاستقلال الداخلي إلى سنة 40م.

ان عمر الدولة البربرية كدولة مستقلة استقلالا تاما لا سلطان للرومان عليها هو 194 سنة فقط من سنة 240 إلى سنة 46 ق.م.

وجاء الرومان فجثموا بكلكلهم الثقيل على المغرب، فصار مستعمرة لهم ! فمن هؤلاء الرومان؟ أين وطنهم؟ وما أسباب عظمتهم؟ وما حال المغرب في عهدهم؟.

العهد الروماني بالمغرب

146 ق.م – 430 م.

الرومان

أصلهم، وموطنهم، وأسباب عظمتهم.

لقد اعتدنا ان ننظر إلى الرومان على إنهم مستعمرون. قد أودوا بدولنا، واستعمروا مغربنا وكانوا سبب تأخره وضعفه قرونا طويلة من الزمان؛ فلا يبدو لنا إلا الجانب القاتم الكريه الذي يبعث على الاحتقار من شخصيتهم. أما أسباب قوتهم وتقويتهم على الأمم التي عاصرتهم حتى ملوكها واستعمروها فمما لا نطيل الحديث فيه. وأنا سأعطي لهذا الجانب حقه في هذا الباب لاستدراك ما فات مؤرخينا، فان التاريخ لتربية الأمة، وللموعظة والاعتبار، فلابد من ذكر أسباب القوة والعظمة للأمم والشخصيات التي سادت ونبغت لتأخذ بها امتنا فتسعد؛ وتكون فاضلة، قوية، سيدة، تحظى برضى اللّه، وتفوز باحترام العالم.

من هم الرومان؟

الرومان ! امة قوية البنيان، ومتينة الأركان، عظيمة الشأن ! كانت كأميريكا أو كروسيا في هذا الزمان، بارزة الشخصية، ترنو إليها أعين العالم بالإعجاب، وبالرغبة أو بالرهبة، وبالمحبة أو بالمقت الشديد.

وقد استعمرت الأمة الرومانية كل من يجاورها من الدول، وكل من يسكن حول البحر الأبيض المتوسط من الشعوب، بمتانة أخلاقها، وقوة نفوسها، وباتحادها وتآزرها، وإخلاصها للوطن، وتضحيتها في سبيل المصلحة العامة. لا يتحاسد أبناؤها فيتفرقوا ويتناحروا، ولا يتنازعون فيفشلوا، بل كانوا يدا واحدة في السراء والضراء، وبنيانا مرصوصا في النعماء والبأساء، فسادوا بهذه الأخلاق العظيمة أمما كانت أكثر منهم في العلم والغنى والمدينة، وتغلبوا بهذا الاتحاد، وبقوة الأخلاق على شعوب كانت أكثر منهم في العدد، وأقوى في الشجاعة، وامهر في الفروسية، ولكنها اقل منهم في الاتحاد، والتآزر، والإخلاص للأمة، وفي النظام، والطاعة للرؤساء.

كان الرومان امة قوية، ودولة عتيدة، حتى ضعفت أخلاقهم بالحضارة، وتغيرت نفوسهم بالأعراق الدخيلة، وذهب اتحادهم بالأنانية، فتكالبوا على الرئاسة، وتناطحوا على السلطان، واستولى على نفوسهم حب المال والشهوات، فضعفوا وخمدت جذوتهم فبادوا.

أصل الرومان وموطنهم

الرومان أصلهم من اللاتين. وينسبون إلى عاصمتهم رومة. فهي نواة دولتهم، وسبب اتحادهم. وموطنهم هو ايطاليا.

وكان لرومه موقع ممتاز مكن الرومان من توحيد ايطاليا وجعلها دولة واحدة، والمزج بين عناصر سكانها فصارت امة واحدة متساندة. كما كان لايطاليا موقع ممتاز جعل الرومان يتصلون بمختلف الشعوب المتمدنة، فيقبسون من حسناتها، ويستولون عليها بعد ذلك.

«كانت رومة في وسط ايطاليا، وايطاليا في وسط العالم القديم. انها تشق البحر المتوسط في وسطه فهي وسط الوسط. وهذا الموقع الممتاز هو الذي جعلها تبسط نفوذها، وتشمل بسلطانها طل ذلك البحر المتوسط.[110]

ايطاليا وعناصر سكانها في القديم

وايطاليا هي شبه جزيرة طويلة تمتد من جبال الألب إلى قرب البلاد التونسية، بين البحر الادرياطيقي شرقا، والبحر التيرانياني غربا.

وتنقسم ايطاليا إلى قسمين: ايطاليا الإقليمية (أي البرية) شمالا، وايطاليا البحرية وهي شبه الجزيرة جنوبا.

فأما ايطاليا الإقليمية أي سهول (بو) فقد استولت عليها من قديم الزمان أقوام من الغاليين. فلذلك لقبوها باسم (غالية أمام الألب) لتمييزها عن غالية وراء الألب وهي فرنسة اليوم.

وأما ايطاليا البحرية التي شبهوها بالسوقاء أي بحذاء طول (botte) فهي وحدها التي كانوا يطلقون عليها في القديم اسم (ايطاليا) وقد أقام بها أقوام مختلفة: الاثروريون. وهم في الشمال أي في جهة اثروريا. وهي الجهة التي تسمى الآن الاثروريون تسكانة (Toscane) بين نهر التيبر ونهر ارنوا. واهم مدنها بلنسة في القديم. ثم تجاوزوا نهر التيبر وامتدوا على الساحل الغربي، واستولوا على جهة كمبانيا على خليج (نابلي) واهم مدنها (قابو).

وكان الاثروريون أصحاب مدنية عريقة، شبيهة بالمدنية الفينيقية. وكانوا على تقدم كبير في الفلاحة والصناعة.

110 - هذه النصوص في تعريف ايطاليا وسكانها من مدينة المغرب العربي وهي بين قوسين.

الإغريقيون

ومن سكان ايطاليا الإغريقيون. وكانوا في جنوب وفي شرق صقلية. وهو ما يعرف باسم (إغريقية العظمى). واهم مدنها نابلي، وتارنتة بايطاليا، وسرقوسة بصقلية. وفي هذه المدن الزاهرة بصناعتها وتجارتها، الممتازة بموقعها في جهات خصبة على البحر كانت تشرف الحضارة الإغريقية، وترسل أنوارها إلى جيرانها.

وكان فيها من الرياضة البدنية، والثقافية العقلية، والرقة الشعرية، ومن الفلسفة والأدب والموسيقى والفن، مثل ما كان ببلاد اليونان تماما.

اللاتينيون

وفي ايطاليا اللاتينيون. وهم في وسطها. كانوا شعوبا وقبائل خشنة. وهم رعاة أو فلاحون. وكانوا بين شعبين متمدنين الاثروري شمالا، والإغريقي جنوبا.

وكان اللاتينيون ينقسمون إلى أربعة شعوب. وكل شعب إلى قبائل. وهذه الشعوب هي: اللاتينيون، والصابيون، والابريون، والسمنيون. فأما اللاتينيون فإنهم كانوا يقيمون بناحية (لاتينيا) وهي سهل نهر التيبر بين اثروريا وإغريقيا العظمى. فاخذوا عنهما الحضارة والمدنية، وتعلموا الفلاحة وفن البناء، واقتبسوا منهما الدين، وطرق السياسة. فترقوا وتفتحت عقولهم، فكونوا الدولة الرومانية بعد تأسيس رومة في 21 ابريل سنة 754 ق.م فوق هضبة البالاتن في ارض لاتينيا قرب مصب نهر التيبر.

وأما الصابئون والابريون! والسمنيون فقد كانوا يسكنون جبال الابروز التي تحيط بسهل لاتينيا وترتفع حوله كأنها أسوار من الصخور. وكانوا فقراء، بعيدين عن كل حضارة واختلاط وكانوا على غاية من الشراسة والفظاظة والغلظة»[111] فما زال اللاتينيون سكان السهول المثقفون يجاهدونهم حتى أخضعوهم وصبغوهم بصيغتهم فكانوا جزءا من الأمة الرومانية.

وكان اغلب اللاتينيين فلاحين، فلذلك امتازوا بمتانة الأخلاق، وقوة النفوس، وصحة الأجسام فانشأوا الدولة الرومانية، ووحدوا ايطاليا كلها فكانت امة متحدة، تتصف بما يتصف به اللاتينيون من قوة في الجسم والخلق، فوقفت على قدميها فنظرت يمينها وشمالها فرات العالم القديم المتمدن في افريقية، واسيا، وبلاد اليونان فعزمت على الاستيلاء عليه فكان لها ما أرادت، بحسن أخلاقها، وشجاعتها، وإخلاصها، واتحادها.

111 - مدينة المغرب العربي بتصرف في بعض عباراته لينسجم بأسلوب هذا الكتاب ج 1 ص 262

نشأة الرومان وعاصمتهم

وقد نشأ اللاتينيون دولتهم مع إنشاء عاصمتهم رومة في 21 ابريل سنة 754 ق.م. بعد نشأة قرطاجنة بستين سنة. وكانت نشأة رومة هضبة البالاتن في ارض لاتينيا قرب مصب نهر التيبر. وسميت رومة نسبة إلى منشئها ملكهم الأول روملوس. وقد نسبت كل الطوائف في ايطاليا بعد ان توحدت إليها، وصار لقبهم منها، وسموا كلهم رومان.

النظام السياسي للرومان

وكان الرومان في أول أمرهم على النظام الملكي. وكان الملوك في البداية مخلصين عادلين يعملون للدولة لا لأنفسهم. ثم شاخت الملكية، وفسدت أخلاق الملوك. وكان الرومان شعبا قويا، فلم يطق حكم الفرد واستبداده. فاسقط الملكية في سنة 508 ق.م وكان عمرها 246 عاما وأول ملوكهم هو روملوس وآخرهم هو طارقينوس.

وفي سنة 508 أعلن الرومان الجمهورية، فانتخبوا مجلس الأشراف الذي يشتمل على ثلاثمائة وعشرين عضوا، اختاروهم من الأسر الشريفة. ويشترط في العضو مع شرف الأسرة، الكفاءة، والإخلاص للأمة. وعضوية كل واحد منهم دائمة إلى ان يموت. وهذا المجلس يسمى مجلس الشيوخ الروماني.

وكان مجلس الشيوخ الروماني هو الدماغ المفكر للدولة، فهو الذي يسن القوانين مع المجلس الشعبي، ويعلن الحرب، ويوقع السلم ويدبر كل مهام الدولة.

وكان القنصلان هما القوة التنفيذية لهذا المجلس. وهما رجلان ينتخبهما مجلس الشيوخ من بين أعضائه. ويشترط فيهما الكفاءة الدينية،والسياسية والحربية، والإخلاص للدولة، والماضي الوطني الجميل.

وكانت وظيفة القنصلين هي تنفيذ قرارات مجلس الشيوخ، وقيادة الجيوش، ورئاسة الحفلات الدينية، ورئاسة مجلس الشيوخ،ودعوته إلى الانعقاد. وكانت مدة القنصلين عاما واحدا ثم يعاد الانتخاب. وذلك لمقت الرومان لحكم الفرد، وحبهم الشديد للحكم الديمقراطي الصحيح.

وفي عهد الجمهورية دخل الرومان في شبابهم، وأيام عظمتهم، وكونوا مجدهم الأثيل، وإمبراطوريتهم الواسعة، وقد غزوا كل من يجاورهم من الشعوب فأخضعوهم لسلطانهم، فامتلكوا صقلية، وبلاد ايونان والغالية، وبلا الجرمان، والأندلس، والمغرب،

ومصر والشام، واهم الجزر في البحر الأبيض المتوسط. وقد صار هذا البحر ينسب إليهم فما فيه من جزائر وما يكتنفه من أقطار كله خاضع لسلطانهم. ودام الرومان على الجمهورية إلى ان شاخت وفسدت، فنبذوها واستبدلوها في سنة 29 ق.م بالنظام الإمبراطوري وهو بين الملكية والجمهورية. وهو بالملكة أشبه.

ما هي الأسباب التي جعلت الرومان وهم جماعة قليلة ينرون كل الأمم، ويتغلبون على شعوب أكثر منهم عددا وعدة، وأرقى منهم مدينة، وأكثر علما وغنى؟

أسباب عظمة الرومان

ان سبب عظمة الرومان وقوتهم إنما هو متانة أخلاقهم، وقوة نفوسهم. تلك المتانة التي تستلزم الشجاعة، والصبر، والإخلاص للجماعة، وضبط النفس، والنظام، والأمانة، والحياء، والاتحاد، والمحافظة على الشرف، والسمعة الحسنة لنفس وللدولة.

وكان الرومان يعتقدون بهذه الأخلاق الحسنة ويرونها كل شيء لهم في الحياة. وكانوا يحافظون عليها، ويقوونها في نفوسهم بكل الوسائل، ويغرسونها في نفوس أبنائهم بكل الأسباب الحسنة، والطرق الحكيمة في التربية.

حبهم للعمل والكد

وكانت حياة الجد والكد التي كانت عليها جماعة اللاتين في الفلاحة هي التي أورثتهم تلك الأخلاق. فنشأ الرومان وهم يعتقدون ان العمل القوي، والكدح والجد هو سبب قوة النفوس والأجسام. فكانوا يحبون العمل، ويكرهون البطالة.

إيثار الرومان للفلاحة وشغف إشرافهم بالعمل في الحقول

وكان أحب الأعمال إلى الرومان هي الفلاحة. إشرافهم كلهم فلاحين يزرعون ويقضون اغلب أوقاتهم في العمل في الحقول. وكانوا يملكون الأرض ويعتقدون صاحب البلد والوطن هو الذي يملك أرضه وان الذي يخلص للوطن، ويموت في سبيله هو الذي يملك أرضه!

وكان اشرف الرومان كلهم يؤثرون الفلاحة، ويرونها عمل السادة والخاصة. أما الصنائع فيرونها عمل العبيد؛ لان الفلاحة تستلزم كل الصفات الحميدة في الجسم والخلق. فالفلاحة تورث لصاحبها قوة الجسم، والشجاعة، والصبر، وضبط النفس، والقناعة، والسخاء، والتضحية؟، والإخلاص، وبياض القلب، والموت فداء للوطن، وكل الصفات التي تجعل الفرد يسعد، ويسعد أمته ويقويها.

مقت الرومان للبطالة والكسل

وكان الرومان يكرهون البطالة، والإخلاد إلى الراحة. وكانوا يرون البطالة هي السم القتال الذي يأتي على كل الأخلاق الحسنة في النفوس، ويجلب كل الأمراض للجسم

والخلق؛ وان سبب هرم الأمم وفنائها إنما هي البطالة وحب الراحة. وكان احد ملوك الرومان وهو (بيليوس نازيفة) قد انشأ أسطولا بحريا كبيرا انفق فيه الأموال الطائلة من غير ان يكون في حاجة إلى الأسطول، ولكن أراد ان يشغل ببنائه جنده حتى لا تفسدهم البطالة، ولا تخور أجسامهم وأخلاقهم بالإخلاد إلى الراحة.

الرومان للتقشف وكرههم للرفاهية والنعيم

وكان الرومان يحبون التقشف والبساطة، ويكرهون الرفاهية، ونعيم الحضارة والمدنية، والانغماس في اللذائذ والشهوات. كانوا على البساطة في المأكل، والملبس،[112] والمسكن. كانت مساكنهم خشبية مطينة، ثم صاروا يبنونها بالحجارة، ولكن بدون نوافذ لجهلهم بصناعة الزجاج. وكانت أنهجهم ضيقة، وبيتهم متقاربة، وشوارعهم مظلمة في الليل، لا تضاء، والأوساخ والأتربة فيها كثيرة،وهي غير مرصوفة.

كان الرومان امة التقشف وبساطة العيش ! يكرهون ميوعة المدينة، ورفاهية الحضارة لأنها تضعف الأخلاق،وتهرم بها الأمم. لما غلب الرومان وانهزموا في معركة مدينة نومنسة بالأندلس في القرن الثاني ق.م. أراد القائد الروماني سبيون الاميلي فاتح قرطاجنة ان يزيل الضعف الذي حل بجنده فانهزموا. فجردهم من جميع ما اكسبهم الفتور والرخاوة، وباع كل حيواناتهم وثيابهم ما يكفيه من الفذ

قمح ثلاثين يوما،وألزمهم مشى المسافات البعيدة في الطرق الصعبة، وهم بهذا الحمل الثقيل. فاستطاع بهذا الجد والعناء ان سترجع قوة جيشه، وينمي فيهم قوة الجسم والخلق.[113]

ولما وقعت الجيوش الرومانية أسيرة في المغرب بيد جلالة الملك يوغورطة أراد القائد ميتيلوس ان يغسل هذا العار افامر جيشه بالرجوع إلى القوانين القديمة التي تستدعي التقشف، والعمل والجد.

ولما أراد ميريوس ان يحارب السمبرانيين والتوتونيين ابتدأ بتحويل الأنهار عن محاربها حتى يعمل الرومان أعمالا مرهقة تنفي عنهم ضعف الدعة والراحة.

---

112 - انظر لباس الرومان في صفحة 172 من هذا الكتاب.

113 - أكثر هذه الحكايات التي نذكرها كنصوص في هذا الباب من كتاب المؤرخ والكاتب الفرنسي البليغ مونتسكيو. وعنوانه (أسباب عظمة الرومان وضعفهم) وهو أحسن ما كتب في هذا الموضوع وقد ترجمه إلى العربية الأستاذ حسن الجبيلي وطبع في سنة 1293 هجرية. وقد نفد من المكاتب. ليت طبعه يعاد فانه من أحسن ما تقدم لشبابنا المائع بالحضارة المتهالك على الملذات.

وأدب صيلة القائد الروماني جيشه لما جزعوا من حرب املك (ميثرادانيس) بالأشغال الشاقة حتى طلبوا منه الحرب لتنتهي بها أتعابهم في الأشغال.

كان الرومان يتمسكون بكل أسباب القوة في الخلق والجسم. وهذا هو سبب قوتهم وعظمتهم وتغلبهم على كل الأمم المتحضرة التي حاربوها.

اعتناء الرومان بالرياضة البدنية والتدريب العسكري

وكان الرومان يعتنون كل الاعتناء بأنواع الرياضة، من سباحة، ومشي، وجري، وحمل للأثقال، ووثب، تسلق للأشجار والحيطان والجبال، وكل ما تستلزمه الحروب من الحركات.

وكان الرومان يعتنون بالتربية العسكرية، يرونها ألزم للشباب من الغذاء والكساء. وكان كل شباب في المدينة يفرض عليه ان يتعلم فن الحرب، ويبرع في الرماية، والفروسية، ويتقن حيل الحروب، وأساليب منازلة الأقران، وطرق الكر والفر، وغير ذلك.

وكانت لهم ميادين عامة في كل مدينة يدربون فيها شبابهم على فن الحرب، وركوب الخيل. وكانت لهمن انهار قريبة من تلك الميادين يتعلمون فيها السباحة، ويغتسلون بعد تمارينهم المرهقة ليزيلوا عنهم سواد الغبار.

وكانت ألعابهم في أعيادهم واحتفالاتهم إنما هي سباق الخيل والمصارعة، مصارعة الأقران، والسباع كالأسود والفهود والنمور.

وكانوا يمجدون أبطال الحروب، ويقيمون لهم التماثيل في الميادين العامة، ويقدسون الفروسية والبراعة في القتال.

وكان الرومان يربون في نفوسهم قساوة القلوب بمشاهدتهم للدم، والجروح الكبيرة لكي لا يضعفوا في القتال.

وكانوا يغرسون في نفوس أبنائهم تقديس النظام، والطاعة للرؤساء. وكانوا أكثر الأمم تمسكا بالنظام والتزاما له في كل أعمالهم سيما في الحروب. وقد قتل منليوس احد ملوكهم ولده لأنه حارب وانتصر بلا إذن منه!

كان الرومان عظماء أقوياء بهذه العظمة سيما تقديس النظام، والتمسك به في الأعمال، والتربية العسكرية، وغرس أخلاق الرجولة في شبابهم!

تمسك الرومان بتقاليدهم الحسنة

وكان الرومان متمسكين كل التمسك بتقاليدهم الحسنة، ولكنهم ليسوا جامدين.

ومن طباعهم الراسخة البحث عما تفضلهم فيه الأمم الأخرى فيأخذون به. وكانوا إذا أرادوا محاربة امة درسوا أخلاقها وفنها في الحرب فيأخذون ما تفضلهم به تلط الأمة. إذا استولوا على امة اخذوا بأحسن ما عندها من فنون الحرب والنظام. وقد اقتبسوا من الأمم التي اتصلوا بها كثيرا من الأخلاق، وأنواعا من السلاح، وأنظمة كثيرة مدنية وعسكرية. وقد بذلوا أموالا كثيرة، وجهدا كبيرا لجلي الخيول المغربية، والسهام الاقريطشية من جزيرة كريد، والمقاليع البليارية من اسبانيا، والسفن الروديسية من روديسيا. وكان سلاحهم من أحسن من أحسن نوع يوجد، وأنظمتهم من أفضل ما يوجد في عصرهم. لا يميعون وينحلون فيتركوا أخلاقهم الموروثة، بل يتمسكون بما عندهم، ويقتبسون من غيرهم الصالح الذي يليق بهم، ويزيدهم قوة وتقدما. لا يقلدون ولا يجمدون.

تمسك الرومان بالدين

وكان الرومان متدينين كل التدين. يتمسكون بدينهم الوثني ويغرسونه في أبنائهم وفي شعبهم بكل الوسائل. وكانت لها هياكل في مدنهم وقراهم يقربون فيها القرابين لآلهتهم. وإذا أصابتهم مصيبة فزعوا إلى هياكلهم فيدعون ان ترتفع عنهم تلك المصيبة. وكانوا متسامحين في الدين لا يتعصبون لأوثانهم. وتراهم يعبدون الأوثان التي يجدون في الأمم التي يستعمرونها. وإذا أعجبهم وثن منها كوثن الزراعة، والقوة، والنور، والجمال في اليونان جلبوه إلى وطنهم فاتخذوه في هياكلهم. وكانت أوثانهم التي يعبدونها من أمم شتى ونواحي كثيرة.

اعتماد الرومان في الحرب على أبنائهم وأنفسهم

ولم يكن للرومان جند حكومي مرابط في قلاعه، تقتله البطالة، وتستولي عليه الشهوات، وتؤذي به عدم المبالاة في الحروب، بل كان كل من في المدن والقرى من الرجال والشباب جند الحكومة، يهرعون إلى القتال إذا قرعت طبوله، ونادي نفيره. وكان الأغنياء هم الذين يخرجون إلى الحرب، ويتقدمون الصفوف، ويستميتون في الدفاع والهجوم. وكان الأغنياء من الخاصة لا في المال فحسب، بل في البطولة، والأخلاق المتينة التي جلبت لهم الأموال.

اختيار الرومان لجهاز الدولة

وكان الرومان لا يقدمون إلى وظائف الدولة إلا خيارهم، وهم المتصفون بالإخلاص والأمانة والكفاءة. وكان الموظف يعمل للسمعة الحسنة، والشرف، وخير الدولة. فكان يعطي من نفسه

للدولة أكثر مما يأخذ منها. وكان يخلص في واجبه. ويضحى بنفسه وماله في إتقان عمله.

نظام الأسرة الحسن عند الرومان

وكان للرومان نظام محكم للأسرة. وكان للأب السيرة التامة في بيته وعلى أولاده. فأزمة الأسرة كلها في يده وفي يد الأم. وكان الأب والأم يطبعان أبناءهما بالخلق الروماني الأصيل. ويربيانهم على القوة والأخلاق الفاضلة. وهذا النظام للأسرة من اكبر أسباب عظيمة الرومان وقوتهم. وقد ضعفوا وبادوا لما وهدوا في هذا النظام للأسرة.

دهاء الرومان في سياسة الشعوب

وكان الرومان دهاة في سياسة الشعوب. لقد تغلبوا على الدول المغربية. واستعمروا المغرب. بالدهاء لا بالسيف. وكان الرومان إذا تسلطوا على امة لا يتدخلون في أنظمتها وتقاليدها ودينها. بل يكتفون برضوخها لهم. وبما تدفع لهم من إتاوات. وبما يمتصون من دمائهم بمختلف الوسائل الخفية. فلذلك اتسعت إمبراطوريتهم. ودانت لهم أمم كثيرة مختلفة الأجناس والأديان والتقاليد. ولو حاولوا ان يفرضوا دينهم ونظمهم وتقاليدهم على تلك الأمم ما سكنت لهم. وما استطاعوا سياستها والهيمنة عليها.

تلك هي بعض أخلاق التي اتصف بها الرومان. والخصائص التي تميزوا بها أيام شبابهم. وفي صدر أيامهم. فكانت سبب عظمتهم فسادوا على الدنيا. وكانوا ملوك العالم. ولكن ما وقع للعرب المسلمين بعد الخلفاء الراشدين قد وقع للرومان منذ القرن الثالث والثاني ق.م. فضعفوا ثم بادوا. إنهم -الرومان- لما دوخوا الأمم المتفرقة. واستولوا على كنوزها وأسباب الترف فيها. كالإغريق. والبونيقيين. والمصريين. واستعمروا الأوطان الغنية كالمغرب. والأندلس. والشام. وتأثلت أموالهم وكثر خدمهم وحشمهم وعبيدهم. وأعجبوا بالجمال الإغريقي والأمم الضعيفة التي استولوا عليها. فمزجوا بالزواج منها دماءها بدمائهم. وسكنوا القصور. واغرموا بالترف والمال والرئاسة. وغرقوا في النعيم. وتركوا حياة التقشف. وتركوا الفلاحة لعبيدهم. والحرب لجيشهم الحكومي المأجور. وفسد نظام الأسرة فلم تعد للأب سيطرة على الأم والأبناء. وامتزجوا بالإغريق فأورثوهم رذائلهم. وضعفت أخلاقهم. وأصاب الهرم دولتهم. ثم إنهدمت فتسلط عليهم غيرهم. فاستعبدهم. ومرغهم في الرغام. وسقاهم كأس الذل والشقاء والهوان! وما زالت دولتهم حتى زالت أخلاقهم الفاضلة التي ملكوا بها العالم! !

تلك هي أسباب عظمة الرومان وقوتهم. وقد تغلبوا على المغرب بالدهاء فاستعمروه. فما سياستهم للمغرب. وما حياتهم فيه. وما حياة البربر تحت كلكلهم الثقيل؟

مراحل الاستيلاء الروماني على المغرب

من سوء حظ المغرب ان الرومان قد استولوا عليه وهو يدخلون في شيخوختهم فضعفت أخلاقهم. وفسدت نفوسهم. وفشا فيهم حب المال والرئاسة. وسرت فيهم الرشوة. فصارت الوظائف عندهم تشترى بالمال. والرئاسة تنال بالغلب والقوة. واستولت الأنانية على النفوس. فصار الرومان لا هم لهم في مستعمراتهم إلا ملء جيوبهم. ولا يرون المستعمرات إلا أثداء يجب ان ترويهم. فكانوا يمتصون دماءها. ويلتهمون خيراتها وأموالها. وكانوا يظلمون الأهالي في المستعمرات سيما في المغرب. ويحكمون اغلبها حكما عسكريا غاشما يمنعها كل الحريات. ويقيدها بأقسى القيود.

أسباب استيلاء الرومان على المغرب

وكان الرومان قد استولوا على المغرب ليمنعوا نشوء دولة قوية فيه تزاحمهم في البحر الأبيض المتوسط. وليرتعوا في خيراته وحضارته. ويتمتعوا فيه بالمزايا التي خصه الله بها. فكان بها فريدا في أقطار البحر الأبيض المتوسط كلها.

وكان استيلاء الرومان على افريقية من المغرب في العهد الجمهوري في سنة 146 ق.م. وعلى نوميديا في سنة 46 ق.م في آخر عمر الجمهورية.

أما موريطانيا الشرقية والغربية ونوميديا اسطيفية فإنها وان خضعت لهم في سنة 33 ق.م. فإنهم لم يحكموها حكما مباشرا كنوميديا وافريقية إلا في سنة 42. وقد حكموهما مدة قصيرة قبل ولاية يوبا الثاني عليهما. ثم أسندتا إلى يوبا الثاني. وفي هذه السنة 42 م تم استيلاء الرومان على الموريطانيتين وكان ذلك في العهد الإمبراطوري.

وكانت نوميديا والمريطانيتان وان خضعت للرومان. ولكنها كانت دائما مستعدة للثورة. وق ثارت على الرومان مرات عديدة وأتعبتهم. لهذا حكموها حكما عسكريا غاشما. وكانوا لا يولون عليها إلا القواد العسكريين.

المناطق التي استولى عليها الرومان في المغرب

وكان الرومان قد استولوا استيلاء تاما على المدن والسهول في شمال المغرب. أما

الجبال فان اغلبها لم تخضع لهم. وكان نفوذهم فيها ضعيفا. وقد عرفوا قوة البربر وبسالتهم،واستعدادهم للانقضاض عليهم، في جبال لقبائل، وفي جبال آوراس، فعزموا على احتلالهما وإخضاعهما. فلم يستطيعوا ذلك إلا بعد مدة طويلة من احتلالهم للمغرب، بقوات عسكرية ضخمة، وبعد ان أحاطوها سيما آوراس بالمراكز العسكرية القوية الكثيرة مدة طويلة من الزمان ليكبحوا ثوراتهما ويمهدوا لاحتلالهما. ثم لم يستقروا فيهما ويتمكنوا من أعنتهما كما يريدون.

وكان الرومان يلقبون جبال القبائل (بجبال الحديد) لصعوبتها، وشجاعة أهلها وبطولتهم،وكرههم للرومان، وامتناعهم عنهم. ولم يستطيعوا الاستيلاء على بعض المدن والمراكز العسكرية فيه إلا في سنة 297م. بعد قرنين وخمس وخمسين سنة من استيلائهم على المغرب.

أما جبال آوراس فان الرومان جعلوها نصب أعينهم أكثر فأحاطوها بالمراكز العسكرية الكثيرة، ومع هذا لم يستطيعوا احتلال بعض المدن وبعض المراكز العسكرية فيها إلا في آخر القرن الثاني. وقضوا نحو قرن وستين سنة وهم يمهدون لذلك الاحتلال الذي لم يكن إلا احتلال الرمال القليلة لمجرى الوادي سرعان ما يعب عبابه فيجرفها ويطردها بعيدا عنه.

امتناع جيتولية عن الرومان وعدم استيلائهم عليها

أما جيتولية وهي الصحراء فإنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها لكره البربر فيها للرومان، ولشجاعتهم، وقوة قبائلهم. ولعدم رضوخ الشمال للرومان فيأمنوا ظهورهم إذا حاربوها للاحتلال. ثم ان جيتولية قليلة الخيرات في ذلك الزمان. والرومان إنما تدفعهم بطونهم أيضا لاحتلال الأوطان. فهم كالجراد لا يؤم إلا المناطق الخصبة الجميلة.

ان كل ما احتله الرومان من الصحراء إنما هي بعض نقط في الشمال الشرقي للصحراء لتخذوا فيها مراكز عسكرية تمنع الجيتوليين من الهجوم عليهم في الشمال.

وكان أكثر مراكز الرومان توغلا في الصحراء مركزهم في شمال مدينة الاغواط. وكان على بعد ثلاثين ميلا منها؛ ومركزهم في القاهرة في نواحي مسعد.

وكانت المناطق التي استولى عليها الرومان من شمال المغرب تضيق كلما اتجهت نحو المغرب. انها واسعة في افريقية ونوميديا، ثم تضيق في موريطانيا الشرقية، ثم تزداد ضيقا في موريطانيا الغربية.

وكان الرومان قد استولوا في أول الأمر من نوميديا على شمالها ووسطها. وكان حدهم يمر جبال آوراس. ولما عزموا على فتح ؟آوراس في أول القرن الثاني أخروا حدهم إلى جنوب أوراس ليحاصروا آوراس بمراكزهم العسكرية من كل النواحي.

«وكان حد حكومة الرومان (بالمغرب) في القرن الأول للميلاد يمر بشمال آوراس، ويجتاز سهول سطيف ومجانة إلى سور الغزلان، ثم يتسع قليلا فيمر بالبرواقية، وساحل شلف، ويجتاز وادي ميناس إلى ناحية غليزان ووادي سيك. وفي غربي وهران يقترب جدا من البحر»[114] فيمر على الساحل وينتهي في مدينة ميلة «فيختفي الحد هناك ثم يظهر على ساحل المحيط الأطلسي من مضيق جبل طارق إلى سلا فيشمل طنجة، والعرائش وسلا»[115] ثم وسع الرومان حدودهم إلى الجنوب في القرن الثاني

وفي بداية القرن الثالث كان الحد الروماني يمر جنوب قابس وشط الجريد، ثم يرتقي الحد فيمر على نقرين «وجنوب آوراس، وشاطئ وادي أجدي الأيمن، ثم يصعد شمالا فيمر وسط جبال الزاب، ويقطع وأي الشعير حيث القاهرة، (ثم يمر على بوسعادة) ويشمل غرب الحضنة، ثم يذهب إلى قرب سور الغزلان جنوبا، ويمر على قصر البخاري وتيهرت، وتلمسان ولا لامغنية»[116] ثم يخترق وادي ملوية فيمر على تازة وعلى جنوب وليلي، وعلى جنوب سلا إلى المحيط الأطلسي ثم ينحدر جنوبا على الشاطئ وينتهي في جنوب ازمور.

تلك هي المناطق التي استولى عليها الرومان في نوميديا والموريطانيتين. أما افريقية فقد استولى عليها كلها إلى جنوب قابس. ثم يمر الحد على الشاطئ فيمر على صبرة، وطرابلس، ولبدة، وينتهي في خليج سرت.

وارى ان جبل نفوسة لم يخضع للرومان. لو استولى عليه الرومان لثار عليهم فيحدثنا التاريخ عن تلك الثورات.

ما هو نظام الرومان السياسي والإداري في المغرب؟

114 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 187 ط بيروت 1963م.

115 - مدينة المغرب العربي. ج 1 ص 6. ط تونس 1959.

116 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 188.

نظام الرومان السياسي والإداري في المغرب

« لقد قسم الإمبراطور قيصر أغسطس العالم الروماني إلى قسمين من الولايات: الولايات السيناتورية، يتولى أمرها البروقنصل الذي يعينه مجلس الشيوخ، وتجبى مداخيلها لخزينة الدولة.

والولايات الامبريالية، ويتولى أمرها البروبريطور أو البروقيراطور الذي يسميه الإمبراطور حسب إرادته، وتصب مداخيلها في صندوقه الخاص.

ان هذا التفريق في السلط كان ظاهريا أكثر منه حقيقيا، إذ أصبح مجلس الشيوخ في الواقع بعد مدة قليلة في قبضة الإمبراطور، وصار اسما بلا مسمى».[117]

وكانت افريقية وساحل طرابلس الذي يتبعها من الولايات السيناتورية لأنها احتلت في العهد الجمهوري، ويولى عليها مجلس الشيوخ (البروقنصل) الذي هو وكيل القنصل في تلك الولاية يدريها، ويسوسها ويجلبها لروما.

أما نوميديا والموريطانيتان فأدخلتا في قسم الولايات الامبريالية، ويولي الإمبراطور عليها ابروبريطور أو بروقيراطور، وهما وكيلا الإمبراطور في الولاية يدير كل منهما ولايته ويسوسها للإمبراطور ويحلبها له.

وكان البروبريطور والبروقيراطور عملهما واحد وسلطتهما واحدة، ولكن الاختلاف في الاسم والدرجة، فالبروبريطور والبروقنصل من مرتبة الأعيان بمجلس الشيوخ، أما البروقيراطور فمن مرتبة الفرسان وهي اقل.

وقد قسم الرومان المغرب إلى أربعة أقسام، إلى افريقية ومعها ساحل طرابلس إلى سرت وسموها، (البروقنصلية) وعاصمتها عوتيقة، ولما جددوا بناء قرطاجنة في سنة (120 ق.م) صارت هي العاصمة ويولون عليها بروقنصل.

والى نوميديا ويولون عليها بروبريطور، وكانت نوميديا لقوة شكيمتها وكثرة ثوراتها، ولتوسطها للمغرب يولى عليها الرومان رجلا من أعلى طبقاتهم، ومن اكبر قوادهم العسكريين، وكانت عاصمتها تختلف بحسب مقر الوالي الذي يختلف بحسب الأحوال

117 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 315، ط تونس.

السائدة في نوميديا، فالمنطقة التي يخافون ثوراتها هي التي يقيم الوالي قريبا منها، وكانت في الغالب هي قرطة.

والى موريطانيا القيصرية، وهي الشرقية، وعاصمتها هي (يول) شرشال، ويولي عليها ابروقيراطور.

والى موريطانيا الطنجية، وهي الغربية عاصمتها هي طنجة، ويولي عليها بروقيراطور؛ وق ظل المغرب على هذا التقسيم في اغلب عهوده تحت الرومان.

وكان كل من البروبريطور والبروقيراطور يضطلع بالشئون العسكرية، وفي يده كل الأمور الإدارية والعدلية، لا يحاسبه احد على تصرفه إلا الإمبراطور وحده:

وكان الرومان يحكمون المغرب حكما عسكريا صارما، ولكنهم في الإدارة كانوا حكماء، إنهم لا يفرضون على كل النواحي نظاما إداريا واحدا كما يفعل البلداء الجامدون المتعصبون الذين لا يعرفون من السياسة شيئا، بل إنهم يراعون أحوال الناحية فيديرونها على حسب مستواها الثقافي،وعلى حسب تقاليدها السائدة، وحاجتها، فالمدن غير القرى، والسهول غير الجبال، والمثقفون غير البداة الجهلة، قال الأستاذ صفر:»ومما تجب ملاحظته هو ان هذا النظام الإداري يمتاز بصفتين هامتين:

أولا مرونة الإدارة الرومانية، فهي كانت لا تميل إلى المبادئ القارة الثابتة التي لا تتغير ولا تتكيف حسب الأحوال، بل تطبق بكيفية آلية في جميع الظروف والمناسبات، وكانت لا تسعى وراء التناسق والاطراد، ولا تريد ان تدخل الأشخاص والأشياء في إطار واحد يكون مفروضا على الجميع.

ثانيا: تشريك الأهالي وأبناء البلاد في الأمور الإدارية على أوسع نطاق، وكانت هذه القاعدة العامة متبعة أيضا في النظام العسكري: مرونة وتعاون !

فكانت رومة تكلف الجنود من الأهالي بحراسة الحدود وحفظ النظام».[118]

كان الرومان على هذه المرونة الإدارية في أول العهد الإمبراطوري في القرن الأول والثاني من الميلاد، ثم ازدادوا تسفلا في دركات الشيخوخة، وأصيبوا بخرفها في القرن الثالث والرابع ففارقتهم حكمتهم، فتصلبوا مع البربر وكانوا نهاية في القساوة فانكسروا وبادوا.

وكان الرومان يحكمون المغرب حكما عسكريا فالوالي العسكري هو الذي يبت في أموره، وكان لهم جيش دائم وزعوه على مراكزهم العسكرية، وهذا الجيش يتكون من

118 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 310 ط أولى بتونس.

الرومان. ومن الجن الأجنبي المأجور. ومن البربر الذين فرض الرومان عليهم التجنيد والخدمة العسكرية الجبرية.

وقد اتخذ الرومان من جنودهم حامية وتبسة «تراقب البروقونصلية (افريقية) ونوميديا. وحامية لمراقبة موريطانيا الشرقية. وموريطانيا الغربية.

أما حامية تبسة (الفرقة الثالثة الاغسطية) نسبة إلى أغسطس قيصر. وكان بها ستة آلاف جندي وفي رواية (5500) وهذه هي الفرقة الكبرى. وهناك فرق أخرى مشاة وفرسان يبلغ جميعها نحو ثلاثة عشر ألفا. وهذه الفرق مدد لتلك الفرقة.

وكانت الفرقة الثالثة رومانية من خيرة جنود روما. وبها كثير من الغاليا. وبعد حين صار الرومان يعملون البربر ويجندونهم. ومنذ الثلث الثاني من القرن الثاني استغنت رومة بجنود البربر عن جلب الجنود من الخارج إلى الفرقة الثالثة: فصارت هذه الفرقة متركبة من جنود البربر وأبناء قدماء الجنود الرومانية.

وأما الفرق الصغيرة فكانت أيضا تجلب من الخارج. وبقي الأمر كذلك حتى بعد البربر في الفرقة الثالثة.

وفي سنة 122 نقل الإمبراطور هدريان مركز الفرقة الثالثة من تبسة إلى لمبس (في الشمال الغربي لأوراس) وفي أيام ديوقلطيانس صارت لمبس قاعدة عسكرية للجنوب النوميدي.

وبطول عهد الفرقة ودخول البربر فيها. وكثرة الاضطرابات برومة نقضت طاعتها لرومه. وقد تعارضت في إمبراطورية بعض. وتؤيد بعضا. وألغت سنة 238 وعوضت بالفرقة الثانية والعشرين.

وأما حامية الموريطانيتين فكان عددها نحو خمسة عشر ألفا. وهي من البربر. وكان مجموع جيش الاحتلال (في المغرب) نحو (34000) ليس بها من الجنود الرومانية غير نحو (8000)».[119]

وكان الرومان لاعتدادهم بالفلاحة. وما تتركه من الآثار القوية الحسنة في جسم الإنسان وخلقه. يقطعون جنودهم الرومانيين أراضي شاسعة خصبة يفلحونها في وقت السلم ويستغلونها لأنفسهم لتضمن استقرارهم في المغرب. وعدم ضعف نفوسهم بالبطالة والراحة.

119 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 189 ط بيروت.

وكان القانون الروماني يسمح للجندي الروماني بالزواج والبقاء في المركز العسكري مع زوجته وأولاده. وكان المتقاعد من الجند الروماني يمنحونه مرتبات عالية. ويعطونه أراضي واسعة خصبة. وحيوانات يفلح بها أرضه. ويعفونه من الضرائب على شرط ان يخلفه أبنائه في الجندية. ويسكن قرب المركز العسكري الذي كان به.

وكانت الخدمة العسكرية في المغرب مقرونة عند الرومان بالغنى. وكانت سببا للثروة والبذخ. فرغبوا فيها. فهاجرت طوائف كبيرة من الرومان إلى المغرب كجنود في الفرق الرومانية ثم استقروا فيه.

وكان للرومان أسطول حربي ضخم في مياه المغرب. قاعدة القسم الأول منه في قرطاجنة لحماية الجزء الشرقي من المغرب. وقاعدة القسم الثاني في شرشال لمراقبة وحماية الجزء الغربي منه.

كان الرومان في المغرب دائما على أهبة وحذر وخوف من يمشي في ارض كلها ألغام. وكان البربر يكرهونهم. والمغرب كله يتألم ويلوى لوجودهم كتعابين بين البطن في أحشائه. بوده ان يتقيأهم فيستريح ! لهذا شحنوا مراكزهم العسكرية بالجند واختاروا ولاتهم على المغرب من القواد العسكريين الأقوياء.

ان المغرب الجميل الخصب المتحضر قد سار بين مخالبهم يرتعون فيه كما يشاءون. فكيف كانت حياتهم فيه. وما هي الحضارة الجديدة التي أضافوها إلى حضارة المغرب التليدة لينعموا فيه كما يشتهون؟.

حياة الرومان وحضارتهم في المغرب

توافد الرومان إلى المغرب وعددهم فيه

ابتدأ توافد الرومان إلى المغرب منذ عهد سحيق. وقد وفدت طوائف منهم في عهد مصينيسا مصيبسا في القرن الثاني ق.م. فاستقروا في قرطة، وفي المدن النوميدية الأخرى. وكانوا يشتغلون بالتجارة والصانعة. ولما احتل الرومان إفريقية استقرت فيها جماعات كبيرة من الجنود الرومانية ومن الموظفين. ثم أرسلت روما طوائف كبيرة فقيرة من أبنائها لترعى في المغرب وتستقر فيه. فكثر سواد الرومان في افريقية وساحل طرابلس. ولما فتح الرومان نوميديا توافد إليها الرومان في عهود مختلفة فاستوطنوها.

وكانت روما تعطي لجنودها الأراضي الخصبة، والأموال الوفيرة لزراعتها، وتحثهم على الاستقرار في المغرب. فاستقرت جماعات كبيرة منهم فيه. وكان أولاد هؤلاء الجنود يكونون القسم الأكبر من الرومان المستوطنين للمغرب.

وكان الرومان يحثون أبنائهم على الهجرة إلى المغرب ليكثر سوادهم فيه، فيكونوا في أرجائه جوا رومانيا يصبغ البربر بالصبغة التي يريدونها، ليكون المغرب جزءا من ايطاليا كما يحلمون. ولما تولى الإمبراطور أغسطس قيصر الرئاسة في روما أرسل سيلا كبيرا من الرومان إلى المغرب فاستقروا فيه.

وكان عدد الرومان في المغرب في القرن الرابع المسيحي نحو ثلاثة ملايين أكثرهم في طرابلس وافريقية ونوميدية. أما الموريطانيتان فان عددهم فيهما قليل.

جشع الرومان وجههم الشديد للمال والشرف

وكانت ايطاليا بلادا اغلبها مجدب، ضيقة لا تكفي أهلها. وكان الرومان في القرن الأول المسيحي يدخلون الشيخوخة، فضعفت أخلاقهم، وامتلأوا بحب المال وأمتعة. ولما هاجروا إلى المغرب فوجدوا أراضيه الخصبة الواسعة، ومنه العامرة الزاخرة، اقبلوا على الفلاحة وكانوا يحبونها ويعتدون بها. وكانوا ذوي نشاط وعمل. كما نزلوا ميدان التجاري فأخذت بها طوائف منهم. فأثرى الرومان واغتنوا. سيما لما احتكروا الأراضي الزراعية الواسعة الخصبة لأنفسهم، واغتصبوها من البربر وجعلوها وقفا عليهم. ان

هذه الفيافي الزراعية كانت انهارا من الذهب تتدفق عليهم تراهم من بعيد مدهامة كأنها سحاب في الأفق، ولكنها دائمة الأمطار في خزائن الرومان لا تنكف ولا تنقشع!

لقد أثرى الرومان ثراء واسعا بالفلاحة والتجارة، وبما يعتصرونه ويأخذونه غصبا من أموال البربر. فاخذوا في فنون البذخ والترف، وغرقوا في النعيم والملذات. وقد بنوا القصور الشاهقة الجميلة وأحاطوها بالحدائق الغناء، واعتنوا بالمدن التي يسكنونها فوسعوها. وأنشأوا لجنودهم حول مراكزهم لعسكرية مدنا جميلة واسعة. فيها كل ما وصلت إليه الحضارة من فنون النعيم والمتعة والنظام. ومن هذه المدن، وكانت قرية بربرية صغيرة، مدينة تيمقاد في شمال آوراس لمراقبته وقمع ثوراته.

وكانت المدن المغربية في عهد الرومان تنقسم إلى ثلاثة أقسام: عواصم كبيرة كقرطاجنة، وقرطة، ويول، وطنجة يسكنها الولاة والموظفون الكبار، والتجار المترفون؛ ومدن للنزهة يقضون الصيف في حدائقها الغناء، وقصورها الأنيقة، وجوها الرائق، ويغرقون في أرجائها في فنون اللذة والنعيم.

ومدن عسكرية وهذه لسكنى الجنود، ويشاركهم فيها طوائف من البربر والرومان الآخرين.

ومدن تجارية وهذه على الساحل.

وقرى فلاحية واغلب سكانها من البربر المسخرين في خدمة أراضي الرومان.

وكانت هذه المدن كبيرة عامرة، واغلبها من إنشاء البونيقيين والدول البربرية فهم الذين حضروها وزينوها. وكان سكانها من خمسة آلاف إلى ثلاثين ألفا. وكان سكان مدينة الجم خمسا وثلاثين ألفا. ان هذا دليل على رغد العيش في المدن الكبيرة، وعلى كثرة الأعمال فكثرت الهجرة إليها.

وكان أكثر سكان المدن الكبيرة من الرومان، أو من تحضر من البربر المترفين، أو من العمال في الصناعة والتجارة. أما البربر الأحرار فيهربون من السكن في المدن لكثرة فسادها وميوعتها وقتلها للحرية. ان المستعمرين هناك في أتم قوتهم، وجبروتهم؛ وسيطرتهم فيها أكثر من سيطرتهم على القرى النائية في الجبال.

وكان الرومان مولعين بإنشاء الديار العالية، والبناءات الضخمة وأقواس النصر الكبيرة، لأنها عنوان عظمتهم، ومظهر قوتهم، ودليل على سلطانهم الكبير. إنهم يعشقون القوة في كل شيء حتى في الجدران! وقد أنشأوا في المغرب كثيرا من تلك الأبنية، كما أنشأوا في المدن الحمامات الواسعة، والهياكل الكبرى، والكنائس الفسيحة،

والملاعب الضخمة كملعب الجم، والمسارح الكبيرة لتمثيل الروايات كمسرح تيمقاد، ودقة، وصبرة، ولبدة، وكان كل منها يتسع لآلاف من الناس.

ولع الرومان بالعاب الفروسية والتمثيل

كان الرومان مولعين بالعاب الفروسية والمصارعة، كسباق الخيل، والعربات، والقفز، ومصارعة الحيوانات، والمباراة في فنون القتال وغير ذلك. وكانوا يسارعون إلى ملاعبهم في الأعياد وأيام العطلة لمشاهدة هذه الألعاب التي تذكي الشجاعة في القلوب، والقوة في النفوس.

وكانوا مغرمين بالتمثيل. وكانت لهم فرق تمثيلية كثيرة جدية وهزلية. وكانت رواياتهم تاريخية لتجسيم أمجادهم أو اجتماعية لتربية المجتمع، أو هزلية للترفيه عن النفس.

وكان الرومان يمنعون النساء والعبيد من غشيان المسارح والملاعب. فان النساء يخافون على أخلاقهن من الاختلاط، ومشاهدة ما يمكن ان يطرح فيه الوقار من الفكاهات الماجنة؛ والعبيد يخافون من جرأتهم على أسيادهم بحضورهم معهم في أماكن يتخففون فيها من الوقار للترفيه عن النفس.

كان الرومان امة الجد والوقار، وقد حافظوا كل المحافظة أيام قوتهم وعزهم ونضوجهم على سلطة الرجل في بيته، على زوجته وأبنائه وعبيده، فتسلطوا على الدنيا بصلاح الأسرة التي هي سبب قوة الدولة وصلاحها.

اعتناء الرومان بالحمامات للنظافة والاجتماعات

وكان الرومان يجتمعون في الحمامات، وهي عندهم للاجتماع ومحل للنظافة. وقد وجدوا في المدن المغربية حمامات كثيرة من إنشاء الدول البربرية والبونيقيين فاستغلوها. وكانوا يعتنون بالحمامات فيزينونها بالنقوش والتماثيل، ويتخذون بها القاعات الفسيحة، فيها الدكاكين المفروشة لجلوسهم، فيها كل ما لذ عندهم من شراب. وكانت تلك الحمامات أنواعا فمنها الحارة، ومنها الباردة، ومنها المعدنية، ومنها التي تسخن بالوسائل الصناعية.

اعتناء الرومان بالدين وإنشاء الهياكل والكنائس لعبادتهم

وكان الرومان ينشئون في المدن الهياكل الضخمة لعبادتهم منها هيكل الزهرة في سبيطلة، وهيكل مدينة دقة الشهيرة. وكان في كل مدينة هيكل أو هياكل كثيرة لأوثانهم.

وكان الرومان يستعملون الهياكل لأغراض سياسية أيضا، كإقامة القداس للإمبراطور «وكانوا في كل مدينة (مغربية) يقيمون قداسا دينيا لا لتقديس شخص الإمبراطور ذاته، بل لتقديس الرمز الموجود في وظيفته السامية، وما تكتسبه تلك الوظيفة من صبغة إلهية مقدسة. وفي عاصمة كل ولاية كان يجتمع الشيوخ أو مندوبو المدن المختلفة لإقامة مثل ذلك القداس الامبريالي».[120]

كان الرومان ينشئون الهياكل، ولما دانوا بالمسيحية انشأوا الكنائس.

وكان طريق الرومان إلى الكنائس محفوفا بالتماثيل للمسيح والعذراء والقديسين، ليهيئوا النفوس للخشوع، وينفخوا روح العبادة في القلوب.

وكان الرومان ينشئون في المدن ساحات عامة للاجتماعات العمومية. وكانت تلك الساحات تتوسط المدن. وهي فسيحة مدارة بالأقواس الجميلة، وبالدكاكين للتجارة، انها سوق ومحل اجتماع. وكان الرومان يزينونها بالتماثيل لعظمائهم، وبأقواس النصر. وكان الناس يجتمعون فيها. وكان فيها الدكاكين الكثيرة في أطرافها المسقفة للجلوس. وفي الساحة العمومية أو بالقرب منها توجد دار القضاء، والإدارات الحكومية الكبرى. وكانت البلاغات الرسمية تلقى في تلك الساحات، وحفلات الأعياد والمهرجانات الكبرى تقام فيها. ويسمون هذه الساحات (الفوروم).

ان (الفوروم) ليس من إنشاء الرومان في المغرب. فقد سبقهم إليه البونيقيون. وفي مدن ميزاب في جنوب الجزائر إلى اليوم ساحات عامة مدارة بالأقواس ودكاكين التجارة، ودكاكين للجلوس. وفيها أو قريب منها دار القضاء، ودار البلدية. وهي للتجارة، والاجتماعات، والحفلات العمومية. وتقرأ فيها البلاغات الحكومية. انها من تركة البونيقيين ما زالت محفوظة في جنوب المغرب.

بناء الرومان أقواس النصر لعظمائهم وأحداثهم الكبرى

وكان الرومان ينشئون في المدن أقواس النصر[121] العالية تخليدا لعظمائهم، وانتصاراتهم، وأحداثهم التاريخية الكبرى.

اعتناء الرومان بالمدن التي يسكنونها في المغرب

وكان الرومان يعتنون كل الاعتناء بالمدن التي يسكنونها في المغرب. وكانوا يجلبون

120 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 320 ط أولى بتونس.

121 - انظر رسم قوس النصر في طرابلس في صفحة 360 من هذا الجزء.

إليها المياه العذبة من الأماكن البعيدة في السواقي المنقورة في الصخر أحيانا. وكانت في أيامهم القناة الطويلة التي جلبت الماء العذب من زغوان إلى قرطاجنة. وتسمى هذه القنوات (الحنايا) وكان يتخذ لها في الأنهار والأماكن المنخفضة أقواس عالية وقناطر لتمر عليها. وارى ان (حنية) قرطاجنة من إنشاء البونيقيين فأصلحوها. ان القرطاجنيين ما كانوا ليغفلوا عن هذا العمل الضروري لحياتهم، وهو جلب الماء العذب إلى عاصمتهم. لقد كانوا أكثر ترفا وغنى، وأسرع إلى عمارة المغرب من الرومان!

إصلاح الطرق وبناء القناطر

وكان الرومان قد أصلحوا كثيرا من الطرق التي أنشأها القرطاجنيون والدول البربرية قبلهم. وكانت هذه الطرق محفوفة بالأشجار، عامرة بالقرى المنبثة حواليها. ومن تلك الطرق الطريق الكبرى التي تمتد من برقة إلى المحيط الأطلسي وهي من إنشاء البونيقيين والدول البربرية فحافظ عليها الرومان. والطريق التي تصل يول (شرشال) بقرطاجنة، والطريق التي تصل بين قرطاجنة وطرابلس، والطريق التي تصل بين قرطاجنة وتبسة. هذه الشبكة التي تصل بين قواعدهم العسكرية، ومراكزهم الإدارية. وكانوا يبنون القناطر فوق الأنهار. وفي قرطة إلى اليوم قنطرة من تلك القناطر.

انتظام البريد بين مدنهم

وكان البريد منظما بين المدن التي يسكنها الرومان، يروح ويغدو في أوقات معينة لقد حافظ الرومان على هذه الحضارة الراقية التي انشأ اغلبها البونيقيون والدول البربرية فورثوها منهم، وطبعوها بطابعهم، وزادوا فيها ما اقتبسوه من الإغريق والمصريين والأمم المتمدنة التي تسلطوا عليها.

وكانت أبنية الرومان عالية ضخمة ولكن لا جمال فيها. ان الذوق الفني الذي يمتاز به البربر والإغريق يعوزهم. إنهم امة القوة لا امة الفن والجمال.

اعتناء الرومان بالفلاحة وأزدهارها

واعتنى الرومان بالفلاحة ووسعوا غراسة الزيتون، والأشجار التي وجدوها في المغرب. واستولوا على غابات التين، والزيتون، والأشجار المثمرة التي كانت تظلل النواحي الشاسعة من المغرب. وهي من عمل الدول البربرية والبونيقيين.

ان المؤرخين الأوروبيين المتعصبين إذا تحدثوا عن الحضارة الرومانية في المغرب يجعلون الرومان هم بناة كل ما وجد من الحضارة في المغرب. ويوحون إلى القارئ بان أجدادهم

الرومان وجدوا المغرب صحراء وأمة متوحشة فعمروه ومدنوا أهله! فلو استطاعوا ان يقولوا: ان الرومان هم الذين جعلوا الشمس والقمر تطلع في سماء المغرب لقالوه! !

ان الرومان ككل المستعمرين لا يبعثهم على غزو وطن إلا خيراته وكنوزه وجماله. والمغرب كان جنة وفتنة بغناه وحضارته وجماله فاغرم به الرومان فاستعمروه، وقتلوا أهله، وغلوهم عن كل تقدم، واخروهم آلاف المراحل إلى الوراء!

كانت مدن المغرب الكبرى وحدها تحظى بعناية الرومان لأنها البلاد التي يسكنونها. أما القرى والمدن البربرية التي لا يسكنونها فكانوا يهملونها. وإذا قصدوها فلامتصاص دمائها، واستخراج المغارم والمكوس منها، أو لإخضاعها بالجيوش التي تطؤها بسنابكها.

ان الرومان خدموا أنفسهم في المغرب ولم يجدوا البربر بشيء. فاذا استفاد البربر منهم شيئا فما يستفيده كل من يجاور بيئة جديدة يقتبس منها بالرغم منها. وإذا علم الرومان البربر شيئا فبقدر ما يكون البربري به عاملا ماهرا في مصانعهم، أو مزارعهم، أو مقاتلا في حروبهم.

لقد عطل الرومان حضارة المغرب، وأخروا البربر إلى الوراء، وعملوا كل جهد لإدماج البربر فيهم يكونوا عبيدهم، واتخذوا كل وسيلة لترمين المغرب بإفقار أهله، وتجهيلهم، وتجريدهم من شخصيتهم ليكون جزءا من ايطاليا. وكانوا بلاء ونكالا على الأمة البربرية الكريمة! فكيف كانت حياة البربر في جحيم الرومان المستعمرين الذين دخلوا في شيخوختهم البالغة، فكثر نتنهم ورفعوا العصا؟

حالة البربر تحت السلطة الرومانية

كان البربر في عهود دولهم البربرية العتيدة أغنياء سعداء. وكانت ارض المغرب الخصبة تفرش لهم الحرير، وتغمرهم بالذهب، وتنبت لهم السعادة والغناء. وكانت متاجرهم ومصانعهم كذلك. ولما استولى الرومان على المغرب عملوا كل وسيلة لتجهيل البربر وتفقيرهم، لينكسوا رءوسهم، ويخضعوا لعبوديتهم وجحيمهم!

وكان المغرب بلادا زراعية. وكانت أراضيه الخصبة الكريمة اكبر باب للثروة. وكانت كل أراضيه الزراعية في الشمال جيدة حسنة. سيما افريقية «فان خصب أرضها في ذلك التاريخ يضرب به الأمثال. وسببه كثرة وجود الفوسفات في التربة بكيفية طبيعية. وكان المؤرخون يقولون: بان الحبة الواحدة كانت تنبت جذرا ينبثق منه أربعمائة ساق».[122]

وكانت أراضي المغرب في القدم إلى قسمين: أراض أميرة هي ملك لملوك البربر وأسرهم وهذا القسم قليل، والقسم الأكبر هو الأراضي التي يملكها البربر أفرادا وقبائل. وهي خصبة، منظمة، في أجمل المواقع وأحسن السهول. وقد جعل الرومان همهم الأول لما تسلطوا على المغرب الاستيلاء على أراضيه الخصبة الكريمة. إنهم امة فلاحية، طالما تجلت أشداقهم على أراضي المغرب الزراعية. فاستولوا على الأراضي الأميرية، فاستبقى الإمبراطور بعضها ووزعوا الباقي على الجند الروماني المستقر بالمغرب، والفقراء الرومانيين الذين يحثونهم على الهجرة إلى المغرب. وكان الجندي إذا تقاعد يعطونه أرضا واسعة جدا تتسع لغلاته السنوية كلها، ويعطونه حيوانات يحرث بها، وأموالا يستعين بها في الفلاحة.

تجريد البربر من أراضيهم بالقوانين الجائرة واغتصابها

أما أراضي الشعب البربري فقد سنوا القوانين الجائرة، و اتخذوا كل الوسائل لسلبها منه. وكانوا إذا أرادوا سلب ارض أعجبتهم يصفون بالخيانة صاحبها لروما، وبالعصيان للدولة،فيجردونه من أملاكه، ويستولون على أرضه.

وكان الرومان يكترون ارض البربر باجر زهيد. وإذا انتهت مدة التأجير فان القانون

122 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 325 ط تونس.

يسوغ للروماني ان يجدد كراء الأرض إلى أمد طويل. فصار الرومان بهذا القانون الجائر هم المستغلون للأرض وليس للبربري ان يسترجع أرضه منهم إذا بادله ان يزرعها .

وكانت الضرائب الرومانية الثقيلة والقوانين الجائرة قد أفقرت البربر فالتجئوا إلى العمل باجر زهيد في أراضيهم التي أجروها للرومان. ولما كان الأجر لا يكفيهم فان الرومان المستأجرين كانوا يغرونهم بان يقترضوا منهم ويرهنوا أراضيهم. وبعد مدة قصيرة يستولي الرومان المرابون على تلك الأراضي لان أصحابها لم يقضوا ديونهم. بهذه الحيلة أصبحت جل الأراضي البربرية ملكا للرومان. وأصبحت البقاع الخصب في سهول المغرب ملكا للرومان. وقد بلغ من تكالب الرومان على الأرض ان تكونت في المغرب إقطاعيات كبرى. وقد روى ان نصف ارض المغرب[123] كان يملكه ستة من الرومان. وكانوا كالملوك في المغرب. وكانت لهم أمم من البربر يسخرونها في أراضيهم. وقد قتل الإمبراطور نيرون هؤلاء الستة طمعا في أموالهم، وإزالة لنفوذهم الكبير الذي كان في روما بفضل غناهم الذي تكون لهم بأرض المغرب. فاستولى نيرون على تلك الأراضي فصار هو الملك لنصف الأراضي المغرب الخصبة الغنية !

تسخير الرومان للبربر في الفلاحة والأعمال واستعبادهم

وكان الرومان يسخرون البربر في العمل في أراضيهم. وكان القانون الروماني يحرم على البربري ان يترك العمل، أو يحتج على المعمر الروماني، أو يطالب بالزيادة في الأجر. وأصبح البربر بهذا عبيدا للرومان لا يستطيعون مفارقتهم. وصار الرومان إذا باعوا أرضا في المغرب انتقلت إلى مشتريها الروماني الجديد بمن فيها من العمال البربر لا يستطيعون ترك العمل بها! !

وكانت الحكومة الرومانية تؤيد الرومان الظالمين المتغطرسين على البربر. وكانت لا تسمع شكوى هؤلاء المساكين. وكل من تذمر من رئيسه الروماني المتغطرس المستبد يعدونه على الدولة، فيعاقبونه معاقبة صارمة لا رحمة فيها! وصار العمال البربر أحرارا بالاسم. أما الواقع فهم عبيد للرومان يسخرونهم في مصالحهم الخاصة.

وكانت الفلاحة مزدهرة في المغرب أيام الرومان، ولكن بكد البربر وعرق جبينهم. فهم الذين كانوا يقومون بالفلاحة، ويزرعون الأرض للرومان. لقد شاخ الرومان فركنوا إلى الراحة، فلم يعودوا كأجدادهم يستلذون الخوض في طين المزارع، ومصاحبة الفأس والمحراث.

123 - المراد بالمغرب ما استولى عليه الرومان من شمال المغرب وفي افريقية.

فرض الغرائم الباهضة المختلفة على البربر لإفقارهم

وكان البربر تحت سلطة الرومان يرون الغرائم من الفوائد الكبيرة التي يستفيدونها من مستعمراتهم. وكانوا يبالغون فيها ويمتصون المغرب في شراهة ليورثوه وهنه فلا يقف على قدميه فينقض القمل عنه.

وكانت الغرائم الرومانية على البربر تنقسم إلى أربعة أقسام: الأداء الشخصي. وهو على الرجل والمرأة. يؤدون في كل عام جزية معلومة هي علامة على العبودية والخضوع.

الغرائم المفروضة على العقار. وهي أما عين أو حبوب. فالعين على الأبنية والأشجار،والحبوب على الأراضي. ولا أراهم أفلتو الماشية فلم يفرضوا عليها أداء.

الأداء على التجارة وهي الضرائب الجمركية. فما من ولاية في المغرب كنوميديا إلى ولاية أخرى كموريطانيا الشرقية يجب ان يدفع عنه قدر معلوم. والقسم الرابع هو السخرة الإدارية. ومنها تموين الجند وإسكانهم، وكسوة بعض رجال الشرطة.

وكانت حكومة روما لا تتولى هي فرض الضرائب على البربر واستخراجها، ولا يتولى ذلك ولاتها في المغرب. وإنما تتفق مع بعض الأغنياء الجشعين فيدفعون إليها قدرا معلوما من المال فتطلق أيديهم في البربر يستخرجون منهم ما شاءوا فيمتصون من أموالهم أضعاف ما دفعوا!

وكانت الحكومة الرومانية تسخر جنودها في المغرب لهؤلاء الجباة الجشعين الظلمة. فإذا خرجوا لجباية البربر خرجوا في جيش تام الأهبة كأنهم خرجوا للغزو ليرغموا البربر فيدفعوا إليهم ما يشاءون.

تجنيد الرومان الإجباري للبربر

وكان الرومان قد فرضوا التجنيد على البربر. لقد عرفوا شجاعة الأمازيغ وبطولتهم الموروثة فاستغلوها كما استغلوا كل خيرات بلادهم. كانوا يجندون البربر ويبعثون بهم خارج المغرب ليؤيدوا بهم سلطانهم في مستعمراتهم، ويقهروا بهم الدول التي تناوئهم. فرسان نوميديا كانت تبعثهم إلى شمال أوروبا حيث الجنس الجرماني الصعب الذي لا يخضع و لا يستكين. والمشاة كانت تبعثهم إلى مصر.

وكانت حكومة الرومان تجلب إلى المغرب جيوش أجنبية من شمال أوروبا ومصر وغيرهما ليرابطوا في المراكز العسكرية. وقد استغنت عن هذه الجيوش في القرن الثاني لما وجدت في البربر المرضى، سيما أبناء المدن، من تثق بهم، فاتخذت منهم جندها في المغرب.

وكان الرومان إذا جد الجد، وأعلن النفير العام لا يكتفون بالجيوش الرسمية من البربر، بل يستمدون رؤساء القبائل البربرية فيمدونهم بما شاءوا من الرجال، فيكرهونهم على لبس السلاح، ويقدمونهم طعمة لحروبهم. وقد تكون تلك الحروب معلنة على آبائهم وأمهاتهم في المغرب !

وكان البربر يفرون من الجندية. وبودهم ان يغمدوا السلاح الذي اجبروا على حمله في أحشاء الرومان وقلوبهم. وكانوا يسلون أنفسهم في محنة التجنيد الإجباري، بأنهم يتمرنون على أحداث الأساليب في الحرب ليكونوا يوما جيش التحرير لمغربهم الكبير الغالي.

محاولة الرومان تجريد البربر من شخصيتهم ليترومنوا

وكان الرومان يجهدون لقتل الشخصية البربرية التي تجعل البربر يرون الرومان غرباء في وطنهم، ويتخذون كل وسيلة لصبغ البربر بصبغتهم ليترومنوا، فيضمنوا لأنفسهم البقاء في المغرب، وخضوع البربر لهم إلى الأبد. وقد سنوا لدلك عدة قوانين. منها جعل اللغة الرومانية هي اللغة الرسمية في المغرب، في الدواوين، والبريد، والتعليم، واحتقار اللغة البربري، وهيأة البربر وتقاليدهم، ووصف من يكلمهم بالبربرية ويتمسك بشخصيته بالجهل والانحطاط! ولكن البربر جنس قوي، وأمة كريمة، تعتد بنفسها كل الاعتداد، لا تقلد غيرها بسهولة، ولا يستطع أعداؤها ان يجردوها من شخصيتها. لم يزد الرومان بمحاولاتهم التي استمرت نحو أربعة قرون لقتل شخصيتها إلا ان زادوها تمسكا بتلك الشخصية واعتدادا بها، وكرها للرومان واحتقارا لهم! !

ان الرومان في العواصم لابد ان يكونوا قد نجحوا بعض النجاح في تجريد بعض صنائعهم وتلاميذهم من شخصيتهم فترومنوا ولكنهم قليلون. ان ذلك الذباب الذي يتساقط على مصائد الاستعمار فيموت فيها، فيصبح جيفا تلوث المجتمع وتفسده، لا يخلو منهم زمان!

وكان الرومان يحتقرون البربر ويرونهم طبقة دنيا خلقت لوطء أقدامهم، وتسخيرها في أغراضهم. وكانوا يحتكرون الوظائف العليا لأنفسهم، ولا يتركون للبربر إلا الوظائف الوضيعة الصعبة لا يستطعها أبناء روما المدللون. وكانوا يؤثرون أنفسهم بالأجور العالية، ويستأثرون بخيرات المغرب ونعيمة!

وكان الرومان المستقرون في المغرب اكبر غطرسة وعداوة للبربر. وكانوا يحاربون كل حكومة رومانية تهم بإعطاء البربر حقوقهم، وإنقاذهم من الظلم الذي ينهال عليهم.

انتعاش البربر بعض الانتعاش في عهد سافاروس وقراقالا البربريين

«وفي سنة (193م) تولى (سيبتموس سافاروس) إمبراطورية رومة. وهو بربري أصله من (لبدة في طرابلس. وقد اعتنق الجنسية الرومانية وعاش في روما) [124] فاعتنى (بالمغرب) كثيرا وترك آثارا لم تزل إلى اليوم. وكانت حاشيته وحرسه أكثرهم افريقية. وبالغ في الإحسان إلى بني جنسه حتى إنهم ربما تحدثوا بلغتهم في مجلسه الإمبراطوري.

قال مرسي: وترقى البربر في عهده، وظهرت مواهبهم المدهشة برومة في الجندية والمحاماة. ولم يهمل البربر هذا الإحسان، وأحبوا الإمبراطور حبا جما بحيث لم تقع ثورة في أيامه. ولما مات (صاروا يقيمون له القداس في هياكلهم لتمديده).

وبعد (سافاروس) جاء قراقالا.[125] فسار سيرته، وقابله البربر بالمعروف (ونقشوا اسمه واسم أبيه على الأحجار) !

قال مرسي: وفي سنة 216 اصدر الإمبراطور قراقالا قانونا بحرية البربر، ومنحهم كل الحقوق التي للرومان فصار (المغرب) ذا طبقتين فقط، الأحرار والعبيد. ولكن هذا القانون لم ينفذ. فلم يستفد منه البربر، بل اضر بهم واستفادت منه الدولة الرومانية. لقد الحق البربر بالرومان في الواجبات الدولية من خراج وتجنيد، وبقوا كذى قبل في الحقوق السياسية».[126]

لقد انتعش البربر بعض الانتعاش في عهد هذين الإمبراطورين، ثم أطبق عليهم الظلم وجحيم الاستعمار بعدهما. ولكن هل البربر الصناديد يسكتون للرومان على هذا الظلم فلا يثورون. لق سكنوا في أول العهد الروماني وغطوا في النوم متعبين، قد أجهدهم طول البناء والنضال، ولكن سرعان ما صحوا فانقضت جبالهم في القرن الثاني على الرومان، واستمرت ثورات البربر عليهم لم تنقطع إلى ان زالت دولتهم من المغرب!

متى وقعت تلك الثورات الباسلة، ومن قام بها؟

124 - كانت ولايته في سنة 193 إلى 211م وعهده في الإمبراطورية 19 سنة.

125 - كانت ولايته في سنة 211 إلى 217م.

126 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 206 ط بيروت.

ثورات البربر على الرومان

لم يعان الرومان في مستعمرة من مستعمراتهم من الثورات مثل ما عانوه في المغرب من ثورات البربر الكثير عليهم.

لقد أصيبوا في سنة 78م بثورة قبائل الغرامات[127] البربرية في جنوب طرابلس وجبل نفوسة فزلزلت أركانهم ولم يخمدوها إلا بجهود كبيرة.

ثورات موريطانيا الغربية على الرومان

وفي سنة 118 في عهد الإمبراطور أنطوان تيتوس ثارت قبائل موريطانيا الغربية على الرومان. فهجموا على مزارعهم وأملاكهم فهدموا وحرقوا، وقتلوا جماعة كبيرة من الرومان. فانهزم الرومان بالمغرب أمامهم. فقدم الإمبراطور بنفسه فقاد الجيوش، فخاض مع الثوار معركة حامية، فاستطاع ان يخمدهم، ثم تجددت هذه الثورة في سنة 138 فلم يخمدها الرومان إلا بجهود وتضحيات كبيرة، ثم تجددت في سنة 144 فأخمدت.

وفي سنة 188 في عهد أنطوان كومودوس تجددت ثورة الموريطانيين فاستغاث رومان المغرب بإمبراطورهم وكان ضعيفا، فأرسل إليه ضباطه وجيشه، فاستمر الرومان يقاومون هذه الثورة ثماني سنين فلم يخمدوها إلا في سنة 190 ق.م بعد جهود وتضحيات كبيرة.

ومن ثورات البربر المنظمة الكبرى ثورة لسيوس كيتيوس وكان بربريا تسمى باسم روماني. « عمل في الجيش الروماني وتقلب في درجاته حتى منحه الإمبراطور طريانس الرئاسة على الجند. ثم ولاه على يهو فلسطين فخدم روما خدمات جليلة. ثم عاد إلى افريقية فثار بها، فاهتمت روما لثورته لما تعلمه من مقدرته الحربية، ولكن دارت عليه الدائرة فقبض فقتل».[128]

127 - قبائل الغرامات قبائل بربرية في جنوب طرابلس وجبل نفوسة. واراها من زناتة فان زناتة موطنها في طرابلس الجنوب.

128 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 208 بيروت.

ثورة نوميدية وموريطانيا الشرقية في عصر الفوضى

ومن ثورات البربر على الرومان ثورة جبال آوراس، وجبال كتامة بين قرطة وسطيف، وجبال جرجرة. وكانت تلك الثورة العارمة في سنة 265 في عصر الفوضى الذي دام في ايطاليا خمسين عاما. وكان الرومان يتناحرون ويتقاتلون فاغتنم البربر ضعفهم فثاروا عليهم.

وقد انتشرت هذه الثورة في نوميدية وموريطانيا الشرقية. فابتهج بها البربر فهبوا التأييدها. فانقضت عصابات الثورة على الرومان المستعمرين ففتكت بهم وبأموالهم ونغصت عليهم الحياة. وشفى البربر غليلهم من أعدائهم، فقتلوا منهم كثيرا، وجعلوا أيامهم سوداء بالمغرب. وهب الرومان في ذعر فجمعوا قواهم فاستطاعوا التغلب على هذه الثورة.

وثارت نوميدية أيضا في سنة 270 بقيادة أرديون. فهجم على البروقنصلية (افريقية) فنكل بالرومان. فهب إليه القائد الروماني بروبس في جيوشه فتبارزوا فقتل أرديون واستطاع بروبس ان يقضي على هذه الثورة.

ثورات جبال القبائل العارمة على الرومان

ومن ثورات البربر الكبرى التي زلزلت أركان الرومان، وملأت نفوسهم بالرعب ثورة جبال القبائل. وكانت جبال القبائل لا تزال حرة لم يستطع الرومان إخضاعها. فجددت ثورتها عليهم في سنة 288 فهاجمت معاقل الرومان وفتكت بهم فارتاعت روما. وجعلت جائزة كبرى للقائد أورليوس على حربهم. فشمر عن ساعده، فسار إليهم في جيوشه، فاشتبك بالثوار الأبطال فخاض معهم معارك كبيرة ثم استطاع ان يخمد ثورتهم.

وبعد سنين قليلة أعادت جبال القبائل الكرة على الرومان. فعزم الرومان على احتلال جبال القبائل ليأمنوا ثورتهم.

وكانت هذه الثورة في عهد الإمبراطور ديوكليسيانوس. وكانت الثورات والفتن قد عمت الإمبراطورية الرومانية. فوجد الإمبراطور نفسه عاجزا عن حمل عبء الإمبراطورية وحده. فجعل ثلاثة أباطرة آخرين فقسموا بينهم الإمبراطورية. وأسندت ايطاليا والمغرب إلى القائد ماكسيميانوس وكان يلقب بهرقل. فسار الإمبراطور هرقل إلى افريقية وقاد جيوشه بنفسه واخمد الثورة وحاصر جبال القبائل وعزم على فتحها وبعد جهود ومعارك استطاع ان يدخلها في سنة 297. ويحتل بعض مراكز عسكرية بها. بقي أكثر

الجبال الشاهقة حرة تستعد لثورة أخرى، وتنتظر الزعيم والقائد الذي يقودهم لينقضوا على الرومان. فحانت لهم الفرصة بثورة فرموس. فقامت جبال القبائل الباسلة فبايعته على الثورة، فانضوت تحت لوائه.

متى وقعت هذه الثورة وفي أي مكان.

ثورة فرموس وجلدون

ومن ثورات البربر الكبرى التي زلزلت الرومان وكادت تقضي على دولتهم في المغرب ثورة فرموس وجلدون.

وكان فرموس وجلدون اخوين، وهما ابنا نوبال ملك جبال القبائل. وكان نوبال وأبناؤه مسيحيين على المذهب الدنتوسي البربري. وكان نوبال مخلصا لقومه، قوي الشخصية، داهية فسودوه وقدموه فصار ملكا على جبال القبائل. ولما توفي في سنة 370 خلفه لبنه فرموس في الزعامة والملك. وكان أخوه جلدون يحسده على الزعامة، ويكيد له، ويوده ان يسقط.

وكان المغرب يغلي كرها وعداوة للرومان. وكانت جبال القبائل مستعدة للانفجار. وكان فرموس يمقت الرومان ويضطرم غيظا عليهم. وفي سنة 372 ثار على الرومان في جبال جرجرة. فأيده المسيحيون البربر الدنتوسيون في المغرب. وساعدته الموريطانيتان في الثورة فجند عشرين ألفا. فهجم على العاصمة الرومانية قيصرية (شرشال) فحرقها، وقتل كثيرا من غلاة المستعمرين الرومان فيها. وامتدت الثورة إلى نوميديا. فسار الجيش الروماني المرابط في افريقية لقمع الثورة فانهزم. فاستغاث الرومان في المغرب بروما. فأرسل الإمبراطور ولنتنيانس جيشا كبيرا تحت رئاسة القائد الداهية ثأودوسيوس.

وكان ثأودوسيوس يعلم قوة فرموس،وكثرة جنده، وشجاعة البربر. فأيقن انه لا يستطيع التغلب على فرموس إلا بجند قوي من البربر. وكان يعلم حسد جلدون لأخيه فرموس وانحرافه عنه فعزم على الاستعانة به.

وفي سنة 373 نزل ثأودوسيوس بجيشه في جيجل، وتوجه إلى ناحية سطيف. فأرسل إلى جلدون يستميله إليه، وواعده بالرئاسة والدراجات الرفيعة في المغرب ان أعانه على فرموس. فجنح إليه جلدون فانضم إليه في جيش كبير ممن أنصاره فتقوى به القائد الروماني. فاشتبك بفرموس في معارك طاحنة انتهت بالصلح طلبا من

فرموس. ثم نقض الرومان الصلح. فجدد فرموس الثورة، وجمع نحو عشرين ألفا هزم بها ثأودوسيوس. فشمر ثأودوسيوس لمحاربته بالدهاء والكيد. فداخل بعض أنصار فرموس ليقضوا عليه. فشعر فرموس بالمكيدة، ورأى مناصرة أخيه جلدون للرومان. فعلم ان الدائرة لا تكون له في الحرب المقبلة، وأيس من الانتصار فانتحر في سنة 375 فانتهت ثورته. وبقي المغرب وجبال القبائل تغلي حنقا على الرومان.

وكان جلدون قد جازاه الرومان بالدرجات الرفيعة. وفي سنة 387 سمي رئيسا أعظم على فيلقين رومانيين. وفي سنة 395 توفي صديقه ثأودوسيوس. فزال السبب لذي كان يربطه بالرومان. فثار بغض الرومان الموروث في نفس جلدون فثار عليهم في افريقية، فأعانه الدونتوسيون المسيحيون البربر، وفتك جلدون بالرومان المستعمرين، وبمؤيديهم الاورثوذوكس. وقطع عن روما حبوب المغرب. فاستعدت روما لحربه، واستعانت عليه بأخيه مسيزال. وكان مسيزال بايطاليا فأساء إليه جلدون بقتل ولديه فاغتاظ عليه. فأرسل الرومان جيشا عدده خمسة آلاف جندي تحت قيادة مسيزال. وجمع جلدون جيوشه فكانت سبعين ألفا. فوقع اللقاء في نواحي تبسة. فاغتر جلدون بكثرة جيوشه فلم يحسن تنظيمها. فدارت الدائرة عليه. فقبض عليه مسيزال فسجنه فانتحر في سجنه.

وكان مسيزال يكره الرومان، ولكن جلدون بعدوانه عليه، وإساءته إليه، جعله ينضم إلى الرومان. فعلم الرومان ان سلالة نوبال معدن العداوة لهم فقتلوا مسيزال قبل ان يثور عليهم.

أسباب فشل الثورات البربرية

كانت ثورات البربر على الرومان قوية شجاعة، ولكن ينقصها النظام والاتحاد. ان المغرب لم يثر كله عليهم متحدا فيفرق قوتهم فيقضي عليهم، وزعماء المغرب لم يثوروا كلهم، ولم يتخذوا جبهة واحدة للتحرر تنظم الثورة وتقودها. بل كانت الثورات جهوية، فاستطاع الرومان ان يوجهوا إليها كل قواتهم فيقضوا عليها. لو اتحد زعماء المغرب، وثار المغرب كله لاستطاع ان يستأصل الرومان أو يقذفهم في البحر. فيتحرر منهم. ولكنه لم يفعل. فبقي يغلي غيظا وحنقا على مستعمريه الطغاة حتى نزل الوندال في المغرب، فانفجر المغرب انفجاره على الرومان فكان سببا لسرعة قضاء الوندال على الرومان.

تلك هي بعض الثورات البربرية على الرومان وهي جزء قليل من كثير حفظه لنا التاريخ. ان المغرب لم يسكن إلا سكونا ظاهريا للرومان. ان في أعماقه في كل العهود نار البغض والمقت لهم مشتعلة. وقد اتصلت ثوراته في كل العهود. فلو حفظ لنا التاريخ كل تلك الثورات لكان شيئا كثيرا أضعاف ما ذكرنا.

أكاذيب الأوروبيين على البربر وثوراتهم

وكان الرومان وأحفادهم الاروبيون حاقدين على البربر لعدم رضوخهم لهم، وثوراتهم المتوالية عليهم. وكانوا إذا تحدثوا عن تلك الثورات في تاريخهم يصفونها باسوإ النعوت، فيجعلونها فوضى، وتخريبا، وتقتيلا، وهمجية. ويصفون البربر بحب الفوضى، بالغرام بالتخريب وسفك الدماء ! وليست تلك الثورات لعمرك إلا جهادا وطنيا مقدسا تحمل عليه أعظم الأخلاق، وأنبل الغايات. ان غاية البربر في كل ثوراتهم ان يتحرروا من الاستعمار الروماني الذي يغلهم عن التقدم، ويقتلهم في أوطانهم. ان تلك الثورات علامة النضوج في الأمة، ودليل الرقي في البربر، وآية الزكاء في النفوس، والسلامة في الطباع. وهي مما يشرف البربر في التاريخ، ويؤرثهم الاحترام والتبجيل من كل الأمم العاقلة التي تنظر إلى الأمور بالعقل الحصيف، لا بالقلوب التي يعمها الحقد والتعصب.

تقليد المؤرخين المغاربة الأوربيين في سب أجدادهم البربر

ان الرومان وأحفادهم الأوربيين قد آلمتهم ضربات البربر، وثوراتهم التي مرغتهم في الدماء، فثلبوا البربر -وهم يحكمون ظهورهم وجنوبهم من الألم- بما قالوه فيهم بدافع الحقد والعداء والغيظ والتعصب. فما بال بعض المؤرخين المغاربة في هذا العصر يرددون تلك الأكاذيب الاستعمارية التي يشين بها الاروبيون ظلما صفحة أجدادنا، وتاريخنا الماضي النبيل، ويقلدون الأوربيين في سب أجدادهم، فيصفونهم بحب الفوضى، والجنوح إلى الفتن، وبأنهم لا يرضخون ولا يستقرون؟! وعسى أولئك المؤرخون وورثتهم ان يعيدوا النظر إلى أجدادهم، فيدركوا نبل ثوراتهم، فيصفوا ما كتبوا، وينزهوا كتبهم وكتب آبائهم من الأكاذيب الاستعمارية على المغرب في تاريخه قبل الإسلام، والأكاذيب الملكية المتعصبة في تاريخه الإسلامي. فان عهد الاستقلال وروح الإسلام الذي يحرم التعصب يفرض علينا هذا!

ان البربر لم يرضخوا للبونيقيين لما عسفوهم فثاروا عليهم، وثاروا على الرومان، وسوف يثورون على الوندال والروم، ويثورون على الأمويين والعباسيين إذا ظلموهم، وخالفوا دين الله في سياستهم. وان ثوراتهم كلها في تلك العهود المختلفة كانت الظلم. والباعث عليها إنما الآباء، وكرم النفوس، وزكاء الأعراق، والنضوج والثقافة، لا ما يقوله الأوربيون والمقلدون!

الجذور الثابتة لثورات المغرب العربي على الاستعمار الحديث

وثار المغرب العربي الكبير المسلم على الاستعمار الحديث، وخاض معه معارك حامية الوطيس في كل عهود الاستعمار، وثارت الجزائر ثورتها المباركة التي شرفت الإسلام والمسلمين وجذور تلم الثورات كلها إنما هي وراثة أجدادنا القدماء الذين ثاروا على الرومان أو دعوها في دمائنا، فرسخت بالإسلام، وأذكتها فينا جبالنا الشماء التي لا زالت معدن البطولة والإباء والعزة في المغرب العربي الكبير!

لقد تمسك الرومان بالمغرب كل التمسك، ورووا تربته بدمائهم في مناولة الثورات البربرية وإخمادها. فما مكانة المغرب بين المستعمرات الرومانية، وما آثار الرومان في ناحية الذين والحضارة، وكيف كانت نهاية الرومان في المغرب الكبير؟

مكانة المغرب السامية عند الرومان

كان المغرب مستعمرة أثيرة عزيزة على الرومان، لخصب أراضيه، ووفرة منتوجاته الزراعية وغيرها، وقربه منهم. وكانوا يسمون المغرب مطمورة روما. وكانت ايطاليا بلادا جدبة ضيقة لا تكفي أهلها. وكانوا يجلبون من المغرب ما يكفي ايطاليا من الحبوب والمواد الغذائية الأخرى ثمانية أشهر في العام، ويجلبون من مصر ما يكفيهم في الشهور الأربعة الباقية. ولما اتخذ قسطنطين (بيزنطة) عاصمة للإمبراطورية في سنة 330 اختص المغرب بتموين ايطاليا، ومصر بتموين بيزنطة.

وكان لروما سفن خاصة لنقل حبوب المغرب إليها، ومراكز في المغرب بجمعها، ووكلاء للقيام بتصديرها. وقد أعفتها من أداء التجارة الخارجية. «ومن المراكز التي كانت تجمع فيها الحبوب لتشحن إلى رومة: وادي مجردة، ومداوروش، ولمبس، قال بيروني «يحمل من هذه المراكز في كل عام ما يقرب من مليوني قنطار قمحا».

وكانت رومة تبيع لأبنائها الحبوب التي تأخذها خراجا من المغرب، ثم صارت توزعه على الفقراء من أبنائها بدون ثمن. وكان عدد الذين تمونهم الجمهورية برومة عشرين ألفا وثلاثمائة ألف».

وكان الرومان حريصين على المغرب مهتمين كل الاهتمام بأنبائه. يتساءلون عنه، ويودون ان يكون دائما على هدوء ليحلبوه كما يريدون.

وكان عظماء الرومان إذا اجتمعوا في ساحة (الفوروم) يقرن احدهم سلامة على صاحبه بقوله:»ما حدث بافريقية؟»[129] وإذا كنى الرومان عن رجل بسعة ماله قالوا :» في مخازنه قمح افريقية!».[130]

وكان الرومان لا يأخذون من المغرب الحبوب وحدها. بل يأخذون أشياء كثيرة أخرى لغذائهم ولباسهم وصناعاتهم، وزينتهم. وكانوا يأخذون «زيت الزيتون، والزيتون، والعنب، والتمر، والفواكه، والتوابل، والرخام، والأخشاب، والخيل، والغزال، وبعض الحيوانات المفترسة لاستخدامها في الملاعب، والنحاس، والرصاص والحديد، وسبائك الفضة، والتبر، والعبيد

129 - كان القدماء يطلقون افريقية على المغرب كله والمعنى العام هو المراد في هذا الباب.

130 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 241 ط أولى بالجزائر.

السود، والصوف، والجلود، والبقر، والغنم، وشمع النحل، وكل مواد الحياة والرفاهية».[131]

هذه هي خيرات المغرب وكنوزه التي كانت ترتع فيها ايطاليا. لذلك تمسك الرومان بالمغرب وأبوا ان يفلت من أيديهم. وكان الرومان المستقرون في المغرب أكثر تمسكا به لأنهم كانوا به في جنتهم وأقصى نعيمهم، فخروجهم منه خروج من الفردوس الذي لا يجدون مثله في مكان.

إعادة بناء قرطاجنة

وكانت قرطاجنة من العواصم الكبرى التي تمتع فيها الرومان بكل ما يشاءون من خيرات المغرب. وكانت اكبر مرفأ في المغرب لشحن منتوجات وطننا إلى ايطاليا لترتع فيها.

وكان الرومان قد أعادوا بناء قرطاجنة في سنة 120 ق.م. وسبب إعادتها هو ان عوتيقة عاصمتهم في افريقية لم يجدوا فيها خصائص قرطاجنة وميزتها. والسبب الثاني هو كثرة البطالة في ايطاليا بكثرة العبيد الذين يستخدمهم الأغنياء في أراضيهم فاستغنوا عن الايطاليين وقد بلغ عدد الايطاليين الذين لا يجدون عملا أربعمائة ألف فكثر الفقر والفساد. ورأى مجلس الشيوخ الروماني ان يجدد قرطاجنة، فأرسل ستة آلاف من الايطاليين فشرعوا في بنائها في سنة 120 ق.م فعمرت وانتقل إليها الأغنياء، فصارت هي عاصمة افريقية. وقد ظلت هي العاصمة إلى ان هدمها حسان بن النعمان في سنة 74 هجرية. (703م) فكان عمرها الثاني ثمانية قرون وثلاثة وعشرين عاما.

تلك هي مكانة الغرب عند الرومان وتمسكهم به. فما هي آثارهم في الناحية المعنوية والمادية؟

دين الرومان وأثره في البربر

كان الرومان وثنيين يعبدون أصنامهم. وكانت أصنامهم لا تحصى. فلكل مناسبة من مناسبات الحياة صنم يعبدونه، ولكل مظهر من مظاهر الطبيعة التي تروعهم وثن يتقربون إليه. وكانوا يعتقدون وجود قوة غيبية هي الله الذي بيده موتهم وحياتهم، وسعادتهم وشقاؤهم. وإنما هذه الأصنام رموز له. فلذلك كان الرومان يعبدون كل الأصنام التي يجدونها في مستعمراتهم في الدين، بل كانوا هم الذين يقتبسون كثيرا من عقائد الأمم الأخرى. وكان هذا التسامح الديني الذي اتصف به الرومان مما مكن لهم

131 - تاريخ الجزائر للميلي ص 241 ط أولى بالجزائر.

في الأمم فملكوها. فلو كانوا متعصبين لدينهم، وحاولوا ان يرغموا الأمم على الأخذ به، وحاربوا أصنامها لثارت عليهم براكينها.

وكان للبربر دينهم الوثني، وكانت لهم أصنامهم التي يقدسونها. ولما جاء الرومان اثروا فيهم في الدين، كما تأثر الرومان بهم، وعبدوا بعض أصنامهم، فأطلق البربر على بعض أصنامهم أسماء رومانية.

وكان تسامح الرومان الديني، واحترامهم لأوثان البربر ودينهم هو الذي فتح قلوبهم فاخذوا ببعض عقائد الرومان الدينية، وببعض طقوسهم وأوثانهم. فلو أرغموهم لاستغلقت قلوبهم، ولنفروا مما يجبرون عليه، فيحاربونه ويكرهونه.

وأرسل الله عيسى عليه السلام بدينه الحق. ليهدي الناس إلى عبادة الله، ويطهر نفوسهم من الأنانية والعصبية والجبروت، ويملأها بالرحمة والإخوة والمحبة، ويزيل الفوارق الكبيرة بين الطبقات، ويحقق المساواة في الحقوق بينها.

ترحيب البربر بالدين المسيحي وانتشاره في مدنهم

ان الدين المسيحي الحق يدعو إلى العدل والمساواة والإخوة، وينهى عن الظلم، والأنانية، وعن كل الأخلاق السيئة. فنشر الحواريون هذا الدين في أنحاء كثيرة من العالم. فوصل إلى روما والى المغرب في القرن الثاني الميلادي. فاستبشر به البربر في المدن وتحمسوا له، ورأوه وسيلة تخفف من ظلم الرومان وجبروتهم. واستحلت قلوبهم هذا الدين يأمر بالعدل والمساواة في الحقوق، وينهي عن الظلم والأنانية والعصبية. فانتشرت المسيحية انتشارا كبيرا في البربر الذين يسكنون المدن، وفي كثير من الرومان.

محاربة الرومان للدين المسيحي وفظائعهم في المسيحيين البربر والرومان

وكانت الحكومة الرومانية متسامحة مع المسيحية، ثم رأتها الطبقة الحاكمة المستعملة خطرا على امتيازاتها واستعلائها على الناس. فشمر الأباطرة والحكام في القرن الثاني لمحاربة المسيحية والقضاء عليها. وكانوا مثال الوحشية والقساوة والفظاعة في التنكيل بالمسيحيين البربر والرومان. كانوا يقتلونهم، ويحرقونهم، ويجمعون المدينة في الملاعب فيأتون بالمسيحيين مكتوفي الأيدي فيلقونهم إلى الأسود والنمور الجائعة فتفترسهم وتمزق أجسامهم، وأولئك الحكام والوثنيون يصفقون ويطربون، وينتشون بهذا المنظر الفظيع !

وكان اشد الأباطرة محاربة للمسيحيين وتنكيلا بهم، وارتكابا لأنواع الفظائع فيهم هو (صوكليسيان) الذي ارتقى عرش روما في سنة 284. وقد سمي عهده عصر الشهداء لكثرة قتلاه من المسيحيين.

وجاء الله بالفرج للمسيحيين باستيلاء قسطنطين على عرش روما في سنة 312 وكان مسيحيا.[132] فصار دين الدولة الرومانية هو المسيحية، ونصر المسيحية وأنعشها، فانتشرت في الرومان. فصارت المسيحية في نظر البربر هي دين الرومان وكانوا يكرهون الرومان ويمقتون أشياءهم، فبعثهم عداوتهم للرومان على مخالفتهم، فاعتنقوا المذهب الدونتوسي في المسيحية،وهو مخالف ومنابذ للمذهب الاورتذوكسي الكاثوليكي الذي كان عليه الرومان. فدخل البربر في معارك طاحنة مع الرومان من اجل المذهب الديني أيضا. فكيف نشأ المذهب الدونتوسي ومن أنشأه؟

نشأة المذهب الدنتوسي وانتشاره في البربر

كان البربر يرحبون ان يغير الدين المسيحي من طبع الرومان، ويكسر من أنانيتهم وغطرستهم، وجبروتهم، ويعلمهم العدل والمساواة فيغيروا سياستهم للشعوب، سيما للبربر الذين يرتعون في بلادهم، ويمتصون دماءهم، ويستغلون جهودهم في كل الميادين ولكن ساسة الرومان والمستعمرين منهم لم يصل الذين المسيحي إلى قلوبهم فيغيروها، فظلوا على غطرسة الجاهلية وعصبيتها وظلمها، وظاهرتهم الكنيسة الاورتوذوكسية على هذه الغطرسة، وسايرتهم وأيدتهم، ولم تنكر عليهم الظلم كما يأمر الذين المسيحي فانقلب البربر على الاورتذوكس، وفارقوهم لهذا السبب وأسباب أخرى كنسية تتعلق باختيار القساوسة. فأنشأ الرهبان البربر مذهبهم المسيحي الذي يأمر العدل، ويشدد النكير على الظالمين المستعمرين، كما أنشأوا كنائسهم، واختاروا قساوستهم من البربر واستقلوا على الاورتذوكس في كل شيء.

استعمال البربر سلاح الدين في محاربة الرومان وظلمهم

وكان الرومان في القرن الرابع قد فسدت نفوسهم كل الفساد. ووصلوا النهاية في الظلم والجبروت واحتقار البربر. وكانوا يرسفون في أغلال الشيخوخة البالغة ومساوئها فعزم البربر على مناهضتهم، والتخلص منهم. فوجدوا في الدين المسيحي الذي يدين به الرومان وسيلة لتشديد النكير على ظلمهم وجبروتهم فأشهروا سلاح الذين عليهم،

132 - كان يحب المسيحية، لنصرة المسيحيين له. انه يعمد وهو علامة الدخول في المسيحية إلا في آخر عمره وهو على فراش الموت. وكان يخشى الوثنيين فاخر دخوله في الدين المسيحي.

وأنشأوا كنيسة ومذهبا يناصر العدل ويشدد النكير على الرومان.

نشأة المذهب الدنتوسي البربري في شمال آوراس

وكانت نشأة المذهب الدونتوسي في أول القرن الرابع في شمال آوراس الذي يغلي بمقت الرومان، ويزيد حنقا عليهم. وأنشأه راهبان بربريان تحدهما أسقف في القرية البربرية (الديار السود) في شمال آوراس. والثاني أسقف مدينة (باغاية) المشهورة في شمال آوراس. وكان كلا الاسقفين يسمى (دونتوس) وكان الأول قد أنشأه، والثاني نظمه، وعمل لنشره فنسب إليهما. فسمى المذهب الدونتوسي أو الدوناتي.

وكان المذهب الدوناتي يرمي إلى غايات سياسية، وهي تحرير المغرب من غطرسة الرومان وظلمهم، وجبروتهم، وإشهار سلاح المسيحية التي تنكر تلك الرذائل، ومحاربتهم به. فاعتنق البربر المسيحيون هذا المذهب. وما كاد القرن ينتصف حتى كان جمهور البربر المسيحيين في المغرب دونتوسيين، وكانت لهم الأغلبية على الاورتوذكس. «وكانت مراكز أساقفة الفريقين في سنة (411) مائة وسبعة وثمانين. منها (87) ذونتوسية، (34) كاثوليكية) للاورتذوكس، (66) للفريقين».[133]

وكان البربر الدنتوسيون يشددون النكير على الرومان لظلمهم، ويذكون أمراء البربر للثورة عليهم. وكانوا ينصرون الثورات البربرية على الرومان. وكان فرموس وجلدون القائدان البربريان لثورة جبال القبائل وثورة أفريقية على الرومان دونتوسيين. وكان أكثر جنودهما من الدونتوسيين. كما كان اغلب النصارى البربر الذين حاربوا مع الروم الفاتحين المسلمين من هذا المذهب. كانوا ثائرين على الاحتلال الأجنبي. وكانوا يعرفون قصد المسلمين من فتحهم للمغرب. كانوا يظنون إنهم كالرومان. ولما عرفوا الإسلام كانوا أسرع الناس إلى الإيمان به، والامتزاج بالمسلمين.

وقد شرع الرومان دعاية سيئة ضد البربر الدونتوسيين فوصفوهم بما يسول لهم التعصب الديني وحقدهم على البربر الثائرين عليهم. فقلدهم في الإزراء بهم الأستاذ احمد صفر. فلم ينزه من الإزراء بأجداده، وثلب من رفع راية الجهاد الوطني على الرومان الغاشمين. إذا صح ان ينتقد احد الدونتوسيين فعبيد البربر الذين تنطعوا، وظلموا باسم هذا المذهب أما الدونتوسيون الأحرار - وهم الجمهور - فوطنيون مخلصون معتدلون. فهم أهل لكل تمجيد وثناء وإكبار.

133 تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 222 ط بيروت.

العداء الشديد بين الاورتوذوكس والدونتوسيين وفظائع الاورتوذوكس فيهم

وكان العداء على أشده بين الاورتوذوكس والدونتوسيين. وكان كل منهما ينكل بالأخر ويقوم فيه بالمجازر الفظيعة إذا وجد فرصته. وكان الرومان ينصرون الاورتوذوكس على الدونتوسيين. وظل العداء بينهما إلى انقراض المسيحية من المغرب في القرن الأول الهجري.

وكان البربر الذين دانوا بالمسيحية إنما هم سكان المدن. أما الجبال البربرية، وجيتوليا فظلت على وثنيتها إلى ان اشرف عليها الإسلام فآمنت به. فالإسلام هو أول دين سماوي يؤمن به جمهور البربر.

كان البربر الذين اخذوا بالمسيحية دينا أقلية، ولم يكونوا أكثرية. فالأكثرية إنما هم سكان القرى والبوادي وهؤلاء كانوا يكرهون كل شيء روماني حتى الدين الذي جاء على أيديهم ودانوا به.

وكان البربر قد دانوا بالمسيحية لأغراض سياسية وهي القضاء على الرومان وظلمهم، ولم تكن بالدين الذي تغلغل الإيمان به في أعماقهم. فلما ذهب الرومان والروم بلغوا غرضهم السياسي وتحرروا، ورأوا صفاء العقيدة الإسلامية وعظمة الإسلام، وعدل المسلمين ومساواتهم ورحمتهم، وحسن سلوكهم، خلعوا المسيحية، واصطبغوا بنور الإسلام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وثبتوا فيه ثبات الرواسي. وكانوا أكثر الأمم تمسكا بالإسلام وغيرة عليه.

اعتناق بعض الجبال البربرية لليهودية معاكسة للرومان

ومن الأديان التي دخلت إلى المغرب اليهودية. وكان الرومان النصارى يناهضونها في المدن ويقسمون على اليهود في المغرب. فأخذت باليهودية بعض الفئات في الجبال سيما جبال آوراس، مغايظة للرومان ومعاكسة لهم، ونصرة للدين الذي يعاديهم. كان إقبال بعض الفئات في تلك الجبال على اليهودية لهذا الغرض ى لحب اليهودية والإعجاب بها.

تلك هي آثار الرومان في البربر في الدين فكيف كان إقبال البربر على لغتهم وحضارتهم؟

لغة الرومان وأدبهم وحضارتهم وموقف البربر منها

اللغة الرومانية لاتينية. انها أخت اللغة اليونانية فاصلها واحد. واللغة اللاتينية لغة آرية، فهي أخت اللغة الفارسية والجرمانية.

اعتناء الرومان بلغتهم وجدهم غي نشرها بالمغرب

وكان الرومان يعتنون بلغتهم لأنها أصل قوميتهم. وقد ترقت هذه اللغة في أساليبها، واتسعت في مادتها، فصارت لغة غنية تليق للعلم والأدب.

وكان للرومان اعتناء كبير بالفصاحة والخطابة. وكان أكثر ما يعلمونه في مدارسهم، ويعتنون به في معابدهم العلمية العليا إنما هو اللغة الرومانية وعلم البلاغة، وفن الخطابة. وقد استفادوا من كل الأمم الراقية التي اتصلوا بها في هذا الباب، سيما الإغريق، فقد اغرموا بأدبهم البليغ، فتأثروا به كل التأثر، ونقلوا إلى لغتهم وأدبهم محاسنة، فتكون لهم أدب راق جميل.

وكان الرومان يرون لغتهم هي مظهر شخصيتهم، ومفتاحهم لقلوب الأمم المستغلقة، وعروقهم الراسخة في الأوطان. فاتخذوا كل الأسباب، وجدوا كل الجد لنشر لغتهم في المغرب. فجعلوها هي اللغة الرسمية المحترمة المبجلة في الدولة، وأقاموا المسارح في البلاد ومثلوا فيها الراويات الجميلة المغرية باللغة الرومانية، وجعلوها لغة التدريس، والتأليف. وكان يتسامرون في حماماتهم ونواديهم، وفي الميادين العامة (الفوروم) بإنشاء الشعر الروماني، وقص القصص بالرومانية، والتفاوض في المواضيع المهمة بها، فصارت لغة الصالونات أيضا. وكانت الخطب الرسمية، وبلاغات الحكومة بها. وكانت الشرط الأساسي في وظائف الدولة. هذه الوسائل كلها كانت لنشر لغتهم في البربر، وإرغامهم على تعلمها. ولكن الرومان لم يصلوا إلى ما يريدون من بث لغتهم في البربر فتنتشر في كل أنحاء المغرب كما انتشرت اللغة البونيقية ورسخت في أنحاء المغرب.

ان الذين تعلموا اللغة الرومانية إنما هم سكان المدن والمجندون، والعمال من أبناء القرى

الذين اختلطوا بالرومان أو تعلموا في مدارسهم وهم أقلية في المغرب. وكان الباعث لهم على تعليمها إنما هو الاختلاط، والمنافع المادية والعلمية، لقد كانت الرومانية لغة التجارة الواسعة، وسبب الوظيفة الحكومية، ولغة العلم والحكومة. فاقبل عليها هؤلاء البربر بتلك الأسباب. وكانوا يتكلمونها. وقد نبغ منهم علماء كثيرون فيها منهم القديس أغسطين قال بيروني:»هو اخطب خطيب لطيني، واكبر مفكري كل زمان»[134] ولكن البربر في القرى والجبال وفي الصحراء نفروا من اللغة الرومانية نفورهم من الرومان. وظلت اللغة البونيقية إلى الفتح الإسلامي هي اللغة التي يحسنونها ويكتبون بها مع البربرية، واعرضوا عن الرومانية فلم يتعلموها. قال بيروني: وفي أيام القديس أغسطين (في القرن الرابع، في آخر عهود الرومان بالمغرب، وبعد مقامهم به نحو ثلاثة قرون ونصف) في تلك الأيام كان الولاة الإداريون، والرؤساء الدينيون يحتاجون إلى ترجمان بينهم وبين البربر البادين. وكانت اللغة (البونيقية) لغة الأكثرية البربرية حتى ان العظماء الذين تخلقوا بالأخلاق الرومانية كانوا يتكلمون بها».[135]

حضارة الرومان ونفور اغلب البربر منهم

وكان للرومان حضارة راقية، لقد اقتبسوا من البونيقيين، والبربر، والإغريق، والمصريين وغيرهم كل ما راقهم من حضارتهم فطبعوها بطابعهم واتخذوا كل وسيلة لنشرها في البربر. فلم تنتشر إلا في المدن التي كان عددهم كبيرا فيها. أما بقية المغرب فوقف من حضارتهم موقفه من لغتهم. ولما زالت دولة الرومان والروم من المغرب زالت الأسباب التي حملت برير المدن على تعلم اللغة الرومانية والأخذ بحضارتهم، فزالت كل آثارهم من لغة وحضارة، وعادات من المغرب. ولم يبق من آثارهم إلا الأطلال الضخمة التي لم يقو الزمان على إزالتها. فما هو سبب إقبال البربر على اللغة والحضارة البونيقيتين وثباتهما فيهم، ونفورهم من اللغة والحضارة الرومانية وانقراضهما من المغرب عند زوال دولتهم؟.

أسباب نفور البربر من اللغة والحضارة الرومانية وانقراضهما من المغرب سريعا

ان السبب هو انه لا أصول راسخة للغة والحضارة الرومانيتين في نفوس البربر، من وراثة بامتزاج الدماء، أو ين، أو حب. ان البونيقيين امتزجوا بالبربر فاختلطت دمائهم

134 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 227 ط بيروت.

135 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 214 ط بيروت.

فصارت حضارتهم التي هي وليدة شخصيتهم الفينيقية البربرية اقرب إلى نفوس البربر، وكذلك لغتهم التي كانت مزيجا من اللغتين الفينيقية والبربرية كانت قريبة من نفوسهم وكانت القوافل التجارية البونيقية التي تجوب صحراء المغرب وجباله تحسن إلى البربر. فأحبوا البونيقين فرحبوا بلغتهم وحضارتهم. وكذلك أهل الشمال في نوميديا وموريطانيا فان البونيقيين لم يسيئوا إليهما في أول الأمر، وكانت بينهما وبين قرطاجنة علاقة صداقة ومصاهرة. فانتشرت اللغة البونيقية والحضارة في كل أنحاء المغرب بامتزاج الدماء والصداقة، والعلاقات السياسية الحسنة.

أما الرومان فكانوا غولا جثم على المغرب. لم يمتزجوا بهم ولم يصاهروهم وكانوا مستعمرين غاشمين فكرههم البربر. ولم يكن لحضارتهم ولغتهم أصل من تلك الأصول لتنتشر انتشارا واسعا، وتثبت بعدهم في المغرب. فضاق نطاقها، ثم زالت بزوالهم من المدن. فتفتح صدر المغرب الكبير كله للغة القرآن وحضارة القرآن العظيمة التي حملها إليه أجدادنا العرب المحسنون الفاتحون. ورسخت العربية فينا. ورسخت الحضارة الإسلامية في مغربنا الكبير رغم معاول الاستعمار التي انهالت عليهما قرنا وثلاثين عاما للقضاء عليهما في المغرب، لان العربية هي لغة ديننا المقدس، والحضارة الإسلامية هي حضارة الدين صبغ نفوسنا فأحسسنا بها حضارتنا.

لقد ذهب الرومان وبادوا في مغربنا. فما هي أسباب انقراض دولتهم في المغرب، ومتى وقع ذلك؟

سقوط حكومة الرومان في المغرب

الأسباب النفسية والعسكرية لسقوط حكومة الرومان في المغرب

كان الرومان في القرن الثالث والرابع يفقدون خصائصهم النفسية التي امتازوا بها على الشعوب فامتلكوها. وكانوا قد اختلطوا بالإغريق الأمة المريضة الواهنة. ففتنتهم حضارة الإغريق، وعلوم الإغريق، ففتحوا لهم قلوبهم، واختلطوا بهم، وتزوجوا منهم، فتعلموا علم الإغريق ورذائلهم. فشاعت فيهم الأخلاق الفاسدة، سيما الركون إلى الراحة، وحب النعيم والرفاهية، وهو خلق ما اتصفت به امة إلا وشاخت. وشاعت فيها أنواع الأمراض التي تسرع بها إلى القبور.

وكان كثير من ضباط الرومان العظام ومن قوادها الكبار، وهم عظماء الدولة وقادتها، قد أرسلتهم الحكومة إلى مستعمراتها في أوروبا واسيا فعاشوا في جو غير روماني، فتأثروا بيئة غير رومانية، فمرضت أخلاقهم، وداخلتهم الأنانية وحب الذات، وتمكن فيهم الحسد والأثرة، فصار كل يعمل لنفسه، ويكيد لأخيه، فتقاتلوا على الرئاسة، وتنافسوا على الزعامة، وأصبحت روما التي كانت تشهد>>> اتحاد أجدادهم وتهاربهم من الملك، وترتفع بذلك الاتحاد؛ أصبحت تراهم يتقاتلون على عرش الإمبراطورية، وتجري دمائهم انهارا في شوارعها من اجل الرئاسة والمال.

وكان الرومان في القرن الثالث والرابع يتكالبون على الوظائف المدنية، ويعافون حياة الجندية، فاتخذت دولتهم جندا مأجورا من شذاذ الأمم المستعمرة، فصار هذا الجند بلاء عليها، فانه تدخل في السياسية، فصار يولي من يشاء من الأباطرة، ويعزل من يشاء، وأصبح عرش روما في قبضتهم، يجلسون عليه من يتملقهم، ويرشيهم بالمال أكثر من منافسه، ويسترضيهم، ويتصرف حسب هواهم. فحرمت الدولة الرومانية من قيادة أفذاذها الأقوياء، ومنيت برئاسة الضعفاء الذين يوليهم الجند ليتصرفوا كما يشاء؛ فأصابها الخلل في كل أمورها، وسرى الضعف في كل نواحيها، ثم انقسمت بعد ذلك في سنة 330 إلى دولة شرقية ودولة غربية، فتضعضعت الدولة الغربية التي كانت عاصمتها روما بهذا التقسيم، وحرمت من كثير من شخصياتها التي أثرت الدولة الشرقية التي كانت عاصمتها «بيزنطة» لشباب هذه الدولة وهدوئها، وأمست الدولة

الرومانية الغربية مطمعا للمغيرين. وأدركت المستعمرات ضعفها فثارت عليها. وكان في مقدمة من ثار عليها المغرب الأبي. فشمر البربر عن ساعدهم لإزالة هذا الكابوس الذي حرمهم الحياة والعزة أربعة قرون. وأمست دولة الرومان في المغرب تمايل للسقوط، بالهرم، وبالعواصف البربرية الثائرة. فعجل الله بسقوطها بخيانة بعض أبنائها، وبعدو كان أقوى منها بمتانة أخلاقه، وكان البربر قد رحبوا به وآزروه وناصروه عليها. تلك هي الأسباب الأصلية الانهدام الدولة الرومانية في المغرب. فما هي العلة المباشرة التي لفظت بها النفس الأخير وماتت في المغرب. انها فعلة بونيفاس، وخُرق المرأة التي كانت ملكة لروما. ان ضعف المرأة هو السبب المباشر الذي أزال الرومان من المغرب.

بونيفاس وبلاصيدية

كان الإمبراطور هينوريوس قد ولى على المغرب في سنة 422 شخصية بارزة وقائدا محنا هو الكونت بونيفاس. وكان بونيفاس جديرا بالولاية على المغرب المتحفز للثورة، والمستعد للانفجار. فقام بواجبه أحسن قيام. وفي سنة 423 مات الإمبراطور هينوريوس فوقعت المنافسة الشديدة على عرش روما، وأشرفت روما أبنائها وتزاحمهم على الهلاك. فتدخل إمبراطور الدولة الشرقية البيزنطية (ثاودوسيوس) اخو هينوريوس فنصب على عرش رومة ابن عمته بلاصيدية (ولنتنيانس) الثالث.

وكان ولنتنيانس صغير السن فعين ثاودوسيوس أمه بلاصيدية وصية عليه. وأصبحت بلاصيدية هي المتصرفة في مملكة رومة. وفي يدها كل المقاليد. فأقرت بونيفاس واليا عاما على المغرب. فقام بونيفاس بواجبه أحسن قيام، واخلص كل الإخلاص لدولته، فبدت شخصيته وكفاءته ومهارته في الإدارة والقيادة لبلاصيدية فارتفع عندها وصار له نفوذ كبير لديها. فحسده القائد العسكري العام في روما (أيتيوس) وكانت بينهما منافسة. فصار يتنقصه ويوغر صدر بلاصيدية عليه. فوسوس لها ان بونيفاس لا يحترمها، وانه يتصرف في المغرب بإرادته. واقترح عليها ان تختبره بان تستدعيه للمثول أمامها. واراها انه لا يقدم لما قر في نفسه من بغضها واحتقارها وسوء الظن بها. فصدقت المرأة الضعيفة هذه الدعاوي الكاذبة، فعزمت على استدعاء بونيفاس لتختبره. فأرسل أيتيوس إلى بونيفاس يوغر صدره على بلاصيدية ويخبره بأنها قد همت بالقبض عليه، وعزله عن وظيفته. ونهاه ان يقدم عليها إذا استدعته. وورد أمر بلاصيدية إلى بونيفاس. وكان ذلك في سنة 427. فتمرد بونيفاس عليها فلم يعتزل الحكم. فأرسلت إليه قوة عسكرية لتقبض عليه، فحاربها بونيفاس وهزمها. ثم أرسلت إليه قوة ثانية فهزمها.

فعولت على سحقه، فشمرت عن ساعدها يعينها ويذكيها أيتيوس، فجهزت جيشا جرارا فأرسلته لمحاربته.

ثورة بونيفاس على روما واستعانته عليها بالوندال

وكان بونيفاس يعلم تحفز البربر للثورة على الرومان. فعلم انه إذا اشتبك بكل قواته بهذا الجيش الذي سار إليه فإنهم سيثورون عليه، فيقع بين نارين، فيهلك وتنهار دولة الرومان المتداعية في المغرب. وساءه ان تعزله بلاصيدية، وأدرك مساعي منافسه أيتيوس، فتسلطت عليه أنانيته، فعزم على الانتقام، وعلى فصل المغرب عن روما، فاستنجد بأصهاره الوندال في الأندلس فأنجدوه.

وكان الوندال قوة حربية كبرى في جنوب الأندلس. وكانوا يرون جمال المغرب وحضارته وخيراته واستئثار الرومان به، فتتحلب أشداقهم عليه. وكان ملكهم الداهية جنسريق يرقب الفرصة للوثوب إلى هذه اللقمة السائغة، والى هذه المملكة الجميلة. ولما وقع بنويفاس في حرج مسير جيش روماني لا طاقة له به، وبتحفز البربر للثورة عليه، وسمع لوساده الوندالي فتأثر به ! استنجد بأصهاره الوندال على ان يعطيهم جزاء إعانته في حربه الجزء الغربي من المغرب، من طانجة إلى وادي مساغا في قرطة، فأسرع ملك الوندال جنسريق إلى المغرب فنزل بطانجة في سنة 429 في ثمانين ألفا من جيشه المدرب الشجاع فزحف قاصدا قرطاجنة لينضم إلى بونيفاس.

وكان بونيفاس يخاف من ثورة البربر عليه إذا استقل عن روما، فاستعان بالوندال وأشركهم في المغرب، ليرهب بهم البربر ويستعين بشجاعتهم وقوتهم على إخضاع المغرب. ولكن الله كان قضى بزوال دولة الظلم والطغيان من المغرب؛ فأنشب الأسد الذي أراد بونيفاس ان يأكل به البربر أنيابه فيه، وجعله البربر سلاحهم عليه، فبلغوا مرادهم في الرومان، وشفوا الغليل منهم !

وكان القديس أغسطين قد سعى بالصلح بين بونيفاس وبلاصيدية فاصطلحا، والوندال يزحفون من موريطانيا الغربية إلى افريقية. فأرسل إليهم بونيفاس ان يرجعوا فأبوا. فواصل جنسريق ملكهم زحفه فتخطى وادي مساغا، فحاول بونيفاس صده فوقعت حربان انهزم فيها بونيفاس.

إعانة البربر للوندال في حربهم ضد الرومان

وكان البربر لكرههم للرومان يعينون الوندال في زحفهم وفي حربهم للرومان.

فاستطاعوا احتلال نوميديا كلها. وأرسلت بلاصيدية تطلب الصلح من جنسريق. فوقع. واتفقوا على ان لا يتجاوز الوندال حدود نوميديا الشرقية. وتبقى للرومان. فرضي جنسريق، لينظم أموره ويثبت جذوره فيما احتل من المغرب، ثم يزحف على افريقية.

وفي سنة 439 نقص جنسريق معاهدة الصلح فزحف على افريقية فامتلكها. فبادت دولة الرومان في هذا العام في افريقية وطرابلس، كما بادت في سنة 430 في نوميديا والموريطانيتين.

وكانت مدة الرومان في افريقية 585 عاما، من سنة 146 ق.م إلى عام 439م.

وفي نوميديا الشرقية 476 إلا تسع سنين وهي التي ولى فيها يوبا الثاني على نوميديا. وإذا عددنا يوبا الثاني واليا رومانيا منح كثيرا من الاستقلال الداخلي كانت المدة 476 عاما من سنة 46 ق.م إلى سنة 430م.

أما نوميديا الوسطى والغربية فقد تداولها عرابيون وسيتيوس وأبناء بوكوس، ويوبا الثاني، فلم يحكمها الرومان حكما مباشرا إلا في سنة 17 ق.م فمدتهم فيها 447 من سنة 17 ق.م إلى عام 430م إذا عددنا يوبا الثاني واليا رومانيا كانت المدة 463 عاما من سنة 33 ق.م إلى عام 430م.

ومدتهم في الموريطانيتين 488 من سنة 42م إلى 430 وإذا أضفنا العامين اللذين كانت الموريطانيتان فيهما ثائرتين على الرومان بعد مقتل بطليموس كانت المدة 490 وإذا عددنا يوبا الثاني وبطليموس واليين للرومان لا ملكين مستقلين كل الاستقلال كانت مدة الرومان في الموريطانيتين 463 من سنة 33 ق.م إلى سنة 430م.

وكانت مدة استيلاء الرومان على المغرب كله نحو 490 عاما.

زالت دولة الظلم والطغيان من المغرب فلم تترك فيه إلا آثارا سيئة، وجروحا تسيل بالدماء، وسمعة سوداء كيحموم النيران التي تبقى لها في الموقد بعد انطفائها!

وجاء الوندال. فكيف كانت سياستهم في المغرب. وما موقف الأمازيغ الأباة، والمغرب المصمم على استرجاع حريته، وإنشاء الدولة التي تسعده، من هؤلاء الغزاة؟

عهد الوندال في المغرب

430م – 534م

دولة الوندال في المغرب
429 – 534م

أصل الوندال وشخصيتهم

الوندال قوم من القوط، وهم أبناء عمومة الجرمان نزحوا من شمال أوروبا فاستقروا في جنوب الأندلس فنسبت اسبانيا إليهم فسمين اندلوسية، ثم سماها المسلمون الأندلس. وكانوا يركبون البحر فيتسرحون فيه للغارة أو للحراسة- فتعرفوا بالمغرب فرأوا خيراته وعمرانه فتحلبت أشداقهم عليه. وقد جرأهم على ذلك ما رأوا من ضعف الرومان وسخط البربر عليهم فصاروا يرقبون الفرصة حتى أتيحت لهم فانتهزوها.

والوندال قوم لم يتحضروا فترق طباعهم، وتترقى عقولهم، وإنما هم أبناء السنان والحسام يعتمدون عليها في الرزق، ويستندون إليهما في الحياة.

وكانوا على الجرأة في القتال، والشجاعة في الحروب، والقوة في الطعان. لم تقتلهم المدينة كما قتلت الرومان.

سبب غزو الوندال للمغرب

ولما استعان بهم والى المغرب الروماني الكونت بونيفاس لما ثار على ملكة روما بلاصيديا في سنة 427 جاءوا في عدد كبير بلغ ثمانين ألفا،[136] ولم يكد هؤلاء الغزاة ارض المغرب حتى اصطلح بونيفاس وبلاصيديا فأرسل إليهم ان يرجعوا، ولكنهم توغلوا إلى الوليمة، وساروا مسرعين إلى اللقمة السائغة، فاصطدم بهم فهزموه. ولما رأت روما تغلب الوندال وعدم استطاعتها الدفاع فاوضتهم في الصلح فرضوا، فأجابوا روما إلى طلبها ريثما تثبت أقدامهم في الأرض وينظمون شئونهم في البلاد، ويستعدون للمعركة التي يلقون بها الرومان في البحر.

وكان جنسريق هو ملك الوندال وقائدهم في غزو المغرب، ومؤسس دولتهم فيه وكان قصير القامة، أعرج لسقوطه من فرسه. وكان بطلا في الحروب، داهية في السياسة،

136 - كان المقاتلة من هذا العدد الكبير عشرين ألفا والباقي هو نساؤهم وأطفالهم وعبيدهم لأنهم جاءوا للاستقرار.

مخلصا لقومه ودولته. وقد قبل شروط الصلح التي فرضها عليه الرومان ريثما أقدامه في المغرب وتحين له الفرصة لنقضها. ان روما عجوز هرمة فما ضر ان يكبل نفسه بقيودها. انه سيتمطى فيمزق كل القيود، ويركل العجوز ركلة تخرجها من المغرب. لقد قبل الشروط وهي:

1- ان يدفع جنسريق غرامة سنوية

2- لا يتجاوز ملكه حدود نوميديا الشرقية، وهي طبرقة.

3- يعطي ولده هنريق رهنا على الوفاء.

4- يعمل بهذه المعاهدة لمدة ثلاثين سنة

وقد نفذ جنسريق هذه المعاهدة أربع سنوات وتقيد بذلك القيد هذه المدة حتى وثق به إمبراطور روما ولنتنيانس الثالث فرد إليه ولده. فوجد جنسريق الفرصة لنقض المعاهدة والاستيلاء على الولاية الرومانية، وابتلاع المغرب كله.

ويلك أيتها العجوز الشمطاء! أيتها الشاة الجماء! جاءك سيد الذئاب، وجازر الغنم! فزحف جنسريق في سنة 439 على البروقونصولية وهي الولاية الرومانية أوتونس فاحتلها، فوزع أراضيها وبساتينها وأسلابها على الوندال، فامتلأت أيديهم بهذه الطرف، وغصت حلوقهم بهذه الحلاوة. ونام جنسريق قرير العين لأنه حقق المنى، وأدرك الغاية المثلى.

شدة العداوة بين الاريويين الوندال والكاثوليكيين الرومان

وكان الرومان على مذهب أريوس في النصرانية،[137] والرومان على مذهب الارتذوكس الكاثوليك. وكان الارتوذكس يعسفون الاريويين في أوروبا، ويرتكبون فيهم كل منكر، وكل فظيعة. فوجد جنسريق الفرصة فيهم، فانتقم من الارتذوكس الموجودين في المغرب، وسلط عليهم كل عذاب. وجاء أبناؤه سيما هنريق فواصلوا تنكيلهم بالارتذوكس، وتجاوزوا الحد حتى أنكر البربر فظائعهم فيهم، فآووا كثيرا منهم فحموهم من الوندال الغلاة. ومن الضحايا المضطهدين الذين فروا إلى البربر فآووهم القديس (فلقنس) الذي آوى إلى مملكة (تالة) البربرية فاحتمى بها فحمته.[138]

137 - الاريوسية مذهب في المسيحية يخالف الكاثوليكية. أنشأه أريوس المولود بالإسكندرية في سنة 280 وقد بدأ في نشر مذهبه في سنة 323 فانتشر واخذ به الوندال ونصروه.

138 - انظر خريطة الممالك البربرية في ص من هذا الجزء.

وكان البربر الدنتوسيون قد وجدوا الفرصة في أعدائهم الارتذوكس فنكلوا بعهم، وانتقموا منهم لفظائعهم الماضية فيهم أيام الرومان. وكانوا أيضا أوتاد الاستعمار في المغرب وحماته. وقد نفذ البربر في الارتذكس القوانين القاسية التي شرعها أباطرة روما لينفذها الارتذوكس في الدنتوسيين البربر «وتلك الأيام ندولها بين الناس» والغر الجاهل هو الذي لا يرى العواقب فيطغى. فيرى السلطان والقوة التي تطغيه، وهي سحابة فوق رأسه تظله سرعان ما تزول فتلفحه الظهيرة؛ يراها سقوفا من الفولاذ والاسمنت لا تزول.

مناطق النفوذ الوندالي بالمغرب

وكان الوندال قليلي العدد. ان عددهم نحو ثمانين ألفا. فلم يغمروا كل أنحاء المغرب الخصبة الغنية في الشمال كما فعل الرومان، بل اكتفوا بافريقية فحلوا فيها واقتسموها سيما شمالها ووسطها الغنيين. وبساحل المغرب الخصب، حلوا في بعض سهوله، وببعض المدن الكبرى، كما احتلوا بعض المراكز العسكرية في شمال المغرب فشحنوها بالجند. أما الجبال، والبوادي، والصحراء فإنها لم تعرفهم ولم يحدثوا نفوسهم بالاستيلاء عليها.

وكان جنسريق حازما طموحا. وكان يكره الرومان الكاثوليكيين، وأعداء الوندال القدماء، ويعرف شجاعة البربر وكرههم للمستعمرين فاحتاط من البربر، واستعد لغزو الرومان في عقر دارهم، والانتقام منهم فاعتنى بجيشه فأنشأ جيشا من الوندال والبربر المتطوعين يحتوي على ثمانين فرقة منظمة، مجهزة أحسن تجهيز؛ كما أنشأ أسطولا كبيرا استعد به لغزو الرومان في شواطئهم، ولغزو ايطاليا. وقد استطاع بحزمه وسياسته الرشيدة ان يستميل البربر وينال احترامهم وعونهم في حروبه مع الرومان، واستقراره بالمغرب.

ترحيب البربر بالوندال ليستعينوا بهم على الرومان

وكان البربر قد رحبوا بالوندال لأنهم عدو للرومان، فأعانوهم في حروبهم، ومهدوا لهم الطريق في الزحف عليهم. فاستطاع الوندال ان يحتلوا اغلب المغرب ويصلوا حدود نوميديا الشرقية في مدة قصيرة. فلو عارض البربر جنسريق أو خذلوه لثقلت خطواته في الزحف، أو يتوقف سيره في الغزو لقوة بونيفاس، وكثرة المراكز الرومانية القوية التي تعترض طريقه.

دهاء جنسريق ونجاته من ثورة البربر عليه

وكان جنسريق داهية. وكان يعلم ان البربر قد صمموا على الاستقلال وإنشاء دولتهم الحرة. وأنهم ما أعانوه في زحفه إلا ليحاربوا به الرومان. وأنهم سيثورون عليه ليتخلصوا من كل مستعمر في بلادهم. فشغلهم بالرومان. وانتفع بحقد البربر على الرومان في حروبه. فأطلق أيديهم في الرومان فقتلوهم كما شاءوا. ونكلوا بهم كما يريدون. وبقي عداء البربر متجها زمنا طويلا إلى الرومان. فغفلوا عن جنسريق فلم يثوروا عليه.

احتلال جنسريق لروما وتنكيله بالرومان

وكان جنسريق يرقب روما من قرطاجنة. فشاهد الفوضى المنتشرة فيها. وتناحر أبنائها على الملك والمال وتقاتلهم. فعلم انها لقمة سائغة قد تأججت عليها النيران فهيأتها للآكلين. فسار إليها في سنة 455م. في جيش من الوندال والبربر فاحتلها. وأغرقها في الدماء. ونكل بالرومان كل التنكيل. وأباح روما لجنده أربعة عشر يوما. فأدرك البربر ثأرهم من عدوهم. وتنفسوا الصعداء لما حققوا حلم حنبعل. ومرغوا امة الظلم في الهوان والمذلة في عقر دارها. وجاءوا بجماعة كبيرة من أعيان الرومان المتغطرسين أسارى في القيود إلى المغرب ! ومنهم الإمبراطورة ملكة الرومان وابنتاها !

سياسة الملك جنسريق الحسنة للبربر

وكان الملك جنسريق يصطنع رؤساء البربر. ويقربهم. ويغمرهم بالإجلال والاحترام. وكان لدهائه وذكائه يعلم ان البربر يملكهم من يحترمهم. ويخضعون لمن يجلهم. فاحترم البربر وقرب رؤساءهم. فأحبه البربر واجلوه. وسكنوا في عهده. وكان يشركهم في غنائم الحروب التي يخضونها معه. لا يفضل عليهم الوندال في شيء. وكان يعلم قوتهم. وشجاعتهم. وكفاءتهم الحربية فوجه عداوتهم للرومان. وفتح قلوبهم بالإحسان. واستطاع بدهائه وبراعته في السياسة ان يجعل حقدهم على المستعمرين الغزاة وبراكينهم لا تثور عليه.

وكان جنسريق لا يتدخل في شئون البربر الداخلية. وقد ترك لهم أراضيهم. وخفف عن البربر افريقية والسواحل التي خضعت له لضرائب. واكتفى من أهل المغرب بمسالمته والهدوء له.

الآثار الحسنة لجنسريق في المغرب

وكان جنسريق من المحسنين الذين تركوا في المغرب أعظم الآثار. وهي نشأة الممالك

البربرية التي نبتت في عهده في أنحاء المغرب وترعرعت. تلك الممالك التي حاول البربر إنشاءها في آخر العهد الروماني فلم يجدوا الجو اللائق. لغطرسة الرومان واستبدادهم. كما اقبل البربر على العمل. وانتفعوا بالهدوء الطويل في أيامه. فعمروا مدنهم التي خربتها الثورات. ونظموا صفوفهم وممالكهم الناشئة. واستعدوا للطوارئ. ولمحق من يحوم حول ممالكهم العزيزة عليهم.

وفاة جنسريق ومجته في الملك

وفي سنة 477م توفي الملك جنسريق. وكانت مدته في الملك بالمغرب 47 سنة ولما توفي لم يسلك أبناؤه وأحفاده الذين ورثوا ملكه طريقه. وحسن سياسته. ولا كانوا يتصفون بدهائه. وإخلاصه. وإحسانه إلى البربر. لقد ركنوا إلى لذاتهم وشهواتهم. فأفسدت الحضارة والنعيم المفرط أخلاقهم. فضعفت نفوسهم. وخمدت شجاعتهم. وداخلتهم الأنانية والحسد. فتقاتلوا على الرئاسة. واستولت عليهم العصبية الجنسية. فعسفوا البربر وظلموهم واحتقروهم. فثاروا عليهم. واختل النظام في المغرب. وأحس المغرب بالوندال طعاما مسموما في أحشائهم. فاهتزت فرائصه. عزم ان يقذفهم في البحر. فتوالت الثورات التحريرية على خلفاء جنسريق إلى ان زالت دولتهم من المغرب. وكان يقوم بتلك الثورات الممالك البربرية التي ترعرعت في عهد جنسريق واشتد ساعدها في عهد خلفائه. فانهالت عليهم بضرباتها. فأين نشأت تلك الممالك البربرية ومن ملوكها؟

الممالك البربرية في عهد الوندال

ان عوامل نشأة هذه الممالك قد تكونت في العهد الرومان، وتقوت في آخره. لقد عزم البربر ان يحيوا أحرار مستقلين، وينشئوا الممالك التي تسوسهم وتقودهم في النضال لتحرير المغرب كله. وما ثورات البربر على الرومان منذ القرن الثاني المسيحي إلى آخر عهدهم بالمغرب إلا محاولة من البربر لإنشاء تلك الممالك، ولكنها لم تجد الجو الملائم الذي تنبت فيه بالعهد الروماني. ولما زال الرومان، وجاء الوندال، وكان عددهم قليلا، فلم يستطيعوا الهيمنة على كل نواحي المغرب، سيما الجبال، وتولى أمور الوندال جنسريق فأحسن إلى البربر وهادنهم، وأرخى لهم الأعنة؛ وجد البربر فرصتهم فأنشأوا ممالكهم في كل أنحاء المغرب. وكانت عديدة، لان تعددها هو ما تستلزمه نشأة الدولة في أول أمرها. تكون قزعا[139] متفرقة ثم تجمع فتكون سحابا كثيفا يغطي السماء. ثم ان هذه الممالك تكونت في الجبال أو قريب منها. ان العدو الذي يخشون سطوته وعدوانه ما زال في المغرب وهو الوندال. انه يسيطر كثيرا من السيطرة على بعض المدن والسهول. فلا تمكن نشأة مملكة واسعة تبسط نفوذها على السهول فتكون دولة للبربر كلهم. فانحصرت تلك الممالك في الجبال أو حولها وتعددت. وكان إلى هذا ما جبل عليه البربر من حب الاستقلال، وإيثار المركزية في الحكم. لقد وافق هذا التعدد طبعهم في ذلك الوقت فكانت عليه ممالكهم.

وكانت الممالك البربرية الناشئة ثماني: مملكة هوارة ولواتة في شرق مدينة طرابلس وجنوبها الشرقي وملكها هو (قابايون)، ومملكة قفصة في جنوب افريقية وملكها لم يذكر لنا التاريخ اسمه، ومملكة الفراشيش في وسط افريقية، وعاصمتها هي تالة. وملكها هو (انطلاس بن غنفان) ومملكة النمامشة في شرق جبال آوراس، وملكها هو (قطزيناس)، ومملكة آوراس وملكها (بيداس). ويسمى أيضا (يوضاس) ومملكة الحضنة وملكها (ارتياس) ومملكة الجدار في جنوب شرشال وغربه بجبل شنوة، وجبال الظهرة، وجبال وانشريس. وملكها (ماستيناس) أو مصيناس. وكان الملك ماستيناس يلقب (بمالك البربر والرومان) وكان الرومان الذين بقوا في المغرب بعد زوال دولتهم يلتجئون إليه ليحتموا به من فتك الوندال بهم. وكانوا يخضعون له، ويعترفون بسيادته عليهم. وكان

139 - القزع قطع من السحاب الواحدة قزعة بفتح الزين.

من أقوى ملوك البربر. وارى انه من صنهاجة القبيلة البربرية الكبرى في شرق مدينة الجزائر.

ومملكة آلطاوة وصفار في جبال تلمسان، وملكها مازونة. وإذا استعنا بأماكن القبائل البربرية التي مرت في أول هذا الكتاب استطعنا ان نعرف القبيلة التي أنشأت المملكة ورأستها. ان الرئاسة لا تكون إلا في اكبر قبيلة بالمكان.[140]

وقد أنعشت هذه الممالك الأمة البربرية فرفعت رأسها، واسترجعت كثيرا من الأراضي الخصبة التي استولى عليها الرومان، وصار شعارها: ارض البربر للبربر ! وعزمت ان تموت فداء لوطنها، وتغسل بدمائها سواد الاستعمار عن المغرب الكبير.

ثورات الممالك البربرية على الوندال

وكان البربر يغلون حقدا على الوندال بعد جنسريق، فثاروا عليهم. وكان الذي يقوم بالثورات البربرية يقودها إنما هم ملوك الممالك البربرية.

وكانت مملكة جبال آوراس أول من ثار على الوندال وحاربهم، ودك معاقلهم العسكرية. وقد ثارت في سنة 477 بعد وفاة جنسريق، وثارت في سنة 484 في آخر عهد هنريق الغاشم السفاح. وقد نزلت جنود الملك بيداس وقومه من جبال آوراس فهجمت على المراكز العسكرية للوندال في تيمقاد، وباغاي، ولمبس في شمال آوراس، وتبسة، ووصلوا قريبا م قسطنطينة. فدمروا المراكز العسكرية في تلك المدن حتى لا تكون أوكارا للاستعمار يوجه منها ضرباته إليهم. كما زحفت جنود آوراس على السهول الخصبة في غرب آوراس فاستولت عليها.

وكانت ثورة آوراس في سنة 484 على هنريق السفاح أكثر عرامة، وواسعة. لقد شاركت فيها جبال جرجرة، وبقية الجبال إلى طرابلس، وانضم إليهم من أهل المدن الدونتوسيون، والارتوذوكس الذين كانوا يقاسون شر أنواع العذاب من هنريق. فكانت ثورة شاملة شارك فيها اغلب المغرب. فهزموا الوندال، وكسحوهم فانحصروا في الساحل،وبعض المراكز الحربية المنيعة في الداخل. فانفسح المجال للممالك البربرية بانقشاع الوندال من حولها.

وقد استمرت هذه الثورة في عهد غاثاموند خليفة هنريق فلم يستطع إخمادها.

140 - اغلب نصوص هذا الفصل الممالك البربرية من مدينة المغرب العربي بتصرف في العبارة ج 1 ص 383 ط تونس

ثورة راكبي الجمال الجيتوليين على الوندال

وكانت القبائل البربرية في جيتولية تؤيد ثورات الشمال وتمدها بالجند الكثير، وبالسلاح، سيما براكبي الجمال فتنهزم أمامها أو تأتي الهجوم عليها. وقد أغنى هؤلاء الجنود في المعارك الكبرى التي لم يستعمل البربر فيها أسلوب العصابات، بل كانوا يلتقون بالوندال في السهول فيهزمونهم.

وكان الجمل قد دخل إلى المغرب وانتشرت في الصحراء منذ عهد البونيقيين كما أرى أو قبل ذلك ان وطن الجمل هو جزيرة العرب. وهذه قد تعرف إليها البونيقيون في رحلاتهم التجارية ونقلوا منها النخيل إلى المغرب. فما كانوا ليغفلوا عن الجمل وهو عدة التجارة الكبرى في الصحراء فلا ينقلونه إلى المغرب، أو قبيلة لونه وهوارة في برقة وطرابلس. وكانت صلتهما وثيقة بمصر. ولا يمكن ان تغفلا عن امتلاك الجمال الموجودة في بادية مصر والشام منذ زمن بعيد، وهي سفن الصحراء التي يجوبونها في أسفارهم.

ليس الرومان هم الذين نقلوا الجمل إلى المغرب، لأنهم لم يجوبوا صحاريه فيحتاجون إليه. وإنما الذي نقله هم البربر أو البونيقيون. وكان الجمل منتشرا في القرن الخامس بالمغرب. وكان الجيتيوليون يدربونه للحروب، وكانت لهم مهار كما نرى إلى اليوم في قبائل الصحراء، تقوم بهم في الحروب، وتفرع خيل الوندال بمنظرها ورغائها، وتطؤها بمناسمها أيضا فتفر.

ومن ثروات البربر الكبرى التي أغنى فيها الجمل غناء كبيرا ثورة ملك هوارة ولواتة (قبايون) هجم على الوندال في عهد (غاثاموند) ملكهم فدارت بينهم معركة كبرى بين طرابلس وقابس انهزام فيها الوندال شر هزيمة، فطاردهم (قبايون) فاستأصلهم عن أخرهم وكان الجمل من أسباب انتصار قبايون مع شجاعة البربر وبطولة قائدهم (قبايون) ودهائه. وقد وصف المؤرخ البيزنطي (ابروكوب) هذه المعركة فقال:

«كان جنود (قبايون) ينتظرون أعداءهم في معسكر مستدير لم يكن جداره سدا من التراب، بل كان خطا دفاعيا حيا من الجمال متلاحما في (عرض) أثنى عشر بعيرا. وفي داخل الدائرة حشدت النسوة، والأطفال، والشيوخ، والقبيلة كلها مع المؤن والذخائر والأموال، والخيام والأمتعة. وأما المقاتلون فقد انثبوا في محيط الدائرية بين الجمال. وكانوا إذا نظروا خلفهم إلى أهلهم وأموالهم وبيوتهم يزدادون إيمانا بان المعركة إنما هي مسألة حياة أو موت فيستميتون في القتال».[141]

141 - مدينة المغربي ج 1 ص 389.

ومن ثورات الممالك البربرية على الوندال ثورة (انطلاس) مالك مملكة الفراشيش في وسط افريقية، واراه من قبيلة نفزاوة القوية. كانت ثورته في عهد هلدريق الذي تولى الملك من سنة 523 إلى 531 فنزل المالك انطلاق من جباله فانضمت إليه لواته من مملكة طرابلس فاشتبك بجيوش الوندال فهزمها، فاستولى على ساحل افريقية إلى شمال سوسة. فظل الساحل الخصب الجميل في قبضته إلى سنة 546 في عهد البيزنطيين وهذا يدلك على قوة هذا الملك ودهائه. انه لو كان هو وقومه (جماعة من المخربين) كما وسفهم الأخ احمد صفر ما أبقى عليهم البيزنطيون الذين جاءوا لاحتلال الساحل الغني الجميل، وما دام الساحل المتحضر ساكنا لهم كل هذا الأمد من السنين.

ان عيب بعض مؤرخنا المغاربة هو إنهم لا يعملون عقولهم في التاريخ فيدركوا حرد الأوروبيين على أجدادنا وثوراتنا، ويدركوا أكاذيبهم على المغرب الذي ثار على استعمارهم فيفندوها، وينصفوا أجدادهم، ولكنهم يغمرون بوجدان أساتذتهم الأوروبيين المتعصبين، فتراهم يكتبون بحردهم عن أجدادهم البربر، فيصفعون وجوههم ويفقؤون عيونهم بأصابعهم، ويرددون أكاذيب الرومان وأحفادهم على أجدادهم البربر فيصفونهم بالقرصنة ! وبالهجمية ! وبأنهم بداة متوحشون لا يمكن التفاهم معهم ! إلى غير ذلك مما نقله أخونا احمد صفر من ترهات المتعصبين في هذا الباب في الممالك البربرية، فشان بها كتابه النفيس، ووضع نفسه -وحاشاه- في صف المقلدين الذين تملؤهم المدارس الاستعمارية بما تشاء، فيرددون ترهاتهم في مغربنا وأجدادنا !

خلفاء جنسريق في الملك

وكان الملك وراثيا عند الوندال . ولما توفي جنسريق خلفه في الملك أبناؤه وأحفاده وهم:

1- ابنه هنريق من سنة 477 إلى 484 ومدته في الملك سبع سنين.

2- حفيده غاثاموند بن جانسون من سنة 484 إلى 496 ومدته في الملك اثنا عشر عاما.

3- حفيد جنسريق واخو غاثاموند (تراسمند) من سنة 496 إلى 523 ومدته في الملك تسعة وعشرون عاما.

4- هلدريق بن هنريق من 523 إلى 531 ومدته في الملك ثمانية أعوام.

5- جملير وهو حفيد جنصون بن جنسريق من سنة 531 إلى عام 534 ومدته في الملك أربع سنين.

ثورة الوندال على ملكهم هلدريق وخلعه وقتله

وكان هؤلاء الملوك كلهم على العداء والقطيعة للدولة البيزنطية إلا هلدريق خامس ملوكهم فقد كان مسالما لها. فأعلن دخول الدولة الوندالية تحت طاعة بيزنطة. فضرب السكة باسمها. فثار عليه الوندال فجعلوه ثم قتلوه. فنصبوا جملير ملكا عليهم.

هجوم البيزنطيين على الوندال وزوال دولتهم في المغرب

وكانت الدولة البيزنطية تبحث عن سبب للهجوم على الوندال واسترجاع المغرب منهم. فلما خلعوا حليفهم وصديقهم هلدريق ثم قتلوه، وجدت السبب، فأعلنت الحرب على الوندال. وكان الوندال في حرب خارجية في جزيرة سردينية، وفي حرب داخلية كبيرة مع الملك (انطلاس) في ساحل افريقية، فوجد البيزنطيون فرصتهم في الوندال فأسرعوا الغزو افريقية قبل ان يرجع أسطولهم وجيشهم من سردينية وتهدأ حربهم مع البربر، فلا يستطيعون التغلب عليهم. فأرسل ملك بيزنطة يستنيان «قائده بليسير في جيش عدد جنوده خمسة عشر ألفا ثلثهم فرسان في أسطول يتركب من خمسمائة سفينة، وركبت معه زوجته وكاتبه المؤرخ (ابروكوب) فاقلع بليسير إلى المغرب في صائفة سنة 533، فأرسى بخليج قابس»[142] فزحف على الساحل الشرقي لافريقية فاحتل حضرموت (سوسة) ثم اصطدم بالوندال فهزمهم، وقضى على دولتهم.

انقراض دولة الوندال في المغرب ومدتها

وكان القضاء على الدولة الوندالية في المغرب في سنة 534م وكانت مدة دولتهم ببلادنا قرنا وخمس سنين. أما في افريقية وطرابلس فمدتهم فيها خمس وتسعون سنة فقط من سنة 4396 إلى عام 534 وعدد ملوكهم في المغرب ستة. أولهم جنسريق وآخرهم جملير.

وكان الوندال امة حربية بسيطة لا حضارة لها. وقد اخذوا في المغرب بنظم الرومان السياسية والإدارية. وقلدوهم في حضارتهم. ولما زالت دولتهم من المغرب زالت كل آثارهم. وكان البربر يكرهونهم كما يكرهون الرومان. وقد اجمع الأمازيغ على تحرير وطنهم من المستعمرين. فلو لم يقض البيزنطيون على الوندال لقضى عليهم البربر.

وكان البربر قد نهضوا نهضتهم الكبرى في عهد الوندال. ورفعوا رءوسهم فلم

142 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 268 ط بيروت.

يخفضوها لمستعمر بعد الرومان، وانتعشوا، وتكونت لهم ممالك وجيوش، وملوك بارزون يسوسونهم ويوحدون كلمتهم. وكانوا يحاربون الوندال بالمصافة ويخوضون معهم المعارك الفاصلة. لا يستعملون حرب العصابات، وذلك لقوة جيوشهم. ولما جاء البيزنطيون كان المغرب على استعداد كبير للدفاع عن نفسه. فهب لخوض المعارك مع المستعمرين الجدد الطامعين الذين قذفت بهم بيزنطة إليه.

لقد أسرف الرومان وأحفادهم الأوروبيون في تصوير الوندال بالمغرب في صورة بشعة، وبالغوا في تهجينهم، ووصفهم بالظلم والجبروت، وذلك للعداء القديم الموروث بين الجنسين. وإلا فاستعمار الوندال بعد جنسريق للمغرب كاستعمار الرومان والروم، كله سواء، لا يزيد الوندال عليهم بشيء في الفظاعة والجبروت.

ان المغرب قد نهض وانتفض انتفاضته الكبرى ليتنظف من كل القمل الذي يمتص دماءه. فكيف كان موقف الأمازيغ الأباة مع البيزنطيين المعتدين؟

وكيف كانت معاملة بيزنطة لهم؟ ومتى نشأت هذه الدولة التي أعادت الجراد الروماني إلى المغرب.

العهد البيزنطي بالمغرب

534م – 647م

نشأت الدولة البيزنطية 330م

الدولة البيزنطية هي امتداد للدولة الرومانية فهي جزء منها. لا يفرق بينهما إلا اختلاف العاصمة. فالدولة البيزنطية كانت عاصمتها في المشرق لا في المغرب. وسكان العاصمة ونواحيها اغلبهم من الإغريق لا من الطين كما هو في رومة ونواحيها. وكان الذي انشأ هذه الدولة بتكوين عاصمة جديدة في المشرق للرومان هو قسطنطين الأكبر في سنة 330 من ميلاد المسيح عليه السلام.

وكان الرومان في القرن الرابع قد دخلوا في شيخوختهم المزمنة، فكثرت أمراضهم النفسية، وتوالت الفتن والمذابح في روما بسبب المنافسة على الرئاسة، والتحاسد على المال، والتعادي من اجل الدين. ان الطبقة المتوسطة والفقيرة في ايطاليا قد رحبت فئة منها بالدين المسيحي، ولكن الطبقة الغنية الحاكمة فيها وجمهور الدهماء لا زالوا يعملون لخنق أنفاسه، وإطفاء أنواره، واضطهاد أصحابه والمبشرين به. فوقعت فتن كثيرة سالت فيها الدماء الغزيرة بسبب الدين.

ولاية قسطنطين الأكبر رئاسة الدولة وإصلاحه وشخصيته العظيمة

وفي سنة 324م تغلب قسطنطين على منافسه في رئاسة الدولة فأصبح هو الإمبراطور الوحيد للدولة الرومانية.

وكان قسطنطين من الرجال العظماء، ومن القادة المخلصين، ومن الزعماء المجددين. فهو الذي أنقذ الدولة الرومانية من السقوط، ومكنها من أسباب البقاء طويلا، واستئناف عهد جديد، وعمر مديد في المشرق.

قال المؤرخ الكبير ه.ا.ل فشر:«كان قسطنطين ابنا غير شرعي لضابط روماني يرجع أصله إلى إقليم إيلليريا، من صاحبة حانة بمدينة (نيش) بالصرب الحالية. وتولى أبوه الإمبراطورية على النظام الدقلديانوسي. فلما مات بمدينة (يورك) ببريطانيا نادت حاميتها الرومانية بقسطنطين إمبراطورا سنة 306م».[143]

وكان قسطنطين يعطف على المسيحية، ويرى المسيحيين قوة في أوروبا يمكن

143 - تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ج 1 ص 4 ط دار المعارف بمصر 1950م

الاعتماد عليهم في دحر منافسيه على الرئاسة فاستعان بهم فنصروه وبلغ مناه، فكان هو إمبراطور الدولة الوحيدة. وكان قسطنطين معجبا بالدين المسيحي لمبادئه الحسنة، محبا للمسيحيين لنصرتهم له، ولكنه لم يتظاهر بالدين المسيحي خوفا من ثورة الارستقراطيين والوثنيين عليه وهم الكثرة في الدولة. فاكتفى بالعطف على المسيحيين. وظل لدهائه يقف موقفا بين المسيحية والوثنية ليرضى الطرفين.

قال الأستاذ ه.ا.ل فشر :»ان الإمبراطور قسطنطين لم يعتنق المسيحية رسميا،ولم يسمح بتعميده إلا وهو على فراش الموت سنة 337م. ثم قال: كان الإمبراطور يؤمن بالمسيح وباله الشمس القهار، فحبا المسيحيين بكثرة من التسامح على حين احتفظ لنفسه بمنصب الكاهن الأعظم، وهو المنصب الإمبراطوري في الوثنية الرومانية. ثم ان العملة أيام قسطنطين ضربت وعلى وجه منها الصليب، وعلى الوجه الآخر شعار عبادة الشمس».[144]

وكان قسطنطين غيورا على الدولة فأراد إصلاحها في رومان، فوجد ان جناحها الغربي قد أودى به الهرم فلا أمل في تجديده وإصلاحه. وكان هو من أبنائه البلقان فنزع به حب الوطن إلى الجناح الشرقي للدولة، فعزم إنشاء عاصمة تنسب إليه كما نسبت روما إلى روملوس، والإسكندرية إلى الإسكندر. ان الناحية الشرقية للدولة لا زالت على كثير من متانة الأخلاق، وفيها شبان كثيرون أشداء يستطيع ان ينشئ منهم جيشا قويا يطبعه. وهي أيضا أصلح مكان لاستقرار الحكومة لتدافع القوط الذين يهددون الدولة الرومانية من نهر الدانوب، والفرس الذين ينافسونها ويحاولون القضاء عليها في المشرق من العراق.

كانت هذه هي الأسباب التي جعلت قسطنطين ينشئ عاصمة جديدة للدولة الرومانية في المشرق. فاختار بيزنطة التي نسبت إليها الدولة فجعلها عاصمته، ونسبها إليه فسميت القسطنطينية. وقد دام هذا الاسم إلى ان فتحها القائد التركي الكبير محمد الفاتح في سنة 857 هـ 1453م. فسماها اسلامبول (مدينة الإسلام) ثم غير هذا الاسم فصار اسطمبول وهي المدينة المعروفة اليوم بهذا الاسم في تركيا.

وكان قسطنطين قد اختار بيزنطة لتوسطها بين الشرق والغرب، ولقربها من نهر الدانوب ونهر الفرات حيث أعداء الدولة، ولموقعها الستراتيجي. انها على مضيق البسفور الذي يصل بين البحر الأسود وبحر مرمرة المتصل بالبحر الأبيض المتوسط. وقد

144 - تاريخ أوربا في العصور الوسطى ج 1 ص 7-6

جد قسطنطين في بناء عاصمته فنقل إليها البنائين والفنانين فجعلها تداني روما في البنايات الجميلة، وفنون الحضارة، وكل المرافق التي تستلزمها عاصمة الدولة الكبيرة.

وقد ظلت بيزنطة هي العاصمة الكبرى للدولة الرومانية كلها حتى انقسمت الدولة بعد قسطنطين في سنة 395 فصارت روما عاصمة القسم الغربي للدولة، والقسطنطينية هي عاصمة الجزء الشرقي. فاضمحل الجزء الغربي ومات، وبقي الجزء الشرقي الذي صار العرب يسمون أهله (الروم) فثبت لهم هذا الاسم في التاريخ العربي وورد في القرآن الشريف. وقد تجددت الدولة الرومية بفضل قسطنطين ومن جاء بعده من الأباطرة الأكفاء، سيما الإمبراطور جستيان الذي هادن الفرس وصالحهم بدفع احد عشر مليونا من الفرنكات الفرنسية الغالية ليتفرغ لحرب الوندال، واسترجاع صقلية وسردانية والمغرب منهم، وكل ما كان تابعا للإمبراطورية الرومانية فانفصل عنها.

غزو الروم للمغرب

كان جستيان يطمع في خيرات المغرب وكنوزه. وكانت الحروب مع الفرس قد أرهقته وأفرغت خزائنه. فعزم على غزو المغرب واسترجاعه ليملأ من خيراته خزائنه، ويجعله لدولته ثديا رويا ترضعه. كما كانت عداوته للقوط والوندال وهيب عداوة موروثة بين الرومان والقوط والوندال الذين هم قسم من القوط؛ كانت تلك العداوة تدفعه لغزوهم وتجريدهم من المستعمرات.

وكان جستيان مسيحيا، كاثوليكيا متحمسا. وكان يتعصب للارتذوكس فعلم ما يلاقيه أهل مذهبه في المغرب من تنكيل وانتقام من الوندال الاريويين. فعزم على إنقاذهم، واسترجاع المغرب لينتقم لهم من الوندال.

ان هذه العداوة المذهبية والجنسية بين الروم والوندال من الأسباب التي جعلت جستيان يضطرم غيظا على الوندال الجرمانيين، ويرى حربهم واجبا دينيا عليه. فهادن الفرس وصالحهم ليتفرغ لحرب الوندال.

وكان جنسريق يرقب الفرصة لاسترجاع المغرب ودحر الوندال حتى واتته في سنة 532 وذلك ان الملك انطلاس والملك قابايون البربريين ثاروا في آخر عهد هلدريق على الوندال فهجما عليهم بجنودهما الباسلة وأرهقا الوندال بشدة الحروب. ثم ثارت عليهم سردانية، فأرسل الوندال إليها أسطولهم وقسما كبيرا من جيشهم لإخضاعها.

ثم ثارت عليهم صقلية أيضا. فأرسل الملكان انطلاس وقابايون والثوار في صقلية إلى جستنيان يستنجدون به. وكان الوندال مفترقين. قسم يؤيد هلدريق المخلوع ويتشيع له. وقسم مع جملير. فوجد جستنيان فرصته لاسترجاع صقلية والمغرب معا. وعلم ان البربر سيشغلون جملير وجيشه، فيستطيعون النزول في المغرب، وضري الوندال الضربة القاصمة التي تقضي عليهم.

وكان وزراء جستنيان يقنون بان البربر بعد ان نشأت ممالكهم، واسترجعوا قوتهم لا يمكن ان يخضعوا لهمن، وان الخسائر في احتلال ما يستطيعون احتلاله من المغرب أضعاف الربح، ولكن الغيرة على الاورتذوكس وحب الانتقام من الوندال،واستفزاز الأساقفة الارتذوكس، وتحريضهم على الانتقام من الوندال الاريويين، وتخليص أتباع مذهبهم في المغرب، جعل جستنيان يصر على غزو المغرب رغم ما فيه من خسائر مادية وبشرية ومتاعب.

وكان بليسير من حاشية جستنيان وأصدقائه. وكان ذا دهاء وشجاعة، وغيرة على الاورتذوكس. وكان الجند يحبونه. فاختاره جستنيان لقيادة الجيش وغزو صقلية والمغرب «فاقلع في 22 يونيو سنة 533 في جيش يشتمل على خمسة عشر ألفا ثلثهم فرسان في أسطول يتركب من خمسمائة سفينة. وركب معه زوجته وكاتبه المؤرخ بروكوب».

وكان وصول البيزنطيين إلى المغرب في يولية من هذا العام. فقصد بليسير خليج قابس الذي كان في قبضة الملكين البربريين قابايون وانطلاس، وكذلك ساحل افريقية الجنوبي كله إلى جنوب ليبتيس (لمته) فزحف بليسير في جيشه فاحتل حضرموت. فقصد قرطاجنة ليحتلها فتصدى له جملير في جيشه فوقعت المعركة الفاصلة بينهما في 13 سبتمبر سنة 533 في مكان (أريانة) قريبا من مدينة تونس. فانكسر الوندال فاستولى الروم على قرطاجنة وجعلوها عاصمتهم. ثم سار بليسير وراء جملير يطارده حتى استسلم له في العام التالي 534 فانتهت بذلك دولة الوندال بالمغرب وحل الروم محلهم.

وكان بليسير قد أطلق أيدي الاورتذوكس في الوندال وأيدي جيشه، فقتلوا منهم عددا كبيرا «ومن بقي من رجالهم وشبابهم، وعددهم عشرون ألفا أخذهم إلى بيزنطة بصفة جنود عبيد فأرسلوهم إلى حدود فارس. أما نساؤهم وبناتهم فقد وقع توزيعهن على جنود الروم»[145] فانقرض بهذا جنس الوندال من المغرب بعد زوال دولتهم بزمن يسير.

145 - قرطاجنة في أربعة عصور للأستاذ احمد توفيق المدني ص 146 ط تونس.

مناطق النفوذ البيزنطي في المغرب

كان المغرب قد عزم على الاستقلال، والتخلص من كل أجنبي يستعمره. وكانت الممالك البربرية في أنحاء المغرب الأدنى والأوسط قد اشتد ساعدها، وسيطرت على نواحيها، فلم يعد للروم مجال واسع للاستقرار والتسلط. كما كانت الطرق البرية إلى النقط التي احتلوها في الساحل تسيطر عليها الممالك البربرية. وكانوا لا يسيرون إليها إلا من جهة البحر.

ان كل ما استطاع الروم ان يحتلوه ويستقروا فيه زمنا إنما ما كان في أيدي الوندال ولم يثر عليهم. لان اغلب سكانه من الرومان أو من البربر الذين قتلتهم الحضارة. وهذه الأماكن هي قرطاجنة ونواحيها، وبعض المراكز الحربية في شمال افريقية. أما الساحل من جنوب حضرموت إلى غرب لبدة في طرابلس فكان مستقلا تحت الملك قابايون، والملك انطلاس.

وكان الملك انطلاس ممن أعان الروم على الوندال: وقد افتك من أيدي الوندال ساحل افريقية في الوسط والجنوب فبقي فيه إلى ان ثار على الروم في سنة 546.

لم يحتل الروم من المغرب إلا المدن الكبرى، والمراكز الحربية الحصينة في الساحل. وكانوا يحصنون المدن التي ينزلونها بالأسوار المنيعة، ويشحنونها بالجند الكثير، ويعيشون فيها خوف من ثورات البربر العارمة، وهجمات الممالك البربرية التي تنظر إليهم بعين النسر، وتراهم دملا خبيثا نبت في جلد المغرب لابد من إزالته. وكان نفوذهم في شمال افريقية أقوى، ثم يتضاءل في نوميديا، ويزداد تضاؤلا في الموريطانيتين سيما الغربية.

ومن مراكز الروم العسكرية الكبرى في المغرب، لبدة في شرق طرابلس، وقفصة في الجنوب الغربي لافريقية، وقرطة في نوميديا، وقيصرية (شرشال) في موريطانيا الشرقية، وسبتة في موريطانيا الغربية. كانت هذه المدن الكبرى في قبضتهم. وهي التي استطاعوا البقاء فيها طويلا لمنعه أسوارها، وكثرة جندهم بها.

ومن المدن التي استقر بها الروم في شمال افريقية واتخذوها مراكز عسكرية تحميهم من غارات البربر، وتبرسق، وباجة.

أما نوميديا فالمدن التي احتلوها أيضا فتبسة، وتمقاد، وباغاية، وقالة، ومدوروش، وسطيف، وميلة، وقرطنة (تنس) في موريطانيا الشرقية. ولا تزال بعض آثار الأسوار التي حصنوا بها هذه المدن باقية إلى الآن.ويبلغ ارتفاع بعض الأسوار عشرين ذراعا، وعرضه ستة اذرع.

هذه هي أهم المدن التي احتلوا في المغرب. وكان احتلالهم لقيصرية، وقرطنة تنس، وسبتة وغيرها من مراكزهم الحربية على الساحل من جهة البحر لان الطريق البري إليها في قبضة الممالك البربرية التي لم ترض غزوهم للمغرب.

كان الوندال أوسع رقعة في المغرب واشد تمكنا، وأكثر استقرارا، وأقوى جولة فيه من الروم لان البربر كانوا أكثر كرها للروم. وكانت ثوراتهم عليهم اشد وأكثر. ثم ان الوندال كانوا أقوى شباب واصح نفوسا من الروم.

كان استيلاء الروم على المغرب قد اقتصر على بعض المدن الكبرى، وبعض القواعد في السواحل، والمراكز العسكرية التي ذكرنا وهو شيء ضئيل جدا بالنسبة لرقعة المغرب الكبير الواسعة. فكيف كانت سياسة الروم للبربر وبقايا الوندال في هذه المدن والمراكز التي يحتلونها.

سياسة الروم في المغرب

كان الروم يحكمون المغرب حكما عسكريا غاشما. «وكانت السلطة العسكرية في يد بطريق مقره قرطاجنة، ومعه رئيس أركان حربه وعدد كبير من أفراد هيئة الإدارة الحربية».

وكان الروم كالرومان في الغطرسة والجبروت والظلم والأنانية والتكالب على المال، وابتزاز البربر وامتصاص دمائهم بكل وسيلة. ان قسطنطين وجستنيان إذا استطاعا ان ينفخا في الدولة النشاط والقوة بزعامتهما، وبالدماء القوية التي طعمت بها الدماء الرومانية الواهنة، فان جراثيم الهرم ظلت باقية في عروق دولة الروم. وأمراض الرومان سرعان ما أصيبت بها فكثرت مشاكلها، واشتد شقاء الشعوب المستعمرة بها.

تعصب الروم المذهبي وفظائعهم في الوندال والبربر المسيحيين

وكان الروم قد هبوا لغزو المغرب والاستقرار فيه بعامل الدين، وعامل المال إنهم يريدون نصرة الارتذوكس أهل مذهبهم الذين ينتقم منهم لفظائعهم الماضية الاريويون الوندال، والدنتوسيون البربر. فما ان وصلوا المغرب حتى أطلقوا أيديهم وأيدي الارتذوكس الموجودين من قبل في المغرب في الاريويين، والدنتوسيين واليهود، فنكلوا بهم، وارتكبوا فيهم كل الفظائع ! فاشتعلت الفتنة المذهبية في المغرب فتأجج نارا، ولم يقر لمناطق النفوذ الرومي قرار بسبب هذه الفتنة. ان البربر ثابتون على مذهبهم لا يمكن ان ينسلخوا

منه، وهم أقوياء أيضا تشد أزرهم ممالكهم المستقلة القوية، فلا يمكن ان يخضعوا ويستسلموا. لا يكيل لهم الارتذوكس صاعا إلا ويردوا عليهم بضعف ما أصيبوا به. فاستعرت تلك المناطق نارا بسبب تعصب الروم المذهبي. ان التعصب المذهبي الممقوت هو أم الفتن والحروب الطويلة التي تنهك الدول القوية وتقضي عليها. وما أصيبت دولة بالتعصب المذهبي الخبيث إلا كان الله قد حشاها بالديناميت الذي يصدعها ويقضي عليها !!

وكان الإمبراطور جستنيان قد اصدر قانونا لتعصبه لمذهبه يقضي «بان المذهب الكاثوليكي هو الدين الرسمي لبلاد المغرب».

«وفي سنة 535 انتزعت الدولة الرومية من الاريويين، والدونتوسيين، واليهود جميع أملاكهم، وجردتهم من حماية القانون، وحجرت عليهم العمل بمذهبهم، وعزلتهم مما كان لهم من المناصب».

«واعترف جستنيان للكنيسة الارتذوكسية بحق مراقبة المدن وإدارة العمالات فلم تقف الكنيسة عند حد مراقبة الولاة وأهل الوظائف السياسية، بل صارت تأمرهم وتتدخل في جميع الشئون الدولية سياسية كانت أو مالية، أو إدارية أو حربية فكان من الأساقفة والقسس من يشتغلون ببناء استحكامات حربية. وصار البابا برومة يرسل أوامره للقواد والولاة. قال اغسال: وغمرت قوة الكنيسة قوات جميع المتوظفين»[146] في هذا الجو الكنيسي المتعصب الحقود على البربر الدونتوسيين، وعلى الاريويين كانت تعيش المدن التي استولى عليها الروم في المغرب

ابتزاز الروم لأموال البربر بكل وسيلة

وكان الروم قد أفقرتهم حروبهم مع الفرس، وما يدفعونه إليهم من مال كثير للصلح الذي عقدوه معهم ليتفرغوا لغزو المغرب، فجاءوا إلى المغرب ودولتهم تتأجج حرقة إلى المال، ففرضت الضرائب الفادحة على البربر، واتخذت كل وسيلة للحصول على كل شيء من المال يستطيعون اعتصاره من البربر. فاشتدت وطأة الدولة الرومية على البربر، فكان هذا مع التعصب المذهبي من أسباب الثورة التي اندلعت من كل أنحاء المغرب على الروم.

وكان الموظفون الروم يبتزون لجيوبهم كل ما استطاعوا استخراجه من مال البربر. وكان الجنود ينهبون. وصار الرومان في المغرب حكومة وشعبا علقا ناشبا في حلق البربر

146 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 275 ط بيروت.

لا وظيفة لهم إلا امتصاص الدماء.

قال بيروني:»واتفق المؤرخون ان سياسة البيزنطيين مع الأهالي سيئة. وقد أرهق هؤلاء الولاة الأهالي بالضرائب الفادحة. وزاد في فداحتها جور المستخلصين لها. وعلاوة على ذلك كله كانت الجنود تماطل في أعطيتها، فتستخلصها من الأهالي»[147]

عموم الفوضى والخراب بالمناطق الرومية في المغرب

«وقد تكونت الفوضى وعمت من ذلك البؤس، ومن فقد الإخلاص، سواء من الجنود لرؤسائهم، أو من الرؤساء لدولتهم فقال بيروني:في ابتداء القرن السابع لم تبق إدارة ولا هيئة اجتماعية، وبلغت الفوضى السياسية غايتها».[148]

وقال بيروني أيضا: القرن الرابع الذي سقطت فيه حكومة روما، والقرن الخامس الذي استولى فيه الوندال، والقرن السادس الذي مكن فيه البيزنطيون نفوذهم بافريقية هذه القرون كانت قرون أهوال وحروب مبيدة. ثم قال:وقد كانت هذه القرون علة في مرض افريقية مرضا اجتماعيا واقتصاديا. ذهبت الفنون الجميلة، وعطلت الأراضي الفلاحية، وتنوسيت الأساليب العلمية، وتكاثرت اللصوصية، حتى صار الناس يفزعون إلى الغابات، ويختفون بالشعاب، وتعطلت التجارة، وخشي الناس المجاعة !».[149]

هذا هو الجو المحموم الذي خلفه الروم في المغرب بتعصبهم المذهبي، وبظلمهم، وجشعهم، وغطرستهم، فعم الخراب والفوضى للنواحي التي يسيطرون عليها. وكانوا هم السبب في هذا لا البربر كما ادعى بعض المؤرخين الأوروبيين، ونقل أقوالهم الكاذبة بعض مؤرخينا المغاربة بدون ان يفندوها، فناقضوا أنفسهم، وعقوا مغربهم وأجدادهم!

كانت تلك النواحي المغربية قبل مجيء البيزنطيين عامرة تفيض بالخيرات، وتتأجج بالنشاط والعمل. فلما جاء البيزنطيون عمها الخراب والفوضى. وهم السبب في ذلك لا البربر. فلو كان البربر هم السبب لحدث ذلك قبل مجيئهم، ولا تصل بعد ذهابهم.

قال مرسى:»كان بروكوب المؤرخ البيزنطي لما نزل افريقية مع بليسير قد دهش من عمرانها، ونشاط تجارتها، ونفاق أسواقها، وازدهار فلاحتها، ولكن بعد عشرين عاما لم يبق شيء من ذلك. وعم الخراب جميع افريقية. ويقال ان الحروب حكومة جستنيان

147 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 277-276 ط بيروت.
148 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 277-276 ط بيروت.
149 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 277-276 ط بيروت.

أرزأتا افريقية خمسة ملايين من الأنفس» لقيت حتفها في الحروب المذهبية، والمعارك الاستعمارية التي ما فتئ الروم يشنونها على البربر ومخالفيهم في الدين.

قال بيروني:»ومن المحقق ان الولاة البيزنطيين كانوا قساة أصحاب مطامع».

وكان البربر لا يزالون يتألمون من ويلات الاستعمار الروماني، وجحيم ظلمهم وغطرستهم الذي توالى قرونا، فاطفأوه بدمائهم. وها هو يعود إليهم في جلود أحفادهم الروم. فثارت ثائرة المغرب وعزم على التخلص منهم. فرفعت ممالكهم الراسية الأوتاد الباسلة راية الثورة عليهم. فانضوت النواحي تحت راية ممالكها فجالدت الروم وخاضت معهم معارك طاحنة. فلو اتحدت تلك الممالك وفاضت صفا واحدا ومرة واحدة على الروم لقذفتهم في البحر، ولكنها لم تتحد. فاستمرت الثورات العنيفة عليهم إلى ان زالت دولتهم من المغرب.

ما هي الممالك التي ثارت على الروم ونغصت عيشهم في بلادنا ومرغتهم في النجيع؟

ثورات الممالك البربرية على الروم

كان البربر منذ القرن الرابع قد كمموا على الاستقلال، وعزموا على تظهير المغرب من المستعمرين. ولما جاء الروم هادنوهم ريثما يقضون على الوندال العسكريين الأقوياء، وثم يثورون عليهم فيتخلصون منهم.

وما كاد بليسير ينتهي من حروب الوندال ويرجع إلى صقلية في سنة 534 حتى ثار البربر على الوالي الرومي في افريقية «صولومون» أو سليمان الخصي كما يسميه بعض المؤرخين العرب، واشتعلت الثورة على الروم في كل نواحي المغرب التي يوجدون فيها. وانقض البربر في سنة 535 على المراكز الرومية في نوميديا، وموريطانيا الشرقية، وفي افريقية، فاحتلوا كثيرا منها، فتكوا بالروم فتكا ذريعا. واستمرت الثورات البربرية لم تهدأ ولم تنكف إلى ان زالت الدولة الرومية في المغرب. وكانت أيام الروم في المغرب حمراء بنجيع قتلاهم الكثيرين، وزمانهم كله جروح بثورات البربر التي لا تمهد في ناحية حتى تشتعل عليهم في ناحية أخرى. وكانت الغلبة في أكثر الحروب للبربر، ولشجاعتهم، وتنظيم ملوكهم لتلك الثورات وقيادتها.

وكان الذي يقود تلك الثورات البربرية هم ملوكهم، والذي يشعل نارها، ويكون قطب معاركها إنما هي ممالكهم، فيهب البربر في المدن والقرى لتأييدها، وشد أزرها، والتطوع

للقتال معها. وكانت الممالك البربرية الشرقية المتصلة بافريقية، القريبة من قرطاجنة، حيث العدد الكثير من الروم، وحيث غاصت عروقهم التي يسعى البربر لاستئصالها، كانت تلك الممالك أكثر حروبا مع الروم. وهي مملكة آوراس، ومملكة النمامشة، ومملكة قفصة، ومملكة هوارة ولواتة، ومملكة تالة وكانت مملكة جدار[150] في موريطانيا الشرقية تثور على الروم فتنقض عليهم في شرشال، وتنس، فتكيل لهم الضربات الشديدة. كما كان هناك أمراء آخرون، سيما في شمال افريقية عير ملوك البربر يقودون الثورات ضد الروم.

كثرة ثورات مملكة آوراس على الروم

وكانت مملكة آوراس وملكها بيداس أكثر ثورات على الروم، واشد ضراوة عليهم، وأكثر فتكا بهم. ونحن لا نستطيع ان نذكر كل تلك الثورات لأنها كثيرة. وكانت مستمرة لا تهدأ إلا ريثما تستعد بعض النواحي لتجديدها.

وكان عهد الروم الذي بلغ في المغرب 113 سنة مملوء بها، ثم ان تفاصيلها قليلة. ان الغلبة فيها كانت في الأكثر للبربر، وكان الروم هم الذين ينهزمون. لذل سكت المؤرخون الروم الذين حفظوا لنا تاريخ هذه الفترة عن ذكرها وتسجيل تفاصيلها. ان اغلب ما ذكروه هو الذي تساوت فيه كفتهم مع البربر أو كانوا هم المنتصرين فيها.

وكان الروم قد صمموا على القضاء على الملك البربري القوي (بيداس) ملك جبال آوراس. فأرسل إليه سليمان الخصي الوالي الرومي في سنة 540 جيشه، مع احد قواده الكبار، وكلن ما ان قرب الجيش الرومي من جبال آوراس، وشاهد الموت الأحمر في عيون جند بيداس، ورأى البربر يسرعون إليه ليطعموا به خشاش الأرض في سفوح آوراس الشمالية حتى لاذ بالفرار، والتجأ إلى مدينة باغاي الحصينة، فحاصره البربر بها، وأرسلوا عليه الماء ليغرق، وبات الروم في شر حال. ولولا حصانة المدينة، وإسراع سليمان بجيش قوي ففك عنهم الحصار لأبيدوا كلهم.

وجدد سليمان الكرة على آوراس في جيش قوي قاده بنفسه. فدخل آوراس حتى بلغ مكان بيداس فحاصره بجيش كبير، ولكنه لم يظفر به. ان بيداس قد خرج من السبل الخلفية ليستعد في مكان آخر للهجوم على الروم. ولم يحصل سليمان على طائل إلا ما قتلوه من البربر الوادعين في آوراس ليشفوا أحقادهم، وإلا ما أخذوه من أموال كثيرة لبيداس مما يدل على غنى مملكته وقوتها.

150 - مملكة جدار هي لصنهاجة كما أرى انظر مكانها في الخريطة في صفحة 428 من هذا الجزء.

وكان ارتياس ملك الحضنة قد اتحد مع بيداس في كثير من الثورات ففتكوا بالروم. وكذلك الملك مصيناس ملك مملكة الجدار.

ثورة الملك انطلاس وقتله لصولومون الوالي الرومي بالمغرب

وثار على الروم في سنة 535 الملك قطزيناس ملك مملكة النمامشة. فهجم على ساحل افريقية الخصب، ففتك بمراكزه العسكرية، ونكل بكثير من الروم.[151] فخرج إليه سليمان الوالي الرومي نفسه لينقذ تلك النواحي فلا يستولي عليها.

وكان الملك انطلاس ملك مملكة تالة في الجنوب الشرقي لقرطاجنة في افريقية مهادنا للروم. وكان يتظاهر لهم بالصداقة. وكان هو الذي استنجد بهم لمحاربة الوندال. وكان الروم يعرفون لت اليد، ومنته عليهم في سرعة القضاء على الوندال. لولاه ولولا قابايون ملك هوارة لطالت حروبهم مع الوندال. وقد ظل انطلاس ملكا على ساحل افريقية الجنوبي الخصب زمنا طويلا في عهد الروم فلم يزاحموه فيه، لتقديرهم له، ولطلبهم وده كي يهدأ فلا يهاجمهم في عقر دارهم بقرطاجنة. انه اقرب إليهم من ملوك البربر. وظل سليمان الخصي (صولومون) الذي يزمجر على الملوك الآخرين يفتل له في الذروة والغارب ليهدأ فلا يثور، ولكن انطلاس كان ككل البربر يكره الروم المستعمرين ويمقتهم. فثار عليه في سنة 535م فخرج إليه صولومون في جيشه الكبير. فدارت معركة بينهما في نواحي تبسة، انهزام فيها الروم، وقتل انطلاس (صولومون).

وقد استمرت المعارك بعد صولومون في عهد كل الولاة الروم. وقد بلغ البربر في سنة 597 أبواب قرطاجنة في إحدى ثوراتهم فحاصروها ووجهوا ضرباتهم إليها فصالحهم الوالي الرومي جناديوس ففكوا الحصار عنها. ان خضوع الوالي لشروط الصلح يدلك علة قوة البربر وتفوقهم على الروم في المجال العسكري.

الهدف السامي لثورات البربر على الروم

وكانت ثورات البربر كلها تحررية، يقصدون بها غرضا وطنيا نبيلا، وهو طرد المستعمرين من بلادهم، وإقلاقهم بالحروب ليرحلوا عنهم. ولم تكن لحب الفوضى والنهب كما يدعي المستعمرون المتعصبون.

كان ملك مملكة النمامشة (قطزيناس) «يحارب صولومون في افريقية ويقول: ان الله مع الذين يحاربون اللصوص ! لاسترجاع أموالهم وأراضيهم!»[152]

151 - كان الروم أما جنودا أو مائلين للجنود يعينونهم على البربر فالبربر يرونهم كلهم أعداء.

152 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 396 ط أولى بتونس

وكان القائد الباسل (سطوزاس) يجمع الجموع ويبلي البلاء الحسن بمراصة (مجاز الباب) وكان يوقد حماس رجاله بخطبه المؤثرة ويقول :»كيف ترضون بحياة الذل والعبودية والهوان!؟»[153]

كانت ثورات البربر عنيفة على الروم، ولكنهم صمدوا في المغرب فلم يجلوا عنه لان الممالك البربرية لم تتحد كلها في ثورة كبرى تكون موحدة القيادة فيحتلوا قرطاجنة ويطهروا ارض المغرب من الروم.

كانت ثوراتهم متفرقة تهزم الروم في نوميديا، أو في موريطانيا أو في مراكزهم العسكرية بافريقية. أما ان تتحد فتضرب الرأس، وتحتل العاصمة، فتقضي على الروم فهذا ما لم يقع.

لقد أضعفت هذه الثورات الروم، ولما جاء الفاتحون المسلمون وجدوا الروم مستعدين للانهزام، ولولا انضمام البربر النصارى إلى جرجير لاستطاع عبد الله بن سعد ومن معه من الفاتحين المسلمين الأولين لافريقية ان يقضوا على الروم في المغرب كله في زمن قصير.

تلك هي حال الروم في المغرب، أيام غريقة في الدماء، وزمن يشتعل بالثورات. وكانوا هم السبب في هذا الشقاء، العاملون لهذه الفتن كلها، لولاهم لظل مغربنا الجميل في أحسن حال.

ثم كتب الله للمغرب ان يسعد ويسود، فأرسل الله إليه المسلمين الميامين فطلعوا فيه طلوع الأفراح في القلب الكئيب فزالت ظلمته، وامتلأ بأنوار السعادة والحبور، وسروا فيه سريان الشفاء في الجسم العليل فتفتحت في محياه ورود النضارة والقوة! وزال الروم من مغربنا الحبيب فأشرقت عليه نعمة العربية والإسلام الشريف! فرفع رأسه كالمأذنة لما جلجل الآذان في صوامعه وقلبه! وتجلبب بطهر المحراب فامتلأ إخوة وصفاء لما سجد الله الواحد القهار في الصلاة. كيف زالت دولة الظلم والظلام من بلادنا؟ وكيف أشرق عليها نور الله فدخلت عهود عزها وسعادتها وأفراحها الكبرى؟

زوال دولة الروم في المغرب

كان الإمبراطور جستنيان هو الذي نفخ روح الشباب في الدولة البيزنطية، وأورثها قوتها، وشعب صدوعها فتماسكت وانضرت أيكتها. ولما توفي سنة 565م دخلت في

153 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 396 ط أولى بتونس

هرمها، فأصيبت بما أصيبت به أمها روما في شيخوختها. فتقاتل أبناؤها على العرش، وتناحروا على الرئاسة والمال. فصارت الإمبراطورية نهبا يستولي عليه من يملك قوة الجند والسلاح، ومن يستميل قواد الجيش ويشبع أطماعهم.

وفي سنة 602م ثار فوقاص على الإمبراطور موريس. فدخل القسطنطينية بجنده فقتله واستولى على العرش.

ثورة فوقاص على الإمبراطور موريس واغتصاب عرشه وقتله

وكان الوالي من قبل الإمبراطور على افريقية والمراكز الرومية في المغرب هو البطريق[154] جرجير، والقائد العسكري هو هرقل. وكان لكل منهما شيعة في القسطنطينية تؤيده وتعمل لرئاسته. وكانا متنافسين كل منهما يمني نفسه باعتلاء عرش الإمبراطورية. ولما استولى فوقاص على العرش ثار عليه هرقل في سنة 608 فقطع عنه قمح المغرب، وناصبه العداء. فأرسلت إليه شيعته ان يتقدم إلى بيزنطة ليقودها في ثورتها على فوقاص فيجلس على العرش مكانه. وكان هرقل في شيخوخته لا يطيق أعباء الإمبراطورية في جو بيزنطة العاصف. فأرسل إليهم ابنه الشاب وكان يسمى هرقل. فاقلع هرقل الشاب في الأسطول الحربي ومعه جيش يتأيد به في العراك ويحفظه في طريقه. فسار بحرا حتى وصل القسطنطينية. فالتفت حوله شيعة أبيه فانتصر على فوقاص فجلس على العرش فكان هو الإمبراطور.

ثورة جرجير على هرقل الإمبراطورية وإنشاؤه دولة رومية بربرية في افريقية

وكان جرجير يتميز غيظا لفوز منافسه هرقل عليه وحصوله على الرئاسة. فثار على هرقل الإمبراطور وقطع صلة المغرب ببيزنطة. فأنشأ دولة في افريقية تشبع حبه للرئاسة.

وكان جرجير يعلم ان هرقل لابد ان يرسل إليه أسطوله فيقاتله، وان شيعته من الروم ستثب عليه في قرطاجنة فيقضي هرقل عليه. ثم ان البربر لا يمكن ان يبقوا عليه. سيجهزون عليه إذا وجدوه مقطوع الصلة والمدد من دولته. فستمال ملوك البربر ورؤساءهم، وأحسن إليهم، ومناهم، وأشركهم في ملكه فأنشأ دولة بربرية رومية

154 - البطريق هو القائد. وكان الروم يحكمون المغرب حكما عسكريا وكانوا لا يولون عليه إلا العسكريين حتى في شئون السياسة.

في افريقية. ونقل عاصمتها إلى المناطق البربر، وابتعد عن الساحل الذي يغزوه فيه هرقل، وتكثر فيه شيعته من الروم. فاختار مدينة سبيطلة الحصينة فجعلها عاصمته فاستقر بها، ودام ملكا عليها إلى ان مات. فخلفه ابنه جرجير الثاني. وواصل جرجير الشاب سياسة أبيه. فأحسن إلى البربر، وأشعرهم بتقريب رؤسائهم واستشارتهم، وتأليف الجند منهم ان الدولة دولتهم. فهدأ البربر له وأعانوه.



بداية الفتح الإسلامي للمغرب

وكان القائد البطل عمرو بن العاص قد فتح مصر في عهد سيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفي سنة 20 هجرية، ثم سار في سنة ففتح برقة، وفي سنة 23 هـ تم فتح طرابلس فرجع أدراجه إلى مصر.

وفي سنة 27 هجرية أرسل أمير المؤمنين سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه جيش العبادلة بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح فنزل قمونية في غرب مكان القيروان بافريقية. فهب جرجير في جيشه الكبير من البربر والروم ليصد الفاتحين المسلمين. وكان أكثر جيش جرجير من البربر الذين صور لهم جرجير والروم المستعمرون المتعصبون المسلمين مغيرين على بلادهم فثاروا لدفاعهم فانضموا إلى جيشه. وكان عدد جيش جرجير مائة وعشرين ألفا، وعدد الجيش الإسلامي عشرين ألفا. فعارك القائد البطل عبد الله بن سعد جريرا حتى وقعت بينهما المعركة الفاصلة في سنة 28 هجرية 648 فانهزم الروم البربر وقتل جرجير، واحتل المسلمون عاصمته! فزالت دولة الروم من المغرب. ثم بقيت بعض المدن عشش فيها الروم فصارت كالغدران الآسنة بعد انقطاع السيل تنشر الوباء في المغرب وتكيد للمسلمين فسار إليها سيدنا حسان بن النعمان ففقأها بالسيف فاستراح المغرب، وزالت أثار الروم من وطن الأمازيغ.

وكانت حضارة الروم مزيجا من حضارة الإغريقية والرومانية. وقد اثروا بها في بلادهم آثارا حسنة، ولكنهم لم يؤثروا بها في المغرب. ان جل آثارهم فيه إنما هي قلاع وحصون وأسوار لمدن يختبئون فيها إذا ثار عليهم البربر. والكنائس والبنايات التي تركوها في المغرب لا ذوق فيها، ويبدو عليها الفقر الشديد الذي كان يعضهم.

وكان غزو الروم للمغرب واستقرارهم به في سنة 534م، وزوال دولتهم منه في سنة 648م ومدتهم فيه قرن وأربع عشرة سنة (114).

ثم توالى المسلمون الفاتحون على المغرب بأطباق النور والهداية والرحمة، كما سأفصل لك في الجزء الثاني، فاختلطوا بالبربر فرأوا فيهم جمال الإسلام، وعظمته، ورحمته، وعدله، وديموقراطيته الصحيحة؛ فتفتحت له قلوبهم كما يتفتح زهر الاقاح لنور الصباح! فآمن الأمازيغ قاطبة بمحمد عليه السلام، وأصبح القرآن دستورهم،

والعربية لغتهم الأثيرة المقدسة! فسادوا وسعدوا! وانصرت أيكة المغرب لما شعشعت فيها شمس الإسلام، واختلط العرب بالبربر فكونوا جنسا واحدا هو مزيج من العرب والبربر. وكان من هذا الجنس الكريم العربي المسلم أجدادنا الميامين نحن معشر أبناء المغرب اليوم! ولبس المغرب حلته العربية الزاهية العظيمة فصار في تفكيره، وعاداته، ولسانه، وحضارته عربيا ينتسب إلى حضارة الإسلام وأرومته الكبرى؛ وتآخي مع الأمة الإسلامية فصار جزءا منها. فما أعظم نعمتك على مغربنا يا ربي بهدي القرآن! والحمد لله على ما انعم به على مغربنا من نعمة الإسلام، وحمدا له على عونه وتأييده لي في هذا الكتاب في البدء والختام، والصلاة والسلام على سيد الأنام!

تم الجزء الأول والحمد لله

ويليه الجزء الثاني في الفتح الإسلامي والعهد الأموي في المغرب

أهم مراجع هذا الجزء

1 - العبر في ذكر المبتدإ والخبر / 2-6-7 / تأليف عبد الرحمن بن خلدون / لقاهرة مطبعة بولاق 1284 هـ

2 - محاضرات في تاريخ المغرب / 1-2 / بقلم محمد علي دبوز ألقاها في معهد الحياة الثانوي بالجزائر - 1369هـ 1949 - 1950م

3 - تاريخ الجزائر في القديم والحديث / 1 / تأليف مبارك بن محمد أمليلي - بيروت 1963م

4 - مدينة المغرب العربي / 1 / تأليف احمد صفر - تونس 1959م

5 - قرطاجنة في أربعة عصور - تأليف احمد توفيق المدني - تونس 1926م

6 - موجز التاريخ العام للجزائر - تأليف عثمان الكعاك - تونس 1344هـ

7 - قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة - تأليف توفيق الطويل - القاهرة 1375هـ 1955م

8 - تاريخ المغرب الكبير / 2-3 / تأليف محمد علي دبوز - لقاهرة 1383 هـ 1963م

9 - فتح العرب للمغرب - تأليف حسين مؤنس - القاهرة

10 - المسالك والممالك - تأليف عبد الله بن عبد العزيز البكري الجزائر 1330 هـ 1911م

11 - معجم البلدان - تأليف أبي عبد الله ياقوت الحموي - ليبسك 1873

12 - برهان البيان في اكتمال - 1-2 - لمونتسكيو ترجمة حسين بن الجبيلي واختلال دولة الرومان - القاهرة 1293م

13 - تاريخ أوروبا في العصور القديمة - تأليف هـ.ا.ل. فشر ترجمة إبراهيم نصحي، ومحمد عواد حسين - القاهرة 1950م

14 - تاريخ أوروبا في العصور الوسطى 1 تأليف هـ.ا.ل فشر ترجمة محمد صطفى زيادة، والسيد البازي العريني - القاهرة 1369 هـ 1950م

15 - دائرة المعارف للبستاني - تأليف بطرس البستاني - بيروت 1878 م

16 - الوسيط في الأدب العربي وتاريخه - تأليف احمد الاسكندري - القاهرة 1919

فهرس الجزء الأول

تاريخ المغرب الكبير

الجزء الثاني

تأليف : محمد علي دبوز
أستاذ الأدب والتاريخ في معهد الحياة بالجزائر



إهداء إلى كل أبناء ليبيا الحبيبة

مع كامل محبتي وتقديري

سعيد خليفة الختالي

طبع هذا الكتاب سنة 1963 ولم يصدر منه أي طبعة أخرى
حتى قامت مؤسسة تاوالت الثقافية بإعادة طباعته وتصفيفه
على نفقة سعيد خليفة الختالي

مؤسسة تاوالت الثقافية 2010
http://www.tawalt.com/

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله على نعمة الاستقلال نعد الاستعباد، والصلاة والسلام على خير العباد، وعلى اله وأصحابه الذين كونوا في تاريخنا أغر صفحاته، وتركوا لنا ماضيا مجيدا مشرقا نحيا ونسود بمعرفته، ونتقدم ونسمو بالتأثر به، ونحقق كل الآمال الكبرى باتخاذ مثلنا العليا من أبطاله، والاتصاف بما توجههم الله به من الصلاح والصفاء، ومن الطهر والنقاء.

استغلال المستعمرين لترهات الملوك

وبعد فهذا تاريخ المغرب الكبير نقدمه إلى الأقطار العربية والإسلامية، وارتفاع علم العروبة فيها. وعسى إخواننا في الشرق العربي يرون فيه محيا الجزائر العربية، وتاريخ المغرب صافيا نقيا من دعايات السياسة القديمة، ومن أكاذيب المستعمرين الذين لم يألوا جهدا في استغلال تلك الدعاية التي بثها الملوك المستبدون قديما الذي ثار على الملوك المستبدين، فانشأ دوله الإسلامية العادلة التي سارت فيه سيرة الخلفاء الراشدين، فنعم وساد بالإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية الصحيحة؛ صفحة مغربنا المشرقة، فيبعدوا ناشئتنا عن تاريخ أجدادهم، فيسهل صبغهم بما يريدون، وتجريدهم من شخصيتهم الإسلامية والعربية كما يشاءون !

تشويه تاريخنا في المدارس الاستعمارية

وكان أولئك المستعمرين اللاتينيون إذا قرروا شيئا من تاريخ المغرب في مدارسهم الاستعمارية، سيما الابتدائية، حيث التلاميذ الصغار الذين يسهل الإيحاء إليهم، والتأثير فيهم، لا ينتقون من فصول تاريخ المغرب إلا ما يعج بأكاذيب الملوك ودعاياتهم المغرضة، فيبنون على ذلك ما يشاءون من أكاذيبهم التي تبدي وجه البهيجة! وكان على جمال الطواويس وحسنها فيبدونه لأبنائها في حلك الغرباء ونكرها، وكان مزنا في السماء، يطفح بالحياة والنقاء، فيصورونه لهم كثيبا جافا في البيداء، أو دخانا فارغا في الهواء! وتراهم يستغلون كل الاستغلال الصراع الذي ما يشاءون من عصبية في النفوس، وأحقاد في القلوب، ليبعدوا المغرب عن المشرق، ويفصلون الأخ عن أخيه، ويقطعوا قطرنا المغربي الحبيب عن ديار العروبة فلا يعد نفسه أصيلا في أرومة قحطان، ويصرفوا وجهه

عن مشرق الشمس حيث تطلع بأنوارها فتبث اليقظة في النفوس، وتسمح الكرى عن العيون، فتتفتح فتشعر بالذئاب التي ترتع فيه، وأنياب الأفاعي التي تطوقها

وترى أولئك المستعمرين يستغلون الصراع بين المغرب والملوك المستبدين فيجعلون الناشئ يعتقد ان المغرب في كنف الدول الإسلامية كانت أيامه مصبوغة بالدماء، ودهره مملوءا بالدموع، وان الذلة والفقر والخوف هو ما كان يخيم عليه، وان أجدادنا كانوا أشقياء في دولهم لا يتمتعون بما يتمتع به المغرب في جحيم الاستعمار اللاتيني، ليهيئوا نفوسهم للرضوخ للقيود، واستحلاء المرارة فلا يثورون عليها، والرضا بواقعهم الأليم فلا يسخطون عليه! وتراهم يستخدمون تاريخ المغرب المجيد الذي يحرفونه في الإزراء بأجدادنا، وتشويه سمعه دولنا الإسلامية القديمة، ليخلقوا في نفوس أبنائنا عقائد سيئة في أجدادهم، وعقدا نفسية تصرفهم عن الاعتناء بتاريخهم، فلا يرون ما كان يرفل فيه المغرب في عهود دوله الإسلامية الزاهرة من سعادة وهناء،ومن رقي وتقدم، ومن عز وسيادة، ومن أزهار في كل النواحي، وتفوق فيكل الجهات!

محاربة الاستعمار للتاريخ الصحيح

وكان الاستعمار اللاتيني في المغرب الكبير قد اتخذ كل وسيلة للقضاء على اللغة العربية التي هي مفتاح الدين والتاريخ، ليبلغ ما يتلهف عليه من تجريد المغرب من دينه، فحارب التاريخ الإسلامي فحرم تدريسه في المدارس الحرة. وكان التاريخ الإسلامي وتاريخ المغرب على الخصوص أول مادة يسأل عن وجودها في حملاته التفتيشية على هذه المدارس التي يراها خطرا عليه.

وكان معهد الحياة الثانوي في القرارة بجنوب الجزائر من تلك المدارس الحرة التي أنشئت منذ ثمان وثلاثين سنة لنشر التربية الإسلامية الصحيحة. وكنت أتولى تدريس تاريخ المغرب الكبير فيه. وكان غلاة المستعمرين الذين يقصدون التجسس على مدارسنا ومناهجنا يطرقون أبوابه متظاهرين بالزيارة البريئة، والاطلاع على سير التعليم في الجزائر، وإذا دخلوا الفصل الذي القي فيه محاضرات التاريخ ورأوا خرائط دول المغرب الإسلامي ترصع جدرانه في ألوانها الزاهية، وفي جلالها وجمالها، ارتاعوا وتساءلوا، هل تدرسون التاريخ؟! وكان أول سؤال يواجهنا به هؤلاء المستعمرون الذين يطرقون المعهد قبل الثورة: هل تدرسون التاريخ الإسلامي فإذا قلت: نعم اسودت ووجوههم، وبدت علامات التشاؤم والارتياع عليهم!

ان انس فلا أنسى ذلك المستعمر الغشوم الذي غشي المعهد مع (عمدة) القرارة ممثل

الحكومة الاستعمارية، وكان ذلك في شهر مايو من سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة وألف ميلادية، وقبل ثورتنا الجزائرية بستة شهور، وكان اكتشاف النفط في جنوب الجزائر قد جعل تلك المنطقة متجهة أنظار المستعمرين الفرنسيين ومحل اهتمامهم والناحية التي يفتشونها، ويريدون ان تكون خالية من كل حركة وطنية، ومن كل منبع لليقظة والنهضة من المدارس العربية الحرة التي يرونها أكثر خطرا عليهم وعلى النفط من النيران ! وكانوا يخشون المدارس الثانوية الحرة أكثر لأنها هي التي تخلق الطبقة المتصفة بدينها، العالم بتاريخها ولغتها، وقد رأوا خريجيها ينازلونهم في الميدان، ويحبطون دسائسهم، ويبطلون سعيهم للقضاء على الدين في المغرب!

وكان من الفنون التي أتولى تدريسها في معهد الحياة في سنته النهائية الأدب العربي وكنت في ذلك اليوم مع تلاميذ هذه السنة ندرس قصيدة الرافعي في رسائل الأحزان «حيلة مرآتها» ونقارن بينها وبين قصيدة للبحتري. وكنت منتشيا بالجمال الشعري، وأعيش في جو الرافعي الخلاب وكنت أحب الرافعي واغرم بأدبه واراه سيد الأدباء في العصر الحديث! وكان التلاميذ منتشين، فطرق علينا طارق، فإذا احد أساتذة المعهد يدعوني لمقابلة زائر فرنسي قدم نفسه على انه اكبر صديق للوالي العام في الجزائر في تلك الأيام «ليونار». وكان المدير غائبا في شأن من شئون التعليم، فلم ذلك الأستاذ بدا من استدعائي، وقطعي عن حصتي، فخرجت إليه متذمرا، وبودي ان لا اخرج، فانه مع انقطاعي عن جو الأدب الساحر معاينة طلعة استعمارية لابد وأن تكون من تلك الوجوه التي نرى فيها عيون الذئب المسعور، والعدو الكاشح، والمتغطرس الغشوم، فابتدأ الزائر الاستعماري يلقي علي أسئلته فعزمت ان أكون صريحا معه فاخبره بكل شيء، وأطلعه على حقيقة المعهد، وكنا قبل مع أمثاله إذا الحوا في السؤال نخبرهم بالكليات ونصرفهم عن التفاصيل، ونأبى ان يطلعوا على مناهجنا وكل فنوننا، فيخرجون وهم يعتقدون ان المعهد مدرسة بسيطة من تلمك المدارس التي تشتغل بحشو الرؤوس بالمعلومات بدون ان تعتني بالتربية العقلية والخلقية، فتثقل تلك الرؤوس، فيهيئها ذلك ان تطأطئ لمستعمرين! فأخبرت الزائر المستعمر ان معهدنا ثانوي، للتربية والتعليم ، ولنشر الدين، انه يتقبل تلاميذ المدارس الابتدائية الحرة، وأن خريجي المعهد الذين يتخصصون في العلم نبعثهم إلى الجامعة الزيتونية في تونس الخضراء، أوالى دار العلوم وكلية الآداب في القاهرة، وأخبرته بان لنا تلاميذ في الشرق العربي، وأنهم محل إعجاب وتقدير كلياته، لما وجدوا فيهم عقول واعية، ومتانة في الأخلاق، وغرام واستقامة في السلوك! فاصفر وجه المستعمر ثم اربد وتلجلجت الكلمات في لسانه، وبدا اضطرابه

في المنظار المكبر الذي يحمله في يده. وابتدأ يسألني عن فنون المعهد فكان أول شيء سألني عنه: هل تدرسون تاريخ المغرب ودوله الإسلامية؟ فقلت له: أننا ندرس تاريخ الإسلام العام، ونعتني عناية تامة بتاريخ المغرب ودولنا الإسلامية، وان تلاميذنا يجدون كل النشوة فيه، وهم مغرمون كل الغرام به، ولهم عناية تامة به!

وكان مع الزائر المستعمر غادة يتجلى فيها جملا باريس الفتان الذي يراه الفرنسيون اكبر كنوزهم وأعظم مفاخرهم. وكانت تترقرق جمالا وتمايل رشاقة. وكان إهابها الوردي يشف عن دمائها كأن جسمها من البلور الصافي. وكان هواء الجنوب المنعش وسحر الربيع، وجمال القرارة، وجدة الأشياء في المعهد قد اذكت سرورها، فتألق الابتسام في وجهها، فازداد محياها إشراقا كأن مصابيح قروية قد أسرجت في داخلها! فلما أخبرت صاحبها بحقيقة المعهد وأهدافه ابتدأ الابتسام والإشراف يغيض في وجهها، وكسته صفرة كصفرة الأصيل التي تكسو رؤوس الجبال مؤذنة بموت النهار! ولما قلت لهما أننا نعتني بتاريخ المغرب، وان تلاميذنا مغرمون به، اربد وجهها واسود، وصار ازرق داكنا كراس الأفعى إذا شدخت رأسها بالحجر لتقتلها! فحدقت فيهما فاذا صاحبها زائغ البصر واجم، وهي قد تصلبت فذهب تمايلها وغاضت نضارتها،وكستها دهمة التشاؤم والارتياع، فبدت لي عصا مجرودة قد التهمت منها النيران ثم زهدت فيها، فاسودت وذهبت نضارتها! فخرج المستعمر الغشوم وهو يتعثر في خطاه من شدة الفزع والتشاؤم لما وجد تلاميذنا يعيشون مع أجدادهم وفي دولهم الإسلامية الزاهرة، فيقبسون من أجدادهم القوة التي ترفع رؤوسهم، وتدفعهم لتحقيق المثل العليا، وتذكي غرامهم وحرصهم وإصرارهم على ان يحيوا حياة عزيزة حرة سعيدة، لا يكدرها المستعمر بسمومه وأوساخه، وعلى ان يعيشوا دائما تحت راية العربية والدين، ويكونوا جزءا أصيلا من الأسرة العربية والإسلامية ويكون مغربنا في عهدهم كما كان في عهد أجدادنا، منبعا للدين، وحصنا له، ومعدنا العربية ومشرقا لها،ومصدر الإخوة الإسلامية والعربة التي توحد العالم الإسلامي والعربي وتجعله صفا واحدا متراصا لا تصدعه المنافسات والشحناء، ولا تفرقه المذاهب الهدامة التي يكيد بها الأعداء لديننا الحنيف، ولا يضيق نطاقه القوميات الضيقة التي يوحى بها الاستعمار إلى الضعفاء من أبناء امتنا ليبثوا التفرقة بين المسلمين، ويجزئوا امتنا الإسلامية ويقطعوها فيسهل ابتلاعها، ويصرفونا عن امتن رابط، وأقدس وشيجة نصل بيننا، وأعظم سبب يوحدنا ويجعلنا جسما واحدا متشابه الأعضاء، نتراص الصفوف، وهو سبب الدين، ورابطة الإسلام،وهذا الرحم المقدس الذي يربطنا جميعا عليه السلام.

ان الاستعمار اللاتيني قد حرم المغرب من معرفة تاريخ أجداده في مدارسه، جهل بتاريخ أجداده العظماء، وبتاريخ دوله الإسلامية الزاهرة التي أيقظت أوروبا وأنقذتها من الهمجية والضلالة. فلماذا حارب الاستعمار تاريخنا تلك الحرب الشعواء؟ ما هي فائدة التاريخ لنا، وجدواها العظيمة علينا، وما هي الأضرار التي تحصل له من معرفة تاريخنا، ولماذا يعتقد انه اكبر مصيبة تصيبه، وأعظم ويل، واشد الدواهي عليه ان نعرف تاريخ أجدادنا، ونعلم أنباء دولنا الإسلامية الزاهرة التي كان المغرب بها متجه الأنظار من أنحاء الدنيا، وكعبة القصاد من أنحاء العالم الإسلامي والمسيحي؟

فوائد التاريخ التروية وأثره في نهضة الأمم:

ان الله قد خلق في الإنسان غرائز وميولا فطرية هي أساس أخلاقه، وسبب تغيره وترقيه، وعامل تطوره وتقدمه، وبلوغه ارفع الدرجات، وهي التي كانت بها البيئة الاجتماعية التي يختلط بها الإنسان، والناس الذين يعاشرهم، والشخصيات التي يعجب بها سبب اصطباغه بصبغة خاصة، واتجاهه إلى هدف معين.

ان هذه الغرائز والميول الفطرية هي غريزة حب الظهور وهي التي تجعلنا نحرص علا الاحترام والتفوق، والغريزة الاجتماعية، وغريزة الخوف، وهي التي تجعلنا نخشى الفشل والرسوب، وفطرة التقليد، والإيحاء، والمشاركة الوجدانية، إن هذه وغيرها من الغرائز والميول الفطرية العامة هي أساس أخلاقنا، وسبب ما فينا من عقائد تشكل سلوكنا، وترسم طريقنا في الحياة.

ان هذه الغرائز والميول هي سبب تربيته، وهي التي تجعل الربين يستطيعون التأثير فيه، صبغه بما يريدون، وتشكيله كما يشاءون.

وإذا كانت البيئة الاجتماعية التي يعاشرها الإنسان ويختلط بها، وبتنبه إليها، ويعجب بها هي التي تطبعه بطابعها، وتصبغه بصبغتها، فيكون نسخة ممن يعاشره، ينظر بنظرته إلى الأمور، ويتصرف مثل تصرفه في الشئون، فان التاريخ هو الذي يحفنا ببيئة اجتماعية راقية من أجدادنا فنعاشرهم، فنتأثر بأخلاقهم، ونتطبع بطباعهم، ونحس بوجدانهم في خطبهم ورسائلهم ووصاياهم وأحاديثهم وأحداثهم فيكون وجدانا لنا، يذكي فينا الحماس لمثلهم العليا فنعمل لتحقيقها، والرغبة في طريقتهم المثلى، وفي نهجهم القويم فنتمسك به، ونندفع فيه، فنصل الدرجة الراقية التي كان عليها الأجداد، ونكون مثلهم في العزة والإباء، وفي الطموح والمحاولة، وفي العمل والكد، وفي الإخلاص والإتقان، وفي العمل لله! وتلك هي أسباب النجاح والتفوق، وعوامل القوة

والتقدم، ولا يتف بها إنسان إلا تغير حاله، وتبوأ ارفع الدرجات في كل النواحي، وكان الله معه فيحقق له كل الآمال، فيكون هو السيد الذي يسود غيره، والذروة التي تشمخ على سواها، فلا يستطيع عدو كاشح ان يخضعه، ولا لص مخاتل ان يحتل داره، ولا مستعمر غشوم ان يتسلط عليه!

التربية الأخلاقية هي التي يجب ان نستهدفها في التربة

ان التاريخ اكبر عامل في التربية الخلقية، وأقوى سبب يخلق الأخلاق العظيمة في النفوس، والأخلاق العظيمة هي أساس رقي الإنسان في عقله وفي جسمه، فهي التي تستتبع كل المزايا، وتقتضي تفوقنا في كل النواحي! فهي الغاية التي يجب ان نستهدفها في التربية، ونقصدها في مدارسنا وفي بيوتنا وفي مجتمعنا، ونعتني بها في كل درس، وفي كل عمل، ومتى غرسنا في الطفل الأخلاق الحسنة، فكان على الحزم والنشاط، وعلى الطموح والنظام، وعلى الشجاعة والصبر، وعلى الحب والإتقان لأعماله، وعلى الإخلاص والصفاء، وعلى التضحية والعمل لله، فقد غرسنا فيه من الأخلاق ما يعمل عقله فيترقى، ويخلق فيه الشغف بالعلم يراه قوته وكماله، فيكون م كبار العلماء،وما يرقى جسمه من العادات الصحية التي هي ركن في الأخلاق الحسنة، والشيم الكريمة.

البيئة الاجتماعية وأثرها في التربية

ان اكبر عامل في التربية الخلقية إنما هي البيئة الاجتماعية التي يعاشرها الإنسان، ان المثل العربي يقول: «من عاشر قوما أربعين يوما كان منهم» لان الله قد ركب في المرء الغرائز التي ذكرنا فجعلته يتأثر بسواه، وينهج منهج م يعاشره . ومن تلك الغرائز غريزة حب الظهور التي تجعله يريد الاحترام من بيئته، والتقدير والإكبار ممن يختلط به، وهذا لا يكون إلا بالسلوك الحميد الذي يكبره من يعاشره، والأخلاق الحسنة التي يحبها من يختلط به، فتبعثه تلك الغريزة عليها، انها أقوى غريزة في الإنسان، فتسعه أعشار أعمالنا الحسنة تدفعنا إليها هذه الغريزة، لذلك يجب ان نحف الطفل بالبيئة الاجتماعية التي تحترم الأخلاق الحسنة لتبعثه هذه الغريزة عليها.

ان هذه الغريزة القوية في الإنسان وغيرها من الغرائز هي التي تدفع الإنسان ليتصف بكل ما اتصف به أجداده العظماء الذين عاشرهم، وأعجب بهم، رآهم وعاش معهم في التاريخ، ليصل مثل غايتهم، ويحتل مثل ذراهم،ويستعد كما سعدوا، ويكون سيدا عزيزا كما كانوا سادة أعزاء، وإذا كان عصره قد هيأ له أسباب الكمال وكثرة الوسائل أكثر مما في عصرهم، فانه بصفتهم يربو عما كانوا عليه، ويصل ما لم يصلوه.

ان هذه الآثار العظيمة لتكون لنا بدراسة تاريخ كل امة عظيمة، وان كانت أجنبية عنا، كتاريخ الفرس والرومان، والانجليز والألمان، أما تاريخ الإسلام وهو جزء منا، وهو تاريخ أجدادنا، فان انتباهنا فيه يكون أقوى، وإعجابنا به يكون أعظم، وشغفنا به يكون اشد، فجدواه علينا لا تقدر ولا تحصى، وتأثرنا به يكون أضعاف تأثرنا بتاريخ الأجانب عنا.

ان غريزة حب الظهور مما يبعث الإنسان على الشغف بتاريخ أجداده، وعلى التنبه فيه فيزداد تأثره به، لان أجداده جزء منه، فمجدهم مجده؛ وان هذه الغريزة لتجد شبعها بمشاهدة هؤلاء الأجداد في عروشهم، والتحديق فيهم وهم في حلل مجدهم، وأنها لتدفع الابن ليكون مثل جده فيبحث بدون شعور عن الطريق الذي سلكوا، والأسباب التي اخذوا بها فحققوا تلك الغايات، فتدفعه لسلوك ذلك الطريق، والأخذ بتلك الأسباب، فيتصف بأخلاق أجداده فيكون عظيما مثلهم، ومن الأسود الكاسرة فلا تستطيع ثعالب الاستعمار ان ترتع في عرينه، وتستاسد في غابه؛ لذلك حرم الاستعمار اللاتيني علينا دراسة تاريخ دولنا الإسلامية، ومعاشرة أبطالنا، الاختلاط بأجدادنا وهم في ذروة عزهم، وفي عروش مجدهم، تعنوهم رقاب الدنيا إجلالا وتعظيما، ويرضى عنهم الله بأخذهم بكل ما أمرهم من أسباب الصلاح والفلاح، والفوز والنجاح !

مزايا التاريخ الوطني

ان تاريخ أجدادنا هو الذي يؤثر فينا أكثر، فيجب الاعتناء به، والاعتماد عليه في تربيتنا في البيوت والمدارس والمجتمع؛ أما تاريخ من عاشوا في ارض غير أرضك، وكانوا من غير جنسك، يحملون وراثة غير وراثتك، فقد يوحي إليك هذا بأنك لا تستطيع ما استطاعوا، لأنهم في بيئة طبيعية غير بيئتك، وأورثتهم قوى ومواهب لا تكونها فيك بيئتك،وأنهم من جنس قد يخيل إليك انه أرقى من جنسك، وعلى وراثة كونت فيهم مواهب خاصة قد لا تخلقها فيك وراثتك، فلا يطمح المرء كل الطموح ليصل غاياتهم، ولا يثق بنفسه كل الثقة فيسير في طريقهم، ويتغلب على عقباتهم، فيصل مثل ما وصلوا. أما تاريخ أجدادك الذين نشأوا أرضك، فهم أبناء بيئتك الطبيعية التي لا تتبدل، وفي دمائك وراثتهم،تلك الوراثة التي انحدرت إليك منهم وهي بفضل أعمالهم لها في جهادهم أقوى مما انحدر إليهم من أجدادهم، ففيك من عوامل القوة والنجاح أكثر مما فيهم، فتثق بنفسك، فتسلك طريقهم فتصل ما وصلوا، لهذا حرم الاستعمار اللاتيني على المغرب ان يعرف تاريخ أجداده، لان تأثرنا بهم يقتضي ان نثور عليه، فندفع ما يكدر حياتنا ويدنسها وينتنها إلى البحر، ونصفي حياتنا وأوطاننا من المرارة والسموم التي ألقاها البحر إلينا! !

ان التاريخ اكبر عامل لبناء الأمم ونهضة الشعوب، وهو من الوسائل الكبرى في التربية الحسنة!

مزايا التاريخ في التربية

ان التاريخ هو الذي يمكننا في التربية من اختيار البيئة الاجتماعية الصافية الراقية التي نحث بها الآثار التي نريد في التلميذ. أما البيئة الاجتماعية الواقعية فقد لا تطاوعنا، ولا نستطيع ان نجد فيها كل ما نريد، وإذا وجدنا فانه لا بد ان يشوبه ويقترن به كثير من الأشياء السيئة التي لا نريدها، فيتأثر التلميذ بها، فيتصف بصفات تضعف أخلاقه الحسنة، وتقلل نجاحه في الحياة. أما في التاريخ فإننا نستطيع اختيار العصور الزاهرة، والشخصيات العظيمة، كالرسول، والصحابة، والتابعين، والسلف الصالح من أئمتنا، ورؤساء دولنا، وكبار علمائنا، ونختار من التاريخ كل ما هو حسن فنجعله بيئة للتلميذ ينغمس فيها، ويشغف بها، ويعاشرها بالقراءة اللذيذة، والدرس العميق.

ان التاريخ لهذا أحسن من البيئة الاجتماعية الواقعة التي قد لا نستطيع ان نعزل منها م لا يرضينا، ولا نجد فيها كل المثل العليا التي نريدها، لذلك نجد الله يضرب لنا الأمثال في القرآن، فيقص علينا قصص الأنبياء، فنرى صبر أيوب، وعفة يوسف، ويقين إبراهيم، ونسك عيسى، وعظمة محمد عليهم السلام، فيعوضنا الله من تلك القصص التي هي تاريخ للأنبياء ما لا نجده في بيئتنا، ويكمل بيئتنا الاجتماعية بذلك التاريخ.

ان مؤلفينا القدماء في الأخلاق كالجاحظ، والغزالي، والجيطالي[1] وابن مسكويه يكثرون من إيراد القصص في الكتب الأخلاقية، فترانا نعاشر الصالحين في تلك القصص، ونرى جمال الفضيلة في سلوكهم، فنحبهم ويكونون لنا مثلا أعلى، نحذو حذوه، ونسلك طريقه. وترانا نصدر من القصة التي رسمت لنا شخصية نيرة، ونحن نحس في نفوسنا شعاعا من نورها، آثارا منها. انه إذا تكرر ذلك واطرد، فإننا بعد حين نكون على غرار من عاشرنا، ومثل من اختلطنا به في القصص التاريخية وأعجبنا به!

عناية الأوروبيين بتاريخهم وانتفاعهم به:

ان الأوروبيين قد عرفوا أثار القصص التاريخية للعظماء في بناء الأخلاق العظيمة، والتربية الحسنة، وتهذيب الأمة، فاعتنوا بتاريخ أجدادهم وعظمائهم، فأبرزوه في أسلوب قصصي جذاب، يجعل الناشئة تغرم به، وتستغرق في قراءته، وتتنبه كل التنبه إليه،

1 هو أبو إسماعيل بن موسى الجيطالي عاش في القرن الثامن الهجري وتوفي سنة خمسين وسبعمائة، وكتابه قناطر الخيرات من أعظم الكتب في الأخلاق، وهو في ثلاثة أجزاء، والجزء الثالث خاص بالأخلاق، وهو أحسن ما ألف في المغرب في هذا الباب، ليت طبعه يعاد.

فيتأثرون بأجدادهم العظماء، ويحافظون في أمتهم على تقاليدهم الحسنة التي هي سبب عظمتها وبقائها.

وترى الأوروبيين يجعلون شبابهم وأمتهم تعيش مع أجدادها العظماء دائما لا تنقطع عنهم، فتجدهم يؤلفون الروايات التاريخية التي تصور عظمة أولئك الأجداد، فيقدمونها في المسارح، والسينما، والتليفزيون، ويكتبون المقالات في ذكرى عظمائهم، وفي أعيادهم الوطنية والدينية، ويلقون الخطب، وينشئون الأغاني، فيجعلون الأمة بكل هذا تختلط بأجدادها العظماء وتتأثر بهم، وتثبت على نهجهم القويم، وتقاليدهم الحسنة، وترى السينما والتليفزيون والمسارح عوامل للبناء، وأسبابا للتربية الحسنة، وأبوابا للخير والنجاح والتقديم لشعوبهم، وتجدهم يستعملون الأغاني الشجية في تصوير عظمائهم، والتغني بأمجادهم، وبث الحب والإكبار في نفوس الأمة لعظمائها. أما أفلامنا العربية فتجد اغلبها «ديناميت» الأخلاق، وسموما للأمة، بما تعرض على أبنائنا ونسائنا ورجالنا من مناظر الخلاعة والتهتك، وبما تسمعنا من أغانيها المائعة الماجنة التي تزين الخنا، وتدعو إلى الخيانة، وتهدم ما ترك الاستعمار من أثار الدين في نفوسنا! ! انها باب للشرور والفناء فتحه الاستعمار علينا أيام احتلاله لنا لا زال يتدفق علينا بما يقتلنا. ليت رجال ثوراتنا في الأقطار العربية يسدون هذا الباب، ويكفون هذا الشر، فيعدموا كل الأشرطة الخليعة، ويطردوا من التمثيل كل خليعة وخليع، فلا يتركوا إلا ذوي الأخلاق المتينة، والذين يتركون في الأمة التي يغشونها الآثار الحسنة!

ان تلك الأشرطة السينمائية الخليعة التي تهدم الدين ومتانة الأخلاق في النفوس، وتبث عبادة المظاهر، وحب الفخفخة، وتلك الأغاني الخليعة المتباكية التي تحلل الأخلاق اكبر ما أخشاه على مغربنا الناشئ الذي خرج من أشداق الاستعمار وهو في اشد ما يكون من الحاجة يركز ويقوي فيه ما ترك فيه الاستعمار من متانة في أخلاقه!

ان ما تبقى من متانة الأخلاق في نفوس المغرب هي العدة التي صرعنا بها المستعمرين فتحررنا! ليت مغربنا يحرم الأشرطة السينمائية الخليعة، ولا يعرض على الشعب إلا ما يجعله يعيش مع أجداده العظماء. ليت إخواننا في المشرق الذين تنشأ الأفلام الخليعة في بلادهم والأغاني الماجنة يكفونها عنا فلا يأذنوا للجوقات الموسيقية الخليعة، وللأشرطة الماجنة ان تدخل بلاد المغرب فإنها السب الذي يهدم سمعتنا، ويقتل الاحترام في النفوس!

مزايا التاريخ التربوية على دروس الأخلاق النظرية

ان تاريخ أجدى في التربية، وفي غرس الأخلاق الحسنة، والذود عن الأخلاق السيئة من دروس الأخلاق النظرية، ومن الوعظ والإرشاد النظري، لان التاريخ يجسم جمال الفضيلة في سلوك الصالحين، فنكون أكثر إدراكا له، واشد إعجابا، وأقوى تأثرا، ويجسم الرذيلة في سلوك المذنبين فنكون أكثر إدراكا لبشاعتها، واشد نفورا منها. والمرء يتأثر بالمحسوس الواقع الذي يدركه بحواسه، أو يرسمه التاريخ والقصة في خياله، فيتمثله في حقيقته وكأنه يراه، أكثر من تأثره بالمعاني التي تحكم بجمال الفضيلة، وبقبح الرذيلة، فتحثه على الأولى، وتنهاه عن الثانية. ولعل التاريخ الذي يرسم في خيالنا عظماء ومختلف شخصياته يجعلنا أكثر تأثرا مما لو شاهدنا أولئك بعيوننا، لان الخيال قد يزيد في الصورة فتكون أكثر مما هي في الواقع، ويضفي عليها من تهاويله ما يجعلها أحسن مما هي في الحقيقة. والتاريخ يقدم إليك الشيء مشروحا ظاهر الأسرار، بين الخفايا، فتدرك كل حقيقته، فيكون تأثرك بالغا على حسب الإدراك. أما الحواس فقد لا تطلعك إلا على الظواهر، فترى الرجل العظيم فلا تعرف إلا بعض مزاياه أو لا تعرف شيئا، فتظنه من غرض الناس وهو زعيم قومه، وعبقري فذ في أمته.

ان الإدراك الحسي في الإنسان أقوى من الإدراك المعنوي، لذلك كان تأثره بالمحسوس الذي يراه أو يتخيله أكثر من تأثره بالمعاني التي يفهمها ويعيها. والتاريخ هو الذي يرسم في خيالنا ذلك المحسوس الواقع، فلذلك كانت آثاره ابلغ وارسخ من آثار أوعظ والإرشاد انظري الذي لا يقترن بالقصص التاريخية وبالحكايات التي تجسم معانيه.

والتاريخ يقدم إليك الفضيلة مصحوبة بعاقبتها الحسنة، مقرونة بجدواها العظيمة فتكون كالنظرية يؤيدها الدليل الذي يصاحبها، والدعوى تثبتها الحجة القوية التي تكتنفها، فلا يسع المرء إلا الإيمان بها، والخضوع لها، والأخذ بما جاءت به فالصلاح في الصالحين نراه مقرونا بالنجاح الذي حصلوا عليه، والأخلاق العظيمة في العظماء نراها مصحوبة بالزعامة والعبقرية، والمجد تتوجوا به، فنرى الفضيلة فيهم في هالة مشرقة من عاقبتها الحسنة، ونحس بها في حلاوة عائدتها الجميلة، فيكون إيماننا بها اشد، ورغبتنا فيها أقوى، فتثور غريزة السيطرة وكثير من الغرائز فتبعثنا عليها فنتصف بها. وكذلك الرذيلة، فإنها تبدو في التاريخ متجسمة في سلوك المذنبين، مقرونة بعاقبتها الوخيمة، فنراها في بؤس المذنبين، وفي مشنة المجرمين، وفي جحيم الله أعده للعاصين، فتبدو لنا في أبشع صورها، وفي هو لها ونكرها ونراها عقربا سوداء بادية النكر، شائلة الذنب، تبدوا لنا سمومها، وما تفعله بمن يقرب منها، فتكون نفوسنا أكثر نفورا منها،

واشد مقتالها، وأكثر حردا عليها، فنتنزه منها. أما المواعظ النظرية، ودروس الأخلاق المعنوية، التي لا يؤيد بالقصص التاريخية، فان المرء لا يزيد بها على ان يلين قلبه بعض اللين، وتدمع عينه بعض الدمع، ثم يقسو قلبه، وترقأ دمعته، وينسى ما سمعه من المعاني، لا تفجر المعاني منه ما يفجره المحسوس الواقع الذي يرسمه التاريخ في خيالنا من دموع غزيرة تغسل نفوسنا من الأدران، ويظهرها الوجدان المتأجج بالتحسر والندم، فتكون صافية بيضاء ناصعة كالثوب الأبيض الذي غسلناه فأجرينا عليه المكواة الحامية، فأرجعت له جدته، وزالت تجاعيده، ومنعته من التسوس والبلى !

التاريخ للاتعاظ والاعتبار

والتاريخ للاتعاظ والاعتبار فيجب ان نقف في هفوات الأجداد.وما أثار الأعاصير عليهم، فنصوره للأحفاد، ونحذرهم منه، ونفتح عيونهم على ما أودى بدولنا القديمة من أمراض، كالانغماس في الحضارة، والركون إلى الراحة، والاتصاف بالأنانية، وبالعصبية القبائلية والمذهبية، وبالحسد الذي هو أم هذه الخبائث كلها، وهو الذي أودى بدولنا الإسلامية، وشقق جماعة المسلمين، فداخلها سوس الاستعمار ورتع فيها ذباب أوروبا.وطمعت فيها كل الحشرات الضعيفة. يجب ان نحذر الأبناء مما وقع فيه الآباء، ونبيد في نفوسهم بالتاريخ الصحيح العقد النفسية الموروثة التي ثبتها الاستعمار في نفوسنا ليمزق شملنا، ونريهم خطأ الأجداد فيما أخطأوا فيه، ونحذرهم من العقبة الوخيمة التي جرتها على أجدادنا تلك الذنوب. ان هذا اكبر فرض يجب على المربي في دروس التاريخ، وإلا يكون مقصرا في التربية، مخلا بواجبه الوطني، لم يأت أهم ما يجب عليه في بناء الجيل الجديد الذي يجب ان يكون خاليا من العقد النفسية الموروثة، ومن العقائد البالية الفاسدة ليكون صفا ليكون صفا مرصوصا، وبنيانا متينا فيصل بمغربنا الحبيب إلى الذرى العالية التي تؤهله لها متانة أخلاقه، والبطولة الموروثة من أجداده، وتمسكه بدينه وبالأخلاق الإسلامية التي تسعده وتنيله رضا الله!

التاريخ للتربية العقلية

والتاريخ للتربية العقلية، فيجب ان نعمل عقل التلميذ فيه كل الأعمال، فنكلفه ان يستنبط من المقدمات التي سمعها ما تقتضيه من نتيجة، فإذا سمع باستقامة دولة وتمسكها بالدين، ورسوخها في الصراط المستقيم، فإنها لابد ان يكون على القوة والازدهار، وعلى النجاح في كل الأمور، والتقدم والتفوق في كل النواحي، فيجب على المربي في درس التاريخ ان يسأل التلميذ ليعمل عقله فيتوصل إلى هذا الحكم، ويعرف هذه

النتيجة، فيكون قد ربى فيه الخلق بالفاته إلى عائدة التمسك بالدين، وربى فيه العقل بالاستنباط والاستخراج! وإذا أراه دولة تتنكر لدينها، وتعرض عن الإسلام، وعما أمر به القرآن، وتحتقر الدين وتزدريهـ وتأخذ بالمذهب الهدامة التي وضعها أعداؤها، وبالقوميات الضيقة التي اختراعها أعداء الإسلام، فان عاقبتها لاشك هي الدمار والاضمحلال، وما تبوء به إنما هو الخسارة والهلاك، والتمزق والتفكك.وما يكون لها في صدور الأحرار والأمم إنما هو الاحتقار والازدراء، فيجب ان نترك التلميذ يستنبط هذا، ونحثه ان يعمل عقله فيتوصل هو إلى هذه النتيجة، فنكون قد قوينا انتباهه إلى ما يجب ان يتأثر به في التاريخ، وقرينا عقله بأعماله فيه، كما يجب ان يكون التمارين التي يعقب بها كل باب مشتملة على أسئلة تدعو التلميذ إلى الاستنباط وتعمل عقله باستخراج النتيجة من مقدماتها.

فن تدريس التاريخ

ان التاريخ اكبر وسيلة للتربية العقلية والخلقية، وأعظم عامل يحرك الشعوب وينهضها، ويدفعها إلى أسمى الغايات، وهو أقوى مطهر للأمم من أمراضها فلذلك حرمه الاستعمار علينا، وكاد أعداؤنا له، فترى أعداء العربية يتخذون كل وسيلة لصرفنا عن تاريخ رسولنا محمد عليه السلام، وتزهيدنا فيه، وترى البلداء الضعفاء الجهلة الذين سمعهم الاستعمار، وركبهم إلى غاياته، والى قتل امتنا، يرون من العصبية الاعتناء بتاريخ الرسول كل الاعتناء، وتخصيص اكبر ما يمكن من الحصص ومن الجهد لتاريخ دولنا الإسلامية، وتاريخ أجدادنا، ولعل الله يقي المغرب من هذه المذاهب الهدامة، ومن هذه الفئات الجاهلة المريضة، فإنها لعمرك شر من المستعمرين ومن الاستعمار اللاتيني الحقود الذي كنا في جحيمه.

ماذا يشترط في مدرس التاريخ

ان التاريخ للتربية الصحيحة ولبث الروح القوية في الأمة، وإذكاء الحماس للمثل العليا في القلوب، ولكن التاريخ لا يؤتى ثماره ونتائجه التربوية العظمى إلا إذا القينا دروسه في تحليل علمي، وفي روح خطابية، وفي أسلوب طلي، ان شخصية المدرس هي التي تؤثر بالتاريخ، فيجب ان ينبع التاريخ من أعماقه متأججا بوجدانه، ومن عقله ممتلئا بفلسفته، لا من لسانه وحده، فيكون أخبارا باردة يسردها، أنباء عتيقة ميتة يحكيها، ان المربي لا يستطيع ان يكون على ذلك الحماس وعلى تلك الروح المؤثرة القوية في التاريخ إلا إذا أتى بدرسه وبمحاضرته في رأسه، لا في كراسه، فتنبع من أعماقه حارة دسمة

تشبع العقول، وتحرك النفوس، أما (السندويتش) البارد الذي يأتي به في الأوراق فانه لا تسمن به العقول، لأنها لا تتنبه بقول إلا إذا ألهب حماسها بحماسه، وتفجرت معانيه في التاريخ م عينيه ومن كل جوارحه وكان في التاريخ فيلسوفا وخطيبا.

لنحقق النتائج التربية بالتاريخ يجب ان يتحمس المدرس والمحاضر المربي للفصيلة في تاريخ العظماء، ولكل الأشياء الحسنة في الأمة التي ندرسها، والدولة التي نعرض تاريخها ليفيض وجدان المدرس والمحاضر على تلاميذه فيكون وجدانهم، فيعجبون مثله بالفضيلة، فيتنبهون إليها، فيدركون جمالها، ويكونون مثله في التعلق بها، والرغبة فيها، كما يجب ان يمتلئ كرها للرذيلة، والخيانة، ورقة الدين، ولكل الأشياء السيئة في التاريخ، ليكون تلاميذه على وجدانه فيمقتونها، ويهربون منها.

يجب ان يكون نزهاء في التاريخ، لا نتعصب، ولا نقلد، ونتنبه كل التنبه في كتب التاريخ الإسلامي القديمة، فإنها مملوءة بأكاذيب الملوك، ودعاياتهم الباطلة، ويجب ان لا نترك ألفنا وما ردده أجدادنا فاستقر في عقلنا الباطن يكون أحكامنا في التاريخ، يجب ان ننظر بعقولنا، ونبحث بحثا منطقيا خالصا لا توجهنا فيه العواطف الموروثة، ونعتمد في أحكامنا على الأدلة القوية، والبراهين الساطعة، والنصوص الصحيحة، ونوسع دائرتنا في البحث فنطلع على كل المراجع بدون تحيز ولا تعصب، فإذا توصلنا إلى الحكم صحيح نؤمن به فحكمنا على شيء بالحسن، فيجب ان نتحمس له، ونوجه أنظار التلاميذ إليه، فنكون كالذي اكتشف هلال العيد في أثناء السحب فانه يوجه الأنظار إليه في رنه تؤذن بالبشرى، وتفيض بالأفراح !

ان العاصفة والحماس يجب ان لا يلابسنا في الحكم لا للحكم، ويجب ان نخلوا منهما أثناء البحث والتأمل لا بعد الحكم الذي نؤمن به، والنتيجة التي نتيقنها.

ان التاريخ فن فليفي علمي أدبي يجب ان لا يسند تدريسه إلا للفصحاء الذين وهبهم الله اقتدارا في التعبير، وقوة في العقول، يستطيعون بها التحليل والاستنباط، وكانت الشخصية الخطابية فيهم قوية، أما العاجزون الضعفاء، ذوو الهمود في الوجدان، والعجز في اللسان، والبرودة في الكلام، والضعف في الذكاء، والذين تعوزهم الفصاحة والاقتدار على التعبير، فتراهم في حبسة تنتأ فيها عيونهم كالمحتضر، فإنهم لا يلدون إلا المعاني الميتة، ولا يزيد التاريخ على أيديهم ان يكون مجلبة للنعاس، ومدعاة للسأم، وسببا للأعراض.

يجب ان لا يسند تدريس التاريخ لمن كانت شخصيته علمية محصنة، فانه يقتله، ولا تجدي معلوماته الغزيرة فيه، وذاكرته المحشوة بمادته.

أسباب قوة الذاكرة في التاريخ:

ان التاريخ أصعب الفنون رسوخا في الذاكرة، وبقاء في الحافظة، فالنسيان يسرع إليه أكثر من كل الفنون فيجب الأخذ فيه بكل ما يقوي الذاكرة. انه لا يقوي الذاكرة شيء كالانتباه القوي، والملاحظة التامة، هذا لا يكون إلا بالحماس الذي يؤرثه المربي في نفس التلميذ يدرس التاريخ فينتبه كل الانتباه إليه.

وقوة الذاكرة تكون بكثرة الروابط، فلابد من ربط الحقيقة الواحدة بحقائق كثيرة مما يشابهها ويتصل بها من معلومات التلميذ القديمة، ومن ربط حقائق التاريخ بعضها ببعض، فتاريخ نشأة الدولة يجب ربطه بتاريخ انقراضها، وبمكانها، وعاصمتها، وبأول رؤسائها، فترتبط هذه الحقائق في نفس التلميذ فإذا تذكر واحدة استتبعت أخواتها، فيحصل بهذا التكرار الذي نرسخ به المعلومات ونجددها؛ ولكن هذا الربط لا يستطيعه إلا العالمون بكل فصول التاريخ، العارفون كل المعرفة بأبوابه كلها. أما من ينقل الدرس من الكتاب فيردده كالحاكي، وينفث به كالراقي، ثم ينساه، فانه لا يستطيع هذا الربط الذي هو أساس رسوخ العلوم في الحافظة.

ان الإكثار من الروابط في الدرس، وربط الجديد بالقديم يضمن لنا أيضا التكرار غير الممل الذي ترسخ به المعلومات في ذهن التلميذ.

ان باب تداعي المعاني في كتب علم النفس التربوية، وباب الذاكرة والحافظة، مما يفرض على معلم ان يدرسه، مع ما يجب عليه من دراسة كتب علم النفس التربوي، وكتب التربية والتعليم. ليت مدرسينا في المغرب يأخذون بحظهم الكامل منها، ليكونوا رجال التربية فيه أيضا. وليت حكومات المغرب تقضي عن مدارسنا كل هزيل لا توجد فيه شخصية المعلم، ولا يرغب في وظيفة التربية والتعليم المقدسة ولا يغرم بها، فيستعد لها بدراسة كتب التربية والتعليم، ومتابعة تطور هذا الفن العظيم الذي تقوم عليه عظمة الأمة وتطورها

التمارين الدقيقة بعد كل باب سبب رسوخه

وبعد كل ما تقدم في شخصية المدرس وفي الدرس، يجب ان نعقب كل باب في التاريخ بتمارين مفصلة نسال فيها عن كل شيء يكون عرضة للنسيان، فان هذا اكبر وسيلة لرسوخ التاريخ في ذهن التلميذ.

ومن وسائل رسوخ التاريخ ان نكلف التلميذ بعد إنهاء المحاضرة التي أصغى إليها

بكل اهتمام ان يكتب خلاصتها من ذاكرته، فان هذا يضمن انتباهه في الدرس ليستطيع هذا، ويضمن استعادة المعلومات التي هي من الوسائل الكبرى في قوة الحفظ لما فيها من التكرار المصحوب بالانتباه. أما كتابة التلاميذ للمحاضرة في وقت إلقائها، فإنها تصرفهم عن الانتباه، فلا يزيدون على ملء صفحات الكراس ثم لا يبقى شيء في الرأس. يجب ان ينقش التلميذ درس التاريخ في رأسه، ثم يستعيده ويكتبه في كراسته ان في هذا مع الحفظ القوي، وتمرن على الإنشاء !

هذه قواعد في فن تدريس التاريخ لقدمها لإخواني وأبنائي في مدارسنا، وهي خلاصة تجربتي، وقواعد ألتزمتها في محاضراتي في تاريخ المغرب بمعهد الحياة، فنجحت كل النجاح والحمد لله، فصار تاريخ المغرب بالمعهد هو المادة الحبيبة إلى نفوس التلاميذ وهو العلم الراسخ في أذهانهم، والفن الذي يأخذون فيه أعلى الأرقام رغم شدتي في الامتحانات.

انها قواعد يقررها فن التربية والتعليم، وتؤيدها تجربة لي استمرت أربع عشرة سنة كاملة في المعهد، فعسى إخواني في مدارسنا يزدادون بها إيمانا بما يعرفون، أو تنبها لما لم يعرفوه كله، فيأخذوا الأهبة الكاملة فيه. واراني مقصرا إذا قدمت لمدارسنا في المغرب وكلياتنا مادة هذه الكتاب، ثم سكتت عن الطرق التي جربتها في تدريس التاريخ فنجحت بها كل النجاح والحمد لله.

ان التاريخ هو الفن العظيم الذي حرمنا الاستعمار البغيض منه، وحرمه علينا فيجب ان نبادر بعد استقلال المغرب فنأخذ حظنا منه، ونتنفع به في تربية الأجيال القادمة، ونبرز تاريخنا وثوراتنا المباركة في المغرب في أسلوب أدبي طلي يحببه إلى القراء، وفي تحليل علمي وبحث نزيه يصفه من الأكدار والأكاذيب التي ملأه بها الملوك القدماء والمستعمرون. ان هذا فرض على أدبائنا العلماء بعد الاستقلال !

ان الكتاب المغربي هو وجه المغرب الذي يرانا فيه إخواننا، فيشعرون بوجودنا وان لغتنا العربية المقدسة التي أصبحت لغة حكوماتنا فتفتح لها المجال في مغربنا الجديد، ويجب ان ننعشها بالتأليف، ونبرد لهفة المغرب منها بالتصنيف والنتاج الرفيع. يجب ان نقوم بواجبنا في ترقية لغتنا، ونهض بنصيبنا من الحمل في هذا الباب، ولا نكون عالة على إخواننا فيما نستطيعه.

واجب الأدباء والعلماء في المغرب

ان الكتاب المغربي العربي هو المرآة التي يرى العالم، ويرى إخواننا فيها وجه المغرب

العربي الجميل. وإذا كان الكتاب مرآة لأجدادنا. وفي تاريخ مغربنا. فقد تضاعف الجمال. وزادت الجدوى!

وبعد فما هي الأسباب التي دفعتني لتأليف «تاريخ المغرب الكبير» وكيف الفته هذا ما يجب على أصدقائي القراء ان يعرفوه.

لماذا الفت هذا الكتاب؟

لما رجعت من القاهرة إلى الجزائر في سنة سبع وستين وثلاثمائة وألف هجرية «1948م» بعد انتهاء دراستي. وكان في الجزائر معهدان وطنيان ثانويان للغة العربية احدهما في شمال الجزائر وهو معهد عبد الحميد بن باديس الذي تقوم به جمعية العلماء والثاني في جنوب الجزائر بالقرارة وهو معهد الحياة للغة العربية والتربية الإسلامية تقوم به جمعية الحياة التي يرأسها الشيخ بيوض إبراهيم أمام النهضة العربية الحديثة في جنوب الجزائر. وعالم الجزائر الكبير. وخطيبها الفذ. فدعاني معهد الحياة للقيام معه بالواجب الوطني والديني في ميدان التربية والتعليم. آثرته أيضا. فكان من الفنون التي أسندها إلي للسنتين النهائيتين في المعهد تاريخ المغرب الكبير. فساءني ان لا أجد متابا دراسيا في تاريخ المغرب يليق للثانوي. على الروح التي أريد. وعلى الأسلوب الذي ينبغي.وعلى المنهاج الذي يحقق النتائج التربوية من التاريخ. فكنت عقب كل محاضرة اكتب نصوصها وخلاصتها للتلاميذ بأسلوب أدبي رائق يزيد للتاريخ وضوحا. ويكسبه طلاوة تحببه إلى النفوس. وبروح مؤثرة تجعله ذا آثار بالغة في النفس. فكان إقبال التلاميذ على تلك الخلاصات. وانتشاؤهم بدراستها. ورغبتهم فيها. وتأثرهم بها أكثر مما انتظرت. وابلغ مما رجوت. فاستمرت تلك الخلاصات إلى آخر الدروس فتكون منها كتاب هو الذي اقره المعهد في تاريخ المغرب. وعسى الله ان يمد في الأجل. ويمد بالعون فأطبعه لتنتفع به مدارسنا. وفي سنة تسع وستين وثلاثمائة وألف هـ «1950م» عزمت ان اكتب شيئا في تاريخ المغرب الكبير بأسلوب أدبي. وتحليل فلسفي. وببحث علمي نزيه يليق لمطالعة مثقفينا. ويكون مرجعا ومصدرا لجامعاتنا ومدارسنا. ويصفي أبواب تاريخ المغرب التي كدرتها ودنستها أكاذيب الملوك القدماء. ودعايات المستعمرين وسمومهم. فصارت خطرا على المغرب. ومنبعا للسموم التي تكدر صفاءه. وتفرق جماعته. وتمكن الحساد والدساسين من بث الفرقة والشقاق في مغربنا الحبيب. فكتبت في سنة سبعين من الهجرة. وفي إحدى وسبعين. وفي أوائل اثنتين وسبعين وثلاثمائة وألف (1951 و52 و53م) مسودة الأجزاء الثلاثة الأولى من «تاريخ المغرب الكبير» فصرت أفكر في طبعها. ولكنني أبيت ان أفرغها في القالب النهائي. واعدها للطبع قبل ان أقوم بجولة واسعة لاطلع على كل ما

استطيع الاطلاع عليه من كتب تاريخ المغرب. سيما المخطوطات القديمة. فزرت في عطلة الربيع لسنة ثلاث وسبعين هـ (1953م) خزائن كثيرة من المخطوطات لا زالت محفوظة في جنوب الجزائر لم تمتد إليها أيدي الاستعمار التي جردت المغرب من كتبه القديمة. ومن مؤلفات أجدادنا في التاريخ. فوجدت فيها من الكتب المخطوطة. ومن الوثائق التاريخية شيئا كثيرا مما أريد. ثم عزمت على زيارة مكاتب تونس الخضراء. ودار الكتب العربية في القاهرة؛ وهذه الدار العظيمة الحبيبة التي درست فيها تاريخ المغرب فصرت اعرف الكثير من مصادر التاريخ فيها. وكان الاستعمار الفرنسي قد ضرب الأسوار الحديدية بين الجزائر والقاهرة والأقطار العربية. فصرت منذ الربيع أسعى للحصول على جواز عام للسفر يمكنني من السفر في عطلة الصيف. فكان الله نعي فحصلت على جواز للسفر طويل الأجل. ولما أوشكت عطلة الصيف ان تبدأ صرت اطرق الأبواب للحصول عل تأشيرة الدخول في مصر. فأرسلت جواز السفر إلى (مرسيليا) وبعد ضمان مالي كبير وضعته في بنك الجزائر. وبعد مساع ووقت طويل.وقلق كبير حصلت على تأشيرة الدخول في مصر على إني مار إلى الحجاز. وتلك هي العلة التي تسترت بها للحصول على الجواز. فسافرت في أول العطلة إلى تونس فغبرت شهرا في مكتبتها الوطنية. وفي المكتبة العبدلية. اطلعت فيهما على كثير من مصادر تاريخنا. ثم وصلت دار الكتب العربية في القاهرة فأسرعت إلى كرسي رقم 21 الذي بنيت فيه نفسي في قاعة المطالعة فصار اعز مكان لدي في الدنيا بعد المعاهد التي نشأت فيه ! فوجدت من أصدقائي القدماء فيها. ومن أمنائها. ومن رئيس قاعة المطالعة فيها صديقي السيد الحاج عبد الهادي يس. ومن مراقب الدار العام السيد عبد المنعم عمر كل ترحيب وإجلال ومساعدة. فكنت اطلب أحيانا عشرين مجلدا فيسرعون بها إلي. فاطلعت على فهارس التاريخ كلها في دار الكتب فوجدت الكثير مما أريد. فاطلعت على المهم منه. سيما المخطوطات والكتب المطبوعة النادرة الوجود. فانقضت عطلتي الصيفية بعد شهرين أمضيتهما في دار الكتب الحبيبة. وكانت هذه الدار جزءا من نفسي! وكانت القاهرة هي المدينة التي انس إليها. واجد فيها نشاط فكري. واستطيع ان أعطي نفسي فيها للعلم. فعزمت ان اطلب في الصيف المقبل من المعهد عطلة طويلة فأعكف في دار الكتب وفي القاهرة الحبيبة فاسكب مسودة كتابي في الصيغة النهائية. وأزيد فيها تكون لي من نظريات ومعلومات. وما سأستفيده من المراجع الجديدة. وتطبعه في القاهرة. فان الطبع فيها أجود. وحرية التأليف والنشر فيها أكثر مما عندنا في المغرب. فلما وصلت الجزائر قامت الثورة المقدسة في أول نفامبر (1954م) فسكتت الأقلام وتكلمت المدافع. وعكفت الأمة الجزائرية كلها على كتابة تاريخها الأغر بدمائها. فتوقف عملي في هذا الباب. فصارت

مسودة الأجزاء الثلاثة مناط أملي، واعز شيء لدي. ولما أصبحت دور المثقفين ورجال العلم بعد قيام الثورة مهددة بالتفتيش، واخذ كل مخطوط عربي وتفتيشه والقضاء عليه ان لم يرقهم، واعتقال صاحبه، وكنت اعرف نظرتهم إلى تاريخ المغرب، سيما وما كتبته في الجزء الأول في الاستعمار الروماني مما يثير ثائرتهم، ويقيم قيامتهم! فجعلت مسودة كتابي في صندوق خشبي لا مسامير فيه لكي لا تكتشفه آلاتهم التي تدل على الحديد، فردمته في الحديقة، فبقي فيها زمنا، فخفت ان تتسرب إليه الانداء فتتلفه، فوضعته عند صديق من الهادئين الذين لا يلفتون أنظار الاستعمار، ولا يفكرون في تفتيش داره. وكنت كلما هوجمت القرارة، وفتشت بعض نواحيها اضرع إلى الله ان يحفظ دار الصديق ويحفظ مسودة الكتاب.

هجوم الجند الفرنسي على القرارة وتفتيشها والعيث فيها

وطوقت القرارة في جمادى الثانية 1381هـ آخر أكتوبر 1961م بكتائب الجند الفرنسي الحقود، وأحيطت بالمدافع والدبابات، وأخليت من السكان، فضربت عليهم الأسلاك الشائكة في ظاهر المدينة، وأحيطوا بالمدافع الرشاشة وبالدبابات، وبنطاق من الجند المسلح! فهجم الجند الفرنسي المسعور على المدينة ليقبض على خلية جبهة التحرير فيها، وعلى جند جيش التحرير الذين قال لهم جواسيسهم ان القرارة صارت من مراكزهم في الجنوب، وليملأوا أيضا جيوبهم، وعرباتهم، وسيارات نقلهم، ويطفئوا أحقادهم في القرارة التي يرونها اكبر منبع للعروبة والدين في الجزائر، ومنبع اليقظة الذي يشعل نار الحماس والوطنية في منطقة «النقط» الأثيرة. وكنت وأنا في الأسلاك الشائكة أسائل الصديق الذي وضعت عنده مسودة الكتاب ويسائلني: ترى هل يفتشون الصندوق الذي أخفاها فيه؟ وهل تسترعي انتباههم خرائط الكتاب التي لفت في خشبة طويلة فعلقت في الحائط فصارت كالعلم الملفوف. وكنت قد قاسيت جهدا كبيرا في صنع خرائط الجزء الأول والثالث. وأمضيت ثلاث سنين في التنقيب عن حدود الدول المغربي في القرن الثاني والثالث الهجري وقبل الإسلام فتم وضعها فصارت وثيقة تاريخية نفسية لا توجد في كتاب، قد يظنونها علم الجزائر فيفتحونها، فإذا وجدوا الخرائط ترسم فوق أديم الجزائر حدود دولنا الإسلامية وتشير إلى استقلال الجزائر القديم، وتم عن الوطنية والتاريخ العربي، فويل للصديق وداره! ان اقل ما يرتكبونه ان يخلو الدار من أثاثه فيتركونها صحراء خاوية، ويمزقون الخرائط والكتاب. ولكن قلبي كان مطمئنا، وكنت موقنا بان كتابي وخرائطي سيحفظها الله لأنني الفتها بنية حسنة، وأردت بها نفع إخواني في الأقطار العربية والإسلامية، وخدمة الدين والعربية في المغرب، والقضاء

على أسباب التفرقة التي يبثها الاستعمار متدرعا بأكاذيب الملوك القدماء على المغرب! وبالتاريخ المشوه الذي أوحوا به إلى دعاتهم! فانتهى التفتيش الذي استمر ثلاثة أيام قامت به كتائب جرارة من الجند المسعور، ففتشوا الديار حجرة حجرة وأعادوا تفتيشها ثلاث مرات. وانتهى اعتقالنا في الأسلاك الشائكة، فدخلنا المدينة فعلمت ان الله معي. ان دار الصديق قد فتشت كل حجراته وكشفوا عن خزائنها، اطلعوا على كل ملفوف محجب فيها، ولما وصلوا حجرة كتابي وخرائطي اطلوا عليها من الباب فانصرفوا، فلم تسترع انتباههم الخرائط الملفوفة ولا الصندوق الكبير المغطى في واجهة الباب. فعلمت ان الله معي! وكانت أفراحي بنجاة مسودة كتابي وخرائطي لا تقدر، فزاد هذا في عزمتي على إبرازه في أول سنة من استقلالنا، ليكون القربان الذي أقدمه شكرا لله على النصر، وعلى خروجنا من المعركة والمحن ظافرين!

أراك تظن يا صديقي إنني سأوزع كتابي مجانا «يدك على جيبك ياخوي» فان ما تشتريه به ثمنا للورق والطبع وتكاليفه الأخرى، وفصوله وأبوابه هدية إليك أيها القارئ العزيز على ان يحفظ لي حق إعادة الطبع والنشر وغيره كما بينا!

كان الله معي، فمدني والدي الكريم بكل نفقات الطبع، وجمع لي كل ما استطاع جمعه من دراهمه، فازددت عزما بهذا. فوصلت القاهرة في منتصف سبتمبر الماضي 1962 فشرعت في إعداد الجزء الثاني للطبع وأنا منتش باستقلال الجزائر ورجوعي إلى القاهرة الحبيبة!

لماذا بدأت بطبع الجزء الثاني؟

وكانت مسودة الجزء الأول الذي يشتمل على تاريخ المغرب قبل الإسلام لا تحتاج إلى زيادة وتعديل كبير، فهي على نحو يرضيني، وعلى مادة كافية، وكانت آخر ما كتبت بعد اطلاعي على كل ما مكنني من الكتب في تلك العصور، ثم ان تاريخ المغرب قبل الإسلام وان كانت حلقاته مظلومة فان الذين ظلموه إنما هم الرومان والمستعمرين اللاتينيون الذين يتبين أبناء المغرب أكاذيبهم وتشويههم لتاريخ أجدادهم أما الفتح الإسلامي، وتاريخ المغرب في القرن الثاني والثالث الهجري، فقد كان الذين شوهوه بالأكاذيب إنما هم الملوك القدماء وصنائعهم من المؤرخين المسلمين الذين ينخدع بهم أبناؤنا وإخواننا في المشرق، فيقعون في أخطاء فاحشة تسيئ إلى المغرب، وينظرون أجدادهم في صورة بعيدة عن حقيقتهم المشرقة، وشخصيتهم الجميلة، ووجوههم الوضاء! ويقعون في الأغلاط التي طالما استغلها الاستعمار لبث الفرقة والشقاق في مغربنا الحبيب. لها

بدأت بطبع الجزء الثاني والثالث لان مسودتهما لم تتم فالعمل فيهما اشق وأكثر، والحاجة إليهما اكبر، ودراهمي لا تتسع لثلاثة أجزاء.

لماذا يتهجم الملوك القدماء على المغرب

كان المغرب في القرن الثاني والثالث أول قطر إسلامي أحيا الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية الصحيحة بعدما قضي عليها الأمويون والعباسيون في المشرق وبايع الأئمة العادلين والرؤساء المتقين الذين اختارهم في حرية كاملة. فساروا فيه سيرة الخلفاء الراشدين! فسعد وازدهر، ودخل أعراسه وأفراحه،وصار ملجأ للمضطهدين في كل أنحاء العالم الإسلامي! فاغتاظ الملوك الأمويون والعباسيون لانفصال المغرب عنهم، وإحيائه للإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية، واتجاه الأنظار إليه، وإعجاب أهل المشرق بما في دول المغرب من حرية وعدل ومساواة ودين. فبثوا فيه دعاية سوداء ليصرفوا الأنظار عنه، وعن نظام الإمامة الجمهوري الذي اخذ به. فشوهوا هذه الفترة الزاهرة من تاريخه! وجاءت الدولة العبيدية فقضت في آخر القرن الثالث الهجري على دول المغرب المستقلة، وقضى ملوكها على كتب التاريخ لتلك الدول الجمهورية، وبسطوا فيها دعاية مسمومة كاذبة ليقتلوا دول المغرب العادلة في القلوب، ويصرفوا نظر أهل المغرب عن الإمامة الإسلامية التي سعد بها المغرب وانتشى بحلاوتها! فامتلأت كتب التاريخ الإسلامي بالأكاذيب على تلك الدول التي آثرت الجمهورية الإسلامية، وأبت النظام الملوكي واستبداد الملوك. فجاء الاستعمار اللاتيني فاستغل الأكاذيب لبث الفرقة في الإخوة الأشقاء، فأمست خطرا يهدد الإخاء، ويعكر الصفاء، ويسوء إلى المغرب إساءة بالغة بتلطيخ أغر صفحاته، وتسويد أحسن عهوده في الأشراف والبياض؛ فكان لابد من إزالة تلك الأخطاء من تاريخ المغرب لكي لا يقع فيها أبناؤها ومؤلفونا في المستقبل. فابتدأت بالجزء الثاني والثالث وأرجأت الأول الذي يشتمل على تاريخ المغرب قبل الإسلام.

ان تاريخ المغرب قبل الإسلام وان كان مهما حافلا بمناظر البطولة، ومجد أجدادنا، وفيه من المادة ما يترك أعظم الآثار في التلميذ والقارئ،وهو ضروري لمن يريد ان يعرف شخصية المغرب معرفة كاملة. فان تأخير طبعه لا يضر قارئ ما طبع من هذا الكتاب، لان الفتح الإسلامي بداية تاريخ جديد للمغرب، لا تنبني كل الانبناء حلقات الفتح وتاريخ دولنا الإسلامية بعده عليه. وأرجو ان أطبعه قريبا فتكمل الحلقات.

وكان العمل في هذين الجزأين الثاني والثالث المشتملين على تاريخ المغرب في القرون الهجرية الثلاثة الأولى صعبا كل الصعوبة. ان الطريق في هذه العهود مطموس،

والسبيل غير معبدة. واغلب الذين كتبوا في تاريخ المغرب من المحدثين قد اغتروا بالمصادر الملوكية فرددوا أغلاطها! فعلي اكتب في تاريخ المغرب أبوابا جديدة معتمدا فيها على المصادر الصحيحة، واسلك في طريق غير معبد، واتى بشيء لم يسبق إليه مستعينا فيه بنتائج من مضى. وكان الله معي فتغلبت على العقبات. فتم الجزء الثاني تأليفا وطبعا، ويليه الجزء الثالث ان شاء الله، وأرجو ان أزفه إلى القراء بعد ثلاثة أشهر بحول الله.

وحدة المغرب الكبير

ان هذا الكتاب «تاريخ المغرب الكبير» بأسلوب أدبي يحببه إلى القراء، وبتحليل فلسفي يرضي العلماء، وببحث علمي نزيه يفرح به كل محب للحقيقة، ويسر به من له غيرة على المغرب. وسميته «تاريخ المغرب الكبير» لان هذا الاسم هو الذي ينطبق كل الانطباق عليه، ويدل عليه الدلالة الوافية.

ان المغرب قبل الإسلام وفي عهود دولنا الإسلامية القديمة كان وطنا واحدا، يسكنه جنس واحد، لم يعرف هذه التجزئة التي صار عليها المغرب الآن. كان وطنا واحدا! فتجد زناتة وهي من قبائل المغرب الكبرى في طرابلس، وتجدها في الجزائر، وتجدها في المغرب الأقصى، وكذلك بقية القبائل المغربية الأخرى. وكانت الدول التي نشأت في المغرب الأقصى تشمل المغرب كله أو اغلب أجزائه، وكذلك ما انشأ في المغرب الأوسط يمتد إلى المغرب الأدنى، وما نشأ في المغرب الأدنى قد امتد إلى المغرب الأوسط والأقصى.

ان تاريخ المغرب القديم واحد، وهو وطن واحد، فمن غرب الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي، ومن بحر العرب إلى السودان، كله وطن واحد، يسكنه جنس واحد قد وفر الله له كل أسباب الامتزاج والاتحاد من الدماء الواحدة، والدين الواحد، والبيئة الطبيعية والاجتماعية الواحدة! ! وكان أجدادنا أينما حلوا في المغرب يعتقدون إنهم في وطنهم وفي الهم! وما عرف هذه التجزئة إلا في العهد التركي وفي عهود الاستعمار الأخيرة. فأرجو ان يعتبر كل أبناء المغرب ان انقسام مغربنا الواحد إلى أربعة أجزاء إنما هو انقسام العائلة الواحدة إذا كبرت، واتسعت، فاستقل كل من الإخوة الأشقاء في داره، وهم لأب واحد، وأم واحدة، وأسرة واحدة، ولم يقسمهم ذلك التقسيم إلا ما يريدونه من توزيع المسؤولية لتعمل كل الأعضاء!

ان المغرب الكبير أسرة واحدة! وهو بحكوماته الأربعة كالطائرة العتيدة، لها أربعة أجهزة، وأربع محركات، تنطلق بها إلى الأجواء البعيدة لتحتل مكانتها بين النجوم! !

المغرب الكبير أملنا

أننا لنرجو -وقد تحررت الجزائر- ان نرى المغرب الكبير يرجع إلى عهود أسلافه، فيكون على نظام فدرالي، وتحت حكومة عليا يختارها المغرب، فتجد العربية، ويجد الإسلام، ويجد إخواننا في المشرق العربي المغرب المتماسك الذي تضافرت جهوده، وكما بعضه بعضا، فأصبح قاعدة الإسلام والعروبة التي لا تتزعزع، وسيف الله الذي يسلطه على أعداء الدين والعروبة فيبيدهم!

أجزاء الكتاب

ان «تاريخ المغرب الكبير» سيكون ان شاء الله في عشرة أجزاء كبار: الجزء الأول يشتمل على جغرافية المغرب الطبيعية والسياسية قبل الإسلام وما يبين شخصية المغرب وحقيقته وصفحات دوله الغراء في هذه العهود، وعهوده تحت الاستعمار وثوراته على المستعمرين القدماء، ونضاله للحرية والاستقلال.

الجزء الثاني وهو هذا في الفتح الإسلامي وفي العهد الأموي في المغرب.

الجزء الثالث يكون في العهد العباسي في المغرب وفي الدول الإسلامية المستقلة في القرن الثاني والثالث الهجري: الدولة الرستمية،والدولة الإدريسية، ودولة بني واسول في (سجلماسة) بجنوب المغرب الأقصى، والدولة الأغلبية.

والجزء الرابع في الدولة العبيدية، والدولة الصنهاجية، والدولة الحمادية.

الجزء الخامس لدول المرابطين، ودولة الموحدين، ودولة الحفصيين.

الجزء السادس لدولة مرين، ودولة بني زيات. ثم ينقسم المغرب في عهد الأتراك فتتسع جوانب التاريخ في المغرب، فلا يستطيع الفرد الواحد ان يكتب كتابة مستفيضة عن أجزائه كلها، فاضطر إلى حصر جهودي في الجزائر التي ى زال اغلب تاريخها في هذه الفترة مجهولا.

فيكون الجزء السابع في العهد التركي في الجزائر في الاحتلال الفرنسي.

والجزء الثامن في مقاومة الجزائر للمحتلين وفي حروب الأمير عبد القادر الجزائري.

الجزء التاسع في جهاد الجزائر الإصلاحي والعلمي بعد الاحتلال، وفي نهضتها العربية الحديثة التي ابتدأت في آخر القرن التاسع عشر المسيحي، فهيأت الجزائر لثورتها الكبرى !

والجزء العاشر في ثورة الجزائر وأدوارها وحال الجزائر في عهدها.

إني بعد ان عجلت للقراء بالحلقات المظلومة من تاريخ المغرب، سأعجل إليهم بحول الله بالحلقة المجهولة من تاريخ الجزائر، وهو تاريخها من منتصف القرن التاسع عشر المسيحي إلى القيام ثورتنا. لقد كان في الجزائر في آخر القرن التاسع عشر المسيحي وفي أول القرن العشرين أبطال مصلحون هم الذين كونوا نهضتنا الحديثة، ودفعوا بالجزائر في طريق العزة والحياة، فبلغت النضوج الذي كون ثورتها الكبرى وأورثها الاستقلال! سأعجل بهذه الحلقة ان شاء الله ما دامت مصادره حية. ان اغلب مادة هذا الجزء توجد في رؤوس شيوخنا العلماء الذين أدركوا أولئك الزعماء، أو رووا عمن يحفظ أخبارهم، ولا يوجد في كتب التاريخ منها إلا الشيء القليل. ثم يليه الجزء العاشر في ثورة الجزائر، سأعجل به أيضا ما دام القائمون بها في الجبال، والذي شاهدوا معاركها وحال قرانا في عهدها على ذكر مما وقع. واني لأرجو من حكومتنا الجزائرية ان تمدني بكل مساعدة في هذا الباب، فتطلعني على الوثائق الرسمية التي تبين تفاصيل ثورتنا وأسرارها، وتفاصيل معاركنا الكبرى مع المستعمرين. كما ارجوا من جبال آوراس، وجبال القبائل، وجبال وانشريس، وجبال تلمسان وكل معاقل ثورتنا كل المساعدة إذا زرتها لجمع مادة هذا الجزء منها. ثم ارجع بعد هذا إلى الجزء الرابع متتبعا الأجزاء على التوالي ان شاء الله . واني لأرجو ان أجد من إخواني في المغرب الأقصى كل المساعدة إذا زرتها لجمع مادة دولة الموحدين، ودولة المرابطين، ودولة بني مرين، كما ان أجد من تونس الخضراء العون والمساعدة في جميع مادة دولة الحفصيين. أمدني الله بعونه وبلغ أملي في تأليف هذه الحلقات على أحسن وجه يبدي وجه أجدادنا الجميل، وصفحات مغربنا الغراء، كما ارجوا ان أجد من حكومتنا الجزائرية كل العون للاطلاع على كتب تاريخنا في أوروبا، فان تسعة أعشار كتب المغرب في التاريخ قد اقتنصتها الأيدي، فأمست في مكاتب باريس وروما، ومدريد، وبرلين. فلزام على من يكتب تاريخ المغرب ان يتزود من هذه المكاتب الحافلة في أوروبا.

لقد اخترت لطبع هذا الجزء والذي يليه مطبعة من اكبر المطابع في القاهرة، واخترت له أحسن ورق وجدته، وتحملت وحدي التكاليف المادية الباهظة، ورضيت بنفقات الطبع الغالية ليكون الكتاب في مظهره لائقا بصفحات تاريخ المغرب الغراء، وعنوانا لبرنا بأجدادنا. فإذا وجد الإقبال من القراء، وسد مسدا في المكتبة العربية، وأصبح مصدرا لمعاهدنا العلمية في المغرب، فان هذا سيكافئ الجزء الكبير الذي بذلته فيه، ويكون لي أحسن جزاء مع ما ارجوه من الجزء الكبير عند الله.

وقد بذلت الجهد في تصحيحه، ولكن يستحيل ان يسلم إنسان من اللحن، وكتاب

من الغلط المطبعي. قيل لعبد الملك بن مروان لقد شبت مبكرا! فقال: شيبني ارتقاء المنابر وخوف اللحن! هذا في عهود الفصاحة، وفي الأيام العربية القحة، فما بالك بأيامنا التي شاعت فيها العجمة، وغرست فيها الصحافة والإذاعة والكتب الرخيصة أغلاطا شائعة في الألسنة صرنا لا نشعر باللحن فيها. وقد ورد عمرو بالواو في أول الكتاب وهو منصوب. انه خطأ مطبعي انتبه إليه.

وفي الختام اشكر والدي السيد الحاج على بن عيسى دبوز فهو الذي مدني بنفقات طبع هذين الجزأين، وكان لي اكبر حافز على إخراجه. أسأل الله ان يمد في عمره إلى ان يرى حلقات الكتاب كلها يتم طبعها، ويجعل هذا العمل كنزا ثقيلا في ميزان حسناته. كما اشكر الأساتذة والأصدقاء الذين أعانوني بخدماتهم وقووا عزيمتي على طبع الكتاب. واشكر معهد الحياة الذي كان هو السبب لإقبالي على كتابة تاريخ المغرب، ثم مدني بإجازة عام لأخرجه على أحسن الوجوه. واشكر دار الكتب المصرية في القاهرة على إعارتي كل ما أريد من المصادر، واطلاعي على كل ما أشاء من المخطوطات، وما يغمرني به رئيس قاعة المطالعة، وأمناؤها، وكل موظفيها من احترام وإعزاز. كما اشكر (دار أحياء الكتب العربية، عيسى الباني الحلبي وشركاه)

للطبع على ما وجدت فيها من نظام وإتقان للعمل، وفاء بالمواعيد، وحسن في المعاملة.

حفظ الله مغربنا الكبير وأدامه متوجا بدينه وعروبته، رافلا في عزه وسعادته! وحفظ الله امتنا العربية والإسلامية ورؤساءها المخلصين، ومتعها بالمغرب العربي المتحد الصفوف، والقوي البنيان بدينه وعلمه واتحاده! والحمد لله على تأييده وعونه وحفظه في البدء والختام، والصلاة والسلام على خير الأنام!

القاهرة (التوفيقية)

مساء الثلاثاء 1 من ذي القعدة 1382 / 26 مارس 1963

محمد علي دبوز

الفتح الإسلامي للمغرب

غزوة عمرو بن العاص لبرقة وطرابلس

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

فتح برقة 22هـ 642م.

وجاء النور بعد الظلام والصلاح بعد الطلاح، وحبة المسلمين بعد عداوة الروم المستعمرين، والحرية المنعشة بعد الاستعباد المميت. وكانت سيوف المسلمين تضيء الجو، ودين المسلمين ينير القلوب، فتزيل السيوف ما بالشجرة الإنسانية من فروع يابسة تنتشر فيها الممات، ويقتل دين المسلمين ما بالنفوس من أمراض هي التي تحفز القبور للأمم، وما في النفوس من أخلاق دنيئة هي التي تقيد الشعوب للجزارين، وتهيئ الأوطان للآكلين.

وكان الروم المستعمرون الطغاة في المغرب هم ذلك الحطب اليابس الذي تراكم عليه فعزف النيران التي تحرقه؛ نيران الاستعمار التي يؤججها الروم عليه، ونيران الفساد الأخلاقي التي يبثونها في هذه الربوع بالحضارة الفاخرة، والمدنية الفاسدة.

ولما فتح عمرو بن العاص مصر في سنة عشرين من الهجرة واستنقذها من مخالب الروم العاتية، رأى ان يتتبع الروم حتى يجليهم عن هذه البقاع، ويظهر منهم هذه الأوطان المغربية كلها، لكي يأمن المسلمون في وطنهم الجديد مصر، وتزول العقبات التي تصد نور الإسلام عن قلوب البربر.

وكان عمرو بن العاص من دهاة المسلمين، ومن العلماء بالأوطان، وكان خبيرا بالمغرب، فعرف ان البربر جنس كريم، وأمة عظيمة تمتاز بخصائص ذهبية فإذا اشرف فيها الإسلام، وتطهرت بالإيمان، فإنها تكون قوة عظيمة للمسلمين، وجندا عتيدا للإسلام، فعزم المغرب، فسار إلى برقة في سنة اثنين وعشرين من الهجرة ففتحها.

وكان أكثر سكان برقة من «لواتة» وهي قبيلة بترية من قبائل البربر الكبرى، فرحبت بالمسلمين ففتحت لهم بلادها وقلوبها فلم يجد عمرو فيها مقاومة ولا مصاولة ففرض عليهم الخراج والجزية فسار إلى طرابلس.

فتح طرابلس: وكانت طرابلس تابعة :لجرجير» ملك افريقية، إلا ان سلطانه عليها ضعيف لثورات البربر على الروم، ولشيخوخة الروم بالفتن والحضارة والبربر. فبعث عمرو بن العاص قائده عقبة بن نافع إلى زويلة وفزان وودان، وهي المدن الكبرى في صحراء طرابلس، ففتحها ليأمن ظهره فلا يثب عليه البربر، فسار هو على الساحل حتى وصل طرابلس.

وكانت طرابلس مدينة تجارية كبيرة فحصنها أهلها بالأسوار المنيعة. وكان أكثر سكانها من نفوسة وهم قوم أشداء، وأبناء الحروب والهيجاء. وكانوا قد اعتنقوا النصرانية على المذهب الدنتوسي البربري الذي يدعوا إلى تحرير الأوطان، فعزموا على الاستقلال في وطنهم، فعلموا بمسيرة عمرو إليهم، وكانوا لا يعرفون حقيقة المسلمين، وظنوا إنهم يردون بهم ما قاسوه طويلا من الرومان والروم المستعمرين، فعزموا على الدفاع فغلقوا أبواب المدينة واعتصموا بها مدافعين.

وكان بالمدينة كثير من الروم المستعمرين فتالف منهم ومن البربر جيش كبير وقف خلف أسوار طرابلس وفي أبراجها لمدافعة المسلمين، فحاصرها عمرو شهرا كاملا حتى أتيحت له فرصة فوجد الطريق من جهة البحر لما جزر عن المدينة فبقي الشاطئ مسيرا يابسا إليها، فهجم عمرو من جهة الشاطئ وكان خاليا من الأسوار ففتحها، وقتل كثيرا من المدفعين عنها، وغنم ما فيها وكان مالا كثيرا من الذهب والفضة والبضائع والنفائس. وذلك البربر والروم وما كانوا عليه من حضارة ومدنية راقية.

أما الروم فإنهم لما سمعوا بتكبيرة الهجوم ورأوا جحافل المسلمين تنصب على المدينة ارتاعوا وهلعوا، فركبوا سفنهم فهربوا فلم يبق منهم إلا الضعفاء الذين لم يستطيعوا النجاة. وأمست طرابلس في قبضة المسلمين،وعزم عمرو على مباغتة مدينة صبرة قبل ان تسمع بفتح طرابلس فتستغلق فتتعبه.

وكانت مدينة «صبرة» في غرب طرابلس على بعد ثلاث وثلاثين ميلا ونصف منها. وكانت مدينة عامرة كبيرة قد اعتنى بها البربر والروم فصارت من عرائس المغرب في العمران والجمال والمدنية الزاهرة. وكانت دائرتها نحو ثلاثة أرباع الميل وطولها من الشمال إلى الجنوب كذلك. وعرضها من الشرق إلى الغرب مثله.

وكان الله قد ركب في صدر المغرب هاتين المدينتين: صبرة وطرابلس ليكون فتنة للأنظار، كما ركب في العذراء نهديها الراسخين لتكون فتنة للقلوب!

وكانت صبرة مدينة حصينة، عالية الأسوار، شامخة الأبراج. وكان أكثر سكانها

نفوسة. وهم في الشجاعة والقوة والذب عن الأوطان ذ. والثبات في الحروب كالأسود المدافعة عن عرينها. وكانت طرابلس قد آذنت صبرة بمسير المسلمين إليها، واستنجدت بهم، فتنمرت صبرة واستعدت للدفاع. ولكنها لما رأت طول محاصرة المسلمين لطرابلس أمنت لاشتغال الجند الإسلامي عنها بطرابلس. فأراد عمرو بن العاص ان يداهمها وهي آمنة، ويهاجمها قبل ان تعلم بوقوع طرابلس في أيدي المسلمين. فبعث إليها كتيبه من جيشه فصبحت صبرة فاحتلتها. ولابد وان تكون نفوسة قد قاتلت المسلمين لما اقتحموا المدينة، ووقعت معركة عنيفة بين أهل صبرة والمسلمين. وفي قبلة صبرة اليوم مقبرة قيل ان فيها قبورا للصحابة وارى ان ذلك ان صح فان هؤلاء الصحابة من الشهداء الذين سقطوا في معركة صبرة. وغنم المسلمون كنوزا لا تحصى من صبرة ورجعوا مظفرين تثقلهم الغنائم والسبي إلى عمرو بن العاص. وبافتتاح فزان وودان وزويلة وطرابلس وصبرة لم يعد في تلك البقاع الساحلية ولا في الصحراء التي امن عمرو فيها ظهره نقطة حربية تدافع، ولا أمكنة تمانع. فوقف عمرو على أبواب افريقية[1] في حدود «قابس» فرأى قوة البربر والروم فيها.وكان البربر قد استرجعوا في أكثر نواحي المغرب استقلالهم وتخلصوا من سلطة الروم، وتكونت لهم عدة ممالك يديرها ملوك مخلصون منهم. وكانوا يعتقدون العزم على الاستماتة دونها. وكان الروم يصورون لهم العرب مغيرين غاشمين يريدون استعمارهم. وكانوا لشدة ما قاسوا من استعمار الأجانب، الرومان والوندال والروم قرونا طويلة يسيئون الظن بكل شيء يأتيهم من خارج المغرب. فبودهم ان لا تهب عليهم حتى النسمات ولا يطلع عليهم حتى السحاب من خارج وطنهم. وكانوا قد افتكوا استقلالهم بقوة السلاح، ومهروا حريتهم بدمائهم وأرواحهم، فعرف عمرو ما يلاقي من دفاع البربر والروم، وعلم انه مقبل على مقارعة البربر الأشداء الذين لا يقلون عن العرب في الشجاعة والبطولة. فأرسل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يستأذنه في فتح المغرب، ويسأله ان يمده بالجيش والكراع.

وكان يعرف أحوال إفريقيا، ويعرف ثورات أهلها على الروم، وشدة البربر في النزال فخاف على المسلمين من تلك الأهوال، وأبى على عمرو ان يتقدم إليها، ويقحم المسلمين في تلك المسبعة البعيدة عن مركز الدولة فلا يستطيع إنجادهم إذا اسودت الأيام. وكان الإسلام لا زال لم يتركز في مصر وبرقة والروم فيها لا زالوا يرقبون غرة المسلمين، فخاف الفاروق ان يشتغل عمرو بن العاص بفتح افريقية فيثب عليه الروم في مصر، فيقع بين

1 - افريقية كانت تطلق في القديم على القطر التونسي اليوم.

نارين فلا يستطيع إنجاده. فقال رضي الله عنه:»افريقية المفرقة[1] لا أوجه إليها أحدا ما مقلت عيني الماء».

وكان جيش عمرو بن العاص قد أرهقته الفتوح التي اتصلت من الشام إلى طرابلس فكان غفي حاجة إلى مدد يسنده، اعضاد مستريحة تظاهره، ليقدم على هذه الخطوة الجبارة في فتح المغرب. فلما أبى عليه عمر رضي الله عنه ان يتقدم إلى افريقية، رجع أدراجه إلى مصر، فترك عقبة بن نافع في برقة ينشر الدين، ويثقف البربر بثقافة الإسلام، ويحرس ذلك الثغر من هجمات الروم، فعكف هو على ولايته مصر يديرها بعبقرية كالتي فتحها بها.

وكان فتح طرابلس وصبرة في السنة الثالثة والعشرين من الهجرة. وكان عمرو قد رجع بجيشه كله فلم يترك حامية منه في طرابلس لان البربر والروم سيثورون عليها فلا يستطيع إنجادهم لبعد الشقة بين طرابلس ومصر؛ فاكتفى منها بالغنائم ومن حملته هذه بالتمهيد للفتوحات المقبلة؛ تلك الفتوح لبتي لا تتاح له فرصة فتكون على يده ولكن على يد أبطال آخرين أولهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

وكان عمرو بن العاص قد طوق المغرب بمنن لا تحصى لأنه أول أمير فكر في افتتاح المغرب ليبث نور الإسلام فيه، ويزيل الظلم والطغيان الذي كان الروم يصبونه على بعض أهاليه. وقد نقل السلاوي حكاية من كتاب «الجمان من مختصر أخبار الزمان» ان صحت فإنها تدل على رغبة البربر في الاسم، ولعل هذه الحادثة مما شجع عمروا على المسير إلى المغرب قال السلاوي:»لما كانت خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، واستفتحت مدينة مصر -وكان عليها عمرو بن العاص- قدم عليه ستة نفر من البربر حليقو الرؤوس واللحى فقال لهم عمرو: من انتم، وما الذي جاء بكم، قالوا رغبنا في الإسلام فجئنا له لان جدودنا قد أوصونا بذلك. فوجههم عمرو إلى عمر رضي الله عنه، وكتب إليه بخبرهم فلما قدموا عليه -وهم لا يعرفون لسان العرب كلمهم الترجمان على لسان عمر فقال لهم : من انتم؟ قالوا: نحن أبناء مازيغ. فقال لهم عمر رضي الله عنه ما علامتكم في بلادكم. قالوا نكرم الخيل ونهين النساء. فقال لهم عمر: ألكم مدائن؟ قالوا: لا. قال: الكم أعلام تهتدون بها؟ قالوا: لا. قال عمر: والله لقد كنت مع رسول الله في بعض مغازيه، فنظرت إلى قلة الجيش وبكيت فقال لي رسول الله صلة عليه وسلم: يا عمر لا تحزن فان الله سيعز هذا الدين بقوم من المغرب ليس لهم مدائن ولا

1 - يريد بالمفرقة ان الروم فيها والبربر ربما أحاطوا بالمسلمين فيفرقون بينهم وبين الفاروق فلا يستطيع الاتصال بهم.

حصون ولا أسواق ولا علامات يهتدون بها في الطريق ثم قال عمر فالحمد لله الذي من علي برؤيتهم. ثم أكرمهم، ووصلهم، وقدمهم على من سواهم من الجيوش القادمة عليه. وكتب إلى عمرو بن العاص ام يجعلهم على مقدمة المسلمين وكانوا من أفخاذ شتى» وإذا صحت هذه القصة فان هؤلاء البربر من جهات برقة الشرقية التي كان اغلب سكانها في تلك العهود على البداوة، وأما أهل طرابلس وافريقية فمتحضرون قد بلغوا في الحضارة والمدنية المستوى الذي كان عليه الروم، وآثارهم في لبدة وصبرة «سبراتة» في ناحية طرابلس دليل على ذلك ثم ان هذا ان صح يكون قبل فتح عمرو لبرقة. ومراد النفر الستة ان صحت القصة: إنهم يهينون النساء إنهم لا يشتغلون بها فتكون هممهم، ولكن هممهم في الخيل وفي السلاح لا إنهم يظلمونها ويحتقرونها، فان البربر يحترمون المرأة، والبربرية تحظى في مجتمعها بكل حقوقها، وسنفصل ذلك في مناسبات مقبلة ان شاء الله. وعلى كل فسواء كانت القصة صحيحة أو من وضع الرواة فان أمل عمرو سيتحقق فينتشر دين الله في المغرب ويكون العرب والبربر امة فذة في المغرب تجدد للإسلام شبابه، وتورث للأمة الإسلامية قوتها الكبرى. ولكن من هؤلاء المحسنون الذين فتحوا المغرب وأشرقوا بنور الله فيه؟ ان أولهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح!

غزوة عبد الله بن سعد 27هـ 647م

كان عبد اله بن سعد بن أبي سرح العامري ن أبطال الإسلام، ومن اعضاد الدولة. ومن المخالب التي هاضت المشركين، وراشت المسلمين وكان على ميمنة عمرو ابن العاص في فتحه لمصر، ومن ضباطه الكبار في تلك الحروب. وقد حسن إسلام عبد الله بعد الرسول صلى الله عليه وسلمـ وتظهر من الارجاس التي كانت تنفخها فيه بيئة الشرك لما كان منغمسا فيها، فتفقه في الذين أسراره، واختلط بالصحابة واشرب روحهم، فصار من الرجال العظام، ومن أبطال الإسلام.

وكان عبد الله أخا عثمان من الرضاعة، فوصله هذا النسب بعثمان فتأثر به، والفتت هذه الصلة عثمان إليه فعرف كفاءته، فسد ثغورا أزادت في تجربته فأصبح من الإعلام ومن الرجال العظام.

ولما عزل عثمان عمرو بن العاص عن ولاية مصر في سنة خمس وعشرين من الهجرة ولي مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

وكان المغرب قريبا من مصر، وكان في عرف الدولة الإسلامية في ذلك الزمان تابعا لمصر، فعاملها هو الذي يقود الجيوش إليه، ويعتني بشؤونه، فرأى عبد الله ابن سعد ما يكون للمسلمين من قوة وسلطان إذا فتح المغرب فكانت أرضه جزءا من بلاد الإسلام والبربر جندا في صفوف المسلمين، ورأى استعمار الروم للمغرب، واضطهادهم الاهاليه، ورأى تخبط الأهالي في ظلام الشرك والفساد؛ والإسلام نور لا يرضي بوجود الظلام، وعدل لا يرضى بحياة الظلم، فعبث هذا النور عبد الله ليفتح تلك الأفاق فيهزم فيها الشرك والفساد. فأراد عبد الله ان يعجم عود المغرب ليرى مقدار قوة البربر والروم هناك، فصار يرسل السرايا فتغير على أطراف افريقية فترجع إليه تثقلها الغنائم، فعلم عبد الله انه يستطيع ان يفتح افريقية، ويهزم فيها جرجير ملك الروم، ويجعلها منبعا لأنوار الدين التي نغمر كل أنحاء المغرب.

وارى ان المنافسة التي كانت بين عبد الله بن سعد وعمرو بن العاص لابد وان تجعل عبد الله يفكر في ما أتاه منافسة من السير إلى المغرب حتى لا يكون اقل شأنا منه في العيون. إذا استطاع ان يحقق ما عجز عنه عمرو فدخل افريقية فأزال ملك الروم منها فان ذلك مما يسره ويسر بني أمية معه، ويزيد في نفوذه عند عثمان. فاستأذن عثمان أمير المؤمنين رضي الله عنه في فتح افريقية واراه ما يكون للإسلام والمسلمين من خير إذا فتحوها.

وكان عثمان حريصا على فتح المغرب ولكنه يعرف ما عرف سلفه الفاروق من حقيقة البربر، وأنهم أبناء حرب وطغيان، وعرف طبيعة بلاد المغرب فعلم ان جبالها الكاسية بالغابات قلاع وحصون طبيعية استطاع بها البربر ان يركبوا الروم والرومان الأقوياء، بهزائم لا تحصى، وان المسلمين سيلاقون من مدافعه أهل البلاد ما يشيب النواصي، فأبى ان يقدم على هذا الفتح قبل ان يجمع عليه الصحابة، وقبل ان يرى حماس رؤساء الدولة فبقي أياما وهو يستشير كبار الصحابة في فتح المغرب فزينوا له هذا الأمر وحثوه عليه، وتحمسوا له. فكتب الله للمغرب ان يخرج من جهالته، وتشرق شموس الذين فيه. فإذن عثمان في المدينة يدعو الناس إلى الجهاد، فتطوعت الجماهير، وسارع كبار الصحابة فانخرطوا في الجيش الإسلامي الذي سيحمل الهداية والنور إلى المغرب. وما رأى الناس في تلك العهود جيشا ضم من أقطاب الصحابة وأحبارهم ما اشتمل عليه هذا الجيش الذي ألفه عثمان لفتح المغرب.

وكان هذا الجيش يسمى جيش العبادلة لوجود اغلب من سمي عبد الله من كبار الصحابة فيه؛ فكان فيه عبد الله بن عباس،وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر، وعبد الله بن أبي بكر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبادلة آخرون.

وكان عثمان حريصا على ان يكون فتح المغرب على يده ليكون له الأجر الجزيل عند الله، وليضم إلى الأمة الإسلامية الجنس البربري الكريم فيكون لها اكبر قوة، وللإسلام اعز نصير، فأعان الجيش بألف جمل من ماله يمتطيها الفقراء، ويحمل عليها الضعفاء، وجعل لعبد الله بن سعد خمس من الغنائم ان فتح الله عليه في افريقية.وهذا يدل على حرص عثمان على فتح المغرب، وعلى صعوبة هذا الفتح والأهوال التي فيه.

فأرسل عثمان هذا الجيش الذي يدل على اهتمام المسلمين بالمغرب إلى عبد الله بن سعد، فلما وصل مصر أضاف إليه عبد الله بن سعد ما معه من الجيش فسار به إلى المغرب، ولما وصل برقة انضم إليه عقبة بن نافع فيمن كان معه من العرب والبربر المسلمين فصار عدد جيش المسلمين عشرين ألفا، وطلع هذا الجيش المبارك إلى المغرب طلوع السحاب يحمل إليه الحياة والسعادة والقوة وكل الخيرات.

وكان غرض عبد الله بن سعد هو كسر اكبر قوة تعترض سير الإسلام في المغرب، وكانت تلك القوة هي قوة جرجير فسار إليه ليشتبك به في معركة فاصلة ويحتل عاصمته «سبيطلة» ويزيل دولته من الوجود. فوصل عبد الله طرابلس فتنمرت له فاكتفى بان تزود منها فغنم ما استطاع من أموالها، وفعلت قابس كذلك فلم يقف

عليها عبد الله لان تلك المدن وان كانت مراكز لنواحيها فهي توابع سيسلس عنانها إذا ذق الرأس، وفتحت سبيطلة.

وكان جرجير واليا على افريقية الدولة البيزنطية. وفي حوالي سنة 608م. ثار على هرقل بن هرقل ملك بيزنطة فأعلن انفصاله عنه، فأنشأ دولة رومية بربرية جعل عاصمتها سبيطلة وسط بلاد البربر في الجنوب الغربي لتونس اليوم.

وكان البربر قد استرجعوا حريتهم واستقلالهم وأسسوا ممالك لهم في كثير من أنحاء المغرب سيما في الجبال كأوراس، وكان البربر في بقية النواحي متنمرين للروم، وكانوا يرقبون الفرصة لينقضوا عليهم فيزيلوا دولتهم الباغية من المغرب. فعرف جرجير هذا فأشرك البربر معه في دولته وابتعد بعاصمته عن الساحل فلم تكن قرطاجنة لأنها في متناول أيدي الأساطيل البيزنطية، ولان اغلب سكانها من الروم وهو لا يثق بهم، فانتقل إلى داخل البلاد واثر مجاورة البربر الذين يثق بهم أكثر من الروم، وتعصمه بلادهم الجبلية أكثر من الساحل العاري لكل المغيرين. فجعل عاصمته سبيطلة وهي هضبة عالية، فحصنها واعتنى بها هو والبربر الذين ناصروه، فتحضرت وصارت من المدن المرموقة في المغرب، ومن القلاع الحصينة فيه.

وكان أكثر الذين ناصروا جرجير إنما هم البربر الدونتوسيون سكان المدن. وكانوا قد اعتنقوا النصرانية على المذهب الدونتوسي البربري الذي يدعو إلى الحرية والمساواة، فوجد جرجير عامل الدين في هذه الفئات المتنصرة من البربر فجرهم إليه وألبهم على العرب، وصورهم للبربر عتاة مستعمرين، وأنهم أعداء لدينهم ووطنهم.

وكان البربر قد سكنوا إلى دولة جرجير، وكانوا يرونها أحسن ميراث لهم إذا مات جرجير أو ثاروا فقضوا عليه. انه منقطع الأسباب من بيزنطة، الدولة القوية التي تناصره، فلم يبق له إلا هؤلاء الروم الإفريقيون الذين قتلتهم الحضارة، واوقذتهم المدينة، فما أسهل ان يقضي عليهم البربر الصناديد متى أرادوا. ورأى البربر في افريقية ان دولة جرجير جولتهم بمسير المسلمين إليهم فوقفوا في صف جرجير، واستعدوا معه للدفاع. فلولا إشراك جرجير لهم في الدولة، ورضاهم عنه، لانضموا إلى المسلمين كما انضم أجدادهم إلى الوندال لما زحفوا على المغرب لمقاتلة الرومان.

فجمع جرجير جموعه من البربر والروم فبلغ جيشه مائة ألف وعشرين ألف جندي وسار عبد الله بن سعد حتى نزل قمونية في الشمال الشرقي لسبيطلة، وعلى بعد يوم وليلة منها. فأرسل إلى جرجير يعلمه بالقصد من مجئ المسلمين، وانه ليس للغارة

والنهب واستعباد الشعوب كما يفعل الرومان والروم المستعمرون، ولكن لنشر الإسلام، وبث المحبة والوئام، وإخراج المغرب من الظلمات إلى النور؛ فعرض عليه الإسلام أو الجزية، فأبى جرجير واستكبر فاستعد للحرب، فزحف عبد الله بجيشه حتى نزل قريبا من مواقع جرجير. وكانت الحرب مناوشة بينهما، يتصافان ويتبارزان، ويلتقي الفريقان في حرب متهيبة قصيرة المدى، وإذا إذن الظهر رجع كل إلى معسكره.

وكان كل من عبد الله بن سعد، وجرجير يتهيب المعركة الفاصلة يلقي فيها بكل قواه، ويبرز فيها كل طاقته خوفا من فشله فيها، سيما جرجير الذي عرف شجاعة المسلمين، وإيثارهم الاستشهاد في الحرب، ونصرة الله لهم في كل المعارك التي خاضوها مع جيوش الكفر والطغيان، ولم يكن واثقا بجيشه رغم كثرته، وكان مملوءا بالرعب والهلع من الجيش الإسلامي على قلته.

وكان عبد الله يتصل بالبربر في جنوب افريقية،[1] ويدعوهم إلى الإسلام، ويحبب إليهم العربية والدين، فاسلم كثير منهم، وكان يرسل السرايا حول قمونية فتغير على أموال الروم ومن تظاهر بالعداء فتغنم منها فترجع مثقلة بالغنائم التي يتزود منها الجيش في ضروراته.

ودامت الحرب معارك متوسطة الأوار لا يستعر لهيبها في معركة فاصلة، وارى ان عدم أقدام عبد الله بن سعد على المعركة الفاصلة ليس لخوفه من جيش جرجير،فما كان لجيش يضم العبادلة ان يهاب جرجيرا ولو كان في أضعاف ما حارب المسلمين به، ولكنه تأنى لعله يجد عورة في جرجير فيغتنمها، ولعل البربر يعرفون حقيقة الإسلام ومقصد المسلمين فينفصلون عن جرجير فيضربه الضربة القاصمة بأقل عناء، وبأيسر دماء، ثم ان غرض المسلمين من دخول افريقية هو نشر الإسلام، لا القضاء على جرجير وحده، وطول الإقامة تفيدهم، لأنها تمكنهم من الاتصال بالبربر ونشر الدين فيهم فيكونون من أنصارهم، فيعزر جمعهم ويكثر عددهم، ويتظاهرون بالبربر المسلمين على الروم.

وعلى كل فأرى ان عدم إسراع عبد الله بن سعد إلى المعركة الفاصلة قد أفاد المسلمين، لان البربر المتنصرين الذين يدافعون عن أوطانهم وعن دينهم سيقفون من الجيش الإسلامي موقف لليوث الغضبى إذا دافعت عن عرينها، وهم في الشجاعة والفروسية، والثبات في الحروب، والتضحية بالنفوس والإخلاص في المعارك لا يقلون عن العرب، فمن الأحسن ان لا يهيجهم بالمعركة الفاصلة التي لا يعرف كيف تكون نهايتها، فلينتظر فان الفرصة لابد وان تواتيه فيغتنمها.

1 - افريقية كانت تطلق في القديم على القطر التونسي اليوم.

وكان جرجير يؤثر ان تطول الأيام على المسلمين فتنفد ازوادهم، ويضعف صبرهم على الغربة، فيشتبك بهم وقد زالت جدتهم، وفترت حدتهم، بينما يكون هو جديدا لأنه في وطنه، وجيشه في تكاثر بمن ينضم إليه من البربر والروم.

ومضت شهور وعبد الله بن سعد في افريقية وأخبار الفتح لا تصل أمير المؤمنين عثمان، فقلق على المسلمين، وظن ان جرجير قد حاصرهم، ومنع صلتهم به، فافد عبد الله بن الزبير في كتيبة من الجيش مددا اعبد الله، وليأتيه بأخباره، ورأى جرجير غبارا يسد الأفق، وسمع تكبيرة الترحاب والابتهاج من جيش المسلمين، فعرف ان مددا قد جاءهم فارتاع من هذا المدد الذي سيجعل البحر يطفح فيغرقه، والمسلمين يتجددون فيتفوقون عليه.

وكان جرجير يجهل ان بالجيش الإسلامي عشرات من كبار الصحابة كلهم يليق ان يكون قائدا للجيش، ويخلف عبد الله ان وقع به سوء، وظن ان عبد الله هو أصل الشجرة فإذا زال تهدمت الفروع، وكانت له بنت جميلة قد أورثها أصلها الرومي والجو المغربي كل ما يمكن ان يجتمع في فتاة من أنوثة وسحر وجمال، وكانت بالغة الثقافة، قد صقلها جو المغرب الذي أودع الله فيه أسرار البحر الذي يخلق اللالي الساطعة، والجواهر الكريمة، فأمرها أبوها ان تلبس زينة حليها وحللها على زينة جسمها الفتان فتضاعفت بذلك في سحرها وجمالها، فأبرزها لجيشه، وجعل منها الجنة التي تحملهم على المغامرة في الحروب ، وإذن فيهم: ان من قتل عبد الله بن سعد زوجته ابنتي وأعطيته مائة ألف دينار، فصار عبد الله يحترس فان الجواهر من الأنس والدنانير لتسول للماديين الكفار ان يلقوا بأنفسهم في النار، فاقترح عليه بعض خاصته ان يؤذن حيث يسمع جيش جرجير: ان من قتل جرجير زوجته ابنته، وأعطيته مائة ألف دينار، ووليته على بلاده، ففعل عبد الله، فصار جرجير يخاف أكثر.

ان الولاية على البلاد مما يغري البربر المتعطشين إلى السيادة في وطنهم فيفتكون به، ثم وجد عبد الله بن سعد فرصته في جرجير فاغتنمها فهجم جيش المسلمين على جرجير فشتت شمله، وقتله هو وجماعة من صناديد قومه، ورؤوس الكفر من حزبه فزال جرجير فزالت بزواله دولة الروم في المغرب، وكان ذلك في السنة الثامنة والعشرين من الهجرة 648م، وبزوال دولة الروم زالت اكبر عقبة تقف في وجه الإسلام في المغرب، وانجلى الضباب الذي يمنع شمس الدين ان تشرق فيه.

وقد أورد ابن الأثير في الكامل قصة تغلب المسلمين على جرجير ونحن نثبتها لأنها

قد تكون صحيحة، إلا ان ما فيها من نسبة الخطة البارعة التي هزمت جرجير إلى عبد الله بن الزبير قد تكون من الدعاية التي تفضل عبد الله بن الزبير في الخصام الذي وقع بينه وبين الأمويين، والحروب التي شجرت بين الفريقين من اجل الملك. لقد تكونت لابن الزبير شيعة تنسب إليه كل ما يرفعه ويجعل كفته هي الراجحة على عبد الملك بن مروان. وإذا كانت معركة افريقية من المعارك الكبرى التي خاضها المسلمون، ومن الأعمال العظمى التي وقعت في عهد عثمان، وعلى يد عبد الله بن سعد فانه لا يبعد ان تحاول شيعة عبد الله بن الزبير فتسند إليه الفضل في تلك المعركة الكبرى. بل ان الرواة قد صاغوا القصة على نحو يوحي بضعف عبد الله بن سعد. فإنهم جعلوه لا يهتدي إلى وسيلة يهزم بها جرجير حتى قدم عبد الله بن الزبير من المدينة بعد شهور فكان هو الذي يدل عبد الله بن سعد على المكيدة التي نجحت فانتصر المسلمون الانتصار الباهر على عدوهم.

ان عبد الله بن الزبير منة أبطالنا العظام، ومن صناديد دولتنا الإسلامية، وعبد الله بن سعد من صناديد دولتنا ومن أبطالنا العظام. فما كان لنا في هذا الزمان ان ننساق مع المراجع القديمة فننقل ما سولته الحزبية القديمة لأصحابها. فلنكن على حذر في كتب التاريخ القديمة فان اغلبها من إملاء الساسة المغرضين، ومن العلماء الضعفاء المزلفين.

قال ابن الأثير يروي تلك القصة:... ثم ان عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن سعد ان أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في إمداد متصلة، وبلاد هي لهم، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم. وقد رأيت ان تترك غدا جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين، ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر إلى ان يضجروا ويملوا، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون، ونقصدهم غرو فلعل الله ينصرنا عليهم. فاحضر جماعة من أعيان الصحابة فاستشارهم فوافقوه على ذلك فلما كان الغد فعل عبد الله ما اتفقوا عليه، وأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم، وخيولهم عندهم مسرجة، ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالا شديدا، فلما أذن بالظهر هم الروم بالانصراف على العادة فلم يمكنهم ابن الزبير، وألح عليهم بالقتال حتى أتعبهم، ثم عاد عنهم هو والمسلمون، ثم ان كلا من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعبا. فعند ذلك اخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحا من شجعان المسلمين وقصد الروم فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم، وحملوا حملة رجل واحد وكبروا فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم

المسلمون، وقتل جرجير، قتله ابن الزبير، وانهزام الروم، وقتل منهم عظيمة وأخذت ابنة جرجير مسبية».

ان محاولة شيعة عبد الله بن الزبير ان تخصه بالفضل في نجاح المسلمين في افريقية مما يدل على عظم هذه المعركة عند المسلمين، وعلى إكبارهم لأثارها، واعتدادهم بها. انها معركة منة معارك أربع خضدت المغرب من أشواكه، وأزالت منه رؤوس الكفر فانتشر فيه الإسلام، ولكن هذه المعركة هي أهمها. فلولا تطهير افريقية، وزوال اكبر دولة من دول الشرك في المغرب، وهي دولة جرجير، وما وجد المسلمون طريقهم إلى أنحاء المغرب فطهروها، وما استطاعوا ان يؤسسوا قاعدة في المغرب وهي القيروان فينبع منها نور الهداية والإيمان. وقد سفقت المدينة طربا، وفرح المسلمون كلهم لنجاح الجيش الإسلامي في القضاء على دولة جرجير، تلك الدولة التي يسندها البربر الشجعان، ويذودون عنها بالبطولة التي يشهد لهم بها التاريخ. ولولا شجاعة الجيش الإسلامي وحنكة قيادته، ولولا نصر الله له ما استطاعوا التغلب على تلك الجيوش الجرارة التي حشدها جرجير.

ولما قتل جرجير وانهزام جيشه، وقتل كثير من صناديد دولته، فض المسلمون على عاصمته سبيطلة فحاصرها عبد الله حتى فتحها فغنم ما فيها، وكانت كنوزا لا تحصى، مما يدل على غنى الدولة والحضارة الراقية التي كان يرفل فيها المغرب؛ وكانت أكثر أموالهم التي غنمها المسلمون الذهب والفضة وذلك أرواج التجارة في المغرب، لكثرة بضائعه، والخيرات التي فيه. وهرب البربر والروم إلى حصن الاجم في شرق سبيطلة، وبين سوسة وصفاقس اليوم، وكان حصنا منيعا، ومدينة حصينة، فحاصرها عبد الله حتى فتحها وغنم ما فيها. فأرسل سرايا إلى شمال سبيطلة وجنوبها، فوصلت سراياه في الشمال إلى حضرموت «سوسة» وفي الجنوب إلى :قفصة» فقتلت كل من تعرض لها، وغنمت ما ظفرت به في تلك البقاع الآهلة العامرة المتحضرة، فرجعت ظافرة منتصرة، تثقلها الغنائم والسبي، وألح عبد الله بالهجومات العنيفة على بلاد الروم والبربر، وكان يهدم أسوار كل حصن يفتحه حتى لا يعتصم به أعداؤه، فأشفق الروم والبربر على أنفوسهم وأموالهم من هجمات المسلمين، فطلبوا إلى عبد الله ان يدفعوا إليه مالا كثيرا ويكف عنهم ويرحل عن بلادهم، فرضي عبد الله فصالحهم بألفي ألف وخمسمائة ألف دينار فدفعوها إليه فكف عنهم.

وقسمت الغنائم بين المجاهدين بعد إخراج الخمس منها لبيت المال، فناب للفارس ثلاثة آلاف دينار، وللراجل ألف دينار.

وقيل ان الغزالة بنت جرجير نفلت إلى عبد الله بن الزبير لأنه قاتل جرجير. وقيل نفلت إلى رجل آخر فعلمت انها ستعتبر امة مسخرة فألقت نفسها من الجمل الذي حملت عليه فماتت. وارى ان هذا هم الصحيح، لان بنت جرجير لو دخلت المدينة وصارت إلى عبد الله لورد ذكرها في تاريخ عبد الله ولكننا لا نرى لها أثرا.

وكان عبد الله بن سعد قد أطال الغيبة عن ولايته مصر فخاف الشغب فيها، ولعله قد لاحظ الأفق بوادر الفتنة التي أثارها خصوم عثمان. وعرف ان في المغرب عقبات كثيرة فلا يفتح بمحاولة واحدة، وان الروم إذا انكسروا في الجنوب فلا زالوا أقوياء في الشمال، وهم معتصمون في مدنهم الحصينة، وقلاعهم العالية، وان البربر لازالوا في جبالهم الشامخة، وهضابهم الصعبة يرقبون المسلمين بعيون النمور المسعورة، وهم مستعدون للموت في سبيل بلادهم. فاكتفى عبد الله بتظهير جنوب افريقية ووسطها وإزالة اكبر قوة فيها. فرجع أدراجه إلى مصر، على ان يرجع في جيش جديد ليواصل فتح المغرب فيتم إسلامه على يده. ولكن الله لا يكتب لعبد الله ان يفتح المغرب كله فقد ثارت الزعازع بقتل عثمان، وعزل عبد الله عن مصر، وأطبقت الفتنة السوداء باغتيال أمير المؤمنين عثمان على المسلمين فشغلهم عن مواصلة فتح المغرب سبع عشرة سنة.

وكان مسير عبد الله بن سعد لغزو افريقية في سنة 27 هجرية ورجوعه فير سنة 28 هـ. ومقام المسلمين في افريقية سنة وثلاثة أشهر. وقيل انه لم يستشهد من المسلمين إلا ثلاثة نفر منهم أبو ذؤيب الشاعر الهذلي فدفن هناك. ولعل هذا العدد في المناوشات الأولى التي كانت تجري بين المسلمين وبين جرجير، وانه استشهد في معارك سبيطلة والاجم، وحضرموت وقفصة وغيرها عدد من المسلمين فلم يذكروه. ان البربر ذوو شجاعة وصدام فلا يمكن ان يعطوا بأيديهم بدون حروب طاحنة، ومعارك تشيب من هولها النواصي، ويسقط فيها عشرات من الشهداء.

وكان عبد الله بن سعد أول قائد أحسن إلى المغرب بان حمل نور الله إليه، وكان العبادلة ومن معهم من كبار الصحابة والتابعين هم مصدر النور الأول الذي لامس المغرب فأخرجه من ظلماته. فيا ما أعظم المن التي طوقنا بها أولئك الأبطال الذين لم يكن لهم غرض في الزحف على المغرب إلا بث الحياة فيه، والإحسان إلى أهله بإنقاذهم من الجهالة والكفر الذي كانوا عليه. وتعطرت تربة المغرب بدماء الصحابة الأبرار وكانت تلك الدماء هي الانداء التي داخلت صروح الكفر فانهدمت. ثم يسير معاوية ابن حديج بعد سبع عشرة سنة فيتم في افريقية ما بدأه عبد الله.

روى المؤرخون :»ان عثمان أعطى عبد الله بن سعد خمس الخمس من غنائم افريقية وباع أربعة أخماس الغنيمة الباقية لمروان بن الحكم بخمسمائة ألف دينار ثم وضعها عنه».

وكان هذا مما استغله أعداء عثمان في الدعاية ضده، فأوغروا قلوب العامة عليه، فكانت تلك الفتنة التي أدت إلى قتله.

وأنا أرى ان أمير المؤمنين عثمان أكثر ورعا ونزاهة من ان يرتكب في أموال المسلمين هذا، ولكن مروان ماطله في ثمن ما اشترى فلم يقف معه عثمان موقف الشدة ليؤدي ما عليه. وقتل عثمان قبل أداء هذا الدين، فادعى مروان وأبناؤه الذين لا يتعففون عن أموال المسلمين انها قد طرحت عنه، أو ظنت العامة ان سكوت عثمان على مروان لما لم يرغمه على دفع ما عليه إعفاء له من السداد. ان عثمان من كبار الصحابة الذين يجب علينا إجلالهم وهو ارفع واجل مقاما من ان يتصف بما يصمه به أعداؤه.

غزوة معاوية بن حديج السكوني 45هـ 666م

وكانت الفتن التي شبت بين معاوية وعلي عائقا للمسلمين عن الفتوح. فظل الهاشميون والأمويون يتناطحون على الخلافة حتى قتل الأمام علي رضي الله عنه في سنة 40هـ. في عشرة آلاف إلى افريقية ليغزوها.

وكان معاوية من الأبطال الصناديد. ومن الدهاة المحنكين. ومن رجالات الفتوح الكبار. ومن اعضاد معاوية في الاستيلاء على الملك. وهو الذي قتل محمد بن أبي بكر وكان لمقامه عند معاوية بن أبي سفيان إذا وفد عليه زينت له الطرق بقباب الرياحين تعظيما لشأنه. وقيل انه صحابي. وقد حضر غزوة عبد الله بن سعد لافريقية. فأبلى فيها البلاء الحسن. وكان من ضباط عبد الله. ومن أركان حربه. وقيل انه غزا المغرب عدة غزوات بعد غزوة عبد الله. ولعل هذه الغزوات هي السرايا التي كانت تتوالى من مصر فتصيب من أطراف افريقية فترجع مثقلة بالغنائم والسبايا.

وكان في غزوة معاوية كثير ممن شهد غزوة عبد الله من رجالات الإسلام. ومن الصحابة والتابعين.

وكان معاوية بن حديج خبيرا بالمغرب. عارفا لشؤونه. وكان حريصا على فتحه وكان مع هذا قائد جيش مصر فلذلك اختاره معاوية بن أبي سفيان لهذا الأمر الكبير.

وكان المغرب تابعا في عهد عثمان. يغزوه والي مصر. ويقود الجيوش إليه ويراه امتداد لولايته. ولكن معاوية بن أبي سفيان لدهائه وبعد نظره. علم ان المغرب لا يستطيع فتحه والقيام به. ونشر الإسلام فيه إلا شخصية ذات كفاءة تعطي نفسها لذلك ولا يكون لها عمل يشغلها. أما والي مصر فإذا أجدى في فتح بعض نواحي المغرب. فانه لا يستطيع القيام به. والاستقرار فيه ليدوم فيه نفوذ الإسلام. ويكون في جملته المسلمين كما يريد معاوية ويهدف إليه. ثم ان ولاية مصر عبء ثقيل سيما بعد ان تكونت فيها الفتن. وقلبت المجن للأمويين. فأميرها يجب عليه الإقامة فيها ومراقبة شؤونها. من يدري؟ لعل الأحداث التي وقعت في مصر. وأدت إلى قتل عثمان. وشقت عصا المسلمين قد ابتدأت أيام غيبة عبد الله بن سعد عن مصر في فتح افريقية فخلا الجو الخصوم عثمان.

ثم ان المغرب وما فيه من كنوز وأموال لا تحصى وسبايا تكسف الشموس بالجمال. وتخجل الورد بالحسن. وتقول للمحار يا أماه وللربيع يا أبتاه. ان هذا كان يريد معاوية ان يكون له. ولا يكون لصاحب مصر فيستأثر به. أو يهدى له منه الفتات.

ثم البربر وشجاعتهن، وبطولتهم في الحروب، واقتدارهم في الأعمال، وكثرتهم في العدد إذا كانوا من جند صاحب مصر، ينصاعون له، وينفذون أوامره، إلا يداخله الغرور بمال المغرب ورجال المغرب فيثور على الدولة، وينفصل عن الشام؟ ان من جبلة البربر الثابتة حب الاستقلال، فهم أعداء اللامركزية في الحكم، وسيسارعون إلى الانفصال عن الشام إذا سول لهم أمير مصر ذاك. هذا ما رآه معاوية ببعد نظره، وسداد فكره، فاثر ان يكون المغرب ولاية مستقلة، ترجع أمورها إليه، فيضمن بذلك فتح المغرب، والاستفادة بكفاءة رجاله، وان يثني بعنانه إليه، فيكون في قبضته، يصرفه كما يشاء. فلم يكلف وال مصر ان يسير إلى المغرب كما فعل عثمان، بل أمر هو معاوية بن حديج، وأرسل إليه جندا من الشام، وكلفه بان يسير بمن معه إلى المغرب.

وكانت الأسباب الأصلية لإرسال معاوية بن أبي سفيان بجيوشه إلى المغرب هو حرص المسلمين على فتحه، ورغبتهم الأكيدة فيه، وإتمام الخطوات التي سبقت من عثمان لما أرسل ابن أبي سرح إليه، والسبب المباشر هو خليفة جرجير الذي هرب من افريقية إلى الشام.

وكانت بيزنطة لما سمعت بما أعطى الروم والبربر م أموال لعبد الله بن سعد قد أجبرت الروم والبربر في افريقية على ان يعطوها مثل ذلك فاعتذروا، فوقع القتال بين خليفة جرجير وبين القائد الذي أرسلته بيزنطة لاستخلاص الأموال. فهزم القائد خليفة جرجير ففر إلى الشام فاتصل بمعاوية فصار يزين له فتح افريقية، ويصف له خيراتها، ويدله على عورات الروم، فبعث معاوية بن حديج لغزوها.

وسار معاوية حتى وصل طرابلس ففتحها وترك فيها رويفع بن ثابت الأنصاري في كتيبة من الجيش واليا عليها. فسار رويفع بجيشه بحرا إلى جربة ففتحها قيل في سنة 46 وقيل في 17 فنشر فيها الدين، وضم أهاليها البربر إلى المسلمين. أما معاوية فسار إلى افريقية فنزل بقمونية قريبا من مكان القيروان فاعد عدته لمواجهة الروم.

وكانت بيزنطة قد أرسلت جيشا لها إلى المغرب ليطلب لنفوذها الذي زال بانفصال جرجير، وبغزوة المسلمين، فنزل هذا الجيش في حضرموت وهي (سوسة) بشمال القيروان، فأرسل إليه معاوية فصيلة من جيشه تحت قيادة البطل المغوار عبد الله بن الزبير، فتسامع الجيش البيزنطي بمسير المسلمين فداخلهم الذعر فركبوا سفنهم فلاذوا بالفرار، فدخل عبد الله بن الزبير مدينة حضرموت ففتحها، وقاتل من صده من البربر والروم فهزمهم، وغنم من أموالها، وسبي م بنات أورد فيها، فرجع منصورا إلى معسكر المسلمين.

وكان عبد الله بن سعد قد قضى على جرجير وحزبه فطهر وسط افريقية وبقي الساحل الشمالي وبعض المراكز في الجنوب، لا زالت تعج بالروم الذين يتنمرون للمسلمين، ويوغرون قلوب البربر على العرب، ويسعون ان يظل المغرب ثديا لبيزنطة إلى الأبد؛ ثدي الرضيع الذي يمصه ويعضه ولوثه، لا صدي الحسناء الذي تؤثره بالعطر، وتخصه بالعناية، وتحرص ان يكون دائما إلى الأعلى لا إلى الأسفل. فلابد من القضاء على هذه القوة الرومية، واحتلال كل المراكز العدوة، وتطهير الشمال من الروم الذين تظاهروا بالعداوة للمسلمين، واستعدوا لقراعهم ومدافعتهم.

وكانت قلعة «جلولا» من المراكز الحصينة، وقد استغلقت وكشرت عن أنيابها فلابد من احتلالها ليخلص جنوب افريقية ووسطها للمسلمين.

وسمع معاوية بتجمع قوى كثيرة للروم في بنزرت، فقسم جيشه إلى قسمين، فأرسل جزءا منه إلى جلولا تحت قيادة عبد الملك بن مروان وسار هو بالباقي إلى بنزرت.

وكانت جلولا بجنوب القيروان، تبعد عنها بأربعة وعشرين ميلا. وكانت مدينة حصينة، وقلعة عالية، وحصنا منيعا.

وكانت متحضرة مترفة، ناعمة غنية، تربتها خصبة تجللها بالرياض، وجوها جميل يكسوها بالسحر، وهي غريقة في الزهور كالعروس، فلذلك سكنها جمهور كبير من الروم والبربر المتحضرين الذي كثروا للمسلمين، فأرسل إليها معاوية من يطهرها.

فسار عبد الملك بن مروان في ألف من الجيش إلى جلولا. وكان عبد الملك شابا حدثا لم يتجاوز سنه التاسع عشرة سنة، وكان فارسا شجاعا، وقائدا محنكا، ورجلا خبيرا بالأمور فاختاره معاوية لفتح جلولا. هذه هي الأسباب التي جعلته يؤثره للقيادة. أما من قال انه أثره لاسترضاء الأمويين، والتزلف إلى معاوية فانه لم ينظر بعيدا. انه لم يختره إلا لكفايته. وما كان لمعاوية ان يقوم أصيلا كعبد الملك إلى مهمة يفشل فيها فان فشله إزراء به وبأسرته، وحطه لمعاوية بن حديج الذي يتحمل المسئولية في كل ما يقع من الجيش أو يقع له، وهو الحريص على ان ينتصر ليزداد علوا في المقام، ونباهة في القدر.

أما عجز عبد الملك عن فتح جلولا بقوة الحسام فذلك لحصانتها وعلو أسوارها، وقد أعجزت طرابلس عمرو بن العاص، فلم تسلق يستطع أسوارها، أو نقب حيطانها، كما أعجزت طرابلس الأمام عبد الوهاب بن رستم في القرن الثاني، رغم عظمة ملكه، ووفرة جنده، وشجاعة رجاله، لو نزل جند جلولا إلى عبد الملك فهزموه لاستضعفناه؛ أما وقد

أعجزته الأبراج العالية، والأسوار العريضة الشامخة، والجند البربري الشجاع المختبئ وراء الأسوار يرمون ولا يرمون، ويصيبون من شاءوا ولا يصابون. فان عجز عبد الملك عنها دليل على حصانة جلولا، وما كان عليه المغرب من حضارة وعمران، لا على عجز عبد الملك والجيش الإسلامي، وهم اسود الوغى، وحتوف الفرسان.

ولما سمعت جلولا بمسيرة المسلمين إليها استغلقت وتنمرت، وتحصن أهلها بأسوارها العالية، واستعدوا للدفاع. فحاصرها عبد الملك أياما فارتد عنها. وما كادوا يبتعدون عنها حتى رأى المسلمون غبارا على أبواب جلولا فظنوه جيشا قد طمع فيهم فنظروا فادا ركن من سور جلولا قد أنهدم فرجع المسلمون فدخلوا من الركن فاحتلوا المدينة، فقتلوا من اعترض سبيلهم، وغنموا منها من الدراهم والكنوز والنفائس الشيء الكثير. فرجع عبد الملك إلى معاوية، وحقائب جيشه تغص بالغنائم، وجوه لا يشرق بوجوه المسلمين التي جلاها الانتصار، وسيوفهم المجلوة بالعناية فحسب، ولكن جلولا التي سباها المسالمون أيضا فحملوها، وهي أغلى عندهم من كل الجواهر والكنوز.

وارى ان انهدام ركن من السور كان المعالجة أهل جلولا ليدعموه لضعفه، ويزيدوه، مغتنمين فرصة تراجع المسلمين، فانهدم. والملائكة التي تحارب مع المسلمين هي التي توالت تهديمه، والله الذي أراد للمغرب ان يتطهر هو الذي فتق جلولا كما يفتق كل القروح ليطهرها المسلمون.

أما معاوية بن حديج فسار ببقية الجيش إلى بنزرت فحاربه الجيش الرومي المتجمع هناك فهزمه، وركب الروم سفنهم ففروا ناجين في البحر لكي لا يغرقهم الجيش الإسلامي في الدماء. وغتم معاوية من تلك البقاع المتحضرة الآهلة غنائم كثيرة فرجع مكللا بالنصر المبين. ثم غادر افريقية راجعا إلى مصر مكتفيا بهذه الخطوة، وبهذه العمليات الثلاث التي مهدت افريقية لاستقرار المسلمين.

وكان معاوية قد نزل بمكان القيروان فحفر فيها آبارا، وقد روى المؤرخ الكبير الشيخ محمود بن سعد مقديش الصفاقسي في كتابه الثمين نزهة الأنظار: ان تلك الآبار موجودة إلى عصره وهو القرن الثالث عشر الهجري. قال:«وهذه الآبار خارج باب تونس بالقيروان عند مصلى الجنائز. وتسمى آبار حديج إلى الآن، غلب عليها اسم أبيه» وقد ابتنى معاوية بيوتا قريبا من مكان القيروان في جبل يسمى القرن وهو المعروف اليوم بجبل «وسلات» وقد آوى إليه فآثره مقرا له لأنه أكثر حصانة من الوهاد. وإذا آثره مقرا دائما للمسلمين الذي سيتوافدون على افريقية فانه قد اخذ بحكمة البربر الذي يبنون

مدنهم في الجبال وعلى كل فان معاوية هو أول من فكر في البناء في افريقية.

ورجع معاوية أدراجه بدون ان يفتح عاصمة الروم قرطاجنة، ولا ان يدق إحدى الحصون البربرية في غرب افريقية ليفتحه. ولعل معاوية بن أبي سفيان هو الذي رسم له هذه الخطة، ان لا يحارب إلا من يحاربه فوجد قرطاجنة والحصون البربرية ساكنة فأبى ان يهيجها. وارى أم معاوية بن أبي سفيان لا بد ان يضع الخطة لقائده، وقد أراد بهذه الغزوة ان يعجم عود المغرب، ويعرف مقدار قوة الروم، ليعرف ماذا يستلزم فتح المغرب من القوى فيوجهها إليه. ان معاوية بن أبي سفيان الداهية الخبير ما كان ليبعث ابن حديج في عشرة آلاف من الجيش لو أراد بهذه الحملة فتح المغرب والاستقرار فيه.

ورجع معاوية بعد ان حفر آبارا من الماء في المغرب، ومهد للفاتحين من بعده ليستنبطوا للمغرب آبارا من الدين تروى غلته، وتلبسه ربيعه، فيطير إلى العلى.

وكان عدد جيش معاوية عشرة آلاف ومسيرة في سنة 45هـ. ومقامه في المغرب شهورا يسيرة. ثم يأتي بعده ولي الله عقبة بن نافع فيسير بالفتح خطوات إلى الأمام.

عقبة بن نافع الفهري 50هـ 671م

غزوته الأولى وبناؤه القيروان

هو عقبة بن نافع بن عبد ألقيس بن لقيط، قرشي من فهر. ولد قبل الهجرة بسنة واحدة. وكان أبوه نافع بن عبد ألقيس من أبطال الفتوح، فول عقبة بوراثة حربية من أبيه، ونشأ في بيئة الدين فتشربه قلبه. فكان من العباد الصالحين، ومن أولياء الله المتقين.

وكانت نشأته أيام الفتوحات الكبرى في عهد أبي بكر والفاروق وعثمان: أيام كان الشباب الإسلامي لا يتحلون بغير السيوف، ولا يرون لهم متاعا إلا الجهاد في سبيل الله، وبث نور الله في القلوب المظلمة فتستنير، وتطهير الأم الكافرة بدين الله فتتنقى، والدفع بالدول الجاهلة الوثنية إلى طريق الحضارة والمدنية الصحيحة فتسعد. فنشأ عقبة وهو مغرم بالجهاد في سبيل الله، ليس له هم في الحياة إلا ان يزرع دين الله في النفوس الضالة، ويحارب الكفر والوثنية في أوكارها فيزيلها، ويستشهد في سبيل الله، وآخر ما يرن في سمعه من أصوات الدنيا حمحمة فرسه في سبيل الله، وصليل سيفه وانين قتلاه الذين صرعهم من اجل الله. ولما كبر سار مع المسلمين إلى الشام في حروبهم مع الروم، فكان من الأبطال الصناديد، ولازم عمرو بن العاص في فتحه لفلسطين ومصر فكان من أركان حربه، ومن سواعده المتينة في فتوحاته.

وكان عقبة ابن خالة عمرو، فالفتت هذه القرابة عمروا إليه، فصار يعتمد عليه، ويسد به الثغور التي أظهرت شخصيته، وأنضجت مواهبه.

وكان عقبة قد حضر فتح برقة وطرابلس مع عمرو بن العاص، وكان من ضباطه الكبار فأرسله إلى جنوب برقة ففتح ودان وفزان وزويلة، وحضر غزوة عبد الله ابن سعد لافريقية. ولما رجع عمرو بن العاص من طرابلس تركه في برقة يغزو وينشر الإسلام، ويثقف البربر بدين الله.

وكانت إقامة عقبة في البربر دهرا طويلا، وحروبه في الشام ومصر وافريقية للروم قد عرفته بالبربر والروم فصار أليق الناس لقيادة الجيوش إلى المغرب، وإدارة معارك الفتوح في أرجائه.

وكان عقبة حريصا على ان يكون فتح المغرب على يده. وكان شخصية حربية ممتازة، فكان المغرب بشدة أهله في المقاومة، واتساع مجالات الفتوح فيه، أليق ميدان يشبع نهمه في الجهاد في سبيل الله.

وكان معاوية بن أبي سفيان حريصا على فتح المغرب، وكان يعلم انه لا يستطيع فتحه ونشر الإسلام فيه إلا جماعة تستقر فيه لتخلق البيئة الإسلامية التي يتأثر بها البربر، وتصد الروم وشيعتهم عن التعدي على المسلمين، وتدبير المكائد لصد الإسلام عن الانتشار، ومنع البربر عن الإقبال على الإسلام والمسلمين. فآثر عقبة نافع لهذه المهمة، لخبرته بافريقية، وإخلاصه في الجهاد، وحرصه على هذا الفتح، وتحرره من وظيفة تعوقه عن الاستقرار في المغرب، ورغبته في محاورة البربر والسكن معهم ليأخذ بأيديهم إلى دين الله.

فولى معاوية بن أبي سفيان عقبة بن نافع في سنة 50 هـ قيادة الجيوش لفتح المغرب، فسار عقبة في عشرة آلاف من المغرب والبربر الذين اسلموا في برقة فنزل بقمونية وهو مكان القيروان اليوم.

وكان عقبة يعتقد ما يؤمن به الملك معاوية، لن فتح المغرب لا يتم، والإسلام لا ينتشر في ربوعه إلا باستقرار المسلمين فيه، وان رجوع المسلمين منه يمحو كل اثر أحدثوه فيه. فقال لأصحابه:»ان افريقية إذا دخلها أمام تحوموا بالإسلام فإذا خرج منها رجع من كان اسلم بها وارتد إلى الكفر، وارى لكم يا معشر المسلمين ان تتخذوا بها مدينة تجعل فيها عسكرا وتكون عز الإسلام إلى آخر الدهر«. فعكف عقبة والمسلمون على بناء القيروان لتكون دارا للمسلمين، فقضى في ذلك خمس سنين. وكان أثناءها يغير على النواحي القريبة، ويتصل بالبربر، وينشر فيهم الإسلام، ويعد الخطة لفتح المغرب.

وكان مكان القيروان بقمونية، وهو ناحية في الوسط الشرقي لافريقية، ليست ضاربة في الشمال فتكون جبلية، ولا ضاربة في الجنوب فتكون رملية، وكان القيروان منه بجانب سبخه كان البحر في الزمان الخالي يربي فيها الجواهر التي يغتني بها البشر، فجزر عنها ليولد فيها الدين الحنيف في المغرب وهو غنى البشر.

وكان العرب منذ عبد الله بن سعد يؤثرون قمونية لنزولهم، لأنها بسيط من الأرض، كثير المراعي، جيد الهواء، خصب التربة، كثير المياه، بعيد عن البحر الذي يمكن ان يداهم منه الروم، خال من الجبال التي يمكن ان يكمن فيها العدو، وهي بعد في سهل واسع مدينة عظيمة كالتي تخيلها عقبة وتمنى ان تكون. وقد حقق الله آمال عقبة، وأنتج غراسه، فصارت القيروان عاصمة المغرب، ومنبعا للدين والعربية، والحضارة الإسلامية، ومنارا من منارات مغربنا الحبيب، تجلو عنه الظلمات، وتهديه إلى طريق الحياة. وقد بنى عقبة المسجد الجامع، ودار الإمارة وسور المدينة ودائرته 13600 ذراع، وبنى قواده وأجناده

دورهم وقصورهم فصارت مدينة كبيرة، وعاصمة الإسلام في المغرب.

فتهيأ عقبى بعد بناء مدينته ليفتح المغربين الأوسط والأقصى، وتقر عينه بالجهاد في سبيل الله، ففوجئ بالعزل فتأسف وتحسر، وحزن على عدم إدراك مناه، وتنفيذ كل خطته.

وكان الذي سعى لعزله هو مسلمة بن مخلد الأنصاري، أمير مصر. وكان مسلمة من شخصيات البارزة في الدولة الأموية، ومن أركانها الكبرى، ومن رجالات العرب التي اصطنعها معاوية فرجحت كفته، وبلغ مناه في الملك. وقد ولاه معاوية على مصر الغنية الجميلة الوادعة، مكافأة له على ما أسلف من نصرته، والوقوف بجانبه لما كان يجاذب الأمام عليا رضي الله عنه تاج الرئاسة ليجرده منها فكان مسلمة ذا نفوذ كبير في الدولة، وصاحب دالة على معاوية، لا يرد له طلبا، ولا يخيب له مسعى.

وكان مسلمة داهية حكيما، وبطلا طموحا فآثر ان يكون فتح المغرب على يده، لينفذ فيه سياسة حكيمة تضمنه للمسلمين بأيسر عناء، وبأقل دماء، وتجذب البربر إلى الإسلام والمسلمين فيكونون اخلص الأصدقاء، ولعله قد رأى كنوز المغرب فآثر ان يكون على يده ليأخذ من السبي والغنائم ما يريد. وارى ان حرص مسلمة على المجد والعقبى التي تكون له بفتح المغرب، وانضمام المغرب إلى دولته، هو الذي جعله يلزم معاوية على عزل عقبة وضم المغرب إليه، لان سيرة أبي المهاجر في المغرب وقد كانت بوحي من مسلمة تنبئ بان مسلمة ليس من أولئك النهمين الذين يرون المغرب مزرعة، وثديا للرضاع، كما أرى المروانيون من بعده.

فلم يجد معاوية بدا من عزل عقبة عن المغرب، وأبطال ما كان قد قرره من جعل المغرب ولاية مستقلة، فحقق لمسلمة ما أراد فضم إليه المغرب فشمر مسلمة لفتح المغرب بدهائه وحنكته، فاختار له رجلا كفؤا يليق لسياسته فعزل به عقبة، وكان هذا القائد الحكيم، والوالي الجديد هو مولاه أبو المهاجر دينار.

وكان هذا العزل قد وقع في سنة 55 هـ وإذا كانت ولاية عقبة في سنة 50 هـ فان مدة ولايته الأولى على افريقية خمس سنين، ثم يأتي أبو المهاجر فيحقق بعبقريته كثيرا من الأشياء التي آثر عقبة ان تكون من حظوظه في المغرب، ومما يجزل بها أجره عند الله.

ولاية أبي المهاجر دينار على افريقية وفتوحه في المغرب 55هـ 676م.

كان أبو المهاجر دينار مولى لمسلمة بن مخلد اعتقه من العبودية فاستخلصه لنفسه فكان من اعضاده في إمارته، ومن أعوانه في مهماته.

وكان أبو المهاجر دينار داهية من الدهاة، وبطلا من أبطال الإسلام، وسياسيا حكيما لا يسير إلا على خطة محكمة، وأسلوب حكيم.

وكان يعرف ان المسلمين بدينهم الذي يفتح القلوب لا بسيوفهم التي تفتح البلاد، وان السيف لاجتثاث العناصر الخبيثة التي تمنع العقيدة من النبات، وإزالة العقبات من رؤوس الكفر ومعادن الفساد التي تصد نور الإسلام عن الانتشار، أما سلاح الإسلام الأكبر فهو الدعاية التي ينتشر بها، ومتى انتشر فقد ضمن المسلمون لأنفسهم تلك البلاد، وحازوا إلى صفوفهم تلك القلوب. فوضع أبو المهاجر خطته على هذا: ان يطهر افريقية من الروم الذين يبثون الدعاية ضد الإسلام، ويؤلبون البربر على المسلمين، ويسير إلى كل من تحدثه نفسه بمناهضة المسلمين، ثم يقيم بين البربر يتصل بهم، فينشر فيهم الدين بالدعاية، ويبث فيهم الإسلام كما كان يبثه الرسول باللسان لا بالسنان.

وكان أبو المهاجر في انطوائه على اللين وعلى الشدة كنور الشمس، رفيق يداخل الأشياء بالحياة في سهولة، ولكن فيه قوة القتل للجراثيم !

وكان مسلمة بن مخلد أمير مصر هو الذي ولى أبا المهاجر على افريقية والمغرب، ورسم له هذه السياسة الحكيمة، وأمره بتلك الطريقة المثلى.

وكان مسلمة بن مخلد الانصارى الخزرجي من عقلاء العرب، وفضلاء المسلمين. وقد أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم وروى عنه أحاديث، ونشأ في خير الأزمان. روى شبيان بن أمية عن مسلمة بن مخلد انه قال: ولدت حين قدم النبي صلى عليه وسلم المدينة.

وكان مسلمة كثير العبادة. قال مجاهد، صليت خلف مسلمة بن مخلد فقرأ سورة البقرة فما ترك ألفا ولا واوا.

وقد شهد مسلمة فتح مصر واختط بها وقد ورد في كتاب النجوم الزاهرة: ان مسلمة بن مخلد عد في الأربعة الذين يقوم الواحد منهم مقام الألف، وقد مد بهم عمر ابن الخطاب عمرو بن العاص لما استعصى عليه فتح مصر وقد ناصر مسلمة معاوية فكان من أجنحته الجبارة إلى الملك، فولاه معاوية على مصر سنة 47 هـ. مكافأة له فأعاد بناء مسجد عمرو بن العاص وأمر ببناء منار المسجد. ومسلمة هو أول من احدث المنار

بالمساجد والجوامع في الإسلام. وقد توفي بالإسكندرية في سنة 62 هـ فأصيب المغرب فيه برزية كبرى. فلو دام لفتح المغرب سريعا، وبدون دماء وبأقل عناء.

ان مسلمة من الشخصيات التي أحبت المغرب واهتمت به. وسعت إلى خلاصه من الشرك والوثنية. وبفضله فتح المغرب الأوسط وانتشر الإسلام فيه. فلزام على المغرب ان يذكر له هذا الجميل. ويمجده في كل حين.

وبعث مسلمة مولاه أبا المهاجر دينار في سنة 55 هـ ليفتح المغرب وينشر فيه دين الله. فوصل أبو المهاجر القيروان. فوقعت بينه وبين عقبة مشادة واحن أدت إلى اعتقال أبي المهاجر لعقبة وتقييده بالحديد. وسجنه والتنكيل به. ثم أخلى أبو المهاجر قيروان عقبة انتقاما منه فنزل بالمسلمين في قرية بربرية تسمى «دكرور» قريبة من القيروان. ولا ندري سبب هذه المعاملة الشاذة لعقبة. قد تكون إحن وعداوة قديمة بينه وبين مسلمة فأوعز إلى مولاه أبي المهاجر ان ينتقم منه. من يدري؟ لعل عقبة كان لا يبالي بمسلمة أيام ولايته على افريقية. ولعله قد شمخ عليه. واظهر الاستغناء عنه فجرح ذلك كبرياء مسلمة. ولكن مسلمة أعقل من ان ينتقم من عقبة الصحابي المحبوب لدى البربر المسلمين من اجل هذا السبب الواهي.

وارى ان عقبة لحرصه على ان يكون فتح المغرب على يده. واستعداده لذلك استعدادا كبيرا. قد ساءه عزل مسلمة له. فخاشن أبا المهاجر وأبى ان يخضع له. فقبض عليه أبو المهاجر وسجنه.

وقد سمع معاوية بن أبي سفيان بسجن عقبة فأمر أبا المهاجر بإطلاق سراحه وإرساله إليه. فأطلق أبو المهاجر سراح عقبة وأرسل معه جندا حتى أخرجوه من قابس فخرج من افريقية. ان إرسال أبي المهاجر لجند مع عقبة دليل على تخوفه منه. وعلى ان عقبة لم يخضع لأبي المهاجر. فيمكن ان يثور في طريقه. ويؤلب أصدقائه البربر المسلمين عليه.

وكان أبو المهاجر يجل عقبة ويعرف مقامه في الدين. وقد دعا عقبة على أبي المهاجر لما سجنه ان يمكنه الله من أبي المهاجر لينتقم منه. فلم يزل أبو المهاجر خائفا لدعاء عقبة عليه. فقال: هو رجل لا يرد له دعاء.

قال ابن عبد الحكم فلما قدم عقبة مصر وركب إليه مسلمة بن مخلد فاقسم له بالله لقد خالفه فيما صنع أبو المهاجر. لقد وصيته بك خاصة. وقد شكا عقبة إلى معاوية ما حل به وبمدينته القيروان من أبي المهاجر. وشكا إليه عزله فقال: قد عرفت

مكان مسلمة بن مخلد من الأمام المظلوم. وتقدمه إياه. وقيامه بدمه. وبذله مهجته. فلم يستطع معاوية ولا يريد رد عقبة إلى الولاية حتى توفي مسلمة في سنة 62 هـ.

ان سجن أبي المهاجر لعقبة وهو يجله ويحترمه بدليل شهادته له بأنه لا يرد له دعاء. دليل على ان تلك المعاملة قد اجبر عليها أبو المهاجر لمشادة عقبة له.

ان عقبة يعتد بمقامة عند البربر المسلمين. وبجهوده وجهاده في المغرب. وبصحبته للرسول عليه السلام. وبأصله ونسبه. وانه عربي حر لا مولى كابي المهاجر. وأبو المهاجر يعتد بإمارته. وبما يأنس في نفسه من كفاءة في السياسة وفي الحروب فهو يرى ان عقبة يجب ان يكون له تابع لا متبوعا. فحصلت مشادة بينهما فألقى عليه القبض ليريه تفوقه عليه. ولعل أبا المهاجر ق خاف من خلاف يقع بين المسلمين لعدم رضوخ عقبة له فيستغله أعداؤهم الروم فاضطر إلى سجنه حتى لا يحدث خلل بين المسلمين. وحتى يغلق الباب في وجه كل من يريد الخلاف عليه من جنده الذين يمكن ان لا يبالي به بعضهم لأنه لا عربيا.

ان أبا المهاجر قد سجن عقبة. وأخرجه من افريقية مخفورا لا للخوف عليه بل للخوف منه. لأنه لو خاف عليه لأوصله إلى مصر. ولعل هذا يقوم دليلا على ما يبدو ليمن مخاشنة عقبة لأبي المهاجر فقبض عليه.

ان هذا الخصام الذي وقع بين القائدين العظيمين عقبة وأبي المهاجر. جعلت مثيرا من المؤرخين يضطغنون على أبي المهاجر. ويتجاهلون أعماله العظمى في المغرب. ومنهم من يتناساه فلا يذكره. وينسب كل الفضل في فتح المغرب إلى سيدنا عقبة رضي الله عنه. مع ان أبا المهاجر قد أبدى من كفاءة وحنكة ما لم يبده أي قائد بعده إلا حسان بن النعمان.

ان أبا المهاجر هو الذي فتح المغرب الأوسط ونشر فيه الذين. وأول من دخل البلاد البربرية المستعصية فبث فيها الإسلام. وهو الذي وصل البربر بالعرب. وفتح قلوب البربر لمحبة العرب بلينه وكياسته وحسن تأتيه.

ان أبا المهاجر من الشخصيات التي يجب على المغرب ان يسمى بها شوارعه الكبرى. ويذكرها دائما ولا ينساها. انه من المفاتيح الذهبية الغالية التي أدارها الله في المغرب فتفتحت أقفاله للإسلام !

واستعد أبو المهاجر للجهاد فوضع له خطته. وكان يعرف ان الروم الذين تحببوا إلى

البربر فاجتذبوهم إليهم وصاروا يختلطون بهم هم معدن الفساد فلا بد بإزالته، وان الروم إذا انهزموا في وسط افريقية وجنوبها فإنهم لازالوا قوة في شمالها. سيما رابضة على الشاطئ تنظر نظرات اللبؤة المعتدة بنفسها، فلابد بإخضاعها بالسنان لتنظر إلى المسلمين نظرات القطة الذليلة، وتستكين فلا تحدث نفسها بشر للمسلمين.ثم ان الروم لازالوا قوة في ساحل المغرب من بنزرت إلى طانجة. ان الساحل الخصب المتحضر هو مرتعهم ومواطنهم فلابد بالسير إلى هذه النواحي، والمرابطة قريبا من تلك البقاع، ولابد بتطهير كل المدن التي تنطوي على العداوة المسلمين فتكشر عن أنيابها، وتستعد لحربهم. فسار أبو المهاجر في حمحمة الخيل وإشراق السيوف إلى قرطاجنة عاصمة الروم فنازلها فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية فشدد أبو المهاجر عليها الحصار فعلم الروم انه لا قبل لهم بالجيش الإسلامي، وان أبا المهاجر لابد ان ينتصر عليهم فيدخل العاصمة باقتداره وقوته فطلبوا الصلح. فصالحهم أبو المهاجر بإخلاء جزيرة شريك[1] لتنزل فيها جنوده وتكون للمسلمين، ولم يصالحهم بالأموال ليرجع عنهم كما فعل عبد الله بن سعد لان غرض المسلمين هو الفتح والاستقرار وهذا يكون بامتلاك الأرض لا الأموال.

وكانت جزيرة شريك في شرق قرطاجنة قريبة منها، وهي قليبية ونابل اليوم. وكانت جزيرة ظريفة قد نتأت في وجه افريقية الجميل كما ينتأ الأنف القاني في وجه الحسناء. فاحتل أبو المهاجر جزيرة شريك وانزل فيها طائفة من الجند، وولى عليهم حنش بن عبد الله الصنعاني.

وكان غرض أبي المهاجر من احتلال جزيرة شريك ان يراقب الروم، ويصدهم إذا هموا بالمسير إلى المسلمين أثناء غزوه للبلاد، وابتعاده عن ذراري المسلمين وأهليهم وأثقالهم في مقرهم «بدكرور»، ثم ان احتلاله للجزيرة يسهل عليه فتح قرطاجنة إذا أراد.

ثم سار أبو المهاجر مع الساحل مغربا لا يعترض طريقه احد، قد خافه الروم والبربر فانجحروا في مدنهم مستكنين حتى وصل «ميلة» في الجنوب الشرقي لبجاية وتبعد عنها بحوالي خمسين ميلا فوجدها مستعدة للقتال، وكان فيها طائفة من البربر والروم قد تحصنوا بها. فنازلها أبو المهاجر فاحتلها وغنم ما فيه فاستقر بها.

وكانت ميلة تتوسط المغربين الأدنى والأوسط فهي أحسن مكان يرقب أبو المهاجر منه أمور البربر والروم في هذه البقاع. فجعل أبو المهاجر ميلة مقره وأقام فيها سنتين. وكان

1 - سميت الجزيرة جزيرة شريك لان شريك العبسي كان احد العاملين عليها وهو والد قرة بن شريك عامل مصر المشهور.

في هذه المدة يتصل بالبربر وينشر فيهم الدين، ويريهم حقيقة المسلمين، فسلست أعنة هذه النواحي في نوميديا وركنت إلى أبي المهاجر ومالت إليه كما يميل الوليد إلى أحضان أمه التي تربه وتحنو عليه. ولم يذكر المؤرخون ان معارك وقعت لأبي المهاجر في هذه النواحي من المغرب الأدنى، قسنطينة الآن ونواحيها إلى بجاية. ان الروم المهاجمين كانوا يتقوون بالبربر الذين يوسوسون لهم بعداوة المسلمين، وقد استطاع أبو المهاجر ان يجتذب البربر إليه ففصلهم عن الروم فسكنت تلك النواحي سكون البحر بعد نوم العاصفة، وكان أبو المهاجر يرى بنظره بعيدا إلى المغرب الأوسط والأقصى يرقب ما يجري فيه فسمع بتجمع البربر والروم لحربه فسار إليهم ليؤدبهم بالسنان.

أقسام البربر:

وكان البربر شعبا عظيما وأمة كبرى، كثيرة القبائل والأفخاذ. وتنقسم الأمة البربرية الكبرى إلى قسمين عظيمين، كل قسم يحتوي على قبائل كثيرة. تنقسم إلى برانس وبتر تشتمل على قبائل كثيرة أكبرها هي هوارة، وكتامة، وزواوة، وصنهاجة، وأوربة، ومصمودة. والبتر أكثر عددا من البرانس فقبائلهم كثيرة، وكل قبيلة تتفرع منها قبائل مختلفة الأسماء. واكبر قبائل البتر هي لواتة، ونفوسة، ونفزاوة، ومزاته، وزناتة، ولماية، ومكناسة، ومطغرة.

وكانت مواطن اغلب القبائل البترية في وسط المغرب وجنوبه، فلم يكن منها في السواحل إلا القليل. وكانت لهم الجبال والهضاب يعتصمون بها. واغلب الثورات التي انفجرت على الرومان والوندال والروم المستعمرين كانوا هم الذين يقومون بها. وقد انتشر الدين المسيحي في سكان المدن منهم ولكن على المذهب الدونتوسي البربري الذي يحمل روح المسيحية الحقيقية، وهو الدعوة إلى العدل والإنصاف والإخاء، كما تأثروا بالحضارة البونيقية تأثرا كبيرا، واقتبسوا من الحضارة الرومانية ما يوافق مزاجهم.

وسكان الجبال والهضاب وجنوب المغرب في الصحراء لم يختلطوا كثيرا بالرومان ولم ينغمسوا في مفاسد الحضارة فتفسد أخلاقهم، فضلوا اقرب إلى البداوة يمتازون بقوة الأجسام، ومتانة الأخلاق، وجرأة الفؤاد. إنهم أنياب المغرب يبرزها إذا ادلهمت الأيام. والبتر هم الذين اتعبوا الفاتحين، وظلوا عقبة كأداة في سبيل المسلمين. والبتر أيضا اقرب إلى المغرب بطبيعتهم البدوية وأخلاقهم. فان الذين اعتنقوا الإسلام في برقة، وتفتحت له قلوبهم في جنوب افريقية، وانخرطوا في الجيش الإسلامي ينصرونه ويؤيدونه، كان اغلب هؤلاء من البتر.

أما البرانس فاغلبهم يسكنون السواحل، وهي موطن الرومان والروم، ومحل الحضارة والمدينة، فتحضروا وشاركوا في بناء المدينة التي أقامها الرومان والروم في المغرب، بل اقتبس الرومان أنواعا من المدينة منهم لما احتل بلادهم، لأنهم كانوا اسبق إلى الحضارة من الرومان؛ فلولا ما كانت ترفل بلادهم من حضارة ونعيم، وما كانت تغض به من خيرات وملذات ما طمع فيها الرومان.

ان البونيقيين هم أساتذة البربر في الحضارة، وهم الذين فتحوا عيون البربر، واخذوا بأيديهم إلى طريق الحياة، فنهضوا في القرن الثالث قبل الميلاد فأسسوا ممالكهم الكبرى التي ورثت الحضارة البونيقية، فصار المغرب بها متجه الأنظار لعمرانه وسعادته ورقيه.

وكان البرانس سكان السواحل قد اختلطوا بالرومان فاثروا بهم فضلو متحضرين، وقد انتشرت في سكان المدن منهم المسيحية على المذهب الدونتوسي.

وكانت منزل هوارة من البرانس على الساحل طرابلس من سرت إلى مدينة طرابلس، وكانت عاصمتها هي مدينة لبدة في شرق في طرابلس، وأثارها الموجودة إلى الآن دليل على الدرجة العظمى التي كانت عليها والبربر في الحضارة والتقدم. أما منازل كتامة فعلى ساحل قسنطينة، منة سكيكدة إلى بجاية، ومنازل زواوة في بال القبائل من غرب بجاية إلى شرق مدينة الجزائر، ومنازل صنهاجة من شرق مدينة الجزائر إلى مليانة. أما أوربة فمن شمال تاهرت إلى وهران،ولها منازل أيضا في غرب فاس مناه «سقومة» قلعة أوربة ومدينة وليلي،أما مصمودة فلها جبالها في غرب مدينة مراكش. ومع كل قبيلة من هذه القبائل في هذه الأمكنة فصائل من القبائل الأخرى تحل معها وتعيش في ديارها،وإنما الجمهور والكثرة لتلك القبيلة.

وكان المغرب في نظر البربر وطنا واحدا لا يتجرأ، فمن غرب الإسكندرية إلى الاطلانطي وطن واحد، فأينما حل البربري فهو وطنه وبين قومه، ولا تكمش ولا انفصال. وكان البربر امة واحدة متماسكة وان تعددت قبائلها.

وكان البرانس أكثر حضارة، والمسيحية قد انتشرت فيهم أكثر، واختلاطهم بالروم كان اشد، فوجد الروم في مزاج الحضارة وفي المسيحية ما يجذب البرانس إليهم، فصاروا يتملقون رؤساءهم، ويتقربون إلى أمرائهم ليجعلوا من البربر الحلفاء الأقوياء ليستطيعوا الوقوف في وجه المسلمين الفاتحين.

وكان الروم يبثون دعايتهم المسمومة في الإسلام والمسلمين، ويصورون العرب للبربر

على إنهم كالمستعمرين، لا تدفعهم إلا بطونهم وجشعهم لغزو البلدان، وأنهم عتاة مستبدون لا يحملون أي خير للبربر.

وكان البربر سيما البرانس في المغرب الأوسط قد استرجعوا حريتهم، وتكونت لهم إمارات يديرها رؤساء منهم، وآلوا ان يقارعوا ويهزموا كل قوة تحدث نفسها باستعبادهم واحتلال بلادهم.

وقد استطاع الروم ان يصوروا للمغرب الأوسط والأقصى الإسلام والمسلمين كما أرادوا فآمن البربر بسمومهم لجهلهم بالإسلام والمسمين، لأنهم بعداء عن مركزهم في القيروان، واعتقد البربر ان المسلمين أعداؤهم، وان الإسلام عقيدة تناوئ دينهم المسيحي، وان أبا المهاجر قد جاءهم مجئ الروم والرومان يحمل إليهم الفقر والجهل والعبودية فثارت ثائرتهم واستعدوا للجلاد.

وكانت الزعامة في المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة أوربة كثرة عددها وغناها وحضارتها ومناعة مواقعها، وكان رئيسها كسيلة بن لمزم الأوربي.

وكان كسيلة قوي الشخصية، ذكي الفؤاد، غيورا على وطنه، وكان البربر يجلونه ويحبونه، وكان نصرانيا متمسكا بدينه، وكان لا يعرف حقيقة الإسلام والمسلمين، فاستطاع الروم ان يوحوا إليه ما أرادوا في الإسلام والمسلمين، فرآهم عدوا لدينه ووطنه، ورأى أبا المهاجر في ميلة فعلم انه لابد ان يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى، فذهب في المغربي الأقصى والأوسط يدعو البربر لمكافحة العرب، والاستعداد لحربهم وإجلائهم عن البلاد، فتحمي البربر بثورة أميرهم كسيلة فلبسوا لأمة الحرب واستعدوا للقراع، فتجمع لكسيلة جيش كثيف من البربر والروم فرنا إلى المشرق مستعرا يرقب مسير أبي المهاجر أو يسير هو إليه. فسمع أبو المهاجر باستعداد كسيلة فسار إليه.

وكان كسيلة قد عسكر بتلمسان، وارى انها عاصمة إمارته فوصل أبو المهاجر بجيشه فحط رحاله حول تلمسان، فالتقى الجيشان جيش المسلمين وجيش كسيلة فوقعت معركة عنيفة سقط فيها قتلى كثيرون من الطرفين، ثم انزل الله نصره على المسلمين، فهزموا جيش كسيلة فولى الأدبار، واسر كسيلة فحمل إلى أبي المهاجر فأحسن إليه أبو المهاجر وقربه وعامله معاملة الملوك.

وكان أبو المهاجر معجبا بشخصية كسيلة، وبذكائه، ودهائه، ومكانته في البربر، فعرف انه إذا اسلم كسيلة فسيكون المفتاح الذهبي الذي يفتح قلوب البربر في المغرب

الأوسط والأقصى لدين المصطفى. فحدث كسيلة عن الإسلام والمسلمين بما عرفه حقيقتهما. وكان كسيلة ذكيا طموحا مخلصا لقومه لا يريد لهم إلا الصلاح، فعلم ان الإسلام هو دين السعادة والقوة والحياة وخير الدارين، وان العرب المسلمين هم الإخوة الأصفياء الذين يسعدون البربر ويأخذون أيديهم إلى النجاح. فآمن كسيلة بما دعاه إليه أبو المهاجر فأصبح من المسلمين، واغرم بالعربية فصار يتعلمها. وأعجب بجمال الإسلام فيس سيرة المسلمين فأحبهم، وأصبح أبو المهاجر وصحبه هم خاصته وأولياؤه، وأحب أبو المهاجر كسيلة ورجا منه خيرا كبيرا للإسلام. فشمر كسيلة لمناصرة الإسلام والمسلمين، فدعا قومه البربر للدين الحنيف، وافهمهم ما جاء به المصطفى عليه السلام، وانه النور والحياة وخير الدارين، والفت نظرهم إلى جمال الإسلام في سيرة المسلمين، واراهم الفرق بيتهم فغي رحمتهم وإيثارهم وعملهم للناس وبين الروم الجشعين. وكان البربر قد تفتحت قلوبهم لأبي المهاجر والمسلمين فأحبوه لما أطلق رئيسهم كسيلة من الأسر، وأحسن إليه وعظمه وبجله، والبربر جنس كريم معتد بنفسه، يملكه من يحترمه ويعرف له مقامه. فاقبل البربر على الإسلام، فانتشر فيهم انتشار العطر القوى في الساحة، والنور الساطع في المكان، وأصبح البربر أحباء العرب يزدادون تقاربا على الأيام ليصبحوا شعبا واحدا يصل بينهم الإسلام، وتلحم بينهم العربية. فقرت عين أبي المهاجر بما رأى، وازداد يقينا بان السيف وحده ليس وسيلة لامتلاك الشعوب، فرجع إلى مقره قريبا من القيروان، وأقام «بدكرور» يراقب الأمور، ويحبط دسائس الروم، ويعمل لإزالتهم من المغرب.وهو على استعداد لكل من يريد مناوأة المسلمين فينهض إليه، أما إذا سكن فيتركه لان نور الإسلام لا يسكن، فهو يسير سيره، فلابد ان يصل إليه فيغزو قلبه، فيصبح للمسلمين بغير دماء، ويمسى جزءا منهم يورثهم النماء.

وكان أبو المهاجر في المغرب بلينه وسياسته، وبإلحاحه عليهم بالدعاية كالشمس التي تخيم على الثمار فتلح عليها بالأنوار حتى تداخلها حلاوة النضوج وان تكونت فيها حشرة تفسدها قتلتها !

ودام الأمر على ذلك والإسلام كنور الصباح رويدا رويدا فيسير إلى الضحى فيعم المغرب، ويملأ قلوب البربر كلهم، حتى طلع الغمام، وهبت العواصف، فانهدم كثير مما بناه أبو المهاجر. لقد عزل أبو المهاجر وولي عقبة فجاء وهو مغرم بالقتال، فلم يتبع سياسة أبي المهاجر الحكيمة، وظن ان البربر امة هرمة كعلوج الروم يرضخون له سيف، ويستكينون له بالقوة، فآثر العنف العاصفة على اللين الحكيم فثارت البلاد، وانفجر المغرب، واصح الأصدقاء أعداء.

أبو المهاجر دينار ! هو الدينار في كرم عنصره وقوته، وهو غنى للإسلام وعزة للمسلمين. اشترى قلوب البربر فكانت لمحمد، وثنى بأعنة المغرب فابتدأ يتجه إلى القبلة، واسكت النواقيس في كثير من النواحي فجلجل فيها الآذان، فلو دام لفتح البلاد كما يفتح الحب أفئدة العباد، بدون دماء تهرق، ومعامع تشغل المسلمين.

رحم الله أبا المهاجر فانه على قوته وبطولته كان على الرفق الذي حث عليه الرسول لما قال: ما دخل الرفق أمرا إلا زانه، وما داخل العنف شيئا إلا شانه.

وكانت ولاية أبي المهاجر على افريقية في سنة 55 هـ. وعزله في سنة 62 هـ فمدته في المغرب سبع سنين ولم يذكر المؤرخون عدد جيشه فلا بد وان يكون أبو المهاجر قد قدم بقوة جديدة عند ولايته فيكون جيشه أكثر من عشرة آلاف.

غزوة عقبة بن نافع الثانية 62 هـ 683م.

لما توفي مسلمة بن مخلد في سنة 62 زال المانع الذي كان يمنعه معاوية وابنه يزيد من رد عقبة إلى ولايته، فولاه يزيد بن معاوية، وحقق له أمله، وعزل أبا المهاجر دينار. فسار عقبة في سنة 62 إلى المغرب فانتقم من أبي المهاجر بان قيده في الحديد وعامله بالمثل، وأخلى مدينته دكرور فنقل منها المسلمين إلى القيروان وجدد عمارتها، وعمد إلى صديق أبي المهاجر كسيلة ملك البربر ورئيس البرانس فسجنه وأهانه، وصار يعامله كالأسير، ويسوسه كالعدو. وهذا غلط كبير يدل على عدم نظر عقبة إلى العواقب، وتحكمه العاطفة في مقام يجب ان يحكم فيه العقل.

وكان عقبة قد سجن كسيلة وأهانه لصداقته لأبي المهاجر، وخوف عقبة ان ينتقم لصديقه فيثور عليه، من يدري؟ لعل عقبة لم يرض بما فعله أبو المهاجر من اصطناعه لكسيلة، فهو يريد اخذ أمثاله ممن كانوا على الشرك، وحاربوا المسلمين بالشدة، أو إلغاءهم وعدم الإحسان إليهم، ومعاملتهم كالدهماء لا كالسادة الشرفاء.

وكان عقبة لا يكتفي بسجن كسيلة بل يهينه ويحتقره. حكي المؤرخون انه أوتي بغنم كثير لمطبخه، فأمر كسيلة بذبحها وسلخها فقال له: هؤلاء غلماني يكفونني المؤونة، فسبه وأهانه وأرغمه على ذبحها.

لعمري ان تكليف ملك البربر ورئيسهم بالذبح على سبيل الإهانة يجعل دماء الشياه تنبعث منها شعلا مستعرة على قلوب البربر فتحنق، وفرثها يتراكم في صدوهم أوساخا لعقبة فتحقد، فحنق البربر على عقبة، وتأججوا غيظا عليه، فصاروا يرقبون الغرة، ويستعدون للوثبة، ويتهيؤون للانتقام.

وكان عقبة رضي الله عنه شخصية دينية ممتازة، وكان قائدا حربيا عظيما، وكان مغرما بالجهاد في سبيل الله، همه في الفتح والقتال، ونشوته في القراع والنزال، فان لاق قائدا للحرب، فلا يليق واليا للسياسة، يضع الخطط المحكمة، والبرامج الدقيقة لفتح البلاد بأقل عناء، وإسلام البربر بدون دماء.

وكان أبو المهاجر شهما غيورا على المسلمين، فأنكر على عقبة هذه السياسة، وشنع إهانته لكسيلة، وعدم مبالاته بالبربر الأباة فقال:» ما هذا الذي صنعت !؟ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستالف جبارة العرب ، كالأقرع بن حابس التميمي، وعينه بن حصن، وأنت تجئ إلى رجل هو خيار قومه، فغي داره عزه، قريب عهد بالكفر فتفسد قلبه !؟ توثق من الرجل فأنى أخاف فتكته»

ولكن عقبة لم يصغ إلى هذه النصائح فأورد نفسه والمسلمين معه موارد الحتوف، وأشعل البربر نارا عليه، وخلق منهم الأعداء، بعد ان جعلهم أبو المهاجر بلينه وحسن سياسته أصدقاء.

وخرج سيدنا عقبة رضي الله عنه من القيروان بعد ان استخلف عليها زهير ابن قيس البلوي في خمسة آلاف من الجند، وسار عقبة وسيفه أمامه، وغرامه بالقتال في سبيل الله يدفعه، واخذ معه سيدنا أبا المهاجر مقيدا في الحديد، كما اخذ كسيلة معه كالأسير.

وكان عقبة يريد ان يقتحم وسط البلاد التي لم يطرقها من تقدمه من الفاتحين، ويقرع بالقنا حصون البربر، وينازل فرسانهم في الوغى، فقصد الزاب وحواليه.

وكان اسم الزاب في القديم يطلق على ولاية قسنطينة اليوم، وكان الزاب بلادا عامرة قد اعتنى به البربر منذ ممالكهم القديمة في عهود غولة ومصينيسا، فازدهرت فيه الحضارة، وتكاثف فيه السكان، وكثرت فيه المدن والقرى. حكي المؤرخون ومنهم ابن مقديش الصفاقسي في كتابه نزهة الأنظار : ان بالزاب حول عاصمته «أدنة» ثلاثمائة قرية وستين قرية كلها عامرة.

وكان طريق عقبة إلى الزاب من شمال تبسة وجبال آوراس، فمر على باغاية،وهي حصن بربري قديم، ومدينة قد اعتنى بها الرومان والروم فحصنوها،وكان سكان باغاية من البربر والروم، فخرجوا إلى عقبة والتقوا به خارج حصنهم فوقعت حرب عنيفة بينه وبين البربر، وكان الروم مع البربر في حروب عقبة، ولكن كما يكون الريش مع السهم لا يزيد على ان يدفعه للانطلاق لا يدق الأعناق. وكانوا يحمسون البربر ويغرونهم بالمسلمين، أما المعارك الحامية، ومنازلة الأقران، والذب عن الأوطان، فقد كان يقوم به البربر الشجعان، الذين يتسابقون إلى الموت في الميدان. ان الروم قد شاخوا وانحلت أخلاقهم بالحضارة، فصاروا في عضد المغرب شحمة زائدة ليست هي التي تهز السيف فتصرع به الفرسان. ونازل عقبة البربر والروم حول باغاية فهزمهم فالتجؤوا إلى المدينة فاعتصموا بها، فغنم عقبة ما وجده من أموالهم خارج الحصن، ومنها خيل ما أرى العرب أسرع ولا اصلب منها من نتاج آوراس، ثم رحل عنهم لان غرضه منازلة عاصمة الزاب فلا يمكن ان يفل قواه في احتلال بنائها، ثم قصد مدينة «لمبسيس» تازولت فخرج إليه البربر فوقعت معركة عنيفة بينهم وبين عقبة فانزل الله نصره على المسلمين فانهزم البربر فتحصنوا بمدينتهم العالية الأسوار فاعرض عنهم عقبة، فسار إلى عاصمة الزاب «أدنة».

وكانت أدنة مدينة كبيرة عامرة، تحفها الرياض فتزيدها جمالا كما يحف الهداب المقلة الساحرة فيزيدها بهاء.

وكانت كمدن المغرب الأوسط والأدنى جل من بها من البربر نصارى، فسمع البربر بمسيرة عقبة إليهم فاستعدوا للدفاع، فخرجوا وهم مصممون على الموت في سبيل عاصمتهم، فعسكروا في وادي سهر على بعد بضعة أميال من أدنة، فوصل عقبة رضي الله عنه وأدنه بجيوشها الكثيفة وأسوارها الحصينة، مقلة قد انغلقت أجفانها لا يتسرب إليها حتى النور اللطيف. فاشتبك عقبة بالبربر والروم، واستحر القتال وتطايرت الأوصال، وتعانق الأبطال في النزال، واسود اليوم بالوغى حتى ظن الناس انه الفناء. ثم أزل الله نصره على المسلمين بعد ان سال الوادي بدماء الطرفين، وتجلل بجثث القتلى من الفريقين المتحاربين، فولى البربر الأدبار فاعتصموا بعاصمتهم الحصينة وغلقوا عليهم أبوابها فغنم عقبة من ظاهر أدنة غنائم كثيرة، ثم سار إلى تيهرت، وكانت قاعدة مهمة في المغرب الأوسط، واحد الحصون الكبيرة في تلك النواحي، فسمع سكانها البربر بمسيره فخرجوا إليه لمدافعته فوقعت حرب عنيفة بينهم وبين المسلمين وكان الله مع عقبة فانتصر على البربر الأشداء فولوا الأدبار فاعتصموا بحصنهم وتركهم فغنم منهم أموالا كثيرة، ثم سار يريد طانجة قاعدة المغرب الأقصى. وكانت هذه النواحي من تلمسان إلى طانجة قد تمهدت للمسلمين، وانشر فيها الإسلام بفضل كسيلة وأبي المهاجر،فلم يعد فيها معقل يعادي المسلمين، فأنكر أبو المهاجر على عقبة ان يطرق بجيوشه بلادا هي صديقة لهم فيفسد قلوبها فقال له: ليس بطنجة عدو لك الآن الناس قد اسلموا، وهذا رئيس البلاد -يريد كسيلة- فابعث معه واليا، فأبى عقبة إلا ان يخرج بنفسه» ولم يصادف عقبة في طريقه إلى طانجة مقاومة لا لان البربر قد خافوا كما قال بعض المؤرخين، فان البربر في الشجاعة كالعرب لا يهابون عدوهم، ولا يستسلمون بدون قتال، ولكن سبب هدوء تلك النواحي هو انتشار الإسلام فيها، ومعرفة أصحابها البربر بحقيقة المسلمين فرحبوا بهم، فوصل عقبة طانجة ولما قرب منها خرج إليه ملكها يليان ألغماري فرحب به، وقدم إليه هدية نفيسة ونزل على حكمه.

وكانت طانجة هي قاعدة شمال المغرب الأقصى، وكان يملكها يليان ألغماري ملك غمارة، وهو بربري مستقل في بلاده وله مع القوط في الأندلس علاقات وثيقة.

وكان يليان مخلصا للمسلمين فأراد عقبة ان يسير إلى الأندلس فعلم يليان ان عقبة لا يستطيع التغلب على القوط الأقوياء سيما وقد أعيت قواته الحروب العنيفة مع البربر، فنصحه بعدم الجواز إلى الأندلس . فأشار عليه بغزو السوس الأقصى والأدنى في وسط

المغرب الأقصى وجنوبه لان البربر لازالوا فيها على الجهالة والوثنية فيريد يليان ان يطهر عقبة قومه هؤلاء مما هم فيه. فسار عقبة حتى دخل السوس الأدنى فنزل على مدينة وليلي بغرب فاس الشمالي وهي يومئذ من اكبر مدن المغرب بما بين النهرين العظيمين سبو وورغة، وهي المسماة اليوم بقصر فرعون فافتتحها بعد حرب عنيفة وغنم ما فيها ثم سار إلى السوس الأقصى فهب البربر لدفاعه فخاض معهم حروبا عنيفة قاسية كان النصر فيها للمسلمين. وكان من الذين تصدوا لعقبة فجالدوه المصامدة في غرب مدينة مراكش، ومسوفو ولمتونة في صحراء المغرب الأقصى، فهزمهم عقبة بعد حروب مريرة خاضها للتغلب عليهم قال ابن مقديش الصفاقسي يذكر غنائم عقبة وأسلابه من السوس الأقصى: ...فغنموا أموالهم وسبوا نساءهم، وكن في غاية الحسن والأدب، وقد بلغ ثمن الجارية منهن بالمشرق ألف دينار. وانقضت المراكز البربرية في وسط الصحراء فلم يجد عقبة إمامه إلا الصحراء الخالية برمالها الداكنة فاقتحم فيه فرسه حتى بلغ صدر الفرس فقال: يا ربي لولا هذا البحر المحيط لمضيت في البلاد إلى ملك ذي القرنين مدافعا عن دينك ومقاتلا من كفر بك وعبد غيرك» فرجع أدراجه إلى القيروان وهو قرير العين بما بلغ من أمانيه، وهو غزو المغرب وبلوغ أقصى مكان فيه. وكان طريق عقبة في ذهابه إلى المغرب الأقصى على جنوب الأطلس ألتلي، أما رجوعه فعلى شمال الأطلس الصحراوي، لأنه اقرب طريق إلى القيروان، وقد نجا بتغيير طريقه من الفخاخ التي بنيت له.

وكان أبو المهاجر مع عقبة في رحلته الطويلة يرسف في قيوده، وكان معه كسيلة أسيرا كاسف البال منكس الرأس بالهون إلي يلاقيه. ورأى البربر رئيسهم في الهوان فثارت ثائرتهم واشتد غيظهم على عقبة فعزموا على الانتقام.

وكانت الكاهنة ملكة جبال آوراس ترقب مسير عقبة وتتأهب لمدافعته ان سار إليها، ورأت كسيلة ملك البربر وابن بلدتها أسيرا ذليلا فاضطرمت غيظا وعزمت على الانتقام، فبعثت احد أبنائها سرا فصار يطم الآبار خلف عقبة حتى إذا رجع قيده العطش لسيوف البربر فيقضون عليه، ولكن الله سلم المسلمين فلم يقعوا في هذه الفخاخ بتغيير عقبة لطريقه. وظلت الكاهنة ترقب وتتحين الفرصة فيه، وظلت جموع البربر في المغرب الأوسط والأقصى يتحرقون غيظا على عقبة ويتأهبون للثورة عليه. فلما وصل عقبة في رجوعه مدينة طبنة في غرب آوراس ورأى سكون البربر فظنه سكون الاستسلام لا سكون التحفز، أذن لأغلب جيشه بالمسير إلى القيروان من شمال آوراس، وهو الطريق الذي جاء منه لقربه، فبقي هو في عدد قليل من جيشه قيل انه ثلاثمائة ونيف، وآثر

عقبة ان يجعل طريقه إلى القيروان على جنوب جبال آوراس ليعجم عود قلعة تهودة وقلعة باديس ليرى ما يكفيهما من الجند لفتحهما. هذا هو سبب ذهاب عقبة لتهودة، ولم يصل إليها لان كسيلة ثار عليه فاجتذبه إليها ليبعده عن جيشه. كما قال بعض المؤرخين لان كسيلة لو ثار على عقبة وهو بطبنة لانجده جيشه القريب منه، ولم يكن لعقبة حاجة ف أدهى من ان يثوروا عليه وهو قريب من جيشه الذي يحميه. إنهم يريدون عقبة؛ ان يأسروه ليعاملوه معاملته لكسيلة أو يقتلوه. ادن لابد من الانتظار حتى يكون في قلة فتقع عليه الضربات. ولو ثار البربر على عقبة وهو في طبنة ما اتبعهم لان في جيشه من الدهاة كابي المهاجر وغيره من ينبهه ان لم يتنبه لمكيدة كسيلة والكاهنة فيتجنبها. ثم ان مؤرخين كثيرين ذكروا بان البربر والروم في مدية تهودة تحصنوا من عقبة ورموه بالحجارة والنبل وشتموه. ولا يفعل أهل الحصن هذا إلا وعقبة مهاجم لهم، وهو في حالة عادية لم يحط به البربر.

ووصل عقبة تهودة وهب مدينة في جنوب جبال آوراس وفي الجنوب الشرقي لمدينة طبنة وتبعد عنها بحوالي 37 ميلا ونصف فما كاد ينازل حصن تهودة ليعجم عوده حتى وجد كسيلة فرصته فهرب من جيش عقبة فانضم إلى جيش الكاهنة الذي هاجم عقبة من جبال آوراس، وإذن كسيلة في البربر بالثورة فأسرعوا جماعات كبرى إلى صفوفه فتقوى جمعه، فأحاط بعقبة وعزم القضاء عليه. فعلم عقبة انه لا طاقة له بهذه الجيوش الباسلة المحنقة، وعلم المسلمون الذين معه، فكسروا أجفان سيوفهم وعزموا على الموت بعد الموت السيوف، فتأججت معركة فظيعة بين الطرفين.

وكان أبو المهاجر في قيوده، فرأى شدة القتال، والخطر المحدق بالمسلمين، وهو لا يستطيع النزال.

وكان أبو المهاجر يعرف حب البربر له، وصداقة كسيلة وإجلاله له، وكان يعرف انه إذا بقي بعد عقبة فان كسيلة سيعامله بالحسنى، ويجازيه بالمثل على إحسانه إليه. فلربما أقامه أميرا في القيروان، وارجع إلى سالف عهده في الولاية على المغرب، ولكن أبا المهاجر لم يكن من الذين تتحكم فيهم غرائزهم فتسيره حظوظه، بل كان شهما مسلما غيورا على الإسلام والمسلمين فشهامته ودينه وغيرته عليه ان يبقى متفرجا والمسلمون تتطاير أشلاؤهم بضربات السيوف، والخطر محدق بهم من كل جانب.

وكان أبو المهاجر مؤمنا يعمر نور الإيمان قلبه فلم يحقد على عقبة وهو في محنته، ولم يرض له هذا المصير، لان عقبة وان أساء إليه بشخصه فهو يمثل مصلحة الإسلام

التي يغار عليها كل مسلم. فثارت غريزة المقاتلة في أبي المهاجر، واندلع طبع البطولة في أعماقه، وتأججت غيرته على المسلمين، فحاول ان يثب ليحامي عن إخوانه، ويعمل السيف في المهاجمين فأمسكته قيوده، فصار يتململ في القيد ويتحسر بقول أبي محجن الثقفي:

كفى حزنا ان ترتدي الخليل بالقنا *** واترك مشدودا علي وثاقيا

إذا قمت عناني الحديد وأغلقت *** مصارع من دوني تصم المناديا

فسمعه عقبة فأمر بفك قيوده فقال له، الحق بالقيروان وقم بأمور المسلمين، أما أنا فاغتنم الشهادة !! فلم يؤثر أبو المهاجر إمارة ولا سلامة، ولا حظا للنفس، ولم يتذكر ما كان بينه وبين عقبة من أحقاد، بل تذكر واجبه، وحظه عند ربه، ومصلحة الإسلام المهددة بالأخطار، فاخذ سيفا فقال لعقبة في لهجة التصميم والإخلاص: وأنا أيضا اغتنم الشهادة فخاض معمعة القتال، يجندل الأقران، ويصاول الأسود، حتى سقط صريعا، بعد ان كفنته السيوف بالدماء، وطيبته الرماح بالنجيع، وصلت عليه الخيول بالحمحمة. فنزلت ملائكة الرحمة لتزفه على أعناقها إلى الجنة ! فما أسعده، وما اتهم شهامته وأكرمه !!

وانثالت جموع البربر على عقبة وصحبه وهم يردونها بالقراع، ولكن السيل القوي العارم لا يحجب بالأسوار، ولا ترده السدود، فما زالت المسلمون يدافعون ويجالدون حتى استشهدوا جميعا في ميدان القتال إلا بضعة أنفار منهم أسرهم البربر فلم يقتلوا.

وكان الذين استشهدوا زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين، وكان في الأسارى محمد بن أوس الأنصارى ويزيد بن خلف العبسي وغيرهما ففداهم ابن مصاد البربري أمير قفصة وأرسلهم إلى القيروان، وذلك لانتشار الإسلام في ناحيته، ولإخلاصه للإسلام والمسلمين.

وكان لما خرج من القيروان قد ترك فيها زهير بن قيس البلوى في خمسة آلاف من اجن ليحمى المسلمين هناك، ويعمر مدينته، فلما سمع بمحنة المسلمين واستشهادهم استعد للقتال وتهيأ للانتقام، ولكن حنش بن عبد الله الصنعاني الذي ولاه أبو المهاجر على جزيرة شريك كان اعرف بقوة البربر، فعلم انه لا قبل للمسلمين بهم، ولا طاقة لهم بكسيلة وقومه، فرجع بمن معه إلى مصر، فاتبعه بقية الجيش ومن استطاع الرحيل من المسلمين، فلم يجد قيس بدا من الرحيل فارتحل حتى وصل برقة فرابط فيها كما كتان

يفعل عقبة، وأقام هناك ينتظر الغزاة الذين يرجعون إلى افريقية لينتقم لصديقه، ويرد هيبة الإسلام إلى القلوب.

ففاض كسيلة بجموعه حتى وصل القيروان فاحتلها، فوجد فيها جماعة من المسلمين لم يقدروا على الرحيل؟، فلم يتعرض لهم بأذى، لان البربر أبطال ذوو شهامة لا يتعرضون للضعفاء، فأمنهم وأحسن إليهم.

وكان كسيلة إلى شهامة الأبطال التي يتحلى بها لا يمس المسلمين بأذى لان فيهم جماعات من البربر قد اسلموا فإيذاؤهم يوغر عليه قلوب قومهم.

وأمسى كسيلة هو ملك القيروان، وصاحب الكلمة العليا في المغرب. وقد آثر كسيلة القيروان على عاصمته الأولى تلمسان ليكون قريبا من باب افريقية فيسارع برد المسلمين إذا هموا بغزوها.

وارتد كسيلة وقومه عن الإسلام بإساءة عقبة وإهانته. وكان إسلامه لا يزال حديثا لم يتفقه معناه، ولم ترسخ عروقه، وثار المغرب على المسلمين واستغلق وتنمر بعد ان تفتح للإسلام بحسن صنيع أبي المهاجر تفتح طلعة المحب يستقبل حبيبه، وتهدم ما بناه أبو المهاجر ومن تقدمه، فاحتاج المسلمون إلى جيوش جرارة، وجهود جبارة لافتتاح المغرب والاستقرار فيه. وبعد زمن سيسير قيس بن زهير البلوي فيهزم كسيلة فيسترجع للإسلام هيبته في المغرب.

تبارت الريح مع الشمس في تجريد البدوي من شملته، فثارت الرياح بزعازعها فلم تزد للبدوي إلا تمسكا بها، وألحت عليه الشمس في رفق بحرارتها فخلع الدثار والشعار وأضحى كالقربة يسيل بالعرق تحت الأشجار.

يرحم الله عقبة ما ضره لو اخذ بأسلوب الشمس كابي المهاجر في خلع دثار الكفر عن هذه الديار، ان نيته حسنة؛ ونية المؤمن خير من عمله.

وكان جيش عقبة زهاء عشرين ألفا، وكان استشهاده في سنة 23 ومدة ولايته سنة أو سنة وأشهر.

الأسباب النفسية لفشل عقبة

كان عقبة رضي الله عنه من أبطال المسلمين، ومن العباد الزاهدين، ليس له هم في الدنيا إلا ان يتزود منها بما يورثه ارفع الدرجات في الآخرة. وكان قد نشأ في زمان الفتوح، وحفظ ما قال الرسول عليه السلام في اجر الجهاد، وتلا ما وصف الله في كتابه الكريم من العقبى العظيمة للمقاتل في سبيل الله، ورأى تسابق الصحابة والتابعين إلى صفوف الجهاد، وتنافسهم على الشهادة في سبيل الله، فنشأ عقبة وهو يقدس الجهاد ويراه أحسن قربة إلى الله، أعظم عبادة تورثه رضي الله، واضمن وسيلة تبوئه ما يشاء من الدرجات العليا في الآخرة.

لقد كان على المسلمين في زمن الرسول، وفي عهد الخلفاء الراشدين، ان يقضوا على الدول الكبرى التي تناصر الوثنية، وتقف في طريق الإسلام وتمنعه من الانتشار، وهذه الدول هي دولة الفرس و الروم والإمارات العربية في جزيرة العرب، وهي دول كبرى تستلزم من المسلمين لإزالتها الشجاعة والأقدام، فحث الرسول على القتال وبين أجره، بل أوجبه على المسلمين ووصف عذاب المتخلف والفار من الزحف، فكان الجهاد في نظر المسلمين هو العبادة المقدسة، والفرض ألزم، والقربة المقربة إلى الله. فنشأ عقبة على هذا التقديس للجهاد، وعلى ذلك الغرام للقتال في سبيل الله لا يجد برد كبده إلا في ظلال السيوف، ولا يطرب إذنه إلا حمحمة الخيل في المعركة، ولا يلذ عينه إلا غبار الحرب إذا اعتكر، وإشراف السيوف إذا هوت على الهام.

وشارك عقبة في الفتوح فرأى عمرو بن العاص يفتح مصر بالسيف، ويفظ البلاد بالسنان، ويتكل على القوة في رضوخ ما فتح من البلاد في فلسطين ومصر والمغرب فنشأ وهو حربي لا يعتمد إلا على السيف، ولا يتكل إلا على القوة، ولا يرى الجهاد والفتح في دخول البلاد ظافرا تغمرها عجاجة خلية، وتغرد في أنحائها سيوفه، وتشرق أنهجها بدماء أهاليها.

وكانت شخصية عقبة حربية ممتازة، فعينه عمرو بن العاص للفتوح، فعاش عقبة اغلب حياته في لأمة الحرب وفي صفوف الجندية، فكان من أبطال الإسلام، ومن الفاتحين العظام، الذين نفتخر بهم في الإخلاص والشجاعة والأقدام، ولكن الدهاء السياسي، والمواهب العقلية التي يجب ان يتصف بها أمير يولي على قطر قوي الشكيمة كالمغرب، ان هذه لم تكن قوية فيه رضي الله عنه.

انه قائد يليق للمعامع، وإذا لاق للولاية ففي النواحي الوادعة الهادئة كبرقة أما

المغربات الأوسط والأقصى فلا يليق لهما إلا داهية محنك يعرف كيف يستميل البربر إليه بالحنكة لا بالشدة . وبالمهارة لا بالعنف، ويدرك الفرق بين البربر والفرس والروم، وما يليق للروم والفرس، وما يليق للبربر، فان البون بين الفريقين شاسع، والفرق بعيد.

وسمع عقبة ما قال الله في الكفار، ورأى احتقاره لهم، وأمره بقتالهم والشدة معهم، وسمع ما قال الرسول، ورأى شدة عمرو بن العاص والقواد المسلمين مع الفرس والروم، فتكونت له نظرة ثابتة إلى الكفار فصار يمقتهم ويحتقرهم، ولا يرى لهم حرمة ولا مكانة. وقد نظر عقبة إلى البربر نظرته إلى الفرس والروم، ونظرته إلى كفار قريش، ومن حارب الرسول واضطهده من أعداء الإسلام، أولئك الذين لعنهم الله في كتابه، واوجب مقتهم على عباده. فلم يعرف عقبة ان هناك فرقا بين الروم والفرس والبربر في المزاج والطباع،وهناك تباين كبير بينهما فيما يتصل بالدين.

ان الفرس والروم أمم شاخت وهرمت، وفسدت طباعها، وانحلت أخلاقها، واصطبغت بالكفر، وتكونت فيها طبقة كبيرة من الاوستوقراطيين، المعاندين الجاحدين لا بد لاجتثائها وأعمال السيف فيها، هذا بعد ان جرب المسلمون اللين معهم فلم ينفع، ودعوهم إلى الإسلام في لطف فاعرضوا وتكبروا.

ثم ان الفرس والروم أمم وثنية أو مسيحية تشوبها الوثنية قد تغلغلت فيه عقائد دينية لا تتزعزع، وثبتت فيهم نظريات لا تزول، قد صمت آذانهم عن سماع القرآن، واستغلقت قلوبهم عن دعوة الإسلام، وحملهم تعصبهم على مدافعه الدين الحنيف، ومحاربة الإسلام بكل ما أتوا من قوة، والوقوف في سبيل انتشاره بكل ما يملكون من سلاح، فلا بد بالقوة معهم ليخضعوا، وإزالتهم من الوجود لينفسح الطريق للإسلام في أممهم. أما البربر فليسوا متعصبين لدينهم كهؤلاء، لقد آمنت طوائف كثيرة من البربر في المدن بالدين المسيحي لأنه دين سماوي يدعو إلى اعدل والمساواة، وهو ما كانوا متعطشين إليه، ويعلمون له مهم تحت كلا كل الاستعمار الروماني.

لقد اتجه البربر إلى المسيحية بدافع سياسي، ووجدوا في دين الرومان وسيلة يصولون بها عليهم فاستعملوها في مهارة، فما آثروا المسيحية لأنها ارث من أجدادهم تمكنت فيهم بالإيحاء والتقليد، ولا رأوا هذا الدين خاصا بهم فيعتبرونه منة مآثرهم فيأبون يكسفه دين آخر يمجد به قوم آخرون.

ان قلوبهم متفتحة لكل دين يدعو إلى الحرية والمساواة، ويمجد العدل والإخاء فلا بد ان يؤمنوا بالقرآن ويؤثروه ويتمسكوا به إذا وجدوه دين العدل والمساواة والحرية، وان

يحبوا المسلمين إذا وجدهم رسل عدل ومحبة وأنصاف، وإذا كانت في البربر رؤوس كفر فقد أزالها عبد الله بن سعد، ومعاوية بن حديج، وأبو المهاجر دينار، فانقضت في المغرب سيما الأدنى والأوسط عملية الحراث الذي يشق الأرض فينزع صخورها وأشجارها، فصار اغلب المغرب أرضا منقوشة ممهدة لبذور الإسلام، فما كان لعقبة ان يشق بمحراثه أرضا ينبت فيها دين الرسول عليه السلام، ويستعمل العنف ويغزو جيوشه بلادا أقبلت على المسلمين.

ثم ان الفرس والروم أمم شاخت وضعفت صفاتهم الحربية، فهم مستعدون للخضوع والرضوخ، فقاتلهم المسلمون فرضخوا واستكانوا استكانة الطفل إذا رفع العصا عليه أبوه. أما البربر فخلاف ذلك، إنهم امة فتية قد استرجعت حريتها من الروم، ونهضت نهضتها الكبرى لتأسيس الدول العظمى، وللسير بكل قوة في طريق التقدم والحياة ! ثم ان البربر أبناء حروب وسنان، وفرسان جلاد وطعان، يتصفون بكل ما يتصف به العرب من عزة وإباء، ومن شمم وأنفة، ولا يخضعون بالسيف ولكن بالإقناع، ولا ينقادون بالعنق ولكن بالحكمة واللين، يكرهون من يحتقرهم، ويثورون على من يهينهم، فلاحترام والتقدير والمجاملة هي التي تفتح قلوبهم، وتجعلهم لك كما يريد.

إنهم لا يهابون الموت، ولكن يتعشقونه في سبيل الأوطان، ولا يهربون من الحرب بل هي أحب إلى نفوسهم في سبيل الكرامة من كل لذة تشره إليها النفوس، وكل قنية تنزع إليها الأفئدة.

هذه هي حقيقة البربر الذين وقفوا على أقدامهم، وبسطوا أجنحتهم، ورؤوسهم إلى العلا ليحلقوا في سماء الحياة والعزة، فما كان لامرئ ان يشدخ تلك الرؤوس، لأنها لا تطأطئ بالمطارق، ولكن يجعلها تخشع وتخضع الحب والاحترام، والإقناع بما في الكتاب، لا العنف بما في الكتائب.

ان البربر ليسوا مسيحيين متعصبين كالروم، ولا مثنيين متعنتين كابي جهل وعصابته.

كان الروم وأبو جهل وقومه، والفرس وشيعتهم، من الوثنيين الذين دافعوا الإسلام،وحاربوا الرسول آذاوه، يعتدون بأديانهم، ويرونها جزءا من شخصيتهم، ومأثرة من اكبر مآثرهم، يستتبعون بها غيرهم ويخضعونه، ويصلون بها كثيرا من أغراضهم، ويحققون بواسطتها كثيرا من آمالهم، إنهم يرون دينهم هو رأس مالهم الاجتماعي، به يصولون، ومفخرة من مفاخرهم، بها يشمخون، لا يرضون لمأثرة أخرى ان تكسفه، ولين

أخر أن يغطي عليه، ولجنس آخر كالعرب ان يأتي بأحسن مما عندهم فيبزهم في المجد، ولنبي آخر أفضل من بينهم فيجتذب الأنظار عنهم. فلذلك كفروا بالإسلام،ولم يصيخوا للقرآن فيتبينوا هداه وإشراقه، ويعرفوا تقدمه على ما عندهم وتفوقه، فيؤثرون الأكمل، ويعلمون ان الإسلام إنما هو تتمة لدين عيسى عليه السلام، جاء لتأييده وترسيخ أصوله في النفوس، ونزل لتكميله ليكون دين الله لائقا لكل زمان ومكان.

ان الروم والفرس كانوا يتعصبون لجنسهم، ويقدسون حضارتهم ويرون إنهم بها أفضل من كل الأجناس، فأبت عليهم كبرياؤهم وتقديسهم للمادة ان يخضعوا لأبناء الصحراء، وهم لا يملكون قصورا كقصورهم، وحضارة كحضارتهم، وان يتبعوا العرب أبناء البادية وهم عند أنفسهم اعلم وأكثر هدى، فالدنيا يجب ان تقتدي بهم، وتسير في ركابهم.

هذه هي نفسية الروم والفرس المريضة، وتلك هي نفسية أبي جهل وحزبه في الجاهلية، فلابد بالكي لهذا المرض ليزول، وبالعمليات الجراحية البالغة لهذه الأمم كي تشفى، ولابد بغمس امة الروم والفرس في برك الدماء كما يطلى الأجرب بالقطران ليصح.

إنهم شجرة مريضة يجللها الحطب اليابس الكثيف من تلك الطبقة الاوستوقراطية الواسعة المصطبغة بالكفر، والتي لا يرجى إسلامها فلابد بتسليط الفؤوس عليها لتقليمها.

ان في الفرس والروم تلك الطبقة المترفة الغنية التي تستعبدها شهواتها، وينابذ الإسلام عاداتها، والتي سارعت إلى نور الإسلام تعبده وتقيم السدود دونه كما يسارع من يرغب في النوم إلى نوافذه فيغلقها ليبعد عنه نور الصباح.

ان هذه الطبقة موجودة بكثرة في الفرس والروم، وهي التي جعلت امة الفرس والروم يشاقون الإسلام، ويحاولون المسلمين فلابد بالعنف معهم ليشق الإسلام طريقه في أممهم. ثم ان الفرس والروم امة شاخت وهرمت فالسيف يرهبهم ويخضعهم فيستكينون استكانة الطفل المريض إذا تخبط في حجر امة فترفع العصا فيستكين، فتجرعه من الدواء ما تشاء.

هذا ما أدركه الفاتحون المسلمون في الفري والروم، فاعملوا فيهم الحسام واعتمدوا في فتح بلادهم على السيف والسنان. ثم ان الفرس والروم ناهضوا دعوة الإسلام، وآثروا

الحرب والحسام، أما البربر ففي الدين والمزاج وموقفهم من الإسلام والمسلمين خلاف الفرس والروم.

ان البربر كان فيهم المسيحيون وهم على ما وصفنا، وفيهم الوثنيون وهم أبناء القرى والجبال الذين كانوا يكرهون الرومان المستعمرين فكرهوا كل شيء يتصل بهم حتى الدين الذي جاء على أيديهم، فبقوا متمسكين بوثنيتهم القديمة التي صارت تزعزعها عقولهم المثقفة بمجاورة الروم والرومان وبني عمومتهم المثقفين.

انه دين يشبعون به غزيرة التدين في نفوسهم، لا تؤيده عقولهم، ولا ينسجم مع نهضتهم وتقدم الزمان عندهم، فلذلك نجد البتر في برقة، وجنوب افريقية، واغلبهم وثنيون يسارعون إلى الإسلام، ويؤمنون بالدين الحنيف، لان قلوبهم قد خلت من جذور دين متمكن تؤيده عقولهم وأهواؤهم. إنهم امة تيقظت للحياة فهي تدلك عيونها لتمسح عنها غشاوة الليل، فلاح لها فجر الإسلام فهفت إليه، وطلعت عليها شمس القرآن فعرفت انها نور لا نار فشغفت بها، فصار البرانس والبتر في المغرب يتعلمون العربية في عهود أبي المهاجر لأنها وعاء الدين، ويختلطون بالعرب ليأخذوا لغتهم لأنها مفتاح القرآن. فما كان لعقبة ان يلزهم مع الفرس والروم في قرن، وان ينظر إليهم نظرة واحدة.

ان البربر لما رجع عقبة إلى المغرب في ولايته الثانية قد سكنوا بفضل سياسة أبي المهاجر الحكيمة، وأصاخوا لنعمة الإسلام الجميلة كما يصيخ الوليد الأغاريد أمه فينكف عن البكاء، وتفتحت قلوب البربر لدعوة الدين الني كان يقوم بها كسيلة وأبو المهاجر والمسلمون كما تتفتح الأرض المحروثة لحبات الرهام، فصار الإسلام يسير سيره، فلو اتبع عقبة سياسة أبي المهاجر لغزا الإسلام بالدعاية حتى المناطق المنطوية على نفسها كجبال القبائل وأوراس فتكون للمسلمين بدون دماء.

ان عقبة لما وصل المغرب في هذه المرة لم يجد جيشا بربريا متحفزا لحربه، ولا ناحية ثائرة قد أخذت أهبتها لدفعه، ولم يسر لما سار إلى نواحي صعبة فيها ملوك من البربر لا زال المسلمون لم يتصلوا بهم كجبال آوراس، ولكن سار إلى المغرب الأوسط والأقصى، إلى سهولها التي أرسل فيها أبو المهاجر نور الإسلام، فهو يسير سيره فيها مخترقا كل البقاع.

ثم ان عقبة لم يفتح في حروبه الطويلة مدينة كبرى فيستقر فيها، أو يترك جماعة من المسلمين ينشرون فيها الإسلام بالدعاية، كما فعل أبو المهاجر لما فتح مدينة ميلة

فأقام فيها زهاء سنتين، وتلمسان فمكث فيها حوالي عامين، ينشر دين الله بدعايته وحسن سياسته، ويخلق للبربر بيئة جديدة من العرب المسلمين يختلطون بها، فيتأثرون بما فيها، ويقبسون منها العربية والدين. بل نجده يكتفي بحرب البربر في باغاية، وتازولت، وأدنه فيثخن فيهم، بدون ان يفتح بلدا من هذه البلاد التي نازلها. لقد اكتفى بحرب البربر والتغلب عليهم في ميدان الوغى، كان البربر قد اضروا الإسلام والمسلمين بعدوانهم فيجب الاثئار منهم، وكأنهم أشلاء مريضة فيجب استئصالها ؟!! فلو انه إذ حارب فتح مدنا عذراء لم يسبق إليها كأجنة وتاهرت فاحتلها، وترك المسلمين فيها لتكون منابع للدين لكان لنا بعض الغنم، ولكنه اخترق البلاد بجيوشه، وخاض حروبا عنيفة مع البربر أنهكت قواه، وسقط فيها عشرات أو مئات من جنده ثم رجع. فلم تكن الرزئة في عدم انضمام نواحي إلى الإسلام في المغرب لم تنضم، بل في انسلاخ نواحي شاسعة عن الإسلام كانت قد أسلمت.

ان عقبة رضي الله عنه لم يفهم حقيقة البربر، ولم يعرف مزاجهم، ولم يدرك الفرق الفارق بينهم وبين الفرس والروم وبين المشركين المعصبين الذين أمر الله ان يؤخذوا بالشدة، وتستعمل معهم القساوة. ان البربر في ولاية عقبة الثانية من الذين رسم الله لنبيه طريقه افتتاح قلوبهم لتنفتح بلادهم فقال :»ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم» وباللين لا بالشدة كان يعتمد الرسول عليه السلام، في دعوة الأنام، إلى نور الإسلام، وقد أثنى عليه الله للطفه لا لشدته فقال:»فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر» هذه هي سياسة الإسلام في دعوة الشعوب إلى الدين، وفي معالجة الأمم لتنضم إلى المسلمين. فلو ان عقبة سلك هذا الطريق، واخذ بتلك السياسة لوجد البربر أسرع إلى الإسلام من الماء من قنن الجبال، ولكنه قسا لهم فتحجروا تحجر الماء في الجو القاسي.

ان عدم معرفة لحقيقة البربر هو الذي افسد عليه أعماله، والسبب الثاني هو مزاج عقبة العسكري هذا المزاج الذي يأبى على صاحبه ان يلين للناس ويجذبهم بالحسنى، ويتواضع لهم ويختلط بهم فيحبونه لتواضعه الذي يدل على احترامه لهم، وحنوه عليهم. ان المفتاح الذهبي الذي تفتح به كل الإقفال المستعصية في الأبي، وفي قوم معتدين بأنفسهم كالبربر إنما هو احترامك لهم. وقد عرف أبو المهاجر هذه القاعدة، فاصطنع كسيلة بالاحترام والتقدير، وبمعاملته كملك لا كسوقة، كما كان يحترم

البربر فأحبوه واقبلوا عليه. أما عقبة فأول ما ابتدأ به هو إهانة كسيلة ملك البربر بان قيده وسجنه وعامله معاملة الأعداء الألداء، ثم زحف بجيوشه على بلاد قد أتنشر فيه الإسلام. ان هذا كله قد أوحى إلى البربر باحتقارهم فحقدوا على عقبة فثاروا عليه.

ان هذا الاحتقار للبربر قد أملاه على عقبة رضي الله عنه وأرضاه مزاجه العسكري الذي يدعو إلى الصرامة، ويبعث صاحبه على الشدة والشموخ. وليس كسيلة أول ملك بربري يهينه عقبة ويرتكب الغلطات السياسية معه، بل انه أهان ملوكا آخرين وارتكب فيهم ما يغير قلوب شعوبهم عليه. روى أبو عبيد البكري في كتابه المغرب في بلاد افريقية والمغرب في صفحة 12 طبع الجزائر، روى قصة عقبة لما سار إلى ودان في جنوب طرابلس وقد امتنعوا عن دفع الجزية قال:...ثم سار بنفسه من مغمداس بسرت في أربع مائة فارس، وأربع مائة بعير، وثمانمائة قربة ماء حتى قدم ودان فافتتحها واخذ ملكهم فجدع إذنه فقال: لم فعلت هذا وقد عاهدني المسلمون؟!! قال: أدبا لك إذا مسست أذنك ذكرت فلم تحارب العرب، ثم استخرج منه ما كان فرض عليه: ثلاث مائة رأس، وستين رأسا «من العبيد» ثم سألهم عقبة هل وراءكم احد قالوا جرمة، وهي مدينة فزان العظمى، فسار إليها ثماني ليالي من ودان فلما دنا منها فدعاهم إلى الإسلام فأجابوا، فنزل منهم على ستة أميال، وخرج ملكهم يريد عقبة، وأرسل عقبة خيلا حالت بينه وبين موكبه، فامشوه راجلا حتى أتى عقبة، وقد لغب وأعيا، وكان ناعما، فجعل يبصق الدم، فقال لم فعلت هذا وقد أتيتك طائعا، قال: أدبا لك إذا ذكرته لم تحارب العرب وفرض عليه ثلاثمائة عبد وستين عبدا ثم قال: فسال عقبة أهل قصور فزان التي افتتحها هل وراءكم احد قالوا: نعم أهل جاوان ثم قال البكري... فمضى إمامه «بعد حصاره لجاوان» إلى قصور كور فافتتحها حتى انتهى إلى أقصاها، وفيه ملكها، فأخذه وقطع أصبعه ! فقال: لم فعلت هذا بي ؟!! قال أدبا لك، إذا نظرت أصبعك ذكرت فلم تحارب العرب».

إذا صحت هذه الحوادث فإنها تكون في سنة 50 في مسير عقبة إلى المغرب واليا عليه، ويكون سببها تنكر تلك النواحي للمسلمين، لان عقبة قد فتحها في سنة 23هـ في غزوة عمرو بن العاص لطرابلس. وسواء صحت هذه الحوادث المؤلمة التي نسبت إلى سيدنا عقبة رضي الله عنه أو لم تصح فان عسفه لكسيلة واحتقاره له دليل على انه كان عنيفا مع البربر، لا يعرف كيف يمتلكهم.

ان زهير بن قيس قد حارب البربر بعد ارتدادهم عن الإسلام، فحاربهم الحرب المشروعة، فلم يرتكب في رئيس من رؤسائهم ما نسب إلى عقبة من مثلة نهى الله عنها حتى في أموات المشركين.

يرحم الله عقبة لقد كان عسكريا صارما، وكان يجب على معاوية الملك، وابنه يزيد ان يعلموا حقيقة البربر وطبع عقبة، فيسندوا إليه قيادة الجيوش في المغرب ويبعثوا معه واليا كابي المهاجر يتولى شؤون السياسة.

يرحم الله عقبة فقد كرس جهوده لفتح المغرب، وأمضى شبابه في برقة يغزو نواحيها ويبث الدين فيها، وكان حريصا على ان يتم فتح المغرب على يده، ولكن لم يسعفه الحظ، ولم يواته طبعه العسكري، وأراد الله له ان يموت تلك الموتة الرائعة، ويستشهد في المغرب، ويدفن في البلد الذي أحبه واخلص له.

لقد أورد جل المؤرخين حوادث عقبة مشوبة بالتحامل على البربر مما يدل على ان هؤلاء المؤلفين أما إنهم لا يعرفون البربر أو إنهم قد انخدعوا بالرواة الذين كان كثير منهم متعصبا لعرقه، ونحن لا نتعصب لا للعرب و لا للبربر فالعرب أجدادنا والبربر أجدادنا، وكلاهما أثير عندنا، لا نرضى ان يغض من قدرهما إنسان، أو صورهما على غير حقيقتهما احد.

واستشهد عقبة فتعطرت ارض المغرب بدمائه وبدماء صحبه الزكية فدفن في جنوب تاهودة بمدينة سيدي عقبة في الجزائر، ليكون حارسا للدين واصلا من أصوله في المغبر، وقد حاول الاستعمار الفرنسي الصليبي قرنا واثنين وثلاثين سنة، كما حاول الاستعمار الايطالي ان يجردوا المغرب من حلة الدين والعربية، واتخذوا لذلك من الوسائل والأساليب الجهنمية ما ان لو تسلط على الجبال لزالت من مكانها، وعلى النجوم لحال من نوارها فلم يزيدوا للمغرب بذلك إلا رسوخا في دينه، وتمكنا في عربيته، لان عقبة وصحبه، وزهيرا وزملاءه ينادون المغرب دائما ويأمرونه من تحت ثراه ان دم راسخا في طريق الدين فكان ما يأمر به عقبة وأصحابه الأبرار !

ورأى آوراس العتيد الشامخ كيف يستشهد الأبطال في سبيل الدين، فتضاعف في شجاعته، وازداد بطولة، وتعلم كيف يستحلي الحياة في سبيل الدين، فكان من أضراس المغرب العتيد التي طحن بها الاستعمار الفرنسي فزال، وأصبح حارسا للدين والعربية التي استشهد عقبة وصحبه في سبيلهما !

يرحمك الله يا عقبة! لئن قاسيت الأهوال المؤقتة فوق ارض المغرب فانك قد فزت بالفردوس الدائم تحتها.

لقد اسلم المغرب كما تريد، وانه لقلعة للدين في العالم الإسلامي، وسيكون مشرقا

له ينير شماله، ويكون منبعا للهداية والنور تهتدي به الضالة الشقية بعبادة المادة والتكالب عليه!

ثم يأتي زهير بعد عقبة فيواصل عمله في المغرب ثم يلاقي مثل نهايته.

غزوة زهير بن قيس البلوي 69هـ 690م

ورجع زهير بن قيس إلى برقة وفي أعماقه جمرات لا تخبو.وفي نفسه نيران من الحزن على عقبة لا تنطفئ، وفي صدره حرارة للحقد على كسيلة لما أصاب هيبة الإسلام على يده لا تسكن، وفي قلبه حيرة على المسلمين في القيروان وهم قلة في كثرة لا تزول. وكان المسلمون الذين يتحملون المسؤولية في الدولة على هذه الحال، وكان عرش الدولة الإسلامية على تلك المشاعر. فبوده لو انطلقت جحافله تزرع النور بالدعوة، وترجع للإسلام هيبته بكسر شوكة الكفر في المغرب. غير ان الحروب الداخلية التي كانت بين الأمويين ومنافسيهم في الملك بعد موت معاوية بن يزيد كانت تمنع مروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان من توجيه الجيوش للفتوح، حتى كانت سنة 69هـ.

وكان على عرش الدولة عبد الملك بن مروان، ذلك الجبار الذب هيأته الوراثة وبنته المحن لهذه الأيام الشديدة كي يقود الدولة في جو كله أعاصير. فولى قيس بن زهير على افريقية، وأرسل إليه مددا كبيرا من إشراف العرب وشجعان المسلمين، وكلفه بالسير لمحاربة كسيلة.

وكان زهير بن قيس من العباد الزاهدين، ومن إشراف المهاجرين، ومن الأبطال الفاتحين، ومن الصحابة المجاهدين. وكان قد شارك في فتوح المغرب، ولازم عقبة في غزواته فكان من أركان حربه، ومن اكبر أعوانه فيما قام به من أعمال في المغرب. وكان تقيا زاهدا لا يحارب للشهرة ولا للغنيمة، ولا للعصبية، ولكنه يحارب لان الجهاد اكبر باب للأجر، فهو يجتهد فيه، ويعطي نفسه له، لينال به رضى ربه.

وكان من تلك الطبقة النزيهة من العباد الزاهدين الذين لا يبالون بالدنيا ولا يتمسكون بالحياة، فينعدم خوف الموت من قلوبهم، فيكونون في المعركة وفي ميادين الحروب في أعلى درجات الأقدام والثبات والشجاعة والبطولة.

وكان محبا لعقبة يراه مثله الأعلى في الجهاد، معجبا به، حزينا على فقده، حردا على الدين قتلوه. ولما ولي على المغرب ووصله المدد الذي يصول به شمر عن ساعده ليزيل عقبة من العقاب التي تخلقت في وجه الإسلام في المغرب.

فسار زهير في جيش كبير من العرب والبربر المسلمين أرى انه يبلغ العشرة آلاف جندي، وقد قدره بعض المؤرخين بستة آلاف. وارى ان هذا هو المدد الذي جاءه من مصر والشام فانضم إليه من كان مع زهير من الجند المرابطين في برقة، ومن المتطوعين المسلمين من

البربر. ولا يمكن ان يكون جيشه اقل من عشرة آلاف. وقد روى ابن مقديش الصفاقسي:ان عبد الملك بن مروان أمر زهير بن قيس بالخروج على أعنة الخيل فيمن معه من المسلمين لغزو افريقية، وكتب إلى عبد الملك يخبره بقلة من معه الرجال والأموال» ولا يمكن ان يكلف عبد الملك زهيرا بغزو كسيلة الذي يعرف شدة شوكته إلا وهو غفي آلاف من جنده. ولكن زهيرا كان عليما بشجاعة البربر، وببطولة كسيلة وكثرة جيشه فاستمد عبد الملك فأمده. ولا يمكن ان يكون قد سار في اقل من عشرة آلاف.

وسار قيس في جيشه حتى وصل افريقية قريبا من القيروان.

وكان كسيلة قد اختار القيروان لنزوله ليكون قريبا من أبواب افريقية فيسارع لرد العرب ومقاومتهم إذا زحفوا عليها. وتسامع بمسير زهير إليه فاستعد للقاء.

قال ابن الأثير فجمع كسيلة إشراف البربر وتشاور معهم فقال لهم: قد رأيت ان ارحل إلى «ممش» فنزلها فان بالقيروان خلقا كثيرا من المسلمين، ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم، ونخاف ان قاتلنا زهيرا ان يثب هؤلاء من ورائنا فإذا نزلنا «ممش» أمناهم، وقاتلنا زهيرا فان ظفرنا بهم تبعناهم إلى طرابلس وقطعنا أثرهم من افريقية، وأم ظفروا بنا تعلقنا بالجبال ونجونا فأجابوه إلى ذلك، ورحل إلى «ممش».

وكانت ممش في الهضبة على الجنوب الشرقي لجبال آوراس، وكانت مدينة حصينة، فعسكر كسيلة خارجها فصار ينتظر مسير زهير إليه.

وكان كسيلة قد حشد جمعا كبيرا من أنصاره، وكان الروم قد انضموا إليه، فتكون له جيش كبير من البربر والروم، فوقف مستعدا للاشتباك بزهير.

وكان جيش زهير قد تعب بقطع الفيافي الطويلة من مصر إلى افريقية، فاستراح أياما في معسكره حول القيروان، ثم زحف إلى كسيلة فاشبك به حول ممش.

وكان كسيلة حردا مغتاظا لمعاملة عقبة له، وكان قد عزم على رد العرب على أعقابهم وإخراجهم من وطنه، والذود عن افريقية بكل ما أوتي من قوة، وكان الروم يحرضونه على المسلمين ويذكون عداوته لهم.

وكان زهير يعلم ان كسيلة ودولته هي العقبة الكأداء في سبيل الإسلام في المغرب فلا بد بإزالتها، وكان مغتاظا على كسيلة لقتله لعقبة ومن معه، ولما انزل بالمسلمين من هزيمة أضعفت نفوذهم.

وكان زهير وجيشه أبناء حروب وسنان؛ وكان البربر كذلك، فالتقى الجيشان فاشتدت

المعركة، وحمي الوطيس، وانتطح الجبل بالجبل، واشتبكت الأسود بالأسود فدام الأمر زمنا حتى ظن المسلمون انه الفناء، ثم انزل الله نصره على المسلمين، فقتل كسيلة وصناديد قومه، وانهزم البربر وتفرقوا في البلاد، واعتصموا بالجبال، فتتبع زهير البربر المنهزمين إلى وادي ملوية، فأخرجهم من المغرب الأوسط خوفا من إعادة الكرة على المسلمين بالقيروان، ثم انساحت جيوشه تغير على مدن البربر والروم حتى وصلت في الشمال إلى مدينة مرماجنة في ناحية قسنطينة، ومدينة الكاف في شمال تونس، فغنموا وسبوا ورجعوا مظفرين فانزين، ثم رجع زهير إلى القيروان فدخلها دخول الفائز المنتصر، وهو قرير العين بجهاده، وإدراك ثأره، ورجوع الجيش الإسلامي إلى المغرب.

وكان زهير رضي الله عنه لم يسر لافريقية حبا للولاية، ولا إيثارا للرئاسة، ولكن لأخذ ثار عقبة وصحابته، ولإرجاع هيبة الإسلام إلى ما كانت عليه، ولإزالة ما قد يصيب المسلمين في القيروان من سوء، وقد تحقق كل ذلك وسكن المغرب فلم يعد فيه عدو يهدد المسلمين.

وكان زهير كعقبة شخصية دينية حربية، يليق للحرب ولا يليق للسياسة فرأى رحمه الله كثرة مشاكل المغرب، فعلم انه لا يستطيع الولاية عليه،وانه لا يقد على دسائس الروم وشدة شكيمة البربر، وان إسلام المغرب وإتمام فتحه يتطلب مهارة سياسية وهو لا يملكها، ورأى أيضا حضارة المغرب، ومدينته الرائعة، وكنوزه وغناه، ورمى ببصره في افريقية فملأته بجمالها وفتنتها وسحرها فخاف على نفسه حب الدنيا فقال: إنما جئت لقتال عدو المسلمين، وقد زال من أخافه عليهم، فلم يبق عدو في البلاد، وأخاف ان قمت في هذه الديار ان يداخلني حب الدنيا فرجع إلى برقة الهادئة التي ألفها وهدأ خاطره فيها.

وكانت مدينة برقة هي مركز ناحيتها، من خليج سرت إلى السلوم، وقد سميت تلك الناحية بها، وهي مدينة جليلة الشأن في الزمن القديم، وهي في شرق مدينة اجدابية بينهما ست مراحل، وقد وصفها البكري وبين حالها في القرن الخامس الهجري وما وصلت إليه م حضارة وعمران قال في صفحة 5 في كتابه المسالك والممالك طبع الجزائر: ومدينة برقة في صحراء حمراء التربة والمباني، وهي دائمة الرخاء، كثيرة الخير، تصلح بها السائمة، وتنمي على مراعيها وأكثر ذبائح أهل منها، وهي كثيرة الثمار من الجوز والاترج والسفرجل وأصناف الفواكه. وبمدينة برقة قبر رويفع بن ثابت الانصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. تلك هي برقة حتى لا يتوهم القارئ انها الناحية الشرقية لليبيا كلها كما هو في كتب الجغرافية اليوم.

ورجع زهير إلى مدينة برقة ومعه جيشه. فلابد وان يكون الذين استوطنوا القيروان قبل واقعة تهودة وهاجروا منها مضطرين وأقام معظمهم مع زهير في برقة. قد بقوات في القيروان. ورجع مع زهير بعض جيشه فقط وهم الذين أرسلهم عبد الملك من مصر والشام.

وكان الروم قد استرجعوا كثيرا من قواهم في بيزنطة. بفضل إصلاحات ملكها قسطنطين الرابع الذي نفخ فيها بعض الحياة فانتعشت. وكان لهم أسطول قوي في صقلية. ولما خرج زهير من مدينة برقة في غزوته لافريقية. لم يترك فيها حامية. وكانت مدينة إسلامية. هي محط أثقال المسلمين وذراريهم. وكان جمهور كبير من ذوي هذه الأموال والذراري من جند زهير. وكان الروم يرقبون أحوال المغرب من ذوي هذه الأموال والذراري من جند زهير. وكان الروم يرقبون أحوال المغرب من صقلية. ويتتبعون حركات زهير. فلما خلت برقة من حاميتها. دفعهم الجشع والحقد والعداوة وحب الانتقام من المسلمين الذين هدموا دولتهم في افريقية. وأزالوا نفوذهم من المغرب. دفعهم ذلك إلى مهاجمة برقة. فهاجموها من صقلية في أسطول كبير. وجيش عرمرم فنزلوا عليها في غيبة زهير فقتلوا ونهبوا وسبوا وارتكبوا في المدينة الإسلامية وفيما حولها من المدن كل الفظائع التي يسولها الحقد ودناءة الجبان في الضعفاء. فسمه زهير بما وقع للمسلمين فظن ان الذين أغاروا عليها شرذمة من الروم. فأمر جيشه ان يسير في طريقة. وعدل هو وجماعة من أصحابه إلى الشاطئ فأسرعوا المسير ليصلوا برقة لاستنقاذ السبايا المسلمين من أيدي الروم. ويؤدبهم بالحسام. فوصل زهير. فوجد برقة ملطخة بالدماء. والروم يجرون النساء المسلمات ومن سبوه من الذراري والرجال. يجرون النساء من شعورهن وهن يتصايحن فيلقون بهن في السفن فأحس هؤلاء المساكين بمجئ زهير كما شعرت به برقة الجريحة فاستغاثوا به وتباكوا له. فثارت ثائرة زهير ومن معه. وعملوا ان انتظارهم حتى يصل كل جيشهم سيمكن الروم من الإقلاع بما في أيديهم من حريم المسلمين وذراريهم وأموالهم. فاخترطوا سيوفهم وعزموا على الموت في سبيل الله.

وكان الروم جيشا كبيرا وزهير في قلة من أصحابه فوقعت معركة عنيفة بين الطرفين أبدى فيها المسلمون كل شجاعة وبطولة. ولكن الكثرة تغلب الأسد فأحاط الروم بزهير وأصحابه فجالوا رحمهم الله حتى استشهدوا كلهم فلم ينج منهم إلا رجل واحد فذهب ذلك الواحد وجيش المسلمين إلى عبد الملك فاخبره بفعلات الروم وباستشهاد زهير فحزن على زهير لمقامه في الدين وبطولته وشجاعته. وعلم ان الروم

أعداء الإسلام في افريقية. وأنهم لا زالوا قوة هناك تحوك الدسائس للمسلمين. فعزم على تطهير المغرب منهم فأرسل حسان بن النعمان العظيم ليتم فتح المغرب. ويفلق رؤوس الروم فيه.

وقد روى ابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر والمغرب في صفحة 202 طبعة ليدن ما يدل على زهيرا قد توقف عن الهجوم ليتلاحق به جيشه. ولكن آثاره واعجله معه. قال :»فخرج «زهير» حتى إذا كان بدرنة لقي الروم وهو في سبعين رجلا. فتوقف ليلحق به الناس فقال له فتى شاب كان معه: جبنت يا زهير فقال ما جبنت يا ابن أخي ولكن قتلتني وقتلت نفسك فلقيهم فاستشهد زهير وأصحابه» ولربما كان عدد من مع زهير من أصحابه صحيحا. ولكن الأسباب التي حملت زهيرا على الهجوم هي التي أسلفنا وقد رواها كثير من المؤرخين.

وتعطرت ارض المغرب الكبير بدماء جماعة أخرى من كبار الصحابة والتابعين لتسقى بذور الإسلام التي نبتت فيه ثم لا تموت أبدا. وأضحت ارض مغربنا العزيزة مرصعة بقبور أولئك المجاهدين. وكل قبر قطعة من الفردوس لأولئك الشهداء الأبرار واستشهد زهير وهو يجالد المستعمرين المغيرين ففاز بأعظم أمانيه. رحم الله زهيرا كأنه أسف لعدم الاستشهاد مع عقبة. وتمنى مثل موقفه وموتته. فجازاه الله لما اقر عين الإسلام في افريقية بادراك مناه.

ان الله هو الذي ساق زهيرا من افريقية لا خوفا من افتتانه بجنات افريقية لان تلك الجنات لا تليق مقاما وجزاءا لزهير على أعماله ونياته فساقته ليقيم في جنات عدن مع الأبرار.

اللهم اجعلنا كزهير وصحبه في الغرام بالجهاد في سبيلك. والعمل لرضاك. والموتة الكريمة وملائكة الرحمة والرضوان تكتنف أرواحنا إلى الرفيق الأعلى كما اكتنفت روح زهير.

وإذا كانت غزوة عبد الله بن سعد قد أطاحت بدولة الروم في افريقية. وأزالت عقبة كبرى في سبيل الإسلام. فان غزوة زهير قد أزالت عقبة من اكبر العقبات لما قضت على دولة كسيلة. وزالت رؤوس المعارضة من البرانس. وكبار البربر المعاندين. ولكن المغرب لا زالت فيه دولة الكاهنة القوية. وقد رأت ما حل بابن عمها كسيلة واشرف البربر الذين معه فغضبت واحتدمت. وأنها لقوة كبرى تحدث نفسها بمهاجمة المسلمين. فلابد بالقضاء عليها. وهذا ما سيفعله حسان العظيم.

وكان مسير زهير إلى افريقية في آخر سنة 69 هـ واستشهاده في سنة 70 هـ ومقامه في افريقية بضعة شهور. ودفن بدرنة قريبا من الشاطئ الذي استشهد فيه.

ولاية حسان بن النعمان على افريقية وفتوحه في المغرب 74 هـ

كانت موته زهير على يد الروم، وعيثهم في برقة، وسبي من سبوا من المسلمين حرقة في أعماق عبد الملك لا تخبو، ورزية عظمى عند المسلمين، وجرأة كبيرة من الروم عند أولى الأمر، تكسف سمعتهم في المغرب، وتطمع فيهم العلوج فيعاودون الكرة على ثغور المسلمين.

وكان عبد الملك يتلهف إلى إرسال جيش عرمرم إلى المغرب ليتم فتحه، ويستأصل شأفة الروم فيه، ويطهره من كل العقبات التي تمنع نور الإسلام من الانتشار في ربوعه، ولكن أحداث المشرق كانت تشغله، وحروبه مع ابن الزبير كانت تغل يده، فلا يستطيع ان يبعد عنه رجاله، والمنافسون على الملك فاغرون لابتلاعه من كل جانب، والأيدي تمتد إليه بالسلاح لتقصيه عن العرش من الحجاز والعراق. ولما قضى عبد الملك في سنة 73 على دولة سيدنا عبد الملك بن الزبير في العراق والحجاز ودانت له تلك النواحي، وخف عنه حمل الحروب التي كان يخوضها للتغلب على الثائرين والنافسين، وهدأ جو المشرق كثيرا من الهدوء، والتفت إلى المغرب فعزم على إتمام فتحه، ونشر دين الله، فولى عليه حسان بن النعمان الغساني، فأمره بالمسير إلى المغرب.

وكان عبد الملك يعلم كثرة العقبات التي بقيت في طريق الإسلام في المغرب، وهول المعارك التي تستقبل المسلمين في تلك الربوع، وكان قد استفاد مما وقع لعقبة، فعلم ان المغرب لا يزيل العقبات منه، وينشر دين الله فيه إلا رجل قوي عبقري يجمع إلى شجاعته وبطولته في المعارك، وبصره بالحروب، حنكة كبيرة في السياسة، ودهاءا تاما في التدبير، ولطفا يستعمله في مقاماته ليفتح به قلوب البربر للإسلام، ويستميل به هذا الجنس البربري القوي المعتد بنفسه كل الاعتداد إلى المسلمين. فتداول مع خاصته في من يصلح لولاية المغرب. فاستعرضوا رجالات الدولة فاتفقوا على انه لا ينهض بهذا العبء الكبير إلا حسان بن النعمان الغساني.

وكان حسان بن النعمان والي مصر لعبد الملك بن مروان، وكان قد أقامه في ذلك الثغر الخطير في هذه السنين العاصفة، ومعه جيش كبير عدة لما يحدث في تلك النواحي من الأعاصير. فأرسل إليه عبد الملك بنم مروان يأمره بالمسير إلى المغرب، وأطلق أيديه في خزائن مصر الغنية ليستعد كما يجب لهذا الأمر العظيم، فقال له عبد الملك «إني أطلقت يد في أموال مصر، فأعط من معك، ومن ورد عليك من الناس، واخرج إلى جهاد افريقية على بركة الله».[1]

1 - نهاية الأرب للنويري والكامل لابن الأثير.

وكان حسان بن النعمان بن عدي بن بكر بن مغيث، بن عمرو بن عامر الازدى من رجالات الشام وأفذاذهم وكان غسانيا من أولاد الملوك»، فأورثه أجداده همه ملوكية ترتفع به دائما إلى الأعلى. كان أول قائد شامي يولي على المغرب. وكان شخصية فذة وبطلا صنديدا، سياسيا ماهرا، طبخته الحروب فنقته من كل ضعف، وصهرته أحداث الزمان فتوجته ببياض الشيب في رأسه، وببياض الحكمة والحصافة والحنكة في عقله، فصار لا يمشي في ظلام الكوارث والصعوبات إلا بشمس من ذلك البياض !

وكان رجلا نزيها يعمل لمصلحة الإسلام والمسلمين لا لنفسه. وكان يلقب لنزاهته بالشيخ الأمين. وكان عبد الملك بن مروان يعتد به، ويراه من اعضاد دولته الأقوياء، ومن أفذاذ رجاله في ميادين السياسة والوغى. وكان له في الدولة الأموية ماض مشرق كصفحة السيف بعد الجلاء، فلذلك عينته الدولة لهذه المهمة، وأسندت إليه ذلك الأمر العظيم.

وكان المغرب بابا استعصى على الدولة الإسلامية فتحه، فلا يليق له إلا رجل كالمفتاح يجمع إلى حديديته تعاريج من دهائه، أم السيوف المواضي فلا تغني شيئا في فتح الأقفال! وكان حسان ذلك الرجل العظيم!

فشمر حسان عن ساعده فدعا المسلمين إلى الجهاد، ورغبهم في فتح المغرب ونشر دين الله فيه، فنثال المتطوعون عليه، فكملت عدته، فخرج من مصر إلى المغرب في جيش جرار كان عدده أربعين ألف جندي، وهو جيش لم يسر إلى المغرب مثله في فتوح المسلمين. فوصل حسان برقة فهشت له وانضم كثير من البربر المسلمين إلى جيشه، ووصل طرابلس فسكنت له سكون المطمئن الراضي، لان نور الإسلام الذي بثه الفاتحون الأولون في جنوب افريقية وفي القيروان، وقد سرى إليها، فخالط قلوبها، ففتحت طرابلس ذراعيها لاستقبال حسان.

قال ابن عبد الحكم:» فنزل حسان طرابلس واجتمع إليه بها من كان خرج من افريقية من المسلمين، فوجه على مقدمته محمد بن أبي بكير وهلال بن ثروان اللواتي».

وإذا صح هذا اخبر فان البربر في برقة قد أصبحوا قوة للمسلمين، فصار الولاة يعتمدون عليهم في الحروب، ويعينون القواد منهم في الفتوح. فسار حسان فدخل قابس وقفصة ونفزاوة وقسطيلية فتم له ضم جنوب افريقية كله إليه، لم يذكر المؤرخون انه وجد مقاومة، أو تنمرت له إحدى تلك المدن فترك عماله في تلك النواحي فسار إلى القيروان.

وكانت الدولة البيزنطية قد تنفست الصعداء، واسترجعت بعض قوتها لما انجلى

الجيش الإسلامي الذي قارعها في ديارها، وشدد الخناق على القسطنطينية عاصمتهم في حصار المسلمين الثاني لها ليفتحوها. وكان قسطنطين الرابع ملكها قد قام بإصلاح ديني وحد صفوفها، وأنعشها كثيرا من الإنعاش فرنت بيزانطة إلى المغرب، وقوت علاقاتها بقرطاجنة وبالروم في المغرب فنفخت فيهم الحماس فرفعوا رؤوسهم، وتجددت الآمال في صدورهم، فحسبوا المغرب وطنهم، فعزموا على مقاومة المسلمين فيه.

ولما رأى حسان ما فعل الروم بزهير وأصحابه، علم ان الروم المستعمرين لا زالوا في افريقية قوة تخشى، وان قرطاجنة هي التي تتجسس لبيزانطة، وهي التي أوعزت لصقلية فهاجمت برقة،وان المستعمرين في المغرب هم مصدر الشر، واصل العداوة للمسلمين، وان تلك القلوب السوداء الجشعة التي لا ى ينوي للمغرب أي خير هي المستنقع الذي يسمم الجو بالدعاية لابد بردمه، والقرحة التي تورث للمغرب مرضه لابد بقطعها، والعقبة الكؤود في وجه الإسلام لابد ان تزول. فعبأ حسان جيوشه فسار إلى قرطاجنة ليفتحها.

وكان في قرطاجنة خلق لا يحصى من الروم والبربر، فسمعوا بمسير حسان إليهم فاستعدوا للدفاع، فغلقوا أبواب المدينة، ورابطوا وراء أسوارها العالية. فحاصرها حسان حصارا شديدا، وقطع الماء عنها بان كسر قناتها التي أنشأها البونيقيون لتوصل الماء العذب إليها مكن زغوان، وكانت هذه القناة من أعاجيب الدنيا، ومن مفاخر الدولة البونيقية،[1] فدخل حسان قرطاجنة بقوة اقتداره، فقتل كل الذين اعترضوا سبيله، فارتاع الروم فركب جمهور كبير منهم إلى صقلية والأندلس، وهرب الباقون إلى أنحاء المغرب. فغنم حسان غنائم لا تحصى من قرطاجنة، ورفرفت الإعلام الإسلامية لأول مرة على عاصمة الروم التي ظلت عذراء مستغلقة لم يدخلها المسلمون . فسكن الروم فظن حسان إنهم قد خضعوا، فخرج من قرطاجنة، فتسارع إليها أهل القرى المجاورة من البربر والروم فاحتلوها، واعتصموا بها، فرجع إليهم حسان فقتلهم قتلا ذريعا واحتل قرطاجنة ثانية فهرب منها من كان بها إلى الضواحي والقرى، فأمرهم حسان بالرجوع إلى قرطاجنة فجاءوه وجلين، فأمرهم بتهديم أسوار قرطاجنة وحصونها فهدموها فأمست عراء لا تعصم ثائرا، ولا تخفي عدوا. وكان الروم والبربر في مدينتي صطفورة وبنزرت في شمال قرطاجنة قد احتشدوا في جيش كبير لمحاربة حسان. وكان قد ساءهم ما حل بعاصمتهم، وعلموا ان حسان لابد ان يسير إليهم، فاستعدوا للحروب. فسار إليهم حسان، فنازلهم في معارك طاحنة كان النصر فيها للمسلمين، فانهزم الروم والبربر

1 - انظر وصف هذه القناة في باب الدولة البونيقية في الجزء الأول من هذا الكتاب.

فهربوا في وجه حسان. فذهبت فلول الروم والرعب يقتلهم إلى باجة في جنوب بنزرت فاختبئوا بها. وذهب البربر إلى «هبون» وطهر حسان شمال افريقية. بنزرت ونواحيها. فانكسر الروم. فلم تعد تلك النواحي قادرة على التنمر للمسلمين. ففرض حسان الجزية على من بقي على دينه من البربر والروم. ووضع الخراج. وترك فيهم من يعرفهم بدين الله. ويدعو البربر إلى الإسلام. ويأخذ بأيديهم إلى طريق السعادتين.

وكانت معارك مهولة تلك التي خاضها حسان في شمال افريقية مع البربر والروم. فكثرت الجراح في جيشه. ومسهم اللغوب. فرجع إلى القيروان ليستريح جيشه. ويستعد استعداد آخر الفتوح أخرى. ومعارك طاحنة مع الكاهنة.وملكة جبال آوراس. وزعيمة البربر في المغرب.

ولما استجمت القوى. واندملت الجراح. واستعدت الجيوش. سار حسان إلى الكاهنة في جبال آوراس. لأنها هي القوة البربرية بعد البرانس الذين انكسروا بزهير. والإمارة القوية التي يمكن ان تحدث نفسها بمدافعة المسلمين.

الكاهنة ملكة جبال آوراس

الكاهنة: وكانت الكاهنة امرأة بربرية قوية الشخصية. ذكية الفؤاد. حسنة التدبير لإمارتها. مخلصة لقومها. تراهم وتحنو عليهم حنو الأم الرؤوم على وحيدها. فأحبها البربر. ووجدت فيها جبال آوراس صفات الرئاسة فخضعوا لها ودانوا بزعامتها. وكانت إلى مواهبها العقلية التي تتوجها في قومها. وأخلاقها العالية التي تقدمت بها في جبالها. وكللتها بالزعامة والرئاسة. وكانت إلى هذه الخصائص العالية. كاهنة تخبر قومها بأشياء من الغيب. والكاهن في البربر كالكاهن عند العرب في الجاهلية. وهو عالم قومه. ومستشار ناحيته. والقاضي الذي يفصل في كثير من النوازل. انه يمتاز بذكاء الفؤاد. ورجاحة العقل. وبعد النظر. وتراه لبعد نظره. وحدة ذكائه. يرى ما لا يراه سواه. ويستنبط من الواقع ما يقع. ويعرف منه ما لا يتوصل إليه غيره. فيعتقد البسطاء ان معرفته ما لم يقع كان برئي من الجن يخبره. كما يقولون في الشاعر إذا رأوا غرره التي لا يستطيعها إلا هو ان له رئيا ينفث في لسانه ما يقول. وليس شعره إلا من عقله. وليس ما ينتأ له من المعاني الفريدة. والصور الفذة بدون ان يعمل فيها عقله الشاعر.ليست تلك الغرر إلا من عقله الباطن هيأها له لما عجز عنها العقل الشاعر. وترى البسطاء وكثيرا من الشعراء إذا رأوا نزول المعاني العبقرية. والصور الفريدة عليهم فجأة يعتقدون ان ذلك لرئي من الجن يتنزل عليهم بما قالوا. ويمدهم بما أبدعوا . قد يكون الشخص ممتاز بأشياء أما من إفراطه في الذكاء والمعرفة. وتغلب الجانب الروحي فيه على المادي. أو من نقص في التركيب. وخلل في المخ يجعله نوعا فريدا متصفا بما يمكنه من الاتصال بالأرواح كالجن. أو يجعل أرواح تتسلط عليه فتجرى على لسانه أشياء من الأمور الخفية التي لا يعرفها الناس. ولكن الكهان الذين نالوا الزعامة عند العرب وعند البربر في الجاهلية. ورأسوا أقوامهم. وتصدروا مجالسهم.وصدرت القبائل عن رأيهم في مشكلات الأمور. كانوا من النوع الأول الممتاز بمواهب عقلية فريدة. قد يكون معها الاتصال بالأرواح. ان حطب الكهان في الكتب الأدب. وأسجاعهم وأراجيزهم لتنبئ بأنهم حكماء لا مدجلون ولا مختلون. وارى ان الكاهنة زعيمة آوراس من هذا النوع. فان البربر قوم أذكياء ذوو طموح وإباء. لا يخضعون إلا لمن يبزهم بنبوغه. ويكون فريدا فيهم بعقله وخلقه. فما كانوا ليرضوا بالكاهنة رئيسا لولا انها بهرتهم بشخصيتها. وعظمتها. وما كانوا ليقبلوا ان تكون قائدهم في حرب ينازلون فيه حسان العبقري. واكبر جيش إسلامي يدخل المغرب. ويهزم قرطاجنة. ما كانوا ليقبلوا بها قائدا في هذه المعركة العظمى. وهم اسود الوغى. وفرسان الهيجاء لولا ان الكاهنة كانت في رجاحة

العقل، وجرأة الفؤاد، في حسن التدبير والحنكة في أمور قومها في درجة عالية نالت بها ثقة البربر المعتزين بأنفسهم فخضعوا، وإعجاب آوراس الأبي الشامخ لعزته واعتداده فانقاد.

واسم الكاهنة هي داهيا بنت ماتيا بن تيفان. وكان زوجها ملكا على جبال آوراس فتوفي فترك لها ثلاثة أبناء[1] صغارا أوصى بالملك لهم فقامت أمهم مقامهم، تحفظ ملكهم، وتدبر دولتهم حتى ينشؤوا، ولكن الأم لقوة شخصيتها ظلت هي الملكة إلى انقراض الدولة.ولم يستلب احد أبنائها منها ملك أبيه، بل رضوا ان يكونوا وزراء لامهم، وتشركهم في الملك، وتستعين بهم في المهمات. ولعل الكاهنة قد خافت ان هي قدمت احدهم للملك ان يغار الآخران فيثورا، فتفترق الدولة، ويخرج الملك من أيديهم، ويجد المنافسون فيهم فرصتهم، فاحتفظت بالملك أنفسها، وأبناؤها معها في الإدارة أصابع اليد للراحة، ويعينونها ويسدون الثغور في إمارتها.

وكان للمرأة البربرية شخصية وإكبار في مجتمعها، وتتمتع بكل حقوقها، وتحظى من بيئتها بالاحترام والإعزاز. وكان البربر يحترمون المرأة ويعزونها. انها إما زوجة حبيبة، واو أم رؤوم، أو أخت حنون. ثم انها أساس الأسرة، ترب الأبناء، وتسعد الأزواج، وبدونها لا يحظى الرجل بالهناء، ولا يكون للحياة رونقها ولذتها. وقد بلغ البربر من إكبار المرأة واحترامها ان بعض قبائلهم ينسبون الأبناء إلى أمهاتهم لا إلى أبائهم، لان المرأة في نظر البربر هي قاعدة الأسرة، وروح العائلة. ولم يصب البربر في جاهليتهم بما أصيب به العرب في الجاهلية من فتن وحروب داخلية جعلتهم يقدسون الرجل الذي يحمل السلاح، ويصنع انصر لقبيلته، ويحتقرون المرأة لأنها لا تحمل السلاح. وكان البربر أيضا مستقرين في مدنهم وقراهم فلم يتبدوا بداوة تتل فيها المرأة فتحتقر، بل كانت النساء عندهم مصونات، أميرات على عروش القلوب في الأزواج والأبناء ! وقد أيد الإسلام حقوق المرأة في المجتمع البربري، فعاشت المرأة في المغرب محترمة مبجلة، ولا زالت كثير من نواحي المغرب تحتفظ على العادية الحميدة، فيحترمون المرأة ويصونونها، ويبوؤونها عرش القلوب، ويعطونها كل ما قرر الدين لها من حقوق على الرجل. وترى المرأة من هؤلاء ملكة سعيدة في بيتها قريرة العين بما تتمتع به من احترام ، راضية القلب لقيامها بواجبها في البيت ونحو الزوج فبوؤوها أعلى مقام. ليت المتبذلات المتفرنجات اللائي نجح الاستعمار فيهن فنزع عن جباههن تاج الاحترام، وسلبهن السعادة، فخرجن إلى الشارع فانتثرن فيه انتثار

1 - كثير من المؤرخين المشارقة قالوا ان لها ابنين فقط أما ابن عذارى المراكشي والسلاوي المغربي فقالا ان لها ثلاثة أبناء. وأنا آخذ بقولهم لأنهم اعرف بتاريخ بلادهم، والمصادر لديهم أكثر.

تمر العاصفة تحت النخلة، مغبرا يوطأ بالإقدام، وترتع فيه حتى الكلاب والهوام؛ ليت تلك المتفرنجات الجاهلات المغرورات يدخلن القصور المسلمة والديار المتدينة فيشاهدن من سعادة المرأة في بيتها، وإكبار الزوج والأسرة لها، وجلالها لقيامها بواجبها، وعملها بشؤون بيتها.وما يسعد أسرتها، يشاهدون ما شاهدت اميريكية عاملة عاشت في قصر مسلم في مراكش أسبوعا في سنة 1942 فرات جلال المسلمة وسعادتها وهناءها. وقارنت بين حناء المسلمة في يديها الجميلتين، وبين صدإ المعامل ولآلات الكاتبة في أيدي بنات جنسها، وبين خدمة الرجل للمرأة المسلمة وكفالته لها.وجهد بنات جنسها في دخاخين المعامل، وعرق المكاتب فقالت للمرأة المسلمة:» إلا إنكن انتن الفائزات بحقوق المرأة كاملة لا الإفرنجيات فمرحى لكن مرحى !» فرجعت إلى اميريكا وهي تندب حظها. وحظ بنات جنسها.

ان الاستعمار الفرنسي قد غمس كثيرا من بنات المغرب في حبر مدارسه، فصرن بسواده زقاق القطران يتفجرن ليضعن نساء المغرب بذلك السواد الخبيث، فيصرن للدولة والازوا وأبنائهن غربانا سوداء لا حمائهم بيضاء.

وارى بعض الجاهلات في المغرب يقلدن بعض البلدان الشرقية التي مرضت نساؤها، ونجح الاستعمار الفرنسي والانكليزي في احتلال نفوسها، فسكب فيها من سمومه، فتبذلت المرأة وصار كثير منهن عقارب سوداء، بار الزواج، وصارت العزوبة المرة القاسية التي هي قطعة من الجحيم، سعادة عند رجال بجانب الحياة المرة الجهنمية التي تصنعها لأزواجهن تلك النساء المتبدلات المتفرنجات برذائل أوروبا وحدها. ليت هؤلاء الجاهلات يعرفن أي عرش تحتله المرأة المسلمة في المغرب فيحتفظن به، ويرثين لأولئك الشرقيات التعيسات اللائي أصبحن قلاعا للاستعمار في أمهن يصنعن لدولهن حتوفها ودمارها.

ان المرأة هي قلب الرجل فما دامت كنونة مستترة كالقلب بين الضلوع فإنها مصنع حياته، ومنبع مباهجه، فإذا تبذلت في الشوارع، وبدت لكل العيون كانت تكسر عنه أضلاعه، ويقتلع من مكانه، لا يصنع لصاحبه إلا مماته وزواله من الوجود !!

أيتها المرأة المغربية احذري تلك المتفرنجات الجاهلات المتبدلات فان الاستعمار الفرنسي في أدمغتهن وأخلاقهن، وهن قلاع ذلك الاستعمار الفرنسي القتال، يريد احتلالك ليقودك إلى المجزرة والى الجحيم ! فانبذيهن بالقوة والبطولة التي جاهدت بها في معركة الحرية فنبذت أشخاص المستعمر من أوطاننا !!

ان المرأة الانكليزية والألمانية قد اتصفت ببعض ما كانت جدتك أيتها المسلمة تتوج

به كاملا. فكن قوة لأوطانهن. يسعدن الأزواج. ويصنعن الأجيال القوية التي سادت بها الأمة الانكليزية والألمانية في الدنيا !

يا ويل المغرب. ان المستعمر قد زال بشخصه ومدافعه التي سددها طويلا إلى صدورنا. وبقي بروحه في الجبل الذي غمسه في مدارسه في المحبرة. سيما النساء المتفرنجات فشفاههن الحمر بالخضاب في شوارعنا مدافع مشتعلة يسددها الاستعمار إلى قلوب الأمة. والى صدور الدولة فتموت.

ان الحمرة التي يجب ان تحرص عليها المرأة وهي جمالها وسحرها. وهي حمرة السعادة التي تكسو بها وجه زوجها. أما حمرة شفاهها في شوارع متبذلة. فهي علامة افتراسها لدينها وشرفها وسعادتها !!

ان عمائم علماء الين المخلصين الشجعان هي الغنائم الهتانة التي تطفئ تلك النيران. وتنظف أبناءنا وبناتنا من أوساخ المدارس الفرنسية. فترجع المغربية إلى جلالها القديم. وتحظى بما حظيت به جدتها من سعادة لا تدركها الأوروبيات ![1]

كان البربر يحترمون المرأة فلذلك لم يأنفوا ان تسوسهم امرأة. وتتزعم أنثى. وتكون الكاهنة ملكتهم.

وكانت الكاهنة من قبيلة جراوة. وهم ولد جراو بن ديديت بن زانا. وجراة من فروع زناتة القبيلة البترية الكبرى. وكانت الزعامة والملك في جبال آوراس في جراوة لقوتها وتقدمها وشرفها.

وكانت جبال آوراس تكره الرومان وتبغضهم وتثور عليهم. وتعمل لتطهير المغرب منهم. فبغضت كل شيء يتصل بالرومان حتى حضارتهم ودينهم اللذين اخذ بهما البربر في المدن. وناوأت الرومان وعاكستهم في كل الأشياء حتى في الدين. فان الرومان كانوا مسيحيين. فاعتنق آوراس اليهودية التي تنابذ المسيحية وتعاديها. فانتشر دين موسى عليه السلام في آوراس. سيما في قبيلة الكاهنة. ولكنني أرى إنهم تحمسوا لهذا الدين يعادي الرومان المسيحيين ونصروه بوجدانهم فقط. أما ان يتقيدوا به في الأعمال. ويقيموا طقوسه في المعابد فهذا ما استبعده. لان المسلمين الفاتحين والمؤرخين الذين نقلوا عنهم لم يذكروا إنهم رأوا في آوراس آثار بيع للعبادة. ولا عيدا من أعياد اليهود الكثيرة. يحتفل به البربر ويبجلونه. وإذا كانت كثير من مظاهر الوثنية التي كان عليها البربر لازالت موجودة في مظاهر أخرى اقرب إلى الإسلام. لتمسك البربر

1 - ان التاريخ للعبرة والموعظة وهذا الاستطراد إلى أمراضنا هو زبدته وروحه.

بعقائدهم. فان طقوس اليهودية سيما أعيادها. لو كانت آوراس تأتيها. لبقيت آثارها إلى اليوم. ولو في أثواب أخرى اقرب إلى الدين الإسلامي.

لقد اعتنق آوراس اليهودية كما اعتنق البربر الآخرون المسيحية لغرض سياسي. والأشياء أعجبوا بها في المسيحية والموسوية. كالدعوة إلى الأخلاق الحسنة. والأمر بالعدل والمساواة والإحسان. والنهي عن الظلم والطغيان. ولما جاء الإسلام فوجدوا جماله ابرع. وأمره بالأخلاق العظمى والعدل والمساواة أكثر. آمنوا به كل الإيمان.

ان كره البربر للرومان. وحب البربر للكمال سيما في الأديان. هو الذي جعلهم يؤمنون بالمسيحية واليهودية. وإيثار آوراس لليهودية. مع ان «دونتوس» الذي وضع المذهب الدونتوسي في المسيحية فاخذ به البربر. وانتشر كل الانتشار لا في مدن المغرب كان من آوراس. وكان في مدينة باغاية جارة آوراس القريبة. ان إيثار آوراس لليهودية كان للسبب الذي أسلفنا. وهو مخالفة الرومان في كل شيء. ومصادقة أعدائهم حتى في الأديان. على ان هذه اليهودية إذا صحت فانه أخذت بها طوائف قليلة في آوراس. ان الكاهنة كانت وثنية. ولما خرجت لمقاتلة حسان في الحرب التي قتلت فيها أخذت معها وثنا من خشب كانت تعبده. وكان يحمل على جمل أمامها.

وكان مع جراوة في جبال آوراس لواتة. وهوارة. وكتامة. وقبائل أخرى واغلبها من البتر.

ان آوراس هي المنطقة التي لم يستطع الرومان الأقوياء. رغم تسلطهم واحتلالهم للمغرب 390 عاما ان يستولوا عليها ويحتلوها. وينشؤوا مراكزهم الحربية فيها. لقد استطاعوا دخول آوراس بعد جهد جهيد ومجالدات ومكابدات. والبقاء فيه مدة قصيرة. ثم ثار عليهم آوراس فدحرجهم كما تدحرج الشمس الحامية أكداس الثلج كم رؤوس الجبال إذا أذابتها.

وكانت آوراس كما كانت جبال القبائل وونشريس ومعاقل البربر الكبرى يرون الرومان في جلودهم البيضاء اضر أهم من حلول البياض في سواد العيون. فكرهوهم كره البصير للعمى. فثاروا عليهم وجالدوهم بسيوفهم. فلم يستطع الرومان البقاء في آوراس لينفثوا فيهم ميوعة الحضارة. ومفاسد المدينة التي يقيد بها الاستعمار فرائسه ليرتع فيها. فبقيت آوراس على أخلاق البداوة. وفي رأسها الشجاعة والثبات والفداء. والتضحية بالنفس والنفيس فيس سبيل الوطن إذا هدده الأعداء.

وكان سكان آوراس إلى هذا قوما أثرت فيهم بيئة الجبال والغابات الصحية. فأنشأتهم

كالأسود التي يخلقها الغاب، وركبت فيهم شبه جذوعها وصخورها من متانة الأسر، ومثل أشواكها من الآسنة في النزال، والسيوف في القتال، ونفخت فيهم جرأة النمور، وطبيعتهم بما طبع به العرين صاحبه من حب الحرية وكره الاستعباد، فكانوا في الشجاعة والجرأة والصعوبة على الأعداء كجبالهم الصعبة لا تقتحم !!

فسار حسان بن النعمان في جيوشه الجرارة، وعدته الكاملة إلى الكاهنة من القيروان، وكان عدد جيش حسان أربعين ألفا أو يزيد، فعملت الكاهنة بمسير حسان إليها فأذنت في قومها للدفاع، فانثالوا عليها من كل صوب، وأسرع البربر إليها من المغرب الأوسط أيضا، وتجمعت جبال آوراس تحت رايتها، فأشعلت حماسهم بمنطق المرأة المتحمسة الذي ينفجر من العاطفة المتأججة فيؤجج الحماس في الصدور، فقادتهم وهم وراءها كالسيل الأتي[1] إلى النضال، فنزلت من جبال آوراس إلى باغاية، وهي في شمال آوراس وعلى مدخله في طريق الشرق، وكانت باغاية مدينة حصينة، وقلعة منيعة، فخافت الكاهنة ان يستولي عليها حسان فيتحصن فيها فلا تستطيع منازلته، فأخرجت سكانها من البربر والروم فهدمت أسوارها وقلاعها وتركتها عراء لا تعصم من يلتجئ إليها، فسارت حتى وصلت إلى وادي مسكيانة في شرق جبال آوراس، فعسكرت هناك تنتظر وصول حسان، وقد أبت عليه بطولتها وشمم البربر وعزتهم ان تعتصم بجبالها الوعرة وتنتظر هنا وصول حسان، فخرجت هي إليه من جبالها إلى وادي مسكيانة وسهوله الفسيحة لتلتقي به هناك، فوصل حسان إلى وادي مسكيانة مع المساء فكره منازلة الكاهنة في الأصيل لأنه يعرف ان المعركة مع الكاهنة ستطول، فبات المسلمون على خيولهم وفي سلاحهم استعدادا لما عسى ان يحدث م مباغتة الكاهنة لهم، ولما أشرق الصباح، وادي المسلمون فريضة الفجر، أشرقت سيوفهم في الجو فساروا لفريضة الجهاد، فوجدوا الكاهنة على استعداد، فتناطح الجيشان، واشتبك الشجعان، واستحرت المعركة، وصبر المسلمون وصبر البربر، ووقع بين الفريقين حروب الأسود إذا تقاتلت، والجبال إذا تناطحت، وكانت معركة مهولة ما رأى المسلمون مثلها، فتغلب البربر وكانت الدائرة على المسلمين، فقتل منهم البربر عددا لا يحصى، واسروا منهم ثمانين رجلا، فانهزم المسلمون فطاردتهم الكاهنة حتى أخرجتهم من قابس.

وقي سمى المسلمون ذلك اليوم البلاء، ووادي مسكيانة وادي البلاء ووادي العذارى، لهول ما رأوا، ولشدة ما لاقوا،ولعل مرادهم بالعذارى الضربات البكر التي ما رأوا مثلها، والمعركة الفريدة التي لم يقع لهم نظيرها، فخرجوا من افريقية، فرجعت أدراجها إلى

1 - السيل الأتي: القوى المندفع.

آوراس، فواصل حسان سيره حتى وصل سرت بجهة «مسراته» فعرس[1] فيه، فأرسل إلى عبد الملك بن مروان يخبره بما وقع، ويسأله ان يمده بقوة جديدة ليعاود الكرة على الكاهنة، ولكن عبد الملك كان في شغل شاغل بمناقشة على الملك، وبحروبه مع الازارقة، فأرجأ إمداد حسان، فأمره بالمقام في مكانه حتى تمكنه نجدته فأقام حسان في سرت بناحية مسراتة، فبنى فيها قصوره المعروفة إلى اليوم بقصور حسان، وبقي هناك واليا على طرابلس وبرقة ونواحيها، ينشر فيها الدين ويحفظها للمسلمين.

وكانت الكاهنة لم تقاتل المسلمين لعداوة راسخة، ولكن قاتلتهم دفاعا عن الأوطان، ولم تكن تضمر للمسلمين حقدا، ولا للعرب عداوة فاكتفت بإخراجهم من افريقية لتأمن في جبالها، فلم تتعرض للمسلمين في القيروان بسوء، ثم عمدت إلى الأسرى الثمانين الذين عندها فأطلقت سراحهم، وأحسنت إليهم.

وكان في الأسرى خالد بن يزيد القيسي وهو من قواد حسان الكبار، ومن المقربين إليه، وكان جميل الصورة، ذكي الفؤاد، شهما شجاعا، فأعجبت به الكاهنة فتبنته فاستبقته عندها علها تحتاج إلى سفارة بينها وبين حسان فتجده عدة عندها، وأعجب خالد بشخصية الكاهنة وبكرم البربر وإحسانهم وبطولتهم فرضي بالمقام في آوراس عله يستطيع التأثير في الكاهنة وقومها فيسلموا، أو يحفف من ثورتها على حسان فلا يداخلها الروم فيوسوسون لها فتسير إليه في قصوره وهو على غير استعداد.

قال ابن عذارى: وحبست عندها خالد بن يزيد فقالت له يوما ما رأيت في الرجال أجمل منك ولا أشجع، وأنا أريد ان أرضك فتكون أخا «لأولادي» وقالت له نحن جميع البربر لنا رضاع إذا فعلناه نتوارث به، فعمدت إلى دقيق الشعير فلتته بزيت «فصار بسيسة» وجعلته على ثدييها ودعت «أولادها» وقالت كلوا من على ثديي وقالت لهم: قد صرتم إخوة» وقد أرادت الكاهنة ان تربط خالد إليها برباط البنوة فانه امتن من رباط الصداقة.

فطار صيت الكاهنة في المغرب، وازداد البربر إعجابا بها وإقرارا بزعامتها، أما هي فقرت في جبال آوراس تديرها، وتلاحظ الشرق من هناك، تتتبع حركات حسان، ولم تملك الكاهنة كل المغرب كما قال بعض المؤرخين، لان افريقية كان جنوبها تابعا للقيروان، وشمالها تسيطر عليه قرطاجنة، أما بقية المغرب الأدنى وناحية قسنطينة إلى بجاية، والمغرب الأوسط والأقصى فقد استقل وتحرر من الروم، وتكونت فيه إمارات بربرية مستقلة يديرها أمراؤها؛ وكل منهم ملك في إمارته، وإنما هم جميعا يعجبون بالكاهنة

1 - معرس القوم مكان نزولهم ليلا فأطلق على كل مكان . وعرس أقام.

ويدينون بزعامتها. ولم تتعرض الكاهنة لمسامي القيروان بأي سوء لان الكاهنة لو أرادت إيذاء المسلمين لقتلت الأسرى الثمانين الذين كانوا في قبضتها وكلهم قد حاربها وعزم على القضاء عليها.

ان البربر شجعان أبطال، ذوو شهامة وكرامة، يشتفون من عدوهم في المعركة إذا كان شاكي السلاح قويا. أما الاشتفاء من الضعفاء المسالمين العزل فعمل الجبناء اللئام، كما يفعل الروم وكما سيعمل أحفادهم بعد ثلاث عشر قرنا في حروبهم مع المغرب الثائر على الاستعمار ! ان بعض المؤرخين القدماء ليحلو لهم ان يضعوا من شان البربر والمغرب وان اضطرهم ذلك إلى الأكاذيب التي يحرمها الإسلام المنتسبون إليه !! وترى كثيرا من المؤرخين الأوروبيين المغرضين يلغون في هذه الأكاذيب وينقلونها ليبثوا بها العداوة والبغضاء في المغرب، وهو شعب واحد قد مزج الإسلام بين عناصره كما تمتزج الألوان العديدة في النور فيبدو لونا واحدا يتلألأ في الفضاء !

لتحذر ناشئتنا من خريجي المدارس الفرنسية في المغرب من سموم كتبهم الدراسية في تاريخ الإسلام سيما في المغرب فان غرضهم من تدريسه ان يصوروا أمجادنا وماضينا العظيم في الصورة الزرية التي يمليها عليهم تعصبهم القاتم، وحقدهم على الإسلام، وعدم أمانتهم في العلم، ليحتقر الأبناء أجدادهم فيبتعدوا عن طريقهم، ويتجردوا من لبد الأسود التي كان الأجداد فيها فارتعدت أوروبا مهم ارتعاد الحمامة تحت مخالب الصقر الذي ينقض عليه.

يجب ان يدخل هؤلاء الخريجون من المدارس الفرنسية أيديهم في أفواههم حتى تبلغ أقصى حلوقهم فيتقيؤوا كل ما درسوه من تاريخ المغرب في المدارس الاستعمارية فانه طعام مسموم يقتلهم ويقتل المغرب معهم. وليؤموا ما كتب المسلمون العافون بالمغرب وماضيه، النزهاء فيما كتبوا وليتزودوا من هناك الزاد الضروري فان معرفة تاريخ الأجداد الأمجاد هي الأجنحة التي تطير بك إلى السماء !

وبقي حسان العظيم ينتظر المدد حتى جاءه فرجع إلى افريقية والمغرب رجوع النهار بعد أدباره فأتم فتحه، وأشرق في أرجائه إشراق الضحى. فما أعظم نعمة الله على المغرب في الإسلام والمسلمين !!

العوامل النفسية لهزيمة حسان

لماذا فشل حسان في حربه مع الكاهنة، وجيشه يعد أربعين ألفا أو يزيد. وقد انتصر على قرطاجنة،وتغلب على كل الأعداء الذين اشتبك بهم في بنزرت صطفورة وفتح كل القلاع التي نازلها، لم يستعص عليه حصن، ولا تعذرت عليه قلعة، وفي جيشه من الأبطال المدربين، وأئمة الحروب والنزال، العدد الجم، والجماعة الوفيرة لماذا انهزم هذا الانهزام المنكر، وهو الذي ر يعرف إلا أكاليل النصر تتوج جبينه وشارات الفوز في المعارك العظمى تزين صدره، وهو الذي اختاره عبد الملك لما عجم قواده فوجده اصلبهم عودا، وأكثرهم كفاءة، وأليفهم لافتتاح المغرب الشجاع، والتغلب على البربر الأقوياء؟

لماذا انهزم حسان وولى الأدبار، ثم أخرجته الكاهنة من افريقية فانسحب أمامها تاركا أهله وذريته وضعفاء المسلمين في القيروان؟

لماذا انتصر عقبة على البربر في المغربين الأوسط والأقصى وهو في عشرة آلاف وقد صارع البربر الأقوياء، واسود الوغى؛ وانتصر زهير على حشود كسيلة وفيها البربر الأبطال، وفرسان الوغى والنزال، وجيشه أكثر من جيش زهير؟ ولماذا انتصر أبو المهاجر وجيشه نصف جيش حسان، وقد قاتل البرانس والبتر في عقر دارهم، وهاجمهم في مجتمع قوتهم، وعاصمة ملكهم، وانهزام حسان العظيم في معركته، وحوله أربعون ألف جندي أو يزيد من المسلمين المدربين؟ هذا هو السؤال الذي ينشأ في نفس كل قارئ لمعركة حسان مع الكاهنة، فلم يكلف المؤرخون نفسهم بالجواب عليه. كان وظيفة المؤرخ ان يكون علبة البريد تعطي ما القي فيها، وظيفته تسجيل الأخبار التي تخشى بها آذانه، لا فرق بينه وبين الآلة الكاتبة الصماء، ولا يفتش الأخبار ليعلم صدقها وكذبها، ولا يمعن فيها النظر، ويعمل فيها الفكر فيستنبط منها ما يسوغ المنطق استنباطه، ويستخرج منها ما يوجبه العقل السليم !!

ان سبب هزيمة حسان هو قوته لا ضعفه وكثرة جيشه لا قلته، وتتابع انتصاراته وفوزه على الأعداء، ان الجيش القوي الذي تعود الانتصار، وألف الظفر، وهو الذي يغير بقوته، ويهزأ بعدوه، فلا يبذل كل جهده، ويستخرج كل ما فيه، فيتغلب عليه الضعيف الذي يجتهد ويجاهد فيستخرج كل طلقته، ويستخدم كل قوته، فيكون بهذه الطاقة -وهو الضعيف- أقوى من عدوه المتهاون الذي احتقره فقاتله وهو مستلق، ومد اتليه يد العراك وهو يتثاءب، واغفل شانه فلم يغلق أبواب الفرص في وجهه، وتوانى فلم يبادر إلى الفرص التي تلوح فيه، انه يقع في المعركة ما وقع للأرنب السريعة لما سابقت السلحفاة البطيئة، فاجتهدت الثانية ودأبت، ونامت الأولى وتراخت.

ان الاجتهاد في العمل، وبذل الجهد في السعي، والإتقان للأمور، هو سبب النجاح في كل شيء !

لقد اغفل جيش حسان هذه القاعدة، واغتر بكثرته، وبما عوده الله من النصر على عدوه، فلم يبذل كل جهده فخاب، ووقع له ما وقع لجيش الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين.

والسبب الثاني -كما أرى- هو احتقار جيش حسان للبربر، وسوء تقديرهم لقوتهم وبطولتهم، ولعدم معرفتهم ببربر آوراس خاصة. لقد ظنوهم كسكان قرطاجنة والمدن المتحضرة التي نازلوها، ونفوسا واعضادا فثت فيها الحضارة والمدينة، فصارت كالرخام يتفتت بأول طرقة، وينكسر من أول صدام، وما عرفوا أنهم سيناطحون الصخور الصماء، وجنادل الصوان، وينازلون الأسود والعقبان، ويقاتلون قوما ما ساروا إلى حرب إلا شمر عزرائيل عن ساعديه واستعد للاجتهاد، لان من ستجند لهم سيوف اسود آوراس سيغطون الساحة، ويتراكمون في ارض المعركة.

والسبب الثالث الذي أراه هو احتقار جيش حسان للمرأة. ان الإسلام وان تمكن في قلوب الفاتحين، وغسل صدورهم من أوضار الجاهلية، فان احتقار المرأة الموروث لا زالت منه بقايا في كثير من جيش حسان. وكأني بهم وقد ساروا إلى الكاهنة ليحاربوها يتندرون قائلين: ان المرأة لتفوز في معركة ترمي فيها بنبال العيون وبأقواس تمثلها الحواجب المزججة، وتنتصر في معركة تنازل فيها الرجال بسحر الأنوثة وروعة الجمال، وتقتل ببياض يشرق في الثنايا والنحور لا ببياض السيوف، وتحرق بنار تتورد في خذيها وشفتيها فتصرع الأبطال. أما النار التي تشتمل من السيوف إذا تقارعت، والرماح إذا تحدت الدروع، فإنها لا تكون من أنثى، ولا تستطيعها امرأة ! وما علموا إنهم مقدمون على لبؤة هصور تصرع الأسود إذا صارعت عن العرين، ودافعت عن الأشبال، وأنهم سيحاربون الكاهنة الجبارة العملاقة التي أورثها احترام المجتمع البربري للمرأة اعتدادا بنفسها يجعلها تصارع الرجال، وتنازل الأبطال، وأنهم إلى ملكة آوراس الجبار سائرون، إنهم إلى حرب وقراع، وان كان من يرميهم يد مخضبة بالحناء، ولكن تقذفهم بجنادل الصوان التي تحطم الصدور وتكسر الجماجم. إنهم جند آوراس العتيد، واسود البربر الصناديد، تدفعهم ملكتهم المحبوبة القوية فيندفعون إلى الحرب في عنف وقوة دونها قوة القنابل إذا انطلقت من مدافعها، والصخور العظيمة إذا تهاوت في الجو من أعاليها.

والسبب الرابع هو قوة البربر وبطولتهم، وشجاعتهم وبسالتهم. إنهم في متانة

الأسر وشدة السواعد، وفي قوة القلوب في القتال، والبراعة في النزال، والثبات في الشدائد يوم الملحمة كالعرب أو يزيدون. قلوبهم فلو إنهم تسلحوا بما تسلح به المسلمون من دين ضاعف قواهم المعنوية فاستماتوا في القتال، واثروا الموت على الحياة في المعركة ما استطاعهم احد، ولا هزمتهم قوة. فلذلك نجد حسان لما تغلب عليهم يسلكهم في جيشه، ويختارهم جندا لم صول بهم في الشدائد، يجالد بهم في النوائب.

هذه هي الأسباب الأربعة التي جعلت المسلمين ينهزمون، وحسان العظيم يرجع القهقري، وهو الذي كان نور الشمس في حروبه وأعماله لا يرتد إلى الوراء !

ثم يأتيه المدد من عبد الملك بن مروان، فيسير إلى الكاهنة وهو على تعبئة جديدة، وتقدير للكاهنة غير الذي كان. فماذا تكون نتيجة المعركة معها يا ترى،وكيف حال افريقية والمغرب لما رجع حسان القهقري؟ سأنبئك يا صديقي إذا تملصت من الحريري وأطعت الجاحظ فيما اسطر، فانه لا افسد للقول من سجع تلتزمه، وقيود ترتبط بها.

عودة حسان إلى افريقية وإتمام فتح المغرب 81 هـ

وكانت إقامة حسان في قصوره بسرت خمس سنين. وارى ان معركة الكاهنة قد وقعت في سنة 76 بعد سنة وشهور من وصول حسان إلى القيروان. وفي سنة 71 أمكن لعبد الملك بن مروان ان يمد قائده العظيم حسان فأرسل إليه جيشا كبيرا وسلاحا كثيرا فزحف إلى الكاهنة.

وكانت الكاهنة لما انهزم حسان وأخرجته من افريقية ترقب حركاته. وكانت تظن ان مقامه في سرت للاستراحة، ثم يواصل سيره إلى مصر، ويعود إلى بلاده عودة اليائس الذي لا يفكر في الرجوع. وييأس عبد الملك بن مروان من افتتاح المغرب والاستقرار فيه، بعد الهزائم المنكرة التي أنزلتها بجيوشه، وبعد فشله في فتح المغرب رغم استعداده وبذل أقصى طاقته، ورغم أكثر ما يمكنه من جند، واختيار أعظم من وجد من القواد. ها هو نصف قرن وسبع سنين تنقضي منذ سار أول جيش إسلامي إلى المغرب في سنة 22 هـ والمسلمون يطرقون أبوابه، ويمهدون عقباته، ثم ينهزمون هذا الانهزام، وتستغلق أبواب المغربين الأوسط والأقصى في وجوههم. فظنت الكاهنة المسلمين سينفضون أيديهم من المغرب ما دام يكلفهم من الخسائر في الأرواح والأموال والزمن أكثر مما يغنمون. من يدري؟ لعل صراع عبد الملك بن مروان مع الازارقة، وحروبه مع منافسيه في العراق، قد بلغ الكاهنة فجعلها تعتقد ان المسلمين لا يستطيعون الرجوع إلى المغرب، وان عبد الملك لا يستطيع ان يجهز جيشا أقوى مما أرسل إليها فهزمته، ولكن حسان يقيم في سرت فيطيل الإقامة، ثم يبني قصوره هناك، وهو أمير مصر، وقائد من أعظم قواد عبد الملك، فما اشد حاجة مصر إليه، وما أكثر افتقار عبد الملك إليه والى جنوده في هذه الظروف العاصفة به. وها هي سنون تمر وهو رابط هناك في سرت لا يعود إلى إمارته. إذن انه ينتظر المدد، ويرقب الفرصة، ليجدد الغزو، ويعاود الكرة على المغرب.

وكانت الكاهنة لا انعزالها في جبال آوراس، وعدم اختلاطها بالمسلمين، لا تعرف قصد المسلمين من المجئ إلى المغرب، واحتلال بلاده، والزحف على نواحيه. ان قصد المسلمين من المجئ إلى المغرب هو نشر دين الله فيه، وإنقاذه من الجهالة والظلمات وإخراجه إلى طريق السعادتين، والفوز بالحسنيين. ولكن الكاهنة لا تعرف هذا القصد الكبير، وتلك الأهداف السامية. انها تظن إنهم طلاب مال؛ ومحبو متعة وجمال. لقد رأتهم منذ غزوة عبد الله بن سعد يزحفون على المغرب، فيقصدون المدن العامرة، والعواصم الغنية فيغنمون منها ويسبون، ثم يرجعون إلى المشرق مثقلين بالسبي والغنائم. فهذا عبد الله بن

سعد يقصد «سبيطلة»[1] والجم، وقفصة وما يلي هذه من المدن العامرة المتحضرة التي تغص بالكنوز، وتشرق بالحسن، وتختال فيها الظباء البارعة الجمال؛ فيغنم ما وجد من كنوز، ويسبي ما أعجبه من الروم والبربر، فيرجع مثقلا بالغنائم والسبي إلى بلاده. وهذا معاوية بن حديج يقصد جلولا المنزفة، وحضرموت الغنية، وما يتصل بها من قرى عامرة، ثم يؤم بلاد الروم في الشمال حيث الغنى المفرط والجمال البارع فيغنم كل ما وجد من تحف وكنوز، ويسبي كل من يعجب بهم من فتيان وصبايا، ثم يرجع إلى بلاده. وهذا عقبة يبعث بسراياه لما كان يبني القيروان فتغنم من بلدان افريقية ما تجد، وتستولي من كنوزها وأموالها على ما تقدر عليه ثم يسير عقبة سيره في البلاد فلا يقصد إلا المدن الغنية السمينة التي تغص خزائنها بالكنوز، والعواصم الجميلة التي تسيل أخلاقها بالذهب، وتفتن القلوب بالحسن، فيغنم عقبة ويسبي، فيرجع من غزواته، وسير جيشه سير السحاب الكثيف الذي تثقله مياهه، بطيئا لما يحمل من غنائم، ويثقله من كنوز المدن التي غزاها. ثم يأتي أبو المهاجر فيقصد قرطاجنة الغنية، وميلة الجميلة، وتلمسان المترفة، ولا يقصد قرية فقيرة فيقيم فيها، ولا ينازل مكانا قفرا فيحارب أهله. فتيقنت -وخطأ ما رأت ان غرض المسلمين من غزو المغرب إنما هو امتصاص خيراته، والاستيلاء على كنوزه كغرض الروم المستعمرين، وان كنوز افريقية وحضارة افريقية هي التي تجذب المسلمين فيغزون بلادها. ان افريقية هي وجه المغرب الفتان لكثرة حضارتها، ووفرة جمالها وكنوزها. انها هي التي دلهت المسلمين وفتنتهم فانجذبوا إلى المغرب فلا بد بتشويه هذا فيه العشاق فيه العشاق، وإتلاف تلك الحضارة وتلك الكنوز لينصرف عنها الطراق. أليست افريقية هي مسكن الروم؟ إنهم أعداؤها وأعداء وطنها لا يصنعون له إلا الحتوف، وما رأى المغرب منهم إلا شقاءه وويلاته ! لا بد بتخريب افريقية ليرحل عنها هؤلاء العلوج الذين لو وجدوا قوة لأعادوا استعباد المغرب وتعذيبه. ان هذه الحضارة الإفريقية هي التي تمسك الروم وتجذب العرب، فلنتخلص منها نتخلص من الأعداء، فيعيش الأمازيغ[2] مستقلين في مغريبهم الكبير لا يضايقهم احد، ولا تزاحمهم امة. ان هذه الحضارة البراقة وتلك المدينة اللماعة هي التي يفسد الروم بها أخلاق البربر. انها خراب للنفوس، ومهلكة للأمم ! هذا الفسوق المنتشر في المدن، وتلك الموبيقات التي تزخر بها افريقية المتحضرة، وهذه الميوعة، وذلك التخنث الذي يقتل خصائص الأجداد

1 - سبيطلة اسم بربري لعاصمة جرجير والبربر يبتدؤون بالسكون في كلامهم. فيقولون تمارت للحية، وتفويت للشمس.

2 - الأمازيغ هو الاسم الحقيقي للبربر نسبة إلى جدهم مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام. ثم سماهم العرب بربرا بتفخيم الراءين للغتهم التي لا يفهمونها، وقد ورد في الجزء الأول من هذا الكتاب زيادة بسط لهذا.

العظيمة في نفوس البربر المتحضرين. ان ذلك كله وليد تلك المدن، وفرع عن تلك المدينة. لابد بتهديمها !

ان عدوها وعدو وطنها ليس حسان، ولكن ما يجلب إليها حسان. هذه المدن الجميلة وتلك الكنوز الوفيرة فيها. انها هي التي تجذب إلينا الأعداء، وتبتلى المغرب بالحروب الهوجاء، التي منعته نصف قرن كامل الطمأنينة والهناء. لابد بإزالة هذه الحضارة التي تجذب المشارقة فتنقطع أطماعهم عنا، ولابد بفقء هذه العين الساحرة فيزهد فيها عشاقها. هذا ما رأته الكاهنة وحدثت به نفسها ففاوضت قومها فيما رأت فقالت :»ان العرب إنما يطلبون من افريقية المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعى، فلا نرى لكم إلا خراب بلاد افريقية كلها حتى ييأس منها العرب فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر. فوجهت قومها يقطعون الشجر ويهدمون الحصون، وذكروا ان افريقية كانت ظلا واحدا».[1]

ويروى عن عبد الرحمان بن زياد بن انعم[2]:»ان افريقية كانت ظلا واحدا، وقرى متصلة عامرة، ثم قال: سمعت من يقول انه كان بافريقية مائة ألف حصن ما بين قصر ومدينة، وان ملكها إذا أراد الغزو بعث إلى كل حصن فيأتيه منه فارس ودينار فيجتمع له مائة ألف فارس، ومائة ألف دينار، ولا ينقص من بلاده شيء. قال الوزير الأندلسي: ومن تأمل هذه المدن والقصور الخربة بافريقية، وتداني بعضها من بعض، ورأى من ذلك ما يفضي إلى العجب، ويستدل به على كثرة عمارتها في السالف، وكذلك الشعراء التي بها إذا تأمل أشجارها رآها في مواضع على اعتدال وترتيب تنبئ بأنها مغروسة لا نباتية. ويقال ما فيها من بطم[3] إنما كان فستقا إنما استحال «ثمره» إلى الصغر والى طعم آخر لطول ما أتى عليه من السنين، ولا شك ان أكل البطم اخضر وجد طعمه كطعم الفستق» وقد روى كثير من المؤرخين ان الساحل المغربي كان ظلا واحدا من افريقية إلى طانجة، لكثرة عمارته،ووفرة مدنه، واتصال مزارعه، وكثرة غاباته. لقد تعاقب على هذا الساحل الجميل دول كثيرة نشأت فيه، وكل منها زادت في عمارته وخصبه، فلا عجب ان يكون كما قال المؤرخون، انه ظل واحد، لا تكاد تخرج من قربة عامرة تكتنفها الرياض الغناء، حتى تدخل في مثلها، ولا تكاد تفارق الجمال الذي صنعه الإنسان، حتى تدخل في جمال الله في الغابات الرائعة التي تكتنف السبيل، والجبال المشجرة الشاهقة

1 - البيان المغرب لابن عذارى.

2 - الحلل السندسية للوزير الأندلسي.

3 - البطم شجر عال وله حب اخضر زيتي، وهو جمال الصحراء، وفي جنوب الجزائر منه كثير، وهو مقيل الأعراب في الصيف لبرودة ظلاله، ولطف جوه.

التي تحوط الطريق. ان المغرب سيما الساحل جنة الله في الأرض، لخصب أرضه، وكثرة غاباته، ووفرة عمارته. اعتنى به أبناؤه الأمازيغ، وأحباؤه البونيقيون فصار مثالا للروعة والبهاء والعمارة ! وقد استبى الرومان بجماله، وأسال لعباهم بكثرة خيراته ومنتجاته، وخلب لبهم بحضارته، فجاؤوه ليرتعوا فيه. ولولا حضارته ورقية ما فكروا في غزوه واحتلاله، لأنهم أبناء مصالحهم لا يؤمون إلا حيث يشبعون ويرتعون. لقد وصف الأستاذ حسين مؤنس في كتابه فتح العرب للمغرب المؤرخين الذين قالوا: ان الساحل كان ظلا واحدا بالمبالغة، وتخيله أمكنة قفرة أو متوسطة الخصوبة لأنه لم يزر المغرب، سيما من افريقية إلى طانجة. فلو زاره الآن والساحل قد شاخت أراضيه، والمغرب قد دخل بالاستعمار الفرنسي والاسباني في أحزابه فعبس واربد، وقيدت أيدي أبنائه فلم تعد في التعمير كما كانت أيام أفراحه في عهود دوله الزاهرة. لو رآه لعلم تم ما قال المؤرخون ليس فيه كثير من المبالغة، وان الساحل الخصب الأخضر المتصل الخصوبة والجمال هو ناصية المغرب توج الله بها جبينه الوضاح ليكون فتنة للأنظار، كما توج بالناصية جبين الغانية الوضاء ليكون فتنة للقلوب !

لقد رأت الكاهنة كل ذلك الحسن في الساحل وكل تلك المدينة في افريقية فاعتقدت انها مجابة حسان لها، فأرسلت رجالها الأشداء، وجنود أوراس الأقوياء، ففاضوا على افريقية، فهدموا كثيرا من حصونها[1] وقطعوا كثيرا من أشجارها، وافسدوا كثيرا مما بنى الروم والبربر فيها وشوهوا كثيرا من جمال افريقية، وعمدوا إلى المدن الجميلة خاصة فهدموا فيها، ولابد وان يكونوا قد غنموا ما ظفروا به من كنوز الروم أعدائهم، فأمست افريقية العروس التي كانت تكسف الشموس في عرشها، لحضارتها وجمالها، ممرغة في التراب، مقطوعة الشعر، ممزقة الثياب، وتجاعيد الحزن تكسو وجهها، قد زال الجمال الذي كانت تتيه به، والحسن الذي تستميل به القلوب، وصارت بعاصفة الكاهنة التي أرسلتها عنقودا في حوض الشجرة، قد حطمته الرياح، وامتزج بالطين.

لقد ادعى كثير من المؤرخين القدماء ان الكاهنة خربت كل الساحل من قابس إلى طانجة، فقطعت الأشجار وهدمت الديار وأفسدت كل شيء !! ان هذه مبالغة كبرى فما كانت الكاهنة بمستطيعة ان تخرب كل الساحل وتتلف كل شيء فيه، سيما المزارع والبساتين. لو حاولت الكاهنة ذلك لاقتضاها من الوقت أضعاف أضعاف ما سادت فيه بافريقية، ومن الرجال والجند أضعاف من عندها. ان الكاهنة لا تستطيع في ذلك الوقت أكثر من تشويه افريقية وهي مقصد المسلمين، إبان تهدم فيها وتفسد منها لا ان تهدمها

1 - الحصن مدينة عالية الأسوار محصنة.

كلها. وقد رأينا الفرنسيين يحاولون حرق الغابات التي يرابط فيها المجاهدون في الجزائر، فسلطوا عليها وسائلهم الجهنمية الفظيعة، والقوا عليها قنابل «أَلْنَابَالْمْ» المحرقة، التي تذيب الحجر، وتأتي على كل شيء، واستعملوا من وسائل التدمير والإحراق كل ما يسول لهم حقدهم وحرصهم على القضاء على ثورة الجزائر، بإزالة الغابات التي يحصد المجاهدون منها جيوشها في المعارك، فلم تستطع ان تزيل منها إلا ما يزول من جناح الصقر إذا ناوشته الرياح ! هذا في سبع سنين، فكيف تستطيع الكاهنة في اقل من هذا الزمان، في سنة أو سنتين ان تخرب كل الساحل وتقضي على أشجاره وعمارته. لقد أفسدت الكاهنة كثيرا في مدن افريقية والساحل فارتاع الروم والبربر المتحضرون لما وقع لهم، وكانت المصيبة على الروم اشد. فهذه القصور الجميلة، وتلك الحدائق الغناء، وتلك المدن البديعة المزدانة بالأقواس والتماثيل والميادين الجميلة، وهي جنتهم، وما يمسكهم في افريقية فبقوا فيها، رغم الهزائم التي نكس المسلمون بها رؤوسهم، ورغم الذلة التي يتجرعونها من البربر الذين استرعوا سيادتهم واستقلالهم، فشمخوا عليهم بأنوفهم. ان تلك الحضارة التي كانوا يتقلبون فيها، والجمال الذي كانوا يرتعون فيه،هو الذي كان يكسب تلك المرارة كثيرا من الحلاوة فيصبرون. أما وقد لتت الكاهنة على كل ذلك، وأصبحوا مهددين أيضا بعودة حسان، هذا الذي هدم عاصمتهم ونكس رؤوسهم فان افريقية لم تعد لهم دار قرار فهاجرت طوائف كبيرة منهم إلى صقلية والأندلس، والى ما يجاور المغرب من الجزر والسواحل. أما البربر في افريقية، ومن لم يستطع الرحيل من الروم، فقد اغتاظوا أيضا بما وقع لهم من الكاهنة، وانقلبت لها قلوبهم؛ فبعد ان كانوا يرونها زعيمة تحميهم، أصبحت هي التي تخرب ديارهم، وتتلف أموالهم، وترزئهم فيما ابتنوه وأنبتوه بعرق جبينهم وجبين أبائهم وأجدادهم. فقالوا بين حسان لو ملك المغرب وبين الكاهنة، فعلموا ان حسان يأمر بالعمارة لا بالتخريب، ويدعو إلى البناء لا آلة التهديم. ها هم المسلمون قد بنوا القيروان، وشمروا عن ساعدهم لغراسة الأشجار، وتعمير تلك الناحية التي كانت فيما مضى أشبة لا نسكنها إلا السباع. إنهم لا يستطيعون الوقوف في وجه الكاهنة لقوة رجالها. انها إعصار عارم عليهم، ليس للمرء ان يغمض عينيه فيه، ويطأطئ له وإلا قضى عليه. إنهم عزل ضعفاء، لا يستطيعون الدفاع. فنظروا فوجدوا ان الروم في افريقية وفي المغرب، قد تلاشى أمرهم، واضمحلت دولتهم، فصاروا لا يستطيعون الدفاع حتى عن أنفسهم. ان شريف بيزنطة «يوحنا» الذي أرسلته ليرفع نفوذها الذي مزقته سيوف المسلمين في افريقية، وإزالة حسان لدولتهم لما هدم قرطاجنة، لم يستطع بما معه من الجيش أكثر من استرجاع قرطاجنة والمدن المجاورة الموالية لها، فاستقر فيها محتميا بأسوارها وحصانتها، لا يغادرها إلى

مكان آخر ليمتلكه. ان البربر يكرهون الروم ويكرهونه. لقد استرجعوا استقلالهم. فلو تحرك إلى ناحية من بلادهم ليمتلكها لدمغوه وهزموه. انه ضعيف لم يستطع ان يحمي حتى أبناء قرطاجنة فهاجروا من المغرب. لم يبق لهم مفزع من الكاهنة إلا حسان، وليس لهم وسيلة تمنع كرة التخريب والتدمير عليهم، إلا ان يرجع حسان ويملك المغرب. فأرسلوا وفدا كبيرا منهم إلى حسان يشكون إليه الكاهنة ويستصرخونه.

وكان في جنوب افريقية وفي وسطها جماعات كبيرة من البربر الذين اسلموا فداهمتهم الكاهنة فيمن داهمت فنالت من أموالهم وارى إنهم هم الذي أمالوا كفة البربر إلى حسان فذهبوا إليه مستنجدين. روى محمود بن سعيد مقديش الصفاقسي في كتابه نزهة الأنظار المطبوع في تونس في صفحة 77 «ان ثلاثمائة من النصارى خرجوا يستغيثون بحسان مما نزل بهم من الكاهنة» وارى ان هؤلاء النصارى من البربر والروم ولا بد وان يكون فيهم مسلمون ولكنهم قلة فأغفلها المؤرخون. ففرح حسان بهذا الوفد. وسر سرورا كبيرا بهذه الغلطة السياسية التي ارتكبتها الكاهنة. فعلم ان الجو في المغرب قد تخلق لصالحه. وان بربر افريقية الذين وقفوا في صفها يوم عاركته قد انفصلوا عنها. وقلبوا ظهر المجن لها. وان القوة المعنوية التي كانت لها يوم نازلها، بوقوف البربر كلهم وراءها قد نقصت. وأنها سوف تكون له دوحة بادية العروق يستطيع اقتلاعها. وجدارا بادي الأصول يقدر على هدمه.

ان الله الذي كتب للمغرب السعادة والحياة والازدهار بالإسلام. وهو الذي أضل الكاهنة فرات بعقل المرأة وببساطة البداوة ما رأت. وارتكبت تلك الحماقة التي أفسدت قلوب أنصارها.

ان كسيلة وقد ساد في المغرب وتمكن من ناصيته كما تمكنت. لم تخطر بباله هذه الحماقة. لأنه يعرف حقيقة المسلمين. ويفكر لدهاء الرجال. أما الكاهنة التي لاقت ملكة محبوبة في جبالها. وفي دائرة مملكتها الضيقة. ووفقت في تدبير شؤون قومها الذين كان جمهورهم على بساطة البداوة فإنها صارت بلاء ونقمة لما أعملت فكرها فيما لا تعرفه. وأرادت ان تتصرف في الدائرة الواسعة التي لا تستطيعها. وهكذا المرأة في كل زمان ومكان إذا خرجت عن وظيفتها. واقتعدت عرش الملك والسياسة أحدثت فيه شقا عظيما... ! !

وكانت أحوال عبد الملك بن مروان قد تحسنت كثيرا من التحسن في المشرق ووقعت من الروم قرطاجنة حماقة وفظائع في المسلمين الذين تركهم حسان في افريقية،

فاذكت حماسه. وجعلته يعجل بإرسال المدد إلى حسان. فوصل حسان من مصر والشام جيش كبير وسلاح. وأمره عبد الملك بالزحف على افريقية. وفتح المغرب لينشروا دين الله فيه. ولكن حسان العظيم الداهية. ما كان لينازل الكاهنة القوية قبل ان يعرف أسرارها ومقدار قوتها. فأرسل رسولا إلى جبال آوراس. ولابد وان يكون بربريا يعرف مسالكها. ولسان أهلها لكي لا يفتضح أمره. وأرسل معه رسالة إلى خالد بن يزيد القيسي الذي تبنته الكاهنة فصار من خاصتها. قال الوزير الأندلسي في الحلل السندسية في الأخبار التونسية «فلما أتى رسول حسان خالدا وقف عليه في زي سائل فعلم انه رسول فاعتذر إليه. وقال تعود في غير هذا الوقت. فلما انفض المجلس «ورجع الرسول» اخذ الكتاب فقرأه وكتب في ظهره ان البربر متفرقون لا نظام لهم وإنما ابتلينا بأمر أراد الله ان يكرم به من مضى. فاطو المراحل. وجد في السير. فان الأمر لله «ولست أسلمك ان شاء الله» ولا حول ولا قوة إلا بالله» ومراد خالد إنما ابتلينا بأمر ... هزيمة حسان ومن سقط فيها من الشهداء الذين أكرمهم الله بالشهادة قال الوزير :وجعل خالد الكتاب في خبزة «فأنضجها» فمضى الرسول فلم تلبث الكاهنة ان خرجت ناشرة شعرها. تضرب صدرها وتقول :ويلكم ذهب ملككم فيما يؤكل. فافترقوا يمينا وشمالا يطلبون ذلك فستره الله تعالى. فلما وصل إلى حسان اخرج الكتاب من الخبزة فوجده قد احترق. فقال له حسان ارجع فقال إني أخاف على نفسي. فان المرأة كاهنة فكتب له كتابا جعله في نقرة قربوس سرجه وغطاه بالشمع فمضى الرسول حتى أتى خالدا. فدفع إليه الكتاب وعرفه ان الأول أحرقته النار. فرد جوابه. أعاده في قربوس سرجه ومضى. فخرجت الكاهنة ناشرة شعرها تضرب صدرها وتقول: ذهب ملككم في نبات الأرض واراه بين لوحين» فوصل الكتاب حسان. قد تكون هذه القصة صحيحة وقد لا تكون. فان فيها طرافة للقارئ يتجدد بها للحد الذي سنقوده إليه. والبحث العلمي الذي نلتزمه في هذا الكتاب.

وكان حسان عند منازلته لقرطاجنة وحصاره لها ينزل في مكان مدينة تونس اليوم. وهو في جنوب قرطاجنة. وكان فيه قرية صغيرة تسمى «ترشيش». وقد أعجب حسان بحسن موقعها. وحصانته. فلما فتح الله عليه في قرطاجنة ترك جماعة من المسلمين في ترشيش. لتحرس تلك الناحية. وتنشر الدين في البربر. ويراقبوا حركات الروم في قرطاجنة. وولى على هذه الجماعة من المسلمين مولاه أبا صالح. ولما انهزام حسان وخرج من افريقية انقطع خط الرجعة عنهم فلم يستطيعوا الالتحاق به في سرت فبقوا هناك.

وكان إمبراطور بيزنطة «ليونتيوس» قد ساءه سقوط قرطاجنة وتهديمها، وزوال دولة الروم من افريقية. فلما انهزام حسان، فخلت افريقية من جند المسلمين اغتنم الفرصة فأرسل أسطوله وجيشه تحت قيادة البطريق[1] «يوحنا» وهو من كبار قواده ليحتل قرطاجنة، ويبتز له ما يستطيعه من أموال الروم والبربر فيها وفي نواحيها، ويغتنم الفرصة في المسلمين العزل فيرتكب فيهم ما ارتكبه سلفه في مسلمي برقة لما فارقهم زهير.[2] فنزل يوحنا قرطاجنة فاحتلها، فوجد جماعة المسلمين في ترشيش، وكانوا عزلا ضعفاء، فهجم عليهم فقتل وذبح، وارتكب فيهم ما يرتكبه الجبان الخسيس الموتور في خصمه الضعيف من الفظائع والآثام. ان جبينه أبى عليه ان يتوجه إلى حسان في سرت فينازله، فشفى غيظه من هؤلاء الضعفاء، وارانا خسة الروم المستعمرين الذين يفتح أحفادهم الأوروبيون اليوم بإنسانيتهم ورقيهم، ويصورونهم للمغرب رحمة وجمالا، ويصفونهم لتلاميذهم من أبنائنا بأنهم لمغربنا رسل حضارة ورأفة وإنسانية ورقي، وأنهم من نعيم الله عليه !

ان الكاهنة لم تتعرض للمسلمين في القيروان وفي ترشيش، وفيهم من يمكن ان يقاتلها، ولم تمسهم بأذى، بل أحسنت إلى الأسرى المسلمين الذين قاتلوها، وأطلقت سراحهم، لان البربر كرماء، وذوو شجاعة وبطولة تجعلهم يشفون غليلهم في الأقوياء، وفي الحروب الهوجاء، ثم يحملون عن الضعفاء، أما الخسيس الجبان، فانه عقرب لئيم، لا تلذع إلا النيام، ولا تهاجم إلا الضعفاء والغافلين فتفرغ فيهم سمومها !

ذكر حسين مؤنس في «فتح العرب للمغرب» في صفحة 254 رواية اثنين من المؤرخين الأوروبيين أوردا قصة غزو «يوحنا» لقرطاجنة وفظاعته في المسلمين قال: «وقسا يوحنا في معاملة من وقع تحت يده من المسامين قسوة زائدة حتى انه ليقتل الكفار بيده ! كما يقول تيوفانس وتقفور».

ان يوحنا لم يجدد ملك الروم في افريقية كما يدعى كثير من الأوروبيين، ولم يرجع نفوذهم فيها، ولا كان اكبر قوة بها، لأنه لو كان قوة كبرى لأجار الروم الذين هدمت الكاهنة مدنهم، وما التجؤوا إلى الرحيل، ولكنه جاء بقوة حربية ليضمن بها احتلال قرطاجنة وما يجاورها من المدن الرومية فيمتص ما يستطيع امتصاصه من أموالها، ويتحين الفرص في المسلمين العزل فيشفى فيهم غيظه وحقده الذي يعمر التعصب به صدره. هذا هو غرضه وهذا كل ما استطاعه في افريقية. أما ان يتقدم إلى ممالك

1 - البطريق معناه الشريف.

2 - انظر القصة في فصل زهير الذي قبل هذا في كتابنا.

الأمازيغ في جنوب افريقية وفي غربها، أو يسير حتى إلى القيروان التي تحوطها الممالك البربرية، وتراه الكاهنة من نطاقها، فانه لم يستطع، لان البربر أعداؤه، وهم يكرهون الروم، فسيتصدون له، ويقضون عليه. ان اكبر دليل لكره البربر للروم هو حياد الكاهنة في حروب حسان مع قرطاجنة، انها لم تنجدهم، وكيف ينجد المرء عدوا لا يصنع له إذا استطاعه إلا الحتوف، وما رأى المغرب منهم إلا عذابه وأهواله. فسمع حسان بما وقع للمسلمين في افريقية فثارت ثائرته، فطير الخبر لعبد الملك بن مروان، واستمده ليسير إلى افريقية ليطهرها فيأمن فيها المسلمون، وينشر دين الله الذي يجعل الأمازيغ أصدقاء.

قال البكري في المسالك والممالك في صفحة 37: وأغارت الروم من البحر على من كان بقي من المسلمين بمدينة تونس خرجت إليهم في المراكب فقتلوا منبها وسبوا وغنموا، ولم يكن للمسلمين شيء يحصنهم من عدوهم، إنما كانوا معسكرين هناك وبلغ حسان ذلك. ثم قال:وأرسل أربعين رجلا من إشراف العرب إلى عبد الملك ابن مروان، وكتب إليه بما نال المسلمين من البلاء، وأقام هناك مرابطا ينتظر رأي عبد الملك. فلما بلغ ذلك عبد الملك عظم عليه، وكان إذ ذاك التابعون متوافرين فيهم اثنان من أصحاب رسول الله، انس بن مالك، وزيد بن ثابت فقالا للمسلمين:من رابط برادس[1] يوما فله الجنة حتما. وقالا لعبد الملك:مد هذه البلاد، وانصر أهلها ليأمنوا من العدو، ويكون لك ثوابها وأجرها».

وكانت هذه الفظائع الرومية من الأسباب التي استفزت عبد الملك بن مروان ملك المسلمين فعجل بالمدد إلى حسان، وأمره بالسير إلى افريقية. فسار حسان إلى افريقية في جيش كبير ليتم فتح المغرب. وكانت إقامته بقصوره في سرت خمس سنين.

1 - رادس هي مرسى قرية ترشيش في القديم.

عودة حسان إلى افريقية وتمتم فتح المغرب 81 هـ

وعاد حسان إلى افريقية بجيش عرمرم وعدة كاملة. وكان المسلمون يحسبون للبربر وللكاهنة ألف حساب، فاستعدوا وتأهبوا، فلم يكد حسان يقترب من «قابس» حتى خرج إليه أفواج من سكانها من البربر والروم مرحبين مبتهجين بقدومه، فقدموا إليه الهدايا ونزلوا على حكمه؛ فبسطت قابس ذراعها لحسان معانقة مرحبة، وكانت من قبل تستغلق وتكشر، فأقام حسان عليها عاملا فسار إلى «قفصة» فرحبت به، ثم سار إلى «قسطيلية» فدخلها، وفتح جنوب افريقية كله وضمه إليه، فأقام في كل ناحية عاملا ترك معه جماعة من المسلمين يعينونه في الإدارة، وينشرون الدين في البربر. فتأهب حسان لمصارعة الكاهنة.

وسمعت الكاهنة بمسير حسان فاستعدت للصدام، وهيأت جندها للقتال، فنزلت بجيوشها من جبال آوراس، فأقامت حول حصن «لجم»[1] بشرق آوراس فعسكرت هناك تنتظر وصول حسان.

وكانت الكاهنة تعرف ان الدائرة ستكون في هذه المرة عليها، وذلك لاستعداد حسان، وتفوقه عليها في القوة، سيما المعنوية، ولانفضاض كثير من البربر عنها ها هم يستقبلون حسان، ويدلونه على عوراتها، لابد وان يكونوا قد انخرطوا في جيشه ليقاتلوها انتقاما لما أفسدت من أموالهم. رأت الكاهنة كل ذلك فتشاءمت وتيقنت الهزيمة، ومع ذلك أبت الاستسلام بدون حروب، وان تعطي بيدها كما يفعل الجبناء، وان تقع أسيرة في يد عدوها يعاملونها معاملة الإماء، فقالت لقومها «إنما الملكة من تعرف كيف تموت !! « فآثرت ان تموت وهي سد في وجه من يغزو بلادها، وان تموت ملكة، على ان تحيا امرأة بسيطة.

وكانت الكاهنة لا تعرف سماحة الإسلام وعدله، وما يسبغ على المرأة من إكرام، وما رفعها إليه من منزلة رفيعة، ولا تعرف عدل المسلمين وإكرامهم للرؤساء واصطناعهم للملوك، سيما من يرجون إسلامه وصلاحه. فآثرت الموت على الوقوع في قبضة حسان. وأنا اعتقد انها لو وقعت في يده وقبض عليها أسيرة لأطلق سراحها وأكرمها، كما أطلقت سراح أسراه وأكرمتهم، ولأعزها وعرف لها مقامها. ان حسان يتصف بكرم الإسلام وشهامة البطولة، فلا بد وان يعاملها معاملة كريمة ممتازة كمعاملة أبي المهاجر لكسيلة. ولعل ما رأته الكاهنة من اضطهاد عقبة لكسيلة لما وقع في يده هو الذي

---

1 - ورد هذا الاسم في كتب التاريخ القديمة بالهمزة الاجم وبدون همزة «لجم» واسمه الحالي بدون همزة ولعله هو الصحيح وقد بدئ بالسكون علامة على انه بربري.

نفرها وحبب إليها الموت على الحياة في أيدي المسلمين. ان كبرياء البطولة، وما يتصف به البربر من شمم وعزة وشموخ، هو الذي جعلها تصمم على الدفاع. وكان قومها في ذلك مثلها.

قال عذارى في البيان المغرب في أخبار المغرب:...فرحل حسان إليها، وبلغ الكاهنة خبره، فرحلت من جبال آوراس في خلق عظيم، ورحل إليها حسان فلما كان الليل قالت لابنيها: أني مقتولة ! وأخبرتهم انها رأت رأسها مقطوعا بين يدي ملك العرب الأعظم الذي بعث حسان. فقال لها خالد: ارحلي بنا وخلي له عن البلاد، فامتنعت، ورأته عارا لقومها. فقال لها خالد وأولادها: ما نحن صانعون بعدك؟ فقالت: أما أنت يا خالد فتدرك ملكا عظيما عند ملك العرب، وأما أولادي فيدركون سلطانا عند هذا الرجل الذي يقتلني، ويعقدون للبربر عزا. ثم قالت اركبوا واستأمنوا إليه» فرحب حسان بأولاد الكاهنة، وأكرمهم، ودعاهم إلى الإسلام فاسلموا، فوكل بهم من يحفظهم ويخدمهم ويرعاهم، ان الروم الدساسين ربما نالوهم بمكروه أو قتلوهم ليزيدوا لنار الكاهنة وقومها تأججا على حسان، وقد خالد بن يزيد على أعنة الخيل وجعله من قواده في هذه المعركة الفاصلة.

وكانت الملحمة الكبرى، والمعركة الفاصلة، فاشتد القتال بين الطرفين، وصبر كل من الحزبين، وكانت حربا هوجاء، سقط فيها من القتلى عدد لا يحصى، ثم انزل الله نصره على المسلمين، فانهزمت الكاهنة وولت الأدبار، فأسرعت إلى جبال آوراس لتحتمي بها، فأرسل حسان جيشا يتبعها فأدركوها في بئر العطر بناحية «تبسة» فقتلوها.

وكانت الكاهنة فارعة القامة، ضخمة الجثة، عظيمة الخلقة، قيل انه لو دحرجت الاترجة[1] بين كتفيها وعجيزتها لتدحرجت، وذلك لعظم خلقها، وهكذا سكان جبال آوراس، أورثهم الله قوة في الأجسام، تماما في الخلقة لا زالوا يمتازون بها إلى يومنا هذا. ليت أهل الحضر الذين ضعفت دماؤهم، وضمرت أجسامهم، يستنجبون من آوراس، غيرها من الجبال الممتازة بقوة الأجسام، وصحة الفطرة، لينجبوا للمغرب الأجيال الصحيحة التي يصول بها. ان السعادة والهناء والحب الصحيح والجمال البارع الذي يشبه حياء الدين، والطاعة التي تنتظم بها الأسرة، وتتأكد بها المحبة لا تجدها إلا في بنات الجبال والصحراء اللائي لم تفسد الحضارة طباعهن فيكن أفاعي مزركشة رقطاء، لأزواجهن التعساء !

وعاشت الكاهنة مائة وسبعا وعشرين سنة، وملكت قومها خمسا وثلاثين

1 - الاترجة كالبرتقالة الكبرى.

عاما.[1]فاتبع حسان جيش الكاهنة المنهزم فقتل منهم وأثخن. فاستأمنوا إليه على الإسلام والطاعة، فأبى ان يؤمنهم حتى يعطوه من جميع قبائل آوراس اثني عشر ألفا من فتيانهم الشجعان يسلكهم في جيشه، ويكونون معه في حروبه، فأعطوه ما طلب فعفا عنهم وابتسم لهم بعد العبوس، ومد إليهم يد المصالحة والسلام، وغمرهم بجنان الأبوة والمحبة، فاقبلوا علية إقبال النحل على الزهور المتفتحة، والرياض الاريجة، يقبسون منه نور الله، ويسلمون على يده ويتجردون من ثوب الجاهلية الذي كانوا فيه، ويسبغ عليهم حسان حلل الدين التي تطير بهم إلى السعادتين، وتزينهم في الدارين.

وكان حسان داهية عظيما، وسياسيا حكيما، ومخلصا لدينه ودولته. وكان غرضه ان يملك قلوب البربر لا بلادهم، وان يفتح قلوبهم للدين لا أوطانهم. فأكرم أبناء الكاهنة وسكان آوراس واحترامهم، وتصرف معهم تصرفا يدل على التقدير والإكبار، فعقد للأكبر من أولاد الكاهنة علة قومه من جراوة وعلة جبال آوراس.[2] فأصبح واليا على قومه، وأميرا لبلاده، فضمن حسان بذلك طاعة قبائل آوراس المعتدة بنفسها، الشامخة بأنفها، السيئة الظن بكل ما يأتيها من خارج المغرب ونال بذلك رضاهم، واشعر البربر بان دولة الإسلام في المغرب دولتهم، وان الإسلام دين العدل والمساواة، فإذا اعتنقه إنسان ساواه بغيره من المسلمين، لا فرق بين عربي وعجمي، وبين مشرقي ومغربي؛ فالكل امة واحدة يضمنها الإسلام، ويمزج بينها التوحيد، وإذا تقدم شخص على شخص في جماعة المسلمين فلصلاحه وكفاءته، وان أبناء الكاهنة لما اسلموا صاروا كالعرب المسلمين، يسد بهم الثغور، ويجعل منهم الأمراء في النواحي، والقواد على الجيوش. فنال حسان طاعة البربر وحبهم وإسلامهم بتولية الأكبر من أبناء الكاهنة على آوراس، ثم جعل ابنيها الآخرين من قواده، فأقام كلا منهما قائدا على ستة آلاف من الجند الذي اشترطه على آوراس. ان هذه لعمري حنكة كبرى، ومعرفة بحقيقة البربر المعتدين بأنفسهم. إنهم سيزدادون له طاعة وإخلاصا إذا كان قائدهم منهم، يسوسهم بما يليق بمزاجهم، ويشبع في نفوسهم حب الاحترام الذي تشعر به تولته. ان أبناء الكاهنة اعرف بقومهم وبلادهم، فهم أحسن من يليق لرئاستها. وقد انتفع حسان بكفاءتهم في السياسة والحروب، وضمن ولاء قومهم وطاعتهم، وتفتح قلوبهم للإسلام، وهذا ما يريده حسان أكثر من كل الأشياء. -ان يسلم البربر- وهذا هو القصد الذي حارب من اجله، وبقي في لامته وسلاحه، مغتربا عن آله وذويه ثماني سنين.

1 - الاستقصاء للسلاوي.

2 - الاستقصاء للسلاوي ص 83 ج 1 طبع الدار البيضاء.

ثم ان هذا الجند العتيد من أبناء آوراس المتصفين بالشجاعة الخارقة، والبطولة الكاملة، لا ينتفع بهم حسان في معاركه على الوجه الأكمل إلا إذا كان قائدهم منهم يتصف بما يتصفون به من بسالة، ويحسن ما يحسنون من أساليب الحرب، وضروب القتال.

وكان غرض حسان في اشتراطه اثني عشر ألف شاب من قبائل آوراس، ويختلطون بجيشه، ويكونون معه في حروبه، ان يضمن بلك إسلام آوراس. ان آوراس ناحية منطوية على نفسها، فأهلها قد ألفوا العزلة في جبالهم، لا يغادرونها إلى افريقية فيختلطون بالمسلمين فيحسن إسلامهم، ويتعلمون العربية، ويتفقهون في الدين. فأراد حسان ان يمزج بجيشه هذا العدد الغزير من أبناء آوراس ليتأثروا بالبيئة الإسلامية، ويصطبغوا بنور الدين، ويتعلمون لغة القرآن، ويعرفون حقيقة المسلمين ونواياهم الحسنة للمغرب، فينشرون كل هذا في أقوامهم، ويركزون في أعماق آوراس دين الله الحنيف الذي تمكن في نفوسهم، وأشربته قلوبهم. لقد عرف حسان انه إذا لم يفعل ذلك فان آوراس لابد ان يثور عليه، سيما وقد قتل ملكتهم المحبوبة، وعفرهم بالهزيمة.وهم الذين لا يرضون ان يتناثر على جباههم الشماء إلا زهور النصر التي تستقبلهم به العذارى، وتنثرها مع الزغاريد على رؤوسهم أسراب الصبايا، إذا رجعوا من حروبهم مكللين بالنصر الباهر على الأعداء.

ان ما يجعل جبال آوراس تخضع لحسان هو إسلامهم. ان الإسلام فقد هو الذي يجعلهم لحسان ماء سلسا يروى، إلا فان البربر لا يخضعون بالقوة، ولا يسكنون بالعنف. وإذا سكنوا على العنف فسكون مؤقت، سكون المتحين الفرصة المتطلب للغرة. هذا ما عرفه حسان العظيم فاخذ من آوراس زبدته من فتيانهم الأذكياء، وشجعانهم النبهاء، لينفخ فيهم ما يشاء. ان هذا ما تفعله الحكومة الرشيدة المخلصة اليوم في كل مكان تريد ان تغير عقائده، وتقوم طباعه؛ تختار من تلاميذهم الأذكياء، فتنقلهم إلى بيئة صالحة يعيشون فيها، وموارد للعلم الصحيح يكرعون منها، فتملأهم البيئة الصالحة بالصلاح، ويثقف العلم عقولهم بالمعرفة، فيطلعون على أقوامهم طلوع السحاب الذي يغير وجه الثرى، ويشيع الخصب في الورى.

ان ما يحرص عليه حسان العظيم من إسلام البربر هو الذي سول له ان يشترط عليه ما اشترط وقد وفق كل التوفيق فيما فعل، ولو لم يأخذ بتلك السياسة الحكيمة ما خضع له البربر وأطاعوه، وما سكن إليه آوراس وتمرغ في حجره تمرغ القطة الألوف، وهم أسد الشرى، لا يخضعون بالقوة للورى !

ثم ان حسان كان معجبا بشجاعة آوراس وبطولة، وبفروسية البربر وبراعتهم في القتال، وثباتهم في المعارك، فأراد ان يطعم بهم جيشه، ويزداد بهم قوة إلى قوته وينتفع بهم فيما عسى ان يخوضه من الحروب.

وارى ان من الأسباب التي جعلت حسان ينتقي زبدة من آوراس فيخرجها منه انه يريد إضعافه فلا يحدث نفسه بالثورة عليه، ولكن هذا القصد ليس في الدرجة الأولى. ان القصد هو ما أسلفنا: ان تسلم امة البربر العظمى، سيما جبال آوراس التي لا يتم إسلامها إلا بما فعل.

وتفتحت آوراس تفتح الذراعين للحبيب، وشمر حسان وأبناء الكاهنة الثلاث لنشر الإسلام في البربر،فانتشر دين الله في المغرب انتشار الزهر في البرتقالة إذا عانقها الربيع، والنضارة في الوجه إذا داخلته المسرات، واقبل البربر على دين القرآن ولغة القرآن يتعلمونها ويتحدثون بها. فسكن المغرب لحسان فلم تعد فيه إلا أمكنة يسيرة مستغلقة سرعان ما فتحها، فسار إلى القيروان ليستريح جيشه من اللغوب، وهو قرير العين بما يرى من إسلام البربر على يده، وإقبالهم على الدين بفضل سياسته وحكمته. فلما استراح جيشه، واستجمت قوته، اتجه إلى شمال القيروان. فلا زالت هناك بقاع رومية يجب ان يطهرها، وقلاع بربرية يجب ان يفتحها. وكانت جبال زغوان في شمال القيروان وفي جنوب قرطاجنة قد كشرت لحسان، وتنمرت للمسلمين واستغلقت وتظاهرت بالعداء. ولعل قربها من قرطاجنة قد جعل عدوى الروم تتسرب إليها فلم تخضع للمسلمين، ولم يتفتح قلبها لنور الله. فأرسل إليها حسان مولاه أبا صالح فنازلها ثلاثة أيام فاستعصت عليه، فأسرع إليها حسان ففتحها صلحا؛ فدانت له افريقية كلها فلم يبق إلا قرطاجنة فإنها لا زالت مصعرة الخد تشيح بوجهها عن حسان.

وكان «يوحنا» وشيعته من الروم قد حصنوا قرطاجنة، وأعادوا ما تهدم من أسوارها. وكانوا يرقبون حركات حسان، فسار إليهم فتحصنوا بها، فحاصرهم، ثم وقعت معركة كبيرة بين يوحنا وحسان انهزام فيها يوحنا انهزاما شنيعا، فالتجأ إلى قرطاجنة محتميا بها، وهو آيس من ان يكون له في افريقية مقام، وعلم ان حسان الذي يقود جيشا عرمرما من أبناء ما زيغ وقحطان، سيقتحم عليه المدينة فيستأصل جيشه، ويسد عليه أبواب الفرار، فركب هو وجيشه وشيعتهم من الروم سفنهم بالليل فخرجوا هاربين من باب النساء،[1] ففروا إلى صقلية والأندلس، فتركوا قرطاجنة خالية من حاميتها.

1 - المسالك والممالك للبكري صفحة 37 ونزهة الأنظار لابن مقديش ص 79.

قال ابن مقديش الصفاقسي في كتابه القيم نزهة الأنظار: وكانت للروم سفن بباب النساء فحملوا فيها نساءهم وأولادهم ليلا واسلموا المدينة، ولم يبق بها إلا الملك المسمى «بمرناق» وأهله وولده فكتب إلى حسان هل لك ان تعاهدني في أهلي وولي واشترط لنفسي ما شئته من المنازل، واسلم لك المدينة، ولا علم للمسلمين بفرار من فرمنها، فأجابه حسان إلى ذلك، فاشترط الأرض المسماة بمرناق، وهي إذ ذاك قرى كثيرة، ثم أمكنه من المدينة فلم يجد فيها غيره وغير ولده وأهله فوفى له حسان بما أعطاه من العهد، وأقام مرناق مالكا لهذه الأرض» وقال غيره وهي الناحية المسماة اليوم بمرناق في تونس.

ولما فتح حسا قرطاجنة أرسل أسطوله إلى الجزر المتصلة بساحل افريقية ففتحها وكان قد استمد عبد الملك بن مروان فأمده بأسطول تحت قيادة عبد الملك ابن قطن فطهر الجزر التي كانت مكمنا للأعداء، فكان المغرب كله للإسلام، وبقاعه جميعها في طاعة المسلمين، فرجع حسان إلى القيروان، وقد انتهى الجهاد الأصغر بالسيف فشمر للجهاد الأكبر، وهو تنظيم المغرب وتثقيفه ليكون كما يؤهله استعداده الكبير، كما يريد حسان العظيم، اكبر قوة للمسلمين وأجنحة الإسلام يطير بها إلى أوروبا !

أسباب صعوبة فتح المغرب

لقد مضى على المسلمين نصف قرن وأربع سنين، من سنة 27 هـ إلى سنة 81 هـ، وهم يطرقون أبواب المغرب لتنفتح، ويعاركونه ليسلس عنانه، ويجالدونه ليكون للمسلمين، فينشرون فيه دين الله، ويوجهونه إلى طريق السعادة والفلاح، وقد تعب المسلمون في ذلك تعبا لم يصابوا به في كل ما فتحوا من الأوطان، بذلت الدولة الإسلامية من أموالها ووقتها ما لم تبذل مثله في كل ما قامت به من الفتوح، فلماذا استعصى فتح المغرب على المسلمين، وأتعبهم أكثر من مصر والشام، وما فتحه المسلمون من البلدان؟

تعدد الممالك

ان سبب صعوبة فتح المغرب هو تعدد ممالكه، واستقلال نواحيه. لقد جاء المسلمون إلى المغرب، وهو قد استرجع حريته من الروم، وانشأ البربر ممالك عديدة أنبتوها بعرقهم ودمائهم، وعزموا على الموت دونها، ودفاع كل من يريد القضاء عليها.

كان البربر يكرهون المركزية في الحكم، وخضوع كل النواحي لعاصمة ترأسها، ومليك يسيطر عليها، بل يريدون ان تعتمد كل ناحية على نفسها، ويرأسها من تقدمه على شؤونها، فيسوسها على حسب مزاجها، وما يليق بها. فتعددت الممالك فيهم.

ففي كل ناحية من أنحاء المغرب مملكة لها رئيس يدبر شؤونها، لا يخضع لما يخضع له الآخرون، ولا يريد ان تتدخل مملكة أخرى في شؤونه ، وتفرض إرادتها عليه. ولم يكن المغرب دولة واحدة يخضع إذا سقطت حكومته، أعطى بيده مليكه، بل كانت فيه حكومات وملوك. فإذا هزم ملك لم يفتح المسلمون إلا ناحيته، وبقيت النواحي الأخرى مستغلقة يستعد ملوكها للدفاع، فلابد بجهود متكررة لفتحها، وغزوات أخرى للاستيلاء عليها. لذلك ترى كل الولاة الأمويين والعباسيين الذين سيرسلون لتهدئة المغرب إذا ثار، يسيرون جيوشهم الكبرى إلى كل أنحاء المغرب فيخضعونها، لا يكتفون بامتلاك القيروان التي كانت العاصمة في عهد الإسلام.

ان غرام البربر بالحياة الاستقلالية، والاعتماد على النفس، يجعلهم يرجعون إلى اللامركزية في الحكم كلما ضعفت القيروان أو ساءتهم بعدم التزام العدل، فتنبت كثير من النواحي عنها، سيما في المغرب الأوسط والأقصى.

ان البربر في القديم سيما أيام دولهم الزاهرة في الجاهلية والإسلام كانوا على نظام قريب من نظام الولايات في أمريكا الشمالية اليوم، كل ناحية تعتمد على نفسها، وتدبر أمورها على حسب مزاجها، لا تكون عالة على العاصمة في كل أشيائها، ولا تنتظر أوامرها ونواهيها في كل أمورها. لهذا الطبع الاستقلالي الذي يقسم المغرب إلى ممالك وولايات، لم يكتف المسلمون الفاتحون بإسقاط ناحية هي العاصمة فتتبع كل النواحي، بل احتاجوا إلى فتوح تعددت على حسب أنحاء المغرب التي قصدوها بجيوشهم، وهذا يستغرق الزمن الطويل والجهود الكبرى.

كره البربر للأجنبي

والسبب الثاني الذي جعل المغرب يستغلق ويكشر للمسلمين.وتهب ممالكه لدفعهم وقراعهم، هو كره البربر للأجنبي، ونفورهم من كل شيء يأتيهم من خارج وطنهم، وذلك لشقائهم بالرومان والوندال والروم قرونا طويلة، وتجرعهم من هؤلاء المستعمرين الظالمين الأعداء للمغرب كل مرارة، فتكونت لهم عقدة نفسية جعلتهم يسيئون الظن بكل إنسان يطرقهم من خارج وطنهم، سيما إذا جاءهم الرومان والرومان في الجيوش والسلاح، فساءت ظنونهم بالمسلمين لما جاؤوهم، واستطاع الروم ان يوسوسا لهم بان غرض المسلمين هو استعمارهم، ويملؤون صدورهم بالخوف والريبة من المسلمين، فآلت كل النواحي ان تدافعهم وتصدهم، فكانت المعارك الطاحنة التي خاضها المسلمون في كل أنحاء المغرب، والزمن الطويل الذي اقتضته تلك الجهود الكبرى من المسلمين.

عداوة الروم المستعمرين للإسلام

والسبب الثالث هو الروم الذين لم يألوا جهدا في أبعاد البربر عن المسلمين، وبث الدعاية الكاذبة المسمومة التي تنفر البربر عن الإسلام، واستعمال كل وسيلة يملكونها لخلق العداوة في قلوب المغرب للفاتحين الأولين. فلولا الروم الذين كانوا في المغرب منبع العداوة للإسلام، والذين كانوا يسممون البربر ويبعدونهم عن المسلمين، لكان إسلام المغرب أسرع، وانضمامه إلى الدولة الإسلامية قد وقع قبل عهد حسان بزمن طويل.

ان الروم هم السحاب الأسود الذي كان يمنع الإسلام ان تسطع في سماء المغرب فتملأ كل أنحائه، لذلك شمر حسان فقضى عليهم ليتأتى له إسلام المغرب كما يريد.

قوة المغرب

والسبب الرابع هو شباب المغرب وقوته، لقد جاء المسلمون وهو واقف على قدميه ليسير سيره، ويبني دوله العظمى، فلم يجدوه في شيخوخته كما وجدوا كثيرا من الأمم التي فتحوها، فشمس عليهم شموس الشباب، وقارعهم مقارعته، وشمخ عليهم شموخه.

والسبب الخامس هو طبيعة بلاد المغرب، فانه جبال شاهقة، غامضة المسالك، تعصم من يأوي إليها. وقد تسارع إليها البربر فآثروها لسكناهم منذ غزا الرومان سهولهم فاستعبدوهم فيها. وقد علمتهم تلك الجبال ان يثوروا على الرومان والروم فيعتصمون بتلك الجبال فتحميهم، وعلمتهم عدم الخضوع للمغير. لذلك قارعوا المسلمين، فعصمتهم جبالهم، وأورثتهم جرأة طالت بها مقارعهم للفاتحين الأولين. ولولا إسلام البربر ما استطاع المسلمون دخول جبالهم والاستقرار فيها، وما انقادت تلك الجبال للقيروان وان فصارت جزءا من الدولة الإسلامية.

والسبب السادس هو شجاعة البربر وآباؤهم، وبطولتهم وبسالتهم، فهبوا لمدافعة المسلمين الذين لم يعرفوا حقيقتهم، وقارعوهم في تلك المعارك التي استمرت كل ذلك الزمن الطويل.

تمسك البربر بشخصيتهم

وسابع الأسباب هو ثبات البربر على مبادئهم، وتمسكهم بالفهم. إنهم امة قوية الشخصية، معتدة بنفسها متمسكة بشخصيتها وتقاليدها بنفسها متمسكة بشخصيتها وتقاليدها، وتقلد، ولا تسارع إلى نبذ ما الفته، ولا تأخذ بالجديد حتى تتيقن

انه أحسن من القديم الذي عندها. لذلك لم يسارع البربر إلى الاسم حتى تأملوه، وعرفوا حقيقة، وتيقنوا انه هو مفتاح السعادة، وسبب النجاح، فاقبلوا عليه، ورسخوا فيه رسوخ جبالهم، وثاروا على كل الملوك المسلمين الذين يخرمون أصوله في السياسة، ويعاملون رعاياهم بغير العدل الذي أمر الله به.

ان البربر لا يسارعون كثيرا إلى الإيمان. إنهم لا يؤمنون إلا بعد التروي والتدبر، وفي أناة وتحفظ. وكذلك في الصداقة؛ فان قلب البربري لا يتفتح لك إلا بعد ان يختبرك طويلا، ويدرسك ويعرف حقيقتك، ويثق بك، وإذا تفتح لك قلبه تفاني فيك، واخلص إليك، وثبت على حبك، وكان لك في السراء والضراء، وكان حبك في قلبه درة في محارتها، ولا يؤذيها تقلب الأمواج، وثورة البحر، ولا يكسفها ظلمة للازمات تخيم عليك كظلمة اليم، وملوحة للأيام تعكر صفوك كملوحة البحار !

ان ثبات البربر على مبدإ هم وتحفظهم، هو الذي جعلهم لا يفتحون قلوبهم للمسلمين ولا يسارعون إلى الإسلام إلا بعد ان تمنعوا فيه، فعرفوا حقيقته، ورأوا جماله وعظمته في سلوك المسلمين.

تقطع الفتح

والسبب الثامن هو عدم اتصال المسلمين في فتح المغرب، وتقطع أعمالهم فيه، ولاشتغالهم بالفتن الداخلية التي تغل الدولة الإسلامية عن مواصلة فتح المغرب، فانمسحت كثير من آثارهم في المغرب برجوعهم عنه، وعدم الاستقرار فيه، ومواصلة العمل والدعاية والاختلاط بالبربر ليسلموا.

هذه هي الأسباب التي ثقلت بها خطوات الفتح الإسلامي في المغرب، وجعلت المسلمين يمضون نصف قرن وخمسة أعوام، وهم يحاولون فتح المغرب ويجتذبونه ليكون للإسلام، ويسير معهم في طريق السعادتين. وقد كان الله مع حسان العظيم، وجيشه الغر الميامين، فأتم فتح المغرب، ومسح براحته الكريمة على قلوب البربر فتفتحت للعربية والدين، فشمر عن ساعده لتنظيم الولاية الإسلامية في المغرب وإرساء قواعدها.

نشأة ولاية المغرب الإسلامية وتنظيم حسان لها

تدوين الدواوين

وولدت الولاية المغربية الإسلامية الكبرى، التي تضم المغرب الكبير كله، من غرب الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي، ومن بحر المسلمين إلى الصحراء الكبرى، فشمر حسان لتنظيمها، وإنشاء المشاريع الكبرى التي تضمن ازدهارها وتقدمها، فدون الدواوين، وأقام لكل وظيفة من وظائف الدولة الكبرى ديوانا في الكتبة والرؤساء المسؤولون، ونظم الجيش وقسمه على الثغور، وفرض له العطاء من بيت المال، وكان الجيش يتكون من العرب والبربر، فساوى حسان بينهم في العطاء والغنائم وفي الرتب والمعاملة، لا فضل لعربي على بربري، ولا لمشرقي على مغربي، فالكل لديه سواء، إلا ان يتقدم بأحد عمله الصالح فيقدمه، وتبرزه مواهبه ونبوغه فيبرزه، فأحبه البربر لهذا العدل الإسلامي، وتلك المساواة التي أمر بها الله، فاخلصوا للدولة ورأوها دولتهم، وأحبوا العرب، ورأوهم إخوانهم الأشقاء، وأصدقائهم الأوفياء، واتجهوا إلى المشرق بقلوبهم، فرأوا دمشق عاصمتهم، وبلادهم جزءا من الدولة الإسلامية الكبرى.

اختيار العمال

وأقام العمال على النواحي، واختارهم من ذوي الحزم والحصافة والكياسة، وذي الدين والإخلاص والنزاهة، والذين يعملون لله لا لأنفسهم، ويراقبون الله في كل أعمالهم ويستهدفون فيما يأتون ويدعون رضي الله، فيتقيدون في سياستهم وإدارتهم بالقانون الذي وضعه الله لساسة الشعوب، وانزله على محمد عليه السلام.

التربية والتعليم

وكان حسان حريصا على تعليم البربر دينهم ولغة دينهم، فانشأ المساجد في المدن والقرى، وأقام فيها الفقهاء للصلاة والوعظ والإرشاد، وللفتوى في مسائل الدين، وتنوير بصائر البربر بدروسهم المتوالية، وخطبهم في الجمع في الأعياد، وبأحاديثهم في مجالس الذكر والوعظ التي يعقدها فقهاء المسلمين في المساجد بين الصلوات، وكانت المساجد لتعليم الكبار أمور دينهم، ومولاتهم دائما بالغذاء الروحي الذي ينعش الدين في صدورهم ويوجههم في كل الأعمال إلى ربهم.

وأقام المدارس الابتدائية بجانب كل مسجد لتعلم أبناء المسلمين دينهم وتحفظهم القرآن، تطبع ألسنتهم بلغته، وترهف أذواقهم ببلاغته، وتربيهم تربية إسلامية

صحيحة تجعل منهم ذلك الجيل الإسلامي الصحيح الذي أقام الدولة الإسلامية الكبرى في المغرب، وصار منبعا للهداية والعلم في العالم.

الزكاة

واختار حنش بن عبد الله الصنعاني، وهو من خيار المسلمين، ومن التابعين الأولين، ومن العلماء بالشريعة ومن ذوي الحصانة والحنكة، فأقامه عاملا على الزكاة وهي اكبر مورد للدولة يريش فقراءها، ويشيع الرخاء فيها. فكان حنش يبعث أعوانه إلى النواحي فيأخذون الزكاة في كل ناحية من أغنيائها فيورعونها على فقرائها لا احتجان ولا استئثار، ولا أنانية ولا احتكار، فعمت المحبة بين الفقراء والأغنياء وزال الحسد من الصدور، وأمسى الفقراء ينظرون إلى الأغنياء بمحبة الوليد إلى الأم التي ترضعه والأب الكريم الذي يعوله.

وكانت الزكاة في الإسلام للفقراء ومن عدهم الله في كتابه، أما مصاريف الدولة فمن الخراج والجزية وأملاك الدولة.

وفرض حسان الجزية والخراج على من أقام على دينه من النصارى، فالجزية على الرقاب، والخراج على أموال وكل ذلك برأفة وعدل حببت الإسلام والمسلمين إلى القلوب وجعلت النصارى من البربر يسرعون إلى هذا الدين الحنيف الذي راعهم جماله وعظمته في عدل المسلمين ونزاهتهم وسلوكهم !

القضاء

وعين حسان القضاة للنواحي، يفضون الخصومات، ويحكمون بين الناس بكتاب الله وسنة رسول الله. كما كان حسان يتقيد في سياسته في المغرب بالدين، فان الدين للدنيا أيضا ينظمها ويسعدها، وللدولة، يرسم لها سياستها في كل النواحي، ليس عبادة فحسب، تنظم علاقة المرء بربه، بل هو دستور يرسم للدول العظمى والأمم الراقية في كل الشؤون طريقها ويبين لها في كل المشاكل حلولها، ويهديها في كل المعظلات إلى الوجه الصحيح لقد تحير الأستاذ حسين مؤنس في كتابه فتح العرب للمغرب في سياسة الولاة في المغرب فقال في صفحة 279 «بيد ان تاريخ المغرب إبان العصر الأموي لا يدل على ان العمال كانوا يجرون في حكم هذه البلاد على سياسة موضوعة ثابتة أو ان الخلفاء كان لديهم نظام ثابت يأخذون به حكمها» كان هناك سياسة غير سياسة الإسلام التي بينها الله في كتابه، واخذ بها الخلفاء الراشدون، والأمراء المسلمون الذين اسعدوا الأمة المحمدية، وازدهرت بهم دولنا الإسلامية العظمى يجب ان يعينها الخليفة

لعماله. ان بني أمية وبني العباس لم يخيبوا، فثار عليهم المغرب، إلا لما صرفوا الأمور في الدولة على هواهم، وحادوا عن سياسة الله التي رسمها الله في دستوره العظيم لتنظيم الدول وإسعاد الشعوب. ان كل ما يجب على رئيس الدولة، ان يختار الولاة، فيشترط فيهم النزاهة والحصافة والحزم، العلم بالدين، والفقه في الشريعة، والعلم بقانون الله لعباده. أما السياسة التي يجب أتباعها فهي في ذلك القانون المقدس الذي وضعه الله بكماله، وانزله كاملا ليليق لكل زمان ومكان !

الشرطة

وأقام حسان في المدن الحراس في الانهج والطرقات، يربون الأمة، ويحفظون الأمن، ويرعون العصاة، ويغيثون الضعيف والملهوف، ويراقبون الأسواق، فيقمعون الغش والاحتكار، ويضربون على أيدي المفسدين، في أسواق المسلمين.

تقسيم الأرض

وقسم حسان الأراضي بين قبائل البربر، فعين لكل قبيلة خطتها، أراها أرضها لا تعتدي قبيلة على أخرى في أرضها، ولا يحدث شنآن بين البربر في وقت الزراعة وألزم كل قبيلة زراعة أرضها، ودفع زكاتها لبيت مال المسلمين فنشط حسان الزراعة فأحضرت أنحاء المغرب به، كما اخضرت القلوب التي أخصبها بدين الله.[1]

وقد عد حسان والمسلمون ارض البربر وبلادهم مفتوحة صلحا فلذلك اقر الأرض في أيدي البربر وجعلها لهم، ولو اعتبروها مفتوحة عنوة لكانت ملكا للدولة تمنحها لمن تشاء، وتقرر عليها ما شاءت من الخراج. أما أراضي الروم المستعمرين، والأفارقة الروم المستوطنين بالمغرب فجعلها حسان والمسلمون مال فتح عنوة لان اغلب الروم لم يسلموا، واحتل المسلمون اغلب نواحيهم بالسيف، ودخلوها بالقوة، فلذلك عدت أراضيهم ملكا للدولة، وهم موالي فيها يؤدون خراجها لبيت مال المسلمين.

ان البربر قد اسلموا في أراضيهم وحسن إسلامهم، فاقبلوا على المسلمين، ولولا إسلامهم ما استطاع حسان ان يستقر في المغرب كله، فإسلامهم وإقبالهم هو الذي جعلهم للمسلمين لا السيف والقوة، فلذلك لم يعتبر حسيان أراضي البربر مما فتح عنوة بالسيف. أما الروم فهم أجانب مستعمرين، فجل ما في أيديهم من الأراضي اغتصبوه من البربر، أو كان للدولة البونيقية والدول البربرية الكبرى التي كانت قبل

1 - لا تزال الأراضي القبائلية موجودة في كثير من أنحاء المغرب إلى اليوم وفي جنوب الجزائر منها الكثير، نجد أرضا واسعة هي ملك لقبيلة بأسرها يحرث كل فرد فيها حسب استطاعته. وارى ان هذا نظام بربري قديم اقره حسان.

احتلال الرومان للمغرب فاستحوذوا عليه. ولا بد وان يكون حسان -لعدله- قد رد للقبائل البربرية من أراضي الروم ما أثبتت البينة انه اغتصب من أجدادهم.

تنظيم المدن

واعتنى حسان بالمدن والقرى، فمهد الطرق للسابلة، وأصلح القنوات للري، وحث المسلمين على البناء والتشييد، وعلى العمارة والتنظيم. وجدد بناء مسجد القيروان ووسعه، هدمه كله إلا المحراب، وبناه بناء حسنا يليق بحضارة افريقية، وبذوق البربر السليم، وبعظمة الإسلام وجلاله، «وحمل[1] إليه الساريتين الحمراوين الموشاتين بصفرة، اللتين لم ير الراؤون مثلهما من كنيسة كانت للأول[2] في المواضع المعروف اليوم بالقيسارية بسوق الضرب، ويقولون ان صاحب القسطنطينية بذل لهم فيهما قبل نقلهما إلى الجامع زنتهما ذهبا فابتدروا الجامع بهما».

1 - المسالك والممالك للبكري ص 22.

2 - يعني أول مرة.

الاعتناء "بتونس" وإنشاء دار الصناعة فيها

سبب تسمية ترشيش تونس

وكانت «تونس» قبل الإسلام قرية صغيرة في جنوب قرطاجنة تسمى «ترشيش» وكان يسكنها البربر والروم، وهي في سفح جبل، وعلى ربوة يحيط بها خندق طبيعي هو كالحصن لها، والسور الذي يمنع الأعداء عنها، وفي شرقيها بحيرة جميلة تلطف جوها،وتزيد في سحرها وجمالها، وحواليها سهول للزراعة، قد تكاثفت فيها البساتين، وترامت فيها المزارع، وترصعت بالرياض الغناء؛ فبدت ترشيش على ربوتها كالعروس قد حفت بالزهور، وأحيطت بالجمال الذي يشبها، وبالزينات التي تزيد في سحرها ! وقد نزلها حسان بن النعمان بجيشه في حصاره لقرطاجنة، فأعجب بمناعة موقعها، وجمالها مكانها، وبخفة روحها وانسها، فتنرك فيها جماعة من المسلمين لينشروا الدين في البربر، ويراقبوا حركات الروم في قرطاجنة. وسماها المسلمون «تونس» لجمالها، وما تدخله من الأنس والبهجة على القلوب. وقيل إنهم سموها بذلك لدير فيها كان الرهبان طول الليل يترنمون بإنجيلهم في أصوات رخيمة، ونغمات عذبة تؤنس من يسمعها. وارى ان الأمرين كليهما سبب تسميتها بهذا الاسم الجميل. ان من شاهد «تونس» الخضراء، وتجول في أنحائها، ورأى حسن موقعها، وما يحفها من الأماكن الخصبة، والبحيرة الجميلة، أحس بأنس يملأ قلبه، وشعر بروح تونس الخفيفة الجميلة تملأ صدره بالانشراح، ونفسه بالأفراح.

إنشاء المرفأ والأسطول الإسلامي

وكان حسان يعرف عداوة الروم للمسلمين، وأطماعهم في افريقية. وأيقن إنهم لابد ان يغيروا على ساحل افريقية للنهب والانتقام، فعزم على إنشاء أسطول كبير يدافع به عن المغرب، ويغزونه بلاد الروم والقوط في صقلية وسردانيا وايطاليا والأندلس لينشر فيها الدين، ويطهرها من الجهالة والفساد الذي يقتلها، ويشغل الروم بحراسة سواحلهم، والدفاع عن بلادهم، فلا تحدثهم نفوسهم بمهاجمة بلاد المسلمين.

وكانت قرطاجنة هيب المرفأ اللائق للأسطول الكبير، ولكن حسان كان قد خربها، واستثقل روحها، واستوبأ مكانها، وتشاءم من موقعها، ثم عارية مكشوفة في البحر ليس لها الجبل والخندق الذي يحصن تونس، فما أسهل ان يهاجمها العدو في غفلة من المسلمين فيدركون غرضهم منها. وأدرك حسان بعبقريته مزايا تونس، وعرف ان بحيرتها تليق مرفأ لأسطوله، والمدينة تليق سكنا لعماله المسلمين الذين سيستوطنونها فبني

دار الصناعة على بحيرتها وشق زقاقا واسعا فيها لمرور السفن الكبرى. وكانت البحيرة منفصلة عن البحر الكبير فوصلها به في رادس بان شق خليجا واسعا إليه. وهو عمل يدل على همة حسان العالية، وإرادته القوية، وعلى ان الإسلام دين التقدم والعمران، والحضارة والمدينة.

وكان البربر والعرب لا يحسنون بناء السفن لأنهم امة برية، ولا تشق الأنهار الكبرى بلادها، وليسوا سكان جزر فيحتاجون إلى السفن فيبرعون في صناعتها، وإنما العالمون بصناعة السفن هم المصريون لمجاورتهم للنيل. فطلب حسان من عبد الملك ابن مروان ان يرسل إليه من يعمر دار الصناعة ويعلم المسلمين في المغرب صناعة السفن، فأمر عامله على مصر عبد العزيز بن مروان ان يبعث إلى حسان ألف قبطي بعائلاتهم ليستقروا في المغرب، ويقوموا ببناء الأسطول الإسلامي فيه. فشاء الله ان يصل بين مصر والمغرب بامتزاج الدماء، فجاءت ألف عائلة مصرية فاستوطنت افريقية. وارى ان لكثر هذه العائلات القبطية قد أسلمت، واستقرت في المغرب، وامتزجت بالعائلة البربرية العربية الكبرى. ان اقرب الناس إلى سكان مصر الأقدمين إنما هم البربر، لان كليهما من حام بن نوح، فجدهما واحد، وتجاورهما قرنا قد جعل كلا منهما يتأثر بالأخر، فازدادوا تقاربا في كثير من النواحي، فلا عجب ان يستطيب المصريون المقام في بلاد الأمازيغ، لأنهم أبناء عمومتهم. ولابد وان يفتنهم المغرب بجماله، وتروقهم تونس بحسنها، وتعجبهم ديموقراطية حسان وعدله وتمسك المغرب بهذه الديمقراطية، وثورته على الظلم والاستبداد فيؤثروا المغرب وطنا وتونس الجميلة سكنا فتتوثق بهم العلاقات بين مصر والمغرب، يؤكد الله بسبب من امتزاج الدماء سبب الدين جعل المغرب ومصر وطنا واحدا للمسلمين.

وكان البربر يقطعون الأخشاب من جبالهم ويجرونها للمصنع، والمصريون يصنعون السفن ويعلمون المسلمين العرب والبربر صناعتها، فبرعوا فيها براعة المصريين فلم يمض زمن طويل حتى انشأ حسان ثمانمائة[1] سفينة، فولد الأسطول الإسلامي في المغرب، وجللت سفنه بحر العرب، فارتعدت فرائص الروم والقوط بهذا الأسطول الذي يحسون به يخوض في أحشائهم لا في البحر، وانقطعت أطماعهم في المغرب،واشتغلوا بحراسة ثغورهم من هجمات المسلمين. فصار المغرب امة بحرية لها أسطول حربي رابط في

1 - محاضرات الشيخ عبد العزيز الثعالبي «الفتح العربي لشمال إفريقي» ألقاها في سنة 1931 في نادي الشبان المسلمين بالقاهرة ونشرتها جريد الضياء المصرية في أعداد 15 فبراير و 23 و27 ومارس 1931.

مرفئها ربض الأسود أمام عرينها لا يقرب منه إنسان ! وأصبح بحر الروم[1] بحر المسلمين يملكون عنانه، ويسيطر دون عليه. وقد اعتنت الدول الإسلامية المتعاقبة على افريقية بأسطول حسان فتعاظم وتقوى، فاستطاع أسد بن الفرات في عهد الأغالبة ان يحتل به صقلية، وينشر فيها الإسلام الذي طهرها وأسعدها، فتحقق ما كان حسان يأمله، وصار هذا الأسطول حمولة النور الذي اخرج جنوب أوروبا من جهالتها وشقائها إلى حضارة الإسلام وسعادته. كما اعتنت تلك الدول، الأغلبية، والصنهاجية، والموحدون، والحفصيون بمصنع حسان فوسعته وزينته فصار من مفاخر المسلمين في المغرب. قال الشيخ الثعالبي في محاضراته: «ومكان المصنع ما زال يعرف إلى اليوم بدار الصناعة، وقد عثرت عليه مصلحة الآثار التونسية، فرفعت عنه الأنقاض، فكان على جانب من الضخامة والتنسيق وحسن البناء والزخارف يكل عنه الوصف. ففيه أحواض لبناء السفن وتعويمها تسع اكبر الجواري، وكلها مفروشة بالفسيفساء، ولا يزال هذا البناء موضع إعجاب غواة الآثار والباحثين».

اللغة العربية لسان رسمي

وجد حسان كل الجد في تعليم العربية للبربر لأنها أصل الدين، والرباط الذي يربط المغرب بالمشرق، ويصل بين المسلمين، فجعلها لسان الحكومة الرسمي، فيها ترفع الشكاوى، وتحرر رسائل العمال ويكتب في الدواوين، ويخطب في الجمع والأعياد، فاقبل البربر على اللغة العربية التي هي مفتاح دينهم، ولغة نبيهم، لا يفهمون القرآن وحديث المصطفى إلا بها، والتي هي لغة دولتهم الحبيبة، واللغة الشريفة التي تمتاز على كل اللغات بفصاحتها وبلاغتها، وبموسيقاها العذبة، وأساليبها الجميلة، وتركيبها البديع فانتشرت العربية في البربر، وتآخت المازيغية والعربية في السنة المغرب، وعد البربر العربية لغتهم الأولى ما دامت هي لغة الدين الذي يؤمنون به ويقدسونه.

السكة الإسلامية

وضرب حسان السكة للمغرب دنانير ودراهم وفلوسا. وكان الناس يتعاملون بسكة القوط والبزانطيين، وهي تحمل رسم ملوكهم، وشعارات دولهم، وهي مظهر لمجدهم تقر تعظيمهم في القلوب، ووسيلة للدعاية، تبث ما يشاؤون في نفوس الناس. انه ليس هناك وسيلة للدعاية أكثر انتشارا، وابلغ أثارا كالدراهم التي تحمل شعار الدولة

1 - بحر الروم اسم كان يطلق على بحرنا الأبيض المتوسط فصار بعد ذلك يسمى بحر العرب ونحن نسميه بحر المسلمين لان هذا الاسم أوسع وأفخم.

وما تريد ان تنقشه في نفوس الأمة ! ان ما ينقش في الدراهم ينقش في نفوس الأمة جميعها. لان الدرهم والدينار هم المتاع الذي تحدق فيه كل النفوس في شراهة، وهو الشيء الوحيد الذي يدخل كل يد، ويتصل بكل إنسان، وهو الشيء الذي نحدق فيه دائما لتبين قيمته، فيؤثر بالتكرار في نفوسنا، فتصبح المعاني المنقوشة فيه عقائد راسخة في صدورنا ! عرف هذا حسان بذكائه وعرفه المسلمون فضرب السكة الإسلامية التي توحي إلى النفوس بعظمة المسلمين، وتقر في الصدور عقيدة الإسلام، وتكون مظهرا للدولة الإسلامية وملوكها العظام. وارى ان البربر الذين يكرهون الروم سيما إسلامهم، هم الذين الحوا على حسان ان يضرب السكة الإسلامية، لتختفي سكة الروم أعدائهم الذين ما رأى المغرب منهم إلا مآتمه وأرزاءه والذين قضى البربر على حضارتهم بعد أفولهم من المغرب فتجلببوا بحضارة الإسلام.

قال الشيخ التعالبي في محاضرته القيمة:[1] وأصلح حسان تقاليد الدولة وغير منها الطراز القديم، كما صنع ذلك في المسكوكات، فقد كان الدينار القرطاجني أيام حكم البيزانطيين يطبع على الوجهين فعلى احدهما صورة القيصر وولي عهده أو القيصرة، وبه من الكتابة اسم القيصر وألقابه،وعلى الوجه الثاني صليب في الوسط قائم على ثيث درج،وهو المعروف «بالصليب القرطاجني» ومكتوب على دائرته باللاتينية ضرب هذا بافريقية ثم السنة بحسب عقد ذات عشر سنوات من استيلاء ذلك القيصر.

أما دينار حسان اللاتيني العربي فهو عين الدينار القرطاجني المتقدم وزنا وشكلا وإنما حذف من الصليب العمود الأفقي وعوضه برسم الكرة في أعلى العمود الراسي وحذف الدرج الأسفل من السلم ووضع صورتي عبد الملك بن مروان والوليد ابنه بدلا من قيصر البيزانطيين وولي عهده.

وبعد حين زاد حسان في ديناره في الكتابة اللاتينية بطريقة اختصار الأحرف ما يأتي. الوجه الأول:

In Ndnimisr Cunsds in Nmine Domi Miseri Cordis Unius

وتعريبها: بسم الله الرحم الإله الأحد.

وفي الوجه الثاني:

Unus Deus Nisl Socius Alis Smilis

1 - محاضرات العلامة الكبير الشيخ عبد العزيز التعالبي التي نشرتها جريدة الضياء المصرية في 27 مارس 1931.

وتعريبها: وحده لا شريك ولا مثيل له.

كما كتب على هذا الوجه أيضا:

Fe Riei in Africa In Dietione

وتعريبها: ضرب بافريقية في العشرة الثالثة يساوي 85 هجرية.

هذه ما كتبه حسان في سكته وقد استعمل اللغة اللاتينية في رسم كلمة التوحيد في سكته. لان الدراهم كما قلنا للدعاية أيضا فأراد حسان ان ينشر الدعاية في الروم للإسلام ليسلموا، ويقذى عيون المستعمرين المتغطرسين المتنطعين الذين لا يؤمنون بكلمة التوحيد التي كتبها بما يفهمون.

فصل الكنيسة القرطاجنية

وكان حسان قد قضى على الروم سياسيا وعسكريا وبقي لهم سبب ديني يربط الطوائف النصرانية من الروم الإفريقيين ببزانطة، وهي العلاقات الكنيسية فقطعها خوفا من ان يتدرع بها البيزانطيون فيتصلون بالمغرب فينفخون فيه من السموم ما يشاؤون. فوصل الكنيسة القرطاجنية بالكنيسة المرقصية الاورتوذوكسية في مصر وقطعها عن الكنيسة الكاثوليكية في روما وبيزانطا. قال الشيخ التعالبي في محاضراته الثالثة: ومن أهم إصلاحاته السياسية انه قطع علاقة الكنيسة القرطاجنية من بطركية الفنار وضمها للكنيسة المرقصية حتى لا يبقى منفذ للأجنبي يتطرق منه الشعب إلى بلاده كما ذهل الأتراك العثمانيون عن ذلك أيام حكموا الشرق».

وكانت أعمال حسان لخير المغرب لا تحصى، وفضله على البربر خاصة لا حد له، وقد أصبح المغرب بفضله ولاية إسلامية راقية تضاهي مصر في البناء والتشييد وفيما تريده الدولة من ولايتها من طاعة وتأييد. فساد الهناء والسعادة والرضى والسكون أنحاء المغرب، واقبل البربر بقلوبهم على حسان العظيم وعلى من معه من العرب المسلمين الميامين، فصار الإسلام ينتشر فيهم بسرعة فيتوغل في الجبال، وينتشر في السهول، وذلك بدعاية حسان ودعاية البربر الذين اسلموا. وقد وجد حسان من كفاءة البربر وذكائهم، واستعدادهم للحضارة والمدنية، ونشاطهم في الأعمال ما مكنه من إنشاء كل ما انشأ في المغرب من منشأت. لقد كانوا سواعده المتينة، وجنده المخلصين. وسعد حسان بما رأى من البربر وسعد البربر بحسان، وأعجبوا بعدله وكفاءته في الأمور، ودهائه في السياسة، وأحبوه لتمسكه بالدين، وإخلاصه للدولة، وحرصه على إسعاد

المغرب وإحيائه، كما أحبوا العرب المسلمين، وامتزجوا بهم وصاهروهم، وعلموا إنهم هم إخواتهم الأوفياء، أطلعهم المشرق الذي يلد لهم الشمس، فجاءوا مجيئا لليقظة والحياة وللنمو والازدهار! وابتدأ المغرب يتطور ويمتزج البربر فيه بالعرب ليكونوا امة واحدة، يربط بينها الدين، وتصل بينهم الرحم التي تكونت بتزوج العرب من البربر.

مساعي أعداء حسان لعزله

وكان عبد الملك بن مروان قد امتلأ طربا وسرورا لما أتم الله فتح المغرب على يده، وكان يتتبع أعمال حسان فيه، فأعجب بسياسته، وقرت عينه بامتلاك قلوب البربر لدولته. وكان يعتد بحسان كل الاعتداد، ويراه أحسن من يليق للمغرب، فلذلك لم يعزله لما هزمته الكاهنة، بل فهم سبب هزيمته فعذره، فأمده بالجند والعتاد وأرجعه إلى المغرب؛ ولكن بعض أبناء عبد الملك سيما الوليد، وبعض إخوته سيما عبد الله، وعامله على مصر عبد العزيز بن مروان لم ترقهم سياسة حسان في المغرب، سيما تسوية البربر بالعرب، وإنفاقه اغلب موارد المغرب في تعميره وبنائه، وأنهم يريدون ان يكون المغرب ثديا يرضعونه، ويملؤون خزائنهم بكنوزه، وروضا يقطفون أزهاره، ويملؤون أيديهم من جمال الله المبثوث فيه؛ صبايا المغرب وحسانه، تلك الأقمار التي تهفوا قلوبهم إليها، والتي لم يروا لها نظيرا في كل ما فتحوا من البلدان. لقد تمكن حسان من ناصية المغرب، ودخل بلاد البربر فائزا منتصرا فلماذا كف عنهم، فلم يبالغ في سبي بنات البربر فيبعث إليهم بأسراب كبيرة من الحسان تشبع نهمهم، وتملأ بالجمال الفتان دورهم،وتكون في حياتهم العطر الشذى للزهرة، والزهور الجميلة للشجرة. ان الحياة بدون امرأة جميلة تحوز إعجابك صحراء وان غصت بالكنوز، والذي ينير القلوب فتستنير دنياك، إنما هو نور يولد ميلاد الشمس في شفق لا يتفتح إلا في الخدود ! لماذا لم يبالغ حسان في تجريد المغرب من كنوزه وطرفه فيرسلها إليهم كما يفعل كثير من عمالهم الذين يتزلفون إليهم بالهدايا. ان حسان جبل أشم لا يستطيعون اعتصاره فيجب ان يكون في المغرب من يحتلبه كما يريدون. وكان عبد العزيز بن مروان وأخوه عبد الله أكثر القوم تحسرا لما يفوتهم من كنوز المغرب وجماله. ان عبد العزيز والي مصر، وهو على قرب من المغرب، تغشى عينيه كنزوه فلا تستطيعها يداه، ويفغم انفه عطر زهوره فلا يملك ان تكون طاقة في داره.

وكان موسى بن نصير من صنائع عبد العزيز،وكان عنده في مصر،وكان يعتد به ويراه أحسن من يليق للولاية على المغرب ليجلب لهم منه كل ما يريدون. فخاطب أخاه عبد الملك يسأله إرساله إلى المغرب وبفضله على حسان. ولكن عبد الملك كان أحسن من

بنيه واخواته للمغرب. انه لا ينظر إليه بأهوائه وأطماعه. ولا يرتكب فيه ما يثير البربر عليه. فتمسك بحسان ورآه هو الأصلح. وقد جرت مراسلة بين عبد العزيز بن مروان وأخيه عبد الملك أوردها صاحب جهرة رسائل العرب[1] في الجزء الثاني قال: كتب عبد العزيز بن مروان إلى أخيه عبد الملك: أما بعد فاني كنت وأنت يا أمير المؤمنين في موسى وحسان كالمتراهنين أرسلا فرسيهما إلى غايتهما فأتيا معا وقد مدت الغاية لأحدهما ولك عنده مزيد ان شاء الله. وقد جاءني يا أمير المؤمنين كتاب من موسى وقد وجهته إليك لتقرأه وتحمد الله عليه والسلام. فأجابه: أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك، وفهم المثل الذي مثلته في حسان وموسى،ويقول لك: عند احدهما مزيد، وكل قد عرف الله على يده خيرا ونصرا،وقد أجريت وحدك،وكل مجر بالخلاء مسرور والسلام.

ان جواب عبد الملك يدل على دهاء كبير. انه لم يفسد قلب موسى بن نصير بتفضيل حسان السافر عليه، ولم يسلم لعبد العزيز بان موسى خير من حسان فقال: وعند احدهما مزيد، يريد حسان. وقال: لقد أجريت وحدك. يريد انك لم تجرب حسان وموسى في عمل واحد فترى أيهما أكثر كفاءة، بل أرسلت موسى في بعض مهماتك فنجح فيها فصرت تفضله على حسان.

عزل حسان

وقد اتخذ عبد العزيز بن مروان كل وسيلة، وسلك كل طريق هو وأخوه عبد الله وبعض أبناء عبد الملك ليؤثروا في عبد الملك فبعزل حسان فأعارهم أذنا صماء، وتمسك بقائده العظيم. آثره على موسى بن نصير. فتوفي عبد العزيز بن مروان في سنة خمس وثمانين وحسان في ولايته لم يعزل، وقد خلط كثير من المؤرخين فقالوا ان عبد العزيز قد عزله مع ان عبد العزيز قد مات قبل عبد الملك بسنة. وما كان ليعزله وعبد الملك حي، وهو كما علمنا في التمسك بحسان. فولى على مصر بعد عبد العزيز أخوه عبد الله. وكان على رأيه في موسى، وبمثل نظرته إلى المغرب، ولكن عبد الملك يحمي حسان العظيم فلا يستطيعون عزله،وهو الملك القوي الذي لا يتفتي عليه إنسان، فلا يستطيعون تأخير من يقدم، ونقض ما يبرم. فتوفي عبد الملك في سنة ست وثمانين، فخلفه على العرش ابنه الوليد. وكان على رأي عمه عبد العزيز. ان ريقه يتحلب على طرف المغرب، وقلبه يخفق هياما بجماله وأزهاره. فعزل حسان وولى على المغرب موسى بن نصير فرحل حسان

1 - جمهرة رسائل العرب في لربعة أجزاء. أعظم كتاب في النثر الفني العربي سيما الثالث والرابع منه. وهو رسائل الجاحظ وابن العميد والصابي وغيرها سبب الفصاحة في اللسان،والبلاغة في القلم لا غيرها من الأدب الحديث الصحفي.

إلى المشرق، واستخلف على القيروان مولاه واحد قواد جيشه أبا صالح. فارتاع المغرب لعزل واليه المحبوب، وجزعوا لرحيله، ورأوا عزله نذيرا بتبدل سياسة الأمويين في المغرب، وتشاءموا من تولية موسى بن نصير.

غضب البربر لعزل حسان

وكان البربر دهاء أذكياء، وكانوا حريصين على وطنهم، يرقبون أموره، ويلاحظون في كل دقة ما يحوك عبد العزيز وشيعته من دسائس لحسان، وما ينوونه من تطبيق سياسة الامتصاص والمحاباة في المغرب. فغضب كثير من رؤساء البربر فانفصلوا عن القيروان، واستقلوا عن الدولة، ورجعوا إلى ما يؤثره البربر من الاستقلال واللامركزية في الحكم. لقد انفصلت كثير من النواحي، منها جبال زغوان في شمال القيروان،ونواحي أخرى في المغرب الأوسط والأقصى.

جشع عامل مصر

وكان حسان قد غنم في حروبه ووفر من دخل ولايته أموالا كثيرة، وجوهر نفيسة، مما يدل على غنى المغرب وازدهاره بعدل حسان. فلم يكد يعزل حتى أرسل عبد الملك بن مروان عامل مصر أربعين رجلا[1] من اشرف أصحابه ليتسلموا هذه الأموال. ويراقبوا حسان فيها، عله يفرق بعضها في البربر، أو يستبقي جزءا منها في المغرب. فلا يفرغ لهم كل الخزائن في الجواليق. وارى ان هذه قد يكون بإشارة من الوليد. فعلم حسان ان عبد الله لابد ان يتعرض له إذا وصل مصر فيأخذ من نفائسه، ويستأثر بكنوزه، وهي لبيت مال المسلمين، لابد ان تصل الشام. فعمد إلى الجواهر النفيسة، والى الدنانير فجعلها في قرب الماء واظهر ما سوى ذلك، فرحل حسان رحيل الربيع الذي يعقبه الشتاء، فتأسف البربر وتحسروا،وانفصلت كثير من نواحي المغرب وانكمشت انكماش الحزين الذي يهرب من الجماعة فيقبع في ركن، وهو باك منتحب، ويندب حظه، ويتحسر على ما سلبته الأيام.

قال مقديش:»وكان مع حسان -لما رحل عن المغرب- ثمانون ألف دينار جعلها في قرب الماء» هذا غير الجواهر النفيسة، وللآلي الثمينة. قال السلاوي: وارتحل حسان إلى المشرق بما جمعه ذريع المال، ورائع السبي، ونفيس الذخيرة. فلما انتهى إلى مصر أهدى إلى عبد الله بن مروان مائتي جارية منة بنات ملوك الفرنج والبربر، فلم يقنعه فانتزع كثيرا مما بيده. ولما قدم على الخليفة بدمشق وهو يومئذ الوليد بن عبد الملك شكا إليه ما صنع به

1 - نهاية الأرب للنويري جزء 22 المأخوذ بالفتوغرافية في دار الكتب المصرية.

عمه عبد الله فغاظه ذلك وأنكره. ثم أهدى إليه حسان من غريب النفائس التي أخفاها عند الله ما استعظمه الوليد وشكره عليه، ووعده برده إلى عمله. فخلاف حسان ان لا يلي لبني أمية أبدا».[1]

غنى المغرب

ان حسان قد انشأ في المغرب منشآت كبرى استنفدت أموالا لا تحصى. ومع ذلك وجدت في خزائنه ثمانون ألف دينار غير الجواهر، ورحل بها إلى المشرق، ودفعها لخزائن الدولة ! ان هذا دليل على غنى البربر وازدهار المغرب في عهد حسان . وعلامة على عدل حسان. فان البلاد تمرع بالعدل، وتزدهر بالديمقراطية، وتعمر وتغتني بساسة الإسلام.

لقد حلف حسان ان لا يلي لبني أمية أبدا لأنه موقن انه بعد ذهاب عبد الملك الذي يحكم دهاءه وعلمه وحسن تدبيره في الأمور، وسوف لن يأتي بعده -حاشا ابنه سليمان وعمر بن عبد العزيز- إلا ملوك يسيطر عليهم الهوى في السياسة، والأنانية في حكم الشعوب.

قال ابن عبد الحكم :»ويقال: ان عبد العزيز (والصحيح عبد الله) اخذ كل ما كان مع حسان من السبي. وكان قد قدم ومعه من وصائف البربر شيء لم ير مثله جمالا. فكان نصيب الشاعر يقول: حضرت السبي الذي كان عبد العزيز اخذ من حسان، مائتي جارية منها ما يقوم بألف دينار !».

لقد خلط كثير من المؤرخين بين عبد الله بن مروان وعبد العزيز أخيه. فجعلوا عبد العزيز هو الذي عزل حسان وسلبه ما معه، والصحيح ان عبد العزيز توفي قبل عزل حسان بسنتين. لقد مات في سنة 85 وعزل حسان في سنة 87، وان والي كمصر كان حينئذ هو عبد الله بن مروان.وعزله وقع في ولاية الوليد لا في عهد عبد الملك.

وكانت مدة ولاية حسان على المغرب أربع عشرة سنة، وترعرع فيها المغرب، وقارب شبابه، وسطع الجمال والقوة في محياه. ولي في سنة 74 وعزل في سنة 87. وقد غبر من هذه المدة ست سنوات وهو وال على المغرب كله بعد ان تم فتحه وأسلس عنانه. والسنوات ألثمان الأخرى أمضاها وهو في السلاح يقرع أبواب المغرب لتنفتح، أو في الانتظار يرقب ورود القوة عليه ليواصل الفتوح.

حسا بن النعمان ! هو حسن ونعمة ! لو دام للمغرب لكان له شأن وأي شأن، شأن

1 - الاستقصاء ج 1 ص 84 ط المغرب.

الصقر الذي بقيت له أجنحة فواصل طيرانه إلى القمم العالية، وشأن الجسم الذي له شبابه فحقق كل ما يريد في الحياة ! انه اكبر المحسنين إلينا فلزام على المغرب إذا انتشى وحمد الله على نعمة الإسلام والعربية التي تحقق لنا سعادة الدارين، ان نذر حسان العظيم الذي أتم فتح المغرب، واخذ بيده في رفق وبراعة إلى دين الله فحسن إسلامه ثم يأتي موسى بن نصير فكيف يجد المغرب، وماذا سيكون حظ البربر منه. أترى الحظ يسعفه فيكون كحسان العظيم، والشيخ الأمين !؟

ولاية موسى بن نصير 87

نسب موسى

هو موسى بن نصير بن عبد الرحمان من لخمن بالولاء، وقيل هو من بكر بن وائل وكان أبوه نصير رئيس شرطة معاوية بن أبي سفيان، ومنزلته عنده كبيرة. روى ابن مقديش وغيره ان نصيرا لم يخرج مع معاوية لقتال الأمام علي رضي الله عنه فقال له معاوية : ما منعك من الخروج معي ولي عندك يد لم تكافئني عليها ! فقال له: لا أشكرك بكفر من هو أولى بشكري منك: فقال ومن هو؟ قال الله عز وجل فاطرق معاوية مليا ثم قال : استغفر الله ورضي عنه.[1]

شخصيته

وكان موسى من التابعين، وروي عن تميم الدارى وكان عاقلا، كريما، شجاعا، داهية في الحروب، لم يهزم له جيش قط.

مكانته في الدولة

وكان موسى ذا مكانة عند عبد الملك بن مروان في أول أمره، يعجب بذكائه وحزمه، وكفاءته في الأمور. وقد ورد في جمهرة رسائل العرب ان عبد الملك بن مروان لما أراد ان يولي أخاه بشر بن مروان على العراق كتب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان وهو بمصر، وبشر معه يقود الجنود، وكان يومئذ حديث السن: إني قد وليت أخاكم بشرا البصرة، فاشخص معه موسى بن نصير وزيرا ومشيرا وقد بعث إليك بديوان العراق فادفعه إلى موسى، واعلمه انه المأخوذ بكل خلل وتقصير. فشخص بشر من مصر إلى العراق ومعه موسى بن نصير حتى نزل البصرة فلما نزلها دفع إلى موسى بن نصير خاتمه وتخلى عن جميع العمل !

وكان موسى بن نصير من القواد الكبار، يمتاز بالجرأة والشجاعة والدهاء. وكان ماهرا في الإدارة، محنكا في شؤون الدولة. روى ابن عذارى ان موسى كان على خراج البصرة، قدمه عليه عبد الملك بن مروان، فاحتجن الأموال لنفسه على ما ذكروا فأوصى الحجاج لا يفوته، فخافه موسى، فقصد إلى عبد العزيز بن مروان صاحب مصر لانقطاع كان منه إليه، فتوجه عبد العزيز مع موسى إلى الشام فوفدوا على عبد الملك فاغرمه عبد الملك مائة ألف دينار، فغرم عنه عبد العزيز نصفها، وعاد مع عبد العزيز إلى مصر» فظل موسى من صنائع عبد العزيز، يستعين به في الأمور، ويستخدمه في المهمات. وقد

1 نزهة الأنظار ص 79 ط تونس.

رشحه للولاية على المغرب، ووجده أحسن رجل يليق للسياسة التي يراها هوة وأخوه عبد الله وابن أخيه الولي

د للمغرب، فداخل أخاه عبد الملك ليعزل حسان ويولي موسى، ولكن عبد الملك كان يعجب بحسان وبأمانته وحسن سياسته فتمسك به ولم يصغ لأخيه. فتوفي عبد العزيز في سنة خمس وثمانين، وولى مكانه أخوه عبد الله. وكان حريصا مثل أخيه على عزل حسان وتولية موسى على المغرب. وكان الوليد بن عبد الملك كذلك.

أعماله في المغرب

ولما توفي عبد الملك بن مروان في سنة ست وثمانين، وولى الوليد ابنه. عزل حسان في سنة سبع وثمانين وولى موسى بن نصير على المغرب.

وكان البربر قد غضبوا لعزل حسان، وكانوا يحبونه ويعظمونه، لحسن سياسته وأثاره الجميلة في المغرب، وتشاءموا من موسى وسياسته، والوليد ونظرته إليهم. فما كاد حسان يغادر القيروان حتى استقلت نواحي كثيرة في المغرب، وانفصلت عن الدولة، لان البربر كما أسلفنا يهوون اللامركزية في الحكم، سيما إذا كان من سيحكمهم لا يتصف بالعدل، ولا يعاملهم بالحسنى، ولا يسوسهم سياسة تشعر بالاحترام والتقدير.

قال ابن خلدون: وقدم موسى بن نصير القيروان، بها صالح خليفة حسان فعزله ورأى ان البربر قد طمعت في البلاد، فوجه البعوث في النواحي، وبعث ابنه عبد الله في البحر إلى جزيرة ميورقة فغنم وسبى وعاد، ثم بعثه إلى ناحية أخرى، وبعث ابنه مروان كذلك، وتوجه هو إلى ناحية فغنموا وسبوا وعادوا وبلغ الخمس من المغنم سبعين ألف رأس من السبي».

قال أبو شبيب الصدفي: لم يسمع في الإسلام بمثل سبايا موسى بن نصير.

ونقل الكاتب أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم القروي المعروف بابن الرقيق: ان موسى نصير لما فتح «سقوما» كتب إلى الوليد بن عبد الملك: انه صار لك من سبي سقوما مائة ألف رأس. فكتب إليه الوليد ويحك. إني أظنها من بعض كذباتك،فان كنت صادقا فهذا محشر الأمة.[1]

وروى ان عذارى[2] ان أول فتوح موسى كانت إلى زغوان ونواحيها، وبينها وبين القيروان

1 - الاستقصاء للسلاوي ج 1 ص 85 ط المغرب.

2 - البيان المغرب ج 1.

مسيرة يوم كامل، وفيها قبائل بربرية، فبعث إليهم موسى خمسمائة فارس ففتحها، فبلغ سبيهم عشرة آلاف، وهو أول سبي دخل القيروان في ولاية موسى ثم وجه ابنه عبد الله إلى بعض نواحي افريقية فأتى بمائة ألف رأس من السبي، ثم وجه ابنه مروان فأتى بمثلها، فكان الخمس يومئذ ستين ألفا فكتب موسى إلى عبد العزيز «صحيح عبد الله» بعلمه بالفتح، ويعلمه ان الخمس بلغ ثلاثين ألفا، وكان ذلك وهما من الكاتب، فلما قرأ عبد العزيز الكتاب، وان الخمس من السبي ثلاثون ألفا استكثر ذلك، ورأى انه وهم من الكاتب، فلما قرأ عبد العزيز الكتاب، ان الخمس من السبي ثلاثون ألفا استكثر ذلك، ورأى انه وهم من الكاتب لكثرته، فكتب آلة موسى يقول له: انه قد بلغني كتابك تذكر ان خمس ما أفاء الله عليك ثلاثون ألف رأس فاستكثر ذلك، وظننته وهما من الكاتب، فاكتب بالحقيقة، فكتب إليه موسى: قد كان ذلك وهما من الكاتب على ما ظنه الأمير، والخمس أيها الأمير ستون ألف رأس ثابتا بلا وهم فلما بلغه الكتاب امتلأ سرورا !!» وقد روى ابن الأثير والنويري وغيرهما مثل ما روى بان عذاري.

قال ابن خلدون، ثم ان موسى غزا طانجة وافتتح درعة، وصحراء تافيلالت، وأرسل ابنه السوس، وأذعن البربر لسلطانه ودولته، واخذ رهائن المصامدة وأنزلهم بطانجة، وذلك سنة ثمان وثمانين، وولى عليها طارق بن زياد.[1]

أما النويري فقال: ثم استعمل على طانجة وبلادها مولاه طارق بن زياد وتركه بها تسعة عشر ألف فارس من البربر وطائفة يسيرة من العرب ليعلموا البربر القرآن فرائض الإسلام، ويرجع إلى افريقية، فمر بقلعة «مجانة» فتحصن أهلها فترك عليها من يحاصرها مع بشر بن فلان ففتحها فسميت قلعة بشر، ولم يبق بافريقية من ينازعه من البربر ولا من الروم».[2]

ولما وصل موسى في المغرب الأقصى إلى «سقومة» وهي قلعة «أوربة» في شمال فاس، وأوربة هم قوم الأمير كسيلة الذي ثار على سيدنا عقبة رضي الله عنه فقتله وقف عليها فأطلق أيدي أبناء عقبة فانتقموا منهم، وسبوا منهم الكثير. قال ابن فقتيبة:»فتح موسى بن نصير سقومة» وقتل ملوكها، وأمر أولاد عقبة عياضا وعثمان وأبا عبيدة ان يأخذوا حقهم من قاتلي أبيهم، فقتلوا من أهل سقومة ستمائة رجل من كبارهم، ثم قال لهم: كفوا فكفوا[3] ثم فتح موسى هوارة وزناتة وكتامة، وأغار عليهم

1 - العبر لابن خلدون ج 4.

2 - نهاية الارب ج 22 من نسخة دار الكتب المصورة.

3 - البيان المغرب ج 1.

وقتلهم وسباهم فبلغ سبيهم خمسة آلاف رأس. وكان عليهم رجل يقال له كامون فبعث به موسى إلى عبد العزيز بن مروان «الصحيح عبد الله» فقتله. ثم قال وكانت كتامة قد قدمت على موسى فولى عليهم رجلا منهم، واخذ منهم رهائن من خيارهم» أرى ان زناتة وهوارة وكتامة التي سبي منها موسى هي قبائل المغرب الأقصى لان هذه القبائل موجودة هناك. أما كتامة التي وفدت عليه كتامة المغرب الأدنى، قسنطينة ونواحيها.

وكان موسى بن نصير يأخذ الرهائن من القبائل الكبرى التي غزا، وسبي منها وملأ أيديه من أموال كالمصامدة وغيرهم، حتى لا يثوروا عليه، لأنه قرأ في عيون البربر الحنق عليه، وعدم الرضى بسيرته، وعلم إنهم ما كانوا ليسكنوا له مختارين بعد ان وطنهم برجله، وارتكب في ذراريهم وأموالهم ما لم يرتكبه الفاتحون المسلمون قبله.

اعتناء موسى بإسلام البربر

وكان موسى يترك في النواحي التي لم يتم إسلامها سيما في المغرب الأقصى، من يعلمها فرائض الإسلام، ويحفظهم القران، ويصبغهم بالدين، فاسلم كثير من البربر في عهده، وحسن إسلام كثير من النواحي، فأتم بهذه المساعي الحميدة ما بدأه الفاتحون الأولون.

وكان موسى بن نصير داهية في تولية مولاه طارق بن زياد النفزاوي البربري على المغرب الأقصى،وفي جعل رهائن البربر معه، والجيش الذي اخذ سيدنا حسان من أوراس وكان قد حسن إسلامهم، ولكنه مع ذلك أبعدهم عن أوراس، وجعلهم في طانجة مع طارق لان البربر لاعتدادهم بأنفسهم، وحبهم للاحترام، يسرهم ان يكون الجيش الذي يقام لحراسة ناحيتهم منهم، وان يثق بهم موسى ويسد بجيشهم الثغور. كما يسرهم إقامة طارق واليا عليهم،وهو من بني جلدتهم، يكن لهم الحب والاحترام، ويسوسهم بما يوافق مزاجهم، ويضمن لهم الهناء والاطمئنان.

خوف موسى في المغرب

وكان موسى على أهبة الاستعداد للحرب دائما لان في عيون البربر حمرة من نار قلوبهم المشتعلة حنقا عليه، ولولا غزو الأندلس الذي شغل به موسى الجند البربري والمتطوعين البربر، ووجه به عداءهم للقوط، لثار عليه البربر كما ثاروا على عقبة، لأنه عاملهم معاملة خشنة، ونظر إليهم بنظرة المالك إلي قطيعه، يختار منه ما يشاء،

ويأكل منه ما يريد.وهو ما يأباه طبعهم الأبي كل الآباء، وعزة الإسلام التي تملأ نفوس الجمهور الكبير منهم. ان حظ موسى كان حسنا ان وقعت غزوة الأندلس صدفة، ودهاءه كان كبيرا ان قصدها، ووجه بها عداء البربر إلى القوط، فلم ينفجروا عليه انفجار الديناميت فيسحقونه.

ان موسى كان قائدا ماهرا في الحروب، ورجلا صنديدا في القراع، إداريا محنكا في شؤون الدولة. وقد استطاع ان يسترجع النواحي التي استقلت عن دولة وان يخضع البربر لسلطانه. ان إسلام اغلب بلاد البربر جعلها متصلة بالدولة بصلة الدين، فلذلك لم يجد موسى كل المغرب متنمرا عليه، كما وجده من قبله. فلو وجده كذلك لأعياه إخضاعه، وأعجزه استرجاعه، إلا ان يتدرع بقوة ضخمة كقوة حسان ويتصف بحنكته أيضا ولينه.

أننا إذا نظرنا إلى موسى كقائد حربي نعجب بكفاءته، ونشهد له بالبطولة، ولكن إذا نظرنا إليه من زاوية الدين الذي رسم سياسة الشعوب للأمراء، ومن ناحية السياسة التي توجب امتلاك قلوب الرعية على الملوك والزعماء، ننتقد موسى ونخطئه، لان سيرته في البربر هي التي بذرت بذور الثورة التي ستنفجر بعد هذا الزمان بخمس وثلاثين سنة؛ تلك الثورة التي انفصل بها المغرب الأقصى والأوسط عن الدولة الأموية والعباسية ثم لم يعد إلى حظيرتهما. ولولا حكمة سليمان بن عبد الملك وسيدنا عمر بن عبد العزيز وإحسانهما إلى المغرب، وطبهما لجروح موسى، واسترضائهما للمغرب بحسن السياسة وعدل الإسلام، لكانت ثورة المغرب وقعت في آخر القرن الأول، ولكانت براكين البربر قد انفجرت قبل أيام هشام[1] بزمن بعيد.

لقد آثرنا ان نعتمد على النصوص في ذكر أعمال موسى في المغرب، ولم اكتبها بأسلوبي ليعلم القارئ ان ما ينسب إلى موسى هو ما ذكره كل المؤرخين القدماء المشارقة منهم والمغاربة في كتبهم، وتواترت روايته، واتفقوا عليه. لقد سكن البربر لموسى، ولكن على حنق عليه، وتذمر من سياسة. ان معاملته للبربر هي التي غرست البذور الأولى للثورة العارمة التي ستفصل المغرب عن الأمويين والعباسيين. غفر الله لموسى. هلا وقد نافس حسان سلك مثل طريقته، والتزم سياسته، وأحسن مثل إحسانه. لقد ملك حسان العظيم للأمويين ولمليكه شيئا اجل من البربريات الحسان، ومن كنوز البلدان، واكبر عائدة، وأعظم جدوى من الدر والمرجان، وهو قلوب البربر التي جعلها لأمة المصطفى، وملكها لعبد الملك بن مروان. كان حسان يعمل للدين لا للدنيا فوصلهما

1 - هشام بن عبد الملك ثار البربر في عهده لظلم ولاته وعدم عدله.

جميعا. أما موسى الذي لم يتبع طريقة حسان فيكون ما استرضى به الأمويين هو ما يغضبهم عليه. ولكن لماذا يستكثر موسى من سبي البربر، ويبالغ في الغنائم من المغرب الذي انتشر فيه الإسلام، فيرتكب ما لم يأته الفاتحون الأولون الذين حاربوا المغرب قبل ان ينتشر فيه الدين الحنيف. ما هي العوامل النفسية والخارجية، وما هي مزايا الرجل البربري فاستكثر موسى منهم، وما هي خصائص المرأة البربرية حتى رغب فيها الملوك والزعماء، ورأوها الكنز الثمين الذي لا يملأ بالجواهر الرخيصة جيوبهم، ولكن بالسعادة وهناءة الحياة قلوبهم؟ !

الأسباب النفسية لأغلاط موسى بن نصير في المغرب

مما يؤخذ على موسى بن نصير في ولايته بالمغرب وينتقد عليه كل الانتقاد، وقد أنكره العقلاء في زمانه، وأباه أهل الدين والمروءة في عصره، ولامه عليه كل من له خبرة في السياسة، وعلم بمزاج المغرب وما يليق به، حرصه على السبي، ومبالغته فيه مبالغة لم تصدر من الفاتحين الذين سبقوه إلى المغرب، حتى بلغ السبي الذي أخذه من المغرب عددا مهولا لا يخطر ببال، ولا يمر بخاطر، ولا يرضاه إنسان عرف مقاصد الإسلام في فتح البلدان، ومراد الشريعة في الزحف على الشعوب !

ان حرص موسى على ان يبلغ ارفع الدرجات عند الوليد الملك الأموي، ويسطع نجمه في بلاطه، ويرضى عنه فيبقيه في ولايته، وهو الذي جعله يرتكب ما ارتكب ويحشر كل ذلك العدد المهول من البربر ليتحف به الولي وحاشيته الذين ينتظرون من موسى ان يشبع كل أطماعهم ورغبتهم في سبي المغرب وكنوزه.

والسبب الثاني هو عدم معرفته لحقيقة البربر. لقد ولي موسى على خراج البصرة في زمن ولاية الحجاج على العراق. وكان الحجاج في الظلم والاستهتار وعدم المبالاة بدماء المسلمين وأموالهم كما نعرف. فتعلم منه موسى تلك المعاملة للرعية، وعدم المبالاة بالشعب. فجاء إلى المغرب بهذه الطبيعة، فلم يحفل بالبربر، ولم يعرف لهم مقامهم، ونظر إليهم نظرة صاحب المزرعة إلى مزرعته، يأخذ منها ما يشاء، ويقطع مقامهم، منها ما يريد، ظنا منه ان البربر كالأعاجم الذين كان يطؤهم برجله، ويأخذ من مالهم ما يشتهي، ويعاملهم بما يريد، ثم لا يثورون ولا ينتقمون، والفرق بينهم كما بينا شاسع، والبون بعيد وسيرتكب الأغلاط التي وقع فيها موسى عامل آخر سيولى بعده بزمن، هو يزيد بن أبى مسلم، كاتب الحجاج وصاحب شرطته، والذي أراد ان يسير في البربر سيرة الحجاج في أهل العراق، فكان جزاؤه ان ألجمه البربر بالسيف وأطعموه للأرض حاول ان يعفر فيها جباههم الشامخة، ويستذل فيها نفوسهم الأبية.

والسبب الثالث هو ما يعرف موسى من حرص الوليد وكثير من حاشيته وأسرته على سبي المغرب، وحبهم لطرفه، فستكثر منها، بالغ فيها.

ان الوليد لم يكن كوالده عبد الملك في نظرته إلى المغرب وفي ساسته له، لقد كان عبد الملك ينظر آلة المغرب نظرة الحازم القوي الذي يسيطر على هواه، ويملك نفسه فصرف الأمور في المغرب على نحو ضمن سعادته وسكونه، وإقباله على دولته. أما الوليد فقد نشأ في ظلال الملك، لم تلوحه الهواجر التي أنضجت أباه، والمحن التي طبخت والده فأورثته قوته وحنكته. ان جسم المرء يتخلق في حرارة الأرحام، ولكن قلبه وخلقه لا يتكون إلا بحرارة الأيام، وإذا أراد الله لامرئ عظمة ونبوغا سلط عليه أياما كالمسن الذي يأكل من السيف فيورثه حدثه، وابتلاه بأيام عصيبة تطبق عليه إطباق القالب على الذهب فتورثه شكله الجميل !

إن الوليد نشأ في ظلال الملك، وفي رفاهية القصور، لذلك لم يبلغ شاو أبيه في الحنكة والدهاء، وفي السيطرة على النفس، وإيثار مصلحة الدولة العليا، فعرف موسى فيه الرغبة في صبايا المغرب وطرفه، وعدم العتاب إذا ارتكب في ذلك ما يجرح قلوب البربر ويبعدهم عم دولته، فاستكثر من السبي ليرضي مليكه، فجرح أكباد المغرب بما اقتطع من أفلاذها، وأورث الحزن لكثير من أنحاء المغرب بما اخذ من أبنائها وبناتها، فشان صفحته، وأزرى ببطولته، ولم يترك في المغرب أثرا حسنا كابي المهاجر وحسان.

إذا صح أن خمس بيت المال من سبي المغرب هو ستون ألف رأس، فان ما سماه موسى من أبناء المغرب وبناته هو ثلاثمائة ألف رأس. إن هذا عدد مهول مفزع لا نجد مثله لكل الفاتحين. لذلك قال أبو شبيب الصدق:» لم يسمع في الإسلام بمثل سبايا موسى بن نصير !!» إن عامل مصر نفسه عبد الله بن مروان الذي يرغب موسى في استرضائه، ويعرف حرصه على سبي المغرب وطرفه، قد هاله لما قرأ في رسالة موسى أن خمس السبي ثلاثون ألفا، استكثارا له وهو بعض الحقيقة، واستبعادا له وهو بعض الواقع، فكتب إليه يستثبته الخبر، ويسأله أن يخبره بالعدد الصحيح. وقد أنكر الوليد بن عبد الملك نفسه استكثار موسى من السبي. روى السلاوي في الاستقصاء نقلا عن ابن الرقيق: إن موسى بن نصير لما فتح «سقوما» كتب إلى الوليد بن عبد الملك. انه صار لك من سبي سقوما مائة ألف رأس. فكتب إليه الولي: ويحك أني أظنها من بعض كذباتك، فان كنت صادقا فهذا محشر الأمة !

كان سبي موسى ثلاثمائة ألف رأس !! إن هذا شيء مهول لا نجد مثله لفاتح يقصد بلادا انتشر فيها الإسلام كالمغرب ! إن عبد الله بن سعد، والفاتحين الأولين سيما عقبة

وحسان اللذين غزيا كل المغرب، ووقعت اغلب أنحائه في قبضتهما، وكانت أكثر جهاته على الكفر لا على الإسلام، لم يبلغ سبيهم هذا العدد ، ولم يخطر ببالهم أن يرتكبوا في المغرب بعض ما أتاه موسى !

إن اغلب البلاد التي غزاها موسى قد انتشر فيه الدين، وإذا كان بعضها قد انقطع عن القيروان، واستقل عنة الدولة، وثار على بني مروان، فالدين يجيز لموسى أن يحاربهم ليرجعهم إلى الجماعة، بدون أن يتعرض لشيء من أموالهم وذراريهم، هذه هي شريعة الله في الحروب التي تقع بين المسلمين، وقد لا يكون موسى معتدا بإسلام كثير من الجهات، ويراه إيمانا سطحيا لم ترسخ عروقه، فان السياسة والحنكة تمنعه مما أتى، لأنه قد نفر البربر، وكان يجب أن يجتذبهم إلى دين الله، وخسر قلوبهم والفرض عليه أن يملكها للدولة الإسلامية.

لقد كان موسى في إكثاره من السبي بعيدا كل البعد عن الحكم التي شرع الله السبي من اجلها، إن من الحكم السبي إنقاذ السبي من دار الكفر ليعيش في بيئة إسلامية نظيفة يتأثر بها، ويستنير قلبه بدين الله فيها، فيتطهر من كفره وارجاسه، فيكون جسمه فقط هو المستعبد، أما روحه فتتحرر من ربقة الشرك والوثنية، وتكون دنياه فقط على بعض القص، أما آخرته فعلى التمام والكمال.

إن المبالغة في السبي، واخذ كل فتاة وفتى يجدهم المسلمون، يسوغ في البلاد التي يغير عليها المسلمون غارة خاطفة ثم يخرجون، كما كانوا يفعلون في بلاد الروم، وفي صقلية وغيرها، أما البلاد التي استقروا فيها كالمغرب فالواجب أن يبثوا فيها الدين ليسلم الآباء، فتتكون منهم أحسن بيئة للأبناء، وان يحسن الفاتح إلى أهل البلاد ليفتح قلوبهم لما يريد، ويثني بأعنتهم إلى حيث يشاء، لا أن يجردهم من اعز شيء لديهم؛ ويرزئهم في أنفس شيء عندهم، وهو أبناؤهم وبناتهم،وهم مقلبون عليه لانتشار الدين فيهم لا مدبرون، وقلوبهم تكسوها الصداقة للمسلمين، إن تلك المعاملة الخشنة، وذلك الإزراء، والتجريد، يجعل قلوبهم تستغلق له، ونفوسهم تنفر منه والعداوة والبغض هو ما يتخلق له النفوس.

إن الإحسان واللطف يجب على الساسة حتى في البلاد الكافرة المكشرة، أما البلاد التي خالط الإسلام قلوبها، وانتشر دين الله فيها كالمغرب ففرض وأكثر وجوبا، إن معاملتها بما فعل موسى لا يجوز عند ذوي الألباب، وفي العقول التي عرفت سماحة الإسلام وعدله، وسياسة النبي صلى الله عليه وسلم ولطفه مع الناس، وإحسانه إلى البلاد التي يغزوها بكل ما يفتح قلوبها للدين، ويجعلها بالحب والولاء للمسلمين.

إن موسى قد حكم هواه فيما أتى، وساير الوليد وشيعته فيما ارتكب،وأحب أن ينال رضي الملك لا رضى الضمير، وان يبلغ ارفع الدرجات عند الوليد، بإهداء ما يسره ويسر حاشيته لا أن يبلغ أعلى الدرجات في المغرب بسياسيته سياسة عادلة تسعده وترقيه، وتزيده ارتباطا بالمشرق وإقبالا عليه، ولكن ما هي الأسباب التي جعلت الوليد وحاشيته وأهل المشرق يشرهون إلى سبي المغرب ويتنافسون عليه حتى بلغت الجارية من سبي المغرب ألف دينار، في وقت كانت فيه البلاد الإسلامية تغص بالسبايا الروميات والفارسيات، وكطل رائعة الحسن بارعة الجمال، وبالمسبيين من الفرس والروم، وفيهم ذوو الجلد والقوة، والنشاط والفراهة، فما خصائص البربر في رجالهم ونسائهم، فحشر موسى منهم إلى المشرق كل ذلك العدد الوفير، ورغب المشرق فيهم تلك الرغبة القوية؟

مزايا البربر

كان الرجل البربري مثالا في الشجاعة والإقدام، ونهاية في الصبر والتحمل، وغاية في حب العمل والنشاط، فجو بلادهم المعتدل جعلهم على النشاط لا على الفتور، وعلى حب العمل لا على حب الراحة، ومع الأمانة التي خلقتها فيهم النفسية العلمية والاعتداد بالنفس، وحب الكمال الذي جبلهم عليه احترامهم لأنفسهم وغرامهم بالعلو والحسن في كل الأشياء.

وكان البربر على الاعتدال في الأجسام، والمتانة في البنيان، لجودة الهواء، وقوة الغذاء، واعتدال الإقليم، ومواصلة الأعمال، وبذل الجهد فيها.

وكانوا على جمال الذوق، إن البيئة الطبيعية الجميلة التي أنشأوا فيها هذبت أذواقهم، وأرهفت نفوسهم، فنشأوا محبين للجمال، ويسبغونه على أشيائهم، ويتطلبونه في كل أمورهم، وكانوا في الذكاء اقل من ذوي المناطق الحارة، وكثير من الأمم الشرقية، ولكنهم كانوا أحسن منها في متانة الأخلاق، وفي حب العمل والنشاط، وفي التمسك بالشخصية والاعتدال بالنفس، والمرء يتفوق في الحياة بأخلاقه العظيمة وبحبه للعمل، وإتقانه له، وبأمانته وطموحه وعفته، ولا بذكائه وحده، ولا بعمله الذي لا يقترن بالأخلاق السامية !

وكان البربر لنشاطهم وحبهم، وطموحهم، ويتقنون أعمالهم، ويبذلون كل الجهد في تحسينها والبلوغ بها إلى أعلى مرتبة يستطيعونها.

وكان البربر متمسكين بشخصيتهم، ثابتين على مبدإهم، يموتون في سبيل

عقيدتهم ويضحون بكل شيء في سبيل ما يؤمنون به. لا يتسرعون إلى الأخذ بالجديد حتى يوقنوا انه أحسن من القديم الذي عندهم.

وكان البربر على الاعتدال في المزاج، طبعهم بذلك جوهم المعتدل. لا يغلب عليهم المزاج والعبث، ولا يجمد بهم الوقار البالغ، والتزمت المميت. إنهم إلى الوقار أميل والجد عليهم اغلب، ولكنهم على المرح في النفوس، يحبون الدعابة في مواطنها، ويهوون المزاح في أماكنه. لا يرون الحياة كلها ضحكا ولهوا، ومزاحا وعبثا، بل يجدون في اغلب الأوقات، وإذا ركنوا إلى الراحة للاستجمام امتلأت مجالسهم بالنكتة المضحكة، وتعالت من نواديهم النغمة المطربة، ورأيت المرح والأنس الذي يقصر به الزمن و ما يعمر تلك المجالس. وما يؤثره البربر ولا يرضون غيره في تلك المواطن. لهذه الأوصاف الخلقية الحسنة والخلقية، ورغب فيهم الملوك والأمراء، ليسدوا بهم الثغور، ويستخدمونهم فيما يستدعي متانة في الأخلاق، وأمانة ورزانة، وشجاعة وقوة، واتقانا ونشاطا،وجمالا في الذوق، وسدادا في التدبير، كالقيادة للجيوش، والحراسة للثغور، والمقارعة في بالحروب، وإدارة القصور، والقيام على المال.

وما يمتاز به البربري ويفوق فيه الفارسي والرومي الإخلاص وصفاء النفس. إنهم لا يكنون بغضا موروثا للعرب، وعداوة قديمة لبني سام. فهو مستعد لحب كل من يعجب بكماله، ويروعه بحسن سلوكه، ويغمره بإحسانه وفضله. ليست لهم عقد نفسية موروثة تعبدهم عن العرب، بل هم يمتزجون بهم امتزاج الماء بالماء، ويخلصون لهم إخلاص الخل الوفي، والحب الوامق. لذلك رغب الملوك الأمويون والعباسيون في استخدامهم، والاعتماد عليهم وحيازتهم في جيوشهم وقصورهم وثغورهم الكبيرة.

مزايا المرأة البربرية

والمرأة البربرية تمتاز بكثير من المزايا العظمى التي خلقتها فيها بيئتها الطبيعية والاجتماعية. إنها ابنة مجتمع يحترم المرأة ويبجلها، ويعرف لها مكانتها، ويعطيها كل حقوقها، وسليلة مجتمع يهوى الحياة الاستقلالية فيطبع أبناءه منذ نعومة أظفارهم على الاعتماد على النفس، والثقة بها، لا تفنى المرأة في الرجل متكلة كل الاتكال عليه، ولا الابن في والديه معتمدا كل الاعتماد في كل أشيائه عليهم، فخلق هذا المجتمع المحترم للمرأة، المحب للحياة الاستقلالية، الشخصية الايجابية القوية التي تخلق في الناس إذا كانت في الرجل الإعجاب مشوبا بالإجلال، وتكون في النفوس إذا كانت في المرأة الإعجاب مقرونا بالافتتان ! إن الشخصية القوية في الإنسان هي سبب الجاذبية والعامل

الأكبر للاحترام والإعجاب، وللحب المكين، والولاء الثابت. وما فتن المظهر إلا انه مجلي للشخصية تتألق فيه، ويبدو جمالها عليه. والمرأة تفتن فتحب بشخصيتها القوية الجميلة لا بشخصها وحده ! إن الشخص الجميل بدون شخصية عمود منمنم مزركش في مصنع نجار، ولا يداني فرع الشجرة أللفاء المتوجه الأغصان المورقة، والأزهار الأريجة، الذي يملأ عينيك بالجمال الحي، وتشعر بحيويته في نفسك ونضارته في قلبك.

وكانت المرأة البربرية قوية الشخصية، معتدة بنفسها، واثقة بها، شجاعة حيية، صبورا، ورحبة الصدر، لا تكشر لأتفه النوازل، ولا يتغضن وجهها حزنا لأقل الهموم، بل إن البشر والرضى، والتفاؤل بالحياة، هو الذي يشرق به وجهها فيشرق به جو بيتها فيسعد زوجها وكل الأسرة بهذا الجو الضاحي الجميل.

إن روح الرجل لا تستنير فشرق دنياه، لا بالشمس ولا بالقمر ولا بالذهب والجواهر ولكن بالمرأة الصالحة المحبوبة التي تعمر داره !

والمرأة البربرية رزينة، لا تطيش طيش الضعيفات، ولا تجمد جمود البليدات، بل هي خلق فيها جوها الطبيعي وجوها الاجتماعي المعتدلين، كما يريد الرجل الحكيم والإنسان المعتدل.

والمرأة البربرية حيية طبعتها بذلك شخصيتها الايجابية، وشعورها بنفسها؛ والحياء هو ما يخلق في المرأة سحرها فتفتتن بها القلوب، وجمالها الفتان فتسحر بها النفوس، ولطفها ورقتها فيظفر فيها الرجل بالعالم اللطيف، وبالعش الحريري الذي ينسيه خشونة الحياة !

إن حياة المرأة هو الذي يخلق الورد الجميل في محياها، والفتور الساحر في عينيها، فتكون بهما لا بالمساحيق والكحل جذابة تستهوي قلب الرجل وتستأثر به، وتثير احترامه وإعجابه بها !

والمرأة البربرية مدبرة حكيمة، مقتصدة قنوع، تعين الزوج على الحياة، وتكفيه كل المؤونة في إدارة المنزل، عمالة تقوم بكل الشؤون في منزلها، لا تحوج الرجل إلى توابع المرأة الكسول من الخدم الذين يفسدون جو البيت على الرجل، ويعكرون صفو الحياة على الأسرة بغرابتهم وعدم انسحابهم بها.

والمرأة البربرية لحبها للعمل، وللذوق الجميل الذي كونه فيها جوها الطبيعي الجميل، صناع اليد، تستطيع أن تمهر في كل ما تتطلبها القصور الراقية من صناعات في المرأة.

وهي إلى اعتدادها بنفسها، مطيعة لزوجها، تعتقد هي وأسرتها أن هذه الطاعة للزوج فرض عليها، وأنها لا تكون سيدة للرجل إلا إذا كانت عبده، تخضع له، وتملك قلبه بالطاعة والاحترام !

إن هذه الفضائل الخلقية التي صقلها الإسلام وأيدها، وضاعفها في المرأة البربرية، لا زالت موجودة في كثير من أنحاء المغرب التي لم تبتل بأمراض الحضارة، ولم تتسلط عليها أوبئة المدينة الأوروبية القتالة لفضائلها ! فكانت المرأة -والمد لله- في هذه الأنحاء السليمة التي يحضنها الدين بسياجه المتين، سبب سعادة وهناء للرجل، وصارت بفضائلها الموروثة، وبفضائل دينها، حواء التي أتحف الله بها آدم لتعيده بالسعادة الزوجية إلى الجنة التي اخرج منها !

إن ثبات الصفات في الفروع دليل على تسربها من الأصول. والابن مظهر لأجداده يبدئ حقيقتهم، ويبرز شمائله كل خصائصهم. والوراثة الجميلة في النفوس كالمعادن النفيسة في الأرض، لا تتخلق إلا في قرون عديدة، ولا تتكون إلا في دهور طويلة.

قال ابن مقديش في «نزهة الأنظار» في صفحة 72 :»ثم رحل عقبة -رضي الله عنه- إلى السوس الأقصى فاجتمع عليه البربر فهزمهم المسلمون، وغنموا أموالهم، وسبوا نساءهم، وكن في غاية الحسن والأدب ! فبلغ ثمن الجارية منهن بالمشرق ألف دينار !»

وأورد ابن الحكم في كتابه «فتوح مصر والمغرب» في صفحة 202 يذكر ما اخذ عبد العزيز بن مروان من سبي المغرب الذي أرسله حسان إلى عبد الملك فقال:»....ويقال أن عبد العزيز اخذ كل ما كان مع حسان[1] من السبي، وكان قد قدم ومعه من وصائف البربر شيء لم ير مثله جمالا. فكان نصيب الشاعر يقول: حضرت السبي الذي كان عبد العزيز أخذه من حسان، مائتي جارية، منها ما يقوم بألف دينار !».

وكانت المرأة البربرية مع شخصيتها القوية الجميلة على الحسن البارع في الشخص، والجمال الفتان في الجسم. إنها بنت بيئة طبيعية معتدلة، فلم تكن على بياض الثلوج الذي تتسم نساء أوروبا، ولا على سواد الزنوج الذي يوجد في جنوب افريقية، بلا هي ببشرة الورد الفتان، وبياض تشوبه حمرة جميلة، أو بسمرة خفيفة حلوة، ومعتدلة القوام، رشيقة القد، غير مترهلة ولا معجونة، وليست بالسمينة المستفيضة التي

---

1 - الصحيح أن الذي اخذ من حسان هو عبد الله بن مروان في عهد الوليد. وارى أن ما ذكره ابن عبد الحكم هو ما أرسله حسان إلى عبد الملك في سنة 71 من خمس السبي والغنائم في فتوحه فتعرض له عبد العزيز. إذا كان مائتا جارية هو كل السبي كان ما سباه حسان ألف رأس فقط فأين ألفه من ثلاثمائة ألف التي سباها موسى. إن حسان العظيم هو الذي تقيد بالدين في سببه.

تبدو في ثوبها شمعا ذائبا في الشمعدان، بل هي زهراء رشيقة تتألق بوجهها تألق الشمعة الرشيقة في حفلات الأعياد ! !

وهذا ما نجد عليه المثير من نساء المغرب إلى يومنا هذا، وفي كل عرجون حشف لا يليق، وفي كل شجرة ثمر لا يروق، والحكم في هذا الباب على الكثرة لا على الجمع.

إن الإنسان ابن بيئته الطبيعية، تطبعه بما طبعت به أجداده. وتكون في الأحفاد ما كان في الأجداد.

لقد رغب أهل المشرق سيما الملوك والأمراء، والسادة والكبراء، في المرأة البربرية لتلك الشخصية القوية الجميلة التي تزهر بها، ويبدو جمالها على جسمها فيضاعف جماله، ويبلغ به ذروته البهاء والحسن الفتان.

وكانت البربرية إلى هذه الشخصية القوية، ودلك الشخص الجميل، صافية النفس، لا تحمل عداء للعرب كما نجد في الروميات والفارسيات. إنها تنظر بعيون الظباء الصافية السليمة من كل حقد وعداوة. سرعان ما تألف الزوج الذي تعجب بفضائله، ويستميلها بإحسانه، فتحبه وتخلص إليه، وتثبت على حبه ثبات البربر على الحب وعدم التنكر للحبيب، وسرعان ما تألف أسرته، وتنسجم بها، وتصير جزءا منها.

وكانت هذه الفضائل الخلقية هي التي جعلت للمرأة البربرية تلك المكانة العظمى عند الملوك والكبراء. فلولاه لكانت زجاجة مزركشة نبرق في الرمال، وماء مصبوغا سمجا لا مذاق له، ولا نكهة فيه، ولكانت ككل نساء المشرق لا تمتاز عليهن بشيء.

وكان الملوك والكبراء يرغبون في النساء البربريات للتسرى بهن، والزواج منهن، ليسعدوا بهن كزوجات يمتعن الأرواح، وربات بيوت يعمرن الديار، ويريدونهن أيضا لنجابة الأولاد، فان إعجابهم ببطولة البربر وفضائلهم جعلهم يرغبون في الزواج من البربريات، ليرث أبناؤهم فضائل الأخوال التي تضاعف فضائل الأعمام وتكملها. وقد أنجبت البربريات في المشرق كثيرا من العظماء كهارون الرشيد الذي كانت أمه بربرية، وغيره كثيرون كانوا عماد الدولة العباسية، وزينة المشرق وبهاءه.

كان الملوك والأمراء يتطلعون إلى كنوز المغرب من الجمال الباهر، والحسن الزاهر، ويرون المغرب مغربا للشمس غير أنها تختفي في بناته فتطلع في محياهن الفتان، وتودع فيهن عطرا كالذي تخلقه في الورد والرياحين، غير أن بعضه يفغم النفوس مما فضائلهم لا تحس به إلا القلوب الشاعرة، والعقول المدركة، فاستكثر لهم موسى من السبي، فظلم البربر وجرح أكبادهم، وخلق النقط السود الأولى في صفحة الدولة الأموية عندهم.

فائدة السبي

إن إسراف موسى في السبي إن كان فيه ضرر كبير ففيه منفعة كبرى. «وفي كل ما تكره خير كثير» فان الصبايا البربريات، والفتيان البربر الذين سباهم موسى هم الذين بثوا الدماء البربرية في مصر والشام والعراق. فنشأ الجيل الإسلامي الذي رأى العالم الإسلامي كله وطنه، وسكانه كلهم أخواله وأعمامه. فزالت الفروق التي كانت تباعد بين المشرق والمغرب، وامتزجت الدماء العربية والبربرية والمصرية والفارسية وغيرها، فأمست الأقطار الإسلامية من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب وطنا واحدا عند الجيل الجديد الذي ازدهرت به الدولة الإسلامية وبلغت قنتها.

إن من حكم السبي التقريب بين الأقطار، ومزج المسلمين بمضيهم ببعض ليتحدوا. فالذي يتسرى ببربرية تخلق هوى فيه إلى البربر، ويكون ابنه منها أكثر تعلقا بأخواله. فلربما تزوج منهم لإيثار الأم دائما أن تزوج ابنها من قومها، فتتقوى الدماء الأخرى في العروق، وتزول من المسلمين كل الفروق. فلا يعود هناك عربي وبربري وفارسي ومصري وغير ذلك من الأجناس، بل يكون المسلم الذي تسرى في عروقه كل هذه الدماء، يصله النسب العريق بكل تلك الأمم.

إن تمسك الأمويين والعباسيين بالمغرب، وقتالهم مكل من يريد الانفصال، من أسبابه امتزاج الدماء الذي صير المشرق يعد المغرب قطعة منه، تصله به خؤولة أو عمومة، ويربطه به حب راسخ أذكته السبايا في أزواجهن وأبنائهن. لقد كان هارون الرشيد، أعظم ملوك الدولة العباسية، ابن الخيزران البربرية. تلك الغادة الفاضلة الفتانة التي استأثرت بقلب المهدي. أترى المهدي لا يتعلق ويغرم بكل ما يتصل بها. إن الحب ليجعل كل أشياء الحبيب فيها من شفتيه، فهي كلها موضع للقبلات، وأمكنة للإعزاز، حتى نعال الحبيب الملطخة بالأوحال يراها المحب في نضاره خدوده، وتلوح له في هالة من سحره. أما أصولها من الناس فهي عنده أشجار الورد، وأغصان الزهر، يتعلق بها، ويتفانى فيها، لأنها حياة ما يراه حياته، وجمال ما يريده نهاية في الحسن والبهاء ![1] أترى هارون الرشيد الذي نقشت أمه فيه حب المغرب لا يتعلق به، ولا يبالي بشؤونه. إن تسامحه مع المغرب حتى استقلت الدولة الأغلبية في كل شؤونها الداخلية، ومن أسبابه ذلك الحب الذي غرسته فيه أمه للمغرب، وذلك الإعزاز الذي خلقته فيه لوطن أجدادها، فأبى الرشيد أن يغرق افريقية والزاب في برك الدماء كما فعل غيره، ويربطها إليه بقوة السيف كما فعل سواه، فعاملها في لطف وإحسان لأنها وطن أخواله، ومنبت أمه الرؤوم.

1 - إن هذا الاستطراد قد جر إليه شجن الحديث، وسيراه المتزمتون نقطة سوداء، أما الأدباء والشباب الذين نريد استمالتهم لقراءة التاريخ فسيرونه خالا اسود في الخد النضير !

وقد تأيدت الدماء البربرية وتقوت في المشرق بجيوشه كتامة وهوارة ولواتة وغيرها من القبائل البربرية التي فتح بها المعز لدين الله مصر والشام فاستقروا بها، وامتزجوا بأهلها. وقد بقيت لأسرهم إلى اليوم أسماءهم البربرية كما نجد اسم هوارة في صعيد مصر. أما دماؤهم فهي مزيج من الدماء البربرية والمصرية، والعربية، والفارسية وغيرها. وقد وقع في المغرب مثل هذا بمن هاجر إليه من المشرق، فصار العالم الإسلامي والحمد لله امة واحدة، قد امتزجت دماؤها، وصار الإسلام لها شعارا.ولف المسلم هو الذي يصدق عليهم جميعا. إن البليد الجاهل هو الذي يدعي في المشرق أو في المغرب انه عربي خالص، أو بربري خالص. انه لم يعد العربي الخالص -إذا أمكن وجوده-إلا في أعماق الصحاري، والبربري الخالص إلا في رؤوس الجبال المنقطعة. أما سكان المدن، واغلب أهل المغرب منهم، فهم مزيج من الدماء البربرية والعربية. وقد تكون لهم اسم عظيم شريف هو الذي يجب أن نتسمى به وهو اسم «المسلم !» وأمة عظمى هي التي يجب أن ننتسب إليها، ونعتد بها، هي الأمة الإسلامية. هذا ما يجب أن ننقشه بالتربية والتعليم في النفوس، وبالدعاية المتوالية في الصدور، وهو ما حاربه الاستعمار وأباه علينا، فغرس في نفوسنا وألسنتنا أسماء تدل على العصبيات الضيقة، والقوميات الهزيلة التي تنفر كثيرا من الطوائف الإسلامية عنا، وتخرجهم من جامعتنا، لأنهم عند أنفسهم ليسوا عربا بل مسلمين !

إن المغرب ليس فيه -والحمد لله- إلا المسلمون. أما دماؤهم فمزيج من الدماء البربرية والعربية والمصرية والفارسية، فاسم المسلم هو الذي يجب أن نتسمى به ولا نرضى منه بديلا أبدا. انه عظيم سمانا الله به في كتابه، فلو وجد اسما اشرف لنا واجمع لامتنا لسانا به، وهو الذي سمانا به الرسول صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدون،وتسمى به أجدادنا وتمسكوا به ورأوه أكرم أسمائهم، فما كان لنا في هذا العصر أن نتسمى بالأسماء الضيقة، ونطلق على امتنا الأسماء التي لا تعترف بها كل طوائفها.

إن موسى قد أفرط في سبي البربر، وأخذهم بالعنف لا باللين، وعاملهم بالشدة لا بالحسنى. ومما ينتقد عليه ونراه من هفواته ما رواه ابن عذارى عن ابن قتيبة قال لما فتح موسى بن نصير «سقومة» «وهي قلعة أوربة قوم كسيلة» قتل ملوكها، وأمر أولاد عقبة عياضا وعثمان، وأبا عبيدة أن يأخذوا حقهم من قاتلي أبيهم، فقتلوا من أهل سقومة ستمائة رجل من كبارهم، ثم قال لهم كفوا فكفوا» إن قاتلي عقبة رضي الله عنه هم كسيلة وجيشه، وقد قاتلهم زهير بن قيس، واقتص منهم، واستلحم أشرافهم وصناديدهم، وقتل موسى لأهل «سقومة» اخذ بالظنة، وظلم لا يسوغه

الإسلام، وعمل بعيد عن الحصافة، وشنشنة جاهلية ما جاء الإسلام إلا لقتلها، لو كان أهل «سقومة» مطالبين بدماء عقبة لاقتص منهم حسان بن النعمان، وقد غزا المغرب الأقصى، ولعل أكثر سقومة كانوا حينئذ على الكفر لا على الإسلام، ولكن حسان لم يخطر بباله أن يفعل ذلك، لأنه الشيخ الأمين، والأمير الرصين،والرجل المؤمن الذي لا ينصاع للهوى ولكن للدين.

إن موسى من عقلاء المسلمين، واستبعد أن يغزو «سقومة» لأخذ ثأر عقبة منها وارى أن «سقومة» كانت من النواحي التي انفصلت عن الدولة، وثارت على الأمويين وتنمرت لموسى، فوكل تأديبهم وضمهم إلى الجماعة إلى أولاد عقبة لشجاعتهم ولإضطغانهم على «أوربة» التي ثارت على أبيهم.

إن موسى قد أجدى في المغرب بجماعات الفقهاء التي يتركها في النواحي التي يغزوها سيما التي لم يتم إسلامها، فتفقه البربر في الدين، تنشر فيهم كتاب الله المبين وتعلمهم العربية،وتزيدهم ارتباطا بالدولة الإسلامية، إن موسى قد أحسن باعتنائه بإسلام البربر،وكان من الرجال الذين شاركوا في إسلام المغرب الإسلام الثابت بما عرف من أسرار الدين، وبما انتشر في البربر من لغة كتاب الله الكريم، ثم يكتب موسى صفحته الذهبية بافتتاح الأندلس،ونقل الإسلام إلى جنوب أروبا، وضم عالم واسع جميل إلى الرقعة الإسلامية، ونتقل المسلمين إلى الأندلس لينوا فيها الحضارة الإسلامية العظمى التي ثقفت أروبا، وفتحت عيونها للحياة، فنهضت نهضتها الكبرى التي وصلت بها إلى ما تزخر به أوروبا وأمريكا اليوم من علوم وصناعات،ومن حضارة ومدنيات.

فتح الأندلس

قال ابن الأثير: أول من سكن الأندلس قوم يعرفون بالاندلش بشين معجمة فسمى البلد بهم، ثم عرب بعد ذلك بسين مهملة، والنصارى يسمون الأندلس إشبانية باسم رجل صلب فيها يقال له إشبانس، وقيل باسم ملك كان بها في الزمان الأول اسمه إشبان بن طيطس وهذا هو اسمها عند «بطليموس».

وكانت الأندلس مجموع قبائل مختلطة من الاسبانيين الأصليين، واللاتين والقوط وكانت الفئة المتسلطة على البلاط أيام الفتح الإسلامي للمغرب إنما هم القوط، والقوط من الجرمان من شمال أوروبا زحفوا على الأندلس فاستقروا فيها، وتقووا على سكانها الأصليين، فكان الملك والسلطان في أيديهم إلى أن فتحها المسلمون.

أسباب الفتح الإسلامي

لم يكن فتح الأندلس خطوة مرتجلة قام بها موسى بن نصير كما يفهم من كلام كثير من المؤرخين، بل هو عمل فكر فيه المسلمون منذ زمان عثمان، وعزموا عليه منذ غزوة عبد الله بن سعد في سنة سبع وعشرين، غير أنهم كانوا يقتصرون في أول الأمر على مهاجمة أطراف الأندلس التي تلي المغرب ليعجموا عودها، وليرهبوا العدو فيها، فلا تحدثهم نفوسهم بالمسير إلى المغرب لمعاونة الروم والبربر عل الفاتحين المسلمين، وقد أرسل عبد الله بن سعد الله بن نافع بن عبد ألقيس، وعبد الله ابن الحصين الفهريين في البحر فأغاروا على الأندلس ورجعا فائزين.

وكان المسلمون منذ زمن عثمان رضي الله عنه يعتقدون أن فتح الأندلس ضروري لتمام فتح المغرب، لقرب الأندلس من المغرب، انه لا يفصل بيتهما إلا زقاق تعبره السفن في زمن قصير، وإذا كان عمرو بن العاص قد بداله أن يتم فتح مصر بالقضاء على دولة جرجير في طرابلس وافريقية، ونشر الإسلام في تلك الربوع كي يأمن المسلمون في وطنهم الجديد مصر، ويطهر الأرض المجاورة من الروم الذين يحكون له الدسائس، ويبنون له ضروب المكائد، فان المسافة بين المغرب والأندلس واقرب، وخطر القوط وفسادهم وانحلالهم وفساد أخلاقهم أدنى، فلا بد أن يعزم المسلمون على فتح الأندلس ليأمن المسلمون في وطنهم الجديد المغرب.

ثم إن المسلمين يدفعهم إلى فتح البلدان دينهم لينشروه في ربوعها، ويأخذوا بأيدي أهلها إلى طريق السعادتين، ويطهروهم من الفساد والجهالة، ويثقفوهم بدين الله الذي يضمن لهم كل الحظوظ.

وكانت الأندلس قد انحلت بالحضارة، وأنتنت مفاسد المدنية، وانتشرت فيها المنكرات والفسوق، فأمست معدنا للعدوى بالمرض في جانب المغرب الصحيح الذي تطهر بدين الله، وامتلأ بالشباب والقوة لما سرت فيه أنوار الإسلام، فما كان للدين الحنيف أن يرضى ببقاء ذلك الفساد وذلك الظلام الذي قد يعدى المغرب، وما كان له أن يرضى بتخبط الأندلس في جهالتها، ويتركها فريسة لأمراضها، ثم لا يشرق عليها إشراق الشمس التي تقتل كل الجراثيم، وتبث الحياة والشباب في البقاع المتينة فتزدهر، فاندفع المسلمون في المغرب بوازع من دينهم فساروا إلى الأندلس لتطهيرها وإسعادها.

وكان المسلمون منذ زمن عثمان يعتقدون أن فتح القسطنطينية الذي يستعصي عليهم من جهة الشام ممكن إذا هاجموها من جهة أوروبا حين يفتحون الأندلس

ويستقرون فيها. هذه هي الأسباب الأصلية لفتح المسلمين للأندلس، ولو اتصلت ولاية حسان ابن النعمان إلى أن يتم بناء الدولة الإسلامية في المغرب، وتستقر الأمور استقرارا نهائيا، وزيتم إسلام المغرب، لسار هو لفتح الأندلس لان فتحها إتمام لفتح المغرب لابد به، ولان نور الإسلام كنور الشمس يسير دائما إلى الإمام لا يتوقف في ناحية ويفيض على كل مكان لا ينحصر في زاوية.

ومن الأسباب الكبرى التي جعلت موسى بن نصير والوليد بن عبد الملك يقدمون على فتح الأندلس، القوة الجديدة التي تكونت للدولة الإسلامية من البربر المسلمين أن الأثنى عشر ألفا من جند أوراس الذين ضمنهم حسان بن النعمان إلى الجيش الإسلامي أصبحوا قوة كبرى للمسلمين، فاقاهم موسى في «طنجة» هم ومن انظم إليهم من البربر المتطوعين، وأقام عليهم طارق بن زياد، فأصبح هذا الجيش القوي على أبواب الأندلس مما يورث لموسى ثقة بنفسه، ويبعثه على هذا الفتح الكبير، وتلك الخطوة العظمى لقد حسن إسلام هؤلاء الجند، وانضم المغرب إلى الدولة الإسلامية، واستقرت أموره، فان موسى يستطيع أن يخرج بجيشه من المغرب إلى ناحية أخرى دون أن يخاف ثورة البربر عليه، وضربه من خلفه إذا اشتبك بأعدائه.

وكان اغلب الجند الذي غزا به طارق الأندلس م البربر. لقد كان فيه اثنا عشر ألفا من البربر وثلاثمائة من العرب وذلك لإعجاب موسى ببطولة البربر، وثقته بهم وبإسلامهم، ولكره البربر للقوط. إن الوندال منهم،وقد جاؤوهم من الأندلس فاستعبدوهم واضطهدوهم، إن مرارتهم في نفوس البربر لا تزول. فلا بد وقد اسلموا وانظموا إلى الدولة الإسلامية فصارت دولتهم أن يوحوا إلى موسى بغزو الأندلس ويبدوا استعدادهم للقيام بفتحها. وارى أن من أسباب استكثار موسى من البربر في الجيش الذي فتح الأندلس، أن يشغلهم بحرب القوط،ويوجه عداوتهم إلى أعدائهم القدماء، فلا يثورون عليه لما سبي من أبنائهم، ولما عاملهم به من معاملة قاسية جرحت نفوسهم فرأى تلك الجروح في العيون المحمرة الملتهبة التي كانوا يخزرونه بها.[1]

وارى أن من أسباب حرص موسى على فتح الأندلس منافسته لحسان بن النعمان لقد فتح حسان قرطاجنة، وهزم الكاهنة، وفتح أوراس الشامخ العتيد، وأتم فتح المغرب، فصار بذلك من الفاتحين العظماء، ومن قواد الحرب وزعماء السياسة الذين يشار إليهم بالبنان، ويجري مدحهم على كل لسان. إن المغرب قد تمهد للإسلام والأمويين بحنكة

1 - خزر نظر في حدة. وتستعمل إلى الآن في اللغة البربرية في الجزائر لمطلق النظر وهي عربية فصحى وليست بربرية الأصل.

حسان وبطولته، فإذا ثارت فيه زوابع فأخمدها موسى فليس ذلك بالعمل العظيم الذي يضعه في صف حسان. فلا بد بعمل كبير يقوم به في المغرب، وبمساع جديدة ينفرد بشرفها، وببقاع بكرة يضمنها إلى الدولة الإسلامية. إن المغرب قد تنتح كله للإسلام، وانضم إلى الدولة الإسلامية. فلم يبق إلا الأندلس؛ تلك الدولة الهرمة التي هيأتها الفتن الداخلية للسقوط، وهيأها فساد الأخلاق والاستغراق في الشهوات للزوال. إن ملوكها ينظرون نظرة شزراء إلى المغرب المسلم، ويتنمرون للدولة الإسلامية ويكشرون لموسى فلا بد بفتحه. إن الأندلس هو المجال الذي تبدو فيه كفاءته، ويتسع لطموحه ويقوم فيه بأعمال تحقق له منزلة عند الوليد وفي المشرق كالتي حظي بها حسان.

هذه هي الأسباب الأصلية لفتح المسلمين للأندلس، وإقدامهم على هذا العمل العظيم الذي أورث للإسلام شرفا وفخرا، وأحسن به المسلمون إلى أوروبا، لما فتحوا الأندلس فصارت مشرقا للعلم ومنبعا لمتانة الأخلاق التي أخذت بها أوروبا بفضل الأندلس فنهضت نهضتها الحديثة. أما الأسباب المباشرة لهذا الفتح فهي أولا: أبناء «فيتيتزا» الملك الاسباني الذي خلعه «رودريك» من العرش واستنجادهم بموسى وإغراؤهم له «برودريك» وكشفهم لعورات القوط له، وتحريضهم له على فتح الأندلس.

روى المؤرخ النابغة رزق الله منقريوس في كتابة القيم «تاريخ دول الإسلام»[1] إن القوط كانوا يقيمون ملوكهم بالانتخاب، فكان ذلك مصدرا للنزاع والتحزبات والحرب، فاتفق في أواخر القرن السابع المسيحي أن ملكا من هؤلاء القوم يقال له «فيتيتزا» وقع بينه وبين «دوق» قرطبة نزاع فاستطال على الدوق المذكور فقلع عينيه فنهض ابن الدوق للانتقام من الملك والأخذ بثار أبيه. وكان اسمه «رودريك» والعرب يسمونه «لذريق» فقاتل الملك «فيتيتزا» فانتصر عليه، فاغتصب منه تاج المملكة سنة 710م.فذهب أولاد الملك المخلوع وباقي أقاربهم إلى بلاد المغرب فالتجؤوا إلى موسى بن نصير، طلبوا منه أن يقيم حربا على الأندلس لينتقم من ملكها «رودريك» فكتب موسى إلى الوليد يستأذنه فإذن له».

والسبب لثاني هو «أيليان» ألغماري ملك غمارة وكان ملكا على سبتة ونواحيها إلى طانجة والجزيرة الخضراء في الأندلس، وكان مستقلا في مملكته من قبل الفتح الإسلامي، وكان على صلات وثيقة بالقوط في الأندلس، وكان للقوط بعض النفوذ عنده، وبعض الهيمنة عليه. فلما كان الفتح الإسلامي أحسن استقبال الفاتحين المسلمين ونزل على حكمهم، فأبقوه في إمارته وعرفوا له مقامه.

1 - ج 1 ص 66 إن هذا التاريخ في ثلاثة أجزاء وهو من اشمل التواريخ حبذا لو أعيد طبعه.

فتح الأندلس

وكان أيليان على صلة حسنة بالقوط أيضا. وكان «رودريك» يراه من أصدقائه، ومن الأشراف الذين يحرصون على توثيق علاقته بهم قال ابن عذارى: وكانت العادة في الأندلس عند ملوك النصارى أن يستخدموا بني بطارقتهم وكبار رجالهم فالرجال يخدمون خارجا والنساء جوار يعملن في الداخل، ليتأدبوا بالأدب الملوكي فإذا كبروا ألحقهم بخاصته «وزوجهم بالجواري الناشئات في قصره»[1] وكانت عند «رودريك» ابنة أيليان أرسلها لتثقف مع بنات الأشراف في قصره فأعجب رودريك بجمالها الفتان فسطا عليها فأزال عذريتها فأخبرت أباها سرا فاحتال حتى استرجع ابنته من «رودريك» فشمر للانتقام لشرفه. وكان من قبل يضطغن على القوط، ويتقزز من فساد أخلاقهم، ويود أن يغزوهم المسلمون ليطهروا بقاعهم من رذائل المدينة التي انغمسوا فيها. فاتصل بطارق بن زياد عامل موسى على طانجة فحثه على فتح الأندلس، وإعانته على موسى ليقتنع بفتحها، كما اتصل بموسى وأغراه بفتحها ودله على عورات القوط فيه، وواعد بإعانته، ونقل الجند في سفنه، ودلالته على الطريق، وتيسير عملية النزول في الأندلس له. ففرح موسى لإعانة «أيليان» وبالفرصة التي لاحت له لفتح الأندلس، فاستشار الوليد بن عبد الملك فادن له في الفتح الكبير ووضع له خطته. ونحن ننقل إليك أيها القارئ العزيز قصة الفتح من الكامل لابن الأثير، ومن البيان المغرب لابن عذارى فإنهما أحسن المراجع التي أوردت هذه القصة وهما يكمل بعضهما بعضا قال ابن الأثير: فلما ولى «رذريق» أرسل إليه «يوليان» وهو صاحب الجزيرة الخضراء وسبتة وغيرهما ابنة له فاستحسنها «رذريق» وافتضها فكتبت إلى أبيها فأغضبه ذلك، فكتب إلى موسى بن نصير بالطاعة، واستدعاه إليه فسار إليه فادخله يوليان مدائنه « وهي «سبتة» ونواحيها واخذ عليه العهود له ولأصحابه بما يرضى به، ثم وصف له الأندلس وجعاه إليها، وذلك آخر سنة تسعين فكتب موسى إلى الوليد بما فتح الله عليه، وما دعاه إليه «بوليان» فكتب إليه الوليد خضها بالسرايا ولا تغرر بالمسلمين في بحر الأهوال، فكتب إليه موسى انه ليس ببحر متسع وإنما هو خليج يبين ما وراءه، فكتب إليه الوليد أن اختبرها بالسرايا، وان كان الأمر على ما حكيت، فبعث رجلا بربريا[2] من مواليه يقال له طريقة ويكنى بابي زرعة في أربعمائة رجل،ومعه مائة فرس، فسار في أربع سفائن فخرج في جزيرة بالأندلس فسميت جزيرة طريف لنزوله فيه، ثم أغار على الجزيرة الخضراء، فأصاب غنائم كثيرة،

1 - ما بين قوسين لم يرد في كلام ابن عذارى وقد ورد في كتب أخرى كالاستقصاء وبقية كلامه روينا اغلبه بالمعنى لرداءة أجزاء منه بتحريف النساخ.

2 - البيان المغرب.

ورجع سالما في رمضان سنة إحدى وتسعين فلما رأى الناس ذلك تسرعوا إلى الغزو.

قال ابن عذارى: وفي سنة 92 من الهجرة خرج طارق بن زياد إلى الأندلس بمن كان معه من العرب والبربر ورهائنهم الذين تركهم موسى عنده والذين أخذهم حسان «من جبال آوراس» [1] قبله. وكانت ولاية طارق على طنجة والمغرب الأقصى في سنة 85.[2] وفي هذا التاريخ تم إسلام أهل المغرب الأقصى وحولوا المساجد التي كانت بنتها المشركون إلى القبلة، وجعلوا المنابر في المساجد الجماعات وفيها صنع مسجد «اغمات هيلانة».

نسب طارق

ونسب طارق هو: طارق بن زياد بن عبد الله بن ولغو، بن ور فجوم، بن نبرغاسن، بن ولهاص، بن يطوفت، بن نفزاو، فهو نفزاوى «من قبيلة نفزاوة البربرية في جنوب افريقية».[3]

قال ابن الأثير: ثم إن موسى دعا مولى له كان على مقدمات جيوشه يقال له: طارق ابن زياد فبعثه في سبعة آلاف من المسلمين أكثرهم البربر والموالي واقلهم العرب. قال ابن عذارى» وكان «يوليان» «ملك غمارة البربري» مجاورا لطارق بالجزيرة الخضراء التي تلي طنجة، فداخله طارق حتى صار معه على الرضى، وواعده «أيليان» باذخا له الأندلس هو وجنوده. فكان «أيليان» يحمل أصحاب طارق في مراكب التجارة التي تختلف إلى الأندلس، ولا يشعر أهل الأندلس بذلك، ويظنون أن المراكب تختلف بالتجار، فحمل فوجا بعد فوج إلى الأندلس، فلما لم يبق إلا فوج واحد ركب طارق ومن معه حتى أجاز البحر إلى أصحابه.

قال ابن الأثير: فسار طارق في البحر، وقصد إلى جبال منيف وهو متصل بالبر فنزله فسمي الجبل جبل طارق إلى اليوم. وكان حلول طارق فيه في رحب سنة اثنتين وتسعين من الهجرة. فلما تكامل أصحاب طارق بالجبل[4] نزل إلى الصحراء، وفتح الجزيرة الخضراء وغيرها وفارق الحصن الذي في الجبل.[5]

ولما بلغ «رذريق» غزو طارق بلاده عظم ذلك عليه، وكان غائبا في غزواته، فرجع منها

1 - ما بين قوسين في كلام من نقل عنه ليس من كلامه.

2 - الظاهرة أن ولاية طارق كانت في سنة 88 أو بعدها، لان ولاية موسى على المغرب وقعت في سنة 87 كما هو الصحيح.

3 - افريقية هنا هي القطر التونسي وأماكن هذه القبيلة لا زالت تسمى نفزاوة إلى اليوم.

4 - ورد هذا الاسم يوليان وايليان والكسر اسبه بلغة البربر.

5 - قوله تكامل أصحاب طارق بالجبل دليل على ما رواه ابن عذارى من نقل ايليان لجنود طارق أفواجا.

وطارق قد دخل بلاده فجمع له جمعا يقال : بلغ مائة ألف. فلما بلغ طارقا الخبر كتب إلى موسى يستمده ويخبره بما فتح. وانه زحف إليه ملك الأندلس بما لا طاقة له به فبعث إليه بخمسة آلاف. فتكامل المسلمون اثني عشر ألفا ومعهم «يوليا» يدلهم علة عورة البلاد. ويتجسس لهم الأخبار.

قال ابن خلكان في وفيات الأعيان: فلما بلغ «رذريق» غزو المسلمين رجع عن مقصده في سبعين ألف فارس. معه العجل[1] يحمل الأموال والمتاع. وهو على سريره بين دابتين عليه قبة مكللة بالدر والياقوت والزبرجد. فلما بلغ طارقا دنوه قام في أصحابه فحمد الله سبحانه وتعالى. وأثنى عليه بما هو أهله. ثم حث المسلمين على الجهاد. ورغبهم في الشهادة ثم قال:[2] أيها الناس أين المفر والبحر ورائكم والعدو أمامكم؟ فليس لكم والله إلا الصدق والصبر. واعلموا إنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب اللئام. وقد استقبلكم عدوكم بجيشه،وأسلحته، وقوته موفورة. وانتم لا وزر لكم غير سيوفكم. ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصون من أيدي أعدائكم.وان امتدت بكم الأيام على افتقاركم. ولم تنجزوا لكم أمرا. ذهبت ريحكم. وتعوضت القلوب برعبها منكم الجرأة عليكم. فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية. فقد ألقت به إليكم مدينته المحصنة. وان انتهاز الفرصة فيه لممكن لكم أن سمحتم بأنفسكم للموت. وأنى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة. ولا حملتكم على خطة ارخص مبتاع فيها النفوس إلا وأنا ابدأ فيها بنفسي. واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا. استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا. فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي. فيما حطكم فيه أوفر من حظي. وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان. من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان. والحلل المنسوجة بالعقيان. المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان [3]وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عربانا. ورضيكم لملوك هذه الجزيرة. أصهار وأختانا. ثقة منه بارتياحكم للطعان. واستماحكم لمجالدة الأبطال والفرسان. ليكون حظه معكم ثواب الله على إعلاء كلمته. وإظهار دينه بهذه الجزيرة. ويكون مغنمها خالصا لكم من دونهن ومن دون المسلمين سواكم. والله تعالى ولي إنجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين. واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم

1 - العجل جمع عجلة وهي التي يحمل عليها المتاع فتجرها الدواب.

2 - قد تكون هذه الخطبة صحيحة وقد لا تكون.ونحن ننقلها لبلاغتها. وقد ذكر بعض المؤرخين أن طارقا حرق سفنه التي اجتاز بها إلى الأندلس ليؤيس المسلمين في الرجوع ولا يمكن أن يفعل هذا وهو دخل سرا. والصحيح أن السفن لم تكن له. ولكن للتجار الذين ادخلوه هو وجنده فرجعت إلى المغرب فأصبح المسلمون بدون سفن للرجوع إلى المغرب.

3 - هذه المقطوعة المشجعة ليست على أسلوب الخطبة المتين ولعلها من زيادة الرواة.

إليه واني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم «لذريق» فقاتله إن شاء الله تعالى. فاحملوا معي. فان هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أمركم إليه. وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه. واحملوا بأنفسكم عليه. واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتلهن فإنهم بعده يخذلون»[1] قد تكون هذه الخطبة لطارق أو جزء منها فزاد فيها الأدباء. ونحن قد نقلناها لأسلوبها المتين ولقيمتها الأدبية.

قال ابن الأثير: فالتقى الجيشان جيش طارق وجيش «رذريق» على نهر «لكة» من أعمال «شذونة» لليلتين بقيتا من رمضان سنة اثنتين وتسعين. واتصلت الحرب ثمانية أيام. وكان على ميمنة جيش المشركين وميسرته ولدا الملك الذي كان قبله وغيرهما من أبناء الملوك فاتفقوا على الهزيمة بغضا «لرذريق» وقالوا: أن المسلمين إذا امتلأت أيديهم من الغنيمة عادوا إلى بلادهم وبقي الملك لنا. فانهزموا. وهزم الله رذريق ومن معه وغرق رذريق في النهر.[2] وسار طارق إلى مدينة «استجة» متبعا لهم فلقيه أهلها ومعهم من المنهزمين خلق مثير فقاتلوه قتالا شديدا ثم انهزم أهل الأندلس ولم يلق المسلمون بعدها حربا مثلها. ولما سمعت القوط بهاتين الهزيمتين قذف الله في قلوبهم الرعب. وكانوا يظنون انه يفعل فعل طريف فهربوا إلى «طليطلة». وكان طريف قد أوهمهم انه يأكلهم هو ومن معه. فلما دخلوا طليطلة واخلوا مدائن الأندلس قال له «يوليا» قد فرغت من الأندلس ففرق جيوشك وسر أنت إلى طليطلة ففرق جيوشه من مدينة «استيجة» وبعث جيشا إلى «قرطبة» وجيشا إلى «غرناطة» وجيشا إلى «مالقة» وجيشا إلى «تدمير» وسار هو ومعظم الجيش إلى طليطلة فاحتلها. ثم سار إلى وادي الحجارة فقطع الجبل من فج فيه فسمي بفج طارق إلى اليوم. وانتهى إلى مدينة خلف الجبل تسمى مدينة المائدة. وفيها وجد مائدة سليمان ابن داود عليه السلام. وهي من زبرجد اخضر. حافاتها وأرجلها مكللة باللؤلؤ والمرجان والياقوت وغير ذلك. وكان لها ثلاثمائة وستون رجلا. وقيل ليست لسلميان وإنما من صنه أهل الأندلس. وكانت لهم أموال للكنائس تزيد عن حاجتها فصنعوا منها تلك المائدة فنسبت إلى سليمان لغرابتها» ثم مضى طارق إلى مدينة «ماية» فغنم منها ورجع إلى طليطلة في سنة ثلاث وتسعين. وقيل :اقتحم ارض جليقية فخرقها حتى انتهى إلى مدينة «استرقة» وانصرف إلى طليطلة».

وكان طارق بن زياد هو الفاتح الحقيقي للأندلس،فهو الذي أزال العقبات الكبرى. وانتصر

1 - وفيات الأعيان لابن خلكان ج 4 ط مكتبة النهضة.

2 - وهو نهر كودالت قيل انه انهزام أمام طارق فاعترضه نهر فغرق فيه لثقله بسلاحه وكثرة دروعه.

في المعركة الفاصلة التي وقعت بينه وبين «رذريق» واحتل عواصم الأندلس ومدنها الكبرى. ولما جاء موسى إلى الأندلس كانت قد أعطت بيدها للمسلمين. واخذ طارق بناصيتها فخضعت. ولم يبق إلا شمال الأندلس لم يفتحه. وهو سهل لا عقبات كبرى فيه.

إسراع موسى إلى الأندلس

وكان موسى يرجو أن يكون فتح الأندلس على يده. يقود هو الجيوش إليها. ليكون له شرف فتحها. ويتحقق له ما يريد من درجة حسان عند درجة حسان عند الوليد فسبقه طارق إلى هذا الشرف الكبير فاحتدم واغتاظ. وكان طارق قد أقدم على فتح الأندلس بدون أمر موسى. قال الشيخ عبد التعالبي في محاضراته:»ولما أبطأ جواب موسى بن نصير إلى طارق «في فتح الأندلس» وطال الانتظار على الكونت «اليان» كتب هذا إلى طارق يستحثه على العبور إلى الأندلس قبل أن يستعد القوط ويأخذوا في الأهبة. فرأى طارق رأي الكونت «أيليان» وخشي فوات الفرصة. وكره أن يراجع أميره ثانية في الفتح خفية أن يعدل به عنه لما يعلم من إيثاره لرأي أمير المؤمنين. فركب إلى الأندلس فغزاها».

قال ابن الأثير: ودخل موسى بن نصير الأندلس في رمضان سنة ثلاث وتسعين «في عشرة آلاف من العرب والبربر واستخلف على المغرب ابنه عبد الله» وكان قد بلغه ما صنع طارق «وما فتحه من البلاد» فحسده فلما عبر إلى الأندلس ونزل الجزيرة الخضراء قيل له: تسلك طريق طارق فأبى. فقال له الإدلاء: نحن ندلك على طريق اشرف من طريقه. ومدائن لن تفتح بعد. ووعده «يوليان» بفتح عظيم فسر بذلك وكان قد غمه» ففتح موسى في طريقه مدنا منها اشبيلية و»قرمونة» و»شذونة» و»ماردة». قال ابن الأثير: وسار موسى من مدينة «ماردة» في شوال يريد «طليطلة» فخرج طارق إليه فلقيه فلما أبصره نزل إليه. فضربه موسى بالسوط على رأسه. ووبخه على ما كان من خلافه ثم سار به إلى مدينة طليلطلة... وسار موسى إلى سرقسطة ومدائنها فافتتحها وأوغل في بلا الفرنج».

قال الشيخ التعالبي: «ومكث موسى في الأندلس إلى سنة 95 فاتحا إلى أن وصل إلى مدينة «لوتون» وهي آخر ثغور القوط فوقف عندها دون أن تنكس له راية أو يهزم له جند».

وجاء في كتاب «بهجة النفس» أن المسلمين لما بلغو مدينة «لوتون» لم يتركوا وراءهم

شيئا لم يتغلبوا عليه إلا جبال «قرقرشة» و»نيبلونة» و»قشتالة» وهي من الغلطات الحربية الفادحة. ولو احتلوها -وكان أمراها ميسورا- لقضوا نهائيا على أوروبا.

أن هذه الغلطة الصغيرة التي ارتكبها موسى في الأندلس قد استحالت على مر السنين إلى خرق كبير عسر سده على المسلمين في الأندلس. بعد انقسامهم إلى دويلات وطوائف. فقد جعلت النصرانية تلك الهضاب التي اعرض عنها المسلمون ملجأ للثوار الصليبيين والناقمين على الحكم الإسلامي. يتحصنون فيه ويغيرون منه على البلاد الإسلامية آنا فآنا. إلى أن اشتد باسهم فاجدلوا المسلمين أولا عن «قشتالة» ثم مازالوا يطاردونهم من مكان حتى اجلوهم عن الأندلس».[1]

أن توقف موسى في جبال قرقوشة وغيرها في شمال الأندلس فلم يفتحها ليست غلطته بل هي غلط الوليد بن عبد الملك.

وكان موسى قد وجد في الجند البربري الباسل ومن معه من الجيش العربي الشجاع قوته الكبرى فعزم أن يحتل شمال الأندلس وجنوب أوروبا كله وتركيا حتى وصل الشام فيربط المغرب بدمشق من جهة الشمال كما ارتبط به من جهة الشرق فيكون «بحر المسلمين»[2] كله للدولة الإسلامية ساحله الشمالي والجنوبي. ويحقق ما كان يراه المسلمون من فتح القسطنطينية من جهة الأندلس.

رجوع موسى إلى المغرب

وكان موسى بن نصير بطلا مقداما. فوجد من البربر قوة جديدة ضاعفت كل المضاعفة قوته من العرب وغيرهم فتضاعفت في شجاعته واعتداده بنفسه. وفي طموحه ومضائه. وأورثته بطولة البربر ما أورث فرسان نوميديا المغاوير -وكانوا بربرا- حنبعل القرطاجني من جرأة وإقدام. فقطع إلى «روما» جبال الألب من اسبانيا. وسلك إليها طريقا لم يقطعه جيش قبله في التاريخ ! ولكن الوليد بن عبد الملك أشفق على المسلمين من هذه المغامرة فأرغم موسى على التقدم إلى جبال قرقوشة وغيرها والى جنوب أوروبا فرانسا. وايطاليا. ويوغوسلافيا. وبلغاريا. والى تركيا. فلم يسع موسى إلا الرجوع. وهو يتحسر على ما فوت عليه الوليد من خير كبير للإسلام والمسلمين ولأوروبا أيضا. فولى ابنه عبد العزيز على الأندلس وترك معه حبيب بن أبي عبيدة بن عقبى بن نافع وزيرا. فشمر عبد العزيز فقام بأعمال كبيرة في الأندلس. وكان شجاعا كابية. فرجع

---

1 - محاضرات الأستاذ الكبير التعالبي «فتح العرب لشمال افريقية» نشرت في جريدة الضياء المصرية.

2 - هو البحر الأبيض المتوسط بحرنا العزيز. ويسمى قديما بحر الروم. وبحر العرب. ونحن نسميه التسمية الواسعة الفخمة فنقول «بحر المسلمين».

موسى إلى افريقية في سنة خمس وتسعين بعد سنتين قضاهما في الأندلس قام فيهما بأعمال جليلة.

قال ابن عذارى في «البيان المغرب» وفي سنة 95 انصرف موسى من الأندلس إلى افريقية بما أفاء الله عليه، فأجاز الأموال من الذهب والفضة والجواهر في المراكب إلى «طنجة» ثم حملها على العجلات. قال الرقيق: كانت وسق مائة عجلة وأربع عشرة عجلة. وكانت المائدة من ذهب يشوبه شيء من الفضة، ومطوقة بثلاثة أطواق، طوق ياقوت، وطوق زبرجد، وطوق لؤلؤ. وحملت يوما على بغل عظيم افره وأقوى ما وجد، فما بلغ المرحلة حتى تفتحت قوائمه. قال الليث بن سعد لم يسمع قد بمثل سبايا موسى بن نصير في الإسلام. ولما قدم عليه ابنه مروان من السوس «المغرب الأقصى» خرج للقائه مع وجوه الناس التقيا قال مروان بن موسى لرجاله: مروا لكل من خرج مع والي بصيف أو وصيفة ! وقال موسى مروا انتم لهم من عندي بمثل ذلك ! فرجع الناس كلهم بوصيف ووصيفة» الظاهر أن هذا حدث قبل فتح الأندلس أيام غزو موسى لأنحاء المغرب وحشره من وجد من السبي فيها، وارتكابه تلك الأغلاط التي أنكرت عليه. وفي آخر سنة 95 وصل موسى من الأندلس إلى القيروان. وفي سنة ست وتسعين رحل إلى المشرق فاستخلف على القيروان ابنه عبد الله، فكان أميرا على المغرب الأدنى والأوسط، وعلى المغرب الأقصى ابنه عبد الملك، وعلى الأندلس ابنه عبد العزيز فحصر إمارات المغرب كلها في أبنائه ! وكان رجوع موسى إلى المشرق في أبهة كبرى، وفي قافلة عظمى،وفي كنوز وأموال لا تحصى. قال ابن عذارى:» ثم رحل موسى من افريقية مع بقية أولاده مروان،وعبد الأعلى وغيرهما،ومعه أشراف الناس من قريش والأنصار وسائر العرب، ومن وجوه البربر مائة، منهم بنو كسيلة بن لمزم، وبنو يسدر ومزدانة، ملك السوس، وملك ميورقة ومنورقة، ومن أولاد الكاهنة، ومائة من وجوه ملوك الروم[1] الأندلسيين، وعشرون ملكا من ملوك المدائن التي افتتحها بافريقية، وخرجوا معه بأصناف ما كان في كل بلد من طرفها حتى انتهى إلى مصر، فلم يبق بها فقيه ولا شريف إلا وصله وأعطاه، ثم خرج من مصر متوجها إلى فلسطين فتلقاه آل روح بن زنباع ونحروا له خمسين بعيرا، وأعطى آل روح بن زنباع عطاءا جزلا. ثم وافاه كتاب الخليفة الوليد بن عبد الملك يأمره بشد السير إليه، ليدركه في قيد الحياة، وكان مريضا، ووفاه كتاب من سليمان بن عبد الملك ولي عهد أخيه الوليد يأمره بالتأني والتربص، فأسرع موسى ولم ينظر في كتاب سليمان إلى أن وصل إلى الوليد قبل موته بثلاثة أيام. فقال سليمان: لئن ظفرت به لأصلبنه ! فدفع موسى الأموال والمائدة والدر

1 - يريد بالملوك الأمراء المتسلطين المستقلين في نواحيهم. ويريد ابن عذارى بالروم هنا القوط لا الروم اللاتينيين. وملك ميورقة ومنورقة ليسا بربريين.

والياقوت والتيجان والذهب والفضة إلى الوليد ابن عبد الملك. قال المسعودي في كتابه «عجائب البلاد والزمان» قال:لما فتح طارق طليطلة، وجد بها بيت الملوك ففتحه، فوجد فيه زبور داود عليه السلام في ورقات من ذهب مكتوبة بماء ياقوت محلول من عجيب العمل الذي لم يكد يرى مثله، ومائدة سليمان، وأربعة وعشرين تاجا منظومة، بعدد ملوك القوطيين بالأندلس، إذا توفي احدهم جعل تاجه بذلك البيت، ووجد فيه قاعة كبيرة مملوءة بإكسير الكيمياء فجعل ذلك كله إلى الوليد بن عبد الملك.



نكبة موسى بن نصير

قال ابن عذارى: وفي سنة 96 توفي الوليد بن عبد الملك فأوقف في يوم شديد الحر في الشمس، وكان رجلا بادنا ذا سمنة فوقف حتى سقط مغشيا عليه. وقال غير ابن عذارى، انه عرضه على السيف إرهابا له وإهانة. قال ابن عذارى: فقال له سليمان: كتبت إليك فلم تنظر في كتابي !! هلم مائة ألف دينار . فقال: يا أمير المؤمنين قد أخذتم ما كان معي من الأموال، فمن أين لي مائة ألف؟ [1] فقال سليمان: لابد من مائتي ألف، فاعتذر، فقال، لابد من ثلاث مائة ألف دينار وأمر بتعذيبه، وعزم على قتله، فاستجار بيزيد بن المهلب، وكانت له حظوة عند سليمان . فستوهبه منه وقال: يؤدي ما عنده. وقيل أن موسى افتدى من سليمان بألف ألف دينار «وهو مليون بحساب هذا الزمان».

قال ابن عذارى: وقيل أن سليمان بن عبد الملك بعد ما افتدى منه موسى دعا يوما بطست من ذهب فراه موسى ينظر إليه فقال له: يا أمير المؤمنين انك لتعجب من غير عجب والله ما احسب أن فيه عشرة آلاف دينار. والله لقد بعثت إلى أخيك الوليد بتنور[2] من زبرجد اخضر، كان يصب فيه اللبن فيخضر، وترى فيه الشعرة البيضاء. ولقد قوم بمائة ألف دينار وانه لمن أدنى ما بعثت إليه. ولقد أصبت كذا وكذا وجعل يعدد كما أصاب من الدر والياقوت والزبرجد حتى انتهى بهت سليمان من قوله.

وخرج سليمان يوما يتصيد معه موسى بن نصير فمر في منية[3] لها ذو وغنم يكون فيها نحو ألف شاه فالتفت إلى موسى وقال له، هل لك مثل هذه؟ فضحك موسى وقال: والله لقد رأيت لأدنى موالي أضعاف هذه ! فقال سليمان: لأدنى مواليك؟! فقال: نعم. والله نعم والله ورددها مرارا. وما هذه فيما أفاء الله علي؟ لقد كانت الألف شاه تباع بعشرة دراهم. كل مائة بدرهم. ولقد كان الناس يمرون بالبقرة والغنم فلا يلتفتون إليها. ولقد رأيت الذود من الإبل بدينار. ولقد رأيت العلج الفاره وامرأته وأولاده يباعون بخمسين درهم» لقد نقلنا هذه القصة التي وردت في الجزء الثاني من البيان المغرب مع وصف التنور لنرى الدرجة التي كانت عليها الأندلس والمغرب في الحضارة والغنى والعمران، وإسراف موسى في السبي حتى بخس عند الناس.

1 - الظاهر أن هذا بعد استصفاء سليمان لأموال موسى وأموال آل بيته، وإلا فانه قبلها يستطيع أن يدفع أضعاف هذا.

2 - ورد في القاموس أن التنور «هو كانون يخبز فيه» وهو كالفرن الآن.

هكذا ورد منية إما أن يكون اسم مكان أو أن القوم كانوا يتمنون كما يقع في مثل هذه النزهة. أما الذود فيطلق على ثلاث من الإبل إلى الثلاثين.

3 - هكذا ورد منية إما أن يكون اسم مكان أو أن القوم كانوا يتمنون كما يقع في مثل هذه النزهة. أما الذود فيطلق على ثلاث من الإبل إلى الثلاثين.

غزو جزيرة سردانية

ومن أعمال موسى بن نصير في المغرب غزوة لجزيرة سردانية. وكان ذلك بعد غزو طارق للأندلس. وكأنه أراد بذلك أن يشعر الروم وأهل الجزر المجاورة للمغرب بقوته فلا يتوهمون أن المغرب صار اعزل بمسير جيشه إلى الأندلس فتحدثهم نفوسهم بالغارة عليه. قال ابن الأثير: هذه الجزيرة -سردانية- في بحر الروم، وهي من اكبر الجزائر، ما عدا جزيرة صقلية واقريطش، وهي كثيرة الفواكه، ولما فتح موسى بلاد الأندلس سير طائفة من عسكره في البحر إلى هذه الجزيرة سنة اثنتين وتسعين فدخلوها. وعمد النصارى إلى مالهم من أنية الذهب والفضة فالقوا الجميع في الميناء الذي لهم، وجعلوا أموالهم في سقف بنوه للكنيسة العظمى التي لهم تحت السقف الأول، وغنم المسلمون فيها ما لا يحد ولا يوصف، وأكثروا الغلول، فاتفق أن رجلا من المسلمين اغتسل في الميناء، فعلقت رجله في شيء فأخرجه فإذا هي صحفة من فضة واخذ المسلمون جميع ما فيه، دخل من المسلمين إلى تلك الكنيسة فنظر إلى حمام فرماه بسهم فأخطأه ووقع في السقف فانكسر لوح فنزل منه شيء من الدنانير واخذوا الجميع وازداد المسلمون غلولا، فكان عضهم يذبح الهرة ويرمي ما في جوفها فيملؤها دنانير ويخيط عليها ويلقيها في الطريق فإذا خرج أخذها، وكان يضع قائم سيفه على الجفن ويملؤه ذهبا فلما ركبوا البحر غرقوا عن آخرهم فوجدوا أكثر الغرقى والدنانير على أوساطهم.

ولو كان موسى يقسم الغنائم على الجند كما أمر الله، ولو كان يتعفف في الغنائم فلا يصرفها إلا في وجوهها لتعلم جنده الأمانة، ولكنه كان يحتجن لملوكه فيحرم الجند مما لهم في الغنائم فعلمهم الغلول، وجعلهم ينهبون ما يستطيعون إخفاءه قبل أن تختفي الغنائم في خزائن موسى. إن الناس على دين ملوكهم، والرعية على مذهب خاصتها، والجند على طرية أميرهم، ينسجون على منواله، ويحاكونه في أفعاله. لقد أثقل الجند أنفسهم بالغلول الذي حرمه الله فغرقوا، وغرق موسى كان اشد. لقد أثقل نفسه بالأموال والسبي الذي أخذه من وجوه غير مشروعة. فغرق في عرق تعذيبه، وفي جموع أحزانه، كما غرق أبناء عبد العزيز وموسى في دمائهما، وتقطع كبده أسى لما وضعت رأساهما أمامه.[1] إنها نهاية لا نرضاها لموسى، الرجل الشجاع الذي اتصف في ميادين الحروب والإدارة بكل ما يشرف الرجال. ولكن المرء إذا لم يجعل دليله. ولم يحكم شريعة الله في كل أموره، فانه يكون بلاءا عليه ما هو نعمة وسعادة ! فلو اتبع موسى في المغرب طريق حسان العظيم، ونهج منهجه لكانت خاتمته رضية، ونهايته حسنة، وآثاره في المغرب كآثار حسان العظيم، البطل الأمين.

1 - انظر حادثة قتل عبد الله وعبد العزيز ابني موسى في فصل محمد بن يزيد الذي يلي هذا.

وفاة موسى

ثم أن موسى حج في سنة 98مع سليمان بن عبد العزيز الملك فلما وصل المدينة وافاه اجله. وكان ميلاده في سنة 19 ووفاته في سنة 98 وعمره 79 عاما. وقد ولي على المغرب في سنة 78 ورحل منه في سنة 96 فكانت مدته في الولاية تسع سنين ولم تكن نهايته حسنة كنهاية حسان فما هو السبب يا ترى؟

نهاية موسى بن نصير

لم تكن نهاية موسى بن نصير نهاية حسنة تسره، ولم يكن موقف البلاط الأموي منه في آخر الأمر، وهو الذي جاهد وسلك كل الطرق لاسترضائه، يرضيه. لقد أنكر سياسته في المغرب كثير من الأمراء الأمويين، منهم سليمان بن عبد الملك وعمر ابن عبد العزيز. لقد أنكروا مبالغته في السبي، وعدم عدله في البربر، واحتجانه للأموال، وتفريقها في الأولياء والأنصار، وهي لبيت مال المسلمين يجب أن تدفع إليه. ولصالح المغرب وثغوره يجب أن تصرف فيها، وللجند الذين غنموها يجب أن تقسم عليهم بالعدل. وأنكروا عليه عمله لنفسه لا للدولة، واستئثاره بإمارات المغرب والأندلس. لقد أسندها كلها إلى أبنائه، وفي المسلمين الذين في المغرب من هو أكثر كفاءة، وأحسن في العدل والأمانة. وأنكروا عدم ورعه في أموال الدولة، وقلة أمانته وتحرجه فيما يحشر لهم من المال. روى ابن عبد الحكم، أن سليمان بن عبد الملك بينا هو يقلب الهدايا التي جاء بها موسى بن نصير يقال له عيسى بن عبد الله الطويل من أهل المدينة وكان على الغنائم فقال، يا أمير المؤمنين أن الله قد أغناك بالحلال عن الحرام، واني صاحب هذه المقاسم، وان موسى لم يخرج خمسا من جميع ما أتاك به، فغضب سليمان، وقام عن سريره فدخل منزله ثم خرج إلى الناس فقال: نعم قد أغناني الله بالحلال عن الحرام، فأمر بإدخال ذلك بيت المال.

وكان عمر عبد العزيز، وسليمان بن عبد الملك، أكثر إنكارا لسلوك موسى في المغرب. وكان سليمان حانقا عليه، فلما ولي الملك بعد أخيه الوليد عاقب موسى ونكل به، وانتقم منه شر انتقام. فكان عبرة لغيره من العمال الذين تسيطر عليهم الأنانية، ويستولي عليهم حب المال، وتتحك فيهم الشهوات فيعملون لأنفسهم لا للرعية ويسعون لرضى الرؤساء لا لرضى الله!

لقد كان من أسباب غضي سليمان بن عبد الملك على موسى عدم اعتباره له، ومبالاته به. لقد كتب إليه سليمان أن يتمهل في سيره ليصل بعد موت الوليد. فتكون

غنائم الأندلس والمغرب وسبيهما وكنوزهما له فيتصرف فيها بحكمته، ويضعها حيث يريد، ولا تقع في أيدي الوليد فيفرقها في صنائعه،ويستأثر بها أبناؤه وأتباعه. فلم يبال موسى بكتاب سليمان فأسرع في سيره، فوصل إلى الوليد قبل مماته بثلاثة أيام، فدفع إليه ما معه، فحرم منها سليمان، وارزأه في طرف وسبي وكنوز لا نظير لها.

أن سليمان لم يظلم موسى بانتقامه منه، وتنكيله به. فالله هو الذي سلطه عليه عقابا له لعدم عدله في رعيته، وعدم تمسكه بالدين في سياسته. أن موسى هو الذي صنع تلك النهاية السيئة لنفسه. فلو حرص على إرضاء الله، فتقيد في سياسته بالدين، لنال رضا الناس مع رضاه، ولكنه حاول أن يرضي الناس بكل الوسائل، ويملك حب رؤسائه بكل الطرق، حتى المحظور منها، كحشره الأموال لملوكه بدون أن يخمسها، ويخرج نصيب بيت المال منها، وعدم توزيعه غنائمه بالعدل على الجند الذين غنموها، فعلمهم الغلول، وعد الأمانة، وعرضهم لاسوإ عاقبة، وظلمه للبربر بما اخذ من أموالهم وسبي من ذراريهم، فعاقبه الله بان اسخط عليه من عصاه لاسترضائه وتنكب دينه لنيل حبه، وجعل المال والسبي الذي ظلم فيه، وتعدى حدود الله في جمعه سبب نكبته، وأشعره بحرقة كالتي أورثها للمغرب باجحافه في سبيه. وهكذا كل وال لا يشعر الله قلبه في النهاية، ولا يملأ نفسه في الخاتمة، إلا بمثل ما اشعر به رعيته بسياسته، فان كان حرارة، فجمر الغضا هو ما يحشو به نفسه، بما يسلط عليه من البلايا والنكبات من جنس ما كان منه لرعيته.

إن مصيبة موسى انه كان مغرما بإرضاء ملوكه، ولم تكن رغبته الكبرى في إرضاء ربه. روي أن معاوية كتب إلى عائشة رضي الله عنها: أن اكتبي إلي كتابا توصينني فيه ولا تكثري علي. فكتب إليه: أما بعد فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس والسلام. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال:»من اسخط الله في رضا الناس سخط الله عليه، واسخط عليه من أرضاه في سخطه، ومن أرضى الله في سخط الناس رضي الله عنه من أسخطه في رضاه حتى يزينه ويزين قوله وعمله في عينه» هذا ما يجب على المؤمن أن يعتقده، ويجعله طريقه، لينال رضا الله ورضا مجتمعه، وتكون له المنزلة العظمى في الناس، ويعيش طول حياته عزيزا محترما.

أن موسى كان فاتحا عظيما، وبطلا مغوارا، وعالما بارعا، وعاقلا من عقلاء قومه ليس لنا ما نحتقره فيه من مواهبه العقلية، ولكن عدم تمسكه بالدين أورثه تلك الخاتمة السيئة.

أن الإنسان لا يسعد في الحياة بقوة ذكائه،ولا بكثرة علمه، ولا بغزارة ماله ولكن يسعد ويستطيب حياته، وينال كل حظوظه، باستقامة سلوكه، وصفاء طويته،وتمسكه بدينه، ومراقبته لله في كل ما يأتي ويدع من أعماله، فان لم يفعل ذلك اسخط ربه، فيجعل مزاياه العقلية وبالا عليه، وما أطغاه من نعم الله هو الذي يغرقه فيشرقه الماء الزلال، وتخنقه النعم التي يجعلها الله بلاء عليه.

أسباب النجاح والسعادة في الحياة

أن الاستقامة والعدل والتمسك بالدين هي -لا غيرها- سبب نجاح كل وال وكل موظف وكل راع، وعامل سعادته سعادة دائمة لا تعقب بالغصص، وهنائه هناء كاملا لا يقطع بالكدر، وثباته في قنته وعلياء وظيفته لا يتدحرج منها، واتصال حلاوة الأيام له لا تخرم بمرارة العواقب الوخيمة، والنهايات السيئة كنهاية موسى بن نصير!

أن حياة المرء تنبع من أعماقه، وتكون على حسب نفسه، فإذا كانت بيضاء بالدين، صافية بطهره، كانت أيامه بيضاء صافية،وحياته جميلة نقية، وإلا فان زق القطران لا يرشح إلا بالسواد، ولا يكون حوله إلا على قتامته، فما اسود به مكانه منه لا من غيره. أن ذنوبك أيها الإنسان هي التي تصبغ دنياك وحظك بسواد القطران، وتجعل أيامك سوداء منكرة كالغربان. أن دموع التوبة الصادقة من العصيان، هي التي تغسل ذنوبك وتغسل أيامك فتكون لك حمائم بيضاء، تقبل عليك بالسعادة والرضاء!

إن رأس مال المرء الرابح هو فضائل الدين! ومن أراد لأبنائه سعادة، ولنفسه بأبنائه خيرا، فليطبعهم بالدين، وليغرس فيهم الخلق الكريم، وليجعلهم بالتربية الدينية الصحيحة يراقبون الله فيما يأتون ويدعون، فان هذا هو أساس الفضل الذي يضمن كل الحظوظ، وسبب الاستقامة التي تورث كل سعادة، وعامل رضا الله الذي يضن لنا الرضاء بحظوظنا في الدارين.

ليت شعري هل سيعرف المغرب هذا كما عرفه أجدادنا فيأخذ به، امن سيستولي على شبابه حب المادة والإيمان بها، والثقافة الأوروبية اللادينية، وآثار الاستعمار اللعينة بمدارسه التي هي معاهد للتجميل بالدين، وصرف المسلمين عن سبب النجاح في الدارين، فيزهدون في هذه القاعدة -التمسك بالدين- وهي قاعدة لا يكون النجاح في الحياة بدونها![1]

1 - أن هذا الاستطراد إلى الشجون الأخلاقية والاجتماعية هو الذي يجعل للتاريخ زبدته وروحه، وليست خارجة عن نطاقه كما يتوهم من لا يعرف الغرض من التاريخ. انه للتربية قبل كل شيء.

إن موسى بن نصير كان ذكيا أريبا، وعاقلا رزينا، وكان في عقله على كل الفضائل ولكن لما جنح به الهوى، ولم يجعل للدين كل أزمته، ولم يكن لله بل كان لنفسه، كانت نهايته كما ترى؛ وهي نهاية لا نرضاها لفاتح عظيم؟، وبطل صنديد كموسى .ثم يأتي محمد بن يزيد فكيف تكون سياسته يا ترى؟

ولاية محمد بن يزيد 97 هـ

سليمان بن عبد الملك وإحسانه إلى المغرب

وفي سنة سبع وتسعين ولي على المغرب محمد بن يزيد مولى قريش. ولاه سليمان ابن عبد الملك. وكان سليمان للدولة الأموية وللمغرب خاصة أحسن من الوليد. كان ينكر سياسة الوليد للدولة، وعسفه للرعية، وعهد عدله في الناس، وتوليته الحجاج على العراق، وقرة بن شريك على مصر، وموسى بن نصير على المغرب. فلما ولى أحسن إلى الناس، وجبر خواطر الرعية التعيسة، وطب لجروح الدولة، فأنكف نزيفها، وطال عمرها. وجاء بعده عمر بن عبد العزيز فأصلح كثيرا من أغلاط الملوك الأمويين واحيا سيرة الخلفاء الراشدين،وعدل في الأمة عدلهم، فأورث للدولة الأموية قوتها وشبابها، وكون لها جمالها وازدهارها، فامتدت بها السنون، ولم يسرع إليها المنون ولولا سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز اللذان امتلكاها القلوب، وخلقا لها الأنصار، وبارك الله فيها بفضل عدلهما وحسن سيرتهما، لكانت قد لفظت أنفاسها في آخر القرن الأول أو في مطلع الثاني، فان الوليد رغم قوة شخصيته، فانه لم يكن مرضيا عند رعيته، لعدم أخذه في السياسة بدهاء والده وحكمته، وبعدم تمسكه بما أمر الله به ساسة الشعوب لرعاياهم. فولي سليمان فزال كثيرا من المظالم، وأنصف كثيرا من الجهات، وعزل كثيرا من الولاة الذين يظلمون ويستبدون، فتنفس المشرق والمغرب الصعداء، وأشرقت له الأيام البيضاء، وغسل صدور المغرب مما كان بها من سخط على الدولة، وملأه بالتفاؤل والرضاء.

وكان سليمان بن عبد الملك يجالس الفقهاء ويسمع مواعظهم فيرق لها، وتنهمر جموعه من شدة التأثر بها، لذلك تذر آخرته أكثر من الوليد،واخذ حظه من دنياه أكثر منه،وكان أحسن للرعية،وألطف بالأمة.

أن الصدور التي تغمرها دموع الخشوع والخشية لله هي التي تخصب بالخير، وتلين للناس،وتكون لعباد الله ربيعا لا شتاء !

وكان من حسنات سليمان الكبرى، ومن خيره على الأمة استخلافه لعمر بن عبد العزيز. وكان عبد الملك قد أوصى بالملك بعد سليمان لابنه يزيد فرأى سليمان أن عمر بن عبد العزيز أليق للدولة، فهو الذب يجدد شبابها، ويبني مجدها، ويسعد المسلمين، فاستخلفه فكان هو رأس الدولة بعده.

روى ابن الأثير: أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ذكر عنده ظلم الحجاج وغيره من ولاة الأمصار أيام الوليد بن عبد الملك فقال: الحجاج بالعراق، والوليد بالشم، وقرة بمصر، وعثمان بالمدينة، وخالد بمكة! اللهم قد امتلأت الدنيا ظلما وجورا، فأرح الناس. فلم يمض غير قليل حتى توفي الحجاج[1] وقرة بن شريك في شهر واحد، ثم تبعهم الوليد، وعزل عثمان وخالد، واستجاب الله لعمر.

وكان الناس يقولون سليمان مفتاح الخير: ذهب عنهم الحجاج، وولي فأطلق الأسرى، وأخلى السجون، وأحسن إلى الناس».[2]

وكان سليمان قد أنكر سياسة موسى بن نصير في المغرب، ورأى بذكائه أن المغرب لابد يثور عليه انم لم يداو جراحه بسياسة عادلة، وبوال حكيم، وبتأديب موسى واله الذين أساءوا إلى البربر وتفروا قلوبهم عن الدولة. وما كاد يتولى الملك حتى اهتم بالمغرب كل الاهتمام، فاستشار وزيره الحكيم، ومستشاره الأمين رجاء ابن حيوه فيمن يليق لولاية المغرب، وأراده رجلا ذا عقل ودين، وحنكة وعدل، يعمل لمصلحة الدولة لا لنفسه، ويحرص على هناء الرعية وسعادتها، لا يتعصب لقومه فيحتقره البربر فيثورون عليه، بل يعملهم بالحسنى، ويساويهم بغيرهم من المسلمين قال ابن عذارى:»فمكث رجاء بن حيوة أياما ثم قال لسليمان: قد وجدت رجلا له فضل! قال: من هو؟ قال: محمد بن يزيد مولى قريش. فقال ادخله علي، فادخله عليه. فقال سليمان يل محمد بن يزيد. اتق الله وحده لا شريك له. وقم فيما وليتك بالحق والعد. وقد وليتك افريقية والمغرب كله. قال: فودعه وانصرف وهو يقول مالي عذر عند الله ما لم اعدل».

آثار محمد بن يزيد الجميلة في المغرب

وكانت ولاية محمد بن يزيد في سنة سبع وتسعين. وكان حسن السيرة عادلا رفيقا بالرعية، مخلصا للجولة، فأحبه البربر ، اقبلوا عليه وخضعوا له.

وكان محمد حريصا على إسلام البربر، وعلى تعليمهم أمور دينهم، والأخذ بأيديهم إلى ما يسعدهم، فتم إسلام البربر في عهده، وانقطعت الوثنية منهم فسجدوا كلهم لله.

وكان محمد بهذا العدل في سياسته، والإحسان لرعيته، والحب والحدب لأهل المغرب، من الوجوه الجميلة التي رأى فيها البربر حسن الأمويين فاقبلوا عليهم، وسكنت نار السخط التي أضرمها موسى في قلوبهم.

1 - كانت وفاة الحجاج سنة 95.

2 - الكامل لابن الأثير ج 1.

وكان محمد بن يزيد محمودا في أفعاله بالمغرب. لقد سد الثغور، ونظم الأمور، وسكن النواحي الثائرة على الدولة، ومسح بيد العدل والإحسان على قلوب أهلها فانطفأت أحقادهم، وأرجعهم إلى حظيرة الدولة. وعاش المغرب ساكنا مطمئنا طول أيامه. وكان عهده عهد هناء وسكون وتقدم المغرب. وذلك بفضل سليمان الذي أحسن الاختيار، واشترط التقوى على محمد بن يزيد. فلولا التقوى ما كان محمد بن يزيد على العدل والإحسان، وما كان خادما للرعية يعطيها من نفسه، ويبذل في إسعادها كل جهوده. لولا التقوى لكانت الغرائز قد تسلطت عليه، فتستولي عليه العصبية، فيحتقر البربر ويعسفهم، ويسيطر عليه حب المادة فيجور في الأنفس والأموال، ويسلك طريق موسى فيبوء بعاقبته.

أن التقوى هي سبب الصلاح وعامل النجاح، نساس العدل واصله، وأم الديمقراطية ومنبعها، لذلك اشترطها سليمان على عامله في المغرب.

نكبة آل موسى ابن نصير

وكان سليمان غاضبا على موسى بن نصير وال بينه، وعلى خاصته وحشمه، لما احتجنوا من أموال المسلمين، واستأثروا به من أموال الدولة، ولظلمهم وسوء سيرتهم في المغرب، فعزم على تأديبهم، واستخلاص تلك الأموال منهم.

وكان عبد الله بن موسى قد خلف أباه في المغرب، فأمر سليمان محمد بن يزيد بمصادرة أموال عبد الله وأموال آل بيته وحاشيته، وكل من كان يفيض عليهم موسى من أموال الدولة، وأمر بتعذيبهم حتى يؤدوا ما يطالبون به من أموال. قال ابن عذارى: وفي سنة 97 من الهجرة استقر محمد بن يزيد بافريقية بأحسن سيرة وأعدلها، ثم وصله الأمر بأخذ عبد الله بن موسى بن نصير وتعذيبه، واستئصال أموال بني موسى. فسجنه محمد وعذبه، ثم قتله بعد ذلك «بأمر من سليمان» وكان سليمان قد أمره بأخذ أهل موسى وولده وكل من تلبس به، واستئصال أموالهم وتعذيبهم حتى يؤدوا ثلاثمائة ألف دينار «بقيت في ذمة موسى».[1]

قتل عبد العزيز ابن موسى

وكان عبد العزيز بن موسى قد ولاه أبوه على الأندلس. وكان أميرا جليلا، وقائدا شجاعا، فتح فتوحات كثيرة في الأندلس، وقام بأعمال حسنة فيها. ولما نكب سليما أباه، وقتل أخاه عبد الله، وأدب آل بيته، ثار في الأندلس فخلع طاعة بني مروان. قال النويري في

1 - ما يرد بين قوسين في قول بعض الرواة بيس من ذلك الراوي بل من المراجع الأخرى.

نهاية الأرب[1]: فأرسل سليمان بن عبد الملك إلى عبد العزيز بن موسى رسولا «ليرجع إلى الطاعة» فلم يرجع. فكتب سليمان إلى حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ووجوه العرب سرا بقتله. فلما خرج عبد العزيز إلى صلاة الصبح قرأ فاتحة الكتاب، ثم قرأ الحاقة فقال له حبيب: حقت عليك يا ابن الفاعلة! وعلاه بالسيف فقتله، فحمل رأس عبد الله ورأس عبد العزيز ابني موسى حتى وضعا بين يدي أبيهما وعذب حتى مات».[2]

ولاية الحر بن عبد الرحمان على الأندلس

وكانت الأندلس تابعة للمغرب وجزءا منها، يولي عليها عامله من يشاء. فاستعمل محمد بن يزيد على الأندلس بعد مقتل عبد العزيز الحر بن عبد الرحمات القيسي.

وكانت أيام محمد بن يزيد في المغرب خير أيام. كان يبعث السرية إلى ثغور افريقية فتغزو الجزر القريبة من المغرب فما أصابوه من مغنم قسمة عليهم، بعد أن يأخذ منه نصيب بيت المال، ولا يحتجنه لنفسه، ولا يظلم الجند فيما غنموه، فكان مثالا حسنا لرعيته في العدل والأمانة،والعمل لخير الدولة، والغيرة على المصلحة العامة، فساد الهناء في المغرب، وعكف أهله على البناء ولتشييد، وجد محمد بن يزيد في نشر الدين فتم إسلام المغرب في عهده، وانقطعت الوثنية من البربر ودخلوا كلهم في الإسلام، فلم يعد في المغرب إلا امة واحدة هي الأمة الإسلامية. أما النصرانية فقد بقيت عليها طوائف من الروم اجتنب في البلاد.

آثار الهجرة إلى الأندلس في تعريب المغرب

وكانت أفواج المهاجرين من عرب المشرق تترى على الأندلس لاستيطانها فيمرون من المغرب فكثر اختلاط العرب بالبربر فكان ذلك من أسباب انتشار العربية في المغرب وشيوع لغة الضاد في الأمازيغ. ولولا هذه الهجرة لكانت العربية ضعيفة في المغربين الأوسط والأقصى.

وفاة سليمان وعزل محمد ابن يزيد

وفي سنة تسع وتسعين توفي سليمان بن عبد الملك فكانت مدته في الملك سنتين وثمانية أشهر وخمس ليال، وولي بعده سيدنا عمر بن عبد العزيز فعزل محمد بن يزيد وولي مكانه على المغرب ولى الله إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر. وكانت مدة

1 - الجزء 22 من نسخة دار الكتب المصرية المصورة.

2 - الظاهر انه يريد بتعذيبه أن هذا المنظر كان يؤلمه ويعذبه حتى مات لان موسى قد مات موته طبيعية في المدينة بعد ما عفا عنه سليمان.

محمد في الإمارة سنتين وأشهرا. وكان عهده بالمغرب صباحا باسما لعدله وكفاءته، ثم يعقب هذا الصباح الجميل ضحى مشرق سعيد ينتشي به المغرب فيصدح بأغاريد السعادة والأفراح، وذلك بإسماعيل بن عبيد الله الذي يخلف هذا الأمير الحبيب ويأتي بعده.

ولاية إسماعيل بن عبيد الله 100 هـ

وولي بعد محمد بن يزيد إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم في محرم مائة وهو حفيد أبي المهاجر دينار الذي أحسن إلى المغرب وفتح قلبه للإسلام ولاه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

خلافة عمر وشخصيته

وكان سيدنا عمر بن عبد العزيز قد ولى الخلافة في سنة تسع وتسعين لعشر بقين من صفر. فكان خير أمير، وأحسن من ولي من بني أمية جميعا. جدد في السياسة ما بلي من طرق الدين، وأحيا ما أندرس من عدل الإسلام، وتقيد في أعماله بقانون الله، وجعل الكتاب والسنة أمامه، وآخرته دائما أمامه، وجعل هذي الخلفاء الراشدين هديه، واتخذ جده الفاروق مثله الأعلى يحدوه في كل الأشياء.

وكان رحمه الله ورعا تقيا لا ينسى آخرته، ولا تتسلط عليه الشهوات فتذهله عن ربه. وكان رجلا عمليا طموحا، غير أن كطموحه كان إلى رضا ربه، وبلوغ ارفع الدرجات عنده، بخدمة عباده، ونصرة دينه،والقضاء على المنكرات والظلم الذي كان اغلب من تقدمه من الملوك الأمويين، فشمر عن ساعده فأصلح في الدولة ما افسد الأمويون الذين كانوا بظلمهم وعدم تقيدهم في السياسة بالدين، فطهر جهاز الدولة فعزل كثيرا من العمال والموظفين الذين يعملون لأنفسهم فيظلمون الرعية ويستبدون عليها، ويغشون الدولة ويضرونها، فولى بدلهم عمالا وموظفين صالحين يتسمون بالأمانة والدين، ويتحلون بالإخلاص والدراية، وعمد إلى أسباب الخلاف التي كانت تشقق عصا المسلمين، وتفرق جماعتهم، والتي أحدثها الملوك الأمويون ليتقوى بها حزبهم، ويضمنون بقاءهم في عرش الملك الذي اغتصبوه، فقضى على تلك الأسباب، من ذلك سب الإمام على رضي الله عنه، فان الأمويين كانوا يشتمونه في منابرهم، ويسبونه في خطب الجمع والأعياد، ويأمرون ولاتهم على الأمصار أن يلتزموا سبه في المنابر، ليصرفوا قلوب العامة عن آله، ويسدوا الطريق على آل البيت الذين كانوا أولى بالرئاسة وأحق بالزعامة.

وفد الأباضية إلى عمر بن عبد العزيز

وكان الأباضية يعظمون الإمام علي بن أبي طالب ويجلونه ويغارون عليه، فأسخطهم سب الأمويين له على المنابر، فلم يكد يتولى سيدنا عمر بن عبد العزيز حتى أرسلوا إليه وفدا من علمائهم وهم: جعفر بن السماك، وأبو الحر علي بن الحصين العنبري، والحتات بن الكاتب، والحباب بن كليب، وأبو سفيان قنبر البصري، وسالم بن ذكوان، فطالبوا الإمام

عمر بن عبد العزيز بإزالة هذه الفاحشة وقالوا له منددين: أن المسلمين يلعنون على المنابر !! فلابد بتغيير المنكر فأبدل اللعن بقوله تعالى:» إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون» إن هذا الوفد من علماء الأباضية من اكبر الأسباب في إزالة هذه البدعة التي شانت الدولة الأموية، وأسخطت القلوب المؤمنة عليها.

إنصاف عمر لآل البيت

ومن حسناته أيضا إنصاف آل البيت واحترامهم، وتعويض ما حرموه من عطائهم من بيت المال في عهود الملوك الذين سبقوه.

روى المسعودي قال: كتب عمر إلى عاملة بالمدينة أن اقسم في ولد علي بن أبي طالب «رضي الله عنه» عشرة آلاف دينار، فكتب إليه: إن عليا قد ولد له في عدة قبائل من قريش ففي أي ولده؟ فكتب إليه: لو كتبت إليك في شاة تذبحها لكتبت إلي أسوداء أم بيضاء؟ إذا أتاك كتابي هذا فاقسم في ولد علي من فاطمة رضوان الله عليهم عشرة آلاف دينار فطالما تخطتهم حقوقهم والسلام.

عدل عمر وشخصيته

وكان عمر بن عبد العزيز حريصا على اتخاذ المسلمين، فالتزم عدل الإسلام، وديمقراطية الدين، وترك جبروت الملوك الأمويين، وتعصبهم لأنفسهم، ميلهم إلى بني جنسهم،واحتقارهم وغطرستهم على سواهم، فملك قلوب الرعية كلها، ورضي عنه زمانه، وسعدت الدولة الأموية في عهده، وتنفس المسلمون في ظله الصعداء،واستشعروا السعادة والهناء، وظفروا بما اشتاقوا إليه من العدل والمساواة، وثني بأعنة رعيته إلى طريق الدين، وكانوا من قبل يغرمون بما يغرم به ملوكهم الذين كان حب الدنيا يملأ قلوبهم، والشهوات تتسلط عليه، فوجههم عمر إلى الدين، فتنافسوا في العبادة، وتجلببوا بالتقوى، وتباروا فيما ينيلهم رضا الله.

قال ابن الأثير: كان الوليد صاحب بناء واتخاذ المصانع والضياع، فكان الناس يلتقون في زمانه فيسأل بعضهم بعضا عن البناء، وكان سلميان صاحب طعام ونكاح فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن النكاح والطعام، وكان عمر بن عبد العزيز صاحب عبادة، فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن الخير: ما وردك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ وكم تصوم من الشهر؟

وجوب اعتناء المغرب بتاريخ عمر

إن عمر بن عبد العزيز هو إمامنا المرتضى، وخليفتنا العادل، اهتم بالمغرب فازدهر واعتنى بإسلامه فتم، فلابد بوقفة قصيرة في أبنائه، وما يرسم شخصيته، فانه من المثل العليا التي يجب أن نوجه إليها أبناءنا ونضعها أمامهم، ونغرس فيهم حبهم، ومن المثل العليا التي يحب أن نرسمها لساستنا، انه لزام عليهم أن يدرسوا تاريخ عمر بن عبد العزيز وتاريخ الخلفاء الراشدين ويقتدون بهم، ليكون الله معهم فيصلوا كل مراد: فان الله هو القوة التي يجب أن يتدرعوا بها ويعولوا عليها، ويقوموا أنفسهم فيها.

أن تاريخ عمر بن عبد العزيز الذي أحب المغرب واعتنى به، ورآه جزاء منه جزء من تاريخ المغرب، فلزام على ناشئتنا أن تعرف هذه الشخصية العظيمة، وهذا الأمير العادل، ولزام على المغرب أن يسمى أفخم مساجده، وأجمل شوارعه، وأحسن مدارسه الدينية باسم هذا الرجل العظيم تخليدا لذكراه، واعترافا بفضله.

نسب سيدنا عمر

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان، فوالده هو عبد العزيز بن مروان والى مصر الذي شكونا سيرته، وانتقدنا سلوكه، ولكن عمر لم ينزع إليه بل نزع إلى أمه الصالحة، ولم يتأر به بل تأثر بها رحمها الله، إن عبد العزيز كان مشتغلا بوظيفته، مستغرقا في أشغال إمارته، فلم يتفرغ لأولاده ليسكب فيهم روحه، فتركهم لامهم الصالحة فطبعتهم بدينها، وأنشأتهم على صلاحها.

أمه وأثرها فيه

أما أمه فهي أم عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكانت صالحة كجدها، قوية الشخصية، فأثرت في ابنها عمر وملأت بدينها وصلاحها، وحدثته عن جده عمر بن الخطاب وجعله مثله الأعلى في السلوك، وحببت إليه سيرته، وجعلته قدوته في الأخلاق.

وكانت وراثة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوية في حفيده عمر بن عبد العزيز فزادت بيئة أمه وتربيتها الصالحة لهذا الوراثة قوة وظهورا وسيطرة على سلوك عمر واتجاه، فكان نسيج وحده في بني مروان، ومتوجا بفضائل جده الفاروق، متقيا لله صافي الطوية، طاهر الدخلة، نقي النفس، جلدا، شجاعا، صريحا، ى يخاف في الله لومة لائم، عمالا في كل طريق يقربه إلى الله، متفانيا في خدمة المسلمين وإسعادهم لترتفع درجاته عند الله.

بيئة الزهاد والصالحين

وكان إلى هذه الوراثة الزكية من أمه يجالس أهل الزهد والصلاح، ويختلط بذوي التقوى والورع، ويؤثر من الخلطاء من يذكره بالله، ويقوده إلى طرق الخير والنجاح. فأثرت فيه هذه البيئة الصالحة فكانت هي التي تصبغه، فلم يتأثر بالبيئة الملوكية المادية التي كانت تدعو إلى ضد ما اتصف به عمر من تقوى ودين ومن عدل وتواضع. ولما ولي الخلافة، ورأى عباد المادة من أشعراء المتزلفين وغيرهم من عباد شهواتهم وأغراضهم الذين لا ينصحون الملوك بل يصورون لهم جورهم عدلا وفجورهم تقوى واستقامة، رأت هذه الطبقات المضللة التي لا تنصح ملوكها تقوى عمر فانجلت عنه، وتوارت عن ساحته، وأيست من وجود ما تريده عنده، وأعجب به أهل الزهد والتقوى وذوو النصح والإخلاص، والذين يغارون على مصلحة الدولة ويرونها مصلحتهم العليا، وعلى هناء الرعية ويعدونه غرضهم الأسمى، وما يحقق لهم الطمأنينة والهناء، فاقبلوا عليه، واجتذبهم هو إليه واختارهم حاشيته ووزراءه ومستشاريه، فكان يجالس من حضر منهم في مقره، ويراسل البعيدين عنه ويسألهم النصح والموعظة، فعاش مع صلحاء زمانه يؤثر فيهم ويتأثر بهم، فكان على ذلك الطهر الذي نرى، وعلى ذلك التوفيق الذي أناله رضا الأمة ورضا الله.

روى المسعودي في «مروج الذهب» قال لما استخلف عمر دخل عليه سالم السدى «من العلماء الزهاد» وكان من خاصته فقال له عمر، أسرك ما وليت أم ساءك؟ فقال: سرني للناس، وساءني لك. قال عمر: أني أخاف أن أكون أو بقت نفسي. قال ما أحسن حالك إن كنت تخاف !! قال، عظني. قال: أبونا آدم اخرج من الجنة بخطيئة واحدة!

وكتب طاوس إلى عمر«وكان من العلماء الصالحين»: إن أردت أن يكون عملك خيرا كله فاستعمل أهل الخير. فقال عمر: كفى بها موعظة».

كرهه للإمارة

وكان عمر يكره الإمارة، ويتهرب من الرئاسة، ويراها ثقلا يحاسب الله عليه، واجبات وفروضا سيناقشه الله فيها. ولما استخلفه سليمان بن عبد الملك في مرض موته بسعي من رجاء بن حيوة أخفى عليه رجاء وصية سليمان حتى فاجأه بها لما جمع الناس لبيعته، فلم يسع عمر إلا القبول لاعتقاده أن يزيد الذي لا يليق للإمارة هو الذي سيتقدم إذا تأخر هو، وانه سوف لا يخلفه إن لم يقبل من هو في طبقته في الدين أو أحسن منه،

وان الله سيحاسبه على تأخيره، وعلى كل فساد وظلم يقع في الدولة بتقدم بني عبد الملك الذين يتحكم فيهم الهوى لا الدين، وتسيرهم العصبيات والشهوات.

قال المسعودي: لما فرغ من دفن سليمان بن عبد الملك نودي الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، وحضر بنو مروان فاشرأبوا للخلافة، وتشوفوا نحوها، فقام الزهرى[1] فقال: أيها الناس، أرضيتم من سماه أمير المؤمنين سليمان في وصيته؟ فقالوا: نعم، فقرأ الكتاب فإذا اسم عمر بن عبد العزيز، ومن بعده يزيد بن عبد الملك. فقام مكحول فقال: أين عمر بن عبد العزيز؟ وكان عمر في أواخر الناس،فاسترجع حين دعي باسمه مرتين أو ثلاثا،. فاتاه قوم فاخذوا بيديه وعضديه، فأقاموه، وذهبوا به إلى المنبر، فصعد وجلس علا المرقاة الثانية، وللمنبر خمس مراقي، كان أول من بايعه من الناس يزيد بن عبد الملك، وقام سعيد وهشام ابنا عبد الملك فانصرفا ولم يبايعا، وبايع الناس جميعا « ثم بايع سعيد وهشام يعد ذلك بيومين أرغمهما كعب بن جابر صاحب شرطة سليمان، وهددهما بالقتل، وسد عليهما أبواب الشقاق».

قال رجاء بن حيوة لما كتب سليمان وصيته وعهد فيها لمن بعده ودفعها إلي «أتاني عمر بن عبد العزيز فقال أخشى أن يكون هذا اسند إلي شيئا من هذا الأمر فأنشدك الله وحرمتي ومودتي إلا علمتني أن كان ذلك حتى استعفيه الآن قبل أن تأتي حال لا اقدر فيها على ذلك. قال رجاء: ما أنا مخبرك. قال: فذهب عمر عني غضبان. قال رجاء: ولقيني هشام بن عبد الملك فقال: إن لي بك حرمة ومودة قديمة، وعندي شكر فأعلمني بهذا الأمر فإن كان إلى غيري تكلمت ولله علي أن لا اذكر شيئا من ذلك أبدا. قال رجاء، فأبيت أن اخبره، فانصرف هشام وهو يضرب بإحدى يديه على الأخرى ويقول: فإلى من إذا نحيت عني أتخرج من بني عبد الملك؟»[2] تلك هي نظرة الرجلين إلى الإمارة فعمر يراها ثقلا يهرب منه، وهشام يعدها غنما فيتهالك عليه!

ورعه

قال ابن الأثير: لما استقرت البيعة لعمر بن عبد العزيز قال لامرأته فاطمة بنت عبد الملك، إن أردت صحبتي فردي ما معك من مال وحلي وجوهر إلى بيت مال المسلمين فانه لهم، واني لا اجتمع أنا وأنت وهو في بيت واحد! فردته جميعه؛ فلما توفي عمر وولي أخوها يزيد رده عليها وقال: أنا اعلم أن عمر ظلمك فقالت: كلا والله. وامتنعت من أخذه. وقالت: ما كنت أطيعه حيا واعصيه ميتا! فأخذه يزيد وفرقه على أهله!

1 - وهو محمد بن شهاب الزهرى كان هو ومكحول من العلماء الأجلاء في عهد سليمان ابن عبد الملك.
2 - الكامل لابن الأثير ج 4 ص 153 ط المنيرية.

قالت فاطمة: ما كنت أطيعه حيا واعصيه ميتا! تلك لعمري شيم الحرة، وخصال المؤمنة،وصفات المرأة التي تسعد زوجها، ويرضى عنها الله. ليت شعري متى ترجع المرأة المسلمة إلى أخلاق دينها فتكون لزوجها كما كانت فاطمة لعمر ابن عبد العزيز. تطيعه حيا وميتا، وتحرص على رضاه في الحالين. ولا عجب أن تكون فاطمة كذلك فإنها بنت عبد الملك بن مروان، وزوجة عمر بن عبد العزيز! والوالد بتربيته الرشيدة، والزوج بسياسته الحكيمة هما سبب صلاح المرأة ورشادها. إنهما القالب الذي يشكل المرأة ويكونها. فإذا اعوجت نساؤنا في هذا العصر المائع فلضعف الآباء وفساد تربيتهم، وميوعة الأزواج وسوء سياستهم.

ذكر ابن الأثير أن ميمون بن مهران قال: قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: لما وضعت الوليد في حفرته نظرت فإذا وجهه قد اسود! فإذا مت ودفنت فاكشف عن وجهي ففعلت فرايته أحسن مما كان أيام تنعمه.

قال: واتاه أصحاب مراكب الخلافة يطلبون علفها فأمر بها فبيعت، وجعل أثمانها في بيت المال. وقال: تكفيني بغلتي هذه. ولما رجع من جنازة سليمان بن عبد الملك رآه مولى مغتما فسأله فقال: ليس احد من امة محمد في شرق الأرض ولا غربها إلا وأنا أريد أن اؤدى إليه حقه من غير طلب منه.

ولما ولي الخلافة قال لامرأته وجواريه: انه قد شغل بما في عنقه عن النساء، وخيرهن بين أن يقمن عنده أو يفارقنه. فبكين واخترن المقام معه.

رأيه في الملوك الأمويين

ولما ولي عمر الخلافة اخذ من أهله «بني أمية» ما بأيديهم، وسمى ذلك مظالم ففزع بنو أمية إلى عمته فاطمة بنت مروان فاتته فقالت له: تكلم أنت يا أمير المؤمنين فقال: إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذابا إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده، وتركم للناس نهرا[1] شربهم سواء، ثم ولي أبو بكر فترك النهر على حاله، ثم ولي عمر فعمل عملهما، ثم لم يزل النهر يستقي منه يزيد، ومروان وعبد الملك ابنه، والوليد، وسليمان، وقد يبس النهر الأعظم، فلم[2] يرو أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه فقالت له: إن بني أمية يحذرونك يوما من أيامهم. فغضب وقال: كل يوم أخافه غير

1 - يريد بالنهر موارد الدولة وبيت مالها. وقال شربهم سواء يعني يأخذ كل إنسان نصيبه. لا فضل لأحد على احد. ويزيد هو ابن معاوية . وعمر يريد أن الملوك الأمويين استأثروا بيت المال ينفقون منه في أغراضهم وأخلوه في شهواتهم وصنائعهم.

2 - لم هنا بمعنى لا.

يوم القيامة، فلا أمنت شره. فرجعت عمته إليهم فأخبرتهم وقالت: انتم فعلتم هذا بأنفسكم، وتزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده ! فسكتوا.

لما ولي الخلافة احضر قريشا ووجوه الناس فقال لهم :إن «فدك»[1] كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يضعها حيث أراه الله. ثم ولها أبو بكر كذلك، وعمر كذلك ثم اقطعها[2] مروان، ثم إنها صارت إلي، ولم تكن من مالي أعود منها علي، أني أشهدكم أني قد رددتها على ما كانت عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فانقطعت ظهور الناس ويئسوا من الظلم.

وقال عمر بن عبد العزيز لمولاه وكاتبه مزاحم، إن أهلي اقطعوني ما لم يكن لي أن آخذه،ولا لهم أن يعطونيه، واني قد هممت برده على أربابه قال: فكيف تصنع بولدك؟ فجرت دموعه وقال: أكلهم إلى الله.

وقال له ابنه عبد الملك « وكان تقيا مثله»: يا أمير المؤمنين. ما تقول لربك إذا أتيته، وقد تركت حقا لن تحيه، وباطلا لم تمته. فقال: يا بني. إن أجدادك قد دعوا الناس «دفعوهم» عن الحق فانتهت الأمور إلي وقد اقبل شرها وأدبر خيرها، ولكن أليس حسنا وجميلا أن لا تطلع الشمس علي في يوم إلا أحييت فيه حقا وأمت فيه باطلا حتى يأتيني الموت وأنا على ذلك؟

ولما مرض ابنه عبد امللك مرض موته، وكان من اشد أعوانه على العدل دخل عليه فقال له: يا بني كيف تجدك؟ قال أجدني في الحق. قال: يا بني: أن تكون في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك. فقال ابنه: يا أبتاه. لان يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب ! فمات في مرضه وله سبع عشرة سنة.

درجته العليا عند أهل عصره

قال محمد بن الباقر: إن لكل قوم نجيبة، وإن نجيبة بني أمية عمر بن عبد العزيز وانه يبعث يوم القيامة امة وحده.

وقال سفيان الثوري: «الخلفاء خمسة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعمر ابن عبد العزيز وما كان سواهم فهم منتزون» يعني مغتصبون لإمارة المسلمين.

1 - فدك قرية بخيبر في الحجاز فيها عين ونخل أفاءها الله نبيه صلى الله عليه وسلم.

2 - اقطع أعطى. يعني أن مروان أعطاها لأهله وولده وهي مال المسلمين.

مراقبة لله وتقواه

قالت فاطمة امرأته: دخلت عليه وهو في مصلاه ودموعه تجري على لحيته فقلت: احدث شيء؟ قال: أني تقلدت أمر امة محمد، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والغازي، والمظلوم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ الكبير،وذي العيال الكثير، والمال القليل،وأشباههم في أقطار الأرض، فعملت أن ربي سيسألني عنهم يوم القيامة، وان خصمي دونهم محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى الله، فخشيت أن لا تثبت حجتي عند الخصومة فرحمت نفسي فبكيت!

زهده وتقشفه

قال مسلمة بن عبد الملك: دخلت على عمر أعوده فإذا عليه قميص وسخ فقلت لامرأته فاطمة -وكانت أخت مسلمة -: اغسلوا ثياب أمير المؤمنين فقالت: نفعل ثم عدت فإذا القميص على حاله فقلت: الم أمركم أن تغسلوا قميصه؟ فقالت: والله ما له غيره! قيل وكانت نفقته كل يوم درهمين!

تلك هي حقيقة هذا الأمير العظيم سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ترسمها لك هذه المقتطفات التي نقلناها لك من سيرته. إنها قليل من كثير سطره المؤرخون لهذا الرجل العظيم.

كان لا يملك إلا ما على ظهره من الثياب! وعاش فقيرا وهو يستطيع أن يكون أغنى الأغنياء في زمانه. وكانت نفقاته في اليوم درهمين! إنها نفقة ابسط الناس عيشة في عصره! لقد احتقر الماديات الفانية، واغرم بما عند الله، واستكثر من ثوابه بخدمة المسلمين وإسعادهم.

لقد ازدهرت الدولة الإسلامية في زمانه، وإنضرت الأيام للمسلمين به، لأنه كان للدولة بتضحيته وتفانيه جذعا حيا يعطيها من نفسه، فاخضرت وازدهرت ودخلت ربيعها. ولو كان كملوك بني أمية الذين يرون الدولة روضا يرتعون فيه، وثديا يرضعون، لكانت على السهوم والتعاسة، والاصفرار كما كانت في زمانهم. ليت شعري متى تفرض دساتيرنا أن يدرس كل وال، وكل موظف سيرة الخلفاء الراشدين وسيرة عمر بن عبد العزيز ويتأثروا بها قبل أن يتولوا وظائفنا ليكونوا لنا كما كان أولئك لأجدادنا في خير القرون. إن هذه الشخصيات العظيمة أجدى من تاريخ رجالات أوروبا الهزيلة الذين لم يسعدوا أممهم كما اسعد خلفاؤنا الراشدون.

كان عمر بن عبد العزيز خيرا ه=على الأمة الإسلامية وكان خيرا كبيرا للمغرب.

اختياره للولاة والموظفين

وكان-رضي الله عنه- متحرجا في كل أموره، ويراقب ربه ي كل الأشياء، ويعلم انه مسؤول عن الدولة في كل النواحي، سيما في الولاة والموظفين، فاختارهم من ذوي الورع والكفاءة، ومن أهل الفضل والاستقامة، وجعل للدولة جهازا صالحا يورثها الصلاح والنجاح، ويوجه إلى ما يرضى الله، ويضمن للدولة قوتها وازدهارها.

وكان رضي الله عنه يعتني بالمغرب أكثر، ولبعده عنه، فهو لا يستطيع أن يراقب عامله فيه، ولإباء البربر وثورتهم على كل من يظلمهم ويتعدى حدود الله فيهم فبحث له عن رجل على حسب مزاجه، ومن الورعين الحازمين مثله، يعمل لله لا لنفسه ويرى الإمارة واجبات وفروضا ثقيلة لا مغانم ولذات، وحظوظا جميلة، ويعد الولاية وسيلة لأرفع الدرجات عند الله، فيجد ويجتهد فيما يرفع الدين، وينفع المسلمين، ويلتزم العدل في سياسته، ويتقيد بدين الله في معاملته لرعيته، فوجد هذه الصفات في إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر فولاه على المغرب.

نسب إسماعيل وشخصيته

وكان إسماعيل بن عبيد الله حفيد أبي المهاجر والى المغرب المحبوب من قبل مسلمة ابن مخلد، وقد ورث حفيده إخلاصه وحزمه وحكمته، ودهاءه وحسن تدبيره، يزيد ذلك ويؤكده ورع كورع عمر وتقوى الله كتقواه.

وكان إسماعيل من كبار التابعين، ومن علماء المسلمين،ومن أعلام الزاهدين، ومن أئمة المجتهدين في بناء آخرتهم باستنفاد دنياهم في أعمال البر والإحسان،وفي نفع عباد الله، والقيام بكل ما يورث الدين قوة، والمسلمين سعادة.

وكان عاقلا حصيفا، ومدبرا حكيما، وبطلا شجاعا، ومن الفقهاء في الدين، والمقتدين في السياسة بالخلفاء الراشدين.

وكان ورعا نقيا، ينكر ذاته فلا يعتني بها، ويحرص على مصلحته العليا، وهي ثوابه عند الله الذي تستقيم به دنياه، وتحلو به آخرته، فيمهرها بالتفاني في خدمة المسلمين والتضحية بكل شيء لإسعادهم وهنائهم.

قال معن التنوخي: ما رأيت في هذه الأمة «في الزهد» غير اثنين: محمد بن عبد العزيز وإسماعيل بن عبيد الله المخزومي. وبلغ من زهده انه كان إذا اقبل من الغزو في الصائفة افترش درعه فنام عليها، وكان هو وأم ولده وفرسه في بيت واحد زهدا منه في الدنيا

وتواضعا. وأوصى أن يتصدق عنه بكل شيء تركه بعد موته فأجاز هشام منه الثلث.

وكان متقشفا في عيشه، كان همه ورغبته أن يرى نضرة السعادة في وجوه رعيته، وعلامات الغنى على ملامح المغرب الذي يتولاه، وإشراف الثروة واليسار في الرعية التي يرعاها. فشمر عن ساعده فاعتنى بالمغرب من كل نواحيه، فنشطت الزراعة، وازدهرت التجارة، واقبل أهل المغرب في حماس ونشوة على الأعمال، فعمرت الأسواق، وازدهرت البلاد، وكانت كوجوه أهلها تطفح بالنصارة والسعادة، وسادت الإخوة والمحبة بين العرب والبربر، فازدادوا تقاربا وامتزاجا، ورأى المغرب في ظل إسماعيل أياما جميلة كجمال العدل الذي يلتزمه، والديمقراطية الإسلامية التي نشرها في المغرب.

وكان يعتني كل الاعتناء بتعليم البربر أمور دينهم، وتثقيفهم بالثقافة الإسلامية الصحيحة، فأسس كثيرا من المساجد في أنحاء المغرب فأقام فيها الفقهاء للوعظ والإرشاد، وانشأ بجانب كل مسجد مدرسة ابتدائية لأبناء البربر تعلمهم العربية والدين،وتربيتهم تربية دينية قويمة. فتم إسلام المغرب في عهده، وتفقه البربر في دين الله، وعرفوا حلاله وحرامه. وكانت كثير من الجهات البعيدة عن القيروان لا تعرف من الدين إلا الشهادتين. أما السلوك فهو ما اعتادت قبل الإسلام. وكان الخمر منتشرا في المغرب لا تعرف كثير من النواحي حرمته. فعرف البربر بفضل تعليم إسماعيل انه حرام، وعلموا إضراره للإنسان والمجتمع، فتركوه ونبذوه، وتقيدوا بالدين في السلوك، وتطهروا مما لا ينبغي من عاداتهم في الجاهلية.

وكان عهد إسماعيل عهد تربية وتعليم للبربر إذا كان عهد من تقدمه عهد دعاية لهذا الدين، واخذ بأيدي البربر إلى طريق المسلمين. وقد اعتنى سيدنا عمر بن عبد العزيز بتثقيف البربر وتعليمهم، وتمام إسلامهم، فأرسل مع إسماعيل إلى المغرب بعثة علمية لتعين إسماعيل في هذا الواجب الأعظم، وتنبث في أنحاء المغرب شرايين دين وعلم لتورثه ثقافته وإسلامه الصحيح.

بعثة سيدنا عمر العلمية إلى المغرب

وكان سيدنا عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- يعرف واجبه في المغرب كل المعرفة، وكان يعلم أن تمام إسلام المغرب أمانة في عنقه، وفرض عليه. وكان يعرف أن المغرب قد انتشر فيه الدين، واعتنق اغلب البربر فيه الإسلام، ولكن إسلاما سطحيا لا يقترن بالعلم بأسرار الدين، والتفقه في شريعة الإسلام، ومعرفة الحلال والحرام، فأرسل مع

إسماعيل إلى المغرب عشرة من العلماء التابعين، من ذوي الشخصيات القوية، والنفوس النيرة، والفقه في الدين، وأمرهم أن يتوزعوا في أنحاء المغرب فيفقهوا البربر في الدين، ويعلموهم الحلال والحرام، ليكون الدين في سلوكهم، كما كان في وجدانهم. فكان هؤلاء العشرة الأخيار اعضاد إسماعيل في تثقيف المغرب بثقافة الدين، وجهازه الأدبي في تقوية معنويات البربر. هؤلاء التابعون العشرة هم: أبو عبد الرحمان عبد الله بن يزيد المعافري الإفريقي الحبلي وقد سكن القيروان وتوفي بها في سنة مائة وفن بباب تونس.

والعالم الفيلسوف أبو مسعود سعيد بن مسعود التجيبي وسننقل ترجمته وطائفة من أقواله وحكمه.

وإسماعيل بن عبيد الأنصاري المعروف بتاجر الله. قال الشيخ عبد الرحمان الدباغ في كتابه «معالم الايمان» : وإنما سمي إسماعيل بتاجر الله لأنه جعل ثلث كسبه لله عز وجل يصرفه في وجوه الخير» وكان رجلا خيرا كريم النفس، سمح الخلق «من جملة ما روي من كرمه وجوده انه وجه رفقة المشرق فيها خدم مولدات فخرج يشيعهن إلى قصر الماء فسمع بكاءا فقال: ما هذا؟ فقال له: هؤلاء المولدات التي وجهت يبكين مع آبائهن وأمهاتهن وأخواتهن، فبكى إسماعيل وقال: إن دنيا بلغت بي أن افرق بين الأحبة لدنيا سوء. وأشهدكم أن كل من لها أب أو أم أو أخت في هذه الرفقة فهي حرة لوجه الله عز وجل. فانزل من المحمل سبعين مولدة فاعتقهن»[1] وكان يلبس جبة صوف،وكساء صوف، وقلنسوة صوف، ورغم غناه وذلك لزهده وجلده. «ولم يزل مقيمنا بالقيروان إلى أن حضرته نية في الجهاد فخرج في مركب متطوعا في غزوة عبد الله بن رافع إلى صقلية فغرق في البحر فمات وهو معانق للمصحف وذلك سنة سبع ومائة».

ومنهم أبو الجهم عبد الرحمان بن رافع التنوخي وقد توفي بالقيروان سنة ثلاث عشرة ومائة.

وأبو سعيد جعيل بن عاهان بن عمير الرعيني الغساني. كان فقيها صالحا ولاه هشام بن عبد الملك وتوفي قريبا من سنة خمس عشرة ومائة.

ومنهم موهب بن حبي المعافري سكن القيروان وبها كانت وفاته.

ومنهم طلق بن حبان الفارسي. وكان فقيها عالما، ومتقيا لله، مخلصا لدينه، انتفع به أهل المغرب، وله تلاميذ كثيرون.

1 - المولدة كالوليدة يطلق على الأمة المملوكة وقيل للتي ولدت بين العرب. الظاهرة أن إسماعيل كان تاجرا. إن العلماء في زمن أجدادنا كانوا يعظون لله ويعمرون المساجد بالدروس والإمامة والأذان وغيره لله، ويعتمدون على أنفسهم في معاشهم، فعاشوا أعزة مبجلين شجعانا.

ومنهم بكر بن سوادة الجذامي.

ومنهم إسماعيل بن عبيد الله الأعور. هذه هي البعثة العلمية التي أرسلها سيدنا عمر بن عبد العزيز إلى المغرب فانبثت في أنحائه تزرع النور والحياة، وتبث الهداية والاستقامة. ثم استقر اغلبهم بعد ذلك في القيروان فصارت بهم وبأمثالهم من الصحابة والتابعين الذين تقاطروا إلى المغرب فاستوطنوه، ودار علم ومعرفة، ويشد البربر إليها الرحال للتخلص في العربية والدين. وقد استقر هؤلاء في المغرب فصار وطنهم ورأوه دارهم، وذلك للانسجام الذي كان بينهم وبين البربر، وما وجدوه منهم من حب وإقبال، وإعزاز وتقدير، ولنظرتهم الواسعة إلى الوطن؛ فان وطن المسلم هي الديار الإسلامية كلها، سيما ما يحتاج إليه من الأوطان، وما يجب عليه القيام فيه بواجب علمي أو ديني أو سياسي، فان أجدادنا كانوا لا يكتفون بالاستقرار فيها والبناء بها بل يتزوجون منها أيضا فيعقدون بوطنهم الجديد آصرة المصاهرة مع الروابط الإسلامية، ووشائج الصداقة. ليت شعري متى يموت التكمش من الخمول الذي يجعل احدنا يعتقد أن وطنه هو مسقط رأسه فحسب فيرضى فيه بعيش الذل والهوان بالحياة الخاملة التي تقتل مواهبه، وتقضي على نبوغه ! ومتى يذهب التعصب الذي يجعل كثيرا من البلاد تعد المسلم من غيرها غريبا فيها. إن أجدادنا قد سبقوا الانجليز الذين نعجب بهجرتهم واستقرارهم بعيدا عن وطنهم لمصلحة دولتهم المادية، ومع أنهم أجانب في الأوطان التي يستقرون فيها، ومكروهون عند أهاليها. إن رجوعنا إلى التربية الصحيحة التي كان عليها أجدادنا لأبنائهم ومجتمعهم هو الذي يكفل لنا التحلي بهذا الخلق الذي يضمن لنا انتشار ديننا، وذهاب البؤس، والمساغب عنا، ويورثنا نضوجا في العقل والأخلاق، وعزة وكرامة في الحياة.

أبو مسعود التجيبي

وكان من العشرة التابعين رجل أعجب ببلاغته وفلسفته، وشجاعته الأدبية، سيما الشجاعة التي تجعل للعالم قيمته في مجتمعه، وآثاره العميقة في بيئته، وتجعله مجاهدا جهاده الأكبر، وهو تطهير النفوس، وتربية المجتمع، ومحاربة المنكرات والضرب على أيدي أهل الجور والفساد.

إن هذا العالم الشجاع الفيلسوف هو أبو مسعود سعيد بن مسعود التجيبي وسأنقل لك ما ورد فيه في «معالم الإيمان» ونبذة من أقواله. لترى أي مجالس كان يعقدها العلماء للعلم والحكمة في تلك العهود، وأي عمق كانوا عليه في التفكير مع بلاغة في

المنطق، وتأثر بكتاب الله العزيز. أنهم لم يكونوا على بساطة كثير من فقهائنا وعلى جمودهم، لان منهل أولئك الإعلام هو كتاب الله الذي يعلمون فيه عقولهم، فيكتسبون منه فلسفة وبلاغة ويرقى عقولهم فتكون على الإدراك العميق.

قال آلدباغ: سكن أبو مسعود القيروان، وبث فيها علما كثيرا. وكان رجلا صالحا، وعالما، مشهورا بالدين والفضل، قليل الهيبة للملوك، لا تأخذه في الله لومة لائم ! روي أن الريان بن عبد العزيز بن مروان «احد الأمراء الأمويين» بعث إليه رسولا فوجده في مجلسه في جامع الفسطاط «بمصر» مع أصحابه. فقال له» الأمير يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن رأيت أن تؤنسنا بنفسك العشية فافعل فقال: اقرأ على الأمير السلام،وقل له ليست لي إليك حاجة نأتيك إليها فان تك لك إلى حاجة فات إليها !! فاتاه الرسول فاخبره فقصد إليه الريان فلقيه فسلم عليه وقال له يغفر الله لد يا أبا مسعود. أتاك رسولنا فكان من كلامك له ما كان ! فقال له أصلح الله الأمير. دعوتني إلى ما يشينني، ودعوتك إلى ما يزينك. فقال له: كيف ذلك؟ قال: إن من رآك ماشيا إلى مدحك وقال ذا طالب علم وخير، ومن رآني ماشيا إليك قال ذا طالب حطام وعرض، فشانني. فقال له الريان: سليت ما كان يقلي ونورته نور الله قلبك وعملك» الظاهر أن الريان هذا شقيق عمر بن عبد العزيز وابن أم عاصم. ففي مشيه إلى أبي مسعود تواضع المؤمن، وفي كلامه رقة لا نجدها في أمراء بني المتغطرسين.

قال الدباغ: وروي أن سعيد بن مسعود صاح يوم الجمعة على أمير افريقية في وظلمة وقد خرج الأمير من الجامع: أنا بالله لا بك ! فقضى الأمير حاجته. وسئل سعيد عن علامة ولي الله فقال: من استفرغت آخرته دنياه،ومن كان الحق هواء، ومن لم يكن له شيء مما يسخط الحق رضاه، ومن كان الذكر قوله، والعلم يقينه، وفي بيوت الله تعالى مجلسه. وسئل أيضا عن علامة التوكل فقال: من رضي بحكم الله، واطمأن إلى موعد الله عز وجل، فكان عنده ما تكفل الله له به من رزقه بمنزلة ما قد بلغه وملكته يداه. وسئل أيضا عن علامة الحلم فقال: ومن كان مصيبا في قوله، حليما في غضبه، ذا عفو في قدرته، راض في منزلته، غير مفتون بما ليس له، قد استغنى بأمر آخرته عن دنياه. وسئل أيضا عن الطاعة هل تكون لها منزلة اشد من منزلة فقال: نعم. إذا كانت الطاعة في منازل ثقلها، ودافعتها المعصية في منازل دفعها، فهنالك اشتدت الطاعة على أهلها، فكان أعظم ما يكون من أجرها. يريد أبو مسعود أن الطاعة أصعب إذا عارضتها الشهوات، وكان طرقها خلاف ما تدعو إليه الغرائز. وسئل أيضا عن الذي يزين العالم عند من جالسه. فقال: كثرة صمته، وقلة غضبه، وحسن خلقه، ولينه وخشوعه

وتواضعه. وقال سعيد: إذا رأيت العبد دنياه تزداد، وآخرته تنقص، مقيما على ذلك راضيا به، فذلك المغبون الذي ينتقص دينه وهم لا يشعر. وكان يقول: حب الدنيا رأس كل خطيئة ! وقال: أحب الموت اشتياقا إلى ربي، وأحب المرض تكفيرا لخطيئتي، وأحب الفقر تواضعا إلى ربي. وتوفي أبو سعيد بالقيروان ودفن بها.

ذلك نموذج من كلام هؤلاء العلماء الذين تختارهم سيدنا عمر بن عبد العزيز للمغرب فحسن إسلام البربر بهم بما عرفوا من أسراره، ورسخ الدين في صدورهم بما عرفوا من حقيقته، وتثقفت عقولهم بدروس أولئك الرجال، واستنارت نفوسهم بروح أولئك التابعين الأطهار الذين كانت معانيهم تنبثق من ألسنتهم كلا ذما حيا يسطع للعقول، ووجدنا قويا يغمر النفوس، وليحاءا يشرقون به على السامع والجليس إشراق الشمس بنورها لا بد أن يتلبس به كل من تطالعه. وقد عرف البربر بفضل هؤلاء العلماء الذين هم خلفاء الأنبياء، بتقواهم، وإخلاصهم، وحماسهم، وعملهم لله أن الدين الإسلامي هو الدستور الذي ينظم المجتمع. ويرسم للإنسان الخطة الناجحة في كل أموره، وانه هو دين العدل والمساواة والحرية. يحرم الظلم ويأمر بقمعه، ويوجب على المسلم أن ينهي عن المنكر إذا رآه بكل ما يستطيعه، وانه ين المساواة وقتل العصبيات، «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى» ولا لمشرقي على مغربي إلا بالدين، وان الكفاءة والصلاح هي موجب التقدم للرئاسة، ولمهمات الدولة لا غيرها. فأحب البربر كل الحب دينهم، وازدادوا تمسكا به، وتقيدوا به في الأعمال، وصاروا من حماته، يثورون على كل إنسان يخرم قوانينه، ويتعدى حدود الله التي بينها؛ كما ازدادوا عزة بالإسلام، وشرفا عند أنفسهم بالدين الذي امتلأوا به. فارتفعت رؤوسهم، وازدادوا شموخا واعتدادا بأنفسهم لما سجدوا لله في الصلاة، وعرفوا منزلة المسلم عند الله، وقيمته الكبرى في الوجود. فصار للبربر مع عزتهم الموروثة عزة أخرى من دينهم، فتعذر خضوعهم لمن يريد أن يسوسهم بالعصا، ويعملهم بالجبروت، وينتهك شريعة الله في سياسة الشعوب. وقد استقر هؤلاء العلماء في المغرب يشرقون أشرافهم حتى بعد وفاة سيدنا عمر بن عبد العزيز، وعزل إسماعيل بن عبيد الله.

القضاء

واختار سيدنا عمر بن عبد العزيز لقضاء المغرب عبد الله بن المغيرة ابن أبي بردة الكناني. وكان رجلا على صلاح عمر وورعه، وعلى علمه وحرمه، ودهائه وحسن تدبيره. وكان شبيها بوزير العدل في هذا الزمان، يعين مع الأمير القضاء على النواحي، ويرجع

إليه في النوازل الكبرى التي تستعصي على فروعه. وقد أقام عبد الله قاضيا إلى زمن كلثوم بن عياض فاستعفى من القضاء وذلك سنة ثلاث وعشرين ومائة. ولعل استعفاءه لفساد الأمور في تلك الحقبة، وظلم الأمويين وعدم تقيدهم في الإدارة بدين الله.

انقراض المسيحية من البربر

وفي أيام إسماعيل عم الإسلام البربر كلهم فلم يعد فيهم من يدين بالمسيحية، فتوحد المغرب بالدين فلم يعد فيه إلا المسلمون. وبقيت المسيحية في الروم والأوروبيين الذين كانوا يرون أنفسهم أجانب في المغرب وقد هاجر أكثرهم إلى جنوب أوروبا، ومن بقي عاش محترما سعيدا مونا بين المسلمين.

وفاة وعزل إسماعيل

وكانت أيام إسماعيل في المغرب زاهية جميلة، وكانت عامرة بالأعمال الجدية، والمشاريع البناءة. ولما توفي سيدنا عمر بن عبد العزيز سنة إحدى ومائة وجاء يريد ابن عبد الملك وكانت شخصيته خلاف شخصية عمر، ونظرته إلى المغرب غير نظرته عزل إسماعيل عن المغرب فكانت مدته في الولاية سنتين وأشهرا، فولى يزيد بن عبد الملك يزيد بن دينار كاتب الحجاج وصاحب شرطته، فاخرج البربر من الحرير إلى شوك القتاد، ومن الظل الظليل إلى الهواجر المتقدة، فكيف سيكون موقف الأمازيغ من تلميذ الحجاج، وماذا ستكون نهاية هذا الوالي الجديد؟

ولاية يزيد بن دينار 102 هـ

ولما ولى يزيد بن عبد الملك في سنة إحدى ومائة ولي يزيد بن دينار على المغرب في سنة اثنين ومائة. واسم والد يزيد دينار وكنيته أبو مسلم.

ويزيد بن دينار هو كاتب الحجاج وصاحب شرطته. وإذا عرفنا الحجاج الذي اغرق العراق في الدماء، وملأت بطون الكتب أنباء ظلمه وجبروته وعسفه أيام ولايته، والذي عده المؤرخون والمسلمون من سيئات عبد الملك الكبرى، ومن جرائم الدولة الأموية العظمى عرفنا شخصية يزيد.

لقد بحث الحجاج عن رجل في قساوته وجرأته،وحبه لسفك الدماء، ليصول به فوجد هذه الصفات في يزيد بن دينار فجعله كاتبه، يستشيره، ويستعين به في خططه وظلمه، وصاحب شرطته،[1] ورئيس حرسه. ذلك الحرس العارم القاسي الذي استطاع به الحجاج أن يقتل من قتل من خيار المسلمين، ومن العلماء الصالحين، وان يسكت به السنة المنتقدين الذين كانوا ينعمون على الأمويين ظلمهم وانحرافهم عن الدين، واستئثارهم برئاسة الدولة، وجعلها ملوكية وراثية بعد أن كان رئيس الدولة إماما ينتخبه المسلمون ويختاره العلماء الصالحون.

شخصية يزيد وشخصية

وكان يزيد بن دينار مع جرأته وقساوته ذكيا،ولكن ذكاءه لم يقترن بالدين والصلاح فيستعمله فيما يجدي المسامين. وكان شريك الحجاج معينة فيما انى في العراق من منكرات، وارتكب فيها من ظلم.

وكان يزيد بن دينار قصيرا ذميما، قبيح الوجه، عظيم البطن، تحتقره العين، وتهرب منه النفوس، فلم يكن في شكله ممن يبعث الاحترام في النفوس، ولا في روحه على الصفاء الذي يخلق الحب له في الناس فيحترمونه، فنشأ بعقدة نفسية تجمله كارها للبشر لا يرى إلا سيئاتهم، محبا لسفك الدماء والانتقام من الناس من الناس، فعرف الحجاج هذا الطبع وتلك القساوة فولاه شرطته، واستكتبه وجعله من خاصته، فزاده اتصاله بالحجاج عنفا وقساوة، وألف الظلم وعدم المبالاة بسفك الدماء وظلم المسلمين، فصارت سياسة العنف والقسوة والظلم هي الطريق الطبيعي عنده في سياسة الأمة، وفي معاملة الرعية.

1 - صاحب الشرطة هو كرئيس «الكوميسارية» اليوم.

كره سليمان وعمر ليزيد ابن دينار

وكان سليمان بن عبد الملك يكره يزيد وينتقد ظلمه وجبروته. وكان الحجاج قد ولاه على إخراج العراق في مرض موته. فاقره الوليد فما إن تولى سليمان حتى عزله وأمر واليه على العراق أن يرسله إليه مقيدا في الحديد كما يؤتى بالمجرمين ليحاسبه ويناقشه.

وكان عمر بن عبد العزيز اشد كرها ليزيد بن دينار لا يريد أن يكون في جهاز من أجهزة دولته. وقد أبى يتطوع في جيش من جيوشه. فأخرجه من جنده وأبعده. لأنه صفحة ملطخة. ونفس لا تورث نصر الله الذي لا يكون إلا برضاه.

قال ابن خلكان في «الوفيات» لما حضرت الحجاج الوفاة استخلف يزيد ابن أبي مسلم دينار على خراج العراق فاقره الوليد بن عند عبد الملك واغتبط به. وقال «ما مثلى ومثل الحجاج وابن أبي مسلم بعده إلا كرجل ضاع منه درهم فوجد دينارا !!».

ولما مات الوليد وولي بعده أخوه سليمان عزل ابن أبي مسلم وأمر به فاحضر في جامعة.[1] وكان رجلا قصيرا ذميما. قبيح الوجه. عظيم البطن. تحتقره العين فلما نظر إليه سليمان قال: أنت يزيد بن أبي مسلم؟ قال: نعم. أصلح الله أمير المؤمنين قال: لعن الله أشركك في أمانته. وحكمك في دينه ! قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين فانك رأيتني والأمر عني مدبر. ولو رأيتني والأمر علي مقبل لاستعظمت ما استصغرت ولاستجللت ما احتقرت ! فقال سليمان: قاتله الله. فما اربط جأشه ! واغضب لسانه ! ودارت بينه وبين سليمان محاورات غير هذه. ثم كشف عنه فلم يجد عليه خيانة «في المال» فهم باستكتابه. فقال عمر عبد العزيز: أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تحي ذكر الحجاج باستكتاب كاتبه. فقال» أني كشفت عنه فلم أجد عليه خيانة يا أبا حفص. فقال عمر: أنا أوجدك من هو اعف عن الدينار والدرهم منه فقال سليمان: من هو؟ قال: إبليس. ما مس دينارا ولا درهما قط وقد اهلك هذا الخلق ! فتركه سليمان.

وحدث جويرية بن أسماء أن عمر بن عبد العزيز لما ولي في الخلافة بلغه أن يزيد ابن أبي مسلم خرج في جيش من جيوش المسلمين. فكتب إلى عامل الجيش برده وقال: أني لأكره أن استنصر بجيش هو فيهم».

هذا هو يزيد بن أبي مسلم عند سليمان الذي ينظر بذكائه ولطفه. وعند عمر ابن عبد العزيز الذي ينظر بدينه وورعه. فاختاره يزيد بن عبد الملك لولاية المغرب لأنه هو الذي يليق بمزاجه. ويطبق سياسته في المغرب. ويحقق له أطماعه. ويشبع نهمه في المال.

1 - الجامعة هي القيد الذي يجمع اليدين إلى العنق وهي القيود.

وغرامه بالمادة. فلنلم بيزيد الملك إلمامة قصيرة لنعرف شخصيته. فنتبين الباعث له على توليته. ولنقف فيه وقفة. فان تاريخ هؤلاء الملوك الأمويين الذين يسيطرون على المغرب. ويوجهون سياسته. ويخلقون جوه جزء من تاريخه. فلا بد بمعرفته. سيما إذا وقع شذوذ لنعلم أسبابه.

يزيد عبد الملك نسبه ونشأته

كان يزيد سليل عبد الملك بن مروان. وابن عاتكة بنت يزيد بن معاوية. فهو ابن ملك وأميرة. ولم يكن له عرق للصلاح والتقوى من قبل أمه يجتذبه إلى ناحية الدين كما كان لعمر بن عبد العزيز. ولا شب في خشونة الحياة فتورثه لطفه. وفي هواجرها فتورثه نضوجه. فيكون لعقله لا لشهواته. ولإرادته لا لغرائزه. بل شب في ظلال الملك.وفي حجر أميرة مدللة مترفة. ولا تنشئ أبناءها على الجلد والقوة. وعلى الصلاح والاستقامة. وعلى التضحية والبذل. بل تعلمهم حب النفس والاعتماد على الغير. واستخدامهم في شؤونهم الخاصة. ومن خصائص هؤلاء الأمهات الضعيفات المترفات إنهن يرين الجلد والتضحية وبذل النفس والتعب في مصلحة الغير ما لا يليق بمقام الأمراء. وما يؤدي بأبنائهن ويعرضهم للأخطار. فيأبينه عليهم. فيكون هؤلاء المدللون الناشؤون في الحرير في كبرهم كالفراش التي تطير من دودة الحرير. لا نفع فيهم للناس. ولا هم لهم إلا الانغماس في شهواتهم وملذاتهم والهرب من حياة الجلد والجهاد. والتهالك على حياة المتعة والشهوات لا يستطيعون غيرها. فهم كذلك الفراش لا يستطيع العيش إلا في الروض النضير !

ومن آثار التدليل السيئة في الإنسان انه يكون في كبره في عجم المبالاة بالمقدسات وما يحترمه المجتمع كما كان في صغره إذ تمكنه أمه من اللعب بكل ما يشاء -لينكف بكاؤه وتبلغ رضاه- حتى بجواهرها ولآلها النفيسة فيقذف الدرة لاعبا بها كما يقذف الحصاة!

أن الأم هي القالب الذي يصب فيه الابن فيكون على حسبه. سيما إذا كان الأب كعبد الملك الذي تشغله مهام الملك عن الاعتناء بأولاده. والتفرغ لذريته ليطبعهم بما يريد فان الأم حينئذ تكون هي كل شيء في التربية. والعامل الأكبر الذي يؤثر في الشخصية. فنشأ يزيد محبا للذات. متبعا للشهوات. مغرما باللهو والصيد والغناء لا هم له إلا في القصف والخمر والنساء. وفي كل الملذات التي تشره إليها النفس المنطلقة في شهواتها الواقعة في قبضة غرائزها.

شخصيته

وكان سليمان بن عبد الملك يعتب على يزيد سلوكه، وينتقد عليه الاسترسال في شهواته، حتى هم أن يحجر عليه لإسرافه في شهواته، وإفراطه في لتباع غرائزه ولما ولي الملك بعد سيدنا عمر بن عبد العزيز استمر فيما شب عليه من حب اللهو والقصف والاسترسال في الشهوات الذي يكلفه المال الكثير، ويجعله محبا للمادة يعبدها، ويحرص عليها ويجمعها من كل الوجوه.

ولم يكن يزيد على دهاء سليمان وحنكته، ورجاحة عقله، فيختار ما ينعش دولته ويصلحها، ويورث الهناء والسعادة للرعية فتقبل عليه، ويكون رشيدا في سياسته بعقله، موفقا في إدارة الدولة بعلمه ودهائه كما كان سليمان؛ ولا كان كابن عمه عمر ابن عبد العزيز يتسلط عليه الدين؟، ويستولي عليه الورع، فيرسم له طريقه حرصه على رضا الله، ويضع له سياسته مراقبته لله، فيقوده دينه إلى طريق الرشاد، فيكون على العدل والسداد الذي يضمن له ازدهار دولته، وحب رعيته، بل كان يزيد ابن شهواته عاكفا عليها، وابن غرائزه واقعا في قبضتها.

من الخصائص الأولى لمن يتبع شهواته، ويقع في قبضته غرائزه، ويتصف بالإسراف والتبذير الذي يستلزمه الانغماس في الشهوات،وحب المال والغرام به، والتهالك عليه. وكان يزيد علة هذا. فلم يولي حتى عزل كثيرا من ولاة سيدنا عمر بن عبد العزيز الذين كانوا يعلمون لمصلحة الرعية، ويتبعون طريق الدين في سياستها ويعدلون فيها، ويجعلون الدولة مطية للرعية تحقق ازدهارها وهناءها، وأما رؤوما لها تربها وتحوطها، وتورثها شبابها وتعطيها من نفسها، فولى على النواحي ولاة يليقون بمزاجه وبسياسته التي كان يرسمها حب المال، وعدم المبالاة بالشعب. ونحن ننقل إليك بعض ما ورد من أخباره في كتب التاريخ فهي أحسن ما يصور لك شخصية هذا الملك ابتدأ هرم الدولة الأموية في عهده. فلولا وجود مسلمة ابن عبد الملك وغيره من رجال بني أمية المحنكين الذين ساندوا يزيدا وقضوا على كثير من الثورات في عهده،وسدوا له الثغور الكبرى، ولولا قصر أيام يزيد في الملك واتصاف خليفته هشام بكثير من الحنكة وطول أيامه في العرش، لكانت الدولة الأموية قد استغرقت في شيخوختها فلفظت أنفاسها في مطلع القرن الثاني، ولكان يزيد هو آخر ملوكها.

يزيد وجاريتاه حبابة وسلامة المغنيتان

قال ابن ا لأثير: وكان يزيد بن عبد الملك قد حج أيام أخيه سليمان فاشترى «حبابة»

المغنية بأربعة آلاف دينار! وكان اسمها العالية. وقال سليمان لقد هممت أن احجر على يزيد فردها يزيد فاشتراها رجل من أهل مصر.

وقال المسعودي: كان الغالب على يزيد بن عبد الملك حب جارية يقال لها «سلامة» القس. وكانت لسهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري فاشتراها نريد بثلاثة آلاف دينار فأعجب بها وغلبت على أمره»ولما أفضى إليه الملك» احتالت أم سعيد العثمانية جدته بشراء جارية يقال لها حبابة قد كان في نفس يزيد بن عبد الملك قديما منها شيء «فرجعتها إليه» فغلبت عليه. فرفض سلامة ووهبها لام سعيد. فعذله مسلمة ابن عبد الملك لما عم الناس من الظلم والجور باحتجابه وإقباله على الشرب واللهو، وقال له: إنما مات عمر أمس، وقد كان من عدله ما قد علمت، فينبغي أن تظهر للناس العدل، وترفض هذا اللهو، فقد اقتدى بك عمالك في سائرا فعالك وسيرتك، فارتدع عما كان عليه، فاظهر الإقلاع والندم، وأقام على ذلك «أربعين يوما»، فغلظ ذلك على حبابة فبعثت إلى الأحوص الشاعر ومعبد المغني» انظرا ما إنما صانعان. فقال الأحوص في أبيات له:

ألا لا تلمه اليوم أن يتبلدا فقد غلب المحزون أن يتجلدا

إذا كنت لم تعشق ولم تدرما الهوى فكن حجرا من يابس الصلد جلمدا

فما العيش إلا ما تلذ وتشتهي وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

وغناه معبد وأخذته حبابة، فلما دخل عليها يزيد قالت» يا أمير المؤمنين اسمع منى صوتا واحدا ثم افعل ما بدالك، وغنته، فلما فرغت منه جعل يردد قولها:[1]

فما العيش إلا ما تلذ وتشتهي[2] وإن لام فيه ذو الشنان[3] وفندا

وعاد بعد ذلك إلى لهوه وقصفه، ورفض ما كان عليه «من الوقار والقيام بأمر الملك».

وذكر إسحاق بن إبراهيم المصلى قال: ذكر يزيد بن عبد الملك قصيدة الشاعر «الفند الزماني» التي مطلعها:

صفحنا عن بني ذهل وقلنا القوم إخوان

1 - الكامل لابن الأثير ج 4 ص 191 ط. المنيرية.

2 - مروج الذهب للمسعودي ج 3ص 207 ط التجارية.

3 - الشنان أصله الشنآن فسهل الهمزة بقلبها ألفا ثم حذف إحدى الألفين وهذا يجوز في الشعر وحده.

فقال لحبابة: غنيني به بحياتي. فقالت: يا أمير المؤمنين. هذا شعر لا اعرف أحدا يغني به إلا الأحوال المكي. فقال: نعم. قد كنت سمعت ابن عائشة «المغني» يعمل فيه ويترك. قالت:إنما عن فلان ابن أبى لهب. وكان حسن الأداء فوجه يزيد إلى صاحب مكة: إذا أتاك كتابي هذا فادفع إلى فلان ابن أبي لهب ألف دينار «من خزينة بيت مال المسلمين» لنفقه طريقه. واحمله على ما شاء من دواب البريد. ففعل. فلما قدم عليه قال: غنني بشعر الفند. فغناه فأجاد وأحسن. وقال: أعده فأعاده فأجاد وأحسن. وطرب يزيد. فقال له: عمن أخذت هذا الغناء؟ فقال يا أمير المؤمنين. أخذته عن أبي. وأخذه أبي عن أبيه. فقال: لو لم ترث إلا هذا الصوت لكان أبو لهب قد ورثكم خيرا كثيرا. فقال: يا أمير المؤمنين. إن أبا لهب مات كافرا مؤذيا لرسول الله صلى عليه وسلم! فقال: قد اعلم ما تقول. ولكني دخلتني له رقة إذ كان مجيدا للغناء. ووصله وكساه. ورده إلى بلده مكرما».[1]

وكان يزيد محبا للغناء. ويجيده. وله ملكة كبرى فيه. فلو كان مغنيا لعذرناه ورأيناه في طريقه. أما وهو ملك فيجب أن يغرم بالجد أكثر. ويعطي نفسه لمهام الملك. ومشكلات الدولة. لتصدح دولته مغنية بشدة الأفراح. أما انغماسه هو في الغناء والقصف فقد أغرقها في الدموع والنواح.

قال ابن الأثير: طرب يزيد يوما وعنده حبابة وسلامة «تغنيانه» فقال دعوني أطير! فقال حبابة: على من تدع الأمة؟ قال عليك! ! قيل: وغنته يوما:

وبين لتراقي واللهاة حرارة   وما ظمئت ماء يسوغ فتبردا

فأهوى ليطير. فقالت: يا أمير المؤمنين. أن لنا فيك حاجة. فقال: والله لأطيرن! فقالت: على من تخلف الأمة والملك؟ قال: عليك والله! وقبل يدها! فخرج بعض خدمه وهو يقول: سخنت عينك فما أسخفك!

وخرجت حبابة إلى ناحية الأردن يتنزهان فرماها بحبة عنب فدخلت حلقها فشرقت ومرضت وماتت فتركها ثلاثة أيام لم يدفنها حتى أنتنت. وهو يشمها ويقبلها وينظر إليها ويبكي. فكلم في أمرها حتى أذن في دفنها «فدفنها خمسة أيام فلم يطق ذلك فنبشها وأخرجها من القبر وجعل يقبلها ويبكي فقوي عليه الحزن حتى قتله بعد سبعة عشر يوما».[2]

أن هذه الأخبار التي نقلناها لابد أن يعرفها من يدرس تاريخ المغرب دراسة تامة ليعرف

1 - النجوم الزاهرة ج 1 ص 105 ط دار الكتب.

2 - النجوم الزاهرة ج 1 ص 105 ط دار الكتب.

الأسباب الداعية ليزيد لاختيار كاتب الحجاج لولاية المغرب. ويدرك العوامل التي هرمت بها الدولة الأموية فماتت. ويعرف الأسباب التي جعلت المغرب في هذا القرن ينفصل عن الأمويين ويؤسس دوله الكبرى.

لقد كان يزيد شابا لما ولي الملك لم يتجاوز عمره الثلاثين. ولم تحنكه التجارب. فزادت فورة الشباب في حبه اللهو. وأيدت ما كان به بالوراثة والتربية المدللة من غرام بالملذات. وانغماس في الشهوات.

وكانت زوجته أم الحجاج بنت محمد بن يوسف بنت أخ الحجاج. فاجتمعت على يزيد الأسباب الدافعة للهوى. والزوجة كالأم تصبغ الرجل وتؤثر فيه.

وقد توفي يزيد في سنة خمس ومائة وكانت ولايته أربع سنين وشهرا ويومين. فما آثاره في المغرب؟ ولماذا اختار له يزيد بن أبي مسلم وهو في الظلم والشناعة كما وصفه المؤرخون. وكما نعته سيدنا عمر بن عبد العزيز؟

أسباب ولاية ابن أبي مسلم على المغرب

كان يزيد يعرف قوة شكيمة البربر. وإباءهم وعزتهم. وكان يسمع بثوراتهم على من يناؤهم. ويسوسهم بما لا يرضيهم. وكان يعتزم أن يسوس المغرب على حسب مزاجه. ويسير فيه غير سيرة سلفه عمر بن عبد العزيز. فولى عليه يزيد ابن دينار الذي استطاع هو والحجاج أن يخضعا العراق الثائر للأمويين. ويمكناهم من ناصيته. وينفذا فيه سياستهم. وما علم يزيد أن المغرب غير العراق. فالعراق كان ثائرا منافسا فولى عليه عبد الملك الحجاج الذي كان اكبر مخزاة شانته. أما المغرب فقد كلن على أتمه في الهدوء والحب والإقبال على الدولة والانسجام بها لما توفي سيدنا عمر ابن عبد العزيز. ثم أن البربر غير عجم العراق الذين وطئهم الحجاج برجله فاستكانوا فلو أن الحجاج ولي على البربر فعاملهم معاملته لأعاجم العراق. وارتكب في المغرب فظائعه في العراق لثار عليه البربر فقتلوه. ولثاروا على عبد الملك بن مروان وانفصلوا عن دولته. هذا ما عرفه عبد الملك فلم يخاشنهم لما فتح بلادهم. ولم يرض أن يتولى عليهم موسى بن نصير بل آثر أهم حسان العظيم.

حب يزيد بن عبد الملك للمال

وكان يزيد محبا للمال مغرما به. يجمعه بكل وسيلة. ويحصل عليه بكل الأسباب. وإن كان ذلك يرهق الرعية. ويخالف الدين. ويأباه أسلافه الذين تقدموه. قال ابن الأثير

يذكر حرص يزيد على المال :»وعمد يزيد إلى كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لا يوافق هواه فرده، ولم يخف شناعة عاجلة، ولا إثما عاجلا، فمن ذلك أن محمد بن يوسف أخا الحجاج بن يوسف كان على اليمن فجعل عليهم خراجا مجددا «يعني غير الزكاة المفروضة» فلما ولي عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله يأمره بالاقتصار على العشر ونصف العشر، وترك ما «ابتدعه» محمد بن يوسف، وقال: لان يأتيني من اليمن حفنة ذرة أحب إلي من تقرير هذه الوضعية،[1] فلما ولي يزيد بعد عمر أمر بردها وقال لعامله: خذها منهم لو صاروا حرضا[2] والسلام[3]» هذه هي رغبة يزيد في المال.

وكان يزيد قد رأى المكنوز التي جمعها موسى بن نصير من المغرب فأراد مثلها فولى ابن دينار ليجمع له نظيرها، ويجعل المغرب بقرته الحلوب، ومزرعته التي تغل عليه ما يملأ خزائنه، ويشبع نهمه إلى المال، فجاء يزيد بن دينار إلى المغرب في سنة اثنتين ومائة وهو يعرف هذه الرغبة في مليكه، فعزم على إشباعها، وبلوغ رضاه بما يحتلب له من المغرب، وبما يرسل إليه من أموال يستخلصها بكل طريق.

قتل يزيد بن دينار

وكان البربر لما جاء ابن دينار قد اسلموا كلهم بفضل جهود من تقدمه الولاة. فعوض أن يسر بذلك الإسلام، ويرى أن من واجبه تأكيده، وتوسيع نطاقه، وبذل الجهد ليسلم الروم الذين لم يسلموا رأى هو عكس ذلك، فانه قد ساءه أن يجد البربر كلهم قد اسلموا لم يبق فيهم مشركون يضع الجزية على رقابهم، والخراج على أموالهم، ويكونون له مورد مال وباب للثراء، «فعزم أن يسير فيهم بسيرة الحجاج في أهل الإسلام الذين سكنوا الأمصار ممن كان أصله من السود، «وهو القرى» من أهل الذمة فاسلم بالعراق فانه ردهم إلى قراهم، ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم كفار».[4] وزعم يزيد بن دينار أن بلاد المغرب فئ للأمويين، ومغنم لهم، فتحوه عنوة بالسيف فهو ملك للدولة لها أن تقرر ما شاءت من الخراج على أراضيه، وهذا ما رأى خلافه حسان كما بينا، واقره موسى بن نصير،وكل الولاة من بعده. فعلم البربر أن ابن دينار لا يعتبر إسلامهم، ولا يراهم مسلمين، وانه سيعاملهم معاملة الكفار فيفرض الجزية على رقابهم، والخراج على أراضيهم. فنصحوه أن يترك ما عزم عليه، واحتجوا عليه أن يحزم دين الله، ويستحل ما حرم الله فأبى واستكبر، وثار وتنمر، فلم يجد فيه الكلام، فعلم

1 - ورد في القاموس المحيط أن الوضعية هي ما يأخذه السلطان من خراج.
2 - الحرض جمع حرض وهو المضني مرضا وسقما الذائب بمرضه.
3 - الكامل لابن الأثير ج 4 ص: 166 ط . المنيرية.
4 - الكامل لابن الأثير ج 4 ص 182 ط. المنيرية.

البربر أن يزيد فظ خشن، والخشن لا يليق له إلا المخاشنة، وانه مستحل لما حرم الله من أموالهم، منهك بعدهم كفارا لحرماتهم، فعزموا فيه عزيمتهم. أنهم أبناء القرى وأبناء الجبال، صناديد لا يهابون الوغى، ولا يرضخون للذل، ولا يستطيع احد أن ينوخهم كالبعير فيرحّله أو يجزره، فهجموا على ابن دينار فقتلوه لشهر واحد من ولايته، ومرغوه في التراب، ولقنوا فيه درسا ليزيد بن عبد الملك فتح عينيه، واراه أن البربر غير العجم العراق، وان ما يستطيعه في المشرق لا يستطيعه في المغرب الفتي !

ولاية محمد بن يزيد الثانية

وكان البربر يعلمون أن يزيد بن عبد الملك لا يرضى إسماعيل بن عبيد الله واليا له، لبعد مزاج إسماعيل عنه، وان إسماعيل لا يرضى أن يتولى ليزيد فاتجه أهل الفضل والدين في المغرب إلى المغيرة بن أبي بردة الكناني فعزموا على توليته لما يتصف به من دين وعقل وشجاعة، فأبى المغيرة وابنه عبد الله خوفا أن يتهم بالتحريض على ابن دينار لأنه كان في القيروان لما قتل. وكان محمد بن يزيد في صقلية غازيا لما قتل ابن دينار فرجع فولاه البربر أمرهم، وأرسلوا إلى يزيد بن عبد الملك:»أنا لم نخلع يدا من طاعة، ولكن يزيد بن دينار سامنا مالا يرضى به الله ورسوله فقتلناه واعدنا عاملك» فعرف يزيد انه إذا خاشن البربر فسيثورون عليه، وينفصلون عنه، وانه لا طاقة باسترجاع المغرب إذا خرج من حظيرته، فلم يسعه إلا السكوت والرضى بما فعل البربر فأجابهم معتذرا:»أني لم ارض ما صنع يزيد» واقر محمد بن يزيد أياما ثم رأى أن إقراره في الولاية دائما لا يليق بكبريائه، وان ذلك قد يجرئ المغرب فيتفتى عليه في النواحي الأخرى، فعزل محمد بن يزيد وولى عامله على مصر بشر بن صفوان الكلبي على المغرب.

لقد ذكر بعض المؤرخين سببا ثانيا لقتل لبن دينار، ولكن السبب الأكبر الذي أثار عليه البربر هو ما ذكرنا، وما هذا السبب إلا القبضة التي يطفح بها الكيل، والجرعة التي يفيض بها الإناء، ونحن نذكره إتماما للفائدة.

قال ابن عذارى:»وكان يزيد بن أبي مسلم ظلوما غشوما، وكان البربر يحرسونه فقام على المنبر خطيبا فقال: أني رأيت أن ارسم اسم حرسي «بالنار» في أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها، فارسم في يمين الرجل اسمه، وفي يساره حرسيا ليعرفوا بذلك من بين سائر الناس؛ فإذا وقفوا على احد أسرع لما أمرت به فلما سمع حرسه ذلك قالوا جعلنا بمنزلة النصارى فقتلوه» إن المرء ليسم ماله بالمكواة، وعبده بالنار، أما الحرس الشجعان فلا يخطر ببال احد أن يسمهم إلا إذا هانوا عنده ورآهم كالعبيد. انه يمكن أن

يثور البربر على شارة في الذراع، أو علامة فوق الجسم، ولكن يزيد عزم على وشمهم عليه فثاروا عليه. وكان هؤلاء الحرس من البربر البتر الأعزاء.

وقد أورد المؤرخون قصة الوضاح بن أبي خيتمه حاجب سيدنا عمر بن عبد العزيز مع يزيد بن دينار وقعت له في المغرب، وهي تدل على شجاعة الوضاح وقوة إيمانه، وعلى جبروت ابن دينار وعدم عفته في دماء المسلمين، كما أن فيها عبرة للظالم الذي يعتد بقوته المادية، وينسى قوة الله التي تنصر الضعيف، وتكون مع المظلوم، فتدور الدوائر على الظالم القوي، ويكون الضعيف المظلوم هو الأعلى لان الله معه، وهو المنتصر لان قوة الله بجانبه.

حدث الوضاح بن أبي خيتمه -كان حاجب عمر بن عبد العزيز قال: أمرني عمر بن عبد العزيز «في مرض موته» بإخراج قوم من السجن وفيهم يزيد بن أبي مسلم أخرجتهم وتركته فحقد علي. فلما مات عمر هربت إلى افريقية خوفا منه. قال فبينما أنا في افريقية إذ قيل قدم ابن مسلم واليا فاختفيت فاعلم بمكاني، وأمر بي فحملت إليه. فلما راني قال: طالما سالت الله أن يمكنني منك. فقلت: وأنا والله لطالما سالت الله أن يعيذني منك! فقال ما أعاذك الله، والله لأقتلنك ولو سابقني فيك ملك الموت لسبقته! ثم دعا بالسيف والنطع فأتي بهما، وأمر بالوضاح فأقيم عليه مكتوفا. وقام السياف وراءه. ثم أقيمت الصلاة، فتقدم يزيد إليها، فلما سجد أخذته السيوف، ودخل على الوضاح من قطع كتافه وأطلقه» فنجا من كان على النطع مكتوفا، وقتل من كان على العرش بالجند محفوفا، وأيديه مملوءة بالسلاح.

إن المرء لا يستعيذ إلا من الشر والشيء الكريه، وقد قال الوضاح «وأنا طالما سالت الله أن يعيذني منك» لم يخضع ليزيد الجبار المتغطرس كما يفعل الجبناء، ولم يتذلل له كما يفعل الضعفاء، بل قابله بشجاعة المؤمن الذي يعتقد أن العمر بيد الله، لا يستطيع المخلوق أن منه دقيقة، وان النفع والضر لله لا يقدر الإنسان أن ينالك بشيء لم يجعله لك.

إن هذه القصة التي أردها ابن خلكان في «الوفيات» تدل على أن سيدنا عمر بن عبد العزيز قد سجن يزيد بن أبي مسلم عقابا له فظائعه في العراق وانه بقي في سجنه إلى أن توفي سيدنا عمر رضي الله عنه. إن هذه القصة تؤيد ما ورد في كتاب «النجوم الزاهرة» من أن سليمان بن عبد الملك عزل يزيد بن أبي مسلم عن ولاية العراق بيزيد ابن المهلب وأمره باعتقاله وإرساله إليه فأرسله إليه فحسبه.

لقد لاقى ابن أبي دينار جزاءه على ما سفك من دماء المسلمين في العراق بان قتله البربر، وتلك هي عاقبة الظلم ومآل الظالمين. وجاء بعده بشر بن صفوان الكلبي ولاه يزيد بن عبد املك على المغرب، فخرج من مصر إليه في شوال سنة اثنتين ومائة فكيف ستكون سيرته في المغرب؟ إن دماء ابن دينار جرت قد كتبت السطور المؤثرة التي تعظ الولاة وتنهاهم عن الظلم والطغيان، وتنبههم إلى المصير الذي يصيرون إليه، وإذا رفعوا على المغرب المسلم العصا، وساسوه بغير ما انزل الله.

وكانت مدة يزيد بن دينار في الولاية على المغرب شهرا واحدا ثم كان ما كان والبقاء الدائم لله العظيم الشأن.

ولاية بشر بن صفوان الكلبي 103.

وكان قتل البربر ليزيد بن دينار لجوره وعدم عدله، وظلمه وغطرسته، وتعدى حدود الله في سياسته، وعظة ليزيد بن عبد الملك، فعلم أن المغرب لا يخضع بالعنف ولا ينقاد بالجبروت ولا يسكن له إلا بالعدل في السياسة، والإنصاف في المعاملة، وان البربر إنما يخضعون لمن يحترمهم لا لمن يحتقرهم ويتجبر عليهم، وينقادون لمن يعاملهم بالحسنى، ويطبق فيهم سياسة الله العادلة، ويساويهم بغيرهم من المسلمين وعلم يزيد أن المغرب لا يليق له إلا رجل رزين عاقل، يتحلى بالحزم والشجاعة، وبالدهاء والحنكة، وبالسهولة في الأخلاق، واللطف في المعاملة، فاختار له بشر ابن صفوان الكلبي لاتصافه بهذه الصفات، فولاه على المغرب في سنة ثلاث مائة.

وكان بشر بن صفوان عامل مصر ليزيد بن عبد الملك؛ ومصر عند الأمويين هي الدرة المتألقة في تاجهم، والناحية الأثيرة في دولتهم، لخصبها وغناها، ولهدوئها وانقيادها، ولموقعها المهم، فإنها الوصلة بينهم وبين المغرب، والرابطة بين أسيا وافريقية ولصلتها المتينة بالناحيتين، فأي شيء يحدث بها إلا انتقلت عدواه إليهما؛ لذلك لا يختار لها الأمويون والعباسيون إلا الولاة الأكفاء، والصناديد المحنكين، وإلا أنصارهم من رجالات العرب الذين ابلوا في نصرتهم، وكانوا أجنحتهم إلى عرش الملك والسلطان، ومخالبهم وأنيابهم في القضاء على المعارضين والمنافسين، وكانوا يرون أن إسناد مصر إلى أولئك الأنصار وتوليتهم عليها، هي أحسن جزاء لهم، وذلك لغنى مصر وخصبها، وغزارة دخلها، وكثرة خيراتها، وهدوئها بانقياد أهلها، وانسها وجمالها الطبيعي الفتان، وكانت أحسن ولاية يرغب فيها الطامحون، ويتنافس عليها الولاة الكبار.

وكان بشر بن صفوان من أولئك الولاة الأكفاء، ومن الرجال الصناديد، فولي على مصر، ثم اختاره يزيد للمغرب فولاه عليه وغزل محمد بن يزيد.

وكان بشر عاقلا رزينا، شجاعا محنكا، مخلصا للدولة، رءوفا بالرعية، فسار إلى المغرب في سنة ثلاث ومائة.

ازدهار المغرب وإقباله على البناء في كل نواحيه

وكان بشر بن صفوان قد اتعظ أيضا بما وقع لابن دينار، وعلم أن البربر أباة أعزاء، قد حسن إسلامهم، وتفقهوا في دينهم، وتكون فيهم العلماء، وصاروا يعرفون ما أمر الله به ساسة الشعوب، وما فرضه على ولاة المسلمين من سياسة وطريقة في الحكم، وعلموا ما لهم على الدولة وما عليهم، فصار حب العدل والمساواة وكره الطغيان

والجبروت، مما يدعوهم إليه طبعهم الموروث، ودينهم الذي يغارون عليه، ويأبون أن تخرم أحكامه فيهم. فسار في المغرب سيرة حميدة، وعامل البربر بلين وإحسان، وعرف لهم مقامهم، فسكنوا وأحبوه، ودانوا بطاعته، واقبلوا على الأمويين في عهده. فلم تحدث في أيامه زوبعة تعكر الصفاء، ولا انفصال من ناحية لعدم الرضا، ولا ثورة في مكان لسخط على سياسته، بل كان السكون والوئام والإقبال على العمل، والغرام بالبناء هو ما يعمر قلوب أهل المغرب. فكان عهد بشر عهد بناء وعمارة وتقدم لسكونه. لقد استمر في الطريق التي دفعه فيها محمد ابن يزيد وإسماعيل بن عبيد الله، طريق العلم والدين، وسبيل البناء والتشييد، والإقبال في نشاط وإتقان وعلم لبناء الدنيا لتكون أقوى وأحسن مطية للآخرة فاستمرت بعثة سيدنا عمر بن عبد العزيز العلمية في عملها وجهادها لتثقيف المغرب، ومعهم إسماعيل بن عبيد الله ومحمد بن يزيد والعلماء المخلصون الذين كانوا يتقاطرون على المغرب من المشرق للاستقرار فيه، فكانوا أساتذة البربر الإجلاء، والنبراس الذي اضاء لهم فرأوا مثلهم العليا فعملوا لتحقيقها، وهي أن يعيشوا أباة عزاء، ويكونوا حصنا للدين، وجندا يقمع الظلم والجبروت، ويحي العدل والمساواة في المغرب.

وكان الهدوء والسكون الذي ساد المغرب في عهد بشر قد مكن هؤلاء العلماء من القيام بواجبهم خير قيام، وجعل أفكار البربر لا تشتغل إلا بالعلم والبناء، فازدهر التعليم في المغرب، وكثر إقبال البربر على حلق العلم في المساجد، وعلى تعليم الصبيان في المدارس، فانتشرت العربية في البربر كل الانتشار، وتكون فيهم علماء الدين والفقهاء في الشريعة، وأثمرت في هذه الأعوام الساكنة أغراس حسان بن النعمان التي أيدها وأزهرها محمد بن يزيد وإسماعيل بن عبيد الله، فتكونت في البربر طبقة من الفقهاء صاروا أعوانا لأساتذتهم في تثقيف المغرب وتعليمه، وفي دفعه في طريق الخير والصلاح، وفي سبيل العزة والكرامة. كما ازدهرت التجارة والفلاحة والصناعة، وعم الرخاء في المغرب أعراسه، واستعد في هذه الفترة لميلاد دوله !

مصادرة أموال بقايا آل موسى ابن نصير

وكان بشر بن صفوان يعرف في مليكه يزيد بن عبد الملك حب المال، ولكن أموال البربر لا يستطيع أن يظلمهم فيها، ودخل المغرب تستنفده ثغوره ومصالحه. فرأى آل موسى بن نصير؛ هؤلاء الذين نكب منهم سليمان من نكب لعدم استقامتهم في المغرب، ولاحتجانهم للأموال من غير حلها. فأرى بشرف أيديهم بقية من أموال، وفي ديارهم آثارا من نعمة، وعلم أن النواحي المعشوشبة فيهم، والأموال التي لازالت في أيدي

بعضهم مما يستطيع أخذه ولا يغضب أحدا في المغرب، لان آل موسى كموسى بن نصير لم يكونوا محل الرضا من المغرب لما أسلفنا من سلوك موسى وبنيه وآله فيه. فعمد بشر إلى هؤلاء الذين أثلوا أموالا من آل موسى، واستطاعوا النجاة من مصادرة سليمان بن عبد الملك، فصادر أموالهم، واستولى على ما في أيديهم من نفائس ودراهم. قد يكون بعض الخاصة من أهل المغرب الذين يضطغنون على هذه العائلة، ويعلمون أن أصول أموالها مما احتجنوه أيام موسى من أموال الدولة، ومما ظلموا فيه البربر، وإنهم مدينون لخزانة المغرب بالشيء الكثير، وهم الذين أغروا بشرا بهم فوجد فرصته للحصول على مال يسترضي به مليكه ولا يغضب أهل المغرب به، فأقدم على آل موسى فسلخهم من مالهم. وإذا كان يزيد بن عبد الملك هو الذي أمره بذلك فان حب المال هو الدافع له، لأنه لم يكن في الدين والعدل وفي العمل لمصلحة الدولة بالدرجة التي تجعله ينكر ما أتى موسى فيؤدبه، وكما فعل سلفه الرشيد سليمان بن عبد الملك.

سفر بشر بهداياه إلى يزيد

وفي سنة خمس ومائة سافر بشر إلى الشام ومعه هدايا من طرف وأموال وجواري حسان ليزيد بن عبد الملك. لم يذكر المؤرخون سبب سفره إلى الشام، قد يكون الشوق إلى الأهل والخلان، لا استدعاءا من يزيد ليطلع على أحوال المغرب، ويفاوضه في شؤونه، فان يزيد لم يكن في الاعتناء بأمور الدولة كسلفه الحازمين، فيتصل بولاته في الخارج، ليعرف منهم أحوال الرعية، ويوجههم في السياسة، كما كان يفعل الخلفاء الراشدون؛ ولكن يزيد بن عبد الملك مات قبل أن يصل بشر إليه، فقدم هداياه إلى هشم بن عبد الملك الذي تولى الملك بعد يزيد، فسر بها، فرده إلى عمله في المغرب فعاد بشر إلى القيروان، والمغرب هادئ هدوء الرضا والاطمئنان لان البربر ينقادون ويطيعون، ويسكنون ويهدأون لكل عادل يتبع سياسة الله المشروع فيهم ، وإذا ثاروا فللظلم النازل عليهم، ولانحراف الولاة عن طريق الدين، وخرمهم لأحكام كتاب الله المبين.

إن كل الثورات التي سيقوم بها البربر سببها ظلم الولاة لهم، والغيرة على الدين الذي تخرم أحكامه، ويتجاوز الولاة والعمال حدوده، وليس حب الفوضى والثورة كما يدعي كثير من المؤرخين الجهلة، ومن المغرضين المتزلفين لملوكهم، الذين أرادوا أن يكون المغرب للملوك الأمويين لحما على وضم يقطعونه كما يريدون ولا يتحرك، ويعصرون دماءه كما يشاءون ولا يثور، وينتهكون فيه حرمة الدين ثم لا يقمعهم بما امر الله به. ومن الغريب أن بعض المؤرخين المغاربة المحدثين قد قلدوا الأقدمين أو الأوروبيين المستعمرين في

هذه الفرية فالصقوا بأجدادهم ما تنزهوا عنه، فلم يكونوا بالأحفاد البررة، ولا بالعلماء النزهاء !

ولاة بشر على الأندلس

وكانت الأندلس تابعة للمغرب فولى عليها بشر عنبسة بن سحيم الكلبي فاستشهد في بعض وقائعه مع الإفرنج فولى عليها بشر في سنة سبع ومائة يحي ابن سلمة الكلبي فأصلح شانها ، ونظم أمورها.

غزوة صقلية

وكان المغرب هادئا كل الهدوء، قد انتظمت أموره، وحسنت أحواله، فاتجه بشر إلى خارج المغرب فجهز جيشا من العرب والبربر فاقلع به إلى صقلية ليغزوها، ويمهد لفتحها، لتكون تابعة للقيروان، ويسلم أهلها ويكونوا من أبناء القرآن، وينقذها الإسلام بنوره من ظلام الشرك الذي تتخبط فيه، والفساد الذي ينخر في عظامها فانتصر بشر على أعدائه في صقلية فنزل المسلمون فيها، ثم رجعوا منها تثقلهم لغنائم والسبي. ولما كانوا في طريقهم من صقلية جاش البحر وثار، فغرق من جيشه الكثير وأصابه هو مرض «الدبيلة»[1] فوصل القيروان فاشتد عليه المرض فمات. وشاء الله لبشر أن يختم له بأحسن الخواتم، فينتقل إلى جوار الله بعد الجهاد في سبيله. ولما أحس بالوفاة استخلف على المغرب العباس بن أبي باضعة الكلبي، وهو رجل من عشيرته وبني قومه. وكانت وفاته في شوال من سنة تسع ومائة، ومدته في الولاية حوالي سبع سنسن. وكانت أيامه هادئة، وعهده عهد تقدم وازدهار للمغرب بفضل جهود من تقدم من الولاة الصالحين، وبفضل السكون الذي ظل عليه المغرب بفضل سيرته الحسنة واتعاضه بما وقع لابن دينار. ثم هشام عبيدة بن عبد الرحمن السلمى فكيف كانت سيرته، وما حال المغرب في عهده؟

ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمى 110.

ولما توفي بشر بن صفوان ولي هشام بن عبد الملك في سنة عشر ومائة عبيدة ابن عبد الرحمن السلمى، وهو ابن أخي أبي الأعور السلمى قائد خيل معاوية في حرب صفين.

وكانت سيرة عبيدة في البربر رشيدة، ومعاملته للمغرب حسنة، فهدأ في أيامه وكان على السكون الذي يدل على الرضى، والهدوء الذي يدل على الهناء، فاستمرت

1 - الدبيلة داء في الجوف كالدمل.

أعمال البناء التي اتصلت في عهد بشر بن صفوان، واخذ المغرب يتدرج إلى قنة شبابه وتمام نضوجه.

عماله في الأندلس

وكان عبيدة يختار عماله على النواحي، فولى على الأندلس ثلاثة عمال على التوالي في كل سنة عامل، واستبداله للعمال دليل على إيثاره لمصلحة الرعية، وحرسه على هنائها، لا يكاد يبدو من احدهم شذوذ حتى يعزله آخر أحسن منه للناس. قال ابن عذارى: في سنة 110 ولى عبيدة بن الرحمن عثمان بن أبي نسعة على الأندلس فقدمها في شعبان.

وفي سنة 111 قدم على الأندلس واليا من قبل عبيدة بن عبد الرحمن حذيفة ابن الأحوص الاشجعي وذلك في غرة محرم من السنة المذكورة.

وفي سنة 112 ولي عبيدة على الأندلس الهيثم بن عبيد الكناني فقدمها في محرم من هذه السنة.

وكان آخر ولاته على الأندلس هو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي في 112 أيضا. وكان بطلا صنديد، مع العفاف والتقوى والعمل لله. وهو الذي سيغزو جنوب فرنسا كما سيأتينا.

عامله على طرابلس

وولى عبيدة على طرابلس يزيد بن مسلم الكندي. وكان المغرب بفضل هذا الجهاز الذي اختاره ساكنا سكون الرضا والاطمئنان، هادئا هدوء الهناء والسعادة إن دماء ابن دينار لا زالت إشارة الخطر الحمراء التي تذود العمال والموظفين عن طريقه وتنهاهم عن ظلمه، وتبين لهم عاقبة كل ظالم يتجبر على المغرب المسلم، ويعس الأمازيغ الأباة !

غزوة صقلية

وكانت صقلية هي باب الجهاد الذي يتجه إليه المغرب، والناحية التي يعمل لضمها إليه كما ضم الأندلس، فينتشر فيها الإسلام، وتعمها السعادة والوئام، فلما وصل عبيدة إلى المغرب جهز جيشا من العرب والبربر فسيره تحت قيادة المستنير ابن الحبحاب الحرشي لغزو صقلية والتمهيد لفتحها، واستقرار المسلمين فيها، فانتصر المستنير على عدوهم فيها، وفتح بعض نواحيها، فاستقر بها إلى الشتاء ثم قفل راجعا إلى القيروان، وكان الجو عاصفا، والبحر ثائرا، والزمان غير ملائم لركوب اليم، فغرق معظم

جيشه، ونجا قائده إلى طرابلس فأخذه وعاقبه، ثم سجنه لتقصيره، وعدم أخذه بالحزم فيرجع قبل الشتاء، أو يبقى في صقلية إلى الربيع. قال ابن عبد الحكم:فكتب عبيدة إلى عامله على طرابلس يزيد بن مسلم الكندي يأمره أن يشد المستنير وثاقا ويبعث به إليه. فلما قدم عبيدة جلده جلدا وجيعا، وطاف به القيروان على أتان، ثم جعل يضربه في كل جمعه «حتى نال جزاءه» فحبسه» ولم يزل محبوسا إلى أن أطلقه عبيد الله بن الحبحاب.

إن هذا يدل على حزم عبيدة وغيرته على جيشه، سيعتبر به بقية القواد فيأخذون بالحزم في الأمور.

تنكيله بعمال بشر بن صفوان

وكان عبيد يضطغن على بعض عمال بشر بن صفوان لمنافسة بينهم، أو لعداوة قديمة، فعزلهم من وظائفهم ثم أخذهم فسجنهم وأغرمهم، وتحامل عليهم، وعذب بعضه، وكان فيهم أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي، وكان قائدا جليلا، ورجلا ممتازا له مكانه في الدولة، وحظوة عند الأمويين. وقد اسند إليه بشر ولاية كبيرة في أيامه وكان من عماله الكبار في المغرب. فلما نكل به عبيدة انشأ هذه القصيدة وأرسلها إلى ملكه هشام. قال أبو الخطار:

أثارت بنو مروان فينا وما لنا   وفي الله إن لم يعدلوا حكم عدل

كأنهم لم يشهدوا لي وقعـة   ولم يعلموا من كان قبل له الفضل

وقينا كم حر القنا بصدورنا   وليس لكم خيل سوانا ولا رجل

فلما بلغتم نيل ما قد أردتهم   وطاب لكم فينا المشارب والأكل

تغافلتم عنا كأن لم نكن لكم   صديقا وانتم ما علمتم لنا وصل

عزل عبيدة من الولاية

وبعث بها إلى هشام فلما قرئت عليه غضب وأمر بعزل عبيدة، فقفل من المغرب واستخلف عليه عقبة بن قدامة التجيبي وترك بافريقية عبد الله بن المغيرة القرشي قاضيا.[1]

1 - نهاية الأرب للنويري ج 22 نسخة دار الكتب المصورة.

قد يكون هؤلاء العمال تآمروا عليه. إن سكون البربر لعبيدة دليل على حسن سيرته فيهم، أنهم لا يخضعون إلا لمن يسوسهم بالعدل، ويعاملهم بالحسنى. ومن يدري؟ لعل العصبية التي اتصف بها بعض الملوك الأمويين للعرب، واتصف بها هشام هي سبب هذا الانتقام من عمال بشر. إن من يتعصب لجنسه يتعصب لقبيلته في جنسه، ويتعصب لنفسه في القبيلة. إنها داء[1] عضال، يلازم المرء في كل أحواله ويفصله عن كل معاشريه، ويحمله على التحيز في كل المقامات. ولعل هؤلاء العمال من غير قبيلة عبيدة فتآمروا عليه. إن الدولة الأموية في هرمها في عهد هشام. إ هذا الظلم الذي يقع من العرب على بعضهم سيتسع نطلقه بعد عبيدة فيعم المغرب، فتنفجر البراكين، وتدور الدوائر على الأمويين.

وكانت مدة عبيدة أربع سنين وستة أشهر. ولم يكن عبيدة وبشر بن صفوان على ورع إسماعيل بن عبيد الله، ولا على كفاءة محمد بن يزيد وحسن سيرته، ورجاحة عقله، وإنما كانا عاقلين فاتعظا بما وقع لابن دينار، وانتفعا بآثار محمد بن يزيد وإسماعيل في المغرب، وتركاه يسير في الطريق المثلى التي دفعاه فيها، ودفعه أيضا حسان. فلم يخاشنا أبناء مازيغ فيربد الجو، ويتعذر على الشموس إسماعيل وصحبه من العلماء أن تشرق إشراقها، فتورث للمغرب نضوجه وزينته، وتهيؤه لإنشاء دوله الإسلامية الكبرى التي ستحي ما اندس من العدل، وتلتزم في سياستها طريق الخلفاء الراشدين، ويكون المغرب بها حمى الدين، وموطنا لسعادة المسلمين وعزهم، ورقيهم وهنائهم.

وبعد عبيدة بن عبد الرحمن ولى هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحبحاب على المغرب فما أثره فيه، وما سيرته؟

1 - الضمير يرجع إلى العصبية.

ولاية عبيد الله بن الحبحاب 114

وفي سنة أربع عشرة ومائة ولى هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحبحاب على المغرب.

وكان عبيد الله عاقلا رزينا، ومدبرا حكيما، ومع فصاحة في القول، وبلاغة في الخطابة. وقد العجب هشام بن عبد الملك بحسن تدبيره، وبحزمه وحنكته، فولاه على خراج مصر.[1]

وكان هشام حريصا على المال، شحيحا به، لا يرضى أن يضيع دانق واحد مما يرد عليه من دخل الدولة، وما يأتيه من أنحاء المملكة. وكانت مصر لغناها اكبر مورد للمال للأمويين، فاختار هشام لخراجها وجبايتها وجمع الأموال منها عبيد الله بن الحبحاب. فظل في وظيفته هذه زمنا طويلا. وكان هشام يثره ويتمسك به، وقد عزل ثلاثة من عماله على مصر كان قد ولاهم ليتولوا شئون الإمارة فيها غير الخراج، من اجل عبيد الله. لا يكاد يحدث خلاف بين العامل وابن الحبحاب حتى يعزل هشام العامل ويستبقى ابن الحبحاب، وإعجابا به، ورضا بما يبعث إليه من مصر من أموال. حتى كانت سنة أربع عشرة ومائة، وحدث في المغرب ما حدث من فتنة بين عبيدة السلمى وبين عمال بشر صفوان، فاربد الجو في المغرب، فاحتاج هشام إلى كفاءة إدارية ورجل حازم يوليه على المغرب، ليسكن عمال بشر ويسترضيهم ويبعث له من المغرب ما ينتظره من خراجه ودخله.

وكان هشام يدرك بقوة ذكائه أن البربر وإن سكنوا بحسن سيرة بشر وعبيدة فإنهم ليسوا راضين عن الدولة الأموية، لسوء سيرة يزيد بن عبد الملك وتهتكه، وعدم مبالاته بالدين، ومجاهرته بالمعاصي التي تورثه الاحتقار في النفوس، وتنزع هيبة الدولة من الصدور، وأنهم ليسوا راضين عنه لعدم التزامه العدل في السياسة، ولتجرده من الورع والتقوى التي كانت تزين سلفه عمر بن عبد العزيز، وتجعل المغرب مقبلا على دولته، معتزا بالانتساب إليها. وكان يعلم شدة تمسك البربر بالدين، وانه هو الرباط الذي جعل المغرب تابعا للمشرق، وهو العامل الوحيد الذي يجعل البربر على الطاعة للأمويين، لان طاعة أولى الأمر واجب في الدين، وامتثال أوامر الرئيس الذي ارتضوه وبايعوه واعترفوا بفضله وبجدارته للرئاسة فرض في الشريعة. هذا هو الذي جعل البربر يخضعون لعمر بن عبد العزيز ويطيعونه. أما هو ويزيد فإنهم لا يبلغون درجة عمر في الدين، فلا عجب

---

1 - لم يكن عبيد الله واليا عاما على مصر كما ذكر بعض المؤرخين بل كان على الخراج وحده كما ورد في النجوم الزاهرة ج 1.

إلا يكونوا في درجته في قلوب البربر المسلمين. إن البربر الغيورين على الدين لا بد أن يثوروا عليه إذا رأوا عدم تقيده بالشريعة في سياسته، ووصلتهم أنباء ظلمه، وأخبار الثورات التي تنفجر عليه في المشرق من منافسيه على الملك، ومن الثائرين عليه لظلمه وحيفه. فاختار عبيد الله بن الحبحاب الرجل الصارم الذي سيرعب المغرب فلا يثور عليه، ويطأ نواحيه برجله فلا تخرج عن طاعته، ويحتلب له منه ما يتعطش إليه من مال، ويرغب فيه من مادة.وكان من الأسباب التي جعلت هشاما يولى عبيد الله على المغرب، وما وقع من نزاع بين الوليد بن رفاعة والي مصر وبين عبيد الله صاحب الخراج، فسعى الوليد بعبيد الله عند هشام، وطالبه بعزله، وضم ولاية الخراج إليه. فرأى هشام في الوليد كفاءة ونصحا فاستطاع أن يعفى ابن الحبحاب ويبعثه إلى المغرب.

عماله في المغرب

فسار عبيد الله إلى المغرب في سنة أربع عشرة ومائة فعين العمال على النواحي، ونظم الجيش وقواه، واستعد به، وجعل قائده حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع، واعتنى بالأسطول ونظمه وزاد في سفنه. وولى على كل ناحية عاملا حازما ينفذ سياسته، فولى على جنوب المغرب الأقصى ابنه إسماعيل، وعلى شماله عمر بن عبيد الله المرادى.

غزواته

وأرسل عبيد الله جيشه القوي تحت قيادة حبيب بن أبي عبيدة فاخترق المغرب، فغزا المغرب الأقصى، وطرق بلادها، وغنم وسبي منها، ثم سار إلى الصحراء فطرق مواطن البربر فيها، وغنم منهم وسبي من بناتهم، ومن جملة سبيه في هذه الغزوة جاريتان ليس لكل واحدة منهما إلا ثدي واحد، وهي التي تسميه البربر «إجان». ثم سار حبيب إلى السودان فغزا بلاده وملأ أيديه بطرفه ومغانمه وسبيه، فرجع إلى القيروان مثقلا بالسبي، وما غنمه من ذهب وفضة وأموال.

لم يذكر المؤرخون سبب غزو عبيد الله للمغرب الأقصى، وهي البلاد المسلمة الهادئة. ولعله قد قصد السودان الذي اشتهر بكثرة ذهبه، ومعادن التبر فيه، فجعل طريقه على المغرب فعسفهم حبيب وغنم من أموالهم، وسبي من ذراريهم. إن اضطغان أبناء عقبة على المغرب الأقصى مما عرفناه من قصة[1] عياض بن عقبة وإخوته في «سقومة» قلعة «أوربة» قد يكون هذا هو السبب في معاملة المغرب الأقصى هذه المعاملة القاسية، مع

1 - هذه القصة في فصل موسى بن نصير من هذا الكتاب.

الغرض المادي لهذه الحرب، ورغبة عبيد الله في أن يتحف هشاما بما يبلغ به رضاه من سبي المغرب وكنوزه.

إن هذه الغزوة هي العاصفة التي هبت في المغرب فكسرت غصونه، وكانت من أسباب انفصال بعض أجزائه عن القيروان، وإسراع المغرب الأقصى إلى الثورة على الأمويين.

أن عبيد الله كموسى بن نصير يعتمد على القوة في رضوخ المغرب، وهشام كان كالوليد ملكا فظا لا يدين إلا بالكتيبة في طاعة رعيته، وبالخشونة ليكونوا حريرا كما يريد. لهذا نرى سياسة القوة هي التي تطبق في المغرب في عهد البن الحبحاب فيبوء بأوخم العواقب، ولا يرى في المغرب إلا لياليه.

غزوة سردانيا

ثم أرسل عبيد الله جيشا بقيادة قثم بن عوانة فغزا جزيرة «سردانية» فنازلها فاحتل كثيرا من مدنها، وغنم منها الشيء الكثير،وسبي فرجع عنها، ولكنها لم يصل إلى القيروان، فان البحر قد ثار عليهم فأغرقه مع جيشه، فكانت نكبة كبرى للمسلمين. من يدري؟ لعل الغلول الذي اغرق جيش ابن نصير إلى سردانية [1] هو سبب هذه الفجيعة. إن التاريخ يعيد نفسه، لان الإنسان ينسى فلا يتعظ بحوادثه. وعبيد الله كموسى، والناس على سلوك أمرائهم، وطريقة رؤسائهم.

غزوة صقلية

وأرسل عبيد الله أسطوله تحت قيادة حبيب بن أبي عبيدة ومعه ابنه عبد الرحمن ابن حبيب لغزو صقلية، فنازلها حبيب فانتصر على الروم فيها، ودخل كثيرا من مدنها فغنم وسبي منها، ونازل عاصمتها «سرقوسة» وشدد عليها الخناق، وارغب الروم بقوته ومضائه، فأذعنوا للجزية، ففرضها عليهم واستقر حبيب في صقلية عازما أن يفتح «سرقوسة» ويفتح صقلية كلها فتكون للمسلمين، ولكن عبيد الله أمره بالرجوع إلى المغرب لما ثارت عليه البراكين، واحتاج إلى جيشه كله لينازل المغرب الأقصى الذي ثار عليه، لظلم عماله، ولمخاشنته له، وعدم العدل فيه. فرجع حبيب وهو موفور بغنائمه وسبيه، وما ظفر به في هذه الغزاة.

ولاته على الأندلس ووقعة بلاط الشهداء

وكان عبيد الله معجبا بوالي الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، وبطولته

1 - انظر هذه القصة في باب موسى بن نصير من هذا الجزء.

وحسن سيرته، فاقره في ولايته، فكانت له في جنوب فرنسا غزوات موفقة فاستولى على مدن كبيرة منها «ليون» و«ديجور» و«بلفور» وانهزم «أود» دوق اوكيتانيا أمامه، ولم يقدر على رده، فاستعان «بشارل مارتيل» احد ملوك العائلة «الكرولانجية» فاجتمعوا على عبد الرحمن في بلاط الشهداء، وقعت حرب عنيفة بين المسلمين والإفرنج، استطاع فيها «شارل» بكثرة جيشه، وقوة تصميمه أن يتغلب على الجيش الإسلامي، فاستشهد عبد الرحمن الغافقي وكثير من جيشه في هذه المعركة المعروفة عند الإفرنج بمعركة «بواتي Poitiers» فرجع بقية الجيش الإسلامي إلى الأندلس، ثم لم يعاود المسلمون الكرة على جنوب فرنسا ليفتحوه فيكون منبعا للنور والعلم والدين يطهر أوروبا من جهالتها فتسعد بالإسلام والمسلمين، وتنجو مما ستظل تتخبط فيه قرونا من جهل وفساد، ومن شقاء وتعاسة. إن غرض عبد الرحمن الغافقي ومن معه في أوروبا غرض السحاب إذا غزا البقاع المجدبة، وغرض النور إذا اتجه إلى النواحي المظلمة، ومقصده مقصد الطبيب الوالد في ابنه المريض، وليس كمقصد المستعمرين الأوروبيين الذين يغزون بلاد المسلمين، ويؤمونها بدافع من الجشع والحقد، لا بداع من حب الخير، والحرص على نفع الناس، والرغبة في تمدين البلاد التي يغزونها.

تجديد الزيتون والاعتناء بدار الصناعة

وكان عبيد الله مولعا بالعمارة، محبا للبناء، مغرما بالغزو والفتوح. فما كاد يصل المغرب حتى شرع في تجديد جامع الزيتون ليكون مسجدا جامعا يسع تونس التي كبرت، ويليق بجمال هذه المدينة التي تحضرت وترقت. وكان سيدنا حسان بن النعمان قد أسس هذا المسجد وبناه، ولكنه كان على حسب تونس في عهده، على البساطة والصغر، فوسعه عبيد الله وجمله، وأعلى بناءه، وجعله أم المساجد في تونس الخضراء.

وكان عبيد الله محبا للفتوح، فاستعد لذلك وتأهب، فاعتنى بدار الصناعة التي أنشأها سيدنا حسان الغساني، فرقاها ووسعها وبنى فيها سفنا كثيرة قوى بها الأسطول المغربي، فصار أسطولنا الإسلامي اكبر أسطول في بحر المسلمين «البحر الأبيض المتوسط» وبهذا الأسطول استطاع عبيد الله أن يطمع في فتح صقلية وضمنها إلى المغرب، وتأسيس إمارة إسلامية فيها، فجهز إليها الجيوش من العرب والبربر فنزلت فيها لتنشر دين الحضارة والعمران والشباب، وتنقذها من ظلام الشرك والشقاء والشيخوخة التي تقتلها.

ثورة البربر على الأمويين

هذه هي الأعمال التي ذكرها المؤرخون لعبيد الله بن الحبحاب في المغرب. وقد تكون أعماله العسكرية، وغزواته في البر والبحر أكثر من ذلك فأغفلها المؤرخون فذكروا أهمها فقط، وقد تكون أعماله العمرانية ، ومنشآته المدنية أكثر مما اثبتوا. إن طول عهده في المغرب، مع سكون أوله، ونشاطه هو وطموحه، واندفاع المغرب في طريق البناء والتشييد بفضل من تقدم من الولاة، يستلزم أن يكون عمله في المغرب أكثر مما ذكروا له. ولكن ثورة البربر عليه في سنة اثنتين وعشرين ومائة لسوء سياسته، وعدم عدله، وظلم عماله، ومخالفته للدين في معاملة البربر، واحتقاره لهم، وعدم المبالاة بإسلامهم، ومعاملتهم كالمشركين الذين لم يسلموا، وظلمه لهم في أموالهم وذراريهم، واستحلاله فيهم لما حرم الله، وتعطيل حدود الدين الذي يغار عليه البربر. هذه الأسباب التي سنبسطها بالنصوص التاريخية في آخر هذا الفصل، أثارت البربر عليه فمرغوه في الرغام، وهزموا جيوش هشام، وقتلوا رجاله الصناديد، وإشراف جنده الذين يعول في تمكين سلطانه في المغرب عليهم. هذه الحوادث المؤلمة، ونهاية عبيد الله السيئة، غطت على قد يكون له من أعمال في البناء والتعمير قام بها في المغرب. ولكن ما هي الأسباب التي جعلت براكين البربر تنفجر عليه، وجعلت المغرب الأقصى ينفصل عن الدولة الأموية ثم لا يرجع إليها، والاه المغرب الأوسط فاستقل وانفصل، فلم تستطع القيروان استرجاعه؟ ما هي الأسباب من الأسباب من الأمويين ومن البربر؟

أغلاط المؤرخين القدماء في تعليل الثورة

إن المؤرخين القدماء الذين كان جلهم يتملق الملوك، ويتزلف للأمويين والعباسيين، والذين كانت تسيرهم بطونهم لا دينهم وعقولهم، والذين الجم الخوف ألسنتهم عن قولة الحق، فلم يتصفون بالشجاعة، وبالأمانة العلمية، وبما يأمرهم به دينهم من الصدق في القول، والتمحيص للشائعات، والتجرد من العصبية والأنانية فيما يكتبون. أولئك المؤرخون المتزلفون الذين وصلتنا كتبهم لأنها توافق هوى الملوك. فعملوا لنشرها فحفظت في الآفاق، وسلمت من تحريق أولئك الملوك لكل ما لا يوافق هواهم، ويخضع الرقاب لهم، وينصر السياسة التي يريدون. إن جل أولئك المؤرخون القدماء الذين كانوا آلة مسخرة للدعاية في أيدي الملوك والأمراء لم يذكروا الأسباب النفسية، والحوادث التاريخية التي أجبرت البربر على الثورة، وقهرت المغرب على الانفصال عن المشرق. إن كل ما كتبوه يوحى بتخطئة البربر في الثورة على هشام، ويقولون: إن البربر ثاروا بتحريش من الصفرية، وأنهم ارتكبوا بذلك عملا يخالف الدين، فلا يسهبون في أغلاط الأمويين

وانحرافهم عن الدين كإسهابهم في ثورة البربر على الأمويين، فظلموا المغرب ظلما شنيعا في هذا الفصل وفيما يليه من الفصول، وشحنوا كتبهم بأنباء وتعاليل تنفر المشرق عن المغرب، وتفصم الجماعة الإسلامية، وتفرق أبناء التوحيد وقد خلقهم الله امة واحدة. وقد انساق كثير من الخلق ومن مؤرخينا المحدثين في ذلك التيار، واعتمدوا على تلك المراجع، ونظروا إلى المغرب والى البربر بمنظار أولئك القدماء فرأوه على غير حقيقته، وبدا لهمن في قتامة وهو في إشراق، وعلى الخطإ في انفصاله عن الأمويين والعباسيين وهو على الصواب، ورأوا استقلال المغرب وإنشاء دوله الإسلامية العادلة خسارة للعلم الإسلامي وهو ربحه، وضعفا للدين وهو قوته. ونحن في هذا العصر الذي انقشعت فيه الغيوم السياسية القديمة التي حجبت الأقمار والشموس عن عيون كثير من مؤرخينا القدماء فلم يتبينوها، ونقلوا شائعات الملوك التي تطلقها أبواقها، وزال الخوف الذي عقل ألسنتهم، يجب علينا نحن أن نقرر الحقيقة في هذا الباب، وننصف المغرب في هذه الفصول، ونقول قولة إنسان اختصمت أسرته، وتنازع أبواه، فادعى كل على الآخر ما يخمله، وشتم كل منهما صاحبه بما يزرى به؛ فان الابن البار لا يميل إلى احدهما، ولا يتأثر بدعاوي وشتائم احد الجانبين، بل يكون لسان الميزان الصحيح، وعقل القاضي المنطقي، فيقرر الحق، ويصلح بين الجانبين. إن البربر أجدادنا والعرب أجدادنا، فنحن أبناؤهم تصرخ في عروقنا دماؤهم جميعا، وتوجهنا وراثتهم، فحرام أن نتعصب على احدهم وهو من الآباء، ونظلم احد الجانبين بترديد دعاوى الأقدمين الباطلة، وهو من أصولنا التي يجب أن نغادر عليها، وننظر إليها بمنظار ابيض صاف يبدي الحقيقة، ويوقفنا على الواقع.

لقد ثار البربر على ابن الحبحاب لماذا ثاروا؟ واستقل المغرب الأقصى عن الأمويين وحاربهم، فلم ذلك الاستقلال؟؟

الأسباب النفسية لثورة البربر على الأمويين:

لقد جاء ابن الحبحاب إلى المغرب وهو ساكن وادع، قد حسن إسلامه، وتكون فيه العلماء والفقهاء،ونبغ كثير من البربر في علوم الشريعة، سيما في شرف المغرب، جنوب افريقية، وجبل نفوسة، وفي النواحي القريبة من القيروان، والتي كانت طريق العرب المهاجرين إلى المغرب والأندلس، فازداد البربر اعتدادا بأنفسهم، وثقة بها، واعتزازا بكرامتهم، وتمسكا بحقهم في الحرية والمساواة، وفي أن يعيشوا أعزاء محترمين كما أمر الله المسلم أن يعيش.

وكان البربر متمسكين بالدين كل التمسك، متقيدين به في أقوالهم وأعمالهم،

وكانوا يعرفون واجب الله على المسلم في حياطة الدين، والدفاع من صراط الله المستقيم، فأبوا كل الآباء أن تخزم قوانين الدين، سيما فيما يتصل بالسياسة، وفي معاملة الملوك للرعية. وقد اقبلوا على حسان بن النعمان ومن بعده من الولاة الموفقين لأنهم كانوا مظهرا لجمال الدين بسلوكهم الرشيد، وإحسانهم للرعية، وعدلهم في السياسة، وأحبوا الدين الإسلامي وعضوا عليه بالنواجذ لأنه دين العدل والحرية والمساواة، وخضعوا للدولة الأموية في أول أمرها بفضل الولاة الصالحين الذين كانوا أحسن عنوان لها في المغرب، وأجمل مظهر لها عند الأمازيغ.[1] وكان البربر يسمعون بظلم هؤلاء الملوك في المشرق، وبعسف الحجاج ومناكره، فسكنوا مع ذلك لان عبد الملك بن مروان، وابنه سليمان، وعمر بن عبد العزيز عاملوهم بالحسنى، فما كانوا ليقبلوا لهم ظهر المجن وهم يحسنون إليهم، وما كانوا لينفصلوا عنهم وإن خالف بعضهم الدين في المشرق، وهم في حاجة إلى إليهم لتكوين أنفسهم، وتعلم دينهم، واقتباس أساليبهم في الحضارة والمدنية، وكل ما حملوه من المشرق من علم وصناعة، ومن مدنية وعمران. وقد انتفع البربر كل الانتفاع في هذه الفترة الجميلة بالأمويين، واستفادوا بفضل العادلين منهم ما أورثهم النضوج، وجعلهم كاهل المشرق في العلم والعرفان، وفي الغنى والثروة، وفي كل ما تعتمد به الأمم وترفع رأسها، وتنضج به الشعوب ويرثها الثقة بالنفس.

هذه هي حقيقة البربر لما ولى عليهم عبيد الله بن الحبحاب. وكان يجب أن يسوسهم سياسة تشعر بالاحترام، وتدل على مساواتهم بغيرهم من بني سام، ولكنه جهل هذه الحقيقة، وتأثر بهشام، فتصرف في المغرب على حسب مزاجه، وعمل لاسترضائه، وجرفه تيار التعصب الجنسي الذي كان يتصف به هشام ومن لم يتقيد بالدين والعقل من الأمويين، فاحتقر هو وعماله في المغرب البربر، وعسفوهم وظلموهم في أنفسهم وأموالهم وبناتهم فصبر الأمازيغ ما وسعهم الصبر، وشكوا وتذمروا واحتجوا ما استطاعوا الشكوى والاحتجاج، فلما وجدوا الدولة الأموية في شيخوختها، وقد صمت آذانها عن سماع الشكوى، وقصرت يدها عن ردع عمالها الظالمين، ووجدوا أنفسهم طعمة لموظفي الدولة، ومنهبا لعمال بني أمية وشيعتهم، سلكوا طريق الله الذي شرعه للمسلم في الدفاع عن نفسه، ورفعوا لتغيير المنكر النازل عليهم القناة والحسام، لما لم يجد العتاب والملام، وسلكوا مسلك العباسيين والعلويين في الثورة على الأمويين، فأسسوا -البربر- دولهم الإسلامية العظمى التي أحيت العدل الإسلامي، والتزمت الدين في السياسة، وكانت ملجأ لمحبي المساواة والحرية من كل البقاع في

1 - الأمازيغ اسم نسبه إلى جدهم مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام فهم والقدماء المصريون والفلسطينيون من أصل واحد.

العالم الإسلامي. ولكن ما هي المظالم التي ارتكبها عبيد الله وعماله في المغرب فثار عليه، وما هي الأسباب التي جعلت عبيد الله يحيد عن طريق من تقدمه من الولاة الصالحين. هذا ما يجب معرفته قبل الأخذ في الحوادث التاريخية والنصوص التي تصور المظالم التي أثارت المغرب على الأمويين، لان تلك الأغلاط التي ارتكبوها في المغرب فرع عن هذه الأصول.

أسباب انحراف الأمويين في المغرب

إن سبب المظالم التي وقعت على البربر هو شيخوخة الدولة الأموية؛ والدولة كالإنسان إذا شاخت وهرمت رفعت العصا... ولازمتها في الأمكنة، واعتمدت عليها في كل الخطوات ! وهي كالمرء أيضا إذا شاخت تسوء أخلاقهم وترتد إلى طفولتها، فيكون ما يسيرها هي الغرائز لا الدين، والهوى وما تشتيه النفس لا الأخلاق الحسنة، وما يستلزم إرادة وحرمانا وبذلا وتضحية؛ وتضعف مداركها، وترين الشيخوخة على قواها فتعدم التميز بين الأشياء، والإدراك الصحيح للأمور، والاهتداء إلى الحجة المثلى عند اختلاف السبل، وتعدد المسالك، فتتخبط الدولة في سياستها تخبط الشيخ الخرف الذي يحجر الناس عليه، ويقدمون إنسانا عليه وعلى أسرته للكفالة والحياطة. وقد رأى البربر شيخوخة الأمويين، فأيسوا من شفائهم من انحرافهم عن الدين، والرجوع إلى طريق الله القويم الذي تتسم به الدول الشابة التي تسيرها إرادتها لا أهواؤها، وأصابهم القنوط من رجوع الدولة الأموية الهرمة إلى رشادها، ورأوا ثورة العلويين والعباسيين عليها لظلمها وتحيزها، فنفضوا أيديهم عنها، وقدموا على أنفسهم الأئمة الذين أسعدوهم، وطبقوا فيهم قوانين دينهم، والتزموا شريعة الله في كل شيء من أعمالهم، وحفظوا لهم كرامتهم، وأورثوا لهم عزتهم، ولم يروهم كالأمويين مزرعة تحصد، وبقرة تحلب، وبلادهم خلية النحل للمشتار[1] يجمع عسلها وهو رأفة، ويستولى على نتاجها بدون أن يقدم إليها ما تزدهر به !

أسباب هرم الدولة الأموية

ولكن ما هي أسباب هرم الدولة وهي لم تتجاوز القرن من السنين، واحد يداب ظهرها فركبها الموت في عصر وعمر سنرى فيه الدول المغربية العادلة تبلغ أقصى قوتها، وتصل ذروة شبابها؟ ما هو سبب الهرم الذي أسرع إليها فرفعت العصا، وعاشرت أبنائها معاشرة العجوز المشاكسة، فخسرت قلوب الأصدقاء، وثقلت على الأولياء، وتمنى الناس زوالها؟.

1 - المشتار: جامع العسل من الخلية.

إن سبب الهرم الذي أسرع إليها هو عدم تمسك ملوكها بالدين، فكانت واهية الأساس، ضعيفة البنية، لم تنبع من قلوب كل المسلمين فتكون بجذورها الراسخة التي يمتد بها عمرها، وبعروقها الغائصة التي تورثها ازدهارها وطول مدتها، بل فرضت بالسيف على الناس، فكانت طاقة الزهر في أصيصها تعمر زمنا قصيرا ثم تذبل، وتعيش أياما معدودة ثم تنتثر، فلو رضيها كل من خضع لها كما وقع للدول المغربية لطال عمرها، وهدأت أيامها.

لقد ولدت هذه الدولة بعوامل الهرم والموت؛ فلولا النفوس القوية، والدهاء الذي واتيه معاوية وعبد الملك بن مروان، والرشاد في السيرة الذي كان عليه سليمان، وورع وعدل سيدنا عمر بن عبد العزيز، لقضت نحبها قبل الأمد الذي زالت فيه بزمن طويل. لقد جاء الوليد بن عبد الملك بعسفه وظلمه، فمالت الدولة للسقوط، ثم جاء يزيد بن عبد الملك وهشام ومن بعدهما فانغمسوا في الملاذ، وغرقوا في الترف، وازدادوا بعدا عن الدين، فاختنقت الدولة في أيامهم فماتت.

لو تمسك الأمويين بالدين كما تمسك به سيدنا عمر بن عبد العزيز لكانوا على المتانة في الأخلاق، وعلى الرشاد في السيرة، وعلى العدل في السياسة، وعلى كل ما يرضيهم ويرضينا، لبلوغهم رضا الله. إن الدين -هو لا غيره- سبب المتانة في الأخلاق، والقوة في النفوس، والاستقامة في السلوك؟، فإذا تمسك به الدولة، وتتوج به رؤساؤها، وكانوا على الشباب الدائم.وعلى القوة التي لا تقهر، والسعادة التي لا تزول، وكان لها الوقاية من كل الأمراض التي تقتل الأمم، والأدواء التي تهدم الدول، والعلل التي تتكدر بها الحياة. لقد كان اغلب الأمويين ومن شايعهم، وسار في ركابهم، وتأثر بهم من أعمالهم على الضعف في الدين، فتسلطت عليهم غرائزهم، فانهمكوا في الملذات، وانغمسوا في الشهوات، وتعودوا مفاسد الحضارة فضعفت أخلاقهم، وكثرت أمراضهم، وطبعتهم غرائزهم التي تستعبدهم بالأنانية وحب النفس، وبالعصبية للقبيلة، والتحيز للجنس، والميل إلى المشرق وتفضيله على المغرب، والى المغرب وإيثارهم على العجم، والى الأمويين وتقديمهم على من سواهم من العرب، فباءوا بالعاقبة الوخيمة التي جعلها الله عقابا لكل من ينحرف عن الدين، ولا يتقيد بقانون الله في سياسة المسلمين، ويتبع شهواته، وستولي عليه غرائزه، ويجعل إلهه هواه ! فشاخ الأمويون قبل الأوان، واحتضرت دولتهم فماتت، وقد رأى البربر حشرجتها في إزبادها عليهم، وظلمها لهم، ورمحها لهم بأرجلها، فخلعوها وأسسوا دولهم الفتية التي تليق بشباب الدين الذي هم عليه، وبقوة الإسلام التي يحسون بها في نفوسهم. هذا هو السبب الذي جعل عبيد الله بن الخطاب وعماله

على الظلم والانحراف، فانحرف عنهم المغرب وثار. إن عدم تمسكهم بالدين وظلمهم هو سبب ثورة المغرب عليهم لا غيره !!

والسبب الثاني في هرم الدولة الأموية وموتها في المغرب، وفي المظالم التي ارتكبها ابن الحبحاب وعماله في المغرب فثار عليهم هو هشام بن عبد الملك.

نشأة وشخصيته

لقد كان هشام وليد البيئة الملوكية التي طبعت أخاه يزيدا، والتي بينا آثارها في النفوس، فلم يكن على عبقرية أبيه ومتانة أخلاقه، ولا على سداد أخيه سليمان وتوفقه في سياسته، ولا على ورع سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وتقواه، بل كان رجلا تسيره المصلحة لا الدين، ويتحكم فيه الهوى لا شريعة الله. انه وإن كان أدهى من يزيد، وابرع في السياسة، ولكنه لم يكن أكثر منه تدينا. لقد كان أحب منه للدنيا، وأشح منه بالمال، وارغب منه في المادة، وأكثر تعصبا منه للجنس، واقل إدراكا لحقيقة البربر، وابعد عن تيار الصلاح الذي جرف يزيد من عمر بن عبد العزيز فسار في اتجاه بعض السير في المغرب.

إن الولاة على حساب ملوكهم، والموظفين على طريقة رئيس جولتهم، وهم دائما على حسبه لأنهم من اختياره، فهو أصل الشجرة وهم فروعه، لا ينبت إلا ما يكون مظهرا له، يحمل ثماره، ويكون من نوعه، فكيف كان هشام فتأثر به ولاته في المغرب؟ ما يجب أن نعرفه لان هشاما هو أصل كل ما وقع في المغرب، وما ولاته إلا فروعه، وما المظالم التي سنذكرها إلا ثمرة من ثماره، كانت بسلوك الولاة طريقة، وتأثرهم به.

قال المسعودي: كان هشام أحول، فظا غليظ خشنا، يجمع الأموال، ويعمر الأرض، ويستجيد الخيل، وأقام الحلبة فاجتمع له فيها من خلية وخيل غيره أربعة آلاف فرس، ولم يعرف ذلك جاهلية ولا إسلام لأحد من الناس، واستجاد الكسى والفرش، وعدد الحرب ولامتها واصطنع الرجال، وقوى الثغور، واتخذ القني[1] والرك بطريق مكة «من الشام ليكون السفر إلى الحج له وللأمراء من أسرته سهلا منعشا» وغير ذلك من الآثار التي أتى عليها داود بن علي في صدر الدولة العباسية.

وفي أيامه عمل الخز والقصف الخز[2] فسلك الناس جميعا في أيامه مذهبه، ومنعوا

1 - القني جمع قناة وهي الساقية تحت الأرض. ما بين قوسين ليس من المسعودي.

2 - الخز هنا يراد به الحرير الخالص، والقطف هي الثياب المخملة وهي كالقطيفة في هذا الزمان. وهذا يدل على الترف الذي استغرق فيه الأمويون وأهل زمانهم.

ما في أيديهم، فقل الأفضال، وانقطع الرفد، ولم ير زمان أصعب من زمانه».[1]

روى الأصمعي عن أبي الزناد عن منذر بن أبي ثور قال: أصبنا في خزائن هشام اثني عشر ألف قميص كلها قد اثر بها.[2]

وكان هشام مع حبه للترف، واستغراقه في النعيم، بخيلا على غيره، غيورا لا يرضى أن يتمتع الشعب بما يتمتع به: روى المسعودي قال: دخل هشام بستانا له ومعه ندماؤه فطافوا به، وبه من كل الثمار، فجعلوا يأكلون ويقولون: بارك الله لأمير المؤمنين، فقال: وكيف يبارك لي فيه وانتم تأكلونه؟ ! ثم قال: ادع قيمه فدعا به، فقال: اقلع شجره واغرس فيه زيتونا حتى لا يأكل منه احد شيئا !!

ونظر هشام إلى رجل على برذون طخارى فقال: من أين لك هذا؟ قال حملني عليه الجنيد بن عبد الرحمن، قال: وقد كثرت الطخارية حتى ركبها العامة؟ ! لقد مات عبد الملك وفي مربطه برذون واحد طخارى، فتنافس فيه ولده حتى ظن من فاته أن الخلافة فاتته، قال الرجل: فحسدني إياه.

وكان أخوه مسلمة مازحة قبل أن يلي الأمر، فقال له: يا هشام، أتؤمل الخلافة وأنت جبان بخيل؟ ! فقال: والله أني عليم حليم» وقد عاقب الله هشاما علي بخله لما كان بالبخل، فان الوليد بن يزيد الذي ملك بعده أمر الخزنة فغلقوا الخزائن في القصور كلها، وحرم هشاما مما كان يجمعه ويدخره ويشح به على رعيته، وهو مالهم، جمعه من الدولة، واكسبه من الرعية، حتى أنهم لم يجدوا فحما ليسخنوا الماء لغسله، ولا قمقما[3] يسخنون فيه، ولا كفنا يكفنونه به، فطلبوا الفحم له والقمقم، وكفنه احد عبيده، وقيل صديقه الابرش بن الوليد. ليت شعرى هل يتعظ الأمراء الأشحاء والأغنياء البخلاء الذين لا يزكون، ولا يتخذون أسباب التنمية والزيادة في أموالهم بالصدقات والتبرعات، هل يتعظ أولئك القساة بهذه القصة؟

وكان هشام مع بخله قاسيا لا يلين حتى في المواطن التي يذوب فيها الناس من خشية الله، ولا يراقب الله حتى في الأماكن التي تذكر كل الناس بالله. وكان ظالما لا ينصف من يشكو له، مجبرا لا يلين للضعفاء الذين يتضرعون إليه. انظر إلى قصة الرجل الذي عرف قساوته فاغتنم فرصة وجود هشام بالكعبة، وظن انه قد لان من خشية الله، فرفع إليه ظلامته، بماذا أجابه، وكيف قابله؟

1 - مروج الذهب للمسعودي ج 3 ص 217.

2 - البداية والنهاية لابن كثير ج 9 ص 353.

3 - القمقم: آنية وهو معرب.

قال ابن الأثير: في هذه السنة «ست ومائة» كلم إبراهيم بن محمد بن طلحة هشام ابن عبد الملك -وهو في الحجر- فقال له: أسالك بالله وبحرمة هذا البيت الذي خرجت معظما له إلا رددت علي ظلامتي. قال: أي ظلامة؟ قال: دراي قال: فأين كنت عن أمير المؤمنين عبد الملك ؟ قال ظلمني والله قال: فالوليد وسليمان؟ قال: ظلماني. قال: فعمر؟ قال: يرحمه الله ردها علي. قال: فيزيد بن عبد املك؟ قال: ظلمني وقبضها مني بعد قبضي لها وهي في يدك. فقال هشام: لو كان فيك ضرب لضربتك ! فقال في والله ضرب بالسيف والسوط. فانصرف هشام !

إن هذه القصة تطلعنا على هشام وتجبره، وسيرته في رعيته. هذا في مقام اللين والخشية، وفي الكعبة المقدسة، فكيف يكون إذا هو في قصوره وفي دار ملكه، وعلى عرشه، وحوله أجناده، ومن يوحى إليه بالغطرسة والجبروت، وما يبعثه على الظلم والطغيان؟ انظر إلى قوله: لو كان فيك ضرب لضربتك! إن الرجل كان دقيق العظم، هزيل الجسم، لمرض أو شيخوخة، فلم يرحمه فيصرفه بالحسنى، أو يقضي له حاجته، بل قال له: لو كان فيك مكان للضرب لضربتك! ثم إن الرجل شكا إليه في داره، وهي ضرورة له ولعائلته، وما لا يستطيع الإنسان أن يستغني عنه ولكن لما صارت من أملاك الدولة، عز على هشام أن يردها إليه، لان الغرائز وحب الدنيا هي التي تتحكم فيه، وفي عماله وموظفيه، لا خشية الله.

وكان هشام صعب الحجاب لا يستطيع أصحاب المظالم أن يتصلوا به، ولم يكن هو يكترث بهم كما كان سيدنا عمر بن عبد العزيز، وكما سنرى الأئمة العادين في الدولة المغربية؛ يجلسون في المسجد الجامع فيختلطون بكل الناس، ويتحدث إليهم كل إنسان، ويرفع لهم مظلمته وحاجته كل مظلوم وفقير فلا يقومون من مجالسهم حتى ينصفوه من ظالمه ويقضوا له حاجته. وكان سيدنا عمر بن عبد العزيز والأئمة في الدول المغربية أسسها البربر لما ثاروا على الأمويين يتجولون في الأسواق لتفقد أحوال المسلمين، ويقصدون الإحياء الفقيرة ليلا لعلهم يجدون بائسا لا مأوى له، أو ذا حاجة فيسارعون بقضائها. لم يكن هشام على هذه السيرة التي يأمر بها الدين، لان الدين لم يكن هو أمامه، فلو كان الدين قائده، وما يملأ اهابه، كما كان سلفه عمر بن عبد العزيز لرأيناه على الرأفة والرحمة التي تجعله للرعية أما رءوما لصغارها، وحمامة لفراخها، وتغطيهم بجناحها، وتقيهم من الثلج والأمطار بنفسها. لقد كان قاسيا فتأثر به عماله فثار البربر عليه، وأسسوا دولهم التي التزم أئمتها طريقة الخلفاء الراشدين،

وتمسكوا في كل أمورهم بدين الله المتين، وأسعدت المغرب وازدهر بها الإسلام، وفاء إلى ظلها المسلمون من المشرق المظلوم.

قساوته مع آل البيت

وكان هشام قاسيا عنيفا مع آل البيت، ومع أبناء الإمام علي رضي الله عنه. كان غليظ الكبد قاسيا لا مع أحيائهم الذين يمكن أن ينافسوه في ملكه فقط، بل حتى مع الأموات الذين يأمر الدين بصيانتهم، وتوجب كل القوانين الدنيوية مراعاة حرمتهم انظر إلى زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عمه لما ثار على هشام لظلمه وظلم الأمويين في عهده، فقاتله، فاستشهد رحمه الله، كيف عامل هشام جثته، وكيف عاملها الوليد من بعده. لم يكن هشام قاسيا ظلوما للبربر فقط فنقول انه لم يعرف حقيقتهم فجهل الأسلوب الذي يليق لهم في الحكم، وان عصبيته لجنسه هي التي تدفعه، بل كان على القساوة والظلم حتى مع من هم اشرف منه في النسب،وأعلى مقاما في صدور المسلمين، ومن هو من ذؤابة قريش، ومن بؤبؤ بني هاشم لأنه لا يحكم دينه، ولكن غرائزه وأنانيته.

قال المسعودي: وثار زيد بن علي بن الحسين «في سنة اثنتين وعشرين ومائة»[1]على هشام في الكوفة فخرج ومعه القراء والأشراف، فحاربه يوسف بن عمر الثقفي «والي العراق» فلما قامت الحرب انهزم أصحاب زيد، وبقي في جماعة يسيرة، فقاتلهم اشد قتال، وهو يقول متمثلا:

أذل الحياة وعز الممات *** وكلا أراه طعاما وبيلا

وإن كان لابد من واحد *** فسيرى إلى الموت سيرا جميلا

وحال المساء بين الفريقين، فراح زيد مثخنا بالجراح، وقد أصابه سهم في جبهته فطلبوا من ينزع النصل فأتي بحجام من بعض القرى، فاستكتموه أمره، فاستخرج النصل، فمات من ساعته، فدفنوه في ساقية ماء، وجعلوا على قبره التراب والحشيش واجري الماء على ذلك وحضر الحجام موارته فعرف الموضع فلما أصبح مضى إلى يوسف منتصحا، فدله على موضع قبره، فاستخرجه يوسف، وبعث برأسه إلى هشام «فصلب على باب مدينة دمشق ثم أرسل إلى المدينة المنورة»[2] ليصلب فيها أيضا وهي مقر

1 - هذه السنة هي السنة التي ثار فيها البربر وهي تدلك على ضيق المشرق والمغرب معا بظلم هشام.

2 - ابن الأثير ج 4.

أهله وعائلته وأنصار علي رضي الله عنه)[1] قال المسعودي: فكتب هشام إلى يوسف أن اصلب زيدا عريانا! فصلبه كذلك! وبنى تحت خشبته عمودا «حتى لا تقع: وأقام عليه من يحرسه حتى لا ينزلوه. وأقام على ذلك سنة أن مات هشام، فولي الوليد بن يزيد، فأمر بإنزال جثته وإحراقها! !»[2] قال المسعودي: إن هشاما هو الذي أمر بإحراق الجثة وذروها في الرياح!

تلك هي معاملة هشام لزيد، وهو سيد في زمانه، جدته فاطمة الزهراء، وجده علي رضي الله عنه، وهو من خاصة قريش وكبرائها، ولم يعرف له مقامه وهو حي، ولم يكرم جثته لما مات! إن الإسلام قد حرم التمثيل حتى بجثث المشركين، ونهى أن تصلب أو تكشف أو تنتهك حرمة الميت. ولكن هشاما ومن على غراره من الأمويين كانوا قد بلغوا في التأثر بالفرس والروم درجة كبرى، فقلدوهم حتى في التمثيل بالأعداء، وضعف الدين في نفوسهم، فسيرتهم الشهوات والأهواء، فكانوا على القساوة والشدة، وعلى التجبر والغطرسة. وقد سار عماله وموظفوه في المغرب سيرته، وكانوا على حبه للمال، وتهافته على الطرف، وعلى قساوته وخشونته، وعلى عصبيته لجنسه، فظلموا البربر ظلما شديدا فثاروا عليهم. فما هي أنواع الظلم التي انزلوها على البربر فثاروا؟ وما هي المنكرات التي ارتكبوها فيهم فخلعوا دولة الأمويين، وأسسوا دولهم التي سارت فيهم سيرة الخلفاء الراشدين؟

1 - ما بين هذين القوسين ليس من المسعودي ولا من ابن الأثير.

2 ابن الأثير ج 4 ومروج الذهب ج 3.

أسباب ثورة البربر على الأمويين

أن سبب ثورة البربر على الأمويين هو ظلم الأمويين وجبروتهم لا غيره، فلو عدلوا كسيدنا عمر بن عبد العزيز ما فكروا في الثورة عليهم، ولا رضوا بالانفصال عنهم، بل يكونون لدولتهم الجفن للعين، والشغاف للقلب، يفدونها وينصرونها، ويقاتلون الثوار عليه، وليس المذهب الصفري هو الذي آثار بربر المغرب الأقصى كما ادعى كثير من المؤرخين المتعصبين لجنسهم ومذهبهم؛ فان المذهب الصفري من الأسباب الصغيرة في هذه الثورة، والأمويون بظلمهم وجبروتهم هم الذين فتحوا قلوب البربر لهذا المذهب المتطرف، ولتلك النحلة الشاذة. لقد كان المذهب الصفري الذي يوجب الثورة على الملوك الظلمة شرارة صغيرة اتصلت بقلوب محشوة بالبارود فانفجرت، فلو وجد الصفرية هذه القلوب خالية من حقدها وضيقها بظلم الأمويين، وكانت ماءا باردا لرضاها وهنائها ما اثروا فيها. إن البربر ذوو ركانة ورزانة وترو في الأمور، فليسوا بالطياشين الذين يجرون وراء كل ناعق، ولا بالمائعين الذين يتركون ما ألفوه ومن ألفوه بأقل سبب. انه يثيرهم إلا الشيء الذي يوجب الثورة، وإذا ثاروا فثورة الناس المحنكين، يضعون الخطط المحنكة، ويختارون الزمان المناسب.

إن البربر لقوة شخصيتهم وركانتهم كالفحم الحجري بطئ الاشتعال وإذا اشتعل فهو بطئ الانطفاء أيضا! هذه هي حقيقتهم كما دلت عليها سيرتهم وتاريخهم. أما ما يصفهم به المستعمرون الأوروبيون والمغرضون من صنائع العباسيين والأمويين، والمقلدون الجهلة لأولئك أو هؤلاء، من أن ثوراتهم في التاريخ على من وطئهم برجله لحبهم الفوضى، فقول هراء، لا يصدر إلا من النمل الذي يريد أن يرتع في الأسد ويمتص حياته ثم لا يتحرك، وإذا زأر وثار ونقض عنه الظلم والهوان قالوا: انه محب للفوضى.! !

إن ما آثار البربر على الأمويين هو ظلمهم. قال ابن عذارى:»وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب، ويبعثون فيها إلى عامل افريقية، فيبعثون لهم البربريات المسبيات، فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب مناهم بالكثير، وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان، فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة».[1]

ترف هشام وأهل دولته

وكان هشام رجلا مترفا يحب المدنية،ويهوى الحضارة، ويألف النعيم، وينغمس في شهواته ولذاته، وكان أهل عصره كذلك، سيما عماله في النواحي، وولاته على المغرب.

1 - البيان المغرب ج 1 ص 53 بيروت.

وقد استجاد هو وأهل زمانه الكسى، واتخذوا الثياب من الحرير، وفي أيامه عمل الخز، والقطف الخز. لقد لان اهابه وأهاب حاشيته وخاصته فصاروا لا يطيقون إلا كل ما لان من الثياب، ونعم من الحلل، ولا يختارون للباسهم إلا النفيس من الأقمشة، والغالي من الألبسة حتى أنهم عافوا الثياب الصوفية المغربية التي تشبه الحرير لنعومتها، وألوانها البهيجة، وتفصيلها المحكم. لقد برع النساء البربريات منذ القديم في نسيج الثياب الصوفية، وكانت لهن البراعة في تلك الصناعة، والسبق في هذا العمل. وكانت الجبة الكبيرة من صنع المغرب في القديم تطوى فتحشى في قصبة، لدقة الصنع، والأحكام في النسج، والبراعة في عمل الصوف. ولا تزال كثير من أنحاء المغرب التي لم تقتلها مفاسد المدينة، وكل الحضارة، وضعف الرجال على براعة كبيرة في صنع الثياب الصوفية، وصبغها صبغة ثابتة لا تحول، وجميلة جمالا لا تجده في الأصواف الأوروبية.

وكان هشام ووزراؤه وعماله في المغرب وكبار دولته لا يكتفون بما يصنع البربر من الثياب الصوفية البديعة من صوفهم الطبيعي الناعم، بلا يريدون ثيابا أحسن، بالغة النعومة، بارعة اللون، تصنع من جلود سخال[1] الضأن أول ما تولد قبل أن يغلظ صوفها بغلظ عظمها ويخشوشن بالأرض والهواء. ثم لا يريدونها إلا عسيلة الألوان غير مصبوغة ولا ملونة، بل هي بالطبيعة كذلك، صفراء ضاربة إلى الحمرة؛ واللون العسلي نادر في الغنم، قليل في الضأن. فكان العمال الأمويون وأعوانهم في المغرب يبحثون عن الجلود العسلية السخال ليتخذوا منها الجبب الناعمة لملوكهم وكبرائهم ولأنفسهم فكلن يصعب عليهم أن يجدوا هذه السخال الحديثة الولادة، وإذا وجدوا البعض فلا يكفي فصاروا يختارون من غنم البربر التي يهجمون عليها ويغصبونهم إياها النعاج التي هي على وشك الولادة، فيشقون بطونها بحثا عن هذه السخال العسلية ! قال ابن خلدون «وكانت الصرمة[2] من الغنم تهلك بالذبح لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها، ولا يوجد فيها مع ذلك إلا واحد وما قرب منه، فكثر عيثهم بذلك في أموال البربر وجورهم عليهم».[3]

إن اعز شيء لدى الإنسان الذي يملك الغنم وينميها، ويعمل لكثرتها وازديادها النعاج المنتجة، سيما الحامل التي على وشك الوضع، فهي اعز وأغلى، وأنفس وارفع وكان العمال لا يعمدون إلا إلى هذه النجائب من أغنام البربر، فيقرون بطونها، فيرزؤونهم في

1 - السخل: ولد الشاة.

2 - ورد في القاموس: أن الصرمة القطعة من الإبل «أو الشياه» ما بين العشرين إلى الثلاثين أو إلى الخمسين والأربعين أو ما بين العشرة إلى الأربعين أو ما بين عشرة إلى بضع عشرة» كل ذلك يطلق عليه صرمة

3 - العبر لابن خلدون ج 1 ص 119ط. أولى.

النعجة وسخلها، فتكون الخسارة عليهم متكررة، والرزء مضاعفا وما كانوا يشترون هذه النعاج فيبقرونها، بل يهجمون على أموال البربر فيفعلون بها هذه الأفاعيل المنكرة، ويرتكبون فيها تلك الجرائم الشنعاء! إن هذه الجرائم تدل على الاحتقار وعدمن المبالاة، وعلى الغطرسة والتجبر، فان المرء لا يرتكب في مال غيره هذه الفظائع إلا وهو نهاية في التجبر والغطرسة، ومن يظلمه ويرتكب فيه جرائمه نهاية عنده في الضعة والهوان، وفي الحقارة وانعدام الشأن!

وكان البربر في الاعتداد بأنفسهم، وفي إبائهم، وعدم استطاعتهم للذل، وصبهم على الاحتقار كما بينا، وكما دل عليه تاريخهم. وكانوا مسلمين يغارون على دينهم، ويأبون أن تخالف أحكامه أمامهم، وكانوا يعرفون تحريم الشريعة الغارية والغضب، ولتعذيب الحيوان، وان ترتكب فيه هذه الفظائع، فتجمعت لديهم الأسباب التي تثيرهم: عزة الأموال التي تتلف، واحتقار العمال الذي تذل عليه فظائعهم في أموالهم، وشريعة الله التي تنتهك بهذه الأفعال البشعة، والغضب لأموال الغير والتعدي عليها. على أن البربر لم يثوروا لأجل المال وحده، فهناك مظالم أخرى قد نزلت عليهم في ناحية تثير غيرتهم أكثر، وهي عندهم اعز من المال، واشرف من كل نفيسة، وأغلى من كل قنية، وهي بناتهم!

وكان هشام وكبار دولته، وعماله وموظفوه، لا يرغبون في ثياب المغرب النفيسة وحدها، بل يغرمون ويتطلعون إلى وروده الإنسية، وظبائه الجميلة، والحوريات البارعات الحسن من بنات الأمازيغ. ذكر بعض المؤرخين أن العمال لا يسمعون بفتاة بارعة الحسن في البربر إلا ويأخذونها، فيستأثرون بها، أو يتحفون بها أمراءهم، ومن يحرصون على استرضائه من حاشية هشام!؟

أي شيء اعز من الأولاد على الإنسان، سيما الأنثى الضعيفة التي يغار عليها الأب وتعز على العشيرة، ويحامى عليها كل الأقرباء!؟ لقد كان العمال يعمدون إلى البنات العزيزات المصونات اللائي يغار عليهن البربر أكثر من كل شيء فيسلبونها ويغتصبونها كما يفعل بأولاد المشركين المحاربين، ومن يقاتلهم المسلمون من الكفار المعاندين! !

إن هذا الظلم الشنيع الذي لا يرضاه أي إنسان في بناته قد غاظ البربر أيضا لأنه يدل على عدم اعتداد الأمويين بإسلامهم، وعدم مبالاتهم بدينهم، فهم عندهم كالمشركين تحل أموالهم وذراريهم، فلهم أن يختاروا من الذرية ما يهوون، ومن الأموال ما يشاءون. ثم إن هذه الشنيعة تدل على الاحتقار، وتشعر البربر بان الأمويين يرونهم مغنما وغنما يختارون منها ما يريدون، ويرتكبون فيها ما يشاءون.

وكان عبيد الله بن الحبحاب وعماله ينتفعون بشجاعة البربر في الغزوات، وببطولتهم فيمن يحاربون من المشركين في صقلية، وسردانيا، وفي الأندلس، وفي كل الجزر التي يغزوها المسلمون. وكانوا يقدمونهم للقتال، وينالون بهم النصر، ويغنمون بهم الكنوز والأموال من المحاربين الذين يتغلبون عليهم، فإذا قسم عبيد الله وعماله الغنائم على الجيش المنتصر أعطوا العرب وحرموا البربر، وتصرفوا في الغنائم بالعصبية وعلى نحو يدل على احتقار البربر وعدم المبالاة بهم، كأنهم عبيد مسخرون، يغزون ليغنم سادتهم، ويقاتلون ليكون الوفر لمالكهم! !

إن الإسلام دين العدل والمساواة، ودين المحبة والمؤاخاة، حرم العصبية الجاهلية والاعتداد بالعرق، وجعل المسلمين كلهم في صعيد واحد. «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، وكلهم لآدم، وآدم من تراب». وقد تأثر البربر واغتاظوا لعدم الإسهام لهم في الغنائم التي حازها بسيوفهم، لهذا الاحتقار الذي يدل عليه الحرمان، لا لحبهم للمال؛ ولعدمن الاعتراف لهم بالفضل في الحروب، وهم ذووه، والجدوى في المعارك وهم مساعيرها.

إن هذا المظلم الذي ينزل على البربر فيما يغنمونه يدل على تهالك الأمويين على المال وعلى عصبيتهم للعرق! ومن شأن المتعصب لنفسه وبني جنسه احتقار سواه، وعدم الاعتراف بفضل غيره، فهو يرون أن المحارب الذي يستحق الغنيمة إنما هم جند الملك من القيروان، أما البربر المتطوعون الذين دفعتهم غيرتهم على الدولة، ونصرتهم للدين، واستجابتهم للعمال، فأطراف الجيش، وغمد السيوف، لا شأن لهم في المعركة، ولا تتجه لهم في الصدام، ليسوا هم الذين يحصدون الهام، وينكسون أعلام الأعداء، ويورثون النصر لجيش المسلمين، فلهذا يحرمونهم من الغنيمة، ولا يقسمون لهم في الفيء؛ فغاظ البربر هذا العمل لذلك المغزى، وساءهم أن يحرموا لذلك الاحتقار.

وكان عمر بن عبيد الله المرادي عامل ابن الحبحاب على شمال المغرب الأقصى أكثر العمال تجبرا وظلما، وأكثرهم غطرسة واحتقارا للبربر؛ فانه أراد أن يخمس أموال البربر كما يفعل بأموال المشركين، زاعما أن البربر وأموالهم غنيمة للأمويين، دخلوا البلاد بسيوفهم، واخضعوا البربر بقوتهم، فأراضيهم مما فتح عنوة بالحسام، وأموالهم وأراضيهم غنيمة وفيء للمسلمين، وهو ما لم يره غيره من الولاة الذين تقدموه، وما لم يهم به من سبقه إلى المغرب من الأمراء المسلمين!

إن هذا يدل على جشع الأمويين وتهالكهم على المال، فعمد المرادي إلى هذه الحيلة، واستند إلى هذه العلة، على أن البربر وإن فتحت أراضيهم عنوة وهو ما أثبتنا واثبت

العلماء خلافه[1] فإنهم قد اسلموا فحرمت أموالهم الأخرى وذراريهم على المسلمين، فلا يجوز لمسلم أن يأخذ من أموالهم وأراضيهم إلا ما شرعه الله، ولكن المرادي لم يكن يتقيد في أعماله بالدين، بل تسيره غرائزه وأهواؤه، وعصبيتاه وغطرسته، وحرصه على استرضاء ابن الحبحاب الذي ولاه بالإكثار له من الأموال.

لقد اغتاظ البربر في المغرب الأقصى، وفي الجهات الأخرى لما أراد المرادي تخميسهم، وان يعاملهم كالكفار، ويسلكهم في طبقة المشركين! أنهم يعتدون بدينهم، فأي معاملة تشعرهم بأنهم لا يعتبرون مسلمين، وفي الذروة من الإسلام، تجرح نفوسهم الأبية، ويأباها الاعتداد بالنفس الذي ضعافه الذي في نفوسهم، وما يعلمونه من قيمة المسلم العظمى، ودرجته الكبرى، والمرتبة العالية التي أحله الله فيها في الدارين.

لقد نظر المرادي إلى البربر بنظرة ابن دينار إليهم، واحتهم احتقاره، فهل يكون مصيره غير مصيره؟

قال ابن الأثير:»...إن ابن الحبحاب استعمل على طانجة ابنه إسماعيل[2] وجعل معه عمر بن عبد الله المرادي، فأساء السيرة، وتعدى، وأراد أن يخمس مسلمي البربر وزعم أنهم للمسلمين! ! وذلك شيء لم يرتكبه احد قبله».

وقال ابن خلدون:» استعمل ابن الحبحاب عمر بن عبيد الله المرادي على طانجة والمغرب الأقصى، وابنه إسماعيل على السوس وما وراءه، وساءت سيرتهم[3] في البربر، ونقموا عليهم أحوالهم، وما كانوا يطالبونهم به من الوظائف:[4] البربريات، والأردية العسلية الألوان، وأنواع طرف المغرب، فكانوا يتعالون في جمع ذلك وانتحاله حتى كانت الصرمة من الغنم تهلك بالذبح لاتخاذ الجلود العلسية من سخالها، ولا يوجد فيها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه، فكثر عيثهم بذلك في أموال البربر ودورهم عليهم».[5]

هذه هي الأسباب الكبرى في ثورة البربر على الأمويين، وفي انسلاخ المغرب عنهم،

1 - انظر ذلك في صفحة 13 و 14 من هذا الجزء.

2 - الصحيح ما سيقوله ابن خلدون: وهو أن إسماعيل استعمله على السوس من مراكش إلى الصحراء، والمرادي استعمله على الشمال طانجة وأعمالها. وقد أطلق ابن الأثير طانجة على المغرب الأقصى لأنها قاعدته الكبرى.

3 - الضمير يرجع إلى عمال ابن الحبحاب. وبين هذه الجملة وما قبلها كلام مبهم إما انه من أغلاط المطبعة أو من طمس النساخ الذين تؤتيهم الحقائق شيئا من كلام ابن خلدون. وقد أورد الشيخ السلاوي هذه الحقائق في الاستقصاء بعبارة أوضح مع تصرف في كلام ابن خلدون.

4 - الوظيفة ما يقدر للمرء من اجر وطعام وما يقدر عليه من واجبات وغرامات. والمعنى الثاني هو المراد هنا.

5 - العبر لابن خلدون ج 1 ص 199 ط . أولى.

وانفجار البراكين عليهم. ولكن هل ثار البربر على الأمويين وانفصلوا عنهم لظلم عمالهم الذين يمكن أن يكونوا قد تصرفوا بغير رضاهم، وارتكبوا ما يسخطهم، أم قد شكوا إلى ابن الحبحاب فلم تنفع الشكوى، وسافروا إلى الشام وحاولوا مدة طويلة أن يتصلوا بهشام فلم تجد المحاولة، وسلكوا كل الطرق السليمة لرفع المظالم عنهم فلم تجد، وأرغموا على امتشاق الحسام، وعلى خلع الأمويين، فأسسوا دولهم الإسلامية العادلة التي سارت فيهم سيرة الخلفاء الراشدين.

استقلال المغرب الأقصى[1] وانفصاله عن الأمويين 122 هـ.

إن سبب ثورة البربر في المغرب على الأمويين، وانفصالهم عنهم، وتأسيسهم لدولهم العادلة التي ساستهم كما أمر الله، والتزمت فيهم كتاب الله وسنة رسول الله، وأسعدتهم، ونالوا في ظلها كل عز وهناء، وكل نعيم وسيادة؛ إن سبب تلك الثورة العارمة إنما هو ظلم الأمويين وغطرستهم، وتعصبهم وجبروتهم، ويأس البربر من أن تشفى الدولة الأموية من شيخوختها، فتعود إلى صوابها في السياسة، والى دين الله في معاملة الرعية، وتلزم العدل والمساواة، وما شرعه الله لرئيس الدولة في معاملة المسلمين. لقد رأوا انحلال عائلة بني مروان، وأيقنوا انه لا يأتي بعد هشام إلا أناس هم اقل منه في الكفاءة، وعلى غراره في السياسة، وفي حب النفس والجنس والتحيز لهما، وأنهم سوف لا يظفرون من هذه الأسرة الحاكمة بمثل سليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز فيصبرون على المرارة التي تنقضي، ويعيشون في خيال الحلاوة التي تأتي، ويخضعون لشتاء الدولة الذي يعقبه الربيع، ولجدبها الذي يمسحه الخصب الممرع. إنها شيخوخة في الدولة لا تشفى منها، ولا تزيدها الأيام إلا تمكنا، ولا تزداد الدولة بها إلا ضراوة وشراسة، واختلالا وضعفا، وفسادا في كل الأمور.

والسبب الثاني في ثورة البربر وانفصالهم هو ما يرونه من ثورة العلويين على الأمويين لتأسيس دول لهم في المشرق، وكثورة زيد بن علي بن الحسين التي وقعت في هذه السنة التي ثار فيها البربر، وما يعرفونه من استعداد العباسيين في خرسان، وفي أطراف الدولة في المشرق للثورة على الأمويين، وتأسيس دولة عباسية تشبع نهمهم في الملك، وترضى طموحهم إلى السلطان، فرأى البربر أنفسهم أولى بالاستقلال من هؤلاء للظلم النازل عليهم، والاحتقار يرونه من الأمويين، ولبعد المغرب عن المشرق؛ ثم أنهم لا يريدون أن يجردون الأمويين من ملكهم، ولا أن يهجموا عليهم في دارهم، ولا هم منافسون لهم في الملك والرئاسة كما كان العباسيون؛ فكل ما يريدونه هو أن يعيشوا في ديارهم أحرارا أعزاء، تطبق فيهم أحكام الله، ويسير الولاة فيهم بما أمر الله، لا تعصب ولا تحيز، ولا غطرسة ولا جبروت، ينظر إليهم أميرهم ورئيس دولتهم بعين الأب الحنون آل أبنائه الأعزاء، هم جزء منه، لا يعدهم الأمير وعماله مغنما يرتعون فيه، وطعمة يلتهمونها، كما صار اغلب الأمويين يعدون المغرب.

1 - أقسام المغرب: قسم العرب المغرب بحسب قربه وبعده عن مصر التي سيرون منها لفتحه إلى ثلاثة أقسام: الأدنى من السلوم في غرب مصر إلى بجاية، ويشمل على برقة وطرابلس وتونس وعمالة قسنطينة. والى مغرب أوسط وهو من بجاية شرقا إلى وادي ملوية غربا، ويشمل على جبال القبائل وعمالة الجزائر ووهران إلى ملوية. والى أقصى من وادي ملوية إلى المحيط الأطلسي.

والسبب الثالث لثورة المغرب الأقصى على الأمويين هو المذهب الصفري الذي يوجب الثورة على الملوك الظلمة، الذين اغتصبوا رئاسة المسلمين بالقوة، واعتلوا عروشهم بحد السيف، وأرغموا المسلمين على مبايعتهم والخضوع لهم، ثم لم يعدلوا فيهم، بل ساروا بالهوى، وتجبروا، وخالفوا الدين بظلمهم وجبروتهم، وعدم تعففهم في أموال المسلمين ودمائهم، وبتعصبهم لأنفسهم، واستئثارهم برئاسة الدولة، لا يرضون أن تخرج منهم إلى من هو أكثر كفاءة، وأصلح الدين، وأليق بالأمة، وبمصالح الدولة العليا.

إن الصفرية بمذهبهم الذي نشروه في المغرب الأقصى، وفي جنوب افريقية[1] لم يزيدوا على أن أكدوا للبربر ما عرفوه من دينهم ومن سيرة الخلفاء الراشدين في رئاسة الدولة، وفي الثورة على الملوك الظلمة، ولم يزيدوا على انم أضافوا إلى الكيل حبات فطفح، ولقلوب البربر المستعدة للانفجار شرارة فانفجر «ديناميتها».

لقد كان البربر في العشرة الثانية من القرن الثاني الهجري قد تفقهوا في الدين، وتكون فيهم علماء في الشريعة، وعرفوا ما أمر به الكتاب والسنة في رئاسة الدولة وأيقنوا أن الإسلام جاء بالإمامة العادلة وبالجمهورية لا بالملوكية، وان الذي يجوز له أن يتقدم إلى عرش الرئاسة، والى كرسي الإمامة هو الرجل الكفء الذي يرضاه جمهور المسلمين، ويرشحه علماؤهم وخاصتهم الذين هم عقل الأمة المميز، وميزانها الصحيح . لا إكراه ولا إرغام، ولا تخويف ولا ترهيب؛ فخاصة المسلمين الذين يحسنون الانتقاء، ويعرفون الشروط التي يجب توفرها في رئيس الدولة، هم الذين يعينون شخصا للإمامة، ثم تبايعه الرعية برغبة منها، وبرضاها عن سيرته وكفاءته ولثقتها بخاصتها الذين امتازوا بصلاحهم وعلمهم، وبإخلاصهم وذكائهم وقوة شخصيتهم فصاروا عيونها وعقلها، ويوقفونها على محل الحسن فتدركه، ويلفتونها[2] إلى مواطن اللياقة والكفاءة فتؤثرها. هذا هو دين الله، وما يسعد الأمة في رئاسة الدولة، لا ما فعله الأمويون الغاضبون لإمارة الدولة، ولرئاسة المسلمين.

وعرف البربر من دينهم وأيقنوا أن الإسلام قد ساوى بين الناس، وجعل المسلمين امة واحدة، وفي صعيد واحد، لا فرق بينهم إلا بالتقوى، ولا امتياز لأحد إلا بالكفاءة والصلاح، وان الأمة الإسلامية كلها إنما هي أسرة النبئ صلى الله عليه وسلم، فالكل متصل

1 - المراد بافريقية هنا هو القطر التونسي اليوم وسيتكرر هذا الاسم في الفصول التالية والمراد به ما ذكرنا.

2 - لفته إلى الشيء يلفته بفتح الياء، انه ثلاثي لا رباعي. وكذلك الحنكة فانه بضم الحاء لا يفتحها. وقد شاع في المغرب الفت والحنكة بفتح الحاء، وهو خطأ.

به بوشيجة الدين، وبصلة الإسلام التي هي اشرف وأقوى من صلة النسب، لان صلة الدين هي التي تجعل المرء في طريق المصطفى، وتصبح نفسه بنور الإيمان الذي يشاكل به نبئ الإسلام، فيعترف بقرابته، ويعده من حزبه؛ وان النبي علي السلام إنما هو هديه ودينه القويم، فأكثر الناس تمسكا بدينه، والتزاما لهديه هو الأقرب إلى الرسول، وان أبا لهب عن النبئ، وأبا جهل، والوليد ابن المغيرة، وأمية بن خلف وغيرهم من أشراف قريش الذين كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم وحاربوه لم تنفعهم صلة الدم بالنبي، وقرابة النسب من رسول الله فتقيهم من اللعنة التي تنزلت عليهم في القران، ومن الدرك الأسفل الذب اعد الله لهم في النار. إن قوم النبي صلى الله عليه وسلم إنما هم أتباعه جميعا ! فأقربهم إليه وأولاهم بتقديم المسلمين له، أكثرهم تشبثا بدين الرسول، وأكثرهم علما بدينه، ورجاحة بعقله وكفاءته.

وعلم البربر وأيقنوا من دينهم أن المسلمين إنما قدموا الخلفاء الراشدين لرئاسة الدولة الإسلامية لدينهم وكفاءتهم، وامتيازهم بقوة العقل والخلق، وبقوة الشخصية، لا لنسبهم ولا لعرقهم، وان إمامة،[1] وهي التقوى والورع، والعلم، والدهاء، وقوة الشخصية والسلامة من العاهات التي تعوقه عن القيام بأمور المسلمين.

وكان البربر يعرفون من دينهم ويوقنون أن ما ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم من انه قال:»الأئمة من قريش» كذب وزور،وانه من وضع الأمويين المتعصبين ليستبقوا الرئاسة فيهم، فردده العلماء الذين يمالئونهم، ويسيرونهم بالرغبة أو بالرهبة في طريقهم، ويجرون على ألسنتهم وأقلامهم ما يريدون. لقد علم البربر المتفقهون في دينهم أن تعصب الأمويين وأتباعهم لأنفسهم ولقبيلتهم قريش هو الذي سول لهم أن يضعوا هذا الحديث، وان الإمامة لو كانت لقريش، وجعلها النبي لهم، فهي خاصة بهم لا يجوز لمسلم من القبائل الأخرى أن يتقدم إليها، ما قالت الأنصار يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم لقريش:» منا أمير ومنكم أمير» وهم العارفون أكثر ممن يأتي بعدهم بما قال الرسول، وأكثر فقها لدين الله. وقد أجابهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه بان قريشا أولى بالإمامة واحتج بدين المهاجرين وكفاءتهم، وباحترام المسلمين لهم وإكبارهم، وتقديمهم على من سواهم لذلك السبق إلى الإسلام، ولتلك الكفاءة التي تقدموا بها على غيرهم، وطال النقاش بين المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم جميعا في هذا الموضوع، ولم يذكر أبو بكر هذا الحديث، فلو قاله الرسول عليه السلام لا ستغنى به عن خطبته الطويلة وعن حواره للأنصار، ولو كان هذا الحديث موجودا قد قاله الرسول

1 - المراد بالإمامة هنا وفي هذا الفصل هي رئاسة الدولة. ونظام الإمامة في الإسلام كنظام الجمهورية مع خلاف في بعض النواحي يجعل الإمامة أفضل وأجدى للدولة.

لقر في قلوب الأنصار أن الإمامة لقريش لا لسواهم قبل موت النبي صلى الله عليه وسل، فيخضعون وينقادون ولا ينافسون قريشا فيها، لان منافسة قريش في الإمامة، وتقديم غيرهم إليها مخالفة للدين، وخروج على الشريعة، وهم في التمسك بالدين، وحياطته والغيرة عليه، والتقيد به في كل أمورهم في الذروة التي لا يبلغها من أتى بعدهم، ولا من عاصرهم من هؤلاء الملوك الأمويين الذين اغتصبوا رئاسة المسلمين، ووضعوا الأحاديث الكاذبة في الإمامة ونسبوها إلى الرسول، وأجروها على السنة صنائعهم من العلماء وأقلامهم، فشاعت في الناس، واخذ بها كثير من المتعصبين للعرق لموافقتها لهواهم.

أن إمامة المسلمين لا تسند إلا لمن يختاره جمهور المسلمين، وشروطها إنما هي الصلاح، والتقوى، والورع، والعلم، والدهاء، والسلامة من العاهات التي تعوق المرء عن تحمل أعباء الإمامة، وإذا وجدت هذه الشروط في زنجي اسود من بني حام ولم توجد في عربي ابيض من بني سام فالزنجي أولى بها. هذا هو دين الله الذي أثبته في كتابه وبسنة رسوله، والتزمه الخلفاء الراشدون، وآمن به كل من خلا من التحيز والتقليد من المسلمين. وهذا ما عرفه البربر وأيقنوا به، فاتن آذانهم عن الأحاديث الكاذبة، ودعاوى الأمويين المزورة. ولما جاء الصفرية بمذهبهم لم يزيدوا على أن أكدوا للبربر في المغرب الأقصى وفي جنوب افريقية ما عرفوه في الإمامة من دينهم، وايقنوه بفضل تفقههم في شريعة الله، وتمكنهم في علم ما جاء به الرسول عليه السلام. فلو كان ما يقرره الصفرية وغيرهم من صحة الإمامة في غير قريش مخالفا للدين ما أصغى إليهم البربر، وما تأثروا بهم، بل كانوا يحاربونهم ويقمعونهم، ويطردونهم من ديارهم لمخالفتهم للدين فغي الإمامة، والثورة على الظلمة كما ثاروا على الأمويين لمخالفتهم للدين.

صفرية المغرب

لقد أصغى البربر في المغرب الأقصى لدعاة الصفرية، واعتنقوا مذهبهم وصاروا من حزبهم لموافقة بعض مبادئ؛ هذا المذهب للدين، ولما في نفوس البربر بدينهم، وهو الثورة على الظلم والقضاء عليه، واختيار الإمام العادل الكفء من المسلمين، بدون تقيد بالقرشية، وبجنس من الأجناس. هذا هو الذي جعل البربر في المغرب الأقصى، وفي جنوب افريقية يفتحون قلوبهم للصفرية، ويصيرون من أتباعهم ومن أنصار مذهبهم.

إن الأمويين بظلمهم، وتعصبهم لأنفسهم، وادعائهم أن الإمامة يجب أن يكون في قريش وفي العرب من بعدهم لا تخرج منهم إلى غيرهم، هم الذين هيأوا قلوب البربر

للمذهب الصفري الذي يدعو إلى الثورة على الملوك الظالمين، ويقرر ما جاء به الدين في الإمامة، وهو أن إمام المسلمين تراعى فيه الكفاءة فقط، ولا يشترط فيه أن يكون قريشا ولا عربيا. إن هاتين القاعدتين هما اللتان استهوتا قلوب البربر للصفرية لأنهما موافقتان للدين؛ والدين جاء بالإمامة العادلة، وما يختاره الجمهور، لا بالملوكية المستبدة. أما ما سوى هاتين القاعدتين في مذهب الصفرية من الأقوال التي خالفوا فيها الدين، وشذوا بها عن جماعة المسلمين، كتكفيرهم لصاحب الكبيرة ومعاملتهم له كالمشرك الذي يحل دمه وماله، وغلوهم ونظرتهم الشزرى لمن خالف مذهبهم من المسلمين. إن هذا الشذوذ في المذهب الصفري مما لم يتحمس له البربر الصفرية فلم يأخذوا به في دولتهم التي سينشئونها في جنوب المغرب الأقصى.

خروج البربر من الصفرية إلى المذهب الأباضي ومذهب المعتزلة

إن اكبر دليل على أن البربر تحمسوا للمذهب الصفري لما ورد فيه الإمامة ولايجابة الثورة على الملوك الظلمة فقط هو انسلاخ اغلب النواحي التي كانت تدين به في المغرب إلى المذهب الأباضي الذي لا يشذ في شيء عن الدين، والى المذهب ألمعتزلي لما رفعوا الظلم الأموي عنهم، واستقلوا في بلادهم.

لقد اعتنق جمهور البربر الصفرية في المدن بشمال المغرب الأقصى المذهب ألمعتزلي فبقي المذهب الصفري في الجبال النائية التي يتمسك أهلها بالإلف، وتقصر عقولهم عن المقارنة بين المذاهب فيؤمنوا أحسنها، وانسلخ البربر في جنوب افريقية في آخر القرن الثاني الهجري عن المذهب الصفري واعتنقوا كلهم المذهب الأباضي المعتدل الذي لا يخالف الدين في شيء، ولا يكفر أصحاب الكبائر، بل يراهم عصاة، ويوافق الدين الصحيح في كل أقواله.

اعتدال صفرية المغرب الأقصى

كان البربر الصفرية في المغرب الأقصى معتدلين. لقد أنشأوا دولتهم في جنوب المغرب الأقصى «سجلماسة»[1] فعاشت هذه الدولة قرنا وستين سنة، وكانت تجاور الدولة الرستمية والدولة الإدريسية، وكانت معهما على الصداقة، وحسن الجوار وكان الأباضية والأدارسة يقيمون فيها فيستطيعون الإقامة لعدم شذوذ أئمتها عهن الدين، ولعدم معاملتهم العاصي كالكافر في دمه وماله. لقد عاشت هذه الدولة الصفرية

1 - سجلماسة هي «تافيلالت» اليوم وسنبين حدود هذه الدولة المغربية وغيرها من الدول المغربية المستقلة: الرستمية، والإدريسية والأغلبية في الجزء الثالث من هذا الكتاب وهو خاص بهذه الدول.

وهيب على أحسن العلاقات، وأجمل الصلات مع الدولة الرستمية التي تجاوزها من الشرق، والدولة الإدريسية التي تجاورها من المغرب، وكان الاحترام بينها وبين جارتيها متبادلا. وكان اليسع بن مدرار أعظم ملوك سجلماسة صهرا للإمام عبد الرحمن ابن رستم إمام الدولة الرستمية. فلو كان اليسع يطبق بأعماله ما يراه مذهبه، فيعامل العاصي معاملة الكافر، فيسفك دمه، ويغنم أمواله، لتبرأ منه جيرانه، وقاطعوه بل إن الإمام عبد الرحمن بن رستم يهجم عليه ليغير المنكر الذي يقع بجواره. كما هجم أبو الخطاب إمام الأباضية في طرابلس على «وار فجومة» الصفرية في القيروان لما استحلوا دماء المسلمين وأموالهم، فقاتلهم وقتلهم، وانتزع القيروان منهم، وأراح المسلمين من شرهم وشذوذهم عن الدين. لقد كانت الدولة الرستمية أعظم دولة في المغرب ! كان من رقعتها اغلب المغرب الأوسط واغلب المغرب الأدنى، وكانت في كثرة الجيوش وفي القوة الحربية لا تدانيها دولة أخرى في المغرب، فما أسهل مهاجمتها لدولة سجلماسة الصغيرة واحتلالها، ولكن سجلماسة لم تكن شاذة عن الدين بأعمالها، لقد كانت نزيهة متعففة عن دماء المسلمين وأموالهم لم تلطخ بها صفحتها، ولم تغرق فيها كما غرق فيها العباسيون الذين عاصروها.

لقد أسهبنا في هذه النقطة لنبين أن البربر اعتنقوا المذهب الصفري لجوانبه الصحيحة، وهو ما قرره في الإمامة، وفي الثورة على الظلمة، وهو ما أتوه بأعمالهم ونفذوه بأفعالهم، أما ما سوى ذلك فبقي نظريات لا أرى أنهم آمنوا بها واستصوبوها في المغرب الأقصى.

أسباب اعتناق المغرب الأقصى للمذهب الصفري

لقد اعتنق المغرب الأقصى المذهب الصفري المتطرف الذي يوجب الثورة على الملوك الظالمين، ولم يعتنق المذهب الأباضي المعتدل الذي يجيز الثورة على الظلم إذا انس المسلمين في أنفسهم قوة، ولا يحكم على مرتكب الكبيرة بالكفر، بل يراه عاصيا يتبرأ منه؛ اعتنق المغرب الأقصى مذهب الصفرية لشدة حنقه على الأمويين لارتكابهم ضروب الكبائر فيه، والظلم النازل منهم عليه، وإفراط عماله في اضطهاده فنزل عليه من الظلم أكثر مما نزل على الأمكنة الأخرى، فكان أهله على الحنق الشديد والغيظ المتأجج فهيأهم ذلك لهذا المذهب المتطرف فارتضوه واعتنقوه، وفتحوا صدورهم لدعاته. على أن البربر الصرفية في المغرب الأقصى حتى في ثورتهم الأولى العارمة على الأمويين، وحروبهم لابن الحبحاب، ومنازلتهم لجيوشه، وهم في اشد غيظهم، وأيام انفجارهم

لشدة حنقهم، وفي جو من العداوة والغيظ والحنق على الأمويين يسول لضعفاء الدين أن يمثلوا بالجرحى، ويضطهدا أتباع الأمويين من المدنيين، حتى في هذا الجو الذي يسيطر فيه الوجدان، ويسير الإنسان فيه غضبه، لم نر الصفرية يرتكبون في الجيوش الأموية التي هزموهم ما يرتكبه الأمويون لو هزموا هم البربر، من سبي البنات، والاستيلاء على الأموال، واستحلال الدماء التي لم تحاربهم.

أكاذيب المؤرخين على المغرب

إن المؤرخين القدماء قد ظلموا المغرب ظلما فظيعا في هذه الحلقة، وذلك لان ما كتبوه ووصلنا كان بدافع من الملوك الأمويين والعباسيين الذين عملوا كل وسيلة لتشويه صفحة البربر الذين ثاروا عليهم، واستقلوا، وكونوا دولهم العظمى، حتى لا يقتدى بهم غيرهم من النواحي التي تئن تحت ظلمهم واستبدادهم.

إن من يقرأ ما كتبه المؤرخون القدماء عن ثورات المغرب على الأمويين والعباسيين الذين ظلموهم، وخالفوا الدين فيهم، وكان يعرف المغرب، ويتصور البربر قوما بسطاء جهلة، يثيرهم كل فتان، ويقودهم إلى الثورة كل مشاغب، وأنهم من الأمم البدائية التي يسيطر عليه وجدانها لا عقولها، وتسيرها شهواتها لا دينها، والبربر لعمرك على النقيض مما يصفهم به أولئك المؤرخون المغرضون. لو كانوا كذلك ما هزموا جيوش الدولة الأموية والعباسية، وما أسسوا دولهم الإسلامية الكبرى التي أحيت المغرب، وجعلته كعبة القصاد لكل المسلمين! ومن الغريب أن كثيرا من المؤرخين المغاربة المحدثين الذين هم مظهر لأولئك الأجداد قد وقعوا في هذه الأغلاط فيما كتبوا عن هذه الحلقة، ورددوا ما قاله دعاة الأمويين، وما الصقوه بأجدادهم، فأهانوا أنفسهم، وعقوا أجدادهم، ولم يكونوا علماء فيعلمون عقولهم لاستنباط الحقيقة، ولا أبناء بررة فيزيحون عن وجوه أجدادهم الوضاءة الملاءة السوداء التي ألقاها عليها الأمويون والعباسيون المستبدون؛ كما رأينا كثيرا من المؤرخين الأوروبيين يرددون أغلاط هؤلاء المؤرخين، وهم الذين اشتهروا بأعمال عقولهم، واستنباط الحقائق، والسفر إلى أماكن التاريخ، ودراسة الأجداد في سيرة الأحفاد، لان الوراثية القوية لا تموت، ومع هذا نجدهم يصفون البربر بغير حقيقتهم لان الذين كتبوا ما كتبوا وهم في المغرب كان بروح استعمارية تبعثهم على أن يرسموا للمغرب أجدادهم في صورة زرية، لينفروا عنهم، فلا يعتنون بتاريخهم. وتجدهم يؤكدون ويقرون في قلوب أبنائنا أن البربر كانت ثورتهم على الأمويين لأنهم عرب ! فيذرون بذور التفرقة الخبيثة في قلوب ناشئتنا، ويصورون لهم العرب على أنهم قوم غير البربر، وهم شعب واحد قد مزج بينهم الدين، وصيرهم أسرة واحدة، وجسما واحدا نور الله المبين.

وصاروا بفضل الإسلام طاقة الزهر متعانقة متضاحكة متفتحة، ثم أخلطت الدماء فصار المغرب الكبير شعبا واحد من دماء عربية وبربرية قد امتزجت امتزاج الألوان التي يتركب منها نور الشمس، فصارت لونا واحدا يتلألأ في الفضاء !

لقد ثار البربر في المغرب الأقصى على ابن الحبحاب لظلم عماله، وخلع البربر الأمويين وانفصلوا عنهم لمخالفتهم للدين في سياسة المغرب. ولهرم الدولة الأموية التي أغرقت المغرب في التعاسة والشقاء.

صبر المغرب ومسالمته

وكان البربر مع الأمويين على شدة الظلم النازل عليهم، وعلى شجاعة البربر وكثرة عددهم، واستطاعتهم للثورة في كل حين من عهد ابن الحبحاب. كانوا غاية في الرزانة والركانة، ونهاية في ضبط النفس والسيطرة على الأعصاب، فحكموا عقولهم ودينهم في الخروج من ظلم الأمويين، لا وجدانهم المتأجج بالغيظ، وقلوبهم المتقدة على الذين يظلمونهم؛ فسلكوا كل السبل الهادئة لرفع الظلم عنهم، فشكواهم تصل إلى الآذان، ولعل هشاما غير عماله، فسار هذا الوفد حاولا آلام البربر وشكواهم ليعرضها على هشام بن عبد الملك.

وفد المغرب الأقصى إلى هشام بن عبد الملك.

كان ذلك -كما أرى- في سنة إحدى وعشرين ومائة. وكان ميسرة بن الخفير المضغرى هو رئيس البربر في المغرب الأقصى، لعلمه، وفضله، وقوة شخصيته. فأوفده البربر في بضعة وعشرين رجلا من خاصتهم، وذوى النباهة والقدر فيهم، ليرفعوا شكواهم إلى هشام. فسار ميسرة ومن معه حتى وصلوا الشام، فطلبوا مقابلة هشام ليشرحوا له ما يحل بقومهم م ظلم وعدوان، فدوفع الوفد فلم يؤذن له في الدخول على هشام، وبقي ميسرة ومن معه سنة كاملة في الشام، وهم يطرقون أبواب هشام، ويتخذون الوسائل لمقابلته، ورفع الشكوى إليه، فلم يؤذن لهم ! لقد كان وزراءه وحجابه وموظفو قصره متواطئين مع ابن الحبحاب وعماله. إن طرف المغرب، وسباياه، وجببه العسلية الرفيعة، وأمواله كانت تنصب عليهم فجعلتهم لا يكترثون بالوفد البربري، ولا يبالون به. إن شكواهم في آذانهم كخوار البقرة التي تتأذى بالحلب فتصبح، وصياح النعجة التي لا ترضى أن يحتلب درها فتثغو، ولا تعبث الرأفة في قلب النهم الغرثان، وفي نفس الجشع الحريص !

قال أبو جعفر الطبري في «تاريخ الأمم والملوك»: «...فما زال أهل المغرب من اسمع أهل البلدان وأطوعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك. فلما دب إليهم أهل العراق واستثاروهم قالوا: إنا نخالف الأئمة بما تجني العمال، ولا نحمل ذلك عليهم. فقالوا لهم: إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك. فقالوا لهم لا نقبل ذلك «أي الثورة عليهم» حتى نخبرهم. فخرج ميسرة «المضغرى» في بضعة عشر إنسانا «من البربر»[1] حتى قدم على هشام. فطلبوا الإذن فصعب عليهم. فاتوا الابرش «كبير وزراء هشام» فقالوا ابلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده فإذا أصاب نفلهم[2] دوننا وقال، هم أحق به! فقلنا: هو اخلص لجهادنا. وإذا حاصرنا مدينة قال: تقدموا وأخر جنده. فقلنا «لجندنا» تقدموا فانه ازدياد في الجهاد، ومثلكم كفى إخوانه. فوقيناهم بأنفسنا وكفيناهم. ثم أنهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يبقرونها عن السخال يطلبون الفراء البيض لأمير المؤمنين[3] فيقتلون ألف شاة في جلد فقلنا: ما أيسر هذا لأمير المؤمنين. فاحتملنا ذلك، وخليناهم وذلك. ثم أنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا[4] فقلنا: لم نجد هذا في كتاب ولا سنة ونحن مسلمون ! فأحببنا أن نعلم اعن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا. قال الابرش: نفعل. «يعني يبلغ شكواهم إلى هشام» «فلما طال عليهم ونفدت نفقاتهم كتبوا أسماءهم في رقاع، ورفعوها إلى الوزراء، وقالوا: هذا أسماؤنا وأنسابنا فان سألكم أمير المؤمنين عنا فاخبروه، ثم كان وجههم إلى افريقية فخرجوا على عامل هشام فقتلوه واستولوا على افريقية.[5] وبلغ هشاما الخبر، فسأل عن النفر فرفعت إليه أسماؤهم فإذا هم الذين صنعوا ما صنعوا» إن قول الطبري فسأل عن النفر فرفعت إليه أسماؤهم دليل على أن الابرش لم يرفع شكوى الوفد البربري إلى هشام، استهانة بهم، وتواطئا مع عمالهم في المغرب.

وكان حرمان ابن الحبحاب وقواد جيشه للجند البربري من الغنائم وقولهم لهم: إن الأمويين[6] أولى به» وتقديمهم للبربر في محاصرة المدن لتنزل الضربات عليهم، وتأخيرهم

1 - إن ابن خلدون وابن عذارى وغيرهما قالوا أن الوفد بضعة وعشرين وقد أخذنا بقولهم.

2 - النفل محركة الغنيمة نفلة أعطاها إياه.

3 - قال ابن خلدون وغيره إن المطلوب هو الفراء العسلية وهي أندر وقد يطلب الأبيض بياضا خالصا لا يشوب فيه فيكون نادرا.

4 - كانوا يأخذونهن حظايا لا زوجات.

5 - المراد بافريقية هو العرب الأقصى والقدماء يطلقون أحيانا افريقية على المغرب كله وعلى جزء منه.

6 - نريد بالأمويين بني مروان وكل من سار في ركابهم وسار سيرتهم وكان من مؤيدهم. وترى الأوروبيين يقولون : العرب ليهموا أبناءنا أن ثورة البربر ثورة عنصرية. إنها ثورة إسلامية على الأمويين الظلمة لا على العرب. إن العرب أساتذة البربر وإخوانهم الأعزاء.

للأمويين حتى لا يصابوا. ثم بعد ذلك يخصون بالغنائم، ويحرم منها البربر الذين تحملوا عبء الفتوح، وقاموا بثقل المعركة، وفضلوا الحصون المستعصية بعد أن نقعوها في دمائهم؛ كان كل ذلك دليلا على احتقار البربر، وتحيز الأمويين لأنفسهم، وعدهم المغرب وآله مطية تسخر في أغراضهم، وآلة تستخدم في شؤونهم، بيس جزءا من الأمة الإسلامية التي ساوى الله بينها في الحقوق، ولا فئة تساوى الأمويين في القيمة والرتبة فيكون لهم مالهم في الغنائم والحظوظ !

وكانت مدافعة الأمويين للوفد البربري، وعدم الإذن لهم في الدخول على هشام ليقدموا إليه شكواهم دليلا على الاحتقار أيضا، فانك لا تتصامم، وتعرض عن شكوى إنسان إلا وأنت تحتقره، وتعتقد انه لا قوة له فيؤذبك، ولا حول له ولا طول فيثور عليك، وانه لا يستطيع الانتصاف بنفسه، والانتقام منك بقوته. وهناك من يقول: إن الملوم على هذه المدافعة، وفي عدم الإذن للوفد إنما هي حاشية هشام ووزراؤه وحجابه، أما هو فبرئ، فلو عرف بالوفد لأذن له. ونحن نجيبهم بان هذا ما كان ليقع في عهد الخلفاء الراشدين، وفي عهد الحازمين من ملوك بني أمية، كمعاوية وعبد الملك، وسليمان وعمر بن عبد العزيز، لمباشرتهم لأمور الدولة بنفوسهم، ولاعتنائهم بحال الرعية، والاتصال بها، وأن حاشية هؤلاء ما كانت لتستطيع مدافعة وفد اقل شأنا من الوفد البربري الذي قطع الفيافي الطوال، وتحمل المشاق الكبار، ثم هو لا يشتمل إلا على كل رئيس وزعيم، وهو موفد من مئات الآلاف من البربر الصناديد، أبناء الطعان والفداء، وأرباب البطولة والإباء، لان أولئك الملوك الحازمين سيقمعون هذه الحاشية، فهي تخاف سطوتهم، وتخشى باسهم؛ بل إن أولئك الملوك لا تحوط بهم إلا حاشية مثلهم في الحزم والاهتمام بشأن الرعية، والغيرة على مصلحة الدولة، وحياطتها من كل الفتوق التي تؤذيها، وثورات الشعب التي ترهقها.

إن حاشية الملك عنوانه، وهيب دائما على حسبه، تتصرف مثل تصرفه، وتسلك في السياسة طرقه، وتعامل الناس على حسب مزاجه. إنها من اختياره، يؤثر فيها ويتأثر بها. لم يكن هشام كيزيد بن عبد الملك قد أعطى نفسه لشهواته، وترك شؤون الملك لغيره، ولا بالضعيف الذي تسيطر حاشيته عليه، وتستبد به، فتمنع الناس عنه، فهو حسن النية، محب للرعية، ومؤثر للعدل، ولكنه غلب على أمره. بل كان هشام حازما قوي الشخصية، فما كان لحاشيته أن تتصرف بغير رضاه، وتأتي ما يسخطه، وما كان لامرئ أن يسيطر عليه فيكيف سياسة الدولة، ويعامل الرعية بما لا يعجبه، ولكن حاشية هشام وهشام كانوا يمثلون الدولة الأموية الهرمة التي صمت آذانها؛ وكذلك

الدولة كالإنسان، من علامات هرمها أن تسمع الشكاوي، ولا ترى يعيدا فتعرف ما يقع، لضعف إدراكها، واختلال قواها.

قال المؤرخون: وبقي وفد البربر يطرق أبواب هشام سنة كاملة حتى نفدت نفقاته وأبس من تفتح أبواب هشام له، وأيقن بأن القصر كله متواطئ عليه، فدخلوا على الابرش بن الوليد الكلبي، وكان رئيس وزراء هشام، والإنسان الأثير لديه، فعددوا له أنواع الظلم التي يقاسيها المغرب من عمالهم فيه، ودفعوا إليه أسماءهم، وقالوا له إن سال عنا أمير المؤمنين فاخبروه.إن ميسرة وزملاءه يوقنون بان هشاما لا بد أن يعرف بوفودهم، إذا عبروا عن شكواهم بالأسلوب الحسي الذي يشعر به، ويهتم له، لأنه قعقعة الكتائب المدوية، لا عبارات الكتب الهادئة، وصليل السيف والسنان الذي سينفذ إليه في قصوره بدون استئذان، فتطفح منه كل الجوارح والآذان.

ورجع وفد البربر إلى المغرب بقلوب مجروحة، ونفوس آيسة من إنصاف الأمويين وعدلهم، وكانوا قد رأوا في الشام ومن برؤها من الهرم، وأنها إلى ليلها المعتكر، بانحلال الأخلاق بالمدينة، وضعف الدين، لا إلى صباحها، وان يومها الذي يعولون به، ويتقلون عليه، ويتأملون فيه، خير من غدها، فعزموا على خلعها، ومبايعة من يسوسهم بكتاب الله وسنة رسول الله، وينعش الدين والدنيا بعدله، والتزامه لطريق ربه، فيزدهر المغرب به، ويدخل أعراسه، وتقبل العهود السعيدة عليه.

أغراس الأمويين في المغرب

وكان الوفد البربري، كما كان البربر في المغرب يعلمون أطماع الأمويين في بلادهم وعزمتهم فيهم، وما عولوا عليه من إيوائهم إلى المغرب والأندلس إذا ثار عليهم العباسيون وغلبوهم على المشرق، وارتحالهم إلى المغرب والأندلس وحلولهم فيهما، وجعلهما دار الملك والسلطان، ومحلا تستمر فيه دولتهم، ويعتصمون به إذا تغلب المنافسون عليهم فانسلخ عنهم المشرق، وهزمهم العباسيون الذين رأوا سواعدهم تمتد إلى السلطان، وشبابهم يهجم على شيخوخة دولتهم ليواريها التراب. حبذا عزمتهم في المغرب، وإيواؤهم إليه، لو كانوا يذهبون إليه بنفوس جديدة، وبدين مكين، وأخلاق متينة، ولكنهم سوف لا يذهبون إليه إلا ما ألفوا، ولا ينتقلون إليه إلا بالشيخوخة التي لا شفاء منها، ولا يعاملون المغرب إلا بما يشكوه، ولعل ظلمهم سيزداد بازديادهم في الشيخوخة، وسوء عشريهم سيتضاعف بغرقهم في الهرم؛ فأبى البربر لبلادهم هذه الحال، وعزموا على إنشاء دولهم الفتية التي تورث للمغرب شبابه، وتدخل به في أعراسه، وتجدد ما أغرض

عنه الأمويون من العدل الذي أمر به الدين، وتحي ما أماتوه من سيرة الخلفاء الراشدين.

إن انتقال عبد الرحمان الداخل إلى المغرب ثم الأندلس ومعه جماعة من بني مروان لم يكن شيئا مرتجلا ألجأت إليه الحوادث، ولكنه كان مبيتا من قبل، وكان خطة موسومة في نفوس الأمويين منذ زمن بعيد.

إن عبد الرحمان كان أقلية من الأمويين فانغمس في الأندلس التي كانت فتية لاشتمالها على العنصرين القويين البربري والعربي، وامتزاج دمائهما في عروقها فاكتسب من شبابها، وملأته بفتوتها، وسار بدولته في الطريق الصحيح الذي اندفعت به إليه، ثم إن أمه كانت بربرية. إنها «راحا النفزية» فورث شباب أخواله، وجعله امتزاج الدماء صقر قريش ونسيج وحده في الأمويين، فبنى بعبقريته ما بنى. أما هؤلاء الأمويون لو بقي المغرب فراشا وثيرا هادئا موطأ الأكناف لهم، فانتقلوا إليه في جماهير غفيرة، وفي حشود كبيرة، ما كانوا فيه إلا على سيرتهم في المشرق، لان المرء لا يشفى من الهرم، والدولة لا تنسلخ من شيخوختها.

وكان البربر مع خوفهم من التجاء الأمويين إلى المغرب لسوء سيرتهم وأمراض شيخوختهم، يعلمون أن العباسيين لا بد وان يطاردهم فتسمى بلادهم ميدان حرب يكونون طعمتها، وساحة صدام يتحملون أثقاله. هذا ما أدركه البربر بذكائهم، وعلمه المغرب بنضوجه وبعد نظره، وأيقن به أهله فثاروا على الأمويين واستقلوا، وأنشأوا دولهم الزاهرة التي عدلت فيهم، واعتنت بهم، وكانت ملجأ لطلاب الحرية والعدل والهناء من أنحاء العالم الإسلامي كله.

قال ابن القطان: «كان هشام بن عبد الملك قد ندب كلثوم بن عياض لقتال البربر، وعهد إليه في سد افريقية وضبطها إذ كانوا يجدوا في الروايات أن ملكهم يزول، فأمر بالجد في أمر افريقية ليلجأوا إليها إذا ذهب ملكهم.[1]

1 - البيان المغرب ج 2 ص 42 ط . بيروت. ويريد ابن القطان بافريقية المغرب كله. والقدماء كثيرا ما يطلقون افريقية على المغرب من باب تسمية الكل بالبعض.

إمامة ميسرة الخفير المضغري 122

كان ميسرة من علماء البربر، ومن ساداتهم، وذوي العقل والحنكة فيهم. وكان شجاعا جريئا، بطلا مقداما، مخلصا لقومه، غيورا على وطنه، طموحا عزيز النفس لا يرضى بالذل والهوان. وهو من قبيلة مضغرة البترية البربرية المستقرة في شمال المغرب الأقصى؛[1] فاختاره البربر لمزاياه التي ذكرنا إماما لدولتهم فبايعوه، والتفوا حوله واستعدوا للقراع معه، وخلعوا الأمويين ونبذوهم، وبدأوا حياة الاستقلال والكرامة وشمروا عن ساعدهم لتطهير المغرب من الظلم والفساد ورقة الدين، ومن التعصب والتحيز والأنانية، والرجوع إلى الإخوة الإسلامية، والى مساواة الدين الحنيف وديمقراطيته التي تخلق الحب في الصدور، والصفاء في النفوس، وتجعل أبناء الدولة كلهم فيها كالفروع في الشجرة، يأخذ كل نصيبه، لا يظلمه أخوه، فيعمر الهناء والرضا كل القلوب، وإذا هب إعصار على الدولة لم يزدها إلا قوة وتماسكا، ولا يزيد القلوب إلا تعانقا كما تتعانق الأغصان في الشجرة إذا هبت العاصفة عليها.

ومبايعة البربر لميسرة لاتصافه بالأخلاق العظيمة، وبالعلم والإخلاص، وبروزه في قومه بعلمه، وتضحيته، وبدون أن يراعوا عرقه، ولا البيت الذي نبع منه، ولا أن يكون لآله سابقة في الملك، وماض في الرئاسة، كما يفعل الملوكيون العظاميون الذين ينظرون إلى ماض الرجل لا إلى حاضره، والى أجداده والقابه، لا إلى عمله وكفاءته، وما يقدر عليه. إن مبايعة البربر لميسرة وهو مجرد من الألقاب إلا من لقب البطولة الذي يزينه، والكفاءة والعمل الصالح آل=بي يتوجه، دليل على تمسكهم بالديمقراطية الإسلامية، وعلى أنهم ثاروا ليرجعوا رئاسة الدولة وشؤونها إلى الطريق الذي شرعه الله لها، والى السبيل الذي بينه الدين، واجبه على المسلمين.

وقد حول بعض المؤرخين المتعصبين، أبواق الأمويين والعباسيين أن يغضوا من مقام ميسرة الذي حرر المغرب من الظلم، ومهد للدولة الإدريسية بأن قطع جذور الأمويين من المغرب، فاستطاع إدريس الأكبر أن يلتجئ إليه، واستطاع البربر أن يؤسسوا دولتهم الإدريسية العظيمة بإمامته. إن هؤلاء المغرضين قد ثلبوا ميسرة واحتقروه، وقالوا انه سقاء! كأن حرفة المرء تزري به، ونسوا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان راعي غنم، وان جل الأنبياء والزعماء الذين نهضوا بشعوبهم كانوا من ذوي الحرف البسيطة التي تجعلهم يختلطون بالشعب فيعرفون أمراضه، وتهيئتهم للزعامة بما تغرس فيهم من رأفة وجلد وتواضع وتضحية. أنهم تناسوا أن أبا تمام الشاعر كان سقاء، والجاحظ إمام

1 - ذكر ابن خلدون أن مواطنهم في عهده من تلمسان إلى فاس غربا.

الأدب كان سماكا ينتقل بالسمك على ضفاف دجلة والفرات ليبيعه مشوبا بدريهمات زهيدة، فما منعت حرفة أبي تمام أن يكون إمام الشعر، وذورة الأدب، وما عاقت زمانه أن يعترف له بإمارة القريض، وان يجعله أمير الشعراء، وسيد الأدباء، وما عاقت حرفة الجاحظ أن يكون إمام الأدب والفصاحة، وسيد البلغاء والعلماء، وتعنو رقاب الأدباء له، وتطأطئ رؤوس الفصاحة لعبقريته وسمو مقامه!

إن البذور التي تندس في الرغام، وتختلط بالطين هي التي تكون أشجارا عالية، تملأ الساحة بالظلال والثمار، وبالعطر والجمال، ويفئ الناس إليها فتقهم حرا لهواجر، أما البذور التي تعيش في حقق العاج النفيس، وفي أواني الذهب الغالي كأبناء الأغنياء والملوك فلا يكون منها إلا الديدان... ! [1]

لقد كان ميسرة سقاء فاختلط بشعبه، ودخل كل دار، وعرف الناس فعرف آلامهم وآمالهم، ودرس طباعهم، ثم لم تمنعه حرفته أن يكون عالما في الدين، فهو أحسن من يليق للزعامة، ويقود قومه في ثورتهم التي تحتاج إلى الجلد والتضحية والإقدام والدهاء.

وكانت مبايعة ميسرة وثورته في سنة اثنتين وعشرين ومائة، فهجم بجنده على طنجة فاحتلها، وقتل عاملها الغشوم عمر عبيد اللّه المرادي، فانثال البربر عليه من أنحاء المغرب الأقصى فبايعوه، وانضووا تحت لوائه، فكثرت جموعه، فاستعد للدفاع، ولتحرير المغرب الأقصى كله من الظلم والطغيان، ليكون دولة واحدة تنعم بالعدل والأمان.

ولاية عبد الأعلى ابن جريج على طانجة واستشهاده

وكان ميسرة قد قسم جيشه ا قسمين قسم استبقاه معه في عاصمة الثورة بجبال مضغرة، وهي من تلمسان إلى طنجة، وقسم سيره مع قائده وواليه على طنجة عبد الأعلى بن جريح الرومي مولى موسى بن نصير لفتح جنوب المغرب الأقصى.

وكان في جنوب المغرب الأقصى: من مراكش إلى الصحراء إسماعيل بن عبيد اللّه بن الحبحاب واليا عليه، وكان قد استعد لهجوم ميسرة عليه، فسار إليه عبد الأعلى

1 - من الناس الذين احتقروا ميسرة مكتبة صادر اليسوعية في بيرون. إن كل المؤرخين ومنهم ابن عذارى المراكشي صاحب البيان المغرب قد سموا ميسرة بالخفير، ولكن هذه المكتبة التي كنا نحترمها سمته في البيان المغرب ج 1 ص 52 «بميسرة الحقير». ونحن نقول لهذه المكتبة إن أصدقاءهم الفرنسيين الذين يسرهم أن يزري الناس بأبطال المغرب وأجدادهم العظام لم يعدوا في المغرب فلتحذر من الوقوع في هذه الغلطة المعتمدة في الطبعة الثانية إنها غلطة مقصودة لان المكتبة مشهورة بالتدقيق في التصحيح

بن الجريج فوقعت حرب عنيفة بينهما استشهد فيها الأعلى، وانهزام جيشه، لتفوق إسماعيل عليه في العدد والسلاح.

دهاء ميسرة

وكان ميسرة داهية فاختار الزمان لثورته، وانتظر حتى غاب معظم جيش ابن الحبحاب عن المغرب، وأرسله تحت قيادة حبيب بن أبي عبيدة لغزو صقلية، فلم يستطع ابن الحبحاب أن يهاجمه بكل قواه قبل أن تتمكن جذوره، ويغزر جمعه، ويسرع إليه البربر التواقون إلى الحرية والعدل من كل الأنحاء، فيستعد لكل من يسير إليه.

وكانت هذه الثورة العارمة، ومبايعة البربر لميسرة بالإمامة، ونبذ الأمويين وخلعهم، وفرح البربر بهذه الثورة ومسارعتهم إلى ميسرة، وانتفاض كل أنحاء المغرب واستعدادها لخلع الأمويين، كان هذا مفاجأة مريعة لابن الحبحاب، لم يكن تخطر بباله فيستبقي معه كل جيشه، لقد كان يحتقر البربر، ويرى أنهم لا يستطيعون الثورة عليه، وإذا فعلوا فاقل جيش يخمدهم ويرجعهم إلى حظيرته، ثم لا تكون ثورتهم إلا جزئية تنفجر في مكان فتحصر فيه، لا تتجاوزه إلى غيره، فها هو المغرب كله يغلي حول القيروان، ويجد نفسه في بحر مزيد في أعماقه ثورة تهز سفينته لتلتقمها، فأسرع فحشد ما استطاع جمعه من الجيش وأرسله تحت قيادة خالد بن حبيب بن أبي عبيدة ليعاجل ميسرة قبل أن تتسع نار ثورته، ويتكاثر جمعه، فيسير هو إليه، فيفتح القيروان فيقضي على الأمويين في المغرب، وأرسل إلى كبير قواده حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع أن يرجع بما معه من الجيش عله يستطيع رد هذا الطوفان عنه.

وكان خالد بن حبيب بطلا كابية فسار إلى طنجة لمنازلة ميسرة، فاستعد له ميسرة، فوقعت بينهما حول طنجة معركة مهولة سقط فيها عشرات القتلى من الجانبين، فأحس خالد بالخطر، ورأى شجاعة البربر، وبطولتهم في القتال، وتصميمهم على القضاء عليه، وعلم أن المعركة إذا استمرت طويلا فسوف يكون جيشه طعمة للبربر المصممين على محوه، فانسحب من المعركة، وتحاجز الجيشان، ومضى خالد إلى تلمسان الحصينة العالية الأسوار، وهي أول المغرب الأوسط فعسكر فيها، ليكون حاجزا لميسرة إذا هم بالمسير إلى القيروان، ويمنع الثورة من النشوب في المغرب الأوسط لكي لا يتسع الخرق على الأمويين. لقد منى نفسه بالتقوى بابيه إذا وصل بجيشه الكبير من صقلية فانضم إليه، سيسير بجحافله إلي ميسرة فيقضي عليه، فبقي مرابطا في تلمسان، وهو حذر مما سيقع في المغرب الأوسط أيضا لأنه يحس به ساكنا متكمشا تكمش

الأسد إذا تداخل في جلده يستعد لوثبته الكبرى. ويرى نار قلوب البربر في عيونهم المحمرة عليه، فأيقن أن دولته إلى حروب مريرة مع المغرب الذي اجمع على الاستقلال والانفصال، والذي خسر الأمويون قلوب أهاليه، فأنى لهم استرجاعها. فبقي خالد على أهبة الحرب في كل وقت، وآثر تلمسان الحصينة مقرا له ينتظر فيه وصول أبيه.

عزل ميسرة عن الإمامة

وكان البربر بعد هذه المعركة الأولى لهم مع الأمويين قد استضعفوا ميسرة، وسخطوا سيرته، وانتقدوا سلوكه، وسوء تدبيره. ها هو جيشهم يمنى بالهزيمة على يد إسماعيل بن عبيد الله في السوس الأقصى فيطمع الأمويين فيهم، وها هي النتيجة في معركتهم مع خالد بن حبيب لا تكون كما يريدون، وحسب ما يستطيعون. أنهم يستطيعون أن يهزموا خالدا لو كان ميسرة ابرع مما هو في القيادة، وأكثر سدادا في التدبير. لو طال المعركة معه لأدركوا مناهم فيه، فيكسرونه شر كسرة فتضعف معنويات الأمويين فلا يمنون أنفسهم بالقضاء على ثورتهم، فيوجهون الجحافل الجرارة إليهم. لو اتبع خالدا لما انسحب من المعركة لأدركوا فيه مناهم، ولكنه تركه حتى اعتصم بتلمسان الحصينة، ومكنه من الزمن الطويل الذي يتهيأ فيه ويصل أبوه ليجدد الكرة عليهم. إن ما يستقبلهم من قراع مرير مع الأمويين يستدعي براعة في القيادة أكثر مما يستطيعه ميسرة، فلا بد من قائد لهم أقوى منه ليدركوا مناهم. انه أمامهم، فالكفاءة هي التي تقدمه، وإذا عجز عن مهمات الدولة فالعجز يؤخره، فيقدمون الأقوى. إن هذه من حسنات الإمامة، فاجمعوا على عزله.

قال المؤرخون: إن البربر أنكروا سيرته، وتغيره عما كان عليه من استقامة وسداد. ولم يبينوا هذه السيرة، والسلوك الذي أنكروه عليه. قد يكون ميسرة تغطرس واستبد برأيه، ولم يأخذ بمبدأ الشورى الذي تقوم عليه الإمامة. فلو وفق ونجح وتغلب على خصومهم لارتضوه، واغتفروا له استبداده، ولكنه فشل وخاب فرأوا عناده وانفراده بالحكم خطرا عليهم.

وقد يكون ارتكب في أتباع الأمويين ممن لم يقاتلوه ما يحرمه الدين، وما هو من الظلم الذي ثاروا من اجله. إن ميسرة من علمائهم في المذهب الصفري، ولعله أراد أن يغلو في الأمويين الذين ارتكبوا فيهم كبائر من الذنوب فيعاملهم كالمشركين كما يقرر مذهبه، وهو ما أباه جل البربر ولم يأخذوا به. إن ميسرة ضعيف القيادة هذا ما كشفت عنه المعارك التي خاضعا وهو قد ساء سلوكه، وتغير عما عليه. لقد بايعوه على الصلاح

والتزام الدين، وعلى الشورى، وأن يكون أمامهم الذي يحاسبه الشعب، فإذا خاس بإحدى هذه، وارتكب ما يضر بمصلحة الدولة العليا، وما يخالف الدين فلهم عزله؛ فاجمع أهل الحل والعقد في جبال مضغرة على عدم صلاحية ميسرة للإمامة فعزلوه، وبايعوا خالد بن حميد الزناتي إماما عليهم.

قال بعض المؤرخين: إن البربر لم يكتفوا بعزل ميسرة بل حكموا بإعدامه فأعدموه. وإذا صح هذا فان البربر قد أنكروا مخالفته للدين، وارتكابه في دماء المسلمين ما يستوجب قتله فقتلوه. إن الإمامة تجعل الإمام كأبسط رجل من الشعب في حدود الله. إن قانون الله يسرى عليه كما يسرى على شعبه، فترى الإمام يردعه عن الظلم خوف الحدود التي تنفذ فيه، مع خوفه لله. وجاء خالد بن حميد إمام البربر الجديد الذي سيصول بهم في المعارك الهوجاء مع الأمويين. فلمن يكون النصر يا ترى؟ انه للمظلوم الذي ثار على الظلم، ولطالب العدل الذي يسعى لتنفيذ أحكام الله، ونصرة دين الله.

إمامة خالد بن حميد الزناتي 123

كان خالد بن حميد الزناتي من قبيلة زناتة البربرية البترية. وكانت زناتة أقوى القبائل في المغرب، وأكثرها عددا. وكان جلهم في المغرب الأوسط، وقد نسب إليهم فسمي مغرب زناتة، وذلك لكثرة عددهم فيه. وكانت لزناتة أفخاذ وعشائر في المغرب الأدنى بطرابلس، وفي المغرب الأقصى. وكان خالد بن حميد من هذه القبيلة الكبرى.

إن اسم خالد واسم أبيه حميد دليل على رسوخ البربر في الإسلام وفي العربية، فلولا هذا ما اختاروا هذه الأسماء العربية، وما آثر حميد لابنه اسم خالد بن الوليد، ليكون كسمية[1] في البطولة والدين، وفي الغيرة على المسلمين. إن الأسماء الجديدة في شعب تدل على مزاجهم وآمالهم وطموحهم وما يرجون لهم ولأولادهم من مستقبل كبير، وليس التقليد والإلف هو الذي يبعثهم على التسمية بها.

وكان خالد بن حميد الزناتي كما تمنى له أبوه، كان كسمية،[2] رجلا صنديدا، وزعيما كفؤا، وأمرا صالحا متمسكا بالدين، عالما به، غيورا عليه. وكان داهية في السياسة، بارعا في التدبير، محنكا في شؤون الزعامة والرئاسة. وكان مخلصا لقومه، غيورا عليهم، أبي النفس لا يرضى بالهوان، طموح النفس لا يقع بالدون، معتدا بنفسه وبقومه لا يرضى لهم إلا الذروة الشماء والمنزلة العالية.

وكان شابا قوي النفس يدفعه حماسة وقوة الشباب فيه فيبلغ بنفسه وبقومه كل ما يرسم له عقله الحصيف من أهداف سامية، وغايات ممكنة.

وكان خالد بن حميد إلى هذه الحصافة في عقله، والمكارم في خلقه، شجاعا، جريئا، مقداما، بارعا في فنون الحرب ومكائدها، عليا بعورات العدو وأماكن ضعفه. فاختاره البربر إماما لهم ليقودهم في ثورتهم الكبرى، وينظم شؤون دولتهم الناشئة، ويسوسهم بما أمر الله. فبايعوه بالإمامة، وأسرع البربر إليه من أنحاء المغرب الأقصى فبايعوه، وانضموا إلى صفوفه، فغزر جمعه، وتضاعف عدده.فنظم خالد صفوف جنده، وشؤون دولته، واستعد للقراع.

المعركة الفاصلة

وكان حبيب بن أبي عبيدة بطلا عظيما، وفارسا قويا، وقائدا بارعا، وإماما في الحرب. وكان أكبر قواد ابن الحبحاب، ومعه اكبر قوة، وأغزر عدد من الجند يملكه الأمويون في

1 - سميك من اسمه اسمك.

2 - سميك من اسمه اسمك

المغرب؛ فأرسله ابن الحبحاب لينضم إلى ابنه خالد بن حبيب، فيشد أزره، ويعينه في حروبه مع خالد بن حميد. فسار حبيب حتى وصل إلى ابنه خالد فانضم إليه فتكاثف جيش الأمويين وغزر جمعه، فسمع بهم خالد بن حميد، وعلم أنهم يستعدون لمهاجمته فسار هو إليهم.

وكان حبيب بن أبي عبيدة يعتد بنفسه؛ وكان لا يبالي بالبربر، فأبى أن يسير هو لمنازلة خالد بن حميد، وبدا له أن خالدا كمسيرة يستطع ابنه بن حبيب أن ينازله فلا يهزمه، وان ما انضم إلى خالد من جيشه القوي، وما يداخله من ثقة بالنفس لوجوده قريبا سيجعله أقوى مما كان، فهزم خالدا ويقضي على ثورة المغرب الأقصى وما علم أن البربر الأقوياء الذين صمموا على الاستقلال وحياة العزة، وتطهير وطنهم من الظلم والاستبداد، يستطيعون في السنة الثانية من استقلالهم ما لا يقدرون عليه في السنة الأولى، قبل أن يتكاثف جمعهم، وتتكون دولتهم، وتنظم شؤون ثورتهم وان خالد بن حميد غير ميسرة. فسار خالد بن حبيب بجيشه وجيش أبيه حتى التقى بخالد بن حميد على نهر شلف في شمال تاهرت، فدارت معركة عنيفة بين خالد بن حميد الزناتي وبين جيش الأمويين، فانهزم جيش الأمويين، وقتل خالد بن حميد في المعركة أشرفهم وصناديدهم. فقتل خالد بن حبيب، وإسماعيل بن الحبحاب والي جنوب المغرب الأقصى وما علم أن البربر الأقوياء الذين صمموا على الاستقلال وحياة العزة، وتطهير وطنهم من الظلم والاستبداد، يستطيعون في السنة الثانية من استقلالهم ما لا يقدرون عليه في السنة الأولى، قبل أن يتكاثف جمعهم، وتتكون دولتهم، وتنظم شؤون ثورتهم وان خالد بن حميد غير ميسرة. فسار خالد بن حبيب بجيشه وجيش أبيه حتى التقى بخالد بن حميد على نهر شلف في شمال تاهرت، فدارت معركة عنيفة بين خالد بن حميد الزناتي وبين جيش الأمويين، فانهزم جيش الأمويين، وقتل خالد بن حميد في المعركة أشرافهم وصناديدهم، فقتل خالد بن حبيب، وإسماعيل بن الحبحاب والي جنوب المغرب الأقصى، وكان قد أسرع بجيشه فانضم مع حبيب إلى خالد. فانتصر البربر على الأمويين، ورسخوا جذور دولتهم في المغرب الأقصى، واستقل جنوب المغرب الأقصى بمصرع إسماعيل بن الحبحاب فانضم إلى الشمال، فصار المغرب الأقصى كله من وادي ملوية إلى المحيط الاطلانطي، ومن البحر إلى الصحراء مستقلا تحت إمامة خالد بن حميد. فرجع خالد إلى عاصمته في جبال مضغرة ليستعد لحرب أخرى مع الأمويين لقد كسر ابن الحبحاب في هذه المعركة الفاصلة، وأيأسه من أن يكون له في المغرب شأن، وعلى البربر سلطان، فبقي هشام، فلا بد أن يسول له جهله بحقيقة المغرب،

واستخفافه بالبربر، وان يرسل عليه جيوشه الجرارة من الشام لترجع المغرب بالقوة إلى حظيرته، وترضخهم لسلطانه.

وكانت هذه المعركة التي انهزم فيها الأمويون تسمى «وقعة الأشراف» لكثرة من قتل فيها من أشراف الأمويين، وصناديدهم.

ثورة الأمويين في القيروان وعزلهم ابن الحبحاب

وبلغت هزيمة الأمويين القيروان، وعلم الأمويون فيه ما حل بجيشهم القوي، ومن قتل من أشرافهم الأعزاء، وصناديدهم في المغرب، فثارت ثائرتهم، واشتد سخطهم على ابن الحبحاب، فاستضعفوه، وأرادوا واليا آخر أقوى منه في الحرب وأكثر عسكرية، ليقف في وجه المغرب الثائر، فعزلوا ابن الحبحاب، وأرسلوا إلى الملك هشام صريخ ليبعث إليهم واليا أقوى، وجيوشا أعظم، وتثأر لأشرافهم، وتحوطهم في المغرب الثائر عليهم، وتمنع الثورة التي يرون مقدماتها وعلاماتها في المغرب الأدنى والأوسط.[1]

بواعث البربر على الثورة

وكان البربر في كل حروبهم مع الأمويين والعباسيين مدافعين عن أنفسهم، لا يقاتلونهم إلا إذا بدأوا بالعدوان، وعزموا على الشر فيهم. إن كل مقاصد البربر في ثوراتهم أن يعيشوا في وطنهم أحرارا مستقلين ! لا يبعثهم على الحرب كره الأمويين ولا التعصب للجنس، ولا التحيز للمغرب. أنهم ثاروا ليطهروا وطنهم من الظلم والعصبية الجاهلية التي كانت تسير عمال بني أمية وأتباعهم في المغرب، وينشئوا دولهم الإسلامية التي تسوى بين المسلمين، وعامل الكل معاملة واحدة. لقد

مزج الإسلام بين العرب والبربر فأصبحوا أسره واحدة. لا فرق بين بربري وعربي، وبين مغربي ومشرقي، فالكل مسلمون، قد مزج بينهم الدين، ووحدتهم آصرة المصاهرة التي كثرت بين البربر والعرب، وبين المغرب والمشرق.

لقد كان في صفوف الثورة التي قام بها المغرب على الأمويين، وفي الجند الثائر، كثير من المغرب الذين أووا إلى المغرب لما ضاقوا ذرعا بظلم الأمويين في المشرق، وكثر من الذين ساءهم ظلم الأمويين للبربر، ومخالفتهم للدين في معاملة المغرب المسلم.

ثورة البربر ثورة إسلامية

إن ثورة المغرب ثورة طلاب العدل والإنصاف والمساواة، وإتباع الدين الحنيف في السياسة،

1 - انظر أقسام المغرب في صفحة .... من هذا الكتاب.

ضد الظلم والجبروت، والعصبية والعنصرية، ومخالفة الدين. فهي ثورة إسلامية هدفها إحياء الإمامة العادلة والقضاء على الملوكية الظالمة، قام بها البربر فانضم إلى صفوفها، وأيدها، وباركها كل الأتقياء النزهاء الذين ينظرون بدين الله في المشرق والمغرب.

كان المغرب الأقصى في حربه للأمويين يدافع عن نفسه، فلذلك لم يسر خالد ابن حميد إلى القيروان ليخرج ابن الحبحاب وينتقم منه ومن أتباعه، لان ما آثاره هو أن يعيش هو وقومه في وطنهم بالمغرب الأقصى أحرارا، وقد خلا من الأمويين وانكسروا، فلم تعد لهم قوة حربية يحسب لها حسابها في القيروان فيسير إليها ليريح منها المغرب الذي يهتز كله من أدناه إلى أقصاه ليثور ويستقل كما ثار المغرب الأقصى فآثر الرجوع إلى مقر قيادته بجبال مضغرة حتى يتحرك الأمويون فينزل إليهم. وكانت «وقعة الأشراف» في سنة ثلاث وعشرين ومائة، ثم يثور هشام بن عبد الملك، فيعزل ابن الحبحاب، ويولي على المغرب كلثوم بن عياض القشيري، ويرسل معه جيشا جرارا. فلمن يكون نصر الله يا ترى؟ إنه لناصر الحق، والمتمسك بالدين، والعامل لخير المسلمين. فما كان الله لينصر ذا النية السيئة، والذي تسيره أهواؤه، لا حب دينه، والعمل لتكون كلمة الله هي العليا، ودستور الله هو أساس الدولة وقوامها، وطريقها الذي تلتزمه ولا تحيد عنه في سياسة المسلمين !

غضبة هشام وولاية كلثوم بن عياض القشيري على المغرب الأدنى والأوسط 123

وبلغت أنباء هزيمة الأمويين في المغرب، ومن قتل من أشرافهم، وصناديد جندهم إلى هشام بن عبد الملك، فثارت ثائرته، واشتد غضبه، واحتدم غيظه، وساءه أن يقع من البربر الذين يحتقرهم ما قع على الأمويين الذين يراهم هم السادة في البلاد، وهم الشرفاء في المغرب، فليس للمغرب إلا الخضوع لهم، وتمجيدهم، لا الثورة عليهم، وقتل الأشراف منهم. واغتاظ هشام اغتياظ من يرى الفارس الأثير يصرعه فرسه من صهوته، ثم يفترسه كما تفعل الأسود، وهو المطية الذليلة التي يجب أن تكون مطواعة للفارس، يستخدمها في أغراضه، ويسخرها في بلوغ أهدافه ! قال النويري: «فسال هشام: اقتل أولئك الرجال الذين كانوا يقدمون علينا من المغرب؟ قيل نعم. فقال: والله لأغضبن ««للعرب»» غضبة عربية، ولأبعثن إليهم جيشا أوله عندهم وآخره عندي! ثم لا تركت حصن بربري إلا جعلت إلى جانبه خيمة قيسي أو يمني».[1]

إن غضب هشام وعزمه على الانتقام يدل على غشامته وغطرسته، وعلى ظلمه وعدم مبالاته بالبربر، وعلى جهلة بالمغرب وما يقع فيه، وبقوة الأمازيغ وما يستطيعونه، وعزيمة البربر على الاستقلال، وتصميمهم على الانفصال عن الأمويين الذين ظلموهم وجاروا عليهم.

كان يجب على هشام أن يعرف أسباب ثورة البربر فيزيلها، ويبحث عن علل سخط البربر على دولته فيقضي عليها، ويطب لقلوب البربر النافرة عنه، ويرجع المغرب بالحكمة والإحسان، وبالأناة والرفق إلى حظيرته. وإذا وجدهم مصممين على الاستقلال تصرف معهم تصرف هارون الرشيد مع الأغالبة، فيأذن لهم في الاستقلال الداخلي مع بقاء الروابط المتينة، وتبادل المصالح، والخضوع الظاهري للدولة. ولكن هارون الرشيد كان يمثل قوة الدولة العباسية ونضوجها، أما هشام فيمثل هرم الدولة الأموية وضعفها. فتصرف تصرف الهرم الذي ضعف عقله، وقل إدراكه، فصار الوجدان هو الذي يسيره كالصبيان.

مقاصد هشام وآلة في المغرب

وكان هشام قد احتدم ذلك الاحتدام، وثار تلك الثورة لانفصال المغرب عنه لسبب آخر

1 - نهاية الأرب للنويري ج 21 من نسخة دار الكتب المصرية المصورة ما ورد بين قوسين في كلام النويري من المراجع الأخرى وهكذا كل كلام نورده في كلام مؤلف بين قوسين جمعا بين الروايات فهو من المراجع الأخرى

أيضا، وهو انه كان عازما أن يكون المغرب والأندلس دار هجرته وهجرة الأمويين، لتستمر فيهما دولته إذا انتزع العباسيون المشرق منه. لذلك حلف أن يجعل بجانب كل حصن بربري خيمة قيسي أو يمني، ليكثر العنصر الأموي في المغرب، ويتقوى جمع أنصاره فيه؛ ولكن ذلك يستلزم أن يقضي على هذه الثورة العارمة، ويمنع الثورات الأخرى من النشوب فيه، ليسكن المغرب ويعطى بيده، فيمهد لانتقاله إليه بتكثير سواد أتباعه فيه، وإسكان الأعراب الذين يجيدون القتال، وتسيرهم العصبية في المغرب ليكونوا حماته وجنده إذا رحل إلى المغرب، ويكونوا عروق دولته المغربي التيس يتمناها فلا تستطيع الأعاصير أن تقتلعها. هذا ما كان يتمناه هشام فشمر لتحقيقه. فعزل عبيد الله بن الحبحاب عن المغرب، وولى عليه كلثوم بن عياض القشيري، وأرسل معه جيشا جرارا للانتقام لأشراف بني أمية الذين سقطوا في وقعة الأشراف، وللقضاء على ثورة المغرب الأقصى، وإزالة الإمامة الناشئة فيه، ولإرضاخ المغرب بالقوة، وإرهابه بكثرة الجيش فلا يحدث نفسه بالثورة والانفصال.

كلثوم ابن عياض القشيري

وكان كلثوم بن عياض القشيري بطلا صنديدا، وشجاعا قويا، وكان من أحلاس الحرب والصدام، ومن قواد بني أمية العظام، ومن رجالها المخلصين الذين تعتمد عليهم في النوائب، وتتسلح بهم في الأزمات، وتستخدم في المضايق فيفرجونها. وكانت له شهرة حربية كبرى. وكان لبأسه ودهائه في الحروب يعده الأمويون من أسودهم الكاسرة، ومن الأسماء التي ترادف السيف والضرغام، وتدل عند السامعين على البطل الذي لا يهزم، والفارس الذي لا يغلب، والقائد الماهر الذي يخشاه كل الأعداء، ويجرع الحتوف لكل المناوئين. فآثره هشام لمقاتلة البربر، والولاية على المغرب لهذه الخصائص العظيمة، ولشدة ثقته به، واعتداده بكفاءته، وأرسل معه ثلاثين ألف فارس؛ عشرة آلاف من صرحاء بني أمية، وعشرين ألفا من أبطال الشام، وكتب إلى عماله في مصر، وبرقة، وطرابلس أن يمدوه بأحسن ما عندهم من الجند، وينذبوا الناس للسير معه. فسار كلثوم فانضم إليه جيش غزير من مصر، وجيش من برقة، ومثله من طرابلس. ولما وصل افريقية ندب الأمويين إلى القتال معه، والانضمام إلى جنده، فانضمت طوائف كبيرة منهم فبلغ جيشه سبعين ألف مقاتل، وكان جيشا جرارا لم يدخل مثله في المغرب، وقوة عسكرية كبرى لم يجتمع مثلها في القيروان، وكان وصول كلثوم إلى القيروان في رمضان من سنة ثلاث وعشرين ومائة.

وكان مع كلثوم ابن أخيه بلج بن بشر القشيري، وأرسله هشام ليشد أزر كلثوم

ويخلفه في القيادة والولاية على المغرب إن حدث به سوء. وكان بلج شجاعا جريئا، طموحا، فيه مضاء وكفاءة، ونجدة ونهضة. فجعله كلثوم مقدمة جيشه. فسار بلج حتى وصل القيروان فظلمن أهلها وعسفهم، وانزل الجند في ديارهم، وادخل عليهم ما تضرروا به واستاؤوا منه «فقال لأهل افريقية: لا تغلقوا أبوابكم حتى يعرف أهل الشام منازلهم ! ومع ذلك الكلام كثير يغيظهم به». أما كلثوم فنزل قرب القيروان، لكثرة جيشه، وغزارة جنده فانه لا يسعه إلا فضاء واسع، وأمكنة فسيحة. فشكى أهل القيروان ما أصابهم من جيش كلثوم إلى حبيب بن أبي عبيدة ابن عقبة بن نافع.

وكان حبيب شخصية بارزة في المغرب، وكان له ولآله المكانة العظمى عند أهل القيروان لمكانة جدهم عقبة ومنزلته العظمى. وكان اكبر قائد للأمويين في المغرب، فكان يدل ببطولته، بمكانته في الدولة وبنسبه، ويرى نفسه ذروة عالية في المغرب لا تسامى. وكان حبيب في تلمسان بجيوشه يرابط فيها ليقف في وجه خالد بن حميد إذا سار إلى القيروان، وينتظر المدد من هشام لينازل المغرب الأقصى؛ فساءه ما حل بأهله وذويه وسكان مدينته من جند كلثوم، فأرسل إليه يحتج عليه، ويلومه، فتدهمه في الخطاب، وخاشنه في الكلام، ووقف منه موقف الند للند، واسمعه في نفسه وفي بلج ما أسخطهما، وقال له: «لئن لم تنته لنصرفن أعنة الخيل إليك».

خصام كلثوم وحبيب وتصدع الصف

وكان كلثوم معتدا بنفسه، وكان هو أمير المغرب، وقائد جيوشه، وحبيب رعية له، وضابط تحته. فساءه موقف حبيب منه، وجرأته عليه، فعزم على تأديبه، وطأطأة رأسه، فعبأ جيوشه فاستخلف عل القيروان عبد الرحمان بن عقبة الغفاري وعلى الجند فيه مسلمة بن سوادة القرشي، فسار هو إلى المغرب الأقصى، وأرسل ابن أخيه بلج مقدمة له، وكان ساخطا على حبيب لشموخه عليه وعلى عمه، ولإسماعهم ما لم يرتضه. فلما وصل تلمسان تجهم حبيبا في الخطاب وخاشنه، وشتمه، فتقاتلا، واشتبكت جنودهما في معركة، ثم توادعا، ورجع إلى معسكره، وهو ينظر نظرة شزرى إلى الآخر، ويراه منافسه وعدوه. فوصل كلثوم بجيوشه فخطب في تلمسان فأهان حبيبا وشتمه، وقال:»أهذا الذي يصرف أعنة الخيل إلينا؟!».

وكان ما حل بأهل القيروان من بلج وجنده، وما وقع من قتلا ومشاتمة بين حبيب وكلثوم مظهرا لشيخوخة الدولة الأموية، وانحلال الأخلاق الذي كانت نعانيه، فان المرء لا يشاكس أخاه ويقاتله، ويبعده عنه، وهو بين سواعد الأسود الفاغرة عليه إلا إذا كان

نهاية في ضعف العقل بتسلط الوجدان عليه. وارى أن ما وقع من بلج وكلثوم مع حبيب يدل على استخفافهما بالبربر، واغترارهما بقوتهما. لكأنهما ذاهبان إلى وليمة، أو إلى نزهة، إلى مقارعة البربر الأبطال الذين عفروا وجوه جيشهم القوي في «وقعة الأشراف» وانزلوا بهم الهزيمة الشنعاء !

إن الدولة في هرمها لتصاب بغرور الطفل الذي يستهين بالصعوبات، فيلقي بنفسه في التهلكة، ويقدم على ما لا يقد عليه. إن منافسة حبيب وكلثوم تدل على الأنانية التي تملكت نفوس الأمويين لشيخوختهم، وضعف أخلاقهم بالحضارة التي انغمسوا فيها.

إن بساط الحضارة المادية، والمدنية المفرطة لا تتقلب فيه امة، وتستغرق فيه، إلا كان مقدمة للأكفان التي ستدرج فيها! وليس كحياة البساطة والجد، والطموح، والتدين عاملا لقوة الأمم وسموها!

إن المريض الذي يستقبل الآخرة هو الذي يوجد في الحشايا الوثيرة، أما الوليد الذي يستقبل الحياة فتلده أمه في التراب![1]

جيوش كلثوم الجرارة / المعركة الفاصلة

فضم كلثوم إلى جيشه الذي كان عدده سبعين ألف مقاتل جيش حبيب القوي الذي كان غزير العدد كثير السلاح فتجمع لكلثوم بن عياض جيوش كثيرة، وما لا يحصى من السلاح. فسار إلى خالد بن حميد ألزناتي في المغرب الأقصى لينازله في عقر داره، ويحتل عاصمة إمامته، ويقضي على دولته الناشئة، وينتقم من البربر الذين بايعوه ونصروه. فسمع خالد بن حميد بمسير كلثوم بن عياض إليه، وبغزارة جنده، وكثرة جيوشه فاستعد له، فهيأ أصحابه للقتال، ونظم جنده للقراع. فسار إلى كلثوم فالتقى به في وادي «سبو» بجنوب طانجة. فدارت حرب عنيفة بين الفريقين، واشتدت المعركة بين الجانبين، فتجلل الميدان بجثث القتلى، وسالت الدماء غزيرة في ساحة المعركة. فكر خالد بن حميد ألزناتي في جيشه الباسل، وفي جنده المخلص البطل على جيوش كلثوم فهزمها، ومزق شملها، وقتل أبطالها وصناديدها، وقوادها الكبار. وقد أبت على حبيب بن أبي عبيدة كبرياؤه أن يفر لما رأى تمزق جيوشهم، وإحاطة جيش خالد به. ورأى ذلك عارا

1 - نريد بالوليد هنا المولود في البادية وفي الجبال، والقابلات هناك يفرشن الرمل للنفساء. أولئك الولدان الذين سيكونون صخور الدولة في القراع، وأجنحتها في الارتفاع. أما بيض الحمام في القصور المترفة، ودود الحرير فيولدون بهرمهم فلا يعنون في هذا الباب.

لشرفه، وللقب البطولة الذي يعتز به. فثبت في الميدان فقاتل حتى قتل. أم كلثوم فنجا جريحا من المعركة، وفر مع أهل الشام إلى «سبتة».

أسباب قوة البربر وتفوقهم على الأمويين

وكان البربر قد خرجوا عراة إلى قتال كلثوم ليس عليهم إلا السروايل، لا تجللهم الدروع التي تجلل جيش كلثوم، وبرزوا عراة الصدور والأجسام وهو ما يفعله الأبطال الذين يثقون بشجاعتهم، ويعتدون بفروسيتهم، ويؤمنون بان ما كتب الله لهم في المعركة لا ترده الدروع. فقاتلوا وليس في أيديهم إلا سلاح خفيف.

وكان البربر في هذه المعركة أقوى من الأمويين على تفوق جيوش كلثوم في العدد والسلاح، لمتانة أخلاق البربر، وإخلاصهم، واتحادهم، وتضحيتهم، وبطولتهم في الحروب، ومحاربتهم لأجل الدين، والدفاع عن النفس، وغضبا لما ينتهك الأمويون من حرمات الله فيهم.

وكانت براعة خالد بن حميد في القيادة، وتفوقه على كلثوم وحبيب في الإخلاص وحسن النية، وعدم احتقار عدوه، من أسباب هذا النصر الذي كان للبربر على الأمويين.

انهزام الأمويين إلى افريقية والشام

وساد الذعر والهلع جيش كلثوم وحبيب فولوا الأدبار، فاتبعهم البربر يطاردونهم ليبعدوهم عن المغرب الأقصى، ويشتتوا شملهم، فلا تحدثهم نفوسهم بإعادة الكرة فانهزم أهل مصر وافريقية إلى القيروان، وأسرعوا إليه، واحتموا به. أما كلثوم ابن عياض وجند الشام فقد كان البربر اشد حنقا عليهم لأنهم جند هشام الذي اختاره للقضاء على إمامتهم، فهم الذين سيضربون فيهم هشام الضربة الموجعة إذا قضوا عليهم سيما كلثوم الذي كان قائد هشام ووالي القيروان، فأرسل خالد بن حميد وراءهم لما انهزموا أبا يوسف الهواري فاتبعهم وطاردهم ووقعت معارك بينهم ففر كلثوم وبلج بن بشر ومن معهما من جند الشام وكان عددهم عشرة آلاف من بني أمية إلى مدينة «سبتة» لحصانتها، وعلو أسوارها فاعتصموا بها. فحاصرهم البربر فيها، وقطعوا الميرة عنهم، فوقعوا في المجاعة الشديدة حتى أكلوا الدواب والكلاب.

موت كلثوم ابن عياض القشيري

وقد مات كلثوم في سبتة متأثرا بجراحه، فتولى إمارة جند الشام بلج ابن أخيه. فلما اشتد الضر على بلج وصحبه، وطال حصارهم، وأيقنوا بالهلاك أما جوعا داخل

الأسوار أو بسيوف البربر خارجها. وأرسلوا إلى عبد الملك بن قطن أمير الأندلس يسألونه أن يأذن لهم في الالتجاء إلى الأندلس، وان يرسل إليهم سفنا تحملهم من سبتة التي كانت على الشاطئ، فخافهم عبد الملك وحزبه على إمارتهم لأنهم عالمون بعزم الأمويين على إنشاء دولة في المغرب والأندلس، وزاد عبد الرحمن بن حبيب الذي فر إلى الأندلس لما حلت الهزيمة بالأمويين، فأوغر صدوره على بلج وأصحابه، وحذره منهم، فخشي عبد الملك أن ينافسه بلج في الإمارة، وخشي حزب عبد الملك بن قطن الأمويين من أهل الشام أن يستولوا على الأمور فتخرج من أيديهم، فأبى أن يأذن لهم وقطع الميرة عنهم ليشتد بهم الحال فيرجعوا إلى المشرق أو يسلموا للبربر فيستريح منهم.

إياس هشام من المغربين الأقصى والأوسط

وكانت هذه المعركة الكبرى، والملحمة العظمى التي ألقى فيها هشام بكل قواه، وانتخب لها أحسن جنده، واكبر قواده، كانت هي الفاصلة، فأيس الأمويون وأيس هشام من أن يكون لهم في المغرب الأقصى مقام، أو يستطيعوا استرداده والتغلب على أهله، والقضاء على الإمامة التي أنشأوها فيه. ورأى هشام تحفز المغرب الأوسط أيضا للثورة والانفصال. فلم تحدثه نفسه بإرسال قوة إليه، أو استبقاء جند فيه يمنعه من الثورة، أو يقف في وجهه إذا ثار لأنه قد اتعظ بما وقع له في المغرب الأقصى. وكان يعلم أن المغرب الأوسط أكثر عددا، وأغزر جمعا، وان القبائل البربرية فيه قد اعتنقت المذهب الأباضي الذي يدعو إلى الإمامة، ويأبى الملوكية، ويناهض الظلم، يجعل أتباعه حربا على الظالمين؛ فأيس من المغربين الأوسط والأقصى،[1] وجعل في المحافظة على المغرب الأدنى، سيما افريقية التي فيها جمهور غفير من الأمويين قد استقروا فيها واستوطنوها، فحصر قواه فيها، وعزم على الدفاع عنها. وترك المغربين الأوسط والأقصى لأهلهما الذين سينشئون في المغرب الأوسط وجنوب افريقية إلى شمال «قفصة» وفي طرابلس إلى سرت الدولة الرستمية الكبرى[2] التي ستملأ هذه النواحي التي تشتمل عليها عدلا وسعادة، وعزة وحرية، ويحي أئمتها العادلون المتقون لله فيها سيرة الخلفاء الراشدين، وتكون ملجأ للمسلمين الذين يرهقهم ظلم العباسيين من كل أنحاء العالم الإسلامي. كما سينشؤون في المغرب الأقصى الدولة الإدريسية العظمى التي أنشأها البربر بإمامة إدريس الأكبر، وسعد بها أهلها لعدل وحصافة نية أبناء بنت رسول الله صلى الله عليه

1 - انظر أقسام المغرب في صفحة 238 من هذا الكتاب.

2 - هذه النواحي كلها من نطاق الدولة الرستمية وترابها. وهي أول دولة مغربية كبرى تنشأ في المغرب. وقد دخل المغرب بها أعراسه وأمجاده. وسترى حدودها في خريطة الدول المغربية الإسلامية في الجزء الثالث الخاص بهذه الدول المغربية في القرون الهجرية الثلاثة الأولى.

وسلم، ودولة بني واسول «في سجلماسة» وهي التي كانت تشتمل على اغلب جنوب المغرب الأقصى؛ فسعد المغرب الكبير بدوله الكبرى، ولبس بها أفراحه وأيامه البيضاء!

ثورة البربر على الأمويين في الأندلس 122

كان الفاتح الحقيقي للأندلس هو طارق بن زياد. لقد فتحها بجيش معظمه من البربر وفيه عدد يسير من العرب. فوقعت المعارك الفاصلة في الأندلس فانتصر فيها طارق بشجاعة البربر وإخلاصهم، واستماتتهم في الحروب، وبطولتهم في المعارك. فمهروا النصر الإسلامي في الأندلس بدمائهم، وساروا إلى عواصمها الكبرى على أشلاء قتلاهم. فاستقرت جماهير غفيرة من البربر في الأندلس فاستوطنوها وجعلوها دارهم، ثم توالت الهجرة إلى الأندلس من الشام والعراق ومصر، ومن الجزيرة العربية، مكل أنحاء الدولة الإسلامية الكبرى فاستقروا بها، فصارت الأندلس ولاية من ولايات المغرب يولى عليها أمير القيروان من يشاء، ويسوسها كما يريد. ولما كانت سيرة عبيد الله بن الحبحاب، وسيرة عماله في المغرب كما رأينا، وكانوا متحيزين للعرق، متعصبين لأنفسهم وقومهم، وكان جمهور الأمويين على هذه الطبيعة، وكانوا يمالئون العمال على هذه السيرة، فظلموا البربر ورأوهم اقل منهم في الدرجة، وأدنى منهم في المرتبة، واقل منهم في الحقوق، فان هذه المعاملة وهذا التحيز قد كان من الأمويين على البربر في الأندلس أيضا، وهذا الظلم قد وقع من عامل ابن الحبحاب على البربر في الأندلس. فلما ثار إخوانهم وجيرانهم في المغرب الأقصى، انفجر البربر في الأندلس أيضا فثاروا، وعزموا على الانفصال عن الأمويين، ومبايعة خالد بن حميد ألزناتي في المغرب الأقصى، أو إنشاء إمامة خاصة لهم في الأندلس، غير أن ثورة البربر في الأندلس لا يكتب لها النجاح لأنهم لم يكونوا في الأندلس هم الأغلبية العظمى، والعدد الأوفر، كما كان إخوانهم في المغرب، وكانوا أيضا متوزعين في بلاد الأندلس، وتداخلهم القبائل التي هاجرت من المشرق، ويمتزج بهم الأمويون الذين يأبون عليهم الاستقلال.

ولاية عقبة ابن الحجاج السلولي على الأندلس

وكان ابن الحبحاب قد ولى في سنة ست عشرون ومائة عقبة بن الحجاج السلولي على الأندلس، وكان حازما شجاعا، محبا للجهاد والفتوح، راغبا في نشر الدين. قال ابن عذارى:»وذكر عنه انه كان صاحب باس ونجدة، ونكاية للعدو وشدة؛ وكان إذا اسر الأسير لم يقتلع حتى يعرض عليه دين الإسلام، ويقبح له عبادة الأصنام، ويذر انه اسلمن على يديه بهذا «النحو» ألف رجل»[1]

1 - البيان المغرب ج 2 / ط بيروت.

ولاية عبد الملك ابن قطن الفهري على الأندلس

وقيل إن أهل الأندلس ثاروا على عقبة في سنة إحدى وعشرين ومائة فخلعوه فولوا على أنفسهم عبد الملك بن قطن الفهري. وقد يكون السبب في خلعهم له ه أنهم استضعفوه فرأوا انه لا يليق أميرا عليهم يحميهم من البربر الذين يرون اشتعال فتيل ثورتهم في عيونهم الحمرة عليهم، وعلموا أنهم على وشك الانفجار والانفصال فولوا عبد الملك بن قطن الفهري.

وكان عبد الملك بن قطن من رجالات الأمويين في الأندلس، ومن ذوي الكفاءة في الحرب، الجرأة في القتال.وكان طموحا إلى الملك والسلطان. فلما رأى انفصال المغربين الأقصى والأوسط عن الأمويين، وهما صلة الأندلس بالقيروان عاصمة المغرب، ورأى الدولة الأموية في هرمها، ودخولها في أصيلها، وجنوح شمسها إلى الغروب، وانزواء أنوارها عن المغربين الأقصى والأوسط، أراد عبد الملك وحزبه من أهل المشرق أن تكون الأندلس إرثا لهم من الدولة التي يسمعون دوي انهدامها، فطمعوا في الاستيلاء عليها، وتأسيس ملك يشبع رغبتهم في الإمارة والسلطان، فشمروا لمحاربة البربر الذين ينزعون إلى الاستقلال، وأبوا على الأمويين وشيعتهم أن يهاجروا إلى الأندلس خوفا من مزاحمتهم لهم في الملك.

وكان في الأندلس من المنافسة على الملك بين القبائل العربية، و من التناطح على الرئاسة بينهم، واضطهاد بعضهم لبعض ما يدلك على الأنانية التي مرضت بها النفوس، والهرم الذي ضعفت به أخلاق تلك الفئات المتناطحة، وضعف الدين الذي سوغ سفك الدماء الحرام، والانتقام من منافسيهم حتى بعد الممات، وبصلب جثتهم في الميادين، والإزراء بها وأهانتها بما حرمه العقل والدين. ونحن ننقل لك قصة عبد الملك بن قطن مع بلح بن بشر، وقساوته وفظاعته، وظلمه وجبروته، وتسميله لعيني من رحم «بلجا» ورق له، وانتقام بلج من عبد الملك، فان في هذه القصة ذليلا على أن البربر لم يثوروا على الأمويين إلا لظلمهم وتحيزهم وانحرافهم عن الدين، وانم نفوس أهل المشرق لم تعد كما كانت في صدر الدولة الأموية على المتانة في الأخلاق، والتمسك بالدين، والعمل لخير المغرب، والغيرة على مصلحة الدولة العليا.

نقل السلاوي عن ابن حيان قال:»إن كلثوم بن عياض لما انهزمت جيوشه نجا جريحا إلى «سبتة» في أهل الشام، ومعه ابن أخيه بلج بن بشر بن عياض، فحاصرهم البربر بها، ولما اشتد حصارهم بسبتة وانقطعت عنهم الأقوات، وبلغوا من الجهد الغاية، واستغاثوا بإخوانهم من عرب الأندلس، فتثاقل عنهم صاحبها عبد الملك بن قطن لخوفه على

سلطانه منهم، فلمال شاع خبر ضررهم عند رجالات العرب أشفقوا عليهم، فأغاثهم زياد بن عمرو اللخمي بمركبين مشحونين ميرة أمسكت من أرماقهم، فلما بلغ ذلك عبد الملك بن قطن ضربه سبعمائة سوط ! ثم اتهمه بعد ذلك بتضريب الجند عليه، فسمل عينيه! ثم ضرب عنقه، وصلب عن يساره كلبا! ! واتفق في هذا الوقت أن بربر الأندلس لما بلغهم ما كان من ظهور بربر العدوة «على الأمويين» انتقضوا في الأندلس، واقتدوا بما فعله إخوانهم في المغرب، فاستفحل أمرهم بالأندلس، وكثر إيقاعهم بجيوشه ابن قطن، فخاف أن يلقى منهم ما لقيه «الأمويون» بالمغرب من إخوانهم، وبلغه أنهم عازمون على قصده فلم ير أجدى له من الاستعداد بصعاليك عرب الشام: أصحاب بلج الموتورين بسبة، فكتب إلى بلج وقد مات عمه كلثوم فأسرع إلى إجابته، وكانت تلك أمنيتهم، فأحسن إليهم، وأسبغ عليهم النعمة، وشرط عليهم أن يقيموا سنة واحدة، حتى إذا فرغوا له من البربر انصرفوا إلى مغربهم! وخرجوا عن أندلسه! فرضوا بذلك وعاهدوه، واخذ منهم الرهائن عليه، ثم قدم عليهم أبنية قطنا وأمية، والبربر في جموع لا يحصيها غير خالقها، فاقتتلوا قتالا صعب فيه المقام إلى أن كانت الدائرة على البربر، فرجع الشاميون وقد امتلأت أيديهم من الغنائم، فاشتدت شوكتهم، وثابت همتهم، وبطروا ونسوا العهود، وطالبهم ابن قطن بالخروج عن الأندلس فتعللوا عليه، وذكروا صنيعه بهم أيام انحصارهم بسبتة وقتله الرجل الذي أغاثهم بالميرة فخلعوه، وقدموا أنفسهم أميرهم بلج بن بشر وتبعه جند ابن قطن، وأغروه بقتله فأبى، فثارت اليمانية، وقالوا قد حميت لمضرك! والله لا نطيعك، فلما خاف تفرق الكلمة أمر بابن قطن فاخرج إليهم، وهو شيخ كبير كفرح نعامة، قد شهد الحرة بالمدينة «وكانت زمن يزيد بن معاوية سنة ثلاث وستين» فجعلوا يسبونه، ويقولون له افلت من سيوفنا يوم الحرة، ثم طالبتنا بتلك الثرة، فعرضتنا لأكل الكلاب والجلود، وحبستنا «بسبتة» محبس الضنك، حتى امتنا جوعا؟! فقتلوه وصلبوه في ذي القعدة سنة ثلاث وعشرين ومائة، وصلبوا عن يمينه خنزيرا! وعن يساره كلبا! واستولى بلج على الأندلس»[1] ملك سنة ثم ثار عليه أمية وقطن ابنا عبد الملك بن قطن ووقعت بينهم حروب مهولة أسفرت عن احد عشر ألف قتيل، وقد انتصر فيها بلج فقتل أمية وقطنا وهزم جيشهما، ولكن بلجا خرج من المعركة مثخنا بالجراح فمات في سنة أربع وعشرين ومائة.

1 - الاستقصاء للسلاوي ج 1 ص 10 ط المغرب.

ولاية ثعلبة ابن سلامة على الأندلس

فولى أهل الشام عليهم ثعلبة بن سلامة ألعاملي في الأندلس. وذلك أن هشام بن عبد الملك كان قد عهد أن يتولى أمر الجيش إذ جهزه من الشام كلثوم، فان أصيب فابن أخيه بلج، فان أصيب فثعلبة فاقعد أصحابه ثعلبة بما عهد به هشام إليه. وكان ثعلبة طاغية مستبدا لا يتقيد بالدين. روى ابن عذارى: «انه كان يبيع ذراري البلد «المسلمين الثائرين عليه، وهو ما يحرمه الإسلام» ويرهقهم من أمرهم عسرا».[1]

وروى ابن عذارى أيضا فظائع ثعلبة في البربر والعرب معا تدلك على جبروت الأمويين وظلمهم واحتقارهم للبربر، كما تدل فيهم على ضعف الدين، وانحلال الأخلاق قال ابن عذارى: «لما هزم ثعلبة البربر «في الأندلس» سبي ذراريهم، ولم يكن قبل بلج ولا غيره يتعرض للذرية بسباء. فاقبل إلى قرطبة بعدد من السبي كثير « وكانوا مقيدين قد اشتبك في الحبائل الولد بالولد»[2] فنزل طرف «المصارة» من قرطبة، ومعه الأسرى والسبي من عرب البلد والبربر، وهو يبيع السبي في النداء، ويبعث ويبطر، فكان يبيع الشيوخ والأشراف ممن ينقص لا ممن يزيد! وكان فيهم علي ابن الحصين «وهو سيد في قومه» والحارث بن أسد من أهل المدينة «وهو من سراة عشيرته» فابتدأ المنادي عليهما بعشرة دنانير! فلم يزل ينادي من ينقص؟ حتى باع احدهما بعود والآخر بكلب!».[3]

وكان ثعلبة يفعل هذا بالأسرى وفيهم سادة البربر، وسراة العرب، عبثا بهم، وإهانة لهم، ثم يقتلهم بعد ذلك، لا يقصد أن يبيعهم ويجعلهم عبيدا. ثم قال ابن عذارى «فبينا هو على هذه الحال من العبث والبغي، وقد أوقف رجالهم وأبرزهم للقتل، وذلك يوم جمعة، إذ قدم أبو الخطار، فالفاهم بهذه الحال فأمر بإطلاقهم.

ولاية أبي الخطار على الأندلس

ثم تولى على الأندلس أبو الخطار بن ضرار الكلبي ولاه أمير القيروان حنظلة ابن صفوان فسكنت كثيرا من السكون في عهده. وكان للأندلس أحسن من ثعلبة وكانت العصبية القبائلية هي التي تصرف نفوس الأمويين في الأندلس، فانقسموا إلى يمانية قحطانية والى مضرية . فمال أبو الخطار إلى اليمانية وتعصب لها، فثار عليه الصميل بن حاتم وثوابه بن سلامة الجذامي مع مضر فهزموه وسجنوه، فاستولى ثوابة على الأندلس ثم افلت أبو الخطار من سجنه فتجددت الحرب بينهما، ووقعت حروب بين

1 - البيان المغرب ج 2 ص 47 ط بيروت.

2 - البيان المغرب ج 2 ص 48.

3 - البيان المغرب ج 2 ص 49 ط بيروت.

اليمانية والمضرية، ثم ولى أهل الأندلس عليهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري وكان أحسن ممن مضى ولكن الأيام لم تسكن له كل السكون، فقد ثار عليه عبد الرحمن ابن علقمة للخمى، وتميم بن معبد، ودامت الأندلس تمور بالفتن، وتعصف بها العصبية، وترزح تحت وطأة الوباء والقحط والفتنة التي عاقبهم الله بها، وتتجرع كئوس المرارة والشقاء، ولا تعرف الاستقرار والهناء، فالبربر يثورون على الأمويين والأمويون ينتقمون منهم، وينكل بعضهم ببعض مما يدلك على انحلال الأمويين ومرض هذه الدولة، وضعف الدين في النفوس، وهو ما أرغم البربر في المغرب على الثورة عليهم ليؤسسوا دولهم التي تلبس المغرب هناءه وسعادته، وشبابه وقوته، ودامت الأندلس على ذلك الاضطراب إلى أن دخل الأندلس صقر قريش عبد الرحمن الداخل، وكان شابا لم يتجاوز عمره خمسا وعشرين سنة، وكان مزيجا من الدماء البربرية والعربية فان أمه «راحا» النفزاوية البربرية، وأبوه معاوية بن هشام بن عبد الملك، فأورثته دماء الجديدة عبقرية وبطولة؛ فكان للبربر أخواله، كما كان العرب أعمامه، وألف بين قلوبهم، ومزجهم فصاروا امة واحدة كما يأمر الدين فبايعوه وانضووا تحت لوائه، وتكونت دولة عبد الرحمن الداخل في سنة ثمان وثلاثين ومائة فاستقلت الأندلس عن المغرب فلم تعد ولاية تابعة له، وجزءا يسيطر عليه أمير القيروان.

وكان عبد الرحمن الداخل قد اتعظ بما وقع للأمويين في المشرق، ورأى مصرع آله وتجرع هو كئوس الحنظل في الأيام العصيبة لما كان يطارده العباسيون، فأورثه كل ذلك، والدماء الجديدة فيه، والوراثة القوية من أمه، متانة أخلاقه، وحصافة عقله فكان سباب الأندلس وربيعها، فمزج بين العرب والبربر فيها فتكونت منهم الأجيال القوية العبقرية التي بنت الحضارة الإسلامية العظمى في الأندلس، فجددت للدين شبابه، وللغة العربية قوتها وازدهارها، وكانوا سادة أوروبا ومخرجيها من الجهالة والهمجية إلى نور العلم والمدينة !

وبعد انهزام جيوش كلثوم على يد خالد بن حبيب ألزناتي أيس هشام من المغرب الأقصى والمغرب الأوسط الذي كان يتمخض عن إمامته ودولته الكبرى، وعلم انه لا يستطيع السيطرة عليهما، فجعل همه المحافظة على افريقية التي يستوطنها جمهور غفير من الأمويين، فهم معرضون للخطر من الثورات التي نشبت على الأمويين في جنوب افريقية أيضا من البربر الساخطين عليهم لظلمهم وسوء معاملتهم؛ فانتخب هشام اكبر قواده، وأعقل رجاله، حنظلة بن صفوان الكلبي والى مصر، فولاه على افريقية ليحفظها من الانفصال، وينقذ الأمويين من ثورات البربر العارمة التي تنفجر عليهم في كل أنحاء المغرب، فماذا سيكون اثر حنظلة بن صفوان في افريقية؟

ثورة افريقية على الأمويين 123

وكانت افريقية وطرابلس والمغرب الأدنى كله يغلي حنقا على الأمويين لظلمهم واستبدادهم، وانحرافهم عمالهم عن الدين. وكانت افريقية لمجاورتها للقيروان، ولكثرة سواد الأمويين فيها قد نزل عليها من الظلم أكثر، ورأت من الإهانة وعدم مبالاة الأمويين بالبربر ما ملأ قلوب الأمازيغ بها غيظا وحنقا، فصارت مستعدة للانفجار.

وكان المذهب الصفري قد انتشر في شمالها وجنوبها وتفتحت له قلوب البربر بها فصارت عقيدة وجوب الثورة على الملوك الظلمة، مع حنقهم على الأمويين لظلمهم وتحيزهم هي التي تصرف البربر، فجعلتهم مستعدين للانفجار؛ ولكن الأمويين أقوياء في القيروان، فلديهم الجيوش الجرارة، والجحافل الكبرى قد أعدها ابن الحبحاب لإخماد ثوراتهم. والأمويين في افريقية كثرة قد انتشروا في كل أنحائها، وعمروا مدنها وانبثت عيونهم وأنصارهم في جبالها، فصارت افريقية، مقر إمارة الأمويين في المغرب تحت مراقبة ابن الحبحاب الشديدة وفي قبضته القوية، فسكن البربر بها، ولكن على استعداد للانفجار، وعلى ترقب الفرصة ليثوروا.

عكرمة مولى ابن عباس وأثره في المغرب

وكان أول من دعا إلى المذهب الصفري في المغرب هو عكرمة مولى ابن عباس وكان عكرمة بربريا. وكان من كبار تلاميذ عبد الله بن عباس، ومن جبال العلم في عصره، ومن الفقهاء الكبار في الدين، ومن الشخصيات العلمية الناضجة التي يشار إليها بالبنان بين التابعين. وكان ثائرا على الظلم والظالمين، شديد الحنق على تعصب الأمويين لأنفسهم، وتحيزهم للعرق، وتفرقهم بين المسلمين. وكان عكرمة صفريا يعتقد بطلان خرافة الأمويين: «أن الإمامة لا تكون إلا في قريش»[1] فسار عكرمة من المدينة في أوائل القرن الثاني الهجري فحل في افريقية فدعا البربر إلى المذهب الصفري الذي يدعو إلى المساواة والديمقراطية، ووجوب إسناد إمامة الدولة إلى ذي الكفاءة بدون تقيد بالقرشية، فانتشر مذهبه في افريقية، وفي شمال المغرب الأوسط، وفي المغرب الأقصى، فاعتنقه

1 - قال ابن خلكان «في وفيات الأعيان» في ترجمة عكرمة : هو عكرمة بن عبد الله روى عن ابن عباس رضي الله عنه فقال له ابن عباس: لنطلق فأفت الناس. وقيل لسعيد بن جبير: هل تعلم أحدا اعلم منك؟ قال: عكرمة ! وروى عنه الزهري، وعمرو بن دينار، والشعبي، وأبو إسحاق» وكلهم من كبار العلماء في عصرهم. وقال الزركلي «في الإعلام» عكرمة بن عبد الله البربري المدني أبو عبد الله، مولى عبد الله بن عباس تابعي. كان من اعلم الناس بالتفسير.والمغازي. طاف البلدان وروى عنه زهاء ثلاثمائة رجل منهم أكثر من سبعين تابعيا، وخرج إلى بلاد المغرب فاخذ عنه أهلها رأي الصفرية، وعاد إلى المدينة فطلبه أميرها فتغيب عنه حتى مات. وكانت وفاته بالمدينة وهو كثير عزة في يوم واحد، فقيل مات اعلم الناس! وأشعر الناس» وكانت وفاته في سنة 115 وعمره ثمانون سنة.

البربر المتعطشون إلى العدل، والمتلهفون إلى المساواة الإسلامية التي حرمهم منها الأمويون. واستطاع المغرب الأقصى أن يثور ويهيئ لثورته لان الأمويين به أقلية، وقواتهم العسكرية فيه اقل من قواتهم في القيروان. وبقيت افريقية تنتظر فرصتها، حتى انهزم كلثوم بن عياض وحبيب بن أبي عبيدة، وقضى خالد بن حميد ألزناتي عليهما، ومزق جيوشهما، وكسر قوة الأمويين في المغرب فوجدت افريقية فرصتها للثورة فثارت ثورتها العارمة على الأمويين.

وكان ذلك في سنة ثلاث وعشرين ومائة كما أرى فثار محصن بن عكاشة الفزاري في ناحية «قابس».

وكان عكاشة بن محصن من جند الشام وهو أموي قدم مع عبيد الله بن الحبحاب لما ولي على المغرب في سنة أربع عشرة ومائة. وكان من ضباطه، وقد جعله مقدمة جنده الذي سار به إلى المغرب. فاعتنق عكاشة المذهب الصفري في افريقية فانظم إلى البربر الساخطين على الأمويين في جنوبها. فقدموه قائدا عليهم، فرأسهم في ثورتهم.

وكان عكاشة طموحا إلى الرئاسة، محبا للتقدم. وكان ساخطا على الأمويين لظلمهم وتحيزهم، وعدم تمسكهم بالدين في سياستهم. فثار في ناحية «قابس» بجنوب افريقية. وأرسل أخاه إلى ناحية مدينة «صبرة» في غرب طرابلس فدعا زناتة ومن بها من البربر إلى الثورة، فانضمت جماهير غفيرة إليه، فتكون له جيش منهم فهجم على مدينة «صبرة» وكان بها حبيب بن ميمون عاملا لكلثوم فحاصر سوقها ودار الإمارة بها. وشدد الخناق على ميمون فبلغ الخبر صفوان بن ملك عامل كلثوم على طرابلس فخرج في جيشه فقاتل الفزاري أخا عكاشة، ووقعت حرب شديدة بينهما فانهزم اخو عكاشة ورجع إلى أخيه في ناحية قابس.

وكان عكاشة قد تقوى جمعه فاستعد للسير إلى القيروان واحتلال العاصمة.

وكان كلثوم بن عياض ينتظر هذه الثورة، ويعتقد أن الانفجار لا بد أن يقع أيضا في افريقية. وقيل أن يسير إلى المغرب الأقصى لمقاتلة خالد بن حميد ألزناتي ولي على القيروان عبد الرحمن عقبة الغفاري، وعلى الحرب مسلمة بن سوادة القرشي «فخرج مسلمة في أهل القيروان إلى عكاشة بن أيوب بقابس، فقاتلهم فانهزم مسلمة وقتل عامة من خرج معه، فلحق بالقيروان فتحصن بها فعزله عبد الرحمن بن عقبة وجعل على جيشه سعيد بن بجرة الغساني»[1] وبات أهل القيروان في خوف كبير من عكاشة.

1 - فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ص 219 ط. ليدن.

وكان كلثوم لما رأى قوة خالد بن حميد ألزناتي وأحس بالهزيمة «قد كتب إلى عامله على طرابلس صفوان بن أبي مالك يستمد فخرج إليه «في جيش كبير من أهل طرابلس الأمويين» حتى وصل قابس فبلغته هزيمة كلثوم وما حل بجيوشه فرجع أدراجه إلى طرابلس.

وكان سعيد بن بجرة ومن تحصن معه من أهل القيروان قد تشجع بمسير صفوان ابن أبي مالك، فخرج في جيشه ليجتمعا على عكاشة في قابس، فعلم عكاشة انه لا طاقة بمقاتلة جيوش الأمويين بالمصادفة، فخرج إلى نهر على اثني عشر ميلا من قابس حيث الغابات والجبال ليشن على الأمويين حرب العصابات إذا ساروا إليه، فوصل سعيد بن بجرة قابس فوجد صفوان قد رجع إلى طرابلس فخاف هجوم عكاشة عليه، وفتكه به، فتحصن بمدينة قابس العالية الأسوار، فأمسى محصورا بها لا يستطيع الرجوع إلى القيروان خوفا من هجوم عكاشة عليه في الطريق. فرأى عبد الرحمن ابن عقبة الغفاري أمير القيروان ما وقع فيه قائد جيشه فجهز جيشا فسار به لإعانة سعيد بن بجرة على عكاشة فالتقوا بعكاشة بين قابس والقيروان، فوقعت حرب عنيفة بينه وبين جيوش الأمويين، فانتصر عبد الرحمن بن عقبة على عكاشة فولى الأدبار، فاعتصم بالجبال والغابات ليستعد لكرة أخرى، فلم يتبعه عبد الرحمن فرجع أدراجه إلى القيروان.

استعانة عكاشة بعبد الواحد الهواري

وجاء حنظلة بن صفوان واليا على افريقية، فاخرج عبد الرحمن بن عقبة الغفاري إلى عكاشة بن أيوب الفزاري، وقد جمع بعد انهزامه، واستعد لإعادة الكرة على الأمويين؛ فوقعت حرب عنيفة بين الطرفين،، فانتصر عبد الرحمن وانهزام عكاشة أيضا وعلم عكاشة انه لا يستطيع التغلب على عبد الرحمن والنجاة من قبضة إلا بإعانة قائد من قواد البربر، فاتصل بعبد الواحد بن يزيد الهواري، وكان في شرق طرابلس، فاستنجد به، ودعاه للانضمام إليه، فسار إليه عبد الواحد في جيش من الصفرية فأعانه ونازلا عبد الرحمن الغفاري فهزماه وقتلاه واستأصلا عامة جنده. فنجا عكاشة مما كاد يحل به من الاستئصال، وانتصر هو على عبد الرحمن.

استعانة عبد الواحد بصفرية المغرب

وكان عبد الواحد بن يزيد وعكاشة يعلمان قوة حنظلة بن صفوان، وإصراره على المحافظة على افريقية، والقضاء على ثوراتها، وكان يعلمان أن الأمويين قد ايسوا من المغربين الأوسط والأقصى فسوف لا يوجهون جيوشا إليهما فتتفرق قوتهم، وان حنظلة

سيصوب كل قواته إليهما، ورأياه بعد ما حل بجيشه وبقائده عبد الرحمن يستعد للانتقام وللسير إليهم بكل قواته، فعلما إنهما لا يستطيعان منازلة حنظلة إلا بجيوش كثيرة، فنظرا فوجدا أن شرق طرابلس وجبال نفوسة وكثيرا من جنوب افريقية هي إباضية، وان للإباضية فيها خطتهم وبرامجهم لينضموا إليهم ومذهبهم الصفري يرى معاملة العصاة المسلمين ومن يحاربه الصفرية معاملة الكفار، إن الأباضية حرب على هذه العقيدة، وإن قلوبهم مزورة عنهم لهذا، فسوف لا ينصرونهم إذا سار إليهم حنظلة، فسار إلى غرب المغرب الأوسط في ناحية تلمسان والى الأقصى فاستنجدا بالصفرية هناك، وكانوا أكثرية في تلك البقاع، وقد أرهفت قواهم لانتصارات على كلثوم فصاروا يتمنون السير إلى القيروان للقضاء على الأمويين في المغرب الأدنى أيضا فوجد عبد الواحد وعكاشة بغيتهما في المغربين فانضمت طوائف كبيرة من الصفرية إليهما وانضم إليهما الأمير البربري أبو قرة اليفرني رئيس الصفرية في نواحي تلمسان وأمدهما خالد بن حميد ألزناتي أيضا فغزر جمعهما، فسار إلى القيروان في جيشين كبيرين احدهما تحت قيادة عبد الواحد بن يزيد الهواري، الثاني بقيادة عكاشة. فرأى حنظلة ابن صفوان انه قد سار إليه مالا قبل له به، وأن هذه الجيوش ستقضي عليه إذا اعتمد في مكافحتها على الشجاعة وحدها ، وانه لا بد بالدهاء والجرأة والتصميم لينجو مما سيحل به. فماذا سيفعل حنظلة للتغلب على أعدائه. لقد ولاه هشام على افريقية بعد كلثوم فكيف ستكون في عهده؟

ولاية حنظلة بن صفوان على افريقية 124

شخصية حنظلة ودهاؤه

كان حنظلة هو اخو بشر بن صفوان والي المغرب في عهد يزيد بن عبد الملك. وكان حنظلة كأخيه من الصناديد الأكفاء، ومن الرجال العقلاء،ومن ذوي الحنكة والحصافة، والدهاء والرزانة، والذكاء وحسن التدبير. وكان واليا على مصر فاختاره هشام بن عبد الملك لافريقية التي ابتدأت ألغامها في الانفجار، وثورة البربر فيها في التأجج، عله يستطيع التغلب عليها فيبقى الأمويون في القيروان، ويحفظ افريقية فلا تنفصل عنه كالمغربين الأوسط والأقصى. فسار حنظلة إلى افريقية فوصل القيروان في شهر ربيع الآخر عام أربع وعشرين ومائة. فوجد جنوب افريقية مخضبة بالدماء، وأجزاء منها قد انفصلت عن القيروان، فرابط فيها عكاشة بن أيوب الفزاري، وهو يطمح برأسه إلى القيروان، ويرمي بالنظر الشزر حنظلة وذويه، ويستعد للاصطدام به، فأرسل إليه حنظلة قائد جيشه عبد الرحمان بن عقبة الغفاري فهزم عكاشة، ثم كر عليه عكاشة وعبد الواحد بن يزيد الهواري فهزماه فقتل عبد الرحمان الغفاري واغلب جيشه، ثم سافر عكاشة وعبد الواحد إلى المغربين ليستنجد بإخوانهم الصفرية هناك كما فصلنا القول في هذا في الفصل الماضي: ثورة افريقية على الأمويين.

زحف عبد الواحد الهواري وعكاشة إلى حنظلة

وكان عبد الواحد بن يزيد الهواري في جيش كبير، وكان عكاشة كذلك فسار من المغرب الأوسط لينازلا حنظلة في القيروان. فلما وصلا الزاب سار عكاشة على السهول بشمال أوراس وتبسة ليهاجم القيروان من جهة الجنوب ويحتل جنوب افريقية التي فيها أنصاره ومؤيدوه. أما عبد الواحد الهواري فقد كان في مقدمة جيشه أبو قرة اليفرني أمير الصفرية في تلمسان ومعه جيش كبير من قومه. وكان طريقه على الجبال في ناحية «قسنطنية» فسار عبد الواحد بن يزيد ليحتل شمال افريقية ومدينة «تونس» فيزحف هو عكاشة من الجنوب على القيروان فيجتمعان على حنظلة فيتغلبان عليه. تلك هي الخطة التي وضعها عبد الواحد، وهي خطة بارعة تدل على الدهاء والنظر البعيد. ولكن عكاشة ساءه ما يلاقى عبد الواحد بن يزيد الهواري في طريقه من إقبال البربر عليه، وإجلالهم له، واعتدادهم بكفاءته وشخصيته، وسطوع نجمه في افريقية فصغار هو متجه الأنظار. فعلم أن عبد الواحد إذا احتل معه القيروان فسينسب الفضل إلى عبد الواحد فيبايعه البربر بالإمامة دونه، وان عبد الواحد أكثر كفاءة منه في الحرب.

وأكثر أنصارا، وأعزر جيوشا، وأقوى شخصية، وانه هو الذي أنقذه من الهزائم المتلاحقة عليه في حروبه الأولى، فلولاه ما انتصر على عبد الرحمان النفاري؛ فسولت له نفسه أن ينازل القيروان وحده، ليسبق عبد الواحد إليها، فيبايعه أهلها، فلا يكون اعبد الواحد إلا الرضوخ للأمر الواقع، والرضا بما فعلت العاصمة، ويحوز شرف القضاء على الأمويين في افريقية وحده، فيكون نجمه هو الساطع، وشخصيته هي البارزة، فيغطي على عبد الواحد ويجعله، وينال ما تمناه، وقصد إليه من سلطان ورئاسة بثورته. هذا ما سولت لعكاشة أطماعه ومنافسته لعبد الواحد، واراه غروره انه يستطيع وحده أن ينازل كل جيوش الأمويين في القيروان، وقد عجزوا قبل أن ينتصر وحده على جزء منها في نواحي قابس. فتقدم حتى نزل «بالقرن» قريبا من القيروان، ولم يبتعد بجيوشه إلى الجبال والغابات في نواحي قابس، ويحتل جنوب افريقية، ويكون بعيدا عن حنظلة فلا يهاجمه قبل وصول عبد الواحد إليه. فاعتصم حنظلة بن صفوان هذه الغلطة الحربية التي ارتكبها عكاشة، وعلم أن عكاشة اضعف من عبد الواحد، وانه إذا هزمه فستتقوى معنويات جيشه الذي أصبح يرتعد وجلا من الصفرية، ومن مقاتلة البربر بعد الهزائم التي حلت بالأمويين في المغرب الأقصى، وان سيجرئ جيشه على منازلة عبد الواحد إذا وصل إليه؛ فعزم على كعاجلة عكاشة ما دام وحده في الميدان، فشمر عن ساعده، واعد كل ما استطاع من جند وسلاح، وانتخب من رجاله ذوي الشجاعة والثبات، وفتح خزائن المال فأجزل العطاء لكل شاب قوي يتطوع في جيشه، وكل فارس شجاع ينضم إلى جنده، فاحتفل في تعبئة جيشه كل الاحتفال، واستخراج في ذلك كل طاقته، كما احتفل جنده وحسبوا للبربر ألف حساب، وعزموا على الموت المعركة، وعلى القضاء على عكاشة قبل أن يصل عبد الواحد الهواري، فتكون هزيمتهم المحققة، وما يخشونه من انقراض دولتهم في افريقية، فيحل بهم على يد عكاشة مالا يرضونه.

وقعة القرن

وكان حنظلة بن صفوان حازما شجاعا، جريئا، فألهب حماس جيشه، وأحيا ما مات من ثقتهم بالنفس، فسار إلى عكاشة «بالقرن» قريبا من القيروان فنازله، وحمي الوطيس بين الطرفين، واشتد الوغى، ووقعت معركة مهولة بين حنظلة وعكاشة سقط فيها مئات القتلى من الطرفين، وسال المكان بدماء المتقاتلين، وتجلل بالقتلى من الجيشين. وكان حنظلة هو الذي يقود جيشه، فهزم عكاشة وقتل كثيرا من جنده، ففر عكاشة منهزما إلى بعض الجبال ليختبئ فيها، فأرسل حنظلة وراءه من أتى به فقتله، فسر حنظلة بهذا الظفر، وتنفس الصعداء، وراجعت جيشه ثقتهم بأنفسهم، فاغتبط بما

انتعش من معنوياتهم، فجهز جيشا كبيرا بلغ عدده أربعين ألفا، فأرسله تحت رجل لخمي من اكبر قواده لينازل عبد الواحد في «باجة» في غرب تونس قبل أن يغزر جمعه، ويحتل شمال افريقية كلها، ينضم إليه كل من بها من الصفرية.

أما عبد الواحد بن يزيد الهواري فكان طريقه على الأطلس ألتلي بشمال الزاب فمر على قسنطينة «وقالمة» اليوم ثم سار حتى وصل مدينة «باجة» في غرب مدينة تونس وكان وهو في طريقه يتكاثر جمعه، ويتكاثف جنده، بمن ينضم إليه من ولاية قسنطينة وشمال تونس الثائرة على الأمويين لظلمهم، وسوء سيرتهم، وانحرافهم عن الدين في سياسة المسلمين. ولما وصل عبد الواحد «باجة» وافته بها جيوش حنظلة التي أرسلها إليه لتحول بينه وبين احتلال مدينة «تونس» قاعدة شمال افريقية وتصده عن السير إلى القيروان. فاستعد لها عبد الواحد فوقعت معارك عنيفة بين الطرفين دامت شهرا فكر عبد الواحد على جيوش حنظلة فمزقها، وهزمها وقتل منها عشرين ألفا، ورجع الباقون إلى حنظلة، وكان اللخمي قائد جيوش حنظلة قد خندق على نفسه وهو يقاتل عبد الواحد خوفا من فتكاته، والهجوم المفاجئ عليه. فارتاع حنظلة وأهل القيروان من الأمويين بانهزام جيوشهم، وما حل بجندهم، فعملوا أن عبد الواحد سيسير إليهم بجيوشه، وقد أرهفه النصر، وضاعف قواه الظفر، فيحتل القيروان، ويقضي على الدولة الأموية في المغرب، ويثار منهم لما سلف من ظلمهم لقومه وما ينكر من سياستهم للمغرب. فبات حنظلة في هموم تؤرق جفونه، وفي حزن يملأ دنياه بالسواد، وأمسى الأمويون في رعب وارتياع، ولكن حنظلة كان بطلا صنديدا، وكان من الرجال الأقوياء الذين يفتحون روحهم في الجماعات فيقوونها، ويؤججون حماسها، ويجبرون ثقتها بنفسها، فتصير قلوبهم التي يذيبها الروع، ويسيلها الخوف والتشاؤم قطعا من الحديد الذي ينقب الجبال، ويفتت الصخور. وكان حنظلة إلى بطولته يعلم انه إذا لم يهزم عبد الواحد فسيقضي عليه وعلى دولته، فثارت فيه غريزة المحافظة على البقاء، وإنقاذ الحياة التي تضاعفت قوى الإنسان فيستطيع بها ما لا يقدر عليه في أوقات الدعة والسكون، فضاعفت حنظلة والأمويين في القيروان، ورأوا أن تشجيعهم، وبذلهم الجهد في حرب عكاشة قد أورثهم النصر المبين، ولو جبنوا لكانوا طعمته، ولصاروا حطاما تحت سنابكه، ومزقا في مخالبه؛ فشمر حنظلة فنادى للدفاع، وجمع جيوشه فأعدها، وأجج حماسها، وسلحها، واستخرج كل طاقته، وبذل كل جهده في التهيئ والاستعداد، وكان من عبد الواحد على حذر عظيم فغلقت القيروان أبوابها، وشددت الحراسة على نفسها لما سار إليها عبد الواحد وصار قريبا منها.

مبايعة عبد الواحد ابن يزيد الهواري بالإمامة

أما عبد الواحد فبعد أن هزم جيوش حنظلة في «باجة» سار إلى مدينة تونس فاحتلها، وانثالت عليه جموع البربر من كل نواحيها، فبايعوه بالإمامة، وقدموه على أنفسهم رئيسا يقودهم في ثورتهم على الأمويين، ويسوسهم سياسة عادلة تضمن لهم حياة العزة والكرامة. فسار عبد الواحد من تونس يقصد القيروان، وقد صمم على احتلالها وإزالة الدولة الأموية من المغرب، فنزل «بالأصنام» على بعد ثلاثة أميال من القيروان.

قال ابن عبد الحكم: «فكتب عبد الواحد بن يزيد إلى حنظلة أن يخلى له القيروان ومن فيه، فاسقط في أيديهم، وظنوا أنهم سيسبون. حتى إن كان حنظلة ليبعث الرسول منهم ليأتيه «بخبر عبد الواحد» فما يخرج إلى مسيرة ثلاثة أميال إلا بخمسين دينارا»[1] فاستعد الفريقان للمعركة الفاصلة، وكان احتفال حنظلة واستعداده، واستخراج كل طاقته، وبذل كل جهده، وجده واجتهاده أكثر.

موقعة الأصنام المهولة

قال النويري: «فاجرح حنظلة جميع ما في الخزائن من السلاح، ونادى في الناس، فكان يعطى لكل منهم درعا وخمسين دينارا. فلم يزل يفعل ذلك حتى كثير عليه الناس، فرد العطاء إلى أربعين ثم إلى ثلاثين، ولم يقدم إلا شابا قويا، فعبأ الناس طول ليلته، والشمع حوله، وبين يديه، فعبي في تلك الليلة خمسة آلاف دارع وخمسة آلاف نابل، وأصبح فتقدم للقتال» وقد تجمعت له جيوش غفيرة لم يذكر المؤرخون عددها، ولكنها كانت كثيرة تناهز السبعين ألفا كما أرى. وإذا استطاع حنظلة أن يوجه مع اللخمي إلى باجة لصد عبد الواحد أربعين ألفا من الجند، فان ما يكون له إذا جمع كل قواته، وحشر كل جنده من أنحاء افريقية وشرق المغرب الأدنى، يصل سبعين ألفا أو يزيد. فكانت المعركة المهولة بين حنظلة وعبد الواحد في الأصنام، فصبر فيها الفريقان، فسال المكان انهارا من الدماء، وتكدس القتلى من الطرفين في ساحة المعركة، فقتل عبد الواحد من جند حنظلة آلافا عديدة، وقتل حنظلة من جيش عبد الواحد مثلها. وكان البربر يؤرثهم في المعركة حنقهم على الأمويين لظلمهم، وحبهم للاستقلال والعزة. وكان الأمويون يؤرثهم وتذكيهم غريزة المحافظة على البقاء لأنفسهم ودولتهم، ويخافون البربر خوفا جعلهم يقدرون عدوهم فيستخرجون كل طاقتهم للتغلب عليه. أما البربر فجعلهم

---

1 - فنوح المغرب ص 222 ط ليدن.

الاعتداد بأنفسهم، وشموخهم بما نالوه من نصر على جيوش الأمويين في المغرب الأقصى وفي «باجة» ينظرون إلى الأمويين على أنهم شيخ ينازله شاب قوي. وإذا استهان الشاب بالشيخ فنازله ببعض قواه، وتأرث الشيخ وتضرم فاستخرج كل طاقته، فان الشيخ في المعركة هو الشباب. ثم لا تكون الدائرة إلا على المغتر بنفسه، المزهو بما مضى له، المعتد بوفرة قوته ثم لا يستعملها كلها في المعركة، ولا يستخرجها جميعها في مصارعة العدو.

قال النويري: «وكسر جنود حنظلة أجفان سيوفهم، والتقوا واقتتلوا، ولزم الرجال الأرض، وجثوا على الركب، فانكسرت ميسرة حنظلة وميسرة عبد الواحد، ثم كرت ميسرة حنظلة على ميمنة عبد الواحد» واشتد القتال، وصمم جنود حنظلة على النصر فكان لهم فانهزم جيش عبد الواحد. أما هو فقاتل حتى قتل في المعركة، وقد أبت عليه بط

ولته أن يفر كما فر عكاشة. ففرح حنظلة بالظفر فرحا لا نظير له، وتنفس الصعداء، وانقشعت أثقال الحيرة والهم التي كانت تجثم على قلبه، ونجا هو وقومه من الاستئصال الذي كان يهددهم، وكتب للدولة الأموية أن تزيد بضع سنين في افريقية. وقد بلغ من فرح حنظلة بالنصر أن خر لله ساجدا لما أوتي برأس عبد الواحد فوضع أمامه، فطير الخبر إلى هشام، وأرسل البشائر إلى الشام، وسطع نجم حنظلة في الدولة الأموية، فرجحت كفته في ميزان البطولة، وأصبح هو الشخصية المرموقة في أنحاء الدولة.

وكانت معركة «القرن» مع عكاشة، ومعركة «الأصنام» مع عبد الواحد من اكبر ما خاض الأمويون من المعارك في المغرب، وكانت محنتهم بزحف هذه الجيوش إليهم أقسى من كل ما أصيبوا به من محن بثورات البربر عليهم، لأنها جيوش تقرع الرأس لتفلقه، وتقصد الحشاشة لتقضي عليها، وتنازل القيروان وهو آخر معقل للأمويين لتحتلها، وليس بعدها إلا زوال دولتهم من المغرب، وانقراض مادتهم في هذه الديار، وفناؤهم وزوالهم؛ لذلك كانت المحنة بزحف عبد الواحد إليهم اشد، وانتصارهم عليه ونجاتهم من الحق ألذ. وأما ما نزل بهم في أنحاء المغرب الأخرى سيما المغرب الأقصى فانه لا يهدد وجودهم في المغرب، أنهم يعدون تلك النواحي أطراف دولتهم، إذا خرجوا منها بقي لهم وسط الدولة وهو افريقية التي يستوطنونها، ويرونها دارهم وجزءا من المشرق يحفظ وجودهم في هذه البقاع، ويفيئون إليه إذا اشتدت المحنة، ويعتصمون به فينجيهم من الهلاك إذا أزبدت الأيام.

فرجع حنظلة إلى القيروان وهو قرير العين بعد انسلاخ افريقية عنهم. أما المغرب الأوسط والأقصى فقد استقلا وانفصلا، وأيس حنظلة وأيس هشام من استرجاعهما وكذلك بقية المغرب الأدنى سيما طرابلس ونواحيها من شرق «قابس» إلى سرت فان نفوذهم فيها ضعيف. لقد اهتزت هي أيضا للاستقلال، وانكمشت عنهم انكماش من هو مستعد للثورة عليك إذا جاذبته. ولم يبق لحنظلة ساكنا وادعا يسيطر عليه كل السيطرة إلا وسط افريقية، حيث يكثر سواد الأمويين، وتترابط جيوشه الوفيرة أما جنوبها وشمالها فسكونها سكون الخوف لا سكون الرضى. إن البربر فيهما مستعدون للثورة، فلو خاشنهم حنظلة لأعادوها عليه جذعه، ولكن حنظلة كان واقعيا وحكيما فلم يخاشنهم، واكتفى منهم بالسكون له، وعدم الثورة عليه.

ولاية أبي الخطار على الأندلس

وكانت هذه الحروب التي خاضها في أول سنة خمس وعشرين ومائة. وكانت الأندلس عاصفة، إن حب الرئاسة صار طبعا في الأمويين بها، فتناطحوا عليها فكثرت الحروب بينهم، وأمست الأندلس على صخب وتنازع يمزق وحدتها، ويقتل هناءها. وكانت العصبية بين اليمانية والمضرية تؤرث هذه النار، وتزيد الشمل تشتتا، والأمور فسادا. وكان حنظلة قد ولى عليها في سنة خمس وعشرين ومائة أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي. وكان حازما فسكنت له حينا ثم عليه الصميل بن أبي حاتم الكلبي فعزله ثم قتله بعد حروب كبيرة وقعت بينهما. وقد ابتلى الله الأندلس في هذه السنين بالوباء والموت فحصد كثيرا منها، وصارت الأندلس بهذا في ليلها لا في نهارها، وجللها سواد البؤس والكدر، وأمست وهي غريقة في دماء الفتنة ودموع الأحزان.

وكانت الدولة الأموية في هذه السنين قد ازدادت استغراقا في الهرم. وكانت شمسها قد افلت فدخلت في ليلها البهيم فكثر تعثرها، وتناطح أبناؤها فتمايلت للسقوط وقد توفي هشام بن عبد الملك في ربيع الثاني من سنة خمس وعشرين ومائة. وكان يحفظ حشاشتها بعض الحفظ بحزمه، وهيبة النواحي له. فجاء بعده الوليد بن يزيد، فاستغرق في شهواته، وانصرف عن عجلة القيادة، فاتجهت الدولة إلى الهاوية، وطمع الأمراء وذوو الطموح في الدولة.

ثورة ابن حبيب على حنظلة

وكان من الطامحين إلى الإمارة عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري. وكان قد حضر حرب حبيب أبيه مع خالد بن حميد ألزناتي، ولما حلت الهزيمة

بالأمويين فر إلى الأندلس فصار يترقب الفرصة للإمارة بها. ولما ولي أبو الخطار على الأندلس أيس من أن يكون له مع أبي الخطار حظ، أو تسنح له فرصة، فخرج في جمادى الأولى من سنة ست وعشرين ومائة إلى مدينة تونس، فاستمال الأمويين بها فمالوا إليه، فثار على حنظلة فاستولى على تونس في هذه السنة فتهيأ للسير إلى القيروان.

اعتزال حنظلة للإمارة

وكان حنظلة حكيما، يسيطر عليه عقله لا غرائزه،فعلم محاربته لعبد الرحمن أضعاف للأمويين في المغرب، وتمكين للبربر من الفرصة فيهم فيقضون عليهم جميعا إن البربر الحنقين على الأمويين لتغلي قلوبهم في افريقية بكل عوامل الثورة، وأنهم في المغرب الأوسط والأقصى موتورون فبودهم أن يقضوا عليهم في المغرب، وكأنه بالمغرب من أدناه إلى أقصاه يطبق على الأمويين إذا لم يتحدوا ويتماسكوا. ونظر حنظلة فوجد عبد الرحمن بن حبيب كفؤا للإمارة، وعلم أن الأمويين سيتقوون به، وانه سيحسن الاضطلاع بأعباء الإمارة، فتخلى له عن إمارة افريقية التي كانت ثقلا يبهضه، ووجد فرصته للاستراحة من هذا الحمل الثقيل فارتحل إلى المشرق في سنة سبع وعشرين ومائة فاحتل عبد الرحمن بن حبيب القيروان. فاستقلت افريقية داخليا فلم يعد للأمويين فيها إلا مظاهر الملك، أما السيطرة والنفوذ فقد كانت لعبد الرحمن ابن حبيب.

وكانت ولاية حنظلة على افريقية في سنة أربع وعشرين ومائة وارتحاله منها في سنة سبع وعشرين ومدته في الإمارة نحو من ثلاث سنوات. وكان حنظلة حازما ذا كفاءة في السياسة، ولكنه وجد الدولة الأموية في هرمها، ووجد القيروان سفينة في بحر مزبد، لذلك لم يتجه إلى الفتوح في صقلية، ولم يذكر له المؤرخون عملا في ميدان الإنشاء والتعمير كما ذكروا لغيره. وعلى كل فان المغرب وإن هرم فيه الأمويون فانفكوا عن البناء، واشتغلوا بحفظ نفوسهم، فان البربر ومن معهم من المشارق الذين امتزجوا بهم آخذون في شبابهم يتدرجون فيه، واستمرت أعمال البناء ونشر الثقافة كما كانت، فلم تشغلهم الحروب عن التقدم إلى الإمام، ولم يعق المغرب عن التطور والنمو ما كتان يهزه من ثورات، لان العاصفة وإن ناوشت الشجرة وشعثت منها فإنها لا تمنعها من النماء. وسنذكر في الفصول التالية من سطع نجمه بالمغرب في هذه العهود من العلماء، لتعلم معي أن المغرب القوي العبقري سماء رفيعة يجللها الظلام، ولكنها مع ذلك تلد أقمارها ونجومها الساطعة، وتملأ الجو بالنور.

الدول الإباضية في المغرب / وأكاذيب الملكيين القدماء على الإباضية

هذا هو حال افريقية في عهد حنظلة بن صفوان، فكيف حال المغربين الأوسط والأقصى، وبقية المغرب الأدنى؟ أما المغرب الأقصى فقد نشأت فيه الإمامة البربرية التي رأيناـ فقرت عينه، وسكن سكون الرضا. أما المغرب الأوسط وشرق المغرب الأدنى، فانه يتمخض عن دوله الكبرى التي تلتزم في سياستها الدين، وتحيى سيرة الخلفاء الراشدين، وتنعش المغرب الأوسط والأدنى، وتنهض بهما النهضة الكبرى، وتخلق للمغرب صفحاته الغراء، وتكون له وجهه الجميل، وذكره العاطر،وتمهيد للدولة الإدريسية في المغرب الأقصى، وتهيئ المغرب وتعده لكل ما أنشأ من دول مستقلة راقية بعد ذلك. والإباضية في المغرب هم الذين سيقومون بهذا. فمن هم الإباضية؟ وما حقيقتهم؟ وكيف نشأ مذهبهم؟ وما الفرق بينه وبين المذهب الصفري؟ هذا ما سنأخذ فيه مضطرين، وهذا ما يبعثنا عليه الأمويون والعباسيون بدعاياتهم المغرضة ومينهم وأكاذيبهم على كل من ثار على ظلمهم، ودعا إلى الإمامة العادلة، والى ما فرضه الدين في الرئاسة، واخذ «بالجمهورية» التي تسعد المسلمين، وثار على الملكية[1] الغاشمة المستبدة التي ينابذها الدين.

إن الإباضية قد ثاروا على ظلم العباسيين والأمويين في المشرق والمغرب، وانفصلوا عنهم، وأنشأوا في كليهما دولهم الإسلامية العادلة التي تقوم على الإمامة العادلة، لا على الملكية[2] المستبدة، فبسط الأمويون والعباسيون فيهم السنة دعايتهم الكاذبة في المشرق والمغرب، فصورهم في كتب التاريخ، ولمن لا يعرفهم، على غير حقيقتهم، وأبرزهم في غير ثوبهم، ليبعدوا الناس عنهم فلا يقتدوا بهم في الثورة عليهم، وتأسيس الدول التي تقوم على الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية مثلهم. وقد ابرزوا المغرب والبربر في تلك الأزمنة الغراء من تاريخهم في هيئة زرية، وحال منفرة؛ والمغرب في تلك العهود الزاهرة هو وجه الإسلام الجميل، وحيا العربية الفتان، لتقيده بالدين في السياسة، وتمسك أئمته بالكتاب والسنة في كل الشئون، ولازدهاره في كل نواحيه. وقد جاء الاستعمار الفرنسي والايطالي فأيد مزاعم الأمويين والعباسيين، واستغل كل الاستغلال في التفرقة ترهات الأقدمين. وقد رأى المستعمرون الإباضية في المغرب هم من ارسخ الجذور للعربية والدين في ربوعه، لتمسكهم بالدين والعربية، وغيرتهم

1 - الملكية نسبة إلى الملوك وكذلك الملكيون وقد ورد في الفصل الماضي «الملوكية» و«الملوكية» وهو لا يصح في النحو وإن شاع وذاع في الصحافة وفي الألسنة.

2 - الإمامة يقابلها الملك. والملكية وصف للدولة والمراد بهذا اللفظ نظامها في رئاسة الدولة. والعلاقة بين النظام والدولة المحلية فهو مجاز هنا لا حقيقة.

عليهما، وتضحيتهم بكل شيء في سبيل نشرهما والذود عنهما، ولاعتدادهم كل الاعتداد بالشخصية الإسلامية والتمسك بها، والمحافظة عليها، ولنشاطهم، وجدهم، وطموحهم، ونفسيتهم العلمية التي تأبى عليهم الاستسلام والخمول؛ فرآهم الاستعمار الفرنسي والايطالي اكبر عقبة في سبيل ما يعمل له من تجريد المغرب من ثوب العربية والدين، فاستغل الأغلاط التاريخية في الكتب العربية، وأكاذيب الملوك وترهاتهم، فأطلق ألسنته المأجورة بها، فصوروا للمغرب الإباضية على غير حقيقتهم، ليبعدوا الأخ عن أخيه، ويمزقوا مغربنا العظيم الذي امتاز في الأقطار العربية كلها بعوامل الوحدة بالجنس الواحد، والدين الواحد، الذي جعله أسرة واحدة، ليس فيه المغاربة المسلمون، والمغاربة المسيحيون كما نجد في البلاد العربية الأخرى. لقد عمد الاستعمار الخبيث الماكر الذي استغل اختلاف الدين في تمزيق البلاد العربية الشرقية، عمد في المغرب إلى المذهبية الخبيثة فصار يذكيها بكل وسائله، ليعزل الإباضية الذين يراهم من ارسخ أوتاد العربية والدين في المغرب، ومن اشد حماتهما شكيمة، لكي لا يؤثروا في غيرهم، ولا ينتفع بكفاءتهم إخوانهم، ولا يجتمع المسلمون فيكونوا قوة كبرى، وجسما تتم أعضاؤه فتسرى روحه فيه، فينهض نهضته فينفض القمل عنه، ويبعد الذئاب عن ساحته ! حدثني الأستاذ الجليل الشيخ أبو اليقظان شيخ الصحافة العربية المناضلة في الجزائر أن احد أعوان الاستعمار ممن يطلعون على الخبايا ويعلمون الأسرار اخبره: أن «ميو» الفرنسي مدير الشئون الأهلية في الجزائر قال لرؤساء إدارته الذين يتولون شئون المسلمين في الجزائر: «أنفقوا صندوقنا الأسود[1] كله في التفريق بين الإباضية والمالكية في الجزائر، ولا تعدوا أنفسكم خاسرين. أما والله إن اتحدوا فان فرنسا لا تقوم لها قائمة في هذه الديار» وقد اتحدوا والحمد لله رغم مكائد الاستعمار، فوقعت ثورة الجزائر التي كنست الاستعمار والمستعمرين إلى اليم، فيجب علينا في عهد الاستقلال أن نصحح الأغلاط التي وقع القدماء، وقلدهم فيها المحدثون، وأصبحت تلك المصادر التي أملتها الملكية المغرضة القديمة خطرا على وحدة المغرب، فنذكر أسباب نشأة المذهب الأباضي، والفرق بينه وبين المذهب الصفري الذي جاوره في المغرب، فان هذا قد خبط فيه المؤرخون الذين يستقون من المصادر الأموية والعباسية خبط عشواء، فصوروا الإباضية والمغرب في عهود الدول الإباضية الزاهرة على غير حقيقته وأظهروه في غير زينته؛ وكان شامة بيضاء، وشمسا منيرة، فأبرزوه في لون القطران وسكبوا في أقداحه اللذيذة المنعشة من أكاذيب الأمويين والعباسيين فصارت مرة تنفر عنها النفوس، مرغوا وروده الأريجة الرائعة في الأوحال ليزروا بها عند الناس !

1 - الصندوق السوداء هي التي ينفق منها على الجواسيس ومكائد الاستعمار الأخرى ولا يحاسب رئيس الناحية أين أنفقها فهي سر من أسراره محجب في الظلام.

إننا فيما يستقبلنا من الفصول سنرى الإباضية هم الذين يرفعون علم الثورة على الأمويين والعباسيين، وينشئون في المغرب الدول الإسلامية المستقلة، فلا بد بمعرفة حقيقتهم، وسبب تسميتهم بهذا الاسم.

وجوب قتل المذهبية المخربة

إننا من الساعين لقتل المذهبية ومحوها بكل الوسائل، إنها هي البلاء الأكبر على المسلمين، وهي مطية الاستعمار وكل المصائب إلينا. ومذهبنا في الدين أن نعتني في كلياتنا وفي دراستنا بالكتاب والسنة فندرسهما كل الدراسة، ونتفقه فيهما كل التفقه فنعرف منهما أسرار الدين ومقاصده، ويتكون فينا العقل المنطقي، والفكر الفاحص، ومحبة الحقيقة، فندرس على ضوء الكتاب والسنة، وبعقولنا الناقدة كل ما تركه لنا أجدادنا من تراث فقهي فنأخذ بما وافق الكتاب والسنة، ونرمي بما خالفه وكان من إملأ السياسة القديمة، وضيق الأفق في بعض الفقهاء عرض الحائط، فيتكون لنا الفقه الإسلامي الذي لا ينتسب لمذهب من المذاهب، بل هو وليد الكتاب والسنة، وخلاصة مصفاة للتراث الذي تركه لنا أجدادنا الفقهاء. هذا هو مذهبنا وإذا وقفنا في الإباضية وقفة فليس اعتناءا بالمذهبية، ولكن تصحيحا لأخطاء تشين صفحة المغرب في الكتب القديمة، وتبعد الأخ عن أخيه في مغربنا الكبير الماجد.

عادة المؤرخين في تاريخ المغرب

وترى المؤرخين القدماء ومن قلدهم من المحدثين إذا وصلوا هذا الفصل من تاريخ المغرب، ينتقلون إلى الصراع الذي وقع بين الأمويين والهاشميين في خلافة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فيقعون في الأخطاء الكبرى، ويصورون الإباضية كما يريد الأمويون والعباسيون، فيصفونهم بما هم منه بريئون، ويلصقون بهم ما اتصف به الأمويون لا غيرهم من الخروج على الإمام علي، فيرددون في هذا الباب أكاذيب الملكية المغرضة القديمة التي استعملت كل وسيلة لتشويه صفحة الإباضية، لان الإباضية في كل ادوار التاريخ كانوا أنصار الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية، وحربا على الملكية الظالمة المستبدة التي تضعف المسلمين وتشقيهم. وأجدني لهذه العادة التي التزمها المؤرخون القدماء والمحدثون مضطرا لأرجع بالقارئ العزيز إلى الوراء حوالي قرن من الزمان، لنلم إلمامة وافية بثورة الأمويين على الإمام علي رضي الله عنه وخلافهم عليه، ونشأة المذهب الأباضي والأسباب الداعية إليه، فنعرف الحقيقة التي تغسل صدورنا من الترهات، وتكون لنا نورا نرى به صفحات المغرب الغراء،وما امتاز به في القرنين الثاني والثالث من مجد

وسعادة، وما دخل فيه من حياة وعزة، وما تمتع به أجدادنا في ظل دولهم العادلة التي تقوم على الدين، ويلتزم أئمتها سيرة الخلفاء الراشدين. إن هذا الانتقال إلى الوراء وإن كان سيؤلنا بمناظر الصراع الذي وقع بين المسلمين، فننا سنحيا به مع الإمام علي رضي الله عنه بذكر سيرته، ونتمتع بقراءة ما يصور شخصيته العظيمة، فنقبس من روحه، ونتزود بمحاورة احد أعلامنا الكبار وأئمتنا العظام !

لماذا ثار الأمويون على هذا الإمام العظيم؟ ما هي الأسباب النفسية الداعية لذاك؟ ولماذا استطاع معاوية أن يتغلب في المعركة ويستولي على الملك والسلطان؟ وما هي أسباب نشأة الإباضية والمذهب الأباضي من كل ذلك؟.

المنافسة القديمة بين الأمويين والهاشميين

لم يكن منافسة معاوية للإمام علي رضي الله عنه في الرئاسة، وخروجه عليه شيئا يخص معاوية وحده، وحدثا ابتدأ في عهدهما، بل إن خروج معاوية على الإمام علي ومقاتلته، والعمل لتجريده من الرئاسة، وحصرها في بني أمية، فصل من فصول المنافسة القديمة التي كانت منذ الجاهلية بين الأمويين والهاشميين.

حب الأمويين للرئاسة

لقد كان الأمويون منذ القديم يتعطشون إلى الرئاسة، ويحبون الظهور، ويتعشقون الامتياز، ويريدون أن يكونوا هم الذروة، ولكن بني هاشم كانوا يسدون عليهم الطريق، ويكسفونهم بمزاياهم، ويأخذون قصب السبق عنهم في ميدان الرئاسة؛ فكان الأمويون يرون الهاشميين عقبة لهم وسدا دون ما يردونه لأنفسهم من رئاسة في قريش، وعلو حتى يكونوا هم الذرة في العرب، والذؤابة في بني عدنان، ومن يشار إليهم من كل أنحاء الجزيرة بالبنان. وكان الأمويون على حرد كبير على بني هاشم، ينظرون إليهم بقلوب تغص بالغيرة، ونفوس يملأها الغضب، وينظرون إليهم بحسد العاطلة المتجردة من حلاها إلى من كسفتها في العرس بحليتها وجواهرها النفيسة.

وكانت غريزة حب الظهور في بني أمية من الغرائز الثائرة التي حاولت أن تشبع نفسها في الجاهلية بالرئاسة فمنعها بنو هاشم لوجود شخصيات بارزة فيهم كعبد المطلب ابن هاشم اتجهت إليها الأنظار، وأعجبت بها القلوب، وخصتها النفوس بالاحترام والإجلال. ولما جاء الإسلام وكان الرسول من بني هاشم، ازدادت القلوب إجلالا لبني هاشم، وانصرافا عن بني أمية، سيما لما قتل رؤساؤهم في بدر، وأمست العين محجرا بدون مقلته، والعقد ودعا بدون جواهره، ونادى بني أمية من وجوهه كالطلل الدارس.

وكان انصراف العيون عن بني أمية يزداد على قدر انتشار الإسلام، وتأيد الرسول، لمقاومتهم لهذا الدين، وعدائهم للنبي عليه السلام، بدافع المنافسة والحسد، لأنهم يعلمون ما يكون لبني هاشم من نباهة فوق نباهتهم لو ظهر هذا الدين، وشعشت أنواره في العرب، وتغلغل حبه في قلوب أهل الجزيرة.

وكانت غزيرة حب الظهور تجد بعض شبعها في الجاهلية بمنافسة بني هاشم في المفاخر، وكان على رأسها الشجاعة في القتال، والإطعام في المساغب، والسقاية للحجيج، والفصاحة في النوادي، فاتجهت إليهم الأنظار بعض الاتجاه، فوجدوا كثيرا من الرضى. ولما كان لبني هاشم رسول يوحي إليه، وهو مالا يستطيعه كل احد، ولا يكون

لكل الناس، فلم يستطيعوا منافسهم فيه، وانصرفت عنهم الأنظار بسببه، وأصيبوا بالخمول من اجله، لان التفاخر صار بالإسلام، والتقدم عند الناس أصبح بالإيمان، وحب النفوس أمسى بحب محمد وتأييده، وهم كانوا على الضآلة في هذه الصفات، وعلى الخلو من ذلك الحب، فتجهمت لهم النفوس، وانطوت لهم على المقت، وعبست لهم القلوب، واشتملت لهم على الحقد والازدراء، فأصيبوا بداهيتين، فقدان الرئاسة والنباهة والازدراء معه، والنزول مما كانوا فيه من المكانة، فلم يحلوا في البسيطة كالناس، ولكن في هوة الاحتقار والإعراض.

وكان مبعث الرسول عليه السلام، وكونه من بني هاشم، وقد اخملهم وأخمدهم بانصراف العيون كلها فلم يعد لهم معه حظ كما كان لهم مع أجداده، فانكبتت غريزة حب الظهور فيهم، فأصبحت لهم عقدة نفسية تحثهم على طلب الرئاسة، وتدفعهم بقوة خفية لاستلاب الزعامة والسلطان.

وكان الإسلام قد اضعف العصبية في النفوس، وغير أسباب الرئاسة في الناس، فلم يعد السيد والرئيس هو الذي يطعم الطعام، ويسقى الحجيج فحسب، ولكن من امتلأ بالتقوى، وفاض بالإيمان، وكان له السبق إلى الإيمان بالرسول وتأييده، واليد الطولي في ظهور الإسلام على الكفر، والحق على الباطل. وكان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما من فاز بالقدح المعلي في هذا السبيل مع ما كان لهما من الشخصية البارزة، والعبقرية النادرة، والماضي المشرق منذ الجاهلية بخصال الرجولة والصلاح، فاتجهت إليهما الأنظار، وآثرهما المسلمون بالخلافة، وخصوهما بالتبجيل.

وكان الجو لوجود هاتين الشخصيتين العظيمتين أبي بكر وعمر، وبهمود العصبية بالإسلام في القلوب، غير ملائم لبروز بني أمية، فظلوا على العقدة تسيرهم وتوجههم حتى ولى عثمان رضي الله عنه الخلافة لاتصافه بما اتصف به صاحباه من تأييد للدين، وسبق إلى الإسلام، وكان من بني أمية، فتنفسوا الصعداء، ووجدت غريزة حب الظهور فيهم كثيرا من الرضى، سيما لما استولى على عثمان في آخر أمره، فخصهم بكثير من المراتب في الدولة، وآثرهم بالولاية على الأقطار الكبيرة، ونالوا في عهده كثيرا مما يشتهون.

تمسك الأمويين بالرئاسة

وكان الأمويون يرون خلافة عثمان رضي الله عنه ملكا لهم، فعزموا على التمسك به، والمنافحة عنه، والاستماتة فيه، واتخاذ كل الوسائل أن لا يخرج عنهم إلى غيرهم.

روى أبو سعيد الشماخي في كتاب السير كما روى غيره من المؤرخين قالوا: إن بني أمية اجتمعوا بعد مبايعة الإمام عثمان بالخلافة، وكان فيهم أبو سفيان بن حرب رئيس بني أمية وكان أعمى فسأل: «هل فيكم احد من غيركم؟ قالوا لا. فقال يا بني أمية تلقفوها -الرئاسة- تلقف الكرة. فو الذي يحلف به أبو سفيان ما زلت ارجوها لكم ولتصيرن إلى صبيانكم !» قد يكون هذا القول صحيحا من أبي سفيان، وقد يكون من وضع الرواة الذين يستنطقون الحوادث، ويستنبطون من الكائنات، فان اقتناص الأمويين للرئاسة الإسلامية بالقوة والحيلة، واستيلاءهم عليها كما يتلقف المرء باقتداره الكرة من منافسيه، وجعلهم الإمامة الإسلامية ملكا يرثه أعقابهم، ويوصون به إلى صبيانهم، لا يرضون أن يخرج عنهم، وأن يتولاه سواهم ممن هو اقدر منهم وأليق للمسلمين؛ إن عملهم هذا الذي اضر الدولة الإسلامية، وفرق جماعة المسلمين، يؤيد ويوافق ما نسب إلى أبي سفيان، وما نعتهم به المؤرخون في بداية خلافة الإمام عثمان، وأن ما سيكون منهم في آخر أيامه نابع من هذه الشنشنة التي تلازمهم من أول الزمان.

لين عثمان وسماحته / مشاكل الأمويين لعثمان / استشهاده

وكان الإمام عثمان رضي الله عنه هينا لينا، سمح النفس، كريم الخلق، حسن النية، محبا لأهله وذويه، ولم يكن كصاحبيه أبي بكر وعمر في شدة اليقظة، وفي الصرامة والقوة، وفي هيبة النفوس لهما، وخشية ذوي الأطماع والاستغلال من ضربهما على أيديهم؛ فاستغل الأمويون سيما خاصتهم كمروان بن الحكم، ومن كان متصلا بالإمام في المدينة، ملازما له في محل إقامته؛ استغلوا في الإمام عثمان رضي الله عنه سماحته خلقه، وحسن نيته، وعاطفته نحو أهله، فأحدثوا ما آثار الثائرة عليه، وكان من أسباب الفتنة الهوجاء التي أدت إلى قتله في ذي الحجة من سنة خمس وثلاثين، فقبضت أنفاسه الزكية بعد اثني عشر عاما أمضاها في خلافته.

استخلاف الإمام علي رضي الله عنه

ولما قتل عثمان رضي الله عنه سارع كبار الصحابة وخاصة المسلمين إلى مبايعة الإمام علي رضي الله عنه فكان هو خليفة المسلمين.

وكان الإمام علي رضي الله عنه من كبار الزاهدين، ومن العباد الأولين، ومن العلماء المتقين، ومن الذين يراقبون الله في كل الأشياء، ويستشعرون حساب الله في كل الأمور، ويتذكرون آخرتهم وما فيها من العقاب والثواب في كل الأوقات.

هربه من الخلافة

وكان رضي الله عنه يرى الخلافة واجبات ثقيلة، وتكاليف صعبة، وثقلا باهظا يضعه المسلمون على عاتق الخليفة.

وكان يرى تغير نفوس المسلمين بما فتحوا من الأقطار، وبما نالوا من زهرة الدنيا ومتاعها، وبنا عاشروا من أمم أعجمية كانت محبة للدنيا، ومتهالكة على المادة، فتأثروا بها، فتكونت الأنانية في نفوس المسلمين، وارثت هذه الأنانية العصيبة في القلوب، والتنافس في الصدور، فصارت الدولة الإسلامية بهذا بحرا تكونت أمواجه، وهبت عواصفه، فلا بد له من خلفية بالغ الدهاء، قوي في السياسة، بارع كل البراعة في التدبير، يسنده الصحابة وخاصة المسلمين، ويكنفونه ويؤيدونه، ويؤازرونه في مواقفه، ويكونون له عروقه الراسخة في خلافته، وهو قد أنس في نفسه رضي الله عنه عدم الاستطاعة لمواجهة تلك الأنواء، وتحمل تلك المسئوليات، ومصارعة ذوي الأطماع الذين رأى تحفزهم لمنافسته، سيما بني أمية ومن يشايعهم من ذوي الأطماع والحب للدنيا، فهرب من الإمارة ما وسعه الهرب، وأبى على الصحابة قبول الخلافة، واعتذر لهم بضعفه، واراهم عدم استطاعته، وآثر أن يكون من الوزراء الذين يؤازرون الخلفاء، لا من الأمراء الذين تتنزل عليهم الأعباء. وقال لهم: «أكون وزيرا لكم خير من أن أكون أميرا، ومن اخترتم رضيته»[1] ولكن الصحابة رضوان الله عليهم الحوا عليه أن يكون هو الإمام، وأبوا أن يختاروا للخلافة غيره، وأشعروه بأنه إذا لم يقبلها فسيهرع إليها من لا يليق للخلافة، ومن لا يتصف بدينه وورعه، ومن لا يلتزم الدين في السياسة، ولا يسعد المسلمين بعدله وتقواه. فلما خاف الإمام علي رضي الله عنه طمع الطامعين في الخلافة، ورأى أن تقدم غيره إليها بتأخره يجعله مسئولا عن كل الأضرار التي تلحق المسلمين، وانه ليس هناك شخصية من الصحابة يجمع عليها السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار غيره؛ لما رأى كل ذلك قبل الخلافة مضطرا وهو يستشعر ثقلها عليه، ويجد مرارتها في نفسه، ويعلم أن الأمويين وغيرهم من النافسين سيجعلون الجو مغبرا عليه، ورأى جو الدولة الإسلامية مكفهرا فعلم انه يتمخض عن عواصف هو جاء، ويسفر عن قلاقل تتعبه، وتبهظ كاهله.

وكان الإمام علي رضي الله عنه سيد المتقين، وإمام العالمين، ومعدن الفصاحة والبلاغة، واصل الشجاعة والفروسية، مع ماض مشرق في نصرة الرسول وتأييده، ومواقفه في غزوات الرسول وحروبه، فلذلك اتجهت الأنظار إليه، ورجحت كفته عند المسلمين، ورأوه في الدين والعلم والفضل درجة راقية لا أعلى منها بعد الخلفاء الذين تقدموه فمالوا

1 - العبر لابن خلدون ج 2 ص 150 ط أولى.

إليه لهذا الفضل الذي كلن عليه بدينه وورعه وعلمه، ولماضيه المشرق في الإسلام لا لعرقه ونسبه، ولا لقرابته من الرسول، فان هذا إذا زانه عند الصحابة والتابعين فانه درة واحدة في تاجه المصرع، ومأثرة صغيرة بجانب مآثره الكثيرة بورعه وعلمه، وما كون شخصيته العظيمة، وأورثه درجته العالية عند الصحابة والتابعين الذين لا يحترمون إلا التقوى، ولا يفضلون إلا ذوي الدين، ولا يقدمون المرء إلا بما يقدمه الإسلام به، ولا يحكمون في الرجال إلا مقاييس الله ورسوله في الناس. فما هي خصائص الإمام علي رضي الله عنه التي أثره الصحابة للخلافة من اجلها؟ لقد طالما عشنا مع العمال الأمويين الذين يميلون إلى الدنيا، ويأتون ما يوجع قلوبنا، فابتعدنا عن جو الصحابة الأخيار، والمتقين، الأبرار الذي يشعرنا إذا انغمسنا فيه يشعر جو الشموس الدافئ للمقرور من لذة وقوة فتنزل رعدته، وينبسط وينتعش بالحياة التي تتدفق فيه. فلنلم بشخصية الإمام علي رضي الله عنه لنقيس من أنواره، وندرك سبب تغلب الأمويين عليه.

نسبه

هو أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم أول هاشمية ولدت لهاشمي. وكان الهاشميون كلهم يتزوجون من غير أسرتهم لما يقصده العرب في ذلك من تقوية الروابط بأصهارهم، ومن الآثار الحسنة في نسلهم، أما الإمام علي فأمه هاشمية فاجتمعت له وراثة الهاشميين الزكية من أبويه، واكتنفه فضلهم من جهتيه.

وكانت أمه فاضلة زكية، ومن المسلمين الأولين الذين سارعوا إلى الإيمان بالرسول وأيدوه وناصروه، وتحمسوا لدعوته، وكانت آثارها بهذا في الإمام علي حسنة، فإنها من الأسباب التي جعلت الإمام علي يتحمس للدين منذ حداثته، مع نشأته في حجر الرسول وكفالته.

روى ابن أبي الحديد قال: أسلمت فاطمة بنت أسد بعد عشرة من المسلمين؛ وكانت الحادي عشر. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمها ويعظمها ويدعوها أمي، وأوصت إليه حين حضرتها الوفاة فقبل وصيتها وصلى عليها، ونزل في لحدها واضطجع معها فيه، بعد أن البسها قميصه. فقال له أصحابه: إنا ما رأيناك صنعت يا رسول الله بأحد ما صنعت بها!؟ فقال: انه لم يكن احد بعد أبي طالب ابر بي منها. إنما ألبستها قميصي لتكسى من حلل الجنة، واضطجعت معها لتهون عليها ضغطة القبر.

وفاطمة أم علي أول امرأة بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء.

وكان الإمام علي اصغر أبنائها، فجعفر أسن منه بعشر سنين، وعقيل أسن من جعفر بعشر سنين، وطالب أسن من عقيل بعشر سنين. وفاطمة بنت أسد رضي الله عنها أمهم جميعا.

بيئته

وقد نشأ الإمام علي في حجر الرسول عليه السلام فتأثر به، وورث منه الفصاحة والطهر، وابتعد به الرسول عليه السلام مما وقع فيه أمثاله من الأطفال قبل البعثة من تقليد الآباء في وثنيتهم، فلم يسجد لصنم كما سجدوا، ولم تحتل قلبه الطاهر عقيدة من عقائد الجاهلية في الأصنام بالإيحاء، لان الرسول عليه السلام تسلمه من أبيه من أبي طالب وهو ابن ست سنين، فتبناه وأنشأه أحسن تنشئة. ولما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم كان ابن عشر سنين فاسلم وكان من السابقين الأولين. وقد أثرت فيه بيئة الرسول الدينية فكان من كبار المتقين، ومن أئمة الزاهدين، كما ازدهرت وراثته الهاشمية في الفصاحة والبلاغة في بيئة الرسول، فتأثر كل التأثر منذ نعومة أظفاره بفصاحة النبي عليه السلام، ثم زاده جو القرآن، فكان سيد الفصحاء في زمانه، وإمام البلغاء في عصره.

زهده في الدنيا

وأما الزهد في الدنيا فقد كان إمام الزهاد، ما شبع من طعام قط. وكان اخشن الناس مأكلا وملبسا. قال عبد الله بن أبي رافع: «دخلت عليه يوم عيد فقدم جرابا مختوما، فوجدنا فيه خبز شعير يابسا مرضوضا فقدم فأكل. فقلت: يا أمير المؤمنين كيف تختمه؟ قال: خفت هذين الولدين -الحسن والحسين- أن يلتاه بسمن أو زيت» إكراما لوالدهما، وهو يؤثر الخشونة في طعامه لشدة زهده، وعدم رغبته في لذات الدنيا وزخرف الحياة.

قال سفيان : «إن عليا لم يبن آجرة على آجرة، ولا لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، وإن كان ليؤتى بحبوته من المدينة» والحبوة هي الثوب الذي يحتبى به الإنسان إذا جلس. وهذا دليل على تمسكه بالعادات البسيطة وإبائه أن يتمدن ويتحضر كالملوك والأمراء الماديين.

وكان ثوبه مرقوعا بجلد تارة، وكان يلبس الكرباس[1] الغليظ. فإذا وجد كمه طويلا قطعه بشفرة ولم يخطه، فكان لا يزال متساقطا على ذراعيه حتى يبقى سدى لا لحمة

1 - الكرباس: ثوب القطن البسيط الرخيص

له. وكان يأتدم إذا أتدم بخل وبملح اقتداء بالرسول عليه السلام الذي كان لا يجد لفقره من الإدام غيرهما، وإذا ترقى على عن ذلك فببعض نبات الأرض، فان ارتفع عن ذلك فبقليل من ألبان الإبل، ولا يأكل اللحم إلا قليلا ويقول: لا تجعلوا بطونكم مقابر الحيوان ! وكان مع ذلك اشد الناس قوة، وأعظمهم أيدا، لا ينقص الجوع قوته، ولا يخون الإقلال منته، وهو الذي طلق الدنيا وكانت الأموال تجبى إليه من جميع بلاد الإسلام إلا من الشام، فكان يفرقها ويمزقها، ويعطيها لمستحقيها من الفقراء والمساكين، ويضعها في مصالح المسلمين، لا يخص نفسه بشيء، ولا يفعل فعل الملوك الذين يستأثرون بأموال الدولة، ويخصون أنفسهم وشهواتهم بها.

ورعه وعفافه وتحرجه

وكان رضي الله عنه ورعا عفيفا متحرجا في أموال الدولة، يسارع بتفريقها على مستحقيها، لا يكتنزها ويدخرها، ويحرم منها المحتاجين والفقراء، وكان يكنس كل يوم جمعة بيت مال الدولة ويصلي فيه ركعتين، لا يترك فيه شيئا، ولا يستأثر منه بشيء.

روى هرون بن عنترة عن أبيه قال: دخلت على علي بالخورنق «في العراق» وهو فصل الشتاء، وعليه خلق[1] قطيفة، وهو يرعد فيه. فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيبا وأنت تفعل هذا بنفسك؟ ! فقال: والله ما أرزؤكم شيئا، وما هي إلا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة !

وقال يحيى بن سلمة: استعمل علي عمرو بن سلمة على اصبهان فقدم ومعه مال، وزقاق فيها عسل وسمن، فأرسلت أم كلثوم بنت علي إلى عمرو تطلب منه سمنا وعسلا فأرسل إليها ظرف عسل وظرف سمن، فلما كان الغد خرج علي واحضر المال والعسل والسمن ليقسم فعد الزقاق، فنقصت زقان فسأله عنهما فكتمه وقال: نحن نحضرهما. فعزم عليه إلا ذكرهما له فاخبره فأرسل إلى أم كلثوم فاخذ الزقين منها فرآهما قد مقصا، فأمر التجار بتقويم ما نقص منهما، فكان ثلاثة دراهم، فأرسل إليها فأخذها منها ثم قسم الجميع !

قال عاصم بن كليب عن أبيه: قدم على علي مال من اصبهان فقسمه على سبعة أسهم فوجد فيه رغيفا فقسمه على سبعة، ودعا أمراء الأسباع فاقرع بينهم لينظر أيهم يعطي أولا !

1 - الخلق: الثوب البالي، من خلق يخلق إذا بلى.

ومن تحرجه رضي الله عنه انه كان يختم على الجراب الذي فيه دقيق الشعير الذي يأكل منه ويقول: لا أحب أن يدخل بطني إلا ما اعلم.

وقيل إنه رئي وهو يحمل في ملحفته تمرا قد اشتراه بدرهم فقيل له: يا أمير المؤمنين إلا نحمله عنك؟ فقال: أبو العيال أحق بحمله.وكان أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم خازنا لعلي على بيت المال. فدخل علي يوما وقد زينت ابنته فرأى عليها لؤلؤة كان عرفها لبيت المال فقال: من أين لها هذه؟ لأقطعن يدها فلما رأى أبو رافع جده في ذلك قال: أنا والله يا أمير المؤمنين زينتها بها فقال علي: لقد تزوجت بفاطمة وما لي فراش إلا جلد كبش ننام عليه بالليل، ونعلف عليه ناضحنا بالنهار وما لبي خدم غيرها.!

ذكاؤه وغزارة علمه

وأما علمه بالشريعة، وتفقهه في الدين، وعلمه لكتاب الله وسنة رسول الله، وذكاؤه في الاستنباط، وفتواه في معضلات المسائل، فقد كان فيه إمام أهل عصره، ومن الأفذاذ المبرزين في زمانه. قال ابن عباس: قسم علم الناس خمسة أجزاء فكان لعلي أربعة أجزاء، ولسائر الناس جزء شاركهم علي فيه فكان أعلمهم به.

وكان عمر رضي الله عنه يرجع إليه في كثير من المسائل التي تشكل عليه في الدين. وقد قال غير مرة: لولا علي لهلك عمر، وقوله: لابقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن. وقوله: لا يفتين احد في المسجد وعلي حاضر.

ونقل السيوطي في الجامع الصغير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ارأف أمتي بأمتي أبو بكر ! وأشدهم في دين الله عمر! وأصدقهم حياءا عثمان، واقضاهم علي» والقضاء لا يكون إلا بالعلم الغزير، والفهم الكثير، والذكاء النافذ.

وهو الذي أفتى في المرأة التي وضعت لستة أشهر، وهو الذي أفتى في الحامل الزانية، وهو الذي قال في المنبرية صار ثمنها تسعا،[1] وهو الذي وضع أصول النحو وأملاها على أبي الأسود الدؤلي.

فصاحته وبلاغته

وأما الفصاحة والبلاغة فعلى رضي الله عنه إمام الفصاحة، وسيد البلغاء، وهو

1 - سميت هذه المسالة بالمنبرية لأنه سئل عنها وهو على المنبر فأفتى من غير روية. وبيانها انه سئل في ابنتين وأبوين وامرأة. فقال: صار ثمنها تسع. يعني أن السهام عالت فصار للمرأة التسع.

احد الأئمة الذين شرعوا للناس طريق الكلام الفني. فالحسن البصري وغيره من أئمة الفصحاء تأثروا به مع تأثرهم بالقرآن والحديث، وسلكوا في الخطابة مسلكا فنيا تأثر به عبد الحميد الكاتب بعدهم في أول القرن الثاني وغيره من الذين بدأوا الكتابة الفنية، وشقوا الطريق للجاحظ فبلغ بالأسلوب الفني العربي ذروته، ووصل به على قننه[1] !

قال عبد الحميد الكاتب: حفظت سبعين خطبة من خطب الإمام علي ففاضت ثم فاضت. يعني إنها كانت كثيرة فلم يستطع حفظها كلها.

قال ابن نباتة الشاعر: حفظت من الخطابة كنزا لا يزيده الإنفاق إلا سعة وكثرة فحفظت مائة فصل من مواعظ علي بن أبي طالب.

وكان الأئمة الرستميون في الدولة الرستمية بالمغرب يجلون الإمام عليا ويعظمونه، وكانوا يحفظون خطبه ويخطبون بها في الجمع والأعياد. قال ابن الصغير المالكي في كتابه «سيرة الأئمة الرستميين» وقد عاش في تاهرت وعاصر هذه الدولة: «وأكثر ما يخطب الأئمة الرستميون في صلاة الجمعة بخطب الإمام علي رضي الله عنه».

ولما قال محصن بن أبي محصن لمعاوية وقد أراد أن يتقرب إليه بثلب الإمام رضي الله عنه: جئتك من عند أعيا الناس ! قال له معاوية: ويحك كيف يكون أعيا الناس ! فو الله ما سن الفصاحة لقريش غيره ! والعي هو العجز في الكلام، وعدم الإبانة في القول.

تواضعه وحسن خلقه

وأما سماحة الأخلاق، وبشر الوجه، وطلاقة المحيا، والتبسم/ والتواضع للناس، والسهولة والانقياد في المعاملة، فهو المضروب به المثل فيه حتى عابه بذلك أعداؤه. قال عمرو بن العاص لأهل الشام: إنه ذو دعابة شديدة. لبعض من قدره عندهم، ويكون الجرأة فيهم عليه. وعمرو بن العاص إنما أخذها عن عمر بن الخطاب لقوله لما عزم على استخلافه: لله أبوك! لولا دعابة فيك.[2] وقال معاوية لقيس ابن سعد: رحم الله أبا حسن فلقد كان هشا بشا ذا فكاهة، يغمزه بهذا، ويريد انه لا يستطيع قيادة العامة، والسيطرة على الجماهير لعدم اتصافه بالصرامة، وبالقوة التي تخضع له الناس.

1 - لا ادري لماذا لا تقبل ناشئتنا على رسائل الجاحظ وكتبه إنها والله هي التي تكون الأديب وتبني ملكة البلاغة والإنشاء في الطالب لا غيرها من الكتب الصحفية الهزيلة التي لا يؤثرها للتكوين إلا المهازيل ضعفاء الهمة والذوق الفني.

2 - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج 1 طبع الحلي.

كرم نفسه

وأما كرم النفس فانه كان من المتصفين بهذه الخلة النبيلة حتى مع أعدائه الذين يحاربون ويمكرون به. ولما ملك عسكر معاوية عليه الماء في حروب صفين، وأحاطوا بشريعة الفرات، ومنعوه وجيشه الماء حتى عطش جيشه فأحس بالخطر حمل على عساكر معاوية حملات عنيفة، ودارت له معهم معارك طاحنة، سقطت فيها الرؤوس والأيدي، وملكوا عليهم الماء، وصار أصحاب معاوية في الفلاة لا ماء لهم. فقال له أصحابه وشيعته: امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك، ولا تسقيهم منه قطرة، واقتلهم بسيوف العطش، وخذهم قبضا بالأيدي فلا حاجة لك إلى الحرب. فقال: لا والله أكافئهم بمثل فعلهم، أفسحوا لهم عن بعض الشريعة ففي حد السيف ما يغني عن ذلك.

سخاؤه

وكان رضي الله عنه اسخى الناس. وكان دخل الوقوف التي جعلها للفقراء والمساكين أربعة آلاف دينار -وقيل أربعين ألف دينار- في كل عام. قال الإمام علي: لقد رأيتني واني لأربط الحجر على بطني من الجوع، وإن صدقتي لتبلغ اليوم أربعة آلاف دينار. وقيل أربعين ألف دينار.

شجاعته

وأما في الشجاعة والفروسية، وفي البطولة في الحروب، وفي قوة الأيد في القتال، فهو الشجاع الذي ما فر قط، ولا ارتاع من كتيبة، ولا بارز أحدا إلا قتله، ولا ضرب ضربة قط فاحتاجت الأولى إلى الثانية. ولما دعا معاوية إلى البراز ليستريح الناس من الحرب بقتل احدهما قال له عمرو بن العاص: لقد أنصفك. فقال معاوية ما غششتني منذ نصحتني إلا اليوم !

عبادته وقوة قلبه

وأما العبادة فكان اعبد الناس، وأكثرهم صلاة وصوما، ومنه تعلم الناس صلاة الليل، وملازمة الأوراد، وقيام النافلة؛ وما ظنك برجل يبلغ من محافظته على ورده أن يبسط له نطع بين الصفين ليلة الهرير، وهي أقسى معركة واشد هو لا مما وقع في «صفين»، فيصلي عليه ورده، والسهام تقع بين يديه، وتمر على صماخيه يمينا وشمالا، فلا يرتاع لذلك، ولا يقوم حتى يفرغ من وظيفته؛ إن هذا لقوة قلبه، وخشوعه في الصلاة، وانقطاعه إلى الله، فلا يشعر بما يقع حوله.

وما ظنك برجل كانت جبهته كثفنه[1] البعير لطول سجوده.

وقال سعيد بن عمرو لعبد الله ذبن عياش: يا عم لم كان صغو[2] الناس إلى علي؟ قال: يا ابن أخي، إن عليا كان له ما شئت من ضرس قاطع في العلم، وكان له البسطة في العشيرة، والقدم في الإسلام، والصهر لرسول الله عليه وسلم، والفقه في السنة، والنجدة في الحرب، والجود بالماعون.

وكان رضي الله عنه من العشرة الذين شهد لهم الرسول بالجنة وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعد بن زيد، وأبو عبيدة بن الجراح.

وكان من أهل بدر الذين قال الرسول عليه السلام فيهم: «ما يدريكم لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعلموا ما شئتم فقد غفرت لكم ووجبت لكم الجنة».

وكان من أهل الشورى الستة الذين اختارهم عمر بعد أن طعن ليختاروا من بينهم رجلا للخلافة.

كان من أعلام الدين والفضل، والفصاحة والبلاغة الذين يجب أن نقتدي بهم ونجعلهم مثلنا العليا، وسلفنا الصالح.

الأسباب النفسية لتغلب معاوية على الإمام علي

لقد رأينا شخصية الإمام علي العظيمة، ومناقبه الشريفة، وخصائصه الممتازة التي عرفها فيه الصحابة فقدموه للخلافة، واختاروه للإمامة، وحملوه قيادة الأمة، فلماذا تغلب معاوية عليه، فجرده مما البسه المسلمون، وامتلك عليه البلاد والعبادة، وحاز الرئاسة لنفسه، وصار ملكا يستبد بأمره، وخرج برئاسة الدولة عن طريق الإمامة العادلة التي ألفها المسلمون، إلى الملكية المستبدة التي ينكرها جمهورهم؟ لماذا نجح معاوية وهو يقصد ما ينكره الناس وينابذونه، وفشل الإمام علي وهو على الإمامة المرتضاة، والخلافة المبتغاة، وعلى هدي الرسول وخلفائه الراشدين؟ وبماذا استطاع معاوية أن يوجه عامته وأنصاره إلى ما يريد، وإن كان ما يشاء يخالف تقاليدهم وعقائدهم، ويعاكس مصالحهم وآخرتهم، وهو ليس في الدين، والعلم، والفصاحة والسابقة في الإسلام، ومواقف التأييد والنصرة للرسول كما كان الإمام علي رضي الله عنه، فما هو الفرق بين الرجلين، وما هو سبب فوز معاوية وفشل الإمام؟.

1 - الثفنة هي كر كرة البعير التي تكون تحت صدره يبرك عليها.
2 - الصغو الميل من صغا يصغو إذا مال.

إن السبب هو أن الإمام عليا رضي الله عنه كان لينا أكثر من اللازم، ولم يكن صارما بالمقدار الذي توجبه الرئاسة، وتكون به طاعة العامة لرئيسها، وانقياد الرعية لإمامها. إن الإمامة والرئاسة إذا كان التقوى والعلم أساسها، فالحزم وقوة الإرادة والتصميم هي ركنها الركين، فبدونها لا يستطيع المرء أن يقود غيره، ويسوس سواه، سيما إذا كان المسوس قد ابتلي بمن يفسده على السائس كما كانت رعية الإمام وكان في طبعه العناد وحب الثورة وسرعة التقلب كما كان أهل العراق في عهد الإمام علي رضي الله عنه، فان الدهاء والحزم وحسن التدبير، وقوة التصميم، والصرامة في مواطنها، والشدة في محلها تكون ألزم للإمام والرئيس من كل شيء، وإلا فلا يستطيع استتباع الرعية إلى طريق الرشاد الذي يريده، ولا تكون أزمتها بيده فيوجهها إلى حيث يشاء، بل تتسلط هي عليه وتكون أزمته بيدها، فتقوده إلى الطريق الذي تجمح إليه شهواتها، وتملي عليه إرادتها، فتكون كما تسول لها نزواتها ويوحي به أعداؤه الذين عرفوا كيف يوحون إليها بما يريدون، ويغرسون بجواسيسهم في أعماقها ما يشتهون، ويوجهونها بواسطة صنائعهم وطابورهم الخامس إلى ما يشاءون.

إن الإمام عليا رضي الله عنه وإن كان في درجة أبي بكر وعمر في الزهد والتقوى، وفي العلم والذكاء، ولكنه كان اقل منهما في الحزم والصرامة، وفي التصميم وقوة الإرادة، ألا ترى إلى موقف أبي بكر الحازمة في سقيفة بني ساعدة لما أراد الأنصار أن تكون الخلافة فيهم، فأبى عليهم أبو بكر ذلك، فلولا حزمه وقوة إرادته التي اقنع بها الأنصار بصواب رأيه، وحملهم على ما رآه بثاقب نظره، لا نتثر عقد المسلمين، وافترقت جماعة الصحابة، فيقع الإسلام والمسلمون في بلاء عظيم؛ ثم إصراره رضي الله عنه على انقاد جيش أسامة الذي جهزه النبي صلى الله عليه وسلم قبل موته، رغم إجماع الصحابة كلهم، -ومنهم عمر وعلى وعثمان-، على وجوب استبقاء هذا الجيش في المدينة ليكافح به أهل الردة، فأبى إلا إنفاذه، فأنفذه لحرب الروم، وكان الصواب ما فعل والخير فيما رأى، والحزم والدهاء، وحسن العقبي فيما أتى؛ وموقفه مع أهل الردة وصرامته معهم وتصميمه فيهم، حتى كسر رؤوس العناد والفتنة، ورد القافلة التي جنحت عن طريق الإسلام إلى جادته، واقر الأمور المرتبكة في نصابها، وارجع الدولة التي هاجت وماجت، ووقعت فيها الفوضى بموت النبي صلى الله عيه وسلم إلى حالة الاستقرار والهدوء، والى الانقياد والاتحاد، واجتماع الكلمة التي كانت عليه زمن النبي صلى الله عليه وسلم. لقد استطاع ذلك بحزمه وقوة إرادته، وصرامته في المواطن التي تجب فيها الصرامة، وشدته وإصراره وحمله العامة على ما يريد في الأحوال التي يجب فيها ذلك.

وكان أبو بكر رضي الله عنه محبوبا لدينه وسماحته، مبجلا لعلمه وماضيه في الإسلام، مهابا مطاعا لحزمه وقوة إرادته، لا تستطيع العامة أن تتمرد عليه، بل لا تستطيع حتى الخاصة أن تخالفه، أو تجعله منقادا لما تري، إلا أن يكون ما أرادت هو ما يقرره الدين، ويؤيده العقل، فحينئذ يكون خضوعه للدين والعقل، لا لنزوات الناس وأهوائهم.

إن الشهادة بلياقة المرء لرئاسة الدولة لا نراها في شهاداته العلمية وحدها، بل نقرؤها في خطوط العبوس التي يكتبها حزمه وقوة إرادته وتصميمه في جبينه ! أما الضاحك الجذلان، البشوش المنبسط دائما، فإذا لاق للصداقة والمحبة، فلا يليق للرئاسة والقيادة !

وكان عمر كابي بكر في الحزم وقوة الشكيمة، وفي الصلابة، في المواطن التي يجب أن يكون الرئيس فيها صلبا، يأمر فلا يجوز إلا الامتثال، ويشير فلا يكون للرعية إلا التنفيذ، ويقرر فلا يكون للناس إلا الخضوع وإتيان ما يراه، انه العقل وهم أعضاؤه، وانه ينظر بنور الدين الذي لا يشير إلا بالصلاح والفلاح، فما كان لهم أن يخالفوه وهو لا يخرج عن نطاقهما، ولا يتصرف إلا بما تمليه هاتان القوتان فيه وقد نجح عمر في الخلافة كما نجح أبو بكر قبله، رغم تعرض الدولة الإسلامية في عهدهما العواصف داخلية كثورات المرتدين، وعواصف خارجية كتنمر الفرس والروم واستعداهم للزحف على المسلمين، فتغلبا على كل المشاكل، وخضعت لهما الرعية، وأطاعت وامتثلت، ورغم كون السواد الأعظم من الدهماء لا زال حديث العهد بالإسلام لم يهذبهم الدين فتكون أزمتهم في قبضته، وهواهم في طريقه، بل لا تزال الغرائز والأهواء هي التي تعصف بأكثرهم فتحدثهم نفوسهم بالثورة والعصيان، ألا ترى كيف ارتدت جماعات غفيرة منهم بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، وأبت الخضوع لأوامر الدين، والانقياد لخلفية المسلمين.

لقد كان عمر يخفق بالدرة كل رأس تعانده، وينفجر كالصواعق على كل إنسان يتمرد عليه في المقامات التي يرى الصواب فيها بدينه وثاقب نظره؛ وترى العامة تهابه وتحبه وتثق برأيه، فسارت كلها وراءه، فحارب بهم الروم والفرس، وخاض بهم المعارك الهوجاء، وسلك بهم في البحار الثائرة، وهم بارجة عتيدة متماسكة لا تتأثر باصطحاب الأمواج، ولا تنفصل أجزاؤها بضربات اليم المهتاج ! هذا ما يجب أن يكون عليه الرئيس: أن يعبس في مواطن العبوس، فتقرأ العامة القوة في سطور التجاعيد في جبينه فتهابه وتخضع له، وتحس بقوته وصرامته، فيثير ذلك غريزة الخضوع فيها فتنقاد، فيكون الصلاح والنجاح، والخير والفلاح.

إن عليا رضي الله عنه يجب أن يكون في الحزم والدهاء، وفي الصرامة وسعة الحيلة أكثر من أبي بكر وعمر، لان الزمان قد تغير عما كان عليه في عهد أبي بكر وعمر، وأصبح حب الدنيا هو الذي يصرف أكثر النفوس، والرغبة في المادة، والزهد في الآخرة هو الذي يوجه كثيرا من خاصة المسلمين، وتبتلى علي بما لم يبتل به أبو بكر وعمر من منافسيه داهية العرب معاوية، واتخاذه كل وسيلة لإفساد أنصاره عليه، واستمالتهم إليه، إثارة العامة حتى لا تطيعه، ولكنه رضي الله عنه كان لينا أكثر مما يجب، حسن النية أكثر مما ينبغي، لا يصغي إلى ما يشير به عليه وزراؤه كابن عباس، ودهاة أنصاره كالمغيرة بن شعبة، فوقع في أول أمره في غلطات سياسية أثارت معاوية عليه، ومكنته مما يريد من الشغب وإحداث الفتنة التي يصطاد فيها، ويبلغ مرامه بها؛ ولان للعامة فشمست عنه، وتمردت عليه، فصار هو الخاضع لها، يريد ما تريد فلا يسعه إلا متابعتها، وتجنح إلى ما يوحي به جواسيس معاوية فلا يكون له إلا الرضوخ لما تختار، وهو ما يورثه الخيبة، ويجرده من الرئاسة، ويرث معاوية ظهورا عليه، ووصولا إلى ما يريد لنفسه من الملك والسلطان، وتجريد الهاشميين والإمام علي من الخلافة التي آثره المسلمون.

إن معاوية كان ضعيفا بماضيه في الدين، ودرجته في العلم والفصاحة، وفي الفروسية والشجاعة، فاستطاع أن يكون هو القوي بالحزم والدهاء، وبالصرامة والمضاء، والإمام علي رضي الله عنه كان هو القوي بجنوح اغلب المسلمين إليه، وبشخصيته ومناقبه وماضيه، فصار هو الضعيف بلينه وحسن نيته، فوقع فيما وقع فيه، وأجبرته العامة على إتيان ما يعتقد انه بواره، وأرغمته على إتيان أربعة أشياء كانت كلها وبالا عليه وعلى الخلافة الإسلامية، وسببا لفوز معاوية عليه، وهذه الأشياء التي أرغم عليها الإمام علي رضي الله عنه هي: إيقاف الحرب، وقبوله للتحكيم في صفين، ومد الأجل لمعاوية قبل التحكيم، وقبوله لأبي موسى الأشعري وكيله في التحكيم، وقتاله أهل النهروان، وهم أنصاره، والمخلصون من أتباعه، فهاض جناحه، وهدم أركانه.

هذه هي الغلطات السياسية التي أباها عليه خاصته، فخالفهم فيها مجبورا، لتسلط العامة عليه، فعلموا انه لا يستطيع قيادة العامة، والسيطرة على الجماهير التي سممها معاوية بجواسيسه وصنائعه، والقضاء على رؤوس الفتنة والفساد التي بثها معاوية في جماعته، وان الخلافة الإسلامية تحتاج إلى شخصية في دهاء معاوية، وصرامة عمر بن الخطاب، ولما جرد نفسه من الخلافة بقبوله للتحكيم، لان التحكيم في شيء معناه انه غير ثابت الحكم، وبتجريد الحكمين اللذين ارتضاهما لهمن الخلافة، وزالت بيعته عن الأعناق، ورأت تلك الخاصة مكن المسلمين ، وان معاوية إلى نجاح في

أمره، وانه متغلب على الإمام علي، وانه سيحقق ما يريده لنفسه ولبنى أمية من ملك، فتصير الإمامة الديمقراطية، والجمهورية الإسلامية «ملكية» كسروية مستبدة، أعفوا الإمام عليا مما خلع منه نفسه، فقدموا على أنفسهم رجلا يصول بهم على معاوية، ويرده بحزمه ودهائه وامتثال العامة له إلى طريق المسلمين، ويصون الإمامة الإسلامية فلا يقضي عليها الأمويون فيجرون الدولة الإسلامية إلى طريق الملكية المستبدة التي مزقت جماعة المسلمين، ووقع بها العالم الإسلامي في بلاء شديد، وهذه الجماعة هي التي بايعت عبد الله بن وهب الراسبي الصحابي إماما لها.

إن الله لا يجمع كل الفضائل النفسية إلا الأنبياء، فما كان لشخص غيرهم أن يكون على التفوق في كل النواحي، وعلى اللياقة لكل الأمور، إنه إذا كمل في نواح فلابد وان يكون على القصور في نواح أخرى، وقد كان علي في الذكاء العلمي أكثر من أكثر وعمر، فلا عجب أن لا يكون مثلهما في الميدان العلمي، ويتمتع بما يتمتعان به من نفاذ ونظر بعيد، وكان علي رضي الله عنه إمام الفصاحة، ومعدن البلاغة، وعلم الإعلام في العلم والشجاعة، فلا بد وأن يكون ضعيفا في نواحي أخرى مما تستوجبه الإمارة، وهو ركن في الخلافة، لان الكمال الإنساني لا يكون إلا للأنبياء، ولا يؤتيه الله إلا لصفوة الرسل، أما العلماء والزعماء فإذا رجحت كفتهم في ناحية شالت في نواحي كثيرة، فلذلك يجب أن يضموا إلى عقولهم عقولا كثيرة، والى مواهبهم مواهب عديدة من الوزراء والمستشارين، ومن خاصتهم الذين هم القدامى في الأجنحة، والنور في الظلمات المدلهمة، فيكملون بهذا، فيضطلعون بأمور الدولة، ويصلون بالأمة إلى كل ما تريد من قوة ونجاح، وسعادة وفلاح، وقد فعل معاوية هذا في أول أمره فكان يصغي إلى عمرو بن العاص، وغيره من دهاء أهل الشام فنجح، وترك الإمام علي رضي الله عنه هذا الشرط فلم يصغ لوزرائه، ودهاء حزبه، كابن عباس، والأحنف بن قيس، والمغيرة بن شعبة، فوصل إلى العاقبة الوخيمة التي وصل إليها.

إن عدم إصغاء الإمام علي رضي الله عنه إلى الوزراء، ولينه للعامة، سيطرتها عليه هو سبب تفوق معاوية وغلبته له، فلنلم بأسباب ثورة معاوية عليه، وبحروبه معه، لنرى بالنصوص والحوادث ما قررناه من عدم إصغاء الإمام علي لخاصته، ولينه للعامة حتى تمردت عليه، ووقع في قبضتها، لنرى بعد ذلك كيف ينشأ الإباضية الذين لابد أن نعرف حقيقتهم لتكون دراستنا لتاريخ المغرب كاملة، ومعلوماتنا فيه صحيحة، وليزول من صدورنا منا أقرته فيه الدعاية الملكية الكاذبة في الكتب التاريخية القديمة التي لا زالت مرجعا لنا نهل منه، وننقل عنه ما يوقعنا في أخطاء كبرى، ويكتب كثيرون في

تاريخ المغرب ما نظلم به المغرب أشنع الظلم،ويصور أولئك المطمئنون إلى هذه المراجع الخاطئة آباءهم وأجدادهم وإخوانهم في صورة بعيدة عن الحقيقة، تسئ إلى المغرب وتزري به، وتبرز النور ظلاما. والجواهر التي تشرق إشراقها في التاج على الهام، حصاة رخيصة توطأ بالأقدام.

فكيف نشأ الإباضية الذين احيوا في المغرب ما أندرس في المشرق من الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية، فسعد المغرب بهم وعلا، ودخل بهم أعراسه، ونجا من غطرسة الملوك واستبدادهم، ومن انحرافهم عن طريق الدين في سياسة المسلمين؟.

ثورة معاوية وخروجه على الإمام علي رضي الله عنه.

كان الإمام عثمان رضي الله عنه قد عزل بعض عمال عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمداخلة الأمويين له، فولى بدلهم على الأمصار رجالا من أهله وذويه. وكان قد عزل عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود عن الكوفة وولى عليها الوليد بن عقبة بن أبي معيط، ثم سعيد بن أبي العاص بن أمية بعده، وولى على البصرة عبد الله ابن عامر، وعزل عمرو بن العاص عن مصر وولى عليها عبد الله بن سعيد بن أبي سرح أخاه من الرضاعة، واستعمل على اليمن يعلى بن منية وكان حليف، واستعمل أسيد بن الاخنس بن شريف الثقفي حليف بني زهرة وكان ابن عمه عثمان.

وكان الناس قد سخطوا بعض هؤلاء العمال، وانتقدوا سيرتهم، وشكوا من ظلمهم، واتهموهم برقة الدين، وبالأنانية والأثرة، وباحتجان أموال المسلمين لأنفسهم. وكانوا يطالبون الإمام عثمان بعزلهم، واستبدالهم بغيرهم. وكان هؤلاء العمال من أسباب ثورة العامة على عثمان، ومن الأشياء التي استغلها خصومه لإثارة الفتن عليه، وإحداث القلاقل التي أدت إلى قتله رضي الله عنه.

وكان من هؤلاء العمال الأمويين معاوية بن أبي سفيان بن حرب. وكان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قد ولاه على الشام، فاقره عثمان في ولايته، وبقي واليا عليه إلى مقتله.

وكان معاوية فيه كفاءة ونهضة، وذكاء ودهاء، وجرأة وطموح، وكان محبا للرئاسة، مشرئبا إلى الملك، ذا همة عالية تأبى عليه أن يسوده غيره، ويتقدمه سواه. وكان كابية قد سر وابتهج بخلافة عثمان لأنه أموي، ولما قتل وجد فرصته، وآلى أن لا تخرج الإمارة من بني أمية، وان لا يحظى بها احد سواه.

شخصية معاوية / استعداد معاوية للحصول على الملك

وكان معاوية قوي الشخصية، رزينا ركينا، ذكيا قوي الذكاء، ينظر بعيدا فيرى ما لم يكن فيستعد له، وكان حازما طموحا، وقد سماه عمر بن الخطاب لدهائه وقوة شخصيته: كسرى العرب ! وكان معاوية يعلم أيام عثمان في الخلافة لابد أن تنقضي فيبايع الناس عليا لأنه يليه في الدرجة، وهو الشخصية البارزة بعد عثمان، فآلى أن لا يخرج الأمر من الأمويين إلى الهاشميين فاستعد لاستبقاء الإمارة فيهم، فاصطنع أهل الشام، واستمال رؤساءهم، واستطاع بقوة شخصيته دهائه أن يمتلك قلوب أهل الشام فأحبوه وأطاعوه، وصاروا جنده وأنصاره، يغضبون لغضبه ويرضون لرضاه، ويوجههم أنى يشاء، ويصرفهم كما يريد.

وكان التدبير والدهاء وحسن السياسة يقتضي أن يقر الإمام على عمال عثمان سيما الأمويون منهم الذين يعرفون حبهم للدنيا، وغرامهم بالرئاسة، ويبقيهم على أقطارهم وإمارتهم إلى أن يبايعوه ويأخذوا له البيعة على الناس، فتكون تلك الأقطار له، ويكون أولئك العمال من رعيته، تجب عليهم طاعته، وامتثال أوامره. فيستطيع بعد ذلك عزلهم الواحد بعد الآخر بتدبير حكيم، ووسائل بارعة لا تجعلهم يثورون عليه ولكنه رضي عنه تأثر بانتقاد العامة لأولئك العمال، فرأى أن أول عمل يجب أن يقوم به في إمامته هو تطهير جهاز الدولة، وعزل أولئك العمال قبل أن يبايعه بعضهم سيما معاوية الذي رسخت عروقه في الشام، وكثرت أتباعه، وصار اكبر قوة يمكن أن تثور عليه.

عدم إصغاء علي إلى نصحائه

وقد نصحت عليا خاصته أن لا يتعجل بعزل عمال عثمان، وبينوا له السبب الذي ذكرنا، ولكنه رضي الله عنه لم يصغ إلى نصحهم، فأبى إلا عزلهم، سيما معاوية الذي رأى عزله فرضا عليه، وأراد رضي الله عنه أن يتشبه بالفاروق في صلابته في بعض الأمور، ولكن الفاروق لو كان مكانه وفي أيامه ما تصرف إلا كما أشارت به خاصة الإمام، وهو الإبقاء على عمال عثمان إلى أن تبايعه إفطارهم ويبايعوه ثم يعزلهم بعد ذلك الواحد بعد الآخر بأسلوب بارع يثيرهم عليه.

قال ابن الأثير: روى ابن عباس قال: أتيت عليا بعد مقتل عثمان عند عودي من مكة، فوجدت المغيرة بن شعبة مستخليا به، فخرج من عنده فقلت له: ما قال لك هذا؟ فقال: لي قبل مرته هذه: إن لك حق الطاعة والنصيحة وأنت بقية الناس، وإن الرأي اليوم تحرز به ما في غد، وإن الضياع اليوم يضيع به ما في غد أقرر معاوية، وابن عامر، وعمال عثمان على أعمالهم، حتى تأتيك بيعتهم، ويسكن الناس، ثم اعزل من شئت. فأبيت عليه ذلك، وقلت: لا أداهن في ديني، ولا أعطي الدنية في أمري،. قال : فإن كنت أبيت علي فانزع من شئت واترك معاوية، فإن في معاوية جرأة، وهو في أهل الشام يستمع منه، ولك حجة في إثباته، كان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام. فقلت: لا والله لا استعمل معاوية يومين، ثم انصرف من عندي، وأنا اعرف فيه انه يود أني مخطئ، ثم عاد إلي الآن فقال: أني أشرت عليك أول مرة بالذي أشرت وخالفتني فيه، ثم رأيت بعد ذلك أن تصنع الذي رأيت، فتعزلهم وتستعين بمن تثق به، فقد كفى الله، وهم أهون شوكة مما كان ! قال ابن عباس فقلت لعلي: أما المرة الأولى فقد نصحك، وأما المرة الثانية فقد غشك. قال: ولم نصحني؟ قلت: لان معاوية وأصحابه أهل دنيا فمتى ثبتهم لا يبالون من ولي هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولون: اخذ هذا الأمر بغير شورى، وهو قتل صاحبنا، ويؤلبون

عليك فتنتقض عليك الشام وأهل العراق، مع أنى لا آمن طلحة والزبير أن يكرا عليك. وأنا أشير عليك أن تثبت معاوية، فان بايع لك فعلى أن اقلعه من منزله، وقال علي: والله لا أعطيه إلا السيف ثم تمثل:

وما ميتة إن متها غير عاجز *** بعار إذا ما غالت النفس غولها

فقلت: يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع لست صاحب رأي في الحرب. أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الحرب خدعة» فقال: بلى. فقلت: أما والله لئن أطعتني لأصدرنهم بعدد ورد، ولأتركنهم ينظرون في دبر الأمور لا يعرفون ما كان وجهها في غير نقصان عليك، ولا إثم لك. فقال يا ابن عباس، لست من هناتك ولا من هنات معاوية في شيء. فقلت: اطعني والحق بمالك «بينبع» وأغلق بابك عليك فأن العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك، فانك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنك الناس دم عثمان إذا، فأبي علي فقال: تشير علي وارى، فإذا عصيتك فاطعني. -قال: فقلت: افعل، إن أيسر مالك عندي الطاعة. فقال له علي: تسير إلى الشام فقد وليتكها فقال ابن عباس: ما هذا برأي ! معاوية رجل من بني أمية وهو ابن عم عثمان وعامله، ولست آمن أن يضرب عنقي بعثمان، وإن أدنى ما هو صانع أن يحسبني فيتحكم علي لقرابتي منك، وإن كل ما حمل عليك حمل على، لكن اكتب إلى معاوية فمنه وعده فقال: لا والله لا كان هذا أبدا ! وكان المغيرة بن شعبة يقول: نصحته فلما لم يقبل غششته وخرج فلحق بمكة.[1]

خروج معاوية على الإمام علي

وكان الإمام رضي الله عنه مصرا على رأيه، ورغم معارضة ابن عباس والمغيرة نصحهما له، فأبى إلا عزل معاوية عن الشام، فعزله، فتمرد معاوية وأعلن الخروج عليه، واستعد لحربه.

وكان معاوية داهية يعرف كيف يؤرث الحماس في النفوس، وكيف يثير العامة ويهيجها، فاستعمل قتل عثمان كل الاستغلال في إثارة عامة الشام، فعلق قميص عثمان الملطخ بدمائه في منبر المسجد ومعه أصابع زوجته نائلة بنت القرافصة التي قطعها الثوار لما حامت عن زوجها، واتقت السيوف المنهالة عليه بيدها، فجمع معاوية جنده وحاشيته وأنصاره فتباكوا حول القميص، فألهب حماس العامة بهذا المنظر المؤثر وتظاهر بالطلب بدم عثمان واتهم عليا بقتله والتآمر عليه، وهو يريد بهذا أن يجر الإمارة

1 - الكامل لابن الأثير ج 3 ص 101 ط. النيرية.

إليه، ويصطاد ما يريده لنفسه، فثارت عامة الشام على الإمام علي وانضوت كلها تحت لوائه.

استمالة معاوية لرؤساء القبائل ولعمرو بن العاص

واستمال معاوية رؤساء القبائل في الشام، ومناهم وواعدهم المناصب العلية، والخير الكثير في دولته، فقاموا معه يؤيدونه ويحثون أقوامهم على تأييده والحرب معه. واستمال رجالات العرب الذين يعرف حبهم للدنيا وغرامهم بالسلطان كالأشعث بن قيس، وعمرو بن العاص، وذي الكلاع.

روى المسعودي قال: بعث معاوية إلى عمرو بن العاص فسار إليه فقال له معاوية: يا يعني قال: لا، والله لا أعطيك من ديني حتى أنال من دنياك، قال: سل، قال: مصر طعمه، (يعني يوليه عليها ويطلق أيديه في أموالها، يأخذ ما يشاء، ويتمتع بها كما يريد.) فأجابه معاوية إلى ذلك، وكتب له به كتابا.[1]

دعوة الإمام على معاوية إلى الجماعة وإباؤه

وكاتب الإمام علي معاوية فدعاه إلى الجماعة، والدخول فيما دخل فيه المسلمون، وأن يبايعه وينضم إلى جماعة المسلمين، فأبى واستكبر، وصرح بالحرب والعدوان، فلم يجد الإمام علي رضي الله عنه بدا من استعمال العنف وامتشاق الحسام، ورأى أن معاوية من البغاة الذين اوجب الله مقاتلتهم في قوله الحكيم: «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ إلى أمر الله»[2]فجهز جيوشه فسار إلى معاوية ليردعه بالقوة، ويرده إلى طريق الله بحد السيوف، وينفذ فيه حكم الله الذي أمر بمقاتلة أمثاله إلى أن يفيئوا إلى أمر الله. وكان عدد جيش الإمام علي تسعين ألفا فيه كبار الصحابة والتابعين، والعلماء والزهاد، وكل من يعمل لآخرته، ويؤثر ما عند ربه، ويريد للحق أن ينتصر، وللعصبية والأنانية والملكية أن تبيد. وكان مسير الإمام علي من الكوفة لقتال معاوية لخمس بقين من شوال سنة ست وثلاثين من الهجرة.

خروج معاوية إلى الإمام علي ومنعه الماء في صفين

وكان معاوية قد سمع بسير الإمام إليه فزحف في جيوشه، وكان عددهم خمسا وثمانين ألف جندي.

1 - مروج الذهب للمسعودي ج 2 ص 363 ط. التجارية. ما بين قوسين شرح ليس من المسعودي.

2 - سورة الحجرات.

قال المسعودي: «فسبق معاوية إلى «صفين»[1] وعسكر في موضع سهل افيح اختاره قبل قدوم علي، على شريعة لم يكن على الفرات في ذلك الموضع أسهل منها للوارد إلى الماء، وما عداها اخراق عالية، ومواضع إلى الماء وعرة، ووكل أبا الأعور السلمي بالشريعة مع أربعين ألفا، وبات علي وجيشه في البر عطشا قد حيل بينهم وبين الورود إلى الماء ! فأرسل الإمام علي رضي الله عنه فصيلة من جيشه فقاتلوا أبا الأعور السلمي وجيش معاوية حتى أزالوهم عن الماء، وكسحوهم عن مكانهم. قال المسعودي: وورد علي فنزل في الموضع الذي كان فيه معاوية، وانحاز معاوية بأهل الشام إلى ناحية في البر نائية عن الماء، فأرسل إلى علي يستأذنه في وروده مشرعته، واستقاء الناس من طريقه، ودخول رسله في عسكره، فأباحه الإمام كل ما سأل وطلب منه».[2]

خطر جواسيس معاوية على الإمام

وكان معاوية داهية كل الدهاء فاستغل اختلاط جيشه بجند الإمام، فستمال كثيرا من قواده، منهم الأشعث بن قيس، وبث جواسيسه في جيش الإمام ينفخون في عامته ما يشاء، ويسولون لهم ما يريد، ويهيؤون نفوسهم لتنفيذ الخطة التي رأى بثاقب نظره انه لا بد أن يضطر إليها للتغلب على الإمام.

لقد كان الإمام كريم النفس، حسن النية، فأبى أن يعامل معاوية بالمثل، ثم أذن له في المسير بين صفوفه، والاختلاط بجنده، فلو منعه الماء لعجل بهزيمته، وأرغمه على الاستسلام. وإذا كان هذا ليس من كرم النفس، ومن التدبير الحكيم، فانه يجب أن يحصن جيشه، وألا يدع جواسيس معاوية وصنائعه يسممونه، ويجرون جنده إلى ما يريد، وان يكون متيقظا فيقضي على كل من يخونه من جنده، ويعمل في الخفاء ضده، كالأشعث بن قيس وغيره ممن استمالهم معاوية من قواد الإمام فصاروا يعملون في الخفاء ضده.

دعوة الإمام على معاوية وجيشه إلى الكتاب والسنة والدخول في الجماعة

قال المسعودي: « ولما كان أول يوم من ذي الحجة-سنة ست وثلاثين- بعث علي إلى معاوية يدعوه إلى اتحاد الكلمة، والدخول في جماعة المسلمين، وطالت المراسلة بينهما، فاتفقوا على الموادعة إلى آخر المحرم من سنة سبع وثلاثين. ولما كان في اليوم الآخر من المحرم قبل غروب الشمس بعث علي إلى أهل الشام: أني قد احتججت عليكم بكتاب

1 - صفين. قال ياقوت: موضع بقرب الرقة على الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس.

2 - مروج الذهب ج 3 ص 386 ط التجارية

الله، ودعوتكم إليه، واني قد نبذت إليكم على سواء، إن الله لا يهدي كيد الخائنين، فلم يردوا عليه جوابا: «إلا السيف بيننا وبينك أو يهلك الأعجز منا» !

وأصبح يوم الأربعاء وكان أول يوم من صفر فعبأ الإمام علي الجيش، واخرج الاشتر النخعي إمام الناس، واخرج إليه معاوية -قد تصاف أهل الشام وأهل العراق- حبيب بن مسلمة الفهري، وكان بينهم قتال شديد سائر يومهم، وأسفرت عن قتلى من الفريقين جميعا، وانصرفوا».

دعوة الإمام علي معاوية إلى مبارزته

وكانت الحروب في أول الأمر مناوشات، ومعارك صغيرة لا يشترك فيها إلا جزء من الجيشين، ثم استعر الأوار، واشتدت الهيجاء، وقاد الإمام جيوشه بنفسه، وركب بغله النبي الشهباء، وتعمم بعمامته، وخاض أتون المعركة يجندل الأقران، ويهزم جيوش معاوية ويردهم إلى الوراء. وقد دعا معاوية إلى مبارزته فأجفل عنه وخاف من فتكه. قال المسعودي :»ثم نادى علي: يا معاوية، علام يقتل الناس بيني وبينك؟ هلم أحاكمك إلى الله، فينا قتل صاحبه استقامت له الأمور. فقال له عمرو بن العاص: قد أنصفك الرجل. فقال له معاوية: ما أنصفت ! وانك لتعلم انه لم يبارزه رجل قط إلا قتله أو أسره ! فقال له عمرو: وما يجمل بك إلا مبارزته. فقال له معاوية: طمعت فيها بعدي، وحقدها عليه.

دهاء عمرو وكرم نفس الإمام

وقد قيل في بعض الروايات: إن معاوية اقسم على عمرو لما أشار عليه بهذا أن يبرز إلى علي، فلم يجد عمرو من ذلك بدا، فبرز، فلما التقيا عرفه علي وشال السيف ليضربه به، فكشف عمرو عن عورته، وقال: مكره أخوك لا بطل. فحول علي وجهه عنه «لحيائه وكرم نفسه» وقال: قبحت، ورجع عمرو إلى مصافه».[1]

وكانت المعركة الكبرى في صفين هي معركة يوم الهرير وليلة الهرير استمرت يوما وليلة، وإنما سميت معركة يوم الهرير لشدتها وعنفها فكان لا يسمع فيها إلا هرير الأبطال يحمل بعضهم على بعض، ويجندل بعضهم بعضا. وكان أبطال هذه المعركة إنما هم القراء، وهم جماعة من الصحابة وكبار التابعين وخاصة الإمام علي وزيدة أنصاره، وكان يقودهم عمار بن ياسر الصحابي المشهور الذي قال له الرسول عليه السلام: تقتلك الفئة الباغية فقتل في هذه المعركة الفاصلة، قتله جيش معاوية،

1 - مروج الذهب ج 2 ص 397 ط التجارية

فكان قتله من الأدلة والبراهين على بغي معاوية، وخروجه على الجماعة، ومخالفته لأمر الله، ومما قوى عزائم كثير من عامة الإمام وثبت قلوبهم في القتال، وزادهم يقينا أنهم على الهدى. وكان من الأبطال في هذه المعركة الكبرى الاشتر النخعي. وقد اشتد وطيسها ورجحت فيها كفة الإمام، وانتقضت صفوف معاوية، وانهزم أصحابه، وقارب جيش الإمام خيمة معاوية، فرأى الموت الأحمر يسرع إليه، والهزيمة تحل بجيوشه، فداخله الرعب فهم بالهرب، ولكنه كان قوي القلب صنديدا، فعلم أن النصر إنما يكون بالصبر في ربع الساعة الأخير، وان ثباته قد يفتح له بابا للفرج، ويفتق له كوة للنجاة والنجاح، فتماسك وثبت وترك منا هم به ! وكان معاوية بعد ذلك يحدث فيقول: لما وضعت رجلي في الركاب ذكرت قول عمرو بن الإطنابة:

أبت لي عفتي وأبى بلائي *** وأخذني الحمد بالثمن الربيح

وإقدامي على المكروه نفسي *** وضربي هامة البطل المشيح[1]

وقولي كلما جشأت وجاشت[2] *** مكانك تحمدي أو تستريحي

فأخرجت رجلي من الركاب وأقمت، ونظرت إلى عمرو فقلت له: اليوم صبر وغدا فخر فقال: صدقت. واشتدت المعركة واستمرت الهزيمة في جيش معاوية، وانتقضت كل صفوفه، وأمسى النصر محققا للإمام علي، ورأى القراء والاشتر الظفر والنجاح فعلموا أن دماء قتلاهم لم تذهب هدرا، وأيقنوا بالنصر المبين، وتأكد لديهم انهزام معاوية وحزبه. ورأى معاوية الهزيمة النكراء تحل به، فعلم أن المعركة إذا استمرت فانه سيكون طعمتها، وانه إما أن يثبت فيقتل، أو يهرب وهذا عنده شر من القتل وكان داهية وقد اصطنع عمرو بن العاص لمثل هذه المآزق، واعده لمثل هذا اليوم العصيب ففزع إليه فقال: هلم مخبآتك يا عمرو. فقال عمرو: «هل لك في أمر اعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعا ولا يزيدهم إلا فرقة، فاني عليم بأهل العراق» قال: نعم: نرفع المصاحف ثم نقول «لهم» هذا حكم بيننا وبينكم، فان أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول، ينبغي لنا أن نقبل فتكون فرقة بينهم، وإن قبلوا ما فيها رفعنا القتال عنا إلى اجل. وكان معاوية يعلم أن جواسيسه وصنائعه في جيش الإمام علي سيقبلون هذه الدعوة ويغتنون هذه الفرصة لبث الشقاق والبلبلة ويعملون لإيقاف الحرب التي أمسى معاوية في لهوتها تطحنه لتزدرده، فينجو من الهزيمة، ويفلت من النطع الذي أوقف فيه. فقبل مكيدة عمرو فرفعوا

1 - المشيح: المقبل على عدوه المانع لما وراء ظهره.

2 - جشأت وجاشت: ارتفعت نفسه من الفزع.

المصاحف على الرماح وقالوا: هذا حكم كتاب الله بيننا وبينكم. من لثغور الشام بعد أهله؟ من لثغور العراق بعد أهله؟

وكان معاوية قد اصطنع رؤساء كثيرين من جيش الإمام علي، منهم الأشعث ابن ألقيس الكندي، وكان مسموع الكلمة في قومه، كثير الأتباع من قبيلته، فوجد الأشعث وحزبه فرصتهم فقبلوا إيقاف الحرب والرجوع إلى التحكيم، فبثوا الدعاية في العامة البسيطة، واروهم أن معاوية يدعو إلى تحكيم الكتاب، فما حكم به خضع له. وكانت كلمة «الكتاب» سحرية، والرضوخ لحكم الله وصف جليل، فاستغل الأشعث وحزبه هذه المفاتيح السحرية، فموهوا بها على العامة، واستغلوا أيضا ضجر كثير من العامة لطول القتال، وسامهم من امتداد المعارك، فاستمالوا جمهورا غفيرا منهم، وأصبح اغلب الرأي العام من العامة في جيش الإمام معهم، فذهبوا إلى الإمام في هذا الجمع الغفير الذي حمسوه واروه أن قبول التحكيم دين لا بد من أتباعه، فطالبوا الإمام عليا بإيقاف الحرب وقبول التحكيم، وهددوه وأرعدوا عليه فلان لهم، ورضخ لمطالبهم، فكانت الطامة الكبرى.

وكان الاشتر النخعي يقود جيش القراء فرأوا المصاحف فلم يبالوا بها، وأيقنوا إنها خدعة، ومضوا قدما في الحرب ليجهزوا على معاوية الإجهاز الأخير، ويجنوا ثمرة كفاحهم وقتالهم الذي خاضوه في تسعين معركة في مائة يوم وعشرة أيام قضوها في صفين في لامة الحرب ومكارهها، وسقط في هذه المعارك من شهدائهم وخيرة أبنائهم وإخوانهم خمسة وعشرين ألف شهيد منهم خمسة وعشرين من الصحابة، ورأوا النصر على كثب، وقربوا من معسكر معاوية وخيمته، ولم تبق إلا خطوة قصيرة فينتهي القتال بانتصار رائع للإمام ! فما هالهم إلا خضوع الإمام للعامة التي يقودها الأشعث بن قيس وصنائع معاوية، وأمر الإمام لهم بوقف القتال وقبول التحكيم. فأبى الاشتر وأبى الذين معه وهم من الصحابية وكبار التابعين قبول التحكيم، فاستمروا في القتال حتى أرغمهم الإمام علي بالكف ووضع السلاح. فبلغ معاوية ما يريد.

قال ابن الأثير فلما رأوا -«الأشعث وأنصاره»- المصاحف قالوا: نجيب كتاب الله فقال لهم علي: عباد الله امضوا على حقكم وصدقكم وقتال عدوكم فان معاوية وعمرا وابن أبي معيط وحبيبا ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن. أنا اعرف بهم منكم، قد صحبتهم أطفالا ثم رجالا. ويحكم والله ما رفعوها إلا خديعة ووهنا ومكيدة ! فقالوا له: لا يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله. فقال لهم علي فاني إنما أقاتلهم ليدينوا لحكم الكتاب، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونسوا عهده ونبذوا كتابه فأبى الأشعث ومن

معه إلا إيقاف الحرب، فخضع الإمام علي. فافلت النصر من يده. وكان يجب أن يعلمن من قبل لرعيته الطاعة، ويعودهم الانقياد، سيما إذا كان ما يأمر به قد أوجبه الدين كهذا الذي هم فيه من قتال البغاة. فقد أمر الله واوجب أن يقاتلوا حتى يرجعوا إلى الجماعة، ويفيئوا إلى أمر الله. وكان يجب على الإمام أن يكون صارما في هذه المواطن، فلا يفتح باب المفاوضة والجدال مع العامة في شيء حكم الله فيه فأصبح فرضا واجبا لا يجوز خلافه، ولا يأذن لهم أن يجادلوه ويخاصموه في ترك شيء أيقن بالصواب فيه، وإتيان شيء يعتقد خلافه للمصلحة، ونايه عما أمر الله به. ولكنه رضي الله عنه كان لينا فاستغل صنائع معاوية كالأشعث وأنصاره لينه، فاثأروا العامة عليه فأرغمته على ما أراد لها أنصار معاوية فرضخ لما تريد؛ ولو صمم على ما أرى من وجوب الاستمرار في القتال آونة قصيرة، ووقف موقفا حازما صارما مع الذين طلبوا منه إيقاف الحرب، وقد رأى النصر والنجاح، ورأى معاوية ينكسر ويتضعضع، وصفوفه تنتقض وتتراجع، وجنده يداخلهم الوهن والجزع؛ لو وقف موقفا صارما مع الأشعث وأنصاره، فضرب على أيديهم، وأدبهم بما به يرتدعون لو جد من جنده الكثيف ومن خاصته التي تأبى التحكيم من يعينه على ذلك التأديب ومن يطهر جيشه من صنائع معاوية وجواسيسه، فيضمن لنفسه ولجيشه النتيجة الحسنة وهي: قمع الملكية، والإبقاء على الإمامة العادلة؛ والجمهورية الإسلامية التي جاء بها الدين، هذه النتيجة التي حاربت جيوشه من اجلها، وخاض لتحقيقها القراء المعارك الفاصلة المهولة، فاستطاعوا أن يقوضوا جيوش معاوية القوية، وضحوا من اجلها بخمس وعشرين ألفا من شهدائهم الأبرار.

لقد ابتلى أبو بكر وابتلى عمر بمطالبة العامة لهما بأشياء لم يحكم فيها الدين، ولكن المصلحة كانت في غير ما طالبت به العامة، والنجح والفلاح وما يراه الخاصة غير ما تريد تلك الدهماء، فكانا صارمين قويين فرضخت العامة لنا يريدان، ولم يرضخا هما للعامة ! عن لين الإمام علي وانقياده للعامة هو الذي جرأها عليه، فلم تعد تهابه وتخشى سطوته، وأمست مقاليده بيدها، فصارت تستطيع أن ترغمه لما تشاء، وتدفعه لما تريد.

كان جيش الإمام هو المنتصر فأمر بإيقاف القتال، قبول التحكيم، وأرسل إلى القراء الذين كان يقودهم الاشتر بعد استشهاد عمار بن ياسر فأمرهم بإيقاف المعركة، فأبوا عليه إيقاف الحرب، ورفضوا قبول التحكيم، وسألوه أن يمهلهم ساعة في المعركة ليجهزوا على معاوية. أنهم على أبواب معسكره ليحتلوه، وهو قد هيأ فرسا شديدة سريعة العدو، ليهرب عليها، فيحققوا للإمام ولأنفسهم النصر الذي سفكوا دماءهم

من اجله. وكانوا يوقنون أنهم إذا أوقفوا الحرب، ومكنوا معاوية من تنظيم صفوفه فسيحتاجون إلى آلاف من الشهداء يضحون بها للتغلب عليه، أو تنقلب النتيجة فلا تكون لصالحهم. فاحتجوا على الإمام على في الرضوخ للعامة، وسألوه رفض التحكيم، ولكن الإمام للينة كان قد مكن الأشعث بن قيس وحزبه من أنصار معاوية أن يؤلبوا العامة عليه، ويجمعوا حولهم جموعا غفيرة منها زحفوا بها على الإمام فأرغموه على إيقاف الحرب وقبول التحكيم. وكان يجب على الإمام ولو تألب جمهور كبير من العامة عليه أن يداورهم ويطيل المفاوضة معهم ليطول الوقت فيبلغ الاشتر والقراء غايتهم في المعركة، ويتحقق النصر على معاوية، ثم لا تستطيع تلك العامة وأولئك الجواسيس أن يستمروا في تعنهم، وفي العمل ضده لأنه يقمعهم بجيوشه فلا يخاف أن يقع بين نارين بثورتهم عليه، ولا أن يجد عدو له يحاربه سببا للضعف بشغب العامة عليه فيستغله. وقد بلغ من تعنت العامة وصنائع معاوية، ومن زوال هيبة الإمام عندها، وانعدام احترامه لديها أن هددته بالقتل، كما فعلت بعثمان، إن لم يوقف الحرب ويقبل التحكيم، أو تأسره فتسلمه لمعاوية فيحكم فيه بما يريد ! وبلغ الإمام بلينه إلى هذه الحال المؤسفة، وصار إلى هذه العاقبة التي آلت القراء، وصيرتهم يفكرون أن يعتزلوه احتجاجا إن لم يأخذ بالحزم فيستطيع ضبط العامة، والتصرف في الأمور بدينه وصلاحه، وبما يراه بثاقب نظره ويراه خاصته، فيتوفر فيه شرط من أول ما يجب أن يكون في الإمام، فيرفض التحكيم، ويعاود الكرة على معاوية الذي يعمل للقضاء على الجمهورية الإسلامية العادلة، والإمامة التي أمر بها الدين، وإحياء الملكية المستبدة التي يشقى بها المسلمون؛ لقد صارت خاصة الإمام والقراء في جيشه يتذمرون ويتأسفون لوقوع الأزمة في يد العامة ليلن الإمام ورضوخه لها، واتجاه سير الأمور لغير صلاح الدولة، ويعزمون أن يعتزلون الإمام إذا هو استمر في طريقه، ويطالبون بكل الوسائل أن يرفض التحكيم، ويمضي قدما في حرب البغاة كما أمر الله.

إن لين الإمام الذي يضره هو الذي اذهب هيبته، فأرغمه صنائع معاوية الذين ألبوا العامة عليه على إيقاف الحرب وقبول التحكيم، فأرسل إلى قائد المعركة الذي يجني النصر الاشتر النخعي ومعه القراء والخاصة فأمره أمرا صارما بإيقاف المعركة.

«سئل إبراهيم بن الاشتر عن الحال كيف كانت يومئذ في «صفين» فقال: كنت عند علي رضي الله عنه حين بعث إلى الاشتر «قائد المعركة» ليأتيه، وقد كان الاشتر اشرف على معسكر معاوية ليدخله، فأرسل إليه علي يزيد بن هانئ: أن ائتنى، فاتاه يزيد فابلغه، فقال الاشتر: ائته فقل له: ليس هذه بالساعة التي ينبغي لك علي فاخبره؛ فما هو إلا

أن انتهى إلينا حتى ارتفع الرهج، وعلت الأصوات من قبل الاشتر، وظهرت دلائل الفتح والنصر لأهل العراق، ودلائل الخذلان والإدبار على أهل الشام. فقال القوم لعلي «وهم الأشعث بن قيس وحزبه صنائع معاوية، والعامة التي اثروا فيها وجذبوها إليهم» قالوا لعلي: والله ما نراك إمرته إلا بالقتال ! قال: أرأيتموني ساررت رسولي إليه ! أليس إنما كلمته على رؤوسكم علانية وانتم تسمعون ! قالوا: فابعث إليه فليأتك؛ وإلا فو الله اعتزلناك ! فقال: ويحك يا يزيد ! قل له لقبل إلي فان الفتنة قد وقعت. فاتاه فاخبره، فقال الاشتر. أبرفع هذه المصاحف؟ قال: نعم، قال أما والله لقد ظننت إنها حين رفعت ستوقع خلافا وفرقة. إنها مشورة ابن النابغة «يعني عمرو بن العاص» ثم قال ليزيد بن هانئ: ويحك ! ألا ترى إلى الفتح؟! ألا ترى إلى ما يلقون؟! ألا ترى إلى الذي يصنع الله لنا؟! أينبغي أن ندع هذا وننصرف عنه؟! فقال له يزيد أتحب انك ظفرت ها هنا وان أمير المؤمنين بمكانه الذي هو فيه «يقتل أو « يفرج عنه، ويسلم إلى عدوه؟ قال: سبحان الله! والله لا أحب ذلك، قال: فإنهم قد قالوا له، وحلفوا عليه، لنرسلن إلى الاشتر فليأتينك، أو لنقتلنك بأسيافنا كما قتلنا ذ عثمان، أو لنسلمنك إلى عدوك» فلم يسع الاشتر قائد الإمام، والقراء الذين معه وهم خاصة الإمام والمخلصون من أنصاره إلا إيقاف المعركة والرجوع إلى معسكر الإمام.

قال إبراهيم بن الاشتر: فاقبل الاشتر «إلى الإمام وحوله الأشعث بن قيس وأنصاره والعامة الذين ألبهم عليه» فصاح في الأشعث وحزبه: يا أهل الذل والوهن، أحين علوتهم القوم، وظنوا أنكم لهم قاهرون، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها ! وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها، وتركوا سنة من أنزلت عليه، فلا تجيبوهم ! أمهلوني فواقا[1] فأنى قد أحسست بالفتح، قالوا: لا نمهلك، قال: أمهلوني عدوة الفرس؛ فاني قد طمعت في النصرة، قالوا: إذن ندخل معك في خطيئتك.

قال إبراهيم: فسبهم الاشتر وسبوه، وضربوا بسياطهم وجه دابته، وضرب بسوطه وجوه دوابهم، وصاح بهم علي فكفوا. وقال الاشتر، يا أمير المؤمنين، احمل الصف على الصف تصرع القوم ! فتصايحوا: إن أمير المؤمنين قد قبل الحكومة، ورضي بحكم القران. فقال الاشتر: إن كان أمير المؤمنين قد قبل ورضي فقد رضيت بما رضي به أمير المؤمنين.[2] فاقبل الناس يقولون: قد رضي أمير المؤمنين، قد قبل أمير المؤمنين، وعلى ساكت لا ينبس بكلمة، مطرق إلى الأرض !

---

1 - الفواق : ما بين حليتين يقال انتظرتك فواق ناقة .

2 - لقد قال الاشتر هذا تبكيتا لهم وتحديا لأنه يوقن أن الأمير غير راض، ولكنهم أرغموه.

ثم قام «الإمام علي» فسكت الناس كلهم فقال: أيها الناس، إن أمري لم يزل معكم على ما أحب إلى أن أخذت منكم الحرب، وقد والله أخذت منكم وتركت، وأخذت من عدوكم فلم تترك، وأنها فيهم أنكى وأنهك؛ إلا أني كنت أمس أمير المؤمنين فأصبحت اليوم مأمورا، وكنت ناهيا فأصبحت منهيا، وقد أحببتم البقاء، وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون ثم قد !

خوف معاوية وحيرته

وكان معاوية لما رفع المصاحف ورأى مع ذلك جيش علي يزحف نحوه، ويتقدم ليحتل معسكره، والقراء والاشتر باتون على ما بقي من مقاومته، وثبت في الميدان من جنده، قد خاف أن يكون علي قد رفض إيقاف الحرب وقبول التحكيم، فبات في هم، واخذ الأهبة للهرب إذا اقتحم الاشتر معسكره، وهزم البقية الباقية من جيشه. فلو أن الإمام طاول العامة والأشعث وداورهم زمنا لربح الوقت، ومكن الاشتر والقراء من دخول معسكر معاوية والإجهاز عليه، فيهرب معاوية أو يقتل أو يؤتى به أسيرا، ولكن الإمام رضي الله عنه لينه، وسرعة انقاده، أصغى للمهرجين والمشاغبين، ولصنائع معاوية وجواسيسه، وفتح لهم باب التحكم عليه، وفتق على نفسه بابا للفتنة بتساهله مع الدهماء، ووقع في كرب عظيم، وفي مأزق حرج. فأسرعت جواسيس معاوية إليه تنبئه بان خدعة المصاحف قد أثمرت، ومكيدة التحكيم قد آتت أكلها، وان صنائعه قد استغلوها وأثاروا العامة على الإمام، وقسموا جيشه، فاستغل بعضهم ببعض، وأمسى الإمام في بلاء كبير، فتنفس معاوية الصعداء فاستمسك، وعاودته الحياة، وتجدد فيه الأمل، وقويت فيه الثقة بالنفس، ورجا بلوغ أغراضه بجيشه الخفي الذي بثه في جيش الإمام، فقام بواجبه أحسن قيام.

حدث ابن عباس قال: حدثني معاوية انه كان يومئذ قد قرب إليه فرسا له أنثى، بعيدة البطن من الأرض ليهرب عليها؛ حتى أتاه آت من أهل العراق فقال له: أني تركت أصحاب علي في مثل ليلة الصدر من منى،[1] فأقمت، قال: فقلنا له: فاخبرنا من هو ذلك الرجل، فأبى وقال: لا أخبركم من هو.[2]

اجتماع الأشعث بمعاوية ليتفقا على الخطط المقبلة

وكان الأشعث بن قيس هو رأس البلاء الذي حل بالإمام، وزعيم صنائع معاوية، واكبر

1 - ليلة اليوم الرابع إذا خرج الحجاج من وادي منى.

2 - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج 2 ص 225 ط الحلبي.

منابع هذه الفتنة، وكان عثمانيا، قد ولاه الإمام عثمان على أذربيجان، فصار من صنائع الأمويين، يتمنى أن يكون الملك لهم لتتصل ولايته، وينال ما يريد من الحظوظ لنفسه. وكان الأشعث لما يملك من أتباع العامة له، ولما له من كثرة الأتباع من قومه وصنائعه ذا نفوذ على الإمام، يطالبه بأشياء فلا يسعه إلا الرضوخ، خوفا من تحريك أتباعه فيهتاجون عليه. ولما توقفت الحرب ونجا معاوية من شر الاستئصال، بدأ الأشعث في العمل لإدراك الغرض الثاني وهو تنفي التحكيم وإبرامه وأحكام عقدته، فسأل الإمام عليا أن يجتمع بمعاوية ليرى ما يريد بالتحكيم، وما خطته فيه، وهو يريد الاتصال بمعاوية ليخبره بما جرى، ويتفق معه على الخطط المقبلة، فلم يسع الإمام إلا الإذن له، فأسرع الأشعث إلى معاوية فاجتمع به، فاغتنم معاوية الفرصة فيه، وواعده ومناه، وأكد صلته به، واتفق معه على الخطط المقبلة التي تورث الإمام الفشل في معركة التحكيم، فيفوز عليه، ويبلغ مراده، فيجرد الإمام من إمامته، فيستأثر بالملك الذي يريده لنفسه.

المكيدة في اختيار الأشعري

قال المسعودي: ثم إن الأشعث قال للإمام: «إن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد، قال: ذلك إليك فاته إن شئت، فاتاه الأشعث فسأله، فقال له معاوية: نرجع نحن وانتم إلى كتاب الله، والى ما أمر به في كتابه: تبعثون منكم رجلا ترضونه وتختارونه، ونبعث برجل، نأخذ عليهما العهد والميثاق أن يعملا بما في كتاب الله ولا يخرجا عنه، وننقاد جميعا إلى ما اتفقنا عليه من حكم الله، فصوب الأشعث قوله، وانصرف إلى علي فاخبره بذلك، فقال أكثر الناس «وهم صنائع معوية وأتباعهم !»: رضينا وقبلنا واطعنا، فاختار أهل الشام عمرو بن العاص، وقال الأشعث «وحزبه»: رضينا نحن بابي موسى الأشعري. فقال علي: قد عصيتموني في أول هذا الأمر فلا تعصوني الآن، أني لا أرى أن أولي أبا موسى الأشعري، فقال الأشعث ومن معه: لا نرضى إلا بابي موسى الأشعري، قال: ويحكم ! هو ليس بثقة، قد فارقني وخذل الناس عني وفعل كذا وكذا، وذكر أشياء فعلها أبو موسى، ثم انه هرب شهورا حتى أمنته، لكن هذا عبد الله بن عباس أوليه ذلك، فقال الأشعث وأصحابه: والله لا يحكم فينا مضريان، قال علي: فالاشتر. قالوا: وهل هذا الأمر إلا الاشتر، قال: فاصنعوا الآن ما أردتم، وافعلوا ما بدا لكم أن تفعلوه». [1]

إباء خاصة الإمام للأشعري وكيلا له

قال ابن الأثير: وجاء الاشتر عليا فقال: ألزني[2] بعمرو بن العاص فوالله لئن ملت عيني

1 - مروج الذهب للمسعودي ج 2 ص 401، 402 ط التجارية.

2 - ألزني ألصقني.

منه لأقتلنه. وجاء الأحنف بن قيس فقال: يا أمير المؤمنين انك قد رميت بحجر الأرض، وإني قد عجمت أبا موسى، وحابت اشطره فوجدته كليل الشفرة قريب القعر. وإنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يصير في اكفهم، ويبعد حتى يصير بمنزلة النجم منهم. فان أبيت أن تجعلني حكما فاجعلني ثانيا أو ثالثا. فانه لن يعقد عقدة إلا حللتها. ولا يحل عقدة اعقدها لك إلا عقدت أخرى احكم منها. فأبى الناس إلا أبا موسى والرضا بالكتاب. فقال الأحنف: إن أبيتم إلا أبا موسى فادفئوا ظهره بالرجال. وحضر عمرو بن العاص عند علي ليكتب «عقد التحكيم» بحضوره فكتبوه فألزم الإمام نفسه ما يحكم به الحكمان أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص. فتمت المكيدة الثانية التي دبرها معاوية للإمام.

كيد الأشعث وحزبه بمد الأجل لمعاوية

وجد الأشعث وحزبه في تمام المكيدة الثالثة وهو مد الأجل قبل التحكيم. وإعطاء الوقت الطويل لمعاوية ليجدد قواه، ويستعد. ويوالي ما يشنه على الإمام من حرب حفية بالأشعث بن قيس وصنائعه الكثيرون الذين يدسهم على الإمام، ويكونهم في جيشه، وفي رعيته.

وكانت كتابة عقد التحكيم في آخر صفر، من سنة سبع وثلاثين. وجعلوا اجل التحكيم في رمضان من السنة أو بعده. فأعطوا لمعاوية سبعة أشهر كاملة يدبر فيها ما يدبر.

رجوع الإمام علي إلى الكوفة مصدع الصفوف

وقد أبت خاصة علي المهلة وأرادوا أن يقع هذا التحكيم الذي يرون بطلانه والذي اكره الإمام عليه في صفين بعد العقد مباشرة، قبل أن تفترق جيوش الإمام وقبل أن يستجم معاوية، ويحوك الدسائس التي تزيد في الفتنة التي أشعلها على الإمام فثارت العامة التي يحركها الأشعث وحزبه فأرغمت الإمام على قبول هذا الأجل الطويل والوقوع فيما أراد له معاوية أن يقع فيه ! فرجع الإمام إلى الكوفة مضعضع القوى مفترق الصفوف، قد أوقعه معاوية في إشراكه، ودفعه إلى العاقبة التي يريدها له فتمت المكيدة الثالثة على الإمام. أما معاوية فرجع إلى الشام، ففرق جيوشه فرجع كل إلى بلده، لأنه يعلم انه سوف لا يحتاج إلى الجيوش الحربية في تجريد الإمام من إمامته، وان عمرو بن العاص في يوم التحكيم، وجيشه السري في الكوفة الذي يقوده الأشعث بن قيس، سيحققان كل ما يريد، ويضمنان له أن يتتوج بتاج الملك الذي يتمناه، وان الإمام عليا لم تعد له سيطرة

على الجماهير، فقد زالت هيبته، وأصبح في قبضة الجماهير التي يوجهها الأشعث وصنائعه كما يشاءون.

دعاية الأشعث الواسعة وهجوم عروة بن أدية عليه

وكان الأشعث لما كتب عقد التحكيم قد ذهب به يقرؤه على الناس، ويزينه لهم، زيادة في تثبيته، وتكثيرا لجمعه الذي رضي بالتحكيم، فدخل على بني تميم في معسكرهم وكان اغلبهم يأبى التحكيم فهم أن يقرأ عليهم صحيفته فانبري له عروة بن أدية التميمي فأهوى عليه بسيفه. ولكن الأشعث هرب فوقعت الضربة بجز بغلته، ولو قتله لنجا الإمام من الشرور التي سيجرها عليه.

حزن الإمام علي وتأسفه لما اجبر عليه

ورجع الإمام علي إلى الكوفة وهو مقروح الفؤاد، حزين القلب، قد ساءه ما حل به، متشائما من المستقبل الذي يقبل عليه. قال ابن الأثير يذكر ما قاله الإمام بعد إبرام عقد التحكيم يؤنب العامة ومن اجبره عليه: «والله لقد فعلتم فعلة ضعضعت قوة، وايقطت منة، وأورثت وهنا وذلة !».[1]

رأي خاصة الكوفة في التحكيم

وقال ابن الأثير«ولما كان علي بظاهر الكوفة في طريقه من صفين» لقيه عبد الله لن وديعة الأنصاري فدنا منه وسلم عليه وسايره. فقال له علي: ما سمعت الناس يقولون في أمرنا؟ قال: منهم المعجب به، ومنهم الكاره له. قال: فما قول ذوي الرأي؟ قال: يقولون: إن عليا كان له جمع عظيم ففرقه، وكان له حصن حصين فهدمه، فمتى يبني ما هدم، ويجمع ما فرق !! ولو كان مضى بمن أطاعه إذ عصاه من عصاه فقاتل حتى يظفر أو يهلك كان ذلك الحزم.[2]

وكان خروج الإمام علي إلى صفين لخمس خلون من شوال سنة ست وثلاثين. ورجوعه منها في آخر صفر سنة سبع وثلاثين. ومدة إقامته بصفين ثلاثة أشهر وعشرين يوما، وعدد جيشه غير الخدم تسعون ألف مقاتل، وعدد جيش معاوية خمسة وثمانون ألف جندي غير الخدم والعبيد. وعدد المعارك التي خاضها مع معاوية تسعون معركة والقتلى من الطرفين سبعون ألف قتيل، خمسة وأربعون ألفا من جيش معاوية، وخمسة وعشرين ألفا من جيش الإمام، ومن هؤلاء الشهداء من جيش الإمام عمار بن ياسر وهاشم بن

1 - الكامل ج 3 ص 163 ط المنيرية.
2 - الكامل لابن الأثير ص 164 ج 3.

عينية، وخزيمة بن ثابت، وهم من كبار الصحابة، وثلاثة وعشرين آخرون من الصحابة الذين كانوا في جيش الإمام.

حزن الكوفة وعويلها

قال ابن الأثير: ثم اقبل علي حتى حاذى سكة الثوريين « في الكوفة» فسمع البكاء فقال: ما هذه الأصوات؟ فقيل البكاء على قتلى صفين فقال: أما إني اشهد لمن قتل منهم صابرا محتسبا بالشهادة، ثم مر بالفائشيين فسمع مثل ذلك، ثم مر بالشباميين فسمع رجة شديدة فوقف فخرج إليه حرب بن حبيل الشبامي فقال له علي: أيغلبكم نساؤكم؟ ألا تنهونهن عن هذا الرنين؟ قال: يا أمير المؤمنين لو كانت دارا أو دارين أو ثلاثا قدرنا على ذلك، ولكن قتل من هذا الحي ثمانون ومائة فليس دار إلا وفيها البكاء».[1]

إن نساء الكوفة وهن نساء الصحابة والتابعين، وبنات العرب الأحرار والمسلمين الأولين، لا يبكين لمجرد فقد الأحباء، فإنهن بنات يعرب المؤمنات، يستقبلن نعي شهدائهن بالزغاريد، ويعددن يوم موت قتلاهن في معركة الأجر والشرف يوم عيد، فيزغردن مع الحور لان شهداءهن يزفون إلى الجنة، ويفرحن لان قتلاهن في عرسهم بالفردوس يحظون بنعيم الله الخالد، ولكن بكاء نساء الكوفة المرير، وعويلهن الشديد كان لحسرتهن على ما منى به إمامهن وجيشهن في صفين، ولما أضاع عليه معاوية بكيده من نصر مبين قد أحرزه، وظفر وفتح كان شهداؤهن قد مهروه بدمائهم، وضحوا فيه بأرواحهم، ثم افلت من الإمام فذهبت جهوده ودماء شهدائه أدراج الرياح، إن بكاءهن على قتلى صفين يمازجه حزن شديد، وتحسر كبير على ما فقد الإمام من نصر كان في يده، وظفر على الأعداء كان قد امتلكه.

شماتة الأمويين

قال ابن الأثير: «ثم مضى الإمام علي في طريقه بالكوفة» حتى مر بالناعطيين، وكان جلهم عثمانية، فسمع بعضهم يقول: والله ما صنع علي شيئا، ذهب ثم انصرف في غير شيء، فلما رأوه ابلسوا» فدخل علي رضي الله عنه الكوفة ودخلت معه العامة والأشعث وحزبه الذين حملوه على التحكيم، وبعض خاصته الذين أنكروا التحكيم، كابن عباس والأحنف بن قيس، وكانوا لقرابتهم منه وصلتهم به لا يستطيعون إظهار كل ما في نفوسهم فيحتجون ويحتدون ويعملون في قوة مقنعة تليق بجلالة ومكانته السامية في الدين، لحمله على ترك التحكيم، ومعاودة الكرة على معاوية قبل أن تبرأ

1 - الكامل لابن الأثير ص 164 ج 3.

جراحه، ويذهب الجزع عنه، ويشتد قلبه، وتعاوده الثقة بالنفس. أما القراء الذين كانوا مع الاشتر في معركة النصر، وهم خاصة الإمام ونصحاؤه، وقد أبوا في شدة إيقاف الحرب وقبول التحكيم، فإنهم لم يدخلوا الكوفة مع الإمام، ولكن اعتزلوه احتجاجا وإنكارا للتحكيم، لا خلعا له وثورة عليه كما يدعي الملكيون المغرضون من المؤرخين، فنزلوا «حروراء» وهي قرية من قرى الكوفة، وعددهم اثنا عشر ألفا جلهم من القراء المخلصين للإمام، وفيهم عدد كبير من الصحابة البدريين ومن كبار التابعين. فماذا وقع بين هذه الخاصة من الصحابة والتابعين وبين الإمام؟

إباء القراء وخاصة الإمام على التحكيم واحتجاجهم عليه.

كان مع الإمام علي رضي الله عنه في حروب صفين جمهور كبير من الصحابة والتابعين، وذوي البصيرة في الدين، والنصح للمسلمين، والتقيد بما أمر الله، الوقوف عند حدوده، وكنوا يلقبون لغزارة علمهم، ومعرفتهم بما في الكتاب والسنة ولورعهم بالقراء، وهم خاصة الإمام وعماده، واعضاده الكبار، وأنصاره المخلصون وهم الذين خاضوا المعارك الكبرى في صفين، وكانوا قلب المعركة ومساعيرها في ليلة الهرير ويوم، وهم الذين جالدوا وقاتلوا، وضحوا بآلاف من صفوة إخوانهم وأبنائهم في المعارك، واغرقوا ساحة الوغى بدماء شهدائهم ودمائهم لينصروا أمامهم ويحافظون على الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية التي رام معاوية أن يقضي عليها ويردوا البغاة المعتدين إلى طريق الحق كما أمر الله؛ وهم الذين جاهدوا وصابروا فقوضوا صفوف معاوية واشرفوا على معسكره، ورأوا النصر المبين على كثب منهم قد لاح وأشرقت لهم تباشير الظفر والفلاح، وأصبح النصر عندهم محققا، ثم أمروا بإيقاف الحرب وقبول خدعة التحكيم، والوقوف فيما نصب لهم معاوية من إشراك، فأبوا ذلك على الإمام، وطالبوه بالاستمرار في الحرب، وبينوا له أن معاوية الذي رفض هو وجيشه العمل بما في الكتاب لما دعاهم إليه قبل الحرب ما كانوا ليعملوا به في يوم آخر، وان الله قد حكم في معاوية بحكم قاطع[1] وهو أن يقاتل حتى يرضخ للحق ويرجع إلى الجماعة، ويدخل فيه المسلمون، فما كان لإمام أو رعية أن يحكم الرجال في شيء نزل فيه حكم قاطع، واوجب فيه واجبات بينة، وكان رأي الإمام علي هو رأيهم، ولكن جرفه سيل الدهماء، ورضخ للعامة فجروه لما أرادوا، ولم يضع للخاصة فيستمر في الحرب إلى أن يقضي على معاوية، ولان رضي الله عنه في

1 - هذا الحكم هو ما حكم الله به البغاة المعتدين في هذه الآية الكريمة من سورة الحجرات «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ إلى أمر الله» وقوله فقاتلوا أمر على الوجوب، وقوله: أصلحوا يقصد المفاوضة والأساليب السليمة قبل الحرب فإذا لم تجد فتبج المقاتلة. وقد جرب الإمام علي كل الأساليب اللينة قبل صفين مع معاوية فلم تجد.

مقام لا يجوز فيه اللين، فوقع في الفخ الذي نصبه معاوية، وعلق في الإشراك الظاهرة التي وضعها في طريقه. ولما أبى الإمام ترك التحكيم، والاستمرار في حرب البغاة، احتجوا عليه، واظهروا له إنكار ما أتى. ولما دخل الكوفة عاصمته بعد المدينة لم يدخلوا معه احتجاجا وإظهارا للاستياء، فنزلوا في قرية حروراء قريبا من الكوفة.

أسباب استياء الخاصة على الإمام

وكان هؤلاء الخاصة من الصحابة والتابعين مستائين لمخالفة أمر الله في قتال البغاة ولانهدام جهودهم في صفين، وذهاب دماء شهدائهم أدراج الرياح، وأرزائهم في النصر الذي احروه، والنجاح الذي حصلوا عليه، ولوقوع الإمام في الخدعة الظاهرة التي كاده معاوية بها، ولوقوعه في قبضة العامة يملون عليه ما يشاءون، وهو ما يهدم الدولة، وتأباه السياسة، ويناقض مصلحة المسلمين، ورضوخه للأشعث وحزبه وهم صنائع معاوية وجواسيسه لا يجرون الإمام والدولة إلا إلى المصير السيئ الذي يريده معاوية لهم. فلو أن الإمام عليا هو الذي رأى إيقاف الحرب فاخطأ في رأيه، وآثر التحكيم ولم يصب فيما اختاره، لاغتفروا له، فان المرء يخطئ ويصيب. ولكن معاوية هو الذي أراد ذلك فنصب لهم فخا ظاهرا بينا رآه الإمام ورأته كل الخاصة، ومع ذلك أوقع نفسه فيه بلينه ورضوخه للعامة. كان استياء خاصة الإمام بالغا لكل هذه الأسباب، فاعتزلوه احتجاجا وإنكارا لا خلعا له وثورة عليه كما يدعى الملكيون المغرضون الذين افسدوا التاريخ، واستخدموا حوادث صفين في الدعاية ضد الجمهوريين الذين يتمسكون بالإمامة الإسلامية، ويأبون الملكية المستبدة.

وكان عدد هؤلاء الذين أبوا التحكيم واعتزلوا الإمام اثني عشر ألفا جلهم من الصحابة وكبار التابعين وفيهم عدد كبير من الصحابة الذين شهدوا بدرا مع النبي صلى الله عليه وسلم، وعدد غفير من الذين بايعه تحت الشجرة. ومن هؤلاء الصحابة حرقوص بن زهير السعدي الذي بشره النبي عليه السلام بالجنة ثلاث مرات كما روت عائشة وورد في الكتب الصحاح، وعبد الله بن شجرة ممن بايع رسول الله تحت الشجرة ويزيد بن عاصم ممن بايع تحت الشجرة، وشجرة بن أو في السلامي من أهل بدر، وعبد الله بن وهب الراسبي من الصحابة، أبو عمر بن نوفل، وعيينة بن معمر الأنصاري من الذين تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا لما لم يجد النبي ما يحملهم عليه للجهاد معه، وغيرهم كثير. ومن هذه الخاصة أبو الهيثم بن نبهان، وفروة بن نوفل الاشجعي، وسارية بن الجام السعدي، ويزيد قيسي الازدي، وجعفر بن مالك السعدي، وبشر بن جبلة العامري، وشريك بن الحكم الازدي، وأبو بلال مرداس ابن جدير، أخوه عروة، والمستورد بن علامة،

والأشعث بن بشر العبدي، ميسرة ابن خالد الفهري، وحمزة بن سنان، وزيد بن حصن الطائي، وعباد بن الحرشاء الطائي، والحويرث بن ورع الأسدي، وعمير بن الحارث الأنصاري، وشجرة ابن الحارث، والمسيب بن ضمرة الاسدي، وعبد الله بن عفيف الخزاعي وأخوه سفيان، ونافع مولى ترملة، وترملة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهرم ابن عمرو الأنصاري من بني واقف، وأبو قدامة بن لبيد من بني قيس، وزياد بن حبيل العجلي، والأشهب بن بشر الكوفي، ومالك بن النبهان، وحكيم بن عبد الرحمن الكناني[1] وغيرهم كثير، وهم خاصة الإمام علي واعضاده، والقراء من جيشه، وكبار العباد من رعيته، والذين ناصروه وأيدوه، وكانوا أبطاله في حروب صفين، وأعوانه في مكافحة معاوية وردعه. فماذا وقع بين هؤلاء الخاصة والإمام؟

مطالبة الخاصة بنقض التحكيم والرجوع إلى قتال معاوية

وكانت خاصة الإمام علي وهو الصحابة وكبار التابعين والطبقة العالمة من أنصار الإمام قد أنكروا التحكيم وأبت قبوله، وتأثرت واستاءت من وقف القتال. ولما دخل الإمام علي رضي الله عنه الكوفة لم يدخل معه اغلب هذه الخاصة، إظهارا لاستنكارها، واحتجاجا على الإمام لقبوله للتحكيم، فنزلت في قرية قريبة من الكوفة تسمى «حروراء» فأرسلوا إلى الإمام علي وفدا فيهم حرقوص بن زهير السعدي الصحابي الذي شهد له الرسول بالجنة، ودرعه الطائي ليقدموا احتجاجهم إلى الإمام على قبول التحكيم، ومطالبتهم بنقضه، والرجوع إلى قتال معاوية. فدخلوا عليه فادوا إليه رسالتهم ومطالبهم، وابدوا له استياءهم من قبول التحكيم، وطالبوه بالرجوع إلى قتال البغاة فأبى عليهم الإمام ذلك، وأصر على التمسك بخدعة التحكيم.

أكاذيب الملكية على الجمهوريين

وكان هؤلاء المعتزلون للإمام هم خاصته وكبار أنصاره، والقراء من رعيته، والطبقة العالمة من أتباعه، وليسوا عامة جاهلة تسيرها الأهواء، ويسيطر عليها حب الشغب كما ادعى الملكيون من الأمويين والعباسيين وغيرهم الذين استخدموا حوادث صفين في الدعاية الكاذبة ضد الجمهوريين الذين يتمسكون بالإمامة الإسلامية، ويأبون الملكية المستبدة، ويناهضون الظلم والطغيان.

إن اغلب الكتب التاريخية القديمة التي أوردت حوادث صفين، واعتزال الخاصة للإمام، ووقعة النهروان، كابن الأثير، وابن كثير، والطبري، والمسعودي، وابن أبي الحديد وجمهور

1 - الجواهر لأبي القاسم بن إبراهيم البرادي ص 118 و 119 ط البارونية.

المؤرخين في عهود الملوك الأمويين والعباسيين وغيرهم قد نقلت دعاوي هؤلاء الملكيين ضد الجمهوريين، إما رغبة أو رهبة، وهي بعيدة عن الواقع. وجل ما أوردوه سيما في وقعة النهروان، واعتزال القراء للإمام من وضع السياسة، ومن الدعاية الملكية الكاذبة.

قال هؤلاء المؤرخون الذين يملي عليهم الملوك المستبدون ما يشاءون: إن الذين اعتزلوا الإمام وطالبوه بنقض التحكيم هم العامة التي قبلت التحكيم في صفين، وأرغمت الإمام على قبوله، ثم ارتدت فصارت تطالبه بنقضه !! والحق الواقع الذي ر مرية فيه أن القراء وهو خاصة الإمام من الصحابة والتابعين، وذوي البصيرة في الدين هم الذين أبوا التحكيم فاتصلوا بكثير من العامة التي جرفها تيار الأشعث بن قيس فاندفعت فيه، وناصرت التحكيم، فافهموها ضرر التحكيم للإمام، وخطره على الإمامة، ومنابذته للشريعة، فأدركت الصواب، وانجلت عنها عماية الفتنة، وزال إيحاء الأشعث وحزبه عن عقولها، فندمت مما وقعت فيه، وتابت عما ارتكبته من المشاركة في إرغام الإمام على قبول التحكيم، وانضمت إلى القراء فصارت من حزبهم، تؤيدهم في مطالبتهم الإمام بنقض تحكيم الرجال، والرجوع إلى تحكيم السيف في القتال. إن هؤلاء جزء من العامة التي تؤيد القراء وتأبى التحكيم، ولكن المؤرخون الذين يملي عليهم الملوك ما يقولون جعلوا كل الذين اعتزلوا الإمام إنما هم هذه العامة التي تابت من خطئها، وأنهم كل الذين أبوا التحكيم، فهم الرؤساء والمدبرون، والقادة والمسيرون، وما هم كما قلنا إلا جزء من العامة يقودها خاصة الإمام من الصحابة وكبار التابعين، والطبقة العالمة من المسلمين، وهم أنصار علي المخلصون، وأبطال يوم الهرير وليلة الهرير، والذين كان يقودهم الاشتر النخعي فاشرفوا على معسكر معاوية فكادوا أن يجهزوا عليه، إن هؤلاء هم الذين أبو التحكيم وهم في المعركة، وأبوه وحذروا الإمام من قبوله، وطالبوه بالاستمرار في القتال، فأرغمهم على وقف الحرب فأوقفوا الحرب لما صارت حياته مهددة بالعامة التي جرأها على نفسه، ومكنها من أزمته واغمدوا أسلحتهم، ولكنهم لم يقبلوا التحكيم، ولم يرتضوه، ولم يشاركوا فيه، وانتصروا حتى سكنت فورة العامة بدخولها الكوفة فطالبوا الإمام بإعادة الكرة على معاوية فأبى ، فاعتزلوه احتجاجا لا ثورة عليه وخلعا لإمامته كما ادعى الملكيون المغرضون.

إن وصف هؤلاء الخاصة الذين اعتزلوا الإمام احتجاجا عليه، وهم من الصحابة وكبار التابعين بأنهم قبلوا التحكيم وأرغموا الإمام عليه، ثم ثاروا عليه لقبوله ما أرغموه على قبوله، إن وصفهم بهذا إزراء بالصحابة وكبار التابعين، وبالأمة الإسلامية التي كان قراؤها وعلماؤها هم خاصتها، وعنوانها، وزبدتها، فوصفهم بما ادعى عليهم الملكيون

إزراء بالأمة الإسلامية التي كانوا خاصتها، وإزراء بالإمام علي الذي يراهم من حاشيته، ويعدهم اكبر أنصاره كما سترى بالأدلة التي تستقبلك، وبالحجج التي تراها فيما سأورد عليك.

حزن الإمام علي من اعتزال الخاصة له

وكان الإمام علي رضي الله عنه قد ساءه أن تعتزله خاصته، وان يفقد القراء الذين هم اعضاده، فأرسل إليهم عبد الله بن عباس ليفاوضهم في الرجوع إليه، ثم خرج إليهم بنفسه ففاوضهم، واستمع إلى عتابهم، واقتنع بحججهم، فرجع إلى نقض التحكيم.

إن تعيين الإمام لابن عباس حبر الأمة، ومعدن المعرفة والذكاء، واعلم رجل بالدين بعد الإمام، ليكون سفيره إلى الذين اعتزلوه، دليل على درجة هؤلاء عنده، وأنهم علماء فقهاء، ومن خاصة أنصاره، فاختار لهم اكبر رجل من خاصته، واعلم إنسان من أتباعه، ثم خرج إليهم بنفسه، إن هذا دليل على درجتهم العليا عنده، وعلى إكباره وإجلاله لهم، وعلى أنهم من الخاصة التي يحترمها، ولا من العامة التي تسيرها الأهواء كما يردد المؤرخون الملكيون، والمقلدون الغافلون الذين نقلوا عنهم ! لو كان هؤلاء المعتزلون في «حروراء» للإمام عامة تمردت عليه، ودهماء جاهلة ارتدت عن التحكيم الذي أرغمته على قبوله، وشغبت عليه، لأرسل إليها رجلا ذا حزم وشدة يرعبها ويفرض إرادته عليها، ويوحي إليها في غمرة الخوف بما يشاء، ولوجه إليها احد قادته الحربيين الذين تصغي إليهم العامة أكثر لان في كلامهم صليل السيف الذي تفهمه، وفي عيونهم بريق الحسام الذي تخشاه، وفي رنتهم جلجلة الرعد التي تنبئ بالصواعق التي ينطوي عليها السحاب ! وإذا لان الإمام وجاملهم فانه يرسل إليهم رؤساء قبائلهم، وزعماء أقوامهم الذين يصغون إليهم أكثر، ويثقون بهم فينقادون لما يريدون، لا حبر الأمة الذي يملك الحجج العقلية ويعتمد على المنطق الذي لا تعيه العامة، ولا تتأثر به في فورة اللجاج والعناد، وفي حدة التمرد والتحدي.

مناظرة الخاصة لابن عباس

وذهب ابن عباس رضي الله عنه سفيرا من الإمام فناظروه مناظرة عميقة تدلك على درجة المعتزلين الرفيعة في العلم، وعلى علو كعبهم في المعرفة، وعلى عمق فهمهم للدين وعلى أنهم خاصة الإمام من الصحابة وكبار التابعين.

قال احمد بن سعيد الشماخي: واخرج على إليهم ابن عباس فناظروه وقالوا: أعلى

هذى نحن غب سفك الدماء يوم الجمل لنكث طلحة والزبير وعدم رجوعهم إلى كتاب الله، وفي قتالنا لأهل الشام لبغيهم وتعديهم كتاب الله وسنة رسول الله أم على ضلال؟

قال: بل رشد

قالوا: فهل نزل أمر من السماء يحرم الأمر الأول؟[1]

قال: لا

قالوا: فلم حكم في دين الله؟

قال: قد علتم أن الله قد أمر بالتحكيم في رجل وامرأة، وفي طير يقتله المحرم فكيف بأمر امة محمد عليه السلام.

قالوا: تحكيم الحكمين في رجل وامرأة وفي طير رد الله الحكم فيه إلى العدول وهذا الأمر جاء الحكم فيه من الله كالزنا والسرقة والقذف التي لا يمكن لإنسان أن يحكم فيها بغير حكم الله. ولو أراد إمام قطع يد السارق فقال له الناس حتى نحكم فيه حكمين اله أن يحكمهما أم يمضي على حكم الله؟

قال بلى، بل لا يحكم الرجال.

قالوا: فهل فاء معاوية وعمرو بن العاص إلى حكم الله؟[2]

قال: لا.

قالوا: اعدل عمرو بن العاص الذي صرح بالعداوة والبغي، وباع دينه بمصر[3] وسفك دماء المسلمين بغير حق، وأبو موسى الذي ثبط الناس عن الجهاد «وخذل الناس عن الإمام علي».

قال:لا.

---

1 - يريدون بالأمر الأول أمر الله بقتال البغاة في قوله في سورة الحجرات : فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ إلى أمر الله».

2 - يريدون إباء معاوية وعمرو بن العاص ورفضهما تحكيم الكتاب والدين لما دعاهما الإمام إليه قبل هجومه عليهم في صفين، ويريدون أيضا أن معاوية وعمرو بن العاص ليسا ممن يتقيد بالكتاب حتى يجابا إلى طلبهما لما طالبا الإمام بتحكيم الكتاب، وأنهما لو كانا يتقيدان به لعرفا أن الخروج على جماعة المسلمين حرام فلا بإتيانه، وان قتال معاوية لأنه باغ هو ما أمر الله به الإمام فلا تمكن المفاوضة فيه. ويريدون أيضا أن عمرو بن العاص ليس عدلا فيقبله الإمام حكما في الإمامة التي هي أساس الدولة والدين.

3 - يريدون شرط عمرو بن العاص على معاوية أن تكون مصر طعمه له ليناصره فأجابه معاوية وجعلها له.

قالوا: إن كان عمرو عدلا وهو يقاتلنا فنحن على غير حق، وإذا كان عدلا فنشهد أن عمارا ومن استشهد معه قتلوا على باطل وضلالة. ثم رجع ابن عباس إلى علي فقال خصمك القوم، ثم خرج إليهم علي فوقعت بينهم مناظرة»[1]

وكان ابن عباس رضي الله عنه على رأي الخاصة التي اعتزلت الإمام في التحكيم، وعلى مثل إبائهم له إلا انه لم يستطع أن يعتزل الإمام احتجاجا عليه لروابط القرابة ولإشفاق ابن عباس أن يعزل الإمام فيخلو الجو أكثر للأشعث وحزبه، فيكون البلاء اشد، والطامة اكبر.

وكان ابن عباس قد أبي التحكيم لأنه يعرف انه خدعة، وانه لا يجوز في الدين، ولكنه كان نصوحا للإمام، حزينا على مفارقة القراء وهم خاصته له، فتصرف تصرف السفير الداهية الحريص على الصلح، فيستعمل كل وسيلة لإيقاعه والوصول إليه، حتى الحجج الواهية التي يعتذر بها عمن أرسله تطييبا لخواطر مناظرية، وحملا لهم ليعذروه فقال في المناظرة: إن الله قد حكم الرجال في الطير والزوجين، وهو يعرف انه حجة واهية، ودليل لا يثبت في المناظرة.

إن ابن عباس حبر الأمة، وعلم في الدين، فخر الإسلام في العبقرية العلمية، لا يخفي عنه الفرق بين الحالين وحرب البغاة.

مناظرة الإمام على المعتزلين وإقناعهم له

ولما ابلغ ابن عباس الإمام رضي الله عنه ما دار بينه وبين خاصته الذين اعتزلوه ورأى أنهم على صواب في احتجاجهم عليه، وانه لابد من مصالحتهم وإرجاعهم إلى حظيرته، ليتقوى جمعه، وتشتد أركانه، فيستطيع أن يصول على معاوية إذا أعاد الكرة عليه، فخرج إليهم فاجتمع بهم، وتفوض معهم فيذما وقع، فناظروه، وابدوا له استياءهم وإنكارهم لخضوعه للعامة، وقبوله للتحكيم، ودعوه إلى نقض التحكيم، والرجوع إلى قتال معاوية الذي تمرد وبغى، وهو يسعى للقضاء على الإمامة، والجمهورية الإسلامية، وعلى حكم الشورى وديمقراطية الإسلام، وإحياء الملكية الباغية، وحكم الفرد المستبد، والرجوع إلى الكسروية المتجبرة التي جاء الإسلام لمحوها، فاقتنع الإمام بقولهم، وتأثر بعتابهم، وعاهدهم على نقض التحكيم الذي يرى معهم انه لا يجوز في الدين، والرجوع إلى قتلا معاوية، وحمله بالقوة علىا الدخول في جماعة المسلمين، فتصالحوا مع الإمام، ورجعوا إليه، فقاموا فدخلوا الكوفة معه.

---

1 - سير المشايخ للشماخي ص 49 و 50 ط البارونية.

رجوع الخاصة إلى الإمام وابتهاج أنصاره بذلك

وكان فرح أنصار الإمام والمخلصين له عظيما برجوع القراء إليه فتقوى جمعهم، وتأيد ركنهم، ثم أعلن الإمام على المنبر بطلان التحكيم وتنقضه، وعزمته على قتال معاوية ورده إلى الجادة بما أمر الله. فازداد أنصار الإمام فرحا بهذه البشري، وصوبوا رأيه في نقض التحكيم، وأيدوه فيما قرره من الحرب والصدام، والقضاء على أصحاب الملكية والبغاة بالقوة والحسام، والمحافظة على الإمامة العادلة والجمهورية الإسلامية التي يسعى معاوية للقضاء عليها.

جزع معاوية من نقض التحكيم وإثارة صنائعه

وكان معاوية متيقظا يرقب حركات الإمام بعيون الصقر، وكان يخشى من تأثير الخاصة التي تأبى التحكيم على الإمام فيرجع إلى حربه، وكان الأشعث بن قيس وصنائعه الآخرون يراسلونه بكل الأنباء، فعلم بنقض الإمام للتحكيم، وعزمته على حربه، فقامت قيامته، واشتد حزبه، فشمر عن ساعده لإرغام الإمام على الرجوع إلى خدعة التحكيم بواسطة أنصاره الذين تقوى جمعهم في رعية الإمام، وكثر أتباعهم، وتعاظم نفوذهم منذ أرغموا الإمام في صفين لما يريدون. فأرسل إليهم وواعدهم ومناهم، وحثهم على اتخاذ كل وسيلة لرد الإمام إلى التحكيم، والعدول به عن الحرب. كما أرسل إلى كثير من رؤساء القبائل في العراق ممن يأنس فيه استعداد للميل إليه، فخرهم إلى صفوفه بالمواعيد والدهاء، فانضموا إلى صنائعه في العراق، فاشتد ركن الأشعث بن قيس وحزبه أنصار معاوية، فصار يستطيع أن يصول على الإمام ويرغمه لنا يشاء.

رجوع الإمام إلى التحكيم

قال أبو القاسم بن إبراهيم: «فلما بلغ الأشعث بن قيس ما فعل علي «من عدوله عن التحكيم» وما تحدث الناس به من توبته دخل عليه فقال: ما صنعت؟ ! ما بالكوفة امة على ظهرها جرة إلا وهي تحدث بأنك تبت إلى القوم !... وما تنكر من الحكومة !؟ أتخاف أن يعدل الناس بينك وبين معاوية؟ ! فوالله لانت أكرم منه حسبا، وأعظم شرفا وأقدم هجرة، واسبق إيمانا ! فلما بلغ معاوية خبر علي ورجوعه عن الأمر كتب إلى الأشعث بن قيس والى وجوه أهل العراق يعدهم ويمنيهم... فنهضوا إلى علي نهضة رجل واحد»[1] فذهبوا إليه فما زالوا يطالبونه بالرجوع إلى التحكيم، والتمسك بعقده، والعدول عن الحرب، وأشعروه انه إذا لم يستجب لما يريدون فستثور العامة عليه، ويقع في شر أكثر

1 - كتاب الجواهر ص 125 و 126 ط .البارونية.

مما وقع فيه عثمان، فشعر الإمام بعاصفة العامة تكاد أن تهجم عليه، وبفتنة عمياء يكاد أن يشعلها هؤلاء الرؤساء الذين يسيرهم معاوية، فترغمه على ما يريدون، فرجع إلى التحكيم مرغما، وأعلن على المنبر تمسكه به، والرجوع إلى تعاقد عليه مع معاوية في صفين.

استياء خاصة الإمام وإياسهم منه

فعلمت خاصة الإمام الذين اعتزلوه ثم رجعوا إليه أن الإمام لم تعد له سيطرة على الجماهير، ولا نفوذ عند العامة، وأن أتباع معاوية هم المسيطرون عليه، ويرغمونه بواسطة العامة على ما يريدون، وأن هيبته عند العامة المتمردة قد زالت، وانه لا يستطيع سياستها، ولا يقدر على قيادتها، ولا يمكنه أن يقف موقفا لا يرضى معاوية؛ وأيقنوا أن التحكيم سيؤدي إلى خلع الإمام، وان معاوية ولم تكن نتيجة التحكيم له فانه يستطيع أن يرغم الإمام لما يريد بأنصاره العديدين الذين اصطنعهم من رؤساء القبائل في العراق، فيتولى الملك كما يريد، ويقضي على الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية، وتنتصب الملكية المستبدة، حكم الغطرسة والجبروت، فايسوا من الإمام علي رضي الله عنه في ميدان السياسة، وأيقنوا انه لا يستطيع أن يقود معاركهم ضد معاوية، وانه لابد لهم من إمام قوي تهابه العامة وتنقاد له، ويقطع رءوس الفتنة في الكوفة، ويقضي على الأشعث وحزبه، ويسير بالأمة لردع معاوية، والإبقاء على الجمهورية الإسلامية، ولكن هؤلاء الخاصة لم يخلعوا عليا رغم ما أيقنوا به من عدم استطاعته الاضطلاع بأعباء الإمامة، ولم يبايعوا أحدا قبل التحكيم، واعتبروا أن بيعته لا زالت في أعناقهم، وإن كان قبوله للتحكيم في الإمامة معناه إنها غير ثابتة الحكم ! فأنت لا تقبل التحكيم في شيء إلا وأنت تعترف أن خصمك قد يكون فيه محقا وان الخطأ قد ب

يكون في جهتك، ولكنهم لتحرجهم في الدين انتظروا حتى ظهرت نتيجة التحكيم، لم يخلعوا الإمام ولم يبايعوا أحدا سواه.

اجتماع الحكمين وخلعهما للإمام علي رضي الله عنه / مبايعة الخاصة لعبد الله بن وهب الراسبي

واجتمع الحكمان في دومة الجندل، وهو مكان سواء بين الشام والعراق، فنصب عمرو بن العاص فخافه لأبي موسى الأشعري فأوقعه فيها، وكان أبو موسى مستعدا لها لازوراره عن الإمام علي، وعدم تحمسه لإمامته، فخلع أبو موسى عليا من الإمامة وخلعه عمرو بن العاص، فبلغ معاوية مراده في تجريد الإمام مما البسه المسلمون، فزالت بيعة الإمام

عن أعناق الناس، وأمسوا أحرارا يستطيعون أن يختاروا للإمامة من يشاءون، ويبايعوا من يختارون. فاختارت الخاصة التي اعتزلت الإمام ثانية لما رجع إلى التحكيم عبد الله بن وهب الراسبي الصحابي إماما عاما لهم في السياسة والدفاع والهجوم، وليس للدفاع وحده كما يدعي بعض المؤرخين، فبايعوه، فشمر لتنظيم صفوفه، والاستبداد والتأهب ليسير إلى معاوية فيردعه، ويقضي على الملكية، ويستبقى الإمامة العادلة، والجمهورية التي تسعد المسلمين.

أكاذيب الملكيين على الجمهوريين

وقد استغل دعاة الملكية من الأمويين والعباسيين الذين أشهروا حربا دعائية واسعة ضد المتمسكين بالجمهورية الإسلامية اعتزال للإمام، ومبايعتهم بعد خلع الحكمين للإمام علي رضي الله عنه عبد الله بن وهب الراسبي، فوصفوهم بالخروج على الإمام، وسموهم «خوارج» وعدوا اعتزاله قبل إجماع الحكمين خروجا عليه، وما هو بالخروج لأنهم لم يخلعوه، ولم يحاربوه، وعدوا مبايعتهم لعبد الله بن وهب الراسبي خروجا على علي أيضا وما هو بالخروج لان بيعته قد زالت عن أعناقهم بعد خلع الحكمين اللذين وكلهما ورضي بما يحكمان به، وأصبحوا أحرارا يبايعون من يشاءون. هذا ما عرفه كل المسلمين في ذلك العهد فلذلك جدد أتباع الإمام على الذين آثروه للإمامة ثانية البيعة له بعد خلع الحكمين له لان البيعة الأولى قد زالت قال ابن الأثير: «ولما خرجت «الخاصة» من الكوفة «بعد خلع الحكمين للإمام» أتى عليا أصحابه وشيعته فبايعه وقالوا نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت فشرط لهم فيه سنة رسول الله، فجاءه ربيعه بن أبي شداد الخثعمي فقال له: بايع على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال ربيعة على سنة أبي بكر وعمر قال له علي:ويلك لو أن أبا بكر وعمر عملا بغير كتاب الله وسنة رسول الله لم يكن على شيء من الحق»[1] هذا في سنة سبع وثلاثين بعد أن خلع الحكمان الإمامة عن الإمام فلولا زوال بيعته عن الأعناق ما جدد البيعة أتباعه وشيعته، ولولا زوالها ما بايعت الخاصة غيره، لأنه حرام في الدين، وهم في التمسك بالدين والغيرة عليه في الدرجة العالية التي لا يصلها إلا الصحابة وكبار التابعين أمثالهم، فما كانوا ليرتكبوا محظورا في الدين وهم ما أبوا التحكيم إلا لمخالفته للدين، وما بايعوا عبد الله بن وهب الراسبي إلا ليحافظوا على الجمهورية الإسلامية التي جاء الدين الحنيف بها، ويحيى أمامهم سياسة الدين، والتقيد بالكتاب والسنة في كل الأمور.

1 - الكامل ج 3 ص، 170 ط المنيرية.

حب حزب عبد الله بن وهب لعلي وإجلالهم له

وكانت الخاصة التي بايعت عبد الله بن وهبي الراسبي أكثر الناس إجلالا لعلي وحبا له، واعترافا بمقامه في العلم، ومكانته في الدين، فلم يعدلوا عنه ويبايعوا سواه عدول إنسان مزور يشنؤه فوجد فرصة خلع الحكمين له فاستغلها فبايع سواه لما في قلبه من انحراف عنه أو منافسة له، ولكنهم أعفوه من الإمامة لأنه لا يستطيعها، وأيقنوا بأنه لا يقدر على السيطرة على الجماهير، وفرض إرادتها على العامة، والقضاء على الأشعث وحزبه في العراق، واستئصال الملكية بالتغلب على معاوية وشيعته.

هذا هو السبب الذي جعلهم يختارون غيره، أما خلع الحكمين له فلو وجدوا انه يستطيع الاضطلاع بأعباء الإمامة، والقضاء على الملكية، فانه لا يمنع من استمراره إماما عليهم لأنهم يجددون بيعته، ويقدمونه ثانية للإمامة.

معاوية وحزبه هم الخوارج على الإمام

إن معاوية وحزبه هم الذين خرجوا على الإمام وحاربوه حتى قتل، واستمروا بعد ذلك على حربه في آله وذريته، فقتلوهم، وصلبوهم، سجنوهم، وارتكبوا فيهم ما لا يرتكب في المشركين، ولعنوه على منابرهم، وجعلوا لعنه في خطب الجمعة والأعياد فرضا على خطبائهم، وارتكبوا في حربه والقضاء عليه كل كبيرة، واتوا بكل محظور، ومع هذا تجد الأمويين لدهائهم يصفون الخاصة التي اعتزلت الإمام بأنهم خوارج عليه، أعداء له، وبسطوا السنة علمائهم المأجورين صنائع الملكية فملأوا كتب التاريخ والفقه أيضا بهذه الدعاية الكاذبة، وموهوا على المسلمين، وصرفوا حنقهم في حوادث صفين إلى هذه الخاصة التي سارت في الطريق المعقول الذي يجب أن تسير فيه، وشغلوا العقول بأكاذيبهم على أصحاب عبد الله بن وهب الراسبي حتى لا تنتبه إلى جرائمهم التي ارتكبوها في الإمام علي وآل بيته ! وقد استمر الملوك العباسيون وغيرهم من الملوك سيما ملوك الدولة العبيدية في المغرب في ترديد أكاذيب الأمويين، سيما على الإباضية الذين رفعوا لواء الجمهورية الإسلامية، وأسسوا في المغرب والمشرق في دولهم الجمهورية العادلة، فصوروا الإباضية -كذبا وزورا- خوارج على الإمام، ونعتوهم بأنهم من عادى الإمام وثار عليه، وممن يشنؤه ويعرض عنه، ليبلغوا مرادهم في تشويه سمعة الجمهوريين وصرف النفوس عنهم، وليغطوا على الجرائم التي ارتكبها العباسيون في آل البيت، وهو ما تقشعر منه النفوس، وتأباه العقول، ولا يجوز في شريعة، فصارت كتب التاريخ التي لا زالت عندنا لإبقاء الملوك عليها لأنها توافق هواهم وتسير في ركابهم،

وتردد دعايتهم؛ وصار جل هذه الكتب كالكامل لابن ارثير، مروج الذهب للمسعودي، وتاريخ الأمم والملوك للطبري، والعبر لابن خلدون، وغيرها مما كتب في عهد الملوك وبقي وانتشر فوصلنا، وصارت مملوءة بهذه الأغلاط التاريخية، وبتلك الدعاية الكاذبة ضد الإباضية، وبتلك الترهات التي يوحي بها الملوك بالرغبة والرهبة للعلماء فيرددونها في كتبهم لتكون بالتكرار والتأكيد عقائد راسخة في العامة تصرفهم عن الجمهوريين الذين يرونهم خطرا عليهم وعلى دولهم الملكية المستبدة. وترى كثيرا من المؤرخين في هذا العصر ينتقلون من تلك المصادر الملكية أكاذيبهم على أصحاب عبد الله بن وهب الراسبي وعلى الإباضية فلا يعلمون عقولهم فيها ليتبينوا كذبها، فيقعون في رذيلة التقليد التي تأباها ثقافتهم العصرية، وترى في كتبهم العصرية الفلسفية تلك الآراء الملكية العتيقة تشينها عند ذوي الدراية كما يشين الحشف البالي الغصن النضير، والرمص المزري الأهداب الكحيلة !. وترى جل الذين كتبوا في تاريخ المغرب إذا وصلوا إلى الدول الجمهورية التي أسسها الإباضية في المغرب يدسون انفهم في الخلاف الذي وقع بين الصحابة بدون تمييز ودراية ليبينوا أسباب نشأة الإباضية فيأتون بالمضحكات في ترديد الآراء الملكية القديمة، ودعايتهم الكاذبة !!

إن أصحاب عبد الله بن وهب الراسبي ليسوا خوارج لأنهم لم يخرجوا على الإمام علي ولم يخلعوه، ولكن الذي خرج عليه إنما هو معاوية وحزبه، ولقب الخوارج هذا من اختراع الأمويين والعباسيين، أما في عهد علي فقد كان عبد الله بن وهب وحزبه يسمون « المحكمة» لأنهم أبوا تحكيم الرجال في الدين فقالوا: «لا حكم إلا لله» فصار شعارهم فسموا به. فماذا سينسج معاوية بدهائه للإمام علي رضي الله عنه من مكائده فيرزؤه في خاصته، ويهيض أجنحته، ويفرق جموعه، ويقضي على دولته؟ انه سيكيد له فيوقعه في حرب النهروان، ويعمل للقضاء على عبد الله بن وهب الراسبي وعلى علي معا ! فكيف ولى عبد الله بن وهب الراسبي الإمامة، وما كيد معاوية له فوقعت حرب النهروان التي قضت عليه، وأجهزت على الإمامة، ومكنت للملكية المستبدة فترعرعت ورسخت جذورها؟

إمامة عبد الله بن وهب الراسبي في سنة 37 هـ وكيد معاوية له والإمام علي رضي الله عنه

كان اجتماع الحكمين وخلع الإمام علي رضي الله عنه في شهر رمضان من سنة سبع وثلاثين، ثم وقعت بيعة الخاصة من الصحابة وكبار التابعين لعبد الله بن وهب الراسبي في شوال من سنة سبع وثلاثين كما روى ابن الأثير.[1] وهذا من الأدلة على أن الصحاب عبد الله بن وهب الراسبي -وهم من الخاصة الذين أبوا التحكيم- لم يخلعوا الإمام عليا ولم يخرجوا عليه، ولكن بايعوا من اختاروا للإمامة بعد أن زالت بيعة الإمام عن أعناقهم بخلع وكيله له وبقبوله للتحكيم. وكان عبد الله بن وهب إماما عاما للسياسة والدفاع ما لا إماما للدفاع فحسب كما قال بعض المؤرخين.

شخصية عبد الله بن وهب الراسبي

وكان عبد الله بن وهب الراسبي من الصحابة الزاهدين، ومن العلماء في الدين، وكان ذكي الفؤاد، حازما في الأمور، قوي الشخصية، شجاعا، صارما في مواطن الصرامة، صلبا في الأماكن التي تجب فيها الصلابة، داهية، حكيما، يتوج هذه الصفات العقلية والخلقية كلها ورعه وتقواه، وإخلاصه ونزاهته، وتمسكه كل التمسك بالدين، وعمله لآخرته لدنياه، وتفانيه في مصلحة المسلمين، واجتهاده في خدمتهم ! وكان يلقب «بذي الثفنات»[2] لكثرة عبادته، واجتهاده في صلاته، حتى اثر ذلك في جبهته، لكثرة سجوده لله.

زهده في الرئاسة

وكان عبد الله زاهدا في الإمام، كارها للرئاسة، يراها فروضا وواجبات ثقيلة، وحسابا عسيرا بين يدي الله، فنفرت نفسه عنها، وأبي على أصحابه قبول الإمامة، حتى وجد أصحابه من ذوي الكفاءة قد تدافعوها، وزهدوا فيها، وخاف أن يتطلع إليها من ليس كفؤا لها، فيقعون فيشر كبير، ويحاسبه الله وأصحابه على ما يحدث بتولي الضعيف الذي أفسحوا له المجال، وتقدم بتأخرهم إلى رئاسة المسلمين، فوجد نفسه مضطرا لقبولها، فقبل الإمامة، فبايعه أصحابه من الخاصة وهم من الصحابة وكبار التابعين، ثم توالت العامة التي أبت التحكيم فبايعته، فغزر جمعه، وتكاثر عدده، وصار نفوذه ينتشر في العراق، والقلوب تتجه إليه من أنحائه.

1 - الكامل ج 3 ص 170 ط المنيرية.

2 - جمع ثفنة بفتح فكسر وهي من البعير ما مس الأرض من كركرته وسعداناته، وأصول أفخاذه. يعني أن جبهته لأثر السجود الطويل الكثير فيها تشبه الثفنات من البعير.

خروج عبد الله ابن وهب إلى النهروان

وكان ذلك في الكوفة، ثم خرج الإمام عبد الله وصحبه وأنصاره إلى مكان بعيد عن الكوفة بين بغداد وحلوان، يسمى بالنهروان، في غرب نهر طبرستان، من ارض خراسان. وقد آثر عبد الله وأصحابه لابتعاد عن الكوفة لكي لا يقع بينهم وبين علي رضي الله عنه صدام، فان العامة التي تسيطر عليه، والأشعث وحزبه، لابد أن يوقعوا بينهما فيجبرون عليا على أن يقف منهم موقفا معاديا، وهم لا يريدون أن يحدث بينهم وبين الإمام علي أي سوء.

قال ابن الأثير: «ثم إن أصحاب عبد الله» لقي بعضهم بعضا واجتمعوا في منزل عبد الله بن وهب الراسبي فخطبهم فزهدهم في الدنيا، وأمرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «ثم أمرهم بالخروج من الكوفة» فقال حمزة بن سنان الاسدي: يا قوم إن الرأي ما رأيتم فولوا أمركم رجلا منكم فإنكم لابد لكم من عماد وسناد وراية تحفون بها وترجعون إليها، فعرضوها على زيد بن حصين الطائي فأبى، وعرضوها على حرقوص بن زهير السعدي فأبى، وعلى حمزة بن سنان الأسدي، وشريح بن أوفى العبسي فأبيا، وعرضوها على عبد الله بن وهب الراسبي فقال: هاتوها أما والله لا آخذها رغبة في الدنيا، ولا ادعها فرقا من الموت ! فبايعوه لعشر خلون من شوال «لسنة سبع وثلاثين» وكان يقال له: «ذو الثفنات».[1]

الغرض الرئيسي لعبد الله بن وهب هو المحافظة على الجمهورية الإسلامية والقضاء على الملكية

وكان الغرض الأول الذي يهم به الإمام عبد الله بن وهب الراسبي وأصحابه، ويشغل أفكارهم، ويساعدون له هو الهجوم على معاوية، وإعادة الكرة عليه، والقضاء على الملكية[2] المستبدة، والمحافظة على الإمامة العادلة. فخرج إلى معسكره بالنهروان، وأرسل إلى أصحابه بالبصرة وأنحاء العراق ليلحقوا به، فتكمل عدته فيسير إلى الشام.

وسمعت العامة والخاصة الذين أبوا التحكيم باختيار عبد الله بن وهب الراسبي إماما، وبخروجه إلى معسكره بالنهروان ليتجهز للقضاء على الملكية، فابتهجوا واستبشروا، وأسرعوا إلى اللحاق به في النهروان، فبايعوه بالإمامة، وانضووا تحت لوائه، فاجتمع لعبد الله بن وهب من أتباعه الذين لحقوا به أربعة آلاف، فأقام في النهروان ليتكاثر الوافدون

1 - الكامل ج 3 ص 170 ط المنيرية.

2 -الملكية نسبة إلى الملوك.

عليه، والذين يسرعون إليه من كل ناحية، فيتكون الجيش الكبير الذي يستطيع به منازلة معاوية والقضاء عليه. وكان يتكاثر، وجنده في تزايد، فأصبح قوة تهدد الشام، ويرى فيها معاوية الموت الأحمر، والفناء الماحق، والقضاء على أطماعه وأمانيه، فجعلها داهية العرب نصب عينيه، ومرمى سهامه، وأرسل إلى الأشعث بن قيس وحزبه في العراق يحثهم على أن يضربوا العدو بالعدو، ويجروا الإمام لحرب أهل النهروان فيتخلص منهما جميعا.

سير علي لحرب معاوية وكيد معاوية له

وكان الإمام علي رضي الله عنه قد عزم على إعادة الكرة على معاوية بعد اجتماع الحكمين وتجديد أصحابه البيعة له، وإن كانت أجنحته قد قصت، وقواه قد ضعفت، ونفوذه في العراق لم يعد كما كان في حرب «صفين» الأولى، فبذل كل جهد فجمع جندا فسار بهم إلى الشام لحرب معاوية وكان ذلك في آخر سنة سبع وثلاثين.

وكان الأشعث بن قيس ورؤساء القبائل الذين اصطنعهم معاوية وأتباعهم يخذلون الناس عن علي، وكان ما وقع له رضي الله عنه من جرأة العامة عليه، وقبوله للتحكيم، واستلاب معاوية النصر من يده في معركة صفين، ومفارقة خاصته له ممن بايع الله بن وهب الراسبي، وما يعلمونه من عدم استطاعة الإمام أن يقف في وجه معاوية لكثرة أنصاره، وحنكته ودهائه، وقوته وصرامته، كان هذا كله قد اضعف نفوذ الإمام في العراق، فتثاقل الناس عن السير معه لحرب معاوية، فوجد رضي الله عنه صعوبة في الحصول على العدد الكافي للحرب التي سيخوضها، فالتجأ إلى تجنيد العبيد والعامة التي لا تناصره عن حماس ودين ومحبة.

قال ابن الأثير: فكتب على عبد الله بن عباس «عامله على البصرة» أما بعد فإنا خرجنا إلى معسكرنا بالنخيلة « في ظاهر الكوفة» وقد اجمعنا المسير إلى عدونا من أهل الشام فاشخص إلى بالناس، فقرأ ابن عباس الكتاب على الناس، وندبهم مع الأحنف بن قيس، فشخص ألف وخمسمائة فأستقلهم عبد الله بن عباس فخطبهم وقال: يا أهل البصرة، أتاني كتاب أمير المؤمنين، فأمرتكم بالنفير إليه فلم يشخص منكم إليه إلا ألف وخمسمائة، وانتم ستون ألف مقاتل سوى أبنائكم وعبيدكم ! ألا انفروا إليه مع جارية بن قدامة السعدي، ولا يجعلن رجل على نفسه سبيلا، فأني موقع بكل من وجدته متخلفا عن دعوته، عاصيا لإمامه، فلا يلومن رجل إلا نفسه، فخرج جارية فاجتمع إليه ألف وسبعمائة فوافوا عليا وهم ثلاثة آلاف ومائتان، فجمع إليه رءوس أهل

الكوفة، ورءوس الأسباع، ووجوه الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أهل الكوفة انتم إخواني وأنصاري، وأعواني على الحق، وأصحابي إلى الجهاد المحلين،[1] بكم اضرب المدبر، وأرجو تمام طاعة المقبل. وقد استنفرت أهل البصرة فأتاني منهم ثلاثة آلاف ومائتان فليكتب لي رئيس كل قبيلة ما في عشيرته من المقاتلة وأبناء المقاتلة الذين أدركوا القتال، وعبدان عشيرته، ومواليهم، ويرفع ذلك إلينا. فكتبوا إليه ما طلب، وأمروا أبناءهم وعبيدهم أن يخرجوا معهم و لا يتخلف منهم متخلف. فرفعوا إليه أربعين ألف مقاتل، وسبعة عشر ألفا من الأبناء ممن أدرك، وثمانية آلاف من مواليهم وعبيدهم، وكان جميع أهل الكوفة خمسة وستين ألفا سوى أهل البصرة وهم ثلاثة آلاف ومائتا رجل، وكتب إلى سعد بن مسعود بالمدائن يأمره بإرسال من عنده من المقاتلة» فكان جيش الإمام سبعين ألف مقاتل أو يزيد. ولكن أكثره كان من العامة والفتيان والموالي والعبيد الذين حشروا حشرا للحرب معه، وليسوا بذوي البصائر الذين يثبتون معه، ويتمثلون أمره، ويملكون حصانة من حماسهم للإمامة وكرههم للملكية، ومن نضوجهم، وتحصنهم من سموم أنصار معاوية الذين اندسوا في جيش الإمام.

وكان في جيش الإمام الأشعث بن قيس ورؤساء القبائل الذين اصطنعهم معاوية، وجمهور غفير من العامة التي تسير وراءهم، وتمتثل أوامرهم، وتنفيذ ما يشاءون.

قعود ابن عباس عن الخروج مع الإمام

وكان ابن عباس رضي الله عنه في حروب صفين من ضباط الإمام الكبار، ومن قواده وأركان حربه، ومن الأبطال العظام في يوم الهرير، ولكنه في هذه المرة قعد فلم يسر مع الإمام، وارى أن ذلك لتشاؤمه وعدم ثقته باستطاعة الإمام أن يصل إلى معاوية ويحاربه، أو ينجح في حزبه إن هو وصل إليه، لما يعرفه من الخفايا في جيش الإمام، ومن طوية أكثر رؤساء القبائل الذين ساروا معه، ولا يمكن انم يكون الإمام هو الذي استبقاه لأنه لو تركه في الكوفة عاصمته لقلنا انه آثره لحفظها في غيبته، وخلافته في تسيير الأمور من بعده، لكنه بقي في البصرة فلم يغادرها إلى الكوفة والأماكن التي يكثر فيها سواد أنصار معاوية الذين يمكن أن يثوروا على الإمام فيضربوه من خلفه.

كيد معاوية وصرف الإمام إلى أهل النهروان

فخرج الإمام علي رضي الله عنه بهذا الجيش الذي كان معظم ضباطه وقواده وذوي النفوذ في جنده من صنائع معاوية الذين عزموا على الكيد للإمام، وصرفه بكل وسيلة

1 - يريد بالمحلين معاوية وحزبه الذين استحلوا ما حرم الله من الخروج عليه وسفك دماء المسلمين. وخطبته الأولى في أهل الكوفة قبل هذه في ص 171 من ابن الأثير ج 3 تؤكد هذا المعنى.

عن السير إلى الشام، وتسليطه على عبد الله بن وهب الراسبي الذي يستعد ليسير كالإمام لحرب معاوية والقضاء على الملكية، فيهيضون جناح الإمام بالقضاء على خاصته، ويهجمون تحت رايته على هذه القوة الجديدة التي يوقنون إنها ستكون أمضى من كل قوة تهجم على معاوية، واكبر خطر يهدد الملكية بالمحق ثم يلزمون الإمام قتلهم والقضاء عليهم، وهم ذوو النفوذ في العراق، وذوو المكانة السامية في عشائرهم، ومحل حب وإكبار المخلصين الذين مع الإمام كالأحنف بن قيس الذي أبى التحكيم، وصار بعد ذلك من الإباضية،[1] وجارية بن قدامة السعدي فيفسدون بقتلهم هذه القلوب على الإمام، ويفرقون عنه أبناء قبائلهم م أتباعه، وهم كثيرون في جيش الإمام. هذه هي الخطة البارعة التي رسمها معاوية الداهية لأتباعه، ورسمها معه أعوانه كعمرو بن العاص، وعزم الأشعث بن قيس وحزبه من رؤساء القبائل الذين اصطنعهم معاوية، عزموا على تنفيذها فاندسوا هم وجماهيرهم الكثيرة في جيش الإمام، فصاروا يرقبون الفرصة لتنفيذ الخطة، وصرف الإمام علي إلى قتال أهل النهروان، ليضربوا العدو بالعدو فتخلصوا منهما جميعا، حتى وصل الإمام الانبار، وأراد أن يدخل في طريق الشام، ويبتعد عن أهل النهروان فلا يمكنهم صرفه إليهم، فأرغموه بإثارة العامة عليه، وبأتباعهم الكثيرين من جنده على السير إلى النهروان، مقاتلة عبد الله بن وهب الراسبي وأصحابه.

إباء الإمام علي أن يسير إلى أهل النهروان

وقد أبى الإمام عليهم ذلك، وكره أن يسير إليهم، واظهر الامتناع من قدهم، وقال: اتركوهم رجاء أن يتغير رأيهم فيه فيرجعوا إليه، سيما بعد أن ينتصر على معاوية ويقضي عليه فيسترد بذلك ما فقده في جولاته الماضية معه. ورأى الإمام رضي الله عنه أن عدوه هو معاوية وحزبه أنصار الملكية المستبدة، وان عبد الله بن وهب الراسبي وصحبه لا يضرونه بشيء، أنهم على مذهبه في المحافظة على الإمامة والتمسك بالدين، إما أن ينتصر على معاوية فتظهر كفاءته، ويسترد صيته، فيرجعوا إليه، أو يكونوا هم أكثر كفاءة، وأغزر جمعا بميل الجمهور إليهم فيرجع هم إليهم، فيكونوا يدا واحدة. هذا هو رأي الإمام علي رضي الله عنه في أصحاب - النهروان، فما كان ليعاديهم ويقاتلهم لاعتزالهم له لان بيعته قد زالت عن أعناقهم، ثم إن ما أخرجهم إلى النهروان هو الاستعداد لحرب معاوية لا لحربه، وأنهم لم يحدثوا شيئا يخالف الدين فيستوجب قتالهم.

1 - كان الأحنف بن قيس من الإباضية، وقد ورد في الامالي انه دخل على معاوية فقال له: لم يحبك الناس وأنت من الخوارج؟ فقال له: لو عاب الناس الماء ما شربوه ! يعني لو أنكر الناس شيئا من عقائدي وسيرتي التي تراني بها من الخوارج ما أحبوني.

أكاذيب الملكيين على أهل النهروان

ونرى أنصار الملكية يقولون في دعاياتهم الكاذبة: إن أهل النهروان قتلوا عبد الله بن خباب وقطعوا الطريق، وهو ما سنبين بطلانه. ومن الأدلة على كذب هذه الدعاية الملكية إباء الإمام أن يسير إلى أهل النهروان فلو ارتكبوا ما نسب إليهم لكان الإمام احرص على السير إليهم، ولرآهم خطرا يهدده في الكوفة فيسرع إليهم وينازلهم قبل أن يعزم على السير إلى الشام، لتأمن ظهره، ويتخلص من هؤلاء الذين سيهاجمون ذراريه ورعاياه إذا تركهم وراءه. إن عبد الله بن وهب الراسبي وصحبه كانوا أصحاب رسول الله عليه السلام، ومن كبار التابعين، ولا ينسب إليهم ما ألصقته الملكية بهم من بهتان إلا إنسان يحتقر نفسه، فيزري بسلفه الصالحين، وأصحاب الرسول الذين هم زبدة الأمة، وذروتها الشماء، في العفاف والتقوى، وفي الورع والدين.

قال ابن الأثير: وبلغ عليا أن الناس يقولون: لو سار بنا إلى قتال هذه «الحرورية»[1] فإذا فرغنا منهم توجهنا إلى قتال المحلين ! فقال لهم: «بلغني أنكم قلتهم كيت وكيت وإن غير هؤلاء... أهم إلينا فدعوا ذكرهم، وسيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين ملوكا، ويتخذوا عباد الله خولا»[2] فناداه الناس أن «سر بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت»[3] هذا هو رأي الجند المخلص للإمام وليسوا كثرة في جيشه، فهب الأشعث بن قيس وأنصاره فاثأروا العامة على الإمام، فما زالوا به يطالبونه بالسير إلى أهل النهروان، وتشعره عيونهم المحمرة عليه بالتهديد، ويلوحون له بالثورة عليه حتى أرغموه على السير إلى النهروان، فقصد عبد الله بن وهب وأصحابه، ولكن على نية استمالتهم إليه، واجتذابهم إلى صفوفه لا على نية مقاتلتهم، والقضاء عليهم.

قال الشماخي: «ثم سار علي إلى معاوية حتى انتهى إلى الأنبار فقال له الأشعث أتسير إلى الشام ومعاوية، وتترك أهل النهروان وراءك ! .. فبعث إليهم الحسن في خيل فلما جاءهم قالوا له: لم جئينا يا حسن؟ نذكرك الله في دمائنا ! علام تقاتلنا؟ الأننا سمينا أباك أمير المؤمنين فخلع نفسه، وأبينا أن نخلعه، ودعوناه أن يمضي إلى قتلا عدو الله وعدونا فأبى وثبتنا نحن على ذلك؟! فانصرف الحسن فلم يقاتلهم حتى انتهى إلى

1 - الحرورية نسبة إلى قرية حروراء التي نزلها أصحاب عبد الله بن وهب في اعتزالهم الأول للإمام. إن هذه النسبة من وضع الملكيين الذين لا يألون جهدا في تحقير الجمهوريين، وليست مما يسمى به عبد الله وصحبه في عهد الإمام.

2 - الخول ، العبيد، ويطلق على الواحد والجماعة ومفرده أيضا خائل.

3 - الكامل ج 3 ص 172 ط المنيرية.

علي، فقال له الأشعث: يا ناجز القوم فإنهم إن كلموا الناس أفسدوهم عليك».[1] فما زال الأشعث بن قيس ورؤساء القبائل يلحون على الإمام أن يسير إلى أهل النهروان ليقاتلهم ويقضي عليهم، والإمام يأبي ذلك ويرفضه، ويرى أنهم لم يأتوا شيئا يستوجب قتالهم، وأنهم خاصته في صفين، وعدو معاوية والملكية المستبدة فهم من حزبه، يعلمون لما يعمل له، ويجهدون فيما لتحقيقه، ولكن الأشعث ابن قيس وصحبه كان في يدهم العامة فهي السلاح الذي يجبرون به عليا على الخضوع ويرغمونه على الامتثال، فأشهروه عليه فلم يسع عليا إلا الرضوخ، فسار إلى النهروان لا على نية القتال، ولكن على نية مصالحة عبد الله بن وهب وصحبه فيكونوا جميعا، فيتقوى بهم علي في جيشه وترجح بهم كفته في جنده، وتكون القوة في جانبه، فلا يستطيع الأشعث أن يملي عليه ما يريد، ويخضعه لما يشاء، فيتقوى بهم علي معاوية فينازله ويدحضه، ويهاجم الملكية الغاشمة في أوكارها فيقضي عليها، لذلك لما وصل علي النهروان لم يسارع لحرب عبد الله، بل بعث إليه سفراءه، يدعوه إلى المصالحة والمسامحة، فأرسل إليهم صعصعة بن صوحان، ثم أرسل إليهم قيس بن سعد بن عبادة، وهو أدهى رجل في أنصار علي، وكان معاوية يراه لدهائه اكبر خطر يهدده لما كان على مصر للإمام، فهو أحسن من يليق لإصلاح ذات البين، ويطب للجروح فتندمل، ويقع بدهائه ورفقة أصحاب عبد الله فيضمهم إلى علي، فذهب إليهم ففاوضهم وحاججهم فأقنعوه فرجع إلى الإمام فرده الإمام إليهم وثالثه فواعدهم قيس أن يأتيهم الإمام بنفسه ليعتذر عمل مضى، ويعاهدهم العهود المؤكدة أن لا يلين في مواطن الصرامة، وان لا يأتي ما يأباه الحزم والدهاء، فرضي عبد الله وأصحابه بهذا، واستبشروا به، وصاروا مستعدين لمصالحة الإمام ونسيان ما مضى مما مكن لمعاوية وأورثه قوته، ورسخ جذور الملكية[2] التي تزاحم الجمهورية الإسلامية لتقضي عليها، فسرحوا خيولهم، وزالت من وجوههم دهمة الاستعداد للوغى، وأشرقت بنور الإقبال والاستعداد للمصالحة والإخاء، ووضعوا سلاحهم، وتفرق جندهم فاختلطوا بأقاربهم وإخوانهم من جند الإمام، وقد زالت الحزازات من النفوس، وذهب الحذر الذي يمنع من اختلاط الجيوش، فلم يبق إلا أن يتحرك ركب علي ذاهبا إلى معسكر عبد الله، فيجتمع بأصدقائه القدماء، ويعطف بالاعتذار قلوبهم إليه، ويضم خاصته القديمة المخلصة إلى جانبه، وقد تفاءل الأحنف بن

1 - إن هذا النص دليل على نسبة جرائم مسعر بن فدكى إلى أصحاب عبد الله بن وهب من فعل الملكيين بعد النهروان فلو نسبت إليهم قبلها لتدرع بها الأشعث لحمل الإمام على قتالهم، وتساؤلهم للحسن علام تقاتلنا؟ وانصرافه عنهم دليل على براءتهم مما يستوجب قتالهم.

2 - الملكية بفتح اللام نسبة إلى الملوك.

قيس وخاصة الإمام المخلصة بهذا، واستبشر الأصفياء من جند علي بهذا الفتح المبين، أما الأشعث وأنصاره، وجماهير الجند التي تتبعه، فارتاعت من مفاوضات الصلح، وما توصل إليه الإمام من نتيجة حسنة مع عبد الله، ورأت عبد الله وعليا يوشك أن يكونا يدا واحدة على معاوية وحزبه، فآلى الأشعث وأصحابه أن يحولوا دون وقوع هذا الصلح، وان يقعوا الإمام في حرب مع أصحاب النهروان، فكان ما أرادت بطانة معاوية أن يكون !

لقد أورد الشماخي والبرادي مفاوضات الصلح أجراها سفراء علي نع عبد الله، وتردد قيس بن سعد بن عبادة بين الطرفين، وإرسال علي له ثلاث مرات لما يرجوه ويرغب فيه من إصلاح ذات البين، وهذا دليل على أن عليا لم يقصد الحرب لما ذهب إلى النهروان، وإنما قصد الصلح وضم عبد الله وقوته الحربية الكبرى إليه، لان عداء علي كان يتجه إلى معاوية، وإذا تعب علي في شيء فتعبه في كف الأشعث وحزبه من دعاة الفتنة الذي يدعونه لحرب عبد الله وهو يدافعهم ويداورهم، ويأبى عليهم أن يوقع شرا بأناس يحاربون عدوه معه، وهم لم يرتكبوا ما يجيز الدين قتالهم من اجله، وليس صحيحا ما قاله بعض المؤرخين الذين ينقلون كل ما يسمعون، حتى كلام العامة التي يستولي عليها الحماس والغضب وقصر النظر فتعلل حوادث النهروان بما يأباه المنطق الصحيح، وما تصرح به بعكسه ما يثبتونه في كتبهم من نصوص صحيحة ! إن هؤلاء اتهموا الإمام بأنه واعد عبد الله وأصحابه بإتيانهم ليعتذر إليهم ويصالحهم ايامنوا فيفرقوا جيوشهم فيهجم عليهم، وانه كادهم ! إن عليا رضي الله عنه اجل وارفع نفسا من أن يرتكب هذا، إنه علم في الدين، ورأس في الشجاعة، لا يحارب من يحاربه إلا وهو على أتمه في الاستعداد! لو كاد الإمام أحدا ومكر به، لأبى على معاوية في صفين أن يشرب جيشه من النهر الذي استولى عليه، وقد ألح عليه أصحابه أن يمنعهم الماء كما منعوه، ويهجم عليهم وقد قيدهم العطش له، فيأخذهم قبضا بالأيدي، فلا يحتاج إلى الحرب معهم فقال لهم: لا والله لا أكافئهم بمثل فعلهم، أفسحوا لهم عن بعض الشريعة، ففي حد السيف ما يغني! هذا هو الإمام علي! لا يعتمد في الحرب على كيد الضعفاء، ولكن على أسلوب الشجعان الأقوياء!

إن عليا لم يكن راغبا ولا عازما على حرب عبد الله فيكيده كي يفرق جموعه، ولكنه كان صادقا فيما ابلغ سفيره قيس عبد الله من إتيانه إليهم للمصالحة والاعتذار، وما كان لعلي وهو علم في الدين، وممن يضرب به المثل في الورع والتقوى، أن يخيس بوعدهن ويكذب في قوله، ويهجم على الآمن الذي وثق بعهده، واطمأن إليه، فألقى سلاحه، وفرق جنده واختلط بجيشه !

إن من يصفون عليا بالكيد لعبد الله ففرق جيوشه، يصفون عبد الله وأصحابه بالغرارة والغفلة، وهم الدهاة الأذكياء، الذين يتبينون الخفايا الخفية، ويتنبهون للدقائق التي لا تبين، وما كان لقيس ولأدهى منه أن يداجي عبد الله وصحبه فيلبس غير وجهه، ويظهر بغير حقيقته، ثم لا يعرفون، وما كان لقيس في فضله وصلاحه، وفي اعتداده بنفسه، وفي غيرته على مكانته العالية في عصره أن يفعل هذا، فيخادع أناسا يشهد بفضلهم، وينطوي على إجلالهم وإكبارهم، ويراهم قوة عظمى يجب جرها إلى الإمام، وأجنحة على الكبرى يجب أن ترجع إليه!

إن العوام والذين لا يحكمون المنطق في هذه الحوادث قد أراهم الغضب والنظر بالعاطفة في هذه الحوادث غير الحقيقة، فتفوهوا وعللوا الحوادث تعليلا خاطئا، فنقل بعض المؤرخين تلك الأقوال التي يناقضها ما أثبتوه بعد ذلك ونسبوه إلى الإمام من تحسره وتأسفه وبكائه على عبد الله وصحبه الذين استشهدوا في النهروان، وما وصفوه به من تحسره حين كانت المعركة جارية، والهجوم يقع على عبد الله بن وهب وصحبه. فلو كان هو الأمر بالهجوم، المشعل للحرب، لفرح بالنصر، وسر بقضاء جنده على أصحاب عبد الله!

هجوم الأشعث وحزبه على عبد الله بن وهب

ووقوع مأساة النهروان

وكان الأشعث بن قيس وصحبه من رؤساء القبائل الذين اصطنعهم معاوية يتحسرون ويتألمون لما وصل إليه على من نتيجة حسنة مع عبد الله، وعزم علي على المسير إلى عبد الله لن وهب ليصالحه فيكونوا يدا واحدة، فعزم أن يفسد خطة الإمام، ويمنع الصلح أن يقع، فيهجم على عبد الله بن وهب وصحبه، ويشعل عليهم الحرب الضروس، ويجعل الإمام في الأمر الواقع الذي لا يستطيع له ردا. إن أتباع الأشعث في جند علي كثيرون، وإن كثيرا من رؤساء القبائل الذين اصطنعهم معاوية هم ضباط جيش علي، فيستطيع هم وهؤلاء الضباط أن يعلنوا الحرب بدون إذن الإمام، ويبعثوا الجيش على القتال بغير مشيئته.

وكان عبد الله بن وهب الراسبي في أربعة آلاف من جنده، فلما واعده قيس بن سعد بمسير علي إليه، شرع يستعد للقاء المصالحة، وامن واطمأن، وأذن لجيشه أن يتفرق، فذهب أكثره لزيارة أقاربهم وإخوانهم في جيش الإمام، ليؤكدوا ما عزم عليه الطرفان من المصالحة، ويبينوا برفع الحذر حسن نية عبد الله. فلم يبق في معسكر عبد الله وتفرق جيشه، فهجموا عليه، وأحاطوا به، فركب عبد الله وركب أصحابه وخاصته الذين كانوا معه في المعسكر ينتظرون وصول وفد الإمام، فدارت معركة رهيبة بين الأشعث بن قيس الذي يندفع بجيش الإمام وعبد الله وصحبه، سقط فيها من القتلى مئات من الطرفين، ودامت يوما كاملا من الغداة إلى الأصيل. وكان الأشعث وصحبه في حوالي ستين ألف مقاتل، وكان عبد الله بن وهب في ألف وثمانمائة، وهوجموا على غرة، فقاتلوا حتى قتلوا فلم ينج منهم إلا القليل، فاستشهد في المعركة عبد الله ابن وهب الراسبي وخاصته من الصحابة وكبار التابعين، وتفرق بقية جيش عبد الله الذي لم يشارك في المعركة، وأكثرهم من العوام الذين سينقسمون بعد ذلك أقساما فيكون منهم الازارقة الذين وقع لهم رد فعل بهذه المعركة فكانوا على ما سنبينه في الفصل التالي.

وكان الإمام علي كما روى الشماخي يتأسف ويتحسر ويندب حظه لما أشعلت هذه الحرب بغير إذنه، ورأى عبد الله وصحبه يسقطون في ميدان المعركة، فيفقد فيهم اكبر نصير كان يتمنى أن يتقوى به على معاوية. فلو كان الإمام هو الأمر بالحرب، الراضي بها، ما تحسر وتأسف لما رأى جيشه يحيط بعبد الله ويعمل للقضاء عليه. لقد كان يسر ويبتهج بهذه النتيجة والحرب مشتعلة، وهو على الحماس والغيظ الذي بعثه عليها. إن

الإنسان ليتأسف ويتحسر لما أشعل من حرب على أخيه، ولكن بعد خمودها وسكونه، وأوبة العقل إليه، وسكرت مراجل غضبه، ولا يتأسف ويتحسر وهي مشتعلة إلا وهو كاره لها، غاضب لإشعالها، متأسف لما وقع بغير إذنه! !

قال الشماخي:[1] وقاتل عبد الله وأصحابه قتالا شديدا، وقتل زيد بن حوي نحو مائة وأكثرهم من همذان، واقتتلوا من صلاة الغداة إلى الأصيل، وعلي واقف ومعه «ذو العقيصة» فسمعه يقول: والله إن كنتم لأصحاب الدار يوم الدار، وأصحاب الجمل يوم الجمل، وأصحاب صفين يوم صفين، وأصحاب القرآن إذا تلي القرآن! ! فقال له: ففيما نحن إذا فضرب فرسه فلحق بهم».

عدم مشاركة علي في حرب النهروان

ومن الأدلة على كره علي لهذه الحرب، وأنها قد وقعت بغير إذنه عدم مشاركته فيها، وهو الفارس الذي تأبى عليه شجاعته أن تشتعل حرب بمشهده ولا يخوضها، سيما إذا كانت حربا قاسية تستمر يوما كاملا، ويصاب فيها جيشه بالخسائر الكبيرة، ويقتل من همذان وحدها نحو مائة رجل. وقد رأيناه في حروب صفين يشارك في المعارك، ويكون القلب لجيشه في الوقائع الكبرى، ويأخذ سيفه فيقتحم الاتون فيضرب به حتى يتفلل فلا يبقى فيه مكان يصلح للضرب، ثم يرجع وقد أشفى طبع البطولة فيه، وابرد الغليل الذي تحدثه شجاعته فيه لاقتحام المعارك واصطلاء الوغى. وقد نهاه أصحابه في صفين عن المشاركة في الحرب فكان لا ينتهي، فأقاموا عليه حراسة تمنعه وتكفه عن خوض الوغى! هذا هو علي سيد الشجعان، وإمام الأبطال! فلو كانت حرب النهروان برضاه لشارك فيها، ولكنها من فعل الأشعث وحزبه الذين هاضوا أجنحة الإمام بالقضاء على أصحاب النهروان، ليتمكنوا بعد ذلك من الكيد الأكبر له، وتفريق جيوشه عنه، فلا يسير إلى معاوية في الشام، فتنتصر الملوكية.[2] ولا يقوم لعلي قائمة بعد وقعة النهروان المشئومة.وكان حزن علي كبيرا على عبد الله وصحبه الذين فقدهم في النهروان. وقد بكاهم بكاء مرا، وحزن لفقدهم الحزن الشديد، ورآهم اعضاده قد أزيلت، وأجنحته قد قصت، وقوته الكبرى قد جرده معاوية منها.

قال الشماخي: روي عن ابن عباس قال: حدثني قنبر مولى علي قال: تحولت أنا وعلي إلى النهر بعد القتال فانكب طويلا يبكي. فقلت: ما يبكيك؟ قال: ويحك! صرعنا ها هنا خيار هذه الأمة وقراءها! فقلت: أي والله فابك، فبكى طويلا.

1 - سير المشايخ ص 53 ط البارونية.

2 - الملوكية صحيحة على مذهب ابن جني الذي أجازها وسنبين ذلك في تعليق مقبل.

إن هجوم جيش علي على أصحاب النهروان كان بغير إذنه، وإنما بتدبير من الأشعث وصحبه! ولما قتل عبد الله وصحبه تنفس الأشعث وصحبه الصعداء، وعلموا أنهم قد بلغوا ما يشاءون في الإمام، فشمروا للإجهاز عليه، وضربه الضربة الأخيرة التي تفرق جيوشه عنه، وتجرده من بقية أنصاره، فيقعد عن حرب معاوية يحدث نفسه بها بعد ذلك! فما هو كيد الأشعث وصحبه للإمام؟

كيد الأشعث لعلي واثر وقعة النهروان في أنصاره.

ولما قضى الأشعث على أهل النهروان بهجومه المفاجئ الذي لم يأمر به الإمام علي، وعلم انه قد قضى على العدو الأكبر الذي يهدد الملكية، والقوة الكبرى التي يخشاها معاوية، وانه قد شان صفحة الإمام بالقضاء بجيشه على أهل النهروان، وان هذا سيكون له الأثر الكبير في جرح خواطر من بقي معه من أنصار المخلصين،لأنهم يعدون أهل النهروان لهم خاصة مبجلة، ما منهم إلا وله قريب أثير في أولئك الشهداء أو شخص يبجله ويؤثره في أولئك القتلى، وان قتل أهل النهروان سيملأ بالتشاؤم والاستيلاء البالغ قلوبهم، ويقضي على معنوياتهم، ويكون سببا لانصرافهم عن الإمام فلا يجد القوة التي يسير بها إلى الشام، وان استياء هؤلاء الأنصار المخلصين للإمام مما وقع لأهل النهروان، وإياسهم وانصرافهم عن الإمام، سيزيد الأشعث وحزبه في التمكين من ناصيته، والهيمنة والتحكيم فيه، فيجره لما يشاء، ويرغبه على يريد.

وكان الإمام علي قد خرج من الكوفة لقتال معاوية، ولما صرف جيشه إلى النهروان، ووقع ما وقع بها من المآسي التي أحزنته، وملأت قلبه بالأسى، وأغرقت صدره بالبكاء، حاول أن يصرف جيشه إلى وجهته، وان يسير به إلى عدوه، ليقضي على الملكية وأنصارها، ولكن الأشعث وحزبه من رؤساء القبائل الذين اصطنعهم معاوية فاندسوا في جيش الإمام كانوا له بالمرصاد، فما كادوا يتخلصون من جيش النهروان الذي كان يستعد لقتال معاوية حتى شمروا للتخلص من جيش علي، وتفريق الجند عنه، فقام الأشعث في أعوانه، وفي العامة الكثيرة التي تؤازره من الجند فقال لعلي: إن جيشنا قد كل، ورماحنا تقصفت، وسيوفنا تفللت، وقوانا قد ضعفت بمعركة النهروان، فارجع بنا إلى الكوفة لنستجم، وتتجدد قوانا، ونتأهب لعدونا، فنكون أدرك لما تريد، وابلغ لما تحب، وأنكى في العدو القوي الذي سنحاربه ! فعرف الإمام وخاصته إنها مكيدة من الأشعث، فأبى عليهم ذلك، وحاول إقناعهم بوجوب السير إلى معاوية وافهمهم أن قتال البغاة واجب في الدين، وان معاوية يريد أن يقضي على الجمهورية الإسلامية، فتكون ملكا مستبدا يسير في الناس سيرة كسرى، معرضا عن طريق الخلفاء الراشدين الذي سنه

المصطفى، وأمر به الله، ولكن الأشعث وحزبه أبوا لان معاوية ولي نعمتهم، فهو الرجل الذي سيشبع أطماعهم، والملكية هي النظام الذي سيحققون في ظله كل ما يشاؤون لأنفسهم من حظوظ عاجلة، ويتبوأون بها في الدولة ما يريدون من مراتب رفيعة، وتؤثل لهم ما تتحلب عليه أشداقهم، وتشره إليه نفوسهم من مال جسيم، فأبوا على الإمام إلا الرجوع إلى الكوفة!

رجوع علي إلى الكوفة وافتراق جيشه عنه

وكان الأشعث وأنصاره في جمهور كبير من جيش الإمام يناصرهم ويؤيدهم، ويمثل أوامرهم، فعلم الإمام انه لا يستطيع إرغامهم على ما يكرهون، وانه إذا سار بهم إلى الشام مرغمين فإنهم سينقلبون عله، أو يكونوا جيشا مغلولا لا يستطيع أن ينازل به جيوش معاوية الجرارة المخلصة المتحمسة لأميرها، فلم يسعه إلا الرجوع إلى الكوفة، فرجع وهو يرجو -في الشام واستياء- أن يكون الأمر كما تظاهر به الأشعث، وان يستجم جيشه ويستعد فيسير إلى الشام، فنزل بالنخيلة في ظاهر الكوفة، ونهى جيشه عن الافتراق والدخول إلى المدينة حتى لا ينتثر عقدهم، ويبرد حماسهم، وتتبدل نيتهم في قتال معاوية وحزبه، ولكن الأشعث وحزبه ما كانوا ليمكثوا في معسكر علي ليسير بهم إلى الشام، إنهم لا ينوون حرب معاوية، بل مناصرته وتأييده، ليكون الأمر له، فصاروا يتسللون وحدانا وجماعات فلم يبق في المعسكر إلا الإمام وجماعة قليلة من أنصاره.

اثر وقعة النهروان في أنصار علي

وكان كثير من أنصار الإمام المخلصين قد خروا معه على نية قتال أهل الشام، فهم على حماسه للسير إلى الملكية والقضاء عليها، ولكن لما أرغم الإمام على العدول إلى أهل النهروان، ثم وقعت المعركة المشؤومة، فقتل فيها رجال لهم المكانة العليا في نفوسهم، والماضي المشرق الذي بوأهم في أعلى المراتب من قلوبهم، ورأوا الأشعث وكيده، ومتابعة جمهور الجيش له، وقع لهم رد فعل شديد بوقعة النهروان التي قتل فيها خاصتهم وإشرافهم، وبما صار إليه الإمام من عدم سيطرته على الجند، ووقوعه في قبضة الأشعث يوجههم كما يريد، فتشاءموا، وايسوا من استطاعة علي الوقوف في وجه معاوية، وان تكون الغلبة له بعد ما قضي الأشعث على خاصته وأركان جيشه من أهل النهروان، فرجعوا إلى الكوفة مع الراجعين، فبقي الإمام في عدد ضئيل من خاصته فلم يسعه إلا الرجوع.

قال ابن الأثير يذكر مكيدة الأشعث وتفريق جيش الإمام، وما طلبوه به لما أمرهم

بالمسير إلى الشام من النهروان قالوا له: «يا أمير المؤمنين نفذت نبالنا، وكلت سيوفنا، ونصلت أسنة رماحنا، وعاد أكثرها قصدا، فارجع إلى مصرنا فلنستعد، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا، فانه أقوى لنا على عدونا! وكان الذي تولى كلامه الأشعث بن قيس! فاقبل حتى نزل النخيلة، فأمر الناس أن يلزموا عسكرهم ويوطنوا على الجهاد أنفسهم، وان يقلوا زيارة أبنائهم ونسائهم حتى يسيروا إلى عدوهم، فأقاموا فيه أياما ثم تسللوا من معسكرهم فدخلوا إلا رجالا من وجوه الناسي، وترك المعسكر خاليا «وقد خرج في يوم واحد اثنا عشر ألفا واراهم من شيعة الأشعث، وفي يوم ثلاثمائة» فلما رأى علي ذلك دخل الكوفة، وانكسر عليه رأيه في المسير».[1]

وكانت وقعة النهروان وقضاء الأشعث على الجمهوريين فيه شرا على الإمام؛ فقد هاضت جناحه بمن استشهد فيها من خاصته، ومن المناهضين للملكية معه، وزادت في جرأة معاوية عليه، فلم تقم للإمام علي بعدها قائمة، ولم يستقم له أمر، ولا استطاع أن يمني نفسه بالسير إلى معاوية والقضاء على الملكية، بل صار لتخاذل جيشه، وفساد قلوب رعيته بدعاية الأشعث لا يستطيع حتى الدفاع عن مدن العراق التي يهاجمها معاوية فيقتل عماله، ويرتكب أنواع الظلم في رعيته، وقد حاول الإمام المرار العديدة أن ينفخ الحماس في قلوب رعيته، ويستنهض هممهم، ويشعل العداء للملكية في قلوبهم، ويشعرهم بما أمر الله به من مقاتلة البغاة، فكان كمن يحاول أن يشعل الماء ويسرج التراب وينبت في الصخور الصماء التي لا تنفعل بالماء! إن رعيته احد اثنين فجمهور الدهماء كان مع الأشعث بن قيس وأنصاره من رؤساء القبائل التي اشترها معاوية، وبقية أنصاره قد تشاءموا وانكسرت قلوبهم بمن قتل من خاصتهم في النهروان، وباستشهاد أركان حربهم الذين يصولون بهم على معاوية مع عبد الله ابن وهب الراسبي في وقعت النهروان المشئومة، فانطفأ حماس هؤلاء الأنصار فلم يعودوا للإمام كما كانوا، فايس على رضي الله عنه أن يكون له في وجه معاوية موقف قوي يحول بينه وبين الملك الذي يرده، فتقوى معاوية وأيقن بتحقيق آماله في الملك بعد القضاء على أهل النهروان، وعلم أن الإمام قد قصت أجنحته، وقضى الأشعث على أنصاره لما قتل عبد الله بن وهب الراسبي وصحبه، فلن يستطيع منازلته، فأرسل أعوانه فاحتل مصر والحجاز واليمن، وصار يغير على أطراف العراق، ويمهد لاحتلالها وضمها إليه، فانتصرت الملكية على الجمهورية الإسلامية، وبلغ معاوية ما يريد، وعاش الإمام على بقية أيامه بعد وقعة النهروان مقصوص الأجنحة، كاسف البال، مجروح القلب متشائما حتى استشهد رضي الله عنه في سنة أربعين بعد ثلاث سنين من وقعة النهروان.

1 - الكامل ج 3 ص 176 المنيرية، ما بين قوسين أثناء كلام ابن الأثير من المراجع الأخرى.

وكانت وقعة النهروان اكبر مكيدة دبرها معاوية لعلي، فإنها قد وجهت إلى علي ليقضي عليه أكثر مما وجهت إلى عبد الله بن وهب الراسبي! وعاش الإمام بقية أيامه بعد وقعة النهروان في وحشة وغربة لما فقد من أنصاره، ولما هد من أركانه! روى الشماخي: أن عليا فقد أصوات المتهجدين التي كانت في الليل كأنها دوي النحل «فتؤنس الكوفة، وتستنزل ملائكة الرحمة» فقال: أين اسود النهار ورهبان الليل!؟ «فقالت له العامة التي أغراها الأشعث في النهروان». قتلناهم يوم النهروان.[1]

قال الشعبي لما قتل أهل النهروان أيس علي أن يستقيم له الأمر فقال لابنه لا تكرهوا بيعة معاوية.[2]

الأشعث ابن قيس وقضاؤه على علي

وكان الأشعث بن قيس اكبر أنصار معاوية في جيش علي ورعيته، وكان شؤما وبلاء على الإمام علي وآل بيته، فهو جسر معاوية إليه، ومنفذ الخطط والمكائد التي يحوكها معاوية له، وإذا كان معاوية هو الذي بطش بالإمام وقضى على دولته، فان الأشعث هو أمضى أظفاره، واحد أنيابه، والتي هاجم بها الإمام فبلغ فيه مراده!

وكان الأشعث رقيق الدين، تسيره غرائزه، وحب المال المستولي عليه، فاستطاع معاوية أن يجذبه إليه، وان يصطنعه ويسخره في أغراضه.

وكان الأشعث من آخر من اسلم في عهد النبي، اسلم في سنة عشر من الهجرة وكان من المرتدين بعد موت الرسول عليه السلام «فسير أبو بكر الجنود إلى اليمن فاخذوا الأشعث أسيرا فاحضر بين يديه»[3] فعفا عنه أبو بكر، ولو قضى عليه لأغلق بابا للفتنة تفتح على المسلمين، ومنبعا للبلاء تسلط على علي رضي الله عنه.

قضاء جعده بنت الأشعث على الحسن ابن علي

وكان الحسن بن علي قد تزوج ابنته جعدة بنت الأشعث فداخلها معاوية وجعل لها إن سمت الحسن أن يزوجها ابنه يزيد، وان يعطيها مالا كثيرا فسمت زوجها الحسن فمات فوفى لها معاوية بالمال أما يزيد فقال لها: لا تزال لنا في يزيد رغبة! فلم يوف لها بوعده في الزواج.

1 - سير المشائخ لأحمد بن سعد الشماخي ص 54 ما بين قوسين في كلامه ليس له وهكذا كل كلام يرد بين قوسين في نص من النصوص في هذا الكتاب.

2 - سير المشائخ ص 55.

3 - أسد الغابة ج 1 ص 98.

تسلط الأشعث على جيش علي

ومن اكبر الأدلة على أن الأشعث كانت له الأغلبية في جيش علي هو عدم استعداد معاوية لما خرج إليه الإمام بجيوشه، وقد رأيناه في حروب صفين يستعد ويأخذ كل أهبته، ويجمع كل قواه، فيخرج إلى الإمام ليدافعه عن الشام، وينازله قبل أن يطأ أرضه فتزداد جرأته بدخول بلاده، أما الآن فقد أيقن أن جيش الإمام بعد أن فارقته خاصته من أهل النهروان جسم قد فارقه صلبه، وذهب عموده وان الذين هم منبع الحماس لجيشه فيندفع ويثبت في القتال قد فارقوه فبقي في جيش يسيطر عليه الأشعث وحزبه، فما كان لعلي أن يبلغ إليه فيقاتله، فنام مطمئنا معتمدا على جيشه المبثوث في جند علي، متكلا على الأشعث وصحبه أن يحققوا له كل ما يشاء وقد بلغ معاوية مراده في الإمام ففرق جيشه، واستولى على بلاده، وشله عن كل حركة يقوم بها ضده، فشمر للقضاء على الجمهوريين من بقايا أهل النهروان وأنصارهم، ومن انضم إليهم من علماء المسلمين، فأشهر عليهم هو والملوك الأمويون والعباسيون من بعده السنة الدعاية الكاذبة ليشوهوا سمعتهم، ويبعدوا العامة عنهم، فلا تكون كفة الجمهورية الإسلامية هي الراجحة! وكان من أكاذيب الدعاية الملكية ضد الجمهوريين نسبة جرائم مسعر بن فدكي، وجريمة عبد الرحمن بن ملجم إلى الجمهوريين أتباع عبد الله بن وهب الراسبي! فما هي تلك الأكاذيب الملوكية على أنصار الجمهورية الإسلامية؟

أكاذيب الملكيين[1] على الجمهوريين

مسعر بن فدكي وعصابته

لما خرج عبد الله بن وهب الراسبي وأصحابه من الصحابة وكبار التابعين، ومن يؤيدهم من العامة التي تتمسك بالجمهورية الإسلامية، وتأبى الملكية المستبدة، لما خرجوا من الكوفة إلى النهروان بين بغداد وحلوان، فجعلوه معسكرهم يستعدون فيه للسير إلى معاوية ليقضوا على الملكية وأنصارها، تلاحق بهم أنصارهم من الكوفة والبصرة وأنحاء العراق فخرجوا جماعات إلى النهروان. وكان ممن خرج من البصرة مسعر ابن فدكي وعصابته.

وكان مسعر عاميا ممن يسيرهم الحماس والعاطفة لا الدين والعقل. إن اسمه يدل عليه، إنه ليس اسم رجل جليل الشأن عظيم المكانة، فمسعر بن فدكي اسم لا يكون إلا لفاتك من العامة من مساعير الفتن الذين تسيرهم عواطفهم وحماسهم وتطرفهم في متابعة الأهواء والنزوات. وكان مسعر في عصابة مثله يقودها، ويندفع بها في طريقه فسفك الدماء وارتكب الجرائم! وارى مسعرا وعصابته قد دسوا على أصحاب النهروان من معاوية وحزبه ليشوهوا سمعتهم، وينفروا الناس عنهم. إن دهاء معاوية، واتخاذه كل وسيلة لإسقاط مناوئيه والقضاء عليهم وبراعته في الدعاية وتأثيره في الجماهير ليسوا له أن يوحي إلى مسعر وعصابته، فيتظاهرون بالخروج إلى أهل النهروان، وينتسبون إليهم، ويتعصبون لهم، وينادون بشعائرهم ويبدون في كل مظاهرهم حتى يعدهم الناس منهم، ويرونهم من حزبهم، ثم يرتكبون من الأخطاء والذنوب ما يستغله معاوية وحزبه في الدعاية ضد الجمهوريين. إننا لنشاهد هذا العصر أن من المتعارف عند الساسة، وما يأتيه كل من يريد تهديم حزب أن يدس في أعضائه من يتعمد ارتكاب ذنوبي تشوه سمعة الحزب فيستغلها أعداء الحزب في تهديمه والقضاء عليه. وارى أن مسعر بن فدكي من هؤلاء الذين أوحى إليهم معاوية وأنصاره بالخروج وارتكاب ما ارتكب من الفظائع ليستغلوا ذلك في الدعاية ضد أصحاب النهروان الجمهوريين فان لم يكن ذلك وكان مسعر بن فدكي جمهوريا يرى رأي أهل النهروان في الجمهورية الإسلامية، ويريد مثلهم مناصرة الإمامة العادلة فانه لم يكن على دين أهل النهروان وطريقتهم، عفافهم وورعهم، وتحرجهم كل التحرج في دماء المسلمين وأموالهم. لقد تبرأ أهل النهروان من مسعر، وأبوا أن ينضم إليهم ويعد من جماعتهم، وطلبوه لينفذوا فيه حكم الله فيقتلونه هو وعصابته لما سفك من دماء حرام فهرب فلم يستطيعوا إدراكه.

1 - الملكيون بفتح اللام أنصار الملوك منسوب إلى الملوك وكذلك الملكية.

فماذا فعل مسعر بن فدكي فاستغله الملوك ودعاتهم، وبنوا عليه أكاذيبهم لتشويه سمعة الجمهوريين؟

قال الشماخي: «وخرج مسعر بن فدكي من البصرة في عصابة فجاز على « المدائن وفيها عبد الله بن خباب وكان عاملا للإمام علي عليها كما قال بعض المؤرخين» قال الشماخي: فسأله مسعر عن التحكيم فقال إن أبي أوصاني أن ألزم بيتي إذا وقعت الفتنة فقال: إن الله أوصانا بغير ما أوصاك به أبوك. قال: تقاتلوهم حتى لا تكون فتنة فقتله مسعر،»وبقروا بطن امرأته وكانت حاملا متما في شهرها التاسع» قال الشماخي: فأتى أصحاب النهروان فأنكروا ذلك عليه، وهموا بقتله ففر فبرئوا منه».

وقال الشماخي: «وفي كتاب النهروان حدثني عتاب بن إبراهيم أن مسعرا حين هرب لقي أناسا من أهل خراسان حجاجا فضرب أعناقهم»[1] وصار يستعرض كل من يخالفه ويستحل دماءهم، وسلك مسلك الأزارقة الغلاة الذين جاءوا من بعده.

هذا هو مسعر بن فدكي وذلك هو موقف أصحاب النهروان منه ومن أعماله، أنكروا جرائمه، وهموا بقتله تنفيذا لحكم الله فيه فهرب، فتبرءوا منه حتى لا ينسب إليهم، ولا يعده المسلمون من جماعتهم.

وقد استغل الملكيون جرائم مسعر بن فدكي وفظائعه في دعايتهم الكاذبة ضد الجمهوريين فنسبوها إلى عبد الله بن وهب وأصحابه في النهروان، ثم بالغوا في أكاذيبهم فنسبوا إلى الإمام علي رضي الله عنه بأنه طالب أهل النهروان بان يدفعوا إليه مسعر ابن فدكي فأبوا وقالوا: قلنا قتل عبد الله بن خباب! فجعلوا مسعرا فيهم، وفي جماعتهم يطالبهم به الإمام وهم يحمونه ويتعصبون له، ثم جعلوا عبد الله بن وهب ومن معه من الصحابة وكبار التابعين كلهم يرى رأي مسعر في دماء المسلمين، ويسلك سلوكه فيهم ليصوروا للعامة ومن لا يعرف عبد الله وصحبه أهل النهروان عصابة تقتل الأبرياء، وتقطع الطريق، وتبعث في الأرض فسادا، ويوهمون الناس أن الإمام عليا قد عدل إلى أهل النهروان فقاتلهم باختياره، وهجم عليهم بإرادته لمخالفتهم للدين وسفكهم دماء المسلمين.

إن أهل النهروان لو كان مسعر بن فدكي منهم، وأنهم ارتكبوا في عبد الله ابن خباب ما ارتكبوا ما أبى الإمام علي أن يسير إليهم لما دعاه الأشعث بن قيس وحزبه إلى ذلك، إنه احرص منهم على الدين، فما كان ليسكت عن عصابة تسفك دماء رعيته

1 - سير المشائخ ص 51 ما بين قوسين أثناء نصوص الشماخي من المراجع الأخرى ابن الأثير والمسعودي.

وتقتل ظلما عبد الله بن خباب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتبقر بطن امرأته الحامل، وتأتي هذه الفظائع التي تعبث النقمة والسخط في كل النفوس، فما بنفس متدينة غيورة على الدين وعلى المسلمين كعلي رضي الله عنه وما كان الإمام أن يسكت ويقعد ويأبى السير إلى مقاتلة أناس قتلوا عاملة على المدائن فتعدوا على الدولة، وتجرؤوا عليه، وارتكبوا فيه ما لا يسكت عنه أبى شعاع كالإمام! لو كان مسعر بن فدكي من أصحاب النهروان ما أبى على المسير إليهم بل لوجدناه إلى قتالهم أسرع من الأشعث وحزبه لينفذ حكم الدين الذي يغار عليه، ويأمن ظهره إذا سار إلى الشام، فلا يصيب رعيته وبلاده في غيبته ما يسوءهم. ثم إن الحسن لما أرسله الإمام إلى أهل النهروان[1] ليعجم عودهم، ويرى استعدادهم للصلح معه سألوا الحسن: علام تقاتلنا؟! فلو كان مسعر بن فدكي منهم لاحتج الحسن ابن علي بجرائمه عليهم، وقد أفحموا الحسن وانصرف عنهم فلم ينلهم بسوء، ولو كان أصحاب النهروان يستحلون الدماء، ويسارعون إلى إهراقها لقاتلوا الحسن لما جاءهم في جزء من جيش أبيه يستطيعون أن يقاتلوه فيهزموه، ولكنهم كفوا وأقنعوه ليكف عنهم فانصرف إلى أبيه:

ومن الغريب أن هؤلاء الملكيين قد حاولوا أن يشوهوا سمعة الإمام أيضا بمسعر ابن فدكي فقد روى بعض المؤرخين ونقل عنهم الشماخي: أن مسعر بن فدكي بعد أن سفك الدماء الحرام وعاث في الأرض فسادا دخل على علي في الكوفة فوقف على رأسه فعفا عنه !» إن الإمام عليا لأجل واش غيرة على الدين، وأقوى على تنفيذ أحكام الله في مثل مسعر من أن يعفو ويسكت في مقام لا يجوز فيه العفو والسكوت، ولكنها الدعاية الملكية التي أرسلها الملوك الأمويون والعباسيون وأنصارهم وأكدها الملوك في القرون العشرة الأولى ليشوهوا سمعة الجمهوريين الذين ناهضوا الملكية المستبدة، وخرجوا عن الظلم والطغيان فأسسوا دولهم الجمهورية العادلة التي التزمت في سياستها وفي كل أمورها الدين، وسار أئمتها المتقون سيرة الخلفاء الراشدين! ثم يستشهد الإمام علي رضي الله عنه فيستغل قتله الملكيون في الدعاية ضد الجمهوريين فما هي أكاذيبهم على الجمهوريين ليشوهوا سمعتهم عند المسلمين؟

اغتيال الإمام علي وأكاذيب الملكيين على الجمهوريين

كان استشهاد الإمام علي رضي الله عنه في شهر رمضان لسبع عشرة خلت سنة أربعين من الهجرة، والذي اغتاله هو عبد الرحمن بن ملجم المرادي لعنه الله.

1 - انظر قصته في صفحة 359 من هذا الكتاب.

قال ابن الأثير: إن عبد الرحمن بن ملجم المرادي، والبرك بن عبد الله التميمي، وعمرو بن بكر التميمي اجتمعوا «في مكة» فتذاكروا أمر الناس (واختلافهم) وعابوا عمل ولاتهم، ثم ذكروا أهل النهروان فترحموا عليهم وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم فلو شرينا أنفسنا وقتلنا «أئمة الخلاف» فقال ابن ملجم أنا أكفيكم عليا -وكان من أهل مصر- وقال البرك أنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر أنا أكفيكم عمرو بن العاص» ثم مضى كل إلى صاحبه فنجا عمرو بن العاص لعدم خروجه في ذلك اليوم وقتل خليفته، ووقى معاوية سمنه فلم يقتل ولكن الضربة قطعت منه الولد، واختار الله للإمام الشهادة فاغتاله الشقي.

كتمان ابن ملجم أمره على الجمهوريين في الكوفة

قال ابن الأثير فأتى ابن ملجم الكوفة فلقي أصحابه بالكوفة فكتمهم أمره» ويريد ابن الأثير بأصحابه الجمهوريين أصحاب عبد الله بن وهب الراسبي، وقد كتمهم أمره لأنه يعرف مخالفتهم له في هذا الأمر، ومعارضتهم لهذه الجريمة، وأنهم سيكفونه ويمنعونه، أو يبلغون عليا عنه. فكمن ابن ملجم لعلي رضي الله عنه فلما خرج لأذان الصبح هوى عليه بالسيف فأصابه فمات بضربته بعد يومين. وكان عمره اثنتين وسبعين سنة، ومدة خلافته أربع سنين وعشرة أشهر وثمانية أيام. وقبل وفاته رضي الله عنه أوصى بنيه وآل بيته بهذه الوصية قال:»النفس بالنفس، إن ملكت فاقتلوه كما قتلني، وإن بقيت رأيت فيه رائي، يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون في دماء المسلمين تقولون قد قتل أمير المؤمنين! ألا لا يقتلن إلا قاتلي! انظر يا حسن، إن أنا مت من ضربتي هذه فاضربه ضربة بضربة ولا تمثلن بالرجل فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور» فلما قبض بعث الحسن إلى ابن ملجم فاحضره ثم قدمه فقتله، وأخذه الناس فأدرجوه في بواري[1] «ثم طلوها بالنفط»[2] فأشعلوا فيها النار فاحترق.[3].

تلك هي وصية الإمام رضي الله عنه، أبى أن يتهم احد بقتله غير ابن ملجم، وخاف أن يستغل الأشعث وحزبه حماس العامة بقتله فيوجهوا ثورتهم إلى الجمهوريين ليتخلصوا منهم، فسد هذا الباب، ولم يتهم أحدا من الجمهوريين الذين معه بالكوفة، وهم الذين يعمل الملكيون -الأشعث وحزبه- كل وسيلة للقضاء عليهم، وإبعاد الناس عنهم.

1 - البواري بتشديد الياء بارية وهي الحصير المنسوج.

2 - ما بين قوسين من مروج الذهب.

3 - الكامل ج 3 ص 197 ط المنيرية..

أكاذيب الملكيين

لقد استغل الملكيون مقتل الإمام علي رضي الله عنه ضد الجمهوريين أتباع عبد الله ابن وهب الراسبي، ولما كان ابن ملجم ينتسب إليهم، ويناصر الجمهوريين مثلهم، ويقول بقولهم في الملكية وأنصارها، فإنهم جعلوا أتباع عبد الله بن وهب الراسبي الجمهوريين كلهم على رأي ابن ملجم في علي، وجعلوهم كلهم شركاء ابن ملجم في دمه، وفي جريمته التي ارتكبها في الإمام رضي الله عنه.

لو أن ابن ملجم كان من رؤساء الوهبيين، ومن أعلام الجمهوريين، ومن أئمتهم وقادتهم فارتكب ما ارتكب بدون اتفاق خاصة الجمهوريين معه،وإجماع أتباع ابن وهب كلهم على رأيه، ما جاز أن تنسى إليهم فعلته، وتسند إليهم كلهم جريرته، فكيف وابن ملجم رجل بسيط عامي من الجمهوريين توطأ مع آخرين عامة مثله على قتل الرجال الثلاثة معاوية وعمرو بن العاص وعلي رضي الله عنه، هؤلاء الذين وقع بينهم النزاع، فافترق المسلمون، وسفكت الدماء بينهم، وانقسموا إلى معسكرين يتقاتلان، وحزبين يتناحران، فأبدى للعصابة الجاهلة قصر النظر، وبساطة التفكير، والجهل بالأمور، وعدم الدراية بالدين أن قتلهم يرجع للأمة الإسلامية وحدتها، ويجمع كلمتها، فتصير على ترابطها واتحادها وتحاببها في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما! وما علموا أن الفرقة كانت بسبب تغير أخلاق المسلمين، وتبدل طباعهم بتحضرهم وتمدنهم، ومعاشرتهم للفرس والروم، ومصاهرتهم لهم واختلاطهم بهم، وان عهد أبي بكر وعمر في الوحدة ما كان ليرجع بزوال الثلاثة الذين وقع التنافس بينهم، والنزاع بين أتباعهم، ولكن بشيء آخر هو رجوع المسلمين إلى دينهم، وخضوعهم لأوامر ربهم، وتنزههم عن عبادة الذات والأنانية، والتحيز والعصبية كما كانوا في عهد الخلفاء الراشدين!

إن تآمر ابن ملجم وصاحبيه وحكمهم بالإعدام على الثلاثة لترجع الوحدة إلى المسلمين، يدل على بساطة التفكير، وقصر النظر، والجهل بالدين،وعلى أنهم جهلة بسطاء ليسوا من خاصة الجمهوريين الذين كانوا علماء أتقياء، دهاة حكماء! إن تفكير هذه العصابة المتآمرة يدل على حقيقتها، وهو برهان على إنها من الدهماء، ليسوا من خاصة الجمهوريين، ولا من يمثلهم ويكون عنوانهم، ويبدي آراءهم في السياسة والدين، وعلى أن هذا العمل ارتكبوه بدون علم الخاصة، وأنهم لا يمثلون فيه إلا أنفسهم، ولا يبدي إلا حقيقتهم، أما تفكير خاصة الجمهوريين وقادتهم فأعمق من هذا وارفع. لو وجدوا أن اغتيال معاوية وعمرو بن العاص يرجع للأمة الإسلامية وحدتها، لقضوا عليهما بأنفسهم. فما أسهل أن يقتلوا معاوية في طريقه أو في مجلسه، أو في مخدع نومه، بل

يستطيعون قتله وهو بين جنده وحوله حرسه. فقد كان للجمهوريين الأنصار الشجعان، ومئات من الأتباع الفرسان، وجهاز من الفدائيين الذين يسلطونهم على القتلة الظلمة من الملكيين. روى الشماخي أن غيلان بن خرشمة ذكر الجمهوريين عند زياد بسوء ليوغر صدره عليهم فيقتلهم. فلما خرج من المجلس لقيه أبو بلال مرداس بن جدير احد خاصة عبد الله بن وهب، وممن حضر صفين والنهروان، ورئيس الجمهوريين وإمامهم عبد الله بن وهب الراسبي، فقال أبو بلال لغيلان بن خرشمة: بلغني ما كان منك يا غيلان ! ما يؤمنك أن يلقاك رجل احرص والله على الموت منك على الحياة فينفذك برمحه! فقال: لن يبلغك أنى ذكرتهم بعد الليلة! ومر أبو بلال على فرسه بنادي قومه فوقف وسلم فقال شاب منهم من سفهاء الملكيين يسب أبا بلال إمام الجمهوريين ويزري به. قال الشاب الملكي لأبي بلال: فرسك حروري! قال أبو بلال: وددت والله لو أوطأته بطنك في سبيل الله فمضى. وقال الفتى لأصحابه: إني مقتول! فمشوا إليه بالفتى فقالوا: اصفح عنه وقال: إذا كنت في مجلس أحسن حملان راسك! أولئك هم الجمهوريين بالكوفة وبالبصرة لم يكونوا بالضعفاء، ولا بالعزل، بل كان لقادتهم جهاز كبير من الفدائيين يعدمون بهم من يردون، ويقضون بهم على كل من يتعدى حدود الله فيهم من أتباع الملوك وصنائعهم الذين لا يحسنون حملان رؤوسهم، ولا يحكمون الدين والعقل في أعمالهم.

إن ابن ملجم كان من مصر واجتمع بصاحبيه اللذين تآمر معهما بمكة. أما خاصة الجمهوريين قادتهم كأبي بلال مرداس بن جدير، وعروة بن جدير، والأحنف بن قيس، وعدي بن حاتم الصحابي، وفروة بن نوفل الاشجعي، وحريث بن حجل السدوسي، وأبو العباس بن عبد القبس وغيرهم من الصحابة وكبار التابعين الذين كانوا خاصة الجمهوريين وقادتهم؛ هؤلاء كلهم كانوا في الكوفة وفي البصرة فكيف ينسب شيء إلى الجمهوريين وهم لم يشاركوا فيه، ولا علموا به، ولا وقع في بلدهم وقريبا منهم. ولماذا لم تقع المؤامرة على الإمام في بلده، ويغشون مجالسه، ويصلون خلفه، ويجدونه وحده في خلوته، فيمكنهم في الإمام ما لا يمكن لابن ملجم وهو غريب الدار؟ وكيف لم يتول اغتياله رجل من فتيانهم الذين يأتمرون بأمر أبي بلال وخاصة الجمهوريين، واحد جهازهم من الفدائيين الذين أعدوهم للملوكية وأنصارها، فتولاه رجل سكنه بالكنانة وتآمر مع صاحبيه بمكة؟! ذلك أن الجمهوريين ما كانت جريمة اغتيال الإمام تقع ببالهم، وما كان هذا الأمر الفظيع يرضونه ويسكتون عنه. لو أن الجمهوريين كانوا يرون الفتك بالإمام لتآمر عليه خاصتهم لأنهم معه في الكوفة، ولأنهم من بقايا أهل النهروان الذين تسيل قلوبهم دما لما أوقع بهم الملكيون في النهروان اللين الإمام وانقياده للأشعث وحزبه، ولكنه الجمهوريين كانوا

يجلون الإمام ويعظمونه، وكانوا موقنين بان دماء أهل النهروان يتحملها الأشعث وحزبه، ومعاوية وأعوانه، وان الإمام إذا ليم في هذا فعلى انقياده للأشعث وحزبه، وعدم حزمه مع أتباع الذين اصطنعهم معاوية فحاكوا الدسائس والمكائد.

لو أن ابن ملجم لما تآمر مع العصابة في مكة على الإمام فجاء العراق استشار خاصة الجمهوريين وعقلائهم في الكوفة والبصرة وأعلمهم به، لجاز لأحد أن يتهمهم بالرضا بما فعل، أو بالتواطئ معه. فكيف وابن الأثير وغيره من المؤرخين قالوا انه نزل الكوفة فالتقى الجمهوريين فأخفى أمره[1] عنهم ولم يخبر أحدا بما جاء به إلا امرأة تسمى «قطام» وكانت بارعة الجمال فأراد أن يتزوجها، وكان أبوها وأخوها، قد قتلا في النهروان، فأشركها في المؤامرة، وباح لها بسره. فأمدته بمولى لها رومي يسمى «وردان» ليشد أزره في الجريمة. فكيف لم تده بأحد أبناء قومها الصرحاء فمدته بمولاها الرومي الذي لا غيرة له ولا بصيرة له في الأمور، والذي يمتثل أمرها ويكتم سرها؟ ذلك أن ابن ملجم وقطام كانا يعرفان معارضة الجمهوريين وخاصتهم لهذا الأمر الفظيع فلم يطلعاهم عليه.

إن أبا بلال وصحبه خاصة الجمهوريين وقادتهم لم يعرفوا ما جاء به ابن ملجم، ولو عرفوا لكفوه ومنعوه، أو اخبروا الإمام بقصده لأنهم لم يكونوا يرون الإمام في صف عمرو بن العاص ومعاوية تجوز مقاتلتهما. لقد كان عندهم ارفع واجل، وأعظم وأنزه، وكانوا يرونه علما في الدين، وجبلا في العلم، وبقية السلف الصالح من السابقين الأولين! !

لو أن الجمهوريين سيما خاصتهم كانوا متواطئين مع ابن ملجم، راضين بفعله، وكان ما فعله من رأيهم ومذهبهم، لكانوا شركاء له في دم الإمام، فيقتص الحسن ابن علي وخاصة الإمام منهم، فيقتلون منهم مقتلة كبرى. وقد حكم الحسن وصحبه وخاصة المسلمين على ابن ملجم بالإعدام، فقتلوه، وحرقته العامة مما يدل على تأثر أنصار الإمام، وهياجهم وغليانهم، وعلى ثورتهم الثائرة التي لابد أن تدفعهم للهجوم على كل من يشمون فيه رائحة التواطئ والتآمر على الإمام فيقتلونه. إن الدين يجيز لهم ذلك. فلو أن الأمة كلها تآمرت على مسلم لا يحل دمه فقتل لوجب قتلها جميعا.

لقد كان الجمهوريون مئات عديدة في الكوفة وفي البصرة وفي أنحاء العراق، وكانوا معروفي المكان، مشهورين يعرفهم الخاص والعام، ولم يكونوا أغلبية في العراق فتخشى، فلو تواطأوا مع ابن ملجم، أو اتجهت إليهم اقل تهمة سيما إلى خاصتهم لاغتنم الأشعث وأنصاره الفرصة فيهم، فيوجه إليهم سخط العامة التي تنقاد لهم

1 - انظر هذا النص في صفحة 376 من هذا الجزء.

لتقضي عليهم، فيستريح من هؤلاء الجمهوريين الذين يراهم الموت الأزرق، والبلاء الأحمر، والداهية السوداء للملكية وأنصارها!

إن ابن الأشعث ما كان ليدع هذه الفرصة لو وجدها، فلو وجد اقل شبهة وأوهى خيط لاتهام الجمهوريين سيما خاصتهم بدماء الإمام والتآمر عليه لهاجمهم ليقضي عليهم متظاهرا بالمطالبة بدمع كما تذرع معاوية للملك بالمطالبة بدم عثمان، ولكن شيئا من ذلك لم يقع مما يدل على أن خاصة الإمام وأنصاره وأهل العراق يعلمون براءة الجمهوريين ونزاهتهم، ورفعتهم وبعدهم عن هذه الجرائم الفظيعة، وتحرجهم كل التحرج في دماء المسلمين، سيما إماما يجلونه ويحترمونه ويرونه علما في الدين.

لو أن ابن ملجم الذي قتل عليا رضي الله عنه كان من أهل الكوفة، أو من أهل البصرة، حيث يوجد اغلب الجمهوريين وعلماؤهم، ورؤساؤهم، والممثلون لهم، والموجهون لعامتهم لقلنا إنه تأثر بآرائهم، واتجه اتجاههم، ولكنه كان من أهل مصر كما قال ابن الأثير، بعيد عنهم، لا يمكن أن يقال إنه مرآة يرون، وعنوان لما يعتقدون. إنه لا يشبه الجمهوريين إلا في إنكار الملكية، أما التمسك بالدين في الصغيرة والكبيرة، والتقيد بالشريعة في كل الأمور، وهو ما امتاز به الجمهوريون، خلو منه. إنه لو تمسك بالدين، وكان من الخاصة لعرف أن تنفيذ الأحكام ى يجوز إلا للإمام، وإذا لم يوجد فلجماعة المسلمين، ولخاصتهم دون عامتهم، ولعلمائهم الورعين الذين يعرفون حكم الله، ويحكمون بالعدل في الأشياء.

إن ابن ملجم إذا صحت نسبته للجمهوريين، عبد الله بن وهب الراسبي وصحبه، فلكرهه للملكية، ولتحمسه للجمهورية الإسلامية والإمامة العادلة.[1] أما هو فعامي بعيد الدار عن محل الجمهوريين ومكان خاصتهم وقادتهم لا يمكن أن يكون عنوانهم.

وقد استغل الملكيون سيما الأمويون والعباسيون صلة ابن ملجم البسيطة بالجمهوريين، وبنوا عليها دعايتهم الكاذبة ضد الجمهوريين، فنسبوا إليهم قتل الإمام، ثم تجاوزوا في كذبهم وافترائهم فقالوا: إن الإباضية هم الذين قتلوه، مع أن الإباضية يبرؤون من عبد الرحمن بن ملجم ويلعنونه، ويرونه مجرما قد أتى ما حرمه الله، وارتكب شيئا فظيعا يأباه كل المسلمين.

1 - إن الإمامة الحقيقية كإمامة الخلفاء الراشدين والدول الجمهورية في القرن الثاني والثالث الهجري في المغرب هي الجمهورية مع امتياز الإمامة الإسلامية بخصائص تجعلها أحسن ! ليت المسلمين يعلمون هذا ليعرفوا أن ما تتمدح به أوربا قد سبق إليه أجدادنا وجاء به ديننا. وسترى في الجزء الثالث من هذا الكتاب أن المغرب كان من النواحي التي حافظت على الجمهورية الإسلامية كما كانت في عهد الخلفاء الراشدين بعد أن قضى عليهعا الأمويون والعباسيون.

تعظيم الإباضية للإمام علي وإجلالهم له

إن الإباضية كانوا يعظمون الإمام عليا رضي الله عنه ويجلونه، ويغارون عليه، ويدافعون عنه. فهم الذين أرسلوا وفدا من علمائهم إلى سيدنا عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة، «فيه جعفر بن السماك العبدي، وأبو الحر علي بن الحصين العنبري، والحتات بن الكاتب، والحباب بن كليب، وأبو سفيان قنبر البصري، وسالم ابن ذكوان»[1] فكلموا الإمام عمر بن عبد العزيز وطالبوه بإبطال عادة لعن على في منابر الأمويين، وسبه وسب آل بيته في خطب الجمع والأعياد، فأجاب عمر بن عبد العزيز طلبهم، وكان الإباضية من الأسباب في أبطال هذه العادة الملكية التي تسئ إلى علي والى كل المسلمين.

الإباضية هم أتباع عبد الله ابن وهب الحقيقيون

إن الإباضية هم الذين استمروا على طريقة عبد الله بن وهب الراسبي وصحبه، وتمسكوا بهديهم، فلم يشذوا عنهم، ويخرجوا عن طريقهم، ويخالفوا سنتهم كما خالف بقية الجمهوريين الآخرين كالازارقة والصفرية والنجدية فلم تعد لهم نسبة إلى عبد الله بن وهب إلا بإنكار التحكيم وإباء الملكية أما فيما عدا ذلك من عقائدهم الشاذة وأعمالهم فبعيدون عن عبد الله بن وهب وصحبه، والإباضية الذين التزموا طريقته. إن الإباضية وهم الخلف الحقيقي لعبد الله بن وهب كانوا ينظرون إلى علي رضي الله عنه نظرة عبد الله ابن وهب وصحبه إليه بينا أنهم خاصة علي وأنصاره واعضاده، وأن الأشعث لما قضي عليهم لم تقم لعلي بعدهم قائمة. وكانوا يعظمون عليا ويجعلونه، ويحترمونه ويغارون عليه.

لو كان الإباضية حنقين على علي حتى رضوا باغتياله لوجدنا أثرا لذلك الحنق في أقوال أئمتهم كجابر بن زيد، وأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، والربيع بن حبيب، وأبي بلال مرداس بن جدير، وفي أقوال الأئمة الرستميين الذين كانوا مرآة لأباضية المغرب، وقادتهم ورؤسائهم، ولكننا لا نجد في أقوال هؤلاء الأئمة ما يشعر بعدائهم لعلي، بل لا نجد فيها حتى ما يشعر بعدم الإجلال والإكبار.لقد كان ابن عباس عامل الإمام علي على البصرة لما وقعت وقعة النهروان المشئومة وكان ابن عمه وبطانته، فلو أنهم كانوا حنقين على الإمام، أعداء له، لشمل الحنق خاصته وبطانته التي لم تكفه عن السير إلى النهروان، والتي بقيت متصلة به بعد وقعة النهروان، تؤازره وتعينه وتسدله الثغور، وكان الأحنف بن قيس مع علي في وقعة النهروان ولكننا نرى الإباضية يعدون ابن عباس اكبر أساتذتهم ويعدون الأحنف بن قيس من رؤسائهم وخاصتهم.

1 - نبذة من تاريخ الخوارج، رسالة مخطوطة أبي إسحاق إبراهيم اطفيش.

كان جابر بن زيد هو إمام الإباضية وإن لم ينسبوا إليه فنسبوا إلى عبد الله بن إباض لما سنبينه بعد هذا الفصل: كان جابر اكبر تلاميذ ابن عباس. قال جابر: أدركت سبعين بدريا فحويت كل ما عندهم من العلم إلا البحر. يعني ابن عباس وكان منقطعا إليه، يتزود من علمه، ويتشرب روحه، ويتأثر به فيما يذهب إليه من أمور الدين. وكان ابن عباس يجل تلميذه جابر بن زيد ويكبره، ويراه خليفته ومن ينوب عنه في الفتوى. روى الشماخي أن ابن عباس قال: عجبا لأهل العراق كيف يحتاجون إلينا وعندهم جابر بن زيد ! لو قصدوا نحوه لوسعهم علمه! وروى عن ابن عباس انه قال: جابر اعلم الناس! هذا هو إمام الإباضية! وتلك هي صلته بابن عباس ومنزلته عنده، وهو بطانة علي وابن عمه وعامله لما وقعت وقعة النهروان، وحدثت مأساة التحكيم. فلو أن عليا امتدت حياته حتى ينضج جابر ويعطي نفسه للعلم لكان على اكبر أساتذته، ولا نقطع جابر إليه، ينهل من علمه، ويتخصص في الشريعة على يده.

إن هؤلاء الأئمة جابرا وصحبه وهم رأس الإباضية ومرآتهم، وعنوانهم، ففيهم يجب أن نراهم ونحكم عليهم؛ لا تجد في كلامهم كلمة واحدة تشعر بالإزراء بالإمام وبعداوته، فكيف بالرضى باغتياله، وارتكاب الجرائم الفظيعة فيه!

إكبار الرستميين لعلي والتزام خطبه في منابرهم

لقد كان هؤلاء الأئمة الإباضية يجلون عليا ويكبرونه فورث تلاميذهم لائمة الرستميون الذين انشؤوا الدولة الجمهورية الكبرى في المغرب هذا الإجلال لعلي وهذا الإكبار. وكانوا يحفظون خطب الإمام علي ويخطبون بها في منابرهم في الجمعة والأعياد، وأكثر ما يخطبون في هذه المناسبات الكبرى التي يحتفل الإمام فيها بالخطبة كان بخطب الإمام فيها بالخطبة كان بخطب الإمام علي كما روى ذلك ابن الصغير المالكي الذي عاش في تاهرت عاصمة الدولة الرستمية وفي زمن الأئمة الرستميين.[1]

إن خطبة المرء مظهر شخصيته، وزبدة عقله، وتبدي حقيقته، وتمثل مذهبه، فلو كان الإباضية لا يحبون الإمام عليا ولا يجبونه ما حفظوا خطبه، وما خطبوا بها في أحسن مقاماتهم، وأقدس مواضعهم، وفي مسجدهم الجامع، وفي أكرم المناسبات ثم يخطب بها إمام الدولة، ورئيسها الضليع في العلم، البارع في الخطابة، لا رجلا من العلماء فنظن به العجز في الخطابة ففزع إلى خطب الإمام، ونسمه بالتقليد فآثر ما يعتقد الناس فصاحته وبلاغته..

1 - انظر تاريخ الأئمة الرستميين لان الصغير.

إن الأئمة الرستميين قد آثروا خطب الإمام علي لمنابرهم في الجمعة والأعياد لأنهم يجلونه ويكبرونه، ويرونه علما في الدين، ومثالا في البلاغة والعلم.

إن أكثر الناس تسمية بعلي إنما هم الإباضية! إنك لتجد عندهم من سمي بعلي ما لا تجد في غيرهم، فلو كانوا حردين عليه مزورين عنه ما سموا أبناءهم باسمه! إن اختيار الوالد اسم شخص لولده يدل على إجلاله لذلك الشخص، وعلى إعجابه به، وعلى التفاؤل والأمل أن يكون ابنه مثله، وعلى هديه، ونسخة منه.

إنك لا تجد في الإباضية رجلا واحدا تسمى بمعاوية، أو باسم ملك من الملوك العباسيين والأمويين الظلمة كهشام وما لا تجد مثله كثيرا في الصحابة من الأسماء، وتجد فيهم من تسمى بعلي مئات في كل عصر لان الإباضية يعظمون عليا ويسلكونه في زمرة الخلفاء الراشدين، ويرونه علما في الدين.

إن أئمة الإباضية وخاصتهم، والذين يمثلون الإباضية، وهم مرآة لهم، فبأعمالهم وأقوالهم نحكم على الإباضية.وفي سيرتهم نرى حقيقتهم، كابي بلا

ل مرداس بن جدير وجابر بن زيد، وأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة والربيع بن حبيب، والأئمة الرستميين في المغرب، هؤلاء الذين هم وجه الإباضية وعنوانهم؛ لا تجد في أقوالهم وأفعالهم شيئا واحدا يدل على الزراية بعلي، والازورار عنه، وعدم الحب له.

لقد كان الإباضية ينتقدون على علي لينه للعامة حتى أرغمته على التحكيم، وخضوعه للأشعث وحزبه، ويرون ذلك مما لا يليق بالإمام، ومما لا ينبغي أن يتصف به رئيس دولة تكونت في زمانه عواصف وأعاصير من أهواء النفوس لحبها للمال والسلطان، وهو ما لم يكن قبله، ويرون عدم حزمه وإصراره وصلابته في المواطن التي يجب فيها ذلك مما لم يشبه فيه الخلفاء الذين تقدموه، ومما جعله لا يستطيع السيطرة على العامة، والاضطلاع بأمور الإمامة، أما حسناته ومزاياه فكانوا أكثر الناس إدراكا لها، وقد اختاروه في أول الأمر إماما من اجلها، فبايعوه عن اختيار ورغبة، وعن إدراك لفضله ومزاياه، ولما ظهر انه لا يستطيع الاضطلاع بالأمر، ومعاوية ينافسه، وأنصاره يجاذبونه بساط الإمارة، لم يخلعوه حتى حكم الحكمان بخلعه، فوالت بيعته عن الأعناق. هذا هو حال الإباضية مع الإمام، وموقفهم منه، وإجلالهم له، وإكبارهم لمقامه، ولكن الملكيين الذين يريدون تشويه سمعة الإباضية الجمهوريين الذين أبوا الملكية، وتمسكوا بالجمهورية الإسلامية، وقد استغلوا شخصية الإمام التي يكبرها المسلمون، ومقتله الذي يجرح قلب كل مسلم في الدعاية ضد الجمهوريين، فاتهموهم بالتواطئ مع ابن ملجم على

قتل الإمام، واستغلوا انتساب ابن ملجم إلى الجمهوريين فجعلوهم كلهم يقتلون الإمام معه، ويرتكبون جريمته فيه! ! لقد كان يجب على هؤلاء الملكيين المغرضين أن ينسبوا جريمة ابن ملجم في الإمام إلى كل المصريين لان ابن ملجم منهم، ولكن لا يحكم بهذا ولا يقول به إلا معتوه لا يميز له، وجاهل أحمق قد عدم العقل والعلم! لقد نهى الدين عن هجو قبيلة بأسرها لأجل عمل شخص واحد منها أو أشخاص، فقال الرسول صلوات الله عليه: «ملعون من هجا قبيلة بأسرها: هذا في القبيلة وقد لا تتجاوز المائة فما بالك بمئات الآلاف من الجمهوريين المنبثين في المشرق والمغرب؟. فهل يجوز في الدين وفي العقل أن يحملوا كلهم جريرة شخص من بسطائهم وعامتهم ضعيف الصلة بهم، يرتكبها بدون علم منهم، وهي مما ينكرونه ويأبونه ولا يوافقون عليه؟!

عداء الملكيين للإمام علي وآله

إن الملكيين الأمويين والعباسيين هم الذين حاربوا الإمام و؟آل بيته، وقاتلوه. فلو ظفر معاوية وعمرو بن العاص بالإمام علي في صفين لقتلاه. وقد رأينا معاوية يمنعه الماء في صفين ليموت هو وجنده عطشا، وهم الذين جبروا له كل المكائد، ووضعوا فطريق كل العقبات، ونغصو حياته، وكدروا أيامه، ثم لم يكتفوا بحربه والقضاء عليه في حياته، فحاربوه بعد مماته في ذريته، فقتلوهم وارتكبوا فيهم كل فظيعة.

إن الملكيين العباسيين هم الذين حاربوا الدولة الإدريسية في المغرب، وسموا إدريس الأكبر حفيد علي فقتلوه، وتآمروا على إدريس الأصغر، واتخذوا كل وسيلة، ودبروا كل مكيدة، وسلكوا كل طريق يستطيعونه للقضاء على الدولة الإدريسية لأنها دولة آل البيت في المغرب !

الصداقة بين الدولة الرستمية والدولة الإدريسية.

وكانت الدولة الرستمية الإباضية تجاور الدولة الإدريسية وتصاقبها، فحدودهما متلاصقة.[1] وكانت على أحسن ما يرام مع الدولة الإدريسية، لم يحدث بينهما على طول أيامهما حادث واحد مما يقع بين الدولتين المتجاورتين. وكانت الدولة الرستمية أوسع منها رقعة، وأكثر عددا، وغزر جيوشا، وارسخ أصولا لنشأتها قبلها، وأكثر تماسكا منها واتحادا، فلو كان الإباضية لا يحبون عليا وآله لوقفوا موقفا عدائيا من الدولة الإدريسية، ولهاجموها وقضوا عليها، وهي في المهد لم تشب. لو أنهم فعلوا لوجدوا

1 - انظر حدود الدولتين الرستمية والإدريسية خريطة الجزء الثالث من هذا الكتاب وتاريخها وصفحات المغرب الغراء في عهدهما.

من العباسيين التأييد والمؤازرة، ولكن الدولة الرستمية كانت اخلص صديق وأوفى حبيب للدولة الإدريسية، وكانت درعا لها فلم يستطع العباسيون أن يسيروا إليها من القيروان ليقضوا عليها. انه لولا وجود الدولة الرستمية القوية الواسعة الرقعة في شرق الدولة الإدريسية ومعها في المغرب ما استطاع الأدارسة أن يلتجئوا إلى المغرب، ولا استطاعت الدولة الإدريسية أن تنشأ لان العباسيين يقضون عليها. ولكن العباسيين في القيروان رغم تحرقهم وتسعرهم عداوة لإدريس الأكبر وآله، ورغم كثرة جيوشهم التي كانت أضعاف ما يستطيع إدريس أن يحارب به أيام نشأته، وكانوا يستطيعون القضاء عليه، ولكنهم لم يستطيعوا السير إليه لان الدولة الرستمية ستثور في وجههم، وتقوم لمناصرة إدريس الأكبر، والإمام عبد الوهاب إمام الدولة الرستمية أيام نشأة الدولة الإدريسية

سيهب في جيوشه الجرارة الباسلة فيدمغ الملكية وأنصارها، ويحمي الدولة الإدريسية البيضاء التي تقوم على العدل والدين، والتي تنصر عليا وآل بيته، وتجعل المغرب يزداد شرفا بأبناء بنت رسول الله.

وكان الادارسة يعيشون في الدولة الرستمية فيجدون كل إكرام. وقد سكنوا مدنا في شمال تاهرت عاصمة الدولة، وعلى قرب منها، وكان أهلها إباضية، فسادوا في تلك المدن، وكانت لهم المكانة العالية، حتى نسبت إليهم تلك المدن فقال المؤرخون الذين لا يعرفون: إمارة فلان وإمارة فلان من الادارسة وهي على قرب من تاهرت، وفي مناطق جمهورها إباضية، وليست بإمارات مستقلة، بل هي جزء من الدولة الرستمية ساد فيها أشخاص من الادارسة، وذلك لاحترام الدولة الرستمية لهم. لقد جاءوا لاجئين وحيدين، فارين من ظلم العباسيين، فبسطت لهم الدولة الرستمية ذراعها، وأحلتهم في أحسن بلادها، ومنحتهم كل الحريات، وأضفى عليهم الإباضية الذين هم الجمهور في تلك المدن التي ينزلونها كل إعزاز وتبجيل حتى نسبت تلك المدن إليهم بفضل ما وجدوه فيها من احترام وتقدير اظهر شخصيتهم، ورفع لواءهم.

إن الملكيين قد بسطوا السنة دعايتهم الكاذبة ضد الجمهوريين فملأوا كتب التاريخ بأكاذيبهم على الجمهوريين، وحرقوا وقضوا على خزائن الكتب التي تبين تاريخ الجمهوريين وصفحات دولهم الغراء لما قضوا على تلك الدول في المغرب،[1] واتخذوا كل

1 - لما قضى أبو عبد الله الحجاني على الدولة الرستمية حرق في 296 هـ مكتبة المعصومة في تاهرت وكانت تشتمل على ثلاثمائة ألف مجلد، وجعل من الكتب قنطرة لجيشه في وادي «مينا» وقضى على الكتب التي تبين تاريخ الدولة وتكون مرآة لها فلم يبق إلا كتب الاقتصاد والفلك وغيرها من العلوم العامة لينتفع بها.

وسيلة لتشويه سمعة الجمهوريين لما قضوا على دولهم، حتى لا تحن النفوس إلى عدلها وصفحاتها الغراء. فلم يبق من الكتب التاريخية التي تعتمدها جامعاتنا ومدارسنا ومكاتبنا ومؤلفونا إلا مصنفات الملكيين الذين شوهوا فيها سمعة الجمهوريين. فلنحذر من تلك الدعاية ولنعلم أن جل ما ورد في تلك الكتب في حروب صفين وفي وقعة النهروان، وفي الإباضية من وضع الملكيين الذين يعملون للقضاء على الجمهوريين، وهو بعيد عن الحقيقة، وعكس الواقع الذي ورد في الكتب الصحيحة.

وقد استغل الاستعمار الفرنسي والايطالي تلك الأكاذيب في الكتب العربية فرددها في مدارسه، وبلسان أجهزته الاستعمارية، كالرهبان الذين يختلطون بالبسطاء، ويعلمون صغار الأبناء، وأذنابهم الذين يبثونهم في المغرب فيبثون سموم التفرقة فيه، ويصورون الإباضية أنهم يشنأوون الإمام، وهو خلاف الحقيقة، وعكس الواقع كما بينا ووضحنا. وترى مؤلفينا المحدثين الذين يكتبون في تاريخ المغرب يعتمدون على هذه المصادر الملكية كابن الأثير والطبري وابن خلدون وغيرها فيقعون في أخطاء فاحشة وتقصير كبير إذا تحدثوا عن الدول الجمهورية في المغرب، وإذا حاولوا أن يبينوا الإباضية. لذلك وقفنا في هذا الفصل وقفة لأنه يتصل بتاريخ المغرب؛ فهو يبين نشأة الإباضية الذين سنراهم في بقية هذا الجزء وفي الجزء الثالث يرفعون راية الجمهور الإسلامية في المغرب، ويكونون لغربنا بدولهم الديمقراطية انصع صفحاته، وأزهى عهوده. فعسى هذه الفصول تكون مرجعا لجامعاتنا ومدارسنا في الأقطار العربية، ولأبنائنا في المغرب، فيزول ما خلقه الملكيون والمستعمرون الذين رددوا دعاياتهم من عقد في نفوس كثيرة، فأمسوا يرمقون أسلافهم وأجدادهم بعيون شزراء، ويكرهون ماضيهم، ويعافون أن ينظروا إلى الوراء، وليس فيه إلا المجد الأشم والعهود الغرام !

وقد حشر الملكيون الإباضية الجمهوريين مع الأزارقة والصفرية الذين خرجوا عن الدين بغلوهم، والإباضية بعيدون عنهم، ويتبرءون منهم.

وترى البستاني صاحب دائرة المعارف ينقل هذه الأكاذيب الملكية وينخدع بما قال ابن خلدون في الإباضية، فيعكس القضية، فيصف الصفرية بالاعتدال والإباضية بالغلو، والعكس هو الصحيح. إن الصفرية كانوا في المغرب اقل شأنا من الإباضية فلم ينشئوا مثل دولهم التي كسفت الدول الملكية، لذلك تجد ابن خلدون وأنصار الملكية يحقدون على الإباضية ويعكسون الحكم فيهم. فما هو الفرق بين الإباضية والخوارج؟ ولم حاربهم الملكيون، وحشرهم مع الخوارج الذين ينفر منهم المسلمون؟

نشأة الإباضية والفرق بينهم وبين الخوارج

كان الذين أنكروا التحكيم، وخرجوا مع عبد تالله بن وهب الراسبي إلى النهروان وبايعوا بالإمام، وتمسكوا بالجمهورية الإسلامية، وأبوا الملكية، واستعدوا لحرب معاوية. كان هؤلاء الجمهوريون جماعات كبيرة، وجمهورا غفيرا. وبعد وقعة النهروان التي قضى فيها الأشعث بن قيس وحزبه على عبد الله بن وهب وعلى كثير من خاصة الجمهوريين الذين معه انقسم منكروا التحكيم إلى قسمين: بقية الخاصة التي ثبتت على منهاج عبد الله بن وهب الراسبي ومن معه من الصحابة وكبار التابعين، وهم جماعة من العلماء المتفقهين في الدين ذوو تقوى وورع، منهم أبو بلال مرداس بن جدير، وعروة بن جدير، والأحنف بن قيس، وعدى بن حاتم الصحابي، وفروة ابن نوفل الاشجعي، وحريت بن حجل السدوسي، وأبو العباس بن عبد ألقيس وغيرهم من الصحابة والتابعين، وذوي البصيرة في الدين، وكان هؤلاء العلماء وأتباعهم من العامة المتبصرة، والجماهير المتمسكة بالدين، المتقدمة بهؤلاء العلماء هم الذين استمروا على طريق عبد الله بن وهب الراسبي في التمسك بالدين والفقه فيه، والتمسك بالجمهورية الإسلامية، وإنشاء الدول الجمهورية العادلة التي أحيت سيرة الخلفاء الراشدين. هؤلاء هم الذين سموا بعد ذلك في زمن عبد الملك بن مروان «الإباضية» وإمامهم في الدين هو جابر بن زيد فنسبهم الأمويين إلى عبد الله بن إباض للأسباب التي سنذكرها أما الطائفة الأخرى ممن أبى التحكيم وناصر الجمهورية فقد كان اغلبها من العامة التي يسيرها حماسها فتشتط في الحكم، وتغلو في التطرف، وتخرج عن دين الله بالغلو، وهؤلاء هم الأزارقة الذين كان رئيسهم وقائدهم نافع بن الأزرق، والصفرية الذين كان رئيسهم عبد الله بن الصفار، والنجدية الذين كان رئيسهم نجدة بن عامر. وقد وقع لهؤلاء رد فعل شديد بقضاء الأمويين على خاصتهم في النهروان، وبما كان الملوك الأمويون يرتكبون فيهم وفي كل معارضيهم ومنكري ظلمهم من أنواع الظلم والجبروت فثاروا واشتطوا في الحكم وحكموا على كل مرتكب للكبيرة[1] بالشرك وزاد الأزارقة غلوا فقالوا إن كل أنواع المعاصي شرك مؤولين قوله تعالى: ومن بعض الله ورسوله فقد ضل ضلالا بعيدا» بان المراد بالمعصية هنا مطلق المعصية حتى الصغائر والضلال البعيد هو الشرك. وقد أنكر الإباضية حكمهم على مرتكب الكبيرة وعلى كل عاص بالشرك. ورجوا عليهم بان عموم الآية مخصوص بقوله تعالى: «تجتنبوا

1 - الكبيرة: الذنب الكبير الذي يستوجب حدا ويورث غضب الله، كالزنا والسرقة وشرب الخمر والقتل. قال الشيخ السالمي في تعريف الكبيرة في «مشارق أنوار العقول»:

والذنب قسمان كبير وجبا حد به والباري منه غضبا

كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم» ولما حكموا على مرتكب الكبيرة بالشرك فاستحلوا دماء المسلمين وأموالهم وسبي ذراريهم أنكر عليهم الإباضية حكمهم وعملهم فتبرأوا منهم، وطردوهم من جماعتهم. فانقسم الجمهوريين إلى قسمين: الذين ثبتوا على نهج عبد الله بن وهب الراسبي وهم الإباضية وإمامهم جابر بن زيد، والذين غلوا في الدين وخرجوا منه وهم الأزارقة والصفرية والنجدية.

وكان هؤلاء يهجمون على مخالفيهم ومن يحكمون بكفره حسب مذهبهم فسفكوا الدماء الحرام واستحلوا الأموال الحرام فتبرأ منهم الإباضية وحكموا بكفرهم لان من يستحل ما حرمه الدين ويعتقد انه حلال كافر بإجماع الأمة كما هو مبسوط في كتب التوحيد.

إن الإباضية لا يحكمون على مرتكب الكبيرة بالشرك ولكن يرونه عاصيا يتبرءون بعد استتابته إذا أصر. وهم اعف الناس في دماء المسلمين وأموالهم. وأئمة دولهم الجمهورية، وقادة جيوشهم هم الذين تمسكوا بما فعل الرسول والخلفاء الراشدون وبما أمر الله في محاربة المسلم الذي تجوز محاربته، فكانوا في كل حروبهم مهاجميهم أو مع البغاة المعتمدين من المسلمين لا يغنمون أموالهم، ولا يجهزون على الجرحى، ولا يسبون الذراري والنساء، ولا يتبعون مدبرا هاربا لا ينوي الكرة عليهم. إن هؤلاء الأئمة الإباضية في الدول الجمهورية في المشرق والمغرب هم الذين تمسكوا بهذا فلم يعاملوا المسلم في الحرب معاملة المشرك كما فعل الملوك الأمويون والعباسيون الذين يرتكبون في محاربيهم من المسلمين وفي أموالهم كل شنيعة. إن الدول الإباضية من انصع الدول صفحة، لعفتها وتحرجها كل التحرج في الدماء والأموال، وذلك لان الإباضية ليسوا كالخوارج الذين يستحلون دماء مرتكب الكبيرة لحكمهم عليه بالشرك. وقد موه الدعاة الملكيون في دعاياتهم الكاذبة ضد الإباضية الجمهوريين على العامة، ومن لا يعرف الإباضية فحشروا الإباضية مع الخوارج الذين غلوا في الدين، واستغلوا في ذلك مشابهة الخوارج للإباضية في إنكار التحكيم، وفي التمسك بالجمهورية، مع أن الفرق بين الإباضية والخوارج في الاعتقاد والمسائل الجوهرية وفي السلوك بعيد، والبون بينهم شاسع.

وقد انخدع بعض مؤلفينا المحدثين بما كتب المؤرخون والفقهاء الملكيون[1] في الإباضية وحشرهم لهم مع الخوارج، ووثقوا بما ورد في هذه الكتب الملكية فوقعوا في أخطاء كبرى. وقد نقل بعض هذه الأخطاء في الفرق بين الإباضية والخوارج المرحوم الشيخ مبارك الميلي في الجزء الثاني من كتابه القيم، تاريخ الجزائر قال: «والإباضية أصحاب عبد

1 - الملكيون نسبة إلى الملوك، وهم صنائعهم الذين يبثون ويرددون دعاويهم وكذلك الملكية نسبة إلى الملوك.

الله بن إباض قال ابن خلدون: والصفرية موافقون للإباضية إلا في القعدة فان الإباضية اشد على القعدة منهم».[1]

لقد نقل الشيخ الذي نكبر علمه وحبه للبحث والاستقصاء أقوال ابن خلدون الذي كان من دعاة الملكية في الإباضية فوقع في خطأ كبير، كما نقل كثيرا من دعاوي الملكيين في وقعة النهروان وصفين فوقع في أخطاء تاريخية. ولو رجع إلى مؤلفات الإباضية وعلمائهم لتنبه إلى أخطاء ابن خلدون والملكيين من الفقهاء والمؤرخين فلا يتأثر بها ويوردها في كتابه النفيس !

إن الفرق بين الإباضية والصفرية وغيرهم من الخوارج فرق جوهري كبير في العقائد والأعمال! فالإباضية كاهل السنة لا يحكمون بالشرك على مرتكب الكبيرة، كالصفرية والازارقة. والإباضية هم الذين يجيزون الخروج على الملوك الظلمة وتأسيس الدول الجمهورية إذا انس المسلمون في أنفسهم قوة . أما الصفرية فيوجبون ذلك ويرون القاعدة عن مقاتلة الملوك الظلمة عاصيا. وقد عكس ابن خلدون القضية ليسيء إلى سمعة الإباضية ويصفهم بالغلو لان الإباضية في المغرب هم الذين كان الناس يحنون إلى دولهم الجمهورية العادلة فاستجاب للملوك الذين كتب تاريخية في عهدهم وفي ظلهم فحشر الإباضية مع الخوارج ليفسد سمعة الجمهوريين ويصرف العيون عنهم.

إننا نكبر ابن خلدون ونحله! فهو أما أن يكون قد قال ما قال في الإباضية عن رهبة من الملوك ومداراة لهم ليبقوا على كتبه، أو عن قصد واختيار. فقد قال ما يتنافى مع عبقريته، وعظمته العلمية ومعرفته لدقائق المغرب وأطواره!

إن تاريخ الجزائر للشيخ مبارك الميلي من المراجع المهمة في تاريخ المغرب، ومن المصادر التي ستعتمد عليها مدارسنا في تاريخ المغرب، وعسى الذين نرجو أن يعيدوا طبعه ينزعون منه هذه الأقوال الملكية التي تسم العالم الجليل بعدم الدراية، وبنقل ما شق الملكيون به عصا المسلمين.

إن الإباضية ليسوا من الخوارج فهم بعيدون عن الأزارقة والصفرية والنجدية في العقائد والأعمال، فأولئك لا يتعففون في الدماء ويغلون في الدين فمرقوا منه، أما الإباضية فاعف الناس عن سفك الدماء، أنهم لا يقاتلون إلا دفاعا عن النفس، أو دفاعا عن الدين كما هاجم أبو الخطاب إمام الإباضية في طرابلس «وار فجومة» الصفرية لما سفكت الدماء وانتهكت الحرمات في القيروان وعاثت في افريقية فسادا. وإن حروبهم

1 - تاريخ الجزائر ج 2 ص 9 ط أولى.

مع الأمويين والعباسيين كلها حروب دفاعية، وإذا قاتلوهم تقيدوا كل التقيد بما أمر الله به في قتال المسلم، فلا يغنموا لهم مالا، ولا يسبون لهم ذرية، ولا يجهزون على جريح، ولا يتبعون مدبرا، وذلك لأنهم يراعون حرمة المسلم ويتقيدون بما أمر الله به. والإباضية في نشر مذهبهم الجمهوري، وفي الرد على الملكيين يعتمدون على الحجة والإقناع لا على القوة كما يفعل غيرهم، ورسالة عبد الله ابن إباض إلى عبد الملك بن مروان، ومحاجته له، ومدافعته عن نظريات الإباضية الجمهوريين شاهد على ذلك. ومع هذا البون الشاسع والفرق البعيد بين الإباضية والخوارج نرى الملوك الأمويين والعباسيين والعبيديين في المغرب يحشرونهم مع الخوارج ليشوهوا سمعتهم لأنهم جمهوريون قد كسفوهم بدولهم الجمهورية العادلة التي التزم أئمتها سيرة الخلفاء الراشدون وعدلهم وورعهم فأرادوا أن يصرفوا عنهم الأنظار، ويغطوا على ظلمتهم وجبروتهم فصوروا الإباضية -كذبا- أنهم خوارج، يستحلون الدماء، ويشذون عن الدين، ليظهروا لعامتهم أنهم هم المتمسكون بالدين وإن غرقت عروشهم في دماء المسلمين التي يسفكونها، ودماء آل البيت!

الإباضية ليسوا خوارج

إن الإباضية ومن أبى التحكيم لم يخرجوا على الإمام علي كما بينا، والإباضية لا يحكمون على مرتكب الكبيرة بالشرك، ولا يقولون بشيء يخرج عن الدين في الفقه، ولا يهاجمون من خالفهم، فهم ليسوا خوارج عن الدين كالازارقة الذين غلوا فلماذا سماهم الملكيون خوارج؟ لقد سموهم خوارج لأنهم استقلوا عنهم فأسسوا دولهم الجمهورية في المشرق والمغرب، ففي المشرق دولة عمان التي كانت على الإمامة الصحيحة وعلى النظام الجمهور الصحيح، وكان كل أئمتها على التقوى والورع، لم تكن الإمامة فيها وراثية كاليمن، فالشعب هو الذي يختار الإمام بكل حريته ويبايعه على شرط العدل والتقيد بالدين، وفي المغرب دولة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني، والدولة الرستمية التي التزم أئمتها سيرة الخلفاء الراشدين، ودخلت بالمغرب في أعراسه، وجعلت المغرب كعبة القصاد والملجأ الأمين لطلاب العدالة والحرية الفكرية، يلجأ إليه من يضيق ذرعا بظلم الملوك واستبدادهم، ومعهم لحرية التفكير والكلام! لقد غاظ الملوك أن يستقل عنهم الإباضية فسموهم خوارج، ثم أرادوا أن يكسبوا هذا الوصف شناعة فاستغلوا إباءهم للتحكيم، ومبايعتهم لعبد الله بن وهب الراسبي، فجعلوهم خوارج على الإمام علي، ثم الصقوا بهم الأكاذيب التي بينا بطلانها، وبالغوا في محاربة الإباضية الجمهوريين فاستغلوا أيضا إباء الأزارقة والصفرية للتحكيم، ومناصرتهم للجمهورية ومشابهتهم للإباضية في هذا فحشروهم معهم،

وادعوا أنهم خوارج مثلهم، وما هم بخوارج، لأنهم لم يخرجوا على الإمام علي ولا على الدين بشيء!

إن الدعاية الملكية الكاذبة ضد الإباضية الجمهوريين هو ما تطفح به مصادر التاريخ الإسلامي الموجود في أيدينا فلنحذر في هذا العصر من الوثوق بكل ما يرد فيها في الإباضية فان اغلبه دعاية ملكية كاذبة لتسويد سمعتهم لأنهم جمهوريون!

إن مغربنا والحمد لله أصبح على النظام الجمهوري، أو على الملكية الدستورية تحت ملوك اختارهم الشعب لحبه لهم ولماضيهم الجيد، فهم رؤساء الدولة بهذا لا ملوكه، الكاذبة التي صوروا بها الإباضية في غير صورتهم، لأنهم يعارضون الملكية المستبدة، يعجون إلى الجمهورية الإسلامية، ويؤسسون دولهم العادلة التي استقلوا بها عن الملوك. هذا هو سبب هجوم الأمويين والعباسيين والعبيديين وخلفائهم من الملوك الأقدمين في المغرب على الإباضية.

والإباضية يرفضون ما ادعاه الملوك الأمويون والعباسيون من أن النبي قال: «الإمامة في قريش» ويقولون: إن الإمامة لا يراعي فيها العرق ولكن الكفاءة ! فينما وجدنا التقوى والعلم والكفاءة العقلية وتوفر شروط الإمامة فهو محلها، وإذا توفرت الشروط في زنجي فكان اعلم واتقى وأكثر كفاءة من القريشي فالزنجي أولى بها، وهذا ما خالفوا فيه الملكيين فاستشاطوا غضبا عليهم، إن ما يذهب إليه الإباضية في الإمامة وفي رئاسة الدولة هو ما يدعو إليه عصرنا المثقف وما جاء به الدين الحنيف.

وللإباضية أقوال خاصة بهم في الفقه الإسلامي كأخذهم بالمجاز في القران،فحملوا كثيرا من كلماته على المجاز المتعارف عند العرب لا على حقيقتها لكي لا يقعوا في التشبيه والتجسيم، لقد قال الإباضية في القرن الأول الهجري أن المراد باليد في قوله تعالى: «يد الله فوق أيديهم» هو القوة، وان قوة الله فوق قوة قوتهم، وكذلك في الآيات الأخرى كقوله تعالى: «تجري بأعيننا».

وقولهم بخلود صاحب الكبيرة في النار إذا مات وهو مصر لم يتب، والكبيرة هي الجريمة التي تستوجب حدا وغضبا من الله.

ونفيهم لرؤية الباري جل وعلا.

إن هذه المسائل التي اختص بها الإباضية قد وافقهم فيها المعتزلة وزادوا عليها مسائل أخرى خالفوا فيها المذاهب الإسلامية، ومع ذلك لا نجد الملكيين يهاجمون المعتزلة

ويجعلونهم خوارج لان المعتزلة لم يؤسسوا الدول الجمهورية، ولم يستقلوا عن الملوك العباسيين والأمويين كما فعل الإباضية! !

إن المعتزلة ممن يدين بالجمهورية ويحبذها ولكن لم يخرجوا إلى نطاق العمل فيؤسسوا دولا جمهورية كما فعل الإباضية، فلذلك لم يصفهم الملوكيون بأنهم خوارج فلو كانت الأقوال الخاصة بالإباضية في الفقه وهي توافق الدين وما يذهب إليه أهل العصر الآن الذين يفكرون تفكيرا فسلفيا ويفهمون أسرار القرآن؛ لو كانت تلك الأقوال هي سبب وصف الإباضية «بالخوارج» لوصف به المعتزلة لأنهم قالوا بكل ما خالف فيه الإباضية غيرهم؛ وزادوا عليه، ولكن الملكيين هاجموا الإباضية لأنهم جمهوريون، فموهوا على العامة بالدين، فاعتقدت العامة بتكرار الدعاية وتواليها بكل أسلوب وفي براعة قرونا أن الإباضية خوارج، وان سبب تسميتهم بهذا هو خروجهم على الإمام علي وقولهم في الفقه بما خالفوا فيه المذاهب الأربعة.

إن ما ورد في الفقه من أقوال الإباضية الذين كانوا يفكرون تفكيرا فلسفيا ويفهمون القرآن فهما عميقا سيتكفل العصر المثقف به، وقد صار اغلب العلماء النبغاء في الدين الآن يقررون في كثير من المسائل ما قال به الإباضية منذ قرون ويظنون انه مما اختصوا به، ولكن الذي يضرنا فيجب أن ننبه إليه هو ما ورد في كتب التاريخ، لان الدول الإباضية التي كذبوا عليها لم تعد موجودة واغلب كتبها ومؤلفاتها قد قضوا عليها فبقيت أكاذيبهم تشوه صفحات المغرب، وتشق عصا المسلمين، وتوقع علماءنا ومؤلفينا في خطأ فظيع، وتمكن المستعمرين وأذناهم الدساسين للمغرب الفتي من الوسائل التي تبث بها التفرقة، وتقسم الجماعة وتباعد بين الإخوة الأشقاء الذين خلقهم الله شيئا واحدا ممتزجين متحدين قد وفر لهم كل أسباب الاتحاد من الجنس الواحد والدين الواحد، والوطن الواحد فهم أكثر الأمم اتصافا بكل أسباب المحبة والامتزاج.

نشأة الإباضية

إن الإباضية قد نشأوا بمبايعتهم لعبد الله بن وهب الراسبي ليقضوا على الملكية ويحافظوا على الجمهورية، وباستقلالهم عن الملوك ومبايعتهم للائمة، ومعارضتهم للملكية الأموية ودعوتهم إلى الجمهورية الإسلامية، والتزام سيرة أبي بكر وعمر في العدل والديمقراطية والمساواة، والتمسك بالدين في كل الأمور، وكانت هذه النشأة في شوال سنة سبع وثلاثين من الهجرة بعد خلع الحكمين للإمام علي في رمضان من تلكم السنة، وإمامهم في الدين هو جابر بن زيد ! وقد نسبهم الأمويون إلى عبد الله بن إباض، وكان عبد الله بن إباض من علمائهم، ومن فصحائهم وشجعانهم ومن المناظرين

للخوارج يرد عليهم مقالاتهم، ومن المناظرين لعبد الملك بن مروان ومن الدعاة إلى الجمهورية، وكان متحمسا مناضلا بالحجة والبرهان في النوادي والجامع وكان يجتمع الإباضية في داره، ويسير بهم إلى الجامع والنوادي لمناظرة الخوارج والملكيين فظهرت شخصيته بهذا فنسب الجمهوريون إليه. أما الإباضية فهو جابر بن زيد

وكان جابر بن زيد جبل العلم في عصره، وكان يشهد له أهل عصره بالورع والتقوى، ويجلونه ويحترمونه، فأبى الأمويون أن ينسبوا إليه الجمهوريين وهو أمامهم في الدين ورئيسهم حتى لا يجذبوا إليهم الأنظار، ولا يبدون في هالة جابر المشرقة فتميل إليهم النفوس، فنسبوهم إلى عبد الله بن إباض وهو اقل منزلة من جابر في العلم وإن كان لا يقل عنه في التقوى والورع والصلاح!

لقد طال الكلام في هذا الفصل، انه توطئة ومقدمة ضرورية لما يأتي من الفصول في تاريخ المغرب، وقد ألجأني إلى الإطالة فيه ما تعج به من أكاذيب وأخطاء تاريخية مصادر التاريخ التي ستعتمدها جامعاتنا ومدارسنا في عهد الاستقلال السعيد فتقع في خطأ كبير، ونظلم أجدادنا، وتخفي عنا الصفحات الغراء من تاريخ مغربنا، لقد وقع جل من ألف في تاريخ المغرب في تلك الأخطاء على ما نعتقد فيهم من حسن النية ودراية واسعة! فأردت أن لا يقع أبناؤنا ومؤلفونا فيها في المستقبل، فعسى الله أن يجعل هذا الفصل مصدرا لمدارسنا وجامعاتنا في المغرب، وينتفع به مستقبلنا فأجد ما يكافئ ما بذلت من جهد جهيد في استقصاء المراجع التي لا تحصى في هذا الباب وما تحمله من جهد الكتابة في باب بودي ألا آخذ فيه لولا ما ذكرته من أسباب أرغمتني عليه.

إنه باب يصنع لنا النظرة الصحيحة فنفهم الفصول التي تستقبلنا في تاريخ المغرب فهما صحيحا عميقا، فهو من أبوابه وليس بالشيء البعيدة عنه.

إنه مما افسد التاريخ في هذه الفصول وفي خلاف الصحابة تطفل العامة وإنصاف العلماء عليه! ففي تاريخ أي امة، وفي أي مذهب يجب أن ننظر إلى أقوال أئمتها وعلمائها الفحول، ونستقي معلوماتنا الصافية منة تلك المنابع الصافية، أما السواقي البعيدة عن منابعها فقد يخوض فيها الفصلان فيكدرونها بالمناسم!

في تاريخ أي امة وفي كل المذاهب يجب الرجوع إلى الأئمة، والى العهود الزاهرة الأولى، يجب أن تكون كراكب السيارة، إذا رأى بعيدا رأى الحقيقة، أما إذا نظر قريبا في جوانب الطريق تراءت له الأرض تجري، والأشجار تتسابق، وهو خلاف الحقيقة، فلا يرى إلا ما يورثه الغثاثة والدوار! !

لقد تركنا المغرب يثور على الأمويين ويستقل منه المغرب الأوسط والأقصى، ثم ثار عبد الرحمن بن حبيب في المغرب الأدنى على حنظلة بن صفوان فتخلى له عن الإمارة وغادر القيروان إلى المشرق. أراك تتشاءم يا عزيزي مما وقع فيه مغربنا من ثورات، وما هب فيه من أعاصير، وما يتكاثف في سمائه من سحب تنفجر بالرعود والبروق. إن عاقبة هذا لمغربنا الازدهار والصفاء؛ فالأرض لا تلبس ربيعها ووشيها وعقودها من الزهر النضير حتى تغرق في الأوحال!

إن مغربنا الفتى علب أبواب ربيعة بما يتراءى لك من رعوه وسحابة وأوحال في الثرى!

انه يتمخض عن دوله الزاهرة العادلة! فما تسمع من الضجيج هو عويل النفساء التي تتمخض عن الحياة، وما ترى من الرجة والانتفاض هو انتفاضتها، فنحظى بالوليد السعيد، الذي يملأ قلوبنا بالحياة والسعادة، ويطلق حناجرنا بالزغاريد!

فماذا فعل عبد الرحمان بن حبيب لما احتل القيروان؟ وكيف حال المغرب في عهده؟ وكيف سيستقل اغلب المغرب الأدنى أيضا مع الأوسط والأقصى فينشئ مغربنا الحبيب دوله الإسلامية الكبرى؟

ثورة عبد الرحمان بن حبيب واستيلاؤه على افريقية 126 هـ

نسب عبد الرحمن وشخصيته

هو عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة، بن عقبة بن نافع الفهري.

وكان حبيب والد عبد الرحمن رئيس أركان حرب عبيد الله بن الحبحاب، وأعظم قواده، وكان من الشجعان، ومن الفرسان العظام!

وكان حبيب شخصية بارزة في المغرب، إن عقبة رضي الله عنه بإنشائه القيروان وبجهاده ومرابطته في المغرب، وحرصه على فتحه وإسلامه، واستشهاده، وموتته الرائعة التي تدل على بطولة كاملة، وشجاعة تامة وحب للشهادة في سبيل الله، إن ذلك قد جعله شخصية محترمة يكن لها المغرب سيما أهل القيروان كل إجلال واحترام.وكانوا يجلون أهل بيته أيضا، سيما وقد نبغ فيها رجال ورثوا شخصية أبيهم الحربية وشجاعته وفروسيته. وكان اكبر تلك الشخصيات، وأبرزها حبيب وبأنه عبد الرحمن ابن حبيب.

وكان عبد الرحمن قد ورث كل صفات أبيه. وكانت أمه بربرية من جبال أوراس كما ذكر النويري في نهاية الأرب! فورث البطولة والشجاعة الخارقة، والاعتداد بالنفس والطموح والإقدام من أخواله، فضاعف هذا وراثة أبيه، فكان نسيج وحده في الشجاعة والطموح، وفي الإقدام والثبات والهمة العالية!

وكان عبد الرحمن قد اعتنى به والده فانشأه إنشاء حربيا، ودربه على القتال، وأرهف استعداده العسكري الكبير. وكان معجبا بشجاعته وكفاءته الحربية، فجعله من أركان حربه، وكان يسند إليه الفتوح الكبرى في غزواته، ومنازلة القلاع الصعبة فيغني في ذلك كل الغناء!

ولما غزا حبيب صقلية في سنة اثنتين وعشرين ومائة كان عبد الرحمن اكبر أعوانه في تلك الغزوة فاسند إليه مهمة غزو «سرقسة» عاصمة صقلية وكبر مدنها.فنازلها عبد الرحمن حتى أرغمها على قبول الجزية والرضوخ للمسلمين، كما أحرز انتصارات رائعة في كثير من المعارك في هذه الغزوة كان هو الذي يقودها ويباشر القتال فيها. وقد أورث أباه قوة كبرى، وزاده بنفسه، وضاعف طموحه وإقدامه وثباته فعزم على فتح صقلية كلها وإلحاقها بالقيروان لتكون تابعة لها كالأندلس!

وكان عبد الرحمن قد حضر مع أبيه حروبه مع خالد بن حميد ألزناتي في المغرب الأقصى، ولما قتل أبوه وهزمت جيوشه وجيوش كلثوم نجا إلى الأندلس، فبرزت فيها

شخصيته، وبدت عبقريته الحربية، وقوة عزمه ومضائه، فاتجهت إليه الأنظار والتف حوله المضريون الذين كانوا في نزاع ومنافسة مع المينيين في الأندلس، فقادهم ضد منافسيهم فكان له الفلج والظهور، ورجا أن تكون له دولة في الأندلس، وان تكون هذه البقاع مولد ما يرجوه لنفسه من الرئاسة والسلطان.

حب عبد الرحمن للرئاسة

وكان عبد الرحمن طموحا إلى الملك، محبا للرئاسة. وكان يرى الدولة الأموية تلفظ أنفاسها، والنواحي تنقطع عنها، والمغرب الأقصى والأوسط وهما صلة الأندلس بالقيروان قد استقلا، فطمع أن يستولي على الأندلس ويكون له بها سلطان. وكانت الأندلس ممزقة الأوصال بالتنافس على الرئاسة، وبالعصبية القبلية. وكان الأمويون بها أمواجا تتناطح لميوعة نفوسهم بالحضارة وضعف الدين، وكان الجو بها مكفهرا بالفتن والخصومات، فرجا عبد الرحمن أن يظفر في هذا الجو بما يريد، ويكون الشخصية التي تتجه إليها الأنظار. وكان معتدا بكثرة أنصاره، وبحسبه ونسبه، فرجا أن يقضي على منافسيه، فتكون الأندلس له. ولما أرسل حنظلة بن صفوان في سنة 125 أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي واليا من قبله على الأندلس، فضبط أمورها، ووحد كلمتها، ودانت له الأندلس وخضعت، وقضى على كمل الخصومات فيها، وضرب على أيدي المتنافسين الذين يفرقون شملها، أيس عبد الرحمن أن يكون حظ مع أبى الخطار في الرئاسة، ثم خافه على نفسه لما رآه يقضي على كل من يأنس فيه تمردا ومنافسة، فركب البحر سر إلى تونس فنزل بها في سنة ست وعشرين ومائة، فدعا أهل تونس إلى نفسه فأجابوه، فثار على حنظلة بن صفوان، فجهز فسار إلى القيروان ليحتلها فلما قرب من القيروان أرسل إلى حنظلة يأمره بالخروج منها، واجله ثلاثة أيام.

وكان حنظلة يرى ترقب الصفرية للفرصة في افريقية ليثوروا عليه فيثأروا لقتلاهم ويقضوا على الأمويين الملوكيين[1] في المغرب، فكره حرب عبد الرحمن، وان يضعف الأمويين بعضهم بعضا ويمكن الصفرية من فرصتهم، فأرسل إليه وفدا من أشراف القيروان عددهم خمسون رجلا ممن يظن أن عبد الرحمن سيسمع منهم، لينصحوه بعدم الحرب، ويبصروه بعواقبها الوخيمة عليهم جميعا، فاغتنم عبد الرحمن الفرصة، وكان جريئا ماضيا، فقبض على الوفد فسار بهم مقيدين في الحديد إلى القيروان، فأرسل إلى

1 - جمهور النحاة لم يجيزوا النسبة إلى الجمع ولكن ابن جني أجاز النسبة إلى الملوك خاصة في كتابه (التصريف الملوك) وسنأخذ بقوله فنسب إلى الجمع في هذا اللفظ بعد أن أخذنا بقول الجمهور وعدلنا عنه فان النسبة إلى الملوك اظهر وأوفى بالمراد.

أهل القيروان: إنكم إن وميتم ولم بحجر عند هجومي على القيروان قتلت أشرافكم ورؤساءكم فشل حنظلة بهذا التدبير البارع، فكان هذا مما اقعد حنظلة عن مقاتلته.

تنازل حنظلة عن الإمارة لعبد الرحمن

وكان حنظلة قد أدرك بذكائه ما سيقع في افريقية من ثورات عارمة على الأمويين إنه قد سكنها فسكنت، ولكن على حنق وغيظ على الأمويين، وأن الدولة الأموية التي صارت تنهدم في المشرق قد انتعشت آمال البربر في الاستقلال وإنشاء دولهم الجمهورية المستقلة.

وكان حنظلة يكره سفك الدماء، ويؤثر الهدوء، سيما والدولة الأموية تلفظ أنفاسها فهي لا تنجده ولا تشد أزره إذا ثارت عليه الزلازل، فعاف البقاء في الإمارة، وآثر أن يتنازل لعبد الرحمن عنها. إنه عنود صارم لا يمكن صرفه عما يريد، وإنه كفء للإمارة بطل صنديد، فهو أحسن من يليق للمحاماة عن الأمويين، والمحافظة عليهم إذا انفجرت براكين الثورات التي يرى مقدماتها في عيون البربر المحمرة عليه؛ فكف جنده وأتباعه عن دفاع عبد الرحمن، فتنازل عن الإمارة، فخرج إلى المشرق في جمادى الأولى سنة سبع وعشرين ومائة، فدخل عبد الرحمن القيروان في جمادى الآخرة بعدها، فتم له احتلال افريقية، وتحقيق له ما يريد من ملك وسلطان.

عفة حنظلة في الأموال

قال ابن عذارى فلما رأى حنظلة ذلك دعا القاضي والعدول، ففتح بيت المال فاخذ منه ألف دينار وترك الباقي، وقال: لا تلبس منه إلا بقدر ما يكفيني ويبلغني، ثم شخص عن افريقية».

وكان عبد الرحمن قد أرسل إلى صاحب بيت المال أن لا يعطي حنظلة شيئا إلا ما كان له من أرزاقه! ولما دخل القيروان نادى مناديه: لا يخرجن احد مع حنظلة ولا يشيعه احد! فخرج حنظلة مجروح القلب، مكدر النفس بهذا الجفاء والعقوق، فدعا عليهم فنفذت فيهم دعوته.

وكان هشام بن عبد الملك قد توفي في سنة خمس وعشرين ومائة، وتولى الملك بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك وكانت الدولة في أيامه تترنح للسقوط، وكان هو ضعيفا ماجنا مستبدا فقتل في سنة ست وعشرين ومائة بعد ستة أشهر وليلتين من ولايته الملك. وفي سبع وعشرين استولى مروان بن محمد الجعدي على الملك، فأرسل إليه عبد

الرحمن بن حبيب هدايا وتقرب إليه، فأرسل إليه مروان بالولاية على افريقية والأندلس. وكان مروان يعلم انه لا يستطيع عزل عبد الرحمن فرضي به أميرا على القيروان، واكتفى منه بهذا الخضوع الظاهري، وببقاء دولته في افريقية.

وكانت الدولة الأموية قد زال نفوذها من المغرب الادني وافريقية أيضا، وانقضت أيامها فيهما باستيلاء عبد الرحمن على القيروان، فلم يعد لها فيهما إلا مظاهر بسيطة كالدعاء في الخطبة، وكان عبد الرحمن مستقلا كل الاستقلال، لا يخضع للأمويين إلا في بعض المظاهر التي يؤيد بها نفوذه، ويحفظ بها صلته ويسد بها الباب في وجه منافسيه.

ثورة طرابلس وافريقية على عبد الرحمن

وكان المغرب الأدنى يتحفز للثورة، وكانت افريقية تغلي مراجلها، وكانت ترقب الفرصة للثورة والاستقلال، فلما تمرد عبد الرحمن على حنظلة فاستولى على القيروان وانقطعت النواحي عن مروان بن محمد، واستولى عليها الأمراء، ورأى البربر في افريقية وفي طرابلس أنهم بالرئاسة في وطنهم من عبد الرحمن، وان الفرصة قد تهيأت لهم للقضاء على الملوكية، وإنشاء الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية الديموقراطية فثاروا في افريقية وفي طرابلس فاستقل شمال افريقية وطرابلس، وثارت براكين الثورات الاستقلالية على عبد الرحمن في كل النواحي، ولكن عبد الرحمن كان صلبا طموحا لا يخضع ولا يستسلم، وكان له جيش قوي مدرب، وأتباع مخلصون قد ساءهم أن تثور افريقية، وتحاول القضاء على الملوكية التي يتمسكون بها، ويرونها حصنا لهم ولمصالحهم، وسبب تفوقهم واستئثارهم بالسلطة في افريقية، وكان لعبد الرحمن إخوة مخلصون هم الياس، وعمران، وعبد الوارث، وكانوا يشدون أزره، ويسندون دولته، وينصرونه في كفاحه.

وكان الياس بن حبيب بطلا كأخيه عبد الرحمن، فوجد فيه عبد الرحمن عضده الأيمن، ومخالبه التي صول بها على أعدائه، فجهز له جيشا وأرسله إلى شمال افريقية ليقضي على الثوار فيها، ثم سار هو إلى طرابلس حيث تأسست إمامة الحارث بن تليد الحضري لينازلها ويقضي عليها في مهدها، إنها اكبر شيء يخشاه، فاثر أن يتولاها بنفسه، ويسير إليها بمعظم جيشه وأنصاره، وكان الذين ثاروا عليه في شمال افريقية صفرية؛ أما الذين استقلوا، وأنشأوا إمامتهم في طرابلس فإباضية، وكان عبد ارحمن يعلم انه لا يستطيع التغلب على الثوار إلا بالدهاء والحيلة، فعول عليه، واعتمدها في حروبه؟

حيلة عبد الرحمن في القضاء على الصفرية

قال ابن الأثير: «فممن خرج على عبد الرحمن عروة بن الوليد الصدفي واستولى على تونس، وأقام أبو عطاف عمران بن عطاف الازدي فنزل «بطيفاس» وثارت البربر بالجبال، وخرج عليه ثابت الصنهاجي «بباجة» فأخذها، فاحضر عبد الرحمن أخاه إلياس، وجعل معه ستمائة فارس وقال له: سر حتى تجتاز بعسكر أبي عطاف الازدي فإذا رآك عسكره، فارقهم، وسر عنهم كأنك تريد تونس إلى قتال عروة بن الوليد بها، فإذا أتيت موضع كذا فقف فيه حتى يأتيك فلان بكتابي فافعل ما فيه، فسار إلياس، فدعا عبد الرحمن إنسانا وهو الرجل الذي قال لأخيه الياس عنه، وأعطاه كتابا وقال له: امض حتى تدخل عسكر أبي عطاف، فإذا اشرف عليهم الياس ورايتهم يدعون السلاح والخليل، فإذا فارقهم الياس، ووضعوا السلاح عنهم وامنوا، فسر إليه وأوصل كتابي إليه، فمضى الرجل ودخل عسكر أبي عطاف، وقاربهم الياس، فتحكوا للركوب، ثم الياس نحو تونس فسكنوا وقالوا: قد دخل بين فكي أسد ! نحن من هنا وأهل تونس من هناك، وامنوا وصمموا العزم على السير خلفه، فلما امنوا سار ذلك الرجل إلى الياس فأوصل إليه كتاب أخيه عبد الرحمن، فإذا فيه: إن القوم قد أمنوك فسر إليهم وهم في غفلتهم، فعاد الياس إليهم وهم غارون، فلم يلحقوا يلبسون سلاحهم حتى دهمهم فقتلهم، وقتل أبا عطاف أميرهم. «وكان ذلك في سنة ثلاثين ومائة» فاستطاع عبد الرحمن بدهائه أن ينتصر على عدوه، فلولا ذلك لاستعصى التغلب عليهم، والظفر بهم في معركة متوسطة الأهوال.

قال ابن الأثير فأرسل الياس إلى أخيه عبد الرحمن يبشره بذلك، فكتب إليه عبد الرحمن يأمره بالمسير إلى أهل تونس ويقول: أنهم إذا رأوك ظنوك أبا عطاف فامنوا فظفرت بهم، فسار إليهم، فكان كما قال عبد الرحمن عبد الرحمن ، ووصل إليها وصاحبها عروة بن الوليد في الحمام، فلم يلحق يلبس ثيابه حتى غشيه الياس بن حبيب، فالتحق بمنشفة ينشف بها بدنه، وركب فرسه عريانا وهرب، فصاح به الياس، يا فارس العرب ! فعاد إليه الياس، فاحتضنه عروة فسقطا إلى الأرض، وكاد عروة يظهر على الياس فاتاه مولى لإلياس فقتله، واحتز رأسه، سيره إلى عبد الرحمن وأقام الياس بتونس» ولم يذكر المؤرخون القوة التي توجهت إلى «باجة» للقضاء على ثورتها، وارى أن الياس هو الذي سار إليها لقربها من تونس، أو أن ثابتا الصنهاجي قد تفرق عنه جمعه لما وقع لزميليه الصفريين ما وقع فخرج هو من افريقية ولا أرى الياس الصارم الشديد يرضى بسكون باجة واستسلامها دون أن يطأها بجحافله ويؤيد بها بسيفه، فاستطاع عبد الرحمن بدهائه، وبكفاءة أخيه الياس أن ينتصر على الثورات في شمال افريقية،

فبقي له الإباضية في طرابلس. أنهم أقوى شكيمة، وأكثر تصميما على إزالة الملوكية، وأكثر نظاما، واحكم خطة، وعددهم أغزر، وكلمتهم واحدة، والحارث بن تليد أمامهم وعبد الجبار بن قيس المرادي قاضية ووزيره من الأبطال الصناديد ! فلابد من مهاجمتها قبل أن يشتد ساعده، وترسخ عروق دولتهما. فكيف نشأت إمامة الحارث بن تليد في طرابلس وما حالها مع عبد الرحمن ابن حبيب.

إمامة الحارث بن تليد الحضرمي 130 هـ

كان الإباضية هم الحزب الجمهوري الذي تمسك بالإمامة العادلة، وبالجمهورية الإسلامية ودعا إليها، وجاهد لإنشائها. وقد نجحوا في ذلك كل النجاح. فأنشأوا دولا جمهورية كانت تقوم على الإمامة العادلة، ويلتزم أئمتها سيرة الخلفاء الراشدين في العدل والدين، فازدهرت، وترقت، وأشرقت كل الإشراق، فاتجه إليها العالم الإسلامي، فصارت محط أنظاره، ومهوى أفئدة كل من يحب الجمهورية، ويطالب بالعدل والديمقراطية، وملجأ للمضطهدين الذين يطالبون بالعدل، وينتقدون على الملوك الأمويين والعباسيين ظلمهم واستبدادهم، وموئلا لطلاب الحرية الفكرية، والديمقراطية الإسلامية التي قضى الملوك في المشرق. فلذلك حنق الملوك الأمويون والعباسيون على الإباضية فبسطوا فيهم دعايتهم المسمومة، ونشروا عنهم الأكاذيب ليشوهوا سمعتهم، ويصرفوا الأنظار عنهم، ويمنعوا سمعتهم الحسنة من الانتشار في رعيتهم، فلا تزيد بإشراقها بيانا لصفحاتهم المسودة بالظلم والجبروت والطغيان، فتدرك تلك الرعايا التعيسة ظلمهم واستبدادهم الذي يصورونه لها بدعاياتهم البارعة التي يخدرونها بها عدلا ومساواة وأنهم بها أحسن من كل الناس، وأنهم السرحة[1] المباركة التي تظلم من الهواجر وتغمرهم بعطرها وثمارها وجمالها !

وكان إمام الإباضية هو جابر بن زيد رضي الله عنه الذي توفي في سنة ست وتسعين من الهجرة، ثم خلفه في إمامة الإباضية في الدين أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، فوالى جهود جابر في تنظيم حركاتهم ودعايتهم للإمامة العادلة، والعمل لإنشاء دولة قوية تحييها.

وقد حاول الإباضية إنشاء دولتهم الجمهورية في العراق، فوجدوا العراق والشام قد استولى عليها الملوكيون، ورسخت فيها جذور الملوكية، فلا تصلح لنشأة الإمامة، فوجدوا دعاتهم إلى أطراف الدولة الإسلامية، في خرسان، وجنوب الجزيرة العربية: اليمن، وحضرموت، وعمان، والى المغرب. فانتشر المذهب الأباضي الذي يدعو إلى الجمهورية الإسلامية كل الانتشار، فصار اغلب جنوب الجزيرة العربية إباضية. وقد ثار في حضرموت على ظلم الأمويين واستبدادهم عبد الله بن يحيى طالب الحق، وأبو حمزة المختار في آخر سنة ثمان وعشرين ومائة زمن مروان بن محمد. فانظم إليهم جنوب الجزيرة، وبايعوا طالب الحق بالإمامة، فأرسل جيشه وأنصاره إلى مكة والمدينة فاحتلوهما، ثم ساروا إلى الشام ليقضوا على الملوكية باحتلال عاصمتها، ولكن الملوكيين تكاثروا عليهم،

1 - السرحة هي الشجرة العظيمة التي لا شوك فيها، وهي أحسن الشجر وأبهاه.

وأحاطوا بهم، وقضوا على حركتهم وإمامتهم في سنة ثلاثين ومائة. وانشأ الإباضية دولتهم الجمهورية بعمان، ولا زالت إلى الآن متمسكة بنظام الإمامة العادلة والجمهورية الإسلامية؛ فترى الشعب هو الذي يختار أمامه في كل حرية، ثم يبايعه على التزام الكتاب والسنة، وسيرة الخلفاء الراشدين في العدل والدين. ولا تجد إماما يذهب وابنه أو احد قرابته يخلفه بسعي منه كما يقع في الدول التي لم يبق من الإمامة فيها إلا اسمها، بل الشعب هو الذي يختار، والعلماء وعقلاء الأمة الذين هم دماغ الأمة وعقلها ينتخبون شخصا توفرت فيه كل الصفات التي تؤهله للإمامة، وتجعل الشعب يرتضيه، فيبايعه الشعب لما أدرك فيه من تلك الصفات وتلك الكفاءة.

ثم وجه الإباضية من البصرة دعاتهم الذين يدعون إلى الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية، والتمسك بسيرة الخلفاء الراشدين في سياسة الدولة، والى المساواة والحرية، ونبذ التعصب، والتحزب، والظلم والجبروت الذي كان عليه الأمويون. وكان المغرب يعلم أن الدين قد جاء بما يدعو إليه الإباضية، وكانوا متعطشين إلى العدل والمساواة، متبرمين قد ضاقوا ذرعا بظلم الأمويين واستبدادهم، وتعصبهم، وانحرافهم عن الدين. فاقبلوا على دعاة الإباضية في شوق ولهفة، فاعتنقوا مذهبهم الجمهوري، فانتشر المذهب الأباضي انتشارا واسعا، فكان اغلب المغرب الأوسط، وجنوب افريقية، وطرابلس كلها من سرت إلى قابس كلها إباضية.

وكان دعاة الإباضية قد توجهوا إلى المغرب في أول القرن الثاني. وكان أول دعاتهم في المغرب هو سلمة بن سعد، أوفده أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وكان ذا علم وورع، وفصاحة ودهاء. وما كادت ثورة الصفرية تقع في سنة 122 هـ حتى كانت هذه البقاع كلها قد انتشر فيها المذهب الأباضي. لذلك لم ينضم كل المغرب الأوسط إلى الصفرية في ثورتهم، ولم ينضم شرق طرابلس وجبل نفوسة إلى ثورة عكاشة وعبد الواحد الهواري. لان الإباضية لا يوالون الصفرية لتطرفهم ومخالفتهم للدين في بعض عقائدهم، ولان الإباضية لا يهاجمون أحدا ولا يسرعون إلى سفك دماء المسلمين، ولا يقاتلون أحدا إلا دفاعا عن أنفسهم وعن دولتهم.

وكان شرق طرابلس من «سرت» إلى المدينة لهوارة، والجنوب الغربي لمدينة طرابلس لنفوسة، وهي بلاد واسعة تسكنها قبائل هوارة، وقبائل نفوسة، وكانت كلها إباضية. وكانوا يحنون إلى إنشاء دولة جمهورية تسوسهم بالعدل، وتقوم على الإمامة التي جاء بها الدين. وكانوا يرقبون الفرصة لذلك. لما شاخت الدولة الأموية وتقلصت عن المغرب، واستقل المغرب الأقصى والمغرب الأوسط عن الأمويين، وثار عبد الرحمن بن حبيب

فاستولى على افريقية، اجتمع الإباضية في طرابلس، فتداولوا فيمن يصلح للإمامة لينشئوا دولتهم الجمهورية.

وكان عبد الله بن مسعود التجيبي هو رئيس الإباضية في طرابلس، والشخصية البارزة فيهم، لعلمه، وتقواه، وقوة شخصيته، وحسن تدبيره، فاتجهت إليه الأنظار، ورشحه الإباضية للإمامة. فعلم عبد الرحمان بن حبيب بما عزم عليه الإباضية في طرابلس، فولى أخاه الياس بن حبيب على طرابلس، وأرسل معه قوة عسكرية كبرى ليمنع الإباضية من إنشاء جمهوريتهم، ويخنق دولتهم في الأرحام قبل أن تولد.

قتل الياس عبد الله ابن مسعود رئيس الإباضية

وكان الياس بن حبيب عسكريا غشوما سفاكا للدماء، لا يعتمد إلا على القوة والعنف في بلوغ أغراضه. وكان يظن أن الإباضية من الضعفاء الذين إذا قتل رئيسهم يفشلون ويفترق جميعهم، وينبذون ما هموا به ! فعدا على رئيس الإباضية عبد الله ابن مسعود التجيبي فقتله. فاغتاظ الإباضية، علموا أن الياس قد استحل دماءهم، واعتدى عليهم، وفتح باب الحرب معهم، فلا بد من ردعه، ومخاطبته بالعنف العنيف الذي يعيه ويؤثر فيه، فأسسوا إمامتهم، وبايعوا الحارث بن تليد الحضري إماما عليهم، فنهض الحارث فطهر طرابلس من ظلم الملوكيين وجبروتهم.

وكان إنشاء هذه الإمامة في سنة ثلاثين ومائة. وكان الحارث بن تليد الحضرمي ووزيره عبد الجبار بن قيس المرادي -كما أرى- من الإباضية الذين كانوا في جيش أبي حمزة المختار الذي أرسله الإمام طالب الحق لفتح شمال الجزيرة العربية، والقضاء على الملوكية في الشام. ولما قضى الملوكيون على حركة طالب الحق، واستولوا على جنوب الجزيرة، سافر هذان الحارث وعبد الجبار إلى المغرب، فحلا في طرابلس، فواصلا عملهما الذي لم يكتب له النجاح في المشرق، وهو إنشاء دولة جمهورية، والقضاء على الملوكية المستبدة.

وكان الحارث وعبد الجبار كلاهما متصف بالتقوى والورع والعلم، وبقوة الشخصية وحسن التدبير، فاختارهما الإباضية في طرابلس لرئاسة دولتهما، ولقيادة حروبهم مع الملوكيين الذين سيهاجمونهم. فكان الحارث إماما ورئيسا الجمهورية، وعبد الجبار وزيره وقاضيه. فبايعت قبائل هوارة وقبائل نفوسة وزناتة هذا الإمام والتفت حوله، فنظم شؤونها، ورتب أمورها، وساسهم بالعدل والدين، فتنفست طرابلس الصعداء، وزال عنها النكد والشقاء، بارتفاع كابوس الظلم والجبروت والتعصب الجاهلي عنها.

وكان عبد الرحمان بن حبيب يرقب الأمور في طرابلس. فلما أنشأ الإباضية جمهوريتهم

قامت قيامته، ورأى هذه الإمامة اكبر خطر يهدده، ويهدد الملوكية في المغرب والمشرق ! ثم إن جمهورية الحارث ستقطع صلته بالشام والمشرق، فلا يستطيعون أنجاده إذا ثار عليه المغرب كله، وأحاطت به جيوش الحارث وجيوش الإمارة الإباضية في المغرب الأوسط؛ فعزم على القضاء على إمامة الحارث قبل أن ترسخ عروقها، ويعاجل الحارث قبل أن يشتد ساعده، ويبايعه إباضية المغرب الأوسط فيصبح خطرا يهدده بالمحق والزوال. فجهز جيوشه، فسار بها بنفسه، فلما قرب من طرابلس كره أن يشارك في القتال لأنه لا يثق بالنصرة، وخاف من فتكات الحارث وعبد الجبار، فأرسلها تحت ابرع قواده، وصار هو يوجههم يديرهم من معسكر بعيد عن مكان المعركة حتى إذا وقعت الهزيمة بجيشه استطاع أن ينجو إلى القيروان. فوقعت حرب شديدة بينه وبين الإمام الحارث، فكر الحارث على جيوش عبد الرحمان فمزقها فولت الأدبار، وهزمها شر هزيمة، فنهى جيشه أن يغنموا مالا، أو يجهزوا على جريح، أو يتبعوا فارا نجا بنفسه لا ينوي إعادة الكرة عليهم ! وكان كما أمر الدين في محاربة المسلمين، فلم يعامل المسلمين في الحرب معاملة المشركين كما يفعل الملوكيون. فدخل الحارث مدينة طرابلس فكانت له، وأمست طرابلس من سرت إلى «قابس» كلها تحت إمامته ! ورجع عبد الرحمان بن حبيب إلى القيروان كاسفا مهموما، قد جرحت كبرياؤه، وطأطأت الهزيمة رأسه، وهو الشامخ البطل الذي لم يذق طعم الهزائم في الحروب التي يقودها ! فجهز جيشا آخر أقوى فسار به بنفسه حتى قرب من طرابلس، فأرسله تحت ابرع قواده فكر عليه الحارث فهزمه شر هزيمة. فأيس عبد الرحمان ابن حبيب من القضاء على هذه الجمهورية بالقوة العسكرية، فعول على الحيلة فدس في عامة الحارث وعبد الجبار من اغتالهما.

ديموقراطية الإمام الحارث

وكان الإمام الحارث وعبد الجبار قاضية على سيرة الخلفاء الراشدين في الاختلاط بالناس والاطلاع على أمورهم. وكانا يجلسان بين الصلوات في المسجد فيلقيان الدروس ويعلمان الناس أمور دينهم، ويفتون من يستفتيهم، وترفع إليهما الشكاوي والمظالم فيحكمان فيها بحكم الله، ويصلحان بين المتنازعين، ويعطيان كل ذي حق حقه. وكانت لهم دار للندوة في وسط المدينة يجلسان فيها فترفع إليهما الشكاوي، ويتصل بهما كل من أراد الاتصال.

اغتيال عبد الرحمن ابن حبيب الإمام الحارث وعبد الجبار

وكانا على الديموقراطية التامة، لا يمنعان أحدا، ولا يحتجبان عن الشعب كما يفعل

الملوك ! وكانت العصابة التي دسها عبد الرحمن بن حبيب في طرابلس ترقب الحارث وعبد الجبار، وتتحين الفرصة فيهما، حتى كانا ذات يوم وحدهما في دار الندوة والحكم، والمكان خال، فظاهروا بأنهم من ذوي الحاجات، فدخلوا عليهما فقتلوهما، ثم ادخلوا في كل واحد منهما سيفا وجعلوا مقبضه إلى جهة الآخر، ليتوهم الناس إنهما تنازعا فتقاتلا فقتل كل منهما صاحبه ! ثم دس عبد الرحمن جماعة من أنصاره فبثوا فتنة في عامة الإباضية، وتدرعوا في ذلك بقتل الحارث وعبد الجبار فإنهم أوهموا العامة إنهما تقاتلا فقتل كل منهما صاحبه، وأنهما في البراءة كلاهما، وان الحكم في كل قضية من هذا النوع إنما هو البراءة من القتيلين. وقال آخرون خلاف هذا فأوقعوا الشقاق في طرابلس. أما الإباضية فقالوا: إن صلاح القتيلين من هذا النوع وقد قتلا وهما على الولاية وتقواهما هو المتيقن به، والقتل الذي يورثهما البراءة مشكوك فيه، فيهما على الولاية. فاحدث عبد الرحمن الشقاق في صفوف العامة وفي الجماهير الجاهلية بهذه المسألة الكلامية، فتصدعت صفوفهم، وأورثهم الخلاف ضعفا كبيرا، فأمسوا على غير الاتحاد والقوة التي كانوا عليها. ولما قتل الحارث وعبد الجبار بايع الإباضية إسماعيل بن زياد النفوسي إماما عليهم. فماذا سيقع لهذا الإمام الذي يحي الجمهورية الإسلامية، مع عبد الرحمن بن حبيب الذي يناصر الملوكية المستبدة؟

إمامة إسماعيل بن زياد النفوسي 132 هـ

وكان إسماعيل بن زياد قوي الشخصية، شجاعا، صنديدا، ذا تقوى وورع وحصافة، وكان من الأقوياء الذين يستطيعوا أن يورثوا لعبد الرحمن بن حبيب الهزائم ولكن مكيدة عبد الرحمن كانت قد بثت الفرقة في عامته، وقتل الحارث وعبد الجبار وإيهام الدهماء البسطاء أن كلا منهما قتل صاحبه قد أورث التشاؤم واليأس لهم ففت في اعضادهم، فلم يكن الإباضية كلهم صفا مرصوصا وراء أمامهم، وعلى الحماس والثقة بالنفس كما كانوا في عهد الحارث، فعاجل عبد الرحمن بن حبيب إسماعيل بن زيادا النفوسي قبل أن يجمع شمل رعيته، ويوقفهم على المكيدة التي فرقت صفوفهم، وقبل أن يستمد ويجمع قواته، فداهمه بجيوشه الكثيرة التي كان يقودها بنفسه، فهجم بها عليه، فقاتل إسماعيل، ووقع معركة عنيفة بينهما، فقتل إسماعيل وانهزام جيشه، فدخل عبد الرحمن بن حبيب طرابلس، فقتل الأسرى، وتتبع رجالات الإباضية الذين يمكن أن يجددوا إمامتهم فقضى عليهم.

وكان عبد الرحمن سفاكا للدماء، انه لم يشبه جده عقبة إلا في الشجاعة، أما تقوى عقبة وورعه فانه لم يتصف بهما حكى ابن عذارى» «أن جيش عبد الرحمن قتل ابن عطاف (الذي ثار عليه وأصحابه) وأمعن عبد الرحمن بن حبيب في مقتل البربر، وامتحن الناس بهم، وابتلاهم بقتل الرجال صبرا (يمنع عنهم الطعام والشراب ويسلط عليهم أنواع العذاب حتى يموتوا !!)، وكان يؤتى بالأسير من البربر فيأمر من يتهمه بتحريم دمه بقتله فيقتله !»[1] وتتبع عبد الرحمن أنصار الحارث ومؤيدي الجمهورية الإسلامية فقتل منهم مقتلة كبرى، ثم بالغ في إذلالهم، وسول له طغيانه وجبروته وحبه للمال وعدم تمسكه بالدين أن يعاملهم معاملة المشركين !! فأمر بغنم أموالهم ليضعفهم بالفقر، بعد أضعفهم بقتل رؤسائهم، فلا تحدثهم نفوسهم بالحنين إلى الجمهورية والعمل لإنشائها ! فبلغ عبد الرحمن ما أراد فقضى على جمهورية الحارث وعبد الجبار. وكان ذلك في سنة اثنين وثلاثين ومائة. وكانت مدة إمامة الحارث نحو ثلاث سنين ومدة إمامة إسماعيل بن زياد زمنا قصيرا. هذه أنباء هذه الإمامة كما وردت في عدة كتب. وأحسن من أورد بعض أنبائها هو ابن عبد الحكم في كتابة فتوح مصر والمغرب قال ابن الحكم: «ثم بعث عبد الرحمن أخاه «الياس» ابن حبيب عاملا على طرابلس، فاخذ عبد الله بن مسعود التجيبي، وكان إباضيا ورئيسا فيهم، فضرب عنقه، فاجتمع الإباضية بطرابلس ! فعزل عبد الرحمن أخاه، وولى حميد ابن عبد الله العكي. وكان على الإباضية

1 - البيان المغرب لابن عذارى ج 1 ص 66 ط بيروت ما بين قوسين ليس منه.

حين اجتمعوا عبد الجبار بن قيس ألمرادي، ومعه الحارث بن تليد الحضرمي، فحاصروا حميد بن عبد الله عامل عبد الرحمن في بعض قرى طرابلس، فوقع الوباء في أصحابه فخرج بعهد وأمان، فلما خرجوا اخذ عبد الجبار بن قيس نصير بن راشد[1] مولى الأنصار فقتله. وكان من أصحاب حميد وكانوا يطلبونه بدم عبد الله بن مسعود التجيبي المقتول، واستولى «الحارث» وعبد الجبار على زناتة وأرضها. فكتب عبد الرحمن إلى يزيد بن صفوان المعافري بولاية طرابلس، ووجه مجاهد ابن مسلم الهواري يستألف الناس ويقطع عن الحارث وعبد الجبار هوارة وغيرهم من البربر (ظنا منه أن البربر تسيرهم العصبية التي تسيره فيرون الحارث وعبد الجبار يمنيين فيفارقونهما، وما علم أن الدين قد مزج بين العرب والبربر فصاروا امة واحدة، وان البربر يرون العرب إخوتهم الأشقياء فيبايعونهم بالإمامة ويسندون إليهم الرئاسة والوظائف الكبرى في دولهم، كما بايعوا الحارث وعبد الجبار، وان الإسلام قد طهر أهل المغرب من أوضار الجاهلية، فأمسوا امة واحدة، لا يتسمون بالعصبية التي تسيطر على الملوكيين)[2] قال ابن عبد الحكم: فأقام مجاهد الرحمن بن حبيب محمد بن مفروق في خيل وكتب إلى يزيد بن صفوان بالخروج معه، فخرجوا، فلقيهم الحارث وعبد الجبار بمكان من ارض هوارة (في شرق طرابلس) فقتل يزيد بن صفوان ومحمد بن مفروق وانهزام مجاهد بن مسلم إلى ارض هوارة. فقفل عبد الرحمن بن حبيب (الذي لم يشارك في المعركة وإنما كان قريبا منها إلى القيروان) فاجتمع إليه جمع كثير فزحف بهم إلى عبد الجبار والحارث فلقيهم بأرض زناتة فانهزم عمرو بن عثمان (قائد جيوش عبد الرحمن وأصحابه فاستولى الحارث وعبد الجبار على طرابلس كلها. ثم خرج عمرو بن عثمان إلى «دغوغا» ومعه مجاهد ابن مسلم، فاتبعه الحارث بن تليد فتوحه عمرو من «دغوغا» إلى الصحراء فأدركه الحارث فتقدم عمرو إلى «سرت» فأدركته خيل الحارث فقتلوا نفرا من أصحابه فنجا عمرو جريحا على فرسه، فاحتوى الحارث على عسكره، واستفحل أمر عبد الجبار والحارث... ثم قال ابن عبد الحكم: وقتل الحارث وعبد الجبار جمعا، فولى البربر على أنفسهم إسماعيل بن زياد النفوسي، فعظم شانه، وكثر مبايعوه. فخرج إليه عبد الرحمن ابن حبيب حتى إذا كان (بقابس) قدم ابن عمه شعيب بن عثمان في خيل فلقي إسماعيل، فقتل إسماعيل وأصحابه، واسر من البربر اسارى كثيرون، وكان عبد الرحمن مقيما في عسكره ولم يشهد الوقعة فنهض حين فتح إلى سوق طرابلس، ومعه الاسارى، فكتب إلى عمرو بن عثمان فقدم عليه من ارض سرت،

1 - إن الذي أخذه هو الحارث لأنه الإمام، فحكم بإعدامه عبد الجبار لأنه القاضي، ولكن ابن عبد الحكم نسب الفعل كله إلى القاضي فأوهم من لا يعرف انه الإمام.

2 - ما بين قوسين في أثناء كل نص ليس منه.

وقدم الاسارى فضرب أعناقهم وصلبهم، واستعمل على طرابلس عمرو بن سويد ألمرادي وأمره أن ينفل «البربر» [1]!

وكانت دولة الحارث أول جمهوريو إباضية في المغرب. وقضى عبد الرحمن على الجمهورية في الأرض، ولكن لم يقض عليها في القلوب. وكانت الدماء الزكية التي سفحها لقتل الجمهورية ريا لعروقها فرسخت وانبتت بعد ذلك دولة أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح الجمهورية في سنة أربعين ومائة فانضوت تحت لوائها طرابلس وافريقية كلها وجمهور المغرب الأوسط. ورجع عبد الرحمن بن حبيب إلى القيروان ولكن الأيام لا تهنأ له. إن المغرب ينازعه ليستقل، فيخوض حربا أخرى عنيفة ثم يقتله أخوه الياس الذي سلطة على كثير من النواحي فأغرقها في الدماء، فيكون جزاء الله لعبد الرحمان مكن جنس ما صبه على عباده ! فكيف كانت أحوال عبد الرحمن بعد سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وكيف قتل فكانت عاقبته وخيمة، ونهايته مؤلمة؟

1 - فتوح مصر والمغرب ص 224 ط ليدن.

أحوال افريقية في عهد عبد الرحمن بن حبيب

إن عبد الرحمان وإن كان شجاعا قويا، وداهية محنكا، فاستطاع أن يسكن افريقية ويقضي على الثورات فيها، فانه لم يهنأ بالملك، ولم تصف له الأيام ! لقد سلط الله على افريقية الأوبئة والطاعون، ففتك بأهلها، وكدر الحياة فيها، ودامت عليهم هذه الأوبئة سبع سنين لا ترتفع عنهم إلا أياما في الشتاء، وأياما في الصيف، فصارت بها أيام عبد الرحمن منغصة، وعهده مملوءة بالمرارة. ثم كان على خوف دائم من انفجار البراكين عليه، وزحف أعداء الملوكية من المغرب الأوسط والأقصى فيقضوا على دولته. إن المغرب الأوسط قد استقل فلم تعد له سلطة عليه، وفيه الإباضية الأقوياء، الكثير والعدد، الأشداء الشكيمة، أنهم ليضعون الخطط المحكمة، ويهيئون الوسائل والأسباب لتكون دولتهم الجمهورية القوية ! وفي المغرب الأقصى الصفرية الذين استقلوا في شماله، فأمسوا قوة تهدده ويخشى زحفها عليه. إن ضرباتهم لأبيه، وما وقع فيه هو في معارك كلثوم بن عياض القشيري مع خالد بن حميد ألزناتي، وما رأى من الموت الأزرق يحيط به، والمحق الأحمر يهجم عليه، فلولا طول عمره، وفروسيته، ومحاماته عن نفسه، ونجاته إلى الأندلس، لكان طعمه لتلك الملحمة، وفريسة معفرة في تلك المعركة. إن هذا لا يزال يملأ بالرعب قلبه، ويخشى أن يقع في نظيره، إذا هم صفرية المغرب الأقصى به؛ وإن صفرية افريقية لعلى غيظ عليه، وأحقاد تملأ قلوبهم، فهم يرقبون الفرصة فيه.

هذا هو الجو المستعمر الذي كان يعيش فيه عبد الرحمن في افريقية، لقد كان على أهبة دائمة للحرب، وعلى احتراس ويقظة وخشية من ينام على ألغام هي إلى الانفجار، أو يركب أسدا لابد أن يصحو من حماه، فيفترس راكبه الذي عفره، وجرح كبرياءه.

غزوة عبد الرحمن لصقلية وسردانية

وكان عبد الرحمن مع كل هذه العوامل التي تشل حركته بطلا صنديدا، لا يخضع ولا يستكين، ولا يضعف طموحه، ولا تهدأ جرأته، فجهز جيشا وأرسله إلى صقلية، فنازل قلاعها، واختن فيها، فاجبر أهلها على الخضوع وأداء الجزية، وآخر إلى سردانية فأرغمها على أداء الجزية، فرجع جيشه مكللا بالنصر المبين.

وفي سنة خمس وثلاثين سمع بتجمع الصفرية في تلمسان ليهاجموه فسار هو إليهم فهزمهم بعد معركة عنيفة خاضها، معهم، وأبطل عزيمتهم في السير إليه.

انقراض الدولة الأموية

في أيام عبد الرحمن انقرضت الدولة الأموية في سنة اثنتين وثلاثين ومائة وقامت الدولة العباسية.

وفي أيامه دخل عبد الرحمن الداخل إلى المغرب فنزل القيروان، فهمن عبد الرحمن ابن حبيب بقتله لما رأى من قوة شخصيته وطموحه وجرأته، فخافه على ملكه، فنجا عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس فتغلب عليها في يوم الأضحى لعشر خلدون من ذوي الحجة سنة ثمان وثلاثين ومائة، فانشأ بها دولته الأموية الكبرى.

ثم تطلع السحب القائمة في سماء عبد الرحمن، وتثور المنافسة والحسد له في صدور إخوته، فيغتالونه، فيقع عبد الرحمن في الخاتمة السيئة التي خلقها له سفكه لدماء الأبرياء، واغتياله للائمة الأتقياء، ويعاقبه الله بجنس ذنوبه !.

فكيف كان مقتل عبد الرحمن، وما هي أسبابه النفسية والخارجية؟

مقتل عبد الرحمن حبيب وأسبابه النفسية.

لم يكن عبد الرحمن بدعا في الأمويين الذين أثرت فيهم الحضارة، والانغماس في المدنية، فتغيرت أخلاقهم، وفسدت طباعهم، وأورثهم الأنانية القاتلة التي هي أم الحسد والعصبية للجنس والقبيلة والنفس، فتنافسوا على الرئاسة، وتصارعوا على المناصب، وحال بعضهم لبعض الدسائس والمكائد، ونصب لبعض الإشراك والمصائد، فقتلهم ضعف الأخلاق الذي يكون برقة الدين، وفارقتهم الأيام البيضاء لما ضعف في نفوسهم الدين والصفاء.

إن عبد الرحمن قد ورث الشجاعة من أخواله بربر «أوراس» ومن أبيه، وأورثه امتزاج الدماء فيه قوة بدت في شجاعته ودهائه وطموحه، وأرهفته الحروب التي أشركه فيها أبوه، وأورثته صلابة وصرامة، وحفظته من الضعف والميوعه، ومن الخنوع والاستسلام؛ ولكنه لم يكن كما يجب في التمسك بالدين الذي يحمله على العفة في الدماء، والنزاهة في السلوك، وعلى الجادة التي أمر الله بها في كل الأمور، إن حياته ملطخة بالدماء الحرام التي سفكها، فانزلق فيها، فباء بأسوإ الخواتم، وإنها لمثقلة بالظلم لرعيته، فسلط الله عليه من ظلمه، وقد عق رحم أخواله فتحيز ضدهم، فابتلى بمن لا يراعي الرحم فيه، ومن يقطنها بقتله.

لقد سفك عبد الرحمن دماء الحارث وعبد الجبار اللذين كانا مثالا في الورع والنزاهة،

واللذين بعثا الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية التي جاء بها الدين، وعدلا في الرعية، وأحييا سيرة الخلفاء الراشدين، وكانا خيرا للمسلمين،وفتحا للمغرب، وبركة على البقاع التي انضمت إليهم، ولكن تمسكه بالملوكية، وحرصه على الرئاسة، وتعصبه للعرق أبي عليه أن يرضى بنشأة إمامة بجانبه تكسفه بعدها، وتجذب الانتظار إليها، وتزاحمه في المغرب الأدنى، فعدا على رئيسها التقيين اللذين لا يبغيان به شرا، الحارث وعبد الجبار، فاغتالهما وهما في مكان أمنهما، وفي دار الإمارة التي يقومان فيها بشئون المسلمين، ثم الصق بهما تهمة القتل، ودبر لهما مكيدة تجعل الدهماء تعتقد أن كلا منهما سفك دماء صاحبه وزميله ! ثم سفك دماء الاسارى في سوق طرابلس، وصلبهم وهو ما يحرمه الدين، ويدل على الطغيان والجبروت، ثم تتبع رجالات الإباضية في طرابلس، فقتل منهم وهم أبرياء، لم يهاجموه، ولم يعتدوا عليه، ولا همو بشر فيه ! فهل تذهب دماء الحارث وعبد الجبار هدرا لا ينتقم الله لها؟ وهل ينجو عبد الرحمن من الاغتيال في مكان أمنه، وعلى يد من لا يظن السوء به؟ إن الله عادل يبتلي كل جبار يتسلط على أوليائه، ويخالف دينه في عباده، بمثل ما ابتلى به الأولياء منه، ليكون عبرة لغيره، فينتهي الرؤساء والملوك من الظلم والجبروت، ويتيقنوا أن العدل والاستقامة والتمسك بالدين ورضا الرحمن، هو سبب الفوز والنجاح، وان تنكب هذه هو سبب الدمار والخسران، وأن أيام الرئيس والملك وخاتمته على حسب طويته وصفحته عند شعبه، فان كانت بالعدل والاستقامة جميلة بيضاء فان خاتمته كذلك !

لقد قدم عبد الرحمن بظلمه وسفكه للدماء الحرام ما خلق له نهايته السيئة، وخاتمته المؤلمة، فسلط الله عليه إخوته فاغتالوه في داره، وفي مكان أمنه، وجعل قتله على يد إخوته ليكون أنكى له، واشد وقعا في نفسه.

وكانت أسرة حبيب بن أبي عبيدة على تلك الأمراض النفسية التي أودت بالأمويين، فأصيبوا بالحسد الذي هو وليد الأنانية بنت الحضارة والانغماس في الشهوات، فتنافسوا على الرئاسة، وتقاتلوا عليها، وسفك بعضهم دماء بعض من اجلها، فأودى النزاع والحسد بهم، وذهب بدولتهم، فوقعوا في اسوإ الخواتم! هذه هي الأسباب النفسية لقتل عبد الرحمن، وللحروب التي ستقع بين أفراد أسرته، فكيف قتل عبد الرحمن ومن قتله؟

إن ابن الأثير، وابن عذارى، وابن خلدون،والسلاوي وغيرهم قد أوردوا كلهم قصة اغتيال عبد الرحمن وما أعقب قتله من حروب بين أعضاء أسرته، كما أوردها النويري في نهاية الأرب في جزء من الأجزاء التي لا زالت مخطوطة لم تطبع، فلننقل منه قصة الاغتيال والصراع ونكمل ما ورد فيه بما ورد في غيره، إن ابن الأثير أحسن أسلوبا، وأكثر انسجاما

بهذا الكتاب، ولكن النويري أكثر مادة، وأوفى حديثا، وهو لا يوجد في الأيدي، فلنعتمده في هذا الباب مع السلاوي الذي نقل من ابن خلدون، وننقل من كل مرجع ما تفرد به من النصوص الصحيحة.

مقتل عبد الرحمن بن حبيب 137 هـ

قال النويري في نهاية الأرب: كان سبب قتل عبد الرحمن انه لما قتل مروان ابن محمد الحمار آخر ملوك بني أمية، وانقرضت الدولة الأموية، هرب جماعة من بني أمية ومعهم حريمهم إلى افريقية، وكان ممن هرب إسماعيل بن أبان بن عبد العزيز ابن مروان ومعه أخته، وكان يحمل مالا كثيرا فاخذ عبد الرحمن بن حبيب ماله، وغلبه على أخته فزوجها لأخيه الياس. وكان ممن قدم إلى افريقية ابنان للوليد بن يزيد الملك الأموي، واحدهما يسمى العاص، والآخر عبد المؤمن، وكانت ابنه عمهما تحت الياس بن حبيب، فانزلهما عبد الرحمن بدار شيبة بن حسان، وتسلل إليهما ذات ليلة ليسمع كلامهما، وكانا على نبيذ وغلامهما يسقيهما، فقال العاص: ما اغفل عبد الرحمن، أيظن انه يبقى أميرا ونحن أولاد الملوك! ! فنزل وانصرف ولم يعلما به.

تحريض زوجة الياس على قتل عبد الرحمن

ثم دعاهما واظهر لهما بشرا، فتاهما من اخبرهما أن عبد الرحمن سمع كلامهما، فركبا جملين فهربا، فبعث عبد الرحمن الخيل في طلبهما، وأدركا، فأمر بضرب أعناقهما فقالت ابنه عمهما لزوجها الياس: إن أخاك قد قتل أختانك ولم يراقبك فيهم، وتهاون بك، وأنت سيفه الذي يضرب به، وكلما فتحت له فتحا كتب إلى الملوك في الشام: إن ابني حبيبا فتحه! وقد جعل له العهد بعده، وعزلك عنه! فلم تزل تغريه به حتى تحرك لقولها، وأثارت ما في نفسه فعزم على قتل أخيه.

وكان السفاح أول الملوك العباسيين قد مات، وولي الملك بعد المنصور، فدعا عبد الرحمن إلى طاعته فأجابه، فبعث إليه المنصور خلعة سوداء فلبسها، وهي أول سواد دخل افريقية، فأرسل إليه عبد الرحمن هدية فيها بزاة وكلاب للصيد وذهب قليل، وكتب إليه يقول، إن افريقية اليوم إسلامية كلها، وقد انقطع السبي منها والمال فلا تطلب مني مالا.

غضب المنصور على عبد الرحمن

وكان عبد الرحمن معتمدا بنفسه،[1] وكان قد سبق المنصور إلى الملك، فخاطب المنصور في رسالته مخاطبة الند للند، ولم يكن كما يريد الملوك من عمالهم ورعيتهم أن يكونوا؛ ترابا تحت أقدامهم! وبدا للمنصور كتاب عبد الرحمن خشنا فظا ليس فيه ليس فيه التضرع والاستخذاء والركوع الذي ألفه من أمثاله، فعزم أن يخفض هامته ويريه سطوته وسلطانه. وكان المنصور محبا للمال حريصا عليه يجمعه من كل الوجوه، وكانت دولته في نشأتها، وخزائنها فارغة، والمال الكثير للدولة الملوكية ضروري لها لإشتراء القلوب، واصطناع الرؤساء، والإحسان إلى الجند ليضمن نصرتهم له على منافسيه الكثيرين، وعلى مناوئي دولته من العلويين وغيرهم. وكان حريصا على ضم افريقية والمغرب الأدنى إليه لما يعرف من غنى المغرب، فيتدفق عليه عبد الرحمن بالأموال الوفيرة التي تشبع نهمه وحرصه على المال. فلما اعتذر إليه عبد الرحمن غضب ورآه يستأثر بالأموال دونه، ويمسكها عنه، ويريد أن يستمر على ما ألفه من الاستبداد بافريقية، واحتكار أموالها كأنه ملك عليها لا عاملا يجب أن ينفذ مشيئته، ويكون له ملعقة تحمل اللقم الدسمة إلى فيه! فغضب لشموخ عبد الرحمن وحرمانه من المال، فأرسل إليه كتابا شتمه فيه وسبه، وتوعده ونظر فيه إلى عبد الرحمن بعينين يتطاير منهما الشرر، وسحنة عابسة مقطبة تتأجج بالجبروت والطغيان والاحتقار له.

ثورة عبد الرحمن على المنصور وخلعه

وكان عبد الرحمان سليل حبيب الشامخ، وابن اوراسيه أورثته عزة قومها وإباءهم، وعدم رضوخهم للجبابرة، فغلت دماؤه في عروقه، وأظلمت الدنيا في عينيه، فعزم على خلع المنصور والثورة عليه. قال النويري: ثم نادى الصلاة جامعة! فاجتمع الناس في المسجد الجامع، ثم خرج عبد الرحمن في مطرف خز، وفي رجليه نعلان! ! فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم،صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم، ثم اخذ في سب أبي جعفر ثم قال: ظننت هذا الجائر يدعوني إلى الحق ويقوم به، حتى تبين لي منه خلاف ما بايعته عليه من إقامة الحق والعدل، وأنا الآن قد خلعته كما خلعت نعلي هاتين فقذفهما وهو على المنبر! ثم بخلعه أبي جعفر التي كان أرسلها إليه وفيها سواد، وكان قد لبسها

1 - ما يأتي من الكلام من المؤلف لا من المراجع، وارى القارئ يتبين من الأسلوب الفرق بين النصوص وكلام المؤلف.

قبل ذلك ودعا فيها لأبي جعفر، فمزقها، وأمر بتحريقها فحرقها! وأمر كاتبه خالد بن ربيعة أن يكتب كتابا بخلع المنصور، ويقرأ على المنابر في سائر بلاد المغرب ففعل ذلك.

اغتيال الياس لأخيه عبد الرحمن

وكان الياس بن حبيب قد تحرك الحسد في قلبه وأججته زوجته بنت ابان التي قتل عبد الرحمن ابني أخيها، وأفسده الوساد على أخيه! والوساد إذا كانت فيه امرأة جميلة محبوبة ذكية يكون هو مصنع الأفكار والعقائد التي تدخل رأس الرجل مع العطر والحديث اللين، وكل ما تحتلنا به نساؤنا فنمسي مستعمرة لهن، لا يكون فيها جلاء، ولا استقلال، ولا رفع قضية إلى الأمم المتحدة! !

كان الياس يرقب الفرصة في أخيه عبد الرحمن ليثور عليه، فلما ثار على المنصور وخلعه كنعليه، ومزق خلعته وحرقها، وأثار بذلك كثيرا من الملوكيين في القيروان وجد الياس فرصته فعزم عزمته وهم بأخيه!

قال النويري: فاجتمع رأي الياس بن حبيب، وعبد الوارث أخيه على قتل عبد الرحمن أخيهما، ووالاهما على ذلك جماعة من أهل القيروان والمشارقة وغيرهم على أن يكون الأمر لإلياس، والدعاء لأبي جعفر المنصور، فشعر عبد الرحمن بما هم به الياس، فولاه على تونس وأمره بالسير إليها ليبعده عن أنصاره الذين تآمروا معه، ثم يفعل بعد ذلك في الياس وكل من تآمر عليه ما يبدو له.

قال النويري: فأتى الياس أخاه عبد الرحمن ليلا متظاهرا انه سيودعه قبل الرحيل إلى تونس ومعه أخوه عبد الوارث، فأذن له فدخل عليه وهو في غلالة وردية وابن له صغير في حجره، فقعد طويلا وعبد الوارث يغمزه! فلما قام ليودعه اكب عليه يعانقه، فوضع السكين بين كتفيه حتى صارت إلى صدره! فصاح عبد الرحمن فقال: فعلتها يا ابن اللخناء! ثم ضربه الياس بالسيف فالتقاء بمرفقه فأبان يده، وضربه حتى أثخنه! فدهش الياس فخرج هاربا، فقال له أصحابه: ما فعلت؟ فقال: قتلته! فقالوا: ارجع وحز رأسه لعله لم يمت وإلا قتلنا عن آخرنا ففعل.

وكان مقتل عبد الرحمن في آخر سنه سبع وثلاثين ومائة، ومدته في الملك عشر سنين وسبعة أشهر.

ثورة حبيب وعمه عمران أن حبيب

وكان لعبد الرحمن ابنان قد ورثا جرأته وكفاءته، احدهما يوسف بن عبد الرحمن

الذي غاطب أباه فذهب إلى الأندلس فاستولى عليها فبقي أميرا عليها إلى أن انتزعها منه عبد الرحمن بن معاوية الداخل. والثاني حبيب بن عبد الرحمن وهو الذي كان معه في القيروان وأقامه ولي عهده. وكان الياس وحزبه قد عزموا على قتله لأنه في الجرأة والشجاعة والطموح كابية.

قتال حبيب وعمران مع الياس واصطلاحهم

قال النويري: ولما قتل عبد ثارت الصحية فاخذ الناس أبواب دار الإمارة. فسمع حبيب بن عبد الرحمن الصيحة فهرب من القيروان إلى تونس وكان عليها عمه عمران فانضم إليه. وكان عمران موغر الصدر على الياس لاستيلائه على الملك، وكان يحسده، وساءه أيضا قتله لعبد الرحمن الذي أحسن إليه وولاه على تونس وجعله من خاصته، فعزم على قتال الياس فجهز جيشه فخرج هو وحبيب إليه.

قال ابن الأثير: فسار الياس إليهما فاقتتلوا قتالا يسيرا ثم اصطلحوا على أن يكون الحبيب جنوب افريقية: قفصة، وقسطيلية ونفزة، ولعمران شمالها: وهو تونس وصطفورة (شمال غرب تونس إلى بنزرت) والجزيرة، ويكون وسط افريقية وبقيتها لإلياس. وكان ذلك في سنة ثمان وثلاثين ومائة وكان الياس بهذا يريد أن يفصل حبيبا عن عمران ويبعده عنه ثم يضرب كل واحد منهما وهو مجرد عن أخيه وأنصاره الذين يتقوى بهم.

وكان عمران أكثر أنصارا في تونس لرسوخ قدمه في الإمارة. وكان الياس يخشاه أكثر فعزم على البدء منه.

غدر الياس بعمران أخيه

قال النويري والسلاوي: وبعد هذا التقسيم اصطلحوا على أن يعود عمران إلى تونس فانصرف حبيب إلى عمله وما أعطي له من الجنوب، وارتحل الياس مع أخيه عمران إلى تونس، ولما وصلا إليها غدر الياس بعمران فقتله! وقتل جماعة من الأشراف الذين ناصروه، وقبض على رءوس أهل بيته الذين مالوا إلى عمران، عمر ابن نافع الفهري، والأسود بن موسى الفهري، وعلى بن قطن فشدهم وثاقا وأرسلهم في سفينة إلى يوسف بن عبد الرحمن في الأندلس. وكان يوسف مغاضبا لأبيه، ولعله كان يضطغن على عمه عمران وصنائعه وآل بيته. وعاد الياس إلى القيروان. وكتب بطاعته إلى أبي جعفر المنصور مع قاضي افريقية عبد الرحمن بن زياد بن انعم، وصفا له أمر «افريقية» وثقل عليه مكان حبيب «وبلغته عنه أخبار يكرهها» فاحتال عليه حتى اركبه البحر إلى الأندلس، واركب منعه أخاه عبد الوارث «لتخوفه منه، ولحسد عبد الوارث له، فردهم قاصف من الريح إلى

طبرقة. (في الشمال الغربي لافريقية) وكتبوا بخبرهم إلى الياس فلج في طردهم.

وتسامعت موالي عبد الرحمن وشيعته بابن مولاهم. فتسارعوا إليه وانزلوه من السفين. والتفوا عليه. وزحفوا به إلى تونس»فاسروا عامل الياس سليمان بن زياد الرعيني فشدوه وثاقا» فملكوا تونس. فخرج الياس لقتالهم. فخالفوه إلى القيروان. وملكوها عليه. ففتقوا السجون «فخرج منها صنائع عبد الرحمن وأنصاره فانضموا إليهم» فرجع الياس لقتالهم. وقد فر أكثر من معه إلى حبيب. ولما تواقفا للقتال حول القيروان برز حبيب فنادى بأعم لم نقتل أولياءنا وصنائعنا وهم جنتنا! فهلم للبراز. فأينا غلب ملك! فصاح الجيشان بتصويب رأيه. فبرزا وتضاربا حتى عجب الناس من صبرهما. فضرب الياس حبيبا فاعمل السيف في ثيابه ودرعه ووصل إلى جسمه. فعطف حبيب عليه فضربه بالسيف ضربة سقط بها عن فرسه إلى الأرض. فألقى حبيب نفسه عليه فحز رأسه. وأمر برفعه على رمح. فدخل القيروان فملكها آخر سنة ثمان وثلاثين ومائة.

إن ما اسقط الياسا في الصراع فاحتز رأسه إنما هي دماء أخيه عبد الرحمن التي سفكها. انزلق فيها فطرحه الله للقصاص! وهكذا كل من يقطع رحمه. ويعق قرابته تكون نهايته نهاية بعير الجزرة. وتكون خاتمته سوداء. وعاقبته وخيمة!

وكانت ولاية الياس نحو سنة ونصف. ثم يشتد الصراع بين حبيب وعبد الوارث الذي شارك في دماء عبد الرحمن. فتكر عليهم ورفجومة فتقضي على ملكهم. وتنتقم منهم شر انتقام. فماذا فعل حبيب بعد استيلائه على القيروان؟

استيلاء حبيب على افريقية وحربه مع ورفجومة 138 هـ

لما قتل حبيب بن عبد الرحمن عمه الياس وملك القيروان طلب عمه عبد الوارث لمشاركته في دم أبيه ففر عبد الوارث إلى «ورفجومة» إحدى بطون نفزاوة.

حقيقة ورفجومة

وكانت نفزاوة من القبائل البربرية الكبرى. وكان جمهور كبير منها في جنوب افريقية. وكان منت بطون هذه القبيلة ورفجومة. وكانت في جنوب افريقية. وكانت كثيرة العدد. شديدة البطش. تتمتع في هذه العهود باستقلال كبير في بلادها. وكانت صفرية. قد ضاعف عداوتها للملوكيين في القيروان ما رأت منهم من فتك وإراقة للدماء في حروب عكاشة الصفري مع حنظلة بن صفوان. وما كان من عبد الرحمن بن حبيب من قتل لحزبهم وأبناء عمومتهم الصفرية في شمال افريقية وفي وسطها.

وكانت ورفجومة لمذهبها الصفري الذي يخلق عداوتها للملوكيين. ولحقدها على عبد الرحمن وشيعته لوقائعه فيهم نارا تضطرم على الملوكيين. فبودها أن تظفر بهم فتشفى أحقاد منهم. وكانت إلى مذهبها الصفري المتطرف قد ظلت على البداوة والجهل. فصارت رقيقة الدين. لا تعرف من الإسلام إلا مظاهره. أما سلوكها فتسيطر عليه غرائزها ووجدانها.

وكانت ورفجومة ترى تعصب الملوكيين لأنفسهم وعرقهم. واحتقارهم للبربر واضطهادهم. فأورثها ذلك تعصبا. واحدث فيها رد فعل شديد. فصارت متحيزة ترى الملوكيين في القيروان هم أعداؤها الألداء. فعرف عبد الوارث هذه النزعة فيهم فهرب إليهم فآووه ونصروه.

حرب حبيب مع ورفجومة وهزيمته

وكان رئيس ورفجومة هو عاصم بن جميل. وكان كاهنا قد التفت حوله ورفجومة فهو صاحب الكلمة المسموعة فيها. فأجار عبد الوارث فصار في حماه. فنهض إليهم حبيب فأوقعوا به وهزموه. فالتجأ إلى «قابس» واعتصم بأسوارها واستفحل أمر عاصم ي افريقية. فصار فيها هو القوة الحربية الكبرى.

احتلال ورفجومة للقيروان / التجاء حبيب إلى أوراس ونصرتهم له / هجوم حبيب على القيروان ومقتله

وكان أهل القيروان يعرفون عداوته للملوكيين. وانه لا بد أن يسير لاحتلال القيروان.

فأرادوا أن يتخذوا عنده يدا، وان يتقربوا إليه ليخففوا من عداوته، فأرسلوا إليه يدعونه للقدوم عليهم، والقيام بأمرهم، بشرط الدعاء المنصور، فأبى عاصم قبول هذا الشرط، فسار إليهم فقاتلهم فهزمهم، ودخل القيروان عنوة، وكانت تسيره عداوته للملوكيين، وتسيطر عليه أحقاده، وجفاء البداوة، ومذهبه الصفري الذي يرى مرتكبي الكبيرة مشركين تحل دماؤهم وأموالهم وذراريهم وسبي نسائهم، فستباح القيروان وهتك الحرمات فيها، وارتكب في الملوكيين فظائع كثيرة. ثم استحلف عاصم بن جميل على القيروان عبد الملك بن أبي الجعد الورفجومي كبير قواده فسار لقتال حبيب والقضاء عليه فحاربه في قابس فانتصر عليه، فهرب حبيب إلى أخواله أهل جبال أوراس فالتجأ إليهم فحموه ونصروه. فزحف إليهم عاصم فهزموه، وقتلوه، واستلحموا جماعة كبيرة من أنصاره. ثم زحف حبيب في قواته الخاصة على القيروان فبرز إليه عبد الملك ابن أبي الجعد فهزمه وقتله في المحرم سنة أربعين ومائة ولم يشارك أهل أوراس في هذه الحرب لأنهم إنما حاربوا ورفجومة لأنها جاءت تبغي بجارهم حبيب شرا، ولما فارقها لم تسر معه لان أهل أوراس ليسوا من أنصار الملوكية.

وكانت ولاية حبيب نحو ثلاث سنين. وانقرض بمقتله ملك آل عقبة من المغرب وانقضت أيام الملوكية فيه، واستقلت افريقية تحت رؤسائها، فكل ناحية كانت فيها شخصية بارزة تديرها، إلى أن جاء أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح إمام الإباضية في طرابلس والمغرب الأوسط، فضم افريقية إلى دولته،وطهرها من عيث الصفرية وفظائعهم، وبسط عليها جناح العدل والإحسان، وسار فيها عامله عبد الرحمن ابن رستم كما يأمر الدين، وكما تقتضي سيرة الخلفاء الراشدين ! فماذا فعل عبد الملك ابن أبي الجعد لما استولى على القيروان؟ وما هي الفظائع التي ارتكبها؟ وكيف كانت نهايته؟

فظائع عبد الملك بن أبي الجعد الصفري في القيروان!

لما قتل عاصم بن جميل في حروبه مع أهل أوراس خلفه عبد الملك بن أبي الجعد في إمارة ورفجومة. وكان مع قومه ورفجومة صفرية غلاة. فأباح القيروان لقومه فارتكبوا فيهاكل ما سولت لهم أحقادهم، ومذهبهم المتطرف، وبداوتهم، ورقة دينهم! فسفكوا دماء الملوكيين، وهتكوا أعراضهم، وأهانوا المساجد وربطوا فيها الدواب ففر كثير منهم إلى طرابلس حيث نشأت دولة أبي الخطاب الجمهورية فالتجئوا إليها، وشكوا إليه يرتكبه الصفرية من الفظائع، وهتك الحرمات، وكتبت إليه امرأة من القيروان: أن لها ابنة أخفتها في مطمورة خوفا عليها من ورفجومة. ورأى الإباضية الذين سافروا إلى القيروان فظائع الصفرية في المسلمين فأسرعوا فاخبروا أمامهم أبا الخطاب، فجهز جيوشه،

وسار فهزم الصفرية، وقتل عبد الملك ابن أبي الجعد، وطهر القيروان من عيثهم، وارجعهم إلى الجادة بحد السيوف، وطبق فيهم حكم الله.

أكاذيب الملوكيين على الإباضية:

إن المؤرخين الملوكين كابن خلدون ومن نقل عنه من المحدثين كالسلاوي وغيره قد قالوا إن ورفجومة كانت إباضية لما احتلت القيروان وارتكبت فيها الفظائع المنكرة: وقد ساء الملوكيين أن يجدوا صفحات الدول الإباضية في المشرق والمغرب بيضاء ناصعة، لا تدنسها الدماء الحرام، ومخالفة الدين في المسلمين، هذه الأشياء التي طفحت بها الدول الملوكية، فنسبوا ورفجومة إليهم.

إن ورفجومة كانت من الصفرية، وهي من الذين انضموا إلى عكاشة وعبد الواحد الهواري الصفريين فحاربت معهم حنظلة. إن أعمالها وفظائعها تدل على مذهبها وصبغتها.

نهى أبي الخطاب جيشه أن يغنم أموال ورفجومة وعقبة والإباضية

إن الإباضية أكثر المسلمين تنزها عن دماء المسلمين وأموالهم. انظر إلى أبي الخطاب عبد الأعلى بن سمح لما حارب ورفجومة بعد ارتكاب جرائمها، كيف هي جيشه عن الإجهاز على جرحاهم وعن غنم أموالهم، وتقيد بأحكام الله في محاربة المسلمين.

إن ورفجومة كانوا صفرية غلاة. ولما ولى أبو الخطاب عبد الأعلى بن سمح عاملة عبد الرحمن بن رستم على افريقية، اعتنى عبد الرحمن بورفجومة وعلمها الدين وهذبها، فحسن إسلامها، وانضمت إلى الإباضية الجمهوريين مع بقية بطون نفزاوة الأخرى في جنوب افريقية. وقد رأى المؤرخون الملوكيون ورفجومة في آخر القرن الثاني الهجري وفي القرن الثالث إباضية فحكموا عليها بأنها كانت إباضية لما ارتكبت فظائعها في القيروان ليشوهوا سمعة الإباضية.

إن الإباضية إنما هم الذين غيروا منكر (ورفجومة) وأنقذوا افريقية من ظلم الصفرية وفظائعهم. فليتنبه المحدثون الذين يثقون بكل ما في كتب التاريخ القديمة إلى هذه الأكاذيب ! فان الملوكيين لم يدخروا وسعا في تهديم الدول الإباضية الجمهورية في المغرب، فنسبوا إليهم كل ما ينفر النفوس عنهم، ويشين صفحاتهم البيضاء النقية!

فكيف نشأت الدولة الإباضية في طرابلس الغرب، فكانت خيرا للمغرب وأنقذته من ظلم ورفجومة الصفرية وفظائعها؟

جمهورية أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح 140هـ

كان الإباضية في المغرب الأدنى والمغرب الأوسط قد عزموا على إنشاء دولتهم الجمهورية الكبرى التي تقوم على الإمامة العادلة، ويسير أئمتها فيهم سيرة الخلفاء الراشدين!

وكانوا بعد أن قضى عبد الرحمن بن حبيب على دولتهم التي يرأسها الحارث وعبد الجبار في سنة 132 هـ قد اجتمعوا، واتفقوا على أن التربية والتعليم هي أساس الدول الكبرى، وانه لابد لكل ناحية من نواحيهم في المغرب الأدنى وفي المغرب الأوسط من رئيس عالم مثقف قد اعد إعدادا خاصا لقيادة ناحيته، وتثقيفها لتجمع كلمتهم على الهدف الواحد، ويكونوا جماعة متراصة الصفوف، فيحققوا ما يصبون إليه من إنشاء دولتهم الجمهورية، ويكون هؤلاء الرؤساء أركان الدولة، وأعوان الإمام وجهازه في إدارة النواحي، فانتخبوا من نواحيهم من نواحيهم في المغرب الأدنى وفي المغرب الأوسط جماعة من فتيانهم الأذكياء الصالحين، فأرسلوهم بعثة علمية إلى البصرة، فرباهم الإباضية بعد جابر بن زيد رضي الله عنه، أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وعلمهم، ونفخ فيهم روحه الجمهورية، ودينه وصلاحه، وهيأهم لإنشاء الدولة التي يرجوها في المغرب، فرجعوا في آخر سنة تسع وثلاثين ومائة أو في أول أربعين، فانشأوا دولتهم الجمهورية في طرابلس، وبايعوا أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح إماما، وهو احد البعثة العلمية التي كونها أبو عبيدة في البصرة، وقد ازدهرت دولته، ونعمت في ظله بالعدل والمساواة، وبكل ما قرر الدين للمسلمين من حقوق.

وكانت نشأة هذه الدولة في سنة أربعين ومائة من الهجرة، فسار أبو الخطاب في سنة إحدى وأربعين ومائة فطهر افريقية من ظلم الملوكية، ومن فظائع الصفرية، وضمها إلى دولته الجمهورية، ودامت هذه الدولة حتى تحركت جيوش أبي جعفر المنصور الجرارة، وكاد لها قائد هذه الجيوش الملوكية محمد بن الأشعث الخزاعي فقضي عليها، فكيف كانت هذه الدولة الجمهورية، وما سيرة أبي الخطاب فيها؟ هذا ما ستراه مفصلا في الجزء الثالث الخاص بالدول المغربية المستقلة في القرن الثاني والثالث الهجريين أن شاء الله.

قال ابن الأثير: «لما قتل حبيب بن عبد الرحمن عاد عبد الملك بن أبي الجعد إلى القيروان وفعل ما كان يفعله عاصم من الفساد والظلم وقلة الدين وغير ذلك، ففارق القيروان أهلها، فاتفق أن رجلا من الإباضية دخل القيروان لحاجة له، فرأى ناسا من الورفجوميين قد اخذوا امرأة قهرا، والناس ينظرون، فادخلوها الجامع! فترك الأباضي حاجته فقصد أبا

الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري فاعلمه ذلك، فخرج أبو الخطاب وهو يقول «بيتك اللهم بيتك! فاجتمع إليه أصحابه من كل مكان» فسار بجيشه فطهر افريقية من عيث الصفرية، وضمها إلى دولته الجمهورية. كان ذلك في صفر من سنة إحدى وأربعين بعد حوالي سنتين قضتها القيروان وافريقية في قبضة ورفجومة الصفرية.

وكانت الدولة الأموية قد انقرضت في سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فما هي آثارها الحسنة في المغرب، وما هي أياديها الكبرى عنده؟

الآثار الحسنة للدولة الأموية في المغرب

إن الدولة الأموية وإن انتقدنا عليها أمورا، منها قضاؤها على الإمامة الإسلامية، والجمهورية الديمقراطية التي جاء بها الدين، وسنها للنظام الملوكي المستبد الذب افسد الدولة الإسلامية، وشقي به المسلمون، وكان من أسباب ضعفها هي وتضعضعها، وثورة كثير من النواحي عليها، وانفصالها عنها، كما كان من أسباب انقراض الدولة الأموية السريع، وموتها العاجل، وما عمرها اقل من قرن، ومدتها اقل من الدول الإسلامية الكبرى التي ستعقبها في المشرق والمغرب.

وما ننتقده على الدولة الأموية أنانيتها وتعصبها للجنس، وظلمها وتجبرها في آخر عمرها، وعدم التزامها في سياسة المغرب ما يوجبه الدين، ويقتضيه العقل، وتستلزمه الحنكة السياسية. ذلك الظلم والجبروت، وذلك التعصب الذي جعل المغرب يضيق ذرعا بها، ويحنق على النظام الملوكي، ويحن إلى عدل الجمهورية الإسلامية، وديمقراطية الإمامة العادلة، فيثور على الأمويين، وينشئ دوله الجمهورية التي أسعدته ودخل بها أعياده وأعراسه، والتزمت سيرة الخلفاء الراشدين.

إن الأمويين وإن كانت لهم هذه السيئات، وشانوا صفحتهم في المغرب بكثير من الغلطات، فان لدولتهم في المغرب حسناتها الكبرى، ولها الفضل العظيم الذي لا ينكر على المغرب ! وفيها حلقات ذهبية من ملوكها الأولين الذين أحسنوا إلى المغرب، وبذلوا الجهد الجهيد في فتحه، ونشر الإسلام فيه، وتثقيفه، والأخذ بيده إلى طريق الدين، وتثبيت قدمه في طريق السعادتين.

الحلقات الحسنة للمغرب من الملوك الأمويين

إن الحلقات الحسنة للمغرب من الملوك الأمويين هم: معاوية بن أبي سفيان، وعبد الملك بن مروان، وسليمان بن عبد الملك، والإمام سيدنا عمر بن عبد العزيز! هؤلاء هم

الملوك الذين خلقوا شباب الدولة الأموية وأورثوها ازدهارها، بمتانة أخلاقهم، وعبقريتهم، وحزمهم، وحسن تصرفهم في أمور المغرب، واختيار ولاته!

إن معاوية هو الذي اختار لها عقبة الذي بنى القيروان، وأبا المهاجر الوالي العبقري الذي فتح قلوب البربر في المغرب للإسلام، وحبب العرب إلى البربر، وابتدأ ذلك الامتزاج الذي تم بعد ذلك بمدة قصيرة، فصار المغرب امة واحدة، قد امتزجت فيها الدماء العربية بالدماء البربرية، وأصبح مغربنا فذا في العالم الإسلامي، قد توجه الله بخصائص أجداده العظيمة كلها، وضاعفت مزايا كل منهما مزايا الآخرة، وأورثتها قوة ونضارة وحسنا كالذي يورثه بياض الصبح لحمرة الورد إذا امتزجا في وجه الحسناء فصار لونها خمرا تسكر العيون، تنتشي بها كل النفوس!

وعبد الملك بن مروان هو الذي اختار لمغربنا الحبيب حسان بن النعمان، ذلك الرجل العظيم العبقري الذي أتم فتح المغرب، ونظم أموره، ونشر نور الله فيه، وغرسه في طريق الإسلام فرسخت فيه أقدامه، وتم على يده امتزاج البربر بالعرب فصار المغرب مزيجا من الدماء البربرية والعربية، وأمة تمتاز بخصائص العرقين، وتسمو وتصول بمواهب الطرفين!

وسليمان بن عبد الملك، الرجل العاقل الحصيف المحنك! هو الذي اختار لولاية المغرب محمد بن يزيد فأسعده بعدله، وزاد للمغرب امتزاجا بالمشرق، وإقبالا على الدولة الأموية بحسن سيرته، وكان لسليمان والدولة الأموية أحسن عنوان، ورآه المغرب لسيرته البيضاء في وجه الأموية إشراق الصفاء، الذي يدل على المحبة والوفاء، فاطمأن إليها، وازداد إقبالا عليها!

والإمام عمر بن عبد العزيز هو الذي ثبت الإسلام في المغرب، ونشر العلم فيه، واعتنى به في كل نواحيه، واختار له إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر الذي كان خير وال ولي علي المغرب بعد حسان العظيم، وأرسل عشرة من علماء التابعين مع إسماعيل فكانوا أساتذة البربر في الشريعة الإسلامية، ومن العوامل الكبرى التي عجلت بتفقههم في الدين، وأورثهم نضوجهم، ووصلتهم بصلات الله المتينة بالدولة الإسلامية، فصاروا عضوا قويا فيها، وركنا ركينا في بنيانها.

هؤلاء هم الولاة الذين تم إسلام المغرب في عهدهم، وتمت ثقافته الدينية على أيديهم، وتكون فيه عشرات من العلماء النبغاء صاروا منبعا للعلم في أقوامهم، ومنارا للهداية في نواحيهم، وسنذكر جملة ممن نبغ في هذا القرن الثاني في الجزء الثالث من هذا

الكتاب. إن للأمويين الفضل الكبير على المغرب. فلولاهم لتأخر فتح المغرب وإسلامه، ولظل يرسف في الجهالة والوثنية، ولبقي مسرحا لدسائس الروم التي تفكك أوصاله، وتسممه بأمراض الحضرة، وتجرعه كل ما يؤذي به. انه بفضل أولئك الملوك الأمويين حظي المغرب بهؤلاء الولاة المخلصين، وتم إسلامه ونعمة الله عليه.

إن فضل الدولة الأموية على المغرب في عهود أولئك الملوك المحسنين اظهر من أن ينكر. إن المغرب مدين لهم بما ينعم به الآن من اكبر النعم واجلها، وأعظم شيء واتيه، وأقوى قوة ظفر بها، وأغلى كنز حظي به وهي نعمة الدين واللغة العربية!

إن الدولة الأموية هي سبب نشأة الدول المغربية المستقلة بما أورثته من نضوج فانشأ دوله الكبرى، وهي سبب نشأتها الباكرة. فلولا الدولة الأموية التي عجلت بفتح المغرب، وسارت به الأشواط الواسعة في طريق النضوج والتقدم، وأبرزت استعداده الموروث ومواهبه الدفينة، ووجهت طموحه وما يغرم به منذ الأزمنة البعيدة من الاستقلال والحرية، فصار استقلاله في دائرة الدول الواسعة لا في نطاق القرية والقبيلة والجهة الضيقة كما كان.

عناية الدولة الأموية بالفتوح

والدولة الأموية هي الدولة الإسلامية التي اعتنت بالفتوح بعد الخلفاء الراشدين فمدت رقعة العالم الإسلامي، وكثرت سواد المسلمين. وهي التي اعتنت بالفتح في المغرب أيضا فوسعت رقعته بفتح الأندلس. وهي التي غزت صقلية وسردانية ووالت غزوهما لفتحهما وضمهما إلى المغرب ليكون أهلهما من المسلمين. وإذا كانت الدولة الأغلبية قد أتمت فتح صقلية فأنشأت فيها الإمارة الإسلامية، ونشرت فيها الدين، وضمتها إلى المغرب، فان الأمويين بغزواتهم الكبرى المتوالية لها هم الذين مهدوا لذلك، وأزالوا العقبات، ونشروا الأشعة الأولى من نور الإسلام التي باشرت قلوب أهل صقلية ففتحتها كم يفتح الرهام الأرض فتتشقق عن النبات الأخضر الجميل ! فلولا جهادهم وتمهيدهم لتأخر فتح صقلية عن الموعد الذي فتحت فيه، أو لاستعصى على الأغالبة فلا يستطيعونه. إن الدولة العباسية لم تقد بشيء كبير في باب الجهاد والفتوح. أنهم لا يدانون درجة الأمويين في ذلك.

لقد نشأت الدولة الأموية إبان شباب المسلمين، وفي وقت نمو الدولة الإسلامية وامتدادها، فسايرت ذلك النمو فاتسعت رقعة العالم الإسلامي في عهدها. وأنها لمشكورة على عنايتها بالجهاد، وإن لها لآثارا حسنة في المغرب يجب أن لا ننساها!

إن ما ذكرنا من ظلم وجبروت الوليد، وغطرسة وحيف آخر ملوكها لا يجوز أن ينسينا هذه الحسنات، ويغطي على هذه الحلقات الجميلة، وتلك العهود الزاهرة التي أورق فيها المغرب فأثمر ثماره اليانعة، ونشأ دوله الإسلامية الكبرى.

انقراض الدولة الأموية ومدتها في المغرب

كانت نشأة الدولة الأموية في آخر سنة أربعين لما استشهد الإمام علي رضي الله عنه فتم لمعاوية ملك العراق، وانقضاؤها في أول سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فمدتها تسعون سنة وثمانية أشهر.

وكانت مدة هذه الدولة في المغرب تختلف بحسب الزمن الذي ثبتت فيه قدمها في نواحيه. إن مدتها في برقة أطول، وقدمها في ارسخ، ونستطيع أن نعتبر برقة تابعة لمصر في الفترة الواقعة بين استشهاد عثمان وتمام الأمر لمعاوية في سنة أربعين فيكون عهد الدولة الأموية في برقة قد ابتدأ باستيلاء معاوية على مصر في سنة ثمان وثلاثين، فظلت تابعة لها إلى انقضائها في سنة اثنتين ومائة، فمدتها في برقة حوالي ثلاث وتسعين سنة.

أما طرابلس فتم في سنة خمس وأربعين، وظلت تابعة لها إلى انقراضها وقد زال نفوذها منها ثلاث سنين لما نشأت دولة الحارث وعبد الجبار فيها، فمدتها فيها حوالي أربع وثمانين سنة .

وقد تم فتح افريقية بإنشاء القيروان وولاية عقبة في سنة خمسين، فظلت تابعة للدولة الأموية إلى انقراضها، وقد انفصلت عنها في هذا الزمن طويلا حوالي ست سنين لما استشهد عقبة واستولى «كسيلة» عليها، فمدتها في افريقية حوالي ست وسبعين سنة.

أما المغرب الأوسط والأقصى فقد تم فتحها في سنة ثمان وخمسين أو تسع وخمسين في عهد أبي المهاجر دينار، واستقلا عنها في سنة ثلاث وعشرين ومائة في عهد كلثوم ابن عياض القشيري، فمدتها فيهما حوالب أربع وستين سنة، وكان انسلاخ المغرب الأقصى عن الأمويين في سنة ثلاث وعشرين ومائة لتم، وقد ظل لها في اغلب المغرب الأوسط ظل من النفوذ إلى سنة ثلاثين اعدم إنشاء الإباضية لدولتهم في المغرب الأوسط كما انشأ الصفرية دولتهم في تلمسان والمغرب الأقصى.

هي مدة الدولة الأموية بالتفصيل في أنحاء المغرب الخمس، وإذا أجملنا قلنا إن مدتها

في المغرب من سنة خمسين إلى سنة اثنين وثلاثين: اثنان وثمانون سنة. والتفصيل أحسن وأدق. وبه يجب الأخذ في مدارسنا لكي لا يتعارض مع ما عرفوه من ثورات المغرب واستقلال بعض أجزائه من الأمويين.

ثم ينشئ المغرب الأدنى إمامته العادلة في سنة أربعين ومائة. فينضم إليه المغرب الأوسط ويبايعه. وتبايع طرابلس الإمام أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح. ثم يبسط جناح دولته الجمهورية على افريقية. وتنقرض الملوكية في المغرب. فيتنفس الصعداء. ويحظى بالهناء والسعادة والعزة والعدل في ظل أئمته. وتشمخ طرابلس وافريقية والمغرب الأوسط على الملوكية. فيرتاع أبو جعفر المنصور. ويخشى من عدوى الجمهورية على مصر. ومن تسربها كنور الشمس فتغشى الشام والعراق. فتحل به الطامة الكبرى. فشمر عن ساعده للقضاء على الجمهورية الإسلامية في المغرب الأدنى. والاستيلاء على افريقية وطرابلس لتكون حاجزا بقي مصر والمشرق من عدوى الإمامة العادلة. فتأمن دولته الملوكية في المشرق من الانهدام. ويستمر هو وأبناؤه وأسرته ملوكا يحكمون بأمرهم. ويرضخون المشرق الإسلامي لمشيئتهم: فأرسل في سنة أربع وأربعين ومائة محمد بن الأشعث الخزاعي ومعه كبار قواده. وحشر له جيوشا جرارة من خيرة جنده. فسار بها إلى المغرب لينازل جمهورية أبي الخطاب ويقضي عليها. فماذا وقع بين الملوكيين العباسيين والجمهوريين؟ هذا ما ستراه مفصلا في الجزء الثالث من هذا الكتاب يا صديقي. ستشاهد المغرب الأبي الباسل ينازع فيقطع القيود. ويتخلص من الظلم والاستبداد. فينشئ دوله الإسلامية الجمهورية الكبرى. فتخلق للمغرب ربيعه. وتطلع فيه طلوع الزهر في الشجر بالربيع. مؤذنا بزوال وحشة الشتاء. وإقبال عهود الخصب والنماء. والزمان الذي ترقص فيه الأشجار منتشية بحللها الخضراء. وبالشباب الفوار في عروقها. وبأغاريد الطير الصداح في أفنانها.

سترى المغرب في أول الجزء الثالث في لامة الهيجاء. وهو يثير بثوراته العامة على الملوكيين العباسيين المستبدين غبارا قائما يسد الأفق. إنه السحاب الهتان الذي لا ينبت الاستقلال للشعوب غيره. ولا يلد الحرية والعزة للأمم سواه ! وهو الليل المعتكر الذي لابد أن تخوضه الأمم لتظفر بفجرها. وهو وحده يضع صباحها! ثم يهدأ جو المغرب ويعمه الصفاء. وتشيع الطلاقة والبشر في أجوائه. فتبدو الغزالة جذلانة مستبشرة وهي تبسط من أنوارها المتلألئة بسط النور فيها الدول المغربية العادلة!

إنها لا لتزامها الدين في السياسة. ولعدلها وطهرها وصفائها لا يليق لميلادها إلا بساط من النور!

إنها تبسط من أنوارها المتلألئة حلة العروس البيضاء التي ستجرر أذيالها الدول المغربية العادلة غداة يطلع السعد على المغرب فيزفها إليه!

سترى يا عزيزي في محيا تلك الدول العادلة وجه المغرب الجميل. وتشاهد في عهودها صفات المغرب البيضاء. وترى المغرب في زمانها ركن الإسلام الركين. وسند العربية المتين. وملجأ المسلمين الأمين. ويلجئون إليه من الظلم والاستبداد. فينعمون فيه بكل ما يشتهون من حرية وهناء. ومن سعادة وإخاء. ومن طهر وصفاء. وكل أسباب الرقي والتقدم والرخاء ! فإذا كنت يا عزيزي القارئ كما اعتقد راضيا بهذا الكتاب. فستشتاق إلي كما اشتاق إليك. فتسرع إلى الجزء الثالث فنلتقي فيه أجمل لقاء. فأزف إليك تاريخ المغرب الكبير في أسلوب أدبي يحببه إليك. وبتحليل فلسفي يرضيك. وببحث علمي. ونزاهة وأمانة تصفى تاريخنا من أكاذيب الملوكية القديمة. والاستعمار الحديث. فتجد التاريخ منبعا للمواد والصفاء. وسببا للمحبة والإخاء. وعاملا للتربية الراقية. وكل ما نرجوه من الفوائد التربوية العظيمة. والآثار الحسنة بالتاريخ في النفوس!

سترى في صفحات الجزء الثالث قلوب أجدادنا في المشرق والمغرب تتعانق بالوداد وامتنا الإسلامية في دولها العادلة بالصفاء والاحترام المتبادل جسما واحدا. وبنيانا مرصوصا كما أمر الله! ! والحمد لله على توفيقه وتأييده وعونه في البدء والانتهاء. والصلاة والسلام على صفوة الأنبياء! !

أهم مراجع الكتاب

الأزهار الرياضية - تأليف سليمان بن عبد الله الباروني.
القاهرة المطبعة البارونية 1324 هـ

الاستقصاء لأخبار دول المغرب 1 تأليف احمد بن خالد الناصري السلاوي
الأقصى الدار البيضاء دار الكتاب 1373 هـ- 1954م

البيان المغرب في أخبار المغرب 1-2 تأليف ابن عذارى المراكشي. بيروت
مطبعة المناهل 1369هـ1950م

كتاب السير - تأليف احمد بن سعيد بن عبد الواحد
الشماخي مصر المطبعة البارونية - طبع حوالي 1320هـ

طبقات الدرجيني - تأليف أبي العباس احمد بن سعيد
الدرجيني. مخطوط في خزائن وادي ميزاب بجنوب الجزائر وفي جبل نفوسة في طرابلس

كتاب السير 1-2 تأليف أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر
مخطوط يوجد في وادي ميزاب بالجزائر وفي جبل نفوسة بطرابلس

تاريخ الأئمة الرستميين - تأليف ابن الصغير المالكي. مخطوط
في وادي ميزاب بالجزائر.
فتوح المغرب - سفر كبير مخطوط لم يذكر مؤلفه في مكتبة الشيخ اطفيش في وادي ميزاب بالجزائر

فتح العرب للمغرب تأليف حسين مؤنس. القاهرة مطبعة
مصر 1366هـ- 1947م

فتح المسلمين لشمال افريقية - بقلم عبد العزيز الثعالبي. ثلاث - محاضرات نشرت في جريدة الضياء - المصرية في 15 فبراير 23 مارس - 27 مارس 1931م1351-هـ

فتوح مصر والمغرب - تأليف أبي القاسم عبد الرحمن بن الحكم. ليدن مطبعة بريل 1920م - 1340 هـ.

نزهة الأنظار 1-2 تأليف محمود بن سعيد مقديش - الصفاقسي.تونس 1321هـ-1910م.

نهاية الأرب 22 تأليف شهاب الدين النويري. نسخة فتوغرافية في دار الكتب المصرية
تاريخ الدول الإسلامية - جمع البارون دسلان. الجزائر المطبعة الحكومية 1847م

العبر في ذكر المبتدأ والخبر 4-6-7 تأليف عبد الرحمن بن خلدون. القاهرة - مطبعة بولاق 1284 هـ
الكامل 3-4 تأليف أبي الحسن علي بن الأثير. - القاهرة المطبعة المنيرية 1357هـ.
محاضرات في تاريخ المغرب الكبير 1-2 بقلم علي دبوز.ألقاها في معهد الحياة الثانوي بالجزائر 1949-1950م- 1369هـ. مخطوط
تاريخ دول الإسلام 1-2-3-4 تأليف رزف الله منقريوس. القاهرة - طبعة الهلال 1326هـ-1908م.

تاريخ الجزائر 2 تأليف مبارك بن محمد الهلال الميلي. - الجزائر المطبعة الإسلامية بقسنطينة - 1350هـ.

موجز التاريخ العام للجزائر - تأليف عثمان الكعاك. تونس مطبعة - العرب 1344هـ.

تاريخ الجزائر - تأليف احمد توفيق المدني. الجزائر - المطبعة العربية.

تاريخ الجزائر العام 1 تأليف عبد الرحمن الجيلالي. المطبعة العربية 1954م1373-هـ.

تاريخ الفتح العربي في ليبيا - تأليف الطاهر احمد الزاوي القاهرة دار المعارف.

المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب - تأليف احمد بن حسين الأوسي - الطرابلسي الآستانة مطبعة جمال أفندي - 1317 هـ.

المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب - تأليف احمد النائب الأنصاري. الآستانة مطبعة جمال أفندي 1317هـ.

تحفة الزائر في مآثر عبد القادر 1 تأليف محمد باشا حفيد الأمير عبد القادر الجزائري. إسكندرية المطبعة التجارية 1903م.

المؤنس في أخبار افريقية وتونس - تأليف محمد بن أبي القاسم الرعيني - القيرواني. تونس مطبعة الدولة - لتونسية 1286 هـ.

الخلاصة النقية في أمراء افريقية - تأليف محمد الباجي المسعودي. تونس - 1323هـ.
الحلل السندسية في الأخبار التونسية - تأليف محمد بن محمد الأندلسي - المشهور بالوزير. تونس المطبعة التونسية 1287هـ.

خلاصة تاريخ تونس - تأليف حسن حسني عبد الوهاب. تونس - دار الكتب الشرقية 1373 هـ.

الفتوحات الإسلامية - تأليف احمد بن زيني دحلان. القاهرة - المطبعة الإسلامية المصرية 1323هـ

المغازى - تأليف أبي عبد الله الواقدي. كلكوتا - 1071هـ 1855م.

تاريخ الدول الإسلامية 2 تأليف احمد بن زيني دحلان. القاهرة - مطبعة محمد أبي زيد 1306هـ

فتوح البلدان 1 تأليف أبي بكر البلاذري ليدن 1283هـ

تاريخ الأمم والملوك - تأليف أبي جعفر الطبري القاهرة مطبعة الاستقامة 1357هـ- 1939م.

مقدمة كتاب الوضع للشيخ أبي زكرياء - تأليف أبي إسحاق إبراهيم اطفيس. القاهرة مطبعة الفجالة الجديدة - 1381هـ.

دائرة المعارف للبستاني - تأليف بطرس البستاني. بيروت مطبعة المعارف 1878م.

دائرة المعارف للقرن الرابع عشر - تأليف محمد فريد وجدي. القاهرة - مطبعة دائرة المعارف 1921م

دائرة المعارف الإسلامية - تأليف احمد الشنتناوي وجماعة. - القاهرة 1937م.

كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب - تأليف أبي عبيد الله البكري. باريس 1330هـ 1911م.

وصف افريقية والأندلس - تأليف احمد بن يحيى بن فضل الله العمري. تونس مطبعة النهضة.

صفة المغرب - تأليف احمد بن أبي يعقوب اليعقوبي.

معجم البلدان - تأليف أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي. ليبسك 1873م

نبذة في تاريخ الخوارج - تأليف أبي إسحاق إبراهيم اطفيس. مخطوط لم يذكر مؤلفه.

تاريخ اليعقوبي 1-2 تأليف ابن واضح الإخباري. ليدن - مطبعة بريل 1883م

مروج الذهب ومعادن الجوهر 2-3 تأليف أبي الحسن علي بن الحسين - المسعودي. القاهرة مطبعة السعادة - 1377هـ 1958م.

البداية والنهاية - تأليف عماد الدين ابن كثير. القاهرة - مطبعة السعادة 1351هـ 1932م.

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة 1 تأليف جمال الدين أبي المحاسن الاتابكي. القاهرة مطبعة دار الكتب - 1351هـ 1932م.

أخبار البربر في القرون الوسطى - منتخب من كتاب مفاخر البربر لم يعلم - مؤلفه نشره لاڤي بروڤنصال. الرباط - مطبعة رباط الفتح 1352هـ 1934م.

وقعة صفين - تأليف محمود عباس ألعاملي. بيروت - 1921م

شرح نهج البلاغة 1-2 تأليف ابن أبي الحديد. القاهرة دار إحياء الكتب العربية 1378هـ 1959م.

شرح مشارق أنوار العقول - تأليف أبي حميد السالمي. القاهرة - 1314هـ

الرحلة التيجانية - تأليف أبي محمد عبد الله التيجاني التونسي. مخطوط

وفيات الأعيان 1-2-3-4 تأليف شمس الدين خلكان. القاهرة - طبع مكتبة النهضة 1367 هـ 1948م

معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان 1 تأليف عبد الرحمن بن محمد الدباغ. تونس المطبعة العربية 1320هـ

أسد الغابة في معرفة الصحابة - تأليف عز الدين بن الأثير. القاهرة - المطبعة الوهبية 1280هـ.

رياض النفوس في طبقات علماء القيروان - تأليف أبي بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي. القاهرة طبع مكتبة النهضة - 1370هـ 1951م

الأعلام - تأليف خير الدين الزركلي. القاهرة - طبعة كوستاتسوماس 1959م.

التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار - تأليف محمد بن خليل غليون الطرابلسي. القاهرة المطبعة السلفية - 1349هـ

تاريخ افتتاح الأندلس - تأليف أبي بكر محمد بن عمر. مخطوط

مجموع في تاريخ الأندلس وبلاد المغرب - لجماعة من المستشرقين. مدريد - 1915م.

تاريخ الإسلام السياسي - تأليف حسن إبراهيم حسن. القاهرة - مطبعة حجازي 1353هـ 1935م.

جغرافية الجزائر - تأليف احمد توفيق المدني. الجزائر - المطبعة العربية 1952م.

المغرب العربي جغرافيا - تأليف أنور الرفاعي ورقاقة. دمشق - مطبعة العلوم والآداب 1368هـ.

جغرافية المغرب - تأليف عبد العزيز بن عبد الله. الدار - البيضاء مطابع لاسكي إخوان - 1375هـ.

فهرس الجزء الثاني

مدينة برقة

هجوم الروم على برقة واستشهاد زهير وصحبه

ولاية حسان بن النعمان على افريقية وفتوحه

حرص عبد الملك بن مروان على فتح المغرب وإسلامه

شخصية حسان وعبقريته العظمى

فتح قرطاجنة والقضاء على الروم في افريقية

الكاهنة ملكة جبال أوراس

شخصية الكاهنة وبطولتها

احترام البربر للمرأة وتمتعها في المجتمع البربري بكل الحقوق

شخصية المرأة المغربية القوية وميزاتها-

حرص الاستعمار الفرنسي واللاتيني على احتلال نفس المرأة المغربي

يقضي على دين المغرب وعروبته ويتم له احتلاله-

شخصية أوراس وبطولته وكرهه للاستعمار

حرب حسان مع الكاهنة

هزيمة حسان وانتصار الكاهنة

شهامة الكاهنة وكرم نفوس البربر

خروج حسان والجيش الإسلامي من افريقية

نزول حسان في غرب سرت وانتظاره المدد من المشرق

العوامل النفسية لهزيمة حسان-

عودة حسان إلى افريقية وإتمام فتح المغرب

أغلاط الكاهنة السياسة واستغلال حسان لها-

حضارة المغرب وعمرانه-

احتلال الروم لقرطاجنة وأطماعهم

فظائع الروم في مسلمي افريقية

المعركة الفاصلة مع الكاهنة والقضاء على دولتها

فتح جبال أوراس وانتفاع حسان ببطولة أوراس

عدل حسان وحب البربر له وإسلام المغرب على يده

دهاء حسان وأساليبه البارعة لإسلام المغرب

فتح شمال افريقية وتظهيرها من الروم

أسباب صعوبة فتح المغرب -

نشأة ولاية المغرب الإسلامية وتنظيم حسان لها

تدوين الدواوين. اختيار العمال. التربية والتعليم

تنظيم الخراج والزكاة ومحاربة الفقر والحاجة

القضاء

الشرطة وحفظ الأمن

إنعاش الزراعة وتقسيم الأرض

تنظيم المدن وتنشيط العمران

الاعتناء بمدينة تونس وجعلنا قاعدة بحرية

إنشاء مرفأ تونس. ودار صناعة الأسطول المغربي فيه

نشر اللغة العربية في المغرب وجعلها لغة رسمية

إنشاء حسان للملكية الإسلامية في المغرب

فصل الكنيسة القرطاجنية وقطع علاقات المغرب بالروم ووصلها بمصر

مساعي أعداء حسان لعزله

عزل حسان

غضب البربر لعزل حسان

جشع عبد الله بن مروان عامل مصر. وغنى المغرب ووفرة دخله للدولة

تاريخ المغرب الكبير

الجزء الثالث

تأليف : محمد علي دبوز
أستاذ الأدب والتاريخ في معهد الحياة بالجزائر



إهداء إلى كل أبناء ليبيا الحبيبة

مع كامل محبتي وتقديري

سعيد خليفة الختالي

طبع هذا الكتاب سنة 1963 ولم يصدر منه أي طبعة أخرى
حتى قامت مؤسسة تاوالت الثقافية بإعادة طباعته وتصفيفه
على نفقة سعيد خليفة الختالي

مؤسسة تاوالت الثقافية 2010
http://www.tawalt.com/

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على اشرف المرسلين، سيدنا محمد وآله أجمعين.

وبعد فان مقدمة هذا الكتاب الذي يشتمل على أجزاء كثيرة هي ما صدرناه به الجزء الثاني الذي قدمناه إلى المكتبة العربية منذ ستة أشهر. وما هذه الجملة الوجيزة إلا عنوان لهذا الجزء الذي نقدمه إليك، يبين لك في إجمال موضوعه، ويريك طريقتنا فيه.

إن هذا الكتاب في تاريخ المغرب الكبير، وتاريخ المغرب هو أهم ما تحتاج إليه مدارسنا، وجامعاتنا، مؤلفونا، وشبابنا، وكل قرائنا؛ وأول فن يجب الاعتناء به في مدارسنا، والتحمس له في جامعاتنا، وتقديمه في أساليب عديدة، وفي مظاهر جذابة مغرية إلى أبنائنا في كل مراحل النشوء، والى الأمة في مختلف أحوالها. وذلك لفوائده التربوية العظمى، وجدواه الكبيرة على المرء في كل نواحيه، وفي كل أدواره.

لقد حارب الاستعمار اللاتيني الحقود تاريخ المغرب الكبير بكل وسائله. فحرم تدريسه في مدارسنا العربية الحرة، وقيد أقلام مؤلفينا في المغرب فلم يستطيعوا كتابته كما يجب، ليبينوا ماضينا الأغر المجيد، وعظمة أجدادنا وبطولتهم، ومجدهم الاثيل، يجعلوا أبناء المغرب بالتاريخ الطلي المصفى، العميق، يعيشون مع أجدادهم، فيتأثرون بهم، ويقتفون خطاهم في طرق العظمة والمجد، ويتجهون الاتجاه الرشيد الذي يضمن لهم السعادتين، ومجد الدارين، ويجعلهم خير امة أخرجت للناس !

لقد ثار المغرب الكبير على الاستعمار في كل عهوده، وزلزل أقدام المستعمرين بثوراته العارمة، وأورث للإسلام ببطولته في ثوراته الحربية والسياسية والثقافية فخرا وعزا، وجعل المستعمرين يحسنون للمسلمين حسابهم، ويقدرون المغرب ويعرفون صولته. فما غرض المغرب في تلك الثورات الكبرى على الاستعمار اللاتيني الصليبي الحقود؟ إن غرضه أن يعيش حرا مستقلا، سيدا في بلاده، ويمتع كل التمتع بشخصيته الإسلامية العربية العظيمة التي كبل الاستعمار يديه وكل جوارحه، فأجهد بكل وسائله في

سلخها عنه، وتجريده منها؛ لان شخصيتنا الإسلامية العربية المقدسة العظمى هي قلبنا النابض بالحياة، وأجنحتنا الكبرى التي نسمو بها إلى أسمى الغايات، وهي كل الأسباب في تقدمنا ونجاحنا وسعادتنا؛ وبدونها نكون مقصوص الأجنحة لا نسمو، عديمي القوة لا ندافع، ونكون لحما على وضم لذئاب الاستعمار، تبتلعنا كما تشاء، وتستعمرنا الاستعمار العقلي والاجتماعي الذي هو افتك بنا واقتل لنا من الاستعمار السياسي البغيض.

إن المغرب قد آثار على الاستعمار لا لملء بطنه كما يتخيل البسطاء،ويعتقد الجهلة، ولكن ليتمتع بشخصيته الإسلامية العربية العظيمة، وتظهر حقيقته، وتسطع في كل النواحي مواهبه التي يئدها الاستعمار!

إن شخصيتنا الإسلامية المقدسة العظمة تقوم على ثلاث قواعد هي أساسها، وجذعها الذي تتفرع عنه، وهي: اللغة العربية المقدسة، وديننا الإسلامي العظيم، وتاريخنا الإسلامي المجيد. هذه هي القواعد الثلاث التي تقوم عليها شخصيتنا العظيمة. وقد فجر الاستعمار على هذه القواعد العظيمة الراسخة جبالا من الديناميت ليهدمها في المغرب فيقضي على هذه الشخصية الإسلامية التي هي الأجنحة التي تجعلنا نفلت من يده، والسلاح الفتاك الذي نفجره عليه فنمحقه !

ها نحن قد افتككنا -والحمد لله- استقلالنا وحريتنا ن المستعمر الصليبي الحقود، فيجب أن نبلغ مرامنا، فنتمتع كل التمتع بشخصيتنا الإسلامية العربية، ونبنيها ونجد في بنائها في ناشئتنا، وننعشها ونقويها في امتنا. إنها والله هي كل السبب في تقدمنا ونجاحنا، وهي التي تجعل الله معنا -وهو اكبر قوة في الوجود- فنصل غاياتنا، ونحقق كل أمالنا ! إن التاريخ هو الفن الذي يجعل ناشئتنا وكل الطبقات تعيش في أزهى عصورنا الإسلامية، وتعاشر أجدادنا العظماء الصالحين، فتتأثر بهم، وتفيض عليهم روح الأجداد ودينهم، فتزدهر فينا شخصيتنا الإسلامية العربية التي هي أقدس وأعظم ما نملك في الوجود!

والتاريخ كما ينعش الذين في النفوس، ينعش العربية في الألسنة، لإقبال الأمة عليه إذا قدم إليها كما هو في هذا الكتاب في أسلوب أدبي جذاب، مصفى من اكداره القديمة، وأوساخ الاستعمار التي سممه بها.

إن التاريخ يتضمن القاعدتين الأخريين لشخصيتنا الإسلامية وهما: اللغة العربية والدين، يقويهما، ويظاهرهما فتزداد ازدهارا وقوة. فيجب الاعتناء به كل الاعتناء في

مدارسنا، وكل معاهدنا، وفي دروس الوعظ والإرشاد، وفي وسائلنا التربية لتهذيب الناشئة والمجتمع، وتزويدهما بالطاقة العظمى التي ينطلقان بها إلى أسمى الغايات!

إن الاستعمار اللاتيني قد زال من مغربنا الكبير والحمد لله؛ ولكنه ترك في كثير منت خريجي مدارسه وجامعاته من أبنائنا عقد نفسية خطيرة هي اضر لنا من الاستعمار! وأوحى إلى كثير منهم بأن الإسلام ليس دين المدينة والعظمة، وانه سبب الخمول والضعة! وان اللغة العربية لا تساير المدينة، ولا تماشى رقي العصر الحديث، ولا تليق للدولة العصرية العظمى! وأن الإسلام إنما يتمسك به الرجعيون! واللغة العربية إنما يتحمس لها ويناصرها المتخلفون! هذه العقائد الخطيرة التي هي الديناميت الفتاك الذي يهدم مغربنا، والسم القتال الذي يفتك بنا، وهي شر من وجود المستعمرين كلهم في بلادنا. لان المستعمرين نعتقد عداوتهم، فنكون على حصانة من عدواهم. أما أبناؤنا الذين يلابسوننا، ويختلطون بدهمائنا وأغرارنا، ونحسن الظن بهم، وتتفتح لهم صدورنا، فإنهم يسكبون في مغربنا هذه العقائد القتالة، ويغمروننا بعدواهم المميتة! وإن لم يستطيعوا، لتمسك المغرب بشخصيته الإسلامية العظيمة، وتقديسه لدينه ولغة دينه، فإنهم يكونون حجر عثرة لنا في طريقنا، وجماعة شاذة تجاذبنا إلى الغرب ونحن نريد الاتجاه إلى الشرق! وأية امة تسرع خطواتها، ويستقيم سيرها، فتصل غاياتها إذا كان فيها من يجذبها إلى عكس اتجاهها، ويدفعها إلى ضد غايتها؟! إن التاريخ الإسلامي المغربي هو الذي يشفى هؤلاء الأبناء، وإذا رأوا عظمة أجدادهم في عصور المغرب الزاهرة، وشاهدوا سعادتهم ونعيمهم، ورخاء عيشهم الذي يحظ ببعضه الأروبيون الذين يعانون الأزمات النفسية، والأمراض التي يصاب بها عباد المادة؛ ورأوا حضارتهم الراقية، والذرا الرفيعة التي يحتلونها في كل ميدان، وعبقريتهم وتقدمهم على الدنيا كلها بفضل الدين الإسلامي العظيم الذي يتمسكون به، ويتخلقون بأخلاقه، ويلتزمون طريقه المستقيم؛ وبفضل اللغة العربية التي هي مفتاح الدين، وأم العلوم كلها، وسيدة و اللغات جميعها، في غزارة الثروة، وفي سعة الأفق، وفي المرونة، وفي الحلاوة وجمال الجرس، ورشاقة اللهجة وفي مسايرة العصر ونهضة الزمان. أنهم بما يشاهدون من عظمة أجدادهم في التاريخ يحسن إيمانهم، ويزدادون حماسا للغة العربية المقدسة. فيكونون أبناء الأمة البررة، لا يعقون الأجداد، ولا يصيبوننا بما عجز الاستعمار أن يصيبنا به من الدواهي !

إن التاريخ هو البلسم الذي يشفى أولئك الأبناء، والنور الوهاج الذي يريهم حقيقة الدين الإسلامي العظيم فيتحمسون له، وعظمة شخصيتنا الإسلامية العربية

فيتمسكون بها، فيكونون نفعا خالصا لنا، وسبب تقدم ورقى لمغربنا، عاملا لرضى الله، فنصل كل مراد، ونحظى بكل نجاح!

إنه ليس بالوعظ ولا بالجدال نقنع هؤلاء الأبناء، كما انه ليس الوعظ النظري وحده نؤثر في نفوس ناشئتنا وكل طبقاتنا، ولكن بالتاريخ الذي يعيشون به في بيئة أجدادهم الزكية، فتورثهم بياضها، وإشرافها، فيكونون كما يريد مغربنا الحصيف الناهض، كما يرضى الله. ولكن التاريخ لا يجعل أبناءنا وكل طبقاتنا يعيشون مع أجدادهم، ويعرفون عظميهم، فيعتدون بهم، إلا إذا كان جذابا، سحرهم بأسلوبه الأدبي، وبروحه الفلسفية، وببحثه النزيه. وهذا ما التزمناه في هذا الكتاب وتوفر في (تاريخ المغرب الكبير) هذا السفر الذي نعجل به إلى أبنائنا، ومدارسنا وجامعاتنا، ومؤلفينا، وكل الأقطار العربية والإسلامية لنحبب إليهم قراءة التاريخ، ونقدم إليهم تاريخ المغرب المصفى الذي طهرناه من دعاية السياسة القديمة، وترهات الاستعمار، ليكون التاريخ نفعا خالصا للأمة، وسبب وحدة ومحبة امتنا الكبرى كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

إنه مما يمتاز به هذا الكتاب مع الأسلوب الأدبي الجذاب، والتحليل الفلسفي العميق، والبحث العلمي النزيه، الخريطة التي تبين لك حدود الدول المغربية في القرن الثاني والثالث الهجري. وهو ما لا تجده في كتاب آخر عربي أو إفرنجي.

لقد صغت لد هذا الكتاب -عزيزي القارئ- من دمي ودماغي، وعانيت من الجهد والمشقة في البحث والتأليف مالا يعلمه إلا من عانى مشقة البحث النزيه، والتأليف المتقن في موضوع غير معبد ولا ميسور المادة كتاريخ المغرب في القرون الإسلامية الثلاثة الأولى. وكتب معظم هذا الكتاب في الصيف، وكنت أخشى أم يكر علي التعب المضني لما بذلت من جهد في الجزء الثاني، ويقطعني حر القاهرة المتقد ولكن والحمد لله وجدت من النشاط وخصب القريحة في صيف القاهرة تكثر مما أجد في الشتاء. فأيقنت أن الله معي! وان القاهرة النشيطة الحية الفتية التي تفيض من نشاطها وحيويتها على النيل فيزداد في الصيف الذي تجف فيه الأنهار، ويفيض ويصل إلى ذروة القوة و التمام، ويكون كما تريد مصر الحبيبة، لتفيض مثل ذلك على من يعمل في عزيمة وإخلاص فيها، فيكون في صيفه أقوى منه في شتائه!

إن هذا الكتاب لا يقدم إليك التاريخ الجاف الذي يقتصر على سرد الحوادث الغامضة المبهمة كما يفعل المؤرخون الذين لا يعرفون عظمة التاريخ والمقاصد السامية التربوية والاجتماعية التي يحققها؛ بل يقدم إليك الحوادث مقرونة بعللها، ويحلل لك الشخصيات،

ويريك أسباب عظمتها وفشلها، وأسباب عظمة الدول وفشلها ويستخلص لك العبرة التي تنير لك الطريق وتهديك في سبيل الحياة، ويلذك ويؤنسك بالأسلوب الأدبي الذي يحبب إليك دراسة التاريخ، ويقدم إليك التاريخ المصفى من أكاذيب الملوك وترهات الاستعمار، فترى وجه أجدادك الجميل الأغر كما خلقه الله.

وبعد: فقد قدمت إليك -عزيزي القارئ- في الجزء الثاني من هذا الكتاب الفتح الإسلامي للمغرب مصفى من اكدار الاستعمار الحديث، وثورة المغرب على الأمويين لظلمهم له، وعدم تمسكهم بجين الله، وبالعدل الإسلامي في معاملته، ولتمسك المغرب بالإمامة الإسلامية، وحنينه وإيثاره لعهد الخلفاء الراشدين، ويريد تجديده في المغرب بعد أن قضي عليه الأمويون؛ وجعلتك في ذلك الجزء بالأسلوب الأدبي، والبحث الفلسفي، والأمانة العلمية، وتدرك أكاذيب المستبدين المتغطرسين على مغربنا الثائر على ظلمهم، وترى جهاد المغرب ونضاله وتضحياته لإحياء الإمامة الإسلامية، وإنشاء دوله العادلة التي تتمسك في سياسته بالدين، وتلتزم فيه هدي الخلفاء الراشدين. وقد تركت المغرب في آخر الجزء الثاني في نضاله وجهاده، وهو مغبر الجو، وصليل السيوف، ونار المعارك في سبيل تحقيق المثل الأعلى تتأجج في كل أنحائه. فهل قر قراره وتحققت آماله، وأسفر محياه، وسمعنا رنين ضحكه ومرحه في أفراحه. أم ضل وهو لا يسمع منه إلا رنين سلاسل الظالمين المستبدين التي يهوى عليها بمعاوله ليكسرها، وحمحمة الخيول في المعارك المتأججة التي لا تخبو نارها؟

إن الأمة التي تدخل في ليلها بغبار الهيجاء، ومعارك التحرير، هي التي تدخل في نهارها، ويطلع صحبها المنبر، وتشرق شمسها الوهاجة! لقد حقق المغرب مثله الأعلى،وانبت بدمائه وبطولته أمانيه، فأحيا الإمامة الإسلامية في ربوعه، وأنشأ دوله العادلة التي تقيدت في سياسته بالذين، فجددت فيه الخلفاء الراشدين، فقرت عين المغرب بهذه العهود الزاهرة البيضاء، فصار هو الضاحك الجذلان السعيد اله الهانئ في العالم الإسلامية في عهود تلك الدول العادلة.

سترى المغرب -يا عزيزي- في هذا الجزء في عهد الدولة الرستمية يحظى بعهد الخلفاء الراشدين، ويتمتع من أئمته بما كان يتمتع به المسلمون في عهد الفاروق وخلفاء الرسول عليه السلام، ومع هذا العدل والديمقراطية الكاملة، والتمسك بالدين كل التمسك وجعله دستورا للدولة الرستمية لا تحيد عن طريقه في شاردة ولا واردة، الحضارة العظمى، والمدنية الراقية، وامتياز المغرب في ظل الإمامة الإسلامية بكل ما امتاز به العباسيون من حضارة ومدنية وعمران.

سيريك المغرب المتحضر القوي السعيد في ظل الدولة الرستمية أن عهد الخلفاء الراشدين وسياستهم وعدلهم وتمسكهم كل التمسك بالدين هو الذي يليق بالأمم المتحضرة، والشعوب الحية، ويساير الزمان، ويليق في كل عصر، وليس كما قال الجهلة الملحدون الذين يمشون في ركاب المستبدين، ويتأثرون بكتبهم، ويرددون ترهات المستشرقين المغرضين؛ يريك المغرب كذب ما قاله الجهلة الملحدون من أن سلوك الخلفاء الراشدين وعدلهم، وتمسكهم في السياسة بالدين، وبما أمر الله، شيء لا يمكن إلا في زمانهم، ولا يليق إلا لعصرهم، وانه لم يتجدد ولم يكن في امة وفي دولة بعد دولتهم وأيامهم!

إن المغرب قد جدد عهد الخلفاء الراشدين في ربوعه، لتمسكه بالإمامة الإسلامية، وإنشائه لدوله العادلة التي جعلت الدين دستورها، وهدي الخلفاء الراشدين هديها؛ وتحقيق ما سكب الدم الغزير من اجله، وما قضي عليه الأمويون والعباسيون في المشرق.

إن الدولة الرستمية التي تقوم على الإمامة الإسلامية هي أول دولة جزائرية إسلامية نشأت في المغرب الأوسط فبسطت جناحها الحنون وأشعتها الجميلة إلى المغرب الأدنى فوحدت اغلب المغرب، ودخل بها في أعراسه وأعياده وعهود قوته! إنها دولة خلعت ظلم العباسيين واستبدادهم، وتمسكت بالإمامة الإسلامية، وأذاقت المغرب حلاوة عدلها، ونعمة تمسك الدولة في السياسة بالدين، فاتجهت إليها الأنظار، فثارت ثائرة المستبدين فرفعوا المعاول عليها، وبسطوا السنة السوء والبهتان فيها، فشوهوا صفحاتها الغراء في التاريخ، وظلوا عشرة قرون كاملة، وكتب التاريخ، والسنة العباسيين، والعبيديين، وكل من يتمسك بالملكية المطلقة المستبدة، ويكره الإمامة الإسلامية العادلة، تكيل لها ما يسود صفحتها، ويثني بأعنة المغرب والمشرق عنها، لكي لا يروا في صفحاتها الغراء جمال الإمامة الإسلامية فيعاودهم الحنين إليها، فيقضون على عروسهم واستبدادهم، ويحيون الإمامة الإسلامية التي أسعدت أجدادهم.

لقد كان جو المغرب الكبير مغبرا بالملكية المطلقة، وبالاستعمار الذي يؤكد مزاعمها في دولنا المغربية الزاهرة، فها هو قد تخلص من الملكية المطلقة، وأوتي رؤساء مثقفين، دستوريين، مخلصين لبلادهم، غيورين على تاريخهم، فتكون في مغربنا الكبير الجو الضاحي الصافي لإبراز تاريخنا مصفى من أكداره، ليكون سبب بناء ومحبة، فيكون أبناء المغرب في حاضرهم كما كانوا في ماضيهم، مع بعضهم بعضا، ومع الأمة الإسلامية كلها، إخوة متعانقين متحابين، متساندين، يرضى عنهم الله، وتهابهم كل الدنيا وتحبهم!

لقد عزمت في هذا الجزء كما قررت في مقدمة الجزء الثاني، أن يكون لدول المغرب كلها في القرن الثاني والثالث الهجري: الدولة الرستمية، ودولة بني واسول، والدولة الإدريسية، والدولة الأغلبية، ولكن تاريخ المغرب خصب غني، والتحليل الفلسفي، والتصوير الواضح ، والبيان الجلي الذي ألتزمته في هذا الكتاب جعل الدولة الرستمية ومقدماتها من ثورة المغرب على العباسيين لتمسكه بالإمامة الإسلامية؟، والعمل لإنشاء دوله العادلة، وجعل وحده هذا الجزء يمتلئ، ويزيد على حجم الذي قررته له. لقد عزمت أن لا يتجاوز ثلاثمائة صفحة، ولكن غزارة المادة في تاريخ المغرب، والقاهرة الفتية النشيطة الحبيبة التي تملأني بالحياة والنشاط، جعل هذا الجزء يمتد ويربو حتى تجاوز ستمائة صفحة!

سوف لا يدركك الملل في هذا الكتاب يا صديقي، فالأسلوب الأدبي، والتحليل الفلسفي، والبحث العلمي النزيه، هذه الخصائص الحسنة لهذا الكتاب، ستجعلك تستقصر فيه الزمان الطويل، وتختمه منتشيا به إذا بدأته! سأنقلك إلى أجدادك، وأجعلك فيه على انس وفرحة وسعادة الحي الذي عاد إليه ميت فجالسه وانس به؟، ورآه على هيأته المشرقة، وجهه الجميل!

هيا إلى -يا عزيزي القارئ- لترى المغرب الأبي يثور على الظلم والاستبداد في أول الكتاب، ثم يسكن غضبه، لتحقق مناه،وبلوغه مرامه،وتشرف دوله الإسلامية العظيمة؛ تلك الدول العادلة التي تتمسك بالإمامة الإسلامية، وتجعل الدين الإسلامي العظيم دستورها، فيسعد بها المغرب، ويحظى بالسعادتين، ويتجدد بها في ربوعه عهد الخلفاء الراشدين.

الولاة العباسيون في المغرب

سعادة المغرب الأدنى بعدل أبي الخطاب

كان إمام الدولة الجمهورية في المغرب الأدنى والأوسط هو أبو الخطاب عبد الأعلى ابن السمح المعافري اليمنى، وملك الدولة العباسية في المشرق هو أبو جعفر المنصور.

وكانت طرابلس قد ثارت على الملوكية المستبعدة الظالمة في سنة أربعين ومائة، وأنشأت دولتهم الجمهورية الديمقراطية، وإمامتها العادلة التي تلتزم فيها سياسة الدين وعدل الخلفاء الراشدين، وقضت على العصبية التي بثها في المغرب الملوكيون الأنانيون، فقسموه وشقوا عصاه، وخلقوا العداوة فيه بين البربر والعرب، وبثوا الفرقة في الأمة الواحدة، والإخوة المتحابين. وبايعت طرابلس أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح إماما لها، ورئيسا لجمهوريتها، فصارت طرابلس كلها من خليج سرت إلى "قابس"، ومن البحر إلى الصحراء الكبرى منضوية تحت جناح هذه الدولة؛ ثم انظم إليها اغلب المغرب الأوسط فبايعوا أبا الخطاب. فسار أبو الخطاب إلى افريقية فأنقذها من ظلم "ورفجومة" الصفريين، ومن عيثهم ومخالفتهم للدين، فضمها إليه، وأمست جزءا من دولته، فصار اغلب المغرب منضما إلى هذه الدولة، وأصبح أبو الخطاب هو أمامهم يقودهم في طريق القوة والنجاح، والسعادة والفلاح، ويسوسهم سياسة عادلة تخلق المحبة في القلوب، والرضا في النفوس، والسعادة في الأفئدة، وأمسى المغرب ولا يفيض من عيون أبنائه إلا الصفاء والمحبة، ولا يملأ نفوس رعية أبي الخطاب فيه إلا الأفراح التي تضم كل شخص إلى أخيه، كما يضم النسيم العليل غضون الشجرة إذا هب عليها فتعانقت من شدة الارتياح!

خوف الملوكيين من انتشار الجمهورية إلى المشرق

فصارت دولة أبي الخطاب بهذه المحبة بنيانا مرصوصا، وقوة كبرى، وأصبح هو لعدله وإخلاصه وسعادة شعبه به حديث النوادي، ومتجه الأنظار! فقامت قيامة الملوكيين في المشرق والغرب، وأحسوا بدولتهم الملوكية التي تشبع أطماعهم، وتنيلهم حظوظهم الخاصة، وترضى أنانيتهم وتحيزهم، وترتج أركانها، ويهددها خطر كبير! إن دولة أبي الخطاب إذا ترعرعت وشبت، وبلغت تمامها، فلا بد أن يسري حب الجمهورية إلى مصر التي فيها جمهور كبير من الإباضية يدعون إلى الجمهورية، فتثور على العباسيين، فتنضم إلى

أبي الخطاب، أو تنشئ دولة جمهورية خاصة بها. ولا بد أن يحذو الشام والعراق حذو مصر والمغرب، فان لم يفعلا فسيظلان تحت استبداد الملوكية على سخط العطشان الذي يضاعف شعوره يظمئه مشاهدته لجيرانه يعبون الكؤوس الصافية من الماء العذب الزلال! فلا يكون القطران الشام والعراق على الهدوء والانقياد الذي يريده الملوكيون، ولا يكونان مطية منقادة ذلولا فيبلغان بها كل ما يصبون إليه!

خشية المنصور من دولة أبي الخطاب

وكان أبو جعفر المنصور على هذه الخشية من دولة أبي الخطاب الجمهورية. وكان يشفق ويخاف منها على دولته الملوكية إشفاق من يحمل مصباحا عاريا متهافتا، بوده أن لا يهب نسيم في الجو!

وكان أبو جعفر حريصا على دولته الناشئة، فاعمل السيف في كل منافسيه وأعداء دولته فأزالهم، واغرق المشرق في الدماء ليصفو الجو له، وتترعرع دولته وترسو عروقها! وقد تم له في المشرق ما أراد، فقضي على أعدائه، فسكن عرشه، فلم تعد تزعزعه الرؤوس الناتئة التي تشرئب إلى الملك والسلطان، فاتجه إلى المغرب، وعزم أن يقضي على دولة أبي الخطاب التي صارت اكبر خطر يهدده، ويسترد افريقية التي فيها جمهور كبير من الملوكيين لتكون وقاية لمصر، وسدا يرد أمواج المغرب الأوسط والأقصى الذي أيقن بعجزه عن الاستيلاء عليهما، ومنع الدول الجمهورية من النشأة فيهما.

شخصية أبي جعفر المنصور وسبب قوتها

وكان أبو جعفر المنصور ملكا قويا، طموحا، وشجاعا، صارما، قوي الشخصية، داهية، ذا نظر بعيد، وإدراك عميق! وكانت أمه سلامة البربرية من المغرب، فضاعفت وراثته العبقرية من أخواله وراثته الهاشمية، فصار ذلك الرجل العظيم الفذ الذي نشأ الدولة العباسية، ودفعها في طريق العظمة، وأزال أعدادها وعقباتها، فلولاه لقضت عليها الأنواء في المهد، أو تكون ضعيفة لا تبلغ كل ما بلغته من ضخامة وقوة، ومن ازدهار في الحضارة، ونضوج في العلم، وعظمة في العمران.

وكانت هذه الوراثة البربرية في أبي جعفر المنصور من أمه قد خلقت فيه نزوعا إلى المغرب، فعزم على استرداد افريقية والمغرب الأدنى ليكف عن دولته الأخطار التي ذكرنا، ويرضى هذه النزعة في نفسه إلى وطن أمه!

استغاثة الملوكيين في افريقية بالمنصور

وكان من الأسباب المباشرة التي جعلت أبا جعفر المنصور يصمم على استرجاع المغرب الأدنى، والقضاء على دولة أبي الخطاب وفود جماعة من الملوكيين المتعصبين في افريقية الذين ساءهم أن تتكون دولة مغربية يرأسها غير قوسي! وأن تقوم دولة جمهورية عادلة تساويهم بغيرهم، وتقضي على الملوكية التي ترضي أطماعهم، وتجعلهم خاصة ممتازة، ومن عداهم من أهل المغرب ترابا يخوضون فيه! وفد هؤلاء من افريقية على المنصور يستصرخونه، ويسألونه القضاء على الجولة الجمهورية، ويبينون له خطرها على دولتهم الملوكية، فحركوا المنصور وزادوه يقينا بان له جمهورا كبيرا من الملوكيين في افريقية يستطيع الاعتماد عليهم في المحافظة على افريقية وإبقائها جزءا مرتبطا بدولته.

وكان من هؤلاء الوفد الذي أرسله الملوكيون من افريقية نافع بن عبد الرحمن، وعبد ترحمن بن انعم، والبهلول.

عدل أبي الخطاب وثورة جميل السدراتي

وممن وفد على المنصور يستحثه ويحركه لغزو المغرب جميل السدراتي. وكان جميل السدراتي من جيش أبي الخطاب الذي غزا به فرجومة في القيروان. وكان الإمام أب الخطاب كما كان أئمة الإباضية كلهم يلتزمون حكم الله وأوامره في الحروب التي تقع بينهم وبين المسلمين! فلا يغنمون شيئا من مال المحارب المسلم، ولا يجهزون على الجريح، ولا يتبعون المنهزم. ولما انقضت الحرب بينه وبين ورفجومة تفقد قتلاهم فوجد واحدا منهم مسلوبا ! قال الشماخي: "فنادى مناديه من اخذ من القتلى شيئا فليرده. لما أيس دعا الله به -وكان مستجاب الدعاء- أن يفضح الله من اخذ السلب على رؤوس الأشهاد. فركبوا خيلهم ليجروها، فانقطع حزام جميل السدراتي، فسقط، فظهر السلب تحت سرجه" [1] فأخذه الإمام فعزره وأدبه. فاغتاظ جميل من تعزير الإمام، ومن فضيحته، فهرب إلى المنصور ليحركه ضد أبي الخطاب ! قال الشماخي: "فأقام سنة يطرق باب المنصور فلا يؤذن له (لشدة حجابه، وعدم اختلاطه برعيته) ثم أذن فسأله عن حاجته. فقال: أن تبعث معي عسكرا إلى المغرب" فكان جميل ممن سار بعد ذلك في جيش المنصور لغزو المغرب، ودل ابن الأشعث على كثير من العورات!

كان هذا من الأسباب المباشرة مع الأسباب الأصلية التي جعلت المنصور مصمما على غزو المغرب، والقضاء على دولة أبي الخطاب، واسترداد المغرب الأدنى، فاختار لذلك قائدا

1 - كتاب السير للشماخي ص 129 ط البارونية بمصر.

من أقوى قواده العسكريين، ورجلا من أدهى رجاله، وشخصية عظمى تصول بالسيف والدهاء، وتعرف كيف تحقق كل أغراضها بالحيلة والذكاء، فولاه على مصر باب المغرب، وأمره بالقضاء على دولة أبي الخطاب.

إن هذا القائد الداهية، والرجل المحنك هو محمد بن الأشعث. فما نسبه وما حقيقته، وما صراعه مع أبي الخطاب؟

ولاية محمد بن الأشعث الخزاعي على مصر وحروبه مع أبي الخطاب 144-148 هـ

هو محمد بن الأشعث بن عقبة بن اهبان الخزاعي من بني قحطان.

نسب ابن الأشعث وشخصيته

وكان الأشعث الخزاعي بطلا شجاعا، وداهية محنكا. وكان من كبار قواد الدولة العباسية، ومن طبقة أبي مسلم الخراساني التي أنشأت دولة العباسيين، وزحمت بمناكبها القوية كل المنافسين، ففسحت لها الطريق، وأزالت العقبات التي تمنعها من النشوء الارتقاء، ومن التكوين والنماء !

وكان المنصور يرى ابن الأشعث أمضى سيوفه، واكبر كفاءاته، وأدهى رجاله، وكاهلا من أقوى كواهل دولته، فادخره للثغور الخطيرة، واصطنعه واستبقاه للثقال الكبرى، والمهام العظمى. ولما فتح أبو الخطاب إمام طرابلس والمغرب الأوسط افريقية في سنة إحدى وأربعين ومائة، وصار اغلب المغرب معه، وأصبحت دولته الجمهورية تهدد الملوكية في مصر والمشرق، وأمسى أبو الخطاب هو أقوى رجل يخافه المنصور، وصارت دولته اكبر قوة يخشاها، ولى على مصر محمد بن الأشعث الخزاعي، فوصلها خامس ذي الحجة من سنة إحدى وأربعين ومائة، وأمره بمهاجمة أبي الخطاب والقضاء على دولته قبل أن ترسخ عروقها، وتشتد أركانها.

تخوف المنصور من ابن الأشعث

وكان المنصور وإن اعتد بابن الأشعث ورآه ضروريا لدولته، فانه كان يستريب منه، ويخاف أن تحدثه نفسه بما حدثت أبا مسلم الخراساني نفسه به، وتسول له قوته، وماضيه المشرق في الدولة، وإعجاب الجند به، وطاعتهم له أن يطمح إلى الملك، ويقلب ظهر المجن له؛ لذلك كان لا يوليه على ثغر وقطر مهم كمصر والمغرب إلا مدة قصيرة قدر ما تستلزم المهمة العسكرية التي اختاره من اجلها، ثم يعزله قبل ترسخ عروقه في المكان فتحدثه نفسه بالاستقلال والانفصال!

انه سيفه البتار يسله في وقت الحاجة ثم يرده سريعا إلى غمده، لا يتركه في الخارج طويلا خوفا من صدئه!

حرص المنصور على المال وشحه به

ولما أجبرت الضرورة المنصور أن يولي ابن الأشعث على مصر احتاط فجرده من خزانة

مصر التي يكثر بها أتباعه، وترجح بها كتفه، ويستتبع بها كل من يشاء من الجند والرؤساء! فولى على خراج مصر وخزانة الدولة فيها نوفل بن الفرات، وبقيت لابن الأشعث الإمارة في الشؤون السياسية والحربية وحدهما؛ وقطع عنه أبو جعفر انهار به، والتزود منه، لأنه عماد الدولة الملوكية التي تستتبع أكثر من تستتبعه بأموالها وسيوفها، فهو يريد أن يكون خرا مصر في يد من يستطيع محاسبته، وتشديد النقاش معه، ومن يقتر في الإنفاق كما يريد، ليوفر له كل ما يريد!

قال جمال الدين بن تغرى في "النجوم الزاهرة" : "ولما استقر محمد بن الأشعث في إمرة مصر، أرسل الخليفة أبو جعفر المنصور إلى نوفل بن الفرات أن يعرض على محمد بن الأشعث ضمان خراج مصر، وقال له: فان ضمنه فاشهد عليه، واشخص إلي الشهادة، وإن لبى كن أنت على الخراج عادتك! فعرض نوفل على ابن الأشعث هذا الكلام، فأبى من الضمان، فانتقل نوفل إلى الدواوين، ففقد محمد بن الأشعث من عنده، فسأل عنهم فقيل له: هم عند صاحب الدواوين! ! فندم ابن الأشعث على ما وقع منه من ترك الخراج!"[1]

مهاجمة ابن الأشعث لأبي الخطاب وهزائم العباسيين

وكانت ولاية ابن الأشعث على مصر بعد عزل موسى بن كعب التميمي عنها، وما كاد يصل مصر حتى شمر لمهمته العسكرية، وما كلفه به المنصور، وولاه من اجله، فاعد جنده، وحشد عساكره فأرسل فيس سنة اثنين وأربعين ومائة جيشا كبيرا تحت قيادة رجل من اكبر قواده، وأشجع رجاله هو العوام بن عبد العزيز البجلي، وكلفه بحرب أبي الخطاب ومهاجمة بلاده. فسار العوام فخرج إليه الإمام أبو الخطاب في جيشه حتى أتى (ورداسة) في شرق طرابلس، فوجه إليه مالك بن سحران الهواري في طائفة من جيشه، فالتقى بالعوام البجلي في (سرت) وهي أول بلاد الإمام الخطاب، فدارت معركة كبرى بين الجيشين، سقط فيها قتلى كثيرون من الطرفين، فكر مالك بن سحران على العوام البجلي فهزمه، وقتل عددا كبيرا من جيشه، ودخل معسكره، فرجع إلى ابن الأشعث مهزوما. فعلم ابن الأشعث أن أبا الخطاب لا يؤثر فيه إلا جيش يحشد فيه كل ما استطاعه من جنده الشجعان، ويبعثه مع خيرة طباعه، وتحت قيادة امهر قواده، فجهز هذا الجيش، وكان اكبر من الأول وأقوى، فأرسله تحت قيادة أبا الاحواص عمر بن الاحرص العجلي، فخرج إليه أبو الخطاب بنفسه فالتقاه (بمغمداس) في غرب (سرت) فدارت معركة رهيبة بين الطرفين، سقط فيها قتلى كثيرون من الجانبين، فهزم الإمام

1 - النجوم الزاهرة ج 1 ص 346-347 ط دار الكتب المصرية.

أبو الخطاب أبا الأحوص العجلي، وشتت جيشه، وقتل منهم عددا كبيرا فرجع إلى ابن الأشعث مدحورا.

عزل ابن الأشعث عن مصر وإنفاذه إلى المغرب

وكان المنصور يتتبع هذه المعارك، وتصله هزائم جيوشه على يد أبي الخطاب، فعلم أن أبا الخطاب وأتباعه الذين يمتازون بالشجاعة الكاملة، والإخلاص لدولتهم والنصح لإمامهم، وبكرة الملوكية وبعضها والتصميم على القضاء عليها، بالثبات في الحروب، وحب الاستشهاد في سبيل الله؛ إن قوما يمتازون بهذه الصفات لا يستطيع أن يتغلب عليهم في الحرب إلا بأبرع قواده، وبجيش كبير يختار له رجاله المخلصين ويقوده رجل داهية يستعمل الحيلة والمكيدة، يسلك إلى أغراضه من الطرق الخفية البارعة، فوقع اختيار المنصور لقيادة هذا الجيش الكبير على ابن الأشعث فعزله عن مصر في أول سنة ثلاث وأربعين ومائة، فولى مكانه حميد بن قحطبة، فاستقدمه المنصور فأكرمه وقربه، واظهر له الاحترام والتبجيل، واخبره انه إنما عزله عن مصر ليوليه مهمة اخطر واشق، ويسد بع ثغرا اكبر وأصعب، واخبره بما عزم عليه من توجيهه إلى المغرب على رأس جيش عرمرم يجمعه، وقوة كبرى يؤلفها، وتفاوض معه في الخطة التي يجب إتباعها في التغلب على أبي الخطاب وجيشه القوي الشجاع، وحثه على استعمال المكيدة، واعتماد الحيلة، واستغلال نواحي الضعف في عدوه.

احتفال المنصور بجيشه

وكان احتفال المنصور في تأليف هذا الجيش الذي سيقوده ابن الأشعث كبيرا، فاختار له اخلص جنده، وأكثرهم حماسا لدولته، وأشدهم تعلقا به، وأحبهم للملوكية وأقواهم في الشجاع! وكان هذا الجيش يتألف من أربعين ألف مقاتل. ثلاثون ألفا من أهل خراسان الذين هم اعضاد الدولة العباسية، وأنصارها المخلصون، فهم الذين أنشأوها، وحاموا عنها، ونالوا ى الحظوة عندها، واستأثروا بأكبر المناصب فيها، فهي دولتهم، يرضعون أثداءها، ويتفيؤون ظلالها، ويتقلبون في حجرها، وهي أمهم الرؤوم، وسبب عزهم الذي فقدوه، وسرحتهم[1] المباركة التي رفعت رؤوسهم وأعلت منزلتهم، وحققت لهم كل ما يريدون ! فكل من يهددها بسوء فهم أعداؤه وكل من يعاكسها فهم حرب عليه؛ وعشرة آلاف من أهل الشام المشهورين بطاعة الرؤساء، والانقياد لقادتهم، والطاعة للملهم، فالمنصور يثق بهم أكثر، فما جعلهم محل ثقة معاوية فاستطاع أن يقضي

1 - السرحة الشجرة الكبيرة التي لا شوك فيها وهي أحسن مقيلا ومجلسا.

بهم على الإمامة، ليجعلهم محل ثقته فيقضي بهم على جمهورية أبي الخطاب التي تهدده بخطر كبير. وأرسل المنصور مع ابن الأشعث اكبر ضباطه، وابرع قادته، منهم الأغلب بن سالم التميمي، والمخارق بن غفار الطائي والمحارب بن هلال، وقواد آخرون، وكان عددهم جميعا ثمانية وعشرين قائدا!

خوف المنصور واحتياطه

وكان المنصور يعلم أن الحرب مع أبي الخطاب ستكون مريرة، وان الهزيمة ربما حلت بجيوشه، وربما قتل محمد بن الأشعث رأس هذه الجيوش، فجعل له ثلاث خلفاء في القيادة العليا. قال النويري: "فأمر الجيش بالطاعة لابن الأشعث، فان حدث به كان أميرهم الأغلب بن سالم، فان حدث به حادث فالمخارق، وإن وقع به سوء فالمحارب بن هلال"[1] فسار ابن الأشعث بجيشه حتى وصل مصر فضم إليه من اختاره من الجند، ضم إليه من برقة أيضا فبلغ جيشه سبعين ألف مقاتل يقودها ثمانية وعشرون قائدا! فزحف بهذا الجيش العرمرم إلى أبي الخطاب!

استعداد الجمهوريين للدفاع عن دولتهم

وكان أبو الخطاب يوقن بان الملوكيين لا يرضون عن جمهوريته، وأنهم سيزحفون للقضاء عليها، وأن المنصور ليوجه إليها أمضى سهامه، ويدحرج عليها أضخم صخوره، ليقضي عليها قبل أن يشتد ساقها، وتستعصي على الفؤوس، وتعجز المناوئين. فما كاد يفتح افريقية، وينقذها من ظلم "ورفجومة" وينظم أمورها، حتى أسرع بالعودة إلى عاصمة دولته طرابلس، ليستعد لجيوش العباسيين، وزحف الملوكيين، والكتائب المتوالية التي سيرميه بها المنصور. فسمع بمسير محمد ابن الأشعث فاستعد له، فجمع جيوشه، وانثال عليه المتطوعين من طرابلس، وجبل نفوسة، وجنوب افريقية، وهب أنصار الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية كلهم فتطوعوا في جيش الإمام، وأيقنوا بان هذه المعركة هي الفاصلة بين الملوكية والجمهورية، وأنهم إذا انتصروا على ابن الأشعث فسيبلغون بعد ذلك كل ما يريدونه في الملوكية، فيقضون عليها في المشرق، أو يشجع ذلك أنصار الجمهورية في المشرق فيثورون عليها، ويجهزون على الملك المنصور. فبلغ عدد جيوش الإمام أبي الخطاب تسعين ألف مقاتل من رجاله المخلصين الذين يحاربون دفاعا عن الجمهورية الإسلامية، ومحاماة عن الإمامة العادلة، والذين يتصفون مع الإخلاص والثبات والشجاعة والتضحية بالعمل لله، والغرام بالاستشهاد في سبيل الله، وإيثار الموت على الحياة، وجزاء الله الخالد على الحطام الفاني، والدنيا الزائلة.

1 - نهاية الأرب للنويري ج 22 نسخة مصورة في دار الكتب المصرية.

استنجاد أبي الخطاب بعامله في القيروان

وكان عبد الرحمن بن رستم عامل أبي الخطاب على افريقية والمغرب الأوسط فأرسل إليه أن يوافيه بجنده، فتجهز عبد ارحمن فسار إليه، ولم ينتظر وصوله أبو الخطاب، فآثر أن يكون مددا يتقوى به جيشه، ويوقع الفشل في جيش عدوه ورديفا يستعين به وقت الحاجة إليه. فخرج أبو الخطاب فغي جيوشه وأنصاره إلى "سرت" في شرق طرابلس، وهي أول بلاده، فعسكر فيها، وصار ينتظر وصول ابن الأشعث، ليقريه السيف والسنان، ويدير عليه كؤوس الموت الزؤام !

وكان محمد بن الأشعث داهية محنكا، وعاقلا ذكيا، لا يسير على غير هدى، بل يتبين طريقه كل التبين قبل أن يخطو فيه، ويعلم عدوه كل العلم أن يشتبك به، فأرسل جواسيسه، فبثهم في سرت ليأتوه بأخبار أبي الخطاب وعدد جيشه، وحقيقة جنده، ومبلغ قوته، فاندس هؤلاء الجواسيس في سرت، فعرفوا حقيقة جيش أبي الخطاب، فرجعوا إليه بالأنباء.

شهادة الملوكيين لجيش أبي الخطاب

قال الشماخي: "فلما رجعت عيونه إليه سألهم عن أبي الخطاب وأحواله وجنده فقالوا: نجمل أم نفسر؟ فقال: أجملوا، قالوا: رأينا رهبانا بالليل اسودا بالنهار! ! يتمنون الجهاد بلقائكم كما يتمنى المريض لقاء الطبيب! ! لوزنا "إمامهم" لرجموه، ولو سرق لقطعوا يده، خيلهم من نتاجهم، ليس لهم بيت مال يرتزقون منه، وإنما معايشهم من كسب أيديهم"[1]

ارتياع ابن الأشعث من جيش أبي الخطاب

فارتاع ابن الأشعث بما سمع، وساءه أن يكون جيش أبي الخطاب على هذه الحقيقة، وعلى هذه الأوصاف التي تجعل الجندي كالصاعقة لا يرتد إلى الوراء، وكالقدر النازل لابد أن يصيب أهدافه، ويمحق من يتنزل عليه! ثم لم يكن جيش أبي الخطاب يفوق جيشه في الإخلاص والتصميم وفي كل الصفات التي تضمن النصر والظفر، وتجعل المتصف بها أكثر هو الأقوى فحسب؛ لم يكن جيش أبي الخطاب متفوقا في المعنويات وحدها، بل كان متفوقا في العدد أيضا. أنهم تسعون ألف جندي "يتمنون الجهاد بلقائه كما يتمنى المريض لقاء الطبيب!" فأيقن ابن الأشعث وتأكد لديه أن الهزيمة والمحق هو ما يمنى به.

1 - سنشرح هذه الأوصاف وما تدل عليه من نفوس جيش أبي الخطاب في باب دولة أبي الخطاب بعد الولاة العباسيين إن شاء الله.

ويتنزل عليه، إذا اشتبك بابي الخطاب وهو في كل جيشه، وفي أتم استعداده. فعزم على المكيدة، وعلى الحيلة البارعة لتفريق الجيوش عن أبي الخطاب، وتجريده من قوته، فيهاجمه على غرة، وهو على غير استعداد، قد تفرق عنه معظم جيوشه، فيحيط به بجنده الغزيرة، وجحافله الكبرى فيبلغ فيه مرامه.

وكان أبو الخطاب على دهاء ابن الأشعث وحنكته، وعلى ذكائه وحزمه، فأرسل جواسيسه فانبثوا في طريق ابن الأشعث وفي جيشه، فصاروا يوافونه بالأخبار.

مكيدة ابن الأشعث لأبي الخطاب

وكانت مكيدة ابن الأشعث ودهاؤه أن يلقى في روع جيش أبي الخطاب أن أمرا صارما داءه من المنصور يأمره بالرجوع إلى المشرق، ويجعلهم يؤمنون برجوعه ويصدقون أمر المنصور له بعدم حرب أبي الخطاب: فمهد لذلك الكيد، ولتلك الحيلة أن توقف عن السير، وآوى إلى مكان منعزل في برقة، وضبط السبل فانقطعت أخباره عن أبي الخطاب، واخبره جواسيسه بعدم وجوده في الطريق التي كان فيها، وانه قد هاله ما رأى من كثرة جيوش أبي الخطاب، وما اخبره به جواسيسه من قوتهم واشتياقهم للقائه، لترتع سيوفهم فيه، ويجهزوا على الملوكية بالقضاء عليه فرجع. وارى أن ابن الأشعث لدهائه لا بد أن يكون قد بث هذه الإشاعة التي تجعل أبا الخطاب يصدق رجوعه إلى مصر لتنقلها جواسيسه إليه. ولما اختفى ابن الأشعث، وانقطعت أخباره، وشاع خبر رجوعه ظن أبو الخطاب انه قد رجع، فرجع بجيوشه إلى طرابلس ولم يكد يصل طرابلس حتى ظهر ابن الأشعث في الطريق وهو يزحف نحو "سرت" فرجع أبو الخطاب فعسكر "بورداسة" من سرت، ولما قرب ابن الأشعث من ورداسة، تواطأ مع رجال من جواسيسه الذين لا يعرفهم جنده أن يتظاهروا بالقدوم مسرعين من جهة المشرق في هيأة البريد الملكي ويدفعوا إليه رسالة ملكية من المنصور فأعطاهم تلك الرسالة، وفي الصباح يستعد للرحيل إذ لاح غبار ورأى الجند رجالا يسرعون وهم على هيأة البريد الملكي، فوصل الرجال يلهثون، وقد اضنوا دوابهم بشدة الجري، فدفعوا الرسالة إلى ابن الأشعث، وأشاعوا في الجند انه أمر ملكي حملوه من المنصور وأمرهم بالإسراع به. فجمع ابن الأشعث قواده وخاصة جيشه فقرأ عليهم الرسالة، فإذا فيها أمر من المنصور له بالرجوع إلى المشرق لحاجته إلى جيشه في أمور طارئة، وعدم محاربة أبي الخطاب، وتظاهر ابن الأشعث بالسرور والابتهاج بهذا الرجوع، وأبدى لهم تخوفه من أبي الخطاب لكثرة جيوشه، وقوة جنده، وأمرهم بامتثال أمر الملك المنصور والرجوع إلى المشرق.

تأكيد المكيدة بقتل المحارب ابن هلال

وكان المحارب بن هلال من اكبر قواد ابن الأشعث، ومن أعظم رجاله، واقرب الناس إليه، وكان المنصور يراه من سيوفه، ومن أركان حربه، فما إن سمع الرسالة حتى فهم إنها غير صحيحة فأبى الرجوع، فاستشاط غضبا، وبدا له أن الرجوع لا يليق بكبرياء الجيوش الملكية، واراه غروره انه يستطيع الوقوف إمام أبي الخطاب وهو في كل جيوشه، وعلى أتم استعداده، فخاف ابن الأشعث أن يفسد مكيدته، ويبطل حيلته، وأراد أيضا أن يجعل جند أبي الخطاب يؤمنون إيمانا عميقا أن المنصور أمره أمرا صارما بالرجوع، فعمد إلى المحارب بن هلال فحكم عليه بالإعدام، لتمرده على أمر الملك، وعدم طاعته له، فأمر به فقتل. وكانت دماؤه سطورا بليغة رأى فيها جنده وقواده عاقبة من يعارض الأمر الملكي ولو كان غير صحيح، ويتمرد على القائد الأعلى، فسد ابن الأشعث بقتل قائده باب الخلاف في الجند، وما يمكن أن يحدث من افتراق كلمتهم، وتصدع صفوفهم إذا عارض بعض القواد الصغار الذين لم يتنبهوا إلى المكيدة أمر الرجوع، فيستغل ذلك التصدع أبو الخطاب.

وكان ابن الأشعث يوقن أن قتله للمحارب بن هلال سيجعل فريقا كبيرا من جيش أبي الخطاب يؤمن إيمانا عميقا برجوع ابن الأشعث وبأمر الملك له، وبحدوث أمور طارئة على المنصور جعلته في حاجة إلى قواته العسكرية، وان جيش المنصور يستحيل عليه الإقدام على حربهم، وان هذا سيفرق جيوش أبي الخطاب عنه، ويجعل جمهور جنده يرغمونه على الرجوع، فيقع في الفخ، فيهاجمه وهو على غير استعداد، فيحقن بهذا دماء آلاف من جنده يتيقن قتل أبي الخطاب لهم، وينجو من الهزيمة النكراء التي يغرقه فيها أبو الخطاب إذا حاربه وهو في كل جيوشه، وعلى أتم استعداده، وعلم أن قتل محارب بن هلال سيؤكد مكيدته فينجو من الهزيمة التي يوقن بأنها هزيمة للملوكية وقضاء عليها، وانتصار للجمهورية وانتصاب لها في المشرق أيضا؛ فجعل محارب بن هلال فداء للملوكية، وفداء لآلاف من جنده.

ولوى ابن الأشعث أعنة الجيش نحو المشرق، وكان بارعا في الكيد والدعاية، فاقر في قلوب جنده وفي أهل "سرت" انه راجع، وانه لن يحارب أبا الخطاب، وحملت جواسيس أبي الخطاب خبر رجوعه، وشاع في جيشه قتل محارب بن هلال أعظم قواد ابن الأشعث، فأيقن جمهور كبير منهم برجوع ابن الأشعث.

الفرق بين الجيش الجمهوري والجيش الملكي

وكان جيش أبي الخطاب من المتطوعين الذين تجندوا احتسابا للأجر، وقياما بالواجب الوطني، ومحاماة عن دولتهم وجمهوريتهم التي يريد الملوكيون القضاء عليها، ولم يكونوا كالجيش الملكي من المرتزقة الذين يخضعون لأوامر القائد الأعلى، ويفعلون كل ما يريد، وتكون كلمة الملك والقائد الأعلى هي الأمر النافذ الذي لا تجوز مخالفته.

وكان جيش ابن الأشعث قد تعود الخضوع للملوك، وكان منقادا، فما يأمر به الملك ومثلوه كالقائد الأعلى فهو الشريعة النافذة فليس لامرئ أن يعارضه، وإلا تسربل بالحلة الحمراء، وشرق بدمائه كما وقع لمحارب بن هلال. أما جيش أبي الخطاب فديمقراطي، قد عوده حكم الشورى، وعدل الإمامة أن تكون له الكلمة في الأمور العامة، وان يكون رأي أغلبية الخاصة التي تمثله فيما يرجع فيه الأمر إلى العقل والتدبير وإيثار الأصلح هو النافذ، وكلمة جمهور الخاصة هي التي يجب أن يخضع لها الإمام.

وكان أبو الخطاب وبعض خاصته يوقنون بان رجوع ابن الأشعث مكيدة ليفرق جيشهم، وكان الزمن صيفا والوقت حصاد، وقد ترك اغلب المتطوعين زروعهم الجافة عرضة للتلف فأسرعوا إلى أمامهم لما دعاهم للدفاع، فمهد هذا في نفوس جمهور كبير من جيش الإمام للإيمان بالمكيدة، ولما رأوا قتل ابن هلال أيقنوا بصدق الجيش الملوكي في رجوعه، فالحوا على خاصتهم أن يستأذنوا الإمام ويطلبوا منه الرجوع، فألحت الخاصة على الإمام فنصحهم بعدم التفرق، وقال لهم: إن الملوكيين أهل مكر وخداع، وإن كل ما فعله ابن الأشعث إنما هو مكيدة لتفريق جمعكم، أو تفريق كلمتكم فتضعفون، ولكن جمهور الخاصة أبى إلا الرجوع، فلم يسع الإمام الذي يخضع لما تقرره أغلبية مجلس الشورى الذي يتكون من خاصة الشعب، وذوي العلم والروع والتدبير فيهم إلا الرجوع والرضوخ لما قرره الجمهور.

تمام المكيدة وتفرق الجيش عن أبي الخطاب

وأذن لجيشه وهو آسف بالرجوع، فرجعت كل قبيلة إلى ناحيتها، وأسرعت كتائب جيشه كل إلى جهتها، فتفرق عن أبي الخطاب معظم جيشه، ولم يبق إلا في كتيبة صغيرة من خاصته، والذين تنبهوا لكيد ابن الأشعث الذي نبههم إليه الإمام، فوصل أبو الخطاب عاصمته طرابلس وهو يتلفت وراءه، ويرقب الأخبار التي تأتيه برجوع ابن الأشعث إليه، وكان كل حذر، وكانت خاصته كذلك، فأسرع إليه النذير يعلمه باجتياز ابن الأشعث لحدود دولته، وتوغله في سرت، وإيقاعه برعيته، وهتكه لحرمات شعبه، وإغراقه كل القرى

والمنازل التي يمر منها في انهار من دماء الضعفاء الأبرياء العزل التي يسفكها ! فثارت ثائرة أبي الخطاب! وكان حريصا على شعبه، يعتقد أن الله سيحاسبه على كل تقصير في الدفاع عنهم، وأيقن أن الجيش الملوكي سيرتكب كل الفظائع في مدنه وقراه إذا انتظر حتى يتجمع له جيشه فتوغل فيه! وحركته مناظر الابادة الجماعية لرعيته التي يفتك بضعفائها ابن الأشعث فتك المسعور الحاقد الذي يريد أن يطفئ حقده ويحرك أبا الخطاب للخروج إليه قبل أن يكتمل جمعه، وتراجعه كل جيوشه! فخرج أبو الخطاب فيمن كان قريبا منه من جيشه ليوقف زحف ابن الأشعث على بلاده، فنصحته خاصته أن ينتظر حتى يجتمع له جيشه فرأى أن ذلك لا ينبغي له، وشعبه الأعزل والضعفاء من رعيته يفتك بهم الجيش الملوكي المسعور، وينتهك حرماتهم ويرتكب فيهم كل محظور، وكان كثير من خاصة الإمام على حماسه، واستشعاره للمسؤولية في شعبهم، ورأوا أن الموت خير من الحياة، وشعبهم يرتكب فيهم ابن الأشعث فظائع الاستئصال وهتك الحرمات! فوافقوا أبا الخطاب على الخروج للحرب فخرجوا، وكان عددهم أثنى عشر ألفا ليقفوا في وجه سبعين ألفا من جيوش المنصور، فماذا وقع بين ابن الأشعث وبين الإمام أبي الخطاب؟ وكيف كان رجوعه إلى المشرق وكرته على الإمام؟ وعلى من تكون الدائرة؟

مكيدة الأشعث لأبي الخطاب وهجومه عليه:

قال النويري يذكر مكيدة ابن الأشعث لأبي الخطاب، ليفرق عنه جيشه، ويهجم عليه وهو خال من قوته،وعلى غير استعداد لملاقاته، قال: " وضبط ابن الأشعث أفواه السكك حتى انقطع خبره عن أبي الخطاب، فرجع إلى طرابلس، ووصل ابن الأشعث إلى (سرت) فخرج إليه أبو الخطاب حتى صار "بورداسة" فلما قرب منه ذكر ابن الأشعث لأصحابه أن خبرا أتاه من المنصور بالرجوع إلى المشرق، واظهر لهم المسرة بالرجوع، فشاع ذلك في الناس، وسار منصرفا ميلا ثم نزل، فانتهى ذلك إلى أبي الخطاب، وسمع به من معه فانصرف كثير منهم، ثم أصبح ابن الأشعث فسار أميالا متثاقلا في سيره، وفعل ذلك في اليوم الثالث، ثم اختار أهل الجلد والقوة في جيشه، فسار بهم ليله كله، فصبح أبا الخطاب، وقد اختل عسكره"

وكان ابن الأشعث قد سبق أبا الخطاب إلى الماء ونزل في أحسن المنازل في غرب سرت قرب "تورغا" فاستجم جيشه، واستراح جنده، ودهب عنه اللغوب، فاستعد كل الاستعداد للمعركة، وكان عدد جيشه سبعين ألفا وهم خيرة جند المنصور.

أما الإمام أبو الخطاب فانه جمع ما استطاع جمعه من جيشه القريبين منه، والذين

كانوا في مدينة طرابلس وضواحيها، من هوارة، ونفوسة، وطريشة، وكان عددهم اثني عشر ألفا فأسرع بهم أبو الخطاب فأدرك ابن الأشعث في (تورغا) وهي في شرق مدينة طرابلس و(مسراطة) وبينهما وبين مدينة طرابلس خمسة وعشرون ومائة ميل ونصف الميل.

إن (تورغا) اليوم قرية في المكان المذكور وارى أنها كانت في الزمان القديم مدينة عامرة النواحي، فقصدها ابن الأشعث لينكل بأهلها وينزل بساحتها.

وكان الزمان éصيفا، وصحراء (سرت) في هذا الفصل شديدة القيظ كأن حرها ينفجر من الجحيم ! فوصل أبو الخطاب وقد عطش جنده وأدركه اللغوب بشدة السير وطول الطريق، فعزم ابن الأشعث على اغتنام هذه الفرصة ومهاجمته قبل أن يستريح وكان أبو الخطاب في اثني عشر ألفا وابن الأشعث قد لحق به جيشه فصار في سبعين ألفا. فقال ابن الأشعث لأصحابه: "إن استقى أبو الخطاب واستراح هو أصحابه فإنكم لا تطيقون لقاءهم، وانتم الآن اقدر عليهم مع التعب والجوع والعطش".[1]

المعركة الرهيبة / واستشهاد أبي الخطاب وصحبه

وكان جيش أبي الخطاب في شوق إلى القتال. وكان قد ساءهم ما حل بشعبهم من فظائع الجيش الملوكي فأسرعوا وهم يتلهفون على ردع ابن الأشعث وتأديبه، وطرده من مواطنهم؛ فما أن وصلوا حتى زحف إليهم ابن الأشعث وهجموا هم عليه، فدارت معركة رهيبة بين الطرفين، فأحاط ابن الأشعث بجيوشه الكثيفة بابي الخطاب، وقاتل أبو الخطاب وأصحابه فقتلوا عددا كبيرا من جيش المنصور، واغرقوا ساحة (تورغا) في انهار من الدماء! وثبت أبو الخطاب وأصحابه رغم قلتهم وكثرة العدو الذي كان أضعافهم ست مرات، ورغم جهد السير وقطع المسافات، والعطش وقلة المياه، وأبت عليهم بطولتهم وشجاعتهم وتضحيتهم أن يتقهقروا، وأحاطت بهم جيوش ابن الأشعث فقاتل أبو الخطاب حتى قتل هو وجنده الاثنا عشر ألفا عن آخرهم، وشهد المغرب منظرا ثالثا للبطولة وحب الاستشهاد في سبيل الله كمنظر عقبة وأبي المهاجر ومنظر زهير بن قيس، هؤلاء الأبطال العظام الذين عطروا ارض المغرب بدمائهم واستشهدوا في سبيل الله، واثروا الموت على الحياة[2]! واستطاع ابن الأشعث بحيلته ودهائه أن ينتصر على أبي الخطاب. وقد تنفس ابن الأشعث الصعداء، وزالت عنه الكروب والخشية لما قتل أبو الخطاب، ورآه بين الشهداء! فاحتز رأسه، فأرسله إلى المنصور! ! ولابد أن يكونوا قد

1 - السير للشامخي ص 132 و 2 ط. البارونية.

2 - انظر قصة عقبة وصحبه في الجزء الثاني من هذا الكتاب في باب غزوة عقبة الثانية.

طافوا به في العراق، ومصر، وصلبوه ليفتوا في عضد أنصار الإمامة، ويضعفوا بذلك حماسهم وأملهم في القضاء على الملوكية وإحياء الجمهورية الإسلامية.

إن إرسال ابن الأشعث لرأس أبي الخطاب إلى المنصور دليل على خوف المنصور من أبي الخطاب، وارتعاد فرائصه من دولته، وخشيته من قيامها. وقد رأى ابن الأشعث أن رأس أبي الخطاب يبعث الطمأنينة في نفس المنصور، وان زواله اكبر حلم للمنصور فأرسله إليه. وكان استشهاد أبي الخطاب ووقعة (تورغا) في شهر ربيع الآخر من سنة أربع وأربعين ومائة من الهجرة، وكانت مدة أبي الخطاب في الإمامة أربع سنين.

إسراع أبي هريرة ألزناتي لإنجاد أبي الخطاب وجريه مع الأشعث

وكان أبو الخطاب قبل خروجه إلى ابن الأشعث قد أرسل إلى النواحي يدعوها للنفير. وكان ابن الأشعث لما قضى على أبي الخطاب يظن أن لا قوة هناك تهاجمه فما راعه إلا غبار الخيل يسد الأفق، وإشراق السلاح يعشي العيون، فوصل أبو هريرة ألزناتي في ستة عشر ألفا من زناتة وغيرها، فهجم على ابن الأشعث فوقعت بينهما معركة كبرى، فاستطاع ابن الأشعث بكثرة جنده أن يهزم تبت هريرة وان يتغلب عليه. فأرسل ابن الأشعث لما تم له احتلال شمال طرابلس قائده إسماعيل بن عكرمة الخزاعي فاحتل الجنوب، فدخل زويلة وودان وقتل عبد الله بن حيان وكان رأس أهل زويلة، ونكل بالإباضية هناك،واغرق تلك النواحي في الدماء ! فسار ابن الأشعث فاحتل مدينة طرابلس وجبل نفوسة، وأرسل جيشه يقتلون البربر ويرتكبون فيهم ما يسوله حقد الملوكية على الجمهورية، واغرق طرابلس ونواحيها وجبل نفوسة في الدماء، واعمل سيفه في الإباضية ليخضد شوكتهم، ويقضي على قوتهم فسكنوا فلا يعيدون الكرة عليه، ولا تحدثهم نفوسهم بإحياء الجمهورية التي يتمسكون بها.

حكم المغرب الأدنى حكما عسكريا قاسيا

وكان ابن الأشعث على خوف شديد من طرابلس ونواحيها. وكان موقنا بان الإباضية لابد أن يثوروا ويعيدوا دولتهم إلى الوجود. فاختار لها واليا عسكريا صارما قوي الشكيمة ليواصل عملية أضعاف طرابلس لكي لا يثور عليه. وكان هذا الوالي هو المخارق بن غفار الطائي.

شخصية المخارق وصرامته

وكان المخارق بن غفار الطائي من القواد الكبار لأبي جعفر المنصور، وكان من المخلصين

له ولدولته، ومن المتحمسين للملوكية، وكان عسكريا صارما عنيفا قوي الشكيمة، فاختاره ابن الأشعث لهذه الصفات فولاه على طرابلس ليواصل عملية خضد شوكة أنصار الجمهورية المتمسكين بها، وإضعافهم بكل الأساليب. وكان المخارق كما أراد ابن الأشعث أن يكون في العنف والشدة مع الجمهوريين، ظنا منه أن هذا يخضعهم لدولته، ويقتل حب الجمهورية فيهم، ويزيل من قلوبهم الغرام بالحرية والاستقلال، وإعادة دولتهم العادلة التي تسعد المغرب وترقية، وتسوسه كما أمر الله بالعدل والإحسان! !

وسار بن الأشعث في جحافله فنكل بالإباضية في جنوب افريقية، واغرق تلك النواحي في الدماء، فوصل القيروان في غرة جمادى الأولى من سنة أربع وأربعين ومائة من الهجرة، وتم له احتلال المغرب الأدنى من غرب الإسكندرية إلى (بجاية) وسكنت له هذه النواحي سكونا ظاهريا، وخضعت له خضوع من يحنى رأسه لعدوه ويده على خنجره وهو يرقب الفرصة للانفجار. أما المغرب الأوسط والأقصى فقد استقلا فلم يحدث ابن الأشعث نفسه بالسير إليهما ليأسه منهما. إن الزلازل والبراكين والأهوال الهائلة ستندلع عليه لو هم بالسير إليهما، وحدث نفسه بشر لهما! إن الإباضية والصفرية في المغربين الأوسط والأقصى سيجتمعون فيسيرون إليه فيحتلون القيروان، ويقضون على الملوكية في المغرب. فاكتفى ابن الأشعث باستيلائه على المغرب الاجنى الذي يحرص العباسيون على بقائه في أيديهم ليكون سدا ووقاية دون الدول الجمهورية في المغرب الأوسط والأقصى فلا تتسرب عدوى حب الإمامة والثورة على الملوكية إلى مصر وبقية المشرق، ولا تمتد رقعة هذه الدول الجمهورية حتى تجتور مصر التي يؤثر العباسيون بقاءها في قبضتهم لغناها وموقعها. وكان العباسيون يتمسكون بافريقية والمغرب الأدنى ليراقبوا منه الدول الجمهورية، ويعلموا لإضعافها وحوك الدسائس لها، والوقوف في وجهها إذا زحفت نحو المشرق لمنازلة الملوكية في أوكارها.

ولاية الأغلب ابن سالم على الزاب

وكانت مدينة (طبنة) هي قاعدة الجزء الغربي من المغرب الأدنى، وعاصمة الزاب. وكان الزاب يجاور المغرب الأوسط المستقل والذي كان فيه الإباضية الأقوياء، والدولة الصفرية المستقلة في تلمسان. فاختار ابن الأشعث للزاب أقوى قواده وأدهاهم وهو الأغلب بن سالم التميمي فولاه عليه. فسار الأغلب إلى (طبنة) ليحرس دولتهم في المغرب من الناحية الغربية ويكون سدا في وجه الإباضية إذا ساروا إلى القيروان لإزالة الملوكية من المغرب.

خروج عبد الرحمان بن رستم إلى المغرب الأوسط ومحاصرة ابن الأشعث له

وكان عبد الرحمن بن رستم عامل أبي الخطاب على افريقية والمغرب الأوسط قد استنجد به الإمام أبو الخطاب لما خرج لمحاربة محمد بن الأشعث في أول مرة، فسار عبد الرحمن بجيشه لينضم إلى أبي الخطاب، واستخلف احد خاصته على القيروان. ولما وصل (قابس) في طريقه إلى طرابلس بلغه خبر استشهاد أبي الخطاب ومكيدة ابن الأشعث وتفريقي الجيوش عن الإمام، وعلم هو ومن معه بكثرة جيوش ابن الأشعث فعلموا انه لا طاقة لهم بالوقوف في وجهه سيما بعد أن استشهد الإمام أبو الخطاب وكثير من خاصتهم ففت ذلك في قلوب رعيته. فتفرق عن عبد الرحمن جيشه، فاعتصموا بالجبال والأماكن البعيدة، وثار الملوكيون في القيروان على عامله فأوثقوه وولوا عليهم عمر بن عثمان القرشي إلى أن قدم ابن الأشعث؛ فعلم عبد الرحمن أن المغرب الأدنى لا يليق له مقاما، وانه سيقع كله في قبضة العباسيين، فخرج إلى المغرب الأوسط الذي كان اغلبه إباضية. وكان قد استقل تحت أمرائه ورؤساء قبائله، فلم يعد احد عليه سلطان. فسار عبد الرحمن بن رستم من (قابس) قاصدا ناحية (تيهرت) قاعدة المغرب الأوسط. وارى أن طريقه كان على جنوب افريقية،[1] فيخترق (الجريد) و(سوف) وجبال بني فيصل تيهرت. هذا هو اقرب طريق، وهو الطريق الذي كان يسلكه الرستميون أيام دولتهم إلى جبل نفوسة وجنوب افريقية التي كانت جزءا من دولتهم. وقد يكون عبد الرحمن اثر المناطق الجبلية لمسيره ليعتصم بالجبال الوعرة إذا لاحقه ابن الأشعث، ويأوي إلى جبال أوراس فيعصمه أهلها الذين يكرهون الملوكية، والذين فيهم قبيلة لواتة وقبيلة هوارة الإباضيتان. فيكون طريقه على جنوب أوراس من جهة بسكرة وعلى شمال بقية الأطلس الصحراوي. إن هذا الطريق أطول من الأول. وبما أن عبد الرحمن قصد المغرب الأوسط ليعتصم بالإباضية فيه، ولم يقصد الأماكن الوعرة والجبال ليحتمي بها فانه يسلك اقرب طريق وأسهله وهو الأول. ثم إن جنوب افريقية الجريد، وسوف في جنوب الجزائر اليوم كان المذهب الإباضي قد انتشر فيهما انتشارا واسعا، وكانت اغلب قبائلهما إباضية فهما آمن طريق لعبد الرحمن.

---

1 - المراد بافريقية هو القطر التونسي اليوم وهذا هو اسمه قديما.

اعتصام ابن رستم بجبل سوفجج

فوصل عبد الرحمن إلى جبل (سوفجج) وهو جبل شاهق منيع في ناحية (تيهرت) فاعتصم به، وجعله معسكره، لأنه يعرف أن ابن الأشعث لابد أن يطارده ويقتفي أثره. فسمع الإباضية في المغرب الأوسط وفي المغرب الأدنى: جنوب افريقية وجبل نفوسة وغيرها بإيواء عبد الرحمن إلى جبل (سوفجج) فابتهجوا وتهللوا بنجاته ووصوله إلى المغرب الأوسط، فأسرعوا إليه، فغزر جمعه، وتكون له في الجبل جيش كبير وأنصار كثيرون.

إن جبل (سوفجج) قد اختلفت الروايات في مكانه، فمنهم من قال انه في جنوب تيهرت في ناحية (شلالة) ومنهم ن قال انه في شمالها بناحية (امدية).

وكنت قد عزمت أن أقوم بجولة واسعة في صيف سنة خمس وخمسين وتسعمائة وألف مسيحي في المغرب الأوسط بنواحي (تيهرت) بحثا عن هذا الجبل فقامت ثورتنا الجزائرية المباركة فتعذر التجول في المناطق الجبلية المحاصرة بجيوش الاستعمار. إن الشيخ أبا اليقضان شيخ الصحافة الجزائرية، والمؤرخ الكبير اخبرني أن (سوفجج) في جنوب (تيهرت) بناحية (شلالة). وارى أن قوله هو الصحيح. أما ناحية (امدية) فليست في وسط الأماكن الإباضية فيأوي إليها عبد الرحمن لتعصمه. إن المذهب الأباضي قد انتشر في تلك النواحي ولكن لم يكن على شيوعه في ناحية (شلالة). وارى أن وصول المذهب الأباضي إلى تلك المناطق من (امدية) كان بعد نشأة الدولة الرستمية لا قبلها.

خروج محمد ابن الأشعث لحرب عبد الرحمن ابن رستم

وكان (سوفجج) هو الكاهل العتيد الذي يحمل رأس الإباضية عبد الرحمن ابن رستم ويعصمه ! فاغتاظ محمد بن الأشعث لنجاته، وعلم انه سيكون خليفة أبي الخطاب فتستمر دولته في المغرب الأوسط على يد، ويكون خطرا يهدد الملوكية في القيروان فبدا له أن يعاجله قبل أن ترسخ عروقه، وتنشأ دولته، فسار إليه بجحافله، فحاصر جبل سوفجج وشدد الخناق عليه، ومنع عنه الماء والزاد ليضيق عبد الرحمن ذرعا بالحصار فيستسلم، ولكن عبد الرحمن ومن معه كان أكثر صلابة من (سوفجج) وأكثر ثباتا، فلم تؤثر شدة الحصار فيهم. وكان ابن الأشعث رغم كثرة جنده وشجاعة جيشه لم يستطع اقتحام الجبل لان عبد الرحمن ومن معه سيطحنونه كما تفعل صخور سوفجج العاتية إذا تهاوت عليه! وكان الجبل أيضا منيعا لا يقتحم بسهولة.

خوف ابن الأشعث من هجوم المغرب الأوسط

وكان محمد الأشعث قد خاف أن يهجم عليه الإباضية في المغرب الأوسط من ورائه، وعبد الرحمن بن رستم من أمامه، فيقع بين نارين، فخندق على نفسه. وكان على أهبة دائمة للحرب، وعلى حذر كبير. إن جمهور المغرب الأوسط كانوا كلهم إباضية، وهو منطقة مستقلة، فلولا قوة جيوشه ما استطاع دخولها. وبقي محمد ابن الأشعث مدة طويلة وهو يحاصر عبد الرحمن بن رستم فلم يؤثر فيه. وكان الله مع عبد الرحمن بن رستم والإباضية الجمهوريين فابتلى جيش ابن الأشعث الملوكي بالحمى والجدري ففتكا به فتكا ذريعا. فأيس ابن الأشعث من عبد الرحمن، فرجع أدراجه إلى القيروان، وهو خافض الهامة، كاسف البال، موقنا بان عبد الرحمن بن رستم سيكون رأس الدولة التي تجدد دولة أبي الخطاب، وترفع علة الجمهورية الإسلامية عاليا، وتخفض رأس الملوكية وأنصارها في المغرب، وتحرر اغلب المغرب من سيطرة الملوك وجبروتهم.

خشية ابن الأشعث من ثورات المغرب وبناء سور القيروان.

وكان ابن الأشعث يعرف كره المغرب للملوكية وحبه للجمهورية الإسلامية، وإصراره على إنشاء دوله الديمقراطية، وان سكونه مؤقت ريثما يفيق من دهشة استشهاد أبي الخطاب وانهدام دولته الجمهورية، ومن روعة مداهمة ابن الأشعث له بجحافله وهو على غير استعداد لملاقاتها.

وكان ابن الأشعث يوقن بان أبناء المغرب ذوو عزيمة وثبات يتحدون كل العقبات وينفذون إلى أغراضهم فيحققونها، وان الأمازيغ الأباة كالدوحة السحوق الراسية، تخفض الرياح بعض فروعها حينا، ولكن لا تتمرغ في التراب، فسرعان ما ترتفع وتعود إلى شموخها ! وعلم ابن الأشعث أن مستقبل العباسيين في المغرب سيكون أيام قراع وصدام، وان المغرب سيثور ثورته العارمة الشاملة على الملوكية فيهاجم القيروان فلا بد بتحصينها وإعلاء أسوارها وأبراج دفاعها لتعصم الملوكيين إذا ثار المغرب وأزبد عليهم.

وكانت القيروان، مسورة بأسوار بسيطة لان عقبة وحسان والملوك الأمويين المحسنين الذين بنيت في عهدهم وبأمرهم: معاوية، وعبد الملك بن مروان، وسليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز قد بنو القيروان وسوروها بالعدل، وجعلوها الأم الرؤوم للمغرب لا تحترس من أبنائها ولا تخشاهم فتعلى أسوارها، وجعلوها منبعا للدين، وعينا ثرارة للإسلام لا تحاط بالأسوار ! وكانوا ينوون للمغرب خيرا، ويعملون لاحتلال قلوب أبنائه

بالإحسان، فيتقلبون في حجره، ويرفعهم على كاهله، ويضمهم إلى صدره كما يفعل الابن البار المحب بوالده الحنون ! أما العباسيون الذين ينظرون إلى المغرب نظرة ملوكية كسروية فعزموا على استعمال القوة في إخضاعه؛ فشمر ابن الأشعث فبنى أسوار القيروان وأعلى أبراجها، وبالغ في تحصينها لتكون قلعة عسكرية للدفاع.

وكان دخول ابن الأشعث القيروان في غرة جمادى الأولى سنة أربع وأربعين ومائة، وشروعه في بناء سور القيروان في ذي القعدة من السنة، وتم في رجب سنة ست وأربعين ومائة، بعد سنة وتسعة أشهر مضت في بناء سور القيروان وتحصينها.

وكان هذا العمل كبيرا يستلزم من المدة أكثر من هذا. فأسرع فيه ابن الأشعث وجند له العدد الوفير من البنائين والعمال ليتمه قبل وقوع الواقعة.

حذر ابن الأشعث واستعداده الدائم للحرب

وكان ابن الأشعث لسخط المغرب وتحفزه للثورة على أهبة دائمة للحرب، وكانت أعماله في المغرب كلها عسكرية، ولم يقم في المغرب في مجال العمران بشيء يذكر، وبناؤه لسور القيروان كان لأغراض عسكرية. وكان استعداده الدائم للحرب قد شغله عن الانصراف إلى أعمال العمران والبناء والثقافة وغيرها.

وكان ابن الأشعث عسكريا قد وطئ المغرب الأدنى بقدمه، وساسه بالعسف، وعول على القوة في إخضاعه، ولم يعرف المغرب منه إلا جوانبه الخشنة. وإذا كان للعباسيين وللمنصور خيرا بفتح المغرب الأدنى لهم وضمنه إليهم، وبتنكيله بالجمهوريين ودعاة الإمامة الإسلامية وإسكاتهم في المغرب الأدنى إلى حين، فانه لم يكن خيرا للمغرب، وسبب إخوة وصفاء كما كان الفاتحون الأمويون الأولون الذين طلعوا للمغرب طلوع الغيث في سمائهم يحمل الخصب والبركات والنماء! إن كل ما رآه المغرب من لإشراف ابن الأشعث إنما هو إشراق كتائبه بالسلاح الوفير. أما طلعته فعابسة مكفهرة هي وجه السحاب القاتم الذي لا ينطوي إلا على صواعقه وعواصفه.

تمسك ابن الأشعث بإمارة المغرب ودهاء المنصور معه

وكان محمد بن الأشعث من الأبطال العظام في الدولة العباسية، ومن الذين أنشأوها بحد سيوفهم ودمائهم، وكان طموحا يمني نفسه بالملك العريض. وكان عند نفسه من الأسود التي لا بد أن تستأثر بجزء من الفريسة التي اقتنصتها وتحتكره. لقد أنشأ مع أبي مسلم وغيره الدولة العباسية، فما كان له أن يكون سيفا جامدا في يد

المنصور يعلمه في أغراضه، ثم لا يكون له من الملك إلا هذه الإمارات البسيطة التي تشبه ما يلتصق بغرار السيف وصفحته من دماء الفريسة التي يجهز عليها! وكان المنصور يخشاه لهذا الطموح. فجرب ذات مرة أن يستقدمه من المغرب ويعزله عنه ففهم فيه التمسك بإمارته والاستقرار فيه. فأوعز إلى قواد جيشه في المغرب فأحدثوا له انقلابا عسكريا فجردوه من الإمارة. فنظر ابن الأشعث فوجد جمهور الجيش ضده، وهو لا يستطيع أن يتمسك بإمارة المغرب، فم يسعه إلا الانصراف إلى المشرق. فبلغ أبو جعفر المنصور بدهائه ما أراده، وجرد ابن الأشعث من إمارته بدون عناء، ولم يفسد قلبه بالعزل السافر الذي يأباه ابن الأشعث ويقابله بالثورة والعصيان.

قال النويري في نهاية الأرب: "وضبط محمد بن الأشعث افريقية وأعماله. وأمعن في قتل كل من خالفه من البربر، فخافوه خوفا شديدا، وأذعنوا له بالطاعة، ثم فسد عليه جنده بعد ذلك. وتحدثوا أن المنصور كتب إليه يأمره أن يقدم عليه وانه أبى ذلك! فاجتمع رأيهم على إخراجه وتولية عيسى بن موسى بن عجلان الخراساني، فلما رأى ذلك علم انه لا طاقة له بهم، فخرج في شهر ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائة بأمر الناس عيسى بن موسى بن عجلان".[1]

لقد ثار الجند والقواد المضريون على بن الأشعث فعزلوه، فما هي الدوافع النفسية التي دفعتهم إلى الثورة عليه غير التهامه بالتمرد على المنصور؟

سيطرة العصبية الشعوبية والقبائلية على الملوكيين

كانت العصبية الشعوبية والقبائلية وغيرها تستولي على نفوس الملوكيين، وتسيطر عليهم، وتصرفهم في أعمالهم. إن انغماسهم في الحضارة والمدنية قد أصابهم بمرض الأنانية وحب النفس وعبادة الذات. وكانت الأنانية التي جعلتهم يتعصبون للمشرق على المغرب، ويحتقرون الأمازيغ ويرونهم أدنى في الدرجة، واقل منهم في المرتبة، فيظلمون ويعسفون، ويجورون عليهم ويستبدون، ويرونهم أرضا تستغل وتوطأ بالأقدام، وشجرة تقطف ثمارها وتسلط عليها الفؤوس! إن هذه الأنانية التي استولت على نفوسهم، وصارت مرضا عضالا يفتك بهم، قد جعلتهم يتعصبون لشعوبهم وقبائلهم فيما بينهم أيضا، فانقسموا إلى مضريين وقحطانيين، فصاروا فئتين تتناحران وتتصارعان، وحزبين يتنافسان ويتقاتلان. وكان هذا التنافس والتناحر على أشده في الأندلس. وقد أدى في كثير من الأحيان إلى حروب ومعارك طاحنة. وكان في المغرب أيضا على أشده!

1 - نهاية الأرب للنويري جزء 22 نسخة مصورة في دار الكتب المصرية.

وكان محمد بن الأشعث الخزاعي قحطانيا. وكان كثير من ضباط جيشه، وقواد عسكره المضريين ينظرون إليه بعين العصبية، ويسوءهم أن يتقدمهم فيكون قائدهم الأعلى، وينال الدرجات العليا في الدولة، ويكون القائد الأكبر، والذروة الشماء في البطولة والعبقرية الحربية عند المنصور. فبودهم لو أزاحوه عن منصبه، ودحرجوه من عليائه، وقدموا مضريا منهم مكانه. انه قحطاني! والقحطاني عندهم اقل درجة من العدناني، ولكن المنصور الذي قدمه وآثره، ما كانوا ليستطيعوا التفتي عليه، وتأخير من قدم. انه سيفه وعدته الكبرى، وقائده العظيم الذي يصول به، فليس لهم إلا الخضوع له كما أمر الملك أبو جعفر المنصور!

دهاء المنصور مع الأشعث

كان هذا هو ما يملأ نفوس الجند والقواد المضريين لمحمد الأشعث القحطاني. ولما أراد المنصور عزل قائده بأسلوب خفي لا يلصق التهمة به، وبطريقة مستورة لا تفسد قلب ابن الأشعث عليه، وأراد أن يجرده من قوته، ويعزله عن جنده فلا يثور عليه، استغل ما في نفوس جنده من المنافسة والعصبية، فاعز إلى قواد جيش ابن الأشعث -وكان اغلبهم مضريا- فثاروا عليه، فخلعوه من الإمارة، وأزاحوه عن عرش المغرب، متهمين له بالتمرد على المنصور!

إن الملك أبا جعفر المنصور هو الذي أشار على القواد المضريين في جيش ابن الأشعث في المغرب بالثورة عليه، وعزله وإخراجه من المغرب. فما كان للقواد المضريين أن يثوروا على قائد المنصور، ويعزلوه من الإمارة، ويخرجوه من المغرب مهانا ذليلا، وهو اكبر قواد الدولة، وأعظم كفايات المنصور الحربية، لو لم يكن المنصور راضيا بذلك، ولم يكن القواد والجند عالمين بسروره بهذا العمل الذي قاموا به.

إن المنصور قد سكت عن عيسى بن موسى بن عجلان الذي تزعم الثورة على ابن الأشعث، وعن القواد والجند الذين ثاروا معه، فلولا أن الثورة والعزل قد وقعا بأمره وبإشارته لأدبهم ووقف معهم موقفا حازما صارما هو الذي نعهده من المنصور الملك القوي الجبار الذي يعصف بمن يتجرأ عليه في اقل من هذا الأمر، ويطوح برأس من يتقتى عليه ويستهين به في أهون من هذا الشيء !

إن المنصور الداهية هو الذي أوعز إلى عيسى بن موسى بن عجلان والى قواد المضريين فثاروا على ابن الأشعث فعزلوه، ثم ولوا مضريا منهم مكانه هو عيسى بن موسى. فخرج ابن الأشعث منكس الرأس كاسفا بهذا العزل الذي جرح كبرياءه. وكان قد شعر

بدسيسة المنصور له، فبوده لو انتقم منه، وثار عليه واستقل عنه بجزء من المغرب، ولكنه كان مجردا من جنده، اعزل لا يملك الجيش الذي يثور به، وليس له أصدقاء من أبناء المغرب يأوي إليهم فيضرونه. إن المغرب يمقته وينظر إليه بالعداوة والحقد الشديد. فبود الأمازيغ الذين عسفهم وسفك انهارا من دماء المدنيين العزل منهم، وارتكب فيهم كل محضور، وقضى على دولتهم الجمهورية العادلة، لو وقع في قبضتهم ليعاملوه بما يستحق، ويقتصوا منه لما سفك من دمائهم، وانتهك من حرماتهم.

آثار ابن الأشعث في المغرب ومدة ولايته

وكان ابن الأشعث عسكريا صارما، فلم يترك في المغرب إلا ما يتركه السيف في الأمكنة التي يسل عليها. جروحا عميقة تنزف بالدم في قلوب أهل المغرب هي التي خلقت العداوة للعباسيين فانفجر المغرب عليهم انفجاره الهائل الشامل بعد ذلك بعشر سنين في عهد عمر بن حفص ثالث الولاة العباسيين في المغرب.

وكانت ولاية محمد بن الأشعث على المغرب الأدنى في سنة أربع وأربعين ومائة في عهد أبي جعفر المنصور، وعزله وخروجه من المغرب في ربيع الأول من سنة ثمان وأربعين ومائة، ومدة ولايته على المغرب ثلاثة أعوام وعشرة أشهر.

وكان استيلاء عيسى بن موسى الخراساني على إمارة المغرب الأدنى في ربيع الآخر بعد خروج ابن الأشعث، بقي أميرا أغلى أن ولى المنصور الأغلب بن سالم على المغرب الأدنى، فكانت ولاية عيسى ثلاثة أشهر. وجاء الأغلب بن سالم التميمي، وهو من سيوف أبي جعفر المنصور سله على المغرب ليخضعه ! فكيف سيكون المغرب في أيامه، وكيف تكون أيام العباسيين بالمغرب في عهده. إن السيوف البيضاء التي يسلها الملوك والولاة الجبابرة على الشعوب ليخضعوها ويملكوها لا تخلق لهم إلا الأيام السوداء. أما الأيام البيضاء فتخلقها القلوب البيضاء بالدين والعدل والحب والصفاء! ! فكيف كانت أيام الأغلب بن سالم في المغرب، وكيف كان المغرب به؟

ولاية الأغلب بن سالم التميمي على المغرب الأدنى 148-150

شخصية الأغلب ومكانته في الدولة

كان الأغلب بن سالم التميمي من الرجال العظماء، ومن الدهاء الحكماء، ومن ذوي الرأي والتدبير، والرزانة والركانة. وكان ذا شجاعة وإقدام، وبطولة وجرة مع حصافة في العقل تسوس جرأته؛ وتوجه شجاعته. وكان مخلصا لدولته، غيورا على الملوكية يضحى بكل شيء لبسط نفوذها، والمحافظة على هيبتها وحدودها.

وكان الأغلب بن سالم من الشخصيات البارزة التي أنشأت مع أبي مسلم الخراساني دولة بني العباس في المشرق، فأرسله أبو جعفر المنصور مع ابن الأشعث لينشئوها في المغرب، ويوطدوا أركانها، ويرسخوا جذورها، ويشقوا الطريق لها، ويقمعوا كل ثورة وكل شيء يحول دون ترعرعها في المغرب.

وكان ابن الأشعث يراه أعقل رجاله، وأدهى قواده، وأقوى ضباطه، فاختاره للولاية على الزاب، تلك المنطقة الخطيرة التي تجاور المغرب الأوسط والغرب الأقصى المستقلين، وهما مهب العواصف والأمواج التي يخشاها ابن الأشعث على دولته الملوكية الناشئة في المغرب الأدنى، فاثر لهذه المنطقة أدهى رجاله، وأقواهم، وألصقهم لميلك قلوب البربر الساخطين على الملوكية في الزاب، ويقف في وجه كل جيش يوجهه المغرب الأوسط أو المغرب الأقصى إلى القيروان. وكان هذا الرجل الذي توفرت فيه هذه الشروط، وكان كالماء يجمع إلى لطافته قوة تهدم السدود، وتقتلع الأسوار، وتجرف كل شيء، وهو الأغلب بن سالم التميمي! فسد ذلك الثغر الخطير لابن الأشعث فبدت كفاءته في الولاية، وأحبه الجند والقواد المضريون في القيروان. ولما ثار المضريون على ابن الأشعث وخلعوه من الإمارة، ثم طردوه من المغرب، اختار أبو جعفر المنصور الأغلب بن سالم فولاه على المغرب لشخصيته التي بناها ولا خلاصة للدولة، ولأنه مضري يرضاه المضريون الذين حرك عصبيتهم في المغرب ضد ابن الأشعث. وكانت ولايته في جمادى الآخرة من سنة ثمان وأربعين ومائة.

خوف المنصور من ثورة المغرب

وكان أبو جعفر المنصور يعلم غليان المغرب واستعداده كله للثورة، وإباءه للملوكية وعزيمته على إنشاء دوله الجمهورية التي تسعده وترقيه وتسوسه بسياسة الدين، وتلتزم فيه هدي الخلفاء الراشدين؛ فأوصى ابن الأغلب لما ولاه بالعمل لامتلاك القلوب، وبالاستعداد للحرب، وتحصين القيروان، وأحاطتها بخندق كبير يصرف الطوفان الذي يرى

سحبه القاتمة في وجوه الأمازيغ المتهجمة، وبروقه الخاطفة في عيونهم المحمرة عليه. ويعين القيروان في الدفاع عن نفسها إذا ثارت ثائرة المغرب الذي يأنف الملوكية الكسروية، ويتمسك مل التمسك بالإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية؛ كما أمر أبو جعفر واليه على المغرب وقائده الأغلب بإقامة الحرس المتيقظ للقيروان، وباختيار خليفته في العاصمة إذا خرج منها. لان القيروان هي المدينة التي كان اغلب من فيها ملوكيين وبقية البلاد فان المنصور ليرى تنمرها وعلامات الثورة عليها، فحرص على القيروان لأنها قلعتهم للدفاع، ومنبعا يهاجمون منها ما يثور عليهم من النواحي في افريقية فيستردونه.

قال ابن عذارى: "... ووصل الأغلب كتاب المنصور بعد كتاب العهد يأمره بالعدل في الرعية، وحسن السيرة في الجند، وتحصين مدينة القيروان وحفر خندقها وترتيب حرسها، ومن يترك فيها إذا رحل إلى عدوه وغير ذلك من أمره".[1]

تطهير ابن الأغلب لجيشه واستعداده للحروب

وكان الأغلب حازما جريئا، فشمر عن ساعده، فحافظ على دولته في المغرب ورتق الفتوق التي تكونت لابن الأشعث في افريقية والقيروان. فسكن الجند الثائرين على ابن الأشعث، واخرج من المغرب القواد والجنود الذين انس فيهم حب الثورة وعدم الإخلاص للدولة، والذين جرأتهم الثورة على ابن الأشعث على الثورات وعلمتهم عزل الولاة، وإحداث الانقلابات، فسكنت له افريقية والقيروان، واسلست له الأمور فيهما.

استعداد الصفرية لمهاجمة الملوكية في المغرب الأدنى

وكان الأغلب حازما حذرا، وكان عينا يقظة ويده على الحسام يرقب الثورات التي تغلي بها صدور أهل المغرب وتهيئهم للانفجار. وكان ما يخشاه الأغلب ويحذره، فتحرك الصفرية في المغرب الأوسط وفي المغرب الأقصى فبايعوا أبا قرة بن دوناس اليفرني الزناتي من البربر. فشمر أبو قرة وقومه زناتة لاقتلاع جذور الدولة الملوكية الكسروية من المغرب، والزحف على القيروان ليطهروا المغرب من الملوكية المتجبرة، ويرجعوا المغرب الأدنى إلى حظيرة الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية الديمقراطية. فمن هي زناتة، وأين مواطنها في المغرب، وما حقيقتها؟ وكيف نشأت دولتهم الصفرية في تلمسان فبايعوا أبا قرة اليفرني؟ وما حال ابن الأغلب معهم، وما موقف كل من أنصار الملوكية وأنصار الجمهورية الإسلامية العادلة من الآخر؟

---

1 - البيان المغرب لابن عذارى ج 1 ص 86 ط بيروت.

مبايعة زناتة لأبي قرة اليفرني بالإمامة سنة 148 هـ.

زناتة شخصيتها ومواطنها

كانت زناتة من البربر البتر. وكانت أمة لا تحصى لكثرة قبائلها، وتعدد أقسامها، وكثرة مواطنها.

وكانت في كل أنحاء المغرب. فتوجد في طرابلس، وفي ضواحي افريقية، وفي المغرب الأوسط. وكان جمهور سكانه منها حتى نسب إليها فقيل: مغرب زناتة. وكانت في المغرب الأقصى. فهي اكبر قبائل البربر، وأكثرها انتشارا في كل أنحاء المغرب. ومن مواطن زناتة جنوب المغرب، فمن (غدامس) شرقا إلى السوس الأقصى غربا كان موطنا لها، فهي القبيلة الكثيرة العدد في تلك النواحي. وكانت بلاد النخيل في المغرب من أوطانها، وكانت جنات النخيل في جنوب المغرب من إنشائها مع هوارة والقبائل البربرية الأخرى.

وكانت زناتة يتجلى فيها كل ما يتصف به البربر من حب للحرية، وإباء للعبودية، وأنفة من الذل، ومن طموح وإقدام، وشجاعة خارقة، واعتداد بالنفس يرفع رأسها دائما فتعزم بأعلى المراتب، وتشرئب إلى ارفع الدرجات ! وكانت زناتة قد أنشأت إمارات كثيرة قبل الإسلام وبعده في المغرب، ودولا كبرى بعد الإسلام. فمن إمارتها قبل الإسلام إمارة صولات بن وزمار الزناتي المغراوي الذي ابتدأ الفتح الإسلامي في عهده. ويقال إنه وفد على سيدنا عثمان رضي الله عنه فأكرمه وقربه فاسلم على يده، فعقد له على قومه من زناتة، وكانت إمارته في تلمسان ونواحيها.

إنشاء تلمسان عاصمة زناتة

وكانت مدينة تلمسان في المغرب الأوسط من إنشائهم، فهم الذين أنشأوها. أنشأها بنو يفرن من زناتة فكانت عاصمة إمارتهم قبل الإسلام وبعده، وعاصمة دولهم التي أنشأوها بعد الإسلام.

إمارات زناتة ودولها

ومن إمارات زناتة في المغرب الأوسط قبل الإسلام إمارة الكاهنة في جبال أوراس. فان الكاهنة من قبيلة مجراوة، ومجرواة فرع من زناتة وقسم من أقسامها.

ومن دولهم في المغرب الأوسط والأقصى دولة بني مرين، ودولة بني زيان اللتان نشأتا في القرن السابع الهجري، وكانتا من اكبر الدول الإسلامية في المغرب. ولزناتة إمارات

إسلامية عديدة في تلمسان والمغرب الأقصى. إنها من أقسام البربر الكبرى التي نالت اكبر حظوظها في رئاسة المغرب وزعامته في الملك والسلطان.

وكانت زناتة كالبربر كلهم، تكره الاستبداد والطغيان، ويثور على الظلم والظالمين، وكانت من أول القبائل التي ثارت على الأمويين لما ظلموا المغرب وحادوا عن دين الله في سياسته، وعسفوا وتجبروا. وكان البطل الكبير الإمام خالد بن حميد الزناتي الذي هزم جيوش كلثوم بن عياض القشيري، وقضى على الدولة الأموية في المغرب الأوسط والأقصى. كان هذا البطل الإسلامي الكبير منهم.

وكانت زناتة لإبائها للظلم، ولكرهها للملوكية، ولاغتياظها وحنقها بظلم الملوكيين قد فتحت صدرها للمذهب الصفري المتطرف، فانتشر فيها في ناحية تلمسان، وفي المغرب الأقصى، وفي جنوب افريقية انتشارا كبيرا. وكان جمهور كبير منهم في هذه النواحي صفرية. ولكن زناتة اعتنقت المذهب الصفري المتطرف لشدة حنقها على الملوكيين الظالمين المتجبرين لأنه يرضى حنقها وثورتها عليهم، فلما تطهرت مواطنها من الملوكية الظالمة، وسكنت هي وهدأت، ونبذت المذهب الصفري واعتنق اغلبهم المذهب الأباضي الجمهوري الذي لا يخالف الدين في شيء، ولا يبعد عن المذاهب الأربعة الأخرى إلا في تمسك الإباضية بالإمامة العادلة والجمهورية الإسلامية، ونبذهم وإبائهم للملوكية، كما اعتنق جمهور كبير من زناتة في المغرب الأوسط والأقصى المذهب المعتزل المعتدل. وانقراض المذهب الصفري منهم في آخر القرن الثاني، ولم يبق إلا في بعض الجبال النائية في المغرب الأقصى، أو في سجلماسة بجنوبه.

إباء زناتة لظلم الملوكية وتمسكها بالجمهورية

وكانت زناتة تتمسك كل التمسك بالجمهورية الإسلامية. وكان طبعها البربري قد جعلها تمقت الظلم والظالمين. ولما ولى محمد بن الأشعث الخزاعي الأغلب بن سالم التميمي في سنة أربع وأربعين ومائة على الزاب، واستقر بمدينة (طنجة) عاصمة الزاب، وكانت تجاورهم؛ عرفوا أغراضه فيهم، وحرص الدولة العباسية على وضع المغرب كله تحت قدمها، واحتلال المغرب الأوسط والأقصى وجعلها تحت سيطرة الملوكية التي ستضطهدهم وتسير فيهم سيرة الملوك الأمويين الذين أفسدت المدينة طباعهم فاتصفوا بالأنانية وحب النفس، والتعصب للجنس، فظلموا المغرب وعسفوه وتجبروا عليه.

مبايعة أبي قرة اليفرني بالإمامة

وكانت زناتة والصفرية في المغرب الأوسط والأقصى قد عرفوا نية الأغلب ابن سالم فيهم، وعزيمة أبي جعفر المنصور على احتلال المغرب كله، وأن الأغلب سيدفعه طموحه ومغامرته إلى غزوهم واحتلال بلادهم. ولما ولي الأغلب بن سالم على المغرب الأدنى في سنة ثمان وأربعين ومائة بايعت زناتة في هذا العالم أبا قرة اليفرني ليقودها في حروب الدفاع والهجوم ضد الملوكية التي اجمع المغرب على الثورة عليها وتطهير بقاعه منها.

وكان أبو قرة بطلا صنديدا، وشجاعا مقداما، ورجلا مخلصا لقومه ووطنه. وكان قد خلف خالد بن حميد ألزناتي في رئاسة زناتة، وقدمه قومه وآثروه لزعامتهم. وكان يكره الملوكية ويعمل للقضاء عليها. فلو كان على دهاء خالد بن حميد ألزناتي وعبقريته في قيادة الجماهير ووضع الخطط العسكرية المحكمة لكان له في المغرب شأن كبير. ولكان قد أجهز على الجيوش الملوكية التي نازلها في الميدان. ولكنه هو قومه كانوا يتصفون ببساطة البداوة فلم يكونوا على ثقافة الإباضية وركانتهم، ورسوخهم في الدين، وبراعتهم في وضع الخطط المحكمة، وفي النظر الصائب البعيد. هذه الصفات التي مكنت الإباضية وجعلتهم ينشئون دولتهم الكبرى الثابتة الأركان، ويكونون قطب المغرب، واكبر نصير للجمهورية الإسلامية في العالم الإسلامي.

ولما بويع أبو قرة بن دوناس بالإمامة جمع الصفرية في المغرب الأوسط والأقصى ونضم صفوفهم وكون منهم جيشا كبيرا للدفاع والهجوم.

هجوم الأغلب ابن سالم على أبي قرة وكيد أبي قرة له

وفي سنة خمسين ومائة عزم أبو قرة اليفرني على مهاجمة افريقية والقيروان، والقضاء على الملوكية في المغرب، فأسرع إليه الأغلب بن سالم في جموعه حتى وصل (طبنة) عاصمة الزاب. فكره أبو قرة أن ينازل الأغلب في الزاب وهو في أنصاره، وعلى قرب من القيروان التي تنجده إذا شدد عليه الخناق، فتقهقر أمامه ليجتذبه إلى المغرب الأقصى، ويبعده عن القيروان، فيكر عليه في المناطق التي كانت كلها مستقلة تكره الملوكية، فلا يمكن أن تصله نجدة فيها، ويحاربه حيث ينثال عليه الصفرية والإباضية من كل جهاته فيقع بين نيران كثيرة، وتكتنفه من كل جهاته أنياب الأسود الفاغرة علية، فيفترسه كما يريد، ويقضي عليه القضاء المبرم.

خوف الجيش العباسي من البربر

وكان الأغلب بطلا مقداما فعزم على متابعة أبي قرة، والاشتباك به في المغرب الأقصى، ولكن قواد جيشه وجنده كانوا عالمين بقوة البربر وبطولتهم في المغرب الأوسط والمغرب الأقصى. وكان ما حل بكلثوم بن عياض القشيري في تلك البقاع لا يزال يلهب جنوبهم، ويكلم قلوبهم، وينكس رأس الملوكيين، ويملأ قلوبهم بالذعر والهلع من المغرب الأوسط والمغرب الأقصى! وكانوا يوقنون بان الدائرة ستكون على الأغلب، لان الصفرية في المغرب الأقصى أقوياء، ومعهم الإباضية في المغرب الأوسط. فلا بد أن يثوروا لإعانة الصفرية، والقضاء معهم على الملوكية، سيما إذا رأوا كفة أبي قرة تشيل في المعركة، وأحسوا باستطاعة الأغلب التغلب عليه. فأبى الجند العباسي أن يسير وراء أبي قرة، وان يقعوا في الفخ الذي نصبه لهم، فأبى الأغلب إلا ملاحقة أبي قرة اعتداد بقوته، واستهانة بابي قرة وقومه. ففارقه أكثر الجند ورجعوا إلى القيروان. فبقي الأغلب في عدد يسير من جنده فلم يسعه إلا الرجوع.

خروج الأغلب ثانية لحرب أبي قرة وثورة الحسن بن حرب عليه

وكان الأغلب من الأبطال الصناديد الذين لا تقعدهم العقبات عن مواصلة المحاولة لبلوغ أغراضهم. فجهز جيشا ثانيا وخرج به لغزو المغرب الأوسط والأقصى، ومنازلة أبي قرة الذي يرى عيونه محمرة عليه، ويسمع قلقة سيوفه في الأغماد يحركها ليهوى بها عليه.

وكان جند الأغلب يخشى الاقتراب من المغرب الأوسط والأقصى، وكانوا يخافون من الدخول إلى تلك المناطق التي يوقنون إنها مسابع لا يخرجون منه سالمين. فبودهم لو تمردوا على الأغلب وانفضوا عنه، فهيأت هذه الرغبة وذلك الخوف في نفوسهم لما أراده الحسن بن حرب الكندي الذي ثار على الأغلب بن سالم التميمي وافسد عليه جنده، فأرغمه على ترك السير إلى أبي قرة والاشتغال بحرب داخلية أشعلها عليه.

ما هي العوامل النفسية لثورة بن حرب على الأغلب، وهو الداهية الذي وصفنا وقلنا إنه في لطافة الماء تطفئ النيران، وتنبت المودة والاحترام في نفوس الإخوان؟

ثورة الحسن بن حرب الكندي على الأغلب بن سالم:

المنافسة بين القحطانيين والعدنانيين

كانت المنافسة بين القحطانية والمضرية، والعداوة بينهما تعصف بنفوس الملوكيين في افريقية. وكان الحسن بن حرب الكندي قحطانيا، فساءه أن يثور المضريون على ابن جلدته ابن الأشعث القحطاني فيعزلوه من الإمارة، ثم يطردوه من المغرب وهو تاج بني قحطان الذي يزين هامتهم ! إن المضريين قد عفروه في التراب ووطئوه بأقدامهم! وولي مضري مكان القحطاني فبلغ المضريون مرادهم في المغرب! فعزم الحسن بن حرب على الانتقام، وإحداث انقلاب للأغلب فيجرده من الإمارة، ويتولى مكانه ويرجع بنو قحطان إلى عرش القيروان بحد السيوف بالرغم من المنصور. فصار يداخل القواد والجند وينفخ فيهم ما يريد، ويفسد قلوبهم على الأغلب والمنصور فستمال طائفة كبيرة منهم، وأصبحت له قوة عسكرية يستطيع بها الثورة على الأغلب فصار يرقب الفرصة، حتى خرج الأغلب لمحاربة أبي قرة، فاستخلف على القيروان سالم بن سوادة التميمي، وخلت القيروان وافريقية من القوة العسكرية الكبرى التي كانت ترابط بها. فثار الحسن بن حرب الكندي في مدينة تونس فاستولى عليها، فكاتب بعض القواد الذين كرهوا محاربة أبي قرة فانضموا إليه، وتثاقلوا عن السير مع الأغلب، فانضموا إلى الحسن بن حرب، فتقوى جمعه، فسار بهم إلى القيروان فاحتلها، وقبض على سالم بن سوادة خليفة الأغلب فسجنه.

دعوة المنصور والأغلب الحسن بن حرب إلى الطاعة

فسمع الأغلب بثورة الحسن واحتلال القيروان وهو في الزاب، فرجع فيمن بقي معه من الجيش إلى افريقية وكتب إلى الحسن بن حرب يعرفه فضل الطاعة وعقبى المعصية. فأعاد الجواب إلى الأغلب وفي آخره:

ألا قولا لأغلب غير سر *** مغلغلة من الحسن بن حرب

بأن البغي مرتعه وخيم *** عليك وقربه لك شر قرب

فان لم تدعني لتنال سلمى *** وعفوي فادن من طعن وضرب

وورد على الحسن بن حرب كتاب من المنصور يدعوه إلى الطاعة فلم يقبل. فعلم الأغلب أن السيف هو الحل لهذه المشكلة. وكان في قلة من الجيش

فأشار عليه أصحابه أن يذهب إلى "قابس" فيتلطف بالجند الذين فارقوه ويستميلهم

حتى يرجعوا عن الحسن إليه، فيضعف الحسن ويتقوى هو، فيستطيع الهجوم على الحسن وانتزاع القيروان منه. ففعل فتقوى جمعه، وراجعه كثير من جنده. فسار لمحاربة الحسن ابن حرب وتأديبه بالحسام. فوقع اللقاء في ظاهر القيروان. وكانت معركة عنيفة، فانهزم فيها الحسن وولى الأدبار، ودخل الأغلب القيروان فائزا منتصرا. فهرب الحسن إلى تونس، وآوى إليها، فجدد قوته هناك فزحف إلى الأغلب.

فساد قلوب الجند على الأغلب وقعودهم عن نصرته / مقتل الأغلب بن سالم

وكان الأغلب قد أثرت دعاية الحسن بن حرب في جنده، فقعد جمهور كبير عن نصرته، وأبوا الخروج معه لمقاتلة الحسن بن حرب الزاحف على القيروان، وبقي الأغلب في جيش قليل من آل بيته ومن اخلص له من الجند. فخرج الأغلب بهم فباشر القتال بنفسه، فوقعت معركة عنيفة بينه وبين الحسن بن حرب. فأصاب الأغلب سهم في المعركة فقتله، فسقط يتخبط في دمه. وكان بطلا مقداما فأبى أن يستسلم للحسن بن حرب، فقام بواجبه في الدفاع رغم قعود اغلب الجيش عن نصرته وانفضاض كثير من أنصاره عنه. ومات ميتة كريمة زادت في مقامه، وأعلت درجته.

استخلاف المخارق وقضاؤه على الحسن ابن حرب

قال السلاوي: "فخرج الأغلب إلى الحسن بن حرب فأصابه سهم فقتله، فقدم أصحابه عليهم المخارق بن غفار الطائي الذي كان على طرابلس، وحملوا على الحسن فانهزم أمامهم إلى تونس، ثم لحق بكتامة وخيل المخارق في أتباعه، ثم رجع إلى تونس بعد شهرين فقتله الجند.

وقيل إن أصحاب الأغلب قتلوه في الموقف الذي قتل فيه الأغلب. وكان مقتل الأغلب في شعبان سنة خمسين ومائة. وكانت ولايته سنة واحدة وثمانية أشهر.

عدم الاستقرار في عهد الأغلب

وكانت أيام الأغلب في الولاية عاصفة بالحروب الداخلية والخارجية. إن نفوس الملوكيين أنصاره مريضة بالعصبية والنافسة التي أثارتهم عليه، والمغرب كله كان يتمخض عن دوله الجمهورية العادلة، فتنمر للعباسيين الملوكيين الذين جاءوا وحاولوا بالسيف والقهر إرجاعه إلى كلا كل الملوكية التي رفعها عنه، وتخلص من استبدادها وظلمها وتعصبها ومخالفتها للدين في سياسة المسلمين؛ فكانت ثورة أبي قرة اليفرني واستعداده للزحف على المغرب الأدنى وسحق الملوكية في القيروان، وهي مقدمة لما سيليها من ثورة المغرب

الشاملة على الملوكية العباسية، والقضاء عليها في المغرب، والتمهيد لإنشاء دولهم الجمهورية التي تقوم على الإمامة العادلة، وتتمسك بالدين، وتلتزم في السياسة عدل الخلفاء الراشدين.

آثار الأغلب في المغرب عسكرية

وكانت أعمال الأغلب مدة ولايته عسكرية، وكان الصدأ لا يفارق كفه بقائم السيف الذي لا يفارقه. ولكن المغرب في كل أنحائه آخذ في طريق الحضارة والتقدم والرقي في كل نواحيه، ومنبعث في طريق البناء والازدهار التي دفعه فيها حسان بن النعمان والموفقون العادلون المخلصون من الولاة الأمويين.

إسراع المغرب لطموحه في طريق العلم والحضارة الراقية

كان المغرب يشرئب إلى العلا، ويأخذ بكل أسباب الحياة والتقدم، ويستعد بكل أسباب القوة لإنشاء دوله المستقلة منذ العهد البيزنطي قبل الإسلام. فلما جاء المسلمون واسلم، وأشربت قلوب البربر دين الحضارة والعلم والتقدم، ضاعف طموحهم، وزاد في رغبتهم في المعالي، فشمروا لبناء وطنهم، وازدادوا قوة وطموحا بمن انضم إليهم من إخوانهم من المشرق، وبالدماء العربية التي انسابت في عروقهم، وبالامتزاج التام بين العرب والبربر، فكان منهم المغرب الجديد الذي يسرع في طريق الحضارة والتقدم والازدهار، ويجتهد كل الاجتهاد في العلوم والفنون، وفي كل الميادين التي تستدعيها الدول العظمى التي يطمح لإنشائها، ويدفعه في ذلك دينه، وطموحه، والوراثة الكريمة التي تنساب فيه من أصليه الكريمين المازيغي والعربي ! وقد استمر في هذه العهود العاصفة في ذلك الطريق، يدفعه نضوجه والعوامل النفسية التي قدمنا، لا ترده القيود التي يضعها العباسيون فيه ليردوه عن الاستقلال، ولا المجازر وأعمال القمع التي حولوا بها ارضاخه لهم.

وكانت خطوات المغرب الأدنى في ميدان التقدم والازدهار اقل من خطوات المغرب الأوسط والأقصى في هذه العهود لما منى به من حروب العباسيين وعدم الاستقرار.

إن المغرب قد دخل ربيعه بفضل حسان بن النعمان وأبي المهاجر زمن جاء بعدهما من الولاة في عهد الملوك الأمويين المحسنين: معاوية، وعبد الملك بن مروان، وسليمان ابن عبد الملك، وسيدنا عمر بن عبد العزيز. وازدهر وبدت دوله كالأثمار التي تلوح في الغضون إذا كانت في شبابها بالربيع، وسار في طريق النضوج بفضل أولئك المحسنين مندفعا، فإذا حقق المغرب شيئا من التقدم في هذه العهود العباسية الأولى فالفضل لتلك

الأسباب النفسية والأموية التي ذكرنا. أما الولاة العباسيون فإنهم لم يستقروا ولم يهدأوا ليتفرغوا لأعمال البناء. ولم يحبهم المغرب كما أحب حسان وغيره فيؤثروا فيه!

إن المغرب في ربيعه يسير سيره في طريق النضوج. وإن العواصف التي أثارها العباسيون في المغرب لم تزد على أن نفضت الغبار عن غضونه فازداد نضارة وشبابا. وإن الملوكية العباسية التي جاءت بجحافلها لم تزد على أن ضاعفت تلهفه إلى العدل في ظل دوله الجمهورية. فعجل بإنشائها ليسد الطريق في وجه الملوكية العباسية التي تعمل لالتهام المغرب وإخضاعه لسيطرتها.

تمخض المغرب عن دوله الجمهورية

كان المغرب يتمخض عن دوله الجمهورية التي ستسعده. وسيخوض حروبا مع العباسيين تعكر الجو زمنا، وتشعل المغرب نارا. فإذا رأيت حمرتها تكسو سماء مغربنا فاعلم إنها حمرة الشفق التي تسبق ميلاد الشمس فتتخضب السماء منه بحمرة الدماء !

إن حرية الشعوب والدول العظمى تولد ميلاد الغزالة في الورود من شفق السماء الذي يكسو خدودها! وفي الفراش القاني الذي يكون للدول من نجيع أبنائها في ميدان التضحية والفداء. ويكون للغزالة من دماء الليل الذي تجهز عليه الملائكة ليولد النهار[1]!

وكان الأغلب بن سالم عسكريا كمحمد بن الأشعث،ولكنه كان أكثر استعدادا لمسالمة المغرب، وأكثر لطفا منه. فبقي المخارق خليفة للأغلب في القيروان إلى أن وصل عمر بن حفص هزارمرد الذي اختاره المنصور لولاية المغرب. فماذا سيكون في عهده؟ وما هي الزلازل والبراكين التي ستثور عليه؟.

1 - قال جامد متزمت: ما التاريخ والصور الشعرية والأدب؟ ونحن ننكرها إذا أوردنا حقائق في الأسلوب الشعري الغامض. أما إذا زننا الحقائق الواضحة ببعضه فانه كمال. وما يجب لتحبيبه إلى النفوس وجذب الناشئة إليه، وخلق الشهية في جوه الفلسفي الدسم.

ولاية عمر بن حفص هزارمرد على المغرب لأدنى 151 – 154 هـ

نسب هزارمرد وشخصيته

هو عمر بن حفص من ولد قبيصة بن أبي صفرة أخي المهلب بن أبي صفرة.

وكان عمر بن حفص من عائلة الشجاعة، ومن أرومة البطولة، ومن أسرة كانت في الدولة الأموية وفي الدولة العباسية كالمصنع الحربي الذي يمد الدولة بقوتها في ميدان الحروب ! وكانت عائلة أبي صفرة قد أنجبت عددا كبيرا من أبطال الحروب، ومن الزعماء النابهين الذين كانوا من أركان الدولتين الأموية والعباسية. وكانت عائلة الفضل وقوة الشخصية، يمتاز أبطالها مع شجاعتهم الحربية بالدهاء والكرم والهمة البعيدة، والطموح الذي يرتفع بهم إلى أعلى الدرجات كما ترتفع بالنسر أجنحته القوية وطموحه إلى عنان السماء، والى ذرى الجبال الشماء فيتخذها مقره! !

وكان عمر بن حفص حفيد قبيصة بن أبي صفرة أخي المهلب بن أبي صفرة البطل العظيم والداهية الكبير الذي كان عبد الملك بن مروان يراه امضي سيوفه، واكبر قواده، وأدهى رجاله، فسله على الأزارقة الذين اخذوا بخناق الحجاج وبتلابيب دولته فكادوا يستولون على العراق، ويضربون الدولة الأموية الضربة القاصمة التي تهدها، فأنقذ المهلب دولة عبد الملك، فانتصر على الأزارقة الأبطال المساعير بدهائه وشجاعته وشجاعة أبنائه. وكان للدولة الأموية كهفا آوت إليه فأنقذها من طوفان الأزارقة الذي فاض عليها. فلولاه لكانت نتيجة حروبها مع الأزارقة وبالا عليه، ولكانت لوحا مفصولا لسفينة مكسورة حطمها السيل العتي فحمل أجزاءها على غاربه كما يحمل الميت على الأعناق إلى المقبرة!

وكان عمر بن حفص قد ورث شجاعة أجداده وبطولتهم وقوة شخصيتهم، واعدته الأرحام للقراع فأرهفت مخالبه كالأسود، وزودته بوراثة حربية صار بها من أبطال عصره الممتازين. فولد ولادة الأسود وهو لا يفتح فاه كالصبيان للصراخ، ولكن يفغر كشبل الأسد للزئير!

وكان أبوه وأسرته قد اعتنوا بتربيته، فبنوا عقله وخلقه، واعدوه للثغور الكبرى، فصار في جيله جبلا أشم بقوة خلقه واستقامة سلوكه، وبفروسيته وشجاعته. وكان المنصور يراه علما من أعلام دولته تأوي إليهم فتحتمي بهم في الأعاصير، وتعتصم بذراهم فيحمونها من الأمواج العاتية، ويعصونها من كل الكوارث!

وكان عمر لما خاض من حروب هائلة تكلل بالنصر المبين قد ظهرت عبقريته الحربية، وبطولته الخارقة، فصار المشرق يرى فيه جيشا من الأبطال، وكتبه جرارة من الشجعان فلقبوه "هزارمرد" وهو لفظ فارسي معناه ألف رجل! !

ولكن أبو جعفر المنصور الملك الداهية يحسن انتخاب رجاله، ويعرف مقدار ثغوره، وكان يعرف بطولة المغرب وتصميمه على نبذ الملوكية وإنشاء دوله الجمهورية العادلة، واستماتة البربر في سبيل هذا المثل الأعلى ليحققوه وينبتوه بدمائهم، ويضعوا أسس دولهم الثابتة الأركان من حبات قلوب الشهداء الذين يؤثرون الموت على الحياة في سبيل دولهم التي تسعد المغرب، وترجع به إلى عهد الخلفاء الراشدين في العدل والدين. وكان المنصور حريصا على بقاء المغرب الأدنى في قبضته، فاختار لولايته عمر ابن حفص أقوى رجاله ليمنع الثورة في المغرب الأدنى، ويحول دون نشوء الدولة الجمهورية فيه، ويكون فيه كالصخرة الكبيرة التي توضع على البذور الفاغرة للبروز فتضغط عليها فلا تنبت!

تزويد عمر ابن حفص بقوة حربية يفرض بها سلطته في القيروان

وكان المنصور يرى التمرد الذي اتسم به كثير من قواده في المغرب، والثورة التي تعصف بقلوب كثير من جنده، فأرسل مع عمر بن حفص خمسمائة فارس من خيرة جنده ليتقوى بهم في تطهير القيروان، وفي تصفية جنده من العناصر المتمردة، ويتأيد بهم في المغرب فلا يقه ما وقع للأغلب من ثورة الجند عليه. فدخل عمر بن حفص القيروان في صفر من سنة إحدى وخمسين ومائة.

إعداد (طبنة) لمهاجمة المغربين الأوسط والأقصى

وكان عمر بن حفص حازما وحكيما، ومتيقظا كل التيقظ، ومسالما للبربر لا يتظاهر لهم بالعدوان، فهذا المغرب الأدنى في عهده ثلاث سنين وأشهرا، وسالمه البربر في المغرب الأوسط، فاغتر هو والمنصور بسكون المغرب وهدوئه واستقرارهم في المغرب الأدنى، فحركتهم الأطماع لامتلاك المغرب الأوسط والأقصى أيضا، وما علموا أم سكون المغرب -سيما الأوسط والأقصى- وسكوته كان سكوت الأنهار إذا غصت بها البقاع، واكتضت بها كل التلاع، واستعدت لكسر السدود لتهجم هجوم المارد العارم فتقضي على كل شيء يقف في طريقها، ويتحداها بقوته. فأمر أبو جعفر المنصور عمر بن حفص ببناء سور طبنة قاعدة الزاب التي كانت تجاور المغرب الأوسط، وبتحصينها لتكون قاعدة هجوم على المغربين الأوسط والأقصى فيمتلكونهما، ويقضون على الدولة الرستمية الجمهورية التي كانت قد نشأت في (تيهرت)، فأسرع بها قائدها عبد الرحمن بن رستم

إلى ذري القوة، وصارت اكبر قوة يخشاها المنصور، وأقوى سبب يرفع رؤوس الأمازيغ في المغرب الأدنى فيتنمرون عليه؛ ويقضون على دولة زناتة الصفرية التي يرأسها أبو قرة اليفرني، فصارت تربض في تلمسان بارزة الأنياب والمخالب، مستعدة لمنازلة الملوكية والقضاء عليها. فسار عمر بن حفص في ألف وخمسمائة جندي إلى (طبنة) فعكف على تحصينها وإعدادها للهجوم والعدوان على المغربين الأوسط والأقصى. فاستخلف على القيروان حبيب بن حبيب بن يزيد بن المهلب.

حنق المغرب على الملوكية

وكان شمال افريقية[1] يضطرم حنقا على الملوكية العباسية، ويرى العباسيين سدا يحول دون نشوء الدولة الجمهورية التي ولدت في قلوب الأمازيغ، فصارت اكبر أحلامهم، وأعظم شيء يعملون في الخفاء لتحقيقه. وكانت الدولة الرستمية قد نشأت في المغرب الأوسط (بتيهرت) عاصمتها. وكان المغرب الأدنى طرابلس وجنوب افريقية يرونها حلمهم الكبير فبودهم لو انضموا إليها، ولكن الدولة العباسية تمسكهم إلى صخرة الملوكية بسلاسلها، وترغم المغرب بحد السيف على الرضوخ لها. وكان المغرب كله يغلي حنقا على الملوكيين العباسيين ويرى في سوادهم لون المستقبل الذي سيكون له في ظل هذه الدولة الملوكية الكسروية التي تعتمد على السيف في إخضاع المغرب، وترغم الناس بالقوة على قبول رئاستهم ومبايعتهم بالإمارة.

وكان المغرب الأوسط إلا الزاب،[2] والمغرب الأقصى قد تأسست فيهما الدولتان المغربيتان، الدولة الرستمية، والدولة الزناتية الصفرية. وكان البربر قد استمروا في ظل الدولتين الجمهوريتين المغربيتين سيما الدولة الرستمية نعمة العدل، ولذة السياسة الإسلامية التي تنبع من القران، وحياة العز التي جاء الإسلام ليكونها لعباد الله في الأرض! وكانوا يعرفون أن العباسيين كالأمويين نفوسهم قد كسفتها الحضارة والمدنية، فتملكتهم الأنانية وحب النفس والتحيز للعرق، وتضاءل حب العدل والإنصاف وخشية الله في تلك النفوس التي ركبتها الأنانية وحب الدنيا، والتهالك على الرئاسة والسلطان؛ وأن هذه النفسية الملوكية المتهالكة على المادة والسلطان، والتي جعلت بني أمية يعدون المغرب فيئا لهم، قد امتلكوه بسيوفهم، وأمسى في قبضتهم للرضاع، ومزرعة للاستقلال، لا أمانة وضعها الاسم على عاتقهم ليربوها ويحنوا عليها ويبنوها في كل جهاتها كما يفعل الوالد الحنون المخلص لأولاده، فظلموا المغرب وعسفوه وتجبروا عليه؛ كان البربر

1 - المراد بافريقية هنا هو القطر التونسي اليوم وهذا هو اسمه قديما وهذا هو المراد بافريقية في هذا الكتاب.
2 - الزاب هو عمالة قسنطينة اليوم في الجزائر وحد المغرب الأوسط من بجاية إلى وادي ملوية.

يوقنون بأن النفس الملوكية العباسية هي النفس الملوكية الأموية مضافا إليها عنف الشباب العنيف الذي خلت منه الدولة الأموية التي جثمت عليهم بكلكلها وظلمتهم وجارت عليهم وهي في شيخوختها وفي آخر أيامها.

وكان البربر يوقنون بان الدولة الملوكية العباسية العنيفة التي عسفت وجارت في المشرق على العلويين الأقرباء، أبناء الإمام علي وفاطمة الزهراء، واستأصلت كل من تظن فيه إنكارا لسياستها الظالمة المتجبرة، وسولت لأبي جعفر المنصور أن يقضي على أبي مسلم الخراساني ولي نعمته، ومنشئ دولته، وتقيد في السياسة بالمصلحة الخاصة وبالأنانية لا بما يفرضه الدين في سياسة المسلمين؛ ولا يمكن أن ترحم المغرب فتسوس البربر بالحسنى، وتنصفهم فتوليهم أذنها الواعية لا كتائبها المرعدة إذا طالبوها أن تطبق فيهم سياسة القران، وتلتزم فيهم حدود الله! فعقدوا العزم على حفظ بلادهم من هذه الدولة الملوكية، والدفاع عن دولهم الناشئة إذا رام العباسيون بها شرا.

خوف المنصور من الدول الجمهورية في المغرب

وكان أبو جعفر المنصور يعرف قوة الدولتين البربريتين الناشئتين، ويتيقن إنهما كالنهر الزاخر لابد أن يفيض إذا استمرت زيادته، فتكون الطامة الكبرى على الملوكية في المغرب والمشرق، فأمر واليه عمر بن حفص بتحصين طبنة والتهيئ لحرب المغربين الأوسط والأقصى، ومهاجمة أبي قرة اليفرني الذي يستعد لمهاجمة القيروان فأرى البربر في المغربين أن هزارمرد يستعد لحربهم، ورأى المغرب الأدنى طرابلس وجنوب افريقية أن العباسيين يستعدون للقضاء على دولتهم الرستمية الناشئة التي يعقدون فيها الآمال الكبرى، ويرون إنها منقذهم من الملوكية فينعمون في ظلها بالعدل وسياسة الدين، فاتصلت الدولة الرستمية بأنصارها في طرابلس وجنوب افريقية ووضعوا خطة محكمة للثورة على الدولة الملوكية العباسية التي تستعد للعدوان عليهم.

استنجاد أبي قرة بالإباضية في المغرب الاوسط

وكان أبو قرة اليفرني وقومه زناتة في سلاحهم وعلى عزيمة الحرب للعباسيين، فأرى أبو قرة استعداد هزارمرد بتحصين طبنة، وإعدادها لحربهم والقضاء على الجمهورية في المغرب، ورأى سهام العباسيين الأولى تسدد إلى صدر دولته، فثارت ثائرته فشمر عن ساعده ليسبق الملوكيين في الهجوم، ويشنها حروبا شعواء على هزارمرد قبل أن تكمل عدته ببناء أسوار طبنة وقلاعها، ويجمع كل جيوشه، ويأتيه المدد القوي من أبي جعفر المنصور؛ وان يحتل طبنة التي أراد الملوكيون أن يجعلوها مصنعا للموت لهم،

ومنبع بلاد لدولهم الجمهورية العادلة، ومصدر قلاقل ومجازر تعكر بها صفو المغربين؛ فيدك أسوارها، يجعلها نقطة انطلاق للهجوم على القيروان، والقضاء على الملوكية في المغرب. فجمع أبو قرة جموعه من الصفرية، وانثالت عليه زناتة وأتباعه الصفرية من المغرب الأوسط والأقصى، فتكون له جيش كبير عدده أربعون ألفا واستعان بجيرانه الإباضية في المغرب الأوسط فأسرعوا إليه، وانضموا إلى صفوفه ليعينوه في القضاء على الملوكية في المغرب. واجمع المغرب على التخلص من الملوكية المتجبرة وأنصارها.

وكان عبد الرحمن بن رستم أمير الدولة الرستمية في تيهرت، فسار في خمسة عشر ألفا من جند تيهرت ونواحيها فرابط في تهودة بجنوب طبنة، وهي منها على بعد حوالي سبعة وثلاثين ميلا ونصف، ليكون مددا لأبي قرة وظهيرا له يتقوى به، وأمر عبد الرحمن بن رستم بعض قواده في المغرب الأوسط فانضموا إلى أبي قرة، فسار إليه عاصم السدراتي في ستة آلاف من سدراته وإباضية لمغرب الأوسط في ناحية أوراس شرقي تيهرت، والمسور بن هاني ألزناتي في عشرة آلاف من إباضية زناتة وغيرها في شمال تيهرت. وكان مع أبي قرة من أمراء الصفرية وقوادهم في المغرب الأقصى عبد الملك بن سكرديد الصنهاجي، وجرير بن مسعود المديوني وغيرهم. فأفاض أبو قرة اليفرني بهذه الجيوش، فهال هزارمرد ما فاض عليه، وأيقن بعدم استطاعته الوقوف في وجه أبي قرة تأيد بالإباضية الذين يسندونه ويؤازرونه، وأحس بالخطر، ورأى جيش أبي قرة يفغر عليه في أنيابه المهولة ومخالبه ليلتقمه، فاعتصم بطبنة الحصينة العالية الأسوار واحتمى بها. وأحاط أبو قرة بجيشه على طبنة وحاصرها وشدد الخناق عليها، وعزم على فض أسوارها ودخولها عنوة ليسحق هزارمرد والملوكية الكسروية فيها !

عزم هزارمرد على حرب أبي قرة وإباء خاصته

ودام الحصار مدة فعلم هزارمرد أن نفاد الأقوات وضيق الحصار سوف يلجئه إلى الخروج لأبي قرة ومنازلته عله يشق طريقا لنفسه فينجو إلى القيروان، فآثر أن يخرج إليه وهو على قوته ونشاطه لم يجهد الحصار جنوده؛ وأبت عليه كبرياؤه وبطولته أن يحكم عليه أبو قرة بالسجن في طبنة فيحصره فيها، فعزم على الخروج ومنازلة الجيوش المحيطة به، فأبت عليه خاصته لشجاعة البربر، ولما يوقنون به من انهزام هزارمرد لو خاض المعارك معهم، وأشاروا عليه باستعمال الحيلة لتفريق جيش أبي قرة فلا يبقى إلا الإباضية، وهم إنما جاءوا مددا لأبي قرة وعونا، فلم يأتوا بكل قواتهم ويعتمدوا على أنفسهم فيصعب على هزارمرد التغلب عليهم، فالتخلص منهم بعد ذهاب جيش أبي قرة الذي كان هو القائم بهذا الهجوم سهل. فما هم إلا خوافي رأي أبو قرة أن يسند بها قداماه فاخذ

هزارمرد بهذا الرأي، وعزم على استعمال الحيلة، وأيقن أن السيف لا يحل له هذه العقدة، ولا يكون مفتاحا لهذا الباب، وان العنف مع هؤلاء إذكاء لحماسهم، وزيادة في نيرانهم، وان البربر جنس قوي لا يزيدهم العنف إلا اشتعالا، وهم أباة شجعان لا يورثهم التحدي والمخاشنة إلا الإصرار على مرادهم، والتمسك بمقصدهم، والمضي إلى ما يريدون! وتذكر عمر ابن حفص مكيدة ابن الأشعث لأبي الخطاب وتفريق الجيوش عنه، فنجا من الهزيمة ونال الظفر. فعزم على سلوك طريق ابن الأشعث في الحيلة والدهاء.

حيلة هزارمرد لتفريق جيوش أبي قرة

وكان عمر بن حفص يوقن انه لا يجد فرصته في عبد الرحمن بن رستم وقواده الإباضية، ولا يستطيع أن يستميلهم برغبة ولا برهبة، لان الإباضية يستولي عليهم الدين، ويقاتلون للمعاني لا للمادة، وهم قد جاءوا ليحاربوه للقضاء على الملوكية التي تستعد اغزوهم، ونصرة للجمهورية الإسلامية التي لا يبغون منها بديلا، وان حبهم للجمهورية الإسلامية، وإصرارهم على إنشاء الدولة العادلة التي تلتزم فيهم سياسة الدين، وتحي سيرة الخلفاء الراشدين، هو الذي جرد سيوفهم، وكتب كتائبهم فلا يمكن أن يداخل الذهب الزنان حماسهم بصفرة الذهب فيموت، ولا يستطيع وجه الدنيا الجميل أن ينسيهم مثلهم العليا فيجرون وراءه؛ وأنهم ثاروا على العباسيين وأبوا رئاستهم لتكالبهم على الدنيا تكالبا قتل الآخرة في قلوبهم، فزالت مراعاة الله في سياستهم، وتقيدوا في سياسة الدولة بالمصلحة الخاصة وبالأنانية، لا بالدين الذي يضمن للدولة المصلحة العامة وكل مصالحها الأخرى، وان الإباضية لثباتهم وزهدهم في المادة جدار مصمت لا يجد فيه صدعا يستغله لتهديمه! فصرف وجهه إلى الصفرية يبحث عن الصدوع في بنيانهم ليهدمهم منها، ويفرق صفوفهم، فيجرد أبا قرة م قوته ويرغمه على الرجوع عنه.

وكان عمر بن حفص يعرف أن زناتة والصفرية قوم أبي قرة وجيشه فيهم طوائف كثيرة جاهلة متبدية لا تدفعهم المعاني إلى حربه،ولكن العصبية القبائلية، والتحمس لأبي قرة الذي يتمنون أن ينالوا في دولته حظوظهم الخاصة؛ وان العصبية القبائلية التي يتصف بها هؤلاء من الأنانية، فهي أمها وجذعها في النفوس، وان العصبية فيمن يتصف بها حتى تكون تعصبا لنفسه ولحظوظه الخاصة، وإذا كانت العصبية للنفس في الإنسان فهي الربقة[1] التي يربط بها في الأسواق ليشتري!

1 - الربق بالكسر حبل فيه عدة عرى يشد به ألبهم كل عروة ربقة.

وكان هزارمرد يوقن أن العصبية القبائلية الواسعة التي تصاحبها الأنانية وحب النفس تقتل الحماس للمثل العليا في الإنسان فتخلو نفسه مما يورثه الثبات والصمود والوفاء، ويمسي بيتا فارغا قد كتب الشيطان عليه بخط عريض "للكراء... !" فمن أعطى فيه أكثر فهو صاحبه، والرجحان عنده يكون بصرر الدراهم لا بالدين والمعاني السامية. فعزم على استعمال الذهب، فصرره الثقيلة هي القنابل التي تصدع الأمم التي لا يسيرها الدين فتنهدم، وينال الأعداء منها كل أغراضهم! فانتخب عمر بن حفص من خاصته رجلا بربريا من مكناسة ذا دهاء وذكاء ومعرفة بزناتة ورؤسائها اسمه إسماعيل بن يعقوب، وأعطاه أربعين ألف درهم وكسى كثيرة، وأمره بدفع ذلك إلى أبي قرة على أن ينصرف عنهم. فذهب إسماعيل بن يعقوب فتلطف حتى وصل إلى أبي قرة، وتظاهر له بالنصح، وأغراه بقبول هدية عمر بن حفص والانصراف عنه.

همة أبي قرة وإباؤه

وكان أبو قرة بطلا صنديدا ورئيس زناتة الأبي، وممن تسيره المعاني لا المادة، فانف من هذه الرشوة، ورأى إسماعيل يعده بضاعة تشترى فجاء ليدفع ثمنها! فقال له في كبرياء وإباء: "ابعد أربعين سنة يسلم علي بالإمامة أبيع حربكم بعرض قليل من الدنيا! لا حاجة لي به!"[1] فدفع في صدره، وطرده من ساحته.

حسد أخي أبي قرة وصرف جيوشه

وكان إسماعيل بن يعقوب المكناسي داهية، وكان عليما بحاشية أبي قرة وقواد جيشه، فعلم أن الحسد هو الذي يهدم الدين وكل الأخلاق العظيمة في النفوس، فيستسيغ صاحبه ما لا يستساغ، ويرتكب كل دنية لبلوغ غرضه في المحسود؛ وان الحسد من الأنانية وحب النفس، فهي أصله والحسد فرع لها، وانه يستطيع أن يستغل الحسد في صدور المنافسين لأبي قرة من خاصته، ويتدرع بأنانيتهم فيبلغ ما يريد. فنظر فوجد هذا الحسد في أخ لأبي قرة كان يقربه ويراه من اعضاده الكبار، فنال بذلك الحظوة في جيشه، وكانت له الكلمة المسموعة فيه، وعود جيشه أن يسمعوا له ويطيعوا. فذهب إليه إسماعيل فاستطاع بدهائه أن يميله إليه، وحرك الحسد والمنافسة لأبي قرة في صدره، واراه انه ليس من مصلحته الخاصة أن ينتصر أبو قرة على عمر بن حفص ويدخل طبنة، ثم قدم إليه أربعة آلاف درهم كدسها صررا كبيرة أمامه، وكسى كثيرة من نفيس الثياب، وأضعاف

1 - نهاية الأرب للنويري ج 22 نسخة مصورة في دار الكتب المصرية. إنها أحسن مرجع في هذا الباب. ومن مراجعي في هذا الباب تاريخ ابن خلدون ج 4 والبيان المغرب لابن عذارى ج 1 والاستقصاء للسلاوي ج 1 وكتاب مخطوط في تاريخ المغرب لمحمد علي دبوز.

هذه الدراهم والثياب النفيسة من الوعود الجميلة، والأماني المعسولة. فجنح إليه الأخ الحسود الأناني فاخذ الأربعة آلاف درهم لنفسه، وزوده إسماعيل من الأربعين ألف درهم بصرر كثيرة يستميل بها القواد الأنانيين الضعفاء مثله. فاتصل أخ أبي قرة بكثير من قواد الجيش فاستمالهم إليه بنفوذه وماله. فصرف عن أبي قرة معظم جيشه. فأصبح الصباح، فوجد أبو قرة اغلب جيشه قد فارقه، واتبعوا أخاه الذي رجع بهم إلى بلادهم، وتركوا محاصرة طبنة وحرب عمر بن حفص. فاسقط في يده فلم يسعه إلا الرجوع فرجع.

هجوم هزارمرد على عبد الرحمن ابن رستم على غرة

وخرج هزارمرد بدهائه من المحنة، وأزال أبا قرة عنه وأرغمه على الرجوع. فبقي عبد الرحمن بن رستم الذي يرابط (في تهودة) بعيدا عن طبنة ليمد أبا قرة إذا احتاج إليه. فلابد بمعاجلته ومداهمته بالجيش قبل أن يسمع بما وقع لأبي قرة فيستعد لحربه. فلربما سار إلى طبنة فانضم إلى عاصم السدراتي، والمسور بن هاني ألزناتي ومن معهما من الإباضية الذين لا يزالون يحاصرون طبنة لم يستطع اخو أبي قرة أن يجرهم إليه. فيتجدد حصار آخر له أنكى واشد من الأول، وعاقبته الوخيمة عليه محققة. انه حصار الإباضية الذين لا يستطيع التأثير فيهم بالمال. فأرسل كتيبة من جيشه فصبحت عبد الرحمن بن سرتم وهو على غفلة وعلى غير استعداد فأخرجته من تهودة، وابعد عن طبنة. وساء عبد الرحمن ما فعل الصفرية، وفت في عضده ارتدادهم، وكان قد خرج لمساعدتهم فلم يكن إلا في بعض جيشه، لم يستعد

استعداده من يعتمد على نفسه، وإنما أراد أن يحفظ ظهر أبي قرة، ويكون له مددا يقوي به، فها هو يجبر على الرجوع، وها هم الصفرية ينقض اغلبهم عنه فيقع في شراك هزارمرد فيفك عنه الحصار. فرجع عبد الرحمن بن رستم إلى تيهرت، على عزيمة هجوم آخر على هزارمرد يقوده الإباضية، ويعتمدون فيه على أنفسهم، لا الصفرية الذين كان الكثير منهم على الجهل والتحاسد. فصاروا لا يليقون لقيادة المعارك الكبرى. إن هذا الهجوم يجب أن يكون على القيروان عاصمة العباسيين التي تدبر لهم المؤامرات وتريد شرا بدولتهم الرستمية الجمهورية الناشئة.

وكان عبد الرحمن بن رستم قد أذن للإباضية في طرابلس بالثورة على عمر بن حفص لما سار إلى طبنة ليجعلها قاعدة هجوم على دولته، وصرح بالعدوان والشر لهم، فبايع الإباضية في طرابلس وجنوب افريقية أبا حاتم يعقوب بن لبيب الملزوزي إمام دفاع

يقودهم في حروبهم مع الملوكيين. وكان وكلن جمهور هذه النواحي: طرابلس وجنوب افريقية إباضية يتمسكون بالجمهورية الإسلامية، ويضطغنون على الملوكية، وعلى المنصور وعمر بن حفص الذي يحصن طبنة ليهاجم منها الجولة الرستمية التي هي دولتهم وحلمهم الكبير يتحقق في المغرب الأوسط. فثار الإباضية في طرابلس، وهزم أبو حاتم الملزوزي جيوش الملوكيين العباسيين. ووقع عمر بن حفص في أدهى مما خرج منه. إنما عاصم السدراتي والمسور بن هانئ الزناتي ومن معهم من الإباضية فقد استمروا على محاصرة طبنة وعلموا أنهم لا يستطيعون وحدهم احتلالها فرجعوا. قال ابن خلدون: "وضعف الإباضية عن حصار (طبنة) فأفرجوا عنها".

ظلم المؤرخين القدماء للمغرب

إن اغلب المؤرخين القدماء كتبوا فصول الصراع بين الجمهوريين والملوكيين في المغرب في العهد العباسي بروح ملوكية متعصبة، فصوروا المغرب على غير حقيقته في هذا الصراع الذي أراد به المغرب الرجوع إلى عهد الخلفاء الراشدين في العدل والمساواة وسياسة الدين، وتطهير المغرب من الملوكية الكسروية العباسية التي قتلت الإمامة الإسلامية التي جاء بها الدين، وتجبرت ووطأت المغرب برجلها، وعزمت أن يكون الأمازيغ الأباة كما يسول لها تحيزها للعرق أنانيتها خولا واتبعا تسوقهم بالعصا، وتجبرهم بالسيف على ما تريد!

أكاذيب الملوكيين على الجمهوريين

وكان هؤلاء المؤرخين الملوكيون يوجزون في هذه الأبواب إيجازا لا يبدي الحقيقة ويكتبونها بروح تدين المغرب، وتوحي بلومه، فيظلمون المغرب الظلم الكبير. وقد قلد كثير من المؤرخين المحدثين في المشرق والمغرب هذه المصادر الملوكية فاتوا في كتبهم بالمضحكات في هذا الباب، ولم يستعملوا عقولهم المثقفة فيه فيبدو لهم الصواب.

إن اغلب الكتب التاريخية القديمة المشرقية منها والمغربية قد ألف في عهد الملوك وتحت نظرهم فكانت دعاية لهم، ووسيلة لتشويه الدول الجمهورية المغربية، والثورات المغربية على الأمويين والعباسيين التي قصد المغرب بها إحياء الإمامة العادلة والجمهورية الإسلامية التي تتقيد بالدين في سياسة المسلمين، وينهج أئمتها نهج الخلفاء الراشدين.

ليت مؤرخينا المحدثين يتنبهون إلى هذه الحقيقة فلا يثقون كل الثقة بالمصادر الملوكية المغرضة لكي لا يشينوا كتبهم النفيسة بترديد أكاذيبها على المغرب الجمهوري، ولا

يفكروا ويحكموا كما أرادت تلك المصادر الملوكية أن يفكروا ويحكموا.

وكانت ثورة الإباضية عارمة. وكان قائدها هو أبا حاتم الملزوزي، فمن هو هذا البطل الذي شمر لإحياء الإمامة العادلة، والقضاء على الملوكية الكسروية، وماذا يقع لهزارمرد على يده؟؟



ثورة طرابلس وافريقية على العباسيين 154 هـ.

كان بنو العباس يبذلون كل جهد في القضاء على الدول الجمهورية المغربية الناشئة ويرونها خطرا على دولتهم، وآفة تهددهم بالزوال، وتجعل الشرق يرى جمال العدل والديمقراطية فيها، وجلال الدين الذي يتقيد به أئمتها وولاتها، فيزداد إدراكا لمرارة ظلمهم وعسفهم، فيثور عليهم، ويقضي على دولتهم الملوكية التي كانت تسيرها المصلحة الخاصة وحب الملك والسلطان، فأغرقت النواحي في دماء المعارضين لظلمها، والناكرين لسلوك ملوكها الذي يخالف الدين ويصيب الدولة الإسلامية بشر كبير.

ولما قضى أبو جعفر المنصور على الدولة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح في سنة الأربع وأربعين ومائة في طرابلس وافريقية، سلط محمد بن الأشعث الخزاعي قائد المنصور جنده المسعور على البربر في طرابلس وافريقية، وأطلق أيدي جنده في مدنهم وقراهم، فأغرقوها في الدماء، وارتكبوا فيها فظائع كثيرة تقشعر منها الجلود وتأباها النفوس المسلمة والمهذبة. وتتبع ابن الأشعث رجالات الإباضية الجمهوريين في تلك النواحي وزعماءهم وعلماءهم فقتل منهم عددا كبيرا، وقضى على كل من يأنس فيه معارضة للملوكية، والعمل لإحياء الدولة الجمهورية في المغرب، وبالغ في التنكيل والإرهاب في هذه النواحي التي نشأت فيها دولة أبي الخطاب الجمهورية ليقتلها في القلوب، ويضعف البربر ويذلهم فلا يرفعون رأسهم إلى المثل الأعلى الموروث من أجدادهم وهو إحياء الإمامة والجمهورية الإسلامية التي قتلها الأمويون والعباسيون ويعملون لتحقيقه. ولم يكتف ابن الأشعث بمجازره وفظائعه في طرابلس وافريقية فولى على طرابلس وجبل نفوسة اعنف رجاله، وافتك قواده، وأخشنهم، وأكثرهم جرأة وإقداما على سل السيف، الخارق بن غفار الطائي. فاستمر الخارق في قمع تلك النواحي، وأخذها بالشدة، وحكمها حكما عسكريا غاشما. ووطئ العباسيون تلك النواحي، برجلهم، ليرهبوها ويخضعوها، ويقتلوا حب الجمهورية الإسلامية في قلوب البربر، ويشغلوهم بالإذلال والقمع عن مثلهم الأعلى الذي يعمر نفوسهم: وهو إنشاء دولة عادلة ديمقراطية جمهورية تحي في المغرب الإمامة الإسلامية التي قتلها الأمويون والعباسيون في المشرق !

فظائع العباسيين في المغرب

وكان العباسيون لا يولون على طرابلس إلا القواد العسكريين، وإلا رجالهم الأقوياء ذوي العنف والشدة والصرامة، فبالغ أولئك الولاة في ظلم البربر واضطهادهم وكان من ولاتهم على طرابلس الجزيري. وكان يتنقل في إحياء البربر ومدنهم وقراهم قال

الشماخي: "وكان الجزيري يشترط على من نزل عليه من إحياء المسلمين (البربر) إلا يفلي لحيته إلا الجواري الحرائر من المسلمين! !".

وكان الجزيري يعلم احترام البربر للمرأة وغيرتهم عليها، وتأييد الإسلام لذلك في قلوبهم حتى صاروا مثلا أعلى في المحافظة على المرأة وحياطتها، وصيانتها، وإعزازها والتمسك بما أمر الدين به من حجابها وسترها. فأراد الجزيري أن يبالغ في إذلالهم وإيذائهم، فكان يأمر بناتهم الشواب الصغيرات المصونات العقيلات ذوات الهمة والرفعة والشرف أن يفلين لحيته، ويقمن في خدمته بعمل الإماء الذليلات المتبدلات السافرات. ويرغمهن بذلك على السفور والتبذل. ولابد أن يتعرضن هؤلاء الحرائر المصونات من أعمال الجزيري ورفقائه وجنده وطغيانهم لما هو أشنع من فلي لحيته وإزالة القذى عنها ومشطها وتسريحها. وانهال على الإباضية الجمهوريين من الملوكيين العباسيين في طرابلس وجنوب افريقية، وكان جمهورها إباضية، كل أنواع الظلم والاضطهاد ليضعفوهم فلا يفكروا ثانية في إنشاء دولتهم الجمهورية. ولكن البربر جنس قوي الشخصية، معتد بنفسه، ذو إباء وعزة وإرادة قوية، لا يثني من عزمتهم الاضطهاد والطغيان، ولا يزيدهم التحدي إلا إصرارا على مرادهم، والجاذبة إلا تمسكا بما في أيديهم. وقد أيد الإسلام الذي يورث للمرء عزته وإباءه وقوة نفسه تلك الوراثة فيهم وضاعف هذه الخصائص فصاروا بذلك كالشمس لا تزيدها السحب التي تغطيها لتطفئها شبوبا وزيادة في الإشراف! فازدادوا تمسكا بمثلهم الأعلى وهو إنشاء دولتهم الجمهورية العادلة التي تطهر المغرب من الملوكية وظلمها وغطرستها وتعصبها لنفسها وتشيع العدل والمحبة والإخوة بين المسلمين، ولم يزد العباسيون بظلمهم وجبروتهم واضطهادهم على أن اذكوا في نفوس أهل طرابلس وافريقية الشعور بمرارتهم، والحنين إلى حلاوة العدل والسياسة الإسلامية التي تمتعوا بها في دولة أبي الخطاب الجمهورية فازدادوا إصرارا على خلع الملوكية وإنشاء دولتهم الجمهورية. وكانوا شجرة كريمة لم تزودها الفؤوس التي هدمت منها إلا ازدهارا وشبابا وكثرة في الثمار.

وكانت طرابلس وافريقية في عهد عمر بن حفص قد ضاقت ذرعا بظلم العباسيين وكانت قد أفاقت من صدمة قتل أبي الخطاب وانهدام دولتهم، ومن إغراق ابن الأشعث لبلادهم في الدماء والدموع. فصممت على الثورة وخلع الملوكية، والانضمام إلى الدولة الرستمية الجمهورية التي نشأت في المغرب الأوسط. فصار الإباضية هناك يرقبون الفرصة وينتظرون إشارة أميرهم عبد الرحمن بن رستم رئيس دولتهم الناشئة. ولما فشلت ثورة الصفرية في المغرب الأوسط، واستطاع هزارمرد أن يفرق عن أبي قرة اليفرني

جيوشه، علم عبد الرحمن بن رستم أن الصفرية في المغرب لم يبلغوا النضوج والثقافة التي كانت للإباضية فيثبتوا في الميدان، ويقضوا على الملوكية في المغرب، ويحرروا المغرب الأدنى من ظلم والطغيان الذي كان ينصب عليهم من العباسيين. فعزم على القيام بثورة يعتمد فيها الإباضية على أنفسهم؛ فأذن لطرابلس وافريقية فثارت ومدهما بالجند وظاهرهما في ثورتهما.

وكان ذلك في سنة أربع وخمسين ومائة. وعمر بن حفص لازال في طبنة يعاني آثار الحصار الذي أصيب به، والمغرب الأوسط لا زال نارا تتأجج عليه، وأبو قرة لا زال بمن بقي معه من الجند يرقب الفرصة في طبنة لينقض عليها، وعمر بن حفص لا يزال كمن سقط من شاهق على أم رأسه، حطاما لم يسترجع قواه، ولم يقف كل الوقوف على قدميه. وكان مشغولا بمشاكله في طبنة لا يستطع مغادرتها، وكانت كتائب عاصم السدراتي، ومسور بن هاني الزناتي الإباضيين لا تزال رابطة حول طبنة تكشر عن أنيابها، فبودها أن يخرج هزارمرد من أسوار طبنة وقلاعها لتفترسه. انه في قلة من جنده. وكان الجو ملائما لثورة طرابلس فوافق عليها عبد الرحمن بن رستم. فاجتمع علماء طرابلس وجبل نفوسة وزعماؤهما فاتفقوا على الثورة واختاروا أبا حاتم يعقوب بن لبيب الملزوزي فعينوه قائدا عامنا، وبايعوه إمام دفاع يتولى شؤونهم الحربية، ويرأسهم في أيام ثورتهم، حتى إذا تم لهم ما يريدون فقضوا على الملوكية في نواحيهم، وانضموا إلى الدولة الرستمية، كان عبد الرحمن بن رستم هو رئيسهم وإمام دولتهم. فمن هو أبو حاتم الملزوزي ذ، وما أدواره في منازلة الملوكية في المغرب الأدنى والقضاء عليها؟

قضاء أبي حاتم الملزوزي على الملوكية في المغرب الأدنى 154 هـ.

نسب أبي حاتم وشخصيته

هو يعقوب بن لبيب الملزوزي ويكنى بابي حاتم. وقد نسبه بعض المؤرخين إلى هوارة. والحق انه من ملزوزة قبيلة بربرية بترية من فروع مغيلة قوم أبي قرة اليفرني. وكانت مواطن هذه القبيلة في المغرب الأوسط. وقد انتقل أبو حاتم أو أجداده إلى طرابلس فنزل في هوارة فصار ينسب إليها.

وكان أبو حاتم من علماء طرابلس وفرسانها الأبطال، وذوي التقوى والورع فيها، ومن ذوي التدبير والدهاء، فاختارته طرابلس لهذه الصفات لقيادة ثورتها.

وكان أبو حاتم فارسا بطلا لا يشق له غبار في الحروب، مع تقوى وورع تتحكم في سيفه، وتوجه حربه وتسيطر عليه. فإذا حارب العباسيين لظلمهم ومخالفتهم للدين تقيد في حربه بما أمر الله به في حرب المسلم الباغي.

وكان أبو حاتم من طبقة أبي الخطاب في الدين والورع، وفي التمسك بالجمهورية الإسلامية. وكانت ثورته لإحياء الإمامة العادلة التي تتمسك بالدين. ومن ثار للدين حتى قاتل في سبيله، لا تتغلب عليه أهواؤه فينحرف عن طريقه.

فأعلن أبو حاتم ثورته على العباسيين وكشر شرق طرابلس وجبل نفوسة عن الأنياب المصلتة، ثم انضمت إليهما افريقية. وأحس العباسيون في مدينة طرابلس وفي القيروان بمخالب الجمهوريين تهوي على رأس الملوكية في المغرب لتقتلها، فثاروا إلى السلاح.

حروب العباسيين مع أبي حاتم وهزائمهم

وكان والي طرابلس لعمر بن حفص هو الجنيد بن بشار الاسدي، فأرسل إلى أبي حاتم خمسمائة فارس تحت قيادة حازم[1] بن سلميان من اكبر قواد هزارمرد. فأسرع إليهم أبو حاتم فهزمهم، وقتل م الجند العباسي عددا كبير. فرجع حازم إلى الجنيد مهزوما.

وكان أبو حاتم الملزوزي مثالا في الورع والتقوى والتمسك بالدين. وكان إذا حارب البغاة من العباسيين ودافع ظلمهم وعدوانهم تقيد بما أمر الله به في محاربة المسلمين البغاة الذين يؤدبون بالحسام. وهو أن لا يغنم مالهم، ولا تسبى ذراريهم، ولا يجهز على جراحاهم، ولا يتبع مدبرهم الذي لا ينوي إعادة الكرة. وكان ككل الأمراء والقواد الإباضية في التمسك بهذه الأوامر، وعلى هذا الورع والعفة والتحرج في مال المسلم المحارب.

1 - ورد هذا الاسم في نهاية الأرب بالجيم جازم.

ولم يكونوا كالعباسيين والملوكيين الذين لا يتقيدون بالدين في هذا، يعاملون المسلمين الذين يحاربونهم معاملة المشركين، فيستحلون منهم كل شيء، ويرون ما لهم غنيمة فيحتجنونه، ويصلبون القتلى ويرتكبون في المحاربين المسلمين كل الموبقات !

روى الشماخي قال: "لما أرسل والي طرابلس (الجنيد بن بشار) خمسمائة ففارس إلى أبي حاتم فقاتلهم فهزمهم، تفقد أبو حاتم قتلى (العباسيين) فوجد بعضهم قد جرد فغضب وقال لجنده: إن لم تردوا أسلابهم اعتزلت ولايتكم! فردوا الأسلاب، وتابوا مما اقترفوا".[1]

نجدة هزارمرد لواليه في طرابلس

ولما انهزم جيش الجنيد والي طرابلس، ورجع إليه مدحورا، أرسل إلى هزارمرد في طبنة يستنجد به. قال النويري: "فكتب الجنيد إلى عمر يستمده، فبعث إليه خالد بن يزيد المهلبي في أربعمائة فارس، فاجتمع هو والجنيد فالتقيا مع أبي حاتم، فانهزم خالد والجنيد إلى قابس" ودخل أبو حاتم مدينة طرابلس فملكها، وصارت طرابلس كلها له إلى (قابس). قال النويري: "فبعث عمر بن حفص سليمان بن عباد المهلبي في جيش فلقي أبا حاتم في قابس، فقاتله فانهزم سليمان إلى القيروان" فرجع أبو حاتم إلى طرابلس فأقام بها شهورا، فنظم أمورها، وقام العمال على النواحي فيها، وطهرها من ظلم على الملوكية الكسروية في القيروان.

ثورة افريقية

وكانت افريقية كلها تغلي حقدا على العباسيين، فبودها لو ثارت منذ زمن بعيد لتتخلص من ظلم العباسيين وجبروتهم، وترجع افريقية إلى حظيرة الجمهورية العادلة التي ذاقوا حلاوة عدلها أيام انضمام افريقية إلى دولة أبي الخطاب التي نشأت في طرابلس، ولكن العباسيين كانوا أقوياء في القيروان، وجيوشهم وفيرة، وهم على استعداد للثورات، وقد حصنوا القيروان وخندقوا عليها، وأعلنوا حالة الطوارئ، فصار السلاح لا يفارقهم، وأمسوا على يقظة تامة وحذر كبير. ولما حوصر هزارمرد في طبنة، وثار أبو حاتم الملزوزي في طرابلس، ثارت افريقية أيضا فزحفوا على القيروان فخرج إليهم حبيب بن حبيب المهلبي خليفة عمر بن حفص في القيروان فقاتلهم فهزموا جيشه وقتلوه، وأغلقت القيروان أبوابها وتحصن فيها الجند المهزوم مع الملوكيين.

1 - كتاب السير للشماخي ص 134 ط البارونية.

حط المؤرخين الملوكيين من شأن البربر والمغرب الثائر على الظلم والكسروية

وكان أبو حاتم قد استعد. وكان جيشه يتكون من هوارة، ونفوسة، وزناتة، وانضمت إليه نفزاوة في جنوب افريقية، ومن ثار في وسط افريقية وشمالها، كما سار إليه أبو قرة اليفرني فيمن ثبت معه من جنده المخلصين، فبلغ جيش أبي حاتم ثلاثين ألفا ومائة ألف جندي. ولا صحة لما قاله المؤرخون الملوكيون من أن جيش أبي حاتم كان ثلاثمائة ألف وخمسين ألف جندي. إن هذه المبالغة قصدوا بها إيهام الناس أن أبا حاتم إنما تغلب على عمر بن حفص وقتله، وفض القيروان ودخلها لكثرة جيشه؛ لا لشجاعة وبطولة البربر الذين يقودهم. وإذا قصدوا كل الذين أيدوا أبا حاتم في ثورته وساعدوا جيشه من المدنيين، فإنهم أضعاف ما ذكروا لان المغرب كله على العباسيين. إن أبا حاتم تغلب على العباسيين وفتح القيروان ببطولة وبطولة جيشه لا بكثرتهم ! إن الحط من شان البربر والمغرب مما نعرفه في كتب الملوكيين المتعصبين الذين لا يتورعون عن قلب الحقائق وترديد الأكاذيب التي افسدوا بها التاريخ الإسلامي. ونرى بعض المؤرخين المحدثين المغاربة يثقون بهذه المصادر الملوكية فيقلدونها، ويغرفون منها بدون تمحيص، فيعقون أجدادهم، ويأتون بالمضحكات في كتبهم، ويزرون بأنفسهم، ويقدمون للمغرب طعاما وبيلا يورثه الهلاك ويشقق عصاه! !

محاصرة أبى حلتم للقيروان

فسار أبو حاتم بجيشه الكبير لفتح القيروان التي استعصت على الثوار في افريقية وللقضاء على الملوكية العباسية الظالمة في المغرب. فحاصر القيروان وقطع عنها الميرة وكل المواد الغذائية، وشدد عليها الخناق. ووقع الملوكيون العباسيون فيها في شر كبير وكان الخوف من أبي حاتم وجيوشه يهز فرائصهم بالرعب، ويذيبهم مع الجوع فوقعوا في داهية دهياء، وأمسوا في أيام عصيبة سوداء. فنقدت الميرة والأقوات فأكلوا الدواب والقطط والكلاب، وعم الغلاء الفاحش فيها فبلغت أوقية الملح فيها بدرهم! وكانت قلوبهم الغاصة بالرعب والهم والتشاؤم، وبطونهم الفارغة التي يعضها الجوع قد جمعت عليهم أسباب الفناء والذوبان، فأمسوا مهددين بالموت جوعا أو يستسلموا ربي حاتم، فيدخل القيروان، وتنهار الملوكية في افريقية التي ستمسك بها العباسيون. ودام الحصار شهورا وأبو حاتم لا يزداد إلا قوة بمن ينضم إليه، ولا تزيده الأيام إلا إصرارا على فتح القيروان، وجيشه ثابت حول القيروان يشدد عليها الخناق كأنه قد نبت في أماكنه

راسخا رسوخ الدوح الراسية في مكانها لا تفارقه! وكان عمر بن حفص في (طبنة) لا يستطيع مغادرتها لأنها لازالت مهددة، ولان المغرب الأدنى قد صار كله نارا! فالطريق إلى القيروان مملوءة بالأخطار، والبربر يرصدونه في كل طريق ليفتكوا به. وكان يرجو أن يكون ثورة المغرب الأدنى إعصارا يثور ثم يسكن، وبحرا يهتاج ثم يهدأ، وان يكون الإباضية الذين يقودون الثورة كالصفرية تضعف الأيام من حدتهم، فيملون الحرب ويتفرقون، أو يدب دبيب المنافسة والشقاق بينهم فيختلفون، فيجد فيهم فرصته؛ ولكن ثورة أبي حاتم لا تزيدها الأيام إلا تأججا، وقلوب البربر حول القيروان لكرههم للملوكية الكسروية، وتمسكهم بالجمهورية الإسلامية، والإمامة العادلة، تغلي ولا تزيدها الأيام إلا غليانا، كأنها مراجل مزبدة على مواقد لا تخبو نيرانها. وأجهد الحصار العباسيين فصاروا يخرجون إلى أبي حاتم فيستسلمون له. فأيقن عمر بن حفص باستسلام القيروان إن لم يسرع إليها. فاختار أشجع جنده، فخرج في نحو سبعمائة جندي لتخف حركته ويصل القيروان سريعا. وترك الباقي من جيشه في طبنة ليحرسوها من أبي قرة وقومه؛ وغادر هزارمرد طبنة مغامرات ليشق الطريق بكل وسيلة فيدخل القيروان. فاستخلف على طبنة المهنا بن مخارق بن غفار الطائي. وكان أبو قرة لا يزال في المغرب الأوسط يرصد طبنة، ويرقب فرصته فيها. فلما بلغه مسير هزارمرد منها اقبل بمن ثبت معه من يشه فحاصر المهنا بطبنة.

هجوم أبي قرة على طبنة ومحاصرتها

وكان المهنا بطلا صنديدا كابية. وكان أبو قرة قد فارقه الإباضية الذين آزروه وصار جيشه بهم قوة كبرى فلم يستطع هزارمرد الخروج إليها، وفارقه أيضا اغلب جيشه، فصار قوة يستطيع المهنا منازلتها، فخرج المهنا فاشتبك بابي قرة فهزمه وولي الأدبار، فاستباح المهنا معسكره فاخذ ما فيه. فعلم أبو قرة أن الصفرية وحدهم لا يستطيعون منازلة عمر بن حفص وجيوشه المدربة القوية.

انضمام أبي قرة إلى أبي حاتم في محاصرة القيروان

وكان أبو قرة بطلا ثابتا على مبدئه، قد عزم القضاء على الملوكية في المغرب والتخلص منها ولما هزمه المهنا لم يهن ولم يضعف، بل ازداد تأججا فأسرع بمن معه من الجيش فانضم إلى أبي حاتم. وارى أن أبا قرة قد سار وراء عمر بن حفص راجيا أن يصدمه أبو حاتم من أمامه، ويضربه هو من خلفه، فيقع هزارمرد بين نارين فيدرك فيه مناه.

حيلة هزارمرد للنجاة من أبي حاتم

وسار عمر بن حفص يريد القيروان حتى وصل مدينة (الاربس) بجنوب (الكاف)[1] فنزل فيها ليجتذب أبا حاتم عن القيروان فلا يتعذر دخولها عليه. فسمع أبو حاتم بنزول عمر بن حفص بالاربس. وكان يتحرق شوقا إلى لقاء عمر بن حفص، هذا الرجل الذي يعتد بنفسه، ويشمخ بأنفه، ويريه اعتداده بنفسه انه يستطيع احتلال المغرب الأوسط والقضاء على الدول الجمهورية، والوقوف في طريق المغرب فلا يحقق ما عزم عليه من الخروج من ربقة الملوكية إلى نعيم الجمهورية الإسلامية. فسار أبو حاتم بجيشه إلى الاربس ليصدم هزارمرد، وتقع بينهم المعركة الفاصلة هناك قبل أن يذهب إلى إحدى المدن الحصينة فيعتصم بها ويطول أمر القضاء عليه فيها... ولما قرب أبو حاتم من الاربس سار عمر بن حفص إلى شمال حتى وصل ناحية تونس متظاهرا انه يريد التحصين بها، ليبعد أبا حاتم عن القيروان فيستطيع سبقه إليها بجيشه الخفيف. فاتبعه أبو حاتم. فلما ابتعد عن القيروان، وامن عمر بن حفص الاصطدام به في الطريق أسرع المسير إلى القيروان في جيشه القليل الذي اثر أن يكون قليلا ليكون اخف حركة من جيش أبي حاتم الكبير فيبلغ ما يريد من السبق إلى القيروان. فكان له ما أراد. فسبق أبا حاتم إلى القيروان، فتفتحت له أبوابها. وخرج جميل بن صخر من القيروان لاستقبال عمر وإعانته فالتقوا ببئر السلامة. فأرسل عمر جيشه وكل أعوانه وأهل المدينة في المدن المجاورة للقيروان وفي القرى فاخذ كل ما فيها من ميرة وملح وحطب استعداد للحصار، فتزود بكثير مما يريد. وتقوت نفوس القيروان برجوع عمر بن حفص، وبما أنعشهم به من ميرة وطعام فاستعدوا للحصار. وحفر عمر خندقا على باب أبي الربيع فعسكر فيه جنده ليقاتلوا من ذلك الباب فلا يصل إليهم جند أبي حاتم يتغلبون عليهم. وغلقت القيروان أبوابها لما قرب منها أبو حاتم الذي اقبل في جيشه وهو محنق لإفلات عمر بن حفص واعتصامه بالقيروان، فحاصرها وشدد عليها الحصار، وطوقها بجنده، فأمست القيروان كالمشنوق الذي يطوق الحبل عنقه ليزهق روحه. ودام الأمر على ذلك شهورا.

محاشاة هزارمرد المعركة الفاصلة مع أبي حاتم الملزوزي خوفا منه

وكان عمر ين حفص يتحاشى الخروج إلى ظاهر القيروان والاشتباك بابي حاتم في معركة فاصلة لأنه يوقن بالهزيمة. إن البربر شجعان أبطال، ويزيدهم شجاعة كرههم للملوكية التي قضت على جمهورية أبي الخطاب وقتلته، وارتكبت فيهم كل الفظائع والمنكرات، وحنقهم على عمر بن حفص الذي استهان بهم ووطأهم برجله؛ فصار يفتح

1 - مدينة الكاف في الشمال الغربي للقطر التونسي اليوم.

أبي الربيع من أبواب القيروان وقد خندق عليه فيقاتل منه جند أبي حاتم ما رأى القتال في صالحه. فإذا رأى جيش أبي حاتم يكاد أن يتغلب عليه غلق باب المدينة فاعتصم بها. وجرت الأمور على هذا النحو شهورا.

محنة هزارمرد بالحصار

وكان عمر بن حفص يرجو أن يطول أمد الحصار فييأس أبو حاتم فينصرف عنه. ولكن أبا حاتم لا تزيده الأيام إلا إصرارا. وجيشه لا يزداد إلا قوة وتكاثرا بمن ينضم إليه. ونفذت الأقوات في القيروان. وضعف أهله وأجهدهم الحصار. فوقع عمر بن حفص في بلاء كبير. وضاعف البلاء عليه اعتداده بنفسه وإباؤه أن يرى نفسه سجينا في القيروان وهوة (هزارمرد) الذي لا يرضى أن يخفض احد هامته. ويوقعه في حصار كان شبيها بالأسر الذي يأباه أمثاله من الأبطال العظماء.

قال النويري: "ثم اقبل عمر حتى دخل القيروان. فبث خيوله حول القيروان. وجعل يدخل إليها ما يصلحه من الطعام والحطب وغير ذلك. واستعد للحصار. وخندق خندقا على باب أبي الربيع فعسكر فيه الجند. ثم قد أبو حاتم في جنود وقد بلغوا مائة ألف وثلاثين ألفا! فقاتله عمر بمن معه اشد قتال. فانكشف (عمر) حتى صار إلى الفسطاط. ثم اقتتلوا بالفسطاط واشتد قتالهم. وكاثروه حتى انحاز إلى الخندق بباب أبي الربيع.

وكان يخرج إليهم في كل يوم ويقاتلهم. فما زالوا على ذلك حتى فنيت أقواتهم وهلكت دوابهم والسنانير. فاضطرب على عمر أمره. وضجر أصحابه. وساءت آراؤهم (وتشاءموا من أنفسهم) فقال لمن معه من الجند: قد كان أصابكم من الجهد أمر عظيم حتى قدمت عليكم ففرج الله عنكم بعض ما كنتم في. وقد ترون ما أتم الآن فيه. فان شئتم حرجت أنا على ذارريهم وبلادهم وجعلت عليكم أي الرجلين شئتم جميلا أو المخارق. واخرج في ناس من الجند فأغير على نواحيهم وأتيكم بالميرة فقالوا: قد رضينا".

وكان عمر يريد المغامرة والخروج من نطاق الحصار. والهجوم على القرى والمدن المجاورة التي كانت كلها ثائرة عليه. فيضطر أبا حاتم إلى التخلي عن مكانه. وملاحقة عمر بن حفص بجيشه ليكف أذاه عن افريقية التي كانت كلها معه تناصره وتؤيده. فيستطيع أهل القيروان الخروج والتزود والاستعداد للحصار.

كان عمر بن حفص يريد أن يفعل ما فعل (سبيون) الروماني لما هاجم قرطاجنة وافريقية ليضطر حنبعل إلى فك الحصار عن روما والرجوع بجيشه إلى بلاده ليدافع

عنها وكان الخوف من أبي حاتم قد جعل أهل القيروان في أسوأ حال. وصاروا مع عمر كالطفل الذي يرتاع في الظلام فيلتصق بأمه ويختبئ في حجرها. ويأبى أن يتركه وحده للأغوال والسعالي التي تملأ خياله !

قال النويري: "فلما هم عمر بالخروج اختلفوا عليه. وقالوا. لا يجوز أن تخرج ونبقى نحن في الحصار! أقم معنا! قال: نعم أقيم معكم واخرج جميلا والمخارق ومن أحببتم. قالوا: نعم".

خوف المخارق والقواد العباسيين الأبطال من الخروج إلى أبي حاتم

وكان المخارق بن غفار الطائي وجميل بن صخر على بطولتهما وشجاعتهما على خوف كبير من أبي حاتم وجيشه. وكان المخارق يعلم أن صفحته سوداء في طرابلس. وان فظائعه في إباضية طرابلس من اكبر أسباب هذه الثورة العارمة. وان أبا حاتم وصحبه ليتمنون أن يخرج إليهم المخارق وصحبه من القواد العباسيين الذين اغرقوا طرابلس وافريقية في الدماء. وارتكبوا في الإباضية الجمهوريين كل فظيعة لأنهم يتمسكون بالإمامة الإسلامية العادلة ويأبون الملوكية العباسية المستبدة.[1] وان المخارق وصحبه هم بغية أبي حاتم. فإذا خرجوا فإنهم سيلتقمون. وتتخطفهم سيوف أبي حاتم ويمسون طعاما رخيصا مبتذلا لخشاش الأرض. فارتاع المخارق وجميل لما أمرهم عمر ابن حفص بالخروج إلى أبي حاتم والإغارة علي أطراف جيشه. وجره إلى ناحية بعيدة عن القيروان ليتمكن بقية الجيش من الخروج واخذ ما يمكنهم من الميرة وما يمسك رمقهم في الحصار.

قال النويري: فلما جاء المخارق وجميل بن صخر وصحبيهما إلى باب القيروان (ليخرجوا إلى أبي حاتم) قالوا: (لعمر) تقيم أنت في الراحة ونخرج نحن! لا والله لا نفعل! وغضب عم وقال: والله لأوردنكم حياض الموت) وكان عمر قد أيس وعضه الحصار فعزم على الخروج إلى أبي حاتم. وان يقدم أقدام اليائس الذي يعذبه الخوف فعزم أن ينهى عذابه بإلقاء نفسه في اليم. فزاده عصيان قواده وتمردهم عزمة على هذا لينتقم منهم. ويستريح من العذاب النفسي الذي هو فيه.

ارتياع المنصور من ثورة المغرب

وكان المنصور قد ارتاع لثورة المغرب الأدنى أيضا. ورأى ملوكيته في المغرب مهددة بالزوال. وكان يتتبع ادوار ثورة المغرب على الملوكية العباسية. وكان يرجو أن يستطيع

1 - نريد بالملوكية في هذا الجزء والذي قبله الملوكية المطلقة التي لا تتقيد بدين ولا دستور في سياسة الأمة وقد وقى الله مغربنا في هذا العصر من هذا النوع من الملوكية المطلقة الحاكمة بأمرها وحسب أهوائها.

عمر بن حفص بالدهاء تفريق المحاصرين له في القيروان كما فعل في (طبنة). فطال أمد الحصار، وأيقن المنصور أن عمر بن حفص لا يستطيع فك الحصار عنه والمحافظة على الملوكية في المغرب الأدنى، وان أبا حاتم منتصر عليه لا محالة، فأشفق من زوال الملوكية في المغرب الأدنى، وقيام دولة جمهورية تجاور مصر، وتبث حب الجمهورية الإسلامية والثورة على الملوكية فيها وفي المشرق كله. فعزم أن يرسل قوة عسكرية ضخمة يقودها اكبر قواده، وتكون مشتملة على اخلص جنده، وأشجع رجاله لينقذ عمر بن حفص الذي يعز عليه من الحصار، ويقض على أبي حاتم وعلى ثورته في المغرب الأدنى، ويحافظ على الملوكية في افريقية. فانتخب لقيادة هذه القوة العسكرية الضخمة، وهذا الجيش الجرار أعظم قواده، وأكثرهم حماسا وإخلاصا للملوكية، وأشدهم غيرة على عمر بن حفص وحزنا لما وقع فيه، وحرصا على إنقاذه مما هو به وهو ابن عم هزارمرد يزيد بن حاتم بن المهلب! فانتخب له ستين ألفا من أهل خراسان المخلصين الذين أنشأوا الدولة العباسية فصاروا يرضعونها، ويستأثرون بأغزر أثدائها فصاروا حريصين عليها، يقاتلون دونها مقاتلة الأبناء البررة عن أمهم الحنون إذا استغاثت وصرخت من العدو الذي هجم عليها فضاعفت الحماس والغيرة بذلك في أبنائها. وظاهر هذا الجيش بستين ألفا انتخبهم من أهل الكوفة والبصرة وأهل الشام. وأرسل إلى عاملة في مصر، والى عامله في برقة وأتباعه في طرابلس أن يحشدوا جيوشهم ويضموها إلى يزيد. وعلم الناس في المشرق بعجز هزارمرد عن فك الحصار عن نفسه، وإرسال المنصور ابن عمه لينقذه مما هو فيه.

بطولة زوجة هزارمرد وإباؤها

وعلمت زوجة هزارمرد خليدة بنت المعارك التي تركها في المشرق خوفا من قيام هذه القيامة عليه بما هم به المنصور، ورأت ذلك مما لا يليق بشهرة زوجها وصيته الكبير في عالم البطولة والفروسية، وأن يزيد إذا أنقذه فسيسلبه أيضا من لقبه ويحتل ذروته، ويكون زوجها كالضعيف الذي يحمله القوي على كتفه فيقطع به النهر الذي أعجزه. إنه بعد ذلك عند الناس اقل من الذي حمله. وان يزيد بن حاتم إذا أنقذ زوجها واخمد عنه النيران فانه يخمد شهرته ومجده أيضا. فيمسي هزارمرد وليس هو الذروة الشماء التي لا يعلوها شيء في البطولة كما كان، ولكن يزيد بن حاتم، فينتقل تاج البطولة والعبقرية الحربية من جبين زوجها إلى رأس يزيد. فتذهب روعة عمر وجماله الذي كان يفتنها، ويتضاءل زوجها في المجتمع وتتضاءل هي معه. فلا تعود زوجة اكبر فارس في الدولة العباسية، وأعظم قواد المنصور، ولا يعود زوجها محتفظا بمعنى لقبه (هزارمرد) الذي يفهمه الناس بأنه ألف رجل. وينطفئ معنى اللقب فلا يكون إلا زجاجة فارغة قد

انطفأ المصباح الذي كان يجعلها كوكبا مرموقا تهواه كل النفوس !

المرأة وأثارها في الرجل

إن المرأة أكثر من الرجل انقيادا للغريزة، والغرائز فيها أقوى لضعف عقلها الذي يضبطها، سيما غريزة حب الظهور، والغرام بالشهرة والصيت الواسع؛ فتراها تدفع زوجها وأبناءها ليحققوا بقوتهم ما تغرم به من مجد وشرف وصيت ولا تستطيعه لضعفها، وتراها تعد مجد زوجها وشرفه ورفعته مجدها ورفعتها، فتدفعها هذه الغزيرة فتكون اكبر دافع له إلى الشهرة الواسعة والمجد الرفيع! وإذا كانت المرأة ماجدة قد عودتها بيئتها الماجدة ووراثتها الزكية أن تشبع غريزة حب الظهور والشهرة فيها بالمعاني الرفيعة، وبلوغ الدرجات العالية، لا بالماديات والتوافه وبجمالها وحده، فإنها تكون هي قلب الرجل الزخار العامر بحب المجد فيغرم به، وأجنحته التي تحلق به إلى السماوات الرفيعة فيصلها، إن الوساد الذي تغفو فيه وتسترخي هو الذي يتيقظ فيه عقلك الباطن وينشط، فتستقر فيه كل الأفكار التي تنساب فيك معطرة مع الأنفاس العطرة، والمعاني الحريرية التي تسكب فيك في الحديث اللين فتصير أفكارك وعقائدك التي تسيرك في الحياة!

أن أفكارك الثابتة وعقائدك القارة التي لا تزلزل أيها الرجل هي من صنع امرأتين أمك في طفولتك، وزوجتك في الرجولة. ومن ادعى غير ذلك وقال انه لا اثر للمرأة فيه فهو جاهل بالنفس البشرية. يجب أن نختار المرأة في الزواج ونقصد الماجدات الفاضلات لا الجميلات فحسب والغنيات، فان معظم أفكارك أيها الرجل وعقائدك التي توجهك تولد في رأس زوجتك لا في راسك!

وكانت خليدة بنت المعارك فاضلة ماجدة فاذكت حب زوجها للمجد، ودفعته في درجاته فصار الذروة الشماء في البطولة والعبقرية الحربية، وحافظت على ذلك المجد ورأته هو روح الحياة، فإذا خلت منهم فهي الموت، لأنه ليس هناك فرق بين الميت الذي لا تراه العيون لمواراة القبر له، وبين الخامل الذي زالت نباهته فانصرفت عنه العيون فصارت لا تراه. وآثرت خليدة أن يموت زوجها موتة شريفة تشهد ببطولته في المعركة، وتزيده نباهة وفخرا، على أن ينزل من ذراه الرفيعة ويحتلها سواه.

وكان عمر بن حفص على إباء زوجته أن ينقذه سواه، وعلى غرامها بمجده، وتمسكها بمعنى اللقب العظيم (هزارمرد) الذي يعتز به، فعزم أن يموت شريفا، وآثرا الموتة التي تزيده بطولة على الحياة التي تكسفه.

قال النويري:"وجاء عمر بن حفص وهو محصور كتاب خليدة بنت المعارك امرأته تخبره فيه أن المنصور قد استبطأك فبعث يزيد بن حاتم إلى افريقية وهو قادم في ستين ألفا، ولا خير في الحياة بعد هذا! !

بطولة هزارمرد ومصرعه

قال خراش بن عجلان فأرسل إلي عمر وقد ثار عرق بين عينيه، وكان علامة غضبه، فأقراني الكتاب فدمعت عيناي فقال: مالك؟! فقلت: وما عليك أن يقدم رجل من اهلك فيخرجك من هذا الحصار؟ فقال: طلا خير في الحياة بعد أن يقال يزيد أخرجه من الحصار؟ إنما هي رقدة ثم ابعث إلى الحساب!" فأحفظ وصيتي قال خراش: فأوصى بما أحب، فخرج (إلى أبي حاتم) كالبعير الهائج! فلم يزل يطعن ويضرب حتى قتل، وذلك في يوم السبت للنصف من ذي الحجة سنة أربع وخمسين ومائة" وكانت مدته في الولاية أربع سنين إلا أياما.

وكان أبو حاتم وجيشه يرجون أن يخرج إليهم عمر بن حفص وجنده، فخرج إليهم فهبوا إليه، فدارت معركة رهيبة بينهما سقط فيها من جيش هزارمرد ومن جند أبي حاتم عدد كبير، فانهزم جيش عمر ووقع قتيلا في المعركة، وخارت قوى أهل القيروان بموت عمر وانهزام الجيش الذي كانوا يعتمدون عليه في الدفاع، فعزموا على الاستسلام، فولوا عليهم جميل بن صخر وهو اخو عمر لامه ليفاوض أبا حاتم في الاستسلام، ويضمن لهم بعض الحقوق، ففاوض جميل أبا حاتم في الاستسلام، واشترط أن لا يخلفوا طاعة سلطانهم ولا ينزعوا سوادهم" وان يظلوا ملوكيين يحافظون على الملوكية في افريقية، فأبى أبو حاتم قبول هذا الشرط لان ثورة المغرب العارمة التي يقودها إنما كنت للقضاء على الملوكية وظلمها وجبروتها، فهجم أبو حاتم على القيروان فحرق احد أبوابها، وثلم سورها، فدخلها عنوة واحتلها، فاستسلم أهلها فلم يقاتلوا أبا حاتم، وكان هو عفيف عن سفك الدماء فامسك عنهم، وتقيد بما أمر الله به من الكف عن المسلم الباغي المحارب إذا هرب هرب الخوف مستسلما واختفى في بيته.

عفة الإباضية وتمسكهم بالدين في الحروب

وكان الإباضية مثالا في العفة والتقيد بما أمر الله به في دماء المسلمين، ولو كان المحصورون هم الإباضية، ودخل عليهم الجند العباسي لأغرقوا القيروان في الدماء، وارتكبوا في المدنيين كل الفظائع لان الأنانية وحب الدنيا، وحب النفس الذي يعمر القلوب بالحقد والعصبية الضيقة هو الذي يسيطر على الملوكيين لا الدين وحب المغرب.

ومما اشترطه جميل بن صخر وطلبه من أبي حاتم ليسلم له القيروان فلم يجبهم إليه: أن لا يكرهوا أحدا من الجند على بيع سلاحهم ودوابهم، وكان بهذا يريد أن يظل الملوكيون مسلحين ليثوروا على أبي حاتم إذا وجدوا الفرصة، وكان العباسيون في القيروان يعلمون أن صفحتهم ملطخة بالدماء الحرام التي سفكوها في عهد محمد بن الأشعث والأغلب بن سالم في المغرب الأدنى، وان البربر حنقون عليهم، ولا بد أن يقتص أبو حاتم منهم، ويعاقبهم على جرائمهم، فخاف المخارق بن غفار الطائي ومن معه من الذين اغرقوا المغرب الأدنى في الدماء، وارتكبوا فيه الفظائع الكبرى من القصاص، فطلب جميل بن صخر من أبي حاتم في مفاوضات الاستسلام أن لا يأخذ الجند العباسي على من قتلوا من البربر وسفكوا من الدماء في الماضي، وكان أبو حاتم كريما ومحبا لحقن دماء المسلمين، فأعطاهم هذا الشرط، ووفى لهم به، وأبقى على المخارق وصحبه، رغم احتلاله القيروان عنوة، وعدم استسلام العباسيين، وقد ذكر النويري في نهاية الأرب هذا الطلب من أبي حاتم وإجابته، ووفائه به.

وكانت مدة حصار أب حاتم للقيروان ثمانية أشهر، ثم فضها بالحسام، وقضي على الملوكية الكسروية المستبدة في المغرب!

عدل أبي حاتم وإحسانه وتقيده بالدين

ودخل أبو حاتم القيروان فأشاع العدل والمساواة والديمقراطية الإسلامية فيها وزالت الملوكية وغطرستها وظلمها من افريقية والغرب الأدنى، وساسها أبو حاتم كما أمر الدين، وبالعدل الذي أوجبه على الولاة، فعين الولاة على النواحي، فتنفست افريقية الصعداء في ظل العدل والديمقراطية الإسلامية التي عدمتها وحرمت منها منذ غزاها العباسيون وحكموها حكما عسكريا غاشما.

وكان أبو حاتم يعرف أم الملوكيين لابد أن يثوروا عليه إذا وجدوا فرصتهم، فأمر الجند العباسي بالخروج من افريقية ومن القيروان لكيلا تحدث القيروان الحصينة نفسها بالثورة عليه، فساروا إلى طبنة بعيدا عن افريقية، وعلى قرب من المغرب الأوسط المستقل الذي سيراقب حركاتهم، ويدهمهم إذا بدالهم أن يثوروا في طبنة، وأحسن أبو حاتم إلى جند العباسي الذين أمرهم بالخروج، فأعطى لكل منهم زاد وما يحتاجه في سفره من أداة، ولم يجردهم إلا من السلاح الذي يثورون به، وكان أبو حاتم عادلا متقيدا بالدين حتى مع أعدائه.

خروج أبي حاتم لصد يزيد ابن حاتم عن طرابلس

وكان يزيد بن حاتم يزحف في جيوشه الجرارة من المشرق نحو المغرب الأدنى ليعيد احتلاله، ويحي في افريقية الملوكية التي قضى عليها أبو حاتم. فعلم أبو حاتم بزحفه، فجهز جيشه فخرج إلى طرابلس لملاقاته. فاستخلف على القيروان وافريقية عبد العزيز بن السمح المعافري، ولعله اخو أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح، وترك معه عددا قليلا من الجيش لان أبا حاتم كان في حاجة إلى جيشه كله لملاقاة يزيد بن حاتم الذي يزحف في جيوش جرارة كانت في العدد أكثر من جيش أبي حاتم. والظاهر أن أبا قرة والصفرية الذين لاحقوا هزارمرد لما خرج من طبنة ثم انضموا إلى أبي حاتم وحاصروا القيروان معه، قد رجعوا إلى المغرب الأوسط لما قتل عمر بن حفص واحتل أبو حاتم القيروان وقضى على الملوكية، فبلغ أبو قرة وصحبه مناهم، وارى أنهم لم يشتركوا في المعركة الكبرى التي وقعت في طرابلس بين أبي حاتم الملزوزي ويزيد ابن حاتم، فلو اشترك فيها لذكره المؤرخون، ولا يمكن أن يغفلوا ذكر شخصية بارزة كابي قرة، سيما وقد انتصر الجيش العباسي في هذه المعركة فلو كان فيها أبو قرة لذكروه للإشادة ببطولة يزيد بن حاتم الذي انتصر على بطلين، وهزم جيشين، جيش أبي حاتم، وجيش أبي قرة. ونحن نعرف أن من عادة المؤرخين الملوكيين تمطيط وتضخيم كل شيء يورث الفخر لملوكهم، وتصغير وتغطية ما عدا ذلك من مناقب ومآثر الجمهوريين الإباضية وغيرهم.

ثورة الملوكيين في القيروان على أبي حاتم

وكان المخارق بن غفار الطائي، وجميل بن صخر اخو هزارمرد لامه، والجنيد ابن سيار وغيرهم من القواد العباسيين الذين أحسن إليهم أبو حاتم وأبقاهم في افريقية وصفح عن جرائمهم وسفكهم للدماء في طرابلس وغيرها؛ كان هؤلاء وغيرهم من الملوكيين يرقبون الفرصة للثورة على أبي حاتم واسترجاع القيروان وإحياء الملوكية فيها.

وكان الملوكيون العباسيون المتعصبون قد ساءهم أن تخرج الرئاسة منهم في افريقية، وتزول الملوكية الأثيرة التي كانوا يرضعونها ويحققون في ظلها كل أغراضهم الخاصة، ويتحكمون بها في رقاب المغرب كما يريدون، ويستبدون عليه كما يشاءون وجرح نفوسهم، وملأ صدورهم هما أن يرأسهم أبو حاتم وهو غير قرشي ولا مشرقي ويسوى بينهم وبين غيرهم بعدله وسياسته الدينية التي حققت الديمقراطية الإسلامية في المغرب، وهم عند أنفسهم خاصة ممتازة خلقها الله زهورا وثمارا ممتازة لا تكون إلا في أعلى الشجرة ولا يجوز أن تسوى بحطبها ! وجعلهم نجوم السماء، ومن عداهم حصباء

الوادي، فلا ينبغي أن يجعلوا في درجة واحدة، ويحشرهم أبو حاتم مع غيرهم، وينظر إليهم نظرته الدينية الديمقراطية، فيراهم من جملة أهل المغرب، ويعاملهم بما يعامل به رعيته.

وكان الملوكيون في القيروان وافريقية يرقبون الغرة للثورة حتى خرج أبو حاتم بجيشه إلى طرابلس لملاقاة يزيد بن حاتم، فخلت القيروان وافريقية من الجيش، وسمعوا بزحف يزيد بن حاتم، فتقوت نفوسهم، وراجعهم تفاؤلهم، وعزموا على الثورة إذا وصل يزيد بن حاتم فاشتبك بابي حاتم في المعركة الفاصلة.

وكان أبو حاتم ذكيا يعرف نوايا العباسيين في القيروان، فلما خرج بجيشه أرسل إلى عامله على القيروان وافريقية عبد العزيز بن السمح المعافري أن يجرد من بقي في القيروان من الجند العباسي ومن الملوكيين من سلاحهم، وان يرسل بالجند إليه متفرقين لكي ى يشقوا عصا الطاعة في طريقهم فيثوروا، وان يراقبهم في القيروان، فلا يتركهم يجتمعون في مكان واحد فيتآمرون عليه، وتحدثهم نفوسهم بالثورة والعصيان. فعلم الجند العباسي والملوكيين في القيروان بتجريدهم من السلاح وإرسالهم إلى أبي حاتم، فعلموا أن هذا يبطل الثورة التي عزموا عليها، فاجتمعوا وعزموا على تقديم ثورتهم، فقدموا على أنفسهم عمر بن عثمان الفهري، فثار في القيروان، وقتل جماعة كبيرة من أصحاب أبي حاتم واستولى عليها، وأعلن فيها الملوكية، وارجع إليها سواد العباسيين. فسمع أبو حاتم بما وقع، فرجع من طريقه، فكر على القيروان، فسمع عمر بن عثمان والمخارق بن غفار ومن معهما من القواد والجند العباسيين برجوع أبي حاتم إليهم ففروا هاربين إلى تونس لأنهم يعلمون أن أبا حاتم لا يستطيع أتباعهم لزحف يزيد بن حاتم وقربه من حدود المغرب.

فرار عمر ابن عثمان والمخارق إلى كتامة واستنجادهما بها

وهرب جميل بن صخر اخو هزارمرد لامه واحد ضباطه الكبار، و الجنيد بن سيار من ضباط هزارمرد ومن معهما من الجند إلى المشرق فانضما إلى يزيد بن حاتم. فدخل أبو حاتم القيروان، فلم يتعرض بأذى للملوكيين المدنيين العزل الذين صفقوا للثورة وأيدوها ولكن لم يحملوا فيها سلاحا، وأرسل جيشا بقيادة جرير بن مسعود المديوني الصفري لملاحقة عمر بن عثمان والمخارق بن غفار الطائي ومن معهما من الملوكيين الذين سفكوا الدماء الحرام، وقتلوا أصحاب أبي حاتم المدنيين، وارتكبوا الفظائع فيهم، ففر عمر بن عثمان والمخارق ومن معهما إلى جبال كتامة في ناحية (جيجل) بشمال قسنطينة فاستنجدا

بأهلها فانجدوهما وكون عمر بن عثمان منهم جيشا، فكشر عن أنيابه، وراجعته قوته. وكان بطلا صنديدا، قائدا كبيرا، وكان جند كتامة الأبطال يذكون بطولته، ويضاعفون قوته. فكر هو المخارق بن غفار على جرير بن مسعود المديوني من الصفرية الذين كانوا مع أبي حاتم في افريقية في محاصرة القيروان. فوقعت بينهما معركة كبرى سقط فيها من الطرفين عدد كبير من الجند. وكان جيش كتامة أقوى وأنشط وأكثر عددا. وكان جيش جرير بن مسعود قد أنهكته الحروب مع عمر ابن حفص، وملاحقة عمر بن عثمان والمخارق بن غفار؛ فانتصر عمر بن عثمان على جرير ابن مسعود المديوني. وكانت الدائرة له.

بطولة جرير ابن مسعود المديوني واستشهاده

وكان جرير بن مسعود المديوني بطلا صنديدا، فلم تفرغه قوة كتامة وبطولتهم وصعوبة جبالهم التي يقاتلهم فيها فيولي الأدبار، ويفر كالمخارق وصحبه، بل ثبت في المعركة هو وجنده، فقاتل حتى قتل هو وجماعة كبرى من جيشه! فسر عمر بن عثمان والمخارق بهذا الانتصار، وعلما أن افريقية قد صارت لهما، فزحفا عليها فدخلا تونس ثم احتلا القيروان فجهزا منها جيشا كبيرا فسار إلى طرابلس فانضم إلى يزيد بن حاتم الذي عسكر في سرت.

قال النويري: "وبلغ أبا حاتم الملزوزي قدوم يزيد بن حاتم فتوجه إلى طرابلس واستخلف على القيروان عبد العزيز بن السمح المعافري، ثم بعث إليه أبو حاتم بأمره بأخذ سلاح الجند (العباسي)، وان لا يجتمع منهم اثنان في مكان واحد، وان يوجه إليه بهم واحدا بعد واحد، فاجتمعوا واستوثق بعضهم من بعض بالإيمان المؤكدة إلا يرضوا بهذا! وقويت قلوبهم بيزيد بن حاتم، فلقوا عمر بن عثمان الفهري واتفقوا معه، وولوه أمرهم فقبله، وقام على أصحابه أبي حاتم فقتلهم، واتصل ذلك بابي حاتم، فزحف من طرابلس (ففر) عمر بن عثمان وأصحابه نحو تونس، ومضى جميل بن صخر والجنيد بن سيار هاربين نحو المشرق. (ووجه) أبو حاتم قائدا من قواده يقال له: جرير بن مسعود المديوني، فأدرك عمر بن عثمان (بجيجل) من ناحية كتامة فقاتلوه، فقتل جرير وأصحابه، فانصرف عمر والمخارق فدخلا تونس... ولحق جميل صخر بيزيد وهو بسرت فأقام (معه) إلى أن لقي أبا حاتم. ويقال انه كان بين الجند (العباسي) والبربر من لدن قتالهم عمر بن حفص إلى انقضاء أمرهم ثلاثمائة وخمسة وسبعون وقعة".[1]

1 - نهاية الأرب للنويري ج 22 نسخة مصورة في دار الكتب المصرية.

هجوم جيوش يزيد على أبي حاتم وانهزامها

قال الشماخي: ووصل يزيد بن حاتم (إلى سرت) عام خمسة وخمسين. وكان في ستين ألفا من أهل خراسان، وستين ألفا من أهل البصرة والكوفة والشام. وانضم إليه الجند الفارون من افريقية، ومن أمده من قبائل (المغرب) ويوسف الفرطيطي وعمر بن مطكود النفوسي، وجماعة من قبائل البربر من هوارة وغيرهم" فصار يزيد في جيش عرمرم يزيد على مائة ألف وخمسين ألفا، وهو أكثر من جيش أبي حاتم في العدد. وجعل يزيد على مقدمته سالم بن سوادة التميمي، فزحف سالم في جيش كبير فاستقبله أبو حاتم في (مغمداس) بسرت، فدارت بينهما معركة كبرى قتل فيها من الطرفين عدد كبير، فكر أبو حاتم في جنوده الشجعان على جيش سوادة فمزق صفوفه، وقتل منهم ستة عشر ألفا، وهزمهم شر هزيمة، فولى الجيش الملوكي الأدبار، ورجع سالم إلى يزيد منهزما، فارتاع يزيد من هذه الهزيمة، وعلم انه لا يستطيع أن ينال من أبي حاتم ويتغلب عليه إلا إذا هاجمه بكل جيوشه التي تنصب عليه وتحيط به من كل أطرافه، ونازله بقوة عسكرية وبجند غزير يكون أكثر من جيش أبي حاتم بكثير. فعبأ جيوشه الجرارة وسار إلى أبي حاتم.

إيثار أبي حاتم لجبال نفوسة لمناعتها

وكان أبو حلتم يعلم عبقرية يزيد بن حاتم الحربية، وقوة جيشه، ويعلم أن المنصور قد رماه بأكبر جيوشه، وبأقصى ما يملك من قوة، ويعلم قلة عدد جنده إمام جيش يزيد، وتعبهم وضعفهم بالحروب المتواصلة التي استمرت عامين؛ فآثر أن ينازل يزيد في أماكن وعرة، وفي نواح عامرة بأنصاره ليسندوه ويحفظوا ظهره، فلا تحيط به جيوش يزيد الجرارة، وفي مناطق جبلية ليحارب فيها حرب العصابات إذا تغلب عليه يزيد. فتأخر إلى جبال نفوسة، وهي بقاع واسعة ومدن عامرة، وجبال شاهقة. وكانت كلها إباضية. وكانت نفوسة في الشجاعة والثبات وكره الظلم والاستبداد العباسي لا نظير لها، فآثر أبو حاتم أن يكون بينهم ليستعين بجبالهم الوعرة التي تعصمه، وبشجاعتهم وإخلاصهم وثباتهم في الحروب. ونزل أبو حاتم في مكان وعر يجعله المتحكم في بدء المعركة، وخندق على نفسه لكثرة جيوش يزيد وقلة جيوشه هو. فوصل يزيد بن حاتم في جيوشه الجرارة إلى جبال نفوسة، وخاف من مهاجمة نفوسة له من ورائه إذا وقعت المعركة. فنصحه عمر بن مطكود النفوسي الذي كان مع الجيش الملوكي أن يستند إلى جبال (جندوبة) المنيع ويقي به ظهره. وهجم يزيد بن حاتم في جيوشه، وتولى هو قيادة المعركة، فوقعت معركة قاسية أغرقت ساحات القتال في الدماء، وتكدست فيها جثث القتلى، وقتل فيها من الطرفين عدد كبير. وأحاط يزيد بن حاتم في جيوشه الجرارة بابي حاتم وصحبه،

فكسر أبو حاتم وصحبه أجفان سيوفهم، وعزم الاستشهاد والموتة الكريمة. فقاتل حتى قتل !

بطولة أبي حاتم وخاصته واستشهادهم

ورأى المغرب منظرا رابعا من مناظر البطولة والثبات مع منظر عقبة، وزهير وأبي الخطاب! وتعطرت تربة المغرب بدماء أبي حاتم الزكية، فكانت ريا لعروق الجمهورية الراسخة في تلك البقاع، وانطفاء للملوكية الكسروية التي تريد أن تجعلها تحت إقدامها. وتعلق بقية جيش أبي حاتم بالجبال. فتم للجيش الملوكي النصر الكبير على الجيش الجمهوري الذي يناصر الإمامة الإسلامية ويريد للمغرب سياسة تنبع من الدين الذي يضمن للأمة العدل والديمقراطية والمساواة. وتنفس يزيد بن حاتم الصعداء، وزال الهم والحيرة والقلق من صدره لما رأى أبا حاتم يتشحط في دمائه، والسيوف قد أثخنته، والجروح الكثيرة تجلل جثته بالدماء،ورأى جيشه ينهزم.

فظائع الجيش الملوكي العباسي في الجمهوريين المدنيين العزل

فأمر جيشه ففاض على مدن جبال نفوسة وقراها فقتلوا من الإباضية الجمهوريين مقتلة كبرى، وأطلق أيديهم في المدنيين العزل فاغرقوا بدمائهم تلك النواحي. وبلغ من قتله في جبل نفوسة ثلاثين ألفا ليكسر شوكتهم ويضعفهم، ويملأ بالرعب واليأس قلوبهم، ويزيل منها حب الإمامة الإسلامية فلا تحدثهم نفوسهم بالثورة على الملوكية ومناهضتها، ولكن البربر جنس كريم قوي ى يزيده الطرق إلا حرارة ومضاء، ولا تزيد المطارق التي تنهال عليه انهيالها على كتل الحديد الصلب على أن تخلق نيرانه ! ورابط يزيد بن حاتم في جبال نفوسة شهرا وهو لا يرفع السيف عن تلك البقاع. وكان يتتبع النواحي، ويستقصي الجهات فيقضي على الشخصيات البارزة وعلى كل من يأنس فيه قوة نفس ويخاف أن يثور عليه. وكان يقصد بهذه المجازر مع قمع الجمهوريين وإزالة شوكتهم اخذ ثأره من الجمهوريين الذين قتلوا ابن عمه عمر بن حفص وعفروا جيوشه بالهزائم.

ولاية سعيد ابن شداد على طرابلس

ولما شفي نفسه، واروي غليله من جبال نفوسة، وبلاد هوارة في شرق طرابلس، وارضخها بالسيف، استعمل على طرابلس رجلا عسكريا صارما قوي الشكيمة هو سعيد ابن شداد، وسار هو إلى القيروان فدخلها لعشر خلون مكن جمادى الثانية سنة خمس وخمسين ومائة.

وكانت المعركة الفاصلة التي ستشهد فيها أبو حاتم قد وقعت لثلاث بقيت من شهر ربيع الأول خمس وخمسين ومائة. وكانت مدة أبي حاتم في إمامة الدفاع سنة وستة أشهر. لقد كانت ولايته في أول سنة أربع وخمسين ومائة. واستشهاد في منتصف سنة خمس وخمسين ومائة. فطويت بموته صفحة من صفحات البطولة المغربية الممتازة. وقد عده صاحب كتاب (مفاخر البربر) من مفاخر البربر الكبرى، ومن فرسانهم الصناديد. واثني عليه الثناء ! ودفن أبو حاتم في (ككلة) بين يفرن ومديرية الاصابعة في جبل نفوسة. وقبره مشهور هناك. وشاهد الناس النور يغشى مكان قبره دهورا طويلة، وذلك لصلاحه وتقواه، عمله لله لا لنفسه، وثورته لإحياء الإمامة العادلة التي تتقيد بالدين في سياسة المسلمين!

وكان يزيد بن حاتم قد استطاع على ثورة أبي حاتم الجمهورية أن يرضخ المغرب الأدنى لسلطان العباسيين. أما جمهور المغرب الأوسط والمغرب الأقصى فلم يستطع السير إليهما لان الدول الجمهورية المغربية هناك كانت راسية العماد، والجمهوريون في تلك البقاع مصممون على الموت في سبيل دولهم. وكانوا في البطولة والقوة الحربية، وفي كثرة العدد بحيث لو سار إليهم يزيد بن حاتم لكان مصيره مصير عمر بن حفص لما قتل علي على باب القيروان، ووطأته خيل أبي حاتم بسنابكها. واكتفى يزيد لن حاتم بالمغرب الأدنى الذي كان يضطرب اضطراب النمر الهائج إذا قبض عليه ليوضع في قفص الحديد.

ثورة المغرب كانت لإحياء الجمهورية الإسلامية العادلة والقضاء على الملوكية العباسية المستبدة

وكانت سنة أربع وخمسين ومائة، والنصف من السنة التي بعدها دهورا حمراء بما سفك فيها من الدماء. وكان الصراع فيها بين المغرب الأبي المسلم يتمسك بالإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية، وبين العباسيين الملوكيين الذين يريدون إخضاع الرقاب لهم بقوة السيوف، والذين اغتصبوا الرئاسة بالقوة، ثم ساروا سيرة متجبرة في الدولة فلم يتقيدوا في السياسة بالدين، بل صرفوا الأمور حسب الهوى والمصلحة الخاصة.

امتزاج الدماء العربية بالدماء البربرية في المغرب واتحاد المسلمين

إن الصراع في هذه الحروب كان بين الجمهورية الإسلامية المخلصة العادلة، والملوكية الكسروية المستبدة التي يأباها المغرب ويخشى شرورها؛ ولم يكن بين البربر والعرب كما يقول المستعمرون الدساسون الذين يبثون التفرقة في صفوف المسلمين، ويسممون

المغرب بهذه الأكاذيب! لقد امتزجت الدماء العربية في هذه العهود بالدماء البربرية، وامتلأ المغرب إيمانا بالدين، وأشرق بالثقافة الإسلامية، واثر فيه الدين كما اثر في المشرق، فصارت نفوس البربر واتجاههم كنفوس العرب واتجاههم وصار العرب والبربر شعبا واحدا ممتزجا متحدا متآخيا قد صبغهم الدين الإسلامي بصبغة واحد فكانوا في التشاكل والتماثل الذي يخلق المحبة والإخوة الراسخة نجوم السماء التي تصبغها الشمس وتسرجها بنور واحد فتمسي متضاحكة مستبشرة متعانقة في أديم السماء!

أكاذيب الملوكيين والمستعمرين على المغرب

لم يكن ثورة البربر على العباسيين لحب البربر للفوضى كما ادعى الرومان والروم المستعمرين على البربر أيام ثوراتهم التحررية عليهم، وادعى ذلك الملوكيون الأمويون والعباسيون أيضا، فقلدهم الجهلة من المؤرخين المحدثين فوصفوا البربر _وهم أجدادهم- ومن أصولهم الزكية التي أورثت للمغرب بطولته وصموده وخصائصه العظيمة! وصف أولئك المقلدون الجهلة أجدادهم بما هم منه بريئون، وبعكسه متصفون.

إن ثورة المغرب على العباسيين كانت ثورة إسلامية سامية يريد بها إحياء الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية التي تسعده، والتي جاء بها الدين، والقضاء على الملوكية الكسروية المستبدة التي شققت عصا المسلمين، وكانت مرارة لظلمها واستبدادها وأنانيتها شقي بها المشرق والمغرب، وغرق في الدماء والشقاق والنكبات.

ومن العجيب أن بعض المؤرخين الملوكيين المتعصبين الذين لا يحسنون فن الكذب فيكذبون كذبا مفضوحا عاريا للحط من شان المغرب والإزراء ببطولته وشجاعته، قد ادعوا أن المعركة الفاصلة المهولة العنيفة التي وقعت بين أبي حاتم الملزوزي ويزيد بن حاتم لم يقتل فيها من الجيش العباسي إلا ثلاثة نفر وقتل فيها العباسيون من البربر ثلاثين ألفا! ! فجعلوا بذلك البربر وهم اسود الشرى، وفرسان الطعان، وأحلاس الحروب جرادا مبثوثا يقع فيه من يقتله فيفتك به كما يريد! ![1].

إن اغلب كتب التاريخ الإسلامي القديمة مملوءة بهذه الأكاذيب الملوكية التي يراد بها الحط من شأن الجمهوريين، سيما الذي على الملوكية الأموية والعباسية وتحرر منها، وأنشأ دوله العادلة الجمهورية التي أسعدته، والتزمت فيه دين الله. فلنحذر، ولا نثق بكل ما ورد في تلك الكتب التي ما بقيت ووصلتنا إلا لرضى الملوك عنها ومسايرتها لأهوائهم.

---

1 - المراد بالجراد هنا هو الدبي وهو صغار الجراد الذي لا يطير.

عاصم السدراتي وقضاء الملوكيين عليه بالسم:

وكان من الأبطال الذين قادوا ثورة المغرب الجمهورية على الملوكية العباسية، وكانوا الموت الزؤام للملوكيين المستبدين، ومن أقطاب الإباضية فغي المغرب الأوسط وأعيانهم، عاصم السدراتي! !

نسب عاصم السدراتي وشخصيته

وكان عاصم السدراتي احد طلبة العلم الخمسة الذين أوفدهم الإباضية في المغرب إلى الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة لينضجوا على يده، فيتولوا إنشاء الدولة الجمهورية التي عزموا على إنشائها في المغرب.

وكتم عاصم السدراتي من قبيلة سدراتة، وكانت مواطنها بالمغرب الأدنى في شمال أوراس وجنوبه، وكان من علماء المغرب الكبار، ومن أهل التقوى والروع والزهد، وكان مع هذا فارسا من فرسان المغرب، وقائدا حربيا من قواده المحنكين، وهو الذي سار في ستة آلاف من الإباضية فحاصر عمر بن حفص في طبنة مع أبي قرة اليفرني، ولما فشل حصار الصفرية(لطبنة) سارع بجيشه إلى أبي حاتم الملزوزي الذي زحف على القيروان فانضم إليه؛ فكان من اعضاد أبي الكبار، ومن قواده العظام، ومن ذوي الرأي والحماس الذين يشعلون نار الثورة والكراهية للملوكية في قلوب المغرب، وكان الملوكيون في القيروان يرونه شرا عليهم من جيوش كثيرة تهاجمهم وكانوا يعرفون انه قوة لأبي حاتم، وعمدة الجمهوريين الإباضية، وان القضاء عليه سيرزي أبا حاتم في امتن اعضاده، ويغيظ الجمهوريين ويدمي قلوبهم، ولم يستطيعوا القضاء عليه بالحسام لانحصارهم في القيروان، ولخوفهم من الخروج إلى أبي حاتم وصحبه، ولشجاعة عاصم وبطولته، فعمدوا إلى الدس والمكيدة، وأرسلوا جواسيسهم يرقبون الفرصة في عاصم السدراتي.

مكيدة الملوكيين لقتل عاصم السدراتي

وكان عاصم قد مرض فاشتهى قثاء فعلم بذلك جواسيسهم فسموا قثاء طرية حسنة وأعطوها لأحد الباعة الذين يتجولون في معسكر أبي حاتم يبيعون لهم الخضر وغيرها، وكان هذا البائع المتجول من جواسيسهم فصار ينادي بقثائه قريبا من منزل عاصم والمكان الذي يمرض فيه، فأسرع أصحابه فأعطاهم البائع من القثاء المسمومة، فأكلها عاصم فتوفي رضي الله عنه، وقد سر الملوكيون بالقضاء على عاصم فشمتوا بالجمهوريين، روى الشماخي عن ابن سلام قال: "كان عاصم السدراتي من اشد الناس

على الأعداء مع أبي حاتم وسموه في قثاء ونادوا من فوق السور أين عاصم السدراتي؟ قتلناه! !".

وكان عاصم قد استقر بعد نشأة دولة أبي الخطاب في جبل نفوسة، وله مصلى هناك في قبلة مدينة (نالوت) لا يزال معروفا إلى اليوم. وقد حدثني الأستاذ علي معمر شاعر طرابلس وأذيبها الفذ بأنه شاهد بعينيه كرامات في ذلك المصلى مما يدل على صلاح عاصم وتقواه.

أكاذيب الملوكيين على المغرب

وسر يزيد بن حاتم بالقضاء على أبي حاتم الملزوزي وثورته، ولكن افريقية وشرق المغرب الأدنى سوف لا يسكن له كما يريده، وكان يزيد بن حاتم طوال عهده على حذر ويقظة من يمشي في ارض مليئة بالألغام. فما هي الأسباب التي جعلت يزيد ابن حاتم يتغلب على أبي حاتم ويقضي على ثورته؟ إن المؤرخين الملوكين لا يتعرضون لهذه الأسباب ولا يذكرون كال الحقائق في ثورة المغرب على الملوكية العباسية والأموية قبلها، ولا يذكرون الأسباب التي أثارت المغرب، ولا ظلم العباسيين واستبدادهم وغطرستهم التي زادت للمغرب تمسكا بالجمهورية الإسلامية وكرها للملوكية الكسروية وتراهم يكتبون هذه الفترة من تاريخ المغرب بأسلوب يدين المغرب ويملأ النفوس حنقا عليه.

تقليد المؤرخين المحدثين وتقصيرهم في البحث والاستقصاء

وقد اغتر كثير من المؤرخين الأوربيين والمسلمين في هذا العصر بما ورد في تلك الكتب في ثورات المغرب فرددوها، وجاءوا في كتبهم بالمضحكات التي تزري بهم وبثقافتهم العصرية التي توجب عليهم الاستقصاء في البحث، والسفر إلى أماكن التاريخ ودراسته في أهله وبقاعه. وترى كثيرين يكتبون عن الإباضية في المغرب ولا يسافرون ليعيشوا في بقاع هذه الفئة الجمهورية المظلومة في كتب التاريخ الملوكية.

وجوب السفر إلى أماكن التاريخ لمعرفة الحقائق

ولا يبدو لهم أن يسافروا إلى (وادي ميزاب) في جنوب الجزائر أو إلى جبل نفوسة في طرابلس الغرب، أو إلى (جربة) في جنوب تونس، سيما (وادي ميزاب) في جنوب الجزائر! فهو المكان الأهل بالإباضية، الكثير العلماء والمثقفين! وهي البلاد التي توجد فيها خزائن كثيرة من المخطوطات الإباضية النفيسة النادرة يجب أن يشد المؤرخون والعلماء إليها الرحال، فيدرسوا الإباضية في سلوكهم وأحوال مدنهم الإسلامية التي تفيض عليه

بروح إسلامية لا تجدها في مكان، وترى طابع الاسم والتمسك بالدين، والحضارة العربية الراقية، والاشتراكية الإسلامية الكاملة مائلة في كل أشيائها!

كيد الاستعمار لمواطن التاريخ في الجزائر

إن الاستعمار كان يصد الناس عن زيارة الجزائر سيما وادي ميزاب في جنوب الجزائر وهو اكبر معقل للعربية والإسلام اللذين ادعى الاستعمار القضاء عليهما في الجزائر. أما تلان وقد زالت سدود الاستعمار باستقلال الجزائر فيجب على كتاب التاريخ أن يزوروا هذه البلاد الإسلامية الزاهرة فإنهم سيرون ما يملأ قلوبهم إجلالا وإكبارا للإباضية الذين تجنى عليهم الملوك قديما فصوروهم في صورة بعيدة عن حقيقتهم! وجاء الاستعمار الفرنسي والايطالي فأكد ذلك لعزل هذه الطائفة التي كانت من الأوتاد الراسخة للعربية والدين الإسلامي في المغرب، واصلب من نازل ألاستعمار في كل الميادين.

لقد استطاع يزيد بن حاتم أن يتغلب على أبي حاتم ويخمد ثورته، ويأتي ما اعجز هزارمرد. فما هي الأسباب العسكرية لذلك؟

الأسباب العسكرية لتغلب يزيد بن حاتم على أبي حاتم الملزوزي

إن البربر وإن كانوا في الشجاعة في درجة كبيرة، وفي مرتبة لا يساويهم فيها غيرهم، سيما الإباضية منهم، فهم في الإخلاص والثبات والتضحية، وحب الاستشهاد أكثر من العباسيين؛ فان هناك أسبابا عسكرية جعلت كفة يزيد بن حاتم ترجح في المعركة الفاصلة، والجيش الملوكي ينصر على الجيش الجمهوري في الحرب التي وقعت بينهما في جبل نفوسة. إن الأسباب في تفوق يزيد بن حاتم على أبي حاتم في المعركة الفاصلة خمسة.

أولا: كثرة جيوش يزيد بن حاتم، فانه كان في حوالي مائة ألف وخمسين ألف جندي. أما جيش أبي حاتم فاقل من ذلك. لقد ذكر المؤرخون أن جيشه كان وهو يحاصر القيروان مائة ألف وثلاثين ألف جندي. وكان معه الصفرية وهم عدد غفير من افريقية، ومن المغرب الأوسط والمغرب الأقصى، ولم يسيروا معه لحرب يزيد بن حاتم فنقص بذلك من جيشه الكثير. ثم إن أبا حاتم لم يسر ببقية جيشه كله، بل ترك جزءا كبيرا منه في افريقية وفي القيروان ليحفظوا ظهره ويخمدوا في تلك النواحي ثورات الملوكيين، فكان الجيش الذي سار به إلى قتال يزيد اقل من مائة ألف جندي.

والسبب الثاني هو تعب جيش أبي حاتم وإرهاقه، وما كان عليه من النصب بالحروب المتوالية في طرابلس قبل حصار القيروان، والحروب المتوالية أيام حصارها. وقد عد المؤرخون المعارك التي وقعت بين أهل المغرب في ثورتهم على عمر بن حفص وبين العباسيين فكانت ثلاثمائة وخمسة وسبعين معركة. وقد وقع أكثر هذه المعارك في افريقية والمغرب الأدنى، وقام بها جيش أبي حاتم. هذا إلى الفيافي الطويلة والطرق الشاقة التي أسرعوا فيها لما رجعوا إلى طرابلس من القيروان لملاقاة يزيد ابن حاتم وصده عن بلادهم. ولم يكد أبو حاتم يصل طرابلس حتى ثار عمر بن عثمان الفهري ومن معه من الملوكيين في القيروان، فرجع إلى القيروان وقطع الطريق البعيدة فاخمد الثورة في القيروان، فأسرع إلى طرابلس ليصل (سرت) قبل أن يقتحم يزيد بن حاتم بلاده، ويرتكب الفظائع التي عهدها المغرب من الملوكيين في أتباعه ولم يكد يصل سرت حتى وصلت طلائه يزيد يقودها سالم بن سوداة التميمي، فوقعت بينه وبين أبي حاتم معركة كبرى دحر فيها حاتم الجيش العباسي، وقام فيها جنده بجهد كبير. وقد زادته تلك المعركة إرهاقا، وأضعفت جنده. وكان يزيد ابن حاتم داهية فانه عاجل أبا حاتم بالحرب بعد وصوله مباشرة، ولم يمهله أياما ليستريح جنده. أما جيش يزيد فقد كان مستجما لم يتحمل أعباء الحروب التي تحملها جيش أبي

حاتم. وكان في طريقه يسير سيرا مريحا لأنه كان مهاجما، وفي يده زمام الحرب والبدء بالقتال. ولم يسرع في طريقه الإسراع الذي اضطر إليه أبو حاتم ليدرك يزيد بن حاتم في سرت قبل أن يتوغل في بلاده.

وكان يزيد يسير من العراق إلى سرت في بلاد خاضعة للعباسيين، وكان يجد في طريقه كل مساعدة، وكل ما يقوي جيشه وينعشه، ويشفيه من اللغوب. ولما قام بالمعركة كان على أتم في الاستجمام والراحة والنشاط الذي كان عليه بتوفر كل أسباب القوة له.

والسبب الثالث هو أن جيش يزيد بن حاتم كان جيشا ملكيا نظاميا، مدربا كثير العدة والسلاح، قد اعد للحروب، وجعل لحماية الدولة، وهو نخبة جيوش المنصور، وأحسن جنده، اختارهم اختيارا، واختار ضباطهم وقائدهم الأعلى. أما جيش أبي حاتم فقد كان من المتطوعين الذين وإن كانوا في الحماس والإخلاص أكثر من الجند النظامي الرسمي، ولكن الحماس وحده في الحرب لا يكفي، فان النصر فيها يكون للنظام والربة، ووفرة النشاط، وجودة السلاح. إن كوكبة صغيرة من الجند النظامي المدرب تتغلب على إضعافها في العدد من المتطوعين الذين لا يملكون سلاحهم ودربتهم.

رابعا: عبقرية يزيد بن حاتم الحربية، فانه كان اكبر قواد المنصور، وأعظم كفاياته الحربية. نشأ في الحروب وبرع فيها، وأتقن فن القيادة، ووضع الخطط الحربية التي تكلله بالنصر المبين.

خامسا: استقرار الدولة العباسية في المشرق، وهدوء خاطر يزيد بن حاتم وهو يستعد لحرب أبي حاتم. أما أبو حاتم فقد كان موزع البال والقوى العسكرية بين حرب يزيد، وبين إخماد الثورات التي أشعلها الملوكيون عليه في افريقية. وقد اضطر لإخمادها إلى ترك جزء كبير من جيشه تحت قيادة جرير بن مسعود المديوني، وذهب إلى حرب يزيد وهو مضطرب البال موزع الفكر، مقسم الجيش. وهذا مما يورث الضعف للقائد الحربي الذي يجب أن يأمن ظهره، ويكون بكل فكره في المعركة ليضع الخطط المحكمة، ويغتنم الفرصة في عدوه، وينقض عليه بكل قواه.

سكون المغرب الأدنى سكونا ظاهريا

هذه هي الأسباب العسكرية التي جعلت يزيد بن حاتم يتغلب على أبي حاتم ويقتله، ويقضي على ثورته، ويستولي على المغرب الأدنى ويخضعه لسلطان دولته. وقد خضع المغرب الأدنى وسكن سكونا ظاهريا، ولكن السخط كان يملأ قلبه، والعزيمة على الثورة

ضد الملوكية كانت مستقرة في أعماقه، سيما طرابلس،[1] وجنوب افريقية، وجزيرة جربة، هذه البقاع التي كانت كلها إباضية، فإنها لم تهدأ ولم تطمئن، ولم تسكن سكون الرضا إلا بعد أن التحقت بالدولة الرستمية الجمهورية الناشئة في تيهرت بالمغرب الأوسط، وظلت بقية النواحي في غرب المغرب الأدنى: شمال افريقية، والزاب، تغلي حنقا، وتنزع إلى الجمهورية الإسلامية، والإمامة العادلة، والعباسيون يخضعونها بالسيف، ويشحنونها بقواتهم العسكرية، ويطؤونها برجلهم لتخضع وتستكين. فماذا فعل يزيد بن حاتم بعد أن تغلب على أبي حاتم في المعركة الفاصلة ليضمن هدوء طرابلس له. فهل اطمأن بعد المعركة الفاصلة؟

خوف يزيد بن حاتم من ثورة طرابلس وطول الإقامة بها

كان يزيد يعلم حب المغرب للجمهورية، وغرامة بالإمامة العادلة، وتعلقه بها، وإصراره على إنشاء الدولة الجمهورية التي تسعده، وتطهر بقاعه من ظلم الملوكية العباسية وجبروتها وعيثها. وكان يعلم كره المغرب للملوكية الكسروية، سيما الملوكية العباسية التي جاءت إليه في السواد، وهي تخوض في دماء أهل المغرب التي تسفكها، والتي كانت تعتمد على السيف في رضوخ المغرب لها.

ثبات الإباضية وإصرارهم على الانضمام إلى الجمهورية الإسلامية الرستمية

وكان يعلم أن الإباضية ليسوا كالصفرية يثورون فإذا هزموا في المعركة سكنوا، بل هم ثابتون على مبدإهم، مصرون على الالتحاق بالدولة الرستمية الجمهورية في المغرب الأوسط، ورفع كابوس الملوكية الكسروية عنهم. وأنهم سيثورون عليه في أول فرصة يجدونها، وأنهم سيبايعون إماما آخر للدفاع، فيعيدونها عليه جذعة، ويشغلونها عليه حربا شعواء لربما عمت سائر المغرب فيقع فيما وقع فيه هزارمرد. لذلك لم يكتف بالتغلب على طرابلس في المعركة الفاصلة مع أبي حاتم، ثم يسير إلى القيروان كما يفعل الولاة الآخرون في النواحي التي يغزونها، بل أطال الإقامة في طرابلس لان هذه النواحي هي منبت الجمهورية الإسلامية والإمامة العادلة في المغرب الأدنى؛ فعروقها فيها راسخة منتشرة ضاربة إلى أعماقها، فلا بد من أعمال السيف فيها لاجتثاثها، ولابد من تشديد الوطأة على الجمهوريين ليخضعهم، ويصرف وجوههم ولو مؤقتا عن الدولة الرستمية التي تسبي قلوبهم بعد لها ودينها، فيتجهون إليها في غرام ولهفة

1 - نريد بطرابلس في هذا الكتاب من خليج (سرت) إلى قابس، ومن البحر إلى الصحراء الكبرى. وإذا قصدنا بطرابلس المدينة فإننا ننص على المدينة.

اتجاه الطيور الظمأى الجائعة التي طال عليها الليل إلى الشمس التي تنير مشرفها، وتخضبه بلون الحناء الذي تتيه به أيدي الغواني في الأعراس والأعياد! ! فأقام يزيد بن حاتم في جبل نفوسة شهرا في جحافله وقواه العسكرية الجرارة. وكان يتتبع الشخصيات البارزة من العلماء والزعماء الذين يخاف ثورتهم فيقضي عليهم. فاغرق تلك النواحي في الدماء، والبسها الغلالة الحمراء التي تفرغ على من يحكم عليه بالإعدام! وكان عنيفا قاسيا مع الجمهوريين! فسكنت له نفوسة سكون الخوف، وطأطأ له طأطأة لأبي الجبار الذي يخفض رأسه، وعيناه تتقدان بالحنق، وهو يرقب فرصة الثورة على العدو الذب تسلط عليه. فسار يزيد إلى مدينة طرابلس ليتم إخضاع هوارة في شرقها. فاعمل سيفه فقضى على الشخصيات الجمهورية البارزة التي يأنس فيها الثورة عليه، ووطئ تلك النواحي برجله، وصبغها بالنجيع، وأقام فيها نحو شهر، ثم سار فوصل القيروان لعشر بقين من جمادى الآخرة من سنة خمس وخمسين ومائة. فشمر لإخماد الثورات والاستيلاء على غرب المغرب الأدنى.

ثورة عبد الرحمن ابن حبيب واعتصامه بجبال كتامة

وكان عبد الرحمن بن حبيب حفيد عبد الرحمن بن حبيب الذي ثار على حنظلة بن صفوان واستولى على افريقية في سنة سبع وعشرين ومائة. كان هذا الحفيد بطلا شجاعا، جريئا، محبا للرئاسة والظهور كابية وجده. وكان حنيفا على الدولة العباسية التي عسفت جده عبد الرحمن، وقضت على الدولة الأموية التي كانت تعرف لآل عقبة بن نافع في المغرب مقامهم، والتي نالوا في عهدها كل عز وسلطان. ولما ثار أبو حاتم انضم عبد الرحمن إليه فيمن معه من أصحابه، فحاصر القيروان معه. ولما اخمد يزيد بن حاتم ثورة أبي حاتم وانتصر عليه. خاف عبد الرحمن أن يفتك به يزيد، ويقضي عليه كما قضى في طرابلس وافريقية على رؤوس الثورة، ومن يدعو لعداوة العباسيين. فهرب إلى جبال كتامة المنيعة في شمال مدينة (قسنطينة) واعتصم بقلعة (حبحاب) الحصينة وواصل ثورته على العباسيين فيها. فأرسل إليه يزيد ابن حاتم المخارق بن غفار الطائي في جيش، فحاصر عبد الرحمن في قلعته، وقارعه، ودام الحصار والمقارعة ثمانية أشهر، فكاد المخارق البطل الصنديد أن يدركه العجز لبطولة كتامة التي تناصر عبد الرحمان، وصعوبة جبالها، وحصانة القلعة التي اعتصم بها عبد الرحمن. فأرسل يزيد بن حاتم احد قواده الكبار وهو ابن عمه العلاء بن سعيد ألمهلبي في جيش كبير مددا للمخارق. فاجتمعوا على عبد الرحمن، وقارعوه، وتغلبوا عليه، واحتلوا قلعته، وقتلوا جماعة كبيرة من أنصاره، فهرب هو إلى الأندلس.

ثورة الزاب على الملوكية العباسية

وكان الزاب[1] الغربي ثائرا على العباسيين. وكان يرى الدولة الرستمية الجمهورية وعدلها وهناء رعيتها وسعادتها وتقدمها بها، فازدادوا[2] تعلقا بالجمهورية الإسلامية، وكرها للملوكية ومقتا لها، وإدراكا لعسفها وجبروتها وأنانيتها وتحيزها. وكانوا كالعطشان الذي يقتله الظمأ وهو بجوار قوم يكرعون الكؤوس الباردة المعطرة، فان دلك يزيده ظمأ، وشدة إدراك للنار المشبوبة في أحشائه ! فتمردوا على العباسيين، وواصلوا الثورة عليهم. ولما اخمد يزيد الثورة في جبال كتامة في شمال الزاب أرسل المخارق بن غفار الطائي في جيش كبير، فخاض حروبا هوجاء مع أهل الزاب حتى تغلب عليهم، وأخضعهم بقوة السلاح، واغرق تلك النواحي في الدماء، وملأها بجثث الجمهوريين الذين يأبون الملوكية ويتمسكون بالجمهورية الإسلامية، والإمامة العادلة.

وكانت ثورة الزاب متفرقة، لم يبايعوا إماما، ولم يعينوا لثورتهم رئيسا يقودهم، ويوجه ثورتهم، ويوحد صفوفهم، لذلك استطاع المخارق القضاء عليها. وقد قتل أهل الزاب من جيش المخارق كثيرا، ثم سكنوا سكون الخوف لا سكون الرضا. وولى عليهم يزيد بن حاتم ابنه المهلب وهو شخصية حربية قوية يهابونها وجعل معه جيشا كبيرا مزودا بأحسن السلاح.

ثورة هوارة بطرابلس على الملوكية العباسية

كان ذلك كله في سنة ست وخمسين ومائة، وجروح طرابلس لا زالت تنزف بالدماء، وأرواح شهدائها لازالت تنفخ النقمة والحنق في قلوب الجمهوريين، وطرابلس الأبية الشجاعة لا زالت كالأسد يقيد ويمرغ في التراب فلا يزيده ذلك إلا ضراوة وإذكاء الاسديته. وكانت هوارة ونفوسة وزناتة في طرابلس ترقب فرصتها للثورة، ولما ابتعد يزيد بن حاتم بجيوشه، واشتغل بثورة عبد الرحمن وثورة الزاب عليه، ثارت هوارة في شرق طرابلس بقيادة أبي يحي بن قرياس الهواري فصفقت نفوسة وزناتة المثخنين بالجراح لثورتها، فزحف طوائف منهما رغم جراحا فانضمت إلى أبي يحيى. واشتعل شرق طرابلس نارا على العباسيين الملوكيين.

وكان يزيد بن حاتم قد ترك مع عامله على طرابلس قوة حربية كبرى بقيادة رجل من

1 - المراد بالزاب هو (محافظة) و(عمالة) قسنطينة اليوم.

2 - مرجع الضمير هنا إلى أهل الزاب فلا باس أن يبدأ المتكلم كلامه بالمجاز المرسل ثم يرجع إلى الحقيقة لان المراد واحد. فقولنا الزاب المراد به أهله. وسيتكرر هذا في فصول الكتاب.

اكبر قواده هو عبد الله بن السمط الكندي. فزحف عبد الله في جيشه الكبير فاشتبك به أبو يحيى بن قرياس الهواري، في ساحل طرابلس الشرقي فوقعت بينهما معارك طاحنة سقط فيها من الطرفين قتلى عديدون.

وكانت طرابلس مثخنة بالجراح. وكان يزيد بن حاتم قد قضى على الشخصيات البارزة الحربية فيها. فلم تكن ثورتها هذه ثورة شاملة قد أحكمت خطتها، وإنما هو انفجار لشدة الغليان، ورد فعل من هوارة لما أوقع بهم يزيد بن حاتم. لذلك استطاع عبد الله بن السمط الكندي أن يتغلب على أبي يحيى الهواري بجيشه الكبير الذي زاده النصر على أبي حاتم مضاء وحدة. فأخمدت ثورة هوارة، ورجعت طرابلس إلى سكونها، ولكن على عزمة الانضمام إلى الدولة الرستمية الجمهورية لنحظى بنعيم العدل الإسلامي في ظلها.

ثورة ورفجومة العارمة

وكانت سنة ست وخمسين ومائة كأختها سنة وخمسين نسيل بالدماء في المغرب. وكان يزيد فيها شاكي السلاح لإخماد الثورات الثائرة عليه. فلم يكد يتنفس الصعداء بسكون طرابلس والزاب والتغلب على ثوراتهما حتى ثارت عليه (ورفجومة) في جنوب افريقية وولوا عليهم رجلا اسمه أبو زرجونة.

وكانت (ورفجومة) قبيلة من نفزاوة. وكانت منازلها في الجنوب الغربي لافريقية وكانت في النصف الأول من القرن الثاني صفرية. ولما انتشر المذهب الأباضي في جنوب افريقية كله من شمال قفصة إلى الصحراء دخلت في المذهب الأباضي في آخر القرن الثاني وانقرضت منها الصفرية، وتهذبت وحسن إسلامها بفضل الإباضية الذين داخلوها، ونفخوا الذين فيها، واذهبوا غلوها وتطرفها وشذوذ الصفرية منها فلم تعد تلك القبيلة العارمة البدوية التي ارتكبت في عهد عبد الملك بن الجعد منا ارتكبت من فظائع في القيروان.

وكانت ورفجومة ككل البربر تغلي حنقا على الملوكية، وتحن إلى الجمهورية الإسلامية التي ذاقت حلاوتها في عهد إمامة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح. وفي سنة سبع وخمسين ومائة ثارت على يزيد بن حاتم. ولعله قد عسفها، وبداله أن يطأها برجله لتطأطئ لما رأى شموخها وتنمرها، فانفجرت انفجار الألغام التي توطأ بالأرجل. فأرسل إليها يزيد بن حلتم قائدا حربيا من اكبر قواده ومن أسرته المشهورة بالبطولة هو يزيد بن مجرأة ألمهلبي ومعه جيش كبير، فخاض مع (ورفجومة) معركة كبرى سالت بها

الساحة بالدماء، فهزموه ومزقوا جيشه فرجع إلى يزيد مدحورا.

وكان المهلب بن يزيد بن حاتم بطلا صنديدا وقائدا ممتازا. وكان كابية يزيد في قوة الشخصية الحربية. وكلن والده يزيد قد ولاه في سنة ست وخمسين ومائة على الزاب لما اخمد المخارق بن غفار ثوره ليضمن سكون تلك النواحي المتنمرة. ويكون سدا في وجه الدول الجمهورية المستقلة التي نشأت في المغرب الأوسط والمغرب الأقصى سيما الدولة الرستمية التي تجاوره. وكانت اكبر تلك الدول وأقواها. وكان العباسيون الملوكيون في القيروان يخشون سطوتها. فأرسل المهلب إلى أبيه يستأذنه في حرب ورفجومة، فأذن له، وأمده بجيش كبير يقوده العلاء بن سعيد ألمهلبي من اكبر قواده فسار المهلب في جيشه القوي الذي أعده يزيد لحماية المغرب الأدنى في تلك الثغر الخطير (طبنة) فاصطدم بورفجومة، فدارت بين الجيشين معارك طاحنة، فاستطاع المهلب بعبقريته الحربية، وجيشه القوي أن يتغلب على (ورفجومة) فهزمها، وأثخن فيها، وقتل منهم مقتلة كبرى، وفعل بها فعل الفؤوس في الدوحة إذا أرادت تهديمها وسكن جنوب افريقية ليزيد، وسكن المغرب الأدنى كله له، ولكن على أمل الثورة على الملوكية والانضمام إلى الجمهورية الرستمية العادلة.

عبقرية يزيد السياسية وشخصيته المحبوبة

وكان يزيد بن حاتم مع شجاعته وبطولته الحربية داهية محنكا، قد علمته الولايات العديدة التي تولاها للعباسين في المشرق كيف يحكم الشعوب القوية الشكيمة ويضمن سكونها. وكان سياسيا ماهرا مع عبقريته الحربية الممتازة. ولما اخمد الثورات بسيفه ومضائه، سل دهاءه وحنكته السياسية، فساس المغرب الأدنى سياسة حكيمة، ولم يواصل عسفه والتجبر عليه فيثيره عليه.

ازدهار المغرب الأدنى في عهد يزيد

فسكن المغرب الأدنى سكون الخوف، وفي قلبه كثير من الرضى بشخصية يزيد الفذة وبراعته في السياسة فاقبل المغرب الأدنى في عهده على البناء. فازدهرت العلوم والتجارة والصناعة، واستطاعت الحضارة العباسية الفارسية في عهده أن تدخل المغرب وتؤثر في حضارته. وعم النشاط كل أنحاء المغرب الأدنى بفضل يزيد بن حلتم الذي كان رجلا طموحا يعرف واجبه في الولاية، ويعلم أن حظه من الولاية هو ما يتركه من المنشآت والآثار الحسنة في رعيته لا ما يحتكره لنفسه من خيراتها، وما يمتصه من دمائها.

وكان يزيد راعيا مخلصا، كريم النفس، لا يتهالك على المادة. فهمه في سعادة الرعية،

وفي تقدم المغرب الأدنى على يده. فدفع بالمغرب الأدنى فواصل في طريق الحضارة أشواطه وخطاه التي تتوقف رغم الثورات التي عكرت جوه زمنا طويلا.

وكان يزيد بن حاتم لحبه للبناء ولكرم نفسه راعيا مخلصا يزجي غنمه في المروج الخضراء الكثيفة لترعى، فلا يحبسها ويوقفها ليحلبها ويمتص أثداءها ! [1]

تجديد يزيد لجامع القيروان

وشمر يزيد في سنة سبع وخمسين ومائة فجدد مسجد عقبة في القيروان، وكان على البساطة في البناء وعلى الضيق في المساحة، فوسعه وجمله، وبناه بحيث يكون عنوانا للحضارة التي كانت عليها افريقية والمغرب.

تنظيم القيروان ومدن افريقية

وكانت معاشرة يزيد لبلاد فارس وولاياته على الأقطار المتحضرة قد جبله على حب الحضارة والنظام. فما إن هدأت له الأيام في المغرب الأدنى حتى شرع في تنظيم القيروان وترتيبها لتكون كالعواصم الشرقية الراقية التي عاشرها في بلاد فارس ومصر.

وكانت القيروان على البساطة في النظام، فنظمها يزيد، فجعل صناعة سوقا وناحية خاصة بها، وابعد الصناعات التي تضر سكان المدينة بعجيجها وأوساخها كالحديد وغيرها. وكان هذا النظام البديع الذي ر يزال في مدينة تونس إلى اليوم من إنشاء يزيد في القيروان، ثم اقتدت افريقية بعاصمتها فسرى إلى كل المدن فتنظمت.

ازدهار العمران في افريقية

وقد اعتنى يزيد بالفلاحة أيضا وبكل أعمال العمران فازدهرت ف(ي عهده كل الازدهار، ولبست افريقية في عهده ثوبها الزاهي، ووصلت بفضل عنايته بالحضارة والعمران كثيرا من الغايات التي دفع بافريقية إليها الولاة المخلصون حسان بن النعمان وأمثاله.

ازدهار التربية والتعليم

وكان المغرب متلفها إلى العلم مقبلا عليه. وكان يزيد ينشط التعليم ويحترم العلماء وكان اغلب عهده عهد استقرار. فأقبلت افريقية والمغرب الأدنى على العلم فكثرت المدارس الابتدائية في كل القرى والمدن، وصارت المساجد للتخصص في علم

1 - لا أرى المتزمتين الجامدين الذين يجمدون على مالفوا من أسلوب التاريخ الجاف ينكرون هذه الصور الشعرية التي نؤيد بها حقائق التاريخ التي نوردها في أسلوب علمي واضح، ثم ترصعها بالأدب الذي يحبب التاريخ إلى النفوس. إن المرضى وحدهم هم الذين يفرض عليهم الخبز القفار ويؤثرونه. أما الأصحاء فلا !

الشريعة والعربية وغيرها. وكان يرابط فيها عشرات من العلماء، ويلقون دروسهم فيها لله، لا يبتغون إلا خدمة الأمة والنهوض بها، ونشر العلم الذي هو أساس الدين، وسبب عزة المسلمين. وقد ذكر الدباغ في كتابه (معالم الإيمان) عشرات من العلماء نبغوا في عهد يزيد بن حلتم، وكذلك المالكي في كتابه (رياض النفوس). وممن نبغ في عهد يزيد بن حاتم: البهلول بن راشد. وكان من العلماء الإعلام في الشريعة، ومن الشخصيات البارزة في عصره. وقد نبغ على يده علماء كثيرون منهم سحنون ابن سعيد العلامة النابغة الشهير، وعبد المتعالي، وعبد الله بن مسلمة القعنبي، وعون بن يوسف، وأبو زكرياء الحفري وغيرهم.

احتقار الملوكيون المتعصبون للبربر

وكان بهلول بن راشد بربريا. وقد أنكر نسبه المتعصبون المتنطعون الذين يحتقرون البربر ويفرقون بين المسلمين الذين خلقهم الله امة واحدة، ويتزلفون بهذا التحقير إلى الملوك والولاة العباسيين الذين أطلقوا أذنابهم من العلماء الذين تسيرهم بطونهم كالأفاعي فوسموا البربر بما هم منه بريئون واضطغنوا عليهم لأنهم ثاروا على ظلمهم، وهزموا جيوشهم، ومرغوهم في الرغام، وثاروا على الملوكية المستبدة، وتمسكوا بالإمامة العادلة، وأنشأوا الدول الجمهورية التي كسفت الدول الملوكية المستبدة بعدلها ودينها، ودخل بها المغرب في أعراسه، وعاش في ظلها أجمل أيامه، وحظي بأزهى عهوده.

وكان عهد يزيد لازدهار التربية والتعليم فيه هو الذي اثر في أسد بن الفرات، وطبعه بحب العلم، ودفعه إلى المعالي، فكان من العلماء الكبار، ومن الأبطال العظماء. فلولا ازدهار هذه العهود في العلم والعرفان ما أنشأت افريقية أولئك العلماء الفحول، وتلك العبقريات الكبرى.

إن العبقريات الكبرى كجمال الربيع وأثماره لا ينبتها إلا جوه الربيعي الحي.

شجاعة العلماء وهمتهم

ومن العلماء الذين نبغوا في عهد يزيد، أبو خالد عبد الخالق القتات. قال المالكي: "وكان من أصحاب البهلول، روى عنه واصل بن عمرو المتعبد، وسحنون بن هلال صاحب سحنون".

قال الدباغ: "وروي أن إبراهيم بن الأغلب بعث إلى عبد الخالق فقال له: بلغني أن لك عيالا وانك من العرب !! فخذ هذه المائة دينار. فقال له أنا غني عنها! فقال إبراهيم: زيدوه

مائة أخرى: فقال عبد الخالق: لو كانت لي حاجة إليك لكانت لي في المائة كفاية. فلم يزل يقول زيدوه وعبد الخالق يقول كلامه الأول حتى بلغ معه خمسمائة دينار. فقال إبراهيم أفسدكم البربري (يعني البهلول بن راشد) والله لو أدركته لجعلته يرقص خلفي! قال عبد الخالق: فأحسست شعري قد خرج من عمامتي! ثم أقبلت عله فقلت له: والله لو أدركته لكنت عليه أهون من هذا الطين الذي يعجن بين يدي! ![1] ثم انصرفت".[2]

إن هذه القصة تدل على أنفة عبد الخالق وإبائه واحترامه لنفسه، وعلى احتقاره للمادة وإعراضه عنها، سيما مادة الملوكيين التي يمتصونها من دماء الشعب بطرق غير مشروعة، كما تدل على شجاعته، ليت علماءنا اليوم سيما علماء الدين كلهم عبد الخالق يحترمون نفوسهم، ويشمخون على الماديين الأغنياء، ليبارك الله لهم، فتقبل عليهم الدنيا التي يحتقرونها، ويتبوءون في المجتمع ارفع الدرجات، ويكونوا خلفاء الأنبياء في تطهير المجتمع، والتأثير فيه لاحترامه لهم، ويسعدهم الله في الدارين.

إن كثيرا من علماء الدين ليلبسون العمائم البيضاء فيظنونها بيضاء وهي في العيون سوداء بالرغام الذي يسجدون فيه تحت أقدام الأغنياء. وتراهم كالأفاعي لا تسيرها إلا بطونها! وإنهم ليظنون أنفسهم على الوقار والمهابة في أنظار العقلاء في مهانة وابتذال أولئك الذين يرقصون خلف إبراهيم بن الأغلب، ويراهم غبارا يثيره خلفه بنعاله. ويتأفف منه ويراه ثقيلا عليه. لو احترموا أنفسهم لكانوا سحابا فوقه يرعد عليه، ويغسله من أوساخه. ويرغمه على التضاؤل والانكماش! !

إن فساد مجتمعنا كان بفساد علماء الدين، ولا يصلح إلا بصلاحهم. والدين الإسلامي هو الدواء لكل أمراض امتنا العربية فتصح، وتتحد، ليس غيره كما يرينا الاستعمار الدساس وينفخ في نفوسنا.

إن قول إبراهيم بن الأغلب لعبد الخالق: "بلغني أن لك عيالا وانك من العرب" يدل على تعصب الملوكيين العباسيين ضد أبناء المغرب، وعلى التفريق بين المسلمين الذين خلقهم الله امة واحدة، ومزج بينهم فصاروا إخوة متحابين، وصار المغرب بهم أسرة متعانقة تتكون من الدماء البربرية والعربية التي امتزجت فأورثت للمغرب خصائصه الذهبية، وبطولته، وقوته شخصيته. ولولا هذا الامتزاج ما رأينا المغرب اليوم على القوة والبطولة التي أورثته في حروب تحريره إعجاب العالم كله، والنصر على أعدائه الأقوياء! !.

1 - كان عبد الخالق في الخلاء حيث يوجد طين فأخذه من الأرض ليرى إبراهيم مهانته عند البهلول.

2 - معالم الإيمان للدباغ ج 2 ص 17 المطبعة العربية التونسية 1320.

كان عهد يزيد بن حاتم عهد استقرار في افريقية والمغرب الأدنى فاقبل على البناء واستمر في طريق الحضارة، ونبغ في العلوم والأدب وسطع في افريقية نجم كثير من الشعراء والكتاب.

كرم يزيد ابن حاتم وسماحته وعلو همته

وكان يزيد بن حاتم مع دهائه السياسي، وعبقريته في الإدارة، وشجاعته سمحا كريما. وكذلك الكرم هو توءم الشجاعة وقرينها، فان أنفس المضحية التي تقدم في القتال ولا تهاب الموت، لابد أن تضحي بالمال ولا تخشى الفقر. وكان عالي الهمة، لا يرضى أن يدنس سمعته في سبيل المال اقل شيء مما يتلطخ به غيره من الولاة ويغرقون فيه. وكان يرى الشرف والاحترام والإعزاز والإكبار من النفوس هو كل شيء فيحرص عليه. فلو كان يزيد في عهد عمر بن عبد العزيز، وفي زمان الخلفاء الذين يسيرهم الدين في كل أشيائهم، ويحملون عليه ولاتهم، لرضى عنه المغرب كله، واقبل عليه إقبال الحب والرضا كما فعل مع حسان بن النعمان، وإسماعيل ابن عبيد الله.

قال النويري: "وليزيد بافريقية أخبار تدل على كرمه وبعد همته. منها أن بعض وكلائه أتاه يوما فقال: اعز الله الأمير، أعطيت في الفول الذي زرعناه بفحص القيروان كذا وكذا وذكر مالا جليلا فسكت. وأمر قهرمانه وطباخه أن يخرجا إلى ذلك الموضع، وأمر فارشه أن يضربوا قبة، فضربوا مضارب كثيرة، وخرج مع أصحابه فتنزه فيه، واطعم، فلما أراد الانصراف دعا بالوكيل وأمر بأدبه. وقال يا ابن اللخناء أردت أن أعير بالبصرة فيقال يزيد بن حاتم باقلاني[1]! امثلي يبيع الفول لا أم لك!؟ ثم أمر بإباحته. فخرج الناس إليه من بين آكل وشارب ومتنزه حتى أتوا على جميعه.

ومن أخباره المشهورة (في الكرم والهمة العالية) انه خرج متنزها إلى منصبة[2] الخيل فنظر إلى غنم كثيرة فقال: لمن هذه فقالوا لابنك إسحاق. فدعا به فقال له: ألك هذه الغنم. قال نعم. قال لم أردتها؟ قال: آكل من خرافها، واشرب من ألبانها، وانتفع بأصوافها، قال إذا كنت تفعل هذا فما بينك وبين الغنامين والجزارين فرق. وأمر أن تذبح وتباح للناس، فانتهبوها وذبحوها وتكلوا لحومها، وجعلوا جلودها على كدية، فهي تعرف بكدية الجلود".[3]

1 - باقلاني نسبه إلى الباقلا وهو الفول. ورد في القاموس المحيط: الباقلا ويخفف، والباقلاء مخففة ممدودة الفول والقهرمان هو أمين المال وصاحب الكيس بتعبيرنا الحديث.

2 - اسم مكان للصبة وهي الجماعة من الخيل والإبل من العشرة إلى الأربعين.

3 - نهاية الأرب للنويري ج 22 نسخة مصورة في دار الكتب المصرية.

مسالمة يزيد للدول الجمهورية في المغرب

وكان يزيد ذكيا فسالم الدول الجمهورية الناشئة في المغرب الأوسط والأقصى، سيما الدولة الرستمية القوية التي كانت حصنا وسدا دون الدول الأخرى في تلمسان وسجلماسة. ولم تحدثه نفسه بالمغامرة والتهور فيثير البراكين عليه. ويقع فيما وقع فيه ابن عمه هزارمرد. وكان الملوك العباسيون قد اتعظوا بما وقع لهزارمرد فلم يأمروا يزيد بالتنمر للدول المغربية الجمهورية كما أمر أبو جعفر المنصور هزارمرد فباء بشر كبير !

وكان يزيد يعلم أن المغرب الأدنى وإن سكن له فان سكونه سكون الخوف وسكون الإعجاب بعبقريته الإدارية لا سكون الاستسلام والرضا بالملوكية العباسية. وأن عبقريته السياسية والإدارية هي التي جعلته يسكن كما يجعل الربان الماهر سفينته تسير وتعتدل فوق البحر الذي يزيد تحتها. وان الدول الجمهورية إذا ثارت عليه فان المغرب الأدنى سيقف في صفها لغرام المغرب كله ما عدا القيروان بالجمهورية الإسلامية، والإمامة العادلة التي تتقيد في سياسيته بالدين، وتلتزم فيه عدل الخلفاء الراشدين.

تمسك الملوك العباسيين بولاية يزيد على المغرب

وكان انهدام الملوكية في المغرب بثورة أبي حاتم الملزوزي، وما يخشاه العباسيون من ثورة مصر والمشرق أيضا عليهم، وخلع الملوكية الكسروية عن أعناقهم، غصة تعكر صفو العباسيين، وتصبغ نهارهم بسواد الأحزان. فلما قضى يزيد بن حاتم على الثورة الجمهورية في المغرب الأدنى، وارجع افريقية والمغرب الأدنى إلى حظيرتهم، وسكن في عهده، وجعل بحسن سياسته الدول الجمهورية في المغرب، سيما الدولة الرستمية القوية لا تهاجمه، تنفس العباسيون الصعداء، ورضوا عن يزيد كل الرضا وتمسكوا بولايته على المغرب الأدنى. وظل واليا عليه إلى أن أدركه اجله. وكان الوالي الوحيد في المغرب الذي يتعاقب في عهد ولايته ثلاث ملوك ثم لا يعزل.

وكان أبو جعفر المنصور هو الذي ولى يزيد على المغرب الأدنى، فتوفى في عهد ولايته، ثم خلفه في الملك ابنه المهدي فتوفى، ثم الهادي فمات، وجاء هارون الرشيد ويزيد في ولايته على المغرب. وفي أيام هارون الرشيد توفي يزيد بن حاتم الوالي العبقري؟، والبطل المحنك الذي استطاع أن يتغلب على ثورة أبي حاتم الجبارة،وان ينتصر على اسود الله التي هاجمها في عرينها.

قال ابن عذارى: وفي سنة سبع وخمسين ومائة توفي أبو جعفر المنصور في ذي الحجة، وفي سنة 158 هـ ولي (الملك) المهدي ثم توفي في سنة 166 (وخلفه في الملك) ابنه

موسى الهادي وهو ابن ست وعشرين سنة ونصف. فتوفي في سنة 170 وخلفه (في الملك) هارون بن محمد الرشيد.

وفي سنة إحدى وسبعين ومائة توفي أمير افريقية يزيد بن حاتم. وكان خاصا بابي جعفر المنصور، وتولى ولايات كثيرة قبل قدومه المغرب: منها أرمينية، والسند ومصر، وأذربيجان وغير ذلك. وكان يزيد حسن السيرة بافريقية امتدحه كثير من فحول الشعراء فأجزل لهم العطاء.

قال الزبير بن بكار عمن حدثه من الشعراء قال: كنت امدح يزيد بن حاتم من غير أن اعرفه ولا ألقاه. فلما ولاه المنصور مصر اخذ على طريق المدينة، فلقيه، فانشده منذ خرج من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مسجد الشجرة، فأعطاه رزمتي ثياب وعشرة آلاف دينار! ومما قيل فيه.

يا واحد العرب الذي دانت له *** قحطان قاطبة وساد نزارا

أني لأرجو إذ بلغتك سالما *** ألا أكابد بعدك الأسفـــارا

وفيه قيل:

لشتان ما بين اليزيدين في الندى *** يزيد سليم والأغر ابن حاتم

يزيد سلين سالم المال والفتى *** فتى الازد للأموال غير مسالم

فهم الفتى الأزدى إتلاف ماله *** وهم الفتى القيسي جمع الدراهم[1]

ومن مدح يزيد لكرمه وشرفه محمد بن عبد الله بن مسلم. وقد مدحه بقصيدة بليغة منها:

وإذا تباع كريمة أو تشترى *** فسواك بائعها وأنت المشتري

قال ابن عذارى: وكان يزيد بن حاتم سخيا ومن قوله (الذي يعبر فيه عن نفسه):

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا *** إلا لـماما يسيـرا ثـم ينطلـق

يمـر مـرا عليها وهي تلفظه *** أني امرؤ لم يحالف خرقتي الورق

هذا هو يزيد بن حاتم الذي سكن المغرب الأدنى للعباسيين. وكان من جبال الدولة العباسية التي أمسكتها في الزلازل، وردت عنها العواصف، وكانت لها كالجبال الشاهقة

1 - أورد ابن عذارى البيت الأول من هذه المقطوعة فقط وعجزه على قافية الدال وهو غلط.

المشجرة تجذب إليها السحاب الذي تخصب به، وتملأ سماءها بالغمام ! ولولا يزيد بن حاتم وإضرابه من الفحول لقضت على الدولة العباسية الزلازل التي تعرضت لها في المشرق والمغرب!

وفاة يزيد ابن حاتم ومدة ولايته

وكانت ولاية يزيد على المغرب الأدنى في أول سنة خمس وخمسين ومائة، ووفاته في رمضان من سنة إحدى وسبعين ومائة. ومدته في الولاية خمس عشرة سنة وثلاثة أشهر، في بعض عهد الملك المنصور، وأيام الملك المهدي كلها، وبعض عهد هارون الرشيد في الملك.

ثورة افريقية بعد وفاة يزيد بن حاتم

وكان المغرب الأدنى كما قلنا قد سكن ليزيد بن حاتم سكون الخوف لا سكون الرضا، ثم اتصل سكونه بفضل براعة يزيد في الإدارة ودهائه في السياسة. وكان حنينه إلى الإمامة الإسلامية لا ينطفئ، ولهفته إلى الجمهورية العادلة التي تقوم على الدين لا تخبو، ولكن يزيد القوي الذي كان على استعداد دائم للحرب، وعلى يقظة متصلة لم يكن افريقية والمغرب الأدنى من الثورة على الملوكية، وإعادة الجمهورية الإسلامية. فظل المغرب الأدنى، سيما افريقية التي يطؤها العباسيون برجلهم أكثر، ترقب فرصتها للثورة، والخروج من ربقة الملوكية العباسية المستبدة حتى توفي يزيد، فثارت افريقية في شمالها وجنوبها، واشتعلت على القيروان نارا !

استخلاف يزيد لابنه داود على افريقية

وكان يزيد لما مرض مرَض موته قد استخلف ابنه داود بن يزيد، وأبى أن يترك افريقية والمغرب الأدنى بلا أَمير حازم يواصل ضبطه لهذه النواحي إلى أن يقدم من يخلفه من المشرق بتعيين هارون الرشيد. فاختار ابنه داود بن يزيد لحزمه وشجاعته وحنكته، ومعرفته بالأمور في المغرب، لطول مساندته لأبيه في شئون الولاية، ولعناية يزيد به فدربه واعده ليسد الثغور الكبيرة بعده. وثارت الصفرية في شمال افريقية بجبال (باجة) كما ثار عليه الإباضية في (نفزاوة) بجنوب افريقية.

ثورة صالح ابن نصير النفزي

وكان الإباضية في جنوب افريقية هو صالح بن نصير النفزي كما ذكر النويري فخرج إليه المهلب بن يزيد بن حاتم الذي كان من قواد أبيه العسكريين الكبار، ووليه على الزاب،

فاشتبك بصالح بن نصير في جنوب افريقية فوقعت بينهما ملحمة كبرى سقط فيها من الجند العباسي عدد كبير، فانهزم المهلب وركب صالح بن نصير أكتافه! فعلم داود بن يزيد أن تقسيم جيشه ليحارب الإباضية في الجنوب، والصفرية في الشمال في آن واحد يضعفه. ورأى انفصال الإباضية عن الصفرية في هذه الثورة فاستغله. فسير جيشه العرمرم الكبير الذي كان أبوه يعده لمثل هذا اليوم تحت أقوى قواد أبيه، وأكثرهم براعة في الحرب، وبطولة في الوغى وهو سليمان بن يزيد بن حبيب بن المهلب. فسار سيلمان إلى جبال (باجة) في شمال افريقية ليخمد ثورتها.

أسباب سكون طرابلس في ثورة افريقية

وكانت ثورة جنوب افريقية وشمالها انفجارا يدل على حرص تلك النواحي على الخروج من ربقة الملوكية. ولم يكن ثورة منظمة يجمع عليها زعماء المغرب الأدنى كله فينضم تحت لوائها كل المغرب الأدنى، ويتحد فيها الإباضية والصفرية كما وقع في ثورة أبي حاتم الملزوزي. إن جبل نفوسة وهوارة في شرق طرابلس لم تشارك في هذه الثورة. إن جبل نفوسة كانت قبضة العباسيين قد استرخت عنه وأبس العباسيون من استتباعه بالقوة فتقوت صلات جبل نفوسة بالدولة الرستمية فصار تابعا لها، وتحقيق للجبل ما يريده، ولم تضع دماء شهدائه في معركة أبي حاتم، فحقق الله آماله، لان دماء الشهداء لا تضيع. وقد رأينا في هذا العهد كيف أن دماء شهداء سليمان باشا الباروني، ودماء عمر المختار وشهدائه لم تضع فحققت لطرابلس استقلالها، فظفرت بدون ثورة على الاستقلال الذي مهرته فيما مضى.

كان جبل نفوسة ساكنا فلم ينضم إلى ثورة افريقية لتحقيق آماله بالانضمام إلى الدولة الرستمية. وكانت هوارة تعرف قوة داود بن يزيد، وقوة العباسيين في مدينة طرابلس وعدم نجاح ثورة افريقية، وتوقن بان الفرصة لابد أن تواتيها للانضمام إلى الدولة الرستمية بأقل عناء. وكانت قبضة العباسيين عليها غير شديدة أيضا. أما افريقية فكان العباسيون يصرون على بقائها في أيديهم، ويشددون قبضتهم عليها. فعلمت إنها لا تحقق ما تنزع إليه من الإمامة الإسلامية إلا بالثورة وحد الحسام فثارت. وكانت ثورتها ثورة الحنق والانفجار واليأس من أن تجد طريقا لتحقيق أملها غير طريق الحروب.

وكان جنوب افريقية إباضية. وكانوا ينزعون إلى الانضمام إلى الدولة الرستمية أما شمالها فكانوا صفرية. وكانوا يريدون الاستقلال في جبالهم تحت رئيس يبايعونه إماما عليهم. ولم يكن هدف الإباضية والصفرية واحدا فلذلك لم يتحدوا في الثورة، هذا

إلى تباعد النواحي. ووجوب وقوع هذه الثورات على الدولة العباسية القوية في الجبال، فتحتم على كل من الثورتين الاعتصام بجبالها ومواقعها الحصينة التي تستعين بها في مدافعه الجيش العباسي القوي.

وكان الإباضية يتبرءون من الصفرية ويسخطون عليهم لعقائدهم الشاذة في الدين ولعدم ثباتهم في الحروب؟. فقد رأوا كيف انهزموا في حصار (طبنة) لما ثار أبو قرة اليفرني على عمر بن حفص، وخانوا أميرهم، وتخلوا عن الإباضية، فنزلت الضربات على عبد الرحمن بن رستم الذي لم يستعد لمواجهة عمر بن حفص وحده، ثم هوجم على غرة قبل أن يعلم بفعله الصفرية وتركهم للميدان. هذه هي الأسباب التي جعلت ثورة افريقية ممزقة، بعضها في الشمال وبعضها في الجنوب فاستطاع داود بن يزيد القضاء عليها.

وكان سليمان بن يزيد ألمهلبي داود بن يزيد في عشرة آلاف فارس من خيرة جند يزيد. فسار إلى شمال افريقية لإخماد ثورة الصفرية، فوقعت بينه وبين الصفرية حروب فظيعة سقط فيها من الطرفين مئات من الجند، فانتصر سليمان بن يزيد فولى الصفرية الأدبار. فدخل سليمان قراهم وجبالهم ووضع السيف في المدنيين منهم، واغرق شمال افريقية في الدماء الغزيرة.

تمويه المؤرخين الملوكيين في حروب البربر مع العباسيين والأمويين

قال النويري "فهزم سليمان البربر وتبعهم وقتل منهم أكثر من عشرة آلاف !" إن المؤرخين الملوكيين ليهمون القارئ بغموضهم المعتمد في هذه المجازر التي قام بها الملوك العباسيون للقضاء على حب الجمهورية الإسلامية في قلوب أهل المغرب، أن هذا العدد الهائل من القتلى سقط من البربر في المعركة الحربية، واستطاع الجيش العباسي ببطولته أن يفتك بالجيش المغربي الباسل الذي يفوق العباسيين في الشجاعة الإخلاص والواقع أن العشرة آلاف قتيل كان جلها من المدنيين العزل الذين يهجم عليهم الجيش الملوكي المسعور فيغرق بدمائهم المدن والقرى ليرغمها على الاستسلام والرضوخ للعباسيين، ويجتث من أعماقها الإصرار على إحياء الإمامة الإسلامية، والخروج من ربقة الملوكية المستبدة.وتم لداود بن يزيد ما أراد. فاخمد ثورة الصفرية في الشمال، فسير قائده سليمان ألمهلبي، فهجم على صالح بن نصير في جنوب افريقية، فوقعت بينهما حرب طاحنة فثبت صالح بن نصير في المعركة هو وخاصته فاستشهدوا كلهم، وانتصر سليمان ألمهلبي واخمد داود بن يزيد ثورة الجنوب كما اخمد ثورة الشمال، واستطاع

ببطولته وجيوش أبيه القوية، وما أعده لمثل هذا اليوم أن يحفظ افريقية للعباسيين، ويحمي الملوكية فيها فلم تقض عليها افريقية التي كان البربر فيها يغلون كرها لها وحقدا عليها.

وكان هارون الرشيد يعلم أن داود بن يزيد وإن كان شجاعا بطلا كابية، فانه لم يكن على حنكته وخبرته في المحافظة على سكون النواحي التي يخضعونها بالسيف وعلم أن المغرب لا يخضع ولا يسكن بالقوة، ولكن بالحصافة والدهاء السياسي فلا بد له من رجل محنك عبقري في السياسة ليسكن له. أما الشباب المتحمس كداود بن يزيد فانه لا يضمن سكون المغرب وهدوءه. فاختار للمغرب الأدنى رجلا عبقريا في السياسة ليخلف يزيد بن حاتم، هو أخوه روح بن حاتم. فسار إلى المغرب.

وكانت ولاية داود بن يزيد تسعة أشهر ونصف شهر.

مدة داود ابن يزيد في الولاية

وكان هارون الرشيد معجبا ببطولة داود في إخماد ثورات افريقية، كما كان محبا لأبيه يزيد وأسرته، فاستدعاه إلى الشرق فأكرمه، فولاه على مصر جزاء له، ليحظى في أحضان مصر الوديعة الساكنة بأيام حلوة سلسة كماء النيل. ودام في مصر زمنا ثم ولاه على السند فمات بها.

ووصل روح بن حاتم القيروان فكيف كان للمغرب الأدنى وكيف كان المغرب له؟ وما شخصية روح وحقيقته؟ إن هارون الرشيد أمه بربرية فما كان ليبعث لأخواله من يخلق مرارتهم بعسفه. وكان روح داهية ومسنا. فسيجد المغرب منه حنان الجد الذي يرفع العصا لنفسه لا على أولاده ومن حواليه ! !

ولاية روح بن حاتم على المغرب الأدنى 171-174 هـ

كان روح بن حاتم من الشخصيات البارزة في الدولة العباسية، وممن شارك في إنشائها، وحامى عنها، وقارع دونها الأعداء، ودافع منافسيها حتى ترعرعت ووقفت على قدميها.

شخصية روح بن حاتم وعبقريته

وكانت خصائص المهلب بن أبي صفرة قد ظهرت كلها بالوراثة في حفيده روح. فكان عاقلا رزينا كجده، وشجاعا في الحروب، بارعا في قيادتها، داهية محنكا، بارعا في السياسة والإدارة، سمحا كريما. وقد ظهرت كفاءته الحربية والسياسية منذ نشأة الدولة العباسية، فاتجهت إليه الأنظار، فاختاره الملوك العباسيون الخمسة: السفاح، والمنصور، والمهدي، والهادي، والرشيد كلهم للولاية على الثغور المهمة، وعلى الأقطار التي يخافون الشغب فيها. فسد تلك الثغور،وأحسن الولاية على تلك الأقطار، وامتلك للدولة العباسية كثيرا من القلوب النافرة بسماحته ودهائه وبراعته في السياسة. وكان للدولة العباسية من العمد المتينة التي تقوم عليها، ومن الشخصيات المخلصة التي أورثت لها شبابها وازدهارها.

قال ابن عذارى: "كان لروح بن حاتم ولايات كثيرة، حجب للمنصور، ثم ولاه البصرة،وولي الكوفة في أيام المهدي، وولي السند وطبرستان وفلسطين وغير ذلك. ونظر رجل إلى روح بن حاتم واقفا في الشمس عند باب المنصور فقال له: لقد طال وقوفك في الشمس ! فقال له: ليطول بذلك وقوفي في الظل".

وكان روح بن حاتم شجاعا قوي القلب، يستقبل المصائب والهموم بقلب مطمئن ونفس ساكنة، فيؤثر هو في الهموم فيذيبها ولا يؤثر فيه الهموم. وترى صدره لصبره ورباطه جأشه كصهريج القن[1] الذي يغمس فيه الحديد الملتهب المحمر فيبرد ولا يغلي هو بحرارته !

روى ابن عذارى أن روح بن حاتم توفي له ابن فدخل عليه أصحابه، وهو ضاحك، فتوقفوا عن تعزيته، فعرف ذلك فيهم فأنشأ يقول:

وإنا لقوم ما تفيض دموعنا *** على هالك منا وإن قصم الظهر !

وكذلك البطل لا يعبس بالأيام العابسة، ولا يقطب وإن مزقت الأيام قلبه، واقتطعت أفلاذا من كبده ! !

---

1 - القن هو الحداد.

وكان روح بن حاتم كريما سمحا، يجود بالمال ولا سيشح به، ويرى مَنْ أحسن فيه الظن وسأله رفده وماله هو الذي يحسن إليه ويتطول عليه. وكان من الكرماء الذين ينتشون بإخراج أموالهم، فيعطي هباته مشفوعة بالابتسام والبشر الذي يضاعف قيمتها والسرور بها في نفس من يأخذها.

روى ابن عذارى"أن روحا بعث لكاتبه ثلاثين ألف درهم ووقع إليه: أني بعثت إليك بكذا، ولا استقلها لك تكبرا، ولا استكثرها تمننا، ولا افطع عنك بها رجاء بعد. والسلام".

وكان روح بن حاتم أسن من أخيه يزيد، ولما توفي يزيد كان واليا للرشيد على فلسطين، فآثره الرشيد للولاية على المغرب الأدنى، لأنه أحسن من يضمن له سكون المغرب بدهائه وحنكته، وبطولته أيضا وقوة شخصيته.

وكان الرشيد ابن الخيزران البربرية، وكان يعلم حقيقة المغرب، ويعلم أن الأمازيغ لا ينقادون لم يرهبهم ويعتمد عل القوة، ولكن لمن يعتمد على الدهاء السياسي، ويظهر لهم حسن النية، ويرون منه الإحسان والإكرام، والاحترام والعدل؛ وأن روحا ه الرجل الذي يسد الفراغ الكبير الذي تركه يزيد في المغرب، وينال احترام البربر الأباة الذين ألفوا شخصية يزيد القوية فيسكنون له؛ فولاه على المغرب الأدنى وأرسل معه قوة حربية كبرى، وأيده بابنه قبيصة بن روح ليسنده في المجال العسكري إذا احتاج لاستعمال السلاح.

وكانت افريقية لا تزال تغلي على الملوكية، فأرسل الرشيد مع واليه الجديد روح بن حاتم قوة عسكرية كبرى ليتأيد بها في افريقية فتهابه فلا تثور عليه.

قال النويري: ولما بلغ الرشيد وفاة يزيد بن حاتم استعمل روح بن حاتم على المغرب وكان اكبر من يزيد سنا، فوصل إلى القيروان في شهر رجب سنة إحدى وسبعين ومائة في خمسمائة فارس من الجند، ثم لحق به ابنه قبيصة في ألف وخمسمائة فارس، ولم تزل البلاد معه هادئة والسبيل آمنة، وملئ البربر (في افريقية) منه رعبا، ورغب (روح) في موادعة عبد الوهاب بن رستم الأباضي (إمام الدولة الرستمية الجمهورية) وصاحب (تيهرت)وهو الذي تنسب إليه الوهبية".

هيبة هارون الرشيد للدولة الرستمية الجمهورية

وكان الرشيد حكيما فعلم أن الدولة الرستمية في المغرب الأوسط قد رسخت عروقها ودخلت شبابها، وانه لا طمع له في احتلال المغرب الأوسط كما كان يمنى نفسه

بذلك المنصور؛ وان افريقية وسطها وشمالها هي كل ما يستطيع السيطرة عليه سيطرة كاملة من المغرب الأدنى لكثرة من فيه من الملوكيين، وان الصفرية في شمال افريقية بجبال -باجة) وغيرها يستطيع إخضاعهم بالسيف لعدم وجود دولة صفرية قوية في المغرب تحميهم؛ أما الإباضية في جنوب افريقية في نفزاوة وقفصة وغيرهما، وفي جبل نفوسة فانه لا يستطيع العنف معهم لان ثورتهم تثير الدولة الرستمية القوية عليه فتزحف لاحتلال القيروان والقضاء على الملوكية في المغرب.

وكان الرشيد عليما بالإباضية، وأنهم لا يعتدون على احد، ولا يطمعون في التوسع، ولا يستبيحون سفك دم امرئ مسلم، وانه سوف لا يهاجمه الإمام عبد الوهاب ويزحف على القيروان ما لم يثره إلى ذلك بالعدوان على الإباضية في جنوب افريقية وفي جبل نفوسة الذين اثروا الانضمام إلى الدولة الرستمية الجمهورية، والخروج من ربقة الملوكية العباسية المستبدة؛ فأوصى روح بن حاتم بعدم إثارة الدولة الرستمية عليه، وبموادعة إمامها عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، عقد معاهدة حسن الجوار معه، والتزام كل لحدوده في المغرب الأوسط في جنوب افريقية وفي طرابلس لا يتعداها. وكان روح يرى ما رأى الرشيد. فاتصل بالإمام عبد الوهاب وعقد معه معاهدة حسن الجوار، وحدوا الحدود بين الدولتين الرستمية والإمارة العباسية في المغرب، وان لا يتجاوز احدهما حدود الآخر.

انضمام جنوب افريقية وجبل نفوسة إلى الدولة الرستمية

وكان جنوب افريقية الشرقي كله وجزيرة جربة إباضية وطرابلس إلا المدينة كانت كلها إباضية فانضم جنوب افريقية وجزيرة جربة وطرابلس إلى الدولة الرستمية ولم يبق للعباسيين من جنوب افريقية وطرابلس إلا الساحل لأنه ضروري لهم للاتصال بالمشرق، وبعاصمتهم بغداد. وسكن المغرب الأدنى بهذا التقسيم للعباسيين فلم يثر عليهم الإباضية في جنوب افريقية وفي طرابلس، وهم الذين يستطيعون زعزعة عرشهم في القيروان لكثرتهم في المغرب، ولنظامهم، ثقافتهم، ودولتهم الرستمية القوية التي تسندهم إذا ثاروا. وأيس الصفرية في شمال افريقية وبجبال (باجة) وغيرها من مساندة الإباضية الأقوياء في المغرب الأدنى والأوسط لهم في ثورتهم إذا ثاروا، فسكنوا لروح بن حاتم. وهدأت الأيام للرشيد ولروح في افريقية بحسن سياستهما ورضوخهما للواقع. واستمرت افريقية العباسية في أعمال البناء والعمران والتقدم. وتهلك طرابلس وجنوب افريقية وجزيرة جربة بشرا لما تحقق مثلهما الأعلى فانضمت إلى الدولة الرستمية العادلة التي تسوسها سياسة الخلفاء الراشدين، وتتقيد في كل

أمورها بالدين، فامتلأت هذه النواحي حياة وسعادة، فأسرعت في طريق الحضارة والرقي في ظل دولتها العادلة الفتية إسراع من زالت عنه هاجرة الصيف المتقيدة وهب نسيم المساء وظلاله فامتلأ بالنشاط في سيره. ودخل المغرب الأدنى بحسن سياسة الرشيد في أيامه الوادعة الهادئة، ولم تقع لروح الزلازل التي تهز عرشه، ولم يثر عليه الأمازيغ ثوراتهم العارمة التي يشعلها الملوكيون في القيروان بظلمهم وعدم تقيدهم بالدين في سياسة المغرب. وظل روح أميرا على شمال افريقية والساحل الجنوبي منها وعلى الزاب وساحل طرابلس، هادئا وادعا إلى أن وافاه اجله.

حب الرشيد للمغرب وطن أخواله

وكانت عاطفة الرشيد بن الخيزران البربرية نحو وطن أخواله المغرب حسنة، فأبى أن يترك للحقد والجبروت عنانه كما وقع للمنصور فيغرق المغرب في الدماء. وكان ذكيا فعرف انه لا يستطيع إخضاع الإباضية في المغرب الأدنى بقوة السلاح فتركهم ينضمون إلى دولتهم، واكتفى بشمال افريقية، وبالساحل الذي يضمن صلتها به. وكانت بهذا أيام روح أيام راحة للدولة العباسية وسكون للمغرب، فظل روح في ولايته بالقيروان إلى أن أدركه اجله. وكان الرشيد قد هيأ خليفة لروح ليأخذ بالأزمة بعده فلا يبقى ذلك الثغر بدون وال حكيم قوي فيجد الصفرية في شمال افريقية فرصتهم للثورة. وكان هذا الخليفة هو نصر بن حبيب المهلبي فلماذا عجل الرشيد بتعيين خليفة لروح وهو على قيد الحياة؟ انه لما قلنا: لسد أبواب الثورة على الصفرية ولما قاله النويري.

قال النويري: "وكان روح بن حاتم قد أسن وكبر، وإذا جلس إلى الناس غلبه النوم من الضعف. فكتب أبو العنبر القائد، وصاحب البريد إلى الرشيد بضعفه وكبره، وأنهما لا يأمنان موته، وهو ثغر لا يقوم بغير سلطان. وذكرا نصر بن حبيب، وحسن سيرته، ومحبة أناس له. وقالا إن رأى أمير المؤمنين ولايته في السر إن حدث بروح حادث (خلفه) حتى يرى أمير المؤمنين رأيه. فكتب الرشيد عهده سرا".

دخول إدريس الأكبر المغرب وإكرام الإباضية له

وفي أيام روح اجتاز إدريس الأكبر ومولاه راشد من جنوب افريقية إلى المغرب الأوسط والأقصى فوصلا (وليلي) في جنوب طنجة حيث أسسا الدولة الإدريسية الكبرى. وكان مسير إدريس في افريقية والمغرب الأوسط في المناطق الإباضية التي أكرمته وحفظته في طريقه.

وفاة روح ومدة ولايته

وكانت ولاية روح بن حاتم في رجب من سنة إحدى وسبعين ومائة، ووفاته في ليلة الأحد لسبع بقين من رمضان المعظم من سنة 184 ومدة ولايته على المغرب ثلاث سنين وثلاثة أشهر: فخلفه في الولاية نصر بن حبيب ألمهلبي. فكيف كان شمال افريقية والمناطق المغربية الخاضعة للعباسيين في عهده؟



ولاية نصر بن حبيب ألمهلبي 174 هـ - 177 هـ.

شخصية نصر وسيرته

كان نصير بن حبيب من الشخصيات البارزة في الأسرة المهلبية. وكان يتصف بما اتصف به اغلب أبناء المهلب بن أبي صفرة من شجاعة وحزم، وذكاء، وسخاء وسماحة في النفس تحببهم إلى النفوس، وتغرسهم في القلوب. فبرزت شخصية نصر بهذه الصفات الحسنة، وسطع نجمه، فقربه يزيد بن حاتم إليه، فجعله صاحب شرطته، في مصر والمغرب، والقائم على امن الولاية وهدوئها. فقام بوظيفته أحسن قيام، فلم يكن بالظالم السفاك للدماء كابن دينار فيثير غضب الناس عليه، ويورث لأميره سخط الشعب، ويصنع له الثورات العارمة التي تذهب صفوه، بل كان حازما مع هدوء وعقل ورزانة جعلته مهابا محترما. فسكن المغرب ليزيد بن حاتم بفضل رزانة رئيس شرطته نصر بن حبيب وسماحته وحسن سيرته.وكان نصر محبوبا في القيروان. فكتب قائد الجيش عنبر وصاحب البريد إلى الرشيد يقترحان ولاية نصر ألمهلبي بعد روح بن حاتم الذي كان في آخر أيامه وعلى ضعف بالشيخوخة فبعث الرشيد بولايته، ولما توفي روح ولي نصر في سنة 174 مكانه.

هدوء المغرب الأدنى بفضل تقسيمه

وكان المغرب الأدنى هادئا بفضل ذلك التقسيم الحكيم الذي جرى في أول عهد روح بالمغرب، فانضمت إلى الدولة الرستمية المناطق الإباضية (جبل نفوسة وجنوب افريقية وجزيرة جربة) التي يعرف الرشيد وروح إنها لا ترضخ للملوكية، وأنها ستثور عليه وتثير المغرب الأدنى كله معها إذا استبقاها بالسيف في حظيرته، وأرغمها بالقوة على الخضوع له. وكان نصر حكيما. فسار سيرة يزيد وروح، فاتصل سكون المغرب له، وأقبلت عليه القلوب في القيروان، وهابه الصفرية في شمال افريقية فلم يثوروا عليه. وتم سكون شمال افريقية والزاب والمناطق الساحلية في جنوب افريقية، وفي طرابلس، هذه المناطق التي تتكون منها الولاية المغربية التي كانت تخضع للعباسيين ويسلطون عليها سلطانهم. وأبس الصفرية في شمال افريقية من وجود فرصتهم للثورة، ومن استطاعتهم الانتصار على العباسيين لانفصال الإباضية الأقوياء عنهم في جنوب افريقية وطرابلس وانضمامهم إلى الدولة الرستمية، فلم يعد للعباسيين عليهم سلطان يثيرهم، فيوحد بينهم العدو المشترك.

حرص روح ابن حاتم على الرئاسة وعزل نصر ابن حبيب

وكانت أيام نصر في المغرب أيام هدوء وسكون، وكان هو كفئا للإمارة، فلو دام فيها الأسعد المغرب العباسي، وكفاهم شر الفتن التي ستثور بعده، ولكن فضل ابن روح بن حاتم كان يلح على الرشيد أن يوليه على المغرب، وساءه أن تخرج إمارة أبيه عنه، ورأى نفسه أولى بها، وكان الرشيد يحب روح بن حاتم ويعرف له فضله على الدولة، وكان يحب أسرته ويقر بها ويقضي حاجاتها، فاستطاع الفضل بهذا أن يؤثر في الرشيد فعزل نصرا فولاه على المغرب العباسي.

وكانت ولاية نصر في رمضان من سنة أربع وسبعين ومائة، وعزله في أول سنة سبع وسبعين ومائة فمدته في الولاية سنتان وثلاثة أشهر، وجاء الفضل بن روح فكيف يكون المغرب في عهده، إن من يتهافت على الرئاسة ويطلبها لا يليق لها ! لقد كان روح بن حاتم بطلا عظيما نهض نهوض الجمل من مبركه فماذا يترك لنا بعده؟

ولاية الفضل بن روح وثورة ابن الجارود عليه 177-178هـ

شخصية الفضل وأسباب ضعفه

كان الفضل بن روح من أبناء الأمراء المدللين الذين ينشئون في بسط الحرير، وفي ظلال الترف والنعمة الزائدة نشأة العساليج الرخوة العقيمة في أصل الشجرة الظليل، شتان بينها وبين الفروع القوية التي تصهرها الشمس في أعلى الشجرة فتورثها قوتها وثمارها وتهيؤها لحمل الأثقال !

كان الفضل من هذه الطبقة المدللة العقيمة التي تستولي عليها غرائزها فلا تحب إلا نفسها، ولا ترى في الدنيا إلا مصالحها الخاصة، وما يشبع الغرائز الفردية المتأججة فيها.

لقد كان الفضل على بعض الحزم بفضل وراثته القوية، وبيئة أبيه الحسنة فآثره والده للولاية على الزاب، ولكن لم يكن في درجة أبيه في الحزم، فيسيطر على غرائزه، ويرى بعقله فتبدو له الرئاسة في تكاليفها وأثقالها وحسابها العسير فتنفر منها نفسه، ولكن ينظر بغريزة حب الظهور وشهواته، وبالغرائز الأخرى التي تشتفي بقدرة الرئاسة فتبدو له الرئاسة مباهج ولذات فيرغب فيها ويتهالك عليها.

جنون التدليل ومساوئه الخلقية

إن من خصائص هؤلاء المدللين الضعفاء الكبرياء والاستبداد، والغطرسة، والهزء بالناس، وعدم المبالاة بهم، لان ما يسيطر عليهم ويستولي على نفوسهم إنما هو غريزة حب الظهور التي تجعل صاحبها متصفا بكل هذه الطبائع الخبيثة التي تكره صاحبها إلى النفوس، وتخلق العداوة والمقت له في القلوب، وتثير الناس عليه وتنبههم إلى رذائله فيطئونه بالأقدام. وترى أولئك الضعفاء المدللين أبناء الترف والغنى إذا ظفروا بالرئاسة يعمدون إلى الأقوياء الفضلاء، والعلماء الإجلاء خاصة فيعسفونهم، ويتظاهرون بعدم المبالاة بهم، واحتقارهم لان شعورهم بالنقص يبعثهم على ذلك ليوهموا العامة أنهم هم الأقوياء، وأن أولئك لا شان لهم، ولا قيمة تميزهم، فتتجه إليهم الأنظار وتكبرهم النفوس، فتنال غريزة حب الظهور فيهم شبعها بتهليل الدهماء التي يستبيها البريق فترى الزجاج الرخيص اللماع جواهر نفسية لا نظير لها !

وكان الفضل بن روح وابن أخيه المغيرة بن بشر على هذه الطبيعة، فظلم المغيرة الذي ولاه الفضل على تونس قواد الجيش والرؤساء والعلماء الذين هم أوتاد الإمارة العباسية

في المغرب، وبفضل جهادهم وما أراقوا من دمائهم بقي للدولة العباسية هذا الجزء الصغير من المغرب تسيطر عليه. فثارت عل الفضل الزلازل والبراكين، واندلعت عليه الفتن، فعزل عن ولايته ثم قتل. وكذلك عاقبه كل من يتهالك على الرئاسة ويتخطى إليها الرقاب، وينالها بالتزلف والتذلل للملوك، ولا بكفاءته، فانه يتهاوى من القنة التي لم يخلق لها وتندق عنقه، ويقع له ما يقع للعصفور الهزيل إذا تطفل فطار في مطار الصقور العالي فان العاصفة تكنسه وتأتي عليه !

لقد أورد النويري وابن عذارى قصة الفضل بن روح مع ابن الجارود والأحداث الأخرى في عهده، ونحن ننقلها من ابن عذارى مكملين رايته بما في (نهاية الأرب).

قال النويري: "وكان الفضل بن روح لما مات أبوه عاملا على الزاب فلما ظهر كتاب الرشيد بولاية نصر سار إلى الرشيد ولزم بابه حتى ولاه المغرب".[1]

ولاية المغيرة ابن بشر على تونس وثورة الجند عليه

قال ابن عذارى: "وفي سنة سبع وسبعين ومائة ولي افريقية الفضل بن روح ابن حاتم، ولاه أمير المؤمنين الرشيد عليها، وكتب بعزل نصر بن حبيب، وان يقوم بأمر الناس المهلب بن يزيد إلى أن يقدم الفضل. فكان قدومه في محرم من هذه السنة. ولما قدم الفضل ولى ابن أخيه المغيرة تونس، وكان غرا غير ذي تجربة ولا سياسة للجمهور، فاستخف بالجند، وسار فيهم سيرة قبيحة، ووثق أن عمه لا يعزله ! فاجتمعوا وكتبوا كتابا لعمه الفضل يخبرونه بما صنع المغيرة فيهم، وبقبح سيرته، فتثاقل الفضل عن جوابهم".

وكان هدوء المغرب، وزوال الخوف من البربر الذين كانوا يثورون عليهم، وسكون الصفرية في شمال افريقية، وخلودهم إلى الهدوء، قد جعل الفضل يهزأ بالجند وجعل الجند يثورون عليه، فتناطح العباسيون، وتشققت عصاهم، وثارت في افريقية فتن كان العباسيون الذين تستولي الأنانية على نفوسهم، ويسيطر عليهم حب الرئاسة هم مصدرها.

إن العدو المتربص خير للأمة لأنه يخلق اتحادها، وقوتها وحزمها، فإذا أمنت الأمة كل الأمن تشتت شملها، وذهبت قوتها، تسلط عليها كل ما تخشاه !

قال ابن عذارى: فاجتمع الجند وكتبوا كتابا للفضل يخبرونه بما صنع المغيرة فيهم، وبقبح سيرته، فتثاقل الفضل عن جوابهم "فانضاف هذا إلى أمور كانوا قد كرهوها من

1 - نهاية الأرب للنويري ج 22 من نسخة فتوغرافية بدار الكتب المصرية إن هذا الجزء الذي يتكون من مجلدين يحوي من تاريخ المغرب القديم مالا يوجد في غيره ليت دار الكتب المصرية تعجل بطبعه.

الفضل، منها استبداده برأيه دونهم"[1] فقالوا: كل جماعة لا رأس لها لا ينجح سعيهم ولا مطلبهم. فقال بعضهم أشير عليكم بعبد الله بن عبد ربه ابن الجارود. فانطلقوا إليه وقالوا له: قد رأيت ما صنع بنا المغيرة ! وقد خاطبنا عمه فلم يصلنا جوابه. وأنت المنظور إليه، والمعول في الأمور عليه، ونحن نصير أمرنا إليك... فقال لهم أعطوني من بيعتكم ما أثق به !فبايعوه وأطاعوه.

شخصية ابن الجارود وذكاؤه

وكان ابن الجارود شخصية بارزة في أهل تونس. وكان شجاعا ذكيا، واسع الثقافة، جم المعرفة وقد ذكر الدباغ في معالم الإيمان قصة نسبها إلى ابن الجارود أرى انه عبد الله بن الجارود. وهذه القصة تدل على الذكاء، وخفة الروح، وعلى العلم والمعرفة أيضا. قال الدباغ: "قال محمد بن محي قلت لأبي، من أحسن من رأيت فيمن لقيت من الرجال؟ قال ابن الجارود الكوفي ! وكان عظيم الرأس. أتاه أعرابي فرآه في العربية والفقه والشعر، ونحن نسمع منه. قال ألك حاجة قال نعم. قال: سل عما بدا لك. قال له الأعرابي: ابن من أنت؟ قال ابن من سجدت له الملائكة ! فاتكأ الأعرابي على يديه وجعل يرجع خلفه ويقول تالله انك لتقول يا ذا الرأس قولا عظيما"[2] ولم يفهم الأعرابي المسكين أن ابن الجارود يقصد انه ابن آدم الذي سجدت له الملائكة.

ولاية ابن الجارود على تونس وعزل المغيرة

وولى الجند عبد الله بن الجارود على تونس. وكان ذلك في سنة ثمان وسبعين ومائة ثم ساروا إلى المغيرة وهو بدار الإمارة في تونس فقالوا له: الحق بصاحبك أنت ومن معك: فطردوه من تونس.

قال ابن عذارى: "وكتب ابن الجارود إلى الفضل أما بعد فانا لم نخرج المغيرة خروجا عن الطاعة، ولكن لأحداث أحدثها فينا ظهر فيها فساد الدولة. فعجل لنا من ترضاه ليقوم بأمرنا وإلا نظرنا لأنفسنا. وأجابه الفضل: أما بعد فان الله عز وجل يجري قضاؤه على ما أحب الناس وكرهوا، وليس اختياري واليا اخترته لكم أو اخترتموه بحائل دون شيء أراد الله عز وجل بلوغه فيكم. وقد وليت عليكم عاملا فان دفعتموه فهو آية النكث منكم

1 - ما بين قوسين من نهاية الأرب ونحن نكمل رواية ابن عذارى من نهاية الأرب.
2 - معالم الإيمان للدباغ ج 10 ص 240 المطبعة العربية التونسية.

والسلام. وبعث عبد الله بن يزيد ألمهلبي عاملا على تونس، وضم إليه النصر[1] بن حفص، وأبا النبر[2] (قائد الجند) والجنيد بن سيار"

وكان ابن الجارود ذكيا، وكان علميا بالفضل واستبداده، وأيقن بان عزل ابن أخيه قد رآه ثورة عليه، فأرسل عبد الله بن يزيد وظاهره بابي العنبر قائد الجند ومن معه ليتقوى بهم، فيقبض على رؤساء الجند، وينكل بكل من عارض سياسته؛ وان الفضل لو كان ذانية حسنة لأرسل عبد الله بن يزيد وحده. قال ابن عذارى: فلما وصل عبد الله (بن يزيد ألمهلبي ومن معه) إلى ظاهر تونس قال ابن الجارود للجند: كيف تصنعون وانتم أخرجتم ابن أخيه وشتمتموه ! والله ما بعثه إليكم إلا ليطلبكم حتى ترجعوا عن رأيكم؛ فإذا اطمأننتم أخذكم واحدا بعد واحد. قال النويري: فأشار أصحاب ابن الجارود عليه بقبضه هو ومن معه وحبسهم. فخرج أصحاب ابن الجارود إلى عبد الله بن يزيد فحملوا عليه وقتلوه واسروا من معه. (فأنكر ذلك ابن الجارود وساءه) وقال: ألهذا بعثتكم ! فأما إذ وقع فما رأيكم؟ فاجمعوا على الخلاف، واخذوا في المكائد. وتولى أمر ابن الجارود محمد بن يزيد الفارسي، وهو الذي آثار هذه الفتنة فشرع في مكاتبة القواد وإفسادهم. وواعد كلا منهم أن يوليه الأمر. ففسد الحال على الفضل، (وفارقه كثير من جنده وقواده). وسار ابن الجارود فيمن معه إلى القيروان، وقاتل الفضل وهزمه، واستولى على البلد، وأخرجه منها، ثم قبض عليه، وأراد أن يحبسه. فقال أصحابه لا تزال في حرب ما دام الفضل حيا. فدافع عنه محمد ابن يزيد الفارسي، وأشار إلا يقتلوه. فقاموا إليه وقتلوه" وارتكب الجند غلطة ثانية زادت أمور ابن الجارود تعقيدا. فخاف ابن الجارود من ثوب المهلب بن يزيد، ونصر بن حبيب، وغيرهم من آل المهلب وأنصارهم فأمرهم بالخروج من افريقية. وانقضت إمارة آل المهلب بالمغرب. وكان قتل الفضل قد وقع في شعبان سنة ثمان وسبعين ومائة. وولايته وقعت في محرم سنة سبع وسبعين ومائة ومدته في الولاية سنة وثمانية أشهر.

ثورة العلامة ابن سعد وأنصار الفضل على ابن الجارود

ولما قتل الفضل وسمع أنصار روح بن حاتم في شمال افريقية والزاب بما وقع له، ثاروا على ابن الجارود، وزحفوا على القيروان فهزمهم ابن الجارود. وتأججت شمال افريقية نارا، وتناطح العباسيون العلاء بن سعيد ومعه أصحاب الفضل الذين ساءهم أن يستولي ابن الجارود على الإمارة دونهم، وعبد الله بن الجارود الذي جره أصحابه إلى هذه الحروب التي لا يريدها بقتل عبد الله بن يزيد والفضل بن روح.

1 - ورد هذا الاسم في نهاية الأرب بالصاد (النصر) واراه من تحريف النساخ.

2 - ورد في التاريخ في هذا العهد عنبر قائد جند روح وأبو عنبر. وارى تنهما احد وقد زاد التنويري أو النساخ للاسم فصار كنيته.

وكان عبد الله بن الجارود لما قبل رئاسة الجند يريد رفع الظلم عنهم وعن أهل تونس،واستبدال المغيرة الغر الذي لا يحسن التصرف بآخر لائق. ولكن حماس الجند الذين كانوا مضطغنين على الفضل بن روح لاستبداده وسوء تصرفه جعل الأمور تتطور، والفتنة تتسع، حتى صارت حربا عامة في المغرب العباسي كله.

وكان الصفرية في شمال افريقية لمفارقة الإباضية لهم لم يستطيعوا اغتنام فرصة ذا الفتنة فيثوروا. وكان الإمام عبد الوهاب رئيس الدولة الرستمية وفيا بمعاهدة حسن الجوار، فلم يهاجم الإباضية في جنوب تونس القيروان. وترك الصفرية في الشمال العباسيين يتناطحون ويقتل بعضهم بعضا حتى يضعفوا فحينئذ يجدون فرصتهم فيهم.

أسباب ثورة ابن الجارود ونواياه الحسنة

وكانت ثورة ابن الجارود على الفضل بن روح يريد اعتداله وعدله واختيار الولاة للنواحي، ولا على الدولة العباسية لحب الرئاسة والانفصال. لذلك سلم الأمور لهرثمة بن أعين لما ولاه الرشيد على المغرب. فلو أراد الرئاسة والانفصال لأمكنه ذلك، لأنه كان بطلا محبوبا وأتباعه كثيرون ، وربح الحرب في الجولة الأولى. وكان داهية يستطيع أن يقضي على خصومه بالمكيدة فيخلو له الجو، ويبلغ كل ما يريد.

وسمع الرشيد بالفتنة الثائرة بين العباسيين في افريقية لضعف الفضل وسوء تصرفه، فندم على عزل نصر بن حبيب. فاختار للولاية على المغرب العباسي[1] هرثمة بن أعين فأرسله إلى المغرب. فارتضاه ابن الجارود والعباسيون كلهم في المغرب. فسكن هذه الفتنة، وارجع الأمور إلى نصابها.

قوة البربر وخوف العباسيين منهم

لقد أورد النويري قصة تدل على قوة البربر وخوف الملوكيين من انقراض سلطانهم. ونحن نوردها حتى يعلم الذين يثقون بالمصادر التاريخية الملوكية من المحدثين، فيرددون دعاياتهم الباطلة، ويصفون البربر بالضعف، ويصورون العباسيين في المغرب هم كل شيء، وهم القوة المسيطرة على كل نواحيه؛ ليعلم هؤلاء أن العباسيين في المغرب كانوا يخشون سطوة دوله الجمهورية. فسارع روح بن حاتم فعقد معاهدة حسن الجوار مع الإمام عبد الوهاب، وحدوا الحدود بينهم، وأذن للإباضية في جبل نفوسة وجنوب

1 - نريد بالمغرب العباسي شمال افريقية ووسطها من شمال قفصة والساحل والزاب ومدينة طرابلس وساحلها فهذا كل ما بقي في أيدي العباسيين من المغرب. وباقيه استقل وكانت الدولة الرستمية أوسع الدول المغربية رقعة.

افريقية، وجزيرة جربة بالانضمام إلى الدولة الرستمية وكانوا يخافون أن يثور عليهم الصفرية في شمال افريقية فيقضون على الملوكية في القيروان. هؤلاء هم العباسيون في المغرب الذي يكره الملوكية المستبدة، ويتمسك بالإمامة العادلة.

قال النويري: "لما اتصل بالرشيد وثوب ابن الجارود على الفضل، وجه يقطين بن موسى لمحله من دعوتهم، ومكانه من دولتهم، وكبر سنه، وحاله عند أهل خراسان. وأمره بالتلطف بابن الجارود، وإخراجه من البلد. وقد يقطين القيروان فجرى بينه وبين ابن الجارود كلام كثير. ودفع إليه كتاب الرشيد. فقال ليقطين قرأت كتاب أمير المؤمنين وأنا على السمع والطاعة. وفي كتاب أمير المؤمنين انه ولى هرثمة بن أعين وهو ببرقة يصل بعدكم. فان مع العلاء بن سعيد (الذي كان منافسا لابن الجارود وفي حرب معه) البربر فان تركت الثغر وثب فأخذوه، وقتلوا العلاء، ولا يدخله وال لأمير المؤمنين أبدا! فأكون أشأم الخلق على هذا الثغر، ولكن اخرج إلى العلاء فان ظفر بي فشأنكم بالثغر، وإن ظفرت به انتظرت قدوم هرثمة، ثم اخرج إلى أمير المؤمنين.

وكان العلاء بن سعيد شخصية قوية في المغرب العباسي فنافس ابن الجارود على الرئاسة وثار عليه. وكان ابن الجارود يعرف انه إذا تخلى عن القيروان فان العلاء سيحتلها. وكان أيضا ثائرا عليه فأبى أن يتنازل عن الإمارة فيعد العلاء ذلك انهزاما. فتصلب مع يقطين، وأبى أن يضع سلاحه.

كيد يقطين لابن الجارود

قال النويري: فاجتمع يقطين مع محمد بن يزيد الفارسي، وهو صاحب ابن الجارود، وواعده التقدم، وقيادة ألف فارس، وصلة، وقطيعة[1] في أي المواضع شاء على أن يفسد حال ابن الجارود. ففعل ذلك، وسعى في إفساد الخواطر على ابن الجارود، ورغب الناس في طاعة الرشيد، فمالوا إليه.

دهاء ابن الجارود وقضاؤه على قائده الغادر

وخرج على ابن الجارود، فخرج عبد الله لقتاله. فلما توافقا للقتال ناداه ابن الجارود أن اخرج إلي حتى لا يسمع كلامي وكلامك غيرنا. فخرج إليه فحدثه وشاغله بالكلام. وكان قد وضع على قتله رجلا من أصحابه يقال له أب طالب. فخرج إليه وهو مشغول بحديث عبد الله. فما شعر حتى حمل عليه وضربه ودق صلبه فانهزم أصحابه".

1 - القطيعة: القطعة الكبيرة من المزارع والبساتين.

وكان ابن الجارود يميل إلى السلام ولم يكن ثائرا على الرشيد، فخرج من القيروان وتركها لهرثمة. فسار إلى المشرق حتى وصل هارون الرشيد فأمنه. وكانت ثورته في جمادى الآخرة من سنة ثمان وسبعين ومائة، وخروجه إلى المشرق في ذي الحجة منها، ومدته في الإمارة على القيروان سبعة أشهر. وجاء هرثمة بن أعين، فكيف يكون المغرب في عهده؟

ولاية هرثمة بن أعين على المغرب الأدنى العباسي[1] 179-181

شخصية هرثمة ومكانته السامية في الدولة العباسية

كان هرثمة بن أعين من القواد الكبار في الدولة العباسية. أبلى بلاء حسنا في محاربة أعدائها، وفي تسكين نواحيها، وفي التغلب على الخارجين عليها. وكان إلى شجاعته في الحروب، وبراعته في القيادة، وإخلاصه للدولة، ونصحه للرشيد، داهية حكيما، سياسيا ماهرا، وعاقلا رزينا، يعرف كيف يطب للنفوس الثائرة فتسكن، وللقلوب النافرة فتقبل، وللنواحي المتمردة على الدولة الطاعة، وتخضع للملك.

وكان هرثمة بهذه الخصائص الحسنة، والشمائل الكريمة، شخصية بارزة في المجتمع العباسي، تكن له القلوب كل احترام وإعزاز. وكان الرشيد يعتد به لدهائه وإخلاصه. وكان مفزعة في الملمات، فيجد عنده الرأي الحكيم، والعلاج الناجع. وكان من اعضاده في القراع، فيجد فيه البطولة والإقدام والثبات الذي يجعل كفته ترجح في المعركة، وجيشه ينتصر على الأعداء.ولما اضطرت الأمور في القيروان، وساءت الأحوال في وسط افريقية، وانقسم العباسيون فيها إلى طوائف تتناحر على الرئاسة، وتتقاتل وتتصارع، علم الرشيد انه لا يصلح لولاية افريقية إلا رجل يتصف بالشجاعة والبأس الذي يجعله مهابا، والدهاء والحكمة والوقار الذي يجعله محترما، ويجمع العباسيون في افريقية على احترامه وإكباره فيخضعون له. فوجد هذه الصفات في هرثمة، فولاه على المغرب الأدنى العباسي.

وكانت ولاية هرثمة في سنة تسع وسبعين ومائة فدخل القيروان في غرة ربيع الثاني من هذه السنة.

نفور هرثمة من الولاية على المغرب

وكان هرثمة كارها للولاية على افريقية لما يرى من تنافس العباسيين في القيروان،

1 - نريد بالمغرب الأدنى العباسي المناطق التي كانت تخضع للعباسيين منه. انه لم يعد كله يخضع للعباسيين. فقد خرجت منه جبال نفوسة وجنوب افريقية إلا الساحل منه، وجزيرة جربة. وبقي في قبضة العباسيين بقية المغرب الأدنى الذي ينتهي في بجاية وجزء من المغرب الأوسط وهو من بجاية إلى غرب مدينة طبنة في شمال مدينة (بريكة) اليوم في شرق الجزائر. إن هذه الأجزاء هي التي نعنيها بالمغرب العباسي. وكان نفوذ العباسيين بالزاب سيما من بجاية إلى طبنة ضعيفا. وكانوا يحكمونه حكما عسكريا صارما لنزوع أهله إلى الإمامة الإسلامية ولم يبق للعباسيين ساكنا مطيعا إلا وسط افريقية: القيروان وحواليها، وتونس التي كان فيها جمهور كبير من الملوكيين وبرقة التي كانت ساكنة للعباسيين. إن العباسيين في المغرب هم كل الذين ارتضوا الملوكية في المغرب ونصروها وأيدوا الدولة العباسية.

وتحفز البربر في شمال افريقية للثورة، واستعداد المغرب كله للانفجار على العباسيين، لكرهه للملوكية، وتمسكه بالإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية الديمقراطية. ولكن الرشيد استطاع أن يقنعه بقبول الولاية، والسير إلى افريقية ليسكنها، وينظم أمورها المختلفة، ويعيد إليها هيبة الدولة التي ضعفت بتمرد الجند على والي، وثورة ابن الجارود على الفضل. فأدرك هرثمة واجبه، وأيقن انه إذا لم يسر إلى المغرب فستزداد أمور العباسيين فيه فسادا، وان المتناطحين في القيروان سيضعف بعضهم بعضا، فتميل عليهم الصفرية المتربصون في الشمال فيأتون عليهم جميعا، ويقضون على الملوكية في المغرب، وتصاب الدولة العباسية بانهدامها في المغرب بداهية دهياء في المشرق. فأسرع هرثمة إلى المغرب إسراع الطبيب إلى المريض المزمن الذي شب فيه الداء الذي يفتح له القروح في الجسم، والقبر في الأرض. فوصل القيروان، وقد خلت من صراع المتنافسين الذين شعروا بمقدمه فكفوا عن الصراع، وأوقفوا المعارك الدامية بينهم. فخرج ابن الجارود من القيروان تاركا لها لهرثمة. ثم أخلاها العلاء بن سعيد من جنده، وكان قد احتلها ووطد أركانه فيها. فوصل هرثمة القيروان فشمر عن ساعده، واستطاع بحزمه ودهائه أن يسكن في العباسيين القلوب الثائرة ويصلح ذات البين، ويضم الجماعة المتفرقة، ويزل من الصدور العداوة والبغضاء، ويعلم الجند المتمرد الخضوع للدولة، والطاعة للوالي، والامتثال لأوامر الملك.

اعتناء هرثمة بالعمران وحبه للبناء

فسكنت القيروان ووسط افريقية وتونس التي كانت تغلي بالثورة، وتشتعل بالحروب، وترتج وتكاد أن تنهدم بتصادم العباسيين. فرجعت افريقية إلى سكونها وهدوئها، وراجعت طريق البناء والتشييد، واعتنت بالعلوم وبناء الحضارة الإسلامية التي قطعت فيها أشواطا طويلة، ووصلت فيها إلى درجة راقية. وكان عهد هرثمة عهد سكون وهدوء، وزمن بالحضارة والعمران. فأنشأ القصر الكبير في (المنستير) بشرق القيروان واعتنى بمدينة طرابلس فحصنها، وبنى سورها مما يلي البحر، لتعصم العباسيين إذا ثارت عليهم هوارة وزناتة في طرابلس.

استعداد هرثمة لثورة هوارة على الملوكية

وكان هرثمة يدرك بثاقب نظره أن هوارة الإباضية التي ينزع بها حبها للجمهورية إلى الدولة الرستمية، وتتذمر من الخضوع للملوكية العباسية، لابد أن تنفجر في يوم فتنقض على العباسيين في طرابلس، وان نفوسة لابد أن تظاهر أختها وجارتها

هوارة. فإذا لم تكن مدينة طرابلس محصنة عالية الأسوار كالقيروان فان العباسيين سيصابون بالمحق والزوال في تلك البقاع، لبطولة هوارة ونفوسة، ولميل جمهور طرابلس إلى الجمهورية الإسلامية، التي يرون أثارها الجميلة في الدولة الرستمية الزاهرة، وسيماها الحسنة الرائعة في جبال نفوسة التي انضمت إليها، وأصبحت تحت جناحها الحنون وهي لا تعرف إلا السعادة الغامرة، والأيام الأنيسة التي يخلقها لهم عدل الولاة، وتمسك إمام الدولة بالدين. إن هوارة وهي تتلظى في قساوة الملوكية، وتسطع فوق رءوسها سيوف العباسيين، فيحسون لها بسعير في قلوبهم أقسى مما يحسون لشمس الظهيرة في الصيف المتقد بالمفاوز القفراء، الخالية من الماء؛ لابد أن تثور لتنضم كنفوسة وزناتة إلى الدولة الرستمية. ولابد من الاستعداد لهذه الثورة العارمة.

استعفاء هرثمة من الولاية على المغرب

وكان هرثمة قد أعياه طول القراع، وكثرة الحروب التي خاضها في المشرق، وغص صدره بغبار المعارك التي تراكم فيه بالمعامع الكبرى التي قادها، وبذل الجهد الكبير فيها؛ وأضناه ما تحمل من المسئوليات في الثغور التي سدها للعباسيين. فأصبح يميل إلى الهدوء، ويؤثر الراحة، ويفضل التخلي عن الولاية، سيما على المغرب الذي يرى البربر فيه يخزرونه بعيون تشتعل بالعداوة، وقلوب تغص بالحقد، وبنفوس ليس فيها إلا كره الملوكية المستبدة، والغرام بالجمهورية الإسلامية. ورأى العباسيين في القيروان، فعلم أنهم قد ألفوا الثورة على الولاة، وفسدت نفوسهم وداخلتها الأنانية وحب الرئاسة. فما أسرع ما يثورون عليه إذا وجدوا الفرصة لذلك. فهو على حذر دائم، ويقظة وانتباه يرهقه، وخوف ينهك أعصابه، ويذهب صفوه. إن والي المغرب كربان السفينة الذي يسكن له البحر ولكن على سحاب قائم ينعقد في سمائه، يحس فيه العاصفة التي يثور بها اليم، والأمطار الغزيرة التي تغضب البحر فيهتاج عليه. إن الخوف لا يفارقه - وإن شبح الفتنة الدامية المرعب لا يزول من أمامه. فأرسل إلى الولاية لأنه لا يسد مسده غيره. فوالى رسائله على الرشيد، وواصل الحاحه عليه حتى أعفاه فولى على المغرب العباسي محمد بن مقاتل ألعكي فوصل القيروان. فرجع هرثمة إلى المشرق في شهر رمضان من سنة إحدى وثمانين ومائة. وكانت مدة ولايته سنتين ونصفا. فكيف يكون المغرب العباسي بعد أن نزل عن عجلة القيادة هذا الربان الماهر، وتخلى عن عرشه هذا الوالي الحكيم؟ أترى ألعكي كهرثمة في الحزم والدهاء وفي البراعة والذكاء، وفي الحصافة والرزانة؟ إن سائس الأسد ليخضعه، ويجعله قطة الألوف، يجب أن يكون في الحزم والدهاء كهرثمة، وإلا كان أكلته! إن المغرب العباسي المتنمر هو ذلك الأسد!

ولاية محمد بن مقاتل ألعكي 181-184

شخصية ألعكي واثر الترف فيه

كان محمد بن مقاتل ألعكي أخا لهرون الرشيد من الرضاعة. وكان أبوه من كبار أهل دولته، ومن الشخصيات البارزة في المجتمع العباسي. وكان محمد بن مقاتل متصلا بالرشيد بهذين العاملين، ومن خاصته التي تدل عليه، وتتوسل بعلاقة الصداقة، في بلوغ كثير من المآرب الخاصة، وتستعين على الرشيد بعلاقتها به فيحقق الكثير من أغراضها.وكان محمد بن مقاتل ألعكي قد نشأ في ظلال أبيه الماجد، وولد في النعمة وتدرج فيها، وحفه اليسر والغنى فشب فيهما، وأورثته القصور المترفة التي ولد فيها ونشأ بها أنواع القصور! فلم يكن قوي الشخصية كابية، ولا رجلا حازما مثله، ولا عمليا يعتمد على نفسه، وتكويه هواجر الزمان، ويغوص في الطين وحمأة المحن، كما يغوص جذع الشجرة فيخضر بغصونه، ويزدان بثماره؛ فيسود بمجد نفسه، ويعلو بمواهبه ونبوغه ومزاياه؛ بل كان ممن يعتمد في العلو على وظيفة الحكومة، وفي الظهور والنباهة على الدولة، فيكون كالعمود الذي يناط به علم الدولة، ترفعه أيدي الحكومة على الدور، وتنوط به شارتها التي تكون بها قيمته. أما هو في حقيقته، فحطب تافه للمواقد، وعصا مجرودة للعب الصبيان!

آفة التدليل ونشأة الترف على الأبناء

وكان محمد بن مقاتل ألعكي ككل الأبناء المدللين أسير شهواته، وابن نفسه، لا يفكر إلا فيها، ولا يعمل إلا لها. وكان محبا للمال، متهالكا على المادة، مغرما بالرئاسة والظهور، ومن طبيعة المدليين الأولى، وشيمهم الراسخة، والطباع التي تلازمهم، القساوة والفظاظة، والتجبر والغطرسة. تبدو قساوتهم في الطفولة مع القطة الألوف التي تقبل عليهم في رقة ولطف وحنان فيجرونها من ذيلها، ويعذبونها بمطاردتها، ومع أثاث البيت الذي يحطمونه في ألعابهم، ويتلفونه في نوبة غضبهم ومع رفاقهم في الملعب فيستبدون بهم، ويقسون عليهم، ويحاولون تسخيرهم في اللعب، وجعلهم أنواعا من اللعب. وإذا كبر هؤلاء المدللون الضعفاء الذين ألفوا إشباع الشهوات، لا ترد لهم رغبة، ولا يمنعون مما يشتهون، فطغت فيهم الغزيرة، وضعفت في نفوسهم الإرادة. وإذا كبروا ونزلوا إلى الميدان العلمي، واختلطوا بالناس، كانوا نهاية في الفظاظة والغطرسة، ومثالا في الظلم والعدوان. وإذا تولوا منصبا كبيرا في الدولة بعامل نسبهم وشرفهم الموروث، ضاعف المنصب غرورهم وكبرياءهم، فيمسون وبالا على الرعية، ومنبعا للظلم

والجبروت والطغيان في المجتمع. إن الدولة التي كتب عليها الهرم والفناء، وكتب لرعيتها الذل والتعاسة والشقاء، هي التي تؤثر لوظائفها وثغورها هؤلاء المدللين الضعفاء.

إن من ينشأ مدللا في حلاوة الترف والغنى لا يشعر إلا بحلاوة الأيام، لا يكون لمجتمعه بقصوره وغطرسته وسوء خلقه إلا مرارة تخلق له أحلك الأزمان. والذي يكون حلاوة لمجتمعه، بلطفه، ودمائه طباعه، وتضحيته للجماعة، هو الذي نشأ نشأة الثمرة في أعلى الشجرة فطبخته هواجر الآلام، واشتمل بالكد المرير والجهاد العنيف في بناء النفس، وكان كالثمرة تشتمل على مرارتها قبل حلاوتها!

كان محمد بن مقاتل ألعكي من هذه الطائفة المترفة، ومن أولئك الأبناء المدللين. نشأ في ظلال أبيه الماجد، فلم تنضجه حوادث الزمان، ومتاعب الأيام، ومرارة الدهور، فدام على فجاجة الصبا في عقله، وعلى قصور الأطفال في خلقه، ولم يدخل الرجولة منه إلا قامته المديدة، وذقنه النابت!

وكان محمد بن مقاتل مغرما بالرئاسة، طموحا إلى الولاية، فولاه الرشيد على المغرب. ولعل ابن مقاتل قد اقلق الرشيد بإلحاحه في طلب الولاية، وهو لا يليق لها، فلم يستطيع رده لنسب الرضاعة الذي يربطه به، ولخدمات أبيه لدولته، فصار له بذلك حقوق عليه، فأراد أن يكفه عن طلب الولاية، ويريبه، فولاه على المغرب حيث ستنفجر عليه البراكين. وارى أن الشخصيات البارزة الذكية عند الرشيد، كهرثمة ابن أعين وطبقته، قد هربت كلها من الولاية على المغرب، لما تعرف من مشاكله، وكرهه للملوكية، فلم يجد الرشيد إلا ابن مقاتل الذي يدفعه حبه للرئاسة والظهور إلى طلب الإمارة، وقبول أي ولاية، فولاه الرشيد على المغرب، وفرح هو بهذه الإمارة، وأسرع الغر المغرم بالعلو والظهور إلى الأسد الهصور ليركبه، ويعلو على ظهره. إننا لم نجد في كتب التاريخ ماضيا مجيدا لمحمد بن مقاتل ألعكي يلفت الرشيد إليه، ولا نبوغا مشرقا يتقدم به عنده. إن الرشيد الذكي لا يغتر بالمظاهر، فيخدعه محمد بن مقاتل بانتفاخه وتعاظمه. فلا بد أن يكون السبب الذي ولاه من اجله هو احد السببين المتقدمين.

إن سيرة ابن مقاتل في ولايته تدل من شخصيته على ما وصفناه به. وليس من الشخصيات التي طال مقامها في بيئة فغيرت طباعها. فنقول إنه كان صالحا وقويا قوة جعلت الرشيد يؤثره، ثم أفسدته بيئة القيروان العباسية؛ بل كان منذ أيامه الأولى في المغرب على سيرة تثبت ما قلنا فيه.

قال ابن عذارى[1]: "وفي سنة 181 ولى الرشيد على افريقية محمد بن مقاتل بن حكيم ألعكي فقدمه في رمضان. وكان رضيع الرشيد، وكان أبوه من كبار أهل دولته وكان محمد هذا غير محمود السيرة، فاضطرب أمره، واختلف عليه جنده. ولو لم يكن من سوء سيرته، وقبيح ما يؤثر عنه من أخباره إلا أقدامه على عابد زمانه، وورع عصره البهلول بن راشد، فضربه بالسياط ظلما وحبسه، فكان ذلك سبب موته!".

ضعف ألعكي ومجاملته لأعداء وطنه

قال المالكي: "كان البهلول بن راشد في زمان محمد بن مقاتل ألعكي أمير افريقية. وكان يلاطف الطاغية (ملك الروم) ويبعث إليه بالألطاف ويكافئه الطاغية فكتب الطاغية إلى ألعكي: أن ابعث إلي بالنحاس والحديد والسلاح. فلما عزم ألعكي على ذلك وأراد أن يبعث إليه ما طلب، لم يسع البهلول السكوت، فتكلم وعارض ألعكي، ووعظه لتزل عنه الحجة لدى الله عز وجل. فلمتا ألح عليه في ذلك بعث ألعكي إليه، وأمر بتجريده، فضربه أسواطا دون العشرين، وحبسه، ثم أخرجه، فبرأ الضرب من جسمه إلا اثر سوط واحد فنغل، فكان ذلك سبب موته".

أرى أن الطاغية الذي كان يلاطفه ألعكي ويجامله ليكسر من حدة عداوته، فلا يهجم عليه، هو ملك صقلية. وكان الولاة الأمويون الأبطال يبعثون إليه بأعظم هدية وهو نور الإسلام! الذي تحمله السرايا التي تغزو بلاده، لتنقذها من الجهالة والوثنية. وكان أهل صقلية ترتعد فرائصهم من الأسطول المغربي الذي أنشأه الأمويون، والجيش الإسلامي في المغرب! وكانت افريقية قوية ترفع رأسها على الروم وتقول كلمتها! وكان الروم في صقلية يؤدون لها الجزية وهم صاغرون. فلما ضعفت افريقية في عهد العباسيين، وتفرقت كلمتها، واشتغل العباسيون بإخضاع الأمم الإسلامية بحد السيف لسلطانهم، والقضاء على مناوئي سلطانهم وملكيتهم من العلويين والجمهوريين، انتعش الروم، ووهن العباسيون في افريقية، فصار ألعكي يجامل الروم، ويفتل لهم في الذروة والغارب لكي لا يهاجموه. وقد ثار البهلول على ألعكي لما صار يجمع السلاح والمواد الحربية ليتقوى بها الروم عسكريا، وهم أعداء افريقية الموتورون، لا يريدون لها إلا شرا، وليس في قلوبهم إلا الحقد المكين على المسلمين.

ظلم ألعكي وسوء سيرته في ولايته

وكان ألعكي ضعيفا، ومن شأن الضعيف، كما قلنا" الظلم، والغطرسة، والجبروت،

1 - البيان المغرب في أخبار المغرب ص 111 ط بيروت.

واغتصاب الأموال لتسلط غرائزه عليه، وعدم استطاعته كبحها. ففسدت عليه القلوب في القيروان. وكان الجند والعباسيون في افريقية قد ألفوا الثورة على الولاة، فحركهم ألعكي لذلك بسوء سيرته، فثاروا عليه، فطردوه من افريقية.

وكان الوالي على الزاب هو إبراهيم بن الأغلب. وكان حازما شجاعا داهية كابية. فساء أن يطرد ألعكي، ورأى ذلك تمردا على الدولة، واستهانة بكل عمالها في المغرب وهم أوتادها. وكان العباسيون لا يولون على الزاب إلا أقوى رجالهم، وكانوا يشحنون الزاب بجيش قوي يرابط فيه. فسار إبراهيم بن الأغلب فقمع الثوار، ورد ألعكي. وكان زعيم الثوار هو تمام بن تميم التميمي فماذا وقع بينه وبين ألعكي؟

ثورة تمام التميمي على ألعكي وإخراجه من المغرب:

قال النويري: لم يكن ألعكي محمود السيرة، فاضطربت عليه أحواله، واختلف جنده. وكان سبب الاضطراب عليه انه اقتطع من أرزاق الجند،[1] وأساء السيرة فيهم وفي الرعية. فقام فلاح القائد، ومشى في أهل الشام وخراسان حتى اجتمع رأيهم على تقديم مرة بن مخلد الازدي".[2]

وكان الاستياء من سوء سيرة ألعكي عاما في افريقية، وكان العباسيون في شمال افريقية بمدينة تونس قد ألفوا الثورة على الوالي وخلعه إذا ساءهم بشيء، ولم تكد القيروان تعين واليا يخلف ألعكي الذي عزمت على خلعه حتى سبقتها مدينة تونس إلى الثورة فعينت هي الوالي الذي تريد.

ثورة تمام التميمي على ألعكي وإخراجه من المغرب

قال ابن عذارى: وخرج على ألعكي تمام بن تميم التميمي، وكان عامله بتونس. وفي سنة ثلاث وثمانين ومائة زحف تمام من تونس مع جماعة القواد والأجناد من أهل الشام وخراسان متوجها إلى القيروان، وفي النصف من رمضان. فخرج إليه ألعكي فتقاتلا، فانهزم ألعكي ورجع إلى القيروان، فتحصن في داره التي بناها، وترك دار الإمارة. واقبل تمام فنزل بعسكره خلف باب أبي الربيع. (وكان جل من بالقيروان مع تمام) فلما أصبح تمام فتحت له أبواب، فدخل القيروان يوم الأربعاء لخمس بقين من رمضان سنة 183. فامن تمام ألعكي على دمه وأهله وماله. (على أن يخرج عنه. فخرج تلك الليلة إلى المشرق).

وكانت ولاية ألعكي إلى أن أخرجه تمام من القيروان سنتين وعشرة أشهر. ثم ولي

1 - كان هذا الجند مأجورا للعباسيين، وكانت له جرايات يأخذها من بيت مال الدولة. وكذلك جل الجند في الدول الملوكية من هذا القبيل، هم كالموظفين عند الحكومة لهم اجر شهري يأخذونه.

2 - ورد هذا الاسم في البيان المغرب مخلد بن مرة الازدي ولعله هو الصحيح.

افريقية أبو الجهم تمام بن تميم التميمي، وكان ثائرا متغلبا من غير عهد من الرشيد، وهو جد أبي العرب ابن تميم صاحب التآلف. فدخل القيروان، وخرج ألعكي منها بأمانه، ومشى إلى طرابلس. ولحق به قوم من أبناء خراسان، منهم طرحون صاحب شرطته، فاجتمع رأيهم على أن يدخلوه، فدخلها، وأقام تمام ملك القيروان".

انقاد ابن الأغلب للعكي وإرجاعه إلى الولاية

وكان إبراهيم بن الأغلب والي الزاب فساءته جرأة الثوار على والي الملك هارون الرشيد. قال ابن عذارى: "فنهض إبراهيم بن الأغلب من الزاب، فلما بلغ تماما إقباله إليه سار إلى تونس؛ فدخل ابن الأغلب القيروان، وابتدر المسجد الجامع، وصعد المنبر، وكان فصيحا بليغا، فاعلم الناس انه ما وصل إلا لنصرة ألعكي، وانه هو أميرهم، وكتب إلى ألعكي يخبره بما فعل في حقه، ويؤكد عليه في الوصول، فاقبل راجعا، حتى دخل هو ومن معه القيروان".

بغض أهل افريقية للعكي

وكان أهل القيروان وافريقية يأبون رجوع ألعكي إليهم، لسوء سيرته وظلمه، وعدوانه على البهلول بن راشد العابد العالم الذي يجلونه؛ وكانوا يحتقرونه أيضا لضعفه. قال ابن عذارى: "ومشى ألعكي يوما في أزقة القيروان فنادته امرأة من طاقها، تقول له: اشكر إبراهيم بن الأغلب الذي رد عليك ملكك بافريقية! فكبر ذلك عليه. وكان الناس يقولون: استرحنا من ألعكي فرده إبراهيم علينا! فالموت خير لنا من الحياة في سلطان ألعكي! ففزع الناس إلى تمام بن تميم التميمي. (وصاروا يتمنون رجوعه، واحتلاله للقيروان، وإخراج ألعكي عنهم). فلما رأى تمام كثرة من معه طابت نفسه لقتال ألعكي. واقبل من تونس بعسكر عظيم".

كان ذلك في شهر محرم سنة 184. وكان إبراهيم بن الأغلب في جيشه القوي يرابط في القيروان. فخرج إلى تمام فوقعت بينهم حرب شديدة فكر ابن الأغلب على تمام فهزمه، فولى الأدبار، ورجع إلى تونس وتحصن بها. فسار ابن الأغلب إلى تونس لمحاصرتها، والقضاء على ثورة تمام. فعلم تمام انه لا طاقة له بمنازلة إبراهيم بن الأغلب فطلب منه الأمان. فأمنه إبراهيم واقبل به إلى القيروان يوم الجمعة لثمان خلون من المحرم المذكور "فلما صار الأمر إلى إبراهيم بن الأغلب، بعث تمام بن تميم التميمي وغيره من وجوه الجند الذين شانهم الوثوب على الأمراء إلى بغداد. فحبسوا في المطبق".[1]

1 - نهاية الأرب للنويري ج 22 أما المطبق فهو سجن يكون غالبا تحت الأرض مطبق لا ينفذ إليه النور.

ورجع ألعكي إلى القيروان. فهل قبله العباسيون أميرا عليهم، وارتضوه واليا يسوس أمورهم، بعد ما رأوا من ضعفه، وتجرعوا من مرارة ظلمه وغطرسته، أم اتجهوا إلى شخصية عبقرية ارتضوها، والى رجل حازم حكيم يعجبون به، فعملوا لولايته عليهم؟ لقد اتجهوا إلى إبراهيم بن الأغلب فمن هو هذا الرجل الذي حاز إعجاب العباسيين وكيف كانت ولايته؟



ولاية إبراهيم بن الأغلب على المغرب العباسي وعزل ألعكي 184 هـ.

كان العباسيون[1] في افريقية، سيما القواد والجند يأبون رجوع ألعكي إلى الولاية لضعفه وسوء سيرته. فاتجهت الأنظار إلى إبراهيم بن الأغلب الذي استطاع بحزمه وبطولته أن يخمد ثورة تمام، وان يرجع افريقية العباسية الثائرة إلى طاعة الملك، والانقياد للدولة.

شخصية ابن الأغلب القوية وخصائصه الحسنة

وكان إبراهيم بن الأغلب قد ورث خصائص أبيه الأغلب كلها. فكان حازما، شجاعا، ذكيا، مثقف العقل، بالغ الدهاء، مخلصا للعباسيين في المغرب.

وكان إبراهيم بن الأغلب عالما في الشريعة، ضليعا في الأدب. وكان فصيحا يمتلك القلوب بفصاحته، ويؤثر في النفوس كما يشاء ببلاغته، وكان عذب الحديث، جميل المحضر. ذا شخصية ايجابية محترمة، وقورا وقار القوى الذي يحترم نفسه من غير تكبر ولا جفاء؛ فأحبه العباسيون في افريقية واحترموه. وكانوا يكنون له كل إجلال وتعظيم. ولما ثار أهل القيروان على ألعكي، وأعانوا تماما في ثورته، وفتحوا له باب المدينة، واستطاع إبراهيم لشخصيته المحترمة، ولفصاحته وبلاعته أن يؤثر في أهل القيروان، ويكسر حدة بغضهم للعكي، ويصرف أعنة كثير من القلوب النافرة إليه؛ وارهم أن ألعكي إنما هو نائب هارون الرشيد في افريقية، ويمثل الدولة العباسية، فما كان لهم أن يخذلوه، ويرضوا بان يتجرأ إنسان عليه. فسكنت القيروان للعكي بعد هياجها، واستطاع أن يدخلها آمنا بعد أن لفظته وابعد عنها.

كان إبراهيم بن الأغلب لشخصيته القوية، ولما بدا من كفاءته الحربية والسياسية في إخماد ثورة تمام، متجه الأنظار من العباسيين في المغرب، يتمنون أن يكون هو أميرهم. وكانوا يخافون أن يفتح عليهم ضعف الولاة، واختلاف كلمتهم، باب الثورة عليهم من الصفرية المتربصين بهم في شمال افريقية. من يدري، لعل المغرب الذي يبغض الملوكية ويتمنى زوالها، يثور كله عليهم، مغتنما فرصة انقسامهم، ونشوب الثورات في القيروان بضعف ولاته. ورأى العباسيون في افريقية أن إبراهيم ابن الأغلب هو أحسن من يولى عليهم، وانه هو الأمير الذي يصلح أمور العباسيين في افريقية، ويجمع كلمتهم المتفرقة، وهو الذي يقودهم، وينظم شئونهم، ويورثهم الاستقرار والهناء، والتقدم

1 - نريد بالعباسيين في افريقية والمغرب الذين يظاهرون الملوكية وتراهم الدولة العباسية أوتادها وجماهيرها في المغرب لا الذين من أصل عباسي فقط.

والرخاء، ويشحن نفوسهم بالإخاء. وهو الذي يستطيع أن يفق في وجه الصفرية إذا ثاروا عليه، ويحافظ على علاقة حسن الجوار التي عقدها روح بن حاتم مع الدولة الرستمية القوية، فسكن الإباضية في جنوب افريقية وفي طرابلس فلم يهجموا عليهم، ولم يشجعوا الصفرية بثورتهم فينقضوا عليهم. وهو الذي يجمع العباسيون في المغرب على احترامه فيخضعون له. فأشاروا عليه بقبول الإمارة، وبتولي الأزمة في افريقية بدلا من ألعكي.

وكان إبراهيم بن الأغلب طموحا، وكان يرى نفسه أهلا للإمارة، وكان يحب الرئاسة ويتمناها. فوجد فرصته لتحقيق أمله فقبل الإمارة، وأرسل إلى الرشيد ليوليه.

وكان يحيى بن زياد صاحب البريد في افريقية، والذي يطلع الملك على كل الأنباء، يراسل الرشيد بالأمور في افريقية، فاخبره بإخلاص إبراهيم بن الأغلب، وبكفاءته الحربية والسياسية، وبإخماده ثورة تمام التميمي، وبضعف ألعكي وبغض العباسيين في افريقية له، وبميل الناس إلى ابن الأغلب وحرصهم ومطالبتهم بإمارته؛ وانه هو الذي يسكن افريقية، ويورث للعباسيين مجدا فيها، ويضمن سكون المغرب فلا يثور عليهم ليقضي على الملوكية في القيروان.

العجز المالي في المغرب العباسي لسوء إدارته

وكان إبراهيم بن الأغلب ذكيا في استمالة الرشيد. وكانت مصر لسوء الإدارة في افريقية، ولعدم إخلاص الولاة والموظفين وأمانتهم فيها، تمد خزانة القيروان في كل عام في هذه العهود العباسية المضطربة بمائة ألف دينار. فواعد إبراهيم بن الأغلب هارون الرشيد "أن يترك المائة ألف دينار التي كانت تحمل من مصر إلى افريقية إعانة للولاة به، وان يحمل هو من افريقية إلى (الملك) أربعين ألف دينار.[1]

وكانت الثورات في افريقية، وتعود العباسيين فيها التمرد على الولاة، وتخوف الرشيد من ثورة الصفرية عليه، وهجوم الدول الجمهورية في المغرب والقضاء على الملوكية في القيروان وسريان عدوى الجمهورية الإسلامية، والإمامة العادلة إلى مصر والمغرب، والمبالغ المالية الكبيرة التي تمتصها القيروان من خزانة مصر فترزئ بغداد فيها؛ كل ذلك جعل المغرب العباسي مشكلة تحيزه، وثقلا يورثه القلق والهموم. فلما وجد إبراهيم بن الأغلب، وعلم انه يستطيع أن يكفيه أمور المغرب، والمحافظة على الملوكية في القيروان، مال إلى ولايته. فشاور هرثمة بن أعين فأشار عليه بتوليته. فولاه على المغرب العباسي.

1 - الاستقصاء للسلاوي ج 1 ص 122 ط الدار البيضاء.

قال النويري: "لما كان من أمر إبراهيم بن الأغلب ما ذكرناه من نصرته للعكي... كتب يحيى بن زياد صاحب البريد بالخبر إلى هارون الرشيد. فقرأ الكتاب على أصحابه. وقال لهرثمة أنت قريب العهد. فقال يا أمير المؤمنين قد سألتني في مقدمي عن طاعة أهلها. وأخبرتك انه ليس بها احد أفضل طاعة، ولا ابعد صيتا، ولا أرضى عند الناس من إبراهيم. ثم صدق قولي قيامه بطاعتك (في إخماد ثورة تمام على واليك) فأمر الرشيد بكتابة عهده على افريقية".[1]

استقلال المغرب العباسي

وكان إبراهيم طموحا فاستغل المغرب إلى اللامركزية في الحكم، وانفصال المغرب عن المشرق كثيرا من الانفصال بانضمام جنوب افريقية، وجبل نفوسة إلى الدولة الرستمية؛ فلم تعد القيروان متصلة بمصر إلا بالساحل الضيق الذي بقي لها؛ وصحراء (سرت) و(جدابية) التي كانت حاجزا طبيعيا يضعف الصلة بين افريقية والمشرق؛ هذه الأسباب والدوافع كلها، مع حب إبراهيم للملك، جعله يستقل في افريقية استقلالا داخليا تاما، فلم تعد تربطه بالدولة العباسية إلا مظاهر الملك، والحرص على الملوكية التي هي هواهم وما يدافعون عليه جميعا.

حب هارون الرشيد للمغرب وطن أخواله

وكانت أم هارون الرشيد هي الخيزران البربرية من المغرب! فنشأ محبا للمغرب، يعطف عليه، ويتمنى له الهدوء والاستقرار. فرضي باستقلاله الداخلي لان هذا هو الذي يسعد المغرب العباسي، ويظهر شخصيته، ويجعله يستريح من مشاكله وثوراته. وكان رحيما، فلم يغرق المغرب في الدماء كما فعل أبو جعفر المنصور، ولم يحاول استبقاءه جزءا من دولته بالسيف كما فعل من تقدمه. لقد كان ذكيا. فآثر هناءه وهناء المغرب. فرضي باستقلال المغرب العباسي استقلالا داخليا تاما عنه.

عبقرية ابن الأغلب السياسية والإدارية

وكان إبراهيم بن الأغلب عبقريا! فنظم دولته، ودفعها في طريق العلم والحضارة والرقي. فازدهرت افريقية على يده. وبلغت الذري التي كان قد وجهها إليها حسان ابن النعمان ومن جاء بعده من ولاة بني أمية المخلصين.

وكانت الدولة الأغلبية كالدولة الرستمية ودولة بني واسول، والدولة الإدريسية في

1 - نهاية الأرب للنويري ج 22 المجلد الأول. نسخة مصورة في دار الكتب المصرية.

بناء الحضارة العربية الراقية في المغرب. وكانت الدولة الأغلبية تنافس الدولة الرستمية في الحضارة. فهي من أسباب رقيها وتقدمها. لقد قدمت هذه الدولة الأغلبية للغة العربية والحضارة الإسلامية بالمغرب أيادي كبرى لا ننساها. ونقلت الإسلام إلى صقلية والحضارة العربية إليها. وكانت من الدول المغربية الكبرى التي يجب الاعتناء بتاريخها. وسنفصل القول فيها في الجزء الرابع إن شاء الله.

كانت افريقية العباسية التي فيها جمهور كبير من العباسيين يرجحون كفة الملوكية فيها هادئة للاغالبة، مقبلة عليهم، ضاحكة بهم. أما الزاب الذب كان خاضعا لهم، فقد كان ينزع إلى الجمهورية. وكان يناوش ويجاذبهم الحبل لينفلت فيلتحق بالدولة الرستمية الجمهورية، أو ينشئ دولة خاصة به. وكان ساخطا على الأغالبة. وكانوا هم يشحنون ثغورهم بالجند ويخضعونه بالقوة، ويحكمون اغلب أجزائه حكما عسكريا صارما. وقد ثار عليهم مرارا، ووقعت بينهم حروب أغرقته في الدماء، وأججت سخطه على الدولة الأغلبية، فكان أحسن بيئة للدولة العبيدية التي نشأت في جبال كتامة منه، ففاضت على المغرب كله فقضت على الدولة الأغلبية، والدول المغربية كلها. فدخل المغرب في لياليه، وعمه الاضطراب لسخطه على هذه الدولة التي جثمت على صدره، وأشهرت السيف عليه، ولم ير منها إلا بأساءه ومحنه، وإلا تمزق صفوفه، وتشتت كلمته.

استقرار الدولة الرستمية وهناؤها وسعادتها بالعدل والدين

لقد كانت افريقية تغلي بثوراتها على الولاة الضعفاء. وكان السخط والشقاء والحاجة تسودهما. فكيف كان المغرب الأوسط وما يتبعه من المغرب الأدنى: جنوب افريقية، وجزيرة جربة، وجبلا نفوسة. وكان هانئا، سعيدا، مطمئنا، تحت جناح الدولة الرستمية الجمهورية العادلة التي تسوسه بسياسة الدين، وتلزم فيه هدى الخلفاء الراشدين. إنها دولة إباضية أنشأها الإباضية الذين يتمسكون بالإمامة الإسلامية والجمهورية العادلة كل التمسك. فكيف نشأت الدول الإباضية الجمهورية في المغرب فأسعدته، ودخل بها أعراسه البهيجة، وأعياده الباسمة، وعهود قوته وسعادته! وكان الملجأ الأمين الهانئ للمضطهدين الأحرار في الدول الملوكية في المشرق. يلجئون إليه فيجدون الإخوة والصفاء، والحرية والعدل، والحضارة الإسلامية الراقية التي تنبع من الدين المكين، والعلم الزاهر، ونعمة تمسك أئمته وولاته وموظفيه بالدين في كل شيء؟!

نشأة الدول الإباضية

كان الإسلام قد غرس حب العدل في القلوب، والغرام بالمساواة في النفوس، والتعليق بالديمقراطية؛ فكان من مآثر الدين الحنيف عند المسلمين قضاؤه على ظلم الجاهلية واستبدادها، وعلى غطرسة الملوك، وتجبر الأمراء، وحيف الرؤساء؛ وأشاع العدل الذي يتولد به الاتحاد والإخاء، والديمقراطية والمساواة التي هي أساس المحبة والرخاء.

وكان الإسلام قد فرض في رئاسة الدولة أن لا يتقدم إليها إلا من يرتضيه المسلمون لدينه واستقامته، وورعه وإخلاصه، وكفاءته العقلية والخلقية، ويقدمونه هم لرئاستهم، بدون أن يتخطى الرقاب إليها ويستولي بالقوة عليها. ولما خرم بنو أمية هذا الأصل العظيم، فاستبدوا برئاسة الدولة دون المسلمين، وجعلوا الدولة الإسلامية ملوكية كسروية، بعد أن كانت جمهورية تقوم على الإمامة العادلة، ويرأسها الإمام الذي تجمع عليه أغلبية المسلمين؛ وجعل الأمويون الملك تركة فيهم تورث، وعضوا عليه بالنواجذ، ووضعوا الأحاديث الكاذبة والنصوص المزورة التي تحصر رئاسة الدولة في قريش، وجعلوا الخلافة الإسلامية الشائعة التي يمكن أن يتقلدها كل ذي كفاءة من المسلمين ملكا عضوضا كسرويا مستبدا؛ محصورا فيهم،ة خاصا بهم؛ ثار عليهم المسلمون لمخالفتهم للدين، واغتصابهم لرئاسة المسلمين.

وكانت الشورى في الرئاسة، والديمقراطية التامة في انتخاب رئيس الدولة، مما جاء به الإسلام، وأمر به الدين الحنيف، منعا للتحاسد والشقاق بين المسلمين، وصدا لغير الأكفاء أن يتسنموا عرش السلطان، إذا كان الأمر بالإرث في التيجان، كما وقع في بعض الأزمان، يموت الملك فتنتظر الأمة شباب صبي ينشأ على الفسولة والرخاوة كالديدان، ليتولى أمرها، وهي تعج بأصحاب الكفاءة، لان الملك مقصور على هذه العائلة، ورئاسة الدولة محصورة في تلك الأسرة، فهي معدن الذهب، وإن كان ذهبه قد نفد، ولم يبق فيه إلا الرغام الذي لا يليق إلا لبناء القبور ! وانطفأت نيرانها، وخبا جمرها، فلم يبق في كانونها إلا الرماد، أو عيدان خضر من المخنثين الذين لا يضطرمون كالأبطال بنار المدافع والرشاشات، والبنادق والقبائل في الميدان، وبالفكر في الخطط العبقرية، وحل مشاكل الأمة، ليورثوا لامتهم نضوجها، ولكن يملؤون الساحة بالدخان... فينعدم من جو أمهم الصفاء، وتخيم عليها التعاسة والشقاء ويكونوا مصدر ليلها الحالك الذي تغط فيه في النومات، فترتع فيها سباع الاستعمار، وتتفتح لها كل القبور.

إن الإسلام قد جاء بنظام الإمامة في رئاسة الدولة، ليقود الأمة الإسلامية في كل زمان أفضل أبنائها، وأكثرهم كفاءة، وأتمهم في الورع والنزاهة والإخلاص، فخرم بنو أمية وبنو العباس هذا الأصل، فثار عليهم المسلمون، وأنكروا عليهم مخالفتهم للدين، واستئثارهم بالرئاسة، وهي شورى بين المسلمين. فنشأت جماعات بعد استيلاء معاوية قهرا على الملك وقضى على الإمامة الإسلامية، فشددت النكير على الأمويين لهذه البدعة وعلى العباسيين بعدهم، ودعت إلى الرجوع إلى الإمامة الإسلامية، والى ما أمر به الدين في رئاسة المسلمين.

وكان مما ارث قلوب كثير من المسلمين على الأمويين والعباسيين ما ارتكبوه من جرائم في الملك، وما اهرقوا من دماء حرام، وما اظهروا من حيف في سياسة الناس، سيما من توسموا فيه انحرافا عنهم، ومنافسة لهم كالعلويين أبناء الإمام علي رضي الله عنه وفاطمة الزهراء، وعبد الله بن الزبير، وإنكارا لسياستهم وظلمهم كالإباضية الذين تمسكوا بالجمهورية الإسلامية، وعملوا في كل العهود على أن يكون دستور الدولة هو القرآن، لا تحيد عنه، ولا تتمرد على أحكامه، وان يلتزم رئيس الدولة وولاته عدل الخلفاء الراشدين، وتمسكهم بالدين في سياسة المسلمين.

وكان الأمويون والعباسيون إلى عدم التزام العدل وأحكام الدين في كل أمورهم لا يسيرون في مال الدولة سيرة الخلفاء الراشدين، فينفقونه في مصالح المسلمين، ويضعونه حيث أمرهم الله، فيريشون به الفقراء، ويقوون به الدولة، ويبيدون به الفقر والمرض والجهل والشقاء، بل ينفقون الكثير منه في الشهوات والأهواء، ويخصون بالكثير منه الأولياء، ويقطعون به ألسنة الشعراء، ويصطنعونهم ليزجوا المدائح لهم، ويسكتوا عن ذكر المثالب التي تثير عليهم القلوب، وتظهر صفحتهم للرعية، وتكشف حقيقتهم للناس. ووظائف الدولة، والولاية على الأمصار؟ كانوا يخصون بها الأنصار، ويجعلون أكثرها لمن ساعدهم على الحصول على الملك، ولمن يخضع الرقاب لهم، ويسير وفق هواهم. فسخط المسلمون هذه السيرة، وثاروا على هذه السياسة. وزادهم سخطا وشعورا بمرارة الحيف ما ألفوه من حلاوة العدل والمساواة في عهد الرسول وخلفائه الراشدين. فتكونت جماعات في العراق والجزيرة العربية ينكرون المنكر، ويدعون إلى الرجوع في رئاسة الدولة إلى الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية، والى تقيد الدولة بالدين في سياستها، والتزام ما أمر الله به في كل أشيائها، ويعملون لإنشاء الدولة الإسلامية التي تقوم على الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية، ليعيش الناس كما كانوا في عهد الرسول وخلفائه الراشدين، في عز ورخاء، وفي سعادة وإخاء، وتكون

الأمة الإسلامية بنيانا مرصوصا يشد بعضه بعضا، فتهزم ظلام الكفر والفساد في كل الأقطار، وتشرق بنور الله في كل الأمم، وتكون نهرا عظيما تجمعت روافده واتحدت فروعه، ففاض، فغمر كل النواحي، وأورث الخصب والغنى والسعادة لكل البقاع. وكانت اكبر هذه الجماعات، وأكثرها إخلاصا لهذه المبادئ، وتمسكا بهذه المثل العليا، الإباضية أتباع عبد الله بن وهب الراسبي، وجابر بن زيد، وهو إمامهم في الدين. فكيف كانت شخصية هذا الإمام، وما خطوات الإباضية في إنشاء دولهم التي تلتزم في كل أمورها الدين، وتتمسك بعدل الخلفاء الراشدين.

إمام الإباضية جابر بن زيد

إن الإباضية دون الفرق كلها ينسبون إلى رجل ليس هو أمامهم الأكبر، ورئيسهم الأعظم، وإنما هو شخصية بارزة فيهم، وعالم كبير من علمائهم، وداعية متحمس من دعاتهم عبد الله بن إباض المرى التميمي.

وكان عبد الله بن إباض يتولى الدعاية لما يتمسك به الإباضية من الإمامة العادلة، ووجوب تقيد رئيس الدولة بالدين في السياسة، ويناظر الصفرية والازارقة وبقية الخوارج الذين يشذون عن الدين بعقائدهم الباطلة، ويفحمهم بحجته، ويريهم بطلان ما ذهبوا إليه. وكان شخصية اجتماعية متحمسة، فكان الإباضية يجتمعون في داره، وكان هو يرأسهم في حلقات المناظرة، أو في الوفادة إلى الأمراء الذين يعظونهم، وينظرون عليهم مجانبة الدين في السياسة، والأخذ بالهوى والنزوات في الحكم، فظهرت شخصيته بهذا فنسبت العامة فرقة جابر بن زيد التي تتمسك بالإمامة الإسلامية إلى عبد الله بن إباض.

كيد الملوك للجمهوريين

وكان جابر بن زيد عالم عصره بعد ابن عباس! وكان علما في الزهد والورع والتقوى، وكان أهل عصره يجلونه ويحترمونه، ويثقون بعلمه ودرايته. فأبى الملوكيون أن ينسب الإباضية الذين يتمسكون بالإمامة الإسلامية، ويناوئون الملك العضوص إلى جابر بن زيد، فيكثر ميل الناسي إليهم، ويكون لهم من نسبتهم إلى جابر ما يزيدهم قوة وظهورا فيكثر أتباعهم، ويستميلون الجماهير إليهم، وهو ما كانوا يأبونه ويحاربونه بكل الوسائل. فنسبوا أتباع جابر بن زيد إلى عبد الله إباض، لان عبد الله بن إباض وإن كان في التقوى والورع كجابر، ولكن لم يكن في درجته في العلم والشهرة، وفي إجلال أهل عصره له، وإعجابهم بنبوغه ومعرفته. فأوهموا العامة بهذه التسمية أن إمام الإباضية هو عبد الله بن إباض لا جابر بن زيد. وهذا من كيد الملوكيين للجمهوريين الإباضية الذين يتمسكون بالإمامة الإسلامية، ويأبون الملوكية المستبدة. فمن هو جابر بن زيد وما نسبه وشخصيته؟

نسب جابر ابن زيد وشخصيته

هو جابر بن زيد الازدي العماني. ولقبه أبو الشعثاء. ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في سنة إحدى وعشرين من الهجرة. وكان ميلاد جابر بعمان في بلدة (الفرق) من أعمال (نزوى) العاصمة الشهيرة في عمان. وكانت (الفرق) قريبة

منها. وقبر بنته الشعثاء لا يزال في الفرق إلى الآن.[1] وكان جابر من قبيلة اليحمد بعمان. وهم من ولد عمرو بن اليحمد. وكانت قبيلة كماجدة من قبائل عمان. ومنها بنو خروص الأمجاد الشهيرون في تاريخ عمان.

وكان جابر منذ حداثته ذكيا حاد الذكاء، قوي الفطنة، راجح العقل، قوي الحافظة، قد توجه الله بك أسباب النبوغ في العلم، والبراعة في المعرفة، وبلوغ ارفع الدرجات في العرفان. وكان إلى استعداده العقلي الممتاز زكي النفس، صافي الطوية، نقي الجوهر، حسن الأخلاق، ورث ذلك من أبويه، ومن بيئته الاجتماعية الطاهرة. إنها بيئة عمان الزكية الطاهرة، التي لم تشع فيها الحضارة فتضعف دينها، ولم يفض عليها الموالي والجواري من الروم والفرس وغيرهم من العلوج الذين امتلأت بهم الأمصار الإسلامية فاثروا في أخلاقها، ونفخوا فيها من روحهم. فكان جابر كبيئته الدينية الزكية التي أنشأته، متين الأخلاق، قوي النفس، كريم الطبع، راسخ الدين، فتجمع له من عقله الذكي، ومن نفسه الطاهرة أسباب النبوغ في العلم. والعلم النافع نور الله الساطع، وشمسه الوهاجة، لا يطلعها إلا في النفوس هي لطهرها ونقائها سماء رفيعة، ونعمة الله الكبرى، لا يضعها إلا في أحسن الأوعية، وفي النفوس الطاهرة الزكية!

وكان جابر لشخصيته العلمية، واستعداده العقلي الذي يجعله ميالا إلى العلم مغرما به، قد نشأ في بيئة تمجد العلم وتعظمه، وتجل العلماء، وتكبرهم، فزاد هذا في رغبة جابر في العلم، وفي غرامه به، فأعطى نفسه له، فكان من العلماء الذين يوفقهم الله فيعبدونه بأحسن عبادة واجلها، وهو طلب العلم ونشره، والعكوف على دراسته، والزيادة فيه!

ارتحال جابر إلى البصرة للتخصص في الشريعة الإسلامية

وقد تلقى جابر تعليمه الابتدائي في وطنه بعمان، ثم تاقت نفسه إلى التخصص في علم الشريعة. وكانت البصرة في العراق هب العاصمة العلمية في زمانه، قد اجتمع فيها من العلماء في الشريعة والأدب ما لا يوجد في غيرها. فرحل إليها لطلب العلم، ثم طاب له المقام في جوها العلمي فاستقر بها، وجعلها وطنه ومسكنه فنسب إليها.

وكان جابر من كبار التابعين في عصره. أدرك جماعات كبيرة من الصحابة فحوى ما عندهم من العلم، وكان يتنقل في الأمصار، ويجوب الفيافي والقفار، يقصد الصحابة

1 - الشعثاء هي بنت جابر التي كني بها وقد توفيت في مدينة الفرق بعمان وقبرها معروف بها إلى الآن اخبرني بهذا الإمام المجاهد غالب بن علي إمام عمان المجاهدة عند زيارتي له أمس 12 ربيع الأول 1383-1963/8/2 في فندق شبرد بالقاهرة

ليأخذ عنهم ما حفظوه من حديث، وما عرفوه من الشريعة، وما عندهم من تاريخ الرسول عليه السلام وأصحابه. قال جابر: أدركت سبعين صحابيا من أهل بدر فحويت كل ما عندهم من العلم إلا البحر! يعني ابن عباس. لقد كان البدريون قلة في أصحاب رسول الله الذين يبلغ عددهم في زمان جابر الآلاف، ومع ذلك بلغ أساتذته من أهل بدر هذا العدد الكبير. وكان من لقيهم، واخذ عنهم من الصحابة الآخرين الذين لم يشهدوا بدرا أضعاف هؤلاء بكثير.

عبد الله ابن عباس اكبر أساتذة جابر بن زيد

وكان اكبر أساتذة جابر بن زيد عبد الله بن عباس رضي الله عنه. وكان ابن عباس هو حبر الأمة الإسلامية، دعا له النبي صلى الله عليه وسلم بالنبوغ في العلم، والتمام في المعرفة، فكان كما دعا النبي عليه السلام. وكان أهل عصره يسمونه البحر لغزارة علمه، وعمق فهمه، وكثرة معرفته في الشريعة الإسلامية. وكان جابر معجبا بابن عباس فانقطع إليه، ووضع الرحال عنده، فكان اكبر تلامذته، اخذ عنه ما لم يأخذ غيره وحصل من علمه ما لم يستطعه سواه. وكان كأساتذة ابن عباس في عمق الفهم للقرآن وفي إدراك أسراره، وفي المعرفة بأغراض الشريعة، وفلسفة الدين. ولم يكن ظاهريا يفهم الفهم البسيط، ويدرك الإدراك الضعيف ثم يقنع بذاك.

جابر وإعجاب أهل عصره به وشهادتهم له

وقد نبغ جابر على يد ابن عباس، وأرهف عقله بفلسفة الدين، وملأ وطابه بأحسن ما عنده. فكان اكبر عالم في الشريعة الإسلامية في زمانه بعد ابن عباس. قال إياس بن معاوية: "رأيت البصرة وما فيها مفت غير جابر بن زيد. وعن الحصين بن حيان قال لما مات جابر بن زيد فبلغ موته أنس بن مالك (خادم النبي صلى الله عليه وسلم) قال: مات اعلم من على ظهر الأرض"[1] وذلك لإعجاب انس بعلم جابر وغزارة معرفته، وعمق فهمه، وكثرة فقهه في الدين. وكانت وفاة انس في الأسبوع الذي توفي فيه جابر، فترافقا في الجنة يكرعان من نعيم الله، كما ترافقا في مجالس العلم في الدنيا يكرعان من نور الله وكان قتادة معجبا بجابر. ولما توفي ودفن. قال قتادة أدنوني من قبره وكان ضريرا فأدنوه فقال: اليوم مات عالم العرب!

كتاب السير للبدر الشماخي ص 80 البارونية في القاهرة وحاشيته الجامع الصحيح للشيخ السالمي ج 1 - 1 ص 7 ط البارونية.

إعجاب ابن عباس بجابر وشهادته له

وكان ابن عباس معجبا بذكاء جابر، وبعمق فهمه للدين، وسعة باعه في العلم، وبصلاحه وورعه، وطهره وتقواه. وقد شهد له بالتفوق في العلم، وبالتفقه في الدين روى البدر الشماخي قال: روي عن ابن عباس انه قال: جابر بن زيد اعلم الناس! وعنه قال: عجبا لأهل العراق كيف يحتاجون إلينا وعندهم جابر بن زيد! لو قصدوا نحوه لوسعهم علمه! وذكر أبو طالب مكي في كتاب قوت القلوب أن ابن عباس قال: "اسألوا جابر بن زيد. فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه!".

روى أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، عن حيان بن عمارة قال: سمعت عبد الله ابن عباس رضي الله عنه يقول بالمسجد الحرام: جابر بن زيد اعلم الناس بالطلاق!

وكان جابر ذكيا بالغ الذكاء، دقيق الملاحظة، مفقها كل الفقه في الدين. روى الشماخي "أن جابرا رأى احد حجبة الكعبة يصلي فوق الكعبة فقال: من المصلي لا قبلة له! وكان ابن عباس في ناحية المسجد. فسمع قوله أو اخبر به فقال: إن كان جابر في البلد فهذا القول منه: إن المسجد الحرام في أيام الحج لا يخلو من الناس، فهو مكتظ في كل أوقاته بالحجاج من كل الأقطار، وفيهم العلماء، فلابد وان يكون جمهور كبير قد شاهدوا ذلك المصلي، وقد يظن كثير ممن لا فقه لهم في الدين، ولا عمق في فهم الشريعة، أن من تمام الصلاة أن تكون على ظهر الكعبة، في اشرف مقام وفي بيت الله الحرام؛ ولكن جابرا وحده لحدة ذكائه، ودقة ملاحظته، وكثرة فقهه في الدين، وعمق فهمه للشريعة، تنبه إلى نقص صلاته، واخبره ببطلانها، لأنه لا قبلة أمامه يتوجه إليها وروي الشماخي أيضا أن الحجاج بن يوسف والي العراق وقع في نفسه شيء من أمر القدر "وكان مسألة كلامية معقدة في عصره: فشكى لك إلى كاتبه يزيد بن أبي مسلم "وكان يزيد يعجب بعلم جابر ويجله" فكتب إلى جابر؟، فأجابه: فل للأمير يكثر ترديد خطيئته فان فيها بيان ما سأل عنه. فرددها مرارا كل ذلك لم ينتبه. ثم بعد ذلك انتبه فقال: "من يهد الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلا هادي له". قال ويحك يا يزيد! ما اعلم صاحبك! [1]

وكان الحسن البصري من العلماء الإعلام في عصره، وممن يشار إليه في العلم والفصاحة والبلاغة بالبنان. وكان أهل عصره يفضلون جابرا عليه، ويرونه اعلم منه، فلذلك كان جابر هو مفتي البصرة لا يستفتي غيره في المعضلات. وإنما يستفتي الناس،

1 - السير للبدر الشماخي ص 75 ط البارونية بالقاهرة.

وتعين الدولة للفتوى في الدين اكبر العلماء. وكان الحسن البصري وعشرات من العلماء الكبار كعمرو بن دينار وغيره في البصرة، العاصمة العلمية الكبرى في الإسلام؛ ومع ذلك فالمعين للفتوى من الدولة ويرضي العلماء، وإجماع العارفين هو جابر بن زيد، وذلكم لسعة علمه، وتفوقه في المعرفة، ولعمق فهمه، وحدة ذكائه. فهو الذي يستطيع أن يفهم المسائل ويفتي فيها، ويعرف مقاصد الشريعة، وأسرارها الدقيقة ويهتدي إليها ! روى الشيخ السالمي عن أبي عبد الله قال: "جابر اعلم من الحسن البصري؛ ولكن كان جابر لقوم، وكان الحسن للعامة. يعني انه يعظهم. وأما الفتوى فكانت لجابر خاصة" يذهب إليه أصحاب المشكلات فيستفتونه، وكان هو منقطعا للتأليف والتعليم، وإدارة أمور الجمهوريين وتوجيههم في مناهضة الملوكية المستبدة، وإنشاء الدولة الجمهورية العادلة.

وكان الحسن البصري من أصدقاء جابر الكبار، ومن خاصته الأصفياء، يجمع بينهم العلم الغزير، والورع التام، والمحبة في الله. وكان الحسن البصري يعجب بجابر ويجله وكان جابر يحب الحسن ويؤثره "وقد دخل ثابت على جابر حين احتضر وأدركته الوفاة فقال: هل تشتهي شيئا؟ قال: أني لاشتهي أن القي الحسن البصري قبل أن أموت. فخرج ثابت فاعلمه بأمنية جابر. وكان الحسن مستخيفيا من الحجاج "الذي كان يتتبع العلماء الأحرار، ودعاة الجمهورية الإسلامية، ومعارضي الملوكية المستبدة ويقضي عليهم" فركب الحسن بغل ثابت على السرج، وركب خلفه ثابت بطيلسانه. فلما دخل على جابر وهو مضطجع انكب الحسن عليه وهو يقول: قل لا اله إلا الله. فرفع جابر عينيه وهو يقول: أعوذ بالله من غدو ورواح إلى النار. فقال له قل لا اله إلا الله. فقال جابر: أعوذ بالله من غدو ورواح إلى النار. ثم قال: يا أبا سعيد "يوم يأتي بعض آيات ربك، لا ينفع نفسا إيمانها، لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيرا"[1] فقال الحسن: هذا والله الفقيه العالم! ! ثم قال جابر: يا أبا سعيد اخبرني عن حديث ترويه عن رسول الله صلى عليه وسلم في المؤمن إذا حضرته الوفاة. فقال: قال عليه السلام: "إن المؤمن إذا حضرته الوفاة وجد على كبده بردا" فقال جابر: الله اكبر! اللهم أني أجد بردا على كبدي ثم قبض رحمه الله.

ديوان جابر ابن زيد وإخفاء الملوك له

وكان جابر من الأساتذة الكبار لجيله. اخذ عنه العلم عشرات من العلماء، ونبغ على يده زمرة كبيرة من أساتذة الشريعة الإسلامية. وكان اكبر مصدر مأمون ثقة للحديث،

1 - سورة الأنعام 158.

ولكن لنزعته الجمهورية، وتمسكه بالإمامة الإسلامية يتجاهله المتعصبون الملوكيون فلا يذكرونه مع كبار علماء الحديث إلا نادرا!

وكان جابر أول من ألف في الحديث، ووضع الموسوعات في الشريعة الإسلامية. وقد ألف في آخر القرن الأول الهجري موسوعته العلمية النفيسة (ديوان جابر) وكان حمل بعير لضخامته[1]! وهو في عشرة أجزاء كبيرة. وكان كتابا نفيسا، حافلا ضمنه ما حفظ من الحديث، واستدل فيه لآرائه في الشريعة، وما يذهب إليه في الملوكية المستبدة. وكان من مفاخر المسلمين، وثروة علمية كبرى، فاشرأبت أعناق العلماء، وهفت إليه النفوس، فراه الملوك الأمويون المستبدون خطرا عليهم، لأنه ينشر المذهب الجمهوري بين الناس، ويغرس حب الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية في الأفئدة، ويكون اكبر دعاية للإباضية الجمهوريين الذين يعمل الملوك لعزلهم عن الناس، وتنفير القلوب عنهم بالدعايات الكاذبة، والترهات الباطلة. فاستولى الملوك الأمويون عبد الملك بن مروان وبنوه على ديوان جابر، فأخفوه عن الأنظار، وحرموا دراسته ونشره على الناس. وقد حرم العباسيون أيضا على الناس استنساخه، وجعلوه في مكتبة دار الحكمة في بغداد، وكانوا يرونه من مفاخر مكتبتهم، ومن النوادر التي لا توجد إلا عندهم. وقد أبيد ديوان جابر بن زيد مع تراث الإباضية العلمي العظيم الذي أباده الملوك ليقضوا على المذهب الجمهوري، ويقتلوا في النفوس النزوع إلى الإمامة الإسلامية بالإتيان على المؤلفات التي تحتج لها، وتنصرها، وتقنع الناس بالحجة إنها هي ما أمر الله به، وما يصلح به المسلمون.

تلاميذ جابر ابن زيد ومريدوه وأنصاره

كان جابر اكبر منبع للعلم في عصره، وكان اكبر أستاذ في جيله، وتلاميذه لا يحصون. ومن تلاميذه الذين ساروا على نهجه في التمسك بالإمامة الإسلامية، والعمل للرجوع بالدولة الإسلامية إلى نهج الخلفاء الراشدين، أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة الذي خلفه في العلم وقيادة الإباضية، ومناصرة الإمامة الإسلامية، وعبد الله ابن إباض الذي ينسب الإباضية إليه، وضمام بن السائب، وحيان الأعرج، وأبو حمزة الأشعث، وأبو نوح صالح الدهان، والعنبر جد أبي سفيان محبوب بن الرحيل، وغيرهم كثير. وهؤلاء كلهم كانوا علماء صالحين، ومن أنصار الإمامة الإسلامية، وممن جاهدوا لإحيائها، فأوذوا من عبيد الله بن زياد عامل الأمويين الغاشم على العراق كل الإيذاء، وسلط عليهم الأمويون أنواع البلاء، واضطهدوهم كل الاضطهاد.

1 - كان خط الأوائل غليظا عريضا، وكانوا يكتبون في رق الغزال. فلذلك كان الكتاب ثقيل الوزن والكم يبلغ حمل بعير.

ومن تلاميذ جابر بن زيد الذين كانوا مثالا في النسك والصلاح، وفي التقوى والدين، وفي العلم والعمل، عمرو بن دينار،كما روى عنه قتادة وغيره ممن كانوا نجوما في عصر تابعي التابعين، وقادة للنضال ضد ظلم الأمويين الذين سلطوا الحجاج على العراق فأغرقه في الدماء، وارضخه للأمويين بالسيوف.

وكان كبار العلماء من التابعين في العراق والحجاز كلهم أصدقاء لجابر، يجلونه ويحترمونه، ومنهم الحسن البصري، وجعفر بن السماك العبدي، وثابت البناني وغيرهم كثير.

ومن أصدقائه وأنصاره، وكانوا صالحين، ورجالا نابهين، وممن ناضل في سبيل الإمامة الإسلامية، وصارع الملوكية المستبدة، هريرة جد أبي سفيان محبوب ابن الرحيل، والأحنف بن قيس التميمي، وإياس بن معاوية، وسالم الهلالي، وغيرهم كثير.

ورعه ونسكه وقوة إرادته

وكان جابر مع غزارة علمه، وعمق فهمه للدين، وحدة ذكائه، مثالا في الورع والتقوى، وفي العبادة والنسك. كان يحتقر المادة ويشمخ عليها، لان غرامه في العلم والمعاني الرفيعة التي تقربه إلى الله، وترفع درجاته في الآخرة، وتورثه قرة العين الدائمة في الجنان. ومما يدل على غرامه بالعبادة، ورغبته فيها، وعلى قوة إرادته، وتمام عزيمته، وعلى جلده ومضائه، هذه القصة. استمع إليها بقلبك لا بأذنيك: روى أبو سفيان محبوب بن رحيل قال: "كان جابر بن زيد يحج كل سنة. فلما كان ذات سنة بعث إليه عامل البصرة: أن لا تبرح العام فان الناس يحتاجون إليك (للفتوى) فقال: لا افعل! فسجنه! فلما كان غرة ذي الحجة جاءه الناس فقالوا: أصلحك الله: قد هل هلال ذي الحجة. قال: فأرسله. فخرج من السجن فأتى منزله،وناقته حوله في الدار قد كان هيأها للخروج، فاخذ يشد عليها الرحل، ويقول: "ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها" يا آمنة. أعندك شيء؟ قالت: نعم. فهيأته في جرابين فقال: من سألك فلا تخبريه بمسيري يومي هذا. فخرج من ليلته. وانتهى إلى عرفات والناس بالموقف، فضربت بجرانها الأرض وتجلجلت[1]. فقال الناس: دكها دكها. قال: حقيق لناقة رأت هلال ذي الحجة بالبصرة أن لا يفعل بها هذا! ثم سلمها الله تعالى"[2] وكان جابر وفيا شهما مع ناقته، كما كان مع تلاميذه وأصدقائه.

1 - الجران مقدم العنق. الجلجلة شدة الاضطراب من التصويت. وإنما فعلت الناقة ذلك لشدة الإعياء والتألم بجهد السير. كانت تطير بارادة جابر وجلده فلما فارقها صرعها الإعياء وكرت عليها الأتعاب!

2 - كتاب السير للبدر الشماخي ص 71ط البارونية في القاهرة.

دماثة خلقه وكرم نفسه

وكان جابر مع علمه وورعه، وعزيمته وجلده، دمث الأخلاق، حسن العشرة، رحيما للضعفاء، كريم النفس، لا تزيده فظاظة الجهلة الضعفاء إلا دماثة في الأخلاق، وكرما في النفس. عن أبي سفيان محبوب بن الرحيل قال: "خرجت آمنة زوجة جابر إلى الحج، ولم يخرج تلك السنة. فلما رجعت سألها عن كريها (الذي اكترى جمله ليوصلها) فذكرت سوء صحبته، واثنت ثناء قبيحا. فخرج إليه وادخله دارا، واشترى لإبله علفا، وعولج له طعام، واشترى له ثوبين كساه بهما. فدفع له ما كان مع آمنة من قربة وأدوات، وغير ذلك. فقالت: أخبرتك بسوء الصحبة ففعلت ما أرى! فقال: افنكافئه بمثل فعله فنكون مثله؟! لا، بل نكافئه بالإساءة إحسانا، وبالسوء خيرا.

حبه للعدل والمساواة

وكان جابر محبا للعدل والمساواة، يريدها في السياسة كما أمر الله، ويريدها مع أصدقائه وجيرانه، وفي معاملاته مع الناس. روى الشماخي: أن عاتكة بنت المهلب (امرأة صالحة) أرسلت بجزور إلى جابر فأمر العنبر[1] أن ينحرها ويقسمها بين جيرانه، وان يرسل إلى أهله. فأطاب وأكثر في جزء جابر. فقال: أكل جيراننا أصاب مثل هذا؟ قال: لا، ولكن أطبنا هذا لأهل البيت. قال واسوأتاه! لا تفعل ساو بيننا وبين جيراننا!

شجاعته ودهاؤه السياسي

وكان جابر شجاعا لا يهاب الأمراء، ولا يداهن في الدين، ولا يخشى جبروت الأمويين الذين اسكتوا السنة العلماء بالرغبة وبالرهبة، وألجموا كل من عارضهم وانتقد سياستهم بالسيف. وكان يبث ي تلاميذه حب الإمامة الإسلامية، وإباء الملوكية المستبدة، ويوجههم لتأسيس الدولة التي تقوم على الجمهورية الإسلامية، وتتقيد كل التقيد في سياستها بالدين، وتلتزم عدل الخلفاء الراشدين. وكان بنو أمية يتتبعون تلاميذه وأنصاره من محبي الجمهورية الإسلامية؟، والإمامة العادلة، فيقتلونهم، وينكلون بهم، ويسلطون عليهم السجن وكل أنواع العذاب. فلم يضعف ذلك من عزيمته، فاستمر يوجه تلاميذه ويقوي عزائمهم، حتى تحقق على أيديهم ما أراد. فأنشأوا في المشرق والمغرب الدول الجمهورية التي أسعدت المسلمين، لتمسكها كل التمسك بالدين، وبهدي الخلفاء الراشدين!

1 - قد يكون العنبر هذا غلامه وقد يكون العنبر بن هبيرة بن صديقه هبيرة جد أبي سفيان محبوب بن الرحيل.

حياطة تلاميذ جابر وأنصاره له

وكان تلاميذه وأنصاره يؤثرون أن يتخصص للعلم، ويقوكم برئاستهم وتوجيههم دون أن يباشر الدعاية بنفسه، حفظا له من فتك الأمويين الذين قضوا على أمثاله. وكان جابر حكيما يدبر الأمور في براعة. وكان أنصاره وتلاميذه مخلصين صناديد، يموت احدهم ولا يبوح بسره، وتتنزل عليه كل أنواع العذاب ليقر للولاة برؤسائه الذين يوجهونه في الدعاية والأعمال فلا يظفرون منه بشيء. روى البدر الشماخي، قال: " أتى شاب (من أنصار الإمامة الإسلامية) إلى جابر فقال أي الجهاد أفضل؟ قال قتل (خردلة!) وكان خردلة قد سعى بجماعة من الجمهوريين عند الأمويين فقتلوا، فحكم عليه جابر بالإعدام. وكان الشاب لا يعرف (خردلة) فأراه إياه رجل من أصحاب جابر فوضع الشاب يده عليه لئلا يخطئه " وكان في مجمع من الناس" فضربه بين كتفيه بخنجر قد سمه. وأخذ الشاب. فقال له الوالي: قد علمت انك لم تفعل هذا من نفسك، وإنما أمرت. فدلني على من أمرك، ومناه. فقال دع عنك هذا فأبى أن يقر بجابر، وانف أن يطمع فيه الوالي فيمنيه فقتله الوالي. واخذ أبو سفيان قنبر وكان شابا من تلاميذ جابر وأنصار الإمامة الإسلامية. فجلده والي البصرة الأموي أربعمائة جلدة على أن يدل على جابر وصحبه الجمهوريين الذين يريد إدانتهم للقضاء عليهم فلم يفعل. قال جابر بن زيد وكنت قريبا منه. وما كنت انتظر إلا أن يقول هذا هو. فعصمه الله. وكان صنديدا فآثر أن يستمر عليه الضرب الشديد فدى لجابر وصحبه!

مكانة جابر في العالم الإسلامي وخوف الأمويين من ثورة شاملة إذا نالوا جابرا بأذى

وكانت مكانة جابر في العراق وعند المسلمين، وإجلالهم له، وخوف الأمويين من اندلاع ثورة عارمة عليهم قد لا تنحصر في العراق، تدك ملكهم وتأتي عليهم لو فتكوا بجابر، هو الذي قبض أيديهم عنه فلم يقتلوه. هذا إلى حكمة جابر ودهائه، وحفظ الله له الحسن نيته، ونبيل مقصده. فانه كان يعمل ضد الأمويين لا لحب الملك، ولا للعصبية ولكن للقضاء على بدعة الملك العضوض التي أحدثوها، والرجوع بالدولة الإسلامية إلى النظام الجمهوري، والى التقيد في السياسة بالدين، والى العدول والمساواة بين المسلمين كما أمر الله. هذا هو مقصد جابر وهذا هو مقصد الإباضية فلذلك حاربهم الأمويون وغيرهم من الملوك المستبدين، وسموهم خوارج. ولهذا وحده شنوا عليهم الدعاية الواسعة التي ملأت كتب التاريخ الإسلامي بالأكاذيب في الإباضية، لا لمخالفتهم للمسلمين في شيء.

لقد كانت نية جابر حسنة فحفظة الله. إن النية البيضاء، والقصد الحسن، والعمل لله لا لغيره، هو الذي يطفئ عنك كل النيران، ويقيك من كل سوء، وينجيك من الأنياب والمخالب المسعورة التي تمزق سواك، ويظلك الله بجناحه، فتسقط قنابل الأعداء بعيدا عنك، ويضرم الجبابرة الشانئون عليك نيرانهم، فيقول الله: كوني بردا وسلاما فتكون لك شمس الأصيل التي تنعشك وتضاعف في محياك حمرة الشباب، وتراها في وجودك جمال الحناء في كف الحسناء، حمرة الورود في خدها النضير!

حنق الحجاج على جابر ونفيه إلى عمان

كان جابر يعمل لله فحفظه الله، واغمد سيوف الحجاج عنه، فظل الحجاج يراه رأس الجمهورية الذي يريد تهشيمه، فنفاه إلى عمان، فبقي فيه مدة، ثم رجع إلى البصرة فواصل عمله في تلاميذه، يذكي فيهم الحماس للجمهورية الإسلامية، ويرقب الفرصة لإنشاء دولة عادلة تقوم على الإمامة المشرق، ولكن الدولة الأموية كانت في شبابها وقوتها وكانت جذورها في المشرق راسية، وعيونها المتيقظة مبثوثة في كل مكان، وأيديها على السلاح في كل آن، فلم يجد جابر فرصته، فظل يعمل ويجاهد لإنشاء هذه الدولة العادلة التي ترفع عن المسلمين ظلم الملوك الأمويين، وتسوسهم سياسة الخلفاء الراشدين وتسوى بينهم، وتقضي على التعصب والاحتكار الذي كان يسيطر على الأمويين، ويوجه سياستهم، إلى أن أدركه اجله، فتوفي في سنة ثلاث وتسعين من الهجرة وعمره سبعون سنة قضاها في التربية والتعليم والتأليف، وفي الجهاد السياسي لإحياء الجمهورية الإسلامية، والقضاء على الملوكية المستبدة.[1] والملك العضوض الذي ابتلى به الأمويون الدولة الإسلامية، وفرقوا به كلمة المسلمين، وأصابوا به الأمة الإسلامية بشر كبير وقد تم لجابر ما أراد فانبت الدولة الجمهورية العادلة في قلوب تلاميذه وأنصاره، فأنبتوها في المشرق والمغرب بجهادهم ومساعيهم. فمن البطل المخلص الذي خلف جابر بن زيد في قيادة الإباضية فأنشأوا دولهم الجمهورية العادلة في المشرق والمغرب؟ انه أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة! فمن هو هذا البطل؟ وما شخصيته وأعماله؟

1 - نقصد بالملوكية المستبدة التي نهاجمها الملوكية التي لا تتقيد بالدين ولا بالدستور الذي يجعلها أدنى إلى الجمهورية في السياسة. وقد وقى الله مغربنا في هذا العصر من الملوكية المستبدة المطلقة.

أبو عبيدة مسلم بن لبي كريمة التميمي البصري

كان أبو عبيدة هو خليفة جابر بن زيد في إمامة الإباضية في الدين، وفي قيادتهم لإنشاء الدولة الجمهورية التي تحيي الإمامة الإسلامية، وتلتزم في السياسة هدي الخلفاء الراشدين. وقد قدمه المسلمون وآثروه، فكان قائدهم وإمامهم في الدين. فما نسبه وشخصيته، ولم آثروه والعلماء عندهم كثيرون، وذوو التقوى والورع عندهم لا يحصون؟ إن الإباضية يتقيدون بمقاييس الإسلام في تفضيل الرجال، وبمعايير الدين في اختيار الرؤساء، وبالميزان الصحيح الذي قرره الله في انتخاب الأئمة. لا يتعصبون للقبيلة، ولا يؤثرون الرجل لعرقه، ولا لماله، ولبهرج المادة والألقاب التي عليه.

نسب أبي عبيدة وشخصيته

أما نسب أبي عبيدة فهو مسلم بن أبي كريمة التميمي البصري. ولم يكن أبو عبيدة أصيلا في بني تميم، فهو مولي فيه، ولد فيهم فنسب إليهم. وكان ميلاده في البصرة العاصمة العلمية الكبرى في تلك العهود، فنشأ فيها، وتأثر بجوها.

وكان أبو عبيدة زنجيا اسود اللون، واعور، فقيرا. وكان يقتات بعمل السعف يصنع منها قفافا فلقب بالقفاف؛ ولكنه كان سيد البيض بعقله المشرق بالمعارف، ونفسه الساطعة بالدين، وأبصر الناس بذكائه الحاد؟، ونظره البعيد، وإدراكه العميق، وملاحظته الدقيقة وأغنى الناس بكنوز علمه، وجواهر معارفه، وتاج الدراية والعرفان الذي يشرق به جبينه، وعرش الزعامة العلمية الذي تربع عليه في عصره. وكما برعت أنامله في نسج الخوص، برع في نسج النفوس العظيمة بالتربية والتعليم، وبناء الدول العظمى التي أحيت الدين، وأسعدت المسلمين، بالتزام عدل الخلفاء الراشدين. لقد كان اسود الجلد كالليل البهيم ليكون مطلعا للنجوم والأقمار التي يهتدي بها الناس، ويتفتح عن الصباح المشرق الذي يجدد شباب الدين الذي أبلته الملوكية المستبدة بتنكب طريقه، وفتوة المسلمين التي أضناها الأمويون بالعسف والطغيان، وكسفوها بالظلم والجبروت. ذلك الصباح الجميل، والنهار المشرق الذي وضع جابر بذوره، ولطلعه أبو عبيدة بعبقريته وإخلاصه وجهاده. إنه تلك الدول الجمهورية التي أعلت راية الدين في المشرق والمغرب، وأسعدت المسلمين وكانت لهم الملجأ الأمين، والمفر الحصين من ظلم الملوك المستبدين، والسرحة الفينانة الأريجة التي فاءوا إليها في هواجر الاستبداد، وغطرسة الملوك الظلمة، فوجدوا فيها الظل الظليل، والهواء العليل، وكل ما ينعش النفوس، ويخلق الطرب، ويحلو به الزمن، وتعذب به الحياة، وتقربه عين المؤمنين.

وكان أبو عبيدة ذكيا بالغ الذكاء، قوي الحافظة، ذا شخصية علمية ممتازة جعلته يشغف بالعلم منذ نعومة أظفاره، فوجد في البصرة مسقط رأسه البيئة العلمية الحية التي أرهفت غرامه بالعلم، وقوت اتجاهه إلى المعرفة. فوجد أبو عبيدة في البصرة وفي أنحاء العراق والحجاز العلماء الكبار الذين كانوا معادن العلم والمعرفة الصحيحة، فلازمهم، واخذ عنهم فبلغ في العلم الذروة الشماء، وسطع نجمه في سماء العرفان، فكان ممن يشار إليهم بالبنان، وممن يعتد المسلمون بمعرفته، فيستفتونه في المعضلات، ويستفهمونه في المسائل الدقيقة، ويحتكمون إليه في المناظرة، وفي المسائل الكلامية كالقدر وغيره التي كان العلماء يتناظرون فيها، ويشتد جدلهم في دقائقها.

وكان أبو عبيدة قد أدرك كثيرا من الصحابة الذين روى عنهم جابر. فهو بهذا من طبقة التابعين التي لها شرف القرب من الرسول. وكان أساتذته في العلم، ومن اخذ عنه أكثر علمه هو جعفر بن السماك، وصحار العبدي، وكانا من طبقة جابر ابن زيد، ومن أنصاره ومؤيديه، ومن الأئمة في الدين، ومن قادة الجمهوريين.

إعجاب أبي عبيدة بجابر وتأثره به

وكان أبو عبيدة معجبا بشخصية جابر وذكائه، وعمق فهمه، وحماسه للإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية، فلازمه وتأثر خطاه، وكان على هديه وحماسه لإحياء الجمهورية الإسلامية، وفي كره الظلم و الاستبداد، والأنانية والتحيز، ونظام الطبقات الذي ابتدعه الأمويون في الإسلام، ففرقوا به جماعة المسلمين، واستأثروا به برياستهم، فجعلوها مقصورة على قريش وعلى الأمويين، لا تتعداهم.فهم الذؤابة الأثيرة، ومن عداهم من العرب والمسلمين تبع يجب أن يمشي وراءهم، ويخضع لزعامتهم، ويسلم باستئثارهم بالملك والسلطان !

وكان جابر معجبا بابي عبيدة لتقواه وورعه، ولذكائه وقوة شخصيته، فقربه إليه، وآثره، وجعله من خاصته، فازداد أبو عبيدة تأثرا بجابر فكان اكبـ مريديه، وابرز تلاميذه، وأكثر الناس تأثرا بشخصيته واتجاهه. وكان جابر اكبر أساتذته الذين وجهوه في الميدان العلمي، ورسموا له المثل العليا فشمر لتحقيقها في المجتمع. وسار سيرة جابر الحكيمة في العمل لإنشاء دولة عادلة تحي الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية. فكان بهذا أحسن من يخلفه في قيادة الجمهوريين في صراعهم ضد الملكيين المستبدين.

ورع أبي عبيدة وتقواه

وكان أبو عبيدة مع ذكائه الوقاد، وفهمه العميق، وعقله الراجح، وعلمه الغزير مثالا

في الورع والتقوى، وفي التمسك بالدين، وفي الاستقامة في السلوك، وفي التزام محجة الرسول يحيد عنها، وطريق الله لا تخرجه منه النزوات والأهواء، وكان مالك نفسه، لقوة دينه، ولم يكن كالعبيد الذين تتملكهم الأهواء، ويستبد بهم حب الدنيا، فيظلمون ويجورون، ويشقى بهم عباد الله المسلمون. روى البدر الشماخي قال: "خرج أبو عبيدة ذات مرة حاجا مع سابق العطار فبينما هما نازلان في بعض المنازل إذ وقفت عليهما أعرابية بلبن وسمن وجدي، فاشتراها سابق بقارورة خلوق[1] قلادة. فجاء باللبن إلى أبي عبيدة فقال: آخر عنى لبنك يا سابق!" وكان مع سابق دراهم. وافهمه أبو عبيدة انه بخس الأعرابية، وأعطاها ما تميل إليه النساء، ولا يساوي ثمنه قيمة ما اخذ منها. وكان يجب أن يعطيها الدراهم التي تتمسك فيها الأعرابية بحقها، لا أن يغريها بالخلوق والقلادة التي تفتن بها المرأة، وتؤثرها على المال، ولا تنتبه لقيمتها، والغبن الذي يصيبها فيها. وهذا من ذكاء أبي عبيدة وفقهه في الدين، وشدة ورعه وتحرجه. قال الشماخي: فأرسل سابق إلى الأعرابية فقال لها أبو عبيدة: كم ثمن اللبن عندهم؟ قالت: ثمن له. قال: وثمن الجدي والسمن؟ قالت: أربعة دراهم. فاخرج سابق أربعة فدفعها إليها. قال أبو عبيدة: هلم الآن لبنك يا سابق".

كرهه للأمارة والرئاسة

ومن ورع أبي عبيدة وتقواه، وتحرجه، وشدة مراقبة لربه، كرهه للإمارة، ونفوره من الرئاسة، لأنه ينظر إليها بدينه فيجدها واجبات ثقيلة، وحقوقا كثيرة، وفروضا عديدة، فيها لمن اخل بها الحساب العسير، والعقاب الشديد: إن الرئاسة والإمارة مما يدعو إليه، ويخلق الحب له في النفوس، والهيام به في الصدور أقوى الغرائز في الإنسان وهي غريزة حب الظهور والرئاسة؛ بل الغرائز القوية في الإنسان كلها تدعو إليها لأنها سبب شعبها. فهي أمنية كل النفوس التي تنظر بالغرائز إليها، وهوى كل فؤاد ينقاد للفطرة، ويندفع في الشهوات. ولا يزهد فيها، ويفر منها إلا من ينظر إليها بنور الله، ويدركها على ضوء الدين، فيعرف فيها حساب الله وعقابه، فيبعثه ورعه وتقواه على كرهها، والفرار منها. ولعل موقف الإنسان من الرئاسة، وتصرفه في مقامات الزعامة هو الذي يبين درجته في الورع والتقوى، وفي التحكيم في نفسه، وفي نظره إلى الأشياء بدينه لا بهواه. إماما عدا الرئاسة فان ما يدعو إليه في النفس غرائز متوسطة أو ضعيفة

---

1 - الخلوق: ضرب من الطيب وهو مجموعة من الأشياء العطرة تخلط ويتكون منها الخلوق. ولازال الخلوق والسخاب والبخور الميزابي البالغ العطر. الحلو الأريج موجودة في جنوب الجزائر وهي من الحضارة العربية الراقية التي يتمسك بها المغرب ويؤثرها والخلوق يرصع بها شعر العروس ليلة الزفاف فتكون وردة عطرة فتانة المنظر.

يسهل ضبطها حتى على النفوس المتوسطة والضعيفة، فيعف الناس ويلتزمون الدين في كثير من الشهوات.

كان أبو عبيدة يفر من الرئاسة والإمارة، لا لأنانيته وتكمشه، ولكن لمراقبته لربه. ومن يزهد في الرئاسة لهذا فهو الذي يليق لها، يسعد المسلمون بزعامته، وتزدهر الدولة وترقى كل الرقي برئاسته. ليت المسلمين يعرفون هذا فيحسن اختيارهم للرؤساء ويوفقون في انتخاب القادة والزعماء. قال أبو سفيان محبوب بن الرحيل احد العلماء الذين عاصروا أبا عبيدة ولازموه، ونقلوا كثيرا من أخباره وسيرته. قال أبو سفيان قيل لأبي عبيدة: ما يمنعك من الخوارج (على الملوك الظلمة، وتزعم الناس في الثورة فتكون أميرهم) ولو خرجت ما تخلف عنك احد؟! قال ما أحب ذلك، ولو أني فعلت ما أحببت، ولا أحب أقيم (وأكون أميرا) ما بين الظهر والعصر مخافة الأحكام" إن أبا عبيدة ككل الرؤساء الإباضية إذا ولوا الإمارة يلتزمون الدين في كل الأشياء ويحكمون الشريعة في كل الأمور، ولا يتصرفون كالملوك المستبدين بالهوى، ولا يبثون في الأمور بما تقتضيه المصلحة الخاصة، وتجنح إليه الأهواء والشهوات. وأبو عبيدة على غزارة علمه في الشريعة، وسعة معرفته فيها، يخاف أن تعترضه مشكلة في الإمارة لا يعرف حكم الله فيها، أو يخطئ في الحكم فيوبق نفسه، لذلك يتهرب منها.على أن المسلمين لو ألزموه، وكان هو المستعد لها دونهم، وكانت مصلحتهم تضيع إذا لم يقبلها، والخلل يدخل عليهم إذا لم يضطلع هو بها، فانه يقبلها،[1] ولكن كمن يطأطئ للحمل الثقيل فيوضع على كاهله، وكمن يكلف تجرع ما تفر منه نفسه، وإتيان ما لا يوافق هواه، لان الرئاسة أمانة الله الثقيلة، وقل من يستطيع القيام بواجباتها كلها فويل لمن فيها، فيلحق بدلك ضرر بالمسلمين. لهذا نفر أبو عبيدة من الرئاسة والإمارة لورعه وتقواه.

أنفته وكرهه لوظائف الدولة واعتماده على نفسه في الرزق

ومن ورع أبي عبيدة وتقواه، وعزة نفسه وإبائه، هربه من وظيفة الدولة وإباؤه أن يستخدمه الأمويون والعباسيون في شؤونهم، ويسدون به ثغورهم لأنهم لا يتقيدون بالدين في كل الأشياء، ولا يقفون عند حدود الله في كل الأمور، بل يحكمون في كثير من الأشياء بالهوى، ويسهرون موظفيهم قي تنفيذ ما يريدون مما يحقق مصالحهم الخاصة ويشبع فيهم الشهوات والنزوات. فنفر أبو عبيدة من وظائف الدولة المستبدة. ولو رضي بوظائفها لاصطنعوه واجتذبوه بأحسن ما يريد من الوظائف و الإمارات، ليسكتوه عن

1 - قوله ولو أني فعلت ما أحببت دليل على انه يستجيب لدا ألزمه المسلمون لعدم وجود من هو أصلح لها منه، ولكن يقلبها على كره.

نقدهم، ويكفوه عن مهاجمتهم. ولو فتح لهم ذراعيه، لتراموا في أحضانه، ولغمروه بكل ما يشاء من متاع الدنيا. أن من عادتهم إنفاق أموال الدولة في إسكات المنتقدين، واصطناع الخصوم ليكونوا تابعين، وتسخير بيت مال المسلمين في توطيد أركان دولتهم، وتكثير سواد مؤيدهم. ولكن أبا عبيدة أبى أن يبيع حريته ودينه للملوك المستبدين، فاعتمد على نفسه في الحصول على الكفاف، واحتراف صناعة القفاف، فعاش سيدا عزيزا، مهاب الجانب، راضي النفس، هانئ الضمير، قانعا بمنزل بسيط يكنه، وبطعام خشن يتبلغ به. وعاش عيشة الأسد في عرينه،لا يفترش فيه الحرير، ولا تزجى إليه الموائد. وإنما هي البيئة الخشنة التي تقوي نفسه، وتزيد في بطولته وجرأته!

وكان أبو عبيدة يرى لذته، ونشوته الكبرى، وسعادته البالغة في القيام بواجبه في المجتمع، ومناهضة الظلم والظالمين، والجهر بقولة الحق. وهذا لا يتأتى مع وظيفة الدولة التي هي لجام ذهبي يقاد به العلماء، وكمامة تسد بها أفواههم فلا ينتقدون الدولة، بل هي في الدول المستبدة برذعة تشد على ظهورهم ليركبهم الملوك إلى أغراضهم ويسخروهم في أهوائهم.

كان أبو عبيدة لورعه وإبائه، وعزة نفسه، وتضحيته في سبيل المسلمين، وتظهره من الأنانية، وبعده من الأثرة، قد آثر أن يعيش لخير المجتمع، ويطهره من الظلم والفساد، ومن العصبية والأنانية، ويعمل لإنشاء الدولة الديمقراطية العادلة التي تتمسك في سياستها بالدين، وتعدل في المسلمين.

وكان أبو عبيدة لشخصيته العلمية، ولتفكيره الفلسفي، قد اختار صناعة السعف، ونسج القفاف لأنها صناعة نظيفة، هادئة، سهلة، لا تمنعه من التفكير، ولا تربطه في مكان، فهو يستطيع زاولتها في كل مكان، ويأتيها ولا تشغل إلا يديه اللتين تتحركان حركات لا إرادية لتمكن العادة، أما فكره وعقله الشاعر ففي مشاكل العلم، ومعضلات الفلسفة، وفي التفكير في شئون الجمهوريين الذين قدموه عليهم إماما وقائدا.

شجاعته وبطولته

وكان أبو عبيدة شجاعا بطلا لا يخاف في الله لومة لائم، ولا شر ظالم، ولا انتقام سلطان، وكان حربا على الظلم والفساد، وعلى الغطرسة والجبروت الني كان عليها الملوك الأمويون والعباسيون. وقد زاد

ه تمسكا بالجمهورية الإسلامية، واضطغانا على الملوكية، ما رآه من تعصب الأمويين والعباسيين لأنفسهم وقبيلتهم وجنسهم، وجعلهم قريشا طبقة ممتازة على سائر

العرب والمسلمين، واحتقارهم لأمثاله من الزنوج وبني حام، ومن ليس عربيا. فنش؟أ واعتداده بنفسه، وإيمانه بما قرر دينه من المساواة بين المسلمين، وما عرف من سياسة الرسول والخلفاء الراشدين، يزيده ثورة على الظلم والظالمين، وكرها للملوك المستبدين الأنانيين، الذين يفرقون بين المسلمين، ويغرسون العنصرية الجنسية بمحاباتهم في قلوب المؤمنين الذين خلقهم الله امة واحدة، وأمرهم أن يكونوا بالمحبة الصادقة، والإخاء المكين جسما واحدا، وبنيانا يشد بعضه بعضا.

كان أبو عبيدة يرى ظلم الملوك المستبدين من الأمويين والعباسيين فلا يزيده ذلك إلا إصرارا على إنشاء دولة تقوم على الإمامة العادلة فينعم المسلمون في ظلها بالعزة والحرية، وبالعدل والمساواة. وكان ينفخ كره الظلم والاستبداد في قلوب تلاميذه، ويؤكد الحرص والغرام بالجمهورية في نفوس أنصاره. فرآه الأمويون والعباسيون اكبر أعدائهم، ومن حتوف دولتهم. وكان أبو عبيدة اعور له عين واحدة كالمدافع الهائل الذي يدمدم بالقنابل التي تدك الحصون، وتطحن الأعداء، وتقضي على الشانئين ! وكان الحجاج يراه اكبر أعداء الملوكية المستبدة. فقبض عليه معه جماعة كبيرة من أنصار جابر بن زيد الذين يناهضون الملك العضوض، وينصرون الأمة العادلة السمحة المخلصة. فسجنهم، وانزل عليهم في السجن كل أنواع العذاب ليقضي على حبهم للجمهورية، فيستسلموا، ويكونوا أتباع الملوكية، ومن المصفقين لها، أو يموتوا فيستريح منهم؛ ولكن الرأس لا يرتد إلى الوراء فيكون ذنبا وإن توالت عليه المطارق، وانهالت عليه الفؤوس، وانصبت عليه كلا البلايا. والمعدن الكريم لا يزيده الطرق إلا تماسكا وشدة، والرجل المؤمن الحر كالبحر تتسعر عليه الشمس، وتصليه بنارها، فتخلق منه السحاب الذي يغطي عليها، ويطفئ عن الناس حرها وشرها! وظل أبو عبيدة وصحبه في سجن إلى أن توفي الحجاج ومات الوليد ابن عبد الملك، وجاء سليمان بن عبد الملك الذي كان ارأف بالناس، وأحسن سيرة، وأقوى دينا من الوليد. فرفع المظالم، وفتق السجون، فتنفس أبو عبيدة وصحبه في عهده الصعداء، ونعموا بكثير من الحرية والهناء، ثم انتعشوا واستعادوا قوتهم في عهد الإمام العادل سيدنا بن عبد العزيز.

فظائع الحجاج في الجمهوريين والعلماء الأحرار

وكان ممن سجن مع أبي عبيدة من تلاميذ جابر وأنصار الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية ضمام بن السائب وأبو سالم وغيرهم كثير. وقد صب عليهم الحجاج في السجن كل عذاب، وانزل عليهم ما يدل على جبروت الملوكية المستبدة التي لا تتقيد بدين ولا دستور. قال أبو سفيان محبوب بن الرحيل: "لما سجن الحجاج أبا عبيدة وضمام

ابن السائب منع أن يوصل إليهما شيء. وكانا يقصان شاربهما بأسنانهما وكان احدهما لينفض لحيته فيتساقط منها القمل وكان يطعم أهل السجن خبز الشعير وملح الجريش[1] ويعمد إلى مراكن[2] عظام، فيسكب فيها الماء، ويطرح فيها الملح ثم يضربونه ويخلطونه إلى أن تخرج رغوته. فمن شرب أولا كان امثل وأحسن قليلا، ومن شرب آخرا كان العذاب. وربما ضاق ضمام فيقول أبو عبيدة على من تضيق !" وذلك لقوة قلب أبي عبيدة، وشدة صبره، وصلابة عوده، واستهانته بكل أنواع العذاب في سبيل دينه ومثله العليا. قال أبو سفيان: "ولم يخرج أبو عبيدة وصحبه من السجن حتى مات الحجاج".

فظائع الأمويين المستبدين في العلماء الصالحين

وكان الأمويون قد عزموا القضاء على كل المعارضين الذين ينتقدون سياستهم ويعارضون ظلمهم. وكان هذا الانتقاد وتلك المعارضة يقوم بها العلماء الورعون، والرجال الفضلاء عن المنكر بكل الوسائل التي يستطيعونها. فلذلك جعلهم الحجاج والولاة الظلمة نصب أعينهم، ونكلوا بهم، وقتلوا كثيرا منهم، وكانوا في ذلك التنكيل والقتل يعمدون إلى أقسى الطرق، وأفظع الوسائل التي تدل على الغطرسة والجبروت وعلى الاستهانة بالعلم والدين. وبهؤلاء العلماء الورعين العاملين المخلصين الذين هم خلفاء الأنبياء، وقوة الأمة، وحياة الدولة، وسبب رضا الله. ونحن نقتصر على ذكر قتل الحجاج لسعيد بن جبير القارئ أن الإباضية لما ثاروا على الأمويين لم يثوروا عليهم لجنسهم أو طلبا للملك، وإنما هي ثورة دينية واجبة هي من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي فرضه الله على المسلمين، وما قصروا فيه أو تركوه إلا ضرب الله عليهم بالذلة المسكنة، ومرغهم في الرغام، وسلط عليهم كل المظالم، واطمع فيهم حتى خشاش الأرض فيستأسد عليهم؛ ويوقن القارئ أن المغرب لما أنفصل عن الأمويين والعباسيين وأنشأ دوله الجمهورية العادلة، ولم يفعل دلك حبا للملك، ولا تعصبا للجنس والإقليم، وإنما فعل ذلك لان الأمويين والعباسيين يسوسون الناس بالهوى لا بالدين. فظلموا وتجبروا، وتعصبوا على المغرب، واحتقروه. فيئس المغرب، من شفائهم من أمراضهم المتأصلة، وعرف من دينه أن يسلم يجب أن يعيش عزيزا مكرما. فثار على الملوكية الأموية والعباسية التي مرغته في الرغام، وجرعته أنواع الذل والشقاء. إن فظاعة الحجاج مع سعيد بن جبير دليل على ما وصفنا به الأمويين. سيما الوليد بن عبد الملك الذي وقعت هذه الفظيعة في عهده، وازداد الحجاج ضراوة في أيامه.

---

1 - الملح الجريش الخشن الذي لم يصف من التراب.

2 - المراكن الأواني.

وكان سعيد بن جبير من كبار التابعين، ومن العلماء الكبار، ومن الزهاد الورعين وقد ثار الظلم مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث زمن عبد الملك بن مروان فلما قتل عبد الرحمن وانهزم أصحابه اختفى سعيد في مكة فقبض عليه الحجاج فارتكب فيه هذه الفظيعة!

مقتل سعيد ابن جبير

قال المسعودي: "وفي سنة أربع وتسعين قتل الحجاج سعيد بن جبير، فذكر عون بن لبي راشد ألعبدي قال: لما ظفر الحجاج بسعيد بن جبير وأوصل إليه قال له ما اسمك؟ قال: اسمي سعيد بن جبير. قال: بل شقي بن كسير! قال: أبي اعلم باسمي منك. قال: لقد شقيت وشقي أبوك. قال له: الغيب إنما يعلمه غيرك. قال: لابدلنك بالدنيا نارا تلظى. قال: لو علمت أن ذلك بيدك ما اتخذت إلها غيرك. قال: فما قولك في الخلفاء "يعني ملوك بني أمية" قال: لست عليهم بوكيل. قال فاختر أي قتلة تريد أن أقتلك قال: بل اختر يا شقي لنفسك، وفوالله ما تقتلني اليوم إلا قتلتك في الآخرة بمثلها فأمر به الحجاج فخرج ليقتل، فلما ولى ضحك، فأمر الحجاج برده، وسأله عن ضحكه! فقال: عجبت من جراءتك على الله، وحلم الله عنك! فأمر به فذبح! ! فلما كب لوجهه قال: اشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وان محمد عبده ورسوله، وان الحجاج غير مؤمن بالله! ثم قال: اللهم لا تسلط الحجاج على احد يقتله من بعدي. فذبح واحتز رأسه. ! !" يرحمه الله.

وكانت أجوبة سعيد للحجاج وضحكه وقد أمر بقتله، دليل على قوة قلبه، وشجاعته، واطمئنانه بالذهاب إلى ربه، ويقينه انه مقبل عند الله على حياة النعيم في الفردوس. ودليل على عزة العالم الذي يعرف قيمة نفسه، وانه؟ ارفع درجة، وأعلى طبقة من كل الملوك والأمراء. وكان الله لسعيد فاستجاب دعوته في الحجاج، فلم يعش بعده إلا خمس عشرة ليلة، فلم يواصل مجازره التي لطخ بها صفحات الأمويين، وأشقى بها نفسه. وقد ابتلاه الله بمرض خبيث أشقاه ثم أودى به.

وكان الحجاج يعرف قيمة سعيد بن جبير رضي الله عنه، ويعرف انه من العلماء الإعلام، ومن الصالحين النزهاء. وكان يعرف أن قتله أفظع جريمة، واكبر ذنب، وان ارتكاب فظيعة الذبح فيه اكبر شيء يسخط الله. وكان يدين نفسه، ويضربه ضميره بالسيوف، ويعذبه بملام اشر عليه من الذبح بالموسى الكليلة؛ ومن التحريق بالنار الضعيفة، فمات شر ميتة. وتلك نهاية كل جبار لا يخاف ربه، ويطلب رضي الملوك لا رضي الله! وما زاد

الحجاج ضراوة في هذه العهود فارتكب ما ارتكب في ابن جبير، الوليد بن عبد الملك الذي كان ملكا أيام هذه الفظيعة. وهو في الجبروت والقساوة كالحجاج. وزاده ضرارة على سعيد انه زنجي اسود اللون. فلو كان ابيض من بني سام، مع جلالة قدره، لعامله معاملة اخف نكرا، ولقتله قتلة تدل على بعض التقدير.

قال المسعودي[1]: ولم يعش الحجاج بعد سعيد إلا خمس عشرة ليلة حتى وقعت في جوفه الأكلة فمات من ذلك، ويروى انه كان يقول بعد قتل سعيد: يا قوم، مالي ولسعيد بن جبير؟ كلما عزمت على النوم اخذ بحلقي.

وكانت جبروت الحجاج قد سولت له أن يسجن الإمام أبا عبيدة، ويسلط عليه من العذاب ما رأيت. وقد أورد الشماخي فظيعة من فظائع الحجاج في خصوم الأمويين الذين ينكرون عليهم أنانيتهم وظلمهم، وقضاءهم على الإمامة العادلة، ويتمسكون بالجمهورية الإسلامية. وهذه الفظيعة التي تدل على الانتقام والغضب الشديد أرى أن الحجاج قد صبها على بعض رؤساء الأزارقة الخوارج الذين جابوا الدولة الأموية، واخذوا بخناق الحجاج، وهزموا جيوشه الهزائم المنكرة، وزعزعوا الدولة الأموية وهددوها بالسقوط. وأنا انقلها ليعلم المنخدعون بالكتب التاريخية الملوكية ان الإباضية الذين ثاروا على الأمويين والعباسيين في المشرق والمغرب لم يثوروا إلا على الظلم والاستبداد، ومجانبة الدين الذي كان عليه الكثير من الملوك الأمويين والعباسيين، وان ثورتهم كانت دفاعا عن الدين، وغضبا لله الذي تنتهك حرماته في عباده الصالحين، وأنفة من العبودية والذل الذي ينهال به عليهم الملوك المستبدون، لا لطلب الملك، ولا للمنافسة على الرئاسة، ولا للتعصب للجنس والقبيلة. قال أبو سفيان: "وعمد الحجاج إلى ثلاثة من رؤساء الخوارج فبنى عليهم بنيانا من قصب وطلاه بالعذرة داخلا وخارجا! فلما ابقوا فيه ثلاثة أيام ماتوا، ووقع الموت في أهل السجن" لشدة الوباء، وسوء الغذاء. ونحن نستثقل ونغار ونأنف من ذكر هذه الفظيعة، ولكن كتب التاريخ الأخرى المشرقية التي الفت في عهود العباسيين، قد نسبت إلى الحجاج والى الملوك الأمويين المستبدين ما هو أفظع من هذا. وإن كان اغلب أولئك المؤرخين لم يذكروا هذا إنكارا للظلم، ولكن مجاملة للملوك العباسيين الذين اتخذوا كل وسيلة لتهديم الدولة الأموية في القلوب، وتلطيخ صفحتها عند الناس، لتنصرف العيون عنهم فلا يرونها بالعين الهادئة فيدركون كثيرا من حسناتهم التي خلا منها العباسيون.

1 - مروج الذهب للمسعودي ج 3.

قساوة الحجاج وفنون تذيبه للجمهوريين

كان الحجاج قاسيا مع الجمهوريين الذين ثاروا على ظلم الأمويين. وكانت سجونه تغص بالعلماء الأحرار، وبكل من خافوا ثورته على ظلمهم واستبدادهم، واحتكارهم لرئاسة المسلمين. وكان الحجاج لا يكتفي من فنون التعذيب بما يعرف، وما تخترعه قساوته، بل يسأل الأطباء العارفين بطبائع الجسم ليدلوه على أسباب الألم والتعذيب الشديد فيسلطها على المسجونين من العلماء والصالحين. قال أبو سفيان: "قال الحجاج لطبيب مجوسي: أريد أن أعذب أهل السجن (وكان الطبيب ارأف منه، وكانت حرفة الطب قد أورثته حب الإنسانية) فقال للحجاج: اجعل طعامهم الزيت والكراث. قال ضمام بن السائب: فلما أكلنا الزيت والكراث سمننا. وقيل للمجوسي: لو تركتهم فماتوا. قال: لعله يموت فيخرجون".[1]

وكان من تلاميذ جابر بن زيد، ومن أنصار الجمهورية المتحمسين، ومن العلماء الورعين أبو سالم. وقد سجن مع أبي عبيدة وضمام في سجن واحد. قال أبو سالم: "قر منا اللحم فقلنا لرجل كان ممن يدخل علينا اشو لنا دجاجة وائتنا معها بأربعة أرغفة، وصانع عليها صاحب السجن. فلما أوصلها واقتسمناها إذا بجلبة نحو البيت الذي نحن فيه. فخفنا أن يكون فطن بنا، فرمينا بالجميع في الكنيف. فإذا بنا لم يفطن إلينا. فكان طرحنا لها اشد علينا.

دهاؤه السياسي ومهارته في القيادة

وكان أبو عبيدة مع نبوغه في العلم، وشجاعته في النضال، داهية في السياسة، ماهرا في القيادة. وكان هو وأصحابه يعملون غب الخفاء لمقاومة الأمويين والعباسيين له، ولاضطهادهم لحزبه، وتتبعهم لحركاته، بثهم للجواسيس المختلفة، يحصون أنفاسهم، ويراقبون حركاتهم، ويرصدونهم في كل طريق، ويتحسسون عليهم في كل الأوقات ولكن أبا عبيدة وأنصاره من المتمسكين بالإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية، كانوا يعتقدون الاجتماعات المستمرة، ويتداولون في الرأي، ويضعون الخطط المحنكة، ويجمعون الأموال للثورات التي ينظمونها على الملوكية المستبدة، وللدولة الرستمية الناشئة، وبدون أن يشعر بهم الملوك المستبدون، وجهاز تجسسهم البارع، وذلك لدهاء أبي عبيدة وسحبه، ولنضوج أنصاره وحكمتهم، ولعملهم لله فحفظهم الله. ومن يعمل لله يكن ستره الواقي، يحفظه في كل المواقف العصيبة، ويرد عنه سهام الأعداء، ويقر عينه بالنصر المبين!

1 - كتاب السير للشماخي ص 87 ط. البارونية بالقاهرة.

وكان كثير من أنصار أبي عبيدة، والشخصيات البارزة في حزب الجمهوريين الإباضية، يبحث الحجاج والولاة الأمويون والعباسيون الظلمة عنهم، ليقبض عليهم فيسجنهم أو يقتلهم، فلم يفروا من الميدان كما يفعل الجبناء، ولم يهربوا من العراق إلى مكان آخر آمن كما يفعل الضعفاء، بل ثبتوا في الميدان، واختلفوا في أماكن سرية، وواصلوا عملهم هناك. فكانوا يحضرون جلسات الجمهوريين السرية، ويأتونها في زي النساء بالجلابيب لكي لا يعرفوا. وواصلوا عملهم هناك في هذا الجو الخانق، وفي تلك الأيام العصيبة، حتى انجح الله مسعاهم، فأنشأوا الدول العادلة التي أحيت الجمهورية الإسلامية في المشرق والغرب، وقضوا فيهما على الملوكية المستبدة التي فرقت كلمة المسلمين واستعبدتهم، وجلبت إليهم الشرور والمآسي. قال الشماخي عن أبي سفيان محبوب بن الرحيل (وكان أصحاب جابر وأبي عبيدة يجتمعون) وما بلغنا انه ظفر لهم بمجلس قط. إلا أنهم كانوا في عهد زياد وابنه (أيام معاوية ويزيد) مجتمعين. فأتاهم الخبر بان الخيل تريدهم، فخرجوا مسرعين، وتركوا نعالهم، فجاءت الشرطة فنظروا إلى نعالهم فقالوا للعجوز التي لها البيت: ما هذه النعال؟ قالت: مكاتب[1] لنا يطلب الناس فيعطوه النعال وغيرها. فقال بعضهم: قد ذكرت ما ذكرت فلا تعرضوا العجوز للبلاء فلعلها صادقة. وكانوا إذ ذاك يأتون المجالس في هيئة النساء. وكان لأبي الحر على بن الحصين (احد قادة الجمهوريين، ومن اكبر أنصار أبي عبيدة) كان له مجلس يجتمع فيه الإباضية الجمهوريون في جلساتهم السرية فقبل له خشينا أن يطلع علينا. قال: أما سمعت أن الله يقول: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون".

مشاركة المرأة المسلمة في النضال لنصرة الجمهورية الإسلامية

وقد شاركت المرأة في هذا النضال المرير، وفي الجهاد العنيف لإحياء الإمامة الإسلامية العادلة، والقضاء على الظلم والظالمين. ولم يكن اثر جابر وأبي عبيدة مقتصرا على الرجال، بل كان في النساء أيضا. لقد نهض الإسلام بالمرأة العربية فتثقفت، وبرزت شخصيتها في المجتمع، وأخذت حظها من العلم، وكان منهن العالمات الكبيرات اللائي يثقفن المرأة ويزدن دينها رسوخا، عقلها ثقافة. فكانت المرأة المسلمة بدينها وعلمها وصلاحها، وروحها القوية المدرسة الأولى التي تصنع البطولات، وتكون للدولة الإسلامية أبطالها وكفاءاتها الكبرى. وشاركت الرجل في جهاده السياسي فكن يلهبن حماسه، ويقوين عزيمته، ويقمن في المعركة السياسية بكل ما يستطعن من أعمال. وكان

1 - المكاتب هو العبد الذي يتفق مع مالكه أن يدفع إليه مبلغا معينا من المال يحرر به نفسه فيكتبون ذلك بينهم.

الكثير منهن يتخذن بيوتهن التي لا يتطرق إليها الشك، ولا يلاحظها الجواسيس مقرا للجمهوريين، يعقدون فيها الاجتماعات، ويختبئون فيها من الشرطة التي تفتش عنهم؛ ويخبئون فيها الأسلحة والأموال التي يجمعونها للثورات التي تنشب على الظلم والملوكية، كثورة طالب الحق وأبى حمزة المختار في اليمن والحجاز وثورة أبي حاتم الملزوزي، وثورات الإباضية الأخرى على الظلم في المغرب. ومن هؤلاء النسوة اللائي شاركن في الكفاح، وآزرن أبا عبيدة وصحبه، ونصرن الجمهورية الإسلامية، وعملن للقضاء على الملوكية المستبدة التي عسفت المسلمين، وجرعتهم ضروب الشقاء، واطرحت الدين فلم تتقيد به في السياسة؛ من هؤلاء الكريمات المسلمات الباسلات سعيدة زوجة عبد الله بن الربيع، وكان زوجها عبد الله خال المهدي الملك العباسي. وكان عبد الله من المتعصبين للملوكية، ومن المتحمسين للدولة العباسية وكان ابن من غير سعيدة على غراره في الحماس للملوكية. وكان للابن جاريتان قد تسرى بهما وكانتا إباضيتين فمازالت به سعيدة بمنطقتها وحماسها وما زالت به جاريتاه تنفخان فيه من روحهما مع العطر الأريج، وتزرعان فيه مبادئهما وحبهما للجمهورية بالحجة المقنعة التي تفهم العقول، والنظرة الساحرة التي تصمي القلوب، وبحماس المرأة المتأجج الذي يخلق حماس الرجال الملتهب، ويجعل زوجها وأبناءها مثلها في العاطفة، وعلى طريقها في الاتجاه؛ فما زلن بهذا الملكي المتصلب في ملوكيته حتى أحب الجمهورية ودخل في حزبها، فصار يحضر مجالس الجمهوريين السرية، ويعرض نفسه للبلاء الذي يتعرضون له، ويجشم نفسه صعوبة التكتم والتستر والخوف الشديد إذا اجتمع الجمهوريون في دار أبيه بغير علمه، وهو القوي المستبد الذي لو شم رائحة الجهورية في الماء ما شربه، ولو وجدها في الهواء لعافه، ولو طلع بها الصباح الباسم لأثر أن تظل الدنيا في الليل البهيم! وكانت جاريتاه من أصل غير عربي، وكن يكرهن الملوكية المتعصبة للجنس، والتي تحتقر غير العرب، وتفرق بين المسلمين الذين خلقهم الله امة واحدة واعتنقن الجهورية فصرن منة أنصارها. هذه الجمهورية التي تتقيد في سياستها بالدين وتسوي في معاملتها بين المسلمين. وهؤلاء الجمهوريون الإباضية الديمقراطيون الذين يقدسون الكفاءة، ويحترمون التقوى والروع والاستقامة، لا اللون، ولا الجنس ولا المال، ولا المظاهر البراقة؛ فجعلوا أبا عبيدة الزنجي رئيسهم، وارتضوه أمامهم، أنهم لأولى بقيادة المسلمين، وإن دولتهم التي يعملون لإنشائها هي التي تطهر البلاد من ظلم الملوك المستبدين، وتسكت أنين المعذبين المضطهدين من الأحرار في السجون والقيود، وتزيل الفوارق التي خلقها الملوكية الأنانية المتعصبة، وترجع للدين قوته وسيطرته على كل أنحاء المجتمع، وتحي العدل والمساواة والديمقراطية التي قضى عليها الملوك، فيعيش المسلمون كلهم

في حجرها إخوة متحابين، وتكون الدولة الإسلامية الكبرى التي تضم المشرق والمغرب، قوية الجانب بحبها واتحادها، يغمرها رضا الله لعدلها ودينها، وتحترمها الدنيا وتهابها لاستقامتها وقوتها. هذا ما رأته سعيدة وجاريتا ربيها وزميلاتها من النساء الباسلات، فآزرن أبا عبيدة وصحبه، ودعون إلى حزبه، ونجحن كل النجاح في تكثير سواده.

اثر المرأة القوي في المجتمع

إن المعاني القوية التي تنبث في أعماق الأمة، وترسخ في العقل الباطن فتسيرها بدون شعور، ليست هي التي يغرسها الرجال في العقول بمنطق العقل في الكلام الجميل والسطور البليغة التي يحبرون، ولكن التي تنبث في الرجل من المرأة ملتهبة بعاطفتها وحماسها، متدفقة من نظراتها الساحرة وبسماتها، ويقرؤها أيضا في الحواجب المزججة فوق العيون!

والدعوة التي لا تناصرها المرأة وتتحمس لها، لا يؤمن بها الرجل الإيمان الراسخ ولا تنجح في المجتمع النجاح الكبير، ومن كانت المرأة عليه لا يكون الرجال له. ليت رجال الدين يدرسون علم النفس فيوقنون بهذا، فيوجهون أكثر وعظهم للنساء لا للرجال!

إن المرأة هي الوريد الذي يحقنه الطبيب بما يريد أن يعم الجسم كله، وهي عروق الشجرة الخفية التي يجب الاعتناء بها أكثر لتصح الشجرة وتخضر وتمتلئ بالثمار!

كان جابر وأبو عبيدة يعرفان هذا، وكان الإباضية يحترمون المرأة ويعطونها كل حقوقها، وكانوا يثقفونها بالدين والعلم الصحيح، ويعتنون بها كل الاعتناء، فوقفت المرأة في جانبهم، فنجحوا النجاح الباهر، ونصرهم الله! قال أبو سفيان محبوب ابن الرحيل: "كان زوج سعيدة يقال له عبد الله بن الربيع خال المهدي. واتخذت سعيدة للإباضية سربا في دار يجتمعون فيه بالليل. ولابن الربيع أولاد من غير سعيدة فكان احدهم قد دعاه أصحاب أبي عبيدة فأجابهم، ودخل مجالسهم، وعرف المشائخ بوجوههم ومنازلهم وأسمائهم. وكان له أمهات أولاد إباضيات، فاعتق واحدة يريد إكرامها، وأراد أن يتزوجها فأبت عليه. وقالت: الحمد لله الذي نجاني منك، فغضب عليها، ثم اعتق أخرى لينظر ما تفعل ففعلت كفعل صاحبتها. فقال لهن: إنما خدعتنني حتى أدخلتنني في دينكن، فلما أعتقتكن وأردت إكرامكن بان لتزوجكن (واتخذكن زوجات لا كمما كنتن جواري سريات) أبيتن فغضب (هذا الرجل. وكان كأغلب الملوكيين يستولي عليهم الهوى، ويستبد بهم الوجدان) فكتب إلى أبي جعفر المنصور بأسماء المشائخ (الإباضية الجمهوريين) ومجالسهم، وكتب بان سعيدة يجتمع عندها الإباضية في سرب لها في

دارها. فلما قرأ أبو جعفر الكتاب دفعه إلى عبد الله ابن الربيع، والد الواشي الوضيع، فلما قرأه أكثر الاسترجاع. قال أبو جعفر: مالك قال: ابني قد ذهب عقله. وصار إلى ما أرى! (يكتب الأخبار الكاذبة، ويهذي بما لا يعرف) قال: احبسه. قال لابد من ذلك. قال أبو جعفر: فأرسل إليك طبيبا يداويه قال: لا أحب أن أشهره، لكن ابعث لي بالأدوية. فبعث إليه أصنافا من الأدوية، وجعل ابنه في الحديد زمانا حتى كتب إلى أبي جعفر بأنه كتب الكتاب وهو لا يعقل وقال ابن الربيع لأبي جعفر: أو مثل سعيدة يقال فيها هذا؟؟!".[1] ولم يسع ابن الربيع لما علم بما يقع في داره إلا هذه الحيلة، وتباله المنصور الداهية، وتظاهر بتصديق دعواه. انه من آل بيته ومن أنصاره الكبار، فلا يجوز الانتقام من زوجته، وإن علم الناس أن سعيدة زوجة الأمير إباضية، وان الإباضية الجمهوريين يجتمعون في دار ابن الربيع فضيحة للملوكية، ودليل على قوة الإباضية وانتشار نفوذهم فيميل إليهم الناس؛ فستره المنصور الداهية، وسكت عنه، ولو نسب إلى غيره ما نسب إليه، لكانت شرطته العارمة، وسيوفه أسرع إليه من المنون إلى المحتضر الذي كتب الله بزواله.

تضحية النساء المجاهدات في سبيل الجمهورية الإسلامية

وكان النساء الإباضيات اللائي ينصرن الجمهورية الإسلامية في العراق يتبرعن بالأموال والحلي لأبي عبيدة إذا جمع الأموال للدولة الرستمية، وللثورات الإباضية الناشبة ضد الملوكية المستبدة. وكن خير نصير للجمهورية التي يتمنين رجوعها لتحيي الدين وتنعش بالعدل كل المسلمين.

ومن دهاء أبي عبيدة وبعد نظره، وجرأته أيضا وشجاعته أن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما عزم على الثورة على الأمويين في أيام مروان بن محمد الجعدي آخر الملوك الأمويين، أرسل إلى الإباضية في العراق يستنصر بهم، ويجذبهم إليه ليعينوه في ثورته، لما يعرف من كثرة عددهم، وإنكارهم للملوكية المستبدة وكرههم لها، فمال إليه كثير من أصحاب أبي عبيدة، ورأوا انه أحسن من الأمويين، وان العلويين إذا ملكوا فسيكونون أكثر عدلا من الأمويين، وأكثر تمسكا بالدين، وأرأف بالمسلمين واسعد بالسياسة الرفيقة، والعدل في الحكم؛ فتحمسوا لدعوته، استحبوا إعانته في ثورته. فتفاوضوا مع أبي عبيدة في الأمر. فأراهم أن عبد الله بن الحسن لا يثور على الأمويين ليجردهم من الملك، ويرفع أيديهم عن الرئاسة نصرة للإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية، وليولي المسلمون أمرهم من يختارونه، ولكنه سيثور

1 - النصوص التي نسبناها إلى أبي سفيان أو الشماخي في هذا الباب كلها من كتاب السير للبدر الشماخي وهي مبثوثة من صفحة 83 إلى صفحة 96. وما بين قوسين في كل نص ليس منه.

طلبا للملك، وانه يرى نفسه وأبنائه أبيه أولى بالملك، وان انتصاره سوف لا يسفر عن زوال الملوكية، وإشراق الإمامة الإسلامية، ولكن يرتفع عن المسلمين قيد قديم قد صدئ وفتك بهم بصدئه، يوضع عليهم قيد جديد لئن أشرق وخف ضرره الآن فانه سيصدأ لفساد النفوس بالملك، وانحلال الأخلاق بترف السلطان، فيقع المسلمون فيما يشكونه الآن.

وكانت ثورة طالب الحق في اليمن على الملوكية قد نشبت على الأمويين.كان طالب الحق يريد إرجاع الإمامة الإسلامية، لا يريد لنفسه ملكا وسلطانا، وكانت ثورته ناجحة، وقد قضى على الملوكية في اليمن وحضرموت، فخرج جنوب الجزيرة العربية كله من قبضة الأمويين وبايعوا طالب الحق إماما عليهم، فزحف على الحجاز فاستولى على اغلبه. ورأى أبو عبيدة أن عبد الله بن الحسن إذا أراد لنفسه ملكا ولآل بيته فما كان للإباضية أن يؤازروه لأنهم ضد الملوكية المستأثرة، وهم أنصار الإمامة الإسلامية، وإذا أراد نصرة الإمامة الإسلامية فيجب أن ينضم إلى ثورة طالب الحق الناجحة، ويحارب معه، سيما وقد وقعت في الحجاز، وهو وطنه الذي يهمه رفع أغلال الملوكية الأموية عنه أكثر. وأدرك أبو عبيدة بذكائه ودهائه ونظره البعيد هذه الدقائق، سيما تغير نفوس العلويين بترف السلطان، وهم ملوك لا تفارقهم الرئاسة، فيتجدد للمسلمين ما يشكونه من الأمويين. فتنبه الإباضية لما غفلوا عنه أو استهانوا به، واستصوبوا رأي أبي عبيدة واخذوا به، وحصروا جهودهم في تأييد طالبي الحق الذي يحقق مرادهم، وهو إحياء الإمامة الإسلامية، والتخلص من الملوكية الأموية المستبدة.

قا أبو سفيان: "بعث عبد الله بن الحسن إلى أبي عبيدة والي (جماعته) حين أراد الخروج، فتشاوروا فتكلم كل برأيه، فاتفق رأيهم أن يبعثوا إليه صالح بن كثير (ليتفاوض معه وينظموا أمر تأييدهم له) فقال أبو عبيدة إن هذا ليس برأي أترون رجلا يخاف على نفسه، ويطلب الملك أيعطيكم كل ما سألتموه، وإذا أعطاكم وقال أنا مقر بدعوتكم إلى الإمامة الإسلامية، ولكن الناس إلي أسرع وأنا أحق فما عسى تقول له يا صالح، وقد صدق في ميل الناس إليه، إن أراد الدين كما يزعم فليلحق بصاحبنا عبد الله طالب الحق بحضرموت فليقاتل بين يديه حتى يموت فأقنعهم وعدلوا عما هموا به".[1]

1 - السير للبدر الشماخي ص 83. أسلوب هذا النص في سير الشماخي أعجمي غامض ولعل ذلك من تحريف النساخ وقد رويناه بالمعنى. والملوكية المستبدة إنما هي الملوكية التي لا تتقيد بدين ولا دستور، إن مغربنا في هذا العصر خال منها والحمد لله، إن ملوكه الآن اختارهم الشعب بماضيهم الجميل وجهادهم ونضالهم فهم كالأئمة بهذا الاعتبار، ثم أنهم دستوريون.

تواضع أبي عبيدة ودماثة خلقه وتمسكه بديمقراطية الإسلام مع كل الناس

وكان أبو عبيدة متواضعا للناس على جلالة قدره، وإمامته للإباضية في الدين، واحترام أهل عصره له. وكان دمث الخلق، حسن العشرة، لا يتكبر ولا يتجبر، متمسكا بديمقراطية الإسلام لا يحتقر احد لنسبه أو فقره، وكان حتى مع العبيد الذين يحتقرهم اغلب أهل عصره، ويرونهم طبقة دنيا، لا يتكبر ولا يترفع، بل يرحمهم، ويتواضع لهم، ويحنو عليهم كما يفعل الوالد مع أولاده من صلبه، وكما يفعل كل امرئ مع من يعزه ويحبه. فأحبه حتى العبيد. وكان لحاجب بن مدود الطائي اكبر أصدقاء أبي عبيدة، وأحسن أنصاره عبد كان معه كابي عبيدة في التواضع والمحبة وحسن العشرة، فألجأته الضرورة ولعلها الفقر لبيعه فوقع لأبي جعفر المنصور، ودخل بيت الغنى والملك والترف وكل ما تشتهي النفوس، وانتقل من دار حاجب البسيطة. ومع ذلك ظل وهو في قصر المنصور متعلقا بحاجب وأبي عبيدة، ويوده أن لا يفارقهما لحبه لهما. وكانت دار حاجب الضيقة اسعد له من قصور المنصور الفخمة الفسيحة، لأنه يجد في دار الحاجب ما لا يجده في قصور المنصور، وهو الاحترام والرحمة والمحبة التي تسعد المرء وترضيه، وتشبع غرائزه أكثر من كل الأشياء، ويرى في دار حاجب جمال الدين، وبهاء الفضيلة، ونور العلم، وحسن الإيثار والتضحية، والعمل لله. وكان تعلق عبده به بالغا، وحبه له شديدا، ولما توفي حاجب بكاه بكاء مرا. وتفي بعده أبو عبيدة فحزن العبد عليه، واحلولكت الدنيا في نظره، فرأى المنصور ذلك عليه فسأله، فقال: مات صديق مولاي القديم أبو عبيدة. فعذره المنصور في حزنه، رغم كرهه لأبي عبيدة، ومعاقبته كل من يشم فيه رائحة الميل إليه. قال أبو سفيان: "وقع غلام كان لحاجب عند أبي جعفر فسأله لمن كان؟ فقال: لحاجب. وكان عالما به وبابي عبيدة. فدخل عليه يوما فراه حزينا. فسأله. فقال: مولاي الذي كنت له مات. يعني حاجبا. فرجع أبو جعفر فقال: رحم الله حاجبا. ثم دخل عليه بعد ذلك فراه حزينا. فقال: مات صديق لمولاي يقال له أبو عبيدة الأعور. قال: وإنها قد مات؟ ! قال: نعم. فرجع. وقال: ذهبت الإباضية! !".[1]

وكان وصف أبي عبيدة بالعور من تسمية الملوكيين الذي يريدون أن يحطوا من شأن أبي عبيدة، ويزروا به، فلم يجدوا سببا لذلك في سيرته، فتعلقوا بصورته وصناعته فسموه بالأعور والقفاف. وكان العبد ذكيا فسمى أبا عبيدة بالاسم الذي يظن انه يروق

1 كتاب السير للشماخي ص 92 ط أولى بالبارونية في القاهرة.

عند المنصور، ويوهمه أن لا يحترم أبا عبيدة، وان حبه له إنما كان للألف وطول العشرة.

إكبار المنصور لأبي عبيدة وإجلاله / الدعاية الملكية الكاذبة ضد الإباضية الجمهوريين

وكان المنصور يعرف حقيقة أبي عبيدة، ومقامه العظيم في العلم، وورعه وتقواه، ودهاءه وإخلاصه؛ وانه لهذه الصفات العظيمة، والمزايا الكبيرة، قدمه الإباضية الجمهوريون عليهم، فهو رئيسهم، وإمامهم، وقائدهم في منازلة الظلم والاستبداد. واسترجاعه لما علم بوفاته، وتساؤله تساؤل الاندهاش بقوله: وإنه قد مات؟! وقوله: ذهبت الإباضية! هذا كله دليل على إجلاله وإكباره، وإن تظاهر للناس بعكس ذلك ليصرف النفوس عنه، ويضرى دعاته الذين يبثهم في الأقطار لمهاجمة الإباضية الجمهوريين، ووصفهم بكل ما يبديهم على غير حقيقتهم للعامة البعيدة عنهم، ولمن لا يعرفهم، وللدهماء التي تصدق الدعاية المتحمسة المتكررة لكي لا تنفتح القلوب لهم، وليموه على الناس فيقر في أعماق العامة بالدعاية البارعة المخدرة بأنه على العدل الذي يوجبه الدين، والسياسة التي تفرضها الشريعة. وأن دولته لتمسكها في السياسة بالدين في كل الأشياء، قد تجلببت برداء الكعبة المقدسة، فجعلت السواد شعارها! وأن الإباضية الذين يناوئونها إنما هم خوارج يجب نبذهم، واطراحهم، والإعراض عنهم، والتبرؤ منهم. هذه هي الدعاية المتحمسة البارعة المتكررة التي شنها الملوك العباسيون وغيرهم قرونا عديدة على الإباضية لا لشيء إلا لأنهم جمهوريون يتمسكون بالإمامة الإسلامية، ويأبون الملوكية المستبدة التي تظلم وتجور، ولا تتقيد بالدين في سياسة المسلمين. وقد استعملوا في بث هذه الدعاية كل الأساليب، ووصفوا الإباضية _كذبا وزورا - بكل ما أملاه عليهم حقدهم على الجمهورية الإسلامية التي ينصرها الإباضية ويجاهدون لإحيائها، وكانوا في القرون الإسلامية الأولى بعد عصر الخلفاء الراشدين هم حماتها، ومؤيدوها ومحيوها بالدول الجمهورية العادلة التي أنشأوها في المشرق والمغرب. فرأى الناس فيها جمال الإمامة الفتان، وبهاء الجمهورية الإسلامية التي تتقيد بالدين في كل الأشياء، والتي لا تسوس الناس بالأنانية والأهواء، فكسفتهم، وزادت الناس شعورا باستبدادهم، وعدم تقيدهم في كل الأمور بالدين في سياسة المسلمين.

كان أبو عبيدة لورعه وتقواه، وعلمه وعمق فهمه للدين، ولدهائه وشجاعته، وإخلاصه وحكمته محل إجلال أهل عصره، وموضع إكبارهم وثقتهم.

إمامة أبي عبيدة للإباضية دليل على تمسكهم بالديمقراطية الإسلامية

كان أبو عبيدة اسود اللون، اعور العين، مولى بني تميم، فقيرا. ليس في مظهره ما يفتن النفوس به، إلا جلال الدين الذي أورثه كل بهاء، وقوة الشخصية التي أكسبته كل روعة، وجمال العلم الذي كساه بالحسن والسناء. هذه الأشياء التي لا يدركها إلا العقل المثقف، والقلب المؤمن. أما العامة الجاهلة التي تغرم بالقشور، وتفتتن بالمظاهر، وتسخرها الأشياء البراقة، والألقاب الفخمة، والعظمة المادية، وكثرة الغنى، وعلو السلطان، فإنها تعرض عن مثل أبي عبيدة وتزري به، وتحتقره، ولا ترى له منزلة وقدرا. وإجلال الإباضية لأبي عبيدة مع سواد لونه، وإمامته لهم، يدلنا على ثقافتهم وروحهم وحقيقتهم. لقد كانوا الفئة التي تتمسك بالديمقراطية الإسلامية، والمساواة التي جاء بها الدين، والمقاييس التي انزلها الله. لا يقدمون الرجل للون، ولا لنسبه، ولا لماله، ولا لجاهه ولكن لدينه واستقامته، وورعه وتقواه، ولعلمه وعمله "إن أكرمكم عند الله اتقاكم" فأسباب الرضى من الله للعبد هي التي تورثه الرضى عندهم. فيحبونه ويحترمونه، ويعبدونه منهم، ويكون محل ثقتهم. أنهم ينظرون بنظرة الدين إلى الناس: فالسري الغني عندهم إنما هم الورع الممتلئ بالتقوى، المشرق بالدين، المزدان بفضائل الدين وطهره، وسموه ورفعته. لذلك انضمت إليهم الفئات الإسلامية التي ظلمها الأمويون والعباسيون، وتعصبوا عليهم، وقدموا بني جنسهم وأخروهم، فأصبحوا يتلهفون على العدل، ويتمنون المساواة التي يأمر بها الدين، والتي ألفها آباؤهم وألفوها هم في عهد الخلفاء الراشدين؛ فوجدوا الإباضية أنصار هذه المعاني، وحربا على الظلم والعنصرية والاستبداد، فتفتحت لهم نفوسهم، فانتشر المذهب الأباضي الجمهوري الذي يدعو إلى الإمامة الإسلامية في هذه الجماعات كالفرس، والبربر، وبني قحطان، وبعض الزنوج، والمصريين وكل من تمسك بعدل الإسلام، وعض بالنواجذ على هدي الرسول في الرئاسة والإمامة.

ادعاء الملوكيين في رئاسة المسلمين وحصرهم الإمامة في قريش

إن إمامة أبي عبيدة للإباضية مع وجود العلماء البيض فيهم، والسراة من اقحاح العرب يدلنا على ديمقراطية الإسلام التي يتصفون بها، والتي يمتازون بها في عصرهم. ودليل على أنهم يراعون في الرئيس الشروط النفسية، والكفاءة العقلية، ونقاء السيرة، لا العظامية التي يقدسها ويراعيها في الرئاسة العظاميون الذي يتعصبون لأنفسهم،

فحصروا الإمامة في قريش، ووضعوا لذلك الأحاديث الكاذبة، واقروه في أذهان البسطاء بكل الأساليب.

إن الدين الإسلامي قد جاء لإحياء المعاني السامية في النفس الإنسانية، ولا ابلغ إحياء لها من مراعاتها في الرئاسة دون غيرها، ولا اشد قتلا لها من عدم مراعاتها ومراعاة العروق؟، لان غريزة حب الظهور، والغرائز الأخرى التي هي أساس الأخلاق والسلوك في الإنسان، لا تبعث على الأخلاق العظمى التي هي سبب ما يشبعها من رئاسة، ولكنت على التمجيد بالعظامية، والفخر بالجدود، كما نرى البيئات الجاهلة البسيطة.

عوامل ضعف الوراثة في الإنسان وإزراء من يحصر الإمامة في قريش بالإسلام

إن الوراثة أكبر سبب للنفوس العظيمة، وللنبوغ والعبقرية، فيجب مراعاتها، ولكنها لا تثبت في الأسرة والقبيلة على درجة واحدة، ولا تدوم على قوتها فإنها تضعف وتتلاشى بالحضارة والانغماس في الترف والملذات، وبالدماء الضعيفة التي تمازج الأسرة، فتضعف الأسرة وتتضاءل، ويمرض العرق ويهزل، فنجد الدودة من التمرة، والرماد من الجمرة، ويذهب الجمل الفحل النهاض بالأعباء فلا يترك في مباركه إلا البعر والقراد! وما كان للرسول الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، أن يحصر إمامة المسلمين في قريش، والوراثة القوية مآلها كما وصفنا التلاشي والاضمحلال. فان الجيل القوى الذي يكافح لافتراش الحرير، وللظفر بالغنى والسعادة، ولا يلد جيلا مثله إذا بلغ مراده فولد في الحرير، ونشأ في الترف، واخلد إلى الراحة والنعيم، لان خشونة الحياة، وحياة النضال والكفاح، هي التي تحفظ الصفات الموروثة وتزيد فيها، تخلقها وتكونها في الأسرة التي يجاهد آباؤها،ويكابد أبناؤها، ويتجرعون مرارة الحياة التي هي أنجع دواء للضعف فيزول، واكبر مطهر للنفس الخاملة الضعيفة فتصح.

إن الذين يحصرون الإمامة في قريش يزرون بالإسلام الذي يليق لكل زمان ومكان لمراعاته للنفس البشرية وأحوالها في أحكامه، ومعرفته بتقلباتها في التشريع!

كان الإباضية يعرفون كل هذا، فلم يصغوا إلى الملوكيين في حصرهم الإمامة في قريش، فعارضوهم بالحجة والبرهان، وبسيرة الرسول والخلفاء الراشدين، وبما قررنا وهو ما يثبته العقل، ويوقن به كل ذكي عالم منصف درس النفس البشرية وعرف أسرارها وتفقه في الدين كل التفقه وعرف مغازيه.

أسباب الخلاف بين الإباضية والملوكيين

إن رفض الإباضية حصر الإمامة، ورئاسة الدولة الإسلامية في قريش، وإباءهم للملوكية المستبدة، وتمسكهم بالإمامة الإسلامية التي تتقيد في السياسة بالدين، هو سبب الخلاف الشديد بين الإباضية الملوك العلماء الدين الذين يسيرون في ركاب الملوك، وسبب ثورة هؤلاء على الإباضية الذين يأبون الملوكية المستبدة وحصر الإمامة في قريش لا ما يراه الإباضية في بعض الأصول والفروع في الدين فان هذا يشاركهم فيه المعتزلة وغيرهم ولم نر الملوك استهدفوهم للسهام المسمومة، ولا صبوا عليهم الدعاية الكاذبة التي تنفر الناس عنهم، وتصورهم للعامة على غير حقيقتهم.

وجوب القضاء على المذهبية المفرقة

إن زوال الملوكية المستبدة التي لا تتقيد بالدين ولا بالدستور من مغربنا في هذا العصر، والتي كانت ترغم العلماء على أن يقرروا ما يشاءون، وتجعل العامة بواسطة العلماء المجبورين أو مأجورين تعتقد في الإمامة ما يريدون، وشيوع حرية التفكير في عصرنا، عمق الفهم بالتفكير الفلسفي في زماننا، قمين بترجيح ما تمسك به الإباضية وناصروه، وبأخذ المثقفين به، فيزول السبب الذي خالف فيه الإباضية الملوكيين فثاروا عليهم، فتزول المذهبية الخبيثة التي خلقها الملوك ورسخوا جذورها، واصلها الاستعمار وانتفع بها في تفريق كلمة مغربنا الحبيب، وفي بث البغضاء بين أبنائه، وفي عزل الإباضية الذين كانوا اكبر وأقوى من نازلة في ميدان العروبة والدين اللذين سعى الاستعمار بكل وسائله للقضاء عليهما في المغرب، ليسهل ابتلاعه، ويتأتى له هضمه، فيكون جزءا من أوروبا في شخصيته كما يتمنى.

كان أبو عبيدة إمام الإباضية، يستفتونه في الدين، ويبث فيهم علمه، يبني شبابهم بالتربية والتعليم، ويقودهم في نضالهم ضد الظلم والجبروت، ويضع الخطط المحكمة لإنشاء الدولة الجمهورية العادلة التي هي مثلهم الأعلى.

طبقة أبي عبيدة واعضاده الكبار

وكان لأبي عبيدة أعضاء مخلصون يؤازرونه من تلاميذ جابر وغيرهم. ومن اعضاده الكبار من العلماء النابهين، والشخصيات البارزة، ضمام بن السائب، وأبو نوح صالح الدهان، وحيان الأعرج، وحاجب بن مدود الطائي، وأبو سفيان قنبر، وأبو يزيد الخوارزمي، وسلمة بن سعد وعبد الله بن يحيى طالب الحق، وأبو حمزة المختار بن عوف، وبلج بن عقبة، وأبو الحر على بن الحصين. وكانوا كلهم علماء صلحاء، وذي تقوى وورع. ومن أنصار

الإمامة الإسلامية، ومناهضي الظلم والاستبداد والجبروت وعدم التقيد بالدين في سياسة المسلمين.

وكان أبو يحيى عبد الله بن يحيى طالب الحق هو الذي بايعه أهل اليمن وحضرموت بالإمامة، فهزم جيوش الأمويين، وقضى على الملوكية في اغلب الحجاز. وكان معه أبو حمزة المختار، وهو من علماء عصره، وخطباء زمانه، وفرسان دهره؛ وبلج ابن عقبة، وهو في الشجاعة والبطولة والفروسية بحيث يعده أبو عبيدة ألف رجل، ويغني غناءهم في الحروب، ويسد مسدهم في المعارك. قال البدر الشماخي: "كان أبو يحيى طالب الحق قاضيا لإبراهيم بن جبلة عامل القويسم على حضرموت، وهو عامل مروان آخر ملوك بني أمية على اليمن. فاظهرا باليمن وحضرموت جورا كبيرا. ففزع الناس إلى عبد الله بن يحيى (ليبايعوه، فيثوروا على الظلم، ويقضوا على الملوكية الأموية الهرمة المستبدة، ويحيوا الإمامة الإسلامية العادلة) فكاتب طالب الحق أبا عبيدة (يستشيره ويستمده) فقال أبو عبيدة: إن استطعت (إحياء الإمامة الإسلامية، والثورة على الظلم والجبروت) فلا تبق يوما واحدا. وأرسل إليه بابي حمزة المختار ابن عوف الازدي وقال له: إنا بعثنا إليك برجل أنجيله في صدره، وبلج بن عقبة وكتب إليه: إنا لك اثني عشر رجلا وألفا. بعني بالألف بلج بن عقبة".

حاجب بن مدود وسخاء الجمهوريين وتضحيتهم

وأما حاجب بن مدود الطائي فقد انضم إلى الإباضية بعد جابر بن زيد. فكان اكبر متحمس للإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية، وثرة ونارا على الظلم والاستبداد وكان الإباضية يجتمعون في داره في جلساتهم السرية، أيام الإرهاب والأحكام العرفية وكان يتولى جمع الأموال والتبرعات للثورات التي يشنونها للقضاء على ظلم الملوك المستبدين وإنشاء الإمامة الإسلامية التي تتقيد في السياسة بالدين، وتسعد المسلمين، والدولة الرستمية الجمهورية لما نشأت بالمغرب، وللفقراء الذين حرمهم الملوك من عطائهم لمناصرتهم للإمامة، وإعراضهم عن الملوكية.

وكان الإباضية يتبرعون بالأموال الكثيرة، لا يشحون ولا يملون. وكانوا يتبرعون لله لا يريدون بذلك جزاء ولا شكورا. وكان احدهم يتبرع بالمال الكثير ويأبى أن يذكر اسمه، ويدخل في دور الفقراء بالحمال الطعام وغيره دون أن يعرفوا من أرسلها لأنهم يعملون لله. ومن يعمل لله يجتهد في البر والإحسان، ويتصل عمله فلا ينقطع، ولا يكدره بالمن والأذى. وكانت النسوة أيضا يتبرعن بما يستطعن من أموال، ويشاركن الرجال في النضال ضد الظلم والجبروت.

قال البدر الشماخي: كان حاجب بن مدود هو القائم بأمر الحرب (من شراء الأسلحة لها) وجمع المال، والمعونة (للفقراء) والخصومة (للأمراء، وللولاة المستبدين)، وأبو عبيدة إليه يسند أمر الدين والمسائل".[1]

قال أبو سفيان محبوب بن الرحيل: "لما خرج الإمام عبد الله بن يحيى طالب الحق (على ظلم الأمويين) وأبو حمزة المختار، جمع حاجب لهما أموالا كثيرة يعينهما بها، وكتب على كل موسر من الإباضية قدر ما يرى، فما امتنع عليه احد (لإجلالهم له، وتأثرهم بحماسه) ودعا أبا طاهر وكان شيخا فاضلا وقال له: عليك بالنساء وأوساط الناس فانا نكره أن نكتب عليهم مالا يحملون، فانطلق أبو طاهر فيمن انطلق معه من المسلمين، فلم يأتوا امرأة ولا رجلا إلا وجدوه مسارعا فيما سألوه، وكان رجل من الإباضية (أنصار الجمهورية الإسلامية) لم ير انه صاحب مال فدفع إليهم ثلاثة آلاف درهم، فقال له أبو طاهر: أي أخي، العيال (استبق لهم شيئا) قال: الله لهم! والله ما رأيت مذ كنت وجها مثل هذا انفق فيه، وإذ وجدته أفأدعه؟! والله لا يرجع إلي منها درهم؛ ولكن عهد الله لا تخبر باسمي ما بقيت! ففعلوا فلم يمس الليل حتى جمع أبو طاهر عشرة آلاف درهم، فاخبروا حاجبا فسر بذلك، فقال إن في الناس لبقية بعد، فاشترى بتلك الأموال سلاحا فوجهه إلى طالب الحق، ووجه معه ما بقي من المال.

ومن الرجال الذين خلفوا حاجبا في هذه الخلة الكريمة، وفي هذا الحماس للجمهورية الإسلامية، فكانوا يجمعون الأموال من الأغنياء الجمهوريين، ويوزعونها على الفقراء فيسدون الخلل الذي يحدثه محاباة الملوك في أموال الدولة، وعدم توزيعها على الفقراء بدون تمييز ولا تحيز، لقد كان الملوك يخصون بأموال الدولة التي يجمعونها زكاة من الأغنياء الشعراء الذين يمدحونهم، والعامة التي تتملقهم، وينفقون الكثير منه في الشهوات والملذات، وفي بناء القصور واقتناء الجواري والمغنيات، وكان حاجب وأمثاله يعتنون بالفقراء الجمهوريين الذين تحرمهم الدولة من عطائهم، أو تقصر معهم، فيجمعون لهم من الأغنياء ما يعينونهم به، ويؤيدون به ثورات الجمهوريين على الظلم والطغيان، ويدارون به عن زعمائهم وعن الجمهوريين المهددين، فيسكتون به الأمراء الذين تشتري ضمائرهم، ويغطون في النوم فلا يرون أعمال الجمهوريين ضد الملوك المتجبرين إذا استثقلوا بالبذر الثقيلة، وبالهبات الدسمة؛ من أولئك الرجال الذين كانوا في هذا العصر العاصف بالنضال ضد اظلم والطغيان، وإن عد من طبقة الربيع لا من طبقة أبي عبيدة، يحيى بن نجيح وديال بن يزيد، وكانا من العلماء العاملين، ومن المناضلين المخلصين،

1 كتاب السير الشماخي ص 92 ط أولى بالبارونية في القاهرة.

ومن الأنصار الشجعان للإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية، قال البدر الشماخي: "وكان سعيهما أن يجمعا م الأغنياء للفقراء: أما يحيى فيخرج بجراب فيطوف على أغنياء المسلمين، فيعطونه ما حضر عندهم، الخبز أو التمر أو الرمان أو الدراهم، ثم يطوف بما جمع على الفقراء فيفرق عليهم ما جمع، وأما ديال بن يزيد فيفعل مثل ذلك بعده، وربما استأجر الأكسية في البرد الشديد، والطنافس والقطف بألف درهم أو اقل أكثر، وليس عنده منها شيء، وإنما يتكل على الله ثم على المسلمين، ثم يفرق تلك الأكسية والقطف والطنافس على الفقراء، ثم يخرج فيجمع ذلك من الأغنياء فيقضي أهل الثياب حقوقهم.

تمسك الإباضية بالاشتراكية الإسلامية

وكان الإباضية لتمسكهم بالدين، وعملهم لله، على الاشتراكية الإسلامية، فهم أكثر الناس تمسكا بها، ومن تمسك بالدين كل التمسك فلا بد ان يكون عليها، فيشرك الفقراء في أمواله، ويبادر إلى وجوه الخير فيتبرع لها بما يستطيع، ويتقرب إلى الله بإنفاق أمواله، وتراه يجتهد في جمعها، ثم يبادر إلى إنفاقها فيما يورثه الأجر عند الله، والنماء والزيادة في البركات في الرزق، هذا إلى الزكاة التي هي فرض يخرجونه في وقت معلوم من كل عام، فيضعونها في الأبواب التي عينها الله، فيريشون بها الفقراء، ويدفعون بها الحاجة عن ذوي الخصاصة، ولا زالت هذه الخلة الإسلامية الكريمة في الإباضية في وادي ميزاب بجنوب الجزائر إلى اليوم، فهم أكثر الناس جدا في التجارة المنظمة، وفي جمع المال من الطرق الحلال المشروعة، ثم هم أكثر الناس إنفاق في وجوه البر، وفي الجمعيات الخيرية، وفي كفالة أقاربهم الفقراء، وفي الصدقة على ذوي الحاجة والخصاصة، وفي تعليم النبغاء الفقراء في الكليات العربية حتى يتخرجوا، وفي النفقة على المدارس العربية الحرة التي أنشأوها في مدنهم فكانت اكبر منبع للعربية والدين الإسلامي في الجزائر، وعلى مساجدهم الحرة التي كانت منابرها اكبر وسيلة لثقافة الكبار، وتأييد الدين وترسيخه في المجتمع، ونفخ الوطنية الصحيحة في النفوس، وخلق الإخوة الإسلامية في القلوب، وتطهير المجتمع من الإلحاد والفساد ورقة الدين، فلذلك لا تجد في مجتمعهم الطاهر بالدين الراسخ، القائم على الاشتراكية الإسلامية، فقيرا يتسول، واو محتاجا ضائعا، أو يتيما بدون كافل يربيه ويعلمه ويرعاه، أو أيما تتبذل بالعمل عند الناس الذين قد لا يحترمونها.[1] وقد رعاهم الله برعايتهم للفقير واليتيم، وإننا لنرجوا أن تكون بلادهم

1 - ومن اشتراكية الميزابيين في الجزائر انك تجد متاجرهم التي يقوم بها عامل أو اثنان يستخدمون فيها عمالا كثيرين لتعيش عائلات كثيرة ويدخرون للعامل جزءا من أجرته لتصبح له رأس مال فيكون شريكا في المتجر في وقت قريب.

ومجتمعهم مظهرا لجمال الاشتراكية الإسلامية وجدواها. فتخذ بها حكومة جزائرنا المستقلة. فان الدين الإسلامي هو الذي يجب أن نقبس منه دستورنا لأنه من الله الذي لا يداخل النقص والقصور ما انزل لخير عباده. وهم الذي نرى جدواه وعظمته في المجتمعات المتمسكة بالدين. وبالاشتراكية الإسلامية كوادي ميزاب في هذا العصر.

أما دساتير أوروبا ومن قلدوها من الشرقيين الضعفاء. فإنها بعيدة عن مزاجنا الجزائري الذي هو مزاج إسلامي لا غيره. وإذا وجدت فضيلة في تلك الدساتير صالحة فهي دقيقة صغيرة من ديننا الحنيف الذي نظم المجتمع تنظيما عبقريا يزدهر به في كل النواحي ويسعد في كل الأركان. وينجح في كل الأمور. وشرع له اشتراكية ما أخذت بها امة إلا سادتها الإخوة والصفاء. والاتحاد والغنى. وكانت عزيزة الجانب. مرهوبة الحمى وبارك الله في كل أشيائها.

لقد كان أجدادنا في العصور المتمسكة بالدين على الاشتراكية الإسلامية. فسعد مجتمعهم وساد. ونمت أموالهم ووفرت. وكانوا أكثر ما أرادوا في الغنى والثروة. وأقبلت عليهم الدنيا إقبال السحاب على الجبال المشجرة. والبقاع الخصبة تأتي تجدي الناس. وابتسم لهم الدهر وتفتح. فصارت لهم طلعته متهللة كوجوههم المتهللة للفقراء وطلعتهم الوضاء بحب الخير والمكرمات !

كيد الاستعمار الأكبر لمغربنا وللمسلمين

إن الاستعمار الأوروبي قد ضرب المسلمين ضربة قاصمة لا زالت تنزف بالدماء. وتورثهم الضعف والشقاء. وتسبب لهم الانهيار والفناء. ولما زهدهم في دينهم الحنيف الذي لا ينظم المجتمع ويطهره. ويقتل فيه الفقر والمرض والجهل والفساد غيره. وثني بأعينهم إلى دساتيره الناقصة العوجاء القائمة على الرأسمالية والأنانية. والتكالب على المادة. وعلى نظام الطبقات الذي يستعبد به الأغنياء الفقراء. أو على الشيوعية وظلم الدولة وإجحافها للفرد وقتلها لمواهبه. وحقر إليهم تعلم الشريعة الإسلامية. ومعرفة أسرار الدين الحنيف. فصاروا يتخبطون تخبط الأعشى في سيره الضعيف. ولن يهتدوا إلى الجادة فيسعدوا. ويحققوا الآمال ما لم يأخذوا في أيديهم بالمصباح الوهاج الذي لا ينطفئ. ويستنيروا بالشمس الوضاءة التي لا تغرب: وهو الدين الإسلامي الحنيف! فهو وحده سبب السعادة والغنى!

أسباب قوة المغرب وسعادته وما يحقق كل آماله

إن ما ثني أعنتنا عنه الاستعمار ليقتلنا. وزهدنا فيه. إنما هو الدين الإسلامي العظيم.

فيجب على مغربنا أن يتجه إليه. فهو الحياة والأجنحة. وكل قوة. وكل خير لمغربنا ! !

إن الدين الإسلامي هو دين الرحمة والإحسان. والديمقراطية والمساواة. وكل الفضائل التي تسعد المجتمع وتكلمه. وتقوي الدولة وتنعشها. وقد تمسك به أجدادنا فسعدوا وكانوا على الاشتراكية الإسلامية الصحيحة التي جاء بها الدين. وكان الإباضية لتمسكهم بالدين في كل العهود على هذه الاشتراكية. وكانوا عليها في عصر أبي عبيدة قال البدر الشماخي:[1] "وكان الإباضية (الجمهوريون في ذلك العصر عصر أبي عبيدة) يكثرون الصدقات. ويفرحون لأبواب البر. قال أبو سفيان: سمعت بعض مشائخ من أدركت يقولون: إنا لنذكر إذا كان شعبان فان الفقراء (من الجمهوريين) لتأتيهم الأحمال بالسويق والتمر وما يصلحهم لشهر رمضان. ولا يعلمون من بعث بها. يأتي الرجل بالجمال حتى يقف به على باب الدار فيقول ادخل: فيكتب في خرقة: كلوا واطمعوا. وكانوا يحملون مشائخ العلم الجمهوريين إلى الحج. يكون لأحدهم عدة نجائب أعدها لذلك. وكانوا يجمعون الأموال يبعثون بها إلى المغرب والمشرق من اليمن وتيهرت. لإقامة دين الله وإحياء الإمامة الإسلامية التي تتقيد في كل أمورها بالدين وتسهد المسلمين).

وكان أبو عبيدة لجهاده ونضاله. ولكثرة المحن والشدائد التي يتجرعها من الأمويين والعباسيين. ولشدة همه وغمه وحنقه بما يرى من ظلمهم وعدم تقيدهم بالدين. ولإجهاده لفكره في العلم. و؟إضنائه لعقله في فلسفة الدين. وفي التفكير في مشاكل الجمهوريين الذين يقودهم. والمعضلات التي يحدثها له الملوك المتجبرون. وأتباعهم المتعصبون بمكرهم وعسفهم وتفننهم في إيذائه هو وأتباعه. وفي مطاردتهم ومراقبتهم وتشديد الجوسسة عليهم. ثم تلك الضحايا من علماء الجمهوريين وخاصتهم التي تسقط في كل يوم تحت سيوف الملوك الذين عزموا على استئصال رءوس الجمهوريين أنصار الإمامة الإسلامية. فلم ينج منهم إلا من حفظه الله: إن كان عليه أبو عبيدة من شدو الفكر فيما ذكرنا وشدة الهم بما بينا. قد اثر فأصيب بالفالج في آخر عمره. وابتلي بعلة العظماء الذين تزيد عقولهم العبقرية على قوة أجسامهم. فيصيب أدمغتهم ما يصيب مصباحا كهربائيا وصلته بتيار لا يستطيعه. فانه يحرقه! ودام يكافح الظلم. وينصر الدولة الرستمية الناشئة. ويوجه ثورات المغرب ضد الظلم والطغيان كثورة أبي حاتم الملزوزي. إلى أن أدركه اجله في آخر أيام المنصور. وكانت وفاة المنصور في آخر سنة ثمان وخمسين ومائة. وارى أن أبا عبيدة قد توفي في أولها أو وسطها. والمؤرخون المغاربة الذين اعتنوا بأخبار أبي عبيدة لم يذكروا لنا زمن ميلاده. ولا عمره. وارى أن عمره حوالي

1 - كتاب السير للبدر الشماخي ص 113 ط البارونية في القاهرة.

تسعين سنة. وإذا كان أبو عبيدة قد أدرك كثيرا من الصحابة روى عنهم جابر. وكان من سجنهم الحجاج لخوفه منه. ولكونه من الرءوس البارزة في الجمهوريين الإباضية. وكنت وفاة جابر في سنة ثلاث وتسعين. ووفاة الحجاج في سنة خمس وتسعين فان أبا عبيدة يكون في هذا العهد شابا مكتمل الرجولة في حدود الثلاثين؛ وتقديم الإباضية الجمهوريين له إماما عليهم بعد وفاة جابر يدل على انه في هذه السن أو أكثر. وقد أورد الشيخ الباروني في (الأزهار الرياضية) رسالة نسبها إلى أبي عبيدة في موضوع الخلاف الذي وقع في إمامة الإمام عبد الوهاب. وقال إن أبا عبيدة أرسلها إليه. وهي أعجمية الأسلوب غامضة لا يمكن أن تكون من أبي عبيدة الذي نشأ في البصرة. ومعدن البلاغة والفصاحة. والذي قارع فصحاء المعتزلة كواصل بن عطاء فظهر عليهم بغزارة علمه، وحدة ذكائه. وبالفصاحة التي هي اكبر عدة في منازلة الفصحاء والبلغاء.وارى أن تلك الرسالة لأبي عبيدة عبد الحميد الجناوني وقد عاصر الإمام عبد الوهاب. وكان من أئمة "جبل نفوسة" في العلم والتقوى في ذلك العهد.

شغف أبي عبيدة بالإمامة الإسلامية ومقته للاستبداد والجبروت

كان أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة يتملكه مثل أعلى يشغف به، ويأخذ بمجامع قلبه. وهو إحياء الإمامة الإسلامية. وإنشاء دولة عادلة تقوم عليها. فتطهر المشرق من ظلم الأمويين والعباسيين الذين فرقوا كلمة المسلمين. وأنشأوا المذاهب الإسلامية التي كانت بلاء عليهم. وشرا لهم. وعلة قتالة استغلها أعداؤهم للقضاء على دولتهم. فجاهد جهادا عنيفا طويلا لإنشاء هذه الدولة الجمهورية في المشرق. وكانت الدولة الأموية في هرمها. وكانت كل العلل تفتك بها. فرجا أن يموت فيخلو الجو للإمامة الإسلامية. وتحين الفرصة للدولة الجمهورية. فيبالغ المسلمون من يختارون لدولتهم. فيتحقق مراده ومراد الجمهوريين. فيعيش المسلمون في ظل الدولة العادلة سعداء امنين. وتحت جناح أمامهم العادل هانئين مغتبطين. ولكن ما كادت الدولة الأموية تحتضر وتدخل في أصيلها. وتحين الفرصة للإمامة الإسلامية. حتى نشأت الدولة العباسية القوية الفتية فحلت محلها. وخلفتها في المحافظة على الملكية المستبدة. ومحاربة أنصار الإمامة العادلة.

وكان أبو جعفر المنصور ملكا قويا. ورجلا داهية. وشخصية محنكة صارمة فاستطاع أن يمكن لدولته فرسخت عروقها. ويسد الطريق في وجه الجمهوريين ويشدد عليهم الخناق. ويرغم أهل المشرق بالرهبة والغربة على الرضوخ للملكية المستبدة والخضوع لها. فأيقن أبو عبيد ومعه أن العراق وما يتصل بها من الأقطار الشرقية لا يليق مغرسا للدولة الجمهورية. لان عروق الملكية المستبدة تملأ طبقاته. وتحتل ثراه. فوجه إلى أطراف

الدولة الإسلامية البعيدة عم مركز الملكية. والتي فيها شعوب تشكو من الظلم والاضطهاد. ومن تعصب الأمويين والعباسيين لأنفسهم. واستئثارهم برئاسة المسلمين. وعدم تمسكهم في السياسة بالدين. فوجه دعايته إلى خراسان والي جنوب الجزيرة العربية: حضرموت واليمن وعمان. حيث توجد قبائل قحطان التي حرمت من رئاسة الدولة التي حصرت في قريش وحدهم وهم من بني عدنان. والتي كان الولاة الأمويون يعسفونها. ويضطهدونها. ليخضعوها لدولتهم بقوة السيف والسنان. فانتشر في تلكم البقاع المذهب الأباضي الذي يدعو إلى الإمامة الإسلامية والتمسك بالدين في السياسة. وعدم حصر رئاسة الدولة الإسلامية في قريش. والذي ينكر الظلم والعصبية والأنانية. فنشأت في حضرموت واليمن إمامة طالب الحق. وثاروا على الظلم والجبروت. وتحرك عمان واستعد لإنشاء إمامته. ورفع كابوس الملوكية المستبدة عنه.

إعجاب أبي عبيدة ببطولة البربر وتمسكهم بالدين

وكان أبو عبيدة عالما ذكيا. وكان يعرف الشعوب الإسلامية وخصائصها. وكان يعرف البربر وشجاعتهم وإباءهم. وطموحهم. وحبهم للحرية والاستقلال. وتعلقهم بالعدل والمساواة. وتمسكهم بالدين. وغيرتهم عليه. وكان يعرف تاريخهم. فرأى ثوراتهم على الرومان. والوندال. والروم. الذين استعمروا بلادهم. وعسفوهم وتجبروا عليهم. وتذمرهم من عسف الأمويين. وعدم تمسكهم في السياسة بالدين وتحرقهم إلى العدل والمساواة وسياسة الدين التي ألفوها في عهد حسان بن النعمان. ومحمد ابن يزيد. وإسماعيل بنت عبيد الله.

كان أبو عبيدة يعرف البربر من تاريخهم. ويعرفهم في السبي الذي استكثر منه الأمويون من المغرب لإعجابهم بشخصية البربر القوية. فانبثوا في جيوشهم وقصورهم فكان منهم القواد الأبطال. والجند الشجعان. والشخصيات البارزة التي تسد الثغور المهمة. وتمتاز بحب العمل والنشاط والمثابرة. والإخلاص. والأمانة. والإتقان للأعمال ويرى آثار البربر الذهبية في هذه الشخصيات الأموية والعباسية القوية الذين كانت أمهاتهم بربريات. إن أبا جعفر المنصور. الملك الداهية الشجاع العبقري! ما كان ليمتاز على إلا بيته بقوة الشخصية. وبالشجاعة والدهاء. ويكون على تلك العبقرية الفذة لم تكن أمه بربرية. إنها سلامة البربرية! أورثته خصائص أجدادها فكان على تلك العظمة. وعرف أبو عبيدة البربر في الحجاز. فعلم استعدادهم للثورة على الظلم وتمسكهم بالعدل والمساواة. وغيرتهم على الدين. فأيقن أنهم الأمة القوية التي تحقق آماله. فتحي الإمامة العادلة. والجمهورية الإسلامية التي قضى عليها الأمويون والعباسيون

في المشرق، وان المغرب لأبي سئم من ظلم الرومان وجبروت الدول الملوكية القديمة، وهو أحسن بيئة لنشأة الجمهورية الإسلامية التي تتمسك في السياسة بالدين، وتعدل في المسلمين. فتفاوض خاصته فكان هذا هو رأيهم وعقيدتهم. فاختار رجلا من خاصته يمتاز بالعلم الغزير، والذكاء الشديد، وبالورع والتقوى، والفصاحة والبلاغة، وبالحماسة المتقيدة التي تلهب الصدور، وتؤثر في الناسي.

إرسال أبي عبيدة لسلمة بن سعد داعية إلى الجمهورية الإسلامية في المغرب

وهذا الرجل هو سلمة بن سعد! فأرسله إلى المغرب يدعو الناس إلى الجمهورية الإسلامية، وإحياء الإمامة العادلة، ويدعوهم إلى التخصص في العلم الذي هو أساس الدول وعزة الأمم، وإرسال البعثات العلمية إلى البصرة لتنهل من علم أبي عبيدة، وينفخ فيها روحه، ويوجهها التوجيه الصحيح. فترجع إلى المغرب وقد نبعت في العلم والصلاح، رجوع الصباح، فتكسح الدياجي، وتطهر المغرب من الظلم والجبروت، ومن العصبية الملوكية وأنانيتها.

إقبال البربر على المذهب الأباضي الجمهوري

فما كاد سلمة يصل المغرب الأدنى، ويدخل بلاد هوارة في سرت، ويصل جبل نفوسة، حتى أصاخت إليه القلوب المتعطشة للعدل، واقبل عليه البربر يصغون في حماس إلى دعوته إلى الإمامة العادلة التي يتلهفون إليها، والتي لا زال إشرافها وحلاوتها في عهود الخلفاء الراشدين يفتن قلوبهم، ويتمنون تجدد تلك العهود في ظل إمام عادل يسير فيهم سيرة الرسول، وسيرة أبي بكر وعمر في المسلمين. فعلم أبو عبيدة بما لاقى سلمة بن سعد من إقبال البربر عليه، فوالى إرسال الدعاة إلى المغرب، ليثبتوا في قلوب البربر حب الجمهورية الإسلامية، ويأخذوا بأيديهم إلى الطريق الذي يضمن إنشاء الدولة الإسلامية العادلة التي تحي الإمامة الإسلامية في المغرب.

حقيقة المذهب الأباضي

إن المذهب الأباضي في تلك العهود يقوم على هذا الأساس: التمسك بالإمامة الإسلامية، والعمل لإنشاء عادلة تجدد عهود الخلفاء الراشدين، وتتمسك بالدين كل التمسك في سياسة المسلمين، وترفع عن الناس كابوس المستبدة الأموية والعباسية، ليهيشوا أحرارا سعداء متساوين كما خلقهم الله. وإذا كان للإباضية أقوال خاصة

بهم في الفقه سببها نظرتهم العميقة في الدين، وفهمهم الفلسفي الذي أوقفهم على أسرار الشريعة ومقاصدها، فان ذلك قد يكون الكثير منه بعد الأمويين والعباسيين عليهم.

سبب ثورة الأمويين والعباسيين وحنقهم على الإباضية

إن سبب ثورة الملوك والملوكيين على الإباضية، وبث الدعاية المسمومة ضدهم، وملء كتب التاريخ والفقه الإسلامي بالأكاذيب التي تنفر الناس عنهم، سببه كله هو تمسك الإباضية بالإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية، ودعوتهم إلى تمسك الدولة بالدين في السياسة، وإنكارهم ظلم الملوك، وأنانيتهم وعصبيتهم لأنفسهم التي فرقت كلمة المسلمين، وحصرهم رئاسة الدولة في قريش، وحظرها على سواهم، وهو ما يأباه الإسلام، ويرفضه العقل، وتنكره كل النفوس الممتلئة بالدين.

إن المذهب الأباضي هو الدعوة إلى الإمامة الإسلامية العادلة، وإنكار الظلم والجبروت والعصبية الجنسية، والدعوة إلى التمسك بالدين في السياسة. هذه الأشياء التي عرفها البربر من دينهم، فصاروا متلهفين إلى تحققها.

انتشار المذهب الأباضي الجمهوري في اغلب المغرب الأدنى والمغرب الأوسط

فلما حدثهم الدعاة الإباضية بها، دعوهم إليها، لم يزيدوا على أن عبروا في قوة وفصاحة، وبأدلة الدين وبراهينه عما يجيش في نفوسهم، وعرفوه معرفة اليقين من دينهم؛ فانتشر المذهب الأباضي الذي يدعوا إلى الإمامة الإسلامية، والى التمسك بالدين كل التمسك في السياسة انتشارا واسعا في المغرب الأدنى، والمغرب الأوسط واقبل عليه البربر في حماس شديد.

وكان وفود سلمة بن سعد ومن معه من الدعاة الإباضية في أول القرن الثاني في آخر الدولة الأموية. وما كاد القرن الثاني ينتصف في صدر الدولة العباسية حتى كان المذهب الأباضي قد انتشر في اغلب المغرب الأدنى، وفي اغلب المغرب الأوسط. وسرى حب الجمهورية الإسلامية في هذه البقاع، وأصبح الرجوع إلى الإمامة الإسلامية هو شعار البربر في هذه النواحي. ولم يبق من المغرب من لم يعتنق هذا المذهب الجمهوري إلا النواحي التي كانت في قبضة الدولة العباسية تتمسك بها، وتحشر فيها القوات العسكرية الكبيرة لتمنع انتشار المذهب الأباضي الجمهوري فيها، وترغمها على الرضوخ. وإلا وسط افريقية: القيروان ونواحيها، وشمالها: تونس وجهاتها التي كان فيها جمهور

كبير من العباسيين المتمسكين بالملوكية لأنها دولتهم التي تشبع أطماعهم. وكان شمال افريقية ووسطه إلى شمال (قفصة) في قبضة العباسيين واغلب الزاب وهو محافظة قسنطينة، الجزء الشرقي من قطر الجزائر اليوم. أما طرابلس كلها، وجنوب افريقية إلى شمال قفصة، وجزيرة جربة، واغلب المغرب الأوسط كله من شرق مدينة (مليانة) إلى غرب (وهران) فقد انتشر فيه المذهب الأباضي، وصار يدين بحب الجمهورية الإسلامية والإمامة العادلة، ويستعد لخلع الملوكية المستبدة، وإنشاء الدولة التي تسوسهم بديمقراطية الإسلام وعدله ومساواته، وتتمسك كل التمسك بالدين في سياستها لهم.

إنشاء إمامة الحارث وعبد الجبار في طرابلس

ولما هرمت الدولة الأموية وجد البربر الإباضية فرصتهم، فانشأ طرابلس[1] إمامة الحارث وعبد الجبار التي لم يكتب لها البقاء طويلا، لعدم التفاف كل الإباضية في المغرب حولها، ولانحصارها في طرابلس وحدها ونشأتها في مكان يستميت الأمويون والعباسيون في الدفاع عنه، لأنه صلة القيروان بالمشرق، ويأبون أن تكون فيه دولة جمهورية تبث حب الإمامة في مصر. فاستطاع عبد الرحمن بن حبيب أن يقضي عليها.

التربية الصحيحة سبب نشأة الدول وعظمتها

فعلم الإباضية في المغرب أنهم لا يستطيعون إنشاء دولتهم إلا إذا اتحدوا، والتف الإباضية كلهم حولها، وكان لهم رجال علماء قد اعدوا لإدارة الدولة وقيادتها، فيكونون قواعدها وصلبها، ودماغها المفكر، وعقلها الواعي؛ وان التربية الدينية الصحيحة، والتعليم الصحيح، هما أساس حياة الأمة، وسبب نهضة الشعوب، وعامل نشأة الدول الكبرى؛ لان التربية الدينية الصحيحة هي التي تطهر النفوس من الأنانية فتتحد، وتصبغ النفوس بصبغة واحدة فتتآخى، وتغرس في المرء حب العمل لله فيكون الأبناء للدولة لا لأنفسهم فحسب، وتجعل المرء يعمل في إخلاص وإتقان لله فيكون معه؛ وان البربر قد ألفوا اللامركزية في الحكم، وورثوا حب الاستقلال ونظام القرية والجهات، إن ذلك إذا أفادهم في الماضي فانه يضرهم الآن. فلابد من اتحاد كل النواحي فيها الإباضية الجمهوريون، فتتكون منهم دولة كبيرة تصارع العباسيين فتصرعهم، وتقود الجمهوريين كلهم إلى غاية واحدة، وتضمن لهم ما يتمنونه لأنفسهم من العيشة الكريمة العزيزة

---

1 - نريد بطرابلس في هذا الكتاب الناحية كلها من خليج سرت إلى شرق قابس، وهذه كلها كانت إباضية. وإذا أردنا المدينة فإننا ننص عليها.

في ظل دولة جمهورية عادلة، تتمسك كل التمسك بالدين، وتجدد لهم عهد الخلفاء الراشدين.

إن ذلك لا يكون إلا بجماعة من العلماء يكونون هم القادة لنواحيهم، والموجهين لجهاتهم، فيجمعون كلمة قبائلهم على شيء واحد، ويغرسون في قلوب جماهيرهم حب الدولة الواحدة، ثم يكونون جهاز الدولة إذا نشأت، ودرعها الواقي إذا دافعت الأعداء ونازلت العباسيين المعتدين. إن العلم والصلاح، والمعرفة والتقوى، هما سبب كل سؤدد ونجاح، وعامل كل تقدم وفلاح. فلا بد من علماء صالحين محنكين، يليقون للقيادة والزعامة، ويهيؤون لبناء الدولة وتشييدها. إن مكان التخصص في العلم بالمغرب هو القيروان، ففيها العلماء الإعلام الذين يعمرون مساجدها بالعلوم الدينية، وبمجالس البلاغة والفلسفة، وبالعلوم التي يتقنها المسلمون في ذلك العصر، ولكن القيروان ملوكية تنظر إليهم نظرة شزراء، وعلماؤها يهاجم اغلبهم الجمهورية ويأبونها، ويسايرون الملوك ويندفعون في طريقهم، فسوف لا يجد تلاميذهم منهم نا يشتهون، بل سيجعلون نصب أعينهم أن يزعزعوا حب الجمهورية في نفوس التلاميذ، ويصبغونهم بما يشاءون فان لم يستطيعوا فإنهم لا يزيدون في أبنائهم ما يريدون، ولا يهيئونهم قادة للنضال وجهاز للدولة. إن القيروان رغم علمها الواسع ليس فيها التربية اللازمة، والروح الصحيحة. فلا بد من الارتحال إلى البصرة فهي العاصمة العلمية الكبرى، وهي مقر الجمهوريين، ففيها العدد الوفير من العلماء الجمهوريين، وأنصار الجمهورية المخلصين فجوهم الممتلئ بالدين والإخلاص، وبحب الجمهورية الإسلامية، وبالحماس للدولة العادلة التي تتمسك بالدين هو أحسن ما ينغمس فيه أبناؤهم فيؤثر فيهم التأثير الحسن، ويصبغهم بما يريدون. إن الجو الصالح المشبع بالدين هو جو الشمس الضاحي الصافي الذي يورث للثمار حلاوتها وصلاحها ونضوجها، فهوة وحده يورث للأبناء صلاحهم ونبوغهم، ويجعلهم أعلاما مقتدرين. أما الجو المادي المائع بالحضارة المفرطة وحب المدينة والانغماس في الشهوات، الخالي من الدين، فهو الجو البهيم الندي الذي يكتنف الثمار فيتلفها، ففعله وآثاره السيئة في الأبناء كل آثار ذلك الجو البهيم بكثرة ظلاله وغيومه في الثمار!

وإن في البصرة والعراق حضارة إسلامية، ونظم تفيد دولتهم. فلا بد من مشاهدة جهاز دولتهم لها. وإن الذهاب إلى البصرة سفر بعيد، والسفر ومشاهدة الأقطار هو الذي يثقف العقول، ويبني النفوس، ويعرف المرء بنفسه. والذي يقيم في وطنه لا يسافر، يكون ضيق الأفق، قريب القعر، صغيرا للأشياء الصغيرة. فهو طائرة الورق التي يلهو بها

الصبيان. لإقلاع الجو التي تسبح بين النجوم! إلى البصرة! فهي أحسن لأبنائهم، وهي التي تحقق كل آمالهم!

إن جو البصرة مع الجمهوريين تلاميذ أبي عبيدة وأنصاره أحسن لأبنائهم. وهناك أبو عبيدة بعلمه الغزير، وبفصاحته وفلسفته، وعمق فهمه للدين، ودرايته بالسياسة، ومعرفته كل المعرفة لنفسية العباسيين وخططهم وأغراضهم في المغرب. ثم فيه الورع والتقوى، وشدة التمسك بالدين، وقوة الشخصية التي هي اكبر عدة للمعلم في بناء النفوس. فهو أحسن من تشد إليه الرحال. وهو الذي يبني ما يشاؤون من الرجال. فتذكروا كل ما قال لهم سلمة بن سعد وغيره من الدعاة في أبي عبيدة وصحبه، فصمموا على إرسال بعثة علمية تتخصص في العلم على يده، ويهيئها لبناء الدولة العادلة التي تحي الإمامة الإسلامية، وتطهر المغرب من ظلم الملوكية المستبدة.

إرسال الإباضية الجمهوريين بعثة علمية مغربية إلى أبي عبيدة

فاختاروا من جهات المغرب التي فيها الإباضية أربعة من فتيانهم الأذكياء النبغاء، ذوي نفوس طيبة، وقلوب بيضاء، وخلق متين، ووراثة حسنة، وحب للعلم والمعرفة، وذوي طموح وإباء وعزة، تجعلهم الأجنحة القوية التي تطير بالدولة، وعامل السمو والرفعة لها. وهؤلاء هم: عبد الرحمن بن رستم وكان مسكنه القيروان، وعاصم السدراتي وكان من غرب أوراس والمغرب الأوسط، وأبو داود القبلي النفزاوي وهو من نفزاوة في جنوب افريقية، وإسماعيل لن ضرار الغدامسي وهو من غدامس في جنوب طرابلس.فسافر هؤلاء إلى أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة إلى البصرة فصدروا من المغرب صدور البخار من اليم إذا تسعر وأزبد، فيذهب إلى السماء، ثم يرجع ماء، وفيه من العذوبة ما ينعش، ومن الحياة والقوة ما يخصب، ومن صفاء النجوم والحلاوة ما يزري بسلاف تنبع من ثغور الصبايا، وتستنبط من أفواه الحسان![1]

وكان لجبل نفوسة فضل السبق إلى أبي عبيدة. فقد كان منها محمد بن عبد الحميد ابن مغطير. فهو أول من جمع القرآن كله في جبل نفوسة وحفظه، ثم نزعت به همته إلى التخصص في العلم، فسافر إلى أبي عبيدة. وهو أول تلميذ مغربي يسافر إليه، ثم جاء بعده الأربعة المذكورون.

وكان ابن مغطير من علماء المغرب الأكفاء، ومن ذوي الشدة في الأمر والنهي، ومن

1 - صفق الشباب وولول المتزمتون الذين ألفوا في التاريخ أواني الفخار التي صنعها جدهم آدم في العصر الحجري الأول. نحن في عصر البلور المزخرف ومع الشباب.

الشجعان الذين لا يخافون في الله لومة لائم. وقد عاش إلى زمن الإمام عبد الوهاب في أول القرن الثالث الهجري، وحضر نشأة دولة أبي الخطاب، وثورة أبي حاتم الملزوزي، ونشأة الدولة الرستمية. وكان ممن حفظه الله من العلماء الجمهوريين الذين كان العباسيون يعدمونهم، ويتتبعونهم بالقتل والسجن والنفي. وقد رجع ابن مغطير من المشرق قبل وفود الأربعة إلى أبي عبيدة، ولم يلتقوا به في البصرة.

وكان إرسال هذه البعثة العلمية التي تتركب من أربعة تلاميذ قد وقع في حوالي سنة خمس وثلاثين، بعد فشل دولة الحارث وعبد الجبار، وثورة طرابلس واستقلالها.

وكان المذهب الأباضي الجمهوري الذي يدعوا إلى الإمامة الإسلامية، ويعمل لإنشاء دولة جمهورية عادلة تتقيد في سياستها بالدين، وتجدد عهد الخلفاء الراشدين كان هذا المذهب الجمهوري قد انتشر انتشارا واسعا في اليمن، وحضرموت، وعمان ووفد من اليمن على أبي عبيدة أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني ليتخصص في العلم عليه، ويكرع من منابعه الفياضة، ويقبس من شخصيته الفذة، فاجتمع ببعثة المغرب عند أبي عبيدة فانضم إليهم. كما أرسل عمان بعثة علمية تتركب من خمسة فتيان أذكياء نبهاء؛[1] وكان غرض عمان من إرسال هذه البعثة هو غرض المغرب. أن يتخصصوا في العلم، ويثقفهم أبو عبيدة ويهيئهم ليكونوا جهاز الدولة الجمهورية التي يستعدون لإنشائها.

مهارة أبي عبيدة في التربية والتعليم

وكان أبو عبيدة مربيا ماهرا، ومعلما مخلصا فاعتنى بتثقيف عقول تلاميذه من المغرب الأعلى الكبير للإباضية في قلوبهم، وهو إحياء الإمامة العادلة، بإنشاء دولة جمهورية تتقيد في السياسة بالدين، وتغرس المحبة والإخوة الصادقة بالعدل والمساواة في قلوب المسلمين، وتقضي على ظلم الدولة الملوكية واستبدادها وأنانيتها، وتعصبها لنفسها وشقها لعصا المسلمين، وتفريق كلمتهم بعدم العدل والمساواة، وبنظام الطبقات الذي اخترعه ليضمن الأمويون والعباسيون لأنفسهم التقدم والحظوة، والاستئثار بالرئاسة والإمارة في الدولة الإسلامية.

وكان أبو عبيدة يطبع تلاميذه بالورع والتقوى، وينهاهم عن معاصي القلوب، وكبائر الأفئدة، والسم الذي يقتل صاحبه ويهدمه في مجتمعه، ويقضي على شخصيته

1 - كان ذلك في آخر الدولة الأموية وقبل بعثة المغرب والفتيان هم: الجلندا بن مسعود، وأبو جابر موسى بن أبي جابر الازكوى، ومحمد بن المعلي الفسيحي، ومحبوب بن الرحيل القريشي، ومنير بن النير الجعلاني. وقد أنشأوا إمامة عمان في سنة 122 هـ.

ويورثه مقت الله والعباد؛ وهي حب النفس والأنانية التي ينش؟أ عنها الحسد والعصبية وهما الرذيلتان اللتان جرتا على الدولة الإسلامية كل البلايا. وهي سبب نشأة الملوكية المستبدة المستأثرة، والقضاء على الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية. وكان يشحن نفوسهم بحب العدل والمساواة، وبمقت الظلم والتفرقة، ويعلم الموازين الصحيحة في الحكم على الناس، والرضى عنهم، وهي الورع والتقوى. فهو الميزان الصحيح للنفوس، فما اتصف منها بالورع، وكان ابيض لامتلائها بالدين، والمراقبة لله، فهي النفوس التي نثق بها، ونحبها، ونرضى عنها، ونعتمد عليها. وما خلا منها من الدين وصفائها وطهره، فهي معدن الشرور، ومصدر الموبقات، ومنبثق كل السموم التي تفتك بالمجتمع، وتهدم الدول، وتجر كل البلايا على نفسها وأمتها. فيجب مقتها وأبعادها، وعزلها لكي لا تعدى غيرها!

وكان أبو عبيدة يرهف عقولهم بفلسفة الدين، ويعلمهم كيف ينظرون نظرة عميقة إلى القران، ليدركوا أسراره، ويقفوا على عظمته، ويستنبطوا خباياه، وينتفعوا بكنوزه. ويريهم أن ما أمتار به الإباضية بين المذاهب الإسلامية لنما هو النظرة العميقة إلى نصوص الدين فيعرفون أسرارها، ويدركون مراميها البعيدة، لا يقتصرون على الظاهر، ولا يكتفون بالنظرة البسيطة في الفهم والاستنباط. وكان المعتزلة يشاركون الإباضية في عمق الإدراك، وقد شط المعتزلة في بعض الأقوال فخالفهم الإباضية فيه.

وكان أبو عبيدة يرهف في تلاميذه شجاعتهم الموروثة، ويعلمهم أن العالم الذروة في العلم لدى مجتمعه، يجب أن يكون القمة الشماء أيضا في كل الأخلاق الفاضلة.

وظيفة علماء الدين في المجتمع

وفي مقدمتها الشجاعة، لان وظيفة العالم الأولى إنما هي القضاء على الفساد في المجتمع، وتنظيف البيئة من كل أوضارها. وهذا لا يكون إلا بشجاعته. والعالم بدون شجاعة كالسيف بدون قائمة، الخالي من مقبضه، لا يجدي في العراك، ولا ينجد في الدفاع ولا يكون له أي غناء في المعركة. بل هو السيف لا حد له: والحسام الكليل لا يقطع والمدفع الخالي من ذخيرته، والبندقية التي عدمت زنادها. وعلمه وإن غزر كنوز في خزانة مقفلة ضاع مفتاحها، بل هو ماء في صهريج مطبق لا يغسل وضرا، ولا يحيى مجدبا، ولا يغيث ملهوفا. أما العالم الشجاع فهو سحاب الله المغيث فوق الرءوس، يرعد مجلجلا في قبة السماء، فيوقظ كل وسنان، وينبه كل غافل، ويبشر كل مجدب بالخير والبركات، ويشتعل بالبروق التي تقتل الظلماء، وينهمر بالحياة التي تذهب الجفاف وتحي

الموات، وتخلق الربيع، وينقى النواحي ويطهرها، ويزيل أوساخها وأوضارها، ويجعل البقاع في طهارة المحراب الذي يرضى عنه الله، وتتنزل فيه الملائكة.

إن العالم المجدي هو الشجاع في الحكمة، الجرئ في إخلاص، الذي يصدع بالحق لا يبالي لومة لائم، ويقول للأسود الناعق بالشر: يا غراب، وللمفسد الذي يقتل الأمة بسمومه: يا عقرب! ولكل طالح غير مستقيم يورث لامته الويلات، ويدفعها إلى المهاوي: أيتها الأفعى المسمومة، لا يهاب ولا يخاف، ولا يداهن ولا يداجي. أما العلماء الجبناء الذين يدارون الأغنياء والأمراء، ويخافون تهجم السفهاء، وسخط المرضى، وعداوة المفسدين، فأولئك شر على الأمة، وقدوة سيئة للمجتمع، وبرودة الشتاء الباردة التي تقضي على النضارة في الأشجار، وتحجر كل شيء فيتوقف ويهمد حتى الماء في السواقي. فهم ضراوة للفساد الذي يهادنونه، وحياة للشرور التي يسالمونها. ومن يترك العقرب رافهة أمامه تسرح وتسعى، لا يسحقها بالنعل، فهو ومن يغذيها لتحيا سواء.

كان أبو عبيدة شجاعا جريئا فاثر بشجاعته في تلاميذه، فأرهف شجاعتهم الموروثة، واعدهم للانقضاض على الظلم والجبروت، والقضاء في أوطانهم على الملكية المستبدة، وعلى ظلمها وغطرستها، وعصبينها وأنانيتها، ورفع لواء الجمهورية الإسلامية، وإن ناوأته كل العواصف، وفغرت على السواعد الرافعة له كل الأفاعي، وتهاوت عليها كل الصواعق، وعملت لطيه كل القوى الملكية الطاغية.

الجو السياسي الخانق في العراق

وكان الصراع بين الملوكية والجمهورية على أشده في تلك الأيام. وكان العباسيون يرصدون أبا عبيدة وحزبه في كل مكان، ويتتبعون حركاتهم، ويحصون أنفاسهم، ويبثون جواسيسهم في كل الأنحاء ليأتوهم بالأنباء، ويرهفون السمع في انتباه، ويحدقون في يقظة ليعرفوا أنباء أبي عبيدة خاصة. وكانوا مستعدين للانقضاض على الجمهوريين في كل الأوقات، وسيوفهم مصلتة لتستأصل شأفة كل امرئ ظنون فيه السعي ضدهم، والعمل خلاف مصلحتهم الخاصة.

وكان الجمهوريون الذين يعلمون لإنشاء دولة يختار جمهور المسلمين رئيسها، ويبايعونه في حرية تامة، غير مكرهين ولا مجبورين، ويحيون الإمامة العادلة التي تتقيد في سياسة الناس بالدين، وتعدل بين المسلمين. كان هؤلاء الجمهوريون يعملون في الخفاء، وفي كتمان شديد. وكان أبو عبيدة يتكتم في أعماله، ويبالغ في الحذر والكتمان. ولما جاءت بعثة المغرب المباركة إليه كانت الدولة العباسية قد وقفت على قدميها،

ودخلت شبابها. وتولي الملك أبو جعفر المنصور. وكان في القوة وفي الحزم والشدة، وفي اليقظة والدهاء والذكاء مع خصومه سيما الجمهوريين في درجة شديدة لم يكن عليها احد الملوك العباسيين. فأخفى أبو عبيدة غرض وفود البعثة إليه. انه جهاز ثوري يعده للانقضاض على الملكية المستبدة الطاغية في المغرب. ورءوسا يعدها في مهارة للمغرب لتنشئ الإمامة الإسلامية التي يراها العباسيون شرا عليهم من كل الخصوم، وخطرا يهدد دولتهم أكثر من كل الأخطار. فما كانوا ليبقوا على أبي عبيدة وتلاميذه الموفدين عليه لو علموا غرضهم. إن أبا عبيدة وحزبه في العراق وحدهم، وهم تحت رقابتهم واستبدادهم، وفي وسط أنصارهم وعيونهم، قد أعيوهم، وأصبحوا خطرا يهدد دولتهم المستبدة بالزوال. فما بالك إذا انبث تلاميذه في أقصى المشرق بعمان وفي المغرب البعيد عن مركز الدولة حيث البربر المتمسكون كل التمسك بالدين، والذين يأبون الخضوع للاستبداد والأنانية، والعصبية التي تخالف الدين، ويتصفون بالشجاعة والعزة والإباء الخارق الذي يجعل أصحابه سحابا يدمدم ويعلو فوق الرءوس، ويشتمل على صواعقه، لا غبارا تخوض فيه الأرجل، ويسكنه أنبوب الإبريق الضعيف!

مدرسة أبي عبيدة السرية

وكان أبو عبيدة زاهدا متقشفا. وكانت له دار بسيطة قد اتخذها خارج البصرة حيث يقل الناس، ويستطيع مراقبة المكان. وكان فيها سرب موصول بباب بالخارج. وهو بيت محفور في الأرض للقيلولة في صيف العراق القاسي، ودافئ في الشتاء أيضا.فاتخذه أبو عبيدة مصنعا للقفاف، ومدرسة للتلاميذ. وكان يجلس على باب السرب والسعف مركوم أمامه، مبثوث حول التلاميذ في السرب. والتلاميذ يحفظون ألواحهم داخل السرب، وعينه إلى خارج الدار يرقب المكان. وإذا انتهى وقت الحفظ وحانت ساعة الدرس جلسوا حوله فألقى عليهم درسه في حذر وانتباه حتى إذا لاح إنسان من غير الجمهوريين الذين يترددون عليه في مصنعه، أوقف درسه، وأخفى التلاميذ أدوات تعلمهم، فاخذوا السعف وتظاهروا بالعمل مع أبي عبيدة، وأنهم مساعدوه في صنع القفاف، وصناع معه في عمله، ولا تلاميذه الذين بينهم كما تبنى الصواريخ المنقضة، والقلاع الطائرة التي تهدم الأعداء، والقنابل الهيدروجينية التي تسحق الخصوم. فإذا ابتعد من يحذره رجع إلى درسه، ورجع الفتيان إلى إصغائهم. وربما كانوا في حفظهم داخل السرب، ومتحمسين في التكرار والقراءة، فيلوح من يشتبه فيه أبو عبيدة فيحرك سلسلة كانت تتدلى أمامه من السقف في مدخل السرب، وطرفها داخل، فيسكت التلاميذ إلى أن يبتعد الطارق عن المكان ، ويروا إشارة الإذن من أبي عبيدة.

الأثرة الحميد للجو القاسي في النفوس الحرة الكريمة

في هذا الجو السياسي الخانق كان التلاميذ يتعلمون، وعلى هذا الحذر والكتمان الشديد كانوا يتلقون من أبي عبيدة ويصاحبونه.

وكان عمل أبي عبيدة في هذا الجو السياسي الخانق، وفي ظلم الملوكية وجبروتها واستبدادها، ومغامراته وتعريضه نفسه للخطر الكبير بتعليم البعثة وتهيئتها للثورة على العباسيين في المغرب الكبير، ونت يرونه من إدارته لشئون الجمهوريين، وعقد المجالس السرية معه لوضع الخطط لإنشاء دولتهم الجمهورية، والتفاوض في ظلم الملوكية واستبدادها ونواياها فيهم. كان عمل أبي عبيدة في هذا الجو القاسي، ومغامراته وإقدامه في وسط الأخطار المحدقة به، والسبع الهائجة الفاغرة عليه، وهو لا يخاف ولا يحجم، ولا يتوقف ولا يتردد. كانت هذه المواقف البطولية من أبي عبيدة، وعملهم هم في هذا الجو وشجاعتهم، أحسن درس لهم في الشجاعة والإقدام، واكبر رياضة لهم على الصبر والثبات، وأحسن تدريب لهم على العمل في خفاء وكتمان، وفي دهاء واتزان، وعلى وضع الخطط وتنفيذها دون أن يشعر الأعداء، ويتنبه الخصوم والرقباء.

إن الأجواء السياسية الخانقة، والأيام العصيبة، هي وحدها ترهف النفوس وتكسبها مضاءها، وتورثها قوتها الهائلة، واستطاعتها الكبرى، وتعدها كما تعد القنابل الثقيلة المطبقة بارودها للانفجار، فتسحق كل الأعداء، وتهدم كل السدود وتستأصل كل القيود! ودام طلبة العلم عند أبي عبيدة خمس سنين. فبلغوا غايتهم في العلم، ونالوا مبتغاهم من الثقافة، وحصلوا على مرادهم من النضوج. فرأى أبو عبيدة أنهم يستطيعون الاضطلاع بالأعباء الثقيلة، والقيام بإنشاء الدولة، وأنهم يقدرون على الصدام والقراع، وعلى منازلة الظلم واستبداد العباسيين الذي يرزح تحته المغرب متوجعا ذا أنين؛ وأنهم يستطيعون التأثير في قومهم فيجمعون كلمتهم، ويوحدون وجهتهم، ويحسنون قيادتهم. فأذن لهم في الرجوع إلى المغرب.

سبب هجرة أبي الخطاب عبد الأعلى إلى المغرب

وكان أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح قد توطدت بينه وبين طلبة المغرب الأربعة المحبة الراسخة، والود المكين. فعرف منهم ومن أبي عبيدة كثرة الإباضية في المغرب، وغزارة عدد الجمهوريين فيه؛ وتهيؤ الجو في المغرب لإنشاء الدولة الجمهورية العادلة. وكان هذا مناه الأكبر، وأمله العظيم. فأينما يتحقق هذا فهو وطنه، وقصده والمكان الذي يستقر فيه، ويسعد به، ويجد الطمأنينة والهناء في أرجائه.وكانت اليمن وحضرموت

بعد أن قضى الأمويون فيهما على دولة طالب الحق الجمهورية قد شددوا عليهما الخناق، وطاردوا الجمهوريين وأوصدوا في وجوههم الأبواب، وأيأسوهم من إعادة دولتهم، وتجديد ثورتهم. وجاء العباسيون فواصلوا ذلك التشديد، فصارت اليمن وحضرموت لا تليقان لما يريده أبو الخطاب من إنشاء دولة جمهورية عادلة، والجو فيهما غير لائق لإشرافها، فعزم على الذهاب إلى المغرب. فهناك أهله وذووه. ومن وجهتهم وجهته، وآمالهم آماله. هناك الإباضية الجمهوريون الذين يستعدون مثله للانقضاض على الظلم والاستبداد، وإحياء الإمامة الإسلامية التي تجدد الدين شبابه، وللعدل الإسلامي حياته. إن الإباضية الجمهوريين هم أهله وذووه. وهم كثرة كثيرة في المغرب. والمكان الذين سينفجر قريبا على الظلم فينشئ الدولة العادلة إنما هو المغرب! فالمغرب أذن هو وطنه، والجمهوريون في المغرب هم أهله الأقربون، وآله الأدنون.

مقت الإباضية الجمهوريين للتعصب والتفريق بين المسلمين

إن من خصائص الإباضية التمسك بالدين في كل شيء، وعدم التعصب والتحيز والنفور من المسلمين. إن الإسلام قد جعل المؤمنين إخوة، وجعل المسلم أخا المسلم لا يظلمه ولا يخذله ور يحقره، وجعلهم كالبنيان يشد بعضه بعضا.فمن تمسك بالدين كل التمسك في أعمال الجوارح والقلب، وكان على لصفاء في قلبه، وعلى الاستقامة في سلوكه، وعلى جادة الدين الحنيف لا ينحرف عنها، فهو أخوهم، يوالونه، ويفتحن له صدورهم، ويخلطونه بهم، ويرونه من جماعتهم وآلتهم. إن ما يكون جماعتهم هو ما اوجب به الإسلام الولاية للمسلم، وهو الاستقامة والورع، والتمسك بالدين. لا العرق ولا الإلف، ولا المنفعة! هذا هو جو الإباضية، وذلك هو طبع كل واحد منهم؛ لذلك امتزج أبو الخطاب بطلبه العلم المغاربة، ورآهم جزءا من نفسه، وشعروا به هم بضعة من نفوسهم، ورأى الجمهوريين في المغرب كلهم أهله. أنهم بربر منة بني حام، وهو عربي من بني سام. ولكن البربر قد امتلأوا بالدين، وتمسكوا به كل التمسك، فشكل نفوسهم وجعلها نفوسا مسلمة، لا فرق بينها وبين النفوس المسلمة في كل أنحاء الأرض. فصدورهم مفتحة لكل المسلمين الممتلئين بدينهم، الذي طهر الإسلام صدورهم وأورثهم الاستقامة والطهر في كل نواحيهم. لا يتعصبون لان التعصب مال حرمه الدين، ولا يتحيزون لان التحيز والازورار عمن يقصدهم، ويحل بين ظهرانهم من الكرام أصدقاء، يأباه طبعهم الكريم، وما جبلوا عليه منذ أجدادهم الأولين من إكرام النزيل، والمحافظة على الجار. إن البربر متمسكون كل التمسك بالدين. قد خلت صدورهم من العصبية الجاهلية. لقد ثاروا على الأمويين والعباسيين لأخذهم بنظام الطبقات، وتقديمهم للعرب

على سائر المسلمين، -وهو ما نهى الدين عنه- وتقديمهم لأنفسهم على سائر العرب! إن العصبية والعنصرية مما ثار عليه البربر! فصدورهم قد خلت منه، وثورتهم على الأمويين والعباسيين لم تكن ثورة جنس على جنس، ولكن ثورة إسلامية! إنهم ثاروا على ظلم الأمويين والعباسيين، وأبوا الرضوخ لهم لأنهم لا يتمسكون بالعدل والمساواة الإسلامية في سياسة المسلمين! إن أبا الخطاب الرجل المؤمن المستقيم الطاهر العالم سيحل منهم محل العمامة البيضاء، والورد الجميل من صدر الحسناء. تقول للوردة النضيرة يا أختاه، فتضمنها إلى صدرها، وتزين بها بين نهديها! فآثر أبو الخطاب الذهاب إلى المغرب، وتمسك به طلبة المغرب فأبوا أن يفارقهم.

وكان مراد الإباضية في المغرب من إيفاد أبنائهم إلى أبي عبيدة أن يستعدوا ويكونوا أركان دولتهم. وكانت عزيمة طلبة العلم لما شدوا الرحال للرجوع إلى المغرب أن يحققوا آمال ذويهم وأستاذهم، فينشئوا دولتهم الجمهورية العادلة التي تقوم على الإمامة الإسلامية، والتي تتمسك كل التمسك بالدين في السياسة. وكانوا يوقنون بان الجمهوريين في المغرب سيقدمون واحدا منهم للإمامة ولرئاسة الدولة، وهو ما يأبونه كلهم لزهدهم في الرئاسة، هربهم من الإمارة، لأنهم ينظرون إليها بدينهم وعقولهم فيجدونها أعباء ثقيلة، وحسابا عسيرا، وتكاليف باهظة. وكانوا يرون الجدارة للإمامة في أبي الخطاب، ولكنه لا يقبلها، فسيفر منها، ويستعصي عليهم، فاغتنموا فرصة وجود أبي عبيدة، وبدالهم أن يستعينوا به عليه، فقالوا له: إن وجدنا فرصة لإظهار أمرنا وإنشاء دولتنا فمن ترى منها يصلح للإمامة، ويجب عليه الاضطلاع بأعباء الرئاسة؟ وكانوا يعرفون انه سيختار أبا الخطاب لتوفر الشروط فيه، فقال لهم: أبو الخطاب! فان أبى فاقتلوه! وكان أبو عبيدة يقصد بهذا الوعيد إلزام أبي الخطاب.. ففرح طلبة العلم الأربعة باختيار الشيخ، وعقدوا العزم على تقديم أبي الخطاب.

قال الشماخي: "فاستشار الطلبة أبا عبيدة في شانهم عن انسوا من أنفسهم قوة أيؤمرون عليهم واحدا منهم، قال نعم، وأشار إلى أبي الخطاب فان أبى فاقتلوه".[1]

إن اختيار أبي عبيدة لأبي الخطاب رئيسا للبربر الذين لا يعرفونه، وقبول الطلبة الأربعة المغاربة رئاسته، وتمسكهم بها، دليل على خلو البربر من العصبية، وتنزه الإباضية من العنصرية الممقوتة، وعدم تمسكهم بالقوميات الضيقة التي يتمسك بها الملوك الذين ينظرون نظرة ضيقة، ويتعصبون لأنفسهم، ولا ينظرون النظرة الواسعة التي توجبها ثقافة الإسلام، والإخوة الإسلامية التي جاء بها الدين، وهي اكبر نعمة على المسلمين.

1 - كتاب السير للبدر الشماخي ص 124 ط البارونية بالقاهرة.

وكان أبو عبيدة قد عرف الكفاءة للإمامة في أبي الخطاب فعينه بدون مراعاة للعرق والقشور التي يتمسك بها من لا ينظر بعين الدين الرئاسة. وتعيينه لأبي الخطاب اليماني ليرأس الدولة البربرية في المغرب وهو عربي وقحطاني لا عدناني ولا قريشي من الإطار الذي حصر الملوك فيه رئاسة الدولة الإسلامية -دليل على روح الإباضية وديمقراطيتهم، وتمسكهم بالمساواة الإسلامية، وتقيدهم واعتدادهم في اختيار الرؤساء والأمراء بالكفاءة وحدها، وهو ما يوجبه الدين، وأمر به في اختيار رئيس الدولة.

ومن مقاصد أبي عبيدة في ترشيح أبي الخطاب للإمارة، واقتراحه للإمامة، أن يؤكد للإباضية هذا المعنى. وهو اكبر سبب يميز الإباضية الجمهوريين عن غيرهم من الملوكيين الذين ناصبوهم العداء، وبسطوا فيهم السنة الدعاية الكاذبة في كتب التاريخ والفقه، وعملوا لتهديمهم بكل الوسائل.

وكان أبو عبيدة يحب تلاميذه الخمسة كلهم، لتقواهم وورعهم، واستقامتهم، وطهارة صدورهم، وبياض قلوبهم، وشجاعتهم، وتضحيتهم، ونفوسهم العلمية التي ستجعلهم أركانا لامتهم تقوم عليها، وجذوعا لها تنهض بها، وتغذيها وتعطيها من نفسها،لا أصص الورد كأولئك المتعلمين المخنثين الذين تركبهم الأنانية والضعف، فيتهيئون لوظائف الدولة ليرضعوها، ويستغلوها، ويكونوا عبئا عليها، وتراهم أصص الورد للزينة والفخفخة فحسب! وتراهم كالورد في أصيصه سريع الذبول، لا يبقى إلا إذا مددته، ولا يعيش إلا في طراوة المياه. أنهم الحمأة اللزجة التي تنزلق فيها الأمة إذا تكاثرت فيها فتسقط، والمكان الرخو الذي تجده الأفاعي والعقارب وكل المهلكات في الجدار السميك فتعشش فيه.

كان أبو عبيدة معجبا بكل تلاميذه، ولكن إعجابه أكثر كان بابي الخطاب فلذلك رشحه للإمامة، وبعبد الرحمن بن رستم! وكان يحكم له بالذكاء العلمي الوقاد، وبالتفوق في العلم، والغزارة فيه، وبالتفقه في الدين، وعمق الفهم للشريعة، واستطاعة الاستنباط والاستنتاج. قال الشماخي: "وفي كتاب سير أشياخ نفوسة أن أبا عبيدة قال لأبي داود القبلي النفزاوي: لا تفت بما سمعت مني ما لم تسمع. وقال لعبد الرحمن ابن رستم: أفت بما سمعت وما لم تسمع. وقال لأبي الخطاب أفت بما سمعت".[1]

وكان أبو داود القبلي من العلماء المحترمين، ومن كبار الزهاد، ومن ذوي العلم والعمل والجهاد. عاش إلى زمن الإمام عبد الوهاب في آخر القرن الثاني الهجري. كان الإمام يجله

1 - كتاب السير للبدر الشماخي ص 114.

ويحترمه، لأنه من أصول الدولة الجمهورية التي يستظل بظلها، ومن الذين قادوا المغرب وأحسنوا توجيهه فأنشأ الدولة الرستمية.

زهد ذوي الفضل والنضوج والدين في الرئاسة وفي وظائف الدولة

وكان إسماعيل بن درار مثالا في الورع والتقوى، وفي الرغبة في العلم والاستزادة منه. وكان كارها للرئاسة وللوظائف الكبرى التي يتهافت سواه عليها. روى الشماخي: "أن أبا عبيدة لما أراد وداع تلاميذه من المغرب سأله إسماعيل بن درار الغدامسي عن ثلثمائه مسألة من مسائل الأحكام. فقال له أبو عبيدة: أتريد أن تكون قاضيا يا ابن درار؟! قال: أرأيت إن ابتليت بذلك؟!".[1]

إن جواب إسماعيل بن درار يدل على دين تام، وورع كامل، وعلى نضوج في العقل. إن القضاء وهو اكبر منصب في الدولة، ومما يتهافت عليه، ويتقاتل من اجله المحبون للرئاسة، والراغبون في الدنيا، يراه إسماعيل بن درار شيئا ثقيلا يبتلي به، لا نعمة تزف إليه، وحظا يظفر به، لأنه يرى وظيفة الدولة بدينه وعقله فيجدها ثقلا ثقيلا، وحسابا عسيرا، وواجبات كبرى، فهو يستعد لها كما يستعد المرء للمرض بالأدوية، وللفاقة بالمال، ولكل شيء هو بلية بما يكف ضررها، وينيل الاستطاعة على حمل أثقالها!

لقد كان سلفنا الصالح في القرون الأولى، أيام شباب الدين، وشيوع التقوى، وصحة النفوس بالدين، وثقافة العقول بمعرفة المرء لشريعة ربه! كانوا يعافون الرئاسة، ويهربون من وظائف الدولة، ولا يتولونها إلا كواجبات وفروض ثقيلة. وإذا تولوا شيئا منها كانوا فيه مثال النشاط والجد والإتقان الأعمال، ومثال النزاهة والإخلاص، وزفي الذروة من الأمانة واللطافة والتواضع ودماثة الخلق مع الناس!

إن الذين يتهافتون على وظائف الدولة، ويتخطون الرقاب إليها، ويرشون الرؤساء لنيلها لا يليقون لها. فهم خراب للدولة، وبلاء على الناس، ومصيبة كبرى على المجتمع.

وكان رجوع التلاميذ الخمسة إلى المغرب في سنة أربعين. وكانت مدة إقامتهم عند أبي عبيدة حوالي خمس سنين. وكان المغرب يعقد فيهم الآمال الكبيرة. وكان الجمهوريون يرون فيهم القادة والرؤساء، ويتمنون رجوعهم ليندفعوا بهم في تحقيق الآمال، وفي إبراز حلمهم الكبير، وأمنيتهم الغالية إلى الوجود، وهي إنشاء دولة جمهورية ترجع الإمامة الإسلامية، وتحي العدل والمساواة التي أماتتها الملوكية المستبدة، وتقطع عن المغرب أغلال اظلم والجبروت، وتطهره من العصبية الملوكية وأنانيتها، وتجعل مغربنا موئلا وملاذا، ودار

1 - السير للشماخي ص 124 ط البارونية في القاهرة.

كرامة للأحرار المضطهدين. فيجدون فيه عدل الدين، ومساواة الإسلام، والإخوة والصفاء، والسعادة والهناء. ووصل الطلبة الخمسة إلى المغرب فكانوا أجهزة عديدة تعمل في الطائرة العتيدة فتتحرك للطيران، وتندفع لتحتل مكانها بين النجوم !

إن العباسيين بظلمهم واستبدادهم قد ملأوا قلوب أهل المغرب بحب الحرية والعدل والمساواة، والبربر بثقافتهم ودينهم وعزة نفوسهم قد صمموا على الخروج من ربقة الظلم واستبداد الملوك انه لا ينقصهم إلا القادة لينهضوا لإنشاء دولتهم الجمهورية العادلة التي تتمسك كل التمسك بالدين، وتحي سيرة الخلفاء الراشدين. فها قد وصل القادة. فماذا سيفعل الأمازيغ الأقوياء الطامحون.إنها دولة أبي الخطاب! ستشرق إشراق الغزالة فتملأ المغرب بالنور، وتطلع طلوع وجه الحبيب الباسم، فتطفح به الدنيا بالجمال، وتمتلئ بالأنس والحبور، وبكل ما يشرح الصدور!



دولة أبي الخطاب

عبد الأعلى ابن السمح المعافري

140 – 144م

إمامة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني 140 – 144

انتشار المذهب الجمهوري واستعداد شرق المغرب الأدنى لإنشاء الجمهورية الإسلامية العادلة

كان المذهب الأباضي الذي يدعوا إلى الإمامة العادلة، والى الجمهورية الإسلامية والى حكم الشورى، والى التمسك بالدين في السياسة، والتزام سيرة الخلفاء الراشدين وعدلهم في إدارة شئون الدولة. كان المذهب الأباضي الذي يقوم على هذا، وحقيقته هي هذه الحقيقة، وحاربه الملوك من اجلها. كلن هذا المذهب الجمهوري قد انتشر في العقد الرابع من الثاني في طرابلس[1] انتشارا كبيرا. وكان جمهور من فيها من خليج سرت إلى قابس غربا، ومن البحر إلى الصحراء الكبرى إباضية، يتمسكون بالإمامة الإسلامية، ويعلمون لإنشاء دولة جمهورية تسوسهم بالعدل الإحسان وبالمساواة والديمقراطية التي أمر بها الإسلام.

وكان الظلم الذب يتنزل عليهم في آخر عهود الدولة الأموية، وفي أول الدولة العباسية وما يرونه من الدولة العباسية ومن ولاتها في المغرب من عدم العدل والمساواة، ومن أتباع الهوى في الحكم، وعدم التقيد بالدين في السياسة؛ كان يتضرم على مراجلهم فتزداد غليانا، ويضيف إلى حقدهم في كل يوم نارا جديدة فتزداد قلوبهم اشتعالا، ونفوسهم لهفة إلى الدولة التي صارت مثلهم الأعلى الذي يملأ قلوبهم ويمثل كل وقت في خيالهم، ويرونه حلما لذيذا إذا ناموا، وخيالا بهيجا إذا استيقظوا فيزيدهم تذمرا مما هم فيه من حيف الملوك وظلمهم، وأنانيتهم وعدم عدلهم؛ ولكنهم لا يستطيعون الثورة، لان الرؤساء الذين يجمعون الكلمة، ويقودون الثورة، ويؤسسون الدولة ويديرونها ليسوا موجودين. إنهم هناك في العراق عند أبي عبيدة. فاتجهت قلوبهم إلى العراق تتابع سير تلاميذهم، وتتساءل عن وقت رجوعهم. فلما رجعوا استبشروا بهم واستعدوا لميلاد دولتهم يرجونها.

التفاف الجمهوريين حول طلبة العلم الخمسة

وكان رجوع التلاميذ الخمسة في سنة أربعين ومائة من الهجرة. فوجدوا طرابلس مستعدة للانفجار، وأهلها تواقين إلى إنشاء دولتهم. إن فيهم التجار الكبار الذين يمدون الدولة بالمال، والشباب الشجعان الذين يحامون عنها بالسيف، وأهل العقل والدهاء الذين يجدونها بالرأي، ورؤساء القبائل المسموعي الكلمة، المتبعين في أقوامهم إن

---

1 - نريد بطرابلس الناحية كلها من خليج سرت إلى قابس ومن البحر إلى الصحراء الكبرى

هؤلاء كلهم ليشرئبون إليهم ويلتفون حولهم، ويدعونهم إلى إنشاء دولتهم. وإن في الجمهوريين في طرابلس المثقفين الصالحين الذين يسدون ثغور الدولة، ويقومون بوظائفها. وجمهور الشعب كله يغلي كرها للملوكية المستبدة وشوقا إلى الجمهورية الإسلامية. أنهم سيصفقون لميلاد الدولة الجديدة، ويسارعون إلى مبايعة إمامها، ويكونون لها الجفن للعين، والشغاف للقلب، وحصنا حصينا يرد عنها العوادي، ويقيها من البلاء.

إن الجو في طرابلس ملائم لميلاد الجمهورية الإسلامية، والإمامة العادلة. إن القلوب كلها تشتعل بنار الحقد على الملوكية المستبدة،[1] وبالحماس للجمهورية؛ فحمرتها التي تصبغ جو طرابلس المتقد حمرة الشفق التي تجعل السماء مستعدة لميلاد الشمس التي يبتدئ بها انهار، ويموت بها الليل البهيم!

فانبث طلبة العلم الخمسة في أوطانهم بأنحاء المغرب الأدنى والأوسط، فزادوا للحماس أوارا؛ وللرغبة في الجمهورية الإسلامية اشتعالا، وللعزيمة على إنشاء الدولة الجديدة قوة وثباتا؛ ثم رجعوا إلى طرابلس وصاروا يستعدون للأمر العظيم، وللحديث المحبوب. إن طرابلس التي انتشر فيها المذهب الأباضي الجمهوري قبل كل مكان في المغرب، وانهالت عليها المطارق من عبد الرحمن بن حبيب لما قضى على دولة الحارث وعبد الجبار، وذاقت من فظائع الأمويين والعباسيين أكثر. إن جروحها تسيل بالدماء وإن قلوبها تمتلئ بالغيظ؛ إنها هي المكان الذي بلغ النضوج، وصمم على إنشاء الجمهورية التي تسعده. فرابط فيها طلبة العلم الخمسة، وجعلها أبو الخطاب وعبد الرحمن ابن رستم محط رحالهما، وميدان عملهما.

ترشيح الجمهوريين أبا الخطاب للإمامة

وكانت أنظار خاصة الجمهوريين في المغرب مشرئبة إلى أبي الخطاب. لقد أدركوا من كفاءته ما عرفه أبو عبيدة فرشحه للإمامة، فرجوا أن يكون رئيس دولتهم، واخبرهم التلاميذ بترشيح أبي عبيدة له فازدادوا إقبالا عليه، وتمسكا به، وصمموا على أن يكون هو الإمام للدولة، والرئيس للجمهورية التي عزموا على إنشائها.

خوف العباسيين من ثورات المغرب واستعدادهم لها

وكانت مدينة طرابلس وحواليها مشحونة بالجند العباسي المستعد للطوارئ. وكان واليها العباسي عينا يقظة لا تنام، يرقب حركات الجمهوريين، ويتنطس أخبارهم، ويرهف

1 - نريد بالملوكية المستبدة الحاكمة بامرها التي لا تتقيد بدين ولا دستور. إن مغربنا في هذا العصر قد وقاه الله من هذا النوع. انه ليس فيه إلا الملكية الدستورية المخلصة الشبيهة بالجمهورية .

السمع نحوهم. وكان يبث جواسيسه في كل ناحية، ورقباءه في كل ركن. وكان يقرأ في العيون المحمرة عليه العزيمة على الثورة، وفي خطوط الجباه العابسة في الجمهوريين معاني الكره للملوكية، والإصرار على التخلص منها. وكان قلبه يشعره بالعداء الذي يتضرم به جو طرابلس للدولة. وعلم أن هذا مقدمة للانفجار. وأن الأمازيغ الشجعان الثابتين إذا بدت نار قلوبهم في عيونهم، فلابد أن تشتعل في الجو من سيوفهم! فوضع يده على قائم سيفه، واستعد واخذ أهبته لليوم الرهيب. وشدد الرقابة على الجمهوريين في كل مكان.

حيلة الجمهوريين ودهاؤهم في إعلان الدولة

وكان الجمهوريون منتشرون في أنحاء طرابلس طلها. فهم في شرقها بسرت، وفي غربها في جبل نفوسة، وفي جنوبها، وفي كل مكان منها. فلابد أن يعتقد الزعماء الجمهوريون مؤتمر للثورة، فيتفاوضوا في الخطط اللازمة لإنشاء الدولة، ويتفقوا على كل شيء، لتكون الكلمة واحدة. فاجتمع رؤساء الجمهوريين وزعمائهم الكبار وهم طائفة قليلة تسللوا في خفاء إلى غرب مدينة طرابلس في موضع يقال له (صياد) وآثروا غرب المدينة ليتأتى لنفوسة الاجتماع بهم، فإنهم قوام الدولة المرجوة، وعماد الجمهورية التي يعملون لها. فتفاوضوا في إعلان الدولة، وفيمن يصلح إماما لها فاتفقوا على أبي الخطاب ولم يكن حاضرا ذلك الاجتماع. فقد آثروا أن لا يحضر، حتى لا يعلم بالإمامة التي سيسندونها إليه، فيمتنع عنها، فلربما اختفى، فيتعبون في إقناعه، ويحتاجون إلى وسائل كثيرة لحمله عليها. وكانوا يعرفون رأيه في الدولة وإعلانها، وفيما اجتمعوا من اجله، وكأنه قد حضر وأدلى برأيه. فاتفق أولئك الزعماء على يوم معلوم يلتقون فيه عددا أكثر، فأتى كل زعيم بمن ينتخبه من شجعان قومه الأكفاء، ويتظاهرون في خروجهم إلى ذلك الموضع لكي لا يرتاب فيهم العباسيون بأن خصاما قد وقع بين جماعة، فكاد الخصام أن يؤدي إلى فتنة، وان المتعارف القار في الأذهان، والذي هو عادة في مثل هذا الخصام، أن تخرج جماعة من خاصة المتخاصمين وعلمائهم فيفضوا الخصام بينهم، ويحكموا بالعدل في مشكلتهم. إن هذه العادة الحميدة لا زالت في وادي ميزاب إلى اليوم في جنوب الجزائر. فترى تسعة أعشار الخصومات والمنازعات الكبرى التي تشغل في غير ميزاب المحاكم شهورا، ويخسر المتنازعون فيها أموالا طائلة، ثم تعقبها العداوة والبغضاء الدائمة، ترى تلك المنازعات يتولاها مجلي الإدارة في كل عشيرة فيفضها في مجلس واحد بالحسنى، ويحكم فيها بالعدل، فينصرف المتخاصمان وهما إخوان يتعانقان. وإذا كان المتخاصمان من عشائر عديدة يجتمع رؤساؤهم فيفضون الخصام،

واو يرفع إلى المجلس الديني الذي هو رأس كل مدينة، والهيئة المحترمة النافذة الحكم في كل بلد من بلدان ميزاب السبعة. فيستدعي المتخاصمين فيسمع حججهما فيحكم في موضوع الخصام الحكم العادل الذي يقتضيه الدين، ويقره العدل، وتستلزمه الحكمة، فينصرف المتخاصمان من محل المجلس الديني الذي يكون في كل مسجد من مساجد ميزاب، وهما على الوداد والرضى، قد زال من بينهما الخصام، وعمر صدرهما المحبة والوئام. إن هذا النظام الإسلامي العظيم موروث من أجدادنا وقد كان أيام دولنا الإسلامية التي تعمل خاصتها لله، ويتمسكون بدينهم في الإدارة والسياسة، مبثوثا في أنحاء المغرب كلها، فيجب التمسك به وتعميمه !

إن محافظة ميزاب على نظام العشائر[1] التي تتحمل المسئولية في أفرادها وترعاهم وتحرص على ثقافتهم، وتعتني بهم في كل النواحي: الدينية، والعلمية، والاقتصادية والأخلاقية، وتفض الخصومات بينهم؛ وعلى نظام المجالس الدينية التي تطهر المدينة وتنفتح فيها نور الله، وتغسل صدورها في كل صباح ومساء بدروس الوعظ الحي المخلص وبمجالس الذكر التي تجلجل بآيات الله البينات، وتقمع العصاة والمتمردين بسلاح البراءة الرهيب![2] إن محافظة (ميزاب) في جنوب الجزائر على هذا النظام الإسلامي البديع هو الذي جعل مجتمعه طاهرا نقيا، هادئا مطمئنا، وجعله خاليا من فقير يتسول، ومهمل يتشرد، ويتم ضائع، وأيم محتاجة لا عائل لها تتبذل، ومن عاطل لا يجد عملا يكفيه دخله، ومن جرائم تعكر الصفو، وتقلق بال الحكومة، وجعلت السجن في بلدان ميزاب السبعة خاليا لا ترى فيه سجينا من تلك البلدان المتمسكة بهذا النظام الإسلامي العظيم، والتي تسودها الاشتراكية الإسلامية الصحيحة، ويخيم عليها الدين الذي غرس في

1 - انظر تفصيل هذا النظام في كتاب تاريخ الجزائر للأستاذ توفيق المدني الطبعة الأولى في باب النظام الاجتماعي في وادي ميزاب.

2 - سلاح البراءة الرهيب أقسى من السجن والجلد والتغريم ! ليت المسلمين يرجعون إليه في قمع العصاة والمتمردين. ولا يزال هذا السلاح في يد المجلس الديني في وادي ميزاب إلى الآن. وهو أم يعلن رئيس المجلس الديني في المدينة البراءة من العاصي المتمرد الذي لم تجد معه وسائل الإقناع، فتقاطعه المدينة كلها وتهجره، فلا يكلمه احد، ولا يجالسه، حتى صدقته يردونها لا تقبل فيمسي وحيدا منبوذا حتى من أسرته وأقاربه. فلا يسعه إلا الإسراع إلى المسجد فيتوب، ويرد المظالم، ويرضخ لحكم المجلس الديني العادل، فيعفو عنه بعد تقريعه في المسجد بين الناس وبيان معصيته ليكون عبرة لغيره. لو رجع المسلمون إلى هذا السلاح لتنظفت مجتمعاتهم ، وقلت سجونهم وحمدوا العقبى. إن كثيرا من شبابنا الجهلة الذين حرمهم الاستعمار من اعز شيء وهو معرفة دينهم وسلخهم من أعظم نعمة وأقوى جناح وهو الاعتداد بشخصيتهم الإسلامية، يسخرون من هذه النظم الإسلامية العظيمة لأنها لم تأتهم من باريس أو لندن، ولم يقررها الأوربيون الذين يقدسون أكثر من أجدادهم العظماء الذين سعدوا سعادة لا يحلم بها الأوربيون. ولا أراني خرجت بهذه الإمامة عن نطاق التاريخ، لان التاريخ للتربية الاجتماعية أيضا فيجب الإلمام بمثل هذا فيه.

نفوس كل طبقاتها عادة رفيعة، وخلة إسلامية عظمى، وهي العمل لله والتضحية الكبيرة من اجل الله! !

كان أجدادنا في المغرب على هذه الخلة العظيمة، والعادة الإسلامية الرفيعة: أن تتولى الخاصة في كل مدينة، وهم أهل التقوى والورع والعلم والحصافة والنزاهة فض الخصومات، فألف العباسيون اجتماعاتهم لهذه الأغراض، وخروجهم من المدينة لفض تلك الخصومات. وقيل لنهم جعلوا العلة في خروجهم واجتماعهم زرافات كثيرة في البرية، قسمة ارض مشتركة بين أصحابها. وارى أن هذه هي العلة التي تستدعي حضور العدد الكثير من الناس وتنطلي على العباسيين. فأشاع الجمهوريون في مدينة طرابلس لن أرضا مشتركة بين قوم سيتولى خاصة الجمهوريين قسمتها في اليوم المعلوم فوصل العباسيين هذا الخبر فلم يستريبوا في خروج الخاصة في اليوم المعين جماعات يبدو عليها الاهتمام، ويلوح على سحناتهم الجد، ويدل مظهرهم على أن شيئا يشغل بالهم.

وقد ذكر الدرجيني في طبقاته بان الإباضية الجمهوريين "كانوا يجتمعون للتداول في إظهار أمرهم في (صياد) خارج طرابلس. ويظهرون أنهم إنما يجتمعون لقضية ارض مشتركة بين قوم أرادوا قسمتها، وكلما انقضى مجلس انفصلوا، دخل منهم جمع على والي المدينة فسلموا عليه مداراة له"[1] وإيهاما له بمسالمته، والخضوع له، وعدم التفكير فيما يسوءه. وهذا من دهائهم الذي حققوا به الآمال، ومن حسن تدبيرهم الذي ابلغهم كل المنى!

وكانت خاصة الجمهوريين قد اتفقوا على أن يأتوا هم وأنصارهم في الاجتماع التالي الذي يسيرون منه لإعلان الدولة، واحتلال المدينة، وبالأسلحة الخفيفة كالخناجر تحت الثياب، وبغيرها كالسيوف والرق والقسي في غرائر التبن العريض لبتي تسعها وتخفيها.

مبايعة أبي الخطاب بالإمامة وإعلان الدولة الجمهورية

واجتمع أهل الحل والعقد من الجمهوريين في اليوم المعلوم ومع كل من اختاره من قومه من ذوي الشجاعة والفداء، وكان أبو الخطاب معهم. فقالت له الخاصة: ابسط يدك نبايعك! فارتاع أبو الخطاب بهذا الطلب لكرهه للرئاسة، وتكمش وانقبض. وقال ياقوم ما لهذا اجتمعنا! فاخبروه بإجماعهم على إعلان الدولة الجمهورية، وعلى اختباره

1 - كتاب الطبقات لأبي العباس احمد بن سعد الدرجيني مخطوط يوجد في وادي ميزاب، وفي جبل نفوسة، وفي دار الكتب المصرية في الخزائن التيمورية رقم 2612 (تاريخ تيمورية)

إماما لها. فلما رأى إصرارهم، وعرف عزيمتهم، وعرف في نفسه الكفاءة والقدرة، خضع للواجب، وجنح إلى المصلحة العامة، فبسط يده فبايعوه، وكان اصفاقهم على يده في حرارة مبايعة بالإمامة، وتصفيقا للدولة الجديدة، وللجمهورية التي تتمسك بالدين في السياسة، وتتقيد بالشريعة الإسلامية في أمورها. وكان ذلك في المحرم من سنة أربعين ومائة. فرجعت الخاصة إلى مدينة طرابلس وكانوا قد عزموا على احتلالها، وإعلان الإمامة الإسلامية فيها، وأتباعهم من ورائهم يسوقون الجمال المعبأة بإجمال التبن، وكأنهم قافلة رجعت من الحصاد، فجاءت بتبنها لتبيعه في السوق. فدخلوا المدينة، واناخو الجمال في سوقها، وفتحوا التبن فانتهبوا منه السلاح، ونادوا بالإمامة الإسلامية، وبالجمهورية العادلة. فاحتلوا دار الحكومة، والأماكن المهمة في المدينة. وسمع الجمهوريين في المدينة شعار الجمهورية، فاخذوا سلاحهم فانضموا إلى إخوانهم، فتكاثر جمع أبي الخطاب بمن انضم إليه من أهل المدينة، وغزر جنده. فعلم الوالي العباسي أن طرابلس قد نفضت سواد العباسيين كما تنفض الشجرة عن نفسها أوراق الخريف المصفرة، وكما تغتسل السماء من سواد الدجى المنير، وأن الدولة التي تفتح البلدان بالسيف لا تفتح القلوب، وأن الأمازيغ لا يخضعون إلا للدين، ولا ينقادون إلا لمن يسوسهم بما أمر الله، فلم يسعه إلا الاستسلام، فاستسلم هو وجنده. فعاملهم أبوا الخطاب معاملة رفيقة، وتقيد في معاملتهم بالدين. فولدت الدولة الجديدة التي تتمسك في سياستها بالدين، وتنهج نهج الخلفاء الراشدين. ففرح المغرب بميلادها، وأسرع الإباضية الجمهوريون من جنوب افريقية ومن المغرب الأوسط فبايعوا أبا الخطاب وانضووا تحت لوائه، وشمروا للدفاع عن دولتهم التي تعدل فيهم ونسوسهم بما أمر الله.

وكانت مبايعة أبي الخطاب بالإمامة، وإعلان الدولة الجمهورية في سنة أربعين ومائة.

قال الشماخي: "فلما بلغ طلبة العلم الخمسة بلادهم، وانسوا من أنفسهم قوة، اجتمع من اهتم بأمور المسلمين، ومن له النظر من الشيوخ، وتشاوروا بموضع يقال له (صياد) غربي مدينة طرابلس. فاتفقوا على تولية أبي الخطاب، فاتعدوا ليوم معلوم يجتمعون فيه، ويأتي كل منهم من خلفه من أتباعه، ويظهرون أن اجتماعهم بسبب ارض أرادوا قسمتها، وقيل بسبب رجل وامرأته اختصما، ويجعلون عدتهم في غرائر مملوءة تبنا. فاخرجوا أبا الخطاب معهم فتكلم بعضهم فقال: امضوا الأمر الذي عزمتم عليه، فقامت طائفة يتناجون، وكل ذلك لا علم لأبي الخطاب بشيء. فلما رجعوا من المناجاة قالوا لأبي الخطاب: ابسط يدك نبايعك على أن تحكم بيننا بكتاب الله، وسنة

نبيه عليه السلام، وآثار الصالحين من بعده. فقال لهم: ليس لهذا أخرجتموني. قالوا لابد من ذلك. فلما رأى (والتصميم) منهم. قال: لا اقبل منكم إلا على شرط: أن لا تذكر في عسكري مسألة الحارث وعبد الجبار"[1] وهي مسألة كلامية خلقها عبد الرحمن بن حبيب لما اغتال الحارث وعبد لجبار فادخل سيف كل واحد منهما في صاحبه، ليوهم الغافلين أن كلا منهما قتل صاحبه. فيفرق جماعة الجمهوريين الإباضية، بهذه المسألة الكلامية. وهذه المسألة الكلامية هي: أن يقتتل رجلان من أهل الولاية؟، فيقتل كل واحد صاحبه، ولا يعلم الباغي من المبغي عليه. فبعضهم قالوا: هما على ولايتهما حتى يتبين أمرهما. وبعضهم قالوا بغير ذلك فوقع الخلاف. وكان عبد الرحمن بن حبيب يذكيه ويسعره وأمست هذه المسألة سبب الفرقة والبغضاء. وكان أبو عبيدة قد نهى عن الخوض فيها. فأراد أبو الخطاب أن يقتل سبب الخلاف، فاشترط عدم خوض جنده وأنصاره فيها لكي لا يستغلها الملوكيون لتمزيقهم بها.

شخصية أبي الخطاب العظيمة و شجاعته

وكان أبو الخطاب قوي الشخصية، ذكي العقل، بالغ الدهاء، واسع الثقافة، عالما غزير العلم في الشريعة، تقيا ورعا، يملأ الدين إهابه، وتفيض نفسه بخشية الله.

وكان حازما، شجاعا، مقدما، جسورا، لا يخاف في الله لومة لائم، بطلا من أبطال الحروب، لا يخشى الردى في الله، يستهين بكل الأهوال من اجل الله، ويرى من اكبر حظوظه أن ينال الشهادة في سبيل الله !

غيرته على الدين

وكان غيورا على الدين لا يرضى أن تخرم أحكامه، وينتهك حماه، ويتعدى الناس حدوده محبا للعدل والمساواة والديمقراطية التي جاء بها الدين، وأمر بها في سياسة المسلمين.

وكان كرهه العباسيين، وثورته على دولتهم، لظلمهم، واستبدادهم، وأنانيتهم، وتعصبهم لعرقهم وأنفسهم، ولعدم عدلهم، ولعدم التزامهم للدين في السياسة، وجنوحهم إلى الهوى في الحكم والإدارة.

زهده وإيثاره

وكان زاهدا لا يعمل لنفسه، ويرى من اكبر حظوظه أن يخدم إخوانه، ويجدي المسلمين،

1 - كتاب السير للشماخي ص 124 ط. البارونية بالقاهرة.

وينال الحظوة عند الله بنفع عباده، والقيام بكل جهد غي إسعاد رعيته، والتضحية بكل غال فيما ينعش دولته، ويجعلها كما أمر الله، وكما يريد المسلمون.

كرهه للرئاسة

وكان أبو الخطاب يكره الرئاسة ويفر منها، وتعاف نفسه الإمارة وتأباها، لأنه لامتلائه بالدين، ولمراقبته لله في كل الأشياء وخشيته لربه، ولتقواه وورعه، ينظر إلى الرئاسة بدينه لا بغرائزه، فيراها فروضا ثقيلة، وواجبات عديدة، وحسابا عسيرا عند الله، فيجفل عنها وتفر نفسه منها. وكان أو عبيدة قد هدده بالقتل إن أبى الإمارة، وألزمه قبولها. ولما أراد الجمهوريين مبايعته، لم يخبروه بما عزموا عليه من توليته حتى خرج إليهم خوفا من هربه واختفائه. وذلك لنفوره من الرئاسة؛ ومن يتهرب من الرئاسة، ويراها واجبات وفروضا ثقيلة، هو الذي يليق للرئاسة، ويحيى الأمة برئاسة، وتبلغ الدولة كل أمانيها في عهده.

عدله وعفته وورعه في كل الأحوال في حربه وسلمه

وكان أبو الخطاب عاد لا كل العدل في رعيته، ومتمسكا كل التمسك بالدين في سياسته، لا يحيد عنه في حكم من أحكامه، غيورا عليه لا يرضى أن يتعدى الناس حدوده. ولما حارب (ورفجومة)[1] التي تعدت حدود الله، وارتكبت كل الفظائع في القيروان، وانتهكت حرمات المسلمين، واستحلت دماءهم وأموالهم، وعاملتهم معاملة المشركين، وربطت الدواب في المسجد، واتت من المنكرات ما يثير كل امرئ غيور على الدين كابي الخطاب وأنصاره، فيستولي عليهم الغضب، وتسيطر عليهم الثورة فتدفعهم إلى الانتقام، ويؤجج العامة التي يستولي عليها الوجدان أكثر فتعامل ورفجومة بالمثل؛ لما حارب (ورفجومة) وهي نثير في الصدور ما ذكرنا تقيد كل التقيد في حربها بما أمر الله به الله في حرب المسلم الباغي وبما نهى عنه، وهو أن لا يحل إلا دم البغاة منهم، أما أموالهم، وذراريهم، ونساؤهم، والإجهاز على جرحاهم وإتباع المدبر المنهزم الذي لا ينوي الكرة على المسلمين، ومعاودة حربهم؛ أما هذه التي تحل في المشركين الذين لا يؤمنون بالدين فإنها محرمة في المسلمين.

وكان أبو الخطاب كما كان الإباضية كلهم في حروبهم التأديبية للبغاة أو في الدفاع عن أنفسهم يتقيدون كل التقيد بهذا، فلا يستحلون من أموال من يحاربونهم من المسلمين شيئا، وكذلك بقية الأشياء التي حرمها الله. وتراهم في هذا مثلا أعلى. ولا

1 -انظر احتلال ورفجومة القيروان وفظائعها فيها في صفحة 430 من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

تجد بعد عهد الرسول والخلفاء الراشدين من تمسك بهذه القواعد، وعامل المسلم الباغي المحارب بما أمر الله إلا الإباضية. أما الأمويون والعباسيون وكل الملوك الذين جاءوا بعدهم فإنهم إذا حاربوا أعداءهم المسلمين استحلوا منهم كل الأشياء، وأطلقوا أيديهم في كطل شيء من أشيائهم، وسيطر عليهم الوجدان الثائر الحقود المنتصر لا الدين الذي رفع درجة المسلم وأورثه ميزات وحقوقا في الحرب لا يجوز للمسلم إغفالها، وحد للمسلم حدودا في حرب أخيه الباغي المتمرد على الدين لا يجوز تعديها.

لقد انتصر أبو الخطاب على (ورفجومة) فتمكن من ناصيتها، ومرغها في التراب فأصبحت تحت قدمه، وأمست أموالها ودماؤها في قبضته، بعد معركة كبيرة، وحصار طويل يورث العداوة، ويؤجج الحقد، ويضاعف الحنق. ومع ذلك فان أبا الخطاب وجيشه وقفوا في حرب (ورفجومة) عند حدود الله. لان منا يرسم لأبي الخطاب خطته في كل أشياء الدولة هو الدين، وما يصرفه ويوجهه في حربه وسلمه هو شريعة الله. لقد ثار على الأموين والعباسيين لعد تمسكهم بالدين في السياسة، ولإتباعهم للهوى، واستسلامهم للغرائز في الإدارة، وفي الحكم على الرعية. فلا بد وان يكون مثالا في التمسك بالدين في السياسة، والوقوف عند حدود الله في كل الأمور.

قال الشماخي: "لما انهزم أهل القيروان وولوا مدبرين، (وانكسرت ورفجومة، وقتل عبد الملك بن أبي الجعد قائدهم وأميرهم، وقبض أبو الخطاب على ناصيتهم وركب أكتافهم) وتبعهم حتى دخل القيروان (فاحتلها، وسكنت الحرب ورجعت الأمور إلى مجاريها) خرج أهل المدينة إلى مواضع القتلى، فإذا هم بثيابهم لم يسلب احد منهم. فقالت امرأة كأنهم رقود. (لعدم تجريدهم من لباسهم، ولعدم تمثيل أبي الخطاب وجيشه بهم كما يفعل جيوش الملوك المسعورة إذا حاربت المسلمين) وخرجوا إلى زروعهم (وقد رابط جيش أبي الخطاب الكبير بدوابه بينها مدة طويلة في محاصرته للقيروان).. فوجدوا زروعهم كما كانت لم يقع فيها فساد ولا مضرة لا بالناس ولا بالمواشي، فتعجب الناس من عدل أبي الخطاب وطاعة أصاحبه له. فتفقد أبو الخطاب القتلى فوجد واحدا منهم مسلوبا. فنادى مناديه: من اخذ من القتلة شيئا فليرده. فلما أيس دعا الله -وكان مستجاب الدعاء- أن يفضحه على رؤوس الأشهاد. فركبوا خيلهم ليجروها. فانقطع حزام جميل السدراتي (احد جنده) فسقط وظهر السلب تحت سرجه فأخذه الإمام وعزره وأحسن تأديبه".

ثم قال الشماخي: وكان أبو الخطاب حسن السيرة (في ورفجومة العاتية التي حاربها) حين هزمهم، لم يجهز على جريح، ولم يتبع مدبرا وقال له خالد اللواتي -واراه من قادته-:

نأكل من أموالهم كما يأكلون من أموالنا. (أليس أهل القيروان العباسيون، وذا حاربونا استحلوا منا كل شيء، واخذوا من أموالنا كل ما تصل إليه أيديهم؟) فقال أبو الخطاب: حقيق على الله أن يدخلنا معهم النار (إن لن نتقيد بدينه في معاملتهم، وكنا مثلهم في أتباع الهوى، والانسياق للحقد والشهوات، ومعاملة المسلمين كالمشركين).[1]

ديمقراطية وتمسكه بحرية الفرد الكاملة في دولته

وكان أبو الخطاب مع عدله ودينه على ديمقراطية الإسلام الكاملة. لا يقيد حرية احد، ولا ينقص شعبه وكل من في دولته حقا من حقوقه. فكل امرئ من رجال ونساء، وأحرار وعبيد يتمتع بكل حرياته وحقوقه التي شرعها له الدين، وإجازتها له الشريعة. ففي دائرة الدين الحنيف يظفر شعبه بحرية الكلام الكاملة، وبحرية النقد، وبحرية التصرف. لا يجبر أحدا على رأي، ولا يحد من تصرفه في الدائرة التي حدها الدين. انظر إليه لما خرج إلى حرب (ورفجومة) لم يفرض الخروج على الناس كما يفعل الملوك، ولا اوجب القتال على شعبه كما هو المعتاد من المستبدين في عصره، ولكن ندب الناس إليه ندبا، وكان قدوتهم في التطوع للقتال، ولم يكن كالملوك العباسيين والأمويين يقبعون في قصورهم، منغمسين في لذاتهم وشهواتهم، ويرسلون جيوشهم ليموتوا في سبيل دولتهم وحظوظهم، بل أول من لبس سلاحه، وعزم على الموت في سبيل الله، ثم دعا الناس إلى مقاتلة ورفجومة وتغيير منكرها، وتأديبها بحد السيف كما أمر الله.

حنوه وحنانه لرعيته

ولما اجتمع جيشه، عسكر بظاهر مدينة طرابلس، فأذن بالرجوع لمت كان حديث عهد بالزواج، وكان في أيام عسله، ويعز عليه الخروج إلى مرارة القتال. وكان في نشوة البخور قد ألف انعقاد غمامته العطرة فوق رأسه، ورأس عرسه، ويصعب عليه الخروج إلى غبار الحروب. وهو في أيام حظوظه التي يجب أن ينالها في شهر العسل الذي لا يعوض، وفي الشهر الجميل الذي يرى الرجل فيه دنياه جديدة جميلة بالعروس الجديدة الجميلة، وفي أيام مقارعة الثغور هو مستعد لها، ولا يحسن غيرها، لا للمرابطة في الثغور؛ وفي أيام العمر السعيدة التي لا ينبغي معاينة الحمرة فيها إلا في ورد الخدود المتفتح، وفي الشفاه التي تزري بلون العقيق، وتنيل الظامي ألذ من الرحيق. أما حمرة الدماء في المعركة، وصدأ السلاح في الأيدي، فمما لا ينبغي للعروس الجديد الذي لا يليق له لون العطر و

1 - كتاب السير للبدر الشماخي ص 129، 130 ط البارونية بالقاهرة ما بين قوسين ليس من كلام الشماخي. وهكذا كل كلام يرد بين قوسين في نص. وما زدناه للإيضاح، ولتعديل أسلوب الشماخي الذي يكون ملتويا أحيانا وغامضا لينسجم بكتابنا ويكون واضحا للقارئ.

الغالية الحمراء، وإلا رنة الأغاريد والزغاريد، وكل ما ينعش الروح ويورثها نشوتها وقوتها، وما يذكي الشباب ويكسبه كماله، ويضاعف الحيوية، ويورث للعمر نضارته وجماله. هذا ما يجب للعروس الجديد في الدولة العادلة، وعند رئيسها العادل؛ لقد أذن لمن كان في هذه الأيام الحلوة، وكان قلبه معلقا بها فليرجع.[1] وأذن بالرجوع لمن كان له أبوان لا قيم لهما غيره، وكان محتارا عليهما، مهموما من اجلهما، وقلبه معلقا بهما.

كان أبو الخطاب ديمقراطيا، عادلا رحيما، فلم يجبر أحدا على القتال، ولا أرغم إنسانا على السير معه إلى الحرب شديدة ينازل فيها ورفجومة الباسلة، في القيروان الحصينة، إن حربه دينية، وهي جهاد في سبيل الله، فيها الأجر الجزيل الذي يطمع فيه، ويهيم به كل مسلم، فلم الإرغام عليها؟ ثم إن يفوت العروس في شهر العسل لا يعوض، بينما هو يعوض يغيره من المتطوعين.

قال الشماخي: (لما سمع أبو الخطاب بفظائع ورفجومة الصفرية في القيروان، وانتهاكهم للحرمات وتنكيلهم بالمسلمين، وربطهم الدواب في المساجد) "بكى رضي الله عنه. فنادى بالصلاة جامعة، فاجتمع الناس، وصلى بهم، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على النبي عليه السلام، ورغب في الجهاد، وأمر بالاستعداد، فلما خرج من باب المسجد سل سيفه؛ وكسر غمده، غضبا لله، وترغيبا في الجهاد (فكان أول من استعد للحرب وتطوع فيها) فلما برز جيشه، -وتهيأ في معسكره خارج المدينة) نادى مناديه: من له أبوان كبيران، أو واحد، وعروس جديدة، فليرجع بليل. فإذا أصبح أمر من ينظر الأثر، هل رجع احد ويخبر بالرجوع. فيكرر النداء (ويقيم في معسكره لا يسير)، فلما اخبر بعدم الرجوع، ولم يبق إلا من له رغبة في الجهاد، سار إلى القيروان".[2]

إن دليل على ديمقراطية أبي الخطاب الكاملة، وعلى رحمته وعدله ورأفته برعيته. إنه ينظر إليهم نظرة الأب الحدب إلى وحيده، ويتقيد بالرحمة والرأفة والعدل التي أمر الله بها كل راع لرعيته، وكل سيد وأمير لمن يسوسهم ويرعاهم.

علمه وحرصه على تعليم التربية والتعليم في رعيته

وكان أبو الخطاب عالما بالشريعة متفقها في الدين، يرى العلم اكبر عبادة، والاستزادة منه أعظم قربه، ونشره أفضل جهاد! وهو نور المرء وسلاحه، وأساس الدولة وحياتها،

1 - ثار المتزمتون وانتشى الأدباء والإحياء. ونحن نعدل بالقارئ إلى الظل الظليل في رياض الأدب كلما طال سيره في الشمس في الأبواب الجدية ليتجدد نشاطه، وتذكر رغبته، ويقوي على مسايرتنا في التحليل الفلسفي؛ بدون أن نمس بحقائق التاريخ، وبدون أن نحيد عن الأمانة العلمية، والنزاهة التي نتقيد بهما في التأليف.

2 - السير للشماخي ص 127 ط البارونية بالقاهرة.

فلزام على رئيس الدولة أن ينشر العلم في دولته، ويزيل الأمية عن شعبه. وإذا كان الدين الإسلامي العظيم قد جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة فيجب عليه أن يفتح المدارس في كل قرية وفي كل مدينة، وزفي كل حي من إحياء البادية. فان التعلم فرض على كل مسلم لنفسه، وهو فرض على الإمام لرعيته. فإذا لم يسهل أسبابه، ولم يقم مشارعه، ولم يفتح مدارسه، وكان عقابه اشد من عقابه لو منعهم الطعام والماء. لان التربية والتعليم التي تخلق الشعب العظيم هي أساس الدين ودعامته العظمة، وسبب عزة الإسلام، وحياة الأمة الإسلامية الكبرى. هذه هي نظرة أبي الخطاب إلى العلم، وتلك هي عقيدته فيه. فلو طالت دولته، وهدأت أيامه، لرأيناه التعليم العالي بنفسه في المسجد كما فعل الأئمة الرستميون من بعده ولرأيناه يغرم بالتأليف والتصنيف كما كان عبد الرحمن بن رستم، وغيره من رؤساء الدولة الرستمية التي ستكون امتداد لدولة أبي الخطاب في المغرب الأوسط.

إخلاصه وتضحيته وإيثاره

وكان أبو الخطاب مخلصا لدولته، قد ضحى بكل عزيز لديه لميلادها، ولما بويع واصل تلك التضحيات لرسوخها وشبابها. وكان يشعر نحوها شعور الأم الحنون نحو ابنها الرضيع، تعطيه من نفسها، وتربه بكل غال لديها، ولا تطمع في شيء منه. ولم يكن كالملوك الأنانيين الذين يرون الدولة مطيتهم ومرتعهم، فتراهم يعاملون دولهم وإن كانت ناشئة ضعيفة معاملة الحمل للغرس الضعيف المتهافت، يفغر عليه فيلتهمه!

شجاعته وبطولته

وكان أبو الخطاب شجاعا بطلا لا يهاب الخطوب و لا يخاف الأهوال. وقبوله للإمامة وهو يعرف جيوش المنصور الجرارة التي سيرميه بها، وقوات الدولة العباسية العسكرية الهائلة التي ستنهال عليه. إن المنصور القوي العبقري الجبار أسد هصور مهتاج، يرى المغرب الأدنى مملكته وداره، وهو عرينه الأثير، فانبرى له أبو الخطاب فسحبه من إذنه، ورمى به خارجه، وانزل علم دولته، ونزع سواده عن المغرب الأدنى الأثير لدى العباسيين؛ إن هذا دليل على شجاعته وبطولته. ولما داهمه ابن الأشعث بقواته الجرارة، وهو على غير استعداد لها، لم ينهزم ولم يجفل أمامها، بل أسرع إليه في جنده القليل، فقارعه واصطدم به في معركة حامية. وأحاطت جيوش ابن الأشعث به من كل نواحيه، وأيقن بالموت، وكان يمكن أن يستسلم لابن الأشعث ويسأله البقاء، ويتضرع إليه، فيبقى عليه ابن الأشعث ويبعثه مكرما إلى المنصور، فينال كل ما يشاء من حظوة لنفسه عند

المنصور. إن هذا ما يفعله الجبناء الضعفاء الذين يعملون لأنفسهم، وتسيطر عليهم غرائزهم وأنانيتهم، ولكن أبا الخطاب لم يدر هذا بخلده، وكان يأباه ويمقته، ويستحيل أن يجري بخاطره؛ فكسر جفن سيفه، فقاتل حتى قتل. وآثر الموتة الكريمة الشريفة، والشهادة في سبيل الله على حياة الذل والهوان.

وجوب استنباط شخصية المرء والأمة من أعمالهم في الدراسات التاريخية

هذه هي شخصية أب الخطاب العظيمة كما تراها في أعماله، وكما تصورها مواقفه. وأعمال المرء في مختلف أحواله هي التي يجب دراستها لاستنباط شخصيته منها. فهي مظهر شخصيته، ومرآة نفسه الصادقة، وعنوان حقيقته؛ لا ما يقول المؤرخون والشعراء، واغلبهم متملق يظهر السوداء بيضاء، ويقول للقطران: أيها البياض الذي تجلبب به القمر فاستنار، وخلب القلوب بإشراقه وبياضه! إن أعمال الأمة، وأعمال أصحاب كل مذهب، وكل شخصية هي التي يجب دراستها لاستنباط الشخصية الحقيقية منها، لا ما يرد في الكتب واغلبها غير صادق، سيما كتب التاريخ القديمة، فان اغلبها من دعاية الملوك المستبدين التي أضفوا بها على أنفسهم كل ما يشاءون من حسن وصلا، وابرزوا بها معارضي ظلمهم، ومنكري استبدادهم، والمطالبين لهم بالتقيد بالدين في سياستهم، لقد ابرزوا هؤلاء سيما الإباضية الجمهوريين في كل ما سول لهم حقدهم وأنانيتهم وعصبيتهم من شين وطلاح!

تلك هي شخصية أبي الخطاب العظيمة كما تبدو من أعماله، وشهادات معاصريه له، وكما ترسمها كتب التاريخ النزيهة التي يتصف مؤلفوها بالورع والصدق، كطبقات الدرجيني، وكتاب المشائخ لأبي وكرياء، والسير للشماخي، وسلم العامة والمبتدئين لعبد الله الباروني وغيرها. إنها شخصية عظيمة تمتاز بالورع والتقوى، وبالإخلاص والعمل لله، وبكل الخصائص التي ذكرنا.

اختيار الجمهوريين لأبي الخطاب رئيسا للدولة دليل على حقيقتهم

لقد اختار الإباضية الجمهوريين أبا الخطاب إماما لهم، ورئيسا لدولتهم، واجمعوا على تقديمه، وبايعوه كلهم، وآثروه لتلك الخصائص التي ذكرنا. إن اختيارهم ربي الخطاب يدلنا على حقيقتهم وشخصيتهم. أنهم لا يقدرون في الرجل إلا كفاءته، ولا يقدمون إلا من اجل صلاحه واستعداده. ومن أول الكفاءة التي يشترطونها في الرئيس والزعيم وفي خاصيتهم الذين يقدمونهم، الورع والتقوى، والإخلاص والتضحية، ونكران الذات، ونبذ

العصبية والتنزه منها، العصبية للجنس، وللمذهب، وللقطر. ومن أول ما يشترطونه في الرئيس العلم، سيما العلم بالدين. لان الإباضية الجمهورية يتمسكون بالدين كل التمسك، ويرونه الصراط المستقيم الذي لا يجوز الخروج منه، والقائد الهادي في كل المسالك لا تجوز مخالفته، وهو الذي يحل كل المشاكل، ويبين الصواب والوجه الصحيح في كل المعضلات. وإذا كان الرئيس أو الزعيم أو الخاصة التي تقود العامة وتوجهها جاهلين بالدين فانه لا يستقم سيرهم، ولا ينجحون في قيادتهم، ولا يقودون الأمة إلى السعادة والنجاح الذي تريده. إن أول شرط في القائد والهادي أن يعرف الطريق معرفة صحيحة، وإلا اهلك القافلة، وأودى بمن يقوده، واتجه بهم إلى المفاوز المهلكة، والمسابع المردية، والى ساحة القتلة واللصوص. وليس الطريق الذي يجب على الرئيس معرفته ليليق لقيادة المسلم الصحيح المتمسك بدينه، والذي كتب الله له الفوز الكامل، والنجاح التام في كل نواحي الحياة إلا الدين الإسلامي العظيم الذي حل كل المشاكل الإنسانية المعضلة، وبين الوجه الصحيح في كل المعضلات التي تحار فيها الإنسانية الملحدة. انه الشمس الساطعة التي يدبر عنها أبناؤها وشبابنا الذين قتلهم الاستعمار، وجهلهم في مدارسه الهدامة، وحشى نفوسهم بالسموم القتالة لامتنا، وأورثهم الاحتقار لدينهم، وقص من جوانبهم أجنحة الصقور لما جهلهم بالدين الإسلامي العظيم، وأناط بهم أجنحة الخفافيش من مذاهبه المادية: تلك الأجنحة التي لا تطير بهم إلا في الظلمات![1] لقد صرف وجوههم عن شمس الإسلام الساطعة التي تحييهم، لكي لا يقتبسوا من أنوارها وحياتها ويتبينوا بها كل السبل الصحيحة التي توصلهم إلى الغايات الكبرى، وصرف وجوههم إلى شموعه وقناديله المدخنة المتهافتة التي لا تملأ الساحة إلا بالدخان، ولا تورث من يعكف عليها ويتجه إليها إلا السواد.... ! !

إن اختيار الجمهوريين في المغرب لأبي الخطاب دليل على شخصيتهم! واختيار المرء دليل عقله، وعنوان حقيقته. وكما تكون الرعية يكون رعاتها. لأنهم من اختيارهم، ونعمة من الله لهم لاستقامتهم وصلاحهم، أو نقمة وعقارب انزله عليهم لاعوجاجهم وفسادهم بالازورار عن الدين، وتنكب طريق الله المستقيم.

وكانت نشأة الدولة الجمهورية في المغرب الأدنى، ومبايعة أبي الخطاب إماما لها ورئيسا يسوسها، في سنة أربعين ومائة. فشمر عن ساعده فأزال الظلم والفساد، والعصبية والأنانية، وأشاع العدل والمساواة، وتمسك بالدين كل التمسك في سياسة رعيته، والاتجاه بدولته.

1 - الخفاش لا يطير إلا في الظلام.

عدل أبي الخطاب وتمسكه بالدين مع أعدائه

وكان عادلا متمسكا بالدين حتى مع أعدائه. ولما أعلن الجمهوريون دولتهم، واحتلوا مدينة طرابلس فصارت عاصمتهم، واستسلم الوالي العباسي الذي كان ينفذ سياسة المنصور القاسية، ويوالي عليهم اضطهاده وحكمه العسكري القاسي الذي يسد منافذ النور عن الجمهوريين، واستسلم الجند العباسي، وأعطى بأيديهم كل العباسيين المستبدين الذين كانوا يضطهدون الجمهوريين ويجرعونهم كمل مرارة، وأصبحوا تحت سلطان أبي الخطاب، تقيد فيهم أبو الخطاب بالدين، فلم يسفك لهم دما، ولم يتصرف معهم بالعنف الذي كانوا سيرتكبونه لو كانوا هم الذين تغلبوا على الجمهوريين. فحل الجيش العباسي، وخير والي أبي جعفر المنصور بين الارتحال إلى المشرق، أو القيام في المغرب مكرما له ما لكل المسلمين، على أن يتجرد من الولاية، ويتخلى عن الإمارة. فاختار الوالي الارتحال فارتحل إلى المشرق هو وكل من أراد من العباسيين بأموالهم وما أخذوه معهم بدون أن يمسهم الجمهوريون بأذى، أو ينالوهم بسوء. وشمر أبو الخطاب هو ومن معه من خاصيته، ومجلس الشورى الذي يعينه في حمل أعباء الدولة، فعينوا جهاز الدولة من الولاة والموظفين، ومن القضاء والشرطة، ومن جباة الزكاة والقائمين ببيت مال المسلمين، وكل ما تستلزمه دولة ينشئها الأمازيغ الطامحون الأقوياء، الذين لا يرضون بالدون، ولا يكتفون في المعالي بالقليل، والجمهوريون الذين أرادوا أن يظهروا عظمة الدولة التي تقون على الإمامة الإسلامية، وتتمسك كل التمسك بالدين في السياسة.

ومن ولاة أبي الخطاب في طرابلس الغرب عمر بن يمكتن اللواتي كان عامله على (سرت) وكان عمر عاملا ورعا ذا جد ونشاط وحزم وغرام بالعلم. وكان أول من علم القرآن بجبل نفوسة في أول القرن الثاني الهجري. قال الشماخي: "ويقال إن عمر بن يمكتن إنما تعلم القرآن بطريق مغمداس (على ساحل سرت، وهو طريق القوافل الشرقية) يتلقى فيها السابلة والمارة من المشرق فيكتب عنهم لوحه من القرآن وينصرف. فإذا حفظه رجع إلى المحجة فيكتب من المارة كذلك حتى حفظ القران وتعلم العلم. وذلك لحرصه على طلب العلم والقران في أول الإسلام"[1] ويريد الشماخي بأول الإسلام آخر القرن الأول وأول القرن الثاني الهجري، وهو الذي انتشر فيه الإسلام في كل أنحاء المغرب ورسخت جذوره في قلوب البربر

وكان أبو الخطاب لا يختار لجهاز دولته إلا من يتصف بالورع والتقوى، وبالأمانة والإخلاص، وبالجد والنشاط، وبالحصافة والعلم، لان الدين هو دستور دولته، فلزم على كل موظف

1 - السير للشماخي ص 142 ط البارونية بالقاهرة.

سيما من يسد الوظائف الكبرى أن يعلمه ليعرف الطريق الذي يسلكه في عمله، والقوانين التي يتقيد بها في تصرفه، ويطبقها في نطاقه.

كره الإباضية لمن يتهافت على الرئاسة ووظائف الدولة

وكان الإباضية يكرهون من يتهافت على الرئاسة، ويغرم بالإمارة، ويحرص على وظائف الدولة، ويزاحم الناس عليها، ويتخطى الرقاب إليها، ويستريبون به، ويبعدونه عن وظائف دولتهم لأنه ينظر بغرائزه إلى الرئاسة أو الوظيفة فرغب فيها. ومن تسيطر عليه غرائزه، ويتصف بالأنانية، يكون بلاء على الرعية إذا تولى وظيفة في الدولة،ونال بها السلطان والقوة. إنه يستخدم سلطانه في إشباع غرائزه، وفي إرضاء أنانيته فيظلم ويجور، ويتعصب ويستبد، فيكون بلاء على الرعية المسكينة التي أقيم لها ليكون خادمها النصوح، وراعيها الرفيق، وسائسها الحكيم الذي يجب أن يكون لها الجفن للعين، والوقاية من كل أذى، والوريد للأعضاء يجلب لها الغذاء، ويمدها بالقوة والحياة، ويكون لها وقاية من كل أذى، ومجلبة لكل المنافع والجدوى، ولكل ما يكسبها السعادة والقوة والهناء.

ليت دولتنا الجزائرية الناشئة تطرد عن وظائفها وثغورها ذلك الفراش الذي لم تره، ولم يبد في الجو إلا لما طلع الصباح، وكان الاستقلال. أما لما كنت جزائرنا المجاهدة في ظلمات النطاح، وفي ليالي الثورة والنزال، فلنهم اختلفوا مرتعدين يقتلهم الخوف في منازلهم، وكانوا يلطعون نعال المستعمرين لتبقى عليهم، وتستعين بهم ! وكان كثير منهم سلاحا مسموما فتاكا ضاريا يغمده في صدورنا، ويسدده إلى نحر ثورتنا!

ليت دولتنا ترى وظائفها أثقالا وواجبات كبرى فلا تلقيها إلا على ذوي الكفاءة والنزاهة الذين تختارهم، لا حظوظا وحلوى تجازى بها، وتبقيها في الأيدي المتهافتة عليها والنفوس الضعيفة الأنانية التي تتخطى رقاب الأقوياء إليها!

إن دولنا المغربية الناشئة إن لم تطرد هذا الفارش المتهافت على الوظائف، وتبعده عن ثغورها، وكان هو ملء كراسيها فإنها تكون قد استعجلت كل أمراض الشيخوخة في الصبا، وفتحت على نفسها أبواب العلل التي تفتك بالدول الهرمة وهي في مطلع شبابها.

أنهم طبقة أنانية همها امتصاص الدولة وابتزازها واستغلالها، حسودة لا هم لها إلا هدم الأكفاء الأقوياء، وفئة لا تعلو، ولا تتولى، ولا تكون إلا في الدول الهرمة التي شاخت بالفساد الذي يسري فيها. إنهم كالقمل الذي يلد الأمراض الكبرى لا يكون إلا

في الأجسام الوسخة، وفي الرءوس المهملة القذرة، وفي كل مكان كتب الله للأمراض القتالة أن تعشش فيه!

كان أبو الخطاب على الدين والحصافة، وعلى الإخلاص للدولة، فلم ير وظائفها هدايا فيوزعها على الأصدقاء والأقرباء، بل أمانات ثقيلة، وأثقالا كبرى، فاختار لها أحسن الكفاءات، وأقوى الرجال الممتلئين بالدين والعلم والإخلاص فازدهرت دولته، وانتعش شعبه، ودخل في أيام شبابه وأفراحه الكبرى. فهمت كل الطوائف لبناء دولتها الجديدة، وشمرت كل الفئات لإعانة أبي الخطاب في إعلاء صروح الدولة، وضحت بكل عزيز لإرساء قواعدها، وازدهارها وفوتها في كل نواحيها.

دستور الدولة هو القران والسنة

وكان دستور دولة أبي الخطاب هو القران والسنة! إن الشريعة الإسلامية هي الدستور الأعظم الذي ينظم المجتمع أحسن تنظيم، ويسعد الدولة ويورثها الاستقرار والقوة والسعادة، ويشبع فيها الاشتراكية الإسلامية الصحيحة التي تشيع الإخاء المكين بين الطبقات، وتورث الرضا والطمأنينة لكل الفئات، ولا تظلم طبقة ولا تحد من حرية الفرد في الكسب والامتلاك.

تمسك دولة أبي الخطاب بالاشتراكية الإسلامية لتمسكها بالدين

وترى الأغنياء فيها يجدون ويجتهدون في كل أمل وطموح، فيملكون كل ما استطاعوا أن يملكوه بالطرق المشروعة، ومن أبواب الحلال. وترى الدين الذي يسيطر عليهم يفتح أبواب الصدقة في أموالهم فتنساب في الفقراء، وأبواب التبرعات في سبيل الخير وفي تقوية بيت مال المسلمين، فيكونون للدولة الشرايين الممثلة التي تغذيها بالدماء. وترى الأغنياء كالسدود العظيمة تتجمع فيها المياه حتى تصير أبحرا، ثم تنساب السواقي منها إلى أطرافها، فتخصب بها النواحي، وتكون مصدر الري للفيافي القفراء، فتمرغ بها، وتمسي بها جنات غناء، وحدائق لفاء، ومصدرا للخير والبركات. فكما أن السدود لا تجمع المياه لنفسها، ولما حواليها فحسب، كذلك أولئك الأغنياء الذين يجعلهم حب الأجر عند الله، والحرص على النماء في الرزق، والزيادة في الغنى بالصدقة والإحسان، يرون أن ما يملكون من أموالهم هو ما يتصدقون به، وينفقونه في سبيل البر؛ وما يدخرونه ويكون لهم لا لغيرهم هوما يقدمونه بين أيديهم بصرفه في أبواب الخير التي ترفع الحاجة عن المسلمين، وتقوى الدولة وتورثها الازدهار في كل النواحي.

وكان كل الأغنياء يدفعون إلى جباة الدولة زكاة أموالهم في وقتها، فيوزعها أبو

الخطاب على الفقراء لا يدخر شيئا، ولا ينفق شيئا منها في غير الطرق التي يبنها الله. فزكت الأموال في دولته، وبارك الله للأغنياء الذين جعلوا لله نصيبا في أموالهم فجعل انصباء كثيرة من خيراته وأرزاقه.

كانت دولة أبي الخطاب الجمهورية على هذه الاشتراكية الإسلامية، كما كانت عليها الدولة الرستمية. وكل دولة تجعل دستورها الدين، وتتقيد في سياستها بكتاب الله المبين، ويملأ الدين نفوس أهلها فيملؤها بالرحمة والرأفة وحب الإحسان، ويقتل فيها الأنانية والشح والانطواء على النفس. هذه الأمراض التي تخلق الرأسمالية الشحيحة التي يبتلي الله بها الدول اللادينية فتتجرد من نعمة الإخاء والتعاون والاتحاد، فتشقى بالحسد والحقد والبغضاء، وتتصدع صفوفها تصدع السد الذي يغص بمائه المتزايد، وأبوابه موصدة، والسواقي منه منعدمة!

كان دستور دولة أبي الخطاب هو الكتاب والسنة، لا يحيد عنهما ولا يعمل بغيرهما. انظر إلى الإباضية الجمهوريين لم قدموه للإمامة كيف قالوا له: "ابسط يدك نبايعك على أن تحكم فينا بكتاب الله وسنة رسول الله وأثار الصالحين من بعده" تلك الآثار التي كانت فرعا عن الدين، مستنبطة منه، متولدة من أحكامه.

إن الدين هو دستور دولته يطبق أحكامه في كل شئونها، ويقيم حدوده على من استوجبها، لا فرق في ذلك بين الغني والفقير وبين القريب والبعيد، وبين العلم والجاهل، فالكل إمام قانون الله سواء. إن الإمام نفسه وهو رئيس الدولة ارتكب ما يوجب عليه الإقامة عليه الإباضية الذين يتمسكون كل التمسك بالمساواة والعدل والتزام الدين في كل أشياء الدولة. انظر إلى محمد بن الأشعث الخزاعي المنصور الذي أرسله لمحاربة أبي الخطاب والقضاء على دولته، كيف أرسل جواسيسه لتأتيه بأنباء أبي الخطاب، فانبثوا في جيشه، ودرسوا نفسية الإباضية الجمهوريين فرأوا شدة تمسكهم بالدين، وحرصهم على المساواة والعدل، وعرفوا كل أخلاقهم. فرجعوا إليه بالحقيقة. فسألوه هل نسهب في وصف جيش أبي الخطاب ورعيته أم نوجز. فقال: الإيجاز أحسن. فقالوا:"رأينا رهبانا بالليل اسودا بالنهار، يتمنون الجهاد بلقائكم كما يتمنى المريض لقاء الطبيب. لو زنا صاحبهم لرجموه، ولو سرق لقطعوا يده، خيلهم من نتاجهم، ليس لهم بيت مال يرتزقون منه وإنما معايشهم من كسب أيديهم"[1] ويريد الجواسيس هنا بصاحبهم أمامهم ورئيس دولتهم. لان رئيس الدولة عبد من عباد الله يسرى عليه قانون الله، لا

1 - السير للشماخي : ص 131 ط البارونية بالقاهرة.

فرق بينه وبين اصغر شخص في الدولة إمام القانون. فما ينفذ في الصغار الضعفاء، ينفذ في الأغنياء والعلماء والرؤساء.

تضحية الجمهوريين وحماسهم لدولتهم العادلة

وكان الجمهوريون[1] رعية أبي الخطاب مخلصين لدولتهم، ومتحمسين لها. يرونها مثلهم الأعلى يتحقق، وحلمهم الكبير يقع، وظل الله الظليل الذي أزال عنهم هواجر العباسيين التي غلت بها رؤوسهم، وصيرت أيامهم سعيرا لا يطاق، واتونا متقيدا لا يحتمل. إنها غطرسة الملوكية المتجبرة، وظلم الأنانيين الذين لا يتقيدون بالدين. ها هي تلك الظلمات تنسخها دولتهم الجمهورية العادلة لما أشرقت، فتبسط عليهم نعمة العدل والحرية والمساواة. إنها قوتهم، وعزهم وتقدمهم، وهناؤهم، وسبب حياة لدينهم الذي يغارون عليه أكثر من كل شيء، ويريدون أن تنفذ أحكامه فيهم، وتطبق قوانينه في مجتمعهم، ويلتزم روساؤهم طريقه في السياسة لا يحيدون عنه. ها هي دولتهم الجمهورية الحبيبة تولد في إطار الدين، وفي هالة العدل والديمقراطية لا تخرج عنها. فمرحى للمغرب فقد تحقق له سبب السعادة والتقدم ورضا الله، ومرحى للامازيغ فقد ولدت دولتهم التي تحكم فيهم بكتاب الله وسنة رسول الله، وتقودهم في طريق الخير والفلاح، وتقهم من كل الاسواء، وتورثهم كل تقدم وسؤدد ورخاء. فشمروا عن ساعدهم لبناء دولتهم. فجدت كل الطبقات في العمل، وضاعف الأغنياء جهودهم في الاكتساب ليمدوا دولتهم بالمال الذي تسد به ثغورها، وتقوم به بشئونها. إنه لدولتهم بيت مال تنفق منه. إنها ناشئة، وإنها عفيفة لا تفعل ما يفعله الملوك من الاستيلاء على أموال الرعية التي يظلمونها. إن العباسيين كثيرون في مدينة طرابلس ذ، وفيهم الأغنياء الكبار. فلو كان غير أبي الخطاب لصادر أموالهم، واستولى على ما في أيديهم، لأنهم ظلموا المغرب وتجبروا عليه، وتاثلث لهمن الأموال لاحتجانهم لها من كل طريق، واستئثارهم بخيرات المغرب وموارده. إن أموالهم أموال الشعب؛ ولكن أبا الخطاب لا يحكم بالظنة، ولا يسيره الهوى، لا يستولي عليه العاطفة. إنه في هالة الدين لا يخرج منها. إن مال المسلم حرام لا يحل اخذ شيء منه ولو اشتبكت به حرب، وسعى إليك ليقتلك. إنه ما كان لدولتهم العادلة أن تكون مالها من طريق الظلم والاغتصاب. إنها فقيرة فلابد لها من المال. إنها أمهم الحنون وهم أبناؤها البررة. فأموالهم، أموالها، وخزائنهم هي بيت مالها، يمدونها بما تحتاج إليه من مال، ويضحون في سبيل ترقيتها بكل عزيز وغال !

1 - سنسمي الإباضية في كتابنا بالجمهوريين لان ما آثار عليهم الملوك إنما هو تمسكهم بالإمامة الإسلامية وهي الجمهورية العادلة الصحيحة.

وكان الجمهوريون كلهم على هذه الضحية والإخلاص. فهم جنودها البواسل إذا احتاجت الجند للدفاع. فكل رجل فيها مسئول عن القتال في الذود عنها. إنها حياتهم وحياة دينهم. فتراهم يهبون للذب عنها بحماس من يدافع الخطر عن حياته، ويدافع الاسواء عن حشاشته. إنها حياة دينهم، وأنها لا تعتدي على احد، ولا ترفع السيف إلا في الأماكن التي يوجب الدين فيها رفع السيف. فحروبها جهاد في سبيل الله. فيها الأجر الذي لا يحصى، وهو ما يرغي فيه الجمهوريون الذين يتمسكون كل التمسك بالدين. وتراهم يعدون الموت في سبيل الله حياة، ويرون حمرة الجروح الغائرة في أجسامهم أبهى من حمرة الورود في الأغصان، وحمرة الورد الفتان في الخدود التي يرشفونها في الحسان. إنها النياشين التي يرتفعون بها عند الله.

حماس المرأة وإخلاصها وتضحيتها في دولة أبي الخطاب

وكان كل الجمهوريين رعية أبي الخطاب مستعدين للموت في الدفاع عن دولتهم. وكانت المرأة التي تجرعت ويلات الملوكيين، وقاست هتكهم للحرومات، وعدم تقيدهم بالدين، أكثر ثورة على الملوكية العباسية من الرجال. ولما ولدت دولة أبي الخطاب الجمهورية، صفقت لها كل النساء الجمهوريات، وزغردن من كل قلوبهن لميلادها. وكن مستعدات للتضحية بكل عزيز وغال في الدفاع عن دولتهن. وكن ينفخن الحماس لها في قلوب الأزواج والأبناء، ويرون من لا يملك سلاحا يعده للدفاع من أزواجهن وأبنائهن، ومن لا يحسن أساليب القتال، ويكون فارسا في الحروب، عارا عليهن، وسبة لقومهن!

وكان كل رجل وكل امرأة في دولة أبي الخطاب يتقد حماسا لها، ونشاطا في بنائها، وغراما للموت في الذب عنها. وكان كل رجل منهم يشتري سلاحا ويستعد بالتدريب على فنون القتال، ويتعلم أساليب الحروب، ويرى أشهى أوقاته هي التي يقضيها في هذا التدريب. وكانوا يربون الخيل ويغرسون فيها أكرم الطباع، ويعودونها الصبر والجلد، والسرعة وكل ما يجعلها تقوم بهم في الحروب التي يخوضونها في شجاعة لا نظير لها. إنها من نتاجهم. يعدونها لحروبهم. إنهم يعتمدون على أنفسهم في التسلح والاستعداد!

عناية أجدادنا بالتربية العسكرية وبراعتهم في فنون الفروسية

وكان الجمهوريون مغرمين بأعمال الفروسية كلها. وكانوا على البراعة فيها. وكانت أحسن ألعابهم في وقت راحتهم، وأيام أعيادهم، وفي احتفالات أفراحهم. إجراء الخيل والتسابق بها، إن حمحمتها في السباق ألذ عندهم من كل الأغاني، وغبارها في الحلبة

هو السحاب الجميل الذي يكسو جوهم، فينبت في نفوسهم السرور والنشوة والعزة. إن الله قد أمر المسلم أن يكون قويا ليحسن الدفاع عن نفسه، وإغاثة إخوانه؛ والحماة عن دولته ودينه. ولا يكون قويا إلا إذا برع في فنون القتال، وكان له السلاح اللازم، يحسن استعماله، ويبرع في الرماية به. وكانوا أيضا مغرمين بالسباحة، والجري على الإقدام، وقطع المسافات الطويلة، وحمل الأثقال الكبيرة على ظهورهم،ويعودون أنفسهم الحرمان على الجوع والظمأ، وعلى الحر والقر. وكان الفلاح يعود نفسه ذلك في أعمال فلاحته، والتاجر يتعود ذلك في أسفاره في تجارته. وكانوا يعودون أبناءهم ذلك منذ نعومة أظفارهم، ومن أيام صباهم.

كان الإباضية الجمهوريون على هذا الإخلاص وهذه التضحية، وعلى هذا الحماس لدولتهم. وكانوا يعملون لله. ومن يعمل لله لا يضيع له أجرا. إنه بهذا متقد الحماس، متصل العمل، قوي كل القوة، يحقق كل آماله لان الله معه. وكانوا سواعد وروحا لدولتهم. ولم يكونوا كالملوكيين العباسيين الأنانيين الذين تستعبدهم الأنانية، وتستولي عليهم شهواتهم، ويملأ قلوبهم حب المادة، ويرون الدولة بقرتهم الذي يحلبونها، ومطيتهم التي يركبونها. فهم عليها ثقلا يضعف به سيرها، وسبب إرهاق وضعف يعجل بهرمها وفنائها. إن جند هذه الدولة الملوكية العباسية مأجور. فحماسهم للملك الذي يستخدمهم على حسب المرتبات التي يضفيها عليهم، والمغانم المادية التي يرجونها في الحروب. وإذا ساروا إلى الحرب كان ذلك للعصبية للدولة أو لحظوظهم الخاصة. وكلا هذين السببين لا يجعلان المرء يستعذب الأهوال في الحروب، ويرحب بالموت في ميدان الوغى. إنه يحارب لحظوظه الخاصة. ومن تكن الحظوظ الخاصة هي غرضه ومقصده تمسك بالحياة وحرص عليها، وأقدم على الحرب في تهيب وخشية وضعف. وإنه يحمل نفسه حملا عليها، فبوده أن لا يذهب إليها. ثم إنه عالة على الدولة في حربه، فهي التي تمده بالسلاح الذي لم يتعود على استعماله. قد يكون اقل حدة مما يريد، ومن النوع الرديء الذي لا يليق له. قد تكون درعه أوسع أو أضيق، وسيفه غير لائق به. وقد يكون فرسه حرونا، وإنه لا يعرفه فيؤثر فيه، ويعمله الانقياد له، والاندفاع به، والصبر معه في مكاره الحروب. هذه هي نفسية اغلب الملوكيين المأجورين الذين يدفع بهم ملوكهم في حروب لا يدعو إليها الدين، ولا تدفع إليها أسباب دينية تخلق الحماس لها في الصدور. إن هذا الجند الملوكي المدفوع إلى حروب تحقق أغراض ملوكهم كأحجار المنجنيق الباردة يقذف بها وهي غير مشتعلة. فهل تقف إمام الجمهوريين الذين هم كالصواريخ تندفع بها قوة في داخلها، وهي مشتغلة متأججة، وتستأصل كل ما يقف في طريقها، وتنفجر انفجارها الهائل

فتدك كل ما تندفع إليه؟!! هذه هي نفسية الجمهوريين رعية أبي الخطاب، وتلك هي حقيقة جيوشه. لذلك ارتاع ابن الأشعث لما اخبره جواسيسه بهذه الحقيقة. فأيقن انه لا يستطع أبا الخطاب وهو في جنده، وان القوة الحربية لا تجدي معه. فعدل إلى المكيدة فجرد أبا الخطاب من جيوشه، ثم هجم عليه في قواته الضخمة، ولم يستطع مع هذا القضاء عليه إلا بعد معركة عنيفة سقط فيها مئات من جيشه، وأغرقت (تاورغا) بدماء العباسيين، وكست ساحة الوغى بجثثهم وأشلائهم التي لا تحصى.

قال البدر الشماخي: "لما تجاوز محمد بن الأشعث حدود مصر (في مسيرة) لمحاربة أبي الخطاب، أرسل العيون، وقد تهيأ له أبو الخطاب (في جيشه). فلما رجعت إليه عيونه سألهم عن أبي الخطاب وأحواله وجنده فقالوا: نجمل أم نفسر؟ فقال، أجملوا. قالوا: رأينا رهبانا بالليل اسودا بالنهار! يتمنون الجهاد بلقائكم كما يتمنى المريض لقاء الطبيب! لو زنا صاحبهم ارجموه! ولو سرق لقطعوا يده! خيلهم من نتاجهم، ليس لهم بيت مال يرتزقون منه، وإنما معايشهم من كسب أيديهم"![1]

سعادة المغرب الأدنى وازدهاره بعدل أبي الخطاب

وكان الإباضية الجمهوريون كما ذكرنا في الإخلاص لدولتهم، والاعتماد على أنفسهم، والإعانة لإمامهم في حمل أثقال الدولة، وكان العدل الشائع في كل الطبقات، ورضا الجماهير كلها عن دولة أبي الخطاب، وغبطتهم وسعادتهم بدولتهم الجديدة؛ قد جعل كل فرد يعمل في جد ونشاط وأمل وسعادة تذكي جده ونشاطه، وتضاعفه في عمله. فازدهرت دولة أبي الخطاب، وتهلل وجه المغرب، وسرت فيه حمرة الصحة والشباب، وزالت عنه صفرة الاكتئاب التي كانت تجلله وهو يتلقى في استبداد العباسيين والأمويين. ولو طال عمر دولة أبي الخطاب لبلغ المغرب في عهدها كل ما يشاء من حضارة ورقي. فان حماس المغرب ونشاطه في نهضته لما تأسست يدل على الغايات السامية، والدرجات الرفيعة التي يصلها بفضل أبي الخطاب ودولته التي كانت ربيعا خيم على المغرب الأدنى والأوسط فاهتز واستعد لإبراز ثماره، والدخول في شبابه، وعهود نضارته وحياته.

نكبة افريقية بورفجومة واستغاثتها بابي الخطاب

وكانت طرابلس في زغاريد الأفراح بدولتها الجديدة، وفي زينة عرسها، ولكن القيروان وشمال افريقية كانت والماسي، وكانت جروحها تنزف بالدماء، وحناجر أهلها تغص بالعويل، وهم في مصائب متتابعة وضربات قاصمة متلاحقة، تنهال عليهم من (ورفجومة) التي

1 - كتاب السير للبدر الشماخي ص 131 ط البارونية بالقاهرة.

استولت على القيروان، فسول لهم مذهبهم الصفري المتطرف، وأحقادهم المتأججة على العباسيين الملوكيين الذين كانوا يعسفونهم فيما مضى، ويحتقرونهم، ويفضلون عرقهم وبني عمومتهم على الأمازيغ، ويسيرون فيهم سيرة بعيدة عن العدل وما أمر به الدين الحنيف. لقد حقدوا عليهم لهذا الظلم الذي انهال عليهم من الملوكيين منذ الدولة الأموية، فلما تمكنوا من ناصيتهم، واحتلوا القيروان، وقضوا على الإمارة العباسية في افريقية، وهي التي كانت تحمي أصحابها؛ وأضحت (ورفجومة) هي القوة العسكرية الكبرى في تلك الربوع؛ ثارت في نفسها الأحقاد القديمة، وتذكرت ما كان يفعل الملوكيون منذ نصف قرن بها، فسولت لهم الأحقاد الثائرة، وطبع البدواة الذي لم يصقله الدين الراسخ، وثقافة الإسلام التي تزيل من النفوس القسوة والوحشية، والعادات الجاهلية، والعصبية الجنسية؛ ومذهبهم الصفري المتطرف الذي لا يراعي حرمة المسلم؛ فانقضوا على الملوكيين في القيروان، فلم يقفوا عند حدود الانتقام المعقول، بل تجاوزوها حتى أهانوا المساجد وهي مظهر الدين، والمكان المقدس عند كل المسلمين، وبيوت الله المكرمة، وانتهكوا الحرمات، وعاثوا في القيروان، وصاروا بها ذئابا مسعورة مهتاجة. فارتفعت عقيرة الملوكيين في القيروان وفي افريقية تستغيث، وعرفوا دين أبي الخطاب، وعدله، ومحاربته للعصبية، وتمسكه بالدين الذي يحرم الظلم وانتهاك الحرمات. فأرسلوا إليه وفدا منهم يشكون إليه ما يحل بهم، ويستغيثونه، وجاءته الرسائل من أناس مظلومين في القيروان، تطلعه على الفظائع التي تحل بها، كما شاهد الإباضية فظائع ورفجومة فأسرعوا إلى أبي الخطاب فاعلموه، فثارت ثائرته، وبكى رحمة لأهل القيروان، وغضب لله فنادى بالصلاة جامعة، واخبر الناس بما يحل بالمسلمين في القيروان وندبهم إلى الجهاد، وتطهير افريقية من (ورفجومة) فتطوع الناس للجهاد معه، وتحمسوا مثل حماسه، وساءهم أن تنتهك (ورفجومة) حرمة المسلمين، وتعبث في ديارهم، وترتكب كل محرم فيهم. إن الإباضية وإن كانوا ينكرون على الملوكيين ظلمهم وعدم تمسكهم في السياسة بالدين فإنهم غيورون على المسلمين، متمسكون كل التمسك بالدين، يتأججون غيرة عليه، وكانوا يعتقدون أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الوسائل التي يستطيعها المسلم من اوكد الفروض، واكبر الواجبات على المسلم. فها هي (ورفجومة) ترتكب في أهل القيروان المسلمين المناكر الأليمة، إن قمعها وإزالة ظلمها لا تفرضها الإخوة الإسلامية فحسب، بل هو واجب في الدين. وما كاد أبو الخطاب ينتهي من خطابه بعد الصلاة الجامعة حتى كسر جفن سيفه على عتبة المسجد علامة على الاستماتة في القتال، وأسرع الإباضية الجمهوريون إلى سلاحهم، وتطوعوا مع إمامهم فبلغ جيش أبي الخطاب ستة آلاف مقاتل فسار بهم إلى افريقية.

مسير أبي الخطاب لإغاثة أهل القيروان

قال أبو العباس الدرجيني في طبقاته: "بلغنا أن امرأة من نساء القيروان كتبت بطاقة إلى الإمام أبي الخطاب تشكو إليه جور (ورفجومة) تقول: أما بعد يا أمير المؤمنين. فإن لي ابنة وقد بلغت في الخوف عليها من ورفجومة والحيطة لها أن حفرت حفرة تحت سريري وصنتها فيها خشية أن يفسدوها كما فعلوا بأمثالها فانظر إلينا. فوصلت البطاقة أبا الخطاب وهو يتوضأ فقرأها وجعل يبكي رحمة لما نزل بها (وبالمسلمين) فنادى بالصلاة جامعة فدعا الناس إلى الجهاد".

ثم قال الدرجيني: "وبلغنا أن ورفجومة اخرجوا امرأة من القيروان وهي تصيح: أغيثوني معاشر المسلمين! ! فلم تجد أحدا يدافع عنها. فلما بلغ أبا الخطاب ما حل بها، واستغاثتها بالمسلمين، وعدم وجود من يدافع عنها قال: لبيك! لبيك! !".[1]

فسار إلى الجهاد، والى قمع ورفجومة وإزالة مناكرها.

كان ذلك في سنة إحدى وأربعين ومائة بعد سنة من ميلا دولة أبي الخطاب. وكان العام مجدبا، والقحط قد نزل بطرابلس، فجعل السفر والجهاد، وما يقتضي ذلك من النفقات والزاد أمرا عسيرا. ومع ذلك أسرع الجمهوريون لبى الجهاد والسفر قد يصيب أهاليهم كثير من الضر بغياب من كانوا يعولونهم في هذه السنة العجفاء؛ ولكن تغيير مناكر ورفجومة واجب في الدين، وما يملأ نفوسهم من الرحمة والرقة والبكاء لإخوانهم المسلمين المضطهدين في القيروان جعلهم يستهينون بما يصيب عائلاتهم في غيبتهم، وبما يلاقون هم من جهد، وبما تلاقيه دوابهم من جدب المراعي؟، وفقدان المياه، وانعدام الأقوات.

محاصرة أبي الخطاب لقابس وفتحها

فسار أبو الخطاب في سنة إحدى وأربعين ومائة وستة آلاف من جيشه. فسمعت به "قابس" التي كانت في قبضة الصفرية فاستغلقت وتنمرت له. وكانت عالية الأسوار حصينة. فحاصرها أبو الخطاب، ونازلها حتى فتحها، فطهرها من عيث الصفرية، وأقام عليها عاملا يسوسها بالدين، ويملؤها بالعدل والإحسان، ويبرئ جراحها التي أصابتها بظلم الصفرية ومناكرها. فسار إلى القيروان.

1 - طبقات الدرجيني كتاب مخطوط يوجد في جبل نفوسة بليبيا وفي وادي ميزاب بجنوب الجزائر. وفي دار الكتب المصرية تحت رقم 2612 (تاريخ تيمورية).

محاصرة أبي الخطاب للقيروان وفتحها

فعلم عبد الملك بن أبي الجعد رئيس (ورفجومة) انه لا طاقة له بمنازلة أبي الخطاب. فاحتمى بأسوار القيروان. وكانت القيروان حصينة فحاصرها أبو الخطاب، واستنزل منها (ورفجومة) فاشتبك بهم في معركة طاحنة كان النصر فيها لأبي الخطاب. فقتل عبد الملك بن أبي الجعد في المعركة، وانهزام جيشه. فاحتل أبو الخطاب القيروان، وانقد افريقية من قبضة الصفرية. فتنفست الصعداء، فانضمت إلى دولته في طرابلس. وأقام عبد الرحمن بن رستم واليا على افريقية والمغرب الأوسط، فرجع هو أدراجه إلى عاصمته ليواصل أعماله في بناء دولته، ويحرسها من سهام الملوكية التي يراها موجهة إليه من المشرق.

ولاية عبد الرحمن ابن رستم على افريقية والمغرب الأوسط

وكان عبد الرحمن بن رستم عبقريا في الإدارة، بارعا في السياسة، مخلصا للدولة الجمهورية، متمسكا كل التمسك بالدين في السياسة. وكان القيروان وطنه يعرف أحواله ومزاج أهله، فهو أحسن من يليق للولاية على افريقية. فنظم أمور افريقية، وأقام العمال العادلين والقضاء الأكفاء في كل نواحيها. كما أرسل عماله إلى المغرب الأوسط وجنوب الزاب الذي كان جمهور من فيه جمهوريين إباضية. وكان جزءا من دولة أبي الخطاب ولا ندري مقدار صلة شمال الزاب بدولة أبي الخطاب. إنه خاضع له، لم يثر عليه، ولكن الإباضية لا يكرهون أحدا على الانضمام إلى دولتهم، وإن كل دولهم قامت بالمبادئ لا بالسيف. إن مبدأ رجوع الدولة الإسلامية إلى الجمهورية الإسلامية، والإمامة العادلة، وتمسك رئيسها بالدين في السياسة، هو المبدأ الذي يجمع شمل الجمهوريين ويكون جماعتهم، فأي ناحية في المغرب تتمسك بهذا المبدأ، ويملأ صدرها حب الجمهورية الإسلامية إلا وانضمت إلى دولة أبي الخطاب، ودول الإباضية الأخرى، وكدولة الحارث وعبد الجبار، والدولة الرستمية. لا تكره أحدا بالسيف على الانضمام إليها، ولا ترى من يؤثر الاستقلال عدوا يجب إخضاعه بالسيف. وارى أن شمال الزاب قد آثر الاستقلال تحت رؤسائه، فتركهم أبو الخطاب لما يريدون. وسالموه هم واظهروا له حسن النية، وجاوروه مجاورة كريمة. أما المغرب الأوسط من الجزائر بني مزغناي إلى غرب وهران فكان تابعا لدولة أبي الخطاب. وكذلك جنوب الزاب من مدينة (بغاي) وجبال أوراس إلى آخر الزاب. إن الجمهوريين كانوا كثرة كثيرة في هذه العهود من بغاي في شمال أوراس. أما شمال الزاب فقد كانت الدولة الأموية والعباسية حريصة عليه. وكانت ترابط فيه قوات عسكرية ضخمة، وينتشر فيه جمهور كبير من الملوكيين الذين يتقاطرون إليه من القيروان. وكان

الأمويون والعباسيون يرونه درعا لافريقية، وسدا أول في وجه الجمهورية التي انتشرت في المغربين الأوسط والأقصى. وكانت تشدد قبضتها على الزاب، وتحارب الجمهورية فيها بكل الوسائل وتشدد الخناق على الجمهوريين فيه، وتحرص كل الحرص أن يكون شمال الزاب فيس قبضتها. لهذا لم يستطع شمال الزاب أن يمديده إلى المغرب الأوسط الجمهوري. إن سيوف الأمويين والعباسيين مصلته عليه. وكان في اغلب عهوده سيما في أيام الأغالبة يناوص ليخرج من قبضتهم فلم يستطع. إن سخطه على العباسيين هو الذي هيأ في قلوبه للدولة العبيدية التي ستنشأ في شمال الزاب فتفترس الدولة الأغلبية وتلتهم المغرب كله.

حدود دولة أبي الخطاب

وكانت دولة أبي الخطاب بانضمام افريقية إليها تبتدئ شرقا من خليج سرت، وتنتهي غربا في غرب وهران، ولا يخرج منها إلا شمال الزاب: من غرب طبرقة إلى شرق جزائر بني مزغناي إن صح افتراضنا، أما إذا لم يصح فيكون الزاب كله من دولته وحدودها من الشمال إلى الجنوب من البحر إلى الصحراء الكبرى. هذه هي حدود دولة أبي الخطاب. وهي دولة واسعة الرقعة، فسيحة الأرجاء لا توازيها أي دولة من الدول المغربية التي تكونت في القرن الثاني والثالث الهجري في سعة الرقعة، وهي أول دولة أذاقت افريقية نعمة العدل الإسلامي الذي حرمته منذ الحلقات الذهبية من الولاة الأمويين، ورجعت بها في السياسة وفي التمسك بالدين في الإدارة إلى عهود الخلفاء الراشدين.

اختلاط أبي الخطاب بشعبه واتصال كل الطبقات به في كل يوم خمس مرات في الصلوات

وكانت هذه الدولة الواسعة الأرجاء ساكنة لأبي الخطاب سكون الرضا، مغتبطة بعدله وحسن سيرته، وتمسكه بالدين كل التمسك في سياسته. وكان أبو الخطاب يختلط برعيته ويؤثر فيها. تراه دائما في الصلوات الخمس إذا أمهم فيها، وتسمع صوته إذا جلجل بالتكبير، وإذا رتل القرآن في الصلاة، وإذا دعا بعد الصلاة في كل خشوع وتضرع فامنوا على دعائه. وتسمع صوته وترى طلعته فيغشاهم روحه إذا جلس بعد الصلاة فوعظهم وعلمهم دينهم، وألقى عليهم درسا من دروسه المستمرة التي ترسخ الدين في نفوسهم، وتزيدهم ثقافة وبصيرة، وطموحا واندفاعا إلى الإمام.

حكمة قيام الدولة بإمامة الناس في الصلاة

إن من حكم قيام رئيس الدولة بإمامة الناس في الصلاة أيضا أن يختلط برعيته، فيسمع شكواهم، ويعرف حاجاتهم، ويؤثر فيهم بخشوعه في الصلاة، وبروحه في خطبة الجمعة، وبشخصيته في مواعظه ودروسه في المناسبات. إن رئيس الدولة هو الأب الحدب لها، فيجب عليه لرعيته ما يجب على الوالد لأبنائه. إن الأمة هي التي انتخبته وقدمته ليحمل أثقالها، وبايعته عن محبة وإجلال، في رضي وحرية. فهو لا يخاف لوجوده بينها بدون حرس يحرسه، إنه أبوهم وهم أبناؤه، فكلهم يحرسه ويفديه. أنهم جزء منه وهو جزء منهم. إنه سحاب الله يتصاعد من الجبال اللفاء، والتلال المشجرة، فيبلغ عنان السماء، فيثنيه وفاؤه فيتنزل ماء، فيختلط بالنبات والشجر، فيكون له حياة ونماء، ونضارة وجمالا، ويخلق حلاوته في ثماره، وعطره في أزهاره!

لم يكن الإمام أبو الخطاب متكبرا متجبرا محتجبا عن رعيته كالملوك الذين يستولون على رئاسة المسلمين بالقوة، ويستتبعون الناس بالسيف، ويرضخون النواحي بالجيوش الجرارة، وينظرون في ترفع وكبرياء إلى رعيتهم، ويرون أنفسهم طبقة ممتازة، وسماء رفيعة، وغيرهم من الناس ترابا يخوضون فيه بالأرجل. لم يخلقوا إلا لاستغلالهم ومنافعهم. فإذا اتصلوا بأحد الدهماء فبقدر ما تستلزم المصلحة الخاصة بهم. إن العامة عندهم كالمطايا التي يركبونها لا يلابسونها إلا في وقت الحاجة، وبعد ذلك فهي إلى معاطنها، وهم إلى أسرتهم المعطرة، وجناتهم الفيحاء، وقصورهم الفخمة، وهي إلى التبن والماء، وهم إلى الموائد الحافلة، والصهباء المعتقة، والوجوه الصباح. إنهم ملوك متجبرون رفعتهم السيوف إلى عروشهم، فهم أبناء القوة، تولدوا منها كما يتولد الدخان الأسود من النار فيتعالى في الجو منعزلا، ليس فيه طبيعة التواضع فيرجع إلى الأرض كالسحاب، إلا إذا كنسته العاصفة، وأرغمته على ذلك الرياح التي تتأفف من سواده في جوزها!

حرص أبي الخطاب وولاته ورعيته على صلاة الجماعة

كان أبو الخطاب رحيما شفوقا محبا كل الحب لرعيته. وكان يختلط بهم ويراهم دائما. وكان لتمسكه بالدين، وبسنة المصطفى عليه السلام يعرف حكم صلاة الجماعة وأسرارها، ومنافعها العظمى للجماعة والفرد، فحرص عليها. وكان لا يصلي إلا في المسجد مع الجماعة. وكانت رعيته تعرف فضل صلاة الجماعة وأثارها العظمى في المجتمع فحرصت عليها حرص إمامها. وترى الشوارع والأزقة إذا أذن المؤذن للصلاة تتدفق بالسابلة

مسرعين إلى الصلاة، وفي وجوههم الخشوع، وفي عيونهم اللهفة لمناجاة الله، وفي نفوسهم الرغبة لملاقاة أمامهم والصلاة خلفه، وسماع مواعظه في دروسه، ومشاهدة تواضع الدين ووقار الدين في أمامهم الذي يختلط بكل الطبقات في المسجد.

وكانت المساجد تغص بالمصلين. وكلن الولاة والعمال هم الذين يؤمون الناس في الصلوات الخمس في دولة أبي الخطاب. وكانوا يجلسون في المسجد بين العصرين والعشاءين . فيرتلون القرآن مع المرتلين، أو يلقون دروس الوعظ والإرشاد على المدينة التي تهرع إلى المسجد في كل صلاة، أو يجلسون نع أهل الشورى للتفاوض في المسائل والنوازل التي يجب رفعها إليهم، وإشراكهم في حلها؛ كما كانوا يجلسون في مساجدهم بعد الصلاة، وفي دار الحكم فيدخل عليه كل ذي حاجة، ويرفع إليهم كل مظلوم ظلامته، فيقضون كل الحاجات، ويزيلون كل المظالم، ويعطون لكمل ذي حق حقه. يستهدون الشريعة في حل المشاكل بين الأفراد، ويتمسكون كل التمسك بقانون الدولة وهو كتاب الله وسنة رسوله في الحكم في المنازعات. وكانوا رحماء يحسون بدموع الضعفاء صخورا تتدحرج على قلوبهم، وجمرا مستعرا يتساقط على أفئدتهم، فيبدلون بكاء الضعيف البائس المصفر بالضحك والبشر الذي يصبغ وجهه بحمرة السرور والرضى، لما ينال من حاجاته، ويبلغ من مراده عندهم. أنهم مورد عذب بارد يصدر منه أبناء الهواجر المتلهفون وهم على غير ما ذهبوا إليه من التحرق والظمأ. انه الري، ولذة برد الكبد، والشعور بالارتياح.

قيام المساجد بالتربية والتعليم الديني وتطهير النفوس في عهد أبي الخطاب

وكانت مساجد المدن والقرى تغص بالمصلين في كل صلاة. وفي كل مسجد إمامها، أو واليها، أو عالمها فيخطبهم في وقت الخطبة، ويعظم في وقت الوعظ. فيكون المسجد أيضا مدرسة للمدينة كما أمر الله وسن المصطفى للمسلمين، يثقف عقول المدينة بالعلم، ويزكيهم ويهذب نفوسهم بالوعظ الحي، والدروس الحارة التي تتبع من أعماق الواعظ ملتهبة بوجدانه، يذكيها الإخلاص للعامة، والشعور بالواجب، والغيرة على الدين. وترى دروسهم تتفرع عن القرآن والسنة وتقوم عليهما. فهي منهما، تشرح أسرارهما، وتقدم للعامة في أسلوب يليق بها ما يجعلها تفهم كتاب ربها، وتعرف دينها وأسراره. وترى الواعظ يعيش مع الرسول بأخذه في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتدبر معانيه، فيرفع العامة بدرسه في الحديث فتعيش كلها مع الرسول، وتسمع منه، وتتأثر به. فيكون الرسول عليه السلام قد خلا من دولة أبي الخطاب بجسمه

وبقي بروحه تغشى العامة وتملؤها بالنور من أبي الخطاب وولاته ووعاظه في مساجد القرى كما تسنموا المنابر للخطبة في الجمعة والأعياد، وفي دروس الوعظ التي يوالونها على العامة في كل يوم بمساجدهم.

شيوع المحبة والإخوة الإسلامية الكاملة في دولة أبي الخطاب بفضل عدله ودينه

وكان أبو الخطاب يجلس في المسجد بعد صلاة لذوي الحاجات فيتصل به كل إنسان، ثم يذهب إلى دار الحكم فيجلس فيه، وأبوابه مفتحة في وجوه أهل المدينة، فيدخل عليه الفقير والضعيف وابن السبيل وكل ذي حاجة ومظلمة، فيقضي حوائج الفقراء، ويردع الظالمين وينتصف منهم، ويعطي لكل ذي حق حقه. وكان قضائه على هذه الطريقة، وعلى هذا العدل، وعلى ذلك التمسك بالدين. فشاعت المحبة بين الناس، وعم الرخاء والسرور في المدينة بفضل عدل أبي الخطاب وحسن سياسته، وتمسكه في إدارة الدولة بدين ربه، وفارت النفوس بالنشاط والطموح في الأعمال، واندفع المغرب الأدنى والأوسط في طريق البناء والتشييد بخطى واسعة، ورفع المغرب رأسه ورنا إلى السماء، وتكونت له غايات سامية، ومثل عليا فاندفع إليها، وعمل في جد ونشاط لتحقيقها.

وكان المغرب في ظل دولة أبي الخطاب الجمهورية العادلة متجه الأنظار من أهل المشرق المحرومين من العدل، وتمسك الساسة بالدين في شئون السياسة.

ارتياع أبي جعفر المنصور من دولة أبي الخطاب العادلة

ورأى أبو جعفر المنصور المشرق المحروم الحزين يرنو إلى المغرب السعيد العزيز غابطا له، فأحس بعرشه يهتز اهتزاز صهوة الجواد الذي يقتله الظمأ فجاءه الريح برائحة الماء فنازع راكبه في عنف ليتجه إليه، ويقصد نحوه. إن أنوار الجمهورية العادلة، وجمال التمسك بالدين، وما تظفر به رعية أبي الخطاب من عزة وسعادة وغنى؛ إن ذلك سيجعل المشرق يشفى من تخدير الملوك له بالدعاية البارعة، ومنت إيهامه بأنهم أمراء المؤمنين، وخلفاء المصطفى، وظل الله الذي يفي إليه كل محروم. فيدركون حقيقة الملوكية المستبدة المتغطرسة التي لا تتقيد بدين ولا بدستور، ويبدو لأهل المشرق بالمقارنة بين سيرة أبي الخطاب وعدله وتواضعه، ولاحمته، وتمسكه بالدين، وتجبرهم هم واستبدادهم، واحتجابهم عن العامة، واستهلاكهم لبيت مال المسلمين في أغراضهم الخاصة، وفي شهواتهم، وعدم تمسكهم بالدين في كل شئون السياسة، فيزداد أهل المشرق إدراكا

للغبن الذي هم عليه، وللاستبداد والجبروت الذي يرسفون في أغلاله، فتغلي مراجلهم، وهل بعد الغليان إلا الانفجار.

إن أبا الخطاب حرب على المنصور الملك العباسي، وعلى الدولة العباسية المستبدة، لا بتحريره للمغرب ورفع كابوس الملوكية المستبدة عنه، وقطعه عن العباسيين، بل بآثاره في أهل المشرق. إن دولته شمس أشرقت من بين الآكام، فاخفتت شموع الملوكية. وإذا استمر طلوعها وشبابها، فان آثارها ونورها سوف لا ينحصر في مشرقها، إنه سيعم كل مكان، فتتضاءل شموعهم، فيراها الناس عيونا محمرة عمشاء تتدلى عليها الطرحة السوداء... فينصرفون عنهم، ويرونهم شينا لدولتهم، فتقوم القيامة عليهم فيصبحون تحت السنابك والإقدام. لابد بإزالة دولة أبي الخطاب قبل أن ترسخ عروقها، وتمتد ظلالها شرقا فتصل الكنانة، وتسري إلى بغداد. إنه لا بقاء للملوكية المستبدة مع وجود الجمهورية العادلة، فهما نقيضان كالليل والنهار، والحلاوة والمرارة، فلابد من زوال احدهما لبقاء الآخر. فرأى المنصور كثرة جيوشه، ورضوخ دولته، وعبقرية قواده الذين اصطنعهم وأذاقهم من حلاوة دولته، وأضفى عليهم من مباهج ملكه، وجعلهم يتحمسون له، ويرون دولته ثدي الأم الذي يرضعونه، ونهد الحبيبة الذي يملأ عيونهم بالجمال، ويبث الشباب في زمانهم فيكون جميلا مثله. فرفع المنصور القوى العبقري الطموح رأسه، وصر بأسنانه وعزم على القضاء علة دولة لبي الخطاب، واسترداد المغرب الأدنى للأسباب التي شرحتها في فصل ولاية محمد ابن الأشعث على المغرب.[1]

إرسال المنصور جيوشه واكبر قواده للقضاء على دولة أبي الخطاب الجمهورية

فاختار اكبر قواده، وانتخب أحسن جنده، واخلص رجاله، فأرسلهم إلى المغرب. وكان هذا الجيش ضخما يبلغ عدده سبعين ألف جندي يقودهم ثمانية وعشرون قائدا، فيهم الأغلب بن سالم، والمحارب بن هلال، والمخارق ابن غفار الطائي، وكلهم من كبار قواد المنصور الذين تتوجوا بالبطولة في المعار الكبرى التي أورثوا فيها للدولة العباسية النصر المبين.

وكان أبو الخطاب يعلم عزيمة الملك المنصور فيه. وكانت رعيته تعلم. وكانوا يتطلعون إلى المشرق في أيديهم على السلاح، وهم على استعداد للمحاماة عن دولتهم. فعلم أبو الخطاب يزحف ابن الأشعث إليه فأذن في رعيته للدفاع. فهب الجمهوريون كلهم

1 - انظر الأسباب من ص 3 إلى 6 من هذا الجزء.

فساروا تحت لوائه، ليفدوا دولتهم الجمهورية العادلة بالمهج والأرواح، ويقوا مغربهم من الملوكية المستبدة التي لا ينسون مرارتها ونيرانها. فبلغ جيش أبي الخطاب تسعين ألف مقاتل من طرابلس وحدها. ولربما كان فيه من جنوب افريقية، وأرسل إلى واليه على افريقية والمغرب الأوسط عبد الرحمن بن رستم يسير إليه في جيشه، وفي المتطوعين من أهل افريقية والمغرب الأوسط. ولم ينتظر وصول عبد الرحمن. إن ابن الأشعث قد فارق حدود مصر فهو في برقة يزحف إلى حدوده، وما معه من الجيش الجمهوري يكفي لسحق ابن الأشعث وتعفيره في الرغام.

ارتياع ابن الأشعث بجيوش أبي الخطاب وتفريقهم عنه بمكيدة بارعة

فأسرع فرابط في حدود دولته الشرقية في خليج سرت، فعلم ابن الأشعث باستعداد أبي الخطاب وبحقيقة جنده، فارتاع وأيقن بالهزيمة، فعمد إلى المكيدة البارعة[1] التي فرقت عن أبي الخطاب جيوشه، فداهمه وهو على غير استعداد، فقارع أبو الخطاب عن دولته، ووقف في اثني عشر ألفا من جنده بعد ما كسروا أجفان سيوفهم وعزموا على الموت، وأحاط بهم ابن الأشعث في سبعين ألف مقاتل فجالدوا وملأوا الساحة بمئات الجثث من الجيش الملوكي، واغرقوا الساحة بدمائهم، وقاتلوا حتى قتل أبو الخطاب وقتل كل من معه، وآثروا الشهادة والموتة الكريمة، وذهبوا إلى ربهم لينالوا الجزاء الأوفى عنده.

قال الشماخي: (وممن استشهد مع أبي الخطاب) "عبد الأحد بن تلانيس المزاتي وهو من رؤساء أصحاب أبي الخطاب ومن كبرائهم، حضر معه المشاهد واستشهد معه، وعمر بن تمطنين، وابنه يحيى، وأخوه أبو حميد وهم من خيار جند أبي الخطاب وعمر بن يمكتن اللواتي عامل أبي الخطاب علا سرت" ومن جند أب الخطاب الذين لم ينص الشماخي على استشهادهم معه: موسى بن عبد الله بن يمكتن وأخوه إبراهيم وهما من خيار جند أبي الخطاب، ومنهم اوس بن عمر الهواري، وأبو يحيى الهواري وعيسى بن يطوفت المزاتيان، ومنهم محمد البدي وسعيد بن قايد المزاتي. هؤلاء الذين جالدوا الظلم مع أبي الخطاب فحرروا المغرب، وثبتوا معه إلى أن لقي ربه واستشهدوا في ميدان المعركة.

وأنشب ابن الأشعث مخالبه وأنيابه في دولة أبي الخطاب فقضى عليها في المغرب الأدنى. وتم للمنصور ما أراد فبسط سلطانه على المغرب الأدنى كله.

وكانت هذه المعركة الرهيبة مع أبي الخطاب قد وقعت في آخر صفر من سنة أربع

1 - انظر تفصيل المكيدة في صفحة 13 من هذا الجزء، وتفاصيل حروب ابن الأشعث أبي الخطاب في صفحة 7 إلى 23 من هذا الجزء. فقد فصلنا القول هناك في هذه الحروب فاجملناها هنا.

أربعين ومائة. وكانت نشأة الدولة في أول سنة أربعين ومائة. والقضاء عليها في هذه السنة أربع وأربعين ومائة. فمدتها أربع سنوات. تنفس فيها المغرب الأدنى الصعداء. وذاق حلاوة العدل والديمقراطية الإسلامية. فقوت عزمه -وهو تحت كلاكل الحكم العسكري العباسي في عهد ابن الأشعث ومن يأتي بعده من الولاة العباسيين الغاشمين- على إحياء دولته الجمهورية. وإرجاع الإمامة الإسلامية في مكان هو أصلح لجذور دولتهم وهو المغرب الأوسط.

انتقال عبد الرحمن ابن رستم إلى المغرب الأوسط لمواصلة دولة أبي الخطاب فيه

وسمع عبد الرحمن بن رستم بما وقع لأبي الخطاب وهو في طريقه إليه. فعلم انه لا قبل له بملاقاة جيوش المنصور سيما بعد أن فت في عضد جيشه استشهاد أمامهم. فأذن لجيشه فتفرق عنه. فذهبت كل قبيلة إلى معاقلها وجبالها. ورأى عبد الرحمن رجوع الدولة العباسية إلى المغرب الأدنى. وتصميم المنصور على المحافظة على طرابلس. إنها طريقة من القيروان إلى مصر وبغداد. فأيقن أن المغرب الأدنى لا يليق مغرسا لدولته الجمهورية. وان الشجرة لا ترسخ عروقها في مجرى الوادي العنيف. إن طرابلس طريق للعباسيين يجوبونها بجيوشهم. فلا بد لرسوخ الشجرة كمن مكان هادئ أمين. إنه المغرب الأوسط. هذه البقاع التي أيس العباسيون من الاستيلاء عليها. والتي كان جمهور من فيها إباضية جمهوريين. والتي كانت جزءا من دولة أبي الخطاب. ستستمر فيها الدولة الجمهورية التي قضى عليها العباسيون في المغرب. وتنشأ هناك وتترعرع. وتظلل بفروعها المعطاره المثمرة طرابلس وجنوب تونس وتقيهم من هواجر الملوكية واستبدادها. فإلى المغرب الأوسط الذي يتمسك بالإمامة العادلة. ويليق للجمهورية الإسلامية ! فسار عبد الرحمن بن رستم. وسارت معه خاصة الجمهوريين من المغرب الأدنى. فأسسوا الدولة الرستمية العادلة. هذه الجمهورية الإسلامية التي كانت اكبر دولة في المغرب في القرنين الثاني والثالث الهجري. وأول دولة إسلامية تتكون في جزائرنا الحبيبة وتوحد اغلب المغرب. فتبسط جناحها الحنون على جنوب افريقية وعلى طرابلس كلها. فيتكون المغرب الكبير. ويعيش اغلب المغرب جزءا واحدا كما أمر الله. وكما يقتضي جنسه الواحد. ودينه الواحد. ومناخه الواحد. ومزاجه الذي لا يختلف. فكيف نشأت هذه الدولة الرستمية العادلة. وما شخصيتها وأدوارها. ومن الذي يسكن المغرب الأوسط من القبائل البربرية فبسطوا ذراعيهم لعبد الرحمن بن رستم فكان أول إمام لدولتهم؟ هذا ما ستراه في الأبواب التالية التي أجعلك فيها بالتحليل الفلسفي. والأسلوب الأدبي.

الأمانة العلمية تعيش مع أجدادك العظماء. وترى أروع الصفحات لمغربنا الذي تمسك بالدين. وكان لله. فكان الله له!



الدولة الرستمية

144 – 296 م / 761 – 909 م

تمسك المغرب الأوسط بالجمهورية الإسلامية
وأحواله قبل نشأة الدولة الرستمية

أقسام المغرب

قسم العرب الفاتحون وبنو أمية مغربنا الحبيب بحسب قربه وبعده عن مصر مركز الفتوح، ومصدر الجيوش التي كانت تترى على المغرب حتى تم فتحه؛ قسموه إلى ثلاثة أقسام: إلى مغرب أدنى، ومغرب أوسط، ومغرب أقصى.

فالمغرب الأدنى من غرب الإسكندرية (بالسلوم) إلى (بجاية) في شمال (الجزائر) الشرقي، ويشتمل على إقليم برقة، وإقليم طرابلس، وعلى القطر التونسي، وعلى شرق القطر الجزائري.

والمغرب الأوسط من مدينة (بجاية) شرقا إلى وادي ملوية غربا، ويشتمل على جبال القبائل المجاهدة الشماء، (ومحافظة) مدينة الجزائر اليوم، ومحافظة (وهران) إلى وادي ملوية غربا.

والمغرب الأقصى من وادي ملوية شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، ويشتمل على القطر الحبيب المعروف اليوم (بالمغرب).

خصائص المغرب الأوسط الطبيعية والاجتماعية وجماله البارع

وكان المغرب الأوسط كثير الجبال في ساحله ووسطه، وكان اغلبها كاسيا بالأشجار، ومجللا بالأحراج، وملتفا بالغابات، مما يملأ سماه بالسحاب الممطر، وجوه بالهواء المنعش، وكانت جبال (وانشريس) في شماله الغربي تشتمل على غابات من أمتع ما خلق الله، ومن أجمل ما يرى الإنسان، قد توج الله بها جزائرنا الحبيبة مع جبال القبائل الجميلة وغيرها كما يتوج هامة الشجرة بالزهر الجميل، هامة الحسناء بالشعر البديع، لتخلق حب الجمال في نفوس أهاليه، وتذكرهم بجمال الفردوس فيعملون للظفر به، ويتمسكون بالدين كل التمسك ليحظوا بجمال الآخرة في الجنة، وهو وحده يشبع ويرضي عاطفة حب الجمال التي خلقتها في نفوس أهل المغرب بلادهم الجميلة، وما خص الله المغرب الكبير من حسن باهر، وجمال فائق، وبهاء لا تجده في مكان!

ومع هذه الجبال الخصيبة الشماء في المغرب الأوسط السهول الواسعة الخصبة تتوسط سلاسل الجبال وتكتنفها، وتمتد في شمالها وجنوبها. وهي واسعة الأرجاء، جيدة التربة، كريمة المناخ، لطيفة الجو. ترى الصيف لا ينفخ فيها إلا حرارة لطيفة كأنفاس الحبيبة الوامقة التي تغمر وجه حبيبها في قبلات اللقاء، وإلا مثل ما يشعر به الحبيب من حرارة صدرها في ضمة الغرام! إنه صيف هو ابن الربيع ففيه من نضارته التي تكسو المكان، وفيه وراثة من الشتاء تبدو فيه كما تبدو وراثة الجد في الحفيد. تحسها في هوائه المنعش الذي يغشاك في شماله ووسطه فتحسب أن الملائكة قد فتحت في جوه أبوابا من الجنة فملأته بنسيمها، أو أن الحور العين قد حركت فيه مراوحها فانبعث منها نسيم عليل ينعش النفوس، ويذكي القوة، ويضاعف النشاط.

وكانت جباله التي تمري له أخلاف السماء، وتسحر السحاب بجمالها فيخيم عليها، قد جعلت المغرب الأوسط كثير الأنهار، وفير الأودية، جم العيون التي تتفجر من الجبال فتراها منحدرة من قمتها في بياض ناصع جميل كبياض العمائم في جباة العلماء ومن أنهاره الكبرى نهر (شلف) ونهر (مينا) ونهر (سيق) و(ملوشات) وغيرها. ومن عيونه الطبيعة النابعة عين السلطان في (تيهرت) وعين (سوفجج) في جنوبها. وغيرها كثير قد ذكرها البكري في كتابه[1] وهي مبثوثة في شمال المغرب ووسطه تتفجر فيه بما يخلق جماله وخصبه كما تتفجر غدد الريق تحت لسان الحسناء.فتجعل في ثغرها مذاق الصهباء، وطعم الجنة. فترى النضارة والخصب يشيع فيها غير أن أزهاره وألوانه ورد غي الوجنتين، وحمرة التفاح في الخدين.[2]

وكان المغرب كله على هذا الجمال البديع، وعلى هذه الخصائص الكريمة، وتلك المزايا التي جعلته مهوى الأفئدة من أروبا فتهاوت عليه، وفتنة قلوبها فعملت لامتلاكه في كل الأزمان.

وكان المغرب الأوسط جيد التربة، خصب البقاع، يليق لكل المزروعات، وتصلح فيه كل الأشجار، وتينع فيه كل الثمار. لذلك ازدهرت فيه الفلاحة في كل الأزمنة، وكانت مناطقه سيما منطقة (تيهرت) في شمالها على الساحل وفي جنوبها (باسرسو) من أجود المناطق الزراعية في المغرب، ومن أغنى الأمكنة بالحبوب والمزروعات.

1 - هو كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب المعروف بالمسالك والممالك لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي. وهو اجل كتاب وأصدقه في جغرافية المغرب وتاريخه وقد ذكر فيه كثيرا من العيون الطبيعية في المغرب الأوسط انه أهم كتاب في موضوعه يجب إعادة طبعه. إنه من تراث المغرب النفيس.

2 - لو درس المتزمتون الذين ينكرون علينا حلية الأدب في التاريخ كتب علم الصحة لعلموا أن للريق فوائد عظيمة كفرائد الدماء للجسم. وهو فغي الصبايا أكثر فائدة.

عزة المغرب الأوسط وثورته على الظلم واستقلاله

وكان لهذه البيئة الطبيعية الحسنة في المغرب الأوسط أحسن الآثار في أهله، والقبائل التي استوطنته. وقد أورثها بغناه وجودة هوائه عزة في النفوس، وطموحا إلى المعالي، وقوة في الأجسام، وجمالا في الذوق. فكان المغرب الأوسط من الأمكنة التي سبق أهلها إلى بناء الحضارة المغربية أيام البونيقيين، وتأسيس الدولة الزاهرة. فقد نشأت فيه دولة (صيفاقس) البربرية في القرن الثاني قبل ميلاد المسيح. وكان من أول البقاع التي حررت نفسها من سلطة البيزنطيين في القرن السابع بعد الميلاد. فنشأت فيه إمارة مستقلة تامة السيادة هي إمارة (مصيناس) وكان يلقب نفسه "ملك القبائل الموريطانية والرومان" وذلك لعزته وقوته، وكمال استقلاله في بلاده. حتى ساد الروم المستبدين في وطنه فخضعوا له.

وكان المغرب الأوسط تيهرت وتلمسان وما يتصل بهما أول منطقة هبت لمدافعة أبي المهاجر والمسلمين قبل أن تفهم حقيقة الإسلام، وتعرف قصد المسلمين الحسن من المجيء إلى المغرب. لقد كانوا يظنون أن مقصد المسلمين هو مقصد الروم. فثارت لمدافعتهم عن المغرب الأوسط.[1] وذلك لتمسك المغرب الأوسط بحريته، وإبائه للعبودية والذل والجبروت. ولما فهم حقيقة الإسلام فتح له صدره، وتمسك به أهله كل التمسك، وفتحوا قلوبهم للعرب المسلمين فامتزجوا بهم، وأحبوا حسان بن النعمان وكل العادلين المتمسكين بالدين من الولاة الأمويين. فلما انحرف الأمويون عن جادة الدين، وظلموا وتجبروا، واستبدوا بالبربر واحتقروهم، كان المغرب الأوسط من أول المناطق التي استقلت عنهم، وعملوا لإنشاء الدولة العادلة التي تسوسهم بسياسة الدين، وتلتزم فيهم هدي الخلفاء الراشدين.

وكانت مدينة (تيهرت) القديمة هي قاعدة المغرب الأوسط، وقطب رحاه، ومعها تلمسان في ذلك. وكان المغرب الأوسط يشتمل على أكثر القبائل البربرية الكبرى، ففيه قبائل (زواوة) ولكن هذه لقربها من المغرب الأدنى قد سرى عليها حكمه، وشملها ما شمل الزاب الذي تتصل به، فلم تشارك القبائل البربرية بالمغرب الأوسط في اتجاهها، وفيما اختارته لنفسها من إنشاء الدولة الجمهورية التي تسعدها.

ومن قبائل المغرب الأوسط صنهاجة فقد كانت في شرق (تيهرت) في جهة (مليانة) (وامدية) إلى جزائر بني مزغناي. وفي غرب تيهرت نفوسة وزواغة وغيرهما. وفي شمالها

1 - انظر حرب الأمير كسيلة بن لمزم وأبي المهاجر في صفحة 37 من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

مطماطة، وزناتة، ومكناسة وغيرها. وفي جنوبها لواتة، وهوارة، ولماية، وغيرها. ومن قبائل المغرب الأوسط الكبرى مزاته وكانت في شرق تيهرت في شمالها أوراس وجنوبه إلى ناحية تيهرت من جهة الشرق.

وكانت هذه القبائل قد حسن إسلامها في أول القرن الثاني الهجري، وانتشرت فيها العربية، وتكون فيها علماء في الدين والعربية، فازدادت شموخا بعزة الإسلام، واعتدادا بنفسها لعظمة الدين الإسلامي العظيم الذي تتوجت به. وكانت تؤمن بان الدين الإسلامي يأمر بالعدل والديمقراطية الصحيحة والمساواة بين المسلمين، وينهى عن الظلم/ والاستبداد، والأنانية، والعصبية الجاهلية. فلما ترك الملوك الأمويون وعمالهم في المغرب ما يأمر به الدين في سياسة الشعوب، واتصفوا بما نهى عنه، ثار المغرب الأوسط غضبا لدينه الذي انتهك الأمويون حرمته، وخالفوا أوامره، ودفاعا عن نفسه التي يتنزل عليها من ظلم الأمويين ما يثير حتى الضعفاء الجبناء، فما بالك بالارمازيغ الأقوياء، الذين خلقهم الله كالغمام الكثيف هو ماء يسري، ولكن إذا وقع عليه ضغط اشتغل ببروقه فصار نارا محرقة، وانطلق بصواعقه فآض مدافع مدمرة.

انتشار المذهب الأباضي الجمهوري في المغرب الأوسط

وكان الإباضية الجمهوريون في العراق وعلى رأسهم الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة قد أرسلوا دعاتهم إلى المغرب يدعون إلى تأسيس دولة جمهورية عادلة، تقوم على الإمامة الإسلامية، وتتمسك كل التمسك بالدين في السياسة. ففتحت قبائل المغرب الأوسط صدورها للإباضية الجمهوريين، لأنهم يدعون إلى العدل والمساواة وتقيد الدولة بالدين، وهو ما يتعطشون إليه، ويعملون تحقيقه، لتتطهر بقاعهم ويتطهر المغرب كله من ظلم الأمويين واستبدادهم، والعصبية التي تستولي عليهم فيحتقرون البربر ويضطهدونهم. فانتشر المذهب الأباضي الجمهوري في المغرب الأوسط فكان عليه اغلب قبائله وجمهور أهله.ولما ثار الصفرية على الأمويين في شمال المغرب الأقصى في سنة اثنين وعشرين ومائة وأنشأوا دولتهم الجمهورية في جبال مضغرة في ناحية طنجة، وتحرروا من سلطان الأمويين، خلع المغرب الأوسط عن نفسه الدولة الأموية الهرمة المستبدة، واستقل تحت امرأته، وصار يرقب الفرصة، ويهيئ الوسائل لإنشاء دولة جمهورية تسوسه سياسة عادلة، وتتمسك في إدارته بالدين. ولم ينضم إلى الصفرية في المغرب الأقصى لان المذهب الأباضي بعيد عن مذهب الصفرية، فهو مذهب لا يخالف الدين في شيء. وليس كالمذهب الصفري المتطرف الذي يخالف الدين في بعض أقواله فالإباضية يتبرأون من الصفرية والخوارج لغلوهم ومخالفتهم للدين في بعض عقائدهم

وأفعالهم. وقد حشر الملوك المستبدون الإباضية مع فرق الخوارج الأخرى انتقاما منهم وظلما لأنهم جمهوريون ينتقدون ظلمهم واستبدادهم،[1] ولأنهم قد أنشأوا دولهم العادلة فخروا عن ظلمهم وجبروتهم، وتعصبهم لأنفسهم ومخالفتهم للدين في سياسة المسلمين.

وكان الإباضية الجمهوريون في المغرب الأوسط أقوياء فيئس منهم الأمويون في آخر أيامهم والعباسيون، ولام يحاول حنظلة بن صفوان وعبد الرحمن بن حبيب آخر ولاة الأمويين على المغرب الأدنى غزو المغرب الأوسط وإرجاعه إلى حظيرة الأمويين. إن الهزيمة الشنعاء التي حلت بكلثوم بن عياض القشيري هي التي سيمنى بها لو هاجم المغرب الأوسط الذي يتمسك بالجمهورية الإسلامية، ويعمل لإنشاء الدولة العادلة التي تسعده، وتجدد سيرة الخلفاء الراشدين في العدل والتمسك بالدين.

وكان الإباضية الجمهوريون في المغرب الأوسط والمغرب الأدنى جماعة واحدة لها خطة واحدة. ولما نشأت دولة أبي الخطاب رأوها دولتهم فبايعوه. وكان عبد الرحمن ابن رستم في القيروان هو واليهم. فرأوا من عدل دولة أب الخطاب وتمسكها بالدين ما حببها إليهم، وشاهدوا كفاءة عبد الرحمن بن رستم والي افريقية والمغرب الأوسط لأبي الخطاب، وعبقريته في السياسة، وتمسكه بالدين في كل أعماله، ورأوا علمه وقوة شخصيته، فأعجبوا به وأحبوه بكل قلوبهم. ولما قضى العباسيون على دولة أبي الخطاب في سنة أربع وأربعين ومائة استاء الجمهوريون في المغرب الأوسط ليجددوا هناك دولتهم، وينشئوا الدولة الرستمية الكبرى التي هي امتداد لدولة أبي الخطاب. فكيف انتقل عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط، وماذا وقع له مع العباسيين، وكيف أنشأ الدولة الرستمية الجمهورية الكبرى التي أسعدت المغرب، ودخل بها عهود قوته وأفراحه، لتمسك أئمتها بالدين، والتزامهم في السياسة سيرة الخلفاء الراشدين؟؟ ! !

1 - انظر الباب 47 (نشأة الإباضية والفرق بينهم وبين الخوارج) من صفحة 393 إلى 399 في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

انتقال عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط

ونشأة الدولة الرستمية

كان عبد الرحمن بن رستم من طلبة العلم الخمسة الذين تثقفوا وتخصصوا في العلم عند الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة في البصرة. وكان عبد الرحمن اعلم أصحابه وأذكاهم، وأبرعهم في السياسة. وقد عرض عليه الجمهوريون في طرابلس إمامة دولتهم قبل أن يقدموا أبا الخطاب فاعتذر إليهم فقبلوا عذره فقدموا أبا الخطاب.[1] وكان عبد الرحمن بن رستم اكبر اعضاد أبي الخطاب في إدارة دولته، وفي تصريف أموره، وفي حل المشاكل التي تستعصي عليه. وكان قاضيا له في طرابلس. ولما فتح أبو الخطاب افريقية التي يسكنها كثير من العباسيين الملوكيين الذين يكرهون الجمهورية الإسلامية، وينظرون بالحقد والغيظ إلى دولة أبي الخطاب. والذين سيثيرون الاضطراب، ويكونون الفتنة، ويثورون إذا وجدوا الفرصة. أنهم ألفوا أن يكونوا هم الأعلين، وان يسودوا ولا يسادوا. إن سياستهم صعبة إنهم كشعلة الجريدة إذا نكست تزاد تأججا وتحرق يد ما سكها![2]أنهم لا يخضعون ولا ينقادون إلا لرجل قوى الشخصية، عبقري حكيم، يبهرهم باقتداره، ويملك قلوبهم بدينه وعدله، ويخشونه أيضا فلا يجترئون عليه. فوجد أبو الخطاب هذه الصفات في عبد الرحمن بن رستم فولاه على افريقية والمغرب الأوسط. فقام بذلك الثغر الخطير خير قيام، فسكنت له افريقية، واستمرأت سياسته، وأحبته لدينه وعدله، وأعجبت به لعلمه، ولعبقريته في السياسة، وبراعته في الإدارة. وأحبه المغرب الأوسط الجمهوري[3] كل الحب، وزادهم تعلقا بدولة أبي الخطاب، وارتباطا بطرابلس التي كانت قاعدة دولته. ولما قضى العباسيون على دولة أبي الخطاب غي سنة أربع

1 - ذكر هذا الشماخي في السير ص 1401 والدرجيني في طبقاته.

2 - جريدة النخلة اليابسة المشتعلة إذا نكستها ازدادت اشتعالا.

3 - إذا أطلقنا الجمهوري والجمهوريين في الفصول الآتية فتريد الإباضية. إن ما كون مذهبهم وجعلهم فرقة ممتازة، واسخط الملوك المستبدين عليهم. إنما هو تمسكهم بالإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية، وإسناد رئاسة الدولة إلى ذي الكفاءة بدون تقيد بالقرشية ولا بعرق من العروق، والتزام الدولة للدين الإسلامي في السياسة والإدارة، وعدم الحكم بالهوى، وإنشاؤهم للدول الجمهورية التي طبقت كل ذلك فكسفت الملوكية التي خرجوا عن ظلمها واضطهادها وربقتها إن هذا هو الذب آثار ثائرة الملوك المستبدين على الإباضية ، فبسطوا فيهم السنة الدعاية الهدامة ثلاثة عشر قرنا كاملة، فخلقوا عقدا وعقائد باطلة في نفوس كثير ممن لا يعرف هذه الحقائق. فليتنبه مغربنا لهذا لكي لا يغتر بما في الكتب القديمة من الدعاية المسمومة ضد الإباضية الجمهوريين الذين يدعون إلى العدل في الحكم والتمسك بالدين. إن تمسكهم بذلك هو الذي آثار الملوك عليهم فعزلوهم لا أقوالهم في الفقه، فان الاختصاص بأقوال خاصة في الفقه والعقائد يوجد عند المعتزلة أيضا وفي كل المذاهب الإسلامية حتى التي رضي عنها الملوك لمسايرتها لهم. سنطلق على الإباضية اسم الجمهوريين فهذا الإسلام هو الذي يدل على حقيقتهم ويطابقهم.



وأربعين ومائة، واستولوا على المغرب الأدنى.علم عبد الرحمن بن رستم أن طرابلس و المغرب الأدنى لا يليق مركزا لدولتهم الجمهورية للأسباب التي بسطناها[1] وأيقن أن المغرب الأوسط الجمهوري القوى هو المكان الذي يصلح للدولة الجمهورية التي يتمناها الجمهوريون في المغرب، لتسوسهم بالعدل، وتتمسك في الإدارة بالدين، وبهدى الخلفاء الراشدين. وكانت خاصة عبد الرحمان، وخاصة الجمهوريين كلهم مقتنعين بهذا الرأي. فخرج عبد الرحمن بن رستم مستترا إلى المغرب الأوسط بعد أن ثارت عليه قابس و القيروان، وقبض عليه عبد الرحمن بن حبيب ليقدمه هدية إلى محمد بن الاشعث.

وكان عبد الرحمن بن حبيب حفيد عبد الرحمن بن حبيب الذي ثار على حنظلة ابن صفوان وملك المغرب الأدنى[2]، كان كأبيه وجده مغرما بالرئاسة، محبا للظهور وكان عدوا لعبد الرحمن بن رستم لإقصائه عن وظائفه، لان من يتهالك على الوظائف ويغرم بالرئاسة، لا يرتضيه الاباضة لوظائفهم، ولا يسدون به ثغورهم. أن القبض على عبد الرحمن بن رستم لا يشفى غليل ابن حبيب فحسب، بل سينيله ارفع الدرجات عند ابن الاشعث وعند العباسيين فيبلغ في دولتهم كل ما يريد من وظيفة عالية، ومقام سام في القيروان؛ولكن الله كان مع عبد الرحمن بن رستم، فحفظه مما دبر له ابن حبيب وكان قد ادخره لإنشاء الدولة التي تحي في المغرب الإمامة الإسلامية،وتحرره من الظلم و الغطرسة والجبروت، وتورثه سعادته وهناءه وقوته،وتدخل به أعراسه؛ فنجا من قبضة ابن حبيب.

قال الشماخي:"وأدرك عبد الرحمن بن رستم (خبر استشهاد أبي الخطاب) وهو بمن معه من أهل افريقية (بقابس) وتفرق أصحابه، وذهب وهو مستخف حتى دخل مدينة القيروان.وقام عبد الرحمن بن حبيب يلتمس عبد الرحمن بن رستم؛ وفر إلى المغرب. قال أبو يحيى ظفر به ابن حبيب فتشفع فيه رجل من أهل القيروان فقال له ابن حبيب: كل حاجة لك عندي مقضية إلا ابن رستم ! فقال: إن لم أسالك ابن رستم فخمن ذا أسألك؟ فأطلقه له. وكان ابن رستم حين (اقترح عليه خاصته في افريقية) تولية ابن حبيب لبعض الأمور (أبى واراهم عدم صلاحه) فحقدها عليه".[3]

فخرج عبد الرحمن بن رستم مستخفيا إلى المغرب الأوسط قاصدا أنصاره والقبائل الجمهورية العتيدة التي تسكن في بقاع تاهرت الرحيبة.

1- انظر هذه الأسباب في صفحة 4 وفي صفحة 239 من هذا الكتاب.

2 - انظر ذلك في صفحة 401 في الجزء الثاني من هذا الكتاب

3 - السير للشماخي ص 132 ط البارونية بالقاهرة.

الصداقة الوثيقة بين عبد الرحمن ابن رستم وبين قبيلة لما ونزوله فيها المغرب الأوسط

وكان عبد الرحمن بن رستم قد قرر أن يكون نزوله على قبيلة (لماية) في جنوب تيهرت. وكانت تربطه بلماية صداقة وثيقة تأكدت أيام ولايته على افريقية والمغرب الأوسط. وكانت لماية ظواعن في افريقية تتنقل فيها سيما في جنوبها ووسطها. وكان قسم منها مستقرا بجزيرة (جربة) وهي مدينتهم نسبت إليهم. فجربة قسم من لماية ولا تزال في جربة إلى الآن قبيلة كبيرة تسمى "الماي" وارى إنها هي لماية فوقع التحريف في الاسم. وجزيرة جربة في الجنوب الشرقي للقيروان مقر عبد الرحمن؛ وبعض منها في المغرب الأوسط بجنوب تيهرت. وكانت لماية تشتمل على فروع كثيرة، وبطون متعددة وكانت جمهورية متحمسة فاتصلت بعبد الرحمن بن رستم فتأكدت بيتهما الإخوة والصداقة، فصار يرى لماية من اكبر أصدقائه. وكانت هي القبيلة التي تتردد عليه من المغرب الأوسط في القيروان، ويتصل به المقيمون منها في (جربة) فصار يراهم آله في المغرب الأوسط. إن كل القبائل الجمهورية فيه أهله وأصدقاؤه، ولكن للماية صلة الإلف بالزيارة والتلاقي. ومن أسباب قصد عبد الرحمن بن رستم للماية إنها مجاورة لقبيلة لواتة، وقبيلة هوارة اللتين ستصبحان عماد الدولة الرستمية مع نفوسة ومزاتة. إن منازل لماية أحسن مكان لنزوله. إن جنوب تيهرت ليس فيه إلا الجمهوريون أنصاره. فإذا جد الجد؟، وطلبه العباسيون فان هذه البقاع تحميه أكثر من غيرها لوجود القبائل الثلاثة المتجاورة فيها. إن الماية هي مقصد عبد الرحمن لنزوله، وكل القبائل الأخرى الجمهورية التي تملأ اغلب المغرب الأوسط أنصاره وجنده. فمن هي لماية؟

نسب لماية ونشرها للمذهب الجمهوري

قال ابن خلدون "لماية. وهي بكن (وقسم) من ولد فاتن بن تامصيت، بن ضرى، بن زحيك، بن مادغيس الأبتر. (فهي قبيلة بترية) وللماية بطون كثيرة (منها) مزيزة ومليزة. (وغيرها) وكانوا ظواعن بافريقية والمغرب. وكان جمهورهم بالمغرب الأوسط مستوطنين بسحومة مما يلي الصحراء وهو قبلة تاهرت وجنوبها. وقد اخذوا برأي الإباضية ودانوا به وانتحلوه. وانتحله جيرانهم من مواطنهم تلك من لواتة وهوارة. وكانوا بأرض (اسرسو) قبلة منداس. وزواغة الغرب منهم. وكانت مطماطة ومكناسة وزناتة جميعا في ناحية الجوف (الشمال) والشرق".[1]

1 - كتاب العبر لابن خلدون ص 120 ج 6 ط بولاق بمصر.

نستطيع أن نستنبط من قول ابن خلدون أن المـاية هب التي حملت المذهب الجمهوري إلى جنوب تيهرت فبثته في جيرانها لواتة و_هوارة. إن تنقل أجزاء منها في افريقية سيما في الجنوب يجعلها تعرف المذهب الجمهوري الذي انتشر في طرابلس سيما جبل نفوسة، وفي جنوب افريقية قبل وصوله إلى المغرب الأوسط. إن هوارة في شرق طرابلس. وكانت من السابقين إلى المذهب الجمهوري. وهي التي أنشأت دولة الحارث وعبد الجبار. وهي أيضا في المغرب الأوسط. ولعل الصلات لم تكن وثيقة بين أقسامه في طرابلس، وأقسامها في المغرب الأوسط لعدم تنقل الطرفين إلى الناحيتين كم كانت الصلات متينة بين أقسام الماية لوجود قسم منها ظواعن بافريقية والمغرب فربطوا الصلات بين أجزاء الماية.

كانت الماية في جربة وهي جزيرتها نسبت إليها. قال ابن خلدون. وقد بقيت (في عهدنا) فرق من الماية اوزاعا في القبائل ومنهم جربة الذين سميت بهم الجزيرة البحرية تجاه ساحل قابس وهم به لهذا العهد).[1]

خروج عبد الرحمن إلى المغرب الأوسط على طريق قسطيلية

خرج عبد الرحمن بن رستم مستخفيا إلى المغرب الأوسط وليس معه من عائلته وأهله إلا ابنه عبد الوهاب وكان شابا مكتملا. وغلامه وكان عبدا شديد الأسر، شجاع القلب، مخلصا لسيده. وفرس واحدة يركبها عبد الرحمن. فماتت الفرس خارج قسطيلية فدفنوها لئلا يستدل بها على طريق عبد الرحمن. ومكان دفنها سمي بعد ذلك قبر الفرس كما ذكر أبو العباس الدرجيني في طبقاته.

قال الدرجيني: (خرج عبد الرحمن هو وابنه عبد الوهاب وعبد لهما خائفين مستخفيين، متوجهين إلى ارض المغرب وليس معهم حمولة ولا مركوب غير فرس واحدة فماتت الفرس في بعض الطريق فدفنوها مخافة أن يقتص أثرهم فيطمع فيهم، وذلك في خارج جهة قسطيلية فسمي ذلك الموضع قبر الفرس).[2]

وكان طريق عبد الرحمن على قسطيلية في الجنوب الغربي للقطر التونسي اليوم، وهي بلاد الجريد. وقد قررنا هذا فيما مضى على طريق الاستنباط والحدس حتى وجدت الدليل على ذلك في طبقات الدرجيني. فواصل عبد الرحمن طريقه على جنوب نقطة فاخترق شمال وادي سوف، وذهب مغربا على شمال (تيقورت) ومدينتي القرارة وبيرريان

---

1 - العبر لابن خلدون ج 6 ص 122 ط. بولاق بمصر.

2 - طبقات الدرجيني ص 16 مخطوط يوجد في دار الكتب المصرية.

من وادي ميزاب إلى مدينة (الاغواط) فاخترق جبال بني راشد من غرب مدينة الاغواط فذهب شمالا على شرق مدينة (آفلو) وغرب وادي شلف.

مكان جبل سوفجج واعتصام عبد الرحمن به

فاستمر في طريقه ذاهبا إلى الشمال فاستقبله وادي (سوفجج) وعين سوفجج التي تنبع من سفح جبل سوفجج وهو جبل من سلسلة جبال بين مدينة (شلالة) شرقا ومدينة (السوقر) غربا؛ وتبتدئ هذه السلسلة بجبل (الناظور) في شرق مدينة (السوقر) فاعتصم بذلك الجبل حتى كان ما كان. هذا هو الطريق القريب الخفي الذي يخترق مناطق أهلها إباضية جمهوريون، يثق بهم عبد الرحمن ويأمن فيها على نفسه وهي الطريق التي كان يسلكها الرستميون وقوافلهم من تيهرت إلى قسطيلية وجبل نفوسة التي كانت تابعة للدولة الرستمية.

هناك طريق آخر معبد يصل القيروان بوهران يمر شمال تيهرت من وهران وعلى جنوب مدينة (بوسعادة) وعلى شمال الأطلس الصحراوي إلى مدينة (طولقة) في الجنوب الغربي لمدينة (بسكرة) ثم يذهب مشرقا إلى مدينة (تهودة) في جنوب بسكرة. ثم ينثني إلى الجنوب الشرقي على شمال الغرسة إلى مدينة (نفطة) من قسطيلية ومنها إلى القيروان مارا على مدينة قفصة في جنوب القطر التونسي اليوم. هذا هو الطريق المعبد الذي يصل شمال المغرب الأوسط بالقيروان وقد ذكره البكري في المسالك والممالك. ولكن لا يمكن أن يكون هذا الطريق هو سبيل عبد الرحمن لأنه طويل وغير آمن. انه يمر على (طولقة) وتهودة وهي مناطق عامرة بالملوكيين الذين يتجنب عبد الرحمن المرور من بلادهم. لقد ذهب مستخفيا، ودفنه لفرسه لكي لا يهتدي إلى طريقه دليل على ذلك، ولا يمكن أن يسلك طريقا معبدة تكثر فيها العيون ويسهل على ابن الأشعث العثور عليه فيها. إن دفن عبد الرحمن لفرسه دليل على انه سلك طريقا غير معبدة وغير معروفة وهي الطريق التي =كرنا. ثم إن عبد الرحمن قد قصد (الماية) لنزوله، وهي في جنوب تيهرت، واقرب طريق إليها هي التي ذكرنا. ولا يمكن أن يسلك إليها من الشمال ومن الطريق البعيدة وهو يريد الوصول سريعا إلى الماية والى شمال المغرب الأوسط في نواحي تيهرت حيث القبائل الجمهورية العتيدة التي تحميه.

مكان جبل سوفجج الذي اعتصم به عبد الرحمن وموقعه الحقيقي

أما جبل سوفجج، فقد قلت في صفحة 22 من هذا الكتاب انه غير معروف المكان. فأرسلت بعد ذلك إلى ابن عم لي يقطن في مدينة (بيردو) في شرق تيهرت زفي بقاعها

فسأل الثقات الذين لهم علم بتلك النواحي ومعرفة بجبالها وسهولها فاخبروه أن اسم (سوفقيق) تحريف سوفجج يطلق اليوم على واد تجري فيه عين تنبع من سفح جبل تسمى (عين سوفقيق) وهو في جنوب تيهرت بين مدينة (شلالة) شرقا ومدينة (السوقر) غربا. والجبل الذي تنبع منه (عين سوفقيق) ويجري في سفحه (وادي سوفقيق) هو الجبل الرابع من سلسلة الجبال التي تمتد بين مدينة (السوقر) في الجنوب الغربي لمدينة تيهرت، ومدينة (شلالة) في الجنوب الشرقي منها. والجبل الأول جبل الفائجة، ثم جبل ثالث يليه من الشرق جبل رابع هو الجبل الذي تنبع من سفحه عين (سوفقيق) ثم تتصل السلسلة شرقا إلى جهة شلالة. وفي الجنوب من هذه السلسلة سلسلة أخرى من الجبال. وبين السلسلتين يجري وادي (سوفقيق) الذي يبتدئ من عين (سوفقيق) ويذهب شرقا إلى وادي (الفرعة) ومنه إلى وادي الوحش فتكون كلها واديا يمر جنوب مدينة (شلالة). ووراء سلسة الجبال الشمالية التي منها الجبل الذي تنبع منه عين سوفقيق. وفي جهة الشمال واد آخر يسمى (قسني) يمر شمال السلسلة مشرقا فيلتقي بوادي سوفقيق، والفرعة، ووادي الوحش في موضع يقال له (النفيخة) قرب شلالة فتكون هذه كلها واديا واحدا يجري في جنوب شلالة.

وارى أن الجبل الذي تنبع منه عين (سوفقيق) ويجري في سفحه وادي سوفقيق هو جبل سوفجج الذي اعتصم به عبد الرحمن بن رستم. إن الدرجيني في طبقاته قال: (ولما وصل عبد الرحمن ومن معه وادي سوفجج وهو جبل منيع قصده عبد الرحمن وتحصن به. ثم قال: إن عبد الرحمن لما حصل بوادي سوفجج واعتصم بالجبل لحقه هنالك ستون شيخا من شيوخ الإباضية في طرابلس).[1]

ولقد تغير اسم سوفجج بطول الزمان فصارت العامة تنطق الجيم من سوفجج قافا كما هي عادة العامة في المغرب تقلب الجيم قافا في كثير من الأسماء. فسمته سوفقيق.

إن هذا الجبل جبل عين سوفجج في جنوب تيهرت مواطن لماية التي قصدها عبد الرحمن . انه جبل منيع لد درع وحصن من سلسلة الجبال الجنوبية التي تحوطه من الجنوب، ومن الواديين وادي عين سوفجج من الجنوب، ووادي قسني من الشمال، وقريب من مواطن لماية ولواتة، وهوارة في جنوب (تيهرت) ومن مواطن الق(بائل الجمهورية كلها في أنحاء تيهرت. انه أحسن مكان يحصن عبد الرحمن. ثم انه كثير الماء فإذا حاصره ابن الأشعث من الجنوب فانه يجد الماء في الشمال في وادي قسني. من يدري؟ لعل عين

1 - طبقات الدرجيني ص 17 في نسخة دار الكتب المصرية المخطوطة.

سوفجج تنبع من وسط الجبل لا من سفحه، وكان الجبل ملتف الأشجار تظلل العين، فيستقي أصحاب عبد الرحمن دون أن يراهم احد.

إن جبل سوفجج هو هذا الجبل الذي رسمناه في الخريطة[1] في جنوب تيهرت. وهو جبل بين مدينة (السوقر) غربا ومدينة (شلالة) شرقا. ويؤيد هذا ما قاله شيخ الصحافة الوطنية في الجزائر المجاهد الكبير المخلص والمؤرخ العالم الشيخ أبو اليقظان إبراهيم حفظه الله من أن احد الثقات العالمين بنواحي تيهرت والطرق المؤيدية إليها اخبره أن جبل سوفجج في ناحية شلالة.

اعتصام عبد الرحمن بجبل سوفجج والتحاق الجمهوريين به من المغرب الأدنى والأوسط

وكان عبد الرحمن بن رستم يعلم أن ابن الأشعث لابد وان يطارده ليشتبك به قبل أن يلتف حوله كل الجمهوريين في المغرب الأوسط وقبل أن ينظم صفوفهم، ويجمع كلمتهم، فيكونون له درعا واقية، ويكون بهم للمغرب الأوسط حصنا يرد عنه الأعداء، ويقيه من كل المناوئين. فآوى إلى جبل سوفجج المنيع فاعتصم به، فجعله معسكره ومقره. وكان كثير من خاصة الجمهوريين، وكبار العلماء في طرابلس وجبل نفوسة وفي جنوب افريقية قد خرجوا إلى المغرب الأوسط نجاة بأنفسهم من فتك ابن الأشعث الذي آلى أن يقضي على الجمهورية الإسلامية في المغرب، فصار يقصد خاصة الجمهوريين وعلماءهم ورؤساءهم فيقضي عليهم، وما علم أن الجمهورية الإسلامية والإمامة العادلة يغرسها في النفوس الدين الإسلامي العظيم الذي أمر بالعدل والمساواة، وحث على الشورى في الحكم؛ وأنها باقية في النفوس بقاء الدين لا تستطيع يد الطغاة أن تزيلها، وأنها بطغيانها تزيدها تمكنا في القلوب، ورسوخا في الصدور، كما تزيد اليد التي تبعد الكأس الباردة عن الظامئ لهفة إليها، ونزوعا نحوها ! فسمع أولئك العلماء وتلك الخاصة بإيواء عبد الرحمن بن رستم إلى جبل سوفجج فقصدوه وانضموا إليه، وفرحوا بنجاته، واستبشروا بانتقاله إليهم، وعملوا أن وطنهم[2] سيكون ميلا دولتهم الجمهورية التي ينتظرونها، وان عبد الرحمن هو رئيسهم المنشود، فاستعدوا للدفاع عنه والموت دونه إن اقتحم ابن الأشعث جبلة عليه. وسمعت لماية ولواتة وهوارة والقبائل الجمهورية في المغرب الأوسط بقدوم عبد الرحمن إليهم، واعتصامه بجل سوفجج فأسرعت إليه خاصتهم ورؤسائهم بالزاد الكافي، والسلاح الواقي، فكانوا معه في الجبل يحرسونه

1 - انظر الخريطة في آخر الكتاب.

2 - إن المغرب الأوسط وطنهم وإن كانوا من المغرب الأدنى لان المغرب الكبير وطن واحدة وعائلة واحدة عند أجدادنا.

حراسة الأبناء للأب المحبوب، ويستعدون للموت دونه قبل أن ينفذ إليه أي مكروه. فغزر جمع عبد الرحمن بمن توافد عليه من المغرب الأدنى والمغرب الأوسط، فصارت له قوة حربية يستطيع أن يسحق بها ابن الأشعث إذا تسلق الجبل إليه.

محاصرة ابن الأشعث لعبد الرحمن ابن رستم

وكان ابن الأشعث يسأل عن مقصد عبد الرحمن ومكانه فعلم انه في سوفجج فأسرع إليه، فحاصره في جبل سوفجج وشدد حصاره عله يؤثر فيه وفي أنصاره فيستسلمون، ويرعبه بكثرة جيوشه فيعطي بيده، فلم يؤثر فيه على طول مدة الحصار إلا تأثير الوادي الذي يطوق سفوح جبل أشم ويصدمه بأمواجه ليذيبه وهو صوان يفل الحديد!

وكان ابن الأشعث قد خندق على نفسه خوفا من هجوم القبائل الجمهورية عليه من خلفه، وأهل الجبل من أمامه فيقع بين نارين. إن تحصين ابن الأشعث لنفسه بالخندق يدل على انه مناطق القبائل الجمهورية وهو جنوب تيهرت كما قررنا.

وكان ابن الأشعث يمني نفسه أن تنفذ الازواد من عبد الرحمن وأصحابه، ويضيقوا ذرعا بالحصار، فيستسلمون أو ينزلون لحربه وقد فتك بهم الجوع واثر في حماسهم الحصار فيقضي عليهم في معركة صغيرة. ولكن عبد الرحمن وأصحابه كانوا اسودا، وكانوا مثل سوفجج لا يتزلزلون، ولا يضعفون. إن كل سحاب الدنيا لو أرعد عليه ورمى بصواعقه ما زاده إلا صلابة وشدة، وأورث صخوره ما يجعلها صوانا قاسيا يورى بالنار.[1]

تسلط الأمراض على الجيش الملكي واندحاره

وكان الله مع عبد الرحمن بن رستم فسلط على جيش ابن الأشعث الوباء، وفتكت بجيشه الحمى، ووقع في بلاء عظيم. فخاف أن يهجم عليه عبد الرحمن، وينثال عليه المغرب الأوسط الجمهوري وجيشه في علته، فيقضي عليه. فرجع أدراجه إلى القيروان. فنزل عبد الرحمن بن رستم فذهب إلى لماية فنزل في رحابها، فأسرعت إليه وفود القبائل الجمهورية من أنحاء المغرب الأوسط فاكتنفته اكتناف العشب للغدير، وأحاطت به إحاطة الذراع الملهوف لعنق حبيبته، تكرع من علمه، وتتزود من روحه وترى فيه القائد والإمام المنشود الذي سيجدد دولتهم الجمهورية التي يرجون لأنفسهم في ظلها كل عز وسعادة وهناء.

1 - كنا ونحن صغار نعتقد أن حرار الجبل السوداء التي تجري إليها إذا خرج بنا أستاذنا إلى ظاهرة المدينة فتسلقنا الجبال، فالتقطنا من صوانها الأسود فقدناه ليورى؛ أن سبب اسوداد الحرار وتكون الصوان من الصواعق التي تتنزل على الجبل فتورثه نيرانه. انه على هذه العقيدة الطفلية بنينا الصورة الشعرية.

ابتهاج المغرب الأوسط الجمهوري بوصل عبد الرحمن وعزمهم على إنشاء دولتهم العادلة

وكان المغرب الأوسط مستعدا لإنشاء دولته الجمهورية. فتطلعت أنظار العامة كلها تتتبع مساعي زعمائهم في مفاوضة عبد الرحمن لإنشاء دولتهم. فدعا أولئك الزعماء عبد الرحمن لإنشاء دولة جمهورية تتمسك بالدين، ويسعد بعد لها ونزاهتها في ظلها كل المسلمين. فأجابهم إلى ذلك فرأوا أن يبتدئوا ببناء مدينة تليق عاصمة لدولتهم وقاعدة لها قبل أن يعلنوا الدولة بمبايعة إمامها.

بناء تيهرت الحديثة عاصمة للدولة

وكان في المغرب الأوسط مدن كثيرة ولكنها صغيرة لا تليق عاصمة، وفي أماكن لا تتسع لامتداد العاصمة الواسعة التي يرونها لدولتهم الكبرى. إنها ستفتح ذراعيها لكل المسلمين. وسيرى المسلمون عدلها ودينها، وإخوتها الإسلامية التامة وحضارتها وجمالها موقعها فيسرعون إليها من المشرق والمغرب إسراع النحل إلى الزهور الأريجة والطير الملهوف إلى العين الصافية المباحة. فلا بد أن تكون في أبراج يتسع لامتداد العاصمة، وفي مكان منيع تحوطه جبال وحصون طبيعية تجعل تيهرت تقي نفسها، وتدفع الأذى عنها كما تدفع المقلة التي يحفها جفنها واشفارها.

تيهرت القديمة وأحوالها

وكان في المغرب الأوسط مدينة تيهرت القديمة. وهي مدينة بربرية بنيت في ربوة فاعتنى بها ملوك البربر قبل الرومان فحصنوها فكانت من المراكز المهمة في المغرب الأوسط، كما اعتنى بها الرومان والروم فجعلوها مقر أسقفية نصرانية في المغرب الأوسط. وكانت هذه المدينة من حصون المغرب المنيعة لعلو أسوارها، وللربو التي بنيت فيها وقد غزاها سيدنا عقبة بن نافع رضي الله عنه في هجومه على المغرب الأوسط فاحتلها وكانت عاصمة نواحيها حتى نشأت تيهرت الحديثة فاخملتها فصارت مدينة صغيرة.

وكانت هذه المدينة قبل الدولة الرستمية تنسب إلى الأمراء الذين يسودون فيها فان المغرب الأوسط الجمهوري قبل نشأة دولة أبي الخطاب وبعد انفصاله عن الدولة الأموية في آخر أيامها كان منقسما إلى إمارات. ففي كل إمارة رئيس يدير شئونها ومعه مجلس القبائل يعينه في الحكم والإدارة، ويراقب الأمير ويعينه في المشاكل الكبرى. وكانت تيهرت القديمة عاصمة لإحدى تلك الإمارات. وقد تكون الإمارة متكونة من مدينة واحدة وأطرافها، ومن الأرياف التي تتصل بها. وقد نسبت تيهرت القديمة إلى عب

الخالق. ونسبت إلى ابن بخاتة. وارى أن هؤلاء أمراؤها أيام استقلالها قبل الدولة الرستمية أو بعدها. قال ياقوت الحموي: "تيهرت الحديثة، وهي على خمس أميال من تيهرت القديمة وهي حصن ابن بخاتة".[1]

وقال ابن حوقل: "تيهرت. مدينتان كبيرتان إحداهما قديمة، والأخرى محدثة والقديمة ذات سور، وهي على جبل ليس بالعالي، وفيها كثير من الناس، وفيها جامع"[2] وقد خربت تيهرت القديمة كما خربت تيهرت الحديثة بالفتن. وفي مكان تيهرت القديمة بنيت مدينة (تيارت) اليوم. وتيارت اسم فرنسي محرف عن تيهرت. ليت دولتنا الجزائرية تعيد لها اسمها العربي المجيد.

وكانت تيهرت القديمة لبرفجانة[3] قوم من البربر. ولما وصل عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط وأراد بناء مدينة تكون عاصمة الدولة بداله ولخاصته أن يجعلوا تاهرت القديمة عيب العاصمة فيبنوا حولها، ويوسعوا نطاقها. إنها في مكان منيع، وحولها امكنة فسيحة تستطيع أن تمتد إليها. فشرعوا في البناء، ولكن مانعا يمنعهم فتوقفوا. قال البكري: "تاهرت القديمة وهي حصن لبرفجانة. وهو في شرقي الحديثة ويقال أنهم لما أرادوا بناء تاهرت كانوا يبنون النهار فإذا جن الليل وأصبحوا وجدوا بنيانهم قد تهدم فبنوا حينئذ تاهرت السفلى وهي الحديثة وهي على خمسة أميال من القديمة".[4]

لعل أهل المدينة قد علموا أن مدينتهم إذا كانت عاصمة فستفتح أبوابها لكل الطوائف، ويغشاها كل الناس الصديق منهم والعدو، ومن سينفخ فيها الصلاح بصلاحه، ومن يكون مريضا فيحمل إليها أمراضه، ويكيد ويشيع الفتنة فيها. فتصاب بأزمات وفتن كالتي ستصاب بها تيهرت الحديثة التي استقرت فيها طوائف كبيرة من الملوكيين العباسيين الذين أرسلتهم بغداد والقيروان إلى تيهرت طابورا خامسا لها، وجواسيس وأعداء يبثون الفتنة فيها. لقد خشي أهل تيهرت القديمة من هذا. فأبوا أن تكون مدينتهم هي العاصمة. فعمدوا إلى بعض الأبنية التي شرع عبد الرحمن وأصحابه في بنائها فهدموها، وإيذانا منهم بعدم الرضا أن تصبح مدينتهم عاصمة لكل الناس.

---

1 - معجم البلدان لياقوت ج 2 ص 354 ط مطبعة السعادة بالقاهرة.

2 - المسالك والممالك لأبي القاسم بن حوقل ط ليدن 1872 م.

3 - لم نعثر على هذه القبيلة في ابن خلدون رغم بحثي الشديد. ولعلها من صنهاجة فقد ذكر البكري أن لهم مدينة تاجنة في ناحية تنس وتلك النواحي لصنهاجة.

4 - المسالك والممالك ص 67 ط الجزائر 1911.

ورع عبد الرحمن وخاصة الجمهوريين وعفتهم

وكان عبد الرحمن بن رستم وأصحابه يسيرهم الدين في كل أعمالهم. وكانوا إعفاء نزهاء. فلم يرغموا أهل المدينة على ما أرادوا. أنهم أقوى من أهل المدينة، والمصلحة العامة تجيز لعبد لرحمان أن يرغمهم؛ ولكنه جاء ليحمل راية الديمقراطية الإسلامية، والعدل والحرية، وكل ما قضى عليه الملوك المستبدون في المغرب من معاني الإسلام. فما كان له أن يرغم أهل المدينة على ما يكرهون. ثم عن تيهرت القديمة مدينة عتيقة، ليست على الهندسة الإسلامية البارعة، ولا في درجة الحضارة الراقية التي يريدها عبد الرحمن وأصحابه لعاصمتهم. إنهم مهما ادخلوا عليها من إصلاحات ونظام فإنهم لا يجعلونها على الشكل الذي يريدون، وعلى النحو الذي تقتضيه الحضارة الإسلامية الراقية، وما تفرضه أذواقهم التي الفت الحضارات القديمة، والحضارة الإسلامية التي عاشروها في المشرق والمغرب. إن صلاح العتيق أكثر تعبا وإرهاقا من إنشاء الحديث، ثم لا يكون كما تريد. وهل تؤثر المساحيق وأنواع التجميل في العجوز فتكون غادة حسناء يتيه خداها بلون التفاح، وصدرها بشكله الفتان!؟ فعدل عبد الرحمن عن تيهرت القديمة. فخرج مع أصحابه يرتادون مكانا خاليا يبنون فيه عاصمتهم على أحسن نظام، وبهندسة وجمال، وسعة تقتضيها حضارة الإسلام الراقية، وترضى طموحه وطموح الأمازيغ الذين لا يقنعون بالقليل، ولا يقعدون عن وصول الذروة في كل الأشياء التي يستطيعونها. فاختاروا مكان تيهرت الحديثة، وهي على بعد خمسة أميال في الجنوب الغربي للقديمة. فلماذا اختار عبد الرحمن وأصحابه مكان تيهرت للعاصمة؟

مزايا مكان تيهرت الحديثة وحسن موقعها

إن القبائل الجمهورية منبثة في أنحاء المغرب الأوسط كله من حدود الزاب الغربي مكان مدينة مسيلة اليوم إلى غرب وهران، ومن البحر إلى الصحراء. فكل هذه البقاع الفسيحة بلادها، فيستطيع عبد الرحمن وأصحابه أن ينشئوا فيها عاصمتهم، فلا يعارضهم احد، ولا يمنعهم إنسان؛ ولكن عبد الرحمن وأصحابه اختاروا مكان تيهرت لخصائص يمتاز بها لا توجد في غيره. منها انه محاط بفياف طويلة عريضة من الأراضي الزراعية الخصبة. إنها أراض من أجود ما خلق الله للزراعة. وقد اعتنى بها البربر فزادوا في صلاحها وخصبها. إن هذه الأراضي هي التي تتسع للنهضة الزراعية العظيمة التي يريدها عبد الرحمن وأصحابه لدولتهم ولعاصمتهم الكبرى. ومن مزايا ذلك المكان جودة المناخ. انه مكان مرتفع صحي ليس فيه المستنقعات، ولا مال يتعكر به الجو، ويفسد به الهواء. وهو كثير العيون الطبيعية التي تنبع من الجبال بالمياه الصافية الصحية

فتكفي العاصمة في شرابها. ويجري فيه نهر مينة الذي لا يتوقف عن الجريان، فهو الذي يدير ارحاءها، ويحمل أقذارها بعيدا عنها، وتنتفع به في سقي مزارعها. ويلطف جوها مع الجبال الكاسية بالغابات. ثم إن مكان تيهرت في سفح جبل جزول العالي. وهو حصن طبيعي لها يقيها من غارات الأعداء.

وحول المكان جبال أخرى تكسوها الغابات، فتورث للمكان سحره وجماله، وتراها على هوامشه بدهمة الغابات أبهى من دهمة الناصية على جبين الحسناء! إن الجمال هو ما يجب أن يتوفر في مكان العاصمة فيرضى عبد الرحمن وأصحابه. إن المغرب الجميل قد أجج عاطفة حب الجمال في أبنائه، أتراهم يرضون لعواصمهم بالأمكنة الخالية من الجمال. إنه مكان يجرجر فيه نهر مينا، وتغني فيه العيون المتسلسلة في أنحائه، وتنبت فيه أنواع الرياحين فيعبق جوه بالعطر، وتتعانق فيسه الأشجار الحالية بالزهور الجميلة (كالدفلة) إنها شجرة لا تخلع نضارتها وورودها الحمراء، فهي دائما كالحسناء بحمرة خديها وشفتيها! وقد زرت مكان تيهرت في 16 من شهر ربيع الأول في السنة الماضية 1382 هـ وهي أطلال دراسة فوجدت حول عين السلطان، وعلى ضفاف نهر مينة، وفي رباها وأنحائها أنواعها من الرياحين البرية لها رائحة ذكية، ومنظر جميل. وقد حدثني مرافقي السيد احمد العساكر بان جبالها ورباها تنبت أنواعا كثيرة من النباتات الطبية النافعة إلى اليوم.[1]

وكان نهر ميناء يجري في أنحاء تيهرت في سكون، وأشجار (الدفلة) بزهورها الحمراء تغطية فيظهر أحيانا ثم يختفي كما يظهر ساق الحسناء من أثناء ثوبها المزركش الجميل! وكان الطير يتنقل في أشجارها منتشيا بجوها فيرسل أغاريده فتمتزج بجرجرة العيون وحفيف الغصون، فيملأ سمعك ما يملؤك طربا، ويضاعف النشوة التي تملؤك بها عيناك! وتراك تحس بجو تيهرت رطبا بالماء، عطرا بالريحان، فتشعر بنشوة كالتي يجدها العروس في مخدعه بالعطر، وبجمال يشغلك عن نفسك، وينسيك كل الهموم.

ومن خصائص هذا المكان التي اختاره من اجلها عبد الرحمن وصحبه انه يتوسط التل[2] والصحراء، ففيه من التل خصبه ولطافة جوه، وفيه من الصحراء جوها الصحي، ومناخها النقي. إن القبائل الجمهورية منتشرة في الصحراء أيضا، فلا بد بقري العاصمة منها. والصحراء هي طريقها إلى جنوب افريقية، والي جبل نفوسة جناح الدولة الشرقي،

1 - كان ذلك في يوم السبت 18 أغسطس 1962م . فجب أطلال تيهرت ونواحيها لأكتب عنها وكانت هذه الزيارة هي الثانية لزيارتي لها في سنة 1938م.

2 - المراد بالتل شمال الأطلس الصحراوي إلى البحر. ويسمى التل في الجزائر لكثرة تلاله ورباه.

والمناطق التي يسكنها الجمهوريون المتحمسون. إنها لابد أن تنضم إلى دولتهم، فيجب إنشاء العاصمة في مكان قريب منهم. والصحراء هي طريقها إلى السودان. تلك الأقطار الواسعة التي ستنشر فيها دين الله، وتنقل إليها حضارة الإسلام وتتاجر مع أهلها فتثريهم وتغتني بهم!

ثم إن قرب عاصمتهم من الصحراء يورثها متانة أخلاق أهل الصحراء، وتمسكهم بالدين، وكرم النفوس، والنشاط والشجاعة، والاعتماد على النفس والتضحية، وكل ما تمتاز به الصحراء من أخلاق عظيمة، وذكاء ونبوغ لا يوجد في بلاد التل بالشمال.

إن هذا المكان الذب يتوسط الشمال والجنوب، والساحل ببحره الصاخب، والصحراء برمالها الهادئة، وجبالها الساكنة، هو الذي يورث لتيهرت وللدولة كلها خصائص الشمال الجميلة، ميزاب الصحراء العظيمة. انه مكان جميل صحي خفيف الروح، كل ما فيه قد فتح ذراعيه لعبد الرحمن وصحبه فشعروا بانجذاب إليه، وبارتياح فيه فاتفقوا على البناء في رحابه. ولكن عبد الرحمن وصحبه إعفاء نزهاء لا يبنون في مكان بدون رضا أصحابه.

طلب عبد الرحمن من مالكي تيهرت البناء فيها وورعه في ذلك

وكانت خاصة عبد الرحمن يعرفون أن هذا المكان ملك لقوم من صنهاجة ومنداس من بربر تلك النواحي. فاستدعاهم عبد الرحمن فأعلمهم بما أراد في أراضيهم. فاسألهم بيع المكان، وأعلمهم بما يكون لهم من اجر عند الله، ومجد في الدنيا، بهذه العاصمة التي ستحمل لواء الدين، وتنشر العدل والسعادة والرخاء في المغرب، وتكون مظهرا لعظمة الإسلام ورقيه؛ ولكن الأرض والوطن للبربري الوفي لبلاده، المتعلق بمسقط رأسه، جزء من روحه، بل هي روحه وسويداء قلبه. إن هذه الأرض الفسيحة ارث أجدادهم، ولدوا فيها، ونشأوا في رحابها، فهي وطنهم. أنهم يحسونها جزءا منهم، كيف يبيعونها فيشعرون إنها ملك لسواهم، ويحسون بالغربة فيها؟! فاعتذروا لعبد الرحمن وصحبه، وأبوا بيع الأرض لهم. فاقترح عليه عبد الرحمن أن يكون لهم دخل معلوم من أسواقها، وغلات أراضيها، وتكون الأرض لهم يشعرون بملكها ويأذنون لهم في البناء فيها. فوافق الصنهاجيون ومن معهم من مناداسة على هذا الحل الذي لا يشعرهم بالغربة في ارض أجدادهم، وفيه مع ذلك الأجر الجزيل لهم. إنهم لو باعوها لكان أجرها للقبائل التي تتبرع بثمنها فيحرمون الأجر الجزيل. إنها ستكون عاصمة الدين والعلم والعدل وكل ما يقوي الإسلام ويظهره. فكل ما يقع فها من أنواع البر يكون لهم نصيب من أجرها.

إن ما يأخذونه من الأسواق والغلات جزء ضئيل من الأجر، وبقية ذلك، وهو الأجر الجزيل الذي يرضيهم، هو ما يرقم في صفحات حسناتهم عند الله، وتنقل به كفة أعمالهم الصالحة في الآخرة، وتعلو به درجاتهم في الجنة. فمدوا أيديهم إلى عبد الرحمن فاصفق عليها، وكان اصفاقه تصفيقا لقرب ميلاد عاصمتهم، والمدينة الكبرى التي تكون قاعدة دولتهم. فجاب عبد الرحمن وصحبه في المكان فدرسوه فخططوه، ورسموا خريطة لمدينتهم، فعينوا مسجدها، ومدارسها، ودور الحكومة فيها، وأسواقها وشوارعها، وأبوابها، وكل ما تستلزمه عاصمتهم التي يريدونها وجها للحضارة الإسلامية الراقية، ومظهرا للجمهورية تكسف بع العواصم الملوكية المتكبرة.

أحوال المغرب الأوسط وازدهار الحضارة فيه منذ القدم

وكانت تيهرت شمالها وجنوبها وشرقها وغربها محفوفة بمدن كثيرة متحضرة راقية، ولم يكن المغرب الأوسط بلدا بدائيا خاليا من العمران، ولا كان أهله على البداوة لا يعرفون الحضارة. لقد عرفوا الحضارة واغرموا بها منذ الدولة البونيقية التي نشأت في قرطاجنة في القرن التاسع قبل الميلاد، وقبل الإسلام بأربعة عشر قرنا، وأنشأوا دولا كبرى ورثت حضارة قرطاجنة وزادت عليها. ولما جاءهم الرومان والبيزنطيون تمسكوا بما عندهم من حضارة القرطاجنيين التي نشأت في المغرب، وكانت أليق بمزاجهم فزادوا إليها ما اقتبسوه من حضارة الرومان والبيزنطيين مما يوافق مزاجهم، ويليق بطبيعة أرضهم. إن المغرب الكبير كان مهد الحضارات القديمة، وأهله قوم متحضرون يحبون المدينة والعمران، ويطمحون دائما إلى التقدم والرقي، سيما المغرب الأوسط فان الله قد كون من أسباب الغنة بخصب أرضه، وحسن موقعه، ورواج التجارة فيه، ما يجعل أهله على الحضارة والمدنية، وعلى معيشة راقية، وحياة طيبة، إن رقيهم وحضارتهم هو الذي رفع رؤوسهم، وطمحوا لتكوين الدولة الكبيرة التي تعدل فيهم؛ وعزتهم وإباءهم بالغنى هو الذي أثارهم على الأمويين لما ظلموهم واحتقروهم، وأبعدوهم عن الرئاسة وحصروها في قريش وحدهم، ووضعوا لذلك الأحاديث المكذوبة وجعلوه دينا لا تجوز مخالفته، وشريعة يحرم الخروج عليها.

إن الأمم الجائعة الضعيفة، والشعوب البسيطة الجاهلة، والأقطار التي تغلب عليها البداوة هي التي تسكت عن السياط الذي ينهال عليها، ويشغل حب الرغيف قلوبها فلا يطرقه حب الرئاسة، وتخفض الحاجة رأسها فلا تثور للصفعات واللكمات! وترى الشعور بالحاجة يورثها الشعور بالنقص فتخضع وتخنع، وتسكن وتستكين، لا ترفع رأسها إلى المعالي، ولا تحدث نفسها بالرئاسة. أما الأمم الغنية التي خلقها الله كاهل المغرب في بلد

غني جميل، فأثرت بخصب أرضه، وأنهالت عليها الأموال بالتجارة لحسن موقعه، فإنها لا ترضى بالذل، ولا تخضع للظلم، سيما إذا كانت متينة الأخلاق كالمغرب، لم تنغمس في مفاسد الحضارة فتميع وتنحل أخلاقها وتفسد طباعها. وإذا ابتليت بالمستعمر الذي يمتص خيراتها، ويستذل رقابها، ويطؤها برجله، ويعمل لمحقها من الوجود كما ابتلى بذلك الأمازيغ؛ فعلموا أن الجهل هو الذي قيدهم للاستعمار، وان العلم والعمل هو سبب تحررهم فإنهم لابد أن ينهضوا ويرتقوا، ويقبسوا من المستعمر أسباب قوته وحسناته ومآثره.

إن ألاستعمار اللاتيني الحقود الجهنمي كاستعمار الرومان والروم قديما للمغرب، والاستعمار الفرنسي والايطالي والاسباني الحديث له، وكل أنواع الاستعمار هو اللص الذي يطأ في الظلام بعنف على صاحب الدار فينتبه من نومه العميق، وهل بعد الانتباه إلا الوثوب؟.

إن الفتح الإسلامي لما ابتدأ كان البربر قد نهضوا نهضتهم الكبرى، وابتدأوا في إنشاء دولهم الراقية، لان مكاوي الاستعمار قد فتحت عيونهم، وكان المغرب على الحضارة لا على البداوة، وكانوا على الاستقلال، يحكمهم أمراؤهم، سيما المغرب الأوسط الذي لم يكن مقرا لدولة (جرجير)[1] غنه ليس لجرجير سلطان إلا في المدن الساحلية التي يكثر فيها الروم، ثم هو سلطان ضعيف يتملق البربر ويستعطفهم، وينظر إليهم بعين المساواة. أما تيهرت ونواحيها فقد كانت تحت أميرها (مصيناص) البربري الرجل القوى الذي لقب نفسه (ملك البربر والرومان) هذه هي حالة المغرب عامة في وقت الفتح الإسلامي. فجاء الإسلام فأكد عزة البربر ونهضتهم وطموحهم، وزاد لرءوسهم رفعة، ولحبهم للحضارة والتقدم تأججا، فاستمروا في طريق الحضارة الذي عرفوه، مقتبسين من حضارة الإسلام كل ما يصلهم، وكل ما يعرفونه من دينهم الحنيف، كطلب العلم والبلوغ فيه أعلى الدرجات. "انه فرض على كل مسلم ومسلمة" هذه هي عقيدتهم فيه ! والعلم هو أم الحضارة وأبوها، وسبب كل مدينة، وهو القوة التي ما تسلحت بها أم إلا كانت صواريخ مشتعلة لا تبقى في الحضيض بل تسري بين النجوم.

إن المغرب الجميل بطبيعته الساحرة، وبحضارته الراقية، يقوي عاطفة حب الجمال في أهله، ويرهف إحساسهم فيعجبون بالحضارة فيقبلون عليها، ويستولي على قلوبهم حب المعالي فيعملون لبلوغها.

هذا هو المغرب الكبير الجميل الخصب! قد توجه الله بالرياض الغناء، وبالغابات

1 - انظر دولة جرجير في صفحة 11 من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

الكثيفة، وبالجبال العالية الكاسية بالأشجار، لا يتصاعد منه الغبار الذي يتطامن وينزل إلى الثرى، ولكن يلد للسماء سحابها يرتفع إلى النجوم. وهل الأمازيغ الأباة الأقوياء إلا ذلك السحاب! !

كان المغرب الأوسط كما كان المغرب الكبير عامرا بالمدن الكبيرة، وبالقرى المنتشرة في سهوله وجباله. وكان بلد عمارة وبناء وحضارة، غير أن تلك المدن بنيت لسكانها، ولم تبن لتكون عاصمة إسلامية كبرى تفتح ذراعيها لأهل المشرق والمغرب، ولكل من يريد العدل والمساواة والديمقراطية الإسلامية الكاملة، ومن ينشد حياة الرخاء والسعادة والحضارة الإسلامية الراقية، في ظل دولة يتمسك أئمتها كل التمسك في السياسة بالدين، ويلتزمون في كل أمورهم هدي الخلفاء الراشدين! لذلك بحث عبد الرحمن وصحبه عن مكان رحب يسع عاصمتهم الكبيرة، ومن سينهال عليهم من المسلمين من المشرق والمغرب. فوجدوا ذلك المكان الذي وصفته لك. وبعد تخطيطه في هندسة بارعة، شرعوا في البناء فيه. فشمرت القبائل الجمهورية للبناء، وانتقلوا من بلدانهم وقراهم فحلوا في تيهرت الحديثة. هذه المدينة الوليدة التي تبسم لهم بسمات الوليد التي تسحر الأبوين، وتنسيهما كل جمال ومتعة في الحياة، فيعكفان عليه. فعكفوا على عاصمتهم يبنون فيها للحكومة مساجدها ومدارسها ودور حكومتها. وسورها ومبانيها العامة؟، ولأنفسهم الدور والقصور، والمتاجر الكبيرة، والحدائق الغناء، والمزارع الواسعة. فشبت تيهرت وترعرعت ووقفت على قدميها، ومشت إلى قنتها، فصارت غادة المغرب الفتانة، متسربلة بالشباب والجمال. لها من سمعتها العطرة في العالم رائحة التفاح العطر الجميل الذي بدا بحمرته الفتانة في خديها، وبشكله الجميل علامة للشباب والنضوج في صدرها الناهد الفتان! فماذا قال المؤرخون والرحالون القدماء الذين عاصروا تيهرت وشاهدوها، أو نقلوا عن الثقات أخبارها؟

وصف المؤرخين القدماء والجغرافيين لتيهرت العاصمة

قال شمس الدين المقدسي في كتابه النفيس: (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) وقد ألفه في أسلوب أدبي رشيق، وفي دراية ونزاهة في سنة خمس وسبعين وثلاثمائة من الهجرة. يصف تيهرت العاصمة، ويبن محاسنها، ويصف إقليمها وما فيه من المدن العامرة. قال: "تيهرت![1] هي اسم القصبة (والعاصمة) أيضا، وهي بلخ[2] المغرب،

1 - من المؤلفين المشارقة من يسمى تيهرت تاهرت بالألف. والمشهور والصحيح والجاري على لسان المؤلفين المغاربة كالشماخي والدرجيني العالمين بالحقائق هو تيهرت وهو اخف وارشق وأشبه بلغة البربر التي نعرفها. والمقدسي ممن سماها تاهرت.

2 - بلخ. قال ياقوت: "بلخ ! ممن اجل مدن خراسان، وأشهرها، وتكثرها خيرا، وأوسعها غلة، تحمل غلتها خراسان

قد أحدقت بها الأنهار، والتقت بها الأشجار، وغابت في البساتين. ونبعت حولها الأعين، وجل بها الإقليم، وانتعش فيها الغريب، واستطابها اللبيب. يفضلونها على دمشق واخطأوا، وعلى قرطبة وما أظنهم أصابوا".

وسواء أصابوا أم لم يصبوا فان هذا التفضيل يدل على درجتها الراقية في الحضارة، وعلى إنها تساوى قرطبة ودمشق في المدينة الإسلامية الراقية. ثم قال المقدسي: "(وإقليم تيهرت) بلد كثير الخير، رحب، رفق، طيب، رشيق الأسواق، غزير الماء، جيد الأهل، قديم الموضع، محكم الرصف، عجيب الوصف. ولتيهرت (العاصمة) (مسجدان) جامعان على ثلثي البلد قد بينا بالحجارة والجير، قريبان من الأسواق. من دروبها[1] المعروفة أربعة: درب مجانة، ودرب المعصومة، ودرب حارة (الخفي)، ودرب البساتين" ثم ذكر المقدسي أهم المدن القريبة من تيهرت العاصمة فقال: "وبقرب تيهرت مدينة تسمى (رها) وقد خربت، و(تنس) مسورة على البحر، شربهم من نهر، و(قصر الفلوس) وتيهرت السفلي (القديمة) على واد عظيم، ذات أعين وبساتين، و(إفكان) مسورة على واد جار ذات بساتين، و(يلل) و(جبل توجان) على ما ذكرنا سواد (مسورة مما يدل على رقيها، ذات بساتين، وهو دليل على حضارتها وعمرانها) ووهران بحرية مسورة يقلعون منها إلى الأندلس في يوم وليلة، ترى منها البرين وهي احد المعابر المشهورة، و(جبل زلاغ) مدينة على جبل عال يطل على كورة فاس بناها خلوف بن احمد المعتلي، وبقية المدن أكثرهن مسورات ذات بساتين".[2]

كانت وهران من مراسي الدولة الرستمية، وثغورها إلى الأندلس. وكانت مسورة حصينة، وكانت مرسى فنقيا قديما، فأعلنت به الدولة الرستمية فكان من ثغورها إلى الأندلس، ثم جاء محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الأندلسيين فزادوا في المدينة، وليست من إنشائهم كما ذكر البكري. وكلام المقدسي وغيره ممن نسب وهران إلى الدولة الرستمية دليل على ما قلناه. لقد كانت الدولة الرستمية على علاقات وثيقة تجارية وغيرها بالدولة الأموية في الأندلس. ووهران اقرب الثغور إلى الأندلس في

والى خوارزم. وقد فتحها الأحنف بن قيس في سنة 36 هـ. من قبل عبد الله بن عامر عامل عثمان: ينسب إليها علماء أجلة كثيرون. قال البستاني في دائرة المعارف: وبلخ مبنية في سفح الجبل على ارتفاع 1700 قدم على سطح البحر أهلها بتجارة واسعة لاسيما في الحرير، وضواحيها مخصبة جدا وثمارها غاية في اللذة ولا سيما المشمش الذي يكون فيها بقدر التفاح الكبار: لقد أشبهت تيهرت بلخ في بنائها على سفح جبل كما أشبهتها في الخصائص الأخرى فهي بلخ المغرب.

1 - والرب باب السكة الواسع. ويقصد بالدرب الشوارع الكبرى التي تتفرع عنها أزقة كثيرة. وهذه لها أبواب تغلق بالليل كما تشاهد اليوم في مدينة تونس في الشوارع القديمة كسوق العطارين وغيره. فيكون للحارات أبوابها وأسوارها كما للبلد سوره العام. وهذا مبالغة في تحصين المدينة.

2 - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ط ليدن 1906 م.

المغرب الأوسط. وقد عرف ذلك الفنيقيون القدماء فاستغلوه. فهل يغفل الرستميون وهو في دولتهم؟! إن بعض المؤرخين المحدثين الذين تكونت لهم عقد بالدعاية الملوكية القديمة المستمرة قرونا وجاء الاستعمار فأكد عقدهم النفسية المزمنة فمنعتهم من الأمانة والنزاهة في التاريخ. يفعلون بالدولة الرستمية إذا كتبوا عنها ما يفعله الذئب بالطاوس الذيال الجميل. يجرده من ريشه وحلله كلها حتى يتركه سليخا ضئيلا فيقول للناس هكذا كان وهكذا خلق! ! انعهم يجردونها من مدنها وبقاعها ويحصرونها حول العاصمة. ويسمونها إمارة! ! ولعلنا لا نرى في هذا العهد السعيد، وعهد الاستقلال المجيد. هذا الحيف وهذا الإجحاف بدولة أجدادهم. فان المستعمرين الذين كان يسرهم طمس تاريخ المغرب قد ذهبوا. وكذلك الملوك المستبدون قد خلا مغربنا منهم والحمد لله. ولا عذر بعد الآن لمن يسلك ذلك المسلك الملوكي الحقود في ظلم تاريخ المغرب وطمس صفحاته الغراء. ويزري بنفسه بعقوق أجداده. وطمر أزهى الصفحات في تاريخ وطنه.

وممن ذكر تيهرت وشاد بها البكري في المسالك والممالك قال: "ومدينة تيهرت مسورة لها أربعة أبواب: باب الصفاء، وباب المنازل، وباب الأندلس، وباب المطاحن، وغيرها. وهي في سفح جبل يقال له: جزول. ولها قصبة (دواوين الحكومة) مشرفة على السوق تسمى المعصومة. وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى (مينة) وهو في قبليها، ونهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمى (تاتش) ومن تاتش شرب أهلها وبساتينها وهو في جميع الثمار. وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما ومشما. وسفرجلها بالفارس. وهي شديدة البرد، كثيرة الغيوم والثلج. قال بكر بن حماد التاهرتي:

ما اخشن البر وريعانه *** وأطراف الشمس بتاهر

تبدو من الغيم إذا ما بدت *** كأنها تنشر من تخت[1]

فنحن في بحر بلا لجة *** تجري بنا الريح على السمت

نفرح بالشمس إذا ما بدت *** كفرحة الذمي بالسبت

ونظر رجل من أهل تاهرت إلى توقد الشمس بالحجاز فقال: "احرقي ما شئت. فوالله انك بتاهرت لذليلة!".[2]

وممن وصف تيهرت أبو القاسم بن حوقل في كتابه القيم (المسالك والممالك) قال: "تيهرت! مدينتان كبيرتان. إحداهما قديمة، والأخرى محدثة. والقديمة ذات سور. وهي على

1 - التخت وعاء تصان فيه الثياب كالصندوق مراده أن السحاب كثيف يطبق عليها إطباق التخت.

2 - المسالك والممالك ص 66 ط الجزائر 1900.

جبل ليس بالعلي. وفيها كثير من الناس. وفيها جامع. والمحدثة مدينة أيضا فيها جامع كتاهرت القديمة، وإمام وخطيب. والتجارة. والتجارة في المحدثة أكثر. ولهم مياه كثيرة، تدخل في أكثر دورهم، وأشجار وبساتين كثيرة، وحمامات، وخانات. وهي احد معادن الدواب، والماشية والغنم، والبغال، والبراذين الفارهة. ويكثر عندهم العسل، والسمن، وضروب الغلات".[1]

وقال أبو عبد الله الشريف الإدريسي: "ومدينة تاهرت كانت فيما سلف من الزمان مدينتين كبيرتين إحداهما قديمة، والأخرى محدثة. والقديمة من هاتين المدينتين ذات سور، وهي على قمة جبل قليل العلو. وبها ناس وجمل من البربر. لهم تجارات وبضائع وأسواق عامرة. وبها مزارع وضياع جمة. وبها من نتاج الخيل والبراذين كل حسن. وأما البقر والغنم فكثير بها جدا، وكذا السمن والعسل. وسائر غلاتها مباركة.

وبمدينة تاهرت الحديثة مياه متدفقة، وعيون جارية تدخل أكثر ديارهم ويتصرفون فيها. ولم على هذه المياه بساتين وأشجار تحمل ضروبا من الفاكهة الحسنة، وبالجملة فهي بقعة حسنة".[2]

قال صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار: "مدينة تاهرت! وهي مدينة مشهورة كبيرة عليها سور صخر. ولها قصبة[3] منيعة تسمى المعصومة. وهي في سفح جبل. وعلى نهر يأتيها من ناحية (القبلة) يسمى مينة، ولها نهر آخر يجري من عيون تجتمع يسمى تاتش، منه تشرب أرضها وبساتينها. وكان لها بساتين كثيرة فيها جميع الثمار. وفيها سفرجل يفوق سفرجل جميع البلاد حسنا ومطعما ورائحة".[4]

وكان أبو عبيدة الله المقدسي مفتونا بجمال المغرب وحضارته، وعواصمه الكبرى. وكان معجبا بتيهرت وعدلها ودينها، وحسن سياسة أئمتها. وقد وصفها بالنزاهة، وهو وصف جليل قلما يطلق على عاصمة ودولة. قال: "إقليم المغرب! هذا إقليم بهي سري، كثير المدن والقرى، عجيب الخصائص والرخاء! به ثغور جليلة، وحصون كثيرة، ورياض للنزهة، وبه جزائر عدة، مثل الأندلس الفاضلة العجيبة، وتاهرت الطيبة النزيهة! وطنجة البلدة البعيدة، وسجلماسة المختارة الفريدة، وصقلية الجزيرة المفيدة".[5]

1 - المسالك والممالك لأبي القاسم بن حوقل ط . ليدن 1872.

2 - كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي ص 87 ط أوروبا.

3 - القصبة قديما محل الحكومة ودواوينها وبيت مالها. وكانوا يتخذونها في وسط المدينة ويحنونها لأنها رأس العاصمة، قلب الدولة. والقصبة لا زالت موجودة في تونس إلى اليوم وهيمن بقايا حضارة أجدادنا في المغرب.

4 - الاستبصار في عجائب الأمصار ص 66 ط (وين) 1852.

5 - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي.

أسباب سكوت بعض المؤرخين المغاربة القدماء عن تيهرت والدولة الرستمية

وقد ذكر ابن عذارى المراكشي تيهرت فأوجز! إن العصر الملوكي المستبد الذي ألف فيه كتابه، والملوك الذين يحاربون الدول الجمهورية، ويحرمون ذكر الدولة الرستمية، ويرون من يثني عليها، ويذكر حقيقتها مجرما يهدد دولهم بخطر كبير؛ إن هذا العصر المستبد الملوكي هو الذي منع ابن عذارى ومثله من كتابة كل ما يعرفونه عن الدولة الرستمية وعاصمتها تيهرت، وتسجيل ما يعمر صدورهم من الإجلال لها، والإعجاب بدينها وحضارتها. إن اغلب الكتب التاريخية القديمة إنما وصلتنا لأنها سايرت الملوك، وكتبت كما يشتهون، وكانت دعاية لهم. فلو خالفت هواهم لأعدموها وحرقوها كما اعدموا التراث العلمي والأدبي النفيس الضخم للدولة الرستمية وحرموا ذكر حقيقتها، وما كانت تخطر فيه من حضارة وعلم ودين، وتمتاز به في عصرها من عدل ومساواة وديمقراطية. لهذا تجد ابن عذارى يغفل ذكر أخبارها وما يبين شخصيتها كما اغفل أخبار دولة بني واسول في سجلماسة بجنوب المغرب الأقصى لأنها كانت جمهورية، وكانت عادلة. بينما يسهب في الدولة الأغلبية الملوكية. وإذا الم بالدولة الرستمية ودولة بني واسول قال قولا مقتضبا مجملا فعل الخائف الذي يقرب من الشيء المحظور إمام الرقباء المتيقظين الأشداء. إن ابن عذارى من مؤلفينا الفضلاء، ومن علمائنا في تاريخ المغرب. ومثله في ذلك الفضل، وذلك الجلال والإحسان إلينا بمؤلفاته السلاوي وكان السلاوي أكثر منه تأثرا بالجو الملوكي الذي عاشره في الكتب الملوكية، وانغمس فيه في البيئة. إنه يرى الدولة الجمهورية كما رسمتها الكتب الملوكية المتعصبة. والدولة الرستمية عنده ما هي إلا إمارة صغيرة، وهي أوسع رقعة من الدولة الإدريسية ومن الدولة الأغلبية، وأقوى منهما في كل النواحي، وأغزر عددا، وأكثر استقرارا وبفضل وجود الدولة الرستمية حاجزا بين الدولة الأغلبية والدولة الإدريسية استطاعت الإدريسية أن تترعرع وتبقى. فلولا وجود الدولة الرستمية في المغرب الأوسط وحمايتها للدولة الإدريسية ما استطاعت هذه أن تبقى، ولا أن تثبت إمام الدولة الأغلبية وإمام العباسيين الذين جعلوها مرمى سهامهم. كانوا يفيضون عليها بجحافلهم فيقضون عليها، أو يمنعون هدوءها واستقرارها.

إن السلاوي رغم إكبارنا له، واعترافنا بجميله؛ إن كتابة الاستقصاء اجل ما كتب في تاريخ المغرب، ولكن كبابة جواده، وغمره الجو الملوكي الذي يعيش فيه، والنزعة الملوكية التي تسيطر عليه، فكتب الصراع بين البربر والأمويين والعباسيين وتحث عن الإباضية

الجمهوريين بلهجة وأسلوب الذي تشبع بالجو الملوكي، وتكونت له نظرة خاطئة إلى ثورات البربر على ظلم الملوك واستبدادهم، والى الإباضية الجمهوريين الذين رفعوا كابوس الظلم والغطرسة واستبداد الملوك عن المغرب الأوسط وجمهور المغرب الأدنى، واحيوا الجمهورية الإسلامية العادلة، وهدي الخلفاء الراشدين، وكانوا اكبر مقدمة مهدت وهيأت الجو لنشأة الدولة الإدريسية، فلولاها ما طمع إدريس الأول في وجود المكان الأمن لنفسه في المغرب الأقصى، والجو اللائق لدولته.

قال ابن عذارى يصف تيهرت ويذكر شدة بردها فيضحكنا بالفكاهة، ويروح عن نفوسنا بالنكتة قال: "ولما دخل ابن الأشعث القيروان فر عبد الرحمن إلى الغرب بما خف من أهله وماله، فاجتمع عليه الإباضية، وعزموا على بنيان مدينة تجمعهم فنزلوا بموضع تاهرت، وهي غيضة بين ثلاثة انهار (نهر مينة في الجنوب، ونهر شلف في الشمال، وعيون تاتش في شرقها) فبنوا مسجدا من أربع بلاطات، واختط الناس مساكنهم. ثم قال، وكانت حول تاهرت بساتين من أنواع الثمار، كثيرة الأشجار، وهي شديدة البرد، كثيرة الأمطار. قيل لبعض الظرفاء من أهلها: كم الشتاء عندهم من شهر في السنة؟ قال ثلاثة عشر سهرا !"

أراك تتثاءب أيها القارئ العزيز. لعل تشابه هذه النصوص يثقل عليك، ولعل طولها يسئمك. لو اتبع المؤلفون أسلوب الجاحظ في تنويع ما يقدمون للقارئ مع عدم الخروج من الموضوع لنجحوا في جذب القراء، وتأجج شهية القراءة. إلي أيها القارئ الحبيب أتسرح بك في تاهرت وفي الدولة الرستمية العظيمة فتراها في جمالها وجلالها في هذا الفصل الذب هو باب من تاريخ المغرب الذب كتبته لتلاميذ معهد الحياة منذ اثني عشر عاما، وكان على أسلوب يروقك، ومنهج يجدد نشاطك. وسوف ارجع إلى حضارة الدولة الرستمية فأبينها بتفصيل في فصل كبير يستقبلك في باب الإمام افلح إن شاء الله.

وصف تيهرت العاصمة

لقد عزم عبد الرحمن ومن معه من القبائل الجمهورية على بناء عاصمة الدولة فأين مكانها؟ انه في أحسن بقعة في المغرب الأوسط. إنها لجمالها وجلالها ومغزاها العظيم كقبلات المحبة لا تقع من الحبيب إلا في جيده ومحياه! لقد اختاروا موضعا في سفح جبل جزول، تحوطه الأودية، وتسيل فيه الأنهار، وتنبع فيه العيون. وهو جيد التربة ذ، واسع السهول للزراعة، نافذ السبل إلى كل الأقطار للتجارة. هواؤه نقي ينعش

الأبدان، وتصح به النفوس، ويعتدل به المزاج في الإنسان. وهو مع هذا حصين يسنده الجبل من خلفه، وتحوطه الإعلام من كل نواحيه، فلا يستطيع العدو أن يهاجمه إلا من ثغوره، وهي دائما مشحونة بالرجال، غاصة بالحرس على الدولة.

وكان هذا المكان ملكا لقوم من صنهاجة ومنداس[1] فراودهم عبد الرحمن على البيع فأبوا، فاستأذنهم في البناء والعمارة هناك على أن يكون لهم من غلات تيهرت وخراج أسواقها جزء معلوم فأذنوا له.

المسجد وأثره العظيم في الدولة الإسلامية ومكانته العظمى في كل مدينة

وكان المكان أشبه وغابة لا يسكنها إلا السباع، فشمر عبد الرحمن وصحابه لها، فحرقوا الشجر، ومهدوا المكان للبناء، فوضع عبد الرحمن وصحبه هندسة المدينة، وخططوها تخطيطا بديعا، ثم شرعوا في البناء، فكان أول شيء عينوا مكانه في المدينة، وشرعوا في بنائه هو المسجد قلب المدينة، والمسجد كما هو نواة المدينة، فهو نواة الدولة، وقعة الدين الحصينة، وبيت الله الذي يجب البدء به، ليكون الله معهم، وينجح مسعاهم.

انه (برلمان المسلمين) تحل فيه مشاكل الدولة، ودار الندوة في الإسلام، ونادي النوادي عند المسلمين. فكما يجمع الأجسام بالصلاة فتترابط، يجمع القلوب بالصلات فتتحد. وهو مصنع الفضيلة للنفوس، بالخشوع الذي يغرس فيها عادة مراقبة الله في كل الأعمال، وبالموعظة الحسنة من الخطباء والأئمة، وبالذكر الحكيم، وبالقدرة الكريمة، والعدوى النفسية الحسنة من الصالحين الذين يقف بجانبهم، فتغشاه روحهم، ويفيض عليه خشوعهم وخشيتهم لله. والمرء نسخة ممن يديم الاتصال بهم، وتقع عليهم أنظاره وإن كانوا ر يكلمونه. ومعاشرة الأخيار هي سبب الأسباب للصلاح وإن كان المرء على الطلاح. فلا يحتقرن احد تأثر الإنسان بالإنسان بالتلاقي والمخالطة، سيما إذا كان الجليس أقوى شخصية، وأكثر تشعبا بما فيه، وأقوى حماسا لما هو عليه. إن نظراته نفسها منافذ لنفسه فيشيع حوله روحه فيصطبغ الجو به فيتأثر به من حواليه.

إن خشوع الإنسان في الجماعة، ووجدانه فيها أقوى منه في حالة انفراده والخشوع هو روح الصلاة ولبها، وسبب تأثر النفس بها، وهو لا يكون على قوته إلا في صلاة الجماعة، وفي

1 - ذكر البكري في المسالك والممالك ص 68 أن المكان لقوم من مراسه وصنهاجة. وذكر غيره منداس، وأنا أرجح منداس لان سهول شمال تيهرت وجنوب ونشريس تسمى تلول منداس وسهول منداس، فمنداس هو الأصح عندي.

المسجد بين المسلمين. والأمة التي تخشع في مسجدها لا تخشع لعدوها، ولا تخفض هامتها في الحياة، ولا تتسلط عليها الأمراض التي تنكس رأسها، وتورثها غصتها. فهي دائما رافعة الرأس كالمئذنة، طاهرة الجو كالمحراب. وهي دائما قوية لان الله معها!

إن المسجد كما هو حمام المدينة في الإسلام، تتنقى فيه الأجسام بالاغتسال وبالوضوء،[1] فهو حمامها أيضا للنفوس ينقيها من أوساخها بالخشوع لله في الصلاة، وبرقة القلوب بالذكر، وتأثر النفوس بالموعظة، ومخالطة الصالحين في الصفوف!

إن مدينة بلا مسجد يبني فضيلتها ورجولتها وكل ما يكون به تقدمها مدينة بلا صياقلة، فسيوفها محل للطبع،[2] ودمن للصدأ، يفتك بها، ويفلها، وأي قوم يبقون على الحياة، وأظفارهم قد تأكلت، وأنيابهم قد نخرت، أسلحتهم قد ركبها الصدأ المبيد؟! إنهم أكلة لكل مغير، وفريسة لكل مهاجم، وموطئ لكل عدو!

إن المسجد العامر الحي بالدروس الحية، وبالذكر الحكيم، هو قلعة المدينة! يحفظها من العدو الأكبر، ومن عامل الهزيمة في كل ميدان وهو فساد النفوس!

انه يقتل شر الأعداء وهو الرذيلة، ويسلح النفوس بسلاح لا يغلب صاحبه وهو الفضيلة. وأمة تتغلب فيها الفضيلة على الرذيلة لا تتغلب عليها الأعداء، وإن كانوا إضعافها في العدد، أقوى منها في الأسلحة. وإذا رأيت امة ذبيحة يرتع فيها العدو فاعلم أن الذي قيدها للذبح هو الرذيلة التي أشاعها فيها اللادينية التي يبثها فينا المستعمرون أعداؤنا الألداء، ليجردونا من الدين الإسلامي العظيم الذي هو سبب كل فضيلة، وأساس كل قوة في النفوس، وأجنحة الملائكة التي امتن الله بها علينا لترفرف بنا في أعلى السموات!

لعن الله الاستعمار الذي يتدفق علينا بمفاسد المدينة الأوروبية لا بمحاسنها، ويعلمنا ما يدفع إلى الحانة، ويعودنا كل المفاسد، ويبث في نفوس ناشئتنا التخنث الميوعة والأنانية، واحتقار الدين، ونبذ الحضارة الإسلامية العظمى. ويزيل الأخاديد من وجوههم بالرفاهية الزائفة، وبالمساحيق، ولكنه يحفر القبور لامتنا الإسلامية فتقبر فيها![3]

1 - كانت المساجد في (تيهرت) والدولة الرستمية موصولة بميضأة فيها النظافة التامة والماء الساخن، والمغاسل الحصينة الطاهرة. فتجد كل الفقراء وغيرهم يتطهرون فيها ويستعدون للصلاة ولا زالت هذه السنة الحميدة في مساجد وادي ميزاب في جنوب الجزائر وفي كثير من أنحاء المغرب إلى اليوم.

2 - الطبع بفتح الباء هو الصدأ.

3 - إن التاريخ في معهد الحياة بوادي ميزاب في جنوب الجزائر للتربية الخلقية والدينية أيضا ولمناهضة الاستعمار ووقاية التلاميذ من أوساخه لذلك تجد محاصراته مطرزة بهذا الاستطراد المناسب المجدي. إن هذا هو الذي يجعل للتاريخ روحه وجدواه. وفوائده التربوية الكبرى.

تلك هي نظرة الدولة الرستمية التي تتمسك بالدين إلى المسجد. وذلك هو محل المسجد وآثاره في هذه الدولة التي ترى الدين الإسلامي هو حياتها ونورها وقوتها فتمسكت به كل التمسك؛ لذلك ابتدأ عبد الرحمن وصحبه ببنائه في عاصمتهم.

حضارة تيهرت العظيمة

ولما اتمو بناء المسجد الجامع والمدارس ودور الحكومة، وشرع الناس في بناء المدينة. فبنوا فيها الدور والقصور، وأنشأوا فيها الحمامات والخانات[1] الواسعة، والفنادق الرحبة. وبنوا المتاجر في الأسواق، والمصانع في الأماكن التي خصصت لها مكن المدينة. وهي أماكن بعيدة عن الإحياء الآهلة، وعن المناطق المعدة للسكن، وعن الأسواق التي تستلزم النظافة والهدوء. وبنو الأرحاء المائية على نهر مينة، وجهزوا مدينتهم بكل ما تستلزمه الحضارة الإسلامية الراقية، ويرضى طموحهم ومنافستهم للعباسيين. فأصبحت تيهرت في مدة قليلة عروس الإسلام بالحضارة، وغادة الدنيا بالجمال، وقاعدة المغرب كله في التجارة والعلوم، وفي كل ما شئت من حرف وصنائع، ومهن وفنون، وفي كل ما يقتضي الدين وجودة لفائدته للمجتمع، وتحث الشريعة عليه لجدواه على الدولة.

إن الدولة الرستمية دولة الدين، تتمسك به في كل شيء، فهو الذي يرسم لها طريقها، ويوجهها في حضارتها، ويقودها في كل السبل والنواحي.

جمال تيهرت وجلالها

كانت تيهرت لحضارتها وجمالها فتنة لكل لب، ومتعة لكل عين، ودهشة لكل خاطر. فيها القصور الفخمة المزدانة القباب والجدران بكل النقوش البديعة، تراها شامخة لجمالها وجلالها، وتزينها قبابها كما تزين الغواني الرشيقة نهودها الراسخة! وحول القصور حدائق غناء، فيها كل ما شئت من طيور وأزهار، وأشجار وثمار، ومن ماء و ظلال، ونشوة وسحر! تذهب الهموم عنك كما تذهب طلعة الحبيب المواتي همومك؛ وفيها السواقي الجارية، والفوارات النابعة، وكل ما يخطر بالبال وما لا يخطر من ضروب المتعة والجمال.

عظيمة تيهرت التجارة وغناها

وكانت الأسواق عامرة بكل ما شئت من بضاعة نفيسة، وطرفة بديعة، لا تطلب شيئا مما يمكن وجوده إلا وتجده.

1 - الخان هو الحانوت وأماكن التجارة ومحل نزول التجارة الغرباء الذي يتاجرون فيه.

وكانت لها مراس على المسلمين، بحرنا الأبيض المتوسط؛ منها تنس، ومستغانم، ووهران، تصدر منها بضائعها إلى الأندلس وغيرها، وتستورد منها ما تحتاجه.

وكانت لها قوافل منظمة إلى السودان، وغيرها من الأقطار الشرقية كمصر وغيرها، تذهب معبأة بالصادرات، وترجع مثقلة بالواردات.

وكانت السبل آمنة لعدل أئمة تيهرت وحزمهم، وحسن سياستهم وإحسانهم.

وكانت تيهرت موصولة بشبكة من الطرق التجارية بكل الجهات فازدهرت التجارة والصناعة فيها كل الازدهار، فاخملت القيروان وغيرها من قواعد المغرب. فصارت هي السوق العالمية في افريقية، ووجهة التجار الكبار من أنحاء الدنيا.

وفود الناس جماعات كل الأقطار للاستقرار بتيهرت والدولة الرستمية لعدلها

وقد اشتهرت الدولة الرستمية وتيهرت بالعدل الكامل، والديمقراطية الإسلامية التامة، وبالأخوة والصفاء، وبالمساواة والحرية، فانتقل إليها كثير من كبار التجار والصناع من العراق، ومن القيروان وافريقية، ومن الأندلس، وغيرها من الأقطار الإسلامية، لينعموا بالعدل الذي لا يجدونه في بلادهم، لظلم بني العباس واستبدادهم، وسياستهم للناس بالهوى لا بالدين.

إن العدل هو سبب الازدهار في كل ميدان، فهو الذي يزدهر الأمن في ظله، فلا تقع الفتن التي تشغل النفوس عن الإنتاج، وبلوغ الغاية في الإجادة والإحسان وهو الذي يضمن للعامل ثمرة عمله، وتمتعه بنتيجة جهده لا يغصبها، فيعمل بكل جد ونشاط لا يكسل ولا يتوانى، باذلا كل جهده فيسطع نبوغه.

خصب تيهرت وكرم مناخها

وكانت تيهرت من أخصب البقاع، لا يهجرها السحاب، ولا تشح عليها السماء فسماؤها باكية دائما بالغيوث، وأرضها ضاحكة دائما بالرياض. ما اقحط زرعها قط وما شكى الناس فيها إلا الجائحة من برد أو غيره تصيب الزروع.

وكان يجري في شمال تيهرت وادي شلف وفي جنوبها وادي (مينة). وكان شلف كالنيل يفيض في وقت معلوم، فيسقي الزروع، ويفيض بالبركات على البقاع.

وكان وادي مينة سبب نظافة للمدينة، فان قنوات المدينة، ومجاريها للماء الفاسد تنصب فيه بعيدا عنها فيحمل أقذارها وأوساخها، وينقيها من كل ما يفسد جوها، ويشين منظرها، وينقص من جمالها. إنها تتمسك بالدين، والدين الإسلامي العظيم

بني على النظافة، أمر بها وحث عليها. وكانت تيهرت لهذا الوادي الذي يحمل أقذارها نظيفة كما أمر الدين، بالغة النقاء والنظافة كما تستوجب حضارتها العظمى.

وكان شراب تيهرت وسقي زروعها من عيون طبيعية تنبع في شرقها وجنوبها فتمد تيهرت بشراب أصفى وأحلى من الدر الذي ينبع من صدور الأمهات وكانت هذه المياه تدخل دورها في القنوات فتتوفر في كل دار، ويتزود منها كل احد في كل وقت بما يريد!

ومن تلك العيون النابعة عين السلطان في الجنوب الغربي للمدينة. وهي تنبع من سفح ربوة، وماءها أعذب ماء كأنه ينبع من ثغر الحسناء! وقد شربت منه في السنة الماضية في وقدة الصيف فإذا هو بارد كأنه ينسكب من القوارير المثلجة لا من الصخور!

ازدهار الفلاحة وبراعة تيهرت في الزراعة

وثمار تيهرت أعذب الثمار، لجودة التربية، وحسن الهواء، وغزارة الماء، وبراعة أهلها في الفلاحة.

وكان لها سفر جل يفوق سفرجل الدنيا في الشكل، واللون وطيب النكهة. تراه فتحسبه لجماله كأنه ينبت في صدور العذارى لا في الغصون!

نظام تيهرت البديع في أسواقها ومرافقها العامة

وكانت تيهرت رائعة في أسواقها. وكان لكل سوق نوع خاص من البضاعة وحرفة خاصة من الصناعة؛ فهناك سوق النحاس، وسوق الأسلحة، وسوق الصاغة، وسوق الأقمشة، وغير ذلك مما تتطلبه الدولة المتمدنة، والقوم المتحضرون.[1]

وكانت رائعة جليلة بمساجدها وقبابها ومئاذنها! ترى المنائر عالية في جوها وهي تهزج في الأسحار، وفي كل أوقات الصلاة بأذان رائع جميل! يملأ الصدور بجلال الإسلام، ويطرب النفوس بحسن الأداء، وجمال الصوت؛ فيخشع كل قلب بذكر الله، وتتوق كل نفس إلى بيت الله، فيوقف المضطرون في الأعمال أشغالهم فيسرعون إلى الصفوف.

إن الأذان شعار الإسلام الأكبر، ومظهر الدين الأعظم، وموسيقى المسلمين الرائعة. فحرام أن يكون في بعض صوامعنا كنهيق الحمير، ينبو في الأسماع، وتنفر منه النفوس. لا تتنصت إليه المدينة إلا في رمضان بدافع الجوع، كما يتنصت الغراثان لأزيز الطبيخ على النار، ويستحسن منظر القدر السوداء على الأثافي.. ؟

1 - لا تزال بقايا من هذا النظام في مدينة تونس إلى اليوم وهي من إنشاء أجدادنا في الدول الإسلامية الأولى بالمغرب.

جمال تيهرت البشري / سبب الحسن والبهاء والجاذبية في المرأة

كانت تيهرت جميلة في مبانيها، جميلة في ناسها، فوجوههم تسيل بالملاحة، وقدودهم ألبستهم تفيض بالحسن، وشخصية أهلها كجو المدينة لطيفة في قوة، وأنيسة في حزم. وإهاب سكانها كإهاب الورود! ومع جماله البشرة في النساء قوة الأنوثة بقوة الشخصية، ومع قوة الأنوثة حياء الدين الذي هو رأس الجمال، وسبب الفتنة والبهاء في المرأة!

وكانت نظراتهن يفيض منها مع سحر الأنوثة صفاء الإخلاص، ونور الدين، وجمال الوفاء والمحبة، وهو أعظم شيء تجمل به المرأة في العيون، واكبر حلية، وأحسن أنواع الجمال[1] التي تأسر به قلب الرجل وتستأثر به!

إنه إشراق الدين، وبريق الإخلاص والوفاء والمحبة! هذا السحر الساحر، وهذا الجمال الرائع الذي خلت منه النساء المتفرنجات المتبذلات اللائي سلختهن المدارس الفرنسية في مغربنا من دينهى وحياء الدين وجلاله وروعته وأخلاقه العظمى، وزادتهن السينما الخليعة الهدامة، والأغاني المخنثة المائعة، والقصص الماجنة المسمومة، والمجلات المتهتكة، ومفاسد الحضارة الأوروبية التي تطلقها أوربا المستعمرة علينا المسلمين، وهي اشد فتكا من مدافعها وقنابلها، فتنسف الدين وكل قوة في نفوسنا، وتفسد المرأة أصل الأمة ومعدنها؛ فأضحى أولئك المتفرنجات المتبذلات الجاهلات طعاما نتنا وبيلا ذا وخامة مبتذلا، وصارت عيونهن ووجوههن القاسية وإن غرقت في المساحيق لا يفيض منها إلا ما يفيض من وجه الذئبة المسعورة التي لا تحسن إلا الافتراس!

عدم جمود تيهرت وإقبالها على نعيم الله المباح

وفي رجال تيهرت مع حسن الصورة كمال الرجولة بأخلاق الإسلام العظيمة، وفي أيديهم مع ملوسة الحضارة ملوسة بملازمة قائم السيف[2] في الهيجاء، وفي أعمال الفروسية وفنونها؛ وفي جباههم مع أشراف النعمة غرة السجود لله. فهم رهبان الليل واسود النهار، يعطون للجسم حظوظه من المتعة الحلال، وللروح قسطها من العبادة الواجبة. لا يغلون في دين الله فيمرقون منه، ولا تقسوا قلوبهم كالحجارة، لا تتصف إلا بالكثافة، ولا تكرع من نعيم الله فتنبت!

1 - أن الجمال البشري يكون بالوراثة وبالبيئة الطبيعية البارعة فالبربر في الجمال كما وصفنا في صفحة 142 من الجزء الثاني من هذا الكتاب واثر البيئة الطبيعية هو ما نشاهده إلى اليوم في السكان الأصليين لتلك النواحي.

2 - قائم السيف مقبضه.

إن الذين يحسنون الجد في وقت الجد، هم الذين يحسنون المزح في وقت المزاح!

والذي يحب الوطن ويموت في سبيله، هو الذي عاش فيه يعمر كالعبد من مباهجه، ولا يبكي للوطن متأثرا بشقائه ونوائبه إلا من ضحك فيه بملء قلبه بعهود كالأعراس فيه!

تبا لقوم ركبهم الركود والهمود فهم حميره، وعششت فيهم شيخوخة الأرواح والنفوس فهم قبورها! لا ترى فيهم إلا وجوها متمعرة.[1] أخاديدها قبور لنفوسهم الميتة. لا تعرف الابتسام لان أرواحهم لا تعرف نور الإسلام. يريدون من المدينة أن تكون على صمت الجنازة! ! ويكرهون الحياة إلى النفوس فلا يدافع عنها، ويقتلون الشباب في أرواح الأمة فتغوص في الشيخوخة، ويكبتون القوى التي أقامها الله لتشبع من نعمائه، فيجردون المرء من اكبر الأجنحة الباعثة له على السمو! !

كانت أن تغوص في عجاجة البخور، وفي غمرة العطر في الغرام الحلال. ومن لا يقارع الثغور في الوصال المباح، لا يقارع في الثغور يوم النطاح، لأنه عديم الحيوية وهي أصل الشجاعة، ميت الإحساس وهو أساس البطولة! !

كانت تاهرت للدين لأنها كانت للدنيا. والدنيا مطية المؤمن فعلى حسبها في الفراهة تكون غاياته السامية في الآخرة! وكانت تيهرت تعمل لنعيم الله في الآخرة لأنها قد تذوقت نعيمه في الدنيا.

وكانت في الدين في أعلى الذرى لأنها كانت في العلم وفي المدينة الإسلامية في أعلى القنن! !

تلك هي تيهرت الجليلة الجميلة عاصمة الدولة الرستمية كما تصورها النصوص التاريخية التي نقلنا منها جملة في صدر هذا الباب، وتلك هي شخصية أهلها كما يصورها تاريخهم، وما ستراه في الأبواب الآتية من أخبارهم. وقد كتبنا هذا الفصل لتلاميذ معهد الحياة، فلم نزد فيه على ما ورد في النصوص إلا حلية الأدب التي نحبب بها التاريخ للنفوس، وما يجب أن يكون في التاريخ من روح هو الذي يضمن فوائده التربوية، وأثارها الحسنة في الناشئة: أما الحقائق فهي ما تقدمك في النصوص، وما ورد في الكتب التاريخية التي لم ننقل منها. وعسانا نكون قد بلغنا بعض المراد في التصوير المجمل لهذه العاصمة التي لها الفضل الكبير على المغرب، وأججنا شهيتك -عزيز القارئ- لتلاحقنا في الأبواب المقبلة.

1 - متمعرة مقطبة سوداء تفيض بالتشاؤم والكراهية وبسواد الليل الساكن في نفوسها.

وبعد بناء المدينة وظهور شخصية الدولة، وثبات أركانها، ورسوخ عروقها، أعلنوها، ورفعوا أعلامها في النواحي. وكانوا من قبل يتهيئون في سكون وهدوء وسر، لكي لا يثير العباسيون عليهم الغبار، ولا يضعوا الأحجار في طريقهم. وكان إعلان الدولة بمبايعة عبد الرحمن بن رستم إماما للدولة، ورئيسا لهذه الجمهورية الإسلامية. فلماذا اختاروا عبد الرحمن؟ ما نسبه ونشأته، وما شخصيته وخصائصه، وكيف ستكون الدولة الرستمية الجمهورية في عهده؟

إمامة عبد الرحمن بن رستم

وإعلان الدولة الرستمية 160 هـ - 777م

إن الدولة الرستمية نشأت بانتقال عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط، وبناء مدينة تيهرت في سنة أربع وأربعين ومائة من الهجرة، وفي القرن الثامن المسيحي.

وكان عبد الرحمن بن رستم هو رئيس الجمهوريين في المغرب الأوسط، قد التفوا حوله، وقد موه أميرا عليهم، يدير أمورهم، ويقودهم في حروبهم ويوجههم في بناء دولتهم، فرئاسته لهم ابتدأت منذ سنة أربع وأربعين ومائة، ثم بايعوه إمام عليه بع ذلك.

وكانت الدولة الرستمية يوم إعلانها قد رست أركانها، ورسخت عروقها، وشبت عن طوقها، وانتظمت صفوفها، والتف الجمهوريون كلهم حولها، فصارت تستطيع مصارعة من يناؤها، وتصرع من يدنو من حماها من الملوكيين المعتدين.

وكان تأخير إعلان الدولة ومبايعة إمامها دهاء كبيرا من عبد الرحمن بن رستم وصحبه، أنهم لو أعلنوها قبل أن ترسخ عروقها، ويشتد جذعها في شبابها، لجعلها العباسيون نصب أعينهم، فلربما حشروا لها من الجيوش الكثيفة ما حشروا لدولة أبي الخطاب فيقضون عليها، ولكنهم تمهلوا، فنظموا كل أمورهم في الداخل، وحلوا كل المشاكل، ووحدوا صفوفهم، وبنوا عاصمتهم؛ فبرزت شخصية الدولة، وبدت سامقة في الوجود، وأيقنوا باستطاعتها الوقوف في وجه العباسيين، وهيبة القيروان وبغداد لها، ويأسهم من التغلب عليهم، ثم أعلنوها وأبرزوها بعد ستة عشر عاما تجعل المرء في شبابه، ويرفع رأسه بما يشعر به من قوة في الأركان، وسطوع في المواهب.

إباء الجمهوريين اختيار رئيس الدولة من القبائل الكبرى خوفا من تمسكها بالرئاسة فتكون ملوكية

ولما أرادوا إعلان دولتهم عزموا على مبايعة عبد الرحمن رئيسا للدولة، ولكن عبد الرحمن يهرب من الرئاسة، ويعاف الإمارة، فسيأبى عليهم قبولها، إن ورعه وتقواه، وتمسكه كل التمسك بالدين، وشرفه وغيرته على نفسه، تجعله يرى رئاسة الدولة فروضا ثقيلة، وتكاليف صعبة، وأثقالا باهظة، وحسابا عسيرا عند الله، فتفر نفسه منها، وينقبض صدره عنها، فنظر الجمهوريون فوجدوا أن في قبائلهم شخصيات بارزة، ورجالا محنكين، كانوا أمراء نواحيهم منذ استقل المغرب الأوسط عن الأمويين فأداروها

أحسن إدارة. وبفضل حنكتهم وبراعتهم في الإدارة رضي المغرب الأوسط وسكن، واتحدت صفوفه، ووقف سدا متينا في وده العباسيين فلم يستطيعوا احتلاله، بل لم يفكروا في السير إليه. إن قوة المغرب الأوسط كانت بشخصياته البارزة التي اتحدت وضمت القبائل الجمهورية فصارت جماعة واحدة، مرصوصة الصفوف، متينة البنيان.

إن تلك الشخصيات كانت من قبائل شتى. فكل شخصية كانت أميرا لقبيلتها فمنهم من كان من هوارة، ومنهم من كان من لواتة، ومنهم من كان من لماية، ومنهم من كان من نفوسة، ومنهم من كان من صنهاجة، وغير ذلك من القبائل القوية في المغرب الأوسط، ذات العدد الوفير، والواقع الحصينة، والقلاع العالية.

إن أولئك الرؤساء يتصفون بالورع والتقوى، وبالعلم والدين، وبالدراية والحنكة وبالإخلاص والشجاعة. إن شروط الإمامة تتوفر في الكثير منهم، ولكن كيف تكون العاقبة إذا اختاروا واحدا منهم للإمامة، فاستمرأت قبيلته عز السلطان، وانتشت بحلاوة التقدم، فتمسكت برئاسة الدولة فأبت أن تخرج عنها. أنهم إما أن يخضعوا فيصيروا إلى الملوكية المستبدة التي ثاروا عليها، وأنشأوا دولتهم لإحياء الجمهورية الإسلامية، والتمتع بمزاياها. أو يناهضوها فيدخلوا معها في حرب تشقق العصا، وتفرق الصفوف، وتضعف الدولة. وهذا ما يتمناه العباسيون. أنهم يتربصون بهم في القيروان، ويرقبون الفرصة فيهم ليقضوا على دولتهم، ويمحوا الجمهورية الإسلامية التي تقض مضجعهم من الوجود.

إن تمسكهم بالجمهورية الإسلامية، وبعدل الإمام، والتزامه الدين في الأحكام، وسيرة الخلفاء الراشدين في السياسة والسلوك. إن ذلك يفرض عليهم أن يجعلوا رئاستهم لمن يراقبونه، ويستطيعون محاسبته، وعزله إن بدا عجزه وعدم كفاءته، أو جار في الأحكام، وحاد عن سبيل الدين. فهل يستطيعون هذا العزل بسهولة إذا ثار الجهلة وضعفاء الدين في قبيلة الإمام فأبوا عزله. وإذا كان هو يتمسك بالرئاسة عليهم غرائزهم لا يخلو منهم قوم. أنهم موجودون في كل قبيلة. فيستطيع هذا الإمام الذي يرتد ملكا أن يجرها إليه فيتقوى بها. فيتعذر عزله، وتصير دولتهم إلى الملوكية التي يحاربونها، ويلبون استبدادها وغطرستها. لقد ثاروا على العباسيين، وخلعوا سلطانهم، لا لحب الرئاسة، ولا للتعصب للجنس، ولكنت حرصا على الجمهورية الإسلامية. هذا النظام الإسلامي العظيم الذي يجعل الأمة تختار في حرية تامة رئيس الدولة. فيرأس المسلمين في كل زمان صفوتهم وخيارهم. فتقوى دولتهم، وتكون هي سيدة الدول، وأمتهم أقوى الأمم.

إن تمسكهم بالجمهورية الإسلامية، والتزام الدولة كتاب الله وسنة رسول الله في الحكم والسياسة، هو الذي دفعهم إلى إنشاء دولتهم! وهذا لا يكون، ولا يتحقق كما يريدون إلا لذا كانت رئاسة الدولة في قبضة الأمة تسندها لمن تختاره، وكان الرئيس في قبضتها أيضا تعزله إن بدا عجزه، أو حاد عن طريق الله في سياسته وسلوكه. إن اختيار إمام الدولة من إحدى القبائل الجمهورية محفوف بالخطر. أنهم لا يشكون في نزاهة من يختارون، ولكن إذا مات، أو شاخ وضعف عن أثقال الإمامة، فوسوس الشيطان للجهلة من قبيلته، وسول حب الظهور لضعاف الدين من قومه، فتمسكوا برئاسة الدولة وأبوا أن تخرج من قبيلتهم! ثم إن القبائل الجمهورية وإن كانت صفا واحدا مرصوصا يربط بين رؤسائها الوداد المكين، وتوحد بينهم الأهداف الواحدة، ويملأ الدين نفوسهم بالصفاء فيتعانقون بالمحبة، ويمتزجون بالولاء، ويرى كل واحد منهم صاحبه هو نفسه، لا يحسده ولا يبخل عليه. إن الرؤساء الذين يختارون الإمام من إحدى القبائل وإن كانوا على هذا الصفاء، وكان جمهور قبائلهم مثلهم في ذلك النقاء، وفي تلك المحبة التي مزجت بين القبائل فصارت قبيلة واحدة؛ ولكن لا تخلو كل قبيلة من جهلة تسيرهم غرائزهم لا دينهم، فيرون اختيار رئيس الدولة من غير قبيلتهم احتقارا لهم، وازورارا من الناس عنهم. إنهم عند أنفسهم أولى برئاسة الدولة. إن استيلاء الغرائز والأنانية عليهم يجعلهم يرون رئيس قبيلتهم هو سيد الرؤساء لا يجوز أن تنحى عنه رئاسة الدولة، وان إيثار الناس لغيره بها ظلم لهم، وتعصب عليهم، ورزء للدولة وحرمان لها من خير اكفائها. فيثورون ويصطخبون، ويشيعون عدواهم في البسطاء، وينشرون وجدانهم في الجهلة. والغبار إذا أثير لا تتلبس به الأرجل المثيرة وحدها، ولا يبقى في مكانه، بل يسري إلى حواليه، فيعتكر به الجو، ثم يشتد ويشتد حتى يصير ظلاما دامسا على الأمة فتتصادم وهذا ما يريد اللصوص والأعداء!

إجماع الجمهوريين في المغرب على اختيار عبد الرحمن ابن رستم للإمامة لتفر كل الشروط فيه

إن قوة الجمهوريين في اتحادهم. واختيار الإمام من إحدى القبائل قد يثير المنافسة والحسد في صدور الجهلة من القبائل الأخرى، فيضعف الاتحاد، وتتضاءل الدولة، فيمسون في أشداق العباسيين المسعورة، وبين أنياب الملوكية العباسية الفاغرة عليهم في بغداد والقيروان. إن كل رئيس ممن توفرت فيهم شروط الإمامة، قد تعرضهم توليته لهذا المحذور. ثم إن كفاءة أولئك الرؤساء في الإدارة وحنكتهم في السياسة قد بدت في النطاق الضيق، هو نطاق القبيلة. لقد نجحوا في الإمارة على نواحيهم، واستطاعوا النهوض

على خير وده بأثقالها الخفيفة. فهل سيكون لهم ذلك الاقتدار في رئاسة الدولة. وهل قد تمرنوا على إدارة الأقطار الواسعة التي تشتمل على فئات متعددة. أنهم لم يجربوا؛ ولكن عبد الرحمن ابن رستم قد جرب لما ولاه أبو الخطاب على افريقية المتنمرة. وعلى المغرب الأوسط الواسع الرقعة. فبدت عبقريته في السياسة وكفاءته في الإمارة. وظهر دينه وعدله وكل ما يشترطونه في رئيس الدولة. كما جربوه لما تولى أمورهم بعد انتقاله إلى المغرب الأوسط. لقد ودوا فيه كل كفاءة وهو أميرهم لقد استطاع بدهائه. وعزمه وبقوة الله التي جعلها إلى جانبه. وبدينه. وحسن نيته. أن ينظم صفوفهم. ويرتب أمورهم. ويجعل منهم دولة مرهوبة الجانب. مهابة الحي وصارت إماراتهم المتثرة دولة واحدة تقف على قدميها. وتبسط أجنحتها. ويرتعد منها العباسيون. واستطاعوا أن ينشئوا عاصمتهم بهذه السرعة. وفي إتقان وعظمة وعلى هندسة بديعة. ونظام جميل. إن ذاك بفضل عبد الرحمن. لقد بدت كفاءته في رئاسة الدولة قبل إعلانها. فهو الرجل الفذ الذي تجمع القبائل كلها على احترامه والإعجاب به ! وإن الخاصة منها وهم الذين يختارون للإمامة قد اجمعوا كلهم على اختيار عبد الرحمن لرئاسة دولتهم. إنهم يصرحون على ذلك. والعامة كلها. تقيها. وضعيف الدين منها. ستصفق طربا لترشيح عبد الرحمن للإمامة. وتقدمه للرئاسة. سيبايعونه بقلوبهم لا بأيديهم. إنه في قلوبهم كله. فكل العامة تعد عبد الرحمن رئيسها المحبوب. لقد رأوا من إخلاصه وإيثاره. ومن خلاله العظيمة ما غرسه في قلوبهم كلها. فصاروا كلهم يرونه جزءا منهم. ويشعرون أباهم الحدب. وراعيهم الأمين. إن عبد الرحمن لهذا هو الذي يليق للإمامة. ثم إنه لا قبيلة له تتمسك برئاسة الدولة بعده. فهو الذي يستطيعون إعفاءه إذا شاخ وضعف عن أثقال الإمامة. فيولون غيره. وهو الذي يستطيعون مراقبته. وانتقاد سياسته. والملاحظة عليه في كل الأمور بدون أن يعوقهم عائق. وبدون أن يخشوا ثورة ومعارضة من جهلة قومه. وعامة قبيلته إن عبد الرحمن هو الكفء الذي لا نظير له. والرئيس الذي لا يداني في كفاءته. وتوفر كل شروط الإمامة فيه. فذهبوا إليه فما زالوا به حتى قبل الإمامة. وكان يكره الرئاسة. ولكنه أدرك بذكائه ما خاف منه رؤساء القبائل. واستشعر الواجب عليه وعلم ما يكون له من الأجر بتحمل أثقال الإمامة. فطأطأ للرؤساء فوضعوا حمل الإمامة على كاهله. وبايعوه على أن يحكم فيهم بكتاب الله وسنة رسول الله. كما عاهدوه على السمع والطاعة في كل ما وافق الدين. وعانقوه فرحا بإمامته. وشكرا له على قبول الرئاسة. وخرجوا به إلى المسجد الجامع فأسرعت العامة تبايعه وتعانقه. وسمعت القبائل الجمهورية في المغرب الأوسط وفي المغرب الأدنى فتوالت عليه الوفود الكبيرة منها تبايعه وتعانقه. وتهنئ نفسها بقبوله لإمامتهم. وامتلأت تيهرت الفتية

بالأفراح. ورقصت النفوس في المغرب الأوسط والأدنى بإمامة عبد الرحمن. فنهض عبد الرحمن بالدولة الجمهورية فحلق بها في السموات. ورأى العالم الإسلامي عهد الخلفاء الراشدين الذي أعجبوا به في المشرق يتجدد في المغرب. ورأوا هدي الفاروق وعدله يتسم به عبد الرحمن!

وكانت مبايعة عبد الرحمن بالإمامة في سنة ستين ومائة من الهجرة 777م. وهي سنة الأفراح والخير والعز للمغرب الجمهوري! وقد توجها الله بهذه الأرقام الثلاثة التي هي علامة النصر عند الأوروبيين.[1] انه نصر مضاعف بانتصار العدل على الظلم. والجمهورية الإسلامية على الملوكية المستبدة. وانتصار الإخوة الإسلامية على العصبية الملوكية وأنانيتها وتفريقها بين المسلمين!

قال ابن الصغير المالكي. وكان قد عاصر الدولة الرستمية في القرن الثالث الهجري وسكن في تيهرت. وشاهد أحوال الدولة الرستمية في أيام ازدهارها وقوتها. وروى أخبارها في نشأتها وفي كل أدوارها عن الثقات؟. فسجلها في كتابه النفيس (سيرة الأئمة الرستميين) فحفظه الله فوصلنا. ولم يقض عليه العبيديون والملوك الذين جاءوا بعدهم كما قضوا على كل ما كتب الجمهوريون في تاريخ دولتهم الرستمية أيام وجودها.

إعجاب ابن الصغير المالكي بالدولة الرستمية وحبه لها

وكان ابن الصغير معجبا بالدولة الرستمية. محبا لها. يجل أئمتها ويعظمهم. وما قاله فيهم. ووصفهم به دليل على عاطفته وعقيدته. ولكنه كتب كتابه في جو ملوكي بعد الدولة الرستمية أو خارجها. فاحتاط لنفسه. وصرف غضب الملوك عنه بكلمات نابية قالها في أول كتابه. وهي التي أرضت الملوك فابقوا على كتابه. فلولا تلك الكلمات التي أوهمهم بها انه منهم. ومن زمرة المؤرخين الذين يرقصون خلفهم. ما وصلنا كتابة النفيس. انه في الحكم على شخص يجب أن تعرف ظروفه. وتنظر إلى كل كلامه وأعماله. ليكون صائبا. والاستنباط صحيحا؛ ولكن بعض الناس يتمسكون بقشرة الرمان الواقية. وقد خلقها الله مرة لتقي حلاوته. ويحصرون نظرهم فيها فيحكمون على الرمان كلها. ويرقص بها غصنها. كأنه منتش بحلاوتها. وهي في أتم النضوج والحلاوة؛ يحكمون عليها بالمرارة. ويقولون إنها حنظلة. وان الله لو ركب مثلها في الحسان ما كان إلا دملا في مقاتلها يجرها إلى القبر. لا نهودا فتانة في صدرها تفتح لها كل حجر. وتجعلها أمنية لكل القلوب!

---

1 - حرف V علامة النصر عند أبناء السين فهو أول كلمة النصر: La victoire .

إن ابن الصغير المالكي كان صديقا للدولة الرستمية. وحبه لها هو الذي بعثه على كتابة تاريخها، وتمجيد أئمتها، في جو وقت كان التلفظ بالدولة الرستمية يعتبره الملوك جريمة سوداء، والثناء على أئمتهم فظيعة نكراء تطير بها الأعناق. انه لمن اكبر المحسنين إلى المغرب الكبير بما كتب، ومن اكبر أصدقاء الدولة الرستمية بما ألف وحبرت يمناه!

قال ابن الصغير في كتابه سيرة الأئمة الرستمية: "اخبرني غير واحد من الإباضية عمن تقدم إبائهم قالوا: لما نزلت الإباضية مدينة تيهرت وأرادوا عمارتها، اجتمع رؤساءهم فقالوا: قد علمتم انه لا يقيم أمرنا إلا إمام نرجع إليه في أحكامنا، وينصف مظلومنا من ظالمنا، ويقيم لنا صلاتنا، ونؤدي إليه زكاتنا، ويقسم فيئنا.[1] فقلبوا أمرهم فيما بينهم، فوجدوا كل قبيل منهم فيه رأس أو رأسان أو أكثر يدبر أمر القبيل، ويستحق أمر الإمامة. فقال بعضهم لبعض: انتم رؤساء ولا نأمن إذا تقدم واحد على صاحبه (فصار هو الإمام) أن يرفع أهل بيته بن رستم لا قبيلة له يشرف بها[2] ولا عشيرة له تحميه. وقد كان الإمام أبو الخطاب رضي لكم عبد الرحمن قاضيا وناظرا فقلدوه أموركم، فان عدل فذلك الذي أردتم، وإن سار فيكم بغير العدل عزلتموه، ولا قبيلة له تمنعه، ولا عشيرة تدفع عنه. فجمعوا رأيهم على ذلك، ثم نهضوا إليه بأجمعهم فقالوا: يا عبد الرحمن رضيك الإمام في ابتدائنا، ونحن الآن نرضى بك ونقدمك على أنفسنا. فقد علمت انه لا يصلح أمرنا إلا إمام نلجأ إليه في أمورنا، ونحكمه فيما ينوب من اسبانيا. فقال: إن أعطيتموني عهد الله وميثاقه لتسمعن لي وتطيعوني فيما وافق الحق وطابقه قبلت ذلك منكم. فأعطوه عهد الله وميثاقه على ذلك. وشرطوا عليه مثل ما شرط عليهم، (وهو أن يحكم فيهم بكتاب الله وسنة رسول الله، ويلتزم سيرة الخلفاء الراشدين)[3] فقدموه على أنفسهم والقوا إليه بأمورهم، فسار فيهم سيرة جميلة حميدة".[4]

لقد اختار الجمهوريون عبد الرحمن بن رستم إماما لدولتهم. فما هو نسب عبد الرحمن وما شخصيته؟ وما هي الميزاب التي اختاروه من اجلها؟

نسب عبد الرحمن بن رستم وسبب انتقاله إلى المغرب

كان عبد الرحمن بن رستم فارسيا ومن عائلة الملك. فجده الخامس هو بابك ذو

1 - الفئ هو ما يغنمه المسلمون في حروبهم مع المشركين.

2 - يريد بالشرف هنا التقوى بالعشيرة.

3 - ما بين قوسين من سير الشماخي ص 140 لا من ابن الصغير وهكذا كل كلام يرد بين قوسين في نص فانه ليس منه.

4 - سيرة الأئمة الرستميين ص 9 ط. باريس 1907م

الأكتاف ملك الفرس! أنه عبد الرحمن بن رستم بن بهرام بن سابور بن بابك ذي الأكتاف الملك الفارسي.

وكانت عائلة عبد الرحمن تسري فيها دماء الملوك فأورثتها عزتها وشممها وارتفاعها إلى المعالي، والإنصاف بكل ما يليق بجلالها الملوكي، وبكل ما يريدها نبلا عند الناس، ورفعة في المجتمع.

وكان جد عبد الرحمن الأول، بهرام بن سابور قد اسلم فحسن إسلامه، فاتصل بالإمام عثمان بن عفان رضي الله عنه فصار من مواليه،[1] ومن أصدقائه الذين يقربهم، ويخلصهم بأسرته، ويعدهم منه.

وكان بهرام حفيده كسرى. انه جده الأول فوراثته قوية في دمائه، فنشأ وهو يتصف بشمم الأمراء وعزتهم، وبإبائهم وهمتهم. وكان من ذلك الجيل القوي الذي أنشأته الأمة الفارسية بعد أن طهرها المسلمون من فساد النفوس، ومن هرمها، وأورثوها الشباب والقوة والصفاء.

وكانت دولة الفرس قد مرضت وانحلت أخلاقها بمفاسد المدينة، ووقع لها وقع للدوحة التي عششت الديدان وأنواع الأمراض في فورعها، فاصفرت ودخلت في أصيلها. فأشرق عليها الإسلام والمسلمون وعالجوا أمراضها، وقضوا على الفاسدة فيها، وفعلوا بها فعل البستاني النصوح الماهر في الشجرة التي مرضت فروعها، فتكت العلل بأعاليها، فأزال تلك الفروع، فنشأت فيها أغصان جديدة نضرة مستعدة للأثمار، وملء الجو بالعطر، لا بالأشواك والصفرة التي تشينه!

وكان بهرام من ذلك الجيل السليم الصحيح الذي أنجبته فارس بعد أن طهرها الإسلام من ارجاسها، وأنقذها من ظلم الملوك واستبدادهم وفسادهم، وجدد نفوسها، وأورثها شبابها، ودفعها في طريق العظمة الذي استرجعت به مجدها التليد.

وكان الإسلام ونور الدين الحنيف قد أكد في بهرام وراثته الحسنة وزاد عليها، فنشأ على الطهر والإيمان، وعلى التقوى والصلاح، وأرهف عزة نفسه وأباه وشممه، فصار تكبره وترفعه وشموسه عن الأخلاق الدنية التي ينهى عنها الإسلام، فيعاف أن يكون على ما

1 - المولي هو المعتق والصاحب والقريب والجار والحليف والنزيل. وارى أن بهرام إما من النوع الأول اسر في فتوح فارس فكان لعثمان فاعتقه وضمه إليه. أو من النوع الأخير وهو النزيل الذي يعجب بقوم فينضم إليهم ويكون منهم. وقد اسر صولات بن وزمار ملك البربر في تلمسان فحمل إلى عثمان رضي الله عنه فأحسن إليه وولاه على قومه وأرجعه مكرما إلى المغرب. وجعله من مواليه واقرب أصدقائه إليه كما ذكر ابن خلدون في ج 7 ص 14 ط أولى وارى أن بهرام من هذا النوع.

يخفض درجته في المجتمع الإسلامي، وينقص منزلته عند الله.

وكان بهرام لذكائه وطموحه وحبه للعلم الذي هو سبب الكمال، ولاختلاطه بالصحابة في المدينة، وصلبته بعثمان، قد تعلم العربية وعرف الدين الإسلامي وأدرك أسراره ومزاياه العظمى، فأيقن انه وحده حياة الشعوب والدول، وهو لا سواه يسعد الأفراد ويحقق لهم الهناء والبهجة، ويسعد الأمم ويورثها القوة والنجاح. فازداد تمسكا بالدين، وتأثرا ببيئة الصحابة والتابعين فأكدت صلاحه واستقامته. فكان على التقوى والورع، وعلى الصلاح والفضل، فارتضاه عثمان، وفتح له صدره، وجعله من مواليه، وخلصه بعائلته. فلولا ذلك لا بعده عنه.

وكان رستم كابية بهرام. إن وراثة الملوك تسري فيه فتورثه اعتدادا بالنفس، وعلوا في الهمة، ونزوعا إلى الكمال. فاعتنى به أبوه فنفخ فيه روحه، ورباه تربية دينية صحيحة، وأحاطه ببيئة حسنة طبعته بالطهر والصفاء، وتعلم الدين فعرف أسراره، وأيقن انه سبب سعادته، فتمسك كل التمسك به، وكان من الفضلاء، ومن الصالحين المستقيمين.

وكانت زوجة رستم علة مثل صلاحه. إنها من اختياره واختيار أسرته الصالحة واختيار المرء يكون على حسب مزاجه، سيما في الزوجة التي هي أم أولاده، والقالب الذي يشكلهم ويؤثر فيهم. وكانت متمسكة بالدين كل التمسك. نرى ذلك في ابنها عبد الرحمن. والابن هو اصدق مرآة لوالديه، سيما الأم التي هي المدرسة الأولى، وهي العامل الأول الذي يسبق إلى الطفل فينقش فيه صورته، ويؤثر في شخصيته التأثير الدائم الذي لا يزول. سيما إذا كان الطفل يتيما قد فقد أباه، كما وقع لعبد الرحمن بن رستم، فاستأثرت أمه بتربيته، فان الأم حينئذ تكون هي الصورة البارزة التي نراها في شخصية الابن. لقد كان عبد الرحمن بن رستم عبقريا وصالحا، فعبقريته ورثها من أجداده وأبويه، وصلاحه كان من والديه، سيما أمه التي واصلت تربيته وتوجيهه والتأثير فيه بعد وفاة أبيه. إنها امرأة صالحة متدينة. فما كان لأبي عبيدة أن يؤثر فيه بشخصيته، وينفخ فيه روحه، لولا إعداد أمه بالتربية الحسنة، والتوجيه الصحيح والروح الدينية القوية التي ملأته بها.

سفر رستم والد عبد الرحمن إلى الحج ووفاته بمكة

وكان رستم على ذلك الصلاح وعلى ذلك التمسك بالدين. فدفعه دينه إلى أن يؤدي فريضة الحج، ويسافر إلى البل الحرام، ويمتع روحه وعينه بالكعبة المقدسة. وكانت زوجته

على رغبته. إن الحج فرض عليهما، وهما يستطيعانه. إن حر الحجاز شديد، وقد يكون مسكنهما في فارس، فلا يكون لهما بحر الحجاز طاقة؛ وإن الشقة بعيدة. وولدهما عبد الرحمن صغير لا طاقة له بجهد السفر، وبحرارة جو الحجاز، ولكن الحج فرض لازم لابد من أدائه، والعيش في البلد الحرام، ومشاهدة الكعبة المقدسة، وزيارة قبر الرسول، والتجول في تلك البقاع المملوءة بالذكريات الجليلة هي أمنية نفوسهما، فلا بد من الحج ! فكل صعب يهون في سبيل تحقيق تلك الأماني الغالية. فشد رستم رحاله ومعه زوجته وابنه عبد الرحمن إلى البلد الحرام.

وكان عبد الرحمن هو ريحانة أبويه. لقد سر أبوه بميلاده كل السرور. إن فيه مخايل النجابة، وفي عينيه نور الصلاح، وفي وجهه الأزهر الجميل عنوان مستقبله الأبيض الجميل. وكان روح البيت ونوره وبهجته. إنه ثمرة الحياة الزوجية السعيدة. وكان أبوه يراه ريحانة من حبيبته فيه من عطرها، وكان صلاح أمه المتألق فيه، وآثار تربيتها الرشيدة تزيده وضاءة ولطفا فيزداد إقباله عليه. إنه ابنه الحبيب يحمل وراثته الكريمة. سيزيد في مفاخر الأسرة من مفاخره، ويكون له كما يتمنى شرفا وعونا في الدنيا، وأجرا بصلاحه ورشده في الآخرة.

وكان ميلاد عبد الرحمن كما أرى في آخر القرن الأول الهجري، وحج أبويه في أول القرن الثاني، فيكون غلاما قد شب عن الطوق، فصار يطيق السفر وحر الحجاز. وكانت أم عبد الرحمن سعيدة بالوصول إلى البلد الحرام، ومعها زوجها وابنها يتممان سعادتها، ويضاعفان أفراحهما، ويكملان إنها في هذا البلد الحبيب. ولكن الأيام لا يدوم صفاؤها لأحد. فشاء الله لزوجها رستم أن يدفن في البلد الحرام، وفي منزل الوحي، فتخطفته المنية، وقضى نحبه في مكة! يا لها من فجيعة لزوجته وابنه! أفي بلد الغربة يذهب رستم إلى ربه ويتركهما وحيدين. فحزنت الزوجة الوفية على زوجها الحبيب، وساءها أن ينشأ ابنها يتيما لا والد له يشبل عليه، وان يذهب سترها وكافلها وسندها وهي غريبة في الحجاز لا تعرف أحدا. فبكت زوجها أحر البكاء، وتأسفت لنفسها ولولدها أيضا، ولكن قوة إيمانها، وقوة نفسها، وثقافتها تكفكف دموعها، وتخفف أحزانها. إنها مسلمة مثقفة العقل تعرف أسرار دينها. فأراها دينها أن المسلمين كلهم قومها! إنها ليست غريبة في الحجاز. إن البلد الحرام يشتمل في أيام الحج على كل الأجناس. إن فيه المغربي، والفارسي، والهندي وكل الأجناس التي تدين بالإسلام وتسجد لله، وهم كلهم مسلمون. فالإسلام قد صبغهم بصبغة واحدة، وغرس فيهم أخلاقا واحدة، ووجههم وجهة واحدة. فهم لهذا أسرة واحدة! إن المسلمين كلهم قومها. فلابد أن تجد منهم

العطف والعون والرعاية والأنس الذي يزيل وحشتها. ثم إن معها ابنها عبد الرحمن. هذا الغلام الجميل الذي ترى فيه مخايل أبيه، ويملأ قلبها بالأنس والارتياح، ويعمر صدرها بالأمل والسعادة. إنها في البلد الحرام الذي تحبه وتتمناه، وبين المسلمين قومها وعشيرتها، ومعها طفلها الحبيب. إنها ليست غريبة، بل هي في وطنها. فقر قرار أم عبد الرحمن، فتفتحت نفسها للحياة، وعزمت أن تواصل حياتها في أمل سكون وارتياح. وان تكون سبب انس وسعادة لابنها. لا تدنس صدره بروحها البائسة، ولا تورثه التشاؤم والانقباض عن الحياة بتشاؤمها. يجب أن تكون له سبب قوة. إن الأم التي تعمر صدر وليدها بالآمال لتفاؤلها بالحياة، هي التي تدفع ابنها إلى سماء المعالي فيصلها! وتجاعيد التشاؤم في جبين الوالدين تكون تجاعيد الهرم في نفوس أبنائهما فيموتون! والأبناء كالطير ترفرف وتحلق إذا لاح الصباح، وأشرقت الشمس؛ والشمس التي يحلق بها الأبناء إنما هي إشراق التفاؤل والآمال والطموح الذي سطع في وجه الأبوين!.

وكانت أم عبد الرحمن فاضلة مثقفة العقل بما تعرف من أسرار دينها، عمالة بدت نفسها العلمية في ابنها عبد الرحمن، صالحة، جميلة، رأينا جمالها في ابنها. وكانت امرأة لا يظفر الرجل بمثلها زوجة إلا ويحظى بالجنة التي لا يكونها في الأرض للزوج إلا زوجته الصالحة المحبوبة.

وكان عبد الرحمن ظريفا جميلا كالزهرة فيها من الصباح الذي فتحها، والشمس التي صبغتها، لا يراها احد إلا ويتمنى أن يكون في حبيبه، يزين صدره، وتملأ جوه بالعبير. إن كل رجل يتمنى أن يتبناه ليملأ بيته بالظرف والأنس والجمال. انه ليس من الأطفال الذين ينفرون الناس عن أمهاتهم، ويكونون للام برعونتهم وثقلهم نحسا تتألم به طول الحياة. وترى الرجال يبتعدون عنها كأنها من حمام الكعبة، لا تجنح النفوس لاقتنائها.

إن عبد الرحمن لامه ثمرة غالية في الشجرة الجميلة، وزهرة ساطعة غب الغصن النضير، وتزيد في قيمتها، وفي رغبة الناس فيها. بل انه العقد النفيس في الجيد المليح يزيد فيه، ويجعل النفوس تميل إليه.

سبب انتقال عبد الرحمن ابن رستم إلى المغرب

وكان في الحجاج رجل من القيروان، كريم المحتد، شريف الخصال، فيه دين وصلاح وخلق رفيع. فسمع بصلاح أم عبد ارحمن، وبدينها، ونشاطها، وإسعادها للزوج، وبقوة شخصيتها، وبجمالها، فعلم إنها هي التي تجعل داره جنة، وقلبه لا تغشاه إلا روح الدجنة إذا أسعده الحظ فصارت زوجته. ورأى ابنها عبد الرحمن فشعر بصدره يتفتح له،

وبحب الوالد للولد يعمر قلبه له، فعلم انه سيكون نور بيته إذا أسعده الحظ فتبناه. إن أم عبد الرحمن فارسية شرقية بعيدة الدار، وهو مغربي، قد يكون بربريا، وقد يكون عربيا، فهو ليس من جنسها. ثم إنها زوجة أمير وأم الأمير!هل ترضى به زوجا؟ إن الإسلام قد مزج بين المسلمين، وجعلهم أسرة واحدة. وإن دين المرء واستقامته وحسن عشرته هي القيمة الكبرى التي ترجح بها كفته. إن أم عبد الرحمن ستجد فيه من هذا ما يرضي دينها وصلاحها وحزمها وثقافتها.[1] فخطبها، فارتضت أصله وخلقه ودينه، فرضيت به زوجا. انه مسلم! وهو كفء لها بصلاحه. وسيسعدها بدينه وما أورثه الدين من خلق رفيع. وانه من المغرب! البلد الذي تعرف تمسك أهله بالدين، وتعرف بطولته وخصائصه العظيمة. إن هذا الرجل من القيروان، فإذا تزوجها فسينقلها إلى بلدة بعيدة عن الحجاز الذي يمكن أن ترى في كل عام فيه أهلها من الفرس إذا وفدوا إليه حجاجا. إن هذا الرجل الذي سيسعدها هو أهلها. وإن جو المغرب الجميل هو أليق لها ولابنها عبد الرحمن. إن زوجها المغرب سيسعد ابنها الذب سيتبناه وينقله إلى المغرب الجميل، والى جو القيروان اللطيف، لا حر ولا قر، والى بلد إسلامية كانت منبع الدين الذي أشرق على المغرب فعم أرجاه. إن كل ما يسعد ابنها عبد الرحمن ويضمن له النشأة الكريمة، والجو الصحي، والبيئة الصالحة، ويقويه وينعشه، ويسعدها ويرضيها. فشعرت بقلبها يتفتح للرجل المغربي فقال لخاطبها: رضيت! فتزوجها القيرواني السعيد ونقلها مع ابنها إلى المغرب.

قال الشماخي: "وسبب وصول عبد ارحمن إلى القيروان (وهو فارسي) أن أباه رستم بن بهرام قدم إلى مكة بزوجته حاجا بزوجته وابنه عبد الرحمن فمات، فتزوجت زوجته رجلا من القيروان فاقبل مع أمه إلى القيروان".[2]

إن الكتب التي ألمت بنسب عبد الرحمن ونشأته لم تذكر لنا عن أم عبد الرحمن شيئا أهي عربية أم فارسية، وعن بهرام جده هل أقام في المدينة واستوطنها فكانت وطنا لابنه رستم والد عبد الرحمن أم انتقل بعد وفاة عثمان ونشوب الفتنة في الحجاز بقتله إلى وطنه فارس الهادئة. وإذا كان بهرام من عائلة الملك فنرى انه يكون له نزاع من نفسه يدفعه إلى الرجوع إلى وطنه، ويكون في فارس وطن أجداده ومحل مجده القديم

---

1 - نقصد بالثقافة استنارة العقل وقوته وعمق إدراكه بإسرار الدين التي يعرفها، ومغازى الإسلام الكبرى التي يدركها، لا كثرة المعلومات التي تثقل بها كثير من فتياتنا الجاهلات الخريجات من المدارس الاستعمارية التي لا تعتني بالتربية الصحيحة رءوسهن، ومع ذلك لا تتعدى بها عقولهن فيثقفها، فهن عامرات الرءوس كمزود السائل بخليط الطعام الدسم الذي يعطاه، ولا يزيد على أن يدنس المزود الذي يخشى به، ويسلط عليه الذبان !

2 - سير الشماخي ص 123 ط . البارونية بالقاهرة.

جاذب يجذبه إليه فيرجع. ولم يذكروا حين قالوا انه مولى عثمان هل قر معه في المدينة طويلا، وهل كان معه ابنه رستم، وهل توفي بعد عثمان أو قبله. إن قول الشماخي: فذهب رستم إلى مكة حاجا يكاد أن يوهمنا أن رستم كان قارا في المدينة، فلو كان في فارس لقال: فذهب إلى الحجاز.

كان رستم والد عبد الرحمن فارسيا، وكان فاضلا، يتراءى لنا فضله في ابنه وكانت أم عبد الرحمن كما أرى فارسية فلذلك أثرت جو القيروان، وسهل عليها الانتقال إلى المغرب، فلو كانت عربية من الحجاز لأثرت البقاء في وطنها، وعز عليه فراق عشيرتها.

إغفال المؤرخين القدماء للام في تاريخ العظماء وهي سبب عظمتهم

إن اغلب المؤرخين القدماء يغلفون الأم إذا تحدثوا عن نسب الشخص وشخصيته والأم هي العامل الكبير في تكوين تلك الشخصية، ونحن قد استعنا بعلم النفس الفردي والاجتماعي فعرفنا من سيرة عبد الرحمن وشخصيته ما أغفله المؤرخون من ذكر شخصية جده وأبويه.

إن الملوك قد قضوا على تراث الدولة الرستمية الجمهورية، وحرقوا معظمه، فلو بقي لوجدنا فيه من تاريخ العائلة الرستمية الشيء الكثير.

لقد انتقل عبد الرحمن مع أمه إلى المغرب، فما نشأته واتجاهه؟ وما حقيقته ومزاياه التي جعلت الجهوريين يرغبون كل الرغبة في رئاسته، وجعلت الدولة الرستمية ترقى وتسعد وتدخل شبابها وعهود قوتها به؟

نشأة عبد الرحمن وشخصيته العظيمة

وراثة عبد الرحمن الزكية ودينه الراسخ

كان عبد الرحمن بن رستم تسري في عروقه وراثة أجداده الملوك، فتغرس فيه الاعتداد بالنفس والطموح والإباء، وتطبعه بحب المحامد وكل المعالي، وما بع تعظم درجته في الدارين ويورثه السعادتين.

وكانت وراثته الملكية يوجهها الدين الراسخ الذي امتلأ به، فكانت تدفعه إلى أعمال الخير وأنواع البر التي يأمر بها الدين، والى الاتصاف بكل الأخلاق العظيمة التي أوجبتها الشريعة الإسلامية، وجعلها الدين سبب تقدم ورفعة في المجتمع الإسلامي فكان عبد الرحمن بوراثته الزكية، وبدينه الراسخ، يجهد ويجتهد لبلوغ أعلى الدرجات التي تنيله رضا الله، وترتفع بها مكانته في الدارين، وتتفتح له أبواب السعادتين.

اعتناء أبويه بتربيته تربية دينية صحيحة

وكان أبواه قد اعتنيا بتربيته تربية دينية صحيحة، فنفخا فيه الروح الدينية التي تصبغه، فواصلت أمه الاعتناء بتربيته لما توفي والده، وكانت حازمة ذكية، خيرة طموحا، فأحسنت توجهه، والإيحاء إليه بكل صلاح، غرست فيه حب المعالي وملأته بوجدانها المتأجج طموحا وأملا أن يكون ابنها خير جيله، وأحسن مرآة يرى فيها المغرب الحبيب خصائص أجداده الكبرى، مزايا أسرته العظيمة، فنشأ عبد الرحمن خيرا صالحا، نقي الطوية، ابيض القلب، محبا للمعالي، تسمو به همته إلى أن يكون في أعلى الذرى، ويبلغ أقصى الغايات، ويكون كما تريد له أمه أحسن عنوان لأجداده، وفي درجة عالية تنيله رضا ربه، وتورثه السعادة الدائمة التي لا تكدر ولا تزول.

ذكاؤه وشغفه بالعلم

وكان عبد الرحمن ذكيا بالغ الذكاء، له استعداد كبير للعلم، فعرف من دينه وأدرك بعقله أن العلم هو الذي يكمل به الدين، وتكون به قيمة المرء في دنياه؛ وأن الإسلام قد أوجبه، وجعل طلبه فرضا على كل مسلم ومسلمة، ونظر حوله في القيروان المسلمة الفتية، فوجد الناس يتنافسون في العلم، ويتسابقون في المعرفة، إن القيروان والمغرب يستعد ليكون أعظم دولة، وأزهى ناحية في العالم الإسلامي، فعرف أن ذلك لا يكون إلا بالعلم، فاقبل عليه في لهفة وحب متأجج، ورغبة كاملة، ورأى عبد الرحمن في افريقية وفي المغرب فوجد أن أعلى طبقة فيها إنما هي طبقة العلماء، وأن الإسلام قد غرس حب العلم وتبجيله في نفوس المسلمين، فصاروا لا يجلون ولا يقدمون إلا ذوي المعرفة ودخل مساجد القيروان فوجدها تجلجل بأصوات العلماء الذين يتصدرون حلق التدريس فيها، إن أصواتهم المتحمسة المخلصة هي أزيز المصانع التي تصنع للمغرب النفوس الصحيحة، والعقول المثقفة التي تبنيه! فأجج هذا الجو العلمي الذي يحفه في القيروان، وهذا التعطش واللهفة إلى العلم التي كانت في البيئة الاجتماعية، وإيحاء أمه، ووجدانها المتأجج حبا للعلم، وغراما به، أجج كل هذا رغبته في العلم، فاقبل عليه، فحفظ القرآن لأنه كتاب الله، ومصدر الشريعة، ومعدن الحكمة، وهو الأساس الصحيح للثقافة الإسلامية الكاملة، وبدونه تكون ثقافة المرء ناقصة، وعلمه ضئيلا ودرجته في مجتمعه اقل مما يريد، ونضوج مواهبه غير ما يتمنى. كما تعلم العربية فبرع فيها، فصار من الفصحاء، ومن العالمين بإسرار اللغة وتراكيبها؛ وبلغ في العلم ما استطاعت القيروان تزويده به، إنها نحلة بعراجينها الممتلئة، ولكن العاصفة التي تتمايل بها، وتصدمها من كل جوانبها، وتثير حولها الغبار، وتمنع المجتني من بلوغ

غايته، واقتطاف كل ما يريده من ثمارها. إن ثورات البربر على الظلم والجبروت، وعلى الملكية المستبدة وطغيانها ومفاسدها ليرج القيروان رجا، ويمنعها الاستقرار ويجعل جو افريقية والمغرب الذي تسطع فيه السيوف الثائرة، لا تسطع فيه شموس المعرفة. إنها ثورة ميسرة الخفير في المغرب الأقصى،[1] وانهزام جيوش القيروان الملكية الهزائم المنكرة فيها، ومقتل أبطال الدولة الأموية وصناديد القيروان في تلك الحروب. فصارت القيروان بهذا في همومها وأحزانها لا تعرف غير البكاء، ولا يشغل قلبها إلا الحيرة والهموم. وتأجج جو المغرب كله عداوة للملوكية وحقدا عليها فصارت الأفكار فيه لا يشغلها إلا التفكير في الثورة والصدام، وما يحرر المغرب من الدولة الملوكية الأموية الهرمة التي تصليه بنار الظلم والطغيان. إن المغرب لا يصلح مجالا لطلب العلم لطبقة عبد ارحمن التي تريد التخصص فيه، والتزود من أغنى معادنه وأغزر منابعه. إن عواصم المشرق أحسن له لكثرة علمائها، وغزارة العلم فيها، ولاستقرارها وهدوئها. فتعلقت همة عبد الرحمن بالمشرق، ولكنه لا يعرف أي بلد من عواصمه يقصد ولا أي شيخ من علمائه يؤم. وبينما هو في حيرته وتفكيره إذ اتصل بسلمه بن سعد، وبدعاة الإباضية الذين أرسلهم أبو عبيدة أمامه الجمهوريين في البصرة للدعوة للإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية، فوجهوا عبد الرحمن إلى البصرة وعرفوه بابي عبيدة، فرغب فيه، وأيقن انه بغيته ومراده. كما اقبل على دعوتهم للإمامة العادلة فصار من الجمهوريين.

نزوع عبد الرحمن وأمة إلى الجمهوريين وحماسهما للجمهورية الإسلامية

إن وراثة عبد الرحمن الملوكية، وإباءه وعزة نفسه، ورسوخه في الدين، وتمسكه بشريعة الله، وعلمه وثقافة عقله، كل ذلك يجعله جمهوريا يفتح قلبه للجمهورية الإسلامية والإمامة العادلة. وكذلك أمه فقد كانت جمهورية متحمسة للإمامة العادلة، ثائرة على الظلم والطغيان، وعلى الانحراف الذي كان عليه الأمويون في سياسة المسلمين أنهم يتعصبون لأنفسهم ويفضلون بني أمية على قريش، وقريشا على سائر العرب، والجنس العربي على بقية المسلمين، ويحتقرون الفرس والبربر وكل من ليس عربيا، ويرونهم فيئا وغنما امتلكوه بسيوفهم يفعلون به ما يريدون، وأنهم اقل درجة، وأدنى مرتبة، واقل في الحقوق من العرب الذين فتحوا بلادهم! إنهم بهذه العصبية الجنسية قد خالفوا ما أمر به الدين وارتكبوا ما نهى عنه الإسلام! لقد قرر الإسلام وأكد انه "لا فرق لعربي على عجمي إلا بالتقوى" وقال: "إن أكرمكم عند الله اتقاكم" وقال: "إنما المؤمنون إخوة" وتقسيم الأمويين جماعة المسلمين إلى عرب وغير عرب رجوع إلى الجاهلية، وإحياء للقوميات

1 - انظر ثورة ميسرة الخفير في صفحة 219 من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

الضيقة التي نهى عنها الإسلام، وناهضها الدين الحنيف، لأنها تشق عصا المسلمين وتضعفهم، وتورثهم العداوة والبغضاء. والدين الإسلامي قد جاء قوة للمسلمين ونقاء لصدورهم من كل غل وحقد وبغض. وقد صبغ نفوس المسلمين كلهم بالإيمان الراسخ بصبغة واحدة، وجعل نفوسهم متقاربة وأخلاقهم واحدة، فصاروا كالإخوة من أب واحد وأم واحدة، وكالنجوم المتشابهة في نورها، يضمنهم شيء واحد، وهالة نورانية واحدة هي الإسلام ويطلق عليهم اسم واحد هو أكرم الأسماء، وأعظم الألقاب، واشرف الإعلام قد سماهم الله به، واختاره لهم ومجدهم باختياره والتسمية به، وهو اسم المسلمين. لا عربي ولا عجمي ولا مشرقي ولا مغربي، ولا اسما ضيقا من الأسماء التي تشعر بالعنصرية، والرجوع إلى الجاهلية، واحتقار الإسلام الذي يجب أن يعتز به المسلمون! إن تعصب الأمويين لجنسهم خروج عن إخوة الدين، وارتكاب لما نهى الله عنه.

ثم هذا الظلم والطغيان الذي يصبونه على المسلمين، وهذا الاستبداد والغطرسة التي يتصفون بها! إن الإسلام دين العدل، والحرية، والديمقراطية، والمساواة. وقد حث على الشورى في الحكم وجاء بالإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية، وجعل دستور الدولة هو القرآن، وقانونها الذي يسيرها ويضبطها هو ما جاء به محمد عليه السلام ولكن الأمويين يقضون على الإمامة الإسلامية، ويبتلون المسلمين بالملوكية الكسروية المستبدة، ويحكمون بالهوى لا بالدين، وتسيرهم الشهوات والعصبية الضيقة لا كتاب الله وسنة رسول الله!

كان عبد الرحمن وأمه يتذمر من ظلم الأمويين واستبدادهم، ويتمنيان أن يرجع المسلمون إلى الإمامة العادلة والجمهورية الإسلامية، والى عهد أبي بكر وعمر في المساواة والعدل والإخوة الإسلامية. فسمعوا دعاة الإباضية الجمهوريين يدعون إلى ما يريدون: إلى الإمامة الإسلامية التي تتمسك بالدين في السياسة، والتي تجعل المسلمين يختارون في كل حرية رئيس الدولة، ولا تقيد بعرف ولا بحسب، ولكن بالكفاءة التي تجعل رئيس الدولة نهاضا بأعبائها، وتجعله روحها وحياتها، وأجنحة الملائكة الطاهرة التي تحلق بها في السموات وتتجه بها إلى رضوان الله الذي يضمن لها السعادتين، ويحقق لها الظفر والقوة والهناء في الدارين! هذا ما يدعو إليه الإباضية الجمهوريون، وهو حقيقة مذهبهم، ومن اجله ثار عليهم الملوك المستبدون وأذنابهم. إن ما يدعون إليه ويتمسكون به هو حقيقة الدين، وهو ما يسعد المسلمين. فانضم عبد الرحمن وأمه إلى الجمهوريين.[1]

1 - إذا قلنا الجمهوريين فنقصد الإباضية تمسكوا بالإمامة الإسلامية فثار عليهم الملوك. وإذا قلنا الجمهورية الإسلامية فالمراد هي الإمامة العادلة التي هي جمهورية في كل محاسن الجمهورية وتزيد على الجمهورية بمحاسن ومزايا كثيرة لا توجد في الجمهورية الأوربية.

فصارا من اكبر المتحمسين لهم، ومن الدعاة الكبار لإحياء الإمامة الإسلامية، والقضاء على الملوكية الكسروية المستبدة.

سن عبد الرحمن لما سافر إلى أبي عبيدة

وكان عبد الرحمن بصلاحه وتقواه، وبذكائه وثقافته، وبحبه للعلم وغرامه به، وبحماسه للجمهورية الإسلامية، قد برزت شخصيته، ولمع نجمه، فعرف الجمهوريون في المغرب خصائصه الفذة، ونبوغه القوي، فاتجهت إليه الأنظار، فاختاروه عضوا في البعثة العلمية التي أرسلوها إلى أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة في البصرة. فتحقق لعبد الرحمن ما يريده، وبلغ ما تصبو إليه نفسه.

وكان سن عبد الرحمن لما أوفد إلى أبي عبيدة فوق العشرين. ولنا أدلة كثيرة على ذلك. منها أن ابنه عبد الوهاب لما خرج إلى المغرب الأوسط في سنة أربع وأربعين ومائة كان شابا مكتمل الشباب، يستطع حمل السلاح والدفاع عن والده قال الشماخي: "وخرج عبد الرحمن بن رستم (من القيروان إلى المغرب الأوسط) وما معه إلا ابنه عبد الوهاب وغلام له، فمات فرسه في بعض الطريق فدغنه خشية الطلب، وضعف عن المشي، وأدركه العياء، والملل، فصار ابنه وغلامه يحملانه نوبا وكل واحد يقول لصاحبه إن أدركنا العدو فما دون (المائة) لا تضع الشيخ لجلدهما وشجاعتهما".[1]

لقد كان سير عبد الرحمن ومن معه سير الفار الذي يريد النجاة بنفسه، والذي يعرف شدة الطلب، وملاحقة العدو. فهو سير متصل لا تعريس فيه، وسير سريع يشبه الجري لا يستطيع مواصلته في رمال قسطيلية وفي الصحراء الشديدة إلا الفتيان الأشداء، وهو قد تجاوز سن الفتوة فصار في الأربعين أو قريبا منها. لذلك أدركه الإعياء والملل. هذا إلى الضعف الذي يصيب العلماء بإجهاد النفس، وإذابة القوى في الدرس والتحصيل، وبإدامة التفكير والسهر، وكل ما ينهك القوى ويضعفها.إن تسمية عبد الوهاب والغلام عبد الرحمن شيخا يقصدان به مشيخة العلم لا شيخوخة السن.

ومن الأدلة على أن عبد الرحمن كان فوق العشرين لما هاجر إلى طلب العلم في البصرة، اختيار الجمهوريين له في سنة أربع وأربعين ومائة للإمامة قبل أن يبايعوا أبا الخطاب. قال الشماخي: "واتفق (الجمهوريون في المغرب الأوسط) على تولية عبد الرحمن الإمامة لفضله وكونه من حملة العلم، ولكون المسلمين أرادوا تقديمه قبل أبي الخطاب، وامتنع لأمانات كانت تحته للناس" إن الجمهوريين في طرابلس ما كانوا ليختاروا لإمامتهم

1 - السير للشماخي ص 133 ط. البارونية بالقاهرة.

الشباب الأغرار الذين لم يصلوا سن النضوج وهو الثلاثون والأربعون. وإذا كان عبد ارحمن في سنة أربعين ومائة لما عرضت عليه الإمامة في الثلاثين أو قريب منها، فانه يكون وقت سفره إلى أبي عبيدة في الخامسة والعشرين أو قريب منها لان إقامتهم عند أبي عبيدة كانت خمس سنين.

أصل أم عبد الرحمن وزوجها

وهناك مسألة ثانية هي مسألة أم عبد الرحمن! لابد من إعمال العقل فيها. أتكون فارسية جاء بها أبوه من فارس أم عربية تزوجها في المدينة؟ إن بهرام كان مولى لعثمان. فإذا أقام طويلا في المدينة وولد له رستم فيها، واتخذه دار سكنه، ومحل إقامته، فان أمه تكون عربية. وإذا كانت دار إقامته في فارس فان أم عبد الرحمن فارسية. إن اسم عبد الرحمن يدل على تمكن رستم في الإسلام وعلى تعربه فاختار له هذا الاسم. إن فارس لما ولد عبد الرحمن كانت تتعرب. وكان الإسلام يخلع عليها حلة العربية القشيبة، فبدت ألوان العربية الزاهية في كل أشيائهم. وفي أسماء أبنائهم. إن الجمال القوي الذي كان يتصف به عبد الرحمن، وتحمس والدته للجمهورية، واختيارها زوجة عبد الرحمن من بني يفرن البربر، لا من الأسر العربية في القيروان. إن ذا يجعلني أظن ظنا قويا أم أمه فارسية. كما يجعلني أظن أن زوج أمه من الأمازيغ. فلو كان من بني سام لأثر في زوجته فتجنح إلى ما جنح إليه اغلبهم من الملوكية الأموية التي كانت تفضلهم. بل إن أم عبد ارحمن كان يشملها التفضيل الذي يضفي على زوجها، فلا تحقد عليهم، ولا تثور على الملوكية تلك الثورة التي جعلتها كما قال بعض المؤرخين: هي التي تدل ابنها عبد الرحمن على أبي عبيدة إمام الجمهوريين فسافر إليه، وأوفدته إلى البصرة بعيدا عنها، وهو أحب إنسان إليها، وسلوتها، ليكون من أقطاب الجمهورية التي تتحمس لها وتنصرها. قال الشماخي: "فلما سمع عبد الرحمن ما سمع من سلمة بن سعد، وتعلق قوله بقلبه فطلب ذلك، قال له رجل من أهل الدعوة: إن أردت هذا الأمر الذي كلفت به فعليك في البصرة برجل عالم فيها يقال له: أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة تجد عنده ما تطلب. وقيل أمه هب القائلة له ذلك".[1]

لقد كانت أم عبد الوهاب بن عبد الرحمن يفرنية من قبيلة زناتة البربرية. أتكون أم عبد الرحمن قد أعجبت بخصائص البربر الذهبية، وبديمقراطيتهم، وعدم تعصبهم، وبتمسكهم بالدين، وبخصائص البربريات الكريمة، وإسعادهن للأزواج، ووفائهم للبعول، وبجمالهن البارع المشبوب، فاختارت لابنها الحبيب زوجته من البربر، أم أن لها صلة أخرى

1 - كتاب السير للشماخي ص 123 ط البارونية في القاهرة.

بالبربر من زوجها البربري جعلها تمتزج بالبربر أكثر، وتراهم قومها وعشيرتها، فاختارت لابنها منهم.

لقد كان الجو مغبرا في الزمن الذي نقدره لزواج عبد الرحمن وهو عهد عبيد الله ابن الحباب، من سنة 114، إلى 122 هـ وكان البربر في كل مكان يستعدون لثورتهم على الملوكية التي احتقرتهم، وعسفهم، وجارت عليهم، وكانت الهوة سحيقة بين القيروان التي تناصر الملوكية الأموية وبين المغرب الثائر الذي يكره الأمويين المستبدين وأنصارهم. ولا أرى أم عبد الرحمن تجنح في هذا الجو المكهرب إلى بني يفرن وهم المشهورون بثوراتهم وعدائهم للملوكية الأموية والعباسية فتزوج ابنها منهم، إلا إذا كان لها داع من دمها أو زوجها.غن البربر يتمسكون بالدين، فطهرهم الإسلام من العصبية، وفتحوا صدورهم لكل المسلمين، فامتزجوا بهم امتزاج الماء بالماء، والأنفاس بالأنفاس في قبلات الحب العميقة، والنغمة بالنغمة في ترنيم الأوتار الموسيقية، فصاروا يحترمون في المرء دينه وصلاحه، واستقامته، ويقدمونه لعلمه وكفاءته، لا يتعصبون لعرقهم، ولا يتحيزون لحسب المرء ونسبه في اختيار الرؤساء والموظفين لدولتهم، لذلك احتاروا الإمام عبد الرحمن بن رستم إماما للدولة الرستمية، وهو فارسي ومن المشرق لا من المغرب. فما هي خصائص عبد الرحمن التي جعلت البربر يؤثرونه رئيسا لدولتهم غير ما ذكرناه !

تقوى عبد الرحمن وورعه

كان عبد الرحمن بن رستم مثالا في التقوى والورع، وفي العمل لله، لا تستولي عليه غرائزه فيعمل لنفسه، بل يرى أن ما يغنمه لنفسه هو خدمة المسلمين، وإسعاد الناس الذي يرفع درجاته عند الله، ويجزل أجره في الآخرة، ويرجع عليه بالسعادة في الدارين.

كرهه للرئاسة والإمارة

ومن تقوى عبد الرحمن وورعه، ومراقبته لربه، كرهه للرئاسة، وإباؤه للإمارة فقد عرض عليه الجمهوريون في طرابلس أن يولون رئاسة الدولة، ويسندون إليه الإمامة فأبى ذلك وفر منه، واعتذر إليهم باشتغاله بأمانات كثيرة كانت في رعايته للناس. وكان كرهه للإمارة هو سبب استعفائه، لا هذه الأمانات التي يجد من يقوم بها. انه لتقواه وورعه، ومراقبته لربه، ومعرفته بواجبات الرئاسة وفروضها، يرى رئاسة الدولة، وإمارة المسلمين، أثقالا باهظة، وحسابا عسيرا عند الله، فنفرت عنها نفسه ولما تحملها في تيهرت لما لم يجد مناصا من قبولها، ووجد أن تقدمه إلى الرئاسة فرض عليه لأنه لا يوجد بعد أبي الخطاب من ينهض بأعبائها مثله، تقدم إليها احتسابا للأجر وحبا لخدمة عباد الله،

وحرصا على صلاح الدولة الجمهورية التي ستحي عدل الإسلام وديمقراطيته، وتجدد عهد الخلفاء الراشدين الذي يسعد المسلمين.

حرص عبد الرحمن على كل مصالح الدولة ومراقبته لله في كل أمورها

وكان عبد الرحمن في إمارته، وفي عهد إمامته، مثالا لمراقبة الله في شئون الدولة، وفي الشعور بالمسئولية، يعتقد اعتقادا راسخا أن كل ضياع يحدث في الدولة بتقتصره سيحاسبه عليه الله الحساب الشديد، وكل مصلحة لأحد رعاياه تضيع بغفلته سيعاقبه الله عليها العقاب العسير. فكان مثالا في كل أمور الدولة في الحزم واليقظة، يباشر أمور الدولة بنفسه، لا يكلها إلى وزرائه كما يفعل الملوك الذين تستولي عليهم شهواتهم، ويستفرغ أوقاتهم إشباع غرائزهم، والانغماس في ملذاتهم، بل يباشر أمور الدولة بنفسه. إنها فرض عليه؛ ثم إن القيام بها سبب للأجر الوفير، وهي جهاد كبير، وهو ما يرغب فيه عبد الرحمن لنفسه، وينافس فيه غيره، ولا يرضى أن ينقص حظه منه.

كان عبد الرحمن يكره الإمارة والرئاسة! ومن يكره الرئاسة ويتهرب منها، هو الذي يليق لها، لأنه ينظر إليها بدينه وعقله، لا بغرائزه وشهواته. فإذا قبلها نهض بأعبائها، وقام بكل واجباتها، وكان للناس لا لنفسه، وعمل لله لا لمصلحته، ومن يعمل لله يكن معه، فيسعده ويسعد به، ويجعله لنفسه كالشجرة في التربية الخصبة، وفي المناخ الكريم تحف بها الأنهار الجارية، فتحظى بكل ما يخصبها وينعشها، ويجعلها في جبين المكان المخصب الجميل أبهى من الناصية الجميلة في جبين الحسناء، ويؤتيها كل أسباب النماء والإنتاج، فتمتلئ بالثمار اليانعة، والجمال الفتان، والعبير المنعش، وترسل الظلال الوارفة، ويجد منها عباد الله كل ما ينعشهم ويسعدهم!

زهده في المادة وتقشفه في عيشه

وكان عبد الرحمن متقشفا في عيشه، زاهدا في الدنيا، على طموحه، وجده واجتهاده في بناء دولته، والبلوغ بها أقصى درجات الحضارة والعمران. لقد كان يتمنى أن يرى رعيته كلهم يسكنون القصور الجميلة، ويبلغون النهاية في الغنى، ويصلون كل ما يشتهون في دنياهم، مما يزيدهم سعادة وللدولة قوة، وينيلهم رضا الله؛ وتكون عاصمته وجه الإسلام الجميل، ومظهر الجمهورية الرائع، وعنوان المغرب المعتد بنفسه، الذب لا يرضى أن يبزه احد، وان يخمله سواه. وقد بلغت بفضله عاصمته الذروة في الحضارة، ونالت رعيته كل ما تتمناه لنفسها من يسر وغنى، ورفاهية ورخاء، فسكنوا القصور، وتقلبوا

في مباهج الحضارة الإسلامية الراقية، وبلغت دولته كلها ما تريده لنفسها من مدينة راقية، وحياة رخية كريمة. أما هو فكان زاهدا في مباهج الحياة، متقشفا في العيش، لا يفكر في نفسه و لا يعمل لها. وكانت داره في تيهرت المتحضرة ابسط دورها، ليس فيها زخرف ولا رياش، ولا ما تزخر به دور رعيته، والسراة من أهل دولته، من فنون الحضارة والنعيم.وسترى في قصة الوفد الذي جاءه من البصرة صفة داره، ومبلغه في التقشف في عيشه، ونكرانه لذاته، وإيثاره لرعيته بكل المباهج والملذات.

زهده في المال مع إقباله عليه

وكان عبد الرحمن بن رستم زاهدا في المال، لا ينظر إليه نظرة الملوك والأمراء الذين يتكالبون عليه، ويظلمون الرعية من اجله، وينبهونه من أيديهم بكل الوسائل. بل كان ينظر إليه نظرة الشبعان المكتظ إلى الطعام الذي سبع منه، يؤثر به سواه، ويفيضه على غيره. وقد رد عشرين غرارة من الذهب الرنان تشتمل على ملايين عديدة من الذهب الوهاج، جاءته من إخوانه الجمهوريين بالبصرة، لما وجد أنهم أحوج إليها منه. وذلك لزهده في المادة، ولزهد خاصته فيها أيضا. ومن يزهد في المادة لا يشح بها، وإذا جاد بها على سواه، وجعلها وسيلة لنيل رضا ربه، فتح الله له كل خزائنه، فتقبل عليه الدنيا بكل متاعها، وتكون دنياه دنيا السحاب الذي ينهل فلا يمسك ماءه، خضراء ترفل في النضارة والجمال، غنية بكل أنواع الثمار والخيرات، باسقة الأشجار، ملتفة الجبال بالغابات الكثيفة التي تجدده!

علمه وغزارة معرفته

وكان عبد الرحمن بن رستم من كبار العلماء في عصره، ومن الأئمة في الدين وفي العلوم الشرعية، وفي اللغة العربية. وأسلوبه في رسائله ومواعظه، يدل على فصاحته، وعلو كعبه في العربية، وكانت له البراعة القوية، والدراية الواسعة بعلم الفلك والنجوم. وقد أعجب أستاذه الإمام أبو عبيدة بسعة علمه، وعمق فهمه، فقال له: أفت بما سمعت مني وما لم تسمع. وكان محبا للعلم مغرما به، فاقبل على التأليف مع أثقال الدولة التي تبهظه، ومشاكلها الكثيرة التي تشغل باله، فوضع في التفسير كتابا كبيرا في عدة أجزاء لو وصلنا لكان ثروة كبرى، وكنزا نفيسا، ولكن قضى عليه العبيديون الملكيون ليمحوا اسم الدولة الرستمية الجمهورية، واسم عبد الرحمن إمامها من الوجود. وسترى كيف وجه دولته إلى العلم لغرامه به، وعكوفه عليه في وقت فراغه، وتأثرها به فكانت دولة العلم والعرفان.

ذكاؤه ودهاؤه

وكان عبد الرحمن من ذكائه العلمي الممتاز الذي بوأه في العلم ارفع الدرجات، وأناله في العرافان ما يريد، على ذكاء اجتماعي ممتاز تلما يؤتى لعالم في مثل درجته في العلم. وكان لأبي الخطاب في دولته اكبر وزرائه وقاضيه، ويضع معه الخطط المحكمة، ويفض معه المشاكل المعضلة، ويشد أزره ويعينه في كل مهمات الدولة. ولما فتح أبو الخطاب افريقية والقيروان المملوءة بالملوكيين المتعصبين الذين لم يألفوا الخضوع لأحد من أبناء المغرب، والذين يأنفون أن ينقادوا لغير ملوكهم، لم يجد أبو الخطاب أحسن من عبد الرحمن في الذكاء والدهاء، وفي البراعة في السياسة والإدارة فولاه عليها وعلى المغرب الأوسط. فسكنت له افريقية الشموس سكون المهرة اعتلى صهوتها واخذ بقيادها فارس مدرب، وقد استطاع عبد الرحمن بذكائه ودهائه أن يوحد قبائل المغرب الأوسط التي كانت متفرقة لا تجمعها رابطة، وان يجعل منها جبهة متحدة، وبنيانا متينا، وقاعدة راسية للدولة الرستمية الكبرى.

دماثة خلقه وحب رعيته له

وكان عبد الرحمن مع ذكائه ودهائه وخصائصه العظيمة الأخرى، دمث الخلق، لطيف الطبع، رحب الصدر، ابيض القلب، حسن العشرة، ومتواضعا تواضع العلماء الراسخين، متطامنا تطامن المؤمنين الخاشعين. وسنرى كيف انه لتواضعه يتولى بيده إصلاح الصدوع في سطح بيته ويتلطخ بالطين، وهو إمام الدولة الكبرى، ورئيس الدولة التي يرتجف منها العباسيون. وقد استطاع بدماثة خلقه، وقوة شخصيته أن يملك قلوب رعيته كلهم، فاجمعوا على تقديمه للإمامة، ثم التفوا حوله التفاف الأبناء المحبين حول أبيهم الرحيم، ووالدهم المحبوب. وكان عهده الطويل في الإمارة والإمامة ساكنا هادئا، لا منافس ينافسه، ولا ساخط يثور عليه، وذلك لرضا رعيته ودولته بسيرته، وإعجابهم بشخصيته، وحبهم الشديد له.

حزمه ونفسه العملية

وكان عبد الرحمن حازما عمالا يباشر شئون الدولة بنفسه، وكان يقضي فيها معظم وقته، حتى إذا انتهى منها وبقي له شيء من الوقت لم يصرفه في لذاته كما يفعل الملوك، بل يقبل على المطالعة والدراسة والتأليف والتدريس والعبادة.

شجاعته وقوة قلبه

وكان عبد الرحمن شجاعا بطلا، قوي القلب، بالغ الجرأة، وكان اكبر من عمل لإنشاء

دولة أبي الخطاب، في الجو العباسي العابس، وفي جو الإرهاب والاستبداد الذي كان يسود المغرب أيام نشأتها. وكان جواسيس العباسيين منبثين في كل أنحاء المغرب، سيما في طرابلس، حيث زعماء الجمهوريين وعلماؤهم. وكانوا يحصون أنفاسهم، ويرقبون حركاتهم وسكناتهم. وكانت سيوفهم تطوح بكل رأس يستريبون به، وتقضي على جماعة تعارضهم. وكانت أيديهم دائما في السلاح، وعيونهم إلى الجمهوريين متقدة من شدة الانتباه. ومع كل هذه الأهوال، وفي هذا الجو العاصف الشديد استطاع عبد الرحمن، واستطاع صحبه أن ينشئوا الدولة الجمهورية، ويعملوا للقضاء على الملوكية العباسية المستبدة. وذلك لشجاعة عبد الرحمن وصحبه، وبطولتهم وقوة قلوبهم. ثم قتل أبو الخطابي. فرأى دولته تنهدم، وافريقية تثور عليه، والأصدقاء يرجعون أعداء. ورأى العباسيين في جيوشهم الجرارة يطبقون على المغرب الأدنى فيأخذون بخناقه، ويتفوقون في القوة الحربية فيه، فيجرفون كل شيء في طريقهم. ورآهم يقصدونه، ويعملون للقضاء عليه، ويحاصرونه في جحافلهم الجرارة بجبل (سوفجج) وهو في جماعة قليلة، وعدة يسيرة. ومع ذلك الهول الهائل والضربات القاصمة لم يضعف قلبه، ولم تهن نفسه، بل زادته تلك المحن قوة وصلابة، وثباتا وصمودا، فجدد دولة أبي الخطاب بدولة أقوى منها وهي الدولة الرستمية، ورفع راية الجمهورية الإسلامية في المغرب فصارت ارفع مما كانت! وحقق لنفسه وللجمهوريين بشجاعته كل ما يريدون.

وشارك عبد الرحمن في حصار عمر بن حفص في طبنة. ولو قاد هو ثورة المغرب الأوسط في ذلك الحين، وانضوى تحت لوائه أبو قرة، لقضى على عمر بن حفص. وما استطاع أن يفك الحصار عنه بالرشوة والحيلة كما وقع.[1]

هيبة العباسيين له وخوفهم الاقتراب من حدود دولته

وكان عبد الرحمن بن رستم لشجاعته مهيب الجانب منيع الحمى. لم يستطع يزيد بن حاتم والي المنصور على المغرب الأدنى رغم بطولته وجرأته، وطموحه واعتداده بنفسه، وكثرة جيوشه، وحقد العباسيين الملوكيين على عبد الرحمن وأهل دولته الجمهوريين، وتصميمهم القضاء على الجمهورية الإسلامية في المغرب؛ لم يستطع رغم هذه العوامل التي تدفعه إلى الهجوم على تيهرت، والمغرب الأوسط، والقضاء على الجمهورية الناشئة فيها، من الدنو من حدود الدولة الرستمية الناشئة لما يعلمه من شجاعة أهلها، وبطولة عبد الرحمن الذي يرأسهم. انه موقن انه سيقع له على يد عبد الرحمن إذا حركه لحربه، واعتدى عليه، ودخل حدوده، ما وقع لابن عمه عمر ابن حفص في

1 - انظر ثورة أبي قرة اليفرني في ص 46 من هذا الكتاب واستنجاده بعبد الرحمن بن رستم في ص 47.

القيروان لما اخذ أبو حاتم الملزوزي بتلابيبه، وقتله ومزق جيوشه، واحتل القيروان عاصمته، وقضى على الملوكية المستبدة في المغرب.

قوة شخصيته وطموحه وحبه للحضارة الإسلامية الراقية

وكان عبد الرحمن قوي الشخصية، معتدا بنفسه وبقومه الجمهوريين كل الاعتداد، طموحا، ومغرما بالحضارة الإسلامية الراقية، يجد من وراثته الملكية ما يدفعه إليها، ويؤجج غراما بها. وكان حريصا على أن يخلع من المدينة الإسلامية العظمى على دولته ما يجعلها مظهرا لجمال الإسلام وجلاله، وعنوانا مشرقا للجمهورية الإسلامية يكسف الملوكية التي تعمل لإخمادها، وتبث الدعاية المسمومة ضد الجمهورية والجمهوريين لصرف العيون عنهم، وتزهيد الناس فيهم!

جمال خلقه

وكان عبد الرحمن مع جمال خلقه، جميل الخلقة، قد أعطاه الله جمالا في الجسم كمل شخصيته،وزاد في محاسنه. وجمال الجسم في الرجل من أسباب وبما يزيد القلوب تفتحا له، سيما إذا تلألأ دينه على قسماته الجميلة، وبدت قوة نفسه وجمالها على وجهه المشرق البهي، وظهر ذكاؤه وعلمه ونبله في نظراته العميقة، وسحنته المفكرة، ومحياه النبيل. وقد أورث الله أنبياءه حسنا في الجسم، وزان الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم بجمال الخلقة، لان جمال الشخص من أسباب كمال الشخصية ونباهة الإنسان في مجتمعه، وظهوره في قومه، وتفتح القلوب له!

قال الشماخي: "وكان عبد الرحمن جميلا شابا، وضرب أبو عبيدة بينه وبين الناس (في وقت الدرس والانتباه) سترا لئلا يشغلهم بجماله. فلما أراد (هو وأصحابه) الانصراف إلى المغرب كلم العجائز أبا عبيدة أن يريهن عبد الرحمن وهن ثلاث، فادخله عليهن فدعون له بالبركة"[1] إعجابا بجماله، ولسطوع الدين والحسن وقوة الشخصية في محياه.

تلك هي شخصية عبد الرحمن العظيمة كما تبدو لنا من أعماله، ونراها في سيرته ويشهد به المؤرخون كابن الصغير. وقد أثرنا أن نسهب بعض الإسهاب في تحليلها ونبين أسباب عظمتها، لأنه رأس الأسرة الرستمية التي ستحلق بالدولة الرستمية إلى أعلى الذرى، وتكون خيرا وقوة للمغرب، فيرى على يدها كل صلاح ونجاح، وكل يمن وفلاح! وعميد الأسرة وأبوها هو أصلها، فإذا عرفناه معرفة عميقة سهل علينا معرفة فروعها، لأنها جزء منه، وصور له، ولا يكون بينهما من الفرق إلا ما يكون بتقدم الزمن،

1 - السير للشماخي ص 124 ط. البارونية في القاهرة.

ووصول الغايات الكبرى التي مهد لها الأصل ودفعهم إليها. وأرجو من القارئ الكريم وقد عرف أسباب عظمة عبد الرحمن بن رستم من وراثته، وعرف شخصيته التي ستؤثر في أبنائه، وتخلق البيئة التي تصبغهم، أن لا يحوجني إلى الإسهاب في تحليل شخصيات الأئمة الرستميين كلهم، فان نطاق الكتاب لا يتسع لها، ثم إن معرفتنا معرفة تامة للأصل يجعلنا على علم بالفروع إذا رأينا سيرتهم وعلى معرفة بأسبابها عظمتهم إذا شاهدنا أعمالهم.

وكانت مبايعة عبد الرحمن بن رستم بالإمامة وإعلان الدولة الرستمية في سنة ستين ومائة من الهجرة. وكان الجمهوريون في المغرب في نشوة وحبور وفي سعادة وأفراح، ببناء عاصمتهم، ومبايعة إمامهم وبإعلان دولتهم التي هي اكبر آمالهم. فاتجهت إليها الأنظار وتفاءلت بها كل القلوب، وأسرعت إليها الوفود من كل الأقطار لينعموا بالعدل الإسلامي وبالديمقراطية الكاملة، وبالأخوة الإسلامية التامة.

اختيار عبد ارحمن الأجهزة الصالحة لدولته

عدل القضاء وتقيده بالشريعة الإسلامية في الدولة الرستمية

فشمر عبد الرحمن لبناء دولته فعين الولاة على النواحي، والقضاة في المدن. وكان القضاة متقيدا في أحكامه بالشريعة الإسلامية. وكان القضاة مثالا في النزاهة والعدل يحكمون على الأمير للفقير إذا كان الحق له، ويساوون بينهما في المجلس إمام القضاء وسترى في قصة محكم الهواري قاضي الإمام افلح وحكمه على أخي الإمام ما يؤيد ما قلناه من نزاهة القضاة وعدلهم، وشجاعتهم ومساواتهم بين الناس، والحكم بما قررت الشريعة على كل الطبقات. لا فرق بين غني وفقير، وبين أمير وحقير، وبين عالم وجاهل وبين قريب وبعيد فهم كلهم إمام قانون الله سواء.

وكان القضاة في الجرائم التي تستوجب الحدود كالقتل، والسرقة وشرب الخمر، وبهت الناس، هم الذين يحاكمون المتهمين حكما عادلا، فيمكنون المتهم من الدفاع عن نفسه، وبيان حججه. فإذا ثبتت جريمته حكموا عليه بما حكم الله به. فينفذ الإمام وولاته على النواحي حكم القضاة لا يتهاونون في إقامة حدود الله، ولا تصدهم أي قوة عن تنفيذ ما حكم به القاضي العادل الذب يتقيد بالدين.

واختار الإمام عبد ارحمن لكل وظيفة ن يصلح لها، وسد كل ثغر بمن هو أكثر كفاءة له. وكان يشترط في ولايته وموظفيه التقوى والورع والكفاءة. فالتقوى والورع ومراقبة الله هي أساس الإخلاص والاتقان وحسن القيام بالأمور . وهي أساس الأمانة

والجد والنشاط والتفاني في العمل. فالموظف الذي يراقب ربه، ويؤمن الإيمان العميق بان الله سيحاسبه على كل تقصير، وعلى تضييع، هو الذي يتقن عمله، ويجد ويجتهد فيه، ويكون على الأمانة والنزاهة والإخلاص! ليت حكومتنا المغربية توفق بهذا فتعتني بالتربية الدينية في مدارسها، وتقوى الروح الدينية في تلاميذها ليتكون لها جهاز من الموظفين المخلصين، يكونون للدولة حياة وقوة وازدهارا، ولا تعتني بالعلم وحده فتنشئ لنا المدارس التي لا تعتني كل الاعتناء بالدين أجيالا من الأنانيين الذين لا يعملون إلا لأنفسهم، ولا يجهدون إلا لمصلحتهم، فهم كالبعوض الذي يتصاعد من الغدران الآسنة فيه إلا طبيعة الامتصاص. إن أولئك الموظفين الأنانيين الذين لا يسيرهم الدين، ولا يراقبون الله في وظيفتهم، لا يورثون للدولة الفتية إلا ما يورثه البعوض الوبئ الفتاك للجسم الذي يرتع فيه، انه يحفر له القبور التي تواريه، ويصنع له الأمراض الفتاكة التي تؤذي به.

نهضة المغرب الأوسط والأدنى وازدهارهما بالدولة الرستمية

وكان عبد الرحمن مثالا لولاته وعماله وموظفيه، في التقوى ومراقبة الله، وفي الإخلاص والجد وحسن القيام بأمور الدولة، فاقتدوا به، فازدهرت الدولة كل الازدهار بهذا الجهاز السليم القوي، وبهؤلاء الموظفين الأكفاء المخلصين. فاندفعت بخطوات شاسعة في طريق الشباب والقوة فازدهرت في كل النواحي.

وكان الجمهوريون كلهم على النشاط والإخلاص والجد في بناء دولتهم، فاتجهوا إلى الزراعة والصناعة والتجارة. فعمرت أسواق الدولة بالمنتوجات، وانتظمت القوافل إلى كل النواحي والأقطار، فكنت ترى تيهرت والمدن الكبرى في الدولة الرستمية مصدر أو مقصدا للقوافل الضخمة الذاهبة إلى بلاد السودان في الجنوب، أو إلى الأندلس في الشمال، أو إلى القيروان ومصر والشام وغيرها في المشرق، أو إلى سجلماسة وبلاد المغرب الأقصى في المغرب. وصارت الدولة الرستمية لموقعها في المغرب الأوسط ولامتدادها إلى المغرب الأدنى هي السوق التجارية الكبرى في المغرب كله. وكانت مع موقعها الممتاز عادلة كل العدل، لا تظلم أحدا في ماله، ولا تقيد تاجرا في تجارته ولا تغلق بابها في وجه احد يقصدها. فكل ما تشترطه على من يقصدها أن لا يخرج عن نطاق الدين الإسلامي العظيم، لان الدين هو دستورها المقدس، تتقيد به في كل أمورها، وتلتزمه في سياستها، وتحافظ عليه كل المحافظة، وتطبقه في دقة. لا ترضى أن تعطل حدوده، وان توقف أحكامه، وان يتمرد الناس عليه.

وأقبلت الدنيا على الدولة الرستمية لتمسكها بالدين، والتزم إمامها ورئيسها سيرة الخلفاء الراشدين، فكان مثالا في العدل والنزاهة والإخلاص، وتفتحت لها أبواب الغنى والثروة، وتكون لها من التجارة والزراعة والصناعة مثل الأنهار الثلاثة التي تحفها وتورثها حياتها وازدهارها، فتدفقت عليها بالغنى الوفير، والخير الكثير، فكانت دولة الغنى والعز والسعادة ! وما كادت الدولة الرستمية تنشأ حتى أشرقت شخصيتها، وتناقل الناس إلى كل الأقطار أنباء عدلها ودينها وحضارتها والإخوة الإسلامية التي تعمر صدرها لكل احد، فأقبلت الوفود تترى عليها من كل الأقطار، سيما الأقطار الشرقية التي ترزح تحت نير الملوكية العباسية المستبدة: فارس والعراق والشام ومصر، هذه هي شخصية عبد الرحمن وشخصية دولته على الإجمال.

فكيف كان نظام الدولة الرستمية، وما دستورها وشخصيتها بالتفصيل! إن دستور الدولة وأجهزتها من موظفيها هو الجهاز العصبي لها، فعلى حسب رقية تترقى، وعلى حسبه في السلامة تنال من السلامة، لقد عرفنا جهازها من الموظفين المخلصين الأتقياء، فكيف كان نظامها، وكيف كانت شخصيتها؟

نظام الدولة الرستمية وشخصيتها

استقلالها استقلالا في كل الشئون

كانت الدولة الرستمية مستقلة كل الاستقلال، داخلا وخارجا، لا سلطان للعباسيين ولا لغيرهم عليها، وكان إمامها يلقب أمير المؤمنين كما كان يلقب الخلفاء الراشدون الذين هم المثل العليا للدولة الرستمية! وكانت لا تصدق الخرافة التي تقول إن رئيس الدولة يجب أن يكون قريش، وان كل دولة تنشأ يجب أن نخضع للعباسيين القرشيين، فيكون الدعاء لهم في الخطبة، كما خضعت لهم دولة المرابطين والموحدين وغيرها.

قيام الدولة الرستمية على النظام الجمهوري الإسلامي السليم، وحكم الشورى المستقيم

وكانت الدولة الرستمية جمهورية إسلامية تقوم على الإمامة التي توجب أن ينتخب الشعب انتخابا حرا نزيها رئيس الدولة، وان تقوم الدولة على حكم الشورى، فيرجع الإمام في كل معضلات الدولة التي لم يبث فيها الدين بحكم ظاهر، فيستشيرهم، ويعمل بما يجمعون عليه أو بما تجمع عليه أغلبية مجلس الشورى.

وكان مجلس الشورى يتكون من العلماء العقلاء المتقين المخلصين الذين لهم دراية بالأمور، وحنكة وذكاء اجتماعي يجعلهم يهتدون في المعضلات إلى الحلول الصحيحة، ويكونون للإمام بعقولهم ظهيرا لعقلة.

اشتراط الورع والتقوى والذكاء والعلم في أعضاء مجلس الشورى

وكان الورع والتقوى والنزاهة والعلم هو أول ما يشترط في أعضاء مجلس الشورى الذي يرجع إليه الإمام، لان الدولة الرستمية دولة الدين والعلم فهي لا تحترم الشخص فيكون خاصة لها إلا إذا كان متوجا بالدين الراسخ، والعلم الصحيح، وكان نزيها لا تستولي عليه الأنانية والعصبية، فتوجهه في أحكامه، وتجعله يرشح بسوادها[1] في المجلس، وتؤثر في أحكامه وأفكاره في القضايا التي يفصل فيها، والمشاكل التي يحلها.

وكان العلم بالدين أول ما يجب أن يتوفر في أعضاء مجلس الشورى لان دستور الدولة هو الدين الإسلامي، انه القرآن والسنة! فيجب التقيد بهما في سياسة الدولة، وعدم الخروج عنهما في وضع برامجها وحل معضلاتها، وفي حربها وسلمها، فلا بد أن يعرف

1 - الضمير يرجع إلى الأنانية التي تستولي عليه فيرشح بسوادها.

كل عضو من أعضاء المجلس الشريعة الإسلامية معرفة صحيحة لتصح أحكامه، وتستقيم حلوله، وتوافق دستور الدولة نظرياته.

وظيفة مجلس الشورى في الدولة الجمهورية

وكان مجلس الشورى الذي يتكون من الشخصيات البارزة في الدولة، وهم العلماء الحكماء الأتقياء، ذوو الإخلاص والشجاعة والنزاهة؛ كان هذا المجلس يعين الإمام في سياسة الدولة، ويراقبه في سياسته وسلوكه. فإذا حاد الإمام عن جادة الدين في السياسة أو السلوك، أو رأوا فيه اقل أنانية وعصبية ومحاباة لنفسه أو أقاربه أو أصدقائه أسرعوا إليه فوعظوه وانتقدوا واحتجوا عليه. ولمجلس الشورى الذي يتكون من خاصة الدولة أن يخلع الإمام إذا حاد عن طريق الدين، وبدت عدم لياقته، وأمسى خطرا على الدولة، ويبايعوا غيره ممن يختارونه ويختاره الشعب.

مراقبة رئيس الدولة وامتحانه، واشتراط التواضع فيه

وكان مجلس الشورى يشترط في الإمام التواضع، وقبول النقد، ورحابة الصدر، والاختلاط بالشعب. وترى علماء الدولة وخاصتها يمتحنون الإمام فيرون هل هو متصف بالتواضع كما يجب، وهل يخلو صدره من تكبر الملوك وصلفهم. هذا التكبر الذي يجعله مستبدا، يسمه بكره النقد، ويدفعه إلى منع حرية الكلام في حدود الدين، وهو اكبر بلاء يصيب الدولة، اكبر علة تجلب إليها الأمراض فتلقى حتوفها.

كانت الدولة الرستمية وكان إمامها وخاصتها يعتقدون أن الدولة التي تكم أفواه علمائها وخاصتها، وذوي الحنكة والإخلاص فيها، وتأبى سماع النقد النزيه، هي دولة تسد منافذ النور والهواء الصافي عن نفسها فلا بد أن تختنق فتموت! لذلك يمتحن مجلس الشورى إمام الدولة في التواضع، فهو الشرط الأول الذي يجب أن يتوفر فيه. انظر إلى الإمام افلح وقد بلغت الدولة الرستمية في عهد ذري عظمتها وعزها، وكان أعظم شخصية في المغرب، لقوة شخصيته ودينه، وغزارة علمه، وفروسيته وشجاعته. لقد كان فارس المغرب مع أيوب بن العباس، وكان علما من أعلام المغرب. ومع ذلك كان في التواضع كما ترى، وكان معه مجلس الشورى وعلماء الدولة وخاصتها كما تريك هذه القصة. استمع إليها بقلبك، فهي مثال من أمثلة كثيرة وقعت في كل عهود الدولة الرستمية سأوردها عليه، ولتعلم أي نعمة هذا الدين الإسلامي العظيم للدولة، وأي ديمقراطية وحرية كاملة تتمتع نبها الدولة إذا كان دستورها الدين الإسلامي العظيم، وأي عظمة يكون عليها رؤساؤها إذا تتوجوا بالدين، وامتلأوا بنور الله. قال الشماخي

يذكر امتحان وفد جبل نفوسة من جناح الدولة الرستمية الشرقي للإمام افلح، وهم ضيوف على مائدته يأكلون من طعامه وفي داره. ومن عادة الضعفاء الملق والإطراء لمن يرتعون في مائدته، ولكن علماء جبل نفوسة وهم من خاصة الدولة امتحنوا الإمام، وكشفوا عن نفسه، ووضعوه في الميزان وهم على مائدته.

امتحان العلماء للإمام افلح وتواضعه الكبير

قال: "وكان الإمام افلح قد اخذ بالعزم والحزم، ولم يطعن عليه في أحكامه ولا صدقاته، ولا أعشاره، ومما امتحنته به (خاصة الدولة) أن نفوسة شرعوا يأكلون بليل (في داره) وهو ماسك لهم مصباحا يستضيئون به (وواقف يخدمهم) فناوله بعضهم لقمة من طعام فجعل المصباح على ركبته، فأخذها بيديه معا كالمملوك فنظر بعضهم إلى بعض (إعجابا بتواضعه) ففطن، وعلم أنهم يمتحنونه (وقد ظنوا فيه تكبر الملوك) فقال: أعوذ بالله من ظنكم يا مشائخ!" أتكبر الملوك تخافون أن أكون متصفا به! انه طبيعة فظيعة، أعوذ بالله أن اتصف بها، وان يظن بي التلطخ بسوادها وفظاعتها!

شجاعة علماء الدولة الرستمية ومحلهم العظيم في الأمة

كان مجلس الشورى وخاصة الدولة من العلماء الحكماء يراقبون الإمام وينتقدونه وكان هو يطلب ذلك منهم، ويفتح صدره للنقد والعتاب. لا يتكبر ولا يتجبر لقد ثار الجمهوريون على الملوكية المستبدة العباسية وأنشأوا دولتهم الجمهورية، فهل يرضون أن يتكبر أمامهم تكبر الملوك، وان يتجبر تجبر العباسيين، ويكم أفواههم عن النقد النزيه؟ أنهم عيون الأمة البصيرة، وهي تتكل عليهم في مراقبة الدولة، وفي مراقبة رئيسها. فلا بد من القيام بهذا الفرض. انه لواجب ديني على العلماء للدولة فإذا لم يقوموا به فان الله سيحاسبهم الحساب السير على كل فساد وضعف يحدث للدولة لخطأ رئيسها وإمعانه في الخطإ بسبب سكوتهم. إن الشعب سيطرحهم ويحتقرهم، ويدوسهم برجله، ولا يعدهم علماءه إذا اتصفوا بالجبن فلم ينكروا المنكر على الأمراء، ولم يراقبوا رئيس الدولة ويبصروه بكل هفواته، ويعاتبوه العتاب المر على إصراره على الذنوب.

إنهم علماء! وهم خلفاء الأنبياء! فكل الطبقات دونهم في المرتبة. والإمام إذا جل وعلا عن مرتبتهم فبالعلم الذي يتوجه، وبأثقال الدولة التي ينهض بها، ولقيامه أكثر منهم بالواجب الاجتماعي الذي جعلهم خلفاء الأنبياء. إن الأمة تجلهم لاعتدادهم بأنفسهم، ولتقواهم ونزاهتهم، ولشجاعتهم وقيامهم في المجتمع بواجبهم، سيما

واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر! لا تثنيهم عنه رغبة ولا رهبة، ولا يلجم أفواههم سيف ولا هبة. أن رئيس الدولة عندهم هو خادم الدولة. أنه رأسها الذي يخدمها أكثر من كل الأعضاء. وهم في الرأس العيون الباصرة. فلزام أن يبصروه إذا اخطأ، ويردوه إلى الطريق بكل الوسائل إذا هفا.

انظر الإمام عبد الوهاب رئيس الدولة الرستمية، ودولته في الذروة، وهو في قوة الشخصية، وفي العلم والثراء، وفي كل الصفات الحسنة التي تورث للضعفاء غرورهم وكبرياءهم في المحل الأرفع، والدرجات الكبرى: انظر إليه كيف يفتح صدره لنقد العلماء، وكيف يواجهونه بالنقد الشديد العاصف ثم لا يتأثر ولا يتكبر، لأنه رئيس للدولة الجمهورية الإسلامية. ورئيس الدولة الجمهورية يجب أن يسمع من كل احد، ويتنقل النقد النزيه من كل المصادر.

قوة الإمام عبد الوهاب وتواضعه وقبوله للنقد العنيف النزيه

قال ابن الصغير: "وكان عبد الوهاب هذا ملكا ضخما، وسلطانا قاهرا، قد اجتمع له أمر (الجمهوريين) وغيرهم ما لم يجتمع (الجمهوري) قبله، ودان له منهم ما لم يدن لغيره، واجتمع له من الجيوش والحفدة ما لم يجتمع لأحد، وقد حكى لي جماعة من الناس انه قد بلغت همته إلى أن حاصر مدينة طرابلس، وملك المغرب بأسره إلى مدينة يقال لها تلمسان"[1] لقد وصف ابن الصغير الإمام عبد الوهاب بالملك والسلطان جريا على عادة العصر الملوكي الذي كتب فيه كتابه، ومجاراة لعصره في تعبيرهم. أما عبد الوهاب فقد كان إماما ورئيسا للجمهورية الإسلامية لا ملكا ولا سلطانا. هذا هو الإمام عبد الوهاب في قوته، وعظمة دولته. انظر إلى أبي عبيدة عبد الحميد الجناوني احد علماء دولته، كيف ينتقده ويواجهه بالنقد الشديد، فيرحب الإمام بنقده، ويتفتح له صدره تفتح الأرض الجدباء للبرد الذي يشدخها، ويجرح أديمها!

قال الباروني في الأزهار الرياضية: "ومما دون في التاريخ أن الإمام عبد الوهاب (لما سافر إلى الحج وجعل طريقه على جبل نفوسة) أفسدت خيله ودوابه بعض المزروعات والأشجار المجاورة لمرعاها، لإهمال الرعاة، فبلغ الخبر أبا عبيدة عبد الحميد الجناوني (احد علماء جبل نفوسة الكبار) فأتى إلى الإمام مستأذنا فأذن له: ولما دخل وسلم قال وهو قابض على سيفه مخاطبا للإمام: يا أمير المؤمنين قد آذيت الضعفاء والفقراء واليتامى بخيلك لإهمال رعاتك! فكفها عن المضرة وإلا حال بيننا وبينك هذا! يعني السيف!" قال الباروني. فقرب الإمام عبد الوهاب مكان أبي عبيدة منه وشرف منزلته، ورسخت محبته

1 - سيرة الأئمة الرستميين لابن الصغير ص 16 طبع باريس 1907 م.

عنده، حتى اختاره بعد ذلك لإمارة الجبل"[1] إعجابا بشجاعته ودينه، وقيامه بوظيفته العالم كاملة في مجتمعه، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتطهير المجتمع من كل ما يضره وينقص من هنائه وسعادته، ويجر عليه غضب الله الذي يجر كل المصائب والنكبات!

كانت الدولة الرستمية تقوم على الإمامة الإسلامية الكاملة كما كانت في عهد الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر، وعثمان وعلي رضوان الله عليهم أجمعين. وكان الله قد وصف الدولة الإسلامية في عهد الرسول بأنها دولة ديمقراطية تقوم على الشورى فقال: "والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون".[2]

وأمر الرسول بحكم الشورى وإشراك خاصة المسلمين معه في الحكم فقال: "فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفظوا من حولك. فاعف عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله، إن الله يجب المتوكلين".[3]

وحث المسلمين جميعا الشورى وعدم الاستبداد بالرأي، والاغترار بالنفس، وأمرهم برفع المشكلات والمعضلات إلى أولى الأمر، وهم خاصة الأمة من العلماء العقلاء الصلحاء، فقال في كتابه الكريم: "وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به، ولو ردوه إلى الرسول والى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم"[4] هذه النصوص البنية وعمل الرسول عليه السلام والخلفاء الراشدين تصرح بان الله قد اختار للمسلمين حكم الشورى، والإمامة الديمقراطية، والجمهورية الإسلامية العادلة لا الملوكية المستبدة كما كان الأمويون والعباسيون وكل من جاء بعدهم من الملوك الغاشمين الذين قتلوا الأمة الإسلامية، ومزقوا شملها وقسموها إلى مذاهب تتقاتل وشيع تتناحر وجروا عليها كل المصائب والنكبات!

كانت الدولة الرستمية جمهورية إسلامية تقوم على الشورى كما أمر الله. وكان إمامها ديمقراطية عادلا، لا استبداد ولا تعصب للرأي. فما يقرره خاصة المسلمين فيما يكون فيه العمل بالرأي الاصواب ولم يكن فيه نص ديني يبين الحل فيه، وما تراه أغلبية مجلس الشورى هو الذي يأخذ به إمام الدولة ورئيسها![5]

1 - الأزهار الرياضية للشيخ سليمان الباروني ج 2 ص 143 ط. القاهرة 1324 هـ.

2 - سورة الشورى الكريمة آية 38.

3 - سورة آل عمران المباركة آية 159.

4 - سورة النساء الميمونة آية 83.

5 - إننا نردف الرئيس بالإمام لتعرف ناشئتنا أن المراد بالإمام هو الرئيس لا إمام الصلاة فحسب.

وكان مجلس الشورى يتكون من العلماء الحكماء الصالحين. ومن قواد الحرب. والشخصيات البارزة الذكية في الدولة.

وكان الإمام هو الذي يختار أعضاء المجلس. وترى دينه ونصحه للدولة. مراقبة الخاصة والعامة له. تجعله لا يختار لمجلس الشورى إلا من يليق. لا يحابي أحدا. ولا يؤثر الأتباع الذين يكونون له ظلا يتابعه في كل سبيل. ويجري وراءه في كل اتجاهاته.

وكان الإمام يجمع من الأعضاء لمجلس الشورى على حسب المشكلة التي يرفعها إليهم. فإذا كانت علمية جمع لها العلماء. وإذا كانت سياسية جمع لها الساسة. وإذا كانت إدارية جمع لها الإداريين المحنكين. وإذا كانت حربية جمع لها قواد الحرب وإذا كانت صناعية أو فلاحية جمع لها أقطاب تلك الصناعية. ونبغاء تلك الحرفة. والأخصائيين في ذلك الفن. ومعه في كل مجلس من تلك المجالس خاصته الذين يلازمونه ويفزع إليهم ليضطلعوا بأعباء الرئاسة معه. لقد كان للرسول عليه السلام أبو بكر وعمر وكان للخلفاء الراشدين لكل واحد منهم أعضاء دائمون هم له عمد لا تفارقه. وسند يلازمونه. ويكونون معه العيون المبصرة. والعقول المفكرة في اغلب الأمور.

ومجلس الشورى مجلس استشاري يعين الإمام في حل المشاكل التي ليس لها نص في الدين. والتي وكلها الله إلى اجتهاد المرء ونظره.

ومن وظائف المجلس مراقبة الإمام وهو رئيس الدولة. ونصحه. وعتابه. وهدايته إن أخطأ.

وللمجلس الشورى أن يعزل الإمام وهو رئيس الدولة عن حدا في الحكم عن قانون الدولة وهو الشريعة الإسلامية. أو خرج عن طريق الديمقراطية الإسلامية التي أوجبها الدين. فاستبد وتجبر وتكبر واتصف بصفة الملوك.

ومن أسباب عزل الإمام أن يضعف عن حمل أثقال الدولة بالشيخوخة أو بالمرض فلا ينتظرون موته. والدولة تتخبط في الأمواج التي تغرقها لضعف الربان. كما يقع في الدول الملوكية. بل يجتمع مجلس الشورى فيقيلونه. ويعفونه من أثقال الرئاسة ويختارون غيره للإمامة. فيقدمونه للعامة فتبايعه.

إن العامة جسم وعقلها الذي يحسن الاختيار إنما هم خاصتها من العلماء الحكماء. وذوي التدبير والحنكة والدهاء. فهم محل ثقتها. تنصاع لهم. وهم بصرها الحديد تدرك به الحقائق والأشخاص وتميز بينهم.

على أن الإمام في الدولة الجمهورية الإسلامية إذا أحس في نفسه ضعفا استعفى مجلس الشورى فيعفونه. لأنه يحس بالرئاسة ثقلا وواجبات يحاسبه الله عليها. ويعاقبه إن اخل بها. فيأبى أب يبقى الحمل كاهله وهو لا ينهض به. وان يضيع على يده شيء من مصالح الدولة فيحاسبه الله الحساب الشديد.

إننا نسمي الإمامة في كتابنا جمهورية إسلامية. لأنها جمهورية إسلامية فالجمهورية هم الذين يقدمون رئيس الدولة للرئاسة. ويختارونه بواسطة خاصتهم للقيادة.

ويمتاز الإمام على رئيس الجمهورية في هذا العصر بان دستوره هو الدين الإسلامي العظيم. وانه مراقب من مجلس الشورى. وهو عرضه للعزل في كل وقت منهم إذا تمرد على قانون الدولة. أو استبد وطغى وخرج عن دائرة حكم الشورى. وعن نطاق العدل الذي يجب أن يلتزمه في كل أشيائه.

إن التقيد بالدين الإسلامي العظيم دستورا للدولة وتنفيذ أحكامه وحدوده هو الفرق الأساسي بين الإمامة الإسلامية. والجمهورية العصرية. لذلك نقيد الجمهورية إذا أطلقناها على الإمامة بالإسلام فنقول الجمهورية الإسلامية.

كانت الدولة الرستمية جمهورية إسلامية ديمقراطية تقوم على الشورى. انظر إلى الإمام عبد الرحمن لما جاءه وفد الجمهوريين من البصرة في أيام نشأة الدولة بإعانة مالية. وكان يعرف حاجة الدولة إليها. وضرورتها لسد ثغورها. ومع ذلك لم يقبل الإعانة. ولم يوزعها على ثغورها مكتفيا برأيه. إن هذه المسألة مما يعمل فيها بالرأي. وليست من الدين الذي بين الله حكمه فيمضي فيها أمر الله. ويتقيد فيها بنصوص الشريعة: مجمع مجلس الشورى فعرض عليه إعانة الجمهوريين. واخبرهم بما أرسلوا به. واستشارهم في قبولها. وفي الوجوه التي تنفق فيها. وانظر إلى رجوعه إلى مجلس الشورى أيضا في الإعانة الثانية. لان الدولة الرستمية كانت تتمسك كل التمسك بالدين والدين قد جاء بالحرية والديمقراطية الصحيحة الكاملة. وحرم الاستبداد والغطرسة والجبروت.[1]

وكانت الدولة الرستمية لتمسكها بالدين دولة الحرية. حرية التفكير والعقيدة. وحرية الكلام في نطاق الدين الحنيف. وفي دائرة الشريعة الإسلامية. وهي دائرة واسعة تبيح من حريية الفكر والكلام كل ما تريده العقول الناضجة والنفوس الصحيحة. وكانت العامة والخاصة تعبر عن رأيها وعقيدتها في حرية تامة لا كبت ولا إرغام.

وكانت الدولة الرستمية إمامها وكل طبقاتها. يعتقدون أن حرية الكلام في الدولة

1 - انظر قصة إعانة أهل البصرة للدولة الرستمية في الباب التالي في أخبار الإمام عبد الرحمن ابن رستم.

هي التي تشفيها من كل أمراضها، وهي لا غيرها تمكن العلماء المخلصين وهم أطباؤها من مجاهدة عللها وكل أدوائها، فيقضون عليها، وتجعلهم يطهرونها من كل ضعف، ويزودونها بكل قوة، فتحافظ على شبابها، وتندفع إلى غاياتها الكبرى. لذلك كانت الدولة الرستمية كما أمر الله، دولة الحرية في الفكر والحرية في الكلام. وقد تطهرت من الأمراض، وأورثها علماؤها المخلصون من فوق منابرهم وبمؤلفاتهم، وبحرية الكلام التي يجدونها كاملة في دولتهم كل قوة وصلاح؛ ونازلوا أمراض المجتمع في كل قوة فقضوا عليها، وكانوا عيونا لا تنام على أجهزة الدولة كلها، يراقبونها، وينتقدونها إذا هفت، ويهدونها الصراط المستقيم.

إن الأمة التي يلجم الاستبداد ألسنتها، وتكم غطرسة الملوك أفواه علمائها فتسكت، هي السيارة الساكتة لتعطيل جهازها، والطيارة الصامتة لإيقاف آلاتها، فهل تتقدم إلى الإمام، وتصل الغايات، وتكون قوة يتنحى الأعداء المتربصون عن طريقها؟ إنها عش للصدإ الذي يتلفها، وبغية لكل مغير وكل طامع فيدرك كل حاجاته فيه!

إن النصر الأكبر الذي يحيى الأمة ويضمن لها إنما هو الذي تحوزه في جهادها الأكبر الذي يصرع فيه علماؤها الشجعان لا يكمهم الاستبداد عدوها الأكبر وهو فساد النفوس!

لقد فرض الله على العلماء هذا الجهاد الأكبر الذي يحفظ الدين، ويقوي المسلمين ويسعدهم، وحرم الاستبداد والغطرسة التي أفواه العلماء وتجعلهم في الدولة سلاحا عاطلا مغمدا مع هجوم الأعداء، وإحاطة الشانئين!

إن ما قاله أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني للإمام عبد الوهاب دليل على حرية الكلام التي كانت في الدولة الرستمية، وعلى شجاعة العلماء التي تخلقها الدولة الديمقراطية العادلة.

حرية كل المذاهب الإسلامية واحترامها في الدولة الرستمية

وكانت الدولة الرستمية دولة الحرية الفكرية، وحرية الاعتقاد، وحرية الكلام في حدود الدين الإسلامي العظيم. إن رؤساءها وجمهور رعيتها كانوا على المذهب الأباضي الجمهوري؛ ولكنهم لا يفرضون على احد رأيهم، ولا يحملونه بالقوة على مذهبهم، بل يتركون كل احد يختار من المذاهب الإسلامية ما يشاء. وكانوا يحترمون كل المذاهب الإسلامية التي لا تخالف الدين. وكانت تعيش في تيهرت كل المذاهب الإسلامية، كان فيها المالكية، والمعتزلة، والصفرية، ومذهب أهل الكوفة والعراق، وكل المذاهب

الإسلامية الموجودة في المشرق، وكانوا يجدون في تيهرت حرية عرض مذاهبهم، والدعوة إليها، والاحتجاج لها، كما كانوا يجدون كل احترام من خاصة تيهرت وعامتها، ولا يحتقرهم احد، ولا يكم فمهم إنسان. وسترى في قصة الشيخ مهدي النفوسي عالم جبل نفوسة الذي استنجد به الإمام عبد الوهاب لمناظرة عالم المعتزلة الذي أفحم علماء تيهرت بذكائه وبراعته في المناظرة، واستطاع لما وجد من حرية الكلام في تيهرت أن يحاجج الإمام عبد الوهاب رئيس الدولة نفسه، وهو عالم تيهرت، فيفحمه، فعجز الإمام عبد الوهاب عن مناظرته، فلم يسكته بالقوة كما يفعل الملوك، بل استنجد بعلماء جبل نفوسة، فاحموه، فأسكته بالحجة، وألزمه الصمت بالأدلة القاطعة.

وكان الشيخ مهدي النفوسي فارس المناظرة الذب أفحم العالم ألمعتزلي يغيب عن صحبه النفوسيين أياما حتى يتحيروا عليه، وهو يجتمع بعلماء كل المذاهب الإسلامية في مساجد تيهرت، ويستضيفونه في منازلهم وفي ضواحي تيهرت التي يسكنونها، فيناظرونه، وتطول المناظرة ويتصل الحجاج، فيبقى الشيخ مهدي أياما في هذا الجو العقلي المتقد الممتع في مساجد تيهرت ونواديها العلمية، ولا يستطيع الرجوع إلى محل الضيافة الذي نزول فيه هو وصحبه. وقد رجع يوم بعد غيبة أيام فسأله صحبه عن سبب غيبته فأجابهم: بأنه كان مع علماء تيهرت في مجامعهم يناظرهم فاستطاع أن يقنع بالحجة الساطعة، والبرهان القوي في ميادين المناظرة الحرة في تيهرت سبعين عالما من الصفرية والمعتزلة وغيرهم من المذاهب الإسلامية الأخرى، وكانوا لا يرون ما يعتقده الإباضية الجمهوريون فأقنعهم فأدركوا صوابهم، فانضموا إليهم، وتركوا أقوالهم الماضية، وصاروا لما أقنعهم الشيخ مهدي على مذهبه الجمهوري المعتدل الذي يوافق الدين في كل الأشياء.

قال احمد بن سعيد الدرجيني: "وبلغنا أن مهدي لما صار بتيهرت كان يغيب عن أصحابه أياما لا يدرون له مستقرا حتى ساءت ظنونهم (وخافوا أن يكون قد حل به سوء، فلما كان ذات ليلة قدم عليهم فسألوه عن مغيبه فقال لهم: إني قد رددت إلى مذهب الحق سبعين عالما من أهل الخلاف".[1]

كانت الدولة الرستمية دولة الحرية الفكرية الكاملة، وكانت كل المذاهب الإسلامية التي لا تشذ عن أصول الدين موجود فيها. كان فيها المالكية وغيرهم من المذاهب الإسلامية المنتشرة في المغرب، وكان أهلها يتمتعون بالاحترام الكامل، ويجدون ما

1 - طبقات الدرجيني ص 26 من نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم 2612 (تاريخ، والخزانة التيمورية)

يشاءون من حرية، وكل ما يريدون من إخوة إسلامية. لا تعصب، ولا حقد كما يكون في العواصم الملوكية المستبدة، ولا كبت ولا إرغام على مذهب الدولة كما يفعل الملوك المستبدون.

قال ابن الصغير المالكي وقد عاش في تيهرت أيام الدولة الرستمية. قال وهو يصف الحرية الفكرية الكاملة، والإخوة الإسلامية التامة في عهد الإمام أبي حاتم في آخر أيام الدولة الرستمية وفي شيخوختها، وهو عهد تكون فيه الدولة الهرمة كالإنسان الهرم ضيق العطن، لا يتحمل المخالفة، ولا يستسيغ المناظرة، ومع ذلك كانت الدولة الرستمية الراسخة في الديمقراطية الإسلامية كما وصفها ابن الصغير المالكي قال: "وكانت مساجد (تيهرت) عامرة، وجامعهم يجتمعون فيه، وخطيبهم لا ينكرون عليه شيئا، إلا أن الفقهاء تباحثت فيما بينها، وتناظرت واشتهت كل فرقة أن تعلم ما خافتها فيه صاحبتها. ومن أتى إلى حلق الإباضية من غيرهم قربوه وناظروه ألطف مناظرة، وكذلك من أتى من الإباضية إلى حلق غيرهم كان سبيله كذلك".[1] هذه هي حالة أجدادنا العظيمة في الإخوة الإسلامية. كانت قلوبهم متعانقة لصفائها بنور الإيمان، ولطهارتها بالدين الراسخ، وإن تصارعت عقولهم في ميدان الحجة والبرهان. أنهم وإن اختلفوا في الفروع غصون شجرة واحدة لأصل واحدة هو الدين الإسلامي السمح الواسع. وكانت مناظرتهم مناظرة العلماء الفحول، وقوة هادئة متبصرة. وكانت عقولهم تصطدم فيها اصطدام الشفاه بالشفاه في القبلة العطشى، عميقة ولكنها غير مؤذية، ومعها نشوة العقول الناضجة بالبحث والحجاج! أنهم غصون مثقلة بثمارها في الشجرة الواحدة. تهزها العاصفة فتتمايل في اتزان، وتتفارع في رفق، وليسوا كالجهلة المتعصبين الذين يكونون في المناظرة كالذئاب المسعورة المتقاتلة، وتراهم كالغصون الفارغة الضيقة، تهب العاصفة عليها فتتصادم وتورثها الاعوجاج![2]

الإخوة الإسلامية الكاملة في الدولة الرستمية

وكانت الدولة الرستمية دولة الإخوة الإسلامية الكاملة. ق فتحت ذراعها لكل الناس، ورحبت بكل الطوائف، وقصدتها الأجناس من كل أنحاء العالم. وكان فيها

1 - سيرة الأئمة الرستمية لابن الصغير ص 42 ط باريس.

2 - إن مزج التاريخ بالأدب الذي يزيده وضوحا ونضارة مما يجب لتحبيبه إلى النفوس. ولا أرى المتزمتين الذين ألفوا افتراش الحصير اليابس البالي ينكرون علينا أن نبسط لأبنائنا الزرابي القيروانية والمغربية الوثيرة الجميلة لنجدهم من التاريخ الأوربي الطلي الجذاب بحسن عرضه وبفلسفته وجمال أسلوبه. فيعيشوا مع أجدادهم في تاريخنا أيضا، فيكونوا أبناءنا، ويكونوا كما نريد، لا تستأثر بهم تلك الكتب الأوروبية التي يجب أن تكون فرعا ونافلة نزداد بها ثقافة. لأصل وفرض هو تاريخنا الإسلامي العظيم!

اليهود والنصارى، كما كان فيها العجم والعرب والسودانيون والأوروبيون من صقلية وايطاليا والأندلس والجزر الأخرى القريبة من المغرب. وكانوا يتوافدون عليها للتجارة أو للعمل أو للإقامة. كما قصدت الدولة الرستمية كل الطوائف الإسلامية من المشرق فاستوطنتها. وكان فيها الكوفيون والبصريون والمصريون، والخراسانيون وغيرهم. وكانوا جميعا يجدون من الدولة الرستمية الجمهورية العادلة كل اعزاز واحترام، وكل عدل ومساواة. لا تفضل البربر أبناء الوطن الأصليين عليهم، ولا تعاملهم كغرباء. أنهم أما يكونوا مسلمين فهم في وطنهم، لان الإسلام قد جعل المسلمين إخوة، وإما أن يكونوا من الأديان الآخرة فهم أهل الذمة؛ على الدولة رعايتهم، وحمايتهم وتعليمهم، والأخذ بأيديهم إلى ما فيه صلاحهم ونجاحهم وسعادتهم.

تمتع اليهود والنصارى بحقوقهم كاملة في الدولة الرستمية وعدلها فيهم

إن الدولة الرستمية متمسكة بالدين كل التمسك!فدستورها الذي لا تحيد عنه هو الشريعة الإسلامية. وهذه الشريعة العظيمة العادلة قد فرضت لغير المسلمين حقوقهم كاملة، وقررت لهم من الحقوق الإسلامية كل ما يسعدهم ويورثهم الهناء الكامل والعيشة الرغيدة. فكما نال المسلمون كل حقوقهم في الدولة الرستمية لتمسكها بالدين نال اليهود والنصارى وغيرهم كل حقوقهم لان تلك الحقوق يفرضها دستور الدولة وهو الشريعة الإسلامية السمحة التي تتقيد بها الدولة كل التقيد في كل شيء لتمسكها بالدين!

وكان اليهود والنصارى يجدون في الميادين الاقتصادية والعلمية وفي الأعمال بتيهرت كل ما يجده المسلمون من حرية. لا يذادون عن ميدان، ولا توصد الدولة أبواب الرزق في وجوههم. فكل ما تشترطه عليهم هو الامتناع عن الغش وتطفيف الكيل والميزان، والرذائل الأخرى التي تحرمها حتى شرائعهم. كما تشترط عليهم عدم جلب البضائع المحرمة في الإسلام كالخمر والخنزير وكل ما يضر الدولة في أخلاقها وصحتها وقد أثرت طوائف كثيرة منهم في الدولة الرستمية. وسعدت سعادة بالغة لا تجدها في مكان، وتمتعت كل التمتع العدل الإسلامي الكامل الذي يفرضه على الدولة الرستمية دينها. وتبعثها عليه قلوبها الطاهرة المفعمة بسماحة الإسلام. انك لا تجد في صفحة الدولة الرستمية المتمسكة بالدين -على طول عهدها وامتداد عمرها- ذنبا واحدا ارتكبته في أهل الأديان الأخرى. إن دينها يحرم ذلك، ويأمرها بالعدل والإحسان، وجلب الناس إلى دين الله بجمال السلوك، وحسن المعاملة، ولطف العشرة، وأريحية النفوس.

وقد نبغ تيهرت بفضل الدولة الرستمية التي علمت المغرب الأوسط احترام اليهود والنصارى، والتمكين لهم من أسباب النبوغ والتقدم، وبفضل ما تركت في المغرب الأوسط بعدها من موارد العلم وأسباب النبوغ. لقد كانت كالسحاب الهتان يرحل، ولكن على خصب وخيرات يتركها في المكان الذي ينقشع عنه؛ لقد نبغ في المغرب الأوسط بفضل ذلك كثير من اليهود والنصارى، ومنهم يهودا ابن قريش التاهري الذي كان في القرن الرابع بعد زوال الدولة الرستمية بقليل. وكان من العلماء الكبار، ومن العباقرة. وقد سبق الأوروبيين إلى تأليف كتاب قيم بالعربية في النحو ألتنظيري، وحاول المقاربة بين العربية والبربرية والعبرية. وكان يقصد بهذا التقريب بين اللغات الثلاثة وبيان أوجه الشبه بينها على ما بينها من تباعد تأكيد الإخاء والمحبة التي افعمت بها الدولة الرستمية قلوب هذه الأجناس، وجعلت الكل يشعر انه في وطنه، وبين أهله وأحبائه.[1]

وكانت تيهرت والدولة الرستمية كلها وطنا محبا لكل المسلمين في المشرق والمغرب فهاجرت إليها جماهير كبيرة منهم فاستوطنت الدولة الرستمية. حتى العراق الذي فيه العباسيون الملوكيون الذين ينظرون بالعداوة والحقد إلى الدولة الرستمية الجمهورية وحتى القيروان التي كانت كالعراق ملوكية متطرفة حاقدة على الدولة الجمهورية. حتى هذين فتحت لها الدولة الرستمية أبوابها ورحبت بهم. وقد صارت بعد ذلك طوائف من هؤلاء الملوكيين المتعصبين (ديناميت) ينفجر انفجاره في تيهرت ليصدعها. قال ابن الصغير: "واتت أهل تيهرت (والدولة الرستمية كلها) الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار... وليس احد ينزل بها من الغرباء إلا استوطن معهم، وابتني بين أظهرهم، لما يرى من رخاء البلد، وحسن سيرة أمامه وعدله في رعيته، وأمانة على نفسه وماله، حتى لا ترى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي. وهذا مسجد القويين ورحبتهم،[2] وهذا مسجد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين، واستعملت

1 - قال الأستاذ الكعاك في كتابه النفيس (موجز التاريخ العام للجزائر) في صفحة 221 الطبعة الأولى وهو يذكر يهود ابن قريش التاهراتي. قال: "كان يهودا التاهرتي في القرن الرابع. وكان يحسن العربية والعبرانية والبربرية والارمنية والفارسية. وكان عالما بها جميعا متضلعا فيها. وهو واضع أساس النحو ألتنظيري. وله كتاب في ذلك باللغة العربية وجد بمكتبه أو كسفورد بانجلترة من أنفس ما سطر في الموضوع. راجع المجلة الأسيوية الفرنسية سنة 1843.

2 - رحبة آل فلان الميدان الذي يكون في الحي الذي يسكنونه. وغالبا ما يكون سوقهم والمكان الذي يجتمعون فيه. ولا زال في غرداية عاصمة وادي ميزاب بجنوب الجزائر هذا الاسم (الرحبة) يطلق على السوق القديمة وميدانها الذي يجتمعون فيه قديما.

السبل إلى بلد السودان، والى جميع البلدان من شرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة... وكانت العمارة زائدة، والناس والتجار من كل الأقطار تاجرون".[1]

وكان كثير من التجار والأغنياء، ومن الصناع الماهرين، ومن العلماء النابغين قد ضاقوا ذرعا في أوطانهم بظلم الملوك العباسيين واستبدادهم، ومصادرتهم للأموال وكبتهم للناس، ومنعهم لحرية الكلام، ومطاردتهم للأحرار الذين ينكرون ظلمهم؛ فهاجر هؤلاء إلى الدولة الرستمية الجمهورية العادلة فاستوطنوها. فسعدوا بعد لها وديمقراطيتها الإسلامية الكاملة، وانتفعت هي بكفاءتهم في التجارة والصناعة ونبوغهم في العلم، فكانوا من أسباب إسراعها في طريق الحضارة، وبلوغها قمة المدنية في وقت قريب.

وكانت في تيهرت طوائف كبيرة من العجم. وكان بعضهم قد بلغ في الثراء وسعة التجارة الدرجات الكبرى، فصارت له سوق كاملة تنسب إليه، يكون جل ما فيها من متاجر وبضائع من أملاكه. إن الدولة الرستمية لا تحد من حرية الفرد في الامتلاك، كما إنها حرب على الأنانية والشح واستغلال الطبقات العاملة الذي يحرمه الدين. إنها دولة اشتراكية تدفع الفرد إلى العمل في جد ، والامتلاك في سعة، وتدفعه إلى الإنفاق على المشاريع الخيرية، وعلى الفقراء والمساكين، وفي رفع الحاجة والبؤس عن الدولة، وفي إغناء بيت مال المسلمين بالزكاة يؤدونها في أوقاتها كاملة لأنها لله الذي لا يخفون عنه شيئا من أموالهم، والذي يرجون زيادته بفضل رضاه في أرزاقهم قال ابن الصغير يذكر سعة الغنى التي كان عليها العجم في الدولة الرستمية قال: "لقد حدثني غير واحد انه كان للعجم مقدم يقال له ابن وردة قد ابتني سوقا يعرف بها. فكان صاحب شرطة افلح إذا تخلل المدينة لافتقادها لا يدخل سوق ابن وردة ولا يتخلله هيبة له. وكان الرجل من وجوه العجم".[2]

إن ابن وردة نال المكانة الرفيعة في الدولة الرستمية بدينه واستقامته ونزاهته لا بماله ولا بأصله ولا بقوته. فعدم دخول شرطة الإمام في سوقه لثقتهم به، ولضمانه في السوق، لا يدخلها محرم، ولا يقع فيها أي شيء يخالف الدين ويضر الدولة.

ترحيب الدولة الرستمية بالعلويين أبناء الإمام على رضي الله عنه ونزولهم بها.

وكان العلويون أبناء الإمام على رضي الله عنه قد جد العباسيون في مطاردتهم،

1 - أخبار الأئمة الرستميين ص 12 و13 طبع باريس 1907.

2 - سيرة الأئمة الرستمية لابن الصغير ص 27 ط باريس 1907.

وقتل زعمائهم، وخنق أنفاسهم، وارتكبوا فيهم كل الفظائع، وصبوا عليهم كل البلايا، فضاقت على أبناء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم الأرض بما رحبت. فالتجأت طوائف كثيرة منهم إلى الدولة الرستمية ففتحت لهم ذراعيها وقلوبها، ورحبت بهم، وأكرمتهم، وعرفت لهم مقامهم الرفيع، ومقام جدهم على بن أبي طالب. فحلوا بها سادة مبجلين يتمتعون بكل حرية، ويغمرهم كل تبجيل. وقد اختارت الدولة الرستمية لنزولهم أكرم بقاعها وأخصب نواحيها، وهو شمال تيهرت على ضفاف نهر شلف الجميلة فنزلوا منها في أحسن المدن، كالمدينة الخضراء، وسق إبراهيم، ومدينة ثمطلاس. هذه المدن الكبرى التي كانت قواعد لنواحيها، ومن اكبر المدن تباهى بها الدولة الرستمية في شمالها، وتعتد بها.

لقد صفقت تلك المدن الرستمية لمقدم هؤلاء العلويين وهم أبناء محمد بن سليمان العلوي، وسليمان هذا هو اخو إدريس الأكبر رضي الله عنه، ومؤسس الدولة الإدريسية العظمى وبانيها. وكانت فرحة المدن التي نزلها العلويون بالغة، فغمرهم أهلها بالإجلال، وجعلوهم من خاصتهم، ومن سادتهم الكبراء. فوجد العلويون من الأمازيغ الجمهوريين الأحرار الذين جعلهم دينهم المتمكن، وكرم النفس الموروث يرون المسلمين كلهم إخوتهم، ويرون العلويين جزءا منهم. لقد وجد العلويون في الدولة الرستمية من الإجلال والتعظيم ما جعلهم سادة في المدن التي نزلوا بها، يتمتعون فيها بالجاه العريض، وبالسمعة الطيبة. وقد بلغ من ظهور شخصياتهم في شمال تيهرت أن تمكنوا بعد انقراض الدولة الرستمية من تلك المدن التي نزلوا بها، فاستقلوا داخليا فيها، وصارت لهم الكلمة النافذة بها، ونسبت إليهم وجعلت إمارات لهم. وقد ادعى بعض الغافلين من المؤرخين المحدثين، ومن اغتروا بالكتب التاريخية الملوكية المتعصبة وصدقوها، فرددوا دعاويها، أن هؤلاء العلويين قد استقلوا في تلك المدن أيام الدولة الرستمية، وهي في شمال عاصمتها، على كثب منها، وسكانها إباضية جمهوريون ممن أسس الدولة الرستمية ورفع رايتها، وكان درعها الواقي، وصدرها وقاعدتها!

إن الدولة الرستمية هي التي أنزلت العلويين في تلك المدن التي كانت جزءا منها، وإنما استقل العلويون فيها بعد انقراض الدولة الرستمية، واستيلاء الدولة العبيدية على المغرب. وذلك في القرن الرابع الهجري كما ذكر اليعقوبي لا في عهود الدولة الرستمية.

قال اليعقوبي: يذكر ممالك أبناء محمد بن سليمان في المغرب الأوسط في زمانه قال:"وبعد متيجة مدينة مد كرة فيها ولد محمد بن سليمان، ومدينة الخضراء، ويتصل

بهذه مدن كثيرة، وحصون وقرى ومزارع. يتغلب على هذه البلدان ولد محمد ابن سليمان. كل رجل منهم مقيم ومتحصن في مدينة وناحية، وعددهم كثير حتى أن البلد يعرف بهم وينسب إليهم. وأخر المدن التي في أيديهم سوق إبراهيم وهي المدينة المشهورة".

هذه هي الدولة الرستمية في إخائها لكل المسلمين، وفي محبتها لهم. إن دينها الراسخ قد طهر نفوسها من الأنانية والعصبية، والتحيز للعرق، واوجب عليها أن تكون لكل المسلمين حجر الأم الرؤوم، وأحضان الحبيبة المواتية، وان تكون كالمسجد الجامع، كل مسلم يعتقد إنها له، لا يدفع عنها، ولا توصد أبوابها دونه!

تمسك الدولة الرستمية بالاشتراكية الإسلامية التامة وسعادتها وغناها وقوتها بها

وكانت الدولة لتمسكها بالدين، وامتثالها لأمر الله، ورغبتها في الآخرة، وحرصها على رضي الله على الاشتراكية الإسلامية الصحيحة التي تزرع المحبة بين الطبقات، وترفع عن الفقراء كل الحاجات، وتشيع السعادة والهناء في كل الديار، وتورث للدولة قوتها بتعانق قلوب أبنائها، وتحابب كل الطبقات فيها، وتستنزل رحمة الله وخيراته برحمته الأقوياء للضعفاء، والأغنياء للفقراء.

وكان الأغنياء فيها يؤيدون زكاة أموالهم إلى بيت مال المسلمين في وقت معلوم. وكان عمال النواحي وجباة المال منها يستلمون الزكاة من الأغنياء فيوزعون منها على الفقراء في تلك الناحية، لا يتعدونهم، ولا يؤثرون غيرهم، إلا إذا زاد ما خصصوه للناحية عن حاجتها فانه يرسل إلى بيت مال المسلمين في عاصمة الدولة.

وكان عامل الزكاة، وجباة بيت مال المسلمين هم الذين يأخذون الزكاة من الأغنياء. وكان الأغنياء يدفعونها كاملة ومن أحسن أموالهم، وهم مسرورون منتشون بما أعطوا. إنها حق الله في أموالهم، وهم يعطونها لله لا ينقصون منها دانقا واحدا مما أحصوا في التجارة، ولا حبة واحدة مما وجب عليهم في الغلال، ولا شاه واحدة مما يجب عليهم في الغنم، وكذلك الإبل والبقر. هذه الأنعام وتلك الغلال: القمح والشعير، والذرة والسلت، والتمر والزبيب، التي كانت مخازن تيهرت ومراعيها الفسيحة تغص بها. كان الأغنياء يحصون أموالهم في وقت الزكاة فيخرجونها كاملة لأنها لله. ولله مطلع على كل الأسرار، عالم بأموالهم، لا يستطيعون إنقاصه حقه، ولا أن يدعوا اقل مما ملكوا، ويخرجوا اقل مما وجب عليهم، كما يفعل الأغنياء في ضرائب الحكومة، وأهل الثراء فيما تفرضه عليهم الدولة.

حرص الأغنياء على الإنفاق في سبيل الخير لعملهم لله

وكانت في الدولة الرستمية خلة عظيمة غرسها الدين في نفوس رعيتها، تدفعهم إلى التضحية والصدقات، والمنافسة في البر والإحسان، وفي خدمة غيرهم، وإدخال السرور على سواهم وهو " العمل لله! " ومن يعمل لله يجتهد في عمله لان الله لا يضيع أجره، ولا يبخسه جزاءه، أن عمله لله "إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم، ويغفر لكم، والله شكور حليم" انه الجزاء في الدنيا بإعطاء الله له أضعاف ما أنفقه، وأحسن مما عمله، والجزاء في الآخرة بنعيم الله الخالد، والدرجات الرفيعة، والفردوس الأعلى! !

كانت كل الطبقات في الدولة الرستمية حريصة على الخدمات العامة، وعلى البر والإحسان، كل وما يستطيعه من أنواع البر، وما في طوقه من فنون الإحسان، وكان الأغنياء لا يقتصرون في الصدقة على الزكاة، بل يزيدون فيتصدقون بأموال كثيرة على سبل الخير ما يكون لهم صدقة جارية لا تنقطع، وبرا متصلا لا يزول، إن ذلك ينيلهم رضي الله، ويضاعف أموالهم، ويحفظهم من الآفات، ويضمن لهم السعادة التامة في الدارين!

لقد حث الله على الإنفاق في سبل الخير، وفي الصدقة على الفقراء، وواعد بالجزاء الأوفى، وبإخلاف ما انفق فقال: "وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين" وقال هو اصدق القائلين: "إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم".

إن ما يعطيه الغني للفقير، وما ينفقه في سبل البر، كتعليم الفقراء، ومداواة المرضى من البؤساء، وإعالة الأيامى، وحسن القيام باليتامى، وإنجاد الدولة التي هي عماد الدين إذا احتاجت إلى المال، إن ما ينفقه الغني في هذه السبل يكون له مالا جزيلا يخلفه الله في الدنيا، وتماما وسعادة في كل نواحيه، وحسنات في الآخرة، وتجزل أجره، وتعظم ثوابه، وتجعله يحظى بنعيم الله الخالد، فالغنيمة مضاعفة، والجزاء أكثر مما يذل!

عظمة الدين الإسلامي في إصلاح النفوس وملئها بالرحمة وحب الإحسان

هذا ما يؤمن بع الأغنياء في الدولة الرستمية التي يسيرها الدين الإسلامي العظيم، فهو وحده يسيطر عليها، ويخلق مزاجها، ويكون طابعها، ويوجه كل طبقاتها.

وكان الأغنياء في الدولة الرستمية يعتقدون أيضا أن من يوكى يوكى الله عليه، ومن يتكرم يتكرم الله له، وان الذي لا تتفتح خزائنه للفقراء فتورثهم المسرات، لا تتفتح له خزائن الله فيحظى بسروره؛ وان المرض المعدي للغنى فيموت، والعلة السارية التي تصيب الأموال فتبيد، إنما هو الفقر الذي يتركونه في المجتمع، انه وباء لا ينحصر في الفقير، فلا بد أن يسري إلى الأغنياء البخلاء الذين لا يقتلونه بالصدقات والبر فيصبحون فقراء مثله.

وكان الأغنياء يعتقدون، ويجعلهم دينهم الراسخ يؤمنون الإيمان العميق أن دموع الفقراء السخينة لشح الأغنياء هي التي تذيب الذهب في خزائنهم فتتلفه، وتأتي على ثرواتهم فيصبحون من البائسين.

هذه هي العقيدة الراسخة التي غرسها الدين الإسلامي العظيم في قلوب الأغنياء في الدولة الرستمية، فجعلت غزيرة الاقتناء التي تملأ النفوس بالشح تملؤهم بحب الإنفاق على الفقراء، وإضعاف أموالهم على المحتاجين، وإيقافها على سبل الخير، لان الدين الراسخ قد جعلهم يؤمنون بان الإنفاق هو سبب الثروة، وعامل الازدياد في الأموال، وهو ما يرضي الغريزة فتبعثه على الكرم لا على الشح، وتجعله على الإحسان والرأفة، لا على القساوة والغلظة.

وإذا كانت كل الغرائز في المرء يرضيها كثرة المال، والزيادة في الثراء لأنه سبب شبعها، وبلوغ كل الغايات التي ترضيها، وكان الازدياد في المال عند الغني المؤمن يكون بإنفاقه لا بالشح به، فان كل الغرائز في النفس تدفعه إلى الإنفاق، وتخلق فيه حب البر والإحسان، وتجعله سحابا لا يحمل المياه لنفسه، ولا يختزنها في أوعيته، بل تجعله الثدي الحنون، يؤذيه أن لا يذر على الرضيع، وأن يوكى فلا يستهل للوليد.

وإن غريزة الخوف يثيرها الدين الإسلامي العظيم في نفوس الأغنياء أيضا باعتقادهم أن الشح على الفقراء، وعدم المبالات بسبل الخير اكبر مهلكة للمال، فتدفعهم إلى الإنفاق،، فتراهم يتنافسون في الصدقات، وفي إيقاف أموالهم على سبل الخير، وعلى المشاريع العامة كالمدارس والمساجد والمستشفيات، والملاجئ، وكل ما ينفع الدولة الإسلامية ويقويها، ويجدي المسلمين وعبادة الله ويسعدهم

ونرى الأغنياء لتنافسهم في الإنفاق، وغرامهم بالبر والإحسان يتنافسون في جمع المال، ويغامرون في سبيله، ويكدون الكد في الحصول عليه، انه مطيتهم فيجب أن تكون قوية لا ضعيفة، وكاملة لا هزيلة، وانه أجنحتهم إلى سعادة الدنيا والآخرة، ومن

الذي يرضي في الطيران بأجنحة الذباب، ويزهد في أجنحة القلاع الطائرة والصواريخ المنطلقة إلى النجوم؟

كانت الدولة الرستمية على هذه الأخلاق العظيمة، وعلى هذه الرحمة للفقراء، وعلى الاشتراكية الإسلامية الصحيحة، لأنها على الدين الإسلامي العظيم! فهو دستورها الذي لا تحيد عنه، وهو السبب الأكبر الذي يؤثر في نفوسها، ويخلق النظام الاجتماعي البديع الذي أسعدها وأورثها رضي الله!

قال ابن الصغير يذكر جباية الزكاة في الدولة الرستمية: "يخرج أهل الصدقات أوان الطعام، ويأتون أهل النعم فيقبضون الواجب لا يظلمون ولا يظلمون. فالطعام يدفع للفقراء، والشاة والبعير تباع، ويدفع منها عطاء العمال، وما بقي يوزع على الفقراء، فيحصون من في البلد منهم ومن حولها، ويحصى ما في الاهراء من الطعام ويشترى من باقي مال الصدقة أكسية صوفية، وجباب، وفراء، وزيت، ويدفع لأهل كل بيت بقدر ذلك. وما اجتمع من الجزية والخراج وما أشبه ذلك منه الإمام لنفسه، وحشمه، وقضاته، وأهل شرطته، والقائمين بأموره ما يكفيهم في سنتهم. وما فضل صرف في مصالح المسلمين".[1]

هذه هي الدولة الرستمية! جمهورية عادلة، تتمسك بالاشتراكية الإسلامية، وتتقيد بالدين الإسلامي العظيم الذي هو دستورها. وما ندبت إليه الشريعة أن تؤخذ الزكاة في كل ناحية من أغنيائها ويوزع نصفها على الفقراء تلك الناحية، لا يتعداهم إلا إذا زاد عن حاجتهم، والنصف الباقي يرسل إلى بيت مال المسلمين لمصالح الدولة وثغورها ووظائفها. وقد فغل الشيخ مبارك أليلي في كتابه (تاريخ الجزائر) عن هذه السيرة التي جرى عليها المسلمون في الزكاة، وقد قررها الفقهاء في كتبهم، وذكرها صاحب كتاب الوضع الشيخ أبو زكرياء،[2] كما اغفل عن الاشتراكية الإسلامية التي كانت عليها الدولة الرستمية، وعن تبرع الأغنياء بأموالهم، وكثرة صدقاتهم على الفقراء، حتى قل الفقراء في الدولة، فصار ما يوزعه الإمام من الزكاة يكفي فقراء الدولة. إن كل وال وعامل في كل ناحية هم الذين يوزعون النصف مما يأخذونه من أغنيائها فيكفي فقراء تلك الناحية، فلا يبقى للإمام إلا فقراء تيهرت ونواحيها، فيوزع عليهم مما يدخل بيت المال من الزكاة.

1 - انظر كتاب الوضع في الفقه الإسلامي ص 190 ط القاهرة 1382 هـ 1962 م انه من اجل وامتع ما ألف في الفقه الإسلامي وأليق كتاب بهذا العصر.

2 - انظر كتاب الوضع في الفقه الإسلامي ص 190 ط القاهرة 1382 هـ 1962 م انه من اجل وامتع ما ألف في الفقه الإسلامي وأليق كتاب بهذا العصر.

قلة الفقراء في الدولة الرستمية لجدها ونشاطها في العمل

وكانت الدولة الرستمية مع الاشتراكية الإسلامية التي تقتل الفقر ويقل بها الفقراء، دولة العمل والجد والنشاط. فكل أفرادها يعملون، لا يكسلون ولا يتكلون، فقل الفقراء فيها بالعمل والكد. فصار اقل شيء من بيت المال يكفي العجز والغرباء والايامي وذوي العاهات والمساكين، وهم طائفة في الدولة العمالة الغنية. وقد علل الشيخ مبارك أليلي كفاية الزكاة للفقراء بضيق رقعة الدولة وقلة ناسها، وبساطة الحياة فيها وغفل عن الحقائق التي ذكرنا.

قال الشيخ مبارك: "إن مالية الدولة الرستمية على ضيق مواردها يرد أكثرها على فقراء الأمة لبساطة النظام وانحصار المملكة في تيهرت وما حولها".[1]

إن الدولة الرستمية كانت تشتمل على اغلب المغرب الأوسط، واغلب المغرب الأدنى، وهي في الرقعة وعدد السكان أكثر من الدولة الإدريسية، والدولة الأغلبية. وكانت أقوى منهما عسكريا وماليا، وأكثر منهما استقرارا وسعادة. وكانت هي الدولة التي وقت الدولة الإدريسية وحمتها فلم يستطع العباسيون أن يسيروا إلى الدولة الإدريسية فيقضوا عليها. فلولا الدولة الرستمية التي وقفت في وجوههم ما استطاعت الدولة الإدريسية أن تنشأ في المغرب الأقصى. هذه هي الحقيقة الساطعة لكل ذي عينين، ولكن الكتب الملوكية تتجاهلها، وتجعل الدولة الرستمية الكبيرة، الواسعة، الغنية، المتحضرة، إمارة صغيرة، بسيطة المعيشة، بدوية المزاج لان جزءا من دخل بيت المال يكفي فقراءها. وما علموا أن ذلك علامة على عظمتها وقوتها لا على ضعفها، فلو كانت ضعيفة الرقعة لكثر فقراؤها، وعجز بيت مالها عن كفايتهم.

إن الشيخ مبارك أليلي من علماء المغرب الأجلاء، وكتابه (تاريخ الجزائر) من أنفس ما كتب في تاريخ المغرب، ولكنه رحمه الله لقلة مصادر الدولة الرستمية، وكثرة عكوفه على الكتب الملوكية وثيقته بها، قد تأثر كثيرا بتلك الكتب الملوكية فيما كتب عن الدولة الرستمية، فلم يوفها حقها، بل ردد مزاعم الملوكيين في كثير من النقط التي أوردها في باب الدولة الرستمية في كتابه. وعسى من يعيد طبعه كما نرجو أن يصحح تلك الأخطاء، فان الدولة الرستمية هي أول دولة جزائرية إسلامية نش أنشأت في مغربنا، وأعظم وأرقى وأوسع دولة جزائرية إسلامية في ماضينا الجميل. فلا ينبغي أن نظلمها، وننخدع بدعايات الملوكيين المتعصبين، فنصورها كما رسموها في كتبهم، ونراها كما يريدون منا أن نراها!

1 - تاريخ الجزائر للميلي ج 2 ص 21 ط الجزائر 1350 هـ.

غنى الدولة الرستمية ويسرها بفضل دينها واستقامتها وتمسكها بالاشتراكية الإسلامية

وكانت الدولة الرستمية لتمسها بالدين، و لاستقامتها وعدلها، والتزامها للاشتراكية الإسلامية كاملة، ورحمتها للفقير، ونبذ أغنيائها للشح والأنانية، وإحسانهم إلى الضعاف والمساكين؛ كانت بهذه الصفات التي أورثتها رضى الله دولة الغنى واليسر، والسعادة، والثروات الواسعة. وكان الله قد أحاطها بكل أسباب الغنى، واتاها من عوامل اليسر والثروة ما جعلها أغنى دول المغرب كلها في عصرها، واسعد الأمم الإسلامية جميعها بهنائها واستقرارها، لعدلها وما أفاء الله عليها.

خصب أراضيها وكثرة مياهها

كان لها الأراضي الزراعية الشاسعة الخصبة التي تدر عليها ما شاءت من حبوب وثمار، وفيها الأنهار الجارية العديدة التي تتدفق عليها بما يضاعف الخصب، ويظاهر أخلاق السماء، ويعهد ما تنبته الأمطار الموسمية التي تنهمر عليها في وقت معلوم في الخريف والربيع. إنها سهول (اسرسو) في جنوب تيهرت، أكرم أراضي المغرب وأخصبها. وسهول نهر شلف الغنية، وسهول الساحل الخصبة، وغابات النخيل الواسعة في ورجلان، وفي سوف وبلاد الجريد، وغابات النخل والزيتون في طرابلس الفيحاء؛ هذه البقاع الخصبة الواسعة التي تتفجر فيها العيون الغزيرة، وتجري فيها الأنهار الدائمة، وتتفتح لها أبواب السماء في انتظام واستمرار بالغيث النافع؛ كانت تتدفق على الدولة الرستمية وتغمرها من أشجارها وزروعها بكل ما شاءت مكن حبوب وثمار، وفواكه ممتازة، وعطر أريجا، فتصدر من كل ذلك إلى جيرانها، والى الأقطار البعيدة عنها ما يرجع إليها ذهبت يملأ خزائنها، وبضائع نفيسة تغمر أسواقها، ومواد خاما تزدهر بها صناعتها.

موقعها الممتاز بين الدول المتحضرة، وتجارتها الواسعة معها

وكان للدولة الرستمية الموقع الممتاز في المغرب؟، انه منة أسباب غناها ويسرها. إنها في المغرب الأوسط والأدنى، تتوسط الدول المغربي كلها، من مصر إلى المغرب الأقصى، ومن الأندلس إلى بلاد السودان. وكانت حدودها متصلة بكل الدول الإسلامية في المغرب، وعلاقتها حسنة جميعا. كانت متصلة بالدولة الأغلبية في شرقها، وكانت علاقتها التجارية متينة ومتصلة، وكانت علاقاتها حسنة بالدولة الإدريسية في غربها. وكانت لها صديقة، وكانت الدولة الرستمية هي التي أخذت بين الدولة الإدريسية مع الدولة الأموية في الأندلس إلى ذرى الحضارة التي بلغتها. وكانت التجار ة بينهما مستمرة، والد مكينا. كما كانت الدولة الرستمية متصلة في جنوبها بدولة بني واسول الجمهورية

في سجلماسة، وكانت دولة غنية، واسعة التجارة مع الدولة الرستمية وغيرها.

علاقة الرستمية بأقطار السودان ونشرها للإسلام والعربية والحضارة الإسلامية فيها

وفي جنوب الدولة الرستمية أقطار السودان. وكانت الدولة الرستمية متصلة بها كل الاتصال. تغشى بلادها بالقوافل التجارية الضخمة، وتملأ أسواقها ومدنها بمصنوعاتها الحسنة ونتائجها الثمينة، وتحمل إليها دين الله الحنيف وتنشره في ربوعها. فالدولة الرستمية ودولة بني واسول أول من نشر الدين الإسلامي في السودان، وحمل الحضارة الإسلامية إليه، وأخرجه من البداوة إلى الحضارة، ومن ظلام الشرك والوثنية إلى نور الإسلام والمدينة.

وكانت قوافل الدولة الرستمية الضخمة تترى في انتظام إلى أقطار السودان الوسطى والغربية والشرقية فتصل إلى ساحل الذهب وساحل العاج. وكانت تغشى بلاد اتشاد والنيجر ونيجيريا، وبلاد الداهومي وغانا وغينية، وغير ذلك من السودان كالاتحاد مالي، وفلتا العليا، وليبيرية.[1]

وكان للدولة الرستمية علاقة صداقة وثيقة بشمال السودان الشرقي في جنوب مصر، انه متصل بطرابلس جناحها الشرقي. وكانت قوافلها التجارية تترى إلى منطقة (كوكو) في شمال السودان على الشاطئ النيل. وكان شعب كوكو أكثرهم مسلمون، فتوثقت علاقات الصداقة بين الدولة الرستمية وبين هذه الدولة السودانية الغنية القوية بعامل الجوار، والتجارة، وبعامل الإسلام الذي نشرته الدولة الرستمية في ذلك القطر فصار جزءا من العالم الإسلامي.

قال ياقوت: "كوكو اسم امة وبلاد من السودان. وملكهم يظاهر رعيته بالإسلام، وله مدينة على النيل من شرقيه اسمها (سرناه) بها أسواق ومتاجر والسفر إليها من كل بلد متصل. وله مدينة على غربي النيل يسكنها هو ورجاله وثقاته، وبها مسجد يصلي فيه، وجميعهم مسلمون، وزي ملكهم ورؤساء أصحابه القمصان والعمائم، ويركبون الخيل عارية، ومملكته (كوكو) أعمر من مملكة زغاوة، وبلا زغاوة، وأموال أهل بلاد كوكو، والأموال (الذهب) والمواشي. وبيوت أموال الملك واسعة، وأكثرها الملح".[2]

---

1 - هذه الأسماء جديدة اغلبها استعماري، وهذا التقسيم للسودان إلى أقطار منفصلة من عمل الاستعمار الأوربي الخبيث لما أنشب مخالبه وأنيابه فيه ومضغة بين فكيه وامتص خيراته أما الكتاب القديمة فلا نجد فيها إلا اسما واحدا لهذا القطر الشقيق هو السودان.

2 - معجم البلدان لياقوت ص 301 ط. السعادة بالقاهرة 1324.

وكان الملح غاليا في السودان لندرته عندهم. وكان التجار المغاربة ينقلونه إليهم من الصحراء الكبرى فيبيعونه بأغلى الأثمان. وكان عندهم أثمن من الذهب. لك كان أكثر ما يملأ بيت مال الملك في كوكو.

قال الشيخ الباروني: وكان للإمام افلح مع اغلب الملوك (المجاورين له) مودة ولا سيما ملك كوكو (في السودان) وهي تبعد عن تيهرت بمسافة ثلاثة أشهر تقريبا.[1] وكان الإمام افلح قد أهدى لهذا الملك هدية نفيسة ليوثق الصداقة بينهما ويشكره على ما يجد تجار دولته من حسن في المعاملة وإقبال في بلاده. قال ابن الصغير: "وكان بالبلد رجل يعرف نحمد بن عرفة. وكان وسيما قسيما جميلا جوادا سمحا. وكان قد وفد على ملك السودان ملك (كوك) بهدية من افلح بن عبد الوهاب فأعجب ملك السودان مما رآه من هيبته وجماله وفروسيته إذا ركب الخيل بين يديه".[2]

وكانت بلاد السودان الشرقية والغربية اكبر وأوسع سوق للدولة الرستمية تتدفق فيها سلعها ومختلف بضائعها. وكانت الدولة الرستمية تصدر إلى السودان المنسوجات الصوفية، والقطنية والكتابية والحريرية، والزرابي الجميلة المزركشة، وأواني الزجاج المزخرفة وغيره، والفخار المطلي والمزخرف، والحلي الذهبية والفضية،وأواني النحاس الأحمر والأصفر المنقوش، والخشب المنقوش، والمموه والمرصع بالعاج أو الصدف، والمصنوعات الحديدية بأنواعها كالأسلحة، والأقفال، والأواني، وآلات العمل وغيرها. كما كانت تحمل إليها الملح والافاويه، والعطور والبخور المغربي الذكي! لا يزال هذا البخور الممتاز إلى الآن في وادي ميزاب بجنوب الجزائر. ليت الميزابيين يبثونه في الجزائر والمغرب كله. إن نفحاته إذا سطع افعل في النفوس من نظرات الحسان إذا فترت، وأنفاسها إذا انسابت في وجوه المحبين! وتحمل الدولة الرستمية في قوافلها المنتظمة إلى بلاد السودان كل وسائل المدينة التي تنتجها حضارتها الإسلامية الراقية، كالأدوية المركبة، وأنواع الصبغة الزاهية، وغيرها.

وتدفع السودان إلى الدولة الرستمية الذهب الخام الذي يستخرجونه من معادنهم، والعاج، وريش النعام، وجلود الحيوانات، سيما جلود السباع وغير ذلك مما يوجد في السودان من معادن نفيسة، ومواد قيمة تحتاجها الدولة الرستمية في صناعتها الواسعة الراقية.

1 - الأزهار الرياضية ج 2 ص 174 طبع القاهرة.

2 - سيرة الأئمة الرستمية لابن الصغير.

وكانت التجارة حرة يقوم بها كل فرد في الدولة الرستمية تنزع نفسه إلى التجارة. وكانت الدولة تمهد لتجارها الطرق، وتحرسهم في السبل، وتقيم لهم الرباطات، والمنازل في مراحلهم، وتحفر لهم الآبار، وتبعث معهم الجند ليجتاز بهم المراحل المخوفة، وترعاهم في الصحراء الكبرى التي يقطعونها. وكانت الدولة تنفخ في طموح التجار وتحثهم على توسيع التجارة، وعلى إكثار القوافل. وكان التجار يدفعون إلى الدولة زكاة تجارتهم لا يبخسونها شيئا. فاغتنى الأفراد غناء واسعا، واثلوا أموالا ضخمة كانوا يزكونها في كل عام، فيدخل دور الفقراء من زكاتهم الوفيرة ما يغنيهم، وينساب منها إلى بيت مال الدولة ما تفيض به.

وكانت مدينة ورجلان في الصحراء تابعة للدولة الرستمية. وكانت اكبر قواعدها في التجارة إلى السودان. وكان ورجلان يقودون القوافل الرستمية إلى السودان ويتولون التجارة به. وقد اثروا واثلوا أموالا جسيمة، وتكونت فيهم طبقة كثيرة من الأغنياء الكبار، وشاعت في مدينة ورجلان وفي المدن المحيطة بها الحضارة الرستمية الراقية، عمها الرخاء بفضل التجارة الواسعة التي كانت بين الدولة الرستمية وبلاد السودان، وكانت ورجلان من القواعد التجارية للدولة الرستمية، واكبر سوق تجارية في الصحراء، قال الشيخ الباروني " وكان أكثر المسافرين لتجارة السودان في ذلك العهد من أهل مدينة ورجلان وهوارة".[1]

وقد ورثت ورجلان حضارة الدولة الرستمية، وانشات بفضل غناها علمها وحضارتها إمارة سدراتة بعد انقراض الدولة الرستمية، وتلك الإمارة التي حفظت لنا كثيرا من مظاهر حضارة الدولة الرستمية في أثارها التي اكتشفت في المدة الأخيرة. وسنتحدث عنها في الباب الذي تخصصه لحضارة الدولة الرستمية، ونعرض صورا لتلك الآثار.

وقد استمرت ورجلان في تجارتها مع السودان حتى بعد انقراض الدولة الرستمية وحافظت على مكانتها في الميدان التجاري، وظلت هي السوق الكبرى في جنوب المغرب الأوسط إلى أيام الموحدين. وقد وصف الإدريسي ورجلان في القرن الخامس أيام إمارة سدراتة فقال: "ورجلان مدينة فيها قبائل مياسير، وتجار أغنياء يحولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة (وغيرها) فيخرجون منها التبر، ويضربون في بلدهم سكة باسم بلدهم وهم وهبية إباضية.

ومن قبائل الدولة الرستمية الكبرى التي تولت التجارة إلى السودان قبيلة هوارة

1 - الأزهار الرياضية 174.

وكانت في شرق طرابلس وفي المغرب الأوسط، وفي الصحراء. وارى أن استقرار هوارة في الصحراء كان لغرض تجاري مع السودان، وان هوارة طرابلس، وهوارة تيهرت، وهوارة في جبال أوراس كلها قد تولت تلك التجارة، وتخصصت جماعات منها للتجارة مع السودان. وفي المغرب الأقصى هوارة أيضا وقد ذكر ثراءها وتجارتها الإدريسي في النص الذي سنورده.

وكانت هوارة قد أنشأت في قلب الصحراء الكبرى مدينة "هفار" فجعلتها قاعدة تجارية لها مع السودان. واسم هفار الذي يطلق إلى الآن على تلك القاعدة الصحراوية محرف عن هوار كمنا أرى. وقد وصف الإدريسي حال هوارة في القرن الخامس وتجارتها مع السودان، والبضائع التي تحملها من المغرب إلى السودان، وحالها وبضائعها في هذا القرن شبيهة ببضائعها أيام الدولة الرستمية. إن الحضارة الإسلامية وإن ترقت في المغرب عما كانت عليه أيام الرستميين ولكنها لم تبعد عنها كثيرا. قال الشريف الإدريسي: (وهوارة) أغنياء تجار مياسير يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الأموال من النحاس الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف، والعمائم، والمآزر، وصنوف من الزجاج والأصداف، والأحجار (الكريمة) وضروب من الافاويه والعطر، وآلات الحديد المصنوع. وما منهم من يسفر عبيده ورجاله إلا وله في قوافلهم المائة جمل، والسبعون والثمانون جملا كلها موقرة. ولم يكن في دولة الملثم (في القرن الخامس والسادس الهجري) أحدا أكثر منهم أموالا، ولا أوسع منهم أحوالا، وبأبواب منازلهم علامات تدل على مقادير أموالهم".[1]

علاقة الدولة الرستمية الوثيقة بالأندلس

وكانت القوافل الرستمية تترى من مدنها في المغرب الأوسط والمغرب الأدنى إلى الأندلس في الشمال والي والى مصر والقيروان في المشرق. وكانت العلاقات التجارية بين الدولة الرستمية بعين الإعجاب والرضى والصداقة والامتنان، إنها درعها الواقي: وتقف في وجوه العباسيين فلا يبغون بها شرا. وكان تحرر المغرب الأوسط والمغرب الأقصى بثورة الجمهوريين فيهما على الدولة الأموية القديمة وعلى الدولة العباسية هو الذي مكن لدولة صقر قريش في الأندلس فرسخت عروقها. فلولا تحرر المغربين لقضى عليها العباسيون في المهد، وما استطاعت أن تزدهر ذلك الازدهار. كما أن الدولة الرستمية كانت صلة الدولة الأموية في الأندلس بالمشرق، وكانت الطريق الأمن لقوافلها إلى المشرق. وكان ملوك الأندلس عبد الرحمن بن معاوية وابنه وأحفاده إلى عبد الله بن

1 - نزهة المشتاق ما نقلنا منه مخطوط في دار الكتب وهو مطبوع أيضا.

محمد بن عبد الرحمن بن الحكم وهو الذي انقرضت الدولة الرستمية في آخر عهده. كان هؤلاء الملوك يهدون إلى الأئمة الرستميين الهدايا النفيسة ليوثقوا الصداقة بها ويستبقونها في جانهم.

وكانت العلاقة بين الدولتين الرستمية والأموية في الأندلس على أتمها في الحسن. ومن أسباب حسنها وجود جمهور كبير من البربر في الأندلس. لقد فتح بهم موسى ابن نصير الأندلس فاستقروا بها وشاركوا في بناء حضارتها، وامتزجوا بالعرب فيها فصارةا شعبا واحدا. وكان هؤلاء البربر اغلبهم من المغرب الأوسط والمغرب الأقصى. ما منهم إلا وله قبيلته التي ينزع إليها ويتحمس لها في المغرب الأوسط والأقصى. إن المغرب وطن أجدادهم سيما الأوسط منه والأقصى، ففي دمائهم ما يربطهم به، ويكون الحب العميق له. إن قوة الدماء البربرية، وآصرة الإسلام القوية التي هي أقوى الأواصر وادومها، والمصالح المشتركة بين الدولتين الرستمية والأموية، والعدو الواحد من العباسيين المستبدين، وعدل الدولة الرستمية ودينها وحضارتها، وإعجاب شعب الأندلس، وملوكها، وحصافة وحسن نية الدولة الرستمية؛ كل ذلك جعل هذه الدولة الجمهورية على علاقة حسنة بالأندلس، فأثرت في حضارتها، وتأثرت هي بها. وكانت الهجرة من الأندلس إلى الدولة الرستمية، ومنها إلى الأندلس مستمرة، والتنقل حر. إن الإسلام والصداقة المتينة، والدماء الواحدة، جعلت الدولتين وطنا واحدا وأسرة واحدة ليس بينهما جواز سفر، ولا بطاقات الإقامة مما قلدنا فيه نحن الأوروبيين، فصيرت المسلم في البلاد الإسلامية يشعر بالغربة، وأورثت الانفصال والتباعد بين البلاد الإسلامية التي خلقها الله شعبا واحدا! !.

وكان في تيهرت علماء أجلاء، وشخصيات بارزة تنسب إلى الأندلس، منهم مسعود الأندلسي، وعمران بن مروان الأندلسي، وهما من مجلس الشورى الذي عينه الإمام عبد الرحمان ليختاروا واحدا منهم للإمامة، تأسيا بسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد مال اغلب المجلس واغلب العامة إلى مسعود الأندلسي لكفاءته، وقوة شخصيته، وإعجابهم بصلاحه وعلمه، فعزموا على مبايعته، فهرب من الإمامة واختفى هذه هي علاقة الدولة الرستمية بشمالها وجنوبها فما علاقتها بشرقها؟

علاقة الدولة الرستمية القوية بمصر

وكانت حدود الدولة الرستمية الشرقية تصل إلى خليج سرت. وكانت علاقتها متينة بمصر، وكان في مصر كثير من الإباضية الجمهوريين، وكانت مصر معجبة بالدولة

الرستمية لعدلها ودينها، وعلمها وحضارتها، ونشاطها، ففتحت لها ذراعيها، فتدفقت قوافلها التجارية إليها. وكانت هوارة في شرق طرابلس ونفوسة والقبائل الطرابلسية الأخرى تجوب صحراء سرت ذاهبة آيبة بين المدن الرستمية في المغرب الأدنى والأوسط وبين مصر، وقوافلها الجرارة مثقلة بالسلع الرستمية والمصرية.

وكان التجار الرستميون لا يحملون إلى الأقطار التي يغشونها سلعهم وحدها ولكن يحملون أخلاقهم الإسلامية، والحماس لدينهم، وأفكارهم الجمهورية التي يغرسها فيهم الدين الحنيف. ويجعلون الحضارة المغربية، وعادات المغرب الراقية بالإسلام وحضارة الإسلام، وبالحضارات القديمة المتعاقبة عليه. فيبثون كل ذلك في الطوائف التي يختلطون بها في الأسواق، وفي أصدقائهم التجار الذين يتصلون بهم طويلا في المدن.

وكانت التجارة قديما تفرض على التاجر طول الإقامة في المدن التي يقصدها للتجارة. إن بطء المواصلات يستلزم ذلك. فترى التجار يقيمون في الأقطار التي يقصدونها شهورا طويلة. فيكونون في المدن التي يقيمون فيها بيئتهم الراقية التي يتأثر بها أهل المدينة، فتترك الآثار الراسخة في عقولهم وأخلاقهم؛ كما يتأثرون هم بالبيئات الراقية فيحملون إلى بلادهم أحسن العادات، واحدث الأساليب في التجارة والصناعة والفنون وكل أنواع الحضارة.

كانت الدولة الرستمية اكبر دولة تجارية في المغرب! وكانت هي الرابطة بين دول المغرب، وهي صلة المغرب بالسودان. وتشاركها في ذلك دولة بني واسول في سجلماسة.

وكان أهل جبل نفوسة وهم من رعايا الدولة الرستمية، ممن كان يقون بالرحلة إلى السودان للتجارة ونشر الدين الحنيف، وقد اتصل ذلك منهم إلى ما بعد الدولة الرستمية بقرون. وإنما ألفوا ذلك، ومهد لهم السبيل إليه الدولة الرستمية ، ففي عهدها ألفوا الرحلة إلى السودان، وبفضلها كانوا امة تجارية تجلل قوافله صحراء المغرب الأدنى ذاهبة آيبة إلى السودان. انظر إلى قصة أبي الحسن علي بن يخلف التيمجاري النفوسي ورحلته إلى السودان، ونشره الإسلام في البلاد التي حل فيها، وإسلام الملك على يده، وانتشار الإسلام في رعيته. لقد كان ذلك في القرن السابع الهجري وهو مثال لما توالي قرونا من المغرب إلى السودان منذ القرن الثاني والثالث أيام الدولة الرستمية الزاهرة، ودولة سجلماسة التي لها الفضل الكبير في نشر الدين الإسلامي في السودان، وفي توثيق الصلات بين المغرب والسودان. ومع هاتين الدولتين في هذه العهود الدولة الإدريسية. فقد كانت من الدول المغربية التي اتجهت إلى السودان فأحدثت فيه أحسن الآثار.

لقد أورد قصة أبي الحسن علي بن يخلف البدر الشماخي في السير، وأوردها العلامة الجليل الشيخ إبراهيم اطفيش في مقدمة الكتاب النفيس (الوضع) ونحن ننقلها من الوضع فإنها أحسن أسلوبا، وارق لفظا وأكثر انسجاما بأسلوب هذا الكتاب.

قال العلامة الجليل الشيخ إبراهيم اطفيش: "ونفوسة ذات التجارة الواسعة إلى السودان، لا شك أن الأساليب الرابحة لها هي مهنة التجارة في الذهب -التبر_ وكان ممن برع في ذلك مع السودان إلى حد بعيد الولي الصالح العلامة أبو الحسن علي بن يخلف التبمجاري النفوسي رحمه الله.

ومما دون لنا التاريخ أن هذا الولي الصالح قد رحل إلى (بلاد السودان) سنة 575. وكان ملكها يومئذ مشركا، وله اثنا عشر منجما من الذهب، واشتغل هذا العالم بالتجارة هنالك، ونال شهرة ومكانة حتى اتصل بملكها، فحصلت له حظوة عنده، فامحلت في بعض السنين تلك البلاد، فقربوا إلى أصنامهم القرابين طلبا للغوث، وانى تنفعهم المعبودات التي لا تضر ولا تنفع. فطلب الملك من الولي الصالح أن يسال ربه الغوث لعله يغيثهم. فقال للملك: لا يجوز أن أساله لكم وانتم تعبدون غيره! وطلب منه الملك أن يصف له الإسلام، فما زال به يكشف له عبادة الله ووجدانيته، ويبين له الدلائل حتى سكن قلبه للإسلام، فامن بالله وبرسوله، ونطق بكلمة الشهادة وعند ذلك خرجا جميعا إلى كدية قريبة من المدينة، فكان الولي الصالح يصلي والملك يتبعه، فيتضرع الشيخ إلى الله تعالى ويبتهل والملك يؤمن على دعائه، فاستجاب الله لهما، فإذا بالأمطار المنهمرة تعم البلاد بصيبها، فعظمت السيول فحالت بينهم وبين المدينة فجاءت إليهم المراكب فتقلهم إلى المدينة، فدامت الأمطار تسح أسبوعا ليلا ونهارا.

فلما رأى الملك ذلك البرهان العظيم، ورسخ الإيمان في قلبه، ودعا أهله ومن حوله إلى الدخول في الإسلام، ودعا وزراءه وأهل المدينة ومن حولها، فأجاب القريبون منها؟، وامتنع من امتنع، هناك اصدر أوامره بمنع من امتنع من الإسلام أن يدخل المدينة، ومن قبض عليه من الكفار داخل المدينة قتل، فامتنع المشركون من دخول المدينة.

فأخذ الشيخ أبو الحسن يعلمهم فرائض الإسلام والقران، ويفقههم في الدين، فاقبلوا عليه في رغبة وعناية. (فمازال على ذلك حتى دعاه والده للرجوع إلى الوطن، فاستأذن الملك في العودة، فتمسك به الملك) فقال له: لا يحل لك أن تتركنا نعود إلى العمى بعد الهدى! (فافهمه الشيخ بان طاعة الوالدين واجبة في الدين وأقنعه)[1] ورجع أبو الحسن إلى وطنه بالمغرب بعد أن نشر دين الله في بلاد السودان التي خالطها فاثر فيها تأثير

1 - مقدمة كتاب الوضع للشيخ لبي زكرياء ص 14 ط. القاهرة 1382 هـ 1961م.

العطر في الثياب إذا خالطها، والنهر الفياض إذا جرى على المكان فنقاه وأخصبه! ووجد في القارة السوداء القلوب البيضاء المستعدة لدين الله ببقائها على الفطرة فشحنها بنور الله، فنهضت تلك النواحي بفضله، وخرجتن من الظلمات إلى النور؟

ليت المسلمين سيما أهل المغرب يستأنفون عمل أجدادهم في نشر دين الله الحنيف في أقطار السودان المجاورة التي لا زالت وثنية فتنهض نهضتها الصحيحة، وتتطهر من رجس الشرك، ومن وباء الاستعمار الذي يبقيها على الوثنية والجهالة، وعلى النوم العميق وكل الأمراض الاجتماعية ليرتع فيها وينهشها كما يريد.

غنى الدولة الرستمية الواسع لجدها ونشاطها وتمسكها بالدين وبالاشتراكية الإسلامية

خزائنهم، لرحمتهم للفقراء فطهروا من صفرة الحاجة والبؤس وجوههم! وكان الله قد انجح مسعاها، وفتح لها أبواب اليسار والغنى فتدفقت عليها بما تريد، ونالت من الغنى ما تشتهي، وذلك لتمسكها بالدين الإسلامي العظيم الذي ينيل صاحبه كل خير وسعادة، ويكسبه كل غنى ونجاح؛ ولاتصافها بالاشتراكية الإسلامية التي يفرضها عليها الدين. فجعلتها جنة للمساكين؟

وكانت أبواب التجارة الواسعة الرابحة، وأبواب الفلاحة الزاهرة الناجحة، والأبواب الأخرى في الصناعة كلها تغمرها باليسار والثروات.

وكان الإمام عبد الوهاب قبل أن يلي الإمامة من التجار الكبار، وكانت له قوافل جرارة يبعثها إلى مختلف الأقطار، وكان واسع الثراء اكتسب ذلك بعرق جبينه، وبكده وسعيه، وبما كان للدولة الرستمية من موقع تجاري ممتاز، ومن أسواق نافقة تملأ الجيوب وتنجح التجار، وقد حدث الإمام عن غنى تيهرت وكثرة أغنيائها وعن غناه هو فقال: لو لم أكن إلا أنا، وابن جرني، وابن زلغين لأغنينا بيت مال المسلمين بما علينا من الحقوق الشرعية" فهو ذو ذهب وفضة، وابن حرني فلاح عظيم كانت زكاته في السنة آلاف الأحمال من البُر والشعير. وقيل إن أندر[1] زراعة يرى من مسافة أيام كالجبل! وابن زلغين ذو ابل وغنم له من ذلك ما يعد بمئات الألوف![2]

1 - الأندر بفتح الهمزة والدال والبيدر: كدس القمح والشعير. وكان أندر ابن جرني قبل أن يدرس يرى كالجبل لضخامته. إنها سهول اسرسو الغنية التي يرى فيها الأندر من مسافة أيام لانبساط سهولها وعدم وجود الجبال فيها.

2 - الأزهار الرياضية ص 137 ط البارونية في القاهرة.

رحمة الله وجزاؤه بالغنى الواسع لمن يرحم الفقراء ويؤثرهم

وكان يبيب بن زلغين من الأغنياء الكبار في زمن الإمام عبد الوهاب في آخر القرن الثاني الهجري، وكان ابن زلغين في أول أمره فقيرا معدما، ولكن تمسكه بالدين، ورحمته للفقير، وإيثاره على نفسه، وعمله لله أغناه، فأصبح من الأغنياء الكبار. استمع إلى قصته فهو أحسن مثال، واصدق مرآة لأغنياء تيهرت الأتقياء الذين حدثتك عنهم.

قال الشماخي : "يبيب بن زلغين! بورك له في التقي والدنيا، وكان فاضلا. وذكر الشيخ إسماعيل ابن الشيخ يدير انه اصطحب رجلا فلقيا عجوزا وقد أجهدها الجوع فاستطعمتهما، ولم يكن معهما سوى رغيف، فشح صاحبه بنصيبه، فاخذ نصف رغيف وهو نصيبه فأعطاه لها. فقالت: قسم الله لك بين الدارين! فوسع الله عليه دنياه، وغنا لنرجو له في الآخرة أكثر. وقيل كان له بعد ذلك ثلاثون ألف ناقة، وثلاثمائة ألف شاه، واثنا عشر ألف حمار! وإذا جاءه العامل وقت الصدقة قال للرعاة: اختاروا خيار الإبل فيأمر العامل بأخذها. وقيل ذهبت له جمال فقام في طلبها فمر بعجوز رحل عنها الناس. فقال: لم أقمت؟ فاشتكت قلة الظهر، فأعطاها نجيبته (ناقته التي كان يركبها وهي اعز شيء لدى الإنسان فيما يملك) فقالت أين أرده؟ قال: يوم القيامة! (يعني انه أعطى لها الناقة الكريمة لله) فتحول إلى ظل شجرة فنام، فلم يوقظه إلا جماله تأكل من الشجرة، فاخذ منها واحدا غير ذلول فجعل له رسنا فركبه، فسهله الله له".

وروى الشماخي أيضا أن ابن زلغين ذهب إلى غنيمة فوصل حي رعاته، فنزل مقابل خيمة لأحد رعاته، فنادت امرأة الأخرى -وكانت ر تعرفه_ ادخلي الضيف فصاحب المال لا يريد أن يبيت الضيف بلا عشاء، فردت عليها الأخرى (لؤما وكرها للضيف) ادخليه أنت! فبادرت فأدخلته، فلما قدم الرعاة وفيهم من يعرفه، وكانوا جميعا عبيدا له، فاعتق المدخلة وزوجها ووهب لهما ما بأيديهما من المال، وملكهما المرأة الأخرى التي أبت أن تدخله وزوجها، فصارا عبدين لهما استحسانا لفعل المرأة الكريمة التي اهتمت بالضيف وأكرمته".[1]

وكانت امرأة ابن زلغين كريمة، مثله تحب الصدقة والإحسان، وإدخال السرور على الناس، وسخاء الرجل من سخاء المرأة، تذكيه في نفسه، وتجعله راسخا في سبيل الكرم والإحسان، وإذا كانت المرأة بخيلة فهي السداد المحكم على العين الثرارة تمنعها عن الفيضان؟، فتحرم الناس منها، ولا يوجد رجل كريم بالغ الكرم والسخاء إلا وزوجته من ورائه تدفعه وتذكي حبه للاحسان.

1 - كتاب السير ص 204 ط البارونية بالقاهرة.

قال الشماخي:"قدم على ابن زلغين ثلاثة نفر يبتغون معروفه. فقالت له امرأته سلهم عن حوائجهم كي يبيتوا على سرور! فسألهم. فقال احدهم: ابتغي صوفا، والثاني ابتغي جملا، والثالث ابتغي ما احلب. فقضى حوائجهم. فقال صاحب الجمل: رزقك الله الجنة! فقال ليس هذا جمل الجنة! وكان قد أعطاه جملا بكرا صغير السن لم يتم فأعطاه جملا أحسن منه"[1]

وكان ابن زلغين مع كرمه وغناه حازما يحافظ على المال، ويعتني بمواشيه، لا يتكبر عن جبر المكسور منها، ولا يتهاون بالمريض، ولا يترفع عن خدمة الحيوان. وكان دينه قد ملأه بالشفقة والرحمة للحيوانات. فهو رحيم شفوق عليها لا يرضى أن يتعذب حيوان من مواشيه، ولو كان عديم القيمة، قليل الشأن. انه يعتني بها ويخدمها طلبا لأجر الله، وامتثالا لأوامر الدين الحنيف الذي أمر بالرفق والشفقة والرحمة للحيوان.

قال الشماخي: جاءه طلب حاجة فصادفه يغر (ويقطر اللبن في فم جدي لم يتم فضعف عن الرضاعة) فاعرض عن الطلب، (وأبى أن يترك الجدي الضعيف ويشتغل بالإنسان) ففطن صاحب الحاجة. ثم اقبل عليه ابن زلغين بعد انتهائه من تغذية الجدي المسكين. فقضى حاجته. وقال: إنما افعل ما ترى من الاعتناء بالمال وعدم الاستهانة به لأقضي حاجتك وحاجة غيرك!".[2]

هذا هو ابن زلغين الذي يشرك الفقراء في ماله، ويقضي حوائج الناس، ويملاهم سرورا بهباته، ويتصف بالاشتراكية الإسلامية الصحيحة، ويعمل لله فكان الله له. ولو شح وركبته الأنانية لو كله إلى نفسه، وأوصد كل الأبواب في وجهه. انه مثال للأغنياء في الدولة الرستمية التي يعمل أصحابها لله. ويسيرهم الدين الحنيف في كل السبل والأعمال!

إن الدين الإسلامي العظيم، وراثة الأجداد الكريمة في نفوس أهل المغرب، وتمسك الدولة الرستمية بالدين وجعله دستورها وطريقها الذي لا تحيد عنه في السياسة والإدارة وتربية الأمة، وهو الذي جعلها على الاشتراكية الإسلامية. فما هي آثار الدين وتضحيات الأمة الأخرى في مختلف النواحي؟

1 - نفس الصفحة.

2 - السير للشماخي: ص 205.

تضحية كل الطبقات في الدولة الرستمية واعتمادهم على أنفسهم في بناء وتجهيز نواحيهم

لم تكن هذه النفس الدينية، وطبيعة العمل لله في الدولة الرستمية، تجعلها على الاشتراكية في المال وحده، بل عودتها كل أنواع التضحية. فكانت امة التعاون والفداء وأمة الاعتماد على النفس. كل مدينة وكل قرية وكل جهة تعتمد على نفسها في تجهيز نفسها، وترقية ناحيتها، والنهوض بجهتها. فتنشئ المدارس للتعليم، والمساجد للعبادة، والمستشفيات للمرضى، وتكفل اليتامى، وتعلم الفقراء حتى يصلوا أعلى ذرى العرفان، وينضج نبوغهم ويكمل، وترصف الطرقات، وتشق الترع للري، وتحفر العيون، وتبنى السدود، وتجهز الحي والمدينة بكل ما تحتاجه. يقوم بذلك الأغنياء بأموالهم، والعلماء بدعايتهم وحثهم للناس، والفقراء بالخدمة الجماعية التي تقوم بها المدينة كلما استدعى الأمر أن تجند المدينة كلها، أو جزء منها لخدمة من الخدمات العامة؛ ويقوم بذلك ولاة الدولة وعمالها الذين يوجهون هذه الطبيعة الحميدة أحسن توجيه، ويستغلونها في بناء الدولة كل الاستغلال.

إن تمسك الدولة الرستمية بالدين، وعمل كل طبقاتها لله، يجعلها حريصة على الأجر من الله، والفوز برضاه وليس هناك ما فيه الأجر الجزيل المتصل ورضا الله المتجدد الذي لا ينقطع كهذه الأبنية التي يتصل نفعها، وتنتفع بها الأجيال، وتحيى بها الناحية، وترقى الدولة كلها. لذلك تجد كل الطبقات في الدولة الرستمية حريصة على القيام بها، والمشاركة في إيجادها. وإنا لنجد في ورجلان في جنوب الجزائر، وفي قسطيلية بجنوب تونس، وفي جربة، وفي جبل نفوسة، وفي كل ناحية كانت تابعة للدولة الرستمية، وحفظها الله من طمس الاستعمار لحضارتها الإسلامية القديمة، عيونا كثيرة، ومنشآت عامة أخرى، قام بها الأفراد والجماعات ولا الدولة.

عظمة الدولة وقوتها في اعتماد الرعية على النفس وتضحيتهم

إن اعتماد الأمة على نفسها هو القوة الكبرى التي تصل بها الدولة كل ما تريد من عظمة ورقى وعمران.واتكال الأمة وشحها واعتمادها على الحكومة في كل شيء هو الهرم الذي يقتل الدول، ويؤذي الشعوب، ويفتك بالأمم، ويجعلها أكلة للمغير، ونهبا للمستعمر، ويفتح لها كل القبور!

الاعتماد على النفس والتضحية من الأخلاق الإسلامية العظمى.

إن الإسلام يغرس عادة الاعتماد على النفس والتضحية في الجماعات والأفراد. وكانت

هذه العادات الحميدة على أتمها في الدولة الرستمية. لقد ورثها البربر من أجدادهم. إن الأمازيغ مجبولون على الحياة الاستقلالية، والاعتماد على النفس! لقد كانوا قبل نشأة الدولة الرستمية التي ضمتهم جميعا على نظام اللامركزية. فكل ناحية يديرها أميرها، ويعتمد أفرادها وجماعتها على أنفسهم في تجهيز مدينتهم، وينفقون على ذلك من أموالهم، ويقومون بها بأنفسهم، ليس على الإمارة والأمير لهم إلا حفظ الأمن، وحماية الجهة. فلما نشأت الدولة الرستمية فمزجت هذه الإمارات، وخضعت لها كل النواحي، ودانت لها كل الجهات، انتفعت بعادة الاعتماد على النفس في النواحي فاستغلتها كل الاستغلال فعملت كل الطبقات وكل النواحي في جد ونشاط وطموح وأمل راسخ، فترقت وأسرعت في طريق الحضارة، ووصلت أعلى الذرى في المدينة والعمران في زمن قليل. وسترى في قصة وفد البصرة الذي ترك تيهرت في الطفولة، ثم رجع ليها بعد ثلاث سنين فوجدها عروسا باهرة، ومدينة راقية ما يؤيد قولنا.[1]

وكانت مساجد الدولة الرستمية كثيرة، ومدارسها وفيرة، وسدودها، وعيونها، وكل أجهزة الدولة الراقية فيها متوفرة، لأنها شجرة شابة حية، كل فروعها تثمر، ودولة راقية كل طبقاتها تبني، وأمة متدينة كل رعيتها تعمل لله؛ وحكومتها كانت على الديمقراطية الإسلامية التامة، يتمتع كل الأفراد والجهات بالحرية التامة في ظلها، فتتفتح شخصيتهم، ويسطع نبوغهم، ويكون للدولة كلها. لا تكبت النبوغ في الأفراد، ولا تقتل الطموح في النواحي، ولا تدس انفها فيس كل شيء، ولا تستبد كالملوك فتقبض بيد من حديد على الدقيق والجليل، فتقتل الاعتماد على النفس في الأمة، وتطمس التضحية في الطبقات، وتعلمهم الاتكال، والشح وعدم المبالاة بالمصالح العامة، هذه الصفة التي هي المشنقة الكبرى التي تقضي على الأمم، والسم الفتاك الذي يزهق أرواح الشعوب!

إن مغربنا والحمد لله لما أورثه أجداده ودينه من عادة التضحية والاعتماد على النفس لا زالت كثير من نواحيه على العادة الإسلامية الحميدة، وعلى الخلة العظيمة! وهي العمل لله، والتضحية، والاهتمام بالمصلحة العامة. فيجب على حكوماتنا المغربية أن ترهق هذه العادة، وتستغلها، وتقويها، وتوجهها، سيما ودولنا المغربية ناشئة فقيرة فيجب عليها أكثر أن تحافظ على هذه العادة الحميدة في الجهات التي توجد فيها، وتبثها في النواحي التي أضعفها فيها الاستعمار. فان الاعتماد على النفوس في الأمة، وحسن توجيه الحكومة وقيادتها، هي القوة الكبرى التي تسلحت بها الولايات المتحدة في اميريكا، واتصفت بها ابريطانيا، وكانت عليها ألمانيا، وأخذت بها سويسرة. فكانت على

1 - انظر القصة في أخبار الإمام عبد الرحمن من هذا الجزء.

الرقي والغنى، وعلى العظمة والعمران. وكانت الدول الراقية التي يراها عصرنا مثله الأعلى في القوة والحضارة والتقدم!

لقد كان أجدادنا على هذه الخلة الحميدة، وكانت هذه العادة الإسلامية الراقية - الاعتماد على النفس والتضحية- على أتمها في الدولة الرستمية! فازدهرت، وترقت، وبارك الله لها؛ وأصبحت عروس المغرب في زمن قليل، وأمست متجه الأنظار من كل أنحاء الدنيا، لحضارتها وعمرانها وكثرة الخيرات فيها، في مدة اقل من التي يشب فيها الوليد، وينضج فيها الصبي، لان النفوس فيها كلها تعمل ، والطبقات فيها كلها تجهد وتستخرج طل طاقاتها، فصارت الحكومة فيها كقائد الطائرة النافورية الجبارة التي تهدر أجهزتها العديدة وتعمل كلها، ويقوم بواجبه كل شيء فيها، وفتندفع به في قوة وانتظام موجها لها إلى الغابات البعيدة السامية، وتكون أجنحته، لا الثقل الذي يقتله، وتبطؤ به خطواته، وتورثه الهرم في السير، والعجز في التقدم!

إن وراثة المغرب الكريمة من أجداده، وتمسك الدولة الرستمية كل التمسك بالدين، فكانت على الديمقراطية والحرية، وكل المزايا العظمى للأمة السعيدة القوية، هو الذي جعلها على الاشتراكية الإسلامية، وعلى الاعتماد على النفس، وعلى التضحية والفداء، فبارك الله لها، وقرت عينها، رأى المغرب في أيامها عهود أفراحه وأعراسه، وحظي في زمنها بشبابه وقوته.

ليت حكوماتنا في المغرب تجدد ذلك السباب، وتسعدنا بمثل تلك العهود، وتحيى في نفوسنا وراثة الأجداد الكريمة، وعادات الدين الحميدة!

وكان الاعتماد على النفس لا تتصف به طبقات الدولة الرستمية ورعيتها في الأمور الكبرى وفي المنشآت العامة وحدها، بل حتى في الأمور الصغرى. فترى كل إنسان فيها في الطرق العامة يزيل القذر من الطريق إذا رآه، ويهدي الغريب سبيله، ويأخذ بيد الأعمى، وينتشل الصبي من الطريق المزدحم، ويمسك بالحيوان الضال حتى يأتي صاحبه، ويسرعون كلهم إلى إطفاء الحريق، وإنقاذ الهدمى، والغرقى، وترى كل امرئ من رعايا الدولة الرستمية الجمهوريين المخلصين يحرص جهته من المفاسد، كاللصوصية، وأنواع المفاسد الأخرى، وينهى عن المنكر ومخالفة الدين، ويكون عينا يقظة تحرس الدولة وتحمي الناحية، وتعين الشرطة النظامية في كل أعمالها.

نظام الحسبة الدولة الرستمية وقيامه بأعمال الشرطة المخلصة الحازمة

وكان للدولة الرستمية مع هذا الاعتماد على النفس من الرعايا شرطة نظامية حازمة، يقوم بها رجال متطوعون، احتسابا للأجر من الله، وخدمة لدولتهم الإسلامية. وكانت الشرطة تسمى الحسبة لان القائمين بها في الليل والنهار وفي كل الأوقات، يتناوبون عليها، ويتعاقبون في القيام بها، إنما يقومون بذلك احتسابا للأجر من الله. ولا يزال في وادي ميزاب بجنوب الجزائر بقايا من هذا النظام الإسلامي البديع. فترى المدينة يحرسها حرس قوي متيقظ متدين طول الليل، وفي النهار إذا اقتضى الأمر بدون أن يتقاضوا أجرا. وكان كل شاب يبلغ الثامنة عشرة ينخرط في سلك الحرس فيبيت الليل كله مرابطا في ناحية يحرسها مع جماعته إذا وصلت نوبته.

ويدير هذا الحرس رجال محنكون حازمون هم رؤساؤهم، والمسؤلون عن امن المدينة وطهارتها وهدوئها. وكلهم يعمل لله، ولا يتقاضى أجرا من الحكومة، ولا يكلف خزانة البلدية العامة ويرهقها.

كان للدولة الرستمية هذا الجهاز القوي للشرطة. وكانت هذه الشرطة المخلصة الحازمة ترقي المدن وتحرسها، وتحافظ على الدين في الأخلاق فيها، فتقبض على العصاة والمتمردين، وتراقب الغش في الأسواق، والاحتكار فيها، وزيادة الأسعار. فإذا رأت تاجرا خدع زبونا فباعه بأكثر من السعر الشائع قمعته، وأنزلت به أقسى العقوبات وإذا رأت بائعا يبيع السلع المحرمة، أو الأشياء الضارة بالصحة كاللحم الفاسد والفواكه العفنة منعته وعاقبته بأقسى العقوبات. وإذا رأت ضالا هدته، أو أعمى لا يهتدي قادته إلى المكان الذي يريد، أو غريبا أرشدته إلى المواطن التي يقصدها.

اعتناء الشرطة بالنظام والنظافة وخدمتها للشعب

وكانت الشرطة تعتني بالنظافة والنظام. إن الإسلام دين النظافة والنظام. يعلمنا ذلك في الصلاة بالوضوء وبترتيب الركعات، وتعيين الأوقات، وتحديد الشروط وفي كل العبادات الأخرى. إنها كلها تغرس فينا النظافة والنظام. إن الدولة الرستمية امة الدين تتمسك به، وتعرف مغازيه، وتتأثر بشعائره، فهي على النظافة والنظام. فمدنها نظيفة منظمة، وشوارعها نقية جميلة. وكان كل احد يحرص على ما يتصل بداره من الشارع فيكنسه ويرشه. فإذا رأت الشرطة قذى في الشارع أمرت من حول المكان بإزالته. إن كل سكان المدينة مسئولون عن نظافة المدينة، وإن أهل كل حي ليجب عليهم أن يجعلوا حيهم نظيفا منظما. أليسوا هم الذين يسكنونه ويتمتعون بنظافته ونظامه؟ إن

الدين الحنيف، وتيهرت الجميلة، ومدن الدولة الرستمية النقية قد غرست حب النظافة في نفوس أهلها، فإذا رأى احدهم القذى إمام داره سارع لإزالته، فإذا غفل نبهته الشرطة الحازمة لرفعه، وكذلك الحفر في الطريق، والأحجار وكل ما يؤذي السابلة فان الشرطة تزيلها، وتعلم أهل المدينة وتعودهم إزالتها وعدم الاتكال والأنانية، والبرودة وعدم المبالاة.

ثقافة الشرطة ودينها ومحافظتها على أخلاق الشعب وتربيته

كانت الشرطة لحراسة المدينة، ولتربية الشعب وخدمته. وكان الأئمة الرستميون وولاتهم لا يختارون لشرطتهم إلا الرجال العقلاء الأمناء المثقفين المخلصين ذوي الحزم واللطافة، لا يعنفون فيذلون الشعب، ولا يضعفون فيتمرد عليهم. وكان الأئمة في تيهرت يختارون الشرطة من نفوسة، وكانت نفوسة ترغب في الحسبة وتسارع إلى التطوع فيها. وارى إنها نفوسة الجبل في المغرب الأدنى لا نفوسة المغرب الأوسط التي كانت منازلهم في غرب تيهرت. إن نفوسة الجبل الذين استقروا في تيهرت هم الذين يطبقون فيها قانون الدولة على كل الناس، لا يحابون أحدا، ولا يستثنون إنسانا.إنهم من جبل نفوسة حلوا في تيهرت فاستوطنوها، لا عشائر لهم فيحابونها، ولا أقرباء كثيرين فيغضون الطرف عن ذنوبهم. هذا إلى ما اشتهرت به نفوسة الجبل من حزم، ودين، وشجاعة، ومتانة في البنيان، ومن غيرة على تيهرت والدولة الرستمية وحرص عليها.

رعاية الشرطة للحيوان ورفقها به

وكانت الشرطة في الدولة الرستمية ترعى الحيوان أيضا. فذا رأوا دابة حملت فوق طاقتها أمروا صاحبها بالتخفيف عنها، وإذا رأوا كلبا مهملا أو قطا بائسا قد أغفله أهله أمروا أصحابه بالعناية به. وإذا كان مجهول الدار أخذوه إلى حيث يطعم ويحفظ. إن قانون الدولة هو الدين الإسلامي الذي تتمسك به. وهو يأمر بهذا ويوجبه على المسلمين. وإذا لن تصرح به الكتب التاريخية فان إيجاب الدين له، وهي متمسكة به، غيورة عليه، دليل على وجوده وعلى وجود كل ما ذكرنا.

وكانت الشرطة تراقب الأبنية أيضا. فإذا رأت بنيانا يتداعى أخلته من سكانه وأمرت أصحابه بهدمه. وإذا انشأ احد في وسط المدينة صناعة تضر الحي والجيران بأوساخها أو نتنها، أو عجيجها منعوه، وعينوا له مكانا لصناعته خارج المدينة مع أهل حرفته. وإذا رأوا ظالما ضربوا على يده، أو ملهوفا أغاثوه، أو حريقا هبوا إليه وهب معهم أهل المدينة فيطفئونه. وإذا رأوا مسلما يترك الصلاة أو يأكل في رمضان اقتادوه إلى الإمام أو إلى والي

لينفذ فيه حكم الله. وإذا وجدوا ابنا يعق والديه، ويتمرد على أهله، وأدبوه وقمعوه وأعانوا أهله على تربيته. هذه هب الشرطة في الدولة الرستمية وفي كل دولنا الإسلامية العادلة، كدولة بني واسول في سجلماسة، والدولة الإدريسية، والدولة الأموية في الأندلس، وفي كل الدول التي تخدم الشعب وتعرف واجبها في الرعية، ويراقب حكامها الله في أعمالهم، ويتمسكون بالدين في سياستهم.

سبق الدول الإسلامية لأوروبا في نظام الشرطة الصالحة الراقية.

لقد سبقت دولنا الإسلامية أوروبا المتحضرة في نظام الشرطة، فكل ما تمتاز به شرطة بلاد أوروبا الراقية العادلة الديمقراطية كان في شرطة دولنا الإسلامية الراقية، وسبب هناء وسعادة له. وكان من يحل في تيهرت ومدن الدولة الرستمية وقراها، وفي كل نواحيها ، ويشعر بالأمن والطمأنينة، وبالسكون والهناء. إن الدين المسيطر على الدولة قد غرس الأمانة والمسالمة في نفوس أهلها، وإن الحكومة العادلة الحازمة المتيقظة لتردع كل المذنبين وتطاردهم وتقبض عليه، فخلت النواحي منهم؛ وإن الشرطة الحازمة المخلصة في المدن والنواحي هي الراووق المحكم الذي يصفي الدولة من كل الاكدار، وهب أهداب العين المسبلة للأمة تذود عنها كل الأقذاء! قال ابن الصغير يصف شرطة الدولة الرستمية في عهد الإمام أبي اليقظان احد رؤسائها: "ثم أمر أبو اليقظان قوما من نفوسة يمشون في الأسواق، فيأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر قالوا: فان رأوا قصابا ينفخ في شاة (ليوهم الناس بانتفاخ لحمها وبياضه إنها سمينة) عاقبوه، وإن رأوا دابة عليها فوق طاقتها انزلوا حملها، وأمروا صاحبها بالتخفيف عنها، وإن رأوا قذرا في الطريق أمروا من حول الموضع أن يكنسه!".[1]

جيش الدولة الرستمية المنظم واستعداد الرجال كلهم لحمل السلاح

وكان للدولة الرستمية جيشها المنظم الدائم الذي يحفظ ثغورها، ويشيع الأمن فيها وتستعمله الدولة في الطوارئ والمفاجئات.

لقد كانت الدولة الرستمية امة الاعتماد على النفس والتضحية، أفتكت استقلالها بحد السيف من الأمويين والعباسيين، وأنشأت دولتها الجمهورية العادلة بعرقها ودمائها، فكانت لها كلها جندا. فإذا جد الجد، واكفهرت الأيام، ووجب العنف، فان رجال الدولة سيما شبابها يحملون كلهم السلاح. وكانت كل القبائل في الدولة الرستمية تستشعر هذا الواجب عليها للدولة، فتعتني في أبنائها بالتربية العسكرية، وتعليم

1 - سيرة الأئمة الرستميين لابن الصغير المالكي ص 42 ط باريس 1907.

الفروسية. وكان الشاب وكل رجل فيها لا يحسن استعمال السلاح، ولا يعرف أساليب الحرب، يرمى عندهم بالضعف، والتخنث، وضعف الرجولة!

اعتناء الشعب بالتدريب العسكري وغرامه بفنون الفروسية

وكان في كل مدينة وفي القرى ميادين عامة يخرج إليها الشباب فيعلمهم فرسان المدينة وقادة حروبها أساليب القتال. وكانت أحسن ألعابهم في أعيادهم، وأمتع ما يرغبون فيه أيام أفراحهم وأعراسهم هي سباق الخيل، والعاب الفروسية. وما يدل على المهارة في القتال، والبراعة في الحروب. إن ولع جند أبي الخطاب لما فتح القيروان بإجراء الخيل في وقت الراحة هو الذي فضح جميل السدراتي. إن هذه القصة دليل على ولعهم بأعمال الفروسية.[1] وإن طلب المعتزلة من أيوب بن العباس فارس المغرب أن يعلم أبناءهم أساليب الحرب دليل على اعتناء الدولة الرستمية خاصتها وعامتها بالتربية العسكرية، واستعدادهم كلهم لحمل السلاح، ودمغ كل معتد على الدولة. إنه لولا هذا لكانت الدولة العباسية قد وطأتهم برجلها، وقضت على دولتهم في مهدها، وضرستهم بأنيابها، وعاملتهم بما يسوله حقد الملوكية المستبدة على الجمهورية العادلة الديمقراطية.

قال الشيخ الباروني يذكر قصة أيوب بن العباس لما استضافه المعتزلة وبات عندهم. " ولما طلعت الشمس طلب جواده ليذهب فاحضروه وقد بهرهم ما رأوا (من قوته) فقالوا له. إن فتيان الحي يطلبون منك شيئا من الفروسية، وما عندك من فنون الحرب فقال: اجل ليحضروا فركبوا خيلهم وبأيديهم قضبان ليعلمهم كيفية العمل بها عوضا عن السيوف"[2] هذا دليل على ولع شباب الدولة الرستمية بالفروسية، ورغبتهم في تعلم فنون الحروب. فلولا أن هذه التمارين الحربية عادة جارية ما طلبوها من أيوب وما أجابهم إليها.

وكان أيوب بن العباس فارس المغرب لشجاعته، وقوة بنيانه، وبراعته في أساليب الحروب، ومهارته في فنون الفروسية. وكان إذا ركب للحرب والنزال "رمى في الجو بحربته (وسنان رمحه) وكانت تزن ثمانية عشر رطلا فتعلوا حتى تكاد تغيب عن الأنظار فيهيئ لها رمحه فتنزل فيه مستوية متمكنة لا تحتاج إلى تركيب".[3]

1 - انظر هذه القصة في صفحة 213 من هذا الجزء.

2 - الأزهار الرياضية ص 126

3 - الأزهار الرياضية ص 124 ط البارونية بالقاهرة

إسراع القبائل كلها شجاعة ورغبة إذا وقع النفير العام للجهاد.

وكان عملاقا من عمالقة الحرب. وفارسا يأوي إليه شباب المغرب للاقتباس من فروسيته، والأخذ من أساليبه البارعة في الحروب.

وكانت قبيلة لماية وحدها وهي قبيلة متوسطة في المغرب الأوسط إذا استنفرت للحرب تجند ثلاثين ألف مقاتل منها. وكانت هوارة ولواتة، ومطماطة وغيرها من القبائل الكبرى تجند في النفير العام أكثر من ذلك. وكانت قبيلة تسلح نفسها، وتستعيد للحرب لتجنب داعي الإمام إذا استنفرها، ودعاها لحروبه المشروعة. وقد خرجت هوارة يوما للحرب فعدوا في جندها ألف فرس أبلق، وهو الذي يجتمع فيه سواد وبياض، وهو نوع لا يكثر وجوده في الخيل. أما غير ذلك من ذي اللون الكثير فأضعاف هذا.

إن حروب الدولة الرستمية دفاعية أو تأديبية بقمع العصاة والمتمردين. فهي جهاد فيه الأجر الكبير، فكل الرعية ترغب فيها، وكل من يستطع حمل السلاح يسارع إليها. ثم إن الدولة دولتهم تعمل لخيرهم وسعادتهم ونجاحهم، والإمام إمامهم ورئيسهم، فهم الذين اختاروه، وقدموه، وانتخبوه في حرية تامة، وحملوه أثقال دولتهم، فيجب أن يكونوا كلهم جنده، وأحفاده، وأعوانه في بناء الدولة والدفاع عنها. هذه هي الروح التي تملأ الرعية في الدولة الرستمية. لذلك تجدها تستعد لليوم الكريه بالتدرب على أساليب الحرب، والبراعة في فنون القتال.

وكانت الدولة الرستمية أقوى دولة حربية في العربية. فهي التي حمت الدولة الإدريسية، فلم يسر العباسيون للقضاء عليها، ولم يستطيعوا الدنو من حماها. وقد اشتهرت في كل عهودها برجال كانوا فرسان المغرب وأبطاله العظام. منهم أيوب بن العباس في زمن الإمام عبد الوهاب، والعباس بن أيوب ابنه. وقد حدث أيوب عن نفسه من غير مباهاة ولا مبالغة فقال: "لا اعلم لي مقابلا يبارزني فيما بين مصر وفاس"[1] يعني في المغرب الكبير كله، وهو المشهور بالشجاعة، وكثرة الفرسان والأبطال. ومن فرسان المغرب في الدولة الرستمية افلح بن عبد الوهاب. وقد بلغ من بطولته وشجاعته أن انتزع دفة من باب تيهرت وكانت ضخمة لا يستطيعها إلا جماعة، فترس بها واتقى ضربات السيوف بعد أن فنيت درقته، فهزم جيش ابن فندين القوي الذي هاجم تيهرت على عزة. ولولا بطولته ووقوفه سدا في باب تيهرت، وقتله لابن فندين لاحتل العدو العاصمة، وانزل بالدولة شرا كبيرا.

1 - الأزهار الرياضية ص 127 البارونية.

قال الشيخ الباروني "فزحف ابن فندين (الثائر على الإمام عبد الوهاب على العاصمة وهي على غرة، وكان الإمام عبد الوهاب خارجها) فثارت الصيحة، وكان افلح عند أخته في العاصمة، وقد ضفرت له احد شقي شعر رأسه فهب قبل أن تتم له الشق الآخر، وتقلد سيفه. وكان عظيم البنية قويا شديدا. واقتفى أثره أهل المدينة. وتلاقى الفريقان في باب تيهرت فوقف افلح على العتبة مدافعا، وانسلخت رجله إلى العرقوب ولم يشعر بها، وصارت الأبطال من جيش ابن فندين تتوارد عليه وهو يناضل بسيفه متقيا بدرقته إلى أن أبادتها السيوف، ولم يبق بها ما يصلح للتوقى. فاختطف إحدى دفتي باب المدينة بيده وصار يتقي بها. وكان ممن أثقل كاهله بشدة البأس والقوة من مقابليه ابن فندين نفسه. فلوى عنان الطرف إليه وقصده وهو يسوق الناس ميمنة وميسرة وعلى رأسه بيضتان[1] قد ظاهر بينهما فضربه افلح على قمة رأسه فشقه مع البيضتين نصفين، وصوب معه السيف إلى أن نشب (في الأرض) ثم قال الباروني: ولما افترق الجيشان حاول جمهور من أهل المدينة رد دفة بابها في مكانه فلم يقدروا. فقالوا لأفلح: هلم رد ما نزعت. فقال: ردوا علي غيظي الذي كان بي أو أن نزعه أرده. فتعاونوا عليه (ومعهم افلح) فردوه كما كان".[2]

ومن فرسان المغرب في الدولة الرستمية بكر بن يبيب، وبكر بن عبد الواحد. وكان من جيش أبي حاتم آخر الأئمة الرستميين. قال ابن الصغير: "وكان الخارجون مع أبي حاتم (في الحرب) حماة البلد، منهم رجل يعرف ببكر بن يبيب.

هذه هي درجة الدولة الرستمية في الغنى وفي القوى الحربية، ومنزلتها العالية في الحضارة الإسلامية الراقية فما هي درجتها في العلم؟

إن الإسلام دين العلم والعرفان، أمر به وفرضه على المسلمين، والعلم أصل الحضارة والمدينة والدرجات العليا التي تطمح إليها الدولة. فهل تزهد فيه، وتقصر في طلبه، وتكون اقل من زمانها في الغرام به، وأدنى مرتبة من العباسيين الذي تنافسهم في كل الميادين؟

1 - البيضة لباس الرأس الحديدي كالذي يلبسه الجند الآن.

2 - الأزهار الرياضية ص 110 ط. البارونية بالقاهرة.

غرام الدولة الرستمية بالعلم وبلوغها أعلى الذرى فيه

وانتشار الثقافة في كل طبقاتها

وكانت الدولة الرستمية دولة العلم والمعرفة، تحب العلم وتجله، وتغرم به وتؤثره، وتفتح له المدارس، وتنشره في كل الطبقات بكل الوسائل والأسباب. وكانت المدارس الابتدائية موصولة بكل مسجد، مبثوثة في كل حي للتعليم الابتدائي، فتعلم الصبيان القراءة والكتابة ومبادئ العربية، وتحفظهم القرآن والحديث، وتعلمهم ما لا يسع جهله من الشريعة الإسلامية، وما يجب أن يعرفه كل مسلم لأنه الأساس الذي تنبني عليه حياته، والدستور الذي يعين طريقه، ويوجه سلوكه، ويبين علاقته بالناس. وتعلم المدارس الابتدائية لتلاميذها مبادئ الحساب والتاريخ سيما تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم وتاريخ الخلفاء الراشدين، وأئمة الدين كجابر بن زيد وأبي عبيدة وكبار التابعين الذين كانوا أئمة عصرهم، وخلفاء الصحابة في المعرفة والتقوى، وفي النضال والجهاد، ومحاربة الظلم والاستبداد؛ وتاريخ وطنهم وأجدادهم الذي يخلق فيهم الاعتداد بالنفس، ويكون لهم موعظة بليغة وتذكرة حسنة.

اعتناء الدولة بالتربية الصحيحة في مدارسها

وكانت الدولة الرستمية كلها تعتقد أن فائدة العلم إنما هي العمل به، وثمرة المدرسة إنما هي أثارها الحسنة في خلق التلميذ وعقله، وان سلوك التلميذ وتفكيره هما الناحية التي يفتشونها، ويهتمون بها ويقيسون فيها نجاح المدرسة وفشلها، وبراعة المعلمين وقصورهم.

وكان المعلمون في تلك المدارس مثال التقوى والورع، وحب العلم، والحرص على نشره! لا يتولى التربية والتعليم في المدارس الابتدائية إلا من استوفى كل الشروط. ومن أول الشروط التقوى والورع، والإخلاص والصفاء، والاستقامة في السلوك، والعلم وحبه، وقوة الشخصية التي تؤثر في التلميذ. وإذا لم تتوفر في العالم كل هذه الشروط منعوه عن التعليم أبنائهم، والاتصال بناشئتهم.

وكانت الدولة الرستمية تعتقد أن التعليم الابتدائي هو الذي يصبغ الناشئ بالصبغة الدائمة، ويؤثر في شخصيته التأثير الذي لا يزول، يوجهه ويخلق مثله العليا التي تكيف مستقبله؛ ومعلم المدرسة الابتدائية هو القالب الذي يصب فيه التلميذ فيشكله.

فهو في تكييف الشخصية وصبغ الطفل بالصبغة الدائمة كالبيئة المنزلية والوراثة. انه قريب منهما في التأثير البالغ فيه. أن اقل اعوجاج في خلق المعلم وعقائده وسلوكه ينساب إلى التلميذ فيرسخ فيه. فيتعذر بعد ذلك تقويمه!

وكانت الدولة الرستمية تفرض على مدارسها أن تورث أبناءها العلم والعمل به، وتعتني بالتربية الدينية الصحيحة والتعليم معا، وتنشئ للدولة أجيالا صالحة تكون قوة لها وسعادة، وتنيلها رضي الله، واحترام الأمم، وتسد في براعة وإخلاص وعلم كل ثغورها، وتكون أساسها الصحيح الذي لا يتزعزع، وسلاحها وأجنحتها في كل الميادين!

وكانت تحتقر العالم الذي لا يعمل بعلمه، فلا يستقيم في سلوكه، ولا يكون على الصلاح والصفاء، وعلى النزاهة والنقاء! إنها تحتقر العلماء الفاسدين الذين يبدون في أعلى الأمة كالمداخن العالية فوق السطوح، ولكنها لا تلد إلا السواد، ولا ينساب منها للناس إلا ما يعكر الجو، ويمنع الصفاء، ويشين المدينة!

وكانت تذود هذا الصنف من العلماء عن وظائفها، وتبعدهم عن مدارسها، وتحتقرهم! أنهم ظاهرون، ممتازون، ولكن ظهور النار المتأججة، والأفعى المبرقشة،لا ينطوون إلا على الإحراق، ولا يشتملون إلا على السموم! فالأعراض هو ما يحظون به من الناس، والعداء والمقت هو ينصب عليهم من المجتمع.

وإذا استوفى التلميذ المراحل الابتدائية في التعليم، وأراد الازدياد في العلم، والتخصص في احد فنونه، وجد مساجد تيهرت والمدن الكبيرة في الدولة الرستمية. أن مساجدها مدارس ثانوية، وجامعات للتخصص في فنون المعرف، سيما مساجد تيهرت العاصمة الغربية للدولة الرستمية، ومساجد مدينة (شروس) عاصمة جبل نفوسة التابع لها.

وكان يرابط في هذه المساجد العلماء الفحول، فتتوالى عليهم مختلف الحلق في الفنون، فيلقون على تلاميذهم مختلف الدروس والمحاضرات من ثانوية وعالية، على حسب مستوى التلاميذ الذين يتلقون عنهم، والطلبة الذين يؤمون حلقهم.

إكبار الدولة الرستمية للعلماء والمعلمين وعنايتها بهم

وكانت الدولة تعتني بهؤلاء العلماء المعلمين كل الاعتناء، فتضفي عليهم من بيت المال ما يكفيهم، ويضمن لهم ولأسرهم الحياة العزيزة الكريمة والهناء وإعطاء النفس للعلم، ويمكنهم من الرحلة إلى الأقطار للازدياد مكن المعرفة، ويكفيهم لشراء الكتب التي يحتاجونها.

وكان المجتمع الرستمي كله بمختلف طبقاته يجل هؤلاء العلماء ويقربهم، ويراهم الذروة العالية، والمنارة السامية التي ترفع كلمة الله. لا يعلوهم احد في الدولة، ولا يفضلهم احد في المجتمع!

وكان هؤلاء العلماء ينتصبون في مساجد تيهرت والمدن الكبرى التي هي قاعدة لنواحيها فيلقون دروسهم ومحاضراتهم على تلاميذهم في إخلاص وإتقان وحماس.

إن العلم قوة دولتهم، وحياة دينهم، وبثه في صدور الطلبة، وتثقيف العقول به، وتزكية النفوس بنوره اكبر جهاد، وأعظم عبادة! فتراهم يعلمون لله، ويلقون دروسهم في حرارة وإتقان، وفي إخلاص وبراعة.

وكانوا يعتقدون أن التربية والتعليم فرض عليهم من الله للأمة، وواجب حتم لابد أن يؤدوه للدولة؛ وان الله سيعاقبهم العقاب الشديد إذا قصروا في أداء هذا الفرض، أو اخلوا بذلك الواجب. فتبعثهم هذه العقيدة الدينية الراسخة على إعطاء النفس للتربية والتعليم، وعلى المرابطة في المساجد لتكوين العلماء الذين هم حياة الدين، وروح الأمة، وأساس الدولة وقوتها.

أنهم جبال الأمة العالية اللفاء[1] عليها أن تملأ جوها بالسحاب المخصب، والجو المنعش، وتكون مقصدا وشفاء لكل النفوس العليلة، وذوي الأدواء المزمنة.

وكانت مساجد تيهرت تشتمل على حلق العلوم المختلفة، فيجد الطلبة فيها كل ما يريدون لتخصص فيه من العلوم. وكان فيها العلوم الشرعية: التفسير والحديث والفقه، وأصول الفقه. والعلوم العربية كلها: الأدب، والنحو، والصرف وغيرها. وكان فيها المنطق والعلوم الرياضية: الحساب والهندسة وعلم الفلك. وارى أن في تلك العلوم علم الطب. وكان معروفا في تلك الأزمنة. وعليه تقوم الصحة، فلا يمكن للدولة الرستمية الطموح أن تغفله. وكذلك الكيمياء وتركيب العقاقير والأصباغ وإن كان هذا لا يوجد في المساجد، ولكن في أماكن خاصة له في المدن يؤمها الطلبة للتعلم والتطبيق. وكان لكل هذه العلوم حلق خاصة بها، يرابط فيها علماء بارعون مخلصون. وكانت تيهرت مقصدا لطلاب العلم من أنحاء المغرب كلها. وممن قصدها لطلب العلم ونبغ فيها وكان من العلماء الأجلاء نفاث بن نصر النفوسي، وسعد ابن أبي يونس وغيرهما كثير يحصون.

1 - اللفاء الملتفة الأشجار.

نبوغ رؤساء الدولة الرستمية في العلم وغرامهم به

وكان الأئمة الرستميون كلهم من العلماء الفحول. إن من شروط الإمامة ورئاسة الدولة العلم. فالدولة الرستمية لا تقبل لرئاستها إلا العلماء العاملين. وكان الإمام عبد الرحمن ابن رستم من كبار العلماء في عصره. وكان يقضي أوقات فراغه وهو رئيس الدولة في الدرس والتدريس والتأليف. وكانت له حلقة في مسجد تيهرت يتولى التدريس فيها بنفسه في أوقات فراغه. وكان له كتاب ألفه في التفسير لو بقي لكان من كنوزنا. وكان الأئمة الرستميون عبد الوهاب، وافلح، وأبو اليقظان كلهم من العلماء الكبار. وكانوا يقضون جل أوقات فراغهم في التدريس، والدرس والتأليف.

والإمام عبد الوهاب كتاب (نوازل نفوسة) وهو مجموع الفتاوى الشرعية كان علماء نفوسة يستفتونه فيها. انه لغزارة علمه مرجع للعلماء. وأسلوب الكتاب يدل على فصاحة الإمام وتمكنه في العربية. وأبوابه تدل على عمق الفهم وسعة الباع في علم الشريعة. ولا يزال هذا الكتاب القيم في مدن (وادي ميزاب) بجنوب الجزائر وفي جبل نفوسة، وجربة.

قال الشيخ الباروني: "وذكر أبو زكريا (في كتابه: السيرة وأخبار الأئمة) وغيره أن الإمام عبد الوهاب أرسل إلى إخوانه بالبصرة في العراق ألف دينار ليشتروا له بها كتبا. ولما وصلتهم اتفقوا على أن يشتروا بها كلها رقا[1] فاستنسخوها على نفقتهم فكانت وقرا أربعين جملا. ولما بلغته اجتهد في مطالعتها أوقات فراغه من الأشغال. وجد في ذلك حتى قيل انه يتجرد من ثيابه ولا يترك إلا السراويل حتى أتمها فقال: الحمد لله الذي علمني كل ما فيها من قبل. ولم استفد منها إلا مسالتين وقيل ثلاث مسائل. ولو سئلت عنهما لأجبت فيهما قياسا كما رسمتا فيها".[2]

إن ها النص يدل على ازدهار العلم في المشرق. وكثرة المؤلفين والكتب فيه إن ما اختاره الجمهوريون في البصرة للإمام عبد الوهاب من الكتب العلمية المهمة التي تليق لأمثاله من العلماء. بلغ وقر أربعين جملا. وغيرها من الكتب الأدبية. وما يليق للمتوسطين والمبتدئين لا يعد ولا يحصى.

إن قول الإمام عبد الوهاب: إنني لم استفد من الكتب الشرقية إلا ثلاث مسائل جديدة. يدل على أن المغرب كان في درجة المشرق في العلم. لا يفوقه بشيء في مجال

1 - الرق : الجلد الرقيق وكانوا يكتبون فيه قديما. وكانت الكتب منه ثقيلة ضخمة. وكان خط الأوائل عريضا فلذلك ملأت الكتب ثمانين غرارة وكانت وقر أربعين جملا والوقر هو الحمل الثقيل.

2 - الأزهار الرياضية ص 164 وطبقات الدرجيني مخطوط.

المعرفة. سيما في العلم الذي كانت الدولة الرستمية تعتني به كل الاعتناء لأنه أساس ميادينها العلمية كلها. واصل دينها. وسبب قوتها وشرفها.

لقد ولد الإمام عبد الوهاب في المغرب ودام فيه وتعلم من والده وغيره من علماء المغرب. فلم يهاجر إلى المشرق كما هاجر والده فيقال إن علمه من المشرق. وان درجته في العلم لا تكون مقياسا ودليلا على أن المغرب كان في تلك الدرجة. إن المغرب هو الذي أنشأه واثر فيه. وهيأ أسباب النبوغ. بما وجد فيه من علماء علموه واخذوا بيده. ومن خزائن الكتب الغنية التي نهل منها فوصل إلى ما وصل إليه من الذرى الرفيعة في العلوم. ومن جو علمي شائع في المجتمع المغربي يخلق الحب للعلم في الأفئدة. والحماس له في القلوب.

إن تجرد الإمام من ثيابه ليزداد نشاطا دليل على أن الكتب وصلته في الصيف فاقبل عليها في لهفة فدرسها في حر الصيف وقيظه ولم ينتظر إلى الشتاء. هذه هي رغبة الإمام في العلم. وغرامه به مع ما يملأ قلبه من هموم السياسة. ويحتل نفسه من مشكلات الدولة التي تصرف صاحبها عن العلم. وترين على العقل فيصدف عن المطالعة ويعجز عن دراسة الكتب والتهامها؛ ولكن رغبة الإمام عبد الوهاب في العلم كانت أقوى من حيرة المشاكل التي تداهم قلبه. فلم تشغله عن الدرس والتحصيل.

إن الرعية في الدولة على مزاج رؤسائها. وعلى مذهبهم. واتجاههم. ورغبتهم وعواطفهم. سيما الرؤساء الذين تنتخبهم الأمة انتخابا حرا. وتقدمهم باختيارها وإرادتها. ويمتزجون بها. ويلابسونها. ويؤثرون فيها. وتقع مقاليد قلوبهم في أيديهم كالإمام عبد الوهاب ورؤساء الدولة الرستمية كلهم. فإنهم عنوان الدولة. ومظهر الرعية. تتجه اتجاههم في الأمور. وتكون على حماسهم للأشياء. وعلى مثل عواطفهم وحبهم لما يحبون.

إذا كان الإمام يغرم هذا الغرام بالعلم. فكيف يكون غرام العلماء في دولته. وهم لا يبتلون بمشاكل السياسة. وأثقال الدولة التي تفثأ من وحبهم للعلم. وتشغل قلوبهم عن العناية به. وإعطاء النفس لع. أنهم في الذروة وعلى التمام. وحب العامة له كذلك على التأجج. لهذا كانت الدولة الرستمية دولة العلم والمعرفة. يجب العلم رؤساؤها ورعيتها. وترى العلم تاجها وروحها. وما تصول به ويسعدها. فتغرم كل الغرام به. فتبلغ الذرى الرفيعة فيه. وتراه شرطا أساسيا للإمامة ورئاسة الدولة. فلا تولي على نفسها إلا العلماء!

وكان الإمام افلح بن عبد الوهاب، رئيس الدولة الرستمية الثالث من العلماء العباقرة في عصره، ومن الأدباء الفصحاء، ترك لنا شعرا ونثرا يدل على علو كعبه في الأدب، وأوردت لنا كتب التاريخ من أنباء علمه ما يدل على درجته الرفيعة في العلم، وارى انه ألف كتبا عديدة في العلم، ونظم ديوانا كبيرا في الشعر، وترك لنا من خطبه ورسائله الشيء الكثير، فقضى عليه العبيديون لما حرقوا مكتبة تيهرت، واعدموا تراثها العلمي الذي يدل على عظمتها، وينفخ عزتها وثورتها على الملوكية في قلوب أهل المغرب، لكي يضمنوا سكون المغرب كما يريدون، ويخلقوا في المغرب جوا ترسخ فيه جذور الملكية التي غرسوها في ربوعه بالسيف وانهار الدماء التي يسفحونها!

قصيدة الإمام افلح في تحريض الطلبة وحث الشعب على العلم

وكان الأئمة الرستميون مثالا في الغرام بالعلم، والحرص على تعلم الشعب كله، وكانوا يلقون الخطب والدروس، وينشئون القصائد في الحث على العلم وبيان فضله، وأحسن الطرق التي تضمن النبوغ فيه، ونيل المراد منه، وقد انشأ الإمام افلح ثالث رؤساء الدولة الرستمية هذه القصيدة التي تكنى: (تحريض الطلبة) وكانت المدارس تعلمها للتلاميذ، وكان التلاميذ يحفظونها وينشدونها في المناسبات، وكانت من الأناشيد الوطنية التي يتغنون بها في أعراسهم وأفراحهم، في الحان شجية تزيد القصيدة قوة، وفي نغمات ساحرة تزيد معانيها تغلغلا ورسوخا في القلوب، ما أحلاها إذا تفجرت من حناجر الصبايا في أصوات حنونة عذبة، وفي الحان ساحرة كأنها أناشيد الملائكة في الخلد، وأهازيج الحور على ضفاف السلسبيل في الجنة! وإذا مزجت بتصفيق الأكف الناعمة، ومع رنة التصفيق وسوسة الأساور الذهبية في المعاصم المرمرية الموردة، إنها حينئذ تكون نهاية في القوة، وفي الذروة من السحر والجمال!

إن الغناء في الدولة الرستمية أغراض اجتماعية سامية، هي تهذيب النفوس، وحسن التوجيه، وبث كل المعاني الحسنة في القلوب، إلا تسمع إلى الصبايا والى الصبيان، والى كل امرئ يحسن الغناء والتطريب يتغنى بهذه القصيدة في الحث على العلم والثقافة؟ وأي معنى يجب أن تفتح له القلوب بالغناء أحسن واجل من هذا المعنى، اسمع إلى هذه القصيدة فإنها دليل على غرام الدولة الرستمية بالعلم، وإكبارها للعلماء، وعلى عقيدتها فيه، وعلى البواعث التي تدعوها إليه، وهي انه اكبر عبادة، وأعظم قربة، واجل شرف، وأمضى سلاح، واكبر جناح؛ وان طلبه دين يجب أن يؤتى، وفرض واجب على كل مسلم ومسلمة يجب أن يؤدي!

قال الإمام افلح ثالث رؤساء الدولة الرستمية لا فض فوه:

العلم أبقى لأهل العلم آثارا *** يريك أشخاصهم روحا وأبكارا

حي_وإن مات- ذو علم وذو ورع *** ما مات عبد قضى من ذاك أو طارا

وذو حياة على جهل ومنقصة *** كميت قد ثوى في الرمس إعصارا

لله عصبة أهل العلم إن لهم *** فضلا على الناس غيابا وحضارا

العلم علم كفى بالعلم مكومة *** والجهل جهل كفى بالجهل إدبارا

العلم عند اسمه أكرم به شرفا *** والجهل عند اسمه أعظم به عارايشرف العلم للإنسان منزلة *** ويرفع العلم للإنسان أقدارا

العلم در له فضل ولا احد *** في الناس يدري لذاك الدر مقدارا

للعلم فضل على الأعمال قاطبة *** عن النبيء روينا فيه أخبارا

يقول طالب علم بات ليلته *** في العلم أعظم عند الله أخطارا

من عابد سنة لله مجتهدا *** صام النهار وأحيا الليل اسهارا

وقال: إن مداد الطالبين على *** ثيابهم وعلى القرطاس اسطارا

مثل دم الشهداء المكرمين لهم *** فضل فأكرم بأهل العلم أخيارا

وقال هم يرثون الأنبياء كذا *** فيهم روينا احاديثا وأخبارا

أكرم بهم من ذوي الفصل المبين لهم *** إرث النبوءة في أيديهم صارا

هذا هو فضل العلم عند الدولة الرستمية، وتلك هي منزلة العلماء الرفيعة عندها. ثم يحث الإمام افلح على طلب العلم فيقول:

اشدد إلى العلم رحلا فوق راحلة *** وصل إلى العلم في الأفاق أسفارا

واصبر على دلج الاغساق معتسفا *** مهامة الأرض أحزانا[1] وأقطارا

حتى تزور رجالا في رحالهم *** فضلا فأكرم بأهل العلم زوارا

وألطف بمن أنت منه العلم مقتبس *** جدد له كل يوم منك أبرارا

1 - أحزان جمع حزن بفتح الحاء وهو ما غلظ من الأرض ضد السهل.

ثم يدعو الإمام افلح طلبة العلم إلى إعمال عقولهم لفهم ما يحفظون فيدلهم على اكبر قاعدة في التربية العقلية. قال:

وأحسن الكشف عن علم تطالبه *** وألزم دراسته سرا واجهارا

ولا تكن جامعا للصحف تخزنها *** كالعير يحمل بين العير أسفارا

نعم الفضيلة نعم الذخر تورثه *** لنفسك اليوم إن أحسنت آثارا

وإن هممت بخير الناس تألفهم *** الفت بالعلم أبرارا وأخيارا

ثم يدعو الإمام افلح إلى اختيار العلوم والبدء بعلم الدين، ويحث على حسن النية في طلب العلم، هو ما يدلنا على غرض من أغراض الدولة الرستمية في غرامها بالعلم وطلبه، وهو نيل رضي الله بتثقيف العقل، وتزكية الخلق بالعلم النافع. قال:

واطلبه من العلم ما تقتضى الفروض به *** واعمل بعلمك مضطرا ومختارا

واطلبه ما عشت في الدنيا ومدتها *** لموقف العرض أن لا تورد النارا

واجعله لله لا تجعله مفخرة *** ولا ترائى به بدوا واحضارا

إن هذين البيتين يدلان على مزاج الدولة الرستمية الديني. إنها كما قلنا متمسكة كل التمسك بالدين. فالدين هو الذي يدفعها ويرسم لها طريقها في كل أعمالها. ثم يستمر الإمام افلح في الحث على طلب العلم وبيان آداب المتعلم وما يجب أن يكون عليه لينبغ في العلوم. وهي قصيدة طويلة في أربع وأربعين بيتا.

إن أسلوبها البسيط يدل على أن الإمام افلح قد قصد بها كل طبقات الشعب والمبتدئين من المتعلمين. فبسط أسلوبها ليفهمها حتى العامة والمبتدئون. إن أسلوب الإمام افلح في رسائله أرقى وابلغ وأروع. فهو يستطيع في الشعر أحسن من هذه القصيدة في روعة الأسلوب ومتانته، ولكنه اثر البساطة لما ذكرنا.

لقد شطر هذه القصيدة الشيخ على ابن احمد المعاني فأطالها، وصعب على الناس حفظها، وأورث السأم بها. ثم إن اغلب اشطره تكرار لما في الصدر أو العجز. أن تشطير قصائده الشعراء، سيما هذه الآثار التاريخية لا يجوز. إنه كوصل الشعر بالشعر المستعار لا يحل في الدين. وإذا كان الشعر الواصل شعر المعزاء لا شعر الحسناء فقد تضاعف سبب النهي. إن هذا الشيخ الذي زاد في قصيدة الإمام افلح كمن يعمد إلى وجه الحسناء فيزيد فيه أنفا ثانيا فهل يحسنه يا ناس؟!

هذا هو اعتناء الأئمة الرستميين بتعليم الشعب فلذلك اغرم بالعلم كل طبقاته، وأقبلت عليه في لهفة وهيام.

وكانت كل الطبقات تقبل على العلم في الدولة الرستمية فتأخذ حظها منه: الأغنياء والفقراء، والرجال والنساء.

اعتناء الدولة الرستمية بتعليم المرأة وتثقيفها

وكانت الدولة الرستمية تعتني كل الاعتناء بتثقيف المرأة، وبتعليمها كل ما يجعلها زوجة صالحة، وأما كريمة، وأساسا للدولة العظيمة التي يريدها الجمهوريون في المغرب لأنفسهم. وكانت تعرف دينها كل المعرفة، وتتخلق بأخلاقه العظيمة. وتفهم العربية وتقرؤها، وتكتب بها، وتتقن كل الصناعات المنزلية، وتتجلى بالثقافة النسوية الراقية التي تجعل الدنيا في عين زوجها على نضارة خديها، وابتسام شفتيها، وتجعل داره كأحضانها تغمره بالعطر، وتسعده بالحب، وتنعش كل حواسه بالجمال.

وقد برع في العلم نساء عالمات في الدولة الرستمية ضاهين فيه فحول العلماء من الرجال. ذكر الشماخي، والدرجيني، وأبو زكرياء عددا كثيرا منهن في كتبهم. ومن العالمات النابغات في المغرب الأوسط في الدولة الرستمية أخت الإمام افلح. وقد برعت في علم الفلك حتى بزت فيه أخاها افلح! انه لا يهتم به إلا الخاصة من العلماء، والفحول من ذوي المعرفة. وقد برعت فيه العالمة النابغة بنت عبد الوهاب. وما يدل على أن درجتها في العلوم الشائعة في النساء كالعلوم الشرعية واللغوية كانت فيها في أعلى الدرجات. ولم تكن العالمة بنت الإمام وحدها على هذه الدرجة الرفيعة في العلم، بل كان بيت الرستميين كله كذلك.

غرام العائلة الرستمية بالعلم واعتدادها به ونبوغ كل أفرادها فيه

وكانت العائلة الرستمية ترى العلم شرفها وما ترجح به كفتها، لا البذخ ولذائذ العيش والفخفخة التي تغرم بها العائلات الملكية المستبدة، وتعتمد عليها في الرفعة والظهور. فلذلك تعاف العائلة الرستمية أن يكون فيها جاهل أو متوسط في العلم لا يأخذ من العلم كل ما يستطيع.

اعتناء الدولة الرستمية بتثقيف العبيد والإماء ونبوغهم في العلم

وكانت الدولة الرستمية لدينها وديمقراطيتها وعدلها تعتني حتى بعبيدها وإمائها وخدمها فتعلمهم دينهم، وكل ما يثقف عقولهم ويجعلهم ناسا سعداء صالحين.

قال الشماخي: "وذكر أن إماء نفوسة في تلك الإعصار (وهي عهود الدولة الرستمية) إذا وردن أو خرجن إلى الحطب في البساتين لا يرجعن حتى يتذاكرن جميع مسائل كتاب ماطوس"[1] وكتاب ماطوس في الشريعة الإسلامية. وكان من الكتب الدراسية المهمة في ذلك الزمان.

وكانت العائلة الرستمية تعتني بتعليم العبيد والإماء أكثر. فلا تقتصر في تعليمهم على الشائع من العلم في الطبقات المتوسطة في المجتمع. بل علم الخاصة، وتخذ بأيديهم، وتهيئ لهم كل الوسائل. تخلصهم بنفسها. فيتأثرون بجوها العلمي، وينالون من علمها حتى يكونوا علماء. وكانوا يعافون أن توجد في عائلتهم امة "من إمائهم لا تعرف علم الفلك. ولا تدري منازل القمر والنجوم".

قال الشماخي عن أبي زكرياء: " بلغنا عن الإمام افلح (ثالث رؤساء الدولة الرستمية) انه جلس بين يديه أربع حلق قبل بلوغه يتعلمون منه فنون العلم. الفقه والأول. والنحو غير ذلك. وكان بيت الرستميين بيت العلم (والبراعة) في فنونه. الأصول والفقه، والتفسير. (والحديث) وفنون الدين (كعلم الكلام) والرد على المخالفين، وعلم اللغة، والنجوم، والإعراب؟، والفصاحة. قال بعض الرستميين: معاذ الله أن تكون عندنا امة لا تعلم منزلة يبيت فيها القمر. (ولا تعرف علم الفلك).

وقال أبو زكرياء: وقد بلغ الإمام افلح في علم الحساب والتنجيم مبلغا عظيما. وقعد ليلة مع أخته فتذا كراما أول ما يذبح غدا في السوق. فقال افلح: بقربة صفراء في بطنها عجل أغر. فقالت الأخت: ذلك البياض في طرف ذنبه (وقد لواه فوقع على جبهته) وكان الأمر كما قالت الأخت. (وبزت أخاها في الحساب والتنجيم).

إن عمل افلح وأخته ليس من الكهانة والشعوذة ولكنه عمل علمي بارع يقوم على قواعد علمية دقيقة، وعلى براعة في الحساب وعلم الفلك لا يستطيعه إلا العلماء الإعلام. وقد ورث الرستميون العناية بعلم الفلك من أجدادهم الفرس. فان بهرام ورستم جد عبد الرحمن بن رستم ووالده كانا عالمين بالفلك. ولهم عناية به.

ثم قال الشماخي: "إن جبل نفوسة (في عهد الدولة الرستمية وبعدها) احتوى على الكرامات وعلى كثرة الصالحين والعلماء. (وكان فيه من العلماء) ما لا يوجد بغيره. وذكر انه في بعض الأزمنة (وهي عصور الدولة الرستمية) لا تحتاج فيه قرية إلى قرية

1 سير الشماخي 545 ط البارونية في القاهرة.

للفتيا. إلا (إجناون) و(ويغو) و(تندميرة) لا تحتاج دار فيها إلى دار للفتيا"[1] لان أهلها كلهم مثقفون، عالمون بدينهم. وفي كطل دار منها عالم من رجالها أو نسائها يستفتونه، فيغنيهم بعلمه، وسعة معرفته. إن الفتوى في الدين سيما في المشكلات الغامضة لا يستطيعها إلا العلماء الكبار، وذوو الذكاء والتمكين في العرفان. وكانت هذه القرى الثلاثة ممتلئة بالعلماء، عامرة البيوت بالأذكياء والنبغاء.

ثم قال الشماخي يذكر غزارة العلم في (إجناون) وكثرة العلماء فيها. وهي مدينة في سفح جبل (جادو) يكللها الزيتون، وترصعها أسراب النخيل. وقد شاهدتها في السنة الماضية، فراعني مكانها الشعري، وجمالها الطبيعي. وهي اليوم خراب لم يبق من أثارها إلا الأشجار المبعثرة في الأنحاء، والجبل الشامخ العالي يطل عليها كأنه يبحث عن ماضيها الزاهي العظيم ليستخرجه. قال الشماخي: "وقالوا. إنه اجتمع في إجناون سبعون عالما في أيام أبي عبيدة عبد الحميد الجناوني والى الإمام عبد الوهاب -ثاني رؤساء الدولة الرستمية- على الجبل. وذكر أن إماء نفوسة في تلك العصور إذا وردن أو خرجن إلى بساتينهن للاحتطاب لا يرجعن حتى يتذاكرن جميع مسائل "كتاب ماطوس"[2] في الشريعة. هؤلاء الإماء يبلغن في العلم هذه الدرجة الرفيعة، أما الحرائر والرجال فهم أكثر في العلم، وأعلى كعبا في الثقافة العربية.

وكانت النواحي كلها في الدولة الرستمية قد أقبلت على العم، وتنافست في فتح المدارس، وفي نشر الثقافة الإسلامية الصحيحة في مدنها وقراها، وفي باديتها وكل جهاتها. وكانت مدن الدولة الرستمية تعج بالعلماء الصالحين. وكانت مدنها الشمالية: مليانة، وتنس، والمدينة الخضراء، وسوق إبراهيم، وإفكان، ويني واريفن، ومستغانم، وقلعة هوارة، وتامزغران، وتاغربيت، والغزة، وأوزكي، ومعسكر، ومدينة شلف، ومدينة رها، وقصر الفلوس، ومدينة يلل، ومدينة جبل توجان، وجبل زلاغ، وغيرها كثير في شمال تيهرت؛ كانت تعج بالعلماء الصالحين، وتزخر بمدارسها، ومنابع العلم فيها.

وفي جنوب تيهرت كانت مدينة تاجموت، وتاويلا، والاغواط، وورجلان في الصحراء. وكانت ورجلان من عواصم العلم في المغرب، ومن معادن الثروة والغنى والحضارة الإسلامية في المغرب الأوسط في أيام الدولة الرستمية وبعدها إلى القرن الخامس الهجري. وقد أنشأت جماعات غفيرة من العلماء كانوا مثالا في غزارة المعرفة، والنبوغ في العلم، ومع الورع وحسن السيرة، والعمل في تعليمهم وتأليفهم، وفي جهادهم العلمي المتواصل

1 - سير الشماخي ص 545.

2 - سير الشماخي ص 545 ط القاهرة.

لله لا لغيره. من أولئك العلماء الكبار في ورجلان الشيخ أبو صالح جنون ابن يمريان، والعلامة يعقوب بن سيلوس السدراتي، والعلامة أبو سهل النفوسي. وغيرهم كثير تجدهم في سير الشماخي وطبقات الدرجيني.

أما في شرق الدولة الرستمية فقد كانت جبال أوراس كثيرة العلماء، منهم محكم الهواري، وابنه الشيخ هود بن محكم. وكانت توزر، ونقطة، وقفصة، وقابس، وجربة في جنوب افريقية تزخر بالعلماء الصالحين، وبذوي المعرفة والدين. وإذا نظرت في كتب الطبقات وسير مشائخ المغرب: السير للشماخي، والطبقات للدرجيني، والسيرة وأخبار الأئمة لأبي زكرياء، رأيت ما يثير إعجاب بكثرة العلماء في الدولة الرستمية، وما يورثك الفخر والاعتداد بانتشار العلم والثقافة الإسلامية في مغربنا الكبير، بفضل الدولة الرستمية، ومن عاصرها من الدول الإسلامية المغربية الأخرى: الدولة الإدريسية، ودولة بني واسول، والدولة الأغلبية.

نبوغ جزيرة جربة في العلم ونشاطها وغناها وازدهارها في عهود الدولة الرستمية

وكانت جزيرة (جربة) في الجنوب الشرقي لقابس. وكانت جزيرة نشيطة طموحة محبة للمعالي، وأهلها ذوو جد وإرادة حديدية، وجلد، ومثابرة، ومغامرة، وسفر إلى الأقطار البعيدة. وقد نالت بهذه الصفات العظيمة كل ما تشاء من علم غزيرة وثروة واسعة. وكانت في الدولة الرستمية من أزهى نواحيها، ومن أزكى جهاتها. وقد نبغ بها في عهود الدولة الرستمية عشرات من العلماء، وظلت منبعا للعلم والعرفان إلى القرن العاشر الهجري. وكانت معاقل العلم الكبرى في المغرب. وكانت مساجدها بالعلماء في دروسهم، والتلاميذ في علومهم على دوي البحر بأمواجه المصطخبة حولها!

وكان من حولها البحر الواسع الذي يشتمل على اللؤلؤ والمرجان، وفي مدنها البحور الواسعة من علمائها الإعلام الذين يغمرون كل نواحيها بالعلم والعرفان!

وكان الله الذي رصع البحر السباحي بياض الأمواج الهادئة، تبدو فيه نقية بيضاء، كما تتلألأ في الابتسامة ثنايا الحسناء، قد رصع عروس البحر وغادة افريقية جزيرة (جربة) بعمائم البيضاء التي تشرق في كل نواحيها، في مساجدها، ومدارسها، ونواديها وشوارعها علامة قوة وصلاح ونقاء في جربة! إنها بياض الأمواج في البحر إذا ثار ليضح الأوساخ عن متونه. ويملأ جوه بالسحاب الكثيف والغمام الممطر![1]

1 - العلماء يطهرون نفوس الأمة وينشئون فيها الجيل العالم الذي هو سحابها. أرى المتزمتين الذين ألفوا في تاريخ

ليت أبناء جربة الذين لا يزالون فخر المغرب الكبير في النشاط الاقتصادي. فهم الذين زاحموا اليهود في تونس الخضراء وانتزعوا منهم أزمة الاقتصاد أيام الاستعمار؛ وهم العمود الفقري للحياة الاقتصادية في تونس الخضراء الحبيبة؛ ليتهم وهم على هذا الاقتدار والجد في الاقتصاد، يصيحون إلى نداء أجدادهم العلماء في دمائهم، فيعتنون بالعلم والعربية، ويغرمون بالمعاني، فيسترجعون مجدهم التليد، وليتهم يعتدون بأجدادهم، ويعرفون ماضيهم العظيم فيشمرون للعلم والعرفان!

وكانت طرابلس كلها إلا المدينة جزاءا من الدولة الرستمية. وكانت تزخر بالعلماء، وتمتاز بالصلاح، وتتمتع كل نواحيها بالثقافة الإسلامية الصحيحة. وكانت كل مدنها وقراها كخلايا النحل تفيض بحلاوة المعرفة، ويرابط فيها للتربية والتعليم العلماء الصالحون.

وكانت مدينة زواغة، ومدينة لبدة، ومدينة تاورغا، ومدينة مغمداس، ومدينة سرت في شرق طرابلس كثيرة العلماء. إنها اقرب إلى المشرق، وهي طريق العلماء إلى المغرب فتأثرت بموقعها، واستفادت باختلاطها بالمثقفين والعلماء الذين يمرون منها. وزادت الدولة الرستمية التي ترى طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة فاعتنت بنشر العلم فيها، فأخذت حظها كاملا من العلم والعرفان ونبغ فيها علماء أعلام. وأنت إذا نظرت في سير الشماخي وجدت فيه علماء كثيرين من تلك النواحي. هذا شرق طرابلس العتيدة وشمالها. أما جنوبها ففيه مدينة ودان، وفزوان، وزويلة، وغدامس، وقد نبغ فيها علماء كثيرون. هذا في شرق طرابلس. فماذا نجد في غربها. إننا نجد منابع العلم والمعرفة، ومحل النبوغ والعبقرية، ومعدن الصلاح والتقوى، جبل نفوسة، الجناح العتيد للدولة الرستمية! فإلى الجبل العظيم!

الأسلوب البسيط الجاف، والذين تعودوا في كتبه الماء القراح يقحمون شواربهم في غدرانه، لا الشراب المعطر اللذيذ؛ أراهم يقذفونني بالنعال ويثورون ويصطخبون. إن التاريخ علم وفلسفة وأدب يحببه إلى النفوس.

عبقرية جبل نفوسة العلمية

وازدهاره وغناه أيام الدولة الرستمية

وإذا جئت غرب طرابلس، وصعدت إلى جبال نفوسة الشماء، وجدت معادن العلم والعبقرية، ومشرق العرفان والثقافة الإسلامية. ووجدت المدن قد تجللت بعمائم العلماء الذين لا يحصون كما تتجلل الياسمينة الزاهرة بزهورها في صباح الربيع!

وكان جبل نفوسة يشتمل على مئات من القرى، وعشرات من المدن الكبرى. وكان لعمارته، ومنعته، وكرم نفوس أهله، وغزارة علمه، وانتشار الثقافة الإسلامية في كل نواحيه، مقصدا وكعبة يحج إليها الناس من كل أنحاء المغرب، ويقصدونه من المشرق. فينعمون بجوه الصحي، بحضارته وغناه، وبعلمه الواسع، وعلمائه الإعلام الذين لا يحصون.

وكان جبل نفوسة الأشم يشتمل على مدن كثيرة كانت مراكز لنواحيه، وقواعد لجهاتها. وكانت عاصمته هي مدينة شروس وجادوا، ومن مدنه الكبرى نالوت، وكباو، ويفرن، وميري. وكانت تعج بالعلماء الصالحين، ذوي المعرفة والدين. إن أكثر من ذكر الشماخي في سيره من العلماء ويزيد عددهم على ألف عالم أكثرهم من جبل نفوسة، وذلك لنبوغه، وكثرة العلماء فيه. ׳ن جو الجبال الصحي فيه، وهمة أهله، وطموحهم، وغناهم كون فيهم نبوغا عقليا ممتازا، وذكاء علميا وقادا، لازال يبرق ويتوهج في عيون أبنائه إلى اليوم. فبلغ الجبل باستعداده العلمي كل ما يشاء في ميادين العلم والمعرفة، وكان قربه من المشرق، والمشرق، واستقراره وهدوءه، وغناه بفضل جده ونشاطه في الفلاحة والتجارة، ومن أسباب إقباله على العلم، ونبوغه في العرفان.

وكانت مطارق الأمويين والعباسيين قد انهالت على الجبل الأشم فكان من أول البقاع التي نهضت في المغرب فعرف أن العلم هو القوة القوية، والسلاح الماضي، وأساس الدين والدولة التي يرجوها لنفسه وللمغرب، فاقبل على العلم في كل نهم ولهفة، فنال منه كل ما يريد. فكان أكثر بقاع المغرب ثقافة وصلاحا، وعلما وورعا، وكثرة مدارس !

وكانت قراه مشرقا لعلماء أعلام شرفوا المغرب الكبير وخدموا الثقافة الإسلامية. منها قرية (ويغو) في جبلا شروس على الجنوب الشرقي منها، وكانت أكثر نواحي جبل نفوسة علما، ومن علمائها الشيخ مهدي النفوسة الذي سترى حقيقته في باب إمامة

عبد الوهاب، وعمروس بن فتح . ومن قرى الجبل النابغة (تاملوشايت) و(تندميرة) وهي في قمة جبل عال كعش النسر يقرب المسافة بعشه في الذرى لأبنائه إلى السماء. وقد نبغ فيها الشيخ أبو نصر فتح بن نوح، وكتبه ومنظوماته تدل على عبقريته في العلم، ونبوغ كبير في العرفان. ومنها اجناون قرب جادو. وكانت منبتا لعلماء أعلام منهم أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني. ومعبد الجناوني؛ وقنطرارة، وهي مدينة تيجى وغيرها كثير.

أسباب نبوغ جبل نفوسة في العلم

وكان من أسباب إقبال الجبل على العلم ونبوغه فيه مع ذكائه، وطموحه، وجلده، وغناه، واستقراره وهدوئه، وقربه من المشرق حيث العلماء الإعلام، ومنابع العلم والمعرفة في البصرة، فهاجر إلى تلك العواصم الشرقية، سيما البصرة تلاميذ من الجبل فنقلوا العلم إليه، وبثوه في أرجائه. وكان من الذين هاجروا إلى البصرة فنقلوا العلم إلى جبل نفوسة ابن مغيرة النفوسي الجناوني. وقد سبق طلبة العلم الخمسة إلى أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة.

ومن أسباب إقبال جبل نفوسة على العلم وإقبال طرابلس كلها وجنوب افريقية التي كانت جزءا من الدولة الرستمية إنها الجناح الشرقي للدولة الرستمية وقريبة من القيروان. وكان جبل نفوسة وطرابلس أول ما يشاهد الملكيون من الدولة الجمهورية. فحرص جبل نفوسة أن يكون دائما الصدر الجميل في الغادة الحسناء، هو أول ما تقع الأنظار عليه يستميل النفوس إليها، والخدود النضيرة في الوجه الجميل هي مظهر شبابه وجماله وسحره. فنهض إلى العلم ينافس فيه القيروان والمدن الملكية، لتكون كفة المغرب الجمهوري هي الراجحة، وتكون الدولة الرستمية كالدولة العباسية في العلم والمعرفة، لا تقل عنها، ولا تقصر عن شأوها.

ومن أسباب نهضة جبل نفوسة، وإقباله على العلم والمعرفة، تأثره بطلبة العلم الخمسة. لقد استقر اغلبهم في طرابلس يؤيدون أبا الخطاب في دولته، ويجعلون معه أثقال إمامته. وكانوا يترددون على جبل نفوسة، ويقيمون فيه ويطيلون الإقامة، لجوه الصحي، ولكرم نفوسة وترحيبها بالعلماء، وتلهفها إلى المعرفة.

وكان عاصم السدراتي احد طلبة العم الخمسة قد آثر جبل نفوسة وطنا. إن مصلاه الذي كان يتعبد فيه، والقرية التي كان يسكنها لا زالت في قبلة مدينة نالوت. هذه هي الأسباب التي جعلت جبل نفوسة جبلا شامخا في العلم والمعرفة، واكبر منبع للثقافة الإسلامية في المغرب الكبير!

وقد حفظ الله جبل نفوسة من غزوة العبيديين الملكيين الذين قضوا على الدولة الرستمية فاتوا على نتاجها العلمي، وعلى مؤلفاتها التي لا تحصى، ومكاتبها الضخمة التي حرقوها.

وكانت مكتبة المعصومة العامة في دار الإمارة بتيهرت تشتمل على ثلاثمائة ألف مجلد في شتى العلوم والفنون. فاختار العبيديون منها كتب المعارف العامة كالعلوم الاقتصادية، والفلاحية، والطبية، والفلكية، وغيرها، وحرقوا كل ما يتصل بتاريخ الدولة، وطبقات العلماء وسيرتهم، ليقضوا على شخصية الدولة الرستمية التي تظهر جمال الإمامة الإسلامية، والجمهورية العادلة التي تتمسك في السياسة بالدين، وتنهج نهج الخلفاء الراشدين. وهو ما يكسفهم، ويشعر الأمة بظلمهم واستبدادهم فتثور عليهم.

لقد حفظ الله جبل نفوسة من غزو تلك الدولة الملوكية المستبدة فبقي لنا كثير من تراثه العلمي، وحفظ لنا أخبار الدولة الرستمية، وكان رءوس الجبال التي يرى الناس فيها أشعة الشمس الغاربة إذا زواها الأصيل عن كل الأمكنة. فرأينا في الجبل بعد سقوط الدولة الرستمية من القرن الرابع إلى العاشر الهجري صورة للدولة الرستمية التي كانت تمتاز بالغرام بالعلم، وعلو الكعب في العرفان. انه اصدق مرآة لها، واجلى مظهر لعظمتها في العلوم.

كثرة المكاتب في جبل نفوسة وذهابها بالفتن والاستعمار الايطالي

وكانت مدن الجبل وقراه تشتمل على مئات الخزائن المملوءة بالكتب النفسية، وقد حرق معظمه في الفتن المتصلة التي ابتلى بها الجبل بعد القرن العاشر الهجري، وانتهب الكثير الذي أبقت عليه الفتن الايطاليون الغزاة الذين كان أهل جبل نفوسة أشجع من قارعهم، وأول من هب لمدافعتهم، فخاضوا الحروب المريرة معهم وكبدوهم الهزائم الشنيعة، وأورثوا للإسلام والمسلمين فخرا وعزا بشجاعتهم وبطولتهم، وعبقرية قائدهم العظيم. فأورث الايطاليين ذلك غلا عليهم فعاثوا في نواحيهم.

إن ما بقي لنا من كتب جبل نفوسة يدل على عبقريته العلمية، ومعرفته الواسعة، وعلى الذرى الرفيعة التي دفعته الدولة الرستمية إليها فاقتعدها في العلم والعرفان.

محافظة جبل نفوسة على عظمته العلمية بعد الدولة الرستمية

لقد استمر جبل نفوسة في طريق العلم الذي كان فيه المغرب الأوسط والأدنى أيام

الدولة الرستمية، ودام على نشاطه في خدمة العلم ونشره إلى القرن العاشر الهجري. وقد أنتج لنا من الكتب في الشريعة الإسلامية في هذه القرون ما يسد اكبر مسد في المكتبة الإسلامية.

كان جبل نفوسة لخدمته للعلم وكثرة علمائه، وتخصص ذوي المعرفة فيه في الفنون أول من ألف الموسوعات العلمية في الإسلام. وقد اجتمع سبعة من علمائه الإعلام فاشتركوا في وضع اكبر موسوعة في الشريعة الإسلامية. فسموها إلى أبواب فكل عالم منهم تولي التأليف في الأبواب التي يتقنها. وهذه الموسوعة هي (ديوان الأشياخ) في خمسة وعشرين جزءا. وتوجد نسخ منه مخطوطة في وادي ميزاب بجنوب الجزائر. وهؤلاء العلماء الذين ألفوا هذه الموسوعة النفيسة هم: أبو عمران موسى بن زكرياء، وأبو عم النميلي، وعبد الله بن مانوج، وأبو زكرياء يحيى بن جرناز، وجابر بن سدرمام، وكباب بن مصلح، وأبو مجبر تزين وهؤلاء كلهم من جبل نفوسة تعلموا فيه، وأقاموا به، ووضعوا هذه الموسوعة في بقاعه الطيبة، وفي ذري جباله المنفية.

ومن موسوعات جبل نفوسة في الشريعة الإسلامية (ديوان العزابة) الذي ألفه عشرة من العلماء وهو في عشرة أجزاء. انه من أهم الكتب والمراجع في الشريعة الإسلامية. ويوجد هذا الكتاب النفيس المخطوط في خزائن (وادي ميزاب) بجنوب الجزائر.

ومن مؤلفات جبل نفوسة التي كانت ثمرة لنهضتها ونضوجها في عهود الدولة الرستمية فهي من نتاج هذه الدولة العلمية وإن الفت بعدها. إنها النبات الذي تنتبه الآبار الممتلئة بعد انقشاع السحاب المنهمر، ونضوب النهر العجاج؛ فماؤها من ذلك السحاب، فلولاه لكان البئر هوة لا تملؤها إلا أفاعيها وأحجارها! من تلك المؤلفات النفيسة التي أنتجها جبل نفوسة فسدت مسدا كبيرا في المكتبة العربية، ولا تزال من أمهات الكتب، لا يستغنى مثقف عنها، ولا تكمل مكتبة العالم إلا بها: كتاب الإيضاح للشيخ عامر النفوسي في ثلاثة أجزاء، وهو ألذ وأعمق مما ألف في الشريعة الإسلامية، وقناطر الخيرات في ثلاثة أجزاء للشيخ إسماعيل الجيطالي، وهو كإحياء علوم الدين للغزالي في الفلسفة الدينية، وعلم النفس والأخلاق، وفي الدين والأدب الرفيع. انه من أمتع ما يطالع المثقف، ومن أحسن ما يتزود منه الواعظ والخطيب، ومن أخصب الكتب في أبوابه أسلوبه جميل، ووصفه بديع، ومادته غزيرة، وبحثه عميق.

وجوب قتل المذهبية في الفقه الإسلامية وإبعاد كتبها عن معاهدنا

ومن مؤلفات نفوسة في الشريعة الإسلامية. وهي بأسلوب نضير، بحث عميق مع

الخلو من حشر الخلافات المذهبية في الشريعة الإسلامية. انه صافية تنبع رقراقة من الجبل الأشم: الكتاب والسنة، ليست غديرا تدحرجه إلى الوادي شعاب عدة فيختلط بترابها كما ترى في الكتب العقيمة التي ترى أئمة مذاهبها هم الأنبياء، فتتجه إليهم، تعرض ما قال غيرهم على كلامهم، فترفض كل ما لم يقل به إمامها. وتراها عكرة باشتغالها بالمنازعات المذهبية العقيمة، وتقديمها إلى الناس غذاء وبيلا عكرا تمرض به النفوس بالتعصب الذي فرق بين المسلمين! ليت جامعاتنا ومدارسنا تبعد عن برامجها ومكاتبها كل كتاب يحي المذهبية العفنة في النفوسي، ويتجه إلى غير كتاب الله وسنة رسول الله في الاستدلال والاستنباط. إننا إذا لم نفعل ذلك ونحن ندعي التقدم والتمدن، وتركنا تلك الكتب العكرة تفسد عقول ناشئتنا، نكون في جامعاتنا الأنيقة، وفي مدارسنا العصرية المنظمة ، كالذي ينوط بالجدار المرمرى الجميل قدورا سوداء، ويترك في الساحة الرخامية البراقة كالمرايا رغاما يطمسها، وأحجارا تتلفها، وتقتل جمالها وروعتها!

الكتاب والسنة هو ما يجب أن ندرسه ونجعله أصلا نقيس عليه

إن الكتاب والسنة هو ما يجب أن نعكف على دراسته، والتعمق في فهمه، واستنباط ديننا منه. فما وافقهما من الكتب رحبنا به، وما خالفهما ضربنا به عرض الحائط، وهو ينابه إلى سلة المهملات.

إن الكتب القديمة كالشجرة لا تعدم مع حطبها زهرة اريجة، وثمارا يانعة. إنها تركة أجدادها، ويرجمهم الله جميعا، ولكن يجب الفحص والانتقاء، والاختيار والانتقاد.

كان الشيخ إسماعيل الجيطالي النفوسي من عباقرة عصره، وفلاسفة زمانه، وهو غزالي المغرب، فترك لنا مع قناطر الخيرات الذي حدثتك عنه، كتابه النفيس (القواعد) في الشريعة الإسلامية، وهو من ثمار جبل نفوسة الذي أنقلك إليه فتشاهد أجدادك يا صديقي إن كنت مغربيا، وأعمامك ’ن كنت مشرقيا، وأطير بك إلى القرون الأولى فترى الدولة الرستمية التي قامت على العلم، وامتازت بكثرة العلماء!

ومن مؤلفات نفوسة كتاب الوضع لأبي زكرياء، وهو في الشريعة الإسلامية أصولا وفروعا، وبأسلوب جميل سلس، وبروج خفيفة، وعمق عميق.

ومن مؤلفات جبل نفوسة في التاريخ: كتب الطبقات علماء المغرب منذ الفتح الإسلامي إلى القرن العشر الهجري، وهي: (السير) للشماخي، والطبقات للدرجيني، وسير الأئمة لأبي زكرياء وهو في جزأين.

ومن تلك الكتب (تاريخ نفوسة الكبير) وهو مفقود نادر لم أره على طول البحث عنه في الخزائن القديمة. وقد اخبرني شاعر ليبيا وأديبها الفذ الأستاذ على معمر أن هذا الكتاب توجد نسخ منه عند أهل الجبل. ليتهم يطبعونه لتعم فائدته، فانه من الكتب التي نتلهف للانتفاع بها في تاريخ المغرب مع كتاب ابن الرقيق الذي هو عمدة في تاريخ المغرب. وقد ضاع بكل أسف. ولعله في خزائن أوروبا مطمورا.

وكان جبل نفوسة في أيام الدولة الرستمية لكثرة الصالحين فيه، ومجالس العلم والعبادة، مقصدا للعلماء والخاصة من المغرب الأوسط وأنحاء الدولة الرستمية، لجلاء النفوس، وصقل العقول، والتمتع بهدوء جبل نفوسة وصفائه.

إن تيهرت عاصمة كبيرة فيها الجلبة والضوضاء، وفيها الأسواق الصاخبة، ومجالس العلم العامرة، وفيها رواء الحضارة الراقية، وإشراق المدنية الساطع، فالمرء فيها كمن يجلس في الشمس فتتعب بصره بسطوع الأنوار، وهو فيها لصخبها كمن ينام في القطار المنطلق المدوي المرتج. أما جبل نفوسة الهادئ الذي لم يبلغ في الحضارة المادية ما كان عليه المغرب الأوسط فان المرء فيه كمن يقيل تحت السرحة الفينانة لا يتسرب إليه من الضوء إلا ما يريح أعصابه، ولا تسمع أذناه من الأصوات إلا همس الغصون، تهدهده لينام، وتناغيه لينتعش!

قال الشيخ أبو إسحاق اطفيش: "ففي نفوسة مجمع الجم الغفير من علماء لواتة ومزاتة، وهوارة، وغيرهم من علماء البربر (كزناتة ونفزاوة)، فكان الطالبون لجلاء القلوب من العلماء في الأصقاع الأخرى بالمغرب يؤمون جبل نفوسة إذا أحسوا بفتور النفوس في العبادة، أو ضعفها في التحصيل والفهم، أو قساوة القلوب؛ ويقولون نصعد إلى الجبل لنصقل قلوبنا يعنى بالعلم والذكر، ومجالسة الصالحين من أهل العلم والعرفان".[1]

علماء الدولة الرستمية

كانت الدولة الرستمية دولة العلم والمعرفة، فكثر فيها العلماء، وزخرت مدنها وقراها بهم. فمن علمائها الشيخ مهدي النفوسي، ومحمد بن يأنس، وأبو الحسن الابدلاني، وعمروس بن فتح، ويعقوب بن افلح، وبنت الإمام عبد الوهاب العالمة النابغة، ونساء كثيرات آخر ذكر الشماخي منهن الكثير.

ومن علماء تيهرت ابن أبي إدريس، واحمد التيه، وأبو العباس بن فتحون، وعثمان بن الصفار، واحمد بن منصور، وعثمان بن احمد بن بجباج، وأبو عبيدة الأعرج.

---

1 - مقدمة كتاب الوضع ص 11 ط القاهرة 1382 هـ. 1962 م

ومن علماء الدولة الرستمية في جناحها الغربي محكم الهواري، وابنه الشيخ هود بن محكم. وكانا في جبال أوراس التابع للدولة الرستمية، وأبو عبد الله محمد ابن عبد الله قاضي الإمام أبي اليقظان، وعبد الله بن اللمطي، ومحمود بن بكر، وزكرياء بن بكر الغسالي، وإبراهيم بن عبد الرحمن التنسي، وأبو سهل الفارسي.

ومنهم أبو يعقوب يوسف بن سيلوس السدراتي. وصى ابنه فأحسن في الوصية، وأجمل في التعبير قال له: "لا يكن ندبك الناس إلى الخير أوكد من ندبك لنفسك، ولا يكن غيك اسبق إلى الخير منك. وكن للناس كالميزان، وكالسيل للأدران، وكالسماء للماء!" وأي إنسان لا ينتفع بهذه الوصية التي تحثنا على الصدق في الحكم على الناس فنكون لهم الميزان الصحيح، ونكون لهم بالوعظ الذي ينقيهم ويطهرهم كالسيل للأدران، وفي الخير الذي يغمرهم كالسماء التي تنهمر بالماء.

ومن علماء الدولة الرستمية أبو صالح جنون بن يمريان، وأبو مرداس مهاصر السدراتي، وأبو زكرياء التوكيتي، وعبد الحميد الجناوني، ومعبد الجناوني، وعبد الخالق الفزاني، وإدريس الفزاني، وسعد بن أبي يونس، ونفاث بن نصر، وأبو الشعثاء السنتوتي، وماطوس بن ماطوس، وأبو الربيع سليمان بن زرقون[1] وغيرهم كثير يعدون بالمئات تجد تراجمهم في كتب الطبقات التي ذكرنا، وفي سير الشماخي. هذا وما نجهل من أسماء الذين كانوا في تيهرت وفي المغرب الأوسط، وجنوب افريقية أضعاف ما نعلم. عن العبيديين قد قضوا على كتب الدولة الرستمية في المغرب الأوسط وفي جنوب افريقية، فلم يصلنا منها إلا النزر اليسير الذي حفظ في الجبال والصحراء. فلو بقيت مكتبة المعصومة، ومكاتب المدن الرستمية لعلمنا أسماء مئات من العلماء كانوا نجوم المغرب وأقماره، وشموسه وحياته.

ومما يدلك على كثرة العلماء في الدولة الرستمية أن إبراهيم بن احمد الاغلبي لما غزا في حرب مانوا مدينة قنطرارة في جبل نفوسة اسر منها ثمانين عالما. واستشهد أربعمائة عالم من جنوب افريقية، ومن جبل نفوسة التي كانت تابعة للدولة الرستمية في معركة (مانوا) التي وقعت لهذه الجهات مع إبراهيم بن احمد الاغلبي في آخر أيام الدولة الرستمية.[2]

---

1 - انظر تراجم هؤلاء العلماء في كتاب السير للشماخي وطبقات الدرجيني.

2 - انظر نصوص معركة مانوا وقصة العلماء في الأزهار الرياضية ص 282 وفي السير للشماخي ص 268 طبع البارونية بالقاهرة.

أدباء الدولة الرستمية

وكان في الدولة الرستمية أدباء بلغاء، وشعراء نبغاء، منهم بكر بن حماد التاهرتي، والإمام افلح بن عبد الوهاب، واحمد بن الفتح بن خزاز، وسعد بن أشكل التاهرتي، والأديب بن هرمة وغيرهم كثير تجدهم مبثوثين في كتاب (نفح الطيب) والكتب المغربية الأخرى التي حفظت لنا شيئا من أدب الدولة الرستمية، وعرفتنا ببعض أدبائهم. ومن لا نعرف من أدباء الدولة الرستمية وشعرائها أكثر ممن نعرف لقضاء العبيديين على تراثها الأدبي، ومطاردتها بعلماء الدولة الرستمية وأدبائها. فاضطر كثير منهم إلى تغير أسماء الأشخاص والبلدان الرستمية في قصائدهم واستبدالها بغيرها من العبيديين، كما اضطر الكثير منهم إلى مجارات العاصفة العبيدية فتظاهروا بالتنكر للدولة الرستمية، والانتساب إلى العبيديين، أو إلى الهجرة إلى الأندلس فنسبوا إلى الدولة الأموية في الأندلس، أو إلى الدولة العبيدية والصنهاجية وهم أبناء الدولة الرستمية، ونبغوا في حجرها، وأشرقوا في سمائها.

كانت الدولة الرستمية دولة العلم. فعلماؤها أكثر من أدبائها، والأدب كان فيها ضعيفا. ولم تكن في درجة الدول العربية الشرقية التي عاصرتها في الأدب، للأسباب التي سنذكرها في باب (أسباب تخلف الدولة الرستمية في الأدب).

هذه أسماء بعض العلماء في الدولة الرستمية، فكيف كانت هذه الدولة في إعانة العلماء وتنشيطهم وحثهم على التأليف وخدمة العلم، وعلى التربية والتعليم، وعلى الاستزادة من العلم ومواصلة المراحل فيه، وعلى كل ما يجعل العالم نهرا عجاجا متزايدا تملوه روافده، وغمامة تنهمر في الأراضي الخصبة لا يضيع عناؤها.

اعتناء الدولة الرستمية بالعلماء وحثهم على التأليف والتربية والتعليم

وكانت الدولة الرستمية تعتني بالعلماء وتستكثر منهم، وتحثهم على التأليف وتعينهم عليه، وتسهل لهم كل أسبابه، وتعينهم على السفر إلى الأقطار البعيدة للبحث والاطلاع، وتمدهم بالمال الذي يشترون به الكتب. وقد أنشأت لهم في (تيهرت) عاصمة الدولة مكتبة المعصومة العامة. وكانت تجلب الكتب النفيسة إليها، وتضم إليها كل مفيد من كتب أبنائها في المغرب، والكتب النفيسة من نتاج أهل المشرق فبلغت كتبها ثلاثمائة ألف مجلد في كل العلوم والفنون.

وكانت تسبغ على العلماء كل رعاية وإكرام، وكل إجلال وإعظام، وتراهم أعلى طبقة

في الأمة، وامجد زمرة في الدولة، فتحنى لهم الهام، وتسمع لنقدهم ونصحهم وتوجيههم في كل اهتمام.

وكان العلماء يتمتعون بحرية تامة في الكلام، ويجدون في دائرة الدين الذي هو دستور الدولة كل ما يسع عبقرياتهم من حرية التعبير، ومن الميادين الواسعة للكلام لا يكتبون ولا يمنعون من نقدها وتوجيهها، ولا تجعلهم الدولة أبواقها كما تفعل الدولة منهم أن يرغوا، لأنهم بالأكمة التي تقيد الألسنة، والالجمة التي تكبح الحمحمة، والقيود التي تمنع عن الانطلاق.

اعتزاز الدولة الرستمية بكتبها ونتائج علمائها

وكانت الدولة الرستمية ترى كتبها النفسية من علمائها هي بذور العقول الناضجة التي تورثها السباب، وأصول المواهب القوية الناشئة التي ترقى بها في كل باب، وأم العبقريات التي تطير لتتبوأ أعلى الذرى، وتفوز بالحسنيين، وتنال السعادتين.

وكانت تعتقد أن الدولة التي لا تزخر بالنتاج العلمي والأدبي، وتكثر كتبها ومؤلفات أدبائها وعلمائها، وشجرة عقيمة يابسة، وحطب مجرود لا ثمار فيه تورثه قيمته. إن ما يتفتح ليس القلوب التي ترغب فيها، ولكن المواقد التي تشرئب إليها، وان ما يتعالى حولها ليس غناء الطيور المسحورة بجمالها، وهفيف النسيم الذي يراقصها، وأغاريد الصبايا التي تقطف ثمارها، ولكن دوي الفؤوس التي تنشي في جذوعها، وتتهاوى على عروقها.

وكانت الدولة الرستمية ترى كتب علمائها وأدبائها هي رأس مالها، وعلامة غناها، وهي غذاؤها الضروري، ومصابيحها في الدياجي، وهي علامة نضوجها واشتمالها على حلاوتها، وحلاوة الثقافة العامة المنتشرة بالكتاب في كل طبقاتها. أي وربك! إن الدولة بلا كتب نفيسة من تأليف أبنائها تتيه بها، وتغذيها، وتدل على شبابها، كصدر العجوز الذي امحى نهداه؟، غاضت نضارته، فاغضوضن، وصار فيها علامة القبور التي تتفتح لها في غدها.

أما الدولة التي تزخر بكتب أدبائها وعلمائها فإنها في أعين العالم بالكتاب أحلى من الصدر الناهد في الكعاب، يدل على شبابها، وعلى خصبها، وعلى المستقبل الجميل الذي سيعانقها ويسرع إليها إسراع النحل إلى الزهور!

وكان الأئمة الرستميون وكل الدولة تعتقد أن كتبها من نتاج أبنائها، هي مظهرها

الجميل في العالم، واكبر شيء بشرفها في الخارج، فتهابها الأمم وتحترمها؛ وان الأمة إذا كانت شمسا ساطعة لعلمها ونبوغها سطعت أنوارها بعيدا عنها في كتبها المنبثة في العالم!

هذه هي عقيدة الدولة الرستمية في نتاج علمائها وأدبائها، لذلك ازدهر التأليف فيها، وتسابق العلماء في وضع الكتب في كل الفنون. فكثرت الكتب فيها. فبلغت محتويات مكتبتها العامة في تيهرت ثلاثمائة ألف مجلد. هذا غير الكتب التي الفت في أطراف الدولة كغدامس وفزان وزويلة فلم تصلها، والكتب الجديدة التي لا زالت خاصة بمؤلفيها يبثوها فتصل المعصومة.

وكان اغلب ما في مكتبة المعصومة في تيهرت من نتاج الدولة الرستمية لذلك حرقها العبيديين.

اعتناء الدولة الرستمية بالتلاميذ وحثهم على التخصص والنبوغ

وكانت الدولة الرستمية لا تعتني بالعلماء فحسب، بل تعتني بالتلاميذ الذين سيخلفونهم، ويكثرون سوادهم فيها. وكانت تتخذ أقساما داخلية تابعة للمساجد التي كانت جامعاتنا للتخصص في العلوم، فيسكنها الطلبة الذي يقصدون العاصمة والمدن الكبرى من قراهم للتخصص في العلوم، فيجرى عليهم في مساكنهم النظيفة الفسيحة الجميلة النفقة اللازمة، وتجهز تلك البيوت بالفرش الوثيرة، وبالأثاث ألزم وتقيم لهم الطباخين، ومن يخدمهم ويوفر النظافة والجمال والهدوء في بيوتهم. إكراما لهم، وحثا على إعطاء النفس للعلوم.

وكان الأغنياء يشاركون الدولة في البر بالتلاميذ، وحث كل نبغاء الدولة وذوي المواهب على التخصص للعلم، بما يبنون من ديار أنيقة واسعة، ويوقفون لها من العقارات ما يكفي دخله التلاميذ في طعامهم ولباسهم وكل نفقاتهم الأخرى. وكانت كل طبقات الدولة تتنافس في هذا السبيل، فتبر التلاميذ، وتبعثهم بما يرون من احترامها وإعزازها على الجد في العلم، وبلوغ الغاية القصوى فيه.

إن الدين الذي تتمسك به الدولة كل التمسك، فهو شعورها وروحها، يجعلها تتصف بهذا البر للتلاميذ، وبهذا البذل في سبيل نبوغهم وكمالهم. إن العلم هو أساس الدين، وطلبه اكبر قربة، وإعانة طلابه اكبر عبادة، وأفضل جهاد؛ لذلك تنفست فيه كل الطبقات، وتسارعت إليه كل الفئات في الدولة الرستمية المتمسكة بالدين.

وكان علماء الدولة يبثون الرغبة في العلم في نفوس الرعية، ويبنون لها منزلة

التعليم الرفيعة ودرجة الإعانة عليه بين العبادات وأنواع الجهاد. قال الشماخي: روى أبو محمد عن أبي عمران موسى بن زكرياء احد العلماء السبعة الذين ألفوا ديوان الأشياخ قال: "إن تعلم حرف من العربية كتعلم ثمانين مسألة من الفروع، وتعلم مسألة من الفروع كعبادة ستين سنة، ومن حمل كتابا إلى بلد لم يكن فيه فكأنما تصدق بألف حمل دقيقا على أهل البلد!".[1]

إن غذاء العقول أولى وأكثر نفعا، وأندر وجودا من غذاء الأجسام. فلا عجب أن يكون أكثر أجرا، ومن يبذله أعظم منزلة عند الله. هذه هي عقيدة الدولة الرستمية في العلم، لذلك بالغت في نشره، وتنافست كل طبقاتها في البر بأهله.

وكان المغرب كله في تلك العهود على هذه التضحية وعلى هذا الاعتناء بالتلاميذ. ولا زالت في مدينة تونس، ومدينة القيروان، والمدن المغربية الأخرى الديار الواسعة الأنيقة أوقفها الأغنياء للتلاميذ الذين يهاجرون لطلب العلم من بعيد. ويسمونها مدارس، لان طلبة الجامعات إنما يدرسون في بيوتهم أكثر مما يتلقون في جامعاتهم. ولا زال في ورجلان آثار لتلك البيوت التي يسكنها الطلبة، وهي من سيرة الدولة الرستمية، ومن سنتها الحميدة.

وقد استمرت المدن الرستمية ونواحيها على هذا الغرام بالعلم، والتقرب إلى الله بنشره، والبر بتلاميذه إلى بعد انقراضها بزمن طويل. إن ما استمرت عليه نواحيها من أنواع البر والرقي من إنشائها ينسب إليها، وإذا ذكرناه فلا نعد خارجين عن نطاق تاريخها، ولا ناسبين إليها ما ليس من فعلها. إنها شمس غربت فبقيت أنوارها في القمر والنجوم، فلولاها ما كانت إلا أجراما مظلمة، وأجساما مدلهمة.

تضحية العلماء وبذلهم وإيثارهم لتلاميذهم

وكان العلماء لإدراكهم لشرف العلم أكثر من سواهم، ولحرصهم على التقرب إلى الله بنشر العلم أكثر من غيرهم، ينفقون على الطلبة، وعلى تلاميذهم من أموالهم، ويشركونهم معهم في طعامهم ولباسهم وكل أموالهم، بل يؤثرونهم على أنفسهم، ويأتون بالعجب في باب التضحية والإيثار معهم. انظر إلى قصة هذا العالم أبي عبيدة وشق الذي كان في قسطيلية، وكانت تابعة للدولة الرستمية، فطبعتها بطابعها، ورسخت على سنتها، واستمرت في طريقها حتى بعد انقراضها بزمن طويل.

قال الشماخي: "وكان بالبادية في جنوب افريقية (الذي كان تابعا للدولة الرستمية

1 - السير للشماخي ص 402.

اثنان وثلاثون عالما من شيوخ أهل الدعوة (الجمهوريين) تكلفوا بنفقات الحلقة[1] وبحوائج الطلبة. وفيهم الشيخ أبو عبيدة (وشق). فمن مات منهم قام الباقون مقامه حتى لم يبق إلا الشيخ أبو عبيدة فقام بنفقة الطلبة وحاجاتهم من الكسوة والطعام والتعليم، فدارت سنة قحط وشدة وجدب فافترق الناس يطلبون الخصب. فأراد التلاميذ ذلك (أن يتفرقوا ويغادروا مدرسة الشيخ أبي عبيدة وشق والدار التي فتحها لطلبة العلم، وإشفاقا عليه لقلة دخله بجدب السنة، ونضوب الموارد). فقال الشماخي: فمنعهم الشيخ أبو عبيدة فقال: لسنا إذن بإخوة ! إن الإخوان إنما يعرفون عند الشدائد ! فانفق عليهم حتى نفذ ماله، وما في مطاميره[2] (من قمح وشعير وزيت وتمر ومواد غذائية أخرى، فعزم الطلبة على الرحيل إشفاقا عليه) فاتوه ليودعوه فأبى أن يرحلوا. فانفق ما عنده من الدراهم والدنانير، ثم الحلي، ثم باع الحيوان فامتار لهم. وكان الطلبة في كل ذلك يطلبون الرحيل إلى الأماكن الخصبة إشفاقا عليه فيأتونه ليودعوه فيأبى عليهم الرحيل. فاستمر في بيع الحيوان والإنفاق منه على الطلبة حتى لم يبق عنده إلا ثور تركب عليه أمه، وثور تركب عليه زوجته. فقالوا له: ننصرف لئلا نموت جوعا وهزالا ونطلب فضل الله، ويأجرك الله أجرا متصلا بحسن نيتك وغن لم نبق عندك. فقال لهم: بيتوا هذه الليلة، فذبح لهم ثور الزوجة. فباتوا إلى وقت قيامهم من الليل".

وكان الطلبة في تلك العهود ينهضون في السحر للدرس، وتلاوة القرآن، والعبادة، لا ينامون إلى الصباح كما يفعل الكسالى. وكان أساتذتهم ومربوهم ووالدهم يكلفونهم بذلك تقوية لإرادتهم، واغتناما للنشاط وصفاء الذهن في السحر. وكان الطلبة يتعودون ذلك فيكلفون به. لا ادري لم يعرف أدباؤنا وطلبتنا فضل السحر ومزاياه للعقل فيغتنمونه في الدرس والإنتاج الأدبي.

إن الأسحار التي تصنع للدنيا فجرها، وتفتح الزهور في الأغصان، هي وحدها تطلع في الفكر معانيه المنيرة، وتزجى إليك عرائس الشعر متفتحة عابقة كزهر الصباح !

قال الشماخي: فقام الطلبة (في آخر الليل) فلم يقم الشيخ. قالوا: دعوه ينام قليلا. فلما طلع الفجر أرادوا أن يوقظوه فإذا هو ميت بارد. رحمه الله عليه ! فجهزوه ودفنوه، وأرادوا الرحيل فقالت أمه: ابقوا عندنا الليلة (ودعوا دار الشيخ ومدرستكم وخففوا عنا أحزان المأتم ووحشته) فنحرت لهم ثورها"[3] فلم يبق في دار الشيخ أبي عبيدة شيء يمكن

1 - الحلقة اسم لجماعة التلاميذ تجتمع على شيخ يعلمهم كما ورد في طبقات الدرجيني.

2 - المطامير جمع مطمورة، والمطمورة حفير في ارض عميق واسع يصقل صقلا جيدا ويجعل له بابا محكما فيه التمر والزيت والموارد الغذائية الأخرى كالتين /وغيره فتبقى سنين طويلة فلا تفسد.

3 - السير للشماخي ص 381 ط البارونية بالقاهرة.

أن يضحى به، وإلا لألحت أمه وأسرته أن يبقوا في مدرستهم يعمرونها لا يفارقونهم.

ذلك هو حماس الجمهوريين أبناء الدولة الرستمية وأحفادها للعلم، وتضحيتهم في نشره. انظر إلى زوجة الشيخ كيف ضحت بثورها وهو مكيتها وما تحمل عليه أثقالها. ستمشي راجلة وتحمل على ظهرها. وانظر إلى أمه كيف تمسكت بالطلبة ونحرت لهم ثورها الذي تركبه وهو رجلاها في الشيخوخة، وبعد موت ابنها الذي كان هو عائل الأسرة. لم تشح ولم تخفف من المشي وحمل أثقالها على الشيخوخة التي تجعل اعز شيء لدى الشيخ المطية التي يركبها !

انظر إلى قصة أخرى وقعت في جبل نفوسة التي حافظت على ما عودتها الدولة الرستمية فاستمرت عليه إلى القرن العاشر الهجري. قال الشماخي: (ومن العلماء العاملين المجاهدين) الشيخ أبو يحيى زكرياء بن إبراهيم الباروني. وكان كريما بالغ الكرم. مؤثرا على نفسه. ومن كرمه وإيثاره وجهاده في نشر العلم "أن تلاميذه أرادوا أن يتفرقوا لجدب وبلاء وشدة، وقالوا: اضررنا بشيخنا. وكانوا على ما قيل ثمانين طالبا. وكان ينفق عليهم. فلما بلغه ما اجمعوا عليه جمعهم على طعام بغير إدام.[1] فقال لبعضهم: ايتهم بالإدام من موضع في البيت سماه له. فأتى الموضع فوجده مالا (قمحا وشعيرا وميرة كثيرة ونقودا وفيرة) ثم أتاهم بإدام من غير ذلك الموضع. فقال اخبرهم بما رأيت. ثم قال لهم: لم اجمعه إلا لأنفقه عليكم في المسغبة. ولا آذن لأحد أن ينصرف إلا لحاجة. فأقاموا فأخذ ينفق عليهم حتى زال القحط!".[2]

أسباب غرام الدولة الرستمية بالعلم وبلوغها فيه ارفع الدرجات

هذه هي رغبة الدولة الرستمية في العلم، وهذا هو غرامها به، وجهادها فيه، فعم كل طبقاتها، وأخذت بنصيبها منه كل رعيتها. فما هي الأسباب التي دعتها إلى ذلك الجهاد الكبير المتصل، والى ذلك السعي الحثيث المستمر في نشر العلم والاستكثار من العلماء.

إن الأمم التي ترى العلم زينة تباهى بها، وحلية تنتفش ببريقها، وتقتصر منه على القليل، وتكتفي منه بما يجملها في العيون. ثم تستغرق فيما تدعوها إليه غرائزها الأخرى العارمة غير غزيرة حب العلم الخافقة في صدرها. والأمة التي ترى العلم سبب شبابها، وأساس نهضتها، ترغب فيه في أولها، حتى إذا نشأت ونهضت فترت همتها

1 - يقصد بالإدام هنا السمن أو الزيت وهو إدام أهل المغرب.

2 - كتاب السير للشماخي ص 547 ط القاهرة

فيه، وضعفت جهودها في نشره، وخبا غرامها به في صدور أبنائها، فينصرفون إلى الملاذ والرفاهية، ويستغرقون في الشهوات وملاذ المدينة؛ ولكننا نرى الدولة الرستمية كلما تقدمت في الحضارة، وترقت في المدينة، واستغرقت في الغنى، وبلغت الذروة في اليسار ازداد هيامها بالعلم والمعرف، وتضاعفت جهودها في نشره، وتعميمه في كل طبقاتها. أترى لها أسبابا روحية، وعوامل نفسية قوية تدفعها إلى العلم مع ما يدفع الأمم الأخرى التي لم تبلغ شأوها فيه، ولم تسبغ على المغرب ما أسبغت الدولة الرستمية من العلم عليه؟ إن لها في الغرام بالعلم أسبابا ثلاثة كلها تضاعف جهودها في نشره، وتؤرث حبه بين ضلوعها.

السبب الأول هو أن طلب فريضة على كل مسلم ومسلمة. فهو واجب في الدين، وفرض في الشريعة الإسلامية، لان العلم هو أساس الدين، وأهله المتين فعلى الدولة أن تنشره في رعيتها، وتفتح مشارعه لكل طبقاتها، وتقيم منابعه في كل جهاتها، وإلا كانت مقصرة في دينها، مخلة بواجب من اكبر الواجبات الدينية عليها.

كانت الدولة الرستمية تنظر إلى العلم دينية، وتعتقد أن القوة الذين لا علماء لهم يشرحون لهم حقائق الدين، وينيرون صدورهم بنور الله المبين، ويوقفونهم على أسرار الشريعة الإسلامية، ويثقفون عقولهم بفلسفة الدين ومعرفة مغازيه؛ قوم ناقصون في الدين، يحاسبهم الله على التقصير فيه. وإذا كان السبب في جهلهم من الدولة فان الله يحاسب إمامها وولاتها وكل الخاصة فيها الحساب العسير، ويأخذهم اخذ عزير مقتدر.

كانت هذه النظرة الدينية إلى العلم،وذلك الشعور الديني الراسخ فيها، هو الذي يدفعها إلى نشر العلم، والقيام بواجبها كاملا في تثقيف الرعية.

وكانت الدولة الرستمية تعتقد أن الذين يقصرون فلا يخصصون طائفة منهم للعلم فينبغون، ويكونون علماء وعالمات، ويهدون قومهم، ويبثون الدين الصحيح في مجتمعهم، خائنون لأنفسهم ولدينهم، وان الله يحاسبهم حساب من ترك اكبر شعيرة من شعائر الدين.

وكان علماء الدولة الرستمية يلزمون طلبة العلم أن يثبتوا في طريقه إلى أن يرتووا ويكونوا علماء نابغين، ويشعرونهم بان هذا واجب في الدين، ويشدون النكير على كل ذى استعداد للعلم يقصر عن بلوغ ارفع الدرجات فيه، أو يميل إلى المادة فيقطع جهوده في

طلبة. انظر إلى هذه القصة التي رواها الشماخي فهي على شعور العلماء بواجبهم، ومعرفتهم بما يجب لهم لدينهم.

قال الشماخي: حكى بعض طلبة العلم من جربة أنهم قالوا: "أردنا الطلوع إلى جبل دمر (في جنوب قابس) لدراسة الكتب من (تموسلت) (مدينة في جبل دمر أو مكتبة) فلم يوافق ذلك بعض خاصتهم. فشيعنا أبو يحيى احد علمائهم ونحن خارجون من جربة إلى جبل دمر. فحثنا على العلم، وقوى عزائمنا على الذهاب إلى تموسلت وأشعرنا بواجبنا فقال: "إن رجعهم إلى أهاليكم جاهلين (ولم تدرسوا ما عزمتهم عليه الكتب فتكونوا علماء) كنتم كمن ترك الإسلام عمدا! قال الشماخي وهذا تحريض وترغيب في طلب العلم".[1]

والسبب الثاني في غرام الدولة الرستمية بالعلم وبلوغها ارفع الدرجات فيه، هو أن العلم قوة للدولة، وسبب نجاح لها، فبدونه لا تنجح في عمل، ولا تفوز في ميدان، ولا تتقدم إلى غاية، ولا تبقى حية في الوجود.وكانت الدولة الرستمية دولة طماحة إلى المعالي، وكانت علمية. فهي امة النشاط والكدح والجد والمثابرة. إنها عمالة. والعمل الناجح أساسه العلم! هو أساس الأعمال الناجحة في كل الميادين! فالتجارة لا تنجح إلا بالعلم، والفلاحة لا تزدهر إلا به، والسياسة لا تكون رشيدة إلا إذا عليه. وكل أنحاء الدولة لا تنتظم ولا تكون على القوة والسداد إلا بالعلم! فالعلم هو روحها، وقوتها، وأجنحتها الكبرى!

هذه هي عقيدة الدولة الرستمية في العلم. فامتلأت حبا له، وبذلت في نشره ما لم تبذله دولة إسلامية من معاصراتها، وبلغت فيه كل طبقاتها وطوائفها ما لم تحظ به رعايا الدول الملوكية المستبدة الشامخة التي كانت لا تنظر إلا إلى الأعالي، ولا تعتني كل الاعتناء إلا بخاصتها، وأمرائها، ومن يسير في ركابها. أما أهل باديتها، والطبقات الضعيفة فيها فبودها أن تبقى لها أقدامها دائمة تخوض بها في الأوحال، لا رءوسا تزاحمها في الزعامة، وتقاسمها الجلال.

والسبب الثالث هو المنافسة الكبيرة التي كانت بين الدولة الرستمية الجمهورية، وبين الدولة العباسية الملكية المستبدة في بغداد، وربيبتها الدولة الأغلبية في القيروان.

كانت الدولة العباسية تمثل شباب الدولة الإسلامية ونضوجها. وكانت في العلم

1 - السير للشماخي ص 413 كلام الشماخي وروايته أعجمية غامضة فزدنا في كلامه ما يقتضيه معناه للوضوح والبيان.

والأدب والفلسفة وفي كل الفنون في أرقى الدرجات. وكانت تعمل جاهدة لاخمال الدولة الرستمية وصرف العيون عنها. إنها لا تستطيع أن تدانيها في العدل والدين وبياض الصفحة واستقامة السيرة. إن الدولة الرستمية دستورها الدين تتقيد به في الدقيق والجليل من أمورها. وهو القانون المقدس الذي يضبطها ويرسم لها طريقها في كل أشيائها. أما الدولة العباسية فتسيرها الأهواء في كثير من الشئون. ولا يتقيد ملوكها بالدين في كل الأمور. فهي لا تستطيع أن تكسف الدولة الرستمية بالعدل ولا بالدين ولا تستطيع أن تدانيها فيهما. فعمدت إلى العلم والى الحضارة الإسلامية الراقية تلوح بهما للعيون. وتحاول أن تكسف بهما الدول المغربية المستقلة: الرستمية. والإدريسية. ودولة بني واسول. فهبت الدولة الرستمية إلى الحضارة. وهبت إلى العلم تغترف من منابعه. وتبارى فيه الدولة العباسية. فأرسلت البعثات إلى المشرق لجلب الكتب إليها. وترجمت من الفارسية والرومية ما اختارته من نفائس كتبهم. لقد كانت اللغة الرومية منتشرة في المغرب. وكانت العائلة الرستمية تعرف اللغة الفارسية وتحافظ عليها. إنها لغة أجدادهم. ولغة العلم والحضارة القديمة الراقية. وقد انتفعت الدولة الرستمية بهم في ترجمة ما احتاجت إليه من كتب الفرس التي لم يقم بتعريبها أهل المشرق. ولو بقيت لنا مكتبة المعصومة وتراث الدولة الرستمية في المغرب الأوسط لوجدنا كتبا كثيرة مما ترجم الرستميون من الفارسية والرومية إلى العربية.

لقد كان للائمة الرستميين مترجمون ينقلون الكتب إلى العربية من الفارسية والرومية. كما يترجمون من العربية إلى البربرية لتأخذ النواحي التي لا تحسن العربية كالبربر المنقطعين في رءوس الجبال حظهم من العلم. وكان من الذين تولوا الترجمة في ديوان الدولة الرستمية أبو سهل الفارسي. لقد كان ترجمانا للإمام افلح. والإمام أبي حاتم كما ذكر الشماخي في كتابه.

وكانت الدولة الرستمية الجمهورية تنافس في العلم والحضارة دولة أخرى ملكية كانت قريبة منها في الأندلس هي الدولة الأموية. وقد بلغت الدولة الرستمية الجمهورية في العلم أعلى الذرى بهذه الأسباب التي ذكرنا. وجعلت المغرب لا يقل عن المشرق في العلم وكثرة العلماء. وبز المغرب بالدولة الرستمية. والإدريسية. ودولة بني واسول المشرق في التمسك بالدين. وفي الاشتراكية الإسلامية الكاملة. وفي الاستقامة وبياض الصفحة. وفي العمل لله لا لغيره!

اعتناء الدولة الرستمية بتعليم الكبار ومواصلة تثقيفهم

وكانت الدولة الرستمية مع اعتنائها بنشر العلم والثقافة الإسلامية في الصغار والشباب بالمدارس الابتدائية والثانوية والجامعات. تعتني كل الاعتناء بتعليم الكبار. وكانت المساجد في كل أنحاء الدولة الرستمية عامرة بدروس الوعظ والإرشاد. وبكل ما يثقف العقول. ويهذب النفوس. ويثبت الدين. وكانت المدينة أو القرية التي تسرع إلى صلاة الجماعة في المسجد تحرص على حضور دروس الوعظ والعلم بين أوقات الصلوات فيه. وكانت هذه الدروس في مواضيع كثيرة: في التفسير. والحديث. والفقه. وتاريخ الرسول والخلفاء الراشدين. وفي الأخلاق. وفي كل المواضيع المهمة التي تشغل بال الرعية. وتنفعها في أعمالها. ويستقيم بها اتجاهها في كل نواحي الحياة.

وكان المسجد بهذه الدروس العامة هو البيئة التي تثبت وتصقل معلومات كل فرد من مدرسته الابتدائية فلا يأتي عليها النسيان. وتجعل كل امرئ يعيش في جو علمي حي يثقف عقله. ويصفي نفسه. ويجعله يساير الزمن في الثقافة والرقي.

وكانت هذه الدروس للكبار توجيهية. تشرح للكبار كل الأمراض الاجتماعية. وتبين لهم أسباب الفشل في كل النواحي. وعوامل النجاح والفوز في كل الجهات. وترى قلوب أهل المدينة بهذه الدروس الحية المتوالية. مشرقة بالدين. حية. لا تزن عليها الشهوات. ولا تطمسها الأهواء. ولا تتسلط عليهم أمراض النفس المزمنة كالحسد. والحقد. والأنانية. والعصبية. وكل الأمراض التي يكفهر بها جو المجتمع. وتخلق العداوة بين الناس. وتورث لصاحبها الفشل والتعاسة في كل نواحيه.

عناية المرأة في الدولة الرستمية بالعلم وغرامها بتثقيف نفسها

وكانت النساء يحضرون هذه الدروس في المساجد. وكن يتقاطرن في وقت الصلاة إلى اقرب مسجد منهن فيصلين مع الجماعة. ويحضرن هذه الدروس بين الصلوات. وينقلنه في وجدانهن وعقولهن إلى منازلهن. فيعرفه يشعر بروحه كل من لم يستطع الذهاب إلى المسجد من ربات البيوت. ويغشي وجدانهن المتأجج بالدرس أطفالهن فيصطبغون به.

وكانت المرأة في الدولة الرستمية بالتربية الأولى في البيوت الصالحة الراقية. وفي مدارسهن الرشيدة. وبصلاح الآباء والأزواج. وبهذه الدروس التي تتدفق بها المساجد فتملؤها بأسباب الصلاح؛ كانت بهذا صالحة. ومثقفة العقل. عليها دينها وعقلها لا غرائزها وأهواؤها كنبات المدارس الاستعمارية.

صلاح المرأة في الدولة الرستمية بالدين والعلم وإسعادها للزوج والدولة

وكانت المرأة في الدولة الرستمية مثال الصلاح والثقافة والإسعاد لزوجها. يحظى في ظلهن الزوج بكل سعادة وهناء، وتفيض الديار بهن بكل انس وحب، ونعيم وحضارة، ويفتحن بيمنهن واستقامتهن وإخلاصهن وحبهن للزوج والأسرة أبواب البركات، والخيرات، والنجاح في كطل الميادين؛ ويجعلهن الحياة تبسم للزوج كثغورهن الباسمة بالصفاء والمحبة، والأيام تشرق له إشراق وجوههن بالدين.

وكانت المرأة في الدولة الرستمية للأبناء خير أم! أنجبت للدولة بدينها وتربيتها الصحيحة الأجيال القوية التي استطاع بها المغرب أن يرفع رأسه، ويحقق كل آماله في العزة والحرية والسعادة، وستنزل رحمة الله ونعمائه بصلاح المجتمع وطهره وزكائه، بفضل تلك الأم الطاهرة الصالحة المثقفة!

وكان في كل مسجد من مساجد الدولة الرستمية قسم خاص للنساء يفصله عن قسم الرجال جدار مخرم يستر النساء، ولا يحجب عنهن صوت المدرس، وتلاوة الإمام، ولا زالت هذه السيرة الإسلامية الحميدة في مساجد والدي ميزاب بجنوب الجزائر إلى اليوم. فترى في كل مسجد قسما خاصا للنساء يمتلئ بهن فيس وقت الصلاة، وفي وقت الدروس الحية، في التفسير، والحديث، وفي سيرة الرسول ﷺ، والخلفاء الراشدين وصلحاء المغرب، وفي الأخلاق، وفي الأمراض الاجتماعية كلها. وترى النساء يتشربن تلك الدروس في حرارة وحماس وانتباه كما تتشرب الزلابية الساخنة العسل من الإناء الذي تغمس فيه، فتراهن والحمد لله حلاوة لأزواجهن، يسعدنهم، وصلاحا وطهرا للمجتمع، وترى الأزواج بصلاحهن، وثقافة عقولهن في نعيم وهناء، وفي طمأنينة وسعادة. لا يحسون بالمرارة والسواد تملأ به قلوب أزواجهن[1] المتفرنجات التعيسات اللائي جردتهن المدارس الاستعمارية ن دينهن وأخلاق الدين، وجعلتهن في تلك المدارس اسفنجة عطشى تغمس في المحبرة!

ليت مغربنا الكبير وهو يتمنى الحياة الهنيئة السعيدة، ويريد أن يكون اكبر دولة إسلامية ترجح بها كفة المسلمين في كل الميادين، يوقن بان ذلك يكون بالمرأة الصالحة المثقفة التي يعمر الدين الإسلامي العظيم جوانب نفسها، ويورثها كل ثقافة وصلاح، ويرث المجتمع منها والدولة كل طهر وقوة، فيرضى عنا الله.

1 - الضمير منا سبق مرجعه كما سبق في المثال النحوي: أكلوني البراغيث...

كانت الدولة الرستمية توالى الدروس على الكبار لتغسلهم من أوساخ الحياة. وكانت النساء بتلك الدروس الدائمة على نصاعة ونقاء زهور الفل والياسمين التي يباكرها الطل في كل غداة فيزيدها نقاء، وتغاديها النجوم في كل سحر فتغسلها بالندى، وتجعلها خليفتها في رؤوس الشجر في البياض والصفاء، وفي النضارة والنقاء!

قال الشماخي يذكر قسم النساء في مسجد من مساجد جبل نفوسة الذي كان ضمن الدولة الرستمية، ويذكر ولع العلامة الشيخ أبي زكرياء يحيى بن الخير الجناوني بالبحث والاستقصاء والاطلاع. قال الشماخي: " ومما ذكر عن الشيخ أبي زكرياء انه أقام عند أبي الربيع مدة طويلة (يدرس العلم في المسجد الذي يلقى فيه دروسه العالية، وكان مدرسة للتخصص في العلوم) ومن عادة نفوسة أن يجعلوا سترا على الصف الأخير في جميع مساجدهم يدخله النساء لسماع العلم والصلاة. فلما أراد الانصراف من عند شيخه وودعه ليرحل قال: أمهلوني حتى ادخل خلف الستر لأراه لعلي اسأل عنه".[1]

عناية الأئمة الرستميين بالوعظ والإرشاد وإلقائهم الدروس المستمرة في المسجد الجامع للعامة

وكان الأئمة الرستميون لعلمهم ودينهم واختلاطهم بشعبهم يلقون بأنفسهم دروس الوعظ والإرشاد، وفنون العلم بين الصلوات في المسجد الجامع. فتسمع العامة فتمتلئ بدين إمامها ورئيس دولتها، وبروحه الزكية، وأفكاره الصالحة الناضجة.

قال الشيخ الباروني يذكر تولى الإمام عبد الوهاب ثاني رؤساء الدولة الرستمية بنفسه التدريس للخاصة، والوعظ والإرشاد للعامة في المسجد الجامع بمدينة ميري في جبل نفوسة لما أقام فيه سبع سنين بعيدا عن عاصمته، لاستقرار الدولة ورضاها وتعلقها به. قال: "مسجد (ميرى) ! طالما عمره الإمام عبد الوهاب بمجالس الذكر العظيم، وأضاء فيه الليالي الطوال بالعبادة وإلقاء الدروس على اختلاف فنونها. ويقال إن غالب دروسه في السنين السبع التي أقامها في جبل نفوسة بمدينة (ميرى) كانت في مسائل الصلاة ولم يتمها"[2] لعمري إن الصلاة عماد الدين. ففلسفتها ومغازيها، وتطهيرها للفرد والمجتمع، وأثارها العظيمة لا تحصى. فلا عجب إذا ركز فيها الإمام دروسه، واختارها من الشعائر الإسلامية فجعلها موضوع حديثه. إنها أول ما يتهاون به الناس بعد الزكاة.

1 - السير للشماخي ص 536.
2 - الأزهار الرياضية ص 142 ط البارونية بالقاهرة 1324هـ

إرسال الأئمة الرستميين الوصايا والخطب المكتوبة لتقرأ على الجهات البعيدة

وكان الأئمة الرستميون مع هذه الوسائل التثقيفية لتعليم الكبار وصقلهم، وإرسال الأئمة وغسل نفوسهم، ويوالون الإرشاد للعبيديين عنهم في أطراف الدولة، فيرسلون الخطب والوصايا المكتوبة إلى عمالهم فيقرؤونها على الرعية. وترى الدولة كلها تعيش مع إمامها، تسمع منه، وتقيس من عمله وصلاحه، وتتجه بذلك الاتجاه الصالح الذي تقوى وتسعد به الدولة، ويرضى عناه الله!

هذا هو غرام الدولة الرستمية بالعلم، وتمجدها للعلماء، وعنايتها بالتأليف ونشر الثقافة في كل الطبقات، وتلك هي المنزلة العليا التي كانت بها في العلم، والدرجات الرفيعة التي تبوأتها في المعرفة. فما هي اللغة التي اعتنت بها الدولة الرستمية أكثر، وجعلتها لغة التدريس والأدب، والخطابة والتأليف، ولغة دواوينها؟

إنها لغة الدين، ولغة القرآن، واللغة التي آثرها الله للنبي محمد عليه السلام، وجعلها لسان أهل الجنة، لأنها لجمالها وجلالها هي وحدها تنسجم بجمالها الفردوس، وتليق لدار الكرامة والخلود. إنها اللغة العربية الشريفة! فكيف كانت في الدولة الرستمية، وما مدى انتشارها، وما إقبال أهل المغرب عليها؟

تمجيد الدولة الرستمية للغة العربية الشريفة وجعلها لغة رسمية للدولة

لقد كانت اللغة العربية الشريفة هي اللغة الرسمية للدولة الرستمية. بها يخطب أئمتها ورؤساء الدولة، وولاتها وعمالها في صلاة الجمعة والأعياد، وبها يلقون دروسهم على التلاميذ، وبها يعظون العامة في وقت الوعظ والإرشاد، وبها يكتب الأئمة مناشيرهم التي يبعثونها في كل عام وفي كل المناسبات إلى كل أطراف المملكة لتقرأ على الرعية فتعيش مع إمامها، ويتصلون هم بأطراف المملكة بهذه الوسيلة، فينفخون فيها روحهم ويغسلون صدورها مما توقعه الأيام فيها من غبار يطمسها، وما قد ينفخه أعداء الدولة والكائدون لها في أطراف الدولة البعيدة عن مركز الإمامة من أفكار وعدوى نفسية تضرها.

اللغة العربية هي لغة التأليف والخطابة والأدب في الدولة الرستمية

وكانت اللغة العربية هي لغة التأليف. فجل ما كان بمكتبة المعصومة العامة بتيهرت

من كتب كان باللغة العربية. وما وصلنا من كتب تلك العهود ككتاب (نوازل نفوسة) للإمام عبد الوهاب. كان باللغة العربية المتينة الفصيحة، وما رأيناه من الكتب التي ألفت بعد الدولة الرستمية بزمن قليل كتفسير الشيخ هود بن محكم الهواري كان باللغة العربية. لقد كانت العربية هي اللغة العلمية، واللغة الأدبية، واللغة الرسمية في الدولة الرستمية. فبها ينظم الشعراء، ويكتب الكتاب، ويكسب أهل تيهرت فن عقولهم، ووجدانهم المشبوب في القصائد والأناشيد، وفي الزجل والأراجيز.

انتشار اللغة العربية في طبقات الشعب بفضل الدولة الرستمية

وكانت الدولة الرستمية تقدس اللغة العربية، وتنشرها، فانتشرت في كل طبقاتها. فصار أهل المدن كلهم يقرؤونها ويفهمونها، ويتذوقون بلاغتها. وكانوا لا يحترمون الخطيب والواعظ إلا إذا كان كلامه بالعربية الفصحى. وكان التلاميذ في كل المدارس يتنافسون في تعليمها، ويطمحون إلى إتقانها، فيعكفون على النحو الذي يضبط اللسان، وعلى الشعر والنثر الذي يعلم الأسلوب البليغ، ويمد بالثروة اللغوية الصحيحة. وكان أمل كل أب وكل أم أن يبرع ابنهما في اللغة العربية، ويكون من فصحائها. وإذا رجع الطفل من المدرسة فردد لامه ما حفظه من ألفاظ جديدة في العربية، وما تعلمه من أبيات الشعر، كان صوته الطفلي بالعربية ألذ في سمعها من كل أنواع الموسيقى. وترى الأم والأب يشعران بنشوة واعتداد وحبور كالذي يشعر به من يسمع صرر الدراهم تكدس في خزائنه، ويطرق سمعه سيل الدنانير تتراكم في صناديقه !

إن العربية هي أساس الدين، ومفتاح القرآن، ومن عرفها استطاع أن يفهم كتاب الله، ويعرف إعجازه، ويقف على أسرار الشريعة، ويملك المفتاح الذي يفتح به أقفال العلوم كلها. إن اللغة العربية هي لغة التأليف في تلك القرون. فكل الكتب في كل الفنون كانت باللغة العربية، حتى فلسفة اليونان، وحكمة الهند، والعلوم الرومية والفارسية قد ترجمت إلى العربية، فصار لا يستطيع دراستها والانتفاع بها إلا من يعرف العربية.

وكانت المدارس تولى اللغة العربية كل اهتمامها، وتغرس حبها وتقديسها في نفوس التلاميذ، وتعطيها من الوقت والعناية ما لا تعطيه لأي مادة أخرى من موادها.

وكان العلماء والوعاظ والمرشدون يحثون الناس على تعلم اللغة العربية. وكانوا يرونها أعظم الفنون، وأقدس العلوم، ويرون في تعلمها م الأجر والنفع ما ليس في علم من العلوم ! وقد بقي هذا التقديس وهذا الهيام بالعربية في مناطق الدولة الرستمية إلى ما بعد انقراضها بقرون. وكنت ترى جهاتها ومناطقها في المغرب ترى اللغة

العربية أساس الدين، ومفتاح العلوم، فتتمسك بها تمسكها بالدين، وتغرم بها غرامها بالعلوم !

قال الشماخي: روي عن أبي عمران موسى بن زكرياء النفوسي احد مؤلفي ديوان الأشياخ انه قال: "إن تعلم حرف من العربية كتعلم ثمانين مسألة من الفروع ! وتعلم مسألة من الفروع كعبادة ستين سنة! ومن حمل كتابا إلى بلد لام يكن فيه فكأنما تصدق بألف حمل دقيقا على أهل البلد"[1]! انظر إلى تمجيد الجمهوريين في المغرب للغة العربية، وحثهم على طلب العلم، وإكبارهم للكتب ومؤلفيها، وناشريها في البقاع. إن هذا نمت آثار الدولة الرستمية فيهم، وهذا التقديس للغة العربية، والحث على تعلمها، وتقديمها في الفضل والأهمية على كل العلوم من غراس الدولة الرستمية، ومن طابعها الذي رسخته في جهاتها. فبقي فيها قرونا طويلة بعدها سيما في جبل نفوسة بطرابلس، وفي ورجلان وسدراتة بجنوب الجزائر. تلك النواحي التي حفظها الله من طوفان العبيديين الذي غير وجه المغرب واتجاهه في كثير من نواحيه.

تقديس الشعب في الدولة الرستمية للغة العربية والغيرة عليها

وكان كل الشعب في الدولة الرستمية يقدس اللغة العربية ويعتز بها، ويغار عليها. وكنت لا ترى ورقة أو رقعة فيها حروف عربية توطأ في الشوارع، أو تلف فيها الأمتعة وتهان. بل يسارعون إليها فيلتقطونها في إشفاق واحترام، فيضعونها حيث لا تهان. ثم يحمونها بالماء، أو يحرقونها بالنار. لا توضع في القمامة ويرمى بها في المزابل كمنا يقع في هذا الزمان! ! وذلك لتقديس الدولة الرستمية للغة العربية، لأنها لغة الدين، ولغة كتاب الله المبين، ولسان الرسول المصطفى محمد عليه السلام! !

حرص الدولة الرستمية على حفظ القرآن لأنه أساس الدين والفلسفة والبلاغة العربية

وكان القرآن في المدارس الابتدائية هو ما تعتني به الدولة الرستمية أكثر. انه أساس الدين، ومنبع البلاغة والفصاحة. وكان أذكياء التلاميذ والمتوسطون منهم كلهم يحفظون القرآن، ويدرسون تفسيره. وكان العلماء كلهم يحفظون القرآن ويفهمون معناه. ومن لم يحفظ القرآن من العلماء، كان عند الدولة الرستمية ناقص العلم، هزيل الثقافة. إن كلامه الذي لا يطرزه بالقران، وأسلوبه الذي لا تبدو فيه بلاغة القرآن، وتفكيره

1 - السير للشماخي ص 402 ط البارونية بالقاهرة.

الذي لا ترى فيه فلسفة القرآن، طعام بارد هزيل، كمن يطبخ الحصا، ويلقي للناس مرق الجراد. لا يؤثر في النفوس، ولا يقبل الناس عليه بقلوبهم، ولا يولونه احترامهم.

وكانت اللغة العربية هي مفتاح القرآن الذي يقدسونه هذا التقديس، ويعتنون به هذا الاعتناء. فهو أساس ثقافتهم. وإذا كانت اللغة العربية التي تفتق أسراره، وتظهر معانيه وتنيل الانتفاع به أساسه. فهي أساس الثقافة الأول، والمادة المهمة التي يعتنون بها في المدارس، ويعطونها اكبر جزء من الوقت، وأعظم قسط من الجهد، ويجعلونها في المحل الأول من الاعتبار والعناية!

وقد انتشرت اللغة العربية في المدن فصار من فيها كلهم يفهمونها، وانتشرت في القرى فصار الكثير منهم يفقه معناها ويتكلم بها. فكانت الدولة الرستمية بهذا عربية اللسان، تكتب لها في الدواوين، وتعدها هي اللغة الرسمية الرئيسية في كل الميادين.

اللغة البربرية في البربرية، في الدولة الرستمية وفي المغرب ورقيها وتأثيرها باللغة العربية

ومع اللغة العربية في الدولة الرستمية اللغة البربرية. فهي التخاطب في المنازل والأسواق. وكان البربر وهم جل سكان المغرب يعتمدون بها، ويستعملونها فيما بينهم، ولكن لم يكن تقديسهم لها كتقديسهم للغة العربية، ولم تكن لغة العلم عندهم، يؤلفون بها الكتب، ويلقون بها الخطب الرسمية، ويكتبون بها في الدواوين. إنها لغة شعبية للتخاطب والتفاهم في المعاملات الشخصية، وفي المجالس العادلة. حتى إذا نصب منابر الخطابة، وفتحت مجالات العلم، وبسطت دفاتر المؤلفين كان الأمر للعربية، فتخفى البربرية .

وكان الكثير من الوعاظ والخطباء في القرى النائية في رءوس الجبال التي لم تنتشر فيها العربية انتشارها في المدن، فصار أهلها لا يفهمون الفصحى. كان الوعاظ في هذه البيئات يلقون دروسهم ومواعظهم بالبربرية، ويؤلفون لهذه النواحي كتابا بالبربرية في العقيدة الإسلامية، وفي الشريعة، في تاريخ الرسول، وفي ما يجب عليه أن يعرفوه لأنه دينهم، أو غذاء ضروري وثقافة لازمة لعقولهم.

ومن تلك الكتب التي الفت بالبربرية (عقيدة التوحيد) التي ترجمها لشيخ عمر بن جميع وهو كتاب جليل الشأن، عميق المعاني، كثير الأبواب، وهو من اجل ما ألف في علم

الكلام! انه دليل على قوة شخصية اللغة البربرية، وسعتها، ورقيها، واتساعها للعلم و المعاني الدقيقة.

اختفاء الحروف البربرية في الدولة الرستمية

وكان تأليف هذه الكتب البربرية بالحروف العربية. لقد اختفت الكتابة البربرية وحروفها من المغرب في هذه العهود فبقيت في أعماق الصحراء الكبرى في قبائل صنهاجة وغيرها، ولم يبق منها في المغرب الأوسط إلا حروف يستعملونها في النقش والطرز والنسيج حلية وجمالا لا وسيلة للتعبير، وأداة في الدلالة.

كان البربر لاعتزازهم بكتابتهم ينقشونها في أشكال جميلة للزينة في الحلي والأواني المزخرفة. وكان النساء يرسمن بين الحاجبين حرف الزين بسواد عطري جميل يثبت أمدا طويلا فلا يمسح. هذا الحرف الجميل البربري [1] زين لا زال في جنوب الجزائر إلى الآن يتصدر جبين العرائس والحسان بين الحاجبين. انه وشما في الجلد بل يرسم بسواد عطري ذكي سواده كأقلام الحواجب. فتراه في الجبين الوردي الوضاح في سواده العطري الذكي أبهى من العيون السوداء في الوجوه البيضاء! وتجده يتحدى الحاجبين المزججين ويباريهما في الفتنة والجمال!

إن هذه الزينة التي هي من بقايا حضارة الأجداد الحسنة علامة على اعتداد الأمازيغ بكتابتهم، ورمز في جبين المرأة وعلامة جميلة للجمال والزين.

وكانت اللغة العربية لانتشارها، واصطباغ الألسن في الدولة الرستمية بها، قد فاضت على اللغة البربرية فمازجتها، ودخل فيها كثير من الألفاظ العربية. فترى لغة أهل المدن سيما العلماء إذا تكلموا بالبربرية ثلث ألفاظها عربية قد تبربرت. وعملية بربرة الكلمات العربية سهلة في اللغة البربرية. أن تزيد آل في أول الكلمة والتاء في آخرها، أو في الأول والآخر فتصبح الكلمة العربية منسجمة مع البربرية واختالها. فالغابة إذا أردت أن تبربرها فقل: الغابت، والشجرة الشجرت، والوردة الوردت، والغزالة لغزالت، والتفاحة التفاحت والدار، تدارت. البربري يقول: (آد عمر غ تادارت) يعني اسكن في الدار، والكلمة الأول معناه أعمر فهي عربية. إن هذه الجملة تبين لك مدى تأثر اللغة البربرية بالعربية الشريفة.

إن بربرة الكلمة وإدماجها في البربرية سهل. لذلك تجد اللغة البربرية في الدولة

---

1 - هذا الحرف قد كبرناه ليظهر. والزين البربرية بدون نقط وقد زيدت له النقط للزينة وهو في الصبايا اصغر وارشق بكثير. إنها حلية لا تحسنها أناملهن اللطيفة البارعة.

الرستمية سيما في تيهرت التي يسكنها الأعاجم والعرب الكثيرون قد داخلتها كثير من الألفاظ الفارسية والعربية التي تبربرت فأصبحت جزءا من البربري، ولكن العربية داخلتها أكثر لتقديس البربر، ولكثرة قراءتهم لها في الكتب، وسماعهم في الخطب والدروس.

كانت اللغة البربرية، هي اللغة القومية العامة ولغة التخاطب في أكثر نواحي المغرب في تلك العهود. وكانت تؤلف بها الأغاني، وتنسج الأحاجي، وتوضع القصص وأنواع الحديث الشهي التي تعمر مجالس السمر، ومجامع الأنس والمرح. إنها لغة الأمازيغ! يعتدون بها، ويستعملونها فيما بينهم، ويطرزونها بالعربية كما يطرز الثوب الحريري الأثير بالذهب، وكما تتحلى الحسناء بالخضاب الذي تزين به شقتيها، وتزجج به حاجبيها، وتكمل به جمالها وفتنتها. ولكن العربية كانت هي اللغة العلمية، واللغة الأدبية في الخطابة والشعر والنثر الفني، ولغة الدواوين كلها. فيها تكتب العقود، وبها تكتب الحكومة في كل الدواوين والمصالح.

لقد ترقت اللغة البربرية في المغرب في تلك العهود، وترقت في الدولة الرستمية لأنها جزء من شخصية البربر بلغوا في العلم والحضارة والرقي الذرى الرفيعة، والدرجات العالية. وقد اتسعت اللغة البربرية بما داخلها من العربية وألفاظ كثيرة من الفارسية، تلك الألفاظ الكثيرة التي هضمتها اللغة البربرية لقوة شخصيتها ومرونتها فأصبحت جزءا منها قد ذاب فيها كما يذوب السكر في الماء الذي يتحلى به، والعطر في الجو الذي يشيع فيه.

ومما اكتسبته اللغة البربرية من رقي لمجاورتها للغة العربية، ولحضارة البربر وميلهم إلى اللطافة والجمال في كل شيء، إنها ازدادت سلاسة ورقة، وتهذبت حواشيها وعذبت أجراسها، وصارت من اللغات الراقية الواسعة السلسلة الجميلة، وكانت في المغرب كله في تلك العهود الإسلامية الزاهرة بعد العربية في التقدير والاحترام. وكان المشارقة والأعاجم في الدولة الرستمية والمغرب كله يتعلمونها، ويتخاطبون بها، وتشيع في ديارهم، ومجالسهم. إنها لغة التخاطب في الأسواق، ولغة أغلبية الشعب، فلزام على كل من يحل بينهم أن يتعلمها. إن البيئة تؤثر فيه. ثم قوة شخصية البربر واعتدادهم بأنفسهم. فهم يهضمون الأمم ويؤثرون فيها ولا تؤثر فيهم الأمم وتصبغهم بصبغتها إلا إذا كانت كالعرب المسلمين الذين دخلوا المغرب في هالة الإسلام النورانية وفي عظمة الدين الإسلامي وإشراقه. فأدرك البربر بذكائهم وطموحهم عظمة الإسلام في العرب، ففتحوا لهم نفوسهم وامتزاجهم بهم، واصطبغوا بصبغتهم، فصار مغربيا والحمد

لله شعبا واحدا هو مزيج من الدماء البربرية والعربية، قد اكتسب البربر من العرب الأمجاد كل خصائصهم الحسنة، فضاعفت خصائصهم الجميلة، فصار مغربنا بتلك المزايا الكثيرة كلها، وبوراثة الأجداد العظماء الذين كانوا لنا من بني سام وبني حام، وبالدماء الزكية التي تعانق فيها روح مازيغ وقحطان، وامتزاجا امتزاج الأنفاس الحرى في قبلات الود والهيام، وصار البربر بعد الفتح الإسلامي بالدين الواحد يشبهون العرب في كل شيء كالعين والعين في وجه الحسناء الجميلة!

وكان الأئمة الرستميون لديمقراطيتهم ولحبهم الاتصال بكل الطبقات، وان يرفع إليهم كل مظلوم ظلامته، يعتبرون اللغة البربرية، فيترجمون مناشيرهم التي يبثونها في أنحاء الدولة في المناسبات إلى البربرية، فيرسلونها مترجمة إلى القرى التي لا تفهم العربية، ليكون التأثير بها أتم، والفائدة منها اعم.

وكان في ديوانهم من يتولى هذه الترجمة كما كان فيه من يترجم شاوي ورسائل الروم والأعاجم الذين لا يكتبون بالعربية. وكان أبو سهل الفارسي ممن تولى الترجمة للائمة الرستميين: افلح وأبي اليقظان وأبي حاتم في دواوينهم. وكانت له مؤلفات عديدة وضعها بالبربرية لنشر العلم والدين في القرى والجبال النائية التي لا تفهم العربية.

وكان العوام الذين لا يستطيعون الكتابة باللغة العربية يرفعون شكاويهم إلى الإمام مكتوبة بالبربرية، ولكن هذا لا يقع إلا في القرى النائية، أو في رؤوس الجبال المنقطعة، أما المدن واغلب القرى فقد كانوا يحسنون العربية فهي لغة الكتابة عندهم، والبربرية لا يستعملونها إلا في التخاطب فيما بينهم. وارى أن اللغة البربرية في المدن الرستمية شبيهة بالبربرية الموجودة اليوم في وادي ميزاب بجنوب الجزائر. فان هذه البلاد الجزائرية لتقديس أهلها للعربية، ولانتشار الثقافة العربية فيها حتى اغلب السكان؛ وغرامهم بها، وحرصهم على تعلمها، تجد ثلث اللغة البربرية فيها عربية فصيحة، سيما لغة المثقفين ثقافة عالية، فانك تجد حديثهم بالبربرية إذا أسهبوا نصفه عربية، قد مازجت البربرية، وانسابت فيها وصبغتها بلونها ولهجتها كما يصبغ شفق الأصيل أديم السماء، فتختفي زرقته، ويبدو للعيون حمرة زاهية فتانة تتألق كخدود الحسان!

هذه هي الدولة الرستمية من حيث العلم واللغة. فكيف كانت من حيث الهدوء والاستقرار، والهناء والرضا، والسعادة والاطمئنان؟

سكون الدولة الرستمية واستقرارها وهناؤها

وكانت الدولة الرستمية دولة السكون والهناء، ودولة الاستقرار والطمأنينة والسعادة. قد رضي الشعب فيها عن أئمته، ورؤساء دولته. فسكن إليهم سكون الوليد إلى الأحضان التي ترضعه وتحن عليه. لا ثورات من الشعب تعكر صفوها، ولا انقلابات واغتيالات ومؤامرات من الأمراء بعضهم لبعض كما يقع في الدولة الأغلبية فيعتكر بها جوها، ويصيبها بالزلزلة والارتجاج، ويمنعها عن التقدم والسير الحثيث؛ ولا غضب من الأئمة على رئيس الدولة وولاته وأجهزته يشغل العقول عن التفكير في البناء والتشييد، ويصرف الصدور عن الحماس للعمل والإنتاج، ويجردها من الصفاء والهناء، ومن الطمأنينة والسعادة.

إن رئيس الدولة من اختيار الشعب كله. فهم الذين انتخبوه وبايعوه في حرية كاملة، وبرضا تام. لا جبر، ولا إرغام؛ ورفعوه على أعناقهم إلى عرش الرئاسة، وبوءوه بإرادتهم وحبهم العميق كرسي الإمامة. فصار خادمهم يرعاهم، ويعطي نفسه لمصالحهم، ويجلب إليهم كل سرور، وينالون في ظله كل الحظوظ. وكان يتمسك في سياستهم وفي كل أموره بكتاب الله وسنة رسول الله، وبحكم الشورى، ويعدل فيهم، ويحسن كل الإحسان إليهم، ويجعل بحزمه وبراعته في السياسة كل الأمم تحبهم، وترهب جانبهم، وترمقهم بالإعجاب والاحترام. فلا عدو خارجي يطمع فيهم لضعفه، ولا شانئ خارج الدولة يحقد عليهم ويستعد للانتقام لسوء تصرفه.

إن المغرب الإسلامي كله صديق للدولة الرستمية القوية المسالمة التي تتمسك كل التمسك مع جيرانها بالدين. حتى العباسيين الذين تغلي صدورهم بالغيظ على الدولة الرستمية، ويتربصون بها الدوائر، ويفتشون عن مواطن الضعف فيها ليستغلوها في تهديمها، فإنهم لم يجدوا فرصتهم، ولم يستطيعوا الإقدام عليها لأنها تدمغهم، وتقضي على ملوكيتهم المستبدة في القيروان.

إن رضي الرعية عن أئمتها، وأمنها في بلادها، وتمتعها بخيرات الله التي يغمرهم بها، لتمسكهم بالدين. ورضاه عن الدولة لالتزامها طريقه المستقيم، وتقيدها بشريعته في كل الأمور، وإحسانها إلى الرعية والناس فأحسن الله إليها قد أورثها الطمأنينة والهناء.

إنها دولة ميمونة الناصية، يتفيئوون ظلالها، وتغمرهم بثمارها، وتملأ دنياهم بالعطر

والجمال، فسكنوا إليها سكون اللاغب وجد السرير الوثير، والفراش المعطر، والجو الجميل المنعس.

وكان تمسك الدولة الرستمية بالإمامة الإسلامية، والنظام الجمهوري الصحيح، وتمسكها بالدين كل التمسك من أسباب استقرارها وسكونها وهنائها. إن الرئاسة لا تنال فيها بالغلب والقوة فيتصارع عليها الأمراء، فيتعكر جوها وينعدم استقرارها وهناؤها؛ وإمارة الدولة لا توصل بحد السيف فيسطو عليها كل من يجد الشروط. ومن أول الشروط وأوكدها وأهمها التقوى والورع، وخلو النفس من حب الرئاسة والزعامة. وإذا رأوا في شخص حبا للرئاسة، وتهافتا على الإمارة، حكموا عليه بالأنانية، بقلة الورع والتقوى، وبعدم اللياقة للرئاسة، فيطرحونه اطراح الزجاج المصدوع، والقوارير المكسورة. وإذا اشرأب احد لرئاسة الدولة، ونافس الإمام فيها، ورام اغتصابها بالسيف والقوة؟، ثار الشعب كله فدمغه وأوقفه عند حده، وحاط إمام الدولة وحفظه وكفاه شر المعتدين! وقد بدا ليزيد بن فندين أن ينال رئاسة الدولة بالقوة، ويستولي عليها بحد السيف، فاغتنم خلو العاصمة من الإمام عبد الوهاب، فهاجمها في أنصاره ليحتلها، ويوقع الانقلاب فيها، فثارت تيهرت كلها تسندها القبائل المجاورة، فصدت هجوم ابن فندين، وقتلته، وطهرت بقاعها من أنصاره الذين رق الدين في نفوسهم فصاروا نار الزبل النتنة، تملأ الساحة بالدخان، وتعكر المكان بالنتن.[1]

إن أكثر ما يمنع الدولة استقرارها هو المنافسة على الرئاسة، والفقر والحاجة، والظلم، والخوف من العدو الذي يطمع فيها. وهذه العلل كلها قد خلت منها الدولة الرستمية، لتمسكها بالجمهورية الإسلامية، فلا اغتصاب لرئاستها، ولتمسكها بالدين، فلا ظلم ولا عدوان، ولا احتقار لأحد، ولا غمط لمخلوق، ولغناها وحضارتها، فهي نهر ممتلئ رقراق تظله الدوح المورقة، وتطرز هوامشه وشاطئية الخمائل النضيرة، ولبست قاعا يابسا متشققا تعشش في شقوقه العقارب والأفاعي.[2]

إن أسواق الدولة عامرة، وكل نواحي الدولة ومواردها على الازدهار والقوة. وتيهرت بها غانية المغرب الغنيمة تراها لما تشعر به من غناها وجمالها سكرى منتشية بالغنا والجمال، تنظر بالعين الساجية المطمئنة المعتدة نظر الحسناء بالعين الناعسة لفرط الاعتداد بحسنها، والشعور بالقوة في اصماء كل القلوب، واصطياد كل الأفئدة!

والدولة الرستمية قوية، فهي اكبر دولة حربية في المغرب، فهي آمنة من الأعداء

1 - نار الزبل لا يعلو لهيبها فهي أكثر النيران دخانا ونتنا.

2 - النهر إذا جف تشقق وانتشرت فيه الأخاديد.

مطمئنة، لا يداخلها الروع والحيرة من عدو يستعد للانقضاض عليها. لهذا كانت دولة الاستقرار والسكون والهدوء والهناء والسعادة، قد خلت من الانقلابات والمنافسات، وتقاتل الأمراء الذي يقع في الدولة الأغلبية، ومن سخط الشعب وتحفزه للثورة، فتصرف الدولة اغلب قواها لضبطه وإطفاء نيرانه، كما يقع في الزاب الذي كان تحت الدولة الملوكية. انه لم يقع في الدولة الرستمية من المنافسة على الرئاسة إلا ما كان من ابن فندين في ضواحي العاصمة فسرعان ما هب الشعب فقضى عليه، وما وقع من هوارة لبطرها بالغنى، ولمداخلة العناصر الأجنبية لها فأدبها الإمام فسكنت سكون الطفل إذا عض ثدي أمه فوكزته. انه يسكن فيمص ثديها في حب وامتنان كأنه يقبله!

لم يكن تمرد هوارة فتنة داخلية عامة كما نرى في الزاب الذي كان ساخطا على الدولة الأغلبية. تبتدئ الثورة شرارة في مكان ثم تنتشر في كل ناحية لسخط الشعب واستعداده للثورة على الدولة. انه بحر النفط لا تنحصر النار في ناحية فيه؛ بل كانت ثورة هوارة تمرد قبيلة لم تجد من جيرانها التأييد فانحصر العصيان فيها، وهبت نواحيها، وكل القبائل المجاورة لها إلى الإمام عبد الوهاب فانضمت إليه، فأخمدت هوارة وردتها إلى الجادة والصواب، فأسلس عنانها، ولم تجد الثورة لأنها وجدت جو الدولة جو الرضى والسعادة والسكون لا يرضى بالثورة، وجو الروض النضير الذي خلا من هشيمة لا تسري فيه النيران!

لقد كانت ثورة هوارة وثورة الواصلية على الإمام عبد الوهاب لأسباب خارجية. فالأيدي المنافسة الخفية للدولة من الخارج هي التي أشعلت هاتين الثورتين، ثم انحصرتا في مكانهما، فلم تنتشرا إلى جيرانهما، بل كان الجيران هم الذين هبوا فاطفأوهما.

لقد كانت هاتان الثورتان على الإمام عبد الوهاب كنار تشتغل في سفينة في بحر خضم، تنحصر في مكانها، وكل ما حولها ضد لها، وما يساعد على إطفائها!

سنبين أسباب هاتين الثورتين في باب إمامة الإمام عبد الوهاب، فترى إنها خارجية، وكذلك الفتن التي وقعت في العاصمة التي فتحت ذراعيها لكل الناس، فأرسل إليها العباسيون أفواجا من جواسيسها وطابورها الخامس فأشعل النار فيها. ووقعت الفتن التي وقعت في آخر أيام الدولة في عهد أبي بكر بن افلح، وابن أخيه أبي حاتم، وكانت فتنة محصورة في العاصمة التي يسكنها الملوكيون العباسيون الحاقدون على الدولة الجمهورية، لم تتسرب إلى الخارج، فبقيت الدولة الواسعة الأطراف هادئة ساكنة ملتفة حول إمامها. لقد كانت تشتمل على اغلب المغرب الأوسط، وعلى جنوب تونس كله إلى

شمال (قفصة)، وعلى طرابلس كلها شمالها وجنوبها إلا المدينة. هذه هي أطراف الدولة ونطاقها. وكانت ساكنة أيام هذه الفتنة التي شبت في العاصمة لم تشارك فيها. بل هبت النواحي كلها فالتفت حول الإمام فأطفأ الفتنة، وطهر العاصمة، وارجع السكون والطاعة والاطمئنان لها. إن تلك الفتن أثارها العباسيون الذين آلوا أن يقضوا على الدولة الرستمية والدولة الإدريسية، فلم يستطيعوا ذلك بالقوة فعمدوا إلى الدس والفتنة، فاغتالوا إدريس الأكبر رضي الله عنه، وفسدوا على إدريس الأصغر بهلول بن عبد الواحد المضغري، وإسحاق بن محمد الأوربي وغيرهما من رؤساء القبائل البربرية ليصدعو الدولة بالفتن الداخلية، ويبلغوا مرامهم في الأدارسة فيقضوا عليهم في المغرب. وعمدوا إلى مثل ذلك في الدولة الرستمية فدسوا في عاصمتهما جواسيسهم، فأشعلوا فيها الفتن. ولكنها بقيت محصورة في العاصمة، ولم تخرج منها، ومرضت هي وحدها لوجود الجراثيم العباسية فيها. وظلت بقية الدولة على الرضى والولاء والتمسك بإمامها، واستمرت على تأييدها له. فأسرعت إليه لواتة، وهوارة، ونفوسة، ومزاتة، صنهاجة، وكل القبائل، فوقعت في صفه، فأطفأ الفتنة العباسية في العاصمة، وقضى على دسائس الملوكية المستبدة فيها.

إن تلك الفتنة التي وقعت مرتين في شيخوخة الدولة الرستمية، وفي آخر أيامها، قد وقعت في العاصمة، وأشعلها وقادها العباسيون فانحصرت فيها. إنها عين وقع فيها القذى فاحمرت ودمعت. وبقية الجسم على سلامته وصحته لم ينله الأذى!

إن بعض المؤرخين الذين تخلقت في نفوسهم عقد موروثة مزمنة بالدعاية العبيدية والملوكية التي استمرت عشرة قرون في كل براعة وحماس ضد الدولة الرستمية الجمهورية، قد حصروا نظرهم في العاصمة لما كتبوا عن فتنتها، فرأوها تنزي بالغضب الذي بشعله فيها العباسيون، وتمور بالفتنة التي بثها فيها الملوكيون الحاقدون على الجمهورية الإسلامية العادلة فقالوا: إن الدولة ساخطة على أئمتها لأنهم أجانب عنها لم ينسجموا بها، وأبو أن يستعملوا عقولهم ليدركوا أسباب تلك الفتنة، ويوسعوا نظرتهم ليعلموا إنها في العاصمة وحدها، أنهم يدخلون رءوسهم في جيوبهم، ويضيقون نظرتهم فلا تبدو لهم إلا العورات... ! !

كانت الدولة الرستمية دولة الاستقرار والهناء، ودولة الطمأنينة والسعادة. لم يقع لها من الاهتزاز إلا ما لابد به للدوحة العالية التي تبسط فروعها في الجو العالي، فذلك الاهتزاز من خارجها بالعاصفة لا من داخلها!

ومن النتائج الحسنة لاستقرار الدولة الرستمية، ودلائل هدوئها ورضاها، وحبها لائمتها أن أئمة الدولة ورؤساءها ظلوا كلهم في عرش الإمام، ورئاسة الدولة إلى أن أدركهم اجلهم، لم يثر عليهم ثائر، ولا نافسهم منافس على طول أيامهم في الرئاسة؛ ولم يخلعهم معتد ويستلب الرئاسة منهم ويحل محلهم، وذلك لان الدولة جمهورية لا تغتصب رئاستها، والدولة راضية عن أئمتها لا يمكن لمنافس أن يخلعهم.

لقد ولى الإمام عبد بالرحمن بن رستم رئاسة الدولة منذ نشأتها في سنة 144 هـ وتوفي في سنة 171 فمدته في الرئاسة ست وعشرون سنة. وولي الإمام عبد الوهاب رئاسة الدولة في سنة. 171 هـ. وتوفي في سنة 311 فمدته في رئاسة الدولة أربعون سنة. وولى الإمام افلح الإمامة[1] بعده في سنة 211 وتوفي في سنة 240 فمدته في الإمامة تسع وثلاثون سنة. وجاء أبو اليقظان بعد أبي بكر الذي ارتكب الذنب الذي أسلفنا فاعتزل الإمامة ومات غما وحسرة وندما، ولي أبو اليقظان الإمامة في سنة 241 وتوفي سنة 281 فمدته في الإمامة أربعون سنة. وولي الإمامة بعده أبو حاتم يوسف في سنة 281 واستمر أربع عشرة سنة إلى أن هرمت الدولة هرم الموت، ومرضت مرض الزوال، فعدا عليه أبناء أخيه فقتلوه، ثم انقرضت الدولة بعده فكان آخر إمام.

إن الدولة الرستمية أطول أجلا من الدولة الأغلبية. لقد سبقتها في النشأة بأربعين سنة كاملة، وكانت أوسع منها رقعة، وأكثر أجناسا ومذاهب واديانا. لقد فتحت أبوابها لكل الناس، وقصدها لعدلها وعلمها وحضارتها وجمال موقعها كل الطوائف والأجناس. ومع هذا لا نجد فيها من القلاقل والفتن ولثورات بعض ما كان يرج الدولة الأغلبية ويزعزع أركانها، لسخط الشعب فيها، والتنافس الذي كان يقع بين الملكيين فيها على الرئاسة والسلطان.

كان عمر الدولة الأغلبية اثني عشر ومائة سنة. وقد وقع فيها من الثورات العارمة التي زعزعت أركانها، وخضبت صفحتها بالدماء، وعكرت صفاءها، تسع عشرة ثورة وقعت في أنحاء الدولة، اغلبها كان من الشعب الثائر لسوء سياسة الملوك والولاة. وكان الزاب في اغلب عهوده ثائرا على الدولة الأغلبية. وكانت تخضعه بالقوة، وتخلق سكونه بالخوف، وترضخه بالجيوش الكثيرة التي ترابط في ثغوره وهي على أهبة دائمة للحرب. ومع هذا فقد ثار عليها مرارا. وأرادت الدولة الملكية أن ترضخه، فأعملت السيف في صغاره وكباره !

1 - إذا قلنا الإمامة فالمراد بها رئاسة الدولة وكذلك الإمام. وسمى رئيس الدولة في الجمهورية الإسلامية إماما لأنه يؤمهم في المسجد الجامع أيضا. فهو أمامهم في الدين.

قال ابن عذارى: "وفي سنة 268 كان فتك إبراهيم بن الأغلب بأهل الزاب. فقتلهم، وقتل أطفالهم، وحملوا على العجل إلى الحفر فالقوا فيها"[1] والعجل جمع عجلة وهي العربة، وذلك لكثرة القتلى، وتراكم الضحايا.

وقد تولى الملك في هذه الدولة احد عشر ملكا. أما الدولة الرستمية فكان عمرها اثنين وخمسين ومائة عام. فهي تكبر الدولة الأغلبية بأربعين سنة. وتولى إمامة الدولة فيها ستة رؤساء للدولة فقط. ولم يقع فيها من الحروب الداخلية إلا سبع زوابع وقعت ست منها في العاصمة التي يبث فيها جواسيس الملوكيين العباسيين سمومهم للقضاء على الإمامة الإسلامية، وتهديم الدولة الجمهورية العادلة. وكانت بقية نواحي الدولة في هذه الزوابع ساكنة. وكانت مؤيدة للإمام. إن هذه الزوابع السبع أربع منها من صنع الملكيين جيران الدولة الرستمية كما سنبين ذلك في مواطنه. وثلاثة فقط كانت بأسباب داخلية، وهي الحسد وحب الرئاسة، أو البطر بكثرة الغنى، وطول الاستقرار والهناء، وامن العدو الخارجي. وليست سوء سيرة الإمام ولا ظلمه، ولا سخط الرعية وتبرمها كما كان في الدولة الأغلبية الملكية.

لقد قارنا هذه المقارنة لان بعض المؤرخين في الأزمنة الأخيرة قد تأثر بالكتب الملكية المتعصبة التي تصور الدولة الرستمية على غير حقيقتها، وتعمل جاهدة لتشويه صفحتها لتغير القلوب عليها، وتبعد الناس عن الإمامة الإسلامية العادلة؛ فصور الدولة الرستمية بأنها دولة عديمة الاستقرار ،:وان الحرب فيها اغلب من السلم، وان الحكومة أجنبية لا ثقة لها بالأمة"[2] إلى غير ذلك من الهراء الذي يدل على عدم العمق في الدراسة، وعلى عدم التحري في الحكم، وعلى التأثر بالكتب الملوكية التي يجب أن نكون على حذر ويقظة فيها في تاريخ المغرب.

إن هؤلاء المؤرخين الذين صوروا الدولة الرستمية العادلة عديمة الاستقرار، وهي كما رأينا في قلة الزوابع الداخلية، وقد وصفوا الدولة الأغلبية التي رأيت عدد ثوراتها الداخلية بالاستقرار، وقلة البلبلة فقالوا: "والحكومة الأغلبية أقوى حكومات المغرب يومئذ على حفظ الأمن، وأحسنها سياسة للرعية.

وقالوا: وقبل البربر والعرب سيادة الأغالبة فلم يلقوا اضطرابات داخلية.ولا وقعوا بين هجمات شرقية وغربية".[3]

1 - البيان المغرب ج 1 ص 158 ط. مكتبة صادر 1950م

2 - تاريخ الجزائر في القدم والحديث ج 1 ص 33.

3 - نفس الكتاب ص 66 ط الجزائر 1350 هـ.

هذا هو الغلط الذي وقع فيه بعض علمائنا الكبار، ومؤرخينا المحدثين. ومن يعتد المغرب الحديث بعلمهم وسعة اطلاعهم، وغزارة علمهم. وسنجلو هذا الغلط في باب مقبل حتى لا يقع فيه أبناؤنا، فنظلم أجدادنا، ونشوه صفحة من أغر صفحات المغرب الكبير، ونقع في الغلط الفاحش الذي يأباه عصرنا الذي يتقيد بالمنطق في البحث العلمي، ويفرض العمق والنزاهة في الأحكام.

إن الدولة الأغلبية دولتنا، وهي جزء من تاريخنا الجميل. وسأبين النواحي العظيمة فيها، واكتب فيها كتابة تحليلية تبرز خصائصها الجميلة كلها، وأفرد لها من الجزء الرابع لهذا الكتاب معظمه؛ ولكن بعض المؤرخين المحدثين الذين حكموا حكما خاطئا على الدولتين، ويوقعون ناشئتنا في أخطاء تاريخية، ويقدمون إليهم معلومات غير صحيحة؛ فكان لزاما علينا أن نعقد هذه المقارنة بينهما، ونصحح ما اخطأوا فيه، ونستدرك ما فات أولئك المؤرخين المحدثين الذين نعدهم سلفنا الصالح في العلم، ومن أول من شق الطريق في المهامه المجهولة في تاريخ المغرب الكبير، فأسدوا إلينا اليد الجلي، وقدموا إلينا المنة العظمى. وسبحان من لا يخطئ ولا يزل. والعصمة والكمال لله العلي الكبير وحده!

كانت الدولة الرستمية تنعم بالاستقرار لأنها كانت متمسكة بالدين. فدستورها هو القرآن والسنة! ومن يتمسك بالدين يؤته الله كل سعادة وقوة، وكل نعيم وهناء، ويكن الله معه، فينام هانئا مطمئنا في كنف الله، ويعيش قرير العين ساكنا في حماه.

هذه هي الدولة الرستمية من حيث الاستقرار والهناء. فكيف كانت مع جيرانها: الدولة الإدريسية، ودولة بني واسول، والدولة الأغلبية، والدولة الأموية في الأندلس. أكانت تشاكسها، وتعتدي عليها، وتبث الفتنة والبغضاء فيها، وتتربص بها الدوائر كما كان يفعل بها وبالدولة المغربية المستقلة العباسيون؟

وعل كانت ترفع السيف على المعارضين، وتغرق الساحات بدماء المنتقدين من رعيتها كما يفعل الملوك الغاشمون؟

وهل هي دولة قامت عل السيف. فغبار الجيوش الغازية للنواحي هي التي أنبتتها، وكانت السحب الممطرة التي أبرزتها، والعساكر الجرارة هي التي ضمت الأقطار والنواحي إليها كما كان في الدول الملوكية المستبدة العباسية وغيرها، أم أنها دولة قامت على العقيدة الواحدة، وتكونت بالمعاني والعوامل الروحية؟

ما أساس الدولة الرستمية الذي قامت عليه؟ وما معاملتها للجيران؟ وما نزاهتها وتحرجها في سفك الدماء الحرام؟

مسالمة الدولة الرستمية للجيران ونزاهتها عن سفك الدماء الحرام

كانت الدولة الرستمية دولة مسالمة نظيفة لم صفحتها بالدم الحرام، ولا شانت سمعتها بالتهجم على الجيران، ولا كانت كالدولة الملوكية المستبدة تفتح البلدان بالسيف، وتخضع الرقاب بالقوة، وتشرق الأمة بدمائها إذا انتقدت سلوكها، وترغمك النواحي بالجيوش على الانضمام إليها.

إنها دولة عفيفة عن الدماء الحرام، قامت على العقيدة لا بالسيف، وألف بين جهاتها المعاني والمثل الأعلى الواحد لا قبضة الملوك. إنها تكونت من النواحي التي أحبت الجمهورية الإسلامية، وتمسكت بالإمامة العادلة، وأصرت على تأسيس دولة عادلة ديمقراطية يكون دستورها القرآن وسنة المصطفى عليه لسلام، وتلتزم في سياستها وفي كل أعمالها الشريعة الإسلامية لا تخرج عن نطاقها، ولا تتعدى حدودها. وهذه النواحي التي تكونت منها، وكانت أقطارا تابعة لها هي جمهور المغرب الأوسط. ومن شرق تلمسان غربا إلى شرق المسيلة، ومن جبال أوراس، وجنوب افريقية إلى شمال قفصة، ومن جربة، وطرابلس كلها إلى سرت إلا المدينة. هذه هي الدولة الرستمية، وتلك هي نواحيها وحدودها. وقد انضمت هذه الجهات كلها برغبتها ورضاها إلى الدولة الرستمية. وكانت تجمع هذه البقاع عقيدة واحدة هي وجوب قيام الدولة على الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية، وعلى حكم الشورى كما كانت في عهد الرسول وخلفائه الراشدين. وتؤلف بينها إرادة واحدة هي الخروج من ربقة الظلم والاستبداد والعصبية، وغطرسة الملوك المستبدين الأمويين والعباسيين؛ ويربط بين قلوبها ويمزج بينها مثل أعلى واحد هو تأسيس دولة يكون دستورها القرآن والسنة، وتقوم على الشورى، وتكون جمهورية ينتخب الجمهور رئيسها في حرية تامة.

هذه هي العقيدة، وتلك هي العوامل الروحية التي جعلت هذه البقاع تتحد وتتآزر، فتكونت منها الدولة الرستمية. إنها دولة قامت على العقيدة التي تربط بين جهاتها، وتحكم الآصرة بين أقطارها، وتصل بعوامل روحية بين أفرادها. فلا السيف كان ناسج خيوطها، ولا الدماء كانت سقي بذرتها، ولا سنابك الخيل الغازية كانت عاجن طينتها، ولا أشلاء القتلى والعارضين وجماجم الأبرياء هي نثارها[1] يوم جليت، ومقدمتها يوم ولدت،

1 - نثار العروس ما ينثر عليها من دراهم وزهور وغيرها إذا جليت فيأخذه الحاضرون.

كما كان في الدول الملوكية المستبدة التي تغرسها السيوف، وتلدها القوة، وتسقيها انهار الدماء التي تسفحها من المعارضين والمنافسين، والنواحي التي ترغمها بالقوة على الانضمام إليها، والرضوخ لجبروتها.

كانت الدولة الرستمية على العفاف والحرج في دماء المسلمين داخل حدودها وخارجها وكان نقية الصفحة بيضاء لا تلطخها الدماء الحرام. إنها فذة فريدة في هذا بين الدول الإسلامية كلها من عاصرها ومن جاء بعدها، لا يوازيها في هذا الطهر والتحرم في الدماء والأموال والأعراض إلا دولة الخلفاء الراشدين.

كانت عفيفة متحرجة في الدماء. لا تهاجم احد جيرانها المسلمين للتوسع، ولا تغرق النواحي بالدماء لترغمها على الانضمام إليها، ولا تحوك الدسائس للجيران، وتثير الرعية عليها فتسبب لسفك الدماء.

لقد كانت إمارة زناتة في تلمسان تدس لها. فهي التي أثارت عليها الواصلية مع إسحاق بن محمد الأوربي، وهي التي اذكت نيران هوارة في شمال تيهرت، وإصابتها بالعدوى فثار أميرها ابن مسالة فانضم إلى فتنة ابن عرفة، فلم تعاملها الدولة الرستمية بالمثل فتثير عليها رعيتها، وتعين المنافسين عليها، وتذكى المتذمرين فيها، وتسول لهم الثورة والعصيان؛ لان ذلك يسبب سفك الدماء، وهو ما تتحرج فيه، وتتنزه عنه، وتراقب الله فيه.

وكانت الدولة الأغلبية الملوكية تحوك لها الدسائس، وتنفخ في كل شرارة تجدها لتجعل منها النيران التي تلتهمها، والفتن الداخلية التي تقضي عليها، فجل منا وقع فيه من الفتن الداخلية سببه العباسيون الذين يستخدمون الأغالبة للدس لها، وبث الفتنة فيها. إن عدوانهم سافر، ومكائدهم ظاهرة، ومع ذلك لم تعاملها بالمثل لان إثارة الفتنة يسفح الدماء. إن الأغالبة لو ساروا إليها بالجيوش لدمغتهم، كما هجم الإمام افلح على المدينة التي أنشأوها في حدود الدولة الرستمية فهدمها، ولو ساروا إليه لاشرقهم بدمائهم، وعفرهم بالهزيمة، وسدهم التراب. ولكن الدس الذي يثير الفتنة الداخلية، ويسفح الدماء لا يجوز في الشريعة الإسلامية، ولا يأتيه الأقوياء المتمسكون بالدين مثلها.

لقد كان الزاب ساخطا على الدولة الأغلبية، فسخطه هو الذي هيا للدولة العبيدية فيه، وكان في اغلب عهوده يناوص ليستقل. وتستطيع الدولة الرستمية أن تنفخ في ناره، وتمده بالرجال والسلاح ليثور، ولكن هذا يسفح الدماء، ويكون الفتنة، ويؤذي

الجيران، وهو عدوان لا يجوز. فلو أن الزاب اثر الجمهورية الإسلامية، فبايع إمامها، وانضم إليها، لبسطت عليه جناحها ودافعت عنه. أما وهو مستقل عنها وجزء من جارتها، لم يستنجد بها استنجاد المظلوم الذي يلقي بنفسه في حجر من يحميه، فما كان لها أن تذكى ما في القلوب من الجمر فيصير ضراما، وتلهب ما في النفوس من التذمر والسخط فيكون حروبا تسفح الدماء، وتزهق الأرواح التي لا تحصى.

وكان جبل (دمر) بجنوب قابس في وسط الدولة الرستمية، ومتصلا بجبل نفوسة ركنها الشرقي الركين. وكان منطويا على نفسه، منعزلا عنها، قد اثر النظام البدائي الذي كان عليه البربر قبل الإسلام، فتمسك بالاستقلال تحت أمرائه، راضيا بالعيشة البسيطة، وبحياة البداوة، وبالحرمان مما كان يرفل فيه المغرب من حضارة وعمران، ومن علوم وفنون.

وكان جبل دمر قبيلة صغيرة، تستطيع نفوسة وحدها لو أراد الإمام القوة أن تجره بأصبعها كما يجر الفنجان الفارغ من عروته. وكان الإمام عبد الوهاب يستطيع أن يجد مئات الآلاف ثم الأبطال. وكانت الدولة الرستمية في شبابها وفي ذروة القوة والبطولة لقد كانت أقوى دولة في المغرب، وأكثرها جندا، وأوسعها مساحة فتستطيع أن تلتقم جبل دمر كما يلتقم الأسد جرادة وقعت بين فكيه؛ ولكن الدولة الرستمية لا تتسع النواحي بالسيف، ولا ترغم الجهات على الانضمام إليها بالقوة، ولا تسفك الدماء إلا بما يوجبها من حدود الله. فذهب الإمام عب الوهاب إلى جبل دمر بنفسه هو وجمهور كبير من العلماء وخاصته، فاجتمع في جبل دمر بزعمائه وأقنعهم بالحجة والبرهان، واراهم ما يكون لهم بانضمامهم إلى الدولة الرستمية من قوة وحضارة وعلم، وخروج من حياة البداوة والبساطة، إلى سماء المدينة والمعرفة والسعادة، فزين لهم الانضمام إلى الدولة الرستمية التي كانت تحفهم من أقطارهم الأربعة واراهم أن انعزالهم سيجرئ عليهم العباسيين في القيروان فيسطون عليهم. فاقتنع جبل دمر، ورأى صواب ما دعاه إليه الإمام، فمد يده إليه فبايعه، وانضم إلى دولته في أفراح ومسرات كأفراح العرس البهيج إذا انضمنت العروس المحبة إلى دار زوجها بعد أن تسكنه في قلبها.[1]

هذا هو سلوك الدولة الرستمية مع جيرانها. لا تسل السيف إلا في الدفاع، أو في إقامة حدود الله. أما أن تكون سيوفها مخالب للسطو والعدوان، فهذا ما يحرمه الدين الإسلامي العظيم الذي هو دستورها، والذي تتمسك به كل التمسك لا تخرج عن نطاقه.

---

1 - انظر نص هذه القصة في صفحة 137 من الأزهار الرياضية ط القاهرة.

وكانت هوارة في الدولة قد أبطرها الغنى الذي كانت عليه الدولة الرستمية، وزين لها الاستقرار وعدم الخوف من العدو لقوة الدولة، وعدوى جواسيس العباسيين وغيرهم في تيهرت أن تتمرد على الإمام عبد الوهاب، وهي رعيته، في عنقها بيعته وهي جزء من دولته. فجهزت الجيوش، وعولت على الشر، ولكن الإمام لم يهجم عليها حتى ارتكبت ما يحل به دم المسلم، فأدبها بالحسام، واشفاها من عدوى المرض التي ألمت بها، وذلك لان الدولة الرستمية تتمسك بالدين، وتتحرج كل التحرج في دماء المسلمين. لا تريق دم احد إلا إذا اوجب الدين ذلك، ولزم صاحبه حد من الحدود.

قال ابن الصغير: "وتمردت هوارة وأوقدت نار الحرب، وبدأت بالغارات، فأصابت أول غارة لهوارة ولدا لبقال على نهر هناك فقتلوه، وتركوه، ولم يغيروا من حاله ولا من ماله شيئا، وثارت الصيحة إلى المدينة، فابتدر الناس الغلام فأصابوه ولا روح له، ولما لم يجدوا فيه تغيرا ولا نقصا في لباسه حاروا في الأمر، ثم صاروا يبحثون في متاعه إلى أن فقدوا خاتما كان في أصبعه، فكبروا وقالوا هؤلاء قد استحلوا الأموال والسلب فحل للمسلمين قتالهم"[1] فهجم عليهم الإمام عبد الوهاب فأرجعهم إلى الجادة بالسيف. قد يكون قتلهم للغلام لعدوان كان منه، فقتله فيه شبهة لا توجب قتالهم إلا بعد البينة وثبوت عدوانهم عليه. أما اخذ مال المسلم فلا يجوز ولو قاتلك ونازلك ليسفح دمك. إن دمه فقط وهو باغ يحل في مدافعته وتأديبه. ولما أخذت هوارة من سلب القتيل كان هذا منها استحلالا لما حرمه الله، وهو ما كان الخوارج الأزارقة وغيرهم يأتونه في المسلمين فتبرأ منهم الإباضية، فجاز قتال هوارة بهذا، وقبله لم تحل دماؤها، وإن لبست السلاح للقتال، ويمكن أن ترعوى باللين والعتاب. لهذا لا يجوز السيف حتى تبدأ هي به. هذا هو دين الله. يحرم سفك الدماء، ويأمر بحقنها إلا إذا ارتكبت ما يوجب الحد عليها، فحينئذ يجب إراقتها تأديبا وقصاصا، حياة للدولة، وإن كان فيها ذهاب فرد أو جماعة.

كانت الدولة الرستمية تتمسك كل التمسك بما أمر الله في الدماء، وكانت طاهرة نزيهة، عفيفة عن سفكها، لا تجد أئمتها قتلوا شخصا واحدا ظلما وعدوانا كما تجد الدول الملوكية الغاشمة التي لا تتقيد بدين ولا دستور، إن سجونها[2] تغص بآل البيت الأمجاد

وبالعلماء الأحرار، وبالصالحين الأبطال الذين أنكروا ظلمها، ومدنها وقراها تسيل بالدماء الحرام التي تسفكها فتلطخ صفحاتها.

---

1 - سيرة الأئمة الرستميين ص 221 ط باريس سنة 1907.

2 - مرجع الضمير هو الدول الملوكية.

إن الإمام الوحيد الذي غلط مرة واحدة فاتبع هواه في الدماء، فقتل رجلا واحدا ظلما، وارتكب فيه ما شانه هو أبو بكر بن افلح في شيخوخة الدولة الرستمية وكان أبو بكر ضعيفا، فهو الحلقة الرخوة في سلسلة الأئمة الذهبية. لقد اغتال ابن عرفة الذي خاف من تسلطه على الدولة، وإرجاع الإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية فيها ملوكية مستبدة، ولكن الله لا يحل دمه لهذا السبب. ولا يجوز قتله لهذا الظن وإن كان الملوك الجبابرة يستحàلونه. لقد وسوس الشيطان والضعف لأبي بكر أن يفعل ما يفعل الملوك العباسيون، فسفح دم رجل واحد لا يحل قتله. فثارت عليه ثائرة الدولة كلها، واستبشعت كل الطبقات فعله، ووصفته بالظلم والعدوان، وبتلطيخ صفحة الدولة الناصعة المشرقة! وارتاعت الدولة كلها ارتياع العروس التي تهيأت للزفاف في الحلة البيضاء، فصارت ياسمينة ناصعة، وقمرا منيرا، فجاء من أكفأ زجاجة حبر اسود عليها!

وقد تأثر أبو بكر بالإنكار والعتاب والتقريع الذي صب عليه، فاعتزل وتخلى عن الإمامة، ولو لم يعتزل لعزله مجلس الشورى، وتيقظ فيه ضميره الديني القوي، فما زال يضربه بالسيف حتى مات هما وغما وأسفا. ولو بقي لقتله الإمام أبو اليقظان الذي ولي بعده، وأقام حد الله فيه.

إن اكبر ما تمتاز به الدولة الرستمية بين الدول الإسلامية كلها بعد عهد الرسول والخلفاء الراشدين، وعفافها، ونزاهتها، وتحرجها في الدماء والأموال ومنع الحريات التي منحها الله لعباده. إنها ليست كالدولة العباسية المستبدة، وكالدول الملوكية المطلقة التي لا تتقيد بدين ولا دستور، فأهواء الملوك ونزواتهم هي التي تسيرها، والأنانية والعصبية للنفس وللقبيلة هي التي ترسم لها طريقها، وتبين لها عدوها وصديقها فمن سار في ركابها، وصفق لظلمها واستبدادها فهو الصديق الوامق الذي يجب أن يحيا ويعلو، ومن أنكر ظلمها واحتج عليها فهو العدو الذي يجب أن يباد ويستأصل هذا هو قانونها في قتل الضحايا، ولا كتاب الله وسنة رسول الله، ولا قانون بشري يضعه العقلاء المخلصون.[1]

إن الدولة الرستمية دولة عادلة تتمسك بالدين. فهو قانونها. فإذا رفعت السيف

1 - إن لفظ الملوكية إذا ورد في هذا الكتاب والذي قبله فالمراد به الملوكية القديمة المطلقة التي لا تتقيد بدين ولا دستور. وقد وقى الله مغربنا في هذا العصر من هذا النوع من الملكية، ومن هذا النوع نم الملوكية، فلم يعد فيه إلا الملكية الدستورية الشبيهة بالجمهورية، وإلا ملوك قدمهم الشعب وارتضاهم لماضيهم الجميل، وصفحاتهم الذهبية.

فلأن الله قد أمر برفعه، وإذا قتلت أحدا فلأن الشريعة توجب قتله، وإذا عبأت كتائبها وهاجمت جهة من الجهات فلأن الدين يأمر بذلك.

هذه هي شخصية الدولة الرستمية كما تصرح بها سيرتها، وتلك هي آفاقها العالية في الدين والعلم والثروة والحضارة الإسلامية العظمى، كما تدل عليها النصوص.

أراك يا صديقي في لهفة مثلي إلى أن نرجع إلى تيهرت، والى الإمام عبد الرحمن فنرى الدولة في عهده، ونصاحب بقية الأئمة ونشاهد أطوارها في أيامهم، ونعيش مع أجدادنا العظماء، فنقيس من حسناتهم، ونقفوا خطاهم في طرق الرفعة والكمال ونتعظ بعثراتهم فلا نقع فيها.

لقد تركنا الإمام عبد الرحمن يرفع على الأكف والأعناق إلى عرش الإمامة، وتبايعه كل طبقات الدولة تذعن رغبة ومحبة، ويشمر عن ساعده، وتشمر الدولة كلها معه للبناء والتشييد، فتسرع في طريق الشباب والنضوج؛ ورأينا المغرب الأوسط والمغرب الأدنى، وكل الجمهوريين الذين يتمسكون بالإمامة الإسلامية، وتقيد الدولة بالكتاب والسنة، ويتلهفون إلى العدل والمساواة والحرية، ويصفقون طربا، ويهتفون بشرا لهذه الدولة الجمهورية التي أشرقت. فما شعور الجمهوريين في المشرق نحوها؟ انه شعور من يرى مثله الأعلى يتحقق، وأمله الكبير يقع، فصفقوا طربا وبشرا تصفيق المغرب لها، فشمروا لإعانتها وتأييدها بكل ما يستطيعون. فماذا أرسلوا إليها فكان لها الغمامة التي تنهمر على النبتة فتظاهر الثرى في أصوله، وتشعرها بان السماء معها كالأرض التي هي لها، وترضعها بالثرى الدائم، فتسرع في النمو، وتدخل الشباب سريعا، وتحظى بالقوة والازدهار!

تأييد الجمهوريين في المشرق للدولة الرستمية وإعانتهم لها في نشأتها

وكان الجمهوريون[1] في المشرق سيما في العرق، تنهال عليهم مطارق الملكية المستبدة، ويضعف بهم جور الملوك، ويشدد الأمويين والعباسيون عليهم الخناق، ويحاولون القضاء عليهم لان القضاء عليهم قضاء على فكرة الجمهورية الإسلامية، وعقيدة الإمامة العادلة التي تقض مضجعهم، وتهدد دولتهم بالانهيار، وعهدهم المستبد بالزوال.

1 - المراد بالجمهوريين هم الإباضية لان الملوك المستبدين إنما حاربوهم وعزلوهم وصوروهم للناس فرقة دينية لتمسكهم بالإمامة العادلة، والجمهورية الإسلامية التي تتقيد بالدين وبالعدل الإسلامي في لسياسة والإدارة. هذا هو سبب ثورة الملوك وأتباعهم عليهم لا غيره من أقوال الفقه التي توجد في كل مذهب.

أفراح الجمهوريين وطلاب العدل في المشرق بميلاد الدولة الرستمية

وكانت هذه المطارق وهذا الظلم الذي ينصب عليهم وعلى الناس، يزيدهم لهفة وغراما بالإمامة الإسلامية، وبالدولة الجمهورية العادلة التي تجدد عهد الخلفاء الراشدين الذي يسعدهم ويوحد كلمة المسلمين، ويقوي الدولة الإسلامية. وكان الجمهوريون في كل أنحاء المشرق، في العراق وخراسان، وفي الجزيرة العربية ومصر يعملون في الخفاء لإنشاء الدولة الجمهورية في المشرق، إحياء الإمامة العادلة. ولكن المشرق كانت الدولة الملوكية الأموية ثم العباسية بعدها قد استأثرت عروقها الراسخة المنتشرة بتربيه، فضاقت عن بذور الجمهورية فلم تنبت فيه. ورأى الجمهوريون الدنيا تعقم العقم الشديد، فلا تنجب لهم الوليد الجميل الذي يتمنونه، ولا تحقق لهم مثلهم الأعلى فيرون الإمامة تبسيط ظلالها الجميلة، وجناحها الواقي الحنون على بلادهم. فخامرهم اليأس، وجثم على صدورهم القنوط، فاحنوا رءوسهم من شدة الهم والأسى. ثم سمعوا زغاريد الأفراح، وصفيق البهجة، وتكبير البشر والسرور ينساب إليهم من المغرب. فنظروا فوجدوا أملهم الكبير يتحقق، والدولة الجمهورية تولد في حمى الأمازيغ. وعلى أفراحهم وأعراسهم، والمغرب السعيد يصبح مشرقا للإمارة الإسلامية والجمهورية العادلة التي قضى عليها الملوك في المشرق! إن المغرب وطنهم. فالعالم الإسلامي كله دارهم. فالدولة الرستمية دولتهم. إنها نهر يترقرق في المغرب، فإذا طمي فانته سيفيض إلى المشرق. إن جمال العدل والمساواة والحرية في الدولة الرستمية الجمهورية لابد أن تستفز قلوب أهل المشرق، وتقوي قلوبهم، فيرفعون عنهم كابوس الملكية المستبدة. ثم إن المغرب وقد انشأ دولته العادلة قد فتح أبوابه لكل المسلمين، وبسط حجره وحماه لكل المظلومين. إن الدولة الرستمية دولتهم! فصفقوا مع أهل المغرب لميلادها، وقاموا لتأييدها وإعانتها، وإرسال التهاني اى إخوانهم الجمهوريين في المغرب.

تهنئة الجمهوريين في المشرق إخوانهم في المغرب بميلاد الجولة العادلة وإعانتها بالمال الكثير

إن التهنئة في هذه المناسبة الكبرى تصحب بهدية سنية تعبر عن الأفراح البالغة وتدل على التأييد الكامل. إن الدولة الرستمية لا تحتاج إلى الرجال الذين يحمونها، فلها من أبطال المغرب من يدمغ ويستأصل كل من يدنو من حماها؛ ولكنها تحتاج إلى المال في نشأتها وفي أيام إعلانها وميلادها. ففتحوا صناديق التبرع. وكان ديال بن يزيد وغيره من الجمهوريين المتحمسين يقصدون الجمهوريين في قراهم ونواحيهم في أطراف البصرة

وغيرها فتنهال عليهم الأموال التي يتبرعون بها للدولة الرستمية الناشئة. فجمعوا في زمن قليل ثلاثة أحمال من الذهب فأرسلوها إلى الإمام عبد الرحمن وكان ذلك كله في خفاء وستر لا يعرف به العباسيون. وقد ذكر ابن الصغير قصة هذه الإعانة ونحن نوردها منه متقيدين بالمعنى لا نزيد فيه. أما أسلوبه فانه أحيانا عامي، ففن التاريخ يجيز لنا صقل اللفظ، والتصرف في القوالب، مع المحافظة على المعاني، والتقيد بالمراد من النص.

إن ابن الصغير كما يدل عليه أسلوبه كان تاجرا في الدولة الرستمية أو ذا حرفة أخرى غير العلم. وقد تثقف بجو الدولة الرستمية العلمي، وتأثر بثقافة تيهرت، فاستطاع أن يكون كاتبا فألف لنا كتابه. إن كتابه من حيث الصدق والأمانة العلمية وصدق الأخبار على التمام والكمال؛ ولكنه من حيث الأسلوب ضعيف. وقد يبلغ به الضعف أحيانا إلى درجة لا ينسجم بأسلوب هذا الكتاب. لهذا يجب التقيد بالمعنى، وصقر ألفاظه في المواطن التي ضعف فيها أسلوبه. وسنجعل ما نتقيد فيه بالمعنى أو نريده للتوضيح بين قوسين.ماذا أرى في صحراء سرت المنبسطة. إن جرجرة البحر المصطفق الأمواج تتعالى في ساحلها، ولكن على طريق القوافل فيها ركب يحث الخطا وجماله هزيم بالحماس في المشي، والجد في قطع المراحل كهزيم تلك الأمواج. انه متجه إلى المغرب لا يلوى على قرى هوارة ومدنها. إن سكانها جمهوريون، بودهم أن ينزلوا ضيوفا عليهم ويطيلوا الإقامة بينهم. إن الركب يقصد (تيهرت) بهدية الجمهوريين للدولة الرستمية. فما قصة تلك الهدية؟

قال ابن الصغير: "لما ولي عبد الرحمن بن رستم ما ولي من أمور الناس، شمر مئزره، وأحسن سيرته، وجلس في مسجده للأرملة والضعيف. لا يخاف في الله لومة لائم. فصار ذلك في أطراف الأرض مشارقها ومغاربها، حتى اتصل ذلك بإخوانهم (الجمهوريين) من أهل البصرة وغيرها من البلدان. فلما علموا ذلك ن أمره جمعوا أموالا عظيمة وبعثوا بها مع نفر من ثقاتهم. وقالوا لهم: قد ظهر بالمغرب إمام ملأه عدلا، وسوف يملك المشرق ويملؤه عدلا، فانهضوا إليه بهذه الأموال حتى تردوا تيهرت. فان كان على ما نقل إلينا من حسن طريقة، وصحة سيرة فادفعوها إليه، (وإلا ففرقوها في فقراء المسلمين هناك)[1] فمضى القوم حتى أتوا المدينة فنزلوا المصلى الذي به اليوم قبر (مسالة) فأناخوا جمالهم، ووضعوا أحمالهم، وتقدموا مع القادمين معهم حتى دخلوا من باب الصفاء،

1 - ما بين قوسين ورد في طبقات الدرجيني وغيره في القصة ولم يرد في كتاب ابن الصغير.

فسألوا الناس عن دار الإمام عبد الرحمن فدلوا عليها. فوجدوا عند بابها غلاما[1] يعجن طينا، فيناوله رجلا على سطح الدار يصلح شقوقا فيه. فسلموا على الغلام فرد السلام. فقالوا: أهذا دار الإمام؟ (تعجبا من بساطتها وظنا أن لا تكون هي دار الإمام. كانوا يتوهمون أن يجدوا داره قصرا منيفا) فقال الغلام: نعم. فقالوا له: استأذن لنا منه، واعلمه أنا رسل إخوانه إليه من البصرة. فرفع الغلام رأسه إلى سيده وقد علم انه سمع كلامهم. فقال: قل للقوم يصبرون قليلا. ثم اقبل على ما كان عليه من إصلاح السطح حتى انقضى القوم ينظرون إليه، وهم شاكون فيه هل هو صاحبهم أم لا. فنزل من سطحه إلى داره. فغسل ما كان بيديه من اثر الطين، ثم توضأ وضوء الصلاة. فأذن للقوم فدخلوا عليه. فوجدوا رجلا جالسا على حصير فوقه جلد، وليس في بيته شيء سوى وسادته وسدته التي ينام عليها، وسيفه ورمحه، وفرس مربوط في ناحية من داره. فسلموا عليه واعلموه أنهم رسل إخوانه إليه. فأمر غلامه بإحضار طعامه. فاتاه بمائدته، عليها قرص ساخن، وسمن وشيء من ملح. فأمر بذلك القرص فهشم، وأمر بالسمن فلت به. ثم قال: على اسم الله ادنوا وكلوا. فأكل معهم. فلما انقضى كعامهم جدد الترحيب بهم فسألهم: ما مرادكم وما جاء بكم؟ فقالوا له: نريد أن تأذن لنا فنخلوا بأنفسنا ثم نكلمك بعد ذلك. فقال: افعلوا فنهض (لتواضعه) فأخلى لهم المجلس. فجلسوا نجيا. فقال بعضهم لبعض: يكفينا من السؤال عنه ما رأينا منه من إصلاحه لداره بنفسه، ومطعمه وملبسه، وحلية بيته. فما نرى إلا أن ندفع إليه المال ولا نشاور أحدا فيه. وكان الذي معهم من المال ثلاثة أحمال من المال (ست غرائر) فاجمع رأيهم على حمل المال إليه. فرجعوا إليه. فقالوا ذ: أعزك الله معنا ثلاثة أحمال من المال بعث بها إليك إخوانك لتستعين بها في شؤون الدولة. (وكان الحكم في الدولة الرستمية في مثل هذه الشئون يقوم على الشورى، فلإمام يرجع فيه إلى مجلس الشورى) فقال الإمام عبد الرحمن للوفد البصري: هذه الصلاة قد حضر وقتها. ونحن نخرج إلى المسجد الجامع فنصلي بالناس، ونعلمهم بما جئتم به. فقالوا: الأمر لك. فخرج وخرجوا حتى أتوا المسجد الجامع فصلى بالناس. فلما انصرف من صلاتهم نادى مناديه: (لتذهب العامة، وليبق من كل قبيلة وجوهها. فخرج عامة الناس وبقي الوجهاء وأهل الشورى فعقدوا مجلسا)[2] فقال الإمام للرسل: اعلموا إخوانكم بما جئتم له واتيتم به. فاعلموا مجلس الشورى بما اخبروه به. ثم عطف على الناس فقال: ما ترون؟ فقالوا: هذا رزق ساقه الله إلينا من إخواننا تبرعوا به طوعا بر سؤال منها. فنرى أن ترسل إلى هذا المال وتحضره بينت

1 - الغلام هنا هو العبد المملوك.

2 - ما بين قوسين من الأزهار للشيخ الباروني ص 87.

يديك، فتجعل منه ثلثا في الكراع (وهو ما عدا السلاح من عدة الجيش كالمطايا، والخيل وضروراته الأخرى) وثلثا في السلاح، وثلثا في فقراء الناس وضعفائهم. (فوافق الإمام على هذا الرأي، ولكن أبى أن يستبد برأيه ورأي مجلس الشورى، ويعد الوفد البصري غرباء. أنهم في دولتهم، وهم ما داموا من الخاصة فهم أعضاء في مجلس الشورى فلابد من معرفة رأيهم في هذا الأمر) قال ابن الصغير: فقال الإمام عبد الرحمن للرسل: قد سمعتم ما قال إخوانكم فما تقولون؟ قالوا نقول: سمعا وطاعة: فاحضروا المال. فقال عبد ارحمن أريد أن تقيموا حتى يصرف المال في وجوهه، ثم تنصرفوا إلى إخوانكم فتعلمونهم بذلك. ثم قسموا المال أثلاثا كما اتفقوا وصرفوه في الوجوه المذكورة وذلك بمحضر الرسل. ثم أذن لهم الإمام في الانصراف فانصرفوا)[1] مبتهجين بما رأوا من عدل الإمام وتقواه، ومن ورعه وإخلاصه، والسير بدولته في طريق القوة والسمو.

وكانت هذه الهدية قد وصلت تيهرت بعد إعلان الدولة بقليل. وارى إنها في سنة إحدى وستين ومائة، بعد إعلان الدولة بسنة. وكانت الدولة لا زالت فقيرة. وكان البناء والتعمير يستنزف مواردها. فلما وصلت هذه الجواليق الست من الذهب رجحت كفتها، وكانت لها أكلة دسمة مغذية، فانتعشت بالمال، وازدادت تحمسا بتأييد الجمهوريين في المشرق، وطموحا وازديادا إلى الإمام ليحققوا آمال إخوانهم فيهم، ويجعلوا دولتهم الجمهورية تشرق في العالم الإسلامي، وتكسف بجمال عدلها وتمسكها بالدين الدولة العباسية ملوكية وتشعر المضطهدين في المشرق بحلاوة الإمامة الإسلامية، وعدل الجمهورية العادلة فيتحركون لإحياء الإمامة في المشرق، ويرفعون عنهم كابوس الذل والهون.

قال ابن الصغير: "ولما وصل المال إلى ثغوره فاشترت الدولة السلاح والكراع، وقوي الضعيف، وانتعش الفقير، حسنت أحوالهم، وخلفهم جميعهم من اتصل به خبرهم، ثم شرعوا في العمارة والبناء، وإحياء الموت من الأراضي، وغرس البساتين، وإجراء الأنهر، واتخاذ الارحاء والمستغلات، وغير ذلك، واتسعوا في البلد".[2] وامتد نطاق المدينة. ووصلت تيهرت في الحضارة والمدنية، وفي الرقي والعمران درجة كبرى في وقت قصير.

سبب إسراع الدولة الرستمية في طريق الحضارة والعمران.

وكان حب البربر للحضارة، وإلفهم لها منذ دولهم الكبرى في القرن الثاني قبل المسيح، واستعدادهم الكبير للمدنية الراقية، وطموحهم، ومنافستهم للعباسيين،

1 - سيرة الأئمة الرستميين لابن الصغير ص 10 ط باريس 1907م.

2 - سيرة الأئمة الرستميين ص 12 باريس 1907م.

وغنى المغرب واشتماله على المواد الضرورية أبناء الحضارية في مختلف النواحي كلها، وكفاءة الإمام عبد الرحمن وحسن قيادة وتوجيهه، إن دماءه الفارسية، ووراثته الملكية لتدفعه إلى أن تكون الدولة الرستمية عروسا حالية بالحضارة الراقية، وقمرا منيرا في سماء المدينة. كان هذا ومن هاجر من المشرق إلى الدولة الرستمية من التجار الكبار، والبنائين المهرة، وذوي الكفاءة في الصناعة، من أهل الكوفة والبصرة، وأهل مصر، ومن العجم في خراسان. كان هذا كله من أسباب إسراع تيهرت في طريق الحضارة، ووثوبها إلى قمة المدينة، ووصولها في وقت قريب درجة رفيعة في الحضارة والعمران، لا تصلها الأمم الأخرى الضعيفة إلا في وقت طويل.

إنها بأجهزتها العتيدة من إمامها القوي العادل، ومن ولاتها وموظفيها المختارين، وحماس شعبها الطموح الذكي، طائرة عتيدة تهدر فيها أجهزة عديدة، لا تمشي في الأرض إلا شوطا قصيرا، ولا تدرج في الثرى إلا لحظات قصيرة، ثم تطير طيرتها العليا فتحتل مكانها بين النجوم!

ابتهاج الجمهوريين في المشرق بعدل الدولة الرستمية وتدفقهم بالأموال عليها وزهدها في ذلك

ووصل وفد أهل البصرة إلى المشرق فاخبروا إخوانهم بعدل الدولة الرستمية، وقيامها على الإمامة الإسلامية وحكم الشورى، وتمسكها كل التمسك بالدين، فازدادوا تفاؤلا بها، وحماسا بذلها. فأرسلوا دعاتهم إلى أنحاء العراق كلها، والى خراسان فجمعوا لها أموالا كثيرة كانت عشرين غرارة من الذهب النضار، فأرسلوها مع وفدهم الأول إلى تيهرت. فسار الوفد بعد ثلاث سنين من سفره الأول إلى تيهرت بالهدية الثانية إلى الإمام عبد الرحمن. وكان طريقه على المدن الملوكية المتنبهة كل التنبه لحركات الجمهوريين. إنها ترصدهم وتراقب أعمالهم. إن الطريق بعيد شاق كثير المخاوف. ولكن الله كان مع وفد الجمهوريين فحفظهم في طريقهم الطويل المخوف، فوصلوا سالمين إلى تيهرت بأحمالهم العشرة من المال. فكيف يكون موقف الإمام عبد الرحمن من هذه الهدية. أتراه ممن يحب المال فيرحب بها؟

قال ابن الصغير المالكي: ثم في العالم الثالث من رجوع رسل البصرة من تيهرت اجتمع (الجمهوريين) في المشرق، واغلبهم بالبصرة، وراسلوا من لم يمكنه الاجتماع بهم وقالوا: إن أخبار استقامة الإمام عبد الرحمن لا زالت شائعة، ومحاسنه مستفيضة، وعدالته ذائعة. فهو جدير بان يكون في المغرب خلفا للإمام أبي بلال (وطالب الحق) وأبي

حمزة المختار بالمشرق[1] فلا تدخروا عنه مالا، ولا تحسبوا عنه عطاء، وأعينوه بكل ما قدرتم عليه (فبالمال تشد أركان الدولة، وبه يوطد عماد الدين، [2] وبه تعلو كلمة الإسلام وأهله) ولكم في ذلك الشرف العاجل، والثواب الأجل. فما كان غير بعيد حتى اجتمع عشرة أحمال ذهبا فكلفوا بتبليغها الرسل الأولين. فساروا من مدينة البصرة إلى أن وصلوا (مدينة تيهرت) فنزلوا بمنزلهم الأول، ودخلوا المدينة، فرأوا هيئتها قد تبدلت، ولاح عليها رونق المدينة واليسار، وعلت وجوه أهلها سيماء الحضارة والرفاهية، وبدت من محياهم آثار النعمة والغنى، وازينت المدينة بقصور مشيدة، ودور منظمة، وأبنية مبهجة، وقباب مرتفعة وأسواق مزدحمة، ومساجد متعددو بمنارات عالية، وحمامات متقنة، ويحيط (بالعاصمة) بساتين متنوعة ومطاحن منتصبة، على الأنهار الجارية، واتخذ أهلها الفرش والستائر المزخرفة، والخيل المسومة، وتنوعت الألبسة، وتعددت اللغات والأزياء، ورأوا ما لم يخطر لهم ببال، ولا شاهدوه في مجيئهم الأول. فخافوا أن يكون هذا التغير الذي طرأ على المدينة قد حدث للإمام أيضا فداخله حب الدنيا (فجنح كالملوك العباسيين إلى لذاته، وانغمس في الحضارة والنعيم الذي يضعف الأخلاق، ويوهن النفوس، وتهيج به الأنانية) فأسرعوا إلى داره ليروا ما تغير من هيئته وحاله، فوجدوه على أحسن ما كان عليه في زيارتهم الأولى من حسن المقابلة، والتواضع، والزهد في الدنيا، مع الحزم الكامل في إدارة شئون الدولة. وداره كما هي عليه من قبل. فاطمأنت خواطرهم بعض الاطمئنان إلا أنهم خافوا أن يكون ذلك من ظواهر الأمور، فلم يخبروه بشيء من أمرهم وخرجوا من عنده ليكتسبوا الحقيقة ممن يظنون فيه الصدق في القول، والأمانة في الشهادة فلاقوا رجالا يثقون بهم فسألوهم عن الأحوال فاخبروهم بحسنها، وان الإمام على ما هو مشهور به وأكثر من حسن السيرة، والعدل في الأحكام، وإعلاء شأن الإسلام وأهله (والسير بالدولة في طرق العزة والكمال) ثم اخبروهم بما معهم من المال، واستنصحوهم فأشاروا عليهم بتقديمه إليه. وقالوا لهم، إنا لا نراه يقبله منكم. وإذا قبله فانه لا ينفقه إلا في مواضعه الشرعية، وفي مستحقيه. فاتوا الإمام فاخبروه بالمال، (وأطالوا معه الجلوس، فسألهم عن أحوالهم في المشرق، وعن معاملة الملوك العباسيين للجمهوريين فاخبروه بالاضطهاد الذي يلاقونه، وبعسف العباسيين ومطاردتهم لهم، وجورهم عليهم) فاستاء بذلك ابلغ الاستياء، ثم أمرهم بالحضور إلى المسجد الجامع ليخبروا إخوانهم بالمال الذي جاءوا به كأول مرة. فحضروا. وبعد الصلاة نادى منادي الإمام

1 - أبو بلال مرداس بن جدير بايعه الجمهوريون في العراق إماما عليهم في عهد الملك معاوية بن أبي سيفان انظر ترجمته وخبره في صفحة 62 من كتاب لسير للشماخي طبع القاهرة.

عبد الله ين يحيى طالب الحق بايعه الجمهوريون في حضرموت واليمن فثار على الأمويين في عهد مروان بن - 2
-.محمد آخر الملوك الأمويين. وأبو حمزة المختار قائده الذي فتح الحجاز. انظر أخبارهما في الكامل لابن الأثير

بذهاب العامة، وبقاء الوجوه من العلماء وأهل الشورى. فاجتمع مجلس الشورى، وأمرهم بإحضار المال وإخبار إخوانهم، فاحضروه واخبروهم بأنه هدية من إخوانهم ذ، وبلغوهم سلامهم. ثم استشار الإمام مجلس الشورى في المال المهدى. فقالوا له: الأمر في ذلك إليك فافعل ما شئت. فقال: أما إذ رددتم الأمر في إلي فلا أرى إلا رده إلى أربابه ليعينوا به ضعفاءهم وفقراءهم (ويداروا به عن أنفسهم الولاة والعمال الجائرين) وما قبلنا منهم قبل ما لتوا به إلا لما بنا حينئذ من الحاجة إليه. أما الآن فكلنا -ولله الحمد- خاصتنا وعامتنا، وبيت مالنا في غنى عن الإعانة، وهم أحق به منا. فليتفضلوا علينا برده، ولهم منا مزيد الشكر. فوافقه مجلس الشورى كله على هذا. واستصعبته الرسل لما في رده من المشقة والعناء، لبعد المسافة، وخوف الطريق، فترددوا إليه المرة بعد المرة يرجون منه قبول المال. واستعانوا بخاصته في دلك. فأصر على عدم القبول. فحلف بالإيمان المغلظة أن لا يقبل منهم دينارا ولا درهما. ولما ايسوا من قبوله المال، ولوا به راجعين إلى أن وصلوا البصرة. فعظم بذلك عند (الجمهوريين في المشرق) قدر عبد الرحمن. وعلموا انه لو كان طالب دنيا أو مؤثرا لها ارغب في الأموال (فازدادوا تعلقا به، وتأييدا له) ورغبة في إمامته".[1]

تلك هي درجة الدولة الرستمية في الغنى والحضارة في هذه السن المبكرة، وتلك هي منزلة إمامها وخاصتها في الزهد والقناعة وفي الزهد والقناعة، وفي الإيثار على أنفسهم، وفي الشفقة والرحمة لإخوانهم المضطهدين في المشرق.

ثم استمرت الدولة الرستمية فيس طريق الحضارة والقوة فأصبحت أقوى دولة في المغرب، فهابها العباسيون، واحترامها وأحبوها، وبسطوا إليها يد المحبة والوداد. فكيف كان تصرف الإمام عبد الرحمن مع العباسيين في القيروان. وكيف كانت علاقة الدولة الرستمية مع جيرانها في الأندلس والمغرب الأقصى؟

هيبة العباسيين للدولة الرستمية وعلاقتها الحسنة مع جيرانها

كان الإمام عبد الرحمن مع عدله وتمسكه بالدين وحزمه في الداخل، على هذه الصفات مع الدول التي تجاوره. فأحبه الأمويون في الأندلس، وبنو واسول في سجلماسة.[2]

---

1 - سيرة الأئمة الرستميين لابن الصغير ص 13 باريس 1907 والأزهار الرياضية ج 2 ص 89 ط البارونية بالقاهرة.

2 - من المؤرخين من ينسب هذه الدولة إلى واسول جد العائلة التي كان منها أئمتها، ومنهم من ينسبها إلى مدرار خامس أئمتها وهو مدرار بن اليسع فيقول: دولة بني مدرار، ونحن قد سميناها بهذا الاسم في الخريطة. والأول اصح. وهو الذي أطلقه ابن خلدون عليها.

وهابه العباسيون في القيروان، وايسوا من الاستيلاء على المغرب الأوسط وعلة مناطق الدولة الرستمية في المغرب الأدنى: جنوب افريقية، وجبل نفوسة.

عقد العباسيين معاهدة حسن الجوار مع الدولة الرستمية لهيبتهم لها

وكان روح بن حاتم هو والي العباسيين في القيروان. فأرى قوة الدولة الرستمية وتمكنها، وتطلع الأنظار إليها من أنحاء المغرب الأدنى. فخاف أن تشجع أهله على الثورة، والخروج من كابوس الملوكية العباسية الذي يتململون تحته، أو تهجم عليه الدولة الرستمية. إنها إذا هجمت عليه فسيقف المغرب الأدنى في صفها، فيقع في شر ما وقع فيه عمر بن حفص. فأرسل إلى الإمام عبد الرحمن يطلب منه عقد معاهدة حسن الحوار بينهما. وان يلتزم كل من الدولة الرستمية والدولة العباسية حدوده لا يتعداها.

وكانت الدولة الرستمية مسالمة لا تعتدي على احد، ولا تكيد للجيران. وكانت حسنة النية، فرحبت باليد التي بسطها إليها روح بن حاتم، فأبرمت معه معاهدة حسن الجوار فتنفس روح الصعداء، واستشعر كثيرا من الطمأنينة والهناء.

دولة بني واسول في سجلماسة، ومصاهرتها للدولة الرستمية

وكان يجاور الدولة الرستمية في جنوبها الغربي دولة بني واسول في سجلماسة وكانت رعايا الدولة الرستمية تغشى دولة سجلماسة، ورعايا دولة سجلماسة تغشى الدولة الرستمية. إن المغرب وطن واحد في هذه العهود، ودار واحدة. وما عرف هذه الحدود المصطنعة، وهذا التقسيم إلا في هذه العهود الأخيرة.

وكانت المعاملات التجارية، والعلاقات الثقافية، والصلات السياسية على أتمها وأحسنها بين الدولتين، دولة بني واسول في سجلماسة، والدولة الرستمية في تيهرت. وكانت دولة بني واسول جمهورية تقوم على الإمامة الإسلامية. وكانت عادلة، مسالمة. وقد ازدهر بها جنوب المغرب الأقصى، ودخل أعراسه. وكانت صلتها ببلاد السودان وثيقة. فهي والجولة الرستمية أول من نشر الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية في السودان، واخذوا بيد أهله فنهضوا.

وكانت دولة بني واسول في سجلماسة أول دولة مغربية إسلامية راقية تنشأ في المغرب الأقصى. لقد سبقت الدولة الرستمية في النشأة. لقد تأسست في سنة أربعين

ومائة. قبل الدولة الرستمية بأربع سنين. وفي السنة التي نشأت فيها دولة أبي الخطاب في المغرب الأدنى.

وكان جمهور رعية هذه الدولة من الصفرية؛ ولكنهم صفرية معتدلون. لا يستحلون ما حرم الله. فكل ما أخذوه من الذهب الصفري إنما هو التمسك بالإمامة الإسلامية. والغلو في كره الملوكية المستبدة. والثورة عليها. أما معاملتهم لغيرهم فكما يوجب الدين. إن صفحتها بيضاء. لا تلطخها الدماء الحرام. والأموال الحرام. وإن عهودها كانت هادئة يملؤها الرضا. أغناها. وحسن سياسة أمرائها ورؤسائها. ولحضارتها وعلمها وما كانت عليه من التقدم والرخاء.

وكانت هذه الدولة تشتمل على مناطق سجلماسة ودرعة فحدودها الشمالية تبتدئ من جنوب الأطلس الكبير في جنوب المغرب الأقصى. وتمتد جنوبا إلى قلب الصحراء. إن رقعتها واسعة. وهي في جنوب المغرب الأقصى. وعاصمتها سجلماسة المدينة التي تسمى (تافيلالت) اليوم.

وكان أول إمام لدولة بني واسول هو عيسى بن يزيد. بايعوه في سنة 140 ثم لم يرتضوا سيرته فعزلوه. فولوا أبا القاسم سمكو بن واسول وكان حسن السيرة. ورعا. ذا كفاءة. وكان إباضيا لا صفريا كما ذكر ابن خلدون. وأبوه واسول هو جد الأسرة التي ستختار دولة سجلماسة منها كل أئمتها. وتؤثرهم برئاسة الدولة. فدام أبو القاسم في الإمارة إلى أن مات. فولي ابنه إلياس الإمامة بعده. ثم استضعفه أهل الدولة. ولم يرتضوا كفاءته فعزلوه. فولوا أخاه اليسع بن القاسم مكانه. وكان بطلا صنديدا. وسياسيا ماهرا. ورئيسا مخلصا. فحلق بدولته وأسرع بها إلى شبابها وقوتها.

مصاهرة الدولتين الرستمية وبني واسول وتوثق الصداقة بينهما

وكان لليسع ابن على غراره في قوة الشخصية. وفي النباهة. فلم ير اليسع كفؤا له في الزواج إلا واروي بنت عبد الرحمن بن رستم. فطلب اليسع من الإمام يد كريمته لابنه فرأى عبد الرحمن أن هذا مما يوثق علاقة الصداقة بين الدولتين. فرحب به صهرا فزوج ابنته من مدرار. فكان هذا الزفاف رباطا حريريا وثق الصلة بين الدولتين بالوداد المكين. والمحبة البالغة.

إن مصاهرة الإمام عبد الرحمن لدولة سجلماسة ولليسع إمامها دليل على حسن سلوكها. واعتدالها في صفريتها. فلو كانت تستحل دماء مخالفيها من المسلمين. وتعاملهم كالمشركين كما فعل صفرية المشرق الغلاة لتبرأ منهم الإمام عبد الرحمن.

وأبى مصاهرتهم بل كان يهجم عليهم فيقضي على دولتهم كما هجم أبو الخطاب ومعه عبد الرحمن على ورفجومة الصفرية في افريقية فقضى على دولتهم.

وكانت أروى كأبيها بارعة الجمال. فائقة الحسن. قد أنشأتها تيهرت منا تنشئ زهورها على العطر والجمال. وأطلعتها كما تطلع شمسها بين السحب بعد أن تغتسل في الغمام فتبرز فتنة للناظرين!

وكانت قوية الشخصية. ناضجة الأنوثة. سامية الخلق. تنطوي على نفس جميلة كوجهها. وطباع مشرقة ككيانها الفاتن. وكان إشراق الدين يسطع في وجهها. وحياء الدين يكسو مفاتن محياها فيزيدها من الجمال والروعة ما تزيده الأنوار الكهربائية الساطعة في المعارض الجميلة للحلي الذهبية الجديدة. وللجواهر الكريمة واللآلئ الساطعة. من الحسن والإشراق والروعة إذا تألقت عليها!

وقد استطاعت أروى بثقافتها. وشخصيتها القوية أن تملك قلب زوجها. وقلب أسرته. وتغرس من الحب للدولة الرستمية في سجلماسة ما جعل الدولتين على الصداقة المتصلة. والحب الدائم إلى أن زالتا.

وكانت الدولة الرستمية حسنة الجوار. يوجهها الدين في عشرتها لسواها وكانت هادئة كل الهدوء. ساكنة مستقرة. فما هو سبب هدوئها واستقرارها؟

سكون الدولة في عهد الإمام عبد الرحمن واتحادها وأسباب ذلك

كانت الدولة الرستمية في عهد الإمام عبد الرحمن كله على الهدوء والهناء. وعلى الاتحاد والمحبة. وعلى السعادة والرضا. لم يشغب عليه شاغب. ولا نافسه منافس. ولا سخط احد سياسته وسيرته. وكانت الدولة في عهده في أيام البناء والعمل والكد في سبيل الغابات التي تسرع إليها بكل طاقاتها. وكان تحقيق مثل الأعلى للدولة. واللهفة إلى بلوغ الدرجات العليا في العلوم والعمران يشغل القلوب في الدولة الرستمية. فاتحدت وت؟آزرت. وخلت من المنافسة وأسباب الشحناء. وما يفرق الصفوف ويزعزع الأركان.

وكان الخوف من خطر الملوكية التي ترابط في القيروان بعيون تشتعل بالعداوة للإمامة الإسلامية. وقلوب تتقد بالحقد للجمهورية العادلة. وهي ترقب الفرصة للانقضاض. وتبحث عن مواطن الضعف في الدولة الرستمية لتستغلها لتهديمها.

كان الخوف من خطر الملوكية التي تتربص بهم الدوائر، ومرارتها لما كانت مطارقها تنهال عليهم أيام خضوعهم للأمويين؛ كل ذلك قد زادهم اتحادا وتكتلا فصارت الدولة كلها متداخلة متماسكة متحدة كما يتداخل الأسد الذي يحس بعدو قريب منه، ويستعد للانقضاض، فيكون كالجلمود المتماسك الذي يفلق الهام، وينقب الحصون!

ومن أسباب اتحاد الدولة الرستمية شخصية الإمام عبد الرحمن. إنه يمتاز بأشياء كثيرة. منها انه من طلبة العلم الخمسة، وماضيه في الجهاد مع أبي الخطاب، وغزارة علمه وكبر سنه، وحنكته ودهاؤه، فامتلك بهذا قلوب الخاصة والعامة في دولته، ورآه الخاصة أباهم وأستاذهم، يحترمونه، ويجلونه، ويخضعون له. فلم يخطر ببال احد من الخاصة أن ينافسه، أو يثور عليه، فاتحدت الدولة في عهده بالعوامل التي ذكرنا كل الاتحاد، وكانت مدته في الإمارة والإمامة هي العهود التي نشأت فيها الدولة وتجاوزت طفولتها ودخلت الشباب، فرسخت عروقها، واشتد جذعها، وشمخت برأسها، وملأت قلوب العباسيين بهيبتها، فأيسوا منها، فصاروا يجاملونها ويستدعون مسالمتها لهم!

وفاة الإمام عبد الرحمن ومدته في رئاسة الدولة

ودام الإمام عبد الرحمن وهو مثال النشاط والإخلاص والكد في بناء دولته، وإعطاء النفس لمصالحها، والتفاني في خدمتها، والإسراع بها ذرا الكمال إلى أن وافاه اجله، وانتقل إلى ربه، وارتفعت روحه إلى بارئه، وهي قريرة العين بما قدم لنفسه بخدمة المغرب، وإحياء الإمامة الإسلامية، ونصرة الدين، وإسعاد عباد الله بالعدل والإحسان اللذين أمر بهما الله، وحث عليهما عباده المؤمنين.

وكانت وفاته في سنة إحدى وسبعين ومائة. ولم يذكر لنا المؤرخون شهر وفاته. إن عدم الاعتناء بتاريخ الوفيات والميلاد للشخصيات التاريخية مما ننتقده على كثير من الكتب القديمة ومنها لسير للشماخي وطبقات الدرجيني. إن كثيرا من الشخصيات البارزة فيها لا تنص على سنة وفاتها. وهذا نقص في كتب التاريخ كما أن كتب التاريخ لم يذكر لنا أسماء ولاة الإمام عبد الرحمن على النواحي، وعماله في الجهات كما ذكرت كثيرا من أعمال الإمام عبد الوهاب الذب سيخلفه.

وكان عمر الإمام عبد الرحمن لما توفي يناهز الثمانين، فذهب كما تغرب الشمس بعد أن تبث حياتها في البقاع، وكما ينقشع المزن بعد أن يروى كل النواحي ويملأها بالشباب والازدهار!

وكانت مدة الإمام عبد الرحمن في رئاسة الدولة الرستمية سبعا وعشرين سنة

قضى منها في الإمارة ست عشر سنة، منذ نشأة الدولة في سنة أربع وأربعين ومائة إلى سنة ستين ومائة قبل أن تعلن الإمامة، وإحدى عشرة سنة قضاها في الإمام. إن أثقاله في الإمارة هي أثقاله في الإمامة. وإذا كانت الإمامة تمتاز بإقامة الحدود، فان أثقال الإمارة في نشأة الدولة أثقل ثقلا، وأكثر صعوبة. لهذا فمدة رئاسته للدولة سبع وعشرون سنة.

معاصرو الإمام عبد الرحمن من أئمة وملوك زمانه

وكان الإمام عبد الرحمن قد عاصر من أئمة سجلماسة أبا القاسم سمغون بن واسول واليأس بن أبي القاسم، وأخاه اليسع.

ومن ملوك الأمويين في الأندلس صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الداخل.

ومن الملوك العباسيين أبا جعفر المنصور، والمهدي، والهادي، وهرون الرشيد.

وكم أمراء القيروان العباسيين: محمد بن الأشعث، والأغلب بن سالم، وعمر بن حفص، ويزيد بن حاتم، وروح بن حاتم.

كان لإمام عبد الرحمن بن رستم عماد الدولة، وروحها الذي ألبسها شبابها وجمالها. فمن الذي سيخلفه في تحمل الأثقال، وفي قيادة الدولة. أتراه سيعهد إلى إنسان يختاره، أم يترك الأمر شورى بين الخاصة؟ إن الدولة الرستمية تقوم على الشورى، وعلى هدي الخلفاء الراشدين، سيما سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه. فهم قدوتها، واسوتها الحسنة. فماذا فعل الإمام عبد الرحمن في رئاسة الدولة من بعده، وفي الخليفة الذي سيخلفه في خدمة الدولة، ورفع أثقالها؟

اقتداء الإمام عبد الرحمن بسيدنا عمر بن الخطاب فيمن يخلفه في الإمامة أعضاء لجنة الشورى لاختيار الرئيس

وكان المثل الأعلى للائمة الرستميين وللإمام عبد الرحمن في العدل والتواضع والسياسة هم الخلفاء الراشدون، سيما عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ولما أحس الإمام عبد الرحمن بدنو اجله، وايس من الحياة، اقتدى في رئاسة الدولة بسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فاختار سبعة من العلماء الأذكياء المخلصين، وهم الشخصيات البارزة في الدولة الرستمية، وممن أوتي ذكاء وتمييزا وإخلاصا للدولة يحسن به انتقاء رئيسها، فجعل الإمامة شورى بينهم، يجتمعون فيختارون من يصلح لها منهم أو من غيرهم. وهؤلاء العلماء الصالحون، والرجال الأذكياء المخلصون هم: مسعود الأندلسي، وابنه عبد

الوهاب، وعمران بن مروان الأندلسي، وأبو الموفق سعدوس ابن عطية، وشكر بن صالح الكتامي، ومصعب بن سدمان، ويزيد بن فندين.

وانتقل عبد الرحمن إلى ربه، فسمعت الدولة نعيه فجزعت لفقده، وبكته كل الطبقات، وحزنت لموته كل الجهات، وتأسف المغرب لذهاب هذه الشخصية الفذة الصالحة، وبكاه الجمهوريون في المشرق، وكل من عرف عدله وشخصيته العظيمة فأسرعت الجهات إلى تيهرت لتحضر جنازته. وسارت تيهرت كلها وراءه تشيعه إلى مقره الأخير، والعيون تنهمر بالبكاء، والقلوب تغص بالأحزان، والألسنة تردد الترحم عليه، والثناء على شخصيته.

واجتمع السبعة المختارون لينتخبوا إماما يقدمونه للعامة أتبايعه، ويلقون عليه أثقال الدولة، ويكون أحسن خليفة للإمام عبد الرحمن. فماذا يقع. فهل خاصة الجمهوريين ممن يرغب في الإمامة، ويتهالك على الرئاسة، ويرى إمامة الدولة حظا ومغنما، أم يرون ذلك ثقلا ثقيلا، أمانة تقض الظهور، وتبهظ الكواهل، فيفرون ويمتنعون. ماذا وقع يا ترى؟

اجتماع لجنة الشورى وتهرب ذوي الكفاءة منهم من رئاسة الدولة

وليست الدولة ثوب الحداد، وانهمرت دموعها مدرارة على الإمام الراحل، وأحست بفراغ كبير بذهاب عبد الرحمن، وبوحشة لخلوها من رئيس في مثل كفاءته يخلفه في قيادتها. فاتجهت العقول والقلوب والأنظار كلها تتابع أعمال لجنة الشورى، وتنتظر أن يتفقوا على احدهم فيحملوه أثقال الإمامة، ويعينوه للشعب فيبايعه. إن اللجنة تشتمل على شخصياتهم البارزة، التي تمتاز بالعقول الراجحة، والعلم الغزيرة، والذكاء النافذ، والورع الذي يعصمهم من المحاباة في اختيار الرئيس، ومراقبته الله التي تقيهم من الجنوح لمن لا كفاءة له. أنهم عيون الشعب المبصرة، ودماغه المفكر، وميزان الأمة التي تزن الأمور. إن لجنة الشورى سوف لا تختار إلا أحسن كفء تجده، واقدر شخصية تنهض بأثقال الدولة.

وكان الإمام عبد الرحمن قد عين اللجنة التي تختار الإمام يخلفه، أسوة بما فعل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وهذه اللجنة تتألف من الشخصيات البارزة في الدولة، وهم سبعة من العلماء الصالحين ذوي الحنكة في السياسة، والبصر بالأمور. وهؤلاء العلماء الصالحون هم: مسعود الأندلسي، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وعمران بن مروان الأندلسي، وسعدوس بن عطية، وشكر بن صالح الكتامي، ومصعب بن سدمان، ويزيد بن فندين.

وكان هؤلاء كلهم علماء، وذوي دين وورع، وبصرة بالأمور. لئن لم تكن فيهم كلهم كفاءة للإمامة، وكان البعض منهم فقط يصلح لها -ففيهم كلهم كفاءة لاختيار من يصلح لها.

تهرب ذوي الكفاءة في لجنة الشورى من رئاسة الدولة

وكانت الوظيفة سيما رئاسة الدولة عند كل ذي ورع وتقوى تكاليف ثقيلة، وواجبات صعبة، وحسابا عسيرا عند الله، لا حظوظا وغنائم تهفو إليها نفوسهم، وتشره إليها قلوبهم؛ لذلك تدافعها من يصلح لها من لجنة من لجنة الشورى، وأبي قبولها من اختاره أصحابه في اللجنة. فكان كل ذوي الكفاءة يدفعونها عن أنفسهم، ويرى كل منهم أن زميله اقدر على النهوض بأعبائها، وأكثر منه كفاءة لها، فيشير إليه ليقدمه أصحابه، وينقبض هو عنها. وبقي الأمر على ذلك شهرا ولجنة الشورى لم تستطع أن تقنع أحدا من ذوي الكفاءة فيها بقبول الرئاسة لتهربهم منها، وإبائهم لها.

وكان الذين وقع عليهم الاختيار من لجنة الشورى للإمامة، وآثرهم الخاصة والعامة، وتمنوا أن يكون احدهم رئيس الدولة اثنين: مسعود الأندلسي، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم. وكان الميل إلى مسعود الأندلسي أكثر، فعزموا على مبايعته، وإقناعه بكل الوسائل لقبول رئاسة الدولة.

إن عبد الوهاب بن عبد الرحمن لا يقل كفاءة وورعا عن مسعود الأندلسي، إن لم يفضله في الكفاءة العقلية والعلمية، وفي الدهاء والحزم. ولعل ميلهم إلى مسعود الأندلسي وعدم تقديمهم أولا لعبد الوهاب، لخوفهم أن تكون الإمامة شيئا يورث، ووظيفة ثابتة في الرستميين، فيتولى منهم من لا كفاءة له، فينخرم أعظم أصل من أصول الإمامة الإسلامية، والجمهورية الديمقراطية، وهو عدم حصر رئاسة الدولة في عائلة واحدة، وعدم تمسك أسرة واحدة بها، فيصيرون إلى الملكية المستبدة التي يكرهونها، ويثورون عليها. ثم إن مسعود لا قبيلة له تتمسك بالإمارة بعده كما أرى.

اختفاء مسعود الأندلسي هربا من رئاسة الدولة

ولما علم مسعود الأندلسي بما عزموا عليه من مبايعته بالإمامة، وإلقاء أثقال الرئاسة عليه اختفى. ولما ايسوا من قبوله لهذا الأمر، قدموا عبد الوهاب، وأقنعوه، وعرف هو ما تتعرض له الدولة من خطر ببقائها بدون إمام، وبهروب ذوي الكفاءة من رئاستها فقبلها. فاجتمع الناس في المسجد الجامع لمبايعته، فخرج مسعود الأندلسي من مخبئه فأسرع

إلى عبد الوهاب، فشكره على قبوله الأثقال الرئاسة، وتحريره منها، وعانقه في حرارة، وبسط يده فكان أول من بايعه، ثم بايعه الناس كلهم.

ففي أي سنة وقع هذا الحدث السعيد؟ وكيف كانت شخصية الإمام عبد الوهاب، وماذا يقع من الأحداث الجسام في عهده؟ إن تيهرت جذلانة، والدولة الرستمية كلها مستبشرة له. أما هو فتكسو وجهه دهمة من يحس بالثقل الكبير يقع عليه. إنها دهمة لا تكسو وجوه الرؤساء للشعور بالواجب، ومراقبة الله في الرئاسة إلا كانت في سماء الدولة دهمة السحاب الممطر الذي يملؤها بالحياة، ودهمة السحر التي تتكشف عن الصباح، وتلد الشمس المنيرة التي لا يكون ظلام معها!

إمامة الإمام عبد الوهاب 171-211 هـ والأحداث الواقعة في عهده

كانت إمامة الإمام عبد الوهاب في سنة إحدى وسبعين ومائة، بعد شهر من وفاة الإمام عبد الرحمن بن رستم، وعمره لما ولي الإمامة اثنان وخمسون عاما.وكانت الدولة الرستمية غداة وفاة الإمام عبد الرحمن تبكي بكاء الحديقة الزاهرة المثقلة بثمار في طريقها إلى النضوج، فرات عينها الفريدة تطمس، ونبعها الوحيد الذي تستمد حياتها منه تطمه الكثبان، ويخفيه الزلزال الذي غوره في الأرض وركم عليه الأنقاض! وفرحها بولاية الإمام عبد الوهاب فرح تلك الحديقة ترى عينا جديدة أغزر من الأولى تجري انهارا في أنحائها، وتنمرها بحياتها وخصبها.

وسمعت نواحي الدولة الرستمية في المغرب الأدنى وفي المغرب الأقصى بولاية الإمام عبد الوهاب فصفقت طربا، وتعالى هتاف البشر والحبور منها، وأمست المدن والقرى والمساجد والأسواق بهتاف البشر والسرور والتفاؤل كالحدائق التي تعشش فيها العصافير وأنواع الطير المغردة، فأشرقت لها الشمس، فأطلقت حناجرها بالزقزقة الجميلة، والحان الفرح بعودة النهار الضاحي الجميل! فأسرعت القرى والمدن إلى المساجد ودور الحكومة فقدمت بيعتها إلى عمال الإمام عبد الوهاب وولاته، وأرسلت وفودها إلى تيهرت لتعبر للإمام عبد الوهاب عن رضاها بإمامته، وابتهاجها بولايته، وتأييدها له، واستبشارها بعهده السعيد!

وكانت تيهرت وجه الدولة الضاحكة الجذلانة قد فاض من قسماتها من البشر والسرور، وتجمع فيها من مظاهر الفرح والتفاؤل والحبور أكثر مما يكون في النواحي الأخرى التي هي كالأرجل الراقصة، والأيدي المصفقة في هذا العرس الكبير!

وسمعت تيهرت وضواحيها والمدن والقرى القريبة منها بتعيين لجنة الشورى لعبد الوهاب إماما للدولة فهتفت مستبشرة به، وأسرعت إلى المسجد الجامع في العاصمة لتبايعه فغص بها، ولم يتسع لأفواجها على سعته ورحابة أنحائه.

وكان الإمام عبد الوهاب يتصدر جماهير المسجد بجانب المحراب، وحوله لجنة الشورى، والعيون كلها تتجه إليه، والأيدي تنبسط في أكمامها مستعدة لمبايعته. فخرج مسعود الأندلسي من مخبئه وأسرع يشق الصفوف حتى وقف مع لجنة الشورى، فكان أول من بايع عبد الوهاب، فانثال الناس كلهم في حماس وأفراح فبايعوا الإمام رئيسا للدولة أن يلتزم كتاب الله وسنة رسول الله في السياسة والسلوك، وإذا اخل بهذا انتفت إمامته،

وزالت بيعته عن أعناقهم، وأمسى كأحد لناس ليس له عليهم حق السمع والطاعة وتنفيذ ما يأمرهم به! !

حب يزيد ابن فندين للرئاسة وابتدعه شرطا في الإمامة وإفحام الخاصة له وإقصاؤهم له عن وظائف الدولة

وكان يزيد بن فندين مع لجنة الشورى حول الإمام عبد الوهاب إمام المحراب. وكان وجه يزيد كئيبا يدل على عدم الرضا. إنه يتقلقل في مجلسه لا يطمئن كأنه يدافع قيئا يصطخب في جوفه! وكانت له جماعة صغيرة من أتباعه الأنانيين المحبين للوظائف قد انبثت في الجماهير المستبشرة في أنحاء المسجد كسلى الضفادع في الماء النمير! وكانوا متجهمين مثله، وأعناقهم ترتفع مستعدة للكلام لتأييد يزيد إذا تكلم بما اتفقوا عليه! فلما رأى يزيد بن فندين مسعود الأندلسي يتقدم لبدء البيعة انبرى فقال لعبد الوهاب: "نبايعك على أن تجعل في الإمامة جماعة لا تقطع في أمر دون مشورتها"[1] فأيده أصحابه بأصواتهم المتعالية من أنحاء المسجد.

وكان يزيد بن فندين يعلم أن هذه الجماعة إذا رضي الإمام بهذا القيد الذي يغله عن تصريف شئون الدولة إنما هي بقية لجنة الشورى وهو منهم، فيكون له نصيب في الإمامة والسلطان الذي حرم منه! فانبرى له مسعود الأندلسي فصرخ في وجهه قائلا: "لا نعلم شرطا في الإمامة غير أن يحكم بيننا بكتاب الله وسنة نبيه عليه السلام وآثار الصالحين قبله"[2] فاحم يزيد وأتباعه وأخمدهم، وأبطل كيدهم، فلم يسعهم إلا مبايعة الإمام، فقاموا إليه كاهل المدينة فبايعوه، وقام إليه يزيد فبايعه، وهو يرجو وقد فاته أن يشرك في الإمامة، ويكون في مجلس الرئاسة، أن يكون من أركان الدولة، فيسند إليه الإمام ولاية أو وظيفة كبرى ترضي طموحه.

إن يزيد بن فندين لا يريد بشرطه أن يتقيد الإمام بحكم الشورى، لان هذا مما تشتمل عليه الإمامة التي يبايعون بها الإمام، ومما تضمنه شرطهم العام وهو أن يحكم فيهم بكتاب الله وسنة رسول الله وآثار الصالحين قبله وهم الخلفاء الراشدين. فمن سنة الرسول حكم الشورى، ومما جاء به الكتاب نظام الشورى في الحكم.

إن أعضاء مجلس الشورى يختارهم الإمام من ذوي الورع والعقل والكفاءة. ويختار لكل قضية ذوي الخبرة والعلم بها. وكان يزيد يعلم أن كفته في الورع شائلة، وان قلوب

1 - أورد هذا النص الشماخي في السير ص 145 والأزهار في ص 100 ولم نتقيد بعبارة احدهما.

2 - السير للشماخي ص 145.

الخاصة عنه مزورة. لقد رأى كيف أن أعضاء لجنة الشورى تتحاماه، ولا تميل إليه، ولا يذكره أحدكم للإمامة. إنهم قد عرضوها على اغلب أعضاء اللجنة فابوها. أما هو فكانوا يبعدونها عنه كما يبعد الإناء الذي يدور على الشرب إذا وصل إلى مجذوم! إن الإمام سيطرحه، فاشترط هذا الشرط على الإمام، وعزم على الشغب هو وجماعته ليحملوا الإمام بالشغب على تعيين جماعة دائمة تشاركه في كل شئون وظائف دولتهم كل من يرغب فيها، ويتهالك عليها، ويريد أن ينالها بالقوة، انبروا له فاحموه. وبينوا له فساد ما يطلبه، ومخالفة ما يريد ابتداعه في الدين، فأخرصوه. فسكت سكوت القنبلة الزمنية إلى حين. ثم ينتأ نتوء المرض فيستأصله الإمام عبد الوهاب، وتقوم الدولة له فتطهر دماءها منه. وسأورد عليك نبأ شغبه، وقصة تآمره على الإمام عبد الوهاب في أسلوب قصصي يجعلنا نفئ بها إلى الظل ليتجدد نشاطنا للبحث الفلسفي، ونستجم لمتابعة السير في دروب البحث العلمي في الأبواب الطويلة التي تستقبلنا.[1] إنها دروب معطرة بروح الأجداد الزكية وبالأسلوب الأدبي كقباب الصالحين التي يضمخها طيب المريدين، وعطور الأتباع الولهين!

لماذا آثرت الدولة الرستمية الإمام عبد الوهاب فألقت عليه أثقال الرئاسية، وجعلت في يده أزمتها؟ ما هي خصائصه، وما ميزاته؟

شخصية الإمام عبد الوهاب العظيمة
وأسباب مزاياه الحسنة
وراثته الكريمة من أبيه

كان الإمام عبد الوهاب كابية عبد الرحمن في قوة الشخصية، وفي العلم والذكاء وفي الورع والتقوى، وفي الحزم والدهاء، وفي الطموح وحب الكمال، والغرام بالمعالي، وفي الغيرة على الدولة، وعلى الإمام العادلة، والجمهورية الإسلامية الكريمة.

لقد ورث الإمام الوهاب كل خصائص أبيه الحسنة، وورث من أمه أيضا ما ضاعف تلك الخصائص وقواها في نفسه. فكان تلك الشخصية العظيمة التي تسنمت بها الدولة الرستمية ذروة السباب، وبلغت النضوج، ووصلت كل ما تتمناه لنفسها من قمم في العلم والغنى، وفي النظام والحضارة، وحققت كل ما أرادت من الاستقرار

1 - لقد نشرنا هذه القصة في جريدة البصائر في الجزائر في سنة 1954 بعنوان المكيدة. وكتبت بأسلوب أدبي قصصي ونطاق الكتاب وما نلتزمه فيه من البحث العلمي يمنعني من نشرها فمعذرة.

والهناء، ومن اجتماع الشمل وانضمام كل الجمهوريين في المغرب إلى دولتهم الرستمية، ونجاتهم من وطأة العباسيين الذين يطأونهم بالأرجل، وينهالون عليهم بالمخالب والأنياب، ويخضعونهم بالسيوف والكتائب.

أمه ووراثته الحسنة من أخواله

وكانت أم الإمام عبد الوهاب بربرية من بني يفرن من زناتة. وبنو يفرن قبيلة من شعب زناتة، متصفون بالشجاعة الخارقة، وبالعزة والإباء، وبالاعتداد بالنفس لا ينامون على الضيم، ولا يرضون بالهوان، ولا يسكتون على الظلم. وهم قوم محبون للمعالي، طموحون إلى الذرا في كل الأشياء.

وكان بنو يفرن في المغرب من أول القبائل البربرية التي ثارت على ظلم الأمويين والعباسيين، وحررت بقاعها من سيطرة الاستبداد والعصبية والغطرسة، ومهدت لإنشاء الإمامة الإسلامية في المغرب، وقيام الدول الجمهورية العادلة التي أسعدت المغرب وأورثته شبابه، وتمسكا بدينه، ورسوخا في عروبته.

وقد ساعد بنو يفرن في تلمسان وفي شرق المغرب الأقصى ميسرة المضغري في ثورته، وأيدوه في تحرره من قبضة الأمويين التي عسفت المغرب ونبغت عليه. وثاروا على العباسيين، وحاصروا عمر بن حفص في طبنة، وساعدوا أبا حاتم الملزوزي في محاصرة القيروان، وفي القضاء على الملكية المستبدة المطلقة العباسية في المغرب. ولما نشأت دولة أبي الخطاب صفق لها بنو يفرن في طرابلس في جنوب افريقية. فانضموا إليها ونصروها بكل قواهم، وكانوا معها بقلوبهم وسيوفهم. وبنو يفرن هم الذين أشعلوا الثورة في جبال أوراس على العبيديين المستبدين الذين وطأوا المغرب بأرجلهم، وعسفوه وظلموه، وارتكبوا فيه الفظائع والمنكرات. وكان قائد الثورة التي زلزلت دولة العبيديين وأخذت بتلابيب ملوكهم هو أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني.

إن بني يفرن في المغرب من أقوى قبائله، وأشجع أقسامه، وأسرعهم إلى التحرر من الظلم، والثورة على الاستبداد، واحرصهم على أن يعيش المغرب كما أمر الله في ظل العدل والمساواة، والإخوة الإسلامية التامة. وقد أعجب عبد الرحمن بن رستم كما أعجبت أمه الذكية النبيلة ببني يفرن في افريقية وطرابلس فاختارت لابنها زوجته منهم. وآثر عبد الرحمن أن يضم في سلالته خصائص بني يفرن الكريمة إلى وراثته الحسنة، وان يجعل بالمصاهرة بني يفرن أولياءه وعشيرته التي تعزز جانبه، وترفع رأسه، وتحمي ذماره.

وقد امتزجت الدماء البربرية بالدماء الفارسية في الإمام عبد الوهاب، وورث خصائص أبيه الفارسية، وخصائص أمه البربرية، فكان فذا في قوة الشخصية، وفي الذكاء، والشجاعة، وقوة البنيان.

وكان الإمام عبد الوهاب قد ورث جمال الشخص من أبيه، قوة البنيان ومتانة التركيب وطول القامة من أخواله. لقد كان طويل القامة، تام الخلقة. ذكر أبو زكرياء في كتابه "أن للإمام عبد الوهاب مسجدا (بتلالت) في جبل نفوسة كان يصلي فيه ويلقي دروسه أيام إقامته في الجبل. قال أبو زكرياء: "وفي مسجد الإمام بلاطة يتكئ إذا جلس تساوي رأسه، وهي اليوم (في آخر القرن التاسع) تحاذى رأس الواقف".[1]

وكان الإمام عبد الوهاب جميل الصورة، قد اجتمع فيه جمال أبيه الفارسي، والجمال البربري البارع، فكان بهما على صورة رائعة زادت في شخصيته ونباهته، ولفتت إليه العيون. إن أباه في جماله، وفي ذوقه الفارسي، وفي طموحه الملوكي؛ وأمه في حبها لوحيدها، والبربر في كثرة الجمال عندهم. كل هذه تفرض أن تكون أم عبد الوهاب جميلة، وشجرة ورد تجللها حلاها الفتانة من زهورها، وتنجب لنا الورود الرائعة، والسلالة البهية.

بيئته الاجتماعية الزكية

وقد نشأ الإمام عبد الوهاب في حجر أبيه، وأورثته الورع والتقوى والاستقامة والتمسك بالدين، وكل خصائصه الكريمة، فكان على غراره في هذه الصفات، ومن طبقته في تلك الخلال الكريمة.

غرامه بالعلم وبلوغه أعلى الدرجات فيه

وكان الإمام عبد الوهاب مغرما بالعلم كابية، متلهفا إلى المعرفة مثله، لا يسكن قرمه إليها، ولا يفتر حبه للعلم والعرفان. وقد تلقى علومه الابتدائية والثانوية من أبيه ثم اقبل على خزانة كتب والده، وعلى خزائن أهل عصره التي يصل إليها، فدرس كل الكتب النفيسة التي ظفر بها، فكان من علماء عصره، ومن أعلام المغرب في العلم سيما في علم الشريعة. وكان جبل نفوسة على كثرة علمائه ونبغائه يستفتيه علماؤه في المعضلات فيفتيهم. وقد تكون من فتاويه هذه كتابه النفيس (نوازل نفوسة) وهو من الشواهد على غزارة علمه، وسعة باعه في العرفان.

---

1 - السيرة وأخبار الأئمة لأبي زكرياء ج 1 مخطوط بدار الكتب المصرية والسير للشماخي ص 159 ط أولى بالقاهرة تحت رقم 9030 رمز (ح).

وكان العلماء الجمهوريون قد انتخبوا له من نفائس الكتب في المشرق وقر أربعين جملا، فتجرد لها فقراها، فلم يستفد منها جديدا إلا ثلاث مسائل. قال: لو ابتليت بها لتوصلت إليها بالقياس والاستنباط. وذلك لغزارة علمه، وبحبه، وبجده ونشاطه وغرامه بالكمال.

وكانت إقامته في جبل نفوسة لما زارها في آخر عهده في الإمامة سبع سنين كاملة. وكانت اغلب دروسه في الصلاة وفلسفتها، بدون أن يكرر دروسه التكرار الممل، وبدون أن يدور في الموضوع دوران الماء في القمع الضيق ثم ينقطع. وذلك لغزارة علمه، وعمق إدراكه.

انظر إليه وقد انقطع علماء تيهرت والمغرب في المناظرة التي وقعت بين الشيخ مهدي النفوسي والعالم المعتزلي العبقري، فبقي الإمام وحده يفهم ما يقولان، وذلك لأنه من أعلام المغرب في العلم، ومن أقطابه في المعرفة. قال الشماخي: " واجتمع العالمان العبقريان الشيخ مهدي النفوسي والعالم المعتزلي "فتناظرا حتى غاصا بحيث لا يفهم ما يقولان من الحاضرين إلا الإمام، فتمادى بهما البحث خفي عن الإمام وغيره"[1] (وصعب على الحاضرين فهمهما فكان الكلام بينهما كصفق الحجر).[2]

تلك هي درجة الإمام عبد الوهاب الرفيعة في العلم، وذلك هو باعه الواسع في المعرفة.

ذكاؤه العلمي ودهاؤه في السياسة

وكان الإمام عبد الوهاب مع ذكائه العلمي على ذكاء علمي وقاد جعله من كبار الساسة في عصره. وقد استطاع أن يحل المشاكل الكبرى، ويخمد الثورات التي أشعلها العباسيون والملكيون الآخرون بصنائعهم في تيهرت. فلولا براعته في السياسة وذكاؤه الذي مكنه من القضاء على مؤامرات العباسيين وغيرهم، وشجاعته وحزمه، والتفاف الدولة حوله، لاستطاع العباسيون وغيرهم من الملكيين أن ينالوا من الدولة الرستمية التي رفعت رأيه الجمهورية الإسلامية، وأحيت الإمامة العادلة في المغرب.

وقد استطاع بذكائه أن يكتشف مؤامرة اغتياله التي حاكها يزيد بن فندين في براعة بارعة، واستطاع بشجاعته أن يقتل من دس لقتله والقضاء عليه في مضجعه.

1 - كتاب السير للشماخي ص 157.

2 - الأزهار الرياضية ص 123 ط القاهرة.

نفسه العملية وجده ونشاطه واعتماده على نفسه وغناه الواسع.

وكان الإمام عبد الوهاب مع اشتغاله بالعلم عمليا محبا للعمل والكد. وقد اعتمد على نفسه في طلب الرزق، فاحترف التجارة فبرع فيها، فكان في تيهرت من كبار التجار قبل أن يلي الإمامة. وكانت قوافله تغدو وتروح بأنواع البضائع إلى كل الجهات فاغتنى. وكان قبل أن يلي الإمامة من كبار الأغنياء، فأضفى على أبيه وعلى أسرته الغنى الواسع الذي جعلهم في غنى عن بيت المال، ولا يحتاجون إليه احتياج الفقراء، ولا يتطلعون إلى عطائهم منه كما يفعل المحتاجون. وقد قال عن نفسه يصف غناه الواسع، وما يجب عليه في كل زكاة في تجارته وأمواله: "لو لم يكن في الدولة الرستمية إلا أنا، وابن زلغين، وابن جرفي، لأغنينا بيت مال المسلمين بما يجب علينا من الزكاة"![1]

إن ورع الإمام عبد الوهاب وأنفته، وطموحه، وعزة نفسه، وهو ابن إمام الدولة ورئيسها، أبى عليه أن يعتمد على دخل والده من بيت المال، وان يكتفي به، ويترك أسرته عالة على والده الإمام؛ كما أبى وظيفة الدولة التي تدر عليه بالكفاف. فخاض ميادين التجارة التي أكسبته المال الواسع، والخلق المتين، والتجربة الحسنة التي وسعت علمه، وبصرته وكانت أسرته مثالا في العفة والنزاهة والاستغناء عن بيت مال المسلمين.

إنه لم يكن كأبناء الملوك الذين ينشأون في خزائن الدولة يرتعون فيها كما تنشأ اسماك الزينة في القوارير، لا تعتمد على نفسها، بل هي عالة على من حولها!

عفته وورعه

وكان الإمام عبد الوهاب مثالا للعفة والنزاهة والاستقامة والتمسك بالدين في تجارته، لا يرضى أن يدخل يده درهم واحد حرام.

وكان ابنه افلح قد اتجه إلى الأدب والرياضيات في مطلع شبابه، فلم يتخصص للشريعة فيتقن أبواب البيوع كل الإتقان. قال الشيخ الباروني: " فعزم افلح على التوجه إلى (كوكو) في السودان في حياة والده للتجارة. ولما هيأ نفسه وبرز برحله، خرج إليه والده، فوقف له بباب المدينة، فصار يسأله ويناقشه في مسائل الربا، والبيع والشراء؛ حتى غفل في مسألة وأجاب فيها بغير الصواب. فقال له: ارجع يا بني حتى تستعد لهذا الأمر وإلا أطعمتنا الحرام من حيث لا ندري! فرجع".[2]

1 - الأزهار الرياضية ص 137 ط القاهرة.

2 - الأزهار الرياضية ص 195 ط . القاهرة.

إن الإمام لم يأب الخروج على ولده إلى السودان تدليلا أو اكتفاء بماله، ولكن ورعا وخشية أن يخطئ افلح من حيث لا يدري فيطعمهم الحرام.

شجاعته وقوة قلبه

وكان الإمام عبد الوهاب شجاعا بطلا قوي القلب. لقد نشأ في عهد كان المغرب فيه على عراك مع العباسيين ليتخلص من ظلمهم واستبدادهم وجبروتهم وعصبيتهم. وكان الجمهوريون في المغرب الأدنى يستعدون لإنشاء دولتهم. انه جو ملتهب متأجج بالحماس، يخلق الشجاعة في القلوب، ويؤجج البطولة في النفوس، ويذكي وراثة قوية كوراثة عبد الوهاب في الشجاعة من أبيه وأخواله، فتكون خلقا راسخا، وجلبة كاملة في صاحبها. وشارك عبد الوهاب في شبابه في إنشاء دولة أبي الخطاب. ثم لبس السلاح فكان من جنودها الشجعان، ومن حماتها المخلصين. ولما فتح أبو الخطاب القيروان كان عبد الوهاب مع أبيه عبد الرحمن في جيش أبي الخطاب، فظل مع أبيه في ولايته على افريقية والمغرب الأوسط يشد أزره في شئون الولاية، ويعينه في كل ما يستطيعه من مهمات الإمارة.

ورأى عبد الوهاب دولة أبي الخطاب يقضي عليها العباسيون، ويتأجج المغرب الأدنى نارا على الجمهوريين، ويرتد الأصدقاء أعداء، وينقلب الزمان، فتصير الأيام عليهم مع العباسيين تلبس السواد، وترتدي باللون الحالك! فلم يهن قلبه! فخرج مع أبيه عبد الرحمن إلى المغرب الأوسط ليجددوا الدولة الجمهورية فيه. وكان يحرس أباه في طريقه. ولما ماتت فرس أبيه، وضعف عن المشي السريع في الرمال وفي الصحاري، كان يحمله مع غلام أبيه. فقال للغلام: إن أدركنا من جيش ابن الأشعث ما دون المائة فارس فلا تضع الشيخ عبد الرحمن. وأنا أكفيكما أمر قتالهم! إنه لشجاعته وبطولته، يقف في وجه مائة من الفرسان الملكيين! لا يهاب ولا يخاف، ولا يضعف عن قتالهم، وردهم خاسئين!

وكان عبد الوهاب مع أبيه عبد الرحمن في جبل سوفجج، وكان مستعدا لخوض الحرب لو وقعت بينهم وبين ابن الأشعث الذي حاصرهم. وكان مع أبيه في حربه مع عمر بن حفص. لقد تجرع مع أبيه مرارة كل المكاره، وحضر كل المعارك، فأورثه ذلك صلابة في العود، ومتانة في الخلق، وضاعف شجاعته وبطولته.

وكانت الأسفار التي كان يقوم بها في التجارة، وحمايته لقوافله في الطرق المخوفة، وما تستلزم التجارة من تعب وكد ومغامرة. كل هذا أورثه قوة في النفس، ومتانة في

الخلق، فكان ذلك الجبل الصلد الذي تلقى عليه الأعباء الثقيلة فلا يضعف، وتهب عليه الأعاصير، وتنقض عليه الصواعق، فلا تزيده إلا صلابة وقوة وثباتا.

لقد تجرع عبد الوهاب كل مرارة مع أبيه. وكان عضده الأيمن في إنشاء الدولة الرستمية، وفي النهوض بأعباء الإمارة والإمامة الثقيلة. وقد اكتسب حنكة، وتجربة، ودراية بشئون السياسة، وبراعة في الإدارة بإعانته والده في مهمات الدولة. فاتجهت إليه الأنظار من أنحاء الدولة في عهد والده، ورشحته الخاصة والجماهير الكثيرة لتولي الإمامة بعد أبيه.

ولشجاعة الإمام عبد الوهاب استطاع أن يقتل الفاتك الشجاع الذي دسه ابن فندين لقتله في مضجعه، وان يقضي على كل الثورات التي كان صنائع الملكيين يضرمونها في عاصمته، ليصدعوا بذلك الدولة الجمهورية، ويقضوا على الإمامة الإسلامية في المغرب. فلولا شجاعته ومضاؤه وقوة قلبه لاستطاع العباسيون والملكيون الآخرون من بني خزر في تلمسان أن يقضوا على الدولة، ويبلغوا مرادهم في الجمهورية الإسلامية.

تواضعه ودماثة خلقه

وكان الإمام عبد الوهاب مع قوة شخصيته، وعلمه، وغناه الواسع، وجاهه العريض، وشجاعته، ومتواضعا كل التواضع، ويتقبل النقد النزيه من كل الطبقات، وهو إمام ورئيس لأكبر دولة في المغرب. وقد رأينا كيف قبل بصدر رحب نق أبي عبيدة عبد الحميد الجناوني الذي كان عاصفا وعنيفا كل العنف مع الإمام، وكيف رفع منزلة أبي عبيدة لنقده له، وشجاعته معه. وكان لتواضعه يجلس كل يوم بين العصرين والعشاءين في المسجد الجامع فيتصل به كل إنسان، ويرفع إليه ظلامته كل مظلوم وكان يختلط بشعبه كل الاختلاط. وكان هو إمام الصلاة في المسجد الجامع. وكان شعبه يراه خمس مرات في اليوم. وكان يلقي الدروس العامة في الوعظ والإرشاد في المسجد، والروس الخاصة على التلاميذ في العلوم. لا يتكبر، ولا يتعالى ولا يركن إلى الراحة والملاذ كالملوك.

وكان بشوش الوجه للناس، ودمث الأخلاق مع الرعية، خافض لجناح للضعفاء، رءوفا بالبائسين والفقراء. لا يعبس إلا في وجوه ذوي المعاصي، وعلى المتكبرين الذين يراهم دخانا فيشيح عنهم ويعبس لهم.

حبه للعمل ومزاجه الجدي النشيط

وكان الإمام عبد الوهاب عمليا لا لذة له إلا في العمل. فإذا أنجز مهماته الرسمية، وبقي له وقت فراغ فانه يقضيه في دراسة الكتب، أو في التدريس للتلاميذ، أو في العبادة. لا يعرف الليالي الحمراء التي يعكف عليها الملوك العباسيون والاغالبة في عصره ولا المجون والاستهتار الذي كانوا ينغمسون فيه. إن دينه هو الذي يعين له حظوظه، ويخلق له ملذاته. والدين يأمر بالبر والإحسان، وبالعمل الصالح، واغتنام العمر فيما يرضى الله، وقضاء الدنيا في بناء الآخرة! وكان الإمام يجد لذته في هذه الأبواب، ويرى متعته في هذه الفنون من البر. وإذا اقبل على حظوظ نفسه ففي دائرة الدين وفي نطاق الحلال المباح.

هذه هي شخصية الإمام عبد الوهاب العظيمة، وتلك هي خصائصه الكريمة، ولتلاك الخصائص رغبت فيه كل طبقات الدولة فألقت عليه أعباء الرئاسة، وأثقال الإمامة. إن كفاءة وحدها هي التي رفعته في العيون، وجعلت لجنة الشورى تتجه إليه، والخاصة والعامة في الدولة ترتضيه رئيسا لها، لا عرقه، ولا ماله، ولا عرض آخر من الأعراض التي يرتفع المرء في الدول الملكية المستبدة التي لا تتقيد بالدين والورع في اختيار الرؤساء، وانتخاب الموظفين!

اختيار الأجهزة للدولة واشتراطه الورع والكفاءة في الموظفين

وكان الإمام عبد الوهاب عند حسن ظن شعبه به. فشمر عن ساعده لخدمة الدولة فعين الموظفين لثغوره كلها من ذوي الصلاح والكفاءة، ومن يكون خادما للرعية، قيما عليها، ناصحا لها، لا يتكبر ولا يتجبر، ولا يحتجن ة يستأثر، ولا يحابي أحدا لقرابته، ولا يقبل الرشوة في عمله، ولا يقصر في وظيفته. إن المفتش الذي يراقبه ويخشاه، والمدير الذي يحاسبه ويرهبه إنما هو الله الذي لا تخفى عنه خافية، فخوفه من الله هو الذي يدفعه في الأعمال، ومراقبة الله وخشية عقابه هي التي تبعثه على النصح الإتقان، واحتساب اجر الله في وظيفته، والتقرب إلى الله بخدمة عباده، وابتغاء رضي اله بتقوية الدولة التي ترفع راية العدل والدين، وتسعد لتمسكها بشريعة الله كل المسلمين، هو الذي يحفزه لبذل الجهد وعدم التقصير.

وكان موظفو الدولة الرستمية مثل أمامهم مثالا في التواضع للناس، والرحمة للضعيف، والرأفة على الفقير، وفي الإسراع إلى الملهوف فيغيثونه، والى المنكوب المحتاج فيقضون حاجته. لا يعبسون في وجه احد، ولا ينتهرون أحدا، ولا يشمخون شموخ الملوك كما يفعل الموظفون الذين تنتقيهم الدول المستبدة المتجبرة من فقاقيع الصابون ولا

يغشون في عملهم، ولا يتركون ذوي الحاجات متقاطرين على أبوابهم، وهم متكئون على الأرائك يرشفون الكأس الشهي، أو يبادلون الأصدقاء الحديث الممتع، أو ينتظرون الدهن الغزير لأقفالهم الصدئة لتنفتح لذوب الحاجات. إن هذا يقع في الدول الملوكية المستبدة التي لا تراعي مصلحة الشعب، ولا تعين لوظائفها إلا الضعفاء الذين يصفقون لها. أما الدول الجمهورية كالدولة الرستمية، فإنها لا تعين لوظائفها إلا الأكفاء الأتقياء ولا تسد ثغورها إلا بخيرة رجالها، واكبر نبغائها، ولا تراعي في اختيار أجهزتها إلا مصلحة الشعب وحدها.

كانت أجهزة الدولة الرستمية على هذا الصلاح، وكان الإمام عبد الوهاب ينتقي موظفيه ويشترط فيهم الورع والتقوى، والكفاءة والنبوغ، والنزاهة من الغش والأنانية.

وكان الإمام عبد الوهاب كما كانت الدولة الرستمية كلها تبعد عن ثغورها كل امرئ يرغب في الرئاسة، ويتهالك على الوظيفة، ويتخطى الرقاب إليها، لأنه لا يليق للوظيفة، ولا يقوي الدولة، ولا تسعد به الرعية. إنه يرى الوظيفة سببا لإشباع غرائزه ونيل حظوظه الخاصة، فينتفش إذا نالها ويتجبر، وينتفخ انتفاخ الإسفنجة إذا وضعتها في الماء، لان أقوى شيء فيه إنما هي طبيعة الامتصاص.

وكان انتفاء الإمام عبد الوهاب للموظفين، وإبعاده لكل من لا يمتلئ بالصفاء ولا يتصف بالتقوى، ولا يتوجه الورع عن وظائف الدولة وإن كان خاله كيزيد ابن فندين، أو قريبه، أو ذا بيت وجيه، هو الذي آثار عليه يزيد بن فندين، والأنانيين الذين انضموا إليه. وكانوا يرجون أن يسد بهم الإمام ثغوره، وكانوا عند أنفسهم سيوف الهند المشرقة يرغب فيهم الإمام، ولكن الإمام لخلوهم من الصفاء، ولأنانيتهم وتهالكهم على وظائف الدولة لم يرهم -رغم علمهم وسعة رفهم- إلا وتدا صدئا متآكلا قدار تحل أهل الحي فزهدوا فيه فتركوه للصدأ سائخا في التراب، لا يليق حتى لربط الدواب، فاطرحهم واعرض عنهم فثاروا عليه. إن ثورة يزيد بن فندين في تيهرت، وثورة خلف بن السمح عليه في جبل نفوسة، سببها تمسك الإمام عبد الوهاب والدولة الرستمية كلها بهذه القاعدة: اطراح من يرغب في الرئاسة، وإبعاد كل من يريد أن يصل إلى وظيفة من وظائف الدولة بالقوة، لأنه عديم الورع لا يليق، ولان دولتهم جمهورية لا تنال الرئاسة والوظائف فيها بالجبر والقوة. إن الاختيار الحر النزيه والانتخاب المطلق النظيف هو الذي يقدم الرئيس للإمامة، والموظفين للوظائف التي ينهضون بثقلها.

وسار الإمام عبد الوهاب في طريق أبيه عبد الرحمن. وكان على مثل عدله في الحكم،

والتمسك في كل أموره بالدين، وعلى مثل طموحه إلى أن تكون الدولة الرستمية أعظم دولة في المغرب، واسعد دولة إسلامية في ذلك العصر، ومظهرا مشرقا جميلا للإمامة الإسلامية والجمهورية العادلة التي قتلها الملكيون المستبدون في المشرق وصاروا يتخذون كل وسيلة لتشويه سمعتها والقضاء عليها في المغرب، فتم له ما أراد وأراد أبوه من قبله، وأرادته الدولة الجمهورية كلها معهما لنفسها، فبلغت نضوجها في أيامه، وتحققت كل مثلها العليا في عهده السعيد. فما هي هذه الغايات التي بلغتها، ولم ثارت الزوابع في الدولة في أول عهده. أترى ذلك الغبار ما يكون بقحولة المكان الذي يكثر ترابه، فيثور بع غبارهن أم هو الغبار الذي يرتد على السيارة التي تنهب الفلوات إذا وقفت لبلوغ الغايات؟![1]

ما هي أسباب تلك الزوابع؟ إن المؤرخين الملكيين المتعصبين الذين ينظرون بمنظارهم الأسود إلى الدولة الرستمية! والى الدول المغربية الإسلامية العادلة، كدولة بني مدرار، والدولة الإدريسية، ويدرسون تاريخ الدولة الرستمية الجمهورية العادلة على سوا الحقد والعصبية، وبغض الإمامة الإسلامية، لينفخون في الزوابع التي هبت في أول عهد الإمام عبد الوهاب، والقلاقل التي حدثت في عاصمته، فيجعلونها علامة على عدم استقرار الدولة، وآية على سخط الشعب على رؤسائها، وبرهانا على أن الأمازيغ لا يلتزمون الهدوء والنظام، ولا يستسيغون الاجتماع والوئام. إن هذا هراء لا يقوله إلا من يحصر نظره في خال الحسناء في خدها، وهي قمر مشبوب يكسف القمر، وشمس الحسن التي تكسف شمس النهار. إنها أكثر إشراقا وحسنا ونضارة من آنة اللقاء التي يحظى بها عاشقان أضناهما البعد والهيام. ثم يقول لها أيتها الباذنجانة السوداء! إنما أنت حبر أريق في قرطاس! لا إشراق فيك، ولا بياض في نواحيك! فيعكف في السواد عكوف الذبابة على الجرح لا تفارقه! !

إن تاريخ المغرب كله، وتاريخ الدولة الرستمية بالخصوص لإحيائها للإمامة الإسلامية العادلة، وانفصال اغلب المغرب بها عن ظلم الملوك واستبدادهم وغطرستهم قد ابتلى بهؤلاء المؤرخين الملكيين المتعصبين فشوهوا تاريخنا، وملأوا كتب التاريخ القديمة التي وصلتنا بترهاتهم! ! والعجب الذي لا ينقضي أن نرى بعض المؤرخين المغاربة المحدثين يغرفون من تلك الترهات فيرددونها في كتبهم، فيعقون أجدادهم، ويشوهون صفحة مغربهم! إنهم لتقليدهم وعدم تبصرهم حاطب ليل، يجمع الأعواد والأفاعي، وملتقط الجراد في غسق الدياجي، يجمع من تحت الصخور حتى العقارب والصلال!

1 - لسيارة: السائر في الطرق المتربة يكون الغبار وراءها، وإذا وقفت رجع عليها.

لم ذلك الغبار الذي ثار في عهد الإمام عبد الوهاب. اهو عجاج البخور الساطع في مخدع العروس؟ أتلك الضوضاء صراخ الحسناء يعصف الهيام بعاشقها فيعض خدها وعنقها؟ لا وربك. إنه غبار الزوبعة! فما هي عواملها؟ وما حقيقتها؟

الأسباب النفسية والخارجية للزوابع الثائرة في الدولة الرستمية

الأسباب النفسية لتلك الزوابع

إذا كان عهد الإمام عبد الرحمن عهد ميلاد الدولة الرستمية وفتوتها، فان عهد الإمام عبد الوهاب عهد شبابها ونضوجها، ووصولها كل ما رمت إليه واستهدفته من الغايات السامية في كل النواحي، فأصبحت الدولة الرستمية بعلمها وغناها، وعدلها ودينها وحضارتها اكبر دولة في المغرب! فانقطعت عنها أطماع العباسيين، وصاروا يرهبونها، ويخشون سطوتها. فبادر روح بن حاتم والى العباسيين في القيروان فأكد مع الإمام عبد الوهاب معاهدة حسن الجوار والمسألة التي كان قد عقدها مع والده عبد الرحمن.

وكانت الدولة الرستمية لقوتها وهيبة جيرانها لها تتمتع بالهناء الكامل، والاستقرار، والأمن التام من كل الأعداء في الخارج. وكانت بسعة الغنى واليسار، وتدفق النعم والأموال، في العيش الرغيد، والحياة النضيرة، والأيام الباسمة. وقد تحقق في عهد الإمام عبد الوهاب لكل الطبقات في الدولة الرستمية ما تصبو إليه، فانعدم الفقر الذي يشغل العقول بالحاجة فلا تطمح إلى الرئاسة، والخوف الذي يملأ القلوب فلا تنزع إلا إلى ما يقويها ويؤمنها من العدو، فتتحد وتتكتل لتصرع عدوها، ويخشى جانبها.

حسنات العدو الخارجي ونعمته على الدولة

إن الخوف من العدو الخارجي، ووجود عدو يهدد الأمة من الخارج، هو الذي يجمع صفوفها، ويوحد كلمتها، ويجعلها صفا مرصوصا يقف في وجهه، وسدا متماسكا يدرأ خطره عنها، وإذا أمنت الأمة وهنات، واستقرت، فان الفتن الداخلية تعشش فيها، والأمواج العاتية تتكون في داخلها، وتثور الحزازات في قلوب أبنائها فيتصارعون، وتنكمش غريزة الخوف التي كانت تسير كل الغرائز في طريقها، فترى لكل امرئ أخاه وابن أمته عضده وسلاحه في دفع الخطر والنجاة من الهلاك، وتنطلق الغرائز الأخرى، غريزة الظهور التي تخلق حب الرئاسة والتحاسد عليها في النفوس، وغريزة حب الاقتناء، والغرائز الأخرى التي تخلق الحسد والعداوة، فتصاب الأمة بالإعصار الداخلي الذي يفرق صفوفها، ويصدع بنيانها.

وإذا كان مع الأمن والاستقرار الغنى الواسع الذي يورث البطر، ويخلق حب الرئاسة، ويرفع رأس المرء فيأنف من الخضوع لسواه، فان الفتنة الداخلية حينئذ تجد زنادين يشعلانها، وبابين تدخل منهما.

إن الفتن الداخلية التي تكونت في الدولة الرستمية في أول عهد الإمام عبد الوهاب سببها الاستقرار، والأمن، وعدم الخوف من العدو الخارجي الذي كان يهددها وهو العباسيون، فلو خافت لا تحدث. وسببها أيضا الغنى والبطر الذي أصاب بعض القبائل منها، ثم هذه الحرية التامة التي يتمتع بها كل فرد وكل طائفة في الدولة حتى استطاع المعتزلة فيها وهم أقلية أن يناظروا الإمام عبد الوهاب في مذهبه وهو مذهب الجمهور في المغرب وفي الدولة الرستمية، ويشمخوا على الإمام، ويتمردوا، ويحاولوا الانفصال، وبث الفتنة في الدولة وتهديمها!

إن الفتن الداخلية التي وقعت في هذا العهد، دليل على القوة الدولة الرستمية، واستقرارها، وأمنها وغناها! إنها مرض الغنى بالتخمة والراحة، لا مرض الفقير بالهزال وشدة العناء.

الأسباب الخارجية للفتن الداخلية في الدولة الرستمية

والسبب الكبير للفتن التي وقعت في الدولة الرستمية، سيما فتنة المعتزلة، وفتنة مقتل ابن عرفة في عهد أبي بكر بنن افلح رابع أئمة الدولة، وفتنة محمد بن رباح وزميله في عهد أبي حاتم سادس الأئمة الرستميين، سببها هو كيد العباسيين الملكيين الذي عجزوا عن القضاء بالسيف على الدولة الرستمية التي رفعت راية الإمامة الإسلامية وأحيتها، وكسفت الملكية المطلقة بمحاسن الجمهورية الإسلامية وعدلها ودينها، فحاولوا بكل الوسائل القضاء عليها بالكيد والدس وإثارة الفتن فيها.

إن ترحيب الدولة الرستمية بكل المسلمين، وفتحها أبوابها لكل الناس، وتمتع كل الناس فيها بالحرية التامة في نطاق الدين الإسلامي الذي هو دستورها، قد مكن العباسيين من إرسال طوائف كبيرة من جواسيسهم وصنائعهم فاستقروا في الدولة الرستمية، سيما في تيهرت العاصمة، فصاروا يغتنمون الفرص لبث الفتنة، ويستغلون كل الأسباب لإشعال النار فيها. إن فتنة مقتل ابن عرفة أذكاها وقادها العباسيون والملوكيون الآخرون الذين يعادون الإمامة الإسلامية، ويعملون في الخفاء للقضاء على الدولة الرستمية التي أحيتها في المغرب، ما قضوا عليها في المشرق؛ وكذلك فتنة محمد بن رباح.

أما فتنة المعتزلة فأثارها ملك بني خزر الزناتي في تلمسان، ومحمد بن إسحاق الأوربي في (وليلي) كما سيأتينا. وأذكاها العباسيون الذين كانوا في العاصمة وفي كل أنحاء الدولة الرستمية، ويرقبون سيرها،م ويضعون الصخور والهوى في طريقها لتتعثر فتسقط فيجهزوا عليها. إن كرههم الإمامة الإسلامية هو الذي يبعثهم على ذلك الكيد.

إن الاستقرار في الدولة الرستمية وأمنها لقوتها، والبطر بالغنى وسعة اليسار، وحب الرئاسة في بعض أبنائها، والطابور الخامس الملكي الذي سكنها، والحرية الكاملة التي وهبتها لكل طارئ ولا جئ في حدود الدين، وترحيبها بكل الناس، فدخلها واستقر فيها حتى أعداؤها الملكيون الذي ينصرون الملكية المطلقة ويتعصبون لها، هي أسباب تلك الفتن الداخلية التي كانت في فترات قصيرة من تاريخ الدولة الرستمية. ثم كان اغلبها في العاصمة محصورة فيها لم تنتشر عدواها إلى النواحي الأخرى.

وكان أول تلك الفتن التي كانت باستقرار الدولة وأمنها، وبغناها الذي سول حب الرئاسة لبعض أبنائها، فتنة يزيد بن فندين فمن هو يزيد فندين؟ ولماذا تصلب معه الإمام عبد الوهاب، وتصلبت الدولة كلها معه فأخمدته، وقضت عليه ولم تسكته بما يريد من وظائفها؟

فتنة يزيد بن فندين وسبب شدة الدولة عليه

كان يزيد بن فندين من علماء تيهرت وأذكيائها، ومن الشخصيات البارزة في زناتة سيما في بني يفرن[1] الذين كان جمهور كبير منهم في تيهرت.

وكان يزيد جريئا طموحا، محبا للرئاسة والظهور، مغرما بالمناصب التي تشبع غرائزه، ويسترضي بها أتباعه وصنائعه. انه وإن كان في العلم وقوة الشخصية في درجة العلماء الذين اختيروا معه للجنة الشورى، ولكنه كان اقل منهم في الورع والصفاء ونكران الذات، وهيب الصفات التي يرتفع بها العالم في الدولة الرستمية، ويجعل النفوس تجله، وأبواب وظائفها تتفتح له.

وكان الإمام عبد الرحمن قد جعل يزيد بن فندين في لجنة الشورى لبروز شخصيته ومحله الكبير في قومه زناتة وبني يفرن؛ فان اغلب زناتة كانوا بداة بسطاء في الدولة الرستمية، فيسوءهم أن يؤخر رئيسهم وعالمهم الجليل فلا يكون في لجنة الشورى التي تختار رئيس الدولة، فجعله الإمام في اللجنة جمعا لكلمة الأمة، وسدا لباب الخلاف.

1 - بنو يفرن قسم من زناتة.

وتطييبا لكل القلوب. ولم يعينه في اللجنة لأنه يليق للإمامة، أو لرضاه عنه. إن أعضاء اللجنة قد تحاموه فلم يعرضوا عليه الإمامة لمعرفتهم به. ولا يمكن أن يجهل الإمام دخله يزيد التي يعرفها كل خاصته.

وكانت لجنة الشورى تعرف طوية يزيد بن فندين، وأنانيته، وتعصبه لقومه، وقلة ورعه، فتحامته في جلساتها، فلم يعرضوا عليه الإمامة كما عرضوها على اغلب الأعضاء في اللجنة، فساءه هذا وجرح خاطره، وزاده حبا للرئاسة، وتمسكا بالظهور.

وكان يزيد يميل في اللجنة إلى عبد الوهاب لان أم عبد الوهاب يفرنية. فبوده أن يولى هو الإمامة بعد أبيه. إن أنانيته التي أورثته التعصب لأقاربه هي التي جعلته يجنح إلى عبد الوهاب، ويعدل عن مسعود الأندلسي الذي يميل إليه اغلب أعضاء اللجنة. إن ادعاء يزيد بن فندين بعد ذلك أن عبد الوهاب قو تولى الإمام وفي الدولة من هو أكثر كفاءة منها، يدلنا على أن أطماعه وعصبيته كانت تلفته إلى عبد الوهاب لا الإعجاب بكفاءته وحدها كما كان أعضاء اللجنة لما قدموه للإمامة.

وكان يزيد بن فندين يرجو أن تلفت صلة الخئولة التي تربطه بعبد الوهاب الإمام عبد الوهاب إليه، فيسد به ثغرا من ثغوره الكبرى، ويوليه على ناحية من نواحي الدولة المهمة، من يدري لعله كان يتمنى أن يعرف له الإمام ميله إليه في اللجنة، ويراعي صلة خئولته فيوليه على شمال تيهرت الخصب الجميل الذي كان فيه اغلب قومه زناتة إن ما تنم عليه سيرة يزيد من عصبية وأنانية، لتجعله يرى انه أحق بالولاية على مناطق قومه من غيره، وان والي كل ناحية يجب أن يكون من جمهور سكانها، ومن أبناء القبيلة التي هي الأغلب في تلك الناحية. ولكن الإمام عبد الوهاب كان يتمسك بالإمامة الإسلامية وروحها، وبالدين الإسلامي الذي هو دستور الدولة، وصلبها الذي تقوم عليه. فاختار لوظائف الدولة ذوي الصلاح والورع والكفاءة، فاطرح يزيد واضرابه الذين يرون وظيفة الدولة مغنما، والولاية على النواحي حظا حسنا، فيرغبون فيها. فصدم يزيد وأمثاله من الأنانيين وخاب رجاؤه في الإمام، فثارت ثائرته، وعزم على هدم الإمام عبد الوهاب، والوصول إلى ما يريد لنفسه من رئاسة ولإتباعه من وظائف الدولة بالقوة. فجند أتباعه، وعزم على الشر، ولكن الإمام عبد الوهاب والدولة كلها هبت فأخمدت فتنته، واستأصلت حزبه، وجعلته عبرة لغيره.

لماذا آثرت الدولة الرستمية وآثر عبد الوهاب ومجلس الشورى الذي يستعين به في حل مثل هذه المشاكل استعمال العنف مع يزيد بن فندين، وخوض المعارك التأديبية معه، وسفك الدماء الغزيرة لإطفاء فتنته؟

إن يزيد بن فندين باغ معتد، قد تعدى حدود الله، فالدين وهو قانون الدولة يجيز قتاله، ورده إلى الجادة بحد السيوف، وتأديبه بالكتائب المدوية لا بالكتب الهادئة؛ ولكن هناك مؤرخون تمنوا لو أن الإمام عبد الوهاب استرضى ابن فندين بإسناد وظيفة إليه، وتحقيق غرضه بإقامته واليا على ناحية من نواحيه.

إن الإمام عبد الوهاب لم يكن وحده في حل مشكلة يزيد بن فندين بالحسام، بل كان مجلس الشورى وخاصة الدولة كلها معه. فما فعله مع يزيد بن فندين يمليه مزاج الدولة واتجاهها، والأصول التي قامت عليها.

تمسك الدولة بالإمامة الإسلامية هو سبب شدتها مع ابن فندين وخلف ابن السمح

إن الدولة الرستمية تقوم على الإمامة الإسلامية والجمهورية التامة. وهذه تأبى أن يتوصل احد إلى وظائفها، واو إلى رئاستها بالقوة. إن الصلاح والكفاءة ورضى الدولة عن الشخص لاستقامته وكفاءته هو كل ما يقدمه إلى وظائفها ورئاستها، لا القوة، ولا المال، ولا عرض آخر من الأعراض التي يتقدم بها الشخص في الدول التي لا تتمسك بالدين، ولا تقوم على الإمامة الإسلامية.

إن الدولة الرستمية لا تولى وظائفها، ولا تسد ثغورها إلا بذوي التقوى والورع والكفاءة. أولئك الذين يرون الوظيفة واجبات صعبة، وأثقالا ثقيلة، لا مغانم وحظوظا لذيذة.

مقت الدولة الرستمية لمن يحب الرئاسة ووظائفها وإبعاده عنها

إنهم يكرهون من يحب الرئاسة، ووظائف الدولة، ويطلبها، ويتهالك عليها، لأنه عديم الورع، ضعيف الدين، تتسلط عليه غرائزه لا عقله، وأنانيته لا دينه. وإذا تخطى الرقاب إلى وظائف الدولة أو رئاستها، وأراد أن ينالها بالقوة، ويصلها بالعنف كما فعل يزيد بن فندين وخلف بن السمح،[1] فان الجمهوريين في الدولة الرستمية يهبون كلهم إليه، ويثورون عليه، فيطردونه عن وظائفهم وكل ثغورهم كما يطرد الذباب عن العيون إذا أراد أن يحتلها ليكون سوادها !

إن الدولة الرستمية حرب على الملكية.[2] وأساس الملكية المستبدة هو حب الرئاسة.

---

1 - خلف بن السمح ثار في جبل نفوسة في أول القرن الثالث في آخر أيام الإمام عبد الوهاب، وأراد أن يكون واليا على الجبل بالقوة، فخاضت معه الدولة حروبا طويلة هائلة حتى أخمدت فتنة، وجعلته عبرة لسواه.

2 - إذا قلنا الملكية فتزيد الملكية القديمة المطلقة المستبدة التي لا تتقيد بدين ولا دستور، وقد وقى الله مغربنا في هذا العصر منها.

فحب الرئاسة؟، وحب النفس، والأنانية، وهو أساس الملكية المستبدة المطلقة. وإذا غضت الدولة الرستمية الطرف في وظائفها فصارت تنال بالقوة، فان هذا سيتسرب إلى الإمامة ورئاسة الدولة فتطمح إليها النفوس فتنالها بالقوة، فتزول الإمامة الإسلامية التي هي أصل الدولة الرستمية، وأعظم شيء حققوه للمغرب فسعد به، واكبر مثل أعلى لهم أبرزوه إلى الوجود، وانتوه بدمائهم ودماء إبائهم وأجدادهم، وضحوا فيه بكل عزيز وغال.

إن الدولة الرستمية لا تقدم إلى وظائفها وثغورها إلا الأكفاء. وأول الكفاءة التقوى والورع، والزهد في الرئاسة. إنها حرب على من يريد وصولها بالقوة، لان هذا يؤدي إلى أن يكون الوصول إلى رئاسة الدولة أيضا بالقوة. لهذا أبى الإمام عبد الوهاب، وأبى مجلس الشورى، وخاصة الدولة كلها أن تخضع ليزيد بن فندين، ولخلف بن السمح الذي سلك طريقه بعده، وأراد أن يكون والي جبل نفوسة بالقوة، وخاضت معهما حربا طويلة حتى استأصلت جذورهما، وجعلتهما عبرة لغيرهما، لو آثرت الدولة الهوينا، وتصرفت تصرف الضعفاء، فاسترضت يزيد بن فندين وخلف بن السمح بإنالتهما ما يريدان من ولاية ووظائف عالية، لفتحت اكبر باب للشر على نفسها. إن وظائفها تكون نهبا للأقوياء والأنانيين الذين يظلمون ويجورون، ويخربون الدولة، ويسرعون بها إلى القبور، ويقضون على أصل الإمامة، وعلى روحها وجوهرها الذي هو العدل، والمساواة، والتمسك في السياسة بالدين! هذه الحقائق الثلاث للإمامة لا تكون إلا إذا كانت أجهزتها نظيفة، وثغورها وأمورها في يد موظفين يسيطر عليهم الدين، ويفيضون بالورع والتقوى.

إخماد الدولة لفتنة ابن فندين واستئصال جذورها بالسيوف

وثار يزيد بن فندين على الإمام عبد الوهاب، وجمع عصابة من الأنانيين والجهلة حوله، وادعى أن إمامة عبد الوهاب غير صحيحة لان في الدولة من هو اعلم منه، وراح يبث هذه الترهات، ويثير الفتنة في العاصمة. فنصحه الإمام وخاصة الدولة، واستعملوا كل وسائل اللين معه. ولكنه كان لسواد دخلته نار النفط لا تزيدها الدلاء الباردة، والمياه السلسة إلا تأججا. فوجب على الإمام أن يرفع العصا، ويسل السيف على البغاة. فأدبه باللماع، وما إدراك ما هو؟ وأطفأ ناره بماء سال من قحفه، وبدماء غزيرة تدفقت من أوداجه، فاستأصل الإمام جذوره، واستراحت الدولة من شرهن وكان عبرة لغيره من الأنانيين. وكذلك السيف الأحمر في يد الدولة العادلة الحازمة يكون القلم الأحمر في يد المعلم، ويصحح به في كراسة التلميذ كل الأخطاء!

وكانت ثورة يزيد بن فندين في أول عهد الإمام عبد الوهاب، في آخر سنة إحدى وسبعين ومائة، أو اثنتين وسبعين.

إن يزيد بن فندين اليفرني من زناتة، فساء بعض زناتة في شمال تيهرت مصرعه، ومصرع كثير من زناتة الذين ناصروه، ومهد تمر

ه لتمرد آخر تقوم به زناتة بعوامل خارجية، وبكيد الملكيين؛ ولكن القلم الأحمر في يد الدولة الرستمية، فهل تبقى في صفحتها على الأخطاء؟

لماذا ثار المعتزلة من زناتة؟ ما هي الأسباب النفسية والخارجية لهذا التمرد الذي كبحته، وقضت عليه الدولة الرستمية العادلة بما يوجبه الدين؟

تمرد الواصلية على الإمام عبد الوهاب لبطرهم وتأثرهم بالدسائس الخارجية

المعتزلة وعبقريتهم في الفلسفة والأدب وجدواهم الكبرى على المسلمين

كان الواصلية من الفرق الإسلامية البارزة التي توجد في الدولة الرستمية. والواصلية فرقة من المعتزلة، وهم أتباع واصل بن عطاء. والمعتزلة يوافقون الإباضية في كل أقوالهم في الدين. ويعلمون كالإباضية عقولهم في فلسفة القرآن والحديث ليدركوا أسرار الشريعة على الأغوار البعيدة التي يمتاز بها الدين الإسلامي العظيم فكان صالحا لكل زمان ومكان، ويقفوا على أسرار الإعجاز في القرآن، وسبب بلاغته وفصاحته. وقد أجدى المعتزلة هذا كما أجدى الإباضية، فكان من المعتزلة علماء عباقرة رفعوا راية الفلسفة الإسلامية، ودمغوا الشعوبيين والملحدين، وحلقوا بالأدب العربي فوصلوا به ذراه في القرن الثالث والرابع الهجري.

عظمة الجاحظ ألمعتزلي وعبقريته وجدواه على الأدب والفلسفة

ومن أئمة المعتزلة أبو عثمان الجاحظ، ذلك العالم الفذ، والأديب العبقري الذي كان إمام الأدباء، وأستاذ البلغاء في القرن الثالث وفي القرون الزاهية للغة العربية فاغلب من نبغ في الأدب العربي في القرن الرابع والخامس الهجري كان من تلاميذه. فمنهم ابن العميد، والصاحب بن عباد، والتوحيدي، وعبد القاهر الجرجاني، وغيرهم كثير ومن تلاميذه من أدباء هذا العصر احمد حسن الزيات، انه تلميذ الجاحظ، يقفو خطاه في الأسلوب، ويسلك مسلكه في الكتابة.

إن الجاحظ أديب العربية، وإمام البلغاء، ومفخرة الإسلام العظمى! فكل من لو يدرس رسائله البليغة، وكتبه العظيمة لا يستطيع أن يطمئن إلى انه سلك إلى النبوغ في الأدب من اصح طرقه وأقربها، وتوسل لملكة البلاغة والبيان بأقوى وسائلها ليت ناشئتنا

يعلمون أن دراسة سطر من رسائل الجاحظ الدسمة العظيمة أجدى عليهم في الأدب من قناطير مقنطرة من الجراد الصحافي الذي يرتعون فيه. ذلك الأدب العصري الصحفي الهزيل الذي لا يورثك من الغذاء، ومن السمن والزيادة مهما أكثرت منه إلا ما تورثه السيقارة التي يدمن عليها صاحبها، ويجعلها ثديه الذي يرجو السمن منه، والغذاء الذي يتمنى أن يقوي عضلاته فيصارع الفحول! !

وكان المعتزلة ممن يدعون إلى الإمامة الإسلامية، فهم كالإباضية في التمسك بها ولكن المعتزلة كانوا سلبيين في العمل للإمامة الإسلامية، والجمهورية العادلة. أنهم لم يزيدوا على الاحتجاج لها باللسان. أما أن يقارعوا لإحيائها كالإباضية بالسنان ويضحوا بأرواحهم لإبرازها إلى الوجود، وينشئوا الدول الجمهورية العظمة التي تقوم على الإمامة الإسلامية، وتكسف الدول الملوكية وتزلزل أركانها كما فعل الإباضية في القرون الإسلامية الأولى، فهذا ما لم يفعلوه. لذلك كانت وطأة الملوك عليهم اخف، والدعاية ضدهم أهون، وحقد الملكيين الأنانيين المتعصبين عليهم اقل من حقدهم على الإباضية، لان المعتزلة لم ينشئوا دولا جمهورية تهدد ملكهم كالإباضية؛ بل إن اغلب المعتزلة قد سايروا الملكية وطلبوا ودها، وجروا في تيارها فأنت إذا درست رسائل الجاحظ، وكتابه في مثالب الأمويين للتقرب إلى الملوك العباسيين، ورسالتيه في مفاخر الترك والسودان، ورسائله إلى الوزراء كأحمد بن أبي دؤاد، واغلب رسائله الفلسفية العميقة التي كتبها إلى الخاصة من الملوك والوزراء لا إلى العامة، علمت أن المعتزلة كانوا من الهادئين الذين يسلمون للأمر الواقع، ويجارون كل الرياح، ويرضون من تحقيق آمالهم مثلهم العليا بلغوه وحققوه في ميادين العلم والفلسفة والأدب؛ فكانوا فيها الذرا الشماء، والأعلام التي أجدت كل المسلمين، واقتبس من أنوارها كل من أتى بعدهم من فلاسفة الإسلام، وأعلامه العظام.

الواصلية في المغرب الأوسط والأقصى

والمعتزلة فرق كثيرة، وكان منهم في المغرب فرقة الواصلية. وقد انتشر مذهبهم في شمال تيهرت من مدينة مستغانم إلى وهران، وفي جنوبها في (تيلغمت) وفي الصحراء، وفي مدينة العظفاء الفيحاء بوادي ميزاب في جنوب الجزائر مقبرة للمعتزلة.لا زال أهلها إلى اليوم يحافظن عليها، ويحوطونها، ويغارون عليها كما يغارون على مقابرهم وحرمة أمواتهم. كما انتشر المذهب الواصلي في شمال المغرب الأقصى في وليلي وحواليها. وكان من رؤسائهم إسحاق بن محمد الأوربي احد مؤسسي الدولة الإدريسية وحامي إدريس الأكبر العظيم.

وكان اغلب المعتزلة الواصلية في الدولة الرستمية من زناتة. وكان جمهورهم بداة يسكنون الخيام، وينتجعون المراعي. وكان عددهم في شمال تيهرت نحو ثلاثين ألفا. والذين تمردوا على الدولة هم هؤلاء في شمال الدولة الرستمية لا الواصلية في الصحراء.

وكان المعتزلة في الدولة الرستمية كالفرق الإسلامية الأخرى: المالكية، والصفرية، وأهل العراق في هذه الدولة الجمهورية العادلة، يتمتعون بالحرية الكاملة، وتراهم الدولة الرستمية جزءا منها، وبضعة أثيرة من جماعتها، لا فرق بينهم وبين الإباضية الذين هم منشئوا الدولة وجمهورها، وعمادها، وأركانها المتينة.

غنى الواصلية ونبوغهم في العلم بفضل الدولة الرستمية

وقد أثرى الواصلية في الدولة الرستمية فكثر فيهم الأغنياء، وشاع فيهم ذوو اليسار، ونبغوا في العلم، فتكون فيهم علماء عباقرة كانوا مثالا في الذكاء وفي سعة المعرفة، وفي البراعة في الجدال، كما تكون فيهم فرسان الحروب، وكان لهم من البراعة في الفروسية وفنون القتال ما أورثهم الاعتداد بالنفس، وخلق مع اليسار والعلم البطر في نفوسهم، واعدهم للتأثر بالعدوى الخارجية من منافسي الدولة الرستمية وأعدائها الملكيين المستبدين.

وكان للواصلية عالم عبقري قد برع في الجدال فهزم كل علماء تيهرت في المناظرة، وناظر الإمام عبد الوهاب نفسه وهو رئيس الدولة فغلبه.

وكانت الدولة الرستمية ديمقراطية عادلة، لا تكف أحدا إلا إذا تجاوز نطاق الدين، وخالف الشريعة الإسلامية التي هي قانونها، ودستورها الذي تتقيد به في كل الأشياء. وقد وجد الواصلية الحرية الفكرية الكاملة في الدولة الرسمية، فاستطاعوا أن يدعوا لمذهبهم، ويحتجوا له، ويناظروا علماء الدولة، لا يكبتهم احد، ولا يمنعهم قانون. ومناظرة العالم الواصلي للإمام عبد الوهاب رئيس الدولة، وظهور العالم عليه، وغلبته إياه في باب المناظرة والجدال، دليل على تواضع الإمام عبد الوهاب، وعدل الدولة الرستمية، والحرية الكاملة في الفكر والكلام التي كانت تتمتع بها كل طبقاتها وطوائفها.

وكان الإمام عبد الوهاب عادلا ديمقراطيا ! ولما هزم عالم المعتزلة كل علماء الدلة الإباضية في تيهرت، وهزمه هو، لم يسكته بالقوة، ولم يكبته بالقهر كما يفعل الملوك. إن الإمام عبد الوهاب ليوقن بان ذكاء العالم ألمعتزلي وبراعته في الجدال، ونبوغه في السفسطة هو سبب ظهوره وغلبته، لا قوة حجته، وصواب ما يذهب إليه، ويخالف فيه الإباضية؛ فاثر الإمام أن يهزمه بالحجة، ويسكته بالدليل، وينازله بعبقري مثله من علماء

الدولة؛ فأرسل إلى جبل نفوسة فجاءه الشيخ مهدي النفوسي ! فبين للإمام المواطن التي يسفسط فيها النابغة الواصلي، ثم ناظر الشيخ مهدي العالم ألمعتزلي فهزمه، فخفض عالم المعتزلة رأسه، وسلم بصواب ما يذهب إليه الإمام وجمهور أهل الدولة، وخفض المعتزلة الشامخون رؤوسهم. فبقي فارسهم الذي برع فرسان تيهرت في باب الفروسية، وأغرى الواصلية على التمرد فرفعوا السلاح في وجه الإمام، وعزموا على الانفصال، وتفكيك اوصر الدولة، وإحداث الشغب والشقاق فيها. وقد تحامى فرسان تيهرت منازلة فارس المعتزلة، فجاء أيوب بن العباس مع الشيخ مهدى من نفوسة، فنزل الفارس ألمعتزلي فأراه ضعفه وعجزه، ثم عطف عليه فأزاله، فكفكف الإمام بذلك شموخ الواصلية، ورأوا فارسهم يتخبط في النجيع ويلفظ أنفس في الرغام.

تأديب الإمام للواصلية وسكوتهم وصلاحهم للدولة

وكان البطر واستقرار الدولة، وبراعتهم في العلم، فارسهم الشجاع، والعدوى الخارجية قد أورثتهم التمرد، فشقوا عصا الطاعة على الإمام، وعزموا على الانفصال عن الدولة. فنهاهم الإمام، واراهم ما يتمتعون به في الدولة الرستمية من عدل وحرية وسعادة لا يجدونها في دولة أخرى

واراهم تمردهم على الدين، وعصيانهم لله بخروجهم عنه. لقد بايعوه إماما عن رغبة وحرية تامة، وهو قد عدل وتمسك بالدين كل التمسك في سياستهم، فطاعتهم له واجبة في الدين، وتمردهم وعزمهم على الانفصال يجعلهم من البغاة الذين يحل قتالهم، والعصاة الذين يجيز الدين ردهم إلى الجادة بحد الحسام، ولكن العدوى الخارجية، وبطرهم وغرورهم، وطبع البداوة في نفوسهم، وعناد زناتة واعتدادها بنفسها، جعلهم يتصلبون ويمعنون في التمر؛ فلم تزدهم نصائح الإمام ولينه إلا شموخا وإصرارا. فشحطهم الإمام بالسيف، ورقاهم بالكتيبة، وطهرهم بالدواء الأحمر فشفوا ! فعادوا إلى الجادة، وتابوا من التمرد، وراجعوا انسجامهم القديم بالدولة، ورأى منافسو الدولة الرستمية من قوتها الحربية، ومن اتحادها، والتفاف كل القبائل حولها، ما أيأسهم وقطع أطماعهم فيها، فلم يوسوسوا للمعتزلة بتجديد التمرد على الإمام.

ولكن ما هي الأسباب النفسية والداخلية والخارجية لتمرد المعتزلة على الإمام. انه يدللهم ويغمرهم بلطفه وإحسانه، وتجعلهم الدولة العادلة طفلها الأثير، يتقلب في مهد الحرير، ويرتع في الأثداء الحافلة، وتغمره في حنان وحب بكل أسباب السعادة والرفاهية؛ ولكن الطفل المدلل يصرخ في حجر أمه الحريري المعطر، ويرمحها برجليه،

ويسطو على الثدي الذي يدر عليه ويرويه، فيغرز فيه الأسنان الثائرة حتى يدميه ! ما هي الأسباب في ثورتك وبكائك أيها المدلل الأثير؟

الأسباب النفسية لتمرد الواصلية على الدولة الرستمية

إن الأسباب النفسية لتمرد المعتزلة هي البطر، والتعصب المذهبي الذي يدل على البداوة فيهم، وطبع البداوة، وإلف زناتة للملك والرئاسة في شمال تيهرت قبل نشأة الدولة الرستمية.[1]

أما السبب الداخلي فهو أن يزيد بن فندين اليفرني كان من زناتة، وكذلك كثير من جنده وأتباعه. وارى أن بقيتهم الحقودين انبثوا في المعتزلة من زناتة، فأصابوهم بعدوى التمرد على الإمام، وأرادوا أن يدركوا بهم ثأرهم، ويشاغبوا بهم الإمام.

الأسباب الخارجية لذلك التمرد

أما السبب الخارجي وهو أقوى الأسباب، فهو إمارة زناتة في تلمسان، وأميرها محمد بن خزر، والواصلية في المغرب الأقصى (بوليلي) وأميرهم إسحاق بن محمد الأوربي.

وكان محمد بن خزر ألزناتي أمير تلمسان قد بايع الإمام إدريس الأكبر في سنة ثلاث وسبعين ومائة لما غزاه إدريس بجيوشه، فوجد ابن خزر انه لا طاقة له بحربه؛ فأحسن إليه إدريس الأكبر فاقره في إمارته، فأمست الدولة الإدريسية دولة ابن خزر وقومه زناتة، وتمنوا أن يتسع نطاقها حتى يصل حدها الشرقي إلى مدينة مستغانم في نهر شلف وبقاعه الخصبة الغنية، ولكن الدولة الإدريسية لا تقوى على الهجوم على الدولة الرستمية. إن الدولة الرستمية أوسع منها رقعة، وأكثر جندا، وأقوى في الحرب، وأغنى، وارسخ قدما. إنها إذا هاجمتها فسيكيل لها الإمام عبد الوهاب بالصع صاعين. ثم إن الإمام عبد الوهاب يحسن جوارهم، وينظر إليهم بعين الصداقة ولا ينطوي لهم إلا على النوايا الحسنة. أنهم لا يجدون سببا يشعلون به الحرب مع الدولة الرستمية، فاتصل محمد بن خزر وقومه زناتة في تلمسان بزناتة في شمال تيهرت فأثاروها، وسولوا لهم الانفصال عن الدولة الرستمية والانضمام إليهم !

وكان إسحاق بن محمد الأوربي هو رئيس الواصلية في (وليلي) بالغرب الأقصى. وكان اكبر مؤسس للدولة الإدريسية ! انه يعتد بها ويراها دولته. وقد نافس إدريس الثاني وهم

1 - كان الملك في المغرب الأوسط قبل الفتح الإسلامي لزناتة في تلمسان. ومن ملوكهم صولات بن وزمار جد بني خزر ملوك تلمسان في القرن الأول والثاني الهجري.

بالانقلاب عليه لما لم ير رئاسة الدولة تؤول إليه، وأوغر صدره الأغالبة بهذا فشعر إدريس بما هم به فقتله.

كان إسحاق الأوربي طموحا. ولما فتحوا تلمسان ووجد انه لا يستطيع ضم شمال تيهرت إليهم بالحسام اتصل بالواصلية فأثارهم على الإمام عبد الوهاب، وزين لهم الانفصال عن الدولة الرستمية والانضمام إلى دولته.

إن محمد بن خزر وعدوى زناتة في تلمسان، ومحمد بن إسحاق الأوربي رئيس الواصلية في المغرب الأقصى، وقومه من الواصلية، هم السبب الخارجي لتمرد الواصلية على الإمام. وفي ابن خلدون والأزهار الرياضية نص لما قررنا، ودليل على ما قلنا.

قال ابن خلدون في أثناء حديثه الموجز عن الدولة الرستمية، وقد نسب الملك إلى بني رستم، وجعل الدولة الرستمية ملكية وهي جمهورية تقوم على الإمام الإسلامية، لان ابن خلدون عاش في العهد الملكي، وفي حجور الملوك ! وكان ينظر نظرات شزراء إلى الإمامة الإسلامية، والى الدولة الرستمية التي قامت عليها. فهو لا يستطيع وصفها بالإمامة لتعلقه بالملكية ومجاملته للملوك. قال ابن خلدون: "ولم يزل الملك في بني رستم هؤلاء بتيهرت. وحاربهم جيرانهم من مغراوة وبني يفرن على الدخول في طاعة الأدارسة لما ملكوا تلمسان، وأخذت بها زناتة من لدن ثلاث وسبعين ومائة".[1]

إن زناتة وبني يفرن التي حاربت الإمام عبد الوهاب لم يكونوا جيران الدولة الرستمية، بل كانوا جزءا من رعيتها، وبلادهم في شمال تيهرت من ترابها الأصيل. وقد أثارتهم زناتة في تلمسان لينضموا إليهم، وهو ما لا يجوز في الدين وفي السياسة فأدبهم الإمام فتابوا، وسكنوا سكون التائب الذي تاب توبة نصوحا، وأدرك سوء ما أتى من الذنوب. إنهم لم يعاودوا الثورة، ولم يبد من سيرتهم بعد ذلك ما يدل على التذمر وعدم الرضا. إنه رغم قيام ثورة مقتل ابن عرفة، ودخول الدولة الرستمية في شيخوختها، فان زناتة لم تنفصل، ولم يبد منها ما يدل على حب الانفصال عن الدولة الرستمية.

انه مع بني خزر في إثارة الواصلية على الدولة إسحاق بن محمد الأوربي. قال الشيخ الباروني في الأزهار: " كان الواصلية وهم فرقة من المعتزلة في جموع قوية عددا وعدة بجهات المغرب. وهم قوم من البربر أكثرهم من قبائل زناتة لهم رئيس في مدينة قريبة من مدينة طنجة وهو الذي بايع إدريس الأكبر".[2] إن هذا الرئيس هو إسحاق بن محمد

1 - كتاب العبر لابن خلدون ج 6 ص 122 ط بولاق الأولى بالقاهرة.

2 - الأزهار الرياضية ج 2 ص 116 ط البارونية بالقاهرة:

الأوربي. كانت عاصمته هي مدينة وليلي في جنوب طنجة وبغرب فاس. وهو الذي بايع إدريس الأكبر وانشأ معه الدولة الإدريسية.

إن قضاء الدولة الرستمية على فتنة المعتزلة الذين أرادوا الاستقلال واقتطاع جزء من شمالها، وخوضها القتال المرير، وإباءها أن يقتطع جزء منها، يتضمن بطلان مزاعم اليعقوبي التي رددها الشيخ مبارك الميلي وهي أن في شمال تيهرت مدنا وجهات نزلها العلويون الذين دخلوا المغرب بعد نشأة الدولة الرستمية بزمن طويل فاستقلوا فيها، وفصلوها عن والدولة الرستمية، فصارت إمارات لهم تنسب إليهم. ما هو الدليل على بطلان هذا الزعم وخطأ المؤرخين في هذه الدعوى؟ وماذا نستنبط من أنواع القوة في الدولة الرستمية بتمرد الواصلية عليها؟.

خطأ المؤرخين الذين ادعوا انفصال أجزاء عن الدولة الرستمية في شمال تيهرت

إن كبح الإمام عبد الوهاب لزناتة في شمال تيهرت ، وردها إلى حظيرة الدولة لما همت بالانفصال والانضمام إلى الدولة الإدريسية، دليل على أن شمال تيهرت من شرق (مليانة) إلى غرب وهران، وهي مناطق المعتزلة كان في نطاق الدولة الرستمية ولم تكن في هذه النواحي في عهود الدولة الرستمية إمارات علوية مستقلة. قد حل فيها بنو محمد بن سليمان الذين هاجروا من المشرق فاستقلوا فيها كما ادعى ذلك اليعقوبي. إن الإمام ما كان ليرضى بانفصال أجزاء عن الدولة ولو هم بذلك سكانها الأصليون فكيف إذا جاء وافد من الخارج فأراد اقتطاع أجزاء منها !

إن العلويون قد التجأوا إلى المغرب بعد وقعة فخ بمكة في سنة تسع وستين ومائة وكانت الدولة الرستمية حينئذ في شبابها. وكان إمامها عبد الرحمن قد طار بها إلى آفاقها العليا فأمست اكبر دولة في المغرب. فرغب العباسيون في حسن جوارها، فعقد روح بن حاتم مع الإمام عبد الرحمن معاهدة حسن الجوار ليأمنوا سطوتها. إنه لا يجوز في العقل أن تأبى الدولة الرستمية على زناتة الاستقلال في جهة واحدة، ثم ترضى باستقلال الأدارسة في جهات عديدة منها، وعلى قرب من عاصمتها، وفي أخصب وأغنى جهاتها. إنه لا يمكن لأي إنسان أن يستقل في ناحية من نواحيها، أو يقتطع بعض جهاتها، لأنها على القوة لا على الضعف، وفي الشباب لا في الطفولة. لقد رحبت الدولة بالعلويين فحلوا في نواحي منها، سيما في شمال تيهرت ذ. فشملهم الإباضية بكل إعزاز وإكرام، وعاشوا في نطاق الدولة الاستعداد لمساعدتهم لوهموا به. لرضى

الرعية عن أئمتها، ولعدم اعتقادها الخرافة التي تحصر الإمامة في قريش، وتجعل الرئاسة لهم دون المسلمين.

إن الإمارات التي ذكر بعض المؤرخين المشارقة إنها كانت لبني محمد بن سليمان العلويين في شمال تيهرت -إن صح وجودها- فإنها كانت في القرن الرابع والخامس بعد انقراض الدولة الرستمية. أما في زمنها فان كل المدن التي نسبوها لبني محمد ابن سليمان، كمدينة مدكرة، ومدينة الخضراء، وسوق إبراهيم، وثمطلاس؛ إن كل هذه المدن كانت تابعة للدولة الرستمية. وكانت من أهم قواعدها في الشمال. إنها كالعواصم لجهاتها، ولما يحفها من المدن الصغرى ومن القرى. وكانت الدولة الرستمية تولى عليها الولاة والعمال. إنها من أهم مدنها، ونواحيها من أخصب جهاتها، وأهلها من أكثر الناس تعلقا بها. فهم الذين أنشأوها. فكيف يمكن الادعاء بأنهم انفصلوا عنها !؟

إن استقلال العلويين في مدن بشمال تيهرت -إن صح- قد كان في زمن العبيديين الذين ادعوا نصرة آل البيت، فغضوا الطرف عن هؤلاء الأدارسة فاستقلوا في هذه المدن بعض الاستقلال فنسبت إليهم.

إن البكري في (المسالك والممالك) وهو الحجة في تاريخ المغرب أكثر من اليعقوبي لم يذكر هذه الممالك في شمال تيهرت لما تحدث عن مدنه التي ادعى اليعقوبي إنها للعلويين. فلو كانت فيها ممالك لآل البيت لذكرها، لما نعرف من اعتنائه بالتاريخ والإمارات الواقعة في المدن والجهات التي يصفها. أما اليعقوبي فانه ليس حجة في تاريخ المغرب، ولا يوثق به في الموضوع لما سيأتينا في باب حدود الدولة الرستمية.

لقد تمسك بعض المؤرخين المحدثين بنا أورده اليعقوبي في كتاب البلدان -وهو ليس حجة- فسلخوا شمال تيهرت عن الدولة الرستمية، ليتأتى لهم ما ادعوه من أن الدولة الرستمية إمارة صغيرة، ضيقة الرقعة، قد انبسطت في الصحراء، وامتدت في الرمال الفقراء، لا في الشمال الخصب، والتلول الغنية؛ وهي بهذا دولة تغلب عليها البداوة، وتشع فيها بساطة الطفولة، لم تبلغ في الحضارة ما كانت عليه جاراتها ولم تحقق في المغرب من مدينة كالتي كانت عليها الدولة العباسية في المشرق!

إن هذا هراء لا يفوه به إلا من خلقت فيه الكتب الملكية المتعصبة ضد الإمامة الإسلامية عقدة نفسية مزمنة، فصرفته في الكتابة، وكونت آراءه في تاريخ المغرب وإصابته بتخمة شديدة، فراح ينفخ في وجوه أجداده بهذا الهراء، ويعكر جوهم النقي الذي هو جو الورد وكل الزهور الذكية بما لا تصيح عليه صلاة!

إن شمال تيهرت من شرق شرشال إلى غرب وهران كان في نطاق الدولة الرستمية وجمهوري سكانه كانوا إباضية. فهم الذين أنشأوا الدولة الرستمية وقارعوا عنها العباسيين وحفظوها من كل مكروه.

وصف المؤرخين الضعفاء الدولة الرستمية بالبداوة لتمسكها بالدين وخلوها من المجون والليالي الحمراء

إن تمسك الدولة الرستمية بالدين، وخلوها من الليالي الحمراء، ومن الجواري الراقصات، ومن أنواع المجون التي كانت تغص بها قصور العباسيين وعواصمهم، قد سول لبعض الضعفاء أن يصفها بالبداوة! لان الحضارة والمدنية عندهم إنما هي هذه الأنواع من المجون والسموم التي يحرمها الدين، ويأباها ذوو الأخلاق المتينة، وكل إنسان غيور على الدولة. ولو علموا أن الحضارة إنما هي العادات الراقية التي يكونها في النفوس الدين الإسلامي العظيم، والرقي في نواحي العمران، والتفوق في العلوم، وشيوع اليسار والهناء، لوجدوا الدولة الرستمية في مقدمة الدولة المعاصرة لها في هذه النواحي، ولرأوها أعظم من كل الدولة المعاصرة لها في هذه الميادين، سيما في الخلق الرفيع والعادات الإسلامية الراقية في كل نواحي الحياة.وهو أول ما يجب أن نجعله مقياسا لحضارة الأمة، واهم ما يجب دراسته وفحصه في الأمة التي ندرس مدنيتها وتقدمها.

لقد كانت الدولة الرستمية أرقى في تلك النواحي لتمسكها كل التمسك بالدين وتقيدها بالشريعة الإسلامية التي هي قانونها المقدس، والإطار الذي لا تخرج عنه في كل أمورها.

علام تدل ثورة المعتزلة من الجوانب القوية في الدولة الرستمية

ومما تستنبطه من تمرد المعتزلة على الإمام عبد الوهاب مع ما قررناه من عدم انفصال أجزاء عن الدولة الرستمية، وانتشار العلم في كل طبقات الدولة، واعتناء كل الفئات به، وغرامها كلها بطلبه. وحرص الدولة وعنايتها بنشر العلم في كل جهاتها في مدنها وقراها، وفي حواضرها وبواديها. إن زناتة كان جمهورهم يسكن الخيام، واغلبهم كانوا يسكنون بالبادية، ومع ذلك نبغ في العلم عندهم علماء كثيرون، ونجم فيهم عبقري في العلم هزم علماء العاصمة في الجدال والمناظرة. وذلك لكثرة المدارس في الدولة الرستمية، وكثرة العلماء الذين يتولون التعليم الابتدائي والثانوي والعالي في كل جهاتها. فاستطاعت زناتة في إحيائها في البادية أن تأخذ حظها من التعليم الابتدائي

الذي يهيئ نبغاءها للتخصص في العلم في المدن الكبرى التي كانت مساجدها الجامعة جامعات ومدارس ثانوية يؤمها الطلبة من كطل الجهات.

كانت إمارة زناتة في تلمسان بعد انضمامها إلى الدولة الإدريسية مما آثار زناتة الواصلية على الدولة الرستمية. وكان إسحاق بن محمد الأوربي في وليلي ممن أغراهم بالانفصال. ومع ذلك كفت الدولة الرستمية عن محمد بن خزر، فلم تنتقم منه، ولم تكون له مثل الثورة التي أشعلها، لان الدولة الرستمية كما قلنا حسنة الجوار، مسالمة، ولا أطماع لها في بقاع غيرها، ولا تتسع بالسيف، ولا ترغم غيرها بالقوة على مبايعة أئمتها،والدخول في طاعتها. إنها لا ترفع السيف إلا على العصاة الذين يتمردون على الإمام، وفي عنقهم بيعته، وطاعتهم له واجب في الدين، وبقاعهم من تراب الدولة، لا يجوز أن تنفصل عنها، وتحدث التصدع والضعف للمسلمين.

هذه قصة الواصلية مع الإمام عبد الوهاب وما نستنبطه منها. فماذا فعل مع هوارة والقبائل الأخرى التي سول لها البطر، واستقرار الدولة، وجواسيس الأعداء أن تتمرد عليه؟

تمرد هوارة وبعض القبائل البدوية وإرجاع الإمام لها إلى الجادة

كانت هوارة من القبائل الكبرى في الدولة الرستمية. وكانت منازلها في مناطق (اسرسو) الغنية مع لواته ولماية في جنوب تيهرت، فاعتنت وغرقت في النعمة واليسار، وكثر علماؤها وفرسانها. فأورثها ذلك البطر، وسولت لها التخمة أن تعكر الجو على الإمام، ودفعها الاستقرار الذي كانت عليه الدولة إلى أن ترفع رأسها على الإمام وتشاكسه، وتمرد عليه، فخرجت عن نظام الدولة وخرمت قانونها، فأدبها الإمام بحزمه وصرامته، فرجعت إلى الجادة، وخضعت رأسها للإمام الذي يطبق فيهم قانون الله، ويسوسهم بما أمر الله به، لا يتبع الهوى، ولا يجنح عن طريق الدين.

هذه قصة هوارة. فما قصة القبائل البدوية الأخرى مزاتة وسدراته وغيرها؟

تمرد القبائل البدوية وإرجاعها إلى الجادة

كان العباسيون قد استغلوا ترحيب الدولة الرستمية بكل المسلمين، والحرية التي تتمتع بها كل رعاياها في نطاق الدين، فدسوا فيها جماعات من جواسيسهم وأنصارهم الذين ينظرون إلى الإمامة الإسلامية نظرة شزراء، ويحكون الدسائس في الخفاء لإضعاف الدولة الجمهورية، بث الفتن فيها. وكان اغلب هؤلاء الجواسيس في تيهرت العاصمة.

ومع هؤلاء بقايا حزب ابن فندين، والحاقدون من المعتزلة وكانوا جميعا يعملون في الخفاء لإضعاف الدولة الجمهورية، وخلق المشاكل للإمام عبد الوهاب. ولكن الإمام كان داهية متيقظا، وكانت الدولة كلها ملتفة حوله، والقبائل كلها من جنده وأنصاره. فكان يقضي على فتنهم في مهدها، ويحبط دسائسهم في منبتها.

ومن كيد هؤلاء للدولة الرستمية إثارة سدارتها وغيرهم من القبائل التي كانت تنتجع المراعي الخصبة حول تيهرت في الربيع.

وكان الإمام عبد الوهاب قد اختار قاضية،وصاحب بيت المال، ورئيس شرطته، وكل موظفيه، فجعلهم من ذوي التقوى والورع، والحزم والذكاء، والغيرة على الدولة. فضربوا على أيدي أهل الفساد، وسدوا أبواب الفتنة في وجوه الكائدين للدولة. فضاق أهل الفساد ذرعا بهم، وعزموا على التخلص منهم، وإحداث فتنة في الدولة. فاتصلوا برؤساء القبائل البدوية الوافدين، وظهروا لهم في مظهر الغيور على الدولة والدين، وصوروا لهم أجهزة الإمام الكبرى في الدولة في صورة زرية تثيرهم، فأججوا حماسهم، وسألوهم مطالبة الإمام باستبدال أجهزته برجال آخرين سيقترحونهم هم على الرؤساء البدويين الغافلين، فيقع ما يتمنونه من تولي وظائف الدولة الضعفاء الذين يجدون معهم المجال الواسع للإفساد وتهديم الدولة كما يريدون، وإذا أبى الإمام تغيير أجهزته القوية الصالحة، فان رؤساء القبائل سيثورون عليه، فيقع ما يتمنونه أيضا من إشعال نار الفتنة الداخلية التي تضعف الدولة الرستمية وتصدع بنيانها. وسأنقل من ابن الصغير المالكي والأزهار قصة تمرد القبائل على الإمام عبد الوهاب وتأديبه لها، وإرجاعها بالحزم إلى الطريق المستقيم كما يأمر الدين، فان تلك القصة تدل على الحرية الفكرية، وحرية الكلام والنقد التي كانت تتمتع به كل الطبقات في الدولة الرستمية؛ كما تدل على تواضع الإمام وحسن نيته، وترحيبه بنقد سياسته؛ وهي اكبر دليل على حكم الشورى الذي كانت تقوم عليه الدولة الرستمية التي تتمسك كل التمسك في كل شئونها بالدين ويلتزم أئمتها هدي الخلفاء الراشدين.

قال ابن الصغير: جرت عادة قبائل البربر من سدارته، ومزاته وغيرهما من أهل البوادي أن يرحلوا من أوطانهم في بلاد الزاب وغيره في زمن الربيع إلى حوالي (تيهرت) وما يليها من الأودية والجبال (الخصبة) والغابات لما فيها من العشب والاتساع مع الأمن، ولما يجري لرؤسائهم عادة من الإكرام والضيفات والإحسان من أقاربهم وأحبابهم الذين هم بالعاصمة، ومن وجوهها وتجارها وتجارها، مع مشاركتهم في الرأي فيما يخص مصلح الدولة.

ولما دار في الخواطر هاجس الفساد، وسرى سم النفاق في صدور أهل البغي والعناد من أهل المدينة (في سنة من السنين وهي في أول عهد الإمام عبد الوهاب حوالي 174 هـ) كان الارتحال خارقا للعادة. فجاء من كل قبيلة وفرقة خلق لا يحصى حتى امتلأت المدينة برؤساء تلك العشائر. فوجد أرباب الفساد، ومن قصد الشقاق من رجال المدينة (وهم بقايا حزب ابن فندين، والحاقدون من المعتزلة، وجواسيس الدولة العباسية) وجد هؤلاء فرصة لبث البغضاء وبذر السموم، ودسها في الدسم، فاستمالوا القوم على حين غفلة، (واستغلوا بساطة البداوة، وجهلها بالسياسة، وصراحة البداة، واندفاعهم، وشجاعتهم) وناجوهم بالطعن في ولاة الإمام وقضاته، وأصحاب شرطته. وقالوا لهم: قد ساقكم الله إلينا، وانتم من أكرم الأضياف، يسمع لكم القول، ويقبل منكم النصح. وقد تعين عليكم الدخول إلى الإمام لتسألوه عزل هؤلاء الولاة وتبديلهم بغيرهم ممن يحمد الناس سيرتهم. فاثر ذلك في نفوسهم، وظنوا أن ذلك من النصيحة في الدين، (والغيرة على الدولة).

اجتماع الإمام عبد الوهاب برؤساء القبائل وتواضعه لرعيته وترحيبه بالنقد

فاجتمع رؤساء القبائل البدوية فاستأذنوا على الإمام فأذن لهم. فتلقاهم حسب عادته بكل بشاشة، وقابلهم أحسن مقابلة. وبعد تبادل عبارات التحية قام متكلمهم فحمد الله وأثنى عليه وقال: إن رعيتك يا أمير المؤمنين قد ضجت من قاضيك، وصاحب بيت مالك، والقائم بشرطتك. وقد جئناك نطلب منك أن تستبدلهم بغيرهم ممن يرضونه من خيارهم. وبذلك تحوز رضاءهم ورضاء مولاك.

قال ابن الصغير: فأظهر الإمام عبد الوهاب الارتياح لهذا الطلب. وقال لهم: جزاكم الله من وفد خيرا. فقد افتقدتم من الإسلام ما يفتقده من كان مثلكم! وها أنا ذا قد فوضت لكم الأمر في ذلك. فبينوا لي من ترونه صالحا لذلك لأقدمه. فدعوا له واثنوا عليه بخير إذ ساعفهم فيمت اقترحوه عليه فانصرفوا. فدخل على الإمام بعدهم وجوه دولته، وقواده، وأهل الصلاح من جماعة المسلمين. فقالوا له: ما بال إخواننا أتوك اليوم باجمعهم فأخليت لهم المجلس، وحجبت غيرهم، ولعلهم أشاروا بخير، ودلوا على الصلاح؟ فذكر لهم ما قالوه مفصلا، وما أجابهم به. فاغتموا لذلك، وقالوا له: قد أسأت إلى نفسك، والى جميع إخوانك المسلمين، والى رجالك! ! فقال وكيف ذلك، وقد قالوا خيرا، وما سألوا شططا؟

فقالوا: لو كان ذلك منهم لقصد الإصلاح والنصيحة في الله لهان الأمر، وأحسن المآل، ولكنهم سألوك عزل من أرادوا من رجالك بدون سبب ليحرفوا عنك (قلوبهم) وقلوب العالمة (من عشائرهم) ثم إذا فعلت ما طلبوه شكروك وحمدوا فعلك، واتوك بعد ذلك قائلين: إن المسلمين قد نقموا عليك أشياء أخرى فاتركها فان أجبتهم شكروك، وإن أبيت خلعوك. ثم لا تامن وإن أجبتهم إلى كل ما سألوه أن يقولوا لك: إن المسلمين لم يجتمعوا عليك في ابتداء أمرك، فاردد إليهم أمرهم حتى يجتمعوا عليك، ويكون ذلك زيادة في شرفك! فتنبه الإمام إلى المكيدة. فقال وما الرأي، وقد تقدم مني لهم من الجواب ما سمعتموه، ولا يجمل بمثلي الرجوع فيما قال!؟ فقالوا له: إن الأمر في ذلك سهل. قال وكيف ذلك؟ قالوا، إذا رجعوا إليك إذا لانجاز الوعد فقل لهم: إن لنا ولكم إخوانا لا غنى لنا عن مشاركتهم في الرأي في أمر عظيم كهذا. ثم اجمع بيننا وبينهم فنكفيك مؤونة الجواب إن ساء الله.

وفي الغد دخل أقوم على الإمام، وسألوه انجاز الوعد فأجابهم بوجوب حضور مجلس الشورى ووجوه الدولة لإشراكهم في الأمر. فرفضوا. فحضروا. وقال (الرؤساء القبائل المخدوعين) اخبروا إخوانكم بما أشرتم به. فاخبروهم. فقال مجلس الشورى لهم: جزاكم الله عن الإسلام وأهله خيرا على هذا الاهتمام إلا إننا نطلب منكم بيان علة هذا الطلب والداعي إليه، إذ لا يخفى على كل عاقل مثلكم أن العزل بدون سبب بين، وجرحة واضحة لا يمكن أن يصدر من الإمام لما ينشأ عن ذلك من المضار".[1]

وكان الطابور الخامس قد سمم هؤلاء البداة، وهيأهم للانفجار فثاروا عند سماع جواب مجلس الشورى، ورأوه جوابا مسكتا يسد الأبواب في وجه مطالبهم. وكانوا قد عزموا على التصلب فيما دفعهم إليه أعداء الدولة المستترين.

قال الشيخ الباروني: "ثم خرجوا ممتلئين غيظا، وهم يحلفون أن لا يدخلوا في أمر دون عزل من سألوا عزله، أو محاكمة الأمام!" فأحدثوا فتنة، وانضم إليهم الجهلة البداة من أقوامهم، وعدلوا على الشر. فنصحهم الإمام، وبين لهم كيد الأعداء الذين خدعوهم، ولكن الطابور الخامس كان قد سبق إلى قلوبهم البسيطة، فصبغها بما يشاء، واخذ بأعنتهم، فانساقوا في طريق الفتنة، وعولوا على سفك الدماء. ولما أصموا أذانهم عن سماع النصح، وبدأوا بالشر، ورآهم الإمام بغاة مفسدين، فشحطهم بالحسام، وأبرزت لهم الدولة مخالب الأسود وأنيابها، فأدبتهم، وشفتهم بالدواء القاني فسكنوا للإمام، وتابوا توبة نصوحا، فرجعوا إلى منازلهم وإحيائهم في شمال أوراس وجنوب

1 - الأزهار الرياضية ج 2 ص 129 وسيرة الأئمة لابن الصغير ص 17 ط باريس 1907.

بسكرة وهم كالأرض التي يشقها الحراث فيورثها الصلاح، والبذرة الزكية التي تشقها الأرض فتورثها الأزهار! فارتاع الطابور الخامس بما رأى من حزم الإمام والدولة، وعلم أن مخالب الدولة ستنهال عليه إن لم يكف عن الكيد لها، وازداد الحرس وكل الجمهوريين تنبها لهم فسكنوا، وماتت أطماعهم، فزالت أسباب العواصف التي تعكر الصفو، واستأصل الإمام بحزمه عروق الفتنة، وأوصد كل أبواب الشر فصفت الأيام الصفاء الدائم، واستمرت الأزمنة الضاحكة الهادئة الطلقة تترى على الدولة إلى ذهاب الإمام إلى ربه بعد زمن طويل.

فماذا فعل الإمام لما صفت أجواء الدولة كل الصفاء، وأحس بالشيخوخة تخيم عليه؟ انه تاق إلى الحج إلى بيت الله الحرام، وزيارة منزل الوحي، وقبر الرسول والصحابة عليهم السلام.

سكون الدولة الرستمية وهناؤها بعدل الإمام وحزمه وخروجه لأداء فريضة الحج

وسكنت الدولة كلها بعد الزوابع الأربعة التي ثارت في الدولة الرستمية في أول عهد الإمام عبد الوهاب، وكلها كانت في العاصمة أو حولها، وبقية الدولة كانت ساكنة سكون الرضا، وملتفة حول الإمام عبد الوهاب تؤيده وتناصره،وتهب كلها لإخماد هذه الثورات، فاستطاع الإمام أن يقضي على تلك الفتن، ويخمد تلك الثورات، وكانت أسباب هذه الثورات هي البطر، والاستقرار التام، وانعدام العدم الخارجي الذي تخافه الدولة، ودسائس منافسي الدولة الرستمية من جيرانها، ومكائد الملكيين الذين كانوا زرافات كبيرة في تيهرت وما حولها، فصاروا يكيدون لها لبغضهم للإمامة الإسلامية، ولتنفيذ الخطط التي يضعها لهم ملوكهم في بغداد والقيروان، وقد استطاع الإمام عبد الوهاب بحزمه ودهائه، والتفاف الدولة حوله، تأييدها له أن يقضي على هذه الزوابع كلها، ويستأصل جذور الفساد والفتنة، فيئس الملكيون الكائدون، والأنانيون الذين أبطرتهم النعمة من وجود فرصتهم في الدولة الرستمية، وفي الإمام عبد الوهاب فسكنوا، وعاودت تيهرت وما حولها استقرارها وهدوءها أيام الإمام عبد الرحمن، وواصلت الدولة كلها أشواطها في طريق التقدم والإسراع إلى الإسراع إلى القمة التي تريدها لنفسها، وبلغت الدولة الرستمية بالاستقرار والهدوء والإقبال على العمل ذروة شبابها في عهد الإمام عبد الوهاب، وكان عهده عهد نضوج الدولة، وتحقيق المثل العليا التي تريدها في كل الميادين، الثقافية، والتجارية، والصناعية، والزراعية وغيرها، وإذا كان عهد الإمام عبد الرحمن عهد طفولة الدولة وعهد دخولها في شبابها، فان عهد الإمام عبد الوهاب

عهد تمام شبابها، واكتمال قوتها، فقرت الدولة عينا بعدل إمامها، بما انعم الله عليها من ازدهار في كل النواحي، وبما حققت من مثلها العليا في كل الميادين، فسكنت سكون الرضا والطمأنينة والقوة، وبدت كالنهر العظيم الذي ملأ كل البقاع فبدا ساكنا وهو يتحرك، فقرت عين الإمام عبد الوهاب بسعادة رعيته، وباتحاد الأمة كلها في دولته، وبتآخي شعبه وامتزاجه بالمودة والصفاء، ورضا الطبقات كلها لما تحقق من آمالها في عهده، وسكون الدولة كلها سكون الوليد في حجر أمه إذا شبع وغمره الحنان والرضا والسعادة فنام، سكن السكون الهنئ الذي ينميه ويقويه، فاطمأن الإمام على دولته، وعلم أن أطماع الملكيين في الخارج قد انقطعت، والشعب كله في الداخل على الرضا والطمأنينة والخوف من حزم الدولة فلا يمكن أن يطرأ على الدولة ما يسوءها.

نضوج افلح ومعاضدته لأبيه واكتفاؤه به في مهمات الدولة

وكان للإمام عبد الوهاب ابنه افلح، وكان مكتمل الرجولة، ناضج الشخصية وكان على مثل خصائصه كلها، وكان يستعين به في مهمات الدولة، فوجد فيه من الكفاءة ما يجعله خليفته في القيام بشؤون الإمامة إذ غاب، وكانت الخاصة كلها تجل افلح وتعجب بكفاءته، وتقدمه للقيام بالمهمات، والاضطلاع بالأمور العظام، وكانت العامة تحبه لدينه واستقامته وإحسانه وتواضعه، ودماثة أخلاقه، وتحترمه لكفاءته وقوة شخصيته؛ وأعداء الدولة يرهبون جانبه ويخشون سطوته، انه لشجاعته احد فرسان المغرب! وكان سيف الدولة البتار الذي قضت به على الفتن التي ثارت في عهد أبيه، إنه هو الذي قتل يزيد بن فندين، وهزم الواصلية وقضى على فتنتهم مع أيوب بن العباس، لقد كانا قلب المعركة في تلك الحرب التأديبية، وكان افلح وأيوب من اكبر أسباب إخماد تلك الفتنة، وخروج الدولة منتصرة منها.

وكان افلح من سيوف الدولة لشجاعته، يرهبه أعداء الدولة ويرون في حتوفهم! وكان من الشخصيات البارزة التي يستعين بها أبوه، فاظهر كفاءة ومهارة في السياسة والإدارة، وأمسى ربيه كاهلا قويا ينوء بأثقال الإمامة، وينهض بأعباء الدولة، فأيقن الإمام عبد الوهاب أن افلح ومجلس الشورى وخاصة الدولة الملتفة كلها حوله متحدة متحابة يستطيعون خلافته إذا غاب عن العاصمة؟، وانتقل إلى جناح دولته الشرقي: جنوب افريقية وجبل نفوسة، ثم غادر الدولة كلها إلى البقاع المقدسة ليؤدي فريضة الحج التي يراها واجبا عليه.

وكان الإمام لدينه وغناه يشعر بوجوب الحج عليه، ويراه فرضا لازما لا يسعه تركه،

وإن كان يتحمل من أمور المسلمين ما يجيز له إرجاءه. وكان الإمام يعلم ما يتعرض له من الأخطار في طريقه إذا انفصل عن سرت ودخل في المناطق العباسية الخالصة. تلك المناطق التي يكره الأمراء العباسيون والملكيون المتطرفون فيها الإمامة الإسلامية؛ ولكن بطولته وقوة قلبه جعلته يستهل بتلك الأخطار. ويستهل كل الصعوبات.

وكانت الأشواق الثائرة فيه إلى زيارة البيت الحرام، ومنزل الوحي، ومنبت الرسالة وقبر الرسول، وهيامه بتلك الزيارات قي جعلته لا يصغي إلى مجلس الشورى والى خاصته في تيهرت لما نصحوه بعدم الذهاب إلى الحج خوفا عليه من العباسيين. أنهم إما أن يغتالوه أو يقبضوا عليه. فصمم على السير!

حرص الإمام علة تفقد الناحية الشرقية للدولة وأشواقه إليها

وكان مع أشواقه إلى الحج أشواقه إلى جبل نفوسة، والى جنوب افريقية، تلك النواحي التي هي جزء من دولته، وأهلها من اكبر أحبائه، واخلص من ينصر الدولة وينجدها ويعمل لتقدمها وازدهارها. إن جبل نفوسة الذي يزخر بالعلم والصلاح وطرابلس الفيحاء التي هي منبت الإمامة الإسلامية، وأول بقعة تحقق فيها للجمهوريين إنشاء إمامتهم. والتي فيها قبلا أبي الخطاب، وقبر أبي حاتم، وقبور الشهداء الذين قضوا في مكافحة الظلم، والذب عن الإمامة الإسلامية! إنها مدرج طفولته، ووطن أمه وأخواله، وأول البقاع التي أحبها، وتعلم فيها، وتفتحت فيها مواهبه، ونضجت بجوها شخصيته. إنها أول بلد علمته الفروسية التي يعتز بها، ورفع فيها السيف ضد الظلم والجبروت لما تطوع في جيش أبي الخطاب. وهي البقاع التي طالما حلم فيها -وسيوف العباسيين مصلتة على رؤوس الجمهوريين الحانية- أن يكون للجمهوريين دولة تحي الإمامة الإسلامية وترجع للمغرب عزته وهناءه. فها هو الحلم اللذيذ يتحقق! أفلا يثور في أعماقه شوق متأجج إلى زيارة تلك المواطن التي تذكره بمرارة الماضي، فيتضاعف شعوره بحلاوة الحاضر ونعم الله عليه وعلى أهل دولته. إن سفره إن لم ينله الحج، وأقنعه أهل الجبل وصرفوه عن طريقه، فانه يحظى فيه بزيارة افريقية، ومواطن الذكريات في نواحي طرابلس الفيحاء، والحلول في جبل نفوسة حيث أحباؤه وأنصاره. إن الناحية الغربية لدولته قد صلحت أمورها، وانتظمت وازدهرت في كل نواحيها، فلا بد من تفقد الناحية الشرقية لدولته. إنهم رعيته. ففرض عليه أن يطلع على أمورهم، ويتصل بهم، فيرفعوا إليه شكواهم إن ساءهم شيء من ولاته وعماله، ويؤثر فيهم بدروسه ومواعظه، وينعم بهناء هذه النواحي التي تخفق عليها راية الإمامة الإسلامية العادلة. إن سفره لتدعوه إليه دواعي كثيرة، خاصة وعامة، وإن فوائده للدولة لا تحصى، وإن تجوله في أنحاء الدولة وقد خلت

العاصمة من المشاكل والمعضلات التي تستدعي إقامته فيها واجب تدعو إليه وظيفة رئاسة الدولة التي يتحملها. إنه الدولة كلها، فلابد من التجول في أنحائها للاطلاع على أحوالها، سيما في الجهات الشرقية البعيدة عن العاصمة. إن الدولة مقلة وهو سوادها، فلابد أن يتجول في أنحائها ليقوم بوظيفته كاملة، ويتفقد كل النواحي، ويدرك كل الأمور! إنه ليس كالملوك الأنانيين المترفين الذين يقبعون في قصورهم وعواصمهم لا يغادرونها، والذين لا يختلطون برعيتهم، ولا يطلعون على أحوالها. إنهم نقطة حبر يابسة سقطت في قرطاس، لا تغادر مكانها، وهم كذلك السواد لا وظيفة له، ولا جدوى منه!

إن إمام الدولة هو أبوها! فهو يتفقد رعيته كما تتحسس يد الأم الحانية وليدها في الليلة الباردة لتطمئن بوجوده في دفء اللحاف!

استخلاف الإمام لأفلح ومجلس الشورى في غيبته

لابد من السفر واختراق الصحراء، والاطلاع على أحوال الرعية في البوادي والقرى، ولابد من زيارة البقاع المقدسة، والحج إلى بيت الله الحرام! فأصر الإمام على عزمته. فاستخلف ابنه افلح ومعه مجلس الشورى في شئون الإمامة، ورئاسة الدولة. فخرج في قافلة كبرى إلى المشرق.

كان ذلك كما أرى في سنة تسعين ومائة بعد تسع عشرة سنة من توليه الإمامة. وكانت قافلة الحجاج التي تصدر في كل عام من تيهرت ونواحيها كبيرة، وكلنها في هذا العام أضخم، وعدد الحجاج فيها أوفر، لرغبة الناس في الحج مع أمامهم، وملازمته في طريقه، والتيمن به في مراحلهم الطويلة، وأسفارهم الشاقة.

وكان مع الإمام بعض خاصته، منهم وزيرة ومستشاره الأثير السمح بن أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح، ومستشاره واحد مجلس الشورى مزور بن عمران. إن سفره كما قلنا لتفقد أحوال الدولة أيضا. وسيمر على مناطق كثيرة للدولة، ويحل بعواصم الجهات، وقد تصادفه في كل عاصمة مشاكل يجب حلها، فلابد من وجود من يثق برأيه ودهائه، ونصحه معه، يستشيره ويعبنه، ويكون له كالمصباح للنظر الحديد، والمجهر للعقل الذكي، والملاحظة الدقيقة.

وكان طريق الإمام إلى المشرق على سوف وقسطيلية. إنها اقرب طريق إلى الشرق. وهي المناطق الصحراوية التي يهم الإمام أن يطلع على أحوالها. فوصل جبل دمر في جنوب (قابس) وفي الشمال الغربي بجبل نفوسة.

انضمام جبل دمر إلى الدولة الرستمية بدعوة الإمام عبد الوهاب

وكان جبل دمر تسكنه قبائل عديدة من أكبرها قبيلة (دمر) من زناتة. وكانوا كلهم إباضية جمهوريين؛ ولكن قرب جبل دمر من مناطق العباسيين، وعدم انتشار الثقافة والتعليم فيه، وإيثاره بسبب ذلك للنظام الاجتماعي الأول الذي كان عليه البربر قبل النهضة؛ وإن ذلك جعله ينطوي على نفسه، ويزهد في الانضمام إلى الدولة الرستمية التي تكتنفه من جنوبه في جبل نفوسة، ومن شرقه في جربة، ومن غربه في قسطيلية وقفصة، وجنوب افريقية الذي كان تابعا للدولة الرستمية. انه في وسط الدولة الرستمية، ولكنه اثر الانكماش والبقاء على النظام الاجتماعي البدائي، يديره أمراؤه ومجلس القبائل، ليرضي بهذا الانعزال وعدم الانضمام إلى الدولة الرستمية العباسيين فلا يتعرضون له بسوء. انه أول منطقة تحل بها ضرباتهم إذا هاجموا مناطق الدولة الرستمية في جنوب افريقية من قابس ذ؛ وانعزالهم يرضي في نفوسهم حب الاستقلال الموروث الذب غرسه فيهم طبعهم البربري الذي لم تؤثر فيه الثقافة والحضارة فيورثهم حب الدولة والجماعة الكبرى.

وكان الإمام عبد الوهاب يستطيع أن يحتل جبل دمر ويستتبعه بالقوة. ولكن الدولة الرستمية لا تخضع الجهات بالسيف، ولا تستتبع الناس بالقوة. إنها ليست كالدول الملكية المستبدة تفتح النواحي بالسيف، وتضم الأقطار إليها بالقوة، وتكون بذلك كالثوب المرقع الذي تضم إليه أجزاء من غيره، وهي تصرخ من فعل المقص الذي شقها، والإبر الحديدية التي تنفذ فيها. بل هي لدينها وعدلها كالسحابة الوطفاء التي تكونت من القزع[1] التي تسرع فتنضم إليها كما يسرع الوليد إلى أحضان أمه الحنون!

وجاء البشير إلى جبل دمر بان الإمام عبد الوهاب وصحبه سيزورونه زيارة الصداقة فيحلون ضيوفا عليه. فخرج أمراؤه ورؤساء القبائل والعامة لاستقبال الإمام الذي يجلونه لدينه وعدله، وما يرون من سيرته الحميدة، وآثاره الحسنة في دولته. فاستقبلوه في حفاوة بالغة، وحل الإمام وصحبه بينهم في إعزاز وإكرام. فحدثوا العامة والخاصة بفضل الجماعة، وما يكون لهم من قوة وثقافة، وخروج من البداوة إلى الحضارة، والازدهار والسعادة والهناء في كل نواحيهم إذا انضموا إلى الدولة الرستمية. ودعاهم الإمام إلى الانضمام إلى إخوانهم، والالتحاق بالدولة الجمهورية ليكونوا فرعا في جذع راسخ في ثراه عتيد، فيمده بالحياة والجمال والازدهار! فأدركوا جدوى ما دعوا إليه، وتفتحت صدور خاصتهم وعامتهم لدعوة الإمام، فأسرعوا إليه فبايعوه، فانضموا إلى دولته. فأقام

1 - القزع: جمع قزعة، وهي القطعة الصغيرة من السحاب.

الإمام بينهم أياما ينظم شئونهم، ويرتب أحوالهم، ثم ولى عليهم رجلا منهم صالحا عالما ارتضوه، وانتخبته خاصتهم الرشيدة، وهو الشيخ مدرار؛ ثم واصل رحلته إلى جبل نفوسة.

أفراح جبل نفوسة وإسراعهم لمعانقة الإمام

وسمع أهل جبل نفوسة بقدوم الإمام إليهم فابتهجوا، وامتلأت مدنهم وقراهم بالأفراح، فخرج العلماء والخاصة لاستقباله في حدود الجبل ومرافقته في رحلته. وكان ركبه لا يمر بقرية أو يحل في مدينة إلا ويسارع أهل القرى المجاورة للسلام عليه، وعلى رفقائه، ومشاهدة طلعته التي تشرق بالعلم والدين، والتواضع الذي يحني هامته لرعيته التي تحبه وتكبره.

وكانت المدن والقرى التي يمر عليها الإمام ترقب ركبه. وكان غبار قافلته إذا لاح أجمل في نظرهم واجل وادعى للبشر من العارض الممطر إذا لاح للقوم المجدبين. وفرح أهل الجبل بقدوم أمامهم فرح البلابل بإشراق الصباح وعودة الربيع!

وكانت عاصمة جبل نفوسة العلمية، ومدينتها الكبرى، هي مدينة (شروس). أما العاصمة السياسية ومدينة الحكم فيها ومقر الوالي فهي مدينة (جادو) في الشمال الغربي (الشروس) وعلى بعد أربعة وأربعين ميلا منها. وكانت كلتا المدينتين في قلب جبل نفوسة، وكلتاهما تكتنفها عشرات من المدن والقرى العامرة، والمزارع الكبيرة، وغابات الزيتون والنخيل وأشجار التين والفواكه الأخرى. وترى القرى والمدن منتشرة في احراج الزيتون والنخل التي تكتنفها من أطرافها. وترى الجبل لخصبه وكثرة أشجاره، ومدنه العامرة، وجد أهله في التجارة، وكثرة نشاطهم، محل الغنى في طرابلس الجميلة، ومعدن الثروة في المغرب الأدنى. ومع غناهم في المال كثرة الصلاح فيهم، وشيوع الورع والتقوى في طبقاتهم، وشجاعتهم البالغة، ونبوغهم في العلم، وكثيرة العلماء عندهم. لذلك قصدها الإمام عبد الوهاب إكراما لهم، واجتذبته إليها دون سائر المدن الرستمية في المغرب الأدنى فاتجه إليها.

وقصد الإمام عبد الوهاب في أول الأمر مدينة شروس إكراما للعلم والعلماء وفي طريقه إلى شروس نزل في قرية (ويغو) بلد الشيخ مهدي النفوسي. فقصد دار لشيخ مهدي فنزل ضيفا عليه إكراما له، وإظهارا لمحبته وإجلاله له.

وكانت دار الشيخ في ويغو دار زاهد متبتل منقطع إلى العلم، غرامه في بناء العقول بحلقة التدريس، وبناء صرح العلم والزيادة فيه بالتأليف والتصنيف. أما كنه ومحله

فكعش النسر بسيط لا يعتني به، ولا يبتغي العلو والزخرفة فيه. ومع هذه البساطة في داره آثرها الإمام منزلا إكراما لصاحبها. وسمع أهل ويغو بقدوم الإمام فأسرعوا إليه وسمع ابن خالة الشيخ مهدي فرج النفوسي بنزول الإمام في دار الشيخ. وكان فرج من الأغنياء الكبار، له الديار الواسعة والرياش الكثيرة، والأثاث الفخم، والعبيد الكثيرون؛ فأسرع إلى الشيخ مهدي فجعل دياره ورياشه لضيوفه، وسأله أن ينتقلوا إليه. فأجاب دعوته. فانتقل الشيخ مهدي بضيوفه إلى ديار فرج فأقاموا فيها في ضيافة فرج وأهل القرية إلى أن ارتحلوا.

إن الاشتراكية الإسلامية التي كانت عليها الدولة الرستمية، والتعاون والتآزر الذي كان بين أفرادها، يجعلهم يسارعون إلى الضيف فيكرمونه مع رب مثواه، ويفتحون بيوتهم، ويبذلون أثاثهم النفيس، ورياشهم الغالي لصاحب الضعيف إن كان بيته ورياشه لا يسعد، أو كان فقيرا لا يليق بيته منزلا للضيوف. وترى أصدقاء من يفد عليه ضيف وأقاربه، وأهل المدينة يسارعون إلى الضيف فيكرمونه معه، لا يتركونه في مثواه ولصاحبه فيثقل عليه، وبئس هو المقام.

إن هذه العادة الإسلامية كانت على أتمها في آبائنا وأجدادنا. ولا زالت في أعقاب البيوت الكريمة في جنوب الجزائر. إنها مظهر للتعاون والتحابب والتآزر الذي يغرسه الدين الإسلامي في نفوس المسلمين.

وكانت مدينة شروس في سفح جبل يسندها من ورائها جعله الله متكئا كالذي يكون للعروس في عرشها فيزيدها جلالا وجمالا ! وكان الوادي الذي ينحدر من الجبال التي تكتنفها من جهاتها يمر إمامها فيزيد في خصبها وخيراتها وعمارتها. وقد شاهدت إطلالها وإطلال قرية ويغو في السنة الماضية، فشعرت بجلالها يملأ نفسي، وأحسست بأريحية ونشوة في ربوعها لحسن موقعها وللجمال الشعري الذي يفيض عليك من تلك الربوع!

إقناع الجبل للإمام عبد الوهاب وعدوله عن الحج

فنزل الإمام عبد الوهاب في مدينة شروس. فأسرع إليه الجبل وخاصتهم وسألوه أن لا يعرض نفسه للخطر الكبير بالذهاب إلى الحج والدخول في مناطق العباسيين الحاقدين عليه. فأبى عليهم فما زالوا به حتى أقنعوه بحجج الدين، واروه أن ما يحمل من أثقال الإمامة، ورئاسة الدولة توجب عليه أن لا يعرض نفسه للخطر؛ وان الحج لا يجب عليه لانعدام الأمن له في طريقه وفي البقاع المقدسة التي هي في قبضة العباسيين. فاقتنع

الإمام بصواب رأيهم، واستطاعوا أن يؤثروا فيه مع علماء المشرق الجمهوريين الذين كتبوا إليه يسألونه أن لا يعرض نفسه للخطر. فأرسل رجلا يحج عنه. فأقام في الجبل، الجناح الشرقي لدولته، يديره، ويزيده تنظيما وازدهارا واندفاعا إلى الأمام.

إقامة الإمام عبد الوهاب في جبل نفوسة سبع سنين بعيدا عن عاصمته لاستقرار الدولة وتعلقها به

قال أبو العباس الدرجيني وأبو زكرياء: " وأقام الإمام في جبل نفوسة في تلك الرحلة سبع سنين"[1] بعيدا عن العاصمة تيهرت للاستقرار التام الذي كانت عليه الدولة الرستمية، ولرضاها عن سيرة الإمام وتعلقها به. انك لا تجد ملكا من المعاصرين لهى في العباسية وغيرها يستطيعون الغيبة عن عواصمهم كل هذه المدة. إن عرش الملك الذي كان لهم بحد السيوف وأخذوه غلابا، كمقاعد السيارة العامة في المدن المزدحمة، إذا غاب عنها أصحابها وجدوا فيها غيرهم راسخين لا ينهضون!

إن غيبة الإمام عبد الوهاب وهو رئيس الدولة سبع سنين في جبل نفوسة البعيد عن عاصمته، بدون أن يحدث شيء في تيهرت وفي المغرب الأوسط، اكبر دليل على استقرار الدولة، ورضى الشعب، وتعلقه بإمامة؛ وبرهان على اقتدار افلح ومجلس الشورى الذين يتولون الأمور في الناحية الغربية للدولة بعد الإمام.

إن المؤرخين المحدثين كالشيخ مبارك أمليلي، وبعض المؤرخين الآخرين الذين رددوا دعواه، وقلدوه في أحكامه، لم يعملوا عقولهم في غيبة الإمام عن عاصمته سبع سنين، وهي هادئة ساكنة مطمئنة، ليعلموا أن ذلك للاستقرار التام الذي كانت عليه، ولتعلق الشعب بإمامه، ورضاه عن عدله وسياسته. أنهم حصروا نظرهم في الزوابع التي ثارت في أول عهد الإمام بالأسباب النفسية والخارجية التي ذكرنا، ليس منها عدم رضي الشعب عن سياسة الإمام وسيرته، فحكم بعضهم هذا الحكم الذي لا أساس له: "بان الحالة الداخلية في الدولة الرستمية الحرب فيها اغلب من السلم، لان الحكومة لم تتمكن من بسط نفوذها في المملكة على ضيف وقعتها! فالقبائل مستقلة تحت أمراء منهم! وليس ثم من وحدة سياسية ولا دينية! والحكومة أجنبية لا ثقة لها بالأمة! وتتساهل لذلك في اتهامهم بالانتزاء عليها! فنشأت الفتن من ضعف الحكومة وسوء ظنها بالأمة!"[2]

1 - كتاب الطبقات للدرجيني ص 29 من نسخة مصورة في دار الكتب المصرية رقم: 12561 رمز (ح) المجلد الأول والسيرة وأخبار الأئمة لأبي زكرياء ج 1 ص 23 مخطوط في دار الكتب المصرية رقم 9030 ح.

2 - تاريخ الجزائر للشيخ مبارك أمليلي ج 2 ص 33 ط أولى 1350 هـ.

إن هذه الأحكام غير صحيحة. إنها أحكام مرتجلة تدل على الدراسة السطحية للتاريخ، وعلى إمعان النظر في نصوصه، وعلى عدم التمهل والعمق في الدراسة، وعلى عدم التزام البحث المنطقي فيه.

إن أصحابها في خطئهم كمن يطير بين الاحراج بسيارته فتتراءى له الأشجار تجري نعه، فيحكم بأنها تتحرك وتتسابق! ولو توقف ورأى لأدرك الحقيقة. وسنرجع إلى هذه الأحكام المرتجلة فنبين خطأها في باب آت عن شاء الله.

انتقال الإمام إلى مدينة ميرى قرب جادو العاصمة السياسية للجبل واستقراره بها

وكان الإمام عبد الوهاب هو الذي يتولى أمور الجبل في السنين السبع التي قضاها فيه. وكان هو رئيس لهذه المناطق يتولى ادارتها وسياستها ويقوم بكل ما كان يقوم به الوالي من قبل. وكانت مدينة (جادو) هي مقر الوالي في جبل نفوسة، لتوسطها لمدنه، ولسهولة الطرق منها إلى كل النواحي. فانتقل إليها الإمام عبد الوهاب فنزل علة بعد ستة أميال منها في مدينة (ميري) الجميلة فجعلها مقره. وقد قضى الإمام اغلب سنيه السبع في هذه المدينة، وبنى فيها مسجده. وارى أن الإمام قد آثر هذه المدينة لنزوله لحسن موقعها. إنها في السهول لا في الجبال، وهواؤها نقي، وبقاعها خصبة جميلة، وهي قريبة من جادو العاصمة السياسية للجبل.

إقبال الإمام على الدرس والتدريس لقلة مشاكل الدولة لاستقرارها واعتماد الأمة على نفسها

وكان الإمام كعادة لا يقتصر في الأعمال على شئون السياسة. إن دولته مستقرة، وتمسك الناي بالدين يكبح النفوس فتقل الجرائم والمشاكل وتعاون أهل لدولة واعتمادهم على أنفسهم، وفض الخاصة للمشاكل والخصومات، وجعل حمل الإمام خفيفا، مشاكل الدولة التي تشغل فكره ووقته قليلة إن الأمة تعتمد على نفسها، وليست عبئا ثقيلا على الحكومة، والدولة الرستمية متمسكة بالدين الذي يأمر الأمة أن تعتمد على نفسها، وتعمل، وتجد، وتجتهد، وتسابق الأمم لتكون هي الأغنى والأقوى، لا تتكل على الحكومة أن تطعمها وتقدم إليها كل الضرورات.

إن اعتماد الأمة على نفسها، وكثرة العلماء والصلحاء فيها، وأعضاء مجلس الشورى، هؤلاء الذين يفضون الخصومات، ويحلون المشاكل، فلا تصل إلى الإمام، وجعل أعمال الإمام السياسية قليلة. فانصرف في بقية الوقت الواسع إلى دراسة الكتب، والى التدريس العالي. فكانت له حلقة في مسجده في ميري يؤمها الطلبة الكبار

المتخصصين للعلم فيلقي عليهم الدروس في مختلف الفنون. وكان الإمام يرى التعليم اكبر عبادة. وكان لشخصيته العلمية يلذه نشر العلم والحياة العلمية، فخصص للتدريس جانبا كبيرا من وقته.

وكان الإمام يوال النصح والإرشاد لرعيته في جبل نفوسة. وكانت الوفود تترى عليه من أنحاء الجبل، فيلقي عليهم المحاضرات والدروس، ويزودهم بالزاد العقلي النافع، ويوجههم أحسن توجيه في كل الميادين. وكان له درس بين الصلوات في مسجده للعلامة يثقفهم ويهديهم، ويعلمهم فلسفة دينهم، وأسرار الشريعة الإسلامية التي من الله بها عليهم.

قال الشيخ الباروني: "ويقال إن اغلب دروسه (للعامة) في مسجده في السنين السبع التي أقامها في جبل نفوسة في مسائل الصلاة ولم يتمها"[1] وذلك لان دروسه في فلسفة الصلاة أيضا، وآثارها العظمة في النفس، وتطهيرها للمرء من كل الدنايا والمهلكات!

وكان جبل نفوسة وكل أنحاء الدولة الرستمية مستقرة. وقد دام هذا الهدوء في الجبل إلى آخر أيام الإمام فيه. فثارت هوارة في سنة ست وتسعين ومائة على الملكية المستبدة، وعلى الأغالبة الذين أرغموها بالقوة على الدخول في دولتهم، واحتلوا بلادهم بالسيف والسنان، ووطأوها بأرجلهم القوية لتخضع وتستكين. فمن هي هوارة؟ وكيف كانت ثورتها؟

1 الأزهار الرياضية ج 2 ص 142 ط البارونية بالقاهرة 1324 هـ.

ثورة هوارة على الملكية المستبدة
وانضمامها إلى الدولة الرستمية

شخصية هوارة

كانت هوارة من القبائل الكبرى التي تسكن في طرابلس.[1] وكانت منازلها في شرق مدينة طرابلس على الساحل الخصب الجميل. فمن خليج سرت إلى مدينة طرابلس كان لهوارة. فيها مدنهم وقراهم الكثيرة. وكانت عاصمتهم هي مدينة لبدة الجميلة الشهيرة بحضارتها ومدنيتها الراقية.

وكانت هوارة قبيلة كبرى، وفيرة العدد، واسعة الغنى، بالغة الحضارة، كثيرة العلماء والمثقفين، شجاعة أبية معتدة بنفسها، لا ترضى أن تسام الخسف والهوان، وان تخضع بالسيف والسنان.

تمسك هوارة بالإمامة الإسلامية وثورتها على الظلم والاستبداد

وكانت هوارة ثائرة على الظلم والاستبداد، متمسكة بالإمامة الإسلامية، حريصة على أن يعيش المغرب في ظل دولته العادلة التي تطبق فيه قانون الله، وتلتزم في سياسته حدود الدين لا تتعداها.

وكانت من أول القبائل التي ثارت على الأمويين في المغرب الأدنى فبايعت الحارث بن تليد الحضرمي في سنة 130 هـ إماما عليها فاستقلت طرابلس، وخرجب من كلكل الأمويين المستبدين؛ ولكن عبد الرحمن بن حبيب والي المغرب الأدنى للأمويين لا يرضى أن تتكون في طرابلس دولة تفصل افريقية عن المشرق، فكاد للإمام الحارث فاغتاله، فهجم بجيوشه على طرابلس فاحتلها، فقضى على الإمامة الإسلامية فيها.

وكانت هوارة ممن أنشأ إمامة أبي الخطاب ودولته في طرابلس سنة 140 هـ. وكانت من اخلص جند أبي الخطاب، وامتن سواعده، وممن ذب عن الإمامة الإسلامية وضحى في سبيلها بالدماء الغزيرة. وإن معركة (تاورغا) التي استشهد فيها الو الخطاب وقعت في بلادهم، وضربات ابن الأشعث وجيشه المسعور الذي جاس خلال ديارهم انهالت عليهم أكثر.

---

1 - إذا قلنا طرابلس فنزيد الجهة كلها من خليج سرت إلى قابس، ومن البحر إلى الصحراء الكبرى، وإذا أردنا المدينة فإننا ننص عليها.

وكان أبو حاتم الملزوزي الذي ثار على العباسيين في سنة 154 وهزمهم الهزائم المنكرة، وقضى على الملكية في المغرب من هوارة. وكانت هوارة من اخلص جنده ومن اشد رجاله مع نفوسة وزناتة وغيرها.

ولما استولى العباسيون على افريقية، ورسخت أقدامهم في شمالها، صمموا على بقاء ساحل طرابلس وافريقية فيا أيديهم لأنه طريقهم إلى المشرق، فلم يعارضوا جبل نفوسة، والجهات الجنوبية الشرقية في الانضمام إلى الدولة الرستمية، ولكنهم أبوا أن يخرج ساحل طرابلس وافريقية من أيديهم. فأرغموا هوارة بالقوة على الخضوع لهم، وشحنوا ثغورها ومراكزها سيما مدينة طرابلس بالجند الكثير، ووطأوا هوارة برجلهم لتخضع فتبقى بلادهم لهم.

وتكونت الدولة الرستمية، وشبت، وانتشرت ظلالها الواسعة في المغرب الأوسط والأدنى. فانضم إليها جيرانها: جبل نفوسة، وجنوب افريقية الشرقي فتفتحت لها أبواب بعدل الدولة الرستمية التي تتقيد في السياسة بالدين. أما هي، هوارة التي ضحت أكثر من كل القبائل في إحياء الإمامة الإسلامية في المغرب، ومهدت لنشأة الدولة الرستمية، فتحرم من الانضمام إليها! ! إنها كمن يحفر بعرقه وسواعده قليبا[1] في الصخر فيتفجر ماء، فيرتوي الناس ويسبحون، وهو مكتوف الأيدي، بعيد عنها، يقتله الظمأ، ويحرقه الصدأ، ويزيد في بلائه منظر المياه تترقرق وتصطفق أمواجها على كثب منه. فصممت هوارة على الثورة على الملكية العباسية، والانضمام إلى الدولة الرستمية الجمهورية. فصارت ترقب الفرصة لذلك، حتى استقر الإمام عبد الوهاب في جبل نفوسة، فحظيت بلقائه مدنه وقراه، وتوالت عليه وفودها إلا هي فظلت تحت رقابة العباسيين وقيودهم، لا تستطيع أن تزور الإمام في جماعات كبيرة كما يفعل غيرها، وتستطيع أن تستضيفه في بلادها. فازداد شعورها بالاستبداد العباسيين وبحرمانها، فانفجرت مراجلها، فثارت عليهم، واستقلت. فأرسل إليهم والى طرابلس الجند العباسي فهزموه، ففر إلى مدينة طرابلس فاعتصم بها، فحاصرتها هوارة ففتحتها، فخرج الجند العباسي هاربا إلى القيروان.

كان ذلك في سنة 196 وكان إبراهيم بن الأغلب بن سالم هو أمير القيروان. وكان بطلا صنديدا ! وقد استعد لمثل هذه الثورات فهيأ جيشا قويا، وتسلح، وأرهف مخالبه وأنيابه. فرأى هوارة تمرغه في التراب، وتسحبه من رجله في الرغام، فساءته هزيمة جنده. فأرسل إليها جيشا كبيرا من خيار جنده، يشتمل على سبعة عشر ألف فارس. فاختار لقيادته

1 - القليب هي البئر الواسعة

ابنه أبا العباس عبد الله. وكان شجاعا فاتكا، غيورا على الملكية العباسية المطلقة التي يرضعون أثداءها. وكان عاصفا. قال ابن عذارى "وكان عبد الله بن إبراهيم أراد أن يحدث جورا عظيما على رعيته، لما ولي الملك بعد أبيه، فأهلكه الله قبل ذلك. وكان من أجمل الناس خلقا، ولكن من أقبحهم فعلا !.. وقد دعا حفص بن حميد وجماعة من الصالحين بعد أن صلوا في كدية روح ركعتين، أن يكشف عن المسلمين جور أبي العباس، ويريحهم من أيامه. فيقال إن قرحة خرجت له تحت إذنه فقتلته في السادس من دعاء القوم. وقال من حضر غسله: إنه كشف عنه ثيابه ظن انه عبد اسود بعد جماله ! وذلك بسوء فعاله!".[1] هذا هو عبد الله بن إبراهيم في قساوته وجبروته. فاختاره أبوه للانتقام من هوارة، وإرجاعها إلى حظيرته. فصر عبد الله بأسنانه، فسار في جنده الغزير فاشتبك بهوارة فكاد أن يتغلب عليها. فاستغاثت بالإمام عبد الوهاب. فرأى أن أغاثتها واجب في الدين فأغاثها.

إن العباسيين قد أرغموا هوارة بالسيف على الخضوع لهم فلا بيعة في أعناقهم لملوكهم تحرم عليهم الثورة. لقد قرروا مصيرهم! فخرج إليهم العباسي فهجم عليهم، فدافعوا عن أنفسهم. فها هو إبراهيم بن الأغلب يرسل إليهم جحافله، وابنه الذي سيرتكب فيهم كل ما يسول له حقده على الإمامة الإسلامية، وكل ما يدفعه إليه مزاجه القاسي الذي يتلذذ بارتكاب كل الفظائع في عدوه. إن هوارة مظلومة، والاغالبة بغاة ظالمون. فنصر هوارة التي الفت بنفسها في حجر الإمام عبد الوهاب وطلبت حمايته واجب عليه في الدين، وتفرضه عليه شهامة الدولة الرستمية وقوتها. فأشار الإمام إلى نفوسة وغيرها من رعيته في طرابلس بالاستعداد. فزحف إلى عبد الله بجيشه، فعلم عبد الله انه لا قبل له بالوقوف في وجهه وفي وجه هوارة، فدخل مدينة طرابلس الحصينة فغلق أبوابها، واحتمى بأسوارها العالية. فحاصره الإمام عبد الوهاب فيها وشدد عليه الحصار.

حصانة مدينة طرابلس ومحاصرة الإمام للأغالبة

وكانت مدينة طرابلس عالية الأسوار، شديدة الحصانة، قد اعتنى بتحصينها البربر والرومان منذ الزمن القديم، فأعجزت عمرو بن العاص والجيش الإسلامي الفاتح فلم يستطع اقتحام أسوارها، وتسلق أبراجها، واعتنى بتحصينها الولاة الأمويون، والولاة العباسيون استعدادا لمثل هذا اليوم لتعصمهم، وبنى هرثمة بن أعين الوالي العباسي على افريقية وطرابلس سور المدينة مما يلي البحر، فصارت في غاية الحصانة، وفي النهاية

1 - البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى ج 1 ص 120، 121 ط بيروت 1950م

من المنعة. فواصل الإمام عبد الوهاب محاصرة عبد الله في المدينة. وكان عبد الله يتحاشى الخروج إلى الإمام والاشتباك به في معركة فاصلة لأنه يوقن بان الدائرة تكون عليه، والهزيمة هي ما يمني به جيشه. وكان يقتصر في حربه على مناوشات ومعارك صغيرة. وكان قد غلق أبواب طرابلس باب زناتة وغيرها، فصار يخرج لمقاتلة الإمام من باب هوارة، ولعله هو الباب الشرقي، فإذا أحس بالمعركة تشتد والحرب تتجه لغير صالحه، انسحب إلى المدينة وغلق باب هوارة أيضا.

استشهاد الشيخ مهدي النفوسي عالم المغرب الكبير

وكان في جيش الإمام عبد الوهاب الشيخ مهدي النفوسي، عالم المغرب، والفيلسوف الكبير، والمتكلم الذي هزم الواصلية في تيهرت وأفحم عالمهم العبقري. وكان الأغالبة يعرفون مقامه الجليل عند الإمام وفي الدولة الرستمية كلها، وفي جبل نفوسة! وكانوا يوقنون بان الإمام والدولة كلها يرون الشيخ مهدي من أعلامهم في العلم، ومن علمائهم الأفذاذ، ومن العباقرة الذين يرونهم في سماء الدولة شموسا تورثها حياتها وجلالها، واتجاه الأنظار إليها. وعلموا أن قتله سيكون ضربة كبرى للإمام، ورزية عظمى للدولة. فرأوا الشيخ مهدي وحده منفردا في الشاطئ بعيدا عن الجيش. فسبحوا في البحر فتسللوا إليه فقتلوه، فاحتزوا رأسه! فعلقوه في سور طرابلس! مبالغة في إيذاء الإمام عبد الوهاب وجيشه والنكاية بهم، ومضاعفة للحزن على الشيخ في قلوبهم.

وفاة إبراهيم ابن الأغلب ومصالحة ابنه عبد الله للإمام بما يريده الإمام وهوارة

وكان عبد الله بن الأغلب محصورا في طرابلس لا يستطيع الخروج منها والرجوع إلى القيروان. إن الإمام يرصده، وسيقع فيما يحذره إذا ترك المدينة الحصينة. وكانت كبرياؤه وبطولته وقوة نفسه تأبى عليه التسليم. وفيما هو في بلاء الحصار إذ جاءه الخبر بموت والده إبراهيم بن الأغلب في هذا العام سنة 196 هـ وكان هو وارث عرشه، فريد من الرجوع إلى القيروان قبل أن يسطو احد من أولاد أبيه وعائلته على كرسي الإمارة. فأرسل إلى الإمام عبد الوهاب يطلب الصلح. فاصطلحوا على ما أراد الإمام وأرادته هوارة ذ: أن يكون الساحل كله من جنوب صفاقس إلى خليج سرت للدولة الرستمية، ومدينة طرابلس والبحر للدولة الأغلبية.[1]

إن الدولة الأغلبية دولة بحرية، فأسطولها اكبر أسطول في المغرب، فتستطيع

1 - انظر قصة ثورة هوارة ومصالحة الأغالبة للإمام في تاريخ ابن خلدون ج 1 ص 141 ط بولاق في القاهرة.

أن تتصل بالمشرق من جهة البحر. فالبحر ضروري لها، وقاعدة طرابلس البحرية لازمة لأسطولها الكبير، فرضي الإمام بهذا ففك عنه الحصار. فرجعت هوارة إلى بلادها، وقد تحقق مثلها الأعلى، وخفقت الراية الرستمية البيضاء[1] في سمائها، ونالت العزة والكرامة والسعادة بتقرير مصيرها، وانضمامها إلى الدولة الرستمية العادلة. وأصبح الساحل الذي كان اغلب سكانه إباضية جمهوريين يتمسكون بالإمامة الإسلامية كله للدولة الرستمية. فمن جنوب مدينة صفاقس في وسط القطر التونسي اليوم إلى خليج سرت أصبح كله جزءا من الدولة الرستمية. فاتسعت حدود الدولة الرستمية بهذا شرقا، وانضمت إليها كل البقاع التي كان اغلب سكانها جمهوريين، والذين طالما جاذبوا الحبل الأغالبة لينضموا إلى الدولة الرستمية فمنعوهم، وأرغموهم بالقوة على الخضوع. وانضم إليها غربها من قبل. فرجع الإمام إلى جبل نفوسة. فأرسل العمال إلى مدن الساحل، كما عين من قبل الولاة الأكفاء لجنوب افريقية.

عمال الإمام عبد الوهاب في جنوب افريقية وفي طرابلس

قال الشماخي يذكر ولاة الإمام عبد الوهاب في الجهة الشرقية للدولة الرستمية: " ومن علماء الدولة الرستمية وصلحائها ورجالها الأكفاء سلام بن عمرو اللواتي عامل الإمام عبد الوهاب على سرت ونواحيها، وسلمة بن قطفة عامله على قابس ونواحيها، ومحمد بن إسحاق الخزري عامله على نفزاوة، ووكيل بن دراج النفوسي عامله على قفصة، جارون بن القمري عامل الإمام عبد الوهاب وصهره وهو زناتي، ونهدى بن عاصم الزناتي عامله أيضا، وييران من بني يزمتن المزاتي عامله"[2] ولم يذكر الشماخي النواحي التي تولى عليها هؤلاء الثلاثة، وارى أنها غدامس، وزويلة في جنوب طرابلس، وتوزر في قسطيلية. هذه ه النواحي التي لم ينص الشماخي على عمالها، وهي من الدولة الرستمية، وفي طرابلس وجنوب افريقية التي ذكر لنا عمالها. ومن عمال الإمام عبد الوهاب السمح بن أبي الخطاب، وبعده أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني. وقد ولاهما على جبل نفوسة.

هؤلاء هم عمال الإمام عبد الوهاب في المغرب الأدنى في طرابلس وجنوب افريقية. فمن هم عماله في جبال أوراس، وفي شمال تيهرت، وغربها، وشرقها، وفي تيلغمت،

1 - لم يذكر المؤرخون لون الراية في الدولة الرستمية ولا شعارها فيها. وارى إنها بيضاء قد كتبت فيها آيات قرآنية توافق المقام الذي رفعت فيه. وفي وادي ميزاب رايات قديمة محفوظة في المساجد. وهي بيضاء مرصعة بالآيات الكريمة وارى إنها كأعلام الدولة الرستمية فالتزموا فيها البياض إن اللون الأبيض هو المحبب في الدين. وهم به يخالفون العباسيين الذين اتخذوا السواد شعارا لهم ولونا لأعلامهم.

2 - السير للشماخي ص 203 ط البارونية.

والاغواط، وجبال بني راشد (جبال عمور)، وفي ورجلان، وتيقورت. هذه النواحي الشاسعة التي تشتمل على مدن كبرى كانت قواعد لجهاتها. إننا لا نعرف من عمال هذه النواحي إلا ميمون بن عبد الوهاب، فقد كان في أول عهد أبيه في الإمامة عامله على تيهرت القديمة ونواحيها شرقا. أما عماله الآخرون فلا نعرفهم لقضاء العبيديين على كل الكتب التاريخية لوسط الدولة الرستمية وجهاتها الغربية، ليمحوا شخصيتها، ويقضوا على فكرة الإمامة الإسلامية في عقول أبناء المغرب، وعلى حبها في قلوبهم.

إن منطقة أوراس كلها، ومن شرق مدينة شرسال إلى غرب وهران، ومن البحر إلى الصحراء الكبرى في المغرب الأوسط كان جزءا من الدولة الرستمية. فما حدود الدولة الرستمية شرقا وغربا وجنوبا؟

؟إن المغرب الكبير وطن واحد، وأبناءه كلهم إخوة أشقاء! وقد بسطت الدولة الرستمية حجرها فأسرعوا إليها من جهات المغرب كلها، وأشرقت في تيهرت، فراها المغرب الأوسط والأقصى نورا وحياة، ففتح لها قلوبه ونوافذه وأبوابه، فأشرقت أنواره في أرجائه، وأثبتت لنا الدولة الرستمية بامتدادها من المغرب الأوسط إلى الأدنى أن مغربنا الكبير دار واحدة لا تجزئها الحدود، وقطر واحد لا تقسمه السدود؛ وأبناءه جنس واحد، متماثل الشمائل والزاج كالماء والماء في صفائهما، كلاهما نزل من السماء، فهي أمهما!

ما حدود الدولة الرستمية الكبرى، وما هي المناطق الواسعة التي تشمل عليها في المغرب الأوسط، والمغرب الأدنى؟

حدود الدولة الرستمية

في المغربين الأوسط والأدنى

كانت الدولة الرستمية أوسع رقعة وأكثر عددا من الدول المغربي المعاصرة لها كلها، وكانت أكثر تماسكا منها واتحادا لأنها قامت على العقيدة الواحدة والمثل الأعلى الواحد، وهو التمسك بالإمامة الإسلامية والجمهورية العادلة. فالمناطق التي انتشر فيها المذهب الأباضي الذي يدعو إلى الإمامة الإسلامية هي التي انضمت إلى الدولة الرستمية فتكونت منها؛ لهذا كانت أكثر تماسكا من غيرها. إننا لا نجد منطقة واحدة من مناطقها احتلتها بالسيف، أو كانت تحكمها حكما عسكريا، وترغمها بالقوة على الخضوع لها، كما كانت تفعل الدولة الأغلبية بالزاب وغيره.

وكانت لتماسكها واتحادها ورضاها عن سيرة أئمتها وعدلهم أكثر استقرار وهناء وقوة من جاراتها كلها.

والدولة الرستمية هي أول دولة بين معاصراتها تجمع بين المغربين الأوسط والأدنى فإنها كانت تشتمل على اغلب عماله الجزائر واغلب عمالة وهران، وعلى جبال أوراس وشمالها كلها إلى جنوب بغاية، وعلى نصف افريقية الجنوبي من شمال قفصة وجنوب صفاقس إلى الصحراء، وعلى طرابلس كلها من خليج سرت إلى قابس غربا ما عدا مدينة طرابلس والبحر، ومن البحر إلى الصحراء الكبرى. هذه هي مناطقها وهي البقاع التي انتشر فيها المذهب الأباضي الذي يدعو إلى الإمامة الإسلامية، وكان اغلب سكانها إباضية قد ثاروا على الملكية المطلقة المستبدة، وتمسكوا بالإمامة الإسلامية العادلة!

إننا إذا تتبعنا خط حدود الدولة الرستمية في شرقها وغربها وشمالها، نجد الخط يبتدئ شرقا من خليج سرت فيذهب مغربا مع الساحل إلى نهاية طرابلس في شرق قابس. فتدخل في الدولة الرستمية طرابلس كلها من البحر إلى الصحراء الكبرى ما عدا مدينة طرابلس والبحر فإنهما يخرجان عنها إلى الدولة الأغلبية. ثم يذهب الخط على ساحل تونس الشرقي الجنوبي صاعدا إلى الشمال، فيمر على جزيرة جربة فإنها من الدولة الرستمية، وعلى قابس إلى جنوب مدينة صفاقس، ثم ينعطف غربا فيمر على شمال قفصة ويستمر مغربا إلى الشمال فيمر على جنوب تبسة، ثم يصعد إلى الشمال الغربي لتيسة فيمر جنوب مدينة بغاية وشمال تيمقاد فتشتمل الدولة الرستمية على النصف الجنوبي من القطر التونسي كله من شمال قفصة وجنوب صفاقس، وعلى جبال أوراس كلها، وعلى السهول الممتدة في شمالها إلى جنوب مدينة

بغاية. كانت هذا المناطق كلها إباضية كما نص البكري ودلت عليه الآثار. وكما سترى بعد حين.

ثم ينزل خط الحدود من شمال أوراس على سفوحه الغربية فيمر على شرق مدينة تهودة (سيدي عقبة) وعلى الجنوب الغربي لمدينة بسكرة. ثم يرتقي خط الحدود إلى الشمال الغربي لبسكرة فيخترق الجزء الشرقي من شط الحضنة. فيذهب شمالا إلى شمال مدينة المسيلة. فينعطف الخط في وادي القصب بشمال المسيلة فيذهب مغربا فيمر بجنوب مدينة (سيدي عيسى) ومدينة (عين بوسيف) إلى شرق مدينة (قصر البخاري) فينعطف في شرق مدينة قصر البخاري فيذهب شمالا فيمر بغرب مدينة لمدية ثم ينعطف إلى الشمال الغربي للمدية فيمر بشرق (موزايا) ثم يرتفع إلى الشمال الغربي فيمر بشمال (بومدفع) ثم يستمر في تصاعده إلى الشمال الغربي فيمر على جنوب (مارينقو) ثم يذهب الخط إلى الشمال الغربي لهذه المدينة فيمر على شرق (زوريخ) فينتهي في البحر في شرق (شرشال) فيدخل في الدولة الرستمية اغلب (عمالة)[1] الجزائر اليوم. ويخرج عنها مدينة الجزائر. والبليدة. ولمدية. ونواحيها. ومناطق سور الغزلان وسيدي عيسى وعين بوسيف. أما بقية عمالة الجزائر الواسعة فكانت في نطاق الدولة الرستمية.

ومن شرق شرشال على شاطئ البحر يذهب الخط مغربا على الساحل إلى غرب وهران فتشتمل الدولة الرستمية من مدن الساحل على شرشال وتنس. ومستغانم وارزيو ونواحيها. وما يتصل بهذه المدن جنوبا إلى الصحراء الكبرى.اما حدها الغربي فيبتدئ من غرب وهران فينزل جنوبا علىا سبخة وهران فيمر على شرق جبال تلمسان وغرب وادي سيك إلى جنوب جبال تلمسان. ثم ينعطف غربا فيخترق جبال القصور فيمر بغرب مدينة فقيق. ومدينة بني ونيف ثم يستمر الخط في انحداره إلى الصحراء الكبرى. ويخرج عنها مناطق تلمسان وجبالها إلى غرب نهر سيك والى جنوب تلمسان.

أما حدها من الشمال إلى الجنوب فمن البحر الأبيض المتوسط إلى الصحراء الكبرى إلى ما بعد ورجلان. واغدامس. وفزان.[2]

هذه هي المناطق التي كان جمهور سكانها إباضية. وكانت تتمسك بالإمامة الإسلامية.

1 - العمالة في الجزائر هي المحافظة في مصر وهي ناحية في الدولة يديرها وال في مركزها وفي المدينة الكبرى التي هي العاصمة لتلك الناحية.

2 - انظر الدولة الرستمية في الخريطة في آخر الكتاب.

وقد ثارت على الأمويين والعباسيين وانفصلت عنهم. وأنشأت الدولة الرستمية وانضمت إليها. وبقيت في نطاقها إلى انقراضها في آخر القرن الثالث الهجري.

إن الدولة الرستمية (كفستان) الحسناء وثوبها الحديث. ضيقة من أعلاها واسعة من وسطها وجنوبها!

دخول جبال أوراس وشمالها في الدولة الرستمية

إن جبال أوراس كلها وشمالها إلى جنوب مدينة بغاية كان جزءا من الدولة الرستمية. إن أوراس لإبائه وتمسكه بالدين. وثورته على الظلم. وكرهه للملكية الأموية والعباسية المطلقة المستبدة كان أول المناطق التي انتشر فيها المذهب الأباضي الذي يدعو إلى الإمامة الإسلامية العادلة. إن اغلب سكان أوراس هم هوارة. ولواتة. وزناتة ومكناسة. وهؤلاء كلهم إباضية. وقد استمروا على المذهب الأباضي الجمهوري إلى آخر القرن الخامس الهجري في زمن البكري بعد انقراض الدولة الرستمية بقرنين.

قال البكري في المسالك والممالك: "جبل أوراس وهو مسير سبعة أيام. وفيه قلاع كثيرة تسكنها قبائل هوارة ومكناسة وهم إباضية".[1]

وشمال أوراس إلى جنوب مدينة (بغاية) كان تابعا للدولة الرستمية. إن البسائط في شمال أوراس كانت منازل لمزاتة. ومزاتة كانت من قواعد الدولة الرستمية. ومن القبائل الكبرى التي أنشأتها. قال الإمام عبد الوهاب: "ما قامت هذه الدولة إلا بأموال مزاتة وسيوف نفوسة".[2]

قال البكري يذكر منازل مزاته في شمال أوراس: طبا غاية. وهي حصن صخر قديم. حوله ربض كبير من ثلاث نواح. وليس فيما يلي الناحية الغربية ربض إنما يتصل بها بساتين ونهر. وفي ارباضها فنادقها وحماماتها. وأسواقها وجامعها داخل الحصن. وهي -بغاية- في بساط من الأرض عريض كثير المياه. وجبل أوراس مطل عليه. ويسكن فحص هذه المدينة قبائل مزاتة وضريسة وكلهم إباضية".[3]

ومما يدلنا على أن جبال أوراس كانت جزءا من الدولة الرستمية سكنى كثير من شخصياتها البارزة في أوراس. منهم الشيخ محكم الهواري. اختاره مجلس الشورى في زمن الإمام افلح للقضاء فأرسلوا إليه وكان يسكن في جبل أوراس. قال ابن الصغير:

1 - المسالك والممالك ص 144 ط باريس 1911م

2 - الأزهار الرياضية ط القاهرة.

3 - المسالك والممالك للبكري ص 144 ط باريس 1911م.

"فاجمع رأيهم -مجلس الشورى- على محكم الهواري الساكن بجبل أوراس".[1] فلولا أن أهل جبال أوراس كانوا رعية للدولة الرستمية ما اختاروا القاضي منهم. والقضاء ارفع واخطر وأسمى وظائف الدولة بعد الإمامة.

وقد هربت جماعات كبيرة، وكثير من الشخصيات البارزة في تيهرت وشمالها إلى جبال أوراس لما قضى العبيديون على الدولة الرستمية واحتلوا عاصمتها، فاحتموا بجبال أوراس وسكنوها. فلولا أن أوراس من بلادهم، وأهله من إخوانهم، ورعية لدولتهم ما آووا إليهم واستقروا بينهم.

وأهل أوراس هم الذين بايعوا في سنة 331 هـ أبا يزيد مخلد بن كيداد اليفرني وهو إباضي من توزر، بايعوه على الثورة على العبيديين الملكيين المستبدين الذين وطأوا المغرب بأرجلهم الطاغية. فثار أهل أوراس كلهم فنزل بهم أبو يزيد فاخذ بتلابيب الدولة العبيدية فكاد أن يجهز عليها. فلولا أن جبال أوراس من رعية الدولة الرستمية وممن يتمسك بالإمامة الإسلامية ما قاموا بتلك الثورة على العبيديين الملكيين الذين قضوا على دولتهم في تيهرت وبغوا وتجبروا. وما رضوا بابي يزيد قائدا عاما لهم وهو إباضي.

إنه لا زال في دواخل أوراس إلى الآن مناطق لها عادات كعادات الميزابيين في جنوب الجزائر، مما يدل على أن جبال أوراس ورثت تلك العادات الحسنة وتلك النظم الإسلامية من الدولة الرستمية التي كانت تابعة لها، كما ورثت الميزابيون تلك العادات الإسلامية الحسنة منها.

دخول شمال تيهرت كله ونواحي شلف كلها في نطاق الدولة الرستمية

وشمال تيهرت كله من شرق مدينة شرشال شرقا على الساحل إلى غرب مدينة وهران غربا، ومن البحر إلى عاصمة تيهرت كان جزءا أصيلا من الدولة الرستمية. لقد كانت كل تلك البقاع في نطاقها، لم تستقل منها أي مدينة ولا أي ناحية، ولم يكن فيها مدن هي إمارات مستقلة لبني محمد بن سليمان العلوي كما ادعى اليعقوبي ونقل روايته الضعيفة الشيخ مبارك الميلي في كتابه تاريخ الجزائر.[2]

إن تلك المناطق من شرق (شرشال) إلى غرب وهران وال مدينة تيهرت كانت تسكنها صنهاجة، وبرفجانة، وزناتة، ومطماطة، وزواغة، وهوارة، ومطغرة، ولواتة، ولماية، وبنو

1 سيرة الأئمة الرستميين لابن الصغير ص 24 ط. باريس 1907م.

2 - تاريخ الجزائر ج 2 ص 53 ط الجزائر 1350 هـ.

مسقن، وبنو واريفن، وبنو جليداسن.[1] إن هذه القبائل كلها جمهورية تتمسك بالإمامة الإسلامية، ولا تؤمن بالخرافة التي تحصر الخلافة في قريش. وما كان لها أن تملك أحدا عليها، أو ترضى بشخص تنحصر رئاستها في سلالته، وهي التي ثارت على الأمويين والعباسيين فاستقلت عنهم، وتمسكت بالإمامة الإسلامية؛ وهي التي أنشأت الدولة الرستمية وبايعوا الإمام عبد الرحمن والأئمة الرستميين. فما كان للدولة الرستمية أن تسمح لمنطقة بالانفصال عنها وهو ما يورثها الخراب. وما كان لها وهي حرب على الملكية أن تسمح بنشأة إمارات في أحشائها هي ملكية في رقعة ضيقة.

إن الدولة الرستمية قد نشأت قبل دخول أبناء محمد بن سليمان إلى المغرب بزمن طويل، وبعد أن بايعت تلك المناطق كلها الإمام عبد الرحمن وخليفته الإمام عبد الوهاب. فهل يمكن أن تتساهل الدولة الرستمية فترضى بانفصالها عنها. ولو كان هي فيها الاستعداد والرغبة في ذلك. فكيف والملكية والوراثة في الرئاسة هو ما تحاربه قبائل تلك المناطق وتأباه. لقد رأينا الإمام عبد الوهاب يؤدب زناتة الواصلية لما أثارها بنو خزر لتستقل وتنضم إليهم، ويأبى عليها الانفصال. لان بقاعها جزء من الدولة، وبيعته في أعناقهم. فكيف تسمح الدولة الرستمية بانفصال أجزاء كثيرة بالاستقلال والانفصال عنها كما ادعى اليعقوبي وردد كلامه الشيخ مبارك الميلي.

لقد رأينا بني خزر بعد أن انضموا إلى الدولة الإدريسية يثيرون زناتة لتستقل فتنضم إليهم ليوسعوا نطاق الدولة الإدريسية إلى سهول شلف الخصبة الغنية كما يحلمون. فلو كانت تلك المناطق العديدة التي ذكر البكري والشيخ مبارك الميلي إنها مستقلة في نواحي شلف تحت إمارة بني محمد بن سليمان العلويين لضمتها الدولة الإدريسية إليها، ووسعت حدودها في شمال الدولة الرستمية، وامتلكت سهول شلف الغنية كما يحلمون !

إن المؤرخ الوحيد الذي ذكر هذه الإمارات المستقلة لبني محمد سليمان العلوي هو اليعقوبي. ولم يذكرها، وقد ذكر كل المدن التي ادعى اليعقوبي إنها ممالك لبني محمد بن سليمان ولم يذكر نشوء هذه الممالك فيها. لقد ذكر البكري إمارة هازو وقال إنها للعلويين وكذلك إمارة متيجة فلو كان للعلويين إمارات في المدينة الخضراء، وفي سوق إبراهيم، وفي ثمطلاس هذه المدن القريبة من تيهرت وهي في شمالها، وعلى كثب منها. إنها لها كالشعر الجميل على رأس الحسناء! تعده اكبر زينتها، وأعظم تاج لها، هل

1 - انظر المسالك والممالك للبكري ص 66 إلى 71 ومن صفحة 144 ط باريس والجزء السادس والسابع من تاريخ ابن خلدون أولى ففيه ذكر القبائل البربرية في شمال تيهرت ومنازلها وأخبارها.

ترضى بحلقه وانفصاله عنها؟! لقد تحدث البكري حديثا مستفيضا عن هذه المدن فلم يذكر إنها ممالك لمحمد بن سليمان.

إن البكري هو الحجة والثقة في تاريخ المغرب سيما شمال تيهرت القريب من الأندلس، لقد كان البكري أندلسيا وكان عليما بجغرافية المغرب وتاريخ كل نواحيه. عرف بالاطلاع والمشاهدة، وبالاجتماع بالعلماء الثقات الذين كانوا يتوافدون على الأندلس من المغرب، ومن كتب المغاربة الذين كتبوا تاريخ بلدهم وجغرافيتها، انه هو الحجة والمعتمد في جغرافية المغرب وتاريخه. أما اليعقوبي فقد كان مشرقيا بعيدا عن المغرب وهو كما قال في كتابه "البلدان" : "وكنت متى لقيت رجلا سألته عن وطنه ومصره...حتى سألت خلقا كثيرا في الموسم وغير الموسم"[1] إن ما يتصل بالمغرب استقى أكثره اليعقوبي من أفواه الرجال في أيام الحج وغيرها وليس بالمشاهدة والرحلة. وقد يكون أكثر من سال عواما لا علماء وإيجازه في وصف المغرب دليل على هذا. ثم إن اليعقوبي كان في أول أمره عباسيا ملكيا "وكان يقال له موالى بني عباس، وموالى بني هاشم لان جده كان من موالى المنصور الدوانيقي الملك العباسي" [2] إن اليعقوبي كان ملكيا. ولا يوثق بأقواله في الدولة الرستمية الجمهورية التي تعرف نظرة العباسيين وتنقيصهم لها. وكان اليعقوبي ملكيا ثم صار من غلاة الشيعة، ولا يوثق بروايته في هذا الباب. فقد ينسب إلى العلويين ما ليس لهم، ويتمسك في أخبارهم بأوهى الروايات.

إن الدولة الرستمية ما كانت لتجعل تيهرت عاصمتها لو كان اغلب شمالها منفصلا عنها. إن العاصمة هي القلب! ولا تكون إلا في وسط الدولة، وفي وسط بقاع هي لها؟، وأهلها من اخلص رعيتها.

لقد وقفنا في رواية اليعقوبي الباطلة هذه الوقفة لان الشيخ مبارك أمليلي قد نقلها. وكتابه تاريخ الجزائر من المراجع المهمة في تاريخ المغرب، وإن لم يدقق الشيخ مبارك رحمه الله النظر في مثل هذه الروايات ليتبين بطلانها فحشرها في كتابه القيم، ولم يدرس تاريخ الدولة الرستمية دراسة دقيقة فيوفيها حقها، وينجو من الأحكام الخاطئة التي وقع فيها. وقد فندنا بعضها، وسنفند الباقي لكي لا يقع فيها غيره.

تلك هي حدود الدولة الرستمية. وقد تمت في رقعتها زمن الإمام عبد الوهاب. هذا الإمام المحبوب الذي نرى جبل نفوسة في آخر القرن الثاني يودعه آسفا لفراقه، باكيا لمغادرته لبقاعه، ويلبس المغرب الأوسط أنواع الزينة، ويستعد لاستقبال أمامه الذي

1 - كتاب البلدان لليعقوبي ص 3 ط ليدن 1860م.

2 - مقدمة تاريخ اليعقوبي ج 1 ص 2 ط نجف 1358 هـ.

فارقه منذ سبع سنين. فمتى رجع الإمام عبد الوهاب إلى العاصمة والمغرب الأوسط. وكم ستمتد به الحياة قبل أن ينتقل إلى ربه؟

رجوع الإمام عبد الوهاب إلى المغرب الأوسط ووفاته ومدة إمامته

كان رجوع الإمام عبد الوهاب من جبل نفوسة إلى تيهرت عاصمة الدولة في آخر القرن الثاني الهجري. إن حربه مع إبراهيم بن الأغلب، ومحاصرته لطرابلس وقعت في سنة ست وتسعين ومائة كما ذكر ابن خلدون. وقد اضطر عبد الله بن الأغلب إلى الرجوع إلى القيروان لوفاة أبيه إبراهيم بن الأغلب فعجل بالصلح مع الإمام عبد الوهاب وكانت وفاة إبراهيم بن الأغلب في آخر شوال من سنة ست وتسعين ومائة. وليس صحيحا ما قرره الشيخ الباروني في الأزهار من أن وفاة الإمام عبد الوهاب كانت في سنة تسعين ومائة. انه في سنة ست وتسعين كان يحاصر طرابلس كما رأينا.

اختيار الصلحاء في الناحية للوالي الذي يولي عليهم لعدل الدولة وسماحتها

وقبل أن يرحّل الإمام من جبل نفوسة أمر أهل الحل والعقد فيه أن يختاروا من يوليه عليهم. وهذا من عدله، وحكمته، وأخذه بالشورى في الأمور المهمة. انه لا يستبد بالأمر كما يفعل الملوك في توليتهم على النواحي، بل يأمر العقلاء الصالحين في تلك الناحية أن يختاروا رجلا فيوليه عليهم.

إن الدولة الرستمية دولة ديمقراطية عادلة، لا تجد مثل ديمقراطيتها وعدلها إلا في دولة الخلفاء الراشدين في خير القرون.

وكان أهل جبل نفوسة يعجبون بالسمح بن أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح وكان الإمام يصطحبه معه، ويستعين به، ويراه ابرز شخصية في مجلس الشورى، وامتن كواهله في النهوض بأعباء الإمامة الكبرى. فاختار أهل الجبل السمح فسألهم الإمام أن يختاروا غيره لحاجته إليه، سيما في شيخوخته، وفي الأيام التي اتسعت فيها حدود الدولة فازدادت أثقاله فأبوا إلا السمح! فنزل عند إرادتهم لتواضعه، وسماحة أخلاقه فولاه عليهم.

وكانت أحزان جبل نفوسة، وأحزان طرابلس وجنوب افريقية لفراق الإمام عبد الوهاب لتلك النواحي بالغة، وأفراح المغرب الأوسط برجوع الإمام إليه أفراح الأبناء برجوع الأب الحدب والأم الرؤوم! وكانت أفراح الإمام أيضا بالغة لما وجد عليه الدولة في المغرب الأوسط من الاستقرار والهناء، ومن السعادة والإخاء، ومن الغنى والطمأنينة.

وكان افلح بن عبد الوهاب قد قام بأمور الإمامة في غيبة أبيه أحسن قيام، وأدار شئون الدولة في عبقرية لفتت أنظار الخاصة والعامة إليه. ورأوا من ورعه وعدله وتواضعه ودهائه وحزمه وإخلاصه ما جعلهم يتمنون أن يقبل رئاسة الدولة بعد أبيه، وان يكون إمام دولتهم بعد وفاة والده.

وكان الإمام عبد الوهاب بعد رجوعه من المغرب الأدنى في شيخوخته البالغة، ولكن ابنه افلح ومجلس الشورى كانوا يقومون بمهمات الدولة فكان حمله خفيفا.

وفاة الإمام عبد الوهاب

وعاش الإمام عبد الوهاب إلى سنة إحدى عشر ومائتين فاختاره الله لجواره، فانتقل إلى ربه في هذه السنة. وكان عمره اثنين وتسعين عاما كما أرى، وكما تدل عليه الحوادث التي شارك فيها.

لقد انتقل الإمام عبد الوهاب إلى المغرب الأوسط في سنة 144 هـ مع أبيه وهو شاب يحمل السلاح، وعمره فوق العشرين، ثم كانت الحرب التي قادها ضد الأغالبة في سنة 196 ثم يقيم في الجبل بعدها م

ة لتنظيم النواحي الجديدة التي انضمت إلى دولته في ساحل طرابلس، وساحل افريقية، وترتيب أمورها، ثم يرجع إلى تيهرت فيتوفى السمح واليه على الجبل، فيختار أهل الجبل أبا عبيدة عبد الحميد الجناوني فيأبى الولاية، فيكتب إليه الإمام ليقبل الولاية، وتقع فتنة خلف بن السمح، فيكتب إليه الإمام لاستصلاحه. كل هذه أحداث تستدعي أن يكون الإمام قد عاش بعد رجوعه من الجبل مدة طويلة.

وكان بعض المؤرخين -كما ذكر الشيخ الباروني- قد ذكروا بان إمامة الإمام عبد الوهاب كانت أربعين سنة. وارى أن هذا هو الصحيح. لان الأحداث الكثرة التي وقعت في عهد إمامته قبل سفره إلى المغرب الأدنى، وإقامته في المغرب الأدنى سبع سنين، وما وقع بعد رجوعه، تستدعي أن يكون إمامته أربعين سنة لا تسع عشرة سنة كما قرر الشيخ الباروني. إن عمره لهذا لما توفي كان نحو قرن من الزمان.

إن بنيان الإمام المتين، وجسمه الرياضي، ونفسه العملية، ووراثته. -لقد عاش أبوه مثل سنه- إن هذا يجعل الإمام من المعمرين طويلا، وممن يؤتيهم الله الحياة الطويلة، والسن العالية.

مدة إمامته

كان عمر الإمام عبد الوهاب نحو قرن من الزمان، ومدة إمامته أربعون سنة وقد وصلت الدولة في عهده ذرا القوة والسعادة، والاستقرار والهناء. إن عهده يمثل شباب الدولة وقوتها. ولما توفي لم يستخلف أحدا، بل ترك أمر الإمامة ومن يخلفه في رئاسة الدولة لمجلس الشورى، وللأمة فهي التي تختار من يليق. إن ابنه افلح وإن كان يليق للإمامة، ويرتضيه للرئاسة، لكنه لم يلفت الأنظار إليه، ولا رجا من احد أن يقترحه ويقدمه. إن الإمامة ورئاسة الدولة عنده وعند أسرته كلها ثقل وحمل عسير، وحساب شديد عند الله. فما كان ليتمسك به هو وأسرته. فانتقل إلى ربه قرير العين بما قدم لنفسه من إسعاد الدولة وخدمتها، ورفع راية العدل والإمامة الإسلامية، ونصرة الدين بتمسكه وتمسك دولته به في كل شئونها. وكان حزن الدولة عليه بالغا، واسى المغرب كله لوفاته كبيرا.

معاصرو الإمام عبد الوهاب من الأئمة والملوك

وكان الإمام عبد الوهاب قد عاصر من رؤساء الدولة الإدريسية الإمام إدريس الأكبر وقد تأسست دولته في أول عهده أو في آخر عهد والده عبد الرحمن؛ وإدريس الأصغر.

ومن ملوك الأغالبة إبراهيم بن الأغلب، وابنه عبد الله، وزيادة الله الأول.

ومن ملوك بني أمية في الأندلس صقر قريش الملك عبد الرحمن، وهشام بن عبد الرحمن، والحكم بن هشام، وعبد الرحمن بن الحكم.

ومن أئمة عمان في المشرق: محمد بن أبي عفاف اليحمدي، والوارث بن كعب، وغسان بن عبد الله اليحمدي، وعبد الملك بن حميد الازدي.

ومن الملوك العباسيين هارون الرشيد، والأمين، والمأمون.

ورجعت تيهرت ونواحيها من المقبرة بعد أن واروا الإمام عبد الوهاب في مقره الأخير، وهم يغسلون صدورهم بالبكاء، وتبدو نار الأسى التي في قلوبهم في احمرار عيونهم بالدموع. وأسرع مجلس الشورى الذي يضم أهل الحل والعقد في الدولة، فألزموا افلح بقبول الإمامة، فتهرب، ولكنهم الحلوا عليه، ورأى إجماع الدولة على اختياره، وأقنعه مجلس الشورى، فقبل الحمل الثقيل، وبسط يده للخاصة والعامة فأسرعوا إليه فبايعوه. فكيف كانت شخصية افلح؟ وكيف كانت الدولة في عهده؟ وما حضارتها ودرجتها في المدينة والعمران؟

ظهور شخصية افلح وكفاءته قبل وفاة والده ورغبة الخاصة والعامة كلها في إمامته

كان الإمام افلح لما توفي والده في سن الكهولة والنضوج. إن عمره كما أرى إحدى وستين سنة. وكانت شخصيته العظيمة قد برزت وأشرقت، وعرف الناس صفاته الكريمة، وذاقوا حلاوة عدله، وحسن سياسته لما خلف والده في السنين السبع التي غاب فيها عن المغرب الأوسط؛ ورأوا من ورعه، وحزمه وتواضعه، وكفاءته في السياسة ما جعل الخاصة والعامة تتمنى أن يكون هو إمامها بعد أبيه، والمضطلع بأثقال الرئاسة إذا توفي والده. ولما انتقل الإمام عبد الوهاب إلى ربه، اجتمع مجلس الشورى وأهل الحل والعقد في الدولة، فتفاوضوا فيمن يصلح للإمامة، فلم يجدوا أحسن من افلح فألزموه فقبلها، وطأطأ للدولة فوضعت على كاهله أثقال رئاستها.

كان ذلك في سنة إحدى عشرة ومائتين، فتنفست الدولة الصعداء، وزالت عنها الحيرة والخارف، واطمأن الناس لما تولى الإمامة افلح بن عبد الوهاب، ولبست تيهرت وكل أنحاء آل

دولة زينات الأفراح، وأسرع الناس من أنحاء الدولة فأكدوا بيعتهم له، كما بايعته الخاصة والعامة في العاصمة ورضيت به إمامها، فاستمر الإمام افلح بالدولة في الطريق الذي كان فيه أبوه، ودامت الأيام للدولة كما كانت في آخر عهد أبيه فكانت على الإشراق والهناء، وعلى السكون والسعادة.

لماذا أثرت الدولة أن يكون أئمتها كلهم من العائلة الرستمية

وهناك سؤال ينشأ في نفس كل قارئ يدرس تاريخ الدولة الرستمية، وحيرة تكون في صدر كل مبتدئ يرى اختيار الدولة لائمتها كلهم من العائلة الرستمية. إن الدولة الرستمية تقوم على الإمام الإسلامية. والإمامة الإسلامية حرب على حصر رئاسة الدولة في عائلة واحدة. وأساس الإمامة وحقيقتها التمسك في السياسة بالدين، واختيار المسلمين في حرية كاملة رئيس الدولة وإمامها. فلماذا انحصرت رئاسة الدولة في العائلة الرستمية وحدها؟ إن الدولة لتمسكها بالدين، ونضوجها في العلم، وبلغوها الذرا الرفيعة في المدينة الإسلامية، وقوة شخصية البربر ونبوغهم، واستعدادهم بين

الأمم للزعامة والرئاسة، يجعل من يليق للإمامة فيها على الكثرة الكثيرة في القبائل، فلماذا لا نجد الإمامة موزعة في القبائل، فيكون الإمام ورئيس الدولة تارة من هوارة، وتارة من لواتة، وأحيانا من نفوسة، وغير ذلك من القبائل الكثيرة التي تشتمل عليها الدولة الرستمية؟ أليس حرص الجمهوريين على الإمامة الإسلامية، وعلى حرية الاختيار لرئيس دولتهم هو الذي دفعهم إلى الثورة على الأمويين والعباسيين فأسسوا دولتهم؟ ولماذا يحصرون الإمامة في عائلة واحدة. أليس هذا شبيه بما يقع في الدولة الملكية؟ نجد الرئاسة محصورة في العباسيين ثم لا تتعداهم، واو في الأغالبة ثم لا تخرج عنهم، أو في الأدارسة ثم لا يرضون أن يتولى الرئاسة غيرهم.

هذا سؤال ينشأ في نفس كل قارئ يرى الإمامة محصورة في العائلة الرستمية وحدها، ومتسلسلة في أبناء الإمام عبد الرحمن لا تخرج عنهم.

إن هذا التسلسل وهذا الحصر للإمامة في العائلة الرستمية من فعل الدولة كلها، واختيار القبائل في الدولة الرستمية جميعها، لا من فعل العائلة وصنائعها كما يقع في الدول الملكية.

إن حرص الدولة الرستمية على الإمامة الإسلامية، وعلى العدل والتمسك بالدين في أئمتها هو الذي جعلها تحصر إمامتها بإرادتها، واختيارها أحر في عائلة واحدة.

إن الشخصيات الناضجة التي تليق للإمامة موجودة في اغلب القبائل في الدولة الرستمية. ولكن أهل الحل والعقل في الدولة الرستمية، ومجلس الشورى الذي يتكون من الشخصيات البارزة في القبائل، ومن عقلاء الدولة وساستها، يخافون تمسك القبل برئاسة الدولة إذا جعلت فيها، وعدم رضاها أن تخرج عنها، يخافون أيضا لباء القبيلة أن يعزل الإمام الذي ولي منها إذا لم يعدل أو جار عن طريق الدين، فتنهدم الإمامة الإسلامية، وتصير الدولة إلى الملكية التي يأبونها!

ثم إن القبائل لما نالت من الغنى، وما بلغته من المدنية والرقي، أصبح الكثير منها معتمدا بنفسه، وقد تغار بعض القبائل ا اختير الإمام من غيرها. فيضعف اتحاد الدولة، ويتضاءل فيها الصفاء والتماسك الذي هو قوتها وحصنها. إن في كل قبيلة أناسا أنانيين تسودهم العصبية لا الدين، وفي كل منها محبين للرئاسة.وهؤلاء هم الذين يأبون خروج الإمام من قبيلتهم، فيؤرثون عامتهم، فيهبون في عنف الجهلة لاستبقاء الرئاسة فيهم بقوة السلاح، وإرغام الأمة على الرضى بمن يقدمونه من رجالهم إماما وإن كان لا يصلح للرئاسة، ولا تتوفر فيه الشروط الإمامة.

إن هذا الاستبداد إذا وقع من قبيلة في الإمامة فانه يقع منها أيضا في وظائف الدولة ! فتخص بها أبناءها، وتعاف أن يتقدم إلى الولايات والوظائف الكبرى احد غيرها، فتفسد الدولة يتولى الضعفاء، وتحدث بين القبائل الشحناء والبغضاء، فتمرض الدولة وتموت.

أما العائلة الرستمية فليست قبيلة كبرى فتستطيع الاستبداد بالإمامة. إنها لا تستطيع أن تتمسك بالرئاسة، وتأبى عزل الإمام الذي كان منها إذا حاد عن طري الدين. إن روح الإمامة وجدواها إنما هو العدل والتمسك بالدين. وهذا لا يكون مضمونا محققا إلا إذا كانت الإمامة في عائلة لا تستطيع التمسك بها، ولا يستطيع الإمام الذي كان منها أن يغتر منها بحماية قبيلته فيظلم ويجوز، وينحرف في السياسة عن طريق الدين.

إن هذا وما تمتاز به العائلة الرستمية من احترام كل القبائل لها، وإعزازها وحبها، انه ليس بينها وبين قبيلة من المنافسة ما بين القبائل الكبرى؛ فهي التي تجمع القلوب كلها، وتجعل الدولة بنيانا مرصوصا يشد بعضه بعضا. هذا إلى نبوغ العائلة في السياسة، وتمسكها بالدين، ونضوجها في العلم والعرفان، وحماسها للإمامة الإسلامية، كرهها للملكية المستبدة التي لا تتقيد بالدين. إن هذا هو الذي جعل الدولة كلها تختار أئمتها كلهم من العائلة الرستمية. فهذا القصر للرئاسة عليهم كان من اختيار الدولة جميعها، ورغبة الأمة كلها ! فهي التي تختارهم وتقدمهم، آمال هم فيأبون الرئاسة، ويعانون الإمامة، ويرونها أثقالا ثقيلة، وحسابا عسيرا عند الله.

إن حرص الدولة الرستمية على الإمامة الإسلامية هو الذي جعلها تختار كل أئمتها من العائلة الرستمية. لا يموت إمام إلا ويجتمع مجلس الشورى الذي يضم خاصة الدولة، فيختار في حرية تامة من يخلفه. وما رأينا إماما واحدا في الدولة الرستمية يعمل في حياته لبقاء الإمامة في أسرته، أو يوصي بها لأحد عائلته، ويضع المقدمات لبقائها في سلالته، باصطناع قواد الجيش، ورؤساء القبائل كما يفعل الملوك. إن الإمامة حق للأمة كلها، يتركها أمانة في أيدي خاصتها، فهي التي تختار من تسندها إليه ! إن هذه الخاصة هي التي اختارت الإمام افلح فكيف كانت شخصيته؟ وما حال الدولة في عهده؟

شخصية الإمام افلح ووراثته
واستقرار الدولة ونضوجها في عهده

كان الإمام افلح فارسا من فرسان عصره في الحروب، وبطلا من الأبطال الأقوياء، وقائدا من القواد الماهرين في الهيجاء. وكان من العلماء الأجلاء، وأديبا له شعر حكيم سائر، ورسائل جميلة متداولة. وكان من النبغاء، وقد سطع نبوغه منذ حداثة سنه، وظهرت كفاءته العلمية في سنه المبكرة.

قال أبو زكرياء: "بلغنا عن الإمام افلح انه قعد بين يديه أربع حلق قبل بلوغه يتعلمون منه فنون العلم: الفقه، والأصول، والنحو، وغير ذلك".[1]

وكان ورعا متمسكا بالدين كل التمسك في كل الأشياء. وكان حازما محبا للعمل، يتولى مهمات الدولة بنفسه. وكان قد نشأ في أيام جده الإمام عبد الرحمن لما كانت الدولة في طفولتها، وكانت الطبقات كلها تكدح وتجد في بناء دولتها، وتسعى في نشاط وحزم لإعلاء صروحها؛ فتأثر بهذا الجو العلمي الذي يكتنفه، كما اعتنى أبوه بتربيته فغرس فيه الحزم والمضاء، والاعتماد إلى النفس، حب العمل. فنشأ جلدا، محبا للعمل، معتمدا على نفسه كل الاعتماد. وقد هم -لاعتماده على نفسه وجلده وقوة نفسه- أني يسافر متاجرا إلى بلاد السودان، رغم غنى أبيه الواسع، وثروة والده الطائلة !

ميلاده

وكان ميلاد افلح قبل مبايعة جده عبد الرحمن بالإمامة، في حوالي سنة خمسين ومائة. إنه قد شارك في حروب ابن فندين. وكان بطل المعركة التي انهزم فيها ابن فندين، فهو الذي قتله، واخمد فتنته. وهي الفتنة وقعت في أول عهد أبيه في الإمامة حوالي سنة 172 هـ. وهذا يستدعي أن يكون في هذا العهد شاب مكتمل الشباب، ناضج الجسم، كامل الاستعداد للحروب. ويكون سنه في العشرين أو أكثر.

وكان إلى نشأته في أول عهد الدولة الرستمية فيس زمن النشاط والعمل، فتأثر بالجو النشيط العمال الذي يكتنفه، قد حضر كل الحروب التي كانت في أول عهد أبيه في الإمامة. وكان فارسها، وقائدها، ومطفئ جذوة تلك الفتن التي أثارها أعداء الدولة وبطر بعض القبائل. فطبعته هذه الأجواء العاصفة التي خاضها بالجلد والحزم والمضاء،

1 - السيرة وأخبار الأئمة لأبي زكرياء.

وقوة النفس. فلم يكن على الخمول الذي يكون عليه اغلب أبناء الأمراء، وعلى الضعف الذي نرى عليه أبناء الأغنياء الذين يفسدهم التدليل، ويضعف أخلاقهم الجو الوادع، والترف الغامر، والانغماس في الملاذ والشهوات.

دهاؤه وشجاعته ورهبة العباسيين له

وكان الإمام افلح داهية في السياسة، يصرف الأمور في حكمة وشجاعة، ويدبر شئون الدولة في كياسة ومضاء. فأحبته رعيته، وهابه العباسيون الذين يكيدون لدولته. وكانوا يرهبونه ويخشون سطوته.

وكان أبو العباس محمد بن الأغلب من الملوك الأقوياء للدولة الأغلبية. وكان شجاعا بطلا، مظفرا في حروبه. فبدا له أن يشاكس الدولة الرستمية، ويزحمها في طريقها، ويضايقها في حدودها الشرقية. فبنى مدينة في ناحية طبنة كما أرى قريبا من حدود الدولة الرستمية. فرأى الإمام افلح في هذه المدينة الاستعداد للعدوان على دولته، وعلى جيرانه الدولة الأموية في الأندلس، والإضرار بهما. فسكت حتى أتم محمد بن الأغلب بناء مدينته، وانفق فيها الأموال الطائلة، وشيدها وأعلى أسوارها كما يريد. وكانت تحفة. فأطلق عليها اسمه وسماها العباسية. فهجم عليها الإمام افلح وهدمها وحرقها، وأزالها كما تزيل الدمية الزجاجية من كرسيها إذا ركلته فسقطت فتفرقت شظايا !

قال ابن خلدون: "وشيد أبو العباس محمد بن الأغلب مدينة بقرب (حدود تيهرت) وسماها العباسية. وذلك سنة 127 هـ واحرقها افلح بن عبد الوهاب"[1] وسكت أبو العباس ابن الأغلب، واخلد إلى السكون، ولو تحرك لدمغه افلح ووطئه برجله اليسرى !

إن هذا الحادث يدل على قوة الإمام افلح، وعلى قوة الدولة الرستمية، وتفوقها على الدولة الأغلبية. إن العباسيين في القيروان ما كانوا ليسكتوا للصفعة لو استطاعوا الرد بالمثل، والانتقام لكبريائهم الملكية التي عفرت في التراب !

تواضعه ودماثة خلقه

وكان الإمام افلح على شجاعته وفروسيته، وميزاته التي تورث الكبر لسواه، والشموخ لغيره، متواضعا كل التواضع. وقد زاره وفد من علماء جبل نفوسة في أيام إمامته، وعهود قوته، فدعاهم إلى الطعام على مائدته. فوقف عليهم يخدمهم بنفسه. وكان المصباح في يده يحمله لهم وهم يأكلون. فأرادوا أن يمتحنوا تواضعه، فمد إليه احدهم

1 - العبر لابن خلدون ج 4 ص 200 ط بولاق بالقاهرة.

لقمة مما يأكلون، فوضع المصباح على ركبته، فتلقى اللقمة بكلتا يديه كما يفعل العبد المملوك، وشكر من أعطاه اللقمة، واكلها، وذلك لتواضعه، وبعده عن تجبر الملوك، وصلف الأمراء.[1]

عدله وعدل ولاته وقضاته

وكان الإمام افلح عادلا كل العدل في أحكامه. لا يحابي أحدا ولو كان أخاه أو أباه، أو صهره، أو أحب حبيب إليه. وكان ولاته وقضاته على عدله، وحكمه بما انزل الله، ومساواته بين المتخاصمين في المجلس والحقوق! انظر إلى هذه القصة التي أوردها ابن الصغير المالكي عن عدل افلح وعدل قاضيه. فهي مثال لما كان عليه القضاة والولاة في الدولة الرستمية من العدل الذي يأمر به الدين، وتقتضيه الإمامة الإسلامية التي تقوم عليها الدولة.

قال ابن الصغير: تنازع أبو العباس اخو افلح، وصهر افلح في ارض فارتفعا إليه. فقال لهما افلح: كلاكما يعز علي. ارتفعا إلى محكم الهواري قاضي تيهرت. وكان أبو العباس يحب ذلك لأنه هو الذي سعى لولاية محكم القضاء (وكان محكم يحبه ويقربه للصداقة القديمة بينهما).

قال ابن الصغير: فاغتنم أبو العباس كلام افلح، فبادر إلى بغلة له شهباء هملاجة فركبها. وكان صاحبه على رمكة[2] بطيئة. فأتى أبو العباس محكما فوجه خاليا في سقيفة الدار (فظنه زائرا) ولم ير مع أبي العباس أحدا. فأجلسه محكم بجانبه. واقبل عليه يحدثه. وبينما هما كذلك إذ اقبل خصم أبي العباس فنزل بباب دار محكم القاضي. فلما رأى أبو العباس خصمه قد نزل نادى باسم جارية محكم. فاستسقى ماء ليرى خصمه دالته على القاضي كي يوادعه، ويترك خصامه. فلما شرب أبو العباس وصار القدح في يد الجارية. قال الخصم في نفسه: إلى من أحاكم؟ خصمي جالس إلى جنب القاضي ويسقى الماء من داره. وأنا ملقى بباب الدار لا يلتفت إلي؟!

قال ابن الصغير: فالتفت محكم الهواري فإذا بالرجل جالس. فقال: ما بالك يا هذا وما قصدك؟ فقال له: جئت خصما لأبي العباس فوجدته جالسا إلى جانبك، فجلست موضعي هذا. فغضب محكم الهواري على أبي العباس. قال: يا أبا العباس! تأتي مع خصمك فتجلس إلى جانبي دونه، وتستقي الماء من داري على يد جاريتي! ! يا غلام. خذ

1 - انظر نص هذه القصة في ص 192 من سير الشماخي ط البارونية.

2 - الرمكة البرذونة: دابة بين البغل والحمار.

بيد أبي العباس وأقعده مقعد خصمه ولا يبرح! وخذ بيد خصمه وأجلسه بجانبي، ومر الجارية فلتسقه ماء! ففعل الغلام ما أمره به! فذهب أبو العباس مغضبا حتى دخل على أخيه الإمام افلح. فلما رآه قال له: ما بالك؟ وما عراك؟ قال: نزل بي من هذا الهواري الجافي ما لم ينزل بأحد. فقص عليه القصة. فقال له الإمام افلح: يا أبا العباس. إن الصواب ما فعل محكم. والحق أولى أن يؤثر! ولو فعل غير هذا لكان مداهنا!".[1]

هذا هو الإمام افلح في عدله بين رعيته، وذلك هو عدل القضاة في الدولة الرستمية، لا يحاربون أحدا، ولا يخافون إلا الله، ولا يميلون إلا إلى الحق الذي قررته الشريعة الإسلامية في الأحكام.

تلك جوانب من شخصية افلح العظيمة، ونحن لا نستطيع الاستقصاء، وتحليل شخصيته، وبيان أسباب عظمته لان الكتاب لا يتسع لتحليل الشخصيات العظيمة كلها. فحسبنا تحليل شخصية عبد الرحمن وعبد الوهاب، وافلح، ومن يليه فروع لهذين الأصلين. فوراثتهم هو ما رأيت فيهما، والبيئة الطبيعية والاجتماعية التي أثرت في العائلة الرستمية وفي كل الشخصيات العظيمة التي تشتمل عليها الدولة الرستمية هو ما تراه في هذا الجزء كله.

تلك هي بعض خصائص الإمام العقلية والخلقية. فما نسبه؟ وما هي الدماء السارية في عروقه؟ إن الدماء أصل الوراثة، والوراثة هي أصل الشخصية واصل الشخص أيضا. فهل افلح في وراثته ودمائه فارسي أو بربري؟ فهل نعده في المغرب من الفرس فنقول: إن العائلة الرستمية أجنبية عن المغرب بالدماء، وان البربر ينظرون إليها نظرتهم إلى الغريب النازل، والدخيل الأجنبي؛ وأنهم في المغرب كالأقمار الصناعية بين النجوم، ترسي بينها، وتنجذب إليها، وليست منها!

1 - سيرة الأئمة الرستميين لابن الصغير ص 23 ط باريس 1907.

امتزاج العائلة الرستمية بالمغرب
وتغلب الدماء البربرية فيها

ما نسب افلح وأبنائه وأحفاده وما دماؤهم؟ إن بعض المؤرخين المحدثين قد نظر نظرة بسيطة إلى العائلة الرستمية فجعلهم أجانب في المغرب، وجعل البربر والدولة الرستمية المغربي ينظرون إلى افلح وأبنائه والعائلة الرستمية على أنهم أجانب عنهم، غرباء فيهم. لهذا آخرنا هذه النقطة التي تجلو دماء افلح ووراثته، ووراثة عائلته من بعده، وهي من صدر الكلام في دراسة الشخصيات لأننا سنسهب فيها، ونقف عندها.

أم افلح بن عبد الوهاب ونسبها

أما نسب افلح فأبوه عبد الوهاب، وقد أروثه خصائصه كلها. فكان قوي الجسم مثله، وعلى حسبه في الأخلاق والذكاء، وفي العلم والدين. أما أمه فلم يذكر لنا المؤرخون عنها شيئا. إنه لا شك إنها بربرية، وكذلك زوجته، وارى أن أم افلح من زناتة. إن الشماخي قد قال في السير: "ومنهم جارون بن القمري عامل الإمام عبد الوهاب وصهره وهو زناتي"[1] أترى هذا الصهر زوج ابنته أو والد زوجته؟ إذا كانت أم عبد الوهاب يفرنية من زناتة، فأرى إنها تحرص أن تزوج ابنها عبد الوهاب من قبيلتها، ومن بنات قومها. إن هذا طبع النساء، وما تؤثره كل امرأة: أن تزوج ابنها من قومها وبنات عشيرتها. إن هذا طبع في النساء عامة، سيما الذين يعتدون بأنفسهم كالبربر، والذين ينزعون إلى الاستقلال وعدم الاختلاط مثلهم. الظاهر أن جارون بن القمري هو جد الإمام افلح من أمه، وان أمه زناتية كأم عبد الوهاب.

إن الذي لا شك فيه هو أن أم افلح بربرية من المغرب، ومن قبيلة بربرية.إنه ليس عندنا من الفرس الذين يمكن أن يتزوج منهم عبد الوهاب إلا أخواته بنات أبيه، أو عماته. هذا إلى ما يحرص عليه الإمامان عبد الرحمن وعبد الوهاب من توثيق صلتهما بالبربر، والامتزاج بهم، فانه يجعلهما يصهران إليهم، ويمزجان دماء البربر بدماء أبنائهم ليكونوا جزءا لا يتجزأ من القبائل البربرية التي يعتدان بها، ويعدانها قومهما وعشيرتهما. إن افلح من أم بربرية. أبوه كذلك أمه بربرية. لقد امتزجت سلالة عبد الوهاب بالبربر، وتغلبت الدماء البربرية في عروقهم.و نشأوا في بيئة المغرب الطبيعية والاجتماعية، فصبغتهم بكل

1 - السير للشماخي ص 203 ط البارونية

خصائصها، وأورثتهم ما تورثه للبربر أبنائها. فصاروا بربرا في كل أشيائهم،حتى في اللون الذي كان بالدماء البربرية المتغلبة فيهم، وبالجو المغربي الذي يؤثر في الخَلق وفي الخُلق.

إن الأخلاق المتماثلة، والعقائد الواحدة هي التي تجعل المرء جزءا من الجماعة. وأساس الأخلاق إنما هي الوراثة. وإذا كانت أم عبد الوهاب بربرية، وأم افلح بربرية، فقد تغلبت الدماء البربرية في العائلة الرستمية وهي افلح أكثر لتعدد الأمهات والجدات البربريات في ذريته وأحفاده. فالرجحان في الوراثة إنما هو للبربر في افلح ومن جاء بعده من العائلة الرستمية لغلبة الدماء البربرية فيهم. إن عبد الرحمن وحده هو الفارسي الخالص. أما عبد الوهاب فأمه بربرية، فصار النصف من وراثته من البربر، ثم كانت أم افلح بربرية فتغلبت دماء البربرية فيه. ثم تدفقت الدماء البربرية في ذرية افلح فأصبحوا بربرا بالدماء أيضا، كما كانوا بربرا بالبيئة الطبيعية والاجتماعية.

إن البيئة الطبيعية والاجتماعية القوية المستمرة طويلا تؤثر حتى في الوراثة فتضعفها، وتجعل صاحبها أشبه بمن يحل بينهم في كل نواحيه. وهو ما يؤدي الوراثة البربرية في العائلة الرستمية من دماء الأمهات والجدات وزمن جاء بعد عبد الرحمن من ذريته الذين يحملون دماء أخوالهم، فتنساب منهم إلى أبنائهم، مضاعفة دماء الأم البربرية في عروقهم. إن البيئة المغربية لتجعل الوراثة البربرية في العائلة الرستمية هي الأرجح ولو لم يستمر تدفق الدماء البربرية في العائلة الرستمية بعد أم عبد الوهاب فكيف وقد استمر.

الدين الإسلامي العظيم ومزجه وتوحيده بين الشعوب

إنه ولو لم تتغلب الدماء البربرية على الدماء الفارسية في العائلة الرستمية، فان الدين الواحد، وهو الدين الإسلامي العظيم الذي تتمسك به العائلة الرستمية كل التمس، ويتمسك به البربر تمسكها ليجعلهم شيئا واحدا في الأخلاق والاتجاه، فيمتزجون امتزاج النور بالنور، ويصيرون عنصرا واحدا لا فرق بينهم في شيء !

إن الاختلاف إنما يكون بين العائلة الرستمية والبربر لو انتقلت إلى المغرب في القرن الأول قبل أن يؤثر الدين الإسلامي تأثيره البالغ في شخصية البربر، وفي شخصية الفرس. أما في القرن الثاني سيما في آخره فقد جعل الدين الإسلامي كل المتمسكين له متماثلين في الأخلاق، وصيرهم امة واحدة هي امة محمد عليه السلام، وشعبا واحدا لا فرق بينهم في الاتجاه والعقيدة التي تفرق بين الناس.

انه لأثر الدين الإسلامي العظيم في المزج بين مسلمين وجعلهم نفسا واحدة ذات طباع واتجاه واحد. قال الله سبحانه للمسلمين " إن هذه أمتكم امة واحدة وأنا ربكم فاعبدون" فحكم بأننا امة واحدة -معشر المسلمين- وإن اختلفت دماؤنا وأقطارنا.

كان البربر وهو جمهور الدولة الرستمية واغلب سكان المغرب في ذلك الزمان يرون العائلة الرستمية جزءا أصيلا منهم لما قررنا في الوراثة والدماء. والدين الإسلامي الذي تتمسك به الدولة الرستمية كل التمسك. فهو قانونها المقدس. إنه دين يحرم التعصب للعرق، والتحيز للنسب، ويأمر بالاعتداد في الناس بالتقوى والتمسك بالدين الذي يجعل المؤمنين إخوة بصبغهم بصبغة واحدة هي الراسخة والبارزة في المرء أكثر من صيغة الوراثة الخاصة.

كانت الدولة الرستمية تتمسك بالدين كل التمسك. وكانت حربا على العصبية المذهبية وللعرف. وما ثار أهلها على الأمويين والعباسيين وخلعوهم ورموهم كالجورب المتهري إلا لظلمهم، وأنانيتهم، وتعصبهم لأنفسهم وعروقهم.

إن الدولة الرستمية قد فتحت أبوابها لكل المسلمين من كل أنحاء العالم الإسلامي، ومزجتهم بها، ورأتهم جزءا منها، لا فرق عندهم بين عربي وبربري وأعجمي. فالكل مسلمون. وهم امة محمد عليه السلام، والله قد جعلهم للبربر إخوة فقال: "إنما المؤمنون إخوة".

هذه هي نظرة الدولة الرستمية لمن يحل فيها من الأجناس المسلمة التي تهاجر إليهم كالسودان والعجم الآخرين الذين قد لا يصاهرونهم. أما العائلة الرستمية فإنهم يرنها في جسمهم رأسا، وفي وجههم الجميل العين الكحيلة. فكيف -لعمري- يقول الشيخ مبارك الميلي في كتابة تاريخ الجزائر: إن العائلة الرستمية أجنبية في الدولة الرستمية، وإن الفتن الواقعة في عهودها المختلفة سببها عدم ثقة الحكومة بالأمة لأنها أجنبية.

قال الشيخ مبارك ألميلي: "أما الحالة الداخلية في الدولة الرستمية فالحرب فيها اغلب من السلم ! ذلك أن الحكومة لم تتمكن من بسطك نفوذها في المملكة على ضيف رقعتها ! فالقبائل مستقلة تحت أمراء منهم. وليس ثم من وحدة سياسية ولا دينية ! والحكومة أجنبية لا ثقة لها بالأمة ! وتتساهل لذلك في اتهامهم بالانتزاء عليها ! فنشأت الفتن من ضعف الحكومة وسوء ظنها بالأمة".[1]

1 - تاريخ الجزائر للشيخ مبارك ألميلي ج 2 ص 33 ط أولى بالجزائر.

إن هذه الأحكام كلها خاطئة. وارى أن الشيخ مبارك رحمه الله قد نقلها من بعض الأوروبيين المتعصبين الذين ينظرون بحقد متأجج إلى تاريخنا الإسلامي المغربي، فيصورونه لأبنائنا اسود وهو ابيض ! إننا نكبر في الشيخ مبارك دينه ورسوخه في العلم. ومع هذا يحشر لنا في كتابه هذه الأحكام التي لا يقولها إنسان يعرف عظمة الدين الإسلامي وكزجه بين الأجناس المختلفة فتكون امة واحدة، وأسرة واحدة ممتزجة كل الامتزاج.

إن الحكومة إنما تكون أجنبية في الدول الملكية المطلقة التي يستولي فيها الملوك على الرئاسة بحد السيف، ويخضعون الأمة لهم بقوة الجيوش الجرارة، ويرغمونها على الخضوع لهم بالرغبة الرهبة. فتشعر الأمة والرعية بأولئك الملوك المستبدين المغتصبين لرئاستها صخورا ثقيلة على كواهلهم، وشيئا أجنبيا ينبت في أجسامهم فيورثهم الآلام. فتسوء ظنون الملوك بالرعية فلا يثقون بها لما يشعرون به من كرهها لهم. أما الدولة الرستمية فان الرعية كلها هي التي تختار في حرية تامة أئمة الدولة ورؤساءها، وتقدمهم إلى الرئاسة لحبها لهم، وثقتها التامة فيهم، وتلح عليهم أن يقبلوا الرئاسة وهم يهربون من الرئاسة. فإذا قبلوا رئاستها أسرعت كل الطوائف إليهم وكل الطبقات فبايعتهم بقلوبها وأيديها، ورأتهم الرءوس الصحيحة على أعناقها، ونظرت إليهم بنظرة الطفل إلى ثدي أمه، يراه سبب حياته وقوته لا نتوءا زائدا في صدرها؛ وأحبتهم، وأطاعتهم، والتفت حولهم التفاف الشغاف على القلب، والأم الحنون على الدماغ.[1] تقيهم وتقي الدولة معهم من كل سوء، وتقضي على فتن المتمردين، ودسائس الدساسين.

إن الأئمة الرستميين لم يعدوا أنفسهم أجانب في الدولة، وكذلك الدولة لا تراهم أجانب فيها. ولا نجد زوبعة واحدة مما وقع ي الدولة الرستمية سببها سوء الظن من الأئمة أو من الرعية كما قرر الشيخ مبارك في أحكامه الخاطئة على الدولة الرستمية.

إن الفتن القليلة التي وقعت في الدولة سببها ما ذكرنا. إن السبب الأكبر فيها سيما ما وقع في عهد الإمام أبي بكر عهد الإمام أبي حاتم هو دسائس الملكيين المتعصبين الذين يكرهون الإمامة الإسلامية، ويتخذون كل وسيلة وينفخون في كل رماد لإضعافها بالفتن، والقضاء عليها.

إن الذين ثاروا في هذه العهود إنما هم سكان العاصمة، وهم خليط من شعوب ونحل شتى. كان الكثير منهم إما عامي يسيطر عليه دعاة الفتنة، أو من جواسيس الملكيين الذين بثوا في العاصمة ليكيدوا للدولة. أما القبائل البربرية، وهم جمهور الرعية،

1 - الأم الحنون: الجلدة الرقيقة التي تلتصق بالدماغ وتحفظه.

والأغلبية الكبرى في الدولة، وهم لحمتها وسداها وعمادها، فقد التفوا حول الأئمة في تلك الفتن الملكية فاستطاعوا إطفاءها.

وكانت الدولة الرستمية دولة جمهورية عادلة ديمقراطية تقوم على الإمام الإسلامية. وكان صدرها يفيض بالإخاء لكل المسلمين. وكانت كالمسجد تفتح أبوابها وترحب بكل الأطهار، وتجتمع فيها كل الطوائف الإسلامية، وهم بالوداد والاحترام الذي تفيض صدورهم كالألوان المختلفة في الزرابي الجميلة، والزهور المتنوعة في الخمائل البديعة، يزين بعضها بعضها ، ويظهر كل لون ما في صاحبه من الروعة والحسن والجلال، ويكون كل منه للآخر -وإن خالفه في المذهب أو الجنس- كالوجوه البيضاء التي تشب وتبرز جمال وسحر وبهاء ما فيها من عيون سوداء !

كانت الدولة الرستمية على هذا الصفاء الذي يملؤها به الدين تتمسك به، وعلى هذه الإخوة الإسلامية الكاملة. وكان الإمام افلح مثال العدل وحسن السياسة. فبلغت الدولة في عهده نضوجها الكامل، ودخلت في كهولتها. واستقرت استقرار الكهل السعيد الذي يورثه الرزانة والهدوء نضوجه وتحقق آماله في الحياة.

دخول الدولة الرستمية في كهولتها أيام الإمام افلح

إن عهد الإمام عبد الوهاب إذا كان عهد الشباب للدولة الرستمية فان عهد الإمام افلح هو عهد كهولتها. إنها بلغت النضوج في كل نواحيها.

لقد عرفنا دينها وعلمها، وغناها، فما حضارتها؟ يجب أن نلم بحضارة الدولة ونقف فيها وقفة قصيرة لان الإسهاب الذي تقدم في باب الدين، والعلم، والغنى، يبين درجتها في الحضارة ونوع حضارتها. إن الكتاب لا يتسع نطاقه للإسهاب في هذا الباب، وتحليل أحوال الخلف لنستنبط منه كثيرا من حضارة السلف.

وسترى في كتابنا المقبل إن شاء الله: "نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة" إذا حدثتك عن نهضة الجزائر في الجنوب، فرأيت (وادي ميزاب) الحبيب وحضارته الإسلامية الراقية. سترى أن هذه المدن العربية الإسلامية المتمسكة كل التمسك بالعربية والدين إنما المحار الذي يحفظ ما يستودع من اللالي ! وان صحراء الجزائر فيها الرمال الأمينة التي تحتفظ تحتها كنوز الجزائر، ومدن ميزاب السبع التي تحفظ لنا كثيرا من حضارة الدولة الإسلامية الزاهرة في الجزائر.

كيف كانت حضارة الدولة الرستمية؟ هلم بنا إلى النصوص والرسوم لنرى نموذجا لتلك الحضارة الإسلامية العظمى !

حضارة الدولة الرستمية

إن هذا الموضوع خصب واسع، غزير المادة، كثير النواحي؛ ولكنني لا استطيع التوسع فيه، لضيق نطاق الكتاب، فقد زاد في صفحاته عن الحد الذي يجب أن يكون فيه، ولان الموضوع يخرجنا عن الدولة الرستمية إلى آفاق المغرب الواسعة، ويرجع بنا إلى ماضي المغرب السحيق قبل الإسلام. فالدولة الرستمية جزء من المغرب، فحضارتها هي الحضارة التي كانت الأندلس والمغرب يرفلان فيها في القرن الثاني والثالث الهجري.

إن ما أزيده في هذا الباب تتمة لما قلته في باب شخصية الدولة الرستمية الذي تقدمنا، وقد تحدثت في ذبك الباب عن دين الدولة، وخلقها، وعلمها، والدين، والعلم، والخُلق، هي رأس الحضارة في كل امة، فإذا عرفناها عرفنا درجة رقيها في كل نواحي الحياة المعنوية والمادية.

وإذا كانت الدولة الرستمية لتمسكها بالدين الإسلامي العظيم، ولوراثتها المغربية الزكية في الخُلق في أعلى الدرجات، وفي العلم في أرقى الذرا، فإنها كانت بهذين في الحضارة في أسمى المراتب !

حضارة الأمة مظهر لدينها ومزاجها

إن حضارة الأمة تنبع من عقائدها، ومزاجها، هذا المزاج الذي هو وليد الوراثة، والبيئة الطبيعية، والثقافة، والاختلاط بالشعوب. والدولة الرستمية كانت في المغرب ذي البيئة الطبيعية المعتدلة، فأورثها المغرب بجماله واعتداله حب الجمال، وأرهف ذوقها، فاغرمت بالجمال، فصارت تتطلبه في كل الأشياء، وبالحسن فحرصت عليه في كل نواحيها.ومع اثر البيئة الطبيعية في الدولة الرستمية اختلاط المغرب الأوسط والأدنى بالبونيقيين، وغرام المغرب بحضارة قرطاجنة، فكان المغرب الأوسط والأدنى هما الوارثان لحضارتها. وقد تكونت في المغرب الأوسط دولة (صيفاقس) البربري ودولة (مصينيسا) البربري وأبنائه، فتركتا فيه تثارا عظمى في ناحية الحضارة والمدنية. وجاء الرومان فاقتبس المغرب من حضارتهم كل حسن يوافق مزاجهم. وقد كانت مدينة شرشال في القرن الأول المسيحي عاصمة يوبا الثاني الملك البربري المشهور، وكان مفتونا بالمدنية الإغريقية والرومانية فنشرها في عاصمته وفي المغرب الأوسط الذي كان أمير عليه.

ثم جاء المسلمون فنقلوا الحضارة الإسلامية إلى المغرب.. وكان المغرب في القرن

الثاني قد حسن إسلامه، وكانت الدولة الرستمية متمسكة بالدين كل التمسك، فاثر في ذوقها ونظرتها إلى الأشياء، وكون مقاييسها الصحيحة في كل الأمور. فأقبلت على الحضارة الإسلامية في القيروان وفي المغرب الأدنى، وكانت أليق بمزاجها الإسلامي، فأخذت بها وهضمتها، وأضافت إليها كل صالح يوافق الإسلام من حضارتها الموروثة، فأنشأت لنا هذه الحضارة لتي نراها في أنحائها، كما نراها في الأندلس والقيروان، لان الحضارة المغربي عواملها واحدة، وبيئتها متشابهة، فهي بذلك متماثلة لا فرق بينها.

تأثر الحضارة الرستمية بالحضارة الأموية في الأندلس للصلات الحسنة وقرب الجوار

لقد كانت الصلات متينة حسنة بين الدولتين الرستمية والأموية في الأندلس. وكانت القوافل التجارية تترى بينهما، وكان الأندلسيون يحلون في تيهرت فيأخذون من حضارتها، ويؤثرون فيها بحضارتهم، وكذلك أبناء الدولة الرستمية في الأندلس. لهذا كانت الحضارة متماثلة في الدولتين بهذه الصلات، وبالدين الإسلامي الواحد، وبالجنس الواحد، وبالبيئة الطبيعية المتشابهة.

إن التشابه والتقارب الذي تراه بين حضارة المغرب وحضارة الأندلس في القيروان التي تلت زمن الدولة الرستمية، كان مثله في القرن الثاني والثالث أيام هذه الدولة.

إن الأندلس حل فيها البربر والعرب فاختلطا وامتزاجا. وكذلك الدولة الرستمية فإنها مزيج من هذين الجنسين العرب والبربر. إن الدماء العربية وإن كانت اعزلا في الأندلس، ولكن الصلات كانت قوية بين الدولتين فتأثرت كل منهما بالأخرى.

تأثر الحضارة الرستمية بالحضارة العباسية في القيروان للجوار والمنافسة الشديدة بينهما

وكانت الدولة الرستمية تجاور الدولة العباسية في القيروان وافريقية. وكانت المنافسة بين الإمامة الإسلامية التي كانت عليها الدولة الرستمية، وبين الملكية التي كانت عليها الدولة العباسية على أشدها. وكانت الدولة الرستمية حريصة أن لا تبزها الدولة الملكية في الحضارة. فأخذت من حضارة العباسيين كل شيء حسن، وبارت دولتهم في المدينة وبناء الحضارة الإسلامية الراقية.

وكان موقع الدولة الرستمية في المغرب الأوسط، قربها من الأندلس، وامتداد حدودها إلى خليج سرت شرقا، والى شمال قفصة بجنوب القيروان، وصلاتها التجارية مع

جيرانها في الشمال والشرق قد جعلها تتأثر بالحضارة العباسية في مصر والقيروان، وبالحضارة الأندلسية فتأخذ منهما، وتعطيها ما وصلت إليه من الحضارة الإسلامية التي هي في دور الاتقاء والتطور والازدياد في القرون الإسلامية الثلاثة الأولى.

إن الدولة العبيدية والدول الملكية التي خلفتها في المغرب وإن جدت واجتهدت في القضاء على شخصية الدولة الرستمية الجمهورية في المغرب، وفضت على كثير من أثارها وحضارتها، وعفى الزمان على الباقي بتطور الحضارة في المغري، بفضل الدولة الرستمية ومعاصراتها في المغرب، إنها هي التي دفعت المغرب إلى الفتن العالية التي وصلها أيام الموحدين والحفصيين والزناتيين؛ انه وإن وقع هذا فقضى على حضارة الدولة الرستمية، فان ما بقي في الأندلس، سيما في قرطبة، من حضارة الدولة الأموية في القرن الثاني والثالث الهجري، وما بقي في القيروان وافريقية وأنحاء المغرب الأخرى من حضارة هذه الحقبة، مظهر ومثال لحضارة الدولة الرستمية، لان المزاج في هذه النواحي واحد، والدين واحد، وكانت متصلة، ومتسابقة في ميدان الحضارة، وعلى منافسة كبرى في ميدان الرقي.

إن تيهرت عاصمة الدولة قد خربت وهدمت في القرن السابع الهجري. فهي اليوم أطلال، وركام من أنقاضها، والأرض التي تخلقت فوقها. فلو أجريت حفريات في الأنقاض، وكشفنا التراب المتراكم لوجدنا الكثير من الأبنية والزخرف ومظاهر الحضارة الإسلامية الراقية التي تشرف المغرب الكبير، وترفع رأس الجزائر.

إننا إذا فقدنا آثارا لحضارة الدولة الرستمية في الشمال لتسلط الدول الملكية التي تناهض الإمامة الإسلامية عليه، وقضائها على آثار الدولة الرستمية الجمهورية؟. فان الله قد حفظ لنا كثيرا من حضارة هذه الدولة في جنوبها بورجلان وسدراتة.

محافظة سدراتة على آثار الحضارة الرستمية واكتشافها منذ اثني عشر سنة

لقد كانت مدينة ورجلان ونواحيها في نطاق الدولة الرستمية. وكانت عاصمة تلك النواحي الجنوبية كلها. وكانت ترفل في الحضارة الني كأم عليها شمال الدولة. ولما قضى العبيديون في آخر القرن الثالث على الدولة الرستمية، وصاروا يتتبعون الشخصيات الجمهورية فيقضون عليها ذ. هاجرت من تيهرت ونواحيها عائلات كبرى، وشخصيات عظيمة رستمية وغيرها، وفئات كثيرة إلى الصحراء التي لم يستولي عليها العبيديون، وحلوا في ورجلان، فاستمرت الدولة الرستمية في تلك النواحي، ثم عمروا في القرن الرابع

الهجري مدينة (سدراتة) وهي في الجنوب الغربي لورجلان على بعد سبعة أميال منها. وقد صارت سدراتة بعد ذلك هي العاصمة. وكانت نبت تيهرت، ومظهرا تاما لها. تحمل طابعها في الحضارة، وتحذو حذوها في كل شيء. فهي اصدق مثال لتيهرت، وأدق صورة لحضارة الدولة الرستمية. وقد خربت سدراتة في القرن السابع الهجري بالفتن المتوالية في الجنوب، وغطت كثبان الصحراء على أثارها. فبقيت أسرارا في جوف الصحراء إلى أن كشف الباحثون الفرنسيون السيدة (مارغريت فان برشيم) وتارى، وبول بلونشيت، اللذين مهدا لها. وقد عثروا على أواني جميلة، وقطع فنية رائعة، وعلى نقوش بديعة. ونحن نعرض عليك بعضها لترى ما كان عليه المغرب والدولة الرستمية من عبقرية ونبوغ في الفن المعماري وغيره من أنواع الحضارة.

وكانت حضارة الدولة الرستمية حضارة إسلامية. فالدين الذي تتمسك به كل التمسك هو الذي يوجهها في كل نواحي الحياة، في تقاليدها، وبناءاتها، وأسواقها، وبساتينها، ولباسها، وفنونها الجميلة. فكل ما يأمر به الدين في هذه النواحي كانت عليه.

كانت فنونها الجميلة الصامتة تقوم على الزخرفة، والرسوم النباتية والهندسية الجميلة، لا على صور الحيوان والإنسان، لان الإسلام نهى عن ذلك.

وكانت دورها على الهندسة بارعة تجمع بين الحضارة والستر الذي أمر به الدين، وبين الجمال البارع والضوء والهواء النقي. وفي القصور العربية التي لا زالت في القطر التونسي، والقطر المغربي، وعواصم الجزائر سيما تلمسان مثال لهندسة الديار والقصور في الدولة الرستمية.

وكانت الدولة والقصور تزين بالقباب الجميلة، وتزين داخلها بالنقوش البديعة، وأبوابها تنقش فيها أشكال هندسية بارعة، وربما طعمت بالصدف والنحاس وغيرها.

وكانت النوافذ الجميلة التي تقوم على الاسطوانات الرخامية الرشيقة، ذات شبابيك خشبية مخرمة، مرصعة بألوان من الزجاج الجميل الرائع. وفي قصورنا العربية الموجودة إلى الآن مثال لهذا وعلى النوافذ التي تزين القصور كانت تعلق الستائر الملونة الجميلة التي تتراءى في بياض القصور جميلة كملاءة الحسناء الجميلة المزركشة التي تزين رأسها وتتدلى على منكبيها.

قال ابن الصغير المالكي يصف الحضارة في الدولة الرستمية أيام الإمام افلح. قال: "ولما ولي افلح اخذ بالعزم والحزم، وطار صيته (في الأفاق) ولم تكن الشراة تطعن عليه

في شيء من أحكامه، ولا في صدقاته، ولا في أعشاره. وقد نشأ له البنون وبنو البنين، وشمخ في ملكه، وابتنى القصور، واتخذ أبوابا من الحديد، وبنى الجفان واطعم فيها أيام المجاعة، وعمرت معه الدنيا، وكثرت الأموال والمستغلات، واتته الوفود والرفاق من كل الأمصار والآفاق بأنواع التجارات. وتنافس الناس في البنيان، حتى ابتنى الناس القصور والضياع خارج المدينة، واجروا الأنهار إليها. فابتنى أبان وحموية القصرين المعروفين بهما (بأملاق) وابتنى عبد الواحد قصره الذي يعرف به اليوم، وغيره مما يطول ذكره. ولقد حدثني من أثق به أن أبان وحموية خرجا يوما إلى قصريهما متنزهين، ومعهما جماعة من إخوانهما، فذكر عن بعضهم انه قال: لما أشرفنا على القصرين أحس بنا بعض عبيدهما، فاعلما سكان القصرين بقدومهما، فتشوف مكن كان بالقصرين إليهما (من خلال الستور) فوالله ما رأيت شرفة من شرفات القصرين إلا وعليهما ثوب احمر أو اصفر على جدر بيضاء كالبدور؛ وانتشرت القبائل، وعمرت العمائر، وكثرت الأموال بأيديهم ! وكانت العجم قد ابتنت القصور، ونفوسة قد ابتنت العدوة، والجند القادمون من افريقية قد ابتنوا المدينة العامرة اليوم، وأمنت الساحات، وكثرت الأموال حتى أطغت أهل الحواضر والبوادي! وقد حدثني غير واحد انه كان للعجم مقدم يقال له ابن وردة قد ابتنى له سوقا يعرف به".[1]

وكانت مدينة تيهرت عاصمة الدولة. وكانت مدينة قاهرة، متسعة الأرجاء، ممتدة الجوانب. وقطرها كما تدل أثارها اليوم حوالي ثلاثة عشر ميلا أو أكثر. ومن أثارها الموجودة إلى اليوم سور ممتد من الشمال إلى الجنوب عرضه حوالي 150 سانتي. وارى انه جزء من سور البلد،أو جدار لأحد القلاع، وآثار كثيرة بادية تدل على عظمتها وفخامتها.

اعتناء الدولة الرستمية بالضيف وتخصيص جناح أو محل خاص في ديارها مستقل مؤنث بأفخم الأثاث للضيوف.

وكان من تقاليد الدولة الرستمية التي غرسها الدين في نفوسها، وكرم أهلها الموروث، واتخاذ دار خاصة للضيوف تكون متصلة بمسكن المرء ومحله. وهذه الدار تشتمل على كل المرافق التي يحتاجها الضيف أثناء إقامته. وتراهم يعتنون بجمالها وتأثيثها بالأثاث البديع. وهذا المحل يتخذه رب الأسرة مكتبا له أيضا يحفظ أسراره، وناديا يجتمع فيه بإخوانه.

إن حصانة المرأة والعائلة في الدولة الرستمية، والحياة الاستقلالية التي يحرص عليها

1 - تاريخ الأئمة الرستميين. ص 26 طبع باريس 1907.

البربر، وعنايتهم بالسر، وإكرامهم للضيف، وحرصهم على راحته واستقلاله، يجعلهم يصلون بدورهم هذه الدور الصغيرة الخاصة برب الأسرة والضيف. وترى الفقراء الذين لا يستطيعون بناء هذه الدور يخصصون حجرة واسعة يشرعون لها بابا مستقلا إلى الشارع حتى لا يغشى الزائرون الأجانب دار العائلة فيقلقون راحتها، ويهتكون سترها.

إن هذا النظام في بناء البيوت وتخصيص جناح أو دار فيها للضيوف ورب الأسرة لازال في وادي ميزاب بجنوب الجزائر، وهو من حضارة أجدادنا، ومن تقاليدنا الإسلامية الكريمة.

وكان المغرب في عهود الدولة الرستمية، ومناطق هذه الدولة بالخصوص لا يعتنون بالضيف وحده، فيهيئون الدار الجميلة التي ينزل فيها، والرياش الفاخر الذي يستعمله، بل يعدون المرابط لدواب الضيوف ومطاياهم أيضا، ويكرمونها بالعلف الكافي، ويتخذون لها الرعاة. ويقتنون الثياب الكثيرة ليلبس منها الضيف أثناء إقامته إن ابتلت ثيابه أو اتسخت. ويعتنون بالضيف اعتناء تاما يدل على كرم النفوس والغنى الواسع.

قال الشيخ الباروني: "بينما كان الإمام عبد الوهاب عند سفره إلى الحج ونزوله بجبل نفوسة، يسير بين منازل والقرى الغربية في جبل نفوسة (قاصدا مدينة شروس) إذ أدركه هو وصحبه الكثيرين المطر، واشتد البرد. وكان ذلك بالقرب من قرية (ويغو) الكائنة فوق جبل مدينة (شروس) فقصد الإمام (ومعه صحبه الكثيرون) دار العلامة مهدي النفوسي فيها. فوجدها دار رجل زاهد عابد لا غطاء ولا وطاء.

(وكان مع الإمام رفقة كبيرة من خاصته قد تصل الخمسين رجلا) ثم قال الباروني: فاقبل الشيخ فرج ابن خالة مهدي وكان موسرا. فطلب من الشيخ نقل الإمام ومن معه إليه. فساعفه. وفي الحال حضرت الخدم، وهيأ لهم ما يكفيهم من الحلات، ولدوابهم ما يسعها من المرابط والاصطبلات، وخصص لكل واحد منهم فراشا ووسادة وغطاء، وبدلة ثياب نظيفة طاهرة، ونشر ثيابهم المبتلة بالمطر، وقدم لكل واحد منهم كنونا من الجمر أمامه. واحضر لهم في الحال ما كفاهم من أنواع الطعام الفاخر، وأكرم دوابهم بما لزم من العلف والشعير، وبسط عليهم مما لديه من الخير ما جعلهم في راحة تامة".[1]

الحياة الاستقلالية السعيدة في الديار المستقلة في الدولة الرستمية

وكانت الدولة الرستمية كما كان المغرب والدول الإسلامية في تلك القرون، يسكنون الديار الواسعة الجميلة الصحية المصونة، وكانوا يحيون حياة استقلالية هنيئة كريمة.

1 - الأزهار الرياضية ج 2 ص 138 ط البارونية بالقاهرة وسير الشماخي ص 171 ط البارونية أيضا.

وكان لكل أسرة دار تملكها تتكون من طبقيتين وأكثر، لا يشاركها فيها غيرها. وكان كل رجل إذا شب يجعل نصب عينيه ابتناء دار لسكنه أو شراءها. فتجد حياتهم هنيئة، وعيشهم سعيدا، وهم في سعادة في ديارهم التي لا يساكنهم فيها غريب، ولا يجاورهم من يقلقهم بشذوذه، ويعكر صفوهم بسوء عشرته، ويفسد أخلاق الأسرة بالقدوة السيئة، والعدوى الضارة.

إن هذا النظام الإسلامي العظيم في السكن، وهذه الحياة الاستقلالية في الديار الخاصة الجميلة الواسعة الصحية لا زال موجودا بوادي ميزاب في جنوب الجزائر. وترى الأسرة هناك في دارها الواسعة الجميلة العالية سعيدة هانئة، قريرة العين، لا تشقى بالزحام وسوء العشرة التي تكون في العواصم في الديار الأوروبية التي يسكن كل دار منها عائلات كثيرة يعكر بعضها على بعض جو البيت بسوء العشرة وكثرة الزحام !

اعتناء الدولة الرستمية بالنظافة وكثرة الحمامات الساخنة فيها

وكان الدولة الرستمية تعتني كل الاعتناء بالنظافة في كل نواحيها. إن الإسلام الذي تتمسك به (قد بني على النظافة). (والنظافة من الإيمان) وكان الأغنياء يتخذون الحمامات الساخنة في بيوتهم، كما كانت الحمامات الساخنة الشعبية العامة للفقراء والغرباء مبثوثة في كل حي من إحياء مدنها. وكان النظام فيها كما نرى اليوم في مدن المغرب، يخصص وقت فيها للنساء، فلا يدير الحمام ويقوم بالخدمة فيه في ذلك الوقت إلا النساء، ووقت للرجال يخدمهم الرجال.

قال البكري: "وبتاهرت أسواق عامرة، وحمامات كثيرة، يسمى منها (بأسماء خاصة مشهورة) أثنى عشر حماما".[1]

اعتناء الدولة الرستمية بجمال لباسها ووقاره

وكانت الدولة الرستمية مغرمة بالجمال والحسن والإتقان في كل نواحيها: في مدنها، وشوارعها، وديارها، وفي لباسها، وفي كل تقاليدها التي جبلهم الدين وحضارتهم القديمة عليها.

وكان لباس أهل المغرب الأوسط منها هو الجبة، تحتها القميص، والسروايل العربية، والصدرية بالأكمام وبدونها وفوق هذه في الشتاء في وقت الراحة البرونوس المغربي الجميل، أو القشابة المغربية الجميلة.

1 - المسالك والممالك للبكري ص 68 ط الجزائر 1911.

وكانوا مع هذا يتخذون العمائم الجميلة، البيضاء والصفراء المزركشة، والسوداء. ويلبسون تحتها على رءوسهم لحافا رهيفا ابيض ناصعا يلفونه على رءوسهم في هيئة جميلة صحية، وقد يتدلى اللحاف على الصد. أو يلف حول الجسم في هيئة جميلة.

إن للأمير البطل عبد القادر الجزائري صورة رائعة مهيبة في ذلك اللحاف الحريري الذي كان شائعا إلى عهد قريب في سراة أهل المغرب الأوسط.

جمال اللباس المغربي الإسلامي وجلاله وموافقته للصحة

إن اللباس المغربي الإسلامي: الجبة والبرنوس، والعمامة وغيرها، أجمل بزة إسلامية واجلها، وهي أجمل من لباس أهل المشرق.

وكانت الجبة من الصوف الخالص الرهيف أو مطعمة الحريري، وكذلك البرنوس والقشابة. إن أهل المغرب ممتازون إلى يومنا هذا في صنع الألبسة من الصوف، ولا يدانيهم في دقة نسجها، والبراعة فيها أي قطر إسلامي آخر. ومع هذه الألبسة من الصوف ألبسة الكتان والقطن التي برع المغرب في صنعها كل البراعة في تلك العهود.

الغناء في الدولة الرستمية

وللدولة الرستمية غناؤها، تقيم به حفلات أعراسها، وأعيادها، وليالي سمرها.ولكن غناءها نظيف طاهر، لا يخالف الدين في شيء. أنهم يرون الغناء وسيلة لتربية المجتمع، وتهذيب النفوس. لذلك تجد أكثر أغانيهم في تمجيد البطولة، والمثل العليا، وفي مدح الرسول والصحابة، وجعلهم مثلا عليا للمجتمع بالتغني بشمائلهم، وتمجيدهم في أغانيهم.

وكانت لها أغاني شعبية بالبربرية في هذه المواضيع الحسنة التربوية، وأغاني بالعربية الفصحى يتغنون فيها بالشعر الفصيح.

لا يزال هذا النوع من الغناء في وادي ميزاب بجنوب الجزائر إلى اليوم. وهو من تركة الدولة الرستمية في تلك البقاع التي تعتد بالحضارة الإسلامية العربية كل الاعتداد، وتتمسك بها كل التمسك.

كانت الدولة الرستمية متمسكة بالدين كل التمسك. فحضارتها إسلامية.وكانت مجبولة على حب الحضارة. وكانت تنافس فيها جاراتها الدول الملكية، فهي في درجة الدولة الأموية بالأندلس في الحضارة، وفي درجة الدولة الأغلبية في القيروان. وآثار هاتين الدولتين صورة لحضارة الدولة الرستمية أيضا.

وكانت الدولة الرستمية قد تم نضوجها في أيام الإمام افلح. ودخلت في كهولتها. وكانت ساكنة هادئة مستقرة كل الاستقرار. ودامت على سكونها وهنائها وسعادتها إلى أن انتقل إلى ربه، فمتى أثره لجواره؟

وفاة الإمام افلح
ومدته في الإمارة وفي الإمامة

كانت الدولة الرستمية قد دخلت كهولتها في عهد الإمام افلح. وكانت مستقرة هادئة رغم غناها الواسع، ويسارها البالغ الذي يورث التخمة لغيرها فيسوء مزاجها. ودام الأمر في الدولة على ذلك الاستقرار والهناء، ودام هو على ما رأينا من الحزم والعدل والحنكة السياسية التي أورثت الدولة استقرارها، ومنعت الأعاصير التي يرسلها البطر في الدول الغنية الهنيئة الآمنة. واستمرت الدولة على رضاها عن سياسته وتواضعه إلى أن أدركه اجله وذهب إلى ربه.

وفاة الإمام افلح

وكانت وفاة الإمام افلح في سنة أربعين ومائتين من الهجرة، وعمره كما أرى تسعون سنة، انهه كان شابا يرفع السلاح في سنة 171 هـ وهو الذي قاد المعركة الكبرى التي صدت يزيد بن فندين عن احتلال تيهرت، وإحداث انقلاب فيها، وارى أن سنة حينئذ كانت إحدى وعشرين سنة، وميلاده في سنة خمسين في إمارة جده عبد الرحمن أيام تأسيس الدولة الرستمية وميلادها. إن الأحداث الكثيرة والحروب التي تشارك فيها في أول إمامة أبيه عبد الوهاب تدل على أن عمره لما توفي كان تسعين سنة، إن جسمه الرياضي، ومتانة بنيانه الموروثة من أبيه وأخواله الأمازيغ، ونفسه العلمية، واستقامته ودينه الذي يعصمه من كل ما يضعف الجسم، ويعصف بالحياة، كالليالي الحمراء الماجنة المهلكة يغرق فيها اغلب ملوك زمانه؛ إن هذه كلها تستلزم طول العمر، وأسبابا يقدمها الله لمن كتب له طول البقاء.

مدة إمامته وإمارته

أما إمامته فكانت في سنة 211هـ ووفاته في سنة 240هـ ومدته في الإمامة تسع وثلاثون سنة، ولكن ابن الصغير قال: إن مدته في الإمارة خمسون سنة وأبو زكرياء قال: إن مدة إمامته ستون سنة، ونحن نستطيع الجمع بين هذه الأقوال، ونستنبط منها نتائج تاريخية مهمة.

أما إمامته بعد أن بويع لما توفي والده فكانت تسعا وثلاثين سنة، ومن قال خمسين فقد أضاف إلى مدة إمامته مدته في الإمارة لما سافر والده إلى الحج وأقام في جبل

نفوسة، وهي سبع سنين؛ وسنين أربعا من مدة إعانته لوالده في شئون الإمامة في آخر عمره بعد رجوعه من الجبل. وارى أن السنين الأربع التي أضافها ابن الصغير إلى مدة إمارة افلح في المغرب الأوسط لما سافر والده إلى الحج وأقام في الجبل هي السنون الأربع الأخيرة من حياة الإمام عبد الوهاب لما كبر سنه وأقعدته الشيخوخة عن النهوض بأعباء الإمامة، فأعانه افلح، وتحمل أثقال الإمامة، وبقي لوالده الإشراف والمراقبة العامة، فأضاف ابن الصغير هذه السنين الأربعة من سنة 207 إلى سنة 211 هالة مدة إمارة الإمام افلح في غيبة والده، وهي سبع سنين. فكانت مدته في الإمارة إحدى عشرة سنة، ومدتها في الإمامة تسعا وثلاثين سنة. والجمع خمسون سنة. لقد قال ابن الصغير. إن مدة الإمام افلح (في الإمارة) خمسون سنة. إنه بنصه على الإمام ولم يقل مدته في الإمامة دليل على انه قد عد كل السنين التي كان فيها افلح رئيسا في تيهرت يدير الشئون ويقوم بأعباء الرئاسة قبل وفاة والده وبعدها.

أما أبو زكرياء فقال: إن مدة الإمام افلح في الإمامة كانت ستين سنة. وارى انه يعني كل المدة التي اضطلع فيها افلح بشئون الإمامة، أيام سفر والده كخليفة له في المغرب الأوسط، وأيام إعانته لوالده بعد رجوعه من الجبل أقعدته الشيخوخة عن النهوض بأعباء الإمامة كلها، فتكون المدة ستين سنة. السنون السبع التي قضاها الإمام في جبل نفوسة، وأربع عشرة سنة أعان فيها والده في شيخوخته في شؤون الإمامة، وهي إحدى وعشرون سنة كانت مدته في الإمامة. تسع وثلاثون سنة مدته في الإمامة. والجمع ستون سنة.

وأنا اخذ بقول ابن الصغير: إن مدته في الإمارة كانت إحدى عشرة سنة، ومدته في الإمامة تسع وثلاثون سنة. إن السنين الأربعة الأخيرة من حياة الإمام عبد الوهاب هي السنون التي اضطلع فيها افلح بأغلب شؤون الإمامة لعجز والده. أما قبل ذلك فان الإمام عبد الوهاب كان قادرا على شؤون الإمامة كما تدل أعماله في جيل نفوسة.

إن ابن الصغير قد عاش في تيهرت أيام أبي اليقظان وقوله اصح في هذه الشئون.

حج أبي اليقظان ابن افلح وسجن العباسيين له وخوفهم من الدولة الرستمية

وكان للإمام افلح أبناء كثيرون: أبو اليقظان محمد، وأبو بكر، ويعقوب، وغيرهم. وكان أبو اليقظان ابرز شخصية من أخويه. وكان حازما صالحا عالما. أن يكون هو أمامهم بعد أبيه. ولكن أبا اليقظان لتقواه وشدة عبادته كان حريصا على الحج رغم ما يستعرض

له في طريقه وفي الحجاز من أذى العباسيين الذين يضطلعون على الإمامة الإسلامية، وينظرون شزرا إلى الدولة الرستمية التي رفعت رايتها. فاستأذن والده في الحج، وألح عليه فأذن له. وما كاد يصل البيت الحرام، ويشعر به العباسيون حتى أحاطوا به فاعتقلوه، وأخذوه إلى بغداد فسجنوه. وكان ذلك في عهد الواثق بن المعتصم حوالي سنة إحدى وثلاثين ومائتين أو اثنين وثلاثين.

إن اعتقال أبي اليقظان وسجنه يدل على خوف العباسيين من الدولة الرستمية، ومن الجمهوريين المنبثين في أنحاء المشرق: في حضرموت واليمن، والحجاز، وفي خراسان، والعراق، ومصر.

قال ابن الصغير: وكان أبو اليقظان حسن الحال عند الجميع، ومنسوبا إلى الورع. فسأل أباه ورغب إليه في أن يأذن له في الحج. فخرج مع قافلة الناس حتى ورد مكة. ولما طاف وسعى كشفته رسل بني العباس إذ قدموا معه من عندهم. (يعني اخبر به الجواسيس العباسيون الذين بثوهم في تيهرت فقدموا في قافلة الحجاج يتجسسون على أبي اليقظان).

قال ابن الصغير: وقيل (لوالي العباسيين في مكة) إن ابن مقدم الشراة قد قدم من المغرب من عند أبيه يرتاد البلاد ويرسل رسله في كل الأفاق إلى من كان على رأيهم ومذهبهم (الجمهوري وعلى تمسكهم بالإمامة الإسلامية) ليستعدوا إلى أن يأتيه والده من المغرب. فحمل أبو اليقظان من مكة إلى بغداد فسجن فيه".[1]

إن العباسيين لخوفهم من الدولة الرستمية، ولتدمير الناس من استبدادهم وغطرستهم، وتشوفهم إلى انبعاث الإمامة الإسلامية في المشرق، وتلهفهم إلى رجوعها، قد وسوس لهم الوجل بان قدوم أبي اليقظان لغرض سياسي، وانه مقدمة تمهد لقدوم أبيه بجيوشه ليعيد الإمامة الإسلامية في الحجاز والمشرق.

إن الدولة الرستمية كانت أقوى دولة في المغرب. ومما انتقده نفاث بن نصر النفوسي الذي آثار زوبعة كلامية في جبل نفوسة على الإمام افلح "قلة محاربته للمسودة"[2] إن نفاث لما يرى من قوة الدولة الرستمية يعتقد انه واجب عليها الهجوم على افريقية، والقضاء على المسودة في القيروان، وإرجاع الإمامة الإسلامية إلى تلك البقاع. ولكن الدولة الرستمية عفيفة كل العفة عن سفك الدم الحرام. إنها لا تحارب إلا من يعتدي عليها كمحمد بن الأغلب الذي هدم الإمام افلح مدينته.

1 - سيرة الأئمة الرستمية لابن الصغير ص 27 ط باريس 1907.

2 - السير للشماخي ص 194 ط البارونية بالقاهرة.

كان سجن أبي اليقظان في آخر أيام الإمام افلح وفي عهد الواثق في سنة 231 أو في سنة 232 هـ وكان الذي أطلق سراحه وأحسن إليه لإعجابه بورعه وعلمه ونبله هو المتوكل كما أرى. وبقي أبو اليقظان في بغداد أسيرا إلى أن توفي والده. ولما توفي الإمام افلح لو يوصي بالإمامة لأحد، بل تركها لمجلس الشورى. فخاصة الدولة من العلماء الحكماء هو الذين يختارون للدولة إمامها الجديد. إن الإمامة ثقل ثقيل على كاهل الإمام افلح، وعبء تعييه أثقاله، وحساب شديد يخشاه عند الله، فما كان له أن يختاره لأبنائه، ويتحمل المسئولية فيها بعد وفاته.

وارتاعت الدولة بوفاة إمامها البطل، وحزن المغرب كله لفقده. فأسرع مجلس الشورى فاختار من خلفه في الإمامة فمن هو يا ترى؟

إمامة أبي بكر بن افلح 240 – 241 هـ
واضطرار الدولة لتقديمه للإمامة

أسباب تقديم الدولة لأبي بكر للإمامة وهو ضعيف الشخصية

كانت الدولة الرستمية تختار أئمتها من العائلة الرستمية وحدها للأسباب التي أسلفنا، وهي المحافظة على الإمامة الإسلامية، وضمان العدل والاستقامة من الإمام، والإبقاء على اتحاد القبائل الكبرى والدولة كلها فلا يقع بينها تنافس على الإمامة، وتنازع على الرئاسة.

ولما توفي الإمام افلح ترك لنا أبناء كثيرين، البارزون منهم ثلاثة: أبو اليقظان محمد، ويعقوب، وأبو بكر. وكان أبو اليقظان محمد أليق للإمامة، لورعه وذكائه، وحزمه، وعلمه، وحبه للعمل والكد. إن فيه صفات أبيه افلح، ونفسه العلمية الحازمة، ولكنه لا زال في بغداد في قبضة العباسيين. أنهم سيطلقون سراحه، فيرجع إلى العاصمة، فتنتفع الدولة بكفاءته، فلربما ولوه الإمامة بعد رجوعه، إن بدا عدم كفاءة من سيضطرون لتقديمه، ولكن توليته الإمامة وهو في قبضة العباسيين تعرضه للخطر، أنهم سيبقونه في الأسر الدائم، أو يقتلونه. ثم إن انتظار رجوع أبي اليقظان، وبقاء الدولة بدون إمام يفتح أبوابا للشر عليها، ويجعل محبي الرئاسة وضعفاء الدين من القبائل الكبرى يطمعون فيها، ويسطون عليه.

أما يعقوب فانه وإن ظهرت فيه مخايل والده كلها، وبدت فيه قوة الشخصية، والمزاج الجدي، والحزم والصلاح، فانه حدث السن لا يليق للإمامة. إن الدولة الرستمية القوية لا تختار للإمامة ورئاسة الدولة إلا الكهول الأقوياء المحنكين، وإلا كل بازل عتيد ينهض بأثقال، ويصل بها أقصى غاياتها. فكل من اختارتهم لإمامتها كانوا كهولا ناضجين. إن يعقوب صغير السن، قليل النضوج، لا يليق رئيسا للدولة القوية الناضجة، ولا ينسجم بمجلس الشورى الذي يشتمل على ذوي النضوج والوقار والحنكة. انه كالسحر الاغبش لما تطلع الشمس المستكنة فيه، والفجر الوضاح الذي سيشرق منه، فتتجه إليه الأنظار، وترى به الدولة سبلها الرشيدة !

أما أبو بكر فانه ذو صلاح و علم، ليس فيه صفة تنافي الدين، ولكنه نشأ في النعمة، وولد في اليسار والترف، فأورثه ذلك ضعفا في النفس، فلم يكن صلب العود كوالده،

ولا حازما مثله. انه كبير السن. ولكن ينقصه الحزم والنشاط. وحب العمل والدهاء. انه لا يليق للإمامة. انه عسلوج وفرع نضير. لا يليق جذعا للدوحة الكبرى. والشجرة الباسقة المثقلة بالثمار. فمن الذي يقدمون للإمامة. ويختارون لرئاسة الدولة؟ إن الدولة غنية بالرجل الصالحين. وذوي العقل والعلم والدين. ففي كل قبيلة رجال علماء دهاة صالحون. يليقون للإمامة؛ ولكن هل يستطيعون إخراج الإمامة من القبيلة بعد وفاة من يولون منها. وهل يستطيعون عزله إذا بدا عدم كفاءته. إن سفهاء القبيلة وضعفاء الدين فيها سيأتون عزله فتثور الفتنة. أو يسكتون فيموت العدل. وتنهدم الدولة. وتزول الإمامة الإسلامية. والجمهورية العادلة. ويصيرون إلى الملكية المستبدة المطلقة التي يرون كل أنواع الأهوال اخف وطأة منها.

إن تولية أبي بكر الذي سيسنده مجلس الشورى فيتقوى به. ويسد بكفاءات الدولة ثغوره فيخف حمله. ويعينه أخوه أبو اليقظان في حمل أثقال الإمامة إذا رجع من بغداد. وأصلح للدولة. وأجدى على الإمامة من عباقرة القبائل الذين لا تؤمن عاقبتهم.

إن أبا اليقظان قد أطلقه المتوكل على الله من أسره. وسيأذن له في الرجوع إلى وطنه. فيكون عمادا لأبي بكر. وساعدا قويا. وعقله الحصيف الذي يدير شئون الإمامة. ويكون مع مجلس الشورى رأسها المفكر. وعيونها المبصرة! فليولوا أبا بكر وليسندوه. ولتسنده كفاءات الدولة كلها. وإذا بدا مع هذا عدم صلاحه. عزلوه. وولوا أخاه أبا اليقظان إذا رجع من بغداد. إن دولتهم جمهورية. تقوم على الشورى. لا يستأثر رئيس الدولة فيها بالحكم. فالكفاءات الكبرى في الدولة كلها معه. فهي عيونه الأخرى. ومواهبه الثانية. تسنده وتظاهره. ويحمل بها الأثقال الثقيلة. ويطير بالدولة وهم أجنحة في الأجواء العليا. إن الرئيس إذا كان مخلصا. متواضعا. محبا للخير يحف نفسه بكفاءات الدولة. ويسد ثغوره بأقوى الرجال. وأصلح الناس. يستطيع النجاح في الرئاسة. وإسعاد الأمة. وإن كان متوسطا في كفاءته. ضعيفا في بعض نواحيه.

هذا ما رآه مجلس الشورى. وأهل الحل والعقد في الدولة فقدموا أبا بكر -على ضعفه- للإمامة. وارتضاه الشعب كله -لما رآه مجلس الشورى- فبايعوه إماما. وبايعته النواحي كلها عن حرية تامة. لا إرغام ولا إجبار. فكيف يكون أبو بكر في إمامته. وماذا يقع للدولة الكبرى في عهده؟ إنها كوز من البلور المزخرف امتلأ فصار ثقلا لا يثبت إلا في الراحة القوية. فقالوا للصبي هاكه. فصار في يده المتهافتة. فصوت الكأس الثقيل (يا ناس) وضحك. وانفرجت ثغوره. كطيف وقع هذا. ولماذا؟

ضعف شخصية أبي بكر وأسبابه

كان أبو بكر بن افلح مستقيم السيرة. قوي الدين. لا يشذ عن الدين في شيء من أعماله. نقب الصفحة. فولا نقاء صفحته قبلته الدولة الرستمية لإمامتها. إنها لا تولى إلا كل صالح يتقيد بالدين. ويخاف الله. ويراقب ربه في كل شيء.

إن أبا بكر من حيث الاستقامة في السيرة لا ينتقد. انه يميل إلى اللذات. ولكن اللذات المباحة. وتتسلط عليه الشهوات. ولكن ذلا يشبعها إلا في الطرق الحلال. وبالوسائل المشروعة. انه كرجل عادي في الدولة نراه من الطبقة الصالحة. ونعده من الفئة المستقيمة المتدينة. ولكنه كإمام لدولة كبيرة واسعة الأطراف. متحضرة راقية. تورثها مدينتها وغناها الواسع المشاكل المعقدة. وهي تدخل في الشيخوخة والضعف في المزاج. فاقل شيء يجلب إليها الأمراض. وأعداؤها الملكيون الذين يكرهون الإمامة الإسلامية يرسلون عليها النظر الشرز من جيرانها. وجواسيسهم وصنائعهم في داخلها يصنعون لها أمراضها- ويحفرون لها قبورها. ويقدحون كل زند للفتنة ليشعلوا فيها النيران؛ انه كرئيس لدولة هذه أثقالها. وتلك هي الأعاصير التي تتعرض لها. فإننا نأباه. وننتقد سلوكه. ونجده في الميزان عصفورا هزيلا تشيل كفته. وفي المحك مدرا مبتلا ينحل. لا جلمودا يليق ركنا في البنيان. وعمادا يمسك الدور التي يداخلها فتتصدع. انه ضعيف الشخصية. واهن النفس. تتملكه شهواته فيعكف على إشباعها. ويؤثر ذلك على الجد. وحمل أثقال الإمامة. ومباشرة كل مهام الدولة. هذه التكاليف الثقيلة التي يستحليها أجداده. وتورثهم النشوة البالغة. ولا يجدون السعادة إلا بها. لأنها تورثهم راحة الضمير. وامن عقاب الله الشديد.

إن افلح كان للدولة قاعدة الصوان الضخمة الراسية. وأساس الحديد الراسخ الذي لا يبلي. فلم تتزعزع في أيامه. رغم الديناميت الذي يفجره الأعداء في أصولها. والحفر العميق الذي يوالونه في أسسها لتنهدم. فها هي المدرة المبتلة تلقى عليها تلك الأثقال. فهل تتماسك وتدوم الدولة على هدوئها. وتطول كهولتها. فلا تنغمس إلى قرارة الشيخوخة الفانية؟

إن أبا بكر ضعيف الشخصية. واهن العزيمة. فما هي أسباب ضعفه. لماذا نشأ رخوا ضعيفا؟ أليس والده هو افلح البطل القوي. والحازم الصنديد الذي رأينا؟ لماذا لم يكن أبو بكر كأخيه أبي اليقظان في حزمه وعمله وجده؟ وكأخيه يعقوب في صلابة عوده. وقوة

عزيمته، وإيثاره للخشونة والجد في حياته! لماذا كانت من جبل الصوان (افلح الصنديد!) هذه المدرة، ولماذا لم يشبه أخويه فيكون مثلهم في قوة النفس، وتمام العزيمة؟

أسباب ضعف أبي بكر

إن لضعف أبي بكر ثلاثة أسباب: أولها الوراثة بالتحيز[1] من أمه، فاختفت فيه صفات أبيه. إن المؤرخين لم يذكروا لنا عن أمه شيئا، واراها لتحضر افلح وذوقه الشعري، وغرامه بالجمال، وجميلة من الجميلات اللائي يقتنين كزهور الفل والياسمين لجمالهن، والتمتع بحسنهن الخلاب. فهن كزهر الياسمين لا يثمرن بالأعمال، ولا يعمرن البيوت. إنهن كعصافير الزينة، وتزقزق، وتؤنس الدار، وتروق بجمالها، والناس هم الذين يخدمونها، ويقدمون إليها كل حاجاتها! أرى أن أم افلح من هذا النوع الذي يتخذ كنمرقة الحرير[2] المزخرفة الناعمة، لا تصلح إلا للاتكاء... فجاءت لنا بابي بكر فورث كل صفاتها، ودللته لضعفها فنشأ ضعيفا مدللا، وتأثر ببيئتها الحريرية الناعمة أيضا فأورثته ضعفه، وقوت الوهن في نفسه.

والسبب الثاني لضعف أبي بكر هو استقرار عهد أبيه، وهدوءه. انه لم تثر فيه العواصف التي ثارت في عهد عبد الوهاب فأورثت لأفلح صلابة في العود، وقوة في النفس، ولم يكن فيه من الحروب ما كان في عهد جده فشارك فيها افلح فاذكت بطولته، وضاعفت حزمه ونشاطه. لقد استمر الهدوء في الدولة الرستمية ستين سنة كاملة، فلم تقع فيها حروب كبيرة يقع لها النفير العام فيصطلي نيرانها أبو بكر فتورثه قوه النفس، وتملؤه بأخلاق الرجولة الكاملة.

والسبب الثالث هو غنى الدولة الرستمية، وترف افلح ويساره. انه لم يكن كجده عبد الرحمن، وكأخيه أبي اليقظان متقشفا زاهدا؛ بل كان بطلا قوي الحيوية، شاعرا يحب الجمال، فشارك دولته فيمت غرقت فيه من نعيم الله، فسكن القصور الفخمة، وعاش عيشة ناعمة كعيشة الصقر الذي يتخذ عشه في رءوس التلال المكللة بالرياض. لقد كان كما ذكر الشماخي:(وطعن عليه نفاث بن نصر قلة محاربة المسودة وما هو فيه من خفض العيش)[3] وورد في طبقات الدرجيني انه انتقد عليه أيضا الخروج إلى الصيد، ولبس الطرطور، وإطالة اللحية وقال: انه يزيد في (الخلقة) إن افلح كان تام

1 - الوراثة بالتحيز نزوع الولد إلى احد واليه فتظهر فيه صفات احدهما وتختفي فيه صفات الآخر لا تظهر. انظر باب الوراثة وأقسامها في كتب علم النفس الحديث وكتب التربية.

2 - النمرقة الوسادة الصغيرة التي يتكأ عليها.

3 - السير للشماخي ص 194 ط البارونية بالقاهرة.

الخلقة. فإذا لبس الطرطور على رأسه، أطال لحيته إلى صدره، فانه يكون أعظم شيء في العيون، واجل شيء على الصدور! وأي مكروه في هذا؟! انه ضروري لإمام دولة يعشش في عاصمتها أعداؤها، وينظر الملكيون العباسيون إليها بغرور وكبرياء. والخروج إلى الصيد في الغابات والاحراج رياضة ضرورية لفارس عظيم كأفلح، ويحفظ عليه فروسيته، ويذكي شجاعته وبطولته، وافتراس الحيوانات وصيدها، سيما الفهود والنمور والأسود غذاء ضروري لبطولة افلح.

إن نفاث -على إعجابنا بعبقريته العلمية، وذكائه النادر- إما أن يكون في عيبه الإمام بهذه الأشياء من المتنطعين الذين يعيبون الحسناء بسواد عينيها، أو من الجامدين الغلاة -ولا أراه- الذين يحرمون زينة الله التي أخرجها لعباده ، ويكونون في المجتمع لسواد قلوبهم، وحسدهم، وجهلهم كوانين الفحم السوداء المشتعلة في الحجرات المطبقة، هم مصدر الغاز الخانق، وسبب هلاك الأمة وبوارها!

كان افلح بطلا صنديدا، وأسدا من اسود الله، يسكن الغاب النضير، ولا يتغذى إلا باللحم الغريض، ولم يكن من الذئاب العاوية، التي تقنع بالمغارة في الجبال، وبأشلاء الجيف في الأوحال. لقد كان رحمه الله غنيا بكده وجده. وفي زمان نضوج الدولة الرستمية في حضارتها، فأسبغ على نفسه وعلى أسرته من نعم الله التي أفاضها عليه. فنشأ أبو بكر في النعمة، فضاعف الترف ضعفه الموروث من أمه، فتعود الميل إلى أشياء الجميلة، واغرم بالمتعة، وبمجالس الأدب والنوادر، وغير ذلك من أنواع الجمال المباح التي كانت تزخر بها الدولة الرستمية، ويأخذ فيها أنداده من أبناء الأغنياء ذوي النعمة واليسار.

ه هي الأسباب الثلاثة التي أورثت لأبي بكر ضعفه وجعلته الحلقة الرخوة في سلسلة الأئمة الرستميين الذهبية القوية؛ ولكن مجلس الشورى بتقديمه للإمامة لا يريد أن يكون كوالده ينهض نهوض القلاع الطائرة بالأثقال وحده. فأسندوه، ورفعوا أثقال الدولة معه. فدامت الدولة على هدوئها وقوتها لا تتداعى.

رجوع أبي اليقظان من المشرق وقيامه بشئون الإمامة لأبي بكر

وكان أبو بكر في أيامه الأولى في الإمامة يباشر الدولة بعض المباشرة، ويحمل مع مجلس الشورى بعض أثقالها، فلما قدم أخوه أبو اليقظان في الشهور الأولى من إمامته، وكان يعرف كفاءته، ودينه، وصفاءه، وزهده في الإمارة، وعمله لله في حفظ الدولة وإعلاء صرحها، ألقى إليه بمقاليد الإمامة، وترك له القيام بشئون الدولة الكبرى كالنظر في رسائل العمال الولاة على النواحي، وفض المشاكل التي يرفعونها إلى الإمام،

ومراقبة مال الدولة، وصرفه في وجوهه، وقراءة البريد السياسي الذي يأتيه من الملوك والأمراء في خارج الدولة، والإجابة عنه؛ فعكف أبو بكر على لذاته في قصوره، واختفى في الرياش والنعيم. فقام أبو اليقظان لأخيه بكل ما يجب على الإمام أن يقوم به. وكان مثال الصفاء والحزم، وحسن القيام بالأمور. إن الدولة لأبنائها كلهم، وللرعية جميعهم. إنها جمهورية، تعمل لصالح العامة كلها. وما الإمام إلا رجلا منهم هم الذين قدموه. فحظه من حلاوة الدولة اقل من حظهم، لما يحمل من أثقالها، ويملأ صدره من مشاكلها. فلا بد يؤازروه. وفي القيام معه بأثقال الإمامة اجر عظيم عند الله وهو ما يرغب فيه أبو اليقظان ويؤثره على كل شيء.

قال ابن الصغير: "وكان أبو بكر يحب اللذات، ويميل إلى الشهوات، فصرف النظر في المدينة وأحوازها إلى أخيه أبي اليقظان. وكان أبو اليقظان يركب إلى أعلى مسجد في المدينة فيجلس فيه. فمن تكلم إليه من العمال، والقضاة، وأصحاب الشرطة (وغيرهم) نظر في ذلك نظرا شافيا، وأجرى الحق على من رضي وسخط، عظم قدره أو صغر. لا تأخذه في الله لومة لائم. فحمد له الشراة ذلك، وحمد له أخوه أبو بكر فعله. وإذا آخر النهار أتى باب أخيه أبي بكر، فان وجده جالسا دخل عليه واعلمه بما حدث في يومه من خبر وحكم. وإن وجده مشتغلا قال لمن علم انه يصل إليه: اقرأ على الأمير السلام وقل له: أصبحت مدينتك اليوم هادئة، وأمست هادئة. وإذا كان الليل ركب وطاف في المدينة إلى أقصاها. فيحكم في الأمر الضروري، (ويرتب الحرس على المدينة وضواحيها، ويحكم أمر الدروب)[1] ويأمرهم إذا حدث حادث أن يوافوا داره. فإذا احكم جميع ذلك انصرف إلى داره. فإذا كانت الغداة غدا إلى باب أخيه. فان وجده جالسا اعلمه بما كان في المدينة من حدث إن كان حدث، أو هدوء إن كان هدوء. فلم يزل كذلك حتى ملك قلوب الناس، واشرأبت إليه، ومالت نحوه".[2]

هذه هي سيرة أبي اليقظان مع أخيه أبي بكر، وتلك هي إعانته له في شئون الإمامة، وقيامه دونها بأمور الدولة. وهي سيرة وإعانة تدل على صفاء أبي اليقظان وطهره، وعلى حزمه وغيرته، وعلى تقواه وورعه، وعمله لله لا لحظوظ نفسه. إنها دليل على شخصيته العظيمة، وعلى نفس زكية تجمعت فيها وراثة الأجداد الحسنة، ووراثة افلح العظيم، فكانت ثمرة من أزكى ثمارهم، ونتيجة حسنة لتلك المقدمات العظيمة، والأصول الصحيحة السامية. وق استمرت الدولة في الطريق الصحيح، ودامت على

1 - الدرب هو الباب الواسع في وسط المدينة وهي أبواب الحارات والأسواق تغلق بالليل كما نرى في مدينة تونس إلى اليوم. وما بين قوسين من الأزهار الرياضية ص 225 لا من ابن الصغير.

2 - أخبار الأئمة الرستميين لابن الصغير ص 32 ط باريس 1907

هدوئها بفضل أبي اليقظان ومجلس الشورى الذين قاموا بسياسة الدولة، ونهضوا بأعباء الإمامة.

احتجاب أبي بكر عن العامة واستيلاء ابن عرفة عليها وحبها له

وكان أبو اليقظان تستغرق أوقاته مهمات الدولة، وكان جديا عمالا، وكان قد كفى أخاه كل شئون الإمامة. فهل قام أبو بكر بواجبه الصغير، فاختلط بالرعية، واطلع على أحوال العامة، وجلس إلى الناس ليرفعوا إليه حاجاتهم، فيشعروا بوجودهم، وتنطوي قلوبهم له على المحبة والاحترام، فيكونوا جنده ودروعه، يصول بهم على أعداء دولته، ويوجههم الوجهة الحسنة التي تسعدهم وتسعد الدولة؟ انه يفعل هذا، ولم يعرف هذا الواجب الفرض الأكيد عليه. إن التهالك على الذات، والشخصية السلبية الضعيفة، والنفس الواهنة، جعلته يقبع في قصره كالملوك الضعفاء، لا يفتح أبوابه للرعية، ولا يخرج فيستطيع المحتاجون أن يتصلوا به. لقد ترك الاتصال بالناس إلى صديقه محمد بن عرفة، وجعله صلته بالعامة، ووكل إليه البت في القضايا وحوائج الناس التي يرفعونها إليه بواسطته. فصار محمد بن عرفة عند العامة هو خادم الشعب الذي يقضي حوائجهم، ويهتم بشئونهم، ويشبل عليهم، فأحبوه، واتجهت إليه قلوبهم، وأصبحت الجماهير في العاصمة شيعته، تتقرب إليه، وترنوا إليه بعين المحبة والاحترام.

وكان الأئمة السابقون في الدولة الرستمية هم أئمة الصلاة في المسجد الجامع! يختلطون بالناس، وتراهم الرعية كل يوم خمس مرات، وكانوا يجلسون في المسجد للناس بين العصرين، والعشاءين، ويجولون في الأسواق، ويغشون الإحياء الفقيرة،ويفتحون أبواب المعصومة، وقصبة تيهرت التي هي دار الحكم، ومقر الإمامة فيراها الناس كلهم أخت المسجد؟، ويستطيعون دخولها والاتصال بالإمام فيها، لا يحجبون ولا يمنعون، يجذبهم تواضع الأئمة وعدلهم ، وحبهم للرعية وحدبهم عليها!

كان الأئمة السابقون كالشمس في الظهيرة تشعشع في الروض كله فتنعشه، وتقتل أمراضه، وتبث فيه حياتها، فيحمل ألوانها، وكل ما يجعله على الزكاء والصلاح. أما أبو بكر فاختفى اختفاء القمر في ليلة المحاق، فأعتكر الظلام في العاصمة، فوقع الاصطدام، ووجد اللصوص فرصتهم، والأعداء مناسبتهم، فاستلوا المدى وأشعلوا النيران!

لقد اختفى أبو بكر فترك الاتصال بالناس لمحمد بن عرفة، فنال محمد بن عرفة في

العامة بذلك وبخصائصه الحسنة الأخرى المنزلية العالية في العامة، والصيت الكبير لدى الجماهير في العاصمة.

نسب محمد ابن عرفة وشخصيته الجميلة

كان محمد بن عرفة -كما أرى من أصل عربي- من القيروان. إن ثورة الملكيين القيروانيين لمقتله تدل على انه من أرومتهم. إن اسم عرفة نادر الوجود في البربر فهو اسم عربي كما أرى. لقد انتقل هو أو والده إلى تيهرت فحل فيها، وعدته الدولة الرستمية من أبنائها وجزءا منها.

وكان محمد بن عرفة ذا شخصية قوية محبوبة. وكان من الشخصيات البارزة اللماعة في زمن الإمام افلح. وكان افلح يعجب به ويقربه. وقد أراد أن يبعث إلى ملك كوكو سفيرا يحمل إليه هديته، ويؤكد المودة بيتهما، فاختار محمد بن عرفة لذكائه، ثقافته، ونبله، وفروسيته، وجمال منظره، وذلاقة لسانه، وحلاوة حديثه، ولطف شخصيته وقوتها. إنه أحسن عنوان يشرف الدولة الرستمية عند السودان، وأجمل مظهر واجله للإمام افلح عند ملك كوكو، فيزداد إجلالا للإمام، وحبا وإعجابا للدولة الرستمية. وقد أعجب ملك كوكو بشخصية ابن عرفة، وبثقافته، وفروسيته، وظرفه، وعذوبة روحه. فازداد إكبارا للدولة الرستمية التي أنجبته.

وكانت صلة ابن عرفة بالإمام افلح وبأسرته وثيقة. فألفه أبو بكر وأحبه، فصار من أصدقائه، ومن خاصته الذين يميل إلى السمر معهم، والجلوس إليهم، ومصاحبتهم. إن أبا بكر يميل إلى الظرف، ومجالس الأدب، والى كل الأشياء الجميلة الحسنة. فوجد في ابن عرفة أدبا، وظرفا، وعذوبة في أروح، وجمالا في الشخصية؛ كما وجد الميل إلى التراف مثله، والانغماس في الملاذ المباحة، فتشاكلا، وأكد التشابه المودة بينهما. فصار ابن عرفة من اكبر أصدقاء أبي بكر، لا يصبر احدهما على فراق للآخر. فهما متلازمان، يتبادلان الزيارة في كل يوم، ويسمران معا، ويخرجان إلى النزهة والصيد معها.

مصاهرة أبي بكر لابن عرفة وازدياد نفوذ ابن عرفة عنده بذلك

ولما ولي أبو بكر الإمامة أكد صداقته لابن عرفة بالمصاهرة. وكان لابن عرفة أخت جميلة، بارعة الحسن، قوية الأنوثة، بالغة الثقافة، قد جمعت كل ما يصبي ويفتن ويملك رجلا مفتونا بالجمال والحسن كابي بكر، فتزوجها أبو بكر. كما اصهر ابن عرفة إلى العائلة الرستمية والى أبو بكر، فتزوج أخته. فتأكدت المودة بينهما أكثر، وازداد نفوذ ابن عرفة بأخته عند أبي بكر، فصار هو اقرب الناس إليه، وصاحب الدالة الكبرى عليه.

قال ابن الصغير: "كان ابن عرفة إذا أتى أبى بكر لم يحجب، كان أبو بكر في مجلسه، أو في حريمه. وكان أبو اليقظان وجميع إخوة أبي بكر وأعمامه لا يدخلون على أبي بكر إلا بالاستئذان إذا كان في مجلسه وإلا انصرفوا".

وكانت الغزالة بنت عرفة قد استولت على قلب أبى بكر، فصارت اللجام الذهبي الذي مكن لابن عرفة، وزاد نفوذه واستيلاءه على أبي بكر.

وكان ابن عرفة غنيا مترفا، ذا أبهة وورعة فتنت العامة، وراعت الدهماء التي تفتنها المادة والمظاهر البراقة، سيما في العواصم البالغة الحضارة والنعيم كتيهرت. وكان جميل الشخص فزاد ذلك في جمال شخصيته؛ كما كان ماجدا نبيلا، عذب الشمائل، محسنا إلى الناس، اجتماعيا، ذا شخصية ايجابية، وعطف وحنان للناس يجذب بها قلوبهم. فأحبه الناس لشخصيته الجميلة، ولأحسنها وحنانه عليهم، وأياديه عندهم. ولما صار له أمر قضاء الحاجات عند أبي بكر، ثم جعل له أبو بكر النظر في حوائج العامة التي يرفعونها إليه، وقضاءها والبت فيها، فقام ابن عرفة بذلك أحسن قيام، عظم نفوذه عند العامة، وأحبه الناس، فصار مفزعهم ومقصدهم في العاصمة؛ وافتتنت به الجماهير فصاروا له شيعة تمجده، وتنفذ أوامره؛ وملك ابن عرفة أعنة العامة في العاصمة، سيما المهاجرين الذين وفدوا من القيروان، والجند الذين جاءوا من افريقية فاستقروا بتيهرت وصاروا رعية للدولة الرستمية. وأمسى ابن عرفة هو الأمير المرموق الذي يملأ قلوب الناس وعيونهم في العاصمة، أما أبو بكر فهمزة الوصل توجد ولا يشعر بها ولا ينطق بها في الكلام! فماذا سيقع مع الاضطراب في الدولة باختفاء أبي بكر وظهور ابن عرفة وانتشار نفوذه في العاصمة. وما هي الحماقة التي يسولها الضعف لأبي بكر فيلطخ بها صفحته، ويفتح بها باب الفرص للعباسيين المتربصين في تيهرت، فيشعلون النيران، ويثيرون الفتنة العمياء، ويشمرون عن سواعدهم، ويجهدون لتخريب الدولة التي ترفع راية الإمامة الإسلامية التي يكرهونها، ويحالون القضاء عليها ليقضوا على الإمامة الإسلامية العادلة التي أحيتها في المغرب، بعد قتلوها هم في المشرق؟ ماذا فعل أبو بكر فاضر بنفسه وبالدولة العادلة؟

دخول الدولة الرستمية في شيخوختها
في عهد أبي بكر

كانت الدولة الرستمية في عهد أبي بكر قد دخلت في شيخوخته. إن الدولة التي تبني ما بنت الدولة الرستمية من حضارة راقية، ومدنية عظمى، وتعمل ما عملت، وتجهد وتكد مثل جهادها وكدها، وتعيش مثل عمرها الطويل وهي تجهد وتعمل، لا بد أن تتعب، ويضوي جسمها، ويتيبس عودها، ويستنفد الجهد طاقتها الحيوية فتشيخ وتضعف.

والدولة الرستمية لكدها وجدها أفاض الله عليها الغنى واليسار، وطفحت بالمدنية الراقية والحضارة العظمى، فغرقت في مباهجها، وعلت ونهلت من ملذاتها، وانغمست في البذخ وفنون النعيم، وأمنت واطمأنت، فلم يعد لها عدو في الخارج تخافه، فتأخذ الأهبة ـ وتتمسك بأسباب القوة النفسية، ويذكي الخوف حيويتها، وينفخ الاستعداد في طاقتها فلا تخمد. إن جيرانها الملكيين الذين يكتنفونها قد شاخوا مثلها، فلن يستطيعوا العدوان عليها، إنها إذا كانت أقوى منهم في شبابها، تصرعهم وتخوض فيهم بالسنابك والإقدام لو هاجموها، فإنها على تلك القوة أيضا في شيخوختها لو هاجموها وهم في شيخوختهم؛ إن دولة تغرق في الحضارة مثلها، وتأمن في ديارها أمنها، لابد أن تضعف أخلاقها، ويوهن النعيم والأمن الدائم نفوسها، فتضعف وتشيخ.

إن الحضارة والمدنية إذا أفرطت وانغمست الدولة في ملاذها وشهواتها وترفها، فهي حوض الشجرة الظليل الممتلئ الذي تنغمس فيه الثمرة إذا زهدت في خشونة فرعها، وعافت تضرم الهواجر عليها، ولطم الرياح التي تصح بها؛ لابد أن تنتن وتتشقق، وتتخلق فيها الديدان، وتصير سمادا في الحوض!

وكان الإمام افلح بعبقريته وقوة شخصيته، وحزمه ومضائه، وروح الشباب للدولة، يذكي قوتها، ويؤجج حيويتها، ويضاعف طاقتها، فتدافع وهن الشيخوخة، وتتغلب على عوامل الهرم. فلما تولى أبو يكر الضعيف أسرعت إلى هرمها، فكثر سعالها، وهاجت الأمراض في داخلها، أولئك الملكيون المتعصبون الذين فسحت لهم في ديارها، ومكنت لهم بعدلها وإخوتها الإسلامية في أحسن جهاتها، وأسكنتهم عاصمتها فصاروا يكيدون ويتربصون بها الدوائر، ويشحذون المدى، وعيونهم إليها يرقبون نومتها، أو وهنا يصيبها فيجهزون عليها!

وكان الإمام أبو بكر يغرق في لذاته، وكانت الغزالة بنت عرفة تزيده تخديرا بالنظر الفاتر، والنفس العاطر، والحسن البارع الذي يربطه إلى قصره، ويزيده انقطاعا عن رعيته.

وتعاظم نفوذ ابن عرفة في تيهرت العاصمة، وأصبح هو الأمير المرتجى، والشخصية التي تلتف حولها الجماهير. قال ابن الصغير: "وكان محمد بن عرفة قد تزوج بأخت أبي بكر قالوا: فكانت الإمارة بالاسم لأبي بكر وبالحقيقة لمحمد بن عرفة".[1]

وكانت تيهرت والدولة الرستمية قد فتحت أبوابها لكل المسلمين، ورحبت بكل من هاجر إليها. فأرسل العباسيون من افريقية وغيرها طوائف كبيرة من صنائعهم، فاستقروا في تيهرت عاصمة الدولة. كما هاجر إليها طوائف كبيرة من العراق والشام وكانوا ملكيين يكرهون الإمامة الإسلامية، وينظرون إلى الدولة الرستمية الجمهورية بالحقد والعداوة ويتمنون زوالها من الوجود.

استقرار جمهور كبير من الجند العباسيين في تيهرت وكيدهم للدولة

وكان ممن هاجر إلى الدولة الرستمية فاستقر في عاصمتها، يتفيأ ظلالها، وينعم بعدلها وأخوتها وحضارتها، طائفة كبيرة من الجند من القيروان. والجند إنما هم أبناء الجيوش الأموية والعباسية التي جاءت من المشرق فاستقرت في افريقية فاستوطنتها. أنهم جند للأمويين والعباسيين، يحفظون سلطانهم على المغرب، ويمكنون للملكية المطلقة في افريقية. فصاروا يسمون "الجند" فورث أبناؤهم هذا الاسم، وأصبح لقبا لعائلاتهم. وقد هاجرت طوائف كبيرة من أحفاد هؤلاء إلى تيهرت فسكنتها. وقد بقي لهم في تيهرت اسمهم القديم فصاروا يسمون جندا. أنهم ليسوا جند الدولة، ولا جيش الإمام، ولكنهم جاءوا من القيروان ومن افريقية فاستقروا في العاصمة، فرحبت بهم الدولة، وعاملتهم كأبنائها.

وكان هؤلاء الجند قد اغتنوا واثروا، وبنوا ضاحية كبيرة لهم في تيهرت حصنوها بالأسوار، وصارت مدينة لهم. قال ابن الصغير: "وكانت العجم قد ابتنت القصور، ونفوسة قد ابتنت العدوة، والجند القادمون من افريقية قد بنوا المدينة العامرة اليوم"[2] إن العبيديين لم يتعرضوا لهذه المدينة بسوء، لان فيها هؤلاء الملكيين الذين يناصرون الملكية المطلقة، ويعملون للقضاء على الإمامة الإسلامية، فبقيت عامرة إلى القرن الرابع الهجري لما ألف ابن الصغير كتابه.

1 - سيرة الأئمة الرستميين ص 31 باريس 1907.

2 - سيرة الأئمة الرستميين ص 26 ط باريس 1907.

كان هؤلاء الجند جمهورا غفيرا. وكانت لهم في العاصمة ضاحيتهم الكبيرة، وكلمتهم المسموعة. فالتقوا حول ابن عرفة، وصاروا يهتفون له، ويؤيدون نفوذه. وكان هؤلاء الجند قد ورثوا من إبائهم الحنق على الإمامة الإسلامية، والجمهورية العادلة، والحقد والعداء للدولة الرستمية التي رفعت راية الإمامة الإسلامية في المغرب، وأحيت الجمهورية فيه، وقضت على الملكية المطلقة الأموية والعباسية في ربوعه.

شموخ ابن عرفة وزهوره على خاصة الدولة وتكبره

وكان ابن عرفة يزداد شموخا على الأيام، لما يرى من غناه، ومنزلته عند أبي بكر، وحب العامة له، وكثرة أنصاره وحاشيته في العاصمة. انه من المترفين المتحضرين المترقرقين الذين يتغلب فيهم الجانب الغريزي، فتورثهم الشهرة انتفاخا واستعلاء، فيصعرون خذهم على من أفضل منهم وأعلى، وأجدى للدولة، وأكثر منهم حملا لأثقالها. فصعر ابن عرفة خده أبي اليقظان وخاصة الدولة، وعلى مجلس الشورى! أنهم عمليون يكدون ويجهدون، عليهم خشونة الفروع العتيدة التي تثمر وتحمل الأثقال في الشجرة. تنظر شزرا إليها زهور الأصيص الرقراقة التي يزين الناس بها مكاتبهم وموائد ضيوفهم، لأنها لا تكتسي بالنضارة مثلها. إنها حطب جاف عتيق! وهي نوار نظير مشرق، يزري بورد الخدود! بهذا الغرور وبتلك الكبرياء كان ينظر ابن عرفة إلى أبي اليقظان وصحبه.

قال ابن الصغير: "وكان محمد بن عرفة في دوي وصيت عال، لا ينظر أبا اليقظان في حزبه ولا في طائفته، ولا في الناحية التي هو بها، ولا ينظر بهيبة له وإجلال أو حذر".[1]

خوف خاصة الدولة من تمرد محمد بن عرفة والجند العباسيين للقضاء على الإمامة الإسلامية

وكان أهل الحل والعقد في الدولة يرون شموخ ابن عرفة، واستيلاءه على العامة، والتفاف الجند حوله، ومن يعرفون حقده على الدولة الجمهورية، وحنينه إلى الملكية المطلقة، وعلموا أن التفافهم بابن عرفة سيؤثر في نفسه، وتفيض عليه عدواهم النفسية، فيورثونه حقدهم، ويفسدون صدره على الدولة، ويزينون له التمرد والانفصال. أنهم جنده وأنصاره، والعامة كلها تحبه، فستقف في جانبه، فيستطيع أن يحدث انقلابا في العاصمة، ويستولي على رئاسة الدولة بالقوة، ويقضي على الإمامة الإسلامية، ويرجع الملكية العباسية المطلقة التي أطفأها آباؤهم وأجدادهم في بقاعهم بدماء اوداجهم، وبماء أقحافهم التي فلقتها المعارك الطاحنة مع العباسيين والأمويين. إن الدولة تتعرض

1 - سيرة الأئمة الرستميين لابن الصغير ص 33 ط باريس 1907.

لخطر كبير بتكميش إمامها، واستيلاء ابن عرفة على قلوب الجماهير، والتفاف الجند حوله. إن ابن عرفة لو كان زاهدا متقشفا، يتهرب من الرئاسة، ويخشى أثقالها، لسكتوا عنه، وتركوه يحتسب الأجر عند الله بخدمة العامة، وينال جزاءه بحبهم له، والتفافهم حوله؛ ولكنه مترف من تلك الطواويس التي تنفش ريشها، وتزوهى بنفسها، وتنظر شزرا إلى جمال الرياض، وترى حسنها الفاتن اقل من نسال ريشها الذي يتنافس الناس عليه، وينوطه الملوك بالتيجان، ويزين النواصي شامخا فوق جباه الحسان.[1]

عتاب مجلس الشورى لأبي بكر على خموله واختفائه وتحذيره مغبة افتنان الجماهير بابن عرفة

إن أبا بكر قد قبع به الخمول في القصر. فهو لا يدري ازورار العامة عنه، ونسيانها له، افتتانها بابن عرفة. فيجب تنبيهه ليخرج من مخبئه، وينفض عنه الخمول، ويأخذ بأزمة الجماهير بإحسانه واختلاطه بها، والقيام بأمورها، والبت في حوائجها. إن هذا يجعل ابن عرفة ينزوي، وأنظار العامة تنصرف عنه، فيأمنون خطره. فذهب مجلس الشورى وأهل الحل والعقد إلى قصر أبي بكر، يتقدمهم أبو اليقظان. وكان أبو بكر قد استدعاهم لشأن من شؤون الدولة وجب رفعه إليه ليستشيرهم، ويضع أمره على كاهلهم.

قال ابن الصغير: "فجمع أبو بكر مجلس الشورى يوما لأمر. فلما ظفروا بالخلوة معه قالوا: انك ذاهب ونحن ذاهبون ! ! قال: وكيف ذلك؟! قالوا: ما نحسب انك تعلم مجئ ابن عرفة إذا جاء فيمن يجئ، ولا انصرافه إذا انصرف فيمن ينصرف، ولا اجتماع الناس عند بابك إذا جاء، ولا خلوه إذا انصرف. فلما سمع أبو بكر ذلك شق صدره، وأراد أن يعلم ذلك، ففتح طاقا بأعلى قصره يقابل الناحية التي يأتي منها ابن عرفة، فرأى ابن عرفة يتحرك من قصره، فبادر الناس إليه من كل جانب. واقبل وبين يديه أمم، وخلفه أمم، وعن يمينه أمم، وعن شماله أمم حتى أتى الباب. فنزل أبو بكر من طاقه إلى مجلسه، وقد هاله ما رأى. ثم دخل ابن عرفة فخلا معه مليا ثم انصرف. فصعد أبو بكر إلى الطاق. فإذا بالأمم التي أقبلت قد انصرفت (مع ابن عرفة، ملتفة به تسأله عما قضى من حوائجها) وبقي بابه خاليا".[2]

وكان جلساء أبي بكر وخاصته الذين يسمرون نعه هم أهل الأدب والظرف. فاستشار احدهم في أمر ابن عرفة، وسبب القضاء على نفوذه. وكان هذا المستشار رقيق الدين.

1 - ريش النعام وريش الطاوس الطويل في ذيله مما يتزين به الحسان قديما ينطنه بنواصيهن فيبدو بارزا إلى الأعلى بروز الأفنان المزهرة في رؤوس الاشجار النضيرة

2 - سيرة الأئمة الرستميين ص 33 ط باريس 1907.

فرأى الملوك كيف يتخلصون من منافسيهم ومن يخافون ثورته، فأشار عليه أن يسلك سبيلهم. وكان أبو بكر ضعيفا قد استولت عليه الغيرة والحسد لابن عرفة، والخوف من ثورته عليه، فسيطر عليه وجدانه، فكسف عقله الضعيف، واستولى على نفسه الرخوة الواهنة. فسلك سبيل الملوك في التخلص من منافسيهم، ولم يسلك الطريق الذي دله عليه أبو اليقظان ومجلس الشورى، وهو الخروج من عزلته، ومباشرة أمور الدولة، والاختلاط بالعامة، وقضاء حاجتها فتنصرف إليه وتترك ابن عرفة. إن ابن عرفة قد ظهر باختفائه هو. والوسيلة الحكيمة هي خروجه من عزلته. إن ابن عرفة لا يحل إيذاؤه ولا قتله. انه لم يرتكب ما يحل به دمه. فويل ربي بكر إذا سفك الدم الحرام في الدولة! فان مجلس الشورى يعزله، ويولي من يقتص من أبي بكر، ويقتله بمن قتل. هذه هي العاقبة! وغفل أبو بكر أيضا عن أعداء الدولة المكلبين في العاصمة، واستغلالهم لمقتل ابن عرفة، وإذكاء الفتنة التي تصدع الدولة وتهدمها. إنه ضعيف قصير النظر. فرأى أن اقرب طريق وأسهله لإزاحة ابن عرفة هي الوسيلة الملوكية. وشق عليه أن يخرج من عزلته، ويسلك طريق الجد ليسطع نجمه. فكلف احد عبيده فاغتال ابن عرفة! فأخفى جثته، فلطخ صفحة الدولة الرستمية البيضاء بالدم الحرام، وأثار ثائرة الدولة كلها عليه، وفتح الأبواب الواسعة للعباسيين الحاقدين وغيرهم بسفحه لتلك الدماء، فقبسوا منها النيران التي أذكوها في العاصمة فتأججت نارا. وبلغ العباسيون وغيرهم ممن يكره الإمامة الإسلامية والجمهورية العادلة مناهم. ودخلت تيهرت الجميلة الضاحكة الفاتنة في الأيام العاصفة التي تذرى عليها رمال الكثبان وغبار الصحاري، فبدت بها عجوزا شمطاء !

موت أبي بكر ابن افلح هما وحسرة ومدته في الإمامة

وثارت الفتنة في العاصمة، وتأججت نارا. فارتاع أبو بكر وفر منها خائفا فاختبأ في مكان بعيد فمات هما وغما. لقد عرض الدولة للخطر الكبير، وشان صفحتها، فتيقظ فيه الضمير الديني القوي فما زال يضربه بالسيف حتى مات. فذهب إلى الآخرة بعد زمن قصير من وقوع جريمته الشنعاء.

وكانت موته أبي بكر في آخر سنة إحدى وأربعين ومائتين من الهجرة. ومدة إمامته حوالي سنتين. إنه الحلقة الرخوة في سلسلة الأئمة الرستميين الذهبية.

فماذا كان من أمر الفتنة التي سبب لها بحماقته؟ ومن الذي سيطفؤها ويطب للعاصمة العليلة؟

ثورة العباسيين ومن يكره الإمامة الإسلامية
واستغلالهم لمقتل ابن عرفة لتهديم الدولة الرستمية

ارتياع تيهرت والدولة كلها وإنكارها لقتل ابن عرفة

وارتاعت تيهرت كلها بقتل ابن عرفة! وثارت ثائرة الخاصة والعامة في الدولة بهذه الجريمة الفظيعة. إن دولتهم عفيفة عن سفك الدم الحرام. وصفحتها بيضاء نقية -على طول عمرها- لا تدنسها هذه الجرائم المنكرة. فها هو أبو بكر يدنسها بسفك الدم الحرام! وعزم مجلس الشورى في تيهرت أن يبحث البحث النزيه في الجريمة. فإن ثبت أن مرتكبها هو أبو بكر عزلوه عن الإمامة ثم ولوا إماما آخر. يقيم عليه الحد. ويقتص منه بالقتل هو ومن نفذ جريمته. هذا هو حكم الله في هذا الأمر. وهو ما يقتضيه العقل والحكمة؛ ولكن الملكيين العباسيين وغيرهم الذين يكرهون الإمامة الإسلامية التي ترفع الدولة الرستمية رايتها. وجدوا فرصتهم للفتنة العارمة. ومناسبتهم لتخريب الدولة. وإشعال الحرب الأهلية فيها لتذريها رمادا! فهب هؤلاء يقودهم زعماؤهم. فبثوا الدعاية الواسعة المثيرة في الجماهير التي ساءها قتل ابن عرفة. إنه حادث غريب لم يعهدوا مثله في عاصمتهم (تيهرت) الطاهرة. ثم إنه وقع في شخص يحبونه. وارتكبت الجريمة في ابن عرفة الذي يغارون عليه. وجد زعماء الفتنة الملكيون الذين ينصرون الملكية العباسية المطلقة. ويأبون الإمامة الإسلامية. جدوا في إثارة خواطر العامة. فتجولوا في الأسواق والشوارع الكبرى بجثة ابن عرفة. ومحمود بن الوليلي احد زعماء الفتنة يسير إمام الجثة وهو ينادي في صوت مثير: "ألا إن القتيل المظلوم يأمركم بأخذ ثأره!" وكان الجند والعباسيون الآخرون الذين كانوا جمهورا كبيرا في تيهرت مستعدين للفتنة. وكانوا يبحثون عن هذا السبب ليستغلوه. فأسرعوا إلى السلاح. فقادهم محمود بن الوليلي وهجم بهم على قصر أبي بكر ليشعل الحرب الأهلية التي يريدها. فخرج آل أبي بكر وعبيده وجيرانه السمحيون وغيرهم الذين هجم عليه الجند[1] والعباسيون فدافعوا عن أنفسهم. فنشبت معركة حامية بين الطرفين. ثم دخل العجم الذين في العاصمة في هذه الفتنة فاتسع نطاقها.

---

1 - قلنا إن الجند هنا اسم يطلق على الجند الأموي والعباسي الذين استوطنوا افريقية في القرن الأول والثني الهجري. وهاجرت طوائف كبيرة من أحفادهم فاستوطنوا تيهرت. وسموا جندا كآبائهم. وهم ليسوا جنود الإمام بل مدنيون كبقية سكان العاصمة.

وكان قواد هذه الفتنة، ومشعلوا نارها هم كما ذكر الباروني في الأزهار وابن الصغير في تاريخه[1]: وابن الواسطة، وغيرهم من العباسيين الحاقدين على الإمامة الإسلامية. واری أن محمود الوليلي من أعقاب الواصلية الذين كانت عاصمتهم قبل نشأة الدولة الإدريسية في اقرن الثاني هي وليلي غرب مدينة فاس. لقد أدب الإمام عبد الوهاب الواصلية، وأرغمهم على السكون، فبقيت في أفراد منهم أحقاد وعداء للدولة الرستمية أورثوها أحفادهم. أما خلف الخادم فهو مولى الأغلب بن سالم التميمي القائد العباسي المعروف ومن عائلته، ولابد أن يكون على غراره في العداء للإمامة الإسلامية والحقد عليها، ومن صنائع العباسيين الذين دسوهم في تيهرت ليهدموا الدولة الجمهورية العادلة.

إثارة خلف الخادم وحزبه للمعتزلين الفتنة ليدخلوا فيها فيتسع نطاقها

وكان أبو اليقظان ونفوسة وغيرهم من الخاصة والقبائل المخلصة للدولة قد اعتزلت الفتنة، ولازموا أحياءهم دروبهم في العاصمة، وكانوا يرجون أن تسكن فورة العامة، وينطفئ غضبها فيأخذوا بالأزمة فيولوا من يرجع الأمور إلى نصابها، ويعود بالعاصمة إلى سكونها وأفراحها. ولكن غرض الجند والعباسيين وقوادهم كان ابعد من الأخذ بالثار من أبي بكر، أنهم على حقد متأجج على الدولة الجمهورية! فهم يريدون نشر الفتنة الأهلية فيها ليضعفوها، ويشغل أبناؤها ونواحيها بمقاتلة بعضهم بعضا، فيجد العباسيون في القيروان فرصتهم في الدولة، فيقضون على الإمامة الإسلامية التي تقض مضجعهم، ويسيطرون على المغرب الأوسط ويعيدونه إلى حظيرة الملكية المطلقة التي ثار عليها. فشمر خلف الخادم مولى الأغلب وأصحابه قادة الفتنة لتوسيع الحرب الأهلية، فنفخوا في نارها، فازدادت اشتعالا. وساءه اعتزال أبي اليقظان ونفوسة لها؟، وبقاء درب النفوسيين ساكنا لا تشمله الفتنة العمياء، فأمر الجند والعباسيين بإشعال النيران في الإحياء التي يهاجمونها ويقاتلون فيها العجم بجوار درب نفوسة، ليشفى أحقاده، ويثير نفوسة وأبا اليقظان فيدخلوا في الفتنة.

قال ابن الصغير: "وكان الجند متى تغلبوا على جهة في العاصمة وخرج أهلها من ديارهم أبقوها على حالها لا يغيرون منها شيئا، إلى أن تغلبوا ذات مرة على جهة بجوار درب النفوسيين فيها بعض نفوسة. وكان مع الجند (والعباسيين) خلف الخادم مولى الأغلب، وهو ذو مال عظيم لا يضمن به في إعانتهم كلما احتاجوا. فصار متبع الرأي

1 - انظر هذا في الأزهار الرياضية ج 2 ص 230 وقد لقب الشيخ الباروني محمود بالوليلي وارى في اللقب غلطا والصحيح الوليلي نسبة إلى وليلي وذكر ابن الصغير زعماء الفتنة في صفحة 37 و38 و50 ط باريس 1907.

مسموع الكلمة عندهم، فقال لهم: ما أراكم صنعتم شيئا إذا أبقيتم الديار بدون إحراق! فاضرموها نارا"[1] فنشبت في ديار نفوسة التي توجد في درب العجم، فنفد صبر أبي اليقظان وصبر نفوسة، وخاصة الدولة، فعلموا أن العاصمة التي انبث العجم والجند والعباسيون في كل أنحائها، فأضرموا فيها الحرب الأهلية عين مريضة قد عششت فيها الجراثيم فلابد من عملية جراحية لها.

مبايعة أبي اليقظان بالإمامة

فخرج منها هو نفوسة وخاصة الدولة، فعقدوا مؤتمرا خارج العاصمة، وبايعوا أبا اليقظان إماما للدولة، فسمع من بالمدينة من القبائل والمخلصين للدولة بإمامة أبي اليقظان فخرجوا كلهم إليه، فبايعوه وانضموا إليه، وسمعت نواحي الدولة بإمامته فبايعوه وفرحوا برئاسته للدولة، فصار أبو اليقظان هو الإمام، فطب العاصمة فأشفاها، فماذا فعل هذا الإمام الحكيم ومتى كانت إمامته؟

1 - سيرة الأئمة لابن الصغير ص 37 والأزهار ص 232 وقد نقلنا النص من الأزهار لصفاء أسلوبه انه لا يخرج عن معنى ابن الصغير انظر تاريخ ابن الصغير المطبوع في باريس.

خلافة الإمام أبي اليقظان 241 – 281 هـ

هو محمد بن افلح، وكنيته أبو اليقظان. وكانت إمامته في آخر سنة إحدى وأربعين ومائتين من الهجرة، بعد اختفاء أبي بكر وموته غما بعد قليل من نشوب الفتنة. ولو ظل حيا لأقام أبو اليقظان عليه الحد وقتله بابن عرفة.

وكان أبو اليقظان لما ولي الإمامة في سن الكهولة والنضوج. كان عمره نحو ستين عاما، وكان حازما مخلصا، حكيما ورعا، يعمل لله فكان معه! فتغلب على كل الصعوبات، وأطفأ النيران، وطهر العاصمة، وأعاد للدولة هدوءها واستقرارها، ونفخ فيها روحه فتقوت، وتغلبت على علل الشيخوخة التي تسرى في دمائها، واستمرت كما كانت في كهولتها في عهد الإمام افلح على السكون والهناء، وعلى الإخوة والسعادة.

وكانت نواحي الدولة كلها ساكنة في هذه الفتنة التي نشبت في العاصمة، لم تشارك فيها، ولم تسر إليها عدواها، إلا محمد بن مسالة، وكان أمير قلعة هوارة (تاسفدالت) في شمال تيهرت الغربي، وبالجنوب الغربي لمدينة مستغانم على نهر (سيرات) كما أرى.

احتلال محمد ابن مسالة الهواري للعاصمة وغرضه في ذلك

وكان محمد بن مسالة محبا للإمارة، فاستغل هذه الفتنة فاستقل قذفي قلعته، ثم أسرع بجماعة من قومه بني مسالة فاحتل تيهرت بعد خروج أبي اليقظان وخاصة الدولة منها، وقد رحب به أصحاب الفتنة ليتقووا به. وارى أن غرض ابن مسالة ن احتلال تيهرت بجنده هو أن تقع في قبضته هو، ويمسك بالأزمة فيها، فلا تقع أمورها في أيدي الجند والعباسيين الذين يغلي يهم الحقد والعداوة، فيفسدون في العاصمة، وينكلون بمن بقي بها من الضعفاء الجمهوريين الذين فيهم جمهور كبير من قومه هوارة؛ وليستغل أول فرصة للصلح مع أبي اليقظان، ويقود العاصمة إلى الصلح والسكون، لا إلى جنون الخراب والانتحار الذي يدفع الجند والعباسيون بالعاصمة إليهما. إن قبول ابن مسالة للصلح مع أبي اليقظان لما توسط وفد جبل نفوسة بينهما، وعدم تعنته كما يفعل العباسيون، يدل على أن لوجوده في تيهرت واستيلائه هو عليها فائدة للدولة وللعاصمة هي التي استهدفها باحتلاله لها.

وعلم الإمام أبو اليقظان أن البطر من أسباب هذه الفتنة فشدد الحصار على

العاصمة زمنا طويلا، وقطع عنها كل شيء، فأضرت المجاعة بأصحاب الفتنة، ورأوا الدولة كلها ملتفة حول الإمام وهو يشدد عليهم. فملوا الفتنة، وحنوا إلى السلام. وعلموا أنهم إذا استمروا على الفتنة فان الإمام والدولة معه سيطحنهم، ويكون مآلهم البوار والخسران.

توسط نفوسة بين أبي اليقظان وأصحاب الفتنة وخمودهم

وأرسل الإمام أبو اليقظان إلى جبل نفوسة يخبرهم بفتنة العاصمة، فأسرعوا إليه، وانضموا إلى صفه، فذهبوا إلى محمد بن مسالة فنصحوه بالهدوء، فمال إلى السلم، وطلب أن ينسى الإمام ما مضى، وان لا يأخذ أحدا بجريمة مما مضى في أيام الفتنة. وكان أبو اليقظان حكيما فأجاب طلبه ووفى له بما أعطاه. ففتحت تيهرت أبوابها، وأسرعت العامة التي نفخ رؤوس الفتنة فيها فبايعت أبا اليقظان، وطلبت عفوه. فشمر أبو اليقظان فنظم العاصمة، فعين قاضيها وشرطتها، وأصلح كل أمورها، فرجعت بفضله إلى سابق عزها وأيام مجدها وهنائها في عهد أبيه وأجداده.

وكان أبو اليقظان هو الربيع الذي يجدد الحياة في الشجرة فتواصل الحياة الزاهرة المثمرة. ورجعت الدولة به إلى السكون والهناء الذي كانت عليه أيام والده الإمام افلح. فكيف كانت شخصية هذا الإمام العظيم، وما سيرته؟

شخصية الإمام أبي اليقظان العظيمة واستقرار الدولة وهناؤها في عهده

كان الإمام أبو اليقظان أعظم سناد وامتن عماد للدولة الرستمية التي يفجر أعداؤها الملكيون العباسيون في داخلها ألغامهم الشديد المدوية ليصدعوا بنيانها، ويحفروا الحفر العميقة في طريقها لتتعثر فيجهزوا عليها، ويذكوا فيها الفتن العمياء التي تنهكها، وتضاعف الشيخوخة فيها. ولما ولي أبو اليقظان الإمامة تماسكت الدولة وانتعشت وتقوت، وأوقف بحزمه وحنكته وإخلاصه عوامل الهدم التي تتسلط عليها وتسري فيها، وأطفأ كل الفتن، وسد أبواب الدس والكيد في وجه أعداء الإمامة الإسلامية، فلم يجدوا فرصتهم للتهديم، ومناسبتهم لإشعال الفتنة التي ينضجون عليها الدولة لالتهامها؛ وسد ثغور كلها برجال حازمين مخلصين، ذوي تقوي وعلم وإخلاص، ونهض هو بشئون الإمامة كلها في حزم ودهاء، لا يتكل على احد، ولا يعتمد فيها على سواه. فصلحت الأمور، وابيضت الأيام للدولة، وعاودها استقرارها وهدوءها في أيام افلح العظيم.

وكان الإمام أبو اليقظان أشبه الناس بجده عبد ارحمن. أن شخصيته هي شخصية

الإمام عبد الرحمن. لقد ورث كل خلاله، وكان على منواله في كل نواحيه. وإذا عرفت الإمام عبد الرحمن في الباب الطويل الذي حللنا فيه شخصيته، وبينا أنواع عظيمة، فقد عرفت الإمام أبا اليقظان، لأنه نسخة من جده، يشبهه كما تشبه العين الكحيلة أختها في وجه الحسناء، وكما تماثل النجوم اللماعة في أديم السماء

كان الإمام أبو اليقظان مثل جده، ورعا تقيا، يراقب ربه في كل الأشياء، ويذكر آخرته في كل الأمور. وكان عالما من كبار العلماء في عصره. وكان حازما كل الحزم، شجاعا، حكيما، ومتواضعا، مخلصا، يعمل لله ولصالح الدولة لا لنفسه،متقشفا في عيشه، لا يغرم بالمادة، ولا يفتنه الزخرف، ولا يلهيه عن الجد ما كانت ترفل فيه الدولة من حضارة راقية ونعيم، ويختال فيه زمانه من أبهة ويسار ومدينة. قال ابن الصغير: "لما مات أبو اليقظان فكل شيء وجد له من عين في تركته سبعة عشر دينارا!!".

وكان أبو اليقظان كجده عبد الرحمن قد أجمعت القلوب على حبه وإجلاله، فلم ينافسه منافس في الإمامة، ولم يتمرد عليه احد لكرهه له، أو للاستخفاف به. حتى الطابور الخامس الذي بثه العباسيون في العاصمة للكيد للإمامة الإسلامية سكن في أيامه، وطال سكونه ولم يتحرك في عهده. إن القلوب مطمئنة، والنفوس راضية بعدل أبي اليقظان. فلا جمر للسخط في الرعية فينفخون عليه ليضطرم، ولا ثائر عليه فيشدون أزره فيحتد. إن أبا اليقظان لحزمه مشمر مستعد لسحقهم إذا أطلت رءوسهم من جحورها. وإن زمانه مشرق مشمش وضاح لا ظلام فيه فتبرز عقاربه، وإن جو الدولة جو الربيع بقرة العيون ورضي النفوس، لا جو الصيف بحسرة القلوب، وثورة الناس فتبرز ذوات الأذناب الشائلة المسودة، فتسكب سمومها القتالة في العروق!

إليك بعض أخبار هذا الإمام العظيم من تاريخ ابن الصغير المالكي الذي عاش في تيهرت في زمانه، وشاهده فعرف شخصيته العظمى. وقد حدثنا ابن الصغير عن ورع أبي اليقظان وتقواه، ومراقبته كل المراقبة لله، وتذكره لآخرته في كل أعماله! هذه الصفة العظيمة التي لا تكون في نفس المؤمن إلا كانت حسناته أكثر من سيئاته، وكماله أكثر من نقصه، وكانت حياته حافلة مشرقة سعيدة لان ذكرى الموت يقوم النفس دائما فلا تعوج، ويملؤها بالطهر والبياض فلا يسود. إن أيام الإنسان تنبع من طويته ونفسه، تلبس ألوانها، وتكون على حسبها في الحسن وعدمه.

قال ابن الصغير: "كان أبو اليقظان عاش من السنين مائة ونحوها. وكان عمره في إمارته نحوا من أربعين عاما. وقد لحقت أنا بعض أيامه وإمارته، وحضرت مجلسه. وقد

جلس للناس خارج المسجد الجامع مما يلي الجدار الغربي. ورايته يوما ثانيا في مصلى الجنائز، وقد رميت له وسادة من ادم فجلس عليها (متواضعا خاشعا لا يشمخ شموخ الملوك) فجلس ينتظر انتهاء دفن رجل مات من وجوه الناس. وأمر الناس بالجلوس. وكان لا ينطق احد بين يديه (لإجلال الناس له) إلا أن تكون ظلامة ترفع إليه. وكان زاهدا ورعا ناسكا سكيتا. وكان إذا جلس في المسجد الجامع جلس على وسادة من ادم مستقبلا الباب البحري، وله سارية تعرف به يجلس إليها، ولم يكن غيره يجلس إليها. ويجلس عن يمينه وعن يساره وجوه الناس. وكان اخص الناس به رجل من العرب يعرف بمحمود بن بكر".[1]

كان جلوس الإمام إلى ساريته وجلوس الخاصة حوله، والعامة بعد ذلك من ورائهم في وقت دروس الوعظ التي يلقيها في المسجد، انه لا يمكن أن يكون هذا المجلس في المسجد للسمر والحديث، ولا هو مجلس ساكت لا يستفيد الناس شيئا من أمامهم لعالم الجليل، والناصح المخلص.

الإخوة والصفاء بين المذاهب الإسلامية كلها في تيهرت وإلزام الإباضية في منابرهم لخطب الإمام علي بن أبي طالب

ثم قال ابن الصغير يصف سماحة الجمهوريين وأخوتهم، وتعانق كل الطوائف الإسلامية في تيهرت وتحاببها، لا تعصب مما يخلقه الجهل والدعاية الملكية القديمة والاستعمار الحديث في النفوس، ولا تدابر ولا تقاطع. فالكل أبناء القرآن، قد تفرعت عنه أقوالهم، وأمة المصطفى عليه السلام يتعانقون في حجره، ويضمهم جميعا إلى صدره، وهم بالأخوة الإسلامية على ما يريد الرسول ويرضى الله !

قال ابن الصغير: وكان الإباضية (في الدولة الرستمية) لا يمنعون أحدا من الصلاة في مساجدهم، ولا يكشفونه عن حاله، ولو رأوه رافعا يديه. وكانت خطبهم على منابرهم هي خطب أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه".[2] لحب الإباضية للإمام علي رضي الله عنه، وإجلالهم لمقامه، وإعجابهم ببلاغته وفصاحته.

إن إيثار الإباضية في الدولة الرستمية لخطب الإمام علي رضي الله عنه يدل على حبهم له، وعلى الرقي الذي كانت عليه الدولة في الفهم والذوق الأدبي، وعلى تمكن الجماهير في العربية. إن خطب الجمعة والأعياد يراعي الأئمة فيها تكون في مستوى

1 - سيرة الأئمة الرستميين ص 44 ط باريس 1907.

2 - نفس الكتاب ص 42.

الجماهير. وخطب الإمام علي رضي الله عنه التي كانت تجلجل في منابر تيهرت دليل على المستوى الثقافي الرفيع الذي كانت عليه الجماهير، وعلى تمكن الدولة الرستمية في العربية الفصحى، وانتشارها في كل طبقاتها.

تعلق جبل نفوسة بابي اليقظان وحبهم الشديد له ونسكه وعبادته

ثم قال ابن الصغير: وكانت نفوسة الجبل مفتونة بابي اليقظان. وكان أكثرهم لا يحج إلا باستئذانه. وكانت المرأة تبعث بابنها يأخذ لها الإذن منه لتحج (وذلك لإجلالهم له، وتعلقهم به، وجعلهم له كالوالد، لا يأتي واده البار مهما من أعماله إلا باستئذانه، إظهارا لاعتباره، وحبه الشديد له)

وقال ابن الصغير: "وكان أبو اليقظان إذا ضرب سرادقة (في ضاحية من ضواحي تيهرت الجميلة، وفي الرياض ولبساتين) واتته وفود نفوسة الجبل، ولا ينامون الليل حول فسطاطه، شأنهم التهليلي والتكبير من أول الليل إلى الفجر، وإذا صولوا الفجر معه القوا بأنفسهم إلى الأرض فناموا".[1] ذلك لان مجالس الأئمة الرستميين -لتمسك الدولة الرستمية بالدين- أما للعبادة أو للعلم، وليست للمجون الذي كانت تعب به وتغرق فيه مجالس معاصريهم من الملوك المستبدين!

ثم ذكر ابن الصغير عدل أبي اليقظان وديمقراطيته وعدم استبداده ، وتفويضه الأمر في اختيار الولاة والعمال إلى النواحي التي يولون عليها. فخاصة الناحية وعقلاؤهم هم الذين يختارون رجلا صالحا فيوليه عليهم. لا يستبد، ولا يظلم الناحية بتولية من لا يعرف مزاجها ومشاكلها، ومن لا يجوز رضاها واحترامها.

عفة أبي اليقظان وورعه وتحرجه كل التحرج في أموال الدولة

قال ابن الصغير: "ومما يذكر عن أبي اليقظان من ورعه وتقشفه أن رجلا يكنى بابي سابق، وكان خادما لأبي اليقظان في جميع أموره. وكان يتولى علف فرسه. قال لي احمد بن بشير: قال لي أبو سابق: خرج أبو اليقظان يوما إلى منزله الذي كان قد جعله (بتاسلونت) (في جنوب تيهرت) ليتفقد سائمته وعبيده. وأبطأ في انصرافه إلى أن اقبل الليل، ثم وصل. فحططت عن الفرس وربطته على مدرته، فخرجت لآتي له بعلفه من دكان حريف لي. فألفيته قد أغلق الباب. فملت إلى بيت المال ففتحته، وأخذت منه علف الفرس. وعلقت عليه، ثم رجعت إلى موضعي من القصر. وإذا بابي اليقظان قد تفقدني مرة بعد أخرى. فلما رانى خادم صعد إليه فاخبره بمجيئي فقال اصعده إلي.

1 - سيرة الأئمة الرستميين لابن الصغير المالكي ص 46 ط باريس 1907.

وكان يستريح إلي ويسألني عن أخبار الناس. فقال: ما حبسك، وما أبطأ بك؟ فأعلمته خبر الحريف وغيبته عن دكانه، واخذي العلف من بيت المال، وتعليقه للفرس. (فجزع أبو اليقظان) فقال: هاه! يا أبا سابق! والله لا قام محمد ولا أكل ولا شرب حتى تمضي فترد في بيت المال ما أخذته منه. قال: فمضيت في ليلتي تلك حتى أتيت حريفي وأخرجته من داره، فأخذت منه علف الفرس، ثم مضيت فنزعت المخلة عن الفرس، فكلت ما بقي، وأتممت ما أخرجت من بيت المال ورددته فيه، وعلقت ما بقي على الفرس. ومضيت إليه فألفيته جالسا ينتظرني. فقال ما وراءك يا أبا سابق. فأعلمته بما صنعت. فقال لي أحسنت! أما الآن فاجلس".

عفة الدولة الرستمية في أموال الدولة وفي أموال الناس

تلك هي عفة الأئمة الرستميين في أموال الدولة، وذلك هو تذكرهم للموت، ومراقبتهم لله! أبى الإمام أبو اليقظان أن يبيت وعلف الفرس، وهيب امدد من شعير بخسة الثمن، دين عليه لبيت المال. من يدري لعل الموت يدركه في ليلته، فلا يعلم الورثة ما اخذ فيحاسبه الله عليه! إن المغرب لما ثار على العباسيين، وتمسك بالإمامة الإسلامية، إنما فعل ذلك ليختار الرؤساء الورعين الصالحين لدولته، أولئك الذين يراقبون الله في سياستهم وفي كل أعمالهم، وينجو من الملوك العباسيين الذين لا يتقيدون في السياسة وفي أموال الدولة لا بدين ولا بدستور. فهم يقحمون خراطيمهم في خزائن الدولة، فيمتصونها ويبتلعونها، ويرتعون فيها كما يشتهون، ويسرفون في النفقة منها على شهواتهم كما يشاءون.

ومن عفة الدولة الرستمية في الأموال، وتحرجها كل التحرج في أموال المسلمين، وتمسكها كل التمسك بالدين، وتقيدها بما أمر الله به في قتال المسلم الباغي لتأديبه وردعه، وهو ما لا تجده بعد الخلفاء الراشدين إلا في الدولة الرستمية التي سلكت نهجهم، واقتفت خطاهم، وكان أئمتها على غرارهم في العدل والسيرة والدين؛ من عفة الدولة الرستمية في أموال المسلمين تنزهها عن اخذ شيء من أموال ابن طولون الذي حاربها، فهزمته، وصار معسكره في قبضتها فوجدت فيه أموالا طائلة كان قد حملها إلى افريقية ليحتل القيروان. وكان لابن طولون قد اعتدى في طريقه على رعية الدولة الرستمية في (لبدة) في شرق(طرابلس فنهاه أبو منصور إلياس والي الإمام أبي اليقظان. فتكبر وأزبد على أبي منصور! فشحطه أبو منصور بالسيف كما يشحط الديك الأرعن إذا زقا على رؤوس الحيطان البيضاء! فانهزم أبو العباس ابن طولون وترك أحمال أمواله، فتعفف عنها أبو منصور وجيشه ورعيته فلم يأخذ منها درهما ولا مس من أسلاب

القتلى شراك نعل! وذلك أن الإباضية لا يعاملون في الحروب التأديبية والدفاعية المسلم في ماله كالمشرك. إنهم ليسوا كالعباسيين وغيرهم الذين يستحلون من المسلم إذا حاربوه كل شيء، وتسيرهم في حروبهم شهواتهم وأحقادهم لا دينهم. انظر قصة حرب أبي منصور والي الإمام أبي اليقظان على جبل نفوسة، انقلها لك من ابن عذارى المراكشي المالكي لترى مصداق ما قررت من عفة الدولة الرستمية في الأموال، وعدم معاملتها المسلمين في الحروب الدفاعية والتأديبية كالمشركين.

قال ابن عذارى: "إن أبا العباس بن احمد بن طولون قدم في سنة 267 هـ في ثمانمائة فارس، وعشرة آلاف راجل من سودان أبيه على خمسة آلاف جمل إلى مدينة برقة، يريد افريقية والتغلب عليه، وإخراج بني الأغلب منها. وحمل معه من بيت مال مصر ثمانمائة حمل دنانير ذهبا! فأعطى أصحابه الأرزاق منها. وقيل إن مبلغ ما حمل من المال ألف دينار، ومائتا ألف دينار. ثم قال ابن عذارى: فتعدى بعض سودان ابن طولون على بعض حرم البوادي وهتكوا الحجب" وكان أهل البوادي رعية للدولة الرستمية. فاستغاثوا بواليهم أبي منصور إلياس في جبل نفوسة فأغاثهم.

قال ابن عذارى: "وزحف أبو منصور إلياس على ابن طولون في اثني عشر ألفا من رجال نفوسة فناشبوه الحرب، وألح أهل نفوسة في محاربة ابن طولون فانهزم، وخرج إلى برقة، فانتهب أهل مدينة طرابلس (الأغالبة) جميع معسكره، ولم يتلبس منه النفوسيون (جيش أبي منصور) بشيء! تورعا عنه.

وكان ملك الدولة الأغلبية في هذا العهد هو إبراهيم بن احمد. قال ابن عذاري: "وكان إبراهيم بن احمد قد حشد الأجناد (لما سمع بزحف ابن طولون على دولته) وضرب حلي نسائه دنانير ودراهم، إذ لم يبق أبو الغرانيق (الذي سبقه في الملك) مالا. ثم خرج بنفسه يريد طرابلس فلقيه خبر هزيمة ابن طولون. فبحث ابن الأغلب عن الأموال، وأخذها ممن وجدت عنده. فكان الرجل من أهل العسكر يبيع مثاقل ابن طولون سرا بما أمكنه خوفا من أن تؤخذ منه" فوقي الله الدولة الأغلبية التي أراد أبو العباس ابن طولون القضاء عليها بفضل الدولة الرستمية، وبطولة نفوسة، وشجاعة واليها أبي منصور إلياس، كما سيقي مصر من هجوم الأغالبة بفضل الدولة الرستمية.

مسير إبراهيم ابن احمد الأغلبي في جيوشه لاحتلال مصر ووقعة مانو

وكان العداء على أشده بين الأغالبة في افريقية، وبين ابن طولون في مصر. وكان كل منهما يعمل للقضاء على دولة الآخر والاستيلاء عليه. وكان كلاهما ملكيا عباسي ينتسب في الظاهر إلى بغداد، ويخضع للعباسيين. وكان بينهما عداوة الأقارب المتسعرة، ومنافسة الضراير المتأججة. وكان إبراهيم بن احمد أكثر طموحا، وكان بطلا قوي القلب، وجريئا، ذا شخصية حربية ممتازة. فساءه أن يتجرأ عليه شاب ضعيف كابي العباس بن احمد بن طولون فيسير إليه للقضاء على دولته. فعزم على الانتقام واحتلال مصر وطرد ابن طولون الذي يشمخ على العباسيين. ومن يدري لعل العباسيين قد أغروه بذلك. فاستعد إبراهيم استعدادا حربيا كبيرا، وبقي مدة طويلة من الزمان وهو يستعد ويتأهب للمعارك الكبرى مع ابن طولون. فنظم جيشه، واختار أحسن رجاله، وابرع فرسانه فكون منهم جيشا قويا منظما مدججا بأحسن سلاح. فخرج في جيوشه في سنة ثلاث وثمانين ومائة. قال ابن الرقيق: "وفي سنة ثلاث وثمانين ومائة تحرك! إبراهيم بن احمد يريد محاربة احمد بن طولون. وأمر بالحشد"[1] فسار إبراهيم بن احمد إلى مصر. وكان طريقه على الساحل. فلما دخل في حدود الدولة الرستمية في جنوب صفاقس بإذن من الوالي الرستمي في تلك الناحية وقرب من حدود جبل نفوسة في ناحية قابس استأذن افلح بن العباس والى الإمام أبي حاتم بن أبي اليقظان على جبل نفوسة في المرور. إن المنطقة من شرق قابس إلى شرق مدينة طرابلس تابعة إلى ولايته. أما بقية ذلك فيتبع جنوب افريقية الذي كانت قاعدته قابس كما أرى. إن والي جنوب افريقية الرستمي في قابس قد أذن لإبراهيم بن احمد في المرور. ولما استأذن إبراهيم بن احمد افلح بن العباس في المرور كان من رأي افلح وخاصة جبل نفوسة الإذن له. إنه لا يقصدهم، ولا يريد بهم سواء. انه مصمم لابد أن يمر إلى مصر. فإذا لم يأذنوا له فسيمر بالقوة. وحينئذ إما أن يخضعوا له فيجترئ في طريقه على مدنهم ولا يرعى حرمتها، أو يمنعوه فيخوضوا معه حربا ضروسا لا داعي لها. وليس صحيحا ما قاله بعض المؤرخين من أن إبراهيم يريد تيهرت. إنه إبراهيم لا يفكر في غزو تيهرت، لان الدولة الرستمية إذا استعدت فهي أقوى منها، تدمغه وتسحقه. ولو أراد تيهرت لسلك إليها من الزاب. فتقع المعركة بيتهما في المغرب الأوسط في المغرب لا في المغرب الأدنى. إن إبراهيم يريد مصر لا غيرها. ولكن عامة جبل نفوسة كانوا يعتدون بشجاعتهم. إن انتصارهم على ابن طولون، وانتصارهم في

1 -ا لأزهار الرياضية ص 280 ط البارونية بالقاهرة.

حروبهم مع أعدائهم، قد أورثهم زهوا واغترارا بالنفس، كون فيهم تهورا وإلقاء بالنفس إلى التهلكة.

كيف يمر هذا الملك الشامخ بجيوشه من بلادهم؟! هذا ما شق على العامة فثارت على افلح وخاصة الجبل وأرغمتهم على أن لا يأذنوا له! ونصح افلح وخاصة الجبل عامتهم بالسكون والإذن له فأبوا. وكانت الروح الجمهورية والديمقراطية البالغة التي كانت عليها الدولة الرستمية تجعل الجمهور إذا قال شيئا فكفته هي التي ترجح، وقوله هو الذي ينفذ. فلم يسع افلح إلا عدم الإذن لإبراهيم! فأصر إبراهيم على المرور، وهو على استعداد للحرب. فهاجت العامة في الجبل، فأسرعوا إليه وهم على غير تعبئة محكمة، ولا على استعداد كبير، ولا على إجماع على الحرب والتصميم عليه. إن خاصتهم التي تندفع بهم في المعركة لا يريدون الحرب، ولكن العامة جرفتهم، فخرجوا إليها مكرهين. أنهم لابد أن ينكسروا، ويضربهم جيش إبراهيم المنظم المستعد الضربة القاصمة فكان هذا. فانهزمت نفوسهم شر هزيمة في المعركة الفظيعة التي وقعت بينها وبين إبراهيم في قصر (مانو) بشرق قابس. وكان إبراهيم حاقدا على الإمامة الإسلامية، وكان صدره يتأجج عداء لنفوسة التي كانت اكبر قواعد الدولة الرستمية التي رفعت راية الإمامة الإسلامية. فوجد فرصته في نفوسة التي بركت أمامه بالهزيمة، فجزرها ونهشها كما يريد، وقتل منهم مقتلة كبرى، فأزال شوكتهم وفل حدهم. ثم أرسل ابنه عبد الله بعد سنة، في عام 184 فجدد الكرة على نفوسة فهاض جناحها. فجنت نفوسة ثمرة العناد، ومخالفة الرؤساء، والغرور بالنفس، والاستهانة بغيرها. كما كسر إبراهيم نفوسة فإنها قد فلت حده، وأنهكت قواه، وأفنت طاقته، فلم يستطع السير إلى مصر فرجع إلى القيروان، وقد اختل عقله بهول المعركة، وبالصدمة النفسية التي إصابته بعدم الوصول إلى مصر ومنازلة ابن طولون، واحتلال مصر.

كانت هذه المعركة في عهد أبي حاتم خليفة أبي اليقظان. وقد ذكرناها هنا ليتسلسل الكلام، وتتصل الحوادث بأسبابها.

وكانت الدولة الرستمية في عهد أبي حاتم في شيخوختها البالغة. وكانت تتداعى للسقوط. وكانت تحمل رمز الأكفان البيضاء التي تنبسط لها في الشعر الأبيض الذي يجلل رأسها. وكان سعال هرمها رنين المعاول التي تتهاوى فتحفر قبورها! فلم تستطع أن تؤدب إبراهيم. ولو وقع اعتداؤه في زمن الإمام أبي اليقظان لانتقمت لنفسها على الصفعة بصفعتين.

لقد تركنا الإمام أبا اليقظان في تيهرت وهو يأخذ في حزم وعدل وإخلاص بأزمة القيادة. وكانت الدولة مرهوبة الجانب قوية. لم تقع فيها آية عاصفة، ولم تحدث آية دولة نفسها بالعدوان عليها. وظلت الأيام ساكنة لأبي اليقظان في كل أنحاء الدولة، لم يقع مت يعكر الصفو إلا ما وقع لأبي منصور وهو حادث صغير وقع للدولة مع جيش لا يقصدها. وظلت الدولة على هنائها واستقرارها إلى أن وافاه اجله. فمتى انتقل إلى ربه؟ وكم مدته في الإمامة؟ ومن الذي سيخلفه؟ وكيف كان جو العاصمة في آخر أيامه؟.

وفاة الإمام أبي اليقظان ومدته في الإمامة وجو العاصمة في آخر أيامه

كان عهد الإمام أبي اليقظان بعد فضائه على فتنة العباسيين في تيهرت مستقرا هادئا بفضل حزمه ودهائه وعون الله لدينه وصفائه. إلا أن الدولة كانت منهوكة بطول المسير والبناء، وتحققت كل آمالها، فغرقت في الحضارة والنعيم فدخلت في شيخوختها.

أحلام الطابور الخامس وكيدهم للإمامة الإسلامية وللدولة

وكان الطابور الخامس العباسي يبث سموم الفتنة في العاصمة، ويشمر عن ساعده لتهديمها. وقد ساء هؤلاء الدساسين أن يخمد الإمام أبو اليقظان فتنتهم، ويقضي على دسائسهم، وتلتف الدولة كلها حوله متحدة. وقد كانوا يظنون أن فتنة مقتل ابن عرفة ستصدع بنيانها، وتفرق كلمتها فيستولون على العاصمة وضواحيها، ويجعلونها إمارة مستقلة، ويحيون فيها الملكية المطلقة التي يتمسكون بها، ويفصلون الرأس عن الجسم فتخور قواه، ويلفظ أنفاسه. ولكن الإمام أبا اليقظان أبطل كيدهم، وخيب أمانيهم، فرجوا أن يجدوا فرصتهم بعد وفاته. قد يجدون في التنافس على الإمامة فرصة لبث الفتنة، والاستيلاء على العاصمة وحواليها، فيتحقق أملهم. أنهم كثرة كثيرة في العاصمة، يستطيعون استمالة الغوغاء بمالهم، وبراعتهم في الدعاية، وبالرهبة والسيف أيضا. هذه هي نية الطابور الخامس في آخر أيام الإمام أبي اليقظان وعند وفاته. انظر إلى ابن الصغير المالكي كيف كشفهم وبين لنا حقدهم على الإمامة الإسلامية، وعزيمتهم على أحداث انقلاب في الدولة عند وفاة الإمام أبي اليقظان.

قال ابن الصغير: "وكان مشائخ البلد من غير الإباضية (الجمهوريين في تيهرت) قد استولى عليهم رجل منهم يعرف بابي مسعود. وكان كوفيا فقيها بمذاهب الكوفيين (وكان عباسيا يناصر الملكية المطلقة هو وأصحابه، ويبيت الشر للإمامة الإسلامية. وكان جماعة كبيرة معه على حقده وكيده). قال ابن الصغير: ومن جماعته شيخ يعرف بابي دنون، وكان مثل صاحبه على الفقه الكوفي، ومنهم رجل يعرف بعلوان ابن رعلان لم يكن من أهل الفقه، ولكن له رئاسة في البلد، ومحبة عند العوام. وكان هؤلاء قد طمعوا (أن يقضوا) على الإباضية الجمهوريين ويطفئوهم".[1]

1 - سيرة الأئمة الرستمية لابن الصغير ص 51 باريس 1907.

هذه هي نوايا الطابور الخامس في تيهرت. فشعرت الخاصة والعامة من الجمهوريين بعزيمتهم، فعزموا أن يعجلوا بولاية من ارتضوه بعد وفاة أبي اليقظان مباشرة لكي لا يتركوا الفرصة للطابور الخامس فيعمل عمله، ويحدث فتنة أو انقلابا في العاصمة.

وكان في العائلة الرستمية من يصلح للإمامة يعقوب بن افلح اخو أبي اليقظان. وكان حازما ناضجا إلا انه كان منقبضا عن الناس، شديد التقشف فلم يملك قلوب الجماهير. ونفر العامة عنه بمزاجه الجدي العنيف الذي لا يروق للعامة التي انغمست في النعيم والترف، والفت البريق والإشراق، واللطافة والظرف، فصارت تتطلبها في كل الأشياء حتى في الناس الذين تميل إليهم، والشخصيات التي تؤثرها. إن يعقوب إذا راق الخاصة الذين ينظرون بالعقل الحصيف، ويقدرون المواهب وقوة الشخصية، فانه لا يروق العامة والمترفين من الخاصة الذين تستبيهم اللطافة، وينجذبون الشخصية إلى اللألاء، ويملكهم من يهش لهم ويروعهم بمظاهره الخلابة. إن يعقوب لا تريده العامة ولا تميل إليه. فمن الذي يملك قلوب العامة وكثير من الخاصة. انه أبو حاتم يوسف بن أبي اليقظان.

ميل الجماهير والخاصة المترفين لأبي حاتم يوسف وترشيحه للإمامة بعد والده

وكان لأبي اليقظان أولاد كثيرون أكبرهم اليقظان الذي كنى به، وأبو حاتم، وأبو خالد، وعبد الوهاب، ووهب وكانت العامة تميل إلى أبي حاتم وتؤثره، لشخصيته المحبوبة، ولكفاءته وإحسانه إليهم. وقر في قلوب العامة وفي كثير من الخاصة أن من يليق للإمامة بعد أبي اليقظان هو أبو حاتم.

هذا هو الجو الذي كان في تيهرت في آخر أيام الإمام أبي اليقظان: الخوف من مكائد العباسيين، والميل إلى أبي حاتم وتحمس الجمهور لإمامته بعد والده، وعزيمتهم على المناداة به إماما عند وفاة أبيه، ليسدوا الطريق على مجلس الشورى الذي يمكن أن يختار للإمامة يعقوب الذي لا يميلون إليه. أنهم إذا عارضوا إمامة يعقوب فتقع الفتنة التي يستغلها العباسيون، وإذا قبلوا فإنهم يرزأون في إمامة الشخص الذي أحبوه وأعجبوا به. إن يعقوب جام الذهب ! نفيس قوي، ولكن به ثقل النضار وكثافته، فالبلور المزخرف المتلألئ الضاحك افتن للنفوس منه، واملك للقلوب، وأحلى عند الشاربين المترفين!

وفاة الإمام أبي اليقظان ومدته في الإمامة

وانتقل الإمام أبو اليقظان إلى ربه. وكانت وفاته في سنة إحدى وثمانين ومائتين. وعمره كما قال ابن الصغير نحو مائة عام.

وكان ميلاده في زمن جده الإمام عبد الوهاب. أما مدة إمامته فكانت أربعين سنة. من سنة 241 إلى سنة 281 هـ وارتاعت الدولة كلها بوفاته، وبكته رعيته بالدموع السخينة، وحزن المغرب الكبير لفقده، وساء الصاحين كلهم موته. وتطلعت رءوس الطابور الخامس ترقب فرصتها. وهم مجلس الشورى أن يجتمع ليختار إماما جديدا، كما هي العادة والسنة الأكيدة: فان اختيار الرئيس له، ولكن العامة والفرسان ذوي القبائل القوية لما فرغوا من دفن أبي اليقظان، ورجعوا من جنازته ساروا متظاهرين في شوارع تيهرت ينادون (لا إمامة إلا أبي حاتم) وكانت شوارع تيهرت وضواحيها وجهاتها على مسيرة يومين منها ترعد بهذا النداء، والجمهور كله وكثير من الخاصة يهتفون بإمامة أبي حاتم. فسخط مجلس الشورى لمسارعة العامة وتدخلها في شئونه، ولكن الدولة كانت ديمقراطية جمهورية عادلة، فالكلمة فيها للشعب. فرضخ مجلس الشورى، فلمن يسعهم إلا مجارات العامة والجمهور فيما يريدون. إن معارضتهم تشقق الصفوف، وتحدث الفتنة، وهذا ما يتمناه العباسيون الذين يكيدون للإمامة الإسلامية، ويرفعون المعاول لهدم الدولة الجمهورية.

وكان ما أرادت العامة، وبويع أبو حاتم إماما. لماذا أحبته العامة مالت إليه؟ ما شخصيته؟ وهل سيسكن الطابور الخامس فيترك أيامه صافية بيضاء؟

خلافة الإمام أبي حاتم

يوسف بن محمد

281 – 294 هـ

شخصية أبي حاتم القوية ووراثته الكريمة

كانت مبايعة أبي حاتم بالإمامة بعد وفاة أبيه في سنة إحدى وثمانين ومائتين من الهجرة.

كان أبو حاتم بن أبي اليقظان أنجب إخوته، وأقواهم شخصية، وأشبههم بوالده أبي اليقظان لحزمه، واستقامته، وصفاء طويته، وتواضعه، ودماثة خلقه، وثقافته، وحسن سياسته، وكرمه، وإحسانه إلى الناس، واختلاطه بهم، وبشاشته لهم. هذا إلى جمال في الصورة زاد في شخصيته، ولفت الأنظار إليه، وأحله في أعماق القلوب مع مزاياه الخلقية الأخرى.

أم أبي حاتم وأثرها فيه وفي والده

وكانت أم أبي حاتم هي (غزال). وكانت كما قال ابن الصغير هي أحب نساء أبي اليقظان إليه. قد امتلكت قلبه بقوة شخصيتها، وبالربيع الضاحك في محياها، وبصفاء طويتها، وحسن قيامها بالبيت، فكونت لأبي اليقظان فيه جو الجنة الذي ينسيه هموم الرئاسة، ويستريح فيه من أتعاب الإمامة. وكانت لحزمها كما قال ابن الصغير (مالكة لأمور أبي اليقظان وحشمه).

وكانت غزال إلى قوة شخصيتها وذكائها، وثقافتها النسوية، وحسن قيامها بالدار، براعتها في إدارته، وحياء الدين الذي يسطع في محياها، ويورثها نورها وإشراقها فتكون به نجمة تتلألأ، لا زجاجا مصبوغا ينمسح، وخدودا تنصل من مساحيقها كما ينصل الحذاء الذي يخوض في وحل الشارع من طلائه؛ وجوه النساء المتفرنجات المبرقشة، الخالية من حياء الدين، وحشمة الأنوثة! كانت (الست) غزال إلى هذه الخصائص النفسية، جميلة بارعة الجمال، فاستطاعت أن تملك الشيخ فمال إليها، فكان طفلها المدلل، وحبيبها الأثير.

وكان حب الإمام أبي اليقظان لغزال من أسباب شدة حبه لابنها أبي حاتم، مع ما امتاز به أبو حاتم من شخصية قوية جذابة ومزايا حببته إلى أبيه.

وقد ورث أبو حاتم جمال الشخص من والده وأمه، وورث من أمه هذه الشخصية القوية الساحرة الجذابة التي تروق الجماهير المترفة، وتبدو لهم مشرقة تترقرق وتتلألأ فتتفتح له صدورهم.

حب الجماهير لأبي حاتم وإسراعهم لتوليته الإمامة

وكان أبو حاتم لحزمه وذكائه وشجاعته، وحسن سياسته، يعين والده في شئون الإمامة، ويكلفه والده بمهمات الدولة، فيحسن القيام بها، فبدت كفاءته ونبوغه. وكان يحسن إلى الناس، ويغمرهم ببشره وطلاقة محياه. فأحبته الجماهير كما تحب الأشجار شمس الربيع الضاحكة. فرشحته العامة وكثير من الخاصة للإمامة، وعزموا أن يكون هو الإمام بعد أبيه.

قال ابن الصغير: لما توفي أبو اليقظان اجتمع العوام والفرسان ذوو القبائل فنادوا لا طاعة لأحد إلا لأبي حاتم على مسيرة يومين من المدينة أو أكثر. (وكان أبو حاتم بعيدا ن تيهرت لمهمة كلفه بها أبوه فلم يحضر وفاته). قال ابن الصغير: فلما وصل باب تيهرت ازدحم الناس بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن يساره. فبايعوه (وحملوه) إلى المسجد الجامع، فما وصله وقت الظهر (لشدة الزحام في الشوارع، ولبعد المسجد عن بابل المدينة، لسعة تيهرت وتباعد أقطارها، وكبر حجمها) فاصعدوه المنبر وبايعوه، وكبروا حوله، وحملوه على الأيدي والأعناق حتى أوصلوه إلى داره. ثم أرسلوا إلى القبائل فبايعته. فلما كمل أمره، وتمت بيعته، خلت به عشيرته وإخوته وأعمامه وبنو أعمامه ومواليه فأرادوا أن يجعلوا له حجابا وهيبة! فأبت العامة ذلك، وأرادت الدنو منه والاتصال به في كل الأوقات كما الفت قبل إمارته".[1]

ألا تسمع معي -عزيزي القارئ- إلى سعال الشيخوخة يهز كيان الدولة الرستمية. إن الترف والمدنية لا تفرط في امة إلا أورثتها النعومة في الاهاب، والخشونة في النفوس، وصعرت خذها، وأضعفت فيها خشوع الدين وتواضعه. وهذا ما وقع للدولة الرستمية، والعائلة الرستمية. إنها تتجرد من حلة الإمامة وما تستوجبه من تواضع وبساطة في الإمام، وتتخلق فيها قشرة من الملكية، فأرادوا من أبي حاتم أن يشمخ شموخ الملوك ويحتجب مثلهم. إن الدولة الرستمية في شيخوختها، ترفع العصا، وتتوكأ على عكازها، وهي حانية الظهر لابد أن يركبها العدو القوي، ويمتطيها الموت الراصد.

1 - سيرة الأئمة الرستميين لابن الصغير ص 50 ط باريس 1907م.

هل سمعت تكبير الجماهير في مسجد تيهرت الجامع فرحا وتحية لأبي حاتم في مهرجان البيعة؟ إنني أرى الشوارع المبتهجة الجذلانة المتحمسة له غاصة بناسها وهو على أعناقهم واكفهم إلى داره. تلك هي مكانة أبي حاتم في قلوب الجماهير! وذلك هو فرحهم بولايته. فما شعور مجلس الشورى ورأيه في مسارعة العامة إلى تولية أبي حاتم قبل أن يجلس وينتخب هو الإمام؟

غضب مجلس الشورى ويعقوب ابن افلح لتمرد العامة على قواعد الإمامة

إن مجلس الشورى يتمسك كل التمسك بالإمامة الإسلامية وروحها وكل تقاليدها. ومن سنن الإمامة الأكيدة، ومن الأصلح والأنفع للدولة، أن يختار الإمام مجلس الشورى الذي يشتمل على أهل الحل والعقد في الدولة، وعلى كل صالح مخلص عالم نزيه، يحسن انتقاء الرجال، ويصلح لاختيار الإمام. إن اختيار الإمام من عمل مجلس الشورى، وخاصة الدولة، لا من عمل العامة. إن العامة كالعصافير تتحكم فيها الأهواء، وتسيرها العصبية القبائلية. إنها تجنح لكل من ينثر لها الحب كالدجاج، وتهتف بكل من يفتل لها في الذروة والغارب، ويساير أهواءها. ولو كان الاختيار للرئاسة عمل العامة لاختارت كل فئة منهم قريبها، وآثرت أن لا تخرج الرئاسة من عشيرتها. يجب أن يكون اختيار الرئيس لمجلس الشورى! فهو عقل العامة وعيونها. ولكن العامة قد تعدت حدودها، وأبطلت هذه السنة المؤكدة في الإمامة، وهتفت بمن تحب كما يقع في الدولة الملكية التي يصطنع أولياء العهد وآباؤهم فيها الجماهير. إن فسادا قد وقع في الدولة الجمهورية بهذه الفوضى! سيتولى الرئاسة في المستقبل من يكون ابرع في استمالة العامة وامتلاك ودها، ولو بمسايرة أهوائها فيما يخالف الدين، ورشوتها بالمال. إن هذا عمل خسيس لا يقوم به الأكفاء الذين يصلحون للإمامة. أنهم يتهربون منها؛ ولكن يقوم به الأغنياء المترفون الذين تتسلط عليهم غرائزهم فيتهالكون على الرئاسة؛ ويقوم به الملكيون العباسيون الذين صاروا جمهورا كبيرا في تيهرت. فتكون رئاسة الدولة في المستقبل لهم، فيسيرون في الدولة سيرة الملوك. ومن يطلب الرئاسة لا يرضى أن تخرج من أبنائه، فيتخذ الوسائل في حياته لاستمالة الجماهير لولي عهده، فتموت الإمامة الإسلامية، وتسمى الدولة ملكية مطلقة يموت فيه العدل، وينعدم فيها التقيد بالدين في السياسة، ويبتلى المغرب الأوسط بما ثار عليه أجداده وتحرروا منه من قيود وأدواء الملكية المطلقة المستبدة التي لا تتقيد بدين ولا دستور.

إن تدخل العامة في اختيار الإمام واستبدادها به على خطر الدولة. هذا ما رآه مجلس

الشورى، ورآه يعقوب بن افلح الذي كان ابرز شخصية في المجلس، وأكثرهم نضوجا، وأتمهم صراحة، وأشدهم في إنكار المنكر. فغضب مجلس الشورى، ولكن لا يستطيع المعارضة فتقع الفتنة التي يتمناها الطابور الخامس لتصديع الدولة والإجهاز عليها. إن أبا حاتم يليق للإمامة. إن الشروط متوفرة فيه. فارتضوه إماما فدخلوا فيما فيه الجمهور. فبايعوه، وأسندوه، والتفوا حوله، إلا يعقوب بن افلح فقد حمله مزاجه الجدي، وشدته، وسخطه لجرأة العامة فهاجر من تيهرت، كما ساءه إعراض العامة عنه، ومسارعتها لتولية أبي حاتم خوفا من أن يختاره مجلس الشورى. من يدري؟ لعلهم قد بسطوا فيه الألسنة الحادة، وهجوه، وثلبوه بما ليس فيه، وتعدوا على مقامه الرفيع. إن العامة سيما سفهاؤها وذوو الأغراض منها في وقت اللجاج والدعاية ليقولون عن السماء العامرة بكواكبها، وشمسها وقمرها، وأمطارها، بأنها سقف عتيق مسود مغبر من الطين المتفتت الواهن، تعشش فيه الخفافيش، وتسكنها العقارب السوداء! فغضب يعقوب بن افلح لجرأة العامة، فخرج من العاصمة، وذهب بعيدا عنها إلى مدينة زواغة في طرابلس فأقام فيها، واتخذها موطنا، ومعتزلا للسياسة، عاكفا على العلم والعبادة، لم يعن ابن أخيه ولا عارضه.

خروج يعقوب ابن افلح إلى مدينة زواغة وموقعها

وكانت مدينة زواغة في الجنوب الغربي لمدينة صبرة المعروفة في غرب طرابلس. وهي ملاصقة لها. وقد تضاءل أمر صبرة في القرن الأول والثاني الهجري فنشأت زواغة على أنقاضها، فعمرت وازدهرت، وصارت هي قاعدة الساحل في نواحيها. ولها مرسى كبير على البحر في غربيها على بعد ميلين منها. وهي في منبسط من الأرض واسع، وتربتها جيدة. وقد خربت منذ زمن طويل وزالت، فلم تبق منها إلا إطلالها. ومكانها اليوم أصبح غابات للزيتون والنخيل، ومزارع للحراثة. ويشقها طريق السيارة بين مدينة طرابلس وزوارة الظريفة. وزواغة في غرب مدينة طرابلس؟، وتبعد عنها بأربع وثلاثين ميلا. وفي شرق زوارة وتبعد عنها بواحد وعشرين ميلا تقريبا.[1]

1 - ليست زواغة هي زوارة كما يعتقد الكثيرون. إن زواغة كانت في القرن الثاني والثالث الهجري، أما زوارة فنشأت في سنة 380 من الهجرة. وزواغة انقرضت، وزوارة لازالت. وهي (زوارة) مدينة شعرية على سحل البحر، خفيفة الروح، وأهلها من أنشط سكان طرابلس، وأسرعهم إلى فعل الخير، وأكثرهم إيواء للغريب، إكراما للضيف. وكانت مركزا كبيرا للمجاهدين في ثورة تونس التحررية الحربية، وفي ثورة الجزائر. وهي التي آوت طلبة العلم المغامرين الدين يختارون الحدود أيام الاستعمار الفرنسي مشيا بدون جواز، من الجزائر وتونس والمغرب ذاهبين إلى التخلص في العلم بالقاهرة. ومن أولئك الطلبة مؤلف هذا الكتاب. كما آوت الزعماء السياسيين الذين يتسللون من تونس والجزائر والمغرب بعد الحرب العالمية الثانية قاصدين القاهرة، فسهلت لنا جميعا الوصول إلى القاهرة سالمين، رغم العيون الفرنسية المتيقظة، والعيون الانجليزية التي ترصدنا في كل مكان.

وكان أبو حاتم حازما مخلصا كفئا للسياسة كابية، فقاد الدولة أحسن قيادة، وحف نفسه بالصالحين، وسد بهم ثغوره، ورصد الطابور الخامس وشدد عليه الخناق.

ثورة محمد ابن حماد ومحمد بن وباح والطابور الخامس على أبي حاتم

وكان من الذين تحمسوا لإمامة أبي حاتم محمد بن حماد ومحمد رباح. وكانا من الأثرياء، لهما أتباع كثيرون من العامة، وحزب كبير من الدهماء يسير في ركابهم، ويشايعهم في أهوائهم. وكانا محبين للرئاسة فرجوا أن يوليهم أبو حاتم أحسن وظائفه، ويقربهما ويجعلهما من خاصته، جزاء لهما على دعايتهما له، وتنوليه الإمامة! ولكن أبا حاتم الذي بيش لكل الناس، ويفيض ابتسامه وطلاقة وجهه لكل من يتصل به، حكيم حازم يحسن اختيار اعضاده وبطانته، وموظفي الدولة. فلم يسد ثغوره إلا بكل صالح نزيه، يسيطر عليه دينه. فاعرض عن هؤلاء المتملقين الأنانيين فاطرحهم. فساءهما اطراحه، والحرمان من الرئاسة في عهده، فسخطوه، وعزموا على التخلص منه، ليولوا الإمامة من يحقق أغراضهم، ويشبع أطماعهم. إن العامة في أيديهم فيستطيعون تحريكها وإثارتها.

وكان الطابور الخامس العباسي الذي يكيد للإمامة الإسلامية، ويعمل لتهديم الدولة الجمهورية يرقب فرصته. فرأى ثورة محمد بن حماد ومحمد رباح وغيظهما على أبي حاتم فاجترهما إليه فصارا منهم. فنفخ الطابور الخامس في نار غيظهما، فتآمرا معه على اغتيال أبي حاتم وتولية من يشاءون. فعلم أبو حاتم بالمؤامرة. وكان يعرف نفس محمد بن حماد ومحمد رباح الإجرامية، ورقة دينهما، فجمع مجلس الشورى فاتفقوا على نفيهما من العاصمة. فنفاهما أبو حاتم إلى قصر لمحمد بن حماد على بعد أميال من تيهرت، في ناحية تسمى (التلة) وفرض عليهما الإقامة الجبرية في ذلك القصر.

وكان الطابور الخامس يستغل كل جمرة فينفخ فيه لتشعل جحيما على الدولة. فاتصل بأتباع المنفيين فأججهم، وزين لهم التمرد والثورة على الإمام. وكان المنفيان كذلك يذكيان الطابور الخامس وأتباعهم. فانفجرت الألغام، وثارت العامة، فارجعوا محمد بن حماد ومحمد رباح بالقوة إلى العاصمة، وأجج الطابور الخامس تيهرت نارا، واشتعلت الفتنة في كل أنحائها. فعلم أبو حاتم أن الطابور الخامس قد عاود كرتها التي ابتدأها على الدولة أيام مقتل ابن عرفة. فخرج من العاصمة المريضة، كما يبتعد المرء عن الحريق ليرميه بخراطيم المياه ليطفئه، وخرج معه الجمهوريون المخلصون فحاصر

إنها مدينة مجاهدة أياديها علينا معشر الجزائريين والتونسيين لا تنسى. وارى أن زوارة نشأت لما انقرضت زواغة فهاجر أهل زواغة إليها فعمروها.

الطابور الخامس فيها وشدد عليه الخناق. وكانت الدولة كلها ساكنة هادئة ملتفة حول أبي حاتم، تؤيده، وتؤدب معه المتمردين ليخضعوا ويتوبوا.

رجوع يعقوب ابن افلح إلى العاصمة وأخذه بالأزمة لإخماد الفتنة

ورأى الطابور الخامس اتحاد الدولة ضدهم. وتذكروا أن يعقوب بن افلح له حزب كبير من الجمهوريين في جيش أبي حاتم بوده أن يكون هو الإمام. فإذا نجحوا في جذب يعقوب إليهم تقوى حزبهم بمن ينضم إليه. وكانت ضربات أبي حاتم تنهال عليهم، والاختلاف يشق صفوفهم. فالتجأوا إلى يعقوب بن افلح في زواغة يسألونه القدوم ليكون أمامهم فيطب للأمور، وينجيهم من العاقبة السيئة التي يرونها. فعلم يعقوب أن في دخوله العاصمة، والأخذ بالأزمة فيها، قد يحقن الدماء، ويحفظ العاصمة من تخريب الحاقدين، ويجعل الأمور تسير لصالح الدولة في هذه الفتنة العمياء. فأجاب طلبهم. فذهب إلى العاصمة فجعلوه أمامهم. فاخذ بالأزمة فيها، وانتقل إليه كثير من أوليائه في جيش أبي حاتم فخففت حدة الحرب، وأصبحت النفوس أميل إلى السلام.

شخصية يعقوب بن افلح العظيمة وظلم المؤرخين له

وكان يعقوب بن افلح مكن كبار العلماء في عصره، ومن أعلام الزهاد والعباد في زمانه، ومن الفرسان المغاوير. ورث من أبيه افلح شجاعته وفروسيته، ومتانة تربيه، وجسمه الرياضي. وكان حازما بالغ الحزم، ذكيا، ذا نفس عملية تجعله عابسا كالسماء الممطرة التي تكتظ بسحابها، وتجد لخير الثرى. لا يبتسم الابتسام المستفيض، ولا يهش للعامة فتألفه، وتنجذب إليه. إنه نوع من الرجال البالغين في الجد يليقون لزمان جده عبد الرحمن لكما كانت الدولة لا تعرف إلا الجد والكد في البناء. أما هذا العصر الذي عاشر فيه، فالبذخ ورونق الحضارة قد جعل الناس سيما العامة تتطلب في الرجل ما تتطلبه في كل أشيائها: الظرف واللطف، وجمال الظاهر، والطلاقة والانبساط. هذا هو سبب نفور العامة عن يعقوب لا نقص شخصيته، ولا تخلفه في ناحية من نواحيه.

وكان أهل عصره يجلونه، ويعرفونه له مقامه العظيم. وكان من مجلس الشورى وخاصة الدولة. وكان نسيج وحده في قوة الإرادة، والتحكم في النفس، وفي كثرة العبادة والخشوع في الصلاة، وفي احتقار المادة والإعراض عن الدنيا، وفي التعفف والتحرج، والابتعاد عن كل شيء يرتاب فيه اقل ريبة. وكان لتحرجه إذا سافر لا يأكل طعام الإحياء التي ينزل بها إذا كان لا يعرفهم خوفا أن يكون طعامهم مغصوبا، واو من وجه غير مشروع!

قال ابن الصغير: "وكان يعقوب بن افلح بعيد الهمة، نزيه النفس، ما جس بيده دينارا ولا درهما. وكان إذا أتى وكيلاه بغلاته أمره أن يجعلها تحت برذعة له يجلس عليها[1] وإذا أراد إخراج شيء منها دفعة بقضيب في يده. وكان إذا سافر ونزل بقوم لم يأكل لهم طعاما. وكانت له بقرات يأمر بحلبها بين يديه في إناء نظيف. فإذا امتلأ شربه اجمع. ثم يقوم عليه ثلاثا لا يأكل طعاما، ولا يشرب شرابا، ولا يخرج لبراز. وكان (العبادته) على وضوء وعلى طهارة في كل المواضع التي يكون فيها. شهد منه ذلك من صحبه، واستفاض ذلك عنه حتى صار كالعيان. وكانت له أخلاق في لباسه وركوبه يشذ بها عن الناس: حجرة سراويله في جنبه، وركوبه فرسه من بين يديه. وكان له فرس أشقر لم يكن بالمغرب مثله قبله ولا بعده، به يضرب المثل إلى اليوم!"[2]

شجاعة يعقوب وبطولته

قال أبو زكرياء: "إن يعقوب رحمه الله لما بلغه مجئ الحجاني (قائد العبيديين الذي قضى على الدولة الرستمية) إلى تيهرت لاحتلالها، خرج منها في خيل من أصحابه وأقاربه وأهله قاصدا مدينة (ورجلان) ولما سمع به الحجاني أرسل في أثره عسكرا. وكان يعقوب على جواد عظيم الشأن يضرب به المثل في المغرب كله. ولما لحقه العسكر اعتراضهم في الطريق، وصدهم عن الاتصال به وبمن معه. وكلما رآهم سائرين نحوه أمر من معه بالمسير ووقف هو في الطريق. فإذا رآه العسكر واقفا ينتظرهم وقفوا في مكانهم رعبا منه، لما كان له من الهيبة والشدة. ولما أعياهم أمره ولم يقدروا له على شيء، رجعوا وتركوه لحاله. فاقبل هو من معه إلى ورجلان. فتلقاه أبو صالح جنون بن يمريان (عالم ورجلان الأكبر ورئيسها المبجل) في جموع ورجلان. فأكرموه، وأحسنوا القيام به، ثم طلبوه أن يولوه الإمامة هناك فامتنع !".

هذا هو يعقوب بن افلح! زاهد لا يرغب في الرئاسة، ولا يتطلب الإمامة. ولو كان محبا لها لقبلها في ورجلان الهادئة الغنية التي اتصلت بها الدولة الرستمية بعد ذلك قرنين من الزمان كانت حافلة بالسعادة والهناء والهدوء.

ثم قال أبو زكرياء: "وذكر أن بعض أهل (ورجلان) قال له: أتحفظ القرآن كله؟ فقال له: معاذ الله أن ينزل على موسى وعيسى ما لم أحفظه واعرف معناه. فكيف بكتاب الله الذي انزله على نبينا محمد عليه السلام. ومما يحكي عن خشوعه انه كان في بعض الليلي قائما يصلي فوقع سقف البيت، ولم يبق منه إلا ما كان فوقه. ولما جاء الناس

1 - المراد بالبرذعة هنا الحشية الصغيرة أو قطيفة لينة قد يتخذها على ظهر مطيته فتكون برذعة.
2 - سيرة الأئمة الرستميين ص 54 ط باريس.

للبحث عنه وجدوه واقفا على ما هو عليه. ولما سألوه قال لهم: ظننت أن القيامة قد قامت لما وقع من الزلزلة".[1]

انظر إلى خشوعه في الصلاة، وتذكره للآخرة، وامتلاء نفسه بهذه الذكرى، حتى انه ليوهمه قيام الساعة زلزلة البيت المنهد!

هذا هو يعقوب بن افلح في ورعه، وزهده، وقوة إرادته! ليس ممن تتحكم فيهم غرائزه فيتهالك على الرئاسة، ويخوض في الفتنة من اجلها. إن خروجه إلى زواغة غضبا لانهدام قاعدة من قواعد الإمامة بجرأة العمة واختيارهم للإمام، لا لحسده لابن أخيه كما يتوهم البسطاء، وقدومه إلى تيهرت وقبوله الإمامة ليكون له على الثائرين حق السمع والطاعة فيصرف أعنتهم إلى ما فيه صلاح الدولة. وقد فعل فسكنت الحرب، واعد نفوس الثوار للصلح فوقع.

قال ابن الصغير: "ولما اجمع أهل المدينة على الولاية يعقوب بن افلح، وأرسلوا إليه، وادخلوه المدينة، وعقدوا له الولاية انكسرت شوكة (أبي حاتم) ودخل عليه جماعة من جيشه، ورجعت إليه جماعة من لواتة، وبقيت الحرب بين يعقوب وأبي حاتم إلا إنها ضعفت وانكسرت حدتها"[2] إن ذلك كان بيعقوب الذي جعل جماعة كبرى من الجمهوريين المخلصين ترجع إلى المدينة فرجحت بهم كفة من يريد السلام، وبفضل يعقوب الذي قاد المدينة إلى ما فيه صلاح الدولة، وبفضل أبي حاتم أيضا الذي يؤثر السلام.

اصطلاح المتنابذين على نحو يدل على ديمقراطية الدولة وعدلها.

واستمرت الفتنة في المدينة وأبو حاتم يشدد عليها الخناق، حتى جاء أبو يعقوب المزاتي من شمال أوراس هو وقومه. وكان شخصية محترمة. فسفر بين أبي حاتم وبين يعقوب الذي يرأس أهل المدينة. فاتفقوا على أن يتخلى يعقوب الذي بايعه أهل المدينة إماما وتمسكوا به، وأبوا إمامة أبي حاتم، وأبو حاتم الذي أبى من معه إمامة يعقوب؛ أن يتخليا عن الإمامة أربعة أشهر يقوم فيها مجلس الشورى بشئون الإمامة، فتهدأ الخواطر، ويختلط الناس ويتفاوضون، فيختارون في حرية من يشاءون للإمامة. فرضي الطرفان بهذا، لديمقراطية الدولة، وعدم تكالب أبي حاتم ويعقوب فيها على الإمامة. فسكنت الفتنة، وهدأت تيهرت، وأفرج عنها أبو حاتم، ورجع الناس إلى ديارهم، وتعانق المتخاصمون وتابوا، إلا رؤوس الطابور الخامس الذي لا يريد أن تسكن الفتنة كابي مسعود، وأبي دنون،

1 - السيرة وأخبار الأئمة لأبي زكرياء ج 1 ص 41 مخطوط في دار الكتب المصرية.
2 - سيرة الأئمة الرستميين ص 54 ط باريس 1907.

وعلوان بن رعلان الكوفيين العباسيين الذين يأبون الإمامة الإسلامية، ويعملون لإحياء الملكية المطلقة في المغرب الأوسط.

ميل الجماهير إلى أبي حاتم وإعادته إلى الإمامة وإصلاحه للعاصمة

وكان الجماهير تميل إلى أبي حاتم وتحبه. وكان هو ماهرا في السياسة فعرف كيف يستميل الجماهير إليه حتى لا تقع في قبضة الطابور الخامس فيجعلها تختار من يرتضونه. وبقي يعقوب بن افلح في تيهرت في الشهور الأربعة التي احتدت فيها الدعاية ليكون هو مرشح الثائرين فلا يرشحون للإمامة احد الملكيين الذين يضرون بالدولة. من يدري لعل حزبه يفوز وترجح كفته فيكون هو الإمام فيسير بالدولة في طريق الإمامة، ويحفظها من الدمار. هذا ما يجب أن نفسر به مشاركة يعقوب في معركة الانتخاب للإمامة.

وكانت الأغلبية في تيهرت مع أبي حاتم فأعادوه إماما، فاخذ بالأزمة، وارجع للعاصمة فضارتها، وبقي نحو عشر سنين والدولة ساكنة لم يقع فيها سوء إلا وقعة (مانو) التي وقعت لنفوسة في جنوب افريقية، وبقيت العاصمة ساكنة. ولكن الدولة كانت في شيخوختها البالغة. إن العائلة الرستمية لم تعد على صفائها القديم، ولا على متانة أخلاقها. لقد داخلها الحسد، التنافس على الإمامة، وعدم التحرج في سفك الدماء الحرام من اجلها.

استشهاد أبي حاتم وانتهاء الإمامة الإسلامية

وكان اليقظان اكبر أبناء أبي اليقظان. وكان أسن من أبي حاتم. وكانا أبناء علات. فأم اليقظان غير أم أبي حاتم. فرأى اليقظان وأبناؤه انه لكبر سنه أولى بالإمامة من أبي حاتم. وراه ما يكون بين أبناء العلات من تحاسد وعداوة قائمة يرثها كل من أمه التي تكره ضرتها وأولادها وأسرتها؛ أرث هذه العداوة لليقظان وأبنائه أن أبا حاتم قد غصبهم الإمامة التي هي لليقظان. ورأوا ما يفعل الملوك من اغتيال بعضهم لبعض لأجل الملك والرئاسة. فعدا أبناء اليقظان على عمهما أبي حاتم فقتلاه. ونصبا أباهما ملكا على الدولة. فانتهت الإمامة الإسلامية التي تقوم عليها الدولة ويؤثرها أهلها. فثار أهل الدولة كلهم لهذا الحادث الفظيع ! وبصقوا في وجه اليقظان وتبرأوا منه، واحتقروه، وأبوا طاعته. فاستقلت كل ناحية يديرها واليها القديم ومجلس الشورى. وبقيت الدولة بلا إمام يرأسها. وكانت الشيخوخة قد أوهنت الدولة وأورثتها التفكك وعدم المبالاة الذي يصيب كل دولة حان موتها. وكان العبيديين سحابا قاتما يزحف على المغرب فيطمس

نجومه، ويستعد بصواعقه لتقويض دوله. فغل العدو الخارجي أيدي النواحي المتحمسة للإمامة الإسلامية من شن حرب داخلية على اليقظان.

وكانت دماء أبي حاتم التي جرت فلفظ أنفاسه الزكية دماء الدولة التي ذبحها اليقظان وشيعته وأبناؤه. فصارت تلفظ أنفاسها! واستشهد أبو حاتم في سنة أربع وتسعين ومائتين. وكانت مدة إمامته أربع عشرة سنة إلا أربعة أشهر. ولم تدم الدولة بعده إلا سنتين ثم قوضها الإعصار. وهدمتها الدولة العبيدية؟ فكيف نشأت الدولة العبيدية؟ ومن أنشأها؟ وأين؟ وما أسباب قوتها التي جعلتها تلتهم كل دول المغرب وتجعله تحت قدمها؟

نشأة الدولة العبيدية
وقضاؤها على الدول المغربية

كانت الدولة العبيدية الشيعية التي نشأت في آخر القرن الثالث الهجري هي السبع الهائج الذي فغر فاه على الدول المغربية فقضى عليها كلها؟. والتهم المغرب كله فأصبح في ظلمات أحشائه وجحيمها! وقضت هذه الدولة العنيفة المستبدة على الإمامة الإسلامية في المغرب. وأخرجت المغرب كله من عهوده الزاهرة الضاحكة إلى عهود الاستبداد والظلم والغطرسة. فانفجرت انفجاره الشديد في ثورة أبي يزيد اليفرني. وخاض مع العبيديين الغاشمين حروبا هوجاء ملأت المغرب بالدماء. وعكرت أيامه بالعراك. وقد ظل المغرب يتململ ويضطرب اضطراب الأسد الذي يعفر في التراب. وإقدام الشانئين تطأ على عنقه. وتعفر كبرياءه وما استقر قراره. وسكنت بعض السكون ثورته إلا لما تأسست دوله المغربي: الصنهاجية. والحمادية. والمرابطين فساس المغرب أبناؤه الرحماء الذين يعرفون مزاجه. ويعدلون كثيرا من العدل فيه.

لقد نشأت هذه الدولة في المغرب الأدنى في جبال كتامة التي هيأ في قلوبها لدعاية العبيديين سخطها على الأغالبة الذين يطأون الزاب بالأرجل العنيفة. ويحكمونه حكما عسكريا. فلولا ذلك السخط ما رحبت كتامة في شمال قسنطينة بابي عبد الله الشيعي فنصرته. وجعل منها الجيش الباسل العتيد فكان به السيول العاتية التي تهجم من الجبال والشعاب فتغرق المدن وتستأصل الرياض. وتأتي على كل شيء.

إن هذه الدولة شيعية. وتسمى العبيدية نسبة إلى أول ملوكها عبيد الله المهدي. ونحن لا نستطيع أن نبسط القول فيها الآن لان مكانها هو الجزء الخامس من هذه الموسوعة التي أرجو من الله أن يعينني على إتمامها لتكون ذخرا للمغرب الكبير. وعلامة البر له من احد أبنائه. وتصحيحا لتاريخ المغرب الذي لا يزال في قوالبه الملكية القديمة. ولا تزال فيه صفحاتنا الغراء مطموسة مشوهة. ولا يزال فيها المغرب القديم الذي رفع راية الإمامة الإسلامية في المغرب. وأحيا العدل الإسلامي الذي قتله العباسيون والأمويون في المشرق. لا يزال هذا المغرب الجميل في تلك العهود الغراء مصبوغا في كتبنا بقطران الملكية المطلقة التي شنت حروبها على الإمامة الإسلامية. وشرهت صفحاتها الغراء. أفرغت على مغربنا الإسلامي الجمهوري غرار سوداء. وارته للناس على غير حقيقته. وكان

أغر جميلا فأظهروه للناس بأكاذيبهم قطنة هي بيضاء كنور الشمس في الظهيرة فنقعت زمنا طويلا في المحبرة!

كانت الدولة العبيدية شيعية. فما هي الشيعة؟ وكيف نشأت؟ وما مذهبها الشاذ الذي ثار المغرب عليه فخلعه؟.

قال الشيخ مبارك أمليلي رحمه الله: "شيعة الرجل من يتابعه ويناصره. وهم عند المؤرخين من تولى (الإمام) علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وفضله على جميع الصحابة. وقد وجدت شيعة علي بعد قبض الرسول عليه السلام، وكانوا يرونه أحق بالخلافة. فلما صرفت عنه دخلوا فيما دخل فيه الجمهور.

وقد عرف بعض المفسدين أن لعلي رضي الله عنه شيعة فاتخذوا التشيع سببا لتفريق الكلمة والكيد للإسلام. وأصبح التشيع ضربا من ضروب التدجيل السياسي. فتعددت المقالات، وكثرت الفرق. فكان الزيدية أتباع زيد بن علي زين العابدين، ومنهم شيعة إدريس، ومنها الإمامية الروافض، ومن شعب الإمامية الإسماعيلية وهم القائلون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، وقد توفى حياة والده ومع ذلك يرونه إماما توصلا إلى إمامة عقبه.

والإسماعيلية يسمون أيضا الباطنية لقولهم بالإمام الباطن يردون المستور، (يتحمسون له ويدعون لطاعته وهم لم يروه، ولم يعرفوا مكانه، كما كان أبو عبد الله الشيعي الذي أسس دولة عبيد الله المهدي ودعا باسمه وهو لم يره) وتسمى الإسماعيلية بالباطنية لقولهم أيضا أن نصوص الشريعة رموز يراد بها بواطن لا يفهمها إلا الإمام وكان العبيديون من هؤلاء الإسماعيلية".[1]

وكان العبيديون قد سعوا لتكوين دولة لهم في المشرق، ولكن الدولة العباسية كانت قد استحوذت على الشرق. فطاردتهم وشددت عليهم الخناق. وكانوا حزبا سريا يعمل في الخفاء. وارى أن مقره لما أرسل الدعاة إلى المغرب كان مصر إن احتلال العبيديين لمصر واستقرارهم بها ذليل على إنها مقرهم.كان هؤلاء العبيديون قد عزموا على امتلاك مصر والشام، وتكوين دولة فيهما، ولكنهم لا يجدون من يناصرهم، ويلبس السلاح لإنشاء دولتهم. لا بد بسلخ العباسيين ليحلوا محلهم. وهذه عملية لا تكون إلا بالمدى، وبالدماء. وكانت أمم المشرق قد كلت في آخر القرن الثالث وداخلها الهرم، وشايعت العباسيين أيضا فان العبيديين لا يجدون منها من بقاع ويضحى وينصرهم بسيفه

1 تاريخ الجزائر ج 2 ص 74 ط أولى 1350.

وأرواحه. فنظروا فوجدوا في المغرب منطقة فتية فيها قوم ساخطون على الدولة التي تعسفهم. فقلوبهم الحرى هي التربة الدافئة التي تنبت فيها بذورهم. وهؤلاء القوم مع ذلك شجعان صناديد، ذوو وعناد في الحروب، وهم مع هذا متعطشون إلى الرئاسة، متلهفون للدولة التي تشبع فيهم حب الظهور. إن هؤلاء القوم هم قبيلة كتامة البربرية التي كانت تحل في شمال قسنطينة. فمن بجاية إلى سكيكدة شمالا والى جنوب مدينة قسنطينة كانت بلادهم فهم جمهور سكانه.

قبيلة كتامة وماضيها العتيد وتشوقها إلى الملك

وكانت كتامة من البرانس، وهي من القبائل البربرية الكبرى في المغرب الأدنى. وكانت قد الفت الملك والسلطان أيام الدولة البربرية الكبرى التي كانت في نوميديا قبل ميلاد المسيح. وكان منها ملوك أبطال عظماء رفعوا رأس المغرب، وأنشأوا دولة عظيمة وحدت المغرب الأدنى والأوسط ما عدا شمال افريقية، وورثت حضارة قرطاجنة وخلقتها في المغرب في ميدان الحضارة العظمى، وجعلت المغرب جنة زاهرة فافتتن به الرومان فعدوا عليه فاستعمروه. ومن ملوك كتامة في تلك العهود المغربية الزاهرة غولة بن نارفاس، ومصينسا، ويوغورطة، ويوبا الأول. فألقت كتامة الملك والسلطان. ثم أخضعها الرومان لكلكالهم فدخلت فيما دخل فيه المغرب.

وكان الإعياء الذي يداخل كل امة تطيل البناء قد أصاب كتامة فنامت نومها العميق. وأما أشرق الإسلام تفتحت له قلوبها فحسن إسلامها، وانتشت به لأنه دين العدل والحرية والرقي. هذه الأشياء التي حرمها منها الرومان والروم. ولكن كتامة ما كادت تذوق حلاوة العدل الإسلامي في عهد الحلقات الصالحة من الولاة الأمويين حتى لفحتها الدولة الأموية والعباسية بنار الظلم والجبروت. وجاءت الدولة الأغلبية فصارت تحكم الزاب حكما عسكريا. إن مدينة بلزمة، ومدينة بغاية، وطبنة، وقسنطينة كانت معسكرات ترابط فيها جيوش الأغالبة من أبنائها الأشداء العسكريين ليخضعوا تلك النواحي. وكانت كتامة في الساحل مستقلة قد آثرت الانطواء على النفس على الدخول في هذه الدولة التي وطئت الزاب برجلها. ولم يكن للأغالبة على مدنها في الساحل إلا سلطان ضعيف جدا.

شعور كتامة بالحرمان من عزة الدولة تتمتع بها قبائل الدولة الرستمية والإدريسية

وكانت كتامة تجري دماء الملوك في عروقها. فنظرت فوجدت المغرب الأوسط واغلب

الأدنى تتمتع قبائله بعزة الدولة في ظل دولتهم الرستمية التي هم عمادها وأصحابها والقائمون بالأمور فيها؛ ووجدوا المغرب الأقصى تتمتع قبائله بشبيه ذلك في الدولة الإدريسية ودولة بني مدرار. أما هم فمحرومون من العزة والسلطان. فأمسوا بلهفة إلى الملك والدولة الكبرى تؤججها وراثتهم، وبأنين وسخط لما يرون فيه بني قومهم في الزاب من ظلم الأغالبة وحكمهم القاسي.

وكانت كتامة إلى هذا، ذات جبال وعرة. إنها جبال سطيف، وجيجل، وميلة الشهيرة! فتستطيع حرب العصابات فيها إذا ثارت. وكانت على متانة في الأخلاق، وعلى شباب في النفوس، لم تنغمس في الحضارة فتنحل أخلاقها، ولم يعيها حمل أعباء الدولة الطويلة، وجهد البناء الشاق فتدخل في هرمها. أنها امة مستعدة للانفجار والانطلاق. فعرف العبيديون في مصر هذا فيها. فأرسلوا في آخر القرن الثالث دعاتهم إليها فكان لهم ما أرادوا. وكان من دعاتهم أبو عبد الله الحسين بن احمد الحجاني أو الشيعي الذي دخل بلاد كتامة في سنة 279 هـ. وكان أبو عبد الله داهية عبقريا، وسياسيا ماهرا، وبطلا من أبطال الحروب، وفارسا من فرسان الخطابة. فاستطاع بدهائه وفصاحته أن يغرس مثله الأعلى في كتامة، وهو إنشاء دولة شيعية. فاستغل لهفتهم إلى الملك وسخطهم على الأغالبة فجرهم إليه. فكانوا جنده وأنصاره.

وكانت الدول المغربية في شيخوختها. فنزل من جبال كتامة في ناحية سطيف وجيجل فقضى على الدولة الأغلبية، ثم هاجم الدولة الرستمية فقضى عليها، ثم دولة بني مدرار في سجلماسة، ثم الدولة الإدريسية فالتهم المغرب كله. ونشأت الدولة العبيدية التي جعلت المغرب قاعدتها للانطلاق. فسارت بجندها من أبناء المغرب في سنة 362 هـ فملكت مصر وأنشأت فيها الدولة الفاطمية.

هذه هي الدولة العبيدية. فكيف حال اليقظان الذي سفك الدماء الحرام وقضى على الإمامة الإسلامية؟ وكيف سيقضي على الدولة الرستمية العبيديون الذين يمقتون الإمامة الإسلامية العادلة، ويتمسكون بالملك العضوض الذي اغرق المغرب في الدماء والشقاء؟

انقراض الدولة الرستمية وأسبابه

296هـ 909م

كانت الدولة الرستمية بعد اغتيال الإمام أبي حاتم جسما بلا رأس. إن اليقظان الذي اعتدى فقتل أخاه، فاستولى على الرئاسة بالسيف، وقضى على الإمامة الإسلامية، قد تبرأت منه كل النواحي، واغلب الجمهوريين في تيهرت، ونبذوه واعرضوا عنه، فاستقلت جهات الدولة كل تحت واليها ومجلس الشورى الذي يديرها. وكانت نواحي الدولة كلها ترقب زحف أبي عبد الله الشيعي عليها، إن أمره قد استفحل. فاحتل الزاب كله فأصبح يجاورها، وتغلب على الدولة الأغلبية وهزمها في المعارك الفاصلة، ثم دخل رقادة عاصمتها في سنة ست وتسعين ومائتين. فها هو يتحرك بجيوشه نحو المغرب ليقضي على دولة بني مدرار التي أساءت إلى إمامه عبيد الله بن المهدي فسجنته هو ابنه القائم، وليخلص أمامه من سجنه في سجلماسة. انه يتحرق غيظا على دولتهم الرستمية الجمهورية! انه عدو للإمامة الإسلامية، لا يرضى ببقاء الدولة الرستمية التي تتمسك بها، وتناهض الملكية المطلقة التي تقوم عليها دولته. لابد أن يقضي على دولتهم. إن غرض أبي عبد الله الشيعي هو الاستيلاء على المغرب كله! انه لا يشبع طموحه إلا هذا. حتى الأدارسة سيقضي على دولتهم. إنها قد شاخت كما شاخت الدول المغربية كلها. فلا بد أن تموت. ثم إنها نحلة أخرى من الشيعة لا يرضى الإسماعيلية بوجودها في المغرب. وأقوى العداوة ما يكون بين الأقارب!

إن بقاء الدولة الإدريسية سيكون خطرا على العبيديين، لان الجمهوريين وكل المغرب الموتور سيلتف حولهم فتثور عليهم. إنها أحب إلى نفوس الجمهوريين في كل أنحاء المغرب من العبيديين العتاة الذين يختلفون عن أهل المغرب حتى في العقائد الدينية بمذهبهم الباطني الشاذ. إن بقاء الدولة الإدريسية خطر على العبيديين فلابد أن يقضوا عليها. إن هذا يرضى طموحهم، ويجعلهم في مأمن من ثورة المغرب ثورة صامدة عليهم. فصار أهل الدولة الرستمية ينتظرون وصول الليل الذي قضى على النهار في شرقها، فزحف إليها، لابد أن يصلها. وسمعت رز كتائب أبي عبد الله، وزلزلة الأرض تحت سنابك جيوشه الجرارة. لقد دخل رقادة عاصمة الاغالبية بجيوش سبعة تبلغ ثلاثمائة ألف جندي. وها هو يزحف نح المغرب " في جموع كالدبي المنتشر ومعه وجوه رجاله وأهل دعوته".[1]

1 - البيان المغرب لابن عذارى ج 1 ص 209 ط بيروت 1950.

عداء الطابور الخامس للدولة الرستمية وإغراء الشيعي بها

وكان غرض أبي عبد الله الشيعي أن زحف على سجلماسة ليخلص أمامه المهدي السجين فيها. إنه إمامة المقدس، وملك الدولة التي أنشأها. يجب البدء بتخليصه والقضاء على بني مدرار. انه لا يريد بالدولة الرستمية لأنها ربكا دافعته فتكسرت من حدته. فلا يستطيع القضاء على بني مدرار في هجوم خاطف سريع فيخلص أمامه. من يدري لعلهم يرون فتور بتعب جيشه بتهديم الدولة الرستمية فيطمعون فيه، ويقتلون الإمام الذي جاء لاستنقاذه. ف سار أبو عبيد الله الشيعي من طبنة على جنوب تيهرت ليصل سجلماسة من اقرب طريق. وكانت الدولة الرستمية والجمهوريون في المغرب الأوسط كالبقرة المربوطة في الجزرة ترى أختها تنشحط في دمائها وتوقن بوصول دورها. فآلامها أقسى كم الذبح بالشفرة الكليلة، وفترة الانتظار وترقب الموت اشد عليها من آلام النزع. وأيقنوا بزوال الإمامة الإسلامية التي أسعدتهم، وإقبال الليالي السوداء التي يشقى فيها أبناؤهم بالظلم والجبروت. فغصوا بالبكاء، وسالت صدورهم بالدموع ! أما الطابور الخامس الذي يكره الإمامة الإسلامية، ويتمنى رجوع الملكية المطلقة إلى المغرب، والذي ما فتئ يكيد للدولة الرستمية ويتمنى زوالها، فانه رأى غبار جيوش أبي عبد الله سحاب الله المغيث الذي يشفى غليله، ويبرد لهفة، وينيله كل ما يتمنى ! وكان رز حوافر جيوش الشيعي ألذ في سمع الطابور الخامس الحقود من زغاريد الزفة الجميلة في آذان العروس الملهوف الذي تزف إليه عروسه المحبوبة ! فما كاد أبو عبد الله يقرب من تيهرت حتى رقصت قلوبهم فرحا وسعادة. ها هي أعلام الإمامة الإسلامية، والجمهورية العادلة تنتكس، وأعلام الملكية المطلقة ترفعها القنوات والسيوف فترفرف على المغرب كجناح البازي المنقض ! لقد وقع ما تمنوه وعملوا له منذ زمن بعيد ! ولكن أبا عبد الله الشيعي لا يقصد تيهرت ولا يجعلها مرماه. فخرجوا إليه وفدا كبيرا يسألونه احتلال العاصمة والقضاء على الدولة الرستمية. واعلموه بان اليقظان لا نصير له، وانه سن الهرم المنفردة المتقلقلة بزفراته، ويطيرها سعاله. فاذكوا نيران قلبه، وحرضوه، وواعدوه الإعانة على احتلال تيهرت وأغروه بالأموال ! فلوى عنانه إلى تيهرت فاحتلها. فأباحها لجيشه، فارتكب فيها ما سول له حقده على الإمامة الإسلامية.

إحراق الشيعي لمكتبة المعصومة وقضاؤه على تراث الدولة الرستمية العلمي والأدبي

ودخل لشيعي المعصومة دار الإمامة في تيهرت فاستولى على أموالها وكل نفيس فيها. وكان أبو عبد الله الشيعي من كبار العلماء ومن الأذكياء الفلاسفة. فرأى مكتبة

المعصومة فهاله ضخامتها وكثرة الكتب فيه ! إنها كتب نفيسة في كل الفنون. إن عددها ثلاثمائة ألف مجلد. واغلبها في الشريعة الإسلامية وفلسفتها، وفي الاحتجاج للإمامة الإسلامية ونصرتها، وفي آراء الجمهوريين التي يدعمونها بالنصوص والبراهين القاطعة، وفي تاريخ الدولة الرستمية ومآثرها. إن بقاء هذه المكتبة خطر على دولته. انه لابد للقضاء على الإمامة الإسلامية في المغرب لترسو أوتاده فيه. ولا يمكن القضاء عليها وعروقها سائخة في الأرض. إن عروقها الضارية الحية التي لا يمكن أن تموت وتهرم إنما هي هذه الكتب التي تغرس في قلوب الخلف محبة الإمامة الإسلامية فيكونون كالسلف للملكية المطلقة، يناهضونها ويقتلعون جذورها. إن المذهب الباطني هو الذي يجب أن يسود المغرب بعد الآن. يجب شق القلوب لنفضها من حب الإمامة الإسلامية، وملئها بعقائد الإسماعيلية التي تجعل المغرب يخضع لدولتهم ! يا لها من مكتبة! إنها إذا بقيت وانتشرت فستكون البذور التي تزرع الإمامة الإسلامية في العالم الإسلامي. لابد من إزالتها! على أن عبقرية الدولة الرستمية يجب الانتفاع بها في دولته. انه ليس كالتتر الذين حرقوا كل الكتب في بغداد. انه عالم ذكي ذو طموح يعمل لإنشاء اكبر دولة. فما هي الكنوز بين يديه، إن فيها ما هو ضروري لدولته! فاختار من مكتبة المعصومة الكتب النفيسة في الرياضة، والطب، والفلاحة والهندسة، والفلك وغيرها ثم حرق الباقي من الكتب الشريعة، والتاريخ والأدب التي هي مرآة للدولة الرستمية ومظهر لشخصيتها وعظمتها! وبقيت العاصمة أياما والدخان يجللها من المعصومة بالمكتبة المحترقة. وباد أكثر من تسعة أعشار كتب هذه الدولة، وطمس العبيديون آثارها، وقضوا على الدولة الرستمية باحتلال العاصمة!

استئصال الشيعي لرؤساء الجمهوريين وعلمائهم والتجاؤهم إلى الأماكن المنيعة وجلاؤهم عن تيهرت ونواحيها

وتتبع العبيديون رؤساء الجمهوريين في المغرب الأوسط وفي تيهرت بقتلهم وبهتك حرماتهم! فهرب اغلبهم إلى جبال أوراس المنيعة، والى جبل بني راشد (جبال عمور) فحلوا في مدينة (تاويالا) في شمالها الغربي، والى ورجلان في الصحراء، والى جبل نفوسة، وجربة، والى كل مكان يعرفون أن العبيديين لا يحتلونه ولا يطمعون فيه.

إكراه أهل المغرب على اعتناق المذهب الاسماعيلي الباطني ومحاربة المذهب الأباضي الجمهوري بكل الوسائل

وقضى العبيديون على الدولة الرستمية باحتلال العاصمة، وتشريد رؤسائها وقتلهم، ثم عمدوا بعد ذلك إلى القبائل الجمهورية في أنحاء المغرب الأوسط وافريقية

فحملوها بالسيف على المذهب الباطني.[1] وحرموا ذكر الإمامة الإسلامية، وبثوا دعاتهم الكثيرين في كل أنحاء المغرب، فأطلقوا ألسنتهم البارعة فقالوا وكتبوا في الدولة الرستمية الجمهورية التي رفعت راية الإمامة الإسلامية في المغرب، وجددت فيه عهد الخلفاء الراشدين. قالوا كل ما ينفر النفوس عنها، وقالوا في الإباضية الذين يتمسكون بالإمامة الإسلامية كل ما يبعد القلوب عنهم. ووالي الملوك الذين تعاقبوا على المغرب هذه الدعاية في الإباضية الذين يتمسكون بالإمامة الإسلامية. واستمرت هذه الدعاية البارعة المنطقة عشرة قرون! إنها معركة من الملكية المطلقة ضد الإمامة الإسلامية التي تمسك بها الخلفاء الراشدون، وتمسك بها المغرب! وجاء الاستعمار فردد بمدارسه ومستشرقيه، ومبشريه، وأذنا به من المسلمين أكاذيب الملكيين في الجمهوريين ليفرق الإخوة الأشقاء في المغرب الكبير، ولكن الله كتب لمغربنا السعادة، والصفاء، والحرية؛ وحرية الفكر، والحرية السياسية، فزال عنه الظلم والجبروت، وانجلت الملكية المطلقة، وذهب الاستعمار، فلم يعد في المغرب إلا الملكية الدستورية الشبيهة الجمهورية، والجمهورية. فيجب عليهما جميعا تنظيف تاريخنا من دنس الملكية المطلقة. ومن دنس الاستعمار الذي كان يؤيدها. لقد أصبح مغربنا -والحمد لله- لا يقوده إلا رؤساء قدمهم الشعب لماضيهم الجميل، ولمكانتهم الرفيعة في القلوب، ولما يرجوه في عهدهم من حرية فكرية! وسياسية وخير كبير لمغربنا الكبير!

مدة الدولة الرستمية وعمرها

وكان دخول أبي عبد الله الشيعي في تيهرت في شوال من سنة ست وتسعين ومائتين فلفظت الدولة الرستمية أنفاسها بعد مائة واثنين وخمسين عاما كانت عمرها السعيد. لقد نشأت بدخول عبد الرحمن بن رستم المغرب الأوسط وبناء تيهرت في سنة أربع وأربعين ومائتين، وانتهت في شوال سنة 296 هـ 909م. فمدتها بالشهور القمرية قرن ونصف وسنتان. وإذا اعتبرنا الدولة الرستمية امتداد لدولة أبي الخطاب التي نشأت في طرابلس في سنة 140 فان عمرها 156 مائة سنة وستة وخمسون عاما. والملك الدائم لله الواحد القهار. قال أبو زكرياء: لما دعا عبيد الله المهدي قائده أبا عبد الله الشيعي إلى سجلماسة (ليخلصه من الأسر) مر بالقرب من تيهرت فخرج إليه من فيها من وجوه (الملكيين) وشكوا إليه اليقظان. وواعدوه الإعانة بالمال والرجال، ورغبوه في استئصال هذه العائلة كلها وانتزاع الأمر من أيديهم، ولا رجال ولا عسكر لليقظان،

1 - انظر نصوص إكراه المغرب والقبائل الجمهورية على الدخول في المذهب الباطني في تاريخ ابن خلدون ج 6 ص 121 ط بولاق وفي تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 81 ط أولى.

ولا قوة له، لإدبار الناس عنه بما وقع مع قتل الإمام ! فأرسل إليه الحجاني رسلا يطلب منه الاجتماع به. فخرج إليه ومعه بنوه وإخوته وأتباعه، ولاقاه على أميال من تيهرت. ولما اجتمع به قال له متجاهلا: ما اسمك؟ فقال له اسمي اليقظان. فقال الحجاني: بل أنت الحيران! ما بالكم قتلتم أميركم، وسلبتم من أنفسكم ملككم، وأطفأتم نور الإسلام، وألقيتم إلينا بأيديكم بغير قتال ولا حصار؟ ! ثم أمر بقتلهم، فقتلوا عن آخرهم. وذلك في شوال سنة 296 هـ".[1]

(وبعث برءوسهم إلى أخيه أبي العباس وأبي زاكي خليفته برقادة، وطوفت بالقيروان، ونصبت على باب مدينة رقادة)[2] فلاقى اليقظان جزاءه من الله، وذبح ذبح النعاج التي تسيطر عليها غرائزها! ولم تذهب دماء أبي حاتم هدرا لان الله واليها!

ارتحال أهالي تيهرت منها في القرن السابع وخرابها

أما مدينة تيهرت فقد أخذت في الأدبار، وجلت عنها الطبقات الراقية التي كانت تعمرها، وكسفتها الذلة. وقد صيرها الشيعة ومن جاء بعدهم من دول المغرب: الصنهاجيون والحماديون والموحدون قاعدة لنواحيها. فكانوا يولون عليها عمالهم، وهي تدبر وتضمحل على الأيام. إلى أن وقعت فتنة ابن غانية الميورقي في القرن السابع الهجري آخر عهد الموحدين. فكان يجلب على تيهرت من قابس ويوالي عليها الغارات، فارتحل منها أهلها في سنة عشرين وستمائة 620 هـ فبقيت خالية، وخربها الميوريقي، واتى الزمان على ما بقي منها. وهي اليوم أطلال وأثار تحت الأرض التي تكونت عليها. ولا زال كثير من رسومها وأطلالها مبثوثا في تلك النواحي، وهي دليل على عظمتها وعظمة أجدادنا في المغرب الكبير. وتيهرت العاصمة هذه على بعد ستة أميال في الجنوب الغربي لمدينة (تيارت) في غرب الجزائر. والطريق إليها مقيرة حسنة، وهي محفوفة بجبال كثيفة بالغابات، وبالأنهار والعيون الطبيعية، وبمناظر من أروع ما خلق الله!

تلك هي قصة انقراض الدولة الرستمية فما هي أسباب انقراضها؟

1 - السيرة وأخبار الأئمة لأبي زكرياء ج 1 ص 36 مخطوط في دار الكتب المصرية تحت رقم 9030 رمز (ح).

2 - البيان المغرب ج 1 ص 209 ط بيروت 1950م.

أسباب انقراض الدولة الرستمية

إن أسباب انقراض الدولة الرستمية أربعة : (1) الشيخوخة بطول الجد و الكد و الزمان (2) و الانغماس في الحضارة و النعيم (3) والطابور الخامس الذي كان يهدمها من الداخل (4) والعدو الخارجي القوي الذي هاجمها.

أما الشيخوخة فان الدولة الرستمية قد استوفت عمرها. أن عمرها 152 عاما وهو عمر أم تبلغه إحدى الدول المعاصرة لها في المغرب إلا دولة بني مدار. إنها أوسع رقعة وأطول عمرا من الدولة الأغلبية الادرسية. أن عمر الدولة الأغلبية 112 سنة. وعمر الدولة الادرسية 139 سنة. على أن هاتين الدولتين لم تكن[1] واسعة الرقعة مثل الدولة الرستمية. ولم تصب بالعدو الداخلي الذي يكيد لها. ويصنع لها هرمها و حتوفها. وقد بقيت الدولة الرستمية متماسكة متحدة. وهدا ما يجعل مشاكلها كثيرة. والأتعاب التي تورثها الهرم و الضعف متعددة. ومع هذا كانت أطول عمرا من الدولة الادرسية التي لم تدم على تماسكها إلا سبعا وأربعين سنة في عهد إدريس الأول والثاني . ثم انقسمت في عهد محمد بن إدريس إلى إمارات استقل كل من إخوته بواحدة منها . ولولا هذا النظام الذي قلل فتن النافسة فيها لكان عمرها اقصر.

شبه دولة الموحدين بالدولة الرستمية

إن الدولة التي كانت أشبه بالدولة الرستمية وعاشت مثل عمرها في المغرب هي دولة الموحدين. إنها مثلها في اتخاذ الكتاب والسنة دستور الدولة. وفي عدم التعصب لمذهب من المذاهب. وصفحة الدولة الرستمية أنقى من الدماء المحظورة وأكثر عدلا!

أما الترف والنعيم فان الدولة الرستمية بلغت في الغنى والحضارة أعلى الذرا فانغمست في الترف والملاذ فضعفت نفوسها. وساءت أخلاق كثير من العائلات الرستمية حتى عدا اليقظان وأبناؤه وحزبهم على أبي حاتم فقتلوه. واستعدت دوسرا بنت أبي حاتم أبا عبد الله الشيعي على اليقظان وهو عدو دولتها يقضي عليها وعلى اليقظان. وغير ذلك مما هو دليل على انحلال الأخلاق فيها. على أن الدولة الرستمية لا نجد فيها من المجون والمفاسد في أيام ترفها وهرمها مثل ما غرقت به الدولة الأغلبية والعباسية وغيرها في آخر أيامها. إن حزم أبي حاتم وتمسكه بالدين وإقامته للحدود. وحزم القضاة والشرطة جعلها نظيفة لا تشيع فيها المنكرات.

1- صيغة الجمع للتثنية أحيانا تقتضيها البلاغة وردت في القرآن.

هلاك الأمم بانغماسها في الملاذ والشهوات وإفراطها في المدنية

قاتل الله الانغماس في الترف والملاذ! إن الذي يقتل الأمم ويبيدها إنما هو الإفراط في الغنى لا الفقر الذي يذكيها فتعمل فتصح! والأمم كالثمار إذا أفرطت في حلاوتها ونضوجها وبقيت فان الديدان لابد أن تتكون فيها، وتسقط من الغصون، فتوطأ بالأقدام!

أما العدو الداخلي فهو الطابور الخامس الذي تصب به دولة من معاصراتها. ولو أصيبت به لأودي بها في شبابها، ولكن الدولة الرستمية لمتانة بنيانها بالدين والعدل الذي أورثها اتحادها وقوتها قاومت الأمراض الفتاكة الساكنة في دمائها فقضت عليها. ولو لم يهجم العبيديون الأقوياء على الدولة الرستمية لعمرت مدة طويلة، ولكن تكون عجوزا يكثر سعالها، وشيخة هرمة لا يبقى فيها من خصائص المرأة إلا كثرة الكلام.. !

إن العدو الخارجي القوي الذي هاجمها من أسباب انقراضها. إنها أوراق الشجرة المصفرة في خريفها مستعدة للسقوط فهب عليه إعصار فأسقطها. إنها قد استوفت عمرها، وعاشت أقصى ما يمكن أن تعيشه وهي دولة متماسكة قوية تسعد وتهنأ في الحياة.

لقد زالت اغلب تراث هذه الدولة ولم يبق في أيدينا إلا القليل منه. ولم بقي لوجدنا من المادة فيها أكثر مما كتبنا، ولا يستطعنا نقدها أكثر مما فعلنا. على أن الثابت المتيقن في هذه الدولة المتمسكة كل التمسك بالدين أن حسناتها أكثر من سيئاتها وبياضها أكثر من سواها لتمسكها بشريعة الله.

ومع الدولة الرستمية في المغرب في تلك العصور الزاهية دولة بني مدرار في سجلماسة والدولة الإدريسية، والدولة الأغلبية. إنها دولنا العظيمة الزاهرة! فلابد أن اجلوها عليك عزيزي القارئ كما فعلت في الدولة الرستمية إن شاء الله. إنها مادة الجزء الرابع من هذا الكتاب. إن تاريخ المغرب خصب غزير المادة. وكنت عزمت أن تتعانق هذه الدول كلها في جزء واحد، ولكن الدولة الرستمية وحدها ملأت هذا الجزء الذي قدمته إليك. وسأبدأ في الرابع إن شاء الله بدولة بني مدرار لأنها اسبق الدولتين في النشأة، ثم إنها حافلة ماجدة ومظلومة. إن سجلماسة كانت عروس الصحراء وفخر المغرب! ودولة بني مدرار في جنوب المغرب الأقصى كانت من أرقى دولنا الإسلامية وأزهاها، ولكن لمناصرتها للإمامة الإسلامية والجمهورية العادلة اعرض عنها المؤرخون الملكيون المتعصبون. وترى السلاوي الذي استقصى الحديث في كل دول المغرب الأقصى وإماراته

حتى الهزيلة منها في كتابه (الاستقصاء) يلم بهذه الدولة الجمهورية الماجدة إلمامة عجلى كمن يلحظ بمؤخر عينه شخصا يكرهه! !

خاتمة الكتاب

وفي الختام أرجو أن يكون عزيزي القارئ قد سعدت بمصاحبتي في هذه الجولة الجميلة في عهود أجدادنا الأمجاد، وبقاعهم الزكية؛ وأنست مثلى وانتشيت بزيارة أجدادك العظماء في هذا السفر ومشاهدتهم في عروشهم السامية! واستطعت أن أحبب إليك دراسة التاريخ بالأسلوب الأدبي والتحليل الفلسفي والبحث العلمي النزيه الذي نلتزمه. والله أسأله متضرعا مبتهلا أن يكون معي فيما يأتي من حلقات الكتاب حتى أتمه على أحسن ما ينبغي، كما كان معي فيما مضى والحمد لله على تأييده عونه وحفظه ونعمه في البدء والختام، والصلاة والسلام على خير الأنام

أهم مراجع الكتاب

نثبتها حسب أهميتها

اسم الكتاب الجزء اسم المؤلف

1) الأزهار الرياضية 2 تأليف سليمان بن عبد الله الباروني.

القاهرة المطبعة البارونية 1324 هـ

2) سلم العامة والمبتدئين - تأليف عبد الله بن يحيي الباروني

القاهرة مطبعة النجاح 1324هـ

3) الاستقصاء لأخبار دول 1 تأليف احمد بن خالد الناصري

المغرب الأقصى الدار البيضاء دار الكتب 1373هـ 1954 م.

4) البيان المغرب في أخبار المغرب 1-2 تأليف ابن عذارى المراكشي بيروت مطبعة المناهل 1369هـ 1950م

5) المسالك والممالك - تأليف عبد الله بن عبد العزيز البكري طبع الجزائر 1330 هـ 1900م

6) كتاب السير تأليف احمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي القاهرة المطبعة الباروني طبع حوالي 1320هـ

7) السير وأخبار الأئمة 1 تأليف أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر مخطوط يوجد في دار الكتب المصرية

8) طبقات الدرجيني - تأليف أبي العباس احمد سعيد الدرجيني مخطوط يوجد في دار الكتب المصرية

9) سيرة الأئمة الرستميين تأليف ابن الصغير المالكي طبع باريس 1907م.

10) نهاية الأربعاء 22 تأليف شهاب الدين النويري نسخة فتوغرافية في دار الكتب المصرية

11) تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب جمع البارون دسلان الجزائر المطبعة الحكومية 1847م

12) العبر في ذكر المبتدأ والخبر 7،6،4 تأليف عبد الرحمن بن خلدون القاهرة مطبعة بولاق 1284م

13) الكامل 5،4،3 تأليف أبي الحسن على بن الأثير القاهرة المطبعة المنيرية 1357هـ.

14) محاضرات في تاريخ المغرب الكبير 2،1 بقلم محمد على دبوز، ألقاها في معهد الحياة الثانوي بالجزائر 1369هـ 1949-1950م مخطوط

15) تاريخ دول الإسلام 4،3،2،1 تأليف رزق الله منقريوش القاهرة الهلال 1326هـ 1908م

16) تاريخ الجزائر 2 تأليف مبارك بن محمد أليلي الجزائر المطبعة الإسلامية بقسنطينة 1350هـ

17) موجز التاريخ العام للجزائر تأليف عثمان الكعاك تونس مطبعة العرب 1344 هـ.

18) تاريخ المغرب الكبير 2 تأليف محمد على دبوز القاهرة دار إحياء الكتب العربية 1382هـ 1963م

19) تاريخ الجزائر تأليف احمد توفيق المدني الجزائر المطبعة العربية

20) تاريخ الجزائر العام تأليف عبد الرحمن الجيلالي الجزائر المطبعة العربية 1373 هـ 1954م.

21) تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر تأليف محمد باشا حفيد الأمير عبد القادر

وأخبار الجزائر ، الجزائري الإسكندرية المطبعة التجارية، 1903م.

22) المؤنس في أخبار افريقية وتونس، تأليف محمد بن أبي القاسم الرعيني ، القيرواني تونس مطبعة الدولة التونسية، 1286م

23) الخلاصة النقية في أمراء افريقية، تأليف محمد الباجي المسعودي ، تونس 1323

24) خلاصة تاريخ تونس، تأليف حسن حسني عبد الوهاب تونس، دار الكتب الشرقية 1373هـ

25) تاريخ الأمم والملوك، تأليف أبي جعفر الطبري القاهرة ، مطبعة الاستقامة 1357هـ 1939م

26) مقدمة كتاب الوضع للشيخ، بقلم أبي إسحاق إبراهيم اطفيش، أبي زكرياء القاهرة مطبعة الفجالة الجديدة، 1381هـ 1962م

27) جائرة المعارف للبستاني، أليف بطرس البستاني بيروت مطبعة، المعارف 1878م

28) دائرة المعارف للقرن الرابع عشر، تأليف محمد فريد وجدي القاهرة ، مطبعة دائرة المعارف 1921م.

29) دائرة المعارف الإسلامية، تأليف احمد الشنتناوي وجماعة القاهرة، 1937م

30) معالم الإيمان في معرفة أهل 2،1 تأليف عبد الرحمن بن محمد الدباغ القيروان، تونس المطبعة العربي 1320هـ

31) رياض النفوس في طبقات علماء، تأليف أبي بكر عبد الله بن أبي عبد الله، القيروان ، المالكي القاهرة طبع مكتبة النهضة، 1370هـ 1951م.

32) أخبار البربر في القرون الوسطى، منتخب من كتاب مفاخر البربر لم يعلم مؤلفه الرباط مطبعة رباط الفتح، 1352هـ 1934م

33) وفيات الأعيان 4،3،2،1 تأليف شمس الدين بن خلكان القاهرة، طبع مكتبة النهضة 1367هـ 1948م

34) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تأليف جمال الدين أبي المحاسن الاتابكي، القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية ، 1351هـ 1932م.

35) الرحلة التيجانية، تأليف أبي محمد عبد الله التيجاني، التونسي مخطوط في دار الكتب المصرية

36) معجم البلدان، تأليف أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله، الحموي ليبسك 1873م.

37) أحسن التقاسم في معرفة الأقاليم، تأليف البشاري المقدسي بغداد طبع مكتبة، المثنى 1382هـ 1963م.

38) معجم ما استعجم من أسماء 4،3،2،1 تأليف عبد الله بن عبد العزيز البكري، البلاد والمواضع، القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1364هـ 1945م.

39) كتاب البلدان، تأليف احمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، ليدن مطبعة بريل 1860م.

40) المسالك الممالك للاصطخرى، تأليف أبي إسحاق إبراهيم بن محمد ، الاصطخرى القاهرة وزارة الثقافة، والإرشاد القومي 1381هـ 1961م.

41) جغرافية الجزائر، تأليف احمد توفيق المدني الجزائر، المطبعة العربية 1952م

42) المغرب العربي جغرافيا، تأليف أنور الرفاعي ورفاقه دمشق، مطبعة العلوم والآداب 1368 هـ

43) تحفة الأعيان في سيرة أهل عمان 2،1 تأليف نور الدين عبد الله بن حميد ، السالمي القاهرة دار الكتاب العربي، 1380هـ 1961م

44) حضارة العرب، تأليف غوستاف لوبون القاهرة دار، إحياء الكتب العربية 1375هـ 1956م

45) تاريخ الحضارة الإسلامية، أليف الدكتور على حسني الخربوطلي، القاهرة مكتبة الانجلو.